المجلد الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الأول

الخبر عن الدولة السلجوقية من الترك المستولين على ممالك الإسلام ودوله بالمشرق كلها إلى حدود مصر مستبدّين على الخليفة ببغداد من خلافة القائم إلى هذا الزمان وما كان لهم من الملك والسلطان في أقطار العالم وكيف فعلوا بالعلماء وحجروهم

وما تفرّع عن دولتهم من الدول

قد تقدّم لنا ذكر أنساب الأمم، والكلام في أنساب الترك، وأنهم من ولد كومر بن يافث أحد السبعة المذكورين من بني يافث في التوراة وهم : ماواق وماذاي وماغوغ وقطوبال وماشخ وطيراش. وعدّ ابن إسحق منهم ستة ولم يذكر ماذاي . وفي التوراة أيضاً أنّ ولد كومر ثلاثة : توغرما واشكان وريعات. ووقع في الإسرائيليات أنّ الإفرنج من ريعات ، والصقالبة من اشكان، والخزر من توغرما. والصحيح عند نسّابة الإسرائيليين أن الخزر هم التركمان. وشعوب

الترك كلهم من ولد كومر، ولم يذكر من أيّ ولده الثلاثة، والظاهر أنهم من توغرما. وزعم بعض النسابة أنهم من طيراش بن يافث . ونسبهم ابن سعيد إلى ترك بن غامور ين سويل ، والظاهر أنه غلط . وأن غامور تصحيف كما مرّ . وأما سويل فلم يذكر أحد أنه من بني يافث وقد مر ذكر ذلك كله .

(والترك أجناس) كثيرة وشعوب ، فمنهم الروس والإعلان ، ويقال إبلان ، والخفشاخ، وهم القُفجق والهياطلة والخلج والغزُّ الذين منم السلجوقية، والخطا وكانوا بأرض طمعاغ والقور وتزكس واركس والططر ويقال الطغرغر وأنكر، وهم مجاورون للروم . وأعلم أنا هؤلاء الترك أعظم أمم العالم، وليس في أجناس البشر أكثر منهم ومن العرب في جنوب المعمور، وهؤلاء في شماله قد ملكوا عامة الأقاليم الثلاثة من الخامس والسادس والسابع، في نصف طوله مما يلي المشرق . فأول مواطنهم من الشرق على البحر بلاد الصين وما فوقها جنوباً إلى الهُنك ، وما تحتها شمالاً إلى سد يأجوج ومأجوج. وقد قيل انهم من شعوب الترك، وآخر مواطنهم من جهة الغرب بلاد الصقالبة المجاورين للافرنج مما يلي رومة إلى خليج القسطنطينية. وأول مواطنهم من جهة الجنوب بلاد القور المجاورة للنهر ، ثم خراسان واذربيجان وخليج القسطنطينية، وآخرها من الشمال بلاد فرغانة والشاش وما وراءها من البلاد الشمالية المجهولة لبعدها .

وما بين هذه الحدود من بلاد غزنة ونهر جيحون، وما بخفافيه من البلاد، وخوارزم ومفاوز الصين. وبلاد القفجق والروس حفافي خليج القسطنطينية من جهة الشمال الغربي، قد اعتمر لهذه البسائط. منهم أمم لا يحصيهم إلا خالقهم ، رحالة متنقلون فيها مستنجعين مساقط الغيث في نواحيه، يسكنون الخيام المتخذة من اللبود لشدة البرد في بلادهم فقروا عليها.

ومر بديار بكر وخرج إليه صاحبها نصر بن مروان ، وحمل مائة ألف دينار لنفقته، فلما سمع أنه قبضها من الرعايا ردها عليه ثم مر بناهرو وأمنها وأطاف على السور، وجعل يمسحه بيده ويمر بها على خدوده تبركاً بثغر المسلمين . ثم مر بالرُّها وحاصرها فامتنعت عليه . ثم سار إلى حلب فبعث إليه صاحبها محمود ريعول القائد الذي عنده يخبر بطاعته وخطبته، ويستعفيه من الخروج إليه منكراً منه الأذى ، وبحي على خير العمل فقال : لا بد من خروجه. واشتدّ الحصار فخرج محمود ليلاً مع أمه بنت وثاي الهني متطارحاً على السلطان فأكرم مقدمها ، وخلع عليه وأعاده إلى بلده .

غزاة السلطان ألب أرسلان إلى خلاط وأسر ملك الروم :

كان ملك اليوم بالقسطنطينية لهذا العهد اسمه أرمانوس، وكان كثيراً ما يخيف ثغور المسلمين. وتوجه في سنة اثنتين وستين في عساكر كثيرة إلى الشام، ونزل على مدينة منبج واستباحها. وجمع له محمود بن صالح بن مرداس الكلابي وابن حسان الطائي قومهما، ومن إليهم من العرب فهزمتهم الروم. ثم رجع أرمانوس إلى القسطنطينية، واحتشد الروم والإفرنج والروس والكرخ ومن يليهم من العرب والطوائف، وخرج إلى بلاد كرد من أعمال خلاط. وكان السلطان ألب أرسلان بمدينة حوف من اذربيجان، منقلباً من حلب فبعث بأهله وأثقاله إلى همذان مع وزيره نظام الملك، وسار هو في خمسة عشر ألف مقاتل، وتوجه نحوهم متهيأ. ولقيت مقدمته الروس فهزموهم، وجاؤوا بملكهم أسيراً إلى السلطان فجدعه ، وبعث أسلابهم إلى نظام الملك. ثم توجه إلى سمرقند ففارقها التكير، وأرسل في الصلح، ويعتذر عن تومق فصالحه ملك شاه ، وأقطع بلخ وطخارستان لأخيه شهاب الدين مكين، إلى خراسان ثم إلى الريّ .

فتنة قاروت بك صاحب كرمان ومقتله :

كان بكرمان قاروت بك أخو السلطان ألب أرسلان أميراً عليها، فلما بلغه وفاة أخيه سار إلى الريّ لطلب الملك فسبقه إليها السلطان ملك شاه، ونظام الملك، ومعهما مسلم بن قريش ومنصور بن دبيس، وأمراء الأكراد. والتقوا على نهرمان، فانهزم قاروت بك وجيء به إلى أمام سعد الدولة كوهراس فقتله خنقاً. وأمر كرمان بسير بنيه ، وبعث إليهم بالخلع، وأقطع العرب والأكراد مجازاةً لما أبلوا في الحرب . وقد كان السلطان ألب رسلان شافعاً فيه على الخليفة فلقيهم خبر وفاة ألب أرسلان في طريقهم، فروا إلى ملك شاه ، وسبق إليه مسلم بطاعته. وأما بهاء الدولة منصور بن دبيس فإن أباه أرسله بالمال إلى ملك شاه، فلقيه سائراً للحرب فشهدها معه.

ثم توفي أياز أخو السلطان ملك شاه ببلخ سنة خمس وستين فكفله ابنه ملك شاه إلى سنة سبع وستين. وتوفي القائم منتصف شعبان منها لخمس وأربعين سنة من خلافته، ولم يكن له يومئذ ولد، وانما كان له حافد، وهو المقتدي عبد الله بن محمد. وكان أبوه محمد بن القائم ولي عهده

، وكان يلقب ذخيرة الدين، ويكنى أبا العباس. وتوفي سنة وعهد القائم لحافده ، فلما توفي اجتمع أهل الدولة، وحضر مؤيد الملك بن نظام الملك ، والوزير فخر الدولة بن جهير، وابنه عميد الدولة، والشيخ أبو

اسحق الشيرازي ونقيب النقباء طراد، وقاضي القضاة الدامغاني فبايعوه بالخلافة لعهد جده إليه بذلك . وأقر فخر الدولة بن جهير على الوزارة ، وبعث ابنه عميد الدولة إلى السلطان ملك شاه لأخذ بيعته، والله الموفق للصواب.

استيلاء السلجوقية على دمشق وحصارها مصر ثم استيلاء تتش ابن السلطان ألب أرسلان على دمشق :

قد تقدم لنا ملك انسز الرملة وبيت المقدس وحصاره دمشق سنة احدى وستين، ثم

عاد عنها وجعل يتعاهد نواحيها بالعيث والافساد كل سنة. ثم سار اليها في رمضان سنة سبع وستين وحاصرها، ثم عاد عنها، وهرب منها أميرها من قبل المستنصر العلوي صاحب مصر المعلى بن حيدرة، لأنه كثر عسفه بالجند والرعية وظلمه، فثاروا به فهرب إلى بانياس، ثم إلى صور، ثم إلى مصر فحبس ومات بها محبوساً. واجتمعت المصامدة بدمشق، وولي عليهم أنصار بن يحيى المصمودي، ويلقب نصير الدولة. وغلت الأقوات عندهم، واضطربوا فعاد إليها انسز في شعبان سنة ثمان وستين فاستأمنوا إليه، وعوض انتصاراً منها بقلعة بانياس ومدينة يافا من الساحل، ودخلها في ذي القعدة، وخطب بها للمقتدي، ومنع من النداء بحيّ على خير العمل، وتغلب على كثير من مدن الشام . ثم سار سنة تسع وستين إلى مصر وحاصرها وضيق عليها. واستنجد المستنصر بالبوادي من نواحيها فوعدوه بالنصر. وخرج بدر الجمالي في العساكر التي كانت بالقاهرة وجاء أهل البلاد لميعادهم فإنهزم أنسز وعساكره، ونجا إلى بيت المقدس فوجدهم قد بمخلفه فتحصنوا منه بالمعاقل فافتتحها عليهم عنوة واستباحها ، حتى قتلهم في المسجد. وقد تقدم ضبط هذا الاسم وأنه عند أهل الشأم انسيس، والصحيح انسز، وهو اسم تركي. ثم ان السلطان ملك شاه اقطع أخاه تتش بن ألب أرسلان بلاد الشأم ، وما يفتحه من تلك النواحي سنة سبعين وأربعمائة ، فقصد حلب أولاً وحاصرها، ومعه جموع من

التركمان. وكان بدر الجمالي المستولي على مصر قد بعث العساكر لحصار دمشق، وبها أنسز، فبعث إلى تتش وهو على حلب يستنجده فسار إليه، وأخرت عساكر مصر عنه منهزمين. ولما وصل إلى دمشق قعد انسز على لقائه، وانتظر قدومه فلقيه عند السور، وعاتبه على ذلك فتساهل في العذر فقتله لوقته، وملك البلد، واستولى على الشام أجمع كما سيأتي، وكان يلقب تاج الدولة. ثم سار في سنة اثنتين وسبعين إلى حلب فحاصرها أياماً، وأفرج عنها، وملك مراغة والبيرة، وعاد إلى دمشق. وخالفه مسلم بن قريش إلى حلب فملكها كما تقدم في أخباره وضمنها للسلطان ملك شاه فولاه إياها. وسار مسلم بن قريش فحاصرها آخر سنةأربع وسبعين . ثم أفرج عنها فخرج تتش وقصد طرسوس من الساحل فافتتحها ورجع. ثم حاصرها مسلم ثانية سنة تسع وسبعين. وبلغه أن تاج الدولة تتش سار إلى بلاد الروم غازياً فخالفه إلى دمشق، وحاصرها معه العرب والأكراد. وبعث إليه العلوي صاحب مصر بعده بالمدد. وبلغ الخبر إلى تتش فكر راجعاً، وسبقه إلى دمشق فحاصرها أياماً. ثم خرج اليه تتش في جموعه فهزمه واضطرب أمره، ووصله الخبر بانتقاض أهل حران فرحل من مرج الصفر راجعاً إلى بلاده. ثم سار أمير الجيوش من مصر في العساكر إلى دمشق سنة ثمان

وسبعين، وحاصرها فامتنعت عليه، ورجع . فلحقوا بأخيه تُكش في ، فقوي به وأظهر العصيان، واستولى على مرو الروذ ومرو الساهجان وغيرهما، وسار إلى نيسابور طامعاً في ملك خراسان. وبلغ الخبر إلى السلطان فسبقه إلى نيسابور، فرجع تتش وتحصن بترمذ. وحاصره السلطان حتى سأل الصلح وأطلق من كان في أسره من عسكر السلطان، ونزل عن ترمذ وخرج إليه فأكرمه. ثم عاود العصيان سنة سبع وسبعين، وملك مرو الروذ، ووصل قريباً من سرخس وحاصر قلعة هناك لمسعود ابن الأمير فاخر. وتحيل أبو الفتوح الطوسي صاحب نظام، وهو بنيسابور على ملطفة وضعوها على شبه خط نظام الملك، يخاطب فيها صاحب القلعة بأنه واصل في ركاب السلطان ملك شاه، وأنه مصالح للقلعة. وتعرض حاملها لأهل المعسكر حتى أخذوا كتابه بعد الضرب والعرض على القتل . وحدثهم بمثل ما في الصحيفة وأن السلطان وعساكره في الريّ فأجفلوا لوقتهم إلى قلعة

ربح. وخرج أهل الحصن فأخذوا ما في العسكر وجاء السلطان بعد ثلاثة أشهر فحاصره في قلعته حتى افتتحها، وحده ودفعه إلى ابنه أحمد فتسلمه وحبسه ، فخرجا من يمينه معه.

سفارة الشيخ أبي اسحق الشيرازي عن الخليفة:

كان الخليفة المقتدي وكان عميد العراق أبو الفتح بن أبي الليث يسيء معاملة الخليفة، فبعث المقتدي الشيخ أبا اسحق الشيرازي إلى السلطان ملك شاه، ووزيره نظام الملك بأصبهان شاكياً من العميد . فسار الشيخ لذلك ، ومعه الإمام أبو بكر الشاشي وغيره من الأعيان . ورأى الناس عجباً في البلاد التي يمر بها من إقبال الخلق عليه، وازدحامهم على محفته يتمسحون بها، ويلثمون أذيالها، وينشرون موجودهم عليها من الدراهم والدنانير لأهلها، والمصنوعات لأهل الصنائع، والبضائع للتجار، والشيخ في ذلك يبكي وينتحب . ولما حضر عند السلطان أظهر المحرمة، وأجابه إلى جميع ما طلبه. ورفعت يد العميد عن كل ما يتعلق بالخليفة. وحضر الشيخ مجلس نظام الملك فجرت بينه وبين إمام الحرمين مناظرة خبرها معروف.

اتصال بني جهير بالسلطان ملك شاه ومسير فخر الدولة لفتح ديار بكر:

كان فخر الدولة أبو نصر بن جهير وزير المقتدي قد عزل سنة احدى وسبعين على

يد نظام الملك، ولحق به ابنه عميد الدولة واسترضاه فرضي نظام الملك، وشفع إلى الخليفة فاعتمد عميد الدولة دون أبيه كما تقدم في أخبار الخلفاء . ثم أرسل المقتدي سنة أربع وسبعين فخر الدولة إلى ملك شاه يخطب له ابنته، فسار إلى أصبهان وعقد له نكاحها على خمسين ألف دينار معجلة، وعاد إلى بغداد . ثم عزل المقتدي ابنه عميد الدولة عن الوزارة سنة ست وسبعين ، وكانوا قد علقوا بخطة من نظام الملك فبعث عن نفسه وعن ملك شاه يطلب حضور بني جهير عندهم ، فساروا بأهليهم فعظمت حظوظهم عند السلطان . وعقد لفخر الدولة على ديار بكر، وبعث معه العساكر لفتحها من يد بني مروان، وأذن له اتخاذ الآلة وأن يخطب لنفسه ، ويكتب اسمه على السكة فسار في العساكر السلطانية.

استيلاء ابن جهير على الموصل:

ولما سار فخر الدولة ابن جهير لفتح ديار بكر، استنجد ابن مروان مسلم بن قريش ، وشرط له أمراً وتحالفا على ذلك، واجتمعا لحرب ابن جهير. وبعث السلطان الأمير أرتق بن أكسك في العساكر مدداً لابن جهير، فجنح ابن جُهير إلى الصلح، وبادر أرتق إلى القتال فهزم العرب والأكراد، وغنم معسكرهم. ونجا مسلم بن قريش إلى آمد ، وأحاطت به العسكر، فلما اشتد مخنقه راسل الأمير أرتق في الخروج على مال بذله له فقبله ، وكانت له حراسة الطريق فخرج إلى الرقة. وسار ابن جهير إلى ميافارقين، وفارقه منصور بن مزيد وابنه صدقة فعاد منها إلى خلاط. ولما بلغ السلطان انحصار مسلم في آمد بعث عميد الدولة في جيش كثيف إلى الموصل، ومعه آقسنقر قسيم الدولة الذي أقطعه بعد ذلك حلب. وساروا إلى الموصل فلقيهم أرتق، ورجع معهم . ولما نزلوا علىالموصل بعث عميد الدولة إلى أهلها بالترغيب والترهيب فأذعنوا واستولى عليها، وجاء السلطان في عساكره إلى بلاد مسلم بن قريش، وقد خلص من الحصار، وهو مقيم قبالة الرحبة فبعث إليه مؤيد الكتاب، ولاطف السلطان واسترضاه، ووفد إليه بالقوارح ، وردّه السلطان إلى أعماله وعاد لحرب أخيه تتش الذي ذكرناه آنفاً.

فتح سليمان بن قطلمش أنْطاكِية والخبر عن مقتله ومقتل مسلم ابن قريش واستيلاء تتش على حلب:

كان سليمان بن قطلمش بن إسرائيل بن سلجوق قد ملك قرسة ، واقصرا وأعمالها، من بلاد الروم إلى الشام . وكانت أنْطاكِية بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلثمائة. وكان ملكها لعهده الفردروس فأساء السيرة إلى جنده ورعاياه، وتنكر لابنه وحبسه فداخل الشحنة في تمكين سليمان من البلد، فاستدعوه سنة سبع وسبعين فركب إليها البحر، وخرج إلى البر في أقرب السواحل إليها في ثلثمائة ألف فارس ورجل كثير. وسار في جبال وأوعار فلما انتهى إلى السور، وأمكنه الشحنة من تسلم السور دخل البلد، وقاتل أهلها فهزمهم، وقتل كثيراً منهم . ثم عفا عنهم وملك القلعة، وغنم من أموالهم ما لا يحصى. وأحسن إلى أهلها وأمر لهم بعمارة ما خرب، وأرسل إلى السلطان ملك شاه بالفتح. ثم بعث إليه مسلم بن قريش يطلب منه ما كان يحمل إليه الفردروس ملك انْطاكِية من المال، ويخوفه معصية السلطان فأجابه بتقرير الطاعة للسلطان، وبأن الجزية لا يعطيها مسلم، فسار مسلم ونهب نواحي انْطاكِية ، فنهب سليمان نواحي حلب.

ثم جمع سليمان العرب والتركمان، وسار لنواحي انْطاكِية ومعه جماهير التركمان.

وجمع سليمان كذلك، والتقيا آخر صفر سنة ثمان وسبعين، وانحاز جق إلى سليمان فانهزمت العرب، وقتل مسلم وسار سليمان بن قطلمش إلى حلب وحاصرها فامتنعت عليه، وأرسل إليه ابن الحثيثي العباسي كبير حلب بالأموال، وطالبه أن يمهل حتى يكاتب السلطان ملك شاه ودس الى تاج الدولة تتش صاحب دمشق يستدعيه لملكها فجاء لذلك، ومعه أرسوس أكسك، وكان خائفاً على نفسه من السلطان ملك شاه لفعلته في أمر فاستجار بتتش، وأقطعه المورس، وسار معه لهذه الحرب. وبادر سليمان بن قطلمش إلى اعتراضهم وهم على تعبية. وأبلى أرتق في هذه الحروب، وانهزم سليمان، وطعن نفسه بخنجر فمات، وغنم تتش معسكره، وبعث إلى ابن الحثيثي العباسي فيما استدعاه إليه فاستمهله الى مشورة السلطان ملك شاه،

وأغلظ في القول فغضب تتش ، وداخله بعض أهل البلد فتسورها وملكها . واستجار ابن الحثيثي بالأمير أرتق فأجاره وسمع له.

استيلاء ابن جهير على ديار بكر:

ثم بعث ابن جهير سنة ثمان وسبعين ابنه زعيم الرؤساء أبا القاسم إلى حصار آمد ،

ومعه جناح الدولة اسلار فحاصرها واقتلع شجرها، وضيق عليها حتى جهدهم الجوع. وغدر بعض العامة في ناحية من سورها، ونادى بشعار السلطان ، واجتمع إليه العامة لما كانوا يلقون من عسف العمال النصارى فبادر زعيم الرؤساء إلى البلد، وملكها، وذلك في المحرم. وكان أبوه فخر الدولة محاصراً لميافارقين، ووصل إليه سعد الدولة كوهراس شحنة بغداد بمدد العساكر فاشتد الحصار، وسقطت من السور ثلمة في سادس جمادى فنادوا بشعار السلطان، ومنعوا ابن جهير من البلد. واستولى على أموال بني مروان، وبعثها مع ابنه زعيم الرؤساء إلى السلطان، فسار مع كوهراس إلى بغداد. ثم فارقه إلى السلطان بأصبهان. ولما انقضى أمر ميافارقين بعث فخر الدولة جيشاً إلى جزيرة ابن عمر فحاصرها، وقام بعض أهلها بدعوة السلطان، وفتحوا مما يليهم باباً قريباً دخل منه العسكر فملكوا البلد. وانقرضت دولة بني مروان من ديار بكر، والبقاء لله. ثم أخذ السلطان ديار بكر من فخر الدولة بن جهير، وسار إلى الموصل فأقام بها إلى أن توفي سنة ثلاث وثمانين.

استيلاء السلطان ملك شاه علم حلب وولاية اقسنقر عليها:

لما ملك تاج الدولة تتش مدينة حلب، وكان بها سالم بن ملك بن مروان ابن عم

مسلم بن قريش، وامتنع بالقلعة وحاصره تتش سبعة عشر يوماً، حتى وصل الخبر بمقدم أخيه السلطان ملك شاه، وقد كان ابن الحثيثي كتب إليه يستدعيه لما خاف من تتش فسار من اصبهان

منتصف تسع وسبعين، وفي مقدمته برسق وبدران وغيرهما من الأمراء. ومر بالموصل في رجب. ثم سار إلى هراة وبها ابن الشاطىء فملكها وأقطعها لمحمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش، وأقطعه معها مدينة الرحبة وأعمالها وحران وسروج والرقة وخابور، وزوجه أخته زليخا خاتون . ثم سار إلى الرها وافتتحها من الروم، وكانوا اشتروها من ابن عطية كما مر . وسار إلى قلعة جعفر فملكها وقتل من كان بها من بني قشير، وكان صاحبها جعفر أعمى ، وكان يخيف السابلة هو وولده فأزال ضررهم ثم. ملك منبج ، وعبر الفرات إلى حلب فأجفل تتش عن المدينة ودخل ومعه الأمير أرتق. ورجع إلى دمشق فلما وصل السلطان إلى حلب ملكها ، ثم إلى القلعة فملكها من سالم بن ملك على أن يعطيه قلعة جعفر، فلم تزل بيد عقبه إلى أن ملكها منهم نور الدين الشهيد.ثم بعث إليه نصر بن علي بن منقذ الكناني بالطاعة فأقره على شيزر، وتسلم منه اللاذقية وبعرطاف وجامية ورجع . ثم رجع السلطان بعد أن ولي على حلب قسيم الدولة أقسنقر. ورغب اليه أهل حلب أن يعفيهم من ابن الحثيثي فأخرجه عنهم إلى ديار بكر وتوفي بها . ثم رجع السلطان إلى بغداد فدخلها في ذي الحجة من سنته ، ونزل بدار المملكة، وأهدى للخليفة هدايا كثيرة . واجتمع بالخليفة ليلاً. ثم دخل إليه في مجلسه نهاراً وأفيضت عليه الخلع . وسلم أمراء السلجوقية على الخليفة، ونظام الملك قائم يقربهم واحداً

واحداً، ويعرف بهم. ثم صرح المقتدي للسلطان ملك شاه بالتفويض، وأوصاه بالعدل فقبل يده ووضعها على عيتيه، وخلع الخليفة على نظام الملك، وجاء إلى مدرسته التي فيها الحديث وأملى.

خبر الزفاف:

قد قدمنا أن السلطان ملك شاه زوج ابنته من الخليفة المقتدي سنة أربع وسبعين ، بخطبة الوزير بن جهير، فلما كان سنة ثمانين في المحرم نقل جهازها للزفاف إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي ، أكثرها ذهب وفضة، ومعه ثلاث عماريات ، ومعها أربع وسبعون بغلاً مجللة بأنواع الديباج المكي، وقلائدها الذهب ، وعلى ستة منها اثنا عشر صندوقاً من فضة مملوءة بالحلي والجواهر، ومهد عظيم من ذهب. وسار بين يدي الجهاز سعد الدولة

كوهراس والأمير أرتق وغيرهما من الأمراء، والناس ينثرون عليهم الدنانير والثياب. وبعث الخليفة وزيره أبا شجاع إلى زوجة السلطان تركمان خاتون، ومعه خادمه، ظفر بمحفة لم ير مثلها، ومعهم ثلثمائة من الشمع الموكف ، ومثلها مشاعل. وأوقدت الشموع في دكاكين الحريم الخلافي. وقال الوزير لخاتون : سيدنا أمير المؤمنين يقول : إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وقد أذن في نقل الوديعة إلى داره فقالت : سمعاً وطاعةً . ومشى بين يديها أعيان الدولة مع كل واحد الشمع والمشاعل، يحملها الفرسان. ثم جاءت المأمون من بعدهم في محفةمجللة عليها من الذهب والجواهر ما لا يحد، ويحيط بالمحفة مائتا جارية من الأتراك على مراكب رائعة. وأولم الخليفة وليمة لم يسمع بمثلها. ثم أطلع للناس من الغد سماط مائدة عليها أربعون ألفاً من السكر، وخلع على أعيان العسكر، وعلى جميع الحواشي.

استيلاء السلطان ملك شاه على ما وراء النهر:

كان صاحب سمرقند لهذا العهد من الخانية أحمد خان بن خضر خان أخي شمس الملك الذي كان أميراً عليها ، وعمته خاتون زوجة ملك شاه. وكان رديء السيرة فبعثوا إلى السلطان يسألونه الرجوع إلى إيالته . وجاء بذلك مفتي سمرقند أبو طاهر الشافعي قدم حاجاً وأسر ذلك إلى السلطان فسار من أصبهان سنة اثنتين وثمانين، ومعه رسول الروم بالخراج المقدر عليهم فاستعجم وأحضر للفتح. ولما انتهى إلى خراسان جمع العساكر وعبر النهر بجيوش لا تحصى، وأخذ ما في طريقه من البلاد. ثم انتهى إلى بخارى فملكها وما جاورها. ثم سار إلى سمرقند فحاصرها، وأخذ بهجتها ثم رماها بالمنجنيق، وثلم سورها ودخل مني الثلمة، وملك البلد. واختفى أحمد خان، ثم جيء به أسيراً فأطلقه، وبعث به الى اصبهان وولى على سمرقند أبا طاهر عميد خوارزم ، وسار الى كاشغر فبلغ الى نور وكمن وبعث الى كاشغر بالخطبة، وضرب السكة فأطاع وحضر عند السلطان فأكرمه وخلع عليه، وأعاده الى بلده. ورجع السلطان الى خراسان. وكان بسمرقند عساكر يعرفون بالحكلية فأرادوا الوثوب بالعميد نائب السلطان، فلاطفهم ولحق ببلده خوارزم.

عصيان سمرقند وفتحها ثانيا:

كان مقدم الحكلية بسمرقند اسمه عين الدولة ، وخاف السلطان لهذه الحادثة فكاتب يعقوب تكين أخا ملك كاشغر وكانت مملكته تعرف بارياسي فاستحضره وملكه. ثم شكر له يعقوب، وحمل أعداءه من الرعية على طلب الثأر منه، وقتله بفتاوي الفقهاء ، واستبد بسمرقند وسار السلطان ملك شاه إليها سنة اثنتين وثمانين. لما انتهى

الى بخارى هرب يعقوب إلى فرغانة ولحق بولايته. وجاء بعسكره مستأمنين إلى السلطان فلقوه بالطواويس من قرى بخارى، ووصل السلطان إلى سمرقند وولي عليها الأمير انز وأرسل العساكر في طلب يعقوب وأرسل إلى ملك كاشغر بالجّد في طلبه. وشعب على يعقوب عساكره ونهبوا خزائنه، ودخل على أخيه كاشغر مستجيراً به. وبعث السلطان في طلبه منه فتردد بين المخافة والأنفة. ثم غلب عليه الخوف فقبض على أخيه يعقوب وبعثه مع ابنه وأصحابه إلى السلطان، وأمرهم أن يسملوه في طريقه فإن قنع السلطان بذلك وإلا أسلموه إليه، فلما قربوا على السلطان وعزموا على سمله بلغهم الخبر بأن طغرل بن نيال أسرى من ثمانين فرسخاً بعساكر لا تحصى، فكبس ملك كاشغر وأسره فأطلقوا يعقوب . ثم خشي السلطان شأن طغرل بن نيال وكثرة عساكره فرجع على البلد، ودس تاج الملك في استصلاح يعقوب فشفع له، ورده إلى كاشغر، ورد الطغرل ورجع هو إلى خراسان. ثم قدم إلى بغداد سنة أربع وثمانين العزمة الثانية، ووجد عليه أخوه تاج الدولة تتش صاحب الشام، وقسيم الدولة أقسنقر صاحب حلب، وبوران صاحب الرها وعمال الأطراف وأقام صنيع الميلاد ببغداد، وتأنق بما لم يعهد مثله، وأمر وزيره نظام الملك وأمراءه ببناء الدور ببغداد لنزلهم، ورجع إلى أصبهان.

استيلاء تتش على حمص وغيرها من سواحل الشام:

لما قدم السلطان سنة أربع وثمانين، وفد عليه أمراء الشام كما قدمنا، فلما انصرفوا من عنده أمر أخاه تاج الدولة تتش أن يذهب دولة العلويين من ساحل الشام ويفتح بلادهم. وأمر أقسنقر وبوران أن يسيراً لانجاده. فلما رجعوا إلى دمشق سار إلى حمص وبها صاحبها ابن ملاعب، وقد عظم ضرره وضرر ولده على الناس فحاصرها وملكها. ثم سار إلى قلعة عرفة فملكها عنوة، ثم إلى قلعة أفامية فاستأمن إليه خادم كان بها، فأرسل إلى أمراء تتش في إصلاح حاله فسدوا عليه المذاهب، فأرسل إلى وزير اقسنقر يسعى له عند صاحبه، وعمل له على ثلاثين ألف دينار، ومثلها عروضاً فجنح إلى مصالحته، واختلف مع تتش على ذلك، وأغلظ كل منهما لصاحبه في القول فرحل أُقسنقر مغاضباً، واضطر الباقون إلى الرحيل وانتقض أمرهم.

ملك اليمن:

كان فيمن حضر عند السلطان ببغداد كما قدمناه عثمان حق أمير التركمان صاحب قرمسيس وغيرها، فأمره السلطان أن يسير في جموع التركمان للحجاز واليمن فيظهر أمرهم هناك. وفوض إلى سعد الدولة كوهراس شحنة بغداد فولى عليهم أميراً اسمه ترشك. وسار إلى الحجاز فاستولى عليه، وأساء السيرة فيه، حتى جاء أمير الحجاز محمد بن هاشم مستغيثاً منهم. ثم ساروا سنة خمس وثمانين إلى اليمن، وعاثوا في نواحيه، وملكوا عدن، وأساؤا السيرة في أهلها، وأهلكوا ترشك سابع دخولها، وأعاده أصحابه إلى بغداد فدفنوه بها.

مقتل الوزير نظام الملك :

ثم ارتحل السلطان ملك شاه إلى بغداد سنة خمس وثمانين فانتهى إلى أصبهان في رمضان، وخرج نظام الملك من بيته بعد الإفطار عائداً إلى خيمته فاعترضه بعض الباطنية في صورة متظلم فلما استدناه لسماع شكواه، طعنه بخنجر فأشواه . وعثر الباطني في أطناب الخيام، ودخل نظام الملك الخيمة فمات لثلاثين سنة من وزارته.

واهتاج عسكره فركب إليه السلطان وسكن الناس ويقال إن السلطان ملك شاه وضع الباطني على قتله لما وقع منه ومن بنيه من الدالة والتحكم في الدولة. وقد كان السلطان دس على ابنه جمال الدين من قتله سنة خمس وسبعين. كان بعض حواشي السلطان سعى به فسطا به جمال الدين وقتله فأحقد السلطان بذلك، وأخذ عميد خراسان فقتله خنقاً فدس لخادم من خدم جمال الدين بذلك ، وأنهم إذا تولوا قتله بأنفسهم كان أحفظ لنعمتهم فسقاه الخادم سماً ومات.وجاء السلطان إلى نظام الملك وأغراه به. وما زال بطانة السلطان يغضون منه، ويحاولون السعاية فيه إلى أن ولي حافده عثمان بن جمال الملك على مرو، وبعث السلطان إليها كردن من أكابر المماليك والأمراء شحنة. ووقعت بينه وين عثمان منازعة في بعض الأيام فأهانه وحبسه، ثم أطلقه.

وجاء إلى السلطان شاكياً فاستشاط غضباً، وبعث فخر الملك ألب أرسلان الى نظام الملك وأغراه به وما زال يقول: إن كنت تابعاً فقف عند حدك، وإن كنت شريكي في سلطاني فافعل ما بدا لك. وقرر عليه فعل حافده وسائر بنيه في ولايتهم، وأرسل معه نكبرذ من خواصه ثقة على ما يؤديه من القول، ويجيبه الآخر فانبسط لسان نظام الملك يعدد الوسائل منه، والمدافعة عن السلطان، وجمع الكلمة، وفتح الأمصار في كلام طويل حملته عليه الدالة. وقال في آخره إن شاء فله مؤيد مروآتي، ومتى

أطعت هذه زالت تلك فليأخذ حذره.ثم زاد في انبساطه وقال: قولوا عني ما أردتم فإن توبيخكم نتأ في عضدي. ومضى نكبرذ فصدق السلطان الخبر، وجاء الآخرون، وحاولوا الكتمان فلم يسعهم لما وشى نكبرذ بجلية القول فصدقوه كما صدقه. ومات نظام الملك بعدها بقليل، ومات السلطان بعده بنحو شهر. وكان أصل نظام الملك من طوس من أبناء الدهاقين اسمه أبو علي الحسن بن علي بن إسحق ذهبت نعمة آبائه، وماتوا فنشأ يتيماً. ثم تعلم وحذق في العلوم والصنائع، وعلق بالخدم السلطانية في بلاد خراسان وغزنة وبلخ. ثم لازم خدمة أبي علي بن شاذان وزير ألب أرسلان. ومات ابن شاذان فأوصى به السلطان ألب أرسلان. وعرفه كفايته فاستخدمه فقام بالأمور أحسن قيام فاستوزره.ثم هلك السلطان ألب أرسلان وهو في وزارته. ثم استوزره ملك شاه بعد أبيه،وكان عالماً جواداً صفوحاً مكرماً للعلماء وأهل الدين ملازما لهم في مجلسه. شيد المدارس، وأجرى فيها الجرايات الكثيرة. وكان يملي الحديث، وكان ملازماً للصلوات محافظاً على أوقاتها. وأسقط في أيامه كثيراً من المكوس والضرائب، وأزال لعن الاشعرية من المنابر بعد أن فعله الكندوي من قبله وحمل عليه السلطان طغرلبك، وأجراهم مجرى الرافضة وفارق إمام الحرمين، وابو القاسم القشيري البلاد من أجل ذلك، فلما ولي ألب أرسلان حمله نظام الملك على إزالة ذلك، ورجع العلماء إلى أوطانهم. ومناقبه كثيرة، وحسبك من عكوف العلماء على مجلسه، وتدوينهم الدواوين باسمه. فعل ذلك أمام الحرمين وأشباهه. وأما

مدارسه فقد بنى النظامية ببغداد، وناهيك بها، ورتب الشيخ أبا إسحق الشيرازي للتدريس بها. وتوفي سنة ست وسبعين فرتب ابنه مؤيد الملك مكانه أبا سعيد المتولي فلم يرضه نظام الملك ؛ وولى فيها الإمام أبا نصر الصباغ صاحب الشامل ومات أبو نصر في شعبان من تلك السنة فولي أبو سعيد من سنة ثمان وسبعين، ومات فدرس بعده الشريف العلوي أبو القاسم الدبوسي ، وتوفي سنة اثنتين وثمانين وولي تدريسه بعدها أبو عبد الله الطبري ، والقاضي عبد الوهاب الشيرازي بالنوبة يوماً بيوم. ثم ولي تدريسها الإمام أبو حامد الغزالي سنة أربع وثمانين، واتصل حكمها على ذلك. وفي أيامه عكف الناس على العلم واعتنوا به، لما كان من حسن أثره في ذلك والله أعلم.

وفاة السلطان ملك شاه وولاية ابنه محمود:

ثم لما سار السلطان بعد مقتل نظام الملك إلى بغداد، ودخلها آخر رمضان، وكان معه في الدولة أبو الفضل الهروستماني وزير زوجته الخاتون الجلالية من الملوك الخانية فيما وراء النهر، وكان أشد الناس سعاية في نظام الملك، وعزم السلطان أن يستوزره لأول دخوله بغداد فعاقت المنية عن ذلك، وطرقه المرض ثالث الفطر، وهلك منتصف شوال سنة خمس وثمانين. وكانت زوجته تركمان خاتون الجلالية عنده في بغداد، وابنها محمود غائباً في أصبهان فكتمت موته، وسارت بشلوه إلى أصبهان، وتاج الملك في خدمتها. وقدمت بين يديها قوام الدين كربوقا الذي ولي الموصل من بعد، وأرسلته بخاتم السلطان إلى مستحفظ القلعة فملكها، وجاءت على أثره، وقد أفاضت الأموال في الأمراء والعساكر ودعتهم إلى بيعة ولدها محمود، وهو ابن أربع سنين فأجابوا إلى ذلك وبايعوه. وأرسلت إلى المقتدر في الخطبة له فأجابها على أن يكون الأمير أنز قائماً بتدبير الملك، ومجد الملك مشيراً وله النظر في الأعمال والجباية فنكرت ذلك أمه خاتون، وكان السفير أبا حامد الغزالي فقال لها إن الشرع لا يجيز ولاية ابنك فقبلت الشرط، وخطب له آخر شوال سنة خمس وثلاثين، وأرسلت تركمان خاتون إلى أصبهان في القبض على بركيارق فحبس بأصبهان. وكان السلطان ملك شاه من أعظم ملوك السلجوقية ؛ ملك من الصين إلى الشام، ومن أقصى الشام إلى اليمن، وحمل إليه ملوك الروم الجزية ومناقبه عظيمة مشهورة .

منازعة بركيارق لأخيه محمود وانتظام سلطانه:

كان بركيارق أكبر أولاد السلطان ملك شاه، وكانت أمه زبيدة بنت ياقوتي بن داود، وياقوتي عم ملك شاه. ولما حبس بركيارق وخافت عليه أمه زبيدة دست لمماليك نظام الملك فتعصبوا له، وكانت خاتون غائبة ببغداد مع ابنها محمود لفقد سلطانه فوثب المماليك النظامية على سلاح لنظام الملك بأصبهان. وأخرجوا بركيارق من محبسه، وخطبوا له، وبلغ الخبر إلى خاتون فسارت من بغداد. وطلب العسكر تاج الملك في عطائهم فهرب إلى قلعة بوجين ليترل منها الأموال، وامتنع فيها، ونهب العسكر خزائنه، وساروا إلى أصبهان وقد سار بركيارق والنظامية إلى الريّ فأطاعه أرغش النظامي في عساكره، وفتحوا قلعة طغر عنوة، وبعثت خاتون العساكر لقتال بركيارق فترع إليه سبكرد وكمستكن الجاندار وغيرهما من أمراء عساكره، ولقيهم

بركيارق فهزمهم وسار في أثرهم إلى أصبهان فحاصرهم بها. وكان عز الملك بأصبهان، وكان والياً على خوارزم فحضر عند السلطان قبل مقتل أبيه، وبقي هناك بعد وفاة السلطان فخرج إلى بركيارق، ومعه جماعة من اخوانه فاستوزره بركيارق، وفوض إليه الأمور كما كان أبوه.

مقتل تاج الملك:

وهو أبو الغنائم المرزبان بن خسرو فيروز، كان وزيرا لخاتون وابنها. ولما هرب

إلى قلعة بوجين خوفاً من العسكر كما قدمنا، وملكت خاتون أصبهان عاد إليها واعتذر بأن صاحب القلعة حبسه فقبلت عذره وبعثته مع العساكر لقتال بركيارق. فلما انهزموا حمل أسيراً عنده، وكان يعرف كفاءته فأراد أن يستوزره، وكان النظامية ينافرونه ويتهمونه بقتل نظام الملك، وبذل فيهم أموالاً فلم يغنه، ووشوا به فقتلوه في المحرم سنة ست وثمانين. وكان كثير الفضائل جم المناقب ، وإنما غطى على محاسنه ممالأته على قتل نظام الملك. وهو الذي بنى تربة الشيخ أبي اسحق الشيرازي والمدرسة بازائها، ورتب بها أبا بكر الشاشي مدرّساً.

مهلك محمود:

ثم هلك السلطان محمود وهو محاصر بأصبهان لسنة من ولايته، واستقل بركيارق بالملك.

منازعة تتش بن ألب أرسلان وأخباره الى حين انهزامه:

كان تاج الدولة تتش أخو السلطان ملك شاه صاحب الشام، وسار إلى لقاء أخيه

ملك شاه ببغداد قبيل موته فلقيه خبر موته بهيت فاستولى عليها، وعاد إلى دمشق فجمع العساكر وبذل الأموال، وأخذ في طلب الملك فبدأ بحلب، ورأى صاحبها قسيم الدولة أقسنقر اختلاف ولد ملك شاه وحقرهم فأطاع تاج الدولة تتش، وتبعه في طاعته. وبعث الى باعي يسار صاحب انْطاكِية، وإلى مران صاحب الرها وحران يشير عليهما بمثل ذلك فأجابا وخطبوا لتاج الدولة تتش في بلادهم وساروا معه إلى الرحب فملكها، ثم إلى نصيبين فملكها واستباحها وسلمها لمحمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش. وساروا إلى الموصل وقدم عليه الكافي بن فخر الدولة ابن جهير من جزيرة ابن عمر فاستوزره، وكانت الموصل قد ملكها علي بن شرف الدولة مسلم بن قريش، وأمه صفية عمة ملك شاه، وأطلقت تركمان خاتون عمه إبراهيم فجاء، وملك الموصل من يده كما تقدم في أخبار بني المقلد ، فبعث إليه تتش في الخطبة وأن يهيئ له الطريق إلى بغداد فامتنع، وزحف لحربه فانهزم العرب، وسيق إبراهيم أسيراً إلى تتش في جماعة من أمراء العرب فقتلوا صبراً، ونهبت أموالهم، واستولى تتش على الموصل وغيرها. واستناب عليها علي بن مسلم وهو ابن صفية عمة أبيه. وبعث إلى بغداد في الخطبة، ووافقه كوهراس الشحنة، وحرر الجواب بانتظار الرسل من العسكر فسار تتش إلى ديار بكر

فملكها. ثم سار الى اذربيجان، وزحف بركيارق يعتذر من سعيه مع تتش فعزله بركيارق بسعاية كمستكن الجاندار بقسيم الدولة، وأقام عوضه شحنة ببغداد الأمير مكرد، وأعطاه أقطاعه، وسار إلى بغداد. ثم رده من دقوقالكلام بلغه عنه وقتله وولى على شحنة بغداد فتكين حب.

مقتل اسمعيل بن ياقوتي:

كان اسمعيل بن ياقوتي بن داود بن عم ملك شاه وخال بركيارق أميراً على أذربيجان فبعثت تركمان خاتون إليه فأطمعته في الملك وأنها تتزوج به فجمع جموعاً من التركمان وغيرهم، وسار لحرب بركيارق فلقيه عند كرخ ونزع عنه مكرد إلى بركيارق فانهزم اسمعيل إلى أصبهان فخطبت له خاتون، وضربت اسمه على الدنانير بعد ابنها محمود. وأرادت العقد معه فمنعها الأمير أنز مدبر الدولة، وصاحب العسكر وخوفهم وفارقهم. ثم أرسل أخته زبيدة أم بركيارق فأصلحت حاله مع ابنها، وقدم عليه فأكرمه. واجتمع به رجال الدولة كمستكن الجاندار وأقسنقر وبوران، وكشفوا سره في طلب الملك. ثم قتلوه وأعلموا بركيارق فأهدر دمه.

مهلك توران شاه بن قاروت بك:

كان توران شاه بن قاروت بك صاحب فارس، وأرسلت خاتون الجلالية الأمير أنز لفتح فارس سنة سبع وثمانين فهزمه أولاً. ثم أساء السيرة مع الجند فلحقوا بتوران شاه، وزحف إلى أنز فهزمه واسترد البلد من يده، وأصاب توران شاه في المعركة بسهم هلك منه بعد شهرين.

وفاة المقتدي وخلافة المستظهر وخطبته لبركيارق:

ثم توفي المقتدي منتصف محرم سنة سبع وثمانين، وكان بركيارق قد قدم بغداد بعد هزيمة عمه تتش فخطب له وحملت إليه الخلع فلبسها، وعرض التقليد على المقتدي فقرأه وتدبره وعلم فيه، وتوفي فجأة وبويع لابنه المستظهر بالخلافة فأرسل الخلع والتقليد إلى بركيارق، وأخذت عليه البيعة للمستظهر.

استيلاء تتش على البلاد بعد مقتل أقسنقر ثم هزيمة بركيارق :

لما عاد تتش منهزماً من أذربيجان جمع العساكر واحتشد الأمم وسار من دمشق إلى حلب سنة سبع وثمانين، واجتمع قسيم الدولة أقسنقر وبوران، وجاء كربوقا مدداً من عند بركيارق، وساروا لحرب تتش ولقوه على ستة فراسخ من حلب فهزمهم، وأخذ أقسنقر أسيراً فقتله، ولحق كربوقا وبوران بحلب، واتبعهما تتش فحاصرهما، وملك حلب وأخذهما أسيرين وبعث إلى حران والرها في الطاعة فامتنعوا فبعث إليهم برأس بوران، وملك البلدين، وبعث بكربوقا إلى حمص فحبسه بها. وسار إلى الجزيرة فملكها، ثم إلى ديار بكر وخلاط فملكها، ثم إلى أذربيجان. ثم سار إلى همذان، ووجد بها فخر الدولة بن نظام الملك، جاء من خراسان إلى بركيارق فلقيه الأمير قماج من معسكر محمود بأصبهان فنهب ماله، ونجا إلى همذان فصادف بها تتش فأراد قتله، وشفع فيه باغي بسار، وأشار بوزارته لميل الناس إلى بيته، واستوزره. وكان بركيارق قد سار إلى أقسيس فخالفه تتش إلى أذربيجان وهمذان فسار بركيارق من نصيبين، وعبر دجلة

من فوق الموصل إلى إربل. فلما تقارب العسكران أشرف الأمير يعقوب بن أنق من عسكر تتش فكبس بركيارق، وهزمه ونهب سواده، ولم يبق معه إلا برسق وكمستكن الجاندار والبارق من أكابر الأمراء فلجأوا إلى أصبهان، وكانت خاتون أم محمود قد ماتت فمنعه محمود وأصحابه من الدخول. ثم خرج إليه محمود وأدخله إلى أصبهان واحتاطوا عليه، وأرادوا أن يسلموه فرفض محمود فأبقوه.

مقتل تتش واستقلال بركيارق بالسلطان:

ثم مات محمود منسلخ شوال سنة سبع وثمانين، واستولى بركيارق على أصبهان.

وجاء مؤيد الملك بن نظام الملك فاستوزره عوض أخيه عز الملك، وكان قد توفي بنصيبين فكاتب مؤيد الملك الأمراء، واستمالهم فرجعوا إلى بركيارق، وكشف جمعه. وبعث تاج الملك تتش بعد هزيمة بركيارق يوسف بن أفق التركماني شحنة إلى بغداد في جمع من التركمان فمنع من دخول بغداد. وزحف إليه صدقة بن مزيد صاحب الحلة فقاتله في يعقوب، وانهزم صدقة إلى الحله، ودخل يوسف بن أنق بغداد وأقام بها.وكان تتش لما هزم بركيارق سار إلى همذان، وقد تحصن بها بعض الأمراء فاستأمن إليه، واستولى على همذان وسار في نواحي أصبهان، وإلى مرو. وراسل الأمراء بأصبهان يستميلهم فأجابوه بالمقاربة والوعد، وبركيارق مريض. فلما أفاق من مرضه خرج إلى جرباذقان، واجتمع إليه من العسكر ثلاثون ألفاً، ولقيه تتش فهزمه بركيارق، وقتله بعض أصحاب أقسنقر بثأر صاحبه. وكان فخر الملك بن نظام الملك أسيراً عنده فانطلق عند هزيمته، واستقامت أمور بركيارق وبلغ الخبر إلى يوسف

.

استيلاء كربوقا على الموصل:

قد كنا قدمنا أن تاج الدولة تتش أسر قوام الدولة أبا سعيد كربوقا، وحبسه بعد ما

قتل أقسنقر بوزان فأقام محبوساً بحلب إلى أن قتل تتش، واستولى رضوان ابنه على حلب فأمره السلطان بركيارق بإطلاقه لأنه كان من جهة الأمير انز فأطلقه رضوان، وأطلق أخاه التوسطاش فاجتمعت عليهما العساكر. وكان بالموصل علي بن شرف الدولة مسلم منذ ولاه عليها تتش بعد وقعة المضيع. وكان بنصيبين أخوه محمد بن مسلم، ومعه مروان بن وهب وأبو الهيجاء الكردي، وهو يريد الزحف إلى الموصل فكاتب كربوقا واستدعاه للنصرة، ولقيه على مرحلتين من نصيبين فقبض عليه كربوقا، وسار إلى نصيبين وحاصرها أربعين يوماً وملكها. ثم سار إلى الموصل فامتنعت عليه فتحول عنها إلى بلد وقتل بها صمد بن شرف الدولة تغريقاً، وعاد إلى حصار الموصل ونزل منها على فرسخ، واستنجد علي بن مسلم بالأمير مكرس صاحب جزيرة ابن عمر فجاء لانجاده، واعترضه التوسطاش فهزمه. ثم سار إلى طاعة كربوقا، وأعانه على حصار الموصل. ولما اشتد بصاحبه علي بن مسلم الحصار بعد تسعة أشهر هرب عنها، ولحق بصدقة بن مزيد. ودخل كربوقا إلى الموصل وعاث التوسطاش في أهل البلد ومصادرتهم، واستطال على كربوقا فأمر بقتله ثالثة دخوله

سنة تسع وثمانين. وسار كربوقا إلى الرحبة فملكها، وعاد فأحسن السيرة في أهل الموصل، ورضوا عنه. واستقامت أموره.

استيلاء أرسلان أرغون أخي السلطان ملك شاه على خراسان ومقتله:

كان أرسلان أرغون مقيماً عند أخيه السلطان ملك شاه ببغداد، فلما مات وبويع

ابنه محمود سار إلى خراسان في سبعة من مواليه، واجتمعت عليه جماعة، وقصد نيسابورفامتنعت عليه فعاد إلى مرو، وكأن بها شحنة الأمير قودر من موالي السلطان ملك شاه، وكان أحد الساعين في قتل

نظام الملك فمال إلى طاعة أرغون، وملكه البلد. وسار إلى بلخ، وكان بها فخر الدين بن نظام الملك ففر عنها، ووصل إلى همذان ووزر لتاج الدولة تتش كما مر. وملك أرسلان أرغون بلخ وترمذ ونيسابور وسائر خراسان، وأرسل إلى السلطان بركيارق وزيره مؤيد الملك في تمرير خراسان عليه بالضمان كما كانت لجده داود ما عدا نيسابور فاعرض عنه بركيارق لاشتغاله بأخيه محمود وعمه تتش. ثم عزل بركيارق مؤيد الملك عن الوزارة بأخيه فخر الملك.واستولى فخر الملك ألب أرسلان على أمور فقطع أرسلان مراسلة

بركيارق،فبعث حينئذٍ عمه بورسوس في العساكر لقتاله فانهزم أرسلان إلى بلخ، واقام بورسوس بهراة، وسار أرسلان إلى مرو وفتحها عنوة وخربها واستباحها. وسار إليه بورسوس من هراة سنة ثمان وثمانين، وكان معه مسعود بن تاخر الذي كان أبو مقدم عساكر داود، ومعه ملك شاه من أعاظم الأمراء فبعث إليه أرسلان واستماله فمال إليه، ووثب لمسعود بن تاخر وابنه فقتلهما في خيمته فضعف أمر بورسوس وانفض الناس عنه، وجيء به أسيراً إلى أخيه أرسلان أرغون فحبسه بترمذ. ثم قتله في محبسه بعد سنة. وقتل أكابر خراسان، وخرب أسوارها: مثل سودان ومرو الشاهجان وقلعة سرخس ونهاوند ونيسابور، وصادر وزيره عماد الملك بن نظام الملك على ثلثمائة ألف دينار. ثم قتله واستبد بخراسان، وكان مرهف الحد كثير العقوبة لمواليه، وأنكر على بعضهم يوماً بعض فعلاته وهو في خلوة، وضربه فطعنه الغلام بخنجر معه فقتله، وذلك في المحرم من سنة تسعين.

ولاية سنجر على خراسان:

ولما قتل أرسلان أرغون ملك أصحابه من بعده صبياً صغيراً من ولده، وكان السلطان بركيارق قد جهز العساكر لخراسان للقتال ومعه الآتابك قماج، ووزيره علي بن الحسن الطغرائي. وانتهى إليه مقتل أرسلان بالدامغان فاقاموا حتى لحقهم السلطان بركيارق، وساروا إلى نيسابور فملكها في جمادى سنة تسعين

وأربعمائة، وملك سائر خراسان، وسار إلى بلخ. وكان أصحاب أرسلان قد هربوا بابنه الذي نصبوه للملك إلى جبل طخارستان، وبعثوا يستأمنون له ولهم فأمنهم السلطان، وجاؤا بالصبي في آلاف من العساكر فأكرمه السلطان، وأقطعه ما

كان لأبيه أيام ملك شاه، وانفض عنه المعسكر الذين كانوا معه، وافترقوا على أمراء السلطان، وأفردوه فضمته أم السلطان إليها، وأقامت من يتولى رتبته، وسار السلطان إلى ترمذ فملكها، وخطب له بسمرقند، ودانت له البلاد، وأقام على بلخ سبعة أشهر. ثم رجع وترك أخاه سنجر نائباً بخراسان.

ظهور المخالفين بخراسان:

لما كان السلطان بخراسان خالف عليه محمود بن سليمان من قرابته، ويعرف بأمير أميران. وسار إلى بلخ واستمد صاحب غزنة من بني سبكتكين فأمّده بالعساكر والخيول، على أن يخطب له فيما يفتح من خراسان فقويت شوكته، فسار إليه الملك سنجر، وكبسه فانهزم وجيء به اسيراً فسمله. ولما انصرف السلطان عن خراسان سار نائب خوارزم واسمه اكنجي في اتباعه، وسبق إلى مرو فتشاغل بلذاته ، وكان بها الأمير تورد قد تشاغل عن السلطان، واعتذر بالمرض فداخل بارقطاش من الأمراء في قتل أكنجي صاحب خوارزم فكبسه في طائفة من أصحابه، وقتلوه وساروا إلى خوارزم فملكوها مظهرين أن السلطان ولاهما عليها. وبلغ الخبر إلى السلطان، وكان قد بلغه في طريقه خروج الأمير أنز بفارس عن طاعته فمضى إلى العراق، وأعاد داود الحبشي ابن التونطاق في العساكر لقتالهما فسار إلى العراق من هراة، وأقام في انتظار العسكر فعاجلاه فهرب أمامهما. وهرب جيحون، وتقدم بارقطاش قبل تودن وقاتله فهزمه داود وأسره، وبلغ الخبر إلى تودن فثار به عسكره ونهبوا اثقاله، ولحق بسنجار فقبض عليه صاحبها. ثم أطلقه فلحق بالملك سنجر ببلخ فقتله سنجر، وأفرغ هو طاعته في نظمه، وجمع العساكر على طاعته. ثم مات قريباً وبقي بارقطاش أسيراً عند داود إلى أن قتل.

دولة بني خوارزم شاه

بد اية دولة بني خوارزم شاه

كان أبو شكين مملوكاً لبعض أمراء السلجوقية، واشتراه من بعض أهل غرشقان فدعي أبا شكين غرشه، ونشأ على حال مرضية، وكان مقدماً. وولد له ابنه محمد فاحسن تأديبه، وتقدم هو بنفسه. ولما سار الأمير داود الحبشي إلى خراسان كما مر سار محمد في جملته فلما مهد

خراسان، وأزال الخوارج نظر فيمن يوليه خوارزم ، و كان نائبها أكنجي قد قتله كما مر، فوقع اختياره على محمد بن أبي شكين فولاه، ولقبه خوارزم شاه فحسنت سيرته، وارتفع محله. وأقره السلطان سنجر وزاده عناية بقدر كفايته واضطلاعه. وغاب في بعض الايام عن خوارزم فقصدها بعض ملوك الأتراك. وكان طغرلتكين محمد الذي كان أبوه أكنجي نائباً بخوارزم، وبادر محمد بن أبي شكين إلى خوارزم بعد ان استمد السلطان سنجر، وسار بالعساكر مدداً له. وتقدم محمد بن ابي شكين فتأخر الأتراك إلى منقشلاع. ورحل طغرلتكين إلى جرجان، وازداد محمد بذلك عناية عند سنجر. ولما توفي ولي ابنه بعده أقسز ، وأحسن السيرة. وكان قد قاد الجيوش أيام أبيه ، وباشر الحروب فملك مدينة منقشلاع. ولما توفي اختصه السلطان سنجر، وكان يصاحبه في أسفاره وحروبه. واتصل الملك في بني محمد بن أبي شكين خوارزم، وكانت لهم الدولة. وتمت دولة بني ملك شاه، وعليها كان ظهور الططر بعد المائة السادسة ومنهم أخذوا الملك كما سيأتي في أخبارهم.

استيلاء الإفرنج على انْطاكِية وغيرها من سواحل الشام:

كان الإفرنج قد ظهر أمرهم في هذه السنين، وتغلبوا على صقلية، واعتزموا على فصد الشام، وملك بيت المقدس. وأرادوا المسير إليها في البر فراسلوا ملك الروم. بالقسطنطينية أن يسهل لهم الطريق إلى الشام فأجابهم على أن يعطوه انْطاكِية، فعبروا خليج القسطنطينية سنة تسعين وأربعمائة. وسار أرسلان بن سليمان بن قطلمش صاحب مرقية وبلاد الروم لمدافعتهم فهزموه. ثم مروا ببلاد ابن ليون الأرمني ووصلوا الى انْطاكِية فحاصروها تسعة أشهر وصاحبها يومئذ باغي سياه فأحسن الدفاع عنها. ثم تبوؤا البلد بمداخلة بعض الحامية، أصعدهم السور بعد أن رغبوه بالأموال والاقطاع . وجاؤوا إلى السور فدلهم على بعض المخادع ودخلوا منه، ونفخوا البوق فخرج باغي سياه هارباً ، حتى إذا كان على أربعة فراسخ راجع نفسه، وندم فسقط مغشياً عليه. ومر به أرمني فحمل رأسه الى انْطاكِية، وذلك سنة احدى وتسعين وأربعمائة.واجتمعت عساكر المسلمين، وزحفوا الى انْطاكِية من كل ناحية ليرتجعوها من الإفرنج وجاء قوام الدين كربوقا إلى الشام، واجتمعت عليه العساكر بمرج دابق فكان معه: دقاق بن تتش وطغرلتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص، وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسقمان بن أرتق

وغيرهم. وساروا الى انْطاكِية فنازلوها واستوحش الامراء من كربوقا، وأنفوا من ترفعه عليهم. وضاق الحصار بالإفرنج لعدم الاقوات، لأنّ المسلمين عاجلوهم عن الاستعداد فاستأمنوا كربوقا فمنعهم الأمان، وكان معهم من الملوك بردويل، وصنجيل وكمدمري والقمص صاحب إليها، وسمند صاحب انْطاكِية، وهو مقدم العساكر فخرجوا مستأمنين وضربوا مصياف، وتخاذل الناس لما كان في قلوبهم من الأضغان لكربوقا فتمت الهزيمة عليهم. وآخر من انهزم سقمان بن أرتق، واستشهد منهم العرب، وغنم العدو سوادهم بما فيه. وساروا إلى معرة النعمان فملكوها وأفحشوا في استباحتها. ثم ساروا الى غزة فحاصروها أربعة أشهر وامتنعت عليهم. وصالحهم ابن منقذ على بلدة شيزر، وحاصروا حمص فصالحهم صاحبها جناح الدولة. ثم ساروا إلى عكا فامتنعت عليهم وكان هذا بداية الإفرنج بسواحل الشام. ويقال انّ المصريين استنابوا رجلاً يعرف بافتخار الدولة، من خلفاء العميد بن نصر، لما خشوا من السلجوقية عند استيلائهم على الشام إلى غزة، وزحف الاقسيس من أمرائهم إلى مصر وحاصرها فراسلوا الإفرنج، واستدعوهم لملك الشام لينشلوهم عن أنفسهم، ويحولوا بينهم وبين مصر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

انتقاض الأمير انز وقتله:

لما سار السلطان بركيارق إلى خراسان ولى على بلاد فارس الأمير انز، وكانت قد تغلبت الشوانكار، واستظهروا بإيران شاه بن قاروت بك صاحب كرمان. فلما سار إليهم انز قاتلوه فهزموه، ورجع إلى أصبهان فاستأذن السلطان فأمره بالمقام هناك، وولاه امارة العراق. وكانت العساكر في جواره بطاعته، وجاء مؤيد الملك بن نظام الملك من بغداد على الحلة، فأغراه بالخلاف وخوفه غائلة بركيارق، وأشار عليه بمكاتبة محمد بن ملك شاه وهو في كنجة. وشاع عنه ذلك فازداد خوفه، وجمع العساكر، وسار من أصبهان إلى الريّ .

وجاهر السلطان بالخلاف، وطلب منه أن يسلم إليه فخر الملك ألب أرسلان. وبينما هو في ذلك إذ هجم عليه ثلاثة نفر من الأتراك المولدين بخوارزم من جنده فطعنوه فقتلوه، واهتاج عسكره فنهبوا خزائنه، وحمل شلوه إلى أصبهان فدفن بها. وأشهر خبر قتله وحمله إلى السلطان في أحواز الريّ وهو سائر لقتاله فسر بذلك هو وفخر الملك ألب أرسلان، وذلك في سنة ثنتين وتسعين. وكان محمود المذاهب كبيرالمناقب ولما

قتل هرب اصهنرصبار إلى دمشق فأقام بها مدة. ثم قدم على السلطان محمد سنة إحدى وخمسمائة فأكرمه وأقطعه رحبة مالك بن طوق.

استيلاء الإفرنج على بيت المقدس

كان بيت المقدس لتاج الدولة تتش ، وأقطعه الأمير سقمان بن أرتق التركماني، وكان تتش ملكه من يد العلويين أهل مصر. فلما وهن الأتراك بواقعة أنْطاكِية طمع المصريون في ارتجاعه. وسار صاحب دولتهم الأفضل بن بدر الجمالي ، وحاصر الأمير سقمان وأخاه ايلغازي وابن أخيهما ياقوتي وابن عمهما سونج ، ونصب المجانيق فثلموا سوره، ثم ملكوه بالأمان لأربعين يوماً من حصاره في شعبان سنة تسع وثمانين وأحسن الأفضل إلى سقمان وايلغازي ومن معهما، وأطلقهم فأقام سقمان ببلد الرها. وسار ايلغازي إلى العراق وولى الافضل على بيت المقدس افتخار الدولة من أمرائهم، ورجع إلى مصر فلما رجع الإفرنج من عكا وجاؤوا إلى بيت المقدس فحاصروه أربعين يوماً واقتحموه من جهة الشمال آخر شعبان من سنة اثنتين وتسعين، وعاثوا في أهله. واعتصم ففهم بمحراب داود عليه السلام ثلاثاً حتى استأمنوا، وخرجوا ليلاً إلى عسقلان .وقتل بالمسجد سبعون ألفاً أو يزيدون من المجاورين: فيهم العلماء والزهاد والعباد، وأخذوا نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة، زنة كل واحد ثلاثة آلاف وستمائة درهم، ومائة وخمسين قنديلاً من الصفار، وتنورا من الفضة زنته أربعون رطلاً بالشامي، وغير ذلك مما لا يحصى ووصل الصريخ إلى بغداد مستغيثين فأمر المقتدي أن يسير إلى السلطان بركيارق أبو محمد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي وأبو القاسم الزنجاني، وأبو الوفاء بن عقيد، وأبو سعد الحلواني، وأبو الحسين بن السماك. فساروا إلى بركيارق يستصرخونه للمسلمين فانتهوا الى حلوان، وبلغهم مقتل مجد الملك ألب أرسلان، وفتنة بركيارق مع أخيه محمد فرجعوا، وتمكن الإفرنج من البلاد. ونحن عازمون على إفراد أخبارهم بالشام، وما كان لهم فيه من الدولة على حكم أخبار الدول في كتابنا.

ظهور السلطان محمد بن ملك شاه والخطبة له ببغ اد وحروبه مع أخيه بركيارق:

كان محمد وسنجر شقيقين، وكان بركيارق استعمل سنجر على خراسان . ثم لحق به محمد

بأصبهان وهو يحاصرها سنة ثمان وثمانين فأقطعه كنجة وأعمالها، وأنزل معه الأمير قطلغ تكين أتابك، وكانت كنجة من أعمال ارّان وكانت لقطون فانتزعها ملك شاه، وأقطعه استراباذ. وولى على ازان: سرهناسا، وتكين الخادم. ثم ضمن قطون بلاده وأعيد إليها. فلما قوي رجع إلى العصيان فسرح إليه ملك شاه الأمير بوزان فغلبه على البلاد وأسره، ومات ببغداد سنة أربع وثمانين. وأقطع ملك شاه بلاد ازان لأصحاب باغي سيان صاحب أنْطاكِية. ولما مات باغي سيان رجع ابنه إلى ولاية أبيه. ثم أقطع السلطان بركيارق كنجة

وأعمالها لمحمد كما قلناه سنة ست وثمانين. ولما اشتدا واستفحل قتل اتابك قطلغ تكين، واستولى على بلاد أران كلها ولحق مؤيد الملك عبد الله بن نظام الملك بعد مقتل صاحبه أنز فاستخلصه وقربه، وأشار عليه مؤيد الملك فطلب الأمر لنفسه فخطب له بأعماله واستوزر مؤيد الملك. وقارن ذلك مقتل مجد الملك البارسلاني المتغلب في دولة بركيارق فاستوحش أصحابه لذلك، ونزعوا إلى محمد وساروا جميعاً إلى الريّ، وكان بركيارق قد سبقهم إليها. واجتمع إليه الأمير نيال بن أبي شكين الحسامي من أكابر الأمراء، وعز الملك بن نظام الملك. ولما بلغه مسير أخيه محمد إليه رجع إلى أصبهان فمنعوه من الدخول فسار إلى خوزستان وملك محمد الريّ في ذي القعدة سنة اثنتين وتسعين، ووجد بها زبيدة أم بركيارق قد تخلفت عن ابنها فحبسها مؤيد الملك وصادرها. ثم قتلها خنقاً بعد ان تنصح له أصحابه في شأنها فلم يقبل. وكان سعد الدولة كوهراس شحنة بغداد قد استوحش من بركيارق، فاتفق هو وكربوقا صاحب الموصل وجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر، وسرخاب بن بدر صاحب كنكسون، وساروا إلى السلطان محمد بقم فخلع عليهم ورد كوهراس إلى بغداد في شأن الخطبة فخطب له بالخليفة، ولقبه حياة الدين والدنيا وسار كربوقا وجكرمش مع السلطان محمد إلى أصبهان والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل البارسلاني:

كان أبو الفضل سعد الباسلاني ويلقب مجد الملك متحكماًعند السلطان بركيارق، ومتحكماً في دولته. ولما فشا القتل في أمرائه من الباطنية استوحشوا، ونسبوا ذلك للباسلاني وكان من أعظم من قتل منهم الأمير برسق فاتهم ابنه زنكي وأقبوري الباسلاني في قتله، ونزعوا عن بركيارق إلى السلطان محمد فاجتمع الأمراء، ومقدمهم أمير الحيرة لكابك وطغابرك من الروز، وبعثوا

إلى بني برسق يستدعونهم للطلب بثار أبيهم، فجاؤوا واجتمعوا قريباً من همذان، ووافقهم العسكر جميعاً على ذلك، وبعثوا إلى بركيارق يطلبون البارسلاني فامتنع، وأشار عليه البارسلاني بإجابتهم لئلا يفعلوا ذلك بغير رأي السلطان فيكون وهناً على الدولة، فاستحلفهم السلطان فدفعه إليهم فقتله الغلمان قبل أن يتصل بهم، وسكنت الفتنة، وحمل رأسه إلى مؤيد الملك. واستوحش الأمراء لذلك من بركيارق وأشاروا عليه بالعودة إلى الريّ، ويكفونه قتال أخيه محمد فعاد متشاغلاً، ونهبوا سرادقه وساروا إلى أخيه محمد، ولحق بأصبهان. ثم لحق رستاق كما تقدّم.

إعادة الخطبة ببغداد لبركيارق:

ولما سار بركيارق إلى خوزستان ومعه نيال بن أبي شكين الحسامي مع عسكره، سار من هنالك إلى واسط، ولقيه صدقة بن مزيد صاحب الحلة. ثم سار إلى بغداد، وكان سعد الدولة كوهراس الشحنة على طاعة محمد، فخرج عن بغداد، ومعه أبو الغازي بن أرتق وغيره، وخطب لبركيارق ببغداد منتصف صفر سنة ثلاث وتسعين، بعد أن فارقها كوهراس وأصحابه. وبعثوا إلى السلطان محمد ومؤيد الملك يستحثونهما فأرسلا إليهم كربوقا صاحب الموصل، وجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر يستكثرون بهم في المدافعة. وطلب جكرمش من

كوهراس السير لبلده خشية عليها فأذن له. ثم يئس كوهراس وأصحابه من محمد فبعثوا إلى بركيارق بطاعتهم فخرج إليهم واسترضاهم، ورجع إلى بغداد وقبض على عميد الدولة بن جهير وزير الخليفة، وطالبه بما أخذ هو وأبوه من الموصل وديار بكر أيام ولايتهم عليها، فصادرهم على مائة وستين ألف دينار. واستوزر الأغر أبا المحاسن عبد الجليل بن علي بن محمد الدهستاني، وخلع الخليفة على بركيارق.

المصاف الأول بين بركيارق ومحمد ومقتل كوهراس وهزيمة بركيارق والخطبة لمحمد:

ثم سار بركيارق من بغداد لحرب أخيه محمد، ومر بشهرزور فاجتمع إليه عسكر كثير من التركمان، وكاتب رئيس همذان يستحثه فركب وسار للقاء أخيه على فراسخ من همذان في أول رجب من سنة ثلاث وتسعين، وفي ميمنته كوهراس وعزّ الدولة بن صدقة بن مزيد وسرحاب

ابن بدر، وفي ميسرته كربوقا. وفي ميمنة محمد بن اضر وابنه أياز وفي ميسرته مؤيد الملك والنظامية. ومعه في القلب أمير سرخو شحنة أصبهان. فحمل كوهراس من الميمنة على مؤيد الملك والنظامية فهزمهم، وانتهى إلى خيامهم فنهبها. وحملت ميمنة محمد على ميسرة بركيارق فانهزموا. وحمل محمد على بركيارق فهزمه، ووقف محمد مكانه، وعاد كوهراس من طلب المنهزمين فكبا به فرسه فقتل. وجيء بالأغر أبي المحاسن يوسف وزير بركيارق أسيراً فأكرمه مؤيد الملك، ونصب له خيمة، وبعثه الى بغداد في الخطبة لمحمد فخطب له منتصف رجب من السنة. وكانت أولية سعد الدولة كوهراس أنه كان خادما للملك ابي كالينجار بن بويه، وجعله في خدمة ابنه أبي نصر. ولما حبسه طغرلبك مضى معه إلى قلعة طغرل، فلما مات انتقل إلى خدمة السلطان ألب أرسلان، وترقى عنده، وأقطعه واسط وجعله شحنة بغداد، وحضر يوم قتله فوقاه بنفسه. ثم أرسله ملك شاه إلى بغداد في الخطبة، وجاء بالخلع والتقليد، وحصل له من نفوذ الأمر واتباع الناس ما لم يحصل لغيره، إلى أن قتل في هذه المعركة وولي شحنة بغداد بعده ايلغازي بن أُرتق.

مسير بركيارق إلى خراسان وانهزامه من أخيه سنجر ومقتل الأمير داود حبشي أمير خراسان:

لما انهزم بركيارق من أخيه محمد خلص في الفلّ إلى الريّ، واجتمع له جموع من شيعته فسار إلى خراسان، وانتهى إلى اسفراين . وكتب الأمير داود حبشي إلى التونطاق يستدعيه من الدامغان، وكان أميراً على معظم خراسان، وعلى طبرستان وجرجان فأشار عليه بالمقام بنيسابور فقصدها. وقبض على عميدها أبي محمد وأبي القاسم بن إمام الحرمين. ومات أبو القاسم في محبسه مسموماً. ثم زحف سنجر إلى الأمير داود فبعث إلى بركيارق يستدعيه لنجدته، فسار إليه والتقى الفريقان بظاهر بوشنج وفي ميمنة سنجر الأمير برغش وفي ميسرته الأمير كوكر. ومعه في القلب الأمير رستم فحمل بركيارق على رستم فقتله، وانقض الناس على سنجر، وكاد ينهزم. وأخذ بركيارق أم سنجر أسيرة، وشغل أصحاب بركيارق بالنهب فحمل علي برغش وكوكر فانهزموا، واستمرت الهزيمة على بركيارق، وهرب الأمير داود فجيء به إلى برغش أسيراً

فقتله. وسار بركيارق إلى جرجان، ثم إلى الدامغان، ودخل البرية. ثم استدعاه أهل أصبهان، وجاءه جماعة من الأمراء منهم جاول صباوو، وسبقه محمد إلى أصبهان فعدل عنها إلى عسكر مكرم.

المصاف الثاني بين بركيارق ومحمد وهزيمة محمد وقتل وزيره مؤيد الملك والخطبة لبركيارق:

لما انهزم بركيارق أمام سنجر سنة ثلاث وتسعين، وسار إلى أصبهان فوجد أخاه محمداً قد سبقه إليها فعدل عنها إلى خوزستان، ونزل إلى عسكر مكرم. وقدم عليه هناك الأميران زنكي والبكي ابنا برسق سنة أربع وتسعين، وساروا معه إلى همذان. وهرب إليه الأمير اياز في خمسة آلاف من عسكر محمد، لأن صاحب أميراً ضراً مات في تلك الأيام، وظنوا أن مؤيد الملك دس عليه وزيره فسمه. وكان اياز في جملة أمير أضر فقتل الوزير المتهم، ولحق بركيارق. ثم وصل إليه سرخاب بن كنجر وصاحباه فاجتمع له نحو من خمسين ألف فارس. ولقيه محمد في خمسة عشر ألفاً، واستأمن أكثرهم إلى بركيارق يوم المصاف أول جمادى الأخيرة سنة أربع وتسعين. واستولت الهزيمة على محمد، وجيء بمؤيد الملك أسيراً فوبخه ثم قتله بيده، لأنه كان سيئ السيرة مع الأمراء كثير الحيل في تدبير الملك. ثم بعث الأغرّ أبو المحاسن وزير بركيارق أبا إبراهيم الاستراباذي لاستقصاء أموال مؤيد الملك وذخائره ببغداد، فحمل منها ما لا يسعه الوصف. يُقال انه وجد في ذخائره ببلاد العجم قطعة بلخش زنتها أربعون مثقالاً واستوزر محمد بعده خطيب الملك أبا منصور محمد بن الحسين. ثم سار السلطان بركيارق إلى الريّ، ووفد عليه هنالك كربوقا صاحب الموصل ودبيس بن صدقة، وأبوه يومئذ صاحب الحلة. وسار السلطان قافلاً الى جرجان، وبعث الى أخيه سنجر يستجديه فبعث إليه ما أقامه. ثم طلبه في المدد فسار اليه سنجر من خراسان. ثم سارا جميعاً الى الدامغان فخرباها، وسار إلى الريّ،

واجتمعت عليه النظامية وغيرهم فكثرت جموعهم. وكان بركيارق بعد الظفر قد فرق عساكره لضيق الميرة، ورجع دبيس بن صدقة الى أبيه. وخرج باذربيجان داود بن اسمعيل بن ياقوتي فبعث لقتاله قوام الدولة كربوقا في عشرة آلاف، واستأذنه اياز في المسير إلى ولايته بهمذان، ويعود بعد الفطر فبقي في قلة من العساكر. فلما بلغه قرب أخيه محمد وسنجر اضطرب حاله، وسار إلى همذان ليجتمع مع اياز فبلغه أنه قد راسل أخاه محمداً وأطاعه فعاد إلى خوزستان.

ولما انتهى الى تستر استدعى ابن برسق، وكان من جملة أياز فلم يحضر، وتأخر فأمنه فسار نحو العراق، فلما بلغ حلوان لحق به اياز، وكان راسل محمدا فلم يقبله. وبعث عساكره إلى همذان، فلحق بهمذان اياز. وأخذ محمد محلة اياز بهمذان وكانت كثيرا من كل صنف وصودر أصحابه بهمذان بمائة ألف دينار.

وسار بركيارق و اياز إلى بغداد فدخلها منتصف ذي القعدة من سنة أربع وتسعين، وطلب من الخليفة المال للنفقة فبعث إليه بعد المراجعة بخمسين ألف دينار. وعاث أصحاب بركيارق في أموال الناس وضجروا منه ووفد عليه أبو محمد عبد الله بن منصور المعروف بابن المصلحية قاضي جبلة من سواحل الشام منهزماً من الإفرنج بأموال جليلة المقدار فأخذها بركيارق منه. وقد تقدم خبر ابن المصلحية في دولة العباسيين. ثم بعث وزير بركيارق الأغر بالمحاسن إلى صدقة بن مزيد صاحب الحلة في ألف ألف دينار، يزعم أنها تخففت عنده من

ضمان البلاد، وتهدده عليها فخرج عن طاعة بركيارق، وخطب لمحمد أخيه. وبعث إليه بركيارق في الحضور والتجاوز عن ذلك. وضمن له اياز جميع مطالبه فأبى إلا أن يدفع الوزير، واستمر على عصيانه، وطرد عامل بركيارق عن الكوفة واستضافها إليه.

مسير بركيارق عن بغد اد ودخول محمد وسنجر إليها:

ولما استولى السلطان محمد، وأخوه سنجر على همذان، سار في اتباع بركيارق إلى حلوان فقدم عليه هنالك أبو الغازي ابن أرتق في عساكره وخدمه، وكثرت جموعه فسار إلى بغداد، وبركيارق عليل بها فاضطرب أصحابه، وعبروا به إلى الجانب الغربي. ووصل محمد إلى بغداد آخر سنة

أربع وتسعين، وتراءى الجمعان بشاطئ دجلة، وجرت بينهم المراماة والنشاب، وكان عسكر محمد ينادون عسكر بركيارق يا باطنية. ثم سار بركيارق الى واسط ونهب عسكره جميع ما مروا عليه، ودخل محمد الى دار المملكة ببغداد، وجاءه توقيع المستظهر بالاستبشار بقدومه وخطب له. ونزل الملك سنجر بدار كوهراس، ووفد على السلطان محمد ببغداد صدقة صاحب الحلة في محرم سنة خمس وسبعين.

قتل بركيارق الباطنية:

كان هؤلاء الباطنية قد ظهروا بالعراق وفارس وخراسان، وهم القرامطة، والدعوة بعينها دعوتهم، الا أنهم سموا في هذه الأجيال بالباطنية والاسماعيلية والملاحدة والمداوية. وكل اسم منها باعتبار : فالباطنيةلا نهم يبطنون دعوتهم، والاسماعيلية لانتساب دعوتهم في أصلها لاسمعيل بن الإمام جعفر الصادق. والملاحدة لان بدعتهم كلها إلحاد. والفداوية لانهم يفادون أنفسهم بالمال على قتل من يسلطون. والقرامطة نسبة إلى قرمط منشئ دعوتهم. وكان أصلهم من البحرين في المائة الثالثة وما بعدها. ثم نشأ هؤلاء بالمشرق أيام ملك شاه، فأول ما ظهروا بأصبهان. واشتد في حصار بركيارق وأخيه محمود وأمه خاتون فيها. ثم ثارت عامة أصبهان بهم بإشارة القضاة وأهل الفتيا فقتلوهم في كل جهة، وحرقوهم بالنار.

ثم انتشروا واستولوا على القلاع ببلاد العجم كما تقدم في أخبارهم. ثم أخذ بمذهبهم نيران شاه بن بدران شاه بن قاروت بك صاحب كرمان، حمله عليه كاتب من أهل خوزستان يسمى أبا زرعة. وكان بكرمان فقيه من الحنفية يسمى أحمد بن الحسين البلخي مطاع في الناس، فخشي من نكيره فقتله فهرب عنه صاحب جيشه، وكان شحنة البلد، ولحق بالسلطان محمد ومؤيد الملك بأصبهان. وثار الجند بعده بتيران شاه فسار إلى مدينة كرمان فمنعه أهلها ونهبوه فقصد قلعة سهدم واستجار بصاحبها محمد بهستون. وبعث أرسلان شاه عساكر لحصارها فطرده بهستون، وبعث مقدم العساكر في طلبه فجيء به أسيراً وبأبي زرعة الكاتب معه فقتلهما أرسلان شاه، واستولى على بلاد كرمان.

وكان بركيارق كثيراً ما يسلطهم على من يريد قتله من الأمراء، مثل انز شحنة أصبهان، وأرغش وغيرهم فأمنوا جانبه، وانتشروا في عسكره، واغروا الناس ببدعتهم

وتجاوزوا إلى التهديد عليها، حتى خافهم أعيان العسكر. وصار بركيارق يصرفهم على أعدائه، والناس يتهمونه بالميل إليهم فاجتمع أهل الدولة، وعذلوا بركيارق في ذلك فقبل نصيحتهم ، وأمر بقتل الباطنية حيث كانوا فقتلوا وشردوا كل مشي. وبعث إلى بغداد بقتل أبي إبراهيم الاستراباذي الذي بعثه أبو الأغر لاستقصاء أموال مؤيد الملك، وكان يتهم بمذهبهم، فقتل. وقتل بالعسكر الأمير محمد من ولد علاء الدين بن كاكويه ، وهو صاحب مدينة تيرد، وكان يتهم بمذهبهم. وسعى بالكيا الهراسي مدرس النظامية أنه باطني فأمر السلطان محمد بالقبض عليه، حتى شهد المستظهر ببراءته وعلو درجته في العلم فاطلقه، وحسمت علة الباطنية بين الجمهور. وبقي أمرهم في القلاع التي ملكوها إلى أن انقرضوا كما تقدم في أخبارهم مستوفى.

المصاف الثالث بين بركيارق ومحمد والصلح بينهما:

ولما رحل بركيارق عن بغداد إلى واسط، ودخل إليها السلطان محمد أقام بها إلى منتصف المحرم من سنة خمس وتسعين. ثم رحل إلى همذان، وصحبه السلطان سنجر لقصد خراسان موضع إمارته، وجاءت الأخبار إلى المستظهر باعتزام بركيارق على المسير إلى بغداد، ونقل له عنه قبائح من أقواله وأفعاله فاستدعى السلطان محمداً من همذان أو قال: أنا أسير معك لقتاله فقال محمد أنا أكفيكه يا أمير المؤمنين، ورجع ورتب ببغداد أبا المعالي شحنة وكان بركيارق لما سار من بغداد إلى واسط، هرب أهلها منه إلى الزبيدية، ونزل هو بواسط عليلاً فلما أفاق أراد العبور. إلى الجانب الشرقي فلم يجد سفناً ولا نواتية. وجاءه القاضي أبو علي الفارسي إلى العسكر واجتمع بالأمير أياز والوزير فاستعطفهما لأول واسط، وطلب إقامة الشحنة بينهم فبعثاه وطلبا من القاضي من يعبر فأحضر لهم رجالاً عبروا بهم. فلما صاروا في الجانب الشرقي نهب العسكر البلد فجاء القاضي واستعطفهم فمنعوا النهب. واستأمن إليهم عسكر واسط فأمنوهم.وسار بركيارق إلى بلاد بلخ برسق في الأهواز، وساروا معه ثم بلغه مسير أخيه محمد عن بغداد فسار في اتباعه على نهاوند إلى أن أدركه، وتصافوا و لم يقتتلوا لشدة البرد. ثم عاودوا في اليوم الثاني كذلك. وكان الرجل يخرج لقريبه من الصف الآخر فيتصافحان ويتساءلان ويفترقان. ثم جاء الأمير بكراج وعبر من عسكر محمد إلى الأمير اياز والوزير الأغر فاجتمعوا، وعقدوا الصلح بين الفريقين على أن السلطان بركيارق لا يعترض أخاه محمداً في الطبل، وتكون المكاتبة بينهما من الوزيرين، ولا يعارض أحدمن العسكر في قصد أيهما شاء. والملك محمد، يضرب له ثلاث نوب، ويكون له من البلاد حرة وأعمالها وأذربيجان وديار بكر والجزيرة والموصل، ويمده بركيارق بالعساكر على من يمتنع عليه منها. وتحالفاً على ذلك وافترقاً. وكان العقد في ربيع الأول سنة خمس وتسعين. وسار بركيارق إلى ساوة ومحمد إلى استراباذ، وكل أمير على اقطاعه. والله سبحانه وتعالى أعلم

.

انتقاض الصلح والمصاف الرابع بين السلطانين وحصار محمد بأصبهان:

لما انصرف السلطان محمد إلى استراباذ، وكان اتهم الأمراء الذين سعوا في
الصلح بالخديعة فسار إلى قزوين، ودس إلى رئيسها لأن يصنع صنيعاً ويدعوه إليه مع الأمراء ففعل وجاء السلطان إلى الدعوة. وقد تقدم إلى أصحابه بحمل السلاح، ومعه يشمك وافتكين من أمرائه فقبض عليهما، وقتل يشمك وسمل افتكين. وورد عليه الأمير نيال بن أبي شكين الحسامي نازعاً عن أخيه بركيارق.

ولما التقى الفريقان حمل سرخاب بن كشمرالديلي صاحب ساوة على نيال الحسامي فهزمه، واتبعه عامة العسكر، واستولت الهزيمة على عسكر محمد. ومضى بعضهم إلى طبرستان، وبعضهم إلى قزوين وذلك في جمادى من سنة خمس وتسعين لأربعة أشهر من المصاف قبله. ولحق محمد في الفل بأصبهان، ومعه نيال الحسامي، وأصبهان في حكمه فحصنها وسد ما ثلم من سورها، وأعمق الخندق، وفرق الأمراء في الأسوار وعلى الأبواب، ونصب المجانيق. وجاء بركيارق في خمسة عشر ألف مقاتل فأقام محاصراً للبلد حتى اشتدّ الحصار وعدمت الأقوات. واستقرض محمد المال للجند من أعيان البلدة مرة بعد أخرى، فلما جهده الحصار خرج من البلد ومعه الأمير نيال، وترك باقي الأمراء.

وبعث بركيارق الأمير أياز في عسكر لطلبه فلم يدركه، وقيل بل أدركه، وذكره العهد فرجع عنه بعد ان أخذ رايته وجشره وثلاثة أحمال من المال. ولما خرج محمد عن أصبهان طمع المفسدون والسوادية في نهبها فاجتمع منهم ما يزيد على مائة ألف، وزحفوا بالسلالم والذبابات، وطموا الخندق وصعدوا في السلالم بإشارة أهل البلد، وجدوا في دفاعهم، وعادوا خائبين. ورحل بركيارق آخر ذي القعدة من سنة خمس وتسعين، واستخلف على البلاد القديم الذي يقال له شهرستان مرشد الهراس في ألف فارس، مع ابنه ملك شاه، وسار إلى همذان. وفي هذا الحصار قتل وزير بركيارق الأغر أبو المحاسن عبد الجليل الدهستاني، عرض له يوماً بعض الباطنية عندما ركب من خيمته لباب السلطان، طعنه طعنات

وتركه بآخر رمق، وقتل غلام من غلمان بعض المكوس للوزير، ثار فيه بمولاه. وكان كريماً واسع الصدر، وولي الوزارة على حين فساد القوانين وقفة الجباية فكان يضطر لأخذ أموال الناس بالإخافة فنفرت الصفوة منه. ولما مات استوزر بركيارق بعده الخطير أبا منصور الميبذي كان وزيرا لمحمد، وقد وكله في الحصار ببعض الأبواب فبعث إليه محمد نيال بن أبي شكين يطالبه بالأموال لإقامة العسكر فخرج من الباب ليلاً ولحق ببلده، وامتنع بقلعتها فأرسل السلطان بركيارق إليها عساكر، وحاصروها حتى استأمن وجاء عند قتل وزيره الأغر فاستوزره بركيارق مكانه والله تعالى أعلم بغيبه.

مسير صاحب البصرة الى واسط:

كان صاحب البصرة لهذا العهد اسمعيل بن ارسلان حين كان السلطان ملك شاه شحنة بالري، وولاه عليها عندما اضطّر أهلها ، وعجز الولاة عنهم فحسنت كفايته، وأثخن فيهم وأصلح أمورها. ثم عزل عنها، وأقطع السلطان بركيارق البصرة للأمير قماج، وكان ممن لا يفارقه فاختار اسمعيل لولاية البصرة. ثم نزع قماج عن بركيارق وانتقل إلى خراسان فحدثت اسمعيل نفسع بالاستبداد بالبصرة، وانتقض وزحف إليه مهذب الدولة

بن أبي الخير من البطيحة ومعقل بن صدقة بن منصور بن الحسين الأسدي من الجزيرة في العساكر والسفن فقاتلوه في مطاري. وقتل معقل بسهم أصابه فعاد ابن أبي الخير إلى البطيحة فأخذ اسمعيل السفن، وذلك سنة إحدى وتسعين. أسرهما واستفحل أمره بالبصرة. وبنى قلعة بالأبلة وقلعة الشاطئ قبالة مطاري. وأسقط كثيراً من المكوس، واتسعت إمارته لشغل السلاطين بالفتنة. وملك المسبار أضافها إلى ما بيده.ولما كان سنة خمس وتسعين طمع في واسط وداخل بعض أهلها، وركب إليهاالسفن إلى نعما جار، وخيم عليها بالجانب الشرقي أياماً. ودافعوه فارتحل راجعاً حتى ظن خلاء البلد من الحامية فدس إليها من يضرم النار بها ليرجعوا فرجع عنهم. فلما دخل أصحابه البلد فتك أهل البلد فيهم، وعاد إلى البصرة منهزماً فوجد الأمير أبا سعيد محمد بن نصر بن محص ود صاحب الأعمال لعمان وجنايا وشيراز وجزيرة بني نفيس محاصراً للبصرة. وكان أبو سعيد قد استبد بهذه الأعمال منذ سنين. وطمع اسمعيل في الاستيلاء على أعماله وبعث إليها السفن في البحر فرجعوا خائبين فبعث أبو سعيد خمسين من سفنه في البحر فظفروا بأصحاب اسمعيل واتفقوا معهم على الصلح، ولم بقع منه وفاء به فسار أبو سعيد بنفسه في مائة سفينة. وأرسى بفوهة نهر الأبلة، ووافق دخول اسمعيل من واسط فتزاحفوا براً وبحراً. فلما رأى اسمعيل

عجزه عن المقاومة كتب إلى ديوان الخليفة بضمان البلد. ثم تصالحاً، ووقعت بينهما المهاداة، وأقام إسمعيل مستبداً بالبصرة إلى أن ملكها من يده صدقة بن مزيد في المائة الخامسة كما مر في أخباره وهلك برامهرمز .

وفاة كربوقا صاب الموصل واستيلاء جكرمش عليها واستيلاء سقمان بن ارتق علي حصن كيفا:

كان السلطان بركيارق أرسل كربوقا إلى أذربيجان لقتال مودود بن اسمعيل بن ياقوتي الخارج بها سنة أربع وتسعين، فاستولى على أكثر أذربيجان من يده. ثم توفي منتصف ذي القعدة سنة خمس وتسعين، وكان معه أصهرصباوو بن خمارتكين، وسنقرجة من بعده. وأوصى الترك بطاعته فسار سنقرجة إلى الموصل، واستولى عليها. وكان أهل الموصل لما بلغهم وفاة كربوقا قد استدعوا موسى التركماني من موضع نيابته عن كربوقا بحصن كيفا للولاية عليهم، فبادر إليهم، وخرج سنقرجه للقائه فظن أنه جاء البه، وجرت بينهما محاورات. ورد سنقرجه الأمر إلى السلطان فآل الأمر بينهما إلى المطاعنة. وكان مع موسى منصور بن مروان، بقية أمراء ديار بكر. وضرب سنقرجة فأبان رأسه، وملك موسى البلد. ثم زحف جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر إلى نصيبين فملكها، وخالفه موسى إلى الجزيرة فبادر إليه جكرمش وهزمه. واتبعه إلى الموصل فحاصره بها فبعث موسى إلى سقمان بن أرتق بديار بكر يستنجده على أن يعطيه حصن كيفا فسار سقمان إليه. وأفرج عنه جكرمش. وخرج موسى للقاء سقمان فقتله مواليه، ورجع سقمان إلى كيفا وجاء جكرمش الى الموصل فحاصرها وملكها صلحاً، واستلحم قتلة موسى. ثم استولى بعد ذلك على الخابور، وأطاعه العرب والأكراد. وأما سقمان بن أرتق فسار بعد مقتل موسى إلى حصن كيفا، واستمر بيده. قال ابن الأثير: وصاحبها الآن في سنة خمس وعشرين وستمائة محمود بن محمد بن الفراء أرسلان. وكان صاحبها سنة عشرين وستمائة غازي بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق والله تعالى أعلم .أخبار نيال بالعراق:كان نيال بن أبي شتكين

الحسامي مع السلطان صمد بأصبهان لما حاصرها بركيارق بعد المصاف الرابع سنة خمس وتسعين، فلما خرج محمد من الحصار إلى أذربيجان، ومعه نيال، استأذنه في قصد الريّ ليقيم بها دعوتهم، وسار هو وأخوه علي، وعسف بأهل الريّ وصادرهم . وبعث السلطان بركيارق الأمير برسق بن برسق في ربيع من سنة ست وتسعين فقاتله وهزمه، واستولى برسق على الريّ ، وأعاده على ولاية بقزوين، وسلك نيال على الجبال، وهلك كثير من أصحابه، وخلص إلى بغداد فأكرمه المستظهر، وأظهر طاعة السلطان محمد. وتحالف هو وأبو الغازي وسقمان بن أرتق على مناصحة السلطان محمد، وساروا إلى صدقة بن مزيد بالحلة فاستحلفوه على ذلك.ثم إن نيال بن أبي شتكين عسف بأهل بغداد، وتسلط عليهم وصادر العمال فاجتمع الناس إلى أبي الغازي بن أرتق. وكان نيال صهره على أخته التي كانت زوجا لتتش، وطلبوا منه أن يشفع لهم عنده. وبعث المستظهر إليه قاضي القضاة أبا الحسن الدامغاني بالنهي عما يرتكبه فأجاب وحلف. ثم نكث فأرسل المستظهر إلى صدقة بن مزيد يستدعيه فوصل في شوال من السنة، واتفق مع نيال على الرحيل من بغداد. ورجع إلى حلته، وترك ولده دبيساً يزعج نيال للخروج فسار نيال إلى أوان، وعاث في السابلة وأقطع القرى لأصحابه. وبعث إلى صدقة فأرسل إليه العساكر، وخرج فيها أبو الغازي بن أرتق، وأصحاب المستظهر فسار نيال إلى أذربيجان ورجعوا عنه.

ولاية كمستكين النصيري شحنة بغداد وفتنته مع أبي الغازي وحربه:

كال أبو الغازي بن أرتق شحنة بغداد، ولاه عليها السلطان محمد عند مقتل كوهراس. ولما ظهر الآن بركيارق على محمد، وحاصره بأصبهان. ونزل بركيارق همذان، وأرسل إلى بغداد كمستكين النصيري في ربيع سنة ست وتسعين. وسمع أبو الغازي بمقدمه فاستدعى أخاه سقمان بن أرتق من حصن كيفا يستنجده وسار إلى صدقة بن مزيد فخالفه على النصرة والمدافعة. ورجع إلى بغداد، ووصل إليه أخوه سقمان بعد أن نهب في طريقه. ووصل كمستكين إلى قرقيسيا ولقيه شيعة بركيارق، وخرج أبو الغازي وسقمان عن بغداد، ونهب قرى دجيل واتبعتهما العساكر. ثم رفعت عنهما وأرسل كمستكين إلى صدقة صاحب الحلة فامتنع عن طاعة بركيارق، وسار من الحلة إلى صرصر؛ وقطع خطبة بركيارق، وعبر بغداد واقتصر على الدعاء للخليفة. وبعث صدقة إلى أبي الغازي وسقمان يعرفهما بوصوله، وهما بالحربي وجاء إلى دجيل. ونهب القرى واشتد فسادهم. وأضر ذلك بحال بغداد في غلاء الأسعار . وجاء أبو الغازي وسقمان ومعهما دبيس بن
صدقة فخيموا بالرملة، وقاتلهم العامة ففتكوا فيهم.وبعث المستظهر قاضي القضاة أبا الحسن الدامغاني، وتاج الرؤساء بن الرحلات إلى صدقة بن مزيد بمراجعة الطاعة فشرط خروج كمستكين عن بغداد، فأخرجه المستظهر إلى النهروان . وعاد صدقة إلى الحلة وأعيدت خطبة السلطان محمد ببغداد. ثم سار كمستكين النصيري إلى واسط، وخطب فيها لبركيارق، ونهب عسكره سوادها فسار صدقة وأبو الغازي إليه، وأخرجاه من واسط. وتحصن بدجلة فقصده صدقة فانفض عنه أصحابه، ورجع إلى صدقة بالأمان فأكرمه، وعاد إلى بركيارق. وأعيدت خطبة السلطان محمد بواسط، وبعده لصدقة وأبي الغازي، وولى كل واحد فيها ولده.

وعاد أبو الغازي إلى بغداد، وعاد صدقة إلى الحلة، وبعث ابنه صوراً مع ابي الغازي يطلب الرضا من المستظهر لأنه كان سخطه من أجل هذه الحادثة.

المصاف الخامس بين بركياق ومحمد:

كان السلطان محمد لما سار عن كنجة وبلاد أران استخلف بها الأمير غزغلي ، وأقام بها في طائفة من عسكره مقيماً خطبة السلطان محمد في جميع أعماله إلى زنجان من آخر اذربيجان. فلما انحصر محمد بأصبهان سار غزغلي لإنجاده ، ومعه منصور بن نظام الملك، ومحمد ابن أخيه مؤيد الملك فانتهوا إلى الرى، وملكوها آخر خمس وتسعين، ولقوا السلطان محمدا بهمذان، عندما خرج من أصبهان، ومعه نيال بن أبي شكين وأخوه علي، وأقاموا معه بهمذان. ثم جاء الخبر بمسير بركيارق إليهم فتوجه السلطانمحمد قاصداً شروان، وانتهى إلى أذربيجان فبعث إليه مودود بن إسمعيل بن ياقوتي، الذي كان بركيارق قتل أباه إسمعيل، وكانت أخت مودود هذا تحت محمد، وكان له طائفة من أعمال أذربيجان، فاستدعى محمداً ليظاهره على بركيارق فسار إليه، وانتهى إلى سقمان. وتوفي مودود في ربيع سنة ست وتسعين، واجتمع عساكره على السلطان محمد وفيهم سقمان القطبي ومحمد بن ياغي سياه، الذي كان أبوه صاحب أنْطاكِية. ونزل أرسلان بن السبع الأحمر فسار إليهم بركيارق، وقاتلهم على خراسان. وسار أياز من عسكر بركيارق، وجاء من خلف السلطان محمد فانهزم محمد وأصحابه، ولحق بارقيش من أعمال خلاط. ولقيه الأمير علي صاحب ارزن الروم فمضى إلى أصبهان، وصاحبها منوجهر أخو فظون الروادي، ثم سار إلى هرمز. وأما محمد بن مؤيد الملك ابن نظام الملك فنجا من الوقعة إلى ديار بكر، ثم إلى جزيرة ابن عمر، ثم إلى بغداد. وكان أيام أبيه مقيماً ببغداد في جوار المدرسة النظامية فشكى إلى أبيه، وخاطب كوهراس بالقبض عليه فاستجار بدار الخلافة،

ولحق سنة اثنتين وتسعين بمجد الملك الياسّلاني، وأبوه بكنجة عند السلطان محمد، فلما خطب السلطان محمد لنفسه، واستوزر أباه مؤيد الملك، ولحق محمد هذا بأبيه، ثم قتل أبوه وبقي في جملة السلطان محمد.

استيلاء ملك بن بهرام على مدينة غانة:

كان ملك بن بهرام بن أرتق بن أخي أبي الغازي بن أرتق مالكاً مدينة سروج فملكها الإفرنج من يده، فسار عنها إلى غانة، وغلب عليها بني العيش بن عيسى من خلاط، وكانت لهم، فقصدوا صدقة بن مزيد مستنجدين به فأنجدهم، وجاء معهم فرحل ملك بن بهرام والتركمان عنها، ودخلها بنو العيش، وأخذ صدقة رهائنهم، وعاد إلى الحلة فرجع ملك إليها في ألفي رجل من التركمان، وحاربها قليلاً ثم عبر المخاضة، وملكها واستباح أهلها، ومضى إلى هيت ورجع عنها.

الصلح بين السلطان بركيارق ومحمد:

ثم استقر الأمر اخيراً بالسلطان بركيارق في الرى، وكان له الجبال وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة والحرمين، ولمحمد اذربيجان وبلاد أران وارمينية وأصبهان والعراق جميعاً، غير تكريت والبطائح بعضها، وبعضها والبصرة لهما جميعاً،وخراسان لسنجر من جرجان إلى ما وراء النهر يخطب فيها لأخيه محمد.

وله من بعده والعساكر كلهم يتحكمون عليهم بسبب الفتنة بينهما. وقد تطاول الفساد وعم الضرر، واختلفت قواعد الملك فأرسل بركيارق إلى أخيه محمد في الصلح مع فقيهين من أماثل الناس، ورغباه في ذلك، وأعاد معهما رسلا آخرين. وتقرر الأمر بينهما أن يستقر محمد على ما بيده سلطاناً، ولا يعارضه بركيارق في الطبل، ولا يذكر اسمه في أعمال محمد، وأن المكاتبة تكون بين الوزيرين والعساكر بالخيار في خدمة من شاؤا منهما. ويكون للسلطان محمد من النهر المعروف بأستراباذ إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام والعراق بلاد صدقة بن مزيد، وبقية الممالك الإسلامية لبركيارق.وتحالفاً على ذلك، وانتظم الأمر، وأرسل السلطان محمد إلى أصحابه بأصبهان بالخروج عنها لأخيه بركيارق، واستدعاهم إليه فأبوا وجنحوا إلى خدمة بركيارق. وساروا إليه بحريم السلطان محمد الذي كانوا معهم فأكرمهم بركيارق، ودلهم إلى صاحبهم.

وحضر أبو الغازي بالديوان ببغداد. وسار المستظهر في الخطبة لبركيارق فخطب له سنة سبع وتسعين، وكذلك بواسط. وكان أبو الغازي قبل ذلك في طاعة محمد فأرسل صدقة إلى المستظهر يعذله في شأنه، ويخبره بالمسير لإخراجه من بغداد. ثم سار

صدقة ونزل عند الفجاج. وخرج أبو الغازي إلى عقرباً. وبعث لصدقة بأنه إنما عدل عن طاعة محمد للصلح الواقع بينه وبين أخيه، وأنهما تراضيا على ان بغداد لبركيارق، وأنا شحنة بها، واقطاعي حلوان فلا يمكنني التحول عن طاعة بركيارق فقبل منه ورجع إلى الحلة. وبعث المستظهر في ذي القعدة سنة سبع وتسعين بالخلع للسلطان بركيارق والأمير أياز والوزير الخطير واستخلفهم جميعاً، وعاد إلى بغداد، والله سبحانه ولي التوفيق.

حرب سقمان وجكرمس الإفرنج:

قد تقدم لنا استيلاء الإفرنج على معظم بلاد الشام وشغل الناس عنهم بالفتنة، وكانت حران لقراجا من مماليك ملك شاه. وكان غشوماً فخرج منها لبعض مذاهبه، وولى عليها الأصبهاني من أصحابه فعصي فيها، وطرد أصحاب قراجا منها ما عدا غلاماً تركياً اسمه جاولي جعله مقدم العسكر، وأيس به فقرره وتركه، وملك حران. وسار الإفرنج البها وحاصروها. وكان بين جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر وسقمان صاحب كيفا حروب، وسقمان يطالبه بقتل ابن أخيه فانتدبا لنصر المسلمين واجتمعا على الخابور وتحالفا. وسار سقمان في سبعة آلاف من التركمان، وجكرمش في ثلاثة آلاف من الترك والعرب والأكراد، والتقوا بالإفرنج على نهر بلخ فاستطرد لهم المسلمون نحو فرسخين، ثم كروا عليهم فغنموا فيهم، وقتلوا سوادهم.وأخذ القمص بردويل صاحب الرها، أسره تركماني من أصحاب سقمان في نهر بلخ. وكان سمند صاحب انْطاكِية من الإفرنج ونيكري صاحب الساحل منهم قد كمنا وراء الجبل ليأتيا المسلمين من ورائهم عند المعركة. فلما عاينوا الهزيمة كمنوا بقية يومهم، ثم هربوا فاتبعهم المسلمون واستلحموهم وأسروا منهم كثيراً، وفلت سمند ونيكري بدماء أنفسهم. ولما حصل الظفر للمسلمين عصى أصحاب جكرمس باختصاص سقمان وشق ذلك عليه وأراد أصحابه فأبى حذراً من افتراق المسلمين ورحل، وفتح في طريقه غدة حصون. وسار جكرمش إلى حران ففتحها. ثم سار إلى الرها فحاصرها خمس عشرة ليلة، وعاد إلى الموصل. وقاد من القمص

بخمسة وثلاثين ألف ديناراً، ومائة وستين أسيراً من المسلمين.

وفاة بركيارق وولاية ابنه ملك شاه:

ثم توفي السلطان بركيارق بن ملك شاه بنردجرد في أوائل ربيع الاخر سنة ثمان وتسعين لاثنتي عشرة سنة ونصف من ملكه، جاء إليها عليلاً من أصبهان، واشتد مرضه ببروجرد ، فولى عهده لابنه ملك شاه، وعمره نحو من خمس سنين. وخلع عليه، وجعل الأمير أياز كافله، وأوصى أهل الدولة بالطاعة والمساعدة. وبعثهم إلى بغداد فأدركهم خبر وفاته بالطريق. ورجع أياز حتى دفنه بأصبهان، وجمع السرادقات والخيام والجتر والسمسمة لابنه ملك شاه. وكان بركيارق قد لقي في ملكه من الرخاء والشدة والحرب والسلم ما لم يلقه أحد. فلما استقر واستقامت سعادته أدركته المنية. ولما توفي خطب لابنه ملك شاه ببغداد، وكان أبو الغازي قد سار من بغداد إليه، وهو بأصبهان يستحثه إلى بغداد. وجاء معه، فلما مات سار مع ابنه ملك شاه والأمير اياز إلى بغداد، وركب الوزير أبو القاسم على بن جهير فلقيهم به ، مالي. وحضر أبو الغازي والأمير طغلبرك بالديوان، وطلبا الخطبة لملك شاه فخطب له، ولقب بألقاب جده ملك شاه.

حصار السلطان محمد الموصل:

لما انعقد الصلح بين بركيارق ومحمد، واختص كل منهما أعماله، وكانت أذربيجان في قسمة محمد، رجع محمد إلى اذربيجان، ولحق به سعد الملك أبو المحاسن الذي كان نائباً بأصبهان بعد أن أبلى في المدافعة عنها. ثم سلمها بعد الصلح الى نواب بركيارق، واستوزره فأقام محمد إلى صفر من سنة ثمان وتسعين. ثم سار يريد الموصل على طريق مراغة، ورحل وبلغ الخبر إلى جكرمش فاستعد للحصار، وأدخل أهل الضاحية إلى البلد وحاصره محمد. ثم بعث له يذكره ما استقر عليه بينه وبين أخيه وأن الموصل والجزيرة له، وعرض عليه خط بركيارق بذلك وبايمانه عليه، ووعده أن يقرها في عمالته فقال له جكرمس: انّ السلطان كتب إلى بعد الصلح بخلاف ذلك فاشتد في حصاره، واشتدّ أهل البلد في المدافعة ونفس الله عنهم برخص الأسعار. وكان عسكر جكرمس مجتمعين قريباً من الموصل، وكانوا يغزون على أطراف العسكر

، ويمنعون عنهم الميرة. ثم وصل الخبر عاشر جمادى الأولى بوفاة السلطان بركيارق فاستشار جكرمس أهل البلد فردوا النظر إليه، واستشار الجند فأشاروا بطاعة السلطان محمد فأرسل إليه بذلك، واستدعى وزيره سعد الملك فدخل عليه، وأشار عليه بلقاء السلطان فخرج إليه على كره من أهل البلد فتلقاه السلطان بالكرامة، وأعاده سريعاً إلى البلد ليطمئن الناس.

استيلاء السلطان محمد على بغد اد وخلع ملك شاه ابن أخيه ومقتل أياز:

قد كنا قدمنا صلح بركيارق وأخيه محمد من أنه يستقل بركيارق بالسلطنة، وينفرد محمد بالأعمال التي ذكرنا، وموت بركيارق أثر ذلك، وتقديم ابنه ملك شاه ببغداد. فوصل الخبر بذلك إلى محمد، وهو يحاصر الموصل فأطاعه جكرمس وسار محمد إلى بغداد، ومعه جكرمس وسقمان القطبي مولى قطب الدولة اسمعيل بن ياقوتي عم ملك شاه ومحمد وغيرهما من الامراء وجمع صدقة صاحب الحلة العساكر، وبعث إبنه بدران ودبيساً

إلى محمد يستحثانه، وجاء السلطان محمد إلى بغداد فاعتزم الأمير أياز أتابك ملك شاه على دفاعه، وخيم خارج بغداد، وأشار عليه بذلك أصحابه، وخالفهم وزيره أبو المحاسن الضبعي، وأبلغ في النصيحة له بطاعة السلطان فأقام متردداً، ونزل محمد بالجانب الغربي، وخطب له هنالك منفرداً، ولهما معاً في بعض الجوامع. واقتصر على سلطان العالم في بعضها.ورجع أياز إلى استحلاف الأمراء ثانياً فوقف بعضهم وقال: لا فائدة في إعادة اليمين. وارتاب أياز عندها، وبعث وزيره الضبعي أبا المحاسن لعقد الصلح مع السلطان واستحلافه، فقرأ على وزيره سعد والملك أبي المحاسن سعد بن محمد فدخل معه إلى السلطان، وأجابه إلى ما طلب. وجاء معه من الغد قاضي القضاة والمفتيان، واستحلفاه لأياز وللأمراء فحلف إلا أن ينال الحسامي ، وقال: أما ملك شاه فهو ابني وأنا أبوه. وجاء أياز من الغد، وقارن وصول صدقة بن مزيد فأنزلهما واحتفى بهما، وذلك آخر جمادى الأولى من سنة ثمان وتسعين.ثم احتفل أياز بعدها في عمل صنيع للسلطان في بيته، وهي دار كوهراس، وأهدى إليه تحفاً من جملتها حبل

البلخش الذي أخذه من تركة نظام الملك بن مؤيد الملك. واتفق أن أياز تقدم لمواليه بلبس السلاح ليعرضهم على السلطان، وكان عندهم مصفعان فألبسوه درعاً تحت ثيابه، وتناولوه بالنخس فهرب عنهم، ودخل في حاشية السلطان مذعوراً فلمسوه فإذا الدرع تحت ثيابه فارتابوا. ونهض السلطان إلى داره ثم دعا الأمراء بعد ذلك بأيام ، فاستشارهم في بعث يعثهم إلى ديار بكر ّان أرسلان بن سليمان بن قطلمش قصدها فاتفقوا على الإشارة بمسير اياز، وطلب هو أن يكون معه صدقة بن مزيد فأسعفه السلطان بذلك، واستدعاهما لانفاذ ذلك. وقد أرصد في بعض المخادع بطريقهم جماعة لقتل أياز فلما مر بهم تعاورته سيوفهم، وقطع رأسه وهرب صدقة، وأغمي على الوزير. وهرب عسكر أياز فنهبوا داره. وأرسل السلطان من دفعهم عنها. وسار السلطان من بغداد إلى أصبهان وهذا اياز من موالي لسلطان ملك شاه. ثم سار في جملة ملك آخر فساء. وأما الضبعي وزير أياز فاختفى أشهراً . ثم حمل إلى الوزير سعد الملك في رمضان فلما وصل كان ذلك سبب رياسته بهمدان.

استيلاء سقمان بن أرتق على ماردين و موته:

كان هذا الحصن في ديار بكر أقطعه السلطان بركيارق لمغنٍ كان عنده، وكان حواليها خلق كثير من الأكراد يغيرون عليها ويخيفون سابلتها. واتفق أن كربوقا خرج من الموصل لحصار آمد وكانت لبعض التركمان فاستنجد بسقمان فسار لإنجاده. ولقيه كربوقا ومعه زنكي بن أقسنقر وأصحابه، وأبلوا ذلك اليوم بلاء شديداً فانهزم، وأسر ابن أخيه ياقوتي بن أرتق فحبسه بقلعة ماردين عند المغني، فبقي مدة محبوساً. وكثر خروج الأكراد بنواحي ماردين فبعث ياقوتي إلى المغني يسأله أن يطلقه، ويقيم عنده بالريف لدفاع الأكراد ففعل، وصار يغير عليهم في سائر النواحي إلى خلاط. وصار بعض أجناد القلعة يخرجون للإغارة فلا يهيجهم. ثم حدثته نفسه بالتوثب على القلعة فقبض عليهم بعض الأيام بعد مرجعه من الإغارة، ودنا من القلعة وعرضهم

للقتل إن لم يفتحها أهلوهم ففتحوها وملكها. وجمع الجموع وسار إلى نصيبين وإلى جزيرة ابن عمر وهي لجركمس فكبسه جكرمس وأصحابه، وأصابه في الحرب سهم فقتله

وبكاه جكرمس وكانت تحت ياقوتي بنت عمه سقمان فمضت إلى أبيها. وجمعت التركمان وجاء بهم إلى نصيبين لطلب الثأر فبعث إليه جكرمس ما أرضاه من المال في ديته فرجع. وأقام بماردين بعد ياقوتي أخوه على طاعة جكرمس، وخرج منها لبعض المذاهب، وكتب نائبه بها إلى عمه سقمان بأنه تملك ماردين على

جكرمس فبادر إليها سقمان واستولى عليها، وعوض عنها ابن أخيه جبل جور، وأقامت ماردين في حكمه مع حصن كيفا، واستضاف إليها نصيبين. ثم بعث إليها فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس يستنجده على الإفرنج، وكان استبد بها على الخلفاء العبيديين أهل مصر. وثار له الإفرنج عندما ملكوا سواحل الشام فبعث بالصريخ إلى سقمان بن أرتق سنة ثمان وتسعين فأجابه. وبينما هو يتجهز للمسير، وافاه كتاب طغتكين صاحب دمشق المستبد بها من موالي بني تتش يستدعيه لحضور وفاته خوفاً على دمشق من الإفرنج، فأسرع السير معتزماً على قصد طرابلس، وبعدها فانتهى إلى القريتين وندم طغتكين على استدعائه، وجعل يدبر الرأي مع أصحابه في صرفه. ومات هو بالقريتين فكفاهم الله تعالى أمره. وقد كان أصحابه عندما أيقن بالموت أشاروا عليه بالعودة إلى كيفا فامتنع، وقال: هذا جهاد، وإن مت كان لي ثواب شهيد.

خروج منكبرس على السلطان محمد ونكبته:

كان منكبرس بن يورس بن ألب أرسلان مقيماً بأصبهان، وانقطعت عنه المواد من السلطان فخرج إلى نهاوند، ودعا لنفسه، وكاتب الأمراء بني برسق بخوزستان، وبعثوا به إلى طاعته وكان أخوهم زنكي عند السلطان محمد فقبض عليه، وكاتب اخوته في التدبير على منكبرس فأرسلوا إليه بالطاعة حتى جاءهم فقبضوا عليه بخوزستان، وبعثوا به إلى أصبهان فاعتقل مع ابن عمه تتش، وأطلق زنكي بن برسق، وأعيد إلى مرتبته. وكانت اقطاع بني برسق الأسير وسابور وخوزستان وغيرها ما بين الأهواز وهمدان فعوضهم عنها بالدينور، وأخرجهم من تلك الناحية والله تعالى أعلم.

مقتل فخر الملك بن نظام الملك:

قد ذكرنا قبل أن فخر الملك بن نظام الملك كان وزيراً لتتش، ثم حبسه. ولما

هزمه بركيارق وجده في حبسه أطلقه، وكان أخوه مؤيد الملك وزيراً له فمال إليه فخر الدولة بسعاية مجد الملك الباسلاني، واستوزره سنة ثمان وثمانين. ثم فارق وزارته ولحق بسنجر بن ملك شاه بخراسان فاستوزره. فلما كان في آخر المائة الخامسة، جاء باطني يتظلم إلى باب داره فأدخله يسمع شكواه، فطعنه بخنجر فقتله، وأمر السلطان سنجر بضربه فأقر على جماعة من الناس وقتل.

ولاية جاولي سكاور علي الموصل وموت جكرمش:

كان جاولي سكاوو قد استولى على ما بين خوزستان وفارس فعمر قلاعها،

وحصنها وأساء السيرة في أهلها. فلما استقل السلطان حمد بالملك خافه جاولي، وأرسل السلطان إليه الأمير مودود بن أنوتكين فتحصن منه جاولي، وحاصره مودود ثمانية أشهر. ودس جاولي إلى السلطان بطلب غيره فأرسل إليه خاتمه مع أمير آخر، فسار إليه بأصبهان، وجهزه في العساكر لجهاد الإفرنج بالشام، واسترجاع البلاد منهم. وكان جكرمش صاحب الموصل قد قطع الحمل فأقطع السلطان الموصل وديار بكر والجزيرة لجاولي فسار إلى الموصل، وجعل طريقه على البواريح فاستباحها أياماً. ثم سار إلى إربل وكان صاحبها أبو الهيجاء بن برشك الكردي الهرباني إلى جكرمش يستحثه، فسارفي عسكر الموصل والتقوا قريباً من اربل فانهزم أصحاب جكرمش. وكان يحمل في المحفة فقاتل عنده غلمانه، وأحمد بن قاروت بك فخرج وانهزم إلى الموصل ومات. وجيء بجكرمش فحبسه، ووصل من الغد إلى الموصل فولوا ازنكين بن جكرمش.وأقام بالجزيرة، وقام بأمره غرغلي مولى مولى أبيه. وفرق الأموال والخيول، وكتب إلى قلج أرسلان صاحب بلاد الروم، وكان قد شيد الموصل وبنى أسوارها وحصنها بالخندق. وبينما هو كذلك سار إليه قلج أرسلان من بلاد الروم باستدعاء غرغلي كما تقدم. وانتهى إلى نصيبين فرحل جاولي عن الموصل. ثم جاء البرسقي شحنة بغداد،

ونزل عن الموصل وخاطبهم فلم يجيبوه فرجع من يومه. وسار قلج أرسلان من نصيبين الى الموصل، وتأخر عنها جاولي إلى سنجار واجتمع أبو الغازي بن أرتق وجماعة من عسكر جكرمش. وجاء صريخ رضوان بن تتش من الشام على الإفرنج فسار إلى الرحبة، وبعث أهل الموصل وعسكر جكرمش إلى قلج أرسلان بنصيبين واستحلفوا فحلف، وجاء إلى الموصل فملكها في منتصف ختام المائة الخامسة. وخلع على ابن جكرمش، وخطب لنفسه بعد الخليفة. وقطع خطبة السلطان محمد، وأحسن إلى العسكر. وأخذ القلعة من غرغلي فولى جكرمش. وأقر القاضي أبا محمد، عبد الله بن القاسم الشهرزوري على القضاء. وجعل الرئاسة لأبي البركات محمد بن خميس. وكان في جملة فلهم أرسلان إبراهيم بن نيال التركماني صاحب آمد، ومحمد بن حموا صاحب خرتبرت. كان إبراهيم بن نيال ولاه تتش على آمد فبقيت بيده. وكان ابن حموا ملك خرتبرت من يد القلادروس ترجمان الروم. كانت له الرها وانْطاكِية فملك سليمان قطلمش أنْطاكِية، وبقيت له الرها وخرتبرت وأسلم القلادروس الرها. فلما ولي فخر الدولة بن جهير ديار بكر ضعف القلادروس عن الرها على يد ملك شاه وأمره عليها. ولما سار جاولي إلى الرحبة قاصداً صريخ رضوان بن تتش نزل عليها آخر رمضان من السنة، وحاصرها وبها محمد بن السباق من بني شيبان، ولاه عليها دقاق فاستبد بها وخطب لقلج أرسلان، حاصره جاولي، وكتب إلى رضوان يستدعيه ويعده بالمسير معه لدفاع، فجاء رضوان، وحاصر معه الرحبة. ثم دس إلى جاولي جماعة من حامية الأسوار فوثبوا بها، ودخلوا. وملك البلد، وأبقى على محمد الشيباني، وسار معه. ثم إن قلج أرسلان لما فرغ من أمر الموصل ولي عليها إبنه ملك شاه في عسكر ومعه أميريدبره، وسار إلى قتال جاولي، ورجع عنه إبراهيم بن نيال إلى بلده آمد من الخابور فبعث إلى بلده في الحشد، فعاجله جاولي بالحرب، والتقوا في آخر ذي القعدة من السنة، وانهزم أصحاب قلج أرسلان على دفاعه. وأعاد الخطبة

للسلطان، واستصفى أصحاب جكرمش. ثم سار إلى الجزيرة وبها حبيس بن جكرمش، ومعه غرغلي من موالي أبيه فحاصره مدة، ثم صالحه على ستةآلاف دينار، ورجع إلى الموصل، وأرسل ملك شاه من قلج أرسلان إلى السلطان محمد، والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل صدقة بن مزيد:

ولما استوحش صدقة بن مزيد صاحب الحلة من السلطان محمد سار إليه السلطان، وملك أعماله، ولقيه صدقة فهزمه السلطان، وقتل في المعركة كما ذكرنا ذلك في أخبار صدقة في دولة ملوك الحلة والله سبحانه وتعالى أعلم.

قدوم ابن عمار صاحب طرابلس علي السلطان محمد:

كان فخر الدولة أبو علي بن عمار صاحب طرابلس استبد بها على العبيديين، فلما ملك الإفرنج سواحل الشام رددوا عليها الحصار فضاقت أحوالها. فلما انتظم الأمر للسلطان محمد، واستقام ملكه قصده فخر الملك بن عمار صريخاً للمسلمين بعد أن استخلف على طرابلس ابن عمه ذا المناقب، وفرق في الجند عطاءهم لستة أشهر، ورتب الجامكية في مقاعدهم للقتال، وسار إلى دمشق فلقيه طغتكين أتابك، وخيم بظاهرها أياماً ، ورحل إلى بغداد فأركب السلطان الأمراء لتلقيه، و لم يدخر عنه براً ولا كرامة، وكذلك الخليفة. وأتحف السلطان بهدايا وذخائر نفيسة، وطلب النجدة، وضمن النفقة على العسكر فوعده بالنصر وأقام. ثم لقي الأمير حسين بن أتابك طغتكين ليسير بالعساكر إلى الموصل مع الأمير مودود لقتال صدقة جاولي، ثم يسير حسين معه إلى الشام. ثم رحل السلطان عن بغداد سنة إحدى وخمسمائة لقتال صدقة، واستدعى ابن عمار وهو بالنهروان فودعه. وسار معه الأمير حسين إلى دمشق، وكان ابن عمار لما سار عن طرابلس استخلف عليها ابن عمه ذا المناقب فانتقض، واجتمع مع أهل طرابلس على إعادة الدولة العلوية، وبعثوا إلى الأفضل بن أمير الجيوش المستبد على الدولة بمصر بطاعتهم، ويسألون الميرة فبعث إليهم شرف الدولة بن أبي الطيب والياً ومعه الزاد من الأقوات والسلام، فدخل البلد، وقبض على أهل ابن عمار وأصحابه، واستصفى ذخائرهم وحمل الجميع إلى مصر في البحر.

استيلاء مودود بن أبي شكين على الموصل من يد جاولي:

قد تقدم لنا استيلاء جاولي على الموصل من يد قلج بن أرسلان وابن جكرمش،

وهلاكهما على يده. واستفحل ملكه بالموصل، وجعل السلطان محمد بن ألية ولاية ما يفتحه من البلاد له فقطع الحمل عن السلطان، واستنفره لحرب صدقة فلم ينفر معه. وداخل صدقة بأنه معه فلما فرغ السلطان من أمر صدقة، بعث مودود بن أبي شتكين في العساكر، وولاه الموصل، وبعث معه الأمراء ابن برسق، وسقمان القطبي، وأقسنقر البرسقي ونصر بن مهلهل بن أبي الشوك

الكردي، وأبو الهيجاء صاحب أربل مددا فوصلوا الموصل، وخيموا عليها فوجدوا جاولي قد استعد للحصار، وحبس الأعيان، وخرج عن البلد، وترك بها زوجته هي وابنه برسق في ألف وخمسمائة مقاتل، فأحسن في

مصادرة الناس. واشتد عليهم الحصار فلما كان المحرم سنة اثنتين، خرج بعض الحامية من فرجة من السور وأدخلوا منها مودود والعساكر، وأقامت زوجة جاولي بالقلعة ثمانية أيام. ثم استأمنت وخرجت إلى أخيها يوسف بن برسق بأموالها، واستولى مودود على الموصل وأعمالها.وأما جاولي فلما سار عن الموصل وحمل معه القمص الذي كان أسره بنعمان،وأخذه منه جكرمش، وسار به إلى نصيبين. وسأل من صاحبها أبو الغازي بن أرتق المظاهرة على السلطان فلم يجبه إلى ذلك، ورحل عن نصيبين إلى ماردين بعد أن ترك ابنه مقيماً مع الحامية فتبعه جاولي، ودخل عليه وحده بالقلعة متطارحاً عليه فأجابه، وسار معه إلى نصيبين، ثم إلى سنجار وحاصراها فامتنعت عليهما. ثم هرب أبو الغازي ليلاً الى نصيبين وتركه فسار جاولي إلى الرحبة وأطلق القمص بردويل لخمس سنين من الصرة على مال قرره عليه، وأسرى من المسلمين يطلقهم، وعلى النصرة مهما طلبه. وأرسله إلى سالم بن مالك بقلعة جعفر، حتى جاء ابن خالته جوسكر صاحب تل ناشز من زعماء الإفرنج، وكان أسر مع القمص فافتدى بعشرين ألف دينار، وأقام جوسكر رهينة، وسار القمص إلى انْطاكِية.ثم أطلق جاولي جوسكر وأخذ رهناً عنه صهره وصهر القمص، وبعثه في إتمام ما ضمن. ولما وصل إلى انْطاكِية أعطاه شكري صاحبها ثلاثين ألف دينار وخيلا وسلاحاً وغير ذلك. وكانت الرها وسروج بيد القمص. ولما أسر ملك جكرمش الرها من أصحابه طلبها منه الآن فلم يجبه، فخرج القمص مغاضبا له، ولحق بتل ناشز، وقدم عليه جوسكر عندما طلقه جاولي. ثم سار إليهما شكري يعاجلهما قبل اجتماع أمرهما فحاصرهما أياماً، ورجع القمص وجوسكر على حصون انْطاكِية، واستمد أبو سيل الأرمني صاحب رعيان وكيسوم والقلاع شمالي حلب فأنجدهم بألف فارس. وسار اليهم شكري، وحضر البترك، وشهد جماعة من القسيسين والبطارقة أن أسمند خال شكري قال له عند ما ركب البحر إلى بلاده: أعد الرها إلى القمص إذا خلص من الأسر فحكم البترك بإعادتها فأعادها تاسع صفر من السنة، وعبر القمص الفرات ليرفع إلى جاولي المال والأسرى كما شرط له.

وكان جاولي لما أطلق القمص سار إلى الرحبة ولقيه أبو النجم بدران وأبو كامل منصور، وكانا مقيمين بعد قتل أبيهما عند سالم بن مالك فاستنجداه ، ووعداه أن يسير معهما إلى الحلة، واتفقوا على تقديم أبي الغازي تكين. ثم قدم عليهم أصبهبز صباوو، وقد أقطعه السلطان

الرحبة فأشار على جاولي بقصد الشام لخلوها عن العساكر، والتجنب عن العراق وطريق السلطان فقبل إشارته، وأحصر على الرحبة. ثم وفد عليه صريخ سالم بن مالك صاحب جعفر يستغيث به من بني نمير، وكان جيوش البصري قد نزل على ابن سالم بالرقة وملكها، وسار إليه رضوان من حلب فصالحه بنو نمير بالمال. ورجع عليهم فاستنجد سالم الآن جاولي فجاء وحاصر بني نمير بالرقة سبعين يوماً. فأعطوه مالاً وخيلاًا، ورحل عنهم واعتذر لسالم.

ثم وصل جاولي إلى الأمير حسين بن أتابك قطلغ تكين؟ كان أبوه أتابك السلطان محمد بكنجة فقتله، وتقدم ولده هذا عند السلطان، وبعثه مع ابن عمار ليصلح أمر جاولي، وتسير العساكر كلها إلى الجهاد مع ابن عمار

فأجاب جاولي لذلك، وقال لحسين سر إلى الموصل، ورحل العساكر عنها وأنا أعطيك ولدي رهينة، وتكون الجباية لوال من قبل السلطان فجاء حسين إلى العساكر قبل أن يفتحوها فكلهم أجاب إلا الأمير مودود فإنه امتنع من الرحيل إلا بإذن من السلطان. وأقام محاصراً لها حتى افتتحها، وعاد ابن قطلغ إلى السلطان فأحسن الاعتذار عن جاولي. وسار جاولي إلى بالس فملكها من أصحاب رضوان بن تتش، وقتل جماعة من أهلها فيهم القاضي محمد بن عبد العزيز بن إلياس، وكان فقيها صالحاً.

ثم سار رضوان بن دقاق لحرب جاولي، واستمد شكري صاحب انْطاكِية فأمده

بنفسه، وبعث إلى القمص بالرها يستمده، وترك له مال المفاداة فجاء إليه بنفسه، ولحقه بمنبج. وجاء الخبر إلى جاولي باستيلاء مودود وعساكر السلطان على الموصل وعلى خزائنه فاضطرب أمره، وانفض عنه كثير من أصحابه: منهم زنكي بن اقسنقر وبكتاش. وبقي معه أصبهبذ صباوو وبدران بن صدقة وابن جكرمش، وانضم إليه كثير من المتطوعة، ونزل تل ناشر وأتى عسكر رضوان وشكري، وكاد أن يهزمهم لولا أن أصحابه ساروا عنه، وسار في اتباعهم فأبوا عليه فمضى منهزماً. وقصد اصبهبذ الشام وبدران بن صدقة قلعة جعفر وابن جكرمش جزيرة ابن عمر، وقتل من المسلمين خلق، ونهب صاحب انْطاكِية سوادهم. وهرب القمص وجوسكر إلى تل باشر. وكان المنهزمون من المسلمين يمرون بهم فيكرمونهم ويجيزونهم إلى بلادهم. ولحق جاولي بالرحبة فلقي بها سرايا مودود صاحب الموصل وخفي عنهم فارتاب في أمره، ولم ير الخير له من قصد السلطان محمد ثقة بما القى إليه حسين بن قطلغ تكين في شأنه فأوغر في السير، ولحق بالسلطان قريبا من أصبهان. ونزل حسين بن قطلغ فدخل به إلى السلطان فأكرمه، وطلب منه بكتاش ابن عمه تتش واعتقله بأصبهان.

مقتل مودود بن توتكين صاحب الموصل في حرب الإفرنج وولاية البرسقي مكانه:

كان السلطان محمد قد أمر مودوداً صاحب الموصل سنة خمس وخمسمائة بالمسير لقتال الإفرنج، وأمدّه بسقمان القطبي صاحب ديار بكر وأرمينية، وأياكي وزنكي ابني برسق أمراء همذان وما جاورها، والأمير أحمد بك أمير مراغة، وأبو الهيجاء صاحب اربل والأمير أبو الغازي صاحب ماردين وبعث إليه أياز مكانه فسار إلى سنجار، وفتحوا حصوناً الإفرنج وحاصروا مدينة الرها فامتنعت عليهم وأقام الإفرنج على الفرات بعد أن طرقوا أعمال حلب فعاثوا فيها. ثم حاصر العساكر الإسلامية قلعة باشر فامتنعت ودخلوا إلى حلب فامتنع رضوان من لقائهم فعادوا، ومات سقمان القطبي في دلاس فحمله أصحابه في تابوت إلى بلاده. واعترضهم أبو الغازي بن أرتق ليأخذهم فهزموه.

ثم افترقت العساكر بمرض ابن برسق ومسير أحمد بن صاحب مراغة إلى السلطان لطلب بلاد سقمان القطبي واجتمع قطلغتكين صاحب دمشق بمودود ، ونزل معه على نهر القافي. وسمع الإفرنج بافتراق العساكر فساروا إلى افاميه. وجاء السلطان ابن منقذ صاحب شيزر إلى مودود وقطلغتكين، وحصرهما على الجهاد. ونزلوا جميعاً على شيزار ونزل الإفرنج قبالتهم. ثم رأوا قوة المسلمين فعادوا إلى أفامية. ثم سار مودود سنة ست إلى الرها

وسروج فعاث في نواحيها فكبسه جوسكر صاحب تلك ناشر في الإفرنج، ونال ثم اجتمع المسلمون سنة سبع للجهاد باستنجاد قطلغتكين صاحب دمشق لمودود فاجتمع معه بمترل صاحب سنجار وأياز بن أبي الغازي، وعبروا الفرات إلى قطلغتكين، وقصدوا القدس فسار إليهم صاحبها بقزوين، ومعه جوسكر، ومعه تل ناشر، على جيشه. ونزلوا الأردن واقتتلوا قريباً من طبرية فالهزم الإفرنج، وقتل كثير منهم، وغرق كثير في بحيرة طبرية ونهر الأردن، وغنم المسلمون سوادهم. ثم لقيهم عسكر طرابلس وإنْطاكِية من الإفرنج فاستعانوا بهم، وعاودوا الحرب ونزلوا في جبل طبرية فحاصرهم فيه المسلمون ثم ساروا فعاثوا في بلاد الإفرنج ما بين عكا إلى القدس. ثم نزلوا دمشق، وفرق مودود عساكره ووعدهم العود من قابل للجهاد. ودخل

دمشق ليستريح عند قطلغتكين فصلى الجمعة في الجامع فطعنه باطني فأثواه ، وهلك لآخر يومه. واتهم قطلغتكين به، وقتل الباطني من يومه. ولما بلغ الخبر السلطان بقتل مودود ولي

على الموصل وأعمالها أقسنقر البرسقي سنة ثمان وخمسمائة، وبعث معه ابنه الملك مسعود في جيش كثيف، وأمره بجهاد الإفرنج، وكتب إلى الأمراء بطاعته فوصل إلى الموصل، واجتمعت إليه عساكر النواحي: فيهم عماد الدين زنكي بن أقسنقر ونمير صاحب سنجار. وسار البُرسقي إلى جزيرة ابن عمر فأطاعه نائب مودود بها. ثم سار إلى ماردين فأطاعه أبو الغازي صاحبها، وبعث إبنه أياز فسار إلى الرها فحاصرها شهرين، ثم ضاقت الميرة على عسكره. ثم رحل إلى شميشاط بعد أن خرب نواحي الرها وسروج وشميسشاط وكانت مرعش للإفرنج هي وكسوم ورعيان ؛ وكان صاحبها كراسك. واتفقت وفاته، وملكت زوجته بعده فراسلت البرسقي بالطاعة، وبعث إليها رسوله فأكرمته وأرجعته إلى البرسقي بالهدايا والطاعة. وفرّ عنها كثيرٌ من الإفرنج إلى إنْطاكِية. ثم قبض البرسقي على أياز بن أبي الغازي لإتهامه اياه في الطاعة فسار إليه أبو الغازي في العساكر، وهزمه واستنقذ إبنه أياز من أسره كما ترى في أخبار دولة أبي الغازي وبنيه. وبعث السلطان يهدده فوصل يده بقطلغتكين صاحب دمشق والإفرنج، وتحالفوا على التظاهر. ورجع أبو الغازي إلى ديار بكر فسار إليه قزجان بن مراجاً صاحب حمص، وقد تفرّق عنه أصحابه فظفر به وأسره. وجاء قطلغتكين في عساكره، وبعث إلى قزجان في إطلاقه فامتنع وهم بقتله فعاد عنه قطلغنكين إلى دمشق. وكان قزجان قد بعث إلى السلطان بخبره وانتظر من يصل في قتله فأبطأ عليه، فأطلق أبا الغازي بعد أن توثق منه بالخلف، وأعطاه ابنه أياز رهينة. ولما خرج سار إلى حلب، وجمع التركمان وحاصر قزجان في طلب ابنه إلى أن جاءت عساكر السلطان.

مسير العساكر لقتال أبي الغازي وقطلغتكين والجهاد بعد هما:

ولما كان ما ذكرناه من عصيان أبي الغازي وقطلغتكين على السلطان محمد، وقوّة الإفرنج على المسلمين جهز السلطان جيشاً كثيراً مقدمهم الأمير برسق صاحب همدان، ومعه الأمير حيوّش بك، والأمير كشغرة، وعساكر الموصل والجزيرة، وأمرهم بقتال أبي الغازي وقطلغتكين. فإذا فرغوا منهما ساروا إلى الإفرنج فارتجعوا البلاد من أيديهم، فساروا لذلك في رمضان من سنة ثمان، وعبروا الفرات عند الّرقة. وجاؤا إلى حلب وطلبوا من

صاحبها لؤلؤ الخادم ومن مقدم العسكر المعروف بشمس الخواص تسليم حلب بكتاب السلطان في ذلك فتعلل عليهم، وبعث إلى إبي الغازي وقطلغتكين بالخبر، واستنجدهما فسار إليه في ألفين وامتنعت حلب على عساكر السلطان فسار برسق بالعساكر إلى حماة، وهي لقطلغتكين فملكها عنوة، وسلمها إلى قرجان صاحب حمص بعهد السلطان له بذلك في كل ما يفتحونه من البلاد فثقل ذلك على الأمراء، وتخاذلوا وتسلم قزجان حماة من برسق، وأعطاه ابن أبي الغازي إبنه رهينة عنده. ثم سار أبو الغازي وقطلغتكين وشمس الخواص إلى إنْطاكِية مستنجدين بصاحبها بردويل، وجاءهم بعد ذلك بغدوين صاحب القدس وصاحب طرابلس وغيرهما من الإفرنج، واتفقوا على تأخير الحرب إلى إنصرام الشتاء. واجتمعوا بقلعة أفامية، وأقاموا شهرين، وانصرم الشتاء، والمسلمون مقيمون فوهنت عزائم الإفرنج، وعادوا إلى بلادهم. وعاد أبو الغازي إلى ماردين وقطلغتكين إلى دمشق، وسار المسلمون إلى كفر طاب من بلاد الإفرنج فحاصروه، وملكوه عنوة وأسروا صاحبه، واستلحموا من فيه ، ثم ساروا إلى قلعة أفامية فامتنعت عليهم فعادوا إلى المعرة. وفارقهم حيوش بك إلى مراغة فملكه. وسارت العساكر من المعرة إلى حلب، وقدموا أثقالهم وخيامهم فصادفهم بردويل صاحب إنْطاكِية في خمسمائة فارس وألفي راجل صريخاً لأهل كفر طاب . وصادف مخيم العسكر ففتك فيه، وفعل الأفاعيل، وهم متلاحقون. وجاء الأمير برسق، وعاين مصارعهم، وأشار عليه إخوته بالنجاء بنفسه فنجا بنفسه. وأتبعهم الإفرنج، ورجعوا عنهم على فرسخ وعاثوا في المسلمين في كلّ ناحية. وقتل أياز بن أبي الغازي قتله الموكلون به. وجاء أهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين ما لم يحتسبوه، ويئسوا من النصرة ورجعت العساكر منهزمة إلى بلادها وتوفي برسق زنكي سنة عشر بعدها.

ولاية حيوش بك ومسعود بن السلطان محمد علي الموصل:

ثم أقطع السلطان الموصل، وما كانَ بيد أقسنقر البرسقي للأمير حيوش بك، وبعث معه إبنه مسعوداً، وأقام البرسقي بالَرحَبَةَ وهي اقطاعه إلى أن توفي السلطان محمد.

ولاية جاولي سكاو على فارس وأخباره فيها ووفاته:

كان جاولي سكاو لما رجع إلى السلطان محمد ورضي عنه ولاه فارساً وأعمالها، وبعث معه إبنه جعفري بك طفلاً كما فصل من الرضاع. وعهد إليه بأصلاحها فسار إليها ومّر بالأمير بلداجي في بلاده كليل وسرماة وقلعة اصطخر، وكان من مماليك السلطان ملك شاه فاستدعاه للقاء جعفري بك. وتقدّم إليه بأن يأمر بالقبض عليه فقبض عليه، ونهبت أمواله، وكان أهله وذخائره في قلعة

اصطخر، وقد استناب فيها وزيره الخيمي ، ولم يمكنه الاّ من بعض أهله فلما وصل جاولي إلى فارس ملكها منه ، وجعل فيها ذخائره. ثم أرسل إلى خسرو، وهو الحسين بن مبارز صاحب نسا وأمير الشوامكار من الأكراد فاستدعاه للقاء جعفري بك من السلطان، خشية مما وقع لبلداجي فأعرض عنه، وأظهر الرجوع إلى السلطان. ومضى رسول بخبره فبشر بأنصافه عن فارس فما أدى إليه الخبر إلا وجاولي قد خالطهم، رجع من طريقه وأوغر في السير إليهم.ثم هرب خسرو إلى عمدالج، وفتك جاولي في أصحابه وماله. ثم سار جاولي إلى

مدينة نسا فملكها، ونهب جهرم وغيرها، وسار إلى خسرو فامتنع عليه بحصنه فرجع إلى شيراز وأقام بها. ثم سار إلى كازرون فملكها، وحاصر أبا سعيد بن محمد في قلعته مدةعامين وراسله في الصلح فقتل الرسل مرتين. ثم اشتد عليه الحصار، واستأمن فأمنه وملك الحصن. ثم استوحش من جاولي فهرب وقبض على ولده، وجيء به أسيرًا فقتل. ثم سار جاولي إلى دار بكرد فهرب صاحبها إبراهيم إلى كرمان، وصاحبها أرسلان شاه بن كرمان شاه بن أرسلان بك بن قاروت بك، فسار جاولي إلى حصار دار بكرد فامتنعت عليه فخرج إلى البرية. ثم جاءهم من طريق كرمان كاء نه مدد لهم من صاحب كرمان فأدخلوه فملك البلد، واستلحم أهله ثم سار إلى كرمان، وبعث إلى خسرو مقدم الشوذ كان يستدعيه للمسير معه فلم يجد بداً من موافقته. وجاء وصاحبه إلى كرمان، وبعث إلى ملك كرمان بإعادة الشواذ كان الذين عنده فبعث بالشفاعة فيهم، فاستخلص السلطان الرسول بالإحسان وحثه على صاحبه، ووعده بأن يرد العساكر عن وجهه ويخذلهم عنه ما استطاع. وإنقلب عنه إلى صاحبها فقي عساكر كرمان مع وزيره بالسيرجان فتراءى لهم أن جاولي عازم على

مواصلتهم، وأنه مستوحش من اجتماع العساكر بالسيرجان. وأشار عليه بالرجوع فرجعوا وسار جاولي في أثر الرسول، وحاصر حصناً بطرف كرمان فاًرتاب ملك كرمان بخبر الرسول. ثم أطلع عليه من غير جامعة فقتله، ونهب أمواله، وبعث العساكر لقتاله. واجتمع معهم صاحب الحصن المحاصر، وسلك بهم غير الجادة. وسمع جاولي بخبرهم فارسل بعض الأمراء ليأتيه بالخبر فلم يجد بالجادة أحداً فرجع، وأخبره أن عسكر كرمان قد رجع فاطمأنّ، ولم يكن الا قليل حتى بيتته عساكر كرمان في شوال سنة ثمان وخمسمائة فانهزم وفتكوا فيه قتلاً وأسراً، وأدركه خسرو بن أبي سعد الذي كان قتل أباه فلما رآهما خاف منهما فآنساه، وأبلغاه إلى مأمنه بمدينة نسا، ولحقه عساكره ، وأطلق ملك كرمان الأسرى، وجهزهم إليه. وبينما هو يجهز العساكر لكرمان لأخذ ثأره توفي جعفري بك ابن السلطان في ذي الحجة من تسع لخمس سنين من عمره فقطعه ذلك عن معاداة كرمان. ثم بعث ملك كرمان

إلى السلطان ببغداد في منع جاولي عنه فقال: لا بد أن تسلم الحصن إلى حاصره جاولي في حد كرمان، وإنهزم عليه، وهو حصن فرج. ثم توفي جاولي في ربيع سنة عشر فأمنوا إعادته والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة السلطان محمد وملك إبنه محمود:

ثم توفي السلطان محمد بن ملك شاه آخر ذي الحجة سنة إثنتي عشرة من ملكه،بعد أن أجلس ولده محمودا على الكرسي قبل وفاته بعشر ليال. وفوض إليه أمور الملك فلما توفي نفذت وصيته لابنه محمود فأمره فيها بالعدل والإحسان، وخطب له ببغداد، وكان مناهز الحلم. وكان السلطان محمد شجاعاً عادلاً حسن السيرة، وله آثار جميلة في قتال الباطنية، وقد مر ذكرها في أخبارهم ولما ولي قام بتدبير دولته الوزير أبو منصور، وأرسل إلى المستظهر في طلب الخطبة ببغداد له في منتصف المحرم من سنة الإثنتي عشرة. وأقر طهرون شحنة على بغداد، وقد كان السلطان محمد ولأه عليها سنة إثنتين وخمسمائة. ثم عاد البرسقي وقاتله، وإنهزم إلى عسكر السلطان محمود على الحلة دبيس بن صدقة. وقد كان عند السلطان محمد منذ قتل أبوه صدقة، وأحسن

إليه وأقطعه. وولى على الحلة سعيد بن حميد العمري صاحب جيش صدقة. فلما توفي رغب من ابنه السلطان محمود بالعودة إلى الحلة فأعاده، وإجتمع عليه العرب والاكراد.

وفاة المستظهر وخلافة إبنه المسترشد:

ثم توفي المستظهر بن المقتدي سنة إثنتي عشرة وخمسمائة منتصف ربيع الآخر، ونصب للخلافة إبنه المسترشد، وإسمه الفضل وقد تقدّم ذلك في أخبار الخلفاء.

خروج مسعود ابن السلطان محمد على أخيه محمود:

تقدم لنا أنّ السلطان ولى على الموصل إبنه مسعودا، ومعه حيوس بك وأن السلطان محمود اودبيس بن صدقة سارا إلى الحلّة. فلما توفي السلطان محمد، وولي إبنه محمود، وسار مسعود من الموصل مع أتابك حيوس بك ووزيره فخر الملك علي بن عمار، وقسيم الدولة، وزنكي بن اقسنقر صاحب سنجار، وأبي الهيجاء صاحب اربل، وكرباوي بن خراسان صاحب

المواريح وقصدوا الحلة فدافعهم دبيس فرجعوا إلى بغداد. وسار البرسقي إلى قتالهم فبعث إليه حيوس بك بأنهم إنما جاؤا لطلب الصريخ على دبيس صاحب الحلة، فاتفقوا وتعاهدوا، ونزل مسعود بدار الملك ببغداد. وجاء الخبر بوصول عماد الدين منكبرس الشحنة. وقد كان البرسقي هزم إبنه حسيناً كما مر فسار بالعساكر إلى البرسقي، فلما علم بدخول مسعود إلى بغداد عبر دجلة من النعمانية إلى دبيس بن صدقة فاستنجده. وخرج مسعود وحيوس بك والبرسقي ومن معهم للقائهم، وانتهوا إلى المدائن فأتتهم الأخبار بكثرة جموع منكبرس ودبيس فرجعوا، وأجازوا نهر صرصر، ونهبوا السواد من كل ناحية. وبعث المسترشد إلى مسعود والبرسقي ، والحث على الموادعة والصلح وجاءهم الخبر بأن منكبرس ودبيس بعثا مع منصور أخي دبيس وحسين بن أرز وبني منكبرس عسكرا لحماية بغداد فرجع البرسقي إلى بغداد د ليلاً، ومعه زنكي بن أقسنقر، وترك إبنه عزالدين مسعوداً على العسكر بصرصر فالتقى ، ومنع معسكر منكبرس من العبور، وأقام يومين. ثم وافاه كتاب إبنه بأن الصلح تم بين الفريقين بعده ففشل وعبر إلى الجانب الغربي، ومنصور وحسين في أثره ونزلا عند جامع السلطان، وخيم البرسقي عند القنطرة القبلية، وخيم مسعود وحيوس بك عند المارستان، ودبيس ومنكبرس تحت الرقة وعز الدين مسعود بن البرسقي عند منكبرس منفرداً عن أبيه.وكان سبب إنعقاد الصلح أن حيوس بك أرسل إلى السلطان محمود يطلب الزيادة له وللملك مسعود فأقطعهما أذربيجان. ثم وصل الخبر .بمسيرهما إلى بغداد فاستشعر منهما العصيان، وجهز العساكر إلى الموصل فكتب إليه رسوله وبذلك، ووقع الكتاب بيد منكبرس الشحنة فبعث إليه، وضمن له إصلاح الحال له وللسلطان مسعود. وكان منكبرس متزوجاً بأم السلطان مسعود، وإسمها سرجهان فكان يؤثر مصلحته فاستقر الصلح، واتفقوا على إخراج البرسقي من بغداد إلى الملك، وأقام عنده، واستقر منكبرس شحنة بغداد، وساء أثره في الرعية، وتعرض لأموال الناس وحرمهم، وبلغ الخبر إلى السلطان محمود فاستدعاه إليه فبقي يدافع. ثم سار خوفاً من عامة بغداد، والله سبحانه وتعالى أعلم.

خروج الملك طغرل على أخيه السلطان محمود:

كان الملك طغرك بن السلطان محمد عند وفاة أبيه مقيماً بقلعة سرجهان، وكان أبوه أقطعه سنة أربع سماوة وآوة وزنجان، وجعل اتابكه الأمير شيركير الذي حاصر قلاع الإسماعيلية كما مر في أخبارهم، وكان عمره يومئذ عشراً فأرسل السلطان محمد الأمير كسعدي أتابكاً له وأعجله إليه، وكان كسعدي حاقداً عليه فحمل طغرل على العصيان، ومنعه من المجيء إلى أخيه وإنتهى ذلك إلى محمود فأرسل إلى أخيه بتحف وخلع، وثلاثين ألف دينار ومواعد جميلة فلم يصيخوا إليها، وأجابه كسعدي اننا في الطاعة ومعترضون لمراسم الملك فسار إليهم السلطان مغذاً ليكبسهم، وجعل طريقه على قلعة شهران، التي فيها ذخائر طغرل وأمواله. ونما الخبر إلى طغرل وكسعدي فخرجا من العسكر في خفية قاصدين شهران وأخلى الطريق عنها لما سبق من اللطف، فوقعا على قلعة سرجهان. وجاء السلطان إلى العسكر فأخذ خزائن أخيه طغرل وفيها ثلاثمائة ألف دينار. ثم أقام بزنجان أياما ولحق منها بالري، ولحق طغرل وكسعدي بكنجة، واجتمع إليه أصحابه، وتمكنت الوحشة بينه وبين أخيه.

فتنة السلطان محمود مع عمه سنجر:

ولما توفي السلطان محمود، وبلغ الخبر إلى أخيه سنجر بخراسان أظهر من الجزع والحزن ما لم يسمع بمثله حتى جلس للعزاء على الرماد، وأغلق بابه سبعاً. ثم سمع بولاية إبنه محمود فنكر ذلك، وعزم على قصد بلاد الجبل والعراق، وطلب السلطنة لنفسه مكان أخيه. وكان قد سار إلى غزنة سنة ثمان وخمسين، وفتحها وتنكر لوزيره أبي جعفر محمد بن فخر الملك ابي المظفر بن نظام الملك، لما بلغه أنه أخذ عليه الرشوة من صاحب غزنة ليثنيه عن قصده إليه، وفعل مثل ذلك بما وراء النهر، وامتحن أهل غزنة بعد فتحها، وأخذ منها أموالاً عظيمة، وشكا إليه الأمراء إهانته أياهم فلما عاد إلى بلخ قبض عليه وقتله، واستصفى أمواله، وكانت لا يعبر عنها: كان فيها من العين وحده ألف ألف دينار مرتين، واستوزر بعده شهاب الإسلام عبد الرزاق ابن أخي نظام الملك، وكان يعرف بابن الفقير، فلما مات أخوه السلطان محمد عزم على طلب الأمر لنفسه، وعاوده الندم على قتل وزيره أبي جعفر لما يعلم من اضطجاعه بمثلها. ثم انّ السلطان محمود بعث إليه يصطنعه بالهدايا والتحف، وضمن له ما يزيد عن مائتي ألف دينار كل سنة، وبعث في ذلك شرف الدين أنو شروان بن خالد وفخر الدين طغرل فقال لهما سنجر أن ابن أخي صغير، وقد تحكم عليه وزيره وعلى ابن عمر الحاجب فلا بد من المسير، وبعث في مقدمته الأميرأنزوسار السلطان محمود، وبعث في مقدمته الحاجب علي بن محمد، وكان حاجب أبيه قبله، فلما تقاربت المقدمتان بعث الحاجب علي بن عمر إلى الأمير أنز، وهو بجرجان بالعتاب ونوع من الوعيد فتأخر عن جرجان فلحقته بعض العساكر، ونالوا منه. ورجع الحاجب إلى السلطان محمود بالري فشكر له فعله، وأقاموا بالري. ثم ساروا إلى كرمان، وجاءته الأمداد من العراق مع منكبرس ومنصور بن صدقة أخي دبيس وأمراء فسار إلى همذان، وتوفي وزيره الربيب فاستوزر أبا طالب الشهيري .

ثم سار السلطان في عشرين ألفاً وثمانية عشر فيلاً، ومعه ابن الأمير أبي الفضل صاحب سجستان وخوارزم شاه محمد، والأمير أنز والأمير قماج، وكرشاسف بن ضرام بن كاكويه صاحب برد، وهو صهره على أخته، وكان خصيصاً بالسلطان محمد فاستدعاه بعد موته سنجر، وتأخر عنه، وأقطع بلده لقراجا السامر فبادر إليه، وتراجعوا بقرب ساوة في جمادى ثالث عشر فسبقت عساكر السلطان محمود إلى الماء من أجل المسافة التي بين ساوة وخراسان. وكانت عساكر السلطان ثلاثين ألفاً ومعه الحاجب علي بن عمر ومنكبرس وأتابك غزغلي، وبنو برسق وأقسنقر البحاري وقراجاً الساني، ومعه سبعمائة حمل من السلاح. فعندما اصطفوا جلى الحرب إنهزم عساكر السلطان سنجر ميمنة وميسرة، وثبت هو في القلب، والسلطان محمود قبالته.وحمل السلطان سنجر في الفيلة فانهزمت عساكر السلطان محمود، وأسر أتابك غزغلي، وكان يكاتب السلطان سنجر بأنه يحمل إليه ابن أخيه فعاتبه على ذلك، ثم قتله. ونزل سنجر في خيام محمود، واجتمع إليه أصحابه، ونجا محمود من الواقعة، وأرسل دبيس بن صدقة للمسترشد في الخطبة لسنجر فخطب له أواخر جمادى الأولى من السنة، وقطعت خطبة محمود. ثم أنّ السلطان سنجر رأى قلة أصحابه وكثرة أصحاب محمود فراسله في الصلح، وكانت تحضه على ذلك والدته، فامتنع ولحق البرسقي بسنجر، وكان عند الملك مسعود بأذربيجان من يوم خروجه من بغداد فسار سنجر من همذان إلى الكرخ، وأعاد مراسلة السلطان محمود في الصلح، ووعده بولاية عهده فأجاب وتحالفاً على ذلك.

وسار محمود إلى عمه سنجر في شعبان بهدية حافلة، ونزل على جدته فتقبل منه شجر، وقدم له خمسة أفراس عربية. وكتب لعماله بالخطبة لمحمود بعده في جميع ولابته، وإلى بغداد بمثل ذلك.

وأعاد عليه جميع ما أخذه من بلاده سوى الريّ، وصار محمود في طاعة عمه سنجر. ثم سار منكبرس عن السلطان محمود إلى بغداد، وبعث دبيس بن صدقة من منعه من دخولها فعاد ووجه الصلح بين الملكين قد أسفر فقصد السلطان سنجر مستجيراً به من الاستبداد عليه، ومسيره لشحنة بغداد من غير إذنه. ثم أنّ الحاجب علي بن عمر ارتفعت منزلته في دولته وكثرت سعاية الأمراء عنه، فأضمر السلطان نكبته فاستوحش وهرب إلى قلعة له كان ينزل بها أهله وأمواله، وسار منها إلى خوزستان. وكانت بنو برسق: اسوري وابن أخويه ارغوي بن ملتكي وهدد بن زنكي بعثوا عسكراً يصدونه عن بلادهم، ولقوه قريباً من تستر فهزموه، وجاؤوا به أسيراً. وكاتبوا السلطان محمودا بأمرهم فأمرهم بقتله، وحمل رأسه إليه. ثم أمر السلطان سنجر بإعادة مجاهد الذين تهددوا إلى شحنة بغداد فعاد إليها وعزل نائب دبيس بن صدقة.

استبداد علي بن سكمان بالبصرة:

كان السلطان محمد قد أقطع البصرة للأمير أقسنقر البخاري، واستخلف عليها

سنقر الشامي فاحسن السيرة. فلما توفي السلطان محمد، وثب عليه غزغلي مقدم الاتراك الاسماعيلية وكان يحج بالناس منذ سنين وسنقر ألبا، وملكا البصرة من يده وحبساه، وذلك سنة إحدى عشرة.وهم سنقر ألبا بقتله فعارضه غزغلي فلم يرجع وقتله. فقتله غزغلي به، وسكن الناس. وكان بالبلد أمير اسمه علي بن سكمان حج

بالناس، وغاب عن هذه الواقعة فغمق به غزغلي لتمام الحج على يده، وخشي أن يثار منهم بسنقر ألبا لتقدمه عليهم فاوغر إلى عرب البرية فنهب الحاج وانثنى علي بن سكمان في الدفاع عنهم إلى أن قارب البصرة، والعرب يقاتلونه فبعث إليه غزغلي بالمنع من البصرة فقصد القرى أسفل دجلة، وصدق الحملة على العرب فهزمهم. ثم سار إليه غزني وقاتله فأصابه سهم فمات وسار علي بن سكمان إلى البصرة وملكها، وكاتبه أقسنقر البخاري وصاحب عمان بالطاعة وأقر نوابه على أعماله، وكان عند السلطان، وطلبه أن يوليه البصرة فأى وبقي ابن سكمان مستبدا بالبصرة إلى أن بعث السلطان أقسنقر البخاري إلى البصرة سنة أربع عشرة فملكها من علي بن سكمان.

الاستيلاء الكرج على تفليس

كان الكرج قديما يغيرون على أذربيجان، وبلاد أران. قال ابن الأثير: والكرج هم الخزر وقد بينا الصحيح من ذلك عند ذكر الأنساب. وأن الخزر هم التركمان إلا أن يكون الكرج من بعض شعوبهم فيمكن. ولما استفحل ملك السلجوقية أمسكوا عن الإغارة على البلاد المجاورة لهم. فلما توفي السلطان محمد رجعوا إلى الغارة فكانت سراياهم وسرايا القفجاق تغير على البلاد. ثم اجتمعوا وكانت بلد الملك طغرل، وهي أران ونقجوان إلى أوس مجاورة لهم فكانوا يغيرون عليها إلى العراق لملك بغداد. ونزل على دبيس بن صدقة فسار هو وأتابك كبغري ودبيس بن صدقة وأبي الغازي بن أرتق. وسار في ثلاثين ألفاً إلى الكرج والقفجاق فاضطرب المسلمون وانهزموا، وقتل منهم خلق، وتبعهم الكفار عشرة فراسخ. وعادوا عنهم وحاصروا مدينة تفليس، وأقاموا عليها سنة وملكوها عنوة سنة خمس عشرة ووصل صريخهم سنة ست عشرة الى السلطان محمود بهمدان فسار لصريخهم، وأقام بمدينة تبريز، وانفذ عساكره الى الكرج فكان من أمرها ما يذكر ان شاء الله تعالى.

الحرب بين السلطان محمود وأخيه مسعود:

قد تقدم لنا مسير مسعود إلى العراق وموت أبيه السلطان محمد، وما تقرر بينهما من الصلح ورجوعه إلى الموصل بلده، وان السلطان محموداً زاده اذربيجان، ولحق به قسيم الدولة البرسقي عندما طرده عن شحنة بغداد فأقطعه مسعود مراغة مضافة إلى الرحبة. وكاتب دبيس حيوس بك أتابك مسعود يحرضه على نكبة البرسقي، وانه يباطن السلطان محموداً ووعده على ذلك بالأموال، وحرضهم على طلب الأمر لمسعود ليقع الاختلاف فيحصل له علو الكلمة كما حصل لأبيه في فتنة بركيارق ومحمد. وشعر البرسقي بسعاية ديبس فخشي على نفسه ولحق بالسلطان محمود فقبله وأعلى محله.ثم اتصل بالملك مسعود الأستاذ أبو اسمعيل الحسين بن علي

الأصبهاني الطغرائي وكان ابنه أبو الوليد محمد بن أبي اسمعيل يكتب الطغري للملك مسعود، فلما وصل أبوه استوزره مسعود، وعزل أبا علي بن عمار صاحب طرابلس سنة ثلاث عشرة فأغرى مسعوداً بالخلاف على أخيه السلطان محمود فكتب إليهم السلطان بالترغيب والترهيب فأظهروا أمرهم، وخاطبوا الملك مسعوداً

بالسلطان وضربوا له النوب الخمس، وآغزوا إليه السير وهو في خف من العسكر فسار إليهم في خمسة عشرألفاً، وفي مقدمته البرسقي. ولقيهم بعقبة أستراباذ منتصف ربيع الأول سنة أربع عشرة فانهزم الملك مسعود وأصحابه، وأسر جماعة من أعيانهم: منهم الأستاذ أبو اسمعيل الطغرائي وزير الملك مسعود فأمر السلطان محمود بقتله وقال: ثبت عندي فساد عقيدته، وكان قتله لسنة من وزارته. وكان كاتبا شاعرا يميل إلى صناعة الكيمياء، وله فيها تصانيف معدودة.ولما انهزم الملك مسعود لحق ببعض الجبال على إثني عشر فرسخاً من المعركة فاختفى فيه مع غلمان صغار، وبعث يستأمن إلى أخيه فأرسل إليه أقسنقر البرسقي يؤمنه ويجيء به إليه، وخالفه إليه بعض الأمراء، فحرضه على اللحاق بالموصل وأذربيجان ومكاتبة دبيس ومعاودة الحرب فسار معه لذلك. وجاء البرسقي إلى مكانه الأول فلم يجده، فاتبعه إلى أن أدركه على ثلاثين فرسخاً، وأعلمه حال أخيه من الرضا عنه وأعاده فرجع، ولقيه العساكر بأمر السلطان محمود وأنزله عند أمه. ثم أحضره وهش له وبكى وخلطه بنفسه، وذلك لثمانية وعشرين يوما من الخطبة بأذربيجان وأما حيوس بك الأتابك فافترق عن السلطان من المعركة، وسار إلى الموصل، وجمع الغلال من سوادها. واجتمعت إليه العساكر، وبلغه فعل السلطان مع أخيه فسار إلى الزاب موريا بالصيد. ثم أجد السير إلى السلطان بهمدان فأمنه، وأحسن إليه، وبلغ الخبر بالهزيمة إلى دبيس وهو بالعراق فنهب البلاد وأخربها، وبعث إليه السلطان فلم يصغ الى كتابه.

ولاية اقسنقر البرسقي على الموصل ثم على واسط وشحنة العراق:

ولما وصل حيوس بك الى السلطان محمود بعثه الى أخيه طغرل وأتابك كبغري فسار الى كنجة وبقي أهل الموصل فوضى من غير وال، وكان اقسنقر البرسقي قد أبلى في خدمة السلطان محمود ورد اليه أخاه مسعوداً يوم الهزيمة فعرف له حق نصحه وحسن أثره فأقطعه الموصل وأعمالها،

وما يضاف إليها كسنجار والجزيرة فسار اليها سنة خمس عشرة، وتقدم الى سائر الامراء بطاعته. وأمره بمجاهدة الإفرنج واسترجاع البلاد منهم فوصل الى الموصل، وقام بتدبيرها واصلاح أحوالها. ثم أقطعه سنة ست عشرة بعدها مدينة واسط وأعمالها مضافة الى الموصل، وجعله شحنة بالعراق فاستخلف عماد الدين رنكي بن اقسنقر وبعثه اليها فسار اليها في شعبان من السنة.

مقتل حيوس بك والوزير الشهيرمي:

ثم انّ السلطان بعد وصول حيوس بك بعثه لحرب أخيه طغرل كما قلناه، وأقطعه أذربيجان فتنكر له الامراء وأغروا به السلطان فقتله على باب هرمز في رمضان سنة عشر وأصله تركي من موالي السلطان محمد، وكان عادلاً حسن السيرة. ولما ولي الموصل والجزيرة، وكان الاكراد بتلك الاعمال انتشروا وكثرت قلاعهم وعظم فسادهم فقصدهم، وفتح كثيراً من قلاعهم كبلد البكاريه وبلد الزوزن وبلد النكوسة وبلد التخشيبة، وهربوا منه في الجبال والشعاب والمضايق، وصلحت السابلة وأمن الناس. وأمّا الوزير الكمال أبو طالب الشهيرمي فانه برز مع السلطان دبيس الى همدان، وخرج في موكبه، وضاق الطريق فتقدَّم الموكب بين يديه فوثب عليه باطني وطعنه بسكين فأنفذه، واتبعه الغلمان فوثب عليه آخر فجذبه عق سرجه وطعنه طعنات. وشّردهم الناس عنه

فوثب آخر فجذبه، وذلك لاربع سنين من وزارته. وكان سيئ السيرة ظلوما غشوماً كثير المصادر. ولما قتل رفع السلطان ما كان أحدث من المكوس.

رجوع طغرل الى طاعة أخيه السلطان محمود:

قد ذكرنا عصيان طغرل على أخيه السلطان محمود بالريّ سنة ثلاث عشرة، وأن السلطان محمود سار اليه وكبسه فلحق برجهان. ثم لحق منها بكنجة وبلاد أرّان، ومعه أنابك كبغري فاشتدّت شوكته، وقصد التغلب على بلاد اذربيجان، وهلك كبغري في شوّال سنة خمس عشرة، ولحق باقسنقر الارمني صاحب مراغة ليقيم له الاتابكية، وحرضه على قتال السلطان محمود فسار معه الى مراغة، ومروا باردبيل فامتنعت عليهم فساروا الى هرمز. وجاءهم الخبر

هنالك بأنّ السلطان محمود بعث الامير حيوس بك الى أذربيجان وأقطعه البلاد، وأنه وصل الى مراغة في عسكر كثيف فساروا عن هرمز الى خونج ، وانتقض عليهم وراسلوا الامير بشيركين الذي كان أتابك طغرل أيام أبيه يستنجد به. وكان كبغري الاتابك قبض عليه بعد السلطان محمد، ثم أطلقه السلطان سنجر، وعاد الى أبهر وزنجان، وكانت أقطاعه فأجاب داعيهم، وسار أمامهم الى أبهر، ولم يتم

أمرهم فراسلوا السلطان في الطاعة، وعاد طغرل الى أخيه وانتظم أمرهم.

مقتل وزير السلطان محمود:

وكان وزير السلطان محمود شمس الملك بن نظام الملك، وكان حظيا عنده

فكثرت سعاية أصحابه فيه. وكان ابن عمه الشهاب أبو المحاسن وزير السلطان سنجر فتوفي، واستوزر سنجر بعده أبا طاهر القمي، عدواً لبني نظام الملك فأغرى السلطان سنجر حتى أمر السلطان محمود بنكبته فقبض عليه، ودفعه الى طغرل فحبسه بقلعة جلجلال. ثم قتله بعد ذلك، وكان أخوه نظام الدين أحمد قد استوزره المسترشد، وعزل به جلال الدين أبا علي بن صدقه فلما بلغه نكبة شمس الملك ومقتله، عزل أخاه نظام الدين وأعاد الإبن صدقة إلى وزارته والله سبحانه وتعالى أعلم.

ظفر السلطان بالكرج:

ثم وفد سنة سبع عشرة على السلطان محمود جماعة من أهل دنباوند وشروان يستصرخونه على الكرج، ويشكون ما يلقون منهم فسار لصريخهم. ولما تقارب الفئتان همّ السلطان بالرجوع، وأشار به وزيره شمس، وتطارح عليه أهل شروان فأقام وباتوا على وجل. ثم وقع الاختلاف بين الكرج وقفجاق واقتتلوا ليلتهم ورحلوا منهزمين وعاد السلطان إلى همدان والله تعالى أعلم.

عزل البرسقي عن شحنة العراق وولاية برتقش الزكوي:

كان الخليفة المسترشد قد وقعت بينه وبين دبيس بن صدقة حروب شديدة بنواحي المباركة من أطراف غانة، وكان البرسقي معه وانهزم دبيس فيها هزيمة شنيعة كما مّر في أخباره وقصد غزنة صريخاً فلم يصرخوه فقصد المنتفق، وسار بهم الى البصرة فدخلوها واستباحوها، وقتلوا سلمان نائبها فأرسل الخليفة الى البرسقي بالنكير

على اهمال أمر دبيس، حتى فتك في البصرة فسار البرسقي اليه، وهرب دبيس فلحق بالإفرنج وجاء معهم لحصار حلب فامتنعت فلحق بطغرل بن السلطان محمد يستحثه لقصد العراق كما مر ذلك في أخبار دبيس. وبقيت في نفس المسترشد عليه. ولحق بها أمثالها فتنكر له، وبعث الى السلطان محمود في عزله فعزله، وأمره بالعود الى الموصل لجهاد الإفرنج، ووصل نائب برتقش الى بغداد وأقام بها الشحنة، وبعث السلطان ابناً له صغيراً ليكون معه على الموصل، وسار البرسقي به، ووصل الموصل وقام بولايتها.بداية أمر بني اقسنقر وولاية عماد الدين زنكي علي البصرة:

كان عماد الدين زنكي في جملة البرسقي، ولما أقطعه السلطان واسط بعث عليها زنكي فأقام فيها أياماً . ثم كان مسير البرسقي الى البصرة في أتباع دبيس. فلما هرب دبيس عنها بعث البرسقي اليها عماد الدين زنكي فأقام بحمايتها، ودفع العرب عنها. ثم استدعاه البرسقي عندما سار الى الموصل فضجر من تلوّن الاحوال عليه، واختار اللحاق باصفبان فقدم عليه باصفبان فأكرمه السلطان، وأقطعه البصرة، وعاد إليها سنة ثمان عشرة والله تعالى أعلم.

استيلاء البرسقي على حلب:

لما سار دبيس الى الإفرنج حرّضه على حلب، وان ينوب فيها عنهم، ووجدهم

قد ملكوا مدينة صور، وطمعوا في بلاد المسلمين. وساروا مع دبيس الى حلب فحاصروها حتى جهد أهلها الحصار، وبها يومئذ تاس بن ، ابن ارتق فاستنجد بالبرسقي صاحب الموصل، وشرط عليهم ان يمكنوه من القلعة، ويسلموها إلى نوابه. وسار الى انجادهم فاجفل عنهم

الإفرنج، ودخل الى حلب فأصلح أمورها. ثم سار إلى كفرطاب فملكها من الإفرنج. ثم سار الى قلعة إعزاز من أعمال حلب، وصاحبها جوسكين فحاصرها وسارت اليه عساكر الإفرنج فانهزم، وعاد الى حلب فخلف فيها ابنه مسعوداً، وعبر الفرات إلى الموصل.

مسير طغرل ودبيس الى العراق:

ولما ارتحل الإفرنج عن حلب فارقهم دبيس، ولحق بالملك طغرل فتلقاه بالكرامة والميرة، وأغراه بالعراق، وضمن له ملكه فساروا لذلك سنة تسع عشرة، وانتهوا إلى دقوقا فكتب مجاهد الدين بهرام بن تكريت الى المسترشد يخبرهم فتجهز للقائهم وأمر برتقش الزكوي ان يتجهز معه خامس صفر وانتهى الى الخالص ، وعدل طغرل ودبيس الى طريق خراسان، ثم نزلوا رباط جلولاء. ونزل الخليفة بالدسكرة ، في مقدّمته الوزير جلال الدين بن صدقة. وسار دبيس الى جسر النهروان لحفظ المقابر، وقد كان رأيه مع طغرل أن يسير طغرل الى بغداد فيملكها، وتقدّم دبيس في انتظاره فقعد به المرض عن لحاقه وغشيتهم أمطار أثقلتهم عن الحركات. وجاء دبيس الى النهروان طريحا من التعب والبرد والجوع. واعترضوا ثلاثين حملا للخليفة جاءت من بغداد بالملبوس والمأكول فطعموا وأكلوا وناموا في دفء الشمس، واذا بالمسترشد قد طلع عليهم في عساكره، بلغه الخبر بأن دبيساً وطغرل خالفوه الى بغداد فاضطرب عسكره، واجفلوا راجعين الى بغداد فلقوا في طريقهم

دبيساً كما ذكرنا على دبال غرب النهروان، وقف الخليفة عليه فقبل دبيس الارض، واستعطف حتى همّ الخليفة بالعفو عنه، ثم وصل الوزير ابن صدقة فثناه عن رأيه، ووقف دبيس مع برتقش الزكوي يحادثه. ثم شغل الوزير بمدّ الجسر للعبور فتسلل دبيس، ولحق بطغرل. وعاد المسترشد الى بغداد، ولحق طغرل ودبيس بهمدان فعاثوا في أعمالها، وصادروا أهلها. وخرج إليهم السلطان محمود فانهزموا بين يديه، ولحقوا بالسلطان سنجر بخراسان شاكين من المسترشد برتقش الشحنة والله أعلم بغيبه وأحكم.

مقتل البرسقي وولاية ابنه عز الدين على الموصل:

ثم إن المسترشد تنكر للشحنة برتقش وتهدده فلحق بالسلطان محمود في رجب

سنة عشرين فأغراه بالمسترشد، وخوفه غائلته، وانه تعود الحروب، وركب العيث ويوشك أن يمتنع عنك ويستصعب عليك فاعتزم السلطان على قصد العراق، وبعث إليه الخليفة يلاطفه في الرد لغلاء البلاد وخرابها، ويؤخره إلى حين صلاحها فصدق عنده حديث الزكوي، وسار مجدّا فعبر المسترشد بأهله وولده، وأولاد الخلفاء إلى الجانب الغربي في ذي القعدة راحلا عن بغداد، والناس باكون لفراقه. وبلغ ذلك إلى السلطان فشق عليه، وأرسل يستعطفه في العودة إلى داره فشرط عليه الرجوع عن العراق في القوت كما شرط أوّلا فغضب السلطان، وسار نحو بغداد، والخليفة بالجانب الغربي، ثم أرسل خادمه عفيفا إلى واسط يمنع عنها نواب السلطان فسار إليه عماد الدين زنكي من البصرة، وهزمه وفتك في عسكره قتلاً وأسراً. وجمع المسترشد السفن إليه وسد أبواب قصره، ووكل حاجب الباب أبن الصاحب بدار الخلافة ووصل السلطان إلى بغداد في عشر من ذي الحجة، ونزل باب الشماسية وأرسل المسترشد في العود والصلح، وهو يمتنع. وجرت بين العسكرين مناوشة. ودخل جماعة من عسكر السلطان إلى دار الخليفة، ونهبوا التاج أول المحّرم سنة إحدى وعشرين وخمسمائة فضج العامة لذلك، ونادوا بالجهاد، وخرج المسترشد من سرادقه ينادي بأعلى صوته. وضربت الطبول ونفخت البوقات، ونصب الجسر وعبر الناس دفعة، وعسكر السلطان مشتغلون بالنهب في دور الخلافة والأمراء، وكان في دار الخلافة ألف رجل كامنون في السرداب فخرجوا عند ذلك، ونالوا من عسكر السلطان وأسروا جماعة من أمرائه. ونهب العامة دور وزير السلطان وأمرائه وحاشيته، ومثل منهم خلق وعبر المسترشد إلى الجانب الشرقي في ثلاثين ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد. ودفع السلطان وعسكره عن بغداد، وحفر عليها الخنادق، واعتزموا على كبس السلطان فأخافهم أبو الهيجاء الكردي صاحب اربل ركب للقتال فلحق بالسلطان، ووصل عماد الدين زنكي من البصرة في جيش عظيم في البّر والبحر أذهل الناس برؤيته فحام المسترشد عن اللقاء. وتردّد الرسل بينهما فأجاب إلى الصلح، وعفا السلطان عن أهل بغداد، وأقام بها إلى عاشر ربيع الآخر. وأهدى إليه المسترشد سلاحا وخيلا وأموالا، ورحل إلى همدان. وولى زنكي بن اقسنقر شحنة بغداد ثقة بكفايته، واستقامت أحواله مع الخليفة. وأشار به أصحابه ورأوا أنه يرقع الخرق، ويصلح الأمر فولاه على ذلك مضافا إلى ما بيده من البصرة وواسط، وسار إلى همدان، وقبض في طريقه على وزيره أبي القاسم علي بن الناصر الشادي اتهمه بممالأة المسترشد لكثرة سعيه

في الصلح فقبض عليه، واستدعى شرف الدولة أنوشروان بن خالد من بغداد فلحقه بأصبهان في شعبان، واستوزره عشرة أشهر، ثم عزله ورجع إلى بغداد، وبقي أبو القاسم محبوسا إلى أن جاء السلطان سنجر إلى الريّ فأطلقه وأعاده إلى وزارة السلطان محمود آخر اثنتين وعشرين.وفاة عز الدين بن البرسقي وولاية عماد الدين زنكي علي الموصل وأعمالها ثم استيلاؤه علي حلب:

ولما استولى عز الدين على الموصل وأعمالها، واستفحل أمره طمحت همته إلى الشام فاستأذن السلطان في المسير إليه. وسار إلى دمشق ومرّ بالرحبة فحاصرها وملكها. ثم مات إثر ذلك وهو عليها، وافترقت عساكره وشغلوا عن دفنه. ثم دفن بعد ذلك ورجعت العساكر إلى الموصل، وقام بالأمر مملوكه جاولي. ونصب أخاه الأصغر، وأرسل إلى السلطان يطلب تقرير الولاية له. وكان الرسول في ذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي الشهرزوري، وصلاح الدين محمد الباغسياني أمير حاجب البرسقي، واجتمعا بنصير الدين جعفر مولى عماد الدين زنكي، وكان بينه وبين صلاح الدين سر فخوفهما جعفر ابن جاولي، وحملهما على طلب عماد الدين زنكي، وضمن لهما عنه الولايات والاقطاع فأجابوه، وجاء بهما إلى الوزير شرف الدين أنو شروان بن خالد فقالا له انّ الجزيرة والشام قد تمكن منهما الإفرنج، من حدود ماردين إلى عريش مصر. وكان البرسقي يكفهم وقد قتل وولده صغير، ولا بد للبلد ممن يضطلع بأمرها ويدفع عنها، وقد خرجنا عن النصيحة إليكم فبلغ الوزير مقالتهما إلى السلطان فأحضرهما واستشارهما فذكرا جماعة: منهم عماد الدين زنكي، وبذلا عنه مقرباً إلى خزانة السلطان مالا جزيلاً فولاه السلطان لما يعلم من كفايته، وولى مكانه شحنة العراق مجاهد الدين بهروز صاحب تكريت، وسار عماد الدين زنكي فبدأ بالبوازيج وملكها، ثم سار إلى الموصل وتلقاه جاولي مطيعا وعاد إلى الموصل في خدمته فدخلها في رمضان، واقطع جاولي الرحبة وبعثه إليها، وولى نصير الدين جعفراً قلعة الموصل وسائر القلاع، وجعل صلاح الدين محمد الباغسياني أمير صاحب، وولى بهاء الدين الشهرزوري قضاء بلاده جميعا، وزاده أملاكاً وأقطاعاً وشركه في رأيه ثم سار إلى جزيرة ابن عمر، وقد امتنع بها مماليك البرسقي فجد في قتالهم وكانت دجلة تحول بينه وبين البلد فعبر بعسكره الماء سبحاً، واستولى على المسافة التي بين دجلة والبلد، وهزم من كان فيها من الحامية حتى أحجزهم بالبلد وضيق حصارهم فاستأمنوا وأمنهم. ثم سار إلى نصيبين وهي لحسام الدين تمرتاش ابن أبي الغازي صاحب ماردين فحاصرها واستنجد حسام الدين ابن عمه

ركن الدولة داود بن سكمان بن أرتق صاحب كيفا فأنجده بنفسه، وأخذ في جمع العساكر. وبعث تمرتاش ماردين إلى نصيبين يعرّف العساكر بالخبر، وأنّ العساكر واصلة إليهم عن خمسة أيام، وكتبه في رقعة وعلقها في جناح طائر فاعترضه عسكر زنجي وصادوه، وقرأ زنكي الرقعة، وعوض الخمسة أيام بعشرين يوما، وأطلق الطائر بها إلى البلد فقرؤا الكتاب وسقط في أيديهم، واستطالوا العشرين، واستأمنوا لعماد الدين زنكي فأمنهم وملك نصيبين، وسار عنها إلى سنجار فملكها صلحا، وبعث العساكر إلى الخابور فملكها. ثم سار إلى حرّان وخرج إليه أهل البلد بطاعتهم، وكانت الرها وسروج والميرة ونواحيها للافرنج، وعليها جرسكين صاحب

الرها فكاتب زنكي وهادنه ليتفرّغ للجهاد بعد. ثم عبر الفرات إلى حلب في المحّرم سنة اثنتين وعشرين، وقد كان عز الدين مسعود بن اقسنقر البرسقي لما سار عنها إلى الموصل بعد قتل أبيه استخلف عليها قرمان من أمرائه. ثم عزله بآخر اسمه قطلغ أبه وكتب له إلى قرمان فمنعه الا أن يرى العلامة التي بينه وبين عز الدين ابن البرسقي فعاد قطلغ إلى مسعود ليجيء بالعلامة فوجده قد مات بالرحبة، فعاد إلى حلب وأطاعه رئيسها فضائل بن بديع والمقدّمون بها، واستنزلوا قرمان من القلعة على ألف دينار أعطوه إياها، وملك قطلغ القلعة منتصف إحدى وعشرين. ثم ساءت سيرته، وظهر ظلمه وجورهو وكان بالمدينة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، وكان ملكها قبل، وخلع عنها فدعاه الناس إلى البيعة وثاروا بقطلغ فامتنع بالقلعة فحاصروه. وجاء مهيار صاحب منبج وحسن صاحب مراغة لإصلاح أمرهم فلم يتفق، وطمع الإفرنج في ملكها. وتقدّم جوسكين بعسكره إليها فدافعوه بالمال. ثم وصل صاحب أنْطاكِية فحاصرهم إلى آخر السنة، وهم محاصرون القلعة فلما ملك عماد الدين زنكي الموصل والجزيرة والشام فأطاعوا، وسار عبد الجبار وقطلغ إلى عماد الدين بالموصل وأقام أحد الأميرين بحلب حتى بعث عماد الدين زنكي صاحبه صلاح الدين محمد الباغسياني في عسكر فملك القلعة ، ورتب الأمور، وولى عليها. وجاء عماد الدين بعساكره في أثره، وملك في طريقه منبج ومراغة. ثم دخل حلب، وأقطع أعمالها الأجناد والأمراء، وقبض على قطلغ ابه، وسلمه لابن بديع فكحله فمات. واستوحش ابن بديع فهرب إلى قلعة جعفر، وأقام عماد الدين مكانه في رئاسة حلب أبا الحسن علي بن عبد الرزاق.

قدوم السلطان سنجر إلى الريّ ثم قدوم السلطان محمود إلى بغد اد:

الموصل طغرل ودبيس إلى السلطان سنجر بخراسان. حرضه دبيس على العراق والسلطان

محمود قد اتفقا على الامتناع منه فسار سنجر وأخبر السلطان محمود باستدعائه فوافاه لأقرب وقت، وأمر العساكر بتلقيه وأجلسه معه على التخت. وأقام السلطان محمود عند إلى آخر اثنتين وعشرين. ثم رجع سنجر إلى خراسان، بعد أن أوصى محمود بدبيس، وأعاده إلى بلده، ورجع محمود إلى همذان. ثم سار إلى العراق، وخرج الوزير للقائه، ودخل بغداد في تاسوعاء سنة ثلاث وعشرين. ثم لحقه دبيس بمائة ألف دينار في ولاية الموصل، وسمع بذلك زنكي، وجاء إلى السلطان وحمل المائة ألف مع هدايا جليلة فخلع عليه، وأعاده وسار منتصف السنة عن بغداد إلى همذان، بعد أن ولى الحلة مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد.

وفاة السلطان محمود وملك ابنه د اود:

ثم توفي السلطان محمود بهمذان في شوّال سنة خمس وعشرين، لثلاث عشرة سنة من ملكه، بعد أن كان قبض على جماعة من أمرائه وأعيان دولته. منهم عزيز الدولة أبو نصر أحمد بن حامد المستوفي، وأبو شكين المعروف بشيركين بن حاجب، وابنه عمر، فخافهم الوزير أبو القاسم الشابادي فاغرى بهم السلطان فنكبهم وقتلهم. ولما توفي اجتمع الوزير أبو القاسم والأتابك اقسنقر الأحمديلي وبايعوا لابنه داود، وخطبوا له في جميع بلاد

الجبل وأذربيجان. ووقعت الفتنة بهمذان وسائر بلاد الجبل. ثم سكنت وهرب الوزير إلى الريّ مستجيراً بالسلطان فأمّر بها.

منازعة السلطان مسعود لد اود ابن أخيه واستيلاؤه على السلطان بهمذان:

لما هلك السلطان محمود سار أخوه مسعود من جرجان إلى تبريز فملكها، فسار داود من همذان في ذي القعدة سنة خمس وعشرين، وحاصره بتبريز في محّرم سنة ست وعشرين. ثم اصطلحوا وتأخر داود عن الأمر لعمه مسعود فسار مسعود من تبريز إلى همذان، وكاتب عماد الدين زنكي صاحب الموصل يستنجده فوعده بالنصر، وأرسل إلى المسترشد في طلب الخطبة ببغداد. وكان

داود أرسل في ذلك قبله، وردّ المسترشد الأمر في الخطبة إلى السلطان سنجر. ودسّ إليه أن لا يأذن لواحد منهما، وأن تكون الخطبة له فقط. وحسن موقع ذلك عنده، وسار السلطان مسعود إلى بغداد، وسبقه إليها أخوه سلجوق شاه مع أتابك قراجا الساقي صاحب فارس وخوزستان، ونزل في دار السلطان ، واستخلفه الخليفة لنفسه. ولما سار السلطان مسعود أوعز إلى عماد الدين زنكي أن يسير إلى بغداد فسار من الموصل إليها، وأنتهى السلطان مسعود إلى عباسة الخالص، وبرزت إلية عساكر المسترشد وسلجوق شاه. وسار قراجا الساقي إلى مدافعة زنكي فدافعه على المعشوق فهزمه، وأسر كثيراً من أصحابه، ومرّ منهزما إلى تكريت، وبها يومئذ نجم الدين أيوب أبو الأملاك الايوبية فهيأ له المعابر، وعبر دجلة إلى بلاده. وسار السلطان مسعود من العباسة، وقاتلت طلائعه طلائع أخيه سلجوق، وبعث سلجوق يستحث قراجا بعد انهزام زنكي فعاد سريعاً

. وتأخر السلطان مسعود بعد هزيمة زنكي، وأرسل إلى المسترشد بأنّ عمه سنجر وصل إلى الريّ عازما على بغداد، ويشير بمدافعته عن العراق، وتكون العراق لوكيل الخليفة. ثم تراسل القوم واتفقوا على ذلك، وتحالفوا عليه، وان يكون مسعود السلطان ولّ العهد، ودخلوا إلى بغداد فنزل مسعود ديار السلطان وسلجوق دار الشحنة، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

هزيمة السلطان محمود وملك طغرل أخيه:

لما توفي السلطان محمود سار السلطان سنجر من خراسان إلى بلاد الجبال، ومع طغرل ابن أخيه محمد، وانتهى إلى الريّ. ثم سار إلى همذان فسار مسعود لقتاله، ومعه قراجا الساقي وسلجوق شاه. وقد كان الخليفة عزم أن لا يتجهز معهم فأبطأ فبعثوا اليه قراجا فسار إلى خانقين وأقام، وقطعت خطبة سنجر من العراق. وخالفهم إلى بغداد دبيس وزنكي، وقد سمي اقطاعه لسنجر الحلة، وزنكي ولاه شحنة بغداد فرجع المسترشد إلى بغداد لموافقتهما. وسار السلطان وأخوه سلجوق شاه للقاء سنجر. ثم سمعا بكثرة عساكره فتأخرا فسار في طلبهم يوما وليلة. ثم تراجعوا عند الدينور. وكان مسعود يماطل باللقاء انتظارا للمسترشد فلم يجد بّدا من اللقاء فالتقوا على النقيبة، وحمل قراجا عليهم وتورّط في المعركة وأصيب بجراحات. ثم

التفوا عليه وأسروه، وانهزم من أصحاب مسعود قزل وقد كان واطأهم على الهزيمة فانهزم السلطان مسعود عند ذلك منتصف ستة وعشرين، وقتل كثير من أكابر الأمراء. ونزل سنجر في خيامهم، وأحضر قراجا فقتله،

وجيء اليه بالسلطان مسعود فأكرمه وأعاده إلى كنجة، وخطب للملك طغرل ابن أخيه في السلطنة، وخطب له في جميع البلاد. واستوزر له أبا القاسم الساباذي وزير السلطان محمود، وعاد إلى نيسابور آخر رمضان سنة ست وعشرين وخمسمائة.

هزيمة السلطان داود واستيلاء طغرل بن محمد على الملك:

لما وليّ طغرل همذان وولى عنه السلطان سنجر إلى خراسان، وبلغه أن صاحب ما وراء النهر المرخان قد انتقض عليه فسار لإصلاحه، وشغل بذلك فقام الملك داود باذربيجان وبلاد كنجة، وطلب الأمر لنفسه. وجمع العساكر، وسار إلى همذان ومعه برتقش الزكوي وأتابك اقسنقر الأحمديلي، ومعه طغرل بن برسق، ونزل وقد استقر. ثم اضطرب عسكر داود وأحسوا من برتقش الزكوي بالفشل فنهب التركمان. خيامه، وهرب اقسنقر أتابك، وانهزم في رمضان سنة ست وعشرين. ثم قدم بغداد في ذي القعدة ومعه أتابك أقسنقر فأكرمه الخليفة وأنزله بدار السلطان.

عود السلطان مسعود إلى الملك وهزيمة طغرل:

قد تقدم لنا هزيمة السلطان مسعود من عمه سنجر، وعوده الى كنجة، وولاية

طغرل السلطان، ثم محاربة داود ابن أخيه له وانهزام داود، ثم رجوع داود إلى بغداد. فلما بلغ الخبر إلى مسعود جاء إلى بغداد، ولقيه داود قريبا منها، وترجل له عن فرسه، ودخلا بغداد في صفر سنة سبع وعشرين. ونزل مسعود بدار السلطان، وخطب له ولداود بعده، وطلبا من السلطان عسكراً ليسير معهما الى أذربيجان فبعث معهما العساكر الى اذربيجان، ولقيهم اقسنقر الأحمديلي في مراغة بالإقامة والأموال وملك مسعود بلاد أذربيجان، وهرب بين يديه من كان بها من الأمراء، وامتنعوا بمدينة أذربيجان فحاصرهم بها، وملكها عليهم، وقتل منهم جماعة وهرب الباقون.

ثم سار الى همذان لمحاربة أخيه طغرل فهزمه، وملك همذان في شعبان من

السنة، ولحق طغرل بالريّ وعاد إلى أصبهان. ثم قتل اقسنقر الأحمديلي بهمذان غيلة، ويقال انّ السلطان مسعوداً دسّ عليه من قتله. ثم سار إلى حصار طغرل بأصبهان ففارقها طغرل إلى فارس، وملكها مسعود، وسار في أثر طغرل إلى البيضاء فاستأمن اليه بعض أمراء طغرل فأمنه. وخشي طغرل أن يستأمنوا اليه فقصد الريّ

، وقتل في طريقه وزيره أبا القاسم الساباذي في شوّال السنة، ومثل به غلمان الأمير شيركين الذي سعى في قتله كما مرّ. ثم سار الأمير مسعود يتبعه إلى أن تراجعا ودارت بينهما حرب شديدة، وانهزم طغرل وأسر من أمرائه الحاجب تنكي، وأتى بقرا، وأطلقهما السلطان مسعود وعاد إلى همذان والله تعالى أعلم.

عود الملك طغرل إلى الجبل وهزيمة السلطان مسعود:

ولما عاد مسعود من حرب أخيه طغرل بلغه انتقاض داود ابن أخيه محمود بأذربيجان فسار إليه، وحاصره بقلعة ، فحصر جمع طغرل العساكر، وتغلب على بلاده وسار إليه، واستعمل بعض قواده فسار مسعود للقائه، ولقيه

عند قزوين. وفارق مسعود الأمراء الذين استمالهم طغرل، ولحقوا به فانهزم مسعود في رمضان سنة ثمان وعشرين وبعث إلى المسترشد يستأذنه في دخول بغداد فأذن له. وكان أخوه سلجوق بأصبهان مع نائبه فيها البقش السلاحي. فلما سمع بانهزامه سبقه إلى بغداد، وأنزله المسترشد بدار السلطان، وأحسن إليه بالأموال. ووصل مسعود، وأكثر أصحابه رجلا فوسع عليه الخليفة بالانفاق والمراكب والظهر واللباس والآلة، ودخل دار السلطان منتصف شوّال وأقام طغرل بهمذان.

وفاة طغرل واستيلاء مسعود على الملك:

ولما وصل مسعود إلى بغداد حمل إليه المسترشد ما يحتاج إليه، وأمره بالمسير إلى همذان لمدافعة طغرل ووعده بالمسير معه بنفسه فتبطأ مسعود عن المسير، واتصل جماعة من أمرائه بخدمة الخليفة. ثم أطلع على مداخلة بعضهم لطغرل فقبض عليه، ونهب ماله وارتاب الآخرون فهربوا عن السلطان مسعود. وبعث المسترشد في إعادتهم إليه فدافعه ووقعت لذلك بينهما وحشة فقعد المسترشد عن نصره بنفسه. وبينما هم في ذلك وصل الخبر بوفاة أخيه طغرل في المحرم سنة تسع وعشرين فسار مسعود إلى همذان، واستوزر شرف الدين أنو شروان بن خالد حمله من بغداد، وأقبلت إليه العساكر فاستولى على همذان وبلاد الجبل اه.

فتنة المسترشد مع السلطان مسعود ومقتله وخلافة ابنه الراشد:

قد تقدم لنا أن الوحشة وقعت عندما كان ببغداد بسبب أمرائه الذين اتصلوا بخدمة المسترشد، ثم هربوا عنه إلى السلطان مسعود فلما سار السلطان مسعود إلى همذان بعد أخيه طغرل، وملكها استوحش منه جماعة من أعيان أمرائه: منهم برتقش وقزل وقرا سنقر الخمار تكين والي همذان وعبد الرحمن بن طغرلبك ودبيس بن صدقة. وساروا إلى خوزستان ووافقهم صاحبها برسق بن برسق، واستأمنوا إلى الخليفة فارتاب من دبيس، وبعث إلى الآخرين بالأمان مع سديد الدولة بن الأنباري. وارتاب دبيس منهم أن يقبضوا عليه فرجع إلى السلطان مسعود، وسار الآخرون إلى بغداد فاستحثوا المسترشد للمسير إلى قتال مسعود فأجابهم، وبالغ في تكرمتهم وبرز آخر رجب من سنة تسع وعشرين وهرب صاحب البصرة إليها وبعث إليه بالأمان فأبى فتكاسل عن المسير فاستحثوه، وسهلوا له الأمر فسار في شعبان. ولحق به برسق بن برسق، وبلغ عدة عسكره سبعة آلاف، وتخلف بالعراق مع خادمه اقبال ثلاثة آلاف. وكاتبه أصحاب الأطراف بالطاعة، وأبطأ في مسيره فاستعجلهم مسعود، وزحفوا إليه فكان عسكره خمسة عشر ألفا. وتسلل عن المسترشد جماعة من عسكره، وأرسل إليه داود بن محمود من أذربيجان يشير بقصد الدينور والمقام بها حتى يصل في عسكره فأبى واستمرّ في مسيره.وبعث زنكي من الموصل عسكرا فلم يصل حتى تواقعوا . وسار السلطان محمود إليهم مجّداً فوافاهم عاشر رمضان، ومالت ميسرة المسترشد إليه، وانهزمت ميمنته وهو ثابت لم يتحرّك حتى أخذ أسيراً، ومعه الوزير والقاضي وصاحب المحرر وابن الأنباري والخطباء والفقهاء والشهود فأنزل في خيمة، ونهب مخيمه، وحمل الجماعة أصحابه إلى قلعة ترجمعان. ورجع بقية الناس إلى بغداد. ورجع السلطان إلى همذان، وبعث الأمير بك أبه إلى بغداد شحنة فوصلها سلخ رمضان ومعه عميد، وقبضوا أملاك المسترشد وغلاتها

وكانت بينهم وبين العامّة فتنة قتل فيها خلق من العامة. وسار السلطان في شّوال إلى مراغة، وقد ترددت الرسل بينهما في الصلح على مال يؤدّيه المسترشد، وأن لا يجمع العساكر، ولا يخرج من داره لحرب ماعاش، وأجابه السلطان وأذن له في الركوب. وحمل الغاشية، وفارق المسترشد بعض الموكلين به فهجم عليه جماعة من الباطنية فألحموه جراحا وقتلوه، ومثلوا به جدعا وصلبا، وتركوه سليباً في نفر من أصحابه قتلوهم معه، وتبع الباطنية فقتلوا، وكان ذلك منتصف ذي القعدة سنة ست وعشرين لثمان عشر سنة من خلافته. وكان كاتبا بليغا شجاعاً قرماً. ولما قتل بمراغة كتب السلطان مسعود إلى بك أبه شحنة بغداد بأن يبايع لابنه فبويع ابنه الراشد أبو جعفر منصور بعهده إليه لثمانية أيام من مقتله، وحضر بيعته جماعة من أولاد الخلفاء وأبو النجيب الواعظ. وأمّا

اقبال خادم المسترشد فلما بلغه خبر الواقعة، وكان مقيما ببغداد كما قدّمناه عبر إلى الجانب الغربيّ، ولحق بتكريت ونزل على مجاهد الدين بهروز.

فتنة الراشد مع السلطان مسعود:

لما بويع الراشد بعث إليه السلطان مسعود برتقش الزكوي يطالبه بما استقرّ عليه الصلح مع أبيه المسترشد، وهو أربعمائة ألف دينار فأنكر الراشد أن يكون له مال، وانما مال الخلافة كان مع المسترشد فنهب. ثم جمع الراشد العساكر وقدّم عليهم كجراية وشرع في عمارة السور. واتفق برتقش مع بك أبه على هجوم دار الخلافة، وركبوا لذلك في العساكر فقاتلهم عساكر الراشد والعامّة، وأخرجوهم عن البلد إلى طريق خراسان. وسار بك أية إلى واسط، وبرتقش إلى سرخس. ولما علم داود بن محمود فتنة عمه مسعود مع الراشد سار من أذربيجان إلى بغداد في صفر سنة ثلاثين، ونزل بدار السلطان. ووصل بعده عماد الدين زنكي من الموصل، وصدقه بن دبيس من الحلة، ومعه عش بن أبي العسكر يدبر أمره ويديره، وكان أبوه دبيس قد قتل بعد مقتل المسترشد بأذربيجان، وملك هو الحلة.ثم وصل جماعة من أمراء مسعود منهم برتقش بازدار صاحب فروق، والبقش الكبير صاحب أصبهان، وابن برسق وابن الأحمديلي. وخرج للقائهم كجراية والطرنطاي، وكان اقبال خادم المسترشد قد قدم من تكريت فقبض عليه الراشد، وعلى ناصر الدولة أبي عبد الله الحسن بن جهير فاستوحش أهل الدولة، وركب الوزير جلال الدين بن صدقة إلى لقاء عماد الدين زنكي فأقام عنده مستحيراً حتى أصلح حاله مع الراشد. واستجار به قاضي القضاة الزينبي، ولم يزل معه إلى الموصل. وشفع في إقبال فأطلق وسار إليه. ثم جد الراشد في عمارة السور وسار الملك داود لقتال مسعود استخلفه الراشد، واستخلفه عماد الدين زنكي، وقطعت خطبة مسعود من بغداد، وولىّ داود شحنة بغداد برتفش بازدار.ثم وصل الخبر بأنّ سلجوق شاه أخا الأمير مسعود ملك واسط، وقبض على الأميربك أبه فسار الأمير زنكي لدفاعه فصالحه، ورجع وعبر إلى طريق خراسان للحاق داود واحتشد العساكر. ثم سار السلطان مسعود لقتالهم، وفارق زنكي داود ليسير إلى مراغة، ويخالف السلطان مسعود إلى همذان. وبرز الراشد من بغداد أوّل رمضان، وسار إلى

طريق خراسان، وعاد بعد ثلاث. وعزم على الحصار ببغداد واستدعى داود الأمراء ليكونوا معه عنده فجاؤا لذلك، ووصلت رسل السلطان مسعود بطاعة الراشد، والتعريض بالوعيد
للأمراء المجتمعين عنده فلم يقبل طاعة من أجلهم. والله سبحانه وتعالى أعلم.

حصار بغداد ومسير الراشد إلى الموصل وخلعه وخلافة المقتفى:

ثم انّ السلطان مسعوداً أجمع المسير إلى بغداد، وانتهى إلى الملكية فسار زين
الدين علي من أصحاب زنكي حتى شارف معسكره، وقاتلهم ورجع. ونزل السلطان على بغداد. والعيارون أفسدوا سائر المحال ببغداد، وانطلقت أيديهم وأيدي العساكر في النهب، ودام الحصار نيفا وخمسين يوما. تأخر السلطان مسعود إلى النهروان عازما على العود إلى أصبهان فوصله طرنطاي صاحب واسط في سفن كثيرة فركب إلى غربي بغداد فاضطرب الأمراء، وافترقوا وعادوا إلى أذربيجان. وكان زنكي بالجانب الغربي فعبر إليه الراشد، وسار معه إلى الموصل، ودخل السلطان مسعود بغداد منتصف ذي القعدة فسكن الناس، وجمع القضاة والفقهاء وأوقفهم على يمين الراشد التي كتبها بخطه. اني متى جمعت أو خرجت أو لقيت أحدا من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الأمر فأفتوا بخلعه. واتفق أرباب الدولة ممن كان ببغداد ومن أسر مع المسترشد، وبقي من عند السلطان مسعود كلهم على ذمه وعدم أهليته على ما مر في أخباره بين أخبار الخلفاء.وبويع محمد بن المستظهر ولقب المقتفي، وقد قدمت هذه الأخبار بأوسع من ذلك. ثم بعث السلطان العساكر مع قراسنقر لطلب داود فأدركته عند مراغة، وقاتله فهزمه، وملك اذربيجان ومضى داود إلى خوزستان، واجتمع عليه عساكر من التركمان وغيرهم فحاصر تستر، وكان عمه سلجوق بواسط فسار إليه بعد أن أمره أخوه مسعود بالعساكر، ولقي داود على تستر فهزمه داود ثم عزل السلطان وزيره شرف الدين أنوشروان بن خالد، واستوزر كمال الدين أبا البركات بن سلامة من أهل خراسان. ثم بلغه أن الراشد قد فارق الموصل فأذن للعساكر التي عنده ببغداد في العودة إلى بلادهم، وصرف فيهم صدقة بن دبيس صاحب الحلة بعد أن أصهر إليه في ابنته، وقدم عليه جماعة من الأمراء الذين كانوا مع داود منهم البقش السلامي وبرسق بن برسق وصاحب تستر وسنقر الخمارتكين شحنة همذان فرضي عنهم، وأمنهم وعاد إلى همذان سنة إحدى وثلاثين.

الفتنة بين السلطان مسعود وبين د اود الراشد وهزيمة مسعود ومقتل الراشد:

كان الأمير بوزابة صاحب خوزستان، والأمير عبد الرحمن طغرلبك صاحب خلخال، والملك
داود ابن السلطان محمود خائفين من السلطان فاجتمعوا عند الأمير منكبرس صاحب فارس. وبلغهم مسير الراشد من الموصل إلى مراغة فراسلوه في أن يجتمعوا عليه، ويردّوه إلى خلافته فاجابهم. وبلغ الخبر إلى السلطان مسعود فسار إليهم في شعبان سنة اثنتين وثلاثين، وأوقع بهم. وأخذ منكبرس أسيراً فقتله، وافترقت عساكره للنهب فانفرد بوزابة وطغرلبك، وصدقا الحملة عليه فانهزم. وقبض على جماعة من الأمراء مثل صدقة بن دبيس صاحب الحفل، وكافله نمبترين أبي العساكر، وابن أتابك قراسنقر صاحب اذربيجان. وحبسهم بوزابة حتى

تحقق قتل منكبرس.ولحق السلطان مسعود باذربيجان منهزماً، وسار داود إلى همذان فملكها، ووصل إليه الراشد هنالك. وأشار بوزابة وكان كبير القوم بالمسير إلى فارس فساروا معه، واستولى عليها وملكها ولما علم شلجوق شاه وهو بواسط أن أخاه السلطان مسعود أمضى إلى أذربيجان سار هو إلى بغداد ليملكها، ودافعه البقش النحت، ونظم الخادم أمير الحاج. وثار العيارون بالبلدان وأفحشوا في النهب فلما رجع الشحنة استأصل شأفتهم، وأخذ المستورين بجنايتهم فجلا الناس عن بغداد إلى الموصل وغيرها. ولما قتل صدقة بن دبيس أقرّ السلطان مسعود أخاه محمدا على الحلة ومعه مهلهل بن أبي العساكر أخو عش المقتول كما مر في أخباره.ثم لما ملك بوزابة فارس رجع مع الراشد والملك داود، ومعهما خوارزم شاه إلى خوزستان وخربوا الجزيرة فسار إليهم مسعود ليمنعهم عن العراق فعاد الملك داود إلى فارس وخوارزم شاه إلى بلده، وسار الراشد إلى أصبهان فثار به نفر من الخراسانية كانوا في خدمته فقتلوه عند القائلة في خامس عشر رمضان من السنة، ودفن بظاهر أصبهان. ثم قبض السلطان آخر السنة على وزيره أبي البركات بن سلامة الدركريني ، واستوزر بعده كمال الدين محمد بن الخازن، وكان نبيهاً حسن السيرة فرفع المظالم وأزال المكوس، وأقام وظائف السلطان، وجمع له الأموال وضرب على أيدي العمال، وكشف خيانتهم فثقل عليهم وأوقعوا بينه وبين الأمراء فبالغوا في السعاية فيه عند السلطان. وتولّ كبرها قراسنقر صاحب أذربيجان فإنه بعث إلى السلطان يتهدّده بالخروج عن طاعته، فأشار على السلطان خواصه بقتله خشية الفتنة فقتله على كره، وبعث برأسه إلى قراسنقر فرضي.وكان قتله سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة لسبعة أشهر من وزارته، واستوزر بعده أباالعز طاهر بن محمد اليزدجردي وزير قراسنقر، ولقب عز الملك، وضاقت الأمور على السلطان وأقطع البلاد للأمراء. ثم قتل السلطان البقش السلاحي الشحنة بما ظهر منه من الظلم والعسف فقبض عليه وحبسه بتكريت عند مجاهد الدين بهروز. ثم أمر بقتله فلما قرب

للقتل ألقى نفسه في دجلة فمات، وبعث برأسه إلى السلطان فقدّم مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد فحسن أثره. ثم عزله السلطان سنة ست وثلاثين، وولّ فيها قرلي أميراً آخراً من موالي السلطان محمود، وكانت له يزدجرد والبصرة فأضيف له إليهما والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه.

فتنة السلطان سنجر مع خوارزم شاه:

وهو أوّل بداية بني خوارزم قد تقدم لنا ذكر أولية محمد خوارزم شاه، وهو محمد بن أبي شتكين، وانّ خوارزم شاه لقب له، وأنّ الأمير داود حبشي لما ولاه بركيارق خراسان وقتله إكنجي وليّ محمد بن ابي شتكين، ووليّ بعده ابنه أتسز فظهرت كفاءته، وقربه السلطان سنجر واستخلصه واستظهر به في حروبه فزاده ذلك تقدماً ورفعة، واستفحل ملكه في خوارزم. ونمي للسلطان سنجر انه يريد الاستبداد فسار إليه سنة ثلاث وثلاثين، وبرز أتسز ولقيه في التعبئة فلم يثبت وانهزم، وقتل من عسكره خلق، وقتل له ابن فحزن عليه حزناً شديداً. وملك سنجر خوارزم وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ابن أخيه محمد، ورتب له وزيراً وأتابك وحاجباً،

وعاد إلى مرو منتصف السنة فخالفه أتسز إلى خوارزم، وهرب سليمان شاه ومن معه إلى سنجر، واستولى أتسز على خوارزم وكان من أمره ما يذكر بعد إن شاء الله تعالى.

استيلاء قراسنقر صاحب أذربيجان على بلاد فارس:

ثم جمع أتابك قراسنقر صاحب أذربيجان، وبرز طالبا ثأر أبيه الذي قتله بوزابة في المصاف كما مر. وأرسل السلطان مسعود في قتل وزيره الكمال فقتله كما مر فانصرف عنه إلى بلاد فارس، وتحصن عنه بوزابة في القلعة البيضاء ووطئ قراسنقر البلاد وملكها، ولم يمكنه مقام فسلمه لسلجوق شاه ابن السلطان محمود وهو أخو السلطان مسعود، وعاد إلى اذربيجان فنزل بوزابة من القلعة سنة أربع وثلاثين، وهزم سلجوق شاه وأسره وحبسه ببعض قلاعه واستولى على البلاد. ثم هلك قراسنقر صاحب اذربيجان وأران بمدينة أردبيل، وكان من مماليك طغرل، وولي مكانه جاولي الطغرلي ، والله سبحانه ولي التوفيق.

مسير جهان دانكي إلى فارس:

ثم أمر السلطان سنة خمس وثلاثين الأمير اسمعيل جهان دانكي فسار إليها، ومنعها مجاهد الدين بهروز من الوصول، واستعدّ لذلك بخسف المعابر وتغريقها فقصد الحلة فمنعها أيضاً فقصد واسط، فقاتله طرنطاي وانهزم، ودخل واسط ونهبها، ونهب النعمانية وما إليها، واتبعهم طرنطاي إلى البطيحة، ثم فارقه عسكره إلى طرنطاي فلحق بتستر وكتب اسمعيل إلى السلطان فعفا عنه

.

هزيمة السلطان سنجر أمام الخطا واستيلاؤهم على ما وراء النهر:

وتلخيص هذا الخبر من كتاب ابن الأثيرأن أتسز بن محمد ملك خوارزم واستقر بها فبعث إلى الخطا، وهم أعظم الترك فيما وراء النهر، وأغراهم بمملكة السلطان سنجر، واستحثهم لها فساروا في ثلاثمائة ألف فارس. وسار سنجر في جميع عساكره وعبر إليهم النهر، ولقيهم سنة ست وثلاثين واقتتلوا أشد قتال. ثم انهزم سنجر وعساكره وقتل منهم مائة ألف فيهم أربعة آلاف امرأة، وأسرت زوجة السلطان سنجر ولحق سنجربترمذ، وسار منها إلى بلخ. وقصد أتسز مدينة مرو فدخلها مراغماً للسلطان وفتك فيها، وقبض على جماعة من الفقهاء والأعيان. وبعث السلطان سنجر إلى السلطان مسعود يأذن له في النصر وفي الريّ ليدعوه ان احتاج إليه فجاء عباس صاحب الريّ بذلك إلى بغداد. وسار السلطان مسعود إلى الريّ امتثالا لأمر عمه سنجرقال ابن الأثير: وقيل إنّ بلاد تركستان وهي كاشغر وبلاد سامسون وجبى وطرازوغيرها مما وراء النهر، كانت بيد الخانية وهم مسلمون من نسل مراسيان ملك الترك المعروف خبره مع ملوك الكينيّة، وأسلم جدهم الأول سبق قراخان، لأنه رأى في منامه أنّ رجلا نزل من السماء وقال له بالتركية ما معناه: أسلم تسلم في الدنيا والآخرة، وأسلم في منامه، ثم أسلم في يقظته. ولما مات ملك مكانه موسى بن سبق، ولم يزل الملك في عقبه إلى أرسلان خان بن سليمان بن داود بن بقرخان بن إبرهيم طغاج خان بن ايلك نصر بن أرسلان بن علي بن موسى بن سبق فخرج عليه قردخان وانتزع الملك منه. ثم نصر سنجر وقتل قردخان، وخرج بعد ذلك خوارزم ونصره

السلطان سنجر منهم وأعاده إلى ملكه، وكان في جنده نوع من الأتراك يقال لهم القارغلّية، والأتراك الغزية الذين نهبوا خراسان على ما نذكره بعد. وهم صنفان: صنف يقال لهم حق وأميرهم طوطي بزداديك، وصنف يقال لهم برق وأميرهم برغوث بن عبد الحميد.وكان لأرسلان نصر خان شريف يصحبه من أهل سمرقند، وهو الأشرف بن محمد بن أبي شجاع العلوي فحمل ابن أرسلان نصرخان، وطلبوا انتزاع الملك منه فاستصرح السلطان سنجر فعبر إليه في عساكره سنة أربع وعشرين وخمسمائة وانتهى إلى سمرقند فهرب القارغلية أمامه، وعاد إلى سمرقند فقبض على أرسلان خان وحبسه ببلخ فمات بها، وولى على سمرقند مكانه قلج طمقاج أبا المعالي الحسن بن علي بن عبد المؤمن، ويعرف بحسن تكر من أعيان بيت الخانية. إلا أن أرسلان خان اطرحه فولاه سنجر، ولم تطل أيامه فولى بعده ابن أرسلان خان، وأبوه هو الذي ملك سمرقند من يده وهو ابن أخت سنجر.وكان في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة قد خرج كوهرخان من الصين إلى حدود كاشغر في جموع عظيمة، وكوهر الأعظم بلسانهم، وخان السلطان فمعناه أعظم ملك. ولقيه صاحب كاشغر أحمد بن الحسن الخان فهزمه، وقد كان خرج قبله من الصين أترا الخطا، وكانوا في خدمة الخانيّة أصحاب تركسان. وكان أرسلان خان محمد بن سليمان يترلهم على الدروب بينه وين الصين مسالح، ولهم على ذلك جرايات وإقطاعات. وسخط عليهم بعض السنين وعاقبهم بما عظم عليهم فطلبوا فسيحا من البلاد يأمون فيه من أرسلان خان لكثرة ما كان يغزوهم، ووصفت لهم بلاد سامسون فساروا إليها ولما خرج كونان من الصين ساروا إليه واجتمعوا عليه. ثم ساروا جميعاً إلى بلاد ما وراء النهر، ولقيهم الخان محمود بن أرسلان خان محمد في حدود بلاده في رمضان سنة إحدى وثلاثين فهزموه وعاد إلى سمرقند، وعظم الخطب على أهلها وأهل بخارى. واستمدّ محمود السلطان سنجر، وذكر ما لقي السلطان من العنت، واجتمع عنده ملوك خراسان. وملك سجستان من بني خلف، وملك غزنة من الغوريين، وملك مازندران، وعبر النهر للقاء الترك في أكثر من ألف وذلك لآخر خمس وثلاثين وخمسمائة.وشكا إليه محمود خان من القارغليّة فقصدهم، واستجاروا بكوهرخان ملك الصين فكتب إلى سنجر بالشفاعة فيهم فلم يشفعه، وكتب إليه يدعوه للإسلام ويتهدده بكثرة العساكر فأهان الرسول وزحف للقاء سنجر. والتقى الجمعان بموضع يسمى قطران خاص صفر سنة ست وثلاثين، وأبلى القارغليّة من الترك وصاحب سجستان من المسلمين. ثم انهزم المسلمون فقتل كثير منهم، وأسر صاحب سجستان والأمير قماج وزوجة السلطان سنجر فأطلقهم كوهرخان ومضى السلطان سنجر منهزما. وملك الترك الكفار والخطا بلاد ما وراء النهر إلى أن مات كوهرخان ملكهم سنة سبع وثلاثين، ووليت بعده ابنته. ثم ماتت قريباً وملكت أمّها من بعدها وهي زوجة كوهرخان وابنة محمد. وصار ما وراء النهر بيد الخطا إلى أن غلبهم عليه عماد الدين محمد خوارزم شاه سنة اثنتي عشرة وستمائة.

أخبار خوارزم شاه بخراسان وصلحه مع سنجر:

ولما عاد السلطان منهزما سار خوارزم شاه إلى سرخس في ربيع سنة ست وثلاثين فأطاعته، ثم إلى مرو الشاهجان فشفع فيهم الإمام أحمد الباخرزي، ونزل بظاهرها. وبينما هو قد استدعى أبا الفضل الكرماني

وأعيان أهلها للشورى ثار عامّة البلد وقتلوا من كان عندهم من جنده، وامتنعوا فطاولها ودخلها عنوة، وقتل كثيراً من علمائها. ثم رجع في شوّال من السنة إلى نيسابور، وخرج إليه علماؤها وزهادها يسألون معافاتهم مما نزل بأهل مرو فأعفاهم، واستصفى أصحاب السلطان، وقطع خطبة سنجر. وبعث عسكرا إلى أعمال صغد فقاتلوهم أياماً ، و لم يطق سنجر مقاومته لمكان الخطا وجوارهم له. ثم سار السلطان سنجر سنة ثمان وثلاثين لقتال خوارزم، وحاصرها أياما وكاد يملكها، واقتحمها بعض أمرائه يوما فدافعه أتسز بعد حروب شديدة. ثم أرسل أتسز إلى سنجر بالطاعة والعود إلى ما كان عليه فقبله وعاد سنة ثمان وثلاثين.

صلح زنكي مع السلطان مسعود:

ثم وصل السلطان مسعود سنة ثمان وثلاثين إلى بغداد ، عادته فتجهز لقصد الموصل، وكان يحمل لزنكي جميع ما وقع من الفتن فبعث إليه زنكي يستعطفه مع أبي عبد الله بن الأنباري، وحمل معه عشرين ألف دينار، وضمن مائة ألف على أن يرجع عنه فرجع، وانعقد الصلح بينهما. وكان مما رغب السلطان في صلحه أن ابنه غازي بن زنكي هرب من عند السلطان خوفا من أبيه فردّه إلى السلطان، و لم يجتمع به فوقع ذلك من السلطان أحسن موقع والله تعالى أعلم.

انتقاض صاحب فارس وصاحب الريّ:

كان بوزابة صاحب فارس وخوزستان كما قدمنا فاستوحش من السلطان مسعود فانتقض سنة أربعين وخمسمائة، وبايع لمحمد بن محمود، وهو ابن أخي السلطان مسعود، وسار إلى مامشون، واجتمع بالأمير عباس صاحب الريّ ووافقه على شأنه. واتصل به سليمان شاه أخو السلطان مسعود، وتغلبوا على كثير من بلاده فسار إليهم من بغداد في رمضان السنة، ومعه الأمير ُطغابرك حاجبه، وكان له التحكم في الدولة والميل إلى القوم. واستخلفه وسار فلما تقاربوا للحرب نزع السلطان شاه عنهم إلى أخيه مسعود، وسعى عبد الرحمن في الصلح

فانعقد بينهما على ما أحبه القوم، وأضيف إلى عبد الرحمن ولاية اذربيجان وأرّان إلى خلخال عوضا من جاولي الطغرلي، واستوزر أبا الفتح بن دراست وزير بوزابة. وقد كان السلطان سنة تسع وثلاثين قبض على وزيره اليزدجردي، واستوزر مكانه المرزبان بن عبد الله بن نصر الأصبهاني، وسلم إليه اليزدجردي واستصفى أمواله. فلما كان هذه السنة وفعل بوزابة في صلح القوم ما فعل اعتضد بهم على مقامه عند السلطان وتحكم عليه وعزل وزيره واستوزر له أبا الفتح هذا.

مقتل طغابرك وعباس:

قد قدّمنا أن طغابرك وعبد الرحمن تحكما على السلطان واستبدّا عليه، ثم آل أمره

إلى أن منعا بك أرسلان المعروف بابن خاص بك بن البتكري من مباشرة السلطان، وكان تربته وخاصاً به ونجيّ خلوته. وتجهز طغابرك لبعض الوجوه فحمله في جملته فأسّر السلطان إلى أرسلان الفتك بطغابرك وداخل رجال العسكر في ذلك فأجاب منهم زنكي جاندار أن يباشر قتله بيده، ووافق بك أرسلان جماعة من الأمراء،

واعترضوا له في موكبه فضربه الجاندار فصرعه عن فرسه، وأجهز عليه ابن خاص بك، ووقف الأمراء الذين واطؤه على ذلك دون الجاندار فمنعوه، وكان ذلك بظاهر صهوة. وبلغ الخبر إلى السلطان مسعود ببغداد، ومعه عباس صاحب الريّ في جيش كثيف فامتعض لذلك ونكره فداراه السلطان حتى سكن. وداخل بعض الأمراء في قتله فأجابوه وتولى كبر ذلك البقش حروسوس للحف، وأحضر السلطان عبّاساً وأدخله في داره وهذان الأميران عنده، وقد أكمنوا له في بعض المخادع رجالا وعدلوا به إلى مكانهم فقتلوه، ونهبت خيامه وأصاخت البلاد لذلك، ثم سكنت. وكان عبّاس من موالي السلطان محمود، وكان عادلا حسن السيرة، وله مقامات حسان في جهاد الباطنية. وقتل في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين ثم ، حبس السلطان أخاه سليمان شاه في قلعة تكريت، وسار عن بغداد إلى أصبهان والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

مقتل بوزابة صاحب فارس:

قد تقدّم لنا أنّ طغابرك كان مستظهرا على السلطان بعبّاس صاحب الريّ وبوزابة صاحب فارس وخوزستان، فلما قتل طغابرك وامتعض له عبّاس قتل أثره، وانتهى الخبر إلى بوزابة فجمع العساكر وسار إلى أصبهان سنة اثنتين وأربعين فحاصرها، وبعث عسكراً آخراً لحصار همذان وآخراً إلى قلعة الماهكي من بلاد اللحف من قلاع البقش كوزخر فسار إليها، ودفعهم عنها. ثم سار بوزابة عن أصبهان لطلب السلطان مسعود فامتنع وتراجفا بمرج مزاتكن، واشتدّ القتال بينهما، وكبا الفرس ببوزابة وسيق إلى السلطان فقتل بين يديه، وقيل أصابه سهم فسقط ميتا وانهزمت عساكره، وكان هذا الحرب من أعظم الحروب بين السلجوقية.

انتقاض الأمراء على السلطان:

ولما قتل طغابرك وعباس وبوزابة اختص بالسلطان ابن خاص بك لميله إليه، وأطرح بقية الأمراء فاستوحشوا وارتابوا بأنفسهم أن يقع بهم ما وقع بالآخرين ففارقوه، وساروا نحو العراق أبو ركن المسعودي صاحب كنجة وارّان والبقش كوزحر صاحب الجبل، والحاجب خريطاي المحمودي شحنة واسط، وابن طغابرك والركن وقرقوب ومعهم ابن أخي السلطان وهو محمد بن محمود، وانتهوا إلى حرّان فاضطرب الناس ببغداد وغلت الأسعار. وبعث إليهم المقتفي بالرجوع فلم يرجعوا، ووصلوا إلى بغداد في ربيع الآخر من سنة ثلاث وأربعين ونزلوا بالجانب الشرقي، وهرب أجناد مسعود شحنة بغداد إلى تكريت، ووصل إليهم علي بن دبيس صاحب الجبلة ونزل بالجانب الغربي، وجمع الخليفة العساكر. ثم قاتل العامة عساكر الأمراء فاستطردوا لهم، ثم كروا عليهم فملؤوا الأرض بالقتلى. ثم جاست خيولهم خلال الديار فنهبوا وسبوا. ثم جاؤا مقابل التاج يعتذرون، وردّدوا الرسل إلى الخليفة سائر يومهم. ثم ارتحلوا من الغد إلى النهروان فعاثوا فيها. وعاد مسعود من بلاد تكريت إلى بغداد. ثم افترق الأمراء وفارقوا العراق، ثم عاد البقش كوزحر والطرنطاي وابن دبيس سنة أربع وأربعين، ومعهم ملك شاه بن محمود، وهو ابن أخي السلطان وطلبوا من الخليفة الخطبة لملك شاه فأبى، وجمع العساكر وشغل بما كان فيه من أمر عم السلطان سنجر. وذلك أن السلطان سنجر بعث إليه يلومه في تقديم

ابن خاص بك ويأمره بإبعاده، وتهدّده فغالطه و لم يفعل فسار إلى الريّ فبادر إليه مسعود وترضاه فرضي عنه.
ولما علم البقش كوز حر مراسلة
المقتفي لمسعود نهب ألنهروان، وقبض على علي بن دبيس. وسار السلطان بعد لقاء عمه إلى بغداد فوصلها منتصف شوّال سنة أربع وأربعين فهرب الطرنطاي إلى النعمانية، ورحل البقش إلى النهروان بعد أن أطلق علي بن دبيس فجاء إلى السلطان واعتذر فرضي عنه.

وفاة السلطان مسعود وولاية ملك شاه ابن أخيه محمود ثم أخيه محمد من بعده:

ثم توفي السلطان مسعود بهمذان في رجب منتصف سبع وأربعين لاثنتين وعشرين
سنة من طلبه الملك، وبه كمل استفحال ملك السلجوقية، وركب الخمول دولتهم بعده،وكان عهد إلى ملك شاه ابن أخيه محمود فلما توفي بايع له الأمير ابن خاص بك وأطاعه العسكر، وانتهى خبر موته إلى بغداد فهرب الشحنة بلاك إلى تكريت، وأمر المقتفي بالحوطة على داره ودور أصحاب السلطان مسعود. ثم بعث السلطان ملك شاه، عسكر الى الجبلة مع سلاد كرد من أمرائه فملكها، وسار إليه بلاك الشحنة فخادعه حتى استمكن منه فقبض عليه وغرّقه، واستبد بلاك الشحنة بالجبلة. وجهز المقتفي العساكر مع الوزير عون الدين بن عبيرة إلى الجبلة. وبعث عساكراً إلى الكوفة وواسط فملكهما ووصلت عساكر السلطان ملك شاه فملكوها، وسار إليهم الخليفة بنفسه فارتجعها منهم وسار منها الى الجبلة ثم إلى بغداد آخر ذي القعدة من السنة.ثم إنّ ابن خاص بك طمع في الانفراد بالأمر فاستدعى محمد بن محمود من خوزستان فأطمعه في الملك ليقبض عليه وعلى أخيه ملك شاه فقبض على ملك شاه أولاً لستة أشهر من ولايته، ووصل محمد في صفر من سنة ثمان وأربعين فأجلسه على التخت وخطب له بالسلطنة وحمل إليه الهدايا، وقد سعى للسلطان محمد بما انطوى عليه ابن خاص بك. فلما باكره صبيحة وصوله فتك به وقتله وقتل معه زنكي الجاندار قاتل طغابرك، وأخذ من أموال ابن خاص بك كثيراً، وكان صبيا كما بينا، اتصل بالسلطان مسعود وتنصح له فقدمه على سائر العساكر والأمراء. وكان أنوغري التركي المعروف بشملة في جملة ابن خاص بك ومن أصحابه، ونهاه عن الدخول إلى السلطان محمد فلما قتل ابن خاص بك نجا شملة إلى خوزستان، وكان له بها بعد ذلك ملك والله أعلم بغيبه وأحكم.

الغز

تغلب الغز على خراسان وهزيمة السلطان سنجر وأسره

كان هؤلاء الغز فيما وراء النهر، وهم شعب من شعوب الترك، ومنهم كان السلجوقية أصحاب
هذه الدولة، وبقوا هنالك بعد عبورهم، وكانوا مسلمين فلما استولى الخطا على ملك الصين وعلى ما وراء النهر حجر هؤلاء الغزّ إلى خراسان، وأقاموا بنواحي بلخ. وكان لهم من الأمراء محمود ودينار وبختيار وطوطي وأرسلان ومعز. وكان

صاحب بلخ الأمير قماج فتقدّم إليهم أن يبعدوا عن بلخ فصانعوه فتركهم، وكانوا يعطون الزكاة ويؤمنون السابلة. ثم عاد إليهم في الانتقال فامتنعوا وجمعوا فخرج إليهم في العساكر وبذلوا له مالا فلم يقبل وقاتلوه فهزموه، وقتلوا العسكر والرعايا والفقهاء وسبوا العيال، ونجا قماج إلى مرو، وبها السلطان سنجر فبعث إليهم يتهدّدهم ويأمرهم بمفارقة بلاده فلاطفوه وبذلوا له فلم يقبل. وسار إليهم في مائة ألف فهزموه وأثخنوا في عسكره، وقتل علاء الدين قماج، وأسروا السلطان سنجر ومعه جماعة من الأمراء فقتلوا الأمراء واستبقوا السلطان سنجر وبايعوه، ودخلوا معه إلى مرو فطلب منه بختيار إقطاعها فقال: هي كرسي خراسان فسخروا منه. ثم دخل سنجر خانقاه فقسط على الناس وأطرهم وعسفهم، وعلق في الأسواق ثلاث غرائر وطالبهم بملئها ذهبا فقتله العامّة، ودخل الغز نيسابور ودمّروها تدميرا، وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوها، وقتلوا القضاة والعلماء في كل بلد. ولم يسلم من خراسان غير هراة وسبستان لحصانتهما. وقال ابن الأثير عن بعض مؤرّخي العجم: إن هؤلاء الغز انتقلوا من نواحي التغرغر من أقاصي الترك إلى ما وراء النهر أيام المقتفي وأسلموا، واستظهر بهم المقنّع الكنديّ على مخارقه وشعوذته حتى تمّ أمره فلما سارت إليه العساكر خذلوه وأسلموه، وفعلوا مثل ذلك مع الملوك الخانية. ثم طردهم الأتراك القارغلية عن إقطاعهم فاستدعاهم الأمير زنكي بن خليفة الشيباني المستولي على حدود طخارستان، وأنزلهم بلاده واستظهر بهم على قماج صاحب بلخ، وسار بهم لمحاربته فخذلوه لأنّ قماج كان استمالهم فانهزم زنكي وأسر هو وابنه وقتلهما قماج وأقطع الغز في بلاده. فلما سار الحسين بن الحسين الغوري إلى بلخ برز إليه قماج ومعه هؤلاء الغز فخذلوه، ونزعوا عنه إلى الغوري حتى ملك بلخ فسار السلطان سنجر إلى بلخ وهزم الغوري واستردّها، وبقي الغّز بنواحي طخارستان. وفي نفس قماج حقد عليهم فأمرهم بالانتقال عن بلاده فتألفوا وتجمّعوا في طوائف من الترك، وقدموا عليهم أرسلان بوقاء التركي، ولقيهم قماج فهزموه وأسروه وابنه أبا بكر وقتلوهما واستولوا على نواحي بلخ وعاثوا فيها. وجمع السلطان سنجر وفي مقدمته محمد بن أبي بكر بن قماج المقتول والمؤيد ابنه في محرم سنة ثمان وأربعين. وجاء السلطان سنجر على أثرهم وبعثوا إليه بالطاعة والأموال فلم يقبل منهم، وقاتلهم فهزموه إلى بلخ. ثم عاود قتالهم فهزموه إلى مرو واتبعوه فهرب هو وعسكره من مرو رعباً منهم، ودخلوا البلد وأفحشوا فيه قتلا ونهبا، وقتلوا القضاة والأئمة والعلماء.

ولما خرج سنجر من مرو وأسروه أجلسوه على التخت على عادته وآتوه طاعتهم. ثم عاودوا الغارة على مرو فمنعهم أهلها وقاتلوهم، ثم عجزوا واستسلموا فاستباحوها أعظم من الأولى. ولما أسر سنجر فارقه جميع أمراء خراسان ووزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك، ووصلوا إلى نيسابور واستدعوا سليمان شاه بن السلطان محمود، وخطبوا له بالسلطان في منتصف السنة، واجتمعت عليه عساكر خراسان وساروا لطلب الغزّ فبارزوهم على مرو، وانهزمت العساكر رعباً منهم، وقصدوا نيسابور والغز في اتباعهم، ومرّوا بطوس فاستباحوها وقتلوا حتى العلماء والزهاد، وخربوا حتى المساجد ثم ساروا إلى نيسابور في شوّال سنة تسع وأربعين ففعلوا فيها أفحش من طوس حتى ملؤا البلاد من القتلى، وتحصن طائفة بالجامع الأعظم من العلماء

والصالحين فقتلوهم عن آخرهم، وأحرقوا خزائن الكتب. وفعلوا مثل ذلك في جوين واسفراين فحاصروهما واقتحموهما مثل ما فعلوا في البلاد الأخرى. وكانت، أفعال الغز في هذه البلاد أعظم وأقبح من أفعال الغز في غيرها. ثم انّ السلطان سليمان شاه توفي وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك في شوّال سنة ثمان وأربعين فاستوزر ابنه نظام الملك وانحلّ أمره وعجز عن القيام بالملك فعاد إلى جرجان في صفر سنة تسع وأربعين فاجتمع الأمراء وخطبوا للخان محمود بن محمد بن بقراخان وهو ابن أخت سنجر، واستدعوه فملكوه في شوّال من السنة وساروا معه لقتال الغز وهم محاصرون هراة فكانت حروبه معهم سجالا، وأكثر الظفر للغز. ثم رحلوا عن هراة إلى مرو منتصف خمسين، وأعادوا مصادرة أهلها. وسار الخان محمد إلى نيسابور وقد غلب عليها المؤيد كما يذكر فراسل الغز في الصلح فصالحوه في رجب.

استيلاء المؤيد علي نيسابور وغيرها:

هذا المؤيد من موالي سنجر واسمه... وكان من أكابر أوليائه ومطاعاً فيهم ولما كانت هذه الفتنة، وافترق أمر الناس بخراسان تقدم... فاستولى على نيسابور وطوس ونسا ، وان ورد وشهرستان والدامغان وحصنها، ودافع الغز عنها، ودانت له الرعية لحسن سيرته فعظم شأنه وكثرت جموعه. واستبدّ بهذه الناحية وطالبه الخان محمود عندما ملكوه بالحضور عنده وتسليم البلاد فامتنع. وتردّدت الرسل بينهما على مال يحمله للخان محمود فضمنه المؤيد وكف عنه محمود، واستقر الحال على ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء ايتاخ علي الريّ:

وكان إيتاخ من موالي السلطان سنجر، وكانت الريّ أيضا من أعمال سنجر فلما كانت فتنة الغز لحق بالريّ واستولى عليها، وصانع السلطان محمد شاه بن محمود صاحب همذان وأصبهان وغيرهما وبذل له الطاعة فأقّره فلما مات السلطان محمد مدّ يده إلى أعمال تجاوزته، وملكها فعظم أمره، وبلغت عساكره عشرة آلاف فلما ملك سليمان شاه همذان على ما نذكره. وقد كان أنس به عند ولاية سليمان على خراسان سار إليه، وقام بخدمته وبقي مستبداً بتلك البلاد، والله سبحانه وتعالى أعلم الخبرعن سليمان شاه وحبسه بالموصل:

كان سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملك شاه عند عمه السلطان سنجر، وجعله وليّ عهده، وخطب له على منابر خراسان فلما وقعت فتنة الغز وأسر سنجر قدمه أمراء خراسان على أنفسهم. ثم عجز ومضى إلى خوارزم شاه فزّوجه ابنة أخيه، ثم سعى به عنده فأخرجه من بلده، وجاء إلى أصبهان فمنعه الشحنة من الدخول فمضى إلى قاشان، فبعث السلطان محمد شاه ابن أخيه محمود عسكرا ليدفعه عنها فسار إلى خوزستان فمنعه ملك شاه منها فقصد اللحف ونزل. وأرسل المقتفي في أثره فطلبه في زوجته رهينة ببغداد فبعث بها مع جواريها وأتباعها فأكرمهم المقتفي، وأذن له في القدوم وخرج الوزير ابن هبيرة وقاضي القضاة والفتيان لتلقيه، وخلع عليه المقتفي وأقام ببغداد. حتى إذا دخلت سنة إحدى وخمسين أحضر بدار الخلافة، وحضر قاضي القضاة والأعيان واستحلف على الطاعة والتجافي للخليفة عن العراق، وخطب له ببغداد ولقب ألقاب أبيه، وأمدّ بثلاثة آلاف من العسكر، وجعل معه الأمير دوران أمير حاجب صاحب الجبلة. وسار إلى بلاد

الجبل في ربيع الأوّل من السنة، وسار المقتفي إلى حلوان وبعث إلى ملك شاه بن السلطان محمود يدعوه إلى موافقة عمه سليمان شاه، وأن يكون وليّ عهده فقدم في ألفي فارس وتحالفا وأمدّهما المقتفي بالمال والأسلحة، واجتمع معهم ايلد كز صاحب كنجة وأرانية، وساروا لقتال السلطان محمد فلما بلغه خبرهم أرسل إلى قطب الدين مودود بن زنكي ونائبه زين الدين علي كوجك في المساعدة والارتفاق فأجاباه، وسارا للقاء عمه سليمان شاه ومن معه، واقتتلوا في جمادى الأولى فهزمهما السلطان محمد وافترقوا، وتّوجه سليمان شاه إلى بغداد على شهرزور وكانت لصاحب الموصل، وبها الأمير بوران من جهة علي كوجك نائب

الموصل فاعترضه هنالك كوجك وبوران فاحتمله كوجك إلى الموصل فحبسه بها، وبعث إلى السلطان محمد بالخبر وانه على الطاعة والمساعدة فقبل منه وشكر.له

فرار سنجر من أسر الغز:

قد تقدّم لنا ما كان من أسر السلطان سنجر بيد الغز وافتراق خراسان، واجتما ع

الأمراء بنيسابور وما إليها على الخان محمود بن محمد، وامتنعوا من الغز، وامتنع أتسز بن محمد أنوشكين بخوارزم وانقسمت خراسان بينهم، وكانت الحرب بين الغز وبينهما سجالاً ثم هرب سنجر من أسر الغز وجماعة من الأمراء كانوا معه في رمضان سنة إحدى وخمسين ولحق بترمذ. ثم عبر جيحون إلى دار ملكه بمرو فكانت مدّة أسره من جمادى سنة ثمان وأربعين ثلاث سنين وأربعة أشهر. ولم يتفق فراره من الأسر إلا بعد موت علي بك مقدّم القارغلية لأنه كان أشدّ شيء عليه. فلما توفي انقطعت القارغلية إليه وغيرهم ووجد فسحة في أمره والله سبحانه وتعالى أعلم.

حصار السلطان محمد بغداد:

كان السلطان محمد بن محمود لأّول ولايته الملك بعد عمه مسعود بعث إلى المقتفي في الخطبة له ببغداد والعراق على عادتهم، فمنعه لما رجا من ذهاب دولتهم استفحالهم واستبدادهم، فسار السلطان من همذان في العساكر نحو العراق، ووعده صاحب الموصل ونائبه بمدد العساكر فقدم آخر إحدى وخمسين. وبعث المقتفي في الحشد فجاء خطا وفرس في عسكر واسط. وخالفهم مهلهل إلى الجبلة فملكها، واهتم المقتفي وابن هبيرة بالحصار، وقطع الجسر وجمع السفن تحت التاج، ونودي في

الجانب الغربي بالعبور فعبروا في محرم سنة اثنتين وخمسين. وخرب المقتفي ما وراء الخرسة صلاحا في استبداده. وكذلك السلطان محمد من الجهة الأخرى ونصبت المنجنيقات والعرّادات، وفّرق المقتفي السلاح على الجند والعامة.

وجاء زين الدين كجك في عسكر الموصل، ولقي السلطان علي أوانا، واتصلت الحرب واشتدّ الحصار وفقدت الأقوات وانقطعت المواد عن أهل بغداد، وفتر كجك وعسكره في القتال أدبا مع المقتفي. وقيل أوصاه بذلك نور الدين محمود بن زنكي أخو قطب الدين الأكبر. ثم جاء الخبر بأنّ ملك شاه أخا السلطان محمد وايلدكز صاحب ارّان وربيبه أرسلان بن طغرل قصدوا همذان فسار عن بغداد مسرعا إلى همذان آخر ربيع الأول،

وعاد زين الدين إلى الموصل. ولما وصل ملك شاه وايلدكز وربيبه أرسلان إلى همذان أقام بها قليلا، وسمعوا بمجيء السلطان فاجفلوا، وساروا إلى الريّ فقاتلهم الشحنة انبانج فهزموه

وحاصروه. وأمده السلطان محمد بعسكر بن سقمس بن قماز فوجدهم قد أفرجوا عنه، وقصدوا بغداد فقاتلهم فهزموه، ونهبوا عسكره فسار السلطان محمد ليسابقهم إلى بغداد. فلما انتهى إلى حلوان بلغه أن ايلدكز بالدينور. ثم وافاه رسول انبانج بأنه ملك همذان وخطب له فيها، وان شملة صاحب خراسان هرب عن ايلدكز وملك شاه إلى بلاده فعاد إلى أرّان، ورجع السلطان إلى همذان قاصدا للتجهز إلى بلاد ايلدكز باران.

وفاة سنجر:

ثم توفي السلطان سنجر صاحب خراسان في ربيع سنة اثنتين وخمسين، وقد كان

ولي خراسان منذ أيام أخيه بركيارق. وعهد له أخوه محمد فلما مات محمد خوطب بالسلطنة، وكان الملوك كلهم بعدها في طاعته نحو أربعين سنة. وخطب له قبلها بالملك عشرين سنة، وأسره الغز ثلاث سنين ونصف، ومات بعد خلاصه من الأسر، وقطعت خطبته ببغداد والعراق. ولما احتضر استخلف على خراسان ابن أخته محمد بن محمود بن بقراخان فأقام بجرجان، وملك الغز مرو وخراسان، وملك به المؤيد نيسابور وناحيته من خراسان، وبقي الأمر على هذا الخلاف سنة أربع وخمسين، وبعث الغز إلى محمود الخان ليحضر عندهم فيملكوه فخافهم على نفسه، وبعث ابنه إليهم فأطاعوه مدّة ثم لحق هو بهم كما نذكر بعد.

منازعة ايتاق للمؤيد:

كان إيتاق هذا من موالي السلطان سنجر فلما كانت الفتنة، وافترق الشمل، ومات السلطان سنجر، وملك المؤيد نيسابور، وحصل له التقدم بذلك على عساكر خراسان حسده جماعة من الأمراء، وانحرف عنه إيتاق هذا فتارة يكون معه وتارة يكون في مازندران. فلما كان سنة اثنتين وخمسين سار من مازندران في عشرة آلاف فارس من المنحرفين عن المؤيد، وقصد نسا وابيورد، وأقام بها المؤيد ايتاق فسار إليه وكبسه وغنم معسكره. ومضى إيتاق منهزما إلى مازندران، وكان بين ملكها رستم وبين أخيه علي منازعة فتقرب إيتاق إلى رستم بقتال أخيه علي فوجد لذلك غلبة ودفعه عنه، وسار يتردد في نواحي خراسان بالعيث والفساد. وألح على

اسفراين فخربها. وراسله السلطان محمود الخان والمؤيد في الطاعة والاستقامة فامتنع، فساروا إليه في العساكر في صفر سنة ثلاث وخمسين فهرب إلى طبرستان، وبعث رستم شاه مازندران إلى محمود والمؤيد بطاعته، بأموال جليلة وهدية فقبلوا منه، وبعث إيتاق ابنه رهنا على الطاعة فرجعوا عنه واستقرّ بجرجان ودستان وأعمالها.

منازعة سنقر العزيزي للمؤيد ومقتله:

كان سنقر العزيزي من أمراء السلطان سنجر، وكان في نفسه من المؤيد ما عند الباقين فلما شغل المؤيد بحرب إيتاق سار سنقر من عسكر السلطان محمود بن محمد إلى هراة فملكها، واشترط عليه أن يستظهر بملك الغورية

الحسين فأبى وطمع في الاستبداد لما رأى من استبداد الأمراء على السلطان محمود بن محمد فحاصره المؤيد بهراة، واستمال الأتراك الذين كانوا معه فأطاعوه، وقتلوا سنقر العزيزي غيلة. وملك السلطان محمد هراة، ولحق الفل من عسكر سنقر بإيتاق وتسلطوا على طوس وقراها، واستولى الخراب على البلاد والله تعالى أعلم.

فتنة الغز الثانية بخراسان وخراب نيسابور على يد المؤيد:

كان الغز بعد فتنتهم الأولى أوطنوا بلخ ونزعوا عن النهب والقتل بخراسان، وانفقت الكلمة بها على طاعة السلطان محمود بن محمد الخان وكان القائم بدولته المؤيد

أبوابه . فلما كان سنة ثلاث وخمسين في شعبان سار الغز إلى مرو فزحف المؤيد إليهم، وأوقع طائفة منهم وتبعهم إلى مرو وعاد إلى سرخس، وخرج معه الخان محمود لحربهم فالتقوا خامس شوّال وتواقعوا مرارا ثلاثا انهزم فيها الغز على مرو وأحسنوا السيرة وأكرموا العلماء والأئمة. ثم أغاروا على سرخس وطوس

واستباحوهما وخربوهما، وعادوا إلى مرووأمّا الخان محمود بن محمد فسار إلى جرجان ينتظر مآل أمرهم، وبعث إليه الغز سنة أربع وخمسين يستدعونه ليملكوه فاعتذر لهم خشية على نفسه، فطلبوا منه جلال الدين عمر فتوثق منهم بالحلف، وبعثه إليهم فعظموه وملكوه في ربيع الآخر من سنة أربع ثم سار أبوه محمود إلى خراسان وتخفف عنه المؤيد أبوابه وانتهى إلى حدود نساوا بيورد فولى عليهم الأمير عمر بن حمزة النسوي فقام في حمايتهما المقام المحمود بظاهر نسا. ثم سار الغز من نيسابور إلى طوس لامتناع أهلها من طاعتهم فملكوها واستباحوها

وعادوا إلى نيسابور فساروا مع جلال الدين عمر بن محمود الخان إلى حصار سارورا وبها النقيب عماد الدين محمد بن يحيى العلوي الحسيني فحاصروه، وامتنعت عليهم فرجعوا إلى نسا وأبيورد للقاء الخان محمود بجرجان كما قدمناه، فخرج منها سائرإلى خراسان واعترضه الغز ببعض القرى في طريقه فهرب منه وأسر بعضهم. ثم هرب منه ولحق بنيسابور. فلما جاء الخان محمود إليها مع الغز فارقها منتصف شعبان ودخلها الغز وأحسنوا السيرة، وساروا إلى سرخس ومرو فعاد المؤيد في عساكره إلى نيسابور، وامتنع أهلها عليه فحاصرها وافتتحها عنوة وخربها، ورحل عنها إلى سبق في شوّال سنة أربع وخمسين.ستيلاء ملك شاه بن محمود على خوزستان:

ولما رجع السلطان ملك شاه محمد بن محمود من حصار بغداد، وامتنع الخليفة

من الخطبة له أقام بهمذان عليلاً، وسار أخوه ملك شاه إلى قم وقاشان فأفحش في نهبها ومصادرة أهلها، وراسله أخوه السلطان محمد في الكف عن ذلك فلم يفعل، وسار إلى أصبهان وبعث إلى ابن الجمقري وأعيان البلد في طاعته فاعتذروا بطاعة أخيه فعاث في قراها ونواحيها، فسار السلطان إليه من همذان، وفي مقدمته كرجان الخادم فافترقت جموع ملك شاه ولحق ببغداد. فلما انتهى إلى قوس لقيه موبذان وسنقر الهمذاني فأشاراعليه بقصد خوزستان من بغداد، فسار إلى واسط ونزل بالجانب الشرقي، وسار أثر عسكره في النواحي ففتحوا عليهم البثوق وغرق كثير منهم. ورجع ملك شاه إلى خوزستان فمنعه شملة من العبور فطلب الجوار في بلده إلى أخيه السلطان فمنعه فتزل على الأكراد الذين هنالك، فاجتمعوا عليه من الجبال والبسائط، وحارب

شملة، ومع ملك شاه سنقر الهمذاني وموبذان وغيرهما من الأمراء فانهزم شملة، وقتل عامة أصحابه، واستولى ملك شاه على البلاد وسار إلى فارس، والله هو المؤيد بنصره.

وفاة السلطان محمد وولاية عمه سليمان شاه:

ثم توفي السلطان محمد بن محمود بن ملك شاه آخر سنة أربع وخمسين، وهو الذي حاصر بغداد يطلب الخطبة له من الخليفة ومنعه فتوفي آخر هذه السنة لسبع سنين ونصف من ولايته. وكان له ولد صغير فسلمه إلى سنقر الأحمديلي وقال: هو وديعة عندك فأوصل به

إلى بلادك فإنّ العساكر لا تطيعه فوصل به إلى مراغة، واتفق معظم الجند على البيعة لعمه سليمان شاه. وبعث أكابر الأمراء بهمذان إلى أتابك أ،، زين الدين مودود أتابك ووزير مودود وزيره فأطلقه مودود، وجهزه بما يحتاج إليه في سلطانه وسار معه زين الدين على كجك في عساكر الموصل. فلما انتهى إلى بلاد الجبل، وأقبلت العساكر للقاء سليمان شاه ذكر معاملتهم مع السلطان ودالتهم عليه فخشي على نفسه، وعاد إلى الموصل، ودخل سليمان شاه همذان وبايعوا له والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة المقتفي وخلافة المستنجد:

ثم توفي المقتفي لأمر الله في ربيع الأول سنة خمس وخمسين لأربع وعشرين سنة

من خلافته، وقد كان استبد في خلافته وخرج من حجر السلجوقية عند افتراق أمرهم بعد السلطان مسعود كما ذكرناه في أخبار الخلفاء، ولما توفي بويع بعده بالخلافة ابنه المستنجد فجرى على سنن أبيه في الاستبداد، واستولى على بلاد الماهلي ونزل اللحف، وولى عليها من قبله كما كانت لأبيه، وقد تقدم ذكر ذلك في أخبارهما انتهى.

اتفاق المؤيد مع محمود الخان:

قد كنا قدمنا أنّ الغز لما تغلبوا استدعوا محمود الخان ليملكوه فبعث إليهم بابنه عمر فملكوه. ثم سار محمود من جرجان إلى نسا وجاء الغز فساروا به إلى نيسابور فهرب عنها المؤيد ودخلها محمود والغز، ثم ساروا عنها فعاد إليها المؤيد فحاصرها وملكها عنوة وخربها في شوال سنة أربع وخمسين. ورحل عنها إلى سرخس فعاد إليها المؤيد فحاصرها وملكها عنوة ورحل عنها إلى بيهق. ثم رجع إليها سنة خمس وخمسين وعفر خرابها وبالغ في الإحسان إليها. ثم سار لإصلاح أعمالها ومحو آثار المفسدين والثوّار من نواحيها ففتح حصن أشقيل، وقتل الثوار الزيدية وخربه، وفتح حصن خسروجور من أعمال بيهق وهو من بناء كنجرو ملك الفرس أيام حربه مع جراسياق، وملكه ورتب فيه الحامية وعاد إلى نيسابور. ثم قصد مدينة كندر من أعمال طرسا وفيها متغلب اسمه خرسدة يفسد السابلة ويخرب الأعمال ويكثر الفتك، وكان البلاء به عظيما في خراسان فحاصره. ثم ملك عليه الحصن عنوة وقتله وأراح البلاد منه. ثم قصد في رمضان من السنة مدينة بيهق، وكانوا قد

عصوا عليه فراجعوا الطاعة وقبلهم واستفحل أمره فأرسل إليه الخان محمود بن محمد وهو مع الغز بالولاية على نيسابور وطوس وما إليها فاتصلت يده به واستحكم الصلح بينه وبين الغز وذهبت الفتن.

الحرب بين عسكر خوارزم شاه والأتراك البرزية:

كان هؤلاء الأتراك البرزية من شعوب الترك بخراسان، وأميرهم بقراخان بن داود

فأغار عليهم جمع من عساكر خوارزم شاه وأوقعوا بهم وفتكوا فيهم، ونجا بقراخان في الفل منهم إلى السلطان محمود بخراسان ومن معه من الغز مستصرخاً بهم، وهو يظن أن أيتاق هو الذي هيج عليهم فسار الغز معه على طريق نسا وابيورد، وقصدوا إيتاق فلم يكن له بهم قّوة فاستنصر.. شاه مازندران فسار لنصره واحتشد في أعماله من الأكراد والديلم والتركمان وقاتلوا الغز والبرزية ، بنواحي دهستان فهزمهم خمسا. وكان إيتاق في ميمنة شاه مازندان، وأفحش الغز في قتل عسكرهم، ولحق شاه مازندان بسارية وايتاق شهرزور وخوارزم. ثم ساروا إلى دهستان فنهبوها وخربوها سنة ست وخمسين وخربوا جرجان كذلك، وافترق أهلها في البلاد. ثم سار إيتاق إلى بقراتكن المتغلب على أعمال قزوين فانهزم من بين يديه ولحق بالمؤيد وصار في جملته واكتسح إيتاق سائر أعماله ونهب أمواله فقوي بها.

وفاة ملك شاه بن محمود:

قد قدمنا أن ملك شاه بن محمود سار بعد أخيه السلطان محمد من خوزستان إلى أصبهان، ومعه شملة التركماني ودكلا صاحب فارس فأطاعه ابن الخجندي رئيس أصبهان وسائر أهلها وجمع له الأموال. وأرسل ملك شاه إلى أهل الدولة بأصبهان يدعوهم إلى طاعته وكان هواهم مع عمه سليمان فلم يجيبوه إلى ذلك، وبعثوا عن سليمان من الموصل وملكوه، وانفرد ملك شاه بأصبهان واستفحل أمره، وبعث إلى المستنجد في الخطبة له ببغداد مكان عمه سليمان شاه، وان تعاد الأمور إلى ما كانت ويتهدّدهم فوعد الوزير عميد الدين بن هبيرة جارية جاعلها على سمه فسمته في الطعام، وفطن المطبب بأنه مسموم، وأخبر بذلك شملة ودكلا فاحضروا الجارية وأقرت ومات ملك شاه، وأخرج أهل أصبهان أصحابه وخطبوا لسليمان شاه. وعاد شملة إلى خراسان فارتجع ما كان ملك شاه تغلب عليه منها.

قتل سليمان شاه والخطبة لأرسلان:

كان سليمان لما ملّك أقبل على اللهو ومعاقرة الخمر حتى في نهار رمضان، وكان بعاشر الصفاعين والمساخر، وعكف على ذلك مع ما كان فيه من الخرق والتهور فقعد الأمراء عن غشيان بابه، وشكوا إلى شرف الدين كردبازه الخادم، وكان مدبر مملكته، وكان حسن التربية والدين فدخل عليه يوما يعذله على شأنه وهو مع ندمائه بظاهر همذان، فأشار إليهم أن يعبثوا بكردبازة فخرج مغضبا، واعتذر إليه عندما صحا فأظهر له القبول وقعد عن غشيان مجلسه. وكتب سليمان شاه إلى انبانج صاحب الريّ يدعوه إلى الحضور فوعده بذلك إذا أفاق من مرضه. وزاد كردبازة استيحاشاً فاستحلف الأمراء على خلع سليمان، وبدأ بقتل جميع الصفاعين الذين كانوا ينادمونه وقال: إنما فعلته صونا لملكك. ثم عمل دعوة في داره فحضر سليمان شاه والأمراء، وقبض على سليمان شاه ووزيره أبي القاسم محمود بن عبد العزيز الحاقدي وعلى خواصه، وذلك في شوّال سنة خمس وخمسين، وقتل وزيره وخواصه، وحبس سليمان شاه قليلا ثم قتله.ثم أرسل إلى ايلدكز صاحب

أرّان واذربيجان يستقدم ربيبه أرسلان بن طغرل ليبايع له بالسلطنة، وبلغ الخبر إلى انبانج صاحب الريّ فسار إلى همذان، ولقيه كردبازة وخطب له بالسلطنة بجميع تلك البلاد، وكان ايلدكز قد تزوج بأم أرسلان، وولدت له ابنه البهلوان محمد ومزد أرسلان عثمان فكان ايلدكز أتابك، وابنه البهلوان حاجبا، وهو أخو أرسلان لأمه. وايلدكز هذا من موالي السلطان مسعود. ولما ملك أقطعه ازّان وبعض أذربيجان، وحدثت الفتن والحروب فاعتصم هو بازان ولم يحضر عند أحد من ملوكهم. وجاء إليه أرسلان شاه من تلك الفتن فأقام عنده إلى أن ملك. ولما خطب له بهمذان بعث ايلدكز أتابك إلى انبانج صاحب الريّ، ولاطفه وصاهره في ابنته لابنه البهلوان وتحالفا على الاتفاق.وبعث إلى المستنجد بطلب الخطبة لأرسلان في العراق، وإعادة الأمور إلى عادتها أيام السلطان مسعود فطرد رسوله بعد الإهانة. ثم أرسل ايلدكز إلى أقسنقر الأحمديلي يدعوه إلى طاعة السلطان أرسلان فامتنع، وكان عنده ابن السلطان شاه بن محمود المدني أسلمه إليه عند موته فتهدده بالبيعة له، وكان الوزير ابن هبيرة يكاتبه من بغداد ويقمعه في الخطبة لذلك الصبي قصدا للنصر من بينهم فجهز ايلدكز العساكر مع البهلوان إلى أقسنقر. واستمدّ أقسنقر شاهر بن سقمان

القطبي صاحب خلاط، وواصله فمده بالعساكر. وسار نحو البهلوان وقاتله فظفر به ورجع البهلوان إلى همذان مهزوما والله تعالى أعلم.

الحرب بين ايلدكز واينانج:

لما مات ملك شاه بن محمود بأصبهان كما قلناه لحق طائفة من أصحابه ببلاد فارس، ومعهم ابنه محمود فانتزعه منهم صاحب فارس زنكي بن دكلا السلقدي وأنزله في قلعة إصطخر فلما ملك ايلدكز السلطان أرسلان وطلب الخطبة ببغداد، وأخذ الوزير ابن هبيرة في استفساد الأطراف عليهم، وبعث لابن اقسنقر في الخطبة لابن السلطان محمد شاه الذي عنده، وكاتب صاحب فارس أيضاً يشير عليه بالبيعة للسلطان محمد ابن السلطان ملك شاه الذي عنده، وبعده بالخطبة له ان ظفر بايلدكز فبايع له ابن دكلا وخطب له بفارس، وضرب النوب الخمس على بابه وجمع العساكر وبلغ إلى ايلدكز فجمع وسار في أربعين ألفا إلى أصبهان يريد فارس فأرسل إلى زنكي في الخطبة لأرسلان شاه فأبى فقال له ايلدكز أن المستنجد أقطعني بلادك وأنا سائر إليها، وتقدمت طائفة إلى نواحي أرجان فلقيتها سريّة لأرسلان بوقا صاحب أرجان فأوقعوا بطائفته وقتلوامنهم، وبعثوا بالخبر إلى انبانج فترل من الريّ في عشرة آلاف، وأمده أقسنقر الأحمديلي بخمسة آلاف فقصد ، وهرب صاحب ابن البازدان وابن طغايرك وغيرهما من أولياء ايلدكز للقاء انبانج، ورد عسكر المدافعة زنكي عن شهبرم وغيرها من البلاد فهزمهم زنكي بن دكلا، ورجعوا إليه فاستدعى عساكره من أذربيجان. وجاء هبيس بن مزد أرسلان واستمد انبانج، وقتل أصحابه ونهب سواده، ودخل الريّ وتحصن في قلعة طبرك. ثم ترددت الرسل بينه وبين ايلدكز في الصلح وأقطعه حربادفان وغيرها وعاد ايلدكز إلى همذان والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفتنة بنيسابور وتخريبها:

وفي ربيع سنة ست وخمسين قبض المؤيد على أحياء نيسابور وحبسهم وفيهم نقيب العلويين ابو القاسم زيد بن الحسن الحسني، وآخذهم على ما فعله آباؤهم بأهل البلد من النهب والاعتداء على الناس في أموالهم وأعراضهم فأخذ هؤلاء الأعيان ينهونهم كأنهم لم يضربوا على أيديهم وقتل جماعة من أهل الفساد فخرب البلد وامتدت الأيدي الى المساجد والمدارس وخزائن الكتب، وأحرق بعضها ونهب بعضها. وانتقل المؤيد الى الشادباخ فأصلح سوره وسدّ ثلمه وسكنه، وخرب نيسابور بالكلية. وكان الذي اختط هذا الشادباخ عبد الله بن طاهر أيام ولايته على خراسان، ينفرد بسكناه هو وحشمه عن البلد تجافيا عن مزاحمتهم. ثم خربت وجددّها ألب أرسلان. ثم خربت فجددّها الآن المؤيد، وخربت نيسابور بالكلية. ثم زحف الغز والخان محمود معهم، وهو ملك خراسان لذلك العهد فحاصروا المؤيد بالشادباخ شهرين. ثم هرب الخان عنهم إلى شهرستان كأنه يريد الحمام وأقام بها، وبقي الغز إلى آخر شوّال. ثم رجعوا فنهبوا البلاد ونهبوا طوس. ولما دخل الخان إلى نيسابور أمهله المؤيد إلى رمضان سنة سبع وخمسين، ثم قبض عليه وسلمه وأخذ ما كان معه من الذخائر وحبسه، وحبس معه جلال محمد فماتا في محبسهما، وخطب المؤيد لنفسه بعد المستنجد. ثم زحف المؤيد إلى شهرستان وقرب نيسابور فحاصرها حش نزلوا على حكمه في شعبان سنة تسع وخمسين، ونهبها عسكره، ثم رفع الأيدي عنهم واستقامت في ملكه والله أعلم.

فتح المؤيد طوس وغيرها:

ثم زحف المؤبد إلى قلعة دسكرة من طوس وكان بها أبو بكر جاندار ممتنعا فحاصره بها شهراً، وأعانه أهل طوس لسوء سيرته فيهم. ثم جهده الحصار فاستأمن ونزل فحبسه، وسار إلى كرمان فأطاعوه، وبعث عسكراً إلى اسفراين فتحصن بها رئيسها عبد الرحمن بن محمد بالقلعة فحاصره واستنزله، وحمله مقيداً إلى الشادباخ فحبر، ثم قتل في ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين. ثم ملك المؤيد قهندر ونيسابور واستفحل ملكه وعاد إلى ما كان عليه. وعمر الشادباخ وخرّب المدينة العتيقة. ثم بعث عسكراً إلى بوشنج وهراة وهي في ولاية محمد بن الحسين ملك الغور فحاصرها، وبعث الملك محمد عسكراً لمدافعته فأفرجوا عنها وصفت ولاية هراة للغورية.

الحرب بين المسلمين والكرج:

كان الكرج قد ملكوا مدينة أني من بلاد أران في شعبان سنة ست وخمسين واستباحوها قتلا وأسرا، وجمع لهم شاه أرمن بن إبراهيم بن سكمان صاحب خلاط جموعا من الجند والمتطوعة، وسار إليهم فقاتلوه وهزموه واسر كثير من المسلمين. ثم جمع الكرج في شعبان سنة سبع وخمسين ثلاثين ألف مقاتل وملكوا دوس من أذربيجان والجبل وأصبهان فسار إليهم ايلدكز. وسار معه شاه أرمن بن إبراهيم بن سكمان صاحب خلاط واقسنقر صاحب مراغة في خمسين ألفا، ودخلوا بلاد الكرج في صفر سنة ثمان وخمسين فاستباحوها وأسروا الرجال وسبوا النساء والولدان، وأسلم بعض أمراء الكرج، ودخل مع المسلفين وكمن بهم في بعض الشعاب حتى زحف الكرج، وقاتلوا المسلمين شهراً أو نحوه. ثم خرج الكمين من ورائهم فانهزموا واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون. وعادوا ظافرين.

ملك المؤيد أعمال قومس والخطبة للسلطان أرسلان بخراسان:

ثم سار المؤيد أي أبه صاحب نيسابور إلى بلاد قومس فملك بسطام ودامغان،

وولى بسطام مولاه ننكز فجرى بينه وبين شاه مازندران اختلاف أدى إلى الحرب واقتتلوا في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين. ولما ملك المؤيد قومس بعث إليه السلطان أرسلان بن طغرل بالخلع والأولية لما كان بين المؤيد ايلدكز من المودة، وأذن له في ولاية ما يفتحه من خراسان، ويخطب له فيها فخطب له في أعمال قومس وطوس وسائر أعمال نيسابور، ويخطب لنفسه بعد أرسلان وكانت الخطب في جرجان ودهستان لخوارزم شاه أرسلان بن أتسز، وبعده للأمير إتياق، والخطبة في مرو وبلخ وسرخس وهي بيد الغز، وهراة وهي بيد الأمير اتيكين، وهو مسالم للغز للسلطان سنجر، يقولون اللهم اغفر للسلطان السعيد سنجر، وبعده لأمير تلك المدينة، والله تعالى ولي التوفيق.

إجلاء القارغلية من وراء النهر:

كان خان خاقان الصيني ولى على سمرقند وبخارى الخان جغرا بن حسين تكين وهو من بيت

قديم في الملك. ثم بعث إليه سنة سبعة وخمسين باجلاء القارغلية من أعماله إلى كاشغر، ويشتغلون بالمعاش من الزراعة وغيرها فامتنعوا فألح عليهم فاجتمعوا وساروا إلى بخارى. فدس أهل بخارى إلى جغراخان وهو بسمرقند، ووعدوا القارغلية بالمصانعة وطاوعوهم إلى أن صبحهم جغر في عساكره فأوقع بهم، وقطع دابرهم والله تعالى أعلم.

استيلاء سنقر علم الطالقان وغرشتان:

وفي سنة تسع وخمسين استولى الأمير صلاح الدين سنقر من موالي السلطان سنجر على بلاد الطالقان، وأغار على غرستان حتى ملكها وصارت في حكمه بحصونها وقلاعها، وصالح أمراء الغز وحمل لهم الاتاوة.

قتل صاب هراة:

كان صاحب هراة الأمير اتكين وبينه وبين الغز مهادنة. فلما قتل الغز ملك الغور محمد بن الحسين كما مرّ في أخباره طمع اتكين في بلاده فجمع جموعه، وسار إليها في رمضان سنة تسع وخمسين وتوغل في بلاد الغور فقاتله أهلها وهزموه، وقتل في المعركة. وتصد الغز هراة وقد اجتمع أهلها على أثير الدين منهم فاتهموه بالميل للغز وقتلوه، واجتمعوا على أبي الفتوح بن علي بن فضل الله الطغرائي. ثم بعثوا إلى المؤيد بطاعتهم فبعث إليهم مملوكه سيف الدين تنكز فقام بأمرهم، وبعث جيشا إلى سرخس ومرو، وأغاروا على دواب الغز فأفرجوا عن هراة ورجعوا لطاعته والله تعالى أعلم.

ملك شاه مازندران قومس وبسطام ووفاته:

قد ذكرنا استيلاء المؤيد على قومس وبسطام وولاية مولاه تنكز عليها. ثم إنّ شاه مازندران وهو رستم بن علي بن هربار بن قاروت جهز إليها عسكرا مع سابق الدين القزويني من أمرائه فملك دامغان، وسار إليه تنكز فيمن معه من العسكر فكبسهم القزويني وهزمهم واستولى على البلاد. وعاد تنكز إلى المؤيد بنيسابور، وجعل

يغير على بسطام وقومس. ثم توفي شاه مازندران في ربيع سنة ستين فكتم ابنه علاء الدين موته حتى استولى على حصونه وبلاده. ثم أظهره وملك مكانه ونازعه إتياق صاحب جرجان ودهستان ولم يرع ما كان بينه وبين أبيه فلم يظفر بشيء، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حصر عسكر المؤيد نسا:

ثم بعث المؤيد عساكره في جمادى سنة ستين لحصار مدينة نسا فبعث خوارزم شاه بك أرسلان بن أتسز في عساكره إليها، فأجفلت عنها عساكر المؤيد، ورجعوا إلى نيسابور وصارت نسا في طاعة خوارزم شاه، وخطب له فيها. ثم سار عسكر خوارزم إلى دهستان وغلبوه عليها وأقام فيها بطاعته والله أعلم.

الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة:

ثم بعث اقسنقر الأحمديلي صاحب مراغة سنة ثلاث وستين إلى بغداد في الخطبة للملك الذي عنده، وهو ابن السلطان محمد شاه على أن يتجافى عن العراق، ولا يطلب الخطبة منه إلا إذا أسعف بها فأجيب بالوعد الجميل، وبلغ الخبر إلى ايلدكز صاحب البلاد فبعث ابنه البهلوان في العساكر لحرب اقسنقر فحاربه وهزمه، وتحصن بمراغة فنازله البهلوان وضيق عليه، وتردّد بينهما الرسل واصطلحوا، وعاد البهلوان إلى أبيه همذان.

ملك شملة فارس وإخراجه عنها:

كان زنكي بن دكلا قد أساء السيرة في جنده فأرسلوا إلى شملة صاحب خوزستان واستدعوه ليملكوه فسار ولقي زنكي وهزمه، ونجا إلى الأكراد الشوابكار، وملك شملة بلاد فارس فأساء السيرة في أهلها، ونهب ابن أخيه خرسنكا البلاد فنفر أهل فارس عنه ولحق بزنكي بعض عساكره فزحف إلى فارس، وفارقها شملة إلى بلاده خوزستان وذلك كله سنة أربع وستين وخمسمائة.

ملك ايلدكز الريّ:

كان إينانج قد استولى على الريّ واستقرّ فيها بعد حروبه مع ايلدكز على جزية يؤذيها إليه. ثم منع الضريبة واعتذر بنفقات الجند فسار إليه إيلدكز سنة أربع وستين وحاربه إينانج فهزمه ايلدكز، وحاصره بقلعة طبرك، وراسل بعض مماليكه ورغبهم فغدروا به وقتلوه. واستولىأيلدكز

على طبرك وعلى الريّ وولى عليها علي بن عمر باغ، ورجع إلى همذان، وشكر لموالي إينانج الذين قتلوه ولم يف لهم بالوعد فافترقوا عنه. وسار الذي تولى قتله إلى خوارزم شاه فصلبه لما كان بينه وين انبانج من الوصلة، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

وفاة صاحب كرمان والخلف بين أولاده:

ثم توفي سنة خمس وستين الملك طغرل بن قاروت بك صاحب كرمان، وولي إبنه أرسلان شاه مكانه، ونازعه أخوه الأصغر بهرام شاه فحاربه أرسلان وهزمه فلحق بالمؤيد في نيسابور فأنجده بالعساكر. وسار إلى أخيه أرسلان فهزمه وملك كرمان، ولحق أرسلان بأصبهان مستنجداً بايلدكز فأنجده بالعساكر وارتجع كرمان ولحق بهرام بالمؤيد وأقام عنده. ثم هلك أرسلان فسار بهرام إلى كرمان وملكها. ثم توفي المستنجد وولي إبنه

المستضئ . ولم نترجم لوفاة الخلفاء ههنا لأنها مذكورة في أخبارهم، وإنما ذكرناها قبل هؤلاء لأنهم كانوا في كفالة السلجوقية وبني بويه قبلهم فوفاتهم من جملة أخبار الدولتين. وهؤلاء من لدن المقتفي قد استبدوا بأمرهم وخلافتهم من بعد ضعف السلجوقية بوفاة السلطان مسعود، وافترقت دولتهم في نواحي المشرق والمغرب. واستبد بها الخلفاء ببغداد ونواحيها ونازعوا من قبلهم أنهم كانوا يخطبون لهم في أعمالهم، ونازعهم فيها مع ذلك حرصاً على الملك الذي سلبوه، وأصبحوا في ملك منفرد عن أولئك المنفردين مضافاً إلى الخلافة التي هي شعارهم، وتداول أمرهم إلى أن انقرضوا بمهلك المستعصم على يد هولاكوا.

وفاة خوارزم شاه وولاية إبنه سلطان شاه ومنازعته مع أخيه الأكبر علاء الدين تكش:

لما انهزم خوارزم شاه أرسلان أمام الخطا رجع إلى خوارزم فمات سنة ثمان وستين. وولي ابنه سلطان شاه فنازعه أخوه الأكبر علاء الدين تكش، واستنجد بالخطا وسار إلى خوارزم فملكها، ولحق سلطان شاه بالمؤيد صريخا فسار معه بجيوشه، ولقيهم تكش فانهزم المؤيد وجيء به أسيراً إلى تكش فقتل بين يديه صبراً. وعاد أصحابه إلى نيسابور فولوا إبنه طغان شاه أبو بكر ابن المؤيد، وكان من أخبار طغان شاه وتكش ما نذكره في أخبار دولتهم وفي كيفية قتله خبر آخر نذكره هنالك. ثم سار خوارزم شاه سنة تسع وستين إلى نيسابور وحاصرها مرّتين، ثم هزم

في الثانية طغان شاه بن المؤيد وأخذه أسيراً، وحمله إلى خوارزم وملك نيسابور وأعمالها وجميع ما كان لبني المؤيد بخراسان، وانقرض أمرهم والبقاء لله وحده والله تعالى أعلم.

وفاة الأتابك شمس الدين أيلد يكز وولاية إبنه محمد البهلوان:

ثم توفي الأتابك شمس الدين ايلدكز أتابك أرسلان شاه بن طغرل صاحب همذان وأصبهان والريّ وأذربيجان، وكان أصله مملوك الكمال الشهير ابن وزير السلطان محمود. ولما قتل الكمال صار السلطان وترقى في كتب الولاية. فلما ولي السلطان مسعود ولاه أرانية فاستولى عليها، وبقيت طاعته للملوك على البعد، واستولى على أكثر أذربيجان. ثم ملك همذان وأصبهان والريّ وخطب لربيبه أرسلان بن طغرل وبقي أتابك. وبلغ عسكره خمسين ألفاً وإتسع ملكه من تفليس إلى مكران، وكان متحكماً على أرسلان، وليس له من الدولة إلا جراية تصل إليه.

ولما هلك أيلدكز قام بالأمر بعده إبنه محمد البهلوان، وهو أخو السلطان أرسلان لأمّه فسار أوّل ملكه لإصلاح أذربيجان، وخالفه ابن سنكي، وهو ابن أخي شملة صاحب خوزستان إلى بلد نهاوند فحاصرها. ثم تأخر ابن سنكي من تستر، وصحبهم من ناحية أذربيجان يوهمهم أنه مدد البهلوان ففتحوا له البلد، ودخل فطلب القاضي والأعيان ونصبهم وتوجه نحو ماسنداان قاصدا العراق، ورجع إلى خوزستان. ثم سار شملة سنة سبعين، وقصد بعض التركمان فاستنجدوا البهلوان بن أيلدكز فأنجدهم، وقاتلوه فهزموه. وأسر شملة جريحا وولده وابن أخيه. وتوفي بعد يومين وهو من التركمان الأتسزية، وملك إبنه من بعده. وسار البهلوان سنة

سبعين إلى مدينة تبريز، وكان صاحبها اقسنقر الأحمديلي قد هلك، وعهد بالملك بعده لإبنه ملك الدين فسار إلى بلاده، وحاصر مراغة وبعث أخاه فترل وعاد عن مراغة إلى همذان والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة السلطان أرسلان بن طغرل:

ثم توفي السلطان أرسلان بن طغرل مكفول البهلوان بن أيلدكز، وأخوه لأمّه بهمذان سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وخطب بعده لابنه طغرل.

وفاة البهلوان محمد بن أيلديكز وملك أخيه قزل.

ثم توفي البهلوان محمد بن أيلدكز أوّل سنة إثنتين وثمانين وخمسمائة، وكانت البلاد والرعايا في غاية الطمأنينة فوقع عقب موته بأصبهان بين الحنفية والشافعية وبالريّ بين أهل السنة والشيعة فتن وحروب آلت إلى الخراب، وملك البلاد بعد البهلوان أخوه فترل أرسلان وإسمه عثمان، وكان البهلوان كافلاً للسلطان طغرل وحاكماً عليه. ولما هلك قزل لم يرض طغرل بتحكمه عليه، وفارق همذان، ولحق به جماعة من الأمراء والجند، وجرت بينه وبين قزل حروب. ثم غلبه طغرل إلى الخليفة فأمره بعمارة دار السلطان فطرد رسوله، وهدمت دار السلطنة وألحقت بالأرض، وبعث الخليفة الناصر لدين الله سنة أربع وثمانين عسكرا مع وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس لانجاده قزل على طغرل قبل همذان، وهزمهم ونهب جميع ما معهم وأسر الوزير ابن يونس.

قتل قزل أرسلان قتلغ وولاية أخيه:

قد تقدّم لنا ما كان بين السلطان طغرل وبين قزل بن أيلدكز من الحروب، ثم أن قزل غلبه واعتقله في بعض القلاع، ودانت له البلاد وأطاعه ابن دكلا صاحب فارس وخوزستان، وعاد إلى أصبهان والفتن بها متصلة فأخذ جماعة من أعيان الشافعية وصلبهم وعاد إلى همذان، وخطب لنفسه بالسلطنة سنة سبعة وثمانين. ثم قتل غبلة على فراشه ولم يعرف قاتله. وأخذ جماعة من غلمانه بالظنة، وكان كريماً حليماً يحب العدل ويؤثره. ولما هلك ولي من بعده قتلغ بن أخيه البهلوان وإستولى على الممالك التي كانت بيده.

قتل السلطان طغرل وملك خوارزم شاه الريّ ووفاة أخيه سلطان شاه:

ولما توفي قزل وولي قتلغ بن أخيه البهلوان كما قلناه أخرج السلطان طغرل من محبسه بالقلعة التي كان بها، وإجتمع إليه العساكر، وسار إلى همذان فلقيه قتلغ بن البهلوان فانهزم بين يديه ولحق بالريّ، وبعث إلى خوارزم شاه علاء الدين تتش

ليستنجده فسار إليه سنة ثمان وثمانين وندم قتلغ على استدعائه فتحصن ببعض قلاعه، وملك خوارزم شاه الريّ، وملك قلعة طبرك،

وصالح السلطان طغرل وولى على الريّ وعاد إلى خوارزم سنة تسعين فأحدث أحدوثة السلطان شاه نذكره في أخبارهم. وسار السلطان طغرل إلى الريّ فأغار عليها، وفر منه قتلغ بن البهلوان وبعث إلى خوارزم شاه يستنجده، ووافق ذلك وصول منشور من الخليفة إليه بإقطاعه البلاد فسار من نيسابور إلى الريّ، وأطاعه قتلغ وسار معه إلى همذان. وخرج طغرل للقائهم قبل أن يجمع العساكر، ولقيهم قريباً من الريّ في ربيع الأوّل

فحمل عليهم، وتورط بينهم فصرع عن فرسه وقتل. وملك خوارزم شاه همذان وتلك البلاد جميعاً. وأنقرضت مملكة بني ملك شاه، وولي خوارزم شاه على همذان، وملك الأعمال فبلغ انبانج بن البهلوان، وأقطع كثيراً منها مماليكه وقدم عليهم مساحق منهم. ثم استولى وزير الخليفة ابن العطاف على همذان وأصبهان والريّ من يد موإليه، وانتزعها منهم خوارزم كما ذكرناه في أخبار الخلفاء. وجاءت العساكر من قبل الخليفة إلى همذان مع أبي الهيجاء الشمس من أمراء الأيوبية، وكان أميراً على القدس فعزلوه عنها وسار إلى بغداد فبعثه الناصر سنة ثلاث وتسعين بالعساكر إلى همذان، ولقي عندها أزبك بن البهلوان مطيعاً فقبض عليه، وأنكر الخليفة ذلك وبعث بإطلاقه، وخلع عليه وعاد إلى بلاد أذربيجان.

ملك الكرج الدويرة:

كان أزبك بن البهلوان قد استولى على أذربيجان بعد موته، وكان مشغولاً بلذاته

فسار الكرج إلى مدينة دوير وحاصروها وبعث أهلها إليه بالصريخ فلم يصرخهم حتى ملكها الكرج عنوة واستباحوها والله تعالى أعلم.

قتل كوجة ببلاد الجبل وملك أيدغمش:

كان كوجه من موالي البهلوان قد تغلب على الريّ وهمذان وبلاد الجبل، واصطنع

صاحبه أيدغمش ووثق به فنازعه الأمر وحاربه فقتله، واستولى أيدغمش على البلاد وبقي أزبك بن البهلوان مغلباً ليس له من الحكم شيء.

قصد صاحب مراغة وصاب أربل أذربيجان:

قد ذكرنا أن أزبك كان مشغولا بلذاته مهملا لملكه، ثم حدثت بينه وبين صاحب أزبل، وهو مظفر الدين كوكبري سنة إثنتين وستمائة فتنة حملت مظفر الدين على قصده فسار إلى مراغة، واستنجد صاحبها علاء الدين بن قراسنقر الأحمديلي فسار معه لحصار تنريز، وبعث أزبك الصريخ إلى أيدغمش بمكانه من بلاد الجبل فسار إليه، وأرسل مظفر الدين بالفتن والتهديد فعاد إلى بلده، وعاد علاء الدين بن قراسنقر إلى بلاد مراغة فسار أيدغمش وأزبك وحاصروه بمراغة حتى سلم قلعة من قلاعه، ورجعوا عنه، والله تعالى أعلم.

وفاة صاحب مازندران والخلف بين أولاده:

ثم توفي حسام الدين أزدشير صاحب مازندران وولي إبنه الأكبر وأخرج أخاه الأوسط عن البلاد فلحق بجرجان، وبها علي شاه برتكش نائباً عن أخيه خوارزم فاستنجده على شرط الطاعة له، وأمره أخوه تكش بالمسير معه فساروا من جرجان، وبلغهم في طريقهم مهلك صاحب مازندران المتولي بعد أبيه، وأن أخاه الأصغر استولى على الكراع والأموال فساروا إليه، وملكوا البلاد ونهبوها مثل سارية وآمد وغيرها، وخطب لخوارزم شاه فيها، وعاد علي شاه إلى خراسان، وأقام ابن صاحب مازندران، وهو الأوسط الذي استصرخ به، وقد إمتنع أخوه الأصغر بقلعة كوري، ومعه الأموال والذخائر وأخوه الأوسط فراسله واستعطف، وقد ملك البلاد جميعا والله ولي التوفيق.

ملك ابن البهلوان مراغة:

ثم توفي سنة أربع وستمائة علاء الدين بن قراسنقر الاحمديلي صاحب مراغة، وأقام بأمرها من بعده خادمه ونصب إبنه طفلا صغيراً، وعصى عليه بعض الأمراء. وبعث العسكر لقتاله فانهزموا أولاً ، ثم استقرّ ملك الطفل. ثم توفي سنة خمس وستمائة وانقرض أهل بيته فسار أزبك بن البهلوان من تبريز إلى مراغة، واستولى على مملكة آل قراسنقر ما عدا القلعة التي اعتصم بها الخادم، وعنده الخزائن والذخائر.

استيلاء منكلي على بلاد الجبل وأصفهان وغيرها وهرب أيدغمش وقتله:

لما تمكن أيدغمش في بلاد الجبل بهمذان وأصبهان والريّ وما إليها عظم شأنه حتى طلب الأمر لنفسه، وسار لحصار أزبك ا بن مولاه الذي نصبه للأمر. وكان بأذربيجان فخرج عليه مولى من موالي البهلوان اسمه منكلي وكثرجمعه، واستولى على البلاد. وقدم أيدغمش إلى بغداد، وإحتفل الخليفة لقدومه، وتلقاه وذلك سنة ثمان، وأقام بها ، كان أيدغمش قد وفد سنة ثمان وستمائة إلى بغداد وشرفه الخليفة بالخلع والألوية، وولاه على ما كان بيده ورجع إلى همذان، ووعده الخليفة بمسير العساكر فأقام ينتظرها عند سليمان بن مرحم أمير الإيوانية من التركمان فدس إلى منكلي بخبره. ثم قتل أيدغمش وحمل أصحابه إلى منكلي وافترق أصحابه، واستولى منكلي، وبعث إليه الخليفة بالنكير فلم يلتفت إليه فبعث إلى مولاه أزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان يحّرضه عليه، وإلى جلال الدين الإسماعيلي صاحب قلعة الموت لمساعدته على أن يكون للخليفة بعض البلاد ولأزبك بعضها ولجلال الدين بعضها. وبعث الخليفة العساكر مع مولاه سنقر الملقب بوجه السبع، وأمره بطاعة مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي كجك صاحب أربل وشهرزور، وهو مقدّم العساكر جميعاً فسار لذلك، وهرب منكلي وتعلق بالجبل، ونزلوا بسفحه قريباً من كوج فناوشهم الحرب فانهزم أزبك. ثم عاد ثم أسرى من ليلته منهزماً، وأصبحوا فاقتسموا البلاد على الشريطة، وولي أزبك فيما أخذ منها مولى أخيه فاستولى عليها، ومضى منكلي إلى ساوة وبها شحنة كان صديقاً له فقتله، وبعث برأسه الى أزبك واستقر في بلاد الجبل حتى قتله الباطنية سنة أربع عشرة وستمائة، وجاء خوارزم شاه فملكها كما نذكر في أخباره ودخل أزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران في طاعته، وخطب له على منابر أعماله، وانقرض أمر بني ملك شاه ومواليهم من العراقين وخراسان وفارس وجميع ممالك المشرق، وبقي أزبك ببلاد أذربيجان. ثم استولى التتر على أعمال محمد بن تكش فيما وراء النهر وخراسان وعراق العجم سنة ثماني عشرة وستمائة وموالي الهند. وسار جنكزخان فأطاعه أزبك بن البهلوان سنة إحدى وعشرين، وأمره بقتل من عنده من الخوارزمية ففعل، ورجع عنه إلى خراسان. ثم جاء جلال الدين بن محمد بن تكش من الهند سنة إثنتين وعشرين فاستولى على عراق العجم وفارس، وسار إلى أذربيجان فملكها، ومرّ من أزبك إلى كنجة من بلاد أران. ثم ملك كنجة وبلاد أران، ومدأزبك إلى بعض القلاع هنالك. ثم هلك وملك جلال الدين على جميع البلاد، وانقرض أمر بني أزبك، واستولى التتر على البلاد، وقتلوا جلال الدين سنة ثمان وعشرين كما يأتي في

أخبارهم جميعاً. انتهى الكلام في دولة السلجوقية فلنرجع إلى أخبار الدول المتشعبة عنها واحدة بعد واحدة، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير ا لوا رثين.

خريطة

بنو أنوشتكين:

كان أنوشتكين جدّهم تركيا مملوكا لرجل من غرشتان، ولذلك يقال له أنوشتكين غرشه ثم صار لرجل من أمراء السلجوقية وعظمائهم اسمه ملكابك، وكان مقدماً عنده لنجابته وشجاعته. ونشأ إبنه محمد على مثل حاله من النجابة والشجاعة، وتحفى بالأدب والمعارف، واختلط بأمراء السلجوقية، وولي لهم الأعمال واشتهر فيهم بالكفاية وحسن التدبير.ولما ولي بركيارق ابن السلطان ملك شاه، وانتقض عليه عمه أرسلان أرغون، واستولى على خراسان، وبعث إليه العساكر سنة تسعين وأربعمائة مع أخيه سنجر، وسار في أثره، ولقيهم في طريقهم خبر مقتل أرغون عمهم، وأن بعض مواليه خلفه فعدا عليه فقتله كما مر قبل. فسار بركيارق في نواحي خراسان وما وراء النهر حتى دّوخها وولي عليها أخاه سنجر، وانتقض عليه أمير أميران من قرابته اسمه محمد بن سليمان فسار إليه سنجر وظفر به وسلمه. وعاد بركيارق إلى العراق بعد أن ولي على خوارزم أكنجي شاه. ومعنى شاه بلسانهم السلطان فأضيف إلى خوارزم على عادتهم في تقديم المضاف إليه على المضاف.ولما إنصرف بركيارق إلى العراق تأخر من أمرائه قودز وبارقطاش وإنتقضا على السلطان ووثبا بالأمير اكنجي صاحب خوارزم وهو بمرو ذاهباً إلى السلطان شاه فقتلاه. وبلغ الخبر إلى السلطان وقد إنتقض عليه بالعراق الأمير أنزو مؤيد الملك بن نظام الملك فمضى لحربهما، وأعاد الأمير داود حبشي بن أيتاق في عسكر إلى خراسان لقتالهما فسار إلى هراة وعاجلاه قبل إجتماع عساكره فعبر جيحون وسبق إليه بارقطاش فهزمه داود وأسره. وبلغ الخبر إلى قودز فثار به عسكره، وفرّ إلى بخارى فقبض عليه نائباً ثم أطلقه، ولحق بالملك سنجر فقبله. وأقام برقطاش أسيراً عند الأمير داود وصفت خراسان من الفتنة والثوار، واستقام أمرها للأمير داود حبشي فاختار لولاية خوارزم محمد بن أنوشتكين فولاه وظهرت كفايته وكان محباً لأهل الذين والعلم مقّربا لهم عادلا في رعيته فحسن ذكره وارتفع محله. ثم استولى الملك سنجر على خراسان فأقر محمد بن أنوشتكين وزاده تقديماً وجمع بعض ملوك الترك وقصد خوارزم وكان محمد غائباً عنها ولحق بالترك محمد بن إكنجي الذي كان أبوه أميراً على خوارزم وإسمه طغرل تكين محمد، فحرض الترك على خوارزم وبلغ الخبر إلى محمد بن أنوشتكين فبعث إلى سنجر بنيسابور يستمده وسبق إلى خوارزم فافترق الترك وطغرل تكين محمد وسار كلّ منهما إلى ناحية ودخل محمد بن أنوشتكين إلى خوارزم فازداد عند سنجر ظهوراً والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق لا رب سواه.

وفاة محمد بن أنوشتكين وولاية إبنه أتسز:

ثم هلك محمد بن أنوشتكين خوارزم ولي بعده إبنه أتسز وسار بسيرة أبيه، وكان قد

قاد الجيوش أيام أبيه وحارب الأعداء فلما ولي افتتح أمره بالاستيلاء على مدينة مقشلاع، وظهرت كفايته في شأنها فاستدعاه السلطان سنجر فاختصه، وكان يصاحبه في أسفاره وحروبه، وكلما مرّ يزيد تقدّما عنده، والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم.

الحرب بين السلطان سنجر واتسز خوارزم شاه:

ثم كثرت السعاية عند السلطان سنجر في أتسز خوارزم شاه، وإنه يحدّث نفسه بالامتناع فسار سنجر إليه لينتزع خوارزم من يده فتجهز أتسز للقائه، واقتتلوا فانهزم أتسز وتتل إبنه وخلق كثير من أصحابه، واستولى سنجر على خوارزم وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ابن أخيه محمدا، ورتب له وزيراً وأتابك وحاجبا، وعاد إلى مرو منتصف ثلاث وثلاثين. وكان أهل خوارزم يستغيثون لأتسز فعاد إليهم بعد سنجر فأدخلوه البلد، ورجع سليمان شاه إلى عمه سنجر، واستبدّ أتسز بخوارزم والله أعلم.

انهزام السلطان سنجر من الأتراك الخطا وملكهم ما وراء النهر:

ثم سار سنجر سنة ست وثلاثين لقتال الخطا من الترك فيما وراء النهر لما رجعوا لملك تلك البلاد، فيقال أن أتسز أغراهم بذلك ليشغل السلطان سنجر عن بلده وأعماله. ويقال أن محمود بن محمد بن سليمان بن داود بقراخان ملك الخانية في كاشغر وتركستان وهو ابن أخت سنجر زحفت إليه أمم الخطا من الترك ليتملكوا بلاده فسار إليهم، وقاتلهم فهزموه وعاد إلى سمرقند، وبعث بالصريخ إلى خاله سنجر فعبر النهر إليه في عساكر المسلمين وملوك خراسان، والتقوا في أوّل صفر سنة ست وثلاثين فانهزم سنجر والمسلمون وفشا القتل فيهم. يقال كان القتلى مائة ألف رجل وأربعة آلاف أمرأة، وأسرت زوجة السلطان سنجر وعاد منهزماً، وملك الخطا ما

وراء النهر، وخرجت عن ملك الإسلام، وقد تقدّم ذكر هذه الواقعة مستوفى في أخبار السلطان سنجر. ولما إنهزم السلطان سنجر قصد أتسز خوارزم شاه خراسان فملك سرخس، ولقي الإمام أبا محمد الزيادي، وكان يجمع بين العلم والزهد. فأكرمه وقبل قوله. ثم قصد مرو الشاهجان فخرج إليه الإمام أحمد الباخوري وشفع في أهل مرو، وأن لا يدخل لهم أحد من العسكر فشفعه، وأقام بظاهر البلد فثار عامة مرو وأخرجوا أصحابه وقتلوا بعضهم ، وامتنعوا فقاتلهم أتسز وملكها عليهم غلابا أوّل ربيع سنة ست وثلاثين وقتل الكثير من أهلها، وكان فيهم جماعة من أكابر العلماء، وأخرج كثيراً من علمائها إلى خوارزم: منهم أبو بكر الكرماني. ثم سار في شوّال إلى نيسابور، وخرج إليه جماعة من العلماء والفقهاء متطارحين أن يعفيهم مما وقع بأهل مرو فأعفاهم، واستصفى أموال أصحاب السلطان وقطع الخطبة لسنجر وخطب لنفسه. ولما صرخ باسمه على المنبر هم أهل نيسابور بالثورة، ثم ردهم خوف العواقب فاقصروا، وبعث جيشاً إلى أعمال بيهق فحاصرها خمساً. ثم ساروا في البلاد ينهبون ويكتسحون والسلطان سنجر خلال ذلك متغافل عنه فيما يفعله في خراسان لما وراءه من مدد الخطا وقوتهم.ثم أوقع الغز سنة ثمان وأربعين بالسلطان سنجر واستولوا على خراسان، وكان هؤلاء الغز مقيمين بما وراء النهر منذ فارقهم ملوك السلجوقية، وكانوا يدينون بالإسلام فلما استولى الخطا على ما

وراء النهر أخرجوهم منها فأقاموا بنواحي بلخ وأكثروا في العيث والفساد، وجمع لهم سنجر وقاتلهم فظفروا به وهزموه وأسروه. وانتثر سلك دولته فلم يعد انتظامه وافترقت أعماله على جماعة من مواليه، واستقلّ حينئذ أتسز بملك خوارزم وأعمالها وأورثها بنيه. ثم استولوا على خراسان والعراق عندما ركدت رب السلجوقية وكانت لهم بعد ذلك دولة عظيمة نذكر أخبارها مفضلة عند دول أهلها، والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

وفاة أتسز وملك ولده أرسلان:

ثم توفي أتسز بن محمد أنوشتكين في منتصف إحدى وخمسين وخمسمائة لستين

سنة من ولايته، وكان عادلا في رعيته حسن السيرة فيهم. ولما توفي ملك بعده أرسلان بن أتسز فقتل جماعة من عماله وسمل أخاه. ثم بعث بطاعته للسلطان سنجر عندما هرب من أسر الغز فكتب له بولاية خوارزم. وقصد الخطا خوارزم، وجمع أرسلان للقائهم وسار غير بعيد. ثم طرقه المرض فرجع وأرسل الجيوش لنظر أمير من أمرائه فقاتله الخطا وهزموه وأسروه، ورجع إلى ما وراء النهر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة خوارزم شاه أرسلان وملك ولد ه سلطان شاه وبعده ولده الآخر تكش وملك طغان شاه بن المؤيد ثم موته وملك ابنه سنجر شاه:

ثم توفي خوارزم شاه أرسلان بن أتسز من مرضه الذي قعد به عن لقاء الخطا،

وملك بعده إبنه الأصغر سلطان شاه محمود في تدبير أمه. وكان إبنه الأكبر علاء الدين تكش مقيماً في إقطاعه بالجند فاستنكف من ولاية أخيه الأصغر، وسار إلى ملك الخطا مستنجدا، ورغبة في أموال خوارزم وذخائرها فأنجده بجيش كثيف، وجاء إلى خوارزم ولحق سلطان شاه وأمه بالمؤيد أنه صاحب نيسابور، والمتغلب عليها بعد سنجر وأهدى له، ورغبّه في الأموال والذخائر فجمع وسار معه حتى إذا كان على عشرين فرسخاً من خوارزم سار إليه تكش وهزمه، وجيء بالمؤيد أسيراً إلى تكش فأمر بقتله، وقتل بين يديه صبراً. ولحق أخوه سلطان شاه بدهستان، وتبعه تكش فملكها عنوة وهرب سلطان شاه وأخذت أمه فقتلها تكش وعاد إلى خوارزم، ولحق سلطان شاه بنيسابور وقد ملكوا طغان شاه أبا بكر بن ملكهم المؤيد.

ثم سار سلطان شاه من عنده إلى غياث الدين ملك الغورية فأقام عنده، وعظم تحكم الخطا على علاء الدين تكش صاحب خوارزم واشتطوا عليه، وبعثوا يطلبونه في المال فأنزلهم متفرقين على أهل خوارزم ودس إليهم فبيتوهم و لم ينج منهم أحد. ونبذ إلى ملك الخطا عهده وسمع ذلك أخوه سلطان شاه فسار من غزنة إلى ملك الخطا يستنجده على أخيه تكش، وادعى أنّ أهل خوارزم يميلون إليه فبعث معه جيشاً كثيفاً من الخطا،

وحاصروا خوارزم فامتنعت وأمر تكش بإجراء ماء النهر عليهم فكادوا يغرقون،وأفرجوا عن البلاد، ولاموا سلطان شاه فيما غرّهم فقال لقائدهم : أبعث معي الجيش لمرو لانتزعها من دينار الغزي الذي استولى عليها من حين فتنتهم مع سنجر فبعث معه الجيش، وسار إلى سرخس واقتحمها على الغز الذين بها، وأفحش في قتلهم واستباحهم، ولجأ دينار إلى القلعة فتحصن بها. ثم سار سلطان شاه إلى مرو وملكها وأقام بها، ورجع الخطا إلى ما وراء النهر. وأقام سلطان شاه بخراسان يقاتل الغز فيصيب منهم كثيراً، وعجز دينار ملك الغز عن

سرخس فسلمها لطغان شاه بن المؤيد صاحب نيسابور فولى عليها مراموش من أمرائه.ولحق دينار بنيسابور فحاصر دينار سلطان شاه، وعاد إلى نيسابور ولحق به مراموش، وترك قلعة سرخس، ثم ملك نطوش والتم، وضاقت الأمور على طغان شاه بنيسابور إلى أن مات في محرم سنة اثنتين وثمانين، وملك إبنه سنجر شاه، واستبدّ عليه منكلي تكين مملوك

جدّه المؤيد. وأنف أهل الدولة من استبداده وتحكمه فلحق أكثرهم بسلطان شاه في سرخس. وسار الملك دينار من نيسابور في جموع الغز إلى كرمان فملكها. ثم أساء منكلي تكين السيرة بنيسابور في الرعية بالظلم، وفي أهل الدولة بالقتل فسار إليه خوارزم شاه علاء الدين تكش في ربيع سنة اثنتين وثمانين فحاصره بنيسابور شهرين، فامتنعت عليه فعاد إلى خوارزم ثم رجع سنة ثلاث وثمانين فحاصرها وملكها على الأمان، وقتل منكلي تكين، وحمل سنجر شاه إلى خوارزم فأنزله بها وأكرمه. ثم بلغه أنه يكاتب أهل نيسابور فسمله وبقي عنده إلى أن مات سنة خمس وتسعين.قال ابن الأثير: ذكر هذا أبو الحسن بن أبي القاسم البيهقي في كتاب مسارب التجارب، وذكر غيره أن تكش بن أرسلان لما أخرج أخاه سلطان شاه من خوارزم، وقصد سلطان شاه إلى مرو فملكها من يد الغز ثم ارتجعوها منه ونالوا من عساكره فعبر إلى الخطا واستنجدهم وضمن لهم المال، وجاء بجيوشهم فملك مرو وسرخس ونسا وأبيورد من يد الغز وصرف الخطا فعاد إلى بلادهم. ثم كاتب غياث الدين الغوري وله هراة وبوشنج وباذغيس وأعمالها من خراسان يطلب الخطبة له، ويتوعده فأجابه غياث الدين بطلب الخطبة منه بمرو وسرخس وما ملكه من بلاد خراسان.ثم ساءت سيرة سلطان شاه في خراسان وصادر رعاياها فجهز غياث الدين العساكر مع صاحب سجستان، وأمر ابن أخته بهاء الدين صاحب باميان بالمسير معه فساروا إلى هراة، وخاف سلطان شاه من لقائهم فرجع من هراة إلى مرو حتى أنصرم فصل الشتاء ثم أعاد مراسلة غياث الدين فامتعض وكتب إلى أخيه شهاب الدين بالخبر، وكان بالهند فرجع مسرعاً إليه، وساروا إلى خراسان واجتمعوا بعسكرهم الأول على الطالقان. وجمع سلطان شاه جموعه من الغز وأهل الفساد ونزل بجموع الطالقان، وتواقفوا كذلك شهرين، وترددت الرسل بين سلطان شاه وغياث الدين حتى جنح غياث الدين إلى النزول عن بوشنج وباذغيس، وشهاب الدين ابن أخته وصاحب سجستان يجنحان إلى الحرب، وغياث الدين يكفهم حتى حضر رسول سلطان شاه عند غياث الدين لاتمام العقد، والملوك جميعاً حاضرون فقام الدين العلوي الهودي، وكان يختصه وهو يدلّ عليه فوقف في وسط المجمع، ونادى بفساد الصلح، وصرخ ومزق ثيابه، وحثى التراب على رأسه، وأفحش لرسول سلطان شاه. وأقبل على غياث الدين وقال كيف تعمد إلى ما ملكناه بأسيافنا من الغز والأتراك والسنجرية فتعطيه

هذا الطريد إذ لا يقنع منا أخوه، وهو الملك بخوارزم ولا بغزنة والهند فأطرق غياث الدين ساكنا فنادي في عسكره بالحرب والتقدم إلى مرو الروذ، وتواقع الفريقان فانهزم سلطان شاه وأخذ أكثر أصحابه أسرى، ودخل الى مرو في عشرين فارساً.ولحق الفل من عسكره، وبلغ الخبر إلى أخيه تكش فسار من خوارزم لاعتراضه وقدم العساكر إلى جيحون يمنعون إلى الخطا، وسمع أخوه سلطان شاه بذلك فرجع عن جيجون

وقصد غياث الدين، ولما قدم عليه أمر بتلقيه وأنزله معه في بيته، وأنزل أصحابه عند نظرائهم من أهل دولته، وأقام إلى انصرام الشتاء. وكتب أخوه علاء الدين خوارزم الى غياث الدين في ردّه إليه ويعدّد فعلاته في بلاده، وكتب مع ذلك إلى نائب غياث الدين بهراة يتهدّده فامتعض غياث الدين لذلك، وكتب إلى خوارزم شاه بأنه مجير له وشفيع في التجافي عن بلاده وانصافه من وراثة أبيه، ويطلب مع ذلك الخطبة له بخوارزم، والصهر مع أخيه شهاب الدين فامتعض خوارزم شاه، وكتب إليه يتهدّده ببعض بلاده فجهز غياث الدين إليه العساكر مع ابن خته أبو غازي إلى بهاء الدين سامي صاحب سجستان، وبعثهما مع سلطان شاه إلى خوارزم، وكتب إلى المؤيد أبيه صاحب نيسابور يستنجده، وكانت إبنته تحت غياث الدين فجمع المؤيد عساكره وخيم بظاهر نيسابور. وكان خوارزم شاه عزم على لقاء أخيه والغورية، وسار عن خوارزم فلما سمع خبر المؤيد عاد إلى خوارزم، واحتمل أمواله وذخائره وعبر جيحون إلى الخطا وترك خوارزم. وسار أعيانها إلى أخيه سلطان شاه والبوغازي ابن أخت غياث الدين فآتوا طاعتهم، وطلبوا الوالي عليهم. وتوفي سلطان شاه منسلخ رمضان سنة تسع، وعاد البوغازي إلى خاله غياث الدين ومعه أصحاب سلطان شاه فاستخدمهم غياث الدين وأقطعهم ، وبلغ وفاة سلطان شاه إلى أخيه خوارزم تكش فعاد إلى خوارزم، وعاد الشحنة إلى بلاد سرخس ومرو فجهز إليهم نائب الغورية بمرو عمر المرغني عسكرا ومنعهم منها حتى يستأذن غياث الدين. وأرسل خوارزم شاه إلى غياث في الصلح والصهر في وفد من فقهاء خراسان، والعلوية يعظمونه ويستجيرون به من خوارزم شاه أن يجيز إليهم الخطا، ويستحثهم ولا يحسم ذلك إلا صلحه أو سكناه بمرو فأجابهم إلى الصلح وعقدوه. ورد على خوارزم تكش بلاد أخيه، وطمع الغز فيها فعاثوا في نواحيها وجاء خوارزم شاه إليها، ودخل مرو وسرخس فسار إلى البورد وتطرق إلى طوس وهي للمؤيد إبنه فجمع وسار إليها وعاد خوارزم شاه إلى بلده، وأفسد الماء في طريقه واتبعه المؤيد

فلم يجد ماء. ثم كرّ عليه خوارزم شاه وقد جهد عسكره العطش فأوقع بهم، وجيء إليه بالمؤيد أسيراً فقتله وعاد إلى خوارزم وقام بنيسابور بعد المؤيد إبنه طغان شاه، ورجع إليه خوارزم شاه من قابل فحاصره بنيسابور، وبرز إليه فأسره وملك نيسابور. واحتمل طغان شان وعياله وقرابته فأنزلهم بخوارزم. قال ابن الأثير: هذه الرواية مخالفة للأولى، وإنما أوردتها ليتأمل الناظر ويستكشف أيهما أوضح فيعتمدها والله تعالى أعلم.

وفاة أيلد يكز وملك إبنه محمد البهلوان:

قد تقدم لنا في أخبار الدولة السلجوقية ولاية أرسلان شاه بن طغرل في كفالة ايلدكز وإبنه محمد البهلوان من بعده، ثم أخيه أزبك أرسلان بن أيلدكز، وأنه إعتقل السلطان طغرل، ثم توفي فولى مكانه قطلغ ابن أخيه البهلوان، فخرج السلطان من محبسه وجمع لقتاله سنة ثمان وثمانين فهزمه ولحق قطلغ بالريّ، وبعث إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش فسار إليه، وندم قطلغ على استدعائه فتحصن منه ببعض قلاعه. وملك خوارزم شاه الريّ وقلعة طبرك، ورتب فيها الحامية، وعاد إلى خوارزم لما بلغه أن أخاه سلطان شاه خالفه إليها، ولما كان ببعض الطريق لقيه الخبر بأن أهل خوارزم منعوا سلطان شاه وعاد خائباً فتمادى إلى خوارزم وأقام إلى إنسلاخ

فصل الشتاء. ثم سار إلى أخيه سلطان شاه بمرو سنة تسع وثمانين، وتردّدت الرسل بينهما في الصلح. ثم استأمن إليه نائب أخيه بقلعة سرخس فسار إليها وملكها، ومات أخوه سلطان شاه سنة تسع فسار خوارزم شاه إلى مرو وملكها وملك ابيورد ونسا وطوس وسائر مملكة أخيه، واستولى على خزائنه، وبعث على إبنه علاء الدين محمد فولاه مرو، وولى إبنه الكبير ملك شاه نيسابور وذلك آخر تسع وثمانين.ثم بلغه أنّ السلطان طغرل أغار على أصحابه بالريّ قطلغ أبنانج فبعث إليه بابنه يستنجده، ووصل إليه رسول الخليفة يشكو من طغرل، وأقطعه أعماله فسار من نيسابور الى الريّ وتلقاه قطلغ أبنانج بطاعته، وسار معه ولقيهم السلطان طغرل قبل استكمال تعبيته، وحمل عليهم بنفسه وأحيط به فقتل في ربيع سنة تسعين، وبعث خوارزم شاه برأسه إلى بغداد، وملك همذان وبلاد الجبل أجمع. وكان الوزير مؤيد الدين بن القصاب قد بعثه الخليفة الناصر مدداً لخوارزم شاه في أمره. فرحل إليه واستوحش ابن القصاب فامتنع ببعض الجبال هنالك، وعاد خوارزم شاه إلى همذان وسلمها وأعمالها إلى قطلغ أبنانج، وأقطع

كثيراً منها مماليكه. وقدم عليهم مناجي، وأنزل معه إبنه وعاد إلى خوارزم. ثم اختلف مناجي وقطلغ أبنانج واقتتلوا سنة إحدى وتسعين فانهزم قطلغ وكان الوزير ابن القصاب قد سار إلى خوزستان فملكها وكثيراً من بلاد فارس وقبض على بني شملة وأمرائها وبعث بهم إلى بغداد، وأقام هو يمهد البلاد فلحق به قطلغ أينانج هنالك مهزوماً سليباً. واستنجده على الريّ فأزاح علله، وسار معه إلى همذان فخرج مناجي وابن خوارزم شاه إلى الريّ وملك ابن القصاب همذان في سنة إحدى وتسعين وسار إلى الريّ فأجفل الخوارزميون أمامهم، وبعث الوزير العساكر في أثرهم حتى لحقوهم بالدامغان وبسطام وجرجان ورجعوا عنهم، واستولى الوزير على الريّ. ثم انتقض قطلغ ابنانج على الوزير، وامتنع بالريّ فحاصره الوزير وغلبه عليها، ولحق أبنانج بمدينة ساوة. ورحل الوزير في أتباعه حتى لحقه على درينكرخ فهزمه، ونجا أبنانج بنفسه.وسار الوزير إلى همذان فأقام بظاهرها ثلاثة أشهر وبعث إليه خوارزم شاه بالنكير على ما فعل، ويطلب إعادة البلاد فلم يجب إلى ذلك. وسار خوارزم إليه، وتوفي قبل وصوله فقاتل العساكر بعده في شعبان سنة اثنتين وتسعين فهزمهم وأثخن فيهم، وأخرج الوزير من قبره فقطع رأسه وبعث به إلى خوارزم لأنه كان قتل في المعركة، واستولى على همذان وبعث عسكره إلى أصبهان فملكها وأنزل بها إبنه وعاد إلى خوارزم. وجاءت عساكر الناصر أثر ذلك مع سيف الدين طغرل فقطع بلاد اللحف من العراق فاستدعاه أهل أصبهان فملكوا البلد، ولحق عسكر خوارزم شاه بصاحبهم. ثم اجتمع مماليك البهلوان وهم أصحاب قطلغ، وقدموا على أنفسهم كركجة من أعيانهم، وساروا إلى الريّ فملكوها ثم إلى أصبهان كذلك. وأرسل كركجة إلى الديوان ببغداد يطلب أن يكون الريّ له مع جوار الريّ وساوة وقم وقاشان وما ينضاف إليها، وتكون أصبهان وهمذان وزنجان ومرو من الديوان فكتب له بذلك والله أعلم.

وفاة ملك شاه بن خوارزم شاه تكش:

قد تقدم لنا أنّ خوارزم شاه تكش ولى إبنه ملك شاه على نيسابور سنة تسع وثمانين وأضاف إليه خراسان، وجعله ولي عهده في الملك فأقام بها إلى سنة ثلاث وتسعين. ثم هلك في ربيع منها، وخلف إبناً إسمه هندوخان، وولى خوارزم شاه على نيسابورإبنه الآخرفطلب الذين الذي كان ولاه بمرو.
الخَطَا

إنهزام الخطا من الغورية

كان خوارزم شاه تكش لما ملك الريّ وهمذان وأصبهان، وهزم ابن القصاب وعساكر الخليفة بعث إلى الناصر يطلب الخطبة ببغداد فامتعض الناصر لذلك، وأرسل إلى غياث الدين ملك غزنة والغور فقصد بلاد خوارزم شاه فكتب إليه غياب الدين يتهدّده بذلك، فبعث خوارزم شاه إلى الخطا يستنجدهم على غياث الدين ويحذرهم أن يملك البلاد كما ملك بلخ فسار الخطا في عساكرهم، ووصلوا بلاد الغور وراسلوا بهاء الدين سام ملك باميان وهو ببلخ يأمرونه بالخروج عنها، وعاثوا في البلاد وخوارزم شاه قد قصد هراة وانتهى إلى طوس، واجتمع أمراء الغورية بخراسان مثل محمد بن بك مقطع الطالقان والحسين بن مرميل وحروس، وجمعوا عساكرهم وكبسوا الخطا وهزموهم وألحقوهم بجيمون فتقسموا بين القتل والغرق. وبعث ملك الخطا إلى خوارزم شاه يتجنى عليه في ذلك ويطلب الدية على القتلى من قومه، ويجعله السبب في قتلهم فراجع غياث الدين واستعطفه ووافقه على طاعة الخليفة، وأعادة ما أخذه الخطا من بلاد الإسلام. وأجاب ملك الخطا بأن قومه إنما جاؤالإنتزاع بلخ من يد الغورية، ولم يأتوا لنصرتي وأنا قد دخلت في طاعة غياث الدين فجهز ملك الخطا عساكره إليه، وحاصروه فامتنع فرجعوا عنه بعد أن فني أكثرهم بالقتل. وسار في أثرهم وحاصر بخارى وأخذ بمخنقها حتى ملكها سنة أربع وتسعين فأقام بها مدّة وعاد إلى خوارزم، والله تعالى ولي التوفيق.

ملك خوارزم شاه تكين الريّ وبلاد الجبل:

ثم سار خوارزم شاه تكين لإرتجاع الريّ وبلاد الجبل من يد مناجق والبهلوانية
الذين انتقضوا عليه فهرب مناجق عن البلاد وتركها، وملكها خوارزم شاه واستدعاه فامتنع من الحضور، واتبعه فاستأمن أكثر أصحابه ووجعوا عنه، ولحق هو بقلعة من أعمال مازندران فامتنع بها فبعث خوارزم شاه إلى الخليفة الناصر فبعث بالخلع له ولولده قطب الدين، وكتب له تقليداً
بالأعمال التي بيده. ثم سار خوارزم شاه لقتال الملحدة فافتتح قلعة لهم قريبة من قزوين، وانتقل إلى حصار قلعة الموت من قلاعهم فقتل عليها رئيس الشافعية بالريّ صدر الدين محمد بن الوزان وكان مقدماً عنده ولازمه، ثم عاد إلى خوارزم فوثب الملحدة على وزيره نظام الملك مسعود بن علي فقتلوه، فجهز إبنه قطب الدين لقتالهم فسار إلى قلعة مرنسيس من قلاعهم فحاصرها حتى سألوه في الصلح على مائة ألف دينار يعطونها فامتنع أوّلا. ثم بلغه مرض أبيه فأجابهم وأخذ منهم المال المذكور وعاد والله أعلم.

وفاة خوارزم شاه:

ثم توفي خوارزم شاه تكش بن ألب أرسلان بن أتسز بن محمد انوشتكين صاحب خوارزم بعد أن استولى على الكثير من خراسان وعلى الريّ وهمذان وغيرها من بلاد الجبل، وكان قد سار من خوارزم إلى نيسابور فمات في طريقه إليها في رمضان سنة ست وتسعين وخمسمائة. وكان عندما اشتدّ مرضه بعث لأبنه قطب الدين محمد يخبره بحاله ويستدعيه فوصل بعد موته فبايع له أصحابه بالملك، ولقبوه علاء الدين لقب أبيه، وحمل شلو أبيه إلى خوارزم فدفنه بالمدرسة التي بناها هنالك. وكان تكش عادلاً عارفاً بالأصول والفقه على مذهب أبي حنيفة. ولما توفي إبنه علاء الدين محمد كان ولده الآخر علي شاه بأصبهان فاستدعاه أخوه محمد فسار إليه، ونهب أهل أصبهان فخلعه، وولاه أخوه على خراسان فقصد نيسابور، وبها هندوخان ابن أخيهما ملك شاه منذ ولاه جدّه تكش عليها بعد أبيه ملك شاه. وكان هندوخان يخاف عمه محمدا لعداوة بينه وبين أبيه ملك شاه، ولما مات جدّه تكش نهب الكثير من خزائنه ولحق بمرو، وبلغ وفاة تكش إلى غياث الدين ملك غزنة فجلس للعزاء على ما بينهما من العداوة إعظاماً لقدره. ثم جمع هندوخان جموعا وسار إلى خراسان فبعث علاء الدين محمد بن تكش العساكر لدفاعه مع جنقر التركي فخام هندوخان عن لقائه، ولحق بغياث الدين مستنجداً فأكرمه ووعده النصر. ودخل جنقر مدينة مرو، وبعث بام هندوخان وولده إلى خوارزم مكرمين فأرسل غياث الدين صاحب غزنة إلى محمد بن خربك نائبه بالطالقان أن ينبذ إلى جنقر العهد ففعل. وسار من الطالقان إلى مرو الروذ فملكها، وبعث إلى جنقر يأمره بالخطبة في مرو لغياث الدين أو يفارقها فبعث إليه جنقر يتهددّه ظاهراً ويسأله سراً أن يستأمن له غياث الدين فقوي طمعه في البلاد بذلك، وأمر أخاه شهاب الدين بالمسير إلى خراسان والله أعلم.

ملوك الغوريَّة

استيلاء ملوك الغورية أعمال خوارزم شاه محمد تكش بخراسان وارتجاعه إياها منهم ثم حصاره هراة من أعمالهم

ولما استأمن جنقر نائب مرو إلى غياث الدين طمع في أعمال خوارزم شاه بخراسان كما قلناه، واستدعاه أخوه شهاب الدين للمسير إليها فسار إلى غزنة. واستشار غياث الدين نائبه بهراة عمر بن محمد المرغني في المسير إلى خراسان فنهاه عن ذلك، ووصل أخوه شهاب الدين في عساكر غزنة والغور وسجستان، وساروا منتصف سبع وتسعين. ووصل كتاب جنقر نائب مرو إلى شهاب الدين وهو بقرب الطالقان يحثه للوصول، وأذن له غياث الدين فسار إلى مرو وقاتل العساكر الذين بها من الخوارزمية فغلبهم وأحجرهم بالبلد. وسار بالفيلة إلى السور فاستأمن أهل البلد وأطاعوا وخرج جنقرإلى شهاب الدين. ثم جاء غياث الدين بعد الفتح إلى هراة مكرما، وسلم مرو إلى هندوخان بن ملك شاه كما وعده. ثم سار إلى سرخس فملكها صلحا وولىّ عليها زنكي بن مسعود من بني عمه، وأقطعه معها نسا وأبيورد.ثم سار إلى طوس وحاصرها ثلاثا، واستأمن إليه أهلها فملكها وبعث إلى علي شاه علاء الدين محمد بن تكش بنيسابور في الطاعة فامتنع فسار إليه وقاتل نيسابور من جانب وأخوه شهاب الدين من الجانب الاخر إليه سقوطه ودخلوا نيسابور وملكوها ونادوا

بالأمان. وجيء بعلي شاه من خوارزم إلى غياث الدين فأمنه وأكرمه، وبعثه بالأمراء الخوارزمية إلى هراة، وولى على خراسان ابن عمه وصهره على ابنته ضياء الدين محمد بن علي الغوري ولقبه علاء الدين، وأنزله نيسابور في جمع من وجوه الغورية، وأحسن إلى أهل نيسابور وسلم علي شاه إلى أخيه شهاب الدين، ورحل إلى هراة.ثم سار شهاب الدين إلى قهستان وقيل له عن قرية من قراها انهم إسماعيلية فأمر بقتلهم، وسبى ذراريهم ونهب أموالهم وخرب القرية. ثم سار إلى حصن من

أعمال قهستان وهم اسماعيلية فملكه بالأمان بعد الحصار، وولىّ عليه بعض الغورية فأقام بها الصواب وشعار الإسلام. وبعث صاحب قهستان إلى غياث الدين يشكو من أخيه شهاب الله ين ويقول: إنّ هذا نقض العهد الذي بيني وبينكم. فما راعه إلا نزول أخيه شهاب الدين على حصن آخر للاسماعيلية من أعمال دهستان فحاصره، فبعث بعض ثقاته إلى شهاب الدين يأمره بالرحيل فامتنع فقطع أطناب سرادقه ورحل مراغما، وقصد الهند مغاضباً لأخيه.ولما اتصل بعلاء الدين محمد بن تكش مسيرهما عن خراسان كتب إلى غياث الدين يعاتبه عن أخذه بلاده ويطلب إعادتها، ويتوعده باستنجاد الخطا عليه فماطله بالجواب إلى خروج أخيه شهاب الدين من الهند لعجزه عن الحركة لاستيلاء مرض النقرس عليه، فكتب خوارزم شاه إلى علاء الدين الغوري نائب غياث الدين بنيسابور يأمره بالخروج عنها فكتب بذلك إلى غياث الدين فأجابه يعده بالنصر. وسار إليه خوارزم شاه محمد بن تكش آخر سنة سبع وتسعين وخمسمائة. فلما قرب أبيورد هرب هندوخان من موالي غياث الدين، وملك محمد بن تكش مدينة مرو ونسا وأبيورد، وسار إلى نيسابور وبها علاء الدين الغوري فحاصرها وأطال حصارها حتى استأمنوا إليه واستحلفوه،

وخرجوا إليه فأحسن إليهم وسأل من علاء الدين الغوريّ السعي في الإصلاح بينه وبين غياث الدين فضمن ذلك، وسار إلى هراة وبها أقطاعه، وغضب على غياث الدين لقعوده عن إنجاده فلم يسر إليه وبالغ محمد بن تكش في الإحسان إلى الحسن بن حرميل من أمراء الغورية . ثم سار إلى سرخس وبها الأمير زنكي من قرابة غياث الدين فحاصرها أربعين يوماً وضيق مخنقها بالحرب وقطع الميرة. ثم سأله زنكي الافراج ليخرج عن الأمان فأفرج عنه قليلا. ثم ملأ البلد من الميرة بما احتاج إليه، وأخرج العاجزين عن الحصار وعاد إلى شأنه فندم محمد بن تكش ورحل عنها، وجهز عسكراً لحصارها. وجاء نائب الطالقان مدداً لمحمد بن خربك داحس بعد أن أرسل إليه بأنه ، عساكر الخوارزمية المجمرة عليه، وأشاع ذلك فأفرجوا عنه. وجاء إليه زنكي من الطالقان فخرج معه ابن خربك إلى مرو الروذ، وجي خراجها وما يجاورها. وبعث إليه محمد بن تكش عسكراً نحوا من ثلاثة آلاف مع خاله فلقيهم محمد بن خربك في تسعمائة فارس فهزمهم، وأثخن فيهم قتلا وأسراً، وغنم سوادهم، وعاد خوارزم شاه محمد بن تكش إلى خوارزم.وأرسل إلى غياث الدين في الصلح فأجابه مع الحسن بن، محمد المرغني من كبراء

الغورية، وغالطه في القول. ولما وصل الحسن المرغني إلى خوارزم شاه وأطلع على أمره قبض على الحسن، وسار إلى هراة فحاصرها. وكتب الحسن إلى أخيه عمر بن محمد المرغني أمير هراة بالخبر فاستعدّ للحصار. وقد

كان لحق بغياث الدين أخوان من حاشية سلطان شاه عمّ محمد بن تكش المتوفى في سرخس فأكرمهما غياث الدين وأنزلهما بهراة فكاتبا محمد بن تكش وداخلاه في تمليكه هراة فسار لذلك، وحاصر البلد وأميرها عمر المرغني، مرّ إلى الأخوين وعندهما مفاتيح البلد. وأطلع أخوه الحسن في محبسه على شأن الأخوين في مداخلة محمد بن تكش فبعث إلى أخيه عمر بذلك فلم يسعفه، فبعث إليه بخط أحدهما فقبض عليهما وعلى أصحابهما واعتقلهم.وبعث محمد بن تكش عسكراً إلى الطالقان للغارة عليها فظفر بهم ابن خربك، و لم يفلت منهم أحد. ثم بعث غياث الدين ابن أخته البوغاني في عسكر من الغورية فنزلوا قريباً من عسكر خوارزم شاه محمد بن تكش وقطع عنهم الميرة. ثم جاء غياث الدين في عسكر قليل لأنّ أكثرها مع أخيه شهاب الدين بالهند وغزنة فنزل قريبا من هراة و لم يقدم على خوارزم فلما بلغ الحصار أربعين يوما، وانهزم أصحاب خوارزم شاه بالطالقان، ونزل غياث الدين وابن أخته البوغاني قريباً منه، وبلغه وصول أخيه شهاب الدين من الهند إلى غزنة أجمع الرحيل عن هراة، وصالح عمر المرغني على مال حمله إليه، وارتحل إلى مرو منتصف ثمان وتسعين.وسار شهاب الدين من غزنة إلى بلخ، ثم إلى باميان معتزما على محاربة خوارزم شاه، والتقت طلائعهما فقتل بين الفريقين خلق. ثم ارتحل خوارزم شاه عن مرو فجفلا إلى خوارزم، وقتل الأمير سنجر صاحب نيسابور لاتهامه بالمخادعة. وسار شهاب الدين إلى طوس، وأقام بها إلى انسلاخ الشتاء معتزماً على السير لحصار خوارزم فأتاه الخبر بوفاة أخيه غياث الدين فرجع إلى هراة، واستخلف بمرو محمد بن خربك فسار إليه جماعة من أمراء خوارزم شاه سنة تسع وتسعين ابن خربك، و لم ينج منهم إلا القليل فبعث خوارزم شاه الجيوش مع منصور التركي لقتال ابن خربك، ولقيهم على عشرة فراسخ من مرو، وقاتلهم فهزموه، ودخل مرو منهزما فحاصروه خمسة عشر يوماً.ثم استأمن إليهم وخرج فقتلوه. وأسف ذلك شهاب الدين، وتردّدت الرسل بينه وبين خوارزم شاه في الصلح فلم يتم. وأراد العود إلى غزنة فاستعمل على هراة ابن أخته البوغاني، وملك علاء الدين بن أبي علي الغوري مدينة مرو وزكورة وبلد الغور واعمال خراسان، وفوض إليه في مملكته، وعاد غزنة سنة تسع وتسعين وخمسمائة. ثم عاد خوارزم شاه إلى هراة منتصف سنة ستمائة، وبها البوغاني ابن أخت شهاب

الدين الغوري، وكان شهاب الدين قد سار عن غزنة إلى لهاوون غازيا فحصر خوارزم شاه هراة الى منسلخ شعبان. وهلك في الحصار بين الفريقين خلق. وكان الحسن بن حرميل مقيماً بخوزستان وهي إقطاعه فارسل إلى خوارزم شاه يخادعه، ويطلب منه عسكرا يستلمون الفيلة وخزانة شهاب الدين فبعث إليه ألف فارس فاعترضهم هو والحسن بن محمد المرغني فلم ينج منهم إلا القليل، فندم خوارزم شاه على إنفاذ العسكر، وبعث إلى البوغاني أن يظهر بعض طاعته ويفرج عنه الحصار فأمتنع. ثم أدركه المرض فخشي أن يشغله المرض عن حماية البلد فيملكها عليه خوارزم شاه فرجع إلى إجابته، واستحلفه وأهدى، وخرج له ليلقاه ويعطيه بعض الخدمة فمات في طريقه. وارتحل خوارزم شاه عن البلد، وأحرق المجانيق وسار إلى سرخس فأقام بها.

حصار شهاب الدين خوارزم شاه وانهزامه أمام الخطا:

ولما بلغ شهاب الدين بغزنة ما فعل خوارزم شاه بهراة وموت نائبه بها البوغاني ابن
أخته، وكان غازيا إلى الهند فانثنى عزمه، وسار إلى خوارزم وكان خوارزم شاه قد سار من سرخس، وأقام بظاهر مرو، فلما بلغه خبر مسيره اجفل راجعا إلى خوارزم فسبق شهاب الدين إليها وأجرى الماء في السبخة حواليها، وجاء شهاب الدين فأقام أربعين يوما يطرق المسالك حتى أمكنه الوصول. ثم التقوا واقتتلوا، وقتل بين الفريقين خلق كان منهم الحسن المرغني من الغورية، وأسر جماعة من الخوارزمية فقتلهم شهاب الدين صبرا. وبعث خوارزم شاه إلى الخطا فيما وراء النهر يستنجدهم على شهاب الدين فجمعوا وساروا إلى بلاد الغور، وبلغ ذلك شهاب الدين فسار إليهم فلقيهم بالمفازة فهزموه وحصروه في أيدحوى حتى صالحهم، وخلص إلى الطالقان، وقد كثر الإرجاف بموته فتلقاه الحسن بن حرميل صاحب الطالقان وأزاح علله.
ثم سار إلى غزنة واحتمل ابن حرميل معه خشية من شدّة جزعه أن يلحق بخوارزم
شاه ويطيعه فولاه حجابته ، وسار معه ووجد الخلاف قد وقع بين أمرائه لما بلغهم من الإرجاف بموته حسبما مرّ في أخبار الغورية فأصلح من غزنة ومن الهند، وتأهب للرجوع لخوارزم شاه، وقد وقع في خبر هزيمته أمام الخط بالمفازة وجه آخر ذكرناه هنالك، وهو أنه فّرق عساكره في المفازة لقلة الماء فأوقع بهم الخطا منفردين. وجاء في الساقة فقاتلهم أربعة أيام مصابرا. وبعث إليه صاحب
سمرقند من عسكر الخطا وكان مسلما، وأشار عليه بالتهويل عليهم فبعث عسكرا من الليل، وجاؤا من الغد متسائلين وخوفهم صاحب سمرقند بوصول المدد لشهاب الدين فرجعوا إلى الصلح، وخلص هو من تلك الواقعة، وذلك سنة إحدى وستمائة، ومات شهاب الدين أثر ذلك.

استيلاء خوارزم شاه علي بلاد الغورية بخراسان:

كان نائب الغورية بهراة من خراسان الحسن بن حرميل، ولما قتل شهاب الدين الغوري في رمضان سنة اثنتين وستمائة قام بأمرهم غياث الدين محمود ابن أخيه غياث الدين، واستولى على الغور من يد علاء الدين محمد بن أبي علي سرور كاه. ولما بلغ وفاة شهاب الدين إلى الحسن بن حرميل نائب هراة جمع أعيان البلد وقاضيهم واستحلفهم على الامتناع من خوارزم شاه ظاهراً، ودّس إلى خوارزم شاه بالطاعة، ويطلب عسكرا يمتنع به من الغورية وبعث إبنه رهينة في ذلك فأنفذ إليه عسكرا من نيسابور، وأمرهم بطاعة ابن حرميل، وغياث الدين خلال ذلك يكاتب ابن حرميل ويطلبه في الطاعة فيراوغه بالمواعدة. وبلغه خبره مع خوارزم شاه فاعتزم على النهوض إليه، واستشار ابن حرميل بهراة أعيان البلد يختبر ما عندهم فقال له علي بّن عبد الخالق مدرسّ أمية وناظر الأوقاف: الرأي صدق الطاعة لغياث الدين. فقال إنما أخشاه فسر إليه وتوثق لي منه ففعل. وسار إلى غياث الدين فأطلعه عن الجليّ من أمر ابن حرميل، ووعده الثورة به.وكتب غياث الدين إلى نائبه بمرو يستدعيه فتوقف، وحمله أهل مرو على المسيرفسار فخلع عليه غياث الدين وأقطعه. واستدعى غياث الدين أيضاً نائبه بالطالقان أميران قطر فتوقف فأقطع الطالقان سونج مملوك إبنه المعروف بأمير شكار، وبعث إلى ابن حرميل مع ابن زياد بالخلع، ووصل معه رسوله يستنجز خطبته له فمطله أياماً حتى وصل عساكر خوارزم شاه

من نيسابور، ووصل في أثرهم خوارزم شاه، وانتهى إلى بلخ على أربعة فراسخ فندم ابن حرميل عندما عاين مصدوقة الطاعة. وعرف عسكر خوارزم شاه بأن صاحبهم قد صالح غياث الدين، وترك له البلاد فانصرفوا إلى صاحبهم، وبعث إليه معهم بالهدايا.ولما سمع غياث الدين بوصول عسكر خوارزم شاه إلى هراة أخذ إقطاع بن حرميل، وقبض على أصحابه واستصفى أمواله وما كان له من الذخيرة في حروبان. وتبين ابن حرميل في أهل هراة الميل إلى غياث الدين والانحراف عنه، وخشي من ثورتهم به فأظهر طاعة غياث الدين. وجمع أهل البلد على مكاتبته بذلك فكتبوا جميعا وأخرج الرسول بالكتاب ودسّ

إليه بأن يلحق عساكر خوارزم شاه فيردهم إليه، فوصل الرسول بهم لرابع يومه. ولقيهم ابن حرميل وأدخلهم البلد، وسمل ابن زياد الفقيه، وأخرج صاعدا القاضي وشيع الغورية فلحقوا بغياث الدين، وسلم البلد لعسكر خوارزم شاه. وبعث غياث الدين عسكره مع علي بن أبي علي، وسار معه أميران صاحب الطالقان، وكان منحرفا عن غياث الدين بسبب عزله فدسّ إلى ابن حرميل بأن يكبسه وواعده الهزيمة، وحلف له على ذلك فكبسه ابن حرميل فانهزم عسكر غياث الدين وأسر كثير من أمرائه.وشنّ ابن حرميل الغارة على بلاد باذغيس وغيرها من البلاد واعتزم غياث الدين على المسير بنفسه إلى هراة، ثم شغل عن ذلك بأمر غزنة ومسير صاحب باميان إلى الدوس فأقصر، واستظهر خوارزم شاه إلى بلخ، وقد كان عند مقتل شهاب الدين أطلق الغورية الذين كان أسرهم في المصاف على خوارزم، وخيرهم في المقام عنده أو اللحاق بقومهم، واستصفى من أكابرهم، محمد بن بشير وأقطعه فلما قصد الآن بلخ قدم إليها أخوه علي شاه في العساكر، وبرز إليه عمر بن الحسن أميرها فدافعه عنها، ونزل على أربعة فراسخ وأرسل إلى أخيه خوارزم شاه بذلك فسار إليه في ذي القعدة من السنة، ونزل على بلخ وحاصرها وهم ينتظرون المدد من صاحبهم باميان بن بهاء الدين، وقد شغلوا بغزنة فحاصرها خوارزم شاه أربعين يوما، ولم يظفر فبعث محمد بن بشير الغوري إلى عماد الدين عمر بن الحسن نائبها يستنزله فامتنع فاعتزم خوارزم شاه على المسير إلى هراة.ثم بلغه أن أولاد بهاء الدين أمراء باميان ساروا إلى غزنة وأسرهم تاج الدين الزر فأعاد محمد بن بشير إلى عمر بن الحسين فأجاب إلى طاعة خوارزم شاه والخطبة له، وخرج إليه فأعاده إلى بلده وذلك في ربيع سنة ثلاث وستمائة. ثم سار خوارزم شاه إلى جوزجان وبها علي بن علي فنزل له عنها، وسلمها خوارزم شاه إلى ابن حرميل لأنها كانت من أقطاعه، وبعث إلى غياث الدين عمر بن الحسين من بلخ يستدعيه. ثم قبض عليه وبعث به إلى خوارزم شاه، وسار إلى بلخ فاستولى عليها واستخلف عليها جغري التركي وعاد إلى بلاده.

استيلاء خوارزم شاه على ترمذ وتسليمها للخطا :

ولما أخذ خوارزم شاه بلخ سار عنها إلى ترمذ، وبها عماد الدين عمر بن الحسين

الذي كان صاحب بلخ، وقدم إليه محمد بن علي بن بشير بالعذر عن شأن أبيه، وأنه إنما بعثه لخوارزم مكرما وهو أعظم خواصه ويعده بالاطلاع فاتهم على صاحبها أمره، واجتمع عليه خوارزم شاه

والخطا من جميع جوانبه، وأسر أصحابه ملوك باميان بغزنة فاستأمن إلى خوارزم شاه وملك منه البلد، ثم سلمها إلى الخطا وهم على كفرهم ليسالموه حتى يملك وينتزعها منهم فكان كما قدره، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء خوارزم شاه على الطالقان:

ولما ملك خوارزم شاه ترمذ سار إلى الطالقان وبها سونج، واستناب على الطالقان

أمير شكار نائب غياث الدين محمود، وبعث إليه يستميله فامتنع وبرز للحرب حتى تراءى الجمعان فنزل عن فرسه ونبذ سلاحه، وجاء متطارحا في العفو عنه فأغرض عنه وملك الطالقان واستولى على ما فيها، وبعث إليه سونج واستناب على الطالقان بعض أصحابه، وسار إلى قلاع كالومين ومهوار، وبها حسام الدين علي بن علي فقاتله ودفعه على ناحيته. وسار إلى هراة وخيم بظاهرها. وجاء رسول غياث الدين بالهدايا والتحف، ثم جاء ابن حرميل في جمع من عساكر خوارزم شاه إلى اسفراين فملكها على الأمان في صفر من السنة، وبعث إلى صاحب سجستان وهو حرب بن محمد بن إبراهيم من عقب خلف الذي كان ملكها منذ عهد ابن سبكتكين في الطاعة لخوارزم والخطبة له فامتنع، وقصد خوارزم شاه وهو على هراة القاضي صاعد بن الفضل الذي أخرجه ابن حرميل، ولحق بغياث الدين فلما جاء إلى خوارزم شاه رماه ابن حرميل بالميل إلى الغورية فحبسه بقلعة زوزن، وولّى القضاء بهراة الصفي أبا بكر بن محمد السرخسي، وكان ينوب عن صاعد وإبنه في القضاء.

استيلاء خوارزم شاه علي مازندران وأعمالها:

ثم توفي صاحب مازندران حسام الدين ازدشير، وولّي مكانه إبنه الأكبر، وطرد

أخاه الأوسط فقصد جرجان، وبها الملك علي شاه ينوب عن أخيه خوارزم شاه محمد بن نكش واستنجده فاستأذن أخاه وسار معه من جرجان سنة ثلاث وستمائة، ومات الأخ الذي ولّي على مازندران وولّي مكانه أخوهما الأصغر، ووصل علي شاه، ومعه أخو صاحب مازندران فعاثوا في البلاد، وامتنع الملك بالقلاع مثل سارية، وآمد فملكوها من يده، وخطب فيها لخوارزم شاه، وعاد علي شاه إلى جرجان، وترك ابن صاحب مازندران الذي استجار به ملكاً في تلك البلاد وأخوه بقلعة كورة.

استيلاء خوارزم شاه على ما وراء النهر وقتاله مع الخطا وأسره وخلاصه:

قد تقدّم لنا كيف تغلب الخطا على ما وراء النهر منذ هزموا سنجر بن ملك شاه،

وكانوا أمّة بادية يسكنون الخيام التي يسمونها الخركاوات، وهم على دين المجوسية كما كانوا. وكانوا موطنين بنواحي أوزكندة وبلاد ساغون وكاشغر، وكان سلطان سمرقند وبخارى من ملوك الخانية الاقدمين عريقا في الإسلام والبيت والملك، ويلقب خان خاقان، بمعنى سلطان السلاطين. وكان الخطا وضعوا الجزية على بلاد المسلمين فيما وراء النهر، وكثر عيثهم وثقلت وطأتهم فأنف صاحب بخارى من تحكمهم، وبعث إلى خوارزم شاه يستصرخه لمحاربتهم على أن يحمل إليه ما يحملونه للخطا، وتكون له الخطبة والسكة. وبعث في

ذلك وجوه بخارى وسمرقند فحلفوا له ووضعوا رهائنهم عنده فتجهز لذلك، وولّى أخاه علي شاه على طبرستان مع جرجان، وولىّ على نيسابور الأمير كزلك خان من أخواله وأعيان دولته، وندب معه عسكرا. وولىّ على قلعة زوزن أمين الدين أبا بكر، وكان أصله حمالا فارتفع وترقى في الرتب إلى ملك كرمان، وولى على مدينة الجام الأمير جلدك، وأقّر على هراة الحسن بن حرميل، وأنزل معه ألفا من المقاتلة، واستناب في مرو وسرخس وغيرهما. وصالح غياث الدين محمودا على ما بيده من بلاد الغور وكرمسين، وجمع عساكر وسار إلى خوارزم فتجهز منها، وعبر جيحون واجتمع بسلطان بخارى وسمرقند، وزحف إليه الخطا فتواقعوا معه مرّات، وبقيت الحرب بينهم سجالا.ثم انهزم المسلمون وأسر خوارزم شاه، ورجعت العساكر إلى خوارزم معلولة، وقد أرجف بموت السلطان. وكان كزلك خان نائب نيسابور محاصراً لهراة، ومعه صاحب زوزن فرجعا إلى بلادهما وأصلح كزلك خان سور نيسابور، واستكثر من الجند والأقوات وحدثته نفسه بالاستبداد، وبلغ خبر الإرجاف إلى أخيه علي شاه بطبرستان فدعا لنفسه، وقطع خطبة أخيه. وكان مع خوارزم شاه حين أسر أمير من أمرائه يعرف بابن مسعود فتحيل للسلطان بأن أظهر نفسه في صورته، واتفقا على دعائه بأسم السلطان، وأوهما صاحبهما الذي أسرهما أن ابن مسعود هو السلطان، وأنّ خوارزم شاه خديمه فاوجب ذلك الخطائي حقه، وعظمه لاعتقاده أنه السلطان. وطلب منه بعد أيام أن يبعث ذلك الخديم لأهله، وهو خوارزم شاه في الحقيقة ليعرف أهله بخبره، ويأتيه بالمال فيدفعه إليه فأذن له الخطائي في ذلك وأطلقه بكتابه، ولحق بخوارزم ودخل إليها في يوم مشهود. وعلم بما فعله أخوه علي شاه بطبرستان، وكذلك خان بنيسابور، وبلغهما خبر خلاصه

فهرب كزلك خان إلى العراق، ولحق علي شاه بغياث الدين محمود فأكرمه وأنزله. وسارخوارزم شاه إلى نيسابور فاصلح أمورها وولىّ عليها، وسار إلى هراة فنزل عليها وعسكره محاصر دونها، وذلك سنة أربع وستمائة والله أعلم.

مقتل ابن حرميل ثم استيلاء خوارزم شاه علي هراة:

كان ابن حرميل قد تنكر لعسكر خوارزم شاه الذين كانوا عنده بهراة لسوء سيرتهم،

فلما عبر خوارزم شاه جيحون، واشتغل بقتال الخطا قبض ابن حرميل على العسكر وحبسهم، وبعث إلى خوارزم شاه يعتذر ويشكو من فعلهم فكتب إليه يستحسن فعله، ويأمره بإنفاذ ذلك العسكر إليه ينتفع بهم في قتال الخطا، وكتب إلى جلدك بن طغرل صاحب الجام أن يسير إليه بهراة ثقة بفعله وحسن سريرته. وأعلم ابن حرميل بذلك، ودسّ إلى جلدك بالتحيل على ابن حرميل بكل وجه والقبض عليه فسار في ألفي مقاتل، وكان يهوى ولاية هراة لأنّ أباه طغرل كان واليا بها لسنجر، فلما قارب هراة أمر ابن حرميل الناس بالخروج لتلقيه، وخرج هو في أثرهم بعد أن أشار عليه وزيره خواجا الصاحب فلم يقبل. فلما التقى جلدك وابن حرميل ترجلا عن فرسيهما للسلام، وأحاط أصحاب جلدك بابن حرميل وقبضوا عليه، وانهزم أصحابه إلى المدينة فأغلق الوزير خواجا الأبواب، واستعدّ للحصار، وأظهر دعوة غياث الدين محمود. وجاء جلدك فناداه من

السور وتهدّده بقتل ابن حرميل، وجاء بابن حرميل حتى أمره بتسليم البلد لجلدك فأبى وأساء الردّ عليه وعلى جلدك فقتل ابن حرميل، وكتب إلى خوارزم شاه بالخبر فبعث خوارزم شاه إلى كزلك خان نائب نيسابور وإلى أمين الدين أبي بكر نائب زوزن بالمسير إلى جلدك، وحصار هراة معه فسار لذلك في عشرة آلاف فارس. وحاصروها فامتنعت وكان خلال ذلك ما قدّمناه من انهزام خوارزم شاه أمام الخطا وأسرهم إياه. ثم تخلص ولحق بخوارزم، ثم جاء إلى نيسابور ولحق بالعساكر الذين يحاصرون هراة فأحسن إلى أمرائهم لصبرهم، وبعث إلى الوزير خواجا في تسليم البلد لأنه كان يعد عسكره بذلك حين وصوله فامتنع وأساء الردّ، فشدّ خوارزم في حصاره، وضجر أهل المدينة وجهدهم الحصار وتحدّثوا في الثورة فبعث جماعة من الجند للقبض عليه فثاروا بالبلد، وشعر جماعة العسكر من خارج بذلك فرجعوا إلى السور واقتحموه، وملك البلد عنوة وجيء بالوزير أسيراً إلى خوارزم شاه فأمر بقتله فقتل، وكان ذلك سنة خمس وستمائة، وولى على هراة خاله أمير ملك وعاد وقد استقرّ له أمر خراسان.

استيلاء خوارزم شاه على بيروز كوه وسائر بلاد خراسان:

لما ملك خوارزم شاه هراة وولّى عليها خاله أمير ملك، وعاد إلى خوارزم بعث إلى
أمير ملك يأمره بيروزكوه، وكان بها غياث الدين محمود بن غياث الدين، وقد لحق به أخوه علي شاه، وأقام عنده فسار أمير ملك، وبعث إليه محمود بطاعته، ونزل إليه فقبض عليه أمير ملك وعلى علي شاه أخي خوارزم شاه وقتلهما جميعاً سنة خمس وستمائة. وصارت خراسان كلها لخوارزم شاه محمد بن تكش، وانقرض أمر الغورية، وكانت دولتهم من أعظم الدول وأ حسنها، والله تعالى وليّ التوفيق.

هزيمة الخطا:

ولما استقر أمر خراسان لخوارزم شاه واستنغر وعبر نهير جيحون وسار إليه الخطا وقد احتفلوا للقائه، وملكهم يومئذ طانيكوه ابن مائة سنة ونحوها، وكان مظفرا مجربا بصيرا بالحرب. واجتمع خوارزم شاه وصاحب سمرقند وبخارى وتراجعوا سنة ست وستمائة ووقعت بينهم حروب لم يعهد مثلها. ثم انهزم الخطا وأخذ فيهم القتل كل مأخذ وأسر ملكهم طانيكوه فأكرمه خوارزم شاه وأجلسه معه على سريره، وبعث به إلى خوارزم، وسار هو إلى ما وراء النهر، وملكها مدينة مدينة إلى أوركند، وأنزل نّوابه فيها وعاد إلى خوارزم ومعه صاحب سمرقند فأصهر إليه خوارزم شاه بأخته، وردّه إلى سمرقند، وبعث معه شحنة يكون بسمرقند على ما كان أيام الخطا، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء.

انتقاض صاحب سمرقند:

ولما عاد صاحب سمرقند إلى بلده، أقام شحنة خوارزم شاه، وعسكره معه نحوا
من سنة. ثم استقبح سيرتهم وتنكر لهم، وأمر أهل البلاد فثاروا بهم وقتلوهم في كل مذهب، وهمّ بقتل زوجته أخت خوارزم شاه فغلقت الأبواب دونه، واسترحمته فتركها وبعث إلى ملك الخطا بالطاعة. وبلغ الخبر إلى خوارزم شاه فامتعض، وهمّ بقتل من في بلده من أهل سمرقند. ثم انثنى عن ذلك وأمر عساكره

بالتوجه إلى ما وراء النهر فخرجوا أرسالاً ، وهو في أثرهم، وعبر بهم النهر ونزل على سمرقند وحاصرها، ونصب عليها الآلات، وملكها عنوة واستباحها ثلاثاً وقتل فيها نحوا من مائتي ألف، واعتصم صاحبها بالقلعة. ثم حاصرها وملكها عنوة وقتل صاحبها صبرا في جماعة من أقرانه. ومحا آثار الخانية، وأنزل في سائر البلاد وراء النهر نوّابه، وعاد إلى خوارزم، والله تعالى وليّ النصر بمنه وفضله.

استلحام الخطا:

قد تقدّم لنا وصول طائفة من أمم الترك إلى بلاد تركستان وكاشغر، وانتشارهم فيما وراء النهر، واستخدموا للملوك الخانية أصحاب تركستان. وكان أرسلان خان محمد بن سليمان يترلهم مسالح على الريف فيما بينه وبين الصين، ولهم على ذلك الإقطاعات والجرايات. وكان يعاقبهم على ما يقع منهم من الفساد والعيث في البلاد ويوقع بهم ففرّوا من بلاده، وابتغوا عنه فسيحا من الأرض، ونزلوا بلاد ساغون. ثم خرج كوخان ملك الترك الأعظم من الصين سنة اثنتين وعشرين، وخمسمائة فسارت إليه أمم الخطا، ولقيهم الخان محمود بن محمد بن سليمان بن داود بقراخان، وهو ابن أخت السلطان سنجر فهزموه، وبعث بالصريخ إلى خاله سنجر فاستنفر ملوك خراسان وعساكر المسلمين، وعبر جيحون للقائهم في صفر سنة ست وثلاثين، ولقيه أمم الترك والخطا فهزموه وأثخنوا في المسلمين وأسرت زوجة السلطان سنجر. ثم أطلقها كوخان بعد ذلك، وملك الترك بلاد ما وراء النهر. ثم مات كوخان ملكهم سنة سبع وثلاثين، ووليت بعده ابنته وماتت قريبا، وملكت من بعدها أمها زوجة كوخان وابنه محمد، ثم انقرض ملكهم. واستولى الخطا على ما وراء النهر إلى آن غلبهم عليه خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش كما قدّمنا. وكانت قد خرجت قبل ذلك خارجة عظيمة من الترك يعرفون بالتتر، ونزلوا في حدود الصين وراء تركستان، وكان ملكهم كشلي خان، ووقع بينه وبين الخطا من العداوة والحروب ما يقع بين الأمم المتجاورة فلما بلغهم ما فعله خوارزم شاه بالخطا أرادوا الانتقام منهم، وزحف كشلي في أمم التتر إلى الخطا لينتهز الفرصة فيهم فبعث الخطا إلى خوارزم شاه يتلطفون له، ويسألونه النصر من عدّوهم قبل أن يستحكم أمرهم وتضيق عنه قدرته وقدرتهم. وبعث إليه كشلي يغريه بهم، وأن يتركه وإيّاهم، ويحلف له على مسالمة بلاده فسار

خوارزم شاه يوهم كل واحد من الفريقين أنه له، وأقام منتبذا عنهما حتى تواقعوا. وانهزم الخطا فمال التتر عليهم، واستلحموهم في كل وجه، ولم ينج منهم إلا القليل فتحصنوا بين جبال في نواحي تركستان، وقليل آخرون لحقوا بخوارزم شاه كانوا معه. وبعث خوارزم شاه إلى كشلي خان ملك التتر يعتدّ عليه بهزيمة الخطا، وإنها إنما كانت بمظاهرته فأظهر له الاعتراف وشكره، ثم نازعه في بلادهم وأملاكهم، وسار لحربهم. ثم علم انه لا طاقة له بهم فمكث يراوغهم على اللقاء، كشلي خان يعذله في ذلك وهو يغالطه، واستولى كشلي خان خلال ذلك على كاشغر وبلاد تركستان وساغون. ثم عمد خوارزم شاه إلى الشاش وفرغانة وإسحان وكاشان وما حولها من المدن التي لم يكن في بلاد الله أنزه منها، ولا أحسن عمارة فجلا أهلها إلى بلاد الإسلام، وخرّب جميعها خوفا أن يملكها التتر ثم اختلف التتر بعد ذلك، وخرج على كشلي طائفة أخرى

منهم يعرفون بالمغل وملكهم جنكزخان فشغل كشلي خان بحربهم عن خوارزم شاه فعبر النهر إلى خراسان وترك خوارزم شاه إلى أن كان أمره ما نذكره والله تعالى أعلم.

استيلاء خوارزم شاه على كرمان ومكران والسند:

وقد تقّدم لنا أنه كان من جملة أمراء خوارزم شاه تكش تاج الدين أبو بكروانه كان

كريا للدواب. ثم ترقت به الأحوال إلى أن صار "سروان " لتكش، والسروان مقدّم الجهاد. ثم تقدّم عنده لجلده واماتته، وصار أميرا وولاه قلعة زوزن. ثم تقدّم عند علاء الدين محمد بن تكش، واختصه فأشار عليه بطلب بلاد كرمان لما كانت مجاور لوطنه فبعث معه عسكرا، وسار إلى كرمان سنة اثنتي عشرة، وصاحبها يومئذ محمد بن حرب أبي الفضل الذي كان صاحب سجستان أيام السلطان سنجر فغلبه على بلا ا وملكها. ثم سار إلى كرمان وملكها كلها إلى السند من نواحي كابل، وسار إلى هرمز كل مدن فارس بساحل البحر، واسم صاحبها مكيك فأطاعه وخطب لخوارزم شاه، وضمن ما يحمله، وخطب له بقلعات وبعض عمان من وراء النهر لأنهم كانوا يتقربون إلى صاحب هرمز بالطاعة، وتسير سفنهم بالتجار إلى هرمز لأنه المرسى العظيم الذي تسافر إلى التجار من الهند والصين. وكان بين صاحب هرمز وصاحب كيش مغاورات وفتن، واحد منهما ينهى مراكب بلاده أن ترسي ببلاد الآخر. وكان خوارزم شاه يطيف بنواحى سمرقند خشية أن يقصد التتر أصحاب كشلي خان بلاده.

استيلاء خوارزم شاه على غزنة وأعمالها:

ولما استولى خوارزم شاه محمد بن تكش على بلاد خراسان، وملك باميان وغيرها، وبعث تاج الدين ألمرز صاحب غزنة، وقد تغلب عليها بعد ملوك الغورية. وقد تقدّم في أخبار دولتهم فبعث إليه في الخطبة له، وأشار عليه كبير دولته قطلغ تكين مولىّ شهاب الدين الغوري وسائر أصحابه بالإجابة إلى ذلك فخطب له ونقش السكة باسمه. وسار إلى قنصيرا، وترك قطلغ تكين بغزنة نائباً عنه فبعث قطلغ تكين لخوارزم شاه يستدعيه فأغذ له السير، وملك غزنة وقلعتها، وقتل الغورية الذين وجدوا بها خصوصا الأتراك. وبلغ الخبر ألمرز فهرب إلى أساون. ثم أحضر خوارزم شاه قطلغ ووبخه على قلة وفائه لصاحبه، وصادره على ثلاثين حملا من أصناف الأموال والأمتعة، وأربعمائة مملوك. ثم قتله وعاد إلى خوارزم وذلك سنة ثلاث عشرة وستمائة، وقيل سنة اثنتي عشرة بعد أن استخلف عليها ابنه جلال الدين منكبرس والله أعلم بغيبه وأحكم.

استيلاء خوارزم شاه على بلاد الجبل:

كان خوارزم شاه محمد بن تكش قد ملك الرها وهمذان وبلاد الجبل كلها أعوام تسعين وخمسمائة من يد قطلغ أبنايخ بقية أمراء السلجوقية، ونازعه فيها ابن القضاب وزير الخليفة الناصر فغلبه خوارزم شاه وقتله كما مرّ في أخباره. ثم شغل عنها تكش إلى أن توفي، وذلك سنة سبع وتسعين، وصار ملكه لابنه علاء الدين محمد بن تكش. ونغلب موالي البهلوإن على بلاد الجبل واحدا بعد واحد، ونصبوا أزبك بن مولاهم البهلوان. ثم انتقضوا عليه وخطبوا لخوارزم شاه، وكان آخر من وليّ منهم أغماش، وأقام بها مدة يخطب لعلاء الدين محمد

بن تكش خوارزم شاه. ثم وثب عليه بعض الباطنية، وطمع أزبك بن محمد البهلوان بقية الدولة السلجوقية باذربيجان وارّان في الاستيلاء على أعمال أصبهان والريّ وهمذان وسائر بلاد الجبل. وطمع سعد بن زنكي صاحب فارس ويقال سعد بن دكلا في الاستيلاء عليها أيضا كذلك. وسار في العساكر فملك أزبك أصبهان بممالأة أهلها، وملك سعد الريّ وقزوين وسمنان. وطار الخبر إلى خوارزم شاه بأصبهان وسمرقند فسار في العساكر سنة أربع عشرة وستمائة في مائة ألف بعد أن جهز العساكر فبما وراء النهر وبثغور الترك، وانتهى الى قومس ففارق العساكر، وسار متجرّداً في اثني عشر ألفا. فلما ظفرت مقدمته بأهل الريّ، وسعد مخيم يظاهرها ركب

للقتال يظن أنه السلطان. ثم تبين الآلة والمركب، واستيقن أنه السلطان فولت عساكره منهزمة، وحصل في أسر السلطان.وبلغ الخبر إلى أزبك بأصبهان فسار إلى همذان. ثم عدل عن الطريق في خواصه، وركب الأوعار إلى أذربيجان، وبعث وزيره أبا القاسم بن علي بالاعتذار فبعث إليه في الطاعة فاجابه، وحمله الضريبة فاعتذر بقتال الكرج. وأمّاسعد صاحب فارس فبلغ الخبر بأسره إلى إبنه نصرة الدين أبي بكر فهاج بخلعان أبيه، وأطلق السلطان سعدا على أن يعطيه قلعة اصطخر، ويحمل إليه ثلث الخراج، وزوجه بعض قرابته. وبعث معه من رجال الدولة من يقبض اصطخر. فلما وصل إلى شيراز، ودخل على إبنه واستولى على ملكه، وخطب لخوارزم شاه. واستولى خوارزم شاه على شاور وقزوين وجرجان وأبهر وهمذان وأصبهان وقم وقاشان وسائر بلاد الجبل. واستولى عليها كلها من اصحابها، واختص الأمير طأيين بهمذان، وولّى إبنه ركن الدولة ياورشاه عليهم جميعاً، وجعل معه جمال الدين محمد بن سابق الشاوي وزيراً.

طلب الخطبة وامتناع الخليفة منها:

ثم بعد ذلك بعث خوارزم شاه محمد بن تكش إلى بغداد يطلب الخطبة بها من الخليفة كما كانت لبني سفجوق، وذلك سنة أربع عشرة. وذلك لما رأي من استفحال أمره، واتساع ملكه فامتنع الخليفة من ذلك، وبعث في الاعتذار عنه الشيخ شهاب الدين السهروردي فأكبر السلطان مقدمه، وقام لتلقيه. وأوّل ما بدأ به الكلام على حديث الخطبة ببغداد، وجلس على ركبتيه لاستماعه. ثم تكلم وأطال وأجاد، وعرض بالموعظة في معاملة النبي صلى الله عليه وسلم في بني العباس وكبيرهم والتعرض لإذايتهم فقال السلطان: حاشا لله من ذلك، وأنا ما آذيت أحدا منهم، وأمير المؤمنين كان أولى مني بموعظة الشيخ، فقد بلغني أنّ في محبسه جماعة من بني العباس مخلدين يتناسلون، فقال الشيخ: الخليفة إذا حبس أحدا للاصلاح لا يعترض عليه فيه فما بويع ألا للنظر في المصالح. ثم ودعه السلطان، ورجع إلى بغداد. وكان ذلك قبل أن يسير إلى العراق. فلما استولى على بلاد الجبل وفرغ من أمرها سار إلى بغداد، وانتهى إلى عقبة سراباد وأصابه هنالك ثلج عظيم أهلك الحيوانات، وعفن أيدي الرجال وأرجلهم حتى

قطعوها، ووصله هنالك شهاب الدين السهروردي، ووعظه فندم ورجع عن قصده فدخل إلى خوارزم سنة خمس عشرة، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

قسمة السلطان خوارزم شاه الملك بين ولده:

ولما استكمل السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش ملكه بالاستيلاء على الريّ

وبلاد الجبل، قسم أعمال ملكه بين ولده فجعل خوارزم وخراسان ومازندران لوليّ عهده قطب الدين أولاغ شاه، وإنما كان وليّ عهده دون إبنه الأكبر جلال الدين منكبرس لأن أمّ قطب الدين وأمّ السلطان، وهي تركمان خاتون من قبيلة واحدة، وهم: فياروت من شعوب يمك إحدى بطون الخطا فكانت تركمان خاتون متحكمة في إبنها السلطان محمد بن تكش وجعل غزنة وباميان والغور وبست ومكسا مادومان من الهند لابنه جلال الدين منكبرس. وكرمان وكيش ومكرمان لابنه غياث الدين يترشاه. وبلاد الجبل لابنه ركن الدين غورشاه كما قدمناه. وأذن لهم في ضرب النوب الخمس له، وهي دبادب صغار تقرع عقب الصلوات الخمس. واختص هو بنوبة سماها نوبة ذي القرنين سبع وعشرين دبدبة كانت مصنوعة من الذهب والفضة مرصعه بالجواهر. هكذا ذكر الوزير محمد بن أحمد النسوي المنشيء كاتب جلال الدين منكبرس في أخباره وأخبار أبيه علاء الدين محمد بن تكش، وعلى كتابه اعتمدت دون غيره لأنه أعرف بأخبارهما. وكانت كرمان ومكرمان وكيش لمؤيد الملك قوام الدين. وهلك متصرف السلطان من العراق فأقطعها لابنه غياث الدين كما قلناه. وكان الملك هذا سوقة فأصبح ملكاً. وأصل خبره أنّ أمّه كانت داية في دار نصرة الدين محمد بن أنز صاحب زوزن، ونشأ في يته واستخدمه وسفر عنه للسلطان فسعى به أنه من الباطنية. ثم رجع فخوفه من السلطان بذلك فانقطع نصرة الدين إلى الإسماعيلية، وتحصن ببعض قلاع زوزن، وكتب قوام الدين بذلك إلى السلطان فجعل إليه وزارة زوزن، وولاية جبايتها. ولم يزل يخادع صاحبه نصرة الدين إلى أن رجع فتمكن من السلطان وسمله. ثم طمع قوام الدين في ملك كرمان، وكان بها أمير من بقية الملك دينار، وأمدّه السلطان بعسكر من خراسان فملك كرمان وحسن موقع ذلك من السلطان فلقيه مؤيد الملك وجعلها في أقطاعه. ولما رجع السلطان من العراق وقد نفقت جماله بعث إليه بأربعة آلاف بختي ، وتوفي أثر ذلك فرد السلطان أعماله إلى ابنه غياث الدين كما قلناه، وحمل من تركته إلى السلطان سبعون حملا من الذهب خلا الأصناف.

أخبار تركمان خاتون أمّ السلطان محمد بن تكش:

كانت تركمان خاتون أمّ السلطان محمد بن تكش من قبيلة بياروت من شعوب

الترك يمك من الخطا، وهي بنت خان حبكش من ملوكهم، تزوّجها السلطان خوارزم شاه تكش فولدت له السلطان محمدا. فلما ملك لحق بها طوائف يمك ومن جاورهم من الترك، واستظهرت بهم وتحكمت في الدولة فلم يملك السلطان معها أمره.

وكانت تولي في النواحي من جهتها كما يولي السلطان، وتحكم بين الناس وتنصف

من الظلامات وتقدم على الفتك والقتل وتقيم معاهد الخير والصدقة في البلاد، وكان لها سبعة من الموقعين يكتبون عنها، وإذا عارض توقيعها لتوقيع السلطان عمل بالمتأخر منهما. وكان لقبها: خداوندجهان أي

صاحبة العالم، وتوقيعها في الكتاب عصمة الدنيا والدين أولاغ تركمان ملك نساء العالمين. وعلامتها اعتصمت بالله وحده، تكتبها بقلم غليظ وتجود كتابتها أن تروّر عليها، واستوزرت للسلطان وزيره نظام الملك، وكان مستخدما لها فلما عزل السلطان وزيره أشارت عليه بوزارة نظام الملك هذا فوزر له على كره من السلطان، وتحكم في الدولة بتحكمها. ثم تنكر له السلطان لأمور بلغته عنه، وعزله فاستمر على وزارتها، وكان شانه في الدولة أكبر. وشكاه إليه بعض الولاة بنواحي خوارزم أنه صادرة فأمره بعض خواصه بقتله فمنعته تركمان من ذلك، وبقي على حاله وعجز السلطان عن إنفاذ أمره فيه، والله يؤيد بنصره من يشاء.

التتر

خروج التتر وغلبهم على ما وراء النهر وفرار السلطان أمامهم من خراسان

ولما عاد السلطان من العراق سنة خمس عشرة كما قدمناه، واستقر بنيسابور وفدت

عليه رسل جنكزخان بهدية من المعدنين، ونوافج المسك وحجر اليشم والثياب الطائية التي تنسج من وبر الإبل البيض، ويخبر أنه ملك الصين وما يليها من بلاد الترك، ويسأل الموادعة والأذن للتجار من الجانبين في التردّد في متاجرهم وكان في خطابه اطراء السلطان بأنه مثل أعز أولاده فاستنكف السلطان من ذلك، واستدعى محمودا الخوارزمي من الرسل، واصطنعه ليكون عيناً له على جنكزخان، واستخبره على ما قاله في كتابه من ملكه الصين، واستيلائه على مدينة

طوغاج فصدق ذلك، وانكر عليه الخطاب بالولد. وسأله عن مقدار العساكر فغشه وقللها، وصرفهم السلطان بما طلبوه من الموادعة والاذن للتجار فوصل بعض التجار من بلادهم إلى إنزار، وبها نيال خان بن خان السلطان في عشرين ألفاً من العساكر فشره إلى أموالهم، وخاطب السلطان بأنهم عيون وليسوا بتجار فأمره بالاحتياط عليهم فقتلهم خفية، وأخذ أموالهم. وفشا الخبر إلى جنكزخان فبعث بالنكير إلى السلطان في نقض العهد . وإن كان فعل نيال افتياتاً فبعث إليه يتهدّده على ذلك فقتل السلطان الرسل، وبلغ الخبر إلى جنكزخان فسار في العساكر. واعتزم السلطان أن يحضن سمرقند بالاسوار فجبى لذلك خراج سنتين، وجبى ثالثة استخدم بها الفرسان. وسار إلى أحياء جنكزخان فكبسهم وهو غائب عنها في محاربة كشلي خان فغنم ورجع، وأتبعهم ابن جنكزخان فكانت بينهم واقعة عظيمة هلك فيها كثير من الفريقين.ولجأ خوارزم شاه إلى جيحون فأقام عليه ينتظر شأن التتر. ثم عاجله جنكزخان فأجفل وتركها وفرق عساكره في مدن ما وراء النهر: إنزار وبخارى وسمرقند وترمذ وجند. وأنزل أبنايخ من كبراء أمرائه وحجاب دولته في بخارى. وجاء جنكزخان إلى إنزار فحاصرها وملكها غلابا، وأسر أميرها نيال خان الذي قتل التجار وأذاب الفضة في أذنيه وعينيه. ثم حاصر بخارى وملكها على الأمان، وقاتلوا معه القلعة حتى ملكوها. ثم غدر بهم وقتلهم وسلبهم وخربها. ورحل جنكزخان إلى سمرقند ففعلوا فيها مثل ذلك سنة تسع عشرة وستمائة. ثم كتب كتبا على لسان الأمراء قرابة أمّ السلطان يستدعون جنكزخان، ويعدها بزيادة خراسان إلى خوارزم، وبعث من يستخلفه على ذلك. وبعث الكتب مع من يتعرّض بها السلطان فلما قرأها ارتاب بأمّه وبقرابتها.

إجفال السلطان خوارزم شاه إلى خراسان ثم إلى طبرستان ومهلكه:

ولما بلغ السلطان استيلاء جنكزخان على إنزار وبخارى وسمرقند، وجاءه نائب

بخارى ناجيا في الفلّ أجفل حينئذ وعبر جيحون. ورجع عنه طوائف الخطا الذين كانوا معه، وعلاء الدين صاحب قيدر، وتخاذل الناس وسرّح جنكزخان العساكر في أثره نحواً من عشرين ألفا يسميهم التتر المغّربة لسيرهم نحو غرب خراسان فتوغلوا في البلاد، وانتهوا إلى بلاد بيجور واكتسحوا كل ما مرّوا عليه. ووصل السلطان إلى نيسابور فلم يثبت بها، ودخل إلى ناحية العراق بعد أن أودع أمواله. قال المنشيء في كتابه حدّثني الأمير تاج الدين البسطامي قال: لما انتهى خوارزم شاه في مسيره إلى العراق استحضرني وبين يديه عشرة صناديق مملوءة لآلئ لا تعرف قيمتها، وقال في

اثنين منها فيهما من الجواهر ما يساوي خراج الأرض بأسرها، وأمرني بحملها إلى قلعة أردهز من أحصن قلاع الأرض، وأخذت خط يد الموالي بوصولها ثم أخذها التتر بعد ذلك حين ملكوا العراق انتهى. ولما ارتحل خوارزم شاه من نيسابور قصد مازندران والتتر في أثره، ثم انتهى إلى أعمال همذان فكبسوه هناك، ونجا إلى بلاد الجبل، وقتل وزيره عماد الملك محمد بن نظام الملك وأقام هو بساحل البحر بقرية عند الفريضة يصلي ويقرأ ويعاهد الله على حسن السيرة. ثم كبسه التتر أخرى فركب البحر وخاضوا في أثره فغلبهم الماء، ورجعوا ووصلوا إلى جزيرة في بحر طبرستان فأقام بها وطرقه المرض فكان جماعة من أهل مازندران يمرضونه ويحمل إليه كثيرا من حاجته فيوقع لحاملها بالولايات والإقطاع، وأمضى ابنه جلال الدين بعد ذلك جميعها. ثم هلك سنة سبع عشرة وستمائة ودفن بتلك الجزيرة لاحدى وعشرين سنة من ملكه بعد ان عهد لابنه جلال الدين منكبرس، وخلع ابنه الاصغر قطب الدين أولاغ شاه. ولما بلغ خبر إجفاله إلى أمه تركمان خاتون بخوارزم خرجت هاربة بعد أن قتلت نحوا من عشرين من الملوك والأكابر المحبوسين هنالك، ولحقت بقلعة إيلان من قلاع مازندران فلما رجع التتر المغربة عن السلطان خوارزم شاه بعد أن خاض بحر طبرستان إلى الجزيرة التي مات بها فقصدوا مازندران، وملكوا قلاعها على ما فيها من الامتناع. ولقد كان فتحها بأخر إلى سنة تسعين أيام سليمان بن عبد الملك فملكوها واحدة واحدة، وحاصروا تركمان خاتون في قلعة إيلان إلى ان ملكوا القلعة صلحا وأسروها. وقال ابن الأثير انهم لقوها في طريقها إلى مازندران فأحاطوا بها وأسروها ومن كان معها من بنات السلطان، وتزّوجهنّ التتر، وتزّوج دوش خان بن جنكزخان بإحداهنّ، وبقيت تركمان خاتون أسيرة عندهنّ في خمول وذل. وكانت تحضر سماط جنكزخان كإحداهنّ، وتحمل قوتها منه. وكان نظام الملك وزير السلطان مع أمّه تركمان خاتون فحصل في قبضة جنكزخان، وكان عندهم معظما لما بلغهم من تنكر السلطان له. وكانوا يشاورونه في أمر الجباية فلما استولى دوش خان على خوارزم، وجاء بحرم السلطان الذين كانوا بها، وفيهنّ مغنيات فوهب إحداهنّ لبعض خدمه فمنعت نفسها منه، ولجأت للوزير نظام الملك فشكاه ذلك الخادم لجنكزخان ورماه بالجارية فأحضره جنكزخان وعدّد عليه خيانة استاذه وقتله.

مسير التتر بعد مهلك خوارزم شاه من العراق

إلى أذربيجان وما وراءها من البلاد هنالك

ولما وصل التتر إلى الريّ في طلب خوارزم شاه محمد بن تكش سنة سبع عشرة وستمائة ولم يجدوه عادوا إلى همذان، واكتسحوا ما مرّوا عليه، وأخرج إليهم أهل همذان ما حضرهم من الأموال والثياب والدواب فأمّنوهم. ثم ساروا إلى زنجان ففعلوا كذلك، ثم إلى قزوين فامتنعوا منهم فحاصروها وملكوها عنوة واستباحوها ويقال أنّ القتلى بقزوين زادوا على أربعين ألفا. ثم هجم عليهم الشتاء فساروا إلى اذربيجان على شأنهم من القتل والاكتساح، وصاحبها يومئذ أزبك بن البهلوان، مقيم بتبريز عاكف على لذاته فراسلهم وصانعهم، وانصرفوا إلى بوقان ليشتوا بالسواحل. ومرّوا إلى بلاد الكرج فجمعوا لقتالهم فهزمهم التتر وأثخنوا فيهم فبعثوا إلى ازبك صاحب أذربيجان، وإلى الاشرف بن العادل بن أيوب صاحب خلاط والجزيرة يطلبون اتصال ايديهم على مدافعة التتر. وانضاف إلى التتر أقوش من موالي أزبك، وإليه جموع من التركمان والأكراد. وسار مع التتر إلى الكرج واكتسحوا بلادهم وانتهوا إلى بلقين. وسار إليهم الكرج فلقيهم أقوش أوّلا. ثم لقيهم التتر فانهزم الكرج، وقتل منهم ما لا يحصى وذلك في ذي القعدة من سنة سبع عشرة. ثم عاد التتر إلى مراغة ومرّوا بتبريز فصانعهم صاحبها كعادته، وانتهوا إلى مراغة ا فقاتلوها أياما وبها امرأة تملكها. ثم ملكوها في صفر سنة ثماني عشرة واستباحوها. ثم رحلوا عنها إلى مدينة إربل وبها مظفر الدين بن زين الدين فاستمد بدرالدين صاحب الموصل فأمدّه بالعساكر. ثم همّ بالخروج لحفظ الدروب على بلاده فجاءت كتب الخليفة الناصر إليهم جميعا بالمسير إلى دقوقا ليقيموا بها مع عساكره، ويدافع عن العراق. وبعث معهم بشتمر كبير امرائه، وجعل المقدّم على الجميع مظفر الدين صاحب اربل فخاموا عن لقاء التتر وخام التتر عن لقائهم وساروا إلى همذان، وكان لهم بها شحنة منذ ملكوها أوّلا فطالبوه بفرض المال على أهلها. وكان رئيس همذان شريفا علونا قديم الرياسة بها فحضهم على ذلك فضجروا وأساؤا الردّ عليه، وأخرجوا الشحنة وقاتلوا التتر، وغضب العلوي فتسلل عنهم إلى قلعة بقربها فامتنع، وزحف التتر إلى البلد فملكوه عنوة واستباحوه واستلحموا أهله. ثم عادوا إلى أذربيجان فملكوا أدربيل واستباحوها وخربوها وساروا إلى تبريز وقد فارقها ازبك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأرّان، وقصد لقجوان وبعث بأهله وحرمه إلى حوى فرارا من التتر لعجزه وانهماكه فقام بأمر تبريز شمس الدين الطغرائي، وجمع أهل البلد واستعدّ للحصار فأرسل إليه التتر في المصانعة فصانعهم وساروا إلى مدينة سوا

فاستباحوها وخرّبوها، وساروا إلى بيلقان فحاصروها وبعثوا إلى أهل البلد رجلا من أكابرهم يقّرر معهم في المصانعة والصلح فقتلوه فأسرى التتر في حصارهم وملكوا البلد عنوة في رمضان سنة ثمان عشرة واستلحموا أهلها وأفحشوا في القتل والمثلة، حتى بقروا البطون على الأجنة واستباحوا جميع الضاحية قتلا ونهبا وتخريبا. ثم ساروا إلى قاعدة أرّان وهي كنجة ورأوا امتناعها فطلبوا المصانعة من أهلها فصانعوهم. ولما فرغوا من أعمال أذربيجان وارّان ساروا إلى بلاد الكرج وكانوا قد جمعوا لهم واستعدّوا ووقعوا في حدود بلادهم فقاتلهم التتر فهزموهم إلى بلقين قاعدة ملكهم فجمعوا هنالك ؛ ثم خاموا عن لقائهم لما رأوا من اقتحامهم المضائق والجبال

فعادوا إلى بلقين واستولى التتر على نواحيها فخربوها كيف شاؤا و لم يقدروا على التوغل فيها لكثرة الأوعار والدوسرات فعادوا عنها، ثم قصدوا درنبر شروان، وحاصروا مدينة سماهي وفتكوا في أهلها ووصلوا إلى السور فعالوه بأشلاء القتلى حتى ساموه واقتحموا البلد فأهلكوا كل من فيه. ثم قصدوا الدرنبر فلم يطيقوا عبوره فأرسلوا إلى شروان في الصلح فبعث إليهم رجلا من أصحابه فقتلوا بعضهم، واتخذوا الباقين أذلاء فسلكوا بهم درنبر شروان وخرجوا إلى الأرض الفسيحة، وبها أمم القفجاق واللان واللكن وطوائف من الترك مسلمون وكفار فأوقعوا بتلك الطوائف واكتسحوا عامّة البسائط، وقاتلهم قفجاق واللان ودافعوهم.

و لم يطق التتر مغالبتهم، ورجعوا وبعثوا إلى القفجاق وهم واثقون بمسالمتهم فأوقعوا بهم، وجر من كان بعيداً منهم إلى بلاد الروس، واعتصم آخرون بالجبال والغياض. واستولى التتر على بلادهم وانتهوا إلى مدينتهم الكبرى سراي على بحر نيطش المتصل بشليج القسطنطينية وهي مادّتهم، وفيها تجارتهم فملكها التتر وافترق أهلها في الجبال. وركب بعضهم إلى بلاد الروم في إيالة بني قلج أرسلان. ثم سار التتر سنة عشر وستمائة من بلاد قفجاق إلى بلاد الروم المجاورة لها، وهي بلاد فسيحة، وأهلها يدينون بالنصرانية فساروا إلى مدافعتهم في تخوم بلادهم ؛ ومعهم جموع من القفجاق سافروا إليهم فاستطرد لهم التتر مراحل. ثم كرّوا عليهم وهم غارون فطاردهم القفجاق والروم أياما. ثم انهزموا وأثخن التتر فيهم

قتلا وسبيا ونهبا. وركبوا السفن هاربين إلى بلاد المسلمين، وتركوا بلادهم فاكتسحها التتر. ثم عادوا إليها وقصدوا بلغار أواخر السنة، واجتمع أهلها وساروا للقائهم بعد أن أكمنوا لهم ثم استطردوا أمامهم، وخرج عليهم الكمناء من خلفهم فلم ينج منهم إلأ القليل، وارتحلوا عائدين إلى جنكزخان بأرض الطالقان ورجع القفجاق إلى بلادهم واستقرّوا فيها. والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء.

أخبار خراسان بعد مهلك خوارزم شاه:

قد كنا قدّمنا مهلك خوارزم شاه، ومسير هؤلاء التتر المغربة في طلبه، ثم انتهائهم

بعد مهلكه إلى النواحي التي ذكرناها. وكان جنكزخان بعد اجفال خوارزم شاه من جيحون، وهو بسمرقند قد بعث عسكرا إلى ترمذ، فساروا منها إلى كلات من أحصن القلاع إلى جانب جيحون فاستولوا عليها وأوسعوها نهباّ وسير عسكرا آخر إلى فرغانة، وكذلك عسكراً آخر إلى خوارزم، وعسكرا آخر إلى خوزستان فعبر عسكر خراسان إلى بلخ وملكوها على الأمان سنة سبع وستمائة، و لم يعرضوا لها بعيث، وأنزلوا شحنتهم بها. ثم ساروا إلى زوزن وميمنة وايدخوي وفارياب فملكوها وولوا عليها، و لم يعرضوا لأهلها بأذى وإنما استنفروهم لقتال البلد معهم ثم ساروا إلى الطالقان، وهي ولاية متسعة فقصدوا قلعة صور كوه من أمنع بلادها فحاصروها ستة أشهر، وامتنعت عليهم فسار إليهم جنكزخان بنفسه، وحاصرها أربعة أشهر أخرى حتى إذا رأى امتناعها أمر بنقل الخشب والتراب، حتى اجتمع منه تلّ مشرف على البلد، واستيقن أهل البلد، الهلكة واجتمعوا وفتحوا الباب، وصدقوا الحملة فنجا الخيالة وتفرّقوا في الجبال والشعاب وقتل الرجالة، ودخل التتر البلد فاستباحوها. ثم بعث جنكزخان صهره قفجاق قوين إلى خراسان ومرواسا وقاتلوها فامتنعت

عليهم، وقتل قفجاق قوين فأقاموا على حصارها وملكوها عنوة واستباحوها وخرّبوها. ويقال قتل فيها أزيد من سبعين ألفا وجمع عدداً من الجثث كبيرا فكان كالتلال العظيمة وكان رؤساؤها بني حمزة بخوارزم منذ ملكها خوارزم شاه تكش، فعاد إليها اختيار الدين جنكي بن عمر بن حمزة وبوعمه وضبطوها.

ثم بعث جنكزخان ابنه في العساكر إلى مدينة مرو، واستنفر أهل البلاد التي ملكوها من قبل مثل بلخ وأخواتها. وكان الناجون من هذه الوقائع كلها قد لحقوا بمرو، واجتمع بها ما يزيد على مائتي ألف، وعسكروا بظاهرها لا يشكون في الغلب. فلما قاتلهم التتر صابروهم فوجدوا في مصابرتهم ما لم يحتسبوه فولوا منهزمين. وأثخن التتر فيهم، ثم حاصروا البلد خمسة أيام، وبعثوا إلى أميرها يستميلونه للنزول عنها

فاستأمن إليهم وخرج فأكرموه أوّلا. ثم أمروا بإحضار جنده للعرض حتى استكملوا وقبضوا عليهم ثم استكتبوا رؤساء البلد وتجاره وصناعه على طبقاتهم. وخرج أهل البلد جميعا، وجلس لهم جنكزخان على كرسي من ذهب فقتل الجند في صعيد واحد، وقام العامة رجالا وأطفالاً ونساء بين الجند فاقتسموهم، وأخذوا اموالهم. وامتحنوهم في طلب المال ونبشوا القبور في طلبه. ثم أحرقوا البلد وتربة السلطان سنجر. ثم استلحم في اليوم الرابع أهل البلد جميعاً. يقال كانوا سبعمائة. ثم ساروا إلى نيسابور وحاصروها خمسا. ثم اقتحموها عنوة وفعلوا فيها فعلهم في مرو أو أشدّ. ثم بعثوا عسكراً إلى طوس وفعلوا فيها مثل ذلك وخربوها، وخربوا مشهد علي بن موسى الرضا. ثم ساروا إلى هراة وهي من أمنع البلاد فحاصروها عشرا وملكوها، وأمنوا من بقي من أهلها، وأنزلوا عندهم شحنة وساروا لقتال جلال الدين بن خوارزم شاه كما يذكر بعد فوثب أهل هراة على الشحنة وقتلوه. فلما رجع التتر منهزمين اقتحموا البلد واستباحوه وخربوه وأحرقوه ونهبوا نواحيه أجمع، وعادوا إلى جنكزخان بالطالقان وهو يرسل السرايا في نواحي خراسان حتى أتوا عليها تخريبا ؛ وكان ذلك كله سنة سبع عشرة، وبقيت خراسان خرابا. وتراجع أهلها بعض الشيء فكانوا فوضى، واستبدّ آخرون في بعض مدنها كما نذكر ذلك في أماكنه، والله أعلم.

أخبار السلطان جلال الدين منكبرس مع التتر بعد مهلك خوارزم شاه واستقراره بغزنة:

ولما توفي السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش بجزيرة بحر طبرستان ركب ولده

البحر إلى خوارزم يقدمهم كبيرهم جلال الدين منكبرس، وقد كان وثب بها بعد منصرف تركمان خاتون أمّ خوارزم شاه رجل من العيارين فضبطها وأساء السيرة، وانطلقت إليها أيدي العيارين. ووصل بعض نواب الديوان فأشاعوا موت السلطان ففّر العيارون. ثم جاء جلال الدين واخوته واجتمع الناس إليهم فكانوا معهم سبعة آلاف من العساكر، أكثرهم اليارونية قرابة أمّ خوارزم شاه فمالوا إلى أولاغ شاه، وكان ابن أختهم كما مرّ وشاوروا في الوثوب بجلال الدين وخلعه، ونمي الخبر إليه فسار إلى خراسان في ثلثمائة فارس، وسلك المفازة إلى بلد نسا فلقي هناك رصدا من التتر فهزمهم ولجأ فلهم إلى نسا، وكان بها الأمير اختيار زنكي بن محمد بن

عمر بن حمزة قد رجع إليها من خوارزم كما قدّمناه، وضبطها فاستلحم فل التتر وبلغ. وبعث إلى جلال الدين بالمدد فسار إلى نيسابور. ثم وصلت عساكر التتر إلى خوارزم بعد ثلاث من مسير جلال الدين فأجفل أولاغ واخوته وساروا في اتباعه ومرّوا بنسا فسار معه اختيار الدين صاحبها، واتبعتهم عساكر التتر فأدركوهم بنواحي خراسان وكبسوهم فقتل أولاغ شاه وأخوه انشاه، واستولى التتر على ما كان معهم من الاموال والذخائر، وافترقت في أيدي الجند والفلاحين فبيعت بأبخس الأثمان. ورجع اختيار الدين زنكي إلى نسا فاستبد بها، ولم يسم إلى مراسم الملك. وكتب له جلال الدين بولايتها فراجع أحوال الملك. ثم بلغ الخبر إلى جلال الدين بزحف التتر إلى نيسابور، وأنّ جنكزخان بالطالقان، فسار إلى نيسابور ومن نيسابور إلى بست، واتبعه نائب هراة أمير ملك خان ابن خا ل السلطان خوارزم شاه في عشرة آلاف فارس هاربا أمام التتر وقصد سجستان فامتنعت عليه فرجع، واستدعاه جلال الدين فسار إليه واجتمعوا فكبسوا التتر، وهم محاصرون قلعة قندهار فاستلحموهم، ولم يفلت منهم أحد فرجع جلال الدين إلى غزنة، وكانت قد استولى عليها اختيار الدين قربوشت صاحب الغور، عندما ساروا إليها وعندما قدم جلال الدين صريخا عن أمس ملك خان من سجستان فخالفه قربوشت إليها، وملكها فثار به صلاح الدين النسائي والي قلعتها، وقتله وملك غزنة، وكان بها رضا الملك شرف الدين بن أمير ملك خان، ففتك به رضا الملك واستبدّ بغزنة. فلما ظفر جلال الدين بالتتر على قندهار رجع إلى غزنة فقتله وأوطنها وذلك سنة ثمان عشرة.

استيلاء التتر علي مدينة خوارزم وتخريبها:

قد كنا قدمنا أنّ جنكزخان بعدما أجفل خوارزم شاه من جيحون بعث عساكره إلى النواحي، وبعث إلى مدينة خوارزم عسكرا عظيما لعظمها لأنها كرسي الملك وموضع العساكر فسارت عساكر التتر إليها مع ابنه جنطاي وأركطاي فحاصروها خمسة أشهر، ونصبوا عليها الآلات فامتنعت فاستمدّوا عليها جنكزخان فأمدّهم بالعساكر متلاحقة فزحفوا إليها وملكوا جانبا منها. وما زالوا يملكونها ناحية ناحية إلى أن استوعبوها، ثم فتحوا السدّ الذي يمنع ماء جيحون عنها فسار إليها جيحون فغرّقها. وانقسم أهلها بين السيف والغرق، هكذا قال ابن الأثير. وقال النسائي الكاتب إنّ دوشن خان بن جنكزخان عرض عليهم الأمان فخرجوا إليه فقتلهم أجمعين، وذلك في محرم سنة سبع عشرة. ولما فرغ التتر من خراسان وخوارزم رجعوا إلى ملكهم جنكزخان بالطالقان

خبر آبنايخ نائب بخاري وتغلبه علي خراسان ثم فراره أمام التتر إلى الريّ:.

كان آبنايخ أمير الأمراء والحجاب أيام خوارزم شاه وولاه ثانياً بخارى فلما ملكها التتر عليه كما قلناه أجفل إلى المفازة، وخرج منها إلى نواحي نسا، وراسله اختيار الدين صاحبها يعرضها عليه للدخول عنده فأبى فوصله وأمده. وكان رئيس بشخوان من قرى نسا أبو الفتح فداخل التتر فكتب إلى شحنة خوارزم بمكان آبنايخ، فجرد إليهم عسكراً فهزمه آبنايخ وأثخن فيهم، وساروا إلى بشخوان فحاصروها وملكوها عنوة، وهلك أبوالفتح أيام الحصار. ثم ارتحل آبنايخ إلى ابيورد، وقد تغلب تاج الدين عمر بن مسعود على أبيورد وما بينها

وبين مرو فجبى خراجها واجتمع عليه جماعة من أكابر الأمراء، وعاد إلى نسا وقد توفي نائبها اختيار الدين زنكي، وملك بعده ابن عمه عمدة الدين حمزة بن محمد بن حمزة فطلب منه آبنايخ خراج سنة ثمان عشرة، وسار إلى شروان وقد تغلب عليها ايكجي بهلوان فهزمه وانتزعها من يده. ولحق بهلوان بجلال الدين في الهند، واستولى آبنايخ خان على عامّة خراسان وكان تكين بن بهلوان متغلبا بمرو فعبر جيحون وكبس شحنة التتر ببخارى فهزموه سنة سبع، ورجع إلى شروان وهم باتباعه ولحقوا بآبنايخ خان على جرجان فهزموه، ونجا إلى غياث الدين يترشاه بن خوارزم شاه بالريّ فأقام عنده إلى أن هلك كما نذكر إن شاء الله تعالى.

خبر ركن الدين غورشاه صاحب العراق من ولد خوارزم شاه:

قد كان تقدّم لنا أنّ السلطان لما قسم ممالكه بين أولاده جعل العراق في قسمة غورشاه منهم. ولما أجفل السلطان إلى ناحية الريّ لقيه ابنه غورشاه، ثم سار من الريّ إلى كرمان فملكها تسعة أشهر. ثم بلغه أن جلال الدين محمد بن آبه القزويني، وكان بهمذان أراد أن يملك العراق، واجتمع إليه بعض الأمراء، وأن مسعود بن صاعد قاضي أصبهان مائل إليه فعاجله ركن الدولة، واستولى على أصبهان. وهرب القاضي إلى الأتابك سعد بن زنكي صاحب فارس فأجاره. وبعث ركن الدين العساكر لقتال همذان فتخاذلوا ورجعوا دون قتال. ثم مضى إلى الريّ ووجد بها قوما من الإسماعيلية يحاولون إظهار دعوتهم. ثم زحف التتر إلى ركن الدولة فحاصروه بقلعة راوند، واقتحموها فقاتلوه واستأمن إليهم ابن آبه صاحب همذان فأمنوه، ودخلوا همذان فولوا عليها علاء الدين الشريف الحسيني عوضا من ابن آبه

.

خبر غياث الدين ثيرشاه صاحب كرمان من ولد السلطان خوارزم شاه:

قد كنا قدّمنا أنّ السلطان خوارزم شاه ولي ابنه غياث الدين ثيرشاه كرمان وكيش، ولم ينفذ إليها أيام أبيه. ولما كانت الكبسة على قزوين خلص إلى قلعة ماروت من نواحي أصبهان، وأقام عند صاحبها. ثم رجع إلى أصبهان ومر به التتر ذاهبين إلى أذربيجان فحاصروه وامتنع عليهم، وأقام بها إلى آخر سنة عشرين وستمائة فلما جاء أخوه ركن الدين غورشاه من كرمان إلى أصبهان لقيه هنالك. وحرّضه غياث الدين على كرمان فنهض إليها وملكها، فلما قتل ركن الدين كما قلناه سار غياث الدين إلى العراق وكان ركن لما ولاه أبوه العراق جعل معه الأمير بقاطابستي اتابكين فاستبدّ عليه فشكاه إلى أبيه، وأذن له في حبسه فحبسه ركن الدين بقلعة سرجهان. فلما قتل ركن الدين كما قلناه أطلقه نائب القلعة أسد الدين حولي فاجتمع عليه الناس وكثير من الأمراء واستماله غياث الدين وأصهر إليه بأخته، وماطله في الزفاف يستبرئ ذهاب الوحشة بينهما.

وكانت أصبهان بعد مقتل ركن الدين غلب عليها أزبك خان، واجتمعت عليه العساكر وزحف إليه الأمير بقاطابستي فاستنجد ازبك غياث الدين فأنجده بعسكر مع الأمير دولة ملك، وعاجله بقاطابستي فهزمه بظاهر أصبهان وقتله وملكها. ورجع دولة ملك إلى غياث الدين فزحف غياث الدين إلى أصبهان، وأطاعه القاضي والرئيس صدر الدين، وبادر بقاطابستي إلى طاعته، ورضي عنه غياث الدين وزفّ إليه أخته. واستولى غياث

الدين على العراق ومازندان وخراسان، وأقطع مازندان وأعمالها دولة ملك، وبقاطابستي همذان وأعمالها. ثم زحف غياث الدين إلى أذربيجان وشن الغارة على مراغة، وترددت رسل صاحب أذربيجان أزبك بن البهلوان في المهادنة فهادنه، وتزّوج بأخته صاحب بقحوان، وقويت شوكته وعظم فكان بقاطابستي في دولته وتحكم فيها. ثم حدثته نفسه بالاستبداد وانتفض وقصد اذربيجان، وبها مملوكان منتقضان على أزبك بن البهلوان فاجتمعا معه، وزحف إليهم غياث الدين فهزمهم ورجعوا مغلوبين إلى أذربيجان ويقال إن الخليفة دس بذلك إلى بقاطابستي وأغراه بالخلاف على غياث الدين. ثم لحق بغياث الدين آبنايخ خان نائب بخارى مفلتا من واقعته مع التتر بجرجان فأكرمه وقدّمه، ونافسه خال السلطان دولة ملك وأخوه وسعوا إليها فزجرهما عنه فذهبا مغاضبين. ووقع

دولة ملك في عساكر التتر بمرو وزنجان فقتل وهرب ابنه بركة خان إلىأزبك بأذربيجان ثم أوقع عساكر التتر بقاطابستي وهزموه ونجا إلى الكرم. وخلص الفل إلى غياث الدين وعاد التتر إلى ما وراء جيحون. ثم تذكر صاحب فارس سعد الدين بن زنكي، وكاتبته أهل أصبهان حين كانوا منهزمين فسار إليه وحاصره في قلعة اصطخر وملكها. ثم سار إلى شيراز وملكها عليه عنوة. ثم سار إلى قلعة حرة فحاصرها حتى استأمنوا، وتوفي عليها آبنايخ خان ودفن هنالك، بشعب سلمان، وبعث عسكراً إلى كازرون فملكها عنوة واستباحها. ثم سار إلى ناحية بغداد. وجمع الناس الجوع من إربل وبلاد الجزيرة. ثم راسل غياث الدين في الصلح فصالحه ورجع إلى العراق.

أخبار السلطان جلال الدين منكبرس وهزيمته أمام التتر ثم عوده إلى الهند:

قد كان تقدّم لنا أن أباه خوارزم شاه لما قسم البلاد بين ولديه جعل في قسمه غزنة

وباميان والغور وبست وهكياباد وما يليها من الهند، واستناب عليها أمير ملك وأنزله غزنة فلما انهزم السلطان خوارزم شاه أمام التتر زحف إليه حربوشة والي الغور فملكها من يده وكان من أمره ما قدّمناه إلى أن استقّر بها رضا الملك شرف الدين. ولما أجفل السلطان جلال الدين من نيسابور إلى غزنة واستولى التتر على بلاد خراسان، وهرب أمراؤها فلحقوا بجلال الدين فقتل نائب هراة أمين الملك خال السلطان. وقد قدّمنا محاصرته بسجسآن، ثم مراجعته طاعة المسلطان جلال الدين، ولحق به أيضا سيف الدين بقراق البلخي وأعظم ملك من بلخ ومظهر ملك والحسن فزحف كل منهم في ثلاثين ألفا، ومع جلال الدين من عسكره مثلها فاجتمعوا وكبسوا التتر المملوكة محاصرين قلعة قندهار كما قلنا. واستلحموهم ولحق فلهم بجنكزخان فبعث ابنه طولي خان في العساكر فساروا إلى جلال الدين فلقيهم بشروان وهزمهم، وقتل طولي خان بن جنكزخان في المعركة، وذهب التتر منهزمين واختلف عسكر السلطان جلال الدين على الغنائم وتنازع سيف الدين بقراق مع أمين الملك نائب هراة وتحيز إلى العراق، وأعظم ملك وظفر ملك، وقاتلوا أمين الملك فقتل أخ لبقراق وانصرف مغاضبا إلى الهند وتبعه أصحابه ، ولاطفهم جلال الدين ووعظهم فلم يرجعوا. وبلغ خبر الهزيمة إلى جنكزخان فسار في أمم التتر، وسار

جلال الدين فلقي مقدّمة عساكره فلم يفلت من التتر إلا القليل. ورجع فنزل على نهر السند وبعث بالصريخ إلى الأمراء المنحرفين عنه، وعاجله جنكزخان قبل رجوعه فهزمه بعد القتال والمصابرة ثلاثا، وقتل أمين الملك قريب أبيه. واعترض المنهزمين نهر السند فغرق أكثرهم، وأسر ابن جلال الدين فقتل وهو ابن سبع سنين، ولما وقف جلال الدين على النهر والتتر في اتباعه فقتل أهله وحرمه جميعاً، واقتحم النهر بفرسه فخلص إلى عدوته،وتخلص من عسكره ثلاثمائة فارس وأربعة آلاف راجل وبعض أمرائه، ولقوه بعد ثلاث. وتخلص بعض خواصه بمركب مشحون بالأقوات والملابس فسد من حاجتهم، وتحصن أعظم ملك ببعض القلاع. وحاصره جنكزخان وملكها عنوة، وقتله ومن معه. ثم عاد التتر إلى غزنة فملكوها واستباحوها وأحرقوها وخربوها واكتسحوا سائر نواحيها، وكان ذلك كله سنة تسع عشرة. ولما سمع صاحب جبل جردي من بلاد الهند بجلال الدين جمع للقائه، وخام جلال الدين وأصحابه عن اللقاء لما نهكتهم الحرب فرجعوا أدراجهم، وأدركهم صاحب جلال الدين صوري فقاتلهم وهزموه وملكوا أمرهم، وبعث إليهم نائب ملك . الهند فلاطفهم وهاداهم والله تعالى وليّ التوفيق.

أخبال جلال الدين بالهند:

كان جماعة من أصحاب جلال الدين، وأهل عسكره لما عبروا إليهم، حصلوا عند

قباجة ملك الهند منهم بنت أمين الملك خلصت إلى مدينة أرجاء من عمله، ومنهم شمس الملك وزير جلال الدين حياة أبيه، ومنهم قزل خان بن أمين الملك خلص إلى مدينة كلور فقتله عاملها، وقتل قباجة شمس الملك الوزير لخبر جلال الدين بأموره وبعث أمين الملك. ولحق بجلال الدين جماعة من أمراء أخيه غياث الدين فقوي بهم، وحاصر مدينة كلور وافتتحها، وافتتح مدينة ترنوخ كذلك فجمع قباجة للقائه، وسار إليه جلال الدين فخام عن اللقاء وهرب، وترك معسكره فغنمه جلال الدين بما فيه، وسار إلى لهاوون وفيها ابن قباجة ممتنعا عليه فصالحه على مال يحمله، ورحل إلى تستشان وبها فخر الدين السلاوي نائب قباجة فتلقاه بالطاعة. ثم سار إلى أوجا وحاصرها فصالحوه على المال. ثم سار إلى جانس وهي لشمس الدين اليتمشي من ملوك الهند، ومن موالي شهلب الدين الغوري فأطاعه أهلها وأقام بها، وزحف إليه ايتش في ثلاثين ألف فارس ومائة ألف راجل وثلاثمائة فيل. وزحف جلال الدين في عساكره، وفي مقدمته جرجان بهلوان أزبك، واختلفت المقدمتان فلم يمكن اللقاء. وبعث ايتش في الصلح

فجنح إليه جلال الدين، ثم اجتمع قباجة وايتش وسائر ملوك الهند فخام عن لقائهم، ورجع لطلب العراق، واستخلف جهان بهلوان الملك على ما ملك من الهند،، وعبر النهر إلى غزنة فولى عليها وعلى الغور الأمير وفاملك واسمه الحسن فزلف، وسار إلى العراق وذلك سنة احدى وعشرين بعد مقدّمه لها بسنتين.

أحوال العراق وخراسان في ايالة غياث الد ين:

كان غياث الدين بعد مسير جلال الدين إلى الهند اجتمع إليه شراد العساكر بكرمان، وسار بهم إلى العراق فملك خراسان ومازندران كما تقدم، وأقام منهمكاً في لذاته. واستبد الأمراء بالنواحي فاستولى قائم الدين

على نيسابور، وتغلب يقز بن ايلجي بهلوان على شروان، وتملك ينال خطا بهاتر، ونظام اسفراين، ونصرة الدين بن محمد مستبدّ بنسا كما مرّ واستولى تاج الدين عمر بن مسعود التركماني على أبيورد، وغياث الدين مع ذلك منهمك في لذاته. وسارت إليه عساكر التتر فخرج لهم عن العراق إلى بلاد الجبل، واكتسحوا سائر جهاته. واشتط عليه الجند وزادهم في الاقطاع والإحسان فلم يشبعهم، وأظهروا الفساد وعاثوا في الرعايا. وتحكمت أمّ السلطان غياث الدين في الدولة لإغفاله أمرها، واقتفت طريقة تركمان خاتون أم السلطان خوارزم شاه وتلقبت بلقبها خداوندجهان، إلى أن جاء السلطان جلال الدين فغلب عليه كما قلناه.

وصول جلال الدين من الهند إلى كرمان واخباره بفارس والعراق مع أخيه غياث الدين:

ولما فارق جلال الدين الهند كما قلناه سنة إحدى وعشرين، وسار إلى المفازة وخلص منها إلى كرمان بعد أن لقي بها من المتاعب والمشاق ما لا يعبر عنه، وخرج معه أربعة آلاف راكب على الحمير والبقر، ووجد بكرمان براق الحاجب نائب أخيه غياث الدين. وكان من خبر براق هذا أنه كان حاجبا لكوخان ملك الخطا وسفر عنه إلى خوارزم شاه فأقام عنده. ثم ظفر خوارزم شاه بالخطا وولاه حجابته. ثم صار إلى خدمة إبنه غياث الدين ترشه بمكران فأكرمه. ولما سار جلال الدين إلى الهند ورجع عنه التتر سار غياث الدين لطلب العراق فاستناب براق في

كرمان، فلما جاء جلال الدين من الهند اتهمه، وهمّ بالقبض عليه فنهاه عن ذلك وزيره شرف الملك فخر الدين علي بن أبي القاسم الجندي خواجا جهان أن يستوحش الناس لذلك.ثم سار جلال الدين إلى شيراز، وأطاعه صاحبها برد الأتابك وأهدى له، وكان أتابك فارس سعد بن زنكي قد استوحش من غياث الدين فاصطلحه جلال الدين وأصهر إليه في ابنته. ثم سار إلى أصبهان فأطاعه القاضي ركن الدين مسعود بن صاعد، وبلغ خبره إلى أخيه غياث الدين وهو بالريّ فجمع لحربه، وبعث جلال الدين يستعطفه.وأهدى له سلب طولي خان بن جنكزخان الذي قتل في حرب بزوان كما مرّ وفرسه وسيفه، ودلق إلى الأمراء الذين معه بالاستمالة فمالوا إليه ووعدوه بالمظاهرة ونمي الخبر إلى غياث الدين فقبض على بعضهم، ولحق الآخرون بجلال الدين فجاؤا به إلى المخيم فمال إليه أصحاب غياث الدين وعساكره، واستولى على مخيمه وذخائره وأمه. ولحق غياث الدين بقلعة سلوقان وعاتب جلال الدين أمه في فراره فاستدعته وأصلحت بينهما، ووقف غياث الدين موقف الخدمة لأخيه السلطان جلال الدين، وجاء المتغلبون بخراسان والعراق وأذعنوا إلى الطاعة، وكانوا من قبل مستبدين على غياث الدين فاختبر السلطان طاعتهم وعمل فيها على شاكلتها والله أعلم.

استيلاء ابن آبنايخ على نسا:

كان نصرة الدين بن محمد قد استولى على نسا بعد ابن عمه اختيار الدين كما مرّ، واستناب في أموره محمد بن أحمد النسائي المنشيء، صاحب التاريخ المعتمد عليه في نقل أخبار خوارزم شاه وبنيه فأقام فيها تسع عشرة سنة مستبدا على غياث الدين ثم انتقض عليه وقطع الخطبة له، فسرّح إليه غياث الدين العساكر مع طوطي بن آبنايخ، وأنجده بأرسلان وكاتب المتغلبين بمساعدته فراجع نصرة الدين محمد بن حمزة نفسه، وبعث نائبه محمد

بن أحمد المنشيء إلى غياث الدين بمال صالحه عليه فبلغه الخبر في طريقه بوصول جلال الدين واستيلائه على غياث الدين، فأقام بأصبهان ينتظر صلاح السابلة وزوال الثلج. ثم سار إلى همذان فوجد السلطان غائبا في غزو الأتابك بقطابستي. وكان من خبره أنه صهر إلى غياث الدين على أخته كما قدّمنا فهرب بعد خلعه إلى أذربيجان واتفق هو والأتابك سعد وسار إليهما جلال الدين فخالفه الأمير ايغان طائسي إلى همذان وسار إلى جلال الدين وكبسه هنالك فأخذه ثم أمنه، وعاد إلى مخيمه ولقيه وافد نصرة الدين على بلاد نسا وما يتاخمها، وبعث إلى ابن آبنايخ بالافراج عن نسا. ثم بلغ الخبر بعد يومين بهلاك نصرة الدين واستيلاء ابن آبنايخ على نسا.

مسير السلطان جلال الدين إلى خوزستان ونواحي بغد اد:

ولما استولى السلطان جلال الدين على أخيه غياث الدين واستقامت أموره، سار الى خوزستان شاتياً وحاصر قاعدتها، وبها مظفر الدين وجه السبع مولى الخليفة الناصر.وانتهت سراياه في الجهات إلى بادرايا وإلى البصرة فأوقع بهم تلكين نائب البصرة، وجاءت عساكر الناصر مع مولاه جلال الدين قشتمر وخاموا عن اللقاء وأوفد ضياء الملك علاء الدين محمد بن مودود السوي العارض على الخليفة ببغداد عاتبا، وكان في مقدّمته جهان بهلوان فلقي في طريقه جمعا من العرب وعساكر الخليفة فرجع، ووقع بهم ورجعوا إلى بغداد. وجيء بأسرى منهم إلى السلطان فأطلقهم، واستعد أهل بغداد للحصار وسار السلطان إلى يعقوبا على سبع فراسخ من بغداد. ثم إلى دقوقا فملكها عنوة وخربها، وقاتلت بعوثه عسكر تكريت، وتردّدت الرسل بينه وبين مظفر الدين صاحب إربل حتى اصطلحوا، واضطربت البلد بسبب ذلك، وأفسد العرب السابلة. وأقام ضياء الملك ببغداد إلى أن ملك السلطان مراغة والله تعالى أعلم.

أولية الوزير شرف الد ين:

هذا الوزير هو فخر الدين علي بن القاسم خواجة جهان ويلقب شرف الملك أصله من أصبهان، وكان أوّل أمره ينوب عن صاحب الديوان بها، وكان نجيب الدين الشهرستاني وزير السلطان وإبنه بهاء الملك وزير الجند وفخر الدين هذا يخدمه بها. ثم تمكن من منصب الإفتاء وطمح إلى مغالبة نجيب الدين على الوزارة، وسعى جند السلطان بأنه تناول من جبايتها مائتي ألف دينار فسامحه بها السلطان، و لم يعرض له. ثم سعى بفخر الدين ثانية فولي وزارة الجند وأقام بها أربع سنين حتى عبر السلطان إلى بخارى فكثرت به الشكايات فأمر بالقبض عليه فاختفى، ولحق بالطالقان إلى أن اتصل بجلال الدين حين كان بغزنة بعد مهلك إبنه فرتبه في الحجابة إلى أن أجاز بحر السند، وكان وزيره شهاب الدين الهروي فقتله قباجة ملك الهند كما مرّ، واستوزر جلال الدين مكانه فخر الدين هذا ولقبه شرف الملك، ورفع رتبته على الوزراء وموقفه وسائر آدابه وأحواله.

عودة التتر إلى الريّ وهمذان وبلاد الجبل:

وبعد رجوع التتر المغربة من أذربيجان وبلاد قفجاق وسروان كما قدّمناه، وخراسان يومئذ فوضى ليس بها ولاة إلا متغلبون من بعض أهلها بعد الخراب الاوّل والنهب فعمروها، فبعث جنكز خان عسكرا آخراً من التتر إليها فنهبوها ثانيا وخربوها وفعلوا في ساوة وقاشان وقم مثل ذلك ولم يكن التتر أوّلا أصابوا منها. ثم ساروا إلى همذان فأجفل أهلها وأوسعوها نهبا وتخريباً، وساروا في اتباع أهلها إلى أذربيجان وكبسوهم في حدودها فأجفلوا، وبعضهم قصد تبريز فسار التتر في اتباعهم وراسلوا صاحبها أزبك ابن البهلوان في إسلام من عنده فبعث بهم بعد أن قتل جماعة منهم وبعث برؤوسهم وصانعهم بما أرضاهم فرجعوا عن بلاده والله تعالى أعلم.

وقائع أذربيجان قبل مسير جلال الدين إليها:

لما رجع التتر من بلاد قفجاق والروس، وكانت طائفة من قفجاق لما افترقوا وفروا أمام التتر ساروا إلى دربنر شروان، واسم ملكه يومئذ رشيد، وسألوه المقام في بلاده وأعطوه الرهن على الطاعة فلم يجبهم ريبة بهم فسألوه الميرة فأذن لهم فيها فكانوا يأتون إليها زرافات، وتنصح له بعضهم بأنهم يرومون الغدر به، وطلب منه الإنجاد بعسكره وسار في أثرهم فأوقع بهم وهم باخلون بالطاعة فرجع ذلك القفجاقي بالعسكر. ثم بلغه أنهم رحلوا من مواضعهم فاتبعهم ثانيا بالعساكر حتى أوقع بهم، ورجع إلى رشيد ومعه جماعة منهم مستأمنين، وقد اختفى فيهم كبير من مقدميهم وتلاحق به جماعة منهم فاعتزموا على الوثوب فهرب خائفا، ولحق ببلاد شروان واستولت طائفة القفجاق على القلعة وعلى مخلف رشيد فيها من المال والسلاح، واستدعوا أصحابهم فلحقوا بهم واعتزموا وقصدوا قلعة الكرج فحاصروها. وخالفهم رشيد إلى القلعة فملكها وقتل من وجد بها منهم فعادوا من حصار تلك المدينة إلى دربنر، وامتنعت عليهم القلعة فرجعوا إلى تلك المدينة فاكتسحوا نواحيها وساروا إلى كنجة، من بلاد أرّان وفيها مولى لأزبك صاحب أذربيان فراسلوه بطاعة أزبك فلم يجبهم إليها، وعدد عليهم ما بدر منهم في الغدر ونهب البلاد، واعتذروا بأنهم إنما غدروا شروان لأنه منعهم الجواز إلى صاحب أذربيجان. وعرضوا عليه الرهن فجاءهم بنفسه ولقوه في عدد قليل فعدا عن محال التهمة فبعث بطاعتهم إلى سلطانه، وبعث بذلك إلى ازبك، وجاء بهم إلى كنجة فأفاض فيهم الخلع والأموال وأصهر إليهم وأنزلهم بجبل كيكلون.وجمع لهم الكرج فآواهم إلى كنجة. ثم سار إليهم أمير من أمراء قفجاق، ونال منهم فرجعوا إلى جبل كيكون. وسار القفجاق الذين كبسوهم إلى بلاد الكرج فاكتسحوها وعادوا فاتبعهم الكرج واستنقذوا الغنائم منهم، وقتلوا ونهبوا فرحل القفجاق إلى بردعة، وبعثوا إلى أمير كنجة في المدد على الكرج فلم يجبهم فطلبوا رهنهم فلم يعطهم فمدّوا أيديهم في المسلمين، واسترهنوا أضعاف رهنهم. وثار بهم المسلمون من كل جانب فلحقوا بشروان وتحفظهم المسلمون والكرج وغيرهم فأفنوهم، وبيع سبيهم وأسراهم بأبخس ثمن، وذلك كله سنة تسع عشرة، وكانت مدينة بيلقان من بلاد أرّان فأخربها التتر كما قدمناه، وساروا عنها إلى بلاد قفجاق فعاد إليها أهلها وعمروها، وسار الكرج في رمضان من هذه السنة إليها فملكوها وقتلوا أهلها وخربوها واستفحل الكرج.

ثم كانت بينهم وبين صاحب خلاط غازي بن العادل بن أيوب واقعة هزمهم فيها وأثخن فيهم كما يأتي في دولة بني أيوب. ثم انتقض على شروان شاه إبنه، وملك البلاد من يده فسار إلى الكرج واستصرخ بهم، وساروا معه فبرز إبنه إليهم فهزمهم وأثخن فيهم فتشاءم الكرج بشروان شاه فطردوه عن بلادهم. واستقر إبنه في الملك واغتبط الناس بولايته وذلك سنة اثنتين وعشرين. ثم سار الكرج من تفليس إلى أذربيجان وأتوها من الأوعار والمضائق يظنون صعوبتها على المسلمين فسار المسلمون وولجوا المضائق إليهم فركب بعضهم بعضاً منهزمين، ونال المسلمون منهم أعظم النيل. وبينما هم يتجهزون لأخذهم الثأر من المسلمين، وصلهم الخبر بوصول جلال الدين إلى مراغة فرجعوا إلى مراسلة أزبك صاحب أذربيجان في الاتفاق على مدافعته، وعاجلهم جلال الدين عن ذلك كما نذكره إن شاء الله تعالى.

استيلاء جلال الدين على أذر بيجان وغزو الكرج:

قد تقدم لنا مسير جلال الدين في نواحي بغداد وما ملك منها، وما وقع بينه وبين صاحب إربل من الموافقة والصلح. ولما فرغ من ذلك سار إلى اذربيجان سنة اثنتين وعشرين، وقصد مراغة أوّلا فملكها، وأقام بها وأخذ في عمارتها. وكان بغان طابش خال أخيه غياث الدين مقيما بأذربيجان كما مر فجمع عساكره، ونهب البلد وسار إلى ساحل أرّان فشتى هنالك. ولما عاث جلال الدين في نواحي بغداد كما قدمناه بعث الخليفة الناصر إلى بغان طابش، واغراه بجلال الدين، وأمره بقصد همذان وأقطعه إياها وما يفتحه من البلاد فعاجله جلال الدين وصبحه بنواحي همذان على غرة، وعاين الجند فسقط في يده، وأرسل زوجته أخت

السلطان جلال الدين فاستأمنت له فآمنه وجرد العساكر عنه. وعاد إلى مراغة. وكان أزبك بن البهلوان قد فارق تبريز كرسي ملكه إلى كنجة فأرسل جلال الدين إلى أهل تبريز يأمرهم بميرة عسكره فأجابوا إلى ذلك، وتردّدت عساكره إليها فتجمع الناس، وشكا أهل تبريز إلى جلال الدين ذلك فأرسل إليهم شحنة يقيم عندهم للنصفة بين الناس.وكانت زوجة أزبك بنت السلطان طغرلبك بن أرسلان، وقد تقدم ذكرها في أخبار سلفها مقيمة بتبريز حاكمة في دولة زوجها أزبك. ثم ضجر أهل تبريز من الشحنة فسار جلال الدين إليها وحاصرها خمسا، واشتدّ القتال وعابهم بما كان من إسلام أصحابه إلى التتر فاعتذروا بأن الأمر في ذلك لغيرهم والذنب لهم. ثم استأمنوا فآمنهم، وأمر ببنت السلطان طغرل، وأبقى لها مدينة طغرل إلى خوي كما كانت، وجمع ما كان لها من المال والاقطاع، وملك تبريز منتصف رجب سنة اثنتين وعشرين، وبعث بنت السلطان طغرل إلى خوي مع خادميه فليح وهلال. وولى على تبريز ربيبها نظام الدين ابن أخي شمس الدين الطغرائي، وكان هو الذي داخله في فتحها، وأفاض العدل في أهلها وأوصلهم إليها، وبالغ في الإحسان إليهم. ثم بلغه آثار الكرج في أذربيجان وأرّان وأرمينية ودربنر شروان وما فعلوه بالمسلمين فاعتزم على غزوهم. وبلغه اجتماعهم برون فسار إليهم وعلى مقدمته جهان بهلوان الكنجي ، فلما تراءى الجمعان وكان الكرج على جبل لم يستهلوه فتسمنت إليهم العساكر الأوعار فانهزموا وقتل منهم أربعة آلاف أو يزيدون، وأسر بعض ملوكهم، واعتصم

ملك آخر منهم ببعض قلاعهم فجهز جلال الدين عليها عسكرا لحصارها وبعث عساكره في البلاد فعاثوا فيها واستباحوها.

فتح السلطان مدينة كنجة ونكاحه زوجة أزبك:

لما فرغ السلطان من أمر الكرج واستولى على بلادهم، وكان قد ترك وزيره شرف

الدين بتبريز للنظر في المصالح وولّ عليها نظام الملك الطغرائي فقصد الوزير الوشاية به وكتب إلى السلطان بأنه وعمه شمس الدين داخلوا أهل البلد في الانتقاض وإعادة أزبك لشغل السلطان بالكرج فلما بلغ ذلك إلى السلطان أسرّه حتى فرغ من أمر الكرج. وترك أخاه غياث الدين نائبا على ما ملك منها، وأمره بتدويخ بلادهم وتخريبها، وعاد إلى تبريز فقبض على نظام الملك الطغرائي وأصحابه فقتلهم، وصادر شمس الدين على مائة ألف وحبسه بمراغة ففرّ منها إلى أزبك. ثم لحق ببغداد وحج سنة خمس وعشرين. وبلغ السلطان تنصله في المطاف ودعاؤه على نفسه إن كان فعل شيئا من ذلك فأعاده إلى تبريز ورد عليه أملاكه. ثم بعثت إليه زوجة أزبك في

الخطبة، وأنّ أازبك حنث فيها بالطلاق فحكم قاضي تبريز عز الدين القزويني بحلها للنكاح فتزوجها السلطان جلال الدين، وسار إليها فدخل في خوي، ومات أزبك لما لحقه من الغمّ بذلك.ثم عاد السلطان إلى تبريز فأقام بها مدة ثم بعث العساكر مع أرخان إلى كنجة من أعمال نقجوان وكان بها أزبك ففارقها، وترك بها جلال الدين القمي نائبا فملكها عليه أرخان واستولى على أعمالها مثل وشمكور وبردعة وشنة، وانطلقت أيدي عساكره في النهب فشكا أزبك إلى جلال الدين فكتب إلى أرخان بالمنع من ذلك، وكان مع أرخان نائب الوزير إلى السلطان فعزل أرخان، وذهب مغاضبا إلى أن قتلته الإسماعيلية. وفي آخرر مضان من سنة اثنتين وعشرين توفي الخليفة الناصر لسبع وأربعين سنة من خلافته واستخلف بعده ابنه الظاهر أبو نصر محمد بعهده إليه بذلك كما مرّ في أخبار الخلفاء.

استيلاء جلال الد ين على تفليس من الكرج بعد هزيمته إياهم:

كان هؤلاء الكرج اخوة الأرمن، وقد تقدم نسبة الأرمن إلى إبراهيم عليه السلام،

وكان لهم استطالة بعد الدولة السلجوقية، وكانوا من أهل دين النصرانية فكان صاحب أرمن الروم يخشاهم ويدين لهم بعض الشيء حتى إن ملك الكرج كان يخلع عليه فيلبس خلعته. وكان شروان صاحب الدربند يخشاهم، وكذلك ملكوا مدينة أرجيش بلاد ارمينية ومدينة فارس وغيرها، وحاصروا مدينة خلاط قاعدتها فأسر بها مقدّمهم أيواي، وفادوه بالرحيل عنهم بعد أن اشترطوا عليه متابعته لهم في قلعة خلاط فبنوها، وكذلك هزموا ركن الدولة فليحا أرسلان صاحب بلاد الروم لما زحف لأخيه طغرل شاه بارزن الروم، استنجدهم طغرل فأنجدوه وهزموا ركن الدين أعظم ما كان ملكا واستفحالا. وكانوا يجوسون خلال أذربيجان ويعيشون في نواحيها.وكان ثغر تفليس من أعظم الثغور طرزاً على من يجاوره منذ عهد الفرس، وملكه الكرج سنة خمسة عشرة وخمسمائة أيام محمود بن محمي بن ملك شاه، ودولة السلجوقية يومئذ أفحل

ما كانت وأوسع إيالة وأعمالا فلم يطق ارتجاعه من أيديهم، واستولى ايلدكز بعد ذلك وابنه البهلوان على بلاد الجبل والريّ وأذربيجان وارّان وأرمينيةوخلاط وجاورهم بكرسيه. ومع ذلك لم يطق ارتجاعه منهم. فلما جاء السلطان جلال الدين إلى أذربيجان وملكها زحف إلى الكرج وهزمهم سنة اثنتين وعشرين. وعاد إلى تبريز في مهمة كما قدمناه. فلما فرغ من مهمة ذلك، وكان قد ترك العساكر ببلاد الكرج مع أخيه غياث الدين ووزيره شرف الدين فأغذ

السير إليه غازيا من تبريز. وقد جمع الكرج واحتشدوا وامدّهم القفجاق وللكز وساروا للقاء. فلما التقى الفريقان انهزم الكرج وأخذهم سيوف المسلمين من كل جانب و لم يبقوا على أحد حتى استلحموهم وأفنوهم. ثم قصد جلال الدين تفليس في ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين، ونزل قريبا منها، وركب يوما لاستكشاف أحوالها وترتيب مقاعد القتال عليها وأكمن الكمائن حولها. واطلع عليهم في خف من العسكر فطمعوا فيه وخرجوا فاستطرد لهم حتى تورطوا. والتفت عليهم الكمائن فهربوا إلى البلد والقوم في اتباعهم. ونادى المسلمون من. داخلها بشعار الإسلام، وهتفوا باسم جلال الدين فالقى الكرج بأيديهم وملك المسلمون البلد، وقتلوا كل من بها إلا من اعتصم بالإسلام، واستباحوا البلد وامتلأت أيديهم بالغنائم والأسرى والسبايا. وكان ذلك من أعظم الفتوحات. هذه سياقة ابن الأثير في فتح تفليس. وقال النسائي الكاتب: أنّ السلطان جلال الدين سار نحو الكرج فلما وصل نهر أرس مرض واشتد الثلج، ومرّ بتفليس فبرز أهلها للقتال فهزمهم العساكر وأعجلوهم عن دخولها فملكوها واستباحوها، وقتلوا من كان فيها من الكرج والأرمن، واعتصم أهلها بالقلعة حتى صالحوا على أموال عظيمة فحملوها وتركوهم.

انتقاض صاحب كرمان ومسير السلطان إليه:

ولما إشتغل السلطان جلال الدين بشأن الكرج وتفليس طمع براق الحاجب في الانتقاض بكرمان والاستيلاء على البلاد، وقد كنا قدمنا خبره، وأن غياث الدين استخلفه على كرمان عند مسيره إلى العراق، وان جلال الدين لما رجع من الهند ارتاب به وهم بالقبض عليه ثم تركه وأقره على كرمان. فلما انتقض الآن، وبلغ خبره إلى السلطان وهو معتزم على قصد خلاط فتركها، وأغذ السير إليه، واستصحب أخاه غياث الدين ووعده بكرمان وترك مخلفة بكيكلون، وترك وزيره شرف الدين بتفليس وأمره باكتساح بلاد الكرج. وقدّم إلى صاحب كرمان بالخلع والمقاربة والوعد فارتاب بذلك ولم يطمئن.وقصد بعض قلاعه فاعتصم بها، ورجع الرسول إلى جلال الدين فلما علم أن المكيدة لم تتم عليه أقام بأصبهان، وبعث إليه وأقره على ولايته وعاد. وكان الوزير شرف الدين بتفليس كما قلناه، وضاف الحال به من الكرج، وأرجف عند الأمراء بكيكلون أن الكرج حاصروه بتفليس فسار أرخان منهم في العساكر إلى تفليس. ثم وصل البشير من نقجوان برجوع السلطان من العراق فأعطاه الوزير أربعة آلاف دينار. ثم افترقت العساكر في بلاد الكرج وبها ايواني مقدّمهم مع بعض أعيانهم، وبعث عسكرا آخر

إلى مدينة فرس، واشتدّ عليها الحصار. ثم جر العساكر عليها وعاد إلى تفليس.

مسير جلال الدين إلى حصار خلاط:

كانت خلاط في ولاية الأشرف بن العادل بن أيوب، وكان نائبه بها حسام الدين علي الموصلي، وكان الوزير شرف الدين حين أقامّ بتفليس عند مسير جلال الدين إلى كرمان ضاقت على عساكره الميرة فبعث عسكرا منهم إلى أعمال أرزن الروم فاكتسحوا نواحيها، ورجعوا فمروا بخلاط فخرج نائبها حسام الدين واعترضهم واستنقذ ما معهم من الغنائم. وكتب الوزير شرف الدين بذلك إلى جلال الدين وهو بكرمان فلما عاد جلال الدين من كرمان، وحاصر مدينة أني استقر حسام الدين نائب خلاط للامتناع منه فارتحل هو إلى بلاد انحاز ليأتيه على غرة. ورحل جلال الدين من أنحاز فسار إلى خلاط وحاصر مدينة ملاذ كرد في ذي القعدة من السنة، وانتقل منها إلى مدينة خلاط وحاصرها وضيق مخنقها وقاتلها مراراً. واشتد أهل البلد في مدافعته لما يعملون من سيرة الخوارزمية الألوائية، وكانوا متغلبين على الكثير من بسائط أرمينية وأذربيجان فبلغه أنهم أفسدوا البلاد وقطعوا السابلة، وأخذوا الضريبة من أهل خوي وخربوا سائر النواحي، وكتب إليه بذلك نوابه وبنت السلطان طغرل زوجته فلما رحل عن خلاط قصدهم على غّرة قبل أن يصعدوا إلى حصونهم بجبالهم الشاهقة فأحاطت بهم العساكر، واستباحوهم واقسموهم بين القتل والغنيمة، وعاد إلى تبريز.

دخول الكرج مدينة تفليس وإحراقها:

ولما عاد السلطان من خلاط وغزو التركمان فرق عساكر للمشتى، وكان الأمراء

اساؤا السيرة في تفليس، وهرب العسكر الذين بها واستلحموا بقيتهم، وخربوا البلاد

وحرقوها لعجزهم عن حمايتها من جلال الدين، وذلك في ربيع سنة أربع وعشرين وستمائة. وعند النسائي الكاتب أن استيلاء الإفرنج على تفليس وإحراقهم إياها كان والسلطان جلال الدين على خلاط، وأنه لما بلغه ذلك رجع وأغار على التركمان في طريقه لما بلغه من إفسادهم فنهب أموالهم وساق مواشيهم إلى موقان وكان خمسها ثلاثين ألفا. ثم سار إلى خوي لملاقاة بنت طغرل. ثم سار إلى كنجة فبلغه الخبر بانصراف الكرج عن تفليس بعد إحراقها. قال: ولما وصل كنجة قدم عليه هنالك خاموش بن الأتابك ازبك بن البهلوان مؤدًيا منطقة بلخش قدر الكف مصنوعاً عليه منقوشاً اسم كيكاوس وجماعة من ملوك الفرس، فغير السلطان صناعتها ونقشها على اسمه

وكان يلبس تلك المنطقة في الأعياد وأخذها التتر يوم كبسوه، وحملت إلى الخان الأعظم ابن جنكزخان بقراقدوم. وأقام خاموش في خدمة السلطان إلى أن صرعه الفقر ولحق بعلاء الملك ملك الإسماعيلية فتوفي عنده. انتهى كلام النسائي.

أخبار السلطان جلال الدين مع الإسماعيلية:

كان السلطان جلال الدين بعد وصوله من الهند ولي أرخان على نيسابور وأعمالها،

وكان وعده بذلك بالهند فاستخلف عليها وأقام مع السلطان. وكان نائبه بها يتعرّض لبلاد الإسماعيلية المتاخمة له، بهستان وغيرها، بالنهب والقتل فأوفدوا على السلطان وهو بخوي- وقد أمنهم- يشكون من نائب أرخان،

وأساء عليهم أرخان في المجاورة. ولما عاد السلطان إلى كنجة وكان قد أقطعها وأعمالها لأرخان. فلما خيم بظاهرها وثب ثلاثة من الباطنية، ويسمون الفداوية، لأنهم يقتلون من أمرهم أميرهم بقتله ويأخذون فديتهم منه، وقد فرغوا عن أنفسهم فوثبوا به فقتلوه، وقتلتهم العامة. وكانت الإسماعيلية قد استولوا على الدامغان أيام الفتنة، ووصل رسولهم بعد هذه الواقعة إلى السلطان وهو ببيلقان فطالبهم بالنزول على الدامغان فطلبوا ضمانها بثلاثين ألف دينار وقّررت عليهم. وكان الرسول الوافد في خدمة الوزير وهم راجعون إلى أذربيجان فاستخفه الطرب ليلة، وأحضر له خمسة من الفداوية معه بالعسكر، وبلغ خبرهم السلطان فأمره بإحراقهم. انتهى كلام النسائي. وقال ابن الأثير: أنّ السلطان بعد مقتل أرخان سار في العساكر إلى بلاد الإسماعيلية من الموت إلى كردكوه فاكتسحها وخرّبها، وانتقم منهم، وكانوا بعد واقعته قد طمعوا في بلا،، الإسلام فكف عاديتهم وقطع أطماعهم، وعاد فبلغه أنّ طائفة من التتر بلغوا الدامغان قريبا من الريّ فسار إليهم وهزمهم وأثخن فيهم. ثم جاء الخبر بأن التتر متلاحقة لحربه فأقام في انتظارهم في الريّ أنتهى.

استيلاء حسام الدين نائب خلاط علم مدينة خوي:

قد تقدّم لنا أن بنت السلطان طغرل زوجة ازبك بن البهلوان لما ملك السلطان،

جلال الدين تبريز من يدها أقطعها مدينة خوي، ثم تزّوجها بعد ذلك كما قدّمناه، وتركها لما هو فيه من أشغال ملكه فوجدت لذلك ما فقدته من العز والتحكم. قال النسائي الكاتب: وأضاف لها السلطان مدينتي سلماس وأرمينية، وعين رجلا لقبض أقطاعها فتنكر لها، وأغرى بها الوزير فكاتب السلطان بأنها تداخل الأتابك ازبك وتكاتبه. ثم وصل الوزير إلى خوي فترل بدارها

واستصفى، وكانت مقيمة بقلعة طلع فحاصرها وسألت المضي إلى السلطان فأبى إلا نزولها على حكمه انتهى. وكان أهل خوي مع ذلك قد ضجروا من ملكة جلال الدين وجوره، وتسلط عساكره فاتفقت الملكة معهم وكاتبوا حسام الدين الحاجب النائب عن الاشراف بخلاط فسار إليهم في مغيب السلطان جلال الدين بالعراق، واستولى على مدينة خوي وأعمالها وما يجاورها من الحصون، وكاتبه أهل نقجوان وسلموها له، وعاد إلى خلاط واحتمل الملكة بنت طغرل زوجة جلال الدين إلى خلاط إلى ان كان ما نذكره.

واقعة السلطان مع التتر علي أصبهان:

ثم بلغ الخبر إلى السلطان بأنّ التتر زحفوا من بلادهم فيما وراء النهر إلى العراق

فسار من تبريز للقائهم، وجرد أربعة آلاف فارس إلى الريّ والدامغان طليعة فرجعوا وأخبروه بوصولهم إلى أصبهان فنهض للقائم، واستخلف العساكر على الاستماتة. وأمر القاضي بأصبهان باستنفار العامّة، وبعث التتر عسكرا إلى الريّ فبعث السلطان عسكرا لاعتراضهم فأوقعوا بالتتر فنالوا منهم. ثم التقى الفريقان في رمضان سنة خمس وعشرين لرابعة وصولهم إلى أصبهان، وانتقض عنه أخوه غياث الدين وجهان بهلوان الكجي في طائفة من العسكر. وانهزمت ميسرة التتر والسلطان في اتباعهم وكانوا قد أكمنوا له فخرجوا من ورائه وثبت واستشهد جماعة من الأمراء، وأسر آخرون وفيهم علاء الدولة صاحب يزد. ثم صدق السلطان

عليهم الحملة فافرجوا له وسار على وجهه، وانهزمت العساكر فبلغوا فارس وكرمان. ورجعت ميمنة السلطان من قاشان فوجدوه قد انهزم فتفرّقوا أشتاتا وفقد السلطان ثمانية من فرقه. وكان بقاطي بستي عقيما بأصبهان فاعتزم أهل أصبهان على بيعته. ثم وصل السلطان فاقصروا عن ذلك وتراجع بعض العسكر، وسار السلطان فيهم إلى الريّ. وكان التتر قد حاصروا أصبهان بعد الهزيمة فلما وصل السلطان خرج معه أهل أصبهان فقاتلوا التتر وهزموهم، وسار السلطان في اتباعهم إلى الريّ، وبعث العساكر وراءهم إلى خراسان. وعند ابن الأثير أن صاحب بلاد فارس وهو ابن الأتابك سعد الذي ملك بعد أبيه حضر مع السلطان في هذه الواقعة، وأن التتر انهزموا أوّلا فاتبعهم صاحب فارس، حتى إذا أبعدوا انفرد عن العسكر. ورجع عنهم فوجد جلال الدين قد انهزم لانحراف أخيه غياث الدين وأمرائه عنه، ومضى إلى شهرم تلك الأيام ثم عاد الى أصبهان كما ذكرناه .

الوحشة بين السلطان جلال الدين وأخيه غياث الدين:

كان ابتداؤها أنّ الحسن بن حرميل نائب الغورية بهراة لما قتلته عساكر خوارزم شاه محمد بن تكش، وحاصروا وزيره الممتنع بها حتى اقتحموها عليه عنوة وقتلوه، هرب محمد بن الحسن بن حرميل إلى بلاد الهند. فلما ملك السلطان جلال الدين وحظي لدبه، وأقامه شحنة بأصبهان. فلما سار السلطان إلى أصبهان للقاء التتر انحرف جماعة من غلمان غياث الدين عنه فصاروا إلى نصرة الدين بن حرميل ؛ واسترجعهم منه غياث الدين في بيته وطعنه فأشواه ومات لليال. وأحفظ ذلك السلطان، وأقام غياث الدين مستوحشا فلما كان يوم اللقاء انحرف عن أخيه، ولحق بخوزستان وخاطب الخليفة فبعث إليه بثلاثين ألف دينار. وسار من هنالك إلى قلعة الصوت عند صلاح الدين شيخ الإسماعيلية. فلما رجع السلطان من وقعة التتر إلى الريّ سار إلى قلعة الموت وحاصرها فاستأمن علاء الدين إلى السلطان غياث الدين فأمنه، وبعث من يأتيه به فامتنع غياث الدين وفارق القلعة، واعترضه عساكر السلطان بنواحي همذان وأوقعوا به وأسروا جماعة من أصحابه، ونجا إلى براق الحاجب بكرمان فتزوج بأمّه كرها ونمي إليه أنها تحاول سمه فقتلها وقتل معها جهان بهلوان الكجي، وحبس غياث الدين ببعض القلاع . ثم قتله بمحبسه، ويقال بل هرب من محبسه ولحق بأصبهان، وقتل بأمر السلطان. قال النسائي: وقفت على كتاب براق الحاجب إلى الوزير شرف الملك والسلطان بتبريز وهو يعدّد سوابقه فعد منها قتله أعدى عدّو السلطان، والله تعالى وليّ التوفيق.

انتقاض البهلوانية:

لما ارتحل السلطان والوزير شرف الملك معه، وانتهى إلى همذان بلغه أنّ الأمراء البهلوانية اجتمعوا بظاهر تبريز يرومون الانتقاض، واتبعه خاموش بن الأتابك ازبك من قلعة قوطور، وكان مقيما بها فرجع السلطان إليهم وقدّم بين يديه الوزير شرف الملك قريبا من تبريز وهزمهم، وقبض على الذين تولوا أكبر الفتنة منهم ودخل تبريز قصبتهم، وقبض على القاضي المعزول فصادمه قوام الدين الحرادي ابن أخت الطغرائي وصادره، وسار السلطان للقاء التتر وأقام الوزير نائباً للبلاد.

إيقاع نائب خلاط بالوزير:

ولما كان ما ذكرناه من مسير حسام الدين نائب خلاط إلى أذربيجان، واحتماله زوجة السلطان جلال الدين إلى خلاط امتعض الوزير لذلك فسار إلى موقان من بلاد أران، وجمع التركمان وفّرق العمال للجباية، وطلب الحمل من شروان شاه وهو خمسون ألف دينار فتوقف. وأغار على بلاده فلم يظفر بشيء ورجع إلى أذربيجان. وكانت بنت الأتابك بهلوان في بقجان فارقها مولانا إيدغمش وجاء إلى الوزير فأطمعه فيها، وصار الوزير مضمراً الغدر بها وامتنعت عليه. ونزل بالمرج فأكرمته وقربته، ورحل إلى حورس من أعمالها، وكانت للأشرف صاحب خلاط أيام أزبك فانتشرت أيدي العسكر في تلك الضياع، وقاتلها الوزير. وجاء الحاجب صاحب خلاط في عساكره فانهزم الوزير وترك أثقاله وذلك سنة أربع وعشرين. وكان مع الحاجب فخر الدين سام صاحب حلب وهشام الدين خضر صاحب تبريز برم. وكان الوزيروتكاليفه فظفر الآن بمخلفه وخلص الوزير إلى أرّان وسار الحاجب علي في اتباعه. ثم عاد إلى تبريز، ومّر بخوي فنهبها ثم سار إلى بقجان فملكها، ثم تدمر كذلك. وأقام الوزير بتبريز، وكان بها الأتابك أزبك متنسكا منعه أهل تبريز من الدخول، وحملوا إليه النفقة. ثم جاء الخبر برجوع السلطان إلى أصبهان بعد الهزيمة كما مرّ فسار الوزير إلى أذربيجان، ولقي ثلاثة من الأمراء جاؤا مددا له من عند السلطان، وأمره بحصار خوي فسار إليها وبها نائب الحاجب حسام الدين صاحب خلاط، وهو بدر الدين بن صرهنك، والحاجب حسام الدين علي منوشهر فنهض إليه الوزير من خوي فتأخر إلى تركري. والتقيا هنالك فانهزم الحاجب ودخل تركري فاعتصم بها، وحاصره الوزير، وطلب الصلح فلم يسعفه. ورجع الامراء الذين كانوا معه بعساكرهم إلى أذربيجان. وأفرج الوزير عن حصار تركري ومّر بخوي، وقد فارقها ابن صرهنك إلى قلعة قوطور. واستأمن للسلطان من بعد ذلك، ودخل الوزير مدينة خوي وصادر أهلها، وسار الى ترمذ ونقجوان ففعل فيهما مثل ذلك، وانقطعت إيالة الحاجب صاحب خلاط، والله أعلم.

فتوحات الوزير بأذربيجان وارّان:

ولما تخلف الوزير عن السلطان صرف همته إلى تمهيد البلاد ومدافعة صاحب خلاط وارتجاع البلاد التي ملك من أذربيجان وارّان، وفتح القلاع العاصية فكان بينه وبين الحاجب حسام الدين صاحب خلاط ما ذكرناه، وهو خلال ذلك يستميل أصحاب القلاع ويفيض فيهم الأموال والخلع حتى أجاب أكثرهم. ثم قبض على ناصر الدين محمد من أمراء البهلوانية، وكان معتزلاً عند نصرة الدين بن سبكتكين فصادره على مال وتسلم من نائبه قلعة كانت بيده. ثم مات نائب السلطان بكنجة أقسنقر الاتابكي فنهض إليها وقبض على نائبه شمس الدين كرشاسف وصادره، وتسلم منه قلعة هردوجار برد من أعمال ارّان. ثم جهز العساكر لحصار قلعة زونين، وبها زوجة السلطان خاموش فأطال حصارها وعرضت عليه نكاحها فأبى. ولما رجع السلطان من العراق تزوّجها وولّ خادمه سعد الدين على القلعة فآساء إليها، وانتزع أملاكها فأخرجوه وعادوا إلى الانتقاض. ولما خلص الوزير من واقعته مع الحاجب نائب خلاط قصد أرّان فجي الأموال، وجمع واحتشد

وقصد قلعة مردانقين ؛ وكانت لصهر الوزير ركبة الدين فصانعه،بأ ربعة آلاف دينار حملها إليه. ثم سار إلى قلعة حاجين وبها جلال الدولة ابن أخت أبواني أمير الكرج فصالحه على عشرين ألف دينار وسبعمائة أسير من المسلمين. ثم كانت فتنة البهلوانية فسكنها وشرح الجند عنها. وشرح الخبر عنها أن بعض مماليك أتابك أزبك كان قد أفحش في قتل الخوارزمية بأذربيجان عند زحفهم إليها أيام فرارهم من التتر، فلما ملك السلطان جلال. الدين أذربيجان ومحا ملك البهلوانية منها لحق الأمير مقدي هذا بالأشرف بن العادل بن أيوب صاحب الشام، وأقام عنده فلما بلغه انهزام الوزير شرف الملك أمام الحاجب حسام الدين نائب الأشرف بخلاط فر من الشام إلى أذربيجان ليقيم مع الأتابكية، ومرّ بالحاجب في خوي فاتبعه وعبر النهر، وخاطب من عدوته معتذراً فرجع عنه. ودخل مقدي بلاد قبار، وفيها قلاع استولى عليها المنتقضون والعصاة فراسلهم في إقامة الدعوة الأتابكية والبيعة لابن خاموش بن أزبك يستدعونه من قلعة قوطور. واتصل ذلك بالوزير فأقلقه. ثم جاء خبر هزيمة السلطان بأصبهان فازداد قلقا. وسار الأمير مقدي إلى نصرة الدين محمد بن سبكتكين يدعوه لذلك فلاطفه في القول. وكتب للوزير بالخبر فأجابه بأن يضمن لمقدي ما أحب في مراجعة الطاعة ففعل، وجاء به إلى الوزير فأكرمه وخلع عليه وعلى من جاء معه، وعاهده العفو عن دماء الخوارزمية. وجاء الخبر برجوع السلطان من أصبهان فارتحل الوزير للقائه ومعه الأمير مقدي وابن سبكتكين وأكرمهما السلطان.

أخبار الوزير بخرا سان:

كان صفي الدين محمد الطغرائي وزيرا بخراسان. وأصل خبره أنه كان من قرية

كلاجرد وأبوه رئيسها، وكان هو حسن الخط ورتبة الأطوار. ثم لحق بالسلطان في الهند وخدم الوزير شرف الملك فما عادوا إلى العراق ولاه الطغرائي ولما ملك السلطان تفليس من يد الكرج وليّ عليها أقسنقر مملوك الأتابك أزبك، وأقام صفي الدين في وزارتها فلما حاصرها الكرج هرب أقسنقر، وأقام صفي الدين فحاصروه أياماً. ثم أفرجوا ووقع ذلك من السلطان أحسن المواقع، وولاه وزارة خراسان فأقام بها سنة. وضجر منه أهلها فلما جاء السلطان إلى الريّ وأقام بها كثرت به الشكايات، ونكبه السلطان واستصفى أمواله وقبض على مواليه وحاشيته وقيدت خيله إلى مرابط السلطان، وكانت ثلثمائة. وخلص من مواليه علي الكرماني إلى قلعة كان حصنها فامتنع بها واستوزر السلطان مكانه تاج الدين البلخي المستوفي وسلم إليه الصفي ليستصفيه ويقلع القلعة من مولاه، وشدّد في امتحانه. وكان عدوّه فلم يظفر منه بشيء. وكان لما نكب، طالبه خاتون السلطان بإحضار الجواهر، وما ساقه لخدمة الوزير وغيره فأحضر أربعة آلاف دينار وسبعين فصاً من ياقوت وبلخش، واستأثر الخازن بها لظنه أنه مقتول.ثم كاتب الصفي أرباب الدولة ووعدهم بالأموال فشفعوا فيه وخلصوه، وكتب السلطان بخطه بسراحه فجاء واستخلص ماله من الخازن، إلا الفصوص فإنه تعذر عليه ردها. وولّى السلطان على وزارة نسا محمد بن مودود النسوي العارض، من بيت رياسة بهما. ورمت به الحادثة إلى غزنة فلما جاء السلطان من الهند ولاه الإنشاء والحبس، وعظم أمره، وغص به الوزير شرف الملك. فلما ورد أحمد بن محمد المنشيء الكاتب رسولاً عن نصرة الدين محمد بن حمزة صاحب نسا كما مرّ، ولاه السلطان الإنشاء

فارتمض لذلك ضياء الدين، وطلب وزارة نسا فولاه السلطان إياها. وأقطع له عشرة آلاف دينار في السنة زيادة على أرزاق الوزارة. وذهب إليها لإقامة وظيفته. واستناب في ديوان العرض مجد الملك النيسابوري. ثم قطع الحمل فعزله السلطان، وولىّ مكانه الكاتب أحمد بن محمد المنشيء وتعرض للسعاية فيه فطرده السلطان وهلك في طرده.

خبر بلبان صاحب خلخال:

كان من أتابكية أزبك. ولما كانت فتنة التتر وخلاء خراسان واستيلاء السلطان

جلال الدين على أذربيجان لحق بمدينة خلخال فاستولى عليها وعلى قلاعها، وشغل عنه السلطان بأمر العراق وصاحب خلاط. فلما انصرف المسلمون من واقعة التتر بالعراق حاصروه بقلعة فيروز أباد حتى استأمن، وملكها السلطان وولىّ عليها حسام الدين بكتاش مولى سعد أتابد فارس. ثم خلف السلطان أثقاله بموقان وتجرد لخلاط، وعاقه البرد بارجيش فنهب بعض قلاع. وكان عز الدين الخلخالي في كفرطاب قريبا من أرجيش فلحق بخلاط، وجهزه الحاجب إلى أذربيجان يشغلهم بإثارة الفتنة فيها فلم يتمّ قصده من ذلك فلحق بجبال زنجان وأقام يخيف السابلة. وكتب له السلطان بالأمان. ونزل إلى أصبهان فبعث نائبها شرف الدولة برأسه إلى السلطان. ثم رجع السلطان من كفرطاب إلى خرت برت فنهبها وخربها، ووصله خلال ذلك الخبر بوفاة الخليفة الظاهر منتصف ثلاث وعشرين، وولاية إبنه المنتصر وجاء كتابه بأخذ البيعة، وأن يبعث إليه بالخلع، والله تعالى وليّ التوفيق لارب غيره.

تنكر السلطان للوزير شرف الملك

لما رجعت العساكر إلى موقان، وأقام السلطان بخويّ شكا إليه أهلها بكثرة مصادرة

الوزير لهم، واطلع على إساءته للملكة بنت طغرل واستصفائه مالها مع براءتها مما نسب إليها. ثم جاء إلى تبريز فبلغه عنه أكثر من ذلك، وهو بقرية كورتان من أعمالها فافتقد رئيسها، وكان يخدمه فقيل أن الوزير صادره على ألف دينار لمملوكين. فلما وصل إلى تبريز حبس من أخذها حتى ردّها على صاحبها، وأسقط عن أهل تبريز خراج ثلاث سنين، وكتب لهم بذلك. وكثرت الشائعات على الوزير بما فعله في مغيب السلطان، هذا مع ما كان منه في محاربة الإسماعيلية بأنّ السلطان كاتبه من بغداد بأن يفتش فلول الشام من أجل رسول من عند التتر بعثوه إلى الشام. وقصد بذلك معاتبة الخليفة إن عثر على الرسول فمرّ به فلّ من الإسماعيلية فقتلهم، واستولى على أموالهم. فلما عاد السلطان إلى أذربيجان وصله رسول علاء الدين ملك الإسماعيلية يعاتبه على ذلك، ويطلب المال فنكر السلطان على الوزير ما فعله، ووكل به أميرين حتى ردّ ما أخذ من أموالهم، وكانت ثلاثين ألف دينار وعشرة أفراس فانطوى السلطان للوزير من ذلك كله على سخط، وأعرض عن خطابه. وكان يكاتب فلا يجاب، وعجزت تبريز عن علوفة السلطان فأمر بفتح أهراء الوزير والتصرف فيها. ورجع السلطان إلى موقان فلم يغير عليه شيئاً، ووقع له بتناول عشر الخاص فكان يأخذ من عشر العراق سبعين ألف دينار في كل سنة والله أعلم.

وصول القفجاق لخد مة السلطان:

كان للقفجاق على قديم العهد هوى مع قوم هذا السلطان وأهل بيته، وكانوا يصهرون إليهم غالباً ببناهم. ومن أجل ذلك استأصلهم جنكزخان واشتدّ في طلبهم، فلما عاد السلطان من واقعة أصبهان وقد هاله أمر التتر رأى أن يستظهر عليهم بقبائل قفجاق، وكان في جملته سبير جنكش منهم فبعثه إليهم يدعوهم لذلك ويرغبهم فيه فأجابوا، وجاءت قبائلهم أرسالا. وركب البحر كور كان من ملوكهم في ثلثمائة من قرابته، ووصل إلى الوزير بموقان فشى بها. ثم جاء السلطان فخلع عليه وردّه بوعد جميل في فتح دربند وهو باب الأبواب. ثم أرسل السلطان لصاحب دربند، وكان طفلاً ، وأتابكه يلقب بالأسد يدبر أمره فقدم على السلطان فخلع عليه، وأقطع له وملكه العمل على أن يفتح له الدربند. وجهز عساكر وأمراء فلما فصلوا من عنده قبضوا على الأسد وشنوا الغارة على نواحي الباب، وأعمل الأسد الحيلة وتخفف من أيديهم وتعذر عليهم ما أ رادوه.

استيلاء السلطان على أعمال كستاسفى:

كان علم الوزير يشكر أنّ السلطان أراد أن ينتصح له ببعض مذاهب الخدمة فسار

في العساكر، وعبر نهرزاس فاستولى على أعمال كستاسفي من يد شروان شاه. فلما عاد السلطان إلى موقان أقطعها لجلال الدين سلطان شاه بن شروان شاه، وكان أسيراً عند الكرج أسلمه أبوه إليهم، على أن يزّوجوه بنت الملك رسودان بنت تاماد. فلما فتح السلطان بلاد الكرج استخلصه من الأسر ورباه، وبقي عنده وأقطعه الآن كستاسفي. وكان أيضا عند الكرج ابن صاحب ارزن الروم، وكان تنضر فزّوجوه رسودان بنت تاماد فأحرجه السلطان لما فتح بلاد الكرج، ثم رجع إلى ردنّة ولحق بالكرج فوجد رسودان قد تزّوجت.

قدوم شروان شاه:

كان السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان لما ملك ارّان أطلق الغارة على بلاد شروان

فوفد عليه ملكها افريدون بن فرتبريز، وضمن حمل مائة ألف دينار في السنة. فلما ملك السلطان جلال الدين أرّان سنة اثنتين وعشرين وستمائة طلب شروان شاه افريدون بالحمل فاعتل بتغلب

الكرج، وضعف البلاد فأسقط عنه نصف الحمل. فلما عاد الآن قدم عليه شروان شاه وأهدى له خمسمائة فرس، وللوزير خمسين فاستقلها. وأشار على السلطان بحبسه فلم يقبل إشارته، ورده بالخلع والتشريف، وأسقط عنه من الحمل عشرين ألفا فبقي ثلاثون: قال النسائي الكاتب: وأعطاني في التوقيع ألف دينار، والله نعالى اعلم.

مسير السلطان إلى بلاد الكرج وحصاره قلاع بهرام:

لما كان السلطان مقيماً بموقان منصرفه من اذربيجان بعث عساكره مع ايلك خان فأغار على بلاد الكرج واكتسحها، ومر ببحيرة بتاج فكبسه الكرج وأوقعوا به. وفقد اريطاني وامتعض السلطان لما وقع بعسكره وارتحل لوقته، وقد جمع له الكرج فهزمت مقدمتهم، وجيء بالأسرى منهم فقتلهم وسار في اتباعهم. ونازل

كوري وطالبهم بإطلاق أسرى البحيرة فأطلقوهم. وأخبر أنّ اريطاني خلص تلك الليلة إلى أذربيجان، ثم وجده السلطان في نقجوان. ثم سار إلى بهران الكرجي وقد كان أغار على نواحي كنجة فعاث في أعماله، وحاصر قلعة سكان ففتحها عنوة، وكذلك قلعه كاك. وبعث الوزير لحصار كوزاني، فحاصرها ثلاثة أشهر حتى طلبوا الصلح على مال حملوه فرحل عنهم إلى خلاط والله أعلم.

مسير السلطان إلى خلاط وحصارها:

ولما فرغ السلطان من شأن الكرج وقدّم أثقاله إلى خلاط على طريق قاقروان، وسار هو إلى نقجوان، وصبح الكرج واستاق مواشيهم. ثم أقام أياماً، وقضى أشغال أهل خراسان والعراق ليفرغ لحصار خلاط. قال النسائي الكاتب: وحصل لي منهم تلك الأيام ألف دينار. ثم ارتحل إلى خلاط ولحق عساكره، ولقيه رسول من عز الدين أيبك . نائب الأشرف بخلاط، وقد كان الأشرف بعثه وأمره بالقبض على نائبها حسام الدين علي بن حماد فقبض عليه ثم قتله غيلة. وبعث إلى السلطان يستخدم إليه بذلك وانّ سلطانه الأشرف أمره بطاعة السلطان جلال الدين، وبالغ في الملاطفة فأبى السلطان إلا إمضاء ما عزم عليه. وقال إن كان هذا حقا فابعث إليّ بالحاجب فلما سمع هذا الجواب قتله، وسار السلطان إلى خلاط، ونزل عليها بعد عيد الفطر من سنة ست وعشرين. وجاءه ركن جهان بن طغرل صاحب أرزن الروم فكان معه، وحاصرها ونصب عليها المجانيق، وأخذ بمخنقها حتى فر أهلها عنها من الجوع وتفرقوا في البلاد.

ثم داخله بعض أهلها في أن يمكنهم من بقيتها على أن يؤمنوه ويقطعوه في اذربيجان فأقطعه السلطان سلماس وعدة ضياع هنالك. وأصعد الرجال ليلا إلى الأسوار فقاتلوا الجند بالمدينة وهزموهم وملكوها، وأسروا من كان بها، وأسروا النصارى وأسد بن عبد الله. وتحصن النائب عز الدين أيبك بالقلعة فأمنه وحبسه بقلعة درقان. فلما وقعت المراسلة في الصلح قفل لئلا يشترط. وقال ابن الأثير إن مولى من موالي حسام الدين كان هرب إلى السلطان، فلما ملك خلاط طلب أن يثأر منه بمولاه فدفعه إليه وقتله، ونهب البلد ثلاثا وسّرح السلطان صاحب أرزن وهرب القمهري من محبسه فقتل أسد بن عبد الله المهراني بجزيرته، وأقطع السلطان خلاط للأمراء وعاد، والله تعالى ولي التوفيق.

واقعة السلطان جلال الدين مع الأشرف وكيقباد وانهزامه أمامهما:

ولما استولى السلطان جلال الدين على خلاط تجهز الأشرف من دمشق، وقد كان

ملكها وسار لقتال السلطان جلال الدين في عساكر الجزيرة والشام، وذلك في سنة تسع وعشرين ولقيه علاء الدين كيقباد صاحب بلاد الروم على سيراس. وكان كيقباد قد خشي من اتصال جهان شاه ابن عمه طغرل صاحب ارزن الروم بالسلطان جلال لما بينهما من العداوة، فسار الأشرف وكيقباد من سيراس، وفي مقدمة الأشرف عز الدين عمر بن علي من أمراء حلب من الأكراد الهكارية، وله صيت في الشجاعة. وجاء السلطان علاء الدين للقائهم فلما تراءى الجمعان حمل عز الدين صاحب المقدمة عليهم فهزمهم، وعاد السلطان إلى خلاط. وكان الوزير على ملاركرد يحاصرها فلحق به وارتحلوا جميعا إلى اذربيجان. وأسرركن الدين جهان

شاه بن طغرل. وجيء به إلى ابن عفه علاء الدين كيقباد فجاء به الى ارزن فسلمها وسائر أعمالها. ووصل الأشرف إلى خلاط فوجدها خاوية. ولما رجع السلطان إلى أذربيجان ترك العساكر مع الوزير سكمان، وأقام بخوي، وخلص الترك في الهزيمة الى موقان. وتردّد شمس الدين التكريتي رسول الأشرف بينه وبين السلطان جلال الدين في الصلح بينهم، ودخل فيه علاء الدين صاحب الروم، وانعقد بينهم جميعا ، وسلم لهم السلطان سر من رأى مع خلاط، والله تعالى أعلم.

الحوادث أيام حصار خلاط:

منها وفادة نصر الدين اصبهبد صاحب الجبل مع ارخا من أمراء السلطان يصهره على أخيه، فقبض السلطان عليه إلى أن عاد من بلاد الروم منهزماً فأقطعه وأعاده إلى بلاده. ومنها رسالة أخت السلطان وكانت عند دوشي خان أخذها من العيال الذ ين جاؤا معه، وتركمان خاتون من خوارزم، وأولدها، وكانت تكاتب أخاها بالأخبار فبعثت إليه الآن في الصلح مع خاقان والمصاهرة. وأن يسلم له فيما وراء جيحون فلم يجبها. ومنها وفادة ركن الدين شاه بن طغرل صاحب ارزن الروم، وكان في طاعة الأشرف ومظاهرا للحاجب نائب خلاط على عداوة السلطان منافرة لابن عمه علاء الدين كيقباد بن كنخسرو صاحب الروم، وكان قتل رسول السلطان منقلبا من الروم، ومنع الميرة عن العسكر. فلما طال حصار السلطان بخلاط استأمن وقدم عليه السلطان فاحتفل لقدومه واركب الوزير للقائه . ثم خلع عليه وردّه إلى بلاده، واستدعى منه آلات الحصار فبعث بها. ثم حضر بد ذلك واقعة الأشرف مع السلطان كما مرّ.ومنها وصول سعد الدين الحاجب برسالة الخليفة إلى السلطان بالخطبة في أعمالها، وأن لا يتعرض لمظفر الدين كوكبرون صاحب إربل، ولا للولد صاحب الموصل، ولا لشهاب الدين سليمان شاه ملك ولا لعماد الدين بهلوان بن هراست ملك الجبال ويعدهم في أولياء الديوان فامتثل مراسله. وبعث نائب العراق شرف الدين على بأنّ ملك العراق لا يتم إلا بطاعة ملك الجبال عماد الدين بهلوان وملك سليمان شاه فبعث إليهما السلطان من لاطفهما حتى كانت طاعتهما اختيارا منهما.وبعث السلطان الحاجب بدر الدين طوطو بن أبنايخ خان فأحسن في تأدية رسالته،وجاء بهدية حافلة من عند الخليفة خلعتان للسلطان احداهما جبة وعمامة وسيف هندي مرصع الحلية، والأخرى قنع وكمة وفرجية وسيف محلى بالذهب، وقلادة مرصعة ثمينة، وفرسان رائعان بعدّتين كاملتين، ونعال لكلّ واحدة من أربعمائة دينار، وترس ذهب مرضع بالجوهر وفيه أحد وأربعون فصا من الياقوت وبندخستاني في وسطه فيروزجة كبيرة، وثلاثون فرسا عربية مجفلة بالأطلس الرومي المبطن بالأطلس البغدادي بمقاود الحرير ونعاق الذهب، لكل واحدة منها ستون ديناراً وعشرون مملوكا بالعدة والمركوب، وعشرة فهو بجلال الأطلس وقلائد الذهب، وعشرة صقور بالأكمام

الملكة، ومائة وخمسون بقجة في كل واحدة عشرة ثياب، وخمس أكر من العنبر مضلعة بالذهب وشجرة من العود الهندي، طولها خمسة أذرع وأربع عشرة خلعه نسوانية للخانات من خوالص الذهب، وكنائس للخيل تفليسية.وللأمراء ثلثمائة خلعة لكل أمير خلعة قباء وكمة، للوزير عمامة سوداء وقباء وفرجية وسيف هندي،

واكرتان من العنبر وخمسون ثوبا وبغلة. ولأصحاب الديوان عشرون خلعة في كل خلعة جبة وعمامة وعشرون ثوبا أكثرها أطلس رومي وبغدادي، وعشرون بغلة شهباء. ورفعت للسلطان خباء فدخلها ولبس الخلعتين، وشفع الرسول في أهل خلاط فاعتذر له السلطان.ومنها وصول هدية من صاحب الروم ثلاثون بغلا مجفلة بثياب الأطلس الخطائي،وفرو القندسي والسمور، وثلاثون مملوكاً والعدة، ومائة فرس وخمسون بغلا. ولما مروا بأذربيجان اعترضهم ركن الدين جهان شاه بن طغرل صاحب ارزن، وكان في طاعة الأشرف فأمسك الهدية عنده إلى أن وفد على السلطان بطاعته فأحضرها.ومنها أسار وزير المورخا ، جاء إلى الجبل المطلّ على قزوين لحصاد الحشيش على عادته، وكان السلطان قد تغير على علاء الدين صاحبهم بسبب أخيه غياث الدين، ولحاقه بهم في الموت فسار مقطع سارة إلى ذلك الجبل، وأكمن لهم الوزير. وبعث به إلى السلطان وهو يحاصر خلاط فحبسه بقلعة رزمان، وهلك لأشهر قلائل. ثم بعث السلطان كاتبه محمد بن أحمد النسائي إلى علاء الدين صاحب قلعة الموت بطلب الخوارج، وطلب الخطبة فامتنع منها أوّلا واحتج عليه بأنّ أباه جلال الدين الحسن خطب لخوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش والد السلطان فأنكر والتزم أن يبعث إلى الديوان مائة ألف في كل سنة.

وصول جهان بهلوان ازبك من الهند:

كان السلطان لما فصل من الهند بقصد العراق، واستخلف على البلاد التي ملكها هنالك جهان بهلوان أزبك فأقام هنالك إلى أن قصده عسكر شمس الدين ايتماش صاحب لهاوون ففارق مكانه، وسار إلى بلاد قشمير فزاحموه وطردوه عن البلاد فقصد العراق، وتخلف عنه أصحابه، وعادوا إلى ايتماش، وفيهم الحسن برلق الملقب رجاملك، وكاتب جهان عليها ملك العراق بوصوله في سبعمائة فارس، فأجاب الحسن رأي السلطان فيه. وبعث اليه بعشرة آلاف دينار للنفقة. ووصل توقيع السلطان بأن تحمل إليه عشرون ألفا، وأن يشتي بالعراق يستريح بها من التعب فصادف عود السلطان من بلاد الروم، وزحف السلطان إلى أذربيجان فحال قدر الله بينه وبين مرامه، وقتل هناك سنة ثمان وعشرين.

وصول التتر إلى أذربيجان:

كان التتر عندما ملكوا ما وراء النهر، وزحفوا إلى خراسان فضعضعوا ملك بني خوارزم شاه، وانتهوا إلى قاصية البلاد وخربوا ما مرّوا عليه، واكتسحوا ونهبوا وقتلوا. ثم استقر ملكهم بما وراء النهر وعمروا تلك البلاد، واختطوا قرب خوارزم مدينة عظيمة تعوّض منها. وبقيت خراسان خالية، واستبد بالمدن فيها أمراء شبه الملوك يعطون الطاعة للسلطان جلال الدين لما جاء من الهند، وانفرد جلال الدين بملك العراق وفارس وكرمان واذربيجان وأرّان وما وراء ذلك. وبقيت خراسان مجالات لغارات التتر وحروبهم. ثم صارت طائفة منهم سنة خمس وعشرين فكان بينهم وبين جلال الدين لما جاء من الهند،المواقعة على أصبهان كما مرّ. ثم كان بين جلال الدين وبين الأشرف صاحب الشام وعلاء الدين كيقباد صاحب الروم المواقعة سنة سبع وعشرين كما مرّ واوهنت من جلال الدين وحلت عرى ملكه.وكان علاء الدين مقدّم الإسماعيلية في قلعة

الموت فعاد جلال الدين لما أثخن في بلاده، وقرر عليه وظائف الأموال فبعث إلى التتر يخبرهم بالهزيمة الكائنة عليه، وأنها أوهنته، ويحثهم على قصده فساروا إلى أذربيجان أول سنة ثمان وعشرين وبلغ الخبر إلى السلطان بمسيرهم فبعث بوغر من أمرائه طليعة لاستكشاف خبرهم فلقي مقدّمتهم، فانهزم و لم ينج من أصحابه غيره. وجاء بالخبر فرحل من تبريز إلى موقان، وخلف عياله بتبريز لنظر الوزير وأعجله الحال عن أن يبعثهم إلى بعض الحصون ثم ورد كتاب من حدود زنجان بأن المقدّمة التي لقيها بوغر باهر أقاموا بمرج الخان، وأنهم سبعمائة فارس فظنّ السلطان أنهم لا يجاوزونها فسري عنه، ورحل إلى موقان فأقام بها، وبعث في أحشاد الأميرين بغان شحنة خراسان، وأوسمان بهلوان شحنة مازندران، وشغل بالصيد. وبينما هو كذلك كبسه التتر بمكانه ونهبوا معسكره وخلص إلى نهراوس.ثم ورى بقصد كنجة وعطف إلى أذربيجان، فتنكر لماهان. وكان عز الدين صاحب قلعة شاهن غاضبا منذ سنين لإغارة الوزير على بلده. فلما نزل السلطان ماهان كان يخدمه بالميرة وبأخبار التتر ثم أنذره آخر الشتاء بمسير التتر إليه من أزجان، وأشار عليه بالعود إلى أرّان لكثرة ما فيها من العساكر وأجناد التركمان متحصنين بها. فلما فارقها وكان الوزير فوق بيوت السلطان وخزائنه في قلاع حسام الدين منهم: أرسلان كبير أمراء التركمان بأرّان، وكان قد عمر هنالك قلعة سنك سراخ من أحصن القلاع فأنزل عياله بها وكان مستوحشا من السلطان فجاهر بالعصيان.وكانت وحشته من السلطان لأمور منها: تبذير أمواله في العطاء والنفقة، ومنها أنه ظنّ

أنّ السلطان مجفل إلى الهند فكاتب الأشرف صاحب الشام وكيقباد صاحب الروم فوعدهم من نفسه الطاعة، وهما عدوا السلطان. ومنها أنه كاتب قليج أرسلان التركماني فأمره بحفظ حرم السلطان وخزائنه ولا يسلمها إليه. وبعث في الكتاب له، والكباس قبله ليغزو الروم . فلما مرّ السلطان بقلعته بعث إليه يستدعيه فوصل وحمل كفنه في يده، فلاطفه السلطان وكايده فظنها مخالصة فاطمأن والله تعالى ولي التوفيق.

استيلاء التتر علي تبريز وكنجة:

ولما أجفل السلطان بعد الكبسة من موقان إلى أرّان بلغ الخبر إلى أهل تبريز فثاروا بالخوارزمية، وأرادوا قتلهم، ووافقهم بهاء الدين محمد بن بشير فاربك الوزير بعد الطغرياني. وكان الطغرياني رئيس البلد كما مر فمنعهم من ذلك، وعدوا على واحد من الخوارزمية وقتلوه فقتل به اثنين من العامة. واجتهد في تحصين تبريز وحراستها وشحنها بالرجال، و لم تنقطع كتبه عن السلطان ثم هلك فسلمها العوام إلى التتر ثم ثار أهل كنجة وسلموا بلدهم للتتر وكذا أهل بيلغازة والله اعلم.

نكبة الوزير ومقتله:

لما وصل السلطان إلى قلعة جاربرد بلغه استيحاش الوزير، وخشي ان يفر إلى بعض الجهات فركب إلى القلعة موريا بالنظر في احوالها والوزير معه. وأسّر إلى والي القلعة أن يمسك الوزير ويقيده هنالك ففعل. ونزل السلطان فجمع مماليك الوزير وكبيرهم الناصر قشتمر، وضمهم إلى أوترخان. ثم نمي إلى والي القلعة ان السلطان مستبدل منه فاستوحش، وبعث بخاتم الوزير إلى قشتمر كبير المماليك يقول: نحن وصاحبكم

متوازرون، فمن أحب خدمته فليأت القلعة فسقط في يد السلطان. وكان ابن الوالي في جملته وحاشيته. فأمره السلطان أن يكاتب أباه ويعاتبه ففعل، واجابه بالتنصل من ذلك. فقال له السلطان: فليبعث إليّ براس الوزير فبعث به. وكان الوزير مكرماً للعلماء والأدباء مواصلا لهم، كثير الخشية والبكاء متواضعاً منبسطاً في العطاء، حتى استغرق أموال الديوان. لولا أن السلطان جذب من عنانه. وكان فصيحاً في لغة الترك، وكانت عمالته على التواقيع السلطانية: "الحمد لله العظيم " وعلى التواقيع الديوانية: "يعتمد ذلك " وعلى تواقيعه إلى بلاده: "ابو المكارم علي بن ابي القاسم خالصة امير المؤمنين " .

ارتجاع السلطان كنجة:

لما ثار أهل كنجة بالخوارزمية كان القائم بأمرهم رجل منهم اسمه بندار، وبعث السلطان إليهم رسوله يدعوهم إلى الطاعة فوصلوا قريبا منه، وأقاموا وخرج إليهم الرئيس جمال الدين القمي بأولاده. وامتنع الباقون. ثم وصل السلطان وردد إليهم فلم تغن، وبرزوا بعض الأيام للقتال، ورموا على خيمته فركب، وحمل عليهم فانهزموا وازدحموا في الباب فمنعهم الزحام من إغلاقه فاقتحم السلطان المدينة، وقبض على ثلاثين من أهل الفتنة فقتلهم. وجيء ببندار، وكان بالغاً في الفساد، وكسر سرير الملك الذي نصبه بها محمد بن ملك شاه فمثل به، وفصل أعضاءه بين يديه. واقام السلطان بكنجة نحواً من شهر. ثم سار إلى خلاط مستمداً للأشرف فارتحل الأشرف إلى مصر، وعلل بالمواعيد ووصل السلطان في وجهته إلى قلعة شمس، وبها اراك بن إيوان الكرجي فخرج وقبل الأرض على البعد. ثم بعث إلى السلطان ما أمر به وبعث السلطان إلى جيرانه من الملوك مثل صاحب حلب وآمد وماردين يستنجدهم بعد يأسه، من الأشرف. وجرّد عسكرا إلى خرت برت وملطية واذربيجان فأغاروا في تلك النواحي، واستاقوا نعمها لما بين ملكها كيقباد وبين الأشرف من الموالاة فاستوحش جميعهم من ذلك، وقعدوا عن نصرته والله تعالى ولي التوفيق.

واقعة التتر على السلطان بآمد ومهلكه

كان السلطان بلغه وهو بخلاط أن التتر ساروا إليه، فبعث السلطان الأمير أترخان في أربعة آلاف فارس طليعة فرجع وأخبر أن التتر رجعوا من حدود ملازكرد. وكان الأمراء أشاروا على السلطان، الانتقال بديار بكر وينجرون إلى أصبهان. ثم جاءه رسول صاحب آمد وزين له قصد بلاد الروم، وأطمعه في الاستيلاء عليها ليتصل بالقفجاق ويستظهر بهم على التتر، وأنه يمده بنفسه في أربعة آلاف فارس. وكان صاحب آمد يروم الانتقام من صاحب الروم بما ملك من قلاعه فجنح السلطان إلى كلامه، وعدل عن أصبهان إلى آمد

فترل بها. وبعث إليه التركمان بالنذير وانهم رأوا نيران التتر بالمترل الذي كانوا به أمس فاتهم خبرهم، وصبحه التتر على آمد، وأحاطوا بخيمته قبل أن يركب فحمل عليهم أوترخان حتى كشفهم عن الحركات. وركب السلطان وركض وأسلم زوجته بنت الأتابك سعد إلى أميرين يحملانها إلى حيث تنتهي الحفلة. ثم رد أوترخان والعساكر عنه ليتوارى بانفراده عن عين العدو وسار أوترخان في أربعة آلاف فارس فخلص إلى أصبهان،

واستولى عليها إلى أن ملكها التتر عليه سنة تسعة وثلاثين. وذهب السلطان مستخفياً إلى باشورة آمد، والناس يظنون أن عسكره غدروا به فوقفوا يردّوهم فذهب إلى حدود الدربندات، وقد ملئت المضايق بالمفسدين. فأشار عليه أوترخان بالرجوع فرجع، وانتهى إلى قرية من قرى ميافارقين فترل في بيدرها، وفارقه أوترخان، إلى شهاب الدين غازي صاحب حلب لمكاتبات كانت بينهما فحبسه. ثم طلبه الكامل فبعث به إليه محبوساً ثم سقط من سطح فمات، وهجم التتر على السلطان بالبيدر فهرب، وقتل الذين كانوا معه، وأخبر التتر أنه السلطان فاتبعوه. وأدركه اثنان منهم فقتلهما ويئس منه الباقون فرجعوا عنه. وصعد جبل الأكراد فوجدهم مترصدين في الطرق للنهب فسلبوه وهموا بقتله. وأسرّ إلى بعضهم أنه السلطان فمضى به إلى بيته ليخلصه إلى بعض النواحي ودخل البيت في غيبة بعض سفلتهم وبيده حربة، وهو يطلب الثأر من الخوارزمية بأخ له قتل بخلاط فقتله، ولم يغن عنه البيت، وكانت الوقعة منتصف شوال سنة ثمان وعشرين. هذه سياقة الخبر من كتاب النسائي كاتب السلطان جلال الدين. وأما ابن الأثير فذكر الواقعة، وأنه فقد فيها، وبقوا أياما في انتظار خبره، ولم يذكر مقتله. وانتهى به التأليف ولم يزد على ذلك. قال النسائي: وكان السلطان جلال الدين أسمر قصيراً تركيا شجاعاً حليماً وقوراً لا يضحك إلا تبسما، ولا يكثر الكلام مؤثرا للعدل، إلا أنه مغلوب من أجل الفتنة وكان يكتب للخليفة والوحشة قائمة بينهما كما كان أبوه يكتب خادمه المطواع فلان، فلما بعث اليه بالخلع عن خلاط كما مر كتب إليه عبده فلان، والخطاب بعد ذلك سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وإمام المسلمين، وخليفة رب العالمين، قدوة المشارق والمغارب المنيف على الذروة العليا ابن لؤي بن غالب. ويكتب لملوك الروم ومصر والشام. السلطان فلان بن فلان ليس معها أخوة ولا محبة. وعلامته على تواقيعه: النصرة من الله وحده. وعلامته لصاحب الموصل بأحسن خط، وشق القلم شقين ليغلظ. ولما وصل من الهند كاتبه الخليفة: الجناب الرفيع الخاقاني فطلب الخطاب بالسلطان فأجيب بأنه لم تجر به عادة مع أكابر الملوك فألح في ذلك حين حملت له الخلع فخوطب بالجناب العالي الشاهستاني. ثم انتشر التتر بعد هذه الواقعة في سواد آمد وأرزن وميافارقين

وسائر ديار بكر فاكتسحوها وخربوها، وملكوا مدينة اسعرد عنوة فاستباحوها بعد حصار خمسة أيام، ومروا بماردين فامتنعت. ثم وصلوا إلى نصيبين فاكتسحوا نواحيها، ثم إلى سنجار وجبالها والخابور. ثم ساروا إلى تدليس فأحرقوها، ثم إلى أعمال خلاط فاستباحوا أباكري وارتجيس. وجاءت طائفة أخرى من أذربيجان إلى أعمال إربل، ومروا في طريقهم بالتركمان الاموامية والأكراد الجوزقان فنهبوا وقتلوا وخرج مظفر الدين صاحب إربل بعد ان استمد صاحب الموصل فلم يدركهم، وعادوا وبقيت البلاد قاعاً صفصفاً ؛ والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وافترق عسكر جلال الدين منكبرس، وساروا إلى كيقباد ملك الروم فأثبتهم في ديوانه واستخدمهم . ثم هلك سنة أربع وثلاثين، وولي ابنه غياث الدين كنخسرو فارتاب بهم وقبض على كبيرهم وفر الباقون. واكتسحوا ما مروا به، وأقاموا مستبدين بأطراف البلاد. ثم استمالهم الصالح

نجم الدين أيوب بن الكامل وكان نائبا لأبيه بالبلاد الشرقية حران وكيفا وآمد. واستأذن أباه في استخدامهم فأذن له كما يأتي في أخباره، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وفضله.

الخبر عن دولة بني تتش في أبي أرسلان بلاد الشام دمشق وحلب وأعمالها وكيف تناوبوا فيها القام بالدعوة العباسية والدعوة العلوية حين انقراض أمرهم:

قد تقدم لنا استيلاء السلجوقية على الشام لأوّل دولتهم، وكيف سار أتسز بن أرتق الخوارزمي من أمراء السلطان ملك شاه إلى فلسطين، ففتح الرملة وبيت المقدس، وأقام فيهما الدعوة العباسية، ومحا الدعوة العلوية. ثم حاصر دمشق وذلك سنة ثلاث وستين وأربعمائة. ثم أقام يرّدد الحصار على دمشق حتى ملكها سنة ثمان وستين. وسار إلى مصر سنة تسع وستين، وحاصرها وعاد منها. وولي السلطان ملك شاه بعد أبيه ألبارسلان سنة خمس وستين، فأقطع أخاه تتش بلاد الشام، وما يفتحه من تلك النواحي سنة سبعين وأربعمائة فسار إلى حلب وحاصرها. وكان أمير الجيوش بدر الجمالي قد بعث العساكر لحصار دمشق، وبها أتسز فبعث بالصريخ إلى تاج الدولة تتش فسار لنصرته، واجفلت عساكر مصر، وخرج أتسز لتلقيه فتعلل عليه ببطئه عن تلقيه، وقتله واستولى على دمشق، وقد تقدم ذلك كله.

ثم استولى سليمان بن قطلمش على أنْطاكِية، وقتل مسلم بن قريش. وسار إلى حلب فملكها، وسمع بذلك تتش فسار إليها واقتتلا سنة تسع وسبعين، وقتل سليمان بن قطلمش في الحرب وسار السلطان ملك شاه إلى حلب فملكها وولى عليها قسيم الدولة أقسنقر جدّ نور الدين العادل. ثم جاء السلطان إلى بغداد سنة أربع وثمانين، وسار إليه أخوه تاج الدين تتش من دمشق، وقسيم الدولة أقسنقر صاحب حلب، وبوزان صاحب الرها، وحضروا معه صنيع المولد النبوي ببغداد، فلما وعدوه العود إلى بلادهم أمر قسيم الدولة وبوزان بان يسيرا بعسكرهما مع تاج الدولة تتش لفتح البلاد بساحل الشام، وفتح مصر من يد المستنصر العلوي، ومحو الدولة العلوية منها فساروا لذلك. وملك تتش حمص من يد ابن ملاعب، وغزة عنوة، وأماسية من يد خادم العلوي بالأمان. وحاصر طرابلس، وبها جلال الدين ابن عمار فداخل قسيم الدولة أقسنقر، وصانعه بالمال في أن يشفع له عند تتش فلم

يشفعه فرحل مغاضبا، وأجفلوا إلى جبلة وانتقض أمرهم. وهلك السلطان ملك شاه سنة خمس وثمانين ببغداد، وقد كان سار إلى بغداد، وسار تتش أخوه من دمشق للقائه وبلغه في طريقه خبر وفاته، وتنازع ولده محمود وبركيارق الملك فاعتزم على طلب الأمر لنفسه، ورجع إلى دمشق فجمع العساكر وقسم العطاء. وسار إلى حلب فأعطاه أقسنقر الطاعة لصغر أولاد ملك شاه والتنازع الذي بينهم، وحمل صاحب أنْطاكِية وبوزان صاحب الرها وحران على طاعته.

وساروا جميعا في محرم سنة ست وثمانين فحاصروا الرحبة وملكوها، وخطب فيها

تتش لنفسه. ثم ملك نصيبين عنوة واستباحها وأقطعها لمحمد بن مسلم بن قريش. ثم سار إلى الموصل وبها إبراهيم بن قريش بن بدران، وبعث إليه في الخطبة على منابره فامتنع وبرز للقائه في ثلاثين ألفا، وكان تتش في

عشرة آلاف والتقوا بالمضيع من نواحي الموصل فانهزم إبراهيم وقتل، واستبيحت أحياء العرب، وقتل أمراؤهم، وأرسل إلى بغداد في طلب الخطبة فلم يسعف إلا بالوعد. ثم سار إلى ديار بكر فملكها في ربيع الآخر، وسار منها إلى أذربيجان. وكان بركيارق بن ملك شاه قد استولى على الريّ وهمذان، وكثير من بلاد الجبل فسار في العساكر لمدافعته. فلما تقاربا نزع أقسنقر وبوزان إلى بركيارق.وعاد تتش منهزماً إلى الشام، وجمع العساكر، واستوعب في الحشد. وسار إلى أقسنقر في حلب فبرز إليه، ومعه بوزان صاحب الرها وكربوقا الذي ملك الموصل فيما بعد، ولقيهم تتش على ستة فراسخ من حلب لانهزموا وجيء باقسنقر أسيراً فقتله صبرا. ولحق كربوقا وبوزان بحلب فحاصرها تتش وملكها وأخذهما أسيرين. وبعث إلى حران والرها في الطاعة فامتنعوا فقتلى بوزان وملكهما وحبس كربوقا بحمص . ثم سار إلى الجزيرة فملكها جميعا، ثم إلى ديار بكر وخلاط ثم اذربيجان ثم همذان. وبعث إلى بغداد في الخطبة. وكان بركيارق يومئذ بنصيبين فعبر دجلة إلى إربل، ثم منها إلى بلد سرحاب بن بدر. وسار الأمير يعقوب بن أرتق من عسكر تتش فكسبه وهزمه، ونجا إلى أصبهان فكان من خبره ما تقدم. وبعث تتش يوسف بن أرتق التركماني شحنة إلى بغداد فمنع منها فعاث في نواحيها. ثم بلغه مهلك تتش فعاد إلى حلب. وهذه الأخبار كلها قد تقدمت في أول دولة السلجوقية وإنما ذكرناها هنا توطئة لدولة بني تمش بدمشق وحلب والله أعلم.

مقتل تتش.

ولما انهزم بركيارق أمام عمه تتش لحق بأصبهان، وبها محمود وأهل دولته فأدخلوه وتشاوروا في قتله ؛ ثم أبقوه إلى إبلال محمود من مرضه فقدر هلاك محمود. وبايعوا لبركيارق فبادر إلى

أفهان، وقدم أميراً آخر بين يديه لاعداد الزاد والعلوفة، وسار هو إلى أصبهان. ورجع تتش إلى الريّ، وأرسل إلى الأمراء بأصبهان يدعوهم ويرغبهم فأجابوه باستبراء أمر بركيارق. ثم ابل بركيارق من مرضه، وسار في العساكر إلى الريّ فانهزم تتش وانهزم عسكره، وثبت هو فقتله بعض أصحاب أقسنقر بثأر صاحبه، واستقام الأمر لبركيارق والله تعالى أعلم.

استيلاء رضوان بن تتش علي حلب:

كان تتش لما انفصل من حلب استخلف عليها أبا القاسم الحسن بن علي الخوارزمي وأمكنه من القلعة، ثم أوصى أصحابه قبل المصاف بطاعة ابنه رضوان، وكتب إليه بالمسير إلى بغداد ونزول دار السلطنه فسار لذلك، وسار معه أبو الغازي بن أرتق. وكان أبوه تتش تركه عنده وسار معه ومعه محمد بن صالح بن مرداس وغيرهما. وبلغه مقتل أبيه عند هيت فعاد إلى حلب، ومعه الأميران الصغيران أبو طالب وبهرام وأمه وزوجها جناح الدولة الحسن بن أفتكين، ولحق بهم من المعركة. فلما انتهوا إلى حلب امتنع أبو القاسم بالقلعة، ومعه جماعة من المغاربة، وهم أكثر جندها فاستمالهم جناح الدولة فثاروا بالقلعة من الليل، ونادوا بشعار الملك رضوان واحتاطوا على أبي القاسم، فبعث إليه رضوان بالأمان وخطب له على منابر حلب وأعمالها، وقام بتدبير دولته جناح الدولة، وأحسن السيرة. وخالف عليهم الأمير باغيسيان بن محمد بن أبه التركماني صاحب

أنْطاكِية ، ثم أطاع وأشار على رضوان بقصد ديار بكر، وسار معه لذلك. وجاءهم أمراء الأطراف الذين كان تتش رأسهم فيها، وقادوا سروج فسبقهم إليها سلمان بن أرتق وملكها فساروا إلى الرها، وبها الفارقليط من الروم، كان يضمن البلاد من بوزان فتحضن بالقلعة ودافعهم، ثم غلبوه عليها، وملكها رضوان. وطلبها منه باغيسيان. وخشي جناح الدولة على نفسه فلحق بحلب، ورجع رضوان والأمراء على أثره فسار باغيسيان فأقطعها له. ثم سار إلى حران وأميرها قراجا فدس إليهم بعض أهلها بالطاعة، واتهم قراجا بذلك ابن المعني من أعيانها، كان تتش يعتمد عليه في حفظ البلده، وقتل بني أخيه. ثم فسد ما بين جناح الدولة وباغيسيان وخشي جناح الدولة على نفسه فلحق بحلب، ورجع رضوان والأمراء على أثره فسار باغيسيان إلى لجده أنْطاكِية، وسار معه أبو القاسم الخوارزمي، ودخل رضوان إلى حلب دار ملكه وكان من أهل دولته

يوسف بن أرتق الخوارزمي الذي بعثه تتش إلى بغداد شحنة، وكان من الفتيان بحلب، وكان قنوعا، وكان يعادي يوسف بن أرتق فجاء إلى جناح الدولة القائم بأمر رضوان ورمى يوسف بن أرتق عنده بأنه يكاتب باغيسيان ويداخله في الثورة، واستأذنه في قتله فأذن له، وأمده بجماعة من الجند. وكبس يوسف في داره فقتله ونهب ما فيها واستطال على الدولة. وطمع في الاستبداد على رضوان، ودس لجناح الدولة أن رضوان أمره بقتله فهرب إلى حمص. وكانت إقطاعاً له واستبد على رضوان ثم تنكر له رضوان سنة تسع وثمانين، وأمر بالقبض عليه فاختفى ونهبت دوره وأمواله ودوابه. ثم قبض عليه فامتحن وقتل هو وأولاده.

استيلاء دقاق بن تتش علي دمشق:

كان تتش قد بعث ابنه دقاقا إلى أخيه السلطان ملك شاه ببغداد فأقام هنالك إلى أن توفي ملك شاه، فسار معه ابنه محمود وأمه خاتون الجلالية إلى أصبهان. ثم ذهب عنهم سرّا إلى بركيارق ثم لحق بأبيه وحضر معه الواقعة التي قتل فيها. ولما قتل تتش أبوه سار به مولاه تكهن إلى حلب فأقام عند أخيه رضوان، وكان بقلعة من قلاعها ساو تكين الخادم من موالي تتش، ولاه عليها قبل موته فبعث إلى دقاق يستدعيه للملك فسار إليه، وبعث رضوان في طلبه فلم يدركه. ووصل دمشق، وكتب إليه باغيسيان صاحب أنْطاكِية يشير عليه بالاستبداد بدمشق على أخيه رضوان. ووصل معتمد الدولة طغتكين مع جماعة من خواص تتش، وكان قد حضر المعركة وأسر فخلص الآن من الاسار. وجاء إلى دمشق فلقيه دقاق ومال إليه، وحكمه في أمره وداخله في مثل ساوتكين الخادم فقتلوه. ووفد عليهم باغيسيان من أنْطاكِية، ومعه أبو القاسم الخوارزمي فأكرمهما واستوزر الخوارزمي وحكمه في دولته.

الفتنة بىن دقاق أخيه رضوان:

ثم سار رضوان إلى دمشق سنة تسعين وأربعمائة قاصداً انتزاعها من يد دقاق فامتنعت عليه فعاد إلى مالس، وقصد الورس فامتنعت عليه فعاد إلى حلب، وفارقه باغيسيان صاحب أنْطاكِية إلى أخيه دقاق، وحض على المسير إلى أخيه بحلب فسار لذلك. واستنجد رضوان

سكمان من سروج في أمم من التركمان. ثم كان اللقاء بقنسرين فانهزمت عساكر دقاق ونهب سوادهم، وعاد رضوان إلى حلب. ثم سعى بينهما في الصلح على أن يخطب لرضوان بدمشق وأنْطاكِية قبل دقاق فانعقد ذلك بينهما. ثم لحق جناح الدولة بحمص عندما عظمت فيه سعاية المجن كما ذكرناه. وكان باغيسيان منافرا له. فلما فصل من حلب جاء باغيسيان إلى رضوان وصالحه. ثم بعث إلى رضوان المستعلي خليفة العلويين بمصر يعده بالامداد على أخيه، على أن يخطب له على منابره، وزين له بعض أصحابه صحة مذهبهم فخطب له في جميع أعماله سوى أنْطاكِية والمعّرة وقلعة حلب. ثم وفد عليه بعد شهرين من هذه الخطب سكمان بن أرتق صاحب سروج وباغيسيان صاحب أنْطاكِية فلم يقم بها غير ثلاث، حتى وصل الإفرنج فحاصروه وغلبوه على أنْطاكِية وقتلوه كما مر في خبره.

استيلاء دقاق علي الرحبة:

كانت الرحبة بيد كربوقا صاحب الموصل فلما قتل كما مرّ في خبره استولى عليها قائما من موالي السلطان البارسلان، فسار دقاق بن تتش ملك دمشق وأتابكه طغركين إليها سنة خمس وتسعين، وحاصروها فامتنعت عليهم فعادوا عنها. وتوفي قانمار صاحبها في صفر سنة ست وتسعين، وقام بأمرها حسن من موالي الأتراك فطمع في الاستبداد، وقتل جماعة من أعيان البلد، وحبس آخرين. واستخدم جماعة من الجند، وطرد آخرين. وخطب لنفسه لسار دقاق إليه وحاصره في القلعة حتى استأمن، وخرج إليه وأقطعه بالشام اقطاعات كثيرة، وملك الرحبة وأحسن إلى أهلها وولى عليهم ورجع إلى دمشق، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق لا رب غيره.

وفاة دقاق وولاية أخيه تلتاش ثم خلعه:

ثم توفي دقاق صاحب دمشق سنة سبع وتسعين واستقلّ أتابكه طغركين بالملك وخطب لنفسه سنة، ثم قطع خطبته وخطب لتلتاش أخي دقاق صبياً مراهقا، وخّوفته أمه من طغركين بزواجه أم دقاق، وأنه يميل إلى ابن دقاق من أجل جدته فاستوحش وفارق دمشق إلى بعلبك في صفر سنة ثمان وتسعين، ولحقه ايتكين الحلبي صاحب بصرى، وكان ممن حسن له ذلك فعاث في نواحي خوارزم، ولحق به أهل الفساد، وراسلا هدويل ملك الإفرنج فأجابهما بالوعد، ولم يوف لهما فسار إلى الرحبة واستولى عليها تلتاش. وقيل إن تلتاش لما استوحش منه طغركين

من دخول البلد مضى إلى حصون له، وأقام بها. ونصب طغركين الطفل ابن دقاق، وخطب له واستبد عليه، وأحسن إلى الناس واستقام أمره، والله تعالى ولي التوفيق وهو نعم الرفيق.

حروب الإفرنج

الحرب بين طغركين والإفرنج أشهراً

كان قمص من قمامصة الإفرنج على مرحلتين من دمشق فلج بالغارات على دمشق، فجمع طغركين العساكر وسار إليه وجاء معرون ملك القدس وعكا من الإفرنج بإنجاد القمص فأظهر الغنية عليه وعاد إلى عكا، وقاتل

طغركين القمص فهزمه وأحجزه بحصنه. ثم حاصره حتى ملك الحصن عنوة وقتل أهله وأسر جماعته، وعاد إلى دمشق ظافرا غانما. ثم سار إلى حصن رمسة من حصون الشام، وقد ملكه الإفرنج، وبه ابن أخت سميل المقيم على طرابلس يحاصرها فحاصر طغركين حصن رمسة، حتى ملكه وقتل اهله من الإفرنج وخرّبه، والله أعلم.

مسير رضوان صاحب حلب لحصار نصيبين:

ثم إن رضوان صاحب حلب اعتزم على غزو الإفرنج، واستدعى الأمراء من النواحي لذلك فجاءه أبو الغازي بن أرتق الذي كان شحنة ببغداد وأصفهان وصباوو، وألبي بن أرسلان ماش صاحب سنجار، وهو صهر جكرمش في صاحب الموصل. وأشار أبو الغازي بالمسير إلى بلاد جكرمش للاستكثار بعسكرها وأموالها، ووافقه ألي وساروا إلى نصيبين في رمضان سنة تسع وتسعين وأربعمائة فحاصرها، وفيها أميران من قبل جكرمش واشتد الحصار، وجرح ألي بن أرسلان بسهم أصابه فعاد إلى سنجار، وأجفل أهل السواد إلى الموصل، وعسكر جكرمش بظاهرها معتزما على الحرب. ثم كاتب أعيان العسكر، وحثهم على رضوان. وأمم أصحابه بنصيبين بإظهار طاعه، وطلب الصلح معه. وبعث إلى رضوان بذلك والامداد بما يشاؤه على أن يقبض على أبي الغازي فمال إلى ذلك، واستدعى أبا الغازي فخبره أن المصلحة في صلح

جكرمش ليستعينوا به في غزو الإفرنج وجمع شمل المسلمين فجاوبه أبو الغازي بالمنع من ذلك. ثم قبض عليه وقيده فانتقص التركمان ولجأوا إلى سور المدينة، وقاتلوا رضوان. وبعث رضوان بأبي الغازي إلى نصيبين فخرجت منه العساكر لامداده، فافترق منها التركمان، ونهبوا مما قدروا عليه. ورحل رضوان من وقته إلى حلب. وانتهى الخبر إلى جكرمش بتلّ أعفر، وهو قاصد حرب القوم فرحل عند ذلك إلى سنجار، وبعث إليه رضوان في الوفاء بما وعده من النجدة فلم يف له. ونازل صهره ألبي بن أرسلان بسنجار، وهو جريح من السهم الذي أصابه على نصيبين فخرج إليه ألبي محمولا. واعتذر إليه فأعتبه وأعاده إلى بلده فمات وامتنع أصحابه بسنجار، رمضان وشوالا. ثم خرج إليه عم ألي وصالح جكرمش وعاد إلى الموصل، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه.

استيلاء الإفرنج علي افامية:

كان خلف بن ملاعب الكلابي في حمص، وملكها مه تاج الدولة تتش فسار إلى مصر واقام بها. ثم بعث صاحب افامية من جهة رضوان بن تتش بطاعته إلى صاحب مصر العلوي، فبعث إليها ابن ملاعب وملكها وخلع طاعة العلوية، وأقام يخيف السبيل كما كان في حمص فلما ملك الإفرنج سرمين لحق به قاضيها وكمان على مذهب الرافضة فكتب إلى ابن الطاهر الصائغ من أكابر الغلاة، ومن أصحاب رضوان، وداخلهم في الفتك بابن فلاعب. ونمي الخبر إليه من أولاده فحلف له القاضي بما اطمأن إليه، وتحيل مع ابن الصانع في جند من قبلهم يستأمنون إلى ابن ملاعب، ويعطونه خيلهم وسلاحهم ويقيمون للجهاد معه ففعلوا، وأنزلهم بربض أفامية. ثم بيته القاضي ليلا بمن معه من أهل سرمين، ورفع أولئك الجند من الربض بالحبال، وقتلوا ابن ملاعب

في بيته وقتلوا معه ابنه، وفر الآخر إلى أبي الحسن بن منقذ صاحب شيزر.وجاء الصانع من حلب إلى القاضي فطرده، واستبد بأفامية. وكان بعض أولاد ابن ملاعب عند طغركين، وولاه حماية بعض الحصون فعظم ضرره، فطلب طغركين فهرب إلى الإفرنج وأغراهم بأفامية، ودلهم على عورتها، وعدم الأقوات فيها فحاصروها شهرا وملكوها عنوة، وقتلوا القاضي والصانع، وذلك سنة تسع وتسعين. وقد ذكرنا قبل أن الصانع قتله ابن بديع أيام تتش صاحب حلب إثر مهلك رضوان، فالله أعلم أيهما الصحيح. ثم ملك صاحب أنْطاكِية من الإفرنج حصن الإمارة بعد حصار طويل فملكه عنوة واستلحم أهله، وفعل في ذريته مثل ذلك. ورحل أهل منبج وبالس وتركوهما خاويين، وملكوا حيد بالأمان. وطلب الإفرنج من أهل الحصون الإسلافية الجزية فأعطوهم ذلك على ضريبة فرضوها عليهم، فكان على رضوان في حلب وأعمالها ثلاثون ألف دينار، وعلى صور سبعة آلاف، وعلي ابن منقذ في شيزر أربعة آلأف، وعلى حماة ألفا دينار وذلك سنة خمس وخمسمائة.

استيلاء طغركين علي بمرى:

قد تقدم لنا سنة سبع وتسعين حال تلتاش بن تتش، والخطبة له بعد أخيه دقاق، وخروجه من دمشق واستنجاده الإفرنج. وأن الذي تولى كبر ذلك كله اسكين الحملي صاحب بصرى فسار طغركين آخر المائة الخامسة إلى بصرى، وحاصرها حتى أذعنوا ا وضربوا له أجلا للفرنج، فعاد إلى دمشق حتى انقضى الأجل فآتوه طاعتهم، وملك البلد وأحسن إليهم، والله تعالى ولى التوفيق لا رب غيره .

غزو طغركين وهزيمته:

ثم سار طغركين سنة اثنتين وخمسمائة إلى طبرية، ووصل إليها ابن أخت بغدوين ملك القدس من الإفرنج فاقتتلوا فانهزم المسلمون أوّلا، فترل طغركين ونادى بالمسلمين فكروا وانهزم الإفرنج وأسر ابن أخت بغدوين. وعرض طغركين عليه الإسلام فامتنع فقتله بيده وبعث بالأسرى إلى بغداد. ثم انعقد الصلح بين طغركين وبغدوين بعد أربع سنين. وسار بعدها طغركين إلى حصن غزة في شعبان من السنة. وكان ليدمولى القاضي فخر الملك ثم علي بن عمار صاحب طرابلس فعصى عليه وحاصره الإفرنج، وانقطعت عنه الميرة فأرسل إلى طغركين صاحب دمشق أن يمكنه من الحصن، فأرسل إليه إسرائيل من أصحابه فملك الحصن، وقتل صاحبه مولى بن عمار غيلة ليستأثر بمخلفه، فانتظر طغركين دخول الشتاء وسار إلى الحصن لينظر في أمره. وكان السرداني من الإفرنج يحاصر طرابلس فلما سمع بوصول طغركين حصن الأكمة أغذ السير إليه فهزمه، وغنم سواده- ولحق طغركين بحمص ونازل السرداني غزة فاستأمنوا إليه وملكها، وقبض على اسرائيل فادى به أسيراً كان لهم بدمشق منذ سبع سنين، ووصل طغركين إلى دمشق. ثم قصد ملك الإفرنج رمسة من أعمال دمشق فملكها وشحنها بالأقوات والحامية، فقصدها طغركين بعد أن نمي إليه الخبر بضعف الحامية الذين بها فكبسها عنوة، وأسر الإفرنج الذين بها والله سبحانه وتعالى أعلم.

انتقاض طغركين علي السلطان محمد:

كان السلطان محمد بن ملك شاه قد أمر مودود بن بوشكين صاحب الموصل بالمسير لغزو الإفرنج، لأن ملك القدس تابع الغارات على دمشق سنة ست وخمسمائة، واستصرخ طغركين بمودود فجمع العساكر، وسار سنة تسع. ولقيه طغركين بسهلة وقصدوا القدس وانتهوا إلى الانحوانة على الأردن وجاء بغدولن فنزل قبالتهما على النهر، ومعه جوسكين صاحب جيشه، واقتتلوا منتصف محرم سنة عشر على بحيرة طبرية فانهزم الإفرنج، وقتل منهم كثير، وغرق كثير في بحيرة طبرية ونهر الأردن. ولقيتهم عساكر طرابلس وأنْطاكِية فاشتدوا وأقاموا بجبل قرب طبرية، وحاصرهم المسلمون فيه. ثم يئسوا من الظفر به فساحوا في بلادهم واكستحوها وخربوها، ونزلوا مرج الصفر . وأذن مودود للعساكر في العود والراحة ليتهيأوا للغزو. وسلخ الشتاء ودخل دمشق آخر ربيع من سنة ليقيهم عند طغركين تلك المدة. وصلى معه أول جمعة، ووثب عليه باطني بعد الصلاة فطعنه، ومات آخر يومه واتهم طغركين بقتله، وولى السلطان مكانه على الموصل أقسنقر البرسقي فقبض على أياز بن أبي الغازي وأبيه صاحب حصن كيفا، فسار بنو أرتق إلى البرسقي وهزموه، وتخلص أياز من أسره فلحق أبو الغازي أبوه بطغركين صاحب دمشق، وأقام عنده. وكان مستوحشا من السلطان محمد لاتهامه بقتل مودود فبعث إلى صاحب أنْطاكِية من الإفرنج، وتحالفوا على المظاهرة، وقصد أبو الغازي ديار بكر فظفر به قيرجان بن قراجا صاحب حمص وأسره. وجاء طغركين لاستنقاذه فحلف قيرجان ليقتلنه إن لم يرجع طغركين إلى بلاده. وانتظر وصول العساكر من بغداد تحمله فأبطأت فأجاب طغركين إلى اطلاقه.

ثم بعث السلطان حمد العساكر لجهاد الإفرنج والبداءة بقتال طغركين وابي الغازي فساروا في رمضان سنة ثمان وخمسمائة، ومقدمتهم برسق بن برسق صاحب همذان، وانتهوا إلى حلب، وبعثوا إلى متوليها لؤلؤ الخادم، ومقدم عسكرها شمس الخواص يأمرونهما بالنزول عنها. وعرضوا عليهما كتب السلطان بذلك فدافعا بالوعد، واستحثا طغركين

وأبا الغازي في الوصول فوصلا في العساكر، وامتنعت حلب على العساكر، وأظهروا العميان فسار برسق إلى حماة، وهي لطغركين فملكها عنوة ونهبها ثلاثا. وسألهما الأميرة قيرجان صاحب حمص الصلح، وكان جميع ما يفتحه من البلاد له بأمر السلطان فانتقض الأمراء من ذلك وكسلوا عن الغزو. وسار أبو الغازي وطغركين وشمس الخواص إلى أنْطاكِية يستنجدون صاحبها دجيل من الإفرنج. ثم توادعوا إلى انصرام الشتاء، ورجع أبو الغازي إلى ماردين وطغركين إلى دمشق. ثم كان في اثر ذلك هزيمة المسلمين. واستشهد برسق وأخوه زنكي، وقد تقدم خبر هذه الهزيمة في أخبار البرسقي. ثم قدم السلطان محمد بغداد فوفد عليه أتابك طغركين صاحب دمشق في ذي القعدة من سنة تسع مستعينا فأعانه وأعاده إلى بلده، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة رضوان بن تتش صاحب حلب وولاية ابنه ألب أرسلان:

ثم توفي رضوان بن تتش صاحب حلب سنة تسح وخمسمائة، وقد كان قتل أخويه

أبا طالب وبهرام ، وكان يستعين بالباطنية في أموره ويداخلهم. ولما توفي بايع مولاه لؤلؤ الخادم لابنه ألبارسلان صبياً مغتلماً ، وكانت في لسانه حبسة فكان يلقب الأخرس. وكان لؤلؤ مستبداً عليه، ولأول ملكه قتل أخويه، وكل ملك شاه منهما شقيقه. وكانت الباطنية كثيراً في حلب في أيام رضوان حتى خافهم ابن بديع واعيانها فلفا توفي أذن لهم ألب أرسلان في الإيقاع بهم، فقبضوا على مقدمهم ابن طاهر الصائغ وجماعة من أصحابهم فقتلوهم وافترق الباقون.

مهلك لؤلؤ الخادم واستيلاء أبي الغازي ثم مقتل ألب أرسلان وولاية أخيه سلطان شاه:

كان لؤلؤ الخادم قد استولى على قلعة حلب، وولىّ أتابكية ألب أرسلان ابن مولاه رضوان. ثم تنكر له فقتله لؤلؤ ونصب في الملك أخاه سلطان شاه واستبد عليه. فلما كان سنة إحدى عشرة سار إلى قلعة جعفر للاجتماع بصاحبها سالم بن مالك، فغدر به مماليكه الأتراك وقتلوه عند خرتبرت وأخذوا خزائنه. واعترضهم أهل حلب فاستعادوا منهم ما أخذوه. وولى أتابكية سلطان شاه ابن رضوان شمس الخواص بارقياس ، وعزل لشهر، وولي بعده أبو المعالي بن

الملحي الدمشقي. ثم عزل وصودر واضطربت الدولة، وخاف أهل حلب من الإفرنج فاستدعوا ابا الغازي بن أرتق وحكموه على أنفسهم. ولم يجد فيها مالأ فصادر جماعة الخدم، وصانع بمالهم الإفرنج حتى صار إلى ماردين بنية العود إلى حمايتها، واستخلف عليها ابنه حسام الدين تمرتاش، وانقرض ملك رضوان بن تتش من حلب والله سبحانه وتعالى أعلم.

هزيمة طغركين أمام الإفرنج:

كان ملك الإفرنج بغدوين صاحب القدس قد توفي سنة اثنتي عشرة، وقام بملكهم بعده القمص صاحب الرها الذي كان أسره جكرمس واطلقه جاولي كما تقدم في اخبارهم. وبعث إلى طغركين في المهادنة. وكان قد سار من دمشق لغزوهم فابى من إجابته، وسار إلى طبرية فنهبها، واجتمع بقواد المصريين في عسقلان، وقد أمرهم صاحبهم بالرجوع إلى رأي طغركين. ثم عاد إلى دمشق وقصد الإفرنج حصنا من اعماله فاستأمن إليهم أهله وملكوه. ثم قصدوا أذرعات فبعث طغركين ابنه بوري لمدافعتهم فتنحوا عن أذرعات إلى جبل هناك.

وحاصرهم بوري، وجاء إليه أبو طغركين فراسلوه ليفرج عنهم فابى طمعا في أخذهم، واستماتوا وحملوا على المسلمين حملة صادقة فهزموهم ونالوا منهم. ورجع الفل إلى دمشق. وسار طغركين إلى أبي الغازي بحلب يستنجده فوعده بالنجدة وسار إلى ماردين للحشد ورجع طغركين إلى دمشق كذلك وتواعدوا للجبال وسبق الإفرنج إلى حلب وكان بينه وبين ابي الغازي ما نذكره في موضعه من دولة بني أرتق والله سبحانه تعالى وليّ التوفيق لا ربّ غيره.

منازلة الإفرنج دمشق

ثم اجتمع الإفرنج سنة عشرين وخمسمائة ملوكهم وقمامصتهم وساروا إلى دمشق

ونزلوا مرج الصفر. وبعث أتابك طغركين بالصريخ إلى تركمان بديار بكر وغيرها وخيم قبالة الإفرنج واستخلف ابنه بوري على دمشق ثم ناجزهم الحرب آخر السنة فاشتد القتال وصرع طغركين عن فرسه فانهزم المسلمون وركب طغركين واتبعهم ومضت خيالة الإفرنج في اتباعهم وبقي رجالة التركمان في المعركة. فلما خلص إليهم رجالة الإفرنج اجتمعوا واستماتوا وحملوا على رجالة الإفرنج فقتلوهم، ونهبوا معسكرهم وعادوا غانمين ظافرين إلى دمشق. ورجعت خيالة الإفرنج من اتباعهم منهزمين فوجدوا معسكرهم منهوبا ورجالتهم قتلى وكان ذلك من الصنع الغريب.

تاريخ ابن خلدون

وفاة طغركين وولاية ابنه بوري

ثم توفي أتابك طغركين صاحب دمشق في صفر سنة اثنتين وعشرين وكان من موالي تاج الدولة تتش وكان حسن السيرة مؤثرا للعدل محبا في الجهاد ولقبه ظهير الدين ولما توفي ملك بعده ابنه تاج الدولة بوري أكبر أولاده بعهده إليه بذلك وأقر وزير أبيه أبي علي طاهر بن سعد المزدغاني على وزارته وكان المزدغاني يرى رأي الرافضية الإسماعيلية وكان بهرام ابن أخي إبراهيم الاستراباذي لما قتل عمه إبراهيم ببغداد على هذا المذهب لحق بالشام وملك قلعة بانياس ثم سار إلى دمشق وأقام بها خليفة يدعو إلى مذهبه. ثم فارقها وملك القدموس وغيره من حصون الجبال، وقابل البصرية والدرزة بوادي التيم من أعمال بعلبك سنة اثنتين وعشرين. وغلبهم الضحاك وقتل بهرام. وكان المزدغاني قد أقام له خليفة بدمشق يسمى أبا الوفاء فكثر اتباعه وتحكم في البلد وجاء الخبر إلى بوري بأن وزيره المزدغاني والاسماعيلية قد راسلوا الإفرنج بأن يملكوهم دمشق فجاء إليها، وقتل المزدغاني ونادى بقتل الإسماعيلية وبلغ الخبر إلى الإفرنج فاجتمع صاحب القدس وصاحب أنْطاكِية وصاحب طرابلس وسائر ملوك الإفرنج وساروا لحصار دمشق. واستصرخ تاج الملك بالعرب والتركمان وجاء الإفرنج في ذي الحجة من السنة وبثوا سراياهم للنهب والاغارة ومضت منها سرية إلى خوارزم فبعث تاج الدولة بوري سرية من المسلمين مع شمس الخواص من أمرائه لمدافعتهم فلقوهم وظفروا بهم واستلحموهم وبلغ الخبر إلى الإفرنج فأجفلوا منهزمين وأحرقوا مخلفهم واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون والله تعالى ولي التوفيق.

أسرتاج الملك لدبيس بن صدقة وتمكين عماد الدين زنكي منه

كان بصرخد من أرض الشام أميرا عليها فتوفي سنة خمس وعشرين وخلف سريته واستولت على القلعة، وعلمت أنه لا يتم لها استيلاؤها إلا بتزويج رجل من أهل العصابة فوصف لها دبيس فكتبت إليه تستدعيه وهو على البصرة منابذا للسلطان عندما

رجع من عند سنجر فاتخذ الأدلاء وسار إلى صرخد فضل به الدليل بنواحي دمشق ونزل على قوم من بني كلاب شرقي الغوطة فحملوه إلى تاج الملك فحبسه وبعث به إلى عماد الدين زنكي يستدعيه ويتهدده على منعه وأطلق سريج بن تاج الملوك والأمراء الذين كانوا مأسورين معه فبعث تاج الملك بدبيس إليه وأشفق على

نفسه. فلما وصل إلى زنكي خالف ظنه وأحسن إليه وسد خلته وبسط أمله. وبعث فيه المسترشد أيضاً بطلبه وجاء فيه الأنباري وسمع في طريقه بإحسان زنكي إليه فرجع، ثم أرسل المسترشد يشفع فيه فأطلق.

وفاة تاج الملوك بوري صاحب دمشق وولاية ابنه شمس الملوك إسمعيل

كان تاج الملوك بوري قد ثار به جماعة من الباطنية سنة خمس وعشرين، وطعنوه فأصابته جراحة واندملت. ثم انتقضت عليه في رجب من سنة ست وعشرين لأربع سنين ونصف من إمارته وولي بعده ابنه شمس الملوك إسمعيل بعهده إليه بذلك. وكان عهد بمدينة بعلبك وأعمالها لابنه الآخر شمس الدولة وقام بتدبير أمره الحاجب يوسف ابن فيروز شحنة دمشق وأحسن إلى الرعية وبسط العدل فيهم والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء شمس الملوك علي الحصون

ولما تولى شمس الملوك إسمعيل وسار أخوه محمد إلى بعلبك خرج اليها وحاصر أخاه محمدا بها، وملك البلد. واعتصم محمد بالحصن وسأل الابقاء فأبقي عليه ورجع إلى دمشق. ثم سار إلى باشاش ، وقد كان الإفرنج الذين بها نقضوا الصلح وأخذوا جماعة من تجار دمشق في بيروت فسار إليها طاويا وجه مذهبه، حتى وصلها في صفر سنة سبع وعشرين وقاتلها ونقب أسوارها وملكها عنوة، ومثل بالافرنج الذين بها. واعتصم فقهم بالقلعة حتى استأمنوا، وملكها ورجع إلى دمشق. ثم بلغه انّ المسترشد زحف إلى الموصل طمع هو في حماة وسار آخر رمضان وملكها يوم الفطر من غده فاستأمنوا إليه وملكها واستولى على ما فيها. ثم سار إلى قلعة شيزر وبها صاحبها من بني منقذ فحاصرها، وصانعه صاحبها بمال حمله إليه فأفرج عنه وسار إلى دمشق في ذي القعدة من السنة. ثم سار في محرم سنة ثمان وعشرين إلى حصن شقيق في

الجبل المطل على بيروت وصيدا، وبه الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم قد تغلب عليه وامتنع به وتحاماه المسلمون والافرنج يحتمي من كل طائفة بالأخرى فسار إليه وملكه من وقته وعظم ذلك على الإفرنج فساروا إلى حوران وعاثوا في نواحيها فاحتشد هو واستنجد بالتركمان، وسار حتى نزل قبالتهم وجهز العسكر هنالك وخرج في البرّ وأناخ على طبرية وعكا فاكتسح نواحيها وامتلأت أيدي عسكره بالغنائم والسبي. وانتهى الخبر إلى الإفرنج بمكانهم من بلاد حوران فأجفلوا إلى بلادهم، وعاد هو إلى دمشق وراسله الإفرنج في تجديد الهدنة فهادنهم.

مقتل شمس الملوك وولاية أخيه شهاب الدين محمود

كان شمس الملوك سيء السيرة كثير الظلم والعدوان على رعيته مرهف الحد لأهله وأصحابه، حتى إنه وثب عليه بعض مماليك جده سنة سبع وعشرين وعلاه بالسيف ليقتله فأخذ وضرب فأقر على جماعة داخلوه فقتلهم وقتل معهم أخاه سونج فتنكر الناس له، وأشيع عنه بأنه كاتب عماد الدين زنكي ليملكه دمشق واستحثه في الوصول لئلاً يسلم البلد إلى الإفرنج فسار زنكي فصدق الناس الإشاعة وانتقض أصحاب أبيه لذلك، وشكو لامّه فأشفقت ثم تقدمت إلى غلمانه بقتله فقتلوه في ربيع الآخر سنة تسع وعشرين، وقيل أنه اتهم أمه بالحاجب يوسف بن فيروز فاعتزم على قتلها فهرب يوسف، وقتلته أمه. ولما قتل ولي أخوه شهاب

الدين محمود من بعده، ووصل أتابك زنكي بعد مقتله فحاصر دمشق من ميدان الحصار، وجدوا في مدافعته والامتناع عليه. وقام في ذلك معين الدين أنز مملوك جده طغركين مقاماً محمودا وجفى في المدافعة والحصار. ثم وصل رسول المسترشد أبو بكر بن بشر الجزري إلى أتابك زنكي يأمره بمسالمة صاحب دمشق الملك ألب ارسلان شهاب الدين محمود، وصلحه معه فرحل عن دمشق منتصف السنة.

استيلاء شهاب الدين محمود على حمص:

كانت حمص لقيرجان بن قراجا ولولده من بعده والموالي بها من قبلهما، وطالبهم عماد الدين زنكي في تسليمها، وضايقهم في نواحيها فراسلوا شهاب الدين صاحب دمشق في أن يملكها ويعوضهم عنها بتدمر ؛ فأجاب واستولى على حمص، وسار إليها سنة ثلاثين وأقطعها لمملوك جده معين الدين أنز، وأنزل معه حامية من عسكره ورجع إلى دمشق واستأذنه الحاجب يوسف بن

فيروز في العود من تدمر إلى دمشق وقد كان هرب إليها كما قدمناه. وكان جماعة من الموالي منحرفين عنه بسبب ما تقدم في مقتل سونج فنكروا ذلك فلاطفهم ابن فيروز واسترضاهم، وحلف لهم أنه لا يتولى شيئا من الأمور. ولما دخل رجع إلى حاله فوثبوا عليه وقتلوه، وخيموا بظاهر دمشق واشتطوا في الطلب فلم يسعفوا بكلمة فلحقوا بشمس الدولة محمد بن تاج الملوك في بعلبك، وبثوا السرايا إلى دمشق فعاثت في نواحيها حتى أسعفهم شهاب الدين بكل ما طلبوه فرجعوا إلى ظاهر دمشق، وخرج لهم شهاب الدين وتحالفوا ودخلوا إلى البلد. وولى مرواش كبيرهم على العساكر، وجعل إليه الحل والعقد في دولته والله أعلم.

استيلاء عماد الدين زنكي على حمص وغيرها من أعمال دمشق

ثم سار أتابك زنكي إلى حمص في شعبان سنة إحدى وثلاثين، وقدم إليه حاجبه صلاح الدين الباغيسياني وهو أكبر أمرائه مخاطبا واليها معين الدين أنز في تسليمها فلم بفعل. وحاصرها فامتنعت عليه فرحل عنها آخر شوال من السنة. ثم سار سنة اثنتين وثلاثين إلى نواحي بعلبك فملك حصن المحولي على الأمان، وهو لصاحب دمشق. ثم سار إلى حمص وحاصرها، وعاد ملك الروم إلى حلب فاستدعى الفرنج، وملك كثيراً من الحصون مثل عين زربة وتل حمدون ، وحاصر أنْطاكِية ثم رجع وأفرج أتابك زنكي حلال ذلك عن حمص. ثم عاود منازلتها بعد مسير الروم وبعث إلى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب إليه أمه مرد خاتون ابنة جاولي طمعاً في الاستيلاء على دمشق فزوجها له، ولم يظفر بما أمله من دمشق. وسلموا له حمص وقلعتها، وحملت إليه خاتون في رمضان من السنة والله أعلم.

مقتل شهاب الدين محمود وولاية أخيه محمد:

لما قتل شهاب الدين محمود في شوال سنة ثلاث وثلاثين، إغتاله ثلاث من مواليه

في مضجعه بخلوته وهربوا فنجا واحد منهم وأصيب الآخران، كتب معين الدين أنز إلى أخيه شمس الدين محمد بن بوري صاحب بعلبك بالخير فسارع ودخل دمشق، وتبعه الجند والأعيان وفوض أمر دولته إلى معين الدين أنز مملوك جده وأقطعه بعلبك واستقامت أموره

.

استيلاء زنكي على بعلبك وحصاره دمشق

ولما قتل شهاب الدين محمود وبلغ خبره إلى أمه خاتون زوجة أتابك زنكي بحلب

عظم جزعها عليه، وأرسلت إلى زنكي بالخبر، وكان بالجزيرة، وسألت منه الطلب بثأر ابنها فسار إلى دمشق، واستعدوا للحصار فعدل إلى بعلبك. وكانت لمعين الدين أنز كما قلناه، وكان أتابك زنكي دس إليه الأموال ليمكنه من دمشق فلم يفعل فسار إلى بلده بعلبك، وجد في حربها ونصب عليها المجانيق حتى استأمنوا إليه، وملكها في ذي الحجة آخر سنة ثلاث وثلاثين. واعتصم جماعة من الجند بقلعتها ثم استأمنوا فقتلهم وأرهب الناس بهم. ثم سار إلى دمشق وبعث إلى صاحبها في تسليمها والتروك عنها على أن يعوضه عنها فلم يجب إلى ذلك، فزحف إليها ونزل داريا منتصف ربيع الأول سنة أربع وثلاثين. وبرزت إليه عساكر دمشق فظفر بهم وهزمهم ونزل المصلى، وقاتلهم فهزمهم ثانيا. ثم أمسك عن قتالهم عشرة أيام، وتابع الرسل إليه بأن يعوضه عن دمشق ببعلبك أو حمص أو ما يختاره فمنعه أصحابه، فعاد زنكي إلى القتال واشتد في الحصار والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

وفاة جمال الدين بن بوري وولاية ابنه مجير الدين أنز:

ثم توفي جمال الدين محمد بن بوري صاحب دمشق رابع شعبان سنة أربع وثلاثين وزنكي محاصر بها، وهو معه في مراوضة الصلح وجمع زنكي فيما عساه أن يقع بين الأمراء من الخلاف فاشتد في الزحف فما وهنوا لذلك، وولوا من بعد جمال الدين محمداً ابنه مجير الدين أنز وأقام بتربيته وتدبير دولته معين الدين أنز مدبر

دولته.وأرسل إلى الإفرنج يستنجدهم على مدافعة زنكي على أن يحاصر قاشاش فإذا فتحها أعطاهم إياها فأجابوا إلى ذلك حذراً من استطالة زنكي بملك دمشق، فسار زنكي للقائهم قبل إتصالهم بعسكر دمشق ونزل حوران في رمضان من السنة فخام الإفرنج عن لقائه، وأقاموا ببلادهم فعاد زنكي إلى حصار دمشق في شوال من السنة، ثم أحرق قرى المرج والغوطة ، ورحل عائدا إلى بلده. ثم وصل الإفرنج إلى دمشق بعد رحيله فسار معهم معين الدين أنز إلى قاشاش من ولاية زنكي ليفتحها ويعطيها للافرنج كما عاهدهم عليه، وقد كان واليها أغار على مدينة صور، ولقيه في طريقه صاحب

أنْطاكِية وهو قاصد إلى دمشق لإنجاد صاحبها على زنكي فقتل الوالي ومن معه من العسكر، ولجأ الباقون.إلى قاشاش، وجاء معين الدين أنز أثر ذلك في العساكر فملكها وسلمها للافرنج. وبلغ الخبر إلى أتابك زنكي فسار إلى دمشق بعد أن فرق سراياه وبعوثه على حوران وأعمال دمشق، وسار هو متجردا إليها فصبحها وخرج العسكر لقتاله فقاتلهم عامة يومه. ثم تأخر ا إلى مرج راهط وانتظر بعوثه حتى وصلوا إليه، وقد امتلأت أيديهم بالغنائم، ورحل عائدا إلى بلده.

مسير الإفرنج لحصار دمشق

كان الإفرنج منذ ملكوا سواحل الشام ومدنه، تسير إليهم أمم الإفرنج من كل ناحية من بلادهم مددا لهم على المسلمين لما يرونه من تفرد هؤلاء بالشام بين عدوهم. وسار في سنة ثلاث وأربعين ملك الالمان من أمراء الإفرنج من بلاده في جموع عظيمة قاصدا بلاد الإسلام لا يشك في الغلب والإستيلاء، لكثرة عساكره وتوفر عدده وأمواله. فلما وصل الشام اجتمع عليه عساكر الإفرنج الذين له ممتثلين أمره فأمرهم بالمسير معه إلى دمشق، فساروا لذلك سنة ثلاث وأربعين وحاصروها، فقام معين الدين أنز في مدافعتهم المقام المحمود. ثم قاتلهم الإفرنج سادس ربيع الأول من السنة فنالوا من المسلمين بعد الشدة والمصابرة، واستشهد ذلك اليوم الفقيه حجة الدين يوسف العندلاوي المغربي، وكان عالماً زاهداً. وسأله معين الدين يومئذ في الرجوع لضعفه وسنه فقال له: " قد بعت واشترى مني فلا أقيل ولا أستقيل " يشير إلى آية الجهاد وتقدم حتى استشهد عند أسرت على نصف فرسخ من دمشق.

واستشهد معه خلق، وقوي الإفرنج، ونزل ملك الألمان الميدان الأخضر. وكان عماد الدين زنكي صاحب الموصل قد توفي سنة إحدى وأربعين، وولي ابنه سيف الدين غازي الموصل وابنه نور الدين محمود حلب فبعث معين الدين أنز إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده، فجاء لإنجاده ومعه أخوه نور الدين، وانتهوا إلى مدينة حمص. وبعث إلى الإفرنج يتهددهم فاضطروا إلى قتاله، وانقسمت مؤنتهم بين الفريقين، وأرسل معين الدين إلى الألمان يتهددهم بتسليم البلد إلى ملك المشرق يعني صاحب الموصل، وأرسل إلى فرنج الشام يحذرهم من إستيلاء ملك الألمان على دمشق فإنه لا يبقى لكم معه مقام في الشام. ووعدهم بحصن قاشاش فاجتمعوا إلى ملك الألمان وخوفوه من صاحب الموصل أن يملك دمشق فرحل عن البلد، وأعطاهم معين الدين قلعة قاشاش، وعاد ملك الألمان إلى بلاده على البحر المحيط في

أقصى الشمال والمغرب. ثم توفي معين الدين أنز مدبر دولة أرتق، والمتغلب عليه سنة أربع وأربعين لسنة من حصار ملك الألمان والله أعلم.

استيلاء نور الدين محمود العادل على دمشق وإنقراض بني تتش من الشام

كان سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل قد توفي سنة أربع وأربعين، وملك أخوه قطب الدين، وانفرد أخوه الآخر نور الدين محمي بحلب وما يليها. وتجرد لطلب دمشق ولجهاد الإفرنج. واتفق أن الإفرنج سنة ثمان وأربعين ملكوا عسقلان من يد خلفاء العلوية لضعفهم كما مر في أخبار دولتهم. ولم يجد نور الدين سبيلاً إلى إرتجاعها منهم لاعتراض دمشق بينه وبينهم. ثم طمعوا في ملك دمشق بعد عسقلان. وكان أهل دمشق يؤدون إليهم الضريبة فيدخلون لقبضها ويتحكمون فيهم، ويطلقون من أسرى الإفرنج الذين بها كل من أراد الرجوع إلى أهله فخشي نور الدين عليها من الإفرنج، ورأى أنه إن قصدها استنصر صاحبها عليه بالإفرنج، فراسل صاحبها مجير الدين واستماله بالهدايا حتى وثق به، فكان يقريه بأمرائه الذين يجد بهم القوة على المدافعة واحداً واحداً، ويقول له: أن فلاناً كاتبني بتسليم دمشق فيقتله مجير الدين حتى كان آخرهم عطاء بن حافظ السلمي الخادم، وكان شديداً في مدافعة نور الدين فأرسل إلى مجير الدين بمثلها فيه فقبض عليه

وقتله. فسار حينئذ نور الدين إلى دمشق بعد أن كاتب الأحداث الذين بها واستمالهم فوعدوه، وأرسل مجير الدين إلى الإفرنج يستنجده من نور الدين على أن يعطيهم بعلبك فأجابوه وشرعوا في الحشد وسبقهم نور الدين إلى دمشق فثار الأحداث الذين كاتبهم وفتحوا له الباب الشرقي فدخل منه وملكها. واعتصم مجير الدين بالقلعة فراسله في النزول عنها، وعوضه مدينة حمص فسار إليها، ثم عوضه عن حمص بالس فلم يرضها. وسار إلى بغداد واختط ا بها داراً قرب النظامية وتوفي بها. واستولى نور الدين على دمشق وأعمالها، واستضافها إلى ملكه حتى حلب. وانقرض ملك بني تتش من الشام والبلاد الفارسية أجمع والبقاء لله وحده، والله مالك الملك لا رب غيره سبحانه وتعالى

.

خريطة

الخبر عن دولة قطلمش وبنيه ملوك قونية وبلاد الروم من السلجوقية ومبادىء أمورهم وتصاريف أحوا لهم

كان قطلمش هذا من عظماء أهل هذا البيت ونسبه فيهم مختلف، فقيل قطلمش بن بيقو، وابن الأثير تارة يقول قطلمش ابن عم طغرلبك، وتارة يقول قطلمش بن اسرائيل من سلجوق، ولعله بيان ذلك الاجمال. ولما انتشر السلجوقية في البلاد طالبيين للملك، دخل قطلمش هذا إلى بلاد الروم وملك قونية وأقصرا ونواحيهما، وبعثه السلطان طغرلبك بالعساكر مع قريش بن

بدران صاحب الموصل، في طلب دبيس بن مزيد عنده أظهر الدولة العلوية في الحلة وأعمالها، فهزمهم دبيس والبساسيري كمما تقدم في أخبارهم. ثم عصى على السلطان ألب ارسلان بعد طغرلبك وقصد الري ليملكه، وقاتل ألب ارسلان سنة ست وخمسين فانهزم عسكرقطلمش، ووجد بين القتلى فتجمع ألب ارسلان وقعد للعزاء فيه كما تقدم في أخبارهم. وقام بأمره ابنه سليمان وملك قونية وأقصرا وغيرهما من الولاية التي كانت بيد أبيه، وافتتح أنْطاكِية من يد الروم سنة سبعوسبعين وأربعمائة، وقد كانوا ملكوها منذ خمس وخمسين وأربعمائة فأخذها منهم وأضافها إلى ملكه.وقد تقدم خبر ملكه إياها في دولتهم، وكان لمسلم بن قريش صاحب الموصل ضريبة على الروم بأنْطاكِية، فطالب بها سليمان بن قطلمش فامتعض لذلك وأنف منه. فجمع مسلم العرب والتركمان لحصار أنْطاكِية، ومعه جق أمير التركمان، والتقيا سنة ثمان وسبعين. وانحاز جق إلى سليمان فانهزم العرب، وسار سليمان بن قطلمش لحصار حلب فامتنعت عليه، وسألوه الإمهال حتى يكاتب السلطان ملك شاه. ودسوا إلى تاج الدولة تتش صاحب دمشق يستدعونه فأغذ السير، واعترضه سليمان بن قطلمش على غير تعبئة فانهزم، وطعن نفسه بخنجر فمات، وغنم تتش معسكره.وملك بعده ابنه قليج ارسلان ، وأقام في سلطانه. ولما زحف الإفرنج إلى سواحل الشام سنة تسعين وأربعمائة جعلوا طريقهم على القسطنطينية فمنعهم من ذلك ملك الروم، حتى شرط عليهم أن يعطوه أنْطاكِية إذا ملكوها فأجابوا

لذلك، وعبروا خليج القسطنطينية ومروا ببلاد قليج ارسلان بن سليمان بن قطلمش فلقيهم في جموعه قريباً من قونية فهزموه، وانتهوا إلى بلاد ابن ليون الأرمني فمروا منها إلى أنْطاكِية، وبها باغيسيان من أمراء السلجوقية فاستعد للحصار، وأمر بحفر الخندق فعمل فيه المسلمون يوماً، ثم عمل فيه النصارى الذين كانوا بالبلد من الغد. فلما جاؤا للدخول منعهم وقال: أنا لكم في مخلفكم حتى ينصرف هؤلاء الإفرنج. وزحفوا إليه فحاصروه تسعة أشهر.ثم عدا بعض الحامية من سور البلد عليهم فادخلوهم من بعض مسارب الوادي، وأصبحوا في البلد فاستباحوه، وركب باغيسيان للصلح فهرب، ولقيه حطاب من الأرمن فجاء برأسه إلى الإفرنج، وولى عليها بمشد من زعماء الإفرنج. وكان صاحب حلب وصاحب دمشق قد عزما على النفير إلى أنْطاكِية لمدافعتهم فكاتبهم الإفرنج بالمسالمة، وأنهم لا يعرضون لغير أنْطاكِية فأوهن ذلك من عزائمهم، وأقصروا عن إنجاد باغيسيان. وكان التركمان قد انتشروا في نواحي العراق، وكان كمستكين بن طبلق المعروف أبوه بالوانشمند، ومعناه المعلم عندهم، قد ملك سيواس من بلاد الروم مما يلي أنْطاكِية.وكان بملطية مما يجاورها متغلب آخر من التركمان، وبينه وبين الوانشمند حروب،
فاستنجد صاحب ملطية عليه الإفرنج، وجاء بيضل من أنْطاكِية سنة ثلاث وتسعين في خمسة آلاف فلقيه ابن الوانشمند وهزمه وأخذه أسيراً. وجاء الإفرنج لتخليصه فنازلوا قلعة أنكورية وهي أنقرة فأخذوها عنوة. ثم ساروا إلى أخرى فيها إسمعيل بن الوانشمند وحاصروها فجمع ابن الوانشمند وقاتلهم، وأكمن لهم وكانوا في عدد كثير. فلما قاتلهم استطرد لهم حتى خرج عليهم الكمين، وكر عليهم فلم يفلت منهم أحد. وسار إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها، وجاءه الإفرنج من أنْطاكِية فهزمهم.

استيلاء قليج ارسلان على الموصل

كانت الموصل وديار بكر والجزيرة بيد جكرمس من قواد السلجوقية فمنع الحمل
وهم بالإنتقاض، فأقطع السلطان الموصل وما معها لجاولي بن سكاوو، والكل من قوادهم، وأمرهم بالمسير لقتال الإفرنج. فسار جاولي وبلغ الخبر لجكرمش فسار من الموصل إلى اربل، وتعاقد مع أبي الهيجاء بن موشك الكردي الهدباي صاحب اربل، وانتهى إلى البواريج فعبر إليه جكرمس دجلة، وقاتله فانهزمت عساكر جكرمس، وبقي جكرمس واقفاً لفالج كان به فأسره جاولي، ولحق الفل بالموصل فنصبوا مكانه ابنه زنكي صبياً صغيراً وأقام بأمره غزغلي مولى أبيه، وكانت القلعة بيده، وفرق الأموال والخيول . واستعد لمدافعة جاولي، وكاتب صدقة بن مزيد والبرسقي شحنة بغداد، وقليج ارسلان صاحب بلاد الروم يستنجدهم، ويعد كلأ منهم بملك الموصل إذا دافعوا عنه جاولي فأعرض صدقة عنه و لم يحتفل بذلك. ثم سار جاولي إلى الموصل وحاصرها وعرض جكرمس للقتل أو يسلموا إليه البلد فامتنعوا، وأصبح جكرمس في بعض أيام حصارها وسمع جاولي بأن قليج ارسلان سار في عساكره إلى نصيبين فأفرج عن الموصل، وسار إلى سنجار وسبق البرسقي إليها بعد رحيل جاولي، وأرسل إلى أهلها فلم يجيبوه بشيء. وعاد إلى بغداد، واستدعى رضوان صاحب دمشق جاولي سكاوو لمدافعة الإفرنج عنه، فساروا إليه. وخرج من الموصل عسكر جكرمس

إلى قليج ارسلان بنصيبين فتحالفوا معه، وجاؤا به إلى الموصل فملكها آخر رجب من سنة خمسمائة.وخرج إليه ابن جكرمس وأصحابه وملك القلعة من غزغلي وجلس على التخت وخطب لنفسه بعد الخليفة، وأحسن إلى العسكر، وسار في الناس بالعدل. وكان في جملته إبراهيم بن نيال التركماني صاحب آمد ، ومحمد بن جق التركماني صاحب حصن زياد، وهو خرت برت. وكان إبراهيم بن نيال قد ولى تتش على آمد حين ولي ديار بكر، وكانت بيده. وأما خرت برت فكانت بيد القلادروس ترجمان الروم، والرها وأنْطاكِية من أعماله، فملك سليمان بن قطلمش أنْطاكِية. وملك فخر الدولة بن جهير ديار بكر فض حف الفلادروس ، وملك جق خرت برت من يده. وأسلم القلادروس على يد السلطان ملك شاه وأمره على الرها فأقام بها حتى مات. وملكها جق ، هي وما جاورها من الحصون، أورثها ابنه محمدا بعد موته، والله تعالى ولي التوفيق.

الحرب بين قليج ارسلان وبين الإفرنج:

كان سمند صاحب أنْطاكِية من الإفرنج قد وقعت بينه وبين ملك الروم بالقسطنطينية وحشة واستحكمت. وسار سمند فنهب بلاد الروم وعزم على قصد أنْطاكِية، فاستنجد ملك الروم بقليج ارسلان فأمده بعساكره. وسار مع ذلك الروم فهزموا الإفرنج وأسروهم، ورجع الفل إلى بلادهم بالشام فاعتزموا على قصد قليج ارسلان بالجزيرة فأتاهم خبر مقتله فأقصروا ، والله تعالى ولي التوفيق.

مقتل قليج ارسلان وولاية ابنه مسعود:

وقد تقدم لنا استيلاء قليج ارسلان على الموصل وديار بكر وأعمالها، وجلوسه على التخت، وإن جاولي سكاوو سار إلى سنجار ثم سار منها إلى الرحبة. وكان قليج ارسلان خب له بها صاحبها محمد بن السباق من بني شيبان بعد مهلك دقاق، وانتقاضه على أبيه. فلما حاصرها جاولي بعث إليه رضوان بن تتش صاحب حلب في النجدة على الإفرنج لما ساروا إلى بلاده، فوعده لإنقضاء الحصار. وجاء رضوان فحضر عنده واشتد الحصار على أهل الرحبة وغدر بعضهم فأدخل أصحاب جاولي ليلا ونهبوها إلى الظهر. وخرج إليه صاحبها محمد الشيباني فأطاعه ورجع عنه.وبلغ الخبر إلى قليج ارسلان فسار من الموصل لحرب جاولي، واستخلف عليها ابنه ملك شاه صبياً صغيراً مع أمير يدبره. فلما إنتهى إلى الخابور هرب عنه إبراهيم بن نيال صاحب آمد ولحق ببلده. واعتزم قليج ارسلان على المطاولة، واستدعى عسكره الذين أنجدهم ملك الروم على الإفرنج فجاؤا إليه، واغتنم جاولي قلة عسكره فلقيه آخر القعدة من السنة، واشتدت الحرب. وحمل قليج ارسلان على جاولي بنفسه. وصرع صاحب الراية وضرب جاولي بسيفه. ثم حمل أصحاب جاولي عليه فهزموه، وألقى نفسه في الخابور فغرق.

وسار جاولي إلى الموصل فملكها، وأعاد خطبة السلطان محمد. وبعث إليه ملك شاه بن قليج ارسلان وولى مكان قليج ارسلان في قونية وأقصرا وسائر بلاد الروم ابنه مسعود، واستقام له ملكها.

استيلاء مسعود بن قليج ارسلان على ملطية وأعمالها:

كانت ملطية وأعمالها وسيواس لابن الوانشمند من التركمان كما مر وكانت بينه وبينهم حروب وهلك كمستكين بن الوانشمند وولي مكانه ابنه محمد. واتصلت حروبه مع الإفرنج كما كان أبوه معهم. ثم هلك سنة سبع وثلاثين فاستولى مسعود بن قليج ارسلان على الكثير منها وبقي الباقي بيد أخيه باغي ارسلان بن محمد.

وفاة مسعود بن قليج وولاية ابنه قليج أ رسلان:

ثم توفي مسعود بن قليج ارسلان سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وملك مكانه ابنه

قليج ارسلان فكانت بينه وبين باغي ارسلان بن الوانشمند وصاحب ملطية وما جاورها من ملك الروم حروب، بسبب أن قليج ارسلان تزوج بنت الملك طليق بن علي بن أبي القاسم فزوجها إليه بجهاز عظيم، وأغار عليه باغي ارسلان صاحب ملطية فأخذها بما معها وزوجها بابن أخيه ذي النون بن محمد بين الوانشمند أن أشار عليها بالردة لينفسخ النكاح. ثم عادت إلى الإسلام وزوجها بابن أخيه فجمع قليج ارسلان عساكره، وسار إلى باغي ارسلان بن الوانشمند فهزمه باغي ارسلان ، واستنجد ملك الروم فأمده بعسكر. وسار باغي ارسلان خلال ذلك.وولي إبراهيم ابن أخيه محمد، وملك قليج ارسلان بعض بلاده واستولى أخوه ذوالنون بن محمد بن الوانشمند على قيسارية. وانفرد شاه بن مسعود أخو قليج ارسلان بمدينة انكورية، وهي انقرة، واستقرت الحال على ذلك. ثم وقعت الفتنة بين قليج ارسلان وبين نور الدين محمود بن زنكي، وتراجعوا للحرب. وكتب الصالح بن رزبك المتغلب على العلوي بمصر إلى قليج ارسلان ينهاه عن ذلك. ثم هلك إبراهيم بن محمد بن الوانشمند وملك مكانه أخوه ذو النون، وانتقض قليج ارسلان عليه، وملك ملطية من يده، والله تعالى أعلم.

مسير نور الدين العادل إلى بلاد قليج ارسلان :

ثم سار نور الدين محمود بن زنكي سنة ثمان وستين إلى ولاية قليج ارسلان بن مسعود

ببلاد الروم، وهي ملطية وسيواس وأقصرا، فجاءه قليج ارسلان متنصلا معتذراً فأكرمه وثنى عزمه عن قصد بلاده. ثم أرسل إليه شفيعاً في ذي النون بن الوانشمند يرد عليه بلاده فلم يشفعه، فسار إليه. وملك مرعش وبهسنا وما بينهما في ذي القعدة من السنة. وبعث عسكراً إلى سيواس فملكوها فمال قليج ارسلان إلى الصلح. وبعث إلى نور الدين يستعطفه، وقد بلغه عن الفرنج ما أزعجه فأجابه على أن يمده بالعساكر للغزو، وعلى أن يبقي سيواس، بيد نواب نور الدين، وهي لذي النون بن الوانشمند. ثم جاءه كتاب الخليفة بإقطاع البلاد، ومن جملتها بلاد قليج ارسلان وخلاط وديار بكر. ولما مات نور الدين عادت سيواس لقليج ارسلان ، وطرد عنها نواب ذي النون.

مسير صلاح الدين لحرب قليج ارسلان :

كان قليج ارسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم، قد زوج بنته من نور الدين محمود بن قليج ارسلان بن داود بن سقمان صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر، وأعطاه عدة حصون فلم يحسن عشرتها وتزوج

عليها، وهجر مضجعها، وامتعض أبوها قليج ارسلان لذلك. واعتزم على غزو نور الدين في ديار بكر وأخذ بلاده فاستجار نور الدين بصلاح الدين بن أيوب، واستشفع به فلم يشفعه. وتعلل بطلب البلاد التي أعطاه عند المصاهرة فامتعض صلاح الدين لذلك. وكان يحارب الإفرنج بالشام فصالحهم، وسار في عساكره إلى بلاد الروم. وكان الصالح إسمعيل بن نور الدين محمود بالشام فعدل عنه ومر على تل ناشر إلى زغبان، ولقي بها نور الدين محمد صاحب كيفا. وبعث إليه قليج ارسلان رسولا يقرر غدره بابنته فاغتاظ على الرسول، وتوعده بأخذ بلادهم فتلطف له الرسول. وخلص معه نجياً فقبح له ما إرتكبه من أجل هذه المرأة من ترك الغزو، ومصالحة العدو، وجمع العساكر وخساره ، وأن بنت قليج ارسلان لو بعثت إليه بعد وفاة أبيها تسأل منه النصفة بينها وبين زوجها لكان أحق ما تقصده فامتنعت. وعلم أن على نفسه الحق فأمر الرسول أن يصلح بينهم، ويكون هو عوناً له على ذلك فداخلهم ذلك الرسول في الصلح على أن يطلق هذه المرأة بعد سنة، ويعقد بينهم ذلك. ورجع كل إلى بلده، ووفى نور الدين بما عقد على نفسه، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قسمة قليج ارسلان أعماله بين ولده وتغلبهم عليه:

ثم قسم قليج ارسلان سنة سبع وثمانين أعماله بين ولده: فأعطى قونية بأعمالها لغياث الدين كسنجر وأقصرا وسيواس لقطب الدين، ودوقاط لركن الدين سليمان وأنقرة وهي أنكورية لمحيي الدين وملطية لعز الدين قيصر شاه ولغيث الدين وقيسارية لنور الدين محمود، وأعطى تكسار وأماساً لابني أخيه. وتغلب عليه ابنه قطب الدين وحمله على انتزاع ملطية من يد قيصر شاه فانتزعها، ولحق قيصر شاه بصلاح الدين بن أيوب مستشفعاً به فأكرمه، وزوجه ابنة أخيه العادل. وشفع له عند أبيه وأخيه فشفعوه وردوا عليه ملطية. ثم زاد تغلب ركن الدين وحجر عليه وقتل دائبة في مدينته وهو إختيار الدين حسن فخرج سائر بنيه عن طاعته، وأخذ قطب الدين أباه، وسار به إلى قيسارية ليملكها من أخيه فهرب قليج ارسلان ودخل قيسارية. وعاد قطب الدين إلى قونية وأقصرا فملكهما وبقي قليج ارسلان ينتقل بين ولده من واحد إلى آخر، وهم معرضون عنه حتى استنجد بغياث الدين كسنجر صاحب منهم فأنجده، وسار معه إلى قونية فملكها. ثم سار إلى أقصرا وحاصرها، ثم مرض قليج ارسلان ، وعاد إلى قونية فتوفي فيها. وقيل إنما إختلف ولده عليه لأنه ندم على قسمة أعماله بينهم، وأراد إيثار ابنه قطب الدين بجميعها وانتقضوا عليه لذلك وخرجوا عن طاعته، وبقي يتردد بينهم وقصد كسنجر وصاحب قونية فأطاعه، وخرج معه بالعساكر لحصار محمود أخيه في قيسارية، وتوفي قليج ارسلان وهو محاصر لقيسارية ورجع غياث الدين إلى قونية.

وفاة قليج ارسلان وولاية ابنه غياث الدين:

ثم توفي قليج ارسلان بمدينة قونية أو على قيسارية كما مر من الخلاف منتصف

ثمان وثمانين لسبع وعشرين سنة من ملكه، وكان مهيباً عادلاً حسن السياسة كثير الجهاد. ولما توفي واستقل ابنه غياث الد ين كسنجر بقونية وما إليها. وكان قطب الدين أخوه صاحب أقصرا وسيواس. وكان كلما سار من إحداهما إلى الأخرى يجعل طريقه على قيسارية، وبها أخوه نور الدين محمود
يتلقاه بظاهرها حتى استنام إليه مدة فغدر به وقتله، وامتنع أصحابه بقيسارية. وكان كبيرهم حسن فقتله مع أخيه، ثم أطاعوه وأمكنوه من البلد، ومات قطب الدين أثر ذلك.

استيلاء ركن الدين سليمان على قونية وأكثر بلاد الروم وفرار غياث الدين:

ولما توفي قليج ارسلان ، وولي بعده في قونية ابنه غياث الدين كسنجر، وبنوه
يومئذ على حالتهم في ولايتهم التي قسمها بينهم أبوهم. وملك قطب الدين منهم قيسارية بعد أن كدر بأخيه محمود صاحبها. ومات قطب الدين أثر ذلك فسار ركن الدين سليمان صاحب دوقاط إلى التغلب على أعمال سلفه ببلاد الروم، فسار إلى سيواس وأقصرا وقيسارية أعمال قطب الدين فملكها. ثم سار إلى قونية فحاصر بها غياث الدين وملكها، ولحق غياث الدين بالشام كما يأتي خبره. ثم سار إلى نكسار وأماساً فملكهما وسار إلى ملطية سنة سبع وتسعين فملكها من يد معز الدين قيصر شاه، ولحق معز الدين بالعادل أبي بكر بن أيوب. ثم سار إلى أرزن الروم وكانت لولد الملك محمد بن حليق من بيت ملك قديم، وخرج إليه صاحبها ليقرر معه صلحاً فقبض عليه، وملك البلد فاجتمع لركن الدين سائر أعمال أخوته ما عدا أنقرة لحصانتها فجمر عليها الكتائب، وحاصرها ثلاثاً. ثم دس من قتل أخاه، وملك البلد سنة إحدى وستمائة، وتوفي هو عقب ذلك والله تعالى أعلم.

و فاة ركن الدين وولاية ابنه قليج ارسلان :

ثم توفي ركن الدين سليمان بن قليج ارسلان أوائل ذي القعدة من تمام سنة إحدى وستمائة، وولي بعده ابنه قليج ارسلان فلم تطل مدته. وكان ركن الدين ملكاً حازماً شديداً على الأعداء، إلا أنه ينسب إلى التزين بالفلسفة، والله تعالى أعلم.

استيلاء غياث الدين كسنجر على بلاد الروم من أخيه ركن الدين:

كان غياث الدين كسنجر بن قليج ارسلان ، لما ملك أخوه ركن الدين قونية من يده
لحق بحلب، وفيها الظاهر غازي بن صلاح الدين فلم يجد عنده قبولا، فسار إلى القسطنطينية وأكرمه
ملك الروم، وأصهر إليه بعض البطارقة في إبنته. وكانت له قرية حصينة في أعمال قسطنطينية فلما استولى الإفرنج على القسطنطينية سنة ستمائة لحق غياث الدين بقلعة صهره البطريق. وبلغ إليه خبر أخيه تلك السنة، وبعث إليه بعض الأمراء من قونية يستدعيه للملك فسار إليه، واجتمعوا على حصار قونية. وخرجت إليهم العساكر منها فهزموه ولحق ببعض البلاد فتحصن بها. ثم قام أهل أقصرا بدعوته وطردوا واليهم، وبلغ الخبر إلى أهل قونية فثاروا بقليج ارسلان بن ركن الدين، وقبضوا عليه واستدعوا غياث الدين فملكوه وأمكنوه من ابن أخيه. وكان أخوه قيصر شاه قد لحق بصهره العادل أبي بكر بن أيوب فاستنصر به على أخيه ركن الدين

عندما ملك ملطية من يده، فأمر له بالرها. واستفحل ملك غياث الدين، وقصده علي بن يوسف صاحب شميشاط، ونظام الدين بن ارسلان صاحب خرت برت وغيرهما. وعظم شأنه إلى أن قتله أشكر صاحب قسطنطينية سنة سبع وستمائة، والله تعالى ولي التوفيق.

مقتل غياث الدين كسنجر وولاية ابنه كيكاوس:

ولما قتل غياث الدين كسنجر وولي بعده ابنه كيكاوس ، ولقبوه الغالب بالله. وكان عمه طغرل شاه بن قليج ارسلان صاحب أرزن الروم طلب الأمر لنفسه وسار إلى قتال كيكاوس ابن أخيه وحاصره في سيواس وقصد أخوه كيغباد بن كسنجر بلد أنكورية من أعماله فاستولى عليها وبعث كيكاوس صريخه إلى الملك العادل صاحب دمشق فانفذ إليه العساكر وأفرج طغرك عن سيواس قبل وصولهم فسار كيكاوس إلى أنكورية وملكها من يد أخيه كيغباد وحبسه، وقتل أمراءه وسار إلى عمه طغرل في أرزن الروم فظفر به سنة عشر، وقتله وملك بلاده.

مسير كيكاوس إلى حلب واستيلاؤه على بعض أعمالها ثم هزيمته وإرتجاع البلد من يده

كان الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب قد توفي، وملك بعده ابنه طفلاً صغيراً، وكان بعض أهل حلب قد لحق بكيكاوس فراراً من الظاهر، وأغراه بملك حلب، وهون عليه أمرها وملك ما بعدها. ولما مات الظاهر قوي عزمه وطمعه في ذلل و، واستدعى الأفضل بن صلاح الدين من شميشاط للمسير معه، على أن تكون الخطبة لكيكاوس ، والولاية للأفضل في جميع ما يفتحونه من حلب وأعمالها. فإذا فتحوا بلاد الجزيرة مثل حران والرها من يد الأشرف تكون ولايتها لكيكاوس، وتعاقدوا على ذلك. وساروا سنة خمسة عشرة فملكوا قلعة

زغبان، وتسلمها الأفضل على الشرط ثم ملكوا قلعة تل ناشر فاستأثر بها كيكاوس، وارتاب الأفضل. ثم بعث ابن الظاهر صاحب حلب إلى الأشرف بن العادل صاحب الجزيرة وخلاط يستنجده على أن يخطب له بحلب، وينقش إسمه على السكة فسار لإنجاده، ومعه أحياء طيء من العرب فنزل بظاهر حلب. وسار كيكاوس والأفضل إلى منبج، ولقيت طليعتهم طليعة الظاهر فاقتتلوا. وعاد عسكر كيكاوس منهزمين إليه فأجفل وسار الأشرف إلى زغبان وتل ناشر وبهما أصحاب كيكاوس فغلبهم عليهما. وأطلقهم إلى صاحبهم فأحرقهم بالنار وسلم الأشرف الحصنين إلى شهاب الدين بن الظاهر صاحب حلب، وبلغه الخبر بوفاة أبيه الملك العادل بمصر فرجع عن قصد بلاد الروم.

وفاة كيكاوس وملك أخيه كيغباد:

كان كيكاوس بعد الواقعة بينه وبين الأشرف قد اعتزم على قصد بلاد الأشرف بالجزيرة، واتفق مع صاحب آمد وصاحب اربل على ذلك، وكانا يخطبان له. ثم سار إلى ملطية يشغل الأشرف عن الموصل، حتى ينال منها صاحب اربل. ومرض في طريقه فعاد. ومات سنة ست عشرة وخلف بنيه صغاراً. وكان أخوه كيغباد محبوساً

منذ أخذه من أنكورية فأخرجه الجند من محبسه وملكوه وقيل بل أخرجه هو من محبسه وعهد إليه. ولما ملك خالف عليه عمه صاحب أرزن الروم فوصل يده بالأشرف، وعقد معه صلحاً.

الفتنة بين كيغباد وصاحب آمد من بني أرتق وفتح عدة من حصونه

كانت الفتنة قد حدثت ين الأشرف صاحب الجزيرة والمعظم صاحب دمشق،

وجاء جلال الدين خوارزم من الهند سنة ثلاث وعشرين بعد هروبه أمام التتر فملك أذربيجان واعتضد به المعظم صاحب دمشق على الأشرف، وظاهرهما الملك مسعود صاحب آمد من بني أرتق فأرسل الأشرف إلى كيغباد ملك الروم يستنجده على صاحب أمد، والأشرف يومئذ محاصر لماردين فسار كيغباد وأقام على ملطية، وجهز العساكر من هناك إلى آمد ففتح حصوناً عدة. وعاد صاحب آمد إلى موافقة الأشرف فكتب إلى كيغباد أن يرد عليه ما أخذه فامتنع، فبعث عساكره إلى صاحب آمد مدداً على كيغباد. وكان محاصراً القلعة الكحنا فلقيهم وهزمهم، وأثخن فيهم، وعاد ففتح القلعة والله أعلم.

استيلاء كيغباد على مدينة أرزنكان:

كمان صاحب أرزنكان هذه بهرام شاه من بني الأحدب بيت قديم في الملك،وملكها ستين سنة، و لم يزل في طاعة قليج ارسلان وولده. وتوفي فملك بعده ابنه علاء الدين داود شاه، وأرسل عنه كيغباد سنة خمس وعشرين ليعسكر معه فسار إليه وقبض عليه، وملك مدينة أرزنكان. وكان من حصونه كماح، فامتنع نائبه فيه، وتهدد داود شاه فبعث إلى نائبه فسلم له الحسن. ثم قصد أرزن الروم، وبها ابن عمر طغرل شاه بن قليج ارسلان فبعث بن طغرك شاه بطاعته للأشراف، واستنجد نائبه بخلاط حسام الدين علي فسار إليه فخام كيغباد عن لقائه، وعاد من أرزنكان إلى بلاده فوجد العدو من الإفرنج قد ملك قلعة منها تسمى صنوباً مطلة على بحر الخزر فحاصرها براً وبحراً، وارتجعها المسلمون والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

فتنة كيغباد مع جلال الدين:

كان صاحب أرزن الروم وهو ابن عم كيغباد صار إلى طاعة جلال الدين خوارزم شاه، وحاصر معه خلاط، وفيها أيبك مولى الأشرف فملكها جلال الدين، وقتل ايبك كما يأتي في أخباره. فخافهما كيغباد صاحب الروم فاستنجد الملك الكامل، وهو بحران فأمده بأخيه الأشرف من دمشق فجمع عساكر الجزيرة والشام، وسار إلى كيغباد فلقيه بسيواس واجتمعوا في خمسة وعشرين ألفاً. وساروا من سيواس إلى خلاط فلقيهم جلال الدين في نواحي أرزنكان فهاله منظرهم، ومضى منهزماً إلى خلاط. ثم سار منها إلى أذربيجان فتزلوا عند خوي. وسار الأشرف إلى خلاط فوجد جلال الدين قد خربها فعادوا إلى بلادهم، وترددت الرسل في الصلح فاصطلحوا.

مسير بني أيوب إلى كيغباد وهزيمتهم

كان علاء الدين كيغباد قد استفحل ملكه ببلاد الروم، ومد يده إلى ما يجاوره من البلاد فملك خلاط، بعد أن دافع عنها مع الأشرف بن العادل جلال الدين خوارزم شاه فنازعه الأشرف في ذلك، واستصرخ بأخيه

الكامل فسار في العساكر من مصر سنة إحدى وثلاثين. وسار معه الملوك من أهل بيته، وإنتهى إلى النهر الأزرق من تخوم الروم. وبعث في مقدمته المظفر صاحب حماة من أهل بيته فلقيه كيغباد وهزمه، وحصره في خرت برت وكانت لبني أرتق. ورجع

الكامل بالعساكر إلى مصر سنة إثنتين وثلاثين، وكيغباد في اتباعهم. ثم سار إلى حران والرها فملكهما من يد نواب الكامل وولى عليهما من قبله، وسار الكامل سنة ثلاث وثلاثين فارتجعهما.

وفاة كيغباد وملكه ابنه كنجسرو:

ثم توفي علاء الدين كيغباد سنة أربع وثلاثين وستمائة، وملك بعده ابنه غياث الدين كنجسرو، وقارن ذلك إنقراض الدولة السلجوقية من ممالك الإسلام وإختلال دولة بني خوارزم شاه وخرج التتر من مفازة الترك وراء النهر، واستيلاء جنكزخان سلطانهم على الممالك وانتزاعها من يد بني خوارزم شاه. وفر جلال الدين آخرهم إلى الهند، ثم رجع واستولى على أذربيجان وعراق العجم. وكان بنو أيوب يومئذ بممالك الشام وأرمينية كما نذكر ذلك كله في أماكنه إن شاء الله تعالى. وانتشر التتر في سائر النواحي وعاثوا فيها وتغلبوا عليها.

واستفحل ملكهم فسارت منهم طوائف إلى بلاد الروم سنة إحدى وأربعين، فبعث غياث الدين كنجسرو بالصريخ إلى بني أيوب وغيرهم من الترك في جواره. وجاء المدد من كل جانب فسار للقائهم، ولقيتهم المقدمة على قشمير زنجان فانهزمت المقدمة، ووصلوا إليه فانهزم، ونجا بعياله وذخيرته إلى مدينة على مسيرة شهر من المعترك ونهبوا سواده ومخلفه وانتشروا في نواحي بلاد الروم وعاثوا فيها، وتحصن كباث الدين بهذه المدينة، واستولى التتر على خلاط وآمد. ثم استأمن لهم غياث الدين ودخل في طاعتهم واستقامت أموره معهم إلى أن مات قريباً من رجوعه. وملك التتر قيسارية والله أعلم.

وفاة غياث الدين وولاية ابنه كيغباد:

ثم توفي غياث الدين كنجسرو سنة أربع وخمسين وترك ثلاثاً من الولد، أكبرهم

علاء الدين كيغباد وعز الدين كيكاوس، وركن الدين قليج ارسلان . وولى علاء الدين كيغباد بعهده إليه، وكان يخطب لهم جميعاً وأمرهم واحد. وكان جنكزخان ملك التتر قد هلك، وكان كرسي سلطانهم بقراقروم ، وولي مكانه ابنه طلوخان وجلس على كرسيه وهو الخان الأعظم عندهم وحكمه ماض في ملوك الشمال والعراق من أهل بيته وسائر عشيرته- ثم هلك طلوخان وولي مكانه في كرسيه ابنه منكوخان فبعث أخاه هلاكو لفتح العراق وبلاد الإسماعيلية

سنة خمسين وستمائة، فسار لذلك وملك العراقين وبغداد. ثم جرد الخان الأعظم منكوخان إلى بلاد الروم سنة أربع وخمسين أميراً من أمراء المغل إسمه بيكو في العساكر فسار إلى أرزن الروم وبها سنان الدين ياقوت مولى السلطان علاء الدين فحاصرها شهرين ونصب عليها المجانيق. ثم ملكها عنوة، وأسر ياقوت، واستلحم الجند بأسرهم واستبقى الباعة والصناع. ثم سار إلى بلاد الروم فملك قيسارية ومسيرة شهر معها ورجع. ثم عاد سنة خمس وخمسين وعاث في البلاد واستولى على أكثر من الأولى والله تعالى أعلم.

وفاة كيغباد وملك أخيه كيكاوس:

ولما كثر عيث التتر الذين مع بيكو في مملكة علاء الدين كيغباد، واعتزم على المسير إلى الخان الأعظم منكوخان يؤكد الدخول في طاعته، ويقتضي مراسمه إلى بيكو ومن معه من المغل بالكف عن البلاد، سار من قونية سنة خمس وخمسين ومعه سيف الدين طرنطاي من موالي أبيه. واحتمل معه الأموال والهدايا وسار. ووثب أخوه عز الدين كيكاوس على أخيه الاخر قليج ارسلان فاعتقله بقونية، واستولى على الملك. وكتب في أثر أخيه إلى سيف الدين طرنطاي مع بعض الأكابر من أصحابه أن يمكنوه من الهدايا التي معهم يتوجه بها إلى الخان ويردوا علاء الدين فلم يدركوه حتى دخل بلاد الخان، ونزل على بعض أمرائه فسعى ذلك الرسول في علاء الدين وطرنطاي بأن معهم سما فكبسهم الأمير فوجد شيئاً من المحمودة، فعرض عليهم أكلها فامتنعوا فتخيل تحقيق السعاية فسألوه إحضار الأطباء فأزالوا عنه الشك، وبعث بهم إلى الخان. ومات علاء الدين أثناء طريقة. ولما اجتمعوا عند الخان اتفقوا على ولاية عز الدين كيكاوس وأنه أكبر، وعقدوا له الصلح مع الخان فكتب له وخلع عليهم. ثم كتب بيكو إلى الخان بأن أهل بلاد الروم قاتلوه ومنعوه العبور فأحضر الرسل، وعرفهم الشبر فقالوا إذا بلغناهم كتاب السلطان اذعنوا. فكتب الخان بتشريك الأميرين عز الدين كيكاوس وأخيه ركن الدين قليج ارسلان على أن تكون البلاد قسمة بينهما. فمن سيواس إلى القسطنطينية غرباً لعز الدين، ومن سيواس إلى أرزن الروم شرقاً المتصلة ببلاد التتر ركن الدين، وعلى الطاعة وحمل الأتاوة لمنكوخان ملكهم صاحب الكرسي بقراقروم، ورجعوا إلى بلاد الروم وحملوا معه شاه كيغباد إلى أن دفنوه.

استيلاء التتر على قونية:

ثم سار بيكو في عساكر المغل إلى بلاد الروم ثالثة فبعث عز الدين كيكاوس العساكر للقائه مع ارسلان أيدغمش من أمرائه فهزمه بيكو، وجاء في إتباعه إلى قونية فهرب عز الدين كيكاوس إلى العلايا بساحل البحر فنزل بيكو على قونية، وحاصرها حتى استأمنوا إليه على يد خطيبهم. ولما حضر إليه أكرمه ورفع منزلته، وأسلمت أمرأته على يده، وأمن أهل البلد. ثم سار هلاكو إلى بغداد سنة خمس وستين، وبعث عن بيكو وعساكره من بلاد الروم بالحضور معه فاعتذر بالأكراد الذين في طريقه من الفراسلية والياروقية فبعث إليهم هلاكو العساكر فأجفلوا وانتهت العساكر إلى أذربيجان، وقد أجفل أهلها أمام الاكراد فاستولوا عليها. ورجعوا صحبة بيكو إلى هلاكو فحضر معه فتح بغداد وقد مر خبرها في أخبار الخلفاء. ويأتي في أخبار هلاكو ونيال أن بيكو لما بعث هلاكو لم يحضر معه فتح بغداد، واستمر على غدره فلما انقضى أمر بغداد بعث إليه هلاكو من سقاه السم فمات لأنه اتهمه بالإستبداد. ثم سار هلاكو بعد فتح بغداد إلى الشام سنة ثمان وخمسين وحاصر حلب، وبعث عن عز الدين كيكاوس وركن الدين قليج ارسلان ، وعن معين الدين سليمان البرنواه صاحب دولتهم. وكان من خبره أن أباه مهذب الدين علي كان من الديلم، وطلبط. العلم ونبغ فيه. ثم تعرض للوزير سعد الدين المستوفي أيام علاء الدين كيغباد يسأله أجراء رزقه. وكان وصافا فاستحسنه وزوجه أبنته فولدت سليمان، ونشأ في الدولة. ومات سعد الدين المستوفي فرقى السلطان مهذب الدين إلى الوزارة،

وألقى إليه بالمقاليد. ونوفي مهذب الدين وترقى أبنه سليمان مهذب الدولة وكان يلقب معين الدين وترقى في الرتب إلى أن ولي الحجابة وكان يدعى البرنواه، ومعناه الحاجب بلغتهم. وكان مختصاً بركن الدين فلما حضر معهما عند هلاكو كما قلناه حلا بعينه، وقال لركن الدين لا يأتيني في أموركم إلا هذا فرقت حاله إلى أن ملك بلاد الروم أجمع.

الفتنة بين عز الدين كيكاوس وأخيه قليج ارسلان واستيلاء قليج ارسلان على الملك

ثم وقعت الفتنة سنة تسع وخمسين بين عز الدين كيكاوس وأخيه ركن الدين قليج ارسلان ، وسار ركن الدين ومعه البرنواه إلى هلاكو يستمده على أخيه فأمده بالعساكر، وحارب أخاه فهزمه عز الدين أولا، ثم أمده هلاكو فانهزم عز الدين ولحق بالقسطنطينية. واستولى ركن الدين

على سائر الأعمال. وهرب التركمان إلى أطراف الجبال والثغور والسواحل، وبعثوا إلى هلاكو يطلبون الولاية منه على أحيائهم فولاهم، وأذن لهم في أتخاذ الآلة فصاروا ملكوكاً من حينئذ. وكان محمد بك أميرهم وأخوه علي بك رديفه فاستدعى هلاكو محمد بك فلم يأته فأمر قليج ارسلان وعساكر التتر الذين معه بقتاله فساروا وقاتلوه فانهزم. ثم استأمن إلى السلطان ركن الدين فأمنه وجاء به إلى قونية فقتله، واستقر علي بك أميراً على التركمان، وأورثها بنيه. واستولى التتر على البلاد إلى أن كان ما سنذكره إن شاء الله.

خبر عز الدين كيكاوس

ولما انهزم عز الدين كيكاوس، ولحق بالقسطنطينية أحسن إليه مخاييل الشكري صاحب قسطنطينية، وأجرى عليه الرزق. وكان معه جماعة من الروم أخواله فحدثتهم أنفسهم بالثورة، وتملك القسطنطينية. ونمي ذلك عنهم فقبض الشكري عليه، وعلى من معه، واعتقله ببعض القلاع. ثم وقعت بين الشكري وبين منكوتمر بن طغان ملك الشمال من بني دوشي خان بن جنكزخان فتنة، وغزا منكوتمر القسطنطينية وعاث في نواحيها فهرب إليه كيكاوس من محبسه فمضى معه إلى كرسيه بصراي فمات هنالك سنة سبع وسبعين. وخلف أبنه مسعودا وخطب منكوتمر ملك صراي أمه فمنعها وهرب عنه، ولحق بابق بن هلاكو ملك العراق فأحسن إليه، وأقطعه سيواس وأرزن الروم وأرزنكان فاستقر بها.

مقتل لكن الدين قليج ارسلان وولاية ابنه كنجسرو:

كان معين الدين سليمان البرنواه قد استبد على ركن الدين قليج ارسلان . ثم تنكر له ركن الدين فخاف سليمان البرنواه على مكان أخيه عز الدين كيكاوس بالقسطنطينية أن يحدث فيه أمراً. فلما بلغه خبر كيكاوس واعتقاله بالقسطنطينية أحكم تدبيره في ركن الدولة فقتله غيلة، ونصب للملك ابنه غياث الدين في كفالته وتحت حجره، واستقل بملك بلاد الروم، واستقامت أموره، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء الظاهر ملك مصر علي قيسارية ومقتل البرنواه

كان هلاكو قد زحف إلى الشام سنة ثمان وخمسين مراراً، وزحف ابنه إبقا كذلك، وقاتلهم الملك الظاهر صاحب مصر والشام. وكان كثيراً ما يخالفهم إلى بلادهم فدخل سنة خمس

وسبعين إلى بلاد الروم، وأميرها يومئذ من التتر طغا. وأمده إبقا بأميرين من التتر وهما كداون وترقوا لحماية بلاد الروم من الظاهر فزحفوا إلى الشام. وسار إليهم الظاهر من مصر في مقدمته سقر الأسقر فلقيت مقدمته مقدمتهم على كوكصو فانهزم التتر، وتبعهم الظاهر، والتقى الجمعان على إبليش فانهزموا ثانية.أثخن فيهم الظاهر بالقتل والأسر إلى قيسارية فملكها. وكان البرنواه قد دسق إليه واستحثه للوصول إلى بلاده فأقام الظاهر على قيسارية ينتظره، وبلغ ملك التتر إبقا خبر الواقعة فزحف في جموع المغل إلى قيسارية بعد منصرف الظاهر إلى بلاده. فلما وقف على مصارع قومه وجد على البرنواه وصدقت عنه السعاية فيه، وأنه الذي استحث الظاهر لأنه لم ير في المعركة مصرع أحد من بلاد الروم، ورجع إلى معسكره ومعه سليمان البرنواه واستبد بملكه. والله تعالى ولي التوفيق، وهو نعم الرفيق، لا رب سواه ولا معبود إلا إياه سبحانه.

خلع كنجسرو ثم مقتله وولاية مسعود ابن عمه كيكاوس

كان قنطغرطاي بن هلاكو مقيماً ببلاد الروم مع غياث الدين كنجسرو ملك بلاد

الروم وصار أمير المغل بها منذ عهد أبقا. ولما ولي أحمد تكرار بن هلاكو بعد أخيه أبقا بعث عن أخيه قنطغرطاي فامتنع من الوصول إليه خشية على نفسه. ثم حمله غياث الدين على إجابة أخيه، وسار معه فقتل تكرار أخاه قنطغرطاي، واتهم المغل غياث الدين بأنه علم برأي تكرار فيه واعتمد. فلما ولي أرغون بن إبقا بعد تكرار عزل غياث الدين عن بلاد الروم وحبسه بارزنكاي، وولي مكانه على المغل ببلاد الروم هولاكو وذلك سنة إثنتين وثمانين. وأقام مسعود ملكاً ببلاد الروم سنة ثمان عشرة وسبعمائة، وأصابه الفقر وانحل أمره، وبقي الملك بها للتتر. ثم فشل أمرهم واضمحلت دولتهم إلا بقايا بسيواس من بني أرتا مملوك دمرداش بن جومان. واستولى التركمان على تلك البلاد أجمع،وأصبح ملكها لهم، والله غالب على أمره يؤتي الملك من يشاء وهو العزيز الحكيم

خريطة

الخبر عن بني سكمان موالي السلجوقية ملوك. خلاط وبلاد أرمينية ومصير الملك إلى مواليهم من بعدهم ومبادي أمرهم وتصاريف أحوالهم:

كان صاحب مزيد من أذربيجان اسمعيل بن ياقوتي بن داود أخو ألب ارسلان، وداود أخو طغرلبك كما مر ولقب إسمعيل قطب الدولة. وكان له مولى تركي إسمه سكمان بالكاف والقاف. وكان ينسب إليه فيقال سكمان القطبي، وكان شهماً عادلا في أحكامه. وكانت خلاط وأرمينية لبني مروان ملوك ديار بكر، وكانوا في آخر دولتهم قد اشتد عسفهم وظلمهم، وساء حال أهل البلد معهم فاجتمع أهل خلاط وكاتبوا سكمان واستدعوه ليملكوه عليهم، فسار إليهم سنة اثنتين وخمسمائة إلى ميافارقين من ديار بكر فحاصرها حتى استأمنوا إليه وملكها.ثم أمر السلطان محمد شاه بن ملك شاه الأمير مودود بن مزيد ابن صدقة صاحب الموصل بغزو الإفرنج وانتزاع البلاد من أيديهم وأمر أمراء الثغور بالمسير معه فسار معه برسق صاحب همذان، وأحمد

بك صاحب مراغة، وأبو الهيجاء صاحب اربل وأبو الغازي صاحب ماردين، وسقمان القطبي صاحب ديار بكر. فساروا لذلك وفتحوا عدة حصون، وحاصروا الرها فامتنعت عليهم، ثم تل ناشر كذلك. واستدعاهم رضوان بن نتش صاحب حلب فلما ساروا إليه امتنع من لقائهم. ومرض سكمان القطبي هنالك فرجع عنهم وتوفي في طريقه ببالس. وافترقت العساكر، وملك خلاط وبلاد ارمينية بعد مهلكه ابنه ظهير الدين إبراهيم، وسار فيهم بسيرة أبيه إلى أن هلك سنة إحدى وعشرين. وملك بعده أخوه أحمد بن سكمان عشرة أشهر. ثم توفي فنصب أصحابه للملك بأرمينية وخلاط شاه أرمن سكمان ابن أخيه إبراهيم بن سكمان صبياً دارجا. واستبدت عليه جدته أم إبراهيم. ثم أزمعت قتله فقتلها أهل الدولة.وعمد سنة ثمان وعشرين، واستبد شاه أرمن، وكانت بينه وبين الكرج وقائع.وساروا سنة ست وخمسمائة إلى مدينة أني من أعمال أزان فاستباحوها. وسار إليهم في العساكر فهزموه ونالوا منه، وكانت عنده أخت طليق بن علي صاحب أرزن الروم، ووقعت بينه وبين الكرج حرب فانهزم طليق وأسر وبعث شاه أرمن إلى ملك الكرج وفادى طليقاً ورده إلى ملكه بارزن.ثم استولى صلاح الدين بن أيوب على مصر والشام واستفحل ملكه، وكاتبه مظفرالدين كوكبري وأغراه بملك الجزيرة، ووعده بخمسين ألف دينار. وسار صلاح الدين إلى سنجار فحاصرها وهو جمع المسير إلى الموصل، وبها يومئذ عز الدين مودود بن زنكي فاستنجد بشاه أرمن صاحب خلاط فبعث شاه أرمن مولاه مكتمر إلى صلاح الدين شفيعاً في صاحب الموصل، ووفد عليه وهو محاصر لسنجار، ولم يشفعه صلاح الدين فرجع عنه مغاضباً. وسار شاه أرمن لقتاله واستدعى قطب الدين نجم الدين إلى صاحب ماردين وهو ابن أخيه، وابن خال عز الدين. وحضر معه دولة شاه بن طغرك شاه بن قليج ارسلان صاحب . وسار سنة ثمان وسبعين وقد ملك صلاح الدين سنجار وافترقت العساكر. فلما بلغه مسيرهم بعث عن تقي الدين ابن أخيه شاه من حماة فوافاه سريعا، ورحل إلى رأس عين وافترقت جموعهم. وسار صلاح الدين إلى ماردين فعاث في نواحيها ورجع. ثم سار إلى الموصل آخر إحدى وثلاثين، وعبر إلى الجزيرة، وانتهى إلى حران. ولقيه مظفر الدين كوكبري بن زين الدين ولم يف له بالخمسين ألفاً التي وعده بها. وأخذ منه حران والرها. ثم أطلقه بما نفذه من مكاتبته وعاد عليه بلدته، وسار من حران فحضر عنده عساكر الحصن وداراً، ولقيه سنجر شاه صاحب الجزيرة ابن أخي عز الدين مودود مفارقا لطاعة عفه، وسار معه إلى الموصل. ولما انتهى إلى مدينة بله بعث إليه عز الدين ابن عمه نور الدين محمود وجماعة من أعيان الدولة راغبين في الصلح فأكرمهم، واستشار أصحابه من أعيان الدولة فأشار علي بن أحمد المشطوب كبير الهكارية بالامتناع من ذلك فردهم صلاح الدين واعتذر، وسار فنزل على فرسخين من الموصل واشتدوا في مدافعته فامتنعوا عليه فندم على عدم الصلح. ورجع على علي المشطوب ومن وافقه باللائمة. وخاطبه القاضي الفاضل البيساني من مصر، وعزله في ذلك. وجاء زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب اربل وأخوه مظفر الدين كوكبري فتلقاهما بالتركمه، وأنزلهما مع الحشود الوافدة بالجانب الشرقي. وبعث علي بن أحمد المشطوب الهكاري إلى قلعة الجزيرة من بلاد الهكارية فحاصرها، واجتمع عليه الاكراد ولم يزل محاصرا لها حتى عاد صلاح الدين من الموصل. وأقام صلاح الدين

على حصارها مدة. وبلغ عز الدين أن نائبه بالقلعة يكاتبه فمنعه من الصعود إليها، وكان يقتدي برأي مجاهد الدين وبعثه في الصلح فسعى فيه إلى أن تحمله ووصل صلاح الدين إلى ميارفارقين

.

وفاة شاه أرمن سكمان وولاية مكتمر مولى أبيه

ثم لوفي شاه أرمن سقمان بن إبراهيم بن سكمان صاحب خلاط سنة ست وسبعين، وكان مكتمر مولى أبيه بميافارقين فأسرع الوصول بمن معه من المماليك، واستولى على كرسي بني سكمان. وولى على ميافارقين أسد الدين برتقش من موالي شاه أرمن. وكان البهلوان بن ايلدكز صاحب أذربيجان وهمذان مر بقائد ملوك السلجوقية وقد زوج ابنته من شاه أرمن طمعا في ملك خلاط. فلما توفي شاه أرمن سار إليها في عساكره فكاتب أهل خلاط صلاح الدين بن أيوب، ودافعوا كلا منهما بالاخر. وسار صلاح الدين في مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ومظفر الدين بن زين الدين وغيرهما. ونزلوا قريباً من خلاط فتردد الرسل من صلاح الدين، ومن شمس الدين البهلوان إلى أهل خلاط وهم يدافعون الفريقين. وكان قد بلغه وفاة صاحبها قطب الدين، وأن برتقش نصب ابنه طفلا صغيراً واستبد عليه، فسار صلاح الدين إليها وحاصرها حتى تسلمها على الأمان، وأقام مكتمر أميراً بخلاط، وطالت مدته، وجرت بينه وبين صلاح الدين فتن وحروب إلى أن توفي صلاح الدين سنة تسع وثمانين. فأظهر الشماتة به وتسمى عبد العزيز، وتلقب سيف الدين وتوفي أثر ذلك والله تعالى أعلم.

وفاة مكتمر وولاية اقسنقر

كان مكتمر لأول ولايته قد اختص اقسنقر من موالي شاه ارمن وتلقب هزار ديناري وزوجه ابنته، وجعله أتابكه فأقام على ذلك مدة. ثم استوحش من مكتمر وتربص به حتى إذا توفي صلاح الدين تجهز مكتمر من ميافارقين فامكنته فيه الفرصة فقتله لعشر سنين من ولايته ؛ وذلك بعد وفاة صلاح الدين بشهرين واستبد بملك خلاط وارمينية، واعتقل ابن مكتمر وأمه في بعض القلاع، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة اقسنقر وولاية محمد بن مكتمر :

ثم هلك اقسنقر صاحب خلاط وارمينية سنة أربع وتسعين، لخمس سنين من

ملكه. وقام بملك خلاط بعده حجر اشتد قطلغ الأرمني، و لم يرضه أهل خلاط فوثبوا به لسبعة أيام من ولايته وقتلوه. واستدعوا محمد بن مكتمر من محبسه وملكوه ولقبوه الملك المنصور، وقام بدولته

شجاع الدين قطلغ القفجاقي دوادار شاه أرمن، وأقام تحت استبداده إلى سنة ثلاث وستمائة. ثم دبر على الدوادار وقبض عليه، وكان حسن السيرة فاستوحش لذلك الجند والعامة. وعكف بعد نكبة الدوادار على لذاته فاجتمع أهل خلاط والجند، وكبيرهم بلبان مملوك شاه ارمن. وكتبوا إلى أرتق بن أبي الغازي بن إلى صاحب ماردين يستدعونه للملك، بما كان ابن أخت شاه أرمن. وجاهر بلبان بالعصيان إلى ملازكرد واجتمع الجند عليه.

نكبة ابن مكتمر واستيلاء بلبان على خلاط وأعمالها

ولما ملك بلبان مدينة ملازكرد وأعمالها، واجتمع عليه الجند وسار يريد خلاط، ووصل أرتق بن أبي الغازي صاحب ماردين لموعدهم، ونزل قريباً من خلاط فبعث إليه بلبان أن الجند والرعية اتهموني فيك فارجع، وإذا ملكت البلد سلمته إليك فتنخ قليلا فبعث إليه يتوعده على مقالته وبطئه. فعاد إلى ماردين، وكان الأشرف موسى بن العادل بن أيوب صاحب الجزيرة وحران لما سمع بمسير أرتق إلى خلاط طمع فيها لنفسه، وخشي أن يزداد بملكها قوة عليهم فخالفه إلى ماردين، وأقام بتدليس، وجبى ديار بكر حتى استوعبها وعاد إلى حران. ثم جمع بلبان العساكر، وسار إلى خلاط فحاصرها. وبرز ابن مكتمر فيمن عنده فانهزم بلبان وعاد إلى ولايته بملازكرد وأرجيش وغيرها. ثم جمع ورجع إلى خلاط فحاصرها وضيق عليها، وابن مكتمر عاكف على لذاته. فلما جهدهم الحصار ثاروا به وقبضوه، ومكنوا بلبان منه. ودخل إلى خلاط واستولى عليها وعلى سائر أعمالها، وحبس ابن مكتمر في قلعة هناك واستبد بملكهما. وكان الأوحد نجم الدين أيوب بن العادل بن أيوب قد ولي على ميافارقين من قبل أبيه إلى خلاط سنة أربع وستمائة، وقصد مدينة سوس وحاصرها وملك ما يجاورها، وعجز بلبان عنه. ثم ملك سوس وقصد خلاط فبرز له بلبان وهزمه فعاد إلى ميافارقين وجمع واستمد أباه العادل فأمده بالعساكر، ونهض إلى خلاط فبرز له بلبان ثانية، وهزمه الاوحد وحاصره في خلاط فبعث بلبان إلى طغرك يستنجده فانهزم الأوحد أمامهما. وسار بلبان مع طغرل إلى مراش فحاصرها وغدر به طغرك وقتله، وسار إلى خلاط فمنعه أهلها فسار إلى ملازكرد فمنعوه كذلك فعاد إلى أرزن. وأرسل خلاط بطاعتهم إلى الأوحد نجم الدين فجاء وملك خلاط، واستولى على أعمالها. وزحف الكرج فأغاروا على خلاط وعاثوا في نواحيها، والأوحد مقيم بخلاط لم يفارقها. وانتقض عليه جماعة من العسكر بحصن رام، وساروا إلى مدينة ارجيش فملكوها واجتمع إليهم المفسدون. وبعث نجم الدين إلى أبيه العادل يستنجده

فأمده بابنه الآخر شرف الدين موسى فحاصر حسن رام حتى استأمن إليه من كان به من الجند، ورجع الأشرف إلى عمله بحران والرها، واستقر نجم الدين بخلاط. ثم سار إلى ملازكرد ليطالع أمورها ويمهدها فثار أهل خلاط بعسكره فأخرجوهم، وحصروا أصحاب نجم الدين بالقلعة، ونادوا بشعار شاه أرمن وقومه فرجع الأوحد، ولاقاه عسكر الجزيرة وحاصر خلاط. ثم اختلف أهلها فدخلها عليهم عنوة واستباحها. ونقل جماعة من أعيانها إلى ميافارقين، وقتل كثيراً منهم هنالك. واستكان أهل خلاط بعدها وانمحى منها حكم المماليك بعد أن كانوا مستحكمين فيها يولون ملوكها ويخلعونهم. وانقرضت دولة بني سكمان من خلاط، وصارت لبني أيوب والبقاء لله وحده، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وإليه المرجع.

خريطة

أخبار الإفرنج فيما ملكوه من سواحل الشام وثغوره وكيف تغلبوا عليه وبداية أمرهم في ذلك ومصائره

قد تقدم لنا أول الكتاب الكلام في أنساب هذه الأمة، عند ذكر أنساب الأمم، وأنهم من ولد يافث بن نوح، ثم من ولد ريفات بن كومر بن يافث أخوة الصقالبة والخزر والترك. وقال هروشوش أنهم من عصر ابن غومر. وأمّا مواطنهم من بلاد المعمور فإنهم من شمال البحر الرومي من خليج رومة إلى ما وراء النهر غرباً وشمالاً ، وكانوا أوّلا يدينون لليونان والروم بالطاعة عند استفحال أمرهم فلما إنقرضت دولة أولئك استقلّ هؤلاء الإفرنج بملكهم وافترقوا دولاً مثل دولة القوط بالأندلس والجلالقة بعدهم، وملك اللمانين بالتفخيم من جزيرة إنكلطرة بالبحر المحيط الغربي الشمالي وما يحاذيه ويقابله من المعمور، ومثل ملوك إفرنسة وهو عندهم إسم إفرنجة بعينه والجيم ينطقون بها سينا. وهم ما وراء خليج رومة غرباً إلى الثنايا المفضية إلى جزيرة الأندلس في الجبل المحيط من شرقيها وتسمى تلك الثنايا البردت. وكانت دولة هؤلاء الإفرنس منهم من أعظم دولهم، واستفحل أمرهم بعد الروم وصدرا من دولة الإسلام العربية فسموا إلى ملك بلاد المشرق من ناحيتها. وتغلبوا على جزر البحر الرومي في آخر المائة الخامسة. وكان ملكهم لذلك العهد بردويل فبعث رجالاً من ملوكهم إلى صقلية، وملكها من يد المسلمين سنة ثمانين وأربعمائة. ثم سموا إلى ملك ما وراء النهر من أفريقية وبلاد الشام والإستيلاء على بيت المقدس، وطال ترددهم في ذلك ثم استحثهم وحرضهم عليه فيما يقال خلفاء العبيديين بمصر لما استفحل ملك السلجوقية وانتزعوا الشام من أيديهم، وحاصروهم في مصر فيقال أنّ المستنصر منهم دس إلى الإفرنج بالخروج، وتسهيل أمرهم عليه ليحولوا بين السلجوقية وبين مرامهم فتجهز الإفرنج لذلك، وجعلوا طريقهم في البرّ على القسطنطينية. ومنعهم ملك الروم من العبور عليه من الخليج حتى شرط عليهم أن يسلموا له إنْطاكِية لكون المسلمين كانوا أخذوها من مماليكهم فقبلوا شرطه، وسهل لهم العبور في خليجه فأجازوا سنة تسعين وأربعمائة في العدد والعدّة وانتهوا إلى بلاد قليج ارسلان وجمع للقائهم فهزموه وفرّ بلاد ابن اليون الأرمني ووصلوا إنْطاكِية، وبها باغيسيان من أمراء السلجوقية فحاصروه بها وخذلوا صاحب حلب ودمشق على صريخه بأن لا يقصدوا غير إنْطاكِية

فأسلموه حتى ضاق به الحصار وغدر به بعض الحامية فملك الإفرنج البلاد، وهرب باغيسيان فقتل وحمل إليهم رأسه وكان ملوكهم الحاضرون لذلك خمسة بردويل وصنجيل وكبريري والقمص وإسمند وهو مقدم العساكر فردّوا إليه أمر إنْطاكِية وبلغ الخبر إلى المسلمين فسافروا إليهم شرقاً وغرباً وسار قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل، وجمع عساكر الشام، وسار إلى دمشق فخرج إليهم دقاق بن تتش وطغتكين أتابك وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان صاحب سنجار، وسكمان أرتق وغيرهم من الأمراء، وزحفوا إلى إنْطاكِية

فحاصروها ثلاثة عشر يوماً ووهن الإفرنج واشتدّ عليهم الحصار لما جاءهم على غير استعداد، وطلبوا الخروج على الأمان فلم يسعفوا. ثم اضطرب أمر عساكر المسلمين، وأساء كربوقا السيرة فيهم، وأزمعوا من استكثاره عليهم ، فخرج الإفرنج إليهم، واستماتوا فتخاذل المسلمون، وإنهزموا من غير قتال، حتى ظنها الإفرنج مكيدة فتقاعدوا عن إتباعهم، واستشهد من المسلمين ألوف، والله تعالى أعلم.

استيلاء الإفرنج على معرّة النعمان ثم على بيت المقدس

ولما حصلت للإفرنج هذه النكاية في المسلمين طمعوا في البلدا وساروا إلى معرّة النعمان وحاصروها. واشتدّ القتال في أسوارها حتى داخل أهلها الجزع فتحصنوا بالدور، وتركوا السور فملكه الإفرنج ودخلوا عليهم فاستباحوها ثلاثاً. وأقاموا بها أربعين يوماً ثم ساروا إلى غزة وحاصروها أربعة أشهر، وامتنعت عليهم فصالحهم ابن منقذ عليها. وساروا إلى حمص وحاصروها فصالحهم عليها جناح الدولة. وساروا إلى عكا فامتنعت عليهم. وكان بيت المقدس قد ملكه السلجوقية وصار لتاج الدولة تتش، وأقطعه لسكمان بن أرتق من التركمان. فلما كانت واقعة الإفرنج بإنطاكية طمع أهل مصر فيهم، وسار الأفضل بن بدر الجُمال المستولي على العلويين بمصر إلى بيت المقدس، وبها سكمان وأبو الغازي إبناً أرتق وابن عمهما سوع ، وابن أخيهما ياقوتي فحاصروه نيفا وأربعين يوماً ونصبوا عليه نيفا وأربعين منجنيقاً، وملكوه بالأمان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وأحسن الأفضل إلى سكمان وأبي الغازي وأصحابها، وسرحهم إلى دمشق وعبروا الفرات وأقام سكمان بالرها، وسار أبو الغازي إلى العراق، واستناب الأفضل عليها افتخار الدولة الذي كان بدمشق فقصده الإفرنج بعد أن حاصروا عكا، وامتنعت عليهم

فحاصروه أربعين ليلة، وافترقوا على جوانب البلد فملكوها من الجانب الشمالي آخر شعبان من السنة. واستباحوها وأقاموا فيها أسبوعاً. واعتصم بعض المسلمين بمحراب داود، وقاتلوا فيه ثلاثاً حتى استأمنوا ولحقوا بعسقلان وأحصى القتلى من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد المجاورين بالمسجد فكانوا سبعين ألفاً أو يزيدون وأخذ من المناور المعلقة عند الصخرة أربعون قنديلا من الفضة كل واحد منها ثلاثة آلاف وستمائة وستون درهماً من الفضة زنته أربعون رطلاً بالشامي ومائة وخمسون قنديلاً من الصغار، وما لا يحصى من غير ذلك وجاء الصريخ إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعيد الهروي ووصف في الديوان صورة الواقعة فكثر البكاء والأسف، ووسم الخليفة بمسير جماعة من الأعيان والعلماء، فيهم القاضي أبو محمد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي وأبو الوفاء بن عقيل إلى السلطان بركيارق يستصرخونه للإسلام. فساروا إلى حلوان، وبلغهم إضطراب الدولة السلجوقية، وقتل محمد الملك ألب ارسلان المتحكم في الدولة، واختلاف السلاطين فعادوا. وتمكن الإفرنج من البلاد وولوا على بيت المقدس كندفري من ملوكهم.

عساكر مصر وحرب الإفرنج

مسير العساكر من مصر لحرب الإفرنج

ولما بلغ خبر الواقعة إلى مصر جمع الأفضل الجيوش والعساكر، واحتشد وسار إلى عسقلان. وأرسل إلى الإفرنج بالنكير والتهديد فأعادوا الجواب، ورحلوا مسرعين فكبسوه بعسقلان على غير أهبة فهزموه واستلحموا المسلمين ونهبوا سوادهم، ودخل الأفضل عسقلان وافترق المنهزمون. واستبدّوا وابخر الحمير، ووصل الأفضل من عسقلان إلى مصر، ونازلها الإفرنج حتى صانع أهلها الإفرنج بعشرين ألف دينار، وعادوا إلى القدس.

إيقاع ابن الدانشمند بالإفرنج

كان كمستكين بن الدانشمند من التركمان، ويعرف بطابوا. ومعنى الدانشمند المعلم كان أبوه يعلم التركمان، وتقلبت به الأحوال حتى ملك سيواس وغيرها. وكان صاحب ملطية يعاديه فاستنجد عليه إسمند صاحب إنْطاكِية فجاءه في خمسة آلاف، وسار إليه ابن الدانشمند وأسره. ثم جاء الإفرنج إلى قلعة أنكورية فملكوها، وقتلوا من بها من المسلمين. ثم حاصروا إسماعيل بن

الدانشمند فلقيهم كمستكين وهزمهم واستلحمهم، وكانوا ثلثمائة ألف. ثم ساروا إلى ملطية فملكوها وأسروا صاحبها. وزحف إليه إسمند من إنْطاكِية في الإفرنج فهمّ بهم ابن الدانشمند. فأتاح الله للمسلمين على يده هذا الظهور في مدد متقاربة، حتى خلص إسمند من الأسر. وجاء إلى إنْطاكِية والإفرنج بها، وبعث إلى قيس والعواصم وما جاورها يطلب الإمارة فامتعض المسلمون لذلك، وقلدوه بعد العهد الذي إلتزمه.

حصار الإفرنج قلعة جبلة

كانت جبلة من أعمال طرابلس، وكان الروم قد ملكوها، وولوا على المسلمين بها

ابن رئيسهم منصور بن صليحة يحكم بينهم. فلما صارت للمسلمين رجع أمرها لجمال الملك أبي الحسن علي بن عمار المستبدّ بطرابلس، وبقي منصور بن صليحة على عادته فيها. ثم توفي منصور فقام إليه أبو محمد عبد الله مقامه وأظهر الشماتة فارتاب به ابن عمار، وأراد القبض عليه فعصى هو في جبلة وأقام بها الخطبة العباسية، واستنجد عليه ابن عمار دقاق بن تتش فجاءه، ومعه أتابك طغركين فامتنع عليهم ورجعوا. ثم جاء الإفرنج فحاصروها فامتنعت عليهم أيضاً وشاع أن بركيارق جاء إلى الشام فرحلوا. ثم عادوا وأظهروا أن المصريين جاؤا لإنجاده فرحلوا. ثم عادوا فتقدّم للنصارى الذين عنده أن يداخلوا الإفرنج في نقب البلد من بعض أسواره فجهزوا إليهم ثلثمائة من أعيانهم فرفعهم بالحبال واحداً بعد واحد، وهو قاعد على السور حتى قتلهم أجمعين فرحلوا عنه ثم عادوا إليه فهزمهم وأسر ملهم كبرانيطل، وفادى نفسه منه بمال عظيم ثم ابن صليحة وجهده الحصار فأرسل إلى طغركين صاحب دمشق. وبعث ابن عمار في طلبه إلى الملك دقاق على أن يدفعه إليه بنفسه دون ماله، ويعطيه ثلاثين ألف دينار فلم يفعل. وسار ابن صليحة إلى بغداد فوعده إلى وصول رحله من الأنبار فبعث الوزير من استولى عليها فوجد فيها ما لا يحصى من الملابس والعمائم والمتاع، وانتزع ذلك كله. ولما ملك تاج الملوك جبلة أساء فيها السيرة فراسلوا فخر الملك أبا علي بن عمار صاحب طرابلس، واستدعوه لملكها فبعث إليهم عسكراً وقاتلوا تاج الملك ومن معه فهزموه وأخذوه أسيرا

وملكوا جبلة بدعوة ابن عمار وحملوا تاج الملك إلى ابن عمار فأحسن إليه، وبعث إلى أبيه بدمشق واعتذر له بأنه خاف على جبلة من الإفرنج.

استيلاء الإفرنج علي سروج وقيسارية وغيرهما

ثم سار كبريري ملك الإفرنج من بيت المقدس سنة أربع وتسعين لحصارها فأصابه

منهم سهم فقتله، فسار أخوه بغدوين في خمسمائة فارس إلى القدس. ونهض دقاق صاحب دمشق، ومعه جناح الدولة صاحب حمص لاعتراضه فهزموا الإفرنج وأثخنوا فيهم ثم كاتب أهل المدينة الإفرنج وكان

أكبرهم، ودخل في طاعتهم. وكان سقمان بن أرتو صاحب سروج جمع جموعه من التركمان، وسار إلى الرها فلقيه الإفرنج وهزموه في ربيع سنة أربع وتسعين. وساروا إلى سروج فحاصروهم حتى ملكوها عنوة واستباحوها. ثم ملكوا حصن كيفا بقرب عكا عنوة، وملكوا أرسوف بالأمان. ثم ساروا في رجب إلى قيسارية فملكوها عنوة واستباحوها، والله تعالى ولي التوفيق بمنّه كرمه.

حصار الإفرنج طرابلس وغيرها

كان صنجيل من ملوك الإفرنج المذكورين قبل قد لازم حصار طرابلس، وزحف إليه قليج ارسلان صاحب بلاد الروم فظفر به. وعاد صنجيل مهزوماً فأرسل فخر الدولة بن عمار صاحب طرابلس، إلى أمير آخر، نائب جناح الدولة بحمص إلى دقاق بن تتش يدعوه إلى معالجته. فجاء تاج الدولة بنفسه، وجاء العسكر مدداً من عند دقائق، واجتمعوا على طرابلس. وفرّق صنجيل الفلّ الذين معه على قتالهم فانهزموا كلهم، وفتك هو في أهل طرابلس وشدّ حصارها. وأعانه أهل الجبل والنصارى من أهل سوادها. ثم صالحوه على مال وخيل. ورحل عنهم إلى طرطوس من أعمال طرابلس فحاصرها وملكها عنوة واستباحها إلى حصن الطومار ومقدمه ابن العريض فامتنع عليهم، وقاتلهم صنجيل فهزموا عسكره، وأسروا زعيماً من زعماء الإفرنج بدل صنجيل فيه عشرة آلاف دينار وألف أسير، و لم يعاوده. وذلك كله سنة خمس وتسعين وأربعمائة. ثم سار صنجيل إلى حصن الأكراد وحاصره جناح الدولة لغزوه فوثب عليه باطني بالمسجد وقتله. ويقال أنّ رضوان بن تتش وضعه عليه فسار صنجيل إلى حمص، وحاصرها وملك أعمالها. ثم نزل القمص على عكا في جمادي الأخيرة من السنة فنفر المسلمون من جميع السواحل لقتاله، وهزموه وأحرقوا أهله والمنجنيقات التي نصبت للحرب. ثم سار القمص صاحب الرها إلى السروج وحاصرها فامتنعت عليه، وزحف عساكر مصر إلى عسقلان للمدافعة عن سواحلهم فزحف إليهم بردويل صاحب القدس فهزمه المسلمون، ونجا إلى الرملة، وهم في أتباعه فحاصروه وخلص إلى يافا، وفشل القتل والأسر في الإفرنج والله تعالى ولي التوفيق.

حصار الإفرنج عسقلان وحروبهم مع عساكر مصر

لما طمع الإفرنج في عسقلان، واستفحل أمرهم بالشام، جهز الأفضل أمير الجيوش عساكره من مصر لحربهم سنة ست وتسعين مع سعد الدولة القواسي مولى أبيه. وزحف بغدوين ملك الإفرنج من القدس فلقيهم بين الرملة ويافا وهزمهم. ومات سعد متردّياً عن فرسه، واستولى الإفرنج على سواده. وبعث الأفضل بعده إبنه شرف المعالي فلقيهم في العساكر على بازور قرب الرملة فهزمهم ونال منهم، ونجا كثير من أعيانهم إلى بعض الحصون هنالك فحاصرهم شرف المعالي خمس عشرة مرة ليلة، وملك الحصن فقتل وأسر ونجا بغدوين إلى يافا ، ثم إلى القدس فصادف وصول جمع كثير من الإفرنج لزيارة القدس فندبهم للغزو فساروا إلى عسقلان وبها شرف المعالي فامتنعت ورجعوا وبعث شرف المعالي إلى أبيه فبعث العساكر في البرّ مع تاج العجم مولى أبيه، والأسطول في البحر لحصار يافا مع القاضي ابن دقاوس. فلما وصل الأسطول إلى يافا بعث عن تاج العجم

ليأتيه بالعساكر فامتنع، فأرسل الأفضل من قبض عليه، وولّى على العساكر وعلى عسقلان جمال الملك من مواليهم فانصرفت السنة، وبيد الإفرنج بيت المقدس غير عسقلان، ولهم أيضاً من الشام يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا وطبرية والأردن واللاذقية وإنْطاكِية، ولهم بالجزيرة الرها وسروج وصنجيل محاصر فخر الملك بن عمار بمدينة طرابلس، وهو يرسل أسطوله للإغارة على بلاد الإفرنج في كل ناحية. ثم دخلت سنة سبع وتسعين فخرج الإفرنج الذين بالرها فأغاروا على الرقة وقلعة جعفر، واكتسحوا نواحيها. وكانت لسالم بن مالك بن بدران بن المقلد منذ ملكه السلطان ملك شاه إياها سنة تسع وسبعين كما مرّ الله أعلم.

استيلاء الإفرنج على جبيل وعكا

وفي سنة سبع وتسعين وصلت مراكب من بلاد الإفرنج تحمل خلقاً كثيراً من التجّار والحجّاج فاستعان بهم صنجيل على حصار طرابلس فحاصروها حتى يئسوا منها فارتحلوا إلى جبيل وملكوها بالأمان. ثم غدروا بأهلها وأفحشوا في استباحتها. ثم استنجدهم بغدوين ملك القدس على حصار عكا فحاصروها برّاً وبحراً وفيها بهاء الدولة الجيوشي من قبل ملك الجيوش الأفضل صاحب مصر فدافعهم حتى عجزوا، وهرب عنها إلى دمشق وملك الإفرنج عكا عنوة وأفحشوا في استباحتها، والله تعالى أعلم.

غزو أمراء السلجوقية بالجزيرة الفرنج

كان المسلمون أيام تغلب الإفرنج على الشام في فتنة واختلاف تمكن فيها الإفرنج واستطالوا وكانت حرّان وحمص لمولى من موالي ملك شاه إسمه قراجا، والموصل لجكرمش وحصن كيفا لسقمان بن أرتق وعصى في حران على قراجا بأمته فيها فاغتاله جاولي، مولى من موالي الترك وقتله فطمع الإفرنج في حرّان وحاصروها. وكان بين جكرمش وسقمان فتنة وحرب فوضعوا أوزارها لتلافي حران، واجتمعا على الخابور وتحالفا، ومع سقمان سبعة آلاف من قومه التركمان، ومع جكرمش ثلاثة آلاف من قومه الترك، ومن العرب والأكراد. وسار إليهم الإفرنج من حران فاقتتلوا، واستطرد لهم المسلمون بعيداً، ثم كروا عليهم فأثخنوا فيهم واستباحوا أموالهم وكان إسمند صاحب أنْطاكِية وشكرى صاحب الساحل قد أكمنوا للمسلمين وراء الجبل فلم يظهر لهم أنهم أصحابهم، وأقاموا هنالك إلى الليل. ثم هربوا وشعر بهم المسلمون فاتبعوهم وأثخنوا فيهم. وأسر في تلك الواقعة القمص بردويل صاحب الرها، أسره بعض التركمان من أصحاب سقمان فشق ذلك على أصحاب جكرمش لكثرة ما امتاز به التركمان من الغنائم، وحسنوا له أخذ القمص من سقمان فأخذه وأراد التركمان محاربة جكرمش وأصحابه عليه فمنعهم سقمان حذراً من إختلاف المسلمين وسار مفارقاً لهم وكان يمرّ

بحصون الإفرنج فيخرجون إليه ظناً بنصر أصحابهم فملكها عليهم. وسار جكرمش إلى حران فملكها وولى عليها من قبله. ثم سار إلى الرها وحاصرها أياماً وعاد إلى الموصل وفادى القمص بردويل بخمسة وثلاثين ألف دينار ومائة وستين أسيراً، والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق بمنه وكرمه.

حرب الإفرنج مع رضوان بن تتش صاحب حلب

ثم سار شكري صاحب إنْطاكِية من الإفرنج سنة ثمان وتسعين إلى حصن أريام من حصون رضوان صاحب حلب فضاقت حالهم واستنجدوا برضوان فسار إليهم، وخرج الإفرنج للقائه. ثم طلب الصلح من رضوان فمنعه أصبهبد صباوو، من أمراء السلجوقية كان نزع إليه بعد قتل صاحبه أياز، ولقيهم الإفرنج فانهزموا أوّلاً ثم استماتوا وكرّوا على المسلمين فهزموهم وأفحشوا في قتلهم، وقتل الرجالة الذين دخلوا عسكرهم في الحملة الأولى. ونجا رضوان وأصحابه إلى حلب، ولحق صباوو بطغركين أتابك دمشق، ورجع الإفرنج إلى حصار الحصن فهرب أهله إلى حلب وملكه الإفرنج ، والله تعالى ولي التوفيق.

حرب الإفرنج مع عساكر مصر

كان الأفضل صاحب مصر قد بعث سنة ثمان وتسعين إبنه شرف المعالي في العساكر إلى الرملة فملكها، وقهر الإفرنج. ثم اختلف العسكر في إدعاء الظفر وكادوا يقتتلون، وأغار عليهم الإفرنج فعاد شرف المعالي إلى مصر فبعث الأفضل إبنه الآخر سناء الملك حسيناً مكانه في العساكر، وخرج معه جمال الدين صاحب عسقلان، واستمدوا طغركين أتابك دمشق فجهز إليهم أصبهبد صباوو من أمراء السلجوقية. وقصدهم بغدوين صاحب القدس وعكا فاقتتلوا وكثرت بينهم القتلى، واستشهد جمال الملك نائب عسقلان وتحاجزوا، وعاد كل إلى بلده. وكان مع الإفرنج جماعة من المسلمين منهم بكباش بن تتش ذهب مغاضباً عن دمشق لما عدل عنه طغركين الاتابك بالملك إلى ابن أخيه دقاق، وأقام عند الإفرنج، والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق بِمنّه.

حرب الإفرنج مع طغركين

كان قمص من قمامصة الإفرنج بالقرب من دمشق، وكان كثيراً ما يغير عليها ويحارب عساكرها فسار إليه طغركين في العساكر، وجاء بقدوين ملك القدس لإنجاده على المسلمين فرده ذلك القمص ثقة بكفاءته فرجع إلى عكا وسار طغركين إلى الإفرنج فقاتلهم وحجزهم في حصنهم. ثم خرب الحصن وألقى حجارته في الوادي وأسر الحامية الذين به، وقتل من سواهم من أهله وعاد إلى دمشق ظافراً. ثم سار بعد أسبوع إلى وبه ابن أخت صنجيل فملكه وقتل حاميته.

استيلاء الإفرنج على حصن أفامية

كان خلف بن ملاعب الكلابي متغلباً على حمص وملكها منه تتش كما مر، وانتقلت الأحوال إلى مصر. ثم أن رضوان صاحب حلب إنتقض عليه وإليه بحصن أفامية، وكان من الرافضة فبعث بطاعته إلى صاحب مصر، واستدعى منهم والياً فبعثوا خلف بن ملاعب لإيثاره الجهاد وأخذوا رهنه فعبى في أفامية واستبدّ بها واجتمع عليه المفسدون. ثم ملك الإفرنج من أعمال حلب وأهله رافضة، ولحق قاضيها بابن ملاعب في أفامية. ثم اعمل التدبير عليه، وبعث إلى أبي طاهر الصائغ من أصحاب رضوان وأعيان الرافضة ودعاتهم، وداخله في الفتك بابن ملاعب وتسليم الحصن إلى رضوان. وشعر بذلك إبنا ابن ملاعب وحذرا أباهما من تدبير القاضي عليه وجاء القاضي فحلف له على كذبه، وصدّقه وعاد القاضي إلى مداخلة أبي طاهر ورضوان في ذلك التدبير، وبعثوا جماعة من أهل سرمين بخيول وسلاح يقصدون الخدمة عند ابن ملاعب فأنزلهم بربض أفامية

حتى تمّ التدبير، وأصعدهم القاضي وأصحابه ليلاً إلى القلعة فملكوها وقتلوا ابن ملاعب. وهرب ابناه فلحق أحدهما بأبي الحسن بن منقذ صاحب شيزر وقتل الآخر. وجاء أبو طاهر الصائغ إلى القاضي يعتقد أن الحصن له فلم يمكنه القاضي وأقام عنده. وكان بعض بني خلف بن ملاعب عند طغركين بدمشق مغاضباً لأبيه فولاه حصناً من حصونه فأظهر الفساد والعيث فطلبه طغركين فهرب إلى الإفرنج، واستحثهم لملك أفامية فحاصروه حتى جهد أهله الجوع وقتلوا القاضي المتغلب فيه والصائغ، وذلك سنة تسع وتسعين وخمسمائة.

خبر الإفرنج في حصار طرابلس

كان صنجيل من ملوك الإفرنج ملازماً لحصار طرابلس، وملك جبلة من يد ابن أبي صليحة وبنى على طرابلس حصنا وأقام عليها. ثم هلك وحمل إلى القدس ودفن. وأمر ملك الروم أهل اللاذقية أن يحملوا الميرة إلى الإفرنج المحاصرين طرابلس فحملوها في السفن. وظفر أصحاب ابن عمار ببعضها فقتلوا وأسروا واستمّر الحصن خمس سنين فعدمت الأقوات. واستنفد أهل الثروة مكسوبهم في الانفاق وضاقت أحوالهم، وجاءتهم سنة خمسمائة ميرة في البحر من جزيرة قبرص وإنْطاكِية وجزائر البنادقة فحفظت أرماقهم. ثم بلغ ابن عمار إنتظام الأمر للسلطان محمد بن ملك شاه بعد أخيه بركيارق فارتحل إليه صريخاً، واستخلف على طرابلس ابن عمه ذا المناقب في طرابلس. وخيم ابن عمار على دمشق وأكرمه طغركين. ثم سار إلى بغداد فأكرمه السلطان محمد وأمر بتبليغه والإحتفال لقدومه ووعده بالإنجاد

ولما رحل عن بغداد أحضره عنده بالنهروان، وأمر الأمير حسين بن أتابك قطلغتكين بالمسير معه، وأن يستصحب العساكر التي بعثها مع الأمير مودود إلى الموصل لقتال جاولي سكاوو وأمره بإصلاح جاولي والمسير مع ابن عمار حسبما مرّ في أخبارهم. ثم وقعت الحرب ين السلطان محمد وبين صدقة بن مزيد واصطلحوا وودّعه ابن عمار بعد أن خلع عليه، وسار معه الأمير حسين فلم يصل إلى قصده من عساكر الموصل مودود والإنتقاض فعاد فخر الدين بن عمار إلى دمشق في محرّم سنة إثنتين وخمسمائة وسار منها إلى فملكها. وبعث أهل طرابلس إلى الأفضل أمير الجيوش بمصريستمدّونه ويسألون الوالي عليهم فبعث إليهم شرف الدولة ابن أبي الطيب بالمدد والأقوات والسلاح وعدّة الحصار، واستولى على ذخائر ابن عمار، وقبض على جماعة من أهله، وحمل الجيمع في البحر إلى مصر.

خبر القمص صاحب الرها مع جاولي ومع صاحب إنْطاكِية

كان جاولي قد ملك الموصل من يد أصحاب جكرمس، ثم إنتقض فبعث السلطان إليه مودود في العساكر فسار جاولي عن الموصل، وحمل معه القمص بردويل صاحب الرها الذي كان

أسره سقمان وأخذه منه جكرمش وأصحابه، وترك الموصل. ثم أطلق جاولي هذا القمص في سنة ثلاث وخمسمائة بعد خمس سنين من أسره على مال قرره عليه وأسرى من المسلمين عنده يطلقهم، وعلى أن يمدّه بنفسه وعساكره وماله متى أحتاج إلى ذلك ولما إنبرم العقد بينهما بعث يوالي سالم بن مالك بقلعة جعفر حتى جاءه هناك ابن خاله جوسكين تل ناشر فأقام رهينة مكانه. ثم أطلقه جاولي ورهن مكانه أخا زوجته وزوجة

القمص. فلما وصل جوسكين إلى منبج أغار عليها ونهبها وسبى جماعة من أصحاب جاولي إلى الغدر فاعتذر بأنّ هذه البلاد ليست لكم.لما أطلق القمص سار إلى إنْطاكِية ليستردّ الرها من يد شكري لأنه أخذها بعد أسره فلم يردّها، وأعطاه ثلاثين ألف دينار. ثم سار القمص إلى تل ناشر، وقدم عليه أخوه جوسكين الذي وضعه رهينة عند جاولي. وسار شكري صاحب إنْطاكِية لحربهما قبل أن يستفحل أمرهما وينجدهما جاولي فقاتلوه ورجع إلى إنْطاكِية وأطلق القمص مائة وستين من أسرى المسلمين ثم سار القمص وأخوه جوسكين وأغاروا على حصون إنْطاكِية وأمدّهم صاحب زغبان وكيسوم وغيرهما من القلاع شمال حلب، وهو من الأرمن، بألف فارس، وألقي راجل وخرج إليهم شكري وتراجعوا للحرب.

ثم حملهم الترك على الصلح وحكم على شكري بردّ الرها على القمص صاحبها بعد أن شهد عنده جماعة من البطارقة والأساقفة بأنّ إسمند خال شكري لما انصرف إلى بلاده، أوصاه بردّ الرها على صاحبها إذا خلص من الأسر فردّها شكري على القمص في صفر سنة ثلاث، ووفى القمص لجاولي بما كان بينهما. ثم قصد جاولي الشام ليملكه وتنقل في نواحيه كما مرّ في أخباره. وكتب رضوان صاحب حلب إلى شكري صاحب إنْطاكِية يحذره من جاولي ويستنجده عليه فأجابه وبرز من أنْطاكِية، وبعث إليه رضوان بالعساكر واستنجد جاولي القص صاحب الرها فأنجده بنفسه، ولحق به على منبج، وجاءه الخبر هنالك باستيلاء عسكر السلطان على بلده الموصل، وعلى خزائنه بها وفارقه كثير من أصحابه منهم زنكي بن أقسنقر فنزل جاولي تل ناشر، وتزاحف مع شكري هنالك

واشتدّ القتال واستمرّ أصحاب إنْطاكِية فتخاذل أصحاب جاولي وإنهزموا وذهب الإفرنج بسوادهم فجاء القمص وجوسكين إلى تل ناشر والله تعالى أعلم.

حروب الإفرنج مع طغركين

كان طغركين قد سار إلى طبرية سنة ثنتين وخمسمائة فسار إليه ابن أخت بقدوين ملك القدس واقتتلوا فانكشف المسلمون. ثم استماتوا وهزموا الإفرنج وأسروا ابن أخت الملك فقتله طغركين بيده، بعد أن فادى نفسه بثلاثين ألف دينار وخمسمائة أسير فلم يقبل منه إلا الإسلام أو القتل ثم اصطلح طغركين وبقدوين لمدّة أربع سنين. وكان حصن غزيّة من أعمال طرابلس بيد مولي ابن عمار فعصى عليه، وانقطعت عنه الميرة بعيث الإفرنج في نواحيه فأرسل إلى طغركين بطاعته فبعث إسرائيل من أصحابه ليمتلك الحصن، ونزل منه مولى ابن عمار فرماه إسرائيل في الزحام بسهم فقتله حذراً أن يطلع الاتابك على مخلفه وقصد طغركين الحصن لمشارفة أحواله فمنعه نزول الثلج، حتى إذا انقشع وانجلى سار في أربعة آلاف فارس وفتح حصوناً للإفرنج منها حصن الأكمة وكان السرداني من الإفرنج يحاصر طرابلس فسار للقائه فلما أشرف عليه إنهزم طغركين وأصحابه إلى حمص، وملك السرداني حصن غزية بالأمان، ووصل طغركين إلى دمشق فبعث إليه بقدوين من القدس بالبقاء على الصلح وذلك في شعبان سنة إثنتين.

استيلاء الإفرنج على طرابلس وبيروت وصيدا وجبيل وبانياس

ولما عادت طرابلس إلى صاحب مصر من يد ابن عمار وولي عليها نائبه، والإفرنج يحاصرونها وزعيمهم السرداني ابن أخت صنجيل فلما كانت سنة ثلاث وخمسمائة في شعبان ووصل القمص والد صنجيل، وليس صنجيل الأوّل وإنما هو قمص آخر بمراكب عديدة مشحونة بالرجال والسلاح والميرة وجرت بينه وبين السرداني فتنة واقتتلوا وجاء شكري صاحب إنْطاكِية مددا للسرداني. ثم جاء بقدوين ملك القدس وأصلح بينهم وحاصروا طرابلس، ونصبوا عليها الأبراج فاشتد بهم الحصار، وعدموا القوت لتأخر الأسطول المصري بالميرة، ثم زحفوا إلى قتالها بالأبراج وملكوها عنوة ثاني الأضحى واستباحوها وأثخنوا فيها. وكان النائب بها قد استأمن إلى الإفرنج قبل ذلك بليال وملكها بالأمان، ونزل على مدينة جبيل، وبها فخر الملك ابن عمار فاستأمنوا إلى شكري وملكها. ولحق ابن عمار بشيزر فنزل على صاحبها سلطان بن علي بن منقذ الكناني، ولحق منها بدمشق فأكرمه طغركين وأقطعه الزبداني، من أعمال دمشق، في محرم سنة أربع، ووصل أسطول مصر بالميرة بعد أخذ طرابلس بثمانية أيام فأرسى بساحل صور وفرقت الغلال في جهاتها في صور وصيدا وبيروت. ثم استولى الإفرنج على صيدا في ربيع الآخر سنة أربع وخمسمائة. وذلك أنه وصل أسطول للإفرنج من ستين مركباً مشحونة بالرجال والذخائر، وبها ملوكهم بقصد الحج والغزو فاجتمعوا مع بقدوين صاحب القدس، ونازلوا صيدا براً وبحراً، وأسطول مصر يعجز عن إنجادهم. ثم زحفوا إلى صور في أبراج الخشب المصفحة فضعفت نفوسهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت فاستأمنوا فأمنهم الإفرنج في جمادى الأولى، ولحقوا بدمشق بعد سبعة وأربعين يوما من الحصار. وأقام بالبلد خلق كثير تحت الأمان، وعاد بقدوين إلى القدس.

استيلاء أهل مصر على عسقلان

كانت عسقلان لخلفاء العلوية بمصر، وقد ذكرنا حروب الإفرنج مع عساكرهم عليها، وآخر من استشهد منهم جمال الملك نائبها كما مر آنفاً . وولي عليها شمس الخلافة فراسل بقدوين ملك القدس وهاداه ليمتنع به من الخليفة بمصر. وبعث الأفضل بن أمير الجيوش العساكر إليه سنة أربع وخمسمائة مع قائد من قوادهم مورياً بالغزو، وأسر إليه بالقبض على شمس الخلافة والولاية مكانه بعسقلان. وشعر شمس الخلافة بذلك فجاهر بالعصيان فخشي أن يملكها الإفرنج فراسله وأقره على عمله، وعزل شمس الخلافة جند عسقلان واستنجد جماعة من الأرمن فاستوحش منه أهل البلد، ووثبوا به فقتلوه، وبعثوا إلى الأمير الأفضل صاحب مصر المستولي عليها بطاعتهم فجاءهم الوالي من قبله واستقامت أمورهم.

استيلاء الإفرنج على حصن الأثارب وغيره

ثم جمع شكري صاحب أنْطاكِية واحتشد، وسار إلى حصن الأقارب على ثلاثة فراسخ من حلب فحاصره وملكه عنوة وأثخن فيهم بالقتل والسبي. ثم سار إلى حصن وزدناد

ففعل فيه مثل ذلك، وهرب أهله منه، ومارس على بلديهما. ثم سار عسكر من الإفرنج إلى مدينة صيدا فملكوها على الأمان، وأشفق المسلمون من استيلاء الإفرنج على الشام. وراسلوهم في الهدنة فامتنعوا إلا على

الضريبة فصالحهم رضوان صاحب حلب على إثنين وثلاثين ألف دينار وعدة من الخيول والثياب، وصاحب صور على سبعة آلاف دينار، وابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار، وعلي الكردي صاحب حماة على ألفي دينار. ومدة الهدنة إلى حصاد الشعير. ثم اعترضت مراكب الإفرنج التجار من مصر فأخذوها وأسروهم. وسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد للنفير فدخلوها مستغيثين، ومعهم خلق من الفقهاء والغوغاء، وقصدوا جامع السلطان يوم الجمعة فمنعوا الناس من الصلاة بضجيجهم، وكسروا المنبر فوعدهم السلطان بإنفاذ العساكر للجهاد. وبعث من دار الخلافة منبراً للجامع.

ثم قصدوا في الجمعة الثانية جامع القصر في مثل جمعهم، ومنعهم صاحب الباب فدفعوا ودخلوا الجامع وكسروا شبابيك المقصورة والمنبر، وبطلت الجمعة. وأرسل الخليفة إلى السلطان في رفع هذا الحزن فأمر الأمراء بالتجهز للجهاد، وأرسل إبنه الملك مسعوداً مع الأمير مودود صاحب الموصل ليلحق به الأمراء ويسيروا جميعاً إلى قتال الإفرنج.

مسير الأمراء السلجوقية إلى قتال الإفرنج

ولما سار مسعود بن السلطان مع الأمير مودود إلى الموصل، إجتمع معهم الأمراء

سقمان القطبي صاحب ديار بكر وإبنا برسق إبلتكي وزنكي أصحاب همذان، والأمير أحمد بك صاحب مراغة، وأبو الهيجاء صاحب اربل، وأياز بن أبي الغازي، بعثه أخوه صاحب ماردين. وساروا جميعاً إلى سنجار وفتحوا عدة حصون للإفرنج، ونزلوا على مدينة الرها وحاصروها، واجتمعوا مع الإفرنج على الفرات.

وخام الطائفتان عن اللقاء، وتأخر المسلمون إلى حران يستطردون للإفرنج لعلهم

يعبرون الفرات فخالفهم الإفرنج إلى الرها، وشحنوها أقواتاً وعدة وأخرجوا الضعفاء منها. ثم عبروا الفرات إلى نواحي حلب، لأن الملك رضوان صاحبها لما عبروا إلى الجزيرة إرتجع بعض الحصون التي كان الإفرنج أخذوها بأعمال حلب فطرقوها الآن فاكتسحوا نواحيها. وجاءت عساكر السلطان إلى الرها، وقاتلوها فامتنعت عليهم فعبروا الفرات، وحاصروا قلعة تل

ناشر شهراً ونصفاً فامتنعت، فرحلوا إلى حلب فقعد الملك رضوان عن لقائهم، ومرض هنالك سقمان القطبي، ورجعوا فتوفي في بالس، وحمل شلوه إلى بلده، ونزلت العساكر السلطانية على معرة النعمان فخرج طغركين صاحب دمشق إلى مودود، ونزل عليه. ثم ارتاب لما رأى من الأمراء في حقه فدس للإفرنج بالمهادنة.

ثم افترقت العساكر كما ذكرنا في أخبارهم. وبقي مودود مع طغركين على نهر العاصي. وطمع الإفرنج بافتراقهم فساروا إلى افامية. وخرج سلطان بن منقذ صاحب شيزر إلى مودود وطغركين فرحل بهم إلى شيزر، وهون عليهم أمر الإفرنج. وضاقت الميرة على الإفرنج فرحلوا وأتبعهم المسلمون يتخطفون من أعقابهم حتى أبعدوا والله تعالى أعلم.

حصار الإفرنج مدينة صور

ولما افترقت العساكر السلطانية خرج بقدوين ملك القدس وجمع الإفرنج، ونزلوا

على مدينة صور في جمادي الأولى من سنة خمس وهي للأمير الأفضل صاحب مصر، ونائبه بها عز الملك الأغّر، ونصبوا عليها الأبراج والمجانيق. وانتدب بعض الشجعان من أهل طرابلس كان عندهم في ألف رجل وصدقوا الحملة حتى وصلوا البرج المتصل بالسور فأحرقوه ورموا الآخرين بالنفط فأحرقوهم. واشتدّ القتال بينهم وبعث أهل صور إلى طغركين صاحب دمشق يستنجدونه على أن يمكنوه من البلد فجاء إلى بانياس، وبعث إليهم بمائتي فرس واشتدّ القتال، وبعث نائب البلد إلى طغركين بالاستحثاث للوصول ليمكنه من البلد. وكان طغركين يغير على أعمال الإفرنج في نواحيها، وملك لهم حصناً من أعمال دمشق، وقطع الميرة عنهم فساروا يحملونها في البحر. ثم سار إلى صيدا وأغار عليها ونال منها ثم أزهت الثمرة وخشي الإفرنج من طغركين على بلادهم فأفرجوا عن صور إلى عكا. وجاء طغركين إلى صور فأعطى الأموال واشتغلوا بإصلاح سورهم وخندقهم والله أعلم.

أخبار مودود مع الإفرنج ومقتله ووفاة صاحب أنْطاكِية

ثم سار الأمير مودود صاحب الموصل سنة ست إلى سروج، وعاث في نواحيها

فخرج جكرمش صاحب تل ناشر وأغار على دوابهم فاستاقها من راعيها، وقتل كثيراً من العسكر

ورجع. ثم توفي الأمير الأرمني صاحب الدروب ببلاد ابن كاور فسار شكري صاحب أنْطاكِية من الإفرنج إلى بلاده ليملكها فمرض وعاد إلى انْطاكِية، ومات منتصف سنة ست، وملكها بعده ابن أخته سرجان واستقام أمره ثم جمع الأمير مودود صاحب الموصل العساكر واحتشد وجاءه تميرك صاحب سنجار واياز بن أبي الغازي صاحب ماردين، وطغركين صاحب دمشق، ودخلوا في محرّم سنة سبع إلى بلاد الإفرنج وخرج بقدوين ملك القدس وجوسكين صاحب القدس يغير على دمشق فعبروا الفرات، وقصدوا القدس، ونزلوا على الأردن والافرنج عدوهم، واقتتلوا منتصف المحرّم فانهزم الإفرنج، وهلك منهم كثير في بحيرة طبرية والأردن، وغنم المسلمون سوادهم. وساروا منهزمين فلقيهم عسكر طرابلس وانْطاكِية فشردوا معهم وأقاموا على جبل طبرية ، وحاصرهم المسلمون نحوا من شهر فلم يظفروا بهم فتركوهم وانساحوا في بلاد الإفرنج ما ين عكا والقدس واكتسحوها ثم انقطعت المواد عنهم للبعد عن بلادهم فعادوا إلى مرج الصفر على نية العود للغزاة في فصل الربيع، وأذنوا للعساكر في الانطلاق. ودخل مودود إلى دمشق يقيم بها إلى أوان اجتماعهم، فطعنه باطني في الجامع حين منصرفه من صلاة الجمعة آخر ربيع الأول من السنة ومات من يومه، وأُتهم طغركين بقتله، والله تعالى أعلم.

أخبار البرسقي مع الإفرنج

ولما قتل مودود بعث السلطان محمد مكانه اقسنقر البرسقي، ومعه ابنه السلطان مسعود في العساكر لقتال الإفرنج. وبعث إلى الأمراء بطاعته فجاءه عماد الدين زنكي بن أقسنقر وتميرك صاحب سنجار. وسار إلى جزيرة ابن عمر وملكها من يد نائب مودود. ثم سار إلى ماردين حاصرها إلى أن أذعن أبو الغازي صاحبها، وبعث معه ابنه أيازا في العساكر فساروا إلى الرها وحاصروها في ذي الحجة سنة ثمان مدّة سبعين يوماً

فامتنعت وضاقت الميرة على المسلمين فرحلوا إلى شمشاط وسروج، وعاثوا في تلك النواحي وهلك في خلال ذلك بكواسيل صاحب مرعش، وكيسوم وزغبان من الإفرنج، وملكت زوجته بعده وامتنعت من الإفرنج. وأرسلت إلى البرسقي على الرها بطاعته، فبعث إليها صاحب الخابور فردّته بالأموال والهدايا وبطاعتها، فعاد من كان عندها من الإفرنج إلى أنْطاكِية والله أعلم.

الحرب بين العساكر السلطانية والفرنج

كان السلطان محمد قد تنكر لطغركين صاحب دمشق، لاتهامه إياه بقتل مودود

فعصى وأظهر الخلاف، وتابعه أبو الغازي صاحب ماردين لما كان بينه وبين البرسقي فأهمّ السلطان شأنهما وشأن الإفرنج وقوّتهم، وجهز العساكر مع الأمير برسق صاحب همذان وبعث معه الأمير حيوس بك والأمير كسقري وعساكر الموصل والجزيرة، وأمرهم بغزو الإفرنج بعد الفراغ من شأن أبي الغازي وطغركين فساروا في رمضان سنة ثمان، وعبروا الفرات عند الرملة وجاؤا إلى حلب، وبها لؤلؤ الخادم بعد رضوان ومقدم العساكر شمس الخواص، وعرضوا عليهما كتب السلطان بتسليم البلد فدافعا بالجواب، واستنجدا أبا الغازي وطغركين فوصلا إليهما في ألفي فارس، وامتعا بها على العسكر فسار الأمير برسق إلى حماة من أعمال طغركين فملكها عنوة ونهبها ثلاثاً وسلمها للأمير قرجان صاحب حمص، بأمر السلطان بذلك في كل بلد يفتحونه فنفس عليه الأمراء ذلك وفسدت ضمائرهم.

وكان أبو الغازي وطغركين وشمس الخواص قد ساروا إلى إنْطاكِية مستنجدين بصاحبها روميل على مدافعتهم عن حماة فبلغهم فتحها، ووصل إليهم بانْطاكِية بقدوين ملك القدس وطرابلس وغيره من شياطين الإفرنج، واجتمعوا على افامية واتفقوا على مطاولة المسلمين إلى فصل الشتاء ليتفرقوا. فلما أظلّ الشتاء، والمسلمون مقيمون عاد أبو الغازي إلى ماردين وطغركين إلى دمشق والافرنج إلى بلادهم، وقصد المسلمون كفرطاب، وكانت هي وأفامية للافرنج فملكوها عنوة وفتكوا بالافرنج فيها وأسروا صاحبها. ثم ساروا إلى قلعة أفامية فاستعصت عليهم فعادوا إلى المعرة وهي للافرنج. وفارقهم الأمير حيوس بك إلى وادي مراغة فملكه، وسارت العساكر من المعرة إلى حلب، وأثقالهم ودوابهم وهم متلاصقون فوصلت مقدمتهم إلى الشام وخربوا الأبنية وكان روميل صاحب إنْطاكِية قد سار في خمسمائة فارس وألفي راجل للمدافعة عن كفرطاب، وأظلّ على خيام المسلمين قبل وصولهم فقتل من وجد بها من السوقة والغلمان، وأقام الإفرنج بين الخيام يقتلون كل من لحق بها، حتى وصل الأمير برسق وأخوه زنكي فصعدا ربوة هناك. وأحاط الفلّ من المسلمين به وعزم برسق على الاستماتة. ثم غلبه أخوه زنكي على النجاة فنجا فيمن معه، واتبعهم الإفرنج فرسخا ورجعوا عنه، وافترقت العساكر الإسلامية منهزمة إلى بلادها وأشفق أهل حلب وغيرها من بلاد الشام من الإفرنج بعد هذه الواقعة، وسار الإفرنج إلى رميلة من أعمال دمشق فملكوها، وبالغوا في تحصينها واعتزم طغركين على تخريب بلاد الإفرنج. ثم بلغه الخبر عن خلو رميلة من

الحامية فبادر إليها سنة تسع وملكها عنوة، وقاتل وأسر وغنم وعاد إلى دمشق. ولم تزل رميلة بيد المسلمين إلى أن حاصرها الإفرنج سنة عشرين وخمسمائة وملكوها والله أعلم.

وفاة ملك الإفرنج وأخبارهم بعده مع المسلمين

ثم توفي بقدوين ملك الإفرنج بالقدس آخر سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وكان قد زحف إلى ديار بكر طامعا في ملكها فانتهى إلى تنيس، وشج في الليل فانتقض عليه جرحه وعاد إلى القدس فمات. وعاد القمص صاحب الرها الذي كان أسره جكرمش وأطلقه جاولي، وكان حاضراً عنده لزيارة قمامة وكان أتابك طغركين قد سار لقتال الإفرنج، ونزل اليرموك فبعث إليه قمص في المهادنة فاشترط طغركين ترك المناصفة من جبل عردة إلى الغور فلم يقبل القمص فسار طغركين إلى طبرية. ونهب نواحيها، وسار منها إلى عسقلان. ولقي سبعة آلاف من عساكر مصر قد جاؤا في أثر بقدوين عندما ارتحل عن ديار بكر فاعلموا أن صاحبهم تقدّم إليهم بالوقوف عند أمر طغركين فشكر لهم ذلك وعاد إلى دمشق وأتاه الخبر بأنّ الإفرنج قصدوا أذرعات ونهبوها بعد أن ملكوا حصناً من أعماله فأرسل إليهم تاج الملك بوري في أثرهم فحاصرهم في جبل هناك، حتى يئسوا من أنفسهم. وصدقوا الحملة عليهم فهزموهم وأفحشوا في القتل، وعاد الفلّ إلى دمشق وسار طغركين إلى حلب يستنجد أبا الغازي فوعده بالمسير معه ثم جاء الخبر بأنّ الإفرنج قصدوا أعمال دمشق فنهبوا حوران واكتسحوها فرجع طغركين إلى دمشق، وأبو الغازي إلى ماردين إلى حشد العساكر وقصدوا الاجتماع على حرب الإفرنج. ثم سار الإفرنج سنة ثلاثة عشر إلى نواحي حلب فملكوا مراغة، ونازلوا المدينة فصانعهم أهلها بمقاسمتهم أملاكهم، وزحف أبو الغازي من ماردين في عشرين ألفا من العساكر والمتطوعة، ومعه أسامة بن مالك بن شيرز الكناني، والأمير طغان ارسلان بن افتكين بن جناح صاحب أرزن وسار الإفرنج إلى صنبيل عرمس قرب الأثارب فترلوا به في موضع منقطع المسالك، وعزموا على المطاولة فناجزهم أبو الغازي، وسار إليهم ودخل عليهم في مجتمعهم، وقاتلوه أشد القتال فلم يقاوموه وفتك بهم فتكة شنعاء. وقتل فيهم سرحان صاحب انْطاكِية وأسر سبعون من زعمائهم، وذلك منتصف ربيع من السنة ثم اجتمع فلّ الإفرنج

وعاودوا الحرب فهزمهم أبو الغازي وملك عليهم حصن الآت ربّ وزدنا ، وجاء إلى حلب فأصلح أحوالها وعاد إلى ماردين ثم سار جوسكين صاحب تل ناشر في مائتين من الإفرنج ليكبس حلة من أحياء طيء يعرفون ببني خالد فأغار عليهم وغنم أموالهم، ودلوه على بقية قومهم من بني ربيعة فيما بين دمشق وطبرية فبعث أصحابه إليهم، وسار هو من طريق آخر فضلّ عن الطريق، ووصل أصحابه إليهم، وأميرهم وعدة من ربيعة فقاتلهم وغلبهم، وقتل منهم سبعين وأسراثني عشر ففاداهم بمال جزيل من الأسرى، وبلغ إلى جوسكين في طريقه فعاد إلى طرابلس وجمع جمعا وأغار على عسقلان فهزمه المسلمون، وعاد مفلولا والله أعلم.

ارتجاع الرها من الإفرنج

ثم سار بهرام أخو أبي الغازي إلى مدينة الرها وحاصرها مدة فلم يظفر بها فرحل عنها. ولقيه النذير بأن جوسكين صاحب الرها وسروج قد سار لاعتراضه، وقد تفرق عن مالك أصحابه فاستجاب لما وصل إليه الإفرنج، ودفعهم لأرض سنجة فوصلت فيها خيولهم فلم يفلت منهم أحد، وأسر جوسكين وخاط عليه جلد جمل وفادى نفسه بأموال جليلة فأبى مالك من فديته إلا أن يسلم حصن الرها فلم يفعل، وحبسه في خرت برت، ومعه كلمام ابن خالته وكان من شياطينهم وجماعة من زعمائهم، والله تعالى أعلم وبه التوفيق.

استيلاء الإفرنج علي خرت برت وارتجاعها منهم

كان مالك بن بهرام صاحب خرت برت، وكان في جواره الإفرنج في قلعة كركر فحاصرهم بها، وسار بقدوين اليه في جموعه فلقيه في صفر سنة سبعة عشر فهزم الإفرنج، وأسر ملكهم وجماعة من زعمائهم وحبسهم مالك في قلعة خرت برت مع جوسكين صاحب الرها وأصحابه. وسار مالك إلى حران في ربيع الأول وملكها ولما غاب من خرت برت تحيل الإفرنج وخرجوا من محبسهم بمداخلة بعض الجند. وسار بقدوين إلى بلده، وملك الآخرون القلعة فعاد مالك إليهم وحاصرها وارتجعها من أيديهم، ورتب فيها الحامية، والله تعالى ولي التوفيق.

استيلاء الإفرنج على مدينة صور

كانت مدينة صور لخلفاء العلوية بمصر، وكان بها عز الملك من قبل الأفضل بن

أمير الجيوش المستبدّ على الأمر بمصر، وتجهز الإفرنج لحصارها سنة ست فاستمدّوا طغركين صاحب دمشق فأمدهم بعسكر ومال مع وال من قبله إسمه مسعود، فجاء إليها و لم يغير دعوة العلوية بها في خطبة ولا سكة. وكتب إلى الأفضل بذلك، وسأله تردّد الأسطول إليه بالمدد فأجابه وشكره. ثم قتل الأفضل، وجاء الأسطول إليها من مصر على عادته، وقد أمر مقدّمه أن يعمل الحيلة في القبض على مسعود الوالي بصور من قبل طغركين لشكوى أهل مصر منه فقبض عليه مقدم الأسطول وحمله إلى مصر، وبعثوا به إلى دمشق وأقام الوالي من قبل أهل مصر في مدينة صور، وكتب إلى طغركين بالعذر عن القبض على مسعود واليه وكان ذلك سنة ستة عشر. ولما بلغ الإفرنج إنصراف مسعود عن صور قوي طمعهم فيها وتجهزوا لحصارها. وبعث الوالي الأمير بذلك وبعجزه عن مقاومة حصارهم لها وسار طغركين إلى بانياس ليكون قريباً من صريخها، وبعث إلى أهل مصر يستنجدهم فراسل الإفرنج في تسليم البلد، وخروج من فيها فدخلها الإفرنج آخر جمادى الأولى من السنة بعد أن حمل أهلها ما أطاقوا وتركوا ما عجزوا عنه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتح البرسقي كفر طاب وإنهزامه من الإفرنج

ثم جمع البرسقي عساكره وسار سنة تسعة عشر إلى كفرطاب وحاصرها فملكها

من الإفرنج. ثم سار إلى قلعة أعزاز شمالي حلب وبها جوسكين فحاصرها واجتمع الإفرنج وساروا لمدافعته فلقيهم وقاتلهم شديدا فمحص الله المسلمين وانهزموا. وفتك النصارى فيهم، ولحق البرسقي بحلب فاستخلف بها إبنه مسعوداً وعبر الفرات إلى الموصل ليستمدّ العساكر ويعود لغزوهم فقضى الله بمقتله، وولي إبنه عز الدين

بعده قليلاً ثم مات سنة إحدى وعشرين، وولى السلطان محمود عماد الدين زنكي بن أقسنقر مكانه على الموصل والجزيرة وديار بكر كما مرّ في أخبار دولة السلجوقية. ثم استولى منها على الشام وأورث ملكها بنيه فكانت لهم دولة عظيمة بهذه

الأعمال نذكرها إن شاء الله تعالى. ونشأت عن دولتهم دولة بني أيوب وتفرّعت منها كما نذكره ونحن الآن نترك من أخبار الإفرنج هنا جميع ما يتعلق بدولة بني زنكي وبني أيوب حتى نوردها في أخبار تينك الدولتين لئلا تتكّرر الأخبار، ونذكر في هذا الموضع من أخبار الإفرنج ما ليس له تعلق بالدولتين فإذا طالعه المتأمل علم كيف يردّ كل خبر إلى مكانه بجودة قريحته وحسن تأنيه.

الحرب بين طغركين والافرنج

ثم إجتمعت الإفرنج سنة عشرين وخمسمائة، وساروا إلى دمشق ونزلوا مرج الصفر واستنجد طغركين صاحبها أمراء التركمان من ديار بكر وغيرها فجاؤا إليه، وكان هو قد سار إلى جهة الإفرنج آخر سنة عشرين،

وقاتلهم وسقط في المعترك فظنّ أصحابه أنه قتل فانهزموا وركب فرسه، وسار معهم منهزماً والإفرنج في إتباعهم وقد أثخنوا في رجالة التركمان، فلما أتبعوا المنهزمين خالف الرجالة إلى معسكرهم فنهبوا سوادهم وقتلوا من وجدوا فيه ولحقوا بدمشق. ورجع الإفرنج من المنهزمين فوجدوا خيامهم منهوبة فساروا منهزمين ثم كان سنة ثلاث وعشرين واقعة المزدغاني والإسماعيلية بدمشق بعد أن طمع الإفرنج في ملكها فأسف ملوك الإفرنج على قتله، وسار صاحب القدس وصاحب إنْطاكِية وصاحب طرابلس وغيرهم من القمامصة، ومن وصل في البحر للتجارة أو الزيارة، وساروا إلى دمشق في ألفي فارس ومن الرجال ما لا يحصى وجمع طغركين من العرب والتركمان ثمانية آلاف فارس، وجاء الإفرنج آخر السنة ونازلوا دمشق وبثوا سراياهم للإغارة بالنواحي وجمع الميرة، وسمع تاج الملك بسرية في حوران فبعث شمس الخواص من أمرائه، ولقوا سرية الإفرنج، وظفروا بهم وغنموا ما معهم وجاؤا إلى دمشق. وبلغ الخبر إلى الإفرنج فأجفلوا عن دمشق بعد أن أحرقوا ما تعذر عليهم حمله وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون. ثم أنّ إسمند صاحب إنْطاكِية سار إلى حصن القدموس وملكه، والله تعالى يؤيد من يشاء.

هزيمة صاحب طرابلس

ثم إجتمع سنة سبع وعشرين جمع كبير من تركمان الجزيرة، وأغاروا على بلاد طرابلس وقتلوا وغنموا فخرج إليهم القمص صاحبها فاستطردوا له. ثم كّروا عليه فهزموه ونالوا منه ونجا إلى

قلعة بقوين فتحصن بها، وحاصره التركمان فيها فخرج من القلعة ليلاً في عشرين من أعيان أصحابه، ونجا إلى طرابلس، واستصرخ الإفرنج من كل ناحية. وسار بهم إلى بقوين لمدافعة التركمان فقاتلهم حتى أشرف الإفرنج على الهزيمة. ثم تحيزوا إلى أرمينية، وتعذر على التركمان أتباعهم فرجعوا عنهم إنتهى.

فتح صاحب دمشق بانياس

كان بوري بن طغركين صاحب دمشق لما توفي سنة ست وعشرين وخمسمائة، وولي مكانه إبنه شمس الملوك إسماعيل فاستضعفه الإفرنج، وتعرضوا لنقض الهدنة. ودخل بعض تجار المسلمين إلى سروب فأخذوا أموالهم. وراسلهم شمس الملوك في ردّها عليهم فلم يفعلوا فتجهز وسار إلى بانياس في صفر سنة سبع وعشرين فنازلها وشدّد حصارها ونقب المسلمون سورها وملكوها عنوة واستلحموا الإفرنج بها. واعتصم فلهم بالقلعة حتى استأمنوا بعد يومين. وكان الإفرنج قد جمعوا لمدافعة شمس الملوك فجاءهم خبر فتحها فأقصروا.

استيلاء شمس الملوك على الشقيف

ثم سار شمس الملوك إسمعيل صاحب دمشق إلى شقيف بيروت وهو في الجبل المطلّ على بيروت وصيدا، وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم وهو ممتنع به. وقد تحاماه المسلمون والإفرنج وهو يحتمي من كل منهما بالآخر، فسار إليه شمس الملوك وملكه في المحرّم سنة ثمان وعشرين. وعظم ذلك على الإفرنج، وخافوا شمس الملوك فساروا إلى بلد حوران وعاثوا في جهاتها. ونهض شمس الملوك ببعض عساكره، وجمر الباقي قبالة الإفرنج، وقصد طبرية والناصرة وعكا فاكتسح نواحيها. وجاء الخبر إلى الإفرنج فأجفلوا إلى بلادهم، وعظم عليهم خرابها وراسلوا شمس الملوك في تجديد الهدنة فجدّدها لهم إنتهى والله أعلم.

استيلاء الإفرنج على جزيرة جربة من أفريقية

كانت جزيرة جربة من أعمال أفريقية ما بين طرابلس وقابس، وكان أهلها من قبائل البربر قد إستبدّوا بجزيرتهم عندما دخل العرب الهلاليون أفريقية، ومزقوا ملك صنهاجة بها. وقارن ذلك استفحال ملك الإفرنج برومة وما إليها من البلاد الشمالية. وتطاولوا إلى ملك بلاد المسلمين فسار ملكهم بردويل فيمن معه من زعمائهم وأقماصهم إلى الشام فملكوا مدنه وحصونه كما ذكرناه آنفا وكان من ملوكهم القمص رجار بن نيغر بن خميرة، وكان كرسيه مدينة ميلكوا مقابل جزيرة صقلية. ولما ضعف أمر المسلمين بها وانقرضت دولة بني أبي الحسين الكلبي منها سما رجار هذا إلى ملكها وأغراه المتغلبون بها على بعض نواحيها فأجاز إليها عساكره في الأسطول في سبيل التضريب بينهم ثم ملكها من أيديهم معقلاً معقلاً إلى أن كان آخرها فتخاطر إبّنه وما زرعة من يد عبد الله بن الجواس أحد الثوار بها فملكها من يده صلحاً سنة أربع وستين وأربعمائة، وإنقطعت كلمة الإسلام بها. ثم مات رجار سنة أربع وتسعين فولى إبنه رجار مكانه، وطالت أيامه واستفحل ملكه، وذلك عندما هبت ريح الإفرنج بالشام، وجاسوا خلالها وصاروا يتغلبون على ما يقدرون عليه من بلاد المسلمين وكان رجار بن رجار يتعاهد سواحل أفريقية بالغزو فبعث سنة ثلاث وخمسين أسطول صقلية إلى جزيرة جربة، وقد تقلص عنها ظلّ الدولة الصنهاجية فأحاطوا بها وإشتدّ القتال. ثم اقتحموا الجزيرة عليهم عنوة وغنموا وسبوا واستأمن الباقون، وأقرّهم الإفرنج في جزيرتهم على جزية، وملكوا عليهم أمرهم والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

فتح صاحب دمشق بعض حصون الإفرنج:

ثم بعث شمس الملوك إسمعيل صاحب دمشق عساكره مع الأمير خزواش سنة إحدى وثلاثين إلى طرابلس الشام، ومعه جمع كثير من التركمان والمتطوعة. وسار إليه القمص صاحب طرابلس فقاتلوه وهزموه وأثخنوا في عساكره، وأحجزه بطرابلس وعاثوا في أعماله وفتحوا حصن وادي ابن الأحمر من حصونه عنوة، واستباحوه واستلحموا من فيه من الإفرنج. ثم سار الإفرنج سنة خمس وثلاثين إلى عسقلان وأغاروا في نواحيها. وخرج إليهم عسكر مصر الذين بها فهزموا الإفرنج، وظفروا بهم وعادوا منهزمين، وكفى الله شرهم بمنه وكرمه.

استيلاء الإفرنج علي طرابلس الغرب:

كان أهل طرابلس الغرب لما أنحلّ نظام الدولة الصنهاجية بأفريقية وتقلص ظلها

عنهم قد استبدّوا بأنفسهم، وكان بالمهدية آخر الملوك من بني باديس، وهو الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز فاستبدّ لعهده في طرابلس أبو يحيى بن مطروح، ورفضوا دعوة الحسن وقومه. وذلك عندما تكالب الإفرنج على الجهات فطمع رجار في ملكها. وبعث أسطوله في البحر فنازلها آخر سنة سبع وثلاثين وخمسمائة فنقبوا سورها. وإستنجد أهلها بالعرب فأنجدوهم وخرجوا إلى الإفرنج فهزموهم، وغنموا أسلحتهم ودوابهم. ورجع الإفرنج إلى صقلية فتجهزوا إلى المغرب، وطرقوا جيجيل من سواحل بجاية. وهرب أهلها إلى الجبل ودخلوها فنهبوها وخربوا القصر الذي بناه بها يحيى بن العزيز بن حماد ويسمى النزهة، ورجعوا إلى بلادهم. ثم بعث رجار أسطوله إلى طرابلس سنة إحدى وأربعين فأرسى عليها ونزل المقاتلة وأحاطوا بها براً وبحراً وقاتلوها ثلاثاً وكان أهل البلد قد إختلفوا قبل وصول الإفرنج وأخرجوا بني مطروح، وولوا عليهم رجلاً من أمراء لمتونة قام حاجا في قومه فولوه أمرهم فلما شغل أهل البلد بقتال الإفرنج، إجتمعت شيعة بني مطروح وأدخلوهم للبلد. ووقع بينهم القتال فلما شعر الإفرنج بأمرهم بادروا إلى الأسوار فنصبوا عليها السلالم، وتسنموها وفتحوا البلد عنوة، وأفحشوا في القتل والسبي والنهب ونجا كثير من أهلها إلى البربر والعرب في نواحيها. ثم رفعوا السيف ونادوا بالأمان فتراجع المسلمون إلى البلد، وأقروهم على الجزية وأقاموا بها ستة أشهر حتى أصلحوا أسوارها وفنادقها، وولوا عليها ابن مطروح وأخذوا رهنه على الطاعة، ونادوا في صقلية بالمسير إلى طرابلس فسار إليها الناس وحسنت عمارتها.

استيلاء الإفرنج على المهدية:

كانت قابس عندما إختلّ نظام الدولة الصنهاجية واستبدّ بها ابن كامل بن جامع من قبائل رياح، إحدى بطون هلال الذين بعثهم الجرجرائي وزير المستنصر بمصر على المعز بن باديس وقومه فأضرعوا الدولة، وأفسدوا نظامها وملكوا بعض أعمالها واستبدّ آخرون من أهل البلاد بمواضعهم فكانت قابس هذه في قسمة بني دهمان هؤلاء وكان لهذا العهد

رشيد أميراً بها كما ذكرنا ذلك في أخبار الدولة الصنهاجية من أخبار البربر. وتوفي رشيد سنة إثنتين وأربعين وخمسمائة ونصب مولاه يوسف إبنه الصغير محمد بن رشيد، وأخرج إبنه الكبير معمراً وإستبد على محمد

وتعرض لحرمه سرّاً. وكان فيهن امرأة رشيد، وساروا إلى التمحض، بصاحب المهدية يشكون فعله وكاتبه الحسن في ذلك فلم يجبه، وهدّده بإدخال الإفرنج إلى قابس فجهز إليه العساكر. وبعث يوسف إلى رجار صاحب طرابلس بطاعته، وأن يوليه على قابس كما ولى ابن مطروح على طرابلس. وشعر أهل البلد بمداخلته للإفرنج فلما وصل عساكر الحسن ثاروا به معهم، وتحصن يوسف بالقصر فملكوه عنوة، وأخذ يوسف أسيراً وملك معمر قابس مكان أخيه محمد. وامتحن يوسف بأنواع العذاب إلى أن هلك، وأخذ بنو قرة أختهم، ولحق عيسى أخو يوسف وولد يوسف برجار صاحب صقلية واستجاروا به وكان الغلاء قد اشتدّ بأفريقية سنة سبع وثلاثين ولحق أكثر أهلها بصقلية، وأكل بعضهم بعضاً وكثر الموتان فاغتنم رجار الفرصة ونقض الصلح الذي كان بينه وبين الحسن بن علي صاحب المهدية لسنين. وجهز أسطوله مائتين وخمسين من الشواني وشحنها بالمقاتلة والسلاح، ومقدّم الأسطول جرجي بن ميخاييل أصله من المتنصرة، وقد ذكرنا خبره في أخبار صنهاجة والموحدين فقصد قوصرة وصادف بها مركباً من المهدية فغنمه ووجد عندهم حمام البطاقة فبعث الخبر إلى المهدية على أجنحتها بأن أسطول الإفرنج أقلع إلى القسطنطينية. ثم أقلع فأصبح قريباً من المرسى في ثامن صفر سنة ثلاث وأربعين، وقد بعث الله الريح فعاقتهم عن دخول المرسى ففاته غرضه وكتب إلى الحسن بأنه باق على الصلح، وإنما جاء طالباً بثأر محمد بن رشيد ورده إلى بلده قابس فجمع الحسن الناس، واستشارهم فأشاروا بالقتال فخام عنه وإعتذربقلة الأقوات وارتحل من البلد، وقد حمل ما خف حمله، وخرج الناس بأهاليهم وما خف من أموالهم، واختفى كثير من المسلمين في الكنائس. ثم ساعد الريح أسطول الإفرنج ووصلوا إلى المرسى ونزلوا إلى البلد من غير مدافع. ودخل جرجي القصر فوجده على حاله مملوءاً بالذخائر النفيسة التي يعز وجود مثلها. وبعث بالأمان إلى كلّ من شرد من أهلها فرجعوا وأقرهم على الجزية. وسار الحسن بأهله وولده إلى المعلقة وبها محرز بن زياد من أمراء الهلاليين، ولقيه في طريقه حسن بن ثعلب من أمراء الهلاليين بمال إنكسر له في ديوانه فأخذ إبنه يحيى رهينة به ولما وصل محرز بن زياد أكرم لقاءه وبرمقدمه، جزاء بما كان يؤثره على العرب ويرفع محله وأقام عنده شهراً. ثم عزم على المسير إلى مصر، وبها يومئذ الحافظ فأرصد له جرجي الشواني في البحر

فرجع عن ذلك، وإعتزم على قصد عبد المؤمن من ملوك الموحدين بالمغرب، وفي طريقه يحيى بن عبد العزيز ببجاية من بني عمه حماد فأرسل إليه أبناءه يحيى وتميماً وعلياً يستأذنه في الوصول فأذن له. وبعث إليه من أوصله إلى جزائر بني مذغنة، ووكل به وبولده حتى ملك عبد المؤمن بجاية سنة أربع وأربعين وخبرهم مشروع هنالك ثم جهز جرجي أسطولاً آخر إلى صفاقس، وجاء العرب لإنجادهم فلما توافوا للقتال استطرد لهم الإفرنج غير بعيد فهزموهم. ومضى العرب عنهم، وملك الإفرنج المدينة عنوة ثالث عشر صفر، وفتكوا فيها ثم أمنوهم وفادوا وأسراهم وأقروهم على الجزية وكذا أهل سوسة. وكتب رجار صاحب صقلية إلى أهل سواحل أفريقية بالأمان والمواعد. ثم سار جرجي إلى إقليبية من سواحل تونس، واجتمع إليها العرب فقاتلوا الإفرنج وهزموهم ورجعوا خائبين إلى المهدية. وحدثت الفتنة بين رجار صاحب صقلية وبين ملك الروم

بالقسطنطينية فشغل رجار بها عن أفريقية. وكان متولي كبرها جرجي بن ميخاييل صاحب المهدية. ثم مات سنة ست وأربعين فسكنت تلك الفتنة، ولم يقم لرجار بعده أحد مقامه، والله تعالى أعلم.

استيلاء الإفرنج على بونة ووفاة رجار صاحب صقلية وملك إبنه غليالم:

ثم سار أسطول رجار من صقلية سنة ثمان وأربعين إلى مدينة بونة، وقائد الأسطول بها وقتات المهدوي فحاصرها واستعان عليها بالعرب فملكها واستباحها، وأغضى عن جماعة من أهل العلم والدين فخرجوا بأموالهم وأهاليهم إلى القرى. وأقام بها عشرا ورجع إلى المهدية، ثم إلى صقلية فنكر عليه رجار رفقه بالمسلمين في بونة وحبسه. ثم إتهم في دينه فاجتمع الأساقفة والقسوس وأحرقوه. ومات رجار آخر هذه السنة لعشرين سنة من ملكه وولي إبنه غليالم مكانه. وكان حسن السيرة واستوزر مائق البرقياني فأساء التدبير، واختلفت عليه حصون من صقلية وبلاد قلورية، وتعدّى الأمراء على أفريقية على ما سيأتي إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم.

استيلاء الإفرنج علي عسقلان:

كانت عسقلان في طاعة الظافر العلوي ومن جملة ممالكه وكان الإفرنج يتعاهدونها بالحصار مرة بعد مرة. وكان الوزراء يمدّونها بالأموال والرجال والأسلحة. وكان لهم التحكم في الدولة على الخلفاء العلوية فلما قتل ابن السلار سنة ثمان وأربعين إضطرب الحال بمصر، حتى ولي عباس الوزارة فسار الإفرنج خلال ذلك من بلادهم بالشام وحاصروا عسقلان وامتنعت عليهم ثم اختلف أهل البلد وآل أمرهم إلى القتال فاغتنم الإفرنج الفرصة، وملكوا البلد وعاثوا فيها، والله يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

ثورة المسلمين بسواحل أفريقية على الإفرنج المتغلبين فيها:

قد تقدّم لنا وفاة رجار وملك إبنه غليالم، وإنه ساء تدبير وزيره فاختلف عليه الناس وبلغ ذلك المسلمين الذين تغلبوا عليهم بافريقية. وكان رجار قد ولى على المسلمين بمدينة صفاقس لما تغلب عليها أبو الحسن الفرياني منهم، وكان من أهل العلم والدين. ثم عجز عن ذلك، وطلب ولاية إبنه عمر فولاه رجار، وحمل أبا الحسين إلى صقلية رهينة، وأوصى إبنه عمر وقال: يا بني أنا كبير السنّ، وقد قرب أجلي فمتى أمكنتك الفرصة في إنقاذ المسلمين من ملكة العدو فافعل، ولا تخش علي وأحسبني قدمت. فلما اختل أمر غليالم دعا عمر أهل صفاقس إلى الثورة بالإفرنج فثاروا بهم، وقتلوهم سنة إحدى وخمسين، وأتبعه أبو يحيى بن مطروح بطرابلس، ومحمد بن رشيد بقابس. وسار عسكر عبد المؤمن إلى بونة فملكها، وذهب حكم الإفرنج عن أفريقية ما عدا المهدية وسوسة وأرسل عمر الفرياني إلى زويلة قريباً من المهدية يغريهم بالوثوب على الإفرنج الذين معهم فوثبوا، وأعانهم أهل ضاحيتهم، وقاتلوا الإفرنج بالمهدية، وقطعوا الميرة عنهم. وبلغ الخبر إلى غليالم فبعث إلى عمر الفرياني بصفاقس، وأعذر إليه في أبيه فأظهر للرسول جنازة ودفنها وقال: هذا قد دفنته فلما رجع الرسول بذلك صلب أبا الحسين، ومات شهيداً رحمه الله تعالى. وسار أهل صفاقس والعرب إلى زويلة واجتمعوا مع أهلها على حصار المهدية وأمدّهم غليالم بالأقوات والأسلحة،

وصانعوا العرب بالمال على أن يخذلوا أصحابهم ثم خرجوا للقتال فانهزم العرب وركب أهل صفاقس البحر إلى بلدهم أيضاً وأتبعهم الإفرنج فعاجلوهم عن زويلة وقتلوهم ثم إقتحموا البلد فقتلوا مخلفهم بها واستباحوه.

إرتجاع عبد المؤمن المهدية من يد الإفرنج:

ولما وقع بأهل زويلة من الإفرنج ما وقع لحقوا بعبد المؤمن ملك المغرب يستصرخونه فأجاب صريخهم ووعدهم وأقاموا في نزله وكرامته وتجهز للمسير، وتقدّم إلى ولاته وعماله بتحصيل الغلات وحفر الآبار. ثم سار في صفر سنة أربع وخمسين في مائة ألف مقاتل، وفي مقدمته الحسن بن عليّ صاحب المهدية، ونازل تونس منتصف السنة وبها صاحبها أحمد بن خراسان من بقية دولة صنهاجة وجاء أسطول عبد المؤمن فحاصرها من البحر. ثم نزل إليه من سورها عشرة رجال من أعيانها في السلام مستأمنين لأهل البلد ولأنفسهم فأمنهم على مقاسمتهم في أموالهم، وعلى أن يخرج إليه ابن خراسان فتم ذلك كله. وسار عنها إلى المهدية وأسطوله محاذيه في البحر فوصلها منتصف رجب من السنة، وبها أولاد الملوك والزعماء من الإفرنج وقد أخلوا

زويلة وهي على غلوة من المهدية فعمرها عبد المؤمن لوقتها. وامتلأ فضاء المهدية بالعساكر وحاصرها أياماً وضاق موضع القتال من البّر لاستدارة البحر عليها لأنها صورة يد في البحر وذراعها في البر، وأحاط الأسطول بها في البحر وركب عبد المؤمن البحر في الشواني ومعه الحسن بن عليّ فرأى حصانتها في البحر وأخذ في المطاولة، وجمع الأقوات حتى كانت في ساحة معسكرة كالتلال وبعث إليه أهل صفاقس وطرابلس وجبال نفوسة بطاعتهم وبعث عسكراً إلى قابس

فملكها عنوة وبعث إبنه عبد الله ففتح كثيراً من البلاد ثم وفد عليه يحيى بن تميم بن المقر بن الرند صاحب قفصة في جماعة من أعيانها فبذل طاعته، ووصله عبد المؤمن بألف دينار ولما كان آخر شعبان وصل أسطول صقلية في مائة وخمسين من الشواني غير الطرائد كان في جزيرة يابسة فاستباحها، وبعث إليه صاحب صقلية بقصد المهدية. فلما أشرفوا على المرسى قذفت إليهم أساطيل عبد المؤمن، ووقف عسكره على جانب البرّ وعبد المؤمن ساجد يعفر وجهه بالتراب ويجأر بالدعاء فانهزم أسطول الإفرنج وأقلعوا إلى بلادهم وعاد أسطول المسلمين ظافراً. وأيس أهل المهدية من الإنجاد، ثم صابروا إلى آخر السنة حتى جهدهم الحصار ثم استأمنوا إلى عبد المؤمن فعرض عليهم الإسلام فأبوا ولم يزالوا يخضعون له بالقول حتى أمنهم وأعطاهم السفن فركبوا فيها وكان فصل شتاء فمال عليهم البحر وغرقوا ولم يفلت منهم إلا الأقل ودخل عبد المؤمن المهدية في محرم سنة خمس وخمسين لاثنتي عشرة سنة من ملك الإفرنج، وأقام بها عشرين يوماً فأصلح أمورها وشحنها بالحامية والأقوات، واستعمل عليها بعض أصحابه، وأنزل معه الحسن بن علي وأقطعه بأرضها له ولأولاده، وأمر الوالي أن يقتدي برأيه، ورجع إلى المغرب، والله تعالى أعلم.

حصار الإفرنج أسد الدين شيركوه في بلبيس:

كان أسد الدين شيركوه بن شادي عم صلاح الدين قد بعثه نور الدين العادل سنة تسع وخمسمائة، منجداً لشاور وزير العاضد صاحب مصر على قريعة الضرغام كما سيأتي في أخبارهم إن شاء الله تعالى. وسار نور الدين من دمشق في عساكره إلى بلاد الإفرنج ليشغلهم عن أسد الدين شيركوه وخرج ناصر الدين أخو الضرغام في عساكر مصر فهزمه أسد الدين

على تنيس وأتبعه إلى القاهرة ونزلها منتصف السنة وأعاد شاور إلى الوزارة ونقض ما بينه وبين أسد الدين وتأخر إلى تنيس. وخشي منه ودس إلى الإفرنج يغريهم به، وبذل لهم المال فطمعوا بذلك في ملك الديار المصرية وسار ملك القدس في عساكر الإفرنج، وإجتمعت معه عساكر المسلمين. وساروا إلى أسد الدين فحاصروه في بلبيس ثلاثة، ولم يظفروا منه بشيء. ثم جاءهم الخبر بأن نور الدين العادل هزم أصحابهم على خارد وفتحها.ثم سار إلى بانياس فسقط في أيديهم وطلبوا الصلح من أسد الدين ليعودوا إلى بلادهم لذلك، وخرج من بلبيس سائراً إلى الشام. ثم عاد إلى مصر سنة إثنتين وستين وعبر النيل من أطفج ونزل الجزيرة. واستمد شاور الإفرنج فساروا إليه بجموعهم. وكان أسد الدين قد سار إلى الصعيد، وانتهى إلى فسار الإفرنج والعساكر المصرية في أثره فأدركوه منتصف السنة، وإستشار أصحابه فاتفقوا على القتال، وأدركته عساكر الإفرنج ومصر، وهو على تعبيته، وقد أقام مقامه في القلب راشد حذرا من حملة الإفرنج وانحاز فيمن يثق به من شجعان أصحابه إلى الميمنة فحمل الإفرنج على القلب فهزموهم وأتبعوهم وخالفهم أسد الدين إلى من تركوا وراءهم من العساكر فهزمهم وأثخن فيهم ورجع الإفرنج من أثناء القلب فانهزموا وإنهزم أصحابهم، ولحقوا بمصر. ولحق أسد الدين بالاسكندرية فملكها صلحاً، وأنزل بها صلاح الدين ابن أخيه، وحاصرته عساكر الإفرنج ومصر وزحف إليهم عمه أسد الدين من الصعيد فبعثوا إليه في الصلح فأجابهم على خمسين ألف دينار يعطونها إياه، ولا يقيم في البلد أحد من الإفرنج، ولا يملكون منها شيئاً فقبلوا ذلك وعادوا إلى الشام. وملك أهل مصر الاسكندرية، واستقر بينهم وين الإفرنج أن يترلوا بالقاهرة شحنة، وأن يكون أبوابها في علقها وفتحها بأيديهم وأن لهم من خراج مصر مائة ألف دينار في كل سنة ولم ذلك منه وعاد الإفرنج إلى بلادهم بالسواحل الشامية والله تعالى أعلم.

حصار الإفرنج القاهرة:

ثم كان مسير أسد الدين إلى مصر وقتله شاور سنة أربع وستين باستدعاء العاضد، لما رأى من تغلب الإفرنج كما نذكر في أخبار أسد الدين. وأرسل إلى الإفرنج أصحابهم الذين بالقاهرة

يستدعونهم لملكها ويهونونها عليهم وملك الإفرنج يومئذ بالشام مرى ولم يكن ظهر فيهم مثله شجاعة ورأيا فأشار بأن جبايتها لنا خير من ملكها. وقد يضطرون فيملكون نور الدين منها، وإن ملكها قبلنا إحتاج إلى مصانعتنا فأبوا عليه وقالوا: إنما نزداد بها قوة فرجع إلى رأيهم. وساروا جميعاً إلى مصر، وانتهوا إلى تنيس في صفر سنة أربع وستين فملكوها عنوة واستباحوها ثم ساروا إلى القاهرة وحاصروها وأمر شاور بإحراق مصر وانتقال أهلها إلى القاهرة، فنهبت المدينة، ونهب أموال أهلها وبغتهم قبل نزول الإفرنج عليهم بيوم فلم تخمد

النار مدة شهرين. وبعث العاضد بالصريخ إلى نور الدين واشتدّ عليه الحصار. وبعث شاور إلى ملك الإفرنج يشير بالصلح على ألف ألف دينار مصرية، ويهدّده بعساكر نور الدين فأجابوا إلى ذلك ودفع إليهم مائة ألف دينار وتأخروا قريباً حتى يصل إليهم بقية المال، وعجز عن تحصيله والافرنج يستحثونه فبعثوا خلال ذلك إلى نور الدين يستنجدونه على الإفرنج بأن يرسل إليهم أسد الدين شيركوه في عسكر يقيمون عندهم، على أنّ لنور الدين ثلث بلاد مصر، ولأسد الدين إقطاعه وعطاء العساكر فاستدعى أسد الدين من حمص، وكانت إقطاعه. وأمر بالتجهز إلى مصر وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الدواب والأسلحة، وحكمه في العساكر والخزائن وما يحتاج إليه وسار في ستة آلاف وأزاح علل جنده، وأعانهم أسد الدين بعشرين دينارا لكل فارس. وبعث معه جماعة من الأمراء: منهم خرديك مولاه وعز الدين قليج، وشرف الدين بن بخش وعين الدولة الباروقي وقطب الدين نيال بن حسان، وصلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب. وسار إلى مصر فلما قاربها إرتحل الإفرنج راجعين إلى بلادهم، ودخل هو إليها منتصف السنة، وخلع عليه العاضد وأجرى عليه وعلى عسكره الجرايات الوافرة ثم شرع شاور في مماطلة أسد الدين

بما وقع إتفاقهم معه عليه، وحدّث نفسه بالقبض عليه واستخدام جنده لمدافعة الإفرنج ولم يتم له ذلك. وشعر به أسد الدين فاعترضه صلاح الدين ابن أخيه، وعز الدين خرديك مولاه عند قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه وقتلاه وفوّض العاضد أمور دولته إلى أسد الدين وتقاصر الإفرنج عنها. ومات أسد الدين واستولى صلاح الدين بعد ذلك على البلاد وارتجع البلاد الإسلامية من يد الإفرنج كما نذكر في أخبار دولته والله أعلم.

حصار الإفرنج دمياط:

ولما ملك أسد الدين شيركوه مصر خشية الإفرنج على ما بأيديهم من مدن الشام وسواحله، وكاتبوا أهل ملتهم ونسبهم بصقلية وافرنسة يستنجدونهم على مصر ليملكوها، وبعثوا الأقسة والرهبان من بيت المقدس يستنفرونهم لحمايتها وواعدوهم بدمياط طمعا في أن يملكوها ويتخذوها ركابا للاستيلاء على مصر فاجتمعوا عليها وحاصروها لأول أيام صلاح الدين وأمدهم صلاح الدين بالعساكر والأموال. وجاء بنفسه، وبعث إلى نور الدين يستنجده ويخوفه على مصر فتابع إليه الأمداد، وسار بنفسه إلى بلاد الإفرنج بالشام. واكتسحها وخربها

فعاد الفرنج إلى دمياط بعد حصار خمسين يوما نفَسّ الله عليهم ومن هذه القصة بقية أخبار الإفرنج متعلقة بالدولتين: دولة بني زنكي بالشام ودولة بني أيوب بمصر فأخرت بقية أخبارهم إلى أن نسردها في الدولتين على مواقعها في مواضعها حسبما تراه. ولم يبق إلا استيلاؤهم على القسطنطينية من يد الروم فأوردناه ههنا.

استيلاء الإفرنج علي القسطنطينية:

كان هؤلاء الإفرنج بعد ما ملكوه من بلاد الشام اختلفت أحوالهم في الفتنة والمهادنة

مع الروم بالقسطنطينية، لاستيلائهم على الثغور من بلاد المسلمين التي تجاور الروم التي كانت بأيديهم من قبل وظاهرهم الروم على المسلمين في بعض المرات ثم غلبوا عليهم آخراً . وملكوا القسطنطينية من أيديهم فأقامت

في أيديهم مدة. ثم ارتجعها الروم على يد شكري من بطارقتهم وكيفية الخبر عن ذلك أنّ ملوك الروم أصهروا إلى ملوك الإفرنج وتزوجوا منهم بنتاً لملك الروم فولدت ذكرا خاله الافرنسيس وثب عليه أخوه فانتزع الملك من يده وحبسه، ولحق الولد بملك الإفرنج خاله مستصرخاً به فوصل إليه، وقد تجهز الإفرنج لاستنقاذ القدس من يد المسلمين. وكان صلاح الدين قد ارتجعها منهم كما يأتي في أخباره إن شاء الله تعالى. وانتدب لذلك ثلاثة من ملوكهم دموس البنادقة وهو صاحب الأسطول الذي ركبوا فيه وكان

شيخا أعمى لا يركب ولا يمشي إلا بقائد. ومقدم الفرنسيس ويسمى المركيش، والثالث يسمى كبداقليد وهو أكثرهم عددا فجعل الملك ابن أخته معهم، وأوصاهم بمظاهرته على ملكه بالقسطنطينية، ووصلوا إليها في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وخمسمائة، فخرج عمّ الصبي وقاتلهم. واضرم شيعة الصبي النار في نواحي البلاد فاضطرب العسكر ورجعوا، وفتح شيعة الصبي باب المدينة، وأدخلوا الإفرنج. وخرج عمه هارباً ونصب الإفرنج الصبي في الملك، وأطلقوا أباه من السجن واستبدوا بالحكم وصادروا الناس وأخذوا مال البيع، وما على الصلبان من الذهب، وما على تماثيل المسيح والحواريين، وما على الإنجيل فعظم ذلك على الروم ووثبوا بالصبي فقتلوه، وأخرجوا الإفرنج من البلد، وذلك منتصف سنة ستمائة. وأقام الإفرنج بظاهرها محاصرين لهم. وبعث الروم صريخا إلى صاحب قونية ركن الدين سليمان بن قليج ارسلان، ينهض لذلك وكان بالمدينة متخلفون من الإفرنج يناهزون ثلاثين ألفاً فثاروا بالبلد عند شغل الروم بقتال أصحابهم، وأضرموا النار ثانياً فاقتحم الإفرنج وأفحشوا في النهب والقتل. ونجا كثير من الروم إلى الكنائس وأعظمها كنيسة سوميا فلم تغن عنهم. وخرج القسيسون والأساقفة في أيديهم الإنجيل والصلبان فقتلوهم. ثم تنازع الملوك الثلاثة على الملك بها، وتقارعوا فخرجت القرعة على كبداقليد فملكها على أن يكون لدموس البنادقة الجزائر البحرية اقريطش ورودس وغيرهما. ويكون لمركيش الافرنسيس شرقي الخليج، ولم يحصل أحد منهم شيئا إلا ملك القسطنطينية كبداقليد وتغلب على شرقي الخليج بطريق من بطارقة الروم اسمه شكري فلم يزل بيده إلى أن مات. ثم غلب بعد ذلك على القسطنطينية وملكها من يد الإفرنج، والله غالب على أمره.

الخبر عن دولة بني أرتق وملكهم لماردين وديار بكر ومبادي أمورهم وتصاريف أحوالهم:

كان أرتق بن أكسك ويقال اكست، والأول أصح. كلمة أولها همزة ثم كافان الأولى ساكنة بينهما سين، من مماليك السلطان ملك شاه بن ألب ارسلان ملك السلجوقية، وله مقام محمود في

دولتهم وكان على حلوان وما إليها من أعمال العراق. ولما بعث السلطان ملك شاه عساكره إلى حصار الموصل مع فخر الدولة بن جهير سنة سبع وسبعين وأربعمائة أردفة بعسكر آخر مع أرتق فهزمه مسلم بن قريش فحاصره بآمد. ثم داخله في الخروج من هذا الحصار على مال اشترطه، ونجا إلى الرقة. ثم خشي أرتق من فعلته تلك فلحق بتتش حتى سار إلى حلب طامعاً في ملكها فلقيه تتش وهزمه. وكان لأرتق في تلك الواقعة المقام المحمود. ثم سار تتش إلى حلب وملكها، واستجار مقدمها ابن الحسين بأرتق فأجاره من السلطان تتش. ثم هلك ارتق سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة بالقدس. وملك من بعد ابنا ارتق ابن أخيهما أبو الغازي

وسقمان. وكان لهما معه الرها وسروج. ولما ملك الإفرنج أنْطاكِية سنة إحدى وتسعين وأربعمائة اجتمعت الأمراء بالشام والجزيرة وديار بكر وحاصروها. وكان لسقمان في ذلك المقام المحمود. ثم تخاذلوا وافترقوا وطمع أهل مصر في ارتجاع القدس منهم. وسار إليها الملك الأفضل المستولي على دولتهم فحاصرها أربعين يوما وملكها بالأمان. وخرج سقمان وأبو الغازي ابنا ارتق وابن أخيهما ياقوتي وابن عمهما سونج، وأحسن إليهم الأفضل وولى على بيت المقدس ورجع إلى مصر. وجاء الإفرنج فملكوها كما تقدم في أخبار الدولة السلجوقية. ولحق أبو الغازي بالعراق فولي شحنة بغداد، وسار سقمان إلى الرها فأقام بها وكان بينه وبين كربوقا صاحب الموصل فتن وحروب أسر في بعضها ياقوتي ابن أخيه. ثم توفي كربوقا سنة خمسة وتسعين وولي الموصل بعده موسى التركماني وكان نائباً بحصن كيفا فزحف إليه جكرمس صاحب جزيرة ابن عمر وحاصره بالموصل واستنجد موسى سقمان على أن يعطيه حصن كيفا فانجده وسار إليه وأفرج عنه جكرمس وخرج موسى للقاء سقمان فقتله مواليه غدراً، ورجع سقمان إلى حصن كيفا فملكه ثم كانت الفتنة بين أبي الغازي وكمستكين القيصري لما بعثه بركيارق شحنة على بغداد وكان هو شحنة من قبل السلطان محمد فمنع القيصري من الدخول واستنجد أخاه سقمان فجاء إليه

من حصن كيفا في عساكره ونهب تكريت وخرج إليه أبو الغازي، واجتمع معهم صدقة بن مزيد صاحب الحلة، وعاثوا في نواحي بغداد وفتكوا بنفر من أهل البلد وبعث إليهم الخليفة في الصلح على أن يسير القيصري إلى واسط فسار إليها ودخل أبو الغازي بغداد، ورجع سقمان إلى بلده وقد مرّ ذلك في أخبارهم ثم استولى مالك بن بهرام أخي سقمان على عامّة الخزمية سنة سبع وتسعين، وكان له مدينة سروج فملكها منه الإفرنج، وسار إلى غانة فملكها من بني يعيش بن عيسى بن خلاط. واستصرخوا بصدقة بن مزيد، وارتجعها لهم منه، وعاد إلى الحلة فعاد مالك فملكها واستقرّت في ملكه. ثم اجتمع سقمان وجكرمس صاحب الموصل على جهاد الإفرنج سنة سبع وتسعين، وهم محاصرون حران فتركوا المنافسة بينهم وقصدوهم وسقمان في سبعة آلاف من التركمان فهزموا الإفرنج، وأسروا القمص بردويل صاحب الرها، أسره أصحاب سقمان فتغلب عليهم أصحاب جكرمس وأخذوه، وافترقوا بسبب ذلك وعادوا إلى ما كان بينهم من الفتن، والله أعلم.

استيلاء سقمان بن ارتق علي ماردين:

كان هذا الحصن ماردين من ديار بكر، وأقطعه السلطان بركيارق بجميع أعماله

لمغن كان عنده، وكان في ولاية الموصل، وكان ينجّر إليه خلق كثير من الأكراد يفسدون السابلة. واتفق ان كربوقا صاحب الموصل سار لحصار آمد، وهي لبعض التركمان، فاستنجد صاحبها بسقمان فسار لإنجاده، وقاتل كربوقا قتالا شديداً. ثم هزمه وأسر ابن أخيه ياقوتي بن ارتق وحبسه بقلعة

ماردين عند المغني فبقي محبوساً مدة طويلة، وكثر ضرر الأكراد فبعث ياقوتي إلى المغني صاحب الحصن في أن يطلقه، ويقيم عنده بالربض لدفاع الأكراد ففعل، وصار يغير عليهم في سائر النواحي إلى خلاط. وصار بعض أجناد القلعة يخرجون للإغارة معهم فلا يهيجهم ثم حدثته نفسه بالتوثب على القلعة فقبض عليهم بعض الأيام

مرجعه من الإغارة ودنا من القلعة وعرضهم على القتل إن لم يفتحوا له ففتحها أهلوهم وملكها. وجمع الجموع وسار إلى نصيبين، وأغار على جزيرة ابن عمر، وهي لجكرمس فكبسه جكرمس وأصحابه في الحرب بينهم فقتله، وبكاه جكرمس. وكان تحت ياقوتي ابنة عمه سقمان فمضت إلى أبيها وجمعت التركمان. وجاء سقمان بهم إلى نصيبين فترك طلب الثأر فبعث إليه جكرمس ما أرضاه من المال في ديته، ورجع وقدم بماردين بعد ياقوتي أخوه علي بطاعة جكرمس، وخرج منها لبعض المذاهب. وكتب نائبه بها إلى عمه سقمان بأنه يملك ماردين لجكرمس فسار إليها سقمان، وعوض عليا ابن أخته جبل جور، وأقامت ماردين في ملكه مع حصن كيفا واستضاف إليهما نصيبين، والله أعلم.

وفاة سقمان بن أرتق وولاية أخيه أبي الغازي مكانه بماردين:

ثم بعث فخر الدين بن عمار صاحب طرابلس يستنجد سقمان بن أرتق على الإفرنج، وكان استبدّ بها على الخلفاء العلويين أهل مصر، ونازله الإفرنج عندما ملكوا سواحل الشام فبعث بالصريخ إلى سقمان بن أرتق سنة ثمان وتسعين. وأجابه وبينما هو يتجهز للمسير وافاه كتاب طغركين صاحب دمشق المستبدّ بها من موالي بني تتش، يستدعيه لحضور وفاته، خوفاً على دمشق من الإفرنج فأسرع المسير إليه معتزماً على قصد طرابلس وبعدها دمشق فانتهى إلى القريتين، وندم طغركين على استدعائه، وجعل يدبر الرأي مع أصحابه في صرفه. ومات هو بالقدس فكفاهم الله أمره، وقد كان أصحابه عندما أشقي على الموت أشاروا عليه بالرجوع إلى كيفا فامتنع وقال: هذا جهاد وان مت كان لي ثواب شهيد. فلما مات حمله ابنه إبراهيم إلى

حصن كيفا فدفنه بها وكان أبو الغازي بن أرتق شحنة بغداد كما قدّمناه ولاه السلطان محمد أيام الفتنة بينه وبين أخيه بركيارق. فلما اصطلح بركيارق وأخوه سنة تسع وتسعين على أن تكون بغداد له، وممالك أخرى من الممالك الإسلامية ومن جملتها حلوان، وهي أقطاع أبي الغازي فبادر وخطب لبركيارق ببغداد، فنكر عليه ذلك صدقة بن مزيد وكان من شيعة السلطان محمد فجاء إلى بغداد ليزعج أبا الغازي عنها ففارقها إلى يعقوب وبعث إلى صدقة يعتذر بأنه صار في ولاية بركيارق، ويحكم الصلح في اقطاعه وولايته فلم يمكنه غير ذلك ومات بركيارق على أثر ذلك فخطب، أبو الغازي لابنه ملك شاه فنكر ذلك السلطان محمد منه، فلما استولى على الأمر عزله عن شحنة بغداد فلحق بالشام وحمل رضوان بن تتش صاحب حلب على حصار نصيبين من بلاد جكرمس فحاصروها. وبعث جكرمس إلى رضوان وأغراه بأبي الغازي ففسد ما بينهما، ورحلوا مفترقين على نصيبين. وسار أبو الغازي إلى ماردين، وقد مات أخوه سقمان كما قلناه فاستولى عليها والله تعالى أعلم.

اضطراب أبي الغازي في طاعته وأسره ثم خلاصه

لما ولى السلطان محمد على الموصل والجزيرة وديار بكر سنة اثنتين وخمسمائة مودود بن أفتكين مكان جاولي سكاوو الذي ملكها من يد جكرمرّ كما مر في أخبارهم فوصل مودود إلى الموصل، وسار جاولي إلى نصيبين وهي يومئذ لأبي الغازي، وراسله في المظاهرة والانجاد فوصل إليه بماردين على حين غفلة مس مستنجدا به فلم يسعه إلا اسعافه، وسار معه إلى سنجار والرحبة وحاصرهما، وشق عليهما فلما نزل الخابور هرب أبو الغازي

راجعاً إلى نصيبين، ثم إلى بلده، وبقي مضطرباً. ثم بعث السلطان محمد سنة خمس وخمسمائة إلى الأمير مودود بالمسير إلى قتال الإفرنج، وأن يسير الأمراء معه من كل جهة، مثل سقمان القطبي صاحب ديار بكر، وأحمد بك صاحب مراغة، وأبي الهيجاء صاحب اربل، وأبي الغازي صاحب ماردين فحضروا كلهم إلا أبا الغازي، فإنه بعث ولده أياز في عسكر فسارت العساكر إلى الرها وحاصروها، وامتنعت عليهم. ثم ساروا سنة ست وخمسمائة إلى سروج كذلك ثم ساروا سنة سبع إلى بلاد الإفرنج فهزموهم على طبرية ودوّخوا بلادهم وعاد مودود إلى دمشق وافترقت العساكر، ودخل دمشق ليشتي بها عند طغركين صاحبها فقتل غيلة بها واتهم طغركين في أمره وبعث السلطان مكانه

على العساكر والموصل اقسنقر البرسقي، وأمره بقصد الإفرنج وقتالهم، وكتب إلى الأمراء بطاعته، وبعث ابنه الملك مسعودا في عسكر كثيف ليكونوا معه فسار أقسنقر سنة ثمان وخمسمائة، وفرّ أبو الغازي وحاصره بماردين حتى استقام وبعث معه ابنه اياز في عسكر فحاصروا الرها وعاثوا في نواحيها، ثم سروج وشمشاط، وأطاعه صاحب مرعش وكيسوم ورجع فقبض على أياز بن أبي الغازي، ونهب سواد ماردين فسار أبو الغازي من وقته إلى ركن الدولة داود ابن أخيه سقمان، وهو بحصن كيفا مستنجدا به فأنجده وساروا إلى البرسقي آخر ثمان وخمسمائة فهزموهم وخلصوا ابنه أياز من الأسر. وأرسل السلطان إلى أبي الغازي يتهدّده فلحق بطغركين صاحب دمشق صريخا وكان طغركين مستوحشاً لاتهامه بأمر مودود فاتفقا على الاستنجاد وبعثا بذلك إلى صاحب انْطاكِية فجاء إليهما قرب حمص، وتحالفا وعاد إلى انْطاكِية. وسار أبو الغازي إلى ديار بكر في خف من اصحابه فاعترضه قيرجان صاحب حمص فظفر به وأسره وبعث إلى السلطان بخبره، وأبطأ عليه وصول جوابه فيه. وجاء طغركين إلى حمص فدخل على قيرجان وألحّ عليه بقتل أبي الغازي ثم أطلقه قيرجان وأخذ عليه وسار أبو الغازي إلى حلب وبعث السلطان العساكر مع يوسف بن برسق صاحب همذان وغيره من الأمراء لقتال أبي الغازي، وقتال الإفرنج بعده فساروا إلى حلب وبها لؤلؤ الخادم، مولى رضوان بن تتش، كفل ابنه ألب ارسلان بعد موته، ومعه مقدم العساكر شمس الخواص فطالبوهما بتسليم حلب بكتاب السلطان إليهما في ذلك وبادر أبو الغازي وطغركين فدخلا إليهما فامتنعت عليهما فساروا إلى حماة من أعمال

طغركين، وبها ذخائره ففتوها عنوة ونهبوها، وسلموها إلى الأمير قيرجان صاحب حمص فأعطاهم اياز بن أبي الغازي وكان أبو الغازي وطغركين وشمس الخواص ساروا إلى روجيل صاحب أنْطاكِية يستنجدونه على حفظ حماة وجاءهم هنالك بقدوين صاحب القدس، والقمص صاحب طرابلس وغيرهما. واتفقوا على مطاولة العساكر ليتفرّقوا عند هجوم الشتاء واجتمعوا عند قلعة افامية فلم تبرح العساكر مكانها فافترقوا وعاد طغركين إلى دمشق وأبو الغازي إلى ماردين والافرنج إلى بلادهم. ثم كان اثر ذلك فتح كفرطاب على المسلمين، واعتزموا على معاودة حلب فاعترضهم روجيل صاحب انْطاكِية، وقد جاء في خمسمائة فارس مدداً للافرنج في كفرطاب فانهزم المسلمون، وكان تمحيصهم ، ورجع برسق أمير العساكر وأخوه منهزمين إلى بلادهم. وكان اياز بن أبي الغازي أسيراً عندهم فقتله الموكلون به يوم المعركة سنة تسع وخمسمائة، والله تعالى أعلم.

استيلاء أبي الغازي علي حلب:

كان رضوان بن تتش صاحب حلب لمّا توفي سنة سبع وخمسمائة، قام بأمر دولته لؤلؤ الخادم. ونصب ابنه ألب ارسلان في ملكه. ثم استوحش منه ونصب مكانه أخاه سلطان شاه واستبدّ عليه. ثم سار لؤلؤ الخادم إلى قلعة جعفر سنة إحدى عشرة ، بينه وبين مالك بن سالم بن بدران فغدر به مماليك الأتراك وقتلوه عند خرت برت، واستولوا على خزائنه. واعترضهم أهل حلب واستنقذوا منهم ما أخذوه وولّي شمس الخواص أتابك مكان لؤلؤ . ثم عزل لشهر ووليّ أبو المعالي بن الملحي الدمشقي. ثم عزل وصودر واضطربت الدولة، وخشي أهل حلب على بلدهم من الإفرنج فاستدعوا أبا الغازي بن ارتق من ماردين وسلموا له البلد. وانقرض ملك آل رضوان بن تتش منها فلم يملكها بعد واحد منهم. ولما ملكها لم يجد فيها مالاً فصادر جماعة من الخدم، وصانع الإفرنج بمالهم. ثم سار إلى ماردين بغية العودة إلى حمايتها واستخلف عليها ابنه حسام الدين تمرتاش.

واقعة أبي الغازي مع الإفرنج:

ولما استولى أبو الغازي على حلب وسار عنها طمع في الإفرنج، وساروا إليها فملكوا مراغة وغيرها من أعمالها، وحاصروها فلم يكن لأهلها بد من مدافعتهم بقتال أو بمال فقاسموهم أملاكهم التي بضاحيتها في سبيل المصانعة. وبعثوا إلى بغداد يستغيثون فلم يغاثوا. وجمع أبو الغازي من العساكر والمتطوعة نحوا من عشرين ألفاً. وسار بهم إلى الشام سنة ثلاثة عشرة، ومعه أسامة بن مبارك بن منقذ الكناني، وطغان ارسلان بن اسكين بن جناح صاحب ارزن الروم. ونزل الإفرنج قريباً من حصون الأماري في ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل ونزلوا في تل عفرين حيث كان مقتل مسلم بن قريش، وتحصنوا بالجبال من كل جهة إلا ثلاث مسارب فقصدهم أبو الغازي، ودخل عليهم من تلك المسارب، وهم غارون فركبوا وصدقوا الحملة فلقوا عساكر المسلمين متتابعة فولوا منهزمين، وأخذهم السيف من كل جهة فلم يفلت إلا القليل، وأسر من زعمائهم سبعون فاداهم أهل حلب بثلاثمائة ألف دينار، وقتل سرجان صاحب انْطاكِية ونجا فلهم من المعركة فاجتمع جماعة من الإفرنج وعاودوا اللقاء

فهزمهم أبو الغازي، وفتح حصن الأربارت ورزدنا، وعاد إلى حلب فأصلح أمورها وعبر الفرات إلى ماردين، وولّى على حلب ابنه سليمان. ثم وصل دبيس بن صدقة إلى أبي الغازي مستجيراً به. فكتب إليه المسترشد مع سرير الدولة عبد أبي الغازي ، بإبعاد دبيس. ثم وقع بينه وبين السلطان محمود الاتفاق ورهن ولده على الطاعة ورجع. وسار أبو الغازي إلى الإفرنج عقب ذلك سنة أربع عشرة فقاتلهم بأعمال حلب وظفر بهم. ثم سار هو وطغركين صاحب دمشق فحاصروا الإفرنج بالمثيرة وخشوا من استماتتهم فأفرج لهم أبو الغازي حتى خرجوا من الحصن، وكان لا يطيل المقام بدار الحرب لأن أكثر الغزاة معه. التركمان يأتون بجراب دقيق وقديد شاة، فيستعجل العود إن فنيت ازوادهم والله أعلم.

انتقاض سليمان بن أبي الغازي بحلب:

كان أبو الغازي قد ولّي على حلب ابنه سليمان فحمله بطانته على الخلاف على أبيه. وسار إليه أبوه تلقاه ابنه سليمان بالمعاذير فأمسك عنه، وقبض على بطانته الذين داخلوه في ذلك. وكان متولّي كبرها أمير كان لقيطاً لأبيه ونشأ في بيته فسمله وقطع لسانه. وكان منهم آخر من أهل حماة قدمه أبو الغازي على أهل حلب فقطعه وسمله فمات وأراد قتل ابنه. ثم ثنته الشفقة عليه، وهرب إلى دمشق وشفع فيه طغركين فلم يشفعه. ثم استخلف على حلب سليمان ابن أخيه عبد الجبار ولقبه بدر الدولة، وعاد إلى ماردين وذلك سنة خمس عشرة، ثم ابنه حسام الدين تمرتاش مع القاضي بهاء الدولة أبي الحسن الشهرزوري شافعاً في دبيس وضامناً في طاعته فلم يتم ذلك. فلما انصرف تمرتاش إلى أبيه اقطع السلطان أباه أبا الغازي مدينة ميافارقين. وكانت لسقمان القطبي صاحب خلاط فتسلمها أبو الغازي و لم تزل في يده إلى أن ملكها صلاح الدين بن أيوب سنة ثمانين وخمسمائة، والله تعالى أعلم.

واقعة مالك بن بهرام مع جوسكين صاحب الرها:

قد تقدم لنا أن جوسكين من الإفرنج كان صاحب الرها وسروج، وأن مالك بن بهرام كان قد ملك مدينة عانة فسار سنة خمس عشرة إلى الرها، وحاصرها أياما فامتنعت عليه، وسار جوسكين في اتباعه بعد أن جمع الإفرنج، وقد تفرق عن مالك أصحابه. و لم يبق معه إلا أربعمائة فلحقوه في أرض رخوة قد نضب عنها الماء فوحلت فيها خيولهم و لم يقدروا على التخلص فظفر بهم أصحاب مالك وأسروهم وجعل جوسكين في اهاب جمل وخيط عليه، وطلبوا منه تسليم الرها فلم يفعل، وحبسه في خرت برت بعد أن بذل في فديته أموالا فلم يفادوه والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

وفاة أبي الغازي وملك بنيه من بعده:

ثم توفي أبو الغازي بن أرتق صاحب ماردين في رمضان سنة ست عشرة وخمسمائة فولي بعده بماردين ابنه حسام الدين تمرتاش، وملك سليمان ميافارقين. وكان بحلب سليمان ابن أخيه عبد الجبار فاستولى عليها. ثم سار مالك بن بهرام بن أرتق إلى مدينة حران فحاصرها وملكها. وبلغه أن سليمان ابن عمه عبد الجبار صاحب حلب قد عجز عن مدافعة الإفرنج، وأعطاهم حصن الاماري فطمع في ملك بلاده وسار إليها في ربيع سنة عشرة، وملكها من يده على الأمان. ثم سار سنة ثمان عشرة إلى منبج وحاصرها وملك المدينة، وحبس صاحبها حسان التغلبي. وامتنع أهلها بالقلعة فحاصرها، وسمع الإفرنج بذلك فساروا إليه فترك على القلعة من يحاصرها، ونهض إليهم فهزمهم، وأثخن فيهم، وعاد إلى منبج فحاصرها. وأصابه بعض الأيام سهم غرب فقتله فاضطرب العسكر وافترقوا، وخلص حسان من محبسه. وكان تمرتاش ابن أبي الغازي صاحب ماردين معه على منبج فلما قتل حمل شلوه إلى حلب ودفنه بها واستولى عليها. ثم استخلف عليها، وعاد إلى ماردين وجاء الإفرنج إلى مدينة صور فملكوها، وطمعوا في غيرها من بلاد المسلمين. ولحق بهم دبيس بن صدقة ناجيا من واقعته فع المسترشد فأطمعهم في ملك حلب، وساروا معه فحاصروها وبنوا عليها المساكن. وطال الحصار وقلت الأقوات، واضطرب أهل البلد وظهر لهم العجز من صاحبهم، و لم يكن في الوقت أظهر من البرسقي

صاحب الموصل، ولا أكثر قوة وجمعاً منه فاستدعوه ليدافع عنهم ويملكوه. وشرط عليهم ان يمكنوه من القلعة قبل وصوله. ونزل فيها بوابه وسار فلما أشرف على الإفرنج ارتحلوا عائدين إلى بلادهم. وخرج أهل حلب فتلقوا البرسقي فدخل واستولى على حلب وأعمالها، ولم تزل بيده إلى أن هلك وملكها ابنه عز الدين. ثم هلك فولى السلطان محمود عليها أتابك زنكي حسبما يأتي

في أخبار دولته. ورجع تمرتاش إلى ماردين واستمر ملكه بها وكان مستولياً على كثير من قلاع ديار بكر. استولى سنة اثنتين وثلاثين على قلعة الساج من ديار بكر، وكانت بيد بعض بني مروان من بقايا ملوك الأولين. وكان هذا آخرهم بهذه القلعة، وكان ملك ميافارقين قد سار لحسام الدين تمرتاش، وملكها من يد أخيه سليمان، ولم يزل تمرتاش ملكاً بماردين إلى أن هلك سنة سبع وأربعين وخمسمائة لاحدى وثلاثين سنة من ملكه، والله تعالى ولي التوفيق.

وفاة تمرتاش وولاية ابنه البي بعده:

ثم توفي حسام الدين تمرتاش سنة سبع وأربعين وخمسمائة كما قلنا فملك بعده ابنه بماردين ألبي بن تمرتاش، وبقي ملكا عليها إلى أن مات وولّي بعده ابنه أبو الغازي بن ألبي إلى أن مات. ولم يذكر ابن الأثير تاريخ وفاتهما. وقال مؤرخ حماة: لم يقع إلى تاريخ وفاتهما.

ولاية حسام الدين بولق ارسلان بن أبي الغازي بن ألبي:

ولما توفي أبو الغازي بن ألبي قام بأمر ملكه نظام الملك النقش، ونصب للملك مكانه ابنه بولق ارسلان طفلا، واستبدّ عليه. وكان النقش غالبا على هواه حيث صار أمر الطفل في يده. ولم تزل حالهم على ذلك إلى أن هلك حسام الدين في سنة خمس وتسعين وخمسمائة على عهد بولق هذا وكناه ابن الأثير حسام الدين ناصر الملك، قصد العادل أبو بكر بن أيوب ماردين، وخشيت ملوك الجزيرة، ولم يقدروا على منعه. ثم توفي العزيز بن صلاح الدين صاحب مصر، وولّي أخوه الأفضل فاستنفر العادل أهل مصر ودمشق وأهل سنجار، وبعثهم مع ابنه الكامل، وحاصروا ماردين فبعث إليه النقش المستولي على بولق بالطاعة، وتسليم القلعة لأجل معلوم على أن يدخل إليهم الأقوات. ووضع العادل ابنه على بابها أن لا يدخلها زائد على القوت فصانعوا الولد بالمال، وشحنوها بالأقوات. وبينما هم في ذلك جاء نور الدين صاحب الموصل لإنجادهم، وقاتلهم فانهزم عساكر العادل، وخرج أهل القلعة فأوقعوا بعسكر الكامل ابنه فرحلوا جميعاً منهزمين. ونزل حسام الدين بولق إلى نور الدين، ولقيه وشكر وعاد. ونزل نور الدين على دبيس، ثم رحل عنها قاصدا حوران كما نذكره في أخبار دولته إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

وفاة بولق وولاية أخيه أرتق:

ولما هلك بولق ارسلان نصب لؤلؤ الخادم بعده للملك أخاه الأصغر ناصر الدين أرتق ارسلان بن قطب الدين أبي الغازي. ولم يذكر ابن الأثير خبر وفاته أيضاً، وبقي مملكا في كفالة النقش إلى سنة إحدى وستمائة، والله أعلم.

مقتل النقش واستبداد أرتق المنصور واتصال الملك في عقبه:

ثم استنكف أرتق من الحر، ومرض النقش سنة إحدى وستمائة فجاء أرتق لعيادته، وقتل لؤلؤ ا خادمه في بعض زوايا بيته، ورجع إلى النقش فقتله في فراشه، واستقل بملك ماردين، وتلقب المنصور وتوفي سنة ست وثلاثين وثلثمائة وملك بعده ابنه السعيد نجم الدين غازي بن أرتق وتوفي سنة ثمان أو ثلاث وخمسين، وملك بعده أخوه المظفر قرا ارسلان بن أرتق فأقام سنة أو بعضها. ثم هلك سنة ثلاث وسبعين وستمائة، وملك بعده أخوه المنصور نجم الدين غازي بن قرا ارسلان إلى ان توفي سنة اثنتي عشرة وسبعمائة لأربع وخمسين سنة من ولايته. وملك بعده ابنه المنصور أحمد إلى أن توفي سنة تسع وستين لثلاث سنين من ولايته. ثم ملك بعده ابنه الصالح محمود أربعة أشهر، وخلعه عمه المظفر فخر الدين داود المنصور أحمد إلى أن توفي سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وملك بعده ابنه مجد الدين عيسى وهو السلطان بماردين لهذا العهد. والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده.

ولما ملك هلاكو بن طلوخان بن جنكزخان مدينة بغداد وأعمالها، أعطاه المظفر قرا ارسلان طاعته، وخطب له في أعماله، ولم يزالوا يدينون بطاعة بنيه إلى أن هلك أبو سعيد بن خربهرا آخر ملوك التتر ببغداد سنة سبع وثلاثين فقطعوا الخطبة لهم، واستبد أحمد المنصور منهم وهو الثاني عشر من لدن أبي الغازي جدّهم الأول وأما داود بن سقمان فإنه ملك حصن كيفا من بعد سقمان أبيه وإبراهيم أخيه، ولم أقف على خبر وفاته وملك بعده ابنه فخر الدين قرا ارسلان بن داود، وملك أكثر ديار بكر مع حصن كيفا. وتوفي سنة اثنتين وستين وخمسمائة. وملك بعده ابنه نور الدين محمد بعهده

إليه بذلك، وكانت بينه وبين صلاح الدين مواصلة ومظاهرة. ظاهر صلاح الدين على الموصل على أن يظاهره على آمد فظاهره صلاح الدين، وحاصرها من صاحبها ابن سنان سنة تسع وستين، وصارت من أعمال نور الدين كما نذكر في دولة صلاح الدين. ثم توفي نور الدين محمد سنة إحدى وثمانين وخلف ولدين : فملك الأكبر منهما قطب الدين سقمان، وأقام بتدبير دولته العوام ابن سماق الأسعد وزير أبيه، وكان عماد الدين أخو نور الدين هو المرشح للإمارة، إلا أنه سار في العساكر مددا لصلاح الدين على حصار الموصل. فلما بلغه الخبر بوفاة أخيه سار لملك البلد لصغر أولاد أخيه نور الدين فلم يظفر واستولى على خرت برت فانتزعها منهم وملكها وأورثها بنيه. فلما أفرج صلاح الدين عن الموصل لقيه قطب الدين سقمان، وأقره على ملك أبيه بكيفا، وأبقى بيده آمد التي كان ملكها لأبيه، وشرط عليه مراجعته في أحواله والوقوف عند أوامره. وأقام أميراً من أصحاب ابنه قرا ارسلان اسمه صلاح الدين فقام بأمور دولته. واستقر ملكه بكيفا وآمد وما إليهما، إلى أن توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة، تردى من جوسق له بحصن كيفا فمات. وكان أخوه محمود مرشحا لمكانه، إلا أن قطب الدين سقمان كان شديد البغضاء له، واشخصه إلى حصن منصور من آخر عملهم، واصطفى مملوكه اياسا وزّوجه بأخته وجعله ولي عهده. ولما توفي ملك بعده مملوكه، وشخص أهل الدولة فدسوا إلى محمود فسار إلى آمد، وسبقه اياس إليها ليدافعه فلم يطق، وملك محمود آمد واستولى على

البلد كلها وحبس اياسا إلى أن أطلقه بشفاعة صاحب بلاد الروم ولحق به وانتظم في أمرائه، واستقل محمود بملك كيفا وآمد وأعمالهما ولقب ناصر الدين وكان ظالماً قبيح السيرة، وكان ينتحل العلوم الفلسفية وتوفي سنة تسعة عشر وستمائة وولي مكانه المسعود، وحدثت بينه وبين الأفضل بن عادل فتنة. واستنجد عليه أخاه الكامل فسار في العساكر من مصر، ومعه داود صاحب الكرك، والمظفر صاحب حماة فحاصروه بآمد إلى أن نزل عنها وجاء إلى الكامل فاعتقله فلم يزل عنده حبيساً إلى أن مات الكامل فذهب إلى التتر فمات عندهم. وأما عماد الدين بن قرا ارسلان الذي ملك خرت برت من يد قطب الدين سقمان ابن أخيه نور الدين فلم تزل في يده إلى أن توفي سنة إحدى وستمائة لعشرين سنة من ملكه إياها. وملكها بعده ابنه نظام الدين أبو بكر، وكانت بينه وبين ناصر الدين محمود ابن عمه نور الدين صاحب آمد وكيفا عداوة. ودخل محمود في طاعة العادى بن أيوب وحضر مع ابنه الأشرف في حصار الموصل على أن يسير معه بعدها إلى خرت برت فيملكها له، وكان نظام الدين مستنجدا به<*>

الدين قليج ارسلان صاحب بلاد الروم فمات وسار الأشرف مع محمود بعساكره وحاصروا خرت برت في شعبان سنة إحدى وستين وملكوا ربضها. وبعث غياث الدين صاحب الروم إلى نظام الدين المدد بالعساكر مع الأفضل بن صلاح الدين صاحب سميساط، فلما انتهوا إلى ملطية أفرج الأشرف ومحمود عن خرت برت إلى بعض حصون نظام الدين بالصحراء ببحيرة سهنين، وفتحت في ذي الحجة سنة إحدى وستين فلما وصل الأفضل بعساكر غياث الدين ووصل الأشرف عن البحيرة راجعاً. جاء نظام الدين بالعساكر إلى الحصن فامتنع عليه، وبقي لصاحب آمد. ثم ملك كيغباد صاحب الروم حصن خرت برت من أيديهم سنة إحدى وثلاثين، وانقرض منها ملك بني سقمان، والله وارث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

خريطة

دولة بني زنكي بن أقسنقر

الخبر عن دولة بني زنكي بن أقسنقر من موالي السلجوقية بالجزيرة والشام ومبادئ أمورهم وتصاريف أحوالهم قد تقدم لنا ذكر اقسنقر مولى السلطان ملك شاه، وأنه كان يلقب قسيم الدولة. وان السلطان ملك شاه لما بعث الوزير فخر الدولة ابن جهير سنة سبع وسبعين وأربعمائة بفتح ديار بكر من يد بن مروان، واستنجد ابن مروان صاحب الموصل شرف الدولة مسلم بن عقيل، وهزمته العساكر، وانحصر بآمد فبعث السلطان عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير ليخالف شرف الدولة إلى السلطان فلقيه في الرحبة وأهدى له فرضي عنه ورده إلى بلده الموصل. واستولى بنو جهير بعد ذلك على ديار بكركما مر في موضعه من دولة بني مروان. ثم كان بعد ذلك شأن حلب، واستبد بها أهلها بعد انقراض دولة بني صالح بن مرداس الكلابي، وطمع فيها شرف الدولة مسلم بن قريش، وسليمان بن قطلمش صاحب بلاد الروم، وتُتش ابن السلطان ألب ارسلان.

وقتل سليمان بن قطلمش مسلم بن قريش. ثم قتل تتش سليمان بن قطلمش وجاء إلى حلب فملكها، وامتنعت عليه القلعة فحاصرها. وقد كانوا بعثوا إلى السلطان ملك شاه واستدعوه لملكها فوصل إليهم سنة تسع وسبعين: ورحل تتش عن القلعة، ودخل البرية. واستولى السلطان على حلب، وولى عليها قسيم الدولة اقسنقر، وعاد إلى العراق فعمرها أقسنقر وأحسن السيرة فيها، وسار معه تتش حين عهد له أخوه السلطان ملك شاه بفتح بلاد العلوية بمصر والشام ففتح الكثير منها وهو معه كما مر. وزحف قبل ذلك سنة ثمانين إلى بني منقذ بشيزر، فحاصره وضيق عليه. ثم رجع عنه عن صلح، وأقام بحلب و لم يزل والياً عليها إلى أن هلك السلطان سنة خمس وثمانين.

واختلف ولده من بعده، وكان أخوه تتش قد استولى على الشام منذ سنة إحدى وسبعين. فلما هلك أخوه طمع في ملك السلجوقية من بعده فجمع العساكر، وسار لاقتضاء الطاعة من الأمراء معه بالشام، وقصد حلب فأطاعه قسيم الدولة أقسنقر، وحمل باغيسيان صاحب أنْطاكِية وتيران صاحب الرها وحران على طاعته حتى يظهر مآل الأمر في ولد سيدهم ملك شاه. وساروا مع تتش إلى الرحبة فملكها وخطب لنفسه فيها، ثم إلى نصيبين ففتحها عنوة، ثم إلى الموصل فهزم صاحبها إبراهيم بن قريش بن بدران، وتولى كبر هزيمته أقسنقر، وقتل قريش بن إبراهيم وملك الموصل من يده وولى تتش عليها ابن عمته علي بن مسلم بن قريش. وسار إلى ديار بكر فملكها، ثم إلى أذربيجان. وكان بركيارق بن ملك شاه قد

استولى على الري وهمذان وكثير من البلاد فسار لمدافعته، وجنح قسيم الدولة أقسنقر وبوزان صاحب الرها إلى بركيارق ابن سيدهم فلحقوا به وتركوا تتش فانقلب عائداً إلى الشام ساخطاً على اقسنقر وبوزان ما فعلاه، فجمع العساكر وسار إلى حلب سنة سبع وثمانين لقتال قسيم الدولة. وأمده بركيارق بالأمير كربوقا في العساكر فبرزوا إلى لقائهم، والتقوا على ست فراسخ من حلب. ونزع بعض عساكر أقسنقر إلى تش فاختل مصافه، وتمت الهزيمة عليه وجيء به أسيراً إلى تتش فقتله صبراً.

ولحق كربوقا وبوزان بحلب، وتبعهما فحاصرهما وملكها وأخذهما أسيرين كما مر في أخبار الدولة. وكان قسيم الدولة حسن السياسة كثير العدل، وكانت بلاده آمنة. ولما مات نشأ ولده في ظل الدولة السلجوقية. وكان أكبرهم زنكي فنشأ مرموقا بعين التجلة. ولما ولي كربوقا الموصل من قبل بركيارق أيام الفتنة بين بركيارق وأخيه محمد، كان زنكي في جملته، لأنه كان صاحب أبيه. وسار كربوقا أيام ولايته لحصار آمد وصاحبها يومئذ بعض أمراء التركمان. وأنجده سقمان بن أرتق. وكان زنكي بن أقسنقر يومئذ صبيا، وهو في جملة رجال كربوقا ومعه جماعة من أصحاب أبيه فجلا في تلك الحرب. وانهزم سقمان وظهر كربوقا. وفي هذه الحرب أسر بن ياقوتي ابن ارتق وسجنه كربوقا بقلعة ماردين فكان ذلك سبباً لملك بني أرتق فيها كما مر في أخبار دولتهم. ثم تتابعت الولاة على الموصل فوليها جكرمس بعد كربوقا، وبعده جاولي سكاوو، وبعده مودود بن ايتكين، وبعده اقسنقر البرسقي كما تقدم في أخبار السلجوقية. وولاه السلطان محمد بن ملك شاه

سنة ثمان وخمسين، وبعث معه ابنه مسعودا. كتب إلى سائر الأمراء هناك بطاعته، ومنهم يومئذ عماد الدين زنكي بن اقسنقر فاختص به.

ولما ملك السلطان محمود بعد أبيه محمد سنة احدى عشرة، كان اخوه مسعود بالموصل، كما تقدم أتابكه حيوس بك ونقل البرسقي من الموصل إلى شحنة بغداد. وانتقض دبيس بن صدقة صاحب الحلة على المسترشد والسلطان محمود، وجمع البرسقي العساكر وقصد الحلة فكاتب دبيس السلطان مسعود وأتابكه حيوس بك بالموصل، وأغراهما بالمسير إلى بغداد فسار لذلك مع السلطان مسعود وزيره فخر الملك وأبو علي بن عمار صاحب طرابلس، وزنكي بن قسيم الدولة اقسنقر وجماعة من أمراء الجزيرة. ووصلوا إلى بغداد وصالحهم البرسقي وسار معهم.

ودخل مسعود إلى بغداد، وجاء منكبرس إلى بغداد ونزع إليه دبيس بن صدقة. ووقعت الحرب بينهما على بغداد كما تقدم في أخبار الدولة. وأقام منكبرس ببغداد. ثم كان له في خدمة السلطان محمود عند حربه مع أخيه مسعود مقامات جليلة. وغلب السلطان أخاه مسعودا، وأخذه عنده، واستنزل أتابكه حيوس بك من الموصل، وأعاد إليها البرسقي سنة خمسة عشر

فعاد زنكي إلى الاختصاص به كما مر. ثم أضاف إليه السلطان محمود شحنة بغداد، وولاية واسط مضافة إلى ولاية الموصل سنة ستة عشر فولى عليها عماد الدين زنكي فحسن أثره في ولايتهما.

ولما كانت الحرب بين دبيس بن صدقة وبين الخليفة المسترشد، وبرز المسترشد لقتاله من بغداد، وحضر البرسقي من الموصل وعماد زنكي فانهزم دبيس عماد الدين في ذلك المقام . ثم ذهب دبيس إلى البصرة، وجمع المنتفق من بني عقيل فدخلوا البصرة ونهبوها وقتلوا أميرها. وبعث المسترشد إلى البرسقي فعذله في إهماله أمر دبيس، حتى فعل في البصرة ما فعل فبادر إلى قصره، وهرب دبيس واستولى على البصرة وولى عليها عماد الدين زنكي بن اقسنقر فأحسن حمايتها والدفاع عنها. وكبس العرب في حللهم

بضواحيها، وأجفلوا. ثم عزل البرسقي سنة ثمان عشرة عن شحنة بغداد، وعاد إلى الموصل فاستدعى عماد الدين زنكي من البصرة فضجر من ذلك، وقال كل يوم للموصل جديد يستنجدنا . وسار إلى السلطان ليكون في جملته فلما قدم عليه بأصفهان أقطعه البصرة وأعاده عليها من قبله.

ثم ملك البرسقي مدينة حلب سنة ثمان عشرة وقتل بها سنة تسع عشرة. وكان ابنه

عز الدين مسعود بحلب فبادر إلى الموصل، وأقام ملك أبيه بها ووقع الخلاف بين المسترشد والسلطان محمود، وبعث الخليفة عفيفا الخادم إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان محمود فسار إليه عماد الدين زنكي من البصرة، وقاتله فهزمه ونمى عفيف إلى المسترشد وأقام عماد الدين في واسط وأمره أن يحضر بالعساكر في السفن، وفي البر فجمع السفن من البصرة وشحنها بالمقاتلة شاكي السلاح، وأصعد في البر وقدم على السلطان، وقد تسلحت العساكر فهاله منظرهم، ووهن المسترشد لما رأى فأجابه إلى الصلح.

ولاية زنكي شحنة بغداد والعراق:

ولما ظهر من عماد الدين زنكي من الكفاءة والغناء في ولاية البصرة وواسط ما ظهر، ثم كان له المقام المحمود مع السلطان محمود على بغداد كما مر ولاه شحنة بغداد والعراق، لما رأى أنه يستقيم إليه في أمور الخليفة، بعد أن شاور أصحابه فأشاروا به وذلك سنة إحدى وعشرين وسار عن بغداد بعد أن ولأه على كرسي ملكه بأصفهان والله تعالى أعلم.

ولاية عماد الدين زنكي علي الموصل وأعمالها:

قد قدمنا ان عز الدين مسعود بن البرسقي لما قتل الباطنية أباه بالموصل، وكان نائبه بحلب فبادر إلى الموصل وضبط أمورها، وخاطب السلطان محمودا فولاه مكان أبيه وكان شجاعاً قرماً فطمع في ملك الشام فسار وبدأ بالرحبة فحاصرها، حتى استأمن إليه أهل القلعة. وطرقه مرض فمات، وتفرقت عساكره ونهب بعضهم بعضاً، حتى شغلوا عن دفنه. وكان جاولي مولى أبيه مقدم العساكر عنده فنصب مكانه أخاه الأصغر، وكاتب السلطان في تقرير ولايته. وأرسل في ذلك الحاجب صلاح الدين محمد الباغيسياني، والقاضي أبا الحسن علي ابن القاسم الشهرزوري فأوصى صلاح الدين صهره جقري فيما جاء فيه. وكان شيعة لعماد الدين زنكي فخوف الحاجب وحذره مغبة حاله معه. وأشار عليه وعلى القاضي بطلب عماد الدين زنكي، وضمن لهما عنده الولايات والإقطاع. وركب القاضي مع الحاجب إلى الوزير شرف الدين أنو شروان ابن خالد. وذكر له حال الجزيرة والشام واستيلاء الإفرنج على أكثرها من ماردين إلى العريش. وأنها تحتاج إلى من يكف طغيانهم، وابن البرسقي المنصوب بالموصل صغير لا يقوى على مدافعتهم، وحماية البلاد منهم. ونحن قد خرجنا عن العهدة وأنهينا الأمر إليكم فرفع الوزير قولهما إلى السلطان فشكرهما، واستدعاهما واستشارهما فيمن يصلح للولاية فذكرا جماعة، وأدرجا فيهم عماد الدين زنكي، وبذلا عنه مالا جزيلا لخزانة السلطان فأجابهما إليه لما يعلم من كفايته وولاه البلاد كلها وكتب منشوره بها وشافهه بالولاية. وسار إلى ولايته فبدأ بالفوارع وملكها. ثم سار إلى الموصل، وخرج جاولي والعساكر للقائه.

ودخل الموصل في رمضان سنة إحدى وعشرين وبعث جاولي واليا على الرحبة، وولى على القلعة نصير الدين جقري. وولى على حجابته صلاح الدين الباغيسياني. وعلى القضاء ببلاده جميعا بهاء الدين الشهرزوري. وزاد في إقطاعه. وكان لا يصدر إلا عن رأيه. ثم خرج إلى جزيرة ابن عمر وبها موالي البرسقي

فامتنعوا عليه وحاصرهم. وكان بينه وبين البلد دجلة فعبرها. وبين دجلة والبلد فسيح من الأرض فعبر دجلة. وقاتلهم في ذلك الفسيح. وهزمهم فتحصنوا بالأسوار.

ثم استأمنوا فدخل البلد وملكه وسار لنصيبين. وكانت لحسام الدين تمرتاش بن أبي الغازي صاحب ماردين فاستنجد عليه ابن عمه ركن الدولة داود بمن سقمان صاحب كيفا فوعده بالنجدة وبعث حسام الدين بذلك إلى أهل نصيبين، يأمرهم بالمصابرة عشرين يوما إلى حين وصوله فسقط في أيديهم لعجزهم عن ذلك.

واستأمنوا لعماد الدين فأمنهم وملكها وسار عنها لسنجار فامتنعوا عليه أولا. ثم استأمنوا وملكها. وبعث منها إلى الخابور فملك جميعه. ثم سار إلى حران. وكانت الرها وسروج والبيرة في جوارها للافرنج وكانوا معهم

في ضيقة فبادر أهل حران إلى طاعته. وأرسل إلى جوسكين وهادنه حتى يتفرغ له فاستقر بينهما الصلح. والله تعالى أعلم.

استيلاء الاتابك زنكي علي مدينة حلب:

كان البرسقي قد ملك حلب وقلعتها سنة ثماني عشرة. واستخلف عليها ابنه مسعودا. ثم قتل الباطنية البرسقي بالموصل فبادر ابنه مسعود إلى الموصل. واستحلف على حلب الأمير قرمان. ثم عزله وبعث بولايتها إلى الأمير قطلغ أبه فمنعه قرمان وقال: بيني وبينه علامة لم أرها في التوقيع فرجع إلى مسعود فوجده قد أ،، الرحبة فعاد إلى حلب مسرعا ومال إليه أهل البلد ورئيسها مضال بن ربيع، وأدخلوه وملكوه واستنزلوا قرمان من القلعة وأعطوه ألف دينار وبلغوه مأمنه.

وملك قطلغ القلعة والبلد منتصف إحدى وعشرين. ثم ساءت سيرته وفحش ظلمه، واشتمل عليه أشرار فاستوحش الناس منه، وثاروا به في عيد الفطر من السنة وقبضوا على أصحابه. وولوا عليهم بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق الذي كان ملكها من قبل، وحاصروا قطلغ بالقلعة. ووصل حسان صاحب منبج، وحسن صاحب مراغة لإصلاح الأمر فلم يتم. وزحف جوسكين صاحب الرها من الإفرنج إلى حلب فصانعوه بالمال، ورجع فزحف صاحب أنْطاكِية وحاصر البلد، وهم يحاصرون القلعة إلى منتصف ذي القعدة من آخر السنة.

وانتهى عماد الدين زنكي إلى صاحب حران كما ذكرناه فبعث إلى أهل حلب أميرين من أصحابه بتوقيع السلطان له بالموصل والجزيرة والشام فبادروا إلى الطاعة. وسار إليه بدر الدولة ابن عبد الجبار وقطلغ أبه. وأقام أحد الأميرين بحلب. ولما وصلا إلى عماد الدين أصلح بينهما

وأقاما عنده. وبعث الحاجب صلاح الدين محمد الباغيسياني في عسكر إليهما فملك القلعة ورتب الأمور وولى. ثم وصل عماد الدين بعده في محرم سنة إثنتين وعشرين، وملك في طريقه منبج من يد حسان ومراغة من يد حسن. وتلقاه أهل حلب فاستولى وأقطع أعمالها للأمراء والأجناد ثم قبض على قطلغ أبه وأسلمه إلى ابن بديع فكحله ومات واستوحش ابن بديع فلحق بقلعة جعفر مستنجدا بصاحبها، وأقام عماد الدين مكانه في رياسة حلب علي بن عبد الرزاق، وعاد إلى الموصل والله أعلم.

استيلاء الاتابك زنكي علي مدينة حماة:

ثم سار عماد الدين زنكي لجهاد الإفرنج وعبر الفرات إلى الشام. واستنجد تاج الملوك بوري بن طغركين صاحب دمشق فأنجده بعد التوثق باستحلافه. وبعث عسكره من دمشق إلى ابنه سونج وأمره بالمسير إلى زنكي فلما وصلوا إليه أكرمهم. ثم غدر بهم بعد أيام، وقبض على سونج والأمراء الذين معه فاعتقلهم بحلب ونهب خيامهم، وبادر إلى حماة وهي خلو من الحامية فملكها، وسار عنها إلى حمص، وصاحبها قيرجان بن قراجا معه في عس!اكره وهو الذي أشار بحبس سونج وأصحابه فقبض عليه يظن أن أهل حمص يسلمون

بلادهم إليه فامتنعوا وبعث إليهم قيرجان بذلك فلحق إليها فحاصرها مدة، وامتنعت عليه، فعاد إلى الموصل ومعه سونج بن بوري والله أعلم.

فتح عماد الدين حصن الأتارب وهزيمة الإفرنج:

ولما عاد عماد الدين إلى الموصل أراح عساكره أياما ثم تجهز سنة أربع وعشرين إلى الغزو وعاد إلى الشام وقصد حلب، واعتزم على قصد حصن الأتارب، وهو على ثلاثة فراسخ من حلب. وكان الإفرنج الذين به قد ضيقوا على حلب فسار إليه وحاصره وجاء الإفرنج من أنْطاكِية لدفاعه. واستفرغوا فتبعهم وترك الحصن وسار إليهم، واستمات المسلمون فانهزم الإفرنج وأسر كثير من زعمائهم، وقتل كثير حتى بقيت عظامهم ماثلة بذلك الموضع أكثر من ستين سنة. ثم عاد إلى حصن الأتارب فملكه عنوة وخربه، وتقسم جميع من فيه بين القتل والأسر وسار إلى

قلعة حارم قرب أنْطاكِية، وهي للافرنج فحاصرها حتى صالحوه على نصف خراجها فرجع عنها. وملىء الإفرنج رعبا منه ومن استبداد المسلمين به وذهب ما كان عندهم من الطمع.

واقعة عماد الدين مع بني أرتق:

ولما فرغ عماد الدين من غزو الافرنج وفتح الاثارب وقلعة حارم عاد إلى الجزيرة، وحاصر مدينة سرخس، وهي لصاحب ماردين، بينها وبين نصيبين فاجتمع حسام الدين صاحب ماردين وركن الدولة صاحب آمد، وهما لأبي الغازي صاحب ماردين بن حسام الدين تمرتاش بن أبي الغازي وصاحب كيفا ركن الدولة داود بن سقمان وتمرتاش بن ارتق. وجمعوا من التركمان نحوا من عشرين ألفا. وساروا لمدافعة زنكي فهزمهم وملك سرخس وسار ركن الدولة إلى جزيرة ابن عمر لينهبها فاتبعه عماد الدين فرجع إلى بلده فعاد عنه لضيق مسالكه. وملك من قلاعه همرد، ورجع إلى الموصل إلى آخره.

حصول دبيس بن صدقة في أسر الاتابك زنكي:

قد تقدم لنا أن دبيس بن صدقة لما فارق البصرة سار إلى سرخد من قلاع الشام سنة خمس وعشرين، باستدعاء الجارية التي خلفها الحسن هنالك ليتزوج بها، وأنه مرّ في الغوطة بحي من أحياء كلب فأسروه وحملوه إلى تاج الملوك صاحب دمشق. وبلغ الخبر إلى الاتابك زنكي. وكان عدوا له فبعث فيه إلى تاج الملوك بوري. وفادى من ابنه سونج والأمراء الذين معه عنده فأطلقهم. وبعث بوري إليه بدبيس وهو مستيقن الهلاك فلما وصله أكرمه، وأحسن إليه وأزاح علله. وبعث المسترشد فيه إلى بوري بن طغركين صاحب دمشق فوجده قد فات بتسلمه إلى زنكي. فذم الرسل زنكي فيما فعله فأرصد لهم في طريقهم وسيقوا إليه وهم: سديد الدولة بن الانباري. وأبو بكر بن بشر الجزري فحبسهما حتى شفع فيهما المسترشد. وبقي دبيس عنده حتى انحدر معه إلى العراق.

مسير الاتابك زنكي إلى العراق لمظاهرة السلطان مسعود وانهزامه:

ولما توفي السلطان محمود سنة خمس وعشرين. واختلف ولده داود وأخوه مسعود. وسار داود إلى مسعود وحاصره بتبريز في محرم سنة ست وعشرين. ثم صالحه وخرج مسعود من تبريز، واجتمعت عليه العساكر وسار إلى همذان، وبعث يطلب الخطبة من المسترشد فمنعه وكتب الاتابك عماد الدين زنكي يستنجده. وسار إلى بغداد فحاصرها وكان قد سبق إليها أخوه سلجوق شاه صاحب فارس وخوزستان، مع أتابك قراجا الشامي في عسكر كثير. وأنزله المسترشد بدار السلطان، فلما جاء مسعود ونزل عباسة. وبرز عسكر المسترشد وعسكر سلجوق شاه وقراجا الشامي لمحاربة مسعود أتاهم الخبر بوصول عماد الدين زنكي من ورائهم. وأنه وصل إلى المعشوب، فرجع قراجا الشامي إلى محاربته، وسار سلجوق شاه بالعساكر إلى محاربة أخيه مسعود وأغذ قراجا السير. وصبح عماد الدين بعد يوم وليلة على المعشوب وقاتله وهزمه. وأسر كثيراً من أصحابه. وسار زنكي منهزماً إلى والنائب بها نجم الدين أيوب بن شادي والد السلطان صلاح الدين فتأخر. ثم اصطلح مع الخليفة على أن يكون العراق له، والسلطنة لمسعود. وولاية العهد لسلجوق شاه. وذلك منتصف سنة ست وعشرين.

مسير الاتابك عماد الدين إلى بغد اد بابنه وانهزامه:

قد قدمنا ما كان بعد وفاة السلطان محمود من الخلاف بين ابنه داود وأخويه مسعود وسلجوق شاه. ثم استقرار مسعود في السلطنة وصلحه مع أخيه سلجوق. على أن يكون ولي عهده. ثم إن السلطان سنجر سار من خراسان يطلب السلطنة لطغرل ابن أخيه السلطان محمود وكان عنده مقيما فبلغ همذان. وخرج السلطان مسعود وسلجوق شاه للقائه وساروا متباطئين ينتظرون لحاق المسترشد بهم وخرج المسترشد إلى فجاءته الأخبار بوصول الاتابك زنكي ودبيس بن صدقة إلى بغداد فذكر دبيس أن السلطان سنجر أقطعه الحلة وبعث يسترضي، فلم يشفعه، وذكر الاتابك زنكي أن السلطان سنجر ولاه شحنة بغداد. واستمر السلطان مسعود وأخوه سلجوق على المسير للقاء سنجر وكانت الهزيمة على مسعود كما مرّ فعاد المسترشد إلى بغداد. ونزل العباسة من الجانب الغربي ولقي الاتابك زنكي ودبيس على حصن البرامكة فهزمهما آخر رجب سنة ست وعشرين ولحق الاتابك بالموصل.

واقعة الافرنج على أهل حلب:

وفي غيبة الاتابك زنكي سار ملك الافرنج من القدس إلى حلب فخرج نائبها عن الاتابك زنكي، وهو الأمير اسوار. وجمع التركمان مع عساكره. وقاتل الافرنج عند قنسرين وصابرهم ومحص الله المسلمين وانهزموا إلى حلب وسار ملك الافرنج في أعمال حلب ظافراً ثم سار بعض الافرنج من الرها للغارة في أعمال حلب فخرج إليهم الأمير اسوار، ومعه حسان التغلبي الذي كان صاحب منبج فأوقعوا بهم، واستلحموهم وأسروا من بقي منهم وعادوا ظافرين.

حصار المسترشد الموصل:

ولما وقع ما قدمناه من وصول زنكي. إلى بغداد، وانهزامه أمام المسترشد حقد عليه المسترشد ذلك وأقام يتربص. ثم كثر الخلاف بين سلاطين السلجوقية، واعتزلهم جماعة من أمرائهم فرارا من الفتنة ولحقوا بالخليفة وأقاموا في ظله فأراد الخليفة المسترشد أن ينتصف بهم من الاتابك زنكي، فقدم إليه بهاء الدين أبا الفتوح الاسقرابن الواعظ وحمله عتابا أغلظ فيه، وزاده الواعظ غلظة حفظا على ناموس الخلافة في معتقده، فامتعض الاتابك لما شافهه به وأهانه وحبسه. وأرسل المسترشد إلى السلطان مسعود على قصد الموصل وحاصرها لما وقع من زنكي. ثم سار في شعبان سنة سبع وعشرين إلى الموصل في ثلاثين ألف مقاتل. فلما قارب الموصل فارقها الاتابك زنكي إلى سنجار، وترك نائبه بها نصر الدين جقري، وجاء المسترشد فحاصرها والأتابك زنكي قد قطع الميرة عن معسكره فتعذرت الأقوات، وضاقت عليهم الأحوال، وأرادت جماعة من أهل البلد الوثوب بها. وسعى بهم فأخذوا وصلبوا ودام الحصار ثلاثة أشهر، وامتنعت عليه فأفرج عنها وعاد إلى بغداد. وقيل انّ مطر الخادم جاءه من بغداد وأخبره أن السلطان مسعودا عازم على قصد العراق، فعاد مسرعاً.

ارتجاع صاحب دمشق مدينة حماة:

قد كنا قدمنا أن الاتابك زنكي تغلب على حماة من يد تاج الملوك بوري بن طغركين صاحب دمشق سنة ثلاث وعشرين، وأقامت في ملكه أربع سنين. وتوفي تاج الملوك بوري في رجب سنة ست وعشرين، وولي بعده ابنه شمس الملوك إسمعيل، وملك بانياس من الافرنج في صفر سنة سبع وعشرين، ثم بلغه أن المسترشد بالله حاصر الموصل فسار هو إلى حماة وحاصرها، وقاتلها يوم الفطر ويومين بعده فملكها عنوة واستأمنوا فأمنهم. ثم حصر الوالي ومن معه بالقلعة فاستأمنوا أيضاً، واستولى على ما فيها من الذخائر والسلاح، وسار منها إلى قلعة شيزر فحاصرها ابن منقذ فحمل إليه مالاً صانعه به، وعاد إلى دمشق في ذي الحجة من السنة.

حصار الاتابك زنكي قلعة آمد واستيلاؤه على قلعة النسور ثم حصار قلاع الحميدية:

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة اجتمع الاتابك زنكي صاحب الموصل وصاحب ماردين على حصار آمد. واستنجد صاحبها بداود بن سقمان صاحب كيفا فجمع العساكر وسار إليهما ليدافعهما عنه، وقاتلاه فهزماه، وقتل كثير من عسكره. وأطالا حصار آمد وقطعا شجرها وكرومها، وامتنعت عليهما فرحلا عنها. وسار زنكي إلى قلعة النسور من ديار بكر فحاصرها وملكها منتصف رجب من السنة. ووفد عليه ضياء الدين أبو سعيد ابن الكفرتوثي فاستوزره الاتابك، وكان حسن الطريقة عظيم الرئاسة والكفاية محببا في الجند، وتوفي سنة ست وثلاثين بعدها. ثم استولى الاتابك على سائر قلاع الأكراد الحميدية، مثل قلعة العقر، وقلعة سوس وغيرهما. وكان لما ملك الموصل أمر صاحب هذه القلاع الأمير عيسى الحميري على ولايتها. فلما حاصر المسترشد الموصل قام في خدمته أحسن القيام، وجمع له الأكراد. فلما عاد المسترشد إلى بغداد من قتال الاتابك زنكي حاصر قلاعهم وحاصرتها العساكر وقاتلوها قتالاً شديداً حتى ملكوها في هذه السنة، ورفع الله شرهم عن أهل السواد المحاربين لهم، فقد كانوا منهم في ضيقة من كثرة عيثهم في البلاد وتخريبهم ، والله تعالى أعلم.

استيلاء الاتابك على قلاع الهكارية وقلعة كواشي:

حدّث ابن الأثير عن الجنيبي أن الاتابك زنكي لما ملك قلاع الحميدية وأجلاهم عنها، خاف أبو الهيجاء بن عبد الله على قلعة أشب والجزيرة وكواشي فاستأمن الاتابك واستحلفه، وحمل له مالا. ثم وفد عليه بالموصل بعد أن أخرج ابنه أحمد من أشب خشية أن يغلب عليها، وأعطاه قلعة كواشي وولى على أشب رجلا من الكرد، واسمه باد الأرمني. وإبنه أحمد هذا هو أبو علي بن أحمد المشطوب من أمراء السلطان صلاح الدين. ولما مات أبو الهيجاء واسمه موسى، وسار أحمد إلى أشب ليملكها فامتنع عليه باد وأراد حفظها لعلي الصغير من بني أبي الهيجاء فسار الاتابك زنكي في عساكره، ونزل على أشب، وبرز أهلها لقتاله. واستجرهم حتى أبعدوا، ثم كرّ عليهم فأفناهم قتلا وأسرا، وملك القلعة في الحال. وسيق إليه باد في جماعة من مقدمي الأكراد، وقتلهم، وعاد إلى الموصل. ثم سار غازياً في بعض مذاهبه فبعث نائبه نصر الدين جقري عسكرا، وخلى كنجا ورسى في قلعة العمادية، وحاصروا قلعة الشغبان وفرح وكواشي والزعفراني والغيّ وسرف وسفروه، وهي حصون الهكارية فحاربها وملكها جميعا. واستقام أمر الجبل والزوزن. وأمنت الرعية من الأكراد. وأما باقي قلاع الهكارية وهي حلا وصورا وهزور والملايسي ويامرما ومانرجا وباكرا ونسرفان قراجا صاحب العمادية فتحها بعد قتل زنكي بمدة طويلة. كان أميراً على تلك الحصون الهكارية من قبل زين الدين علي، على ما قال ابن الأثير. ولم أعلم تاريخ فتح هذه القلاع فلهذا ذكرته هنا. قال وحدّثني بخلاف هذا الحديث بعض فضلاء الأكراد. أن أبا بكر زنكي، لما فتح قلعة أسب وحرساني وقلعة العمادية، ولم يبق في الهكارية إلا صاحب جبل صورا وصاحب هزور، ولم يكن لهما شوكة يخشى منهما. ثم عاد إلى الموصل وخافه أهل القلاع الجبلية. ثم توفي عبد الله بن عيسى بن إبراهيم صاحب الربية والغي، وفرح وملكها بعده ابنه علي وكانت أمه خديجة ابنة الحسن أخت إبراهيم وعيسى، وهما من الأمراء مع زنكي بالموصل فأرسلها ابنها علي إلى أخويها المذكورين، وهما خالاه ليستأمنا له من الاتابك فاستحلفاه، وقدم عليه فأقره على قلاعه، واستقل بفتح قلاع الهكارية. وكان الشغبان هذا الأمير من المهرانية اسمه الحسن بن عمر فأخذه منه، وخربه لكبره وقلة أعماله. وكان نصر الدين جقري يكره عليا صاحب الربية والغي وفرح فسعى عند الاتابك في حبسه فأمره بحبسه ثم ندم وكتب إليه أن يطلقه فوجده قد مات فاتهم نصر الدين بقتله. ثم بعث العساكر إلى قلعة الرحبية فنازلوها بغتة وملكوها عنوة وأسروا ولد علي وإخوته، ونجت أمه خديجة لمغيبها.

وجاء البشير إلى الاتابك بفتح الربية فسره ذلك. وبعث العساكر إلى ما بقي من قلاع علي فأبى إلا أن يزيدوه قلعة كواشي، فمضت خديجة أم علي إلى صاحب كواشي من المهرانية، واسمه جرك راهروا وسألته النزول عن كواشي لاطلاق اسراهم ففعل ذلك، وتسلم زنكي القلاع، وأطلق الأسرى، واستقامت له جبال الاكراد، والله تعالى أعلم.

حصار الاتابك زنكي مدينة دمشق:

كان شمس الملوك إسمعيل بن بوري قد انحلّ أمره وضعفت دولته، واستطال عليه الافرنج، وخشي عاقبه أمرهم فاستدعى الاتابك زنكي سراً ليملكه دمشق ويريح نفسه. وشعر بذلك أهل دولته فشكوا إلى أمه فوعدتهم الراحة منه، ثم اغتالته فقتلته. وجاء الاتابك زنكي فقدم رسله من الفرات فألفوا شمس الملوك قد مات، وولي. مكانه أخوه محمود، واشتمل أهل الدولة عليه ورجعوا الخبر إلى الاتابك فلم يحفل به. وسار حتى نزل بظاهر دمشق واشتد أهل الدولة على مدافعته ومقدمهم معين الدين أبربوه أتابك طغركين. ثم بعث المسترشد أبا بكر بن بشر الجزري إلى الاتابك زنكي فأمره بصلح صاحب دمشق فصالحه، ورحل عنه منتصف السنة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتنة الراشد مع السلطان مسعود ومسيره إلى الموصل وخلعه:

كان كثير من أمراء السلجوقية قد اجتمعوا على الانتقاض على السلطان مسعود والخروج عليه. ولحق داود ابن السلطان محمود من أذربيجان ببغداد في صفر سنة اثنين وثلاثين، فأنزل بدار السلطنة، وراسله أولئك الأمراء. وقدم عليه بعضهم مثل صاحب قزوين، وصاحب أصبهان، وصاحب الأهواز وصاحب الأبلة وصاحب الموصل الاتابك زنكي. وخرجت إليهم العساكر من بغداد، وولي داود شحنية بغداد وخرج موكب الخليفة مع الوزير جلال الدين الرضي، وكان الخليفة قد تغير عليه وعلى قاضي القضاة الزينبي، فسمع بهم الاتابك. ثم وقعت العزيمة من الراشد والسلطان داود والأتابك زنكي، وحلف كل منهم لصاحبه وبعث الراشد إلى الاتابك بمائتي ألف دينار. ووصل سلجوق شاه إلى واسط وقبض على الامير بك آبه، ونهب ماله فانحدر الاتابك زنكي لمدافعته فاصطلحا، وعاد زنكي إلى بغداد، ومر على جميع العساكر لقتال السلطان مسعود. وخرج على طريق خراسان، وبلغهم أن السلطان مسعودا سار إلى بغداد

فعاد إليها ثم عاد الملك داود، وجاء السلطان مسعود فنزل على بغداد وحاصرهم نيفا وخمسين يوما، وارتحل إلى النهروان. ثم قدم عليه طرنطاي صاحب واسط بالسفن فرجع إلى بغداد، وعبر إلى الجانب الغربي. ثم اختلف العسكر ببغداد، ورجع الملك داود إلى ولايته بأذربيجان. وافترق الأمراء الذين معه، ولحق الراشد بالاتابك زنكي في نفر من أصحابه، وهو بالجانب الغربي. وسار معه إلى الموصل، ودخل السلطان مسعود إلى بغداد منتصف ذي القعدة سنة سنة ثلاثين واستقر بها وسكن الناس. وجمع القضاة والفقهاء، وعرض عليهم يمين الراشد بخطه، بأنه متى جمع أو خرج لحرب السلطان فقد خلع نفسه فأفتوا بخلعه. ثم وقعت الشهادات من أهل الدولة وغيرهم إلى الراشد بموجبات العزل وكتبت، وأفتى الفقهاء عقبها باستحقاق العزل، وحكم به القاضي المعين حينئذ لغيبة قاضي القضاة بالموصل مع الراشد، ونصب للخلافة ابن المستظهر. وجاء رسول الاتابك زنكي إلى بغداد، وهو القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري وبايع - بعد أن ثبت عنده الخلع، وانصرف إلى الاتابك باقطاع من خاص الخليفة، ولم يكن ذلك لأحد قبله. وعاد كمال الدين إلى الاتابك، وحمل كتب الخلع فحكم بها قاضي القضاة بالموصل. وانصرف الراشد عن الموصل إلى أذربيجان كما مرّ في أخبار الخلفاء والسلجوقية، والله تعالى ولي التوفيق.

غزاة عساكر حلب إلى الافرنج:

ثم اجتمعت عساكر حلب [3] مع الأمير اسوار نائب الاتابك زنكي بحلب في شعبان

سنة ثلاثين، وساروا غازين إلى بلاد الافرنج وقصدوا اللاذقية على غرة فنالوا منها، وانساحوا في بسائطها واكتسحوها، وامتلأت أيديهم من الغنائم، وخربوا بلاد اللاذقية وما جاورها وخرجوا على شيزر وملؤا الشام بالأتراك والظهر ووهن الافرنج لذلك. والله سبحانه وتعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

حصار الاتابك زنكي مدينة حمص واستيلاؤه على بغدوين وهزيمة الافرنج واستيلاؤه على حمص:

ثم سار الاتابك في العساكر في شعبان سنة إحدى وثلاثين إلى مدينة حمص، وبها

يومئذ معين الدين بن القائم بدولة صاحب دمشق وحمص من أقطاعه، فقدم إليه صاحبه صلاح الدين الباغيسياني في تسليمها فاعتذر بأن ذلك ليس من الاصابة فحاصرها والرسل تردد بينهما، وامتنعت عليه فرحل عنها إلى بغدوين من حصون الافرنج في شوال من السنة فجمع الافرنج، وأوعبوا وزحفوا إليه واشتد القتال بينهم. ثم هزم الله العدو ونجا المسلمين منهم، ودخل ملوكهم إلى حصن بغدوين فامتنعوا به، وشد الاتابك حصاره. وذهب القسوس والرهبان إلى بلاد النصرانية من الروم، والافرنج يستنجدونهم على المسلمين، ويخوفونهم استيلاء الاتابك على قلعة بغدوين، وما يخشى بعد ذلك من ارتجاعهم بيت المقدس. وجد الاتابك بعد ذلك في حصارها والتضييق عليها حتى جهدهم الحصار ومنع عنهم الأخبار. ثم استأمنوا على أن يحملوا إليه خمسين ألف دينار فأجابهم وملك القلعة. ثم سمعوا بمسير الروم والافرنج لانجادهم ، وكان الاتابك خلال الحصار قد فتح المعرة وكفرطاب في الولايات التي بين حلب وحماة ووهن الافرنج. ثم سار الاتابك زنكي في محرم سنة اثنين وثلاثين إلى بعلبك وملك حصن الممدل من أعمال صاحب دمشق. وبعث إليه نائب بانياس بالطاعة كذلك. ثم كانت حادثة ملك الروم ومنازلته حلب كما نذكره. فسار إلى سلمية ولما انجلت حادثة الروم رجع إلى حصار حمص وبعث إلى محمود صاحب دمشق في خطبة أمه مردخان بنت جاولي التي قتلت ابنها فتزوجها، وملك حمص وقلعتها. وحملت الخاتون إليه في رمضان، وظن أنه يملك دمشق بزواجها فلم يحصل على شيء من ذلك. والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

مسير الروم إلى الشام وملكهم مراغة:

ولما استنجد الافرنج ببغدوين ملك أمم النصرانية كما مرّ، جمع ملك الروم بالقسطنطينية، وركب البحر سنة إحدى وثلاثين ولحقته أساطيله وسار إلى مدينة قيقية فحاصرها، وصالحوه

بالمال وسار عنها إلى أدنة والمصيصة، وهما لابن ليون الأرمني صاحب قلاع الدروب فحاصرهما وملكهما. وسار إلى عين زربة فملكها عنوة، وملك تل حمدون، ونقل أهله إلى جزيرة قبرص. ثم ملك مدينة أنْطاكِية في ذي القعدة من السنة، وبها رغيد من ملوك الافرنج فصالحه، ورجع إلى بفراس ودخل منها بلاد ابن ليون فصالحه بالأموال ودخل في طاعته. ثم خرج إلى الشام أول سنة اثنتين وثلاثين، وحاصر مراغة على ستة فراسخ من حلب، وبعثوا بالصريخ إلى الاتابك زنكي فبعث بالعساكر إلى حلب لحمايتها، وقاتل ملك الروم مراغة

فملكها بالأمان منتصف السنة. ثم غدر بهم واستباحهم، ورحل إلى حلب فنزل بدابق ومعه الافرنج ورجعوا من الغد إلى حلب وحاصروها ثلاثاً فامتنعت عليهم وقتل عليها بطريق كبير منهم. ورحل عنها إلى قلعة الاتاود في شعبان من السنة فهرب عنها أهلها، ووضع الروم بها الأسرى والسبي ، وأنزلوا بها حامية. وبعث إليهم أسوار نائب حلب عسكراً فقتلوا الحامية، وخلصوا الأسرى والسبي ورحل الاتابك من حصن الأثارب بعد فتحه إلى سلمية وقطع الفرات إلى الرقة. واتبع الروم فقطع عنهم الميرة وقصد الروم قلعة شيزر، وبها سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني فحاصروها، ونصبوا المجانيق عليها. واستصرخ صاحبها بالأتابك زنكي فسار إليه، ونزل نهر العاصي بين شيزر وحماة. وبعث السرايا تختطف من حول معسكر الروم. وبعث إلى الروم يدعوهم إلى المناجزة والنزول إلى البسيط فخافوا عن ذلك، فرجع إلى التضريب بين الروم والافرنج يحذر أحد الفريقين من الآخر، حتى استراب كل بصاحبه فرحل ملك الروم في رمضان من السنة بعد حصار شيزر أربعين يوماً وأتبعه الاتابك فلحقهم واستلحمهم واستباحهم. ثم أرسل القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري إلى السلطان مسعود يستنجده على العدو ويحذره الروم واستيلاءهم على حلب، وينحدرون من الفرات إلى بغداد فوضع القاضي كمال الدين في جامع القصر من ينادي بصريخ المسلمين والخطيب على المنبر، وكذا في جامع السلطان فعظم الصراخ والبكاء، وتسايلت العوام من كل جانب، وجاؤا إلى دار السلطان في تلك الحالة، وقد وقع العويل والصراخ فعظم الهول على السلطان مسعود وجهز عسكراً عظيماً. وخاف القاضي كمال الدين غائلته ثم وصل الخبر برحيل ملك الروم فأخبر القاضي السلطان مسعود بذلك ومن مسير

العسكر والله تعالى أعلم.

استيلاء الاتابك زنكي على بعلبك:

ثم قتل محمود صاحب دمشق سنة ثلاث وثلاثين في شوال كما مرّ في أخبار دولتهم، وكانت أمه زمردخان متزوجة بالاتابك كما مرّ فبعثت إليه وهو بالجزيرة تعرفه بالخبر، وتطلب منه أن يسير إلى دمشق ويثأر بولدها من أهل دولته فسار لذلك. واستعد أهل دمشق للحصار ثم قصد الاتابك مدينة بعلبك ونزلها. وكان ابن القائم بالدولة قد نصب كمال الدين محمد بن بوري بدمشق وتزوج أمه، وبعث بجاريته إلى بعلبك. فلما سار الاتابك إلى دمشق قدم رسله إلى أنز في تسليم البلد على أن يبذل له ما يريد فأبى من ذلك وسار الاتابك إلى بعلبك فنازلها آخر ذي الحجة من السنة، ونصب عليها المجانيق. وشدد حصارها حتى استأمنوا فملكها. واعتصم الحامية بالقلعة حتى يئسوا من أنز فاستأمنوا إلى الاتابك. فلما ملكها قبض عليهم وصلبهم وتزوج جارية أنز ونقلها إلى حلب، إلى أن بعثها ابنه نور الدين محمود إلى صاحبها بعد موت الاتابك والله تعالى أعلم.

حصار الاتابك زنكي مدينة دمشق:

ثم سار الاتابك زنكي إلى حصار دمشق في ربيع الأول من سنة أربع وثلاثين بعد الفراغ من بعلبك فترل بالبقاع، وأرسل إلى جمال الدين محمد صاحبها في أن يسلمها إليه، ويعوضه عنها بما شاء فلم يجب إلى ذلك فزحف إليه، ونزل داريا، والتقت الطلائع فكان الظفر لأصحاب الاتابك. ثم تقدم إلى المصلى فترل بها، وقاتله أهل دمشق بالغوطة فظفر بهم وأثخن فيهم. ثم أمسك عن القتال عشرا يراود فيها صاحب دمشق. وبذل له بعلبك وحمص وما يختاره من البلاد فجنح إلى ذلك ولم يوافقه أصحابه فعادت الحرب. ثم توفي صاحب دمشق جمال الدين محمد في شعبان من السنة، ونصب معين الدين أنز مكانه ابنه محيي الدين أنز وقام بأمره. وطمع زنكي في ملك البلد فامتنعت عليه. وبعث معز الدين أنز إلى الافرنج يستدعيهم إلى النصر على الاتابك، ويبذل لهم ويخوفهم غائلته، ويشترط لهم إعانتهم على بانياس حتى يملكوها فأجاب الافرنج لذلك، وأجفل زنكي إلى حوران خامس رمضان من السنة معتزما على لقائهم فلم يصلوا فعاد إلى حصار دمشق، وأحرق قراها وارتحل إلى بلاده. ثم وصل الافرنج، وارتحل معين الدين أنز في عساكر دمشق إلى بانياس، وهي للاتابك زنكي ليوفي

للافرنج بشرطه لهم فيها. وقد كان نائبها سار للاغارة على مدينة صور، ولقيه في طريقه صاحب أنْطاكِية ذاهبا إلى دمشق منجداً فهزم عسكر بانياس، وقتلوا ولحق فلهم بالبلد، وقد وهنوا، وحاصرهم معين الدين أنز والافرنج وملكها عنوة، وسلمها للافرنج، وأحفظه ذلك. وفرق العسكر في حوران وأعمال دمشق، وسار هو فصابح دمشق ولم يعلموا بمكانه فبرزوا إليه وقاتلوه، وقتل منهم جماعة. ثم احجم عنهم لقلة من معه، وارتحل إلى مرج راهط في انتظار عس!اكره فلما توافوا عنده عاد إلى بلاده.

استيلاء الاتابك على شهرزور وأعمالها:

كان شهرزور بيد قفجاق بن ارسلان شاه أمير التركمان وصالحهم، وكانت الملوك تتجافى عن أعماله لامتناعها ومضايقها فعظم شأنه، واشتمل عليه التركمان وسار إليه الاتابك زنكي سنة أربع وثلاثين فجمع ولقيه فظفر به الاتابك واستباح معسكره، وسار في اتباعه فحاصر قلاعه وحصونه وملك جميعها. واستأمن إليه قفجاق فأمنه وسار في خدمته وخدمة بنيه بعده إلى آخر المائة. ثم كان في سنة خمس وثلاثين بين الاتابك زنكي وبين داود بن سقمان صاحب كيفا فتنة وحروب. وانهزم داود وملك الاتابك من بلاده قلعة همرد وادركه فعاد إلى الموصل ثم سار الاتابك إلى مدينة الحرمية فملكها سنة ست وثلاثين ونقل آل مهارش الذين كانوا بها إلى الموصل، ورتب أصحابه مكانهم. ثم خطب له صاحب آمد، وصار في طاعته بعد أن كان مع داود عليه. ثم بعث الاتابك لسنة سبع وثلاثين عسكراً إلى قلعة أشهب، وهي من أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنعها. وفيها أهلوهم وذخائرهم فحاصرها وملكها، وأمره الاتابك بتخريبها وبنى قلعة العمادية عوضاً عنها، وكانت خربت قبل ذلك لاتساعها وعجزهم عن حمايتها فأعيدت الآن. وكان نصير الدين نائب الموصل قد فتح أكثر القلاع الحربية والله تعالى أعلم.

صلح الاتابك مع السلطان مسعود واستيلاؤه على أكثر ديار بكر:

كان السلطان مسعود ملك السلجوقية قد حقد على الاتابك زنكي شأن الخارجين على طاعته من أهل الأطراف، وينسب ذلك إليه، وكان يفعل ذلك مشغلة للسلطان عنه. فلما فرغ
السلطان مسعود من شواغله سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، سار إلى بغداد عازما على قصد الاتابك وحصار الموصل فأرسل الاتابك يستعطفه ، على ان يدفع إليه مائة ألف دينار ويعود عنه فشرع في ذلك، وحمل منها عشرين ألفا. ثم حدثت الفتنة على السلطان فاحتاج إلى مداراته وترك له الباقي، وبالغ هو في مخالصة السلطان بحيث إن ابنه غازي كان عند السلطان فهرب إلى الموصل، فبعث إلى نائبها نصير الدين جقري يمنعه من دخولها وبعث إلى ابنه بالرجوع إلى خدمة السلطان. وكتب إلى السلطان بأن ابني هرب للخوف من تغير السلطان عليه وقد أعدته إلى الخدمة ولم ألفه، وانا مملوكك والبلاد لك فوقع ذلك من السلطان أحسن المواقع. ثم سار الاتابك إلى ديار بكر ففتح طره واسعرد وحران وحصن الرزق وحصن تطليت وحصن ياسنه وحصن ذي القرنين وغير هذه، وملك أيضاً من بلاد ماردين الافرنج حملين والمودن وتل موزر وغيرها من بلاد حصون سجستان وأنزل بها الحامية وقصد آمد فحاصرها، وسير عسكراً إلى مدينة عانة من أعمال الفرات فملكها والله تعالى أعلم.

فتح الرها وغيرها من أعمال الافرنج:

كان الافرنج بالرها وسروج والبيرة قد أضروا بالمسلمين جوارهم، مثل آمد ونصيبين ورأس العين والرقة وكان زعيمهم ومقدمهم بتلك البلاد جوسكين الزعيم ورأى الاتابك أنه يوري عن قصدهم بغيره لئلا يجمعوا له فوري بغزو ديار بكر كما قلناه وجوسكين وعبر الفرات من الرها إلى غزنة. وجاء الخبر بذلك إلى الاتابك فارتحل منتصف جمادى الاخيرة سنة تسع وثلاثين، وحرض المسلمين وحثهم على عدوهم، ووصل إلى الرها، وجوسكين غائب عنها فانحجز الافرنج بالبلد، وحاصرهم شهرا وشد في حصارهم وقتالهم، ولج في ذلك قبل اجتماع الافرنج ومسيرهم إليه. ثم ضعف سورها فسقطت ثلمة منه، وملك البلد عنوة. ثم حاصر القلعة وملكها كذلك. ثم رد على أهل البلد ما أخذ منهم وأنزل فيه حامية. وسار إلى سروج وجميع البلاد التي بيد الافرنج شرقيا فملكها جميعا إلا البيرة لامتناعها فأقام يحاصرها حتى امتنعت ورحل عنها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل نصير الدين جقري نائب الموصل وولاية زين الدين على كجك مكانه بالقلعة:

كان استقر عند الاتابك زنكي بالموصل الملك ألبارسلان ابن السلطان محمد، ويلقب الخمفاجي، وكان شبيها به وتوهم السلطان ان البلاد له وأنه نائبه وينتظر وفاة السلطان مسعود فيخطب له ويملك البلد باسمه. وكان يتردد له ويسعى في خدمته فداخله بعض المفسدين في غيبة الاتابك، وزين له قتل نصير الدين النائب، والاستيلاء على الموصل. فلما دخل إليه أغرى به أجناد الاتابك ومواليه فوثبوا به، وقتلوه في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين. ثم ألقوا برأسه إلى أصحابه يحسبون أنهم يفترقون فاعصوصبوا واقتحموا عليه الدار. ودخل عليه القاضي تاج الدين يحيى ابن الشهرزوري فأوهمه بطاعته، وأشار عليه بالصعود إلى القلعة ليستولي على المال

والسلاح فركب وصعد معه، وتقدم إلى حافظ القلعة وأشار عليه بأن يمكنه من الدخول. ثم يقبض عليه فدخل ودخل معه الذين قتلوا نصير الدين فحبسهم والي القلعة، وعاد القاضي إلى البلد. وطار الخبر إلى الاتابك زنكي بحصار البيرة فخشي اختلاف البلد وعاد إلى الموصل، وقدم زين الدين على بن كجك، وولاه القلعة مكان نصير الدين، وأقام ينتظر الخبر. وخاف الافرنج الذين بالبيرة من عودته إليهم فبعثوا إلى نجم الدين صاحب ماردين، وسلموها له فملكها المسلمون.

حصار زنكي حصن جعبر وفنك:

ثم سار الاتابك زنكي سنة إحدى وأربعين في المحرم إلى حصن جعبر، ويسمى دوس وهو مطل على الفرات، وكان لسالم بن مالك العقيلي ، أقطعه السلطان ملك شاه لأبيه حين أخذ منه حلب وبعث جيشاً إلى قلعة فنك على فرسخين من جزيرة ابن عمر فحاصروها، وصاحبها يومئذ حسام الدين الكردي فحاصر قلعة جعبر حتى توسط الحال بينهما حسان المنبجي ورغبه ورهبه. وقال في كلامه من يمنعك منه فقال الذي منعك أنت من مالك بن بهرام، وقد حاصر حسان منبج فأصابه في بعض الأيام سهم فقتله، وأفرج عن حسان وقدر قتل الاتابك كذلك والله تعالى أعلم.

مقتل الاتابك عماد **الدين** زنكي:

كان الاتابك عماد الدين زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل. والشام محاصراً لقلعة جعبر كما ذكرنا، واجتمع جماعة من مواليه واغتالوه ليلا وقتلوه على فراشه، ولحقوا بجعبر وأخبروا أهلها فنادوا من السور بقتله. فدخل أصحابه إليه وألفوه يجود بنفسه. وكان قتله لخمس من ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين، عن ستين سنة من عمره ودفن بالرقة، وكان يوم قتل أبوه ابن سبع سنين. ولما قتل دفن بالرقة وكان حسن السياسة كثير العدل مهيباً عند جنده. عمر البلاد وأمنها، وأنصف المظلوم من الظالم. وكان شجاعاً شديد الغيرة كثير الجهاد. ولما قتل رحل العسكر عن قلعة فنك، وصاحبها غفار. قال ابن الأثير: سمعتهم يزعمون أن لهم فيها نحو ثلثمائة سنة، وفيهم رفادة وعصبية ويجيرون كل من يلجأ إليهم والله أعلم.

استيلاء ابنه غازي على الموصل وابنه الآخر محمود على حلب:

ولما قتل الاتابك زنكي نزع ابنه نور الدين محمود خاتمه من يده، وسار به إلى حلب فاستولى عليها. وخرج الملك ألبارسلان ابن السلطان محمود، واجتمعت عليه العساكر، وطمع في الاستقلال بملك الموصل. وحضر ابنه جمال الدين محمد بن علي بن متولي الديوان، وصلاح الدين بن محمد الباغيسياني الحاجب، وقد اتفقا فيما بينهما على حفظ الدولة لأصحابهما، وحسنا لألبارسلان ما هو فيه من الاشتغال بلذاته، وأدخلاه الرقة فانغمس بها. وهما يأخذان العهود على الأمراء لسيف الدين غازي، ويبعثانهم إلى الموصل وكان سيف الدين غازي في مدينة شهرزور، وهي أقطاعه، وبعث إليه زين الدين على كوجك نائب القلعة بالموصل يستدعيه ليحضر عنده. وسار البارسلان إلى سنجار، والحاجب وصاحبه معه، ودسوا إلى نائبها بأن يعتذر للملك البارسلان بتأخره حتى يملك الموصل، فساروا إلى الموصل ومروا بمدينة سنجار وقد وقف العسكر فأشاروا على

ألبارسلان بعبور دجلة إلى الشرق وبعثوا إلى سيف الدين غازي بخبره وقلة عسكره، فأرسل إليه عسكراً فقبضوه وجاؤا به فحبسه بقلعة الموصل. واستولى سيف الدين غازي على الموصل والجزيرة، وأخوه نور الدين محمود على حلب ولحق به صلاح الدين الباغيسياني فقام بدولته، والله سبحانه وتعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

عصيان الرها:

ولما قتل الاتابك زنكي ملك الرها جوسكين، كان جوسكين مقيما في ولايته بتل باشر وما جاورها فراسل أهل الرها، وعامتهم من الأرمن، وحملهم على العصيان على المسلمين، وتسليم البلد له فأجابوه، وواعدوه ليوم عينوه فسار في عساكره وملك البلد وامتنعت القلعة. وبلغ الخبر إلى نور الدين محمود، وهو بحلب فأغذ السير إليها، وأجفل جوسكين إلى بلده. ونهب نور الدين المدينة وسبى أهلها، وارتحلوا عنها وبعث سيف الدين غازي العساكر إليها فبلغهم في طريقهم ما فعله نور الدين فعادوا، وذلك سنة إحدى وأربعين. ثم قصد صاحب دمشق بعد قتل الاتابك حصن بعلبك، وبه نجم الدين أيوب بن شادي نائب الاتابك فأبطأ عليه انجاد بنيه، فصالح صاحب دمشق، وسلم له. بعلبك على اقطاع ومال أعطاه إياه وعشر قرى من بلاد دمشق وانتقل معه إلى دمشق فسكنها وأقام بها ثم سار نور الدين محمود سنة اثنتين وأربعين من حلب إلى الإفرنج ففتح مدينة أرتاج عنوة وحاصر حصونا أخرى. وكان الإفرنج بعد قتل الاتابك يظنون أنهم يستردون ما أخذه منهم فبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون ولما قتل الاتابك زنكي طمع صاحب ماردين وصاحب كيفا أن يستردوا ما أخذ من بلادهم، فلما تمكن سيف الدين غازي سار إلى أعمال ديار بكر فملك دارا وغيرها، وتقدم إلى ماردين وحاصرها وعاث في نواحيها، حتى ترحم صاحبها حسام الدين تمرتاش على الاتابك مع عداوته. ثم أرسل إلى سيف الدين غازي وصالحه، وزوجه بنته فعاد إلى الموصل، وزفت إليه وهو مريض فهلك قبل زفافها، وتزوجها أخوه قطب الدين من بعده، والله أعلم.

مصاهرة سيف الدين غازي لصاحب دمشق وهزيمة نور الدين محمود للافرنج:

كان تقدم لنا في دولة بني طغركين موالي دقاق بن تتش أن ملك اللمان من الإفرنج

سار سنة ثلاث وأربعين، وحاصر دمشق بجموع الإفرنج، وبها محي الدين أرتق بن بوري بن محمد بن طغركين في كفالة معين الدين أنز مولي أعمال . فبعث معين الدين إلى سيف الدين غازي بن أتابك زنكي بالموصل يدعوه إلى نصرة المسلمين، فجمع عساكره وسار إلى الشام،

واستدعى أخاه نور الدين من حلب، ونزلوا على حمص فأخذوا بحجز الإفرنج عن الحصار، وقوي المسلمون بدمشق عليهم. وبعث معين الدين إلى طائفتي الإفرنج من سكان الشام واللمان الواردين، فلم يزل يضرب بينهم. وجعل لافرنج الشام حصن بانياس طعمة على أن يرحلوا بملك اللمانيين ففتلوا له في الذروة والغارب، حتى رحل عن دمشق، ورجع إلى بلاده وراء قسطنطينية بالشمال. وحسن أمر سيف الدين غازي وأخيه في الدفاع عن المسلمين، وكان مع ملك اللمان حين خرج إلى الشام ابن ادفونش ملك الجلالقة بالأندلس، وكان

جده هو الذي ملك طرابلس الشام من المسلمين حين خروج الإفرنج إلى الشام فلما جاء الآن مع ملك اللمان ملك حصن العريمة، وأخذ في منازلة طرابلس ليملكها من القمص، فأرسل القمص إلى نور الدين محمود ومعين الدين أنز وهما مجتمعان ببعلبك بعد رحيل ملك اللمانيين عن دمشق، وأغراهما بابن ادفونش ملك الجلالقة واستخلاص حصن العريمة من يده، فسارا لذلك سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. وبعث إلى سيف الدين وهو بحمص فأمدهما بعسكر مع الأمير عز الدين أبي بكر الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر، وحاصروا حصن العريمة أياما، ثم نقضوا سوره وملكوه على الإفرنج، وأسروا من كان به من الإفرنج ومعهم ابن ادفونش، وعاد إلى سيف الدين عساكره. ثم بلغ نور الدين ان الإفرنج تجمعوا في بيقو من أرض الشام للإغارة على أعمال حلب، فسار إليهم وقتلهم وهزمهم، وأثخن فيهم قتلا وأسرا، وبعث من غنائمهم وأسراهم إلى أخيه سيف الدين غازي وإلى المقتفي. الخليفة انتهى. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة سيف الدين غازي وملك أخيه قطب الدين مودود:

ثم توفي سيف الدين غازي بن الاتابك زنكي صاحب الموصل منتصف أربع وأربعين وخمسمائة، لثلاث سنين وشهرين من ولايته، وخلف ولدا صغيرا ربي عند عمه نور الدين محمود. وهلك صغيرا فانقرض عقبه. وكان كريماً شجاعاً متسع المائدة يطعم بكرة وعشية مائة رأس من الغنم في كل نوبة، وهو أول من حمل الصنجق على رأسه، وأمر بتعليق السيوف بالمناطق، وترك التوشح بها، وحمل الدبوس في حلقة السرج. وبنى المدارس للفقهاء، والربط للفقراء. ولما أنشده حيص بيص الشاعر يمدحه:

الام يراك المجد في زي شاعر وقد نحلت شوقاً إليك المنابر

فوصله بألف مثقال سوى الخلع وغيرها. ولما توفي سيف الدين غازي انتقض الوزير جمال الدين وأمير الجيوش زين الدين علي، وجاؤا بقطب الدين مودود، بادروا إلى تمليكه واستخلفوه وحلفوا له. وركب إلى دار السلطنة، وزين الدين في ركابه فبايعوا له وأطاعه جميع من في أعمال أخيه بالموصل والجزيرة. وتزوج الخاتون بنت حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين التي هلك أخوه قبل زفافها، فكان ولده كلهم منها والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء السلطان محمود على سنجار:

ولما ملك قطب الدين مودود الموصل، وكان أخوه نور الدين محمود بالشام، وكان

أكبر منه، وله حلب وحماة، كاتبه جماعة من الأمراء بعد أخيه غازي. وفيمن كاتبه نائب سنجار المقدم عبد الملك فبادر إليه في سبعين فارسا من أمرائه، وسبق أصحابه في يوم مطير إلى مساكن. ودخل البلد، ولم يعرفوا منه إلا أنه أمير من جند التركمان. ثم دخل على الشحنة بيته فقبل يده وأطاعه، ولحق به أصحابه، وساروا جميعاً إلى سنجار، وأغذ السير فقطع عنه أصحابه ووصل إلى سنجار في فارسين، ونزل بظاهر البلد. وبعث إلى المقدم فوصله، وكان قد سار إلى الموصل. وترك ابنه شمس الدين محمد بالقلعة فبعث في أثر أبيه وعاد من طريقه، وسلم سنجار إلى نور الدين محمود فملكها. واستدعى فخر الدين قرى ارسلان صاحب كيفا لمودة

بينهما فوصل في عساكره، وبلغ الخبر إلى قطب الدين صاحب الموصل، ووزيره جمال الدين، وأمير جيشه زين الدين فساروا إلى سنجار للقاء نور الدين محمود، وانتهوا إلى تل اعفر، ثم خاموا عن لقائه. وأشار الوزير جمال الدين بمصالحته وسار إليه بنفسه فعقد معه الصلح، وأعاد سنجر على أخيه قطب الدين. وسلم له أخوه مدينة حمص والرحبة والشام فانفرد بملك الشام، وانفرد أخوه قطب الدين بالجزيرة واتفقا. وعاد نور الدين إلى حلب، وحمل ما كان لأبيهم الاتابك زنكي من الذخيرة لسنجار، وكان لا يعبر عنها، والله تعالى أعلم.

غزو نور الدين إلى أنْطاكِية وقتل صاحبها وفتح افاميا:

ثم غزا نور الدين سنة أربع وأربعين إلى أنْطاكِية فعاث فيها، وخرب كثيرا من حصونها وبينما هو يحاصر بعض الحصون اجتمع الإفرنج وزحفوا إليه فلقيهم وحاربهم، وأبلى في ذلك الموقف فهزم الإفرنج وقتل البرنس صاحب أنْطاكِية، وكان من عتاة الإفرنج. وملك بعده ابنه سمند طفلا، وتزوجت أمه برنس آخر يكفل ولدها ويدبر ملكها فغزاه نور الدين، ولقوه فهزمهم، وأسر ذلك البرنس الثاني. وتمكن الطفل سمند من ملكه بأنْطاكِية. ثم سار نور الدين سنة خمس وأربعين إلى حصن افاميا بين شيزر وحماة وهو من أحسن القلاع فحاصره وملكه، وشحنه حامية وسلاحا وأقواتا. ولم يفرغ من أمره إلا والإفرنج الذين بالشام جمعوا وزحفوا إليه. وبلغهم الخبر فخاموا عن اللقاء وصالحوه في المهادنة فعقد لهم انتهى.

هزيمة نور الدين جوسكين وأسر جوسكين:

ثم جمع نور الدين بعد ذلك وسار غازيا إلى بلاد زعيم الإفرنج، وهي تل باشر وعنتاب وعذار وغيرها من حصون شمالي حلب فجمع جوسكين لمدافعته عنها، ولقيه فاقتتلوا ومحص الله المسلمين، واستشهد كثير منهم وأسر آخرون، وفيهم صاحب صلاح نور الدين فبعثه جوسكين إلى الملك مسعود بن قليج ارسلان يعيره به، لمكان صهره نور الدين على إبنته فعظم ذلك عليه، وأعمل الحيلة في جوسكين. وبذل المال لإحياء التركمان البادين بضواحيه أن يحتالوا في القبض عليه ففعلوا، وظفر به بعضهم فشاركهم في إطلاقه على مال، وبعث من يأتي به . وشعر بذلك والي حلب أبو بكر بن الرامة فبعث عسكراً ليسوا من ذلك الحي جاؤا بجوسكين أسيراً إلى حلب وسار نور الدين إلى القلاع فملكها، وهي: تل باشر وعنتاب وعذار وتل خالد وقورص وداوندار ومرج الرصاص وحصن النادة وكفرشود وكفرلات ودلوكا ومرعش ونهر الجود، وشحنها بالأقوات. وزحف اليه الإفرنج ليدافعوه فلقيهم على حصن جلدك. وانهزم الإفرنج وأثخن المسلمون فيهم بالقتل والأسر، ورجع نور الدين إلى دلوكا ففتحها، وتأخر فتح تل باشر منها إلى أن ملك نور الدين دمشق، واستأمنوا إليه وبعث إليهم حسان المنبجي فتسلمها منهم وحصنها، وذلك في سنة تسع وأربعين وخمسمائة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء نور الدين على دمشق:

كان الإفرنج سنة ثمان وأربعين قد ملكوا عسقلان من يد العلوية خلفاء مصر، واعترضت دمشق بين نور الدين وبينهما فلم يجد سبيلاً إلى المدافعة عنها، واستطال الإفرنج على دمشق

بعد ملكهم عسقلان، ووضعوا عليها الجزية، واشترطوا عليهم تخيير الأسرى الذين بأيديهم في الرجوع إلى وطنهم، وكان بها يومئذ مجير الدين أنز بن محمد بن بوري بن طغركين الاتابك واهن القوى، مستضعف القوة. فخشي نور الدين عليها من الإفرنج، وربما ضايق مجير الدين بعض الملوك من جيرانه فيفزع إلى الإفرنج فيغلبون عليه. وأمعن النظر في ذلك ، وبدأ أمره بمواصلة مجيز الدين وملاطفته حتى استحكمت المودة بينهما حتى صار يداخله في أهل دولته وبرميهم عنده أنهم كاتبوه فيوقع الآخر بهم، حتى هدم أركان دولته، ولم يبق من أمرائه إلا الخادم عطاء بن حفاظ وكان هو القائم بدولته فغصى به نور الدين وحال بينه وبين دمشق فأغرى به صاحبه مجير الدين حتى نكبه وقتله. وخلت دمشق من الحامية فسار حينئذ نور الدين مجاهراً بعداوة مجير الدولة ومتجنياً عليه. وإستنجد بالإفرنج على أن يعطيهم الأموال ويسلم لهم بعلبك فجمعوا واحتشدوا. وفي خلال ذلك عمد نور الدين إلى دمشق سنة سبع وأربعين، وكاتب جماعة من أحداثها ووعدهم من أنفسهم، فلما وصل ثاروا بمجير الدين ولجأ إلى القلعة. وملك نور الدين المدينة وحاصره. بالقلعة، وبذل له إقطاعاً منها مدينة حمص. فسار إليها مجير الدين، وملك نور الدين القلعة. ثم عوضه عن حمص ببالس فلم يرضها، ولحق ببغداد وابتنى بها داراً وأقام بها إلى أن توفي، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء نور الدين على تل باشر وحصاره قلعة حارم:

ولما فرغ نور الدين من أمر دمشق بعث إليه الإفرنج الذين في تل باشر في شمالي حلب، واستأمنوا إليه ومكنوه من حصنهم فتسلمه حسان المنبجي من كبراء أمراء نور الدين سنة تسع وأربعين. ثم سار سنة إحدى وخمسين إلى قلعة هرام بالقرب من أنْطاكِية وهي لسمند أمير أنْطاكِية من الإفرنج فحاصرها، واجتمع الإفرنج لمدافعته، ثم خاموا عن لقائه وصالحوه على نصف أعمال حارم فقبل صلحهم ورحل عنها، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

استيلاء نور الدين على شيزر:

شيزر هذه حصن قريت من حماة على نصف مرحلة منها على جبل منيع عال لا يسلك إليه إلا من طريق واحدة، وكانت لبني منقذ الكنانيين يتوارثون ذلك من أيام صالح بن مرداس صاحب حلب من أعوام عشرين وأربعمائة، إلى أن انتهى ملكه إلى المرهف نصر بن علي بن

نصير بن منقذ بعد أبيه أبي الحسن علي. فلما حضره الموت سنة تسعين وأربعمائة عهد لأخيه أبي سلمة بن مرشد، وكان عالماً بالقراءات والأدب، وولى مرشد أخاه الأصغر سلطان بن علي، وكان بينهما من الإتفاق والملاءمة ما لم يكن ين إثنين. ونشأ لمرشد بنون كثيرون و في السود، منهم عز الدولة أبو الحسن علي، ومؤيد الدولة أسامة وولده علي وتعدد ولده ونافسوا بني عمهم، وفشت بينهم السعايات فتماسكوا لمكان مرشد والتئامه بأخيه. فلما مات مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة تنكر أخوه سلطان لولده، وأخرجهم من شيزر فتفرقوا وقصد بعضهم نور الدين فامتعض لهم وكان مشتغلا عنهم بالافرنج. ثم توفي سلطان وقام بأمر شيزر أولاده، وراسلوا الإفرنج فحنق نور الدين عليهم لذلك. ثم وقعت الزلازل بالشام وخرب أكثر

مدنه مثل: حماة وحمص وكفرطاب والمعرة وأفامية وحصن الأكراد وعرقة ولاذقية وطرابلس وأنْطاكِية. هذه سقطت جميعها وتهدمت سنة إثنتين وخمسين، وما سقط بعضه وتهدمت أسواره فأكثر بلاد الشام. وخشي نور الدين عليها من الإفرنج فوقف بعساكره في أطراف البلاد حتى رم ما تثلم من أسوارها. وكان بنو منقذ أمراء شيزر قد اجتمعوا عند صاحبها منهم في دعوة فأصابتهم الزلزلة مجتمعين فسقطت عليهم القلعة، ولم ينج منهم أحد. وكان بالقرب منها بعض أمراء نور الدين فبادر وصعد إليها، وملكها منه نور الدين ورم ما تثلم من أسوارها، وجدد بناءها فعادت كما كانت، هكذا قال ابن الأثير. وقال ابن خلكان: وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة استولى بنو منقذ على شيزر من يد الروم، والذي تولى فتحها منهم علي بن منقذ بن نصر بن سعد، وكتب إلى بغداد بشرح الحال ما نصه:

كتابي من حصن شيزر حماه الله، وقد رزقني الله من الاستيلاء على هذا المعقل العظيم ما لم يتأت لمخلوق في هذا الزمان. وإذا عرف الأمر على حقيقته علم أني هزبر هذه الأمة، وسليمان الجن والمردة، وأنا أفرّق بين المرء وزوجه، واستترل القمر من محله. أنا أبو النجم وشعري شعري نظرت إلى هذا الحصن فرأيت أمراً يذهل الألباب، يسع ثلاثة آلاف رجل بالأهل والمال، وتمسكه خمس نسوة فعمدت إلى تل بينه وبين حصن الروم يعرف بالحواص، ويسمى هذا التل بالحصن فعمرته حصناً، وجمعت فيه أهلي وعشيرتي ونفرت نفرة على حصن الحواص فأخذته بالسيف من الروم ومع ذلك فلما أخذت من به من الروم أحسنت إليهم وأكرمتهم ومزجتهم بأهلي وعشيرتي، وخلطت خنازيرهم بغنمي، ونواقيسهم بصوت الأذان. ورأى أهل شيزر فعلي ذلك فأنسوا بي، ووصل إلى منهم قريب من نصفهم فبالغت في إكرامهم. ووصل إليهم مسلم بن قريش العقيلي فقتل

من أهل شيزر نحو عشرين رجلاً. فلما إنصرف مسلم عنهم سلموا إلى الحصن. إنتهى كتاب علي بن منقذ. وبين هذا الذي ذكره ابن خلكان والذي ذكره ابن الأثير نحو خمسين سنة. وما ذكره ابن الأثير أولي لأن الإفرنج لم يملكوا من الشام شيئاً في أوائل المائة الخامسة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء نور الدين على بعلبك:

كانت بعلبك في يد الضحاك البقاعي، نسبة إلى بقاعة والآن عليها صاحب دمشق. فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك ببعلبك، وشغل نور الدين عنه بالافرنج. فلما كانت سنة اثنتين وخمسين إستترله نور الدين عنها وملكها، والله أعلم.

استيلاء أخي نول الدين على حران ثم إرتجاعها:

كان نور الدين سنة أربع وخمسين وخمسمائة بحلب، ومعه أخوه الأصغر أمير أميران، فمرض نور الدين بالقلعة، واشتد مرضه فجمع أخوه وحاصر قلعة حلب. وكان شيركوه ابن شادي أكبر أمرائه بحمص، فلما بلغه لأزحاف سار إلى دمشق ليملكها، وعليها أخوه نجم الدين أيوب فنكر عليه، وأمره بالمسير إلى حلب حتى يتبين حياة نور الدين من موته. فأغذ السير إلى حلب، وصعد القلعة، وأظهر نور الدين للناس من سطح

مشرف فافترقوا عن أخيه أمير أميران. فسار إلى حران فملكها. فلما أفاق نور الدين سلمها إلى زين الدين علي كجك نائب أخيه قطب الدين بالموصل، وسار إلى الرقة فحاصرها، والله تعالى ولي التوفيق.

خبر سليمان شاه وحبسه بالموصل ثم مسيره منها إلى السلطنة بهمذان:

كان الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملك شاه عند عمه السلطان سنجر لخراسان، وقد عهد له بملكه وخطب باسمه على منابر خراسان. فلما حصل سنجر في أسر العدو سنة ثمان وأربعين وخمسمائة كما مرّ في أخبار دولتهم، واجتمعت العساكر على سليمان شاه هذا، وقدموه

فلم يطق مقاومة العدو فمضى إلى خوارزم شاه وزوجه إبنة أخيه. ثم بلغه عنه ما ارتاب له فأخرجه من خوارزم، وقصد أصبهان فمنعه الشحنة من الدخول فقصد قاشان، فبعث إليه محمد شاه ابن أخيه محمود عسكرا دافعوه عنها فسار إلى خراسان، فمنعه ملك شاه منها فقصد النجف، ونزل وأرسل للخليفة المستنصر، وبعث أهله وولده رهناً بالطاعة و استأذن في دخول بغداد، فأكرمهم الخليفة وأذن له وخرج ابن الوزير ابن هبيرة لتلقيه في الموكب، وفيه قاضي القضاة. والتقيا ودخل بغداد، وخلع عليه آخر سنة خمسين. وبعد أيام أحضر بالقصر واستخلف بحضرة قاضي القضاة والأعيان، وخطب له ببغداد، ولقب ألقاب أبيه. وأمر بثلاثة آلاف فارس، وسار نحو بلاد الجبل في ربيع سنة إحدى وخمسين. ونزل الخليفة حلوان واستنفر له ابن أخيه ملك شاه صاحب همذان، فقدم إله في ألفي فارس، وجعله سليمان شاه ولي عهده، وأمدهما الخليفة بالمال والسلاح ولحق بهما ايلدكز صاحب الريّ فكثرت جموعهم. وبعث السلطان محمد إلى قطب الدين مودود صاحب الموصل، وزين الدين علي كجك نائبه في المظاهرة والإنجاد، وسار إلى لقاء سليمان شاه فانهزم وتمزق عسكره. وفارقه أيلدكز فذهب إلى بغداد على طريق شهرزور. وبلغ خبر الهزيمة إلى زين الدين علي كجك فخرج في جماعة من عسكر الموصل، وقعد له بشهرزور، ومعه الأمير إيراق حتى مرّ بهم سليمان شاه فقبض عليه زين الدين، وحمله إلى الموصل فحبسه بها مكرماً، وطير إلى السلطان محمود بالخبر. فلما هلك السلطان محمود بن محمد سنة خمس وخمسين، أرسل أكابر الأمراء من همذان إلى قطب الدين أتابك يطلبون توليه الملك سليمان شاه، ويكون جمال الدين وزير قطب الدين وزيراً له، وتعاهدوا على ذلك. وجهزه قطب الدين جهاز الملك، وسار معه زين الدين علي كجك في عسكر الموصل إلى همذان. فلما قاربوا بلاد الجبل تتابعت العساكر والأمداد للقائهم إرسالاً، واجتمعوا على سليمان شاه وجروا معه على مذاهب الدولة، فخشيهم زين الدين على نفسه، وفارقهم إلى الموصل. وسار سليمان شاه إلى همذان فكان من أمرهم ما تقدم في أخبار الدولة السلجوقية.

حصار قلعة حارم وانهزام نور الدين إمام الإفرنج ثم هزيمتهم وفتحها:

ثم جمع نور الدين محمود عساكر حلب، وحاصر الإفرنج بقلعة حارم، وجمعوا لمدافعته ثم خاموا عن لقائه و لم يناجزوه ، وطال عليه أمرها فعاد عنها. ثم جمع عساكره وسار سنة ثمان وخمسين معتزماً على غزو طرابلس، وإنتهى إلى البقيعة تحت حصن الأكراد فكبسهم الإفرنج هنالك وأثخنوا فيهم. ونجا نور الدين في الفل إلى

بحيرة مرس قريباً من حمص، ولحق به المنهزمون. وبعث إلى دمشق وحلب في الأموال والخيام والظهر، وأزاح علل العسكر. وعلم الإفرنج بمكان نور الدين من حمص فنكبوا عن قصدها. وسألوه الصلح فامتنع فأنزلوا حاميتهم بحصن الأكراد ورجعوا. وفي هذه الغزاة عزل نور الدين رجلا يعرف بابن نصري، تنصح له بكثرة خرجه بصلاته وصدقاته على الفقراء والفقهاء والصوفية والقراء إلى مصارف الجهاد فغضب وقال: والله لا أرجو النصر إلا بأولئك فإنهم يقاتلون عني بسهام الدعاء في الليل. وكيف أصرفها عنهم، وهي من حقوقهم في بيت المال ذلك شيء لا يحل لي. ثم أخذ في الإستعداد للأخذ بثأره من الإفرنج، وسار بعضهم إلى ملك مصر فأراد أن يخالفهم إلى بلادهم، فبعث إلى أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل، وإلى فخر الدين قرا ارسلان صاحب كيفا، وإلى نجم الدين ولي صاحب ماردين بالنجدة، فسار من بينهم أخوه قطب الدين. وفي مقدمته زين الدين علي كجك صاحب جيشه ثم نبعه صاحب كيفا. وبعث نجم الدين عسكره، فلما توافت الأمداد سار نور الدين نحو حارم سنة تسع وخمسين فحاصرها ونصب عليها المجانيق، وإجتمع من بقي بالساحل من ملوك الإفرنج، ومقدمهم البرنس سمند صاحب أنْطاكِية، والقمص صاحب طرابلس وابن جوسكين، واستنفر لهم أمم النصرانية وقصدوه فأفرج عن حارم إلى إرتاج. ثم خاموا عن لقائه وعادوا إلى حصن حارم، وسار في إتباعهم وناوشهم الحرب فحملوا على عساكر حلب، وصاحب كيفا في ميمنة المسلمين فهزموها ومروا في أتباعهم. وحمل زين الدين في عساكر الموصل على الصف فلقيه الرجل فأثخن فيهم واستلحمهم، وعاد الإفرنج من أتباع الميمنة فسقط في أيديهم. ودارت رحا الحرب على الإفرنج فانهزموا، ورجع المسلمون من القتل إلى الأسر فأسروا منهم امماً فيهم سمند صاحب أنْطاكِية والقمص صاحب طرابلس. وبعث السرايا في تلك الأعمال بقصد أنْطاكِية لخلوها من الحاميه فأبى وقال: أخشى أن يسلمها أصحابها لملك الروم فإن سمند ابن أخته

وبجاورته أحق إلى من مجاورة ملك الروم. ثم عاج على قلعة حارم فحاصرها وافتتحها ورجع مظفراً، والله يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

فتح نور الدين قلعة بانياس:

ولما افتتح نور الدين قلعة حارم أذن لعسكر الموصل وحصن كيفا بالإنطلاق إلى بلادهم، وعزم على منازلة بانياس وكانت بيد الإفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. ثم ورى عنها بقصد طبرية فصرف الإفرنج همتهم إلى حمايتها، وخالف هو إلى بانياس لقلة حاميتها فحاصرها، وضيق عليها في ذي الحجة من سنة تسع وخمسين. وكان معه أخوه نصير الدين أمير أميران فاصيب بسهم في إحدى عينيه وأخذ الإفرنج في الجمع لمدافعته فلم يستكملوا أمرهم حتى فتحها وشحن قلعتها بالمقاتلة والسلاح. وخافه الإفرنج فشاطروه في أعمال طبرية وضرب عليهم الجزية في الباقي ووصل الخبر بفتح حارم وبانياس إلى ملوكهم الذين ساروا إلى مصر فسبقهم بالفتح وعاد إلى دمشق. ثم سار سنة إحدى وستين متجرداً إلى حصن المنيطرة فنازلهم على غرة وملكه عنوة، ولم يجتمع الإفرنج إلا وقد ملكه فافترقوا ويئسوا من إرتجاعه، والله تعالى أعلم.

وفادة شاور وزير العاضد بمصر على نور الدين العادل صريخاً وإنجاده بالعسكر مع أسد الدين شيركوه:

كانت دولة العلويين بمصر قد أخذت في التلاشي وصارت إلى استبداد وزرائها على خلفائها، وكان من آخر المسلمين بها شاور السعدي إستعمله الصالح بن زربك على قوص وندم. فلما هلك الصالح بن رزبك وكان مستبداً على الدولة قام ابنه رزبك مقامه فعزل شاور عن قوص فلم يرض بعزله. وجمع وزحف إلى القاهرة فملكها، وقتل رزبك واستبد على العاضد ولقبه أمير الجيوش. وكانت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، ثم نازعه الضرغام، وكان صاحب الباب ومقدم البرقية فثار عليه لسبعة أشهر من وزارته، وأخرجه من القاهرة فلحق بالشام، وقصد نور الدين محمود بن زنكي مستنجداً به على أن يكون له ثلث الجباية بمصر. ويقيم عسكر نور الدين بها مدداً له فاختار من أمرائه لذلك أسد الدين شيركوه بن شادي الكردي،

وكان بحمص، وجهزه بالعساكر فسار له لك في جمادى سنة تسع وخمسين، وأتبعه نور الدين إلى أطراف بلاد الإفرنج فشغلهم عن التعرض للعساكر. وسار أسد الدين مع شاور، وسار معه صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين أيوب، وانتهوا إلى بلبيس فلقيهم ناصر الدين أخو الضرغام في عساكر مصر فانهزم ورجع إلى القاهرة. واتبعه أسد الدين فقتله عند مشهد السيدة نفيسة رضي الله تعالى عنها. وقتل أخوه وعاد شاور إلى وزارته. وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ينتظر الوفاء بالعهد من شاور بما عاهد عليه نور الدين فنكث شاور العهد، وبعث إليه بالرجوع إلى بلده فلج في طلب ضريبته، ورحل إلى بلبيس والبلاد الشرقية فاستولى عليها. واستمد شاور عليه بالافرنج فبادروا إلى ذلك لما كان في نفوسهم من تخوّف غائلته، وطمعوا في ملك مصر. وسار نور الدين من دمشق ليأخذ بحجزتهم عن المسير فلم يثنهم ذلك، وتركوا ببلادهم حامية فلما قاربوا مصر فارقها أسد الدين، وإجتمع الإفرنج وعساكر مصر فحاصروه ثلاثة أشهر، يغاديهم القتال ويراوحهم. وجاءهم الخبر بهزيمة الإفرنج على حارم، وما هيأ الله لنور الدين في ذلك فراسلوا أسد الدين شيركوه في الصلح، وطووا عنه الخبر فصالحهم وخرج ولحق بالشام. ووضع له الإفرنج المراصد بالطريق فعدل عنها. ثم أعاده نور الدين إلى مصر سنة إثنتين وستين فسار بالعساكر في ربيع، ونزل أطفيح، وعبر النيل. وجاء إلى القاهرة من جانبها الغربي ونزل الجيزة في عدوة النيل، وحاصرها خمسين يوماً. واستمد شاور بالإفرنج وعبر إلى أسد الدين فتأخر إلى الصعيد، ولقيهم منتصف السنة فهزمهم. وسار إلى ثغر الإسكندرية فملكها، وولى عليها صلاح الدين ابن أخيه ورجع فدوخ بلاد الصعيد. وسارت عساكر مصر والإفرنج إلى الإسكندرية، وحاصروا بها صلاح الدين فسار إليه أسد الدين فتلقوه بطلب الصلح فتم ذلك بينهم، وعاد إلى الشام وترك لهم الإسكندرية. وكاتب شجاع بن شاور نور الدين بالطاعة عنه وعن طائفة من الأمراء. ثم استطال الإفرنج على أهل مصر وفرضوا عليهم الجزية وأنزلوا بالقاهرة الشحنة، وتسلموا أبوابها واستدعوا ملكهم بالشام إلى الإستيلاء عليها فبادر نور الدين، وأعاد أسد الدين في العساكر إليها في ربيع سنة أربع وستين فملكها وقتل شاور، وطرد الإفرنج عنها. وقدمه العاضد لوزارته والإستبداد عليه كما كان من قبله. ثم هلك أسد الدين وقام صلاح الدين ابن أخيه مكانه، وهو مع ذلك في طاعة نور الدين محمود. وهلك العاضد فكتب نور الدين إلى صلاح الدين يأمره

بإقامة الدعوة العباسية بمصر، والخطبة للمستضيء. ويقال أنه كتب له بذلك في حياة العاضد، وبين يدي وفاته. وهلك لخمسين يوماً أو نحوها فخطب للمستضيء العباسي، وإنقرضت الدولة العلوية بمصر، وذلك سنة سبع وستين كما نأتي على شرحه وتفصيله

في دولة بني أيوب إن شاء الله تعالى. ووقعت خلال ذلك فتنة بين نور الدين محمود وبين صاحب الروم قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان سنة ستين وخمسمائة، وكتب الصالح بن رزبك إلى قليج ارسلان ينهاه عن الفتنة، والله تعالى ولي التوفيق.

فتح نور الدين صافيتا وعريمة ومنبج وجعبر:

ثم جمع نور الدين عساكره سنة إثنتين وستين، واستدعى أخاه قطب الدين من الموصل فقدم عليه بحمص، ودخلوا جميعا بلاد الإفرنج، ومروا بحصن الأكراد واكتسحوا نواحيه. ثم حاصروا عرقة وخربوا جكة وفتحوا العريمة وصافيتا، وبعثوا سراياهم فعاثت في البلاد ورجعوا إلى حمص فأقاموا بها إلى رمضان، وانتقلوا إلى بانياس، وقصدوا حصن حموص فهرب عنه الإفرنج فهدم نور الدين سوره وأحرقه. واعتزم على بيروت فرجع عنه أخوه قطب الدين إلى الموصل وأعطاه نور الدين من عمله الرقة على الفرات. ثم إنتقض بمدينة منبج غازي بن حسان. وبعث إليها العساكر فملكها عنوة، وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان وبقيت بيده إلى أن أخذها منه صلاح الدين بن أيوب. ثم قبض بنو كلاب على شهاب الدين ملك بن علي بن مالك العقيلى صاحب قلعة جعبر، وكانت تسمى دوس، ثم سميت باسم جعبر بانيها وكان السلطان ملك شاه أعطاها لجده عندما ملك حلب كما مر في أخباره. ولم

تزل بيده ويد عقبه إلى أن هلك هذا فخرج يتصيد سنة ثلاث وستين، وقد أرصد له بنو كلاب فأسروه، وحملوه إلى نور الدين محمود صاحب دمشق فاعتقله مكرماً. وحاوله في النزول عن جعبر بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى فأبى وبعث بالعساكر مع الأمير فخر الدين محمود بن أبي علي الزعفراني وحاصرها مدة فامتنعت، فبعث عسكراً آخرا. وقدم على الجميع الأمير فخر الدين أبا بكر ابن الداية رضيعه وأكبر أمرائه فحاصرها فامتنعت ورجع إلى ملاطفة صاحبها فأجاب، وعوضه نور الدين عنها سروج وأعمالها، وساحة حلب ومراغة وعشرين ألف دينار. وملك قلعة جعفر سنة أربع وستين، وإنقرض أمر بني مالك منها، والبقاء لله وحده.

رحلة زين الدين نائب الموصل إلى أربل واستبداد قطب الدين بملكه:

قد كان تقدم لنا أن نصير الدين جقري كان نائب الاتابك زنكي بالموصل، وقتل ألبارسلان ابن السلطان محمود آخر سنة تسع وثلاثين وخمسمائة طمعاً في الملك لغيبة الاتابك فرجع من غيبته في حصار البيرة وقدم مكانه زين الدين علي بن كمستكين بقلعة الموصل فلم يزل بها بقية أيام الاتابك، وأيام ابنه غازي، وابنه الآخر قطب الدين سنة ثمان وخمسين على وزيرهم جمال الدين محمد بن علي بن منصور الأصبهاني فاعتقله، وهلك لسنة من الاعتقال. وحمل إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم فدفن بها في رباط هناك

أعده لذلك. وكانت وفاته أيام سيف الدين غازي بن قطب الدين فولى مكانه جلال الدين أبا الحسن ابنه. وكان زين الدين علي بن كمستكين ويعرف بكجك قد استبد في دولة قطب الدين واستقل بحكم الدولة. وصارت بيده أكثر البلاد إقطاعاً مثل: اربل وشهرزور والقلاع التي في تلك البلاد الهكارية. منها: العمادية وغيرها، والحميدية وتكريت وسنجار. وقد كان نقل أهله وولده وذخائره إلى اربل، وأقام بمحل نيابته من قلعة الموصل فأصابه الكبر، وطرقه العمى والصمم فعزم على مفارقة الموصل إلى كسر بيته بأربل، فسلم جميع البلاد التي بيده إلى قطب الدين ما عدا اربل. وسار إليها سنة أربع وستين، وأقام قطب الدين مكانه فخر الدين عبد المسيح خصياً من موالي جده الاتابك زنكي، وحكمه في دولته فترل بالقلعة وعمرها، وكان الخراب قد لحقها بإهمال زين الدين أمر البناء، والله تعالى أعلم.

حصار نور الدين قلعة الكرك:

ثم بعث صلاح الدين سنة خمس وستين إلى نور الدين محمود يطلب إنفاذ أبيه نجم الدين أيوب إليه فبعثه في عسكر، واجتمع إليه خلق من التجار ومن أصحاب صلاح الدين، وخشي عليهم نور الدين في طريقهم من الإفرنج فسارت العساكر إلى الكرك، وهو حصن إختطه من الإفرنج البرنس أرقاط وإختط له قلعة فحاصره نور الدين، وجمع له الإفرنج فرحل إلى مقدمتهم قبل أن يتلاحقوا فخاموا عن لقائه ونكصوا على أعقابهم. وسار في بلادهم فاكتسحها، وخرب ما مر به من القلاع، وإنتهى إلى بلاد المسلمين حتى نزل حوشب. وبعث

نجم الدين من هنالك إلى مصر فوصلها منتصف خمس وستين، وركب العاضد للقائه. ولما كان نور الدين بعشيرا سار للقاء شهاب الدين محمد بن إلياس بن أبي الغازي بن أرتق صاحب قلعة أكبره. فلما إنتهى إلى نواحي بعلبك لقي سرية من الإفرنج فقاتلهم وهزمهم واستلحمهم، وجاء بالأسرى ورؤس القتلى إلى نور الدين، وعرف الرؤس مقدم الإستبان صاحب حصن الأكراد، وكان شجىّ في قلوب المسلمين. وبلغه وهو بهذا المترل خبر الزلازل التي عمت البلاد بالشام والموصل والجزيرة والعراق، وخربت أكثر البلاد بعمله فسار إليها وشغل في إصلاحها من واحدة إلى أخرى حتى أكملها بمبلغ جهده. واشتغل الإفرنج بعمارة بلادهم أيضاً خوفاً من غائلته، والله تعالى أعلم.

وفاة قطب الدين صاحب الموصل وملك إبنه سيف الدين غازي:

ثم توفي قطب الدين مودود بن الاتابك زنكي صاحب الموصل في ذي الحجة سنة خمس وستين لإحدى وعشرين سنة ونصف من ملكه، وعهد لإبنه الأكبر عماد الدين بالملك. وكان القائم بدولته فخر الدين عبد المسيح، وكان شديد الطواعية لنور الدين محمود، ويعلم ميله عن عماد الدين زنكي بن مودود فعدل عنه إلى أخيه سيف الدين غازي ابن مودود بموافقة أمه خاتون بنت حسام الدين تمرتاش بن أبي الغازي. ولحق عماد الدين بعمه نور الدين منتصراً به. وقام فخر الدين عبد المسيح بتدبير الدولة بالموصل واستبد بها، والله تعالى أعلم.

استيلاء نور الدين على الموصل وإقراره ابن أخيه سيف الدين عليها:

ولما ولي سيف الدين غازي بالموصل بعد أبيه قطب الدين، واستبد عليه فخر الدين عبد المسيح كما تقدم، وبلغ الخبر إلى نور الدين باستبداده أنف من ذلك، وسار في خف من العسكر، وعبر الفرات عند جعبر أول سنة ست وستين. وقصد الرقة فملكها، ثم الخابور فملك جميعه، ثم نصيبين وكلها من أعمال الموصل. وجاءه هناك نور الدين محمد بن قرا ارسلان ابن داود بن سقمان صاحب كيفا مدداً. ثم سار إلى سنجار فحاصرها وملكها وسلمها لعماد الدين ابن أخيه قطب الدين. ثم جاءته كتب الأمراء بالموصل فاستحثوه فأغذ السير إلى مدينة كلك. ثم عبر الدجلة ونزل شرقي الموصل على حصن نينوى ودجلة بينه وبين الموصل. وسقطت ذلك اليوم ثلمة كبيرة من سور الموصل. وكان سيف الدين غازي قد بعث أخاه عز الدين مسعود إلى الاتابك شمس الدين صاحب همذان وبلاد الجبل وأذربيجان وأصبهان والري يستنجده على عمه نور الدين، فأرسل أيلدكز إلى نور الدين ينهاه عن الموصل فأساء جوابه وتوعده، وأقام يحاصر الموصل. ثم إجتمع أمراؤها على طاعة نور الدين. ولما استحث فخر الدين عبد المسيح استأمن إلى نور الدين على أن يبقي سيف الدين ابن أخيه على ملكها، فأجابه على أن يخرج هو عنه، ويكون معه بالشام. وتم ذلك بينهما، وملك نور الدين منتصف جمادى الأولى من سنة ست وستين. ودخل المدينة واستناب بالقلعة خصياً إسمه كمستكين ولقبه سعد الدين. فأقر سيف الدين ابن أخيه على ملكه، وخلع عليه خلعة، وردت عليه من الخليفة المستضيء وهو يحاصرها، وأمر ببناء جامع بالموصل فبني وشهر باسمه. وأمر سيف الدين أن يشاور كمستكين في جميع أموره، وأقطع مدينة سنجار لعماد الدين ابن أخيه قطب الدين وعاد إلى الشام، والله تعالى أعلم.

الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين.

ثم سار صلاح الدين في صفر سنة تسع وستين من مصر إلى بلاد الإفرنج غازياً ونازل حصن الشوبك من أعمال واستأمن إليه أهله على أن يمهلهم عشرة أيام، فأجابهم وسمع نور الدين بذلك فسار من دمشق غازياً أيضاً بلاد الإفرنج من جانب آخر، وتنصح لصلاح الدين أصحابه بأنك ان ظاهرته على الإفرنج إضمحل امرهم فاستطال عليك نور الدين، ولا تقدر على الإمتناع منه فترك الشويك وكر راجعاً إلى مصر. وكتب لنور الدين يعتذر له بأنه بلغه عن بعض سفلة العلويين بمصر أنهم معتزمون على الوثوب، فلم يقبل نور الدين عذره في ذلك، واعتزم على عزله عن مصر. فاستشار صلاح الدين أباه وخاله شهاب الدين الحارمي وقرابتهم، فأشار عليه تقي الدين عمر ابن أخيه بالإمتناع والعصيان فنكر عليه نجم الدين أبوه وقال له: ليس منا من يقوم بعصيان نور الدين لو حضر أو بعث وأشارعليه بأن يكاتبه بالطاعة، وأنه إن عزم على أخذ البلاد منك فسلمها ويصل بنفسه. وافترق المجلس فخلا به أبوه وقال: ما لك توجد بهذا الكلام السبيل للأمراء في استطالتهم عليك. ولو فعلتم ما فعلتم كنت أول الممتنعين عليه، ولكن ملاطفته أولى. وكتب صلاح الدين إلى نور الدين بما أشار به أبوه من الملاطفة فتركهم نور الدين وأعرض عن قصدهم. ثم توفي، واشتغل

صلاح الدين بملك البلاد. ثم جمع نور الدين العساكر وسار لغزو الإفرنج بسبب ما أخذوه لأهل البلاد من مراكب التجار، ونكثوا فيها العهد مغالطين بأنها تكسرت فلم يقبل مغالطتهم. وسار إليهم وبث السرايا في بلادهم نحو أنْطاكِية وطرابلس، وحاصر هو حصن عرقة، وخرب ربضه، وأرسل عسكرا إلى حصن صافيتا وعريمة ففتحهما عنوة وخربهما. ثم سار من عرقة إلى طرابلس واكتسح كل ما مر عليه، حتى رجع الإفرنج إلى الإنصاف من أنفسهم، وردوا ما أخذوا من المكرمين الأعزين، وسألوا تجديد الهدنة فأجابهم بعد أن خربت بلادهم وقتلت رجالهم وغنمت أموالهم. ثم أتخذ نور الدين في هذه السنة الحمام... بالشام تطير إلى أوعارها من لإتساع بلاده، ووصول الأخبار بسرعة فبادر إلى القيام بواجبه، وأجرى الجرايات على المرتبين لحفظها لتصل الكتب في أجنحتها. ثم أغار الإفرنج على حوران من أعمال دمشق، وكان نور الدين يترل الكسوة فرحل إليهم ورحلوا أمامه إلى السواد، وتبعهم المسلمون ونالوا منهم. ونزل نور الدين على عشيرا وبعث منها سرية إلى أعمال طبرية فاكتسحها، وسار الإفرنج لمدافعتهم فرجعوا عنها وأتبعهم الإفرنج فعبروا النهر، وطمعوا في استنقاذ غنائمهم فقاتلهم المسلمون دونها أشد قتال إلى أن استنقذت، وتحاجزوا ورجع الإفرنج خائبين، والله تعالى ينصر المسلمين على الكافرين بمنه وكرمه.

واقعة ابن ليون ملك الأرمن بالروم:

كان مليح بن ليون صاحب دروب حلب أطاع نور الدين محمود بن زنكي، وأمره على الحمالة

وأقطعه ببلاد الشام، وكان يسير في خدمته ويشهد حروبه مع الإفرنج أهل ملته. وكان الأرمني أيضاً يستظهر به على أعدائه، وكانت أدنة والمصيصة وطرسوس مجاورة لابن ليون، وهي بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية فتغلب عليها ابن ليون وملكها. وبعث صاحب القسطنطينية منتصف سنة ثمان وستين وخمسمائة جيشاً كثيفاً. مع عظيم من بطارقته، فلقيه ابن ليون بعد أن استنجد نور الدين فأنجده بالعساكر، وقاتلهم فهزمهم، وبعث بغنائمهم. وأسراهم إلى نور الدين، وقويت شوكة ابن ليون، ويئس الروم من تلك البلاد، والله تعالى أعلم.

مسير نور الدين إلى بلاد الروم:

كان ذو النون بن محمد بن الدانشمند صاحب ملطية وسيواس وأخصرى وقيسارية ملكها بعد عمه باغي ارسلان، وأخيه إبراهيم بن محمد فلم يزل قليج ارسلان بن محمد بن قليج ارسلان يتخيف بلاده إلى أن استولى عليها. ولحق ذو النون بنور الدين صريخاً. وأرسل إلى قليج ارسلان بالشفاعة في رد بلاده فلم يشفعه، فسار إليه وملك من بلاده بكسور ومهنسا ومرعش ومرزبان وما بينهما في ذي القعدة سنة ثمان وستين. ثم بعث عسكراً إلى سيواس فملكوها. ثم أرسل قليج ارسلان إلى نور الدين يستعطفه، وقد كان يجيز أمامه إلى قاصية بلاده فأجابه نور الدين إلى الصلح على أن ينجده بعسكر الإفرنج، ويبقي سيواس بيد ذي النون وعساكر نور الدين الذي معه فيها. ورجع نور الدين إلى بلاده وبقيت سيواس بيد ذي النون حتى مات نور الدين، وعاد

قليج ارسلان. ثم وصل رسول نور الدين من بغداد كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري، ومعه منشور من الخليفة المستضيء لنور الدين بالموصل والجزيرة واربل وخلاط والشام وبلاد الروم وديار مصر والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير صلاح الدين إلى الكرك ورجوعه:

ولما كانت الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين كما قدمنا، واعتزم نور الدين على عزله عن مصر، واستعطفه صلاح الدين كان فيما تقرر بينهما أنهما يجتمعان على الكرك، وأيهما سبق انتظر صاحبه فسار صلاح الدين من مصر في شوال سنة ثمان وستين، وسبق إلى الكرك وحاصره. وخرج نور الدين بعد أن بلغه مسير صلاح من مصر، وأزاح علل العساكر وانتهى إلى الرقيم على مرحلتين من الكرك فخافه صلاح الدين على نفسه، وخشي أن يعذله عند لقائه.

وكان استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر فبلغه أنه طرقه مرض شديد فوجد فيه عذر لنور الدين، وكرّ راجعاً إلى مصر. وبعث الفقيه عيسى بذلك العذر وان حفظة مصر أهمّ عليه. فلما وصل مصر وجد أباه قد توفي من سقطة سقطها عن مركوبه، هزه المرح فرماه، وحمل إلى بيته وقيذا ومات لأيام قريبة آخر ذي الحجة من السنة. ورجع نور الدين إلى دمشق، وكان قد بعث رسوله كمال الدين الشهرزوري القاضي ببلاده، وصاحب الوقوف والديوان لطلب التقليد للبلاد التي بيده مثل مصر والشام والجزيرة والموصل، والتي دخلت في طاعته كديار بكر وخلاط وبلاد الروم، وأن يعاد له ما كان لأبيه زنكي من الإقطاع بالعراق وهي: صريفين ودرب هرون ، وأن يسوغ قطعة أرض على شاطئ دجلة بظاهر الموصل يبني فيها مدرسة للشافعية فاسعف بذلك كله.

وفاة نور الدين محمود وولاية إبنه إسمعيل الصالح:

ثم توفي نور الدين محمود بن الاتابك زنكي حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة لسبع عشرة سنة من ولايته، وكان قد شرع في التجهز لأخذ مصر من صلاح الدين بن أيوب ، واستنفر سيف الدين ابن أخيه في العساكر مورياً بغزو الإفرنج. وكان قد إتسع ملكه وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما ملكها سيف الدولة بن أيوب. وكان معتنياً بمصالح المسلمين مواظباً على الصلاة والجهاد، وكان عارفاً بمذهب أبي حنيفة ومتحرياً للعدل ومتجافياً عن أخذ المكوس في جميع أعماله، وهو الذي حصن قلاع الشام وبنى الأسوار على مدنها مثل: دمشق وحمص وحماة وشيزر وبعلبك وحلب، وبنى مدارس كثيرة للحنفية والشافعية وبنى الجامع النوري بالموصل، والمارستانات والخانات في الطريق، والجواسق للصوفية في البلاد. واستكثر من الأوقاف عليها. يقال بلغ ريع أوقافه في كل شهر تسعة آلاف دينار صوري. وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويتمثل لهم قائماً، ويؤنسهم في المجالسة، ولا يرد لهم قولاً، وكان متواضعاً مهيباً وقوراً. ولما توفي إجتمع الأمراء والمقدمون وأهل الدولة بدمشق، وبايعوا ابنه الملك الصالح إسمعيل وهو ابن إحدى عشرة سنة. وحلفوا له وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر، وخطب له هنالك وضرب السكة باسمه، وقام بكفالته وتدبير

دولته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم، وأشار عليه القاضي كمال الدين الشهرزوري بأن يرجعوا في جميع أمورهم إلى صلاح الدين لئلا ينبذ طاعتهم فأعرضوا عن ذلك، والله تعالى ولي التوفيق.

استيلاء سيف الدين غازي على بلاد الجزيرة:

قد كنا قدمنا أن نور الدين استولى على بلاد الجزيرة، وأقر سيف الدين ابن أخيه قطب الدين على الموصل، واحتمل معه فخر الدين عبد المسيح الذي ولى سيف الدين واستبد عليه بأمره. وولى على قلعة الموصل سعد الدين كمستكين. ولما استنفرهم نور الدين بين يدي موته سار إليه سيف الدين غازي وكمستكين الخادم في العساكر، وبلغهم في طريقهم خبر وفاته. وكان كمستكين في المقدمة فهرب إلى حلب، واستولى سيف الدين على مخلفة وسواده، وعاد إلى نصيبين فملكها، وبعث العساكر إلى الخابور فاستولى عليها وعلى أقطاعها. ثم سار إلى حران، وبها قايماز الحراني مولى نور الدين فحاصرها أياماً، ثم استنزله على أن يقطعه حران. فلما نزل قبض عليه وملكها. ثم سار إلى الرها وبها خادم لنور الدين فتسلمها وعوضه عنها قلعة الزعفراني من جزيرة ابن عمر، وانتزعها منه بعد ذلك. ثم سار إلى الرقة وسروج فملكها، واستوعب بلاد الجزيرة سوى قلعة جعبر لإمتناعها، وسوى رأس عين كانت لقطب الدين صاحب ماردين، وهو ابن خاله. وكان شمس الدين علي بن الداية بحلب، وهو من أكبر أمراء نور الدين، ومعه العساكر، ولم يقدر على مدافعة سيف الدين فخر الدين عبد المسيح. وكان نور الدين تركه قبل موته بسيواس مع ذي النون بن الدانشمند. فلما مات نور الدين رجع إلى صاحبه سيف الدين غازي، وهو الذي كان ملكه فوجده بالجزيرةوقد ملكها فأشار عليه بالعبور إلى الشام. وعارضه آخر من أكبر الأمراء في ذلك فرجع سيف الدين إلى قوله، وعاد إلى الموصل وأرشد صلاح الدين إلى الملك الصالح وأهل دولته يعاتبهم حيث لم يستدعوه لمدافعة سيف الدين عن الجزيرة، ويتهدد ابن المقدم وأهل الدولة على إنفرادهم بأمر الملك الصالح دونه، وعلى قعودهم عن مدافعة سيف الدين غازي. ثم أرسل شمس الدين بن الداية إلى الملك الصالح يستدعيه من دمشق إلى حلب ليدافع شمس الدين ابن عمه قطب الدين عن الجزيرة فمنعه أمراؤه عن ذلك، مخافة أن يستولي عليه ابن الداية، والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه.

حصار الإفرنج بانياس:

ولما مات نور الدين محمود اجتمع الإفرنج وحاصروا قلعة بانياس من أعمال دمشق. وجمع شمس الدين بن المقدم العساكر،، وسار عن دمشق، وراسل الإفرنج وتهددهم بسيف الدين صاحب الموصل، وصلاح الدين صاحب مصر صالحوه على مال يبعثه إليهم. واشترى من الإفرنج

وأطلعهم، وتقررت الهدنة. وبلغ ذلك صلاح الدين فنكره واستعظمه، وكتب إلى الملح وأهل دولته بقبح مرتكبهم ويعدهم بغزوة الإفرنج، وقصده إنما هو طريقه إلى الشام ليتملك البلاد، وإنما صالح ابن المقدم الإفرنج خوفاً منه . ومن سيف الدين، والله تعالى أعلم.

استيلاء صلاح الدين على دمشق:

ولما كان ما ذكرناه من استيلاء سيف الدين غازي على بلاد الجزيرة، خاف شمس

الدين ابن الداية منه على حلب.. وكان سعد الدين كمستكين قد هرب من سيف الدين غازي إليه فأرسله إلى دمشق ليستدعي الملك الصالح للمدافعة. فلما قارب دمشق أنفذ ابن المقدم إليه عسكراً. فنهبوه وعاد إلى حلب. ثم رأى ابن المقدم وأهل الدولة بدمشق أن مسير الصالح إلى حلب أصلح فبعثوا إلى كمستكين وبعثوا معه الملك الصالح. فلما وصل إلى حلب قبض كمستكين على ابن الداية وإخوته، وعلى رئيس حلب ابن الخشاب، وعلى مقدم الأحداث بها. واستبد بأمر الصالح. وخشي ابن المقدم وأمراؤه بدمشق غائلته فكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل أن يملكوه فأحجم عن المسير إليهم، وظنها مكيدة. وبعث بخبرهم إلى كمستكين، وصالحه على مال أخذه من البلاد فكثر إرتياب القوم في دمشق، فكاتبوا صلاح الدين بن أيوب فسار إليهم ونكب عن الإفرنج في طريقه، وقصد بصرى وأطاعه صاحبها. ثم سار صلاح الدين إلى دمشق فخرج إليه أهل الدولة بمقدمهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم، وهو الذي كان أبوه سلم سنجار لنور الدين سنة أربع وأربعين كما مرّ، ودخل صلاح الدين دمشق آخر ربيع سنة سبعين ونزل دار أبيه المعروفة بدار العفيفي. وكان في القلعة ريحان خديم نور الدين فبعث إليه صلاح الدين القاضي كمال الدين الشهرزوري بأنه على طاعة الصالح، والخطبة له في بلاده، وأنه إنما جاء ليرتجع البلاد التي أخذت له فسلم إليه ريحان القلعة واستولى على ما فيها من الأموال، وهو في ذلك كله يظهر طاعة الملك الصالح، ويخطب له وينقش السكة باسمه إنتهى والله أعلم.

استيلاء صلاح الدين على حمص وحماة ثم حصاره حلب ثم ملكه بعلبك:

ولما ملك صلاح الدين دمشق من أيالة الملك الصالح استخلف عليها أخاه سيف الإسلام طغركين بن أيوب، وكان حصن وحماة وقلعة مرعش وسليمة وتل خالد والرها من بلاد الجزيرة

في إقطاع فخر الدين مسعود الزعفراني من أمراء نور الدين، ما عدا القلاع منها. ولما مات نور الدين أجفل الزعفراني عنها لسوء سيرته. ولما ملك صلاح الدين دمشق سار إلى حمص فملك البلد، وامتنعت القلعة بالوالي الذي بها فجهز عسكراً لحصارها، وسار إلى حماة فنازلها منتصف شعبان، وبقلعتها الأمير خرديك فبعث إليه صلاح الدين بأنه في طاعة الملك الصالح ، وإنما جاء لمدافعة الإفرنج عنه، وإرتجاع بلاده بالجزيرة من ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل، واستخلفه على ذلك عز الدين. ثم بعثه صلاح الدين إلى الملك الصالح بحلب في الإتفاق ، وإطلاق شمس الدين علي حسن وعثمان تقي الدين من الإعتقال فسار عز الدين لذلك، واستخلف بالقلعة أخاه. ولما وصل إلى حلب قبض عليه كمستكين وحبسه فسلم أخوه قلعة حماة لصلاح الدين وملكها. ثم سار صلاح الدين من وقته إلى حلب وحاصرها، وركب الملك الصالح وهو صبي مناهز فسار في البلد واستعان بالناس، وذكر حقوق أبيه فبكى الناس رحمة له واستماتوا دونه، وخرجوا فدافعوا عسكر صلاح الدين. ودس كمستكين إلى مقدم الإسماعيلية في الفتك بصلاح الدين فبعث لذلك فداوية منهم. وشعر بذلك بعض أصحاب صلاح الدين وجماعة منهم معه، وقتلوا عن آخرهم وأقام صلاح الدين محاصراً لحلب، وبعث كمستكين إلى الإفرنج يستنجدهم على منازلة بلاد صلاح الدين ليرحل عنهم. وكان القمص

سمند السنجيلي صاحب طرابلس أسره نور الدين في حارم سنة تسع وخمسين، وبقي معتقلا بحلب فأطلقه الآن كمستكين بمائة وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير، وكان متغلباً على ابن مري ملك الإفرنج لكونه محذوفاً لا يصدر إلا عن رأيه فسار بجموع الإفرنج إلى حصن الرستن سابع رجب وصالحهم صلاح الدين من الغد فأجفلوا، وحاصر هو القلعة وملكها آخر شعبان، واستولى على أكثر الشام. ثم سار إلى بعلبك، وبها يمن الخادم من موالي نور الدين فحاصرها، حتى استأمنوا إليه فملكها منتصف رمضان من السنة، وأقطعها شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم بما تولى له من إظهار طاعته بدمشق وتسليمها له، والله تعالى أعلم.

حروب صلاح الدين مع سيف الدين غازي صاحب الموصل وغلبه إياه واستيلاؤه على بغدوين، غيرها من أعمال الملك الصالح ثم مصالحته على حلب:

لما ملك صلاح الدين حمص وحماة، وحاصر حلب، كاتب الملك الصالح إسمعيل من حلب إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده فجمع عساكره، واستنجد أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار فلم يجبه لما كان بينه وبين صلاح الدين، وأنه ولاه سنجار، ويطمعه في الملك فبعث سيف الدين غازي بالعساكر لمدافعة صلاح الدين عن الشام في رمضان سنة سبعين وخمسمائة، مع أخيه عز الدين مسعود وأمير جيوش عز الدين القندار، وجعل التدبير إليه، وسار هو إلى سنجار فحاصر بها أخاه عماد الدين، وامتنع عليه. وبينما هو يحاصره جاءه الخبر بأن صلاح الدين هزم أخاه عز الدين وعساكره فصالح عماد الدين على سنجار، وعاد إلى الموصل. ثم جهز أخاه عز الدين في العساكر ثانية ومعه القندار. وساروا إلى حلب فانضمت إليهم عساكره، وساروا جميعاً إلى صلاح الدين فأرسل إلى عماد الدين بالموصل في الصلح بينه وبين الملك الصالح على أن يرد عليه حمص وحماة، ويسوغه الصالح دمشق فأبى إلا إرتجاع جميع بلاد الشام واقتصاره على مصر، فسار صلاح الدين إلى عساكرهم ولقيها قريباً من حماة، فانهزمت وثبت عز الدين قليلاً. ثم صدق عليه صلاح الدين الحملة فانهزم وغنم سوادهم ومخلفهم، وأتبع عساكر حلب حتى أخرجهم منها وحاصرها، وقطع خطبة الملك الصالح، وبعث بالخطبة للسلطان في جميع بلاده. ولما طال عليهم الحصار صالحوه على إقراره على جميع ما ملك من الشام. ورحل عن حلب عاشر شوال من السنة، وعاد إلى حماة. ثم سار منها إلى بغدوين، وكانت لفخر الدين مسعود بن الزعفراني من أمراء نور الدين، وكان قد إتصل بالسلطان صلاح الدين واستخدم له. ثم فارقه حيث لم يحصل على غرضه عنده فلحق ببغدوين، وبها نائب الزعفراني فحاصرها حتى استأمنوا إليه. وأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي، وأقطع حمص ناصر الدين بن عمه شيركوه، وعاد إلى دمشق آخر سنة سبعين. وكان سيف الدين غازي صاحب الموصل بعد هزيمة أخيه وعساكره عاد من حصار أخيه بسنجار كما قلناه إلى الموصل، فجمع العساكر وفرق الأموال. واستنجد صاحب كيفا وصاحب ماردين، وسار في ستة آلاف فارس، وإنتهى إلى نصيبين في ربيع سنة إحدى وسبعين فأقام إلى إنسلاخ فصل الشتاء وسار إلى حلب فبرز إليه سعد الدين كمستكين الخادم مدبر الصالح في عساكر حلب. وبعث صلاح الدين عن عساكره من مصر، وقد كان أذن لهم في الإنطلاق فجاؤا إليه. وسار من

دمشق إلى سيف الدين وكمستكين فلقيهم بتل الفحول وانهزموا راجعين إلى حلب وترك سيف الدين أخاه عز الدين بها في جمع من العساكر، وعبر الفرات إلى الموصل بظن أن صلاح الدين في اتباعه. وشاور الصالح وزيره جلال الدين ومجاهد الدين قايماز في مفارقة الموصل إلى قلعة الحميدية

فعارضاه في ذلك. ثم عزل القندار عن إمارة الجيوش لأنه كان جرّ الهزيمة برأيه ومفارقته، وولى مكانه مجاهد الدين قايماز. ولما إنهزمت العساكر أمام صلاح الدين وغنم مخلفها سار إلى مراغة وملكها وولى عليها. ثم سار إلى منبج وبها صاحبها قطب الدين نيال بن حسان المنبجي، وكان شديد العداوة لصلاح الدين فملك المدينة، وحاصره بالقلعة وضيق مخنقه. ثم نقب أسواره وملكها عليه عنوة وأسره. ثم أطلقه سليباً فلحق بالموصل، وأقطعه سيف الدين الرقة ولما فرغ صلاح الدين من منبج سار إلى قلعة عزاز وهي في غاية المنعة فحاصرها أربعين يوماً حتى استأمنوا إليه فتسلمها في الأضحى. ثم رحل إلى حلب فحاصرها، وبها الملك الصالح، وأشتد أهلها في قتاله فعدل إلى المطاولة. ثم سعى بينهما في الصلح وعلى أن يدخل فيه سيف الدين صاحب الموصل وصاحب كيفا وصاحب ماردين فاستقر الأمر على ذلك، وخرجت أخت الملك الصالح إلى صلاح الدين فأكرمها، وأفاض عليها العطاء وطلبت منه قلعة عزاز فأعطاها إياها، ورحل إلى بلاد الإسماعيلية، والله سبحانه وتعالى أعلم.

عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين صاحب الموصل ورجوعه:

كان مجاهد الدين قايماز متولي مدينة اربل، وكان بينه وبين شهاب الدين محمد بدران صاحب شهرزور عداوة. فلما ولى سيف الدين مجاهد الدين قايماز نيابة الموصل خاف شهاب الدين غائلته عن تعاهد الخدمة بالموصل، وأظهر الامتناع، وذلك سنة اثنتين وسبعين فخاطبه جلال الدين الوزير في ذلك مخاطبة بليغة، وحذره ورغبه فعاود الطاعة وبادر إلى الحضور بالموصل، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

نكبة كمستكين الخادم ومقتله:

كان سعد الدين كمستكين الخادم قائما بدولة الملك الصالح في حلب وكان يناهضه فيها أبو صالح العجمي فقدم عند نور الدين وعند ابن الملك الصالح، وتجاوز مراتب الوزير فعدا عليه بعض الباطنية فقتله، وخلا الجو لكمستكين، وانفرد بالاستبداد على الصالح وكثرت السعاية فيه بحجر السلطان والاستبداد عليه وأنه قتل وزيره فقبض عليه وامتحنه. وكان قد أقطعه قلعة حارم فامتنع بها أصحابه، وأرادهم الصالح تسليمها فامتنعوا، وهلك

كمستكين في المحنة. وطمع فيها وساروا إليها وحاصروا وصانعهم الصالح بالمال فرجعوا عنها، وبعث هو عساكره إليها وقد جهدهم الحصار فسلموها له، وولى عليها، والله تعالى أعلم.

وفاة الصالح إسمعيل واستيلاء ابن عمه عز الدين مسعود على حلب:

ثم توفي الملك الصالح إسمعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب في منتصف

سنة سبع وسبعين لثمان سنين من ولايته، وعهد بملكه لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل.
واستحلف أهل دولته على ذلك بعضهم بعماد الدين صاحب سنجار أخي عز الدين الأكبر لمكان صهره على أخت الصالح، وأن أباه نور الدين كان يميل إليه فأبى. وقال عز الدين : أنا أقدر على مدافعة صلاح الدين عن حلب. فلما قضى نحبه أرسل الأمراء بحلب إلى عز الدين مسعود يستدعونه هو ومجاهد الدين قايماز إلى الفرات، ولقي هنالك أمراء حلب، وجاؤا معه فدخلها آخر شعبان من السنة، وصلاح الدين يومئذ بمصر بعيدا عنهم وتقي الدين عمر ابن أخيه في منبج، فلما أحسن بهم فارقها إلى حماة، وثار به أهل حماة ونادوا بشعار عز الدين. وأشار أهل حلب عليه بقصد دمشق وبلاد الشام وأطمعوه فيها فأبى من أجل العهد الذي بينه وبين صلاح الدين ثم أقام بحلب شهورا وسار عنها إلى الرقة، والله تعالى أعلم.

استيلاء عماد الدين على حلب ونزوله عن سنجار لأخيه عز الدين:

ولما انتهى عز الدين إلى الرقة منقلبا من حلب، وافقه هنالك رسل أخيه عماد الدين صاحب سنجار يطلب منه أن يملكه مدينة سنجار، ويترل هو له عن حلب فلم يجبه إلى ذلك. فبعث عماد الدين إليه بأنه يسلم سنجار إلى صلاح الدين فحمل الأمراء حينئذ على معارضته على سنجار وتحمسهم له. و لم يكن لعز الدين مخالفا لتمكنه في الدولة وكثرة بلاده وعساكره فأخذ سنجار من أخيه عماد الدين، وأعطاه حلب، وسار إليها عماد الدين وملكها. وسهل أمره على صلاح الدين بعد ان كان متخوّفا من عز الدين على دمشق، والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير صلاح الدين إلى بلاد الجزيرة وحصاره الموصل واستيلاؤه على كثير من بلادها ثم على سنجار:

كان عز الدين صاحب الموصل قد أقطع مظفر الدين كوكبري زين الدين كجك مدينة حران وقلعتها. ولما سار صلاح الدين لحصار البيرة جنح إليه مظفر الدين، ووعده النصر، واستحثه للقدوم على الجزيرة فسار إلى الفرات موريا بقصد وعبر إليه مظفر الدين فلقيه، وجاء معه إلى البيرة، وهي قلعة منيعة على الفرات من عدوة الجزيرة. وكان صاحبها من بني أرتق أهل ماردين قد أطاع صلاح الدين فعبر من جسرها وعز الدين صاحب الموصل يومئذ قد سار ومعه مجاهد الدين إلى نصيبين لمدافعة صلاح الدين عن حلب. فلما بلغهما عبوره الفرات عادا إلى الموصل، وبعثا حامية إلى الرها. وكاتب صلاح الدين ملوك النواحي بالنجدة والوعد على ذلك. وكان تقدم العهد بينه وبين نور الدين محمد بن قرى ارسلان صاحب كيفا على أن صلاح الدين يفتح آمد ويسلمها إليه. فلما كاتبهم الآن كان صاحب كيفا أول مجيب، وسار صلاح الدين إلى الرها فحاصرها في جمادى سنة ثمان وسبعين، وبها يومئذ فخر الدين مسعود الزعفراني فلما اشتد به الحصار استأمن إلى صلاح الدين، وحاصر معه القلعة حتى سلمها نائبها على مال أخذه، وأقطعها صلاح الدين مظفر الدين كوكبري صاحب حران. وسار عنها إلى الرقة، وبها نائبها قطب الدين نيال بن حسان المنبجي فأجفل عنها إلى الموصل، وملكها صلاح الدين وسار إلى الخابور وهو قرقيسيا وماكسين وعرمان فاستولى على جميعها. وسار إلى نصيبين فملكها لوقتها، وحاصر القلعة أياما وملكها، وأقطعها أبا الهيجاء السمين من أكبر أمرائه. وسار

عنها وملكها، ومعه صاحب كيفا. وجاءه الخبر بأن الإفرنج أغاروا على أعمال دمشق ووصلوا داريا فلم يحفل بخبرهم، واستمر على شأنه وأغراه مظهر الدين كوكبري وناصر الدين محمد بن شيركوه بالموصل، ورجحا قصدها على سنجار وجزيرة ابن عمر كما أشار عليهما فسار صلاح الدين وصاحبها عز الدين، ونائبه مجاهد الدين، وقد جمعوا العساكر وأفاضوا العطاء وشحنوا البلاد التي بايديهم كالجزيرة وسنجار والموصل واربل، وسار صلاح الدين حتى قاربها وسار هو ومظفر الدين وابن شيركوه في أعيان دولته إلى السور فرآه مخايل الامتناع. وقال لمظفر الدين ولناصر الدين ابن عمه قد

أغررتماني. ثم صبح البلد وناشبه وركب أصحابه في المقاعد للقتال. ونصب منجنيقا فلم يغن ونصب إليه من البلد تسعة. ثم خرج إليه جماعة من البلد وأخذوه وكانوا يخرجون ليلاً من البلد بالمشاعل يوهمون الحركة. فخشي صلاح الدين من البيات وتأخر عن القصد، وكان صدر الدين شيخ الشيوخ قد وصل من قبل الخليفة الناصر مع بشير الخادم من خواصة، في الصلح بين الفريقين على اعادة صلاح الدين بلاد الجزيرة فأجاب على إعادة الآخرين حلب فامتنعوا. ثم رجع عن شرط حلب إلى ترك مظاهرة صاحبها فاعتذروا عن ذلك، ووصلت رسل صاحب أذربيجان قرا ارسلان. وأرسل صاحب خلاط شاهرين فلم ينتظم بينهما أمر، ورحل صلاح الدين عن الموصل إلى سنجار فحاصرها، وبها أمير أميران وأخوه عز الدين صاحب الموصل في عساكر، ولقيه شرف الدين وجاءها المدد من الموصل فحال بينهم وبينها، وداخله بعض أمراء الأكراد من الدوادية من في داخلها فكبسها صلاح الدين ولحق بالموصل. وملك صلاح الدين سنجار وصارت سياجا على جميع ما ملكه بالجزيرة. وولى عليها سعد الدين ابن معين الدين أنز الذي كان متغلبا بدمشق على آخر طغركين وعاد فمرّ بنصيبين وشكا إليه أهلها من أبي الهيجاء السمين فعزله وسار إلى حران بلدة مظفر الدين كوكبري فوصلها في القلعة من سنة سبع وثمانين فأراح بها، وأذن لعساكره في الإنطلاق وكان عز الدين قد بعث إلى شاهرين صاحب خلاط يستنجده. وأرسل شاهرين إلى صلاح الدين بالشفاعة في ذلك رسلاً عديدة آخرهم مولاه سكرجاه، وهو على سنجار، فلم يشفعه أخاه من ذلك وفارقه مغاضباً. وسار شاهرين إلى قطب الدين صاحب ماردين وهو ابن أخته وابن خال عز الدين وصهره على بنته فاستنجده، وسارمعه، وجاءهم عز الدين من الموصل في عساكره، واعتزموا على قصد صلاح الدين وبلغه الخبر وهو مريح بحران فبعث عن تقي الدين ابن أخيه صاحب حمص وحماة، وارتحل للقائهم ونزل رأس عين، فخاموا عن لقائه، ولحق كل

ببلده، وسار صلاح الدين إلى ماردين فأقام عليها أياما ورجع، والله تعالى أعلم.

استيلاء صلاح الدين على حلب وأعمالها:

ولما ارتحل صلاح الدين عن ماردين قصد آمد فحاصرها سنة تسع وسبعين، وملكها وسلمها لنور الدين محمد بن قرا ارسلان كما كان العهد بينهما، وقد أشرنا إليه. ثم سار إلى الشام فحاصر تل خالد من أعمال حلب حتى استأمنوا إليه، وملكها في محرم سنة تسع وسبعين وسار منها إلى عينتاب، وبها ناصر الدين أخوه الشيخ

إسمعيل خازن نور الدين محمود وصاحبه، ولاه عليها نور الدين فلم يزل بها فاستأمن إلى صلاح الدين على أن يقره على الحصن، ويكون في خدمته فأقره وأعلمه. ورحل صلاح الدين إلى حلب وبها عماد الدين زنكي بن مودود، ونزل عليها بالميلان الأخضر أياما. ثم انتقل إلى جبل جوشن أياما أخرى، وأظهر أنه أبنى عليها، أوعجز عماد الدين عن عطاء الجند فراسل صلاح الدين أن يعوضه عنها سنجار ونصيبين . والخابور والرقة وسروج فأجاب إلى ذلك، وأعطاه عنها تلك البلاد وملكها، وكان في شرط صلاح الدين عليه أنه يبادر إلى الخدمة متى دعاه إليها. وسار عماد الدين إلى بلاده تلك، ودخل صلاح الدين حلب في آخر سنة تسع وسبعين. ومات عليها أخوه الأصغر تاج الملوك يوري بضربة في ركبته تصدعت لها، ومات بعد فتح حلب. ثم ارتحل صلاح الدين إلى قلعة حارم وبها سرجك من موالي نور الدين، ولاه عليها عماد الدين. فلما سلم حلب لصلاح الدين امتنع سرجك في قلعة حارم فحاصره صلاح الدين وترددت الرسل بينهما، وقد دس إلى الإفرنج ودعاهم. وخشي الجند الذين معه أن يسلمها إليهم فحبسوه، واستأمنوا إلى صلاح الدين فملكها وولى عليها بعض خواصه، وعلى تل خالد الأمير داروم الباروقي صاحب تل باشر، وأقطع قلعة إعزاز الأمير سليمان بن جندر فعمرها بعد ان كان عماد الدين خربها، وأقطع صلاح الدين أعمال حلب لأمرائه وعساكره، والله تعالى أعلم.

نكبة مجاهد الدين قايماز:

كان مجاهد الدين قايماز قائما بدولة الموصل ومتحكما فيها كما قلناه وكان عز

الدين محمود الملقب بالقندار صاحب الجيش، وشرف الدين أحمد بن أبي الخير الذي كان صاحب

العراق. كانا من أكابر الأمراء عند السلطان عز الدين مسعود صاحب الموصل، وكانا يغريانه بمجاهد الدين ويكثران السعاية عنده فيه، حتى اعتزم على نكبته، و لم يقدر على ذلك في مجلسه لاستبداد مجاهد الدين وقوة شوكته. فانقطع في بيته لعارض مرض، وكان مجاهد الدين خصياً لا يحتجب منه النساء فدخل عليه يعوده فقبض عليه، وركب إلى القلعة فاحتوى على أمواله وذخائره. وولى بها القندار نائبا، وجعل ابن صاحب العراق أمير حاجباً، وحكمهما في دولته. وكان في يد مجاهد الدين اربل وأعمالها فيها زين الدين يوسف ابن زين الدين علي كجك صبياً صغيراً تحت استبداده وبيده أيضاً جزيرة ابن عمر لمعز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي، وهو صبي تحت استبداده. وبيده أيضاً شهرزور وأعمالها ودقوقا وقلعة عقر الحميدية، ونوابه في جميعها و لم يكن لعز الدين مسعود بعد استيلاء صلاح الدين على الجزيرة سوى الموصل وقلعتها لمجاهد الدين، وهو الملك في الحقيقة فلما قبض عز الدين عليه امتنع صاحب اربل، واستبد بنفسه، وكان صاحب جزيرة ابن عمر، وبعث بطاعته إلى صلاح الدين. وبعث الخليفة الناصر شيخ الشيوخ، وبشير الخادم بالصلح بين عز الدين وصلاح الدين على أن تكون الجزيرة واربل من أعماله، وامتنع عز الدين وقال: هما من أعمالي. وطمع صلاح الدين في الموصل فتنكر عز الدين لزلقندار ولابن صاحب العراق، لما حملاه عليه من الفساد لنكبة مجاهد الدين فبدأ أولا بعزل صاحب أذربيجان فقال له: أنا أكفله وجهز له عسكراً ونحو ثلاثة آلاف فارس. وساروا نحو

اربل فاكتسحوا البلد وخربوها، وسار إليهم زين الدين يوسف باربل فوجدهم مفترقين في النهب فهزمهم ومن كان معهم وعاد مظفرا، ولحق العجم ببلادهم. وعاد مجاهد الدين إلى الموصل، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

حصار صلاح الدين الموصل وصلحه مع عز الدين صاحبها:

ثم سار صلاح الدين من دمشق في ذي القعدة سنة إحدى وثمانين، فلما انتهى إلى حران قبض على صاحبها مظفر الدين كوكبري لأنه كان لذلك وعده بخمسين ألف دينار، حتى إذا وصل لم يف له بها فقبض عليه لانحراف أهل الجزيرة عنه، فأطلقه ورد عليه عمله بحران والرها. وسار عن حران، وجاء معه عساكر كيفا وداري، وعساكر جزيرة ابن عمر مع صاحبها معز الدين سنجر شاه ابن أخي معز الدين صاحب الموصل، وقد استبد بأمره، وفارق طاعة عمه بعد نكبة مجاهد الدين كما قلنا، فساروا مع صلاح الدين إلى الموصل ولما انتهوا إلى مدينة

بله وفدت عليه أم عز الدين، وابن عمه نور الدين محمود وجماعة من أعيان الدولة ظنا بأنه لا يردهم وأشار عليه الفقيه عيسى وعلي بن أحمد المشطوب بردهم، ورحل إلى الموصل فقاتلها وامتنعت عليه، وندم على رد الوفد، وجاءه كتاب القاضي الفاضل باللائمة. ثم قدم عليه زين الدين يوسف صاحب اربل فأنزله مع أخيه مظفر الدين كوكبري وغيره من الأمراء. ثم بعث الأمير علي بن أحمد المشطوب إلى قلعة الجزيرة من بلاد الهكارية فاجتمع عليه الأكراد الهكارية وأقام يحاصرها، وكاتب نائب القلعة القندار. ونمي خبر مكاتبته إلى عز الدين فمنعه واطرحه من المشورة، وعدل إلى مجاهد الدين قايماز، وكان يقتدي برأيه فضبط الأمور وأصلحها. ثم بلغه في آخر ربيع من سنة اثنين وثمانين، وقد ضجر من حصار الموصل ان شاهرين صاحب خلاط توفي تاسع ربيع، واستولى عليها مولاه بكتمر فرحل عن الموصل، وملك ميافارقين كما يأتي في أخبار دولته ولما فرغ منها عاد إلى الموصل، ومر بنصيبين، ونزل الموصل في رمضان سنة اثنتين وثمانين، وترددت الرسل بينهما في الصلح، على أن يسلم إليه عز الدين شهرزور وأعمالها وولاية الفرائلي وما وراء الزاب، ويخطب له على منابرها، وينقش اسمه على سكته. ومرض صلاح الدين أثناء ذلك ووصل إلى حران ولحقته الرسل بالإجابة إلى الصلح وتحالفا عليه، وبعث من يسلم البلاد وأقام ممرضا بحران، عند أخوه العادل وناصر الدولة ابن عمه شيركوه، وامنت بلاد الموصل. ثم حدثت بعد ذلك فتنة بين التركمان والأكراد بالجزيرة والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور وأذربيجان، وقتل فيها ما لا يحصى من الأمم، واتصلت أعواما وسببها أن عروسا من التركمان أهديت إلى زوجها، ومروا بقلعة الزوزان والاكراد، وطلبوا منهم الوليمة على عادة الفتيان فأغلظوا في الرد فقتل صاحب القلعة الزوج، وثار التركمان بجماعة من الأكراد فقتلوهم. ثم أصلح مجاهد الدين بينهم وأفاض فيهم العطاء فعادوا إلى الوفاق، وذهبت بينهم الفتنة، والله تعالى أعلم.

وفاة زين الدين يوسف صاحب اربل وولاية أخيه مظفر الدين اقتهى:

كان زين الدين يوسف بن علي كجك قد صار في طاعة صلاح الدين كما ذكرناه قبل، وإربل من أعماله. ووقع الصلح على ذلك بينه وبين عز الدين صاحب الموصل سنة ست وثمانين

للعسكر معه فمات عنده أخريات رمضان من السنة واستولى أخوه على موجوده وقبض على جماعة من أمرائه مثل بلداحي صاحب قلعة حقبير كان وغيره، وطلب من صلاح الدين أن يقطعه اربل مكان أخيه، ويترل عن حران والرها فأقطعه اربل، وأضاف إليها شهرزور وأعمالها ودوقبر قرابلي وبني قفجاق وراسل أهل اربل مجاهد الدين قايماز واستدعوه لمجلكوه، وهو بالموصل فلم يتطاول لذلك خوفا من صلاح الدين. ولان عز الدين لما كان ولاه نيابته بعد ان أطلقه من الاعتقال لم يمكنه كما كان أول مرة، وجعل معه رديفا في الحكم كان من بعض غلمانه، فكان أسفا لذلك. فلما راسله أهل اربل قال: والله لا أفعل لئلا يحكم معي فيها فلان، وسار مظفر الدين إليها وملكها.

حصار عز الدين صاحب الموصل جزيرة ابن عمر:

كان سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود قد ملك جزيرة ابن عمر بوصية

أبيه، وخرج عن طاعة عمه عز الدين عند نكبة مجاهد الدين كما قلناه، وصار عيناً على عمه يكاتب صلاح الدين بأخباره ويغريه به ويسعى في القطيعة بينهما. ثم حاصر صلاح الدين قلعة عكا سنة ست وثمانين، واستنفر لها أصحاب الأطراف المتشبثين بدعوته مثل عز الدين صاحب الموصل، وأخيه عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين وسنجار شاه هذا ابن عمه وصاحب كيفا وغيرهم. واجتمعوا عنده على عكا، وجاء جماعة من جزيرة ابن عمر يتظلمون من سنجر شاه فخاف واستأذن في الانطلاق، فاعتذر صلاح الدين بأن في ذلك افتراق هذه العساكر فألح عليه في ذلك، وغدا عليه يوم الفطر مسلما فوعده وانصرف وكان تقي الدين عمر بن شاه أخي صلاح الدين مقبلا من حماة في عسكر فأرسل إليه صلاح الدين باعتراضه، ورده طوعا أو كرها فلقيه بقلعة فنك ورده كرها وكتب صلاح الدين إلى عز الدين صاحب الموصل بحصار جزيرة ابن عمر يظنها مكيدة فتلقاها بالمراجعة، وطلب إقطاع الجزيرة فأسعفه، وسار إليها وحاصرها أربعة أشهر فامتنعت عليه. ثم صالحه على نصف أعماله، ورجع إلى الموصل، والله تعالى أعلم.

مسيرة عز الدين صاحب الموصل إلى بلاد العادل بالجزيرة ورجوعه عنها:

كان صلاح الدين قد ملك من بلاد الجزيرة حران والرها وسميساط وميافارقين، وكانت بيد

ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاه. ثم توفي تقي الدين فأقطعها أخاه العادل أبا بكر بن أيوب. ثم توفي صلاح الدين سنة تسع وثمانين فطمع عز الدين صاحب الموصل في ارتجاعها، واستشار أصحابه فأشار عليه بعضهم بمعاجلتها وأن تستنفر أصحاب الأطراف لها مثل: صاحب اربل، وصاحب جزيرة ابن عمر، وصاحب سنجار ونصيبين. ومن امتنع يعاجله حربا ويعاجل البلد قبل أن يستعد أهلها للمدافعة. وأشار مجاهد الدين قايمان بمشاورة هؤلاء الملوك والعمل بإشارقم فقبل من مجاهد الدين وكاتبهم فأشاروا بانتظار أولاد صلاح الدين،

وأن البلد في طاعته، وأنه القائم بدولته، وأنه بلغه أن صاحب ماردين تعرض لبعض بلاده فجهز جيشاً كثيفا لقصد ماردين فوجموا الكتابة وتركوا الحركة. ثم بلغهم أنه بظاهر حران في خف من العسكر فتجهز للحركة عليه. ولما وقع الاتفاق مع سنجار جاءت عساكر الشام إلى العادل من الأفضل، فامتنع وسار عز الدين في عساكره من الموصل إلى نصيبين، واجتمع بأخيه عماد الدين، وساروا إلى الرها، وقد عسكر العادل قريبا منهم بمرج الريحان، وخافهم فأقاموا أياما كذلك. ثم طرق عز الدين المرض فترك العساكر مع أخيه عماد الدين وساروا إلى الموصل، والله أعلم.

وفاة عز الدين صاحب الموصل وولاية ابنه نور الدين:

ولما رجع عز الدين إلى الموصل أقام بها مدّة شهرين، واشتد مرضه فتوفي آخر

شعبان سنة تسع وثمانين، وولى ابنه نور الدين ارسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن الاتابك زنكي، وقام بتدبير دولته مجاهد الدين قايماز مدبر دولة أبيه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة عماد الدين صاحب سنجار وولاية قطب الدين:

ثم توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن الاتابك زنكي، صاحب سنجار والخابور ونصيبين والرقة وسروج، وهي التي عوضه صلاح الدين عن حلب لما أخذها منه. توفي في محرم سنة أربع وتسعين، وملك بعده ابنه قطب الدين، وتولى تدبير دولته مجاهد برتقش مولى أبيه. وكان دينا خيراً عادلاً متواضعاً محباً لأهل العلم والدين معظما لهم، وكان متعصبا على الشافعية، حتى انه بنى مدرسة للحنفية بسنجار، وكان حسن السيرة، والله تعالى أعلم.

استيلاء نور الدين صاحب الموصل على نصيبين:

كان عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين، قد امتدت أيدي نوابه بنصيبين إلى قرى

من أعمال الموصل تجاورهم، وبعث إليه في ذلك مجاهد الدين قايماز صاحب دولة الموصل يشكو إليه نوابه سراً من سلطانه نور الدين، فلج عماد الدين في ادعاء انها من أعماله، وأساء الرد فأعاد نور الدين الرسالة إليه مع بعض مشايخ دولته، وقد طرقه المرض فأجاب مثل الأول فنصح الرسول، وكان من بقية الاتابك زنكي. وعاد إلى فأغلظ له في القول، واعتزم نور الدين على المسير إلى نصيبين، ووصل الخبر اثر ذلك بوفاة عماد الدين، وولاية ابنه قطب الدين فقوي طمع نور الدين في نصيبين، وتجهز لها في جمادي سنة أربع وتسعين. وسار قطب الدين بن سنجر في عسكره فسبقه نور الديي إلى نصيبين. فلما وصل لقيه فهزمه نور الدين، ودخل إلى قلعة نصيبين مهزوماً ثم أسرى منها إلى حران، ومعه نائبه مجاهد الدين برتقش، وكاتبوا العادل أبا بكر بن أيوب يستحثونه من دمشق. وأقام نور الدين بنصيبين حتى وصل العادل إلى الجزيرة ففارقها إلى الموصل في رمضان من السنة. وعاد قطب الدين إليها. وكان الموتان قد وقع في عسكر نور الدين فمات كثير من أمراء الموصل. ومات مجاهد الدين قايماز القائم بالدولة. ولما عاد نور الدين إلى الموصل، وعاد قطب الدين إلى نصيبين سار العادل إلى ماردين فحاصرها أياما وضيق عليها ثم انصرف، والله تعالى أعلم.

هزيمة الكامل بن العادل على ماردين أمام نور الدين صاحب الموصل وبني عمه ملوك الجزيرة:

لما رحل العادل عن ماردين كما قدمناه جر العساكر عليها للحصار مع ابنه الكامل، وعظم ذلك على ملوك الجزيرة وديار بكر، وخافوا ان ملكها يغلبهم على أمرهم، ولم يكن سار من سار معه منهم عند اشتغاله بحرب نور الدين إلا تقية لكثرة عساكره. فلما رجع إلى دمشق، وبقي الكامل على ماردين استهانوا بأمره، وطمعوا في مدافعته. وأغراهم بذلك الظاهر والأفضل ابنا

صلاح الدين لفتنتهم مع عمهم العادل. فتجهز نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل، وسار أول شعبان سنة خمس وتسعين، وانتهى إلى دبيس فأقام بها، ولحق به ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي صاحب سنجار، وابن عمه الآخر سنجار شاه ابن غازي صاحب جزيرة ابن عمر، حتى إذا انقضى عيد الفطر ارتحلوا وتقدموا إلى مزاحمة الكامل على ماردين. وكان أهل ماردين خلال ذلك قد ضاق مخنقهم وجهدهم الحصار وبعث النظام المستولي على دولة صاحبها إلى الكامل يراوده في الصلح، وتسليم القلعة له إلى أجل سماه على أن يبيح لهم بقوتهم من الميرة فأسعفهم بذلك وبينما هم في ذلك جاءهم خبر العساكر فامتنعوا، وزحف الكامل مهزوما إلى معسكره بالربض فخرج أهل القلعة إليهم وقاتلوهم إلى المساء ثم أجفل الكامل من ليلته منتصف شوال، وعاد إلى بلاده ونهب أهل القلعة مخلفه، وخرج صاحب ماردين وهو بولو ارسلان ابن أبي الغازي فلقي نور الدين وشكره، وعاد إلى حصنه، ورجع نور الدين وأصحابه إلى تستر. ثم سار منها إلى رأس عين فقدم عليها هنالك رسول الظاهر بن صلاح الدين من حلب يطلب له منه السكة والخطبة، فوجم لذلك وثنى عزمه عن مظاهرتهم. ثم طرقه المرض فبعث إليهم بالعذر، وعاد إلى الموصل في ذي الحجة آخر السنة، والله تعالى أعلم.

مسير نور الدين صاحب الموصل إلى بلاد العادل بالجزيرة:

ثم ان الملك العادل ملك مصر سنة ست وتسعين من يد الأفضل ابن أخيه، فخشيه الظاهر صاحب حلب وصاحب ماردين، وراسلوا نور الدين صاحب الموصل في الاتفاق، وأن يسير إلى بلاد العادل بالجزيرة: حران والرها والرقة وسنجار، فسار نور الدين لملكها في شعبان سنة سبع وتسعين. وسار معه ابن عمه قطب الدين سنجار، وحسام الدين صاحب ماردين، وانتهوا إلى رأس العين، وكان بحران الفائز بن العادل في عسكر فأرسل إلى نور الدين في الصلح فبادر إلى الإجابة لما وقع في عسكره من الموتان، واستحلف وحلف لهم. وبعثوا إلى العادل فحلف وعاد نور الدين إلى الموصل في ذي القعدة من السنة، والله تعالى أعلم.

هزيمة نور الدين صاحب الموصل أمام عسكر العادل:

لم يزل الملك العادل يراسل قطب الدين صاحب سنجار، ويستميله إلى أن خطب له في أعماله سنة ستمائة فسار نور الدين صاحب الموصل إلى نصيبين من أعمال قطب الدين فحاصرها

وملك المدينة. وأقام يحاصر القلعة فبينما هو قد قارب فتحها بلغه الخبر من نائبه بالموصل بأن مظفر الدين كوكبري صاحب اربل من أعمال الموصل فرحل عن نصيبين معتزما على قصد اربل فلم يجد كل الخبر

صحيحا فسار إلى تل اعفر من أعمال سنجار فحاصرها وملكها. وكان الأشرف موسى بن العادل قد سار من حران إلى رأس العين نجدة لصاحب سنجار. وقد اتفق معه على ذلك مظفر الدين صاحب اربل وصاحب كيفا وآمد وصاحب جزيرة ابن عمر، وتراسلوا وتواعدوا للاجتماع. فلما ارتحل نور الدين عن نصيبين اجتمعوا عليها، وجاءهم أخو الأشرف نجم الدين صاحب ميافارقين وساروا إلى البقعا من تل اعفر إلى كفررقان. وقصده المطاولة حتى جاءه بعض عيونه فقللهم في عينه وأطمعه فيهم، وكان من مواليه فوثق بقوله ورحل إلى نوشري قريبا منهم. وتراءى الجمعان فالتقوا، وانهزم نور الدين ونجا في فل قليل، ونزلت العساكر كفررقان ونهبوا مدينة فيد، وما إليها، وأقاموا هنالك. وترددت الرسل في الصلح على أن يعيد نور الدين تل اعفر لقطب الدين صاحب سنجار فأعادها، واصطلحوا سنة إحدى وستمائة، ورجع كل إلى بلده. والله تعالى ولي التوفيق.

مقتل سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر وولاية ابنه محمود بعده:

كان سنجر شاه بن غازي بن مودود بن الاتابك زنكي صاحب جزيرة ابن عمر وأعمالها أوصى له بها أبوه عند وفاته كما مرّ وكان سيء السيرة غشوما ظلوما مرهف الحد على رعيته وجنده وحرمه وولده، كثير القهر لهم والانتقام منهم فاقد الشفقة على بنيه حتى غرب ابنيه محمودا ومودودا إلى قلعة فرج من بلاد الزوزان، لتوهم توهمه فيهما. وأخرج ابنه غازي إلى دار بالمدينة ووكل به فساءت حاله. وكانت الدار كثيرة الخشاش فضجر من حاله وتناول حية وبعثها إلى أبيه فلم يعطف عليه، فتسلل من الدار واستخفى في المدينة وبعث إلى نور الدين صاحب الموصل من أوهمه بوصوله إليه فبعث إليه بنفقة وردة خوفا من أبيه وترك أبوه طلبه لما

شاع انه بالشام فلم يزل غازي يعمل الحيلة حتى دخل دار أبيه، واختفى عند بعض حظاياه ، وطرق عليه الخلاء في بعض الليالي وهو سكران فطعنه أربع عشرة طعنة. ثم ذبحه وأقام مع الحرم. وعلم استاذ الدولة من خارج بالخبر فأحضر أعيان الدولة، وأغلق أبواب القصر، وبايع الناس لمحمود بن سنجر شاه واستدعاه وأخاه مودودا من قلعة فرج. ثم دخلوا إلى غازي وقتلوه. ووصل محمود فملكوه ولقبوه معن الدين لقب أبيه، وعمد إلى الجواري التي واطأت على قتل ابيه فغرّقهنّ في الدجلة، والله تعالى أعلم.

استيلاء العادل على الخابور ونصيبين من أعمال صاحب سنجار وحصاره اياه:

كان بين قطب الدين محمود بن زنكي بن مودود، وبين ابن عمه نور الدين ارسلان

شاه، بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عداوة مستحكمة، قد مرّ كثير من أخبارها. ولما كانت سنة خمس وستمائة أصهر العادل بن أيوب صاحب مصر والشام إلى نور الدين في ابنته، فزوجها نور الدين من ابنه واستكثر به، وطمح إلى الاستيلاء على جزيرة ابن عمر فأغرى العادل بأن يظاهره على ولاية ابن عمه قطب الدين سنجر، وتكون ولاية قطب الدين وهي: سنجار ونصيبين والخابور للعادل. وتكون ولاية غازي بن سنجر شاه لنور الدين صاحب الموصل فأجاب إلى ذلك العادل، وأطمع نور الدين في أنه يقطع ولاية قطب

الدين إذا ملكها لابنه الذي هو صهره على ابنته، وتحالفا على ذلك. وسار العادل سنة ست وستمائة من دمشق لملك الخابور. وراجع نور الدين رأيه فاذا هو قد تورط، وانه يملك البلاد كما يحب دونه إن وفى له. وسار نور الدين إلى الجزيرة فربما حال بنو العادل بينه وبين الموصل، وان انتقض نور الدين عليه سار إليه فاضطرب في أمره، وملك العادل الخابور ونصيبين. واعتزم قطب الدين على أن يعتاض منه عن سنجار ببعض البلاد فمنعه من ذلك أحمد بن برتقش مولى أبيه، وجهز نور الدين عسكراً مع ابنه القاهر مدداً للعادل كما اتفقا عليه. وفي خلال ذلك بعث قطب الدين سنجر ابنه إلى مظفر الدين صاحب اربل يستنجده فأرسل إلى العادل شافعا في أمره، فلم يشفعه لمظاهرة نور الدين إياه فغضب مظفر الدين وأرسل إلى نور الدين في المساعدة على دفاع العدو فأجاب نور الدين إلى ذلك، ورجع عن مظاهرة العادل. وأرسل هو ومظفر الدين إلى الطاهر بن صلاح الدين صاحب حلب والي كسنجر بن قليج ارسلان صاحب الروم يستنجدانهما فأجاباهما وتداعوا إلى قصد بلاد العادل إن لم يرحل عن سنجار. وبعث الخليفة

الناصر أستاذ الدار أبا نصر هبة الله بن المبارك بن الضحاك ة والأمير اقناش من خواص مواليه في الافراج عن سنجار، وتخاذل أصحابه عن مضايقة سنجار معه، وسيما أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة فانه جاهر بخلافة في ذلك فأجاب العادل في الصلح، على أن تكون نصيبين والخابور اللذان ملكهما له، وتبقى سنجار لقطب الدين، وتحالفوا على ذلك، ورجع العادل إلى حران، ومظفر الدين إلى اربل، والله تعالى أعلم.

وفاة نور الدين صاحب الموصل وولاية ابنه القاهر:

ثم توفي نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود بن الاتابك زنكي منتصف سنة

سبع وستمائة لثمان عشرة سنة من ولايته، وكان شهما شجاعا مهيبا عند أصحابه حسن السياسة لرعيته. وجدد ملك آبائه بعد أن أشفى على الذهاب. ولما احتضر عهد بالملك لابنه عز الدين مسعود، وهو ابن عشرين سنة، وأوصاه أن يتولى تدبير ملكه مولاه بدر الدين لؤلؤ لما فيه من حسن السياسة. وكان قائما بأمره منذ توفي مجاهد الدين قايماز وأوصى لولده الأصغر عماد الدين بقلعة عقر الحميدية، وقلعة شوش وولايتها، ولفته إلى العقر. فلما توفي نور الدين بايع الناس ابنه عز الدين مسعودا ولقبوه القاهر، واستقر ملك الموصل. وأعمالها له، وقام بدر الدين لؤلؤ بتدبير دولته، والبقاء لله وحده.

وفاة القاهر وولاية ابنه نور الدين ارسلان شاه في كفالة بدر الدين لؤلؤ :

لما توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن ارسلان شاه بن مسعود بن مودود بن الاتابك زكي صاحب الموصل، آخر ربيع الأول سنة خمس عشرة وخمسمائة لثمان سنين من ولايته بعد أن عهد بالملك لابنه الأكبر نور الدين ارسلان شاه، وعمره عشرون سنة، وجعل الوصي عليه والمدبر لدولته لؤلؤا كما كان في دولة القاهر، وابنه نور الدين فبايع له وقام بملكه. وأرسل إلى الخليفة في التقليد والخلع على العادة فوصلت، وبعث إلى الملوك في الأطراف في تجديد العهد كما كان بينهم وبين سلفه وضبط أمور. وكان عمه نور الدين زنكي

ارسلان شاه بقلعة عقر الحميدية لا يشك في مصير السلطان له فدفعه عن ذلك، واستقامت أموره وأحسن السيرة،

وسمع شكوى المتظلمين وأنصفهم، ووصل في تقليد الخليفة لنور الدين اسناد التتر في أموره لبدر الدين لؤلؤ والله أعلم.

استيلاء عماد الدين صاحب عقر علي قلاع الهكارية والزوزان:

كان عماد الدين زنكي قد ولاه أبوه قلعتي العقر والشوش قريبا من الموصل، وأوصى له بهما وعهد بالملك لابنه الأكبر القاهر. فلما توفي القاهر كما ذكرنا طمح زنكي إلى الملك، وكان يحدث به نفسه فلم يحصل له. وكان بالعمادية نائب من موالي جده مسعود فداخله في الطاعة له. وشعر بذلك بدر الدين لؤلؤ فعزل ذلك النائب، وبعث إليها أميراً أنزله بها وجعل فيها نائبا من قبله. واستبد بالنواب في غيرها. وكان نور الدين بن القاهر لا يزال عليلا لضعف مزاجه وتوالي الأمراض عليه فبقي محتجبا طول المدة. فأرسل زنكي إلى نور الدين بالعمادية يشيع موته، ويقول: أنا أحق بملك سلفي فتوهموا صدقه، وقبضوا على نائب لؤلؤ ومن معه، وسلموا البلد لعماد الدين زنكي منتصف رمضان سنة خمس عشرة. وجهز لؤلؤ العساكر وحاصروه بالعمادية في فصل الشتاء وكلب البرد وتراكم الثلج،

و لم يتمكنوا من قتاله. وظاهره مظفر الدين صاحب اربل على شأنه، وذكر لؤلؤا بالعهد الذي بينهما ان لا يتعرض لأعمال الموصل، والنص فيها على قلاع الهكارية والزوزان وأنه مظاهر لهم على من يتعرض لها فلج في مظاهرته، واعتمد نقض العهد وأقام العسكر محاصرا لزنكي بالعمادية. وتقدموا بعض الليالي وركبوا الأوعار إليه فبرز إليهم أهل العمادية، وهزموهم في المضايق والشعاب فعادوا إلى الموصل، وأرسل عماد الدين قلاع الهكارية والزوزان ني الطاعة له نأجابوه، وملكها وولى عليها، والله أعلم.

مظاهرة الأشرف بن العادل ل لؤلؤ صاحب الموصل:

ولما استولى عماد الدين زنكي على قلاع الهكارية والزوزان، وظاهره مظفر الدين صاحب اربل خاف لؤلؤ عائلته فبعث بطاعته إلى الأشرف موسى بن العادل، وقد ملك أكثر بلاد الجزيرة وخلاط وأعمالها، وش!أله المعاضدة فأجابه. وكان يومئذ يجلب في مدافعة كيكاوس صاحب

بلاد الروم من أعمالها فأرسل إلى مظفر الدين بالنكير عليه فيما فعل من نقضه العهد الذي كان بينهم جميعا كما مر، ويعزم عليه في إعادة ما أخذ من بلاد الموصل، ويتوعده إن أصر على مظاهرة زنكي بقصد بلاده فلم يجب مظفر الدين إلى ذلك، واستألف على أمره صاحب ماردين وناصر الدين محمودا صاحب كيفا وآمد فوافقوه، وفارقوا طاعة الأشرف في ذلك فبعث الأشرف عساكره إلى نصيبين لانجاد لؤلؤ متى احتاج إليه، والله تعالى أعلم.

واقعة عساكر لؤلؤ بعماد الدين:

ولما عاد عسكر الموصل عن حصار العمادية، خرج زنكي إلى قلعة العقر ليتمكن

من أعمال الموصل الصحراوية إذ كان قد فرغ من أعمالها الجبلية، وأمده مظفر الدين صاحب اربل بالعساكر، وعسكر جند الموصل على أربع فراسخ من البلد من ناحية العقر. ثم اتفقوا على المسير إلى زنكي وصبحوه آخر المحرم سنة ست عشرة وستمائة وهزموه فلحق بإربل، وعاد الرسل إلى مكانهم. ووصل رسل الخليفة الناصر والأشرف ابن العادل في الصلح بينهما فاصطلحوا وتحالفوا والله تعالى أعلم.

وفاة نور الدين صاحب الموصل وولاية أخيه ناصر الدين:

لما توفي نور الدين ارسلان شاه بن الملك القاهر كما قدمنا من سوء مزاجه واختلاف الأسقام عليه، فتوفي قبل كمال الحول. ونصب لؤلؤ مكانه أخاه ناصر الدين محمد بن القاهر في سن الثلاث، واستحلف له الجند وأركبه في الموكب فرضي به الناس لما أبلوا من عجز أخيه عن الركوب لمرضه، والله تعالى وليئ التوفيق.

هزيمة لؤلؤ صاحب الموصل من مظفر الدين صاحب اربل:

ولما توفي نور الدين، ونصب لؤلؤ أخاه ناصر الدين محمدا على صغر سنه، تجدد الطمع لعماد الدين عمه ولمظفر الدين صاحب اربل في الاستيلاء على الموصل، وتجهزوا لذلك. وعاثت سراياه في نواحي الموصل.

وكذا لؤلؤ قد بعث ابنه الأكبر في العساكر نجدة للملك الأشرف، وهو يقصد بلاد الإفرنج بالسواحل ليأخذ بحجزتهم عن إمداد إخوانهم بدمياط عن أبيه

الكامل بمصر، فبادر لؤلؤ إلى عسكر الأشرف الذين بنصيبين واستدعاهم فجاؤوا إلى الموصل منتصف سنة عشر وستمائة، وعليهم ايبك مولى الأشرف فاستقلهم لؤلؤ ورآهم مثل عسكره الذين بالشام ودونهم. وألح ايبك على عبور دجلة إلى اربل فمنعه أياما فلما أصر عبر لؤلؤ معه، ونزلوا على فرسخين من الموصل شرقي دجلة وجمع مظفر الدين زنكي وعبروا الزاب وتقدم إليهم ايبك في سكره وأصحاب لؤلؤ وسار منتصف الليل من رجب، وأشار عليه لؤلؤ بانتظار الصباح فلم يفعل ولقيهم بالليل. وحمل أيبك على زنكي في الميسرة فهزمه. وانهزمت ميسرة لؤلؤ فبقي في نفر قليل فتقدم إليه مظفر الدين فهزمه، وعبر دجلة إلى الموصل. وظهر مظهر الدين على تبريز ثلاثا.ثم بلغه أن لؤلؤا يريد تبييته فأجفل راجعا، وترددت الرسل بينهما فاصطلحا على أن يبقى لكل ما بيده، والله أعلم.

وفاة صاحب سنجار وولاية ابنه ثم مقتله وولاية أخيه:

ثم توفي قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود بن الاتابك أنكي صاحب سنجار

في ثامن صفر سنة ست عشرة وستمائة، وكان حسن السيرة مسلما إلى نوابه. وملك بعده ابنه عماد الدين شاهين شاه، واشتمل الناس عليه شهورا. ثم سار إلى تل اعفر فاغتاله أخوه عمر، دخل إليه في جماعة فقتلوه وملك بعده. وبقي مدة إلى أن تسلم الأشرف بن العادل مدينة سنجار في جمادى سنة سبع عشر وستمائة، والله أعلم.

استيلاء عماد الدين على قلعة كواشي و لؤلؤ على تل أعفر والأشرف على سنجار:

كانت كواشي من أحصت قلاع الموصل وأمنعه وأعلاه، ولما رأى الجند الذين بها

بعد أهل العمادية واستبدادهم بأنفسهم طمعوا في مثل ذلك، وأخرجوا نواب لؤلؤ عنهم وتمسكوا بإظهار الطاعة على البعد خوفا على رهائنهم بالموصل. ثم استدعوا عماد الدين زنكي وسلموا له القلعة، وأقام عندهم وبعث لؤلؤإلى مظفر الدين يذكره العهود التي لم يجز ثلمها بعد، فأعرض وأرسل

إلى الأشرف بحلب يستنجده فسار وعبر الفرات إلى حران. وكان مظفر الدين صاحب اربل يراسل الملوك بالأطراف ويغريهم بالأشرف ويخوفهم غائلته. ولما كان بين كيكاوس بن كنجسرو صاحب الروم من الفتنة ما نذكره في أخباره، وسار كيكاوس إلى حلب دعا مظفر الدين الملوك بناحيته إلى وفاق كيكاوس مثل صاحب كيفا وآمد وصاحب ماردين فأطاعوه وخطبوا له في أعمالهم. ومات كيكاوس وفي نفس الأشرف منه ومن مظفر الدين ما في نفسه. ولما سار الأشرف إلى حران لمظاهرة لؤلؤ وأرسل مظفر الدين جماعة من أمرائه مثل أحمد بن علي المشطوب وعز الدين محمد بن بدر الحميدي وغيرهما، واستمالهم ففارقوا الأشرف ونازلوا دبيس تحت ماردين ليجتمعوا مع ملوك الأطراف لمدافعة الأشرف. واستمال الأشرف صاحب آمد وأعطاه مدينة حالى وجبل حودي، ووعده بدارا إذا ملكها فأجاب وفارقهم إليه. واضطر آخرون منهم إلى طاعته فانحل أمرهم. وانفرد ابن المشطوب بمشاقة الأشرف فقصد اربل ومر بنصيبين فقاتله شيخ بها فانهزم إلى سنجار فأسره صاحبها. وأطلقه فجمع المفسدين، وقصد البقعا من أعمال الموصل فاكتسح نواحيها وعاد. ثم سار من سنجار ثانية إلى الموصل، وأرصد له لؤلؤ عسكراً فاعترضوه فهزمه. واجتاز بتل أعفر من أعمال! سنجار فأقاموا عليها وبعثوا إلى لؤلؤ فسار وحاصرها وملكها في ربيع سنة سبع عشرة وستمائة، وأسر ابن المشطوب وجاء به إلى الموصل. ثم بعث به إلى الأشرف فحبسه بحران سنين، وهلك في محبسه. ولما أطاع صاحب آمد الأشرف رحل من حران إلى ماردين، ونزل دبيس وحاصر ماردين، ومعه صاحب آمد. وترددت الرسل بينه وبين صاحب ماردين على أن يرد عليه رأس العين. وكان الأشرف قد!قطعها له على أن يحمل إليه ثلاثين ألف دينار، وأن يعطي لصاحب امد الورزني بلد وانعقد الصلح بينهما، وارتحل الأشرف من دبيس إلى نصيبين يريد الموصل، فلقيه رسل صاحب سنجار يطلب من يتسلمها منه على أن يعوضه الأشرف منها بالرقة بما أدركه من الخوف عند استيلاء لؤلؤ على تل أعفر ونفرة أهل دولته عنه لقتله أخاه كما ذكرناه. فأجابه الأشرف وأعطاه الرقة، وملك سنجار في جمادى سنة سبع عشرة وستمائة، ورحل عنها بأهله وعشيرته وانقراض أمر بني زنكي منها بعد أربع وتسعين سنة، والبقاء لله وحده.

صلح الأشرف مع مظفر الدين:

ولما ملك الأشرف سنجار سار إلى الموصل، ووافاه بها رسل الخليفة الناظر ومظفر الدين صاحب اربل في الصلح، ورد القلاع المأخوذة من إيالة الموصل على صاحبها لؤلؤ ما عدا العمادية فتبقى بيد زنكي. وتردد الحديث في ذلك شهرين، ولم يتم فرحل الأشرف بقصد اربل حتى قارب نهر الزاب. وكان العسكر قد ضجروا سوء صاحب آمد مع مظفر الدين فأشار بإجابته إلى ما سأل، ووافق على ذلك أصحاب الأشرف فانعقد الصلح، وساق زنكي إلى الأشرف رهينة على ذلك. وسلمت قلعة العقروشوش لنواب الأشرف وهما

لزنكي رهنا أيضاً. وعاد الأشرف إلى سنجار في رمضان سنة سبع عشرة. وبعثوا إلى القلاع فلم يسلمها جندها وامتنعوا بها. واستجار عماد الدين زنكي بشهاب ابن العادل فاستعطف له أخاه الأشرف فأطلقه، ورد عليه قلعتي العقر وشوش. وصرف نوابه عنهما. وسمع لؤلؤ الأشرف يميل إلى قلعة تل أعفر، وانها لم تزل لسنجار قديما فبعث إليه بتسليمها، والله تعالى أعلم.

رجوع قلاع الهكارية والزوزان إلى طاعة صاحب الموصل:

لما رأى زنكي أنه ملك قلاع الهكارية والزوزان وساوة، فلم يروا عنده ما ظنوه من

حسن السيرة كما يفعله لؤلؤ ، وطلبوه في الإقطاع فأجابهم. واستأذن الأشرف فلم يأذن له، وجاء زنكي من عند الأشرف فحاصر العمادية، ولنم يبلغ منها غرضا فأعادوا مراسلة لؤلؤ فاستأذن الأشرف، وأعطاه قلعة جديدة ونصيبين وولاية ما بين النهرين وأذن له في تملك القلاع، وأرسل نوابه إليها، ووفى لهم بما عاهدهم عليه. وتبعهم بقية القلاع من أعمال الموصل فدخلوا كلهم في طاعة لؤلؤ وانتظم له ملكها، والله تعالى أعلم..

استيلاء صاحب الموصل على قلعة سوس:

كانت قلعة سوس وقلعة العقر متجاورتين على اثني عشر فرسخا من الموصل، وكانتا لعماد الدين زنكي بن نور الدين ارسلان شاه بوصية أبيه كما مر. وملك معهما قلاع الهكارية والزوزان، ورجعت إلى الموصل وسار هو سنة تسعة عشر إلى ازبك بن البهلوان صاحب أذربيجان من بقية السلجوقية فسار معه، وأقطع له الاقطاعات وأقام عنده فسار لؤلؤ من الموصل إلى قلعة

سوس فحاصرها، وضيق عليها. وامتنعت عليه فجمر العساكر لحصارها وعاد إلى الموصل. ثم اشتد الحصار بأهلها، وانقطعت عنهم الأسباب فاستأمنوا إلى لؤلؤ ونزلوا له عنها على شروط اشترطوها وقبلها، وبعث نوابه عليها، والله تعالى أعلم.

حصار مظفر الدين الموصل:

كان الأشرف بن العادل بن أيوب قد استولى على الموصل، ودخل لؤلؤ في طاعته واستولى على خلاط وسائر أرمينية، وأقطعها أخاه شهاب الدين غازي، ثم جعله ولي عهده في سائر أعماله. ثم نشأت الفتنة بينهما فاستظهر غازي بأخيه المعظم صاحب دمشق وبمظهر الدين كوكبري. وتداعوا لحصار الموصل فجمع أخوهما الكامل عساكره، وسار إلى خلاط فحاصرها بعد أن بعث إلى المعظم صاحب دمشق وهدده فأقصر عن مظاهرة أخيه. واستنجد غازي مظفر الدين كوكبري صاحب اربل فسار إلى الموصل وحاصرها ليأخذ بحجزة الأشرف عن خلاط. ونهض المعظم صاحب دمشق لإنجاد أخيه غازي وكان لؤلؤ صاحب الموصل قد استعذ للحصار فأقام عليها مظفر الدين عشرا. ثم رحل منتصف إحدى وعشرين لامتناعها عليه، ولقيه الخبر بأن الأشرف قد ملك خلاط من يد أخيه فندم على ما كان منه.

إنتقاض أهل العمادية على لؤلؤ ثم استيلاؤه عليها:

قد تقدم لنا انتقاض أهل قلعة العمادية من أعمال الموصل سنة خمس عشرة، ورجوعه إلى عماد الدين زنكي، ثم عودهم إلى طاعة لؤلؤ فأقاموا على ذلك مدة. ثم عادوا إلى ديدنهم من التمريض في الطاعة وتجنوا على لؤلؤ بعزل نوابه فعزلهم مرة بعد أخرى. ثم استبد بها أولاد خواجا إبراهيم وأخوه فيمن تبعهم، وأخرجوا من خالفهم وأظهروا العصيان على لؤلؤ فسار إليهم سنة اثنتين وعشرين، وحاصرهم وقطع الميرة عنهم. وبعث عسكراً إلى قلعة هزوران وقد كانوا اتبعوا أهل العمادية في العصيان فحاصرهم حتى استأمنوا وملكها. ثم جهز العساكر إلى العمادية مع نائبه أمين الدين، وعاد إلى الموصل واستمر الحصار إلى ذي القعدة من السنة. ثم راسلوا أمين الدين في الصلح على مال واقطاع وعوض عن القلعة، وأجاب لؤلؤإلى ذلك. وكان أمين الدين قد وليها تبل ذلك فكان له فيها بطانة مستمدون على عهده ومكاتبته، وسخط كثير من أهل البلد فعل أولاد خواجا إبراهيم واستئثارهم بالصلح دونهم فوجد

أولئك البطانة سبيلاً إلى التسلط علبهم، ودسوا لأمين الدين أن يبيت البلد ويصالحها فصالحهم فوثبوا بأولاد خواجا، ونادوا بشعار لؤلؤ فصعد العسكر القلعة وملكها أمين الدين وبعث بالخبر إلى لؤلؤ قبل أن ينعقد اليمين مع وفد أولاد خواجا. والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

مسير مظفر الدين صاحب أربل إلى أعمال الموصل وعوده منها:

كان جلال الدين شكري بن خوارزم شاه قد غلبه التتر أول خروجهم سنة سبع عشرة وستمائة على خوارزم وخراسان وغزنة، وفر أمامهم إلى الهند، ثم رجع عنها سنة اثنتين وعشرين، واستولى على العراق، ثم على أذربيجان وجاور الأشرف بن العادل في ولايته بخلاط والجزيرة، وحدثت بينهما الفتنة. وراسله أعيان الأشرف في الأغراء به مثل: مظفر الدين صاحب اربل، ومسعور صاحب آمد وأخيه المعظم صاحب دمشق. واتفقوا على ذلك، وسار جلال الدين إلى خلاط وسار مظفر الدين إلى الموصل، وانتهى إلى الزاب ينتظر الخبو عن جلال الدين، وسار المعظم صاحب دمشق إلى حمص وحماة. وبعث لؤلؤمن الموصل يستنجد الأشرف فسار إلى حران، ثم إلى دبيس فاكتسح أعمال ماردين. وكان جلال الدين قد بلغه انتقاض نائبه بكرمان فأغذ السير إليه، وترك خلاط بعد أن عاث في أعمالها، وفت ذلك في أعضاد الاخرين ، وعظمت سطوة الأشرف بهم. وبعث إليه أخوه المعظم وقد نازل حمص وحماة يتوعده بمحاصرتهما ومحاصرة مظفر الدين الموصل، فرجع إلى ماردين، ورجع الآخران عن حمص وحماة والموصل ولحق كل ببلده، والله تعالى أعلم.

مسير التتر في بلاد الموصل وأربل:

ولما أوقع بجلال الدين خوارزم شاه على آمد سنة ثمان وعشرين وقتلوه، ولم يبق لهم مدافع من الملوك ولا مانع انساحوا في البلاد طولا وعرضاً، ودخلوا ديار بكر، واكتسحوا سواد آمد وارزن وميافارقين وحاصروا وطكوها بالأمان. ثم استباحوها وساروا إلى

ماردين فعاثوا في نواحيها. ثم دخلوا الجزيرة واكتسحوا أعمال نصيبين. ثم مروا إلى سنجار فنهبوها، ودخلوا الخابور واستباحوه. وسارت طائفة منهم إلى الموصل فاستباحوا أعمالها، ثم أعمال اربل وأفحشوا فيها. وبرز

مظفر الدين في محساكره، واستمد عساكر الموصل فبعث بها لؤلؤ إليه. ثم عاد التتر عنهم إلى أذربيجان فعاد كل إلى بلاده، والله أعلم.

وفاة مظفر الدين صاحب أربل وعودها إلى الخليفة:

ثم توفي مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كجك صاحب اربل سنة تسع وعشرين

لأربع وأربعين سنة من ولايته عليها ؛ أيام صلاح الدين بعد أخيه يوسف؟ و لم يكن له ول فأوصى بإربل للخليفة المستنصر فبعث إليها نوابه، واستولى عليها وصارت من أعمال والله تعالى أعلم.

بقية أخبار لؤلؤ صاحب الموصل:

كان عسكر خوارزم شاه بعد مهلكه سنة ثمان وعشرين على آمد لحقوا بصاحب

الروم كيغباد فاستنجدهم وهلك سنة أربع وثلاثين وستمائة، وولي ابنه كنجسرو فقبض على أميرهم ومر الباقون وانتبذوا بأطراف البلاد. وكان الصالح نجم الدين أيوب في حران، وكيفا وآمد نائبا عن أبيه الملك العادل، فرأى المصلحة في استضافتهم إليه فاستمالهم، واستخدمهم بعد أن أذن أبوه له في ذلك. فلما مات ابوه سنة خمس انتقضوا ولحقوا بالموصل، واشتد عليهم لؤلؤ وسار معهم فحاصر الصالح بسنجار إلى الخوارزمية واستمالهم فرجعوا إلى طاعته، على أن يعطيهم حران والرها يترلون بها فاعطاهما إياهم وملكوهما، ثم ملكوا نصيبين من أعمال لؤلؤ ، وبنو أيوب يومئذ متفرقون على كراسي الشام، وبينهم من الأنفة والفرقة ما نتلو عليك قصصه في دولتهم. ثم استقر ملك سنجار للجواد يونس منهم، وهو ابن مودود بن العادل أخذها من الصالح نجم الدين أيوب عوضا عن دمشق، واستولى لؤلؤ على سنجار من يده سنة سبع وثلاثين. ثم حدثت بين صاحب حلب وبين الخوارزمية فتنة ولجأوا يومئذ لصفيتهم خاتون بنت العادل فبعثت العساكر إليهم مع المعظم بوران شاه بن صلاح الدين فهزموا عساكره، وأسروا ابن أخيه الأفضل ودخلوا حلب واستباحوها. ثم فتحوا منبج وعاثوا فيها، وقطعوا الفرات من الرقة وهم يذهبون. وتبعهم عسكر دمشق وحمص فهزموهم وأثخنوا فيهم، ولحقوا ببلدهم حران فسارت إليهم عساكر حلب، واستولوا على حران. ولحق الخوارزمية بغانة وبادر لؤلؤ

صاحب الموصل إلى نصيبين فملكها من أيديهم. ثم توفيت صفية بنت العادل سنة أربعين في حلب، وكانت ولايتها بعد وفاة أبيها العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين فولي بعدها ابنه الناصر يوسف بن العزيز في كفالة مولاه حيال الخاتوني . فلما كانت سنة ثمان وأربعين، وستمائة وقع بين عسكره وبين بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل حرب انهزم فيها لؤلؤ ، وملك الناصر نصيبين وترقيسيا ولحق لؤلؤ بحلب. ثم زحف هلاكو ملك التتر إلى بغداد سنة وملكها، وقتل الخليفة المستعصم واستلحم العلية من بغداد كما مر في أخبار الخلفاء. ويأتي في أخبار التتر، وتخطى منها إلى أذربيجان فبادر لؤلؤ ووصل إليه بأذربيجان وآتاه طاعته وعاد إلى الموصل، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

وفاة صاحب الموصل وولاية ابنه الصالح:

ثم توفي بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل سنة سبع وخمسين وستمائة، وكان يلقب الملك الرحيم وملك بعده على الموصل ابنه الصالح اسمعيل، وعلى سنجار ابنه المظفر علاء الدين علي وعلى جزيرة ابن عمر ابنه المجاهد إسحق، وأبقاهم هلاكو عليها مدة؟ ثم أخذها منهم ولحقوا بمصر فنزلوا على الملك الظاهر بيبرس كما نذكر في أخباره. وسار هلاكو إلى الشام فملكها وانقرضت دولة الاتابك زنكي وبنيه ومواليه من الشام والجزيرة أجمع كأن لم تكن، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، والبقاء لله نعالى وحده، والله تعالى أعلم.

خريطة

دولة بني أيوب

الخبر عن دولة بني أيوب القائمين بالدولة العباسية وما كان لهم من الملك بمصر و الشام واليمن والمغرب و أولية ذلك ومصايره

هذه الدولة من فروع دولة بني زنكي كما تراه، وجدهم هو أيوب بن شادي بن مروان بن علي بن عشرة ابن الحسن بن علي بن أحمد بن علي عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحرث بن سنان بن عمر مرّة بن عوف الحميري الدوسي هكذا نسبه بعض المؤرخين لدولتهم قال ابن الأثير: أنهم من الأكراد الروادية. وقال ابن خلكان: شادي أبوهم من أعيان درين، وكان صاحبه بها بهروز فأصابه خصي من بعض أمرائه وفر حياء من المثلة ، فلحق بدولة السلطان مسعود بن محمد بن ملك شاه، وتعلق بخدمة داية بنيه حتى إذا هلك الداية أقامه السلطان لبنيه مقامه فظهرت كفايته، وعلا في الدولة محله فبعث عن شادي بن مروان صاحبه لما بينهما من الألفة وأكيد الصحبة فقدم عليه. ثم ولي السلطان بهروز شحنة بغداد فسار إليها، واستصحب شادي معه. ثم أقطعه السلطان قلعة تكريت فولي عليها شادي فهلك وهو وال عليها. وولى بهروز مكانه ابنه نجم الدين أيوب وهو أكبر من أسد الدين شيركوه، فلم يزل واليا عليها. ولما زحف عماد الدين زنكي صاحب الموصل لمظاهرة مسعود على الخليفة المسترشد سنة عشرين وخمسمائة، وإنهزم الأتابك وانكفأ راجعاً إلى الموصل، ومر بتكريت قام نجم الدين بعلوفته وازواده، وعقد له الجسور على دجلة، وسهل له عبورها. ثم أن شيركوه أصاب دماً في تكريت و لم يفده منه أخوه أيوب فعزله بهروز، وأخرجهما من تكريت فلحقا بعماد الدين بالموصل فأحسن إليهما وأقطعهما. ثم ملك بعلبك سنة إثنتين وثلاثين جعله نائباً بها، و لم يزل بها أيوب. ولما مات عماد الدين زنكي سنة إحدى وأربعين زحف صاحب دمشق فخر الدين طغركين إلى بعلبك وحاصرها، واستنزل أيوب منها على ما شرط لنفسه من الإقطاع، وأقام معه بدمشق. وبقي شيركوه مع نور الدين محمود بن زنكي، وأقطعه حمص والرحبة لإستطلاعه وكفايته، وجعله مقدم عساكره. ولما صرف نظره إلى الإستيلاء على دمشق، واعتزم على مداخلة أهلها، وكان ذلك على يد شيركوه وبمكاتبته لأخيه أيوب، وهو بدمشق فتم ذلك على أيديهما وبمحاولتهما، وملكها سنة تسع وأربعين وخمسمائة. وكانت دولة العلويين بمصر قد أخلقت

جدتها، وذهب استفحالها واستبد وزراؤها على خلفائها. فلم يكن الخلفاء يملكون معهم. وطمع الإفرنج في سواحلهم وأمصارهم لما نالهم من الهرم والوهن، فمالوا عليهم وانتزعوا البلاد من
أيديهم، وكانوا يردون عليهم كرسي خلافتهم بالقاهرة، ووضعوا عليهم الجزية وهم يتجرعون المصاب من ذلك، ويتحملونه مع بقاء أمرهم. كاد الأتابك زنكي وقومه السلجوقية من قبله أن يمحوا دعوتهم، ويذهبوا بدولتهم. وأقاموا من ذلك على مضض وقلق وجاء الله بدعوة العاضد آخرهم. وتغلب عليه بعد الصالح بن رزبك شاور السعدي، وقتل رزبك بن صالح سنة ثمان وخمسين، واستبد على العاضد. ثم نازعه الضرغام لتسعة أشهر من ولايته وغلبه وأخرجه من القاهرة فلحق بالشام، ولحق بنور الدين صريخاً سنة تسع وخمسين، وشرط له على نفسه ثلث الجباية بأعمال مصر، على أن يبعث معه عسكراً يقيمون بها فأجابه إلى ذلك، وبعث أسد الدين شيركوه في العساكر فقتل الضرغام، ورد شاور إلى رتبته وآل أمرهم إلى محو الدولة العلوية، وإنتظام مصر وأعمالها في ملكة ابن أيوب بدعوة نور الدين محمود بن زنكي، ويخطب للخلفاء العباسيين لما هلك نور الدين محمي واستبد صلاح الدين بأمره في مصر. ثم غلب على بني نور الدين محمود، وملك الشام من أيديهم وكثر عيث ابن عمهم مودود واستفحل ملكه، وعظمت دولة بنيه من بعده إلى أن . إنقرضوا والبقاء لله وحده.

مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر وإعادة شاور إلى وزارته:

لما إعتزم نور الدين محمود صاحب الشام على صريخ شاور، وإرسال العساكر معه واختار لذلك أسد الدين شيركوه بن شادي، وكان من أكبر أمرائه فاستدعاه من حمص وكان أميراً عليها وهي أقطاعه، وجمع له العساكر وأزاح عللهم. وفصل بهم شيركوه من دمشق في جمادى سنة تسع وخمسين. وسار نور الدين بالعساكر إلى بلاد الإفرنج ليأخذ بحجزتهم عن إعتراضه أو صده، لما كان بينهم وبين صاحب مصر من الألفة والتظاهر، ولما وصل أسد الدين ببلبيس لقيه هنالك ناصر الدين أخو الضرغام وقاتله فانهزم، وعاد إلى القاهرة مهزوماً. وخرج الضرغام منسلخ جمادى الأخيرة فقتل عند مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها، وقتل أخوه، وأعاد شاور إلى وزارته وتمكن فيها. وصرف أسد الدين إلى بلده وأعرض عما كان بينهما فطالبه أسد الدين بالوفاء، فلم يجب إليه فتغلب أسد الدين على بلبيس والبلاد الشرقية. وبعث شاور إلى الإفرنج يستنجدهم، ويعدهم فبادروا إلى إجابته، وسار بهم ملكهم مرى لخوفهم أن يملك أسد الدين مصر، واستعانوا بجمع من الإفرنج جاؤا لزيارة القدس. وسار نور الدين إليهم ليشغلهم فلم يثنهم ذلك وطمعوا لعزمهم ورزأ أسد الدين إلى بلبيس، وإجتمعت العساكر المصرية والإفرنج عليه، وحاصروه ثلاثة أشهر وهو يفاديهم القتال ويراوحهم، وإمتنع عليهم، وقصاراهم
منع الأخبار عنه. واستنفر نور الدين ملوك الجزيرة وديار بكر وقصر حارم. وسار الإفرنج لمدافعته فهزمهم وأثخن فيهم. وأسر صاحب أنْطاكِية وطرابلس وفتح حارم قريباً من حلب. ثم سار إلى بانياس قريباً من دمشق ففتحها كما مر في أخبار نور الدير وبلغ الخبر بذلك إلى الإفرنج وهم محاصرون أسد الدين في بلبيس ففت في

عزائمهم، وطووا الخبر عنه وراسلوه في الصلح على أن يعود إلى الشام فصالحهم، وعاد إلى الشام في ذي الحجة من السنة، والله تعالى أعلم.

مسير أسد الدين ثانياً إلى مصر وملكه الإسكندرية ثم صلحه عليها وعوده

ولما رجع أسد الدين إلى الشام لم يزل في نفسه ما كان من غدر شاور، وبقي يشحن لغزوهم إلى سنة إثنتين وستين فجمع العساكر وبعث معه نور الدين جماعة من الأمراء، وأكثف له العسكر خوفاً على حامية الإسلام، وسار أسد الدين إلى مصر، وانتهى إلى أطفيح وعبر منها إلى العدوة الغربية، ونزل الجيزة وأقام نحوا من خمسين يوماً. وبعث شاور إلى الإفرنج يستمدهم على العادة، وعلى ما لهم من التخوف من استفحال ملك نور الدين وشيركوه فسارعوا إلى مصر، وعبروا مع عساكرها إلى الجيزة، وقد إرتحل عنها أسد الدين إلى الصعيد، وانتهى منها إلى *، وأتبعوه وأدركوه بها منتصف إثنتين وستين. ولما رأى كثرة عددهم واستعدادهم مع تخاذل أصحابه فاستشارهم. فأشار بعضهم بعبور النيل إلى العدوة الشرقية والعود إلى الشام وأبى زعماؤهم إلا الإستماتة سيما مع خشية العتب من نور الدين، وتقدم صلاح الدين بذلك وأدركهم القوم على تعبية وجعل صلاح الدين في القلب، وأوصاه أن يندفع أمامهم، ووقف هو في الميمنة مع من وثق باستماتته. وحمل القوم على صلاح الدين فسار بين أيديهم على تعبيته وخالفهم أسد الدين إلى مخلفهم فوضع السيف فيهم وأثخن قتلا وأسرا. ورجعوا عن صلاح الدين يظنون أنهم ساروا منهزمين فوجدوا أسد الدين قد استولى على مخلفهم واستباحه فانهزموا إلى مصر.

وسار أسد الدين إلى الإسكندرية فتلقاه أهلها بالطاعة، واستخلف بها صلاح الدين

ابن أخيه. وعاد إلى الصعيد فاستولى عليه، وفرق العمال على جباية أمواله. ووصلت عساكر مصر والإفرنج إلى القاهرة، وأزاحوا عللهم وساروا إلى الإسكندرية فحاصروا

بها صلاح الدين، وجهده الحصار. وسار أسد الدين من الصعيد لإمداده، وقد إنتقض عليه طائفة من التركمان من عسكره. وبينما هو في ذلك جاءته رسل القوم في الصلح على أن يرد عليهم الإسكندرية، ويعطوه خمسين ألف دينار سوى ما جباه من أموال الصعيد فأجابهم إلى ذلك، على أن يرجع الإفرنج إلى بلادهم، ولا يملكوا من البلاد قرية فانعقد ذلك بينهم منتصف شوال. وعاد أسد الدين وأصحابه إلى الشام منتصف ذي القعدة. ثم شرط الإفرنج على شاور أن ينزلوا بالقاهرة شحنة، وتكون أبوابها بأيديهم ليتمكنوا من مدافعة نور الدين، فضربوا عليه مائة ألف دينار في كل سنة جزية فقبل ذلك، وعاد الإفرنج إلى بلادهم بسواحل الشام وتركوا بمصر جماعة من زعمائهم. وبعث الكامل أبا شجاع شاور إلى نور الدين بطاعته، وأن يبث بمصر دعوته. وقرر على نفسه مالاً يحمل كل سنة إلى نور الدين فأجابه إلى ذلك وبقي شيعة له بمصر، والله تعالى أعلم.

استيلاء أسد الدين على مصر ومقتل شاور

ولما ضرب الإفرنج الجزية على القاهرة ومصر، وأنزلوا بها الشحنة وملكوا أبوابها تمكنوا من البلاد، وأقاموا فيها جماعة من زعمائهم فتحكموا وأطلعوا على عورات الدولة، فطمعوا فيما وراء ذلك من الاستيلاء وراسلوا بذلك ملكهم بالشام، وإسمه مري، ولم يكن ظهر بالشام من الإفرنج مثله فاستدعوه لذلك وأغروه فلم يجبهم، واستحثه أصحابه لملكها. وما زالوا يفتلون له في الذروة والغارب، ويوهمونه القوة بتملكها على نور الدين، ويريهم هو أن ذلك يؤل إلى خروج أصحابها عنها لنور الدين فبقي بها إلى أن غلبوا عليه. فرجع إلى رأيهم. وتجهز وبلغ الخبر نور الدين فجمع عساكره، واستنفر من في ثغوره. وسار الإفرنج إلى مصر مفتتح أربع وستين فملكوا بلبيس عنوة في صفر واستباحوها وكاتبهم جماعة من أعداء شاور فأنسوا مكاتبتهم، وساروا إلى مصر ونازلوا القاهرة. وأمر شاور بإحراق مدينة مصر لينتقل أهلها إلى القاهرة فيضبط الحصار فانتقلوا وأخذهم الحريق، وامتدت الأيدي وأنتهبت أموالهم وإتصل الحريق فيها شهرين. وبعث العاضد إلى نور الدين يستغيث به فأجاب وأخذ في تجهيز العساكر فاشتد الحصار على القاهرة، وضاق الأمر بشاور فبعث إلى ملك الإفرنج يذكره بقديمه، ون هواه معه دون العاضد ونور الدين، ويسأل في الصلح على المال لنفور المسلمين مما سوى ذلك فأجابه ملك الإفرنج على ألف ألف دينار لما رأى من إمتناع القاهرة، وبعث إليهم شاور بمائة ألف منها، وسألهم في الإفراج فارتحلوا. وشرع في جمع المال فعجز الناس عنه ورسل

العاضد خلال ذلك تردد إلى نور الدين في أن يكون أسد الدين وعساكره حامية عنده وعطاؤهم عليه، وثلث الجباية خالصة لنور الدين فاستدعى نور الدين أسد الدين من حمص وأعطاه مائتي ألف دينار، وجهزه بما يحتاجه من الثياب والدواب والأسلحة، وحكمه في العساكر والخزائن ونقل العسكر عشرين دينارا لكل فارس، وبعث معه من أمرائه مولاه عز الدين مرعش، وعز الدين قليج، وشرف الدين مرعش وعز الدولة الباروقي وقطب الدين نيال بن حسان المنبجي. وأمد صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عمه أسد الدين فتعلل عليه، واعتزم عليه فأجاب. وسار أسد الدين منتصف ربيع. فلما قارب مصر رجع الإفرنج إلى بلادهم فسر بذلك نور الدين، وأقام عليه البشائر في الشام.ووصل أسد الدين القاهرة ودخلها منتصف جمادى الأخيرة ونزل بظاهرها، ولقي العاضد وخلع عليه وأجرى عليه وعلى عساكره الجرايات والاتاوات. وأقام أسد الدين ينتظر شرطهم، وشاور يماطله ويعلله بالمواعيد. ثم فاوض أصحابه في القبض على أسد الدين واستخدام جنده فمنعه ابنه الكامل من ذلك فأقصر. ثم أشرف أصحاب أسد الدين على اليأس من شاور، وتفاوض أمراؤه في ذلك فاتفق صلاح الدين ابن أخيه وعز الدين خردك على قتل شاور وأسد الدين ينهاهم. وغدا شاور يوماً على أسد الدين في خيامه فألقاه قد ركب لزيارة تربة الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه، فتلقاه صلاح الدين وخردك، وركبوا معه لقصد أسد الدين فقبضوا عليه في طريقهم، وطيروا بالخبر إلى أسد الدين. وبعث العاضد لوقته يحرضهم على قتله فبعثوا إليه برأسه، وأمر العاضد بنهب دوره فنهبها العامة.وجاء أسد الدين لقصر العاضد فخلع عليه الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش. وخرج له من القصر منشور من إنشاء القاضي الفاضل البيساني، وعليه مكتوب بخط الخليفة ما نصه: هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، فتقلد ما رآك الله وأمير

المؤمنين أهلا لحمله، وعليك الحجة من الله فيما أوضح لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، وأسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلا، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا. ثم ركب أسد الدين إلى دار الوزارة التي كان فيها شاور، وجلس مجلس الأمروالنهي وولى على الأعمال، وأقطع البلاد للعساكر، وأمن أهل مصر بالرجوع إلى بلادهم ورمها وعمارتها. وكاتب نور الدين بالواقع مفصلاً وانتصب للأمور. ثم دخل للعاضد ، وخطب الأستاذ جوهر الخصي عنه وهو يومئذ أكبر الأساتيذ فمال: يقول لك مولانا نؤثر مقامك عندنا من أول قدومك، وأنت تعلم الواقع من ذلك، وقد تيقنا أن الله عز وجل أدخرك لنا نصرة على أعدائنا فحلف له أسد الدين على النصيحة وإظهار الدولة. فقال

الأستاذ عن العاضد الأمر بيدك هذا وأكثر. ثم جددت الخلع واستخلص أسد الدين الجليس عبد القوي. وكان قاضي القضاة وداعي الدعاة واستحسنه واختصه. وأما الكامل بن شاور فدخل القصر مع أخوته معتصمين به، وكان آخر العهد به وأسف أسد الدين عليه لما كان منه في رد أبيه، وذهب كل بما كسب، والله تعالى أعلم.

وفاة أسد الدين وولاية ابن أخيه صلاح الدين

ثم توفي أسد الدين شيركوه آخر جمادي الأخيرة من سنة أربع وستين لشهرين من وزارته. ولما احتضر أوصى أحد حواشيه بهاء الدين قراقوش فقال له: "الحمد لله الذي بلغنا من هذه الديار ما أردنا، وصار أهلها راضين عنا فلا تفارقوا سور القاهرة، ولا تفرطوا في الأسطول " ولما توفي تشوف الأمراء الذين معه إلى رتبة الوزارة مكانه مثل عز الدولة الباروقي، وشرف الدين المشطوب الهكاري، وقطب الدين نيال بن حسان المنبجي وشهاب الدين الحارمي، وهو خال صلاح الدين، وجمع كل لمغالبة صاحبه. وكان أهل القصر وخواص الدولة قد تشاوروا فأشار جوهر بإخلاء رتبة الوزارة، وإصطفاء ثلاثة آلاف من معسكر الغز يقودهم قراقوش، ويعطي لهم الشرقية إقطاعا يترلون بها حشداً دون الإفرنج من يستبد على الخليفة بل يقيم واسطه بينه وبين الناس على العادة. وأشار آخرون بإقامة صلاح الدين مقام عمه والناس تبع له، ومال القاضي لذلك حياء من صلاح الدين وجنوحاً إلى صغر سنه، وأنه لا يتوهم فيه من الإستبداد ما يتوهم في غيره من أصحابه، وأنهم في سعة من رأيهم مع ولايته فاستدعاه وخلع عليه، ولقبه الملك الناصر. واختلف عليه أصحابه فلم يطيعوه وكان عيسى الهكاري شيعة له، واستمالهم إليه إلا الباروقي فإنه إمتنع وعاد إلى نور الدين بالشام وثبتت قدم صلاح الدين في مصر، وكان نائباً عن نور الدين ونور الدين يكاتبه بالأمير الاسفهسار، ويجمعه في الخطاب مع كافة الأمراء بالديار المصرية. وما زال صلاح الدين يحسن المباشرة ويستميل الناس، ويفيض العطاء حتى غلب على أفئدة الناس، وضعف أمر العاضد. ثم أرسل يطلب أخوته وأهله من نور الدين فبعث بهم إليه من الشام. واستقامت أموره وأطردت سعادته، والله تعالى ولي التوفيق

واقعة السودان بمصر:

كان بقصر العاضد خصي حاكم على أهل القصر يدعى مؤتمن الخلافة فلما غص أهل الدولة بوزارة صلاح الدين داخل جماعة منهم، وكاتب الإفرنج يستدعيهم ليبرز صلاح الدين لمدافعتهم فيثوروا بمخلفه. ثم يتبعونه وقد ناشب الإفرنج فيأتون عليه. وبعثوا الكتاب مع ذي طمرين حمله في نعاله فاعترضه بعض التركمان واستلبه، ورأوا النعال جديدة فاسترابوا بها فجاؤا به إلى صلاح الدين فقرأ الكتاب ودخل على كاتبه فأخبره بحقيقة الأمر فطوى ذلك وإنتظر مؤتمن الخلافة حتى خرج إلى بعض قراه متنزها وبعث من جاء برأسه، ومنع الخصيان بالقصر عن ولاية أموره وقدم عليهم بهاء الدين قراقوش خصياً أبيض من خدمه وجعل إليه جميع الأمور بالقصر وامتعض السودان بمصر لمؤتمن الخلافة. واجتمعوا لحرب صلاح الدين وبلغوا خمسة آلاف وناجزوا عسكره من القصر في ذي القعدة من السنة وبعث إلى محلتهم بالمنصورة من أحرقها على أهليهم وأولادهم فلما سمعوا بذلك إنهزموا وأخذهم السيف في السكك فاستأمنوا وعبروا إلى الجيزة فسار إليهم شمس الدولة أخو صلاح الدين في طائفة من العسكر فاستلحمهم وأبادهم والله أعلم.

منازلة الإفرنج دمياط وفتح إيلة

ولما استولى صلاح الدين على دولة مصر وقد كان الإفرنج أسفوا على ما فاتهم

من صده وصد عمه عن مصر وتوقعوا الهلاك من استطالة نور الدين عليهم بملك مصر فبعثوا الرهبان والأقسة إلى بلاد القرانية يدعونهم إلى المدافعة عن بيت المقدس وكاتبوا الإفرنج بصقلية والأندلس يستنجدونهم فنفروا واستعدوا لامدادهم. واجتمع الذين بسواحل الشام في فاتح خمس وستين وثلاثمائة وركبوا في ألف من الأساطيل وأرسلوا لدمياط ليملكوها ويقربوا من مصر. وكان صلاح الدين قد ولاها شمس الخواص منكبرس فبعث إليه بالخبر فجهز إليها بهاء الدين قراقوش، وأمراء الغز في البر متتابعين، وواصل المراكب بالأسلحة والإتاوات وخاطب نور الدين يستمدّه لدمياط لأنه لا يقدر على المسير إليها خشية من أهل الدولة بمصر، فبعث نور الدين إليها العساكر أرسالاً. ثم سار

بنفسه وخالف الإفرنج إلى بلادهم بسواحل الشام فاستباحها وخربها.وبلغهم الخبر بذلك على دمياط، وقد إمتنعت عليهم، ووقع فيهم الموتان فأقلعوا عنها لخمسين يوماً من حصارها. ورجع أهل سواحل الشام لبلادهم فوجدوها خراباً. وكان جملة ما بعثه نور الدين في المدد لصلاح الدين في شأن دمياط هذه ألف ألف دينار سوى الثياب والأسلحة وغيرها. ثم أرسل صلاح الدين إلى نور الدين في منتصف السنة يستدعي منه أباه نجم الدين أيوب فجهزه إليه مع عسكر وإجتمع معهم من التجار جماعة وخشي عليهم نور الدين في طريقهم من الإفرنج الذين بالكرك فسار إلى الكرك وحاصرهم بها. وجمع الإفرنج الآخرون فصمد للقائهم فخاموا عنه وسار في وسط بلادهم، وسار إلى عشيرا، ووصل نجم الدين أيوب إلى مصر، وركب العاضد لتلقيه. ثم سار صلاح الدين سنة ست وستين لغزو بلاد الإفرنج، وأغار على أعمال عسقلان والرملة. ونهب ربط غزة ولقي ملك الإفرنج فهزمه، وعاد إلى مصر. ثم أنشأ مراكب وحملها مفصلة على الجمال إلى أيلة فألفها وألقاها في البحر، وحاصر أيلة براً وبحراً، وفتحها عنوة في شهر ربيع من السنة، واستباحها وعاد إلى مصر فعزل قضاة

الشيعة، وأقام قاضياً شافعياً فيها. وولّى في جميع البلاد كذلك. ثم بعث أخاه شمس الدولة توران شاه إلى الصعيد فأغار على العرب وكانوا قد عاثوا وأفسدوا فكفهم عن ذلك والله تعالى أعلم.

الخطبة العباسية بمصر

إقامة الخطبة العباسية بمصر

ثم كتب نور الدين بإقامة الخطبة للمستضيء العباسي وترك الخطبة للعاضد بمصر فاعتذر عن ذلك بميل أهل مصر للعلويين، وفي باطن الأمر خشي من نور الدين فلم يقبل نور الدين عذره في ذلك، و لم تسعه مخالفته، وأحجم عن القيام بذلك. ورد على صلاح الدين شخص من علماء الأعاجم يعرف بالخبشاني ويلقب بالأمير العالم فلما رآهم محجمين عن ذلك صعد المنبر يوم الجمعة قبل الخطيب ودعا للمستضيء ، فلما كانت الجمعة القابلة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد والخطبة للمستضيء، فتراسلوا بذلك ثاني جمعة من المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة.وكان المستضيء قد ولي الخلافة بعد أبيه المستنجد في ربيع من السنة قبلها. ولما خطب له بمصر كان العاضد مريضاً فلم يشعروه بذلك. وتوفي يوم عاشوراء من السنة. ولما خطب له على منابر مصر جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصره ووكل به بهاء الدين قراقوش، وكان فيه من الذخائر ما يعز وجوده مثل حبل الياقوت الذي وزن كل حصاة منه سبعة عشر مثقالاً، ومصاف الزمرد الذي طوله أربعة أصابع طولا

في عرض، ومثل طبل القولنج الذي يضربه ضاربه فيعافى بذلك من داء القولنج، وكسروه لما وجدوا ذلك منه فلما ذكرت لهم منفعته ندموا عليه، ووجدوا من الكتب النفيسة ما لا يعد. ونقل أهل العاضد إلى بعض حجر القصر ووكل بهم، وإخرج الأماء والعبيد وقسمهم بين البيع والهبة والعتق. وكان العاضد لما اشتد مرضه

استدعاه فلم يجب داعيه، وظنها خديعة فلما توفي ندم، وكان يصفه بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه والإنقياد. ولما وصل الخبر إلى بغداد بالخطبة للمستضيء ضربت البشائر وزينت بغداد أياماً وبعثت الخلع لنور الدين وصلاح الدين مع صندل الخادم من خواص المقتفي، فوصل إلى نور الدين وبعث بخلعة صلاح الدين وخلع الخطباء بمصر والأعلام السود، والله تعالى أعلم.

الوحشة بين صلاح الد ين ونور الدين

قد كان تقدم لنا ذكر هذه الوحشة في أخبار نور الدين مستوفاة وأن صلاح الدين غزا

بلاد الإفرنج سنة سبع وستين، وحاصر حصن الشوبك على مرحلة من الكرك حتى استأمنوا إليه، فبلغ ذلك نور الدين فاعتزم على قصد بلاد الإفرنج من ناحية أخرى فارتاب صلاح الدين في أمره وفي لقاء نور الدين وإظهار طاعته، وما ينشأ عن ذلك من تحكمه فيه فأسرع العود إلى مصر، واعتذر لنور الدين بشيء بلغه عن شيعة العلويين ليعتزله نور الدين، وأخذ في الاستعداد لعزله. وبلغ ذلك صلاح الدين وأصحابه فتفاوضوا في مدافعته ونهاهم أبوه نجم الدين أيوب وأشار بمكاتبته والتلطف له مخافة أن يبلغه غير ذلك فيقوى عزمه على العمل به، ففعل ذلك صلاح الدين فسالمه نور الدين. وعادت المخالطة بينهما كما كانت، واتفقا على

إجتماعهما لحصار الكرك فسار صلاح الدين لذلك سنة ثمان وستين، وخرج نور الدين من دمشق بعد أن تجهز. فلما إنتهى إلى الرقيم على مرحلتين من الكرك، وبلغ صلاح الدين خبره إرتابه ثانياً. وجاءه الخبر بمرض نجم الدين أبيه بمصر فكر راجعاً. وأرسل إلى نور الدين الفقيه عيسى الهكاري بما وقع من حديث المرض بأبيه، وأنه رجم من أجله فأظهر نور الدين القبول، وعاد إلى دمشق، والله تعالى أعلم.

وفاة نجم الدين أيوب

كان نجم الدين أيوب بعد إنصرف ابنه صلاح الدين إلى مصر أقام بدمشق عند نور الدين

، ثم بعث عنه ابنه صلاح الدين عندما استوثق له ملك مصر فجهزه نور الدين سنة خمس وستين في عسكره. وسار لحصار الكرك ليشغل الإفرنج عن اعتراضه كما مر ذكره. ووصل إلى مصر وخرج العاضد لتلقيه، وأقام مكرماً. ثم سار صلاح الدين إلى الكرك سنة ثمان وستين المرة الثانية في مواعدة نور الدين وأقام نجم الدين بمصر، وركب يوماً في مركب وسار ظاهر البلد، والفرس في غلواء مراحه وملاعبة ظله فسقط عنه، وحمل وقيذاً إلى بيته فهلك لأيام منها آخر ذي الحجة من السنة. وكان خيراً جوادا محسناً للعلماء والفقراء، وقد تقدم ذكر أوليته، والله ولي التوفيق.

استيلاء قراقوش على طرابلس الغرب

كان قراقوش من موالي تقي الدين عمر بن شاه بن نجم الدين أيوب، وهو ابن أخي صلاح الدين فغضب مولاه في بعض الترعات، وذهب مغاضباً إلى المغرب ولحق بجبل نفوسة من ضواحي طرابلس الغرب. وأقام هنالك دعوة مواليه، وكان في بسائط تلك الجبال مسعود بن زمام المعروف بالبلط في أحيائه من رياح من عرب هلال ابن عامر، وكان منحرفاً عن طاعة عبد المؤمن شيخ الموحدين، وخليفة المهدي فيهم فانتبذ مسعود بقومه عن المغرب وأفريقية إلى تلك القاصية، فدعاه قراقوش إلى إظهار دعوة مواليه بني أيوب فأجابه ونزل معه بأحيائه على طرابلس فحاصرها قراقوش وافتتحها ونزل بأهله وعياله في قصرها.ثم استولى على قابس من ورائها، وعلى توزر ونفطة وبلاد نفزاوة من أفريقية،وجمع أموالا جمة، وجعل ذخيرته بمدينة قابس، وخربت تلك البلاد أثناء ذلك باستيلاء العرب عليها. ولم يكن لهم قدرة على منعهم. ثم طمع في الاستيلاء على جميع أفريقية ووصل يده بيحيى بن غانية اللمتوني الثائر بتلك الناحية بدعوة لمتونة، من بقية الأمراء في دولتهم. فكانت لهما بتلك الناحية آثار مذكورة في أخبار دولة الموحدين إلى أن غلبه ابن غانية على ما ملك من تلك البلاد، وقتله كما هو مذكور في أخبارهم، والله أعلم.

استيلاء نور الدين تول ان شاه بن أيوب على بلاد النوبة ثم على بلاد اليمن

كان صلاح الدين وقومه على كثرة إرتيابهم من نور الدين، وظنهم به الظنون يحاولون ملك

القاصية عن مصر ليمتنعوا بها أن طرقهم منه حادث، أو عزم على المسير إليهم في مصر فصرفوا عزمهم في ذلك إلى بلاد النوبة أو بلاد اليمن. وتجهز شمس الدولة توران شاه بن أيوب، وهو أخو صلاح الدين الأكبر إلى ملك النوبة. وسار إليها في العساكر سنة ثمان وستين، وحاصر قلعة من ثغورهم ففتحها واختبرها فلم يجد فيها

خرجاً ولا في البلاد بأسرها جباية. وأقواتهم الذرة وهم في شظف من العيش ومعاناة للفتن. فاقتصر على ما فتحه من ثغورهم، وعاد في غنيته بالعبيد والجواري. فلما وصل إلى مصر أقام بها قليلا، وبعثه صلاح الدين إلى اليمن، وقد كان غلب عليه علي بن مهدي الخارجي سنة أربع وخمسين، وصار أمره إلى ابنه عبد النبي، وكرسي ملكه زبيد منها. وفي عدد ياسر بن بلال بقية ملوك بني الربيع.وكان عمارة اليمني الشاعر العبيدي وصاحب بني رزيك من أمرائهم، وكان أصله من اليمن. وكان في خدمة شمس الدولة ويغريه به فسار إليه شمس الدولة بعد أن تجهز، وأزاح العلل، واستعد للمال والعيال. وسار من مصر منتصف سنة تسع وستين، ومر بمكة وانتهى إلى زبيد. وبها ملك اليمن عبد النبي بن علي بن مهدي فبرز إليه وقاتله فانهزم وانحجر بالبلد. وزحفت عساكر شمس الدولة فتسنموا أسوارها وملكوها عنوة واستباحوها، وأسروا عبد النبي وزوجته. وولى شمس الدولة على زبيد مبارك بن كامل ابن منقذ من أمراء شيزر كان في جملته، ودفع إليه عبد النبي ليستخلص منه الأموال فاستخرج من قرابته دفائن كانت فيها أموال جليلة. ودلتهم زوجته الحرة على ودائع استولوا منها على أموال جمة.وأقيمت الخطبة العباسية في زبيد، وسار شمس الدولة توران شاه إلى عدن وبها ياسر بن بلال، كان أبوه بلال بن جرير مستبداً بها على مواليه بني الزريع، وورثها عنه ابنه ياسر، فسار ياسر للقائه فهزمه شمس الدولة، وسارت عساكره إلى البلد فملكوها، وجاؤوا بياسر أسيراً إلى شمس الدولة فدخل عدن وعبد النبي معه في الإعتقال، واستولى على نواحيها، وعاد إلى زبيد. ثم سار إلى حصون الجبال فملك تعز، وهي من أحصن القلاع، وحصن التعكر والجند وغيرها من المعاقل والحصون. وولى على عدن عز الدولة عثمان بن الزنجبيلي، واتخذ زبيد سبباً لملكه. ثم استوخمها، وسار في الجبال ومعه الأطباء يتخير مكاناً صحيح الهواء للسكنى فوقع إختيارهم على تعز، فاختط هنالك مدينة واتخذها كرسياً لملكه. وبقيت لبنيه ومواليهم بني رسول كما نذكره في أخبارهم والله تعالى ولي التوفيق.

واقعة عمارة ومقتله

كان جماعة من شيعة العلويين بمصر منهم: عمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر، وعبد الصمد

الكاتب، والقاضي العويدس، وابن كامل، وداعي الدعاة، وجماعة من الجند وحاشية القصر، اتفقوا على استدعاء الإفرنج من صقلية وسواحل الشام، وبذلوا لهم الأموال على أن يقصدوا مصر فإن خرج صلاح الدين للقائهم بالعساكر ثار هؤلاء بالقاهرة، وأعادوا الدولة العبيدية. وإلا فلا بد له إن أقام من بعث عساكره لمدافعة الإفرنج فينفردون به ويقبضون عليه. وواطأهم على ذلك جماعة من أمراء صلاح الدين، وتحينوا لذلك غيبة أخيه توران شاه باليمن، وثقوا بأنفسهم وصدقوا توهماتهم ورتبوا وظائف الدولة وخططها. وتنازع في الوزارة بنو رزبك وبنو شاور. وكان علي بن نجي الواعظ ممن داخلهم في ذلك فأطلع صلاح الدين هو في الباطن إليهم. ونمي الخبر إلى صلاح الدين من عيونه ببلاد الإفرنج فوضع على الرسول عنده عيوناً جاؤه بجلية خبره،

فقبض حينئذ عليهم. وقيل إن علي بن نجي أنمى خبرهم إلى القاضي فأوصله إلى صلاح الدين. ولما قبض عليهم صلاح الدين أمر بصلبهم، ومر عمارة ببيت القاضي وطلب لقاءه فلم يسعفه، وأنشد البيت المشهور:

عبد الرحيم قد احتجب أن الخلاص هو العجب

ثم صلبوا جميعاً، ونودي في شيعة العلويين بالخروج من ديار مصر إلى الصعيد، واحتيط على سلالة العاضد بالقصر، وجاء الإفرنج بعد ذلك من صقلية إلى الاسكندرية كما يأتي خبره إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

وصول الإفرنج من صقلية إلى الاسكندرية

لما وصلت رسل هؤلاء الشيعة إلى الإفرنج بصقلية تجهزوا، وبعثوا مراكبهم مائتي أسطول للمقاتلة فيها: خمسون ألف رجل، وألفان وخمسمائة فارس، وثلاثون مركبا للخيول، وستة مراكب لآلة الحرب، وأربعون للأزواد. وتقدم عليهم ابن عم الملك صاحب صقلية، ووصلوا إلى ساحل الاسكندرية سنة سبعين. وركب أهل البلد الأسوار، وقاتلهم الإفرنج، ونصبوا الآلات عليها. وطار الخبر إلى صلاح الدين بمصر، ووصلت الأمراء إلى الاسكندرية من كل جانب من نواحيها. وخرجوا في اليوم الثالث فقاتلوا الإفرنج فظفروا عليهم. ثم نجاءهم البشير آخر النهار بمجيء صلاح الدين فاهتاجوا للحرب وخرجوا عند اختلاط الظلام فكبسوا الإفرنج في خيامهم بالسواحل وتبادروا إلى ركوب البحر فتقسموا بين القتل والغرق ولم ينج إلا القليل. وإعتصم منهم نحو من ثلثمائة برأس رابية هنالك إلى أن أصبحوا فقتل بعضهم وأسر الباقون، وأقلعوا بأساطيلهم راجعين، والله تعالى أعلم.

واقعة كنز الدولة بالصعيد

كان أمير العرب بنواحي أسوان يلقب كنز الدولة، وكان شيعة للعلوية بمصر، وطالت أيامه واشتهر. ولما ملك صلاح الدين قسم الصعيد اقطاعا بين أمرائه. وكان أخو أبي الهيجاء السمين من أمرائه، واقطاعه في نواحيهم فعصى كنز الدولة سنة سبعين، واجتمع إليه العرب والسودان. وهجم على أخي أبي الهيجاء السمين في إقطاعه فقتله. وكان أبو الهيجاء من أكبر الأمراء فبعثه صلاح الدين لقتال الكنز، وبعث معه جماعة من الأمراء، والتف له الجند فساروا إلى أسوان، ومروا بالصعيد فحاصروا بها جماعة وظفروا بهم فاستلحموهم. ثم ساروا إلى الكنز فقاتلوه وهزموه، وقتل واستلحم جميع أصحابه، وأمنت بلاد أسوان والصعيد، والله تعالى ولي التوفيق.

استيلاء صلاح الدين على قواعد الشام بعد وفاة العادل نور الدين

كان صلاح الدين كما قدمناه قائما في مصر بطاعة العادل نور الدين محمود بن زنكي. ولما توفي سنة تسع وستين، ونصب ابنه الصالح إسماعيل في كفالة شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم، وبعث إليه صلاح الدين بطاعته، ونقم عليهم انهم لم يردوا الأمر إليه. وسار غازي صاحب الموصل بن قطب الدين مودود بن زنكي إلى بلاد نور الدين التي بالجزيرة وهي: نصيبين والخابور وحران والرها والرقة فملكها. ونقم عليه صلاح الدين أنهم لم يخبروه حتى يدافعه عن بلادهم. وكان الخادم سعد الدين كمستكين الذي ولاه نور الدين قلعة الموصل، وأمر سيف الدين غازي بمطالعته بأموره قد لحق عند وفاة نور الدين بحلب، وأقام بها عند شمس الدين علي بن

الداية المستبد بها بعد نور الدين فبعثه ابن الداية إلى دمشق في عسكر ليجيء بالملك الصالح إلى حلب لمدافعة سيف الدين غازي فنكروه أولا وطردوه.ثم رجعوا إلى هذا الرأي، وبعثوا عنه فسار مع الملك الصالح إلى حلب ولحين دخوله قبض على ابن الداية وعلى مقدمي حلب، واستبد بكفالة الصالح، وخاف الأمراء بدمشق، وبعثوا إلى سيف الدين غازي ليملكوه فظنها مكيدة من ابن عمه. وامتنع عليهم وصالح ابن عمه على ما أخذ من البلاد فبعث أمراء دمشق إلى صلاح الدين، وتولى كبر ذلك ابن المقدم فبادر إلى الشام وملك بصرى. ثم سار إلى دمشق فدخلها في منسلخ ربيع سنة سبعين وخمسمائة. ونزل دار أبيه المعروفة بالعفيفي وبعث القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري إلى ريحان الخادم بالقلعة أنه

على طاعة الملك الصالح وفي خدمته، وما جاء إلا لنصرته فسلم إليه القلعة وملكها.واستخلف على دمشق أخاه سيف الإسلام طغركين، وسار إلى حمص، وبها والٍ من قبل الأمير مسعود الزعفراني. وكانت من أعماله فقاتلها وملكها، وجمر عسكراً لقتال قلعتها. وسار إلى حماة مظهرا لطاعة الملك الصالح، وارتجاع ما أخذ من بلاده بالجزيرة. وبعث بذلك إلى صاحب قلعتها خرديك واستخلفه. وسار إلى الملك الصالح ليجمع الكلمة، ويطلق أولاد الداية. واستخلف على قلعة حماة أخاه. ولما وصل إلى حلب حبسه كمستكين الخادم، ووصل الخبر إلى أخيه بقلعة حماة فسلمها لصلاح الدين. وسار إلى حلب فحاصرها ثالث جمادى الأخيرة، واستمات أهلها في المدافعةعن الصالح. وكان بحلب سمند صاحب طرابلس من الإفرنج محبوسا منذ أسره نور الدين على حارم سنة تسع وخمسين فأطلقه كمستكين على مال وأسرى ببلده. وتوفي نور الدين أول السنة وخلف ابناً مجذوماً فكفله سمند واستولى على ملكهم. فلما حاصر صلاح الدين حلب بعث كمستكين إلى سمند يستنجده، فسار إلى حمص ونازلها فسار إليه صلاح الدين، وترك حلب.وسمع الإفرنج بمسيره فرحلوا عن حمص ووصل هو إليها عاشر رجب فحاصرقلعتها، وملكها آخر شعبان من السنة. ثم سار إلى بعلبك وبها يمن الخادم من أيام نور الدين فحاصره حتى استأمن إليه، وملكها رابع رمضان من السنة، وصار بيده من الشام: دمشق وحماة وبعلبك. ولما استولى صلاح الدين على هذه البلاد من أعمال الملك الصالح، كتب الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فأنجده بعساكره مع أخيه عز الدين مسعود،

وصاحب جيشه عز الدين زلقندار. وسارت معهم عساكر حلب، وساروا جميعا لمحاربة صلاح الدين.وبعث صلاح الدين إلى سيف الدين غازي أن يسلم لهم حمص وحماة، ويبقى بدمشق نائبا عن الصالح فأبى إلا رد جميعها، فسار صلاح الدين إلى العساكر ولقيهم آخر رمضان بنواحي حماة فهزمهم وغنم ما معهم. واتبعهم إلى حلب وحاصرها، ورحل عن حلب لعشرين من شوال. وعاد إلى حماة، وكان فخر الدين مسعود بن الزعفراني من الأمراء النورية، وكانت ماردين من أعماله مع حمص وحماة وسلمية وتل خالد والرها. فلما ملك أقطاعه هذه اتصل به فلم ير نفسه عنده كما ظن ففارقه. فلما عاد صلاح الدين من حصار حلب إلى حماة سار إلى بعلبك، واستأمن إليه وإليها فملكها، وعاد إلى حماة فأقطعها خاله شهاب الدين محمود، وأقطع حمص

ناصر الدولة بن شيركوه، وأقطع بعلبك شمس الدين بن المقدم ودمشق إلى عماد، والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه

.

واقعة صلاح الدين مع الملك الصالح وصاحب الموصل وما ملك من الشام بعد انهزامهما

ثم سار سيف الدين غازي صاحب الموصل في سنة إحدى وسبعين بعد انهزام أخيه وعساكره، واستقدم صاحب كيفا وصاحب ماردين، وسار في ستة آلاف فارس وانتهى إلى نصيبين في ربيع من السنة فشتى بها حتى ضجرت العساكر من طول المقام. وسار إلى حلب فخرجت إليه عساكر الملك الصالح مع كمستكين الخادم، وسار صلاح الدين من دمشق للقائهم فلقيهم قبل السلطان فهزمهم واتبعهم إلى حلب. وعبر سيف الدين الفرات منهزما إلى الموصل، وترك أخاه عز الدين بحلب. واستولى صلاح الدين على مخلفهم، وسار إلى مراغة فملكها وولي عليها. ثم إلى منبج وبها قطب الدين نيال بن حسان المنبجي وكان حنقا عليه لقبح آثاره في عداوته فلحق بالموصل، وولاه غازي مدينة الرقة.ثم سار صلاح الدين إلى قلعة إعزاز فحاصرها أوائل ذي القعدة من السنة أربعين يوماً وشد حصارها فاستأمنوا إليه فملكها ثاني الأضحى من السنة. وثب عليه في بعض أيام حصارها باطني من الفداوية فضربه، وكان مسلحا فأمسك يد الفداوي حتى قتل رقتل جماعة كانوا معه لذلك ورحل صلاح الدين بعد الاستيلاء على قلعة إعزاز إلى حلب فحاصرها وبها الملك الصالح.

واعصوصب عليه أهل البلد واستماتوا في المدافعة عنه. ثم ترددت الرسل في الصلح بينهما وبين صاحب الموصل وكيفا وصاحب ماردين فانعقد بينهم في محرم سنة اثنتين وتسعين، وعاد صلاح الدين إلى دمشق بعد أن رد قلعة إعزاز إلى الملك الصالح بوسيلة أخته الصغيرة، خرجت إلى صلاح الدين ثائرة فاستوهبته قلعة إعزاز فوهبها لها، والله تعالى أعلم.

مسير صلاح الدين إلى بلاد الإسماعيلية

ولما رحل صلاح الدين عن حلب، وقد وقع من الاسماعيلية على حصن إعزاز ما

وقع، قصد بلادهم في محرم سنة إثنتين وتسعين ونهبها وخربها، وحاصر قلعة مصياف، ونصب عليها المجانيق. وبعث سنان مقدم الإسماعيلية بالشام إلى شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين بحماة يسأله الشفاعة فيهم، ويتوعده بالقتل فشفع فيهم وأرحل العساكر عنهم. وقدم عليه أخوه توران شاه من اليمن بعد فتحه وإظهار دعوتهم فيه، وولى على مدنه وامصاره فاستخلفه صلاح الدين على دمشق، وسار إلى مصر لطول عهده بها أبو الحسن بن سنان بن سقمان بن محمد. ولما وصل

إليها أمر بإدارة سور على مصر القاهرة والقلعة التي بالجبل دورة تسعة وعشرون ألف ذراع بالهاشمي. واتصل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين، وكان متولي النظر فيه مولاه قراقوش، والله تعالى ولي التوفيق بمنه.

غزوات بين المسلمين والافرنج

كان شمس الدين محمد بن المقدم صاحب بعلبك، وأغار جمع من الإفرنج على البقاع من أعمال حلب فسار إليهم وأكمن لهم في الغياض، حتى نال منهم وفتك فيهم. وبعث إلى صلاح الدين بمائتي ألى جر منهم وقارن ذلك وصول شمس الدولة توران شاه بن أيوب من اليمن فبلغه أن جمعا من الإفرنج أغاروا على أعمال دمشق فسار إليهم ولقيهم بالمروج فلم يثبت وهزموه، وأسر سيف الدين أبو بكر بن السلار من أعيان الجند بدمشق، وتجاسر الإفرنج على تلك الولاية. ثم اعتزم صلاح الدين على غزو بلاد الإفرنج فبعثوا في الهدنة وأجابهم إليها وعقد لهم، والله تعالى ولي التوفيق.

هزيمة صلاح الدين بالرملة أمام الإفرنج

ثم سار صلاح الدين من مصر في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين إلى ساحل الشام لغزو بلاد الإفرنج، وانتهى إلى عسقلان فاكتسح أعمالها و لم يروا للافرنج خبرا فانساحوا في البلاد وانقلبوا إلى الرملة فما راعهم إلا الإفرنج مقبلين في جموعهم وأبطالهم وقد افترق أصحاب صلاح الدين في السرايا فثبت في موقفه واشتد القتال وأبلى يومئذ محمد ابن أخيه في المدافعة عنه وقتل من أصحابه جماعة وكان لتقي الدين بن شاه ابن اسمه أحمد متكامل الخلال لم يطر شاربه. فأبلى يومئذ واستشهد، وتمت الهزيمة على المسلمين. وكان بعض الإفرنج تخلصوا إلى صلاح الدين فقتل بين يديه وعاد منهزما، وأسر الفقيه عيسى الهكاري بعد أن أبلى يومئذ بلاء شديدا. وسار صلاح الدين حتى غشيه الليل. ثم دخل البرية في فلّ قليل إلى مصر، ولحقهم الجهد والعط!ش، ودخل إلى القاهرة منتصف جمادي الأخيرة. قال ابن الأثير: ورأيت كتابه إلى أخيه توران شاه بدمشق يذكر الواقعة

ذكرتك والخطي يخطر بيننا　　　وقد فتكت فينا المثقفة السمر

ومن فصوله لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الله سبحانه منه إلا لأمر يريده، وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر انتهى وأما السرايا التي دخلت بلاد الإفرنج فتقسمهم القتل والأسر وأما

الفقيه عيسى الهكاري فلما ولي منهزما، ومعه أخو الظهير ضل عن الطريق، ومعهما جماعة من أصحابهما فأسروا. وفداه صلاح الدين بعد ذلك

بستين ألف دينار، والله تعالى أعلم.

حصار الإفرنج مدينة حماة

ثم وصل في جمادي الأولى إلى ساحل الشام زعيم من طواغيت الإفرنج، وقارن وصوله هزيمة صلاح الدين. وعاد إلى دمشق يومئذ توران شاه بن أيوب في قلة من العسكر، وهو مع ذلك منهمك في ملذاته فسار ذلك الزعيم بعد أن جمع فرنج الشام، وبذل لهم العطاء فحاصر مدينة حماة، وبها شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين مريضاً. وشد حصارها وقتالها حتى أشرف على أخذها وهجموا يوماً على البلد وملكوا ناحية منه فدافعهم المسلمون وأخرجوهم، ومنعوا حماة منهم فأفرجوا عنها بعد أربعة أيام، وساروا إلى حارم فحاصروها. ولما رحلوا عن حماة مات شهاب الدين الحارمي، ولم يزل الإفرنج على حارم يحاصرونها،

وأطمعهم فيها ما كان من نكبة الصالح صاحب حلب لكمستكين الخادم كافل دولته. ثم صانعهم بالمال فرحلوا عنها. ثم عاد الإفرنج إلى مدينة حماة في ربيع سنة أربع وسبعين فعاثوا في نواحيها واكتسحوا أعمالها، وخرج العسكر حامية البلد إليهم فهزموهم، واستردوا ما أخذوا من السواد، وبعثوا بالرؤس والأسرى إلى صلاح الدين وهو بظاهر حمص منقلبا من الشام، فأمر بقتل الأسرى، والله تعالى ولي التوفيق.

انتقاض ابن المقد م ببعلبك وفتحها

كان صلاح الدين لما ملك بعلبك استخلف فيها شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم جزاء بما فعله في تسليم دمشق، وكان شمس الدولة محمد أخو صلاح الدين ناشئا في ظل أخيه وكفالته فكان يميل إليه، وطلب منه أقطاع بعلبك فأمر ابن المقدم بتمكينه منها فأبى. وذكره عهده في أمر دمشق فسار ابن المقدم إلى بعلبك وامتنع فيها، ونازلته العساكر فامتنع، وطاولوه حتى بعث إلى صلاح الدين يطلب العوض فعوضه عنها. وسار أخوه شمس الدين إليها فملكها، والله تعالى ولي التوفيق.

******ملحوظة ******

هذا النص موجود فى نسخة

أخرى صفحة 250 ج 5

تعليق على بعض الأخبار المهمة

ذكر وصول الفرنج من الغرب في البحر إلى عكا

وفي هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر إلى الفرنج الذين على عكا وكان

أول من وصل منهم الملك فيليب ملك افرنسيس وهو من أشرف ملوكهم نسبا وإن كان ملكه ليس بالكثير.

وكان وصوله إليها ثاني عشر ربيع الأول ولم يكن في الكثرة التي

ظنوها وإنما كان معه ست بطس كبار عظيمة فقويت به نفوس من على عكا منهم ولحوا في قتال المسلمين الذين فيها وكان صلاح الدين بشفرعم فكان يركب كل يوم وبقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد. وأرسل إلى الأمير أسامة مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من الشواني والمراكب وتشحينها بالمقاتلة وتسييرها في البحر ليمنع الفرنج من الخروج إلى عكا ففعل ذلك وسير الشواني في البحر فصادفت خمسة مراكب مملوءة رجالا من أصحاب ملك إنكلترا الفرنج وكان قد سيرهم بين يديه وتأخر هو بجزيرة قبرس ليملكها فاقتتلت شواني المسلمين مع مراكب الفرنج فاستظهر المسلمون عليهم وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال وكتب أيضاً صلاح الدين إلى من بالقرب من النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا وأما الفرنج الذين على عكا فإنهم لازموا قتال من بها ونصبوا عليها سبع منجنيقات رابع جمادى الأولى فلما رأى صلاح الدين ذلك تحول من شفرعم ونزل عليهم لئلا يتعب العسكر كل يوم في المجيء إليهم والعود عنهم فقرب منهم وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم فكانوا يشتغلون بقتالهم فيخف القتال عمن بالبلد. ثم وصل ملك إنكلترا ثالث عشر جمادى الأولى وكان قد استولى

في طريقه على جزيرة قبرس واخذها من الروم فإنه لما وصل إليها غدر بصاحبها وملكها جميعا فكان ذلك زيادة في ملكه وقوة للفرنج. فلما فرغ منها سار عنها إلى من على عكا من الفرنج فوصل إليهم في خمس وعشرين قطعة كبارا مملوءة رجالا وأموالا فعظم به شر الفرنج واشتدت نكايتهم في المسلمين وكان رجل زمانه شجاعة ومكرا وجلدا وصبرا وبلي المسلمون منه بالداهية التي لا مثل لها. ولما وردت الأخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز بسطة كبيرة مملوءة من الرجال والعدد والأقوات فتجهزت وسيرت من بيروت. وفيها سبعمائة مقاتل: فلقيها ملك إنكلترا مصادفة: فقاتلها وصبر من فيها على قتالها فلما أيسوا من الخلاص ونزل مقدم من بها إلى أسفلها وهو يعقوب الحلبي مقدم الجندارية يعرف بغلام ابن شقتين فخرقها خرقا واسعا لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر فغرق جميع ما فيها وكانت عكا محتاجة إلى رجال لما ذكرناه من سبب نقصهم ثم إن الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش فلما رأى الفرنج ان ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلا كبيرا من التراب مستطيلا وما زالوا يقربونه إلى البلد ويقاتلون من وراءه لا ينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف علوه فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه فلم يكن

للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها. فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين ة.-، سلوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يقدر لهم على نفع.

ذكر ملك الفرنج عكا:

في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة عكا وكان أول وهن دخل على من بالبلد ان الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب كان فيها ومعه عدة من الأمراء كان هو أمثلهم وأكبرهم فخرج إلى ملك افرنسيس وبذل تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيه ويمكنهم من اللحاق بسلطانهم فلم يجبه إلى ذلك فعاد علي بن أحمد إلى البلد فوهن من فيه وضعفت نفوسهم وتخاذلوا وأهمتهم أنفسهم. ثم إن أمراء ممن كان بعكا لما رأوا ما فعلوا بالمشطوب والفرنج لم يجيبوا إلى التسليم، اتخذوا الليل جملا وركبوا في شيء صغير وخرجوا سراً من أصحابهم ولحقوا بعسكر المسلمين وهم: عز الدين أرسل الأسدي وابن عز الدين جاولي وسنقر الوشاقي ومعهم غيرهم فلما أصبح الناس ورأوا ذلك ازدادوا وهنا إلى وهنهم وضعفا إلى ضعفهم وأيقنوا بالعطب. ثم إن الفرنج أرسلوا إلى صلاح الدين في معنى تسليم البلد فأجابهم إلى ذلك والشرط بينهم أن يطلق من أسراهم بعدد من في البلد ليطلقوا هم من بعكا وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت فلم يقنعوا بما بدل فأرسل إلى من بعكا من المسلمين يأمرهم أن يخرجوا من عكا يدا واحدة ويتركوا البلد بما فيه، ووعدهم أنه يتقدم إلى تلك الجهة التي يخرجون منها بعساكره ويقاتل الفرنج فيها ليلحقوا به فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح فبطل ما عزموا عليه لظهوره. فلما عجز الناس من حفظ البلد زحف إليهم الفرنج بحدهم وحديدهم فظهروا من البلد على سوره يحركون أعلامهم ليراها المسلمون وكانت هي العلامة إذا اخترمهم أمر. فلما رأى

المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعويل وحملوا على الفرنج من جميع جهاتهم طلبا منهم أن الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يحرضهم وهو في أولهم. وكان الفرنج قد خفوا عن خنادقهم ومالوا إلى جهة البلد فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين وتركوا في مقابلة من بالبلد من يقاتلهم فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لا يقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضرا خرج إلى

الفرنج وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين، وإعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور فأجابوه إلى ذلك وحلفوا له عليه، وأن يكون مدة تحصيل المال والأسرى إلى شهرين. فلما حلفوا له سلم البلد إليهم ودخلوه سلما فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم. وأظهروا انهم يفعلون ذلك ليصل إليهم ما بذل لهم، وراسلوا صلاح الدين في إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فشرع في جمع المال وكان هو الأمان له إنما يخرج ما يحصل إليه من دخل البلاد أولا بأول. فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الأمراء واستشارهم فأشاروا بأن لا يرسل شيئا حتى يعاود يستحلفهم على إطلاق أصحابه وان يضمن الداوية ذلك لأنهم أهل دين يرون الوفاء فراسلهم صلاح الدين في ذلك فقال الداوية: لا نحلف ولا نضمن لأننا نخاف غدر من عندنا. وقال ملوكهم: إذا سلمتم إلينا المال والأسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا، فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل إليهم شيئا وأعاد الرسالة إليهم وقال: نحن نسلم إليكم هذا المال والأسرى والصليب ونعطيكم رهنا بالباقي وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم فقالوا لا نحلف. إنما نرسل المائة ألف دينار التي حصلت والأسرى والصليب ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد حتى يجيء باقي المال فعلم الناس حينئذ غدرهم وإنما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والأكراد ومن لا يؤبه له ويمسكون عندهم الأمراء وأرباب الأموالى ويطلبون منهم الفداء فلم يجبهم السلطان إلى ذلك، فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا إلى ظاهر البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون إليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم وإذ أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف واستبقوا الأمراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم، ومن لا مال له. فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذي كان جمعه وسير الأسرى والصليب إلى دمشق.

ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان وتخريبها:

لما فرغ الفرنج لعنهم الله من إصلاح أمر عكا برزوا منها في الثامن والعشرين من

ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان وتخريبها رجب وساروا مستهل شعبان نحو حيفا مع شاطىء البحر لا يفارقونه فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى في عسكره بالرحيل فساروا وكان على اليزك ذلك اليوم الملك الأفضل ولد صلاح الدين ومعه سيف الدين اياز كوش وعز الدين جورديك وعدة من شجعان الأمراء

فضايقوا الفرنج في مسيرهم، وأرسلوا عليهم من السهام ما كان يحجب الشمس ووقعوا على ساقة الفرنج فقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة. وأرسل الأفضل إلى والده يستمده ويعرفه الحال، فأمر العساكر بالمسير إليه فاعتذروا بأنهم ما ركبوا بأهبة الحرب وإنما كانوا على عزم المسير لا غير. فبطل المدد وعاد ملك الانكلتار إلى ساقة الفرنج، فحماها وجمعهم وساروا حتى أتوا حيفا فتزلوا بها ونزل المسلمون بقيه ص ن قرية بالقرب منهم، واحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم واسر ذلك اليوم وعوض ما هلك من الخيل. ثم ساروا إلى قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم من قدروا عليه فيقتلونهم لأن صلاح الدين كان قد أقسم إلا يظفر بأحد منهم إلا قتلهم بمن قتلوا ممن كان بعكا فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم أشد قتال فنالوا منهم نيلا كثيرا. ونزل الفرنج بها وبات المسلمون قريباً منهم فلما نزلوا خرج من الفرنج جماعة فأبعدوا عن جماعتهم فأوقع بهم المسلمون الذين كانوا في اليزك فقتلوا منهم وأسروا منهم. ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف وكان المسلمون قد سبقوهم إليها و لم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق. فلما وصل الفرنج إليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكرة الحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا وحملت الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لا يلوي أحد على أحد. وكان كثير من الخيالة والسوقة قد ألفوا القيام وقت الحرب قريبا من المعركة فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير والتجأ المنهزمون إلى القلب وفيه صلاح الدين فلو علم الفرنج انها هزيمة لتبعتهم واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون. لكن كان بالقرب من المسلمين شعرى كثيرة الشجر فدخلوها وظنها الفرنج مكيدة فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق وقتل من الفرنج كند كبير من طواغيتهم، وقتل من المسلمين مملوك لصلاح الدين اسمه اياز الطويل وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله فلما نزل المسلمون وأعنة خيلهم بأيديهم ثم سار الفرنج إلى يافا فتزلوها و لم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها ولما كان من المسلمين بأرسوف من الهزيمة ما ذكرناه سار صلاح الدين عنهم إلى الرملة واجتمع بأثقاله بها وجمع الأمراء

واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا له: قد رأيت ما منا بالأمس، وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان، ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها فهم لا شك يقاتلونا لنتزاح عنها ويتزلون عليها فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا، ويعظم الأمر علينا لأن العدو وقد قوي بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا و لم تطل المدة حتى نستجد غيرها فلم تسمح نفسه بتخريبها وندب الناس إلى دخولها وحفظها فلم يجبه أحد إلى ذلك. وقالوا إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا فلما رأى الأمر كذلك سار إلى عسقلان وأمر بتخريبها تاسع عشر شعبان والقيت حجارتها في البحر وهلك فيها من الأموال والذخائر التي للسلطان والرعية ما لا يمكن حصره وعفى أثرها حتى لا يبقى للفرنج في قصدها مطمع. ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم و لم يسيروا إليها. وكان المركيس لعنه الله لما أخذ الفرنج عكا قد أحسن من ملك انكلتار بالغدر به فهرب من عنده إلى مدينة صور وهي له وبيده وكان رجل الفرنج رأياً وشجاعة. وكل هذه الحروب هو اثارها فلما

خربت عسقلان أرسل إلى ملك انكلتار يقول له مثلك لا ينبغي ان يكون ملكا ويتقدم على الجيوش تسمع ان صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل لما بلغك انه قد شرع في تخريبها كنت سرت إليه مجداً فرحلته وملكتها صفوا عفوا بغير قتال ولا حصار فإنه ما خربها إلا وهو عاجز عن حفظها. وحق المسيح لو انني معك كانت عسقلان اليوم بأيدينا لم يخرب منها غير برج واحد فلما خربت عسقلان رحل صلاح الدين عنها ثاني شهر رمضان ومضى إلى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لد. وفي مدة مقامه لتخريب عسقلان كانت العساكر مع الملك العادل أبي بكر بن أيوب تجاه الفرنج ثم سار صلاح الدين إلى القدس بعد تخريب الرملة فاعتبره وما فيه من سلاح وذخائر، وقرر قواعده وأسبابه وما يحتاج إليه، وعاد إلى المخيم ثامن رمضان. وفي هذه الأيام خرج ملك انكلتار من يافا ومعه نفر من الفرنج من معسكرهم فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالاً شديدا وكاد ملك انكلتار يؤسر ففد بعض أصحابه بنفسه فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل وفيها أيضاً كانت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج انتصر فيها المسلمون.

****

وقائع مع الإفرنج

وفي سنة أربع وسبعين سار ملك الإفرنج في عسكر عظيم فأغار على أعمال دمشق، واكتسحها وأثخن فيها قتلا وسبيا. وأرسل صلاح الدين فرخشاه ابن أخيه في العسكر لمدافعته فسار يطلبهم، ولقيهم على غير استعداد فقاتل أشد القتال. ونصر الله المسلمين، وقتل جماعة من زعماء الإفرنج منهم هنغري، وكان يضرب به المثل. ثم أغار البرنس صاحب أنْطاكِية واللاذقية على صرح المسلمين بشيزر، وكان صلاح الدين على بانياس لتخريب حصن الإفرنج بمخاضة الأضرار فبعث تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه، وناصر الدين محمد إلى حمص لحماية البلد من العدو، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

تخريب حصن الإفرنج:

كان الإفرنج قد اتخذوا حصناً منيعاً بقرب بانياس، عند بيت يعقوب عليه السلام، ويسمى مكانه مخاضة الأضرار فسار صلاح الدين من دمشق إلى بانياس سنة خمس وسبعين، وأقام بها، وبث فيها الغارات على بلادهم. ثم سار إلى الحصن فحاصره ليختبره، وعاد عنه إلى اجتماع العساكر وبث السرايا في بلاد الإفرنج للغارة. وجاء ملك الإفرنج للغارة على سريته، ومعه جماعة من عساكره فبعثوا إلى صلاح الدين بالخبر فوافاهم وهم يقتتلون، فهزم الإفرنج وأثخن فيهم. ونجا ملكهم في فل وأسر صاحب الرملة ونابلس منهم، وكان رديف ملكهم. وأسر أخوه صاحب جبيل وطبرية، ومقدم الفداوية، ومقدم الاساتارية وغيرهم من طواغيتهم. وفادى صاحب الرملة نفسه وهو أرتيرزان بمائة وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير من المسلمين.

وأبلى في هذا اليوم عز الدين فرخشان ابن أخي صلاح الدين بلاء حسنا. ثم عاد صلاح الدين إلى بانياس وبث السرايا في بلاد الإفرنج، وسار لحصار الحصن فقاتله قتالا شديدا. وتسنم المسلمون سوره حتى ملكوا برجا منه. وكان مدد الإفرنج بطبرية، والمسلمون يرتقبون وصولهم فأصبحوا من الغد ونقبوا السور، وأضرموا فيه

النار فسقط. وملك المسلمون الحصن عنوة آخر ربيع سنة خمس وسبعين، وأسروا كل من فيه. وأمر صلاح الدين بهدم الحصن فألحق بالأرض، وبلغ الخبر إلى الإفرنج، وهم مجتمعون بطبرية لإمداده فافترقوا وانهزم الإفرنج، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفتنة بين صلاح الدين وقليج أرسلان صاحب الروم:

كان حصن رعبان من شمالي حلب قد ملكه نور الدين العادل بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم، وهو بيد شمس الدين ابن المقدم. فلما انقطع حصن رعبان عن إيالة صلاح الدين وراء حلب، طمع قليج أرسلان في استرجاعه فبعث إليه عسكرا يحاصرونه. وبعث صلاح الدين تقي الدين ابن أخيه في عساكر لمدافعتهم فلقيهم وهزمهم، وعاد إلى عمه صلاح الدين. ولم يحضر معه تخريب حصن الأضرار. وكان نور الدين محمود بن قليج أرسلان بن داود، صاحب حصن كيفا وآمد وغيرهما من ديار بكر قد فسد ما بينه وبين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم بسبب اضراره ببنته وزواجه عليها. واعتزم قليج أرسلان على حربه وأخذ بلاده فاستنجد نور الدين بصلاح الدين، وبعث إلى قليج أرسلان يشفع في شأنه فطلب استرجاع حصونه التي أعطاها لنور الدين عند المصاهرة. ولج في ذلك صلاح الدين على قليج، وسار إلى رعبان ومرّ بحلب فتركها ذات الشمال، وسلك على تل باشر. ولما انتهى إلى رعبان جاءه نور الدين محمود وأقام عنده. وأرسل إليه قليج أرسلان يصف فعل نور الدين وإضراره ببنته. فلما أدّى الرسول رسالته امتعض صلاح الدين، وتوعدهم بالمسير إلى بلده فتركه الرسول حتى سكن. وعدا عليه فطلب الخلوة وتلطف له في فسخ ما هو فيه من ترك الغزو ونفقة الأموال في هذا الغرض الحقير، وأن بنت قليج أرسلان يجب على مثلك من الملوك الامتعاض لها، ولا تترك المضارة من دونها فعلم صلاح الدين الحق فيما قاله. وقال للرسول إنّ نور الدين استند إلى فعلك فاصلح الأمر بينهما، وأنا معين على ما تحبونه جميعا ففعل الرسول ذلك وأصلح بينهما. وعاد صلاح الدين إلى العام، ونور الدين محمود إلى ديار بكر، وطلق ضرة بنت قليج أرسلان بالأجل الذي أجله للرسول، والله تعالى أعلم.

مسير صلاح الدين إلى بلاد ابن اليون:

كان قليج بن اليون من ملوك الأرض صاحب الدروب المجاورة لحلب، وكان نور الدين محمود قد استخدمه وأقطع له في الشام. وكان يعسكره معه، وكان جريئاً على صاحب القسطنطينية. وملك وادقة والمصيصة وطرطوس من يد الروم، وكانت بينهما من أجل ذلك حروب. ولما توفي نور الدين وانتقضت دولته أقام ابن اليون في بلاده، وكان التركمان يحتاجون إلى رعي مواشيهم بأرضه على حصانتها وصعوبة مضايقها. وكان يأذن لهم فيدخلونها. وغدر بهم في بعض السنين

واستباحهم واستاق مواشيهم. وبلغ الخبرإلى صلاح الدين منصرفه من رعبان فقصد بلده، ونزل النهر الأسود. وبث الغارات في بلادهم واكتسحها، وكان لابن إليون حصن، وفيه ذخيرته فخشي عليه فقصد تخريبه. وسابقه إليه صلاح الدين فغنم ما فيه، وبعث إليه ابن اليون برد ما أخذ من التركمان وإطلاق أسراهم على

الصلح والرجوع عنه. فأجابه إلى ذلك وعاد عنه في منتصف سنة خمس وسبعين، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

غزوة صلاح الدين إلى الكرك:

كان البرنس أرناط صاحب الكرك من مردة الإفرنج وشياطينهم، وهو الذي اختط مدينة الكرك وقلعتها، ولم لكن هنالك. واعتزم على غزو المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام، وسمع عز الدين فرخشاه بذلك وهو بدمشق فجمع وسار إلى الكرك سنة سبع وسبعين، واكتسح نواحيه، وأقام ليشغله عن ذلك الغرض حتى انقطع أمله، وعاد إلى الكرك. فعاد فرخشاه إلى دمشق ؛ والله تعالى أعلم بغيبه.

مسير سيف الإسلام طغركين في أيوب إلى اليمن والياً عليها:

قد كان تقدم لنا فتح شمس الدولة توران شاه لليمن، واستيلاؤه عليه سنة ثمان وستين. وأنه ولي على زبيد مبارك بن كامل بن منقذ من أمراء شيزر، وعلى عدن عز الدولة عثمان الزنجبيلي، واختط مدينة تعز في بلاد اليمن واتخذها كرسيا لملكه. ثم عاد إلى أخيه سنة اثنتين وسبعين وأدركه منصرفاً من حصار حلب فولاه على دمشق، وسار إلى مصر. ثم ولأه أخوه صلاح الدين بعد ذلك مدينة الاسكندرية، وأقطعه إياها مضافة إلى أعمال اليمن. وكانت الاموال تحمل إليه من زبيد وعدن وسائر ولايات اليمن. ومع ذلك فكان عليه دين قريب من مائتي ألف دينار مصرية، وتوفي سنة ست وسبعين فقضاها عنه صلاح الدين. ولما بلغه خبر وفاته سار إلى مصر، واستخلف على دمشق عز الدين فرخشاه ابن شاهنشاه. وكان سيف الدين مبارك بن كامل بن منقذ الكناني نائبه بزبيد قد تغلب في ولايته وتحكم في الأموال فترع إلى وطنه، واستأذن شمس الدولة قبل موته فأذن له في المجيء.واستأذن أخاه عطاف بن زبيد وأقام مع شمس الدولة حتى اذا مات بقي في خدمة صلاح الدين. وكان محشدا فسعى فيه عنده أنه احتجز

أموال اليمن، ولم يعرض له فتحيل أعداؤه عليه. وكان يترل بالعدوية قرب مصر، فصنع في بعض الأيام صنيعاً دعي إليه أعيان الدولة، واختلف مواليه وخدامه إلى مصر في شراء حاجتهم فتحيلوا لصلاح الدين أنه هارب إلى اليمن. فتمت حيلتهم فقبض عليه. ثم ضاق عليه الحال وصابره على ثمانين ألف دينار مصرية سوى ما أعطى لأهل الدولة فأطلقه، وأعاده إلى مترلته فلما بلغ شمس الدين إلى اليمن اختلف نوابه بها: حطان بن منقذ، وعثمان بن الزنجبيلي. وخشي صلاح الدين أن تخرج اليمن عن طاعته فجهز جماعة من أمرائه إلى اليمن مع صارم الدين قطلغ أبيه والي مصر من أمرائه. فساروا لذلك سنة سبع وسبعين، واستولى قطلغ أبيه على زبيد من حطان بن منقذ. ثم مات قريبا فعاد حطان إلى زبيد وأطاعه الناس، وقوي على عثمان الزنجبيلي فكتب عثمان إلى صلاح الدين أن يبعث قرابته فجهز صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغركين، فسار إلى اليمن وخرج حطان بن منقذ من زبيد وتحصن في بعض القلاع ونزل سيف الإسلام زبيد، وبعث إلى حطان بالأمان فترل إليه وأولاه الإحسان. ثم طلق اللحاق بالشام فمنعه. ثم ألح عليه فأذن له حتى إذا خرج واحتمل رواحله، وجاء ليودّعه قبض عليه واستولى على ما معه. ثم حبسه في بعض القلاع فكان آخر العهد به. ويقال

كان فيما أخذه سبعون حملا من الذهب. ولما سمع عثمان الزنجبيلي خبر حطان خشي على نفسه، وحمل أمواله في البحر ولحق بالشام. وبقيت مراكبه مراكب لسيف الإسلام فاستولى عليها. ولم يخلص إلا بما كان معه في طريقه، وصفا اليمن لسيف الإسلام، والله تعالى أعلم.

دخول قلعة البيرة في ايالة صلاح الدين وغزوة الإفرنج وفتح بعض حصونهم مثل الشقيق و ا لغرر و بيروت:

كانت قلعة البيرة من قلاع العراق لشهاب الدين بن أرتق، وهو ابن عم قطب الدين أبي الغازي بن أرتق صاحب ماردين، وكان في طاعة نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام. ثم مات وملك البيرة بعده إبنه. ومات نور الدين فصار إلى طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم وقع بين صاحب ماردين وصاحب الموصل من المخالصة والاتفاق ما وتع، وطلب من عز الدين أن يأذن له في أخذ البيرة فأذن له، فسار قطب الدين في عسكره إلى قلعة شميشاط وأقام بها وبعث العسكر إلى البيرة وحاصرها. وبعث صاحبها يستنجد صلاح الدين ويكون له كما كان أبوه لنور الدين فشفع صلاح الدين إلى قطب الدين صاحب ماردين و لم يشفعه،

وشغل عنه بأمر الإفرنج.ورحلت عساكر قطب الدين عنها فرجع صاحبها إلى صلاح الدين وأعطاه طاعته،وعاد في ايالته. ثم خرج صلاح الدين من مصر في محرّم سنة ثمان وسبعين قاصدا الشام ومرّ بايله وجمع الإفرنج لاعتراضه فبعث أثقاله مع أخيه تاج الملوك إلى دمشق، ومال عن بلادهم فاكتسح نواحي الكرك والشويك، وعاد إلى دمشق منتصف صفر. وكان الإفرنج لما اجتمعوا على الكرك دخلوا بلادهم من نواحي الشام فخالفهم عز الدين فرخشاه نائب دمشق إليها، واكتسح نواحيها وخرب قراها وأثخن فيهم قتلاً وسبيا وفتح الشقيف من حصونهم عنوة وكان له نكاية في المسلمين فبعث إلى صلاح الدين بفتحه فسرّ بذلك ثم أراح صلاح بدمشق أياماً وسار في ربيع الأول من السنة، وقصد طبرية وخيم بالأردن. واجتمعت الإفرنج على طبرية فسير صلاح الدين فرخشاه ابن أخيه إلى بيسان فملكها عنوة واستباحها. وأغار على الغور فأثخن فيها قتلا وسبياً. وسار الإفرنج من طبرية إلى جبل كوكب، وتقدّم صلاح الدين إليهم بعساكره فتحصنوا بالجبل فأمر ابني أخيه تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاه ابني شاهنشاه فقاتلوا الإفرنج قتالاً شديداً. ثم تحاجزوا وعاد صلاح الدين إلى دمشق. ثم سار إلى بيروت فاكتسح نواحيها، وكان قد استدعى الاسطول من مصر لحصارها فوافاه بها وحاصرها أياماً. ثم بلغه أن البحر قد قذف بدمياط مركبا للافرنج فيه جماعة منهم جاؤا لزيارة القدس فألقتهم الريح بدمياط، وأسر منهم ألف وستمائة أسير، ثم ارتحل عن بيروت إلى الجزيرة كما نذكره إن شاء الله تعالى.

مسير صلاح الدين إلى الجزيرة واستيلاؤه على حران والرها والرقة والخابور ونصيبين وسنجار وحصار ا لموصل:

كان مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كجك الذي كان أبوه نائب القلعة بالموصل مستوليا في دولة مودود وبنيه، وانتقل آخراً إلى إربل ومات بها. وأقطعه عز الدين صاحب الموصل إبنه مظفر الدين، وكان هواه مع

صلاح الدين يؤمله ملكه بلاد الجزيرة فراسله وهو محاصر لبيروت، وأطمعه في البلاد، واستحثه للوصول فسار صلاح الدين عن بيروت موريا بحلب، وقصد الفرات، ولقيه مظفر الدين وساروا إلى البيرة، وقد دخل طاعة عز الدين. وكان عز الدين صاحب الموصل ومجاهد الدين لما بلغهما مسير صلاح الدين إلى الشام ظنوا أنه يريد حلب فساروا لمدافعته. فلما عبر الفرات عادوا إلى الموصل، وبعثوا حامية إلى الرها. وكاتب صلاح الدين ملوك الأطراف بديار بكر وغيرها بالوعد والمغاربة ووعد نور الدين محمودا صاحب كيفا أنه يملكه آمد.

ووصل إليه فساروا إلى مدينة الرها فحاصروها، وبها يومئذ الأمير فخر الدين بن مسعود الزعفراني. واشتدّ عليه القتال فأستأمن إلى صلاح الدين وملكه المدينة، وحاصر معه القلعة حتى سلمها النائب الذي بها على مال شرطه فأضافها صلاح الدين إلى مظفر الدين مع حران وساروا إلى الرقة، وبها نائبها قطب الدين نيال بن حسان المنبجي ففارقها إلى الموصل، وملكها صلاح الدين. ثم سار إلى قرقيسيا وماسكين وعربان، وهي بلاد الخابور فاستولى على جميعها. وسار إلى نصيبين فملك المدينة لوقتها، وحاصر القلعة أياما ثم ملكها وأقطعها للأمير أبي الهيجاء السمين. ثم رحل عنها ونور الدين صاحب كيفا معه معتزما على قصد الموصل. وجاءه الخبر بأن الإفرنج أغاروا على نواحي دمشق، واكتسحوا قراها وأرادوا تخريب جامع داريا فتوعدهم نائب دمشق بتخريب بيعهم وكنائسهم فتركوه فلم يثن ذلك من عزمه وقصد الموصل، وقد جمع صاحبها العساكر و استعدّ للحصار ، وخلى نائبه في الاستعداد.وبعث إلى سنجار وإربل وجزيرة ابن عمر فشحنها بالامداد من الرجال والسلاح والأموال، وأنزل صاحب الدار عساكره بقربها، وتقدّم هو ومظفر الدين وابن شيركوه فهالهم استعداد صاحب البلد، وأيقنوا بامتناعه وعذل صاحبيه هذين فالهما كانا أشارا بالبداءة بالموصل. ثم أصبح صلاح الدين من الغد في عسكره، ونزل عليه أوّل رجب على باب كندة ، وأنزل صاحب الحصن باب الجسر وأخاه تاج الملوك بالباب العمادي، وقاتلهم فلم يظفر. وخرج بعض الرجال فنالوا منه. ونصب منجنيقاً فنصبوا عليه من البلد تسعة. ثم خرجوا إليه من البلد فأخذوه بعد قتال كثير. وخشي صلاح الدين من البيات فتأخر لأنه رآهم في بعض الليالي يخرجون من باب الجسر بالمشاعل ويرجعون.وكان صدر الدين شيخ الشيوخ ومشير الخادم وقد وصلا من عند الخليفة الناصر في الصلح. وتردّدت الرسل بينهم فطلب عز الدين من صلاح الدين ردّ ما أخذه من بلادهم أجاب على أن يمكنوه من حلب فامتنع، فرجع إلى ترك مظاهرة صاحبها فامتنع أيضاً. ثم وصلت أيضا رسل صاحب أذربيجان ورسل شاهرين. صاحب خلاط في الصلح فلم يتم، وسار أهل سنجار يعترضون من يقصده من عساكره وأصحابه فأفرج عن الموصل، وسار إليها، وبها شرف الدين أمير أميران هند وأخوه عز الدين صاحب الموصل في عساكر. وبعث إليه مجاهد الدين النائب بعسكر أخر مدداً وحاصرها صلاح الدين وضيق عليها، واستمال بعض أمراء الأكراد الذين بها من الزواوية فواعده من ناحيته.وطرقه صلاح الدين فملكه البرج الذي في ناحيته فاستأمن أمير أميران وخرج

عسكره معه إلى الموصل. وملك صلاح الدين سنجار، وولّى عليها سعد الدين بن معين الدين الذي كان أبوه عند كامل بن طغركين بدمشق. وصارت سنجار من سائر البلاد التي ملكها من الجزيرة. وسار صلاح الدين

إلى نصيبين فشكا إليه أهلها من أبي الهيجاء السمين فعزله عنهم، واستصحبه معه، وسار إلى حران في ذي القعدة من سنة ثمان وسبعين. وفرق عساكره ليستريحوا وأقام في خواصه وكبار أصحابه، والله أعلم.

مسير شاهرين صاحب خلاط لنجدة صاحب الموصل:

كان عز الدين قد أرسل إلى شاهرين يستنجده على صلاح الدين فبعث إليه عدة رسل شافعا في أمره فلم يشفعه، وغالطه فبعث إليه مولاه آخراً سيف الدين بكتمر، وهو على سنجار يسأله في الافراج عنها فلم يجبه إلى ذلك. وسوّفه رجاء أن يفوتها فأبلغه بكتمر الوعيد عن مولاه، وفارقه مغاضبا و لم يقبل صلته، وأغراه بصلاح الدين فسار شاهرين من مخيمه بظاهر خلاط إلى ماردين، وصاحبها يومئذ ابن أخته وابن خال عز الدين وصهره على بنته، وهو قطب الدين نجم الدين. وسار إليهم أتابك عز الدين صاحب الموصل. وكان صلاح الدين في حران منصرفه من سنجار. وفرق عساكره فلما سمع باجتماعهم استدعى تقيّ الدين ابن أخيه شاهنشاه من حماة، ورحل إلى رأس عين فافترق القوم، وعاد كل إلى بلده. وقصد صلاح الدين ماردين فأقام عليها عدة أيام ورجع، والله تعالى وليّ التوفيق بمنه وكرمه.

واقعة الإفرنج في بحر السويس:

كان البرنس أرناط صاحب الكرك قد أنشأ أسطولا مفصلاً، وحمل أجزاءه إلى صاحب ايلة وركبه على ما تقتضيه صناعة النشابة، وقذفه في السويس، وشحنه بالمقاتلة،وأقلعوا في البحر. ففرقة أقاموا على حصن أيلة يحاصرونه، وفرقة ساروا نحو عيذاب وأغاروا على سواحل الحجاز، وأخذوا ما وجدوا بها من مراكب التجار. وطرق الناس منهم بلية لم يعرفوها لأنه لم يعهد ببحر السويس افرنجيّ محارب ولا تاجر وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائبا عن أخيه صلاح الدين فعمر أسطولا وشحنه بالمقاتلة، وسار به حسام الدين لؤلؤ الحاجب قائد الأساطيل بديار مصر، فبدأ بأسطول الإفرنج الذي يحاصر ايلة فمزقهم كل ممزّق.وبعد الظفر بهم اقلع في طلب الآخرين وانتهى إلى عيذاب فلم يجدهم فرجم إلى رابغ وأدركهم بساحل الحوراء، وكانوا عازمين على طروق الحرمين واليمن والاغارة على الحاج. فلما أطلّ عليهم لؤلؤ بالأسطول أيقنوا بالتغلب وتراموا على الحوراء وأسنموا إليها، واعتصموا بشعابها. ونزل لؤلؤ من مراكبه وجمع خيل الأعراب هنالك وقاتلهم فظفر بهم، وقتل أكثرهم وأسر الباقين فأرسل بعضهم إلى منى فقتلوا بها أيام النحر وعاد بالباقين إلى مصر، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء.

وفاة فرخشاه:

ثم توفي عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه أخو صلاح الدين النائب عنه بدمشق، وكان خليفته في أهله ووثوقه به أكثر من جميع أصحابه. وخرج من دمشق غازيا الإفرنج وطرقه المرض. وعاد فتوفي في جمادى سنة ثمان وسبعين. وبلغ خبره صلاح الدين وقد عبر الفرات إلى الجزيرة والموصل، فأعاد شمس الدين محمد بن المقدم إلى دمشق وجعله نائبا فيها واستمرّ لشأنه، والله تعالى يورث الملك لمن يشاء من عباده.

استيلاء صلاح الدين على آمد وتسليمها لصاحب كيفا:

قد تقدّم لنا مسير صلاح الدين إلى ماردين وإقامته عليها أيام من نواحيها، ثم ارتحل عنها إلى آمد كما كان العهد بينه وبين نور الدين صاحب كيفا فنازلها منتصف ذي الحجة، وبها بهاء الدين بن بيسان فحاصرها، وكانت غاية في المنعة وأساء ابن بيسان التدبير وقبض يده عن العطاء، وكان أهلها قد ضجروا منه لسوء سيرته وتضييقه عليهم في مكاسبهم. وكتب إليهم صلاح الدين بالترغيب والترهيب فتخاذلوا عن ابن بيسان وتركوا القتال معه، ونقب السور من خارج بيت ابن بيسان، وأخرج نساءه مع القاضي الفاضل يستميل إليه صلاح الدين ويؤجله ثلاثة أيام للرحلة، فأجابه صلاح الدين وملك البلد في عاشوراء سنة تسع وسبعين.وبنى خيمة بظاهر البلد ينقل إليها ذخيرته فلم يلتفت الناس إليه، وتعذر عليه أمره فبعث إلى صلاح الدين يسأله الإعانة فأمر له بالدواب والرجال، فنقل في الأيام الثلاثة كثيراً من موجوده . ومنع بعد انقضاء الأجل عن نقل ما بقي. ولما ملكها صلاح الدين سلمها لنور الدين صاحب كيفا وأخبر صلاح الدين بما فيها من الذخائر لينقلها لنفسه فأبى. وقال: ما

كنت لأعطي الأصل وأبخل بالفرع، ودخل نور الدين البلد، ودعا صلاح الدين وأمراءه إلى صنيع صنعه لهم، وقدّم لهم من التحف والهدايا ما يليق بهم، وعاد صلاح الدين، والله تعالى أعلم.

استيلاء صلاح الدين على تل خالد وعنتاب:

ولما فرغ صلاح الدين من آمد سار إلى أعمال حلب فحاصر تل خالد، ونصب عليه المجانيق حتى تسلمه بالأمان في محرم سنة تسع وسبعين. ثم سار إلى عنتاب فحاصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ إسمعيل الذي كان خازن نور الدين العادل وصاحبه. وهو الذي ولاه عليها فطلب من صلاح الدين أن يقرّها بيده، ويكون في طاعته فأجابه إلى ذلك وحلف له. وسار في خدمته، وغنم المسلمون خلال ذلك مغانم: فمنها في البحر سار أسطول مصر، فلقي في البحر مركبا فيه نحو ستمائة من الإفرنج بالسلاح والأموال قاصدون الإفرنج بالشام فظفروا بهم، وغنموا ما معهم، وعادوا إلى مصر سالمين. ومنها في البرّ أغار الدارون جماعة من الإفرنج، ولحقهم المسلمون بأيلة واتبعوهم إلى العسيلة، وعطش المسلمون فأنزل الله تعالى عليهم المطر حتى رووا. وقاتلوا الإفرنج فظفروا بهم هنالك واستلحموهم، واستقاموا معهم وعادوا سالمين إلى مصر، والله أعلم.

استيلاء صلاح الدين على حلب وقلعة حارم:

كان الملك الصالح إسمعيل بن نور الدين العادل صاحب حلب، لم يبق له من الشام غيرها، وهو يدافع صلاح الدين عنها فتوفي منتصف سنة سبع وسبعين، وعهد لابن عمه عز الدين صاحب الموصل وسار عز الدين صاحب الموصل مع نائبه مجاهد الدين قايماز إليها فملكها. طلبها منه أخوه عماد الدين صاحب سنجار على أن يأخذ عنها سنجار فأجابه إلى ذلك، وأخذ عز الدين سنجار، وعاد إلى الموصل. وسار عماد الدين إلى حلب فملكها، وعظم ذلك على صلاح الدين، وخشي أن يسير منها إلى دمشق. وكان بمصر فسار إلى الشام، وسار منها إلى الجزيرة، وملك ما ملك منها وحاصر الموصل، ثم حاصر آمد وملكها. ثم سار إلى أعمال حلب

كما ذكرناه فملك تل خالد وعنتاب. ثم سار إلى حلب وحاصرها في محرّم سنة تسع وسبعين، ونزل الميدان الأخضر أياما. ثم انتقل إلى جبل جوشق وأظهر البقاء عليها وهو يغاديها القتال

ويراوحها، وطلب عماد الدين جنده في العطاء، وضايقوه في تسليم حلب لصلاح الدين. وأرسل إليه في ذلك الأمر طومان الباروقي، وكان يميل إلى صلاح الدين فشارطه على سنجار ونصيبين والرقة والخابور، ويترل له عن حلب. وتحالفوا على ذلك وخرج عنها عماد الدين ثامن عشر صفر من السنة إلى هذه البلاد. ودخل صلاح الدين حلب بعد أن شرط على عماد الدين أن يعسكر معه متى عاد. ولما خرج عماد الدين إلى صلاح الدين صنع له دعوة احتفل فيها وانصرف، وكان فيمن هلك في حصار حلب تاج الملوك نور الدين أخو صلاح الدين الأصغر، أصابته جراحة فمات منها بعد الصلح، وقبل أن يدخل صلاح الدين البلد. ولما ملك صلاح الدين حلب سار إلى قلعة حارم، وبها الأمير طرخك من موالي نور الدين العادل، وكان عليها إبنه الملك الصالح فحاصره صلاح الدين ووعده، وتردّدت الرسل بينهم وهو يمتنع، وقد أرسل إلى الإفرنج يدعوهم للانجاد، وسمع بذلك الجند الذين معه فوثبوا به وحبسوه. واستأمنوا إلى صلاح الدين فملك الحصن، وولّى عليه بعض خواصه. وقطع تل خالد الباروقي صاحب تل باشر. وأمّا قلعة إعزاز فأنّ عماد الدين اسمعيل كان خربها فأ قطعها صلاح الدين سليمان بن جسار وأقام بحلب إلى أن قضى جميع أشغالها وأقطع أعمالها، وسار إلى دمشق والله تعالى أعلم.

غزوة بيسان:

ولما فرغ صلاح الدين من أمر حلب ولّى عليها إبنه الظاهر غازي، ومعه الأمير سيف الدين تاوكج كافلا له لصغره، وهو أكبر الأمراء الأسدية. وسار إلى دمشق فتجهز للغزو، وجمع عساكر الشام والجزيرة وديار بكر، وقصد بلاد الإفرنج فعبر الأردن منتصف،سبع سبعين وأجفل أهل تلك الأعمال أمامه فقصد بيسان وخربها وأحرقها، وأغار على نواحيها واجتمع الإفرنج له. فلما رأوه خاموا عن لقائه واستندوا إلى جبل وخندقوا عليهم، وأقام يحاصرهم خمسة أيام ويستدرجهم للترول فلم يفعلوا فرجع المسلمون عنهم، وأغاروا على تلك النواحي وامتلأت أيديهم بالغنائم وعادوا إلى بلادهم، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

غزو الكرك وولاية العادل على حلب:

ولما عاد صلاح الدين من غزوة بيسان تجهز لغزو الكرك وسار في العساكر، واستدعى أخاه العادل أبا بكر بن أيوب من مصر وهو نائبها ليلحق به على الكرك، وكان قد سأله في ولاية حلب وقلعتها فأجابه إلى ذلك، وأمره أن يجيء بأهله وماله فوافاه على الكرك، وحاصروه أياما وملكوا أرباضه، ونصبوا عليها المجانيق، ولم يكن بالغ في الاستعداد لحصاره لظنه أنّ الإفرنج يدافعون عنه، فأفرج عنه منتصف شعبان وبعث تقيّ الدين ابن أخيه شاه على نيابة مصر مكان أخيه العادل واستصحب العادل معه إلى دمشق فولاه مدينة حلب ومدينة منبج وما إليها، وبعثه بذلك في شهر رمضان من السنة. واستدعى ولده الظاهر غازي من حلب إلى دمشق.ثم سار في ربيع الآخر من سنة ثمانين لحصار الكرك بعد أن جمع العساكر، واستدعى نور الدين صاحب كيفا

وعساكر مصر واستعد لحصاره، ونصب المجانيق على ربضه فملكه المسلمون، وبقي الحصن وراء خندق بينه وبين الربض عمقه ستون ذراعاً. وراموا طمه فنضحوهم بالسهام، ورموهم بالحجارة فأمر برفع السقف ليمشي المقاتلة تحتها إلى الخندق. وأرسل أهل الحصن إلى ملكهم يستمدّونه ويخبرونه بما نزل بهم فاجتمع الإفرنج وأوعبوا وساروا إليهم فرحل صلاح الدين للقائهم، حتى انتهى إلى حزونة الأرض فأقام ينتظر خروجهم إلى البسيط فخاموا عن ذلك فتأخر عنهم فراسخ، ومرّوا إلى الكرك. وعلم صلاح الدين أنّ الكرك قد امتنع بهؤلاء فتركه وسار إلى نابلس فخربها وحرقها وسار إلى سنطية وبها مشهد زكرياء عليه السلام فاستنقذ من وجد بها من أسارى المسلمين، ورحل إلى جينين فنهبها وخربها. وسار إلى دمشق بعد أن بث السرايا في كل ناحية، ونهب كل ما مرّ به، وامتلأت الأيدي من الغنائم وعاد إلى دمشق مظفراً والله تعالى أعلم.

حصار صلاح الدين الموصل:

ثم سار صلاح الدين من دمشق إلى الجزيرة في ذي القعدة من سنة ثمان، وعبر الفرات. وكان مظفر الدين كوكبري علي كجك يستحثه للمسير إلى الموصل في كل وقت، وربما وعده

بخمسين ألف دينار إذا وصل. فلما وصل إلى حران لم يف له فقبض عليه.، ثم خشي معيرة أهل الجزيرة فأطلقه وأعاد عليهم حران والرها. وسار في ربيع الأول، ولقيه نور الدين صاحب كيفا، ومعز الدين سنجار شاه صاحب جزيرة ابن عمر، وقد انحرف عن عمه عز الدين صاحب الموصل بعد نكبة مجاهد الدين نائبه. وساروا كلهم مع صلاح الدين إلى الموصل، وانتهوا إلى مدينة بلد فلقيه هنالك أمّ عز الدين، وابنة عمه نور الدين وجماعة من أهل بيته يسألونه الصلح ظنا بأنه لا يردهنّ، وسيما بنت نور الدين.واستشار صلاح الدين أصحابه فأشار الفقيه عيسى وعلي بن أحمد المشطوب بردّهنّ وساروا إلى الموصل وقاتلوها، واستمات أهلها وامتعضوا لردّ النساء فامتنعت عليهم وعاد على أصحابه باللوم في إشارتهم. وجاء زين الدين يوسف صاحب إربل وأخوه مظفر الدين كوكبري فأنزلهما بالجانب الشرقي. وبعث علي بن أحمد المشطوب الهكاري إلى قلعة الجزيرة ليحاصرها فاجتمع عليه الأكراد الهكارية إلى أن عاد صلاح الدين عن الموصل، وبلغ عز الدين أنّ نائبه بالقلعة زلقندار يكاتب صلاح الدين فمنعه منها، وانحرف عنه إلى الاقتداء برأي مجاهد الدين وتصدر عنه.ثم بلغه خبر وفاة شاهرين صاحب خلاط فطمع صلاح الدين في ملكها، وأنه يستعين بها على أموره. ثم جاءته كتب أهلها يستدعونه فسار عن الموصل إليها، وكان أهل خلاط إنما كاتبوه مكرا لأنّ شمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب أذربيجان وهمذان قصده تملكهم، بعد أن كان زوّج ابنته من شاهرين على كبره، وجعل ذلك ذريعة إلى ملك خلاط. فلما سار إليهم كاتبوا صلاح الدين ودافعوا كلا منهما بالاخر فسار صلاح الدين وفي مقدمته ناصر الدين محمد بن شيركوه، ومظفر الدين صاحب إربل وغيرهما. وتقدّموا إلى خلاط وتقدّم صاحب أذربيجان فنزل قريباً من خلاط. وترددّت على أهل خلاط بينه وبين البهلوان، ثم خطبوا للبهلوان، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

استيلاء صلاح الدين على ميافارقين:

ولما خطب أهل خلاط للبهلوان، وصلاح الدين على ميافارقين، وكانت لقطب الدين صاحب ماردين فتوفي، وملك إبنه طفلا صغيرا بعده، وردّ أمرها إلى شاهرين صاحب خلاط. وأنزل بها عساكره فطمع فيها صلاح الدين بعد وفاة شاهرين، وحاصرها من أوّل جمادي سنة إحدى

وثمانين، وعلى أجنادها الأمير أسد الدين برنيقش فأحسن الدفاع، وكان بالبلد زوجة قطب الدين المتوفى ومعها بناتها منه، وهي أخت نور الدين صاحب كيفا فراسلها صلاح الدين بأنّ برنيقش قد مال إليها في تسليم البلد، ونحن ندعي حق أخيك نور الدين فأزوّج بناتك من أبنائي، وتكون البلد لنا. ووضع على برنيقش من أخبره بأن الخاتون مالت إلى صلاح الدين، وأنّ أهل خلاط كاتبوه.وكان خبر أهل خلاط صحيحا فسقط في يده، وبعث في التسليم على شروط اشترطها من إقطاع ومال. وسلم البلد فملكها صلاح الدين وعقد النكاح لبعض ولده على بعض بنات خاتون. وأنزلها وبناتها بقلعة هقناج وعاد إلى الموصل، ومرّ بنصيبين، وانتهى إلى كفر أرمان، وأعتزم على أن يشتوا به، ويقطع جميع ضياع الموصل ويجبي أعمالها، ويكتسح غلاتها. وجنح مجاهد الدين إلى مصالحته وتردّدت الرسل في ذلك على أنّ يسلم إليه عز الدين شهرزور وأعمالها وولاية الغرابلي، وما وراء الزاب من الأعمال.ثم طرقه المرض فعاد إلى حران وأدركه الرسل بالإجابة إلى ما طلب فانعقد هنالك، وتحالفوا وتسلم البلاد وطال مرضه بحران، وكان عنده أخوه العادل، وبيده حلب، وبها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين. واشتدّ به المرض فقسم البلاد بين أولاده، وأوصى أخاه العادل على الجميع. وعاد إلى دمشق في محرّم سنة إثنتين وثمانين، وكان عنده بحران ناصر الدين محمد بن عمه شيركوه، ومن اقطاعه حمص والرحبة فعاد قبله إلى حمص، ومرّ بحلب، وصانع جماعة من أمرائها على أنّ يقوموا بدعوته أن حدث بصلاح الدين أمر. وبلغ إلى حمص فبعث إلى أهل دمشق بمثل ذلك، وأفاق صلاح الدين من مرضه، ومات ناصر الدين ليلة الأضحى، ويقال دسّ عليه من سمه وورث أعماله إبنه شيركوه، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، والله تعالى أعلم.

قسمة صلاح الدين الأعمال بين ولده وأخيه:

كان إبنه العزيز عثمان بحلب في كفالة أخيه العادل، وابنه الأكبر الأفضل علي بمصر في كفالة تقيّ الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه، بعثه إليها عندما استدعى العادل منها كما مرّ. فلما مرض بحران أسف على كونه لم يول أحدا من ولده استقلالا، وسعى إليه بذلك بعض بطانته. فبعث إبنه عثمان العزيز إلى مصر في كفالة أخيه العادل كما كان بحلب. ثم اقطع العادل حران والرها وميافارقين من بلاد الجزيرة، وترك عثمان إبنه بمصر. ثم بعث عن إبنه الأفضل وتقيّ الدين ابن أخيه فامتنع تقيّ الدين من الحضور، واعتزم على المسير إلى المغرب واللحاق بمولاه قراقوش في ولايته التي حصلت له بطرابلس، والجريد من افريقية فراسله صلاح الدين ولاطفه. ولما وصل

اقطعه حماة ومنبج والمعرة وكفرطاب وجبل جوز وسائر أعمالها. وقيل إن تقيّ الدين لما أرجف بمرض صلاح الدين وموته تحرّك في طلب الأمر لنفسه، وبلغ ذلك صلاح الدين فأرسل الفقيه عيسى الهكاري، وكان مطاعا فيهم وأمره بإخراج تقيّ الدين من مصر والمقام بها فسار ودخلها على حين غفلة. وأمر تقيّ الدين بالخروج فأقام خارج البلد، وتجهز للمغرب فراسله صلاح الدين إلى آخر الخبر، والله تعالى أعلم.

اتفاق القمص صاب طرابلس مع صلاح الدين ومنابذة البرنس صاحب الكرك له وحصاره إياه والاغارة على عكا:

كان القمص صاحب طرابلس، وهو ريمند بن ريمند بن صنجيل تزوّج بالقومصة صاحبة طبرية، وانتقل إليها فأقام عندها، ومات ملك الإفرنج بالشام وكان مجذوما كما مرّ، وأوصى بالملك لابن أخيه صغيرا فكفله هذا القمص، وقام بتدبير ملكه لعظمه فبهم، وطمع أن تكون كفالته ذريعة إلى الملك. ثم مات الصغير فانتقل الملك إلى أبيه، ويئس القمص عندها مما كان يحدّث به نفسه. ثم أن الملكة تزوجت ابن غتم من الإفرنج القادمين من المغرب، وتوّجته وأحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاستبارية والداوية واليارونية، وأشهدتهم خروجها له عن الملك. ثم طولب القمص بالجباية أيام كفالته الصبيّ فأنف وغضب، وجاهر بالشقاق لهم. وراسل صلاح الدين وسار إلى ولايته وخلف له على مصره من أهل ملته. وأطلق له صلاح الدين جماعة من زعماء النصارى كانوا أسارى عنده فازداد غبطة بمظاهرته. وكان ذلك ذريعة لفتح بلادهم وارتجاع القدس منهم. وبث صلاح الدين السرايا من ناحية طبرية في سائر بلاد الإفرنج فاكتسحوها وعادوا غانمين، وذلك كله سنة إثنتين وثمانين.وكان البرنس أرناط صاحب الكرك من أعظم الإفرنج مكرا وأشدّهم ضررا. وكان صلا الدين قد سلط الغارة والحصار على بلده حتى سأل في الصلح فصالحه فصلحت السابلة بين الآمّين.ثم مرّت في هذه السنة قافلة كثيرة التجار والجند فغدر بهم وأسر وأخذ ما معهم، وبعث إليه صلاح الدين فأصر على غدرته فنذر أنه يقتله إن ظفر به، واستنفر الناس للجهاد من سائر الأعمال من الموصل والجزيرة وإربل ومصر والشام. وخرج من دمشق في محرّم سنة ثلاث وثمانين وانتهى إلى رأس الماء. وبلغه أنّ البرنس أرناط صاحب الكرك يريد أن يتعرض للحاج من الشام، وكان معهم ابن أخيه محمد بن لاجين وغيره فترك من العساكر مع إبنه الأفضل علي، وسار إلى بصرى.

وسمع البرنس بمسيره فأحجم عن الخروج، ووصل الحاج سالمين.وسار صلاح الدين إلى الكرك، وبث السرايا في أعمالها وأعمال الشويك فاكتسحوهما. والبرنس محصور بالكرك، وقد عجز الإفرنج عن إمداده لمكان العساكر مع الأفضل بن صلاح الدين. ثم بعث صلاح الدين إلى إبنه الأفضل فأمره بإرسال بعث إلى عكا ليكتسحوا نواحيها، فبعث مظفر الدين كوكبري صاحب حران والرها وقايماز النجمي وداروم الياروقي، وساروا في آخر صفر فصبحوا صفورية وبها جمع من الفداوية والاستبارية فبرزوا إليهم. وكانت بينهم حروب شديدة تولى الله النصر فيها للمسلمين، وانهزم الإفرنج، وقتل مقدمهم، وامتلأت أيدي المسلمين من الغنائم

وانقلبوا ظافرين. ومرّا بطبرية، وبها القمص فلم يهجهم لما تقدم بينه وبين صلاح الدين من الولاية، وعظم هذا الفتح وسار البشير به في البلاد، والله تعالى أعلم.

هزيمة الإفرنج وفتح طبرية ثم عكا:

ولما إنهزم الفداوية والإستبارية بصفورية، ومرّ المسلمون بالغنائم على القمص ريمند بطبرية، ووصلت البشائر بذلك إلى صلاح الدين عاد إلى معسكره الذي مع إبنه، ومرّ بالكرك، واعتزم على غزو بلاد الإفرنج فاعترض عساكره وبلغه أن القمص ريمند قد راجع أهل ملته ونقض عهده معه. وأنّ البطرك والقسيس والرهبان أنكروا عليه مظاهرته للمسلمين، ومرور عساكرهم به بأسرى النصارى وغنائمهم. ولم يعترضهم مع إيقاعهم بالفداوية والاستبارية أعيان الملة، وتهددوه بإلحاق كلمة الكفر به فتنصل وراجع رأيه، واعتذر إليهم فقبلوا عذره، وخلص لكفره وطواغيته فجددوا الحلف والاجتماع. وساروا بن عكا إلى صفورية، بلغ الخبر إلى صلاح الدين. وشاور أصحابه فمنهم من أشار بترك اللقاء وشن الغارات عليهم حتى يضعفوا. ومنهم من أشار باللقاء لتزول عكا واستيفاء ما فعلوه في المسلمين بالجزيرة فاستصوبه صلاح الذين واستعجل لقاءهم.ثم رحل من الأقحوانه أواخر رمضان فسار حتى خلف طبرية، وتقدم إلى معسكر الإفرنج فلم يفارقوا خيامهم. فلما كان الليل أقام طائفة من العسكر فسار إلى طبرية فملكها من ليلته عنوة ونهبها وأحرقها. وإمتنع أهلها بالقلعة، ومعهم الملكة وأولادها فبلغ الخبر إلى الإفرنج فضج القمص، وعمد إلى الصلح. وأطال القول في تعظيم الخطب وكثرة المسلمين، فنكر عليه البرنس صاحب الكرك وإتهمه ببقائه على ولاية صلاح الدين. واعتزموا على اللقاء ووصلوا من مكانهم لقصد المعسكر، وعاد صلاح الدين إلى معسكره، وبعدت المياه من حوالي الإفرنج وعطشوا ولم يتمكنوا من الرجوع فركبهم صلاح الدين دون قصدهم. واشتدت الحرب وصلاح الدين يجول بين الصفوف يتفقد أحوال المسلمين.ثم حمل القمص على

ناحية تقيّ الدين عمر بن شاه حملة استمات فيها هو وأصحابه فأفرج له الصف، وخلص من تلك الناحية إلى منجاته، واختلّ مصاف الإفرنج، وتابعوا الحملات. وكان بالأرض هشيم أصابه شرر فاضطرم ناراً فجهدهم لفحها، ومات جلهم من العطش فوهنوا، وأحاط بهم المسلمون من كل ناحية فارتفعوا إلى تل بناحية حطين لينصبوا خيامهم به فلم يتمكنوا إلا من خيمة الملك فقط، والسيف يجول فيهم مجاله حتى فني أكثرهم، ولم يبق إلا نحو المائة والخمسين من خلاصة زعمائهم مع ملكهم. والمسلمون يكرون عليهم مرة بعد أخرى حتى ألقوا ما بأيديهم وأسروا الملك وأخاه البرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل، وابن هنفري، ومقدم الفداوية، وجماعة من الفداوية والإستبارية. ولم يصابوا منذ ملكوا هذه البلاد أعوام التسعين والأربعمائة بمثل هذه الوقعة.ثم جلس صلاح الدين في خيمته وأحضر هؤلاء الأسرى فقرّع الملك ووبخه بعد أن أجلسه إلى جانبه وفاء بمنصب الملك، وقام إلى البرنس فتولى قتله بيده حرصاً على الوفاء بنذره بعد أن عرّفه بغدرته، وبجسارته على ما كان يرومه في الحرمين، وحبس الباقين. وأما القمص صاحب طرابلس فنجا كما ذكرناه إلى بلده، ثم مات لأيام قلائل أسفاً. ولما فرغ صلاح الدين من هزيمتهم نهض إلى طبرية فنازلها واستأمنت إليه الملكة بها

فأمنها في ولدها وأصحابها ومالها، وخرجت إليه فوفى لها وبعث الملك وأعيان الأسرى إلى دمشق فحبسوا بها. وجمع أسرى الفداوية والإستبارية بعد أن بذل لمن يجده منهم من المقاتلة خمسين ديناراً مصرية لكل واحد وقتلهم أجمعين.قال ابن الأثير: ولقد إجتزت بمكان الواقعة بعد سنة فرأيت عظامهم ماثلة على البعد أجحفتها السيول ومزقتها السباع. ولما فرغ صلاح الدين من طبرية سار عنها إلى عكا فنازلها، واعتصم الإفرنج الذين بها بالأسوار، وشادوا بالاستئمان فأمنهم وخيرهم فاختاروا الرحيل، فحملوا ما أقلته رحالهم ودخلها صلاح الدين غرة جمادى سنة ثلاث وثمانين. وصلوا في جامعها القديم الجمعة يوم دخلوهم، فكانت أوّل جمعة أقيمت بساحل الشام بعد استيلاء الإفرنج عليه. وأقطع صلاح الدين بلد عكا لابنه الأفضل، وجميع ما كان فيه للفداوية من أقطاع وضياع. ووهب للفقيه عيسى الهكاري كثيراً مما عجز الإفرنج عن حمله، وقسم الباقي على أصحابه. ثم قسم الأفضل ما بقي في أصحابه بعد مسير صلاح الدين. ثم أقام صلاح الدين أياماً حتى أصلح أحوالها ورحل عنها، والله تعالى أعلم.

فتح يافا وصيدا وجبيل وبيروت وحصون عكا:

لما هزم صلاح الدين الإفرنج كتب إلى أخيه العادل بمصر يسيره ويأمره بالمسيرإلى جهات

الإفرنج من جهات مصر، فنازل حصن مجدل وفتحه وغنم ما فيه، ثم سار إلى مدينة يافا ففتحها عنوة واستباحها وكان صلاح الدين أيام مقامه بعكا بعث بعوثه إلى قيساريه وحيفا وسطورية وبعلبك وشقيف وغيرها في نواحي عكا، فملكوها واستباحوها وامتلأت أيديهم من غنائمها وبعث حسام الدين عمر بن الأصعن في عسكر إلى نابلس فملك سبطية مدينة الأسباط، وبها قبر زكريا عليه السلام. ثم سار إلى مدينة نابلس فملكها واعتصم الإفرنج الذين بها بالقلعة فأقرهم على أموالهم.وبعث تقيّ الدين عمر ابن شاهنشاه إلى تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور فوصل إليها وحاصرها وضيق عليها، حتى استأمنوا فأمنهم وملكها. ومرّ إلى صيدا ومرّ في طريقة بصرخد فملكها بعد قتال. وجاء الخبر بفرار صاحب صيدا فسار وملكها آخر جمادي الأولى من السنة. ثم سار من يومه إلى بيروت وقاتلها من أحد جوانبها فتوهموا أنّ المسلمين دخلوا عليهم من الجانب الآخر فاهتاجوا لذلك، فلم يستقرّوا ولا قدروا على تسكين الهيعة لكثرة ما معهم من أخلاط السواد فاستأمنوا إليه. وملكها آخر يوم من جمادى لثمانية أيام من حصارها. وكان صاحب جبيل أسيراً بدمشق فضمن لنائبها تسليم جبيل لصلاح الدين على أنّ يطلقه فاستدعاه وهو محاصر لبيروت، وسلم الحصن وأطلقه، وكان من أعيان الإفرنج وأولي الرأي منهم، والله تعالى أعلم.

وصول المركيش إلى صور وامتناعه بها:

كان القمص صاحب طرابلس لما نجا من هزيمة لحق بمدينة صور وأقام بها يريد حمايتها ومنعها من المسلمين. فلما ملك صلاح الدين نسيس وصيدا وبيروت ضعف عزمه عن ذلك، ولحق ببلده طرابلس. وبقيت صيدا وصور بدون حامية، وجاء المركيش من نجار الإفرنج من المغرب في كثرة وقوّة فأرسى بعكا ولم يشعر

بفتحها. وخرج إليه الرائد فأخبره بمكان الأفضل بن صلاح الدين فيها، وأن صور وعسقلان باقية للإفرنج فلم يطق الإقلاع إليهما لركود الريح فشغلهم بطلب الأمان ليدخل المرسى. ثم طابت ريحه وجرت به إلى صور.

وأمر الأفضل بخروج الشواني في طلبه فلم يدركوه حتى دخل مرسى صور فوجد بها أخلاطاً كثيرة من فل الحصون المفتتحة، فجاؤا إليه وضمن لهم حفظ المدينة، وبذل أمواله في الانفاق عليها على أن تكون هي وأعمالها له دون غيره واستحلفهم على ذلك. ثم قام بتدبير أحوالها وشرع في تحصينها فحفر الخنادق ورم الأسوار واستبدّ بها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتح عسقلان وما جاورها:

ولما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وتلك الحصون صرف همته إلى عسقلان والقدس لعظم شأن القدس، ولأن عسقلان مقطع بين الشام ومصر فسار عن بيروت إلى عسقلان، ولحق به أخوه العادل في عساكر مصر. ونازلها أوائل جمادى الأخيرة. استدعى ملك الإفرنج ومقدّم الراية، وكانا أسيرين بدمشق فأحضرهما أمرهما بالإذن للإفرنج بعسقلان في تسليمها فلم يجيبوا إلى ذلك، أساؤا الردّ عليهما فاشتدّ في قتالهم ونصب المجانيق عليهم، وملكهم يردّد الرسائل إليهم في التسليم عساه ينطلق ويأخذ بالثأر من المسلمين فلم يجيبوه ثم جهدهم الحصار وبعد عليهم الصريخ فاستأمنوا إلى صلاح الدين على شروط اشترطوها، كان أهمها عندهم أن يمنعهم من الهراسة لما قتلوا أميرهم في الحصار فأجابهم إلى جميع ما اشترطوه. وملك المدينة منتصف السنة لأربعة عشر يوماً من حصارها، وخرجوا بأهليهم وأموالهم وأولادهم إلى القدس ثم بعث السرايا في تلك الأعمال ففتحوا الرملة والداروم وغزة ومدن الخليل وبيت لحم والبطرون، وكل ما كان للفداوية. وكان أيام حصار عسقلان قد بعث عن أسطول مصر فجاء به حسام الدين لؤلؤ الحاجب، وأقام يغير على مرسى عسقلان والقدس، ويغنم جميع ما يقصده من النواحي، والله سبحانه وتعالى يؤيد من يشاء بنصره.

فتح القدس

ولما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها سار إلى بيت المقدس، وبها البطرك الأعظم وبليان بن نيزران صاحب الرملة ؛ وربيسة قريبة الملك، ومن نجا من زعمائهم من حطين، وأهل البلد المفتتحة عليهم، وقد اجتمعوا كلهم بالقدس واستماتوا للدين. وبعد الصريخ وأكثروا الإستعداد ونصبوا المجانيق من داخله، وتقدّم إليه أمير من المسلمين فخرج إليها الإفرنج فأوقعوا

به وقتلوه في جماعة ممن معه، وفجع المسلمون بقتله. وساروا فنزلوا على القدس منتصف رجب، وهالهم كثرة حاميته، وطاف بهم صلاح الدين خمسة أيام فتحيز متبوّأ عليه للقتال، حتى إختار جهة الشمال نحو باب العمود وكنيسة صهيون يتحوّل إليه. ونصب المجانيق عليها، واشتدّ القتال، وكان كل يوم يقتل بين الفريقين خلق. وكان ممن استشهد عز الدين عيسى بن مالك من أكابر أمراء بني بدران، وأبوه صاحب قلعة جعبر فأسف المسلمون لقتله، وحملوا عليهم حتى أزالوهم عن مواقفهم وأحجروهم بالبلد، وملكوا عليهم الخند ق ونقبوا السور فوهن الإفرنج واستأمنوا لصلاح الدين فأبى إلا العنوة كما ملكه الإفرنج أوّل الأمر سنة إحدى

وسبعين وأربعمائة فأستأمن له بالباب ابن نيزران صاحب الرملة، وخرج إليه وشافهه بالاستئمان. واستعطفه فأصرّ على الامتناع فتهدده بالإستماتة، وقتل النساء والأبناء وحرق الأمتعة وتخريب المشاعر المعظمة، واستلحام أسرى المسلمين، وكانوا خمسة آلاف أسير، واستهلاك جميع الحيوانات الداجنة بالقدس من الظهر وغيره.فحينئذ استشار صلاح الدين أصحابه فجنحوا إلى تأمينهم فشارطهم على عشرة دنانير للرجل، وخمسة للمرأة، وديناربن للولد صبي أو صبية، وعلى أجل أربعين يوماً فمن تأخر أداؤه عنها فهو أسير، وبذل بليان ابن نيزران عن فقراء أهل ملته ثلاثين ألف دينار. وملك صلاح الدين المدينة يوم الجمعة لتسع وعشرين من رجب سنة ثلاث وثمانين، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسواره، وكان يوماً مشهوداً. ورتب على أبواب القدس الأمناء لقبض هذا المال، و لم ين الأمر فيه على المشاحة فذهب أكثرهم دون شيء وعجز آخر الأمر ستة عشر ألف نسمة فأخذوا أسارى، وكان فيه على التحقيق ستون ألف مقاتل غير النساء والولدان فإنّ الإفرنج أزروا إليه من كل جانب لما افتتحت عليهم حصونهم وقلاعهم ومن الدليل على مقاربة هذا العدد أنّ بليان صاحب الرملة أعطى ثلاثين ألف دينارعلى ثمانية عشر ألفاً، وعجز منهم ستة عشر ألفاً، وأخرج جميع الأمراء خلقاً لا تحصى في زي المسلمين بعد أن يشارطوهم على بعض القطيعة. واستوهب آخرون جموعاً منهم يأخذون قطيعتهم فوهبهم إياهم. وأطلق بعض نساء الملوك من الروم كانوا مترهبات فأطلقهم بعبيدهم وحشمهم وأموالهم. وكذا ملكة القدس التي أسر صلاح الدين زوجها ملك الإفرنج بسببها، وكان محبوساً بقلعة نابلس فأطلقها بجميع ما معها، و لم يحصل من القطيعة على خراج. وخرج البطرك الأعظم بما معه من ماله وأموال البيع، و لم يتعرض له. وجاءته امرأة البرنس صاحب الكرك الذي قتله يوم حطين تشفع في ولدها، وكان أسيراً فبعثها إلى الكرك لتأذن الإفرنج في النزول عنه للمسلمين وكان على رأسه قبة خضراء لها صليب عظيم مذهب. وتسلق جماعة من

المسلمين إليه واقتلعوه، وإرتجت الأرض بالتكبير والعويل. ولما خلا القدس من العدو أمر صلاح الدين بردّ مشاعره إلى أوضاعها القديمة، وكانوا قد غيروها فأعيدت إلى حالها الأوّل. وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الاقذار فطهرا. ثم صلى المسلمون الجمعة الأخرى في قبة الصخرة، وخطب محيي الدين بن زنكي قاضي دمشق بأمر صلاح الدين، وأتى في خطبته بعجائب من البلاغة في وصف الحال وعظمة الإسلام أقشعرت لها الجلود، وتناقلها الرواة وتحدثت بها السمار أحوالاً .ثم أقام صلاح الدين بالمسجد الصلوات الخمس إماماً وخطيباً، وأمر بعمل المنبر له فتحدّثوا عنده بأنّ نور الدين محمود إتخذ له منبراً منذ عشرين سنة، وجمع الصناع بحلب فأحسنوا صنعته في عدد سنين فأمر بحمله ونصبه بالمسجد الأقصى. ثم أمره بعمارة المسجد وإقتلاع الرخام الذي فوق الصخرة، لأن القسيسين كانوا يبيعون الحجر من الصخرة ينحتونها نحتاً ويبعونها بالذهب وزناً بوزن. فتنافس الإفرنج فيها التماس البركة منها ويدعونها في الكنائس فخشي ملوكهم أن تفنى الصخرة فعالوا عليها بفرش الرخام فأمر صلاح الدين بقلعه. ثم استكثر في المسجد من المصاحف ورتب فيه القرّاء، ووفر لهم الجرايات. وتقدّم ببناء الربط والمدارس فكانت من مكارمه رحمه الله تعالى. وإرتحل الإفرنج بعد أن باعوا جميع ما يملكونه

من العقار بأرخص ثمن، واشتراه أهل العسكر ونصارى القدس الأقدمون بعد أن ضربت عليهم الجزية كما كانوا، والله تعالى أعلم.

حصار صور ثم صفد وكوكب والكرك :

لما فتح صلاح الدين القدس أقام بظاهره إلى آخر شعبان من السنة حتى فرغ من جميع أشغاله، ثم رحل إلى مدينة صور، وقد إجتمع فيها من الإفرنج عوالم وقد نزل بها المركيش وضبطها. ولما إنتهى صلاح الدين إلى عكا أقام بها أياماً فبالغ المركيش في الاستعداد وتعميق الخنادق وإصلاح الأسوار، وكان البحر يحيط بها من ثلاث جهاتها ؛ فوصل جانب اليمين بالشمال وصارت كالجزيرة. وسار إليها فترل عليها لتسع بقين من رمضان على تل يشرف منه على مكان القتال، وجعل القتال على أقيال عسكره نوباً بين إبنه الأفضل وإبنه الظاهر وأخيه

العادل وابن أخيه تقي الدين، ونصب عليها المجانيق والعرادات وكان الإفرنج يركبون في الشواني و الحراقات ويأتون المسلمين من ورائهم فيرمون عليهم من البحر، ويقاتلونهم ويمنعونهم من الدنّو إلى السور فبعث صلاح الدين عن أسطول مصر من مرسى عكا، فجاء ودافع الإفرنج. وتمكن المسلمون من قتال الأسوار وحاصروها براً وبحراً. ثم كبس أسطول الإفرنج خمسة من أساطيل المسلمين ففتكوا بهم ورّد صلاح الدين الباقي إلى بيروت لقلتها فاتبعها أساطيل الإفرنج، فلما أرهقوهم في الطلب القوا بأنفسهم إلى الساحل وتركوها فحكمها صلاح الدين ونقضها، وجد في حصار صور فلم يفد وامتنعت عليه لما كان فيها من كثرة الإفرنج الذين أمنهم بعكا وعسقلان والقدس فترلوا إليها بأموالهم وأمدوا صاحبها، واستدعوها الإفرنج وراء البحر فوعدوهم بالنصر، وأقاموا في انتظارهم.ولما رأى صلاح الدين إمتناعها شاور أصحابه في الرحيل فترددّوا، وتخاذلوا في القتال فرحل آخر شوال إلى عكا وأذن للعساكر في المشي إلى أوطانهم إلى فصل الربيع. وعادت عساكر الشرق والشام ومصر، وأقام بقلعة عكا في خواصه، وردّ أحكام البلد إلى خرديك من أمراء نور الدين. وكان صلاح الدين عندما اشتغل بحصار عسقلان بعث عسكراً لحصار صور فشددوا حصارها وقطعوا عنها الميرة، وبعثوا إلى صلاح الدين وهو بحاصر صور فاستأمنوا له ونزلوا عنها فملكها وكان أيضاً صلاح الدين لما سار إلى عسقلان جهز عسكراً لحصار قلعة كوكب يحرسون السابلة في طريقها من الإفرنج الذين فيها، وهي مطلة على الأردن، وهي للإستبارية. وجهز عسكراً لحصار صفد، وهي للفداوية مطلة على طبرية. ولجأ إلى هذين الحصنين من سلم من وقعة حطين، وامتنعوا بهما. فلما جهز العساكر إليهما صلحت الطريق وإرتفع منها الفساد. فلما كان آخر ليلة من شوّال غفل الموكلون بالحصار على قلعة كوكب، وكانت ليلة شاتية باردة فكبسهم الإفرنج، ونهبوا ما عندهم من طعام وسلاح وعادوا إلى قلعتهم. وبلغ ذلك صلاح الدين، وهو يعتزم على الرحيل عن صور فشحذ من عزيمته. ثم جهز عسكراً على صور مع الأمير قايماز النجمي، وإرتحل إلى عكا فلما إنصرم فصل الشتاء سار من عكا في محرم سنة أربع وثمانين إلى قلعة كوكب . فحاصرها، وامتنعت عليه و لم يكن بقي في البلاد الساحلية من عكا إلى الجنوب غيرها وكير صفد والكرك. فلما إمتنعت عليه جهز

العساكر لحصارها مع قايماز النجمي، ورحل عنها في ربيع الأول إلى دمشق ووافته رسل أرسلان وفرح الناس بقدومه، والله تعالى وليّ التوفيق.

غزو صلاح الدين إلى سواحل الشام وما فتحه من حصونها وصلحه آخرا مع صاب أنْطاكِية:

لما رجع صلاح الدين من فتح القدس وحاصر صور وصفد وكوكب عاد إلى دمشق، ثم تجهز للغزو إلى سواحل الشام وأعمال أنْطاكِية، وسار عن دمشق في ربيع سنة أربع وثمانين فترل على حمص واستدعى عساكر الجزيرة وملوك الأطراف فاجتمعوا إليه. وسار إلى حصن الأكراد فضرب عسكره هنالك، ودخل متجرداً إلى القلاع بنواحي أنْطاكِية فنقض طرفها وأغار على ولايتها إلى طرابلس حتى شفى نفسه من إرتيادها. وعاد إلى معسكره فجرت الأرض بالغنائم فأقام عند حصن الأكراد، ووفد عليه هنالك منصور بن نبيل صاحب جبلة وكان من يوم استيلاء الإفرنج على جبلة عند صاحب أنْطاكِية حاكماً على جميع المسلمين فيها، ومتولياً أمور سمند فلما هبت ريح الإسلام بصلاح الدين وظهوره نزل إليه ليكشف الغماء ، ودله على عورة جبلة واللاذقية، واستحثه لهما فسار أوّل جمادى ونزل بطرطوس، وقد اعتصم الإفرنج منها ببرجين حصينين وأخلوا المدينة فخربوها واستباحوها. وكان أحد الحصنين للفداوية وفيه مقدمتهم الذي أسره صلاح الدين يوم المصاف، وأطلقه عند فتح القدس. واستأمن إليه أهل البرج الآخر ونزلوا له عنه فخربه صلاح الدين، وألقى حجارته في البحر، وامتنع عليه برج الفداوية فسار إلى المرقب وهو للإستبارية ولا يرم لعلوه وإرتفاعه وإمتناعه، والطريق في الجبل إلى جبلة عليه فهو عن يمين الطريق والبحر عن يساره في مسلك ضيق إنما يمر به الواحد فالواحد.

فتح جبلة

وكان وصل أسطول من صاحب صقلية مددا الإفرنج في تلك السواحل في ستين قطعة فأرسوا بطرابلس، فلما سمعوا بصلاح الدين أقلعوا إلى المغرب ووقفوا قبالتها ينضحون بسهامهم المارة بتلك الطريق فضرب صلاح الدين على ذلك الطريق سورا من جهة البحر من المتارس، ووقف وراءه الرماة حتى سلك العسكر المضيق إلى جبلة. ووصلها آخر جمادى وسبق إليها القاضي، وملكها صلاح الدين لحينه، ورفع أعلام الإسلام على سورها ونفى حاميتها إلى القلعة فاستترلهم القاضي على الأمان. واستمر منهم جماعة في رهن القاضي والمسلمين عند صاحب إنْطاكِية حتى أطلقهم. وجاء رؤساء أهل البلد إلى طاعة صلاح الدين، وهو بجبل ما بين جبلة وحماة. وكان الطريق عليه بينهم صعباً ففتحه صلاح الدين من ذلك الوقت، واستناب بجبلة سابق الدين عثمان ابن الداية صاحب شيزر، وسار عنها للاذقية، والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم..

فتح اللاذقية

ولما فرغ صلاح الدين من أمر جبلة سار إلى اللاذقية فوصلها آخر جمادي الأولىوامتنع حاميتها بحصنين لها في أعلى الجبل، وملك المسلمون المدينة وحصروا الإفرنج في القلعتين وحفروا تحت الأسوار. وأيقن الإفرنج بالهلكة، ودخل إليهم قاضي جبلة ثالث نزولها فأستأمنوا معه. وأمنهم صلاح الدين ورفعوا أعلام الإسلام في

الحصنين، وخرب المسلمون المدينة. وكانت مبانيها في غاية الوثاقة والضخامة، واقطعها لتقي الدين ابن أخيه فأعادها إلى أحسن ما كانت من العمارة والتحصين وكان عظيم الهمة في ذلك. وكان أسطول صقلية في مرسى اللاذقية وسخطوا ما فعله أهلها ومنعوهم من الخروج منها. وجاء مقدمهم إلى صلاح الدين فرغب منه إقامتهم على الجزية. وعرض في كلامه بالتهديد بإمداد الإفرنج من وراء البحر فأجابه صلاح الدين باستهانة أمر الإفرنج، وهدّده فانصرف إلى أصحابه، ورحل صلاح الدين إلى صهيون، والله تعالى. أعلم.

فتح صهيون:

ولما فرغ صلاح الدين من فتح اللاذقية سار إلى قلعة صهيون وهي على جبل صعبة المرتقى بعيدة المهوى يحيط بجبلها واد عميق ضيق، ويتصل بالجبل من جهة الشمال، وعليها خمسة أسوار وخندق عميق فترل صلاح الدين على الجبل لضيقها، وقدم ولده الظاهر صاحب حلب فترل مضيق الوادي. ونصب المنجنيقات هنالك فرمى بها على الحصن، ونضحهم بالسهام من سائر أصناف القسي وصابروا قليلاً ثم زحف المسلمون ثاني جمادى الأخرى، وسلكوا ين الصخور حتى ملكوا أحد أسوارها وقاتلوهم منه فملكوا عليهم سورين آخرين، وغنموا جميع ما كان في البلد من الدواب والبقر والذخائر. ولجأ الحامية إلى القلعة، وقاتلهم المسلمون عليها فنادوا بالأمان فشرط عليهم مثل قطيعة القدس، وملك المسلمون الحصن. وولي عليه ناصر الدين بن كورس صاحب قلعة بوفلس فحصنه، وافترق المسلمون في تلك النواحي

فوجدوا الإفرنج قد فروا من حصونها فملكوها جميعاً. وهيؤا إليها طريقاً على عقبة صعبة لعفاء طريقها السهلة بالإفرنج والإسماعيلية، والله تعالى أعلم.

فتح بكاس والشغر:

ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى إلى قلعة بكاس، وقد فارقها الإفرنج وتحصنوا بقلعة شغر فملك بكاس، وحاصر قلعة الشغر والطريق منها مسلوك إلى اللاذقية وجبلة وصهيون فقاتلهم ونصب المنجنيقات عليها فقصرت حجارتها عن الوصول. وكانوا تمنعوا وبعثوا خلال ذلك إلى صاحب إنْطاكِية، وكان الحصن من إيالته فاستمدّوه وإلا أعطوا الحصن بما قذف الله في قلوبهم من الرعب. فلما قعد عن نصرهم استأمنوا إلى صلاح الدين وسألوه إنظار ثلاث للفتح فأنظرهم وأخذ رهنهم. ثم سلموه بعد الثلاث في منتصف جمادي من السنة، والله تعالى أعلم.

فتح سرمينية:

كان صلاح الدين عند إشتغاله بفتح هذه الحصون بعث إبنه الظاهر غازياً صاحب حلب إلى سرمينية وحاصرها، واسترل الإفرنج الذين بها على قطيعة أعطوها وهدم الحصن، وكان فتحه آخر جمادى الأخيرة فانطلق جماعة من الأسارى كانوا بهذا الحصن، وكانت هذه الفتوحات كلها في مقدار شهر، وجميعها من أعمال أنْطاكِية، والله تعالى أعلم.

فتح برزية:

ولما فرغ صلاح الدين من قلعة الشغر إلى قلعة برزية قبالة أفامية وتقاسمها في أعمالها. وبينهما بحيرة من ماء العاصي والعيون التي تجري، وكانوا أشدّ شيء في الأذى للمسلمين فنازلها في الرابع والعشرين من جمادى الأخيرة، وهي متعذرة المصعد من الشمال والجنوب، وصعبته من الشرق وبجهة الغرب مسلك إليها فترل هنالك صلاح الدين، ونصب المجانيق فلم تصل حجارتها لبعد القلعة وعلّوها فرجع إلى المزاحفة، وقسم عساكره على أمرائها، وجعل القتال بينهم نوباً فقاتلهم أوّلا عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار، وأصعدهم إلى قلعتهم حتى صعب المرتقى على المسلمين، وبلغوا مواقع سهامهم وحجارتهم من الحصن وكانوا يدحرجون الحجارة على المقاتلة فلا يقوم لها شيء. فلما تعب أهل هذه النوبة عادوا وصعد خاصة صلاح الدين فقاتلوا قتالاً شديداً، وصلاح الدين وتقي الدين ابن أخيه يحرضانهم حتى أعيوا وهموا بالرجوع، فصاح فيهم صلاح الدين وفي أهل النوبة الثانية فتلاحقوا بهم، وجاء أهل نوبة عماد الدين على أثرهم وحمي الوطيس وردّوا الإفرنج على أعقابهم إلى حصنهم فدخلوه ودخل المسلمون معه.وكان بقية المسلمين في الخيام شرقي الحصن، وقد أهمله الإفرنج فعمد أهل الخيام من تلك الناحية، واجتمعوا مع المسلمين في أعقاب الإفرنج عند الحصن فملكوه عنوة وجاء الإفرنج إلى قبة الحصن ومعهم جماعة من أسارى المسلمين في القيود. فلما سمعوا تكبير إخوانهم خارج القبة كبروا فدهش الإفرنج، وظنوا أن المسلمين خالطوهم فألقوا باليد، وأسرهم المسلمون واستباحوهم وأحرقوا البلد، وأسروا صاحبها وأهله وولده، وافترقوا في أسراهم فجمعهم صلاح الدين حتى إذا قارب أنْطاكِية بعثهم إليها، لأن زوجة صاحب أنْطاكِية كانت تراسل صلاح الدين بالأخبار وتهاديه فرعى لها ذلك، والله تعالى ولي التوفيق.

فتح دربساك:

ولما فرغ صلاح الدين من حصن برزية دخل من الغد إلى الجسر الجديد على نهر العاصي قرب أنْطاكِية فأقام عليه فلحق به فخلف العسكر، ثم سار إلى قلعة دربساك ونزل عليها في رجب من السنة وهي معاقل الفداوية التي يلجؤن إلى الإعتصام بها ونصب عليها المجانيق حتى هدم من سورها. ثم هجمها بالمزاحفة وكشف المقاتلة عن سورها ونقبوا منها برجاً من أسفله فسقط. ثم باركوا الزحف من الغد، وصابرهم الإفرنج ينتظرون المدد من صاحبهم سمند صاحب أنْطاكِية. فلما تبينوا عجزه استأمنوا صلاح الدين فأمنهم في أنفسهم فقط وخرجوا إلى أنْطاكِية. وملك الحصن في عشرين من رجب من السنة والله تعالى أعلم.

فتح بغراس:

ثم سار عماد الدين عن دربساك إلى قلعة بغراس على تعددها وقربها من أنْطاكِية فيحتاج مع قتالها إلى ردء من العسكر بينه وبين أنْطاكِية فحاصرها ونصب عليها المجانيق فقصرت عنها لعلّوها، وشق عليهم حمل الماء إلى أعلى الجبل. وبينما هم في ذلك إذا جاء رسولهم يستأمن لهم فأمنهم في أنفسهم فقط كما أمن أهل دربساك. وتسلم القلعة بما فيها وخربها. فجددها ابن اليون صاحب الأرمن وحصنها وصارت في أيالته، والله أعلم.

صلح أنْطاكِية:

ولما فتح حصن بغراس خاف سمند صاحب أنْطاكِية، وأرسل إلى صلاح الدين في الصلح على أن يطلق أسرى المسلمين الذين عنده. وتحامل عليه أصحابه في ذلك ليريح الناس ويستعدوا فأجابه صلاح الدين إلى ذلك لثمانية أشهر من يوم عقد الهدنة. وبعث إليه من استحلفه وأطلق الأسرى. وكان سمند في هذا الوقت عظيم الإفرنج متسع المملكة، وطرابلس وأعمالها قد صارت إليه بعد القمص، واستخلف فيها إبنه الأكبر. وعاد صلاح الدين إلى حلب فدخلها ثالث شعبان من السنة، وانطلق ملوك الأطراف بالجزيرة وغيرها إلى بلادهم. ثم رحل إلى دمشق وكان معه أبو فليتة قاسم بن مهنا أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتمّ التسليم قد عسكر معه، وشهد فتوحه. وكان يتيمن بصحبته ويتبرك برؤيته، ويجتهد في تأنيسه وتكرمته ويرجع إلى مشورته. ودخل دمشق أول رمضان من السنة، وأشير عليه بتفريق العساكر فأبى وقال: هذه الحصون كوكب وصفد والكرك في وسط بلاد الإسلام فلا بدّ من البدار إلى فتحها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتح الكرك:

كان صلاح الدين قد جهز العساكر على الكرك مع أخيه العادل حتى سار إلى دربساك وبغراس وأبعد في تلك الناحية فشد العادل حصارها حتى جهدوا وفنيت أقواتهم فراسلوه في الأمان فأجابهم. وسلموا القلعة فملكها، وملك الحصون التي حواليها وأعظمها الشويك، وأمنت تلك الناحية، وإتصلت إيالة المسلمين من مصر إلى القدس والله تعالى أعلم.

فتح صفد:

لما عاد صلاح الدين إلى دمشق أقام بها نصف رمضان، ثم تجهز لحصار فنزل عليها ونصب المجانيق وكانت أقواتهم قد تسلط عليها الحصار الأول فخافوا من نفاذها فاستأمنوا فأمنهم وملكها، ولحقوا بمدينة صور والله تعالى أعلم.

فتح كوكب:

لما كان صلاح الدين على صفد خافه الإفرنج على حصن كوكب فبعثوا إليه نجدة وكان قايماز النجمي يحاصره فشعر بتلك النجدة وركب إليهم وهم مختفون ببعض الشعاب فكبسهم ولم يفلت منهم أحد. وكان فيهم مقدّمان من الإستبارية فحملها إلى صلاح الدين على صفد فأحضرهما للقتل على عادته في الفداوية والإستبارية فاستعطفه واحد منهما فعفا عنهما وحبسهما. ولما فتح صفد سار إلى كوكب وحاصره وأرسل إليهم بالأمان فأصّروا على الإمتناع عليه فنصب عليهم المجانيق وتابع المزاحفة. ثم عاقه المطر عن القتال وطال مقامه فلما إنقضى المطر عاود المزاحفة وضايقهم بالسور ونقب منه برجاً فسقط فارتاعوا واستأمنوا. وملك الحصن منتصف ذي القعدة من السنة ولحق الإفرنج بصور وإجتمع الزعماء وتابعوا الرسل إلى إخوانهم وراء البحر في حوزة يستصرخونهم فتابعوا إليهم المدد وإتصل المسلمون في الساحل من أيلة إلى بيروت لا يفصل بينهم إلا مدينة صور ولما فرغ صلاح الدين من صفد وكوكب سار إلى القدس فقضى فيه نسك الأضحى. ثم سار إلى عكا قام بها إلى إنسلاخ الشتاء، والله تعالى أعلم.

فتح الشقيف:

ثم سار صلاح الدين في ربيع سنة خمس وثمانين إلى محاصرة الشقيف، وكان لأرناط صاحب صيدا، وهو من أعظم الناس مكراً ودهاءً . فما نزل صلاح الدين بمرج العيون جاء إليه وأظهر له المحبة والميل، وطلب المهلة إلى جمادى الأخيرة ليتخلص أهله وولده من المركيش بصور، ويسلم له حصن الشقيف فأقام صلاح الدين هنالك لوعده. وإنقضت مّدة الهدنة بينه وبين سمند صاحب إنْطاكِية فبعث تقي الدين ابن أخيه مسلحة في العساكر إلى البلاد التي قرب إنْطاكِية. ثم بلغه إجتماع الإفرنج بصور عند المركيش، وأن الإمداد وافتهم من أهل ملتهم وراء البحر. وأن ملك الإفرنج بالشام الذي أطلقه صلاح الدين بعد فتح القدس قد إتفق مع المركيش وصل يده به. واجتمعوا في أمم لا تحصى وخشي أن يتقدم إليهم ويترك الشقيف وراءه فتنقطع عنه الميرة، فأقام بمكانه فلما إنقضى الأجل تقدم إلى الشقيف واستدعى أرناط فجاء واعتذر بأن المركيش لم يمكنه من أهله وولده وطلب الإمهال مّرة أخرى فتبين صلاح الدين مكره فحبسه، وأمره أن يبعث إلى أهل الشقيف بالتسليم فلم يجب فبعث به إلى دمشق فحبس بها. وتقّدم إلى الشقيف فحاصره بعد أن أقام مسلحة قبالة الإفرنج الذين بظاهر صور، فجاءه الخبر بأنهم فارقوا صور لحصار صيدا فلقيتهم المسلحة وقاتلوهم فغلبوهم وأسروا سبعة من فرسانهم، وقتلوا آخرين وقتل مولى لصلاح الدين من أشجع الناس وردوهم على أعقابهم إلى معسكرهم بظاهر صور. وجاء صلاح الدين بعد إنقضاء الوقعة فأقام في المسلحة رجاء أن يصادف أحداً من الإفرنج فينتقم منهم. وركب في بعض الأيام ليشارف معسكر الإفرنج فظن عساكره أنه يريد القتال فنجعوا وأوغلوا إلى العدّو. وبعث صلاح الدين الأمراء في أثرهم يردونهم فلم يرجعوا، ورآهم الإفرنج فظنوا أن وراءهم كميناً فأرسلوا من يكشف خبرهم فوجدوهم منقطعين فحملوا عليهم وأناموهم جميعاً، وذلك تاسع جمادي الأولى من السنة. ثم إنحدر إليهم صلاح الدين في عساكره من الجبل فهزمهم إلى الجسر وغرق منهم في البحر نحو من مائة دارع سوى من قتل وعزم السلطان على حصارهم، واجتمع إليه الناس. ثم عاد الإفرنج إلى صور، وعاد السلطان إلى بليس ليشارف عكا ويرجع إلى مخيمه. ولما وصل إلى المعسكر جاء الخبر بأن الإفرنج يتعدّون عن صدور مذاهبهم لحاجاتهم فكتب إلى المعسكر بعكا، ووعدهم ثامن جمادى الأخيرة يوافونه من ناحيتهم للإغارة عليهم. وأكمن لهم في الأودية والشعاب من سائر النواحي واختار جماعة من فرسان عسكره، وتقدّم إليهم بأن يتعرضوا للإفرنج، ثم يستطردوا لهم إلى مواضع الكمناء ففعلوا وناشبوا الإفرنج وانفوا من الاستطراد وطال على الكمناء الإنتظار فخرجوا خشية على أصحابهم فوافوهم في شدّة الحرب فانهزم المسلمون، ووقع التمحيص. وكان أربعة في الكمين من أمراء طيء فعدلوا عن طريق أصحابهم وسلكوا الوادي وتبعهم بعض العسكر من موالي صلاح الدين ورآهم الإفرنج في الوادي فعلموا أنهم أضلوا الطريق فاتبعوهم وقتلوهم، والله تعالى أعلم.

محاصرة الإفرنج أهل صور لعكا والحروب عليها:

كانت صور كما قدّمنا ضبطها المركيش من الإفرنج الواصل من وراء البحر وقام بها وكان كلما فتح صلاح الدين مدينة أو حصناً على الأمان لحق أهلها بصور فاجتمع بها عدد عظيم من الإفرنج وأموال جمة. ولما فتح القدس لبس كثير من رهبانهم وقسيسيهم وزعمائهم السواد حزناً على البيت المقدس. وإرتحل بطرك من القدس، وهم معه يستصرخون أهل الملة النصرانية من وراء البحر للأخذ بثأر القدس فخرجوا للجهاد من كل بلد، حتى النساء اللواتي يجدن القوة على الحرب. ومن لم يستطع الخروج استأجر مكانه، وبذلوا الأموال لهم. وجاء الإفرنج من كل

مكان ونزلوا بصور ومدد الرجال والأقوات والأسلحة متداركة لهم في كل وقت واتفقوا على الرحيل إلى عكا ومحاصرتها فخرجوا ثامن رجب من سنة خمس وثمانين وسلكوا على طريق الساحل وأساطيلهم تحاذيهم في البحر. ومسلحة المسلمين تتخطفهم من جوانبهم حتى وصلوا إلى عكا منتصف رجب. وكان رأي صلاح الدين أن يحاذيهم في مسيرهم لينال منهم فخالفه أصحابه واعتذروا بضيق الطريق ووعره فسلك طريقاً آخر ووافاهم على عكا وقد نزلوا عليها وأحاطوا بها من البحر إلى البحر فليس للمسلمين إليها طريق.ونزل صلاح الدين قبالتهم، وبعث إلى الأطراف يستنفر الناس فجاءت عساكر الموصل وديار بكر وسنجار وسائر بلاد الجزيرة. وجاء تقي الدين ابن أخيه من حماة ومظفر الدين كوكبري عن حران والرها، وكانت إمداد المسلمين تصل في البرّ وإمداد الإفرنج في البحر وهم محصورون في صور. وكانت بينهم أيام مذكورة ووقائع مشهورة وأقام السلطان بقية رجب لم يقاتلهم فلما استهل شعبان قاتلهم يوماً بكامله وبات الناس على تعبية. ثم صبحهم بالقتال ونزل بالصبر وحمل عليهم تقي الدين ابن أخيه منتصف النهار من الميمنة حملة أزالتهم عن مواقفهم وملك مكانهم وإتصل بالبلد فدخلها المسلمون، وشحنها صلاح الدين بالمدد من كل شيء. وبعث إليهم الأمير حسام الدين أبا الهيجاء السمين من أكابر امرائه من الأكراد الخطية من إربل. ثم نهض المسلمون من الغد فوجدوا الإفرنج قد أداروا عليهم خندقاً يمتنعون به، ومنعوهم القتال يومهم وأقاموا كذلك ومع السلطان أحياء من العرب فكمنوا في معاطف النهر من ناحية الإفرنج على الساحل للخطف منهم وكبسوهم منتصف شعبان وقتلوهم وجاؤا برؤسهم إلى صلاح الدين فأحسن إليهم، والله تعالى أعلم.

الوقعة على عكا:

كان صلاح الدين قد بعث عن عسكر مصر، وبلغ الخبر الإفرنج فأرادوا معاجلته قبل وصولهم. وكانت عساكره متفرقة في المسالح على الجهات فمسلحة تقابل أنْطاكِية وملكها سمند في البلاد التي من أعمال حلب ومسلحة بحمص تحفظها من أهل طرابلس ومسلحة تقابل صور ومسلحة بدمياط والإسكندرية. واعتزم الإفرنج على مهاجمتهم بالقتال، ولم يشعروا بهم وصبحوهم لعشرين من شعبان وركب صلاح الدين وعبى عساكره وقصدوا الميمنة وعليها تقي الدين ابن أخيه فتزحزح بعض الشيء وأمده صلاح الدين بالرجال من عنده فحطوا على صلاح الدين في القلب فتضعضع واستشهد جماعة منهم الأمير علي بن مردان والظهير أخو الفقيه عيسى والي

القدس والحاجب خليل الهكاري وغيرهم.وقصدوا خيمة صلاح الدين فقتلوا من وزرائه ونهبوا واستشهد جمال الدين بن رواحة من العلماء ووضعوا السيف في المسلمين وإنهزم الذين كانوا حوالي الخيمة، و لم تسقط، وإنقطع الذين ولوها من الإفرنج عن أصحابهم وراءهم، وحملت ميسرة المسلمين عليهم فأحجمتهم إلى وراء الخنادق، وعادوا إلى خيمة صلاح الدين فقتلوا كل من وجدوا عندها من الإفرنج وصلاح الدين قد عاد من إتباع أصحابه يردهم للقتال وقد اجتمعوا عليهم فلم يفلت منهم أحد وأسروا مقدّم الفداوية فأمر بقتله وكان أطلقه مرة أخرى وبلغت عدة القتلى عشرة آلاف فألقوا في النهر وأما المنهزمون من المسلمين فمنهم من رجع من طبرية ومنهم من جاوز الأردنّ ورجع ومنهم من بلغ دمشق وإتصل قتال المسلمين للإفرنج وكادوا يلجون عليهم معسكرهم. ثم جاءهم الصريخ بنهب أموالهم، وكان المنهزمون قد حملوا أثقالهم فامتدت إليها أيدي الأوباش ونهبوها فكان ذلك مما شغل المسلمين عن استئصال الإفرنج، وأقاموا في ذلك يوماً وليلة يستردون النهب من أيدي المسلمين، ونفس بذلك عن الإفرنج بعض الشيء والله تعالى أعلم.

رحيل صلاح الدين عن الإفرنج بعكا:

ولما إنقضت هذه الوقعة وامتلأت الأرض من جيف الإفرنج تغير الهواء وأنتن، وحدث بصلاح الدين قولنج كان يعاوده فأشار عليه أصحابه بالإنتقال عسى الإفرنج ينتقلون وان أقاموا عدنا إليهم وحمله الأطباء على ذلك فرحل رابع رمضان من السنة وتقدم إلى عكا بحياطتها، وأعلمهم سبب رحيله. فلما إرتحل اشتدّ الإفرنج في حصار عكا وأحاطوا بها دائرة مع اسطولهم في البحر، وحفروا خندقاً على معسكرهم وأداروا عليهم سوراً من ترابه حصناً من صلاح الدين أن يعود إليهم ومسلحة المسلمين قبالتهم يناوشوهم القتال فلا يقاتلونهم وبلغ ذلك صلاح الدين وأشار أصحابه بإرسال العساكر ليمنع من التحصين فامتنع من ذلك لمرضه فتم للإفرنج ما أرادوه وأهل عكا يخرجون إليهم في كل يوم ويقاتلونهم والله تعالى أعلم.

معاودة صلاح الدين حصار الإفرنج على عكا:

ثم وصل العادل أبو بكر بن أيوب منتصف شوّال في عساكر مصر، ومعه الجم الغفير من المقاتلة والأصناف الكثيرة من آلات الحصار. ووصل على أثره أسطول مصر مع الأمير لؤلؤ وكبس مركباً فغنم ما فيه ودخل به إلى عكا وبرىء صلاح الدين من مرضه وأقام بمكانه بالجزيرة إلىإ نسلاخ الشتاء وسمع الإفرنج أن صلاح الدين سار إليهم واستقلوا مسلحة المسلمين عندهم فزحفوا إليهم في صفر سنة ست وثمانين واستمات المسلمون، وقتل بين الفريقين خلق. وبلغ الخبر بذلك صلاح الدين وجاءته العساكر من دمشق وحمص وحماه فتقدم من الجزيرة إلى تل كيسان وتابع القتال على الإفرنج يشغلهم عن المسلمين فكانوا يقاتلون الفريقين وكان الإفرنج مدة مقامهم على عكا قد صنعوا ثلاثة أبراج من الخشب إرتفاع كل برج ستون ذراعاً، وفيه خمس طبقات، وغشوها بالجلود وطلوها بالأدوية التي لا تعلق النار بها. وشحنوها بالمقاتلة وأدنوها إلى البلد من ثلاث جهات في العشرين من ربيع الأول سنة ست وثمانين. وأشرفوا بها على السور فكشف من عليه من المقاتلة وشرع الإفرنج في طم الخندق وبعث أهل عكا سابحاً في البحر يصف لهم حالهم فركب في

عساكره، واشتد في قتال الإفرنج فخف على أهل البلد ما كانوا فيه وأقاموا كذلك ثلاثة أيام يقاتلون الجهتين وعجزوا عن دفع الأبراج ورموها بالنفط فلم يؤثر فيها وكان عندهم رجل من أهل دمشق يعاني أحوال النفط فأخذ عقاقير وصنعها وحضر عند قراقوش حاكم البلد وأعطاه دواء وقال: أرم بهذا في المنجنيق المقابل لإحدى الأبراج فيحترق فحرد عليه، ثم وافق ورمى به في قدر ثم رمى بعده بقدر أخرى مملوأة ناراً فاضطرمت النار واحترق البرج بمن فيه، ثم فعل بالثاني والثالث كذلك وفرح أهل البلد وتخلصوا من تلك الورطة فأمر صلاح الدين بالإحسان إلى ذلك الرجل فلم يقبل، وقال: إنما فعلته لله ولا أريد الجزاء إلا منه. ثم بعث صلاح الدين إلى ملوك الأطراف ليستنفرهم فجاء عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ثم علاء الدين بن طالب صاحب الموصل، ثم عز الدين مسعود بن مودود وبعثه أبوه بالعساكر ثم زين الدين صاحب إربل وكان كل واحد منهم إذا وصل يتقدم بعسكره فيقاتلون الإفرنج، ثم يضربون أبنيتهم وجاء الخبر بوصول الأسطول من مصر فجهز الإفرنج أسطولا لقتاله، وشغلهم صلاح الدين بالقتال ليتمكن الأسطول من دخول عكا فلم يشغلوا عنه وقاتلوا الفريقين براً وبحراً، ودخل الأسطول إلى مرسى عكا سالماً والله تعالى أعلم بغيبه.

وصول ملك الألمان إلى الشام ومهلكه:

هؤلاء الألمان شعب من شعوب الإفرنج كثير العدد موصوف بالبأس والشدة وهم موطنون

بجزيرة إنكلطيرة في الجهة الشمالية الغربية من البحر المحيط، وهم حدعهد بالنصرانية. ولما سار القسس والرهبان بخبر بيت المقدس واستنفار النصرانية لها قام ملكهم لها وقعد وجمع عساكره وسار للجهاد بزعمه وفسح النصارى له الطريق وقصد القسطنطينية فعجز ملك الروم عن منعه بعد أن كان يعد بذلك نفسه وكتب بها إلى صلاح الدين لكنه منع عنهم الميرة فضاقت عليهم الأقوات وعبروا خليج القسطنطينية ومروا بمملكة قليج أرسلان وتبعهم التركمان يحفون بهم ويتخطفون منهم وكان الفصل شتاء والبلاد باردة فهلك أكثرهم م والجوع ومروا بقونية وبها قطب الدين ملك شاه بن قليج أرسلان قد غلب عليه أولاده وافترقوا في النواحي فخرج ليصدهم فلم يطق ذلك ورجع فساروا في أثره إلى قونية وبعثوا إليه بهدية على أن يأذن لهم في الميرة فأذن لهم واسترهنوا عشرين من أمرائه وتكاثر عليهم اللصوص فقيدوا أولئك الأمراء وحبسوهم وساروا إلى بلاد الأرمن وصاحبها كاقولي بن خطفاي بن اليون فأمدهم بالأزواد والعلوفات وأظهر طاعتهم وسار إلى أنْطاكِية. ودخل ملكهم ليغتسل في نهر هنالك فغرق، وملك بعده إبنه. ولما بلغوا أنْطاكِية اختلفوا فبعضهم مال إلى تمليك أخيه، وبعضهم مال إلى العود فعادوا كلهم.وسار ابن الملك فيمن ثبت معه يزيدون على أربعين ألفاً وأصابهم الموتان وحسن إليهم صاحب أنْطاكِية المسير إلى الإفرنج على عكا فساروا على جبلة واللاذقية ومروا بحلب وتخطف أهلها منهم خلقاً وبلغوا طرابلس وقد أفناهم الموتان ولم يبق منهم إلا نحو ألف رجل فركبوا البحر إلى عكا ثم رأوا ما هم فيه من الوهن والخلاف فركبوا البحر إلى بلدهم وغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد وكان الملك قليج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم ويعده بمنعهم من العبور عليه فلما عبروا اعتذر بالعجز عنهم، وافتراق أولاده واستبدادهم عليه. وأما صلاح الدين فإنه استشار أصحابه عند وصول

خبرهم فأشار بعضهم إلى لقائهم في طريقهم ومحاربتهم وأشار آخرون بالمقام لئلا يأخذ الإفرنج عكا ومال صلاح الدين إلى هذا الرأي وبعث العساكر من جبلة واللاذقية وشيزر إلى حلب ليحفظوها من عاديتهم والله تعالى ولي التوفيق.

واقعة المسلمين مع الإفرنج على عكا:

ثم زحف الإفرنج على عكا في عشر من جمادى الأخيرة من سنة ست وثمانين وخرجوا من

خنادقهم إلى عساكر صلاح الدين وقصد العادل أبو بكر بن أيوب في عساكر مصر فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كشفهم الإفرنج عن الخيام وملكوها. ثم كر عليهم المصريون فكشفوهم عن خيامهم وخالفهم بعض عساكر مصر إلى الخنادق فقطعوا عنهم بعض مدد أصحابهم فأخذتهم السيوف وقتل منهم ما يزيد على عشرين ألفاً. وكانت عساكر الموصل قريباً من عسكر مصر ومقدمهم علاء الدين خوارزم شاه بن عز الدين مسعود

صاحب الموصل فعدمت ميرتهم وأمر صلاح الدين بمناجزتهم على هذا الحال وبلغه الخبر بموت ملك الألمان وما أصاب قومه من الشتات فسر المسلمون بذلك، وظنوا وهن الإفرنج به ثم بعد يومين لحقت بالإفرنج إمداد في البحر مع كند من الكنود يقال له الكندهري ابن أخي الافرسيس لأبيه، وابن أخي ملك إنكلطيرة لأمّه ففرق في الإفرنج أموالاً وجند لهم أجناداً، ووعدهم بوصول الأمداد على أثره فاعتزموا على الخروج لقتال المسلمين فانتقل صلاح الدين من مكانه إلى الحزونة لثلاث بقين من جمادى الأخيرة لضيق المجال، ونتن المكان من جيف القتلى. ثم نصب الكندهري على عكا مجانيق وذبابات فأخذها أهل عكا وقتلوا عندها جموعاً من الإفرنج فلم يتمكن من متابعة ذلك ولا من إقامة الستائر عليها لأنّ أهل البلاد كانوا يصيبونها فعمل تلا عاليا من التراب ونصب المجانيق من ورائه وضاقت الأحوال وقلت الميرة وأرسل صلاح الدين إلى الإسكندرية ببعث الأقوات في المراكب إلى عكا وبعث إ لى بيروت بمثل ذلك فبعثوا مركباً ونصبوا فيها الصلبان يوهمون أنه للإفرنج حتى دخلوا إلى المرسى. وجاءت بعد الميرة من الإسكندرية. ثم جاءت ملكة من الإفرنج من وراء البحر في نحو ألف مقاتل للجهاد بزعمهما فأخذت ببحر الإسكندرية هي وجميع ما معها . ثم كتب البابا كبير الملّة النصرانية من كنيسة برومة يأمرهم بالصبر والجهاد، ويخبرهم بوصول الامداد وأنه راسل ملوك الإفرنج يحثهم على إمدادهم فازدادوا بذلك قوة واعتزموا على مناجزة المسلمين وجمروا عسكراً لحصار عكا وإرتحلوا حادي عشر شوال من السنة فنقل صلاح الدين أثقال العسكر إلى على ثلاثة فراسخ من عكا ولقي الإفرنج على التعبية .وكان أولاده الأفضل علي والظافر غازي والظاهر خفر في القلب وأخوه العادل أبو بكر في الميمنة عساكر مصر ومن إنضم إليهم، وعماد الدين صاحب سنجار وتقي الدين صاحب حماة ومعز الدين سنجر شاه

صاحب جزيرة ابن عمر في الميسرة، وصلاح الدين في خيمة صغيرة على تل مشرف نصب له من أجل موضعه. فلما وصل الإفرنج وعاينوا كثرة المسلمين ندموا على مفارقة خنادقهم، وباتوا ليلتهم وعادوا من الغد إلى معسكر فأتبعوهم أهل المقدمة وتخطفوهم من كل ناحية وأحجروهم وراء خنادقهم.ثم ناوشوهم القتال في الثالث والعشرين من شوال بعد أن أكمنوا لهم عسكراً فخرج لهم الإفرنج في نحو أربعمائة فارس واستطرد لهم

المسلمون إلى إن وصلوا كمينهم فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد. واشتد الغلاء على الإفرنج وبلغت الغرارة مائة دينار صوري، مع ما كان يحمل إليهم من البلدان من بيروت على يد صاح أسامة ومن صيدا على يد نائبها سيف الدين علي بن أحمد المشطوب ومن عسقلان وغيرها. ثم اشتدّ عليهم الحال عند هيجان البحر وانقطاع المراكب في فصل الشتاء.ثم هجم الشتاء وأرسى الإفرنج مراكبهم بصور خوفاً عليها على عادتهم في صورفي فصل الشتاء. ووجد الطريق إلى عكا في البحر فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون ما نزل بهم وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين فشكى من ضجره بطول المقام والحرب فأمر صلاح الدين بإنفاذ نائب وعسكر إليها بدلاً منهم وأمر أخاه العادل بمباشرة ذلك فانتقل إلى جانب البحر عند جبل حيفا، وجمع المراكب والشواني وبعث العساكر إليها شيئاً فشيئاً، كلما دخلت طائفة خرج بدلها فدخل عشرون أميراً بدلا من ستين كانوا وأهملوا أهل الرجل وتعينت دواوين صاحب صلاح الدين وكانوا نصارى على الجند في إثباتهم وإطلاق نفقاتهم فبلغ الحامية بعكا وضعفت وعادت مراكب الإفرنج بعد إنحسار الشتاء فانقطعت الأخبار عن عكا وعنها وكان من الأمراء الذين دخلوا عكا سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وعز الدين أرسلان مقدم الأسدية وابن جاولي وغيرهم. وكان دخولهم عكا أوّل سنة سبع وثمانين والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة زين الدين صاحب إر بل وولاية أخيه كوكبري

كان زين الدين يوسف بن زين الدين قد دخل في طاعة صلاح الدين وكانت له إربل كما مرّ لأيام أبيه وحران والرها لأخيه مظفر الدين كوكبري وكان يعسكر مع صلاح الدين في غزواته وحضر عنده على عكا فأصابه المرض وتوفي في ثامن عشر رمضان سنة أربع وثمانين فقبض أخوه مظفر الدين كوكبري على بلد أمير من أمرائه وبعث إلى صلاح الدين يطلب إربل ويترل عن حران والرها فأجابه وأقطعه إياهما وأضاف إليهما شهرزور وأعمالها ودار بند العرابلي

وهي قفجاق وكاتب أهل إربل مجاهد الدين صاحب الموصل خوفاً من صلاح الدين مع أنّ مجاهد الدين كان عز الدين قد حبسه كما مرّ ثم أطلقه وولاه نائبه وجعل بعض غلمانه عينا فكان يناقضه في كثير من الأحوال فقصد مجاهد الدين أن يفعل معه مثل ذلك في إربل فامتنع منها وولاها مظفر الدين واستفحل أمره فيها ولما نزل مظفر الدين عن حران والرها ولاها صلاح الدين لابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه مضافة إلى ميافارقين بديار بكر، وحماة وأعمالها بالشام. وتقدم له أن يقطع أعمالها للجند فيتقوى بهم على الإفرنج فسار تقي الدين إليها وقرر أمورها. ثم إنتهى إلى ميافارقين، وتجدد له طمع فيما يجاورها من البلاد فقصد مدينة حال من ديار بكر. وسار إليه سيف الدين بِكتمر صاحب خلاط في عساكره وقاتله فهزمه تقي الدين ووطىء بلاده. وكان بكتمر قد قبض على مجد الدين بن رستق وزير سلطان شاكرين وحبسه في قلعة هنالك. فلما إنهزم كتب إلى والي القلعة بقتله فوافاه الكتاب وتقي الدين محاصر له. فلما ملك القلعة أطلق ابن رستق وسار إلى خلاط وحاصرها فامتنعت عليه، فعاد عنها إلى ملاذكرد فضيق عليها حتى استأمنوا له، وضرب لهم أجلاً

في تسليم البلد. ثم مرض ومات قبل ذلك الأجل بيومين، وحمله ابنه إلى ميافارقين فدفنه بها، واستفحلت دولة بكتمر في خلاط، والله تعالى أعلم.

وصول إمداد الإفرنج من الغرب إلى عكا:

ثم تتابعت إمداد الإفرنج من وراء البحر لإخوانهم المحاصرين لعكا، وأول من وصل منهم الملك ملك إفرنسة وهوذ، ونصب فيهم، وملكه ليس بالقوي. هكذا قال ابن الأثير، وعنى أنه كان مستفحلاً في ذلك العصر لأنه في الحقيقة ملك الإفرنج. وهو في ذلك العصر أشد من كانوا قوة واستفحالاً فوصل ثاني عشر ربيع الأول سنة أربع وثمانين في ستة مراكب عظيمة مشحونة بالمقاتلة والسلاح فقوي الإفرنج على عكا بمكانه، وولي حرب المسلمين فيها، وكان صلاح الدين على معمر عمر قريبا من معسكر الإفرنج فكان يصابحهم كل يوم عن مزاحفة البلد وتقدم إلى أسامة في بيروت بتجهيز ما عنده من المراكب والشواني إلى مرسى عكا ليشغل الإفرنج أيضا فبعثها ولقيت خمسة مراكب في البحر وكان ملك الانكلطيرة أقدمها، وأقام على جزيرة قبرص طامعاً في ملكها فغنم أسطول المسلمين الخمسة مراكب بما فيها، ونفذت كلمة صلاح الدين إلى سائر النواب بأعماله بمثل ذلك فجهزوا الشواني وملؤا بها مرسى عكا. وواصل الإفرنج قتال البلد ونصبوا عليها المنجنيقات رابع جمادى، وتحوّل صلاح

الدين لمعسكره قريباً منهم ليشغلهم عن البلد فخف قتالهم عن أهل البلد. ثم فرغ ملك إنكلطيرة من جزيرة قبرص وملكها وعزل صاحبها. وبلغ إلى عكا في خمس وعشرين مركباً مشحونة بالرجال والأموال. ووصل منتصف رجب ولقي في طريقه مركباً جهز من بيروت إلى عكا وفيه سبعمائة مقاتل فقاتله. فلما يئس

المسلمون الذين به من الخلاص نزل مقدمهم وهو يعقوب الحلبي غلام ابن شفنين فحرق المركب خوفاً من أن يظفر الإفرنج برجاله وذخائره فغرق. ثم عمل الإفرنج ذبابات وكباشاً وزحفوا بها فأحرق المسلمون بعضها وأخذوا بعضها فرجع الإفرنج إلى نصب التلال من التراب يقاتلون من ورائها فامتنعت من نفوذ الحيلة فيها وضاق حال أهل عكا.

استيلاء الإفرنج على عكا:

ولما جهد المسلمين بعكا الحصار خرج الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المشطوب من أكبر أمرائها إلى ملك إفرنسة يستأمنه لأهل عكا فلم يجبه، وضعفت نفوس أهل البلد لذلك ووهنوا. ثم هرب من الأمراء عز الدين أرسل الأسدي وابن عز الدين جاولي وسنقر الأرجاني في جماعة منهم. ولحقوا بالعسكر فازداد أهل عكا وهنا. وبعث الإفرنج إلى صلاح الدين في تسليمها فأجاب على أن يؤمنوا أهل البلد ويطلق لهم من أسراهم بعدد أهل البلد، ويعطيهم الصليب الذي أخذه من القدس فلم يرضوا بما فعل فبعث إلى المسلمين بعكا أن يخرجوا بجمعهم ويتركوا البلد وشميروا مع البحر ويحملوا على العدو حملة مستميتين ويجيء المسلمون من وراء العدو فعساهم يخلصون بذلك فلما أصبحوا زحف الإفرنج إلى البلد ورفع المسلمون أعلامهم وأرسل المشطوب من البلد إلى الإفرنج فصالحهم على الأمان على أن يعطيهم مائتي ألف دينار ويطلق لهم خمسمائة

أسير ويعيد لهم الصليب. ويعطي للمركيش صاحب صور أربعة عشر ألف دينار فأجابوا إلى ذلك وضربوا المدة للمال والأسرى شهرين. وسلموا لهم البلد فلما ملكوها غدروا بهم وحبسوهم رهنا بزعمهم في المال والأسرى والصليب. ولم يكن لصلاح الدين ذخيرة من المال لكثرة إنفاقه في المصالح فشرع في جمع المال حتى إجتمع مائة ألف دينار، وبعث نائباً يستحلفهم على أن يضمن الفداوية من الخلف والضمان خوفاً من غدر أصحابه. وقال ملوكهم: إذا سلمتم المال والأسرى والصليب تعطونا رهناً في بقية المال، ونطلق أصحابكم. وطلب صلاح الدين أن يضمن الفداوية الرهن ويحلفوا فامتنعوا أيضا، وقالوا:

ترسلون المائة ألف دينار والأسرى والصليب فنطلق من نراه ونبقي الباقي إلى مجيء بقية المال فتبين المسلمون غدرهم، وأنهم يطلقون من لا يعبأ به ويمسكون الأمراء والأعيان حتى يفادوهم فلم يجبهم صلاح الدين إلى شيء. ولما كان آخر رجب ركب الإفرنج إلى ظاهر البلد في احتفال وركب المسلمون فشدّوا عليهم وكشفوهم عن مواقفهم فإذا المسلمون الذين كانوا عندهم قتلى بين الصفين قد استلحموا ضعفاءهم وتمسكوا بالأعيان للمفاداة فسقط في يد صلاح الدين، وتمسك بالمال الذي جمعه لغيرها من المصالح، والله تعالى أعلم.

تخريب صلاح الدين عسقلان

ولما استولى الإفرنج على عكا استوحش المركيش صاحب صور من ملك إنكلطيرة، وأحس منه بالغدر فلحق ببلده صور. ثم سار الإفرنج مستهل شعبان لقصد عسقلان وساروا مع ساحل البحر لا يفارقونه. ونادى صلاح الدين باتباعهم مع إبنه الأفضل وسيف الدين أبي زكوش وعز الدين خرديك فاتبعوهم يقاتلونهم ويتخطفونهم من كل ناحية ففتكوا فيه بالقتل والأسر، وبعث الأفضل إلى أبيه يستمده فلم يجد العساكر مستعدة. وسار ملك إنكلطيرة في ساقة الإفرنج فحملهم وإنتهوا إلى يافا فأقاموا بها والمسلمون قبالتهم مقيمون. ولحق بهم من عكا من احتاجوا إليه. ثم ساروا إلى قيسارية والمسلمون يتبعونهم، ويقتلون من ظفروا به منهم. وزاحموهم عند قيسارية فنالوا منهم وباتوا بها مثاورين. واختطف المسلمون منهم بالليل فقتلوا وأسروا وساروا من الغد إلى أرسوف، وسبقهم المسلمون إليها لضيق الطريق فحملوا عليهم عندها حتى اضطروهم إلى البحر. فحينئذ استمات الإفرنج وحملوا على المسلمين فهزموهم وأثخنوا في تابعهم وألحقوهم بالقلب وفيه صلاح الدين. وتستر المسلمون المنهزمون بخمر الشعراء فرجع الإفرنج عنهم وإنفرج ما كانوا فيه من الضيق المذكور، وساروا إلى يافا فوجدوها خالية وملكوها وكان صلاح الدين قد سار من مكان الهزيمة إلى الرملة وجمع مخلفه وأثقاله، واعتزم على مسابقة الإفرنج إلى عسقلان فمنعه أصحابه وقالوا: نخشى أن يزاحمنا الإفرنج عليها، ويغلبونا على حصارها كما غلبونا على حصار عكا. ويملكوها آخراً ويقووا بما فيها من الذخائر والأسلحة فندبهم إلى المسير إليها وحمايتها من الإفرنج، فلجوا في الإمتناع من ذلك فسار وترك العساكر مع أخيه العادل قبالة الإفرنج، ووصل إلى عسقلان وخربها تاسع عشر شعبان وألقيت حجارتها في

البحر وبقي أثرها، وهلك فيها من الأموال والذخائر ما لا يحصى. فلما بلغ الإفرنج ذلك أقاموا بيافاً. وبعث المركيش إلى ملك إنكلطيرة يعذله حيث لم يناجز

صلاح الدين على عسقلان ويمنعه من تخريبها فما خربها حتى عجز عن حمايتها ثم رحل صلاح الدين من عسقلان ثاني رمضان إلى الرملة فخرب حصنها. ثم سار إلى القدس من شدة البرد والمطر لينظر في مصالح القدس وترتبهم في الإستعداد للحصار. وأذن للعساكر في العود إلى بلادهم للإراحة. وعاد إلى مخيمه ثامن رمضان. وأقام الإفرنج بيافا وشرعوا في عمارتها فرحل صلاح الدين إلى نطرون، وخيم به منتصف رمضان. وتردّد الرسل بين ملك إنكلطيرة وبين العادل على أن يزوجه ملك إنكلطيرة أخته، ويكون القدس وبلاد المسلمين بالساحل للعادل، وعكا وبلاد الإفرنج بالساحل لها إلى مملكتها وراء البحر بشرط رضا الفداوية. وأجاب صلاح الدين إلى ذلك، ومنع الأقسة والرهبان أخت ملك إنكلطيرة من ذلك ونكروا عليها فلم يتم، وإنما كان ملك إنكلطيرة يخادع بذلك. ثم إعتزم الإفرنج على القدس ورحلوا من يافا إلى الرملة ثالث ذي القعدة، وسار صلاح الدين إلى القدس وقدّم عليه عساكر مصر مع أبي الهيجاء فقويت به نفوس المسلمين. وسار الإفرنج من الرملة إلى النطرون ثالث ذي الحجة والمسلمون يحاذونهم. وكانت بينهم وقعات أسروا في واحدة منها نيفاً وخمسين من مقاتلة الإفرنج، واهتم صلاح الدين بعمارة أسوار القدس، ورمّ ما ثلم وضبط المكان الذي ملك القدس منه وسدّ فروجه. وأمر بحفر الخندق خارج الفصيل.وقسم ولاية هذه الأعمال بين ولده وأصحابه وقلت الحجارة للبنيان. وكان صلاح الدين يركب إلى الأماكن البعيدة وينقلها على مركوبه فيقتدي به العسكر. ثم إن الإفرنج ضاقت أحوالهم بالنطرون وقطع المسلمون عنهم الميرة من ساحلهم فلم يكن كما عهده بالرملة، وسأل ملك إنكلطيرة عن صورة القدس ليعلم كيفية ترتيب حصارها فصورت له. ورأى الوادي محيطاً بها إلا قليلاً من جهة الشمال مع عمقه ووعرة مسالكه فقال: هذه لا يمكن حصارها لأنا إذا اجتمعنا عليها من جانب بقيت الجوانب الأخرى، وإن افترقنا على جانب الوادي والجانب الآخر كبس المسلمون إحدى الطائفتين. ولم تصل الأخرى لإنجادهم خوفاً من المسلمين على معسكرهم، وإن تركوه من أصحابه حامية المعسكر فالمدى بعيد لا يصلون للإنجاد إلا بعد الوفاة، هذا إلى ما يلحقنا من تعذر القوت بانقطاع الميرة فعلموا صدقه، وارتحلوا عائدين إلى الرملة. ثم إرتحلوا في محرّم سنة ثمان وثمانين إلى عسقلان وشرعوا في عمارتها، وسار ملك إنكلطيرة إلى مسلح المسلمين فواقعوهم، وجرت بينهم حروب شديدة وصلاح الدين يبعث سراياه من القدس إلى الإفرنج للإغارة وقطع الميرة فيغنمون ويعودون والله تعالى أعلم.

مقتل المركيش وملك الكندهري مكانه

ثم إرتحل صلاح الدين إلى سنان مقدم الإسماعيلية بالشام في قتل ملك إنكلطيرة والمركيش وجعل له على ذلك عشرة آلاف دينار فلم يمكنهم قتل ملك إنكلطيرة لما رأوه من المصلحة لئلا يتفرغ لهم صلاح الدين. وبعث رجلين لقتل المركيش في زي الرهبان فاتصلا بصاحب صيدا وإبن بازران صاحب وأقاما عندهما بصور ستة أشهر مقبلين على رهبانيتهما، حتى أنس بهما المركيش. ثم دعاه الأسقف بصور دعوى فوثبا عليه فجرحاه

ولجأ أحدهما إلى كنيسة وإختفى فيها، وحمل إليها المركيش لشدة جراحه فأجهز عليه ذلك الباطني وقتله. ونسب ذلك إلى ملك إنكلطيرة رجاء أن ينفرد بملك الإفرنج بالشام. ولما قتل المركيش ملك المدينة زعيم من الإفرنج الواردين من وراء البحر يعرف بالكندهري ابن أخت ملك إفرنسة، وابن أخي ملك إنكلطيرة من أبيه وتزوج بالملكة في ليلته وبنى بها. وملك عكا وسائر البلاد بعد عود ملك إنكلطيرة وعاش إلى سنة أربع وتسعين وسقط من سطح. ولما رحل ملك إنكلطيرة إلى بلاده أرسل هذا الكندهري إلى صلاح الدين واستماله للصلح، والتمس منه الخلعة فبعث إليه بها ولبسها بعكا والله تعالى أعلم.

مسير الإفرنج إلى القدس:

ولما قدم صلاح الدين إلى القدس، وكان قد بلغه مهلك تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه، وأن إبنه ناصر الدين استولى على أعماله بالجزيرة وهي: حران والرها وسميساط وميافارقين وحان وبعث إلى صلاح الدين يسأل إبقاءها في يده مضافة إلى ما كان لأبيه من الأعمال بالشام فاستقصره صلاح الدين لصغره. وطلب منه إبنه الأفضل أن يعطيها له ويترل عن دمشق فأجابه إلى ذلك، وأمره أن يسير إليها. وكاتب ملوك البلاد الشرقية بالموصل وسنجار والجزيرة واربل وسار لإنجاده بالعساكر. وعلم ناصر الدين أنه لا قبل له بذلك فبعث للملك العادل يستشفع له عند صلاح الدين على أن يبقى بيده له ما كان لأبيه بالشام فقط، ويترل عن بلاد الجزيرة فأقطعها صلاح الدين أخاه الملك العادل وبعثه يتسلمها ويرد إبنه الأفضل فلحق

بالأفضل بحلب وأعاده وعبر الفرات وتسلم البلاد من ناصرالدين بن تقي الدين وأنزل بها عماله. واستصحبه وساير العساكر الجزرية إلى صلاح الدين بالقدس.ولما بلغ الإفرنج أنّ صلاح الدين بعث إبنه الأفضل وأخاه العادل وفرّق العساكر عليهما، ولم يبق معه بالقدس إلا بعض الخاصة فطمعوا فيه وأغاروا على عسكر مصر وهو قاصد إليه ومقدمهم سليمان أخو العادل لأمه فأخذوه بنواحي الخليل وقتلوا وغنموا ونجا ففهم إلى جبل الخليل. وساروا إلى الداروم فخربوه ثم ساروا إلى القدس وانتهوا إلى بيت قوجة على فرسخين من القدس تاسع جمادي الأولى من سنة ثمان وثمانين. واستعدّ صلاح الدين للحصار، وفرّق أبراج السور على أمرائه، وسلط السرايا والبعوث عليهم فرأوا ما لا قبل لهم به فتأخروا عن منازلتهم بيافا. وأصبحت بقولهم وميرهم غنائم للمسلمين وبلغهم أن العساكر الشرقية التي مع العادل والأفضل عادت إلى دمشق فعادوا إلى عكا وعزموا على محاصرة بيروت فأمر صلاح الدين إبنه الأفضل أن يسير في العساكر الشرقية إليها فسار وانتهى إلى مرج

العيون، فلم يبرح الإفرنج من عكا.وإجتمع عند صلاح الدين خلال ذلك العساكر من حلب وغيرها فسار إلى يافا فحاصرها، وملكها عنوة في العاشر من رجب من السنة. ثم حاصر القلعة بقية يومه، وأشرفوا على فتحها. وكانوا ينتظرون المدد من عكا فشغلوا المسلمين بطلب الأمان إلى الغد فأجابوهم إليه وجاءهم ملك إنكلطيرة ليلا وتبعه مدد عكا. وبرز من الغد فلم يتقدّم إليه أحد من المسلمين. ثم نزل بين السماطين وجلس للأكل، وأمر صلاح الدين بالحملة عليهم فتقدم أخ المشطوب، وكان يلقب بالجناح، وقال لصلاح الدين: نحن نتقدّم

للقتال ومماليكك للغنيمة فغضب صلاح الدين وعاد عن الإفرنج إلى خيامه حتى جاء إبنه الأفضل وأخوه العادل فرحل إلى الرملة ينتظر مآل أمره مع الإفرنج وأقاموا بيافا والله تعالى أعلم.

الصلح بين صلاح الدين والإفرنج ومسير ملك إنكلطيرة إلى بلاده

كان ملك إنكلطيرة إلى هذه المدّة قد طال مغيبه عن بلاده، ويئس من بلاد الساحل لأنّ المسلمين استولوا عليه فأرسل إلى صلاح الدين يسأله في الصلح. وظن صلاح الدين أنّ ذلك مكر فلم يجبه. وطلب الحرب فألح ملك إنكلطيرة في السؤال وظهر صدق ذلك منه فترك ما كان فيه من عمارة عسقلان وغزة والداروم والرملة وبعث إلى الملك العادل بأن يتوسط في

ذلك فأشار على صلاح الدين بالإجابة هو وسائر الأمراء لما حدث عند العسكر من الضجر ونفاد النفقات، وهلاك الدواب والأسلحة، وما بلغهم أن ملك إنكلطيرة عائد إلى بلاده. وإنّ لم تقع الإجابة آخر فصل الشتاء امتنع ركوب البحر فيقيم إلى قابل فلما وعى ذلك صلاح الدين وعلم صحته أجاب إلى الصلح وعقد الهدنة مع رسل الإفرنج في عشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين لمدّة أربعة وأربعين شهراً، فتحالفوا على ذلك وأذن صلاح الدين للافرنج في زيارة القدس وإرتحل ملك إنكلطيرة في البحر عائداً إلى بلده وأقام الكندهري صاحب صور بعد المركيش ملكاً على الإفرنج بسواحل الشام، وتزّوج الملكة التي كانت تملكهم قبله، وقبل صلاح الدين كما مرّ وسار صلاح الدين إلى القدس فأصلح أسواره، وأدخل كنيسة صهيون في البلد وكانت خارج السور. واختط المدارس والربط والمارستان ووقف عليها الأوقاف واعتزم على الإحرام منه للحج فاعترضته القواطع دون ذلك فسار إلى دمشق خامس شوال واستخلف عليها الأمير جرديك من موالي نور الدين. ومرّ بكفور المسلمين نابلس وطبرية وصفد وبيروت. ولما إنتهى إلى بيروت أتاه بها سمند صاحب أنْطاكِية وطرابلس وأعمالها فالتزم طاعة صلاح الدين، وعاد ودخل صلاح الدين دمشق في الخامس والعشرين من شوّال وسرّ الناس بقدومه ووهن العدو والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة صلاح الدين وحال ولده وأخيه من بعده:

ولما وصل صلاح الدين إلى دمشق، وقد خف من شواغل الإفرنج بوهنهم، وماعقد من الهدنة فأراح قليلاً. ثم اعتزم على احداث الغزو فاستشار إبنه الأفضل وأخاه العادل في مذهبه فأشار العادل بخلاط لأنه كان وعده أن يقطعه إياها إذا ملكها. وأشار الأفضل ببلاد الروم إيالة بني قليج أرسلان لسهولة أمرها واعتراض الإفرنج فيها إذا قصدوا الشام لأنها طريقهم. فقال لأخيه تذهب أنت لخلاط في بعض ولدي وبعض العساكر. وأذهب أنا إلى بلاد الروم. فإذا فرغت منها لحقت بكم فسرنا إلى أذربيجان، ثم إلى بلاد العجم. وأمره بالمسير إلى الكرك وهي من أقطاعه ليتجهز منها ويعود لشأنه. فسار إلى الكرك ومرض صلاح الدين بعده ومات في صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة لخمس وعشرين سنة من ملكه مصر رحمه الله تعالى.وكان معه بدمشق إبنه الأفضل نور الدين، والعساكر عنده فملك دمشق والساحل وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وشوش وجميع

الأعمال. إلى الداروم. وكان بمصر إبنه العزيز عثمان فاستولى عليها. وكان بحلب إبنه الظاهر غازي فاستولى عليها وعلى أعمالها مثل: حارم وتل باشر وإعزاز

وبرزية ودربساك وغيرها وأطاعه صاحب حماة ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شيركوه وله مع حماة سلمية والمعرة ومنبج. وابن محمد بن شيركوه، وله مع الرحبة حمص وتدمر. وببعلبك بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه، ولقبه الأمجد. وببصرى الظافر بن صلاح الدين، ولقبه الأمجد مع أخيه الأفضل. وفي شيزر سابق الدين عثمان بات الداية، وبالكرك والشويك الملك العادل. وبلغ الخبر إلى العادل فأقام بالكرك. واستدعاه الأفضل من دمشق فلم يجبه فخوّفه ابن أخيه العزيز صاحب مصر من عز الدين صاحب الموصل. وقد كان سار من الموصل إلى بلاد العادل بالجزيرة فوعده بالنصر منه. وأوهمه الرسول إن لم يسر إلى الأفضل بدمشق أنه متوجه إلى العزيز بمصر ليحالفه عليه. فحينئذ إرتاب العادل وسار إلى الأفضل بدمشق فتلقاه بالميرة وجهز العساكر لمدافعة عز الدين صاحب الموصل عن بلاد الجزيرة. وأرسل إلى صاحب حمص وصاحب حماة يحضهم على إنفاذ العساكر معه وعبر بها الفرات. وأقام بنواحي الرها. وكان عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل لما بلغه وفاة صلاح الدين اعتزم على المسير إلى بلاد العادل بالجزيرة حران والرها وسائرها ليرتجعها من يده، ومجاهد الدين قايماز أتابك دولته يثنيه عن ذلك، ويعذله فيه فتبين حال العادل مع ابن أخيه. وبينما هو في ذلك إذ جاءت الأخبار بأن العادل بحران. ثم وافاهم كتابه بأن الأفضل ملك بعد أبيه صلاح الدين، وأطاعه الناس فكاتب عز الدين جيرانه من الملوك مثل صاحب سنجار وصاحب ماردين يستنجدهم. وجاء إليه أخوه على نصيبين وسار معه إلى الرها فأصابه المرض في طريقه ورجع إلى الموصل فمات أوّل رجب من السنة، واستقرّت إيالة العادل في ملكه من الجزيرة فلم يهجه منها أحد، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

مسير العزيز من مصر إلى حصار الأفضل بدمشق وما استقرّ بينهم في الولايات

كان العزيز عثمان بن صلاح الدين قد استقر بمصر كما ذكرناه، وكان موالي أبيه منحرفين عن الأفضل ورؤساؤهم يومئذ جهاركس وقراجا، وقد استقر بهم عدو الأفضل والأكراد وموالي شيركوه شيعة له، فكان العدو يعدون العزيز بهؤلاء الشيع ويخوّفونه من أخيه الأفضل ويغرونه بانتزاع دمشق من يده فسار لذلك سنة تسعين وخمسمائة ونزل على دمشق واستنزل الأفضل، وهو بأعماله بالجزيرة، وسار لعمه العادل بنفسه، وسار معه الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب، وناصر الدين محمد بن تقيّ الدين عمر بن شاهنشاه صاحب حماة وشيركوه

ابن محمد بن شيركوه صاحب حمص، وعساكر الموصل من قبل عز الدين مسعود بن مودود. وساروا كلهم إلى الأفضل بدمشق لإنجاده فامتنع على العزيز مرامه، وتراسلوا في الصلح على أن يكون القدس وأعمال فلسطين للعزيز، وجبلة واللاذقية للظاهر صاحب حلب، وتبقى دمشق وطبرية والغور للأفضل، وأن يستقر

العادل بمصر مدبراً دولة العزيز على إقطاعه الأول، وإنعقد الصلح على ذلك، ورجع العزيز إلى مصر، وعاد كل إلى بلده، والله تعالى أعلم.

حصار العزيز ثانياً دمشق وهزيمته

ولما عاد العزيز إلى مصر عاد موالي صلاح الدين إلى أغرائه بأخيه الأفضل، فتجهز لحصاره بدمشق سنة إحدى وتسعين. وسار الأفضل من دمشق إلى عمه العادل بقلعة جعبر، ثم إلى أخيه الظاهر غازي بحلب مستنجداً لهما. وعاد إلى دمشق فوجد العادل قد سبقه إليها، وإتفقا على أن تكون مصر للأفضل، ودمشق للعادل. ووصل العزيز إلى قرب دمشق. وكان الأكراد وموالي شيركوه منحرفين عنه كما قدمناه وشيعة للأفضل، ومقدمهم سيف الدين أبو ركوش من الموالي ، وأبو الهيجاء السمين من الأكراد فدلسا للأفضل بالخروج إلى العزيز، وواعداه الهزيمة عنه فخرجا في العساكر، وإنحاز إليهما الموالي والأكراد، وانهزم العزيز إلى مصر.وبعث الأفضل العادل إلى القدس فتسلمه من نائب العزيز، وساروا في إتباعه إلى مصر والعساكر ملتفة على الأفضل، فارتاب العادل وخشي أن لا يفي له الأفضل بما إتفقا عليه، ولا يمكنه من دمشق فراسل العزيز بالثبات وأن يترل حامية، ووعد من نفسه المظاهرة على أخيه وتكفل له منعه من مقاتلته ببلبيس فترك العزيز بها فخر الدين جهاركس في عسكر من موالي أبيه. وأراد الأفضل مناجزتهم فمنعه العادل فأراد الرحيل إلى مصر فمنعه أيضاً. وقال له: إن أخذت مصر عنوة إنخرقت الهيبة وطمع فيها الأعداء والمطاولة أولى ودس إلى العزيز بإرسال القاضي الفاضل. وكان مطاعاً فيهم لمترلته عند صلاح الدين فجاء إليهما، وعقد الصلح بينهم على أن يكون للأفضل القدس وفلسطين وطبرية والأردن مضافة إلى دمشق، ويكون للعادل كما كان القديم. ويقيم بمصر عند العزيز يدبر أمره، وتحالفوا على ذلك، وعاد الأفضل إلى دمشق، وأقام العادل عند العزيز بمصر إنتهى، والله أعلم.

استيلاء العادل على دمشق

ثم أنّ العزيز استمال العادل وأطمعه في دمشق أن يأخذها من أخيه ويسلمها إليه، وكان الظاهر صاحب حلب يعذل الأفضل في موالاة عمه العادل، ويحرضه على إبعاده فيلج في ذلك. ثم أن العادل والعزيز ساروا من مصر وحاصرا دمشق. واستمالا من أمراء الأفضل أبا غالب الحمصي على وثوق الأفضل به وإحسانه إليه، ففتح لهما الباب الشرقي عشي السابع والعشرين من رجب سنة إثنتين وتسعين فدخل العادل منه إلى دمشق، ووقف العزيز بالميدان الأخضر، وخرج إليه أخوه الأفضل. ثم دخل الأفضل دار شيركوه، وأظهروا مصالحة الأفضل خشية من جموعه. وأعادوه إلى القلعة، وأقاموا بظاهر البلد. والأفضل يغاديهم كل يوم ويراوحهم حتى استفحل أمرهم فأمروه بالخروج من دمشق، وتسليم أعمالهم وأعطوه قلعة صرخد. وملك العزيز القلعة. ونقل للعادل أنّ العزيز يريد أن يتردّد إلى دمشق فجاء إليه، وحمله على تسليم القلعة فسلمها، وخرج الأفضل إلى رستاق له خارج البلد فأقام به، وسار منه إلى صرخد. وعاد العزيز إلى مصر، وأقام العادل بدمشق، والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه وأحكم.

فتح العادل يافا من الإفرنج واستيلاء الإفرنج

على بيروت وحصارهم تبنبن

ولما توفي صلاح الدين، وملك أولاده بعده، جدد العزيز الهدنة مع الكندهري ملك الإفرنج، كما عقد أبوه معه. وكان الأمير أسامة يقطع بيروت فكان يبعث الشواني للإغارة على الإفرنج. وشكوا ذلك إلى العادل بدمشق، والعزيز بمصر فلم يشكياهم فأرسلوا إلى ملوكهم وراء البحر يستنجدونهم فأمدوهم بالعساكر، وأكثرهم من الألمان. ونزلوا بعكا، واستنجد العادل بالعزيز فبعث إليه بالعساكر، وجاءته عساكر الجزيرة والموصل، واجتمعوا بعين جالوت وأقاموا رمضان وبعض شوال من سنة إثنتين وتسعين ثم ساروا إلى يافا فملكوا المدينة أوّلاً وخربوها. وإمتنع الحامية بالقلعة فحاصرها وفتحوها عنوة واستباحوها. وجاء الإفرنج من عكا لصريخ إخوانهم، وإنتهوا إلى قيسارية فبلغهم خبر وفادتهم، وخبر وفادة الكندهري ملكهم بعكا فرجعوا ثم اعتزموا على قصد بيروت فسار العادل لتخريبها حذراً عليها من الإفرنج فتكفل له أسامة عاملها بحمايتها.

وعاد ووصل إليها الإفرنج يوم عرفة من السنة، وهرب منها أسامة وملكوها. وفرق العادل العساكر فخربوا ما كان بقي من صيدا بعد تخريب صلاح الدين، وعاثوا في نواحي صور فعاد الإفرنج إلى صور، ونزل المسلمون على قلعة هونين. ثم نازل الإفرنج حصن تبنبن في صفر سنة أربع وتسعين، وبعث العادل عسكراً لحمايته فلم يغنوا عنه. ونقب الإفرنج أسواره

فبعث العادل بالصريخ إلى العزيز صاحب مصر فأغذ السير بعساكره، وانتهى إلى عسقلان في ربيع من السنة.وكان المسلمون في تبنبن قد بعثوا إلى الإفرنج من يستأمن لهم، ويسلمون لهم فأنذرهم بعض الإفرنج بأنهم يغدرون بهم فعادوا إلى حصنهم، وأصرّوا على الإمتناع حتى وصل العزيز إلى عسقلان فاضطرب الإفرنج لوصوله، ولم يكن لهم ملك، وإنما كان معهم الجنصكير القسيس من أصحاب ملك الألمان، والمرأة زوجة الكندهري فاستدعوا ملك قبرص وإسمه هنري وهو أخ الملك الذي أسر بحطين فجاءهم وزوّجوه بملكتهم.

فلما جاء العزيز وسار من عسقلان إلى جبل الخليل وأطلّ على الإفرنج وناوشهم القتال، رجع الإفرنج إلى صور ثم إلى عكا. ونزلت عساكر المسلمين بالبحور فاضطرب أمراء العزيز، واجتمع جماعة منهم وهم: ميمون القصري وقراسنقر والحجاب وابن المشطوب على الغدر بالعزيز ومدبر دولته فخر الدين جهاركس، فأغذ السير إلى مصر. وتراسل العادل والإفرنج في الصلح. وإنعقد بينهم في شعبان من السنة، ورجع العادل إلى دمشق، وسار منها إلى ماردين كما يأتي خبره، والله تعالى أعلم.

وفاة طغتكين بن أيوب باليمن وملك إبنه إسماعيل

ثم سليمان بن تقيّ الدين شاهنشاه

قد كان تقدّم لنا أنّ سيف الإسلام طغتكين بن أيوب سار إلى المدينة سنة ثمان وسبعين بعد وفاة أخيه شمس الدولة توران شاه، واختلاف نوابه باليمن. واستولى عليها ونزل زبيد وأقام بها إلى أن توفي في شوّال سنة ثلاث وتسعين، وكان سيء السيرة كثير الظلم للرعية جماعاً للأموال. ولما استفحل بها أراد الاستيلاء على مكة

فبعث، الخليفة الناصر إلى أخيه صلاح الدين يمنعه من ذلك فمنعه ولما توفي ملك مكانه إبنه إسماعيل وبلغ المعز وكان أهوج فانتسب في بني أمية، وادّعى الخلافة وتلقب بالهادي ولبس الخضرة وبعث إليه عمه العادل بالملامة والتوبيخ فلم يقبل، وأساء السيرة في رعيته وأهل دولته فوثبوا به وقتلوه.وتولى ذلك سيف الدين سنقر مولى أبيه، ونصب أخاه الناصر سنة ثمان وتسعين فأقام بأمره. ثم هلك سنقر لأربع سنين من دولته، وقام مكانه غازي بن جبريل من أمرائهم، وتزّوج أمّ الناصر . ثم قتل الناصر مسموماً وثأر العرب منه بغازي المذكور. وبقي أهل اليمن فوضى، واستولى على طغان وبلاد حضرموت محمد بن محمد الحميري، واستبدّت أمّ الناصر ، وملكت زبيد، وبعثت في طلب أحد من بني أيوب تملكه على

اليمن. وكان للمظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه، وقيل لإبنه سعد الدين شاهنشاه ابن إسمه سليمان ترهب ولبس المسموح، ولقيه بالموسم بعض غلمانها وجاءته فتزوجته وملكته اليمن، والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير العادل إلى الجزيرة وحصاره ماردين

كان نور الدين أرسلان شاه مسعود صاحب الموصل قد وقع بينه وبين قطب الدين محمد ابن عمه عماد الدين زنكي، صاحب نصيبين والخابور والرقة، وبين أبيه عماد الدين قبله فتنة بسبب الحدود في تخوم أعمالهم. فسار نور الدين إليه في عساكره، وملك منه نصيبين. ولحق قطب الدين بحران والرها إيالة العادل بن أيوب. وبعث إليه بالصريخ وهو بدمشق، وبذل له الأموال في إنجاده فسار العادل إلى حران، وإرتحل نور الدين من نصيبين إلى الموصل. وسار قطب الدين إليها فملكها، وسار العادل إلى ماردين في رمضان من السنة فحاصرها. وكان صاحبها حسام الدين بولو أرسلان بن أبي الغازي بن ألبابن تمرتاش أبي الغازي بن أرتق، وهو صبي، وكافله مولى النظام برتقش مولى أبيه والحكم له. ودام حصاره عليها، وملك الربض وقطع الميرة عنها. ثم رحل عنها في العام القابل كما تقدم في أخبار دولة زنكي، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

وفاة العزيز صاحب مصر وولاية أخيه الأفضل

ثم توفي العزيز عثمان بن صلاح الدين آخر محرم سنة خمس وتسعين، وكان فخر الدين أياس جهاركس مولى أبيه مستبداً عليه فأرسل العادل بمكانه من حصار ماردين يستدعيه للملك. وكان جهاركس هذا مقدم موالي صلاح الدين، وكانوا منحرفين عن الأفضل. وكان موالي صلاح الدين شيركوه والأكراد شيعة له. وجمعهم جهاركس لينظر في الولاية، وأشار بتوليه ابن العزيز فقال له سيف الدين أيازكوش مقدم موالي شيركوه: لا يصلح لذلك لصغره إلا أن يكفله أحد من ولد صلاح الدين. لأن رياسة العساكر صنعة. واتفقوا على الأفضل. ثم مضوا إلى القاضي الفاضل فأشار بذلك أيضاً وأرسل أيازكوش يستدعيه من صرخد فسار آخر صفر من السنة ولقيه الخبر في طريقه بطاعة القدس له، وخرج أمراء مصر فلقوه ببلبيس وأضافه أخوه المؤيد مسعود، وفخر الدين جهاركس ودولة العزيز فقدم أخاه وإرتاب جهاركس، واستأذنه في المسير ليصلح بين طائفتين من العرب اقتتلا فأذنه فسار فخر الدين إلى

القدس وتملكه. ولحقه جماعة من موالي صلاح الدين منهم: قراجاً الدكرمس وقراسنفر. وجاءهم ميمون القصري فقويت شوكتهم به، واتفقوا على عصيان الأفضل. وأرسلوا إلى الملك العادل يستدعونه فلم يعجل لإجابتهم لطمعه في أخذ ماردين، وإرتاب الأفضل بموالي صلاح الدين، وهم: شقيرة وأنبك مطيش وألبكي. ولحق جماعة منهم بأصحابهم بالقدس، وأرسل الأفضل إليهم في العود على ما يختارونه فامتنعوا، وأقام هو بالقاهرة، وقرر دولته وقدم فيها سيف الدين أيازكوش والملك لابن أخيه العزيز عثمان، وهو كافل له لصغره. وانتظمت أمورهم على ذلك إنتهى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حصار الأفضل دمشق وعوده عنها

ولما انتظمت الأمور للأفضل بعث إليه الظاهر غازي صاحب حلب، وابن عمه شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص يغريانه بملك دمشق لغيبة العادل عنها في حصار ماردين، ويعدانه المظاهرة فسار من منتصف السنة، ووصل إلى دمشق منتصف شعبان. وسبقه العادل إليها، وترك العساكر مع إبنه الكامل على ماردين ولما نزل الأفضل على دمشق وكان معه الأمير مجد الدين أخو عيسى الهكاري فداخل قوماً من الأجناد في دمشق في أن يفتحوا له باب السلامة. ودخل منه هو والأفضل سراً وانتهوا إلى باب البريد ففطن عسكر العادل لقلتهم، وإنقطاع مددهم فتراجعوا وأخرجوهم. ونزل الأفضل بميدان الحصار. وضعف أمره واعصوصب الأكراد من عساكره فارتاب بهم الآخرون، وإنحازوا عنهم في المعسكر. ووصل شيركوه صاحب حمص، ثم الظاهر صاحب حلب آخر شعبان وأول رمضان لمظاهرة الأفضل. وأرسل العادل إلى موالي صلاح الدين بالقدس فساروا إليه وقوي بهم، ويئس الأفضل وأصحابه، وخرج عساكر دمشق ليبيتوهم فوجدوهم حذرين فرجعوا. وجاء الخبر إلى العادل بوصول إبنه محمد الكامل إلى حران فاستدعاه، ووصل منتصف صفر سنة ست وتسعين، فعند ذلك رحلت العساكر عن دمشق، وعاد كل منهم إلى بلاده إنتهى، والله أعلم.

إفراح الكامل عن ماردين

قد كان تقدم لنا مسير العادل إلى ماردين، وسار معه صاحب الموصل وغيره من ملوك الجزيرة وديار بكر، وفي نفوسهم غصص من تغلب العادل على ماردين وغلبهم. فلما عاد العادل إلى

دمشق لمدافعة الأفضل وترك إبنه الكامل على حصار ماردين، واجتمع ملوك الجزيرة وديار بكر على مدافعته عنها. وسار نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل، وابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي صاحب سنجار وابن عمه قطب الدين سنجر شاه بن غازي صاحب جزيرة ابن عمر، واجتمعوا كلهم ببدليس حتى قضوا عيد الفطر، وارتحلوا سادس شوّال وقاربوا جبل ماردين. وكان أهل ماردين قد اشتدّ عليهم الحصار، وبعث النظام برتقش صاحبها إلى الكامل بتسليم القلعة على شروط إشترطها إلى أجل ضربه. وأذن لهم الكامل في إدخال الأقوات في تلك المدة. ثم جاءه الخبر بوصول صاحب الموصل ومن معه فترل القائم للقائهم، وترك عسكراً بالربض. وبعث قطب الدين صاحب سنجار إلى الكامل، ووعده بالإنهزام فلم يغن. ولما التقى الفريقان حمل صاحب الموصل عليهم مستميتاً فانهزم الكامل، وصعد إلى الربض فوجد أهل ماردين قد غلبوا عسكره الذين

هنالك ونهبوا مخلفهم. فارتحل الكامل منتصف شوال مجفلاً، ولحق بميافارقين. وإنتهب أهل ماردين مخلفه. ونزل صاحبها فلقي صاحب الموصل. وعاد إلى قلعته. وإرتحل صاحب الموصل إلى رأس عين لقصد حلوان والرها وبلاد الجزيرة من بلاد العادل فلقيه هنالك رسول الظاهر صاحب حلب يطلبه في السكة والخطبة، فارتاب لذلك، وكان عازماً على نصرتهم فقعد عنهم، وعاد إلى الموصل. وأرسل إلى الأفضل والظاهر يعتذر بمرض طرقه وهما يومئذ على دمشق، ووصل الكامل من ميافارقين إلى حران فاستدعاه أبوه من دمشق وسار إليه في العساكر فأفرج عنه الأفضل والظاهر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء العادل على مصر

ولما رحل الأفضل والظاهر إلى بلادهم تجهز العادل إلى مصر، وأغراه موالي صلاح الدين بذلك، واستحلفوه على أن يكون ابن العزيز ملكاً وهو كافله. وبلغت الأخبار بذلك إلى الأفضل وهو في بلبيس فسار منها، ولقيهم فإنهزم لسبع خلون من ربيع الآخر سنة ست وتسعين. ودخل القاهرة ليلاً، وحضر الصلاة على القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، توفي تلك الليلة. وسار العادل لحصار القاهرة، وتخاذل أصحاب الأفضل منه فأرسل إلى عمه في الصلح وتسليم الديار المصرية له على أن يعوضه دمشق أو بلاد الجزيرة وهي: حران والرها وسروج فلم يجبه، وعوضه ميافارقين وجبال نور، وتحالفوا على ذلك. وخرج الأفضل من القاهرة ثامن عشر ربيع واجتمع بالعادل، وسار إلى بلده صرخد ودخل العادل القاهرة من يومه، ولما

وصل الأفضل صرخد بعث من يتسلم البلاد التي عوضه العادل، وكان بها إبنه نجم الدين أيوب فامتنع من تسليم ميافارقين، وسلم ما عداها. وردّد الأفضل رسله في ذلك إلى العادل فزعم أن إبنه عصاه فعلم الأفضل أنه أمره، واستفحل العادل في مصر، وقطع خطبة المنصور بن العزيز، وخطب لنفسه واعترض الجند ومحصهم بالمحو والإثبات فاستوحشوا لذلك. وبعث العادل فخر الدين جهاركس مقدم موالي صلاح الدين في عسكر إلى بانياس ليحاصرها، ويملكها لنفسه ففصل من مصر للشام في جماعة الموالي الصلاحية وكان بها الأمير بشارة من أمراء الترك، إرتاب العادل بطاعته فبعث العساكر إليه مع جهاركس، والله تعالى أعلم.

مسير الظاهر والأفضل إلى حصار دمشق

ولما قطع العادل خطبة المنصور بن العزيز بمصر استوحش الأمراء لذلك ولما كان منه في اعتراض الجند فراسلوا الظاهر بحلب والأفضل بصرخد أن يحاصرا دمشق فيسير إليهما الملك العادل فيتأخرون عنه بمصر، ويقومون بدعوتهما. ونمي الخبر إلى العادل، وكتب به إليه الأمير عز الدين أسامة جاء من الحج، ومرّ بصرخد فلقيه الأفضل، ودعاه إلى أمرهم وأطلعه على ما عنده فكتب به إلى العادل، وأرسل العادل إلى إبنه المعظم عيسى بدمشق يأمره بحصار الأفضل بصرخد وكتاب إلى جهاركس بمكانه من حصار بانياس، وإلى ميمون القصري صاحب بانياس بالمسير معه إلى صرخد ففر منها الأفضل إلى أخيه الظاهر بحلب، فوجده يتجهز لأنه بعث أميراً من أمرائه إلى العادل فرده من طريقه. فسار إلى منبج فملكها، ثم قلعة نجم كذلك، وذلك سلخ رجب من سنة سبع وتسعين وسار المعظم بقصد صرخد، وانتهى إلى بصرى، وبعث عن جهاركس والذين معه على بانياس

فغالطوه و لم يجيبوه فعاد إلى دمشق. وبعث إليهم الأمير أسامة يستحثهم فأغلظوا له في القول، وتناوله البكاء منهم، وثاروا به جميعاً فتذمم لميمون القصري منهم فأمنه، وعاد إلى دمشق. ثم ساروا إلى الظاهر حضر به صلاح الدين وأنزله من صرخد، واستحثوا الظاهر والأفضل للوصول فتباطأ الظاهر عنهم، وسار من منبج إلى حماة فحاصرها حتى صالحه صاحبها ناصر الدين محمد على ثلاثين ألف دينار صورية. فارتحل عنها تاسع رمضان إلى حمص ومعه أخوه الأفضل، ومنها إلى بعلبك وإلى دمشق. ووافاه هنالك الموالي الصلاحية مع الظاهر خضر بن مولاهم. وكان الوفاق بينهم إذا فتحوا دمشق أن تكون بيد الأفضل فإذا ملكوا مصر سار إليها، وبقيت للظاهر. وأقطع الأفضل صرخد لمولى أبيه زين الدين قراجا، وأخرج أهله منها إلى حمص عند شيركوه بن محمد بن شيركوه وكان العادل قد

سار من مصر إلى الشام فانتهى إلى نابلس، وبعث عسكرا إلى دمشق، ووصلوا قبل وصول هذه العساكر فلما وصلوها قاتلوها يوماً وثانية منتصف ذي القعدة، وأشرفوا على أخذها فبعث الظاهر إلى الأفضل بأن دمشق تكون له فاعتذر بأن أهله في غير مستقرّ، ولعلهم يأوون إلى دمشق في خلال ما يملك مصر، فلجّ الظاهر فى ذلك. وكان الموالي الصلاحية مشتملين على الأفضل وشيعة له فخيرهم بين المقام والإنصراف، ولحق فخر الدين جهاركس وقراجا بدمشق فامتنعت عليهم، وعادوا إلى تجديد الصلح مع العادل على أن يكون للظاهر منبج وأفامية وكفرطاب وبعض قرى المعرّة، والأفضل له سميساط وسروج ورأس عين وحملين فتم ذلك بينهم ورحلوا عن دمشق في محرّم سنة ثمان وتسعين وسار الظاهر إلى حلب والأفضل إلى حمص فأقام بها عند أهله، ووصل العادل إلى دمشق في تاسوعاء، وجاء الأفضل فلقيه بظاهر دمشق، وعاد إلى بلاده فتسلمها. وكان الظاهر والأفضل لما فعلا من منبج إلى دمشق بعثا إلى نور الدين صاحب الموصل أن يقصد بلاد العادل بالجزيرة، وكانت بينه وبينهما وبين صاحب ماردين يمين وإتفاق على العادل، منذ ملك مصر مخافة أن يطرق أعمالهم، فسار نور الدين عن الموصل في شعبان ومعه ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار وعسكر ماردين، ونزلوا رأس عين. وكان بحران الفائز بن العادل في عسكر يحفظ أعمالهم بالجزيرة فبعث إلى نور الدين في الصلح، ووصل الخبر بصلح العادل مع الظاهر والأفضل فأجابهم نور الدين إلى الصلح واستحلفوا، وبعث أرسلان من عنده إلى العادل فاستحلفوه أيضاً وصحت الحال، والله تعالى ولي التوفيق.

حصار ماردين ثم الصلح بين العادل والأشرف:

ثم بعث الملك العادل إبنه الأشرف موسى في العساكر لحصار ماردين فسار إليها ومعه عساكر الموصل وسنجار، ونزلوا بالحريم تحت ماردين. وسار عسكر من قلعة البازغية من أعمال ماردين لقطع الميرة عن عسكر الأشرف، فلقيهم جماعة من عسكر الأشرف وهزموهم. وأفسد التركمان السابلة في تلك النواحي، وامتنع على الأشرف قصده فتوسط الظاهر غازي في الإصلاح بينهم، على أن يحمل صاحب ماردين للعادل مائة وخمسين ألف دينار، والدينار أحد عشر قيراطاً من الأميري، ويخطب له ببلاده ويضرب السكة باسمه،

وتعسكر طائفة من جنده متى دعاهم لذلك، فأجاب العادل وتم الصلح بينهما، ورحل الأشرف عن ماردين، والله أعلم.

أخذ البلاد من يد الافضل:

قد كان تقدّم أن الظاهر والأفضل لما صالحا العادل سنة سبع وتسعين أخذ الأفضل سميساط وسروج ورأس عين وحملين، وكانت بيده معها قلعة نجم التي ملكها الظاهر بين يدي الحصار قبل الصلح ثم استردّ العادل البلاد من يد الأفضل سنة تسع وتسعين، وأبقى له سميساط وقلعة نجم فطلب الظاهر قلعة نجم على أن يشفع له عند العادل في ردّ ما أخذ منه فلم يجب فتهدده. ولم تزل الرسل تتردد بينهما حتى سلمها إليه في شعبان من السنة، وبعث الأفضل أمه إلى العادل في رد سروج ورأس عين عليهم فلم يشفعها فبعث الأفضل إلى ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم بطاعته وأن يخطب له فبعث إليه بالخلعة، وخطب له الأفضل في سميساط سنة ستمائة. وسار من جملة نوابه في أعماله. وفي سنة تسع وتسعين هذه خاف على مصر محمود بن العزيز صاحب مصر بعث العساكر إلى الرها، لأنه لما قطع خطبته من مصر سنة ست وتسعين خاف على مصر من شيعة أبيه فأخرجه سنة ثمان وتسعين إلى دمشق. ثم نقله في هذه السنة إلى الرها، ومعه أخواته وأمه وأهله فأقاموا بها، والله أعلم.

واقعةالأشرف مع صاحب الموصل:

كانت الفتنة متصلة بين نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل، وبين ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار، واستمال العادل بن أيوب قطب الدين فخطب له بأعماله. وسار إليه نور الدين غيرة من ذلك فحاصر نصيبين في شعبان من سنة ستمائة. وبعث قطب الدين يستمد الأشرف موسى بن العادل وهو بحران فسار إلى رأس عين لإمداده، ومدافعة نور الدين عنه بعد أن إتفق على ذلك مع مظّفر الدين صاحب أربل، وصاحب جزيرة ابن عمر وصاحب كيفا وآمد. ففارق نور الدين نصيبين، وسار إليها الأشرف، وجاءه أخوه نجم الدين صاحب ميافارقين وصاحب كيفا وصاحب الجزيرة، وساروا جميعاً إلى بلد البقعا ونور الدين صاحب الموصل قد إنصرف من تل أعفر، وقد ملكها إلى كفرزمان معتزماً على مطاولتهم إلى أن يفترقوا. ثم أغراه بعض مواليه كان بعثه عيناً عليهم فقللهم في عينه، وحرضه على معاجلتهم باللقاء فسار إلى نوشرا ونزل قريباً منهم. ثم ركب لقتالهم واقتتلوا فانهزم نور الدين ولحق بالموصل ونزل الأشرف وأصحابه كفر رمان وعاثوا في البلاد واكتسحوها. وترددت الرسل بينهم في الصلح على أن

يعيد نور الدين على قطب الدين قلعة تل أعفر التي أخذها له فتم ذلك سنة إحدى وستمائة وعاد إلى بلده، والله تعالى أعلم.

وصول الإفرنج إلى الشام والصلح معهم:

ولما ملك الإفرنج القسطنطينية من يد الروم سنة إحدى وستمائة تكالبوا على البلاد، ووصل جمع منهم إلى الشام وأرسلوا بعكا عازمين على إرتجاع القدس من المسلمين. ثم ساروا في نواحي الأردن فاكتسحوها، وكان

العادل بدمشق استنفر العساكر من الشام ومصر، وسار فترل بالطور قريباً من عكا لمدافعتهم وهم قبالته بمرج عكا. وساروا إلى كفركنا فاستباحوه. ثم إنقضت إحدى وستمائة وتراسلوا في المهادنة على أن يترل لهم العادل عن كثير من مناصف الرملة وغيرها، ويعطيهم وغيرها. وتم ذلك بينهم وسار العادل إلى مصر فقصد الإفرنج حماة، وقاتلهم صاحبها ناصر الدين محمد فهزموه وأقاموا أياماً عليها ثم رجعوا، والله تعالى أعلم.

غارة ابن ليون على أعمال حلب:

قد تقدم لنا ذكر ابن ليون ملك الأرمن وصاحب الدروب فأغار سنة إثنتين وستمائة على أعمال حلب واكتسحها، واتصل ذلك منه فجمع الظاهر غازي صاحب حلب، ونزل على خمسة فراسخ من حلب وفي مقدمته ميمون القصري من موالي أبيه منسوباً إلى قصر الخلفاء بمصر ومنه كان أبوه. وكان الطريق إلى بلاد الأرمن متعذراً من حلب لتوعر الجبال وصعوبة المضايق، وكان ابن ليون قد نزل في طرف بلاده لما يلي حلب، ومن ثغورها قلعة دربساك فخشي الظاهر عليها منه، وبعث إليها مدداً، وأمر ميمون القصري أن يشيعه بطائفة من عسكره ففعل، وبقي في خف من الجند. ووصل خبره إلى ابن ليون فكبس القصري ونال منه ومن المسلمين، وانهزموا أمامه فظفر بمخلفهم، ورجع فلقي في طريقه المدد الذي بعث إلى دربساك فهزمهم وظفر بما كان معهم، وعاد الأرمن إلى بلادهم فاعتصموا بحصونهم، والله تعالى أعلم.

استيلاء نجم الدين بن العادل على خلاط:

كان العادل قد استولى على ميافارقين، وأنزل بها إبنه الأوحد نجم الدين. ثم استولى نجم الدين على حصون من أعمال خلاط، وزحف اليها سنة ثلاث وستمائة، وقد استولى عليها بليان مولى شاهرين فقاتلة وهزمه، وعاد إلى ميافارقين فهزمهم. ثم دخلت سنة أربع وستمائة. وملك مدينة سوس وغيرها، وأمده أبوه العادل بالعساكر فقصد خلاط وسار إليه بليان فهزمه نجم الدين وحاصره بخلاط. وبعث بليان إلى مغيث الدين طغرل شاه بن قليج أرسلان صاحب أرزن الروم يستنجده فجاء في عساكره، واجتمع مع بليان، وإنهزم نجم الدين ونزلا على مدينة تلبوس فحاصرها. ثم غدر طغرل شاه ببليان وقتله وسار إلى خلاط ليملكها فطرده أهلها، فسار إلى ملازكرد فامتنعت عليه، فعاد إلى بلاده. وأرسل أهل خلاط إلى نجم الدين فملكوه خلاط وأعمالها، وخافه الملوك المجاورون له وملك الكرك، وتابعوا الغارات على بلاده فلم يخرج إليهم خشية على خلاط. واعتزل جماعة من عسكر خلاط فاستولوا على حصن وإن من أعظم الحصون وأمنعها فعصوا على نجم الدين، وإجتمع إليهم جمع كثير، وملكوا مدينة أرجيش واستمدّ نجم الدين على خلاط وأعمالها، وعاد أخوه الأشرف إلى أعماله بحران والرها. ثم سار الأوحد نجم الدين إلى ملازكرد ليرتب أحوالها فوثب أهل خلاط على عسكره فأخرجوهم وحصروا أصحابه بالقلعة، ونادوا بشعار بني شاهرين. وعاد نجم الدين إليهم وقد وافاه عسكر من الجزيرة فقوي بهم وحاصر خلاط، واختلف أهلها فملكها واستلحم أهلها، وحبس كثيراً من أعيانها كانوا فارين وذل أهل خلاط لبني أيوب بعد هذه الوقعة إلى آخر الدولة، والله تعالى أعلم.

غارات الإفرنج بالشام:

كان الإفرنج بالشام قد أكثروا الغارات سنة أربع وستمائة بحشد ثان ثم ملكوا القسطنطينية واستفحل ملكهم فيها فأغار أهل طرابلس، وحصن الأكراد منهم على حمص وأعمالها. وعجز صاحبها شيركوه بن محمد بن شيركوه عن دفاعهم، واستنجد عليهم فانجده الظاهر صاحب حلب بعسكر أقاموا عنده للمدافعة عنه. وأغار أهل قبرص في البحر على أسطول مصر فظفروا

منه بعدة قطع، وأسروا من وجدوا فيها وبعث العادل إلى صاحب عكا يحتج عليه بالصلح فاعتذر بأن أهل قبرص في طاعة الإفرنج الذين بالقسطنطينية، وأنه لا حكم له عليهم فخرج العادل في العساكر إلى عكا حتى صالحه صاحبها على إطلاق أسرى من المسلمين. ثم سار إلى حمص، ونازل القلعتين عند بحيرة قدس ففتحه وأطلق صاحبه وغنم ما فيه وخربه، وتقدم إلى طرابلس فاكتسح نواحيها إثني عشر يوماً، وعاد إلى بحيرة قدس. وراسله الإفرنج في الصلح فلم يجبهم وأظله الشتاء فأذن لعساكر الجزيرة في العود إلى بلادهم وترك عند صاحب حمص عسكراً أنجده بهم، وعاد إلى دمشق فشتى بها، والله أعلم.

غارات الكرج على خلاط و أعمالها وملكهم أرجيش:

ولما ملك الأوحد نجم الدين خلاط كما مرّ ردد الكرج الغارات على أعمالها وعاثوا فيها، ثم ساروا سنة خمس وستمائة إلى مدينة أرجيش فحاصروها وملكوها عنوة واستباحوها وخرّبوها. وخام نجم الدين عن لقائهم ومدافعتهم إلى أن إنتقض عليه أهل خلاط لما فارقها ؛ ووقع بينه وبينهم ما مّر. ثم سار الكرج سنة تسع إلى خلاط وحاصروها، وحاربهم الأوحد وهزمهم وأسر ملكهم، ثم فاداه بمائة ألف دينار وخمسة آلاف أسير، وعلى الهدنة مع المسلمين وأن يزوج بنته من الأوحد فانعقد ذلك، والله تعالى أعلم بغيبه.

استيلاء العادل على الخابور ونصيبين من عمل سنجار وحصارها:

قد تقدّم لنا أن قطب الدين زنكي بن محمود بن مودود صاحب سنجار والخابور ونصيبين وما إليها، كانت بينه وبين ابن عمه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عداوة مستحكمة وفتنة متصلة، وزوج نور الدين صاحب الموصل بنته من ابن العادل بن أيوب سنة خمس وستمائة. وإتصل بهما لذلك فزين له وزراؤه وأهل دولته أن يستنجد بالعادل على جزيرة ابن عمر وأعمالها، التي لابن عمه سنجار شاه ابن غازي ابن مودود فتكون الجزيرة بكمالها مضافة إلى الموصل. وملك العادل سنجار وما إليها، وهي ولاية قطب الدين فتكون له، فأجاب العادل إلى ذلك، ورآه ذريعة إلى ملك الموصل. وأطمع نور الدين في أيالة قطب الدين إذا ملكها تكون لابنه الذي هو صهره على إبنته، وتكون عنده بالموصل وسار العادل بعساكره سنة ست وستمائة وقصد الخابور فملكه فتبين لنور الدين صاحب الموصل حينئذ أنه لا مانع منه، وندم على ما فرط في رأيه من وفادته، ورجع إلى الإستعداد للحصار. وخوفه الوزراء والحاشية أن ينتقض على العادل فيبدأ به. وسارالعادل من الخابور إلى نصيبين فملكها، وقام بمدافعته عن قطب الدين، وحماية البلد من الأمير أحمد بن برتقش مولى أبيه. وشرع نور الدين صاحب سنجار إبنه مظفر الدين يستشفع به إلى العادل لمكانه منه، وأثره

في موالاته فشفع، ولم يشفعه العادل فراسل نور الدين صاحب الموصل في الإتفاق على العادل فأجابه.وسار بعساكره من الموصل وإجتمع مع نور الدين بظاهرها واستنجد بصاحب حلب الظاهر، وصاحب بلاد الروم كخسرو وتداعوا على الحركة إلى بلاد العادل إن امتنع من الصلح، والإبقاء على صاحب سنجار، وبعثوا إلى الخليفة الناصر أن يأمر العادل فبعث إليه أستاذ داره أبا نصر هبة الله بن المبارك بن الضحاك، والأمير اقباش من خواص مواليه فأجاب إلى ذلك. ثم غالطهم وذهب إلى المطاولة، ثم صالحهم على سنجار فقط وله ما أخذ وتحالفوا على ذلك، وعاد كل إلى بلده. ثم قبض المعظم عيسى سنة عشر وستمائة على الأمير أسامة بأمر أبيه العادل، وأخذ منه حصن كوكب وعجلون وكانا من أعماله فخربهما، وحصن أردن بالكوكب وبنى مكانه حصناً قرب عكا على جبل الطور، وشحنه بالرجال والأقوات، والله تعالى أعلم.

وفاة الظاهر صاحب حلب وولاية إبنه العزيز:

لما توفي الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين بن أيوب صاحب حلب ومنبج وغيرهما من بلاد الشام في جمادى الأخيرة سنة ثلاث عشرة، وكان مرهف الحدّ ضابطاً جماعة للأموال شديد الإنتقام محسناً للقضاة، وعهد بالملك لإبنه الصغير محمد بن الظاهر وهو ابن ثلاث سنين، وعدل عن الكبير لأن أمه بنت عمه العادل ولقبه العزيز غياث الدين، وجعل أتابكه وكافله وخادمه، طغرلبك، ولقبه شهاب الدين. وكان خيراً صاحب إحسان ومعروف فأحسن كفالة الولد، وعدل في سيرته، وضبط الإيالة بجميل نظره، والله أعلم.

ولاية **مسعود** بن الكامل على اليمن:

ولما ملك سليمان بن المظفر على اليمن سنة تسع وتسعين وخمسمائة أساء إلى زوجته أمّ الناصر التي ملكته، وضارّها وأعرض عنها واستبدّ بملكه، وملأ الدنيا ظلماً. وأقام على ذلك ثلاث عشرة سنة. ثم إنتقض على العادل وأساء معاملته، وكتب إليه بعض الأحيان: "أنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم" فكتب العادل إلى إبنه الكامل أن يبعث العساكر إلى اليمن مع وال من قبله، فبعث إبنه المسعود يوسف، وإسمه بالتركي أقسنس، في العساكر سنة إثنتي عشرة وستمائة فملك اليمن، وقبض على سليمان شاه وبعث به معتقلاً إلى مصر. فلم يزل بها إلى أن استشهد في حروب دمياط مع الإفرنج أعوام تسع وأربعين وطالت أيام مسعود باليمن وحج سنة تسع عشرة، وقدم أعلام أبيه على أعلام الخليفة الناصر فكتب الناصر يشكوه إلى أبيه فكتب إليه أبوه الكامل: برئت من العادل يا أخس إن لم أقطع يمينك، فقد نبذت وراء ظهرك دنياك ودينك، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فاستعتب إلى أبيه وأعتبه. ثم غلب سنة ست وعشرين على مكة من يد الحسن بن قتادة سيد بني أدريس بن مطاعن من بني حسن وولّى عليها وعاد إلى اليمن فهلك بقية السنة ؛ وغلب على أمر اليمن بعده علي بن رسول أستاذ داره، ونصب للملك إبنه الأشرف موسى وكفله ثم هلك موسى واستبدّ ابن رسول باليمن، وأورثه بنيه فكانت لهم دولة إتصلت لهذا العهد، كما نذكره في أخبارها إن شاء الله تعالى.

وصول الإفرنج من وراء البحر إلى سواحل الشام

ومسيرهم إلى دمياط وحصارها واستيلاؤهم عليها:

كان صاحب رومة أعظم ملوك الإفرنج بالعدوة الشمالية من البحر الرومي، وكانوا كلهم يدينون بطاعته، وبلغة اختلاف أموال الإفرنج بساحل الشام وظهور المسلمين عليهم فانتدب إلى إمدادهم وجهز إليهم العساكر فامتثلوا أمره من إيالته. وتقدّم إلى ملوك الإفرنج أن يسيروا بأنفسهم أو يرسلوا العساكر فامتثلوا أمره، وتوافت الأمداد إلى عكا من سواحل الشام سنة أربع عشرة. وسار العادل من مصر إلى الرملة وبرز الإفرنج من عكا ليصدوه فسار إلى نابلس يسابقهم إلى أطراف البلاد، ويدافعهم عنها فسبقوه. ونزل هو على بيسان من الأردن، وزحف الإفرنج لحربه في شعبان من السنة، وكان في خف من العساكر فخام عن لقائهم. ورجع إلى دمشق ونزل مرج الصفر. وإستدعى العساكر ليجمعها، وإنتهب الفرنج مخلفه في بيسان، واكتسحوا ما بينها وبين بانياس. ونزلوا بانياس ثلاثا، ثم عادوا إلى مرج عكا بعد أن خربوا تلك الأعمال، وامتلأت أيديهم من نهبها وسباياها. ثم ساروا إلى صور ونهبوا صيدا والشقيف على فرسخين من بانياس، وعادوا إلى عكا بعد عيد الفطر. ثم حاصروا حصن الطور على جبل

قريب من عكا، كان العادل أختطها فحاصروها سبعة عشر يوماً، وقتل عليها بعض ملوكهم فرجعوا عنها. وبعث العادل إبنه المعظم عيسى إلى حصن الطور فخربها لئلا يملكها الإفرنج. ثم سار الإفرنج من عكا في البحر إلى دمياط وأرسوا بسواحلها في صفر، والنيل بينهم وبينها. وكان على النيل برج حصين تمرّ منه إلى سور دمياط سلاسل من حديد محكمة تمنع السفن من البحر الملح أن تصعد في النيل إلى مصر. فلما نزل الإفرنج بذلك الساحل خندقوا عليهم وبنوا سورا بينهم وبين الخندق، وشرعوا في حصار دمياط واستكثروا من آلات الحصار وبعث العادل إلى إبنه الكامل بمصر أن يخرج في العساكر ويقف قبالتهم ففعل، وخرج من مصر في عساكر المسلمين فنزل قريباً من دمياط بالعادلية. وألحّ الإفرنج على قتال ذلك البرج أربعة أشهر، حتى ملكوه ووجدوا السبيل إلى دخول النيل ليتمكنوا من النزول على دمياط، فبنى الكامل عوض السلاسل جسراً عظيماً يمانع الداخلين إلى النيل فقاتلوا عليه قتالاً شديداً حتى قطعوه. فأمر الكامل بمراكب مملوءة بالحجارة وحرقوها وراء الجسر تمنع المراكب من الدخول إلى النيل، فعدل الإفرنج إلى خليج الأزرق. وكان النيل يجري فيه قديماً فحفروه فوق الجسر، وأجروا فيه الماء إلى البحر، وأصعدوا مراكبهم إلى قبالة معسكر المسلمين ليتمكنوا من قتالهم، لأنّ دمياط كانت حاجزة بينهم فاقتتلوا معهم وهم في مراكبهم فلم يظفروا. والميرة والإمداد متصلة إلى دمياط، والنيل حاجز بينهم وبين الإفرنج فلا يحصل لهم من الحصار ضيق. ثم بلغ الخبر بموت العادل فاختلف العسكر، وسعى مقدم الأمراء عماد الدين أحمد بن سيف الدين علي بن المشطوب الهكاري في خلع الكامل وولاية أخيه الأصغر الفائز. ونمي الخبر إلى الكامل فأسرى من ليلته إلى أشمون طناح، وتفقده المسلمون من الغد فأجفلوا ولحقوا بالكامل، وخلفوا سوادهم بما فيه فاستولى عليه الإفرنج، وعبروا النيل إلى البرّ المتصل بدمياط، وجالوا بينها وبين أرض مصر. وفسدت السابلة بالأعراب، وإنقطعت الميرة عن دمياط، واشتدّ الإفرنج في قتالها وهي في قلة من الحاميةلإجفال المسلمين عنها بغتة. ولما جهدهم الحصار وتعذر عليهم القوت استأمنوا

إلى الإفرنج فملكوها آخر شعبان سنة ست عشرة، وبنوا سراياهم فيما جاورها فأقفروا ورجعوا إلى عمارة دمياط وتحصينها، وأقام الكامل قريباً منهم لحماية البلاد. وبنى المنصورة بقرب مصر عند مفترق البحر من جهة دمياط، والله تعالى أعلم.

وفاة العادل واقتسام الملك بين بنيه:

قد ذكرنا خبر العادل مع الإفرنج الذين جاؤا من وراء البحر إلى سواحل الشام سنة أربع عشرة، وما وقع بينه وبينهم بعكا وبيسان، وأنه عاد إلى مرج الصفر قريباً من دمشق فأقام به، فلما سار الإفرنج إلى دمياط إنتقل هو إلى خانقين فأقام بها. ثم مرض وتوفي سابع جمادي الأخيرة سنة خمس عشرة وستمائة لثلاث وعشرين سنة من ملكه دمشق، وخمس وسبعين من عمره. وكان إبنه المعظم عيسى بنابلس فجاء ودفنه بدمشق. وقام بملكها واستأثر بمخلفه من المال والسلاح، وكان لا يعبر عنه. يقال: كان المال العين في سترته سبعمائة ألف دينار. وكان ملكاً حليماً صبوراً مسدداً صاحب إفادة وخديعة منجمة في أحواله. وكان قد قسم البلاد في حياته بين بنيه: فمصر للكامل، ودمشق والقدس وطبرية والكرك وما إليها للمعظم عيسى، وخلاط وما إليها وبلاد الجزيرة غير الرها ونصيبين وميافارقين للأشرف موسى، والرها وميافارقين لشهاب الدين غازي، وقلعة جعبر للخضر أرسلان شاه.فلما توفي إستقل كل منهم بعمله. وبلغ الخبر بذلك إلى الملك الكامل بمكانه قبالة الإفرنج بدمياط فاضطرب عساكره، وسعى المشطوب كما تقدم في ولاية أخيه الفائز، ووصل الخبر بذلك إلى المعظم عيسى فأغذ السير من دمشق إليه بمصر. وأخرج المشطوب إلى الشام فلحق بأخيهما الأشرف، وصار في جملته. واستقام للكامل ملكه بمصر، ورجع المعظم من مصر فقصد القدس في ذي القعدة من السنة، وخرب أسواره حذراً عليه من الإفرنج. وملك الإفرنج دمياط كما ذكرناه. وأقام الكامل قبالتهم، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

وفاة المنصور صاب حماة وولاية إبنه الناصر :

قد تقدم لنا أنّ صلاح الدين كان قد أقطع تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه مدينة حماة وأعمالها، ثم بعثه إلى الجزيرة سنة سبع وثمانين فملك حران والرها وسروج وميافارقين وما إليها من بلاد الجزيرة، فأقطعه إياها صلاح الدين. ثم سار إلى بلاد أرمينية وقصد بكتمر صاحب خلاط وحاصرها. ثم إنتقل إلى حصار ملازكرد. وهلك عليها تلك السنة وتولى إبنه ناصر الدين محمد، ويلقب المنصور على أعماله. ثم انتزع صلاح الدين منه بلاد الجزيرة وأقطعها أخاه العادل، وأبقى حماة وأعمالها بيد ناصر الدين محمد المذكور فلم تزل بيده إلى أن توفي سنة سبع عشرة وستمائة لثمان وعشرين سنة من ولايته عليها بعد مهلك عمّ أبيه صلاح الدين والعادل.

وكان إبنه ولي عهده المظفر عند العادل بمصر، وإبنه الآخر قليج أرسلان عند خاله المعظم عيسى بمكانه من حصاره لملازكرد فاستدعاه أهل دولته بحماة، واشترط المعظم عليه مال يحمله وأطلقه إليهم فملك حماة وتلقب الناصر وجاءه أخوه ولي العهد من مصر فدافعه أهل حماة فرجع إلى دمشق عند المعظم، وكاتبهم واستمالهم فلم يجيبوه، ورجع إلى مصر، والله تعالى أعلم.

مسير صاحب بلاد الروم إلى حلب وإنهزامه ودخولها في طاعة الأشرف:

قد كنا قدمناه وفاة الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ومنبج سنة ثلاث عشرة وولاية إبنه الأصغر محمد العزيز غياث الدين في كفالة طغرل الخادم مولى أبيه الظاهر، وأنّ شهاب الدين هذا الكامل أحسن السيرة وأفاض العدل، وعف عن أموال الرعية. ورد السعاية فيهم بعضهم على بعض. وكان بحلب رجلان من الأشرار يكثران السعاية عند الظاهر ويغريانه بالناس، ولقي الناس منهما شدّة فأبعدهما شهاب الدين فيمن أبعد من أهل الشر، ورد عليهما السعاية فكسدت سوقهما، وتناولهما الناس بالألسنة والوعيد فلحقا ببلاد الروم، وأطمعا صاحبها كيكاوس في ملك حلب وما بعدها. ثم رأى أن ذلك لا يتم إلا أن يكون معه بعض بني أيوب لينقاد أهل البلاد إليه.وكان الأفضل بن صلاح الدين بسميساط، وقد دخل في طاعة كيكاوس غضباً من أخيه الظاهر وعمه العادل بما إنتزعاً من أعماله فاستدعاه كيكاوس، وطلبه في المسير على أن يكون ما يفتحه من حلب وأعمالها للأفضل والخطبة والسكة لكيكاوس. ثم يقصدون بلاد الأشراف بالجزيرة: حران والرها وما إليهما على هذا الحكم، وتحالفواعلى ذلك، وجمعوا العساكر وساروا سنة خمس عشرة فملكوا قلعة رعبان فتسلمها الأفضل. ثم قلعة تل باشر من صاحبها ابن بدر الدين أرزم الباروقي بعد أن كانوا حاصروها وضيقوا عليها وملكها كيكاوس لنفسه فاستوحش الأفضل وأهل البلد أن بفعل مثل ذلك في حلب وكان شهاب الدين كافل العزيز بن الظاهر مقيماً بقلعة حلب لا يفارقها خشية عليها فطير الخبر إلى الملك الأشرف صاحب الجزيرة وخلاط لتكون طاعتهم وخطبتهم له والسكة باسمه، ويأخذ من أعمال حلب ما اختار فجمع العساكر، وسار إليهم سنة خمس عشرة ومعه وأميرهم نافع من خدمه وغيرهم من العرب. ونزل بظاهر حلب

وتوجه كيكاوس والأفضل من تل باشر إلى منبج. وسار الأشرف نحوهم وفي مقدمته العرب فلقوا مقدمة كيكاوس فهزموها. فلما عادوا إلى كيكاوس منهزمين أجفل إلى بلاده. وسار الأشرف فملك رعبان وتل باشر وأخذ من كان بها من عساكر كيكاوس، وأطلقهم فلحقوا بكيكاوس فجمعهم في دار وأحرقها عليهم فهلكوا. وسلم الأشرف ما ملكه من قلاع حلب لشهاب الدين الخادم كافل العزيز بحلب، واعتزم على إتباع كيكاوس إلى بلاده فأدركه الخبر بوفاة أبيه العادل فرجع. إنتهى، والله تعالى أعلم.

دخول الموصل في طاعة الأشراف وملكه سنجار:

قد ذكرنا في دوله بني زنكي أن القاهر عز الدين مسعود صاحب الموصل توفي في ربيع سنة خمس عشرة وستمائة، وولى إبنه نور الدين أرسلان شاه في كفالة مولى أبيه نور الدين لؤلؤ مولاه ومدبر دولته. وكان أخوه عماد الدين زنكي في قلعة الصغد والسوس من أعمال الموصل بوصية أبيهما إليه بذلك، وأنه بعد وفاة أخيه عز الدين طلب الأمر لنفسه وملك العمادية. وظاهره مظفر الدين كوكبري صاحب إربل على شأنه فبعث نور الدين لؤلؤ إلى الأشرف موسى بن العادل، والجزيرة كلها وخلاط وأعمالها في طاعته. فأرسل إليه بالطاعة، وكان على حلب مدافعاً لكياكاوس صاحب بلاد الروم كما نذكره بعد، فأجابه الأشرف

بالقبول ووعده النصر على أعدائه. وكتب إلى مظفر الدين يقبح عليه، ما وقع من نكث العهد في اليمن التي كانت بينهم جميعاً ، ويأمره بإعادة عماد الدين زنكي ما أخذه من بلاد الموصل، وإلا فيسير بنفسه ويسترجعها ممن أخذها ويدعوه إلى ترك الفتنة والأشتغال معه بما هو فيه من جهاد الإفرنج. فصمم مظفر الدين عن ندبته ووافقه صاحب ماردين وصاحب كيفا وآمد، يجهز إلى الأشرف عساكرا إلى نصيبين لؤلؤ صاحب الموصل. ثم جهز لؤلؤ العساكر إلى عماد الدين فهزموه ولحق بإربل عند المظفر، وجاءت الرسل من الخليفة الناصر والملك الأشرف فأصلحوا بينهما وتحالفا. ثم وثب عماد الدين زنكي إلى قلعة كواشي فملكها وبعث لؤلؤ إلى الأشرف، وهو

على حلب يستنجده فعبر الفرات إلى حران، واستمال مظفر الدين ملوك الأطراف، وحملهم على طاعة كيكاوس والخطبة له، وكان عدو الأشرف ومنازعاً له في منبج كما نذكره. وبعث أيضاً إلى الأمراء الذين مع الأشرف واستمالهم فأجابه منهم أحمد بن علي المشطوب صاحب القلعة مع الكامل على دمياط، وعز الدين محمد بن نور الدين الحميدي. وفارقوا الأشرف إلى دبيس تحت ماردين ليجتمعوا على منع الأشرف من العبور إلى الموصل. ثم استمال الأشرف

صاحب كيفا وآمد، وأعطاه مدينة جانين وجبل الجودي، ووعده بدارا إذا ملكها. ولحق به صاحب كيفا وفارق أصحابه الملوك واقتدى به بعضهم في طاعة الأشرف والتروع إليه فافترق ذلك الجمع، وسار كل ملك إلى عمله. وسار ابن المشطوب إلى إربل، ومرّ بنصيبين فقاتله عساكرها وهزموه، وافترق جمعه، ومضى منهزماً. واجتاز بسنجار وبها فروخ شاه عمر بن زنكي بن مودود فبعث إليه عسكراً فجاؤا به أسيراً وكان في طاعة الأشرف فحبس له ابن المشطوب ثم رجاه فأطلقه وسار في جماعة من المفسدين إلى البقعاء من أعمال الموصل فاكتسحها وعاد إلى سنجار. ثم سار ثانيا للإغارة على أعمال الموصل فأرصد له لؤلؤ عسكراً بتل أعفر من أعمال سنجار. فلما مر بهم قاتلوه، وصعد إلى تل أعفر منهزماً. وجاء لؤلؤ من الموصل فحاصره بها شهراً أو بعضه وملكها منتصف ربيع الآخر من سنة سبع عشرة. وحبس ابن المشطوب بالموصل. ثم بعث به إلى الأشرف فحبسه بحران إلى أن توفي في ربيع الآخر من سنة سبع عشرة. ولما افترق جمع الملوك سار الأشرف من حران محاصراً لماردين. ثم صالحه على أن يرد عليه رأس عين، وكان الأشرف أقطعه له. وعلى أن يأخذ منه ثلاثين ألف دينار، وعلى أن يعطي صاحب كيفا وآمد قلعة المور من بلده. رجع الأشراف دبيس إلى نصيبين يريد الموصل وكان عمر صاحب سنجار لما أخذ منه لؤلؤ تل أعفر تخاذل عنه أصحابه، وساءت ظنونهم بنفسه لما ساء فعله في أخيه وفي غيره فاعتزم على الإلقاء باليد للأشراف، وتسليم سنجار له، والإعتياض عنها بالرقه وبعث رسله إليه بذلك فلحقوه في طريقه من دبيس إلى نصيبين فأجاب إلى ذلك، وسلم إليه الرقة، وسلم سنجار في مستهل جمادى الأولى سنة سبعة عشر. وفارقها عمر فروخ شاه وإخوته بأهليهم وأموالهم. وسار الأشرف من سنجار إلى الموصل فوصلها تاسع عشر جمادى الأولى من السنة. وجاءته رسل الخليفة ومظفر الدين في الصلح، ورد ما أخذه عماد الدين من قلاع الموصل إلى لؤلؤ ما عدا العمادية.

وطال الحديث في ذلك ورحل الأشرف يريد إربل. ثم شفع عنده صاحب كيفا وغيره من بطانته، وأنهوا إليه العساكر فأجاب إلى هذا الصلح، وفسح لهم في تسليم القلاع إلى مدة ضربوها. وسار عماد الدين مع الأشرف حتى يتم تسليم الباقي ورحل الأشرف عن الموصل ثاني رمضان، وبعث لؤلؤ نوابه إلى القلاع فامتنع جندها من تسليمها إليهم، وانقضى الأجل. واستمال عماد الدين زنكي شهاب الدين غازي أخا الأشرف فاستعطف له أخاه فأطلقه، ورد عليه قلعة العقروسوس، وسلم لؤلؤ قلعة تل أعفر كما كانت من أعمال سنجار، والله تعالى أعلم.

ارتجاع دمياط من يد الإفرنج:

ولما ملك الإفرنج دمياط أقبلوا على تحصينها، ورجع الكامل إلى مصر وعسكر بأطراف الديار المصرية مسلحة عليها منهم. وبنى المنصورة بعد المنزلة، وأقام كذلك سنين. وبلغ الإفرنج وراء البحر فتحها، واستيلاء إخوانهم عليها فلهجوا بذلك. وتوالت امدادهم في كل وقت إليها، والكامل مقيم بمكانه. وتواترت الأخبار بظهور التتر، ووصولهم إلى أذربيجان وأران، وأصبح المسلمون بمصر والشام على تخوف من سائر جهاتهم. واستنجد الكامل بأخيه المعظم صاحب دمشق، وأخيه الأشرف صاحب الجزيرة وأرمينية. وسار المعظم إلى الأشرف يستحثه للوصول فوجده في شغل بالفتنة التي ذكرناها فعاد عنه إلى أن انقضت تلك الفتنة.ثم تقدم الإفرنج من دمياط بعساكرهم إلى جهة مصر، وأعاد الكامل خطابه إليهما سنة ثماني عشرة يستنجدهما. وسار المعظم إلى الأشرف يستحثه، فجاء معه إلى دمشق، وسار منها إلى مصر، ومعه عساكر حلب، والناصر صاحب حماة وشيركوه صاحب حمص والأمجد صاحب بعلبك فوجدوا على بحر أشمون وقد سار الإفرنج من دمياط بجموعهم، ونزلوا قبالته بعدوة النيل، وهم يرمون على معسكره بالمجانيق، والناس قد أشفقوا من الإفرنج على الديار المصرية، فسار الكامل وبقي أخوه الأشرف بمصر. وجاء المعظم بعد الأشرف وقصد دمياط يسابق الإفرنج ونزل الكامل والأشرف وظفرت شواني المسلمين بثلاث قطع من شواني الإفرنج فغنموها بما فيها. ثم ترددت الرسل بينهم في تسليم دمياط على أن يأخذوا القدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية، وجميع ما فتحه صلاح الدين غير الكرك فاشتطوا واشترطوا إعادة الكرك والشويك، وزيادة ثلثمائة ألف دينار لرمّ أسوار القدس التي خربها المعظم والكامل فرجع المسلمون إلى قتالهم. وافتقد الإفرنج الأقوات لأنهم لم يحملوها من دمياط ظناً بأنهم غالبون على السواد وميرته بأيديهم فبدا لهم ما لم يحتسبوا.ثم فجر المسلمون النيل إلى العدوة التي كانوا عليها فركبها الماء، ولم يبق لهم إلا مسلك ضيق. ونصب الكامل الجسور عند أشمون فعبرت العساكر عليها، وملكوا ذلك المسلك وحالوا بين الإفرنج وبين دمياط. ووصل إليهم مركب مشحون بالمدد من الميرة والسلاح ومعه حراقات، فخرجت عليها شواني المسلمين وهي في تلك الحال فغنموها بما فيها. واشتد الحال عليهم في معسكرهم، وأحاطت بهم عساكر المسلمين وهم في تلك الحال يقاتلونهم ويتخطفونهم من كل جانب، فأحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأرادوا الإستماتة في العود فرأوا ما حال بينهم وبينها من الرجل فاستأمنوا إلى الكامل والأشرف

على تسليم دمياط من غير عوض. وبينما هم في ذلك وصل المعظم صاحب دمشق من جهة دمياط كما مر فازدادوا وهناً وخذلاناً، وسلموا دمياط منتصف سنة ثمان عشرة، وأعطوا عشرين ملكاً منهم رهناً عليها. وأرسلوا الأقسة والرهبان منهم إلى دمياط فسلموها للمسلمين، وكان يوماً مشهوداً. ووصلهم بعد تسليمها مدد من وراء البحر فلم يغن عنهم، ودخلها المسلمون وقد حصنها الإفرنج فأصبحت من أمنع حصون الإسلام، والله تعالى أعلم.

وفاة الأوحد نجم الدين بن العادل صاحب خلاط

وولاية أخيه الظاهر غازي عليها:

قد تقدم لنا أن الأوحد نجم الدين بن عادل ملك ميافارقين، وبعدها خلاط وأرمينية سنة ثلاث وستمائة. ثم توفي سنة سبع فأقطع العادل ما كان بيده من الأعمال لأخيه الأشرف. ثم أقطع العادل إبنه الظاهر غازي سنة ست عشرة سروج والرها وما إليها ولما توفي العادل، واستقل ولده الأشرف بالبلاد الشرقية عقد لأخيه غازي على خلاط وميافارقين مضافاً إلى ولايته من أبيه العادل، وهو سروج والرها. وجعله ولي عهده لأنه كان عاقراً لا يولد له. وأقام على ذلك أن انتقض على الأشرف عندما حدثت الفتنة بين بني العادل فانتزع أكثر الأعمال منه، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

فتنة المعظم مع أخوية الكامل والأشرف

ومال دعت إليه من الأحوال:

كان بنو العادل الكامل والأشرف والمعظم لما توفي أبوهم قد اشتغل كل واحد منهم بأعماله التي عهد له أبوه، وكان الأشرف والمعظم يرجعان إلى الكامل وفي طاعته. ثم تغلب عيسى على صاحب حماة الناصر بن المنصور بن المظفر، وزحف سنة تسع عشرة إلى حماة فحاصرها وامتنعت عليه فسار إلى سلمية والمعرّة من أعمالها فملكها. وبعث إليه الكامل صاحب مصر بالنكير والإفراج عن البلد فامتثل، وأضغن ذلك عليه. وأقطع الكامل سلمية لتزيله المظفر بن المنصور أخي صاحب حماة، وكشف المعظم قناعه في فتنة أخويه الكامل والأشرف. وأرسل إلى ملوك الشرق يدعوهم إلى المظاهرة عليهما. وكان جلال الدين منكبري بن علاء الدين خوارزم شاه قد رجع من الهند بعد ما غلبه التتر على خوارزم وخراسان وغزنة

وعراق العجم وأجاز إلى الهند. ثم رجع سنة إحدى وعشرين وستمائة فاستولى على فارس وغزنة وعراق العجم وأذربيجان ونزل توريز، وجاور بني أيوب في أعمالهم فراسله المعظم صاحب دمشق وصالحه واستنجده على أخويه فأجابه. ودعا المعظم الظاهر أخا الأشرف وعامله على خلاط والمظفر كوكبري صاحب إربل إلى ذلك فأجابوه كلهم، وانتقض الظاهر غازي على أخيه الأشرف في خلاط وأرمينية، وأظهر عصيانه في ولايته التي بيده إليه الأشرف سنة إحدى وعشرين وغلبه على خلاط فملكها، وولى عليها حسام الدين أبا على الموصلي، كان أصله من الموصل. واستخدم للأشرف وترقى في خدمته إلى أن ولاه خلاط، وعفا الأشرف عن أخيه الظاهر غازي وأقره على ميافارقين. وسار المظفر صاحب إربل و لؤلؤ صاحبها في طاعة الأشرف

فحاصرها، وامتنعت عليه ورجع عنها. وسار المعظم بنفسه من دمشق إلى حمص، وصاحبها شيركوه بن محمد بن شيركوه في طاعة الكامل فحاصرها وامتنعت عليه، ورجع إلى دمشق. ثم سار الأشرف إلى المعظم طالباً للصلح فأمسكه عنده على أن ينحرف عن طاعة الكامل. وإنطلق إلى بلده فاستمر على شأنه. ثم زحف جلال الدين صاحب أذربيجان سنة أربع وعشرين إلى خلاط فحاصرها مرة بعد مرة، وأفرج عنها فسار حسام الدين نائبها إلى بلاد جلال الدين. وملك حصونها واضطرب الحال بينهم، وخشي الكامل مغبة الأمر مع المعظم بمالأته لجلال الدين والخوارزمية فاستنجد هو بالإفرنج، وكاتب الإمبراطور ملكهم من وراء البحر يستحثه للقدوم على عكا في صريخه، على أن يترل له عن القدس. وبلغ ذلك إلى المعظم فخشي العواقب وأقصر عن فتنته وكتب إليه يستعطفه، والله تعالى أعلم.

وفاة المعظم صاحب دمشق وولاية إبنه الناصر ثم

استيلاء الأشرف عليها واعتياض الناصر بالكرك:

ثم توفي المعظم بن العادل صاحب دمشق سنة أربع وعشرين، وولي مكانه إبنه داود ولقب بالناصر. وقام بتدبير ملكه عز الدين أتابك خادم أبيه، وجرى على سنن المعظم أولا في طاعة الكامل والخطبة. ثم انتقض سنة خمس وعشرين عندما طالبه الكامل بالترول له عن حصن الشويك فامتنع وانتقض، وسار الكامل إليه في العساكر فانتهى إلى غزة، وانتزع القدس ونابلس من أيديهم، وولى عليها من قبله. واستنجد الناصر عمه الأشرف فجاءه إلى دمشق، وخرج منها إلى نابلس. ثم تقدم منها إلى الكامل ليصلح أمر الناصر معه فدعاه الكامل إلى إنتزاع دمشق من الناصر له، وأقطعه إياها فلم يجب الناصر إلى ذلك. وعاد إلى دمشق فحاصره الأشرف.ثم صالح الكامل ملك الإفرنج ليفرغ لأمر دمشق عن الشواغل وأمكنهم من القدس على أن يخرب سورها فاستولوا عليها كذلك وزحف الكامل إلى دمشق سنة ست وعشرين فحاصرها مع الأشرف. وخاف الحصار بالناصر فترل لهما عنها على أن يستقل بالكرك والشوبك والبلقاء؛ فسلموا له في ذلك وسار إليها. واستولى الأشرف على دمشق ونزل الكامل عن أعماله، وهي حران والرها وما إليهما وبمكانهما من حصار دمشق، ووصل الخبر إلى الكامل بوفاة إبنه المسعود صاحب اليمن وقد مرّ خبره، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

استيلاء المظفر بن المنصور على حماة من يد أخيه الناصر:

ولما ملك الكامل دمشق شرع في إنجاد نزيله المظفر محمود في بن المنصور صاحب حماة وبها أخوه الناصر، وقد كاتبه بعض أهل البلد يستدعونه لملكها فجهزه بالعساكر، وسار إليها فحاصرها. ودس لمن كاتبه من أهلها فأجابوه وواعدوه ليلا فطرقها وتسوّرها وملكها. وكتب إليه الكامل أن يقطع الناصر قلعة ماردين فأقطعه إياها، وانتزع الكامل منه سلمية وأقطعها لصاحب حمص شيركوه بن محمد بن شيركوه، واستقل المظفر محمود بملك حماة، وفوض أمور دولته إلى حسام الدين علي بن أبي عليّ الهدباني فقام بها. ثم استوحش منه فلحق بأبيه نجم الدين أيوب، ولم تزل ماردين بيد الناصر أخي المظفر إلى سنه ثلاثين فهم الناصر بأن

يملكها للإفرنج، وشكا المظفر بذلك للكامل فأمره بانتزاعها منه. ثم اعتقله الكامل إلى أن هلك سنة خمس وثلاثين، إنتهى، والله أعلم.

استيلاء الأشرف على بعلبك من يد الأمجد وإقطاعها

لأخيه إسماعيل بن العادل:

كان السلطان صلاح الدين قد أقطع الأمجد بهرام شاه بن فرخنشاه أخي تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب قلعة بعلبك، وكانت بصرى لخضر. ثم صارت بعد وفاة العادل لابنه الأشرف وعليها أخوه إسماعيل بن العادل فجهزه سنة ست وعشرين إلى بعلبك وحاصر بها

الأمجد حتى تسلمها منه على إقطاع أقطعه إياه. وسار إسماعيل إلى دمشق فترلها إلى أن قتله مواليه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتنة جلال الدين خوارزم شاه مع الأشرف

واستيلاؤه على خلاط:

قد كنا قدمنا أن جلال الدين خوارزم شاه ملك أذربيجان، وجاور أعمال بني أيوب. وكان الأشرف قد ولى على خلاط لما انتزعها من يد أخيه غازي سنة إثنتين وعشرين حسام الدين أبا على الموصلي. ثم صالح المعظم جلال الدين خوارزم شاه ودعاه إلى الفتنة مع أخويه كما قدمناه فزحف جلال الدين خوارزم شاه إلى خلاط وحاصرها مرتين، ورجع عنها فسار حسام الدين إلى بلده وملك بعض حصونه، وداخل زوجته التي كانت زوجة أزبك بن البهلوان، وكانت مقيمة بخوي وهجرها جلال الدين وقطع عنها ما كانت تعتاده من التحكم في الدولة مع زوجها قبله فدست إلى حسام الدين نائب خلاط ؛ واستدعته هي وأهل خوي ليملكوه البلاد فسار وملك خوي وما فيها عن الحصون ومدينة قرند.وكاتبه أهل بقجوان وملكوه بلدهم وعاد إلى خلاط ونقل معه زوجة جلال الدين وهي بنت السلطان طغرل فامتعض جلال الدين لذلك. ثم إرتاب الأشرف بحسام الدين نائب خلاط وأرسل أكبر أمرائه عز الدين أيبك فقبض على حسام الدين، وكان عدوا له وقتله غيلة، وهرب مولاه فلحق بجلال الدين ثم زحف جلال الدين في شوال سنة ست وعشرين إلى خلاط فحاصرها ونصب عليها المجانيق، وقطع عنها الميرة مدة ثمانية أشهر. ثم ألح عليها بالقتال وملكها عنوة آخر جمادى الأولى من سنة سبع وعشرين وامتنع أيبك وحاميتها بالقلعة واستماتوا، واستباح جلال الدين مدينة خلاط وعاث فيها بما لم يسمع بمثله. ثم تغلب على القلعة وأسر أيبك نائب خلاط فدفعه إلى مولى حسام الدين نائبها قبله فقتله بيده، والله تعالى أعلم.

مسير الكامل في إنجاد الأشرف وهزيمة

جلال الدين أمام الأشرف:

ولما استولى جلال الدين على خلاط سار الأشرف من دمشق إلى أخيه الكامل بمصر يستنجده فسار معه ؛ وولى على مصر إبنه العادل ولقيه في طريقه صاحب الكرك الناصر بن

المعظم ، وصاحب حماة المظفر بن المنصور، وسائر بني أيوب. وانتهى إلى سلمية وكلهم في طاعته. ثم سار إلى آمد فملكها من يد مسعود بن محمد ابن الصالح بن محمد بن أرسلان بن سقمان بن أرتق، وكان صلاح الدين أقطعه إياها عندما ملكها من ابن نعشان، فلما نزل إليه إعتقله وملك آمد. ثم إنطلق بعد وفاة الكامل من الإعتقال ولحق بالتتر. ثم استولى الكامل على البلاد الشرقية التي نزل له عنها الأشرف عوضاً عن دمشق وهي حران والرها وما إليهما.ولما تسلمها ولى عليها إبنه الصالح نجم الدين أيوب، وكان جلال الدين لما ملك خلاط حضر معه صاحب أرزن الروم فاغتم لذلك علاء الدين كيقباد ملك بلاد الروم، لما بينه وبين صاحب أرزن من العداوة والقرابة، وخشيهما على ملكه فبعث إلى الكامل والأشرف بحران يستنجدهما، ويستحث الأشرف للوصول فجمع عساكر الجزيرة والشام. وسار إلى علاء الدين فاجتمع معه بسيواس وسار نحو خلاط. وسار جلال الدين للقائهما والتقوا بأعمال أرزنكان وتقدم عسكر حلب للقتال ومقدمهم عز الدين بن على الهكاري من أعظم الشجعان فلم يثبت لهم مصاف جلال الدين. وإنهزم إلى خلاط فأخرج حاميته منها ولحق بأذربيجان. ووقف الأشرف على خلاط وهي خاوية. وكان صاحب أرزن الروم مع جلال الدين فجيء به أسيراً إلى ابن عمه علاء الدين صاحب بلاد الروم فسار به إلى أرزن وسلمها له وما يتبعها من القلاع. ثم ترددت الرسل بينهم وبين جلال الدين في الصلح فاصطلحوا كل على ما بيده وتحالفوا، وعاد الأشرف إلى سنجار. وسار أخوه غازي صاحب ميافارقين فحاصر مدينة أرزن من ديار بكر، وكان حاضراً مع الأشرف في هذه الحروب، وأسره جلال الدين ثم أطلقه بعد أن أخذ عليه العهد في طاعته فسار إليه شهاب الدين غازي وحاصره وملك منه أرزن صلحاً ، وأعطاه عنها مدينة جاني من ديار بكر، وكان إسمه حسام الدين، وكان من بيت عريق في الملك يعرفون ببني الأحدب أقطعها لهم السلطان ملك شاه، والله تعالى أعلم.

استيلاء العزيز صاحب حلب على شيزر ثم وفاته

وولاية إبنه الناصر بعده:

كان سابق الدين عثمان بن الداية من أمراء الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، واعتقله إبنه الصالح إسماعيل فنكر عليه صلاح الدين ذلك، وسار بنبيه إلى دمشق فملكها وأقطع سابق الدين شيزر فلم تزل له ولبنيه إلى أن استقرت لشهاب الدين يوسف بن مسعود بن سابق الدين فسار إليه صاحب حلب محمد بن العزيز بن الغازي الظاهر بأمر الكامل سنة ثلاثين

وستمائة وملكها من يده. ثم هلك سنة أربع وثلاثين وملك في حلب مكانه إبنه الناصر يوسف في كفالة جدته لأبيه صفية خاتون بنت العادل. واستولى على الدولة شمس الدين لؤلؤ الأرمني وعز الدين المجلي وإقبال الخاتوني ، وكلهم في تصريفها، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

فتنة كيقباد صاحب بلاد الروم واستيلاؤه على خلاط:

كان كيقباد بن كيكاوس صاحب بلاد الروم قد استفحل ملكه بها ومد يده إلى ما يجاورها من البلاد فملك خلاط بعد أن دفع عنها مع الأشرف جلال الدين شاه كما قدمناه، ونازعه الأشرف في ذلك واستنجد بأخيه

الكامل فسار بالعساكر من مصر سنة إحدى وثلاثين. وسار معه الملوك من أهل بيته وانتهى إلى النهر الأزرق من تخوم الروم. وبعث في مقدمته المظفر صاحب حماة من أهل بيته فلقيه كيقباد وهزمه وحصره في خرت برت وتخاذل عن الحرب. ثم استأمن المظفر صاحب حماة إلى كيقباد فأمنه وملك خرت برت، وكان لبني أرتق ورجع الكامل بالعساكر إلى مصر سنة إثنتين وثلاثين وكيقباد في أتباعهم. ثم سار إلى حران والرها فملكها من يد نواب الكامل وولى عليها من قبله، وسار الكامل سنة ثلاث وثلاثين والله أعلم.

وفاة الأشرف بن العادل واستيلاء الكامل على ممالكه:

كان الأشرف سنة أربع وثلاثين قد استوحش من أخيه الكامل، ونقض طاعته ومالأه على ذلك أهل حلب وكنخسرو ، صاحب بلاد الروم وجميع ملوك الشام من قرابتهما غيرالناصر بن المعظم صاحب الكرك فإنه أقام على طاعة الكامل، وسار إليه بمصر فتلقاه بالميرة والتكرمة ، ثم هلك الأشرف خلال ذلك سنة خمس وثلاثين وعهد بملك دمشق لأخيه الصالح إسماعيل صاحب بصرى فسار إليها وملكها. وبقي الملوك في وفاقه على الكامل كما كانوا على عهد الأشرف إلا المظفر صاحب حماة فإنه عدل عنهم إلى الكامل، وسار الكامل إلى دمشق فحاصرها وضيق عليها حتى تسلمها صلحاً من الصالح، وعوضه عنها بعلبك، واستولى على سائر أعمال الأشرف، ودخل سائر بني أيوب في طاعته والله أعلم.

وفاة الكامل وولاية إبنه العادل بمصر واستيلاء

إبنه الآخر نجم الدين أيوب على دمشق:

ثم توفي الكامل بن العادل صاحب دمشق ومصر والجزيرة سنة خمس وثلاثين بدمشق لستة أشهر من وفاة أخيه الأشرف فانفض الملوك راجعين كل إلى بلاده ؛ المظفر إلى حماة، والناصر إلى الكرك، وبويع بمصر إبنه العادل أبو بكر فنصب العساكر بدمشق الجواد يونس ابن عمه مودود بن العادل نائباً عنه وسار الناصر داود إلى دمشق ليملكها فبرز إليه الجواد يونس وهزمه. وتمكن في ملك دمشق وخلع طاعة العادل بن الكامل، وراسل الصالح أيوب في أن يملكه دمشق ويترل له الصالح عن البلاد الشرقية التي ولاه أبوه عليها فسار الصالح لذلك سنة ست وثلاثين وملك دمشق. وسار يونس إلى البلاد الشرقية فاستولى عليها، ولم تزل بيده إلى أن زحف إليه لؤلؤ صاحب الموصل وغلبه عليها واستقرت دمشق في يد الصالح. ولما أخذ لؤلؤ البلاد من يونس الجواد سار عن القفر إلى غزة فمنعه الصالح من الدخول إليها فدخل الإفرنج بعكا، وباعوه من الصالح إسماعيل صاحب دمشق فاعتقله وقتله إنتهى، والله أعلم.

أخبار الخوارزمية:

ثم زحف التتر إلى أذربيجان واستولوا على جلال الدين وقتلوه سنة ثمان وعشرين، وإنفض أصحابه وذهبوا في كل ناحية وسار جمهورهم إلى بلاد الروم فترلوا على علاء الدين كيقباد ملكها، حتى إذا مات وملك إبنه كنجسرو إرتاب بهم وقبض على أمرائهم وإنفض الباقون عنه وعاثوا في الجهات، فاستأذن الصالح أيوب صاحب سنجار وما إليها أباه الكامل صاحب مصر في استخدامهم ليحسم عن البلاد ضررهم فاجتمعوا عنده

وأفاض فيهم الأرزاق. ولما توفي الكامل سنة خمس وثلاثين انتقضوا عن الصلح وخرجوا فاكتسحوا النواحي. وسار لؤلؤ إلى سنجار فحاصر الصالح فبعث الصالح الخوارزمية فاستمالهم وأقطعهم حران والرها ولقي بهم لؤلؤاً فهزمه وغنم معسكره، والله تعالى أعلم.

مسير الصالح إلى مصر وإعتقال الناصر له بالكرك:

لما ملك العادل بمصر بعد أبيه اضطرب عليه أهل الدولة وبلغهم استيلاء أخيه الصالح على
دمشق فاستدعوه ليملكوه، فبعث عن عمه الصالح إسماعيل من بعلبك ليسير معه فاعتذر عن الوصول. وسار الصالح أيوب وولى على دمشق إبنه المغيث فتح الدين عمر. ولما فصل عن دمشق خالفه إليها عمه الصالح إسماعيل فملكها ومعه شيركوه صاحب حمص ، وقبض على المغيث فتح الدين بن الصالح أيوب. وبلغ الخبر إليه وهو بنابلس فانفضت عنه العساكر ودخل نابلس. وجاءه الناصر داود من الكرك فقبض عليه واعتقله، وبعث فيه أخوه العادل فامتنع من تسليمه إليه. ثم قصد داود القدس فملكها من يد الإفرنج وخرّب القلعة، والله تعالى ولي التوفيق.

وفاة شيركوه صاب مصر وولاية إبنه إبراهيم المنصور:

ثم توفي المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص سنة ست وثلاثين، وكانت ولايته أول المائة السابعة، وولي من بعده إبنه إبراهيم ويلقب بالمنصور والله أعلم.

خلع العادل واعتقاله واستيلاء أخيه الصالح أيوب على مصر:

ولما رجع الناصر داود من فتح القدس أطلق الصالح نجم الدين أيوب من الإعتقال فاجتمعت إليه مواليه، واتصل اضطراب أهل الدولة بمصر على أخيه العادل فكاتبوا الصالح واستدعوه ليملكوه فسار معه الناصر داود، وانتهى إلى عزة وبرز العادل إلى بلبيس وكتب إلى عمه الصالح بدمشق يستنجده على أخيه أيوب فسار من دمشق وانتهى إلى الغور. ثم وثب بالعادل في معسكره مواليه ومقدمهم أيبك الأسمر وقبضوا عليه. وبعثوا إلى الملك الصالح فجاء ومعه الناصر داود صاحب الكرك فدخل القلعة سنة سبع وثلاثين، واستقر في ملكه. وارتاب منه الناصر داود فلحق بالكرك. واستوحش من الأمراء الذين وثبوا بأخيه فاعتقلهم، وفيهم أيبك الأسمر، وذلك سنة ثمان وثلاثين، وحبس أخاه العادل إلى أن هلك في محبسه سنة خمس وأربعين. ثم اختط قلعة بين سعي النيل إزاء المقياس واتخذها مسكناً، وأنزل بها حامية من مواليه فكانوا يعرفون بالبحرية آخر أيامهم إنتهى والله أعلم.

فتنة الخوارزمية:

ثم كثر عيث الخوارزمية بالبلاد المشرقية، وعبروا الفرات وقصدوا حلب فبرزت إليهم
عساكرها مع المعظم تورانشاه بن صلاح الدين فهزموه وأسروه. وقتلوا الصالح بن الأفضل صاحب سميساط، وكان في جملته. وملكوا منبج عنوة ورجعوا. ثم ساروا من حران وعبروا من ناحية الرقة وعاثوا في البلاد. وجمع أهل حلب العساكر، وأمدهم الصالح إسماعيل من دمشق بعسكر مع المنصور إبراهيم صاحب حمص،

وقصدوا الخوارزمية فانقلبوا إلى حران. ثم تواقعوا مع العساكر فانهزموا، واستولى عسكر حلب على حران والرها وسروج والرقة ورأس عين وما إليها. وخلص المعظم تورانشاه فبعث به لؤلؤ صاحب الموصل إلى عسكر حلب. ثم سار عسكر حلب إلى آمد وحاصروا المعظم تورانشاه وغلبوه على آمد. وأقام بحصن كيفا إلى أن هلك أبوه بمصر، واستدعي لملكها فسار لذلك وولى ابنه الموحد عبد الله بكيفا إلى أن غلب التتر على بلاد الشام. ثم سار الخوارزمية سنة أربعين مع المظفر غازي صاحب ميافارقين من أقتال صاحب حلب، ومعهم المنصور إبراهيم صاحب حمص فانهزموا وغنمت العساكر سوادهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

أخبار حلب

قد كان تقدم لنا ولاية الظاهر غازي على حلب بعد وفاة أبيه. ثم توفي سنة أربع وثلاثين، ونصب أهل الدولة ابنه الناصر يوسف في كفالة جدته أم العزيز صفية خاتون بنت العادل، و لؤلؤ الأرمني وإقبال الخاتوني وعز الدين بن مجلي قائمون بالدولة في تصريفها. وما زالت تجهز العساكر لدفاع الخوارزمية وتفتح البلاد إلى أن توفيت سنة أربعين، واستقل الناصر بتدبير ملكه، وصرف النظر في أموره لجمال الدين إقبال الخاتوني والله أعلم.

الصالح أيوب مع عمه الصالح إسماعيل على دمشق

واستيلاء أيوب آخراً عليها

قد كان تقدم لنا أن الصالح إسماعيل بن العادل خالف الصالح أيوب على دمشق عند مسيره إلى مصر فملك دمشق سنة ست وثلاثين، وكان بعد ذلك إعتقال الصالح بالكرك ثم استيلاؤه على مصر سنة سبع وثلاثين، وبقيت الفتنة متصلة بينهما. وطلب الصالح إسماعيل صاحب دمشق من الإفرنج المظاهرة على أيوب صاحب مصر على أن يعطيهم حصن الشقيف وصفد فأمضى ذلك ونكره مشيخة العلماء بعصره. وخرج من دمشق عز الدين بن عبد السلام

الشافعي، ولحق بمصر فولاه الصالح خطة القضاء بها. ثم خرج بعده جمال الدين بن الحاجب المالكي إلى الكرك، ولحق بالاسكندرية فمات بها.ثم تداعى ملوك الشام لفتنة الصالح أيوب ؛ واتفق عليها إسماعيل الصالح صاحب دمشق، والناصر يوسف صاحب حلب، وجدته صفية خاتون، وإبراهيم المنصور بن شيركوه صاحب حمص. وخالفهم المظفر صاحب حماة، وجنح إلى ولاية نجم الدين أيوب، وأقام حالهم في الفتنة على ذلك. ثم جنحوا إلى الصلح على أن يطلق صاحب دمشق فتح الدين عمر بن نجم الدين أيوب الذي إعتقله بدمشق فلم يجب إلى ذلك، واستجدت الفتنة. وسار الناصر داود صاحب الكرك مع إسماعيل الصالح صاحب دمشق، واستظهروا بالإفرنج، وأعطاهم إسماعيل القدس على ذلك. واستنجد بالخوارزمية أيضاً فأجابوه، واجتمعوا بغزة.وبعث نجم الدين العساكر مع مولاه بيبرس وكانت له ذمة باعتقاله معه فتلاقوا مع الخوارزمية، وجاءت عساكر مصر مع المنصور إبراهيم بن شيركوه، ولاقوا الإفرنج من عكا فكان الظفر لعساكر مصر والخوارزمية واتبعوهم إلى دمشق، وحاصروا بها الصالح إسماعيل إلى أن جهده الحصار، وسأل في الصلح على أن يعوض عن

دمشق ببعلبك وبصرى والسواد فأجابه أيوب إلى ذلك. وخرج إسماعيل من دمشق إلى بعلبك سنة ثمان وأربعين. وبعث نجم الدين إلى حسام الدين علي بن أبي علي الهدباني، وكان معتقلا عند إسماعيل بدمشق فشرط نجم الدين إطلاقه في الصلح الأول فأطلقه، وبعث إليه بالنيابة عنه بدمشق فقام بها. وإنصرف إبراهيم المنصور إلى حمص وانتزع صاحب حماة منه سلمية فملكها.واشتط الخوارزمية على الهدباني في دمشق في الولايات والإقطاعات وامتعضوا لذلك فسار بهم الصالح إسماعيل إلى دمشق موصلا الكرة، ومعه الناصر صاحب الكرك فقام الهدباني في دفاعهم أحسن قيام. وبعث نجم الدين من مصر إلى يوسف الناصر يستنجده على دفع الخوارزمية عن دمشق فسار في عساكره، ومعه إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص فهزموا الخوارزمية على دمشق سنة أربع وأربعين، وقتل مقدمهم حسام الدين بركت خان، وذهب بقيتهم مع مقدمهم الآخر كشلو خان فلحقوا بالتتر واندرجوا في جملتهم، وذهب أثرهم من العام واستجار إسماعيل الصالح وكان معهم بالناصر صاحب حلب فأجاره من نجم الدين أيوب. وسار حسام الدين الهدباني بعساكر دمشق إلى بعلبك وتسلمها بالأمان، وبعث بأولاد إسماعيل ووزيره ناصر الدين يغمور إلى نجم الدين أيوب فاعتقلهم بمصر.
وسارت عساكر الناصر يوسف صاحب حلب إلى الجزيرة فتواقعوا مع لؤلؤ صاحب الموصل فانهزم لؤلؤ ، وملك الناصر نصيبين ودارا أو قرقيسياً، وعاد عسكره إلى حلب، والله تعالى أعلم.

مسير الصالح أيوب إلى دمشق اولا وثانيا وحصار

حمص وما كان مع ذلك من الأحداث

ثم بعث الصالح عن حسام الدين الهدباني من دمشق، وولى مكانه جمال الدين بن مطروح. ثم سار إلى دمشق سنة خمس وأربعين واستخلف الهدباني على مصر. ولما وصل إلى دمشق جهز فخر الدين بن الشيخ بالعساكر إلى عسقلان وطبرية فحاصرهما مدة، وفتحهما من يد الإفرنج ووفد على الصالح بدمشق المنصور صاحب حماة وكان أبوه المظفر توفي سنة ثلاث وأربعين، وولى المنصور ابنه هذا وإسمه محمد. ووفد أيضاً الأشرف موسى صاحب حمص، وقد كان أبوه إبراهيم المنصور توفي سنة أربع وأربعين قبلها بدمشق وهو ذاهب إلى مصر وافداً على الصالح أيوب. وأقام بحمص ابنه مظفر الدين موسى ولقب الأشرف. وجاءت عساكر حلب سنة ست وأربعين مع لؤلؤ الأرمني وحصروا مصر شهرين وملكوها من يد موسى الأشرف، وأعاضوه عنها تل باشر من قلاع حلب مضافة إلى الرحبة وتدمر، وكانتا بيده مع حمص. وغضب لذلك الصالح فسار من مصر إلى دمشق، وجهز العساكر إلى حصار حمص مع حسام الدين الهدباني وفخر الدين بن الشيخ فحاصروا مصر مدة. وجاء رسول الخليفة المستعصم إلى الصالح أيوب شافعاً فأفرج العساكر عنها، وولى على دمشق جمال الدين يغمور، وعزل ابن مطروح والله تعالى أعلم.

استيلاء الإفرنج على دمياط

كانت إفرنسة أمة عظيمة من الإفرنج، والظاهر أنهم أصل الإفرنج. وأن إفرنسة هي إفرنجة إنقلبت السين بها جيما عندما عربتها العرب، وكان ملكها من أعظم ملوكهم لذلك العصر ويسمونه ري الإفرنس ؛ ومعنى ري

في لغتهم ملك إفرنس. فاعتزم هذا الملك على سواحل الشام وسار لذلك، كما سار من قبله من ملوكهم. وكان ملكه قد استفحل فركب البحر إلى قبرص في خمسين ألف مقاتل وشتى بها. ثم عبر سنة سبع وأربعين إلى دمياط، وبها بنو كنانة أنزلهم الصالح بها حامية فلما رأوا ما لا قبل لهم به أجفلوا عنها فملكها ري إفرنس، وبلغ الخبر إلى الصالح وهو بدمشق وعساكره نازلة بحمص، فكر راجعاً إلى مصر، وقدم فخر الدين ابن الشيخ أتابك عساكره، ووصل بعده فنزل المنصورة وقد أصابه بالطريق وعك واشتد عليه والله تعالى أعلم.

استيلاء الصالح على الكرك:

كان بين الصالح أيوب وبين الناصر داود ابن عمه المعظم من العداوة ما تقدم، وقد ذكرنا إعتقال الناصر له بالكرك فلما ملك الصالح دمشق بعث العساكر مع أتابكة فخر الدين يوسف ابن الشيخ لحصار الكرك. وكان أخوه العادل إعتقله وأطلقه الصالح وألزمه بيته، ثم جهزه لحصار الكرك فسار إليها سنة أربع وأربعين وحاصرها، وملك سائر أعمالها وخرب نواحيها. وسار الناصر من الكرك إلى الناصر يوسف صاحب حلب مستجيراً به بعد أن بعث بذخيرته إلى المستعصم، وكتب له خطه بوصولها. وكان قد استخلف على الكرك عندما سار إلى حلب ابنه الأصغر عيسى ولقبه المعظم فغضب أخواه الأكبران الأمجد حسن والظاهر شادي فقبضا على أخيهما عيسى، ووفدا على الصالح سنة ست وأربعين وهو بالمنصورة قبالة الإفرنج فملك الكرك والشويك منهما وولى عليهما بدرا الصواي ، وأقطعهما بالديار المصرية والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة الصالح أيوب صاحب مصر والشام وسيد ملوك الترك

بمصر وولاية ابنه تورانشاه وهزيمة الإفرنج وأسر ملكهم

ثم توفي الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل سنة سبع وأربعين بمكانه من المنصورة قبالة الإفرنج، وخشي أهل الدولة من الإفرنج فكتموا موته، وقامت أمّ ولده شجرة الدر بالأمر، وجمعت الأمراء وسيروا بالخبر إلى حسا م الدين الهدباني بمصر فجمع الأمراء وقوى جأشهم واستحلفهم. وأرسل الأتابك فخر الدين بن الشيخ بالخبر إلى المعظم تورانشاه بن الصالح، واستدعاه من مكان إمارته بحصن كيفا. ثم إنتشر خبر الوفاة وبلغ الإفرنج فشرهوا إلى قتال المسلمين، ودلفوا إلى المعسكر فانكشف المسلمون، وقتل الأتابك فخر الدين. ثم أتاح الله الكرة للمسلمين، وإنهزم الإفرنج، ووصل المعظم تورانشاه من مكانه بحصن كيفا لثلاثة أشهر أو تزيد فبايعه المسلمون واجتمعوا عليه، واشتدوا في قتال الإفرنج وغلبت أساطيلهم أساطيل العدو. وسأل الإفرنج في الإفراج عن دمياط على أن يعاضوا بالقدس فلم يجبهم المسلمون إلى ذلك.

وسارت سرايا المسلمين من حولهم وفيما بين معسكرهم وبين دمياط فرحلوا راجعين إليها. وأتبعهم المسلمون فأدركهم الدهش وانهزموا، وأسر ملكهم ريّ إفرنس وهو المعروف بالفرنسيس. وقتل منهم أكثر من ثلاثين ألفاً. واعتقل الفرنسيس بالدار المعروفة بفخر الدين بن لقمان ووكل به الخادم صبيح المعظمي. ثم رحل المعظم بعساكر المسلمين راجعاً إلى مصر، والله تعالى أعلم.

مقتل المعظم تورانشاه وولاية شجرة الدر

وفداء الفرنسيس بدمياط:

ولما بويع المعظم تورانشاه وكانت له بطانة من المماليك جاء بهم من كيفا فتسلطوا على موالي أبيه، وتقسموهم بين النكبة والإهمال. وكان للصالح جماعة من الموالي وهم البحرية الذين كان يترلهم بالدار التي بناها إزاء المقياس، وكانوا بطانته وخالصته. وكان كبيرهم بيبرس، وهو الذي كان الصالح بعثه بالعساكر لقتال الخوارزمية عندما زحفوا مع عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق. وقد مر ذكر ذلك فصارت صاغيته معهم. ثم استمالهم الصالح فصاروا معه وزحفوا مع عساكره إلى عساكر دمشق والإفرنج فهزموهم وحاصروا دمشق وملكوها بدعوة الصالح كما مر. واستوحش بيبرس حتى بعث إليه الصالح بالأمان سنة أربع وأربعين ولحقه بمصر فحبسه على ما كان منه، ثم أطلقه.وكان من خواص الصالح أيضاً قلاون الصالحي كان من موالي علاء الدين قراسنقرمملوك العادل، وتوفي سنة خمس وأربعين وورثه الصالح بحكم الولاء. ومنهم أقطاي الجامدار وأيبك التركماني وغيرهم فأنفوا من استعلاء بطانة المعظم تورانشاه عليهم وتحكمهم فيهم فاعصوصبواً واعتزموا على الفتك بالمعظم. ورحل من المنصورة بعد هزيمة الإفرنج راجعاً إلى مصر فلما قربت له الحراقة عند البرج ليركب البحر كبسوه بمجلسه، وتناوله بيبرس بالسيف فهرب إلى البرج فاضرموه ناراً فهرب إلى البحر فرموه بالسهام فألقى نفسه في الماء وهلك بين السيف والماء لشهرين من وصوله وملكه. ثم إجتمع هؤلاء الأمراء المتولون قتل تورانشاه ونصبوا للملك أم خليل شجرة الدر زوجة الصالح، وأم ولده خليل المتوفى في حياته، وبه كانت تلقب. وخطب لها على المنابر وضربت السكة باسمها ووضعت علامتها على المراسم، وكان نص علامتها أم خليل وقدم أتابك على العساكر عز الدين الجاشنكيرأيبك التركماني، فلما استقرت الدولة طلبهم الفرنسيس في الفداء على تسليم دمياط للمسلمين فاستولوا عليها سنة ثمان وأربعين. وركب الفرنسيس البحر إلى عكا وعظم

الفتح وأنشد الشعراء في ذلك وتساجلوا. ولجمال الدين بن مطروح نائب دمشق ابيات في الواقعة يتداولها الناس لهذا العصر، والله تعالى ولي التوفيق وهي:

قل للفرنسيس إذا جئته   مقال صدق عن قول فصيح
آجرك الله على ما جرى   من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصراً تبتغي ملكها   تحسب أن الزمر بالطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم   ضاق بهم في ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم   بسوء تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفاً لا يرى منهم   إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لأمثالها   لعلنا من شركم نستريح
إن كان باباكم بذا راضياً   فرب غش قد أتى من نصيح
أوصيكم خيراً به   إنه لطف من الله إليكم أتيح

لو كان ذا رشد على زعمكم   ما كان يستحسن هذا القبيح

فقل لهم إن أضمروا عودة لأخذ ثأر أو لقصد قبيح

دار ابن لقمان على حالها   والقيد باق والطواشى صبيح

والطواشي في لغة أهل المشرق هو الخصي، ويسمونه الخادم أيضاً والله أعلم.

استيلاء الناصر صاحب حلب على دمشق وبيعة الترك بمصر لموسى

الأشرف بن أطسز بن المسعود صاحب اليمن وتراجعهما ثم صلحهما

ولما قتل المعظم تورانشاه ونصب الأمراء بعده شجرة الدر زوجة الصالح إمتعض لذلك أمراء بني أيوب بالشام، وكان بدر الصوابي بالكرك والشوبك ولأه الصالح عليهما، وحبس عنده فتح الدين عمر ابن أخيه العادل فأطلقه من محبسه وبايع له. وقام بتدبير دولته جمال الدين بن يغمور بدمشق، واجتمع مع الأمراء القصرية بها على استدعاء الناصر صاحب حلب وتمليكه فسار وملك دمشق، واعتقل جماعة من موالي الصالح. وبلغ الخبر إلى مصر فخلعوا شجرة الدر ونصبوا موسى الأشرف بن مسعود أخي الصالح بن الكامل، وهو الذي ملك أخوه أطسز واسمه يوسف باليمن بعد أبيهما مسعود، وبايعوا له وأجلسوه على التخت، وجعلوا أيبك أتابكه. ثم

انتقض الترك بغزة ونادوا بطاعة المغيث صاحب الكرك، فنادى الترك بمصر بطاعة المستعصم وجددوا البيعة للأشرف وأتابكه. ثم سار الناصر يوسف بعسكره من دمشق إلى مصر فجهز الأمراء العساكر إلى الشام مع أقطاي الجامدار كبير البحرية، ويلقب فارس الدين فأجفلت عساكر الشام بين يديه. ثم قبض الناصر يوسف صاحب دمشق على الناصر داود لشيء بلغه عنه وحبسه بحمص، وبعث عن ملوك بني أيوب فجاءه موسى الأشرف صاحب حمص والرحبة وتدمر، والصالح إسماعيل بن العادل من بعلبك، والمعظم تورانشاه وأخوه نصر الدين ابنا صلاح الدين، والأمجد حسام الدين والظاهر شادي ابنا الناصر ، وداود صاحب الكرك، وتقي الدين عباس بن العادل ؛ واجتمعوا بدمشق.وبعث في مقدمته مولاه لؤلؤ الأرمني، وخرج أيبك التركماني في العساكر من مصر للقائهم، وأفرج عن ولدي الصالح إسماعيل المعتقلين منذ أخذهم الهدباني من بعلبك ليتهم الناس أباهم ويستريبوا به والتقى الجمعان في العباسية فانكشفت عساكر مصر، وسارت عساكر الشام في أتباعهم، وثبت أيبك، وهرب إليه جماعة من عساكر الناصر . ثم صدق أيبك الحملة على الناصر فتفرقت عساكره وسار منهزماً، وجيء لأيبك بلؤلؤ الأرمني أسيراً فقتله، وأسر إسماعيل الصالح وموسى الأشرف وتورانشاه المعظم وأخوه. ولحق المنهزمون من عسكر مصر بالبلد وشعر المتبعون لهم من عساكر الشام بهزيمة الناصر وراءهم فرجعوا. ودخل أيبك إلى القاهرة، وحبس بني أيوب بالقلعة.ثم قتل يغمور وزير الصالح إسماعيل المعتقل ببعلبك مع بنيه، وقتل الصالح إسماعيل في محبسه. ثم جهز الناصر العساكر من دمشق إلى غزة، فتواقعوا مع فارس الدين أقطاي مقدم عساكر مصر، فهزموهم واستولوا عليها. وترددت الرسل بين الناصر وبين الأمراء بمصر، واصطلحوا سنة خمسين، وجعلوا التخم بينهم نهر الأردن. ثم أطلق أيبك حسام

الدين الهدباني فسار إلى دمشق، وسار في خدمة الناصر . وجاءت إلى الناصر شفاعة المستعصم في الناصر داود صاحب الكرك الذي حبسه بحمص فأفرج عنه، ولحق ببغداد ومعه ابناه الأمجد والظاهر فمنعه الخليفة من دخولها فطلب وديعته فلم يسعف بها. وأقام في أحياء عرية ، ثم رجع إلى دمشق بشفاعة من المستعصم للناصر وسكن عنده، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

خلع الاشرف بن أطسز واستبداد أيبك وأمراء الترك بمصر

قد تقدم لنا آنفاً بيعة أمراء التركمان بمصر للأشرف موسى بن يوسف أطسز بن الكامل، وأنهم خطبوا له وأجلسوه علىالتخت بعد أن نصبوا للملك أيبك، وكان طموحاً إلى الاستبداد. وكان أقطاي الجامدار من أمراء البحرية يدافعه عن ذلك، ويغض من عنانه منافسة وغيرة فأرصد له أيبك ثلاثة من المماليك اغتالوه في بعض سكك القصر وقتلوه سنة اثنتين وخمسين. وكانت جماعة البحرية ملتفة عليه فانفضوا ولحقوا بالناصر في دمشق، واستبد أيبك بمصر، وخلع الأشرف وقطع الخطبة له فكان آخر أمراء بني أيوب بمصر، وخطب أيبك لنفسه. ثم تزوج شجرة الدر أم خليل الملكة قبله فلما وصل البحرية إلى الناصر بدمشق أطمعوه في ملك مصر واستحثوه فتجهز وسار إلى غزة، وبرز أيبك بعساكره إلى العباسية فترل بها.

وانتقض عليه فتوهموا بالثورة به فإرتاب بهم ولحقوا بالناصر. ثم ترددت الرسل بين الناصر وأيبك فاصطلحوا على أن يكون التخم بينهم العريش. وبعث الناصر

إلى المستعصم مع وزيره كمال الدين بن العديم في طلب الخلعة. وكان أيبك قد بعث بالهدية والطاعة إلى المستعصم فمطل المستعصم الناصر بالخلعة حتى بعثها إليه سنة خمس وخمسين. ثم قتل المعز أيبك قتلته شجرة الدر غيلة في الحمام سنة خمس وخمسين غيرة من خطبته بنت لؤلؤ صاحب الموصل فنصبوا مكانه ابنه علياً ولقبوه المنصور، وثاروا به من شجرة الدر كما نذكره في أخبارهم إن شاء الله تعالى.

مسير المغيث بن العادل صاحب الكرك

مع البحرية إلى مصر وإنهزامهم

كان البحرية منذ لحقوا بالناصر بعد مقتل أقطاي الجامدار مقيمين عنده، ثم ارتاب

بهم وطردهم آخر سنة خمس وخمسين فلحقوا بغزة وكاتبوا المغيث فتح الدين عمر بن العادل بالكرك وقد كنا ذكرنا إن بدرا الصوافي أخرجه من محبسه بالكرك بعد مقتل تورانشاه بمصر، وولاه الملك وقام بتدبير دولته.

وبعث إليه الآن بيبرس البندقداري مقدم البحرية من غزة

يدعوه إلى الملك، وبلغ الخبر إلى الناصر بدمشق فجهز العساكر إلى غزة فقاتلوهم وإنهزموا إلى الكرك فتلقاهم المغيث وقسم فيهم الأموال واستحثوه لملك مصر فسار معهم، وبرزت عساكر مصر لقتالهم مع قطز مولى أيبك المعز ومواليه، فالتقى الفريقان بالعباسية فانهزم المغيث والبحرية إلى الكرك، ورجعت العساكر إلى مصر.وفي خلال ذلك أخرج الناصر داود بن المعظم من دمشق حاجا، ونادى في الموسم بتوسله إلى المستعصم في وديعته، وإنصرف مع الحاج إلى العراق فأكرهه المستعصم على براءته من وديعته فكتب وأشهد

ولحق بالبرية. وبعث إلى الناصر يوسف يستعطفه فأذن له وسكن دمشق. ثم رجع مع رسول المستعصم الذي جاء معه إلى الناصر بالخلعة والتقليد فأقام بقرقيسيا حتى يستأذن له الرسول فلم يأذن له فأقام عنده بأحياء العرب في التيه فقربوا في تقلبهم من الكرك، فقبض عليه المغيث صاحب الكرك وحبسه، حتى إذا زحف التتر لبغداد بعث عنه المستعصم ليبعثه مع العساكر لمدافعتهم، وقد استولى التتر على بغداد فرجع ومات ببعض قرى دمشق بالطاعون سنة ست وخمسين إنتهى، والله تعالى أعلم.

زحف الناصر صاحب دمشق إلى الكرك

وحصارها والقبض على البحرية

ولما كان من المغيث والبحرية ما قدمناه، ورجعوا منهزمين إلى الكرك بعث الناصر عساكره من دمشق إلى البحرية فالتقوا بغزة، وإنهزمت عساكر الناصر وظفرت البحرية بهم. واستفحل أمرهم بالكرك فسار الناصر بنفسه إليهم بالعساكر من دمشق سنة سبع وخمسين، وسار معه صاحب حماة المنصور بن المظفر محمود فنزلوا على الكرك وحاصروها. وأرسل المغيث إلى الناصر في الصلح فشرط عليه أن يحبس البحرية فاجاب. ونمي الخبر إلى بيبرس أميرهم البندقداري فهرب في جماعة منهم، ولحق بالناصر. وقبض المغيث على الباقين، وبعث بهم إلى الناصر في القيود ورجع إلى الكرك. ثم بعث إلى الأمراء بمصر وزيره كمال الدين بن العديم يدعوهم إلى الإتفاق إلى مدافعة التتر. وفي أيام مقدم ابن العديم مصر خلع الأمراء على ابن المعز أيبك، وقبض عليه أتابك عسكره وموالي أبيه، وجلس على التخت وخطب لنفسه،

وقبض على الأمراء الذين يرتاب منازعتهم كما نذكره في أخبارهم. وأعاد ابن العديم إلى مرسله صاحب دمشق بالإجابة والوعد بالمظاهرة، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

استيلاء التتر على الشام وإنقراض ملك

بني أيوب وهلاك من هلك منهم

ثم زحف التتر وسلطانهم هلاكو إلى بغداد، واستولى على كرسي الخلافة، وقتلوا المستعصم وطمسوا معالم الملة. وكادت تكون من أشراط الساعة. وقد شرحناها في أخبار الخلفاء ونذكرها في أخبار التتر فبادر الناصر صاحب دمشق بمصانعته، وبعث ابنه العزيز محمدا إلى السلطان هلاكو بالهدايا والألطاف فلم يغن ورده بالوعد. ثم بعث هلاكو عساكره إلى ميافارقين، وبها الكامل محمد بن المظفر شهاب الدين غازي بن العادل الكبير فحاصروها سنتين، ثم ملكوها عنوة سنة ثمان وخمسين وقتلوه. وبعث العساكر إلى إربل فحاصروها ستة أشهر وفتحوها. وسار ملوك بلاد الروم كيكاوس وقليج أرسلان ابنا كنجسرو إلى هلاكو أثر ما ملك بغداد فدخلوا في طاعته ورجعوا إلى بلادهم. وسار هلاكو إلى بلاد أذربيجان، ووفد عليه هنالك لؤلؤ صاحب الموصل سنة سبع وخمسين ودخل في طاعته ورده إلى بلده وهلك أثر ذلك. وملك الموصل مكانه ابنه الصالح وسنجار ابنه علاء الدين.ثم أوفد الناصر ابنه على هلاكو بالهدايا والتحف على سبيل المصانعة، واعتذر عن لقائه بالتخوف على سواحل الشام من الإفرنج فتلقى ولده بالقبول، وعذره وأرجعه إلى بلده بالمهادنة

والمواعدة الجميلة. ثم سار هلاكو إلى حران وبعث ابنه في العساكر إلى حلب وبها المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين نائباً عن الناصر يوسف فخرج لقتالهم في العساكر. وأكمن له التتر واستجروهم ثم كروا عليهم فاثخنوا فيهم ورحلوا إلى أعزاز فملكوها صلحا. وبلغ الخبر إلى الناصر وهو بدمشق معسكر من ثورة سنة ثمان وخمسين. وجاء الناصر بن المظفر صاحب حماة فأقام معه ينتظر أمرهم. ثم بلغه أن جماعة من مواليه اعتزموا على الثورة به فكر راجعاً إلى دمشق، ولحق أولئك الموالي بغزة. ثم أطلع على خبثهم وأن قصدهم تمليك أخيه الظاهر فاستوحش منهم ولحق الظاهر بهم فنصبوه للأمر، واعصوصبوا عليه. وكان معهم بيبرس البندقداري وشعر بتلاشي أحوالهم فكاتب المظفر صاحب مصر واستأمن إليه فأمنه. وسار إلى مصر فتلقي بالكرامة وأنزل بدار الوزارة، وأقطعه السلطان قطر قليوب بأعماله. ثم هرب هلاكو إلى الفرات فملك وكان بها

إسماعيل أخو الناصر معتقلا فأطلقه وسرحه إلى عمله بالصبينة وبانياس وولاه عليهما. وقدم صاحب أرزن إلى تورانشاه نائب حلب يدعوه إلى الطاعة فامتنع فسار إليها وملكها عنوة وأمنها. واعتصم تورانشاه والحامية بالقلعة. وبعث أهل حماة بطاعتهم إلى هلاكو وأن يبعث عليهم نائباً من قبله ويسمى برطانتهم الشحنة. فأرسل إليهم قائداً يسمى خسروشاه، وينسب في العرب إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه. وبلغ الناصر أخذ حلب فأجفل عن دمشق واستخلف عليها، وسار إلى غزة واجتمع عليه مواليه وأخوه. وسار التتر إلى نابلس فملكوها وقتلوا من كان بها من العسكر. وسار الناصر من غزة إلى العريش، وقدم رسله إلى قطز تسأله النصر من عدوهم وإجتماع الأيدي على المدافعة ثم تقدموا إلى واستراب الناصر بأهل مصر فسار هو وأخوه الظاهر ومعهما الصالح بن الأشرف موسى بن شيركوه إلى التيه فدخلوا إليه وفارقهم المنصور صاحب حماة والعساكر إلى مصر فتلقاهم السلطان قطز بالصالحية، وآنسهم ورجع بهم إلى مصر واستولى التتر على دمشق وسائر بلاد الشام إلى غزة، وولوا على جميعها أمراءهم. ثم افتتحت قلعة حلب، وكان بها جماعة من البحرية معتقلين منهم سنقر الأشقر فدفعهم هلاكو إلى السلطان جق من أكابر أمرائه. وولى على حلب عماد الدين القزويني. ووفد عليه بحلب الأشرف موسى بن منصور بن إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص. وكان الناصر قد أخذها منه كما قدمناه فأعادها عليه هلاكو ورد جميع ولايته بالشام إلى رأيه. وسار إلى قلعة حارم فملكها واستباحها وأمر بتخريب أسوار حلب وقلعتها وكذلك

حماة وحمص وحاصروا قلعة دمشق طويلا، ثم تسموها بالأمان. ثم ملكوا بعلبك وهدموا قلعتها وساروا إلى الصبينة وبها السعيد بن العزيز بن العادل فملكوها منه على الأمان وسار معهم ووفد على هلاكو فخر الدين بن الزكي من أهل دمشق فولاه القضاء بها. ثم اعتزم هلاكو على الرجوع إلى العراق فعبروا الفرات وولى على الشام أجمع أميراً اسمه كتبغا من أكابر أمرائه، واحتمل. عماد الدين القزويني من حلب، وولى مكانه آخر. وأما الناصر فلما دخل في التيه هاله أمره، وحسن له أصحابه قصد هلاكو فوصل إلى كتبغا نائب الشام يستأذنه. ثم وصل فقبض عليه وسار به إلى حتى سلمها إليه أهلها. وبعث به إلى هلاكو فمر

بدمشق ثم بحماة، وبها الأشرف صاحب حمص وخسروشاه نائبها فخرجا لتلقيه. ثم مر بحلب ووصل إلى هلاكو فأقبل عليه ووعده برده إلى ملكه. ثم ثار المسلمون بدمشق بالنصارى أهل الذمة، وخربوا كنيسة مريم من كنائسهم وكانت من أعظم الكنائس في الجانب الذي فتحه خالد بن الوليد رحمه الله. وكانت لهم أخرى في الجانب الذي فتحه أبو عبيدة بالأمان. ولما ولي طالبهم في هذه الكنيسة ليدخلها في جامع البلد، وأعلى لهم في السوم فامتنعوا فهدمها وزادها في الجامع لأنها كانت لصقه. فلما ولي عمر بن عبد العزيز استعاضوه
فعوضهم بالكنيسة التي ملكها المسلمون بالعنوة مع خالد بن الوليد رحمه الله، وقد تقدم ذكر هذه القصة. فلما ثار المسلمون الآن بالنصارى أهل الذمة خربوا كنيسة مريم هذه، ولم يبقوا لها أثراً . ثم إن العساكر الإسلامية أجمعت بمصر، وساروا إلى الشام لقتال التتر صحبة السلطان قطز صاحب ومعه ا لمنصور صاحب حماة وأخوه الأفضل فسار إليه كتبغا نائب الشام، ومعه الأشرف صاحب حمص والسعيد صاحب الصبينة ابن العزيز بن العادل والتقوا على عين. جالوت بالغور فانهزم التتر وقتل أميرهم النائب كتبغا وأسر السعيد صاحب الصبينة فقتله قطز، واستولى على الشام أجمع. وأقر المنصور صاحب حماة على بلده ورجع إلى مصر فهلك في طريقه، قتله بيبرس البندقداري، وجلس على التخت مكانه وتلقب بالظاهر حسبما يذكر ذلك كله في دولة الترك.
ثم جاءت عساكر التتر إلى الشام، وشغل هلاكو عنهم بالفتنة مع قومه وأسف على
قتل كتبغا نائبه وهزيمة عساكره فأحضر الناصر ولامه على ما كان منه من تسهيله عليه أمر الشام وتجنى عليه بأنه غره بذلك فاعتذر له الناصر فلم يقبل فرماه بسهم فأنفذه. ثم أتبعه بأخيه الظاهر وبالصالح بن الأشرف موسى صاحب حمص، وشفعت زوجة هلاكو في العزيز بن الناصر وكان مع ذلك يحبه فاستبقاه. وانقرض ملك بني أيوب من الشام كما انقرض قبلها من مصر؛ واجتمعت مصر والشام في مملكة الترك، ولم يبق لبني أيوب بهما ملك إلا للمنصور بن المظفر صاحب حماة فإن قطز أقره عليها والظاهر، بيبرس من بعده وبقي في إمارته هو وبنوه مدة من دولة الترك وطاعتهم، حتى أذن الله بانقراضهم وولى عليها غيرهم من أمرائهم كما نذكر في أخبار دولتهم، والله وارث الأرض ومن عليها والعاقبة للمتقين

الخريطة

دولة الترك

الخبر عن دولة الترك القائمين بالدولة العباسية بمصر والشام

من بعد بني أيوب ولهذا العهد ومبادي أمورهم وتصاريف أحوالهم

قد تقدم لنا ذكر الترك وأنسابهم أول الكتاب عند ذكر أمم العالم، ثم أخبار الأمم السلجوقية، وأنهم من ولد يافث بن نوح باتفاق من أهل الخليقة. فعند نسابة العرب أنهم من عامور بن سويل بن يافث، وعند نسابة الروم أنهم من طيراش بن يافث. هكذا وقع في التورارة. والظاهر أن ما وقع لنسابة العرب غلط، وان عامور هو مصحف كومر لأن كافه تنقلب عند التعريب غيناً معجمة فربما صحفت عيناً مهملة أو بقيت بحالها. وأما

سويل فغلط بالزيادة وأما ما وقع للروم من نسبتهم إلى طيراش فهو منقول في الإسرائيليات، وهو رأي مرجوح عندهم لمخالفته لما في التوراة. وأما شعوبهم وأجناسهم فكثيرة وقد عددنا منهم أول الكتاب التغرغر، وهم التتر والخطا وكانوا بأرض طغماح، وهي بلاد ملوكهم في الإسلام تركستان وكاشغر.

وعددنا منهم أيضاً الخزلخية والغز كان منهم السلجوقية، والهياطلة الذين منهم الخلج وبلادهم الصغد قريباً من سمرقند ويسمون بها أيضاً. وعددنا منهم أيضاً الغور والخزر والقفجاق، وبقال الخفشاخ ويمك والعلان، ويقال اللان وشركس وأركش. وقال صاحب كتاب زجار في الكلام على الجغرافيا أجناس من الترك كلهم وراء النهر إلى البحر المظلم، وهي العسية والتغرغرية والخرخيرية والكيماكية والخزلخية والخزر والحاسان وتركش وأركش وخفشاخ والخلخ والغزية وبلغار وخجاكت ويمناك وبرطاس وسنجرت وخرجان وأنكر. وذكر في موضع آخر أنكر من شعوب الترك، وأنهم في بلاد البنادقة من أرض الروم وأما مواطنهم فإنهم ملكوا الجانب الشمالي من المعمور في النصف الشرقي منه قبالة الهند والعراق في ثلاثة أقاليم: هي السادس والسابع والخامس، كما ملك العرب الجانب الجنوبي من المعمور أيضاً في جزيرة العرب وما إليها من أطراف الشام والعراق وهم رجالة مثلهم وأهل حرب وافتراس ومعاش من التغلب والنهب إلا في الأقل. وقد ذكرنا أنهم عند الفتح لم يذعنوا إلا بعد طول حرب وممارسة أيام سائر دولة بني أمية، وصدراً من صولة بني العباس. وامتلأت أيدي العرب يومئذ من سبيهم فاتخذوهم خولا في المهن والصنائع، ونساءهم فرشا للولادة كما فعلوه في سبي الفرس والروم وسائر الأمم الذين قاتلوهم على الدين، وكان شأنهم أن لا يستعينوا برقيقهم في شيء مما يغانونه من الغزو والفتوح ومحاربة الأمم، ومن أسلم منهم تركوه لسبيله التي هو

عليها من أمر معاشه على طاغية هواه.لأن عصبية العرب كانت مستفحلة يومئذ وشوكتهم قائمة مرهفة، ويدهم ويد سلطانهم في الأمر جميعاً، ومرماهم إلى العز والمجد واحد. وكانوا كأسنان المشط لتزاحم الأنساب وغضاضة الدين، حتى إذا أرهف الملكم حده ونهج إلى الإستبداد طريقه وإحتاج السلطان في القيام بأمره إلى الإستظهار على المنازعين فيه من قومه بالعصبية المدافعة دونه، والشوكة المعترض شباها في أذياله حتى تجدع أنوفهم عن التطاول إلى رتبته، وتغض أعنتهم عن السير في مضماره اتخذ بنو العباس من لدن المهدي والرشيد بطانة إصطنعوهم من موالي الترك والروم والبربر، ملؤا منهم المواكب في الأعياد والمشاهد والحروب والصوائف والحراسة على السلطان، وزينة في أيام السلم واكثافاً لعصابة الملك. حتى لقد إتخذ المعتصم مدينة سامرا لتزلهم تحرجاً من أضرار الرعية باصطدام مراكبهم، وتراكم القتال بجوهم، وضيق السكك على المارين بزحامهم.

وكان إسم الترك غالباً على جميعهم فكانوا تبعا لهم ومندرجين فيهم. وكانت حروب المسلمين لذلك العهد في القاصية وخصوصاً مع الترك متصلة والفتوح فيهم متعاقبة، وأمواج السبي من كل وجه متداركة. وربما رام الخلفاء عند استكمال بغيتهم واستجماع عصابتهم إصطفاء علية منهم للمخالصة، وقواد العساكر ورؤساء المراكب، فكانوا يأخذون في تدريجهم لذلك بمذاهب الترشيح فينتقون من أجود السبي الغلمان كالدنانير، والجوار كاللآلىء ويسلمونهم إلى قهارمة القصور وقرمة الدواوين، يأخذونهم بحدود الإسلام والشريعة وآداب

الملك والسياسة، ومراس الثقافة في المران على المناضلة بالسهام والمسالحة بالسيوف والمطاعنة بالرماح، والبصر بأمور الحرب والفروسية، ومعاناة الخيول والسلاح والوقوف على معاني السياسة.

حتى إذا تنازعوا في التشريح وإنسلخوا من جلدة الخشونة إلى رقة الحاشية وملكة التهذيب إصطنعوا منهم للمخالصة، ورقوهم في المراتب وإختاروا منهم لقيادة العساكر في الحروب، ورئاسة المواكب أيام الزينة، ورتق الفتوق الحادثة وسد الثغور القاصية كل على شاكلة غنائه وسابق إصطناعه. فلم يزل هذا دأب الخلفاء في إصطناعهم، ودعامة سرير الملك بعمدهم ؛ وتمهيد الخلافة بمقاماتهم حتى سموا في درج الملك، وامتلأت جوانجهم من الغزو، وطمحت أبصارهم إلى الإستبداد فتغلبوا على الدولة، وحجروا الخلفاء وقعدوا بدست الملك ومدرج النهي والأمر، وقادوا الدولة بزمامهم، وأضافوا إسم السلطان إلى مراتبهم.وكان مبدأ ذلك واقعة المتوكل، وما حصل بعدها من تغلب الموالي واستبدادهم بالدولة والسلطان. ونهج السلف منهم في ذلك السبيل للخلف، وإقتدى الاخر بالأول فكانت لهم دول في الإسلام متعددة تعقب غالباً دولة أهل العصبية وشوكة النسب: كمثل دولة بني

ساماں وراء النهر، وبني سبكتكين بعدهم، وبني طولون بمصر، وبني طغج. وما كان بعد الدولة السلجوقية من دولتهم مثل: بني خوارزم شاه بما وراء النهر، وبني طغرلتكين بدمشق، وبني أرتق بماردين، وبني زنكي بالموصل والشام، وغير ذلك من دولهم التي قصصناها عليك في تصانيف الكتاب.حتى إذا استغرقت الدولة في الحضارة والترف، ولبثت أثواب البلاء والعجز ورميت الدولة بكفرة التتر الذين أزالوا كرسي الخلافة وطمسوا رونق البلاد، وأدالوا بالكفر من الإيمان بما أخذ أهلها عند الإستغراق في التنعم والتشاغل في اللذات والإسترسال في الترف من تكاسل الهمم والقعود عن المناصرة، والإنسلاح من جلدة البأس وشعار الرجولية، فكان من لطف الله سبحانه أن تدارك الإيمان بأحياء رمقه وتلافى شمل المسلمين بالديار المصرية بحفظ نظامه، وحماية سياجه بأن بعث لهم من هذه الطائفة التركية وقبائلها العزيزة المتوافرة أمراء حامية وأنصاراً متوافية، يجلبون من دار الحرب إلى دار الإسلام في مقادة الرق الذي كمن اللطف في طيه، وتعرفوا العز والخير في مغبته، وتعرضوا للعناية الربانية بتلافيه. يدخلون في الدين بعزائم إيمانية وأخلاق بدوية لم يدنسها لؤم الطباع، ولا خالطتها أقذار اللذات، ولا دنستها عوائد الحضارة، ولا كسر من سورتها غزارة الترف.ثم يخرج بهم التجار إلى مصر أرسالا كالقطا نحو الموارد فيستعرضهم أهل الملك منهم، ويتنافسون في أثمانهم بما يخرج عن القيمة لا لقصد الإستعباد، إنما هو إكثاف للعصبية وتغليظ للشوكة، ونزوع إلى العصبية الحامية يصطفون من كل منهم بما يؤنسونه من شيم قومهم وعشائرهم. ثم يترلونهم في غرف الملك ويأخدونهم بالمخالصة ومعاهدة التربية، ومدارسة القرآن وممارسة التعليم، حتى يشتدوا في ذلك. ثم يعرضونهم على الرمى والثقافة وركض الخيل في الميادين، والمطاعنة بالرماح والمطاعنة بالسيوف، حتى تشتد منهم السواعد وتستحكم الملكات، ويستيقنوا منهم المدافعة عنهم والاستماتة دونهم.فإذا بلغوا إلى هذا الحد ضاعفوا أرزاقهم، ووفروا من أقطاعهم وفرضوا عليهم إستجادة السلاح وإرتباط الخيول، والإستكثار من أجناسهم لمثل هذا القصد. وربما عمروا بهم خطط الملك،

ودرجوهم في مراتب الدولة فيسترشح من يسترشح منهم لإقتعاد كرسي السلطان، والقيام بأمور المسلمين عناية من الله تعالى سابقة، ولطائف في خلقه سارية. فلا يزال نشو منهم يردف نشوا وجيل يعقب جيلا، والإسلام يبتهج بما يحصل به من الغناء، والدولة ترف أغصانها من نضرة الشباب. وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام، وأخوه العادل أبو بكر من بعده ثم بنوهم من بعدهم قد تناغوا في ذلك بما فوق الغاية. وإختص الصالح نجم الدين أيوب آخر ملوكهم بالمبالغة في ذلك والإمعان فيه، فكان عامة عسكره منهم. فلما إنفض عشيره، وخذله

أنصاره، وقعد عنه أولياؤه وجنوده، لم يدع سببا في استجلابهم إلا أتاه من إستجادة المترددين إلى ناحيتهم، ومراضاة التجار في أثمانهم بأضعاف ثمنهم، وكان رقيقهم قد بلغ الغاية من الكثرة لما كان التتر قد دوخوا الجانب الغربي من ناحية الشمال، وأوقعوا بسكانه من الترك وهم شعوب القفجاق والروس والعلان والمولات وما جاورهم من قبائل جركس. وكان ملك التتر بالشمال يومئذ دوشي خان بن جنسكزخان قد أصابهم بالقتل والسبي فامتلأت أيدي أهل تلك النواحي برقيقهم، وصاروا عند التجار من أنفس بضائعهم والله تعالى أعلم.

ذكر بيبرس البندقداري

في تاريخه حكاية غريبة عن سبب دخول التتر لبلادهم بعد أن عد شعوبهم فقال: ومن قبائلهم - يعني القفجاق - قبيلة طغصبا وستا وبرج أغلا والبولى وقنعرا على وأوغلي ودورت وقلابا أعلى وجرثان وقد كابر كلي وكنن. هذه إحدى عشرة قبيلة وليس فيها ذكر الشعوب العشرة القديمة الذكر التي عددها النسابة كما قدمناه أول الترجمة. وهذه والله أعلم بطون متفرعة من القفجاق فقط، وهي التي في ناحية الغرب من بلادهم الشمالية، فإن سياق كلامه إنما هو في الترك المجلوبين من تلك الناحية لا من ناحية خوارزم ولا ما وراء النهر. قال بيبرس: ولما استولى التتر على بلادهم سنة ست وعشرين، والملك يومئذ بكرس جنكز خان لولده دوشي خان، وإتفق إن شخصاً من قبيلة دورت يسمى منقوش بن كتمر خرج متصيداً فلقيه آخر من قبيلة طغصبا إسمه أقاكبك وبين القبيلتين عداوة مستحكمة فقتله. وأبطأ خبره عن أهله فبعثوا طليعة لإستكشاف أمره إسمه جلنقر فرجع إليهم وأخبرهم، وأنه قتل وسمى لهم قاتله فجمعوا للحرب. وتزاحفت القبيلتان فانهزمت قبيلة طغصبا، وخرج أقاكبك القاتل، وتفرق جمعه فأرسل أخاه أقصر إلى ملكهم دوشي يستعلم ما على ذوي قبيلة دورت القفجاقية. وذكره ما فعل كتمر وقومه بأخيه وأغر بهم، وسهل له الشأن فيهم. وبعث دوشي خان جاسوسه لإستكشاف حالهم وإختيار مراسلهم وشكيمتهم، فعاد إليه بتسهيل المرام فيهم. وقال: إن رأيت كلاباً مكبين على فريستهم متى طردتهم عنها تمكنت منها فأطمعه ذلك في بلاد القفجاق، واستحثه أقصر الذي جاء صريخاً وقال له، ما معناه نحن ألف رأس تجر ذنباً واحداً، وأنتم رأس واحد تجر ألف ذنب، فزاده ذلك إغراء. ونهض بجموع التتر فأوقع بالقفجاق، وأثخن فيهم قتلا وسبيا وأسرا، وفرقهم في البقاع وامتلأت أيدي التجار، وجلبوهم إلى مصر فعوضه الله بالدخول

في الإيمان والاستيلاء على الملك والسلطان. إنتهى كلام بيبرس. ومساق القصة يدل على أن قبيلة دورت من القفجاق، وأن قبيلة طغصبا من التتر. فيقتضي ذلك أن هذه البطون التي عددت ليست من بطن واحد، وكذلك يدل مساقها على أن أكثر هؤلاء الترك الذين بديار مصر من القفجاق، والله تعالى أعلم.

الخبر عن استبد اد الترك بمصروإنفراد هم بها

عن بني أيوب ودولة المعز أيبك أول ملوكهم

قد تقدم لنا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل بن العادل قد استكثر من المماليك الترك، ومن في معناهم من التركمان والأرمن والروم وجركس وغيرهم. إلا أن اسم الترك غالب على جميعهم لكثرتهم ومزيتهم، وكانوا طوائف متميزين بسمات من ينسبون إليه من نسب أو سلطان: فمنهم العزيزية نسبة إلى العزيز عثمان بن صلاح الدين، ومنهم الصالحية نسبة إلى هذا الصالح أيوب، ومنهم البحرية نسبة إلى القلعة التي بناها الصالح بين شعبتي النيل إزاء المقياس بما كانوا حاميتها. وكان هؤلاء البحرية شركة دولته وعصابة سلطانه وخواص داره، وكان من كبرائهم عز الدين أيبك الجاشنكير التركماني، ورديفه فارس الدين أقطاي الجامدار، وركن الدين بيبرس البندقدارى ولما كان ما قدمناه ووفاة الصالح بالمنصورة في محاصرة الإفرنج بدمياط في سنة سبع وأربعين، وكتمانهم موله ورجوعهم في تدبير أمورهم إلى شجرة الدر زوجة الصالح وأم ولد خليل، وبعثهم إلى ابنه المعظم تورانشاه وإنتظاره، وأن الإفرنج شعروا بموت الصالح فدلفوا إلى معسكر المسلمين على حين غفلة فانكشف أوائل العسكر وقتل فخر الدين الأتابك. ثم أفرغ الله الصبر وثبت أقدامهم، وأبلى أمراء الترك في ذلك اليوم بلاء حسناً، ووقفوا مع شجرة الدر زوج السلطان تحت الرايات ينوهون بمكانها فكانت لهم الكرة وهزم الله العدو. ثم وصل المعظم تورانشاه من كيفا فبايعوا له وأعطوه الصفقة وإنتظم الحال ، واستطال المسلمون على الإفرنج براً وبحراً فكان ما قدمناه من هزيمتهم والفتك بهم وأسر ملكهم الفرنسيس. ثم رحل المعظم إثر هذا الفتح إلى مصر لشهرين من وصوله، ونزل بفارس كور يريد مصر، وكانت بطانته قد استطالوا على موالي أبيه، وتقسموهم بين النكبة والإهمال فاتفق كبراء البحرية على قتله وهم: أيبك وإقطاي وبيبرس فقتلوه كما مر ونصبوا للملك شجرة الدر أم الخليل، وخطب لها على المنابر، ونقش إسمها على السكة، ووضعت علامتها على المراسم ونصها أم خليل. وقام أيبك التركماني بأتابكية العسكر. ثم فودي الفرنسيس بالنزول عن دمياط وملكها المسلمون سنة ثمان وأربعين. وسرحوه في البحر إلى بلاده بعد أن توثقوا منه باليمين أن لا

يتعرض لبلاد المسلمين ما بقي. واستقلت الدولة بمصر للترك وانقرضت منها دولة بني أيوب، وبلغ الخبر إلى بني أيوب بقتل المعظم وولاية المرأة، وما اكتنف ذلك فامتعضوا له. وكان فتح الدين عمر بن العادل قد حبسه عمه الصالح أيوب بالكرك لنظر بدر الصوابي خادمه الذي ولاه على الكرك والشويك لما ملكهما كما مر فأطلق بدر الدين من محبسه. وبايع له وقام بأمره ولقبه المغيث وأتصل الخبر بمصر وعلموا أن الناس قد نقموا عليهم ولاية المرأة فاتفقوا على ولاية زعيمهم أيبك لتقدمه عند الصالح وأخيه العادل قبله فبايعوا له، وخلعوا أم

خليل ولقبوه بالمعز فقام بالأمر وانفرد بملك مصر. وولى مولاه سيف الدين قطز نائباً، وعمر المراتب والوظائف بأمراء الترك، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

نهوض الناصر صاحب دمشق من بني أيوب

إلى مصر وولاية الاشرف موسى مكان أيبك

كان الملك الصالح أيوب قبل موته قد استخلف جمال الدين بن يغمور على دمشق مكان ابن مطروح، وأمراء الدولة الأيوبية بها متوافرون فلما بلغهم استبداد الترك

بمصر وولاية أيبك وبيعة المغيث بالكرك أمعنوا النظر في تلافي أمورهم. وكبراء بني أيوب يومئذ بالشام: الناصر يوسف بن العزيز، محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين حلب وحمص وما إليها فاستدعوه وبايعوا له بدمشق وأغروه بطلب مصر. وإتصل الخبر للترك في مصر فاعتزموا على أن ينصبوا بعض بني أيوب فيكفوا به ألسنة النكير عنهم ، فبايعوا لموسى الذي كان أبوه يوسف صاحب اليمن، وهو يوسف أطسز بن المسعود بن الكامل، وهو يومئذ ابن ست سنين ولقبوه الأشرف. وتزحزح له أيبك عن كرسي السلطان إلى رتبة الأتابكية، واستمر الناصر على غلوائه في النهوض إلى مصر. واستدعى ملوك الشام من بني أيوب فأقبل إليه موسى الأشرف الذي كان صاحب حمص، وإسماعيل الصالح بن العادل صاحب بعلبك، والمعظم تورانشاه بن صلاح الدين وأخوه نصر الدين، وإبنا داود الناصر صاحب الكرك وهما الأمجد حسن والظاهر شادي. وإرتحل من دمشق سنة ثمان وأربعين، وفي مقدمته أتابكه لؤلؤ الأرمني، وبلغ الخبر إلى مصر فاضطرب الأمر ونادوا بشعار الخلافة والدعاء للمستعصم، وجددوا البيعة على ذلك للأشرف وجهزوا العساكر وخرجوا للقائهم. وسار في المقدمة أقطاي الجامدار وجمهور البحرية، وتبعهم أيبك ساقة في العساكر. والتقى الجمعان بالعباسية فانكشف عسكر مصر أولا، وتبعهم أهل الشام وثبت المعز في القلب، ودارت عليه رحى الحرب.

وهرب إليه جماعة من عسكر الناصر فيهم أمراء العزيزية

مثل جمال الدين لا يدعون، وشمس الدين أتسز اليرلي، وشمس الدين أتسز الحسامي. غضبوا من رياسة لؤلؤ عليهم فهربوا وبقي لؤلؤ في المعركة صامداً. ثم حمل المعز على الناصر وأصحابه فانهزموا وإنفض عسكره وجيء بلؤلؤ الأتابكي أسيراً فقتله صبراً، وبأمراء بني أيوب فحبسهم ورجع أيبك من الوقعة فوجد عساكر الناصر مجتمعين بالعباسية يظنون الغلب لهم. فعدل إلى بلبيس، ثم إلى القلعة. ورجعت عساكر الشام من أتباع المنهزمين لما شعروا بهزيمة صاحبهم فلحقوا بالناصر بدمشق، ودخل أيبك إلى القاهرة وحبس بني أيوب بالقلعة. ثم قتل منهم إسماعيل الصالح ووزيره ابن يغمور الذي كان معتقلا من قبل. ولما وصل الناصر إلى دمشق أزاح علل عساكره وعجل الكرة إلى مصر، ونزل غزة سنة خمسين وبرزت عساكر مصر للقائه، فتواقفوا ملياً. ثم وصل نجم الدين البادرإلى رسول المستعصم فأصلح بين الطائفتين على أن يكون القدس والساحل إلى نابلس للمعز، والتخم بين المملكتين نهر الأردن. وإنعقد الأمر على ذلك، ورجع كل إلى بلده، و أخرج المعز عن أمراء بني أيوب الذين حبسهم يوم الواقعة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

واقعة العرب بالصعيد مع أقطاي:

لما شغل الصالح بالإفرنج وما بعدهم عظم فساد العرب بالصعيد واجتمعوا على الشريف خضر الدين أبي ثعلب بن نجم الدين عمر بن فخر الدين إسماعيل بن حصن الدين ثعلب الجعفري، من ولد جعفر بن أبي طالب الذين أجازوا من الحجاز لما غلبهم بنو عمهم بنواحي المدينة، في الحروب التي كانت بينهم. وأطاعه أعراب الصعيد كافة، ولم يقدر على كفهم عن الراية. وإتصل ذلك وهلك الصالح واستبد الترك بمصر، وشغلوا عنهم بما كان من مطالبة بني أيوب لهم. فلما فرغ المعز أيبك من أمر الناصر وعقد الصلح معه، بعث لحربهم فارس الدين أقطاي وعز الدين أيبك الأقرم أمير البحرية فساروا إليهم ولقوهم بنواحي أخميم فهزموهم، وفرّ الشريف ناجيا بنفسه. ثم قبض عليه بعد ذلك وقتل، ورجعت العساكر إلى القاهرة، والله تعالى أعلم.

مقتل أقطاي الجامدار وفرار البحرية إلى

الناصر ورجوع أيبك إلى كرسيه:

كان أقطاي الجامدار من أمراء البحرية وعظمائهم، ويلقب فارس الدين، وكان رديفاً للمعز أيبك في سلطانه وأتابكه. وكان يغض من عنانه عن الطموح إلى الكرسي، وكان يخفض من

جناحه للبحرية يتألفهم بذلك فيميلون له عن أيبك فاعتز في الدولة واستفحل أمره وأخذ من المعز الإسكندرية إقطاعاً، وتصرف في بيت المال. وبعث فخر الدين محمد بن بهاء الدين بن حياء إلى المظفر صاحب حماة في خطبة إبنته فتزوجها، وأطلق يده في العطاء والإقطاع فعم الناس وكثر تابعه. وغص به المعز أيبك، وأجمع قتله فاستدعاه بعض الأيام للقصر للشورى سنة اثنتين وخمسين. وقد أكمن له ثلاثة من مواليه في ممّره بقاعة الأعمدة وهم: قطز وبهادل وسنجر فوثبوا عليه عند مروره بهم وبادروه بالسيوف، وقتلوه لحينه.

واتصلت الهيعة بالبحرية فركبوا وطافوا بالقلعة فرمى إليهم برأسه فانفضوا. واستراب أمراؤهم فاجتمع ركن الدين بيبرس البندقداري وسيف الدين قلاون الصالحي، وسيف الدين سنقر الأشقر، وبدر الدين بنسر الشمسي، وسيف الدين بلبان الرشيدي، وسيف الدين تنكر وأخوه سيف الدين موافق، ولحقوا بالشام فيمن إنضم إليهم من البحرية، واختفى من تخلف منهم، واستصفيت أموالهم وذخائرهم. وارتجع ما أخذه أقطاي من بيت المال، ورد ثغر الإسكندرية إلى أعمال السلطان، وإنفرد المعز أيبك بتدبير الدولة، وخلع موسى الأشرف وقطع خطبته وخطب لنفسه. وتزوج شجرة الدر زوجة الصالح التي كانوا ملكوها من قبل. واستخلص علاء الدين أيدغدي العزيزي وجماعة العزيزية، وأقطعه دمياط. ولما وصل البحرية وأمراؤهم إلى غزة كاتبوا الناصر يسأذنونه في القدوم، وساروا إليه فاحتفل في مبرتهم، وأغروه بملك مصر فأجابهم وجهز العساكر. وكتب المعز فيهم إلى الناصر، وطلبوا منه القدس والبلاد الساحلية فأقطعها لهم. ثم سار الناصر إلى الغور وبرز إلى القاهرة في العزيزية ومن إليهم، ونزل العباسية وتواقف الفريقان مدة. ثم اصطلحوا ورجع كل إلى بلده سنة أربع وخمسين وبعث أيبك رسوله إلى المستعصم بطاعته وطلب الألوية والتقليد. ولما رجع إلى مصر قبض على علاء

الدين أيدغدي لإسترابته به، وأعاد دمياط إلى أعمال السلطان، واتصلت أحواله إلى أن هلك في الدولة، والله تعالى أعلم.

فرار الافرم إلى الناصر بدمشق:

كان عز الدين أيبك الأفرم الصالحي والياً على قوص واخميم وأعمالها فقوي أمره،

وهم بالإستبداد وأراد المعز عزله فامتنع عليه، فبعث بعض الخوارزمية مداداً له. ودس إليهم الفتك به. فلما وصلوا إليه استخدمهم وخلطهم بنفسه فاغتالوه وقبضوا عليه وتراموا اليه للحين فبطشوا بهم وقتلوهم وخلعوه. ثم عزله بعد ذلك عز الدين الصيمري عن خدمته واستدعاه إلى مصر فأقام عنده ثم بعثه مع أقطاي إلى الصعيد وحضر ومعه الشريف أبو ثعلب والعرب كما مرّ

وعاد أقطاي إلى مكانه من الدولة وأوعز المعز أيبك إلى الأفرم بالمقام لتمهيد بلاد الصعيد وأن يكون الصيمري في خدمته وبلغه وهو هناك أن المعز عدا على أقطاي وقتله وأن أصحابه البحرية فروا إلى الشام فاستوحش وأظهر العصيان واستدعى الشريف أبا ثعلب وتظاهر معه على الفساد وجمعوا الأعراب من   كل ناحية ثم بعث المعز سنة ثلاث وخمسين شمس الدين اليرلي في العساكر فهزمهم. واعتقل الشريف فلم يزل في محبسه إلى أن قتله الظاهر. ونجا الأفرم في فل من مواليه إلى الواحات. ثم اعتزم على قصد الشام فرجع إلى الصعيد مع جماعة من أعراب جذام مروا به على السويس والطور، ورجع عنه مواليه إلى مصر. ولما انتهى إلى غزة تولع به الناصر فأذنه بالقدوم عليه بدمشق وركب يوم وصوله فتلقاه بالكسوة وأعطاه خمسة آلاف دينار. ولم يزل عنده بدمشق إلى أن هرب البحرية من الكرك إلى مصر كما يذكر فخشي أن يأخذه الناصر وكاتب الأتابك قطز بمصر، وسار إليه فقبله أوّلا. ثم قبض عليه بعد ذلك واعتقله بالإسكندرية. وكان الصيمري قد بقي بعد الأفرم في ولاية الصعيد، واستفحل فيه فسولت له نفسه الإستبداد ولم يتم له فهرب إلى الناصر سنة أربع وخمسين إنتهى، والله تعالى أعلم.

مقتل المعز أيبك وولاية إبنه علي المنصور:

كان المعز أيبك عندما استفحل أمره ومهد سلطانه ودفع الأعداء عن حوزته طمحت

نفسه إلى مظاهرة المنصور صاحب حماة، و لؤلؤ صاحب الموصل ليصل يده بهما، وأرسل إليهما في الخطبة. وأثار ذلك غيرة من زوجته شجرة الدر وأغرت به جماعة من الخصيان منهم محسن الخزري، وخصى العزيزي، ويقال سنجر الخادمان فبيتوه في الحمام بقصره وقتلوه سنة خمس وخمسين لثلاث سنين من ولايته. وسمع مواليه الناعية من جوف الليل فجاؤا مع سيف الدين قطز وسنجر الغتمي وبهادر فدخلوا القصر وقبضوا على الجوجري فقتلوه، وفرّ سنجر العزيزي إلى الشام، وهموا بقتل شجرة الدر. وقام الموالي الصالحية دونها فاعتقلوها ونصبوا للملك علي بن المعز أيبك ولقبوه المنصور، وكان أتابكه علم الدين سنجر الحلي واشتمل موالي المعز على إبنه المنصور فكبسوا علم الدين سنجر واعتقلوه وولوا مكانه أقطاي المعزي الصالحي مولى العزيز على

الدولة في نقضها وإبرمها سنة ست وخمسين. وأغرته أم المنصور بالصاحب شرف الدين الغازي لأن المعز كان يستودعه سراياه عنده فاستصفاه وقتله. وفي هذه السنة توفي زهير بن

علي المهلي، وكان يكتب عن الصالح ويلازمه في سجنه بالكرك، ثم صحبه إلى مصر، والله تعالى أعلم.

نهوض البحرية بالمغيث صاحب الكرك وإنهزامه:

قد ذكرنا فرار البحرية إلى الناصر ونهوضهم به إلى مصر، وخروج أيبك إلى العباسة وما كان بينهما من الصلح. فلما إنعقد الصلح ورجع الناصر إلى دمشق، ورجعوا عنه إلى قلعة ، ولم يرضوا الصلح فاستراب بهم الناصر وصرفهم عنه فلحقوا بغزة ونابلس. وبعثوا إلى المغيث صاحب الكرك بطاعتهم فأرسل الناصر عساكره للإقاع بهم فهزموهم فسار إليهم بنفسه فهزموه إلى البلقاء ولحقوا بالكرك، وأطمعوا المغيث في مصر واستمدوه لها فأمدهم بعسكره، وقصدوا مصر وكبراؤهم: بيبرس البندقداري وقلاوون الصالحي وبليان الرشيدي. وبرز الأمير سيف الدين قطز بعساكر مصر إلى الصالحية فهزمهم، وقتل بلغار الأشرف وأسر قلاوون الصالحي وبليان الرشيدي. وأطلق قلاوون الصالحي بعد أيام في كفالة أستاذ الدار فاختفى، ثم لحق بأصحابه واستحثوا المغيث إلى مصر فنهض في عساكره سنة ست وخمسين ونزل الصالحية، وقدم إليه عز الدين الرومي والكافوري والهواشر ممن كان يكاتبه من أمراء مصر. وبرز سيف الدين قطز في عساكر مصر والتقى الجمعان فانهزم المغيث ولحق في الفل بالكرك. وفرت البحرية إلى الغور فوجدوا هنالك أحياء من الأكراد فروا من جبال شهرزور أمام التتر فاجتمعوا بهم، والتحموا بالصهر معهم، وخشي الناصر غائلة اجتماعهم فجهز العساكر من دمشق إليهم والتقوا بالغور فانهزمت عساكره فتجهز ثانياً بنفسه، وسار إليهم فخاموا عن لقائه وافترقوا فلحق الأكراد بمصر، واعترضهم التركمان في طريقهم بالعريش فأوقعوا بهم وخلصوا إلى مصر. ولحق البحرية بالكرك مع عسكر المغيث ووعدهم بالنصر، وأرسل إليه من دمشق في إسلامهم إليه. وتوعده أنفسهم وإضطربوا ففر بيبرس وقلاوون إلى الصحراء وأقاموا بها. ثم لحقوا بمصر وأكرمهم الأتابك قطز وأقطعهم وأقاموا عنده. ولما فر بيبرس وقلاوون من المغيث قبض على بقية أمراء البحرية سنقر الأشقر وشكروبرانق، وبعث بهم إلى الناصر فحبسهم بقلعة حلب إلى أن استولى التتر عليها. ونقلهم هلاكو إلى بلاده، والله سبحانه وتعالى أعلم.

خلع المنصور علي بن أيبك واستبداد قطز بالملك:

ثم كان ما ذكرناه ونذكره من زحف هلاكو إلى بغداد واستيلائه عليها، وما بعدها إلى الفرات وفتحه ميافارقين وإربل، ومسير لؤلؤ صاحب الموصل إليه ودخوله في طاعته. ووفادة ابن الناصر صاحب دمشق إليه رسولاً عن أبيه بالهدايا والتحف على سبيل المصانعة والعذر عن الوصول بنفسه، خوفاً على سواحل الشام من الإفرنج فارتاب الأمراء بشأنهم، واستصغروا سلطانهم المنصور علي بن المعز أيبك عن مدافعة هذا العدو لعدم ممارسته للحروب، وقلة دربته بالوقاع. واتفقوا على البيعة لسيف الدين قطز المعزي وكان معروفاً بالصرامة والإقدام فبايعوا له وأجلسوه على الكرسي سنة ست وخمسين، ولقبوه المظفر. وخلعوا المنصور لسنتين من ولايته، وحبسوه وأخويه بدمياط. ثم غربهما الظاهر بعد ذلك إلى القسطنطينية. وكان المتولون لذلك الصالحية

والعزيزية ومن يرجع إلى قطز من المعزية. وكان بهادر وسنجر الغتمي غائبين فلما قدما استراب بهما قطز، وخشي من نكيرهما ومزاحمتهما فقبض عليهما وحبسهما. وأخذ في تمهيد الدولة فاستوثقت له. وكان قطز من أولاد الملوك الخوارزمية، يقال أنه ابن أخت خوارزم شاه وإسمه محمود بن مودود، أسره التتر عند الحادثة عليهم وبيع واشتراه ابن الزعيم. حكاه النووي عن جماعة من المؤرخين، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

استيلاء التتر على الشام وانقراض امر بني ايوب ثم

مسير قطز بالعساكر وإرتجاعه الشام من أيدي التتر

وهزيمتهم وحصول الشام في ملك الترك:

ثم عبر هلاكو الفرات سنة ثمان وخمسين، وفرّ الناصر وأخوه الظاهر إلى التيه ولحق بمصر المنصور صاحب حماة وجماعة البحرية الذين كانوا بأحياء العرب في القفر. وملك هلاكو بلاد الشام واحدة واحدة، وهدم أسوارها وولي عليها وأطلق المعتقلين من البحرية بحلب مثل: سنقر الأشقر وشكر وبرانق واستخدمهم. ثم قفل إلى العراق لإختلاف بين إخوته، واستخلف على

الشام كتبغا من أكبر أمرائه في إثني عشر ألفاً من العساكر، وتقدم إليه بمطالعة الأشرف إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص بعد أن ولاه على مدينة دمشق وسائر مدن الشام. واحتمل معه الناصر وابنه العزيز بعد أن استشاره في تجهيز العساكر بالشام لمدافعة أهل مصر عنها، فهون عليه الأمر وقللهم في عينه نجهز كتبغا ومن معه. ولما فصل سار كتبغا إلى قلعة دمشق وهي ممتنعة بعد فحاصرها وافتتحها عنوة، وقتل نائبها بدر الدين بربدك، وخيم بمرج دمشق. وجاءه من ملوك الإفرنج بالساحل. ووفد عليه الظاهر أخو الناصر صاحب صرخد فرده إلى عمله، وأوفد عليه المغيث صاحب الكرك ابنه العزيز بطاعته فقبله ورده إلى أبيه، واجتمعت عساكر مصر واحتشد المظفر العرب والتركمان وبعث إليهم بالعطايا وأزاح العلل، وبعث كتبغا إلى المظفر قطز بأن يقيم طاعة هلاكو بمصر فضرب أعناق الرسل، ونهض إلى الشام مصمماً للقاء العدو، ومعه المنصور صاحب حماة وأخوه الأفضل. وزحف كتبغا وعساكر التتر ومعه الأشرف صاحب حمص، والسعيد صاحب الضبينة ابن العزيز بن العادل. وبعث اليهما قطز يستميلهما فوعده الأشرف بالإنهزام يوم اللقاء، وأساء العزيز الرد على رسوله وأوقع به، والتقى الفريقان بالغور على عين جالوت وتحيز الأشرف عندما تناشبوا فانهزم التتر، وقتل أميرهم كتبغا في المعركة. وجيء بالسعيد صاحب الضبينة أسيراً فوبخه ثم قتله وجيء بالعزيز بن المغيث وأسر يومئذ الذي ملك مصر بعد ذلك. ولقي العادل بيبرس المنهزمين في عسكر من الترك فأثخن فيهم وإنتهى إلى حمص فلقي مدداً من التتر جاء لكتبغا فاستأصلهم ورجع إليه الأشرف صاحب حمص من عسكر التتر فأقره على بلده، وبعث المنصور على بلده حماة وأقره عليها، ورد إليه المعرة وانتزع منه سلمية فأقطعها لأمير العرب مهنا بن مانع بن جديلة. وسار إلى دمشق فهرب من كان بها من التتر وقتل من وجد بها من بقاياهم. ورتب العساكر في البلاد، وولى على دمشق علم الدين سنجر الحلبي الصالحي، وهو الذي كان أتابك علي بن أيبك ونجم الدين أبا الهيجاء ابن خشترين الكردى. وولى على حلب السعيد، ويقال المظفر علاء الدين

بن لؤلؤ صاحب الموصل. وكان وصل إلى الناصر بمصر هارباً أمام التتر وسار معه فلما دخل الناصر منها لحق هو بمصر، وأحسن إليه قطز. ثم ولاه الناصر على حلب الآن ليتوصل إلى أخبار التتر من أخيه الصالح بالموصل. وولى على نابلس وغزة والسواحل شمس الدين دانشير اليرلي من أمراء العزيز محمد، وهو أبو الناصر، وكان هرب منه عند نهوضه إلى مصر في جماعة من العزيزية ولحق بأتابك. ثم إرتاب بهم وقبض على بعضهم، ورجع اليرلي في الباقين

إلى الناصر فاعتقله بقلعة حلب حتى سار إلى التتر. فلما دخل إليها سار اليرلي مع العساكر إلى مصر فأكرمه المظفر، وولاه الآن على السواحل وغزة وأقام المظفر بدمشق عشرين ليلة، وأقبل إلى مصر. ولما بلغ إلى هلاكو ما وقع بقومه في الشام واستيلاء الترك عليه، إتهم صاحب دمشق بأنه خدعه في إشارته وقتله كما مرّ وانقرض ملك بني أيوب من الشام أجمع، وصار لملوك مصر من الترك. والله يرث الأرض من عليها وهو خير الوارثين.

مقتل المظفر وولاية الظاهر بيبرس:

كان البحرية من حين مقتل أميرهم أقطاي الجامدار يتحينون لأخذ ثأره، وكان قطز هو الذي تولى قتله فكان مستريباً بهم. ولما سار إلى التتر ذهل كل منهم عن شأنه. وجاء البحرية من القفر هاربين من المغيث صاحب الكرك فوثقوا لأنفسهم من السلطان قطز أحوج ما كان إلى أمثالهم من المدافعة عن الإسلام وأهله فأمنه واشتمل عليهم، وشهدوا معه واقعة التتر على عين جالوت، وأبلغوا فيها والمقدمون فيهم يومئذ: بيبرس البندقداري وأنز الأصبهاني وبليان الرشيدي وبكتون الجوكنداري وبندوغار التركي. فلما إنهزم التتر من الشام واستولوا عاليه، وحسر ذلك المد، وأفرج عن الخائفين الروع عاد هؤلاء البحرية إلى ديدنهم من الترصد لثأر أقطاي. فلما قفل قطز من دمشق سنة ثمان وخمسين أجمعوا أن يبرزوا به في طريقهم. فلما قارب مصر ذهب في بعض أيامه يتصيد، وسارت الرواحل على الطريق فاتبعوه، وتقدم إليه أنز شفيعاً في بعض أصحابه. فشفعه فأهوى يقبل يده فأمسكها. وعلاه بيبرس بالسيف فخر صريعاً لليدين والفم. ورشقه الآخرون بالسهام فقتلوه، وتبادروا إلى المخيم. وقام دون فارس الدين أقطاي على ابن المعز أيبك، وسأل من تولى قتله منكم؟ فقالوا بيبرس فبايع له، وأتبعه أهل المعسكر ولقبوه الظاهر. وبعثوا أيدمر الحلي بالخبر إلى القلعة بمصر فأخذ له البيعة على من هناك. ووصل الظاهر منتصف ذي القعدة من السنة فجلس على كرسيه، واستخلف الناس على طبقاتهم، وكتب إلى الأقطار بذلك. ورتب الوظائف وولى الأمراء. وولى تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز الوزارة مع القضاء، واقتدى بآثار أستاذه الصالح نجم الدين. ومبدأ أمر هذا الظاهر بيبرس أنه كان من موالي علاء الدين أيدكين البندقداري مولى الصالح فسخط عليه واعتقله وانتزع ماله ومواليه وكان منهم بيبرس فصيره مع الجامدارية وما زال يترقى في المراتب إلى أن تقدم في الحروب ورياسة المراكب، ثم كان خبره بعد الصالح ما قصصناه إنتهى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

انتقاض سنجر الحلبي بدمشق ثم أقوش البرلي بحلب:

ولما بلغ علم الدين سنجر بدمشق مقتل قطز، وولاية الظاهر بيبرس انتقض ودعا لنفسه وجلس على التخت بدمشق وتلقب المجاهد، وخطب لنفسه وضرب السكة بإسمه، وتمسك المنصور صاحب حماة بدعوة الظاهر.
وجاءت عساكر التتر إلى الشام فلما شارفوا البيرة جرد إليهم السعيد بن لؤلؤ من حلب عسكرا فهزمهم التتر وقتلوهم. وإتهم الأمراء العزيزية والناصرية ابن لؤلؤ في ذلك فاعتقله وقدموا عليهم حسام الدين الجو كنداري وأقره الظاهر. وزحف التتر إلى حلب فملكوها، وهرب حسام الدين إلى حماة. ثم زحف إليها التتر فلحق صاحبها المنصور وأخوه علي الأفضل إلى حمص، وبها الأشرف بن شيركوه واجتمعت إليه العزيزية والناصرية وقصدوا التتر سنة تسع وخمسين فهزموهم بعد هزيمتهم ونازلوا حماة.
وسار المنصور والأشرف صاحب حمص إلى سنجر الحلبي بدمشق ولم يدخلا في طاعته لضعفه. وسار التتر من حماة إلى أفامية فحاصروها يوماً وعبروا الفرات إلى بلادهم. وبعث بيبرس الظاهر صاحب مصر أستاذه علاء الدين البندقداري في العساكر لقتال سنجر الحلبي بدمشق وقاتلهم فهزموه، ولجأ إلى القلعة. ثم خرج منها ليلاً إلى بعلبك، وأتبعوه فقبضوا عليه وبعثوه إلى الظاهر فاعتقله واستقر أيدكين بدمشق، ورجع صاحب حمص وحماة إلى بلديهما. وبعث الظاهر إلى أيدكين بالقبض على بهاء الدين بقري وشمس الدين أقوش اليرلي وغيرهما من العزيزية فقبض على بقري والعزيزية والناصرية مع أقوش اليرلي، وطالبوا صاحب حمص وصاحب حماة في الإنتقاض فلم يجيباهم إلى ذلك. فقال لفخر الدين: اطلب لي الظاهر المقدم معك في خدمتك. وبينما هو يسير لذلك خالفه اليرلي إلى حلب، وثار بها وجمع العرب والتركمان، ونصب للحرب فجاءت العساكر من مصر فقاتلوه وغلبوه عليها. ولحق بالبيرة فملكها واستقر بها حتى إذا جهز الظاهر عساكره سنة ستين إلى حلب مع سنقر الرومي، سار معه صاحب حماة وصاحب حمص للإغارة على أنْطاكِية. ولقيهم اليرلي وأعطاهم طاعته، وأقره الظاهر على البيرة. ثم ارتاب به بعد ذلك واعتقله، ثم علاء الدين أيدكن البندقداري مولى السلطان بدمشق، وولى عليها بيبرس الوزير ورجع، والله ينصر من يشاء من عباده إنتهى.

البيعة للخليفة بمصر ثم مقتله بالحديثة وغانة على يل التتر

والبيعة للآخر الذي استقرت الخلافة في عقبه بمصر:

لما قتل الخليفة عبد الله المستعصم ببغداد بقي رسم الخلافة الإسلامية عطلاً بأقطار الأرض، والظاهر متشوف إلى تجديده وعمارة دسته. ووصل إلى مصر سنة تسع وخمسين عم المستعصم وهو أبو العباس أحمد بن الظاهر كان بقصورهم ببغداد، وخلص يوم البيعة، وأقام بتردد في الأحياء إلى أن لحق مصر فسرّ الظاهر بقدومه وركب للقائه، ودعا الناس على طبقاتهم إلى أبواب السلطان بالقلعة وأفرد بالمجلس أدبا معه. وحضر القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز فحكم باتصال نسبه بالشجرة الكريمة بشهادة العرب الواصلين به والخدم الناجعين من قصورهم. ثم بايع له الظاهر والناس على طبقاتهم، وكتب إلى النواحي بأخذ البيعة والخطب على المنابر، ونقش إسمه في السكة، ولقب المستنصر وأشهد هو حينئذ الملأ بتفويض الأمر للظاهر والخروج له عن العهد، وكتب بذلك سجله. وأنشأه فخر الدين بن لقمان كاتب الترسيل. ثم ركب السلطان والناس كافة إلى خيمة

بنيت خارج المدينة فقرئ التقليد على الناس، وخلع على أهل المراتب والخواص ونادى السلطان بمظاهرته وإعادته إلى دار خلافته. ثم خطب هذا الخليفة يوم الجمعة وخشع في منبره فأبكى الناس وصلى وانصرفوا إلى منازلهم ؛ ووصل على أثره الصالح إسماعيل بن لؤلؤ صاحب الموصل، وأخوه إسحاق صاحب الجزيرة، وقد كان أبوهما لؤلؤ استخدم لهلاكو كما مرّ، وأقره على الموصل وما إليها وتوفي سنة سبع وخمسين. وقد ولي ابنه إسماعيل على الموصل، وابنه إسماعيل المجاهد على جزيرة ابن عمر، وابنه السعيد على سنجار. وأقرهم هلاكو على أعمالهم، ولحق السعيد بالناصر صاحب دمشق، وسار معه إلى مصر، وصار مع قطز وولاه حلب كما مر، ثم اعتقل. ثم ارتاب هلاكو بالأخوين فأجفلا ولحقا بمصر، وبالغ الظاهر في إكرامهم وسألوه في إطلاق أخيهم المعتقل فأطلقه، وكتب لهم بالولاية على أعمالهم وأعطاهم الألوية، وشرع في تجهيز الخليفة إلى كرسيه ببغداد فاستخدم له العساكر وأقام الفساطيط والخيام، ورتب له الوظائف، وأزاح علل الجميع. يقال أنفق في تلك النوبة نحوا من ألف ألف دينار. ثم سار من مصر في شوال من السنة إلى دمشق ليبعث من هناك الخليفة وابني لؤلؤ إلى ممالكهم. ووصل إلى دمشق ونزل بالقلعة، وبعث بليان الرشيدي وشمس الدين سنقر إلى الفرات. وصمم الخليفة لقصده وفارقهم. وسار الصالح إسماعيل وأخواه إلى الموصل، وبلغ الخبر إلى هلاكو فجرد العساكر إلى الخليفة وكبسوه بغانة والحديثة فصابرهم قليلاً. ثم استشهد وبعث العساكر إلى الموصل فحاصروها تسعة أشهر حتى جهدهم الحصار واستسلموا فملكها التتر، وقتلوا الصالح إسماعيل، والظاهر خلال مقيم بدمشق.

وقد وفد عليه بنو أيوب من نواحي الشام وأعطوه طاعتهم: المنصور صاحب حماة، والأشرف صاحب حمص فأكرم وصلهما وولاهما على أعمالهما وأذن لهما في إتخاذ الآلة وبسط حكمهما على بلاد الإسماعيلية. وإلى المنصور تل باشر الذي اعتاضه عن حمص لما أخذها منه الناصر صاحب حلب. ووفد على الظاهر أيضاً بدمشق الزاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وصاحب بعلبك والمنصور والسعيد ابنا الصالح إسماعيل بن العادل، والأمجد بن الناصر داود الأشرف بن مسعود، والظاهر بن المعظم فأكرم وفادتهم وقابل بالإحسان والقبول طاعتهم، وفرض لهم الأرزاق وقرر الجرايات. ثم قفل إلى مصر وأفرج عن العزيز بن المغيث الذي كان اعتقله قطز وأطلقه يوم الموقعة بالكرك. وولى على أحياء العرب بالشام عيسى بن مهنا بن مانع بن جريلة من رجالاتهم، ووفر لهم الإقطاع على حفظ السابلة إلى حدود العراق، ورجع إلى مصر فقدم عليه رجل من عقب المسترشد من خلفاء بني العباس ببغداد إسمه أحمد، فأثبت نسبه ابن بنت الأعز كالأول. وجمع الظاهر الناس على مراتبهم وبايع له وفوض إليه هو الأمور وخرج إليه عن التدبير. وكانت هذه البيعة سنة ستين ونسبه عند العباسيين في أدراج نسبهم الثابت أحمد بن أبي بكر علي بن أبي بكر بن أحمد ابن الإمام المسترشد. وعند نسابة مصر أحمد بن حسن بن أبي بكر ابن الأمير أبي علي القتبي ابن الأمير حسن ابن الإمام الراشد ابن الإمام المسترشد. هكذا قال صاحب حماة في تاريخه وهو الذي استقرت الخلافة في عقبه بمصر لهذا العهد إنتهى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فرار التركمان من الشام إلى بلاد الروم:

كان التركمان عند دخول التتر إلى بلاد الشام كلهم قد أجفلوا إلى الساحل، واجتمعت أحياؤهم بالجوكان قريباً من صفد. وكان الظاهر لما نهض إلى الشام اعترضه رسل الإفرنج من يافا وبيروت وصفد يسألونه في الصلح على ما كان لعهد صلاح الدين، فأجابهم وكتب به إلى الأنبردور ملكهم ببلاد إفرنسة وراء البحر فكانوا في ذمه من الظاهر وعهد. ووقعت بين الإفرنج بصفد وبين أحياء التركمان واقعة يقال أغار فيها أهل صفد عليهم فأوقع بهم التركمان، وأسروا عدة من رؤسائهم وفادوهم بالمال. ثم خشوا عاقبة ذلك من الظاهر فارتحلوا إلى بلاد الروم وأقفر الشام منهم. والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

انتقاض الأشرفية والعزيزية واستيلاء اليرلي على البيرة:

كان هؤلاء العزيزية والأشرفية من أعظم جموع هؤلاء الموالي وكان مقدم الأشرفية بهاء الدين بقري، ومقدم العزيزية شمس الدين أقوش، وكان المظفر قطز قد أقطعه نابلس وغزة وسواحل الشام. ولما ولي الظاهر إنتقض عليه سنجر الحلي بدمشق وجهز أستاذه علاء الدين البندقداري في العساكر لقتاله. وكان الأشرفية والعزيزية بحلب وقد انتقضوا على نائبها السعيد بن لؤلؤ كما مر فتقدم البندقدارب باستدعائهم معه إلى دمشق. ثم أضاف الظاهر بيسان لليرلي زيادة على ما بيده فسار وملك دمشق. ثم أوعز الظاهر إلى البندقداري بالقبض على العزيزية والأشرفية. فلم يتمكن إلا من بقري مقدم الأشرفية، وفارقه الباقون وانتقضوا. واستولى شرف الدين اليرلي على البيرة، وأقام بها وشن الغارات على التتر شرقي الفرات فنال منهم. ثم جهز الظاهر عساكره إليه مع جمال الدين بامو الحموي فهزمهم وأطلقهم وأقام الظاهر على استمالته بالترغيب والترهيب حتى جنح إلى الطاعة، واستأذن في القدوم، وسار بكباس الفخري للقائه فلقيه بدمشق سنة إحدى وستين، ثم وصل فأوسعه السلطان يداً وعطاءً والواصلين معه على مراتبهم وإختصه بمراكبته ومشورته، وسأله النزول عن البيرة فنزل عنها فقبلها الظاهر وأعاضه عنها. والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء الظاهر على الكرك من يد المغيث
وعلى حمص بعد وفاة صاحبها:

لما قفل السلطان من الشام سنة ستين كما قدمناه جرد عسكراً إلى الشويك مع بدر الدين أيدمري فملكها، وولى عليها بدر الدين بليان الخصي ورجع إلى مصر. وكان عند المغيث بالكرك جماعة من الأكراد الذين أجفلوا من شهرزور أمام التتر إلى الشام، وكان قد اتخذهم جنداً لعسكرته فسرحهم للإغارة على الشويك ونواحيه فاعتزم السلطان على الحركة إلى الكرك مخافة المغيث. وبعث بالطاعة واستأمن من الأكراد فقبلهم الظاهر وأمن الأكراد فوصلوا إليه. ثم سار سنة إحدى وستين إلى الكرك، واستخلف على مصر سنجر الحلي، واستخلف على غزة فلقي هنالك أم المغيث تستعطفه وتستأمن منه لحضور ابنها فأجابها، وسار إلى بيسان فسار المغيث للقائه. فلما وصل قبض عليه، وبعثه من حينه إلى القاهرة مع أقسنقر الفارقاني، وقتل بعد ذلك بمصر. وولى على الكرك عز الدين أيدمر وأرسل نور الدين بيسري الشمسي ليؤمن أهل الكرك

ويرتب الأمور بها. وأقام بالطور في انتظاره فأبلغ بيسري القصد من ذلك. ورجع إليه فإرتحل إلى القدس وأمر بعمارة مسجده، ورجع إلى مصر. وبلغه وفاة صاحب حمص موسى الأشرف بن إبراهيم المنصور شيركوه المجاهد بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، وكانت وراثة له من آبائه، أقطعه نور الدين العادل لجده أسد الدين، ولم تزل بأيديهم وأخذها الناصر يوسف صاحب حلب سنة ست وأربعين وعوضه عنها تل باشر وأعادها عليه هلاكو، وأقره الظاهر. ثم توفي سنة إحدى وستين، وصارت للظاهر ؛ وانقرض منها ملك بني أيوب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

هزيمة التتر على البيرة وفتح قيسارية وارسوف بعدها:

ثم رجعت عساكر التتر إلى البيرة مع ردمانة من أمراء المغل سنة ثلاث وستين فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق، فجهز السلطان العساكر مع لوغان من أمراء الترك فساروا في ربيع من السنة، وسار السلطان في أثرهم وانتهى إلى غزة. ولما وصلت العساكر إلى البيرة وأشرفوا عليها والعدو يحاصرها أجفلها عساكر التتر وساروا منهزمين، وخلفوا سوادهم وأثقالهم فنهبتها العساكر. وارتحل السلطان من غزة وقصد قيسارية وهي للإفرنج فتزل عليها عاشر جمادى من السنة فنصب المجانيق ودعا أهلها للحرب واقتحمها عليهم فهربوا إلى القلعة فحاصرها خمسا وملكها عنوة، وفر الإفرنج منها. ثم رحل في خف من العساكر إلى عملها فشّن عليها الغارة، وسرح عسكرا إلى حيفا فملكها عنوة. وخربوها وقلعتها في يوم أو بعض يوم. ثم ارتحل إلى ارسوف فنازلها مستهل جمادى الأخيرة فحاصرها وفتحها عنوة، وأسر الإفرنج الذين بها، وبعث بهم إلى الكرك. وقسم أسوارها على الأمراء فرموها، وعمد إلى ما ملك في هذه الغزاة من القرى والضياع والأرضين فقسمها على الأمراء الذين كانوا معه، وكانوا إثنين وخمسين، وكتب لهم بذلك وقفل إلى مصر. وبلغه الخبر بوفاة هلاكو ملك التتر في ربيع من السنة وولاية ابنه أبغا مكانه، وما وقع بينه وبين بركه صاحب الشمال من الفتنة. ولأول دخوله لمصر قبض على شمس الدين سنقر الرومي وحبسه، وكانت الفتنة قبل غزاته بين عيسى بن مهنا، ولحق زامل بعد ذلك بهلاكو. ثم استأمن إلى الظاهر فأمنه وعاد إلى احيائه، والله تعالى أعلم.

غزو طرابلس وفتح صفد:

كانت طرابلس للإفرنج وبها سمند بن البرنس الأشتر، وله معها أنْطاكِية. وبلغ السلطان أنه قد تجهز للقتال فلقيه النائب بها علم الدين سنجر الباشقر وانهزم المسلمون واستشهد كثير منهم فتجهز السلطان للغزو، وسار من مصر في شعبان سنة أربع وستين وترك ابنه السعيد عليا بالقلعة في كفالة عز الدين أيدمر الحلي. وقد كان عهد لابنه السعيد بالملك سنة اثنتين وستين. ولما انتهى إلى غزة بعث العساكر صحبة سيف الدين قلاون ايدغدي العزيزي فنازل القليعات وحلب وعرقا من حصون طرابلس، فاستأمنوا إليه. وزحفت العساكر وسار السلطان إلى صفد فحاصرها عشرا، ثم اقتحمها عليهم في عشرن من رمضان السنة، وجمع الإفرنج الذين بها فاستلحمهم أجمعين، وأنزل بها الحامية وفرض أرزاقهم في ديوان العطاء، ورجع إلى دمشق، والله تعالى أعلم.

مسير العساكر لغزو الارمن:

هؤلاء الأرمن من ولد أخي إبراهيم عليه السلام من بني قوميل بن ناحور، وناحور بن تارح وعبر عنه في التتريل بآزر. وناحور أخو إبراهيم عليه السلام. ويقال أن الكرج إخوة الأرمن، وأرمينية منسوبة إليهم. وآخر مواطنهم الدروب المجاورة لحلب، وقاعدتما سيس، ويلقب ملكهم التكفور. وكان ملكهم صاحب هذه الدروب لعهد الملك الكامل وصلاح الدين من بعده اسمه قليج بن اليون. واستنجد به العادل وأقطع له، وكان يعسكر معه. وصالحه صلاح الدين على بلاده. ثم كان ملكهم لعهد هلاكو والتتر هيثوم بن قسطنطين، ولعله من أعقاب قليج أو قرابته. ولما ملك هلاكو العراق والشام دخل هيثوم في طاعته فأقره على سلطانه ثم أمره بالإغارة على بلاد الشام وأمده صاحب بلاد الروم من التتر. وسار سنة اثنتين وستين ومعه بنو كلاب أعراب حلب. وانتهوا إلى سيس، وجهز الظاهر عساكر حماة وحمص فساروا إليهم وهزموهم ورجعوا إلى بلادهم.

فلما رجع السلطان من غزاة طرابلس سنة أربع وستين سرح العساكر لغزو سيس وبلاد الأرمن وعليهم سيف الدين قلاون والمنصور صاحب حماة فساروا لذلك. وكان هيثوم ملكهم قد ترهب ونصب للملك ابنه كيقومن فجمع كيقومن الأرمن وسار للقائهم ومعه أخوه وعمه. وأوقع بهم المسلمون قتلا وأسرا وقتل أخوه وعمه في جماعة من الأرمن. واكتسحت عساكر المسلمين بلادهم واقتحموا مدينة سيس وخربوها، ورجعوا وقد امتلأت أيديهم بالغنائم والسبي، وتلقاهم الظاهر من دمشق عند قارا. فلما رآهم ازداد سرورا بما حصل لهم، وشكا إليه هنالك الرعية ما لحقهم من عدوان الأحياء الرحالة، وانهم ينهبون موجودهم ويبيعون ما يتخطفونه منهم من الإفرنج بعكا فأمر باستباحتهم

وأصبحوا نهبا في أيدي العساكر بين القتل والأسر والسبي. ثم سار إلى مصر وأطلق كيقومن ملك الأرمن وصالحه على بلده. ولم يزل مقيما إلى أن بعث أبوه في فدائه وبذل فيه الأموال والقلاع فأبى الظاهر من ذلك، وشرط عليه خلاص الأمراء الذين أخذهم هلاكو من سجن حلب وهم: سنقر الأشقر وأصحابه. فبعث فيهم تكفور إلى هلاكو فبعث بهم إليه، وبعث الظاهر بابنه منتصف شوال وتسلم القلاع التي بذلت في فدائه، وكانت من أعظم القلاع وأحصنها منها: مرزبان ورعبان. وقدم سنقر الأشقر على الظاهر بدمشق، وأصبح معه في المواكب، ولم يكن أحد علم بأمره. وأعظم إليه السلطان النعمة ورفع الرتبة ورعى له السابقة والصحبة. وتوفي هيثوم سنة ستين بعدها والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

مسير الظاهر لغزو حصون الإفرنج بالشام

وفتح يافا والشقيف ثم أنْطاكِية:

كان الظاهر عندما رجع من غزاة طرابلس إلى مصر أمر بتجديد الجامع الأزهر وإقامة الخطبة به، وكان معطلا منها منذ مائة سنة، وهو أول مسجد أسسه الشيعة بالقاهرة حين اختطوها ثم خرج إلى دمشق لخبر بلغه عن التتر ولم يثبت فسار من هنالك إلى صفد، وكان أمر عند مسيره بعمارتهما، وبلغه إغارة أهل الشقيف على الثغور فقصدها وشن الغارة على عكا، واكتسح بسائطها حتى سأل الإفرنج منه الصلح على ما يرضيه فشرط

المقاسمة في صيدا، أو هدم الشقيف، وإطلاق تجار من المسلمين كانوا أسروهم ودية بعض القتلى الذين أصابوا دمه. وعقد الصلح لعشر سنين ولم يوفوا بما شرط عليهم فنهض لغزوهم، ونزل فلسطين في جمادى سنة ست وستين، وسرح العساكر لحصار الشقيف. ثم بلغه مهلك صاحب يافا من الإفرنج، وملك ابنه مكانه. وجاءت رسله إليه في طلب الموادعة فحبسهم وصبح البلد فاقتحمها ولجأ أهلها إلى القلعة فاستنزلهم بالأمان وهدمها. وكان أول من اختط مدينة يافا هذه صنكل من ملوك الإفرنج عندما ملكوا سواحل الشام سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة ثم مدنها وأتم عمارتها ريدا فرنس المأسور على دمياط عندما خلص من حبسه بدار ابن لقمان. ثم رجع إلى حصن الشقيف فحاصره وافتتحه بالأمان، وبث العساكر في نواحي طرابلس فاكتسحوها وخربوا عمرانها وكنائسها. وبادر صاحب طرطوس بطاعة السلطان وبعث إلى العساكر بالميرة وأطلق الأسرى الذين عنده ثلثمائة أو يزيدون. ثم ارتحل السلطان إلى حمص وحماة يريد أنْطاكِية،

وقدم سيف الدين قلاون في العساكر فنازل أنْطاكِية في شعبان فسارالمنصورصاحب حماة وجماعة البحرية الذين كانوا بأحياء العرب في القفر.

وكان صاحب أنْطاكِية سمند بن تيمند، وكانت قاعدة ملك الروم قبل الإسلام اختطها انطيخس من ملوك اليونانيين وإليه تنسب ثم صارت للروم وملكها المسلمون عند الفتح. ثم ملكها الإفرنج عندما ساروا إلى ساحل الشام أعوام التسعين والأربعمائة. ثم استطردها صلاح الدين من البرنس ارناط الذي قتله في واقعة حطين كما مر. ثم ارتجعها الإفرنج بعد ذلك على يد البرنس الأشتر وأظنه صنكل. ثم صارت لابنه تيمند، ثم لابنه سمند. وكان عندما حاصرها الظاهر بطرابلس وكان بها كنداصطبل عم يغمور ملك الأرمن أفلت من الواقعة عليه بالذرابند، واستقر بأنْطاكِية عند سمند فخرج في جموعه لقتال الظاهر فانهزم أصحابه. وأسر كنداصطبل على أن يحمل أهل أنْطاكِية على الطاعة فلم يوافقوه. ثم جهدهم الحصار واقتحمها المسلمون عنوة وأثخنوا فيهم، ونجا فلهم إلى القلعة فاستنزلوا على الأمان. وكتب الظاهر إلى ملكهم سمند وهو بطرابلس وأطلق كنداصطبل وأقاربه إلى ملكهم هيثوم بسيس. ثم جمع الغنائم وقسمها وخرب قلعة أنْطاكِية وأضرمها ناراً . واستأمن صاحب بغراس فبعث إليه سنقر الفارقي أستاذ داره فملكها، وأرسل صاحب عكا إلى الظاهر في الصلح وهو ابن أخت صاحب قبرس فعقد له السلطان الصلح لعشر سنين. ثم عاد إلى مصر فله خلها ثالث أيام التشريق من السنة، والله تعالى أعلم.

الصلح مع التتر:

ثم نهض السلطان من مصر سنة سبع وستين لغزو الإفرنج بسواحل الشام، وخلف

على مصر عز الدين ايدمر الحلي مع ابنه السعيد ولي عهده،، وانتهى إلى ارسوف فبلغه أن رسلاً جاؤا من عند أبغا بن هلاكو، ومروا نقفور ملك الروم فبعث بهم إلى ، فبعث أميرا من حلب لإحضارهم. وقرأ كتاب أبغا بسعي نقفورتكفر في الصلح، ويحتال فيما أذاعه من رسالته فأعاد رسله بجوابهم، وأذن للأمراء في الإنطلاق إلى مصر، ورجع إلى دمشق. ثم سار منها في خف من العسكر إلى القلاع، وبلغه وفاة ايدمر الحلي بمصر فخيم

بخربة اللصوص، وأغذ السير إلى مصر متنكرا منتصف شعبان في خف من التركمان. وقد طوى خبره عن معسكره وأوهمهم القعود في

خيمته عليلا، ووصل إلى القلعة ليلة الثلاثاء رابعة سفره فتنكر له الحراس، وطولع مقدم الطواشية فطلب منهم إمارة على صدقهم فأعطوها. ثم دخل فعرفوه، وباكر الميدان يوم الخميس فسر به الناس. ثم قضى حاجة نفسه، وخرج ليلة الإثنين عائدا إلى الشام كما جاء فوصل إلى مخيمه ليلة الجمعة تاسع عشر شعبان، وفرح الأمراء بقدومه. ثم فرق البعوث في الجهات وأغاروا على صور وملكوا إحدى الضياع وساحوا في بسيط كركو فاكتسحوها، وامتلأت أيديهم بالغنائم ورجعوا والله تعالى أعلم.

استيلاء الظاهر على صهيون:

كان صلاح الدين بن أيوب قد أقطعها يوم فتحها وهي سنة أربع وثمانين وخمسمائة لناصر الدين منكبرس، فلم تزل بيده إلى أن هلك وولي فيها بعده ابنه مظفر الدين عثمان، وبعده ابنه سيف الدين بن عثمان. واستبد الترك بمصر، وبعث سيف الدين أخاه عماد الدين سنة ستين بالهدايا إلى الملك الظاهر بيبرس فقبلها وأحسن إليه. ثم مات سيف الدين سنة تسع وستين، وكان أوصى أولاده بالنزول للظاهر عن صهيون فوفد ابناه سابق الدين وفخر الدين على السلطان بمصر فأكرمهما وأقطعهما، وولى سابق الدين منهما أميرا، وولى على صهيون من قبله. ولم يزل كذلك إلى أن غلب عليها سنقر الأشقر عندما انتقض بدمشق أيام المنصور، والله تعالى أعلم.

نهوض الظاهر إلى الحج:

ثم بلغ الظاهر أن أبا نمي بن أبي سعد بن قتادة غلب عمه ادريس بن قتادة على

مكة واستبد بها، وخطب للظاهر فكتب له بالإمارة على مكة. واعتزم على النهوض إلى الحج وتجهز لذلك سنة سبع وستين، وأزاح علل أصحابه. وشيع العساكر مع اقسنقر الفارقاني استاذ داره إلى دمشق. وسار إلى الكرك موريا بالصيد، وانتهى إلى الشويك، ورحل منه لاحدى عشرة ليلة من ذي القعدة ومر بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم فأحرم من ميقاتها، وقدم مكة لخمس من ذي الحجة وغسل الكعبة بيده وحمل لها الماء على كتفه، وأباح للمسلمين دخولها، وأقام على بابها يأخذ بأيديهم. ثم قضى حجه ومناسكه، وولى نائبا على مكة شمس الدين مروان، وأحسن إلى الأمير أبي نمي وإلى صاحب ينبع وخليص وسائر شرفاء الحجاز. وكتب إلى صاحب اليمن: إني بمكة، وقد وصلتها في سبع عشرة خطوة. ثم فصل من مكة ثالث عشر ذي الحجة فوصل المدينة على سبعة أيام، ووصل إلى الكرك منسلخ السنة. ثم وصل دمشق غرة ثمان وستين وسار إلى زيارة القدس وقدم العساكر مع الأمير اقسنقر إلى مصر وعاد من الزيارة فأدركهم بتل العجول، ووصل لقلعة ثالث صفر من السنة، والله تعالى أعلم.

اغارة الإفرنج والتتر على حلب ونهوض السلطان اليهم:

كان صمغان من أمراء التتر مقيما ببلاد الروم وأميرا عليها فوقعت المراسلة بينه وبين الإفرنج في الإغارة على بلاد الشام. وجاء صمغان في عسكره لموعدهم فأغار على أحياء العرب بنواحي حلب. وبلغ الخبر إلى الظاهر

سنة ثمان وستين، وهو يتصيد بنواحي الإسكندرية فنهض من وقته إلى غزة، ثم إلى دمشق، ورجع التتر على أعقابهم. ثم سار إلى عكا فاكتسح نواحيها وأثخن فيها، وفعل كذلك بحصن الأكراد، ورجع إلى دمشق آخر رجب، ثم إلى مصر ومر بعسقلان فخربها وطمس آثارها. وجاءه الخبر بمصر بأن الفرنسيس لويس بن لويس، وملك انكلترة، وملك اسكوسنا وملك نودل، وملك برشلونة وهو ريدراكون، وجماعة من ملوك الإفرنج جاؤا في الأساطيل إلى صقلية، وشرعوا في الإستكثار من الشواني وآلة الحرب. ولم يعرف وجه مذهبهم فاهتم الظاهر بحفظ الثغور والسواحل، واستكثر من الشواني والمراكب. ثم جاء الخبر الصحيح بأنهم قاصدون تونس فكان من خبرهم ما نذكره في دولة السلطان بها من بني أبي حفص، والله تعالى أعلم.

فتح حصن الاكراد وعكا وحصون صور:

ثم سار السلطان سنة تسع وستين لغزو بلاد الإفرنج، وسرح ابنه السعيد في العساكر إلى المرقب لنظر الأمير قلاون وبعلبك الخزندار. وسار هو إلى طرابلس فاكتسحوا سائر تلك النواحي وتوافوا لحصن الأكراد عاشر شعبان من السنة فحاصره السلطان عشرا. ثم اقتحمت أرباضه، وانحجر الإفرنج في قلعته، واستأمنوا وخرجوا إلى بلادهم. وملك الظاهر الحصون وكتب إلى صاحب الأسبتار بالفتح وهو بطرطوس، وأجاب بطلب الصلح فعقد له على طرطوس

والمرقب. وارتحل السلطان عن حصن الأكراد بعد أن شحنه بالأقوات والحامية، ونازل حصن عكا واشتد في حصاره. واستأمن أهله إليه وملكه. ثم ارتحل بعد الفطر إلى طرابلس واشتد في قتالها وسأل صاحبها البرنس الصلح فعقد له على ذلك لعشر سنين، ورجع إلى دمشق. ثم خرج آخر شوال إلى العليقة، وملك قلعتها بالأمان على أن يتركوا الأموال والسلاح، واستولى عليه وهدمه، وسار إلى اللجون. وبعث إليه صاحب صور في الصلح على أن يترل له عن خمس من قلاعه فعقد له الصلح لعشر سنين وملكها. ثم كتب إلى نائبه بمصر أن يجهز عشرة من الشواني إلى قبرس فجهزها ووصلت ليلا إلى قبرس والله أعلم.

استيلاء الظاهر على حصون الإسماعيلية بالشام:

كان الإسماعيلية في حصون من الشام قد ملكوها، وهي مصياف والعليقة والكهف والمينفة والقدموس. وكان كبيرهم لعهد الظاهر نجم الدين الشعراني وكان قد جعل له الظاهر ولايتها ثم تأخر عن لقائه في بعض الأوقات فعزله، وولى عليها خادم الدين بن الرضا على أن يترل له عن حصن مصياف. وأرسل معه العساكر فتسلموه منه. ثم قدم عليه سنة ثمان وستين وهو على حصن الأكراد، وكان نجم الدين الشعراني قد أسن وهرم فاستعتب وأعتبه الظاهر وعطف عليه، وقسم الولاية بينه وبين ابن الرضا، وفرض عليهما مائة وعشرين ألف درهم يحملانها في كل سنة. ولما رجع سنة تسع وستين، وفتح حصن الأكراد مر بحصن العليقة من حصونهم فملكه من يد ابن الرضا منتصف شوال من السنة. وأنزل به حامية. ثم سار لقتال التتر على البيرة كما يذكر، ورجع إلى مصر فوجد الإسماعيلية قد نزلوا على الحصون التي بقيت بأيديهم وسلموها لنواب الظاهر فملكوها.
وانتظمت قلاع الإسماعيلية في ملكة الظاهر، وانقرضت منها دعوتهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حصار التتر البيرة وهزيمتهم عليها:

ثم بعث أبغا بن هلاكو العساكر إلى البيرة سنة إحدى وسبعين مع درباري من مقدمي أمرائه فحاصرها ونصب عليها المجانيق، وكان السلطان بدمشق فجمع العساكر من مصر والشام وزحف إلى الفرات، وقد جهز العساكر على قاصيته فتقدم الأمير قلاون وخالط التتر عليها في

مخيمهم فجالوا معه. ثم انهزموا وقتل مقدمهم وخاض السلطان بعساكره بحر الفرات إليهم فأجفلوا وتركوا خيامهم بما فيها. وخرج أهل البيرة فنهبوا سوادهم وأحرقوا آلات الحصار، ووقف السلطان بساحتها قليلا، وخلع على النائب بها... ولحق درباري بسلطانه أبغا مفلولا فسخطه ولم يعتبه والله تعالى وليّ التوفيق.

غزوة سيس وتخريبها:

ثم نهض الظاهر من مصر لغزو سيس في شعبان سنة ثلاث وسبعين وانتهى إلى دمشق في رمضان، وسار منها وعلى مقدمته الأمير قلاون وبدر الدين بيليك الخازندار فوصلوا إلى المصيصة وافتتحوها عنوة. وجاء السلطان على أثرهم، وسار بجميع العساكر إلى سيس بعد أن كنف الحامية بالبيرة خوفا عليها من التتر. وبعث حسام الدين العنتابي ومهنا بن عيسى أمير العرب بالشام للإغارة على بلاد التتر من ناحيتها. وسار إلى سيس فخربها وبث السرايا في نواحيها فانتهوا إلى بانياس وأذنة، واكتسحوا سائر الجهات، ووصل إلى دربند الروم، وعاد إلى المصيصة في التعبية فأحرقها. ثم انتهى إلى أنْطاكِية فأقام عليها حتى قسم الغنائم. ثم رحل إلى القصر وكان للإفرنج خالصا لتبركهم برومة الذي يسمونه البابا فافتتحه. ولقيه هنالك حسام الدين العنتابي ومهنا بن عيسى راجعين من إغارتهم وراء الفرات. ثم بلغه مهلك البرنس سمند بن تيمند صاحب طرابلس فبعث الظاهر بليان الدوادار ليقرر الصلح مع بنيه فقرره على عشرين ألف دينار وعشرين أسيرا كل سنة، وحضر لذلك صاحب قبرس، وكان جاء معزيا لبني البرنس ورجع الداودار إلى الظاهر فقفل إلى دمشق منتصف ذي الحجة، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

ايقاع الظاهر بالتتر في بلاد الروم ومقتل البرواناة بمد اخلته في ذلك:

كان علاء الدين البرواناة متغلبا على غياث الدين كنجسرو صاحب بلاد الروم من

بني قليج أرسلان، وقد غلب التتر على جميع ممالك بلاد الروم وأبقوا على كنجسرو اسم الملك في كفالة البرواناة. وأقاموا أميرا من أمرائهم ومعه عسكر التتر حامية بالبلاد ويسمونه بالشحنة، وكان أول

أمير من التتر ببلاد الروم بيكو، وهو الذي افتتحها، وبعده صمغان وبعده توقوو وتداون شريكين في أمرهما لعهد الملك الطاهر. وكان البرواناة يتأفف من التتر لاستطالتهم عليه وسوء ملكهم. ولما استفحل أمر الظاهر بمصر والشام أمل البرواناة الظهور على التتر والكرة لبني قليج أرسلان بممالأة الظاهر فداخله في ذلك وكاتبه. وزحف أبغا ملك التتر إلى البيرة سنة أربع وسبعين، وخرج الظاهر بالعساكر من دمشق، وكاتبه البرواناة يستدعيه. وأقام الظاهر على حمص، وأرسل إليه البرواناة يستحثه للقاء التتر. وعزم أبغا على البرواناة في الوصول فاعتذر، ثم رحل متثاقلا.

وكتب إليه الأمراء بعده بأن الظاهر قد نهض إلى بلاد الروم بوصيته إليه بذلك فبعث إلى أبغا واستمده فأمده بعساكر المغل، وأمره بالرجوع لمدافعة الظاهر واستحثوه للقدوم فسقط في أيديهم، وحيل بينهم وبين مرامهم، ورجع إلى مصر في رجب من السنة وأقام بها حولا. ثم لقي توقوو وتدوان أمير التتر ببلاد الروم وسار إلى الثغور بالشام، وبلغ السلطان خبرهما فسار من مصر في رمضان سنة خمس وسبعين وقصد بلاد الروم، وانتهى إلى النهر الأزرق فبعث شمس الدين سنقر الأشقر فلقي مقدمة التتر فهزمهم. ورجع إلى السلطان وساروا جميعا فلقوا التتر على البلنشين، ومعهم علاء الدين البرواناة في عساكره فهزمهم. وقتل الأمير توقوو وتدوان وفر البرواناة وسلطانه كنجسرو لما كان منفردا عنهم، وأسر كثير من المغل منهم: سلار بن طغرل ومنهم قفجاق وجاورصى. وأسر علاء الدين بن معين الدين البرواناة وقتل كثير منهم. ثم رحل السلطان إلى قيسارية فملكها وأقام عليها ينتظر البرواناة لموعد كان بينهما، وأبطأ عليه وقفل راجعاً ورجع خبر الهزيمة إلى أبغا ملك التتر وأطلع من بعض عيونه على ما كان بين البرواناة والظاهر من المداخلة فتنكر للبروانة، وجاء لوقته حتى وقف على موضع المعركة، وارتاب لكثرة القتلى من المغل. وأن عسكر الروم لم يصب منهم أحد فرجع على بلادهم بالقتل والتخريب والاكتساح، وامتنع كثير من القلاع ثم أمنهم ورجع. وسار معه البرواناه وهمّ بقتله أولاً ، ثم رجع لتخليته لحفظ البلاد فأعول نساء القتلى من المغل عند بابه فرحم بكاءهن، وبعث أميرا من المغل فقتله في بعض الطريق، والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه وأحكم.

وفاة الظاهر وولاية ابنه السعيد:

ولما رجع السلطان من واقعته بالتتر على البلستين وقيسارية طرقه المرض في محرم سنة ست وسبعين، وهلك من آخره، وكان ببليك الخزندار مستوليا على دولته فكتم موته ودفنه، ورجع

بالعساكر إلى مصر. فلما وصل القلعة جمع الناس وبايع لبركة ابن الملك الظاهر ولقبه السعيد، وهلك ببليك أثر ذلك فقام بتدبير الدولة استاذ داره شمس الدين الفارقاني، وكان نائب مصر أيام مغيب الظاهر بالشام واستقامت أموره. ثم قبض على شمس الدين سنقر الأشقر وبدر الدين بيسري من أمراء الظاهر بسعاية بطانته الذين جمعهم عليه لأول ولايته، وكانوا من أوغاد الموالي، وكان يرجع إليهم لمساعدتهم له على هواه وصارت شبيبته. ولما قبض على هذين الأميرين نكر ذلك عليه خاله محمد بن بركة خان فاعتقله معهما فاستوحشت أمه لذلك فأطلق الجميع، فارتاب الأمراء وأجمعوا على معاتبته فاستعتب واستحلفوه. ثم أغراه بطانته بشمس الدين الفارقاني مدبر دولته فقبض عليه واعتقله، وهلك لأيام من اعتقاله، وولى مكانه شمس الدين سنقر الألفي، ثم سعى أولئك البطانة به فعزله وولى مكانه سيف الدولة كونك الساقي صهر الأمير سيف الدين قلاون على أخت زوجته بنت كرمون، كان أبوها من أمراء التتر قد خرج إلى الظاهر، واستقر عنده وزوج بنته من الأمير قلاون، وبنته الأخرى من كوزبك. ثم حضر عند السعيد لاشين الربعي من حاشيته وغلب على هراة، واستمال أهل الدولة بقضاء حاجاتهم، واستمر معروفه لهم، واستمر الحال على ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

خلع السعيد وولاية أخيه شلامش:

ولما استقر السعيد بملكه في مصر أجمع المسير إلى الشام للنظر في مصالحه فسار لذلك سنة سبع وسبعين فاستقر بدمشق، وبعث العساكر إلى الجهات. وسار قلاون الصالحي وبدر الدين بيسري إلى سيس، زين له ذلك لاشين الربعي والبطانة الذين معه، وأغروه بالقبض عليهم عند مرجعهم. ثم حدث بين هؤلاء البطانة وبين النائب سيف الدين كونك وحشة، وآسفوه بما يلقون فيه عند السلطان فغضب لذلك. وسارت العساكر فأغاروا على سيس واكتسحوا نواحيها ورجعوا فلقيهم النائب كونك، وأسر إليهم ما أضمر لهم السلطان فخيموا بالمرج وقعدوا. عن لقاء السلطان، وبعثوا إليه بالعذل في بطانته وأن ينصف نائبه منهم فأعرض عنهم ودس لموالي أبيه أن يعاودوهم إليه فأطلعوهم على كتابه فزادهم ضغنا. وصرحوا بالانتقاض فبعث إليهم سنقر الأشقر وسنقر التركيتي استاذ داره بالاستعطاف فردوهما فبعث أمه بنت بركة خان فلم يقبلوها، وارتحلوا إلى القاهرة فوصلوها في محرم سنة ثمان وسبعين، وبالقلعة عز الدين أيبك الافرم الصالحي أمير جندار، وعلاء الدين اقطوان الساقي، وسيف الدين بليان أستاذ داره فضبطوا أبواب القاهرة ومنعوهم من الدخول. وترددت المراسلة بينهم وخرج ايبك الافرم

واقطوان ولاشين التركماني للحديث فتقبضوا عليهم ودخلوا إلى بيوتهم، ثم باكروا القلعة بالحصار ومنعوا عنها الماء. وكان السعيد بعد منصرفهم من دمشق سار في بقية العساكر واستنفر الأعراب وبث العطاء، وانتهى إلى غزة فتفرقت عنه الأعراب واتبعهم الناس. ثم انتهى إلى بلبيس ورأى قلة العساكر فرد عن الشام مع عز الدين ايدمر الظاهري إلى دمشق، والنائب بها يومئذ اقوش فقبض عليه، وبعث به إلى الأمراء بمصر. ولما رحل السعيد من بلبيس إلى القلعة اعتزل عنه سنقر الأشقر. وسار الأمراء في العساكر لاعتراضه دون القلعة، وألقى الله عليه حجابا من الغيوم المتراكمة فلم يهتدوا إلى طريقه، وخلص إلى القلعة وأطلق علم الدين سنجر الحنفي من محبسه ليستعين به ثم اختلف عليه بطانته وفارقه بعضهم فرجع إلى مصانعة الأمراء بأن يترك لهم الشام أجمع فأبوا إلا حبسه فسألهم أن يعطوه الكرك فأجابوه، وحلفهم على الأمان، وحلف لهم أن لا ينتقض عليهم ولا يداخل أحدا من العساكر ولا يستميله فبعثوه من حينه إلى الكرك. وكتبوا إلى النائب بها علاء الدين أيدكز الفخري أن يمكنه منها ففعل واستمر السعيد بالكرك، وقام بدولته أيدكز الفخري، واجتمع الأمراء بمصر وعرضوا الملك على الأمير قلاون، وكان أحق به فلم يقبل وأشار إلى شلامش بن الظاهر وهو ابن ثمان سنين فنصبوه للملك في ربيع سنة ثمان وسبعين، ولقبوه بدر الدين. وولى الأمير قلاون أتابك الجيوش، وبعث مكان جمال الدين اقوش نائب دمشق بتسلمها منه. وسار اقوش إلى حلب نائبا وولى قلاون في الوزارة برهان الحصري السنحاوي. وجمع المماليك الصالحية ووفر إقطاعاتهم، وعمر بهم مراتب الدولة، وأبعد الظاهرية وأودعهم السجون ومنع الفساد. ولم يقطع عنهم رزقا إلى أن بلغ العقاب فيهم أجله فأطلقهم تباعا واستقام أمره، والله تعالى أعلم.

خلع شلامش وولاية المنصور قلاون:

أصل هذا السلطان قلاون من القفجاق، ثم من قبيلة منهم يعرفون برج أعلى، وقد مر ذكرهم. وكان مولى لعلاء الدين اقسنقر الكابلي موالي الصالح نجم الدين أيوب. فلما مات علاء الدين صار من موالي الصالح وكان من نفرهم واستقامتهم ما قدمناه. ثم قدم إلى مصر في دولة المظفر قطز مع الظاهر بيبرس. ولما ملك الظاهر قربه واختصه وأصهر إليه، ثم بايع لابنه السعيد من بعده. ولما استوحش الأمراء من السعيد وخلعوه رغبوا من الأمير قلاون في الولاية عليهم كما قدمناه، ونصب أخاه شلامش بن الظاهر فوافقه الأمراء على ذلك طواعية له. واتصلت رغبتهم في ولايته مدة شهرين حتى أجابهم إلى ذلك فبايعوه في جمادى سنة ثمان وسبعين

فقام بالأمر ورفع كثيرا من المكوس والظلامات. وقسم الوظائف بين الأمراء، وولى جماعة من مماليكه امرة الألوف وزادهم في الأقطاعات. وأفرج لوقته عن عز الدين أيبك الأفرم الصالحي وولاه نائبا بمصر. ثم استبقاه فأعفاه وولى مملوكه حسام الدين طرنطاي مكانه، ومملوكه علم الدين سنجر السنجاعي رئاسة الدواوين. وأقر الصاحب برهان الدين السنجاري في الوزارة، ثم عزله بفخر الدين إبراهيم بن لقمان. وبعث عز الدين ايدمر الظاهري الذي كان اعتقله جمال الدين اقوش حين رجع بعساكر الشام عن السعيد بن الظاهر من بلبيس، فجيء به مقيداً واعتقله، والله تعالى ولي التوفيق.

انتقاض السعيد بن الظاهر بالكرك

ووفاته وولاية أخيه خسرو مكانه:

ولما ملك السلطان قلاون شرع السعيد بالكرك، وكاتب الأمراء بمصر والشام في الإنتقاض، وخاطبه السلطان بالعتاب على نقض العهد فلم يستعتب. وبعث عساكره مع حسام الدين لاشين الجامدار إلى الشويك فاستولى عليها فبعث السلطان نور الدين ببليك الأيدمري في العساكر فارتدها في ذي القعدة سنة ثمان وسبعين. وقارن ذلك وفاة السعيد بالكرك، واجتمع الأمراء الذين بها ومقدمهم نائبه أيدكين الفخري. وقال أيدكين أن نائبه كان أيدغري الحراني فنصبوا أخاه خسرو ولقبوه المسعود نجم الدين، واستولى الموالي على رأيه وأفاضوا المال من غير تقدير ولا حساب، حتى أنفقوا ما كان بالكرك من الذخيرة التي ادخرها الملك الظاهر وبعض أمراء الشام في الخلاف. وبعثوا العساكر فاستولوا على الصليب وحاصروا صرخد فامتنعت، وكاتبوا سنقر الأشقر المتظاهر على الخلاف فبعث السلطان أيبك الأفرم في العساكر لحصار الكرك فحاصرها وضيق عليها. ثم سأل المسعود في الصلح على ما كان الناصر داود بن المعظم فأجابه السلطان قلاون وعقد له ذلك. ثم انتقض ثانية ونزع عنه نائبه علاء الدين ايدغري الحراني، ونزع عنه إلى السلطان فصدق ما نقل عنه من ذلك. ثم بعث السلطان سنة خمس وثمانين نائبه حسام الدين طرنطاي في العساكر لحصار الكرك فحاصروها، واستنزل المسعود وأخاه شلامش منها على الأمان وملكها. وجاء بهما إلى السلطان قلاون فأكرمهما وخلطهما بولده إلى أن توفي ففر بهما الأشرف إلى القسطنطينية.

انتقاض سنقر الاشقر بدمشق هزيمته ثم امتناعه بصهيون:

كان شمس الدين سنقر الأشقر لما استقر في نيابة دمشق أجمع الإنتقاض والإستبداد وتسلم القلاع من الظاهرية، وولى فيها وطالب المنصور قلاون دخول الشام بأسرها من العريش إلى الفرات في ولايته، وزعم أنه عاهده على ذلك. وولى السلطان على قلعة دمشق مولاه حسام الدين لاشين الصغير سلحدارا في ذي الحجة سنة ثمان وسبعين فنكر سنقر وانتقض ودعا لنفسه. ثم بلغه خبر قلاون وجلوسه على التخت فدعا الأمراء وأشاع أن قلاون قتل، واستحلفهم على منعته وحبس من امتنع من اليمين وتلقب الكامل، وذلك في ذي الحجة من السنة. وقبض على لاشين نائب القلعة. وجهز سيف الدين إلى الممالك الشامية والقلاع للاستحلاف، وولى في وزارة الشام مجد الدين إسماعيل بن كسيرات وسكن سنقر بالقلعة. ثم بعث السلطان أيبك الأفرم بالعساكر إلى الكرك لما توفي السعيد صاحبها وانتهى إلى غزة، واجتمع إليه بيليك الأيدمري منقلبا من الشويك بعد فتحه فحذرهم سنقر الأشقر، وخاطب الأفرم يتجنى على السلطان بأنه لم يفرده بولاية الشام. وولى في قلعة دمشق وفي حلب وبعث الأفرم بالكتاب إلى السلطان، قلاون فأجابه، وتقدم إلى الأفرم أن يكاتبه بالعزل فيما فعله وارتكبه فلم يرجع عن شأنه، وجمع العساكر من عمالات الشام واحتشد العربان وبعثهم مع قراسنقر المقري إلى غزة فلقيهم الأفرم وأصحابه وهزموهم، وأسروا جماعة من أمرائهم، وبعثوا بهم إلى السلطان قلاوون، فأطلقهم وخلع عليهم ولما وصلت العساكر مفلولة إلى دمشق عسكر سنقر الأشقر بالمرج، وكاتب الأمراء بغزة يستميلهم، وبعث السلطان العساكر بمصر مع علم الدين سنجر لاشين المنصوري وبدر الدين بكتاش الفخري السلحدار فساروا إلى دمشق فلقيهم الأشقر على الجسر بالكسرة فهزموه في صفر سنة تسع وسبعين، وتقدموا إلى دمشق فملكوها وأطلق علم الدين سنجر لاشين المنصوري من الإعتقال وولاه نيابة دمشق. وولى على القلعة سيف الدين سنجار المنصوري وكتب إلى السلطان بالفتح. وسار سنقر إلى الرحبة فامتنع عليه نائبها فسار إلى عيسى بن مهنا، ورجع عنه إلى الفل وكاتبوا أبغا ملك التتر واستحثوه لملك الشام يستميلونه فلم يجب، وبعث إليه العساكر فأجفلوا إلى صهيون وملكها سنقر، وملك معها شيزر. وبعث السلطان لحصار شيزر مع عز الدين الأفرم فحاصرها، وجاءت الأخبار بزحف أبغا ملك التتر إلى الشام في مواعدة سنقر وابن مهنا، واستدعى صغار صاحب

بلاد الروم فيمن معه من المغل، وانه بعث بيدو ابن أخيه طرخان صاحب ماردين وصاحب سيس من ناحية أذربيجان، وجاء هو على طريق الشام في مقدمته أخوه منوكتمر. فلما تواترت الأخبار بذلك أفرج الأفرم عن حصار شيزر، ودعا الأشقر إلى مدافعة عدو المسلمين فأجابه ورفع عن موالاة أبغا. وسار من صهيون للإجتماع بعساكر المسلمين. وجمع السلطان العساكر بمصر وسار إلى الشام واستخلف على مصر ابنه أبا الفتح عليا بعد أن ولاه عهده، وقرأ كتابه بذلك على الناس. وخرج لجمع العساكر في جمادى سنة تسع وسبعين، وانتهى إلى غزة، ووصل التتر إلى حلب، وقد أجفل عنها أهلها وأقفرت منازلها فأضرموا النار في بيوتها ومساجدها. وتولى كبر ذلك صاحب سيس والأرمن، وبلغهم وصول السلطان إلى غزة فأجفلوا راجعين إلى بلادهم، وعاد السلطان إلى مصر بعد أن جرد العساكر إلى حمص وبلاد السواحل بحمايتها من الإفرنج.

ورجع سنقر الأشقر إلى صهيون وفارقه كثير من عسكره فلحقوا بالشام وأقام معه سنجر الدوادار وعز الدين أردين والأمراء الذين مكنوه من قلاع الشام عند انتقاضه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير السلطان لحصار المرقب ثم الصلح معهم ومع

سنقر الاشقر بصهيون ومع بني الظاهر بالكرك:

كان الإفرنج الذين بحصن المرقب عندما بلغهم هجوم التتر على الشام شنوا الغارات في بلاد المسلمين من سائر النواحي، فلما رجع التتر عن الشام استأذنه بليان الطباخي صاحب حصن الأكراد في غزوهم، وسار إليهم في حامية الحصون بنواحيه، وجمع التركمان وبلغ حصن المرقب ووقف أسفله، واستطرد له أهل الحصن حتى تورط في أوعار الجبل. ثم هجموا عليه دفعة فانهزم ونالوا من المسلمين، وبلغ الخبر إلى السلطان فخرج من مصر لغزوهم آخر سنة تسع وسبعين. واستخلف ابنه مكانه، وانتهى إلى الروحاء فوصله هنالك رسل الإفرنج في تقرير الهدنة مع أهل المرقب على أن يطلقوا من أسروه من المسلمين في واقعة بليان، فعقد لهم في المحرم سنة ثمانين، وعقد لصاحب بيت الاسبتار وابنه ولصاحب طرابلس سمند بن تيمند، ولصاحب عكا على بلادهم، وعلى قلاع الإسماعيلية وعلى جميع البلاد المستجدة الفتح وما سيفتحه على أن يسكن عمال المسلمين باللاذقية وأن لا يستنجدوا أسير قلعة ولا غيرها، ولا يداخلوا التتر في فتنة ولا يمروا عليهم إلى بلاد المسلمين إن أطاقوا ذلك. وعقد معهم ذلك لإحدى عشرة سنة. وبعث السلطان من أمرائه من يستحلف الإفرنج على ذلك، وبلغه الخبر

بأن جماعة من أمرائه أجمعوا الفتك به، وداخلوا الإفرنج في ذلك وكان كبيرهم كوندك. فلما وصل إلى بيسان قبض عليه وعليهم، وقتلهم واستراب من داخلهم في ذلك ولحقوا بسنقر في صهيون. ودخل السلطان دمشق، وبعث العساكر لحصار شيزر. ثم ترددت الرسل بينه وبين الأشقر في الصلح على أن يترل عن شيزر ويتعوض عنها بالشعر وبكاس، وعلى أن يقتصر في حامية الحصون التي لقطره على ستمائة من الفرسان فقط، ويطرد عنه الأمراء الذين لحقوا به فتم الصلح على ذلك، وكتب له التقليد بتلك الأعمال. ورجع من عنده سنجر الدوادار فأحسن إليه السلطان، وولى على نيابة شيزر بليان الطباخي. وكان بنو الظاهر بالكرك يسألون السلطان في الصلح بالزيادة على الكرك كما كان السلطان داود. فلما تم الصلح مع سنقر رجعوا إلى القنوع بالكرك. وبعث إليهم السلطان بأقاربهم من القاهرة وأتم لهم العقد على ذلك، وبعث الأمير سلحدار والقاضي تاج الدين بن الأثير لاستحلافهم، والله تعالى أعلم.

واقعة التتر بحمص ومهلك ابغا سلطانهم باثرها:

ثم زحف التتر سنة ثمانين إلى الشام من كل ناحية متظاهرين فسار أبغا في عساكر المغل وجموع التتر، وانتهى إلى الرحبة فحاصرها ومعه صاحب ماردين، وقدم أخوه منكوتمر في العساكر إلى الشام. وجاء صاحب الشمال منكوتمر من بني دوشي خان من كرسيهم بصراي مظاهراً لأبغا بن هلاكو على الشام فمر بالقسطنطينية ثم نزل بين قيسارية وتفليس، ثم سار إلى منكوتمر بن هلاكو، وتقدم معه إلى الشام. وخرج

السلطان من دمشق في عساكر المسلمين وسابقهم إلى حمص، ولقيه هناك سنقر الأشقر فيمن معه من أمراء الظاهرية. وزحف التتر ومن معهم من عساكر الروم والإفرنج والأرمن والكرج ثمانون ألفا أو يزيدون ؛ والتقى الفريقان على حمص. وجعل السلطان في ميمنته صاحب حماة محمد بن المظفر، ونائب دمشق لاشين السلحدار، وعيسى بن مهنا فيمن إليه من العرب. وفي الميسرة سنقر الأشقر في الظاهرية مع جموع التركمان ومن إليهم جماعة من أمرائه. وفي القلب نائبه حسام الدين طرنطاي، والحاجب ركن الدين أياجي وجمهور العساكر والمماليك. ووقف السلطان تحت الرايات في مواليه وحاشيته. ووقفت عساكر التتر كراديس، وذلك منتصف رجب سنة ثمانين واقتتلوا، ونزل الصبر.

ثم انفضت ميسرة المسلمين واتبعهم التتر، وانفضت ميسرة التتر ورجعوا على ملكهم منكوتمر في القلب فانهزم، ورجع التتر من اتباع ميسرة المسلمين فمروا بالسلطان وهو ثابت في مقامه لم يبرح، ورجع أهل الميرة. ونزل السلطان في خيامه ورحل من الغد في اتباع العدو، وأوعز إلى الحصون التي في ناحية الفرات باعتراضهم على المقابر فعدلوا عنها، وخاضوا الفرات في المجاهل فغرقوا ومر بعضهم ببر سلمية فهلكوا وانتهى الخبر إلى أبغا، وهو على الرحبة فأجفل إلى بغداد. وصرف السلطان العساكر إلى أماكنهم، وسار سنقر الأشقر إلى مكانه بصهيون. وتخلف عنه كثير من الظاهرية عند السلطان، وعاد السلطان إلى دمشق، ثم إلى مصر آخر شعبان من السنة فبلغه الخبر بمهلك منكوتمر بن هلاكو بهمذان ومنكوتمر صاحب الشمال بصراي فكان ذلك تماما للفتح. ثم هلك أبغا بن هلاكو سنة إحدى وثمانين ؛ وكان سبب مهلكه فيما يقال أنه إتهم شمس الدين الجريض وزيره باغتيال أخيه منكوتمر منصرفه من واقعة حمص، فقبض عليه وامتحنه واستصفاه فدس له الجويني من سمه ومات. وكان أبغا اتهم بأخيه أيضا أميراً من المغل كان شحنة بالجزيرة ففر منها وأقام مشركا. وبعث السلطان قلاون بعثا إلى ناحية الموصل للإغارة عليها وانتهوا إلى سنجر فصادفوا هذا الأمير، وجاؤا به إلى السلطان فحبسه. ثم أطلقه وأثبت اسمه في الديوان، وكان يحدث بكثير من أخبار التتر وكتب بعضها عنه.

وبعث السلطان في هذه السنة بعوثا أخرى إلى نواحي سيس من بلاد الروم جزاء بما كان من الأرمن في حلب ومساجدها فاكتسحوا تلك النواحي، ولقيهم بعض أمراء التتر بمكان هنالك فهزموه ووصلوا إلى جبال بلغار ورجعوا غانمين. وبعث السلطان شمس الدين قراسنقر المنصوري إلى حلب لإصلاح ما خرب التتر من قلعتها وجامعها فأعاد ذلك إلى أحسن ما كان عليه. ثم أسلم ملوك التتر فبعث أولا بكدار بن هلاكو صاحب العراق بإسلامه، وانه تسمى أحمد وجاءت رسله بذلك إلى السلطان وهم شمس الدين أتابك ومسعود بن كيكاوس صاحب بلاد الروم، وقطب الدين محمود الشيرازي قاضي سيواس وشمس الدين محمد بن الصاحب من حاشية صاحب ماردين، وكان كتابه مؤرخا بجمادى سنة إحدى وثمانين، وحملوا على الكرامة، وأجيب سلطانهم بما يناسبه. ثم وصل رسول قزدان بن طقان المتولي بكرسي الشمال بعد أخيه منكوتمر سنة اثنين وثمانين بخبر ولايته ودخوله في دين الإسلام، ويطلب تقليد الخليفة واللقب منه والراية للجهاد فيمن يليه من الكفار فأسعف بذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء السلطان قلاون على الكرك وعلى
صهيون ووفاة صاحب حماة:

ثم توفي المنصور محمد بن المظفر صاحب حماة في شوال سنة اثنتين وثمانين، وولى السلطان ابنه المظفر وبعث بالخلع له ولا قاربه. وسار السلطان قلاون إلى الشام في ربيع سنة ثلاث وثمانين لمحاصرة المرقب بما فعلوه من ممالأة العدو فحاصره حتى استأمنوا إليه، وملك الحصن من أيديهم وانتظر وصول سنقر الأشقر من صهيون فلم يصل فرجع إلى مصر. وجهز النائب حسام الدين طرنطاي في العساكر لحصار الكرك بما وقع من شلامش وخسرو من الإنتقاض فسار سنة خمس وثمانين وحاصرهم حتى استأمنوا. وجاء بهم إلى السلطان فركب للقائهم وبالغ في إكرامهم ثم ساءت سيرتهم فاستراب بهم واعتقلهم وغربهم إلى القسطنطينية. وولى على الكرك عز الدين المنصوري، وبعده بيبرس الدويدار مؤلف أخبار الترك ثم جهز السلطان ثانيا النائب طرنطاي بالعساكر لحصار سنقر الأشقر بصهيون لانتقاضه وإغارته على بلاد السلطان فسار لذلك سنة ست وثمانين، وحاصره حتى استأمن هو ومن معه. وجاء به إلى السلطان وأنزله بالقلعة، ولم يزل عنده إلى أن هلك السلطان فقبض عليه، وتولى ابنه الأشرف من بعده كما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفاة ميخاييل ملك القسطنطينية:

قد تقدم لنا كيف تغلب الإفرنج على القسطنطينية من يد الروم سنة ستمائة، وكان ميخاييل هذا من بطارقتهم، أقام في بعض الحصون بنواحيها فلما أمكنته الفرصة بيتها وقتل من كان بها من الإفرنج، وفر الباقون في مراكبهم. واجتمع الروم إلى ميخاييل هذا وملكوه عليهم، وقتل الملك الذي قبله. وكان بينه وبين صاحب مصر والناصر قلاون من بعده اتصال ومهاداة، ونزل بنو الظاهر عليه عندما غربوا من مصر. ثم مات ميخاييل سنة إحدى وثمانين، وولى ابنه ماندر ويلقب الراونس، وميخاييل هذا يعرف بالأشكري وبنوه من بعده بنو الأشكري، وهم ملوك القسطنطينية إلى هذا العهد، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

أخبار النوبة:

كان الملك الظاهر وفد عليه أعوام سنة خمس وسبعين ملك النوبة من تشكيل مستنجدا به على ابن أخيه داود لما كان تغلب عليه، وانتزع الملك من يده، فوعده السلطان وأقام ينتظر. واستفحل ملك داود وتجاوز حدود مملكته إلى قرب أسوان من آخر الصعيد، فجهز السلطان العساكر إليه مع اقسنقر الفارقاني وأيبك الأفرم أستاذ داره، وأطلق معهم مرتشكين ملك النوبه فساروا لذلك، واستنفروا العرب وانتهوا إلى رأس الجنادل، واستولوا على تلك البلاد وأمنوا أهلها. وساروا في البلاد فلقيهم داود الملك فهزموه وأثخنوا في عساكره، وأسروا أخاه وأخته وأمه. وسار إلى مملكة السودان بالأبواب، ورآه فقاتله ملكها وهزمه وأسره، وبعث به مقيدا إلى السلطان فاعتقل بالقلعة إلى ان مات. واستقر مرتشكين في سلطان النوبه على جراية مفروضة وهدايا معلومة في كل سنة، وعلى أن تكون الحصون المجاورة لأسوان خالصة للسلطان، وعلى أن يمكن ابن أخيه داود وجميع أصحابه من كل ما لهم في بلادهم فوفى بذلك. ثم مات الظاهر وانقرضت دولته

ودولة بنيه، وانتقل الملك إلى المنصور قلاون فبعث سنة ست وثمانين العساكر إلى النوبة مع علم الدين سنجر الخياط، وعز الدين الكوراني وسار معهم نائب قوص عز الدين أيدمر السيفي بعد أن استنفر العربان: أولاد ابي بكر وأولاد عمر وأولاد شريف وأولاد شيبان وأولاد كنز الدولة، وجماعة من الغرب، وبني هلال وساروا على العدوة الغربية والشرقية في دنقلة، وملكهم بيتمامون. هكذا سماه النووي، وأظنه أخا مرتشكين وبرزوا للعساكر فهزمتهم، واتبعتهم خمسة عشر يوماً وراء دنقلة ورتب ابن أخت بيتمامون في الملك ورجعت العساكر إلى مصر فجاء بيتمامون إلى دنقلة فاستولى على البلاد ولحق ابن أخته بمصر، صريخا بالسلطان فبعث معه عز الدين أيبك الأفرم في العساكر، ومعه ثلاثة من الأمراء، وعز الدين نائب قوص وذلك سنة ثمان وثمانين. وبعثوا المراكب في البحر بالأزودة والسلاح. ومات ملك النوبة بأسوان ودفن بها، وجاء نائبه صريخا إلى السلطان فبعث معه داود ابن اخي مرتشكين الذي كان أسيرا بالقلعة، وتقدم جريس ين يدي العساكر فهرب بيتمامون، وامتنع بجزيرة وسط النيل على خمس عشرة مرحلة وراء دنقلة. ووقف العساكر على ساحل البحر وتعذر وصول المراكب إلى الجزيرة من كثرة الحجر، وخرج بيتمامون منها فلحق بالأبواب، ورجع عنه أصحابه، ورجعت العساكر إلى دنقلة فملكوا داود ورجعوا إلى مصر سنة تسع وثمانين لتسعة أشهر من مسيرهم، بعد أن تركوا أميراً منهم مع الملك داود، ورجعوا إلى مصر، ورجع بيتمامون إلى دنقلة، وقتل داود، وبعث الأمير الذي كان معهم إلى السلطان وحمله رغبة في الصلح على أن يؤذي الضريبة المعلومة فأسعف لذلك، واستقر في ملكه انتهى والله تعالى أعلم.

فتح طرابلس:

كان الإفرنج الذين بها قد نقضوا الصلح وأغاروا على الجهات فاستنفر السلطان العساكر من مصر والشام، وأزاح عللهم، وجهز آلات الحصار، وسار إليها في محرم سنة ثمان وثمانين فحاصرها ونصب عليها المجانيق، وفتحها عنوة لأربعة وثلاثين يوماً من حصارها واستباحها. وركب بعضهم الشواني للنجاة فردهم الريح إلى السواحل فقتلوا وأسروا، وأمر السلطان بتخريبها فخربت وأحرقت. وفتح السلطان ما إليها من الحصون والمعاقل، وأنزل حاميتها وعاملها بحصن الأكراد. ثم أتخذ حصناً آخر لترك النائب والحامية في العمل، وسمي باسم المدينة، وهو الموجود لهذا العهد وكان من خبر هذه المدينة من لدن الفتح أن معاوية أيام ولايته الشام لعهد عثمان بن عفان رضي الله عنه بعث إليها سفيان بن مخنف الإزدي فحاصرها وبنى عليها حصناً حتى جهد أهلها الحصار، وهربوا منها في البحر. وكتب سفيان إلى معاوية بالفتح. وكان يبعث العساكر كل سنة للمرابطة بها. ثم جاء إلى عبد الملك بن مروان بطريق من الروم وسأله في عمارتها والنزول بها مجمعا على أن يعطيه الخراج فأجابه، وأقام قليلا ثم غدر بمن عنده من المسلمين. وذهب إلى بلاد الروم فتخطفته شواني المسلمين في البحر، وقتله عبد الملك، ويقال الوليد، وملكها المسلمون. وبقي الولاة يملكونها من دمشق إلى أن جاءت دولة العبيديين فأفردوها بالولاية، ووليها رمان الخادم، ثم سرّ الدولة، ثم أبو السعادة علي بن عبد الرحمن بن جبارة، ثم نزال، ثم مختار الدولة بن نزال، وهؤلاء كلهم من أهل دولته.

ثم تغلب قاضيها أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار، وتوفي سنة أربع وستين وأربعمائة. وكان من فقهاء الشيعة، وهو الذي صنف الكتاب الملقب بخراب الدولة ابن منقذ بن كمود فقام بولاية أخيه أبي الحسن بن محمد بن عمار ولقبه جلال الدين.

وتوفي سنة اثنتين وتسعين صنجيل من ملوكهم واسمه ميمنت، ومعناه ميمون. وصنجيل اسم مدينة عرف بها، وأقام صنجيل يحاصرها طويلاَ ، وعجز ابن عمار عن دفاعه. ثم قصد سلطان السلجوقية بالعراق محمد بن ملكشاه، يستنجدا به، واستخلف بالمناقب ابن عمه على طرابلس، ومعه سعد الدولة فتيان بن الأغر فقتله أبو المناقب ودعا للأفضل ابن أمير الجيوش المستبد على خلفاء العبيديين بمصر لذلك العهد. ثم هلك صنجيل وهو محاصر لها، وولي مكانه السرداني من زعمائهم. وبعث الأفضل قائداً إلى طرابلس فأقام بها وشغل عن مدافعة العدو بجمع الأموال.

ونمي عنه إلى الأفضل أنه يروم الاستبداد فبعث آخر مكانه، ونافر أهل البلد لسوء سيرته فتبين وصول المراكب من مصر بالمدد، وقبض

على أعيانهم وعلى مخلف فخر الملك بن عمار من أهله وولده، وبعث بهم إلى مصر. وجاء فخر الملك بن عمار بعد أن قطع جبل الرجاء في يده من إنجاد السلجوقية لما كانوا فيه من الشغل بالفتنة، وربما علله بعضهم بولاية الوزارة له. ثم رجع إلى دمشق سنة اثنتين وخمسمائة ونزل على طغتكين الأتابك. ثم ملكها السرداني سنة ثلاث وخمسمائة بعد حصارها سبع سنين. وجاء ابن صنجيل من بلاد الإفرنج فملكها منه، وأقامت في مملكته نحوا من ثلاثين سنة. ثم ثار عليه بعض الزعماء وقتله بطرس الأعور واستخلف في طرابلس القوش بطرار. ثم كانت الواقعة بين صاحب القدس ملك الإفرنج، وبين زنكي الأتابك صاحب الموصل، وانهزم الإفرنج وأسر القوش في تلك الوقعة، ونجا ملك الإفرنج إلى تغريب فتحصن بها وحصره زنكي حتى اصطلحا على أن يعطي تغريب، ويطلق زنكي الأسرى في الواقعة فأنطلق القوش إلى طرابلس فأقام بها مدة، ووثب الإسماعيلية به فقتلوه وولي بعده رهند صبيا وحضر مع الإفرنج سنة سبع وخمسين وقعة حارم التي هزمهم فيها العادل. وأسر رهند يومئذ وبقي في اعتقاله إلى أن ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب فأطلقه سنة سبعين وخمسمائة، ولحق بطرابلس ولم تزل في ملكه وملك ولده إلى أن فتحها المنصور سنة ثمان وثمانين كما مر والله تعالى أعلم.

إنشاء المدرسة والمارستان بمصر:

كان المنصور قلاون قد اعتزم على إنشاء المارستان بالقاهرة ونظر له الأماكن، حتى وقف نظره على الدار القطبية من قصور العبيديين وما يجاورها من القصرين، واعتمد إنشاءه هنالك، وجعل الدار أصل المارستان، وبنى بإزائه مدرسة لتدريس العلم وقبة لدفنه. وجعل النظر في ذلك لعلم الدين الشجاعي فقام بإنشاء ذلك لأقرب وقت وكملت العمارة سنة اثنتين وثمانين وستمائة. ووقف عليها أملاكا وضياعاً بمصر والشام وجلس

بالمارستان في يوم مشهود. وتناول قدحا من الأشربة الطبية وقال: وقفت هذا المارستان على مثلي فمن دوني من أصناف الخلق، فكان ذلك من صالح آثاره والله أعلم.

وفاة المنصور قلاون وولاية ابنه خليل الأشرف:

كان المنصور قلاون قد عهد لابنه علاء الدين ولقبه الصالح، وتوفي سنة سبع وثمانين فولي العهد مكانه ابنه الآخر خليل. ثم انتقض الإفرنج بعكا وأغاروا على النواحي ومرت بهم رفقة من التجار برقيق من الروم والترك جلبوهم للسلطان فنهبوهم أ وأسروهم فأجمع السلطان

غزوهم وخرج في العساكر بعد الفطر من سنة تسع وثمانين. واستخلف ابنه خليلاً على القاهرة ومعه زين الدين سيف، وعلم الدين الشجاعي الوزير وعساكر بظاهر البلد فطرقه المرض، ورجع إلى قصره فمرض. وتوفي في ذي القعدة من السنة فبويع ابنه خليل ولقب الأشرف، وكان حسام الدين طرنطاي نائب المنصور إليه فأقره وأشرك معه زين الدين سيف في نيابة العتبة، وأقر علم الدين الشجاعي على الوزارة، وبدر الدين بيدو أستاذ داره، وعز الدين أيبك خزندار. وكان حسام الدين لاشين السلحدار نائبا بدمشق، وشمس الدين قراسنقر الجوكندار نائبا بحلب فأقرهما وجمع ما كان بالشام من ولاة أبيه. ثم قبض على النائب حسام الدين طرنطاي لأيام قلائل وقتله واستولى على مخلفه، وكان لا يعبر عنه. كان الناض منها ستمائة ألف دينار، وحملت كلها لخزانته، واستقل بدر الدين بالنيابة، وبعث إلى محمد بن عثمان بن السلعوس من الحجاز فولاه الوزارة، وكان تاجرا من تجار الشام وتقرب له أيام أبيه، واستخدم له فاستعمله في بعض إقطاعه بالشام، ووفر جبايتها فولاه ديوانه بمصر فأسرف في الظلم وأنهى أمره إلى طرنطاي النائب فصادره المنصور وامتحنه، ونفاه عن الشام. وحج في هذه السنة وولي الأشرف فكان أول أعماله البحث عنه، وولاه الوزارة فبلغ المبالغ في الظهور وعلو الكلمة واستخدم الخواص له وترفع عن الناس، واستقل الرتب وقبض الأشرف على شمس الدين سنقر وحبسه، وكان قد قبض مع طرنطاي النائب على عز الدين سيف لما بلغه أنه يدبر عليه مع طرنطاي، ثم ثبتت عنده براءته فأطلقه والله تعالي أعلم.

فتح عكا وتخريبها:

ثم سار الأشرف أول سنة تسعين وستمائة لحصار عكا متمما عزم أبيه فيها فجهز العساكر واستنفر أهل الشام، وخرج من القاهرة فأغذ السير إلى عكا، ووافاه بها أمراء الشام والمظفر بن المنصور صاحب حماة فحاصرها ورماها بالمجانيق فهدم كثير من أبراجها، وتلاها المقاتلة لاقتحامها فرشقوهم بالسهام فا من اللبود، وزحفوا في كنها وردموا الخندق بالتراب فحمل كل واحد منهم ما قدر عليه حتى طموه، وانتهوا إلى الأبراج المتهدمة فألصقوها بالأرض، واقتحموا البلد من ناحيتها، واستلحموا من كان فيها وأكثروا القتل والنهب، ونجا الفل من العدو إلى أبراجها الكبار التي بقيت ماثلة فحاصرها عشرا آخرا، ثم اقتحمها عليهم فاستوعبهم السيف. وكان الفتح منتصف جمادى سنة سبعين لمائة وثلاث سنين من ارتجاع الكفار لها من يد صلاح الدين سنة سبع وثمانين وخمسمائة. وأمر الأشرف بتخريبها فخربت وبلغ الخبر إلى الإفرنج بصور

وصيدا وعتلية وحيفا فأجفلوا عنها وتركوها خاوية، ومر السلطان بها وأمر بهدمها فهدمت جميعا، وانكف راجعا إلى دمشق. وتقبض في طريقه على لاشين نائب دمشق لأن بعض الشياطين أوحى إليه أن السلطان يروم الفتك به فركب للفرار، واتبعه علم الدين سنجر الشجاعي، وسار إلى بيروت ففتحها. ومر السلطان بالكرك فاستعفى نائبها ركن الدين بيبرس الدوادار وهو المؤرخ فولى مكانه جمال الدين أتسز الاشرفي، ورجع السلطان إلى القاهرة فبعث شلامش وخسرو ابني الظاهر من محبسهما بالإسكندرية إلى القسطنطينية. ومات شلامش هنالك، وأفرج عن شمس الدين سنقر الأشقر، وحسام الدين لاشين المنصوري اللذين اعتقلهما كما قدمناه. وقبض على علم الدين سنجار نائب دمشق، وسبق إلى مصر معتقلا. وأمر السلطان ببناء الرفوف بالقلعة على أوسع ما يكون وأرفعه، وبني القبة بإزائه لجلوس السلطان أيام الزينة والفرح فبنيت مشرفة على سوق الخيل والميدان، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتح قلعة الروم:

ثم سار السلطان سنة إحدى وتسعين في عساكره إلى الشام بعد أن أفرج عن حسام الدين لاشين ورده إلى إمارته وانتهى إلى دمشق. ثم سار إلى حلب، ثم دخل منها إلى قلعه الروم فحاصرها في جمادى من السنة وملكها عنوة بعد ثلاثين يوماً من الحصار، وقاتل المقاتلة الذريعة، وخرب القلعة وأخذ فيها بطرك الأرمن أسيرا، وانكف السلطان راجعا إلى حلب فأقام بها شعبان، وولى عليها سيف الدين الطباقي نائباً مكان قراسنقر الظاهري لأنه ولاه مقدم المماليك. ورحل إلى دمشق فقضى بها عيد الفطر، واستراب لاشين النائب فهرب ليلة الفطر، وأركب السلطان في طلبه، وتقبض عليه بعض العرب في حيه. وجاء به إلى السلطان فبعثه مقيدا إلى القاهرة، وولى على نيابة دمشق عز الدين أيبك الحميدي عوضا عن علم الدين سنجر الشجاعي، ورجع إلى مصر فأفرج عن علم الدين سنجر الشجاعي، وتوفي لسنة بعد إطلاقه. ثم قبض على سنقر الأشقر وقتله، وسمع نائبه بيدو ببراءة لاشين فأطلقه. وتوفي ابن الأثير بعد شهر فولى مكانه ابنه عماد الدين أيوب، وكان أيوب قد اعتقله المنصور لأول ولايته فأطلقه الأشرف هذه السنة لثلاث عشرة سنة من اعتقاله، واستخلصه للمجالسة والشورى. وتوفي

القاضي فتح الدين محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر كاتب السر وصاحب

ديوان الانشاء وله التقدم عنده وعند أبيه، فولى مكانه فتح الدين أحمد بن الأثير الحلبي. وترك ابن عبد الظاهر ابنه علاء الدين عليا فألقى عليه النعمة منتظما في جملة الكتاب. ثم سار السلطان إلى الصعيد يتصيد، واستخلف بيدو النائب على دار ملكه، وانتهى إلى قوص. وكان ابن السلعوس قد دس إليه بأن بيدو احتجن بالصعيد من الزرع ما لا يحصى فوقف هنالك على مخازنها واستكثرها، وارتاب بيدو لذلك. ولما رجع الأشرف إلى مصر ارتجع منه بعض إقطاعه، وبقي بيدو مرتابا من ذلك، وأتحف السلطان بالهدايا من الخيام والهجن وغيرهما، والله تعالى أعلم،

مسير السلطان إلى الشام وصلح الارمن

ومكثه في مصيا وهدم الشويك:

ثم تجهز السلطان سنة اثنتين وتسعين إلى الشام، وقدم بيدو النائب بالعساكر، وعاج على الكرك على الهجن فوقف عليها وأصلح من أمورها ورجع. ووصل إلى الشام فوافاه رسول صاحب سيس ملك الأرمن راغباً في الصلح على أن يعطى تمسنا ومرعش وتل حمدون فعقد لهم على ذلك، وملك هذه القلاع وهي في غم الدرب من ضياع حلب، وكانت تمسنا للمسلمين. ولما ملك هلاكو حلب باعها النائب من ملك الأرمن سيس. ثم سار السلطان إلى حمص ووصل إليها في رجب من السنة، ومعه المظفر صاحب حماة ونزل سلمية، ولقيه مهنا بن عيسى أمير العرب فقبض عليه وعلى أخويه محمد وفضل وابنه موسى وبعثهم معتقلين مع لاشين إلى دمشق، ومن هناك إلى مصر فحبسوا بها. وولى على الغرب مكانهم محمد بن أبي بكر بن علي بن جديلة وأوعز وهو بحمص إلى نائب الكرك بهدم قلعة الشويك فهدمت، وانكف راجعا إلى مصر، وقدم العساكر مع بيدو، وجاء في الساقة على الهجن مع خواصه. ولما دخل علي مصر أفرج عن لاشين المنصوري والله تعالى أعلم.

مقتل الأشرف وولاية أخيه محمد الناصر في كفالة كيبغا:

كان النائب بيدو مستوليا على الأشرف، والأشرف مستريب به حتى كأنه مستبد،

وكان مستوحشا من الأشرف. واعتزم الأشرف سنة ثلاث وتسعين على الصيد في البحيرة فخرج إليها. وبعث وزيره ابن السلعوس للإسكندرية لتحصيل الأموال والأقمشة فوجد بيدو قد سبقوا إليها واستصفرا ما هنالك فكاتب السلطان بذلك فغضب. واستدعى بيدو فوبخه وتوعده ولم يزل هو يلاطفه حتى كسر من سورة غضبه. ثم خلص إلى أصحابه وداخلهم في التوثب به. وتولى كبر ذلك منهم لاشين المنصوري نائب دمشق، وقراسنقر المنصوري نائب حلب، وكان الأمراء كلهم حاقدين على الأشرف لتقديمه حاشيته عليهم. ولما كتب إليه السلعوس بقلة المال صرف مواليه إلى القلعة تخفيفا من النفقة، وبقي في القليل. وركب بعض أيامه يتصيد وهو مقيم على فرجة فاتبعوه وأدركوه في صيده فأوجس في نفسه الشر منهم فعاجلوه وعلوه بالسيوف ضربه أولا بيدو وثنى عليه لاشين وتركوه مجندلاً بمصرعه منتصف محرم من السنة، ورجعوا إلى المخيم وقد أبرموا أن يولوا بيدو فولوه ولقبوه القاهر. وتقبض على بيسري الشمسي وسيف الدين بكتمر السلحدار، واحتملوهما وساروا إلى قلعة الملك. وكان زين الدين سيف قد ركب للصيد فبلغه الخبر في صيده فسار في اتباعهم، ومعه سوس الجاشنكير وحسام الدين أستاذ دار وركن الدين سوس وطقجي في طائفة من الجاشنكيرية، وأدركوا القوم على الطرانة. ولما عاينهم بيدو وبيسري وبكتمر المعتقلين في المخيم رجعوا إلى كيبغا وأصحابه وفر عن بيدو من كان معه من العربان والجند وقاتل قليلاً ثم قتل، ورجع برأسه على القناة، وافترق أصحابه قراسنقر ولاشين بالقاهرة. ويقال أن لاشين كان مختفيا في مأذنة جامع ابن طولون، ووصل كيبغا وأصحابه إلى القلعة وبها علم الدين الشجاعي، واستدعوا محمد بن قلاون أخا الأشرف وبايعوه ولقبوه الناصر، وقام بالنيابة كيبغا وبالأتابكية حسام الدين، وبالوزارة علم الدين سنجر، وبالأستاذ دارية ركن الدين سوس الجاشنكير. واستبدوا بالدولة فلم يكن الناصر يملك معهم شيئاً من أمره، وجدوا في طلب الأمراء الذين

داخلوا بيدو في قتل الأشرف فاستوعبوهم بالقتل والصلب والقطع وكان بهادر، رأس نوبة، وأقوش الموصلي فقتلا، وأحرقت أشلاؤهما. وشفع كيبغا في لاشين وقراسنقر المتوليين كبر ذلك فظهرا من الأختفاء وعادا إلى محلهما من الدولة. ثم تقبض على الوزير محمد بن السلعوس عند وصوله من الإسكندرية، وصادره الوزير الشجاعي وامتحنه فمات تحت الامتحان، وأفرج عن

عز الدين ايبك الأفرم الصالحي، وكان الأشرف اعتقله سنة اثنتين وتسعين والله سبحانه وتعالى أعلم.

وحشة كيبغا ومقتل الشجاعي:

ثم انّ الشجاعي لطف محله من الناصر واختصه بالمداخلة، وأشار عليه بالقبض

على جماعة من الأمراء فاعتقلهم: وفيهم سيف الدين كرجي وسيف الدين طونجي. وطوى ذلك عن كيبغا، وبلغه الخبر وهو في موكب بساحة القلعة. وكان الأمراء يركبون في خدمته فاستوحش، وارتاب بالشجاعي وبالناصر. ثم جاء بعض مماليك الشجاعي إلى كيبغا في الموكب، وجرد سيفه لقتله فقتله مماليكه، وتأخر هو ومن كان معه من الأمراء عن دخول القلعة، وتقبضوا على سوس الجاشنكير أستاذ دار وبعثوا به إلى الإسكندرية ونادوا في العسكر فاجتمعوا وحاصروا القلعة. وبعث إليهم السلطان أميراً فشرطوا عليه أن يمكنهم من الشجاعي فامتنع، وحاصروه سبعا واشتد القتال. وفر من كان بقي في القلعة من العسكر إلى كيبغا، وخرج الشجاعي لمدافعتهم فلم يغن شيئاً . ورجع إلى السلطان وقد خامره الرعب فطلب أن يحبس نفسه فمضى به المماليك إلى السجن وقتلوه في طريقهم. وبلغ الخبر إلى كيبغا ومن كان معه فذهبت عنهم الهواجس، واستأمنوا للسلطان فأمنهم واستحلفوه فحلف لهم ودخلوا إلى القلعة، وأفاض كيبغا العطاء في الناس، وأخرج من كان في الطباق من المماليك بمداخلة الشجاعي فأنزلهم إلى البلد بمقاصر الكسر، ودار الوزارة، والجوار وكانوا نحواً من تسعة آلاف فأقاموا بها. ولما كان المحرم فاتح سنة أربع وتسعين استعدوا ليلة وركبوا فيها جميعا، وأخروا من كان في السجون ونهبوا بيوت الأمراء وأعجلهم الصبح عن تمام قصدهم، وباكرهم الحاجب بهادر ببعض العساكر فهزمهم. وافترقوا وتقبض على كثير منهم فأخذ منهم العقاب مأخذه قتلا وضربا وعزلا، وأفرج عن عز الدين أيبك الأفرم، وأعيد إلى وظيفته أمير جندار، ثم هلك قريبا. واستحكم أمر السلطان ونائبه كيبغا وهو مستبد عليه، واستمر الحال على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى، والله تعالى ولي التوفيق.

خلع الناصر وولاية كيبغا العادل:

ولما وقعت الوحشة بين كيبغا والشجاعي، وتلتها هذه الفتنة استوحش كيبغا في

ظاهر أمره، وانقطع عن دار النيابة متمارضا وتردد السلطان لعيادته. ثم حمل بطانته على الاستبداد بالملك والجلوس على التخت، وكان طموحا لذلك من أول أمره فجمع الأمراء ودعاهم إلى بيعته فبايعوه. وخلع الناصر وركب إلى دار السلطان فجلس على التخت وتلقب بالعادل، وأخرج السلطان من قصور الملك، وكان مع أمه ببعض الحجر. وولى حسام الدين لاشين نائباً والصاحب فخر الدين عمر بن عبد العزيز الخليلي

الدار وزيرا نقله إليها من النظر في الديوان لعلاء الدين ولي العهد ابن قلاون، وعز الدين أيبك الأفرم الصالحي أمير جندار، وبهادر الحلبي أمير حاجب، وسيف الدين منماص أستاذ دار، وقسم إمارة الدولة بين مماليكه.
وكتب إلى نواب الشام بأخذ البيعة فأجابوا بالسمع والطاعة، وقبض على عز الدين أيبك الخازندار نائب طرابلس، وولى مكانه فخر الدين أيبك الموصلي. وكان الخازندار يترل حصن الأكراد، ونزل الموصلي بطرابلس، وعادت دار إمارة. ثم وفد سنة خمس وتسعين على العادل كيبغا طائفة من التتر يعرفون بالأربدانية، ومقدمهم طرنطاي كان مداخلا لبدولي كنجاب ابن عمه ملك التتر. فلما سار الملك إلى غازان خافه طرنطاي، وكانت أحياؤه بين غازان والموصل. وأوعز غازان إلى التتر الذين من مارتكن فأخذ الطرق عليهم. وبعث قط قرا من أمرائه للقبض على طرنطاي ومن معه من أكابر قبيله فسار لذلك في ثمانين فارساً فقتله طرنطاي وأصحابه وعبروا الفرات إلى الشام. وأتبعهم التتر من ديار بكر فكروا عليهم فهزموهم. وأمر العادل سنجر الدوادار أن يتلقاهم بالرحب واحتفل نائب دمشق لقدومهم. ثم ساروا إلى مصر فتلقاهم شمس الدين قراسقر، وكانوا يجلسون مع الأمراء بباب القلعة فأنفوا لذلك، وكان سبباً لخلع العادل كما نذكر. ووصل على أثرهم بقية قومهم بعد أن مات منهم كثير. ثم رسخوا في الدولة وخلطهم الترك بأنفسهم، وأسلموا واستخدموا أولادهم وخلطوهم بالصهر والولاء والله سبحانه وتعالى أعلم.

خلع العادل كيبغا وولاية لاشين المنصور:

كان أهل الدولة نقموا على السلطان كيبغا العادل تقديم مماليكه عليهم، ومساواة الأربدانية من التتر بهم فتفاوضوا على خلعه. وسار إلى الشام في شوال سنة خمسة وتسعين فعزل عز الدين أيبك الحموي نائب دمشق واستصفاه، وولى مكانه سيف الدين عزلو من مواليه. ثم سار إلى حمص متصيدا ولقيه المظفر صاحب حماة فأكرمه ورده إلى بلده. وسار إلى مصر والأمراء مجمعون خلعه والفتك بمماليكه، وانتهى إلى العوجاء من أرض فلسطين، وبلغه عن بيسري الشمسي انه كاتب التتر فنكر عليه وأغلظ له في الوعيد. وارتاب الأمراء من ذلك وتمشت

رجالاتهم واتفقوا. وركب حسام الدين لاشين وبدر الدين بيسري وشمس الدين قراسنقر وسيف الدين قفجاق وبهادر الحلبي الحاجب وبكتاش الفخري وبيليك الخازندار وأقوش الموصلي وبكتمر السلحدار وسلار وطغجي وكرجي ومعطاي، ومن انضاف إليهم بعد أن بايعوا لاشين، وقصدوا مخيم بكتوت الأزرق فقتلوه. وجاءهم ميحاص فقتلوه أيضا. وركب السلطان كيبغا في لفيفه فحملوا عليه فانهزم إلى دمشق، وبايع القوم لاشين ولقبوه المنصور وشرطوا عليه أن لا ينفرد عنهم برأي فقبل، وسار إلى مصر ودخل القلعة. ولما وصل كيبغا إلى دمشق لقيه نائبه سيف الدين غزلو وأدخله القلعة واحتاط على حواصل لاشين والأمراء الذين معه، وأمن جماعة من مواليه. ووصلت العساكر التي كانت مجردة بالرحبة ومقدمهم جاغان، وكانوا قد داخلوا لاشين في شأنه ونزلوا ظاهر دمشق، واتفقوا على بيعة لاشين وأعلنوا بدعوته. وانحل أمر العادل وسأل ولاية صرخد، وألقى بيده فحبس بالقلعة لسنتين من ولايته. وبعث الأمراء بيعتهم للاشين، ودخل سيف الدين

جاغان إلى القلعة. ثم وصل كتاب لاشين ببعثه إلى مصر، وبعث إلى كيبغا بولاية صرخد كما سأل، ووصل قفجق المنصوري نائبا عن دمشق. وأفرج لاشين بمصر عن ركن الدين بيبرس الجاشنكير وغيره من المماليك، وولى قراسنقر نائبا وسيف الدين سلار أستاذ دار وسيف الدين بكتمر السلحدار أمير جاندار وبهادر الحلبي صاحب ** وأقر فخر الدين الخليلي على وزارته، ثم عزله وولى مكانه شمس الدين سنقر الأشقر، وقبض على قراسنقر النائب وسيف الدين سلار أستاذ دار آخر سنة ست وتسعين وولى مكانه سيف الدين منكوتمر الحسامي مولاه، واستعمل سيف الدين قفجق المنصوري نائبا. ثم أمر بتجديد عمارة جامع ابن طولون وندب لذلك علم الدين سنجر الدوادار، وأخرج للنفقة فيه من خالص ماله عشرين ألف دينار، ووقف عليه أملاكاً وضياعاً. ثم بعث سنة تسع وسبعين بالناصر محمد بن قلاون إلى الكرك مع سيف الدين سلار أستاذ فى دار، وقال لزين الدين بن مخلوف فقيه بيته هو ابن استاذي وأنا نائبه في الأمر، ولو علمت أنه يقوم بالأمر لأقمته. وقد خشيت عليه في الوقت فبعثته إلى الكرك فوصلها في ربيع. وقال النووي: انه بعث معه جمال الدين بن أقوش. ثم قبض السلطان في هذه السنة على بدر الدين بيسري الشمسي بسعاية منكوتمر نائبه، لأن لاشين أراد أن يعهد إليه بالأمر فرده بيسري عن ذلك وقبحه عليه، فدس منكوتمر بعض مماليك بيسري وانهوا إلى السلطان أنه يريد الثورة فقبض عليه آخر ربيع الثاني من السنة وأودعه السجن فمات في محبسه. وقبض في هذه السنة على

بهادر الحلبي وعلى عز الدين أيبك الحموي. ثم أمر في هذه السنة برد الإقطاعات في النواحي، وبعث الأمراء والكتاب لذلك. وتولى ذلك عبد الرحمن الطويل مستوفي الدولة. وقال مؤرخ حماة المؤيد: كانت مصر منقسمة على أربعة وعشرين قيراطا: أربعة منها للسلطان والكلف والرواتب وعشرة للأمراء والإطلاقات والزيادات، وعشرة للأجناد الحلقة. فصيروها عشرة للأمراء والإطلاقات والزيادات والأجناد، وأربعة عشر للسلطان فضعف الجيش. وقال النووي: قرر للخاص في الروك الجيزة وأطفيح ودمياط ومنفلوط والكوم الأحمر، وحولت السنة الخراجية من سنة ست وتسعين. وهذا في العدد، إنما هو بعد انقضاء ثلاثة وثلاثين سنة واحدة، هي تفاوت ما بين السنين الشمسية والقمرية، وهو حجة ديوان الجيش في انقضاء التفاوت الجيشي، وهو تحويل بالأقلام فقط. وليس فيه نقص شيء. ثم أقطعت البلاد بعد الروك واستثنيت المراتب الجسرية والرزق الإحباسية. انتهى كلام النووي رحمه الله، والله تعالي أعلم.

فتح حصون سيس:

ولما ولي سيف الدين منكوتمر النيابة، وكان مختصا بالسلطان استولى على الدولة

وطلب من السلطان أن يعهد له بالملك فنكر ذلك الأمراء، وثنوا عنه السلطان فتنكر لهم منكوتمر وأكثر السعاية فيهم، حتى قبض على بعضهم وتفرق الآخرون في النواحي. وبعث السلطان جماعة منهم سنة سبع وتسعين لغزو سيس وبلاد الأرمن: كان منهم بكتاش أمير سلاح وقراسنقر وبكتمر السلحدار وتدلار وتمراز ومعهم الألفي نائب صفد في العساكر، ونائب طرابلس ونائب حماة، ثم أردفهم بعلم الدين سنجر الدوادار.

وجاءت رسل صاحب سيس وأغاروا عليها ثلاثة أيام واكتسحوها. ثم مروا ببغراس، ثم بمرج أنْطاكِية وأقاموا بها ثلاثا، ومروا بجسر الحديد ببلاد الروم. ثم قصدوا تل حمدون فوجدوها خاوية، وقد انتقل الأرمن الذين بها إلى قلعة النجيمة، وفتحوا قلعة مرعش وحاصروا قلعة النجيمة أربعين يوماً وافتتحوها صلحا، وأخذوا أحد عشر حصناً منها المصيصة وحموم وغيرهما. واضطرب أهلها من الخوف فأعطوا طاعتهم، ورجع العساكر إلى حلب. وبلغ السلطان لاشين أن التتر قاصدون الشام فجهز العساكر إلى دمشق مع جمال الدين أقوش الأفرم، وأمره أن يخرج العساكر من دمشق إلى حلب مع قفجق النائب فسار إلى حمص وأقام بها. ثم بلغهم الخبر برجوع التتر، ووصل أمر السلطان إلى سيف الدين الطباخي نائب حلب بالقبض على بكتمر السلحدار والألفي نائب صفد، وجماعة

من الأمراء بحلب بسعاية بكتمر. وحاول الطباخي ذلك فتعذر عليه وبرز تدلار إلى بسار فتوفي بها وأقام الآخرون. وشعروا بذلك فلحقوا بقفجق النائب على حمص فأمنهم، وكتب إلى السلطان يشفع فيهم فأبطأ جوابه. وعزله سيف الدين كرجي وعلاء الدين أيدغري من إجارتهم فاستراب، وولى السلطان مكانه على دمشق جاغان فكتب إلى قفجق بطلبهم فنفروا وافترق عسكره، وعبر الفرات إلى العراق ومعه أصحابه بعد أن قبضوا على نائب حمص واحتملوه. ولحقهم الخبر بقتل السلطان لاشين وقد تورطوا في بلاد العدو فلم يمكنهم الرجوع. ووفدوا على غازان بنواحي واسط، وكان قفجق من جند التتر وأبوه من جند غازان خصوصاً. ولما وقعت الفتنة بين لاشين وغازان، وكان فيروز أتابك غازان مستوحشا من سلطانه فكاتب لاشين في اللحاق به، واطلع سلطانه على كتبه فأرسل إلى شاه نائب حران فقبض على فيروز وقتله، وقتل غازان أخويه في بغداد، والله تعالى أعلم.

مقتل لاشين وعود الناصر محمد بن قلاون إلى ملكه:

كان السلطان لاشين قد فوض أمر دولته إلى مولاه منكوتمر فاستطال وطمع في الإستبداد ؛ ونكره الأمراء كما قدمناه فأغرى السلطان بهم وشردهم كل مشرد بالنكبة والإبعاد. وكان سيف الدين كرجي من الجاشنكير ومقدما عليهم، كما كان قراسنقر مع الأشرف. وكان جماعة المماليك معصوصبين عليه. وسعى منكوتمر في نيابته على القلاع التي افتتحت من الأرمن ببلاد سيس فاستعفى من ذلك وأسرها في نفسه، وأخذ في السعاية على منكوتمر وظاهره على أمره قفجي من كبار الجاشنكيرية. وكان لطقجي صهر من كبار الجاشنكيرية اسمه طنطاي أغلظ له منكوتمر يوماً بالمخاطبة فامتعض وفزع إلى كرجي وطقجي فاتفقوا على اغتيال السلطان. وقصدوه ليلا، وهو يلعب بالشطرنج، وعنده حسام الدين قاضي الحنفية فأخبره كرجي بغلق الأبواب على المماليك فنكره، ولم يزل يتصرف أمامه حتى ستر سيفه بمنديل طرحه عليه. فلما قام السلطان لصلاة العتمة نحاها عنه وعلاه بالسيف. وافتقد السلطان سيفه فتعاوروه بسيوفهم حتى قتلوه، وهموا بقتل القاضي ثم تركوه. وخرج كرجي إلى طقجي بمكان انتظاره وقصدوا منكوتمر وهو بدار النيابة فاستجار بطقجي فأجاره وحبسه بالجب ثم راجعوا رأيهم واتفقوا على قتله فقتلوه. وكان مقتل لاشين في ربيع سنة ثمان وتسعين، وكان من

موالي علي بن المعز أيبك فلما غرب للقسطنطينية تركه بالقاهرة واشتراه المنصور قلاون من القاضي بحكم البيع على الغائب بألف درهم، وكان يعرف بلاشين الصغير لأنه كان هناك لاشين اخر أكبر منه، وكان نائبا بحمص. ولما قتل اجتمع الأمراء، وفيهم ركن الدين بيبرس الجاشنكير وسيف الدين سلار أستاذ دار وحسام الدين لاشين الرومي، وقد وصل على البريد من بلاد سيس جمال الدين أقوش الأفرم وقد عاد من دمشق بعد أن أخرج النائب والعساكر إلى حمص وعز الدين أيبك الخزندار وبدر الدين السلحدار فضبطوا القلعة. وبعثوا إلى الناصر محمد بن قلاون بالكرك يستدعونه للملك فاعتزم طقجي على الجلوس على التخت، واتفق وصول الأمراء الذين كانوا بحلب منصرفين من غزاة سيس، وفيهم سيف الدين كرجي وشمس الدين سرقنشاه، ومقدمهم بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح فأشار الأمراء على طقجي بالركوب للقائهم فأنف أولا، ثم ركب ولقيهم وسألوه عن السلطان فقال قتل فقتلوه. وكان كرجي عند القلعة فركب هاربا وأدرك عند القرافة وقتل، ودخل بكتاش والأمراء القلعة لحول من غزاة سيس. ثم اجتمعوا بمصر وكان الأمر دائرا بين سلار وبيبرس وأيبك الجامدار وأقوش الأفرم وبكتمر أمير جندار وكرت الحاجب وهم ينتظرون وصول الناصر من الكرك، وكتبوا إلى الأمراء بدمشق بما فعلوه فوافقوا عليه، ثم قبضوا على نائبها جاغان الحسامي. وتولى ذلك بهاء الدين قرا أرسلان السيفي فاعتقل ومات لأيام قلائل فبعث الأمراء بمصر مكانه سيف الدين قطلوبك المنصوري. ثم وصل الناصر محمد بن قلاون إلى مصر في جمادى سنة ثمان وتسعين فبايعوا له وولى سلار نائبا وبيبرس أستاذ دار وبكتمر الجو كندار أمير جندار وشمس الدين الأعسر وزيرا، وعزل فخر الدين بن الخليلي بعد أن كان أقره، وبعث على دمشق جمال الدين أقوش الأفرم عوضا عن سيف الدين قطلوبك، واستدعاه إلى مصر فولاه حاجبا وبعث على طرابلس سيف الدين كرت وعلى الحصون سيف الدين كراي، وأقر بلبان الطباخي على حلب، وأفرج عن قراسنقر المنصوري وبعثه على الضبينة، ثم نقله إلى حماة عندما وصله وفاة صاحبها المظفر آخر السنة، وخلع على الأمراء وبث العطايا والأرزاق. واستقر في ملكه وبيبرس وسلار مستوليان عليه، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

الفتنة مع التتر:

قد كنا قدمنا ما كان من فرار قفجق نائب دمشق إلى غازان وحدوث الوحشة بين المملكتين فشرع غازان في تجهيز العساكر إلى الشام، وبعث شلامش بن امال بن بكو في خمسة وعشرين ألفا في عساكر المغل، ومعه أخوه قطقطو وأمره بالمسير من جهة سيس فسار لذلك. ثم حدثته نفسه بالملك فخاضع وطلب الملك لنفسه، وكاتب ابن قزمان أمير التركمان فسار إليه في

عشرة آلاف فارس. وسار في ستين ألف فارس وسار إلى سيواس فامتنعت عليه، وكتب إلى صاحب مصر مع مخلص الرومي يستنجده فبعث إلى نائب دمشق بإنجاده، وبلغ الخبر غازان فبعث لقتاله مولاي من أمراء التتر في خمسة وثلاثين ألف فارس، ولحقه إلى سيواس فانتقض عليه العسكر ورجع التتر إلى مولاي. ولحق التركمان بالجبال، ولحق هو بسيس في فل من العسكر، وسار إلى دمشق ثم إلى مصر، وسأل من السلطان لاشين أن يمده

بعسكر ينقل به عياله إلى الشام فأمر السلطان نائب حلب أن ينجده على ذلك فبعث معه عسكرا عليهم بكتمر الحلبي، وساروا إلى سيواس فاعترضهم التتر وهزموهم وقتل الحلبي، ونجا شلامش إلى بعض القلاع، فاستنزله غازان وقتله، واستقر أخوه قطقطو ومخلص بمصر، وأقطع لهما وانتظما في عسكر مصر، والله تعالى أعلم.

واقعة التتر مع الناصر واستيلاء غازان على الشام ثم ارتجاعه منه:

قد كنا قدمنا ما حدث من الوحشة بين التتر وبين الترك بمصر، وقدمنا من أسبابها ما قدمناه. فلما بويع الناصر بلغه أن غازان زاحف إلى الشام فتجهز وقدم العساكر مع قطلبك الكبير وسيف الدين غزار. وسار على أثرهم آخر سنة ثمان وسبعين وانتهى إلى غزة فنمي إليه أن بعض المماليك مجمعون للتوثب عليه، وأن الأربدانية الذين وفدوا من التتر على كيبغا داخلوهم في ذلك. وبينما هو يستكشف الخبر إذ بمملوك من أولئك قد شهر سيفه واخترق صفوف العسكر وهم مصطفون بظاهر غزة فقتل لحينه، وتتبع أمرهم من هذه البادرة حتى ظهرت جليتها فسبق الأربدانية ومقدمهم طرنطاي، وقتل بعض المماليك وحبس الباقين بالكرك. ورحل السلطان إلى عسقلان ثم إلى دمشق. ثم سار ولقي غازان ما بين سلمية وحمص بمجمع المروج ومعه الكرج والأرمن، وفي مقدمته أمراء الترك الذين هربوا من الشام وهم قفجق المنصوري وبكتمر السلحدار وفارس الدين البكي وسيف الدين غزار، فكانت الجولة منتصف ربيع فانهزمت ميمنة التتر وثبت غازان. ثم حمل على القلب فانهزم الناصر، واستشهد كثير من الأمراء، وفقد حسام الدين قاضي الحنفية وعماد الدين إسماعيل ابن الأمير، وسار غازان إلى حمص فاستولى على الذخائر السلطانية. وطار الخبر إلى دمشق فاضطربت العامة وثار الغوغاء، وخرج المشيخة إلى غازان يقدمهم بدر الدين بن جماعة وتقي الدين بن تيمية وجلال الدين القزويني. وبقي البلد فوضى وخاطب المشيخة غازان في الأمان فقال قد خالفكم إلى بلدكم

كتاب الأمان. ووصل جماعة من أمرائه فيهم إسماعيل ابن الأمير والشريف الرضي وقرأ كتاب الأمان ويسمونه بلغاتهم الفرمان. وترجل الأمراء بالبساتين خارج البلد وامتنع علم الدين سلحدار بالقلعة فبعث إليه إسماعيل يستنزله بالأمان فامتنع فبعث إليه المشيخة من أهل دمشق فزاد امتناعا ودمشق ودس إليه الناصر بالتحفظ. وأن المدد على غزة ووصل قفجق بكتمر فنزلوا الميدان، وبعثوا إلى سنجر صاحب القلعة في الطاعة فأساء جوابهم وقال لهم: إن السلطان وصل وهزم عساكر التتر التي اتبعته. ودخل قفجق إلى دمشق فقرأ عهد غازان له بولاية دمشق والشام جميعا، وجعل إليه ولاية القضاء وخطب لغازان في الجامع، وانطلقت أيدي العساكر في البلد بأنواع جميع العيث، وكذا في الصالحية والقرى التي بها والمزة وداريا. وركب ابن تيمية إلى شيخ الشيوخ نظام الدين محمود الشيباني. وكان نزل بالعادلية فأركبه معه إلى الصالحية وطردوا منها أهل العيث، وركب المشيخة إلى غازان شاكين فمنعوا من لقائه حذرا من سطوته بالتتر فيقع الخلاف ويقع وبال ذلك على أهل البلد. فرجعوا إلى الوزير سعد الدين ورشد الدين فأطلقوا لهم الأسرى والسبي.

وشاع في الناس أن غازان أذن للمغل في البلد وما فيه ففزع الناس إلى شيخ الشيوخ وفرضوا على أنفسهم أربعمائة ألف درهم مصانعة له على ذلك وأكرهوا على كرمها بالضرب والحبس حتى كملت. ونزل التتر بالمدرسة العادلية فأحرقها ارجواش نائب القلعة ونصب المنجنيق على القلعة بسطح جامع بني أمية فأحرقوه فأعيد عمله. وكان المغل يحرسونه فانتهكوا حرمة المسجد بكل محرّم من غير استثناء، وهجم أهل القلعة فقتلوا النجار الذي كان يصنع المنجنيق وهدم نائب القلعة ارجواش ما كان حولها من المساكن والمدارس والأبنية ودار السعادة، وطلبوا ما لا يقدرون عليه، وامتهن القضاة والخطباء وعطلت الجماعات والجمعة، وفحش القتل والسبي، وهدمت دار الحديث وكثير من المدارس. ثم قفل إلى بلده بعد أن ولي على دمشق والشام قفجق، وعلى حماة وحمص بكتمر السلحدار، وعلى صفد وطرابلس والساحل فارس الدين البكي، وخلف نائبه قطلوشاه في ستين ألف حامية للشام واستصحب وزيره بدر الدين بن فضل الله وشرف الدين ابن الأمير وعلاء الدين بن القلانسي. وحاصر قطلوشاه القلعة فامتنعت عليه فاعتزم على الرحيل، وجمع له قفجق الأوغاد في جمادى من السنة، وبقي قفجق منفردا بأمره فأمن الناس بعض الشيء، وأمر مماليكه ورجعت عساكر التتر من اتباع الترك بعد أن وصلوا إلى القدس وغزة والرملة واستباحوا ونهبوا، وقائدهم يومئذ مولاي من أمراء التتر فخرج إليه ابن تيمية واستوهبه بعض الأسرى فأطلقهم. وكان الملك الناصر لما وصل إلى القلعة ووصل معه كيبغا العادل، وكان حضر

معه المعركة من محلّ نيابته بصرخد. فلما وقعت الهزيمة سار مع السلطان إلى مصر وبقي في خدمة النائب سلار، وجرّد السلطان العساكر وبث النفقات وسار إلى الصالحية وبلغه رحيل غازان من الشام. ووصل إليه بليان الطباخي نائب حلب على طريق طرابلس، وجمال الدين الأفرم نائب دمشق وسيف الدين كراي نائب طرابلس. واتفق السلطان في عساكرهم، وبلغه أن قطلوشاه نائب غازان رحل من الشام على أثر غازان فتقدم بيبرس وسار في العساكر، ووقعت المراسلة بينه وبين قفجق وبكتمر والبكى فأذعنوا للطاعة، ووصلوا إلى بيبرس وسلار فبعثوا بهم إلى السلطان وهو في الصالحية في شعبان من السنة فركب للقائهم وبالغ في تكرمتهم والإتطاع لهم. وولى قفجق على الشويك، ورحل عائدا إلى مصر. ودخل بيبرس وسلار إلى مصر وقرروا في ولايتها جمال الدين أقوش الأفرم بدمشق، وفي نيابة حلب قراسنقر المنصوري الجوكندار لاستعفاء بليان الطباخي عنها وفي طرابلس سيف الدين قطلبك، وفي حماة كيبغا العادل، وفي قضاء دمشق بدر الدين بن جماعة لوفاة إمام الدين بن سعد الدين القزويني. وعاد بيبرس وسلار إلى مصر منتصف شوال، وعاقب الأفرم كل من استخدم للتتر من أهل دمشق. وأغزى عساكره جبل كسروان والدرزية لما نالوا من العسكر عند الهزيمة، وألزم أهل دمشق بالرماية وحمل السلاح. وفرضت على أهل دمشق ومصر الأموال عن بعث الخيالة والمسكن لأربعة أشهر وضمان للقرى وكثر الأرجاف سنة سبعمائة بحركة التتر فتوجه السلطان إلى الشام بعد أن فرض على الرعية أموالاً، واستخرجها لتقوية عساكره. وأقام بظاهر غزة أياما يؤلف فيها الأمصار. ثم بعث ألفي فارس إلى دمشق، وعاد إلى مصر منسلخ ربيع الآخر. وجاء غازان بعساكره وأجفلت الرعايا أمامه

حتى ضاقت بهم السبل والجهات فترل ما بين حلب ومرس ونازلها، واكتسح البلاد إلى أنْطاكِية وجبل السمر، وأصابهم هجوم البرد وكثرة الأمطار والوحل، وانقطعت الميرة عنهم، وعدمت الأقوات وصوعت المراعي من كثرة الثلج، وارتحلوا إلى بلادهم. وكان السلطان قد جهز العساكر كما قلنا إلى الشام صحبة بكتمر السلحدار نائب صفد، وولى مكانه سيف الدين فنحاص المنصوري. ثم وقعت المراسلة بين السلطان الناصر وبين غازان وجاءت كتبه، وبعث الناصر كتبه ورسله وولى السلطان على حمص فارس الدين البكي، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة الخليفة الحاكم وولاية ابنه المستكفي

والغزاة إلى العرب بالصعيد:

ثم توفي الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد، وهو الذي ولاه الظاهر وبايع له سنة ستين

فتوفي سنة إحدى وسبعمائة لإحدى وأربعين سنة من خلافته، وقد عهد لابنه أبي الربيع سليمان فبايع له الناصر ولقبه المستكفي، وارتفعت شكوى الرعايا في الصعيد من الأعراب، وكثر عيثهم فجهز إليهم السلطان العساكر مع شمس الدين قراسنقر فاكتسحهم. وراجعوا الطاعة وقرر عليهم مالا حملوه ألف ألف وخمسمائة ألف درهم، وألف فرس واحدا وألفي جمل اثنين، وعشرة آلاف من الغنم. وأظهروا الإستكانة، ثم أظهروا النفاق فسار إليهم كافل المملكة سلار وبيبرس في العساكر فاستلحموهم وأبادوهم، وأصابوا أمواله ونعمهم ورجعوا. وأستأذن بيبرس في قضاء فرضه فخرج حاجا وكان أبو نمي أمير مكة قد توفي، وقام بأمره في مكة ابناه رميثة وخميصة، واعتقلا أخويهما عطيفة وأبا الغيث فنقبا السجن وجاءا إلى بيبرس مستعدين على أخويهما فقبض عليهما بيبرس، وجاء بهما إلى القاهرة. وفي سنة ستين وسبعمائة بعدها خرجت الشواني مشحونة بالمقاتلة إلى جزيرة أرواد في بحر طرطوس، وبها جماعة من الإفرنج قد حصنوها وسكنوها فملكوها وأسروا أهلها وخربوها وأذهبوا آثارها والله تعالى ولي التوفيق.

تقرير العهد لأهل الذمة

حضر في سنة سبعمائة وزير من المغرب في غرض الرسالة فرأى حال أهل الذمة

وترفهم وتصرفهم في أهل الدولة فنكره وقبح ذلك، واتصل بالسلطان نكيره فأمر بجمع الفقهاء للنظر في الحدود التي تقف عندها أهل الذمة بمقتضى عهود المسلمين لهم عند الفتح وأجمع الملأ فيهم على ما نذكر وهو أن يميز بين أهل الذمة بشعار يخصهم: فالنصارى بالعمائم السود، واليهود بالصفر، والنساء منهن بعلامات تناسبهن. وأن لا يركبوا فرسا ولا يحملوا سلاحا، وإذا ركبوا الحمير يركبونها عرضاً ويتنحون وسط الطريق، ولا يرفعوا أصواتهم فوق صوت المسلمين، ولا يعلوا بناءهم على بناء المسلمين، ولا يظهروا شعائرهم ولا يضربوا بالنواقيس، ولا ينصروا مسلما ولا يهودوه، ولا يشتروا من الرقيق مسلما ولا من سباة مسلم، ولا من جرت عليه سهام المسلمين. ومن دخل منهم الحمام يجعل في عنقه جرساً يتميز به. ولا ينقشوا فص الخاتم

بالعربي، ولا يعلموا أولادهم القرآن ولا يخدموا في أعمالهم الشاقة مسلما. ولا يرفعوا النيران. ومن زنى منهم بمسلمة قتل. وقال البترك، بحضرة العدول حرمت على أهل ملتي وأصحابي مخالفة ذلك والعدول عنه. وقال رئيس اليهود: أوقعت الكلمة على أهل ملتي وطائفتي وكتب بذلك إلى الأعمال. ولنذكر في هذا الموضع نسخة كتاب عمر بالعهد لأهل الذمة بعد كتاب نصارى الشام ومصر ونصه: هكذا كتاب لعبد الله عمر امير المؤمنين من نصارى أهل الشام ومصر، لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا على أنفسنا أن لا تحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا علية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان في خطط. وأن نوسع أبوابنا للمارة ولبني السبيل، وأن نترل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم، ولا نؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً، ولا نكتم عيبا للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً ولا نمنع أحدا من ذي قرابتنا الدخول في دين الإسلام إن أرادوه. وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم في مجالسنا إذا أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا نتسمى بأسمائهم ولا نتكنى بكناهم، ولا نركب السروج ولا نتقلد بالسيوف ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية. وأن نجز مقدم رؤسنا، ونكرم نزيلنا حيث كنا، وأن نشد الزنانير على أوساطنا ولا نظهر صلباننا، ولا نفتح كنفنا في طريق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب بنواقيسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانيننا ولا طواغيتنا. ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نوقد النيران في طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين، ولا نطلع في منازلهم ولا نعلي منازلنا. فلما أتي عمر بالكتاب زاد فيه. ولا نضرب أحدا من المسلمين شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطنا لكم علينا وضمناه على أنفسنا وأهل ملتنا فلا ذمة لنا عليكم، وقد حل بنا ما حل بغيرنا من أهل المعاندة والشقاق. فكتب عمر رضي الله عنه أمض ما سألوه، وألحق فيه حرفا اشترطه عليهم مع ما اشترطوه، من ضرب مسلما عمداً فقد خلع عهده. وعلى أحكام هذا الكتاب جرت فتاوى الفقهاء في أهل الذمة نصاً وقياساً. وأما كنائسهم فقال أبو هريرة أمر عمر بهدم كل كنيسة استحدثت بعد الهجرة، ولم يبق إلا ما كان قبل الإسلام. وسير عروة بن محمد فهدم الكنائس بصنعاء، وصالح القبط على كنائسهم وهدم بعضها، ولم يبق من الكنائس إلا ما كان قبل الهجرة. وفي إباحة رمها وإصلاحها لهم خلاف معروف بين الفقهاء، والله تعالى ولي التوفيق.

إيقاع الناصر بالتتر على شقحب:

ثم تواترت الأخبار سنة اثنتين وسبعمائة بحركة التتر ؛ وأن قطلوشاه وصل إلى جهة الفرات، وأنه قدم كتابه إلى نائب حلب بأن بلادهم محلة، وأنهم يرتادون المراعي بنواحي الفرات فخادع بذلك عن قصده ويوهم الرعية أن يجفلوا من البسائط. ثم وصلت الأخبار بإجازتهم الفرات فأجفل الناس أمامهم كل ناحية، ونزل التتر مرعش. وبعث العساكر من مصر مدداً لأهل الشام فوصلوا إلى دمشق، وبلغهم هنالك أن السلطان قازان وصل في

جيوش التتر إلى مدينة الرحبة ونازلها فقدم نائبها قرى وعلوفة واعتذر له بأنه في طاعته إلى أن يرد الشام، فإن ظفر به فالرحبة أهون شيء وأعطاه ولده رهينة على ذلك فأمسك عنه، ولم يلبث أن عبر الفرات راجعا إلى بلاده. وكتب إلى أهل الشام كتاباً مطولاً ينذرهم فيه أن يستمدوا عسكر السلطان أو يستجيشوه ويخادعهم بلين القول وملاطفته، وتقدم قطلوشاه وجوبان إلى الشام بعساكر التتر يقال في تسعين ألفا أو يزيدون. وبلغ الخبر إلى السلطان فقدم العساكر من مصر وتقدم بيبرس كافل المملكة إلى الشام، والسلطان وسلار على أثره ومعهم الخليفة أبو الربيع. وساروا في التعبية. ودخل بيبرس دمشق، وكان النائب بحلب قراسنفر المنصوري ، وقد اجتمع إليه كيبغا العادل نائب حماة وأسد الدين كرجي نائب طرابلس بمن معهم من العساكر فأغار التتر على القريتين، وبها أحياء من التركمان كانوا أجفلوا أمامهم من الفرات فاستاقوا أحياءهم بما فيها واتبعهم العساكر من حلب فأوقعوا بهم واستخلصوا أحياء التركمان من أيديهم. وزحف قطلوشاه وجوبان بجموعهما إلى دمشق يظنان أن السلطان لم يخرج من مصر، والعساكر والمسلمون مقيمون بمرج الصفر وهو المسمى بشقحب مع ركن الدين بيبرس، ونائب دمشق أقوش الأفرم ينتظرون وصول السلطان فارتابوا لزحف التتر وتأخروا عن مراكزهم قليلا، وارتاعت الرعايا من تأخرهم فأجفلوا إلى نواحي مصر. وبينما هم كذلك إذ وصل السلطان في عساكره وجموعه غرة رمضان من السنة فرتب مصافه وخرج لقصدهم فالتقى الجمعان بمرج الصفر، وحمل التتر على ميمنة السلطان فثبت الله أقدامهم وصابروهم إلى أن غشيهم الليل، واستشهد جماعة في الجولة. ثم انهزم التتر ولجؤا إلى الجبل يعتصمون به، واتبعهم السلطان فأحاط بالجبل إلى أن أظل الصباح. وشعر المسلمون باستماتتهم فأفرجوا لهم من بعض الجوانب، وتسلل معظمهم مع قطلوشاه وجوبان، وحملت العساكر الشامية على من بقي منهم

فاستلحموهم وأبادوهم. وأتبعت الخيول آثار المنهزمين، وقد اعترضتهم الأحوال بما كان السلطان قدم إلى أهل الأنهار بين أيديهم فبثقوها، ووحلت خيولهم فيها فاستوعبوهم قتلا وأسرا. وكتب السلطان إلى قازان بما يجدد عليه الحسرة ويملأ قلبه رعبا، وبعث البشائر إلى مصر. ثم دخل إلى دمشق وأقام بها عيد الفطر، وخرج لثالثه منها إلى مصر فدخلها آخر شوال في موكب حفل ومشهد عظيم، وقر الإسلام بنصره، وتيمن بنقيب نوابه، وأنشده الشعراء في ذلك. وفي هذه السنة توفي كيبغا العادل نائب حماة، وهو الذي كان ولي الملك بمصر كما تقدم ذكره فدفن بدمشق. وتوفي أيضا بليان الجوكندار نائب حمص. وتوفي أيضا القاضي تقي الدين بن دقيق العيد بمصر لولايته ست سنين بها، وولي مكانه بدر الدين بن جماعة. وهلك قازان ملك التتر، يقال أصابته حمى حادة للهزيمة التي بلغته فهلك وولي أخوه خربندا. وفيها أفرج السلطان عن رميثة وحميصة ولدي الشريف أبي نمي، وولاهما بدلا من أخويهما عطيفة وأبي الغيث، والله تعالى أعلم.

أخبار الأرمن

أخبار الأرمن وغزو بلادهم وإدعاؤهم الصلح

ثم مقتل ملكهم صاحب سيس علم يد التتر

قد كان تقدم لنا ذكر هؤلاء الأرمن، وأنهم وإخوتهم الكرج من ولد قويل بن ناحور بن آزر، وناحور أخو إبراهيم عليه السلام. وكانوا أخذوا بدين النصرانية قبل الملة وكانت مواطنهم أرمينية، وهي منسوبة إليهم. وقاعدتها خلاط وهي كرسي ملكهم ويسمى ملكهم النكفور. ثم ملك المسلمون بلادهم وضربوا الجزية على من بقي منهم، واختلف عليهم الولاة ونزلت بهم الفتن، وخربت خلاط فانتقل ملكهم إلى سيس عند الدروب المجاورة لحلب، وانزووا إليها وكانوا يؤدون الضريبة للمسلمين. وكان ملكهم لعهد نور الدين العادل قليج بن اليون، وهو صاحب ملك الدروب، واستخدم للعادل وأقطع له، وملك المصيصة وأردن وطرسوس من يد الروم. وأبقاه صلاح الدين بعد العادل نور الدين على ما كان عليه من الخدمة. وغدر في بعض السنين بالتركمان فغزاهم صلاح الدين، وأثخن عليهم حتى أذعنوا ورجع إلى حاله من أداء الجزية والطاعة وحسن الجوار بثغور حلب. ثم ملكها لعهد الظاهر هيثوم بن قسطنطين بن يانس، ويظهر أنه من أعقاب قليج أو من أهل بيته. ولما ملك هلاكو العراق والشام دخل هيثوم في طاعته وأقره على سلطانه، وأجلب مع التتر في غزواتهم على الشام. وغزا سنة اثنتين وستين صاحب بلاد الروم من التتر، واستنفر معه بني كلاب من أعراب حلب. وعاثوا في نواحي عنتاب. ثم ترهب هيثوم بن قسطنطين ونصب ابنه ليون للملك. وبعث الظاهر العساكر سنه أربع وستين، ومعه قلاون المنصور صاحب حماة إلى بلادهم فلقيهم ليون في جموعه قبل الدربند فانهزم وأسر وخرب العساكر مدينة سيس. وبذل هيثوم الأموال والقلاع في فداء ابنه ليون فشرط عليه الظاهر أن يستوهب سنقر الأشقر وأصحابه من أبغا بن هلاكو. وكان هلاكو أخذهم من سجن حلب فاستوهبهم وبعث بهم، وأعطى خمساً من القلاع منها: رغبان ومرزبان لما توفي هيثوم سنة تسع وستين. وملك بعده ابنه ليون وبقي الملك في عقبه. وكان بينهم وبين الترك نفرة واستقامة لقرب جوارهم من حلب. والترك يرددون العساكر إلى بلادهم حتى أجابوا بالصلح على الطاعة والجزية، وشحنة التتر مقيم عندهم بالعساكر من قبل شحنة بلاد الروم. ولما توفي ليون ملك بعده ابنه هيثوم، ووثب عليه أخوه سنباط فخلعه وحبسه بعد أن سمل عينه الواحدة، وقتل أخاهما الأصغر يروس. ونازلت عساكر الترك لعهده

قلعة حموض من قبل العادل كيبغا فاستضعف الأرمن سنباط وهموا به فلحق بالقسطنطينية وقدموا عليهم أخاه رندين فصالح المسلمين وأعطاهم مرعش، وجميع القلاع على جيحان، وجعلوها تخما، ورجعت العساكر عنهم. ثم أفرج رندين عن أخيه هيثوم الأعور سنة تسع وستين فأقام معه قليلاً. ثم وثب برندين ففر إلى القسطنطينية. وأقام هيثوم بسيس في ملك الأرمن، وقدم ابن أخيه تروس معسول أتابكا، واستقامت دولته فيهم. وسار مع قازان في وقعته مع الملك الناصر فعاث الأرمن في البلاد، واستردوا بعض قلاعهم، وخربوا تل حمدون. فلما هزم الناصر التتر سنة إثنتين وسبعمائة بعث العساكر إلى بلادهم فاسترجعوا القلاع وملكوا حمص واكتسحوا بسائط سيس وما إليها، ومنع الضريبة المقررة عليهم فأنفذ نائب حلب قراسنقر المنصوري سنة سبع وستمائة العساكر إليهم مع أربعة من الأمراء فعاثوا في بلادهم. واعترضهم شحنة التتر بسيس فهزموهم وقتل أميرهم وأسر الباقون. وجهز العساكر من مصر مع بكتاش الفخري أمير سلاح من بقية

البحرية، وانتهوا إلى غزة، وخشي هيثوم مغبة هذه الحادثة فبعث إلى نائب حلب بالجزية التي عليهم لسنة خمس وقبلها. وتوسل بشفاعته إلى السلطان فشفعه وأمنه، وكان شحنة التتر ببلاد الروم لهذا العهد أرفلي، وكان قد أسلم لما أسلم أبغا، وبنى مدرسة بإذنه وشيد فيها مئذنة. ثم حدث بينه وبين هيثوم صاحب سيس وحشة فسعى فيه هيثوم عند خربندا ملك التتر بأنه مداخل لأهل الشام، وقد واطأهم على ملك سيس وما إليها وشهد له بالمدرسة والمئذنة وكتب بذلك إلى أرفلي بعض قرابته فأسرها في نفسه، واغتاله في صنيع دعاه إليه. وقبض على وافد من مماليك الترك كان عند هيثوم من قبل نائب حلب يطلب الجزية المقررة عليه، وهو أيدغدي الشهرزوري. ولم يزل في سجن التتر إلى أن فر من محبسه بتوريز سنة عشر وسبعمائة. ونصب لملك سيس أوشين بن ليون، وسار أرفلي إلى خربندا بفسابقه ألتاق أخو هيثوم بنسائه وولده مستعدين عليه فتفجع لهم خربندا وسط أرفلي وقتله وأقر أوشين أخاه في ملكه لسيس، فبادر إلى مراسلة الناصر بمصر، وتقرير الجزية عليه كما كانت وما زال يبعثها مع الأحيان، والله تعالى أعلم.

مراسلة ملك المغرب ومهاداته:

كان ملك المغرب الأقصى من بني مرين المتولين أمره من بعد الموحدين، وهو يوسف بن يعقوب بن عبد الحق قد بعث إلى السلطان الناصر سنة أربع وسبعمائة رسوله علاء الدين أيدغدي الشهرزوري من الشهرزورية المقربين هنالك أيام الظاهر بيبرس، ومعه هدية حافلة من الخيل

والبغال والإبل وكثير من ماعون المغرب وسائر طرفه، وجملة من الذهب العين في ركب عظيم من المغاربة ذاهبين لقضاء فرضهم. فقابلهم السلطان بأبلغ وجوه بالتكرمة، وبعث معهم أميراً لإكرامهم وقراهم في طريقهم حتى قضوا فرضهم، وعاد الرسول أيدغدي المذكور من حجه سنة خمس فبعث السلطان معه مكافأة هديتهم بما يليق بها من النفاسة وعين لذلك أميرين من بابه: أأيدغدي البابلي وأيدغدي الخوارزمي كل منهما لقبه علاء الدين فانتهوا إلى يوسف بن يعقوب بمكانه من حصار تلمسان كما هو في ربيع الآخر سنة ست فقابلهم بما يجب لهم ولمرسلهم، وأوسع لهم في الكرامة والحباء، وبعثهم إلى ممالكه بفاس ومراكش ليتطوفا بها ويعاينا مسرتها. وهلك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصار تلمسان، وإنطلق الرسولان المذكوران من فاس راجعين من رسالتهما في رجب سنة سبع في ركب عظيم من أهل المغرب اجتمعوا عليهم لقصد الحج، ولقوا السلطان أبا ثابت الجزولي من بعد يوسف بن يعقوب في طريقهم فبالغ في التكرمة والإحسان إليهم. وبعث إلى مرسلهم الملك الناصر بهدية أخرى من الخيل والبغال والإبل. ثم مروا بتلمسان، وبها أبو زيان وأبو حمو ابنا عثمان بن يغمراسن فلم يصرفا إليهما وجهاً من القبول، وطلباً منهما خفير يخفرهما إلى تخوم بلادهما لما كانت نواحي تلمسان قد اضطربت بعد مهلك يوسف بن يعقوب، وما كان من شأنه فبعث معهما بعض العرب فلم يغن عنهم، واعترضهم في طريقهم أشرار حصن من زغبة بنواحي المرية فبالغوا في الدفاع فلم يغن عنهم. واستولى الأشرار على الركب بما فيه، ونهبوا جميع الحجاج ورسل الملك الناصر معهم. وخلصوا برؤوسهم إلى الشيخ بكربن زغلي شيخ بني يزيد بن زغبة بوطن حمزة بنواحي بجاية، فأوصلهم إلى السلطان بجاية أبي البقاء

خالد من ولد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص من ملوك أفريقية فكساهم وحملهم إلى حضرة تونس، وبها السلطان أبو عصيدة محمد بن يحيي الواثق من بني عمه فبالغ في تكرمتهم. وسافر معهم إبراهيم بن عيسى من بني وسنار احد أمراء بني مرين كان أميراً على الغزاة بالأندلس، وخرج لقضاء فرضه فمر بتونس واستنهضه سلطانها على الإفرنج بجزيرة جربة، فسار إليها بقومه ومعه عبد الحق بن عمر بن رحو من أعيان بني مرين. وكان الشيخ أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني يحاصرها في عسكر تونس فأقام معهم مدة. ثم استوحش أبو يحيى اللحياني من سلطانه بتونس فلحق بطرابلس وساروا جميعاً إلى مصر، وتقدم السلطان بإكرامهم حتى قضوا فرضهم وعادوا إلى المغرب. واستمد أبو يحيى اللحياني السلطان الناصر فأمده بالأموال والمماليك، وكان سبباً لإستيلائه على الملك بتونس كما نذكره في أخباره أن شاء الله تعالى.

وحشة الناصر من كافليه بيبرس وسلار ولحاقه

بالكرك وخلعه والبيعة لبيبرس:

ثم عرضت وحشة بين السلطان الناصر وبين كافليه بيبرس وسلار سنة سبع فامتنع

من العلامة على المراسم، وترددت بينه وبينهم السعاة بالعتاب، وركب بعض الأمراء في ساحة القلعة من جوف الليل، ودافعهم الحامية وافترقوا. وامتعض السلطان لذلك وإزداد وحشة. ثم سعى بكتمر الجوكندار في إصلاح الحال، وحمل السلطان على تغريب بعض الخواص من مماليكه إلى القدس. وكان بيبرس ينسب إليهم هذه الفتنة ونشأتها من أجلهم ففر بهم السلطان وأعتب الأميرين. ثم أعيد الموالي من القدس إلى محلهم من خدمتهم، واتهم السلطان الجوكندار في سعايته فسخطه وأبعده وبعثه نائباً عن صفد. ثم غص بما هو فيه من الحجر والإستبداد، وطلب الحج فهجره بيبرس وسلار، وسار على الكرك سنة ثمان. وودعه الأمراء

واستصحب بعضاً منهم. فلما مرّ بالكرك دخل القلعة، وأخرج النائب جمال الدين أقوش الأشرف إلى مصر، وبعث عن أهله وولده كانوا مع المحمل الحجازي فعادوا إليه من العقبة وصرف الأمراء الذين توجهوا معه، وأظهر الإنقطاع بالكرك للعبادة، وأذن لهم في إقامة من يصلح لأمرهم فاجتمعوا بدار النيابة، وتشاوروا واتفقوا على أن يكون بيبرس سلطاناً عليهم، وسلار على نيابته. وبايعوا بيبرس في شوال سنة ثمان، ولقبوه المظفر. وقلده الخليفة أبو الربيع، وكتب للناصر بنيابة الكرك، وعينت له إقطاع يختص بها. وقام سيف الدين سلار بالنيابة على عادة من قبله، وأقر أهل الوظائف والرتب على مراتبهم. وبعث أهل الوظائف بطاعتهم واستقر بيبرس في سلطانه، والله تعالى أعلم.

انتقاض الأمير بيبرس وعود الناصر إلى ملكه:

ولما دخلت سنة تسع هرب بعض موالي الناصر فلحقوا بالكرك، وقلق الظاهر بيبرس المظفر وبعث في أثرهم فلم يدركوهم، واتهم آخرون فقبض عليهم، ونشأت الوحشة لذلك. واتصلت المكاتبة من الأمراء الذين بالشام إلى السلطان بالكرك، وخرج من مكانه يريد النهوض إليهم. ثم رجع ووصل كتاب نائب دمشق أقوش الأفرم فسكن الحال، وبعث الجاشنكير بيبرس إلى السلطان برسالة مع الأمير علاء الدين مغلطاي أيدغلي

وقطلوبغا تتضمن الأرجاف فثارت لها حفائظه، وعاقب الرسولين، وكاتب أمراء الشام يتظلم من بيبرس وأصحابه بمصر ويقول:

سلمت لهم في الملك ورضيت بالضنك رجاء الراحة فلم يرجعوا عني، وبعثوا إلي بالوعيد وإنهم فعلوا ما فعلوا بأولاد المعز أيبك وبيبرس الظاهر ومثل ذلك من القول، ويستجدهم ويمت إليهم بوسائل التربية والعتق في دفاع هؤلاء عنه، وإلا لحقت ببلاد التتر. وبعث بهذه الرسالة مع بعض الجند كان مستخدماً بالكرك من عهد أقوش الأشرفي، وأقام هنالك وكان مولعاً بالصيد فاتصل بالسلطان في مصايده. وبث إليه ذات يوم شكواه فقال: أنا أكون رسولك إلى أمراء الشام فبعث إليهم بهذه الرسالة فامتعضوا وأجابوه بالطاعة كما يجب منهم. وسار السلطان إلى البلقاء، وأرسل جمال الدين أقوش الأفرم نائب دمشق إلى مصر فأخبر الجاشنكير بيبرس بالحال، واستمده بالعساكر للدفاع فبعث إليه بأربعة آلاف من العساكر مع كبار الأمراء، وأزاح عللهم وأنفق في سائر العساكر بمصر، وكثر الأرجاف وشغبت العامة، وتعين مماليك السلطان للخروج إلى النواحي إسترابة بمكانهم. ووصل الخبر برجوع السلطان من البلقاء إلى الكرك لرأي رآه، واستراب لرجعته سائر أصحابه وحاشيته. وخاف أن يهجمهم عساكر مصر بما كان يشاع عندهم من اعتزام بيبرس على ذلك. ثم دس السلطان إلى مماليكه وشيع إليهم فأجابوه، وأعاد الكتاب إلى نواب الشام: مثل شمس الدين اقسنقر نائب حلب، وسيف الدين نائب حمص فأجابوه بالسمع والطاعة، وبعث نائب حلب ولده إليه واستنهضوه للوصول فخرج من الكرك في شعبان سنة تسع، ولحق به طائفة من أمراء دمشق. وبعث النائب أقوش أميرين لحفظ الطرقات فلحقا بالسلطان. وكتب بيبرس الجاشنكير إلى نواب الشام بالوقوف مع جمال الدين أقوش نائب دمشق والإجتماع على السلطان الناصر عن دمشق فأعرضوا ولحقوا بالسلطان وسار أقوش إلى البقاع والشقيف، واستأمن إلى السلطان فبعث إليه بالأمان مع أميرين من أكابر أمرائه. وسار إلى دمشق فدخلها وهي خالصة يومئذ لسيف الدين بكتمرأمير جامدار جاءه من صفد وهاجر إلى خدمته فتلقاه وجازاه أحسن الجزاء. ثم وصل أقوش الأفرم فتلقاه السلطان بالمبرة والتكرمة، وأقره على نيابة دمشق. واضطربت أمور الجاشنكير بمصر، وخرجت طائفة من مماليك السلطان هاربين إلى الشام فسرح في أثرهم العساكر فأدركوهم، ونال الهاربون منهم قتلاً وجراحة ورجعوا، وثاب العامة والغوغاء وأحاصوا بالقلعة وجاهروا بالخلعان. وقبض على بعضهم وعوقب فلم يزدهم إلا عتوا وتحاملا. وارتاب الجاشنكير لحاله، واجتمع الناس للحلف، وحضر الخليفة وجدد عليه وعليهم الحلف، وبعث نسخة البيعة لتقرأ بالجامع يوم الجمعة فصاح الناس بهم وهموا أن يحصبوهم على المنابر، فرجع إلى النفقة وبذل المال، واعتزم على المسير إلى الشام. وقدم

أكابر الأمراء فلحقوا بالسلطان، وزاد اضطراب بيبرس وخرج السلطان من دمشق منتصف رمضان، وقدم بين يديه أميرين من أمراء غزة فوصلاها، واجتمعت إليه ا العرب والتركمان وبلغ الخبر إلى الجاشنكير فجمع إليه شمس الدين سلار وبدر الدين بكتوت الجو كندار وسيف الدين السلحدار، وفاوضهم في الأمر فرأوا أن الخرق قد إتسع، ولم يبق إلا البدار بالرغبة إلى السلطان أن يقطعه الكرك أو حماة أو صهيون، ويتسلم السلطان

ملكه فأجمعوا على ذلك، وبعثوا بيبرس الدوادار وسيف الدين بهادر بعد أن أشهد الجاشنكير بالخلع، وخرج من القلعة إلى أطفيح بمماليكه فلم يستقر بها، وتقدم قاصداً أسوان واحتمل ما شاء من المال والذخيرة، وخيول الإصطبل. وقام بحفظ القلعة صاحبه سيف الدين سلار، وكاتب السلطان يطالعه بذلك، وخطب للسلطان على المنابر ودعي باسمه على المآذن، وهتف باسمه العامة في الطرقات. وجهز سلار سائر شعار السلطنة

ووصلت رسل الجاشنكير إلى السلطان بما طلب فأسعفه بصهيون وردهم إليه بالأمان والولاية، ووافى السلطان عيد الفطر بالبركة ولقيه هنالك سيف الدين سلار وأعطاه الطاعة. ودخل السلطان إلى القلعة، وجلس باقي العيد بالإيوان جلوساً فخماً، واستخلف الناس عامة. وسأله سلار في الخروج إلى إقطاعه فأذن له بعد أن خلع عليه فخرج ثالث شوال، وأقام ولده بباب السلطان. ثم بعث السلطان الأمراء إلى أخميم فانتزعوا من الجاشنكير ما كان احتمله من المال والذخيرة وأوصلوها إلى الخزائن ووصل معهم جماعة من مماليكه كانوا أمراء،

واختاروا الرجوع إلى السلطان. وولى السلطان سيف الدين بكتمر الجو كندار أمير جاندار نائباً بمصر، وقراسنقر المنصور نائباً بدمشق. وبعث نائبها الأفرم نائباً بصرخد، وسيف الدين بهادر نائباً بطرابلس، وخرجوا جميعاً إلى الشام. وقبض السلطان على جماعة من الأمراء ارتاب بهم، وولى على وزارته فخر الدين عمر بن الخليلي عوضاً عن ضياء الدين أبي بكر ثم إنصرف بيبرس الجاشنكيرمتوجهاً إلى صهيون وبها بهادر بها الأشجعي موكل به إلى حيث قصد، ورجع عنه الأمراء الذين كانوا عنده إلى السلطان فاستضاف بعضهم إلى مماليكه، واعتقل بعضهم. ثم بدا للسلطان في أمره، وبعث إلى قراسنقر وبهادر، وهما مقيمان بغزة، و لم ينفصلا إلى الشام أن يقبضا عليه فقبضا عليه وبعثا به إلى القلعة آخر ذي القعدة فاعتقل ومات هنالك، والله تعالى ولي التوفيق.

خبر سلار ومآل أمره:

لما إنتقل السلطان الناصر إلى ملكه بمصر، وكان لسلار من السعي في أمره وتمكين سلطانه ما ذكرناه، وكانت له ذمة عند السلطان يعتني برعيها له. وكانت الشويك من إقطاعه فرغب إلى السلطان في المسير إليها والتخلي فيها فأذن له، وخلع عليه وزاده في إقطاعه وإقطاع مماليكه، واتبعه مائة من الطواشية بإقطاعهم. وسار من ما عمر إلى الشويك في شوال سنة ثمان وسبعمائة. ثم بعث له داود المقسور بالكرك مضافاً إلى الشويك وباللواء وبخلعة مذهبة ومركب ثقيل ومنطقة مجوهرة وأقام هنالك فلما كانت سنة عشر بعدها نمي إلى السلطان عن جماعة من الأمراء أنهم معتزمون على الثورة وفيهم أخو سلار فقبض عليهم جميعاً وعلى شيع سلار وحاشيته الذين بمصر وبعث علم الدين الجوالي لإستقدامه من الكرك تأنيسا له وتسكيناً فقدم في ربيع من السنة واعتقل إلى أن هلك في معتقله واستصفيت أمواله وذخائره بمصر والكرك، وكانت شيئاً لا يعبر عنه من الأموال والفصوص واللالىء والأقمصة والدروع والكراع والإبل. ويقال أنه كان يغلّ كل يوم من أقطاعه وضياعه ألف دينار. وأما أوليته فإنه لما خلص من أسر التتر صار مولى لعلاء الدين علي بن المنصور قلاون، ولما مات صار لأبيه قلاون، ثم لابنه الأشرف، ثم لأخيه محمد بن الناصر. وظهر في دولهم كلها، وكان بينه وين لاشين

مودة فاستخدم له وعظم في دولته متقرباً في المراكب متحريا لمحبة السلطان إلى أن إنقرض أمره. ويقال أنه لما إحتضر في محبسه قيل له قد رضي عنك السلطان فوثب قائماً ومشى خطوات ثم مات، والله أعلم.

انتقاض النواب بالشام ومسيرهم

إلى التتر وولاية تنكز على الشام:

كان قفجق نائب حلب قد توفي بعد أن ولاه السلطان فنقل مكانه إلى حلب الكرجي من حماة سنة عشر فتظلم الناس منه فقبض عليه، ونقل إليها قراسنقر المنصوري من نيابة دمشق، وولى مكانه بدمشق سيف الدين كراي المنصوري سنة إحدى عشرة. ثم سخطه واعتقله، وولى مكانه بدمشق جمال الدين أقوش الأشرفي نقله إليها من الكرك.

وتوفي بها محمد نائب طرابلس فنقل إليها أقوش الأفرم من صرخد. ثم قبض على بكتمر الجو كندار نائب مصر وحبسه بالكرك، وجعل مكانه في الثانية بيبرس الدوادار. ثم ارتاب قراسنقر نائب حلب فهرب إلى البرية واجتمع مع مهنا بن عيسى، ويقال أنه استأذن السلطان في الحج فأذن له فلما توسط البرية استوعرها فرجع فمنعه الأمراء الذين بحلب من دخولها إلا بإذن السلطان، فرجع إلى الفرات وبعث مهنا بن عيسى شافعا له عند السلطان فقبله ورده إلى نيابة حلب. ثم بلغ السلطان أن خربندا ملك التتر زاحف إلى الشام فجهز العساكر من مصر وتقدم إلى عساكر الشام بأن يجتمعوا معهم بحمص فارتاب قراسنقر، وخرج من حلب وعبر الفرات، ثم راجع نفسه واستأمن السلطان على أن يقيم- بالفرات فأقطعه السلطان الشويك يقيم بها فلم يفعل، وبقي بمكان من الفرات مع مهنا بن عيسى. ثم ارتاب جماعة من الأمراء فلحقوا به، وفيهم أقوش الأفرم نائب طرابلس، وأمضوا عزمهم على اللحاق بخربندا فوصلوا إلى ماردين فتلقاهم صاحبها بالكرامة. وحمل إليهم تسعين ألف درهم ورتب لهم الأتاوات. ثم ساروا إلى خلاط إلى أن جاءهم إذن خربندا فساروا إليه واستحثوه للشام. وبلغ الخبر إلى السلطان فأتهم الأمراء الذين في خدمته بالشام بمداخلة قراسنقر وأصحابه فاستدعاهم وعساكرهم، وبعث على حلب سيف الدين مكان قراسنقر، وعلى طرابلس بكتمر الساقي مكان أقوش.

وبعث على العرب فضل بن عيسى مكان أخيه مهنا. ووصل الأمراء إلى مصر فقبض عليهم جميعاً وعلى أقوش الأشرفي نائب دمشق وولى مكانه تنكز الناصري سنة إثنتي عشرة، وجعل له الولاية على سائر الممالك الإسلامية. وقبض على نائبه بمصر بيبرس الدوادار وحبسه بالكرك وولى مكانه أرغون الدوادار وعسكر بظاهر القلعة. وإرتحل بعد عيد الفطر من السنة فلقيه الخبر أثناء طريقه بأن خربندا وصل إلى الرحبة ونازلها، وإنصرف عنها راجعاً فانكفأ السلطان إلى دمشق، وفرق العساكر بالشام. ثم سار إلى الكرك واعتزم على قضاء فرضه تلك السنة وخرج حاجا من الكرك. ورجع سنة ثلاث عشرة إلى الشام، وبعث إلى مهنا بن عيسى يستميله وعاد الرسول بامتناعه. ثم لحق سنة ست عشرة بخربندا وأقطعه بالعراق وأقام هنالك فلم يرجع إلا بعد مهلك خربندا، والله سبحانه وتعالى أعلم.

رجوع حماة إلى بني المظفر شاهنشاه بن أيوب

ثم لبني الأفضل منهم وإنقراض أمرهم :

قد كان تقدم لنا أن حماة كانت من أقطاع تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، أقطعه إياها عمه صلاح الدين بن أيوب سنة أربع وسبعين وخمسمائة، فلم تزل بيده إلى أن توفي سنة سبع وثمانين وخمسمائة، فأقطعها ابنه ناصر الدين محمداً ولقبه المنصور. وتوفي سنة سبع عشرة وستمائة بعد عمه صلاح الدين والعادل فوليها ابنه قليج أرسلان، ويلقب الناصر سنة ست وعشرين، وكان أخوه المظفر ولي عهد أبيه عند الكامل بن العادل فجهزة بالعساكر من دمشق وملكها من يد أخيه، وأقام بها إلى أن هلك سنة ثلاث وأربعين وولى ابنه محمد ويلقب المنصور، ولم يزل في ولايتها إلى أن سار يوسف بن العزيز ملك الشام من بني أيوب هارباً إلى مصر أيام التتر، فسار معه المنصور صاحب حماة وأخوه الأفضل.

ثم خشي من الترك بمصر فرجع إلى هلاكو، واستمر المنصور إلى مصر فأقام بها. وملك هلاكو الشام وقتل الناصر وسائر بني أيوب كما مرّ. ثم سار قطز إلى الشام عندما رجع هلاكو عنه عندما شغل عنه بفتنة قومه فارتجعه من ملكة التتر، وولى على قواعده وأمصاره، ورد المنصور إلى حماة فلم يزل والياً عليها. وحضر واقعة قلاون على التتر بحمص سنة ثلاثين، وكان يتردد إلى مصر سائر أيامه ويخرج مع البعوث إلى بلاد الأرمن وغيرها. ويعسكر مع ملوك مصر متى طلبوه لذلك. ثم توفي سنة ثلاث وثمانين وأقر قلاون ابنه المظفر على ما كان أبوه، وجرى هو معهم على سننه إلى أن توفي سنة ثمان وتسعين عندما بويع الناصر محمد بن قلاون بعد لاشين، وانقطع عقب المنصور فولى السلطان عليها قراسنقر من أمراء الترك، نقله إليها من الضبينة وأمره باستقرار بني أيوب وسائر الناس على إقطاعهم. ثم كان استيلاء قازان على الشام، ورجوعه سنة تسع وتسعين ومسير بيبرس وسلار، وانتزاع الشام من التتر. وكان كيبغا العادل الذي ملك مصر وخلعه لاشين نائباً بصرخد فجلا في هذه الوقائع وتنصح لبيبرس وسلار، وحضر معهم بدمشق فولوه على حماة. وغزا بالعساكر بلاد الأرمن، وحضر هزيمة التتر مع الناصر سنة إثنتين وسبعمائة فرجع إلى حماة فمات بها. وولى السلطان بعده سيف الدين قفجق، استدعاه إليها من أقطاعه بالشويك. وكان الأفضل علاء الدين أخو المنصور صاحب حماة توفي أيام أخيه المنصور، وخلف ولداً اسمه إسماعيل ولقبه عماد الدين، ونشأ في دولتهم عاكفا على العلم والأدب حتى توفر منهما حظه، وله كتاب في التاريخ مشهور. ولما رجع السلطان الناصر من الكرك إلى كرسيه وسطا ببيبرس وسلار، راجع نظره في الإحسان إلى أهل هذا البيت، واختار منهم عماد الدين إسماعيل هذا،

وولاه على حماة مكان قومه سنة ست عشرة وسبعمائة. وكان عند رجوعه إلى ملكه قد ولّى نيابة حلب سيف الدين قفجق وجعل مكانه بحماة أيدمر الكرجي. وتوفي قفجق فنقل أيدمر من حماة إلى حلب مكانه، وولى إسماعيل على حماة كما قلنا ولقبه المؤيد، ولم يزل عليها إلى أن توفي سنة إثنتين وثلاثين. وولى الناصر ابنه الأفضل محمد برغبة أبيه إلى السلطان في ذلك. ثم مات الملك الناصر في ذي الحجة سنة إحدى وأربعين، وقام بعده بالأمر مولاه قوص، ونصب ابنه أبا بكر محمدا فكان أول شيء أحدثه عزل الأفضل من حماة. وبعث

عليها مكانه صقر دمول النائب، وسار الأفضل إلى دمشق فمات بها سنة إثنتين وأربعين، وإنقرضت إيالة بني أيوب من حماة، والبقاء لله وحده لا رب غيره ولا معبود سواه.

غزو العرب بالصعيد وفتح ملطية وآمد:

ثم خرج السلطان سنة ثلاث عشرة فعسكر بالأهرام مورياً بالنزهة، وقد بلغه ما نزل بالصعيد من عيث العرب وفسادهم في نواحيه وأضرارهم بالسابلة، فسرح العساكر في كل ناحية منه، وأخذ الهلاك منهم مأخذه إلى أن تغلب عليهم واستباحهم من كل ناحية وشرد بهم من خلفهم. ثم سرح العساكر سنة أربع عشرة بعدها إلى ملطية وهي للأرمن وملكها عنوة. وسار لذلك تنكز نائب دمشق بعساكر الشام وستة من أمراء مصر ونازلوها في محرم سنة خمس عشرة، وبها جموع من نصارى الأرمن والعربان وقليل من المسلمين تحت الجزية فقاتلوهم حتى ألقوا باليد، واقتحموها عنوة واستباحوها وجاؤا بملكها مع الأسرى فأبقاه السلطان وأنعم عليه. ثم نمي عنه أنه يكاتب ملوك العراق فحبسه. ثم بعث السلطان العساكر من حلب سنة خمس عشرة إلى عرقية من أعمال آمد ففتحوها، وجاءت العساكر سنة سبع عشرة ثانية إلى آمد ففتحوها واستباحوها وغنموا منها أموالا جمة. والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

الولايات

وفي سنة خمس عشرة سخط السلطان سيف الدين نمر نائب طرابلس الذي وليها بعد أقوش إلى الأفرم وأمده به، وسيق معتقلاً إلى مصر، وولى مكانه سيف الدين كستاي. ثم هلك فولى مكانه شهاب الدين قرطاي نقله إليها من نيابة حمص، وولى نيابة حمص سيف الدين أقطاي، ثم قبض سنة ثمان عشرة على طغاي الحسامي من الجاشنكيرية، وصرف نائباً إلى صفد مكان بكتمر الحاجب ثم سخطه فأحضره معتقلاً وحبسه بالإسكندرية. وبعث على صفد سيف

الدين أقطاي، نقله إليها من حمص، وبعث على حمص بدر الدين بكتوت القرماني والله تعالى أعلم.

العمائر

ابتدأ السلطان سنة إحدى عشرة وسبعمائة ببناء الجامع الجديد بمصر وأكمله، ووقف عليه الأوقاف المغلة. ثم أمر سنة أربع عشرة ببناء القصر الأبلق من قصور الملك فجاء من أفخر المصانع الملوكية. وفي سنة ثمان عشرة أمر بتوسعة جامع القلعة فهدم ما حوله من المساكن، وزيد فيه إلى الحد الذي هو عليه بهذا العهد. ثم أمر في سنة ثلاث وعشرين بعمارة القصور لمنازله بسرياقوس، وبنى بإزائها الخانقاه الكبيرة المنسوبة إليه. وفي سنة ثلاث وثلاثين أمر بعمارة الإيوان الضخم بالقلعة، وجعله مجلس ملكه وبيت كرسيه ودعاه دار العدل. والله تعالى أعلم.

حجات السلطان:

وحج الملك الناصر محمد بن قلاون في أيام دولته ثلاث حجات أولا: سنة ثلاث عشرة عند ما إنقرض قراسنفر نائب حلب، وأقوش الأفرم نائب طرابلس، ومهنا بن عيسى أمير العرب. وجاء خربندا إلى الشام

ورجع من الرحبة فسار السلطان من مصر إلى الشام، وبلغه رجوع خربندا فسار من هناك حاجا، وقضى فرضه سنة ثلاث عشرة ورجع إلى الشام. ثم حج الثانية سنة تسع عشرة، ركب إليها من مصر في أواخر ذي القعدة، ومعه المؤيد صاحب حماة، والأمير محمد ابن أخت علاء الدين ملك الهند صاحب دلى ولما قضى حجه إنطلق الأمير محمد ابن أخت علاء الدين من هناك إلى اليمن، ورجع إلى مصر فأفرج عن رميثة أمير مكة من بني حسن، وعن المعتقلين بمحبسه، ووصله و وصلهم. ثم حج الثالثة سنة إثنتين وثلاثين، ومعه الأفضل بن المؤيد صاحب حماة على عادة أبيه في مراكبة السلطان، وقفل من حجه سنة ثلاث وثلاثين فأمر بعمل باب الكعبة مصفحاً بالفضة، أنفق فيه خمسة وثلاثين ألف درهم. وفي منصرفه من هذه الحجة مات بكتمر الساقي من أعظم أمرائه وخواصه، ويقال أنه سمه، وهو من مماليك بيبرس الجاشنكير. وانتقل إلى الناصر فجعله أمير السقاة، وعظمت مترلته عنده ولطفت خلته حتى كانا لا يفترقان، إما في بيت السلطان وإما في بيته. وكان حسن السياسة في الغاية وخلف بعد وفاته من الأموال والجواهر والذخائر ما يفوت الحصر، والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

أخبار النوبة وإسلامهم:

قد تقدم لنا غزو الترك إلى النوبة أيام الظاهر بيبرس والمنصور قلاون، لما كان عليهم من الجزية التي فرضها عمرو بن العاص عليهم وقررها الملوك بعد ذلك. وربما كانوا يماطلون بها أو يمتنعون من أدائها فتغزوهم عساكر المسلمين من مصر حتى يستقيموا. وكان ملكهم بدنقلة أيام سارت العساكر من عند قلاون إليها سنة ثمانين وستمائة، واسمه سمامون. ثم كان ملكهم لهذا العهد اسمه آي ، لا أدري أكان معاقباً لسمامون أو توسط بينهما متوسط. وتوفي آي سنة ست عشرة وسبعمائة، وملك بعده في دنقلة أخوه كربيس. ثم نزع من بيت ملوكهم رجل إلى مصر اسمه نشلي، وأسلم فحسن إسلامه، وأجرى له رزقاً وأقام عنده. فلما كانت سنة ست عشرة أمتنع كربيس من أداء الجزية فجهز السلطان إليه العساكر، وبعث معها عبد الله نشلي المهاجر إلى الإسلام من بيت ملكهم، فخام كربيس عن لقائهم وفر إلى بلد الأبواب. ورجعت العساكر إلى مصر، واستقر نشلي في ملك النوبة على حاله من الإسلام. وبعث السلطان إلى ملك الأبواب في كربيس فبعث به إليه وأقام بباب السلطان. ثم أنّ أهل النوبة اجتمعوا على نشلي وقتلوه بممالأة جماعة من العرب سنة تسع، وبعثوا عن كربيس ببلد الأبواب فألفوه بمصر. وبلغ الخبر إلى السلطان فبعثه إلى النوبة فملكها وإنقطعت الجزية بإسلامهم. ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة في بلادهم واستوطنوها وملأوها عيثاً وفساداً. وذهب ملوك النوبة إلى مدافعتهم فعجزوا. ثم ساروا إلى مصانعتهم بالصهر فافترق ملكهم، وثار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الأعاجم في تمليك الأخت وابن الأخت فتمزق ملكهم، واستولى أعراب جهينة على بلادهم، وليس في طريقه شيء من السياسة الملوكية للآفة التي تمنع من انقياد بعضهم إلى بعض، فصاروا شيعاً لهذا العهد. ولم يبق لبلادهم رسم للملك، وإنما هم الآن رحالة بادية يتبعون مواقع القطر شأن بوادي الأعراب. ولم يبق في بلادهم

رسم للملك لما أحلته صبغة البداوة العربية من صبغتهم بالخلطة والإلتحام ، والله غالب على أمره، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

بقية أخبار الأرمن إلى فتح أياس ثم فتح
سيس وإنقراض أمرهم:

قد كنا قدمنا أخبار الأرمن إلى قتل ملكهم هيثوم على يد أيدغدي شحنة التتر ببلاد الروم

سنة سبع، واستقرار الملك بسيس لأخيه أوسير بن ليون. وكان بينه وبين قزمان ملك التركمان مصاف سنة تسع عشرة فهزمه قزمان، ولم يزل أوسير بن ليون ملكاً عليهم إلى سنة إثنتين وسبعين فهلك ونصبوا للملك بعده ابنه ليون صغيراً ابن إثنتي عشرة سنة. وكان الناصر قد طلب أوسير أن يترل له عن القلاع التي تلي الشام فاتسع وجهز إليه عساكر الشام فاكتسحوا بلاده وخربوها، وهلك أوسير على أثر ذلك. ثم أمر الناصر كيبغا نائب حلب بغزو سيس فدخل إليها بالعساكر سنة ست وثلاثين، واكتسح جهاتها وحصر قلعة النقير وافتتحها. وأسر من الأرمن عدة يقال بلغوا ثلثمائة، وبلغ خبرهم إلى النصارى باياس فثاروا بمن عندهم من المسلمين وأحرقوهم غضبا للأرمن لمشاركتهم في دين ا لنصرا نية. ولم يثبت أن بعث إلى السلطان دمرداش بن جوبان شحنة المغل ببلاد الروم يعرفه بدخوله في الإسلام، ويستنفر عساكره لجهاد نصارى الأرمن فأسعفه بذلك، وجهز إليه عساكر الشام من دمشق وحلب وحماة سنة سبع وثلاثين ونازلوا مدينة أياس ففتحوها وخربوها، ونجا فلهم إلى الجبال فاتبعتهم عساكر حلب وعادوا إلى بلادهم. ثم سار سنة إحدى وستين بندمر الخوارزمي نائب حلب لغزو سيس ففتح أذنة وطرطوس والمصيصة، ثم قلعتي كلال والجريدة وسنباط كلا وتمرور. وولى نائبين في أذنة وطرطوس، وعاد إلى حلب، وولى بعده على حلب عشقيم النصارى فسار سنة ست وسبعين، وحصر سيس وقلعتها شهرين إلى أن نفدت أقواتهم. وجهدهم الحصار فاستأمنوا ونزلوا على حكمه فخرج ملكهم النكفور وأمراؤه وعساكره إلى عشقيم فبعث بهم الى مصر، واستولى المسلمون على سيس وسائر قلاعها، وانقرضت منها دولة الأرمن، والبقاء لله وحده إنتهى.

الصلح مع ملوك التتر وصهر الناصر مع ملوك الشمال منهم:

كان للتتر دولتان مستفحلتان إحداهما دولة بني هلاكو آخذ بغداد والمستولي على كرسي الإسلام بالعراق، وأصارها هو وبنوه كرسياً لهم. ولهم مع ذلك عراق العجم وفارس وخراسان وما وراء النهر، ودولة بني دوشي خان بن جنكز خان بالشمال متصلة إلى خوارزم بالمشرق إلى القرم وحدود القسطنطينية بالجنوب، وإلى أرض بلغار بالمغرب. وكان بين الدولتين فتن وحروب كما تحدث بين الدول المجاورة، وكانت دولة الترك بمصر والشام مجاورة لدولة بني هلاكو، وكانوا يطمعون في ملك الشام ويرددون الغزو إليه مرة بعد أخرى، ويستميلون أولياءهم وأشياعهم من العرب والتركمان فيستظهرون بهم عليهم كما رأيت ذلك في أخبارهم. وكانت

بين ملوكهم من الجانبين وقائع متعددة، وحروبهم فيها سجال، وربما غلبوا من الفتنة بين دولة دوشي وبين بني هلاكو. ولبعدهم عن فتنة بني دوشي خان لتوسط الممالك بين مملكتهم ومملكة مصر والشام فتقع لهم الصاغية إليهم، وتتجدد بينهم المراسلة والمهاداة في كل وقت، ويستحث ملك الترك ملك صراي من بني دوشي خان لفتنة بني هلاكو والأجلاب عليهم في خراسان وما إليها من حدود مملكتهم ليشغلوهم عن الشام، ويأخذوا بحجزهم عن النهوض اليه. وما زال دأبهم من أول دولة الترك. وكانت رغبة بني دوشي خان في ذلك أعظم، يفتخرون به على بني هلاكو. ولما ولي صراي أنبك من بني دوشي خان ثلاث عشرة، وكان نائباً ببلاد الروم قطلغمير، وفدت عليه الرسل من مصر على العادة فعرض لهم قطلغمير بالصهر مع السلطان الناصر ببعض نساء ذلك البيت، على شرطية الرغبة من السلطان في ظاهر الأمر، والتمهل منهم في إمضاء ذلك. وزعموا أن هذه عادة الملوك منهم ففعل السلطان ذلك، وردد الرسل والهدايا أعواماً ستة إلى أن استحكم ذلك بينهم، وبعثوا إليه بمخطوبته طلبناش بنت طغاجي بن هند وابن بكر بن دوشي سنة عشرين، مع كبير المغل وكان مقلداً يحمل على الأعناق، ومعهم جماعة من أمرائهم، وبرهان الدين أمام أزبك ومروا بالقسطنطينية فبالغ لشكري في كرامتهم. يقال أنه أنفق عليهم ستين ألف دينار، وركبوا البحر من هناك إلى الإسكندرية. ثم ساروا بها إلى مصر محمولة على عجلة وراء ستور من الذهب والحرير يجرها كديش يقوده إثنان من مواليها في مظهر عظيم من الوقار والتجلة. ولما قاربوا مصر ركب للقائهم النائبان أرغون وبكتمر الساقي في العساكر وكريم الدين وكيل السلطان، وأدخلت الخاتون إلى القصر، واستدعى ثالث وصولها القضاء والفقهاء وسائر الناس على طبقاتهم إلى الجامع بالقلعة، وحضر الرسل الوافدون عندهم بعد أن خلع عليهم. وإنعقد النكاح بين وكيل السلطان ووكيل أزبك، وإنفض ذلك المجمع وكان يوماً مشهوداً. ووصلت رسل أبي سعيد صاحب بغداد والعراق سنة اثنتين وعشرين وفيهم قاضي توريز يسألون الصلح، وانتظام الكلمة واجتماع اليد على إقامة معالم الإسلام من الحج وإصلاح السابلة وجهاد العدو، فأجاب السلطان إلى ذلك، وبعث سيف الدين أيتمش المحمدي لأحكام العقد معهم وامتضاء إيمانهم فوجهه لذلك بهدية سنية، وعاد سنة ثلاث وعشرين ومعه رسل أبي سعيد، ومعه جوبان لمثل ذلك فتم ذلك وانعقد بينهم. وقد كانت قبل ذلك تجددت الفتنة بين أبي سعيد وصاحب صراي نفرة من أزبك صاحب صراي من تغلب جوبان على أبي سعيد وفتكه في المغل.

وكانت بين جوبان وبين سبول صاحب خوارزم وما وراء النهر فتنة ظهر فيها أزبك

وأمده بالعساكر، فاستولى أزبك على أكثر بلاد خراسان، وطلب من الناصر بعد الإلتحام بالصهر المظاهرة على أبي سعيد وجوبان فأجابه إلى ذلك. ثم بعث إليه أبو سعيد في الصلح كما قلناه فآثر وعقد له. وبلغ الخبر إلى أزبك ورسل الناصر عنده فأغلظ في القول، وبعث بالعتاب. واعتذر له الناصر بأنهم إنما دعوه لإقامة شعائر الإسلام، ولا يسع التخلف عن ذلك فقبل. ثم وقعت بينه وبين أبي سعيد مراوضة في الصلح بعد أن استرد جوبان ما ملكه أزبك من خراسان، فتوادع كل هؤلاء الملوك واصطلحوا ووضعوا أوزار الحرب حيناً من الدهر، إلى أن تقلبت الأحوال وتبدلت الأمور، والله مقلب الليل والنها ر.

مقتل أولاد بني نمى أمراء مكة من بني حسن:

قد تقدم لنا استيلاء قتادة على مكة والحجاز من يد الهواشم واستقرارها لبنيه إلى أن استولى منهم أبو نمي، وهو محمد بن أبي سعيد علي بن قتادة. ثم توفي سنة إثنتين وسبعمائة وولي مكانه ابناه رميثة وخميصة، واعتقلا أخويهما عطيفة وأبا الغيث ولما حج الأميران كافلا المملكة بيبرس وسلار هربا إليهما من مكان إعتقالهما وشكيا ما نالهما من رميثة وخميصة فأشكاهما الأميران واعتقلا رميثة وخميصة وأوصلاهما إلى مصر، ووليا عطيفة وأبا الغيث، وبعثا بهما إلى السلطان صحبة الأمير أيدمر الكوكبي الذي جاء بالعساكر معهما. ثم رضي السلطان عنهما وولاهما مكان رميثة وخميصة وبعث معهما العساكر ثانياً سنة ثلاث عشرة، وفر رميثة وخميصة عن البلاد، ورجع العسكر. وأقام أبو الغيث وعطيفة فرجع إليهما رميثة وخميصة، وتلاقوا فانهزم أبو الغيث وعطيفة فسارا إلى المدينة في جوار منصور بن حماد فأمدهما ببني عقبة وبني مهدي، ورجع إلى حرب رميثة وخميصة فاقتتلوا ثانياً ببطن مرو فانهزم أبو الغيث وقتل. واستمر رميثة وخميصة، ولحق أخوهما عطيفة وسار معهما. ثم تشاجروا سنة خمس عشرة، ولحق رميثة بالسلطان مستعدياً على أخويه فبعث معه العساكر، ففر خميصة بعد أن استصفى أهل مكة وهرب إلى السبعة مدن، ولحقته العساكر فاستلحق أهل تلك المدن ولقيهم فانهزموا ونجا خميصة بنفسه. ثم رجعت العساكر فرجع وبعث رميته يستنجد السلطان فبعث إليه العساكر ففر خميصة. ثم رجع واتفق مع أخويه رميثة وعطيفة، ثم لحق عطيفة بالسلطان سنة ثمان عشرة، وبعث معه العساكر فقبضوا على رميثة وأوصلوه معتقلا فسجن بالقلعة. واستقر عطيفة بمكة، وبقي خميصة مشرداً. ثم لحق بملك التتر ملك العراق خربندا واستنجده على ملك الحجاز فأنجده بالعساكر وشاع بين الناس أنه داخل الروافض الذين عند خربندا في

إخراج الشيخين من قبريهما، وعظم ذلك على الناس. ولقيه محمد بن عيسى أخو مهنا حسبة وامتعاضا للدين. وكان عند خربندا فأتبعه واعترضه وهزمه. ويقال أنه أخذ منه المعاول والفؤس التي أعدوها لذلك. وكان سبباً لرضا السلطان عنه. وجاء خميصة إلى مكة سنة ثماني عشرة، وبعث الناصر العساكر إليه فهرب وتركها. ثم أطلق رميثة سنة تسع عشرة فهرب إلى الحجاز ومعه وزيره علي بن هنجس فرد من طريقه واعتقل، وأفرج عنه السلطان بعد مرجعه من الحج سنة عشرين. ثم أن خميصة استأمن السلطان سنة عشرين، وكان معه جماعة من المماليك هربوا إليه فخاموا أن يحضروا معه إلى السلطان فاغتالوه وحضروا. وكان السلطان قد أطلق رميثة من الإعتقال فأمكنه منهم فثأر من المباشر قتل أخيه، وعفا عن الباقين. ثم صرف السلطان رميثة إلى مكة، وولاه مع أخيه عطيفة واستمرت حالهما. ووفد عطيفة سنة إحدى وعشرين على الأبواب، ومعه قتادة صاحب الينبع يطلب الصريخ على ابن عمه عقيل قاتل ولده فأجابه السلطان وجهز العساكر لصريخه، وقوبل كل منهما بالأكراد وانصرفوا. وفي سنة إحدى وثلاثين وقعت الفتنة بمكة وقتل العبيد جماعة من الأمراء والترك فبعث السلطان أيدغمش ومعه العساكر فهرب الشرفاء والعبيد وحضر رميثة وبذل الطاعة وحلف متبرئاً مما وقع فقبل منه السلطان وعفا له عنها، واستمرت حاله على ذلك إلى أن هلك سنة...

وتداولت الإمارة بين إبنيه عجلان وبقية. ثم استبد عجلان كما نذكره في أخبارهم وورثتها بنوه لهذا العهد كما نذكره مرتباً في أخبارهم إن شاء الله تعالى.

حج ملك التكرور:

كان ملك السودان بصحراء المغرب في الإقليم الأول والثاني منقسماً بين أمم من السودان. أولهم مما يلي البحر المحيط أمة صوصو، وكانوا مستولين على غانة ودخلوا في الإسلام أيام الفتح وذكر صاحب كتاب رجاز في الجغرافيا أن بني صالح من بني عبد الله بن حسن بن الحسن كانت لهم بها دولة وملك عظيم، ولم يقع لنا في تحقيق هذا أكثر من هذا. وصالح من بني حسن مجهول، وأهل غانة منكرون أن يكون عليهم ملك لأحد غير صوصو. ثم يلي أمة صوصو أمة مالي من شرقهم وكرس ملكهم بمدينة بني ثم من بعدهم شرقاً عنهم أمة كوكو. ثم التكرور بعدهم، وفيما بينهم وين النوبة أمة كانم وغيرها. وتحولت الأحوال باستمرار العصور فاستولى أهل مالي على ما وراءهم وبين أيديهم من بلاد صوصو وكوكو، وآخر ما استولوا عليه بلاد التكرور. واستفحل ملكهم إلى الغاية، وأصبحت مدينتهم بني حاضرة بلاد السودان بالمغرب ودخلوا في دين الإسلام منذ حين من السنين. وحج جماعة من ملوكهم. وأول من حج منهم برمندار، وسمعت في ضبطه من

بعض فضلائهم برمند أنه، وسبيله في الحج هي التي اقتفاها ملوكهم من بعده. ثم حج منهم منساولي بن ماري جاطة أيام الظاهر بيبرس. وحج بعده منهم مولاهم صاكوره، وكان تغلب على ملكهم وهو الذي افتتح مدينة كوكو. ثم حج أيام الناصر وحج من بعده منهم منسا موسى حسبما ذلك مذكور في أخبارهم عند دول البربر، عند ذكر صنهاجة ودولة لمتونة من شعوبهم. ولما خرج منسا موسى من بلاد المغرب للحج سلك على طريق الصحراء، وخرج عند الأهرام بمصر، وأهدى إلى الناصر هدية حفيلة يقال أن فيها خمسين ألف دينار، وأنزله بقصر عند القرافة الكبرى وأقطعه إياها ولقيه السلطان بمجلسه، وحدثه ووصله وزوده وقرب إليه الخيل والهجن، وبعث معه الأمراء يقومون بخدمته إلى أن قضى فرضه سنة أربع وعشرين ورجع فأصابته في طريقه بالحجاز نكبة تخلصه منها أجله. وذلك أنه ضل في الطريق عن المحمل والركب وإنفرد بقومه عن العرب وهي كلها مجاهل لهم، فلم يهتدوا إلى عمران ولا وقفوا على مورد، وساروا على السمت إلى أن نفذوا عند السويس وهم يأكلون لحم الحيتان إذا وجدوها والأعراب تتخطفهم من أطرافهم إلى أن خلصوا. ثم جدد السلطان له الكرامة ووسع له في الحباء، وكان أعد لنفقته من بلاده فيما يقال مائة حمل من التبر في كل حمل ثلاثة قناطير فنفدت كلها، وأعجزته النفقة فاقترض من أعيان التجار، وكان في صحبته منهم بنو الكويك فأقرضوه خمسين ألف دينار وابتاع منهم القصر الذي أقطعه السلطان وأمضى له ذلك. وبعث سراج الدين الكويك معه وزيره يرد له منه ما أقرضه من المال فهلك هنالك. وأتبعه سراج الدين آخرا بابنه فمات هنالك. وجاء ابنه فخر الدين أبو جعفر بالبعض، وهلك منسا موسى قبل وفاته فلم يظفروا منه بشيء إنتهى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

أنجاد المجاهد ملك اليمن:

قد تقدم لنا استبداد علي بن رسول، فملك بعد مهلك سيده يوسف أتسز بن الكامل بن العادل بن أيوب ويلقب المسعود، وكان علي بن رسول أستاذ داره ومستولياً على دولته. فلما هلك سنة ست وعشرين وستمائة نصب ابن رسول ابنه موسى الأشرف لملكه وكفله قريباً.

واستولى ابن رسول وأورث ملكه باليمن لبنيه لهذا العهد، وانتقل الأمر للمجاهر منهم علي بن داود والمؤيد بن يوسف المظفر بن عمر بن المنصور بن علي بن رسول سنة إحدى وعشرين. وانتقض عليه جلال الدين ابن عمه الأشرف فظهر عليه المجاهد واعتقله. ثم انتقض عليه عمه المنصور سنة ثلاث وعشرين وحبسه، وأطلق من محبسه واعتقل عمه المنصور. وكان عبد الله الظاهر بن المنصور قائماً بأمر أبيه ومنازلة المجاهد سنة أربع وعشرين فبعث بالصريخ إلى الناصر سليمان الترك بمصر، وكان هو وقومه يعطونهم الطاعة ويبعثون إليهم الأتاوة من الأموال والهدايا وطرف اليمن وما عونه، فجهزهم الناصر صحبة بيبرس الحاجب ؛ وطبنال من أعظم أمرائه فساروا إلى اليمن، ولقيهم المجاهد بعدن فأصلحوا بين الفريقين على أن تكون... ويستقر المجاهد في سلطانه باليمن ومالوا على كل من كان سبباً في الفتنة فقتلوهم ودوخوا اليمن وحملوا أهله على طاعة المجاهد، ورجعوا إلى محلهم من الأبواب السلطانية، والله تعالى ولي التوفيق.

ولاية أحمد ابن الملك الناصر على الكرك:

ولما استفحل ملك السلطان الناصر واستمر وكثر ولده طمحت نفسه إلى ترشيح

ولده لتقر عينه بملكهم فبعث كبيرهم أحمد إلى قلعة الكرك سنة ست وعشرين، ورتب الأمراء المقيمين بوظائف السلطان فسار إلى الكرك وأقام بها أربع سنين ممتعاً بالملك والدولة، وأبوه قرير العين بإمارته في حياته. ثم استقدمه سنة ثلاثين وأقام فيه سنة الختان واحتفل في الصنيع له، وختن معه من أبناء الأمراء والخواص جماعة إنتقاهم ووقع إختياره عليهم. ثم صرفه إلى مكان إمارته بالكرك فأقام بها إلى أن توفي الملك الناصر وكان ما نذكره والله تعالى أعلم.

وفاة دمرداش بن جوبان شحنة بلاد الروم ومقتله:

كان جوبان نائب مملكة التتر مستولياً على سلطانه أبي سعيد بن خربندا لصغره، وكانت حاله مع أبيه خربندا قريباً من الإستيلاء فولى على مملكة بلاد الروم دمرداش. ثم وقعت الفتنة بينهم وبين ملك الشمال أزبك من بني دوشي خان على خراسان وسار جوبان من بغداد سنة تسع وعشرين لمدافعته كما يأتي في أخبارهم. وترك عند السلطان أبي سعيد ببغداد ابنه خواجا

دمشق فسعى به أعداؤه وأنهوا عنه قبائح من الأفعال لم يحتملها له فسطا به وقتله. وبلغ الخبر إلى أبيه جوبان فانتقض وعاجله أبو سعيد بالمسير إلى خراسان فتفرقت عنه أصحابه، وفر فأدرك بهراة وقتل. وأذن السلطان أبو سعيد لأهله أن ينقلوه إلى التربة التي إختطها بالمدينة النبوية لدفنه فاحتملوه، ولم يتوقفوا على إذن صاحب مصر فمنعهم صاحب المدينة ودفنوه بالبقيع. ولما بلغ الخبر بمقتله إلى ابنه دمرداش في إمارته ببلاد الروم خشي

على نفيه فهرب إلى مصر، وترك مولاه أرتق مقيماً لأمر البلد وأنزله بسيواس. ولما وصل إلى دمشق وركب النائب لتلقيه وسار معه إلى مصر فأقبل عليه السلطان وأحله محل الكرامة، وكان معه سبعة من الأمراء ومن العسكر نحو ألف فارس فأكرمهم السلطان وأجرى عليهم الأرزاق، وأقاموا عنده. وجاءت على أثره رسل السلطان أبي سعيد وطلبه بذفة الصلح الذي عقده مع الملك الناصر، وأوضحوا لعلم السلطان من فساد طويته وطوية أبيه جوبان، وسعيهم في الأرض بالفساد ما أوجب إعطاءه باليد، وشرط السلطان عليهم إمضاء حكم الله تعالى في قراسنقر نائب حلب الذي كان فر سنة إثنتي عشرة مع أقوش الأفرم إلى خربندا وأغروه بملك الشام، ولم يتم ذلك. وأقاموا عند خربندا، وولى أقوش الأفرم على همذان فمات بها سنة ست عشرة فولى صاحبه قراسنقر مكانه بهمذان. فلما شرط عليهم السلطان قتله كما قتل دمرداش أمضوا فيه حكم الله تعالى وقتلوه جزاء بما كان عليه من الفساد في الأرض، والله متولي جزاءهم. ثم وصل على أثر ذلك ابن السلطان أبي سعيد، ومعه جماعة من قومه في تأكيد الصلح والإصهار من السلطان فقوبلوا بالكرامة التي تليق بهم، واتصلت المراسلة والمهاداة بين هذين السلطانين إلى أن توفيا، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وفاة مهنا بن عيسي أمير العرب بالشام وأخبار قومه:

هذا الحي من العرب يعرفون بآل فضل رحالة ما بين الشام والجزيرة، وتربة نجد

من أرض الحجاز يتقلبون بينها في الرحلتين، وينتسبون في طيء، ومعهم أحياء من زبيد وكلب وهذيل ومذحج أحلاف لهم. ويناهضهم في الغلب والعدد آل مراد يزعمون أن فضلاً ومراد أبناء ربيعة، ويزعمون أيضاً أن فضلاً ينقسم ولده بين آل مهنا وآل علي، وأن آل فضل كلهم بأرض حوران فغلبهم عليها آل مراد وأخرجوهم منها فنزلوا حمص ونواحيها. وأقامت زبيد من أحلافهم بحوران فهم بها حتى الان لا يفارقونها. قالوا: ثم إتصل آل فضل بالدولة السلطانية، وولوهم على أحياء العرب، وأقطعوهم على إصلاح السابلة بين الشام والعراق فاستظهروا

برياستهم على آل مراد وغلبوهم على المشاتي فصار عامة رحلتهم في حدود الشام قريباً من التلول والقرى لا ينجعون إلى البرية إلا في الأقل. وكانت معهم أحياء من أفاريق العرب مندرجون في لفيفهم وحلفهم من مذحج وعامر وزبيد، كما كان آل فضل إلا أن أكثر من كان مع آل مراد من أولئك الأحياء وأوفرهم عدة بنو حارثة بن سنبس إحدى شعوب طيء. هكذا ذكر لي الثقة عندي من رجالاتهم. وبنو حارثة هؤلاء متغلبون لهذا العهد في تلول الشام لا يجاوزونها إلى العمران، ورياسة آل فضل لهذا العهد لبني مهنا، وينسبونه هكذا: مهنا بن مانع بن جديلة بن فضل بن بدربن ربيعة بن علي بن مفرج بن بدربن سالم بن جصة بن بدر بن سميع، ويقفون عند سميع. ويقول رعاؤهم أن سميعاً هذا هو الذي ولدته العباسة أخت الرشيد من جعفر بن يحيى البرمكي، وحاشى لله من هذه المقالة في الرشيد وأخته وفي إنتساب كبراء العرب من طيء إلى موالي العجم من بني برمك وأنسابهم، ثم إن الوجدان يحيل رياسة هؤلاء على هذا الحي إن لم يكونوا من نسبتهم وقد تقدم مثل ذلك في مقدمة الكتاب: وكان مبدأ رياستهم من أول دولة بني أيوب. قال العماد الأصبهاني في

كتاب البرق السامي: نزل العادل بمرج دمشق، ومعه عيسى بن محمد بن ربيعة شيخ الأعراب في جموع كثيرة إنتهى. وكانت الرياسة قبلهم لعهد الفاطميين لبني جراح من طيء ، وكان كبيرهم مفرج بن دغفل بن جراح، وكان من إقطاعه الرملة، وهو الذي قبض على أفتكين مولى بني بويه لما إنهزم مع مولاه بختيار بالعراق، وجاء به إلى المعز فأكرمه ورقاه في دولته. ولم يزل شأن مفرج هكذا وتوفي سنة أربع وأربعمائة وكان من ولده حسان ومحمود وعلي وجران، وولي حسان بعده وعظم صيته. وكان بينه وبين خلفاء الفاطميين نفرة واستجاشة وهو الذي هدم الرملة وهزم قائدهم هاروق التركي وقتله وسبى نساءه وهو الذي مدحه التهامي. وقد ذكر المسبحي وغيره من مؤرخي دولة العبيديين في قرابة حسان بن مفرج فضل بن ربيعة بن حازم بن جراح وأخاه بدربن ربيعة. ولعل فضلا هذا جد آل فضل. وقال ابن الأثير وفضل بن ربيعة بن حازم كان آباؤه أصحاب البلقاء والبيت المقدس، وكان فضل تارة مع الإفرنج وتارة مع خلفاء مصر. ونكره لذلك طغركين أتابك دمشق وكافل بني تتش، وطرده من الشام فنزل على صدقة بن مزيد وحالفه ووصله حين قدم من دمشق بتسعة آلاف دينار. فلما خالف صدقة بن مزيد على السلطان محمد بن ملك شاه سنة خمسمائة وما بعدها، ووقعت بينهما الفتنة اجتمع فضل هذا وقرواش بن شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل، وبعض أمراء التركمان كانوا أولياء صدقة فساروا في الطلائع بين يدي الحرب وهربوا إلى السلطان

فأكرمهم وخلع عليهم: وأنزل فضل بن ربيعة بدار صدقة ابن مزيد ببغداد حتى إذا سار السلطان لقتال صدقة استأذنه فضل في الخروج إلى البرية ليأخذ بحجزة صدقة فأذن له، وعبر إلى الأنبار. ولم يرجع للسلطان بعدها، إنتهى كلام ابن الأثير. ويظهر من كلامه وكلام المسبحي أن فضلا هذا وبدرا من آل جراح من غير شك، ويظهر من سياقة هؤلاء نسبهم أن فضلا هذا هو جدهم لأنهم ينسبونه فضل بن علي بن مفرج، وهو عند الآخرين فضل بن علي بن جراح، فلعل هؤلاء نسبوا ربيعة إلى مفرج الذي هو كبير بني الجراح لطول العهد، وقلة المحافظة على مثل هذا من البادية الغفل. وأما نسبة هذا الحي في طيء فبعضهم يقول: أن الرياسة في طيء كانت لأياس بن قبيصة من بني سنبس بن عمرو بن الغوث بن طيء، وأياس هو الذي ملكه كسرى على الحيرة بعد آل المنذر عندما قتل النعمان بن المنذر، وهو الذي صالح خالد بن الوليد على الحيرة، ولم تزل الرياسة على طيء في بني قبيصة هؤلاء صدرا من دولة الإسلام. فلعل آل فضل هؤلاء وآل الجراح من أعقابهم، وإن كان إنقرض أعقابهم فهم من أقرب الحي إليه لأن الرياسة في الأحياء والشعوب، إنما تتصل في أهل العصبية والنسب كما مر أول الكتاب. وقال ابن حزم عند ما ذكر أنساب طيء أنهم لما خرجوا من اليمن نزلوا أجا وسلمى وأوطنوهما وما بينهما. ونزل بنو أسد ما بينهما وبين العراق، وفضل كثير منهم وهم بنو خارجة بن سعد بن عبادة من طيء، ويقال لهم جديلة نسبة إلى أمهم بنت تيم الله وحبيش والأسعد إخوتهم، رحلوا عن الجبلين في حرب الفساد فلحقوا بحلب وحاضر طيء، وأوطنوا تلك البلاد، الأبني رمان بن جندب بن خارجة بن سعد فإنهم أقاموا بالجبلين. فكان يقال لأهل الجبلين الجبليون، ولأهل حلب وحاضر طيء من بني خارجة السهليون إنتهى. فلعل هذه أحياء الذين بالشام من بني الجراح، وآل فضل من بني خارجة هؤلاء

الذين ذكرهم ابن حزم أنهم إنتقلوا إلى حلب، وحاضر طيء لأن هذا الموطن أقرب إلى مواطنهم لهذا العهد من مواطن بني الجراح بفلسطين من جبل أجا وسلمى اللذين هما موطن الآخرين. والله أعلم أي ذلك يصح من أنسابهم. ولنرجع الان إلى سرد الخبر عن رياسة آل فضل أهل هذا البيت منذ دولة بني أيوب أقول: كان الأمير منهم لعهد بني أيوب عيسى بن محمد بن ربيعة أيام العادل كما قلناه، ونقلناه عن العماد الأصبهاني الكاتب. ثم كان بعده حسام الدين مانع بن خدينة بن غصينة بن فضل، وتوفي سنة ثلاثين وستمائة، وولي عليهم بعده ابنه مهنا. ولما إرتجع قطز ثالث ملوك الترك بمصر، وملك الشام من يد التتر وهزم عسكرهم بعين جالوت أقطع سلمية لمهنا بن مانع، وانتزعها من عمل المنصور بن شاهنشاه صاحب حماة، ولم أقف على تاريخ وفاة مهنا. ثم ولي

الظاهر على أحياء العرب بالشام عندما استفحل أمر الترك، وسار إلى دمشق لتشييع الخليفة الحاكم عم المستعصم لبغداد، فولى على العرب عيسى بن مهنا بن مانع ووفر له الإقطاعات على حفظ السابلة، وحبس ابن عمه زامل بن علي بن ربيعة من آل علي لإعناته وأعراضه. ولم يزل أميراً على أحياء العرب، وصلحوا في أيامه لأنه خالف أباه في الشدة عليهم. وهرب إليه سنقر الأشقر سنة تسع وتسعين، وكاتبوا أبغا واستحثوه لملك الشام. وتوفي عيسى بن مهنا سنة أربع وثمانين فولى المنصور قلاون بعده ابنه مهنا. ثم سار الأشرف بن قلاون إلى الشام ونزل حمص، ووفد عليه مهنا بن عيسى في جماعة من قومه فقبض عليه وعلى ابنه موسى وأخوية محمد وفضل ابني عيسى بن مهنا، وبعث بهم إلى مصر فحبسوا بها حتى أفرج عنهم العادل كيبغا عندما جلس على التخت سنة أربع وتسعين، ورجع إلى إمارته. ثم كان له في أيام الناصر نفرة واستجاشة وميل إلى ملوك التتر بالعراق، ولم يحضر شيئاً من وقائع غازان. ولما انتقض سنقر واقوش الأفرم وأصحابهما سنة إثنتي عشرة وسبعمائة لحقوا به، وساروا من عنده إلى خربندا. واستوحش هو من السلطان وأقام في أحيائه منقبضاً عن الوفادة. ووفد أخوه فضل سنة إثنتي عشرة فرعى له حق وفادته، وولاه على العرب مكان أخيه مهنا، وبقي مهنا مشرداً. ثم لحق سنة ست عشرة بخربندا ملك التتر فأكرمه وأقطعه بالعراق. وهلك خربندا في تلك السنة فرجع إلى أحيائه، وأوفد إبنيه أحمد وموسى وأخاه محمد بن عيسى مستعتبين للناصر ومتطارحين عليه فأكرم وفادتهم، وأنزلهم بالقصر الأبلق وشملهم بالإحسان. وأعتب مهنا ورده على إمارته وإقطاعه، وذلك سنة سبع عشرة. وحج هذه السنة ابنه عيسى وأخوه محمد وجماعة من آل فضل إثنا عشر ألف راحلة. ثم رجع مهنا إلى ديدنه فلي ممالأة التتر والإجلاب على الشام وإتصل ذلك منه فنقم السلطان عليه، وسخطه قومه أجمع. وكتب إلى نواب الشام سنة عشرين بعد مرجعه من الحج فطرد آل فضل عن البلاد وأدال منهم آل علي عديدة نسبهم. وولى منهم على أحياء العرب محمد بن أبي بكر، وصرف إقطاع مهنا وولده إلى محمد وولده فأقام مهنا على ذلك مدة. ثم وفد سنة إحدى وثلاثين مع الأفضل بن المؤيد صاحب حماة متوسلا به ومتطارحاً على السلطان فأقبل عليه ورد عليه إقطاعه وإمارته. وذكر لي بعض أكابر الأمراء بمصر ممن أدرك وفادته أو حدث عنها أنه تجافى في هذه الوفادة عن قبول شيء من السلطان، حتى أنه ساق من النياق المحلوبة واستقاها،

وأنه لم يغش باب أحد من أرباب الدولة ولا سألهم شيئاً من حاجته. ثم رجع إلى أحيائة وتوفي سنة أربع وثلاثين، فولى ابنه مظفر الدين موسى. وتوفي سنة إثنين وأربعين عقب مهلك الناصر وولي مكانه أخوه سليمان. ثم هلك سليمان

سنة ثلاث وأربعين فولي مكانه شرف الدين عيسى ابن عمه فضل بن عيسى. ثم توفي سنة أربع وأربعين بالقدس ودفن عند قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه، وولي مكانه أخوه سيف بن فضل. ثم عزله السلطان بمصر الكامل بن الناصر سنة ست وأربعين، وولي مكانه مهنا بن عيسى. ثم جمع سيف بن مهنا ولقيه فياض بن مهنا فانهزم سيف. ثم ولى السلطان حسين بن الناصر في دولته الأولى وهو في كفالة بيقاروس أحمد بن مهنا فسكنت الفتنة بينهم. ثم توفي سنة تسع وأربعين فولي مكانه أخوه فياض. وهلك سنة إثنتين وستين فولي مكانه أخوه خيار بن مهنا ولاه حسين بن الناصر في دولته الثانية. ثم انتقض سنة خمس وستين وأقام سنين بالقفر ضاحياً إلى أن شفع فيه نائب حماة فأعيد إلى إمارته، ثم انتقض سنة سبعين فولى السلطان الأشراف مكانه ابن عمه زامل بن موسى بن عيسى، وجاء إلى نواحي حلب واجتمع إليه بنو كلاب وغيرهم وعاثوا في البلاد، وعلى حلب يومئذ قشتمر المنصوري فبرز إليهم وإنتهى إلى مخيمهم واستاق نعمهم وتخطى إلى الخيام فاستماتوا دونها، وهزموا عساكره وقتل قشتمر وابنه في المعركة، وتولى ذلك زامل بيده، وذهب إلى القفر منتقضاً فولى مكانه معيقيل بن فضل بن عيسى. ثم بعث معيقيل صاحبه سنة إحدى وسبعين يستأمن لخيار فأمنه. ثم وفد خيار بن مهنا سنة خمس وسبعين فرضي عنه السلطان فأعاده إلى إمارته. ثم توفي سنة سبع وسبعين فولي أخوه قارة إلى أن توفي سنة إحدى وثمانين فولي مكانه معيقيل بن فضل بن عيسى، وزامل بن موسى بن مهنا شريكين في إمارتهما. ثم عزلا لسنة من ولايتهما، وولي بصير بن جبار بن مهنا واسمه محمد، وهو لهذا العهد أمير على آل فضل وجميع أحياء طيء، والله تعالى أعلم.

وفاة أبي سعيد ملك العراق وانقراض أمر بني هلاكو:

ثم توفي أبو سعيد ملك العراق من التتر ابن خربندا بن ابغو بن ابغا بن هلاكو بن طولي خان بن جنكز خان سنة ست وثلاثين وسبعمائة لعشرين سنة من ملكه ولم يعقب، فانقرض بموته ملك بني هلاكو. وصار الأمر بالعراق لسواهم، وافترق ملك التتر في سائر ممالكهم كما نذكر في أخبارهم. ولما استبد ببغداد الشيخ حسن من أسباطهم كثر عليه المنازعون فبعث رسله إلى الناصر قبل وفاته يستنجده، على أن يسلم له بغداد ويعطي الرهن في العساكر حتى يقضي بها في أعدائه فأجابه الناصر إلى ذلك، ثم توفي قريباً فلم يتم والأمر لله وحده.

وصول هدية ملك المغرب الأقصى مع رسله وكريمته صحبة الحاج

كان ملك بني مرين بالمغرب الأقصى قد استحفل لهذه العصور، وصار للسلطان أبي الحسن علي بن السلطان أبي سعيد عثمان بن السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق جد ملوكهم، وأسف إلى ملك جيرانهم من الدول فزحف إلى المغرب الأوسط وهو في ملكة بني عبد الواد أعداء قومه من

زناتة، وملكهم أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو موسى بن أبي سعيد عثمان بن السلطان يغمراسن بن زيان جد ملوكهم أيضاً، وكرسيه تلمسان سبعة وعشرين شهراً. ونصب عليها المجانيق وأدار بالأسوار سياجاً لمنع وصول الميرة والأقوات إليها. وتقرى أعمالها بلداً بلداً فملك جميعها. ثم افتتحها عنوة آخر رمضان سنة سبع وثلاثين، ففض جموعها وقتل سلطانها عند باب قصره كما نذكره في أخبارهم. ثم كتب للملك الناصر صاحب مصر يخبره بفتحها وزوال العائق عن وفادة الحاج،وإنه ناظر في ذلك بما يسهل سبيلهم ويزيل عللهم. وكانت كريمة من كرائم أبيه السلطان أبي سعيد ومن أهل فراشه قد اقتضت منه الوعد بالحج عندما ملك تلمسان. فلما فتحها وأذهب عدوه منها جهز تلك المرأة للحج بما يناسب قرابتها منه، وجهز معها للملك الناصر صاحب مصر هدية فخمة مشتملة على خمسمائة من الجياد المغربيات بعدتها وعدة فرسانها من السروج واللجم والسيوف وطرف المغرب وماعونه من شتى أصنافه، ومن ثياب الحرير والصوف والكتان وصنائع الجلد حتى ليزعموا أنه كان فيها من أواني الخزف وأصناف الدر والياقوت وما يشبههما في سبيل التودد. وعرض أحوال المغرب على سلطان المشرق. ولعظم قدر هذه الوافدة عند الناصر أوفد معها من عظماء قومه ووزرائه وأهل مجلسه فوفدوا على الناصر سنة ثمان وثلاثين، وأحلهم بأشرف محل من التكرمة، وبعث من إصطبلاته ثلاثين خطلا من البغال يحملون الهدية من بحر النيل سوى ما تبعها من البخاتي والجمال. وجلس لهم في يوم مشهود ودخلوا عليه وعرضوا الهدية فعم بها أهل دولته إحسانا في ذلك المجلس. واستأثر منها على ما زعموا بالدر والياقوت فقط. ثم فّرقهم في منازله وأنزلهم دار كرامته وقد هيئت بالفرش والمعون، ووفر لهم الجرايات واستكثر لهم من الأزودة. وبعث أمراء في خدمتهم إلى الحجاز حتى قضوا فرضهم في تلك السنة وإنقلبوا إلى سلطانهم، فجهز الناصر معهم هدية إلى ملك المغرب تشتمل على ثياب الحرير المصنوعة بالإسكندرية، وعين منها الحمل المتعارف في كل سنة لخزانة السلطان، وقيمته لذلك

العهد خمسون ألف دينار. وعلى خيمة من خيم السلطان المصنوعة بالشام فيها أمثال البيوت والقباب والكفات مرساة أطرافها في الأرض بأوتاد الحديد والخشب كأنها قباب مائلة، وعلى خيمة مؤزر باطنها من ثياب الحرير العراقية وظاهرها من ثياب القطن الصرافية مستجادة الصنعة ين الحدل والأوتاد أحسن ما يراه من البيوت وعلى صوان من الحرير مربع الشكل يقام بالحدل الحافظ ظله من الشمس. وعلى عشرة من الجياد المقربات الملوكية بسروج ولجم ملوكية مصنوعة من الذهب والفضة مرصعة باللآلي والفصوص. وبعث مع تلك الجياد خدم يقومون بنبائها المتعارف فيها. ووصلت الهدية إلى سلطان المغرب فوقعت منه أحسن المواقع، وأعاد الكتب والرسل بالشكر واستحكمت المودة ين هذين السلطانين، وإتصلت المهاداة إلى أن مضيا لسبيلهما، والله تعالى ولي التوفيق.

وفاة الخليفة أبي الربيع وولاية ابنه

قد ذكرنا أيام الظاهر وأنه أقام خليفة بمصر من ولد الراشد، وصل يومئذ من بغداد وإسمه أحمد بن محمد، وذكرنا نسبه هنالك إلى الراشد وأنه بويع له بالخلافة سنة ستين وستمائة، ولقبه الحاكم فلم يزل في خلافته إلى

أن توفي سنة إحدى وسبعمائة وقد عهد لابنه سليمان فبايع له أهل دولة الناصر الكافلون لها. ولقبوه المستكفي فبقي خليفة سائر أيام الناصر. ثم تنكر له السلطان سنة ست وثلاثين لشيء نمي له عن بنيه فأسكنه بالقلعة، ومنعه من لقاء الناس فبقي حولا كذلك. ثم ترك سبيله ونزل إلى بيته. ثم كثرت السعاية في بنيه فغر به سنة ثمان وثلاثين إلى قوص هو وبنيه وسائر أقاربه. وأقام هنالك إلى أن هلك سنة أربعين قبل مهلك الناصر، وقد عهد بالخلافة لابنه أحمد ولقبه الحاكم فلم يمض الناصر عهده في ذلك، لأن أكثر السعاية المشار إليها كانت فيه فنصب للخلافة بعد المستكفي ابن عمه إبراهيم بن محمد ولقبه الواثق وهلك لأشهر قريبة فاتفق الأمراء بعده على إمضاء عهد المستكفي في ابنه أحمد فبايعوه سنة إحدى وأربعين. وأقام في الخلافة إلى سنة ثلاث وخمسين فتوفي وولي أخوه أبو بكر ولقب المعتضد. ثم هلك سنة ثلاث وستين لعشرة أشهر من خلافته، ونصب بعده ابنه محمد ولقبه المتوكل ونورد من أخباره في أماكنها ما يحضرنا ذكره والله سبحاه وتعالى أعلم بغيبه.

نكبة تنكز ومقتله

كان تنكز مولى من موالي لاشين إصطفاه الناصر وقّربه، وشهد معه وقائع التتر، وسار معه إلى الكرك وأقام في خدمته مدّة خلعه. ولما رجع إلى كرسيه ومهد أمور ملكه ورتب الولاية لمن يرضاه من أمرائه بعث تنكز إلى الشام وجعله نائباً بدمشق ومشارفاً لسائر بلاد الروم، ففتح ملطية ودوخ بلاد الأرمن. وكان يتردد بالوفادة على السلطان يشاوره وربما استدعاه للمفاوضة في المهمات، واستفحل في دفاع التتر وكيادهم. ولما توفي أبو سعيد وانقرض ملك بني هلاكو، وافترق أمر بغداد وتورين وكانا معاً يجاورانه ويستنجدانه، وسخطه بعضهم فراسل السلطان بغشه وأدهانه في طاعته، وممالأة أعدائه. وشرع السلطان في استكشاف حاله، وكان قد عقد له على بنته فبعث دواداره بإجار يستقدمه للأعراس بها، وكان عدواً له للمنافسة والغيرة فأشار على تنكز بالمقام وتخليه عن السلطان وغشه في النصيحة. وحذر السلطان منه فبعث الملك الناصر إلى طشتمر نائب صفد أن يتوجه إلى ك مشق، وبقبض عليه فقبض عليه سنة أربعين لثمان وعشرين سنة لولايته بدمشق. وبعث الملك الناصر مولاه لشمك إلى دمشق في العساكر فأحاط على موجوده، وكان شيئاً لا يعبر عنه من أصناف الممتلكات، وجاء به مقيداً فاعتقل بالإسكندرية، ثم قتل في محبسه والله تعالى أعلم.

وفاة الملك الناصر وابنه أنوك قبله وولاية ابنه أبي بكر ثم كجك

ثم توفي الملك الناصر محمد بن المنصور قلاون أمجد ما كان ملكاً وأعظم استبداداً توفي على فراشه في ذي الحجة آخر إحدى وأربعين وسبعمائة بعد أن توفي قبله بقليل ابنه أنوك فاحتسبه. وكانت وفاته لثمان وأربعين سنة من ولايته الأولى في كفالة طنبغا ولاثنين وثلاثين من حين استبداده بأمره بعد بيبرس. وصفا الملك له، وولى النيابة في هذه ثلاثة من أمرائه بيبرس الدوادار المؤرخ، ثم بكتمر الجوكندار ثم أرغون الدوادار، ولم يود أحدا النيابة أ بعده. وبقيت الوظيفة عطلا آخر أيامه. واما دواداريته فأيدمر ثم سلار ثم الحلي، ثم يوسف بن الأسعد ثم بغا ثم طاجار وكتب عنه شرف الدين بن فضل الله، ثم علاء الدين بن الأمير، ثم محي الدين بن فضل الله، ثم ابنه شهاب الدين، ثم ابنه الآخر علاء الدين. وولى القضاء في دولته تقي الدين بن دقيق العيد، ثم بدر

الدين بن جماعة. وإنما ذكرت هذه الوظائف وإن كان ذلك ليس من شرط الكتاب لعظم دولة الناصر وطول أمدها، واستفحال دولة. الترك عندها، وقدمت الكتاب على القضاة وإن كانوا أحق بالتقديم، لأن الكتاب أمس بالدولة فإنهم من أعوان الملك. ولما اشتدّ المرض بالسلطان، وكان قوصون أحظى عظيم من أمرائه فبادر القصر في مماليكه

متسلحين، وكان بشتك يضاهيه فارتاب وسلح أصحابه، وبدا بينهما التنافس، ودس بشتك الشكوى إلى السلطان فاستدعاهما وأصلح بينهما. وأراد أن يعهد بالملك إلى قوصون فامتنع فعهد لابنه أبي بكر ومات، فمال من عماله بشتك إلى ولاية أحمد صاحب الكرك، وأبى قوصون إلا الوفاء بعهد السلطان. ثم رجع إليه بشتك بعد مراوضة فبويع أبو بكر ولقب المنصور، وقام بأمر الدولة قرصون وردفه قطلو بغا الفخري فولوا على نيابة السلطان طقرمرد وبعثوا على حلب طشتمر، وعلى حمص أخضر عوضاً عن طغراي، وأقروا كيبغا الصالحي على دمشق. ثم استوحش بشتك من استبداد قوصون وقطلو بغا دونه فطلب نيابة دمشق، وكان يعجب بها من يوم دخلها للحوطة على. تنكز فاستعفوه. فلما جاء للوداع قبض عليه قطلوبغا الفخري، وبعث به إلى الإسكندرية فاعتقل به ثم أقبل السلطان أبو بكر على لذاته ونزع عن الملك، وصار يمشي في سكك المدينة في الليل متنكرا مخالطاً للسوقة، فنكر ذلك الأمراء وخلعه قوصون وقطلو بغا لسبعة وخمسين يوماً من بيعته، وبعثوا به إلى قوص فحبس بها وولوا أخاه كجك ولقبوه الأشرف، وعزلوا طقرمرد عن النيابة. وقام بها قوصون، وبعثوا طقرمرد نائباً على حماة وأدالوا به من الأفضل بن المؤيد فكان آخر من وليها من بني المظفر، وقبضوا على طاجا الدويدار وبعثوا به إلى الإسكندرية فغرق في البحر، وبعثوا بقتل بشتك في محبسه بالإسكندرية والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

مقتل قوصون ودولة أحمد بن الملك الناصر

لما بلغ الخبر إلى الأمراء بالشام باستبداد قوصون على الدولة غصوا من مكانه، واعتزموا على البيعة لأحمد بن الملك الناصر، وكان يومئذ بالكرك مقيماً منذ ولاه أبوه إمارتها كما قدمناه فكاتبه طشتمر نائب حمص وأخضر نائب حلب. واستدعاه إلى الملك وبلغ الخبر إلى مصر فخرج قطلو بغا في العساكر لحصار الكرك، وبعثوا إلى طنبغا الصالحي نائب دمشق، فسار في العساكر إلى حلب للقبض على طشتمر نائب حمص، أخضر. وكان قطلو بغا الفخري قد استوحش من صاحبه قوصون، وغص باستبداده علمه فلما فصل بالجند من مصر بعث ببيعته إلى أحمد بن الملك الناصر بالكرك، وسار إلى الشام فأقام دعوته في دمشق ودعا إليها طقرمرد نائب حماة فأجابه وقدم عليه، وانتهى الخبر إلى طنبغا نائب دمشق وهو يحاصر حلب فأفرج عنها، ودعاه قطلو بغا إلى بيعة أحمد فانتقض عليه أصحابه وسار إلى مصر، واستولى قطلو بغا الفخري على الشام أجمع بدعوة أحمد. وبعث إلى الأمراء بمصر فأجابوا إليها.

واجتمع أيدغمش وأقسنقر السلاري وغازي ومن تبعهم من الأمراء على البيعة لأحمد، واستراب بهم قوصون كافل المملكة. وهم بالقبض عليهم، وشاور طنبغا اليحياوي من عنده من أصحابه في ذلك فغضوه وخذلوه،

وركب القوم ليلاً. وكان أيدغمش عنده بالإصطبل وهو أمير الماصورية، وهم قوصون بالركوب فخذله وثنى عزمه. ثم ركب معهم وإتصلت الهيعة ونادى في الغوغاء بنهب بيوت قوصون فنهبوها وخربوها، وخربوا الحمامات التي بناها بالقرافة تحت القلعة. ونهب شيخها شمس الدين الأصفهاني فسلبوه ثيابه، وإنطلقت أيدي الغوغاء في البلد، ولحقت الناس منهم مضرات في بيوتهم. واقتحموا بيت حسام الدين الغوري قاضي الحنفية فنهبوه وسبوا عياله. وقادهم إليه بعض من كان يحنق عليه من الخصوم فجرت عليه معرة من ذلك. ثم اقتحم أيدغمش وأصحابه القلعة، وتقبضوا على قوصون وبعثوا به إلى الإسكندرية فمات في محبسه، وكان قوصون قد أخرج جماعة من الأمراء للقاء طنبغا الصاحي فسار قراسنقر السلاري في أثرهم، وتقبض عليهم وعلى الصالحي، وبعث بهم جميعاً إلى الإسكندرية فيما بعد سنة خمس وأربعين. وبعث لأحمد بن الملك الناصر وطير إليه بالخبر، وتقبض على جماعة من الأمراء واعتقلهم. ثم قدم السلطان أحمد من الكرك في رمضان سنة إثنين وأربعين ومعه طشتمر نائب حمص وأخضر نائب حلت وقطلو بغا الفخري، فولى طشتمر نائباً بمصر وقطلو بغا الفخري بعثه إلى دمشق نائباً. ثم قبضى على أخضر لشهر أو نحوه. وقبض على أيدغمش وأقسنقر السلاري. ثم ولى أيدغمش على حلب، وبلغ الخبر إلى قطلو بغا الفخري قبل وصوله إلى دمشق فعدل إلى حلب، وأتبعته العساكر فلم يدركوه. وتقبض على أيدغمش بحلب وبعث به إلى مصر فاعتقل مع طشتمر، وإرتاب الأمراء بأنفسهم. واستوحش السلطان منهم إنتهى والله أعلم.

مسير السلطان أحمد إلى الكرك وإتفاق

الأمراء علي خلعه والبيعة لأخيه الصالح

ولما استوحش الأمراء من السلطان وإرتاب بهم إرتحل إلى الكرك لثلاثة أشهر من بيعته واحتمل معه طشتمر وأيدغمش معتقلين، واستصحب الخليفة الحاكم واستوحش نائب صفد بيبرس الأحمدي. وسار إلى دمشق وهي يومئذ فوضى فتلقاه العسكر وأنزلوه، وبعث السلطان في القبض عليه فأبى من أعطاه يده. وقال إنما الطاعة لسلطان مصر، وأما صاحب الكرك فلا. وطالت غيبة السلطان أحمد بالكرك، وإضطرب الشام فبعث إليه الأمراء بمصر في

الرجوع إلى دار ملكه فامتنع، وقال هذه مملكتي أنزل من بلادها حيث شئت. وعمد إلى طشتمر وأيدغمش الفخري فقتلهما فاجتمع الأمراء بمصر وكبيرهم بيبرس العلائي وأرغون الكاملي وخلعوه، وبايعوا لأخيه إسماعيل في محرم سنة ثلاث وأربعين ولقبوه الصالح. فولى أقسنقر السلاري، ونقل أيدغمش الناصري من نيابة حلب إلى نيابة دمشق. وولى مكانه بحلب طقرمرد. ثم عزل أيدغمش من دمشق ونقل إليها طقرمرد، وولى بحلب طنبغا المارداني، ثم هلك المارداني فولي مكانه طنبغا اليحياوي واستقامت أموره، والله تعالى ولي التوفيق.

ثورة رمضان بن الناصر ومقتله وحصار الكرك

ومقتل السلطان أحمد:

ثم أن بعض المماليك داخل رمضان بن الملك الناصر في الثورة بأخيه وواعده قبة النصر فركب إليهم، وأخلفوه فوقف في مماليكه ساعة يهتفون بدعوته. ثم استمر هارباً إلى الكرك وأتبعه العسكر مجدين السير في الطريق، وجاؤا به فقتل بمصر. وإرتاب السلطان بالكثير من الأمراء وتقبض على نائبه أقسنقر السلاري وبعث به إلى الإسكندرية فقتل هنالك، وولى مكانه إنجاح الملك. ثم سرح العساكر سنة أربع وأربعين لحصار الكرك مترادفة ونزع بعض العساكر عن السلطان أحمد من الكرك فلحقوا بمصر، وكان آخر من سار من الأمراء لحصار الكرك قماري ومساري سنة خمس وأربعين فأخذوا بمخنقة. ثم اقتحموا عليه وملكوه وقتلوه فكان لبث بالملك في مصر ثلاثة أشهر وأياماً، وانتقل إلى الكرك في محرم سنة ثلاث وأربعين إلى أن حوصر ومثل به وتوفي في أيامه طنبغا الماردايي نائب حلب، فولي مكانه طنبغا اليحياوي وسف الدين طراي الجاشنكير نائب طرابلس فولي مكانه أقسنقر الناصري، والله تعالى أعلم.

وفاة الصالح بن الناصر وولاية أخيه الكامل

ثم توفي الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر حتف أنفه سنة ست وأربعين لثلاث سنين وثلاثة أشهر من ولايته، وبويع بعده أخوه زين الدين شعبان ولقب الكامل وقام بأمره أرغون العلاوي وولي نيابة مصر.

وعرض إنجاح الملك إلى صفد، ثم رده من طريقه معتقلا إلى دمشق، وبعث إلى القماري الكبير فبعثه إلى حبس الإسكندرية، واستدعى طقرمرد نائب دمشق وكجك الأشرف المخلوع بن الناصر الذي ولاه قوصون، وهلك إنجاح الملك الجوكندار في محبسه بدمشق إنتهى والله أعلم

.

مقتل الكامل وبيعة أخيه المظفر حاجي

كان السلطان الكامل قد أرهف حده في الإستبداد على أهل دولته فراراً مما يتوهم

فيهم من الحجر عليه، فتراسل الأمراء بمصر والشام، وأجمعوا الإدالة منهم. وانتقض طنبغا اليحياوي ومن معه بدمشق سنة سبع وأربعين، وبرز في العساكر يريد مصر. وبعث الكامل منجو اليوسفي يستطلع أخبارهم فحبسه اليحياوي. واتصل الخبر بالكامل فجرد العساكر إلى الشام واعتقل حاجي وأمير حسين بالقلعة، واجتمع الأمراء بمصر للثورة، وركبوا إلى قبة النصر مع أيدمر الحجازي وأقسنقر الناصري وأرغون شاه فركب إليهم الكامل في مواليه، ومعه أرغون العلاوي نائبه فكانت بينهما جولة هلك فيها أرغون العلاوي ورجع الكامل إلى القلعة منهزماً، ودخل من باب السر مختفياً، وقصد محبس أخويه ليقتلهما فحال الخدام دونهما وغلقوا الأبواب، وجمع الذخيرة ليحملها فعاجلوه عنها ودخلوا القلعة وقصدوا حاجي بن الناصر فأخرجوه من معتقله، وجاؤا به فبايعوه ولقبوه المظفر. وافتقدوا الكامل وتهددوا جواريه بالقتل فدلوا عليه، واعتقل مكان حاجي بالدهشة، وقتل في اليوم الثاني وأطلق حسين وقام بأمر المظفر حاجي أرغون شاه الحجازي، وولوا طقتمر الأحمدي نائباً بحلب والصلاحي نائباً بحمص، وحبس جميع موالي الكامل، وأخرج صندوق من بيت الكامل قيل إن فيه السحر فأحرق بمحضر الأمراء، ونزع المظفر حاجي إلى الإستبداد كما نزع أخوه فقبض

على الحجازي والناصري وقتلهما لأربعين يوماً من ولايته، وعلى أرغون شاه وبعثه نائباً إلى صفد. وجعل مكان طقتمر الأحمدي في حلب تدمر البدري، وولى على نيابته الحاج أرطاي، وأرهف حده في الاستبداد. وأرتاب الأمراء بمصر والشام، وانتقض اليحياوي بدمشق سنة ثمان وأربعين وداخله نواب الشام في الخلاف. ووصل الخبر إلى مصر فاجتمع الأمراء وتواعدوا للوثوب. ونمي الخبر إلى المظفر فأركب مواليه من جوف الليل وطافوا بالقلعة، وتداعى الأمراء إلى الركوب واستدعاهم من الغد إلى القصر، وقبض على كل من اتهمه منهم بالخلاف، وهرب بعضهم فأدرك بساحة البلد واعتقلوا جميعاً وقتلوا من تلك الليلة. وبعث بعضهم إلى الشام فقتلوا بالطريق وولى من الغد مكانهم خمسة عشرة أميرا ووصل الخبر إلى دمشق فلاذ اليحياوي بالمغالطة يخادع بها وقبض على جماعة من الأمراء. وكان السلطان المظفر قد بعث الأمير الجبقا من خاصته إلى الشام عندما بلغه إنتقاض طنبغا اليحياوي يستطلع أخباره، فحمل الناس على طاعة المظفر وأغراهم باليحياوي حتى قتلوه، وبعثوا برأسه إلى مصر وسكنت الفتنة واستوسق الملك للمظفر والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل المظفر حاجي بن الناصر وبيعة أخيه

حسن الناصر ودولته الأولى

قد كنا قدمنا أن السلطان بعث جبقا إلى الشام حتى مهده ومما أثر الخلاف منه،

ورجع إلى السلطان سنة ثمان وأربعين وقد استوسق أمره فوجد الأمراء مستوحشين من السلطان ومنكرين عليه اللعب بالحمام فتنصح له بذلك يريد إقلاعه عنه، فسخط ذلك منه وأمر بالحمام فذبحت كلها. وقبال لجبقا أنا أذبح خياركم كما ذبحت هذه فاستوحش جبقا وغدا على الأمراء والنائب بيقاروس وثاروا بالسلطان وخرجوا إلى قبة النصر وركب المظفر في مواليه والأمراء الذين معه قد داخلوا الآخرين في الثورة، ورأيهم واحد في خلعه فبعث إليهم الأمير شيخو يتلطف لهم فأبوا إلا خلعه فجاءهم بالخبر. ثم رجع إليهم وزحف معهم ولحق بهم الأمراء الذين مع المظفر عندما تورط في اللقاء وحمل عليه بيقاروس فأسلمه أصحابه وأمسكه باليد فذبحه في تربة أمّه خارج القلعة. ودفن هناك ودخلوا القلعة في رمضان من السنة وأقاموا عامة يومهم يتشاورون فيمن يولونه حتى هم أكثر الموالي بالثورة والركوب إلى قبة النصر، فحينئذ بايعوا حسن بن الملك الناصر ولقبوه الناصر بلقب أبيه فوكل بأخيه حسين ومواليه لنفسه، ونقل المال الذي بالحوش فوضعه بالخزانه. وقام بالدولة ستة من الأمراء وهم: شيخوا وطاز والجبقا وأحمد شادي والشرنخاناه وأرغون الإسماعيلي، والمستبد عليهم جميعاً بيقاروس، ويعرف بالقاسمي فقتل الحجازي وأقسنقر القائمين بدولة المظفر بمحبسها بالقلعة. وولى بيقاروس نائباً بمصر، فكان أرقطاي وأرغون شاه نائباً بحلب مكان تدمر البدري. ثم نقله إلى دمشق منذ مقتل اليحياوي وولى مكانه بحلب أياس الناصر. ثم تقبض بيقاروس على رفيقه أحمد شادي الشرنخاناه وغربه إلى صفد وأبعد الجبقا من رفقته وبعثه نائباً على طرابلس. وبعث أرغون الإسماعيلي منهم نائباً على حلب. وفي هذه السنة وقعت الفتنة بينه وبين مهنا بن عيسى، ولقيه فهزمه ووفد أحمد أخوه على

السلطان فولاه إمارة العرب وهدأت الفتنة بينهم، ثم هلك سنة تسع وأربعين بعدها وولى أخوه فياض كما مر في أخبارهم والله تعالى أعلم.

مقتل أرغون شاه نائب دمشق

كان خبر هذه الواقعة الغريبة أن الجبقا بعتوه نائباً على طرابلس، وسار صحبة أياس الحاجب نائباً على حلب سنة خمسين، وانتهوا إلى دمشق. ونما إلى الجبقا عن أرغون شاه أنه تعرض لبعض حرمه بصنيع جمع فيه نسوان أهل الدولة بدمشق فكتب إليه ليلا وطرقه في بيته. فلما خرج إليه قبض عليه وذبحه في ربيع، وصنع مرسوماً سلطانياً دافع به الناس والأمراء، واستصفى أمواله ولحق بطرابلس. وجاء الأمر من مصر باتباعه وإنكار المرسوم الذي أظهروه فزحفت العساكر من دمشق، وقبضوا على الجبقا وأياس الحاجب بطرابلس وجاؤا بهما إلى مصر فقتلا. وولي الشمس الناصري نيابة دمشق مع أرغون شاه، وصلب أرغون الكافلي، وذلك في جمادى سنة خمسين. واصل أرغون شاه من بلاد الصين جلب إلى السلطان ا بي سعيد ملك التتر ببغداد فأعطاه للأمير خواجا نائب جوبان، وأهداه خواجا للملك الناصر فحظي عنده وقدمه رأس نوبة، وزوجه بنت عبد الواحد. ثم ولاه الكامل أستاذ دار ثم عظمت مرتبته أيام المظفر وجعل نائباً في صفد، ثم في حلب. ولما حبس طنبغا اليحياوي على دمشق بسعاية الجبقا كما مر ولى أرغون شاه بدمشق، والله سبحانه وتعالى أعلم.

القسم الخامس

نكبة بيقاروس:

ثم إن السلطان حسن شرع في الإستبداد، وقبض على منجك اليوسفي أستاذ داره وعلى السلحدار واعتقلهما من غير مشورة بيقاروس وأصحابه. وكان لمنجك إختصاص ببيقاروس وأخوه معه فارتاب، واستأذن السلطان في الحج هو وطاز فأذن لهما، ودس إلى طاز بالقبض على بيقاروس وسارا لشأنهما، فلما نزلا بالينبع قبض طاز على بيقاروس فخرج ورغب إليه أن يتركه يحج مقيداً فتركه. فلما قضى نسكه ورجعوا حبسه طاز بالكرك بأمر السلطان، وأفرج عنه بعد ذلك، وولي نيابة حلب وانتقض بها كما نذكر بعد إن شاء الله تعالى. وبلغ خبر اعتقاله إلى أحمد شادي الشرنخاناه بصفد فانتقض وجهز السلطان إليه العساكر فقبض عليه، وجيء به إلى مصر فأعتقل بالإسكندرية، وقام بالدولة مغلطاي من أمرائها، والله تعالى أعلم.

واقعة الظاهر ملك اليمن بمكة واعتقاله ثم اطلاقه

كان ملك اليمن وهو المجاهد علي بن داود المؤيد قد جاء إلى مكة حاجا سنة إحدى وخمسين

وهي السنة التي حج فيها طاز وشاع في الناس عنه أنه يروم كسوة الكعبة فتنكر وفد المصريين لوفد اليمنيين، ووقعت في بعض الأيام هيعة في ركب الحاج فتحاربوا وإنهزم المجاهد وكان بيقاروس مقيداً فأطلقه وأركبه ليستعين به فجلا في تلك الهيعة، وأعيد إلى اعتقاله ونهب حاج اليمن. وقيد المجاهد إلى مصر فاعتقل بها حتى أطلق في دولة الصالح سنة إتنتين وخمسين، وتوجه معه قشتمر المنصوري ليعيده إلى بلاده. فلما إنتهى إلى الينبع

أشيع عنه أنه هم بالهرب فقبض عليه قشتمر المنصوري وحبسه بالكرك. ثم أطلق بعد ذلك وأعيد إلى ملكه والله أعلم.

خلع حسن الناصر وولاية أخيه الصالح

لما قبض السلطان حسن على بيقاروس وحبسه وتنكر لأهل دولته ورفع عليهم مغلطاي وإختصه، واستوحشوا لذلك وتفاوضوا وداخل طاز وهو كبيرهم جماعة من الأمراء في الثورة. وأجابه إلى ذلك بيقو الشمسي في آخرين واجتمعوا لخلعه. وركبوا في جمادي سنة إثنتين وخمسين فلم يمانعهم أحد، وملكوا أمرهم ودخلوا القلعة وقبض طاز على حسن الناصر واعتقله، وأخرج أخاه حسيناً من اعتقاله فبايعه ولقبه الصالح وقام بحمل الدولة. وأخرج بيقو الشمسي إلى دمشق وبيقر إلى حلب أسيرين، وإنفرد بالأمر. ثم نافسه أهل الدولة واجتمعوا على الثورة، وتولى كبر ذلك مغلطاي ومنكلي وبيبقا القمري، وركبوا فيمن اجتمع إليهم إلى قبة النصر للحرب، فركب طاز وسلطانه الصالح في جموعه وحمل عليهم ففض جمعهم وأثخن فيهم. وقبض على مغلطاي ومنكلي فحبسهما بالإسكندرية، وأفرج عن منجك وعن شيخو وجعله أتابكه على العساكر وأشركه في سلطانه، وولى سيف الدين ملاي نيابته، وإختص سرغتمش ورقاه في الدولة، وقبض على الشمسي المحمدي نائب دمشق ونقل إليها لمكانة أرغون الكاملي من حلب، وأفرج عن بيقاروس بالكرك وبعثه مكانه إلى حلب ثم تغير منجك واختفى بالقاهرة، والله تعالى أعلم.

انتقاض بيقاروس واستيلاؤه علي الشام

ومسير السلطان إليه ومقتله

قد تقدم لنا ذكر بيقاروس وقيامه بدولة حسن الأولى ونكبته في طريقه إلى الحج بالكرك، ولما أطلقه طاز وولاه على حلب أدركته المنافسة والغيرة من طاز واستبداده بالدولة فحدثته نفسه

بالخلاف، وداخل نواب الشام. ووافقه في ذلك بلكمش نائب طرابلس وأحمد شادي الشرنخاناه نائب صفد، وخالفه أرغون الكاملي نائب دمشق وتمسك بالطاعة، وتعاقد هؤلاء على الخلاف مع شيخو وسرغتمش في رجب سنة ثلاث وخمسين. ثم دعا بيقاروس العرب والتركمان إلى الموافقة فأجابه خبار بن مهنا من العرب، وقراجا بن العادل من التركمان في جموعهما. وبرز من حلب يقصد دمشق فأجفل عنها أرغون النائب إلى غزة، واستخلف عليها الجبقا العادلي، ووصل بيقاروس فملكها وامتنعت القلعة فحاصرها وكثر العيث من عساكره في القرى. وسار السلطان الصالح وأمراء الدولة من مصر العساكر في شعبان من السنة، وأخرج معه الخليفة المعتضد أبا الفتح أبا بكر بن المستكفي، وعثر بين يدي خروجه على منجك ببعض البيوت لسنة من اختفائه، فبعث به سرغتمش إلى الإسكندرية وبلغ بيقاروس خروج السلطان من مصر فأجفل عن دمشق، وثار العوام بالتركمان فأثخنوا فيهم. ووصل السلطان إلى دمشق ونزل بالقلعة وجهز العساكر في إتباع بيقاروس فجاؤا بجماعة من الأمراء الذين كانوا معه، فقتل السلطان بعضهم ثالث الفطر وحبس الباقين. وولى على دمشق الأمير عليا المارداني، ونقل منها أرغون الكاملي إلى حلب، وسرح العساكر في طلب بيقاروس من

مغلطاي الدوادار. وعاد إلى مصر فدخلها في ذي القعدة من السنة وسار مغلطاي في طلب بيقاروس وأصحابه فأوقع بهم وتقبض على بيقاروس وأحمد وقطلمش وقتلهم، وبعث برؤسهم إلى مصر أوائل سنة أربع وخمسين.

وأوعز السلطان إلى أرغون الكاملي نائب حلب بأن يخرج في العساكر لطلب قراجا بن العادل مقدم التركمان، فسار إلى بلده البلسين فوجدها مقفرة، وقد أجفل عنها فهدمها أرغون وأتبعه إلى بلاد الروم. فلما أحس بهم أجفل ولحق بابن أرشا قائد المغل في سيواس، ونهب العساكرأحياءه واستاقوا مواشيه. ثم قبض عليه ابن أرشا قائد المغل وبعث به إلى مصر فقتل بها وسكنت الفتنة، وأطلق المعتقلون بالإسكندرية، وتأخر منهم مغلطاي ومنجك أياماً. ثم أطلقا وغربا إلى الشام والله تعالى أعلم.

واقعة العرب بالصعيد

وفي أثناء هذه الفتن كثر فساد العرب بالصعيد وعيثهم، وإنتهبوا الزروع والأموال

وتولى كبر ذلك الأحدب، وكثرت جموعه فخرج السلطان في العسكر سنة أربع وخمسين ومعه طاز. وسار شيخو في العساكر بغنائمهم. وخلص السلطان من الظهر والسلاح ما لا يعبر عنه. وأسر جماعة منهم فقتلوا وهرب الأحدب

حتى استأمن بعد رجوع السلطان، فأمنه على أن يمتنعوا من ركوب الخيل وحمل السلاح ويقبلوا على الفلاحة، والله تعالى أعلم.

خلع الصالح وولاية حسن الناصر الثانية

كان شيخو أتابك العساكر قد إرتاب بصاحبه طاز فداخل الأمراء بالثورة بالدولة، وتربص بها إلى أن خرج طاز سنة خمس وخمسين إلى البحيرة متصيداً، وركب إلى القلعة فخلع الصالح ابن بنت تنكز وقبض عليه وألزمه بيته لثلاث سنين كوامل من دولته. وبايع لحسن الناصر أخيه، وأعاده إلى كرسيه وقبض على طاز فاستدعاه من البحيرة فبعثه إلى حلب نائباً. وعزل أرغون الكاملي فلحق بدمشق حتى تقبض عليه سنة ست وخمسين، وسيق إلى الإسكندرية فحبس بها وبلغ الخبر بوفاة الشمسي الأحمدي نائب طرابلس، وولى مكانه منجك. واستبد شيخو بالدولة وتصرف بالأمر والنهي. وولى على مكة عجلان بن رميثة وأفرده بإمارتها، وكانت له الولاية والعزل والحل والعقد سائر أيامه، واعتمده الملوك من النواحي شرقاً وغرباً بالمخاطبات. وكان رديفه في حمل الدولة سرغتمش من موالي السلطان، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده بمنه.

مهلك شيخو ثم سرغتمش بعده واستبداد السلطان بأمره:

لم يزل شيخو مستبدا بالدولة وكافلا للسلطان حتى وثب عليه يوماً بعض الموالي بمجلس السلطان في دار العدل في شعبان سنة ثمان وخمسين، واعتمده في دخوله من باب الإيوان وضربه بالسيف ثلاثا أصاب بها وجهه ورأسه وذراعيه فخر لليدين، ودخل السلطان بيته وانفض المجلس. واتصلت الهيعة بالعسكر خارج القلعة فاضطربوا، واقتحم موالي شيخو القلعة إلى الإيوان يقدمهم خليل بن قوصون، وكان ربيبه، لأن شيخو تزوج بأمه فاحتمل شيخو إلى منزله. وأمر الناصر بقتل المملوك الذي ضربه فقتل ليومه، وعاده الناصر من الغد

وتوجل من الوثبة أن تكون بأمره. وأقام شيخو عليلا إلى أن هلك في ذي القعدة من السنة، وهو أول من سمي الأمير الكبير بمصر. واستقل سرغتمش رديفه بحمل الدولة. وبعث على طاز فأمسكه بحلب وحبسه بالإسكندرية، وولى مكانه الأمير عليا المارداني، نقله إليها من دمشق، وولى مكانه بدمشق منجك اليوسفي. ثم تقبض السلطان على سرغتمش في رمضان سنة تسع وخمسين، وعلى جماعة من الأمراء معه مثل: مغلطاي الدوادار، وطشتمر القامسي الحاجب، وطنبغا الماجاري، وخليل

بن قوصون، ومحا السلحدار وغيرهم، وركب مواليه وقاتلوا مماليك السلطان في ساحة القلعة صدر نهار، ثم انهزموا وقتلوا واعتقل سرغتمش وجماعته المنكوبون بالإسكندرية، وقتل بمحبسه لسبعين يوماً من اعتقاله.

وتخطت النكبة إلى شيعمه وأصحابه من الأمراء والقضاة والعمال. وكان الذي تولى نكبة هؤلاء كلهم بأمر السلطان منكلي بيبقا الشمسي. ثم استبد السلطان بملكه واستولى على أمره، وقدم مملوكه بيبقا القمري وجعله أمير ألف. وأقام في الحجابة الجاي اليوسفي. ثم بعثه إلى دمشق نائباً، واستقدم منجك نائب دمشق. فلما وصل إلى غزة استتر واختفى فولى الناصر مكانه بدمشق الأمير عليا المارداني، نقله من حلب، وولى على حلب سيف الدين بكتمر المؤمني، ثم أدال من علي المارديني في دمشق باستدمر، ومن المؤمني في حلب بمندمر الحوراني، وأمره السلطان سنة إحدى وستين بغزو سيس وفتح أذنة وطرسوس والمصيصة في حصون أخرى، وولى عليها ورجع فولاه السلطان نيابة دمشق مكان استدمر، وولى على حلب أحمد بن القتمري. ثم عثر بدمشق سنة إحدى وستين على منجك بعد أن نال العقاب بسببه جماعة من الناس. فلما حضر عفا عنه السلطان وأمده وخيره في النزول حيث شاء من بلاد الشام. وأقام السلطان بقية دولته مستبدا على رجال دولته وكان يأنس بالعلماء والقضاة ويجمعهم في بيته متبذلا، ويفاوضهم في مسائل العلم، ويصلهم ويحسن إليهم ويخالطهم أكثر ممن سواهم إلى أن انقرضت دولته، والبقاء لله وحده.

ثورة بيبقا ومقتل السلطان حسن وولاية منصور

بن المعظم حاجي في كفالة بيبقا:

كان بيبقا هذا من موالي السلطان حسن وأعلاهم منزلة عنده، وكان يعرف بالخاصكي نسبة إلى خواص السلطان. وكان الناصر قد رقاه في مراتب الدولة وولاه الإمارة، ثم رفعه إلى الاتابكية وكان لجنوحه إلى الإستبداد كثيرا ما يبوح بشكاية مثل ذلك. فأحضره بعض الليالي بين حرمه وصرفه في جملة من الخدعة لبعض عواليه، وقادها فأسرها بيبقا في نفسه واستوحش. وخرج السلطان سنة إثنتين وستين إلى كوم برى وضرب بها خيامه، وأذن للخاصكي في مخيمه قريباً منه. ثم نمي عنه خبر الإنتقاض فأجمع القبض عليه، واستدعاه فامتنع من الوصول، وربما أشعره داعيه بالإسترابة فركب إليه الناصر بنفسه فيمن حضره من مماليكه وخواص أمرائه تاسع جمادى من السنة. وبرز إليه بيبقا وقد أنذر به واعتد له فصدقه القتال في ساحة مخيمه.

وانهزم أصحاب السلطان عنه ومضى إلى القلعة وبيبقا في اتباعه فامتنع الحراس بالقلعة من إخافة طارقة جوف الليل فتسرب في المدينة واختفى في بيت الأمير ابن الأزكشي بالحسينية، وركب الأمراء من القاهرة مثل ناصر

الدين الحسيني وقشتمر المنصوري وغيرهما لمدافعة يبيقا فلقيهم ببولاق وهزمهم، واجتمع ثانية وثالثة وهزمهم. وتنكر الناصر مع أيدمر الدوادار يحاولان النجاة إلى الشام واطلع عليهما بعض المماليك فوشى بهما إلى بيبقا فبعث من أحضره فكان آخر العهد به. ويقال إنه امتحنه قبل القتل فدله على أموال السلطان وذخائره، وذلك لست سنين ونصف من تملكه. ثم نصب بيبقا للملك محمد بن المظفر حاجي ولقبه المنصور، وقام بكفالته وتدبير دولته، وجعل طنبغا الطويل رديفه. وولى قشتمر المنصوري نائباً، وغشتمر أمير مجلس، وموسى الازكشي أستاذ دار. وأفرج عن القاسمي وبعثه نائباً بالكرك، وأفرج عن طاز وقد كان عمي فبعثه إلى القدس بسؤاله ثم إلى دمشق. ومات بها في السنة بعدها وأقر عجلان في ولاية مكة وولى على عرب الشام جبار بن مهنا، وأمسك جماعة من الأمراء فحبسهم، والله تعالى أعلم.

انتقاض استد مر بدمشق:

ولما اتصل بالشام ما فعله بيبقا، وأنه استبد بالدولة. وكان استدمر نائباً بدمشق كما قدمناه امتعض لذلك، وأجمع الانتقاض وداخله في ذلك مندمر وألبري ومنجك اليوسفي، واستولى على قلعة دمشق. وسار في العساكر ومعه السلطان المنصور، ووصل إلى دمشق واعتصم القوم بالقلعة. وترددت بينهما القضاة بالشام حتى نزلوا على الأمان بعد أن حلف بيبقا. فلما نزلوا إليه بعث بهم إلى الإسكندرية فحبسوا بها، وولى الأمير المارداني نائباً بدمشق وقطلو بغا الأحمدي نائباً بحلب مكان أحمد بن القتمري بصفد، وعاد السلطان المنصور وبيبقا إلى مصر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة الخليفة المعتضد بن المستكفى وولاية ابنه المتوكل:

قد تقدم لنا أن الخليفة المستكفي لما توفي قبل وفاة الملك الناصر عهد لابنه أحمد ولقبه الحاكم، وأن الناصر عدل عنه إلى إبراهيم بن محمد عم المستكفي ولقبه الواثق. فلما توفي الناصر آخر سنة إحدى وأربعين، وأغار الأمراء القائمون بالدولة والأمير أحمد الحاكم بن المستكفي ولي عهده، فلم يزل في خلافته إلى أن هلك سنة ثلاث وخمسين لأول دولة الصالح سبط تنكز. وولى بعده أخوه أبو بكر بن المستكفي ولقب المعتضد. ثم توفي سنة ثلاث وستين لعشرة أعوام من خلافته، وعهد إلى ابنه أحمد فولي مكانه ولقب المستكفي، والله تعالى أعلم.

خلع المنصور وولاية ا لأشرف:

ثم بدا البيبقا الخاصكي في أمر المنصور محمد بن حاجي فخلعه استرابة به في شعبان سنة أربع وستين لسبعة وعشرين شهرا من ولايته، ونصب مكانه شعبان بن الناصر حسن بن الملك الناصر، وكان أبوه قد توفي في ربيع الآخر من تلك السنة. وكان آخر بني الملك الناصر فمات فولي ابنه شعبان ابن عشر سنين ولقبه الأشرف، وتولى كفالته. وفي سنة خمس وستين عزل المارداني من دمشق وولى مكانه منكلي بغا نقله من حلب، وولى مكانه قطلو بغا الأحمدي. وتوفي قطلو بغا فولى مكانه غشقتمر المارداني. ثم عزل غشقتمر سنة ست وستين فولى مكانه سيف الدين فرجي، وأوعز إليه سنة سبع وستين أن يسير في العساكر لطلب خليل بن

قراجا بن العادل أمير التركمان فيحضره معتقلا، فسار إليه وامتنع في خرت برت فحاصره أربعة أشهر، واستأمن خليل بعدها وجاء إلى مصر فأمنه السلطان وخلع عليه، وولاه ورجع إلى بلده وقومه، والله تعالى أعلم.

واقعة الإسكندرية:

كان أهل جزيرة قبرص من أمم النصرانية وهم من بقايا الروم، وإنما ينتسبون لهذا

العهد إلى الإفرنج لظهور الإفرنج على سائر أمم النصرانية. وإلا فقد نسبهم هروشيوش إلى كيتم وهم الروم عندهم، ونسب أهل رودس إلى دوداتم وجعلهم إخوة كيتم ونسبهما معاً إلى رومان. وكانت على أهل قبرص جزية معلومة يؤدونها لصاحب مصر، وما زالت مقررة عليهم من لدن فتحها على يد معاوية أمير الشام أيام عمر. وكانوا إذا منعوا الجزية يسلط صاحب الشام عليهم أساطيل المسلمين فيفسدون مراسيها ويعيثون في سواحلها حتى يستقيموا لأداء الجزية. وتقدم لنا آنفا في دولة الترك أن الظاهر بيبرس بعث إليها سنة تسع وستين وستمائة اسطولا من الشواني، وطرقت مرساها ليلا فتكسرت لكثرة الحجارة المحيطة بها في كل ناحية. ثم غلب لهذه العصور أهل جنوة من الإفرنج على جزيرة رودس، حازتها من يد لشكري صاحب القسطنطينية سنة ثمان وسبعمائة وأخذوا بمخنقها. وأقام أهل قبرص معهم بين فتنة وصلح، وسلم وحرب، آخر أيامهم. وجزيرة قبرص هذه على مسافة يوم وليلة في البحر قبالة طرابلس منصوبة على سواحل الشام

ومصر. واطلعوا بعض الأيام على غرة في الإسكندرية وأخبروا حاجبهم، وعزم على انتهاز الفرصة فيها فنهض في أساطيله واستنفر من سائر الإفرنج، ووافى مرساها سابع عشر من المحرم سنة سبع وستين في أسطول عظيم يقال بلغ سبعين مركباً مشحونة بالعدة وبالعدد، ومعه الفرسان المقاتلة بخيولهم. فلما أرسى بها قدمهم إلى السواحل وعبى صفوفه، وزحف وقد غمق الساحل بالنظارة برزوا من البلد على سبيل النزهة لا يلقون بالاً لما هو فيه، ولا ينظرون مغبة أمره لبعد عهدهم بالحرب، وحاميتهم يومئذ قليلة وأسوارهم من الرماة المناضلين دون الحصون خالية. ونائبها القائم بمصالحها في الحرب والسلم، وهو يومئذ خليل بن عوام غائب في قضاء فرضه، فما هو إلا أن رجعت تلك الصفوف على التعبية ونضحوا العوام بالنبل فأجفلوا متسابقين إلى المدينة، وأغلقوا أبوابها وصعدوا إلى الأسوار ينظرون ووصل القرم إلى الباب فأحرقوه واقتحموا المدينة، واضطرب أهلها وماج بعضهم في بعض. ثم أجفلوا إلى جهة البر بما أمكنهم من عيالهم وولدهم، وما اقتدروا عليه من أموالهم، وسالت بهم الطرق والأباطح ذاهبين في غير وجه حيرة ودهشة. وشعر بهم الأعراب أهل الضاحية فتخطفوا الكثير منهم، وتوسط الإفرنج المدينة ونهبوا ما مروا عليه من الدور وأسواق البر ودكاكين الصيارفة ومودعات التجار، وملؤا سفنهم من المتاع والبضائع والذخيرة والصامت، واحتملوا ما استولوا عليه من السبي والأسرى وأكثر ما فيهم الصبيان والنساء. ثم تسايل إليهم الصريخ من العرب وغيرهم فانكفأ الإفرنج إلى أساطيلهم وانكمشوا فيها بقية يومهم وأقلعوا من الغد. وطار الخبر إلى كافل الدولة بمصر الأمير بيبقا فقام في ركائبه وخرج لوقته بسلطانه وعساكره، ومعه ابن عوام نائب الإسكندرية منصرفه من الحج، وفي مقدمته

خليل بن قوصون وقطلو بغا الفخري من أمرائه وعزائمهم مرهفة ونياهم في الجهاد صادقة، حتى بلغهم الخبر في طريقهم بإقلاع العدو فلم يثنه ذلك، واستمر إلى الإسكندرية وشاهد ما وقع بها من معرة الخراب وآثار الفساد، فأمر بهدم ذلك وإصلاحه، ورجع أدراجه إلى دار الملك، وقد امتلأت جوانحه غيظا وحنقا على أهل قبرص فأمر بإنشاء مائة أسطول من الأساطيل التي يسمونها القربان معتزما على غزو قبرص فيها بجميع من معه من عساكر المسلمين بالديار المصرية، واحتفل في الأستعداد لذلك، واستكثر من السلاح وآلات الحصار، وكمل غرضه من ذلك كله في رمضان من السنة لثمانية أشهر من الشروع فيه فلم يقدر على تمام غرضه من الجهاد لما وقع من العوائق كما نقصه، والله تعالى ولي التوفيق

.

ثورة الطويل ونكبته:

كان طنبغا الطويل من موالي السلطان حسن، وكانت وظيفته في الدولة أمير سلاح

وهو مع ذلك رديف بيبقا في أمره، وكان يؤمّل الإستبداد ثم حدثت له المنافسة والغيرة من بيبقا كما حدثت لسائر أهل الدولة عندما استكمل أمره واستفحل سلطانه، وداخلوا الطويل في الثورة وكان دوادار السلطان أرغون الأشقري وأستاذ دار المحمدي. وبيناهم في ذلك خرج الطويل للسرحة بالعباسية في جمادى سنة سبع وستين، وفشا الأمر ين أهل الدولة فنمي إلى بيبقا واعتزم على إخراج الطويل إلى الشام، وأصدر له المرسوم السلطاني بنيابة دمشق وبعث به إليه وبالخلعة على العادة مع أرغون الأشقري الدوادار وروس المحمدي أستاذ دار من المداخلين له، ومعه أرغون الأرقي وطنبغا العلائي من أصحاب بيبقا، فردهم الطويل وأساء إليهم.

وواعد بيبقا قبة النصر فهزمهم وقبض على الطويل والأشقري والمحمدي وحبسوا بالإسكندرية. ثم شفع للسطان في الطويل في شهر شعبان من السنة وبعثه إلى القدس، ثم أطلق الأشقري والمحمدي وبعث بهما إلى الشام وولى مكان الطويل طيدمر الباسلي ومكان الأشقري في الدويدارية طنبغا الأبي بكري. ثم عزله بيبقا العلائي وولى مكانه روس العادل المحمدي. وكان جماعة من الأمراء أهل وظائف في الدولة قد خرجوا مع الطويل وحبسوا فولى في وظائفهم أمراء آخرين ممن لم تكن له وظيفة، واستدعى منكلي بيبقا الشمسي نائب دمشق إلى مصر يطلبه فقدم نائباً بحلب مكان سيف الدين برجي، وآذن له في الإستكثار من العساكر، وجعلت رتبته فوق نائب دمشق، وولى مكانه بدمشق اقطمر عبد العزيز انتهى، والله تعالى أعلم.

المماليك

ثورة المماليك ببيبقا ومقتله واستبداد اد ستدمر:

كان طنبغا قد طال استبداده على السلطان وثقلت وطأته على الأمراء وأهل الدولة وخصوصا على مماليكه، وكان قد. استكثر من المماليك وأرهف حده لهم في التأديب وتجاوز الضرب فيهم بالعصا إلى جدع الأنوف واصطلام الآذان فكتموا الأمر في نفوسهم وضمائرهم لذلك وطووا على الغش: وكان كبير خواصه استدمر واقتفان الأحمدي، ووقع في بعض الأيام بمثل هذه العقوبة في أخي استدمر فستوحش له وارتاب، وداخل سائر

الأمراء في الثورة يرون فيها نجاهم منهم. وخلصوا النجوى مع السلطان فيه واقتضوا منه الإذن. وسرح السلطان بيبقا

إلى البحيرة في عام ثمان وسبعين، وانعقد هؤلاء المماليك المتفاوضون في الثورة بمترل الطرانة وبيتوا له فيها ونمي إليه خبرهم، ورأى العلامات التي قد أعطيها من أمرهم فركب مكرا في بعض خواصه وخاض النيل إلى القاهرة وتقدم إلى نواتية البحر أن يرسوا سفنهم عند العدوة الشرقية، ويمنعوا العبور كل من يرومه العدوة الغربية. وخالفه استدمر واقتفان إلى السلطان في ليلتهم وبايعوه على مقاطعة بيبقا ونكبته. ولما وصل بيبقا إلى القاهرة جمع من كان بها من الأمراء والحجاب من مماليكه وغيرهم، وكان بها أيبك البدري أمير ماخورية فاجتمعوا عليه. وكان يقتمر النظامي وأرغون ططن بالعباسية سارحين فاجتمعوا إليه فخلع الأشرف، ونصب أخاه أنوك ولقبه المنصور. وأحضر الخليفة فولاه واستعد للحرب وضرب مخيمه بالجزيرة الوسطى على عدوة البحر. ولحق به من كانت له معه صاغية من الأمراء الذين مع السلطان بصحابة أو أمر أو ولاية مثل: بيبقا العلائي الدوادار، ويونس الرمام وكمشيقا الحموي وخليل بن قوصون ويعقوب شاه وقرابقا البدري وابتغا الجوهري. ووصل السلطان الأشرف من الطرانة صبيحة ذلك اليوم على التعبية قاصدا دار ملكه، وانتهى إلى عدوة البحر فوجدها مقفرة من السفن فخيم هنالك، وأقام ثلاثاً وبيبقا وأصحابه قبالتهم بالجزيرة الوسطى ينفحونهم بالنبل، ويرسلون عليهم الحجارة من المجانيق وصواعق الأنفاط، وعوالم النظارة في السفن إلى أن تتوسط فيركبونها ويحركونها بالمجاذيف إلى ناحية السلطان، حتى كملت منها عدة وأكثرها من القربان التي أنشأها بيبقا، وأجاز فيها السلطان وأصحابه إلى جزيرة الفيل. وسار على التعبية، وقد ملأت عساكره وتابعه بسيط الأرض، وتركم القتام بالجو وغشيت سحابة موكب بيبقا وأصحابه فتقدموا للدفاع وصدقتهم عساكر السلطان القتال فانفضوا عن بيبقا وتركوه أوحش من وتد في قلاع فولى منهزماً ومر بالميدان فصلى ركعتين عند بابه، واستمر إلى بيته والعوام ترجمه في بطريقه. وسار السلطان في تعبيته إلى القلعة ودخل قصره، وبعث عن بيبقا فجيء به واعتقل بحبس القلعة سائر يومه. فلما غشي الليل ارتاب المماليك بحياته وجاؤا إلى السلطان يطلبونه، وقد أضمروا الفتك به وأحضره السلطان. وبينما هو مقبل على التضرع للسلطان ضربه بعضهم فأبان رأسه، وارتاب من كان منهم خارج القصر في قتله فطلبوا معاينته ولم يزالوا يناولون رأسه من واحد إلى واحد حتى رماه آخرهم في مشعل كان بإزائه. ثم دفن وفرغ من أمره، وقام بأمر الدولة استدمر الناصري ورديفه بيبقا الأحمدي ومعهما بحماس الطازي وقرابقا السرغتمشي وتغري بردي، المتولون كبر هذه الفعلة. وتقبضوا على الأمراء الذين عدلوا عنهم إلى بيبقا فحبسوهم بالإسكندرية. وقد مر ذكرهم وعزل خليل بن قوصون وألزم بيته وولوا أمراء مكان المحبوسين

وأهل وظائف من كانت له. واستقر أمر الدولة على ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

واقعة الاجلاب ثم نكبتهم ومهلك استدمر وذهاب دولته:

ثم تنافس هؤلاء القائمون بالدولة وحبسوا قرابقا السرغتمشي صاحبهم، وامتعض له

تغري بدمشق، وداخل بعض الأمراء في الثورة ووافقه أيبك البدري وجماعة معه، وركب منتصف رجب سنة ثمان وستين للحرب فركب له استدمر وأصحابه فتقبضوا عليهم وحبسوهم بالإسكندرية، وعظم طغيان هؤلاء الأجلاب وكثر عيثهم في البلد وتجاوزهم حدود الشريعة والملك. وفاوض السلطان أمراءه في شأنهم فأشاروا بمعاجلتهم وحسم دائهم فنبذ السلطان إليهم العهد، وجلس على كرسيه بالأساطيل، وتقدم إلى الأمراء بالركوب فركب الجائي اليوسفي وطغتمر النظاير وسائر أمراء السلطان، ومن استخدموه من مماليك بيبقا، وتحيز إليهم أيبقا الجلب وبحماس الظازي عن صاحبهما استدمر. وركب لقتالهم استدمر وأصحابه وسائر الأجلاب، وحاصروا القلعة إلى أن خرج عند الطلحساه السلطانية فاختل مركز الأمراء، وفارقهم المستخدمون عندهم من مماليك بيبقا فانفض جمعهم وانهزموا.

وثبت الجائي اليوسفي وارغون التتر في سبعين من مماليكهم فوقفوا قليلا، ثم انهزموا إلى قبة النصر، وقتل دروط ابن أخي الحاج الملك وقبض على أيبقا الجلب جريحا، وعلى طغتمر النظامي وعلى بحماس الطازي والجائي اليوسفي وأرغون التتر وكثير من أمراء الألوف ومن دونهم. واستولى استدمر وأصحابه الأجلاب على السلطان كما كانوا، وولى مكان المحبوسين من الأمراء وأهل الوظائف، وعاد خليل بن قوصون على إمرته. وعزل قشتمر عن طرابلس وحبس بالإسكندرية، واستبدل بكثير من أمراء الشام واستمر الحال على ذلك بقية السنة والاجلاب على حالهم في الإستهتار بالسلطان والرعية. فلما كان محرم سنة تسع وستين عادوا إلى الاجلاب على الدولة، فركب أمراء السلطان إلى استدمر يشكونهم ويعاتبونهم في شأنهم فقبض على جماعة منهم، كسر بهم الفتنة، وذلك يوم الأربعاء سادس صفر، فلما كان يوم السبت وعاودوا الركوب ونادوا بخلع السلطان فركب السلطان في مماليكه ونحو المائتين. والتف عليهم العوام وقد حنقوا على الاجلاب بشراشرهم فيهم.

وركب استدمر في الاجلاب على التعبية وهم ألف وخمسمائة وجاؤا من وراء القلعة على عادتهم حتى شارفوا القوم فأحجموا ووقفوا وأدلفتهم الحجارة من أيدي العوام بالمقاليع، وحملت عليهم العساكر فانهزموا وقبض على أبقا السرغتمشي وجماعة معه فحبسوا بالخزانة.

ثم جيء باستدمر أسيرا وشفع فيه الأمراء فشفعهم السلطان وأطلقه باقيا على أتابكيته، ونزل إلى بيته بقبض الكيس. وكان خليل بن قوصون تولى آتابكا في تلك الفترة فأمره السلطان أن يباكر به لحبسه من الغد، فركب خليل إلى بيته وحمله على الأنتقاض على أن يكون الكرسي لخليل بعلاقة نسبته إلى الملك الناصر من أمه. فاجتمع منهم جماعة من الاجلاب وركبوا بالرميلة فركب إليهم السلطان والأمراء في العساكر فانهزموا وقتل كثير منهم. وبعثوا بهم إلى الإسكندرية فحبسوا بها وقتل كثير ممن أسر في تلك الواقعة منهم، وطيف بهم على الجمال في أقطار المدينة. ثم تتبع بقية الاجلاب بالقتل والحبس بالثغور القاصية، وكان ممن حبس منهم بالكرك برقوق العثماني الذي ولي الملك بعد ذلك بمصر، وبركه الجولاني، وطنبغا الجوباني، وجركس الخليلي، ونعنع، وأقاموا كلهم متلفين بين السجن والنفي إلى أن اجتمع شملهم بعد ذلك كما نذكره. واستبد السلطان بأمره بعض الشيء وأفرج عن الجائي اليوسفي وطغتمر النظامي وجماعة من المسجونين من أمرائه، وولى الجائي

أمير سلاح وولى بيبقا المنصوري وبكتمر المحمدي من أمراء الاجلاب في الأتابكية شريكين. ثم نمي عنهما أنهما يرومان الثورة وإطلاق المسجونين من الاجلاب والاستبداد على السلطان فقبض عليهما. وبعث عن منكلي بغا الشمسي من حلب، وأقامه في الأتابكية. واستدعى أمير علي الماردايي من دمشق وولاه النيابة، وولى في جميع الوظائف استبدالا وإنشاء بنظره واختياره. وكان منهم مولاه أرغون الأشرفي. وما زال يرقيه في الوظائف إلى أن جعله أتابك دولته وكان خالصته كما سنذكر. وولى على حلب مكان منكلي بغا طنبغا الطويل وعلى دمشق مكان الماردايي بندمر الخوارزمي. ثم اعتقله وصادره على مائة ألف دينار ونفاه إلى طرطوس، وولى مكانه منجك اليوسفي نقله إليها من طرابلس وأعاد إليها غشقتمر الماردايي كما كان قبله. ثم توفي طنبغا الطويل بحلب آخر سنة تسع وستين بعد أن كان يروم الأنتقاض، فولى مكانه استبغا الأبو بكري. ثم عزله سنة سبعين وولى مكانه قشتمر المنصوري، والله تعالى ولي التوفيق بمنه وفضله.

مقتل قشتمر المنصوري بحلب في واقعة العرب:

كان جماز بن مهنا أمير العرب من آل فضل قد انتقض وولى السلطان مكانه ابن

عمه نزال بن موسى بن عيسى، واستمر جماز على خلافه ووطىء بلاد حلب أيام المصيف، واجتمع إليه بنو كلاب وامتدت أيديهم على السابلة فخرج إليهم نائب حلب قشتمر المنصوري في عساكره، فأغار على أحيائه واستاق نعمهم ومواشيهم وشره إلى اصطلامهم فتذامروا دون

أحيائهم، وكانت بينه وبينهم جولة أجلت عن قشتمر المنصوري وابنه محمد قتيلين، ويقال قتلهما يعبر بن جماز، ورجعت عساكر الترك منهزمين إلى حلب، وذهب جماز إلى القفر ناجياً به، وولى السلطان على العرب معيقيل بن فضل. ثم استأمن له جماز بن مهنا وعاود الطاعة فأعاده السلطان إلى إمارته، والله تعالى أعلم.

استبداد الجائي اليوسفي ثم انتقاضه ومقتله:

لما أذهب السلطان الأشرف أثر الاجلاب من دولته، وقام بعض الشيء بأمره فاستدعى منكلي بغا من حلب، وجعله أتابكا وأمير علي الماردايي من دمشق وجعله نائبا. وولى الجائي اليوسفي أمير سلاح، وولى أصبغا عبد الله دوادار بعد أن كان الاجلاب ولوا في الدوادارية منهم واحدا بعد واحد. ثم سخطه وولى مكانه أقطمر الصباحي، وعمر سائر الخطط السلطانية بمن وقع عليه اختياره، ورقى مولاه أرغون شاه في المراتب من واحدة إلى أخرى، إلى أن أربى به على الأتابكية كما يأتي. وولى بهادر الجمالي أستاذ دار ثم أميرالماخورية تردد بينهما. ثم استقر آخرا في الماخورية وولى محمد بن اسقلاص أستاذ دار، وولى بيبقا الناصري بالحجابة بعد وظائف أخرى نقله منها. وزوج أمه الجائي اليوسفي فعلت رتبته بذلك في الدولة، واستغلظ أمره وأغلظ له الدوادار يوماً في القول فنفي، وولى مكانه منكوتمر عبد الغني. ثم عزل سنة إثنتين وسبعين لسنة من ولايته، وولى السلطان مكانه طشتمر العلائي الذى كان دوادار البيبقا، واستقرت الدولة على هذا النمط والجائي اليوسفي مستبد فيها ووصل وفود منجك من الشام سنة أربع وسبعين بما لا يعبر عنه. اشتمل على الخيل والبخاتي المجللة

والجمال والهجن والقماش والحلاوات والحلي والطرف والمواعين، حتى كان فيها من الكلاب الصائدة والسباع والإبل ما لم ير مثله في أصنافه. ثم وصل وفود قشتمر المارداني من حلب على نسبة ذلك، والله تعالى أعلم.

انتقاض الجائي اليوسفي ومهلكه واستبد اد

الاشرف بملكه من بعده:

لم تزل الدولة مستقرة على ما وصفناه إلى أن هلك الأمير منكلي بغا بالأتابك منتصف سنة أربع وسبعين، واستضاف الجائي اليوسفي الأتابكية إلى ما كان بيده ورتبته أشد من ذلك كله، وهو القائم المستبد بها. ثم توفيت أم السلطان وهي في عصمته فاستحق منها ميراثاً دعاه لؤم

الأخلاق فيه إلى المماحكة في المخلف وتجافى السلطان له عن ذلك إلا أنه كان ضيق الصدر شرس الأخلاق فكان يغلظ القول بما يخشن الصدور، فأظلم الجو بينه وبين السلطان، وتمكنت فيه السعاية. وذكرت بهذه انتقاضه الأول، وذلك أنه كان سخط في بعض النزعات على بعض العوام من البلد فأمر بالركوب إلى العامة وقتلهم فقتل منهم كثير ونمي الخبر إلى السلطان على ألسنة أهل البصائر من دولته، وعذلوه عنده فاستشاط السلطان وزجره وأغلظ له فغضب، وركب إلى قبة النصر منتقضا. وذهب السلطان في مداراة أمره إلى الملاطفة واللين. وكان الأتابك منكلي بغا يوم ذاك حيا فأوعز السلطان إليه فرجع وخلع عليه وأعاده إلى أحسن ما كان. فلما بدرت هذه الثانية حذر السلطان بطانته من شأنه، وخرج هو منتقضا وركب في مماليكه بساحة القلعة. وجلس السلطان وترددت الرسل بينهما بالملاطفة فأصر واستكبر، ثم أذن السلطان لمماليكه في قتاله وكان أكثرهم من الاجلاب مماليك بيبقا، وقد جمعهم السلطان واستخدمهم في جملة ابنه أمير علي ولي عهده، فقاتلوه في محرم. سنة خمس وتسعين وكان موقفه في ذلك المعترك إلى حائط الميدان المتصل بالأساطيل فنفذت له المقاتلة من داخل الأساطيل ونضحوه بالسهام، فتنحى عن الحائط حتى إذا حل مركزه ركبوا خيولهم وخرجوا من باب الأساطيل. وصدقوا عليه الحملة فانهزم إلى بركة الحبش ورجع من وراء الجبل إلى قبة النصر، فأقام بها ثلاثا والسلطان يراوضه وهو يشتط وشيعه يتسللون عنه. ثم بعث إليه بالسلطان لمة من العسكر ففر أمامهم إلى قليوب، واتبعوه فخاض البحر وكان آخر العهد به. ثم أخرج شلوه ودفن وأسف السلطان لمهلكه، ونقل أولاده إلى قصره ورتب لهم ولحاشيته الأرزاق في ديوانه. وقبض على من اتهمه بمداخلته وأرباب وظائفه فصودروا كلهم وعزلوا وغربوا إلى الشام. واستبد السلطان بأمره،. واستدعى القري الدوادار، وكان نائباً بطرابلس فولاه أتابكا مكان الجائي ورفع رتبته. وولى أرغون شاه وجعله أمير مجلس، وولى سرغتمش من مواليه أمير سلاح، واختص بالسلطان طشتمر الدوادار وناصر الدين محمد بن اسقلاص أستاذ دار، فكانت أمور الدولة منقسمة بينهما، وتصاريفها تجري بسياستهما إلى أن كان ما نذكره، والله تعالى ولي التوفيق.

استقدام منجك للنيابة:

كان أمير علي الماردانى قد توفي سنة إثنتين وسبعين، وبقيت وظيفته خلوا المكان الجائي اليوسفي وأحكامه.
ولما هلك سنة خمس وسبعين ولى السلطان أقطمر عبد الغني نائبا. ثم بدا له أن يولي في النيابة منجك اليوسفي لما رآه فيه من الأهليه لذلك والقيام به، ولتقلبه في الإمارة منذ عهد

الناصر حسن، وأنه كان من مواليه أخا لبيبقا روس وطاز وسرغتمش فهو بقية المناجب. فلما وقع نظره عليه بعث في استقدامه بيبقا الناصري من أمراء دولته، وولى مكانه بندمر الخوارزمي، وأعاد عشقتمر إلى حلب مكانه. ووصل منجك إلى مصر آخر سنة خمس وسبعين ومعه مماليكه وحاشيته، وصهر إلى روس المحمدي فاحتفل السلطان في تكرمته، وأمر أهل الدولة بالركوب لتلقيه، فتلقاه الأمراء والعساكر وأرباب الوظائف من القضاء والدواوين وأذن له في الدخول من باب السرراكبا وخاصة السلطان مشاة بين يديه حتى نزل عند مقاعد الطواشية بباب القصر حيث يجلس مقدم المماليك استدعي إلى السلطان فدخل، وأقبل عليه السلطان وشافهه بالنيابة المطلقة، وفوض إليه الولاية والعزل في سائر المراتب السلطانية من الوزراء والخواص والقضاة والأوقاف وغيرها، وخلع عليه وخرج. ثم قرر تقليده بذلك في الإيوان ثاني يوم وصوله فكان يوماً عهوداً.
وولى الأشرف في ذلك اليوم بيبقا الناصري الذي قدم به حاجبا. ثم سافر عشقتمر نائب حلب آخر سنة ست وسبعين بعدها بالعساكر إلى بلاد الأرمن ففتح سائر أعمالها، واستولى على ملكها النكفور بالأمان فوصل بأهله وولده إلى الأبواب السلطانية ورتب لهم الأرزاق، وولى السلطان على سيس وانقرض منها ملك الأرمن.
وتوفي منجك آخر هذه السنة فولى السلطان اقتمر الصاجي المعروف بالحلي. ثم عزله ورفع مجلسه وولى مكانه اقمر الألقني. ثم توفي جبار بن، هنا أمير العرب بالشام فولى السلطان ابنه يعبرا مكانه. ثم توفي أمير مكة من بني حسن فولى الأشرف مكانه، واستقرت الأمور على ذلك، والله أعلم.
الخبر عن مماليك بيبقا وترشيحهم في الدولة:
كان السلطان الأشرف بعد أن سطا بمماليك بيبقا تلك السطوة وقسمهم بين القتل والنفي وأسكنهم

السجون، وأذهب أثرهم من الدولة بالجملة أرجع جملة منهم بعد ذلك. وعاتبه منكلي أبغا في شأنهم، وأن في اتلافهم قص جناح الدولة، وإنهم ناشئة من الجند يحتاج الملك لمثلهم فندم على من قتل منهم، وأطلق من بقي من المحبوسين بعد خمس من السنين، وسرحهم إلى الشام يستخدمون عند الأمراء، وكان فيمن أطلق الجماعة الذين بحبس الكرك وهم: برقون العثماني وبركة الجوباني وطنبقا الجوباني وجركس الخليلي ونعنغ، فأطلقوا إلى الشام. ودعا منجك صاحب الشام كبراءهم إلى تعليم المماليك ثقافة الرمح، وكانوا بصراء بها فأقاموا عنده مدة، أخبرني بذلك الطنبقا الجوباني أيام اتصالي به قال وأقمنا عند منجك إلى أن استدعاه السلطان الأشرف وكتب إليه الجائي اليوسفي بمثل ذلك فاضطرب في أيهما يجيبه فيها. ثم أراد أن يخرج من العهدة فرد الأمر إلينا فأبينا إلا امتثال أمره فتحير. ثم اهتدى إلى أن يبعث إلى

الجائي اليوسفي، ودس إلى قرطاي كافل الأمير علي ابن السلطان وكان صديقه بطلبنا من الجائي بخدمة ولي العهد، وصانع الجهتين بذلك قال: وصرنا إلى ولي العهد فعرضنا على السلطان أبيه واختصنا عنده بتعليم

الثقافة لمماليكه إلى أن دعانا السلطان يوم واقعة الجائي وهو جالس بالإسطبل فندبنا لحربه وذكرنا حقوقه وأزاح عللنا بالجياد والأسلحة، فجلبنا في قتله إلى أن انهزم، وما زال السلطان بعدها يرعى لنا ذلك ويقدمنا. انتهى خبر الجوباني. وكان طشتمر الدوادار قد لطف محله عند الأشرف وخلا له وجهه وكان هواه في اجتماع مماليك بيبقا في الدولة يستكثر بهم فيما يومله من الاستبداد على السلطان. فكان يشير في كل وقت على الأشرف باستقدامهم من كل ناحية واجتماعهم عصابة للدولة يخادع بذلك عن قصده ؛ وكان محمد بن اسقلاص أستاذ دار يساميه في الدولة ويزاحمه في مخالصة بالأشرف ولطف المحل عنده، ينهى السلطان عن ذلك ويحذره مغبة اجتماعهم فغص طشتمر بذلك. وكان عند السلطان مماليك دونه من مماليكه الخاصكية شبابا قد اصطفاهم وهذبهم وخالصهم بالمحبة والصهر ورشحهم للمراتب وولى بعضهم. وكان الأكابر من أهل الدولة يفضون إليهم بحاجاتهم ويتوسلون بمساعيهم فصرف طشتمر إليهم وجه السعاية، وغشي مجالسهم وأغراهم بابن اسقلاص، وإنه يصد السلطان أكثر الأوقات عن أغراضهم منه، ويبعد أبواب الانعام والصلات منه.

وصدق ذلك عندهم كثرة حاجاتهم في وظيفته، وتقرر الكثير منها عليهم عنده فوغرت صدورهم منه، وأغروا به السلطان بأطباق اغراء طشتمر طاهراً حتى تمت عليهم نكبته، وجمعت الكلمة وقبض عليه منتصف جمادي سنة سبع وثمانين، ونفاه إلى القدس فخلا لطشتمر وجه السلطان وانفرد بالتدبير، واجتمع المماليك البيبقاوية من كل ناحية حتى كثروا أهل الدولة وعمروا مراتبها ووظائفها، واحتاروها من جوانبها إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

حج السلطان الاشرف وانتقاض المماليك عليه بالعقبة

وما كان مع ذلك من ثورة قرطاي بالقاهرة وبيعة

الامير علي ولي العهد ومقتل السلطان اثر ذلك:

لما استقر السلطان في دولته على أكمل حالات الاستبداد والظهور، وأذعان الناس. لطاعته في كل ناحية، وأكمل الله له الامتاع بملكه ودنياه، سمت نفسه إلى قضاء فرضه، فأجمع الحج سنة

ثمان وسبعين، وتجهز لذلك واستكثر من الرواحل المستجادة والزودة المثقلة من سائر الأصناف. واستعد للسفر واحتفل في الأبهة بما لم يعهد مثله، واستخلف ابنه ولي العهد في ملكه، وأوصى النائب اكتمر عبد النبي بمباكرة بابه والانتهاء إلى مراسمه. وأخرج بني الملك الناصر المحجوبين بالقلعة مع سرد الشيخوني إلى الكرك يقيمون به إلى منصرفه. ولجهز الخليفة العباسي محمد المتوكل بن المعتضد والقضاة للحج معه، وجهز جماعة إلى الأمراء أهل دولته وأزاح عللهم وملأ بمعروفه حقائبهم. وخرج ثاني عشر شوال في المراكب والقطارات يروق الناظرين كثرة ومخافة وزينة، والخليفة والقضاة والأمراء حفا فيه. وبرز النظارة حتى العواتق من خدورهن، وتجللت بمركبهم البسيطة وماجت الأرض بهم موجا، وخيم بالبركة مترل الحاج وأقام بها أياماً حتى فرغ الناس من حاجاتهم. وارتحل، فما زال يتنقل في المنازل إلى القعبة. ثم أقام فيها على عادة الحاج، وكان في نفوس المماليك وخصوصا البيبقاوية وهم الأكثر شجى يتشوقون به إلى الاستبداد من الدولة، فتنكروا واشتطوا في

اقتضاء أرزاقهم والمباشرون يعللونهم وانتهى أمرهم إلى الفساد. ثم طلبوا العلوفة المستقبلة إلى دار الأزلم، فاعتذر المباشرون بأن الأقوات حملت إلى الأمام فلم يقبلوا، وكشفوا القناع في الأنقاض وباتوا ليلتهم على تعبية. واستدعى الأشرف طشتمر الدوادار، وكان كبيرهم، ففاوضه في الأمر ليفل من عزمهم، فأجمل العذر عنهم، وخرج إليهم. فخرجوا، ثم ركبوا من الغد واصطفوا وأركبوا طشتمر معهم، ومنعوه من معاودة السلطان. وتولى كبر ذلك منهم مبارك الطازي وسراي تمر المحمدي وبطلقمر العلائي، وركب السلطان في خاصته يظن أنهم يرعوون أو يجنح إليه بعضهم فأبوا إلا الاحفاف على قتاله. ونضحوا موكبه بالنبل لما عاينوه فرجع إلى خيامه منهزما. ثم ركب البحر في لفيف من خواصه ومعه أرغون شاه الأتابك وبيبقا الناصري، ومحمد بن عيسى صاحب الدرك من لفائف الأعراب أهل الضاحية، وفي ركابه جماعة الشباب الذين أنشأهم في مخالصته ورشحهم للوظائف في دولته كما مر. وخام الفل إلى القاهرة، وقد كان السلطان عندما سافر عن القاهرة ترك بها جماعة من الأمراء والمماليك مقيمين في وظائفهم، كان منهم: قرطاي الطازي كافل أمير علي ولي العهد، واقتمر الخليلي، وقشتمر واستدمرالسرغتمشي وأيبك البدري. وكان شيطان من المتمردة قد أوحى إلى قرطاي بأنه يكون صاحب الدولة بمصر، فكان يتشوف لذلك ويترصد له. وربما وقع بينه وبين وزير الدولة منازعة في جراية مماليك مكفوله ولي

العهد وعلوفاتهم، وأغلظ له فيها الوزير فوجم وأخذ في أسباب الأنتقاض. وداخل في ذلك بعض أصحابه وواعدهم ثالث ذي القعدة، وتقدم إلى داية ولي العهد ليلة ذلك اليوم بأن يصلح من شأنه ويفرغ عليه ملابس السلطان، ويهيئه لجلوس التخت. وركب هو صبيحة ذلك اليوم ووقف بالرميلة عند مصلى العيد. وتناول قطعة من ثوب فنصبها لواء، وكان صبيان المدينة قد شرعوا في اتخاذ الدبادب والطبيلات للعيد فأمر بتناول بعضها منهم. وهرعت بين يديه وتسايل الناس إليه من كل أوب، ونزل من كان بطباق القصر وغرفه وبالقاهرة من المماليك، واجتمعوا إليه حتى كظ ذلك الفضاء.وجاؤا تعادي بهم الخيل فاستغلظ لفيفهم، ثم اقتحم القلعة في جمعه من باب الاصطبل إلى بيت مكفوله ولي العهد أمير علي عند باب السمتارة يطلبونه، وقضوا على زمام الذود وكانوا عدة حتى أحضروا ولي العهد وجاؤوا به على الأكتاف إلى الإيوان فأجلسوه على التخت، وأحضروا أيدمر نائب القلعة فبايع له. ثم أنزلوه إلى باب الاصطبل وأجلسوه هناك على الكرسي. واستدعى الأمراء القائمين بالقاهرة فبايعوه، وحبس بعضهم بالقلعة. وبعث أكتمر الحلي إلى الصعيد يستكشف أحواله، واختص منهم أيبك فجعله رديفاً في دولته. وباتوا كذلك وأصبحوا يسائلون الركبان ويستكشفون خبر السلطان. وكان السلطان لما انهزم من العقبة سار ليلتين وجاء إلى البركة آخر الثانية، وجاءه الخبر بواقعة القاهرة وما فعله قرطاي، وتشاوروا فأشار محمد بن عيسى بقصد الشام، وأشار آخرون بالوصول إلى القاهرة. وسار السلطان إليها واستمروا إلى قبة النصر، وتهافتوا عن رواحلهم باطلاح وقد أنهكهم التعب وأضناهم السير، فما هو إلا أن وقعوا لمناكبهم وجنوبهم وغشيهم النعاس. وجاء الناصري إلى السلطان الأشرف من بينهم فتنصح له بأن يتسلل من أصحابه، ويتسرب في بعض البيوت بالقاهرة حتى يتبين له وجه مذهبه، وانطلق

بين يديه فقصد بعض النساء ممن كان ينتاب قصده، واختفى فظن النجاة في ذلك وفارقه الناصري يطلب نفقا في الأرض، وقد كانوا بعثوا من قبة النصر بعض المماليك عنهم روائد يستوضحون الخبر فأصبحوا بالرميلة أمام القلعة وتعرف الناس أنه من الحاج فرفعوه إلى صاحب الدولة، وعرض عليه العذاب حتى أخبره عن السلطان، وأنه وأصحابه بقبة النصر مصرعين من غشي النوم فطار إليهم شراد العسكر مع استدمر السرغتمشي، والجمهور في ساقتهم حتى وقفوا عليهم في مضاجعهم.وافتقدوا السلطان من بينهم وقتلوهم جميعا وجاؤا برؤسهم ووجموا لافتقاد السلطان ونادوا بطلبه، وعرضوا العذاب والقتل على محمد بن عيسى صاحب الدرك، فتبرأ وحبس رهينة من ثقاته. ثم جاءت امرأة إلى أيبك فدلته عليه في بيت جارتها فاستخرجوه من ذلك البيت، ودفعوه إلى أيبك فامتحنه حتى دلهم على الذخيرة والأموال. ثم قتلوه خنقا وجددوا البيعة لابنه الأمير علي ولقبوه المنصور. واستقل بدولته كافله من قبل الأميرة قرطاي ورديفه أيبك البدري، واستقر الأمر على ذلك.

مجيء طشتمر من العقبة وانهزامه ثم مسيره إلى الشام

وتجديد البيعة للمنصور بأذن الخليفة وتقديمه:

لما انهزم السلطان من العقبة ومضى إلى القاهرة اجتمع أهل الثورة على قشتمر ، وألقوا إليه القياد ودعوا الخليفة إلى البيعة له فتفادى من ذلك. ومضى الحاج من مكة مع أمير المحمل بهادر الجمالي على العادة. ورجع القضاة والفقهاء إلى القدس، وتوجه طشتمر والأمراء إلى مصر لتلافي السلطان أو تلفه فلقيهم خبر مهلكه بعجرود ، وما كان من بيعة ابنه واستقلال قرطاي بالملك فثاب لهم رأي آخر في حرب أهل الدولة، وساروا على التعبية وبعثوا في مقدمتهم قطلقتمر. ولقي طلائع مصر فهزمهم وسار في اتباعهم إلى ساحة القلعة فلم يشعر إلا وقد تورط في جمهور العسكر فتقبضوا عليه. وكان قرطاي قد بعث عن اقتمر الصاحبي الحنبلي من الصعيد، ويرجع في العساكر لحرب قشتمر وأصحابه فبرز إليهم والتقوا في ساحة القلعة. وانهزم قشتمر إلى الكيمان بناحية مصر ؛ ثم استأمن فأمنوه واعتقلوه. ثم جمع الناس ليوم مشهود، وحضر الخليفة والأمراء والقضاة والعلماء وعقد الخليفة للمنصور بن الأشرف وفوض إليه. وقام قرطاي بالدولة وقسم الوظائف فولى قشتمر اللفاف واستأمر السرغتمشي أمير سلاح، وقطلوبغا البدري أمير مجلس، وقرطاي الطازي رأس نوبة وأياس السرغتمشي دوادار، وأيبك البدري أمير الماخورية، وسردون جركس أستاذ دار، واقتمر الحنبلي نائباً وجعل له الإقطاع للأجناد والأمراء والنواب. وأفرج عن طشتمر العلائي الدوادار وأقطعه الإسكندرية وأحضر بنيئ الملك الناصر من الكرك مع حافظهم سردون الشيخوني وولاه حاجبا، وكذلك قلوط السرغتمشي، وأصاب الناس في آخر السنة طاعون إلى أول سنة تسع وسبعين، فهلك طشتمر اللفاف الأتابك، وولي مكانه قرطاي الطازي في وظيفته. واستدعي بيبقا الناصري من الشام فاختصه الأمير الكبير قرطاي بالمخالصة والمشاورة.

نكبة قرطاي واستقلال أيبك بالدولة ثم مهلكه:

كان أيبك الغزي هذا قد ردف قرطاي في حمل الدولة من أول ثورتهم وقيامهم على

السلطان، فخالصه وخلطه بنفسه في الإصهار إليه. وكان أيبك يروم الإستبداد بشأن أصحابه، وكان يعرف من قرطاي عكوفه على لذاته وانقسامه مع ندمائه فعمل قرطاي في صفر سنة تسع وسبعين ضيافة في بيته، وجمع ندماءه مثل سودون جركس ومبارك الطازي وغيرهم. وأهدى له أيبك نبيذا أذيب فيه بعض المرقدات فباتوا يتعاطونه حتى غلبهم السكر على أنفسهم ولم يفيقوا. فركب أيبك من ليلته، وأركب السلطان المنصور معه واختار الأمر لنفسه، واجتمع إليه الناس وأفاق قرطاي بعد ثلاث وقد انحلت عنه العقدة، واجتمع الناس على أيبك فبعث إليه قرطاي يستأمن فأمنه، ثم قبض عليه فسيره إلى صفد، واستقل أيبك بالملك والدولة. ثم بلغه منتصف صفر من السنة انتقاض طشتمر بالشام وانتقاض الأمراء هنالك في سائر الممالك على الخلاف معه، فنادى في الناس بالمسير إلى الشام فتجهزوا وسرح المقدمة آخر صفر مع ابنه أحمد وأخيه قطلوفجا، وفيها من مماليكه ومماليك السلطان وجماعة من الأمراء كان منهم الأميران برقوق وبركة المستبدان بعد ذلك. ثم خرج أيبك ثاني ربيع في الساقة بالسلطان والأمراء والعساكر وانتهوا إلى بلبيس. وثار الأمراء الذين كانوا مع أخيه في المقدمة ورجع إليه منهزماً فأجفل راجعاً إلى القلعة بالسلطان والعساكر. وخرج عليه ساعة وصوله يوم الإثنين جماعة من الأمراء، وهم قطلتمر العلائي الطويل والطنبقا السلطاني والنعناع وواعدوه قبة النصر، فسرح إليهم العساكر مع أخيه قطلوفجا فأوقعوا به وقبضوا عليه. وبلغ الخبر إلى أيبك فسرح من حضره من الأمراء للقائهم، وهم أيدمر الشمسي واقطمر عبد الغني وبهادر الجمالي ومبارك الطازي في آخرين. ولما تواروا عنه ركب هو هارباً إلى كيمان مصر، واتبعه أيدمر القنائي فلم يقف له على خبر. ودخل الأمراء من قبه النصر إلى الاسطبل، وأمضوا الأمراء إلى قطلتمر العلائي وهم يحاذونه، وأشير عليه بخلع المنصور، والبيعة لمن يقوم على هذا الأمر من أبناء السلطان فأبى. ثم وصل صبيحة الثلاثاء الأمراء الذين ثاروا فجاء أخو أيبك في مقدمة العسكر، وفيهم بيبقا الناظري ودمرداش اليوسفي، وبلاط من أمراء الألوف وبرقوق وبركة وغيرهما من الطلخامات فنازعوهم الأمر وغلبوهم عليه، وبعثوا بهم إلى الإسكندرية معتقلين. وفوض الأمراء إلى بيبقا الناظري فقام بأمرهم وهو شعاع وآراؤهم مختلفة. ثم حضر يوم الأحد التاسع مع ربيع أيبك صاحب الدولة، وظهر من الاختفاء، وجاء إلى بلاط منهم وأحضره عند بيبقا الناظري فبعث به إلى الإسكندرية فحبسه بها وكان بيبقا الناظري يختص برقوق وبركة بالمفاوضة استرابة بالآخرين، فاتفق رأيهم على أن يستدعى طشتمر من الشام وينصبوه للإمارة فبعثوا إليه بذلك وانتظروه.

استبداد الاميرين أبي سعيد برقوق وبركة بالدولة من بعد أيبك

ووصول طشتمر من الشام وقيامه بالدولة ثم نكبته:

لما تغلب هؤلاء الأمراء على الدولة ونصبوا بيبقا الناظري، ولم يمضوا له الطاعة

بقي أمرهم مضطرباً وآراؤهم مختلفة. وكان برقوق وبركة أبصر القوم بالسياسة وطرق التدبير، وكان الناظري يخالصهما كما مر فتفاوضوا في القبض على هؤلاء المتصدين للمنازعة، وكبح شكائمهم وهم دمرداش اليوسفي، وترباي الحسيني، وافتقلاص السلجوقي، واستدمر بن العثماني في آخرين من نظرائهم. وركبوا منتصف صفر، وقبضوا عليهم أجمعين وبعثوا بهم إلى الإسكندرية فحبسوهم بها، واصطفوا بلاطاً منهم وولوه الإمارة وخلطوه بأنفسهم، وأبقوا بيبقا الناظري على أتابكيته كما كان، وانزلوه من القلعة فسكن بيت شيخو قبالته، وولى برقوق أمير الماخورية ونزل باب الاصطبل، وولى بركة الجوباني أمير مجلس، واستقرت الدولة على ذلك. وكان طشتمر نائب الشام قد انتقض واستبد بأمره وجمع عساكر الشام وأمراءه، واستنفر العرب والتركمان وخيم بظاهر دمشق يريد السير إلى مصر. وبرز أيبك من مصر بالسلطان والعسكر يريد الشام لمحاربته فكان ما قدمناه من نكبته وخروج الأمراء عليه، ومصيرهم إلى جماعة البيبقاوية الظافرين بأيبك، ومقدمهم بيبقا الناظري. ثم تفاوض بيبقا الناظري مع برقوق وبركة في استدعاء طشتمر فوافقاه ونظراه رأيا وفيه طلب الصلح من الذين معه وحسم الداء منه بكونهم في مصر فكتبوا إليه بالوصول إلى مصر للأتابكية وتدبير الدولة، وأنه شيخ البيبقاوية وكبيرهم فسكنت نفسه لذلك، ووضع أوزار الفتنة وسار إلى مصر فلما وصلها اختلفوا في أمره وتعظيمه. وأركبوا السلطان إلى الزيدانية لتلقيه ودفعوا الأمراء إليه. واشاروا له إلى الأتابكية ووضعوا زمام الدولة في يده فصار إليه التولية والعزل والخل والعقد. وولى بيبقا الناظري أمير سلاح مكان سباطا، وبعثوا بلاطا إلى الكرك لاستقلال طشتمر بمكانه. وولى بندمر الخوارزمي نائبا بدمشق على سائر وظائف الدولة وممالك الشام كما اقتضاه نظره. ووافق عليه أستاذ دار برقوق وبركة، وولى أيبك اليوسفي فرتب برقوق رأس نوبة مكان الناظري. واستمر الحال على ذلك، وبرقوق وبركة أثناء هذه الأمور يستكثران من المماليك استغلاظا لشوكتهما، واكتنافاً لعصبيتهما أن يمتد الأمير إلى مراتبهما، فيبذلان الجاه لتابعهما، ويوفران الإقطاع لمن يستخدم لهما ويخصان بالإمرة من يجنح من أهل الدولة إليهما وإلى أبوابهما. وانصرفت الوجوه عن سواهما. وارتاب طشتمر بنفسه في ذلك وأغراه أصحابه بالتوثب بهذين الأميرين

فلما كان ذو الحجة سنة تسع وسبعين استعجل أصحابه على غير روية، وبعثوا إليه فأحجم وقعد عن الركوب. واجتمع برقوق وبركة بالاصطبل فركن إليه، وقاتل مماليك طشتمر بالرميلة ساعة من نهار وانهزموا وافترقوا واستأمن طشتمر فأمنوه واستدعوه إلى القلعة فقبضوا عليه وعلى جماعة من أصحابه منهم: أطلمش الأرغوني ومدلان الناظري وأمير حاج بن مغلطاي ودواداره أرغون. وبعث بهم إلى الإسكندرية فحبسوا بها. وبعث معهم بيبقا الناصري كذلك. ثم أفرج عنه لأيام وبعثه نائبا عن طرابلس. ثم أفرج عن طشتمر بعد ذلك إلى دمياط، ثم إلى القدس إلى أن مات سنة سبع وثمانين. واستقامت الدولة للأميرين بعد اعتقالهما، وخلت لهما من المنازعين. وولى الأمير برقوق أتابكا وولى الماخورية الجابي الشمسي، وولى قريبه أنيال أمير سلاح مكان بيبقا الناصري، وولى اقمتر العثماني لوادار مكان أطلمش الأرغوني. وولى الطنبغا الجوباني رأس نوبة ثانيا ودمرداش أمير مجلس. وتوفي بيبقا النظامي نائب حلب فولى مكانه عشقتمر المارداني. ثم استأذن عشقتمر فأذن

له وحبس بالإسكندرية وولى بحلب تمرتاش الحسيني الدمرداشي. ثم أفرج عنه وأقام بالقدس قليلا. ثم استدعاه بركة وأكرم نزله وبعثه نائبا إلى حلب.

ثورة انيال ونكبته:

كان أنيال هذا أمير سلاح وكان له مقام في الدولة وهو قريب الأمير برقوق، وكان

شديد الإنحراف على الأمير بركة، ويحمل قريبه على منافرته ولا يجيبه إلى ذلك فاعتزم على الثورة، وتحين لها سفر الأمير بركة إلى البحيرة يتصيد، فركب الأمير برقوق في بعض تلك الأيام متصيدا بساحة البلد، فرأى أن قد خلا له الجو فركب وعمد إلى باب الاصطبل فملكه، ومعه جماعة من مماليكه ومماليك الأمير برقوق. وتقبضوا على أمير الماخورية جركس الخليلي. واستدعوا السلطان المنصور ليظهروه للناس فمنعه المقدمون من باب الستارة. وجاء الأمير برقوق من صيده ومعه الأتابك الشمسي فوصلوا إلى متزله خارج القلعة، وافرغوا السلاح على سائر مماليكهم، وركبوا إلى ساحة الاصطبل. ثم قصدوا إلى الباب فأحرقوه وتسلق الأمير قرطاي المنصوري من جهة باب السر وفتحه لهم فدخلوا منه، ودافعوا أنيال وانتقض عليه المماليك الذين كانوا معه من مماليك الأمير برقوق. ورموه بالسهام فانهزم ونزل إلى بيته جريحا. وأحضر إلى الأمير برقوق فاعتذر له بأنه لم يقصد بفعلته إلا التغلب على بركة فبعث به إلى الإسكندرية معتقلاً ، وأعاد بيبقا الناصري أمير سلاح كما كان، واستدعي لها من نيابة طرابلس

. ووصل الخبر إلى بركة فأسرع الكر من البحيرة وانتظم الحال، ونظروا في الوظائف التي خلت في هذه الفتنة فعمروها بمن يقوم بها. واختصوا بها من حسن غناؤه في هذه الواقعة مثل قردم وقرط وذلك سنة إحدى وثمانين. وأقام أنيال معتقلا بالإسكندرية. ثم أفرج عنه في صفر سنة إثنتين وثمانين، وولى على طرابلس. ثم توفي منكلي بقا الأحمدي نائب حلب فولى أنيال مكانه. ثم تقبض عليه آخر السنة وحبس بالكرك وولى مكانه بيبقا الأحمدي فولى مكانه بندمر الخوارزمي. ثم توفي سنة إحدى وثمانين جبار بن المهنا أمير العرب بالشام فولي مكانه معيقل بن فضل ابن عيسى وزامل بن موسى بن عيسى شريكين، ثم عزلا وولي بعبر بن جبار.

ثورة بركة ونكبته واستقلال الأمير برقوق بالدولة:

كان هذا الأمير بركة يعادل الأمير برقوق في حمل الدولة كما ذكرناه، وكان أصحابه يقوضون إليه الاستبداد في الأموال. وكان الأمير برقوق كثير التثبت في الأمور والميل إلى المصالح فيعارضهم في الغالب، ويضرب على أيديهم في الكثير من الأحوال فغضوا بمكانه، وأغروا بركة بالتوثب والاستقلال بالأمر وسعوا عنده بأشمس من كبار أصحاب الأمير برقوق، وأنه يحمل برقوق على مقاطعة بركة ويفسد ذات بينهما، وأنه يطلب الأمر لنفسه. وقد اعتزم على الوثوب عليهما فجاء بركة بذلك إلى الأمير برقوق وأراد القبض على أشمس فمنعه الأمير برقوق ودفع عنه، وعظم انحراف بركة على أشمس ثم عن الأمير برقوق. وسعى في الإصلاح بينهما الأكابر حتى كمال الدين شيخ التكية، والخلدي شيخ الصوفية من أهل خراسان. وجاؤا بأشمس إلى بركة مستعتباً فأعتبه وخلع عليه. ثم عاود انحرافه ثانية فمسح أعطافه، وسكن وهو مجمع الثورة والفتك. ثم عاود

حاله تلك ثالثة. واتفق أن صنع في بيت الأمير برقوق لسرور وليمة في بعض أيام الجمعة في شهر ربيع سنة إثنتين وثمانين، وحضر عنده أصحاب بركة كلهم وأهل شوكته، وقد جاءه النصيح بأن بركة قد أجمع الثورة غداة يومه فقبض الأمير برقوق على من كان عنده من أصحاب بركة ليقص جناحه منهم. وأركب حاشيته للقبض عليه، وأصعد بدلان الناصري على مأذنة مدرسة حسن فنضحه بالنبل في اصطبله، وركب بركة إلى قبة النصر وخيم بها، ونودي في العامة بنهب بيوته فنهبوها للوقت وخربوها. وتحيز إليه بيبقا الناصري فخرج معه، وجلس الأمير برقوق بباب القلعة من ناحية الاصطبل، وسرح الفرسان للقتال. واقتتلوا عامة يومهم فزحف بركة على تعبيتين إحداهما لبيبقا الناصري. وخرج الأق الشعباني للقائه وأشمس للقاء بيبقا الناصري فانهزم أصحاب بركة، ورجع إلى قبة النصر، وقد أثخنوا بالجراح،

وتسلل أكثرهم إلى بيته وأقام الليل، ثم دخل إلى جامع البلدة وبات به. ونمي إلى الأمير برقوق خبره فأركب إليه الطنبقا الجوباني وجاء به إلى القلعة. وبعث به الأمير برقوق إلى الإسكندرية فحبس بها إلى أن قتله النائب بها صلاح الدين بن عزام، وقتل به في خبر يأتي شرحه إن شاء الله تعالى. وتقبض على بيبقا الناصري وسائر شيعته من الأمراء، وأودعهم السجون إلى أن استحالت الأحوال، وولى وظائفهم من أوقف عليه نظره من أمراء الدولة. وأفرج عن أنيال الثائر قبله، وبعثه نائبا على طرابلس، واستقل بحمل الدولة، وانتظمت به أحوالها. واستراب سندمر نائب دمشق لصحابته مع بركة فتقبض عليه وعلى أصحابه بدمشق، وولي نيابة دمشق عشتمر، ونيابة حلب أنيال. وولى أشمس الأتابكية مكان بركة والأق الشعباني أمير سلاح والطنبقا الجوباني أمير مجلس، وأبقا العثماني دوادار، وجركس الخليلي أمير الماخورية، والله تعالى ولي التوفيق.

انتقاض أهل البحيرة وواقعة العساكر :

كان هؤلاء الظواعن الذين عمروا الدولة من بقايا هوارة ومزاته وزناته يعمرونها عن تحت أيديهم من هذه القبائل وغيرهم، يقومون بخراج بالسلطان كل سنة في إبانه وكانت الرياسة عليهم حتى في أداء الخراج لبدر بن سلام وآبائه من قبله، وهو من زناتة إحدى شعوب لواتة. وكان للبادية المنتبذين مثل أبي ذئب شيخ أحياء مهرانة وعسرة، ومثل بني التركية أمراء العرب بعقبة الإسكندرية اتصال بهم لاحتياجهم إلى الميرة من البحيرة. ثم استخدوا لأمراء الترك في مقاصدهم وأموالهم واعتزوا بجاههم، وأسفوا على نظائرهم من هوارة وغيرهم. ثم حدثت الزيادة في وظائف الجباية كما هي طبيعية الدولة فاستثقلوها وحدثتهم أنفسهم بالإمتناع منها لما عندهم من الاعتزاز فأرهقوا في الطلب، وحبس سلام بالقاهرة، وأجفل ابنه بدر إلى الصعيد بالقبلية، واعترضته هناك عساكر السلطان فقاتلهم وقتل الكاشف في حربه. وسارت إليه العساكر سنة ثمانين مع الأق الشعباني وأحمد بن بيبقا وأنيال قبل ثورته فهربوا وعاثت العساكر في مخلفهم ورجعوا. وعاد بدر إلى البحيرة، وشغلت الدولة عنهم بما كان من ثورة أنيال وبركة بعده، واتصل فساد بدر وامتناعه فخرجت إليه العساكر مع الأتابك أشمس والأمير سلام والجوباني أمير مجلس وغيرهم من الأمراء الغربية. ونزلت العساكر البحيرة، واعتزم

بدر على قتالهم فجاءهم النذير بذلك، فانتبذوا عن الخيام وتركوها خاوية. ووقفوا على مراكزهم حتى توسط القوم المخيم وشغلوا بنهبه، فكرت عليهم العساكر فكادوا

يستلحموهم، ولم يفلت منهم إلا الأقل. وبعث بدر بالطاعة، واعتذر بالخوف وقام بالخراج فرجعت العساكر، وولى بكتمر الشريف على البحيرة. ثم استبدل منه بقرط بن عمر. ثم عاد بدر إلى حاله فخرجت العساكر فهرب أمامها، وعاث القرط فيهم وقتل الكثير من رجالهم وحبس آخرين، ورجع عن بدر أصحابه مع ابن عمه ومات ابن شادي، وطلب الباقي الأمان فأمنوا وحبس رجال منهم، وضمن الباقون القيام بالخراج. واستأمن بدر فلم يقبل فلحق بناحية الصعيد، واتبعته العساكر ؛ فهرب واستبيح مخلفه وأحياؤه ولحق ببرقة، ونزل على أبي ذئب فأجاره، وأستقام أمر البحيرة. وتمكن قرط من جبايتها، وقتل رحاب وأولاد شادي. وكان قرطاي يستوعب رجالتهم بالقتل. وأقام بدر عند أبي ذئب يتردد ما بين أحيائه وبين الواحات، حتى لقيه بعض أهل الثأر عنده فثأروا منه سنة تسع وثمانين، وذهب مثلا في الآخرين، والله تعالى أعلم.

مقتل بركة في محبسه وقتل ابن عزام بثأره:

كان الأمير بركة استعمل أيام إمارته خليل بن عزام أستاذ داره، ثم اتهمه في ماله وسخطه ونكبه، وصادره على مال امتحنه عليه. ثم أطلقه فكان يطوي له على النكث. ثم صار بركة إلى ما صار إليه من الاعتقال بالإسكندرية، وتولى ابن عزام نيابتها فحاول على حاجة نفسه في قتل بركة. ووصل إلى القاهرة متبرئا من أمره متخوفا من مغبته ورجع. وقد طوى من ذلك على الدغل. ثم حمله الحقد الكامن في نفسه على اغتياله في جنح الليل فأدخل عليه جماعة متسلحين فقتلوه، وزعم أنه أذن له في ذلك. وبلغ الخبر إلى كافل الدولة الأمير برقوق، وصرح مماليكه بالشكوى إليه فأنكر ذلك وأغلظ على ابن عزام. وبعث دواداره الأمير يونس يكشف عن سببه وإحضار ابن عزام فجاء به مقيدا، وأوقفه على شنيع مرتكبه في بركة فحلف الأمير ليقادن منه به. وأحضر إلى القلعة في منتصف رجب من سنة إثنتين وثمانين، فضرب بباب القلعة أسواطا. ثم حمل على جمل مشتهرا وأنزل إلى سوق الخيل فتلقاه مماليك بركة فتناولوه بالسيوف، إلى أن تواقعت أشلاؤه بكل ناحية وكان فيه عظة لمن يتعظ، أعادنا الله من درك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء انتهى.

وفاة السلطان المنصور علي بن الاشرف وولاية الصالح امير حاج:

كان هذا السلطان على بن الأشرف قد نصبه الأمير قرطاي في ثورته على أبيه الأشرف

وهو ابن إثنتي عشرة سنة، فلم يزل منصورا والأمر ينتقل من دولة إلى دولة كما ذكرناه إلى أن هلك لخمس سنين من ولايته في صفر سنة ثلاث وثمانين فحضر الأمير برقوق، واستدعى الأمراء واتفقوا على نصب أخيه أمير حاج، ولقبوه الصالح وأركبوه إلى الإيوان فأجلسوه على التخت. وقلده الخليفة على العادة، وجعل الأمير برقوق كافله في الولاية والنظر للمسلمين لصغره حينئذ عن القيام بهذه العهدة. وأفتى العلماء يومئذ بذلك، وجعلوه من مضمون البيعة، وقرىء كتاب التقليد على الأمراء القضاة والخاصة والعامة في يوم مشهود، وانفض الجمع وانعقد أمر السلطان وبيعته، وضرب فيها للأمير برقوق بسهم والله تعالى مالك الأمور.

وصول أنس الغساني والد الامير برقوق وانتظامه في الامراء

أصل هذا الأمير برقوق من قبيلة جركس الموطنين ببلاد الشمال في الجبال المحيطة بوطء القفجاق والروس واللان من شرقيها المطلة على بسائطهم. ويقال إنهم من غسان الداخلين إلى بلاد الروم مع أميرهم جبلة بن الأيهم، عندما أجفل هرقل إلى الشام، وسار إلى القسطنطينية. وخبر مسيره من أرض الشام، وقصته مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه متناقلة معروفة بين المؤرخين. وأما هذا الرأي فليس على ظاهره، وقبيلة جركس من الترك معروفة بين النسابين، ونزولهم بتلك المواطن قبل دخول غسان. وتحقيق هذا الرأي أن غسان لما دخلوا مع جبلة إلى هرقل أقاموا عنده ويئسوا من الرجوع لبلادهم. وهلك هرقل واضطرب ملك الروم، وانتشرت الفتنة هنالك في ممالكهم.واحتاجت غسان إلى الحلف للمدافعة في الفتن، وحالفوا قبائل جركس، ونزلوا في بسيط جبلهم من جانبه الشرقي مما يلي القسطنطينية، وخالطوهم بالنسب والصهر، واندرجوا فيهم حتى تلاشت أحياؤهم. وصاروا إلى تلك الأماكن وأووا من البسائط إلى الجبال مع جركس فلا يبعد مع هذا أن تكون أنسابهم، تداخلت معهم ممن انتسب إلى غسان من جركس وهو مصدق في نسبه، ويستأنس له بما ذكرناه فهو نسبة قوية في صحته والله تعالى أعلم.وجلب هذا الأمير برقوق على عهد الأمير بيبقا عثمان قراجا من التجار المعروفين يومئذ بتلك الجهات، فملكه بيبقا وربي في اطباق بيته، وأوى من قصده وشد فى الرماية والثقافة. وتعلم آداب الملك وانسلخ من جلده الخشونة، وترشح للرياسة والإمارة والسعادة تشير إليه، والعناية الربانية تحوم عليه. ثم كان ما ذكرناه من شأن مماليك بيبقا ومهلك

كبيرهم يومئذ استدمر، وكيف تقسموا بين الجلاء والسجن. وكان الأمير برقوق أعزه الله تعالى ممن أدركه التمحيص ؛ فلبث في سجن الكرك خمس سنين بين أصحاب له منهم فكانت تهوينا لما لقي من بوائقه، وشكرا له بالرجوع إلى الله ليتم ما قدر الله فيه من حمل أمانته واسترعاء عباده.ثم خلص من ذلك المحبس مع أصحابه، وخلا سبيله فانطلقوا إلى الشام، واستخلصهم الأمير منجك نائب الشام يومئذ. وكان بصيرا مجربا فألقى محبته وعنايته على هذا الأمير لما رأى عليه من علامات القبول والسعادة. ولم يزل هناك في خالصته إلى أن هجس في نفس السلطان الأشرف استدعاه المرشحين من مماليكه. وهذا الأمير يقدمهم وأفاض فيهم الإحسان واستضافهم لولده الأمير علي. ولم يكن إلا أيام وقد انتقض الجائي القائم بالدولة، وركب على السلطان، فأحضرهم السلطان الأشرف وأطلق أيديهم في خيوله المقربة وأسلحته المستجادة فاصطفوا منها ما اختاروه وركبوا فى مدافعة الجائي، وصدقوه القتال حتى دافعوه على الرميلة.ثم اتبعوه حتى ألقى نفسه في البحر فكان آخر العهد به. واحتلوا بمكان من أثره السلطان واختصاصه، فسوغ لهم الإقطاعات وأطلق لهم الجرايات. ولهذا الأمير بين يديه من بينهم مزيد مكانة ورفيع محل، إلى أن خرج السلطان الأشرف إلى الحج، وكان ما قدمناه من انتقاض قرطاي واستبداده ؛ ثم استبداد أيبك من بعده وقد عظم محل هذا الأمير من الدولة، ونما عزه وسمت رتبته. ثم فسد أمر أيبك، وتغلب على الأمر جماعة من الأمراء مفترقي الأهواء. وخشي العقلاء انتقاض الأمر وسوء المغبة فبادر هذا الأمير، وتناول الحبل بيده، وجعل طرفه في يد بركة رديفه فأمسك معه برهة من

الأيام. ثم اضطرب وانتقض وصار إلى ما صار إليه من الهلاك، واستقل الأمير برقوق بحمل الدولة والعناية الربانية تكفله والسعادة تواخيه وكان من جميل الصنع الرباني له أن كيف الله غريبة في اجتماع شمل أبيه به ؛ فقدم وفد التجار بأبيه من قاصية بلادهم بعد أن أعملوا الحيلة في استخلاصه، وتلطفوا في استخراجه، وكان اسمه أنس فاحتفل ابنه الأمير برقوق من مبرته، وأركب العساكر وسائر الناس على طبقاتهم لتلقيه، وأعد الخيام بسرياقوس لنزوله فحضروا هنالك جميعا في ثاني ذي الحجة سنة اثنتين وثمانين. وجلس الأمير أنس الوافد صدر المجلس، وهم جميعا حفافيه من القضاة والأمراء، ونصب السماط فطعم الناس وانتشروا.ثم ركبوا إلى البلد وقد زينت الأسواق، وأوقدت الشموع وماجت السكك بالنظارة من عالم لا يحصيهم إلا خالقهم. وكان يوماً مشهودا. وأنزله بالاصطبل تحت المدينة الناصرية، ونظمه السلطان في أقربائه وبني عمه وبني إخوانه، واجتمع شملهم به وفرض لهم الأرزاق وقررهم في الوظائف. ثم مات هذا الأب الوافد، وهو الأمير

أنس رحمه الله في أواسط ، وثمانين بعد أن أوصى بحجة إسلامه وشرفت مراتب الإمارة بمقامه. ودفنه السلطان بتربة الدوادار يونس. ثم نقله إلى المدفن بجوار المدرسة التي أنشأها بين القصرين سنة ثمان وثمانين، والله يؤتي الملك من يشاء.

خلع الصالح أمير حاج وجلوس برقوق

على التخت واستبداده بالسلطان

كان أهل الدولة من البيبقاوية من ولي منهم هذا الأمير برقوق قد طمعوا في الاستبداد، وظفروا بلذة الملك والسلطان، ورتعوا في ظل الدولة والأمان. ثم سمت أحوالهم إلى أن يستقل أميرهم بالدولة، ويستبد بها دون الأصاغرين المنتصبين بالمملكة. وربما أشار بذلك بعض أهل الفتيا يوم بيعة أمير حاج، وقال لا بد أن يشرك معه في تفويض الخليفة الأمير القائم بالدولة لتشد الناس إلى عقدة محكمة فأمضى الأمر على ذلك، وقام الأمير بالدولة فأنس الرعية بحسن سياسته وجميل سيرته. واتفق أن جماعة من الأمراء المختصين بهذا الصبي المنصوب غصوا بمكان هذا الأمير وتفاوضوا في الغدر به. وكان متولي ذلك منهم أبقا العثماني دوادار السلطان.ونمي الخبر إليه بذلك فتقبض عليهم، وبعث أبقا إلى دمشق على إمارته، وغرب الآخرين إلى قوص فاعتقلوا هنالك حتى أنفذ الله فيهم حكمه، وأشفق الأمراء من تدبر مثل هؤلاء عليهم وتفاوضوا في محو الأصاغر من الدست وقيامه بأمرهم مستقلا فجمعهم لذلك في تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين. وحضر الخاصة والعامة من الجند والقضاة والعلماء وأرباب الشورى والفتيا وأطبقوا على بيعته، وعزل السلطان أمير حاج فبعث إليه أميرين من الأمراء فأدخلوه إلى بيته، وتناولوا السيف من يده فأحضروها. ثم ركب هذا السلطان من مجلسه بباب الاصطبل وقد لبس شعار السلطة وخلعة الخلافة فدخل إلى القصور السلطانية، وجلس بالقصر الأبلق على التخت، وأتاه الناس ببيعتهم أرسالا. وانعقد أمره يومئذ ولقب الملك الظاهر، وقرعت الطبول وانتشرت البشائر، وخلع على أمراء الدولة مثل أشمس الأتابك والطنبقا الجوباني أمير مجلس، وجركس الخليلي أمير الماخورية وسودون الشيخوني نائبا والطنبقا المعلم أمير سلاح، ويونس النوروي دوادار وقردم الحسيني رأس

نوبة. وعلى كتابه أوحد الدين بن ياسين كاتب سره أدال به من بدر الدين بن فضل الله كاتب سر السلطان من قبل، وعلى جميع أرباب

الوظائف من وزير وكاتب وقاض ومحتسب، وعلى مشاهير العلم والفتيا والصوفية. وانتظمت الدولة أحسن انتظام، وسر الناس بدخولهم في إيالة السلطان يقدر للأمور قدرها ويحكم أو أحيها. وأستأذنه الطنبقا الجوباني أمير مجلس في الحج تلك السنة، وأذن له فانطلق لقضاء فرضه وعاد انتهى، والله تعالى أعلم.

مقتل قرط وخلع الخليفة ونصب ابن عمه الواثق للخلافة

كان قرط بن عمر من التركمان المستخدمين في الدولة، وكان له إقدام وصرامة رقابهما إلى محل من مرادفة الأمراء في وجوههم ومذاهبهم. ودفع إلى ولاية الصعيد ومحاربة أولاد الكنز من العرب الجائلين في نواحي أسوان فكان له في ذلك غناء وأحسن في تشريدهم عن تلك الناحية. ثم بعث إلى البحيرة واليا عند انتقاض بدربن سلام وفراره، ومرجع العساكر من تمهيدها فقام بولايتها، وتتبع آثار أولئك المنافقين وحسم عللهم. وحضر في ثورة أنيال فجلا في ذلك اليوم لشهامته وإقدامه. وكان هو المتولي تسور الحائط وإحراق الباب الظهراني الذي ولجوا عليه وأمسكوه فكان يمت بهذه الوسائل أجمع، والسلطان يرعى له إلا أنه كان ظلوما غشوما فكثرت شكايات الرعايا والمتظلمين به فتقبض عليه لأول بيعته وأودعه السجن.ثم عفا عنه وأطلقه، وبقي مباكرا باب السلطان مع الخواص والأولياء، وطوى علىالغث وتربص بالدولة. ونمي عنه أنه فاوض الخليفة المتوكل بن المعتضد في الانتقاض والاجلاب على الدولة بالعرب المخالفين بنواحي برقة من أهل البحيرة، وأصحاب بدر بن سلام، وأن يفوض الخليفة الأمر إلى سوى هذا السلطان القائم بالدولة. وبأنه داخل في ذلك بعض ضعفاء العقول من أمراء الترك ممن لا يؤبه له فأحضرهم من غداته، وعرض عليهم الحديث فوجموا وتناكروا وأقر بعضهم واعتقل الخليفة بالقلعة. وأخرج قرط هذا لوقته فطيف به على الجمل مسمرا ابلاغا في عقابه. ثم سيق إلى مصرعه خارج البلد، وقد بالسيف نصفين. وضم الباقون إلى السجون، وولى السلطان الخلافة عمر بن إبراهيم الواثق من أقاربه وهو الذي كان الملك الناصر ولى أباه إبراهيم بعد الخليفة أبي الربيع وعزل عن ابنه أحمد كما مر، وكان هذا كله في ربيع سنة خمس وثمانين، وولي مكانه أخوه زكريا ولقب المعتصم، واستقرت الأحوال إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

نكبة الناصري واعتقاله

كان هذا الناصري من مماليك يبيقا وأرباب الوظائف في أيامه، وكان له مع السلطان الظاهر ذمة وداد وخلة من لدن المربى والعشرة، فقد كانوا أترابا بها، وكانت لهم دالة عليه لعلو سنه. وقد ذكرنا كيف استبدوا بعد أيبك ونصبوا الناصري أتابكا و لم يحسن القيام عليها. وجاء طشتمر بعد ذلك فكان معه حتى في النكبة والمحبس. ثم أشخص إلى الشام وولي على طرابلس. ثم كانت ثورة أنيال ونكبته في جمادى سنة إحدى وثمانين فاستقدمهم من طرابلس، وولي أمير سلاح مكان أنيال واستخلصه الأمير بركة وخلطه بنفسه. وكانت نكبته فحبس معه، ثم أشخص إلى الشام. وكان أنيال قد أطلق من اعتقاله وولي على حلب سنة اثنتين وثمانين مكان

منكلي بقري الأحمدي فأقام بها سنة أو نحوها.ثم نمي عنه خبر الانتقاض فقبض عليه، وحبس بالكرك. وولى مكانه على حلب بيبقا الناصري في شوال سنة ثلاث وثمانين، وقعد الظاهر على التخت لسنة بعدها، واستبد بملك مصر. وكان الناصري لما عنده من الدالة يتوقف في انفاذ أوامره لما يراه من المصالح بزعمه، والسلطان ينكر ذلك ويحقده عليه. وكان له مع الطنبقا الجوباني أمير مجلس أحد أركان الدولة حلف لم يغن عنه، وأمر السلطان بالقبض على سولي بن بلقادر حين وفد عليه بحلب فأبى من ذلك صونا لوفائه بزعمه، ودس بذلك إلى سولي فهرب ونجا من النكبة.

ووفد على السلطان سنة خمس وثمانين وجدد حلفه مع الجوباني ومع أشمس الأتابك، ورجع إلى حلب. ثم خرج بالعساكر إلى التركمان اخر سنة خمس وثمانين دون إذن السلطان فالهزم وفسدت العساكر، ونجا بعد ثالثة جريحا وأحقد عليه السلطان هذه كلها. ثم استقدمه سنة سبع وثمانين فلما انتهى إلى سرياقوس تلقاه بها أستاذ دار فتقبض عليه، وطير به إلى الإسكندرية فحبس بها عامين، وولى مكانه بحلب الحاجب سودون المظفر، وكان عيبة نصح للسلطان وعينا على الناصري فيما يأتيه ويذره، لأنه من وظائف الحاجب للسلطان في دولة الترك خطة البريد المعروفة في الدول القديمة فهو بطانة السلطان بما يحدث في عمله، ويعترض شجا في صدر من يروم الانتقاض من ولاته. وكان هذا الحاجب سودون هو الذي ينمي أخباره إلى السلطان ويطلعه على مكامن مكره، فلما حبس الناصري بالإسكندرية ولاه مكانه بحلب وارتاب الجوباني من نكبة الناصري لما كان بينهما من الوصلة والحلف فوجم واضطرب، وتبين السلطان منه النكر فنكبه كما نذكره بعد إن شاء الله تعالى وأقصاه والله أعلم

.

اقصاء الجوباني إلى الكرك ثم ولايته على

الشام بعد واقعة بندمر

أصل هذا الأمير الجوباني من قبائل الترك وإسمه الطنبقا، وكان من موالي بيبقا الخاصكي المستولي على السلطان الأشرف وقد مر ذكره، ربي في قصره وجو عزه ولقن الخلال والآداب في كنفه. وكانت بينه وبين السلطان خلة ومصافاة أكسبتها تلك الكفالة بما كانا رضيعي ثديها، وكوكبي أفقها، وتربي مرقاها. وقد كان متصلاً فيما قبله بينهما من لدن المربى في بلادهم واشتمل بعضهم على بعض، واستحكم الإتحاد حتى ة، لعشرة أيام التمحيض والاغتراب كما مر. فلقد كان معتقلا معه بالكرك أيام المحنة خمساً من السنين أدال الله لهذا السلطان حزنها بالمسرة، والنحوسة بالسعادة والسجن بالملك. وقسمت للجوباني بها شائبة من رحمة الله وعنايته في خدمة السلطان بدار الغربة والمحنة وألقته به في المترل الخشن لتعظم له الوسائل وتكرم الأذمة والعهود

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يألفهم في المترل الخشن

ثم كان انطلاقهما إلى الشام ومقامهما جميعاً واستدعاؤهما إلى دار الملك ورقيهما في درج العز والتغريب كذلك، وكان للسلطان أصحاب سراة يمتون إليه بمثل هذه الوسائل وينتظمون في سلكها وكان متميز الرتبة

عنهم، سابقا في مرقى درجات العز أمامهم، مجلبا في الحلبة التي فيها طلقهم، إلى أن ظفر بالملك واستولى على الدولة، وهو يستتبعهم في مقاماته ويوطئهم عقبه ويذلل لهم الصعاب فيقتحمونها، ويحوز لهم الرتب فيستهمون عليها. ثم اقتعد منبر الملك والسلطان، واستولى على كرسيه، وقسم مراتب الدولة ووظائفها بين هؤلاء الأصحاب. وآثر الجوباني منهم بالصفاء والمرباع فجعله أمير مجلسه ومعناه، صاحب الشورى في الدولة، وهو ثاني الأتابك وتلو رتبته. فكانت له القدم العالية من أمرائه وخلصائه، والحظ الوافر من رضاه وإيثاره. وأصبح أحد الأركان التي بها عمد دولته بأساطينها، وأرسى ملكه بقواعدها. إلى أن دبت عقارب الحسد إلى مهاده، وحومت شباة السعاية على قرطاسه؟ وارتاب السلطان بمكانه وأعجل الحزم على إمهاله فتقبض عليه يوم الإثنين لسبع بقين من سنة سبع وثمانين، وأودعه بعض حجر القصر عامة يومه.

ثم أقصاه إلى الكرك وعواطف الرحمة تنازعه، وسجايا الكرم والوفاء تقض من سخطه. ثم سمح وهو بالخير أسمح، وجنح وهو إلى الأدنى من الله أمنح، فسرح إليه من الغد بمرسوم النيابة على تلك الأعمال فكانت غريبة لم يسمع بمثلها من حلم

هذا السلطان وأناقه، وحسن نيته وبصيرته، وكرم عهده وجميل وفائه. وانطلقت الألسن بالدعاء له، وامتلأت القلوب بالمحبة. وعلم الأولياء والخاصة والشيع والكافة أنهم في كفالة أمن ولطف وملكة إحسان وعدل.ثم مكث حولا يتعقب أحواله، ويتتبع سيره وأخباره طاوياً شأنه في ذلك عن سائر الأولياء، إلى أن وقف على الصحيح من أمره، وعلم خلوص مصادقته وجميل خلوصه. فأخفق سعي الداعين، وخابت ظنون الكاشحين، وأداله العتبى من العتاب، والرضا من النكرى، واعتقد أن يمحو عنه هواجس الاسترابة والاستيحاش، ويرده إلى أرفع الإمارة. وبينما هو يطوي على ذلك ضميرة، ويناجي سره إذ حدثت واقعة بندمر بالشام فكانت ميقاتا لبدر السعادة وعلما على فوزه بذلك الحظ كما نذكر إن شاء الله تعالى. وخبر هذه الواقعة أن بندمر الخوارزمي كان نائبا بدمشق، وقد مر ذكره غير مرة وأصله من الخوارزمية أتباع خوارزم شاه صاحب العراق عند استيلاء التتر، وافترقوا عند مهلكه على يد جنكز خان في ممالك الشام، واستخدموا لبني أيوب والترك أول استبدادهم بمصر. وكان هذا الرجل من أعقاب أصلهم، وكان له نجابة جذبت بضبعه، ونصب عند الأمراء من سوقه فاستخدم بها إلى ترشح للولاية في الأعمال، وتداول إمارة دمشق مع منجك اليوسفي وعشقتمر الناصري، وكان له انتقاض بدمشق عند تغلب الخاصكي وحاصره واستنزله بأمانه.ثم أعيد إلى ولايته. ثم تصرمت تلك الدول وتغلب هذا السلطان على الأمر، وردافه فيه فولوه على دمشق، وكانت صاغيته مع بركة. فلما حدث انتقض بركة كتب إليه وإلى بقرى بدمشق أولياؤه هنالك بالاستيلاء على القلعة. وكتب برقوق إلى نائب القلعة بحذرهم فركب جنتمر أخ طاز وابن جرجى ومحمد بيك وقاتلوه ثلاثا. ثم أمسكوه وقيدوه ومعه بقري بن برقش وجبريل مرتبه، وسيقوا إلى الإسكندرية فحبسوا. فلما قتل بركة أطلق بندمر ومن كان حبس من أصحاب بركة مثل: يبيقا الناصري ودمرداش الأحمدي. ثم استخلصه السلطان برقوق ورده إلى عمله الأول بعد جلوسه على التخت والشام له. وكان جماعا للأموال شديد الظلامة فيها، متحيلا

على استخلاصها من أيدي أهلها بما يطرق لهم من أسبابها العقاب. مصانعا للحاشية بماله من حاميته إلى أن سئم الناس إيالته، وترحمت القلوب منه.وكان بدمشق جماعة من الموسوسين المسامرين لطلب العلم بزعمهم، متهمون في عقيدتهم بين مجسم ورافضي وحلولي، جمعت بينهم أنساب الضلال والحرمان، وقعدوا عن نيل الرتب بما هم فيه. تلبسوا بإظهار الزهد والنكير على الخلق حتى على الدولة في توسعة بطلان الأحكام والجباية عن الشرع والسياسة التي تداولها الخلفاء، وأرخص فيها العلماء وأرباب الفتيا وحملة الشريعة بما تمس إليه الحاجة من

الوازع السلطاني، والمعونة على الدفاع. وقديما نصبت الشرطة الصغرى والكبرى، ووظيفة المظالم ببغداد دار السلام ومقر الخلافة وإيوان الدين والعلم، وتكلم الناس فيها بما هو معروف، وفرضت أرزاق العساكر في أثمان البياعات عند حاجة الدولة الأموية، فليس ذلك من المنكر الذي يعتد بتغييره، فليس هؤلاء الحمقى على الناس بأمثال هذه الكلمات، وداخلوا من في قلبه مرض من الدولة. وأوهموا أن قد توثقوا من الحل والعقد في الإنتقاض فرية انتحلوها، وجمعا أنهوه نهايته. وعدوا على كافل القلعة بدمشق وحاميتها يسألونهم الدخول معهم في ذلك لصحابة كانت بين بعضهم وبينه فاعتقلهم وطالع السلطان بأمرهم. وتحدث الناس أنهم داخلوا في ذلك بندمر النائب بمداخلة بعضهم كابنه محمد شاه. ونمي الخبر بذلك إلى السلطان فارتاب به وعاجله بالقبض والتوثق منه ومن حاشيته. ثم أخرج مستوفي الأموال بالحضرة لاستخلاص ما احتازه من أموال الرعايا، واستأثر به على الدولة وأحضر هؤلاء الحمقى ومن بسوء سيرتهم مقتدون إلى الأبواب العالية فقذفوا في السجون، وكانوا أحق بغير ذلك من أنواع العذاب والنكال. وبعث السلطان لعشقتمر الناصري وكان مقيما بالقدس أن يخرج نائبا على دمشق فتوجه إليها، وأقام رسم الإمارة بها أياما ظهر فيها عجزه، وبين عن تلك الرتبة قعوده بما أصابه من وهن الكبر وطوارىء الزمانة والضعف، حتى زعموا أنه كان يحمل على الفراش في بيته إلى منعقد حكمه، فعندها بعث السلطان عن هذا الأمير الجوباني، وقد خلص من الفتن أبريزه وأينع بنفحات الرضا والقبول عوده، وأفرح بمطالعة الأنس والقرب روعه. فجاء من الكرك على البريد وقد أعدت له أنواع الكرامة، وهيء له المنزل والركاب والفرش والثياب والآنية والخوان والخرثى والصوان، واحتفل السلطان لقدومه وتلقيه بما لم يكن في أمله.وقضى الناس العجب من حلم هذا السلطان وكرم عهده وجميل وفائه، وتحدث به الركبان. ثم ولاه نيابة دمشق وبعثه لكرسيه مطلق اليد ماضي الحكم عزيز الولاية، وعسكر بالزيدانية ظاهر القاهرة ثالث ربيع الأول من سنة سبع وثمانين، وارتحل من الغد وسعادة السلطان تقدمه ورضاه ينقله إلى أن قارب دمشق، والناس يتلقونه أرسالا. ثم دخل المدينة غرة ربيع الثاني وقد احتفل الناس لقدومه، وغصت السكك بالمتزهين، وتطاول إلى دولته أرباب الحدود. وتحدث الناس بجمال هذا المشهد الحفيل ، وتناقلوا خبره. واستقل بولاية دمشق وكأية السلطان تلاحظه، ومذاهب الطاعة والخلوص تهديه بحسن ذكره. وأفاض الناس الثناء في حسن اختياره وجمال مذهبه، وأقام السلطان بفي وظيفته أحمد ابن الأمير بيبقا فكان أمير مجلس، والله غالب على أمره

.

هدية صاحب افريقية

كان السلطان لهذا العهد بإفريقية من الموحدين، ومن أعقاب الأمير أبي زكريا يحمى بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي، المستبد بإفريقية على بني عبد المؤمن ملوك مراكش أعوام خمس وعشرين وستمائة. وهو أحمد بن محمد بن أبي بكر بن يحى ابن إبراهيم أبي زكريا سلسلة ملوك كلهم. و لم تزل ملوك المغرب على القدم ولهذا العهد يعرفون لملوك الترك بمصر حقهم، ويوجبون لهم الفضل والمزية بما خصهم الله من ضخامة الملك وشرف الولاية بالمساجد المعظمة وخدمة الحرمين. وكانت المهاداة بينهم تتصل بعض الأحيان، ثم تنقطع بما يعرض في الدولتين من الأحوال. وكان لي اختصاص بذلك السلطان ومكان من محبسه، ولما رحلت إلى هذا القطر سنة أربع وثمانين، واتصلت بهذا السلطان بمصر الملك الظاهر سألني عنه لأول لقيه فذكرته له بأوصافه الحميدة، وما عنده من الحب والثناء، ومعرفة حقه على المسلمين أجمع، وعلى الملوك خصوصاً في تسهيل سبيل الحج، وحماية البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود، أحسن الله جزاءه ومثوبته ثم بلغني أن السلطان بإفريقية صد أهلي وولدي عن اللحاق بي اغتباطا بمكان وطلبا لفيئتي إلى بابه، ورجوعي فتطارحت على هذا السلطان في وسيلة شفاعة تسهل منه الأذن فاسعفني بذلك، وخاطبت ذلك السلطان كان الله له، أغبطه بمودة هذا السلطان، والعمل على مواصلته ومهاداته كما كان بين سلفهم في الدولتين فقبل مني، وبادر إلى إتحافه بمقربات افليس عندنا في المغرب تحفة تطرف بها ملوك الشرق إلا الجياد العرب. وأما ما سوى ذلك من أنواع الطرف والتحف بالمغرب فكثير لديهم أمثاله، ويقبح أن يطرف عظماء الملوك بالتافه المطروح لديهم. واختار لتلك سفينته التي اعدها لذلك وأنزل بها أهلي وولدي بوسيلة هذا السلطان أيده الله، لسهولة سبيل البحر وقرب مسافته. فلما قاربوا مرسى الإسكندرية عاقتهم عواصف الرياح عن احتلال السفينة، وغرق معظم ما فيها من الحيوان والبضائع، وهلك أهلي وولدي فيمن هلك. ونفقت تلك الجياد وكانت رائعة الحسن صافية النسب، وسلم من ذلك المهلك رسول جاء من ذلك السلطان لمد العهد. وتقرر المودة فتلقي بالقبول والكرامة، وأوسع النزل والقرى. ثم اعتزم على العودة إلى مرسله فانتقى السلطان ثيابا من الوشي المرقوم في عمل العراق والإسكندرية يفوت القيمة واستكثر منها، واتحف بها السلطان ملك إفريقية على يد هذا الرسول على عادة عظماء الملوك في اتحافهم وهداياهم.

وخاطبت ذلك السلطان معه بحسن الثناء على قصده وجميل موقع هديته من السلطان، واستحكام مودته له. وأجابني بالعذر من الموقع وأنه مستأنف من الاتحاف للسلطان، واستحكام مودته بما يسره الحال. فلما قدم الحاج من المغرب سنة ثمان وثمانين وصل فيهم من كبار الغرب بدولته، وأبناء الأعاظم المستبدين على سلفه عبيد بن القائد أبي عبد الله محمد بن الحكيم بهدية من المقربات، رائقة الحلي رائعة الأوصاف منتخبة الأجناس والأنساب، غريبة الألوان والأشكال. فاعترضها السلطان وقابلها بالقبول وحسن الموقع.وحضر الرسول بكتابه فقرىء وأكرم حامله، وأنعم عليه بالزاد لسفر الحج. وأوصى أمراء المحمل فقضى فرضه على

أكمل الأحوال، وكانت أهم أمنياته. ثم انقلب ظافرا بقصده وأعاده السلطان إلى مرسله بهدية نحو من الأولى من أجناس تلك الثياب ومستجادها مما يجاوز الكثرة ويفوت، واستحكمت عقدة المودة بين هذين السلطانين. وشكرت الله على ما كان فيها من أثر مسعاي ولو قل. وكان وصل في جملة الحاج من المغرب كبير العرب من هلال، وهو يعقوب بن علي بن أحمد أمير رياح الموطنين بضواحي قسنطينة وبجاية والزاب في وفد من بنيه وأقربائه. ووصل في جملتهم أيضا عون بن يحيى طالب بن مهلهل من الكعوب أحد شعوب سليم الموطنين بضواحي تونس والقيروان والجريد وبنو أبيه، فقضوا فرضهم أجمعون، وانقلبوا إلى مواطنهم أواسط شهر ربيع الآخر من سنة تسع وثمانين، واطردت أحوال هذه الدولة على أحسن ما يكون، والله متولي أمرها بمنه وكرمه انتهى.

حوادث مكة وامرائها

قد تقدم لنا أن ملك مكة سار في هذه الأعصار لبني قتادة من بني مطاعن الهواشم

بني حسن، وذلك منذ دولة الترك. وكان ملكهم بها بدويا، وهم يعطون الطاعة لملك مصر، ويقيمون مع ذلك الدولة العباسية للخليفة الذي ينصبه الترك بمصر إلى أن استقر أمرها آخر الوقت لأحمد بن عجلان من رميثة بن أبي نمي أعوام سنة ستين وسبعمائة بعد أبيه عجلان، فأظهر في سلطان عدلا، وتعففا عن أموال الناس، وقبض أيدي أهل العيث والظلم وحاشيتهم وعبيدهم وخصوصاً عن المجاورين. وأعانه على ذلك ما كان له من الشوكة بقوة أحواله، ويعرفون بني عمر من اتباع هؤلاء السادة ومواليهم، فاستقام أمره وشاع بالعدل ذكره، وحسنت سيرته. وامتلأت مكة بالمجاورين والتجار حتى غصت بيوتها بهم.وكان عنان ابن عمه مقامس بن رميثة ومحمد ابن عمه مقامس بن رميثة ينفسون عليه ما آتاه الله من الخير، ويجدون في أنفسهم إذ ليس يقسم لهم برظاهم في أموال جبايته فتنكروا له. وهموا بالإنتقاض فتقبض

عليهم، وكان لهم حلف مع أخيه محمد بن عجلان فراوده على تركهم أو حبسهم فحبسوا ولبثوا في محبسهم ذلك حولا أو فوقه. ثم نقبوا السجن ليلا وفروا فأدركوا من ليلتهم وأعيدوا إلى محبسهم وأفلت منهم عنان بن مقامس، ونجا إلى مصر سنة ثمان وثمانين صريخاً بالسلطان. وعن قليل وصل الخبر بوفاة أحمد بن عجلان على فراشه، وأن أخاه كبيش بن عجلان نصب ابنه محمدا مكانه وقام بأمره، وأنه عمد إلى هؤلاء المعتقلين فسمهم صونا للأمر عنهم لمكان ترشيحهم فنكر السلطان ذلك وسخطه من فعلاتهم وافتياتهم. ونسب إلى كبيش وإنه يفسد بالفساد بين هؤلاء الأقارب. ولما خرج الحاج سنة ثمان وثمانين، أوصى أمير حاج بعزل بالصبي المنصوب،والاستبدال عنه بالجن عنان بن مقامس، والقبض على كبيش. ولما وصل الحاج إلى مكة وخرج الصبي لتلقي المحمل الخلافي، وقد أرصد الرجال حفافيه للبطش بكبيش وأميره المنصوب فقعد كبيش عن الحضور، وجاء الصبي وترجل عن فرسه لتقبيل الخف من راحلة المحمل على العادة فوثب به أولئك المرصدون طعنا بالخناجر يظنونه كبيشا. ثم غابوا فلم يوقف لهم على خبر، وتركوه طريحاً بالبطحاء. ودخل الأمير إلى الحرم فطاف وسعى، وخلع على عنان بن مقامس الإمارة على عادة من سلف من قومه. ونجا كبيش إلى جدة

من سواحل مكة.ثم لحق بأحياء العرب المتبذين ببقاع الحجاز صريخا فقعدوا عن نصرته وفاء بطاعة السلطان، وافترق أمره وخذله عشيره، وانقلب الأمير بالحاج إلى مصر فعنفه السلطان على قتله الصبي فاعتذر بافتيات أولئك الرجال عليه فعذره. وجاء كبيش بعد منصرف الحاج، وقد انضم إليه أوباش من العرب فقعد بالمرصد يخيف السابلة والركاب والمسافرين. ثم زحف إلى مكة وحاصرها أول سنة تسع وثمانين، وخرج عنان بن مقامس بعض الأيام وبارزه فقتله، واضطرب الأمر بمكة وامتدت أيدي عنان والأشرار معه إلى أموال المجاورين فتسلطوا عليها، ونهبوا زرع الأمراء هنالك، وزرع السلطان للصدقة. وولى السلطان علي بن عجلان، واعتقله حسما لمادة طوارق الفساد عن مكة، واستقر الحال على ذلك إلى أن كانت فتنة الناصر كما نذكر إن شاء الله تعالى انتهى.

انتقاض منطاش بملطية ولحاقه بسيواس ومسير العساكر في طلبه

كان منطاش هذا وتمرتاي الدمرداشي الذي مر ذكره أخوين لتمراز الناصري من موالي الملك الناصر محمد بن قلاوون، وربيا في كفالة أمهما. وكان اسم تمرتاي محمدا، وهو الأكبر، واسم منطاش أحمد وهو الأصغر. واتصل تمرتاي بالسلطان الأشرف وترقى في دولته في الوظائف إلى أن ولي بحلب سنة ثمانين، وكانت واقعته مع التركمان. وذلك إنه وفد عليه أمراؤهم فقبض عليهم لما كان من عيثهم في النواحي، واجتمعوا فسار إليهم وأمده السلطان بعساكر الشام وحماة، وانهزموا أمامهم إلى الدربند. ثم كروا على العساكر فهزموها في المضايق وتوفي تمرتاي سنة إثتين وثمانين، وكان السلطان الظاهر برقوق يرعى لهما هذا الولاء فولى منطاش على ملطية.ولما قعد على الكرسي واستبد بالسلطان بدت من منطاش علامات الخلاف فهم به. ثم راجع ووفد وتنصل للسلطان، وكان سودون باق من أمراء الألوف خالصة للسلطان، ومن أهل عصبيته. وكان من قبل ذلك في جملة الأمير تمرماي فرعا لمنطاش حق أخيه، وشفع له عند السلطان وكفل حسن الطاعة منه، وأنه يخرج على التركمان المخالفين ويحسم علل فسادهم. وانطلق إلى قاعدة عمله بملطية. ثم لم تزل آثار العصيان بادية عليه، وربما داخل أمراء التركمان في ذلك ونمي الخبر إلى السلطان فطوى له، وشعر هو لذلك فراسل صاحب سيواس قاعدة بلاد الروم، وبها قاض مستبد على صبي من أعقاب بني أرشى ملوكها من عهد هلاكو قد اعصوصب عليه بقية من أحياء التتر الذين كانوا حامية هنالك مع الشحنة فيها كما نذكره.ولما وصلت رسل منطاش، وكتبه إلى هذا القاضي بادر بإجابته، وبعث رسلا وفداً من أصحابه في إتمام الحديث معه فخرج منطاش إلى لقائهم، واستخلف على ملطية دواداره، وكان مغفلا فخشي مغبة ما يرومه صاحبه من الانتقاض فلاذ بالطاعة، وتبرأ من منطاش، وأقام دعوة السلطان في البلد. وبلغ الخبر إلى منطاش فاضطرب. ثم استمر وسار مع وفد القاضي إلى سيواس ؛ فلما قدم عليه وقد انقطع الحبل في يده أعرض عنه، وصار إلى مغالطة السلطان عما أتاه من مداخلة منطاش، وقبض عليه وحبسه. وسرح السلطان سنة تسع وثلاثين عساكره مع يونس الدوادار وقردم رأس نوبة، والطنبقا الرماح أمير سلاح، وسودون باق من أمراء الألوف. وأوعز الناصري فأتى وطلب أن يخرج معهم بعساكره، وإلى أنيال اليوسفي من أمراء الألوف بدمشق

وساروا جميعاً .وكان يومئذ ملك التتر بما وراء النهر وخراسان تمر من نسب جفطاي قد زحف إلى العراقين وأذربيجان، وملك توريز عنوة واستباحها، وهو يحاول ملك بغداد. فسارت هذه العساكر توري بغزوه ودفاعه، حتى إذا بلغوا حلب أتى إليهم الخبر بأن تمر رجع بعساكره لخارج خرج عليه بقاصية ما وراء النهر، فرجعت عساكر السلطان إلى جهة سيواس، واقتحموا تخومها على حين غفلة من أهلها. فبادر القاضي إلى إطلاق منطاش لوقته.

وقد كان أيام حبسه يوسوس إليه بالرجوع عن موالاة السلطان وممالأته. ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب حتى جنح إلى قوله فبعث لإحياء التتر الذين كانوا ببلاد الروم فيئة بن أريتا بن أول، فسار إليهم واستجاشهم على عسكر السلطان، وحذرهم استئصال شأفتهم باستئصال ملك ابن أريتا وبلده.ووصلت العساكر خلال ذلك إلى سيواس فحاصروها أياماً وضيقوا عليها، وكادت أن تلقي باليد. ووصل منطاش إثر ذلك بإحياء التتر فقاتلهم العساكر ودافعوهم، ونالوا منهم. وجفى الناصري في هذه الوقائع، وأدرك العساكر الملل والضجر من طول المقام، وبطء الظفر، وانقطاع الميرة بتوغلهم في البلاد وبعد الشقة، فتداعوا للرجوع ودعوا الأمراء إليه فجنح لذلك بعضهم فانكفئوا على تعبيتهم. وسار بعض التتر في اتباعهم فكروا عليهم واستلحموهم وخلصوا إلى بلاد الشام على أحسن حالات الظهور ونية العود ليحسموا علل العدو، ويمحوا أثر الفتنة، والله تعالى أعلم.

نكبة الجوباني واعتقاله بالإسكندرية

كان الأمراء الذين حاصروا سيواس قد لحقهم الضجر والسآمة من طول المقام،

وفزع قردم والطنبقا المعلم منهم إلى الناصري مقدم العساكر بالشكوى من السلطان فيما دعاهم إليه من هذا المرتكب، وتفاوضوا في ذلك ملياً ، وتداعوا إلى الإفراج عن البلد بعد أن بعثوا إلى القاضي بها واتخذوا عنده يدا بذلك. وأوصوه بمنطاش والإبقاء عليه ليكون لهم وقوفا للفتنة. وعلم يونس الدوادار أنهم في الطاعة فلم يسعه خلافهم ففوض لهم. ولما انتهى إلى حلب غدا عليه دمرداش من أمرائها فنصح له بأن الجوباني نائب بدمشق مداخل للناصر في تمريضه في الطاعة، وأنهما مصران على الخلاف. وقفل يونس إلى مصر فقص على السلطان نصيحته، واستدعى دمرداش فشافه السلطان بذلك واطلع منه على جلي الخبر في شأنهما.وكان للجوباني مماليك أوغاد قد أبطرتهم النعمة، واستهواهم الجاه، وشرهوا إلى التوثب وهو يزجرهم فصاروا إلى إغرائه بالحاجب يومئذ طرنطاي، فقعد في بيته عن المجلس السلطاني، وطير بالخبر إلى مصر فاستراب الجوباني وسابقه بالحضور عند السلطان لينضح عنه ما علق به من الأوهام، وأذن له في ذلك فنهض من دمشق على البريد في ربيع سنة تسعين. ولما انتهى إلى سرياقوس أزعج إليه أستاذ داره بهادر المنجكي فقبض عليه، وطير به السفن إلى الإسكندرية. وأصبح السلطان من الغد فقبض على قردم والطنبقا المعلم، وألحقهما به فحبسوا هنالك جميعا

. وانحسم ما كان يتوقع من انتقاضهم. وولى السلطان مكان الجوباني بدمشق طرنطاي الحاجب، ومكان قردم بمصر ابن عمه مجماس ومكان المعلم دمرداش، واستمر الحال على ذلك.

فتنة الناصري واستيلاؤه على الشام ومصر واعتقال السلطان بالكرك:

لما بلغ الناصري بحلب اعتقال هؤلاء الأمراء استراب واضطرب، وشرع في أسباب الانتقاض، ودعا إليه من يشيع الشر وسماسرة الفتن من الأمراء وغيرهم فأطاعوه، وافتتح أمره بالنكير للأمير سودون المظفري والانحراف عنه لما كان منه في نكبته وإغراء السلطان به ثم ولايته مكانه. ومن وظائف الحاجب في دولة الترك: خطة البريد المعروفة في الدول القديمة، فهو يطالع السلطان بما يحدث في عمله، ويعترض شجى في صدر من يريد الانتقاض من ولاته. فأظلم الجو بين هؤلاء الرهط وبين المظفري، وتفاقم الأمر وطير بالخبر إلى السلطان فأخرج للوقت دواداره الأصغر تلكتمر ليصلح بينهما، وشمكن الثائرة. وحينما سمعوا بمقدمه ارتابوا وارتبكوا في أمرهم، وقدم تلكتمر فتلقاه الناصري وألقى إليه كتاب السلطان بالندب إلى الصلح مع الحاجب، والإغضاء له فأجاب بعد أن التمس من حقائب تلكتمر مخاطبة السلطان وملاطفته للأمراء حتى وقف عليه.ثم غلب عليه أولئك الرهط من أصحابه بالفتك بالحاجب فأطاعهم، وباكرهم تلكتمر بدار السعادة ليتم الصلح بينهم وتذهب الهواجس والنفرة فدعاه الناصر إلى بعض خلواته. وبينما هو يحادثه وإذا بالقوم قد وثبوا على الحاجب وفتكوا به. وتولى كبر ذلك أنبقا الجوهري، واتصلت الهيعة فوجم تلكتمر، ونهض إلى محل نزوله. واجتمع الأمراء إلى الناصري واعصوصبوا عليه. ودعاهم إلى الخلعان فأجابوا، وذلك في محرم سنة إحدى

وتسعين.واتصل الخبر بطرابلس، وبها جماعة من الأمراء يرومون الانتقاض منهم بدلار الناصري عميد الفتن فتولى كبرها، وجمع الذين تمالؤا عليها وعمدوا إلى الإيوان السلطاني المسمى بدار السعادة، وقبضوا على النائب وحبسوه، ولحق بدلار الناصري في عساكر طرابلس وأمرائها. وفعل مثل ذلك أهل حلب وحمص وسائر ممالك الشام. وسرح السلطان العساكر لقتالهم. فسارا يتمش الأتابك، ويونس الدوادار، والخليلي جركس أمير الماخورية وأحمد بن بيبقا أمير مجلس، وايدكاز صاحب الحجاب فيمن إليهم من العساكر. وانتخب من أبطال مماليكهم وشجعانهم خمسمائة مقاتل، واستضافهم إلى الخليلي وعقد لهم لواءه المسمى

بالشاليش، وأزاح عللهم وعلل سائر العساكر. وساروا على التعبية منتصف ربيع السنة.وكان الناصري لما فعل فعلته بعث عن منطاش وكان مقيما بين أحياء التتر منذ رجوع العساكر عن سيواس، فدعاه ليمسك معه حبل الفتنة والخلاف فجاء وملأه مبرة وإحساناً، واستنفر طوائف التركمان والعرب، ونهض في جموعه يريد دمشق، وطرنطاي نائبها يواصل تعريف السلطان بالأخبار، ويستحث العساكر من مصر على نائبها الأمير الصفوي وبينه وبين الناصر علاقة وصحبة ؛ فاستترابوا به وتقبضوا عليه، ونهبوا بيته وبعثوا به حبيسا إلى الكرك وولوا مكانه محمد باكيش بن جند التركماني، كان مستخدما عند بندمر هو وأبوه، وولى لهذا العهد على نابلس وما يجاورها فنقلوه إلى غزة.ثم تقدموا إلى دمشق واختاروا من القضاة وفدا أوفدوه على الناصري وأصحابه للإصلاح فلم يجيبوا ، وأمسكو الوفد عندهم وساروا للقاء. ولما تراءى الجمعان بالمرج نزع أحمد بن

بيبقا وايدكاز الحاجب ومن معهما إلى القوم فساروا معهم، واتبعهم مماليك الأمراء، وصدق القوم الحملة على من بقى فانفضوا ولجأ ايتمش إلى قلعة دمشق فدخلها، وكان معه مكتوب السلطان بذلك متى احتاج إليه.

وذهب يونس حيران وقد أفرده مماليكه فلقيه عنقا أمير الأمراء وكان عقد له بعض الترعات أيام سلطانه فتقبض عليه، وأحيط بجركس الخليلي ومماليك السلطان حوله، وقد أبلوا في ذلك الموقف، واستلحم عامتهم فخلص بعض العدو إليه وطعنه فأكبه، ثم احتز رأسه. وذهب ذلك الجمع شعاعا وافترقت العساكر في كل وجه، وجيء بهم أسرى من كل ناحية.ودخل الناصري وأصحابه دمشق لوقتهم واستولوا عليها، وعاثت عساكرهم من العرب والتركمان في نواحيها. وبعث إليهم عنقا يستأذنهم في أمر يونس فأمر بقتله فقتله وبعث إليهم برأسه. وأوعزوا إلى نائب القلعة بحبس أيتمس عنده، وفرقوا المحبوسين من اهل الواقعة على السجون بقلعة دمشق وصفد وحلب وغيرها. وأظهر ابن باكيس دعوته بغزة وأخذ بطاعتهم، ومر به انيال اليوسفي من أمراء الألوف بدمشق ناجيا من الوقعة إلى مصر فقبض عليه وحبسه بالكرك. واستعد السلطان للمدافعة وولى دمرداش أتابكا مكان ايتمش وقرماش الجندار دوادار مكان يونس، وعمر سائر المراتب عمن فقد منها، وأطلق الخليفة المعتقل المتوكل بن المعتضد، وأعاده إلى خلافته وعزل مكانه.وأقام الناصري وأصحابه بدمشق أياما ثم أجمعوا المسير إلى مصر ونهضوا إليها بجموعهم، وعميت أنباؤهم حتى أطلت مقدمتهم على بلبيس. ثم تقدموا إلى بركة الحاج وخيموا بها لسبع من جمادى الأخيرة من السنة. وبرز السلطان في مماليكه ووقف

أمام القلعة بقية يومه والناس يتسايلون إلى الناصري من العساكر ومن العامة حتى غصت بهم بسائط البركة واستأمن أكثر الأمراء مع السلطان إلى الناصري فأمنهم وأطلع السلطان على شأنهم، وسارت طائفة من العسكر وناوشوهم القتال وعادوا منهزمين إلى السلطان. وارتاب السلطان بأمره وعاين انحلال عقدته فدس إلى الناصري بالصلح، وبعث إليه بالملاطفة وأن يستمر على ملكه ويقوم بدولته خدمه وأعوانه. وأشار بأن يتوارى بشخصه أن يصيبه أحد من غير البيبقاوية بسوء. فلما غشيه الليل أذن لمن بقى معه من مماليكه في الأنطلاق ودخل إلى بيته. ثم خرج متنكرا وسرى في غيابات المدينة.وباكرهم الناصري وأصحابه القلعة فاستولوا عليها، ودعوا أمير حاج ابن الأشرف فأدوه إلى التخت كما كان ونصبوه للملك ولقبه المنصور، وبادروا باستدعاء الجوباني والأمراء المعتقلين بالإسكندرية فأغذوا السير ووصلوا ثاني يومهم. وركب الناصري وأصحابه للقائهم وأنزل الجوباني عنده بالاصطبل وأشركه في أمره وأصبحوا ينادون بطلب السلطان الظاهر بقية يومهم ذلك ومن الغد حتى دل عليه بعض مماليك الجوباني وحين رآه قبل الأرض وبالغ في الأدب معه، وحلف له على الأمان، وجاء به إلى القلعة فأنزله بقاعة الغصبة، واشتوروا في أمره. وكان حرص منطاش وزلار على قتله أكثر من سواهما. وأبى الناصري والجوباني إلا الوفاء بما اعتقد معهم واستقر الجوباني أتابك، والناصري رأس النوبة الكبرى، ودمرداش الأحمدي أمير سلاح، وأحمد بن بيبقا أمير مجلس، والأبقا العثماني دوادار، وانبقا الجوهري أستاذ دار. وعمرت الوظائف والمراتب.

ثم بعثوا زلار نائبا على دمشق وأخرجوه إليها وبعثوا كتبغا البيبقاوي على حلب، وكان السلطان قد عزله عن طرابلس واعتقله بدمشق، فلما جاء في جملة الناصري بعثه على حلب مكانه. وقبضوا على جماعة من الأمراء فيهم النائب سودون باق وسودون الطرنطاي فحبسوا بعضهم بالإسكندرية، وبعثوا آخرين إلى الشام فحبسوا هنالك وتتبعوا مماليك السلطان فحبسوا أكثرهم، وأشخصوا بقيتهم إلى الشام يستخدمون عند الأمراء. وقبضوا على أستاذ دار محمود قهرمان الدولة وقارون القصري فصادروه على ألف ألف درهم. ثم أودعوه السجن.

وهم مع ذلك يتشاورون في مستقر السلطان بين الكرك وقوص والإسكندرية حتى أجمعوا على الكرك وورروا بالإسكندرية حذرا عليه من منطاش. فلما أزف مسيره قعد له منطاش عند البحر رصدا وبات عامة ليله، وركب الجوباني مع السلطان من القلعة وأركب معه صاحب الكرك موسى بن عيسى في لمة من قومه يوصلونه إلى الكرك. وسار معه برهة من الليل مشيعا. ثم رجع وشعر منطاش من أمره وطوى على الغش وأخذ ثياب الثورة كما يذكر، ونجا السلطان إلى الكرك في

فل من غلمانه ومواليه ووكل الناصري به حسن الكشكي من خواصه وولاه على الكرك وأوصاه بخدمته ومنعه ممن يرومه بسوء، فتقدمه إلى الكرك وأنزله القلعة وهيأ له النزول بما يحتاج إليه، وأقام هنالك حتى وقع من لطائف الله في أمره ما يذكر بعد إن شاء الله تعالى. وجاء الخبر أن جماعة من مماليك الظاهر كانوا مختفين منذ الوقعة فاعتزموا على الثورة بدمشق، وأنهم ظفروا بهم وحبسوا جميعاً ومنهم أيبقا الصغير، والله تعالى أعلم.

ثورة منطاش واستيلاؤه علي الامر ونكبة الجوباني

وحبس الناصري والامراء البيبقاوية بالاسكندر ية:

كان منطاش منذ دخل مع الناصري إلى مصر متربصا بالدولة طاويا جوانحه على

الغدر لأنهم لم يوفروا حظه من الاقطاع، ولم يجعلوا له اسما في الوظائف حين اقتسموها ولا راعى له الناصري حق خدمته ومقارعته الأعداء. وكان ينقم عليه مع ذلك إيثاره الجوباني واختصاصه فاستوحش وأجمع الثورة، وثان مماليك الجوباني لما حبس أميرهم وانتقض الناصري بحلب لحقوا به وجاؤوا به في جملته، واشتملوا على منطاش فكان له بهم في ذلك السفر أنس وله إليهم صفو، فداخل جماعة منهم في الثورة وحملهم على

صاحبهم، وتطفل على الجوباني في المخالصة بغشيان مجلسه وملابسة ندمائه وحضور مائدته. وكان البيبقاوية جميعا ينقسمون على الناصري ويرون أنه مقصر في الرواتب والاقطاع، وطووا من ذلك على النكث ودعاهم منطاش إلى التوثب فكانوا إليه أسرع وزينوه له وقعدوا عنه عند الحاجة.ونمي الخبر إلى الناصري والجوباني فعزموا على إشخاص منطاش إلى الشام فتمارض وتخلف في بيته أياما يطاولهم ليحكم التدبير عليهم . ثم صدا عليه الجوباني يوم الاثنين وقد أكمن في بيته رجالاً للثورة فقبضوا على الجوباني وقتلوه لحينه. وركب منطاش إلى الرميلة فنهب مراكب الأمراء بباب الاصطبل، ووقف عند مأذنة المدرسة الناصرية وقد شحنها ناشبة ومقاتلة مع أمير من أصحابه، ووقف في حمايتهم،. واجتمع إليه من داخله في الثورة من الأشركية وغيرهم واجتمع إليه من كان بقي من مماليك الظاهر، واتصلت الهيعة فركب الأمراء البيبقاوية من بيوتهم. ولما أفضوا

إلى الرميلة وقفوا ينظرون مآل الحال، وبرز الناصري من الاصطبل فيمن حضر، وأمر الأمراء بالحملة عليهم فوقفوا فأحجم هو عن الحملة وتخاذل أصحابه وأصحاب منطاش .ومال إلى الناصري بمماليكك الجوباني لنكبة صاحبهم فهددهم منطاش بقتله فافترقوا، وتحاجز الفريقان آخر النهار وباكروا شأنهم من الغد. وحمل الناصري فانهزم. وأقاموا على ذلك ثلاثا

وجموع منطاش في تزايد. ثم ا انفض الناس عن الناصري عشية الأربعاء لسبعين يوماً من دخول القلعة . واقتحمها عليه منطاش ونهب بيوته.. وخزائنه، وذهب الظاهري حيران وأصحابه يرجعون عمه. وباكر البيبقاوية مجلس منطاش من الغد فقبض عليهم وسيق من تخلف منهم عن الناصري أفذاذا، وبعث بهم جميعا إلى الإسكندرية. وبعث جماعة ممن حبسهم الناصري إلى قوص ودمياط. ثم جدد البيعة لأمير حاج المنصور. ثم نادى في مماليك السلطان بالعرض، وقبض على جماعة منهم وفر الباقون. وبعث بالمحبوسين منهم إلى قوص، وصادر جماعة من أهل الأموال، وأفرج عن محمود أستاذ دار وخلع عليه - ليوليه في وظيفته.ثم بدا له في أمره وعاود مصادرته وامتحانه واستصفى منه أموالاً عظيمة. يقال ستبن قنطارا من الذهب. ولما استقل بتدبير الدولة عمر الوظائف والمراتب وولى فيها بنظره، وبعث عن الأشقتمري من الشام، وكان أخوه تمرتاي قد آخى بينهما فولاه النيابة الكبرى، وعن استدمر بن يعقوب شاه فجعله أمير سلاح، وعن أتبكا الصفوي فولاه صاحب الحجاب. واختص الثلاثة بالمشورة وأقامهم أركانا للدولة. وكان إبراهيم بن بطلقتمر أمير جندار قد داخله في الثورة فرعى له ذلك وقدمه في أمراء الألوف. ثم بلغه أنه تفاوض مع الأمراء في الثورة به واستبداد السلطان فقبض عليه، ثم اشخصه إلى خلب على إمارته هناك، وكان قد اختص أرغون السمندار وألقى عليه محبته وعنايته فغشيه الناس وباكروا بابه وعظم في الدولة صيته. ثم نمي عنه أنه من المداخلين لإبراهيم أمير جندار فسطا به وامتحنه أن له على هؤلاء المداخلين لإبراهيم فلاذ بالإنكار وأقام في محبسه، وأفرج عن سودون النائب فجاء إلى مصر فألزمه بيته واستمر الحال على ذلك انتهى.

ثورة بذلار بدمشق

ولما بلغ الخبر إلى بذلار بدمشق باستقلال منطاش بالدولة أنف من في لك وارتاب وداخلته الغيرة، أجمع الانتقاض وكاتب نواب الممالك بالشام في حلب وغيرها يدعوهم إلى الوفاق فأعرضوا عنه وتمسكوا بطاعتهم.، كان الأمير الكبير بدمشق جنتمر أخو طاز يداخل الأمراء هناك في التوثب به وتوثق منهم للدولة وبلغ الخبر إلى بذلار فركب في مماليكه وشيعته يروم القبض عليه فلم يتمكن من ذلك، واجتمعوا وظاهرهم عامة دمشق عليه، فقاتلوه ساعة من نهار. ثم أيقن بالغلب والهلكة فألقى بيده وقبضوا عليه، وطيروا بالخبر إلى منطاش وهو صاحب الدولة فأمر باعتقاله وهلك مريضا في محبسه، وولى منطاش جنتمر نيابة دمشق، واستقرت الأحوال على ذلك. والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

خروج السلطان من الكرك وظفره بعساكر الشام وحصاره دمشق

ولما بلغ الخبر إلى السلطان الظاهر بالكرك بأن منطاش استقل بالدولة وحبس البيبقاوية جميعا وأدال منهم بأصحابه أهمته نفسه وخشي غائلته، ولم يكن عند منطاش لأول استقلاله أهم من شأنه وشأن السلطان فكتب إلى حسن الكشكي نائب الكرك بقتله، وقد كان الناصري أوصاه في وصيته حين وكله به أن لا يمكنه ممن يرومه بسوء فتجافى عن ذلك واستدعى البريدي، وفاوض أصحابه وقاضي البلد وكاتب السر فأشاروا بالتحرز من دمه جهد الطاقة. فكتب إلى منطاش معتذرا بالخطر الذي في ارتكابه دون إذن السلطان والخليفة فأعاد عليه الكتاب مع كتاب السلطان والخليفة بالإذن فيه، واستحثه في الإجهاز عليه فأنزل البريدي وعلله بالوعد وطاوله يرجو المخلص من ذلك، وكانوا يطوون الأمر عن السلطان شفقة وإجلالاً فشعر بذلك، وأخلص اللجأ إلى الله والتوسل بإبراهيم الخليل لأنه كان يراقب مدفنه من شباك في بيته.وانطلق غلمانه في المدينة حتى ظفروا برجال داخلوهم في حسن الدفاع عن السلطان، وأفاضوا فيهم فأجابوا وصدقوا ما عاهدوا عليه.

واتعدوا لقتال البريدي، وكان مترله بإزاء السلطان فتوافوا ببابه ليلة العاشر من رمضان وهجموا عليه فقتلوه ودخلوا برأسه إلى السلطان وشفار سيوفهم دامية. وكان النائب حسن الكشكي يفطر على سماط السلطان تأنيسا لهم، فلما رآهم دهش وهموا بقتله فأجاره السلطان، وملك السلطان أمره بالقلعة وبايعه النائب وصعد إليه أهل المدينة من الغد فبايعوه.ووفد عليه عرب الضاحية من بني عقبة وغيرهم فأعطوه طاعتهم، وفشا الخبر في النواحي فتساقط إليه مماليكه من كل جهة، وبلغت أخباره إلى منطاش فأوعز إلى ابن باكيش نائب غزة أن يسير في العساكر إلى الكرك، وتردد السلطان بين لقائه والنهوض إلى الشام. ثم أجمع المسير إلى دمشق فبرز من الكرك منتصف شوال فعسكر بالقبة وجمع جموعه من العرب، وسار في ألف أو يزيدون من العرب والترك وطوى المراحل إلى الشام. وسرح جنتمر نائب دمشق العساكر لدفاعه فيهم أمراء الشام وأولاد بندمر فالتقوا بشقحب، وكانت بينهم واقعة عظيمة أجلت عن هزيمة أهل دمشق، وقتل الكثير منهم وظفر السلطان بهم، واتبعهم إلى دمشق ونجا الكثير منهم إلى مصر.ثم أحس السلطان بأن ابن باكيش وعساكره في اتباعه، فكر إليهم وأسرى ليلته وصبحهم على غفلة في عشر ذي القعدة فانهزموا، ونهب السلطان وقومه جميع ما معهم وامتلأت أيديهم واستفحل أمره، ورجع إلى

دمشق ونزل بالميدان. وثار العوام وأهل القبيبات ونواحيها بالسلطان، وقصدوه بالميدان فركب ناجيا وترك أثقاله فنهبها العوام وسلبوا من لقوه من مماليكه، ولحق بقبة بلبغا فأقام بها وأغلقوا الأبواب دونه، فأقام يحاصرهم إلى محرم سنة اثنتين وتسعين. وكان كمشيقا الحموي نائب حلب قد أظهر دعوته في عمله وكاتبه بذلك عندما نهض من الكرك إلى الشام كما نذكره. ولما بلغه حصاره لدمشق تجهز للقائه واحتمل معه ما يزيح علل السلطان من كل صنف وأقام له أبهة. ووصل أنيال اليوسفي وقجماش ابن عم السلطان وجماعة من الأمراء كانوا محبوسين بصفد، وكان مع نائبها جماعة من مماليك السلطان يستخدمون فغدروا به، وأطلقوا من كان من الأمراء في سجن صفد كما نذكر ولحقوا بالسلطان. وتقدمهم أنيال وهو محاصر لدمشق فأقاموا معه، والله تعالى أعلم.

ثورة المعتقلين بقوص ومسير العساكر اليهم واعتقالهم:

ولما بلغ الخبر إلى الأمراء المحبوسين بقوص خلاص السلطان من الاعتقال واستيلاؤه على الكرك، واجتماع الناس إليه، فثاروا بقوص أوائل شوال من السنة وقبضوا على الوالي بها وأخذوا من موح القاضي ما كان فيه من المال. وبلغ خبرهم إلى مصر فسرح إليهم العساكر. ثم بلغه أنهم ساروا إلى أسوان وشايعوا الوالي بها حسن ابن قرط فلحن لهم بالوعد، وعرض بالوفاق فطمعوا واعتزموا أن يسيروا من وادي القصب من الجهة الشرقية إلى السويس، ويسيروا من هناك إلى الكرك. ولما وصل خبر بن قرط أخرج منطاش سندمر بن يعقرب شاه ثامن وعشرين من السنة وانكفأ جموعه وسار على العدوة الشرقية في جموعه لاعتراضهم فوصل إلى قوص. وبادر ابن قرط فخالفه إلى منطاش بطاعته فأكرمه ورده على عمله فوافى ابن يعقوب شاه بقوص، وقد استولى على النواحي واستنزل الأمراء المخالفين. ثم قبض عليهم وقتل جميع من كان معهم من مماليك السلطان الظاهر ومماليك ولاة الصعيد. وجاء بالأمراء إلى مصر فدخل بهم منتصف ذي الحجة من السنة، فأفرج عن أربعة منهم سوماي اللاى وحبس الباقين. والله تعالى أعلم.

ثورة كمشيقا بحلب وقيامه بدعوة السلطان:

قد كنا قدمنا أن الناصري ولى كمشيقا رأس نوبة نيابة حلب، ولما استقل منطاش بالدولة ارتاب ودعاه بذلار لما ثار بدمشق إلى الوفاق فامتنع. ثم بلغه الخبر بخلاص السلطان من الاعتقال بالكرك فأظهر الانتقاض، وقام بدعوة السلطان، وخالفه إبراهيم بن أمير جندا.واعصوصب عليه أهل باقوسا من أرباض حلب فقاتلهم كمشيقا جميعا وهزمهم. وقتل القاضي ابن أبي الرضا وكان معه في ذلك الخلاف، واستقل بأمر حلب وذلك في شوال من السنة. ثم بلغه أن السلطان هزم عساكر دمشق وابن باكيش، وإنه مقيم بقبة بلبغا محاصرا لدمشق بعد أن نهبوا أثقاله وأخرجوه من الميدان فتجهض من حلب إليه في العساكر والحشود، وجهز له جميع ما يحتاج إليه من المال والأقمشة والسلاح والخيل والإبل وخيام الملك بفرشها وماعونها وآلات الحصار، وتلقاه السلطان وبالغ في تكرمته وفوض إليه الأتابكية والمشورة، وقام معه محاصرا لدمشق.واشتد الحصار على أهل دمشق بعد وصوله واستكثار السلطان من المقاتلة وآلات الحصار، وخرب كثيرا من جوانبها بحجارة المجانيق وتصدعت حيطانها وأضرم كثيرا من البيوت على أربابها فاحترقت، واستولى الخراب والحريق على القبيبات أجمع، وتفاحش فيها واشتد أهل القتال والدفاع من فوق الأسوار. وتولى كبر ذلك منهم قاضي الشافعية أحمد بن القرشي بما أشار عليهم، وفاه أهل العلم والدين بالنكير فيه. وكان منطاش لما بلغه حصار دمشق بعث طنبقا الحلبي دوادار الأشرف بمدد من المال يمد به العساكر هنالك وأقام معهم. ثم بعث جنتمر إلى أمير آل فضل يعبر بن جبار يستنجد به فجاء لقتالهم، وسار كمشيقا نائب حلب فلقيه وفض جموعه، وأسر خادمه وجاء به أسيرا، فمن عليه السلطان وأطلقه وكساه وحمله ورده إلى صاحبه. واستمر حصار دمشق إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ثورة انيال بصفد بدعوة السلطان

كان أنيال لما الهزم يوم واقعة دمشق فر إلى مصر ومر بغزة فاعتقله ابن باكيش وحبس بالكرك، فلما استولى الناصري أشخصه إلى صفد فحبس بها مع جماعة من الأمراء وولى على صفد قلطبك النظامي فاستخدم جماعة من مماليك برقوق، واتخذ منهم بلبغا السالمي دوادار، فلما بلغه خلاص السلطان من الاعتقال ومسيره إلى الشام داخل بلبغا مماليك أستاذه قطلوبقا في

الخلاف واللحاق بالسلطان. وهرب منهم جماعة فركب قطلوبقا في اتباعهم وأبقى بلبقا السالمي دوادار وحاجب صفد؟ فأطلقوا أنيال وسائر المحبوسين من السلطان، فملك أنيال القلعة ورجع قطلوبقا من اتباع الهاربين فوجدهم قد استولوا وامتنعوا. وارتاب من مماليكه فسار عن صفد ونهب بيته ومخلفه، ولحق بالشام فلقي الأمراء المنهزمين أمام السلطان بشقحب قاصدين مصر فسار معهم، ولحق أنيال بالسلطان من صفد بعد أن ضبطها واستخلف عليها وأقام مع السلطان والله تعالى أعلم.

مسير منطاش وسلطانه أمير حاجي إلى الشام والهزامهم ودخولى منطاش إلى دمشق وظفر السلطان الظاهر بأمير حاجي والخليفة والقضاة وعوده لملكه

ولما تواترت الأخبار بهزيمة عساكر الشام وحصار السلطان الظاهر دمشق وظهور

دعوته في حلب وصفد وسائر بلاد الشام. ثم وصلت العساكر المنهزمون وأولاد بندمر ونائب صفد واستحثوه، وتواترت كتب جنتمر نائب دمشق وصريخه، أجمع منطاش أمره حينئذ على المسير إلى الشام فتجهز ونادى في العساكر، وأخرج السلطان والخليفة والقضاة والعلماء سابع عشر ذي الحجة سنة إحدى وتسعين، وخيموا بالزيدانية من ناحية القاهرة حتى أزاح العلل. واستخلف على القاهرة دواداره صراي تمر، وأطلق يده في الحل والعقد والتولية والعزل. واستخلف على القلعة بكا الأشرفي وعمد إلى خزانة من خزائن الذخيرة بالقلعة فسد بابها ونقبها من أعلاها حتى صارت كهيئة الجب، ونقل إليها من كان في سجنه من أهل دولة السلطان.ونقل سودون النائب إلى القلعة فأنزله بها وأمر بالقبض على من بقي من مماليك السلطان حيث كانوا، فتسربوا في غيابات المدينة ولاذوا بالإختفاء. وأوعز بسد كثير من أبواب الدروب بالقاهرة فسدت. ورحل في الثاني والعشرين من الشهر بالسلطان وعساكره على التعبية وطووا المراحل، ونمي إليه أثناء طريقه أن بعض مماليك السلطان المستخدمين عند الأمراء مجموعون على التوثب ومداخلون لغيرهم فأجمع السطوة بهم ففروا ولحقوا بالسلطان. ولما بلغ خبر مسيرهم السلطان وهو محاصر دمشق ارتحل في عساكره إلى لقائهم ونزل قريبا من شقحب، وأصبحوا

على التعبية وكمشيقا بعساكر حلب في ميمنة السلطان ومنطاش قد عبى جيشه. وجعل السلطان أمير حاجي والخليفة والقضاة والرماة من ورائهم، ووقف معهم تمارتمرراس نوبة، وسندمر بن يعقوب شاه أمير سلاح. ووقف هو في طائفة من مماليكه وأصحابه في حومة المعترك. فلما تراءى الجمعان حمل هو وأصحابه على ميمنة السلطان ففضوها، والهزم كمشيقا إلى حلب ومروا في اتباعه ثم عطفوا على مخيم السلطان فنهبوه وأسروا قجماش ابن عمه كان هناك جريحا. ثم حطن السلطان على الذي فيه أمير حاجي والخليفة والقضاة فدخلوا في

حكمه، ووكل بهم واختلط الفريقان وصاروا في عمى من أمرهم، والسلطان في لمة من فرسانه يخترق جوانب المعترك ويحطم الفرسان ويشردهم في كل ناحية، وشراد مماليكه وأمرائه يتساقطون إليه حتى كثف جمعه ثم حمل على بقية العسكر وهم ملتئمون على الصفدي فهزمهم ولحقوا بدمشق وضرب خيامه بشقحب. ولما وصل منطاش إلى دمشق أوهم النائب جنتمر أن الغلب له وأن السلطان أمير حاجي على الأثر، ونادى العساكر بالخروج في السلاح لتلقيه، وخرج من الغد موريا بذلك فركب إليهم السلطان في العساكر فهزمهم وأثخن فيهم واستلحم كثيرا من عامة دمشق. ورجع السلطان إلى خيامه. وبعث أمير حاجي بالتبري من الملك والعجز عنه والخروج إليه من عهدته ؛ فأحضر الخليفة والقضاة فشهدوا عليه بالخلع وعلى الخليفة بالتفويض إلى السلطان والبيعة له والعود إلى كرسيه. وأقام السلطان بشقحب تسعا واشتد كلب البرد وافتقدت الأقوات لقلة الميرة، فأجمع العود إلى مصر ورحل يقصدها. وبلغ الخبر إلى منطاش فركب لاتباعه، فلما أطل عليه أحجم ورجع واستمر السلطان لقصده، وقدم حاجب غزة للقبض على ابن باكيش فقبض عليه. ولما وافى السلطان غزة ولى عليها مكانه وحمله معتقلا، وسار وهو مستطلع لأحوال مصر حتى كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ثورة بكا والمعتقلين بالقلعة واستيلاؤهم عليها بدعوة السلطان الظاهر

وعوده إلى كرسيه بمصر وانتظام أمره:

كان منطاش لما فصل إلى الشام بسلطانه وعساكره كما مر واستخلف كلى القاهرة دواداره سراي تمر وأنزله بالاصطبل، وعلى القلعة بكا الأشرفي ووكله بالمعتقلين هنالك فأخذوا أنفسهم بالحزم والشدة. وبعد أيام نمي إليهم أن جماعة من مماليك السلطان مجتمعون للثورة وقد داخلوا مماليكهم فبيتوهم وقبضوا عليهم بعد جولة دافع فيها المماليك عن أنفسهم. ثم تقبضوا على من داخلهم من مماليكهم وكانوا جماعة كثيرة، وحدثت لهم بذلك رتبة واشتداد في الحزم، فنادوا

بالوعيد لمن وجد عنده أحد من مماليك السلطان، ونقلوا ابن أخت السلطان من بيت أمه إلى القلعة وحبسوه وأوعزوا بقتل الأمراء المعتقلين بالفيوم، فقتلوا وعميت عليهم أنباء منطاش والعساكر، وبعثوا من يقتص لهم الطريق ويسائل الركبان واعتزموا على قتل المسجونين بالقلعة.ثم تلاوموا في ذلك ورجعوا إلى التضييق عليهم ومنع المترددين بأقواتهم ؛ فضاقت أحوالهم وضجروا وأهمتهم أنفسهم. وفي خلال ذلك عثر بعضهم على منفذ إلى سرب تحت الأرض يفضي إلى حائط الاصطبل ففرحوا بذلك وتنسموا ريح الفرج، ولما أظلتهم ليلة الأربعاء غرة صفر سنة اثنتين وتسعين مروا في ذلك السرب فوجدوا فيه آلة النقب فنقبوا الحائط، وأفضوا إلى أعلى الاسطبل وتقدم بهم خاصكي من أكابر الخاصكية، وهجموا على الحراس فثاروا إليهم فقتلوا بعضهم بالقيود من أرجلهم، وهرب الباقون ونادوا شعبان بكا نائب القلعة يوهمون أنه انتقض.ثم كسروا باب الاسطبل الأعلى والأسفل، وأفضوا إلى مترل سراي تمر فأيقظه لغطهم، وهلع من شأن بكا فأرمى نفسه من السور ناجياً ، ومر بالحاجب قطلوبقا ولحق بمدرسة حسن وقد كان منطاش أنزل بها ناشبة من التركمان لحماية الاسطبل وأجرى لهم الأرزاق، وجعلهم لنظر تنكز رأس نوبة . ثم هجم أصحاب بكا على بيت سراي

تمر فنهبهوا ماله وقماشه وسلاحه، وركبوا خيله واستولوا على الاسطبل وقرعوا الطبول ليلتهم. وقاتلهم بكا من الغد. وسرب الرجال إلى الطبلخانات فملكها ثم أزعجوه عنها. وزحف سراى تمر وقطلوبقا الحاجب إلى الاسطبل لقتالهم، وبرروا إليهم فقاتلوهم واعتصموا بالمدرسة. واستولى بكا على أمره وبعث إلى باب السر من المدرسة ليحرقه فاستأمن إليه التركمان الذين به فأنزلهم على الأمان، وسرب أصحابه في البلد لنهب بيوت منطاش وأصحابه فعاثوا فيها وتسلل إليه مماليك السلطان المختفون بالقاهرة فبلغوا ألفا أو يزيدون. ثم استأمن بكا من الغد فأمنه سودون النائب وجاء به إلى الناصري أمير سلاح ودمرداش وكان عنده فحبسهما بكا. ثم وقف سودون على مدرسة حن والأرض تموج بعوالم النظارة فاستترل منها سراي تمر وقطلو بغا الحاجب فترلا على أمانه. وهم العوالم بهما فحال دونهما وجاء بهما بكا فحبسهما. وركب سودون يوم الجمعة في القاهرة ونادى بالأمان والخطبة للسلطان فخطب له من يومه، وأمر بكا بفتح السجون وإخراج من كان فيها في حبس منطاش وحكام تلك الدولة. وهرب الوالي حسن بن الكوراني خوفا على نفسه لما كان شيعة لمنطاش على مماليك السلطان. ثم عثر عليه بكا وحبسه مع سائر شيعة منطاش، وأطلق جميع الأمراء الذين حبسهم بمصر ودمياط والفيوم. ثم بعث الشريف عنان بن مقامس أمير بني حسن بمكة وكان محبوسا، وخرج معهم فبعثه مع أخيه

أيبقا على الهجن لاستكشاف خبر السلطان. ووصل يوم الأحد بعدها كتاب السلطان مع ابن صاحب الدرك سيف بن محمد بن عيسى العائدي بإعداد الميرة والعلوفة في منازل السلطان على العادة. وقص خبر الواقعة وأن السلطان توجه إلى مصر وانتهى إلى الرملة. ثم وصل أيبقا أخو بكا يوم الأربعاء ثامن صفر بمثل ذلك، وتتابع الواصلون من عسكر السلطان، ثم نزد بالصالحية وخرج السلطان لتلقيه بالعكرشة. ثم أصبح يوم الثلاثاء رابع صفر في ساحة القلعة، وقلده الخليفة وعاد إلى سريره. ثم بعث عن الأمراء الذي كان حبسهم منطاش بالإسكندرية وفيهم الناصري والجوباني وابن بيبقا وقراد مرداش وأبغا الجوهري وسودون باق وسودون الطرنطاي وقردمر المعلم في آخرين متعددين، واستعتبوا للسلطان فأعتبهم وأعادهم إلى مراتبهم، وولى أنيال اليوسفي أتابكا والناصري أمير سلاح، والجوباني رأس نوبة وسودون نائبا، وبكا دوادار وقرقماش أستاذ دار، وكمشيقا الخاصكي أمير مجلس، وتطلميش أمير الماخورية، وعلاء الدين كاتب سر الكرك كاتب سره بمصر، وعمر سائر المراتب والوظائف. وتوفي قرقماش فولى محمود أستاذ داره الأول، ورعى له سوابق خدمته ومحنة العدو له في محبته، وانتطم أمر دولته واستوثق ملكه. وصرف نظره إلى الشام وتلافيه من مملكة العدو وفساده والله تعالى أعلم.

ولاية الجوباني علي دمشق واستيلاؤه عليها من يد
منطاش ثم هزيمته ومقتله وولاية الناصري مكانه:

لما استقر السلطان على كرسيه بالقاهرة، وانتظمت أمور دولته صرف نظره إلى الشام وشرع في تجهيز العساكر لإزعاج العدو منه، وعين الجوباني لنيابة دمشق ورياسة العساكر، والناصري لحلب لأن السلطان كان

عاهد كمشيقا على أتابكية مصر، وعين قرا دمرداش لطرابلس ومأموناً القلحطاوي لحماة ؛ فولى في جميع ممالك الشام ووطائفه وأمرهم بالتجهيز. ونودي في العساكر بذلك وخرجوا ثامن جمادى الأولى من سنة إثنتين وتسعين. وكان منطاش قد اجتهد جهده في طي خبر السلطان بمصر عن امرائه وسائر عساكره، وما زال يفشو حتى شاع وظهر بين الناس ؛ فانصرف هواهم إلى السلطان. وبعث في أثناء ذلك الأمير يماز تمر نائبا على حلب فاجتمع أهل كانفوسا وحاصر كمشيقا بالقلعة نحوا من خمسة أشهر، وشد حصارها وأحرق باب القلعة والجسر، ونقب سورها من ثلاث مواضع . واتصل القتال بين الفريقين في أحد الأنقاب لشهرين على ضوء الشموع . ثم بعث العساكر إلى طرابلس مع ابن ايماز التركماني فحاصرها وملكوها من يد سندمر حاجب حجابها، وكان مستوليا عليها بدعوة الظاهر. ولما ملكها ولى عليها قشتمر الأشرفي. ثم بعث العساكر إلى بعلبك مع محمد بن سندمر في نفر من قرابته وجنده فقتلهم منطاش بدمشق أجمعين . ثم أوعز إلى قشتمر الأشرفي نائب طرابلس بالمسير

إلى حصار صفد فسار إليها ، وبرز إليه جندها فقاتلوه وهزموه، فجهز إليها العساكر مع أبقا الصفدي كبير دولته فسار إليها في سبعمائة من العساكر. وقد كان لما تيقن عنده استيلاء السلطان على كرسيه بمصر جنح إلى الطاعة والاعتصام بالجماعة، وكاتب السلطان بمغارمه ووعده فلما وصل إلى صفد بعث إلى نائبها بطاعته، وفارق أصحاب منطاش ومن له هوى فيه وصفوا إليه وبات ليلته بظاهر صفد. وارتحل من الغد إلى مصر فوصلها منتصف جمادى الأخيرة، وأمراء الشام معسكرون مع الجرباني بظاهر القلعة فأقبل السلطان عليه وجعله من أمراء الألوف.ولما رجع أصحابه من صفد إلى دمشق اضطرب منطاش وتبين له نكر الناس وارتاب بأصحابه، وقبض جماعة من الأمراء ، وعلى جنتمر نائب دمشق وابن جرجي من أمراء الألوف وابن قفجق الحاجب، وقتله والقاضي محمد بن القرشي في جملة من الأعيان واستوحش الناس ونفروا عنه واستأمنوا إلى السلطان، مثل محمد بن سندمر وغيره. وهرب كاتب السر بدر الدين بن فضل الله وناظر الجيش. وقد كانوا يوم الواقعة على شقحب لحقوا بدمشق يظنون أن السلطان يملكها يومه ذلك فبقوا في ملكة منطاش وأجمعوا الفرار مرة بعد أخرى فلم يتهيأ لهم. وشرع منطاش في الفتك بالمنتمين إلى السلطان من المماليك المحبوسين بالقلعة وغيرهم، وذبح جماعة من الجراكسة وهم بقتل أشمس فدفعه الله عنه. وارتحل الأمراء من مصر في العساكر السلطانية. إلى الشام مع الجوباني يطوون المراحل، والأمراء من دمشق يلقونهم في كل مترلة هاربين إليهم، حتى كان آخر من لقيهم ابن نصير أمير العرب بطاعة أبيه، ودخلوا حدود الشام ثم ارتبك منطاش في أمره واستقر الخوف والهلع والاسترابة بمن معه فخرج منتصف جمادى الأخيرة هاربا من دمشق في خواصه وأصحابه ، ومعه سبعون حملاً من المال والأقمشة. واحتمل معه محمد بن أينال وانتقض عليه جماعة من المماليك فرجعوا به إلى أبيه، وكان يعبر بن جبار أمير آل فضل مقيما في أحيائه ومعه أحياء آل مرو وأميرهم عنقا، فلحق بهم هنالك منطاش مستجيرا فأجاروه ونزل معهم. ولما فصل منطاش عن دمشق خرج أشمس من محبسه وملك القلعة ومعه مماليك السلطان معصوصبون عليه، وأرسل إلى الجوباني بالخبر فأغذ السير إلى دمشق

وجلس بموضع نيابته، وقبض على من بقي من أصحاب منطاش وخدمه مع من كان حبس هو معهم ووصل الطنبقا الحلبي ودمرداش اليوسفي من طرابلس. وكان منطاش استقدمهم وهرب قبل وصولهم، وبلغ الخبر إلى ايماز تمر وهو يحاصر حلب وأهل كانفوسا معصوصبون عليه فأجفل، ولحق بمنطاش وركب كمشيقا من القلعة إليهم بعد أن أصلح الجسر، وأركب معه الحجاب وقاتل أهل كانفوسا ومن معهم من أشياع منطاش ثلاثة أيام. ثم هزموهم، وقتل كمشيقا منهم أكثر من ثمانمائة وخرب كانفوسا فأصبحت خرابا وعمر القلعة وحصنها وشحنها بالأقوات.وبعث الجوباني العساكر إلى طرابلس وملكوها من يد قشتمر الأشرفي نائب منطاش من غير قتال وكذلك حماة وحمص. ثم بعث الجوباني نائب دمشق وكافل الممالك الشامية إلى يعبر بن جبار أمير العرب بإسلام منطاش وإخراجه من أحيائه فامتنع واعتذر، فبرز من دمشق بالعساكر ومعه الناصري وسائر الأمراء. ونهض إلى مصر فلما انتهوا إلى حمص أقاموا بها وبعثوا إلى يعبر يعتذرون إليه فلج واستكبر وحال دونه. وبعث إليه أشمس خلال ذلك من دمشق بأن جماعة شيعة بندمر وجنتمر يرومون الثورة فركب الناصري إلى دمشق، وكبسهم وأثخن فيهم ورجع إلى العسكر وارتحلوا إلى سلمية.واستمر يعبر في غلوائه وترددت الرسل بينهما فلم تغن. ثم كانت بين الفريقين حرب شديدة، وحملت العساكر على منطاش والعرب فهزموهم إلى الخيام، واتبع دمرداش منطاش حتى جاوز به الحي وارتحلت العرب، وحملوا بطانتهم على العسكر فلم يثبتوا لحملتهم. وكان معهم آل علي بجموعهم فنهبوهم من ورائهم وانهزموا. وأفرد الجوباني مماليكه فأسره العرب وسيق إلى يعبر فقتله، ولحق الناصري بدمشق وأسر جماعة من الأمراء، وقتل منهم أيبقا الجوهري ومأمون المعلم في عدد آخرين، ونهب العرب مخيمهم وأثقالهم. ودخل الناصري إلى دمشق فبات ليلته وباكر من الغد آل علي في أحيائهم فكبسهم واستلحم منهم جماعة فثار منهم بما فعلوه في الواقعة. ثم بعث إليه السلطان بنيابة دمشق منتصف شعبان من السنة، فقام بأمرها وأحكم التصريف في حمايتها، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

اعادة محمود إلى استاذية الد ار واستقلاله في الدولة:

هذا الرجل من ناشئة الترك وولدانهم ومن أعقاب كراي المنصوري منهم، شب في ظل الدولة ومرعى نعمها ونهض بنفسه إلى الاضطلاع والكفاية، وباشر كثيرا من أعمال الأمراء والوزراء حتى أوفى على ثنية النجابة، وعرضته الشهرة على اختيار السلطان فعجم عوده ونقد جوهره. ثم ألحق به أغراض الخدمة ببابه فأصاب شاكلة الرمية ومضى قدما في مذاهب السلطان مرهف الحد قوي الشكيمة فصدق ظنه وشكر اختياره. ثم دفعه إلى معاينة الحبس وشد الدواوين من وظائف الدولة فجلا فيهما. وهلك خلال ذلك أستاذ الدار بهادر المنجكي سنة تسعين فأقامه السلطان مكانه قهرمانا لداره ودولته وانتنضارته على دواوين الجباية من قراب اختياره ونقده، جماعة للأموال فواصا على استخراج الحقوق السلطانية، قاروناً للكنوز اكسيرا للنقود مغناطيسا للقنية، يسابق أقلام الكتاب ويستوفي تفاصيل الحساب بمدارك إلهامه، وتصور صحيح وحدس ثاقب لا يرجع إلى حذاقة الكتاب ولا إلى أيسر الأعمال، بل يتناول الصعاب فيذللها ويحوم على

الأغراض البعيدة فيقربها. وربما يحاضر بذكائه في العلوم فينفذ في مسائلها، وبفحم جهابذتها موهبة من الله اختصه بها ونعمة أسبغ عليه لبوسها. فقام بما دفع إليه السلطان من ذلك وأدر خروج الجباية فضاقت أفنية الحواصل والخزائن بما تحصل وتسرب إليها وكفى السلطان مهمه في دولته ومماليكه ورجاله بما يسوغ لهم من نعمة، ويوسع من أرزاقه وعطائه، حتى أزاح عللهم بتوالي إنفاقه، وقرت عين السلطان باصطناعه، وغص به الدواوين والحاشية ففوقوا إليه سهام السعاية وسلطوا عليه ألسنة المتظلمين فخلص من ذلك خلوص الإبريز، و لم تعلق به ظنة ولا حامت عليه ريبة.

ثم طرق الدولة ما طرقها من النكبة والاعتقال وأودعته المحنة غيابات السجون،

وحفت به أنواع المكاره واصطلمت نعمته واستصفيت أمواله في المصادرة والامتحان، حتى زعموا أن الناصري المتغلب يومئذ استأثر منه بخمسة قناطير من دنانير الذهب، ومنطاش بعده بخمسة وخمسين. ثم خلص ابريزه من ذلك السبك وأهل قمره بعد المحاق، واستقل السلطان من نكبته وطلع بأفق مصره وتمهد أريكة ملكه، ودفعه لما كان بسبيله فأحسن الكرة في الكفاية لمهمه، وتوسيع عطاياه وأرزاقه وتمكين أحوال دولته. وتسربت الجباية من غير حساب ولا تقرير إلى خزائنه، وأحسن النظر في الصرف والخرج بحزمه وكفايته، حتى عادت الأمور إلى أحسن معهودها بيمن تعبيته وسديد رأيه وصلابة عوده وقوة صرامته، مع بذل معروفه وجاهه لمن تحت جده، وبشاشته وكفايته لغاشيته. وحسن الكرامة لمنتابه ومقابلة من يأتي إليه بكرم مقاصده فأصبح طرازا للدولة وتاجا للخواص. وقذفه المنافسون بخطا السعايات فزلت في. جهات حلم السلطان وجميل اغتباطه وتثبته، حتى أعيتهم المذاهب وانسدت عليهم الطرق، ورسخت قدمه في الدولة واحتل من السلطان بكرم العهد والذمة، ووثق بغنائه واضطلاعه فرمى إليه مقاليد الأمور، وأوطأ عقبه أعيان الخاصة والجمهور، وأفرده في الدولة بالنظر في الأمور حسباناً وتقديرا وجمعا وتقريرا وكنزا موفرا وصرفا لا يعرف تبذيراً وبطرا وفي الانهاء بالمعزل والإهانة مشهورا مع ما يمتاز به من الأمر والشأن، وسمو مرتبته على مر الأزمان. وهو على ذلك لهذا العهد عند سفر السلطان إلى الشام لمدافعة سلطان المغل كما مر ذكره، والله متولي الأمور لا رب غيره.

مسير منطاش ويثبر إلى نواحي حلب وحصارها

ثم مفارقة يعبر وحصاره عنتاب ثم رجوعه

ولما انهزمت العساكر بسلمية كما قلننا ارتحل يعبر في أحيائه ومعه منطاش وأصحابه إلى نواحي حلب، وسار يعبر إلى بلد سرمين من أقطاعه ليقسمها في قومه على عادتهم، وكان كمشيقا نائب حلب قد أقطعها الجند من التركمان في خدمته. فلما وافاها يعبر هربوا إلى حلب فلقوا في طريقهم أحمد بن المهدار في العساكر وقد نهض إلى يعبر فرجعوا عنه، ولقيهم علي بن يعبر فقاتلوه وهزموه وقتلوا بعض أصحابه صبرا، ورجع يعبر إلى أحيائه وارتحلوا إلى حلب فحاصروها وضيقوا عليها أيام رمضان. ثم راجع يعبر نفسه وراسل كمشيقا نائب حلب في الطاعة واعتذر عما وقع منه وطوق الذنب، بالجوباني وأصحابه أهل الواقعة، وسأل الأمان مع حاجبه عبد الرحمن فأرسله كمشيقا إلى السلطان، وأخبره بما اشترط يعبر فأجابه السلطان إلى سؤاله. وشعر بذلك منطاش

بمكانه من حصار حلب فارتاب وخادع يعبر إلى الغارة على التركمان بقربهم، فأذن للعرب في المسير معه، وسار معه منهم سبعمائة. فلما جاوز الدربند أرجلهم عن الخيل وأخذها ولحق بالتركمان ونزل بمرعش بلد أميرهم سولي، ورجع العرب مشاة إلى يعبر فارتحل إلى سبيله راجعاً ، وسار منطاش إلى عنتاب من قلاع حلب، ونائبها محمد بن شهري فملكها واعتصم نائبها بالقلعة أياما. ثم نبت منطاش وأثخن في أصحابه وقتل جماعة من أمرائه، وكانت العساكر قد جاءت من حلب وحماة وصفد لقتاله فهرب إلى مرعش وسار منها إلى بلاد الروم، واضمحل أمره. وفارقه جماعة من أصحابه إلى العساكر وراجعوا طاعة السلطان آخر ذي القعدة من سنة اثنتين وسبعين. وبعث سولي بن دلقادر أمير التركمان في عشر ذي الحجة يستأمن إلى السلطان فأمنه وولاه على البلستين كما كان. والله سبحانه وتعالى أعلم.

قدوم كمشيقا من حلب:

قد كان تقدم لنا أن كمشيقا الحموي رأس نوبة بيبقا كان نائبا بطرابلس، وان السلطان عزله وحبسه بدمشق، فلما استولى الناصري على دمشق أطلقه من الاعتقال وجاء في جملته إلى مصر. فلما ولي على ممالك الشام وأعمالها ولاه على حلب مكانه منتصف إحدى وسبعين. ولما استقل السلطان من النكبة وقصد دمشق كما مر أرسل كمشيقا إليه بطاعته ومشايعته على أمره، وأظهر دعوته في حلب وما إليها من أعماله. ثم سار السلطان إلى دمشق وحاصرها وأمده كمشيقا بجميع

ما يحتاج إليه. ثم جاءه بنفسه في عساكر حلب صريخا، وحمل إليه جميع حاجاته وأزاح علله وأقام له رسوم ملكه، وشكر السلطان أفعاله في ذلك وعاهده على أتابكية مصر. ثم كانت الواقعة على شقحب فانهزم كمشيقا إلى حلب فامتنع بها، وحاصره يمازتمر أتابك منطاش أشهرا كما مر. ثم هرب منطاش من دمشق إلى العرب فأفرج يمازتمر عن حلب. ثم كانت واقعة الجوباني ومقتله وزحف منطاش ويعبر إلى حلب فحاصروها مدة. ثم وقع الخلاف بينهما وهرب منطاش إلى بلاد التركمان، ورجع يعبر إلى بلدة سلمية، واستأمن إلى السلطان ورجع إلى طاعته منتصف شوال. ولما أفرجوا عن حلب نزل كمشيقا من القلعة ورم خرابها وخرب بانفوسا واستلحم أهلها، وأخذ في إصلاح أسوار حلب ورئم ما سلم منها وكانت خرابا من عهد هلاكو. وجمع له أهل حلب ألف درهم للنفقة فيه، وفرغ منه لثلاثة أشهر.ولما استوسق أمر السلطان وانتظمت دولته بعث إليه يستدعيه في شهر ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين، وولى مكانه في حلب قرا دمرداش نقله إليها من طرابلس وولى مكانه أنيال الصغير، فسار كمشيقا من حلب ووصل مصر تاسع صفر سنة ثلاث وتسعين، فاهتز له السلطان وأركب الأمراء للقائه مع النائب. ثم دخل إلى السلطان فحياه وبالغ في تكرمته وتلقاه بالرحب، ورفع مجلسه فوق الأتابك أنيال، وأنزله بيت منجك وقد هيأ فيه الفرش والماعون والخرثي ما فيه للمترل. ثم بعث إليه بالأقمشة وقرب إليه الجياد بالمراكب الثقيلة، وتقدم للأمراء أن يتحفوه بهداياهم فتناغوا في ذلك وجاؤوا من وراء الغاية، وحضر في ركابه من أمراء الشام الطنبقا الأشرفي وحسن الكشكي، فأكرمهما السلطان واستقر كمشيقا بمصر في أعلى مراتب الدولة إلى أن توفي أنيال الأتابك في جمادى أربع وتسعين فولاه

السلطان مكانه كما عاهده عليه بشقحب، وجعل إليه نطر المارستان على عادة الأتابكية، واستمر على ذلك لهذا العهد. والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه.

استقدام أيتمش

كان أيتمش النجاشي أتابك الدولة قد نكبه السلطان وسار في العساكر إلى الشام منتصف ربيع إحدى وتسعين لقتال الناصري وأصحابه، لما إنتقض عليه وكانت الواقعة بينهم بالمرج من نواحي دمشق، وانهزمت العساكر ونجا أيتمش إلى قلعة دمشق ومعه كتب السلطان في دخولها متى إضطر إليه، فامتنع بها وملكها الناصري من الغد بطاعة نائبها ابن الحمصي فوكل بايتمش وأقام حبيساً موسعاً عليه، ثم سار الناصري إلى مصر وملكها، وعاد السلطان إلى كرسيه

في صفر سنة إثنتين وتسعين كما فصل ذلك من قبل. وأيتمش في أثناء ذلك كله محبوس بالقلعة. ثم زحف الجوباني في جمادى الأخيرة وخلص أيتمش من اعتقاله، وفتق مماليك السلطان السجن الذي كانوا فيه بقلعة دمشق وخرجوا وأعصوصبوا على أيتمش قبل مجيء الجوباني . وبعث إليه بالخبر، وبعث الجوباني إلى السلطان بمثل ذلك فتقدم إليه السلطان بالمقام بالقلعة حتى يفرغ من أمر عدوه.

ثم كان بعد ذلك واقعة الجوباني مع منطاش والعرب ومقتله وولاية الناصري على دمشق مكانه. ثم افترق العرب وفارقهم منطاش إلى التركمان، وانتظمت ممالك الشام في ملكة السلطان، واستوسق ملكه واستفحلت دولته، فاستدعى الأمير أيتمش من قلعة دمشق، وسار لاستدعائه قنوباي من مماليك السلطان ثامن ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين، ووصل إلى مصر رابع جمادى الاولى من السنة. ووصل في ركابه حاجب الحجاب بدمشق ومعه الأمراء الذين حبسوا بالشام، منهم جنتمر نائب دمشق وابنه وابن أخته وأستاذ داره طنبقا ودمرداش اليوسفي نائب طرابلس، والطنبقا الحلي والقاضي أحمد بن القريشي ، وفتح الدين بن الرشيد، وكاتب السر في ست وثلاثين نفراً من الأمراء وغيرهم. ولما وصل أيتمش قابله السلطان بالتكرمة والرحب وعرض الحاجب المساجين الذي معه ووبخ السلطان بعضهم. ثم حبسوا بالقلعة حتى نفذ فيهم قضاء الله، وقتلوا مع غيرهم ممن أوجبت السياسة قتلهم. والله تعالى مالك الأمور لا رب سواه إنتهى.

هدية أفريقية

كان السلطان قد حصل بينه وبين سلطان أفريقية أبي العباس أحمد بن محمد بن

أبي بكر بن أبي حفص الموحدي مودة والتئام، وكانت كثيراً ما تجددها الهدايا من الجانبين، ونذكرها إن شاء الله تعالى. ولما بلغ الخبر إلى تونس بما كان من نكبة السلطان وما كان من أمره، امتعض له هذا السلطان بتونس وتفجع لشأنه، وأقام يستطلع خبره ويستكشف من الجار التي تحضر إلى مصر من أهل تونس أنباءه، حتى وقف على الجلي من أمره وما كيف الله من أسباب السعادة في خلاصه وعوده إلى كرسيه، فملأ السرور جوانحه. وأوفد عليه بالتهنئة رسوله بهدية من المقربات على سبيل الوداد مع خالصة من كبراء الموحدين محمد بن علي بن أبي هلال، فوصل في العشر الأواخر من رمضان سنة إثنتين وتسعين فتلقاه السلطان بالكرامة،

وركب محمود أستاذ داره ليتلقاه عند نزوله من البحر بساحل بولاق، وأنزل ببيت طشتمر بالزميلة قبالة الاصطبل، وأجريت عليه النفقة بما لم يجر لأمثاله. ورغب من السلطان في الحج فحج وأصحب هدية إلى مرسله من ثياب الوشي والديباج والسلاح بما لم يعهد مثلها، وإنصرف آخر ربيع سنة ثلاث وتسعين والله تعالى أعلم بغيبه.

حصار منطاش دمشق ومسير السلطان من

مصر إليه وفراره ومقتل الناصري

لم يزل منطاش شريداً عند التركمان منذ فارق العرب، ولما كان منتصف سنة ثلاث وتسعين اعتزم على قصد دمشق، ويقال إن ذلك كان بإغراء الناصري يخادعه بذلك ليقبض عليه فسار منطاش من مرعش على نواحي حلب وتقدم خبره إلى حماة فهرب نائبها إلى طرابلس. ودخل منطاش حماة ونادى فيها بالأمان، ثم سار منها إلى حمص كذلك ثم إلى بعلبك وهرب نائبها إلى دمشق فخرج الناصري نائب دمشق في العساكر لمدافعته، وسار على طريق الزبداني فخالفه منطاش إلى دمشق. وقدم إليها أحمد شكار ابن أبي بندمر فثار شيعة الخوارزمية والبندمرية، وفتحوا له أبواب البلد ومر باصطبلات فقاد منها نحوا من ثمانمائة فرس.وجاء منطاش من الغد على أثره فنزل بالقصر الأبلق، وأنزل الأمراء الذين معه في البيوت حوالي القصر وفي جامع شكن وجامع بيبقا، وشرع في مصادرة الناس والفريضة عليهم وأقام يومه في ذلك، وإذا بالناصري قد وصل في عساكره فاقتتلوا عشية ذلك اليوم مرات ومن الغد كذلك. وأقام كل واحد منهما في حومته والقتال متصل بينهما سائر رجب وشعبان. ولما بلغ الخبر إلى السلطان إرتاب بالناصري واتهمه بالمداهنة في أمر منطاش. وتجهز لقصد الشام ونادى في العساكر بذلك عاشر شعبان وقتل أهل الخلاف من الأمراء المحبوسين، وأشخص البطالين من الأمراء إلى الإسكندرية ودمياط، وخرج يوم عشرين شعبان فخيم بالريدانية حتى أزاح علل العساكر وقضوا حاجاتهم. واستخلف على القاهرة الأتابك كمشيقا الحموي وأنزله الاصطبل، وجعل له التصرف في التولية والعزل. وترك بالقاهرة من الأمراء جماعة لنظر الأتابك وتحت أمره، وأنزل النائب سودون بالقلعة وترك بها ستمائة من مماليكه الأصاغر، وأخرج معه بالقضاة الأربعة والمفتين. وارتحل غرة رمضان من السنة بقصد الشام. وجاء الخبر رابع الشهر بأن منطاش لما بلغه مسيرة السلطان من مصر هرب من دمشق منتصف شعبان مع عنقا بن أمير آل مراء الصريخ بمنطاش فكانت بينهما وقعة انهزم فيها الناصري، وقتل

جماعة من أمراء الشام نحو خمسة عشر فيهم إبراهيم بن منجك وغيره.ثم خرج الناصري من الغد في إتباع منطاش ؛ وقد ذكر له أن الفلاحين نزحوا من نواحي دمشق، واحتاطوا به فركب إليه منطاش ليقاتله ؛ ففارقه أتابكه يماز تمر إلى الناصري في أكثر العساكر، وولى هارباً. ورجع الناصري إلى دمشق وأكرم يمازتمر وأجمل له الوعد، وجاءه الخبر بأن السلطان قد دخل حدود الشام فسار ليلقاه فلقيه بقانون. وبالغ السلطان في تكرمته، وترجل حين نزوله وعانقه وأركبه بقربه ورده إلى دمشق. ثم سار في أثره إلى أن وصل دمشق، وخرج الناصري ثانية ودخل إلى القلعة ثاني عشر رمضان من السنة والأمراء مشاة بين يديه، والناصري راكب معه

يحمل الخبز على رأسه. وبعث يعبر في كتاب نائب حماة بالعذر عما وقع منه، وأنه إتهم الناصري في أمر منطاش فقصد حسم الفتنة في ذلك.

واستأمن السلطان وضمن له إحضار منطاش من حيث كان فأمنه، وكتب إليه بإجابة سؤاله. ولما قضى عيد الفطر برز من دمشق سابع شوال إلى حلب في طلب منطاش، ولقيه أثناء طريقه رسول سولي بن دلقار أمير التركمان بهديته واستئمانه وعذره عن تعرضه لسيس ، وأنه يسلمها لنائب حلب فقبل السلطان منه وافنه ووعده بالجميل. ثم وفد عليه أمراء آل مهنا وآل عيسى في الطاعة ومظاهرة السلطان على منطاش ويعبر، وأنهما نازلان بالرحبة من تخوم الشام فأكرم السلطان وفادتهم وتقبل طاعتهم، وسار إلى حلب ونزل بالقلعة منها ثاني شوال. ثم وصل الخبر إلى السلطان بأن منطاش فارق يعبر أو مر ببلاد ماردين فواقعته عساكر هناك، وقبضوا على جماعة من أصحابه، وخلص هو من الواقعة إلى سالم الرودكاري من أمراء التركمان، فقبض عليه وأرسل إلى السلطان يطالعه بشأنه ويطلب بعض أمراء السلطان قرا دمرداش نائب حلب في عساكره إلى سالم الرودكاري لإحضار منطاش، وأتبعه بالناصري.وأرسل الأتابك إلى ماردين لإحضار من حصل من أصحاب منطاش وإنتهى أنيال إلى رأس العين، وأتى أصحاب سلطان ماردين وتسلم منهم أصحاب منطاش. وكتب سلطانهم بأنه معتمل في مقاصد السلطان ومرتصد لعدوه. وإنتهى قرا دمرداش إلى سالم الرودكاري وأقام عنده أربعة أيام في طلب منطالش وهو يماطله، فأغار قرا دمرداش عليه ونهب أحياءه وفتك في قومه، وهرب هو ومنطاش إلى سنجار. وجاء الناصري على أثر ذلك ونكر على دمرداش ما أتاه وإرتفعت بينهما حتى هم الناصري به ورفع الآلة بضربه، ولم يحصل أحد منهم بطائل، ورجعوا بالعساكر إلى السلطان. وكتب إليه سالم الرودكاري بالعذر عن أمر منطاش، وأن الناصري كتب إليه وأمره بالمحافظة على منطاش، وأن فيه زبونا للترك، فجلس السلطان بالقلعة جلوساً ضخما سادس ذي الحجة من السنة

، واستدعى الناصري فوبخه. ثم قبض عليه وعلى ابن أخيه كشلي ورأس نوبة شيخ حسن، وعلى أحمد بن الهمدار الذي أمكنه من قلعة حلب وأمر بقتله وقشتمر الأشرفي الذي وصل من ماردين معهم. وولى على نيابة دمشق مكانه بكا الدوادار، وأعطى إقطاعه لقرا دمرداش وأمره بالمسير إلى مصر. وولى مكانه بحلب حلبان رأس نوبة، وولى أبا يزيد دوادارا مكان بكا ورعى له وسائله في الخدمة وتردده في السفارة بينه وبين الناصري أيام ملك الناصري. وأجلب على مصر وأشار عليه الناصري بالانتفاء كما ذكرناه، فاختفى عند أصحاب أبي يزيد هذا بسعايته في ذلك. ثم إرتحل من حلب ووصل إلى دمشق منتصف ذي الحجة، وقتل بها جماعة من الأمراء أهل الفساد يبلغون خمسة وعشرين، وولى على العرب محمد بن مهنا وأعطى إقطاع يعبر لجماعة من التركمان، وقفل إلى مصر. ولقيه الأتابك كمشيقا والنائب سودون والحاجب سكيس. ثم دخل إلى القلعة على التعبية منتصف المحرم سنة أربع وتسعين في يوم مشهود، ووصل الخبر لعاشر دخوله بوفاة بكا نائب دمشق فولى مكانه سودون الطرنطاي. ثم قبض في منتصف صفر على قرا دمرداش الأحمدي وهلك في محبسه، وقبض على طنبقا المعلم وقردم الحبشي. وجاء الخبر أواخر صفر من السنة بأن جماعة من المماليك

مقدمهم أيبقا دوادار وبذلار. ولما هلك بكا وإضطرب أصحابه وهرب بعضهم، عمد هؤلاء المماليك إلى قلعة دمشق وهجموا عليها وملكوها، ونقبوا السجن وأخرجوا المعتقلين به من أصحاب الناصري ومنطاش وهم نحو المائة. وركبت العساكر إليها وحاصروها ثلاثا، ثم هجموا على الباب فأحرقوه ودخلوا إلى القلعة فقبضوا عليهم أجمعين وقتلوهم وفر أيبقا دوادار وبذلا في خمسة نفر، وانحسمت عللهم. ثم وصل الخبر آخر شعبان من السنة بوفاة سودون الطرنطاي فولى السلطان مكانه كمشيقا الأشرفي أمير مجلس، وولى مكان كمشيقا أمير شيخ الخاجكي إنتهى. والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل منطاش

كان منطاش فر مع سالم الرودكاري إلى سنجار وأقام معه أياماً، ثم فارقه ولحق

بيعبر فأقام في أحيائه، وأصهر إليه بعض أهل الحي بابنته فتزوجها وأقام معهم. ثم سار أول رمضان سنة أربع وتسعين وعبر الفرات إلى نواحي حلب، وأوقعت به العساكر هناك وهزموهم وأسروا جماعة من أصحابه. ثم طال على يعبر أمر الخلاف، وضجر قومه من إفتقاد الميرة من التلول فأرسل حاجبه يسأل الأمان، وأنه يمكن من منطاش على أن يقطع أربع بلاد منها المعرة، فكتب له الدوادار

أبو يزيد على لسانه بالإجابه إلى ذلك.ثم وفد محمد بن سنة خمس وتسعين فأخبر أنه كان مقيما بسلمية في أحيائه ومعه التركمان المقيمون بشيزر فركبوا إليهم وهزموهم، وضرب بعض الفرسان منطاش فأكبه وجرحه و لم يعرف في المعركة لسوء صورته بما أصابه من. الشظف والحفاء، فأردفه ابن يعبر ونجا به وقتل منهم جماعة: منهم ابن بردعان وابن أنيال، وجيء برأسيهما إلى دمشق. وأوعز السلطان إلى أمراء الشام أن يخرجوا بالعساكر وينفوه إلى أطراف البلاد لحمايتها حتى يرفع الناس زروعهم. ثم زحف يعبر ومنطاش في العساكر أول جمادى الأخيرة من السنة إلى سلمية فلقيهم نائب حلب ونائب حماة فهزموهما ونهبوا حماة، وخالفهم نائب حلب إلى أحياء يعبر فأغار عليها ونهب سوادها وأموالها واستاق نعمها ومواشيها، وأضرم النار فيما بقي. وأكمن لهم ينتظر رجوعهم. وبلغهم الخبر بحماة فأسرعوا الكر إلى أحيائهم فخرج عليهم الكمناء وأثخنوا فيهم، وهلك بين الفريقين خلق من العرب والأمراء والمماليك. ثم وفد على السلطان أواخر شعبان عامر بن طاهر بن جبار طائعا للسلطان ومنابذاً لعمه، وذكوان بن يعبر على طاعة السلطان وأنهم يمكنون من منطاش متى طلب منهم ؛ فأقبل عليه السلطان وأثقل كاهله بالإحسان والمواعيد، ودس معه إلى بني يعبر بإمضاء ذلك ولهم ما يختارونه. فلما رجع عامر ابن عمهم طاهر بمواعيد السلطان تفاوضوا مع آل مهنا جميعاً ورغبوهم فيما عند السلطان ووصفوا ما هم فيه من الضنك وسوء العيش بالخلاف والإنحراف عن الطاعة. وعرضوا على يعبر بأن يجيبهم إلى إحدى الحسنيين من إمساك منطاش أو تخلية سبيلهم إلى طاعة السلطان، ويفارقهم هو إلى حيث شاء من البلاد فجزع لذلك و لم يسعه خلافهم، وأذن لهم في القبض على منطاش وتسليمه إلى نواب السلطان فقبضوا عليه، وبعثوا إلى نائب حلب فيمن يتسلمه واستحلفوه على مقاصدهم من السلطان لهم ولأبيهم يعبر فحلف لهم وبعث إليهم بعض أمرائه فأمكنوه منه، وبعثوا معه الفرسان والرجالة حتى

أوصلوه، ودخل إلى حلب في يوم مشهود وحبس بالقلعة. وبعث السلطان أميرا من القاهرة فاقتحمه وقتله وحمل رأسه وطاف به في ممالك الشام. وجاء به إلى القاهرة حادي عشر رمضان سنة خمس وتسعين فعلقت على باب القلعة، ثم طيف بها مصر والقاهرة وعلقت على باب زويلة، ثم دفعت إلى أهله فدفنوها آخر رمضان من السنة. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوراثين

.

حوادث مكة

قد كان تقدم لنا أن عنان بن مقابس ولأه السلطان على مكة بعد مقتل محمد بن أحمد بن عجلان في موسم سنة ثمان وثمانين، وأن كنيش بن عجلان أقام على خلافه وحاصره بمكة فقتل في حومة الحرب سنة تسع بعدها. وساء أثر عنان وعجز من مغالبة الأشراف من بني عمه وسواهم. وامتدت أيديهم إلى أموال المجاورين وصادروهم عليها ونهبوا الزرع الواصل في الشواني من مصر إلى جدة للسلطان والأمراء والتجار، ونهبوا تجار اليمن وساءت أحوال مكة بهم وبتابعهم، وطلب الناس من السلطان إعادة بني عجلان لإمارة مكة ووفد على السلطان بمصر سنة تسع وثمانين صبي من بني عجلان اسمه علي فولاه على إمارة مكة، وبعثه مع أمير الحاج وأوصاه بالاصلاح بين الشرفاء. ولما وصل الأمير إلى مكة وكان بها يومئذ قرقماش خشي الأشراف منه، وإضطرب عنان وركب للقائه. ثم توجس الخليفة وكر راجعاً واتبع الأشراف، واجتمعوا على منابذة علي بن عجلان وشيعته من القواد والعبيد. ووفد عنان بن مقامس على السلطان سنة تسعين فقبض عليه وحبسه، ولم يزل محبوساً إلى أن خرج مع بكا عند ثورته بالقلعة في صفر سنة إثنتين وتسعين. وبعثه مع أخيه أيبقا يستكشف خبر السلطان كما مر.وانتظم أمر السلطان بسعاية بكا في العود إلى إمارته رعيا لما كان بينهما من العشرة في البحر، وأسعفه السلطان بذلك وولاه شركاً لعلي بن عجلان في الإمارة فأقاما كذلك سنتين، وأمرهما مضطرب والأشراف معصوصبون على عنان، وهو عاجز عن الضرب على أيديهم وعلي بن عجلان مع القواد كذلك، وأهل مكة على وجل من أمرهم في ضنك من اختلاف الأيدي عليهم. ثم استقدمهم السلطان سنة أربع وتسعين فقدموا أول شعبان من السنة فأكرمهما ورفع مجلسهما، ورفع مجلس علي على سائرهم. ولما انقضى الفطر ولى علي بن عجلان مستقلا واستبلغ في الإحسان إليه بأصناف الأقمشه والخيول والممالك والحبوب، وأذن له في الجراية والعلوفة فوق الكفاية. ثم ظهر عليه بعد شهر وقد أعد الرواحل ليلحق لمكة هارباً فقبض عليه وحبسه بالقلعة، وسار علي بن عجلان إلى مكة وقبض على الأشراف لتستقيم إمارته. ثم خودع عنهم فأطلقهم فنفروا عنه ولم يعاودوا طاعته فاضطرب أمره وفسد رأيه، وهو مقيم على ذلك لهذا العهد. والله غالب على أمره إنه على كل شيء قدير

.

وصول أحياء من التتر وسلطانهم إلى صاحب بغداد

واستيلاؤه عليها ومسير السلطان بالعساكر إليه

كان هؤلاء التتر من شعوب الترك وقد ملكوا جوانب الشرق من تخوم الصين إلى ما وراء النهر، ثم خوارزم وخراسان وجانبيها إلى سجستان وكرمان جنوبا وبلاد القفجاق وبلغار شمالا، ثم عراق العجم وبلاد فارس وأذربيجان وعراق العرب والجزيرة وبلاد الروم إلى أن بلغوا حدود الفرات، واستولوا على الشام مرة بعد أخرى كما تقدم في أخبارهم، ويأتي إن شاء الله تعالى. وكان أول من خرج منهم ملكهم جنكز خان أعوام عشر وستمائة، واستقلوا بهذه الممالك كلها. ثم إنقسمت دولته بين بنيهم فيها فكان لبني دوشي خان منهم بلاد القفجاق وجانب الشمال بأسره، ولبني هلاكو بن طولي خان خراسان والعراق وفارس وأذربيجان والجزيرة والروم، ولبني جفطاي خوارزم وما إليها. وإستمرت هذه الدول الثلاث إلى هذا العهد في مائة وثمانين سنة انقرض فيها ملك بني هلاكو في سنة أربعين من هذه المائة بوفاة أبي سعيد آخرهم و لم يعقب، وافترق ملكه بين جماعة من أهل دولته في خراسان وأصبهان وفارس وعراق العرب وأذربيجان وتوريز وبلاد الروم: فكانت خراسان للشيخ ولي، وأصبهان وفارس وشستان للمظفر الأزدي وبنيه وخوارزم وأعمالها إلى تركستان لبني جفطاي، وبلاد الروم لبني أرشا مولى من موالي مرداش بن جوبان، وبغداد وأذربيجان والجزيرة للشيخ حسن بن حسين بن إيبغا بن أيكان وأيكان سبط أرغوبن أبغا بن هلاكو ولبنيه، وهو من كبار المغل في نسبه.

و لم يزل ملكهم المفترق في هذه الدول متناقلا بين أعقابهم إلى أن تلاشى واضمحل. واستقر ملك بغداد وأذربيجان والجزيرة لهذا العهد لأحمد بن أوشى ابن الشيخ حسن سبط أرغو كما في أخبار يأتي شرحها في دول التتر بعد. ولما كان في هذه العصور ظهر بتركستان وبخارى فيما وراء النهر أمير إسمه تمر في جموع من المغل والسر ينسب هو وقومه إلى جفطاي، لا أدري هو جفطاي ابن جنكز خان أو جفطاي آخر شعوب المغل، والأول أقرب لما قدمته من ولاية جفطاي بن جنكز خان على بلاد ما وراء النهر لعهد أبيه. وإن اعترض معترض بكثرة هذا الشعب الذي مع تمر، وقصر المدة. إن هذه المدة من لدن جفطاي تقارب مائتي سنة، لأن جفطاي كان لعهد أبيه جنكزخان يقارب الأربعين، فهذه المدة أزيد من خمسة من العصور، لأن العصر أربعون سنة. وأقل ما يتناسل من الرجل في العصر عشرة من الولد فإذا ضوعفت العشرة بالضرب خمس مراتب كانت مائة ألف.أن فرضنا أن المتناسلين تسعة لكل عصر بلغوا

في الخمسة عصور إلى نحو من سبعين ألفاً، وإن جعلناها ثمانية بلغوا فوق الإثنين وثلاثين، وإن جعلناهم سبعة بلغوا ستة عشر ألفا . والسبعة أتل ما يمكن من الرجل الواحد لا سيما مع البداوة المقتضية لكثرة النسل. والستة عشر ألفا عصابة كافية في استتباع غيرها من العصائب حتى تنتهي إلى غاية العساكر. ولما ظهر هذا فيما وراء النهر عبر إلى خراسان فملكها من يد الشيخ ولي صاحبها أعوام أربعة وثمانين بعد مراجفات وحروب. وهرب الشيخ ولي إلى توريز فعمد إليه تمر في جموعه سنة سبع وثمانين وملك توريز وأذربيجان وخربها، وقتل الشيخ ولي في حروبه، ومر بأصبهان فأعطوه طاعة معروفة. وأطل بعد توريز على نواحي بغداد فأرجفوا منه، وواقعت عساكره بأذربيجان جموع الترك أهل الجزيرة والموصل. وكانت الحروب بينهم سجالا.

ثم تأخر إلى ناحية أصبهان وجاءه الخبر بخارج خرج عليه من قومه يعرف بقمر الدين تطمش ملك الشمال من بني دوشي خان بن جنكز خان، وهو صاحب كرسي صراي أمده بأمواله وعساكره فكر راجعا إلى بلده، وعميت أنباؤه إلى سنة خمس وتسعين. ثم جاءت الأخبار بأنه غلب قمر الدين الخارج عليه ومحا أثر فساده، واستولى على كرسي صراي فكر تمر راجعاً وملكها. ثم خطا إلى أصبهان وعراق العجم وفارس وكرمان فملك جميعها من يد بني المظفر اليزدي بعد حروب هلك فيها ملوكهم وبددت جموعهم. وراسله صاحب بغداد أحمد بن أوشى وصانعه بالهدايا والتحف فلم يغن عنه وما زال يخادعه بالملاطفة والمراسلة إلى أن فتر عزم أحمد وافترقت عساكره فصمد إليه يغذ السير حتى إنتهى إلى دجلة، وسبق النذير إلى أحمد، فأسرى من ليله ومر بجسر الحلة فقطعه. وصبح مشهد علي ووافى تمر وعساكره دجلة يوم الحادي والعشرين من شوال سنة خمس وتسعين، وأجازوا دجلة سبحا ودخلوا واستولوا عليها.وبعث العساكر في أتباع أحمد فلحقوا بأعقابه، وخاضوا إليه النهر عند الجسر المقطوع وأدركوه بالمشهد فكر عليهم في جموعه، وقتل الأمير الذي كان في إتباعه ورجعوا عنه بعد أن كانوا استولوا على جميع أثقاله ورواحله بما فيها من الأموال والذخيرة، فرجعوا بها ونجا أحمد إلى الرحبة من تخوم الشام فأراح بها وطالع نائبها السلطان بأمره، فأخرج إليه بعض خواصه بالنفقات والأزواد ليستقدمه فقدم به إلى حلب آخر ذي القعدة فأراح بها. وطرقه مرض أبطأ به عن مصر. وجاءت الأخبار بأن تمر عاث في مخلفه واستصفى ذخائره واستوعب موجود أهل بغداد بالمصادرات لأغنيائهم وفقرائهم حتى مستهم الحاجة. وأقفرت جوانب بغداد من العيث. ثم قدم أحمد بن أويس على السلطان بمصر في شهر ربيع سنة ست وتسعين مستصرخا به على طلب ملكه والانتقام من عدوه فأجاب السلطان صريخه، ونادى في عساكره بالتجهز إلى الشام، وقد كان تمر بعد ما استولى على بغداد زحف في عساكره إلى تكريت فأولى المخالفين وعثاء الحرابة، ورصد السابلة وأناخ عليها بجموعه أربعين يوماً فحاصرها حتى نزلوا على حكمه وقتل من قتل منهم، ثم خربها وأسرها.ثم انتشرت عساكر ه في ديار بكر إلى الرها ووقفوا عليها ساعة من نهار فملكوها وأشفوا نعمتها وافترق أهلها. وبلغ الخبر إلى السلطان فخيم بالريدانية أياماً أزاح فيها علل عسكره وأفاض العطاء في مماليكه. واستوعب الحشد من سائر أصناف الجند. واستخلف على القاهرة النائب مودود وارتحل إلى الشام على التعبية، ومعه أحمد بن أويس صاحب بغداد بعد أن كفاه مهمه وسرب النفقات في تابعه وجنده. ودخل دمشق آخر جمادى الأولى وقد كان أوعز إلى حلبان نائب حلب بالخروج إلى الفرات واستيعاب العرب والتركمان للإقامة هنالك رصداً للعدو. فلما وصل إلى دمشق وفد عليه حلبان وطالعه بمهماته وما عنده من أخبار القوم، ورجع لإنفاذ أوامره والفصل فيما يطالعه فيه. وبعث السلطان على أثره العساكر مددا له مع كمشيقا الأتابك وتلكمش أمير سلاح وأحمد ين بيبقا، وكان العدو قد شغل بحصار ماردين فأقام عليها أشهرا ثم ملكها وعاثت عساكره فيها وامتنعت عليه قلعتها فارتحل عنها إلى ناحية بلاد الروم، ومر بقلاع الأكراد فأغارت عساكره عليها واكتسحت نواحيها. والسلطان لهذا العهد وهو شعبان سنة

ست وتسعين- مقيم بدمشق مستجمع للوثبة به متى استقبل جهته، والله ولي الأمور. وهذا آخر ما انتهت إليه دولة الترك بانتهاء الأيام وما يعلم أحد ما في غد، والله مقدر الأمور وخالقها

خريطة

دولة بني رسول

الخبر عن دولة بنى رسول مولى بني أيوب الملوك

باليمن بعدهم ومبدأ أمرهم وتصاريف أحوالهم

قد كان تقدم لنا كيف استولى بنو أيوب على اليمن واختلف عليها الولاة منهم إلى

أن ملكها من بني المظفر شاهنشاه بن أيوب حافده سليمان بن المظفر وإنتقض أيام العادل سنة إثنتي عشرة وستمائة فأمر العادل ابنه الكامل خليفته على مصر أن يبعث ابنه يوسف المسعود إلى اليمن، وهو أخو الصالح ويلقب بالتركي أطس ويقال أقسنس، وقد تقدم ذكر هذا اللقب، فملكها المسعود من يد سليمان وبعث به معتقلا إلى مصر. وهلك في جهاد الإفرنج بدمياط سنة سبع وأربعين. وهلك العادل أخو المسعود سنة خمس عشرة وستمائة، وولى بعده ابنه الكامل وجدد العهد إلى يوسف المسعود على اليمن. وحج المسعود سنة تسع عشرة وكان من خبره تأخير أعلام الخليفة عن إعلامه ما مر في أخبار دولتهم.ثم جاء سنة عشرين إلى مكة وأميرهم حسن بن قتادة من بني مطاعن إحدى بطون حسن فجمع لقتاله وهزمه المسعود، وملك مكة وولى عليها. ورجع إلى اليمن فأقام به، ثم طرقه المرض سنة ست وعشرين فارتحل إلى مكة واستخلف على اليمن علي بن رسول التركماني أستاذ داره. ثم هلك المسعود بمكة لأربع عشرة سنة من ملكه، وبلغ خبر وفاته إلى أبيه وهو محاصر دمشق. ورجع ابن قتادة إلى مكة. ونصب علي بن رسول على اليمن موسى بن المسعود ولقبه الأشرف، وأقام مملكا على اليمن إلى أن خلع. وخلف المسعود ولد آخر اسمه يوسف، ومات وخلفه ابنه واسمه موسى وهو الذي نصبه الترك بعد أيبك ثم خلعوه. ثم خلع ابن رسول موسى الأشرف بن المسعود واستبد بملك اليمن وأخذ بدعوة الكامل بمصر، وبعث أخويه رهناً على الطاعة.ثم هلك سنة تسع وعشرين وولى ابنه المنصور عمر بن علي بن رسول. ولما هلك علي بن منصور ولى بعده الكامل ابنه عمر. ثم توفي الكامل سنة خمس وثلاثين وشغل بنو أيوب بالفتنة بينهم فاستغلظ سلطان عمر باليمن وتلقب المنصور، ومنع الأتاوة التي كان يبعث بها إلى مصر، فأطلق صاحب مصر العادل بن الكامل عمومته الذين كان أبوه رهنهم على الطاعة لينازعوه في الأمر فغلبهم

وحبسهم. وكان أمر الزيدية بصفد قد خرج من بني الرسي وصار لبني سليمان بن داود كما مر في أخبارهم. ثم بويع من بني الرسي أحمد بن الحسين من بني الهادي يحمى بن الحسن بن القاسم الرسي، بايع له الزيدية بحصن ملا، وكانوا من يوم أخرجهم السليمانيون من صفد قد أووا إلى جبل مكانه. فلما بويع أحمد بن الحسين هذا لقبوه الموطىء وكان بحصن بملا، وكان الحديث شائعا بين الزيدية بأن الأمر يرجع إلى بني الرسي

. وكان أحمد فقيها أديبا عالماً بمذهب الزيدية مجتهدا في العبادة. وبويع سنة خمس وأربعين وستمائة. وأهم عمر بن رسول شأنه فشمر لحربه وحاصره بحصن ملا مدة، ثم أفرج عنه، وجهز العساكر لحصارة من الحصون المجاورة له. ولم يزل قائماً بأمره إلى أن وثب عليه سنة ثمان وأربعين جماعة من مماليكه بممالأة بني أخيه حسن فقتلوه لثمان عشرة سنة من ولاية المظفر يوسف بن عمر. ولما هلك المنصور علي بن رسول كما قلناه قام بالأمر مكانه ابنه المظفر شمس الدين يوسف، وكان عادلا محسنا وفرض الأتاوة عليه لملوك مصر من الترك لما استقلوا بالملك، وما زال يصانعهم بها ويعطيهم إياها. وكان لأول ملكه إمتنع عليه حصن الدملوة فشغل بحصاره، وتمكن أحمد الموطىء الثائر بحصن ملا من الزيدية من أعقاب بني الرسي فملك عشرين حصناً من حصون الزيدية. وزحف إلى صفد فملكها من يد السليمانيين، ونزل له أحمد المتوكل إمام الزيدية منهم فبايعه وأمنه. ولما كانوا في خطابة لم يزل في كل عصر منهم إمام كما ذكرناه في أخبارهم قبل.ولم يزل المظفر واليا على اليمن إلى أن هلك بغتة سنة أربع وتسعين لست وأربعين سنة من ملكة الأشرف عمر بن المظفر يوسف.
ولما هلك المظفر يوسف كما قلناه وولي بعده ابنه الأشرف ممهد الدين عمر، وكان أخوه داود واليا على الشحر فدعاه لنفسه ونازعه الأمر، فبعث الأشرف عساكره وقاتلوه وهزموه وقبضوا عليه وحبسه. واستمر الأشرف في ملكه إلى أن سمته جاريته فمات سنة ست وتسعين لعشرين شهراً من ولايته اخوه داود بن المظفر المؤيد يوسف. ولما هلك الأشرف بن عمر بن المظفر يوسف أخرجوا أخاه مؤيد الدين داود من معتقله، وولوه عليهم ولقبوه المؤيد. وافتتح أمره بقتل الجارية التي سمت أخاه.وما زال يواصل ملوك الترك بهداياه وصلاته وتحفه والضريبة التي قررها سلفه، وانتهت هديته سنة إحدى عشرة وسبعمائة إلى مائتي وقر بعير بالثياب والتحف وطرف اليمن ومائتين من الجمال والخيل. ثم بعث سنة خمس عشرة بمثل ذلك، وفسد ما بينه وبين ملوك الترك بمصر. وبعث بهديته سنة ثمان عشرة فردوها عليه. ثم هلك سنة إحدى وعشرين وسبعمائة لخمس وعشرين سنة من
ملكه. وكان فاضلا شافعي المذهب، وجمع الكتب من سائر الأمصار فاشتملت خزانته على مائة ألف مجلد، وكان يتفقد العلماء بصلاته ويبعث لابن دقيق العيد فقيه الشافعية بمصر جوائزه. ولما توفي المؤيد داود سنة إحدى وعشرين كما قلناه قام بملكه ابنه المجاهد سيف الدين علي ابن اثنتي عشرة سنة، والله وارث الأرض ومن عليها.

ثورة جلال الدين بن عمر الاشرف وحبسه

ولما ملك المجاهد علي شغل بلذاته وأساء السيرة في أهل المناصب الدينية بالعزل والاستبدال بغير حق فنكره أهل الدولة، وانتقض عليه جلال الدين ابن عمه عمر الأشرف وزحف إليه، وكانت بينهما حروب ووقائع كان النصر فيها للمجاهد، وغلب على جلال الدين وحبسه، والله تعالى أعلم.

ثورة جلال الدين ثانيا وحبس المجاهد وبيعة المنصور أيوب بن المظفر يوسف

وبعد أن قبض المجاهد على جلال الدين ابن عمه الأشرف وحبسه لم يزل مشتغلا بلهوه عاكفا على لذاته، وضجر منه أهل الدولة وداخلهم جلال الدين في خلعه فوافقوه، فرحل إلى سنة إثنتين وعشرين فخرج جلال الدين من محبسه وهجم عليه في بعض البساتين، وفتك بحرمه وقبض عليه، وبايع لعمه المنصور أيوب بن المظفر يوسف واعتقل المجاهد عنده في نفر واطلق جلال الدين ابن عمه. والله تعالى أعلم بغيبه.

خلع المنصور أيوب ومقتله وعود المجاهد إلى ملكه

ومنازعة الظاهر بن المنصور أيوب له

ولما جلس المجاهد بقلعة تعز واستقل المنصور بالملك إجتمع شيعة المجاهد وهجموا على المنصور في بيته بتعز وحبسوه، وأخرجوا المجاهد وأعادوه إلى ملكه، ورجع أهل اليمن لطاعته. وكان أسد الدين عبد الله بن المنصور أيوب بالدملوة فعمى عليه وإمتنع بها. وكتب إليه المجاهد يهدده بقتل أبيه فلج واتسع الخرق بينهما، وعظمت الفتنة وافترق عليهما الحرب، وكثر عيثهم وكثر الفساد. وبعث المنصور من محبسه إلى ابنه عبد الله أن يسلم الدملوة خوفا على نفسه من القتل فأبى عبد الله من ذلك وأساء الرد على أبيه. ولما يئس المجاهد منه قتل أباه المنصور أيوب بن المظفر في محبسه، وإجتمع أهل الدملوة وكبيرهم الشريف ابن حمزة وبايعوا أسد الدين عبد الله بن المنصور أيوب، وبعث عسكرا مع الشهاب الصفوي إلى زبيد فحاصروها وفتحوها. وجهز المجاهد عساكره إليها مع قائده علي بن الدوادار، ولما قاربوا زبيد أصابهم سيل وبيتهم أهل زبيد فنالوا منهم وأسروا أمراءهم. واتهم المجاهد قائده علي بن الدوادار بمداخلة عدوه فكتب إليه أن يسير إلى عدن لتحصيل مواليها، وكتب إلى والي عدن بالقبض عليه، ووقع الكتاب بيد الظاهر فبعث به إلى الدوادار فرجع إلى عدن وحاصرها وفتحها. وخطب بها للظاهر سنة ثلاث وعشرين وملك عدن بعدها. ثم استمال صاحب صنعاء وخوص فقاموا بدعوة الظاهر، وبعث المجاهد إلى مذحج والأكراد يستنجدهم فلم ينجدوه، وهو بحصن المعدية، وكتب الظاهر إلى أشراف مكة وقاضيها نجم الدين الطري بأن الأمر قد استقر له باليمن، والله تعالى ولي التوفيق لا رب سواه.

وصول العساكر من مصر مددا للمجاهد واستيلاؤه على أمره وصلحه مع الظاهر

ولما غلب الظاهر بن المنصور أيوب على قلاع اليمن وانتزعها من المجاهد وحاصره بقلعة المعدية، بعث المجاهد سنة أربع وعشرين بصريخه إلى السلطان بمصر من الترك الناصر محمد بن قلاوون سنة خمس وعشرين، فبعث إليه العساكر مع بيبرس الحاجب وأنيال من أمراء دولته، ووصلوا إليه سنة خمس وعشرين فسار إليهم المجاهد من حصن المعدية بنواحي عدن

إلى تعز فاستأمن إليه أهلها فأمنهم وراسلوا الظاهر في الصلح فأجاب على أن تكون له الدملوة، وتحالفوا على ذلك. وطلب أمراء الترك الشهاب الصفوي الذي أنشأ الفتنة بين المجاهد والظاهر فامتنع من إجابتهم فركب بيبرس وهجم عليه في خيمته وقتله بسوق الخيل بتعز وأثخنوا في العصاة على المجاهد في كل ناحية حتى أطاعوا، وتمهد له الملك ورجعت العساكر إلى مصر سنة ست وعشرين، والله سبحانه ولعالى أعلم.

نزول الظاهر للمجاهد عن الدملوة ومقتله

ولما استقام الأمر للمجاهد باليمن واستخلفه الظاهر على الدملوة أخذ المجاهد في تأنيسه وإحكام الوصلة به حتى اطمأن، وهو يفتل له في الذروة والغارب حتى نزل له عن الدملوة، وولى عليها من قبله، وصار الظاهر في جملته. ثم قبض عليه وحبسه بقلعة تعز. ثم قتله في محبسه سنة أربع وثلاثين، والله تعالى أعلم.

حج المجاهد علي بن المؤيد داود وواقعته ميم امراء مصر

واعتقاله بالكرك تم إ طلاقة ورجوعه إلى ملكه

ثم حج المجاهد سنة إحدى وخمسين أيام حسن الناصري الأولى وهي السنة التي

حج فيها طاز كافل المملكة أميراً، وحج بيبقاروس الكافل الآخر مقيداً لأن السلطان أمر طاز بالقبض عليه في طريقه فلما قبض عليه رغب منه أن يخلي سبيله لأداء فرضه فأجابه وحج مقيداً. وجاء المجاهد ملك اليمن للحج وشاع عنه أنه يروم كسوة الكعبة فتنكر أمراء مصر وعساكرها لأهل اليمن. ووقعت في بعض الأيام هيعة في ركب اليمن فتحاربوا وانهزم وذهب سواده وركب أهل اليمن كافة، وأطلق بيبقاروس للقتال، فجلا في تلك الوقعة وأعيد إلى اعتقاله. وحمل المجاهد إلى مصر معتقلا فحبس ثم أطلق سنة إثنتين وخمسين في دولة الصالح. وبعثوا معه قشتمر المنصوري إلى بلاده. فلما إنتهى إلى الينبع ظهر عليه قشتمر بأنه يروم الهرب فرده وحبسه بالكرك. ثم أطلق بعد ذلك وأعيد إلى ملكه وأقام على مهاداة صاحب مصر ومصانعته إلى أن توفي سنة ست وستين لاثنتين وأربعين سنة من ملكه.

ولاية الافضل عباس بن المجاهل علي

ولما توفي المجاهد سنة ست وستين ولي بعده ابنه عباس، واستقام له ملك اليمن

إلى أن هلك سنة ثمان وسبعين لاثنتي عشرة سنة من ملكه، والله تعالى أعلم.

ولاية المنصور محمل بن الافضل عباس

ولما توفي الأفضل عباس بن المجاهد سنة ثمان وسبعين، ولي بعده ابنه المنصور محمد واستولى على أمره. وإجتمع جماعة من مماليكه سنة إثنتين وثمانين للثورة به وقتله، وأطلع على شانهم فهربوا إلى الدملوة، وأخذهم العرب في طريقهم وجاؤا بهم وعفا عنهم واستمر في ملكه إلى أن هلك، والله تعالى أعلم.

ولاية أخيه الأشرف بن الافضل عباس

ولما توفي المنصور محمد بن الأفضل سنة ولي أخوه الأشرف إسماعيل واستقام أمره وهو صاحب اليمن لهذا العهد لسنة ست وتسعين، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

خريطة

الخبر عن دولة التتر من شعوب الترك وكيف تغلبوا على الممالك الإسلامية الخبر عن دولة التتر من شعوب الترك وكيف تغلبوا علي الممالك الاسلامية

وانتروا على كرسي الخلافة ببغداد وما كان لهم من الدول
المفترقة وكيف اسلموا بعد ذلك ومبدأ أمورهم وتصاريف أحوالهم
قد تقدم لنا ذكر التتر وأنهم من شعوب الترك، وأن الترك كلهم ولد كومر بن يافث
على الصحيح، وهو الذي وقع في التوراة. وتقدم لنا ذكر أجناس الترك وشعوبهم وعددنا منهم الغز الذين منهم السلجوقية والهياطلة الذين منهم القلج، وبلاد الصغد قريبا من سمرقند ويسون بها أيضا. وعددنا منهم الخطا والطغرغر وهم التتر، وكانت مساكن هاتين الامتين بارض طمغاج، ويقال أنها بلاد تركستان وكاشغر وما إليها من وراء النهر وهي بلاد ملوكهم في الإسلام، وعددنا منهم الخزلجية والغور والخزر والخفشاخ وهم القفجاق ويمك والعلان. ويقال الآن وجركس وأركش. وعد صاحب روجار في كتابه على الجغرافيا العسسة والتغزغزية والخرخيرية والكيماكية والخزلجية والخزر والخلخ وبلغار ويمناك وبرطاس وسنجرت وخرجان وأنكر، وذكر مساكن أنكر في بلاد البنادقه من أرض الروم. وجمهور هذه الأمم من الترك فيما وراء النهر شرقاً إلى البحر المحيط بين الجنوب والشمال من الإقليم إلى السابع، والصين في وسط بلادهم.وكان الصين أولا لبني صيني إخوانهم من بني يافث. ثم صار لهم واستولوا على معظمه إلا قليلا من أطرافه على ساحل البحر، وهم رحالة كما مر في ذكرهم أول الكتاب، وفي دولة السلجوقية وأكثرهم في المفازة التي بين الصين وبلاد تركستان. وكان لهم قبل الإسلام دولة، ولهم مع الفرس حروب مذكورة وملكهم لذلك العهد في بني فراسيان. وكان بينهم وبين العرب لأول الفتح حروب طويلة قاتلوهم على الإسلام، فلم يجيبوا فأثخنوا فيهم، وغليوهم على أطراف بلادهم وأسلم ملوكهم على بلادهم، وذلك من بعد القرن الأول. وكانت لهم في الإسلام دولة ببلاد تركستان وكاشغر، ولا أدري من ا أي شعوبهم كان هؤلاء الملوك. وقد قيل فيهم أنهم من ولد فراسيان ولا يعرف شعب فراسيان فيهم، وكان هؤلاء الملوك يلقبون بالخاقان بالخاء والقاف سمة لكل من يملك منهم، مثل كسرى للفرس وقيصر
للروم. وأسلم ملوكهم بعد صدر من الملة على بلادهم وملكهم فأقاموا بها، وكان بينهم وبين بني سامان الملوك القائمين فيما وراء النهر بدولة بني العباس حرب وسلم إصلت حالهم عليها إلى أن تلاشت دولتهم ودولة بني سامان جميعا. وقام محمود بن سبكتكين من موالي بني سامان بدولتهم وملكهم فيما وراء النهر وخراسان.وقد ظهر لذلك العهد بنو شلجوق وغلبوا ملوك الترك على أمرهم وأصبحوا في عداد ولاتهم شأن الدول البادية الجديدة مع الدول القديمة الحاضرة، ثم قارعوا بني سبكتكين وغلبوهم على ملكهم فيما بعد المائة الرابعة واستولوا على ممالك الإسلام بأسرها، وملكوا ما بين الهند ونهاية المعمور في الشمال وما بين الصين وخليج القسطنطينية في الغرب، وعلى اليمن والحجاز والشام، وفتحوا كثيرا من بلاد الروم واستفحلت دولتهم بما لم تنته إليه دولة بعد العرب والخلفاء في الملة. ثم تلاشت دولتهم وإنقرضت بعد مائتين من السنين شأن الى. ول وسنة الله في العباد. وكانوا بعد خروج السلجوقية إلى خراسان قد خلفتهم في بلاد بضواحي تركستان وكاشغر من أمم الترك أمة الخطا، ومن ورائهم أمة التتر ما إلى تركستان وحدود الصين. ولم يقدر ملوك

الخانية بتركستان على دفاعهم لعجزهم عن ذلك فكان أرسلان خان بن محمد بن سليمان يترلهم مسالح على الدروب ما بينه وبين الصين، ويقطعهم على ذلك ويوقع بهم على الفساد والعيث. ثم زحف من الصين ملك الترك الأعظم كوخان سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، ولحقت به أمم الخطا ولقيهم الخان محمود بن محمد بن سليمان بن داود بن بقراخان صاحب تركستان وما وراء النهر من الخانية، وهو ابن أخت السلطان سنجر بن ملك شاه صاحب خراسان من ملوك السلجوقية فهزموه. وبعث بالصريخ إلى خاله سنجر، فاستنفر ملوك خراسان وعساكر المسلمين وعبر جيحون للقائهم. وسارت إليه أمم التتر والخطا وتواقعوا في صفر سنة ست وثلاثين وخمسمائة، وانهزم سنجر وأسرت زوجته ثم أطلقها كوخان ملك الترك، واستولى على ما وراء النهر. ثم مات كوخان سنة سبع وثلاثين وملكت بعده بنته، ثم ماتت فملكت بعدها أمها زوجة كوخان وابنه محمد. ثم انقرض ملكهم واستولى الخطا على ما وراء النهر. ثم غلب على خوارزم علاء الدين محمد بن تكش كما قدمناه، ويلقب هو وأبوه بخوارزم شاه. وكان ملوك الخانية ببلادهم فيما وراء النهر فاستصرخوا به على الخطا لما كثر من عيثهم وفسادهم، فأجاب صريخهم وعبر النهر سنة ست وستمائة، وملكهم يومئذ كبير السن بصير في الحرب فلقيهم فهزموه، وأسر خوارزم شاه ملكهم طانيكوه وحبسه بخوارزم، وملك سائر بلاد الخطا إلى أوركندا، وأنزل بها نوابه وزوج أخته من الخان صاحب سمرقند، وأنزل معه شحنة كما كانت للخطا وعاد إلى بلاده.وثار ملك الخانية بالشحنة بعد رجوعه بسنة وقتلهم، وهم بقتل زوجته أخت خوارزم شاه وحاصره بسمرقند وإقتحمها عليه عنوة وقتله في جماعة من أقاربه، ومحا أثر الخانية وملكهم مما وراء النهر، وأنزل في سائر البلد نوابه. وكانت أمة التتر من وراء الخطا هؤلاء قد نزلوا في حدود الصين ما بينها وبين تركستان، وكان ملكهم كشلي خان، ووقع بينهم وبين الخطا من العداوة والحروب ما يقع بين الأمم المتجاورة. فلما بلغهم ما فعله خوارزم شاه بالخطا أرادوا الإنتقام منهم، وزحف كشلي خان في أمم التتر إلى الخطا لينتهز الفرصة فيهم، فبعث الخطا إلى خوارزم شاه يتلطفون له ويسألونه النصر من عدوهم قبل أن يستحكم أمره وتضيق عنه قدرتهم وقدرته. وبعث إليه كشلي ملك التتر بمثل ذلك فتجهز يوهم كل واحد من الفريقين أنه له وأقام منتبذا عنهما، وقد تواقعوا وانهزم الخطا فمال مع التتر عليهم واستلحموهم في كل وجه. و لم ينج منهم إلا قليل تحصنوا بين جبال في نواحي تركستان، وقليل آخرون لحقوا بخوارزم شاه فكانوا معه. وبعث خوارزم شاه إلى كشلي خان ملك التتر يعتد عليه بهزيمة الخطا، وأنها إنما كانت بمظاهرته فأظهر له الإعتراف وشكره. ثم نازعه في بلادهم وأملاكهم، وبعث خوارزم شاه بحربهم. ثم علم أنه لا طاقة له بهم فمكث يراوغهم عن اللقاء، وكشلي خان بعذله في ذلك وهو يغالطه، واستولى كشلي خان خلال ذلك على كاشغر وبلاد تركستان وساغون. ثم عمد خوارزم شاه إلى الشاس وفرغانة واسبيجاب وقاشان وما حولها من المدق التي لم يكن في بلاد الله أنزه منها ولا أحسن عمارة فجلا أهلها إلى بلاد المسلمين، وخرب جميعها خوفا أن يملكها التتر بعد ذلك. وخرج على كشلي خان لطائفة أخرى يعرفون بالمغل، وملكهم جنكز خان فشغل

كشلي خان بحربهم عن خوارزم شاه، وعبر النهر إلى خراسان، ونزل خوارزم إلى أن كان من أمره ما نذكره، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء التتر على ممالك خوارزم شاه فيما وراء النهر

وخراسان ومهلك خوارزم شاه وتوليه محمد بن تكش

ولما رحل السلطان إلى خراسان استولى على الممالك ما بينه وبين بغداد من

خراسان ومازندان وباميان وغزنه إلى بلاد الهند، وغلب الغورية على ما بأيديهم. ثم ملك الري واصبهان وسائر

بلاد الجبل وسار إلى العراق، وبعث إلى الخليفة في الخطبة كما كانت لملوك بني سلجوق فامتنع الخليفة من ذلك كما مر ذلك كله في أخبار دولتهم. ثم عاد من العراق سنة ست عشرة وستمائة واستقر بنيسابور فوفدت عليه رسل جنكز خان بهدية من نقرة المعدنين ونوافج المسك وحجر اليشم والثياب الخطائية المنسوجة من وبر الإبل البيفى، ويخبر أنه ملك الصين وما بينها من بلاد الترك، وبطلب الموادعة والإذن للتجار بالتردد لمتاجرهم من الجانبين وكان في خطابه إطراء السلطان خوارزم شاه بأنه مثل أعز أولاده فاستنكف السلطان من ذلك وامتعض له وأجمع عداوته، واستدعى محمودا الخوارزمي من رسل جنكز خان واصطنعه ليكون عينا له على صاحبه، واستخبره عما قاله في كتابه من أنه ملك الصين.واستولى على مدينة طوغاج فصدق له ذلك وسأله عن مقدار العساكر فقللها وغشه في ذلك. ثم نكر عليه الخطاب بالولد. ثم صرف الرسل بما طلبوه من الموادعة والإذن للتجار، ووصل على أثر ذلك بعض التجار من بلادهم إلى أطرار وبها أنيال خان ابن خال السلطان خوارزم شاه فعثره على أموالهم، ورفع إلى السلطان أنهم عيون على البلاد وليسوا بتجار فأمره بالإحتياط عليهم ففعل، وأخذ أموالهم وقتلهم خفية. وفشا الخبر إلى جنكز خان فبعث بالنكير على السلطان في ذلك وقال له: إن كان فعله أنيال خان فابعثه إلي وتهدده على ذلك في كتابه فانزعج السلطان لها وقتل الرسل.وبلغ الخبر إلى جنكز خان فسار في العساكر إلى بلاده، وجبى السلطان من سمرقند خراج سنتين حصن به أسوار سمرقند، وجبى ثالثة استخدم بها الفرسان لحمايتها. ثم سار للقاء جنكزخان فكانت بينهما واقعة عظيمة هلك فيها كثير من الفريقين فكبسهم وهو غائب عنهم، ورجع خوارزم شاه إلى جيحون وأقام عليه وفرق عساكره في أعمال ما وراء النهر: بخارى وسمرقند وترمذ. وأنزل آبنايخ من أكبر أمرائه وأصحاب دولته في بخارى وجعلهم لنظره. ثم جاء جنكزخان إليه فعبر النهر مجفلا وقصد جنكز خان أطرار فحاصرها وملكها غلابا وأسر أميرها أنيال خان الذي قتل التجار فأذاب الفضة في أذنيه وعينيه. ثم حاصر بخارى وملكها على الأمان وقاتلوا معه القلعة حتى خربها. ثم غدر بهم فقتلهم وسباهم وفعل مثل ذلك في سمرقند سنة تسع عشرة. ثم كتب كتبا إلى أمراء خوارزم شاه قرابة أمه كأنها أجوبة عن كتبهم إليه باستدعائه والبراءة من خوارزم، وذمه بعقوق أمه، فبسط آمالهم في كتبه، ووعد تركمان خان أم السلطان. وكانت في خوارزم فوعدها بزيارة خراسان وأن تبعث من يستخلفه على ذلك. وبعث بالكتب من يعترض بها للسلطان. فلما قرأها إرتاب بأمه

وبقرابتها فاستوحشوا، ووقع التقاطع والنفرة. ولما استولى جنكز خان على ما وراء النهر، ونجا نائب بخارى في الفل

أجفل السلطان وعبر جيحون، ورجع عنه طوائف الخطا الذين كانوا معه وتخاذل الناس، وسرح جنكز خان العساكر في أثره نحوا من عشرين ألفا كانوا يسموهم التتر المغربة لتوغلهم في البلاد غربي خراسان إلى بلاد القفجاق، ووصل السلطان إلى نيسابور فلم يلبث بها، وارتحل إلى مازندران والتتر في أثره.ثم إنتهى إلى همذان فكبسوه هنالك وفرقوا جموعه، ونجا إلى جبال طبرستان فأقام بقرية بساحل البحر في فل من قومه. ثم كبسه التتر أخرى فركب البحر إلى جزيرة في بحيرة طبرستان وخاضوا في أثره فغلبهم الماء ورجعوا، وأقام خوارزم شاه بالجزيرة ومرض بها ومات سنة سبع عشرة وستمائة، وعهد لابنه جلال الدين سكري. ولما بلغ خبر إجفاله إلى أمه تركمان خاتون بخوارزم خرجت سارية واعتصمت بقلعة ايلاز من مازندران، ورجع التتر عن اتباع خوارزم شاه فافتتحوا قلاع مازندران وملكوها وملكوا قلعة أيلاز صلحا، وأسروا أم السلطان ووراته وتزوجهن التتر، وتزوج دوشي خان بن جنكز خان واحدة، وبقيت تركمان خاتون أسيرة عندهم في ذل وخمول. والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير التتر المغربة بعد خوارزم شاه إلى العراق وأذربيجان واستيلاؤهم عليها إلى بلاد قفجاق والروس وبلاد الخزر:

ولما رجع التتر المغربة من اتباع خوارزم شاه سنة سبع عشرة عادوا إلى همذان وانتسفوا ما مروا عليه، وصانعهم أهل همذان بما طلبوه. ثم ساروا إلى سنجار كذلك، ثم إلى قومس فامتنعوا منهم وحاصروها وملكوها غلابا وقتلوا أكثر من أربعين ألفا. ثم ساروا إلى اذربيجان وصانعهم صاحب تبريز وانصرفوا إلى موقان ومروا ببلاد الكرج فاكتسحوها، وجمعوا لهم فهزموهم وأثخنوا فيهم وذلك آخر سنة سبع عشرة ثم عادوا إلى مراغة فملكوها عنوة في صفر سنة ثمان عشرة واستباحوا ورحلوا عنها إلى أربل، وبها مظفر الدين كوكبري. واستمد صاحب الموصل فأمده بالعساكر. ثم استدعاهم الخليفة الناصر إلى دقوقا للمدافعة عن العراق مع عساكره وولى عليهم مظفر الدين صاحب أربل فخام عن لقائهم وخاموا عن لقائه. وساروا إلى همذان وبها شحنتهم فامتنعوا من مصانعتهم، وقاتلوهم فملكوها عنوة واستباحوها واستلحموا أهلها ورجعوا إلى أذربيجان فملكوا أردبيل واستباحوها وخربوها وساروا إلى تبريز، وقد فارقها أزبك بن البهلوان إلى نقجوان فصانعوهم بالأمان وساروا إلى

بيلقان وملكوها عنوة وأفحشوا في القتل والمثلة واكتسحوا جميع الضاحية. ثم ساروا إلى كنجة قاعدة أران فصانعهم أهلها فساروا إلى بلاد الكرج فهزموهم وحاصروهم بقاعدتهم تفليس، وردهم كثرة الأوعار عن التوغل فيها. ثم قصدوا دربند شروان وحاصروا مدينة سماجي ودخلوه عنوة وملكوه واستباحوه، وأعجزهم الدربند عن المسير فراسلوا شروان في الصلح، فبعث إليهم رجالاً من أصحابه فقتلوا بعضهم وقتلوا الباقين أذلاء. وأفضوا من الدربند إلى أرض أسحمة، وبها من القفجاق واللاز والغز وطوائف من الترك مسلمون

وكفار أمم لا تحصى. ولم يطيقوا مغالبتهم لكثرتهم فرجعوا إلى التضريب بينهم حتى استولوا على بلادهم. ثم اكتسحوها وأوسعوهم قتلا وسبياً ، وفر أكثرهم إلى بلاد الروس وراءهم واعتصم الباقون بالجبال والغياض. وإنتهى التتر إلى مدينتهم الكبرى سرداق على بحر نيطش المتصل بخليج القسطنطينية، وهي مادتهم وفيها تجارتهم فملكها التتر وافترق أهلها في الجبال. وركب أهلها البحر إلى بلاد الروم في إيالة بني قليج أرسلان. ثم سار التتر سنة عشرين وستمائة من بلاد قفجاق إلى بلاد الروس المجاورة لها، وهي بلاد فسيحة وأهلها يدينون بالنصرانية فساروا إلى مدافعتهم في تخوم بلادهم، ومعهم جموع من القفجاق أياماً. ثم إنهزموا وأثخن فيهم التتر قتلا وسبياً ونهباً، وركبوا السفن هاربين إلى بلاد الإسلام وتركوا بلادهم فاكتسحها التتر. ثم عادوا عنها وقصدوا بلغار آخر السنة. وإجتمع أهلها وساروا للقائهم بعد أن أكمنوا لهم، ثم استطردوا أمامهم وخرج عليهم الكمناء من خلفهم فلم ينج منهم إلا القليل. وارتحلوا عائدين إلى جنكز خان بأرض الطالقان، ورجع القفجاق إلى بلادهم واستقروا فيها. والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

مسير جنكز خان إلى خراسان وتغلبه على أعمالها وعلى خوارزم شاه:

كان جنكزخان بعد أن أجفل خوارزم شاه من جيحون، ومسير التتر المغربة في طلبه ملك سمرقند فبعث عسكراً إلى ترمذ، وعسكراً إلى خوارزم وعسكراً إلى خراسان. وكان عسكر خوارزم أعظمها لأنها كرسي الملك ومأوى العساكر، وبعث مع العساكر ابنه جفطاي وأركطاي فحاصروها خمسة أشهر، وامتنعت فأمدهم جنكز خان بالعساكر متلاحقة، وملكوها ناحية ناحية إلى أن استوعبوا. ثم نقبوا السد الذي يمنع ماء جيجون عنها فسال إليها

جيحون فغرقها، وتقسم أهلها بين السند والعراق، هكذا قال ابن الأثير. وقال النسابي كاتب جلال الدين: إن دوشي خان عرض عليهم الأمان وخرجوا إليه فقتلهم أجمعين، وذلك في محرم سنة سبع عشرة وعاد دوشي خان والعساكر إلى جنكز خان فوجدوه بالطالقان. وأما عسكر ترمذ فساروا إليها وملكوها وتقدموا إلى كلابة من قلاع جيجون فملكوها وخربوها، وعسكر فرغانة كذلك. وأما عسكر خوارزم فعبروا إلى بلخ وملكوها على الأمان سنة سبع عشرة وأنزلوا بها شحنة. ثم ساروا إلى الزوزان وأيدحور ومازندران فملكوها وولوا عليها. ثم ساروا إلى الطالقان وحاصروا قلعة صاركوه وكانت منيعة، وجاءهم جنكزخان بنفسه بعد امتناعها ستة أشهر فحاصروها أربعة أشهر أخرى. ثم أمر بنقل الخشب والتراب ليجتمع به تل يتعالى به البلد. فلما استيقنوا الهلكة فتحوا الباب وصدقوا الحملة فنجا الخيالة وتفرقوا في البلاد والشعاب، وقتل الرجالة ودخل التتر فاستباحوها. وبعث جنكز خان عسكرا إلى سبا مع صهره قفجاق نون فقتل في حصارها ثم ملكوها فاستباحوها وخربوها .

ويقال قتل فيها أكثر من سبعين ألفاً . ثم بعث جنكزخان في العساكر إلى مدينة مرو، وقد كان الناجون من هذه الوقائع انزووا إليها فاجتمعوا بظاهرها أكثر من مائتي ألف لا يشكون في الظفر، فلما زحف إليهم التتر ولوا منهزمين وأثخنوا فيهم. ثم حاصروا البلد خمسة أشهر واستنزلوا أميرها على الأمان. ثم قتلوهم جميعاً

وحضر جنكز خان قتلهم. يقال قتل فيها سبعمائة ألف. ثم ساروا إلى نيسابور فاقتحموها عنوة وقتلوا وعاثوا، ثم إلى طرابلس كذلك. ثم ساروا إلى هراة فملكوها على الأمان وأنزلوا عندهم الشحنة وعادوا إلى جنكز خان بالطالقان، وهو يرسل العساكر والسرايا في نواحي خراسان حتى أتوا عليها تخريباً، وذلك كله سنة سبع عشرة، والله تعالى أعلم.

إجفال جلال الدين ومسير التتر في إتباعه وفراره إلى الهند:

ثم بعث العساكر في طلب جلال الدين، وقد كان بعد مهلك أبيه وخروج تركمان خاتون من خوارزم سار إليها وملكها، وإجتمع إليه الناس. ثم نمي إليه أن قرابة تركمان خاتون وهم البياروتية مالوا إلى أخيه يولغ شاه وابن أختهم، وأنهم يريدون الوثوب بجلال الدين ففر ولحق بنيسابور. وجاءت عساكر التتر إلى خوارزم فأجفل يولغ شاه وأخواه ليلحقوا به بنيسابور فأدركهم التتر، وهم محاصرون قلعة قندهار فاستلحمهم. ثم سار إلى غزنة فلملكها من يد الثوار الذين استولوا عليها هذه الفتنة، وذلك سنة ثمان عشرة. ولحق به أمراء أبيه الذين تغلبوا على نواحي

خراسان في هذه الفتنة، وأزعجهم التتر عنها فحضروا مع جلال الدين كبسه التتر بقلعة قندهار. ولحق فلهم بجنكزخان. وبعث ابنه طولي خان لقتال جلال الدين فهزمه جلال الدين وقتله. ولحق الفل من عساكره بجنكزخان فسار في أمم التتر ولقي جلال الدين فإنهزم و لم يفلت من التتر إلا الأقل ورجع جلال الدين فنزل على نهر السند، وقد كان جماعة من أمرائه إنعزلوا عنه يوم الواقعة الأولى بسبب الغنائم فبعث إليهم يستألفهم فعاجله جنكز خان، وقاتله ثلاثاً ثم هزمه واعترضه نهر السند، فاقتحمه وخلص إلى السند بعد أن قتل حرمه أجمعين، وذلك سنة ثمان عشرة. والله تعالى أعلم.

أخبار غياث الدين بن خوارزم شاه مع التتر:

كان خوارزم شاه قد قسم الملك بين ولده: فجعل العراق لغورنشاه ، وكرمان لغياث الدين تمرشاه فلم ينفذ إليها أيام أبيه. فلما فر خوارزم شاه إلى ناحية الري لقيه ابنه غورنشاه صاحب العراق. ثم كانت واقعة التترية على حدوى، ولحق خوارزم شاه بجزيرة طبرستان، ولحق غورنشاه بكرمان. ثم رجع واستولى على أصبهان وعلى الري. ثم زحف التتر إليه وحاصروه بقلعة أوند وقتلوه، وكان أخوه غياث الدين بكرمان، وملكه بينه وبين بقا طرابلسي أتابكه، وفر إلى ناحية أذربيجان. واستولى غياث الدين على العراق ومازندران وخوزستان فأقطع بقا طرابلسي همذان. ثم سار غياث الدين إلى أذربيجان فصانعه صاحبها أزبك بن البهلوان، ولحق به من كان متغلباً من أمراء أبيه بخراسان. وكان أبنايخ خان نائب بخارى قد تغلب بعد الواقعة على نسا ونوأحييا وجر جان، وعلى شيروان وعامة خراسان. وكان تكين بهلوان متغلباً على مرو فعبر جيحون سنة سبع عشرة وكبس شحنة التتر، واتبعوه إلى شيروان ولقوا أبنايخ خان على جرجان فهزموه. ونجا فلهم إلى غياث الدين على العراق والري وما وراءها في الجنوب من موكان وأذربيجان، وبقيت خوارزم طوائف، وفي كل ناحية منها متغلب، وعساكر التتر في كل وقت تدوخ بلاد العراق وغياث الدين منهمك في لذاته. والله تعالى أعلم.

رجوع جلال الدين من الهند واستيلاؤه على العراق

وكرمان وأذربيجان ثم زحف التتر إليه:

ثم رجع جلال الدين من الهند سنة إحدى وعشرين، واستولى على ملك أخيه غياث الدين بالعراق وكرمان، وبعث إلى الخليفة يطلب الخطبة فلم يسعف فاستعد لمحاربته. وقد كانت بلاد الري من بعد تخريب التتر المغربة لها عاد إليها بعض أهلها وعمروها فبعث إليها جنكز خان عسكراً من التتر فخربوها ثانية، وخربوا سلوة وقم وقاشان ؛ وأجفل أمامهم عسكر خوارزم شاه من همذان فخربوها واتبعوهم فكبسوهم في حدود أذربيجان. ولحق بعضهم بتبريز والتتر في اتباعهم فصانعهم صاحبها أزبك بن البهلوان، وبعث بهم إلى التتر الذين في اتباعهم بعد أن قتل جماعة منهم. وبعث برؤسهم وبالأموال على سبيل المصانعة فرجعوا عن بلاده. وسار جلال الدين إلى أذربيجان سنة إثنتين وعشرين فملكها وكانت له فيها أخبار ذكرناها في دولته. ثم بلغ السلطان جلال الدين أن التتر زحفوا من بلادهم وراء النهر إلى العراق فنهض من تبريز للقائهم في رمضان سنة خمس وعشرين، ولقيهم على أصبهان، وإنفض عنه أخوه غياث الدين في طائفة من العساكر. وإنهزمت ميسرة التتر وسار السلطان في اتباعهم وقد أكمنوا له وأحاطوا به واستشهد جماعة ؛ ثم صدق عليهم الحملة فأفرجوا له ومضى لوجهه، وانهزمت العساكر إلى فارس وكرمان وأذربيجان ورجع المتبعون للتتر من قاشان فوجدوه قد إنهزم فافترقوا أشتاتاً ولحق السلطان بأصبهان بعد ثمانية أيام، فوجد التتر يحاصرون أصبهان فبرز إليهم في عساكرها وهزمهم وأتبعهم إلى الري، وبعث العساكر في اتباعهم إلى خراسان،. ورجع إلى أذربيجان وأقام بها وكانت له فيها أخبار مذكورة في دولته. والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير التتر إلى اذربيجان واستيلاؤهم على تبريز

ثم واقعتهم مع جلال الدين بآمد ومقتله:

كان التتر لما استقروا فيما وراء النهر عمروا تلك البلاد واختطوا قرب خوارزم مدينة عظيمة تعوض عنها، وبقيت خراسان خاوية. واستبد بالمدن فيها طوائف من الأمراء أشباه الملوك يعطون الطاعة للسلطان جلال الدين منذ جاء من الهند. وإنفرد جلال الدين بملك العراق وفارس وكرمان وأذزبيجان وأران وما إلى ذلك. وبقيت خراسان مجالا لغزاة التتر وعساكرهم وسارت طائفة منهم سنة خمس وعشرين إلى أصبهان، وكانت بينهم وبين جلال الدين الواقعة كما مرّ. ثم زحف جلال الدين إلى خلاط وملكها. وزحف إليه صاحبها الأشرف بن العادل من الشام وعلاء الدين كيقباد صاحب بلاد الروم، وأوقعوا به كما مر في أخباره سنة سبع وعشرين، الواقعة التي أوهنت منه وحلت عرى ملكه. وكان علاء الدين مقدم الإسماعيلية بقلعة الموت عدوا لجلال الدين بما أثخن في بلاده، وقرر عليه وظائف الأموال فبعث إلى التتر يخبرهم أن الهزيمة أوهنته ويحثهم على قصد،، فسار إلى أذربيجان أول سنة ثلاث وعشرين. وبلغ الخبر إلى السلطان بمسيرهم فرحل من تبريز إلى موقان وأقام بها في انتظار شحنة خراسان ومازندران، وشغل بالصيد فكبسه التتر ونهبوا معسكره، وخلص إلى نهر رأس من أزان. ثم رجع إلى أذربيجان وشتى بماهان. ثم جاءه النذير بمسير التتر إليه فرحل إلى أران

وتحصن بها، وثار أهل تبريز لما بلغهم خبر الوقعة الأولى بمن عندهم من عساكر الخوارزمية وقتلوهم، ومنعهم رئيسهم الطغرياني من طاعة التتر. ووصل، للسلطان جلال الدين ثم هلك قريباً فسلموا بلدهم للتتر، وكذا فعل أهل كنجة وأهل سلعار. ثم سار السلطان إلى كنجة وإرتجعها وقتل المعترضين للثورة فيها ؛ وسار إلى خلاط واستمد الأشرف بن العادل صاحب الشام فعلله بالمواعيد. وسار إلى مصر ويئس من إنجاده فبعث إلى جيرانه من الملوك يستنجدهم مثل صاحب حلب وآمد وماردين. وجرد عسكراً إلى بلاد الروم في خرت برت وملطية وأذربيجان فاقتحموها لما بين صاحبها كيقباد وبين الأشرف من الموالاة فاستوحش جميع الملوك من ذلك وقعدوا عن نصرته. وجاءه الخبر وهو بخلاط أن التتر زحفوا إليه فاضطرب في رحله، وبعث أتابكه أوترخان في أربعة آلاف فارس طليعة فرجع وأخبره أن التتر رجعوا من حدود ملاذ كرد، وأشار عليه قومه بالمسير إلى أصبهان. وزين له صاحب آمد قصد بلاد الروم وأطمعه في الاستيلاء عليها ليتصل بالقفجاق ويستظهر بهم على التتر، ووعده الإمداد بنفسه يروم الانتقام من صاحب الروم لما ملك من قلاعه فخيم إلى رأيه وعدل عن أصبهان ونزل بآمد. وبعث إليه التركمان بالنذير وأنهم رأوا نيران التتر فاتهم خبرهم. وصحبه التتر على آمد منتصف شوال سنة ثمان وعشرين وأحاطوا بخيمته، وحمل عليهم أتابكه أوترخان وكشفهم عن الخيمة. وركب السلطان وأسلم أهله وسواده، ورد أوترخان العساكر وانتبذ ليتوارى عن عين العدو. وسار أوترخان إلى أصبهان واستولى عليها إلى أن ملكها التتر من يده سنة تسع وثلاثين. وذهب السلطان منجفلاً وقد امتلأت الدربندات والمضايق بالمفسدين من غير صنوفهم بالقتل والنهب، فأشار عليه أوترخان بالرجوع فرجع إلى قرية من قرى ميافارقين، ونزل في بيدرها وفارقه أوترخان إلى حلب. وهجم التتر على السلطان بالبيدر وقتلوا من كان معه، وهرب فصعد جبل الأكراد وهم

مترصدون الطرق للنهب فسلبوه وهموا بقتله. وشعر بعضهم أنه السلطان فمضى به إلى بيته ليخلصه إلى بعض النواحي، ودخل البيت في مغيبه بعض سفلتهم وهو يريد الثأر من الخوارزمية بأخ له قتل بخلاط فقتله، ولم يغن عنه أهل البيت. ثم انتشر التتر بعد هذه الواقعة في سواد آمد وأرزن وميافارقين وسائر ديار بكر فاكتسحوها وخربوها، وملكوا مدينة أسعرد عنوة فاستباحوها بعد حصار خمسة أيام، ومروا بميافارقين فامتنعت، ثم وصلوا إلى نصيبين فاكتسحوا نواحيها، ثم إلى سنجار وجبالها والخابور. ثم ساروا إلى أيدس فأحرقوها، ثم إلى أعمال خلاط فاستباحوا هاكرى وأرجيش. وجاءت طائفة أخرى من أذربيجان إلى أعمال أربل ومروا في طريقهم بالتركمان الأيوبية والأكراد الجوزقان فنهبوا وقتلوا، وخرج إليهم والي أربل مستمدا أهلها وعساكر الموصل فلم يدركوهم فعادوا وبقيت البلاد قاعاً صفصفاً. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

التعريف بجنكز خان وقسمة الأعمال بين ولده

وإنفراده بالكرسي في قراقوم وبلاد الصين:

هذا السلطان جنكز خان هو سلطان التتر لعهده ثم من المغل أحد شعوبهم، وفي كتاب لشهاب الدين بن فضل الله: أنه من قبيله أشهر قبائل المغل وأكبرهم،. وزايه التي بين الكاف والخاء ليست صريحة وإنما هي مشتملة

بالصاد فينطق بها بين الصاد والزاي. وكان إسمه تمرجين ثم أصاروه جنكز، وخان تمام الإسم وهو بمعنى الملك عندهم. وأما نسبته فهي هكذا: بخز بن بيسوكي بن بهادرإبن تومان برتيل خان بن تومينه بن باد سنقر بن تيدوان ديوم بن بقا بن مودنجه ؛ إحد عشر إسماً أعجمياً صعبة الضبط وهذا منحاها. وفي كتاب ابن فضل الله فيما نقله عن شمس الدين الأصبهاني أمام المعقولات بالمشرق أخذها عن أصحاب نظير الدين الطوسي قال: إن مود نجه إسم امرأة وهي جدهم من غير أب. قالوا: وكانت متزوجة وولدت ولدين اسم أحدهما بكتوت والأخر بلكتوت، ويقال لولدها بنو الدلوكية. ثم مات زوجها وتأيمت وحملت وهي أيم فنكر عليها أقرباؤها فذكرت أنها رأت بعض الأيام نوراً دخل في فرجها ثلاث مرات، وطرأ عليها الحمل

بعده. وقالت لهم: إن في حملها ثلاثة ذكور، فإن صدق ذلك عند الوضع وإلا فافعلوا ما بدا لكم. فوضعت ثلاثة توائم من ذلك الحمل فظهرت براءتها بزعمهم، إسم أحدهم: برقد والآخر قوناً والثالث نجعو، وهو جد جنكز خان الذي في عمود نسبه كما مر، وكانوا يسمونهم النوانيين نسبة إلى النور الذي إدعته. ولذلك يقولون جنكز خان ابن الشمس.

وأما أوليته فقال يحيى بن أحمد بن علي النسابي كاتب جلال الدين خوارزم شاه في تاريخ دولته: إن مملكة الصين متسعة ودورها مسيرة تسعة أشهر، وهي منقسمة من

قديم الزمان على تسعة أجزاء كل جزء منها مسيرة شهر. ويتولى ملك كل جزء منها ملك يسمى بلغتهم خان، ويكون نائباً على الخان الأعظم. قال: وكان الأعظم الذي عاصر خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش يقال له طرخان توارثها عن آبائه، وكان مقيماً بطوغاج، وهي وسط الصين. وكان جنكز خان من أولئك الخانات الستة، وكان من سكان البدو ومن أهل النجدة والشرف، وكان مشتاه فارعون من بلاد الصين. وكان من خاناتهم أيضاً ملك آخر اسمه دوشي خان كان متزوجاً بزوجة جنكز خان، واتفقت وفاته فحضر جنكزخان يوم وفاة زوجها دوشي خان فولته مكانه وحملت قومها على طاعته. وبلغ الخبر إلى الخان الأعظم طرخان فنكر ذلك وزحف إليهم فقاتلوه وهزموه وغلبوه على أثر بلاده. ثم صالحهم عليها وأقام متغلباً. ثم مات بقية الخانات الستة وإنفرد جنكز خان بأمرهم جميعاً، وأصبح ملكهم، وكان بينه وبين خوارزم شاه من الحروب ما قدمناه. وفي كتاب ابن فضل الله محكياً عن الصاحب علاء الدين عطاء وحدثه به قال: كان ملك عظيم من التتر في قبيلة عظيمة من قبائلهم يدعى أزبك خان، وكان مطاعاً في قومه فإتصل به جنكز خان فقربه واستخلصه ونافسه قرابة السلطان، وسعوا به عنده حتى استفسدوه عليه وطوى له وتربص به. وسخط أزبك خان على مملوكين عنده فاستجارا بجنكز خان فأجارهما وضمن لهما أمانه، وأطلعاه على رأي السلطان فيه فاستوحش وحذر وثبة السلطان فأجفل أمامه وأتبعه السلطان في عساكره. فلما أدركه كرّ عليه جنكز خان فهزمه وغنم سواده وما معه. ثم استمرت العداوة وانتبذ عن السلطان واستألف العساكر والأتباع، وأفاض فيهم الإحسان فاشتدت شوكته، ودخل في طاعته قبيلتان عظيمتان من المغل وهما أورات ومنفورات فعظمت جموعه، وأحسن إلى المملوكين اللذين حذراه من أزبك خان، ورفع رتبتهما وكتب لهما

العهود بما اختاراه، وكتب فيها أن يستمر ذلك لهما إلى تسعة بطون من أعقابهما. ثم جهز العساكر لحرب أزبك خان فهزمه، وقتله، واستولى على مملكة التتر بأسرها. ولما

توطأ أمره تسمى جنكزخان، وكان اسمه تمرجين كما مرّ. وكتب لهم كتاباً في السياسة في الملك والحروب والأحكام العامة شبه أحكام الشرائع. وأمر أن يوضع في خزانته وأن تختص بقرابته، ولم يكن يؤتى بمثله وإنما كان دينه ودين آبائه وقومه المجوسية حتى ملكوا الأرض، واستفحلت دولتهم بالعراق والشمال وما وراء النهر، وأسلم من ملوكهم من هداه الله للإسلام كما نذكره إن شاء الله تعالى، فدخلوا في عداد ملوك الإسلام إلى أن انقرضت دولتهم وإنقضت أيامهم. والبقاء لله وحده.

وأما ولده فكثير وهو الذي يقتضيه حال بداوته وعصبيته، إلا أن المشهور منهم أربعة أولهم: دوشي خان ويقال جرجي، وثانيهم جفطاي ويقال كداي، وثالثهم أوكداي ويقال أوكتاي، ورابعهم طولي بين التاء والطاء. والثلاثة الأول لأم واحدة وهي أوبولي بنت تيكي من كبار المغل. وعد شمس الدين الأصبهاني الأربعة فقال: جرجى وكداي وطولي وأوكداي. وقال نظام الدين يحيى بن الحليم نور الدين عبد الرحمن الصيادي كاتب السلطان أبي سعيد، فيما نقله عنه شهاب الدين بن فضل الله: أن كداي هو جفطاي وجرجي هو طوشي. فلما ملك جنكز خان البلاد قسم الممالك فكان لولده طوشي بلاد فيلاق إلى بلغار وهي دست القفجاق، وأضاف إليه أران وهمذان وتبريز ومراغه وعيرلان وكتاي حدود آمد وقوباق، وما أدري تفسير هذه، وجعله ولي عهده. وعين لجفطاي من الأيقور إلى سمرقند وبخارى وما وراء النهر، ولم يعين لطولي شيئاً. وعين لأخيه أوتكين نوى بلاد أبخت، ولا أدري معنى هذا الإسم. ولما استفحل ملكه واستولى على هذه الممالك جلس على التخت، وإنتقل إلى وطنه القديم بين الخطا والأيقور، وهي تركستان وكاشغر. وفي ذلك الوطن مدينة قراقوم وبها كان كرسيه ومكانه بين أعمال ولده مكان المركز من الدائرة. وكان كبير ولده طوشي ويقال دوشي ومات في حياته، وخلف من الولد ناخوا وبركة وداوردة وطوفل، هكذا قال ابن الحكيم. وقال شمس الدين: ناظو وبركة فقط. ومات طولي أيضاً في حياته في حربه مع جلال الدين خوارزم شاه بنواحي غزنة وخلف من الولد منكو قبلاي وأزبيك وهلاكو. والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم.

(خريطة غير متواجدة في هذه النسخة)

ملوك التخت بقراقوم من بعد جنكزخان:

قال ابن فضل لله : ولما هلك جنكز خان استقل أوكداي بالتخت وبدست القفجاق وما معه، وكان أصغر ولده. وانتقل إلى قراقوم بمكانهم الأصلي فاعطى وقراياق التي كانت بيده لابنه كفود، ولم يتمكن كداي وهو جفطاي من مملكة ما وراء النهر ونازع ناظو بن دوشي خان في أران وهمذان وتبريز ومراغة، وبعث أميرا من أمرائها لحمل أموالها والقبض على عماله بها. وقد كان ناظو كتب إليهم بالقبض على ذلك الأمير فقبضوا عليه وحملوه إلى ناظو فطحنه. وبلغ ذلك إلى كفود فسار إلى ناظو في ستمائة ألف من العساكر. وهلك قبل أن

يصل إليه بعشر مراحل فبعث القوم إلى ناظو أن يكون صاحب التخت فأبى، وجعله لأخيه منكوفان بن طولي وبعثه إليه وأخويه معه قبلاي وهلاكو ، وبعث معهم أخاه بركة بن طولي في مائة ألف من العساكر ليجلسه على التخت. فلما عاد من بخارى لقي الشيخ شمي الدين الباخوري من أصحاب نجم الدين كبير الصوفية فأسلم على يده وتأكدت صحبته معه، وحرضه على التمسك بطاعة الخليفة ومكاتبته المعتصم ومبايعته ومهاداته وتردّدت الرسل بينه وبين المعتصم وتأكدت الموالاة، واستقل منكوفان بالتخت وولى أولاد جفطاي عمه على ما وراء النهر إمضاء لوصية جنكزخان لأبيهم التي مات دونها. ووفد عليه جماعة من أهل قزوين وبلاد الجبل يشكون ما نزل بهم من ضرر الإسماعيلية وفسادهم فجهز أخاه هلاكو لقتالهم واستئصال قلاعهم فمضى لذلك وحسن لأخيه منكوفان الاستيلاء على أعمال الخليفة فأذن له فيه، وبلغ ذلك بركة فنكره على أخيه ناظو الذي ولى منكوفان لما كان بين بركة والمعتصم من الولاية والوصلة بوصية الشيخ الباخوري فبعث ناظو إلى أخيه هلاكو بالنهي عن ذلك، وأن لا يتعدّى مكانه. وبلغته رسل ناظو بذلك وهو فيما وراء النهر قبل أن يفصل بالعساكر، فأقام سنين امتثالا لأمره حتى مات ناظو، وتولى بركة مكانه فاستأذن أخاه منكوفان ثانية، وسار لقصد الملاحدة وأعمال الخليفة فأوقع بالملاحدة وفتح قلاعهم واستلحمهم، وأوقع بأهل همذان واستباحهم لميلهم إلى بركة وأخيه ناظو ثم سار إلى بركة بدست القفجاق فزحف إليه بركة في جموع لا تحصى، والتقيا واستمرّ القتل في أصحاب هلاكو، وهمّ بالهزيمة. ثم حال نهر الكّربين الفريقين وعاد هلاكو في البلاد واستحكمت العداوة بينهما. وسار هلاكو إلى بغداد فكانت له الواقعة المشهورة كما مرو يأتي في أخبار دولته إن شاء الله تعالى. وفي كتاب ابن فضل الله فيما نقله عن شمس الدين الأصفهاني: أن هلاكو لم يكن مستقلا بالملك، وإنما كان نائبا عن أخيه منكوفان. ولا ضربت السكة باسمه ولا ابنه أبغا، وإنما ضربها منهم ارغو حين استقل ؛ فجعل اسمه في السكة مع اسم صاحب التخت. قال: وكان شحنة صاحب التخت لا يزال ببغداد إلى أن ملك قازان فطرد الشحنة وأفرد اسمه في السكة. وقال: ما ملكتب البلاد إلا بسيفي وبيت جنكز خان يرون أن بني هلاكو إنما كانوا ثوارا، وجنكز خان لم يملك طولي شيئا، وإن أخاه منكوفان الذي ولاه عليها إنما بعثه نائبا، مع أنّ منكوفان إنما ولاه ناظو ابن دوشي خان كما مرّ قال: ونقل عن ثقاة أنه لم يبق هلاكو من يحقق نسبه لكثرة ما وقع فيهم من القتل غيرة على الملك، ومن نجا طلب الاختفاء بشخصه فخفي نسبه، إلا ما قيل في محمل المنسوب إلى بحرحى. قال شمس الدين الأصبهاني، ونقله عن أمير كبير منهم أنّ أول من استقل بالتخت جنكز خان، ثم ابنه أوكداي، ثم انه كفود بن أوكداي ثم منكوفان بن طولي، ثم أخوه أربيكان، ثم أخوهما قبلاي، ثم دمرفاي ويقال تمرفاي. ثم تربى كيزي ثم كيزقان، ثم سندمردقان بن طرمالا بن جنكمر بن قبلاي بن طولي، انتهى كلام ابن فضل الله وعن غيره أنّ منكوفان جهز عساكر التتر أيام ملكه على التخت إلى بلاد الروم سنة [*] مع أمير من أمراء المغل اسمه بيكو فملكها من يد بني قليج أرسلان كما هو مذكور في أخبارهم فأقامت في طاعة القان إلى أن انقرض أمر المغل منها. ثم بعث منكوفان العساكر لغزو بلاد الخطا، مع أخيه قبلاي بعد أن عهد له بالخانية. ثم سار على أثره بنفسه واستخلف أخاه الآخر أزبك على

كرسي قراقوم، وهلك منكوفان في طريقه ذلك على نهر الطاي من بلاد الغور سنة ثمان وخمسين فجلس ازبك على التخت، وعاد قبلاي من بلاد الخطا، فزحف إليه أزبك فهزمه إلى بعض النواحي، واستأثر بالغنائم عن إخوته وقومه فمالوا إلى قبلاي، واستدعوه فجاء وقاتل أخاه أزبك فغلبه وتقبض عليه وحبسه، واستقر في الغانية وبلغ الخبر إلى هلاكو وهو في الشام عندما استولى عليه فرجع لما كان يؤمّله من الغانية. ولما انتهى إلى جيحون بلغه استقلال أخيه قبلاي في الغانية وتبين له عجزه عنه فسالمه وقنع بما في يده ورجع إلى العراق. ثم نازع قبلاي في الغانية لآخر دولته سنة سبع وثمانين بعض بني أوكداي صاحب التخت الأول، وهو قيدو بن قاشي بن كفود بن أوكداي. ونزع إليه بعض أمراء قبلاي، وزينوا له ذلك فسار له وبعث قبلاي العساكر للقائه مع ابنه تمقان فهزمه قيدو ورجع منهزماً إلى أبيه فسخطه وطرده إلى بلاد الخطا ومات هنالك. وسلط قبلاي على قيدو، وكان غلب على ما وراء النهر براق بن سنتف بن منكوفان بن جفطاي من بني جفطاي ملوك ما وراء النهر بوصية أبيهم جنكز خان

فغلبه براق واستولى على ما وراء النهر ثم هلك قبلاي صاحب التخت سنة ثمان وثمانين وملك ابنه سرتموق. هذا ما انتهى إلينا من أخبار ملوك التخت بقراقوم من بني جنكزخان، ولم نقف على غيرها والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

(ملوك بني جفطاي بن جنكزخان بتركستان وكاشغر وما وراء النهر)

هذا الإقليم هو مملكة الترك الأولى قبل الإسلام، وأسلم ملوكهم على تركستان وكاشغر فأقاموا بها. وملك بنو سامان نواحي بخارى وسمرقند واستبدّوا، ومنها كان ظهور السلجوقية والتتر من بعدهم. ولما استولى جنكز خان على البلاد أوصى بهذه المملكة لابنه جفطاي، ولم يتمّ ذلك في حياته. ومات جفطاي دونه فلما ولي منكوفان بن طولي على التخت ولى أولاد جفطاي عمه على ما وراء النهر إمضاء لوصيه جنكزخان لأبيهم التي مات دونها، وولى منكوفان. فلما هلك ولى أخوه هلاكو ابنه مبارك شاه. ثم غلب عليهم قيدو بن قاشي بن كفود بن أوكداي بن جنكز خان وانتزع ما وراء النهر من أيديهم، وكان جدّه كفوك صاحب التخت وبعده ولى منكوفان. فلما ولي قيدو نازع صاحب التخت يومئذ وهو قبلاي، وكانت بينهما حروب، وأعان قبلاي في خلالها بني جفطاي على استرجاع ملكهم. وولي منهم براق بن سنتف بن منكوفان بن جفطاي، وأمدّه بالعساكر والأموال فغلب قيدو بن قاشي بن كفود بن أوكداي بن جنكز خان، وانتزع من صاحب التخت يومئذ واستبد بملك آبائه ثم هلك فولي من بعده دوا، ثم من بعد دوا بنون له أربعة واحدا بعد واحد وهم: كجك ثم اسعا ثم كبك ثم انجكداي. ثم ولي بعد الأربعة دواتمر، ثم ترماشين ثم توزون بن أوما كان ابن منكوفان بن جفطاي وتخلل هؤلاء من توثب على الملك ولم ينتظم له، مثل: سيساور بن أركتم بن بغاتمر بن براق، ولم يزل ملكهم بعد ترماشين مضطرباً إلى أن ملك منهم جنقصو بن دواتمر بن حلو بن براق بن سنتف، كانوا كلهم على دين المجوسية، وخصوصا دين جنكز خان وعبادته الشمس وكان فيما يقال على دين النجشية فكان بنو جفطاي يعضون عليها بالنواجذ ويتبعون سياسته مثل أصحاب التخت. فلما صار الملك إلى

ترماشين منهم أسلم رحمه الله سنة خمس وعشرين وسبعمائة وجاهد وأكرم التجار المتردّدين. وكانت تجار مصر ممنوعين من بلاده، فلما بلغهم ذلك قصدوها فحمدوها. ولما انقرضت دول بني جنكز خان وتلاشت في جميع النواحي ظهر في أعقاب دولة بني جفطاي هؤلاء بسمرقند وما وراء النهر ملك اسمه تمر، ولا أدري كيف كان يتصل نسبه فيهم، ويقال أنه من غير نسبهم، وإنما هو متغلب على صبيّ من أعقاب ملوكهم اسمه
طغطمش أو محمود درج اسمه بعد مهلك أبيه، واستبدّ عليه وانه من أمرائهم وأخبرني من لقيته من أهل الصين أنّ أباه أيضا كان في مثل مكانه من الإمارة والاستبداد، وما أدري أهو
طينة في نسب جفطاي أو من أحلافهم واتباعهم. وأخبرني الفقيه برهان الدين الخوارزمي، وهو من علماء خوارزم وأعيانها قال: كان لعصره وأوّل ظهوره ببخارى رجل يعرف بحسن من أمراء المغل، وآخر بخوارزم من ملوك صراي أهل التخت يعرف بالحاج حسن الصوفي تهيأ وزحف إلى بخارى فملكها من يد حسن، ثم إلى خوارزم وطالت حروبه مع الحاج حسن الصوفي وحاصرها مرارا. وهلك حسن خلاله ذلك وولي أخوه يوسف فملكها تمر من يده وخربها في حصار طويل. ثم كلف بعمارتها بناء ما خرب منها، وانتظم له الملك بما وراء النهر ونزل قجارى. ثم زحف إلى خراسان فملك هراة من يد صاحبها وأظنه من بقايا ملوك الغورية ثم زحف إلى مازندان وطال تمرّسه وحروبه مع صاحبها الشيخ ولي إلى أن ملكها عليه سنة أربع وثمانين. ولحق الشيخ ولي بتوريز إلى أن ملكها تمر سنة ثمان وثمانين فهلك في حروبه معها. ثم زحف إلى أصفهان فاتوه طاعة ممّرضة وخالفه في قومه كبير من أهل نسبه يعرف بمعمر الدين، وأمدّه طغطمش صاحب التخت بصراي فكّر راجعا وشغل بحربه إلى أن غلبه ومحا أثره. وغلب طغطمش على ما بيده من البلاد ثم زحف إلى بغداد سنة خمس وتسعين فأجفل عنها ملكها أحمد بن أويس ابن الشيخ حسن المتغلب عليه بعد بني هلاكو، فلحق أحمد ببر الشام سنة ست وتسعين، واستولى تمر على بغداد والجزيرة وديار بكر إلى الفرات. واستعدّ ملك مصر للقائه ونزل الفرات فأحجم عنه وتأخر عنه إلى قلاع الأكراد وأطراف بلاد الروم، وأناخ على قراباغ ما بين أذربيجان والأبواب ورجع خلال ذلك طغطمش صاحب التخت إلى صراي وملكه؟ فسار إليه تمر أول سنة سبع وتسعين وغلبه على ملكه وأخرجه عن سائر ممالكه ثم وصل الخبر آخر السنة بظفره بطغطمش وقتله إياه واستيلائه على جميع أعماله، والحال على ذلك لهذا العهد والله وارث الأرض ومن عليها. وفي خبر العجم أنّ ظهوره سنة عذب يعنون سنة إثنين وسبعين وسبعمائة بحساب الجمل في حروف هذه اللفظة. والله سبحانه وتعالى وليّ التوفيق بمنه وكرمه.

خريطة

(الخبر عن ملوك بني دوشي خان من التتر ملوك خوارزم
ودست القفجاق ومبادي أمورهم وتصاريف أحوالهم)

قد تقدم لنا أنّ جنكزخان عين هذه البلاد لابنه دوشي خان وملكه عليها، وهي مملكة متسعة في الشمال آخذة من خوارزم إلى ناركند وصفد وصراي إلى مدينة ماجري وأزان وسرادق وبلغار وباشقرد وجدلمان، وفي حدود هذه المملكة مدينة باكو من مدن شروان وعندها باب الحديد وشمونه دمرقفو وتمر حدود هذه المملكة في الجنوب إلى حدود القطسطينية، وهي قليلة المدن كثيرة العمارة، والله تعالى أعلم.

(دوشي خان بن جنكز خان)

وأوّل من وليها من التتر دوشي خان، فلم يزل ملكا عليها إلى أن هلك كما مرّ سنة .

(ناظو خان بن دوشي خان)

ولما هلك دوشي خان ولي مكانه ابنه ناظوخان، ويقال صامرخان ومعناه الملك المغير فلم يزل ملكا عليها إلى أن هلك سنة خمسين وستمائة.

(طرطو بن دوشي خان)

ولما هلك ناظو ولي أخوه طرطو فأقام ملكا سنتين، وهلك سنة إثنتين وخمسين. ولما هلك ولي مكانه أخوه بركة. هكذا نقل ابن فضل الله عن ابن الحكيم. وقال المؤيد صاحب حماة في تاريخه: انه لما هلك طرطو هلك من غير عقب، وكان لاخيه ناظو خان ولدان وهما تدان وبركة، وكان مرشحا للملك فعدل عنه أهل الدولة وملكوا أخاه بركة. وسارت أمّ تدان إلى هلاكو عندما ملك العراق تستحثه لملك قومها فردوها من الطريق وقتلوها واستمرّ بركة في سلطانه انتهى. فنسب المؤيد بركة إلى ناظو خان بن دوشي خان وابن الحكيم على ما نقل ابن فضل الله، جعله ابن دوشي خان نفسه وذكر المؤيد قصة إسلامه على يد شمس الدين الباخوري من أصحاب نجم الدين، وانّ الباخوري كان مقيما ببخارى وبعث إلى بركة يدعوه إلى الإسلام فأسلم، وبعث إليه كتابه باطلاق يده في سائر أعماله بما شاء فردّه عليه، وأعمل بركة الرحلة إلى لقائه فلم يأذنّ له في الدخول حتى تطارح عليه أصحابه، وسهلوا الإذن لبركة فدخل وجدّد الإسلام وعاهده الشيخ على إظهاره الإسلام وأن يحمل عليه سائر قومه فحملهم، واتخذ في جميع بلاده المساجد والمدارس، وقرب العلماء والفقهاء ووصلهم. وسياق القصة على ما ذكره المؤيد يدل على أنّ إسلامه كان أيام ملكه. وعلى ما ذكر بن الحكيم أنّ إسلامه كان أيام أخيه ناظو، ولم يذكر ابن الحكيم طرطو وإنما ذكر بعد ناظو أخاه بركه. ولم نقف على تاريخ لدولتهم حتى يرجع إليه، وهذا ما أدّى إليه الاجتهاد وما بعدها مأخوذ من تاريخ المؤيد صاحب حماة من بني المظفر ابن شاهنشاه بن أيوب قال: ثم بعث بركة أيام سلطانه أخاه ناظو إلى ناحية الغرب للجهاد، وقاتل ملك اللمان من الإفرنج فانهزم ورجع ومات أسفا

ثم حدثت الفتنة بين بركة وبين قبلاي صاحب التخت، وانتزع بركة الخاقانية من أعمال قبلاي وولى عليها سرخاد ابن أخيه ناظو، وكان على دين النصرانية. وداخله هلاكو في الانتقاض على عمه بركة إلى أخيه قبلاي صاحب التخت ويقطعه الخاقانية وما يشاء معها. وشعر بركة بشأنه وأن سرخاد يحاول قتله بالسمّ فقتله.وولى الخاقانية أخاه مكانه، وأقام هلاكو طالبا بثأر سرخاد، ووقعت الحرب بينه وبين بركة على نهر آمد سنة ستين.

ثم هلك هلاكو سنة ثلاث وستين. وولى ابنه أبغا فسار إلى حربه وسرح بركة للقائه سنتاي بن بانيضان بن جفطاي ونوغيثة بن تتر بن مغل بن دوشي خان - فلما التقى الجمعان أحجم سنتاي ورجع منهزما، وانهزم أبغا أمام نوغيثة وأثخن في عساكره. وعظمت منزلة نوغيثة عند بركة وسخط بركة سنتاي وساءت منزلته عنده إلى أن هلك بركة سنة خمس وستين. والله سبحانه وتعالى أعلم.

(منكوتمر بن طغان بن ناظو خان)

ولما هلك بركة ملك الدست بالشمال ملك مكانه منكوتمر بن طغان بن ناظو خان ابن دوشي خان، وطالت أيامه، وزحف سنة سبعين إلى القسطنطينية لجدة وجدها على الأشكر ملكها فتلقاه بالخضوع والرغبة، ورجع عنه. ثم زحف سنة ثمانين إلى الشام في مظاهرة أبغا بن هلاكو، ونزل بين قيسارية وابلستين من بلاد الروم. ثم أجاز الدربند ومرّ بابغا وهو منازل الرحبة وتقدّم مع أخيه منكوتمر بن هلاكو إلى حماة فنازلوها، وزحف إليهم المنصور قلاوون ملك مصر والشام من دمشق، ولقيهم بظاهر حمص. وكانت الدائرة على ملوك التتر. وهلك خلق من عساكرهم وأسر آخرون وأجفل أبغا من منازلة الرحبة ورجعوا إلى بلادهم منهزمين وهلك على أثر ذلك منكوتمر ملك الشمال، ومنكوتمر بن هلاكو سنة إحدى وثمانين. ولما هلك منكوتمر ملك مكانه ابنه تدان وجلس على كرسي ملكهم بصراي فأقام خمس سنين ثم ترهب وخرج عن الملك سنة ست وثمانين، وانقطع إلى صحبة المشايخ الفقراء ولما ترهب تدان بن منكوتمر وخرج عن الملك ملك مكانه أخوه قلابغا، وأجمع على غزو بلاد الكرك. واستنفر نوغيثة بن تتر بن مغل بن دوشي خان، وكان حاكما على طائفة من بلاد الشمال، وله استبداد على ملوك بني دوشي خان ؛ فنفر معه في عساكره وكانت عظيمة. ودخلوا جميعا بلاد الكرك وأغاروا عليها وعاثوا في نواحيها وفصلوا منها. وقد تمكن فصل الشتاء، وملك السلطان مسافة اعتسف فيها البيداء، وهلك أكثر عساكره من البرد والجوع وأكلوا دوابهم وسار نوغيثه من أقرب المسالك فنجا إلى بلاده سالما من تلك الشدة فاتهمه السلطان قلابغا بالادهان في أمره

وكان ينقم عليه استبداده حتى أنه قتل امرأة كنجك، وكانت متحكمة في أيام أبيه وأخيه، وشكت إلى نوغيثة فأمر بقتلها خنقاً وقتل أميراً كان في خدمتها اسمه بيطرا فتنكر له قلابغا وأجمع الفتك به، وأرسل يستدعيه لما طوى له عليه. ونمي الخبر بذلك إلى نوغيثة فبالغ في إظهار النصيحة والإشفاق على السلطان، وخاطب أمّه بأنّ عنده نصائح يودّ لو ألقاها إلى السلطان في خلوة فثنت ابنها عن رأيه فيه، وأشارت عليه باستدعائه والاطلاع على ما عنده. وجاء نوغيثة وقد بعث عن جماعة من إخوة السلطان قلابغا كانوا يميلون إليه، ومنهم طغطاي وبولك وصراي وتدان بنو منكوتمر بن طغان فجاؤوا معه وقد توقفوا لّما هجم السلطان قربغا، وركب للقاء نوغيثة في لمة من عسكره، وجاء نوغيثة وقد أكمن له طائفة من العسكر فلما التقيا تحادثا مليا، وخرج الكمناء وأحاطوا بالسلطان وقتلوه سنة تسعين وستمائة وأقبل طغطاي بن منكوتمر. ولما قتل قلابغا ولوا مكانه طغطاي لوقته، ورجع نوغيثة إلى بلاده. وبعث إلى طغطاي في قتل الأمراء الذين داخلوا قلابغا في قتله فقتلهم طغطاي أجمعين. ثم تنكر طغطاي لنوغيثه لما كان عليه من الاستبداد، وأنف طغطاي منه، وأظلم الجّو بينهما واجتمع

أعيان الدولة إلى نوغيثة فكان يوغر صدرهم على طغطاي، وأصهر إلى طاز بن منجك منهم بابنته ؛ فسار إليه ولقيه نوغيثة فهزمه واعترضه نهر مل فغرق كثير من عساكره، ورجع نوغيثة عن اتباعه. واستولى على بلاد الشمال، وأقطع سبطه قراجا بن طشتمر سنة ثمان وسبعين مدينة القرم وسار إليها لقبض أموالها فأضافوه وبيتوه وقتلوه من ليلته وبعث نوغيثة العساكر إلى القرم فاستباحوها وما يجاورها من القرى والضياع وخرب سائرها. وكان نوغيثة كثير الإيثار لأصحابه، فلما استبدّ بأمره آثر ولده على الأمراء الذين معه وأحسوا عليهم. وكان رديفه من ملك المغل أياجي بن قرمش وأخوه قراجا. فلما آثر ولده عليهما نزعا إلى طغطاي في قومهما، وسار ولد نوغيثة في اتباعهما فرجع بعضهم واستمرّ الباقون، وقتل ولد نوغيثة من رجع معه بن أصحاب أياجي وقراجا وولدهم، فامتعض لذلك أمراء المغل الذين معه، ولحقوا بطغطاي واستحثوه لحرب نوغيثة فجمع. وسار إليه سنة تسع وتسعين بكو كان لك، فانهزمت عساكر نوغيثة وولده. وقتل في المعركة وحمل رأسه إلى طغطاي فقتل قاتله وقال: السوقة لا تقتل الملوك واستبيح معسكر نوغيثة وبيع سباياهم وأسراهم في الأقطار، وكان بمصر منهم جماعة استرقوا بها وانتظموا في ديوان جندها. ولما هلك نوغيثة خلفه في أعماله ابنه جكك، وانتقض عليه أخوه فقتله فاستوحش لذلك أصحابه وأجمعوا الفتك به. وتولى ذلك نائبه طغرلجاي وصهره على أخته طاز بن منجك. ونمي الخبر بذلك إليه وهو في بلاد اللاز والروس غازيا فهرب ولحق

ببلاده ثم لحق به عسكره فعاد إلى حربهم وغلبهم على البلاد. ثم أمدّهما طغطاي على جكا بن نوغيثة فانهزم ولحق ببلاد أولاق، وحاول الأمتناع ببعض القلاع من بلاد أولاق وفيها صهره، فقبض عليه صاحب القلعة، واستخدم بها لطغطاي فأمره بقتله سنة احدى وسبعمائة. ونجا أخوه طراي وابنه قراكسك شريدين. وخلا الجو لطغطاي من المنازعين والمخالفين، واستقرت في الدولة قدمه، وقسم أعماله بين أخيه صراي بغا وبين ابنيه وأنزل منكلي بغا من ابنيه في عمل نهر طنا مما يلي باب الحديد. ثم رجع صراي بن نوغيثة من مقرة واستذم بصراي بغا أخي طغطاي فأذمّه وأقام عنده. فلما أنس به كشف له القناع عما في صدره واستهواه للانتقاض على أخيه طغطاي، وكان أخوهما أزبك أكبر منه، وكان مقيما عند طغطاي فركب إليه صراي بغا ليفاوضه في الشأن فاستعظمه، وأطلع عليه أخاهما طغطاي فأمره لوقته بإحضار أخيه صراي بغا وصراي بن نوغيثة، وقتلهما واستضاف عمل أخيه صراي بغا لابنه إيل بهادر. ثم بعث في طلب قراكسك بن نوغيثة فأبعد في ناحية الشمال، واستذم ببعض الملوك هنالك. ثم هلك سنة تسع وسبعمائة أخوه بذالك وابنه إيل بهادر، وهلك طغطاي بعدهما سنة أثنتي عشرة، والله تعالى أعلم.

(ازبك بن طغرلجاي بن منكوتمر)

ولما هلك طغطاي بايع نائبه قطلتمر لأزبك ابن أخيه طغرلجاي بإشارة الخاتون تنوفالون زوج أبيه طغرلجاي، وعاهده على الإسلام فأسلم واتخذ مسجداً للصلاة. وأنكر عليه بعض أمرائه فقتله وتزوّج الخاتون بثالون، وكانت المواصلة بين طغطاي وبين ملوك مصر. ومات طغطاي ورسله عند الملك الناصر محمد بن قلاوون

فرجعوا إلى أزبك مكرمين وجدّد أزبك الولاية معه وحببه قطلتمر في بعض كرائمهم يرغبه، وعين له بنت بَذَالِك أخي طغطاي وتكرّرت الرسالة في ذلك إلى أن تم الأمر، وبعثوا بكريمتهم المخطوبة إلى مصر فعقد عليها الناصر وبنى بها كما مرّ في أخباره. ثم حدثت الفتنة بين أزبك وبين أبي سعيد ملك التتر بالعراق من بني هلاكو، وبعث أزبك عساكره إلى أذربيجان وكان بنو دوشي يدعون أنّ توريز ومراغة لهم، وأنّ القان لما بعث هلاكو لغزو بلاد الإسماعيلية وفتح بغداد استكثر من العساكر، وسار معه عسكر أهل الشمال هؤلاء وقررت لهم العلوفة بتوريز. ولما مات هلاكو طلب بركة من ابنه أبغا أن يأذن له في بناء جامع تبريز ودار لنسج الثياب والطرز فأذن له فبناهما وقام بذلك. ثم اصطلحوا وأعيدت فادعى بنو دوشي خان أن توريز ومراغة من أعمالهم

ولم يزالوا مطالبين بهذه الدعوة. فلما وقعت هذه الفتنة بين أزبك وأبي سعيد افتتح أمره بغزو موقان فبعث العساكر إليها سنة تسع عشرة فاكتسحوا نواحيها ورجعوا وجمع جوبان على دولته وتحكمه في بني جنكز خان، وإنه يأنف أن يكون براق بن سنتف بن منكوفان بن جفطاي ملكا على خوارزم فأغزاه أزبك فملك خراسان وأمدّه بالعساكر مع نائبه قطلتمر وسار سيول لذلك. وبعث أبو سعيد نائبه جوبان لمدافعتهما فلم يطق، وغلب سيول على كثير من خراسان وصالحه جوبان عليها. وهلك سيول سنة عشرين. ثم عزل أزبك نائبه قطلتمر سنة إحدى وعشرين وولى مكانه عيسى كوكز، ثم رده سنة أربع وعشرين إلى نيابته ولم تزل الحرب متصلة بين أزبك وأبي سعيد إلى أن هلك أبو سعيد سنة ست وثلاثين، ثم هلك القان في هذه السنة. ولما هلك أزبك بن طغرلجاي ولي مكانه ابنه جاني بك، وكان أبو سعيد قد هلك قبله كما قلناه ولم يعقب. وولي مكانه على العراق الشيخ حسن من أسباط أبغا بن هلاكو. وافترق الملك في عمالاتهم طوائف، وردد جاني بك العساكر إلى خراسان إلى أن ملكها سنة ثمان وخمسين. ثم زحف إلى أذربيجان وتوريز وكان قد غلب عليها الشيخ الصغير ابن دمرداش بن جوبان وأخوه الأشرف من بعده كما يذكر في أخبارهم إن شاء الله تعالى. فزحف جاني بك في العساكر إلى أذربيجان بتلك المطالبة التي كان سلفه يدعون بها فقتل الأشرف واستولى على توريز وأذربيجان وانكفأ راجعا إلى خوزستان بعد أن ولي على توريز ابنه بردبيك، واعتل جاني بك في طريقه ومات.

(بردبيك بن جاني)

ولما اعتل جاني في ذهابه من توريز إلى خراسان طير أهل الدولة الخبر إلى ابنه بردبيك، وقد استخلفه في توريز فولى عليها أميراً من قبله، وأغذ السير إلى قومه ووصل إلى صراي وقد هلك أبوه جاني فولوه مكانه، واستقل بالدولة. وهلك لثلاث سنين من مهلكه.

(ماماي المتغلب علي مملكة صراي)

ولما هلك بردبيك خلف ابنه طغطمش غلاما صغيرا، وكانت أخته بنت بردبيك تحت كبير من أمراء المغل اسمه ماماي وكان متحكماً في دولته. وكانت مدينة المقرم من ولايته وكان يومئذ غائباً بها، وكان جماعة من أمراء

المغل متفرقين في ولايات الأعمال بنواحي صراي ففرقوا الكلمة واستبدوا بأعمالهم، فتغلب حاجي شركس على ناحية منج طرخان، وتغلب أهل خان

على عمله وأيبك خان كذلك، وكانوا كلهم يسمون أمراء المسيرة. فلما هلك بردبيك وانقرضت الدولة واستبدّ هؤلاء في النواحي خرج ماماي إلى القرم ونصب صبيا من ولد أزبك القان اسمه عبد الله، وزحف به إلى صراي فهرب منها طغطمش ولحق بمملكة أرض خان في ناحية جبال خوارزم إلى مملكة بني جفطاي بن جنكزخان في سمرقند وما وراء النهر، والمتغلب عليها يومئذ السلطان تمر من أمراء المغل وقد نصب صبياً منهم اسمه محمود وطغطمش وتزوّج أمه واستبدّ عليه، فأقام طغطمش هناك ثم تنافس الأمراء المتغلبون على أعمال صراي، وزحف حاجي شركس صاحب عمل منج طرخان إلى ماماي فغلبه على صراي فملكها من يده. وسار ماماي إلى القرم فاستبدّ بها. ولما زحف حاجي شركس من عمله بعث أرض خان عساكره من نواحي خوارزم فحاصروا منج طرخان، وبعث حاجي العساكر إليهم مع بعض أمرائه فأعمل الحملة حتى هزمهم عن منج طرخان، وفتك بهم وبالأمير الذي يقودهم. وشغل حاجي شركس بتلك الفتنة، فزحف إليه أيبك خان وملك صراي من يده واستبد بها أياما. ثم هلك وولى بعده بصراي ابنه قاريخان. ثم زحف إليه أرض خان من جبال خوارزم فغلبه عن صراي وهرب قاريخان بن أيبك خان وعادوا إلى عملهم الأوّل، واستقرّ أرض خان بصراي وماماي بالقرم ما بينه وبين صراي في مملكته، وكان هذا في حدود أعوام سنة ست وسبعين، وطغطمش في خلال ذلك مقيم عند السلطان تمر فيما وراء النهر ثم طمحت نفس طغطمش إلى ملك آبائه بصراي فجهز معه السلطان ثمر العساكر ، فلما بلغ جبال خوارزم اعترضه هناك عساكر أرض خان فقاتلوه، وانهزم ورجع إلى تمر. ثم هلك أرض خان قريبا من منتصف تلك السنة فخرج السلطان تمر بالعساكر مع طغطمش مددا له إلى حدود عمله، ورجع واستمرّ طغطمش فاستولى على أعمال أرض خان بجبال خوارزم. ثم سار إلى صراي وبها عمال أرض خان، فملكها من أيديهم واسترجع ما تغلب عليه ماماي من ضواحيها، وملك أعمال حاجي شركس في منج طرخان واسترجع جميع ما كان بأيدي المتغلبين ومحا أثرهم، وسار إلى ماماي بالقرم فهرب أمامه ولم يوقف على خبره ثم صح الخبر بمهلكه من بعد ذلك واستوسق الملك لصراي وأعمالها لطغطمش بن بردبيك كما كان لقومه

(حروب السلطان تمر مع طغطمش صاب صراي)

قد ذكرنا فيما مرّ ظهور هذا السلطان تمر في دولة بني جفطاي، وكيف أجاز من بخارى وسمرقند إلى خراسان أعوام أربعة وثمانين وسبعمائة فنزل على هراة وبها ملك من بقايا الغورية

فحاصرها وملكها من يده. ثم زحف إلى مازندران وبها الشيخ ولي تغلب عليها بعد بني هلاكو فطالت حروبه معه إلى أن غلبه عليها، ولحق الشيخ ولي بتوريز في فل من أهل دولته. ثم طوى تمر الممالك طيا وزحف إلى أصفهان فآتاه ابن المظفر بها طاعته، ثم إلى توريز سنة سبع وثمانين فملكها وخربها، وكان قد زحف قبلها إلى دست القفجاق بصراي فملكها من يد طغطمش وأخرجه عنها فأقام بأطراف الأعمال حتى أجاز تمر إلى

أصبهان فرجع إلى كرسيه. وكان للسلطان تمر قريع في قومه يعرف بقمر الدين فراسله طغطمش صاحب صراي وأغراه بالانتقاض على تمر وأمدّه بالأموال والعساكر فعاث في تلك البلاد، وبلغ خبره إلى تمر منصرفه من فتحه فكر راجعا، وعظمت حروبه مع قمر الدين إلى أن غلبه وحسم علته، وصرف وجهه إلى شأنه الأوّل وقرر الزحف إلى طغطمش وسار طغطمش للقائه ومعه اغلان بلاط من أهل بيته، فداخله تمر وجماعة الأمراء معه، واستراب بهم طغطمش وقد حان اللقاء وتصافوا للحرب فصدم ناحية من عسكر تمر، وصدم من لقي فيها وتبدد عياله، وافترق الأمراء الذين داخلوا تمر وساروا إلى الثغور فاستولوا عليها وجاء طغطمش إلى صراي فاسترجعها وهرب أغلان بلاط إلى القرم فملكها وزحف إليه طغطمش في العساكر فحاصرها، وخالفه أرض خان إلى صراي فملكها طغطمش وانتزعها من يده. ولم تزل عساكره تختلف إلى القرم وتعاهدها بالحصار إلى أن ملكها وظفر باغلان بلاط فقتله. وكان السلطان تمر بعد فراغه من حروبه مع طغطمش سار إلى أصفهان فملكها أيضا واستوعب ملوك بني المظفر وعاملهم بالقتل وانتظم له أعمالهم جميعا في مملكته. ثم زحف إلى بغداد فملكها من يد أحمد بن أوشى سنة خمس وتسعين كما مرّ ذكره ولحق أحمد بالسلطان الظاهر صاحب مصر مستصرخا به فخرج معه في العساكر وانتهى إلى الفرات، وقد سار تمر عن بغداد إلى ماردين فحاصرها وملكها وامتنعت عليه قلعتها فعاج من هنالك إلى حصون الأكراد، ثم إلى بلاد الأرمن ثم إلى بلاد الروم وبعث السلطان الظاهر صاحب مصر العساكر مدداً لابن أويس فسار إلى بغداد وبها شرذمة من عسكر تمر فملكها من أيديهم. ورجع الملك الظاهر إلى مصر وقد أظلّ الشتاء، ورجع تمر إلى نواحي أعماله فأقام في عمل قراباد ما بين أذربيجان وهمذان والأبواب. ثم بلغ الخبر إلى تمر فسار من مكانه ذلك إلى محاربة طغطمش، وعميت أنباؤه مدّة. ثم بلغ الخبر آخر سنة سبع وتسعين إلى السلطان بأن تمر ظفر بطغطمش وقتله واستولى على سائر أعماله. والله غالب على أمره انتهى.

ملوك غزنة وباميانا من بني دوشي خان:

كانت أعمال غزنة وباميان هذه قد صارت لدوشى خان وهى من أمال ما وراء النهر من جانب الجنوب، وتتاخم شجستان وبلاد الهند، وكانت في مملكة بني خوارزم شاه فملكها إلى لأول خروجهم من أيديهم.

وملكها جنكز خان لابنه دوشى خان وصارت لابنه أردنو ثم لابنه انبجي بن أردنو. وهلك على رأس المائة السابعة وخلف من الولد بيان وكبك ومنغطاي، وانقسمت الأعمال بينهم، وكان كبيرهم بيان في غزنة، وقام بالملك بعد أنبجي ابنه كبك، وانتقص عليه أخوه بيان واستمد بطغطاي صاحب صراي فأمدّه بأخيه بذالك، واستنجد كبك بقندو فأمده ولم يغن عنه وانهزم ومات سنة تسع وسبعمائة. واستولى بيان على الأعمال وأقام بغزنة، وزحف إليه قوشناي ابن أخيه كبك واستمد بقندو، وغلب عمه على غزنة. ولحق بيان بطغطاي، واستقر قوشناي بغزنة، ويقال أنّ الذي غلب عليها إنما هو أخوه طغطاي، ولم نقف بعد على شيء من أخبارهم. والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم.

ملوك التحت بصراي

خريطة

دولة بني هولاكو

دولة بني هولاكو ملوك التتر بالعراقيين وخراسان

ومبادي أمورهم وتصاريف أحوالهم:

قد تقدّم لنا أنّ جنكز خان عهد بالتخت وهو كرسي الملك بقراقوم لابنه أوكداي، ثم ورثه من بعده كفود بن أوكداي وأنّ الفتنة وقعت بينه وبين صاحب الشمال من بني جنكز خان وهو ناظو بن دوشي خان صاحب التخت بصراي، وسار إليه في جموع المغل والتتر وهلك في طريقه. وسلم المغل الذين معه التخت لناظو فامتنع من مباشرته بنفسه وبعث إليه أخاه منكوفان، وبعث معه بالعساكر أخويه الآخرين قبلاي وهلاكو ومعهما أخوهما بركة ليجلسه على التخت، فأجلسه سنة خمسين. وذكرنا سبب إسلام بركة عند مرجعه، وإن منكوفان استقل بالتخت وولى بني جفطاي بن جنكز خان على بلاد ما وراء النهر إمضاء لوصية جنكز خان. وبعث أخاه هلاكو لتدويخ عراق العجم وقلاع الإسماعيلية ويسمون الملاحدة، والاستيلاء على ممالك الخليفة.

(هولاكو بن طولي)

ولما بعث منكوفان أخاه إلى العراق فسار لذلك سنة إثنتين وخمسين وستمائة، وفتح الكثير من قلاعهم وضيق بالحصار مخنقهم وولى خلال ذلك في كرسي صراي بالشمال بركة بن ناظو بن دوشي خان فحدثت الفتنة بينه وبين هلاكو، ونشأت من الفتنة الحرب وسار بركة ومعه نوغان بن ططر بن مغل بن دوشي خان والتقوا على نهر نول وقد جمد ماؤه لشدّة البرد، وانخسف من تحته فانهزم هلاكو وهلك عامّة عسكره. وقد ذكرنا أسباب الفتنة بينهما. ثم رجع هلاكو إلى بلادا الإسماعيلية وقصد قلعة الموت، وبها صاحبها علاء الدين فبلغه في طريقه وصية من ابن العلقمي وزير المستعصم ببغداد في كتاب ابن الصلايا صاحب إربل يستحثه للمسير إلى بغداد، ويسهل عليه أمرها لما كان ابن العلقمي رافضيا هو وأهل محلته بالكرخ. وتعصب عليهم أهل السنة وتمسكوا بأنّ الخليفة والدوادار يظاهروهم، وأوقعوا بأهل الكرخ وغضب لذلك ابن العلقمي ودس إلى ابن الصلايا بإريل وكان صديقاً له بأن يستحث التتر لملك بغداد، واسقط عامة الجند يموه بأنه يصانع التتر بعطائهم وسار هلاكو والتتر إلى بغداد. واستنفر

بنحو مقدّم التتر ببلاد الروم فيمن كان معه من العساكر فامتنع أوّلا ثم أجاب وسار إليه. ولما أطل هلاكو على بغداد في عساكره برز للقائه أيبك الدوادار في عساكر المسلمين فهزموا عساكر التتر، ثم تراجع التتر فهزموهم واعترضهم دون بغداد بثوق انبثقت في ليلتهم تلك من دجلة فحالت دونها فقتلوا أجمعين. وهلك أيبك الدوادار وأسر الأمراء الذين معه، ورجعوا إلى البلد فحاصروها مدّة. ثم استأمن ابن العلقمي للمستعصم ولنفسه آملاً بأنّ هلاكو يستبقيه فخرج إليه في موكب من الأعيان وذلك في محرّم سنة ست وخمسين وقبض على المستعصم فشدخ بالمعاول في عدل تجافيا عن سفك دمه بزعمهم. ويقال إنّ الذي أحصى فيها من القتلى

ألف ألف وثلثمائة ألف واستولوا من قصور الخلافة وذخائرها على ما لا يحصره العدد والضبط، وألقيت كتب العلم التي كانت في خزائنهم بدجلة معاملة بزعمهم لما فعله المسلمون بكتب الفرس عند فتح المدائن، واعتزم هلاكو على إضرام بيوتها ناراً فلم يوافقه أهل مملكته. واستبقى ابن العلقمي على الوزارة ولرتبة ساقطة عندهم، فلم يكن قصارى أمره إلا الكلام في الدخل والخرج متصرفاً من تحت آخر، أقرب إلى هلاكو منه، فبقي على ذلك مدة ثم اضطرب وقتله هلاكو ثم بعث هلاكو بعد فتح بغداد بالعساكر إلى ميافارقين وبها الكامل محمد بن غازي بن العادل فحاصروها سنين حتى جهد الحصار أهلها. ثم اقتحموها عنوة واستلحموا حاميتها. ثم بعث إليه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ابنه ركن الدين إسماعيل بالطاعة والهدية فتقبله، وبعثه إلى القان الأعظم منكوفان بقراقوم، وأبطأ على لؤلؤ خبره فبعث بالولدين الآخرين شمس الدين اسحق وعلاء الدين بهدية أخرى ورجعوا إليه بخبر ابنه وقرب إيابه، فتوجه لؤلؤ بنفسه إلى هلاكو ولقيه بأذربيجان، وحضر حصار ميافارقين. وجاءه ابنه ركن الدين من عند منكوفان بولاية الموصل وأعمالها ثم هلك سنة سبع وخمسين وولي ابنه ركن الدين إسماعيل ويلقب الصالح. وبعث هلاكو عسكراً إلى إربل فحاصرها ستة أشهر وامتنعت، فأفرجت عنها العساكر فاغتنم ابن الصلايا الفرصة، ونزل عنها لشرف الدين الكردي، ولحق بهلاكو فقتله.

وكان صاحب الشام يومئذ الناصر بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين. فلما بلغه استيلاء هلاكو على بغداد بعث إليه ابنه بالهدايا والمصانعة والعذر عن الوصول بنفسه لمكان الإفرنج من سواحل الشام فقبل هديته وعذره، ورجع ابنه بالمواعيد. ولم يتم لهلاكو الاستيلاء على الجزيرة وديار بكر وديار ربيعة، وانتهى ملكه إلى الفرات وتاخم الشام. وعبر الفرات سنة ثمان وخمسين فملك البيرة ووجد بها السعيد أخا الناصر بن العزيز معتقلا فأطلقه ورده إلى عمله بالضبينة وبانياس ثم سار إلى حلب فحاصرها

مدّة ثم ملكها ومنّ عليه وأطلقه، ووجد بها المعتقلين من البحرية مماليك الصالح أيوب الذين حبسهم الناصر وهم: سنقر الأشقر وتنكز وغيرهما ؛ فأطلقهم وكان معهم أمير من أكابر القفجاق لحق به واستخدم له فجعلهم معه، وولى على البلاد التي ملكها من الشام. ثم جهز العساكر إلى دمشق، وارتحل الناصر إلى مصر ورجع عنه الصالح بن الأشرف صاحب حمص إلى هلاكو فولاه دمشق وجعل نوابه بها لنظره وبلغ الناصر إلى هلاكو. ثم استوحش الخليفة من قطز سلطان مصر لما كان بينهما من الفتنة فخرج إلى هلاكو فأقبل عليه، واستشاره في إنزال الكتائب بالشام؟ فسهل له الأمر في عساكر مصر ورجع إلى رأيه في ذلك، وترك نائبه كيبغا من أمراء التتر في خف من الجنود فبعث كيبغا إلى سلطان مصر. وأساء رسله بمجلس السلطان في الخطاب بطلب الطاعة فقتلهم، وسار إلى الشام فلقي كيبغا بعين جالوت فانهزمت عساكر التتر، وقتل كيبغا أميرهم، والسعيد صاحب الضبينة أخو الناصر كان حاضراً مع التتر فقبض عليه وقتل صبراً ثم بعث هلاكو العساكر إلى البيرة والسعيد بن لؤلؤ على حلب ومعه طائفة من العساكر ؛ فبعث بعضهم لمدافعة التتر فانهزموا وحنق الأمراء على السعيد بسبب ذلك وحبسوه وولوا عليهم حسام الدين الجو كندار. وزحف التتر إلى حلب فأجفل عنها واجتمع مع صاحبها المنصور على حمص، وزحفوا إلى التتر فهزموهم. وسار التتر إلى

أفامية فحاصروها وهابوا ما وراءها، وارتحلوا إلى بلادهم. وبلغ الخبر إلى هلاكو فقتل الناصر صاحب دمشق لاتهامه إياه فيما أشار به من الاستهانة بأهل مصر. وكان هلاكو لما فتح الشام سنة ثمان وخمسين بلغه مهلك أخيه القان الأعظم منكوفان في مسيره إلى غزو بلاد الخطا فطمع في القانية، وبادر لذلك فوجد أخاه قبلاي قد استقل فيها بعد حروب بدت بينه وبين أخيه أزبك تقدّم ذكرها في أخبار القان الأعظم، فشغل بذلك عن أمر الشام ثم لما يئس من القانية قنع بما حصل عنده من الأقاليم والأعمال ورجع إلى بلاده. والأقاليم التي حصلت بيده إقليم خراسان كرسيه نيسابور، ومن مدنه طوس وهراة وترمذ وبلخ وهمذان ونهاوند وكنجة وعراق العجم كرسيه أصفهان، ومن مدنه قزوين وقم وقاشان وشهرزور وسجستان وطبرستان وطلان وبلاد الإسماعيلية وعراق العرب كرسيه بغداد، ومن مدنه الدينور والكوفة والبصرة اذربيجان وكرسيه توريز، ومن مدنه حران وسلماس وقفجاق خوزستان كرسيها ششتر ومن مدنها الأهواز وغيرها فارس كرسيها شيراز، ومن مدنها كش ونعمان ومحمل رزون والبحرين ديار بكر كرسيها الموصل، ومن مدنها ميافارقين ونصيبين وسنجار واسعرد ودبيس وحران والرها وجزيرة ابن عمر بلاد الروم كرسيها قونية، ومن مدنها ملطية وأقصرا وأورنكار وسيواس

وأنْطاكِية والعلايا ثم أجلاه أحمد الحاكم خليفة مصر فزحف إلى بغداد، وهذا الحاكم هو عمّ المستعصم لحق بمصر بعد الواقعة، ومعه الصالح بن لؤلؤ بعد أن أزاله التتر من الموصل فنصب الظاهر بيبرس أحمد هذا في الخلافة سنة تسع وخمسين، وبعثه لاسترجاع بغداد، ومعه الصالح بن لؤلؤ على الموصل. فلما أجازوا الفرات وقاربوا بغداد كبسهم التتر ما بين هيث وغانة فكبسوا الخليفة، وفر ابن لؤلؤ وأخوه إلى الموصل فنازلهم التتر سبعة أشهر، ثم اقتحموها عليهم عنوة وقتلوا الصالح. وخشي الظاهر بيبرس غائلة هلاكو. ثم ان بركة صاحب الشمال قد بعث إلى الظاهر سنة ستمائة وسبعين بإسلامه فجعلها الظاهر وسيلة للوصلة معه والإنجاد، وأغراه بهلاكو لما بينهما من الفتنة ؛ فسار بركة لحربه وأخذ بحجزته عن الشام. ثم بعث هلاكو عساك التتر لحصار البيرة ومعه درباي من أكابر أمراء المغل، وأردفه بابنه أبغا. وبعث الظاهر عساكره لانجاد أهلها فلما أطلوا على عساكر درباي وعاينهم أجفل وترك المخيم والآلة ولحق بأبغا منهزما فاعتقله وسخطه. ثم هلك هلاكو سنة إثنتين وستين لعشر سنين من ولايته العراق والله أعلم.

(أبغا بن هلاكو)

ولما هلك هلاكو ولي مكانه ابنه أبغا، وسار لأوّل ولايته لحرب بركة صاحب الشمال فسرّح إليه بركة العساكرمع قريبه نوغاي بن ططر بن مغل بن دوشي خان، ومع سنتف بن منكوفان بن جفطاي بن جنكز خان، وخام سنتف عن اللقاء ورجع منهزماً وأقام نوغاي فهزم أبغا وأثخن في عساكره وعظمت منزلته بذلك عند بركة ثم بعث سنة إحدى وسبعين عساكره مع درباي لحصار البيرة وعبر الظاهر إليهم الفرات وهزمهم وقتل أميرين مع درباي ولحق درباي بأبغا منهزما فسخطه وأدال منه بابطاي. وفي سنة إثنتين وسبعين زحف أبغا إلى تكدار بن موجي بن جفطاي بن جنكز خان وكان صاحبه فاستنجد بابن عمه براق بن سنتف بن

منكوفان بن جفطاي فأمدّه بنفسه وعساكره واستنفر أبغا عساكر الروم وأميرهم طمقان والبرواناة والتقى الجمعان ببلاد الكرج فانهزم تكدار ولجأ إلى جبل هنالك حتى استأمن أبغا فأمنه، وعهد أن لا يركب فرسا فارها ولا يمس قوساً و نمي إلى أبغا أنّ الظاهر صاحب مصر سار إلى بلاد الروم فبعث العساكر إليها مع قائدين من قواد المغل، وهما تدوران وتغوا فسارا، وملك الظاهر قيسارية من تخوم بلادهم. وبلغ الخبر إلى أبغا فجاء بنفسه إلى موضع الهزيمة وعاين مصارع قومه، ولم يسمع ذكرا لأحد من عسكر البرواناة أنه صرع فاتهمه، وبعث عنه بعد مرجعه فقتله ثم سار

أبغا سنة ثمانين وعبر الفرات ونازل الرحبة وبعث إلى صاحب ماردين فترل معه هناك. وكان منكوتمر ابن أخي بركة ملك صراي فسار بعساكره من المغل وحشود الكرج والأرمن والروم، ومرّ بقيسارية وابلسين، وأجاز الدربند إلى الرحبة فنازلها. وبعث أبغا إليه بالعساكر مع أخيه منكوتمر بن هلاكو، وأقام هو على الرحبة.

وزحف الظاهر من مصر في عساكر المسلمين فلقيهم التتر على حمص. وانهزم التتر هزيمة شنعاء هلك فيها عامة عساكرهم، وأجفل أبغا من حصار الرحبة، وهلك أخوه منكوتمر بن هلاكو مرجعه من تلك الواقعة يقال مسموماً وانه مرّ ببعض أمرائه بجزيرة تسمى مومواغا كان يضطغن له بعض الفعلات فسقاه سما عند مروره به، وهرب إلى مصر فلم يدركوه وأنهم قتلوا ابناءه ونساءه. ثم هلك أبغا سنة إحدى وثمانين بعدها ويقال مسموما أيضا على يد وزيره الصاحب شمس الدين الجويني مشير دولته وكبيرها، حمله الخوف على ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(تكدار بن هلاكو ويسمى أحمد)

ولما توفي أبغا كما ذكرناه، وكان ابنه أرغو غائباً بخراسان فبايع المغل لأخيه تكدار فأسلم وتسمى أحمد.

وخاطب بذلك الملوك لعصره، وأرسل إلى مصر يخبرهم ويطلب المساعدة، وجاء بذلك قاضي سيواس قطب الدين الشيرازي وأتابك بلاد الروم وابن الصاحب من وراء ماردين. وكان أخوه قنقرطاي مع صمغان الشحنة فبعث تكدار عن أخيه فامتنع من الإجابة. وأجاره غياث الدين كنخسرو صاحب بلاد الروم فتوعده تكدار فخاف منه، وسار هو وقنقرطاي إلى تكدار فقتل أخاه وحبس غياث الدين وولى مكانه أخاه عز الدين، وأدال من صمغان الشحنة بأولاطو من أمراء المغل. ثم جهز العساكر إلى خراسان لقتال أخيه أرغو فسار إليهم أرغو وكبسهم، وهزمهم وفتك فيهم فسار تكدار بنفسه فهزم أرغو وأسره وأثخن في عساكره، وقتل إثني عشر أميرا من المغل فاستوحش أهل معسكره وكانوا ينقمون عليه إسلامه فثاروا عليه وقتلوا نائبه. ثم قتلوه سنة إثنتين وثمانين وبعثوا إلى أرغو بن أبغا بطاعتهم والله تعالى أعلم.

(أرغو بن أبغا)

ولما ثار المغل على تكدار وقتلوه وبعثوا بطاعتهم إلى أرغو فجاء وولوه أمرهم فقام بسلطانه، وقتل غياث الدين كنخسرو صاحب بلاد الروم في محبسه، اتهمه بمداهنته في قتل عمه

قنقرطاي وتقبض لأوّل ولايته على الوزير شمس الدين الجوني، وكان متهماً بأبيه وعمه فقتله، وولى على وزارته سعد اليهودي الموصلي ولقبه سعد الدولة، وكان عالماً بالحكمة. وولى ابنيه قازان وخربندا على خراسان لنظر نيروز أتابكه. ولما فرغ من أمور ملكه وكان قد عدل عن دين الإسلام، وأحب دين البراهمة من عبادة الأصنام وانتحال السحر والرياضة له. ووفد عليه بعض سحرة الهند فركب له دواء لحفظ الصحة واستدامتها فأصابه منه صرع فمات سنة سبعين، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(كتخاتو بن أبغا)

ولما هلك أرغو بن أبغا، وابناه قازان وخربندا غائبان بخراسان اجتمع المغل على أخيه كتخاتو فبايعوه وقدّموه للملك. ثم ساءت سيرته وأفحش في المناكر وإباحة الحرمات والتعرض للغلمان من أبنائهم. وكان في عسكره بيدو بن عمر طرغاي بن هلاكو فاجتمع إليه أمراء المغل وبايعوه سراً، وشعر بهم كتخاتو ففرّ من معسكره إلى جهة كرمان، وساروا في أثره فأدركوه بأعمال غانة، وقتلوه سنة ثلاث وتسعين لثلاث سنين وأشهر من ولايته. والله تعالى أعلم.

(بيدو بن طرغاي بن هلاكو)

ولما قتل امراء المغل كتخاتو بن أبغا بايعوا مكانه لابن عمه بيدو بن طرغاي بن هلاكو، وكان قازان بن أرغو بخراسان فسار لحرب بيدو ومعه الأتابك نيروز فلما تقاربا للقاء تردّد الناس بينهما في الصلح، على أن يقيم نيروز الأتابك عند بيدو، واصطلحا وعاد قازان. ثم أرسل نيروز الأتابك إلى قازان يستحثه فسار من خراسان. ولما بلغ الخبر إلى بيدو فاوض فيه نيروز الأتابك فقال: أنا أكفيكه فصبر حتى أتى إليه فسرّحه. ولما وصل إلى قازان أطلعه على شأن أمراء بيدو وأنهم راغبون عنه، وحرضه على المسير فامتعض لذلك بيدو وسار للقائهم فلما التقى الجمعان انتقض عليه أمراؤه بمداخلة نيروز فانهزم، ولحق بنواحي همذان فأدرك هناك، وقتل سنة خمس وتسعين لثمانية أشهر من ملكه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

(قازان في أرغو)

ولما انهزم بيدو وقتل، ملك على المغل مكانه قازان بن أرغو فجعل أخاه خربندا والياً على

خراسان، وجعل نيروز الأتابك مدبراً لمملكته. وسعى لأوّل أمره في التدبير على طرغاي من أمرائه ومواليه من المغل الذي داخل بيدو في قتل كتخاتو الذي تولى كبر ذلك فخافه طرغاي على نفسه، وكان نازلا بين بغداد والموصل فبعث إلى كتبغا العادل صاحب مصر والشام يستأذنه في اللحاق به. ثم ولى قازان على ديار بكر أميراً من أشياعه اسمه مولان فهزمه وقتل الكثير من أصحابه، ونجا إلى الشام وبعث كيبغا من تلقاه وجاء به إلى مصر ودخل مجلس الملك. ورفع مجلسه فيها قبل أن يسلم واستقرّ هو وقومه الأوبراتية بمصر وأقطع لهم. وكان ذلك داعياً إلى الفتنة بين الدولتين ثم قتل قازان الأتابك نيروز، وذلك أنه استوحش من قازان وكاتب لاشين سلطان مصر والشام المتولي بعد كيبغا. وأحس نيروز بذلك فلحق بهراة مستجيراً بصاحبها، وهو فخر الدين بن شمس الدين كرت صاحب سجستان فقبض عليه فخر الدين وأسلمه إلى قطلو شاه فقتله. وقتل قازان

بعد ذلك أخويه ببغداد وهما حاجي ولكري، وقفل السفير إليه بالكتاب من مصر. ثم كان بعد ذلك مفر شلامس بن ايال بن منجو إلى مصر وكان أميراً في بلاد الروم على الطومار المحجر فيها والطومار عندهم عبارة عن مائة ألف من العساكر عن قازان فارتاب به، وأرسل إلى لاشين يستأذنه في اللحاق به وبعث قازان العساكر إليه فقاتلوه وانفض عنه أكثر أصحابه ففرّ إلى مصر، وترك أهله وولده وبعث معه صاحب مصر العساكر لتلقي أهله، ومرّوا بسيس فاعترضه عساكر التتر هناك فهزموه، وقتلوا أمير مصر الذي معه، واعتصم هو ببعض القلاع فاستنزلوه منها وبعثوا به إلى قازان فقتله. وأقام أخوه قطقطو بمصر في جملة عسكرها ونشأت بهذه كلها الفتن بين قازان وأهل مصر، ونزع إليه أمراء الشام فلحق نائب دمشق وبكتمر نائب حلب وألبكي الظاهري وعزاز الصالحي واسترابوا بسلطانهم الناصر محمد بن قلاوون فلحقوا به واستحثوه إلى الشام. وسار سنة تسع وسبعين في عساكر المغل والأرمن ومعه نائبه قطلو شاه ومولي وجاء الملك الناصر من مصرفي عساكر المسلمين ولما انتهى إلى غزة اطلع على تدبير بعض المماليك عليه من أصحاب كيبغا ومداخلة الأمراء الذين هاجروا من المغل إلى مملكة مصر لهم في ذلك، فسبق جميعهم وارتحل إلى حمص للقاء التتر. ثم سار فصبحهم بمرج المروج والتقى الجمعان، وكانت الدبرة على المسلمين، واستشهد منهم عدد. ونجا السلطان إلى مصر، وسار قازان على التعبية فملك حمص، واستوعب مخلف السلطان فيها. ثم تقدم إلى دمشق فملك المدينة وتقدم إلى قفجاق لجباية أموالها ولحصار القلعة وبها علاء الدين سنجر المنصور فامتنع وهدم ما حولها من العمران، وفيها دار السعادة التي بها إيوان الملك وسار قازان إلى حلب فملكها وامتنعت عليه القلعة وعاثت عساكره في البلاد

وإنتهت غاراتهم إلى غزة. ولما امتنعت عليه القلاع ارتحل عائداً إلى بلده، وخلف قطلو شاه في عساكره لحماية البلد وحصار القلعة، ويحيى بن جلال الدين لجباية الأموال. وترك قفجاق على نيابة دمشق وبكتمر على نيابة حلب وحمص وحماة وكر الملك الناصر راجعاً إلى الشأم بعد أن جمع العساكر وبث العطاء وأزاح العلل وعلى مقدّمته سرمز الجاشنكير وسلار كافلا مملكته فتقدموا إلى حدود الشام وأقام هو بالصالحية. واستأمن لهما قفجاق وبكتمر النائبان بدمشق وحلب، وراجعا طاعة السلطان واستولى سرمز وسلار على الشام ورجع قطلوشاه إلى العراق. ثم عاود قازان المسير إلى الشام سنة إثنتين وسبعين وعبر الفرات، ونزل على الرحبة، وكاتب أهل الشام يخادعهم. وقدم قطلوشاه فأغار على القدس، وبها أحياء التركمان فقاتلوه ونالوا منه وتوقفوا هنالك. وسار الناصر من مصر في العساكر ثالث شعبان ولقي قطلوشاه بمرج الصفر فهزمه بعد حرب شديدة، وسار في اتباعهم إلى الليل فاعتصموا بجبل في طريقهم، وبات المسلمون يحرسونهم ثم تسللوا وأخذ القتل منهم كل مأخذ، واعترضهم الوحل من أمامهم من بثوق بثقت لهم من نهر دمشق، فلم ينج منهم أحد وقدم الفل على قازان بنواحي كيلان ومرض هنالك، ومات في ذي الحجة من السنة، ويقال انه مات أسفاً والله تعالى أعلم بالصواب.

(خربندا بن أرغو)

ولما هلك قازان ولي بعده أخوه خربندا وابتدأ أمره بالدخول في دين الإسلام وتسمى بمحمد، وتلقب غياث الدين، وأقر قطلوشاه على نيابته. ثم جهزه لقتال الكرد في جبال كيلان، وقاتلهم فهزموه وقتلوه، وولى مكانه جوبان بن تدوان، وأقام في سلطانه حسن الدين معظماً للخلفاء وكتب أسماءهم على سكته ثم صحب الروافض فساء اعتقاده وحذف ذكر الشيخين من الخطبة، ونقش اسماء الأئمة الإثني عشر على سكته. ثم أنشأ مدينة بين قزوين وهمذان وسماها السلطانية ونزلها واتخذ بها بيتاً لطيفاً بلبن الذهب والفضة وأنشأ بأزائها بستانا جعل فيه أشجار الذهب بثمر اللؤلؤ والفصوص، وأجرى اللبن والعسل أنهاراً وأسكن به الغلمان والجواري تشبيهاً له بالجنة، وأفحش في التعرض لحرمات قومه. ثم سار إلى الشام سنة ثلاث عشرة، وعبر الفرات ونزل الرحبة ورجع. ثم هلك ويقال مات مسموما على يد بعض أمرائه سنة ست عشرة، والله تعالى أعلم.

(أبو سعيد بن خربندا)

ولما هلك خربندا خلف ابنه أبا سعيد طفلا صغيراً ابن ثلاث عشرة سنة فاستصغرة جوبان، وأرسل إلى أزبك ملك الشمال بصراي يستدعيه لملك العراقين فحذره نائبه قطلقمر من ذلك، وبايع جوبان لأبي سعيد بن خربندا على صغره وبدأ أمره بقتل أبي الطيب رشيد الدولة فضل الله بن يحمى الهمذاني المتهم بقتل أبيه فقتله. وكان مقدّماً في العلوم وسريا في الغاية، وله تاريخ جمع فيه أخبار التتر وأنسابهم وقبائلهم وكتبه مشجرا كما في كتابنا هذا. وكان جوبان يومئذ بخراسان يقاتل عليها سيول بن براق بن سنتف بن ماسان بن جفطاي صاحب خوارزم، أغراه أزبك صاحب الشمال بخراسان وأمدّه بعساكره. وكان جوبان موافقاً له فلما هلك خربندا طمع سيول في الاستيلاء على خراسان وكاتب أمراء المغل بدولة أبي سعيد يرغبهم فأطمعوه فسار جوبان إلى الأردن ومعناه بلغتهم العسكر والمخيم وانتهى إلى أبي سعيد خبر أمرائه فقتل منهم أربعين، ورجع جوبان إلى خراسان سنة ثمان عشرة، وقد استولى سيول عليها وعلى طائفة من عراق العجم. وبعث إليه أزبك صاحب الشمال نائبه قطلقتمر مددا في العساكر فلقيهم جوبان، وكانت بينهم حروب. وانتزع جوبان ما ملكه سيول من بلاد خراسان وصالحه على ما بقي ورجع. ثم سار أزبك ملك الشمال إلى مراغة فأغار عليها وغنم ورجع، وأتبعه جوبان في العساكر فلم يدركه وهلك سيول سنة عشرين، وارتجع أبو سعيد ما كان بيده من خراسان. وكان أزبك صاحب الشمال ينقم على أبي سعيد استبداد جوبان عليه وتحكمه في بني جنكز خان، ويحرض أهل النواحي على جوبان وبتوقع له المهالك. وأوصل الملوك في النواحي للمظاهرة على جوبان وسلطانه أبي سعيد، حتى لقد صاهر صاحب مصر على مثل ذلك، و لم يتم الصلح لأبي سعيد معه كما مرّ في أخبارهم وجهز أزبك العساكر سنة عشرين لحرب جوبان فحاصرهم المدني بنهر كوزل الذي في حدود ملكهم فرجعوا. ثم جهز جيشاً آخر مع قطلقتمر نائبه، وكان جوبان نائب أبي سعيد قد ولى على بلاد الروم ابنه دمرداش فزحف سنة إحدى وعشرين إلى بلاد سيس وافتتح منها قلاعاً ثلاثاً وخربها. وبعث إلى الملك الناصر يطلب المظاهرة في جهاد الأرمن بسيس فبعث السلطان عساكره سنة اثنتين وعشرين ومعهم من المتطوعة عدد، وحاصروا سيس. ثم انعقد الصلح سنة ثلاث وعشرين بعدها بين الملك الناصر وبين أبي سعيد

واستقامت الأحوال، وحج أكابر المغل من قرابة أبي سعيد ملك التتر بالعراقين، واتصلت المهاداة بينهما وسار نائبه جوبان سنة خمس وعشرين إلى خراسان في
العساكر، وقد زحف إليه كبك بن سيول فجرت بينهما حروب، وانهزم جوبان، واستولى كبك على خرا سان ثم كبسه جوبان فهزمه وأثخن في عساكره، وغلبه على خراسان فعادت إلى ملكة أبي سعيد. وبينما جوبان مشتغل بتلك الفتنة والحروب في نواحي خراسان إذ بلغه الخبر بأن السلطان أبا سعيد تقبض على ابنه خوافي دمشق، فلما بلغه الخبر بذلك انتقض وزحف إليه أبو سعيد فافترق عنه أصحابه، ولحق بهراة فقتل بها سنة ست وعشرين وإذن أبو سعيد لولده أن ينقلوا شلوه إلى تربته التي بناها بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، ونقلوه فلم يقدر دفنه بها. وتوقف أمير المدينة على إذن السلطان بمصر في ذلك فدفن بالبقيع. ولما بلغ خبر جويان لابنه دمرداش وهو أمير ببلاد الروم انزعج لذلك، ولحى بمصر فيمن معه من الأمراء والعساكر وأقبل السلطان الملك الناصر عليه وأحله محل التكرمة، وجاءت على أثره رسل أبي سعيد يطلب حكم الله فيه لسعيه في الفساد والفتنة. وأجابه السلطان إلى ذلك على أن يفعل مثل ذلك في قراسنقر النازع إليهم من أمراء الشام، فأمضى ذلك فيهما جزاء بما قدمت أيديهما. ثم تأكدت أسباب المواصلة والالتحام بين هذين السلطانين بالإصهار والمهاداة واتصل ذلك، وانقطع زبون العرب وفسادهم بين المملكتين. وهلك السلطان أبو سعيد سنة ست وثلاثين ولم يعقب، ودفن بالسلطانية، واختلف أهل دولته. وانقرض الملك من بني هلاكو وافترقت الأعمال التي كانت في ملكهم وأصبحت طوائف في خراسان وفي عراق العجم وفارس، وفي أذربيجان كله في عراق العرب وفي بلاد الروم كما نذكر ذلك. والله وارث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

خريطة

(اضطراب دولة بني هلاكو وانقسام الملك طوائف في أعمالهم وانفراد الشيخ حسن ببغداد واستيلاء بنيه معها على تور يز وما كان لهم فيها من الملك والدولة وابتدائها ومصايرها)

ولما هلك أبو سعيد بن خربندا ملك التتر بكرسي بغداد سنة ست وثلاثين ولم يعقب، نصب أمراء المغل الوزير غياث الدين، وخلع أورخان. ونصب للملك موسى خان من اسباطهم، وقام بدولته الشيخ حسن بن حسين بن بيبقا بن أملكان، وهو ابن عمه السلطان أبي سعيد سبط أرغو بن أبغا. أنزله أبو سعيد بقلعة كانج من بلاد الروم ووكل به. فلما هلك أبو سعيدإنحل

عقاله وذهب أبو نور بن ماس عفى عليها، وبلغه شأن أهل الدولة ببغداد فلم يرضه ونهض إليها فقتل علي ماسا القائم بالدولة، وعزل موسى خان الملك، ونصب مكانه محمد بن عنبرجي، وهو الذي تقدّم في ملوك التخت صحة نسبه إلى هلاكو. واستولى الشيخ حسن على بغداد وتوريز. ثم سار إليه حسن بن دمرداش من مكان إمارته وإمارة أبيه ببلاد الروم، وغلبه على توريز وقتل سلطانه محمد بن عنبرجي،

ولحق الشيخ حسن ببغداد واستقرّ حسن بن دمرداش في توريز، ونصب للملك أخت السلطان أبي سعيد إسمها صالبيك وزوجها لسليمان خان من أسباط هلاكو، واستقل بملك توريز وكان يعرف بالشيخ حسن الصغير لأنّ صاحب بغداد كان يشاركه في إسمه وهو أسن، وأدخل في نسب الخان فميز بالكبير وميز هذا بالصغير.

ولما استقل حسن الصغير بالملك والخان عنده عجز عنه الشيخ حسن الكبير، وغلبته أمم التركمان بضواحي الموصل إلى سائر بلاد الجزيرة. فيقال أنه أرسل إلى الملك الناصر صاحب مصر بأن يملكه بغداد ويلحق به فيقيم عنده، وطلب منه أن يبعث عساكر ه لذلك على أن يرهن فيهم إبنه فلم يتم ذلك لما إعترضه من الأحوال.

وافترقت مملكة بني هلاكو فكان هو ببغداد والصغير بتوريز ابن المظفر بعراق العجم وفارس والملك حسين بخراسان. واستولى على أكثرها ملك الشمال أزبك صاحب التخت بصراي من بني دوشي خان بن جنكز خان. ثم استوحش الشيخ حسن من سلطانه سليمان خان فقتله واستبد. ثم هلك الشيخ حسن الصغير بن دمرداش بتوريز سنة أربع وأربعين، وملك مكانه أخوه الأشرف. ثم هلك الشيخ حسن الكبير سنة سبع وخمسين، والله تعالى أعلم.

(أويس بن الشيخ حسن)

ولما هلك الشيخ حسن الكبير ببغداد ولي مكانه إبنه أويس، وكان بتوريز الأشرف بن دمرداش فزحف إليه ملك الشمال جاني بك بن أزبك سنة ثمان وخمسين، وملكها من يده. ورجع إلى خراسان بعد أن استخلف عليها إبنه واعتقل في طريقه فكتب أهل الدولة إلى إبنه بردبيك يستحثونه للملك، فأغذ السير إليهم وترك بتوريز عاملها أخبجوخ فسار إليه أويس صاحب بغداد وغله عليها وملكها. ثم إرتجعها منه أخبجوخ وأقام بها فزحف إليه ابن المظفر صاحب أصبهان وملكها. من يده وقتله. وإنتظم في ملكه عراق العجم وتوريز وتستر وخوزستان. ثم سار أويس فانتزعها من يد ابن المظفر واستقرّت في ملكه، ورجع إلى بغداد وجلس على التخت واستفحل أمره. ثم هلك سنة ست وسبعين حسين بن أويس، وقد خلف

بنين خمسة، وهم: الشيخ حسن وحسين والشيخ علي وأبو يزيد وأحمد. وكان وزيره زكريا، وكبير دولته الأمير عادل، كان كافلاً لحسين ومن إقطاعه السلطاني فاجتمع أهل الدولة وبايعوا لإبنه حسين بتوريز وقتلوا الشيخ حسن، وزعموا أنّ أباهم أويسا أوصاهم بقتله. وكان الشيخ علي بن أويس ببغداد فدخل في طاعة أخيه حسين وكان قنبر علي بادك من أمرائهم نائباً بتستر وخوزستان فبايع لحسين وبعث إليه بطاعته، واستولى على دولته بتوريز زكريا وزير أبيه. وكان إسماعيل ابن الوزير زكريا بالشام هارباً أمام أويس فقدم على أبيه زكريا، وبعث به إلى بغداد ليقوم بخدمة الشيخ علي فاستخلصه واستبد عليه، فغلب شجاع بن المظفر على توريز وإرتجعها منه. ولما استقل حسين بتوريز كان بنو المظفر طامعين في ولايتها وقد ملكوها من قبل كما مر، وانتزعها أويس منهم. فلما توفي أويس سار شجاع إلى توريز في عساكره فأجفل عنها حسين بن أويس إلى بغداد، واستولى عليها شجاع، ولحق حسين بأخيه الشيخ علي ووزيره إسماعيل ببغداد مستجيشا بهما فسرّحوا معه العساكر، ورجع ادراجه إليها فهرب عنها شجاع إلى خوزستان وحصن ملكه بها واستقرّ فيها.

(مقتل إسماعيل واستيلاء حسين على بغداد ثم إرتجاعها منه)

كان إسماعيل مستبداً على الشيخ علي ببغداد كما قدمناه فتوثب به جماعة من أهل الدولة منهم: مبارك شاه وقنبر وقرا محمد، فقتلوه وعمه أمير أحمد منتصف إحدى وثمانين واستدعوا قنبر علي بادك من تستر فولوه مكان إسماعيل، واستبدّ على الشيخ علي ببغداد ونكر حسين عليهم ما آتوه، وسار في عساكره من توريز إلى بغداد فارقها الشيخ علي وقنبر على بادك إلى تستر. واستولى حسين على بغداد واستمده فاتهمه بممالأة أخيه الشيخ على ولم يمده، ونهض الشيخ علي من تستر إلى واسط، وجمع العرب من عبادان والجزيرة فأجفل أحمد من واسط إلى بغداد، وسار الشيخ علي في أثره فأجفل حسين إلى توريز واستوسق ملك بغداد للشيخ علي واستقر كل ببلده، والله تعالى أعلم.

(انتقاض أحمد واستيلاؤه على توريز ومقتل حسين)

ولما رجع حسين من بغداد إلى توريز عكف على لذاته وشغل بلهوه واستوحش منه أخوه أحمد فلحق بأردبيل، وبها الشيخ صدر الدين. وأجتمع إليه من العساكر ثلاثة آلاف أو

يزيدون، فسار إلى توريز وطرقها على حين غفلة فملكها. وإختفى حسين أياماً ثم قبض عليه أحمد وقتله، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

(انتقاض عادل ومسيره لقتال أحمد)

كان الأمير عادل والياً على السلطانية وكانت من أقطاعه، فلما بلغه مقتل حسين إمتعض له، وكان عنده أبو يزيد بن أويس فسار إلى شجاع بن المظفر اليزدي صاحب فارس يستصرخانه على الأمير أحمد بن أويس، فبعث العساكر لصريخهما وبرز الأمير أحمد للقائهم. ثم تقاربوا واتفقوا أن يستقرّ أبو يزيد في السلطانية أميراً، ويخرج الأمير عادل عن مملكتهم ويقيم عند شجاع بفارس، واصطلحوا على ذلك. وعاد أبو يزيد إلى السلطانية فأقام بها وأضرّ أمراؤه وخاصته بالرعايا فدسوا بالصريخ إلى أحمد بتوريز فسار في العساكر إليه، وقبض عليه وكحله وتوفي بعد ذلك ببغداد.

(مقتل الشيخ علي واستيلاء أحمد على بغداد)

ولما قتل أحمد أخاه حسيناً جمع الشيخ علي العساكر واستنفر قرا محمد أمير التركمان بالجزيرة، وسار من بغداد يريد توريز فبرز أحمد للقائه واستطرد له لما كان منه، فبالغ في إتباعه إلى أن خفت عساكره فكّر مستميتاً. وكانت جولة أصيب فيها الشيخ علي بسهم فمات، وأسر قرا محمد فقتل. ورجع أحمد إلى توريز واستوسق له ملكها. ونهض إليه عادل بن السلطان أبي سعيد يروم فرصة فيه فهزمه. ثم سار أحمد إلى بغداد وقد كان استبدّ بها بعد مهلك الشيخ علي خواجا عبد الملك من صنائعهم بدعوة أحمد. ثم قام الأمير عادل في السلطانية بدعوة أبي يزيد وبعث إلى بغداد قائداً إسمه برسق ليقيم بها دعوته فأطاعه عبد الملك وأدخله إلى بغداد. ثم قتله برسق ثاني يوم دخوله واضطرب البلد شهرا. ثم وصل أحمد من توريز وخرج برسق القائد لمدافعته فانهزم، وجيء به إلى أحمد أسيراً فحبسه ثم قتله، وقتل عادل بعد ذلك وكفى أحمد شره. وانتظمت في ملكه توريز وبغداد

وتستر والسلطانية وما إليها، واستوسق أمره فيها. ثم انتقض عليه أهل دولته سنة ست وثمانين، وسار بعضهم إلى تمر سلطان بني جفطاي بعد أن خرج من وراء النهر بملكه يومئذ، واستولى على خراسان فاستصرخه على أحمد فأجاب صريخه، وبعث معه العساكر إلى توريز فأجفل عنها أحمد إلى بغداد واستبد بها ذلك الثائر ورجع تمر إلى مملكته الأولى. وطمع طغطمش ملك الشمال من بني دوشي خان في انتزاع توريز من يد ذلك الثائر فسار إليها وملكها، وزحف تمر في عساكره سنة سبع وثمانين إلى أصبهان، وبعث العساكر إلى توريز فاستباحها وخربها واستولى على تستر والسلطانية، وانتطمهما في أعماله وانفرد أحمد ببغداد وأقام بها.

(استيلاء تمرو على بغداد ولحاق أحمد بالشام)

كان تمر سلطان المغل بعد أن استولى على توريز خرج عليه خارج من قومه في بلاده يعرف بقمر الدين، فجاءه الخبر عنه، وأن طغطمش صاحب كرسي صراي في الشمال أمده بأمواله وعساكره فكّر راجعاً من أصبهان إلى بلاده، وعميت أنباؤه إلى سنة خمس وسبعين. ثم جاءت الأخبار بأنه غلب قمر الدين الخارج عليه ومحا أثر فساده. ثم استولى على كرسّي صراي وأعمالها. ثم خطا إلى أصبهان وعراق العجم والريّ وفارس وكرمان فملك جميعها من بني المظفر اليزدي، بعد حروب هلك فيها ملوكهم وبادت جموعهم. وشد أحمد ببغداد عزائمه وجمع عساكره وأخذ في الاستعداد؛ ثم عدل إلى مصانعته ومهاداته فلم يغن ذلك عنه، وما زال تمر يخادعه بالملاطفة والمراسلة إلى أن فتر عزمه وافترقت عساكره فنهض إليه يغذ السير في غفلة منه حتى إنتهى إلى دجلة، وسبق النذير إلى أحمد فأسرى بغلس ليله، وحمل ما أقلته الرواحل من أمواله وذخائره وخرق سفن دجلة، ومرّ بنهر الحلّة فقطعه، وصبح مشهد علي. ووافى تمر وعساكره دجلة في حادي عشر شوّال سنة خمس وتسعين، ولم يجد السفن فاقتحم بعساكره النهر ودخل بغداد واستولى عليها وبعث العساكر في اتباع أحمد ؛ فساروا إلى الحلة وقد قطع جسرها فخاضوا النهر عندها، وأدركوا أحمد بمشهد علي واستولوا على أثقاله ورواحله فكر عليهم في جموعه واستماتوا. وقتل الأمير الذي كان في اتباعه ورجع بقية التتر عنهم، ونجا أحمد إلى الرحبة من تخوم الشام فأراح بها، وطالع نائبها السلطان بأمره فسرح بعض خواصه لتلقيه بالنفقات والأزواد، وليستقدمه فقدم به إلى حلب وأراح بها. وطرقه مرض أبطأ به عن مصر وجاءت الأخبار بأن تمر عاث في مخلفه واستصفى ذخائره واستوعب موجود أهل بغداد المصادرات لأغنيائهم وفقرائهم حتى مستهم الحاجة، وأقفرت جوانب بغداد من العيث، ثم قدم أحمد بن أوشى على السلطان بمصر في شهر ربيع سنة ست وتسعين مستصرخاً به على طلب ملكه والانتقام من عدّوه فأجاب السلطان صريخه، ونادى في عسكره بالتجهز إلى الشام . وقد كان تمر بعد ما استولى على بغداد زحف في عساكره إلى تكريت مأوى المخالفين وعش الحرابة ورصد السابلة، وأناخ عليها بجموعه اربعين يوماً فحاصرها حتى نزلوا على حكمه، وقتل من قتل منهم. ثم خربها وأقفرها وانتشرت عساكره في ديار بكر إلى الرها، وقفوا عليها ساعة من نهار فملكوها وانتسفوا نعمها، وبلغ الخبر إلى السلطان فخيم بالزيدانية أياماً أزاح فيها علل عساكره وافاض العطاء في مماليكه، واستوعب الحشد من سائر أصناف الجند واستخلف على القاهرة النائب سودون . وارتحل إلى الشام

على التعبية ومعه أحمد بن أوشى بعد أن كفاه مهمه، وسرب النفقات في تابعه وجنده، ودخل دمشق آخر جمادى الأولى وقد كان أوعز إلى جلبان صاحب حلب بالخروج إلى الفرات واستنفار العرب والتركمان للإقامة هناك رصدا للعدو. فلما إلى دمشق وفد عليه جلبان وطالعه بمهماته وما عنده من أخبار القوم، ورجع لإنفاذ أوامره والفصل فيما يطالعه فيه. وبعث السلطان على أثره العساكر مددا له كمشيقا الأتابك وتكلتمش أمير سلاح وأحمد بن بيبقا . وكان العدو تمر قد شغل بحصار ماردين. فأقام عليها أشهرا وملكها. وعاثت عساكره فيها واكتسحت نواحيها، وامتنعت عليه قلعتها فارتحل عنها إلى ناحية بلاد الروم ومرّ بقلاع الأكراد فأغارت عساكره عليها وأكتسحت، نواحيها ، والسلطان لهذا العهد وهو شعبان سنة ستمائة وتسعين مقيم بدمشق مستجمع لنطاحه والوثبة به متى استقبل جهته . والله سبحاه وتعالى ولي التوفيق. بمنه وكرمه.

الشيخ علي أحمد بن أويس بن الشيخ حسن بن اقبغا بن ايلكان سبط ارغربن ابغا

الشيخ حسن أبو زيد.

(الخبر عن بني المظفر اليزدي المتغلبين علي اصفهان وفالس بعد انقراض دولة بني هلاكو وابتداء أمولهم ومصايرها)

كان أحمك الفرس أهل ويزد وكان شجاعاً واتصل بالدولة أيام أبي سعيد فولوه حفظ السابلة بفارس، وكان منها مبدأ أمرهم. وذلك أنه لما توفي أبو سعيد سنة ست وثلاثين وسبعمائة ولم يعقب اضطربت الدولة ومرج أمر النماس، وافترق الملك طوائف وكلب أزبك صاحب الشمال على طائفة من خراسان فملكها. واستبد بهراة الملك حسين واللان محمود فرشحه من أهل دولة السلطان أبي سعيد عاملا على أصفهان وفارس فاستبدّ بأمره واتخذ الكرسي بشيراز إلى أن هلك، وولي بعده ابنه أبو اسحق امير شيخ سالكاً سبيله في الاستبداد.

وكانت له آثار جميلة وله صنف الشيخ عضد الدين كتاب الموافف، والشيخ عماد الدين الكاشي شرح كتاب المفتاح وسموهما باسمه. وتغلب أيضاً محمد بن المظفر على كرمان ونواحيها فصارت بيده. وطمع في الاستيلاء على فارس. وكان أبو اسحق أمير شيخ قد قتل شريفا من أعيان شيراز فنادى بالنكير عليه ليتوصل إلى غرض انتزاع الملك من يده. وسار في جموعه إلى شيراز، ومال إليه أهل البلد لنفرتهم عن أمير شيخ لفعلته فيهم فأمكنوه من البلد وملكها، واستولى على كرسيها. وهرب أبو اسحق أمير شيخ إلى أصفهان وأتبعه ففرّ منه أيضاً وملك اصفهان، وبث الطلب في الجها حتى قبض عليه وقتله قصاصاً بالشريف الذي فتله بشيراز، وكان له من الولد أربعة: شاه ولي ومحمود وشجاع وأحمد. وتوفي شاه ولي أبيه وترك ابنيه منصورا ويحمى، وملك ابنه محمود اصفهان وابنه شجاع شيراز وكرمان واستبد عليه محمود وشجاع وخلفاه في ملكه سنة ستين وكحلاه وتولى ذلك شجاع، وسار إليه محمود من أصفهان بعد أن استجاش بأويس بن حسن الكبير فأمده بالعساكر سنة خمس وستين، وملك شيراز. ولحق شجاع بكرمان من أعماله وأقام بها واختلف عليه عماله، ثم استقاموا على طاعته. ثم جمع بعد ثلاث سنين ورجع إلى شيراز، ففارقها أخوه محمد إلى اصفهان، وأقام بها إلى أن هلك سنة ست وسبعين فاستضافها شجاع إلى أعماله، وأقطعها لابنه زين العابدين وزوجه بابنه أويس

التي كانت تحت محمود. وولى على مردى ابن أخيه شاه ولي. ثم هلك شجاع سنة سبع وثمانين واستقل ابنه زين العابدين بأصفهان وخلفه في شيراز وفارس منصور ابن أخيه شاه ولي. وكان عادل كبير دولة بني أوشى بالسلطانية كما مر، ولحق به منصور بن شاه ولي هارباً من شيراز أمام عمه زين العابدين فحبس، ثم فر من محبسه ولحق بأحمد بن أوشى مستصرخا به فصارخه وأنزله بتستر من أعماله. ثم سار منها إلى شيراز ففارقها عمه زين

العابدين بى أصفهان، وأخوه يحيى بيزد وعمهما أحمد بن محمد المظفر بكرمان. ثم زحف تمر سلطان التتر من بني جفطاي بن جنكزخان سنة ثمان وثمانين، وملك توريز وخربها كما مر في أخباره فأطاعه يحمى صاحب يزد، وأحمد صاحب كرمان وهرب زين العابدين من أصفهان وملكها عليه تمر فلحق بشيراز، ورجع تمر إلى بلاده فيما وراء النهر وعميت أنباؤه إلى سنة خمس وتسعين، فزحف إلى بلاد فارس. وجمع منصور بن شاه ولي العساكر لحربه فخادعه تمر بولايته وانكفأ راجعا إلى هراة فافترقت عساكر منصور بن شاه ولي، وجاءت عيون تمر بخبر افتراقها إليه فأغذ السير، وكبس منصور بن شاه ولي بظاهر شيراز وهو في قل من العساكر لا يجاوزون ألفين، فهرب الكثير من أصحابه إلى تمر واستمات هو والباقون وقاتلوا أشد قتال. وفقد هو في المعركة فلم يوقف له على خبر، وملك تمر شيراز واستضافها إلى أصفهان، وولى عليها من قبله. وقتل أحمد بن محمد صاحب كرمان وابنيه وولى على كرمان من قبله، وقتل يحيى بن شاه ولي صاحب يزد وابنيه، وولى على يزد من قبله واستلحم بني المظفر واستصفى زين العابدين بن شجاع بن محمود وهرب ابنه فلحق بخاله أحمد بن أوشى وهو لهذا العهد مقيم معه بمصر. والله وارث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

(الخبر عن بني ارتنا ملوك بلاد الروم من المغل بعد بني هلاكو والالمام بمبادئ أمورهم ومصايرهم)

قد سبق لنا أنّ هذه المملكة كانت لبني قليج أرسلان من ملوك السلجوقية، وهم الذين أقاموا فيها دعوة الإسلام وانتزعوها من يد ملوك الروم أهل قسطنطينية واستضافوا إليها كثيراً من أعمال الأرض ومن ديار بكر فانفسحت أعمالهم وعظمت ممالكهم وكان كرسيهم بقونية ومن أعمالهم أقصر وأنْطاكِية والعلايا وطغرل ودمرلو وقراحصار. ومن ممالكهم اذربيجان ومن أعمالها اقشهر وكامخ، وقلعة كعونية ومن ممالكهم قيسارية، ومن أعمالها نكرة وعدا قلية ومنال. ومن ممالكهم أيضا سيواس وأعمالها ملكوها من يد الوانشمند كما مر في أخبارهم، ومن أعمالها: نكسار وأقاسية وتوقات وقمنات وكنكرة كورية وسامسون وصغوى وكسحونية وطرخلوا وبرلوا ومما استضافوه من بلاد الأرمن خلاط وأرمينية الكبرى واني وسلطان وأرجيس وأعمالها. ومن ديار بكر: خرت برت وملطية وسميساط ومسارة فكانت لهم هذه الأعمال وما يتصل بها من الشمال إلى مدينة بورصة، ثم إلى خليج القسطنطينية. واستفحل ملكهم فيها وعظمت دولتهم. ثم طرقها الهرم والفشل كما يطرق الدول. ولما استولى التتر على ممالك الإسلام، وورثوا الدول في سائر النواحي، واستقرّ التخت الأعظم لمنكوفان أخي هلاكو وجهز عساكر المغل سنة أربع وخمسين وستمائة إلى هذه البلاد، وعليهم بيكو من أكابر أمرائهم. وعلى بلاد الروم يومئذ غياث الدين كنخسرو بن علاء الدين كيقباد وهو الثاني عشر من

ملوكهم، من ولد قطلمش فنزلوا على أرزن الروم ، كربها سنان الدين ياقوت مولى علاء الدين فملكوها بعد حصار شهرين واستباحوها. وتقدّموا أمامهم، ولقيهم غياث الدين بالصحراء على اقشهر وزنجان، وانهزم غياث الله-ش واحتمل ذخيرته وعياله، ولحق بقونية، واستولى بيكو على مخلفه. ثم سار إلى قيسارية. فملكوها. وهلك غياث الدين أثر ذلك، وملك بعده ابنه علاء الدين كيقباد، وأشرك معه أخويه في أمره وهما: عز الدين كيكاوس وركن الدين قليج أرسلان وعاثت عساكر التتر في البلاد فسار علاء الدين كيقباد إلى منكوفان صاحب التخت، واختلف اخواه من بعده وغلب عز الدين كيكاوس واعتقل أخاه ركن الدين بقونية، وبعث في أثر أخيه علاء الدين جمن يستفسد له منكوفان فلم يحصل من ذلك على طائل وهلك علاء الدين في طريقه، وكتب منكوفان بتشريك الملك بين عز الدين وركن الدين والبلاد بينهما مقسومة فلعز الدين من سيواس إلى تخوم القسطنطينية ولركن الدين من سيواس إلى أرزن الروم متصلا من جهة الشرق ببلاد التتر. وأفرج عز الدين عن ركن الدين، واستقر في طاعة التتر. وسار بيكوفي بلاد الروم قبل أن يرجع عز الدين فلقيه أرسلان دغمش من أمراء عزالدين فهزمه بيكو إلى قونية، فأجفل عنها عز الدين إلى العلايا، وحاصرها بيكو فملكها على يد خطيبها وخرج إلى بيكو فأسلمت زوجته على يده ومنع التتر من دخولها إلاّ وحدانا، وأن لا يتعرّضوا لأحد واستقر عز الدين وركن الدين في طاعة التتر ولهما اسم الملك، والحكم للشحنة بيكو ولما زحف هلاكو إلى بغداد سنة ست وخمسين استنفر بيكو وعساكره فامتنع واعتذر بمن في طريقه من طوائف الأكراد الفراسيلية، والباروقية فبعث إليه هلاكو العساكر، ومرّوا بأذربيجان وقد أجفل أهلها وهم قوم من الأكراد فملكوها. وساروا مع بيكو إلى هلاكو وحضروا معه فتح بغداد وما بعدها. ولما نزل هلاكو حلب استدعى عز الدين وركن الدين فحضرا معه فتحها، وحضر معهما وزيرهما معين الدين سليمان البرواناة واستحسنه هلاكو، وتقم إلى ركن الدين بأن يكون السفير إليه عنه فلم يزل على ذلك. ثم هلك بيكو مقدم التتر ببلاد الروم، وولى مكانه صمقار من أمراء المغل ثم اختلف الأميران عز الدين وغياث الدين سنة تسع وخمسين، واستولى عز الدين على أعمال ركن الدين فسار ومعه البرواناة إلى هلاكو صريخاً فأمده بالعساكر وسار إلى عز الدين فهزمهم واستمدّه ثانياً فأمدّه هلاكو وانهزم عز الدين فلحق بالقسطنطينية وأقام عند صاحبها لشكري، واستولى ركن الدين قليج أرسلان على بلاد الروم، وامتنع التركمان الذين بتلك الأعمال بأطراف الأعمال والثغور والسواحل. وطلبوا الولاية من هلاكو فولاهم وأعطاهم الله الملك فهم الملوك بها من يومئذ كما يأتي في أخبارهم إن شاء الله تعالى وأقام عز الدين بالقسطنطينية وأراد التوثب بصاحبها لشكري ووشى به أخواله من الروم فاعتقله لشكري في بعض قلاعه، ثم هلك. ويقال ان ملك الشمال منكوتمر صاحب التخت بصراي حدثت بينه وبين صاحب القسطنطينية فتنة فغزاه واكتسح بلاده ومرّ بالقلعة التي بها عز الدين معتقلاً فاحتمله معه إلى صراي، وهلك عنده ولحق ابنه مسعود بعد ذلك بابغا بن هلاكو فأكرمه وولاه على بعض القلاع ببلاد الروم ثم إن معين الدين سليمان البرواناة ارتاب بركن الدين فقتله غيلة سنة ست وستين، ونصب ابنه كنخسرو للملك، ولقبه غياث الدين، وكان متغلباً عليه مقيماً مع ذلك على طاعة التتر وربما كان

يستوحش منهم فيكاتب سلطان مصر بالدخول في طاعته، واطلع أبغا على كتابه بذلك إلى الظاهر بيبرس فنكره وهلك صمغار الشحنة فبعث

أبغا مكانه أميرين من أمراء المغل وهما تدوان وتوقر فتقدما سنة خمس وسبعين إلى بلاد الشام ونزلا بأبلستين ومعهما غياث الدين كنخسرو، وكافله البرواناة في العساكر. وسار الظاهر من دمشق فلقيهم بأبلستين وقد قعد البرواناة لما كان تواعد مع الظاهر عليه. وهزمهما الظاهر جميعا وقتل الأميرين تداون وتوقر في جماعة من التتر. ونجا البرواناة وسلطانه فلم يصب منهم أحد، واستراب السلطان بالبرواناة لذلك. وملك الظاهر قيسارية كرسي بلاد الروم وعاد إلى مصر. وجاء أبغا ووقف على مكان الملحمة، ورأى مصارع قومه فصدّق الريبة بممالأة الظاهر والبرواناة وأصحابه فاكتسح البلاد وخربها، ورجع ثم استدعى البرواناة إلى معسكره فقتله وأقام مكانه في كفالة كنخسرو أخاه عز الدين محمدا. ولم يزل غياث الدين والياً على بلاد الروم، والشحنة من المغل حاكم في البلاد إلى أن ولي تكدار بن هلاكو وكان أخوه قنقرطاي مقيماً ببلاد الروم مع صمغار فبعث عنه، وامتنع من الوصول فأوعز إلى غياث الدين واعتقله بارزنكان وولى على بلاد الروم على الشحنة أولاكو من أمراء المغل، وذلك سنة إحدى وثمانين. ويقال أنّ أرغو بن أبغا هو الذي ولّ أولاكو شحنة ببلاد الروم بعد صمغار، وأنّ تدوان وتوقر إنما بعث بهما أبغا لقتال الظاهر ولم يرسلهما شحنة ثم أقام مسعود بن عز الدين كيكاوس في سلطانه ببلاد الروم والحكم لشحنة التتر وليس له من الملك إلا اسمه إلى أن افترق واضمحلّ أمره. وبقي أمراء المغل يتعاقبون في الشحنة ببلاد الروم، وكان منهم أوّل المائة الثامنة الأمير علي وهو الذي قتل ملك الأرمن هيشوش بن ليعون صاحب سيس واستعدى أخوه عليه بخربندا فأعداه وقتله كما مرّ في أخبار الأرمن في دولة الترك. وكان منهم سنة عشرين وسبعمائة الأمير ألبغا. ثم ولى السلطان أبو سعيد على بلاد الروم دمرداش بن جوبان سنة ثلاث وعشرين واستفحل بها ملكه، وجاهد الأرمن بسيس. واستمدّ الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر عليهم فأمدّه بالعساكر وافتتحوا إياس عنوة ورجعوا ثم نكب السلطان أبو سعيد نائبه جوبان بن بروان وقتله كما مرّ في أخبارهم. وبلغ الخبر إلى دمرداش ابنه ببلاد الروم فاضطرب لذلك، ولحق بمصر في عساكره وأمرائه فأقبل السلطان عليه وتلقاه بالتكرمة والإيثار وجاءت رسل أبي سعيد في اتباعه تطلب حكم الله تعالى فيه بسعيه في الفساد وإثارة الفتنة، على أن يفعل مثل ذلك في قراسنقر النازع إليهم من أمراء الشام فقتلوه، وقتل دمرداش بمصر وذهبا بما كسبا كان دمرداش لما هرب من بلاد الروم إلى مصر ترك من امرائه أرتنا، وكان يسمى النوير اسم أبناء الملوك فبعث إلى أبي سعيد بطاعته فولاه على البلاد فملكها. ونزل سيواس واتخذها كرسي ملكه. ثم استبدّ حسن بن دمرداش بتوريز فبايع له ارتنا. ثم انتقض وكاتب الملك الناصر

صاحب مصر ودخل في طاعته، وبعث إليه بالولاية والخلع فجمع له حسن بن دمرداش وسار إليه بسيواس. وسار أرتنا للقائه بصحراء كسينوك وهزمه، وأسر جماعة من أمرائه، وذلك سنة أربع وأربعين واستفحل ملك أرتنا من يومئذ، وعجز جوبان وحسن بن دمرداش عن طلبه إلى أن توفي سنة ثلاث وخمسين. وأما بنوه من

بعده فلا أدري من ملك منهم ولا ترتيب ولايتهم، إلا أنه وقع في أخبار الترك ان السلطان أوعز سنة ست وستين إلى نائب حلب أن يسير في العساكر لانجاد محمد بك بن أرتنا فمضوا وظفروا. وما زال أرتنا وبنوه مستبدين ببلاد الروم وأعمالها. واقتطع لهم التركمان منها بلاد الأرمن، سيس وما إليها، فاستولى عليها بنو دلقادر على خلافة، وزحفوا إليه، وهي في أيديهم لهذا العهد. ولما خالف سعاروس من أمراء الترك سنة إثنتين وخمسين ظاهره قراجا بن دلقادر على خلافه، وزحف إليه السلطان من مصر فافترقت جموعه واتبعته العساكر فقتل وبعث السلطان سنة أربع وخمسين عسكرا في طلب قراجا فساروا إلى البلستين وأجفل عنها نائبها فنهبوا أحياءه، ولحق هو بابن أرتنا بسيواس فقبض عليه وبعث به إلى السلطان بمصر فقتله. واقتطع التركمان ناحية الشمال من أعمالهم إلى القسطنطينية وأثخنوا في أمم النصرانية وراءهم، واستولوا على كثير من تلك الممالك وراء القسطنطينية، وأميرهم لهذا العهد في عداد الملوك الأعاظم ودولتهم ناشئة متجددة وكان صبيا بسيواس منذ أعوام الثمانين، وهو من أعقاب بني أرتنا فاستبدّ عليه قاضي البلد لما كان كافلا له بوصية أبيه. ثم قتل القاضي ذلك الصبي أعوام اثنتين وتسعين واستبد بذلك الملك. وكانت هناك أحياء التتر يناهزون ثلاثين ألفا أو نحوها مقيمين بتلك النواحى. ملكهم دمرداش بن جوبان ومن قبله من أمراء المغل، فكانوا شيعة لبني أرتنا وعصابة لهم، وهم الذين استنجد بهم القاضي حين وجهت إليه عساكر مصر في طلب منطاش الثائر الذي فر، ثم لحق به، وسارت عساكر مصر في طلبه سنة تسع وثمانين ؛ فاستنجد القاضي بأحياء التتر هؤلاء، وجاؤوا لإنجاده. ورجعت عساكر مصر عنهم كما تقدم ذلك كله في أخبار الترك، والحال على ذلك لهذا العهد، والله مصير الأمور بحكمته وهو على كل شيء قدير.

ج ب ا

إبراهيم بن محمد بك بن أرتنا النوير عامل أبي سعيد على بلاد الروم.

(الخبر عن الدولة المستجدة للتركمان في شمال بلاد الروم إلى خليج القسطنطينية وما وراءه لبني عثمان وإخوته)

قد تقدم لنا في أنساب العالم ذكر هؤلاء التركمان وإنهم من ولد يافث بن نوح، أي من توغرما بن،سمر بن يافث، كذا وقع في التوراة، وذكر الفيومى من علماء بني إسرائيل ونسابتهم أن توغرما هم التركمان إخوة الترك، ومواطنهم فيما وجدناه من بحر طبرستان، ويسمى بحر الخزر إلى جوفي القسطنطينية، وشرقها إلى ديار بكر. وبعد إنقراض العرب والأرمن ملكوا نواحي الفرات من أوله إلى مصبه في دجلة، وهم شعوب متفرقون وأحياء مختلفون لا يحصرهم الضبط ولا يحويهم العد. وكان منهم ببلاد الروم جموع مستكثرة، كان ملوكها يستكثرون بهم في حروبهم مع أعدائهم. وكان كبيرهم فيها لعهد المائة الرابعة جق، وكانت أحياؤهم متوافرة وأعدادهم متكاثرة. ولما ملك سليمان بن قطلمش قونية بعد أبيه وفتح أنْطاكِية سنة سبع وسبعين من يد الروم، طالبه مسلم بن قريش بما كان له على الروم فيها من الجزية، فأنف من ذلك، وحدثت بينهما الفتنة. وجمع قريش العرب والتركمان مع أميرهم جق، وسار إلى حرب سليمان بأنْطاكِية فلما التقيا مال التركمان إلى سليمان لعصبية الترك، وإنهزم مسلم بن قريش وقتل.وأقام أولئك التركمان ببلاد الروم أيام بني قطلمش

موطنين بالجبال والسواحل. ولما ملك التتر ببلاد الروم وأبقوا على بني قطلمش ملكهم، وولوا ركن الدولة قليج أرسلان بعد أن غلب أخوه عز الدين كيكاوس وهرب إلى القسطنطينية. وكان أمراء هؤلاء التركمان يومئذ محمد بك وأخاه إلياس بك وصهره علي بك وقريبه سونج، والظاهر أنهم من بني جق فانتقضوا على ركن الدولة، وبعثوا إلى هلاكو بطاعتهم وتقرير الأثر عليهم، وأن يبعث إليهم باللواء على العادة، وأن يبعث شحنة من التتر يختص بهم فاسعفهم بذلك وقلدهم وهم من يومئذ ملوك بها.ثم أرسل هلاكو إلى محمد بك الأمير يستدعيه فامتنع من المسير إليه، وإعتذر فأوعز هلاكو إلى الشحنة الذي ببلاد الروم، وإلى السلطان قليج أرسلان بمجاربته فساروا إليه وحاربوه، ونزع عنه صهره علي بك. ووفد على هلاكو هدمه مكان محمد صهره. ولقي محمد العساكر فانهزم وأبعد في المفر. ثم جاء إلى قليج أرسلان مستأمنا فأمنه، وسار معه إلى قونية فقتله واستقر صهره علي بك أميراً على التركمان، وفتحت عساكر التتر نواحي بلاد الروم إلى اسطنبول.

والظاهر أن بني عثمان ملوكهم لهذا العهد من أعقاب علي بك أو أقاربه، يشهد بذلك إتصال هذه الإمارة فيهم مدة هذه المائة سنة.ولما اضمحل أمر التتر من بلاد الروم، واستقر بنو أرتنا بسيواس وأعمالها غلب هؤلاء التركمان على ما وراء الدروب إلى خليج القسطنطينية، ونزل ملكهم مدينة بورصة من تلك الناحية، وكان يسمى أورخان بن عثمان جق فاتخذها داراً لملكهم، ولم يفارق الخيام إلى القصور، وإنما يترل بخيامه في بسيطها وضواحيها وولي بعده ابنه مراد بك،وتوغل في بلاد النصرانية وراء الخليج، وافتتح بلادهم إلى قريب من خليج البنادقة وجبال جنوة، وصار أكثرهم ذمة ورعايا. وعاث في بلاد الصقالبة بما لم يعهد لمن قبله، وأحاط بالقسطنطينية من جميع نواحيها حتى اعتقل ملكها من أعقاب لشكري. وطلب منه الذمة وأعطاه الجزية، ولم يزل على جهاد أمم النصرانية وراءه إلى أن قتله الصقالبة في حروبه معهم سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، وولى ابنه أبو يزيد وهو ملكهم لهذا العهد.

وقد استفحل ملكهم واستجدت بالعز دولتهم، وكان قد غلب على قطعة من بلاد الروم ما بين سيواس وبلادهم من أنْطاكِية والعلايا بحيال البحر إلى قونية بنو قرمان من أمراء التركمان، وهم الذين كانوا في حدود أرمينية، وجدهم هو الذي هزم أوشين بن ليعون ملك سيس من الأرمن سنة عشرين وسبعمائة. ثم كان بين بني عثمان جق وبين بني قرمان أتصال ومصاهرة، وكان ابن قرمان لهذا العهد صهر السلطان مراد بك على أخته فغلبه السلطان مراد بك على ما بيده، ودخل ابن قرمون صاحب العلايا في طاعته، بل والتركمان كلهم. وفتح سائر البلاد، ولم يبق له إلا سيواس بلد بني أرتنا في استبداد القاضي الذي عليها وما أدري ما الله صانع بعد ظهور هذا الملك تمر المتغلب على ملك المغل من بني جفطاي بن جنكزخان.وملك ابن عثمان لهذا العهد مستفحل بتلك الناحية الشمالية ومتسع في أقطارها، ومرهوب عند أمم النصرانية هنالك، ودولته مستجدة عزيزة على تلك الأمم والأحياء والله غالب على أمره.وإلى هنا إنتهت أخبار الطبقة الثالثة من العرب ودولهم، وهم الأمم التابعة للعرب بما تضمنه من الدول الإسلامية شرقاً وغرباً لهم ولمن تبعهم من العجم، فلنرجع الآن إلى ذكر الطبقة الرابعة من العرب وهم المستعجمة أهل الجيل الناشيء بعد إنقراض اللسان المضري ودروسه.

ونذكر أخبارهم ثم نخرج إلى الكتاب الثالث في أخبار البربر ودولهم فنفرغ بفراغها من الكتاب إن شاء الله تعالى، والله ولي العون والتوفيق بمنه وكرمه.

تم بحمد الله

المجلد السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الأولى

الطبقة الرابعة من العرب المستعجمة أهل الجيل الناشيء

لهذا العهد من بقية أهل الدولة الإسلامية من العرب

لما استقلّت مُضر وفرسانها وأنصارها من اليمن بالدولة الإسلامية، فيمن تبع دينهم من إخوانهم ربيعة ومن وافقهم من الأحياء اليمنيّة، وغلبوا المِلَل والأمم على أمورهم ، وانتزعوا الأمصار من أيديهم ، وانقلبت أحوالهم من خشونة البداوة وسذاجة الخلافة إلى عزّ الملك وترف الحضارة، ففارقوا الحِلَل وافترقوا على الثغور البعيدة والأقطار البائنة عن ممالك الإسلام، فنزلوا بها حامية ومرابطين عُصَباً وفُرادى. وتناقل الملك من عنصر إلى عنصر ومن بيت إلى بيت، واستفحل ملكهم في دولة بني أُميّة وبني العبّاس من بعدهم بالعراق، ثم دولة بني أُميّة الأخرى بالأندلس، وبلغوا من الترف والبذخ ما لم تبلغه دولة من دول العرب والعجم من قبلهم.

فانقسموا في الدنيا ونبتت أجيالهم في ماء النعيم، واستأثروا مهاد الدِعَة واستطابوا خفض العيش، وطال نومهم في ظلّ الغرف والسلم، حتى ألفوا الحضارة ونسوا عهد البادية وانفلتت من أيديهم المَلَكَةُ التي نالوا بها الملك، وغلبوا الأمم من خشونة الدين، وبداوة الأخلاق، ومضاء المضرب.

فاستوت الحامية والرعية لولا الثقافة، وتشابه الجند والحضر إلا في الشارة. وأنف السلطان من المساهمة في المجد والمشاركة في النسب فجدعوا أنوف المتطاولين إليه من أعياصهم وعشائرهم ووجوه قبائلهم، وغضّوا من عنان طموحهم، واتخذوا البطانة مقرّهم من موالي الأعجام وصنائع الدولة، حتى كثروا بهم قبيلتهم من العرب الذين أقاموا الدولة، ونصروا الملّة، ودعموا الخلافة، وأذاقوهم وبال الخِلابة من القهر، وساموهم خطة الخسف والذلّ، فأنسوهم ذكر المجد وحلاوة العز، وسلبوهم نصرة العصبية حتى صاروا أُجراء على الحامية، وخُوَلاً لمن استعبدهم من الخاصة وأوزاعا متفرقين بين الأمة، وصيروا لغيرهم الحل والعقد والإبرام والنقض، من الموالي والصنائع فداخلتهم أريحية الغز، وحدثوا أنفسهم بالملك، فجحدوا الخلفاء ولعدوا بدست الأمر والنهي.

واندرج العرب أهل الحماية في القهر، واختلطوا بالهَمَج، ولم يراجعوا أحوال البداوة لبعدها، ولا تذكّروا عهد الأنساب لدروسها. فدثروا وتلاشوا شأن من قبلهم وبعدهم. سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا.

(وكان المولدون) لتمهيد قواعد الأمر، وبناء أساسه من أول الإسلام والدين والخلافة من بعده، والملك، قبائل من العرب موفورة العدد، عزيزة الأحياء. فنصروا الإيمان والملة، ووطدوا أكناف الخلافة، وفتحوا الأمصار والأقاليم، وغلبوا عليها الأمم والدول. أما من مُضَر: فقريش وكنانة وخزاعة وبنو أسد وهذيل وتميم وغطفان وسليم وهوازن، وبطونها من ثقيف وسعد بن بكر كأكامر بن صعصعة ومن إليهم من الشعوب والبطون

زالأفخاذ والعشائر والخلفاء والموالي. وأما من ربيعة فبنو تغلب بن وائل وبنو بكر بن وائل وكافة شعوبهم من بني شكر وبني حنيفة وبني عجل وبني ذهل وبني شيبان وتيم الله. ثم بنو النمرمن قاسط، ثم عبد القيس ومن إليهم. وأما من اليمنية ثم من كهلان بن سبأ منهم: فأنصار الله الخزرج والأوس أبناء قيلة من شعوب غسان وسائر قبائل الازد. ثم همدان وخثعم وبجيلة ثم مذحج وكافة بطونها من عبس ومراد وزبيد والنّخع والاشعريّين وبني الحرث بن كعب. ثم لحى وبطونها ولخم وبطونها ثم كندة وملوكها.

وأمّا من حميربن سبأ فقضاعة وجميع بطونها ومن إلى هذه القبائل والأفخاذ والعشائر والأحلاف. هؤلاء كلهم أنفقتهم الدولة الإسلامية العربية، فنبا منهم الثغور القصية، وأكلتهم الأقطار المتباعدة، واستلحمتهم الوقائع المذكورة، فلم يبق منهم حي يطرق ولا حلة تنجع ولا عشيريعرف، ولا قليل يذكر ولا عاقلة تحمل جناية، ولا عصابة لصريخ إلا سمع من ذكر أسمائهم، في أنساب أعقاب متفرقين في الأمصار ألتى الخموها بجملتهم، فتقطعوا في البلاد؟ ودخلوا بين الناس فامتهنوا واستهينوا وأصبحوا خولا للأمراء، ريباً للذائد وعالة على الحرف. وقام بالإسلام والملة غيرهم، وصار الملك والأمر في أيدي سواهم، وجلبت بضائع العلوم والصنائع إلى غير سوقهم، فغلب أعاجم المشرق من الديلم والسلجوقية والأكراد والغز والترك على ملكه ودولته، فلم يزل مناقلة فيهم إلى هذا العهد. وغلب أعاجم المغرب من زناتة والبربر على أمره أيضاً، فلم تزل الدول تتناقل فيهم على ما نذكره بعد إلى هذا العهد. وغلب أعاجم المغرب والبربر على أمره، وانقرض أكثر الشعوب الذين كان لهم الملك من هؤلاء فلم يبق لهم ذكر. وانتبذ بقية هذه الشعوب من هذه الطبقة بالقفار وأقاموا أحياء بادين لم يفارقوا الحلل ولا تركوا البداوة والخشونة، فلم يتورطوا في مهلكة الترف ولا غرقوا في بحر النعيم، ولا فقدوا في غيابات الأمصار والحضارة ولهذا أنشد شاعرهم:

فمن ترك الحضارة أعجبته　　　　بأيّ رجال بادية ترانا

وقال المتنبي يمدح سيف الدولة ويعرض بذكر العرب الذين أوقع بهم لما كثر عيثهم وفسادهم:

وكانوا يروعون الملوك بأن بدوا　　　　وأن نبتت في الماء بنت الغلافق

فهاجوك أهدى في الفلا من نجومه　　　　وأبدى بيوتاً من أداحي النقانق

(وأقامت) هذه الأحياء في صحارى الجنوب من الغرب والمشرق بأفريقية ومصر

والشام والحجاز والعراق وكرمان، كما كان سلفهم من ربيعة ومضر وكهلان في الجاهلية، وعتوا وكثروا وانقرض الملك العربي الإسلامي. وطرق الدول الهرم الذي هو شأنها، واعتز بعض أهل هذا الجيل غرباً وشرقاً فاستعملتهم الدول وولّوهم الإمارة على أحيائهم وأقطعوهم في الضاحية والأمصار والتلول وأصبحوا جيلاً في العالم ناشئاً، كثروا سائر أهله من العجم. ولهم في تلك الإمارة دول، فاستحقوا أن تذكر أخبارهم، وتلحق بالأجيال من العرب سلفهم. ثم إن اللسان المضري الذي وقع به الإعجاز ونزل به القرآن فثوى فيهم وتبدل

أعرابه فمالوا إلى العجمة. وإن كانت الأوضاع في أصلها صحيحة واستحقوا أن يوصفوا بالعجمة من أجل الأعراب فلذلك قلنا فيهم العرب المستعجمة.

(فلنذكر الآن) بقية هؤلاء الشعوب من هذه الطبقة من المغرب والمشرق، ونخص منهم أهل الأحياء الناجعة والأقدار النابهة، ونلغي المندرجين في غيرهم. ثم نرجع إلى ذكر المنتقلين من هذه الطبقة إلى أفريقية والمغرب، فنستوعب أخبارهم، لأن العرب لم يكن المغرب لهم في الأيام السابقة بوطن، وإنما انتقل إليه في أواسط المائة الخامسة أفاريق من بني هلال وسليم اختلطوا في الدول هنالك فكانت أخبارهم من أخبارها، فلذلك

استوعبناها. وأما آخر مواطن العرب فكانت برقة، وكان فيها بنو قرة بن هلال بن عامر. وكان لهم في دول العبيديّين أخبار، وحكايتهم في الثورة أيام الحاكم والبيعة لأبي ركوة من بني أُميّة في الأندلس معروفة، وقد أشرنا إليها في دولة العبيديّين.

ولما أجاز بنو هلال وسليم إلى المغرب خالطوهم في تلك المواطن، ثم ارتحلوا معهم إلى المغرب كما نذكره في دخول العرب إلى أفريقية والمغرب. وبقي في مواطنهم . ببرقة لهذا العهد أحياء بني جعفر، وكان شيخهم أوسط هذه المائة الثامنة أبو ذئب وأخوه حامد بن حميد وهم ينسبون في المغرب تارة في العزة ويزعمون أنهم من بني كعب سليم وتارة في الهيب كذلك، وتارة في فزارة، والصحيح في نسبهم أنهم من مسراتة إحدى بطون هوّارة. سمعته من كثير من نسابتهم، وبعدهم فيما بين برقة والعقبة الكبيرة أولاد سلام. وما بين العقبة الكبيرة والإسكندرية أولاد مقدم، وهم بطنان

أولاد التركية وأولاد قائد. ومقدم وسلام معاً ينسبون إلى لبيد. فبعضهم يقول لبيد بن لعتة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر وبعضهم يقول في مقدم: مقدم بن عزاز بن كعب بن سليم.

(وذكر لي سلام) شيخ أولاد التركية: أن أولاد مقدم من ربيعة بن نزار، ومع هؤلاء الأحياء حي محارب ينتمون بآل جعفر. ويقال إنهم من جعفر بن كلاب، وهي رواحة ينتمون بآل زبيد، ويقال من جعفرأيضا. والناجعة من هؤلاء الأحياء كلهم ينتمون في شأنهم إلى الواحات من بلاد القبلة. (وقال ابن سعيد): ومن غطفان في برقة مهيب ورواحة وفزارة، فجعل هؤلاء من غطفان والله أعلم بصحة ذلك.

(وفيما بين الإسكندرية ومصر) قبائل رحالة ينتقلون في نواحي البحيرة هنالك، ويعمرون أرضها بالسكنى والفلح، ويخرجون في المشاتي إلى نواحي العقبة وبرقة من مزانت وهوّارة وزنارة إحدى بطون لواتة، وعليهم مغارم الفلح. ويندرج فيهم أخلاط من العرب والبربر لا يحصون كثرة. وبنواحي الصغير قبائل من العرب من بني هلال وبني كلاب من ربيعة. وهؤلاء أحياء كثيرة يركبون الخيل، ويحملون السلاح ويعمّرون الأرض بالفلاحة، ويقومون بالخراج للسلطان. وبينهم مع ذلك من الحروب والفتن ما ليس يكون بين أحياء القفر.

(وبالصعيد) الأعلى من أسوان وما وراءها إلى أرض النوبة إلى بلاد الحبشة قبائل متعدّدة وأحياء متفرّقة؛ كلهم من جهينة إحدى بطون قضاعة، ملؤا تلك القفار وغلبوا النوبة على مواطنهم وملكهم، وزاحموا الحبشة في بلادهم وشاركوهم في أطرافها. والذين يلون أسوان هم يعرفون بأولاد الكتر، كان جدهم كتزل الدولة، وله

مقامات مع الدول مذكورة، ونزل معهم في تلك المواطن من أسوان إلى قوص بنو جعفر بن أبي طالب حين غلبهم بنو الحسن على نواحي المدينة، وأخرجوهم منها. فهم يعرفون بينهم بالشرفاء الجعافرة، ويحترفون في غالب أحوالهم بالتجارة.

(وبنواحي مصر) من جهة القبلة إلى عقبة أيلة أحياء من جذام جمهورهم من العائد وعليهم درك السابلة بتلك الناحية. ولهم على ذلك الأقطاع والعوائد من السلطان. ويليهم من جهة الشرق بالكرك ونواحيها أحياء بني عقبة من جذام أيضاً، رحالة ناجعة تنتهي رحلتهم إلى المدينة النبوية. وعليهم درك السابلة فيما يليهم. وفيما وراء عقبة أيلة إلى القفزم قبائل من قضاعة ومن القلزم إلى الينبع، قبائل من جهينة. ومن الينبع إلى بدر ونواحيه من زبيد إحدى بطون مذحج. ولهم مع الأمراء بمكة من بني حسن حلف ومواخاة. وفيما بين مكة والمهجم مما يلي اليمن قبائل بني شعبة من كنانة. وفيما بين الكرك وغزة شرقاً قبائل جذام من قضاعة في جموع وافرة، ولهم أمراء أعزة يقطعهم السلطان على العسكر وحفظ السابلة، وينجعون في المشاتي إلى معان وما يليها من أسافل نجد، مما يلي تيماء، وبعدهم في أرض الشام بنو حارثة بن سنبس وآل مراء من ربيعة إخوة آل فضل الملوك على العرب في برية الشام والعراق ونجد. وأخبرني بعض أمراء حارثة بن سنبس عن بطون. فلنذكر الأن خبر أولاد فضل أمراء الشام والعراق من طيء فنبين أعراب الشام جميعاً.

خبر آل فضل وبني مهنا منهم ودولتهم بالشام والعراق:

هذا الحيّ من العرب يعرفون بآل فضل، وهم رحّالة ما بين الشام والجزيرة وبرية نجد من أرض الحجاز، ينتقلون هكذا بينها في الرحلتين وينتهون في طيء ومعهم أحياء من زبيد وكلب هزيم ومذحج أحلاف لهم باين بعضهم في الغلب والعدد آل مراء. ويزعمون ان فضلاً ومراء آل ربيعة، ويزعمون أيضاً أن فضلاً ينقسم ولده بين ال مهنا وآل علي، وأن آل فضل كلهم كانوا بأرض حوران فغلبهم عليها آل مراء وأخرجوهم منها فنزلوا حمص ونواحيها. وأقامت زبيد من أحلافهم بحوران فهم

بها حتى الآن لا يفارقونها. قالوا: ثم اتصل آل فضل باللد من السلطنة، وولّوهم على أحياء العرب، وأقطعوهم على إصلاح السابلة بين الشام والعراق، فاستظهروا برئاستهم على آل مراء، وغلبوهم على المشاتي فصار عامة رحلتهم في حدود الشام قريبا من التلول والقرى، لا ينجعون إلى البرية إلا في الأقل.

وكانت معهم أحياء من أفاريق الأعراب يندرجون في لفيفهم وحلفهم من مذحج وعامر وزبيد كما كان لآل فضل. إلا أن أكثر من كان من ا أى مراء أولئك الأحياء وأوفرهم عدداً بنو حارثة من إحدى بطون طيء. هكذا ذكر الثقة عنهم من رجالاتهم. وحارثة هؤلاء متغلّبون لهذا العهد في تلول الشام لا يجاوزونها إلى القفار. ومواطن طيء بنجد قد اتسعت، وكانوا أول خروجهم من اليمن نزلوا جبلي أجا وسلمى، وغلبوا عليهما بني أسد وجاوروهم. وكان لهم من المواطن سميراء وميد من منازل الحاج. ثم انقرض بنو أسد وورثت طيء بلادهم فيما وراء الكرخ من أرض غفرو وكذلك ورثوا منازل تميم بأرض نجد فيما بين البصرة والكوفة واليمامة. وكذلك ورثوا غطفان ببطن مما يلي وادي القرى.

هكذا قال ابن سعيد. وقال: أشهر الحجازيين منهم الآن بنو لام وبنو نبهان والصولة بالحجاز لبني لام بين المدينة والعراق ولهم حلف مع بني الحسين أمراء المدينه. قال: وبنو صخرمنهم في جهة تيماء بين الشام وخيبر. قال: وغربة من طيء بنو غربة بن أفلت بن معبد بن معن بن عمرو بن عنبس بن سلامان ومن بعد بلادهم حي الأنمر والأساور ورثوها من عنزة. ومنازلهم لهذا العهد في مصايفهم بالكيبات وفي مشاتيهم مع بني لام من طيء. وهم أهل غارة وصولة بين الشام والعراق.

ومن بطونهم الأجود والبطنين وإخوانهم زبيد نازلون بالموصل، فقد جعل ابن سعيد: زبيد هؤلاء من بطون طيء، ولم يجعلهم من مذحج. ورياسة آل فضل في هذا العهد في

بني مهنا. وينسبونه هكذا: كنا بن مايع بن مدسة بن عصية بن فضل بن بدر بن علي بن مفرج بن بدربن سالم بن قصية بن بدربن سميع. ويقفون عند سميع.

ويقول زعماؤهم إن سميعاً هذا هو الذي ولدته العباسة أخت الرشيد من جعفر بن يحيى البرمكي. وحاشا لله من هذه المقالة في الرشيد وأخته، وفي بنات كبراء العرب من طيء إلى موالي العجم من بني برمك وأمثالهم. ثم إن الوجود يحيل رياسة مثل هؤلاء على هذا الحي إذا لم يكونوا من نسبهم. وقد تقدم مثل ذلك في مقدّمات الكتاب.

(وكان مبدأ رياستهم) من أول دولة بني يعقوب. قال العماد الأصفهاني: نزل العادل بمرج دمشق، ومعه عيسى بن محمد بن ربيعة شيخ الأعراب في جموع كثيرة. وكانت الرياسة فيهم لعهد الفاطميين لبني جراح من طيء. وكان كبيرهم مفرج بن دغفل بن جراح. وكان من أقطاعه التي معه وهو الذي قبض على أسكى مولى بني بويه لما انهزم مع مولاه بختيار بالعراق. وجاء إلى الشام سنة أربع وستين وثلثمائة وملك دمشق وزحف مع القرامطة لقتال العزيز بن المعز لدين الله صاحب مصر، فهزمهم العزيز، وهرب أفتكين فلقيه مفرج بن دغفل، وجاء به إلى العزيز فأكرمه ورقاه في دولته.

ولم يزل شأن مفرج هكذا وتوفي سنة أربع وأربعمائة. وكان من ولده حسان ومحمود وعلي وجرار. وولي حسان بعده وعظم صيته، وكان بينه وبين خلفاء الفاطميين معزة واستقامة، وهو الذي هزم الرملة وهزم قائدهم باروق التركي وقتله وسبى نساءه، وهو الذي مدحه التهامي. ويذكر المسمى وغيره أن موطىء دولة العبيديين في قرابة حسان بن مفرج هذا فضل بن ربيعة بن حازم، وأخوه بدر بن ربيعة، وابنا بدر. ولعل فضلاً هذا هو جد آل فضل.

(قال ابن الأثير): إن فضل بن ربيعة بن حازم كان آباؤه أصحاب البلقاء والبيت المقدس. وكان الفضل تارة مع الفرنج وتارة مع خلفاء مصر. ونكره لذلك طغركين أتابك دمشق وكافل بني تتش فطرده من الشام فنزل على صدقة بن مزيد بالحلة وحالفه. ووصله صدقة بتسعة آلاف دينار. فلما خالف صدقة بن مزيد على السلطان

محمد بن ملكشاه سنة خمسمائة وما بعدها، ووقعت بينهما الفتنة اجتمع له فضل هذا وقرواش بن شرف الدولة ومسلم بن قريش صاحب الموصل وبعض امراء التركمان، وكانوا كلهم أولياء صدقة فصار في الطلائع بين يدي الحرب، وهربوا إلى السلطان فأكرمهم وخلع عليهم، وأنزل فضل بن ربيعة بدار صدقة بن مزيد ببغداد، حتى إذا سار السلطان لقتال صدقة، واستأذنه فضل في الخروج إلى البرية ليأخذ بحجرة صدقة فأذن له وعبر إلى الأنبار، فلم يراجع السلطان بعدها اه كلام ابن الأثير.

ويظهر من كلامه وكلام المسبحي أن فضلاً هذا وبدرأ من آل جراح بلا شك. ويظهر من سياقة هؤلاء نسبهم أن فضلا هذا هو جدهم لأنهم ينسبونه: فضل بن ربيعة بن الجراح. فلعل هؤلاء نسبوا ربيعة مفرج الذي هو كبير بني الجراح لبعد العهد وقفة المحافظة على مثل هذا من البادية القفر.

وأما نسبة هذا الحي من آل فضل بن ربيعة بن فلاح من مفرج في طيء: فبعضهم يقول: إن الرياسة في طيء كانت لأياس بن قبيصة من بني سبأ بن عمروبن الغوث من طيء، وأياس هو الذي ملكه كسرى على الحيرة بعد آل المنذر لما قتل النعمان بن المنذر وهو الذي صالح خالد بن الوليد عن الحيرة على الجزية. ولم تزل الرياسة على طيء إلى بني قبيصة هؤلاء صدراً من دولة الإسلام. فلعل بني الجراح وآل فضل هؤلاء من أعقابهم، وإن كان انقرض أعقابهم فهم من أقرب الحي إليهم، لأن الرياسة على الأحياء والشعوب إنما تتصل في أهل العصبية والنسب كما مر أول الكتاب.

(وقال ابن حزم) عندما ذكر أنساب طيء وأنهم لما خرجوا من اليمن مع بني أسد نزلوا جبلي أجا وسلمى، وأوطنوهما وما بينهما ونزل بنو أسد ما بينهم وبين العراق. وفضل كثير منهم وهم: بنوحارثة نسبة إلى أمهم، وتيم الله وحبيش والأسعد إخوتهم رحلوا عن الجبلين في حرب الفساد فلحقوا بحلب، وحاضر طيء وأوطنوا تلك البلاد إلأ بني رومان بن جندب بن خارجة بن سعد فإنهم أقاموا بالجبلين فكانوا جبلين ولأهل حلب وحاضر طيء من بني خارجة السهيليون اه.

فلعل هذه الأحياء الذين بالشام من بني الجراح وآل فضل من بني خارجة هؤلاء الذين ذكر ابن حزم أنهم انتقلوا إلى حلب وحاضر طيء، لأن هذا الموطن أقرب إلى مواطنهم لهذا العهد من مواطن بني الجراح بفلسطين من جبلي أجأ وسلمى الذي هو موضع الآخرين. فالله أعلم أي ذلك يصح من أنسابهم. وتحت خفارتهم بنواحي الفرات ابن كلاب بن ربيعة بن عامر دخلوا مع قبائل عامر بن صعصعة من نجد إلى الجزيرة.

ولما افترق بنو عامر على الممالك الإسلامية اختص هؤلاء بنواحي حلب وملكها منهم بنو صالح بن مرداس من بني عمرو بن كلاب. ثم تلاشى ملكهم ورجعوا عنها إلى الأحياء وأقاموا بالفرات تحت خفارة هؤلاء الأمراء من طيء.

(وأما ترتيب رياستهم) على العرب بالشام والعراق منذ دولة بني أيوب العادل وإلى هذا العهد، وهو آخر ست وتسعين وسبعمائة، فقد ذكرنا ذلك في دولة الترك ملوك مصر والشام، وذكرناهم واحداً بعد واحد على

ترتيبهم. وسنذكرهم ههنا على ذلك الترتيب فنقول: كان الأمير لعهد بني أيوب عيسى بن محمد بن ربيعة أيام العادل كما كان بعده حسام الدين مانع بن حارثة مصر والشام.

وفي سنة ثلاثين وستمائة ولي عليهم بعده إبنه مهنا. ولما ارتجع قطز بن فضل أحد ملوك الترك بمصر والشام من أيدي التتر، وهزمهم بعين جالوت، أقطع سلمية لمهنا بن مانع وانتزعها من عمل المنصور بن مظفّر بن شاهنشاه صاحب حماة، ولم أقف على تاريخ وفاة مهنا. ثم ولي الظاهر على أحياء العرب بالشام عندما استفحل ملك الترك. وسار إلى دمشق لتشييع الخليفة الحاكم عم المستعصم إلى بغداد عيسى بن مهنا بن مانع، وجر له الإقطاعات على حفظ السابلة، وحبس ابن عمه زامل بن علي بن ربيعة من آل فضل على سعايته وإغرامه. ولم يزل يغير على أحياء العرب وصلحوا في أيامه لأنه خالف أباه في الشدة عليهم، وهرب إليه سنقر الأشقر سنة تسع وسبعين وكاتبوا أبغا واستحثوه لملك الشام.

وتوفي عيسى بن مهنا سنة أربع وثمانين فولى المنصور قلاوون من بعده إبنه مهنا. ثم سار الأشرف بن قلاوون إلى الشام، ونزل حمص ووفد عليه مهنا بن عيسى في

جماعة من قومه، فقبض عليه وعلى إبنه موسى وإخوته محمد وفضل إبني مهنا. وبعث بهم إلى مصر فحبسوا بها حتى أفرج عنهم العادل كتبغا عندما جلس على التخت سنة أربع وتسعين وستمائة، ورجع إلى إمارته.

وكان له في أيام الناصر نصرة واستقامة وميلة إلى ملوك التتر بالعراق، ولم يحضر شيئاً من وقائع غازان. ولما انتقض فرّ أسفر وأقوش الأفرم وأصحابهما سنة عشر وسبعمائة لحقوا به، وساروا من عنده إلى خرشد، واستوحش هو من السلطان وأقام في أحيائه منقبضاً عن الوفادة.

ووفد أخوه فضل سنة إثنتي عشرة وسبعمائة فرعى له حق وفادته، وولاه على العرب مكان أخيه مهنا وبقي مهنا مشردا. ثم لحق سنة ست عشرة وسبعمائة بخرشد ملك التتر فأكرمه وأقطعه بالعراق. وهلك خرشد في تلك السنة فرجع مهنا إلى أحيائه. ووفد إبنه أحمد وموسى وأخوه محمد بن عيسى مستعتبين على الناصر ومتطارحين عليه فأكرم وفادتهم وأنزلهم بالقصر الأبلق، وشملهم بالإحسان، وأعتب مهنا ورده إلى إمارته وأقطاعه، وذلك سنة سبع عشرة وسبعمائة. وحج هذه السنة إبنه عيسى وأخوه محمد وجماعة من آل فضل في إثني عشرألف راحلة. ثم رجع مهنا إلى دينه في ممالأة التتر والأجلاب على الشام. واتصل ذلك منه فنقم السلطان عليه، وسخط عليه قومه أجمع. وتقدم إلى نواب الشام سنة عشرين وسبعمائة بعد مرجعه من الحج فطرد آل فضل عن البلاد وأدال منهم مالكاً على عدالته بينهم وولى منهم على احياء العرب محمد بن أبي بكر، وصرف أقطاع مهنا وولده إلى محمد وولده فأقام مهنا على ذلك مدة.

ثم وفد سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة مع الأفضل بن المؤيد صاحب حماة متوسلا به ومتطارحاً على السلطان فأقبل عليه وردّ عليه أقطاعه وأمارته.

(وذكر لي) بعض أمراء الكبراء بمصر ممن أدرك وفادته أو حدث بها: أنه تجافى في هذه الوفادة من قبول شيء من السلطان، حتى أنه ساق عنده النياق الحلوبة

والعراب، وأنه لم يغش باب أحد من أرباب الدولة ولا سأل منهم شيئاً من حاجاته، ثم رجع إلى أحيائه، وتوفي في سنة أربع وثلاثين وسبعمائة فولي إبنه مظفر الدين موسى، وتوفي سنة إثنتين وأربعين وسبعمائة عقب مهلك الناصر وولي مكانه أخوه سليمان.

ثم هلك سليمان سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فولي مكانه شرف الدين عيسى ابن عمه فضل بن عيسى. ثم توفي سنة أربع وأربعين وسبعمائة بالقريتين ودفن عند قبر خالد بن الوليد. وولي مكانه أخوه سيف بن فضل، ثم عزله السلطان بمصر الكامل ابن الناصر سنة ست وأربعين وسبعمائة، وولي مكانه أحمد بن مهنا بن عيسى. ثم جمع سيف بن فضل ولقيه فياض بن مهنا بن عيسى وانهزم سيف. ثم ولي السلطان حسن الناصر في دولته الأولى وهو في كفالة بيبغاروس أحمد بن مهنا فسكنت الفتنة بينهم. ثم توفي سنة سبع وأربعين فولي مكانه أخوه فياض، وهلك سنة تسع وأربعين وسبعمائة وولي مكانه أخوه خيار بن مهنا، ولاه حسن الناصر في دولته الثانية. ثم انتقض سنة خمس وستين وسبعمائة وأقام سنتين بالقصر عاصياً إلى أن شفع فيه نائب حماة فاعيد إلى أمارته. ثم انتقض سنة سبعين وسبعمائة فولى السلطان الأشرف مكانه ابن عمه زامل بن موسى بن عيسى، وجاء إلى نواحي حلب، واجتمع إليه بنو كلاب وغيرهم وعاثوا في البلاد وعلى حلب يومئذ قشتمر المنصوري فبرز إليهم وانتهى إلى خيمهم واستاق نعمهم وتخطى إلى الخيام فاستجاشوا بها وهزموا عساكره وقتل قشتمر إبنه في المعركة. تولى هو قتله بيده، وذهب إلى القفرمنتقضاً. فولى الأشرف مكانه ابن عمه معيقل بن فضل بن عيسى.

ثم بعث معيقل صاحبه سنة إحدى وسبعين وسبعمائة يستأمن لخيار فأمنه. ثم وفد خيار بن مهنا سنة خمس وسبعين سبعمائة فرضي عنه السلطان وأعاده إلى أمارته. ثم توفي سنة سبع وسبعين وسبعمائة فولي أخوه مالك إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وسبعمائة فولي مكانه معيقل بن موسى بن عيسى وابن مهنا شريكين في أمارتهما،. ثم عزلا لسنة وولى نعير بن خيار بن مهنا وإسمه محمد، وهو لهذا العهد أمير على آل فضل وجميع أحياء طيء بالشام. والسلطان

الظاهر لعهده يزاحمه بمحمد بن عمه قاري. ثم وصل انتقاضه على السلطان وخلافه، وظاهر السلطان على موالاة محمد بن قاري فسخطه، وولى مكانهما ابن عمهما محمد بن كوكتين ابن عمه موسى بن عساف بن مهنا فقام بأمر العرب وبقي نعير منتبذاً بالقفر وعجز عن الميرة لقلة ما بيده واختلت أحواله.،، وهو على ذلك لهذا العهد، والله ولي الأمور ولا رب سواه.

(خريطة)

.

(ولنرجع) إلى من بقي من شعوب هذه الطبقة فنقول: كان بنوعامر بن صعصعة كلهم بنجد، وبنو كلاب في خناصرة والربذة من جهات المدينة، وكعب بن ربيعة فيما بين تهامة والمدينة وأرض الشام. وبنو هلال بن عامر في بسائط الطائف ما بينه وبين جبل غزوان. ونمير بن حامد معهم. وجشم محسوبون منهم بنجد. وانتقلوا

كلهم في الإسلام إلى الجزيرة الفراتية فملك نمير حران ونواحيها. وأقام بنو هلال بالشام إلى أن ظعنوا إلى المغرب كما نذكر في أخبارهم. وبقي منهم بقية بجبل بني هلال المشهور بهم الذي فيه قلعة صرخد. وأكثرهم اليوم يتعاطون الفلح. وبنو كلاب بن ربيعة

ملكوا أرض حلب ومدينتها كما ذكرناه. وبنو كعب بن ربيعة دخلت إلى الشام منهم قبائل عقيل وقشير وجريش وجعدة فانقرض الثلاثة في دولة الإسلام، ولم يبق إلا بنو عقيل.

(وذكر) ابن حزم: أنّ عددهم يفي عدد جميع مضر. فملك منهم الموصل بنو مالك بعد بني حمدان وتغلب. واستولوا عليها وعلى نواحيها وعلى حلب معها. ثم انقرض ملكهم ورجعوا للبادية، وورثوا مواطن العرب في كل جهة. فمنهم بنو المنتفق بن عامر بن عقيل، وكان بنومالك بن عقيل في أرض تيماء من نجد، وهم الان بجهات البصرة في الآجام التي بينها وبين الكوفة المعروفة بالبطائح، والإمارة منهم في بني معروف. وبالمغرب من بني المنتفق أحياء دخلوا مع هلال بن عامريعرفون بالخلط، ومواطنهم بالمغرب الأقصى ما بين فاس ومراكش.

(وقال الجرجاني): إن بني المنتفق كلهم يعرفون بالخلط، ويليهم في جنوب البصرة إخوتهم بنو عامر بن عوف بن مالك بن عوف بن عامر، وعوف أخو المنتفق قد غلبوا على البحرين وغمارة وملكوها من يدي أبي الحسين الأصغر بن تغلب. وكانت هذه المواطن للأزد، وبني تميم وعبد القيس فورث هؤلاء أرضهم فيها وديارهم.

(قال ابن سعيد): وملكوا أيضاً أرض اليمامة من بني كلاب وكان ملوكهم فيها لعهد الخمسين والستمائة بنو عصفور. وكان من بني عقيل خفاجة بن عمرو بن عقيل، كان انتقالهم إلى العراق فأقاموا به وملكوا ضواحيه، وكانت لهم مقامات وذكر، وهم أصحاب صولة وكثرة، وهم الآن ما بين دجلة والفرات. ومن عقيل هؤلاء بنوعبادة بن عقيل ومنهم الأجافل لأن عبادة كان يعرف بالأجفل. وهم لهذا العهد بالعراق مع بني المنتفق. وفي البطايح التي بين البصرة والكوفة وواسط الامارة فيهم على ما يبلغنا لرجل إسمه قيان بن صالح، وهو في عدد ومنعة. وما أدري أهو من بني معروف أمراء البطائح بني المنتفق أو من عبادة الأجافل؟ هذه أحوال بني

عامر بن صعصعة واستيلاؤهم على مواطن العرب من كهلان وربيعة ومضر.(فأما بنو كهلان) فلم يبق لهم أحياء فيما يسمع. (وأما ربيعة) فأجازوا بلاد فارس وكرمان فهم ينتجعون هنالك ما بين كرمان وخراسان. وبقيت بالعراق منهم طائفة يترلون. البطائح وانتسب إلى الكوفة منهم بنو صباح ومعهم لفائف من الأوس والخزرج. فأمير ربيعة إسمه الشيخ ولي، وعلى الأوس والخزرج طاهر بن خضر منهم هذه شعوب الطبقة الثالثة من العرب لهذا العهد في ديار المشرق بما أدى إليه الإمكان.

(ونحن الآن نذكر شعوبهم الذين انتقلوا إلى المغرب): فإنّ أمّة العرب لم يكن لهم إلمام قطّ بالمغرب لا في الجاهلية ولا في الإسلام، لأنّ أمّة البربر الذين كانوا به كانوا يمانعون عليه الأمم. وقد غزاه أفريقش بن ضبيع الذي سميت به أفريقية، من ملوك التبابعة وملكها. ثم رجع عنها وترك كتامة وصنهاجة من قبائل حمير،

فاستحالت طبيعتهم إلى البربر واندرجوا في عدادهم، وذهب ملك العرب منهم. ثم جاءت الملة الإسلامية وظهر العرب على سائر الأمم بظهور الدين فسارت عساكرهم في المغرب وافتتحوا سائر أمصاره ومدنه وعانوا من حروب البربر شدة. وقد تقدم لنا ما ذكره ابن أبي زيد من أنهم ارتدّوا إثنتي عشر مرة. ثم رسخ فيهم الإسلام و لم يسكنوا بأجيالهم في الخيام ولا نزلوا أحياء لأن الملك الذي حصل لهم يمنعهم من سكنى الضاحية، ويعدل بهم إلى المدن الأمصار. فلهذا قلنا إن العرب لم يوطنوا بلاد المغرب. ثم أنهم دخلوا إليه في منتصف المائة الخامسة، وأوطنوه وافترقوا بأحيائهم وحللهم في جهاته كما نذكر الآن ونستوعب أسبابه.

دخول العرب المغرب

الخبر عن دخول العرب من بني هلال وسليم

المغرب من الطبقة الرابعة وأخبارهم هنالك

كانت بطون هلال وسليم من مضر لم يزالوا بادين منذ الدولة العباسية، وكانوا أحياء ناجعة محلاتهم من بعد الحجاز بنجد. فبنوسليم مما يلي المدينة، وبنوهلال في جبل غزوان عند الطائف. وربما كانوا يطوفون رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام، فيغيرون على الضواحي ويفسدون السابلة، ويقطعون على الرفاق وربما أغار بنو سليم على الحاج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة. وما زالت البعوث تجهّز والكتائب تكتب من باب الخلافة ببغداد للإيقاع بهم وصون الحاج من مضرّات هجومهم. ثم تحيّز بنو سليم والكثير من ربيعة بن عامر الى القرامطة عند ظهورهم، وصاروا جنداً بالبحرين وعمان. ولما تغلب شيعة ابن عبيد الله المهدي على مصر والشام، وكان القرامطة قد تغلبوا على أمصار الشام فانتزعها العزيز منهم وغلبهم عليها وردهم على أعقابهم إلى قرارهم بالبحرين، ونقل أشياعهم من العرب من بني هلال وسليم فأنزلهم بالصعيد، وفي العدوة الشرقية من بحر النيل فأقاموا هناك، وكان لهم أضرار بالبلاد. ولما انساق ملك صنهاجة بالقيروان إلى المعز بن باديس بن المنصور سنة ثمان وأربعمائة قلده الظاهر لدين الله علي بن الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد أمر أفريقية على عادة آبائه كما نذكره لك بعد، وكان لعهد ولايته غلاماً يفعة ابن ثمان سنين، فلم يكن مجرباً للأمور ولا بصيراً بالسياسة، ولا كانت فيه عزة وأنفة.

ثم هلك الظاهر سنة سبع وعشرين وأربعمائة وولي المستنصر بالله معز الطويل أمر الخلافة بما لم ينله أحد من خلفاء الإسلام. يقال ولي خمساً وسبعين وقيل خمسا وتسعين، والصحيح ثلاث وسبعون لأن مهلكه كان على رأس المائة الخامسة، وكانت أذن المعز بن باديس صاغية إلى مذاهب أهل السنة، وربما كانت شواهدها تظهر عليه، وكبا به فرسه في أول ولايته لبعض مذاهبه. فنادى مستغيثاً بالشيخين أبي بكر وعمر، وسمعته العامة فثاروا بالرافضة وقتلوهم وأعلنوا بالمعتقد الحق، ونادوا بشعار الإيمان وقطعوا من الأذان حيّ على خير العمل. وأغضى عنه الظاهر من ذلك وابنه معدّ المستنصر من بعد. واعتذر بالعامة فقبل واستمر على إتامة الدعوة والمهاداة، وفي أثناء ذلك يكاتب وزيرهما وحاجب دولتهما المضطلع بأمورهما أبا القاسم أحمد بن

علي الجرجاني ويستميله ويعرّض ببني عبيد وشيعتهم. وكان الجرجاني يلقب بالأقطع، بما كان أقطعه الحاكم بجناية ظهرت عليه في الأعمال، وانتهضته السيدة بنت الملك عمة المستنصر.

فلما ماتت استبد بالدولة سنة أربع عشرة وأربعمائة إلى أن هلك سنة ست وثلاثين وأربعمائة، وولي الوزارة بعده أبو محمد الحسن بن على اليازوري أصله من قرى فلسطين وكان أبوه ملاحاً بها. فلما ولي الوزارة خاطبه أهل الجهات، و لم يولوه فأنف من ذلك فعظم عليه وحنق عليه ثمال بن صالح صاحب حلب والمعز بن باديس صاحب أفريقية، وانحرفوا عنه، وحلف المعز لينقضن طاعتهم، وليحولن الدعوة إلى بني عباس ويمحون اسم بني عبيد من منابره ولج في ذلك وقطع أسماءهم من الطراز والرايات، وبايع القائم أبا جعفربن القادر من خلفاء بني العبّاس، وخاطبه ودعا له على منابره سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، وبعث بالبيعة إلى بغداد.

ووصله أبو الفضل البغدادي وحظي من الخليفة بالتقليد والخلع، وقرىء كتابه بجامع القيروان، ونشرت الرايات السود وهدمت دار الإسماعيلية. وبلغ الخبر إلى المستنصر معد الخليفة بالقاهرة، وإلى الشيعة الرافضة من كتامة وصنائع الدولة فوجموا وطلع عليهم المقيم المقعد من ذلك وارتبكوا في أمرهم. وكان أحياء هلال، هؤلاء الأحياء من جشم والأثير وزغبة ورياح وربيعة وعدي في محلاتهم بالصعيد كما قدمناه. وقد عم ضررهم وأحرق البلاد والدولة شررهم، فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن علي اليازوري باصطناعهم والتقدم لمشايخهم وتوليتهم أعمال أفريقية وتقليدهم أمرها ودفعهم إلى حرب صنهاجة ليكونوا عند نصر الشيعة والسبب في الدفاع عن الدولة. فإن صدقت المخيلة في ظفرهم بالمعز وصنهاجة كانوا أولياء للدعوة وعمالاً بتلك القاصية. وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة؟ وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها. وأمر العرب البادية أسهل من أمر صنهاجة الملوك فتغلبوا على هديه

وثورانه. وقيل إن الذي أشار بذلك وفعله وأدخل العرب إلى أفريقية إنما هو أبو القاسم الجرجاني، وليس ذلك بصحيح، فبعث المستنصر وزيره على هؤلاء الأحياء سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وأ رضخ لأمرائهم في العطاء ووصل عامتهم بعيراً وديناراً لكل واحد منهم، وأباح لهم إجازة النيل. وقال لهم: قد أعطيتكم المغرب، وملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الآبق قلا تفتقرون، وكتب البازوري إلى المغرب: أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولا، فطمعت العرب إذ ذاك، وأجازوا النيل إلى برقة، نزلوا بها وافتتحو أمصارها واستباحوها، وكتبوا لإخوأنهم بشرقي النيل يرغبونهم في البلاد، فأجازوا إليهم بعد أن أعطوا لكل رأس دينارين فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه، وتقارعوا على البلاد: فحصل لسليم الشرق ولهلال الغرب وخربوا المدينة الحمراء وأوجدابية واسمرا وسرت.

وأقامت لهب من سليم وأحلافها رواحة وناصرة وغمرة بأرض برقة. وسارت قبائل دياب وعوف وزغب وجميع بطون هلال إلى أفريقية كالجراد المنتشر، لا يمرون بشيء إلأ أتوا عليه، حتى وصلوا إلى أفريقية سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة. وكان أول من وصل إليهم أمير رياح موسي بن يحيى الصنبري فاستماله المعز واستدعاه واستخلصه لنفسه وأصهر إليه. وفاوضه في استدعاء العرب من قاصية وطنه للاستغلاظ على نواحي

بني عمه. فاستنفر القرى وأتى عليهم فاستدعاهم فعاثوا في البلاد وأظهروا الفساد في الأرض، ونادوا بشعار الخليفة المستنصر. وسرح إليهم من صنهاجة الأولياء فأوقعوا بها فتمخط المعز لكبره وأشاط بغضبه، وتقبض على أخي مؤنس وعكسر بظاهر القيروان. وبعث بالصريخ إلى ابن عمه صاحب القلعة القائد بن حامد بن بلكين، فكتب إليه كتيبة من ألف فارس سرحهم إليه

استنفزواعن زناتة فوصل إليه المستنصر بن حزور المغراوي في ألف فارس من قومه.

وكان بالبدو من أفريقية مع الناجعة من زناتة وهوم أعظم ساداتهم. وارتحل المعز

في أولئك النفر ومن لف لفهم من الأتباع والحشم والأولياء ومن في إيالتهم من بقايا عرب الفتح وحشد زناتة، والبربر، وصمد نحوهم في أمم لا تحصى يناهز عددهم فيما يذكر ثلاثون ألفاً. وكانت رياح وزغبة وعدي حيدران من جهة فاس. ولما تزاحف الفريقان انخذل بقية عرب الفتح وتحيّزوا إلى الهلاليين للعصبية القديمة، وخانته زناتة وصنهاجة، وكانت الهزيمة على المعز، وفرّ بنفسه وخاصته إلى القيروان. وانتهبت العرب من جمع مخلفه من المال والمتاع والذخيرة والفساطيط والرايات وقتلوا فيها من البشر ما لا يحصى. يقال إن القتلى من صنهاجة بلغوا ثلاثة آلاف وثلثمائة. وفي ذلك يقول علي بن رزق الرياحي كلمته. ويقال إنها لابن شداد وأوّلها:

لقد زار وهناً من اميم خيال	وايدي المطايا بالزميل عجال
وإن ابن باديس لأفضل مالك	لعمري، ولكن ما لديه رجال
ثلاثون ألفاً منهم قد هزمتهم	ثلاثة آلاف وذاك ضلال

ثم نازلوه بالقيروان وطال عليه أمر الحصار، وهلكت الضواحي والقرى بإفساد العرب وعيثهم، وانتقام السلطان منهما بانتمائهم في ولاية العرب. ولجأ الناس إلى القيروان وكثر النهب واشتد الحصار، وفر أهل القيروان إلى تونس وسوسه وعم النهب والعبث في البلاد. ودخلت تلك الأرض سنة خمس وأربعين، وأحاطت زغبة ورياح بالقيروان. ونزل مؤنس قريباً من ساحة البلد. وفر القرابة والأعياص من آل زير فولاهم موسى قابس وغيرها. ثم ملكوا بلاد قسطنطينة كلها وغزا عامل ابن أبي الغيث منهم: زناتة ومغراوة فاستباحهم ورجع.

واقتسمت العرب بلاد أفريقية سنة ست وأربعين: وكان لزغبة طرابلس وما يليها،

ولمرداس بن رياح باجة وما يليها. ثم اقتسموا البلاد ثانية فكان لهلال من تونس إلى الغرب وهم: رياح وزغبة والمعقل وجشم وقرة والاثبج والخلط وسفيان. وتصرم الملك من يد المعز، وتغلب عائذ بن أبي الغيث على مدينة تونس وسباها. وملك أبومسعود من شيوخهم بونة صلحاً. وعامل المعزّ على خلاص نفسه، وصاهر ببناته ثلاثة من أمراء العرب: فارس بن أبي الغيث وأخاه عائذاً، والفضل بن أبي علي المرادي.

وقدم ابنه تميم إلى المهدية سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ولسنة تسع بعدها بعث إلى أصهاره من العرب وترحم بهم ولحق بهم بالقيروان، واتبعوه فركب البحر و الساحل، وأصلح أهل القيروان فأخبرهم إبنه المنصور بخبر أبيه فساروا بالسودان والمنصور. وجاء العرب فدخلوا البلد واستباحوه، واكتسحوا المكاسب وخربوا المباني وعاثوا في محاسنها، وطمسوا من الحسن والرونق معالمها. واستصفوا ما كان لآل بلكين في قصورها، وشملوا بالعيث والنهب سائر من فيها وتفرّق أهلها في الأقطار فعظمت الرزية، وانتشر الداء وأعضل الخطب. ثم ارتحلوا إلى المهدية فتزلوها وضيقوا عليها بمنع المرافق وإفساد السابلة. ثم حاربوا زناتة بعد صنهاجة وغلبوهم على الضواحي، واتصلت الفتنة بينهم، وأغزاهم صاحب تلمسان من أعقاب محمد بن خزر جيوشه مع وزيره أبي سعدى خليفة اليفرني فهزموه، وقتلوه بعد حروب طويلة. واضطرب أمر أفريقية وخرب عمرانها وفسدت سابلتها. وكانت رياسة الضواحي من زناتة والبربر لبني يفرن ومغراوة وبني يمانوا وبني يلومان. ولم يزل هذا داب العرب وزناتة حتى غلبوا صنهاجة وزناتة على ضواحي أفريقية والزاب، وغلبوا عليها صنهاجة وقهروا من بها من البربر، وأصاروهم عبيداً وخدماً بباجة. وكان في هؤلاء العرب لعهد دخولهم أفريقية رجالات مذكورون.

وكان من أشرفهم حسن بن سرحان وأخوه بدر وفضل بن ناهض، وينسبون هؤلاء في

دريد بن الأثبج وماضي بن مقرب وينسبونه في قرة، وسلامة بن رزق في بني كثير من بطون كرفة بن الاثبج وشبان بن الاحيمر وأخوه صليصل، وينسبونهم في بني عطية من كرفة، ودياب بن غانم وينسبونه في في بني ثور، وموسى بن يحيى وينسبونه في مرداس رياح لا مرداس سليم، فاحذر من الغلط في هذا. وهو من بني صنبر بطن من بطون مرداس رياح، وزيد بن زيدان وينسبونه في الضحاك ومليحان بن عباس وينسبونه في حمير، وزيد العجاج بن فاضل ويزعمون أنه مات بالحجاز قبيل دخولهم إلى أفريقية، وفارس بن أبي الغيث وعامر أخوه، والفضل بن أبي علي ونسبهم أهل الأخبار منهم في مرداس المقهى،كل هؤلاء يذكرون في أشعارهم.
وكان زياد بن عامر رائدهم في دخول أفريقية ويسمونه لذلك أبا مخيبر وشعوبهم لذلك العهد كما قلناه زغبة ورياح الاثبج وقرة وكلهم من هلال بن عامر. وربما ذكر فيهم بنو عدي، ولم نقف على أخبارهم، وليس لهم لهذا العهد حيّ معروف. فلعلهم دثروا وتلاشوا وافترقوا في القبائل. وكذلك ذكر فيهم ربيعة، ولم نعرفهم لهذا العهد إلا أن يكونوا هم المعقل كما تراه في نسبهم. وكان فيهم من غير هلال كثير من فزارة وأشجع من بطون غطفان وجشم بن معاوية بن بكربن هوازن وسلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية، والمعقل من بطون اليمنية، وعمرة بن أسد من بني ربيعة بن نزار، وبني ثور بن معاوية بن عبادة بن ربيعة البكاء بن عامر بن صعصعة، وعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان. وطرود بطن من فهم بن قيس، إلا أنهم كلهم مندرجون في هلال وفي الأثبج منهم خصوصاً، لأن الرياسة كانت عند دخولهم للأثبج وهلال فأدخلوا ا كيهم وصاروا مندرجين في جملتهم. وفرقة من هؤلاء الهلاليين لم يكونوا من الذين أجازوا القيل لعهد البازوري أو الجرجاني.

وإنما كانوا من قبل ذلك ببرقة أيام الحاكم العبيدي، ولهم فيها أخبار من الصنهاجيين ببرقة والشيعة بمصر خطوب، ونسبهم إلى عبد مناف بن هلال كما ذكر شاعرهم في قوله:

طلبنا القرب منهم وجزيل منهم ... بلا عيب من عرب سحاح جمودها

وبيت غرت أمره منا وبينهما ... طرود أنكاد اللي يكودها

ماتت ثلاث آلاف مرة وأربعة ... بحرمه منا تداوي كبودها

وقال الآخر منهم:

أيا رب جيرالخلق من نائح البلا ... إلا القليل انجارما لا يجيرها

وخص بها قرة مناف وعينها ... ديما لأرياد البوادي تشيرها

فذكر نسبهم في مناف، وليس في هلال. مناف هكذا منفرداً إنما هو عبد مناف والله تعالى أعلم. كان شيخهم أيام الحاكم مختار بن القاسم. ولما بعث الحاكم يحيى بن علي الأندلسي لصريخ فلفول بن سعيد بن خزروق بطرابلس على صنهاجة كما نذكره في أخبار بني خزروق، أوعز لهم في السير معه فوصلوا إلى طرابلس وجروا الهزيمة على يحيى بن عليّ، ورجعوا إلى برقة. وبعث عنهم فامتنعوا، ثم بعث لهم بالأمان، ووصل وفدهم إلى الإسكندرية فقتلوا عن آخرهم سنة أربع وتسعين وثلثمائة. وكان عندهم معلم للقرآن اسمه الوليد بن هشام ينسب إلى المغيرة بن عبد الرحمن من بني أُميّة وكان يزعم أن لديه أثارة من علم في اختيار ملك آبائه، وقبل ذلك منه البرابرة من مزاتة وزناتة ولواتة. وتحدثوا بشأنه فنصبه بنو قرة وبايعوه بالخلافة سنة خمس وتسعين وثلثمائة0 وتغلّبوا على مدينة برقة. وزحف إليهم جيوش الحاكم فهزموها، وقتل الوليد بن هشام قائدها من الترك.

ثم زحفوا به إلى مصر فانهزموا ولحق الوليد بأرض النجاء من بلاد السودان. ثم أخفرت ذمته وسيق إلى مصر وقتل، وهدرت لبني قرة جنايتهم هذه وعفا عنهم. ولما كانت سنة إثنتين وأربعمائة اعترضوا هدية باديس بن المنصور ملك صنهاجة من أفريقية إلى مصر فأخذوها، وزحفوا إلى برقة فغلبوا العامل عليها، وفرّ في البحر، واستولوا على برقة. ولم يزل هذا شأنهم ببرقة. فلما زحف إخوانهم الهلاليون من زغبة ورياح والأثبج وأتباعهم إلى أفريقية، كانوا ممن زحف معهم. وكان من شيوخهم ماضي بن مقرب المذكور في أخبار هلال.

ولهؤلاء الهلاليين في الحكاية عن دخولهم إلى أفريقية طرق في الخبر غريبة: يزعمون أن الشريف بن هاشم كان صاحب الحجاز ويسمونه شكر بن أبي الفتوح، وأنه أصهر إلى الحسن بن سرحان في أخته الجازية فأنكحه إياها، وولدت منه ولداً إسمه محمد. وأنه حدث بينهم وبين الشريف مغاضبة وفتنة، وأجمعوا الرحلة عن نجد إلى أفريقية. وتحيّلوا عليه في استرجاع هذه الجازية فطلبته في زيارة أبويها فأزارها إياهم، وخرج بها إلى حللهم فارتحلوا به وبها. وكتموا رحلتها عنه، وموّهوا عليه بأنهم يياكرون به للصيد والقنص ويروحون به إلى بيوتهم بعد بنائها فلم يشعر بالرحلة إلى أن فارق موضع ملكه، وصار إلى حيث لا يملك أمرها عليهم ففارقوه، فرجع

إلى مكانه من مكة، وبين جوانحه من حبها داء دخيل، وأنهاه من بعد ذلك كلفت به مثل كلفه إلى أن ماتت من حبه.

ويتناقلون من أخبارها في ذلك ما يعفى عن خبر قيس وكثير، ويروون كثيرا من أشعارها محكمة المباني متفقة الأطراف، وفيها المطبوع والمنتحل والمصنوع، لم يفقد فيها من البلاغة شيء وإنما أخلوا فيها بالأعراب فقط، ولا مدخل له في البلاغة كما قّررناه لك في الكتاب الأوّل من كتابنا هذا. إلا أن الخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون في روايتها ويستنكفون عنها لما فيها من خلل الإعراب، ويحسبون أن الإعراب هو أصل البلاغة، وليس كذلك. وفي هذه الأشعار كثير دخلته الصنعة، وفقدت فيه صحة الرواية فلذلك لا يوثق به. ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بأيامهم ووقائعهم مع زناتة وحروبهم؛ وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم. لكنا لا نثق بروايتها. وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها ويتهمه، وهذا قصارى الأمر فيه.

وهم متفقون على الخبر عن حال هذه الجازية والشريف خلفاً عن سلف وجيلا عن جيل. ويكاد القادح فيها والمستريب في أمرها أن يرمى عندهم

بالجنون والخلل المفرط لتواترها بينهم. وهذا الشريف الذي يشيرون إليه هو من الهواشم، وهو شكر بن أبي الفتوح الحسن بن أبي جعفربن هاشم محمد بن موسى بن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون بن عبد الله بن إدريس وأبوه أبو الفتوح هو الذي خطب لنفسه بمكة أيام الحاكم العبيدي، وبايع له بنو الجراح أمراء طيء بالشام وبعثوا عنه فوصل إلى أحيائهم، وبايع له كافة العرب. ثم غلبتهم عساكر الحاكم العبيدي ورجع إلى مكة، وهلك سنة ثلاثين وأربعمائة فولي بعده إبنه شكر هذا، وهلك سنة ثلاث وخمسين، وولي إبنه محمد الذي يزعم هؤلاء الهلاليون أنه من الجازية هذه. وتقدّم ذلك في أخبار العلوية هكذا نسبه ابن حزم.

(وقال ابن سعيد): هو من السليمانيين من ولد محمد بن سليمان بن داود بن حسن بن الحسين السبط الذي بايع له أبو الزاب الشيباني بعد ابن طباطبا، ويسمّى الناهض. ولحق بالمدينة فاستولى على الحجاز واستقرت إمارة مكة في بيته إلى أن غلبهم عليها هؤلاء الهواشم. جداً قريباً من الحسن والحسين. وأمّا هاشم الأعلى فمشترك بين سائر الشرفاء، فلا يكون مميزاً لبعضهم عن بعض. وأخبرني من أثق به من الهلاليين لهذا العهد أنه وقف على بلاد الشريف شكر، وأنها بقعة من أرض نجد مما يلي الفرات، وأن ولده بها لهذا العهد والله أعلم.

ومن مزاعمهم أنّ الجازية لما صارت إلى أفريقية وفارقت الشريف خلفه عليها منهم ماضي بن مقرّب من رجالات دريد وكان المستنصر لما بعثهم إلى أفريقية عقد لرجالاتهم على أمصارها وثغورها وقلدهم أعمالها، فعقد لموسى بن يحيى المرداسي على القيروان وباجة، وعقد لزغبة على طرابلس وقابس، وعقد لحسن بن سرحان على قسطنطينة. فلما غلبوا صنهاجة على الأمصار، وملك كل ما عقد له سيمت الرعايا بالأمصار عسفهم وعيثهم باختلاف الأيدي، إذ الوازع مفقود من أهل هذا

الجيل العربي مُذ كانوا فثاروا بهم وأخرجوهم من الأمصار، وصاروا إلى ملك الضواحي والتغلّب عليها، وسيّم الرعايا بالخسف في النهب والعيث وإفساد السابلة، هكذا إلى هلمّ.

ولّما غلبوا صنهاجة اجتهد زناتة في مدافعتهم بما كانوا أملك للبأس والنجدة بالبداوة فحاربوهم وزحفوا إليهم من أفريقية والمغرب الأوسط. وجهز صاحب تلمسان من بني خزر قائده أبا سعدى اليفرني فكانت بينهم وبينه حروب إلى أن قتلوه بنواحي الزاب، وتغلبوا على الضواحي في كل وجه. وعجزت زناتة عن مدافعتهم بأفريقية والزاب. وصار الملتحم بينهم في الضواحي بجبل راشد، ومصاب من بلاد المغرب الأوسط. فلما استقر لهم الغلب وضعت الحرب أوزارها، وصالحهم الصنهاجيون على خطة خسف في انفرادهم بملك الضواحي دونهم، وصاروا إلى التفريق بينهم، وظاهروا الاثبج على رياح وزغبة، وحشد الناصر بن علناس صاحب القلعة لمظاهرتهم وجمع زناتهة وكان فيهم المعزّ بن زيري صاحب فاس من مغراوة ونزلوا الأربس جميعاً. ولقيهم رياح وزغبة بسببه.

ومكر المعز بن زيري المغراويّ بالناصر وصنهاجة بدسيسة زعموا من تميم بن المعز بن باديس صاحب القيروان، فجر عليهم الهزيمة واستباحت العرب وزناتة حزائن الناصر ومضاربه. وقتل أخوه القاسم ونجا إلى قسطنطينية ورياح في اتباعه. ثم لحق بالقلعة فنازلوها وخرّبوا جنباها وأحبطوا عروشها، وعاجوا على ما هنالك من الأمصار مثل طبنة والمسيلة فخربوها وأزعجوا ساكنيها، وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعاً صفصفاً أقفر من بلاد الجن، وأوحش من جوف العير وغوروا المياه واحتطبوا الشجر، وأظهروا في الأرض الفساد، وهجروا ملوك أفريقية والمغرب من صنهاجة وولاة أعمالهم في الأمصار، وملكوا عليهم الضواحي يتحيفون جوانبهم ويقعدون لهم بالمراصد، ويأخذون لهم الأتاوة على التصرف في أوطانهم.

و لم يزل هذا دأبهم حتى لقد هجر الناصر بن علناس سكنى القلعة، واختط بالساحل مدينة بجاية، ونقل إليها ذخيرته وأعدها لنزله. نزلها المنصور ابنه من بعده فرارا من ضيم هذا الجيل وفسادهم بالضواحي إلى منعة الجبال وتوعر مسالكها على رواحلهم. واستقروا بها بعد، وتركوا القلعة. وكانوا يختصون الاثبج من هؤلاء الأحياء بالرياسة

سائر أيامهم. ثم افترق جمع الأثبج وذهبت بذهاب صنهاجة دولتهم. ولما غلب الموحدون سائر الدول بالمغرب في سني إحدى وأربعين وخمسمائة، وزحف شيخ الموحّدين عبد المؤمن إلى أفريقية، وفد عليه بالجزائر أميران منهم لذلك العهد أبو الجليل بن شاكر أمير الأثبج وحبّاس بن مشيفر من رجالات جشم فتلقاهما بالمبرة، وعقد لهما على قومهما ومضى لوجهه. وفتح بجاية سنة تسع وخمسين وخمسماية.

ثم انتقض العرب الهلاليون واعصوصبوا على دعوة صنهاجة وكان أمير رياح فيهم محرز بن زناد بن بازخ إحدى بطون بني علي بن رياح، فلقيتهم جيوش الموحدين بسطيف، وعليهم عبد الله بن المؤمن فتواقفوا ثلاثا علقوا فيها رواحلهم، وأثبتوا في مستنقع الموت أقدامهم، ثم انتفض في الرابعة جمعهم واستلحمهم الموحّدون وغلبوا عليهم، وغنموا أموالهم وأسروا رجالهم وسبوا نساءهم واتبعوا أدبارهم إلى فحص سبتة0 ثم راجعوا من بعد ذلك بصائرهم واستكانوا لعزّ الموحّدين وغلبهم فدخلوا في دعوتهم وتمسكوا بطاعتهم، وأطلق عبد المؤمن أسراهم و لم يزالوا على استقامتهم، و لم يزل الموحدون يستنفرونهم في جهادهم بالأندلس وربما بعثوا إليهم في

ذلك المخاطبات الشعرية فأجازوا مع عبد المؤمن ويوسف إبنه كما هو في أخبار دولتهم. ولم يزالوا في استقامتهم إلى أن خرج عن الدولة بنو غانية المسوّفيون أمراء ميورقة، أجازوا البحر في أساطيلهم إلى بجاية فكبسوها سنة إحدى وثمانين وخمسمائة لأوّل دولة المنصور، وكشفوا القناع في نقض طاعة الموحدين ودعوا العرب بها فعادت هيف إلى أديانها. وكانت قبائل جشم ورياح وجمهور الأثبج من هؤلاء الهلاليين أسرع إجابة إليها. ولما تحركت جيوش الموحدين إلى أفريقية لكف عدوانهم تحيزت قبائل زغبة إليهم وكانوا في جملتهم ولحق بنو غانية بفاس ومعهم كافة جشم ورياح، ولحق بهم جل قومهم من مسوفة وإخوانهم لمتونة من أطراف البقاع، واستمسكوا بالدعوة العباسية التي كان أمراؤهم بنو تاشفين بالمغرب يتمسّكون بها فأقاموها فيمن إليهم من القبائل والمسالك ونزلوا بفاس. وطلبوا من الخليفة ببغداد المستنصر تجديد العهد لهم بذلك وأوفدوا عليه كاتبهم عبد البر بن فرسان، فعقد لابن غانية وأذن له في حرب الموحدين. واجتمعت إليه قبائل بني سليم بن منصور، وكانوا جاؤوا على أثر الهلاليين

عند إجازتهم إلى أفريقية. وظاهره على أمره ذلك قراقوش الأرمني. ونذكر أخباره في أخبار الميورقي. فاجتمع لعلي بن غانية من الملثمين والعرب والعجم عساكر جمة، وغلب الضواحي وافتتح بلاد الجريد، وملك قفصة وتوزر ونفطة. ونهض إليه المنصور من مراكش يجر امم المغرب من زناتة والمصامدة وزغبة من الهلاليين وجمهور الأثبج، فأوقعوا بمقدمته بفحص غمرة من جهات قفصة. ثم زحف إليهم من تونس فكانت الكرّة عليهم وفلّ جمعهم واتبع آثارهم إلى أن شرّدهم إلى صحارى برقة، وانتزع بلاد قسنطينة وقابس وقفصة من أيديهم. وراجعت قبائل جشم ورياح من الهلاليّين طاعته ولاذوا بدعوته فنفاهم إلى المغرب الأقصى. وأنزل جشم ببلاد تامسنا، ورياحاً ببلاد الهبط، وأزغار مما يلي سواحل طنجة إلى سلا.

وكانت تخوم بلاد زناتة منذ غلبهم الهلاليون على أفريقية وضواحيها أرض مصاب ما بين صحراء أفريقية وصحراء المغرب الأوسط، وبها قصور جدّدها فسميت باسم من ولي خطتها من شعوبهم. وكان بنو بادين وزناتة وهم بنو عبد الواد وتوجين ومصاب وبنو زردال وبنو راشد شيعة للموحّدين منذ أول دولتهم، فكانوا أقرب إليهم من أمثالهم بنو مرين وأنظارهم كما يأتي. وكانوا يتولّون من أرياف المغرب الأوسط وتلوله ما ليس يليه أحد من زناتة، ويجوسون خلاله في رحلة الصيف بما لم يؤذن لأحد ممن سواهم في مثله، حتى كأنهم من جملة عساكر الموحّدين وحاميتهم. وأمرهم إذ ذاك راجع إلى صاحب تلمسان من سادة القرابة ونزل هذا الحي من زغبة مع بني بادين هؤلاء لما اعتزلوا إخوانهم الهلاليّين وتحيزوا إلى فئتهم، وصاروا جميعاً قبلة المغرب الأوسط من مصاب إلى جبل راشد، بعد أن كانت قسمتهم الأولى بقابس وطرابلس.

وكانت لهم حروب مع أولاد خزرون أصحاب طرابلس. وقتلوا سعيد بن خزرون فصاروا إلى هذا الوطن الآخر لفتنة إبن غانية، وانحرافهم عنه إلى الموحدين. وانعقد ما بينهم وبين بني بادين حلف على الجوار والذبّ عن الأوطان وحمايتها من معرة العدو في

احتيال غرتها وانتهاز الفرصة فيها. فتعاقدوا على ذلك واجتوروا وأقامت زغبة في القفار وبنو بادين بالتلول والضواحي. ثم فر مسعود بن سلطان بن زمام أمير الرياحيّين من بلاد الهبط، ولحق ببلاد طرابلس ونزل على زغبة وذياب من قبائل بني سليم. ووصل إلى قراقش بن رياح وحصر معه طرابلس حين افتتحها، وهلك هنالك. وقام إلى الميروني ولحق ولقيه بالحملة فهزمه وقتل الكثيرمن قومه.

وانهزمت طائفة من قوم محمد بن مسعود منهم: إبنه عبد الله وابن عمه حركات بن أبي الشيخ بن عساكر بن سلطان، وشيخ من شيوخ قرة فضرب أعناقهم. وفر يحيى بن غانية إلى مسقطه من الصحراء. واستمرّت على ذلك أحوال هذه القبائل من هلال وسليم وأتباعها. ونحن الآن نذكر أخبارهم ومصائر أمورهم ونعدّدهم فرقة فرقة. ونخص منهم بالذكر من كان لهذا العهد بحيه وناجعته، ونطوي ذكر من انقرض منهم. ونبدأ بذكر الأثبج لتقدم رياستهم أيام صنهاجة كما ذكرناه. ثم نقفي بذكر جشم لأنهم معدودون فيهم. ثم نذكر رياحاً وزغبة، ثم المعقل لأنهم من عداد هلال. ثم نأتي بعدهم بذكر سفيم لأنهم جاؤوا من بعدهم والله الخلاق العليم.

الخبر عن الأثبج وبطونهم من هلال بن عامر من هذه الطبقة الرابعة:

كان هؤلاء الأثبج من الهلاليين أوفر عدداً وأكثر بطوناً، وكان التقدم لهم في جملتهم. وكان منهم: الضحاك وعياض ومقدم والعاصم ولطيف ودريد وكرفة وغيرهم حسبما يظهر في نسبهم. وفي دريد بطنان: توبة وعتر. ويقولون بزعمهم أن أثبج هو ابن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال. فكرفة هو ابن الأثبج. وكان لهم جمع وقوّة وكانوا أحياء غزيرة من جملة الهلاليين الداخلين لأفريقية. وكانت مواطنهم حيال جبل أوراس

من شرقية. ولما استقر أمر الأثبج بأفريقية على غلب صنهاجة على الضواحي ووقعت الفتنة بينهم، وذلك أن حسن بن سرحان وهو من دريد قتل شبانة بن الاحيمر من كرفة عيلة، فطوت كرفة على الهائم.

ثم إن أخته الجازية غاضبت زوجها ماضي بن مقرب بن قرة، ولحقت بأخيها فمنعها منه فاجتمعت قرة وكرفة على فتنة حسن وقومه، وظاهرتهم عياض. و لم تزل الفتنة إلى أن قتل حسن بن سرحان. قتله أولاد شبانة بن الأحيمر، وثأروا منه بأبيهم. ثم كان الغلب بعده لدريد على كرفة وعياض وقرة. واستمرت الفتنة ين هؤلاء الأثابج، وافترق أمرهم. وجاءت دولة الموحدين وهم على ذلك الشتات والفتنة، وكانت لبطونهم ولاية لصنهاجة. فلما ملك الموحدون أفريقية نقلوا منهم إلى المغرب العاصم ومقدماً وقرة وتوابع لهم من جشم، وأنزلوا جميعهم بالمغرب كما نذكر.

واعتزت رياح بعهدهم بأفريقية وملكوا ضواحي قسطنطينة ورجع إليهم شيخهم مسعود بن زمام من المغرب فاعتز الزواودة على الأمراء والدول. وساء أثرهم فيها وغلبوا بقايا الاثابج فتزلوا قرى الزاب، وقعدوا عن الطعن وأوطنوا بالقرى والاطام. ولما نبذ بنو أبي حفص العهد للدواودة كما يأتي في أخبارهم، واستجاش عليهم بنو سليم وأنزلوهم القيروان اصطنعوا كرفة من بطون الأثابج، فكانوا حرباً لرياح وشيعة للسلطان. وأقطعتهم الدولة لذلك جباية الجانب الشرقي من جبل أوراس وكثيرا من بلاد الزاب الشرقية، حيث كانت محلاتهم الشتوية. حتى إذا اختل ريح الدولة، وأخلقت جدتها واعتزت رياح عليها، وملكوا المجالات على من

يظعن فها نزل كرفة هؤلاء بجبل أوراس حيث إقطاعاتهم وسكنوه حللاً متفرقة واتخذوه وطناً. وربما يظعن بعضهم إلى تخوم الزاب كما نذكر عن بطونهم، وهم بطون كثيرة، فأؤلهم: بنو محمد بن كرفة ويعرفون بالكلبية، وأولاد سهيب بن محمد بن كليب ويعرفون بالشبه، وأولاد صبيح بن فاضل بن محمد بن كليب ويعرفون بالصبحة، وأولاد سرحان بن فاضل أيضاً ويعرفون بالسرحانية. وهؤلاء هم المودعات وهم موطنون بجبل أوراس مما يلي زاب تهودا ثم أولاد نافت بن فاضل، وهم أهل الرياسة في كرفة. ولهم إقطاعات السلطان التي ذكرناها، وهم ثلاثة أفخاذ: أولاد مساعد وأولاد ظافر وأولاد قطيفة. والرياسة أخص بأولاد مساعد في أولاد علي بن جابر بن فتاح بن مساعد بن نابت. وأما بنو محمد والمراونة فهم ظواعن جائلة في القفار تلقاء مواطن أولاد نابت. ويكتالون الحبوب لأقواتهم من زروع أهل الجبل، وأولاد نابت. وربما يستعملهم صاحب الزاب في تصاريف أمره من عسكر وإخفار، وغير ذلك من أغراضه. وأما دريد فكانوا أعز الأثبج وأعلاهم كعبأ بما كانت الرياسة على الأثبج كلهم عند دخولهم إلى أفريقية لحسن بن سرحان بن وبرة إحدى بطونهم، وكانت مواطنهم ما بين العناب إلى قسطنطينة إلى طارف مصقلة، وما يحاذيها من القفر. وكانت بينهم وبين كرفة الفتنة التي هلك فيها حسن بن سرحان كما ذكرناه، وقبره هنالك. وكانوا بطوناً كثيرة منهم: أولاد عطية بن دريد وأولاد سرور بن دريد وأولاد جار الله من ولد عبد الله بن دريد. وتوبة من ولد عبد الله أيضاً، وهو توبة بن جبربن عطاف بن عبد الله، وكانت لهم بين هلال رياسة كبيرة، ومدحهم شعراؤهم بشعر كثير، فمن ذلك قول بعض شعرائهم:

دريد ذات سراة البدو للجود منقع كما كل أرض منقع الماء خيارها

تحنّ إلى أوطان مرة ناقتي لكن معها جملة دريد كان موارها

وهم عربوا الأعراب حتى تعرّبت بنوف المعالي ما ينفي قصارها

وتركوا طريق النار برهة وقد كان ما تقوى المطايا حجارها

فأما أولاد عطية فكانت رئاستهم في أولاد بني مبارك بن حباس، وكانت لهم تلة بن حلوف من أرض قسطنطينة. ثم دثروا وتلاشوا0 وغلبتهم توبة علي على تلة بن حلوف زحفوا إليها من مواطنهم بطارق مصقلة فملكوها وما إليها. ثم عجزوا عن رحلة القفر وتركوا الإبل واتخذوا الشاة والبقر وصاروا في عداد القبائل الغارمة، وربما طالبهم السلطان بالعسكرة معه فيعينون له جنداً منهم، ورياستهم في أولاد وشاح بن عطوة بن عطية بن كمون بن فرج بن ثوبة، وفي أولاد مبارك بن عابد بن عطية بن عطوة، وهم على ذلك العهد. ويجاورهم أولاد سرور وأولاد جار الله على سننهم في ذلك.

فأما أولاد وشاح فرئاستهم لهذا العهد منقسمة بين سجم بن كثير بن جماعة بن وشاح وبين أحمد بن خليفة بن رشاش بن وشاح. وأما أولاد مبارك بن عابد فرئاستهم أيضا منقسمة بين نجاح بن محمد بن منصوربن عبيد بن مبارك، وعبد الله بن أحمد بن عنان بن منصور ورثها عن عمه راجح بن عثمان بن منصور وأما أولاد جار

الله فرئاستهم في ولد عنان بن سلام منهم. وأما العاصم ومقدم والضحاك وعياض فهم أولاد مشرف بن اثبج، ولطيف وهو ابن سرح بن مشرف، وكان لهم عدد وقوة بين الأثابج.

وكان العاصم ومقدم انحرفوا عن طاعة الموحدين إلى ابن غانية، فأشخصهم يعقوب المنصور إلى المغرب وأنزلهم تامستا مع جشم ويأتي خبرهم، وبقيت عياض والضحاك بمواطنهم بأفريقية: فعياض نزلوا بجبل القلعة، قلعة بني حماد، وملكوا قبائله وغلبوهم على أمرهم، وصاروا يتولون جبايتهم. ولما غلبت عليهم الدولة بمظاهرة رياح صاروا إلى المدافعة عن تلك الرعايا وجبايتهم للسلطان. وسكنوا ذلك الجبل فطوله من المشرق إلى المغرب ما بين ثنية غنية والقصاب إلى وطن بني يزيد بن زغبة. فأولهم مما يلي غنية للمهاية. ورئاستهم في أولاد ديفل، ومعهم بطن منهم يقال لهم الزير، وبعدهم المرتفع والخراج من بطونهم.

فأما المرتفع فثلاثة بطون: أولاد تبان، ورياستهم في أولاد محمد بن موسى، وأولاد حناش، ورياستهم في بني عبد السلام. وأولاد عبدوس ورياستهم في بني صالح. ويدعى أولاد حناش وأولاد تبار جميعاً أولاد حناش.

وأما الخراج فرياستهم لأولاد زائدة بني عباس بن خفير، ويجاور الخراج من جانب الغرب أولاد صخر، وأولاد رحمة من بطون عياض، وهم مجاورون لبني يزيد بن زغبة في آخر وطن الأثابج من الهلاليين.

وأما الضحاك فكانوا بطوناً كثيرة، وكانت رياستهم مفترقة بين أمرين منهم وهما أبو عطية وكلب بن منيع وغلب كلب أبا عطية على رياسة قبيلتهما لأول دولة

الموحدين، فارتحل فيما زعموا إلى المغرب، وسكن صحراء سجلماسة، وكانت له فيها آثار حتى قتله الموحدون أو غربوه إلى الأندلس، هكذا ينمل أصحاب أخبارهم. وبقي تجمعهم بالزاب حتى غلب مسعود بن زمام والزواودة عليهم وأصاروهم في جملتهم.ثم عجزوا عن الطعن، ونزلوا بلاد الزاب واتخذوا بها المدن، فهم على ذلك لهذا العهد. وأما لطيف فهم بطون كثيرة منهم، اليتامى وهم أولاد كسلان بن خليفة بن لطيف بني ذوي مطرف وذوي أبي الخليل وذوي جلال بن معافى. ومنهم اللقامنة، أولاد لقمان بن خليفة بن لطيف ومنهم: أولاد جرير بن علوان بن محمد بن لقمان، ونزار بن معن بن محيا بن جري بن علوان، وجرير يزعمون أنهم من محيا بن جري، ومزنة من ديفل بن محيا؛ وإليه يرجع نسب بني مزني الولاة بالزاب لهذا العهد.

وكانت هؤلاء كثرة ونجعة. ثم عجزوا عن الظعن وغلبهم على الضواحي الزواودة من بعدهم لما قل جمعهم وافترق ملوكهم، وصار إلى المغرب من صار منهم من جمهور الأثبج فاهتضموا، وعليهم رياح والزواودة فترلوا بلاد الزاب، واتخذوا بها الآطام والمدن مثل الدوسن وغربيوا وقمدوه وتقموه وبادس. وهم لهذا العهد من جملة الرعايا الغارمة لأمير الزاب. ولهم عنجهية منذ رياستهم القديمة لم يفارقوها، وهم على ذلك لهذا العهد. وبينهم في قصورهم بالزاب فتن متصلة بين المتجاورين منهم وحروب وقتل. وعامل الزاب يدرأ بعضاً ببعض، ويستوفي جبايته منهم جميعاً والله خير الوارثين.

ويلحق بهؤلاء الأثبج العمور، ويغلب على الظنّ أنهم من ولد عمرو بن عبد مناف بن هلال إخوة قرة بن عبد مناف، وليسوا من ولد عمربن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال، لأن رياحاً وزغبة والأثبج من أبي ربيعة، ولا نجد

بينهم انتماء بالجملة. ونجد بينهم وبين قرة وغيرهم من بطون هلال الانتماء، فدل على أنهم لعمرو بن عبد مناف، أو يكونون من عمرو بن روينة بن عبد الله بن هلال وكلهم معروف. ذكره ابن الكلبي والله أعلم بذلك. وهم بطنان: قرة وعبد الله، وليس لهم رياسة على أحد من هلال، ولا ناجعة تظعن لقلتهم وافتراق ملتهم. إنما هم ساكنون بالضواحي والجبال، وفيهم الفرسان وأكثرهم رجالة. وموطنهم ما بين جبل أوراس شرقاً إلى جبل

راشد. وكان كل ذلك من ناحية الحضنة والصحراء. وأما التلول فهم مرفوعون عنها بقلتهم وخوفهم من حامية الدول، فتجدهم أقرب إلى موطن القفر والجدب.

(فأما بنو قرة) منهم فبطن متسع إلا أنهم مفترقون في القبائل والمدن وحدانا. وبنو عبد الله منهم على رياسة فيهم وهم: عبد الله بن علي وبنوه محمد وماضي بطنان، وولد محمد : عنان وعزيز بطنان، وولد عنان شكر وفارس بطنان. من ولد شكر أولاد يحيى ابن سعيد بن شكر بطن أيضاً. فأما أولاد فارس وأولاد عزيز وأولاد ماضى فموطنهم بسفح جبل أوراس المطل على بسكرة قاعدة الزاب متصلين كذلك غرباً إلى مواطن غمرة، وهم في جوار رياح وتحت أيديهم، وخول لأولاده وخصوصاً من الزواودة المتولين موطنهم بالمجال. ولصاحب الزاب عليهم طاعة لقرب جواره وحاجتهم إلى سلطانه، فيصرفهم لذلك في حاجته متى عنت من إخفار العير ومقارفة مدن الزاب مع رجله وغير ذلك.

(وأما أولاد شكر) وهم أكبر رياسة فيهم فنزلوا جبل راشد، وكانوا فريقين، فنزلوا واحتربوا وغلب أولاد محيا بن سعيد منهم أولاد زكرير ودفعوهم عن جبل راشد فصاروا إلى جبل كسال محاذيه من ناحية الغرب وأوطنوه، واتصلت فتنتهم معهم على طول الأيام وافتتحهم رجال زغبة باقتسام المواطن: فصار أولاد يحيى أهل جبل راشد في إيالة سويد بن زغبة وأحلافاً لهم، وأولاد زكرير أهل جبل كسال في إيالة بني عامر وأحلافا لهم. وربما يقتحمون بادية زغبة مع النضرأحلافا لهم في فتنتهم كما نذكر في أخبار زغبة. وكان شيخهم من أولاد يحيي فيما قرب من عهدنا عامر بن أبي يحيى بن محيا. وكان له فيهم ذكر وشهرة. وكان ينتحل العبادة وحج، ولقي بمصر شيخ الصوفية لعصره يوسف الكوراني، وأخذ عنه ولقن طرق هدايته ورجع إلى قومه وعاهدهم على طريقته ونحلته فاتبعه الكثير منهم، وغزا المفسدون من بادية النضر في جواره، وجاهدهم إلى أن اغتالوه بعض الأيام في الصيد فقتلوه. وكان شيخ أولاد زكريريغمور بن موسى بن بوزير بن زكرير، وكان يسامي عامراً ويناهضه في شرفه، إلا أن عامراً كان أسود منه بنحلة العبادة، والله مصرف الأمور والخلق ا ه. خريطة

الخبر عن جشم الموطنين بسائط المغرب وبطونهم من هذه الطبقة:

هؤلاء الأحياء بالمغرب لهذا العهد فيهم بطون من قرة والعاصم، ومقدم والأثبج وجشم والخلط. وغلب عليهم جميعاً اسم جشم فعرفوا به. وهم: جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن. وكان أصل دخولهم إلى المغرب: أنّ الموحدين لما غلبوا على أفريقية أذعنت لهم هؤلاء القبائل من العرب طوعاً وكراهية. ثم كانت فتنة ابن غانية

فأجلبوا فيها وانحرفوا عن الموحدين، وراجعوا الطاعة لعهد المنصور فنقل جمهور هؤلاء القبائل إلى المغرب ممن له كثرة وشوكة وظواعن ناجعة. فنقل العاصم ومقدم من بطون الأثبج، ومعهم بطون ونقل جشم هؤلاء الذين غلب إسمهم على من معهم من الأحياء، وأنزلهم تامستا. ونقل رياح وأنزلهم الهبط فترل جشم بتامستا البسيط الأفيح ما بين سلا ومراكش أوسط بلاد المغرب الأقصى، وأبعدها عن الثنايا المفضية إلى القفار لإحاطة جبل درن بها وشموخه بأنفه حذاءها، ووشوج أعراقه حجراً عليها فلم ينتجعوا بعدها قفراً ولا أبعدوا رحلة، وأقاموا بها أحياء حلولا، وافترقت شعوبهم بالمغرب إلى الخلط وسفيان وبني جابر.

وكانت الرياسة لسفيان من بينهم في أولاد جرمون سائر أيام الموحدين، ولما وهن أمر بني عبد المؤمن وفشلوا وذهبت ريحهم استكثروا بجموعهم، فكانت لهم سورة غلب واعتزاز على الدولة بكثرتهم وقرب عهدهم بالبداوة وخرّبوا ما بين الأعياص، وظاهروا الخلافة وأكثروا الفساد وساءت آثارهم في البغي.

ولما اقتحم بنو مرين بلاد المغرب على الموحدين وملكوا فاس وقريتها لم تكن فيه حامية أشد منهم بأساً ومن رياح لقرب العهد بالبداوة، فكانت لهم معهم وقائع وحروب استلحمهم فيها بنو مرين إلى أن حق الغلب واستكانوا لعزّ بني مرين وصولتهم، وأعطوهم صفقة الطاعة وأصهر بنو مرين منهم إلى الخلط في بيت بني مهلهل، فكان في جملة بني مرين، وكانت لهم الجولة للملك. واستقرّت رياسة جشم وكثرهم في الخلط منهم، في ببت مهلهل، بعد أن كانت على عهد الموحدين في سفيان.

ثم ضربت الأيام ضرباتها وأخلقت جدتهم وفشلوا وذهبت ريحهم، ونسوا عهد البداوة والناجعة وصاروا في عداد القبائل الغارمة للجباية والعسكرة مع السلطان (ولنذكر الآن) فرقهم الأربع، وأحياء كل واحدة منها ونحقق الكلام في أنسابهم: فليست راجعة إلى جشم على ما يتبين. ولكن الشهرة بهذا النسب متصلة والله أعلم بحقائق الأمور.

هذه القبائل معدودة في جشم، وجشم المعهود هو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن أو لعله جشم آخر من غيرها. وكان شيخهم المشهور لعهد المأمون وبنيه جرمون بن عيسى. ونسبه فيما يزعم بعض المؤرخين أيام الموحدين في بني قرة، وكانت بينهم وبين الخلط فتن طويلة وكان الخلط شيعة للمأمون وبنيه فصار سفيان لذلك شيعة يحيى بن الناصر منازعه في الخلافة بمراكش.ثم قتل الرشيد مسعود بن حميدان شيخ الخلط كما نذكر بعد، فصاروا إلى يحيى بن الناصر. وصار سفيان إلى الرشيد. ثم ظهر بنو مرين بالمغرب واتصلت حروبهم مع الموحدين. ونزع جرمون سنة ثمان وثلاثين وستمائة عن الرشيد ولحق بمحمد بن عبد الحق أمير بني مرين حياء مما وقع له معه، وذلك سنة ثمان وثلاثين وستمائة. وذلك أنه نادمه ذات ليلة حتى سكر، وحمل عليه وهو سكران يرقص فرقص طرباً. ثم أفاق فندم وفر إلى محمد بن عبد الحق، وذلك سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وهلك سنة تسع وثلاثين بعدها. وعلا كعب كانون إبنه من بعده عند السعيد، وخالف عليه عند نهوضه إلى بني مرين سنة ثلاث وأربعين وستمائة. ورجع إلى أزمور فملكها.

وفت ذلك في عضد السعيد فرجع عن حركته، وقصد كانون بن جرمون ففرأمامه وحضرحركته إلى تامزردكت، وقتل قبل مهلكه بيوم قتله الخلط في فتنة وقعت بينهم في محلة السعيد، وهي التي جرت عليها تلك الواقعة. وقام بأمر سفيان من بعده أبوه يعقوب بن جرمون، وقتل محمد ابن أخيه كانون. وقام بأمر سفيان، وحضر مع المرتضى حركة أمان إيملولين سنة تسع وأربعين وستمائة فرحل عن السلطان واختل عسكره فرجع فاتبعه بنو مرين وكانت الهزيمة.ثم رجع المرتضى وعفا له عنها، ثم قتله سنة تسع وخمسين وستمائة مسعود وعلي إبناء أخيه كانون بثأرأبيهما، ولحقا بيعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين وقدم المرتضى إبنه عبد الرحمن فعجز، عن القيام بأمره، فقدم عفه عبيد الله بن جرمون فعجز، فقدم مسعود بن كانون، ولحق عبد الرحمن ببني مرين. ثم تقبّض ،المرتضى على يعقوب بن قيطون شيخ بني جابر وقدم عوضاً منه يعقوب بن كانون السفياني. ثم راجع عبد الرحمن بن يعقوب سنة أربع وخمسين وستمائة فتقبض عليه واعتقل. وأقام مسعود بن كانون شيخاً على سفيان. وكان لإبني عفه معه ظهوروهما: حطوش وعيسى أبناء يعقوب بن جرمون. ونزع مسعود عن يعقوب مقامه إلى أن هلك سنة ست وستين وستمائة ابن عبد الحق ولحق بمسكورة وشب نار الفتنة والحرب واقيم حطوش بن يعقوب مقامه إلى أن هلك سنة تسع وستين وستمائة، فولي مكانه أخوه عيسى. وهلك مسعود بسكورة سنة ثمانين وستمائة، ولحق ابنه منصور بن مسعود بالسكسيوي إلى أن راجع الخدمة أيام يوسف بن يعقوب. ووفد عليه بعسكره من حصار تلمسان سنة ست وسبعمائة فتقبله.

واتصلت الرياسة على سفيان في بني جرمون هؤلاء إلى عهدنا. وأدركت شيخاً عليهم لعهد السلطان أبي عنان يعقوب بن علي بن منصوربن عيسى بن يعقوب بن جرمون بن عيسى. وكان سفيان هؤلاء حياً حلولاً بأطراف تامستا مما يلي أسفى، وملك بسائطها الفسيحة عليهم الخلط. وبقي من أحيائهم الحرث والكلابية ينتجعون أرض السوس وقفاره، ويطلبون ضواحي بلاد حاجة من المصامدة، فبقيت فيهم لذلك شدة وبأس، ورياستهم في أولاد مطاوع من الحرث. وطال عيثهم في ضواحي مراكش وإفسادهم. فلما استبد سلطان مراكش الأمير عبد الرحمن بن أبي فلفوس علي ابن السلطان أبي علي سنة ست وسبعين وسبعمائة كما نذكر استخلصهم ورفع مترلتهم. واستقدمهم بعض أيامه للعرض بفرسانهم ورجلهم على العادة، وشيخهم منصور بن بعيش من أولاد مطاع. وتقبض عليهم أجمعين، وقتل من قتل منهم، وأودع الآخرين سجونه فذهبوا مثلاً في الأيام وخصدت شوكتهم والله قادر على ما يشاء.

الخلط من جشم:

هذا القبيل يعرف بالخلط وهم في عداد جشم هؤلاء، لكن المعروف أن الخلط بنو المنتفق من بني عامر بن عقيل بن كعب، كلهم شيعة للقرامطة بالبحرين، ولما ضعف أمر القرامطة استولى بنو سليم على البحرين بدعوة الشيعة. ثم غلبهم عليها بنو أبي الحسين من بطون تغلب بالدعوة العباسية، فارتحل بنو سليم وبنو المنتفق من هؤلاء المسمون بالخلط إلى أفريقية، وبقي سائر بني عقيل بنواحي البحرين إلى أن غلب منهم على التغلبيين

بنوعامر بن عوف بن مالك بن عوف بن مالك بن عوف بن عامر بن عقيل إخوة الخلط هؤلاء، لأنهم في المغرب منسوبون إلى جشم تخليطاً في النسب ممن يحققه ا لعوام.

ولما أدخلهم المنصور إلى المغرب كما قلناه استقّروا ببسائط تامستا فكانوا أولي عدد وقوّة، وكان شيخهم هلال بن حميدان بن مقدم بن محمد بن هبيرة بن عواج لا نعرف من نسبه أكثر من هذا. فلما ولي العادل بن منصور خالفوا عليه وهزموا عساكره، وبعث هلال ببيعته إلى المأمون سنة خمس وعشرين وستمائة، واتبعه الموحدون في ذلك. وجاء المأمون وظاهروه على أمره، وتحيز أعداؤهم سفيان إلى يحيى بن القاص منازعة. ولم يزل هلالى مع المأمون إلى أن هلك في حركة سبتة، وبايع بعده لأبنه الرشيد وجاء به إلى مراكش، وهزم سفيان واستباحهم.

ثم هلك هلال وولي أخوه مسعود، وخالف على الرشيد عمر بن أوقاريط شيخ الهساكرة من الموحدين، وكان صديقاً لمسعود بن حميدان فأغراه بالخلاف على إكسز السلطان فخالف. وحاول عليه الرشيد حتى قدم عليه بمراكش وقتله في جماعة من قومه سنة إثنتين وثلاثين وستمائة. وولي أمر الخلط بعده يحيى ابن أخيه هلال. ومرّ بقومه إلى يحيى بن القاص، وحصروا مراكش ومعهم ابن أوقاريط. وخرج الرشيد إلى سجلماسة واستولوا على مراكش وعاثوا فيها. ثم جاء الرشيد سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وغلبهم عليها ولحق ابن أوقاريط بالأندلس. وأبدى عليّ بن هود بيعة الخلط، وعلموا أنها حيلة من ابن أوقاريط وأنه تخلّص من

الورطة، فطردوا عنهم يحيى بن القاص إلى معقل. وراجعوا الرشيد فتقبض على علي ووشاح إبني هلال وسجنهم بآزمور سنة خمس وثلاثين وستمائة. ثم أطلقهم، ثم غدر بعد ذلك بمشيختهم بعد الإستدعاء والتأنيس وقتلهم جميعاً مع عمر بن أوقاريط، كان أهل إشبيلية بعثوا به إليه، ثم حضروا مع السعيد في حركته إلى بني عبد الواد، وجروا عليه الواقعة حتى قتل فيها بفتنتهم مع سفيان يومئذ. فلم يزل المرتضى يعمل الحيلة فيهم إلى أن تقبض على أشياخهم سنة إثنتين وخمسين وستمائة وقتلهم ولحق عواج بن هلال ببني مرين، وقدم المرتضى عليهم علي بن أبي علي من بيت الرياسة فيهم. ثم رجع عواج سنة أربع وخمسين وستمائة، وأغزاه علي بن أبي علي فقتل في غزاته.

ثم كانت واقعة أم الرجلين على المرتضى سنة ستين وستمائة، فرجع علي بن أبي علي إلى بني مرين. ثم صار الخلط كلهم إلى بني مرين. وكانت الرياسة فيهم لأول سلطان لبني مرين لمهلهل بن يحيى بن مقدم. وأصهر إليه يعقوب بن عبد الحق فأنكحه ابنته التي كان منها إبنه السلطان أبوسعيد. ولم يزل مهلهل عليهم إلى أن هلك سنة خمس وتسعين وستمائة، ثم إبنه عطية. وكان لعهد السلطان أبي سعيد وابنه أبو الحسن، وبعثه سفيراً إلى سلطان مصر الملك الناصر.

ولما هلك قام بأمره أخوه عيسى بن عطية ثم ابن أخيهما زمام بن إبراهيم بن عطية،

وبلغ إلى المبالغ من العز والترف والدالة على السلطان والقرب من مجلسه إلى أن هلك، فولي أمره إبنه أحمد بن إبراهيم، ثم أخوه سليمان بن إبراهيم، ثم أخوهما مبارك على مثل حالهم أيام السلطان أبي عنان0 ومن بعده إلى

أن كانت الفتنة بالمغرب بعد مهلك السلطان أبي سالم0 واستولى على المغرب أخوه عبد العزيز، وأقطع إبنه أبا الفضل ناحية مراكش، فكان مبارك هذا معه.

ولما تقبض على أبي الفضل تقبض على مبارك وأودع السجن إلى أن غلب السلطان عبد العزيز على عامر بن محمد وقتله، فقتل معه مبارك هذا لما كان يعرف به من صحابته ومداخلته في الفتن كما يذكر في أخبار بني مرين وولي إبنه محمد على قبيل الخلط، إلا أن الخلط اليوم دثرت كأن لم تكن بما أصابهم من الخصب والترف منذ مائتين من السنين بذلك البسيط الأفيح زيادة للعز والدعة، فأكلتهم السنون وذهب بهم الترف، والله غالب على أمره.

بنو جابر بن جشم:

بنو جابر هؤلاء من عداد جشم بالمغرب، وربما يقال إنهم من سدراتة إحدى فرق زناتة أو لواتة والله أعلم بذلك. وكان لهم أثر في فتنة يحيى بن الناصر بما كانوا معه من أحزابه ولما هلك يحيى بن الناصر سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بعث الرشيد بقتل شيخهم قائد بن عامر، وأخيه فائد، وولي بعده يعقوب بن محمد بن قيطون. ثم اعتقله يغلو قائد الموحدين، بعثة المرتضى لذلك. وقدم يعقوب بن جرموق، وولي مشيخة بني جابر إسمعيل بن يعقوب بن قيطون. ثم تحيز بنو جابر هؤلاء من أحياء جشم إلى سفح الجبل بتادلا وما إليها بجاورون هناك صناكة الساكنين بقشته وهضابه من البربر، فيسهلون إلى البسيط تارة، ويأوون إلى الجبل في حلف البربر وجوارهم أخرى إذا دهمتهم مخافة من السلطان، أوذي غلبة.

والرياسة فيهم لهذه العصور في ورديقة من بطونهم، أدركت شيخاً عليهم لعهد السلطان أبي عنان حسين بن علي الورديقي. ثم هلك واقيم مقامه الناصر إبنه. ولحق بهم الوزير الحسن بن عمر عند نزوعه عن السلطان أبي سالم سنة ستين وسبعمائة. ونهضت إليهم عساكر السلطان فأمكنوا منه. ثم لحق بهم أبو الفضل بن السلطان أبي

سالم عند فراره عن مراكش سنة ثمان وستين. ونازله السلطان عبد العزيز وأحيط به فلحق برابرة صناكة من قومه. ثم أمكنوا منه على مال حمل إليهم، ولحق بهم أثناء هذه الفتن الأمير عبد الرحمن يغلوسن على عهد الوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب. وطلبه عمر فأخرجوه عنهم وطال بذلك مراس الناصر هذا للفتنة فنكرته الدولة، وتقبض عليه وأودع السجن فمكث فيه سنين، وتجافت الدول عنه من بعد ذلك وأطلق عقالهم. ثم رجع من المشرق فتقبض عليه الوزير أبو بكر بن غازي المستبد بالمغرب على ابن السلطان عبد العزيز وأودعه السجن، ونقلوا الرياسة عن بني علي هؤلاء، والله يقلب الليل والنهار. وقد يزعم كثير من الناس أن ورديقة من بني جابر

ليسوا من جشم، وأنهم بطن من بطون سدراتة إحدى شعوب لواتة من البربر، ويستدلون على ذلك بمواطنهم وجوارهم للبربر، والله أعلم بحقيقة ذلك.

العاصم ومقدم من الأثبج:

هؤلاء الأحياء من الأثبج- كما ذكرنا في أنسابهم، ونزلوا تامستا معهم، وكانت لهم عزة وعلياء إلا أن جشم أعز منهم لمكان الكثرة. وكان موطنهم بسيط تامستا، وكانت للسلطان عليهم عسكرة وجباية شأن إخوانهم من جشم. وكان شيخ العاصم لعهد الموحدين، ثم عهد المأمون منهم حسن بن زيد، وكان له أثر في فتنة يحيى بن الناصر. ولما هلك سنة ثلاث وثلاثين وستمائة أمر الرشيد بقتل حسن بن زيد مع قائد وفائد إبني عامر شيوخ بني جابر فقتلوا جميعاً. ثم صارت الرياسة لأبي عياد وبنيه، وكان بينهم لعهد بني مرين عياد بن أبي عياد، وكان له تغلب في النفرة والاستقامة. فر إلى تلمسان ورجع منها أعوام تسعين وستمائة. وفر إلى السوس ورجع منه سنة سبع وسبعمائة، و لم يزل دأبه هذا. وكانت له ولاية مع يعقوب بن عبد الحق من قبل ذلك، ومقاماته في الجهاد مذكورة. وبقيت رئاسته في بنيه إلى أن انقرض أمرهم وأمر مقدم ودثروا وتلاشوا، والله خير الوارثين.

الخبر عن رياح وبطونهم من هلال بن عامر من هذه الطبقة الرابعة:

كان هذا القبيل من أعز قبائل هلال وأكثرهم جمعاً عند دخولهم أفريقية وهم فيما ذكره ابن الكلبي: رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر، وكانت رئاستهم حينئذ لمؤنس بن يحيى الصنبري من بطون مرداس بن رياح. وكان من رجالاتهم لذلك العهد الفضل بن علي مذكور في حروبهم مع صنهاجة، وكانت بطونهم عمرو ومرداس، وعلى كلهم بنو رياح وسعيد بن رياح، وخضر بن عامر بن رياح وهم الأخضر. ولمرداس بطون. كثيرة: داود بن مرداس وصنبر بن حواز بن عقيل

بن مرداس، وإخوتهم: مسلم بن عقيل. ومن أولاد عامر بن يزيد بن مرداس بطون أخرى منهم: بنو موسى بن عامر وجابر بن عامر. وتد يقال إنهم من لطيف كما قدمناه، وسودان ومشهور ومعاوية بنو محمد بن عامر بطون ثلاثة. وإسم سودان علي بن محمد. وقد يقال أيضاً أنّ المشاهرة وهم بنو مشهور بن هلال بن عامر من نمير رياح والله أعلم.

والرياسة على رياح في هذه البطون كلها لمرداس، وكانت عند دخولهم أفريقية في صنبر منهم. ثم صارت للزواودة أبناء داود بن مرداس بن رياح. ويزعم بنو عمرو بن رياح أن أباهم كفله ورباه. وكان رئيسهم لعهد الموحدين مسعود بن سلطان بن زمام بن رديني بن داود، وكان يلقب البلط لشدته وصلابته. ولما نقل المنصور رياحاً إلى المغرب تخفف عساكر أخو مسعود في جماعات منهم لما بلاه السلطان من طاعته وانحياشه، وأنزل مسعوداً وقومه لبلاد الهبط ما ين قصور كتامة المعروف بالقصر الكبير، إلى إزغار البسيط الفسيح هناك إلى ساحل البحر الأخضر، واستقروا هنالك.

وفرمسعود بن زمام من بينهم في لفة من قومه سني تسعين وخمسمائة، ولحق بأفريقية، واجتمع إليه بنو عساكر أخيه، ولحقوا بطرابلس، ونزلوا على زغب وذياب يتقلبون بينهم. ثم نزع إلى خدمة قراقش وحضر معه بقومه فتح طرابلس كما نذكره في أخبار قراقش. ثم رجع إلى ابن غانية الميورقي، ولم يزل في خلافة ذلك إلى أن هلك، وقام بأمره من بعده إبنه محمد. وكانت له رياسة وغناء في فتنة الميورقي مع الموحّدين. ولما غلب

أبومحمد بن أبي حفص يحيى الميورقي مع الموحدين سنة ثماني عشرة وستمائة على الحمة من بلاد الجريد، وقتل من العرب من قتل، كان فيمن قتله ذلك اليوم عبد الله بن محمد هذا وابن عفه أبو الشيخ بن حركات بن عساكر.

ولما هلك الشيخ أبومحمد رجع محمد بن مسعود إلى أفريقية وغلب عليها، واجتمع إلبه حلف الأثبج ظواعن من الضحاك ولطيف فكاثروه واعتزوا به على أقتالهم من دريد وكرفة إلى أن عجزت ظواعن الضحاك ولطيف عن الرحلة، وافترقوا في قرى الزاب وصدرة. وبقي محمد بن مسعود يتغلب في رحلته. وصارت رياسة البدو في

ضواحي أفريقية ما بين قسطيلية والزاب والقيروان والمسيلة له ولقومه. ولما هلك يحيى بن غانية من العرب من بني سليم والرياح سنة إحدى وثلاثين وستمائة كما نذكره انقطع ملكهم، واستغلظ سلطان أبي حفص.

واستقل منهم الأمير يحيى بن عبد الواحد بخطبة الخلافة عندما فسد كرسيها بمراكش، وافترق أتباع يحيى بن غانية من العرب من بني سليم والرياح فنكر آل أبي حفص هؤلاء الزواودة، ومكانهم من الوطن مما سلف من عنادهم ومشايعتهم لابن غانية عدوهم فجاجاً الأميرأبو زكريا في بني سليم من مواطنهم لذلك العهد بقابس وطرابلس وما إليها. والتقدم فيهم يومئذ لمرداش والكعوب كما نذكره في أخبارهم، واصطنعوهم لمشايعة الدولة. وضربوا بينهم وبين قبائل رياح وأنزلوهم بالقيروان وبلاد قسطيلية، وكانت آية لمحمد بن مسعود.

ووفد عليه في بعض السنين وفد مرداس يطلبون المكيل ويترلون عليهم فشرهوا إلى نعمتهم وقاتلوهم عليها، وقتلوا رزق بن سلطان عم محمد بن مسعود، فكانت بينهم وبين رياح أيام وحروب، حتى رحلوهم عن جانب المشرق من أفريقية وأصاروهم إلى جانبها الغربي.

وملك الكعوب ومرداس من بني سليم ضواحي الجانب الشرقي كلها من قابس إلى بونة ونفطة. وامتاز الزواودة بملك ضواحيّ قسطنطينة وبجاية من التلول ومجالات الزاب وريغ وواركلا وما وراءها من القفار في بلاد القبلة. وهلك محمد بن مسعي فولى رئاسته موسى بن محمد، وكان له صيت وغناء في قومه واعتزازعلى الدولة.

(ولما هلك يحيى) بن عبد الواحد بويع ابنه محمد المستنصر الطائر الذكر المشهود له في الشهرة. وخرج عليه أخوه إبراهيم فلحق بالزواودة هؤلاء فبايعوه بجهات قسطنطينة واتفقوا على تقديمه، ونهض إليه المستنصر سنة ست وستين وستمائة ففرّوا أمامه وافترق جمعهم وتحيز إليه بنو عساكر بن سلطان منهم، ورئاستهم يومئذ لولد مهدي بن عساكر. ونبذوا العهد إلى إبراهيم بن يحيى ولحقوا بتلمسان. وأجاز البحر إلى الأندلس، وأقام بها في جوار الشيخ ابن الأحمر.

ثم هلك موسى بن حمد وولي رياسته ابنه شبل بن موسى، واستطال على الدولة وكثر عيثهم فنبذ المستنصر عهدهم، ونهض إليه بعساكره وجموعه من الموحدين والعرب من بني سليم، وأولاد عساكر إخوانهم، وعلى

مقدمته الشيخ أبو هلال عياد بن محمد الهنتاني، وكان يومئذ أميراً ببجاية. وحاول عليهم فاستقدم رؤساءهم شبل بن موسى بن

محمد بن مسعود وأخاه يحيى، وسباع بن يحيى بن دريد بن مسعود. وحداد بن مولاهم بن خنفر بن مسعود وفضل بن ميمون بن دريد بن مسعود، ومعهم دريد بن تازير شيخ أولاد نابت، من كرفة، فتقبض عليهم لحين قدومهم وضرب أعناقهم في سريح، وأخذ ابن راية، حيث بايعوا أبا إسحق أخاه والقاسم بن أبي زيد بن أبي حفص النازع إليهم لطلب الخروج على الدولة.

وافترقت ظواعنهم وفروا أمامه واتبعهم إلى آخر الزاب. وترك شبل بن موسى سباعاً إبنه طفلاً صغيراً فكفله عمه مولاهم ابن موسى، و لم تزل الرياسة بهم وترك سباع إبنه بحيى أيضاً طفلاً فكفله عمه طلحة بن يحيى، ولحق جلهم بملوك زناتة المغرب، وأولاد محمد لحقوا بيعقوب بن عبدالحق بفاس، وأولاد سباع بن يحيى لحقوا بيغمراسن بن زيان بتلمسان فكسوهم وحملوهم فارتاشوا وقاتلوا واحتالوا وزحفوا إلى مواطنهم فتغلبوا على أطراف الزاب من واركلان وقصور ريغ وصيروها سهاما بينهم، وانتزعوها للموحدين فكان آخر عهدهم بملكها.

ثم تقدموا إلى بلاد الزاب، وجمع لهم عاملها أبو سعيد عثمان بن محمد بن عثمان ويعرف بابن عتوا من رؤساء الموحدين. وكان متزله بمقرة فزحف إليهم بمكانهم من الزاب، وأوقعوا به وقتلوه بقلطاوة وغلبوا على الزاب وضواحيه لهذا العهد. ثم تقدموا إلى جبل أوراس فغلبوا على من به من القبائل. ثم تقدموا إلى التل وجمع لهم من كان به من أولاد عساكر، وعليهم موسى بن ماضي، بن مهدي بن عساكر،فجمع قومه ومن في حلفهم من عياض وغيرهم.

وتزاحفوا فغلبهم أولاد مسعود وقتلوا شيخهم موسى بن ماضي، وتولوا الوطن بما فيه. ثم تلافت الدولة أمرهم بالاصطناع والاستمالة وأقطعوهم ما غلبوا عليه من البلاد بجبل اوراس والزاب، ثم الأمصار التي بالبسيط الغربي من جبل أوراس المسمى عندهم بالحصنة وهي نقاوس ومقرة والمسيلة، واختص أقطاع المسيلة بسباع بن شبل بن يحيى من بعد ذلك، فهي في قسم بنيه وسهامهم.

واختص أقطاع مقرة بأحمد بن عمربن محمد، وهو ابن عم شبل بن موسى بن سباع، ونقاوس بأولاد عساكر. ثم هلك سباع بن شبل وقام بأمرهم ابنه عثمان

ويعرف بالعاكر فنازعه الرياسة بنو عمه عليّ بن أحمد بن عمربن محمد بن مسعود بن دريد بن مسعود وفرقوا جماعة بني مسعود هؤلاء، بعد أن كانوا جميعاً وصاروا فريقين: أولاد محمدبن مسعود، وأولاد سباع بن يحيى، وسليمان بن علي بن سباع بن يحيى. و لم يزالوا كذلك لهذا العهد، ولهم تغلب على ضواحي بجاية وقسطنطينة ومن بها من سدويكش وعياض وأمثالهم. ورياسة أولاد محمد الآن ليعقوب بن علي بن أحمد وهو كبير الزواودة بمكانه وسنه وله شهرة وذكر ومحل من السلطان متوارث.

ورياسة أولاد سباع في أولاد علي بن سباع وأولاد عثمان بن سباع. وأولاد علي أشرف منهم وأعز بالكثرة والعدد. ورئاستهم في بلد يوسف بن سليمان بن علي بن سباع ويرادفهم أولاد يحيى بن علي بن سباع.

واختص أولاد محمد بنواحي قسطنطينة وأقطعتهم الدول كثيراً من أريافها. واختص أولاد سباع بنواحي بجاية وأقطاعهم فيها قليل لمنعة بجاية وضواحيها عن ضيم العرب، ولغلبهم بالجبال المطيفة بها وتوعر مسالكها على رواحل الناجعة. وأما ريع وواركلا فقسمت بينهم منذ عهد سلفهم كما قلناه.

وأما الزاب فالجانب الغربي منه، وقاعدته طولقة؛ لأولاد محمد وأولاد سباع بن يحيى، وكانت لأبي بكر بن مسعود، فلما ضعف بنوه ودثروا اشتراها منهم علي بن أحمد شيخ أولاد محمد وسليمان بن علي شيخ أولاد سباع. واتصلت بينهم بسببها الفتنة وصارت في مجالات أولاد سباع بن يحيى فصار غلب سليمان وبنيه عليها أكثر. والجانب الوسط، وقاعدته بسكرة لأولاد محمد، وفي مجالاتهم. وليعقوب بن علي على عامله بسبب ذلك سلطان وعزة، وله به تمسك وإليه انحياش في منعته من الدولة واستبداده بوطنه، وحماية ضواحيه من عبث الأعراب وفسادهم غالب الأوقات.

وأما الجانب الشرقي من الزاب وقاعدته بادس وتنومة فهو لأولاد نابت رؤساء كرفة بما هو من مجالاتهم، وليس هو من مجالات رياح. إلا أن عمال الزاب تأخذ منه في الأكثر جباية غير مستوفاة بعسكر لها إلا في بعض الأحايين ببادية رياح بإذن من كبيرهم يعقوب وإشراكه في الأمر. وبطون رياح كلها تبع لهؤلاء الزواودة ومقتسمون عليهم وملتمسون مما في أيديهم، وليس لهم في البلاد ملك يستولون عليه. وأشدهم قوة وأكثرهم جمعاً بطون سعيد ومسلم والأخضر، يبعدون النجعة في القفار والرمال، ويسخرون الزواودة في فتنة بعضهم مع بعض، ويختصون بالحلف فريقاً دون آخر.

فسعيد، أحلاف لأولاد محمد سائر أيامهم إلا قليلا من الأحيان ينابذونهم ثم يراجعونهم ومسلم والأخضر أحلاف لأولاد سباع كذلك إلا في بعض الأحايين.

(فأما سعيد) فرئاستهم لأولاد يوسف، بن زيد منهم في ولد ميمون بن يعقوب بن عريف بن يعقوب بن يوسف، وأردافهم أولاد عيسى بن رحاب بن يوسف، وهم ينتسبون بزعمهم إلى بني سليم في أولاد القوس من سليم. والصحيح من نسبهم أنهم من رياح بالحلف والموطن. ومع أولاد يوسف هؤلاء لفائف من العرب يعرفون بالمخادمة والغيوث والفجور فأما المخادمة والغيوث من أبناء مخدم فمن ولد مشرف بن اثبج، وأما الفجور فمنهم من البرابر لواتة وزناتة إحدى بطونهم، وفيهم من نفاث. فأما نفاث فمن بطون جزام وسيأتي ذكرهم (وأما زناتة) فهم من بطون لواتة كما ذكرناه في بني جابر وبتادلا كثير منهم وأجاز منهم إلى العدوة لعهد بني الأحمر سلطان الزناري، وكانت له في الجهاد آثار. وذكروا أن منهم بأرض مصر والصعيد كثيراً.

وأما أحلاف أولاد محمد من الزواودة فبطن من رباب بن سودات بن عامر بن صعصعة، اندرجوا في أعداد رياح، ولهم معهم ظعن ونجعة، ولهم مكان من حلفهم ومظاهرتهم. وأما أحلاف أولاد سباع من مسلم والأخضر فقد قدّمنا أن مسلماً من أولاد عقيل بن مرداس بن رياح أخو حواز بن رياح بعضهم ينتسب إلى

الزبير بن العوام وهو خلط. ويقول بعض من ينكر عليهم إنما هو نسب إلى الزبير بن المهاية الذين هم من بطون عياض كما ذكرناه. ورئاسته في أولاد جماعة بن مسلم بن حفاد بن مسلم بين أولاد تساكر بن حامد بن كسلان بن غيث بن رحال بن جماعة. وبين أولاد زرارة بن موسى بن قطران بن جماعة.

وأما الأخضر فيقولون إنهم من ولد خضر بن عامر، وليس عامر بن صعصعة. فإن أبناء عامربن صعصعة معروفون كلهم عند النسابين. وإنما هو والله أعلم عامر آخر من أولاد رياح. ولعله عامر بن زيد بن مرداس المذكور في بطونهم: أولهم من الخضر الذين هم ولد مالك بن طريف بن مالك بن حفصة بن قيس عيلان.

ذكرهم صاحب

الأغاني وقال: إنما سموا الخضر لسوادهم، والعرب تسمي الأسود أخضر. قال: وكان مالك شديد السمرة فأشبهه ولده. ورياستهم في أولاد تامربن علي بن تمام بن عماربن خضربن عامربن رياح واختصت مرين بأولاد عامر ولد عامربن صالح بن عامربن عطية بن تامر. وفيهم بطن آخر لزائدة بن تفام بن عمار. وفي رياح أيضاً بطن من عترة بن أسد بن ربيعة بن نزار، ويظعنون مع باديتهم.

(وأما من نزل) من رياح ببلاد الهبط حيث أنزلهم المنصور فأقاموا هنالك بعد رحلة رئيسهم مسعود بن زنان بتلك المواطن إلى أن انقرضت دولة الموحدين وكان عثمان بن نصر رئيسهم أيام المأمون، وقتله سنة ثلاثين وستمائة. ولما تغلب بنو مرين على ضواحي المغرب ضرب الموحدون على رياح هؤلاء البعث مع عساكرهم، فقاموا بحماية ضواحيهم وتحيز لهم بنو عسكربن محمدبن محمد من بني مرين حين كانوا حرباً لإخوانهم بني حمامة بن محمد، سلف الملوك منهم لهذا العهد، فكانت بين الفريقين جولة قتل فيها عبد الحق بن محيوبن أبي بكربن جماعة أبو الملك وإبنه إدريس، فأوجدوا السبيل لبني مرين على أنفسهم في طلب الترة والدماء فأثخنوا فيهم واستلحموهم قتلاً وسبياً مرة بعد أخرى.

وكان آخر من أوقع بهم السلطان أبو ثابت عامر يوسف بن يعقوب سنة سبع وسبعمائة تتبعهم بالقتل إلى أن لحقوا برؤوس الهضاب وأسمة الربى المتوسطة في المرج المستبحر بازغار فصاروا إلى عدد قليل، ولحقوا بالقبائل الغارمة. ثم دثروا وتلاشوا شأن كل أمة والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين لا رب غيره ولا معبود سواه، وهو نعم المولى ونعم النصير، عليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير. نسأله سبحانه وتعالى من فيض فضله العميم، ونتوسل إليه بجاه نبيه الكريم أن يرزقنا إيمانا دائما وقلبا خاشعا وعلما نافعا ويقينا صادقا وديناً قيماً، والعافية من كل بلية، وتمام العافية ودوام العافية والشكر على العافية، والغنى عن الناس، وأن يحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأن يجيرنا من خزي الدنيا، وعذاب الآخرة، وأن يرزقنا من فضله وكرمه إيمانا لا يرتد ونعيما لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع. ومرافقة نبينا وسيدنا محمد صلى الله عليه و سلم في أعلى جنان الخلد، بمنه وكرمه إنه على ما.

خريطة

يشاء قدير وبالإجابة جدير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

الخبر عن سعادة العالم بالسنة في رياح ومآل أمره وتصاريف أحواله:

كان هذا الرجل من مسلم إحدى شعوب رياح، ثم من رحمان منهم. وكانت أمه تدعى خضيبة وكانت في أعلى مقامات العبادة والورع. ونشأ هو منتحلًا للعبادة والزهد، وارتحل إلى المغرب ولقي شيخ الصالحين والفقهاء لذلك

العهد بنواحي تازة أبا إسحق التسولي، وأخذ عنه، ولزمه، وتفقه عليه. ورجع إلى وطن رياح بفقه صحيح وورع وافر، ونزل طولقة من بلاد الزاب، وأخذ بنفسه في تغيير المنكر على أقاربه وعشيرته ومن عرفه أو صحبه، فاشتهر بذلك وكثرت غاشيته لذلك من قومه وغيرهم.

ولزم صحابته منهم أعلام عاهدوه على التزام طريقته، كان من أشهرهم: أبو يحيى بن أحمد بن عمر شيخ بني محمد بن مسعود من الزواودة، وعطية بن سليمان بن سباع شيخ أولاد سباع بن يحيى منهم، وعيسى بن يحيى بن إدريس شيخ أولاد إدريس من أولاد عساكر منهم، وحسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة بن يحيى بن دريد بن مسعود منهم، وهجرس بن علي من أولاد يزيد بن زغبة، ورجالات من العطاف من زغبة في كثير من أتباعهم والمستضعفين من قومهم.

فكثر بذلك تابعه واستظهر بهم على شأنه في إقامة السنة وتغيير المنكر على من جاء به. واشتد على قاطع الطريق من شرار البوادي. ثم تخطى ذلك إلى العمار، فطلب عامل الزاب يومئذ، منصوربن فضل بن مزني بإعفاء الرعايا من المكوس والظلامات فامتنع من ذلك، واعتزم على الإيقاع به فحال دونه عشائر أصحابه، وبايعوه على إقامة السنة والموت دونه في ذلك.

وآذنهم ابن مزني في الحرب ودعا لذلك أمثالهم ونظراءهم من قومهم. وكان لذلك

العهد علي بن أحمد بن عمربن محمد قد قام برياسة أولادمحمد، وسليمان بن علي بن سباع قد قام برياسة أولاد يحيى. واقتسموا رياسة الزواودة فظاهروا ابن مزني على مدافعة سعادة وأصحابه المرابطين من إخوانهم.

وكان أمر ابن مزني والزاب يومئذ راجعا إلى صاحب بجاية من بني أبي حفص، وهو الأمير خالد ابن الأمير أبي زكريا، والقائم بدولته أبو عبد الرحمن بن عمر وبعث إليه ابن مزني في المدد فأمده بالعساكر والجيوش، وأوعز إلى أهل طولقة بالقبض على سعادة فخرج منها وابتنى بأنحائها زاوية، ونزل بها هو وأصحابه.

ثم جمع أصحابه المرابطين، وكان يسميهم السنية. وزحفوا إلى بسكره وحاصروا ابن مزني سنة ثلاث وسبعمائة وقطعوا نخيلها، وامتنعت عليهم فرحلوا عنها. ثم أعادوا حصارها سنة إلى أربع وسبعمائة وامتنعت. ثم انحدر أصحاب سعادة من الزواودة إلى مشاتيهم سنة خمس وسبعمائة. وأقام المرابط سعادة بزاويته من زاب طولقة، وجمع من كان إليه من المرابطين المتخلفين عن الناجعة وغزا مليلي وحاصرها أياماً. وبعثوا بالصريخ إلى ابن مزني، والعسكر السلطاني مقيم عندهم ببسكرة، فأركبهم ليلاً مع أولاد حرب من الزواودة. واصبحوا سعادة وأصحابه على مليلي فكانت بينهم جولة قتل فيها سعادة واستلحم الكثير من أصحابه، وحمل رأسه إلى ابن مزني.

وبلغ الخبر إلى أصحابه بمشاتيهم فظهروا إلى الزاب، ورؤساؤهم أبو يحيى بن أحمد بن عمر شيخ أولاد محرز، وعطية بن سليمان شيخ أولاد سبّاع، وعيسى بن يحيى شيخ أولاد عساكر، ومحمد بن حسن شيخ أولاد عطية، ورئاستهم جميعاً راجعة لأبي يحيى بن أحمد. ونازلوا بسكرة وقطعوا نخيلها وتقبضوا على عمال ابن مزني فأحرقوهم في النار، واتسع الخرق بينهم وبينه. ونادى ابن مزني في أوليائه من الزواودة. واجتمع إليه علي بن أحمد شيخ أولاد محمد، وسليمان بن علي شيخ أولاد سباع وهما يومئذ أجلاء الزواودة. وخرج إبنه علي بينهم بعساكر السلطان، وتزاحفوا بالصحراء سنة ثلاث عشرة وسبعمائة فغلبهم المرابطون، وقتل علي بن مزني. وتقبض على علي بن أحمد فقادوه أسيراً. ثم أطلقه عيسى بن أحمد رعياً لأخيه أبي يحيى بن أحمد .

واستفحل أمر هؤلاء السنية ما شاء الله أن يستفحل. ثم هلك أبو يحيى بن أحمد وعيسى بن يحيى، وخلت أحياء أولاد محرز من هؤلاء السنية. وتفاوض السنية فيمن

يقيمونه بينهم في الفتيا في الأحكام والعبادات، فوقع نظرهم على الفقيه أبي عبد الله محمد بن الأزرق من فقهاء مقرة. وكان أخذ العلم ببجاية على أبي محمد الزواوي من كبار مشيختها فقصدوه بذلك وأجابهم وارتحل معهم. ونزل على حسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة. واجتمع إليه السنية واستفحل بهم جانب أولاد سباع، واجتمعوا على الزاب وحاربوا علي بن أحمد طويلاً.

وكان السلطان أبو تاشفين حين كان يجلب على أوطان الموحدين، يخيب عليهم أولياءهم من العرب، يبعث إلى هؤلاء السنية بالجوائز يستدعي بذلك ولايتهم. ويبعث معهم للفقيه أبي الأزرق بجائزة معلومة في كل سنة. ولم يزل ابن الأزرق مقيما لرسمهم إلى أن غلبهم على أمرهم ذلك علي بن أحمد شيخ أولاد محمد. وهلك حسن بن سلامة، وانقرض أمر السنية من رياح. ونزل ابن الأزرق بسكرة فاستدعاه يوسف بن مزني لقضائها تفريقاً لأمر السنية، فأجابه ونزل عنده ، فولاه القضاء ببسكرة إلى أن هلك سنة...

ثم قام علي بن أحمد بهذه السنية بعد حين، ودعا إليها وجمع لابن مزني سنة أربعين وسبعمائة، ونزل بسكرة وجاءه. مدد أهل ريغ، وأقام محاصرا لها أشهراً. وامتنعت عليه فأقلع عنها وراجع يوسف بن مزني، وصاروا إلى الولاية إلى أن هلك علي بن أحمد. وبقي من عقب سعادة في زاويته بنون وحفدة يوجب لهم ابن مزني الرعاية، وتعرف لهم أعراب الفلاة من رياح حقاً في إجازة من يجيزونه من أهل السابلة. وبقي هؤلاء الزواودة يترع بعضهم أحيانا إلى إقامة هذه الدعوة، فيأخذون بها أنفسهم غير متصفين من الدين والتعمق في الوزع بما يناسبها ويقضي حقها، بل يجعلونها ذريعة لأخد الزكوات من الرعايا، ويتظاهرون بتغيير المنكر يسرون بذلك حسداً في ارتقاء، فينحل أمرهم بذلك، وتخفق مساعيهم، ويتنازعون على ما تحصل بأيديهم ويفترقون على غير شيء، والله متولي الأمور لا إله إلا هو سبحانه يحيي ويميت.

الخبر عن زغبة وبطونهم من هلال بن عامرمن هذه الطبقة الرابعة:

هذه القبيلة إخوة رياح. ذكر ابن الكلبي: إن زغبة ورياحاً أبناء أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر، هكذا نسبهم، وهم لهذا العهد مما يزعمون أن عبد الله يجمعهم، بكسر دال عبد، ولم يذكر ابن الكلبي ذلك، وذكر عبد الله في ولد هلال، فلعل انتسابهم إليه بما كفلهم واشتهر دونهم، وكثيراً ما يقع مثل هذا في أنساب العرب أعني انتساب الأبناء لعمهم أوكافلهم والله أعلم.

وكانت لهم عزة وكثرة عند دخولهم أفريقية، وتغلبوا على نواحي طرابلس وقابس، وقتلوا سعيد بن خزرون من ملوك مغراوة بطرابلس. ولم يزالوا بتلك الحال إلى أن غلب الموحدون على أفريقية، وثار بها ابن غانية، وتحيزت إليه أفاريق هلال بن رياح وجشم، فنزعت زغبة إلى الموحدين، انحرفوا عن ابن غانية فرعوا لهم حق نزوعهم، وصاروا يداً واحدة مع بني يادين من زناتة في حماية المغرب الى الأوسط من ابن غانية وأتباعه واتصلت مجالاتهم ما بين المسيلة وقبلة تلمسان في القفار، وملك بنو بادين وزناتة عليهم التلول. (ولما ملكت زناتة) بلاد المغرب الأوسط ونزلوا بأمصاره، دخل زغبة هؤلاء التلول وتغلبوا فيها ووضعوا الأتاوة على الكثير من أهلها بما جمعهم وزناتة من البداوة وعصبية الحلف، وخلا قفرهم من ظعونهم وحاميتهم فطرقته عرب المعقل المجاورون لهم من جانب المغرب، وغلبوا على من وجدوا من مخلف زغبة هؤلاء بتلك القفار، وجعلوا عليهم خفارة يأخذونها من إبلهم، ويختارون عليهم البكرات منها.

وأنفوا بذلك وتآمروا وتعاقدوا على دفع هذه الهضمة، وتولى كبرها من بطونهم ثوابة بن جوثة من سديد كما نذكره بعد فدفعوهم عن أوطانهم من ذلك القفر. ثم استفحلت دولة زناتة وكفحوا العرب عن وطىء تلولهم لما انتشأ عنهم من العيث والفساد فرجعوا إلى صحرائهم، وملكت الدولة عليهم التلول والحبوب، واستصعبت الميرة وهزل الكراع، وتلاشت أحوالهم وضربت عليهم البعوث وأعطوا الأتاوة والصدقة حتى إذا فشل ريح زناتة وداخل الهرم دولتهم، وانتزى الخوارج من قرابة الملك بالقاصية

وجدوا السبيل بالفتن إلى طروق التلول، ثم إلى الغلب فيها، ثم غالبوا زناتة عليها فغلبوهم في أكثر الأحايين وأقطعتهم الدولة الكثير من نواحي المغرب الأوسط وأمصاره في سبيل الاستظهار بهم، تمشت ظعونهم فيه وملكوه من كل جانب كما نذكره. وبطون زغبة هؤلاء يتعددون من يزيد وحصين ومالك وعامر وعروة، وقد اقتسموا بلاد المغرب الأوسط كما نذكر في أخبارهم.

بنو يزيد في زغبة:

كان لبني يزيد هؤلاء محل من زغبة بالكثرة والشرف، وكان للدول به عناية فكانوا لذلك أول من أقطعته الدول من العرب التلول والضواحي. أقطعهم الموحدون في أرض حمزة من أوطان بجاية مما يلي بلاد رياح والأثابج فنزلوا هنالك، ولجوا تلك الثنايا المفضية إلى تلول حمزة والدهوس وأرض بني حسن ونزلوها ريفاً وصحراء. وصار للدولة استظهار بهم على جباية تلك الرعايا من صنهاجة وزواوة. فلما عجزت عساكر بجاية من جبايتهم دفعوهم لها فأحسنوا في اقتضائها وزادت الدول بهم تكرمة وعناية لذلك واقتطعهم الكثير من تلك الأوطان. ثم غلب زناتة الموحدين على تلك الأوطان فاقتطعوها عن أوطان بجاية وأصاروها عن ممالكهم. فلما

فشل ريح زناتة وجاش بحر فتنتهم مع العرب استبد بنويزيد هؤلاء بملكة تلك الأوطان، وغلبوا عليها من جميع جوانبها وفرغوا لجبايتها واقتضاء مغارمها، وهم على ذلك لهذا العهد. وهم بطون كثيرة منهم: حميان بن عقبة بن يزيد، وجواب وبنو كرز وبنو موسى والمرابعة والخشنة. وهم جميعاً بنو يزيد بن عيسى بن زغبة وإخوانهم عكرمة بن عيسى من ظعونهم وكانت الرياسة في بني يزيد لأولاد لاحق، ثم لأولاد معافى. ثم صارت في بيت سعد بن مالك بن عبد القوي بن عبد الله بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن مهدي بن يزيد بن عيسى بن زغبة، وهم يزعمون أنه مهدي بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، نسب تأباه رياستهم على غير عصبتهم، وقد مر ذلك قبل.

وربما نسبهم آخرون إلى سلول، وهم بنو مرة بن صعصعة أخي عامر بن صعصعة وليس بصحيح لما قلناه. وقد يقال إن سلولاً وبني يزيد إخوة، ويقال لهم جميعاً

أولاد فاطمة. وبنو سعد هؤلاء ثلاثة بطون: بنو ماضي بن رزق بن سعد، وبنو منصور بن سعد، وبنو زغلي بن رزق بن سعد. واختصت الرياسة على الظعون والحلول ببني زغلي. وكانت لريان بن زغلي فيما علمناه، ثم من بعده لأخيه ديفل، ثم لأخيهما أبي بكر، ثم لابنه ساسي بن أبي بكر ثم لأبنه معتوق بن أبي بكر، ثم لموسى ابن عمهم أبي الفضل بن زغلي، ثم لأخيه أحمد بن أبي الفضل، ثم لأخيهما علي بن أبي الفضل. ثم لأبي الليل بن أبي موسى بن أبي الفضل، وهو رئيسهم لهذا العهد. وتوفي سنة إحدى وتسعين، وخلفه في قومه إبنه. وكان من أحلافهم فيما تقدم بنو عامر بن زغبة يظعنون معهم في مجالاتهم ويظاهرونهم في حروبهم. وكانت بين رياح وزغبة فتنة طويلة لعهد موسى بن محمد بن مسعود وابنه شبل أيام المستنصر بن أبي حفص. فكان بنويزيد هؤلاء يتولون كبرها لمكان الجوار. وكان بنو عامر أحلافهم فيها وظهراؤهم. وكان لهم

على مظاهرتهم وضيعة من الزرع تسمى الغرارة، وهي ألف غرارة من الزرع. وكان سببها فيما يزعمون: أن أبا بكر بن زغلي غلبته رياح على الدهوس من وطن حمزة أزمان فتنته معهم، فاستنصر لبني عامر فجاءه أولاد شافع وعليهم صالح بن بالغ، وبنو يعقوب، وعليهم داود بن عطاف،

وحميد وعليهم يعقوب بن معروف. واسترجع وطنه، وفرض لهم على وطنه ألف غرارة من الزرع، واستمرت لبني عامر.

فلما ملك يغمراسن بن زيان تلمسان ونواحيها ودخلت زناتة إلى التلول والأرياف، كثر عيث المعقل وفسادهم في وطنها فجاء يغمراسن ببني عامرهؤلاء من مجالاتهم بصحراء بني يزيد، وأنزلهم في جواره بصحراء تلمسان كياداً للمعقل، ومزاحمة لهم بأقيالهم فترلوا هنالك. وتبعتهم حميان من بطون بني يزيد بما كانوا بطوناً وناجعة، ولم يكونوا حلولا فصاروا في عداد بني عامر لهذا العهد. وتولت بنو يزيد بلاد الريف وخصبه فأوطن فيه أكثرهم. وقل أهل الناجعة منهم إلا أفاريق من عكرمة وبعض بطون عبس يظعنون مع أولاد زغلي في قفرهم.

وأقصروا عن الظعن في القفر إلا في القليل، ومع أحلافهم من ظعون رياح أو زغبة، وهم على ذلك لهذا العهد. ومن بطون بني يزيد بن عيسى زغبة هؤلاء بنوخشين وبنو موسى وبنو معافى وبنو لاحق. وكانت الرياسة لهم ولبني معافى قبل بني سعد بن مالد، وبنو جواب وبنو كرز وبنو مربع وهم المرابعة، وهؤلاء كلهم بطن حمزة لهذا

العهد. ومن المرابعة حي ينجعون بضواحي تونس لهذا العهد وغلب عليهم بسبب زغبة والله الخلاق العليم. أبو الفضل بن موسى بن زغلي بن رزق بن سعد بن مالك بن عبد القوي بن عبد الله بن سعيد بن محمد بن عبد الله.

خريطة

حصين بن زغبة:

وأما أولاد حصين بن زغبة فكانت مواطنهم بجوار بني يزيد إلى المغرب عنهم. كانوا حيا حلوا هنالك، وكان الريف للحاذي من تيطري ونواحي المدينة، مواطن للثعالبة من بطون البعوث ويأخذون منهم الأتاوات

والصدقات. حتى إذا ذهب سلطان بني توجين من أرض المرية وغلبهم عليهم بنوعبد الواد ساموا حصيناً هؤلاء خطة الخسف والذل، وألزموهم الوضائع والمغارم واستلحموهم بالقتل وهضموهم بالتكاليف، وصيروهم في عداد القبائل الغارمة. وبأثر ذلك كان تغلب بني مرين على جميع زناتة كما نذكره فكانوا لهم أطوع ولدولتهم أذل. فلما عاد بنو عبد الواد إلى ملكهم لعهد أبي حفو موسى بن يوسف بعد مهلك السلطان أبي عنان هبت ريح العز للعرب، وفشل ريح زناتة ولحق دولتهم ما يلحق الدول من الهرم ونزل حصين بتيطري وهو جبل أشير وملكوه وتحصنوا به.

وكان أبو زيان ابن عم السلطان أبي حمولما ملك من قبله لحق بتونس مقتطعاً حبالة بني مرين، وخرج طالباً لملك أبيه ومنازلاً لابن عمه هذا ونزل في خبرطويل نذكره بقبائل حصين هؤلاء أحوج ما كانوا لمثلها لما راموه من خلع ما كان بأعناقهم من الدول وطرق الاهتضام والعسف فتلقوه بما يجب له. ونزل منهم بأكرم نزل وأحسن مثوى. وبايعوه وأرسلوا إخوانهم وكبراءهم من رؤساء زغبة بني سويد وبني عامر فأصفقوا عليه. وترددت عساكر السلطان أبي حمو وبني عبد الواد إليهم فتحضنوا بجبل تيطري وأوقعوا به.

ونهض إليهم السلطان أبو حمو بعساكره فقتلوه ونالوا منه، ونالت زغبة بذلك ما أرادوه من الاعتزاز على الدولة آخر الأيام، وتملكوا البلاد إقطاعات وسهماناً ورجع أبو زيان إلى رياح فنزل بهم على سلم عقد مع ابن عمه ويقي لحصين أثر الاعتزاز من جرائه. واقطعتهم الدولة ما ولوه من نواحي المدينة وبلاد صنهاجة. ولحصين لهؤلاء

بطنان عظيمان جندل وخراش. فمن جندل أولاد خنفر بن مبارك بن فيصل بن سنان بن سباع بن موسى بن كمام بن علي بن جندل ورياستهم في بني خليفة بن سعد لعلي، وسيدهم أولاد خشعة بن جندل.

وكانت رياستهم على جندل قبل أولاد الخليفة، ورئيسهم الآن علي بن صالح بن دياب بن مبارك بن يحيى بن مهلهل بن شكر بن عامر بن محمد بن خشعة. ومن خراش أولاد مسعود بن مظفر بن محمد الكامل، بن خراش. ورياستهم لهذا العهد في ولد رحاب بن عيسى بن أبي بكر بن زمام بن مسعود. وأولاد فرج بن مظفر، ورياستهم في بني خليفة بن عثمان بن موسى بن فرج. وأولاد طريف بن معبد بن خراش، ويعرفون بالمعابدة، ورياستهم في أولاد عريف بن طريف لزيان بن بدر بن مسعود بن معرف بن عريف. ولمصباح بن عبد الله بن كثير بن عريف. وربما انتسب أولاد مظفر من خراش الى بني سليم، ويزعمون أن مظفر بن محمد الكامل جاء بني سليم ونزل بهم والله أعلم بحقيقة ذلك الأمر.

بنو مالك في زغبة:

وأما بنو مالك بن زغبة فهم بطون ثلاثة: سويد بن عامر بن مالك والحرث بن مالك وهم بطنان للعطاف من ولد عطاف بن رومي بن حارث. والديالم من ولد ديلم بن حسن بن إبراهيم بن رومي فأما سويد فكانوا أحلافاً لبني بادين قبل الدولة. وكان لهم اختصاص ببني عبد الواد. وكانت لهم لهذا العهد أتاوات على بلد سيرات والبطحاء وهوّارة. ولما ملك بنو يادين تلول المغرب الأوسط وأمصاره كان قسم بني توجين منه شياخ التلول القبلية ما بين قلعة سعيدة في الغرب إلى المرية في الشرق. فكان لهم قلعة بن سلامة ومنداس وأنشريس ورينة وما بينهما، فاتصل جوارهم لبني مالك هؤلاء في القفر والتل.

ولما ملك بنو عبد الواد تلمسان ونزلوا بساحتها وضواحيها، كان بنو سويد هؤلاء أخص

خريطة

بحلفهم وولايتهم من سائر زغبة. وكانت لسويد هؤلاء بطون مذكورون من فليتة وشبانة ومجاهر وجوثة، كلهم من بني سويد. والحساسة بطن من شبانة إلى حسان بن شبانة وغفير وشافع وما لف. كلهم بنو سليمان بن مجاهر وبو رحمة وبو كامل وحمدان بنو مقدر بن مجاهر. ويزعم بعض نسابتهم أن مقدرا ليس بجد لهم، وإنما وضع ذلك أولاد بوكامل.

وكانت رياستهم لعهدهم في يغمراسن وما قبله في أولاد عيسى بن عبد القوي بن حمدان، وكانوا ثلاثة: عمر بن مهدي وعطية وطراد. واختص مهدي بالرياسة عليهم ثم ابنه سيف بن مهدي ثم أخوه عمر بن مهدي وأقطع يغمراسن يوسف بن مهدي ببلاد البطحاء وسيرات، وأقطع عنتر بن طراد بن عبسي قرارة البطحاء وكانوا يقتضون أتاواتهم على الرعايا ولا يناكرهم فيها. وربما خرج في بعض خروجه واستخلف عمر بن مهدي على تلمسان وما إليها من ناحية المشرق.

وفي خلال ذلك خلت مجالاتهم بالقفر من ظعونهم وناجعتهم، إلأ أحياء من بطونهم قليلي العدد من الجوثة وفليتة وما لف وغفير وشافع وأمثالهم فغلب عليهم هنالك المعقل، وفرضوا عليهم أتاوة من الإبل يعطونها ويختارونها عليهم من البكرات. وكان المتولي لأخذها منهم من شيوخ المعقل أبو الريش بن نهار بن عثمان بن عبيد الله، وقيل علي بن عثمان أخو نهار. وقيل إن البكرات إنما فرضها للمعقل على قومه بن عامر جميل

لأجل مظاهرة له على عدوه، وبقيت للمعقل عادة إلى أن تمشت رجالات من زغبة في نقفر ذلك، وغدروا برجال المعقل ومنعوا تلك البكرات.

(أخبرني يوسف) بن علي ثم غانم عن شيوخ قومه من المعقل أن سبب البكرات وفرضها على زعمة كما ذكرناه. وأما سبب رفعها فهو أن المعقل كانوا يقولون غرامتها إدالة بينهم. فلما دالت لعبيد الله الدولة في غرامتها جمع ثوابة بن جوثة قومه وحرضهم على منعها فاختلفوا واحتربوا مع عبيد الله ودفعوهم إلى جانب الشرق وحالوا بينهم وبين أحيائهم وبلادهم. وطالت الحرب ومات فيها بنو جوثة وابن مريح من رجالاتهم. وكتب بنوعبد اللة إلى قومهم من قصيدة:

بني معقل إن لم تصرخوناعلى العدو فلا بد لكم تذكرماطرالنا

قتلنا ابن جوثة والهمام بن مريح على الوجه مكبوب وذامن فعالنا

فاجتمعوا وجاءوا إلى قومهم وفرت أحياء زغبة، واجتمع بنو عبيد الله وإخوانهم من ذوي منصور وذوي حسان، وارتفع أمر البكرات من زغبة لهذا العهد. ثم حدث بين يغمراسن وبينهم فتنة هلك فيها عمر بن مهدي ووانزلوهم عن التلول والأرياف من بلاد عبد الواد إلى القفر المحاذي لأوطان بني توجين على المهادنة والمصاهرة، فصاروا لهم حلفاء على بني عبد الواد. ومن عجز منهم من الظعن نزل ببسائط البطحاء. وسارت بطونهم كلها من شبابة ومجاهر وغفير وشافع ومالف وبورحمة وبوكامل ونزل محيسن بن عمارة وأخوة سويد بضواحي وهران فوضعت عليهم الأتاوات والمغارم، وصاروا من عداد الرعايا أهل الجباية، وولي عثمان بن عمر أمر الظعون من سويد. ثم هلك وقام بأمره إبنه ميمون وغلب عليه أخوه سعيد واستبدّ. وكان سويد وبين بني عامر بن زغبة فتنة اتصلت على الأيام، وثقلت وطأة الدولة الزيانية عليهم. وزحف يوسف بن يعقوب إلى منازلة تلمسان، وطال مقامه عليها فوفد عليه سعيد بن عثمان بن عمربن مهدي شيخهم لعهده فأتى مجلسه وأكرم وفادته. ثم أجمع قتله ففرّ ولحق بقومه، وأجلب على أطراف التلول وملك السرسو قبلة بلاد توجين، ونزعت إليه طائفة من عكرمة بني يزيد وعجزوا عن الظعن، وأنزلهم بجل كريكرة قبلة السرسو ووضع عليهم الأتاوة. ولم يزل كذلك إلى أن هلك يوسف بن يعقوب واتصل سلطان آل يغمراسن.

ولما ولي أبوتاشفين بن موسى بن عثمان بن يغمراسن استخلص عريف بن يحيى لديه صحابة كانت له معه قبل الملك. ثم آسفه ببعض النزعات الملوكية. وكان هلال مولاه المستولي عليه يغص بما كان عريف منه، فنزع عريف بن يحيى إلى بني مرين ملوك المغرب الأقصى، ونزل على السلطان أبي سعيد منهم سنة عشرين وسبعمائة، واعتقل أبوتاشفين عمه سعيد بن عثمان إلى أن هلك في محبسه قبيل فتح تلمسان، ولحق أخوه ميمون بن عثمان وولده بملك المغرب، وأنزل عريف بن يحيى من سلطان بني مرين أكرم نزل وأدنى مجلسه وأكرم مثواه. ثم اتخذه ابنه السلطان أبو الحسن من بعده بطانة لشوراه ونجيا لخلواته. ولم يزل

يحرضهم على آل زيان بتلمسان. ونفس ميمون بن عثمان وولده عريف رتبته عند السلطان أبو الحسن فترعوا إلى أخيه أبي علي بتافيلات فلم يزالوا بها إلى أن هلك ميمون.

ثم تغلب السلطان أبو الحسن على أخيه أبي علي، وصارأولاد ميمون في جملته.

وزحف السلطان أبو الحسن إلى تلمسان يجر أمم المغرب، وأحجر على زيان بتلمسان، ثم اقتحمها عليهم عنوة وابتزهم ملكهم، وقتل السلطان أبا تاشفين عند شدونه، وبعث كلماتة في أقطار المغرب الأقصى والأدنى إلى تخوم الموحدين من أندلس، وجمع كلمة زناتة واستتبعهم تحت لوائة. وفر بنو عامر من زغبة أولياء بني عبد الواد إلى القفر كما نذكره. ورفع السلطان أبو الحسن قوم عريف بن يحيى بمحلته على كل عربي في إيالته من زغبة والمعقل. وكان عقد سمعون بن سعيد على الناجعة من سويد. وهلك أيام نزول السلطان بتاسالة سنة إثنتين وثلاثين[وسبعمائة] قبل فتح تلمسان.

وولي من بعده أخوه عطية هلك لأشهر من ولايته بعد فتح تلمسان فعقد السلطان لونزمار بن عريف على سويد وسائر بني مالك، وجعل له رياسة البدو حيث كانوا من أعماله، وأخذ الصدقات منهم والأتاوات فعكفت على هيئة أمم البدو واقتدى بشوراه رؤساؤهم. وفر ابن عمه المسعود بن سعيد ولحق ببني عامر، وأجلبوا على السلطان بدعاء جزارشبة إبنه أبي عبد الرحمن، فجمع لهم ونزمار وهزمهم كما نذكره. وسفر عريف بين السلطان أبي الحسن وبين الملوك لعهده من الموحدين بأفريقية وبني الأحمر بالأندلس والترك بالقاهرة. ولم يزل على ذلك إلى أن هلك السلطان أبو الحسن.

(ولما تغلب) السلطان أبو عنان على تلمسان كما سنذكره رعى لسويد ذمة الانقطاع إليه، فرفع ونزمار بن عريف على سائر رؤساء البدو من زغبة وأقطعه السرسو وقلعة ابن

سلامة وكثيراً من بلاد توجين. وهلك أبو عريف بن يحيى، فاستقدمه من البدو وأجلسه بمكان أبيه من مجلسه جوار أريكته ولم يزل على ذلك. وعقد لأخيه عيسى على البدو من قومه، ثم بن عبد الواد بعد ملك السلطان أبي عنان عادت لهم الدولة بأبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن أبي يغمراسن من أعياص ملوكهم.

وتولى كبر ذلك صغير بن عامر وقومه لما لهم مع آل زيان من الولاية، وما كان لبني مرين فيهم من النقمات، فملكوا تلمسان ونواحيها، وعقدوا على سويد لميمون بن سعيد بن عثمان. وتال لونزمار بن عريف، ورأى الترهب والخروج عن الرياسة، فبنى حصناً بوادي ملوية من تخوم بني مرين ونزل به وأقام هنالك لهذا العهد. وملوك بني مرين يرعون له ذمة اختصاصه سلفهم فيؤثرونه بالشورى والمداخلة في الأحوال الخاصة مع الملوك والرؤساء من سائر النواحي، فتوجهت إليه بسبب ذلك وجوه أهل الجهات من الملوك وشيوخ العرب ورؤساء الأقطار.

ولحق أخواه أبو بكر ومحمد بقومهم فمكروا بالميمون ودسوا عليه من قتله غيلة من ذويهم وحاشيتهم واستبدوا برياسة البدو. ثم لما نصب بنو حصين بن زيان ابن عم السلطان أبي حمو للملك كما نذكره

ورشحوه للمنازعة سنة سبع وستين وسبعمائة هبت من يومئذ ريح العرب، وجاش مرجلهم على زناتة ووطئوا من تلول بلادهم بالمغرب الأوسط ما عجزوا عن حمايته، وولجوا من فروجها ما قصروا عن سده، ودبوا فيها دبيب الظلال في الفيوء، فتملكت زغبة سائر البلاد بالأقطاع عن السلطان طوعاً وكرهاً رعياً لخدمته، وترغيباً فيها وعدة وتمكيناً لقوته حتى أفرجت لهم زناتة عن كثيرها، ولجأوا إلى سيف البحر.

وحصل كل منهم في الفلول على ما يلي موطنه من بلاد القفر. فاستولى بنو يزيد على بلاد حمزة وبني حسن كما كانوا من قبل، ومنعوا المغارم، واستولى بنوحسين على ضواحي المدينة أقطاعاً والعطاف على نواحي مليمانة، والديالم على وزينة، وسويد على بلاد بني توجين كلها ما عدا جبل ونشريس لتوعره بقيت فيه لفة من توجين رياستهم لأولاد عمر بن عثمان من الجشم بني تيغرين كما نذكره، وبني عامر على تاسالة وميلانة إلى صيرور إلى كيدزة الجبل المشرف على وهران.

وتماسك السلطان بالأمصار وأقطع منها كلميتو لأبي بكر بن عريف، ومازونة لمحمد بن عريف ونزلوا لهم عن سائر الضواحي فاستولوا عليها كافة. وأوشك بهم أن يستولوا على الأمصار. وكل أول فإلى آخر، ولكل أجل كتاب، وهم على ذلك لهذا العهد.

ومن بطون سويد هؤلاء بطن بنواحي البطحاء يعرفون بهبرة ينسبهم الناس إلى مجاهد بن سويد، وهم يزعمون أنهم من قوم المقداد بن الأسود، وهم بهذا من قضاعة. ومنهم من يزعم أنهم من تجيب إحدى بطون كندة والله أعلم. ومن ظواعن سويد هؤلاء ناجعة يعرفون بصبيح، ونسبهم إلى صبيح بن علاج بن مالك ولهم عدد وقوة وهم يظعنون بظعن سويد ويقيمون بمقامهم.

(وأما الحرث بن مالك) وهم العطاف والديالم فموطن العطاف قبلة مليانة، ورياسة ظعونهم لولد يعقوب بن نصربن عروة من منصور بن أبي الذئب بن حسن بن عياض بن عطاف بن زيان بن يعقوب وابن أخيه علي بن أحمد وبنيه، ومعهم طائفة من براز إحدى بطون الأثبج. وأقطعهم السلطان مغارم جبل دراك وما إليه من وادي شلب. وحال بينهم وين موطن سويد ونشريس ولهم بلاد وزينة في قبلة الجبل رياستهم في ولد إبراهيم بن رزق بن رعاية من مزروع بن صالح بن ديلم، والسعد بن العبّاس بن إبراهيم منهم لهذا العهد. وكانت من قبل لعمه أبي يحيى بن إبراهيم. وتقبض عليه السلطان أبو عثمان بإشارة عريف بن يحيى وأغرى به وهلك في محبسه.

(وفيهم بطون كثيرة) منهم بنو زيادة بن إبراهيم بن رومي والدهاقنة أولاد هلال بن حسن وبنو نوال بن حسن أيضاً، وكلهم إخوة ديلم بن حسن وابن عكرمة من مزروع بن صالح، ويعرفون بالعكارمة . وهؤلاء العطاف والديالم أقل عدداً من سويد وأولياؤهم في فتنتهم مع بني عامر لمكان العصبية من نسب مالك، ولسويد عليهم اعتزاز بالكثرة. والديالم أبعد مجالاً منهم في القفر، ويحاذيهم في مواطنهم من جانب التلول بطن من بطون الحرث يعرفون بغريب نسبهم إلى غريب بن حارث، حي حلول بتلك المواطن يطلبهم السلطان في العسكرة، ويأخذ منهم المغارم، وهم أهل شاة وبقر. ورياستهم في أبناء مزروع بن خليفة بن خلوف بن

يوسف بن بكرة بن منهاب بن مكتوب بن منيع بن مييث بن محمد الغريب، وهو جدهم بن حارث.
وترادفهم في
رياستهم على غريب أولاد يوسف، وهم جميعاً أولاد بني منيع وسائر غريب من الأحلاف شيوخهم أولاد كامل، والله مالك الخلق والأمر.
خريطة
بنو عامر بن زغبة:
وأما بنو عامر بن زغبة، فمواطنهم في آخر مواطن زغبة من المغرب الأوسط قبلة تلمسان مما يلي المعقل وكانت مواطنهم من قبل ذلك في آخرها مما يلي المشرق، وكانوا مع بني يزيد حياً جميعاً، وكانوا يغلبون غيرهم في مواطن حمزة والدهوس وبني حسن لميرة أقواقم في المصيف. ولهم على وطن بني يزيد ضريبة من الزرع متعارفة بين أهله لهذا العهد. يقال: أنها كانت لهم أزمان تغلبهم في ذلك الوطن، وقيل إن أبا بكر بن زغبي في فتنته مع رياح غلبوه على الدهوس من وطنه فاستصرخ بني عامر فجاءوا لصريخه، وعلى بني يعقوب داود بن عطاف، وعلى بني حميد يعقوب بن معروف، وعلى شافع بن صالح بن بالغ وغلبوا رياحاً بعزلان. وفرض لهم على وطن بني يزيد ألف غرارة، واستمرت لهم عادة عليهم.
ولما نقلهم يغمراسن إلى مواطنهم هذه لمحاذاة تلمسان ليكونوا حجزاً بين المعقل وبين وطنها استقروا هنالك يتقلبون في قفارها في المشاتي، ويظهرون إلى التلول في المرابع والمصايف. وكان فيهم ثلاثة بطون: بنو يعقوب بن عامر وبنو حميد بن عامر وبنو شافع بن عامر، وهم بنو شقارة وبنو مطرف. ولكل واحد من البطنين الآخرين أفخاذ وعمائر. ولبني حميد فصائل أخرى فمنهم: بنوحميد. ومن عبيد الحجز، وهم بنو حجاز بن عبيد. وكان له من الولد جحوش وهجيش ابني حجاز. وحجوش حامد ومحمد ورباب
ومن محمد الولالدة بنو ولاد بن محمد. ومن رباب بنو رباب وهم معروفون لهذا العهد. ومن عبيد أيضاً العقلة بنو عقيل بن عبيد والمحارزة بنو محرز بن حمزة بن عبيد. وكانت الرياسة على حميد لعلاق من هؤلاء المحارزة وهم الذين قبل جحرش جذبني رباب. وكانت الرياسة على بني عامر كافة لبني يعقوب على عهد يغمراسن وابنه، لداود بن هلال بن عطاف بن رداد بن ركيش بن عياد بن منيع بن يعقوب منهم. وكان بنو حميد أيضاً برئيسهم وشيخهم- إلا أنه رديف لشيخ بني يعقوب- منهم. وكانت رياسة حميد لأولاد رباب بن حامد بن حجوش بن حجاز بن عبيد بن حميد، ويسمون الحجز. وعلى عهد يغمراسن لمعرف بن سعيد بن رباب منهم، وهو رديف لداود كما قلناه. ووقعت بين عثمان وبين داود بن عطاف مغاضبة، وسخطه عثمان لما أجاز الأميرأبا زكريا ابن السلطان أبي إسحق من آل أي حفص حين فر من تلمسان طالبا الخروج على الخليفة بتونس، وكان عثمان بن يغمراسن في بيعته فاعتزم على رجعه فأبى داود من إخفار ذمته في ذلك. ورحل معه حتى لحق بعطية بن سليمان من شيوخ الزواودة، وتغلب على بجاية وقسطنطية كما يذكر في أخباره.

وأقطع داود بن هلال رعياً لفعلته وطناً من بلاد حمزة يسمى كدارة، وأقام داود هنالك في مجالاتهم الأولى إلى أن نازل يوسف بن يعقوب تلمسان وطال حصاره لها، فوفد عليه داود مؤمّلا صلاح حاله لديه، وحمله صاحب بجاية رسالة إلى يوسف بن يعقوب فاستراب به من أجلها. فلما قفل من وفادته بعث في أثره خيالة من زناتة بيتوه ببني يبقى في سد وقتلوه. وقام بأمره في قومه ابنه سعيد، ونفس مخنق الحصارعلى تلمسان.

وكان قبل بني مرين لأبيه وسيلة رعاها لهم بنو عثمان بن يغمراسن فرجعوهم إلى مواطنهم ومع قومهم. وقد اغترأولاد معرف بن سعيد في غيبتهم تلك يساجلونهم في رياسة بني عامر، وغص كل واحد بمكان صاحبه؛ واختمق بنو معرف بإقبال الدولة عليهم لسلامتهم من الحزازة والخلاف. ونزع سعيد بن داود لأجل هذه الغيرة إلى بني مرين.

ووفد على السلطان أبي ثابت من ملوكهم يؤمل به الكرة فلم يصادف لها محلا ورجع إلى قومه. وكانوا مع ذلك حياً جميعاً و لم تزل السعاية بينهم تدب حتى عدا إبراهيم بن يعقوب بن معرف على سعيد بن داود فقتله وتناول قتله ماضي بن ردان من أولاد معرف بن عامر بمجالاته، وتعصبة عليه أولاد رباب كافة فافترق أمر بني عامر وصاروا حيين: بنو يعقوب وبنوحميد. وذلك لعهد أبي حفو موسى بن عثمان من آل زيان، وقام بأمر بني يعقوب بعد سعيد ابنه عثمان. ثم هلك بعد حين إبراهيم بن يعقوب شيخ بني حميد، وقام مقامه من بني قومه إبنه عامر بن إبراهيم، وكان شهماً حازماً وله ذكر، ونزل المغرب قبل عريف بن يحيى ونزل على السلطان أبي سعيد وأصهر إليه إبنته فأنكحه عامر إياها وزفها إليه، ووصله بمال له خطر فلم يزل عثمان يحاول أن يثأر منه بأبيه، بالفتنة تارة والصلح والاجتماع أخرى حتى غدره في بيته

وقتله وارتكب فيه الشنعاء التي تنكرها العرب، فتقاطع الفريقان لذلك آخر الدهر.

وصارت بنو يعقوب أحلافاً لسويد في فتنتهم مع بني حميد هؤلاء. ثم تلاحقت ظواعن سويد بعريف بن يحيى في مكانه عند بني مرين واستطال ولد عامر بن إبراهيم بقومهم على بني يعقوب فلحقوا بالمغرب، و لم يزالوا به إلى أن جاؤا في عساكر السلطان أبي الحسن، وهلك شيخهم عثمان. قتله أولاد عريف بن سعيد بثأر عامر بن إبراهيم، وولي بعده ابن عمه هجرس بن غانم بن هلال، فكان رديفاً له في حياته. ثم هلك وقام بأمره عمه سليمان بن داود.

ولما تغلب السلطان أبو الحسن على تلمسان فرّ بنو عامر بن إبراهيم إلى الصحراء، وكان شيخهم لذلك العهد صغير ابنه. واستألف السلطان على يد عريف بن يحيى سائر بطون حميد وأولاد رباب فخالفوا صغيراً وإخوانه إلى السلطان. وولى عليهم شيخاً من بني عمهم عريف بن سعيد، وهو يعقوب بن العبّاس بن ميمون بن عريف. ووفد بعد ذلك عمر بن إبراهيم عم صغير فولاه عليهم واستخدمهم، ولحق بنو عامر بن إبراهيم بالزواودة ونزلوا على يعقوب بن علي، و لم يزالوا هناك حتى شبوا نار الفتنة بالدعي بن هيدور الملبس بشبة أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن. وأعانه على ذلك أهل الحقود على الدولة والأضغان من الديا لم، وأولاد ميمون بن غنم بن سويد نقموا على الدولة مكان عريف وابنه ونزمار منها فاجتمعوا وبايعوا لهذا الداعي.

وأوعز السلطان إلى وزنزمار بحربهم فنهض إليهم بالعرب كافة، وأوقع بهم وفضهم ومزق جموعهم. وطال مفرمقير بن عامر وإخوته في القفار، وأبعدوا في الهرب، قطعوا العرق الرمل الذي هو سياج على مجالات العرب، ونزل قليعة والد وأوطنها. ووفد بعد ذلك على السلطان أبي الحسن منذ نمي به فقبل وفادته واسترهن أخاه أبا بكر، وصحب السلطان إلى أفريقية وحضر معه واقعة القيروان. ثم رجع إلى قومه وعادوا جميعاً لولاية بني يغمراسن، واستخدموا قبائلهم لأبي سعيد عثمان

بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن الدائل بتلمسان بعد واقعة القيروان أعوام خمسين وسبعمائة، فكان له ولقومه فيها مكان. ولحق سويد وبنويعقوب بالمغرب حتى جاءوا في مقدمة السلطان أبي عنان. ولما هلك بنو عبد الواد، وافترق جمعهم فر صغير إلى الصحراء على عادته، وأقام بالقفريترقب الخوارج، ولحق به أكثر قومه من بني معرف بن سعيد فأجلب بهم على كل ناحية. وخالف أولاد حسين بالمعقل على السلطان أبي عنان أعوام خمسة وخمسين سبعمائة وما بعدها، ونازلوا سجلماسة فكاثرهم وكان معهم، وأوقعت بهم عساكر بني مرين في بعض سني خلائهم وهم بنكور يمتارون فاكتسحوا عامة أموالهم وأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً. ولم يزالوا كذلك شريداً في الصحراء، وسويد وبنو يعقوب بمكانهم من المجالات، وفي

. حطهم عند السلطان، حتى هلك السلطان أبو عنان وجاء أبوحمو موسى بن يوسف أخو السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن لطلب ملك قومه بتلمسان، وكان مستقراً بتونس منذ غلبهم أبو علي على أمرهم فرحل صغير إلى وطن الزواودة، ونزل على يعقوب بن علي أزمان خلافه على السلطان أبي عنان، وداخله في استخلاص أبي حمو هذا من إيالة الموحدين للأجلاب على وطن تلمسان وبني مرين الذين به، فأرسلوه معه وأعطوه الآلة. ومضى به مقير وصولة بن يعقوب بن علي وزيان بن عثمان بن سباع وشبل ابن أخيه ملوك بني عثمان. ومن بادية رياح دغار بن عيسى بن رحا ب بقومه من سعيد، وبلغوا معهم إلى تخوم بلادهم فرجع عنهم رياح إلا دعار بن عيسى وشبل بن ملوك ومضوا لوجههم. ولقيتهم جموع سويد، وكان الغلب لبني عامر. وقتل يومئذ شيخ سويد بن عيسى عريف، واسرأخوه أبو بكر. ثم من عليه علي بن عمر بن إبراهيم وأطلقه. ولم يتصل الخبر بفاس إلا والناس منصرفون من جنازة السلطان أبي عنان. ثم أجلب أبو حمو بالمغرب على تلمسان فأخذها وغلب عساكر بني مرين عليها، واستوسق ملكه بها. ثم هلك مقيرلسنتين أو نحوهما حمل نفسه في جولة فتنة في الحي يروم تسكينها على بعض الفرسان فاعترضه سنان رمح على غيرقصد فأنفذه وهلك لوقته. وولي رياستهم من بعده أخوه خالد بن عامر يرادفه عبد الله ابن أخيه مقير. وخلصت رغبة كلها للسلطان أبي حمو فأساء بني مرين لما كان بينهم من الفتنة واستخدمهم جميعاً على مضاربهم وعوائدهم من سويد وبني يعقوب والديالم والعطاف، حتى إذا كانت فتنة أبي زيان بن السلطان أبي

سعيد عم أبي حموكما نذكره في خبرهم، جأش مرجل الفتنة من زغبة، واختلفوا على أبي حمو، وتقبض على محمد بن عريف أمير سويد لاتهامه إياه بالإدهان في أمره، فنزع أخوه أبو بكر وقومه إلى صاحب المغرب عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن سنة سبعين وسبعمائة وجاؤوا في مقدمته واستولى على مواطنهم.

ولحق بنو عامر وأبو حمو بالصحراء، وطال ترددهم فيها، وسعى عند أبي حمو في خالد من عمومته وأقاربه عبد الله بن عسكر بن معرف بن يعقوب، ومعرف هو أخو إبراهيم بن يعقوب. وكان عبد الله هذا بطانة للسلطان وعيناً، فاستفسد بذلك قلب خالد وتغير ونبذ إليه عهده، ونزع عنه إلى السلطان عبد العزيز.
وجاءت به عساكر بني مرين فأوقع بالسلطان أبي حمو ومن معه من العرب.
وهلك عبد العزيزسنة أربع وسبعين وسبعمائة فارتحل إلى المغرب هو وعبد الله ابن أخيه مقير ولحقهم ساسي بن سليم بن داود شيخ بني يعقوب. كان قومه بني يعقوب قتلوا أبناء محمد بن عريف فحدثت بينهم فتنة، ولحق ساسي هذا وقومه بالمغرب، وصحب خالداً يؤمل به الكرة، ويئسوا من صريخ بني مرين لما بينهم من الفتنة فرجعوا إلى أوطانهم سنة سبع وسبعين وسبعمائة، وأضرموا نار الفتنة. وخرجت إليهم عساكر السلطان أبي حمو مع ابنه أب تاشفين، وزحف معه سويد والديالم والعطاف فأوقعوا بهم على وادي مينا قبلة القلعة.
وقتل عبد الله بن مقير وأخوه ملوك في قرابة لهم آخرين، وسار فلهم شريداً إلى الصحراء، ولحقوا بالديالم والعطاف واجتمعوا جميعاً إلى سالم بن إبراهيم كبير الثعالبة، وصاحب وطن متيجة وكان يتوجس من أبي حمو الخيفة فاتفقوا على الخلاف وبعثوا إلى الأمير أبي زيان بمكانه من وطن رياح فجاءهم وتابعوه، وأمكنه سالم من الجزائر. ثم هلك خالد في بعض تلك الأيام فافترق أمرهم، وولي على بني عامر المسعود بن مقير، وزحف إليهم أبو حمو في سويد وأوليائه من بني عامر، واستخدم سالم بن إبراهيم، وخرج أبو زيان إلى مكانه من وطن رياح، ولحق المسعود

بن عامر وقومه بالقفر. ولحق ساسي بن سليم بيعقوب بن علي وقومه من الزواودة.
ثم راجعوا جميعاً خدمة السلطان وأوفدوا عليه فأمنهم وقدموا عليه وأظهروا البر والرحب بالمسعود وساسي، وطوى لهم على السوء. ثم داخل بطانة من بني عامر وسويد في نكبتهم فأجابوه ومكر بهم، وبعث ابنه أبا تاشفين لقبض الصدقات من قومهم حتى اجتمع له ما أراد من الجموع، فتقبض على المسعود وعشرة من إخوانه بني عامر بن إبراهيم. ونهض أبو تاشفين والعرب. جميعاً إلى أحياء بني يعقوب وكانوا بسيرات، وقد أرصد- لهم سويد بوادي مينا فصبحهم بنو عامر بمكانهم واكتسحوهم. وصار فلهم إلى الصحراء فاعترضهم أبو تاشفين ببني راشد فلم يبق لهم باقية، ونجا ساسي بن سليم إلى الصحراء في فل قليل من قومه، ونزل على النضر- بن عروة واستبد برياسة بني عامر سيمان بن إبراهيم بن يعقوب عم مقير ورديفه عبد الله بن عسكر بن معرف بن يعقوب، وهو أقرب مكاناً من السلطان وخلعه.
ثم بعث صاحب المغرب السلطان أبو العبّاس أحمد بن الولي أبا سالم بالشفاعة في المسعود وإخوانه بوسيلة من ونزمار بن عريف بعد أن كان مداخلاً لأبي حمو ولإخوانه في نكبتهم، فأطلقهم أبو حمو بتلك الشفاعة فعادوا إلى الخلاف وخرجوا إلى الصحراء، واجتمع إليهم الكثير من أولاد إبراهيم بن يعقوب. واجتمع أيضاً فل بني يعقوب من مطارحهم إلى شيخهم ساسي بن سليم ونزلوا جميعاً مع عروة. وأوفد إخوانه على السلطان أبي

العبّاس صاحب أفريقية لهذا العهد منتدباً به وصريخاً على عدوه فتلقاه من البر والاحسان ما يناسبه، وأفاض في وفده العطاء وصرفه بالوعد الجميل.

خريطة

وشعر بذلك أبو حمو فبعث من عيونه من اغتاله ووفد بعدها على السلطان أبي العبّاس صاحب أفريقية علي بن عمر بن إبراهيم، وهو ابن عم خالد بن محمد وكبير النفر المخالفين من بني عامر على أبي حمو. ووفد معه سليمان بن شعيب بن عامر فوفدوا عليه بتونس يطلبون صريخه فأجابهم ووعدهم وأحسب الإحسان والمبرة أمامهم، ورجعوا إلى قومهم. ثم راجع علي بن عمر خدمة أبي حمو وقدمه على بني عامر، وأدال به من سليمان بن إبراهيم بن عامر فخرج سليمان إلى أهل بيته من ولد عامر بن إبراهيم الذين بالصحراء، ونزلوا مع بني يعقوب بأحياء أبي بكر بن عريف، وهو على ذلك لهذا العهد والله مقدر الليل والنهار اه.

عروة بن زغبة:

وأما عروة بن زغبة فهم بطنان: النضر بن عروة. وبطون خميس ثلاثة: عبيد الله وفرغ ويقظان. ومن بطون فرغ بنو قائل أحلاف أولاد يحيى من المعمور القاطنين بجبل راشد. وبنو يقظان وعبيد الله أحلاف لسويد يظعنون لظعنهم ويقيمون لإقامتهم، ورياستهم لأولاد عابد من بطن راشد. وأما النضر بن عروة فمنتبذون بالقفر ينتجعون في رماله ويصعدون إلى أطراف التلول في إيالة الديالم والعطاف وحصين وتخوم أوطانهم، وليس لهم ملك ولا إقطاع لعجزهم عن دخول التلول بلغتهم وممانعة بطون زغبة الآخرين عنها، إلا ما تغلبوا عليه في أذناب الوطن بجبل المستند مما يلي وطن رياح يسكنه قوم من غمرة وزناتة استمر عليهم غلب الغرب منذ سنين. فوضع النضر هؤلاء عليهم الأتاوة وأصاروهم خولاً ورعية.

وربما نزل منهم مع هؤلاء البرابر من عجز عن الظعن في بيوتهم ولهم بطون مذكورة أولاد خليفة والخماننة وشريعة والسحاوى وذوي زيان وأولاد سليمان. ورياستهم جميعاً في أولاد خليفة بن النضر بن عروة، وهي لهذا العهد لمحمد بن زيان بن عسكر بن خليفة ورديفه سمعون بن أبي يحيى بن خليفة بن عسكر، وأكثر السحارى موطنون بجبل المستند الذي ذكرناه، ورياستهم في أولاد وناجعة. هؤلاء النضر أحلاف لزغبة دائماً فتارة للحرب وحصين جيرانهم في المواطن، وتارة لبني عامر في فتنتهم مع سويد ونديتهم مع بني عامر فيما يزعمون بآل قحافة وسمعت من مشايخهم أنه ليس بأب .

لهم، وإنما هو اسم وادٍ كان به حلفهم قديماً وربما يظاهرون سويداً على ابن عامر إلا أنه في الأقل والندرة. وهم إلى حلف بني عامر أقرب وأسرع لما ذكرناه. وربما ظاهروا رياحاً بعض المرات في فتنتهم لجوار الوطن إلا أنه قليل أيضاً وفي النادر. ويتناولون في الأكثر مع البادية من رياح مثل مسلم

وسعيد، وربما وقعت بينهم حروب في القفريصيب فيها بعض من دماء بعض، هذه بطون زغبة وما تأدّى إلينا من أخبارهم. ولله الخلق والأمر وهو رب العالمين.

المعقل من بطون الطبقة الرابعة

الخبر عن المعقل من بطون هذه الطبقة الرابعة

و أنسابهم وتصاريف أحوالهم

هذا القبيل لهذا العهد من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى مجاورون لبني عامر من زغبة في مواطنهم بقبلة تلمسان، وينتهون إلى البحر المحيط من جانب الغرب وهم ثلاثة بطون: ذوي عبيد الله، وذوي منصور، وذوي حسان. فذوي عبيد الله منهم هم المجاورون لبني عامر، ومواطنهم بين تلمسان وتاوريرت في التل وما بواجهها من القبلة. ومواطن ذوي منصور من تاوريرت إلى بلاد درعة فيستولون على ملوية كلها إلى سجلماسة، وعلى درعة وعلى ما يحاذ الا من التل مثل تاري وغساسة ومكناسة وفاس وبلاد تادلا والمقدر.

ومواطن ذوي حسان من درعة إلى البحر المحيط، وينزل شيوخهم في بلد نول قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما إليه، وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملثمين من كدالة ومستوفة ولمتونة.

وكان دخولهم إلى المغرب مع الهلاليين في عدد قليل، يقال أنهم لم يبلغوا المائتين. واعترضهم بنو سليم فأعجزوهم وتحيّزوا إلى الهلاليين منذ عهد قديم ونزلوا بأخر مواطنهم مما يلي ملوية ورمال تافيلالت، وجاوروا زناتة في القفار والغربية فعفوا وكثروا وأنبتوا في صحارى المغرب الأقصى، فعمروا رماله وتغلبوا على فيافيه. وكانوا هناك أحلافاً لزناتة سائر أيامهم. وبقي منهم بأفريقية جمع قليل اندرجوا في جملة بني كعب بن سفيم وداخلوهم حتى كانوا وزراء لهم في الاستخدام للسلطان واستئلاف العرب.

فلما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا إلى الأمصار والمدن. قام هؤلاء المعقل في القفارونفردوا في البيداء فنموا نموا لا كفاء له، وملكوا قصور الصحراء التي اختطها زناتة

بالقفر مثل قصور السوس غرباً، ثم توات ثم بودة ثم تامنطيت، ثم واركلان ثم تاسبييت ثم تيكورارين شرقاً. وكل واحد من هذه وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار وأكثر سكانها من زناتة، وبينهم فتن وحروب على رياستها. فجاز عرب المعقل هؤلاء الأوطان في مجالاتهم ووضعوا عليها الأتاوات والضرائب، وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكاً. وكانوا من تلك السالفة يعطون الصدقات لملوك زناتة وبأخذونهم بالدماء والطوائل ويسمونها حمل الرحيل. وكان لهم الخيار في تعيينها.

و لم يكن هؤلاء العرب يستبيحون من أطراف المغرب وحلوله حمى، ولا يعرضون لسابلة سجلماسة ولا غيرها من بلاد السودان بأذية ولا مكروه، لما كان بالمغرب من اعتزاز الدول وسد الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة بعدهم. وكان لهم بإزاء ذلك أقطاع من الدول يمدون إلى أخذه اليد السفلى، وفيهم: من مسلم سعيد بن رياح، والعمور من الاثبج، وعددهم كما قلنا قليل. وإنما كثروا بمن اجتمع إليهم من القبائل من غير نسبهم. فإن فيهم من فزارة ومن أشجع أحياء كبيرة، وفيهم الشظة من كرفة والمهاية من عياض، والشعراء من حصين، والصباح من الأخضر ومن بني سليم وغيرهم.

(وأما أنسابهم عند الجمهور) فخفية ومجهولة، ونسابة العرب من هلال يعدونهم من بطون هلال وهو غير صحيح، وهم يزعمون أن نسبهم في أهل البيت إلى جعفر بن أبي طالب وليس ذلك أيضاً بصحيح. لأن

الطالبيين والهاشميين لم يكونوا أهل بادية ونجعة. والصحيح والله أعلم من أمرهم أنهم من عرب اليمن، فإن فيهم بطنين يسمى كل واحد منهما بالمعقل. ذكرهما ابن الكلبي وغيره فأحدهما من قضاعة بن مالك بن حمير، وهو معقل بن كعب بن غليم بن خباب بن هبل بن عبد الله بن كنانة بن بكربن عوف بن عذرة بن زيد بن اللات بن رفيدة بن ثور بن كعب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. والاخر من بني الحرث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج واسمه مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن

عريب بن زير بن كهلان، وهو معقل، وإسمه ربيعة بن كعب بن ربيعة بن كعب بن الحرث.

والأنسب أن يكونوا من هذا البطن الآخر الذي من مذحج، كان إسمه ربيعة، وقد عده الإخباريون في بطون هلال الداخلين إلى أفريقية لأن مواطن بني الحرث بن كعب قريب من البحرين حيث كان هؤلاء العرب مع القرامطة قبل دخولهم إلى أفريقية. ويؤيده أن ابن سعيد لما ذكر مذحج وأنهم بجهات الجبال من اليمن، وذى من بطونهم زبيد ومراد ثم قال: وبأفريقية منهم فرقة وبرية ترتحل وتنزل، وهؤلاء الذين ذكر إنما هم المعقل الذين هم بأفريقية، وهم فرقة من هؤلاء الذين بالمغرب الأقصى.

(ومن إملاء نسابتهم): أن معقل جدهم له من الولد سحير ومحمد فولد سحير عبيد الله وثعلب. فمن عبيد الله ذوي عبيد الله البطن الكبير منهم. ومن ثعلب الثعالب

الذين كانوا ببسيط متيجة من نواحي الجزائر. وولد محمد: مختار ومنصور وجلال وسالم وعثمان. فولد مختار بن محمد: حسان وشبانة. فمن حسان: ذوي حسان البطن المذكور، أهل السوس الأقصى. ومن شبانة الشبانات جيرانهم هنالك. ومنهم بطنان: بنو ثابت وموطنهم تحت جبل السكسيوي من جبال أدرن وشيخهم لهذا العهد أوما قبله يعيش بن طلحة.

والبطن الآخر آل علي، وموطنهم في برية هنكيسة تحت جبل كزولة، وشيخهم لهذا العهد أو ما قرب منه حريز بن علي. ومن جلال وسالم وعثمان الرقيطات بادية لذوي حسان ينتجعون معهم. وولد منصور بن محمد حسين وأبو الحسين وعمران ونسبا يقال لهم جميعاً ذوي منصور وهو أحد بطونهم الثلاثة المذكورة، والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه وأحكم.

خريطة

ذوي عبيد الله :

فهم المجاورون لبني عامر بن زغبة وفي سلطان بني عبدالواد

من زناتة، فمواطنهم ما ين تلمسان إلى وجدة إلى مصب وادي ملوية في البحر ومنبعث وادي صا من القبلة. وتنتهي رحلتهم في القفار إلى قصور توات وتمنطيت وربما عاجوا ذات الشمال إلى تاسابيت وتوكرارين. وهذه كلها رقاب السفر إلى بلاد السودان. وبينهم وبين بني عامر فتن وحروب موصولة. وكان لهم مع بني عبد الواد مثلها قبل السلطان والدولة، فما كانوا أحلافاً لبني مرين. وكان المنبات من ذوي منصور أحلافاً لبني عبد الواد فكان يغمراسن يوقع بهم أكثر أوقاته وينال منهم إلى أن

صحبوا بسبب الجوار، واعتزت علهم الدولة فأعطوا الصدقة والطوائل وعسكروا مع السلطان في حروبه.
و لم يزل ذلك إلى أن لحق الدولة الهرم الذي يلحق مثلها فوطنوا التلول، وتملكوا وجدة وندرومة وبني يزناسن ومديونة وبني سنوس أقطاعا من السلطان، إلى ما كان لهم عليها قبل من الأتاوات والوضائع فصار معظم جبايتها لهم، وضربوا على بلاد هنين بالساحل ضريبة الإجازة منها إلى تلمسان، فلا يسير ما بينهما مسافر أيام حلولهم بساحتها إلا بإجازتهم، وعلى ضريبة يؤديها إليهم. وهم بطنان: الهراج والخراج، فالخراج من ولد فزاج بن مطرف بن عبيد الله، ورياستهم في أولاد عبد الملك وفرج بن علي بن أبي الريش بن نهار بن عثمان بن خراج، لأولاد عيسى بن عبد الملك ويعقوب بن عبد الملك ويغمور بن عبد الملك.
وكان يعقوب بن يغمور شيخهم لعهد السلطان أبي الحسن، ولفا تغلب على تلمسان استخدم له عبيدالله هؤلاء. وكان يحيى بن العز من رجالة بني يزناسن أهل الجبل المطل على وجدة. وكان له قدم في خدمة الدول فاتصل بالسلطان أبي الحسن ورغبه في ملك قصور هذه الصحراء، فبعثه مع هؤلاء العرب في عسكر، ودخل معهم إلى الصحراء وملك تلك القصور واستولى عليها. وأسف عبيد الله بانتزاع أملاكهم وسوء المعاملة لهم، فوثبوا به وقتلوه في خبائه، وانتهبوا عسكر السلطان الذين معه ونقضوا الطاعة. وفر يعقوب بن يغمور فلم يزل شريداً بالصحراء سائر أيامه، ورجع بعد ذلك.
ثم عادت دولة بني عبد الواد فصدوا في ولايتها فلم يزل على ذلك، وخلفه إبنه طلحة، وكان أيام خلاف يعقوب وانتقاضه رأس على الخراج من أهل بيته منصور بن يعقوب بن عبد الملك وإبنه رحوّ من بعده. وجاء أبوحمو فكان له في خدمته ومخالطته قدم فقدمه شيخاً عليهم. فرئاستهم لهذا العهد منقسمة بين رجو بن منصوربن يعقوب بن
عبد الملك وبين طلحة بن يعقوب المذكور آنفا وربما نازعه. ولهم بطون كثيرة فمنهم: الجعاونة من جعوان بن خراج، والغسل من غاسل بن خراج، والمطارفة من مطرف بن يخراج، والعثامنة من عثمان بن خراج. وفيهم رياستهم كما قلناه ومعهم ناجعة يسمون بالمهاية ينسبون تارة إلى المهاية بن عياض، وقدمنا ذكرهم، وتارة إلى مهيا بن مطرف.
وأما الهراج فمن ولد الهراج بن مهدي بن محمد
بن عبيد الله، ومواطنهم في ناحية المغرب عن الخراج فيجاورون بني منصور ولهم تاوريرت وما إليها.
وخدمتهم في الغالب لبني مرين وإقطاعاتهم من أيديهم، ومواطنهم تحتهم، ورجوعهم إلى عبد الواد في الأقل.
وفي بعض الأحايين ورياستهم في ولد يعقوب بن هبا بن هراج لأولاد مرين بن يعقوب، وأولاد مناد بن رزق الله بن يعقوب، وأولاد فكرون بن محمد بن عبد الرحمن بن يعقوب من ولد حريزبن يحيى الصغيربن موسى بن يوسف بن حريز، كان شيخاً عليهم أيام السلطان عبد العزيز وهلك عقبه، ورأس عليهم ابنه. ومن ولد مناد أبو يحيى الكبير بن مناد، كان شيخاً قبل أبي يحيى الصغير، وبالإضافة إليه وصف بالصغير. ومنهم أبوحيمدة محمد بن عيسى بن مناد وهو لهذا العصررديف لشيخهم من ولد أبي يحيى الصغير، وهو كثير التقلب في القفار

والغزو للقاصية ولأهل الرمال والملثمين. والله مالك الأمور لا رب غيره ولا معبود سواه وهو نعم المولى ونعم النصير0

خريطة

الثعالبة

وأما الثعالبة إخوتهم من ولد ثعلب بن عليّ بن بكربن صغيرأخي عبيد الله بن صغير، فموطنهم لهذا العهد بمتيجة من بسيط الجزائر، وكانوا قبلها بقطيري موطن حصين لهذا العهد، نزلوها منذ عصور قديمة، وأقاموا بها حياً حلولاً. ويظهر أن نزولهم لها حين كان ذوي عبيد الله في مواطن بني عامر لهذا العهد، وكان بنو عامر في مواطن بني سويد فكانت مواطنهم لذلك العهد متصلة بالتلول الشرقية، فدخلوا من ناحية كزول وتدرّجوا في المواطن إلى ضواحي المدينة، ونزلوا جبل تيطري وهو جبل أشير الذي كانت فيه المدينة الكبيرة. فلما تغلب بنو توجين على التلول وملكوا ونشريش زحف محمد بن عبد القوي إلى المدينة فملكها، وكانت بينه وبينهم حرب وسلم، إلى أن وفدت عليه مشيختهم، فتقبض عليهم وأغزى من وراءهم من بقية الثعالبة واستلحمهم واكتسح أموالهم.

وغلبهم بعدها على تيطري وأزاحهم عنها إلى متيجة، وأنزل قبائل حصين بتيطري، وكانوا معه في عداد الرعايا يؤدون إليه المغارم والوظائف، ويأخذهم بالعسكرة معه. ودخل الثعالبة هؤلاء في إيالة ملكيش من صنهاجة ببسيط متيجة، وأوطنوا تحت ملكتهم. وكان لهم عليهم سلطان كما نذكره. حتى إذا غلب بنو مرين على المغرب الأوسط، وأذهبوا ملك ملكيش منها، استبد الثعالبة هؤلاء بذلك البسيط وملكوه. وكانت رياستهم في ولد سباع بن ثعلب بن علي بن مكر بن صغير. ويزعمون أن سباعا هذا كان إذا وفد على الموحدين يجعلون من فوق عمامته ديناراً يزن عدداً من الدنانير سابقة في تكرمته وترفيعه.

(وسمعت) من بعض مشيختنا أن ذلك لما كان من كرامته للإمام المهدي حين أجاز بهم فإنه مرّ بهم ساعياً فحملوه. واستقرت الرياسة في ولد سباع هذا في بني يعقوب بن سباع أولاً، فكانت لهم مدداً، ثم في عقب حنيش منهم. ثم غلب السلطان أبو

الحسن على ممالك بني عبد الواد ونقلهم إلى المغرب، وصارت الولاية لهم لأبي الحملات بن عائد بن ثابت، وهو ابن عم حنيش. وهلك في الطاعون الجارف أواسط هذه المائة الثامنة لعهد نزول السلطان أبي الحسن بالجزائر من تونس، فولي عليهم إبراهيم بن نصر. ولم تزل رياستهم إليه إلى أن هلك بعد عساكر السلطان أبي عنان على المغربين كما نذكره في أخباره. وقام برياستهم إبنه سالم. وكانوا أهل مغارم ووضيعة للملكش، ومن بعدهم من ولاة الجزائر، حتى إذا هبت ريح العرب أيام خروج أبي زيان وحصين على أبي حمو أعوام ستين وسبعمائة كما ذكرناه. وكان شيخهم لذلك العهد سالم بن ابراهيم بن نصربن حنيش بن أبي حميد بن نابت بن محمد بن سباع فأخب في تلك الفتنة وأوضع، وعاقد أبو حمو وانتقض عليه مراراً. وغلب بنو مرين على تلمسان فتحيز إليهم. وكانت رسله ووفده تقدموا إليهم بالمغرب.

ثم هلك السلطان عبد العزيز ورجع أبو حمو إلى ملكه، ونزلت الغوائل فخشيه سالم. واستدعى أبا زيان ونصبه بالجزائر، وزحف إليه أبو حمو سنة تسع وسبعين [وسبعمائة] ففض جمعه، وراجع سالم خدمته. وفارق أبا زيان كما نذكره في أخباره. ثم زحف إليه أبو حمو وحاصره بجبال متيجة أياماً قلائل واستنزله على عهده. ثم أخفره وتقبض عليه وقاده

إلى تلمسان أسيراً وقتله قعصاً بالرماح. وذهب أثره وما كان له من الرياسة التي لم تكن الثعالبة لها بأهل. ثم تتبع إخوانه وعشيره وقبيله بالقتل والسبي والنهب إلى أن دثروا، والله يخلق ما يشاء.

خريطة

ذوي منصور:

وأما أولاد منصور بن محمد فهم معظم هؤلاء المعقل، وجمهورهم ومواطنهم تخوم المغرب الأقصى من قبلته ما بين ملوية ودرعة. وبطونهم أربعة: أولاد حسين وأولاد أبي الحسين، وهما شقيقان، والعمارنة أولاد عمران، والمنبات أولاد منبا وهما شقيقان أيضاً. ويقال لهذين البطنين جميعاً الأحلاف. فأما أولاد أبي الحسن فعجزوا عن الظعن، ونزلوا قصوراً اتخذوها بالقفر ما بين تافيبلات وتيكورارين. وأما أولاد حسين فهم جمهور ذوي منصور، ولهم العزة عليهم ورئاستهم أيام بني مرين في أولاد خالد بن جرمون بن جرار بن عرفة بن فارس بن علي بن فارس بن حسين بن منصور، كانت أيام السلطان أبي الحسن لعلي بن غانم. وهلك إثر كائنة طريف. وصارت لأخيه يحيى، ثم لابنه عبد الواحد بن يحيى، ثم لأخيه زكريا، ثم لابن عمه أحمد بن رحو بن غانم، ثم لأخيه يعيش، ثم لابن عمه يوسف بن علي بن غانم لهذا العهد.

وكانت لبني مرين فيهم وقائع أيام يعقوب بن عبد الحق ابنه يوسف، وسيأتي في أخبار بني مرين غزوة يوسف بن يعقوب من مراكش إليهم، وكيف أوقع بهم بصحراء درعة. ولفا أقام بالشرق على تلمسان محاصراً لها أحلف هؤلاء العرب من المعقل على أطراف المغرب ما بين درعة وملوية إلى تاوريرت. وكان العامل يومئذ بدرعة عبد الوهاب بن صاعد من صنائع الدولة وكبار ولاتها، فكانت بينه وبينهم حروب قتل في بعضها. ثم هلك يوسف بن يعقوب، ورجع بنو مرين إلى المغرب فأخذوا منهم بالثأر حتى استقاموا على الطاعة. وكانوا يعطون الصدقة أطوع ما يكون إلى أن فشل ريح الدولة، واعتزت العرب فصاروا يمنعون الصدقة إلا في الأقل يغلبهم السلطان على إعطائها.

ولما استولى السلطان أبو عنان على تلمسان أعوام خمسين وسبعمائة وفر صغير بن عامر إلى الصحراء، ونزل عليهم واستجار بهم فأجاروه. ونكر السلطان عليهم ذلك

فأجمعوا نقض طاعته، وأقاموا معه بالصحراء وصغير متولي كبير ذلك الخلاف، حتى إذا هلك أبو عنان وكان من سلطان أبي حمو بتلمسان ما نحن ذاكروه، وزحف بنو مرين إلى

تلمسان ففر منها أبو حمو وصغير، ونزلوا عليهم فأوقعوا بعسكر بني مرين بنواحي تلمسان،واتسع الخرق بينهم وبين بني مرين فانحازوا إلى أبي حمو وسلطانه وأقطعهم بضواحيه. ثم رجعوا إلى أوطانهم بعد مهلك

السلطان أبي سالم أعوام ثلاث وستين[وسبعمائة] على حين اضطراب المغرب بفتنة أولاد السلطان أبي علي ونزولهم بسجلماسة، فكان لهم في تلك الفتنة آثار إلى أن انقشعت.

ثم كان لأحمد بن رحو مع أبي حمو جولة وأجلب عليه بأبي زيان حافد أبي تاشفين فقتل في تلك الفتنة كما نذكره، ثم اعتزوا على الدولة من بعد ذلك وأكثر مغارم درعة لهذا العهد وأقطع لهم ببلاد تادلا والمعدن من تلك الثنايا التي منها دخولهم إلى المغرب للمربع والمصيف ولميرات الأقوات. وسجلماسة من مواطن إخوانهم الأحلاف كما نذكره، وليست من مواطنهم فأما درعة فهي من بلاد القبلة موضوعة حفاً في الوادي الأعظم المنحدر من جبل درن من فوهة يخرج منها وادي أم ربيع، ويتساهل إلى البسائط والتلول ووادي دريعة ينحدر إلى القبلة مغرباً إلى أن يصب في الرمل ببلاد السوس وعليه قصور درعة، وواد آخر كبير أيضاً ينحدر إلى القبلة مشرقا بعض الشيء إلى أن يصب في الرمل دون تيكورارين، وفي قبلتها.

وعليه من جهة المغرب قصور توات، ثم بعدها تمنطيت، ثم بعدها وركلان. وعندها يصب في الرمل. وفي الشمال عن ركان قصورتسابيت. وفي الشمال عنها إلى الشرق قصور تيكورارين، والكل وراء عرق الرمل.

وجبال درن هي الجبال العظيمة الجاثمة سياجا على المغرب الأقصى من آسفي إلى تازي، وفي قبلتها جبل نكيسة لصنهاجة، وآخره جبل ابن حميدي من طرف هسكورة. ثم ينعطف من هنالك جبال أخرى متوازية حتى تنتهي إلى ساحل بادس من البحر الرومي. وصار المغرب لذلك كالجزيرة أحاطت الجبال به من القبلة والشرق والبحر ومن المغرب والجوف.

واعتمر هذه الجبال والبسائط التي بينها أمم من البربر لا يحصيهم إلا خالقهم، والمسالك بين هذه الجبال إلى المغرب منحصرة ثم معدودة. وبزحام القبائل المعتمرين لها كاظة. ومصب وادي درعة هذا إلى الصحراء والرمال ما بين سجلماسة وبلاد السوس، ويمتد إلى أن يصب في البحر ما بين نون ووادان، وحفافيه قصور لا تحصى شجرتها النخل، وقاعدتها بلد تادنست بلد كبيرقصده التجر للسلم في النيلج انتظار خروجه بالصناعة. ولأولاد حسين هؤلاء عساكر على هذا الوطن ومن بإزائه في فسيح جبلة من قبائل البربر صناكة وغيرهم، ولهم عليهم ضرائب وخفرات ووضائع. ولهم في مجابي السلطان إقطاعات، ويجاورهم الشبانات من أولاد حسان من ناحية الغرب، فلهم بسبب ذلك على درعة بعض الأتاوات.

(وأما الأحلاف) من ذوي منصور وهم العمارنة والمنبات فمواطنهم مجاورة لأولاد حسين من ناحية الشرق. وفي مجالاتهم بالقفر تافيلات، وصحراؤها. وبالتل ملوية وقصور وطاط وتازي وبطوية وغساسة، لهم على ذلك كله الأتاوات والوضائع، وفيها الإتطاعات السلطانية. وبينهم وبين أولاد حسين فتنة، ويجمعهم العصبية في فتنة من سواهم. ورياسة العمارنة في أولاد مظفر بن ثابت بن مخلف بن عمران، وكان شيخهم لعهد السلطان أبي عنان طلحة بن مظفر وابنه الزبير. ولهذا العهد محمد بن الزبير وأخوه موسى، ويرادفهم في رئاستهم أولاد عمارة بن قلان بن فخلف فكان منهم محمد العائد. ومنهم لهذا العهد سليمان بن ناجي بن عمارة ينتجع في القفر ويكثر الغزو إلى اعتراض العير وقصور الصحراء.

ورياسة المنبات لهذا العهد لمحمد بن عبد بن حسين بن يوسف بن فرج بن منبا، وكانت أيام السلطان أبي عنان لأخيه عليّ من قبله وترادفهم في رئاستهم ابن عمهم عبد الله بن الحاج عامر بن أبي البركات بن منبا. والمنبات والعمارنة اليوم إذا اجتمعوا جميعاً يكثرأولاد حسين. وكان للمنبات كثيرة لأول دولة بني مرين. وكان خلفهم مع بني عبد الواد. وكان مقدمه يغمراسن بن زيان في افتتاح سجلماسة، وتملكها من أيدي الموحدين، ثم تغلب بنو مرين عليها وقتلوا من حاربها من مشيختهم مع بني عبد الواد، ثم أوقعوا بالمنبات من بعد ذلك في مجالاتهم بالقفر واستلحوهم فنقص عددهم لذلك آخر الأيام، والله مالك الأمور لا رب سواه.

مواطن العثامنة تلي مواطن بني منصور من جانب الغرا و ويليهم أولاد سالم. وفي حيز مواطنهم درعة، ولهم عليها القفر. وبليهم أولاد جلال عند منتهى عمارة درعة مما بلي المغرب والقبلة. ويليهم غربا إلى البحر الشبانات وهم أولاد علي وأولاد بو ثابت وأولاد حسان وراءهم من ناحية القبلة والغرب ويتزلون مواطنهم بالغلب الذي لهم عليه.

خريطة

ذوي حسان عرب السوس:

وأمّا بنو مختار بن محمد فهم كما قدّمناه: ذوي حسان والشبانات والرقيطات. ومنهم أيضاً الجياهنة وأولاد أبورية، وكانت مواطنهم بنواحي ملوية إلى مصبه في البحر مع إخوانهم ذوي منصور وعبيد الله إلى أن استصرخهم علي بن يدر الزكندري صاحب السوس من بعد الموحدين. ونسبه بزعمه في عرب الفتح. وكانت بينه وبين كزولة الظواعن ببسائط السوس. وجبالة فتنة طويلة استصرخ لها بني مختار هؤلاء فصارخوه وارتحلوا إليه بظعونهم، وحمدوا مواطن السوس لعدم المزاحم من الظواعن فيها فأوطنوها. وصارت مجالاتهم بقفرها وغلبوا كزولة وأصاروهم في جملتهم، ومن ظعونهم وكلبوا على القصور التي بتلك المواطن في سوس ونول. ووضعوا عليها الأتاوات مثل تارودانت من سوس، وهي ضفة وادي سوس حيث يهبط من الجبل، وبين مصبه ومصب وادي ماسة حيث الرباط المشهور مرحلة إلى القبلة.

ومن هناك إلى زوايا أولاد بني نعمان مرحلة أخرى في القبلة على سائر البحر، وتواصت على وادي نول حيث يدفع من جبل نكيسة غرباً، وبينها وبين إيفري مرحلة، والعرب لا يغلبونها وإنما يغلبون على البسائط في نواحيها. وكانت هذه المواطن لعهد الموحدين من جملة ممالكهم وأوسع عمالاتهم. فلما انقرض أمر الموحدين حجبت عن ظل الدولة وخرجت عن إيالة السلطان إلا ما كان بها لبني يدر هؤلاء الذين قدمنا ذكرهم. وكان علي بن يدر مالكاً لقصورها، وكان له من الجند نحو ألف فارس، وولّي من بعده عبد الرحمن بن الحسن بن يدر، وبعده أخوه علي بن الحسن.

وكان لعبد الرحمن معهم حروب وفتن بعد استظهاره بهم، وهزموه مرّات متتابعة أعوام خمس وسبعمائة وما بعده، وغدر هو بمشيختهم وقتلهم بتارودانت سنة ثمان وسبعمائة من بعد ذلك. وكان لبني مرين على هؤلاء

المعقل بالسوس وقائع وأيام، وظهر يعقوب بن عبد الحق ببني مرين في بعضها الشبانات على بني حسان.
واستلحم منهم عدداً، وحاصرهم يوسف بن يعقوب بعدها فأمسكوها وأغرمهم ثمانية عشر
ألفاً، وأثخن فيهم يوسف بن يعقوب ثانية سنة ست وثمانين وسبعمائة وحاربتهم جيوشه أيضاً أياماً لحق بهم بنوكمي من بني عبد الواد، وخالفوا على السلطان فترددت إليهم العساكر واتصلت الحروب كما نذكر في أخباره.

(ولما استفحل) أمر زناتة بالمغرب. وملك أبو علي ابن السلطان أبي سعيد سجلماسة واقتطعها عن ملك أبيه بصلح وقع على ذلك انضوى إليه هؤلاء الأعراب أهل السوس من الشبانات وبني حسان، ورغبوه في ملك هذه القصور فأغزاها من تخوم وطنه بدرعة ودخل القرى عنوة. وفرعلي بن الحسن وأمه إلى جبال نكيسة عند صنهاجة ثم رجع. ثم غلب السلطان أبو الحسن واستولى على المغرب كله. ورغبه العرب في مثلها من قصور السوس فبعث معهم عساكره، وقائده حسون بن إبراهيم بن عيسى من بني يرنيان فملكها، وجبى بلاد السوس وأقطع فيه للحرب، وساسهم في الجباية فاستقامت حاله مدّة.

ثم انقرض أمر السلطان أبي الحسن فانقرض ذلك، ورجع السوس إلى حاله وهو اليوم ضاح من ظل الدولة، والعرب يقتسمون جبايته ورعاياه من قبائل المصامدة وصنهاجة قبائل الجباية. والظواعن منهم يقتسمونهم خولاً للعسكرة مثل كزولة مع بني حسّان وزكرز ولخس من لمطة مع الشبانات هذه حالهم لهذا العهد. ورياسة ذوي حسان في أولاد أبي الخليل بن عمربن عفيربن حسن بن موسى بن حامد بن سعيد بن حسان بن مختار لمخلوف بن أبي بكربن سليمان بن الحسن بن زيان بن الخليل ولأخواته. ولا أدري رياسة الشبانات لمن هي منهم، إلا أنهم حرب لبني حسان آخر الأيام. والرقيطات في غالب أحوالهم أحلاف للشبانات وهم أقرب إلى بلاد المصامدة وجبال درن وذوي حسان أبعد في القفر، والله تعالى يخلق ما يشاء لا إله إلا هو.

خريطة

بني سليم

من الطبقة الرابعة

الخبر عن بني سليم بن منصورمن هذه الطبقة الرابعة وتعديد
بطونهم وذكر أنسابهم و أولية أمرهم وتصاريف أحوالهم

ونبدأ أولا بذكر بني كعب وأخبارهم. وأمّا بني سليم هؤلاء فبطن متسع من أوسع بطون مضر وأكثرهم جموعاً، وكانت منازلهم بنجد. وهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس، وفيهم شعوب كثيرة. ورئاستهم في الجاهلية لبني الشريد بن رباح بن ثعلبة بن عطية بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم، وعمرو بن الشريد عظيم مضر وأبناؤه صخر ومعاوية. فصخر أبو الخنساء وزوجها العبّاس بن مرداس صحابي حضرت معه القادسية.

(ومن بطون سليم) عطية ورعل وذكوان الذين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه و سلم لما فتكوا بأصحابه فَخَمَدَ ذكرهم. وكان بنو سليم لعهد الخلافة العباسية شوكة بغي وفتنة، حتى لقد أوصى بعض خلفائهم إبنه أن لا يتزوج فيهم. وكانوا يغيرون على المدينة وتخرج الكتائب من بغداد إليهم وتوقع بهم، وهم منتبذون بالقفر ولما كانت فتنة القرامطة صاروا حلفاء لأبي الطاهروبنيه، أمراء البحرين من القرامطة مع بني عقيل بن كعب.

ثم لما انقرض أمر القرامطة غلب بنو سليم على البحرين بدعوة الشيعة لما أن القرامطة كانوا على دعوتهم. ثم غلب بنو الأصفر بن تغلب على البحرين بدعوة العباسية أيام بني بويه، وطردوا عنها بني سليم فلحقوا بصعيد مصر. وأجازهم المستنصر على يد اليازوري وزيره إلى أفريقية لحرب المعز بن باديس عند خلافته عليهم كما ذكرنا ذلك أولاً، فأجازوا مع الهلاليين وأقاموا ببرقة وجهات طرابلس زمانا. ثم صاروا إلى أفريقية كما يذكر في الخبرعنهم.

وبأفريقية وما إليها من هذا العهد من بطونهم أربعة بطون: زغب وذياب وهبيب

وعوف. فأما زغب فقال ابن الكلبي في نسبته: زغب بن نصر بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم. وقال أبومحمد التجاني من مشيخة التونسيين في رحامه أنه زغب بن ناصر بن خفاف بن جرير بن ملاك بن خفاف، وزعم أنه أبو ذياب وزغب الأصغر الذين هم الآن من أحياء بني سليم بأفريقية. وقال أبو الحسن بن سعيد: هو زغب بن مالك بن بهثة بن سليم، كانوا بين الحرمين، وهم الآن بأفريقية مع إخوانهم، ونسب ذياب بن مالك بن بهثة فالله أعلم بالصحيح من ذلك.

ونسب بن سعيد والتجاني لهؤلاء قريب بعضه من بعض ولعله واحد. وسقط لابن سعيد جدّ. وأما هبيب فهو ابن بهثة بن سليم ومواطنهم من أول أرض برقة مما يلي أفريقية إلى العقبة الصغيرة من جهة الإسكندرية، أقاموا هنالك بعد دخول إخوانهم إلى أفريقية. وأول ما يلي الغرب منهم بنو حميد لهم أجرابية وجهاتها. وهم عديد يرهبهم الحاج، ويرجعون إلى شماخ وقبائل شماخ لها عدد ولهم العز في هيت لكونها صارت خصب برقة الذي منه المرج. وفي شرقيهم إلى العقبة الكبيرة من قبائل هيب بنو لبيد، وهم بطون عديدة. وبين شماخ ولبيد فتن وحروب. وفي شرقيهم إلى العقبة الصغيرة شمال محارب والرياسة في هاتين القبيلتين لبني عزاز وهم المعروفون بالعزة. وجميع بطون هيب هذه استولت على إقليم طويل خربوا مدنه، ولم يبق فيه مملكة ولا ولاية إلا لأشياخهم، وفي خدمتهم بربر ويهود يحترفون بالفلاحة والتجر. ومعهم من رواحة وفزارة أمم، واشتهو لهذا العهد ببرقة من شيوخ أعرابها أبو ذؤيب. ولا أدري نسبه فيمن هو، وهو بعيد، وهم يقولون من العزة، وقوم يقولون من بني أحمد، وقوم يجعلونه من فزارة لأن فزارة هنالك قليل عددهم والغلب لهيب فكيف تكون الرياسة لغيرهم؟. وأما عوف فهو ابن بهثة بن سليم ومواطنهم من وادي قابس إلى أرض بونة ولهم

جرمان عظيمان: مرداس ولعلاق بطنان: بنو يحيى وحصن. وفي أشعار هؤلاء المتأخرين منهم مثل حمزة بن عمر شيخ الكعوب وغيره أن يحيى وعلاقا أخوان. ولبني يحيى ثلاثة بطون: حمير ودلاج ورياح ولحمير بطنان:

ترجم وكردم. ومن ترجم: الكعوب بنو كعب بن أحمد بن ترجم. ولحصن بطنان: بنو علي وحكيم. ونحن نأتي على الحكاية عن جميعهم بطناً بطناً. وكانوا عند إجازتهم على أثر الهلاليين مقيمين ببرقة كما ذكرناه. وهنالك نزل عليهم القاضي أبو بكر بن العربي وأبوه حين غرقت سفينتهم ونجوا إلى الساحر، فوجدوا هنالك بني كعب فنزل عليهم فأكرمه شيخهم كما ذكر في رحلته.

ولما كانت فتنة ابن غانية وقراقش الغزي بجهات طرابلس وقابس وضواحيها كما نذكر في أخبارهم، كان بنو سليم هؤلاء فيمن تجع إليهم من ذؤبان العرب وأوشاب القبائل فاعصوصبوا عليهم. وكان لهم معهم حروب. وقتل قراقش ثمانين من الكعوب وهربوا إلى برقة واستصرخوا برياح من بطون سليم ودبكل من حمير فصارخوهم إلى أن تجلّت غمامة تلك الفتنة بمهلك قراقش وابن غانية من بعده. وكان رسوخ الدولة الحفصية بأفريقية. ولما هلك قراقش واتصلت فتنة ابن غانية مع أبي محمد بن أبي حفص ورجع بنو سليم إلى أبي محمد صاحب أفريقية. وكان مع ابن غانية الزواودة من رياح، وشيخهم مسعود البلط، فرّ من المغرب ولحق به فكان معه هو وبنوه. وبنوعوف هؤلاء من سليم مع الشيخ أبي محمد. فلما استبدّ إبنه الأمير أبو زكريا بملك أفريقية رجعوا جميعاً إليه، والشفوف للزواودة. فلما انقطع دابر ابن غانية صرف عزمه إلى إخراج رياح من إفريقية لما كانوا عليه من العيث بها والفساد، فجاء بمرداس وعلاق وهما بنوعوف بن سليم هؤلاء من مواطنهم بنواحي السواحل وقابس واصطنعهم.

ورياسة مرداس يومئذ في أولاد جامع، وبعده لإبنه يوسف، وبعده لعنان بن جابر بن جامع. ورياسة علاق في الكعوب لأولاد شيخة بن يعقوب بن كعب. وكانت رياسة علاق عند دخولهم أفريقية لعهدهذاالمعز وبنيه لرافع بن حماد، وعنده راية جدّه التي حضر بها مع النبي صلى الله عليه و سلم ، وهو جدّ بني كعب فيما يزعمون. فاستظهر بهم السلطان على شأنه، وأنزلهم بساح القيروان، وأجزل لهم الصلات والعوائد وزاحموا الزواودة من رياح بمنكب، بعد أن كانت لهم استطالة على جميع بلاد أفريقية. وكانت أبّة إقطاعا لمحمد بن مسعود بن سلطان أيام الشيخ أبي محمد بن أبي حفص، فأقبل إليه مرداس في بعض السنين عيرهم للكيل ونزولوا به فرأوا نعمة الزواودة في تلولهم تلك، فشرهوا إليها وأجمعوا طلبها فحاربوهم فغلبوهم، وقتلوا رزق بن سلطان. واتصلت الفتنة. فلما حضرهم الأمير أبو زكريا صادف عندهم القبول لتحريضه فاعصوصبوا جميعاً على فتنة الزواودة وتأهبوا لها.

وتكررت بينهم وبين رياح الحروب والوقائع حتى أزاحوهم عن أفريقية إلى مواطنهم لهذا العهد بتلول قسطنطينة وبجاية إلى الزاب وما إليه. ثم وضعوا أوزار الحرب وأوطن كل حيث قسمت له قومه. وملك بنو عوف سائر ضواحي أفريقية وتغلبوا عليه واصطنعهم السلطان وأثبتهم في ديوان العطاء. ولم يقطع شيئا من البلاد. واختص بالولاية منهم أولاد جامع وقومه فكانوا له خالصة، وتم تدبيره في غلب الزواودة ورياح في ضواحي أفريقية وإزعاجهم عنها إلى ضواحي الزاب وبجاية وقسطنطينة، وطال بالدولة واختلف حالهم في الاستقامة معها والنفرة. وضرب السلطان بينهم ابن علاق فنشأت الفتنة وسخط عنان بن جابر شيخ مرداس

من أولاد جامع مكانه من الدولة فذهب مغاضباً عنها. وأقام بناجعته من مرداس ومن إليهم بنواحي المغرب في بلاد رياح من زاغر إلى ما يقاربها، وخاطبه أبو عبد الله بن أبي الحسن خالصة السلطان أبي زكريا صاحب أفريقية يومئذ يؤنبه على فعلته في مراجعة السلطان بقصيدة منها قوله، وهي طويلة:

قدوا المهامه بالمهرية القود   واطووا فلاة بتصويب وتصعيد

ومنها قوله:

سلوا دمنة بين الغضا والسواجر   هل استن فيها واكفات المواطر

فأجاب عن هذه عنان بقوله:

خليلي عوجا بين سلع وحاجر   بهوج عنا جيج نواج ضوامر

يقيم في النزوع عنهم ويستعطف السلطان بعض الشيء كما نذكره في أخبار الدولة الحفصية. ثم لحق بمراكش بالخليفة السعيد من بني عبد المؤمن محرضاً له على أفريقية وآل أبي حفص، وهلك في سبيله وقبر بسلا، ولم يزل حال مرداس بين النفرة والأصحاب إلى أن هلك الأمير أبو زكريا واستفحل ملك إبنه المستنصر من بعده، وعلا الكعوب بذمة قوية من السلطان. وكان شيخهم لعهده عبد الله بن شيخة فسعى عند السلطان في مرداس وكأن ابن جامع مبلغاً سعايته واعصوصبت عليه سائر علاق، فحاربوا المرداسيين هؤلاء وغلبوهم على الأوطان والحظ من السلطان، وأخرجوهم عن أفريقية وصاروا إلى القفر وهم اليوم به من جهة بادية الأعراب أهل الفلاة ينزعون إلى الرمل ويمتارون من أطراف التلول تحت أحكام سليم أو رياح، ويختصون بالتغلب على ضواحي قسطنطينة أيام مرابع الكعوب ومصائفهم بالتلول. فإذا انحدروا إلى مشاتيهم بالقفرأجفلت أحياء مرداس إلى القفر البعيد، ويخالطونهم على حلف ولهم على توزر ونفطة وبلاد قسطيلة أتاوة يؤدونها إليهم بما هي مواطنهم ومجالاتهم وتصرفهم، ولأنها في الكثير من أعراضهم.

وصاروا لهذا العهد إلى تملك القفار بها فاصطفوا منه كثيراً وأصبح منه عمران قسطنطينة لهم مرتابا واستقام أمر بني كعب من علاق وفي رياسة عوف وسائر بطونهم من مرداس وحصين ورياح، ودلاج ومن بطون رياح حبيب، وعلا شأنهم عند الدولة. واعتزوا على سائر بني سليم بن منصور، واستقرت رياستهم في ولد يعقوب بن كعب، وهم بنو شيخة وبنو طاهر وبنو علي. وكان التقدم لبني شيحة بن يعقوب لعبد الله أولاً، ثم لإبراهيم أخيه، ثم لعبد الرحمن ثالثهما على ما يأتي. وكان بنو علي يرادفونهم في الرياسة. وكان منهم بنو كثيربن يزيد بن علي.

وكان كعب هذا يعرف بينهم بالحاج لما كان قضى فرضه، وكانت له صحابة مع أبي سعيد العود الرطب شيخ الموحدين لعهد السلطان المستنصر أفادته جاهاً وثروة، وأقطع له السلطان

أربعاً من القرى أصارها لولده. كان منها بناحية صفاقس وبأفريقية وبناحية الجريد. وكان له من الولد سبعة، أربعة لأم وهم أحمد وماضي وعلي ومحمد، وثلاثة لأم وهم: بريد وبركات وعبد الغني. فنازع أحمد أولاد

شيخة في رئاستهم على الكعوب، واتصل بالسلطان أبي إسحق وأحفظهم ذلك فلحقوا بالدعي عند ظهوره، وكان من شأنه ماقدّمنا.

وهلك أحمد واستقرت الرياسة في ولده، وكان له من الولد جماعة. فمن غزية إحدى نساء بني يزيد من صنهاجة: قاسم ومرا أبو الليل وأبو الفضل، ومن الحكمية. قائد وعبيد ومنديل وعبد الكريم ومن السرية كليب وعساكر وعبد الملك وعبد العزيز. ولما هلك أحمد قام بأمرهم بعده إبنه أبو الفضل. ثم من بعده أخوه أبو الليل بن أحمد. وغلب رياسة بني أحمد هؤلاء على قومهم وتألفوا ولد إخوتهم جميعاً. وعرفوا ما بين أحيائهم بالأعشاش إلى هذا العهد. ولما كان شأن الدعي بن أبي عمارة. ويئس بأنه الفضل بن يحيى المخلوع، وأوقع بالسلطان أبي إسحق وقتله وأكثر بنيه كما نذكره في موضعه. لحق أبو حفص أخوه الأصغر بقلعة سنان من حصون أفريقية. وكان لأبي الليل بن أحمد في نجاته ثم في القيام بأمره أثره وقع منه أحسن المواقع فاصطنعه به وشيد من رياسته على قومه عندما أدال الله به من الدعي فاصطلع أبو الليل هذا بأمرهم.

وزاحم أو لاد شيحة بمنكب قوي. ولحق آخرهم عبد الرحمن بن شيحة بجباية عندما اقتطعها الأميرأبو زكريا ابن السلطان أبي إسحق على ملك عمه السلطان أبي حفص، فوفد عليه مستجيشاً به ومرغبا له في ملك تونس، يرجوبذلك كثرة رئاسته فهلك دون مرامه، وقبر ببجاية وانقرضت رياسة أولاد شيخة بمهلكه. واستبد أبو الليل بالرياسة في الكعوب، ووقع بينه وبين السلطان أبي حفص وحشة، فقدم على الكعوب مكانه محمد بن عبد الرحمن بن شيخة، وزاحمه به أياماً حتى استقام على الطاعة.

ولما هلك قام بأمرهم إبنه أحمد، واتصل أمر رياسته ونكبه السلطان أبوعصيدة فهلك في سجنه، وولي بعده أخوه عمر بن أبي الليل، وزاحمه هراج بن عبيد بن أحمد بن كعب إلى أن هلك هراج كما نذكره. ولما هلك عمر قام بأمره في قومه أخوه

محمد بن أبي الليل وكفل مولاهم وحمزة ابن أخيه عمر. وكان عمرمضعفا عاجزاً فنازعه أولاد مهلهل ابن عمه قاسم وهم: محمد ومسكيانه ومرغم وطالب وعون في آخرين لم يحضرني أسماؤهم، فترشحوا للاستبداد على قومهم ومجاذبة محمد ابن عمهم أبي الليل حبل الرياسة فيهم. ولم يزالوا على ذلك سائرأيامهم.

ولما ظهر هراج بن عبيد بن أحمد بن كعب وعظم ضغائنه وعتوه وإفساد الأعراب من احيائه السابلة وساء أثره في ذلك، وأسف السلطان بالاعتزاز عليه والاشتراط في ماله.

وتوغلت له صدور الغوغاء والعامة، فوفد على تونس عام خمسة وسبعمائة ودخل المسجد يوم الجمعة لابساً خفيه. ونكر الناس عليه وطأه بين الله بخف لم يتزعه. وربما قال له في ذلك بعض المصلين إلى جنبه، فقال: إني أدخل بها بساط السلطان فكيف الجامع؟ فاستعظم الناس كلمته، وثاروا به لحينه فقتلوه في المسجد وأرضوا الدولة بفعلهم. وكان أمره مذكوراً.

وقتل السلطان بعد ذلك أخاه كيسان وابن عمه شبل بن منديل بن أحمد. وقام بأمر الكعوب من بعد محمد بن أبي الليل وهراج بن عبيد مولاهم وحمزة أبناء عمر واستبد برياسة البدو من سليم بأفريقية على مزاحمة من بني

عمهم مهلهل بن قاسم وأقتالهم وفحول سواهم. وانتقض أحمد بن أبي الليل وابن أخيه مولاهم ابن عمر على السلطان سنة سبع وسبعمائة واستدعى عثمان بن أبي دبوس من مكانه بوطن دباب فجاءهما وأجلب له على تونس. ونزل كدية الصعتر بظاهرها. وبرز إليهم الوزير أبو عبد الله بن برزيكن فهزمهم، واستخدم أحمد بن أبي الليل.

ثم تقبض عليه واعتقل بتونس إلى أن هلك. ووفد بعد ذلك مولاهم ابن عمر سنة ثمان وسبعمائة فاعتقل معه، ولحق أخوه حمزة بالأميرأبي البقاء خالد ابن الأمير زكريا صاحب الثغر الغربي من أفريقية بين يدي مهلك السلطان أبي عصيدة، ومعه أبو علي بن كثير، ويعقوب بن الفرس وشيوخ بني سليم هؤلاء. ورغبوا الأميرأبا البقاء في ملك الحضرة. وجاءوا في صحبته، وأطلق أخاه مولاهم من الاعتقال منذ دخول السلطان تونس سنة عشر وسبعمائة كما نذكره في خبره.

ثم لحق حمزة بالسلطان أبي يحيى زكريا بن اللحياني، واتصلت به يده فرفعه على سائر العرب حتى لقد نفس ذلك عليه أخوه مولاهم. ونزع إلى السلطان أبي يحيى

الطويل أمر الخلافة. ولي سبعاً ببجاية وثلاثين بعد استيلائه على الحضرة وسائر بلاد أفريقية، فاستخلصه السلطان لدولته ونابذه حمزة فأجلب عليه بالقرابة واحداً بعد واحد كما نذكره. وداهن أخوه مولاهم في مناصحة السلطان ومالأ حمزة على شأنه.

وربما نمي عنه الغدر فتقبض عليه السلطان وعلى إبنه منصور وعلى ربيبه زغدان ومغران بن محمد بن أبي الليل. وكان الساعي بهم إلى السلطان ابن عمهم عون بن عبد الله بن أحمد، وأحمد بن عبد الواحد أبوعبيد وأبو هلال بن محمود بن فائد وناجي بن أبي علي بن كثيرومحمد بن مسكين وأبوزيد بن عمربن يعقوب، ومن هوّارة فيصل بن زعزاع فقتلوا لحينهم سنة إثنتين وعشرين وسبعمائة وبعثت أشلاؤهم إلى حمزة فاشتد حنقه ولحق صريخاً بأبي تاشفين صاحب تلمسان لعهده من آل يغمراسن، ومعه محمد ابن السلطان اللحياني المعروف بأبي ضربة قد نصبه للملك.

وأمدهم أبو تاشفين بعساكر زناتة، وزحفوا إلى أفريقية فخرج إليهم السلطان وهزمهم برغيش. ولم يزل حمزة من بعدها جلباً على السلطان أبي يحيى بالمرشحين من أعياص البيت الحفصي، وأبو تاشفين صاحب تلمسان يمدهم بعساكره. وتكررت بينهم الوقائع والأيام سجالا كما نذكره في مواضعه.

حتى إذا استولى السلطان أبو الحسن وقومه من بني مرين على تلمسان والغرب الأوسط سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، واستتبعوا بني عبد الواد وسائر زناتة اقصي حمزة عن فتنته وانقطع حبلها في يده، ولحق بالسلطان أبي الحسن مستشفعاً به، فتقبل السلطان أبو يحيى شفاعته وعفا له عن جرائمه وأ حله محل الأصفاء والخلوص. فشمرعن نصحه واجتهاده وظاهر قائده محمد بن الحكيم على تدويخ أفريقية، وظهر البدو من الأعراب فاستقام أمر الدولة وتوثر مهادها. وهلك حمزة سنة أربعين وسبعمائة بيد أبي عون نصر بن أبي علي عبد

السلام، من ولد كثمربن زيد المتقدم الذكرفي بني علي من بطون بني كعب، طعنه في بعض الحروب فأشواه، وكان فيها مهلكه.

وقام بأمرهم من بعده إبنه عمر بمظاهرة شقيقه قتيبة. ولكن أبا الليل تغلب على سائر الإخوة والقرابة، واستبد برياسة بني كعب وسائر بني يحيى، وأقتاله بنو مهلهل ينافسونه ويرتقبون الإدالة منه. وكان مساهمه في أمره معن بن مطاعن فزارة وزير أبيه. وخرجوا على السلطان بعد مهلك حمزة أبيهم واتهموا أن قتل أبي عون إياهم إنما كان بممالأة الدولة فنازلوا تونس، وجمعوا لمحاصرتها أولاد مهلهل أمثالهم. ثم اختلفوا ورحلوا عن البلد وانخذل طالب بن مهلهل وقومه إلى السلطان. ونهض في أثرهم فأوقع بهم في القيروان ووفدت مشيختهم على إبنه الأميرأبي العبّاس بقصره يداخلونه في الخروج على إبنه. وكان فيهم معن بن مطاعن وزيرهم فتقبض عليه وقتله وأفلت الباقون. وراجعوا الطاعة وأعطوا الرهن.

(ولما هلك) السلطان أبو يحيى وقام بالأمر إبنه عمر انحرفوا عنه، وطاهروا أخاه أبا العبّاس صاحب الجريد وولي العهد، وزحفوا معه بظواعنهم إلى تونس فدخلها، وقتله أخوه عمركما نذكره في موضعه، وقتل معه أخاهم أبو الهول بن حمزة فأسعفهم بذلك.

ووفد خالد على صاحب المغرب السلطان أبي الحسن فيمن وفد عليه من وجوه الدولة وكافة المشيخة من أفريقية، وجاء في جملته حتى إذا استولى على البلاد قبض أيديهم عما كانت تمتد إليه من إفساد السابلة وأخذ الأتاوة، وانتزع الأمصار التي كانت متقطعة بأيديهم، وألحقهم بأمثالهم من أعراب بلاد المغرب الأقصى من المعقل وزغبة فثقلت وطأته عليهم وتنكروا له، وساء ظنه بهم وفشت غارات المفسدين من بداويهم بالأطراف فنسب ذلك إليهم، ووفد عليه بتونس من رجالاتهم خالد بن حمزة وأخوه أحمد وخليفة بن عبد الله بن مسكين وخليفة بن أبي زيد من شيوخ حليم، فسعى بهم عنده أنهم داخلوا بعض الأعياص من أولاد اللحياني من بني أبي حفص كما في رحلته، وكما نذكره في موضعه فتقبض عليهم وبلغ خبرهم إلى الحي فتأشبوا بقسطيلة والجريد فظفروا بزنابي من بقية آل عبد المؤمن من عقب أبي العبّاس إدريس الملقب بأبي إدريس آخر خلفائهم بمراكش وقتيل يعقوب بن عبد الحق عند غلبه على الموحدين بمراكش واستيلاؤه على المغرب، وهو أحمد بن عثمان بن إدريس فنصبوه وبايعوه واجتمعوا عليه.

ونأشبت معهم بنو عمهم مهلهل أقتالهم وكان طالب هلك، وقام مكانه فيهم ابنه محمد فصرخهم بقومه واتفقوا جميعاً على حرب زناتة. ونهض إليهم السلطان أبو الحسن من تونس فاتح تسع وأربعين وسبعمائة فأجفلوا أمامه حتى نزل القيروان. ثم ناجزوه ففضوا جموعه وملأوا حقائبهم بأسلابه وأسلابهم، وخضدوا من شوكة السلطان وألانوا من حد الملك، وخفضوا من أمر زناتة. وغلبهم الأمم وكان يوم له ما بعده في اعتزاز العرب على الدول آخر الأيام. وهلك أبو الليل بن حمزة فعجز عمر عن مقاومة إخوته، واستبد بالرياسة عليه أخوه خالد، ثم من بعده أخوهما منصور.

واعتز على السلطان أبي إسحق ابن السلطان أبي يحيى صاحب تونس لعهد ه اعتزازاً لا كفاء له.

وانبسطت أيدي العرب على الضاحية وأقطعتهم الدولة حتى الأمصار وألقاب الجباية ومختص الملك، وانتفضت الأرض من أطرافها ووسطها، وما زالوا يغالبون الدولة حتى غلبوا على الضاحية، وقاسموهم في جبايات الأمصار بالأقطاع ريفاً وصحراء وتلولاً

وجريداً. ويحرضون ين أعياص الدولة ويجلبون بهم على الحضرة لما يعطونه طعمة من الدولة. ويريمهم السلطان بأقتالهم أولاد مهلهل بن قاسم بن أحمد يديل به منهم حتى أحفظوها. ويجرش بينهم بقضاء أوطارها حتى إذا أراد الله إنقاذ الأمة من هوة الخسف وتخليصهم من مكاره الجوع والخوف، وإدالتهم من ظلمات الموت بنور الاستقامة بعث همة السلطان أمير المؤمنين أبي العبّاس أحمد أيده الله لطلب إرثه من الخلافة. فبعث من بالحضرة فانبعث لها من مكان إمارته بالثغر العربي، ونزل إليه أمير البدو ومنصور بن حمزة هذا، وذلك سنة إحدى وسبعين وسبعمائة على حين مهلك السلطان أبي إسحق مقتعد كرسي الحضرة وصاحب عصا الخلافة والجماعة.

وقام إبنه خالد بالأمر من بعده فنهض إلى أفريقية ودخل تونس عنوة، واستولى على الحضرة سنة إثنتين وسبعمائة بعدها، وأرهف حدّه للعرب في الاعتزاز عليهم وقبض أيديهم عن المفاسد وذويهم فحدثت لمنصور نفرة عن الدولة، ونصب الأمير أبو يحيى زكريا ابن السلطان ابن أبي يحيى جدهم الأكبر، كان في أحياء العرب منذ سنين كما نذكرذلك كله في أخبار الدولة، وأجلب به على تونس سنة ثلاث وسبعين فامتنعت عليهم ولم يظفروا بشيء، وراجع منصور حاله عند السلطان، وكشف عن وجه المناصحة. وكان عشسريته ملوا منه حسداً ومنافسة بسوء ملكته عليهم، فغدا عليه محمد ا بن أخيه أبي الليل وطعنه فأشواه، وهلك ليومه سنة خمس وسبعين، وافترق جمعهم.

وقام بأمرهم من بعده صولة ابن أخيه خالد بن حمزة، ويرادفه أولاد مولاهم ابن عمرفجهد بعض الشيء في خدمة السلطان ومناصحته. ثم رجع إلى العصيان وكشف القناع في الخلاف. واتصل حاله على ذلك ثلاثاً، وأدال السلطان منه ومن قومه بأقتالهم أولاد مهلهل، ورياستهم لمحمد بن طالب، فرجع إليهم رياسة البدو وجعل لهم المنع والإعطاء فيهم ورفع رتبهم على العرب. وتحيز إليهم

مع أولاد مولاهم بن عمر بن أبي الليل، ونقلت أولاد حمزة سائر هذه الأيام في الخلافة ونهض السلطان سنة ثمانين وسبعمائة إلى بلاد الجريد لتقديم رؤسائها عن المراوغة، وحملهم على جادة الطاعة فتعرضوا لمدافعته عنها بإملاء هؤلاء الرؤساء ومشارطتهم لهم على ذلك.

وبعد أن جمعوا له الجموع من دومان العرب الأعراب وذياب البدو فغلبهم عليها

جميعاً وأزاحهم عن ضواحيها، وظفر بفرائسه من أولئك الرؤساء، وأصبحوا بين معقتل ومشرد. واستولى على قصورهم وذخائرهم، وأبعد أولاد حمزة وأحلافهم من حكيم المفر، وجاوزوا تخوم بلادهم من جهة المغرب، واعتزت عليهم الدولة اعتزازاً لا كفاء له، فنامت الرعايا في ظل الأمن وانطلقت منهم أيدي الاعتمار والمعاش وصلحت السابلة بعد الفساد، وانفتحت أبواب الرحمة على العباد.

وقد كان اعتزاز هؤلاء العرب على السلطان والدولة لا ينتهي إليه اعتزاز ولهم عنجهية وإباية وخلق في التكبر والزهو غريزة لما أنهم لم يعرفوا عهداً للذل، ولا يساومون بإعطاء الصدقات لهذا العهد الأول. أما في دولة بني أُميّة فللعصبية التي كانت للعرب بعضها مع بعض، يشهد بذلك أخبار الردة والخلفاء معهم ومع أمثالهم. مع أن الصدقة كانت لذلك العهد تتحرى الحق بجانب الاعتزاز والغلظة فليس في إعطائها كثير غمط ولا مذلة. وأما أيام بني العبّاس حين استفحال الملك وحدوث الغلظة على أهل العصابة فلإبعادهم بالقفر من بلاد نجد وتهامة وما وراءهما.

وأما أيام العبيديين فكانت الحاجة تدعو الدولة إلى استمالتهم للفتنة التي كانت بينهم وبين بني العبّاس. وأما حين خرجوا بعد ذلك إلى قضاء برقة وأفريقية فكانوا ضاحين من ظل الملك. ولما اصطنعهم بنو أبي حفص كانوا معهم بمكان من الذل وسوم الخسف حتى كانت واقعتهم بالسلطان أبي الحسن وقومه من زناتة بالقيروان فنهجوا سبيل الاعتزاز كغيرهم من العرب على الدول بالمغرب، فتحامل المعقل وزغبة على ملوك زناتة، واستطالوا في طلابهم بعد أن كانوا مكبوحين بحكمة التغلب على التطاول إلى مثلها، والله مالك الأمور.

الخبر عن قاسم بن مرا من الكعوب القائم بالسنة في سليم

ومال أمره وتصاريف أحواله:

كان هذا الرجل من الكعوب من أولاد أحمد بن كعب منهم، وهو قاسم بن مرا بن أحمد. نشأ بينهم ناسكاً منتحلاً للعبادة. ولقي بالقيروان شيخ الصلحاء بعصره أبا يوسف الدهماني. وأخذ عنه ولزمه. ثم خرج إلى قومه مقتفياً طريقة شيخه في التزام الورع والأخذ بالسنة ما استطاع. ورأى ما العرب عليه من إفساد السابلة والخروج عن الجادة،

فأخذ نفسه بتغيير المنكر فيهم وإقامة السنة لهم، ودعا إلى ذلك عشيره من أولاد أحمد، وأن يقاتلوا معه على ذلك. فأشار عليه أولاد أبي الليل منهم وكانوا عيبة له تنصح له أن ينكف عن طلب ذلك من قومه، مخافة أن يلحوا في عداوته فيفسد أمره. ودفعوه إلى مطالبة غيرهم من سليم وسائر الناس بذلك، وأنهم منعة له ممن يرومه خاصة، فجمع إليه أوباشا من البادية تبعوه على شأنه والتزموا طريقته والمرابطة معه، وكانوا يسفون بالجنادة.

وبدأ بالدعاء إلى إصلاح السابلة بالقيروان وما إليها من بلاد الساحل، وتتبع المحاربين بقتل من يعثر عليه منهم بالطرق وغزو المشاهير منهم في بيوتهم واستباحة أموالهم ودمائهم حتى شردهم كل مشرد. وعلت بذلك كلمته على آل حصن وصلحت السابلة بأفريقية ما بين تونس والقيروان وبلاد الجريد وطار له ذكر نفسه عليه قومه، وأجمع عداوته واغتياره بنو مهلهل قاسم بن أحمد، وتنصحوا ببعض ذلك للسلطان بتونس الأمير أبي حفص، وأن دعوة هذا الرجل قادحة في أمر الجماعة والدولة، فأغضى لهم عن ذلك، وتركهم وشأنهم، فخرجوا من عنده مجمعين على قتله،

ودعوه في بعض أيامهم إلى المشاورة معه على عادة العرب، ووقفوا معه بساحة حيهم؛ ثم خلصوا معه نجياً، وطعنه من خلفه محمد بن مهلهل الملقب بأبي عذبتين فخر صريعاً لليدين والفم. وامتعض له أولاد أبي الليل، وطلبوا بدمه فافترقت أحياء بني كعب من يومئذ بعد أن كانت جميعاً. وقام بأمره من بعده إبنه رافع على مثل طريقته إلى أن هلك في طلب الأمرعلى يد بعض رجالات آل حصن سنة ست وسبعمائة.

ولم يزل بنوأبي الليل على الطلب بثأر قاسم بن مرا إلى أن ظهر فيهم حمزة ومولاهم إبنا عمر بن أبي الليل، وصارت إليهم الرياسة على أحيائهم. واتفق بعض الأيام اجتماع أولال مهلهل بن قاسم في سيدي حمزة، ومولاهم في مشاتيهم بالقفر، فأجمع اغتيالهم وقتلهم عن آخرهم بثأر ابن عمهما قاسم بن مرا، ولم يفلت منهم إلا طالب بن مهلهل لم يحضر معهم. وعظمت الفتنة من يومئذ بين هذين الحيين وانقسمت عليهم أحياء بني سليم، وصاروا يتعاقبون في الخلاف والطاعة على الدولة وهم على ذلك لهذا العهد، والرياسة في بني مهلهل اليوم لمحمد بن طالب بن مهلهل وأخيه يحيى، والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

بنو حصن بن علاق :

بنو حصن هؤلاء من بطون علاق، وحصن أخو يحيى بن علاق كما مر، فهم بطنان أيضاً: بنو عليّ وحكيم. وقد يقال إن حكيماً ليس لحصن، وإنما ربي في حجره فانتمى إليه. وأما حكيم فلهم بطون منهم: بنو ظريف بن حكيم وهم أولاد جابر والشراعبة ونعير وجوين لمقدام بن ظريف وزياد بن ظريف. ومنهم: بنو وائل بن حكيم ومنهم بنو

طرود بن حكيم. وقد يقال إن طروداً ليس لسليم0 وأنهم من منبس إحدى بطون هلال بن عامر، ويقال إن منهم زيد العجاج بن فاضل المذكور في رجالات هلال، والصحيح في طرود أنهم من بني فهم ين عمر بن قيس بن عيلان بن عدوان وفي تعدادهم، وكانت طرود أحلاف الدلاج، ثم قاطعوهم وحالفوا آل ملاعب. ومن بطون حكيم آل حسين ونوال ومقعد والجميعات، ولا أدري كيف يتصل نسبهم. ومنهم بنو نمير بن حكيم. ولنمير بطنان: ملاعب وأحمد، فمن أحمد بنو محمد والبطين. ومن ملاعب بنو هيكل بن ملاعب. وهم أولاد زمام والفريات وأولاد مياس وأولاد فائد. ومن أولاد فائد الصرح والمدافعة. وأولاد يعقوب بن عبد الله بن كثير بن حرقوص بن فائد، واليهم، رياسة حكيم وسائر بطونهم ومواطن حكيم هؤلاء لهذا العهد ما بين سوسة. والأجم. والناجحة منهم أحلاف لبني كعب، تارة لأولاد الليل، وتارة لاقتالهم أولاد مهلهل، ورئاستهم في بني يعقوب بن عبد السلام بن يصوب شيخاً عليهم، وانتقفر أيام اللحياني.

ووفد على السلطان أبي يحيى بالثغر العربي من أفريقية في بجاية وقسطنطة وجاء في جملته فلما ملك ملك تونس عقد له على قومه ورفعه على أنظاره. وغصى به بنوكعب فحرض عليه حمزة من الأعشاش محمد بن حامد. بن يزيله. فقتله في موقف شوراهم وولي الرياسة فيهم من بعده ابن عمه محمد بن مسكين بن عامربن يعقوب بن القوس وانتهت اليه رئاستهم. وكان يرادفه أو ينازعه جماعة من بني عمه. فمنهم سحيم بن سليمان بن يعقوب، وحضر واقعة طريف مع السلطان أبي الحسن، وكان له فيها ذكر. ومنهم أبو الهول وأبو القاسم إبنا

يعقوب بن عبد السلام، وكان لأبي الهول مناصحة للسلطان أبي الحسم، حين أحلف عليه بنو سليم بالقيروان، وأدخله مع أولاد مهلهل في الخروج على القيروان فخرج معهم جميعاً إلى سوسة.

ومنهم بنو يزيد بن عمربن يعقوب وإبنه خليفة. ولم يزل محمد بن مسكين على رئاسته أيام السلطان أبي يحيى كلها وكان مخالطاً له، ومتهالكاً في نصيحته والانحياش إليه. ولما هلك خلفه في رئاسته ابن أخيه خليفة بن عبد الله بن مسكين وهو أحد الأشياخ الذين تقبض عليهم السلطان أبو الحسن بتونس بين يدي واقعة القيروان. ثم أطلقه وهو محصور بالقيروان فكان له به اختصاص من بعد ذلك. ولما تغلب العرب على النواحي

بعد واقعة القيروان تغلب بنو مسكين هؤلاء على سوسة فأقطعها السلطان خليفة هذا وبقيت في ملكته.

وهلك خليفة فقام برئاستهم في حكيم ابن عمه عامربن محمد بن مسكين. ثم قتله محمد بن بثينة بن حامد من بني كعب قتله يعقوب بن عبد السلام، ثم قتله محمد هذا غدراً بجهاد الجريد سنة خمس وخمسين وسبعمائة. ثم افترق أمرهم واستقرت رئاستهم لهذا العهد بين أحمد بن محمد بن عبد الله بن مسكين، وتلقب أبا معنونة وهو ابن أخي خليفة المذكور. وعبد الله بن محمد بن يعقوب وهو ابن أخي أبي الهول المذكور. ولما تغلب السلطان أبو العبّاس على تونس

وملكها انتزع سوس من أيديهم فامتعض أحمد لذلك، وصار إلى ولاية صولة بن خالد بن حمزة من أولاد أبي الليل وسلكوا سبيل الخلاف والفتنة، وأبعدوا في شأوها، وهم لهذا العهد مشردون عن الضواحي والأرياف متزإحون إلى القفر.

وأما عبد الله بن محمد ويلقب الراوي فتحيزا إلى السلطان، وأكد حلفه مع أولاد مهلهل على ولايته ومظاهرته، فعظمت رئاسته في قومه، وهو على ذلك لهذا العهد. ثم راجع أبو معنونة خدمة السلطان

وانقسمت رياسة حكيم بينهما، وهم على ذلك لهذا العهد. وأما بنوعلي إخوة حكيم فلهم بطون أولاد صورة ويجمعهما معاً عوف بن محمد بن علي بن حصن. ثم أولاد نمي والبدرانة، وأولاد أم أحمد والحضرة أو الرجلان، وهو مقعد والجميعات والحمر والمسابهة آل حسين وحجري، وقد يقال إن حجري ليسوا لسليم، وأنهم من بطون كندة صاروا معهم بالحلف فانتسبوا بنسبهم ورياسة بني علي في أولإد صورة. وشيخهم لهذا العهد أبو الليل بن أحمد بن سالم بن عقبة بن شبل بن صورة بن مرير بن حسن بن عوف. ويرادفهم المراعية من أهل نسبهم أولاد مرعي بن حسن بن غوف، ومواطنهم ما ين الأجم والمباركة من نواحي قابس، وناجعتهم أحلاف الكعوب إما لأولاد أبي الليل أولأولاد مهلهل، وغالب أخوالهم أولاد مهلهل، والله مقدّر الأمور لا ربّ سراه.

خريطة

ذباب بن سليم:

قد ذكرنا الخلاف في نسبهم من أنهم من ذئاب بن ربيعة بن زغب الأكبر، وأن ربيعة أخو زغب الأصغر. وضبط هذه اللفظة لهذا العهد بضم الزاي، وقد ضبطها الأجدابي والرشاطي بكسر الزاي. كذا نقل أبو محمد

التجاني في رحلته، ومواطنهم ما بين قابس وطرابلى إلى برقة، ولهم بطون فمنهم: أولاد أحمد بن ذباب ومواطنهم غربي نابس وطرابلس إلى برقة. عيون رجال مجاورون لحصن، ومن عيون رجال بلاد زغب من بطون ذئاب بنو يزيد مشاركون لأولاد أحمد في هذه المواطن، وليس هذا أباً لهم، ولا إسم رجل، وإنما هو إسم حلفهم انتسبوا به إلى مدلول الزيادة. كذا قال التجاني وهم بطون أربعة: الصهب بسكون الهاء بنو صهب بن جابر بن فائد بن رافع بن ذباب، وإخوتهم الحمادية بنو حمدان بن جابر، والخرجة بسكون الراء بطن من آل سليمان منهم. أخرجهم آل سليمان من مواطنهم بمسلاتة فحالفوا هؤلاء ونزلوا معهم. والأصابعة نسبة إلى رجل ذي أصبع زائدة. و لم يذكر التجاني في أي بطن من ذباب ينتسبون. ومنهم النوائل بنو نائل بن عامر بن جابر وإخوتهم أولاد سنان بن عامر وإخوتهم أولاد ليشاح بن عامر، وفيهم رياسة هذا القبيل من ذباب كلهم.

وهم بطنان عظيمان: المحاميد بنو محمود بن طوق بن بقية بن وشاح، ومواطنهم ما ين قابس ونفوسة وما إلى ذلك من الضواحي والجبال. ورئاستهم لهذا العهد في بني ليحاب بن محمود لأولاد سباع بن يعقوب بن عطية بن رحاب. والبطن الاخر الجواري بنو حميد بن جارية بن وشاح، ومواطنهم طرابلس وما إليها مثل تاجورا وهزاعة وزنزور وما إلى ذلك. ورئاستهم لهذا العهد في بني مرغم بن صابر بن عسكر بن علي بن مرغم. ومن أولاد وشاح بطنان آخران صغيران مندرجان مع الجواري والمحامد، وهما الجواربة بنوجراب بن وشاح، والعمور بنو عمر بن وشاح.

هكذا زعم التجاني في العمور هؤلاء.

وفي هلال بن عامر بطن العمور كما ذكرناه. وهم يزعمون أن عمور، ذباب هؤلاء منهم وأنهم إنما جمعهم مع ذباب الموطن خاصة وليسوا من سليم والله أعلم بحقيقة ذلك.

وكان من أولاد وشاح بنوحريز بن تميم بن عمر بن وشاح كان منهم فائد بن حريز من فرسان العرب المشاهير وله شعر متداول بينهم لهذا العهد سمر الحيّ وفكاهة المجالس، ويقال إنه من المحاميد، فائد بن حريز بن حربي بن محمود بن طوب. وكان بنو ذباب هؤلاء شيعة لقراقش الغزي وابن غانية، ولهما فيه أثر. وقتل قراقش مشيخة الجراري في بعض أيامه. ثم صاروا بعد مهلك ابن غانية إلى خدمة الأمير أبي زكري وأهل بيته من بعده، وهم الذين أقاموا أمر الداعي بن أبي عمارة وعليهم كان تلبسه لأن يصيرأميراً بدل المخلوع وكان فر إليهم بعد مهلك مولاه وبنيه ونزل عليهم. حتى إذا مر بهم ابن أبي عمارة فعرفه الخبر فاتفقوا على التلبيس وزينوا ذلك لهؤلاء العرب فقبلوه. وتولى كبر ذلك مرغم بن صابر وتبعه قومه، وداخلهم في الأمر أبو مروان عبد الملك بن مكي رئيس قابس فكان ما قدر الله ما كان من تمام أمره وتلويث كرسي الخلافة بدمه حسبما يذكر في أخبار الدولة الحفصية.

وكان السلطان أبوحفص يعتمد عليهم فغلبهم في دعوة عمارة فخالفوا عليه وسرح لحربهم قائده أبا عبد الله الفزاري، واستصرخوا بالأمير أبي زكريا ابن أخيه، وهو يومئذ صاحب بجاية والثغر الغربي من أفريقية، ووفد

عليه منهم عبد الملك بن رحاب بن محمود فنهض لصريخه بسنة سبع وثمانين وستمائة. وحاربوا أهل قابس وهزموهم وأثخنوا فيهم. ثم غلبهم الفزاري، ومانعهم عن وطن أفريقية. ورجع الأمير أبو زكريا إلى ثغره.
وكان مرغم بن صابر بن عسكر شيخ الجواري قد أسره أهل صقلية من سواحل طرابلس سنة إثنتين وثمانين وستمائة وباعوه لأهل برشلونة فاشتراه ملكهم وبقي أسيراً عنده إلى أن نزع إليه عثمان بن إدريس الملقب بأبي دبوس بقية الخلفاء من بني عبد المؤمن، وأراد الإجازة إلى أفريقية لطلب حقه في الدعوة الموحدية، فعقد ملك برشلونة بينه وبين مرغم حلفا وبعثهما، ونزل بساحل طرابلس.
وأقام مرغم الدعوة لابن دبوس، وحمل عليها قومه. وحاصرطرابلس سنة ثمان وثمانين وستمائة أياماً. ثم تركوا عسكراً لحصارها وارتحلوا لجباية الوطن فاستفرغوه، وكان ذلك غاية أمرهم، وبقي أبو دبوس يتقلب في أوطانهم مدة، واستدعاه الكعوب
لأول المائة الثامنة وأجلبوا به على تونس أيام السلطان أبي عصيدة من الحفصيين وحاصروها أياما فلم يظفروا. ورجع إلى نواحي طرابلس وقام بها مدة. ثم ارتحل إلى مصر وأقام بها إلى أن أ هلك كما يأتي ذكره في خبر إبنه مع السلطان أبي الحسن بالقيروان. ولم يزل هذا شأن الجواري والمحاميد إلى أن تقلص ظل الدولة عن أوطان قابس وطرابلس فاستبد برياسة ضواحيها. واستعبدوا سائر الرعاية المعتمرة في جبالها وبسائطها، واستبد أهل الأمصار برياسة أمصارهم بنو مكي بقابس وبنوثابت بطرابلس على ما يذكر في أخبارهم.
وانقسمت رياسة أولاد وشاح بانقسام المصرين، فتولى الجواري طرابلس وضواحيها ،
وزنرور وغريان ومغر، وتولى المحاميد بلد قابس وبلاد نفوسة وحرب.
وفي ذباب هؤلاء بطون أخرى ناجعة في القفر، ومواطنهم متراحة إلى جانب الشرق عن مواطن هؤلاء الوشاحين. فمنهم آل سليمان بن هبيب بن رابع بن ذباب، ومواطنهم قبلة مغر، وغريان ورئاستهم في ولد نصربن زائد بن سليمان، وهي لهذا العهد لهائل بن حماد بن نصر وبنيه والبطن الآخر آل سالم بن وهب أخي سليمان. ومواطنهم بلد مسراتة إلى لبدة ومسلاتة. وشعوب آل سالم هؤلاء الأحامد والعمائم والعلاونة وأولاد مرزوق، ورياستهم في أولاد ولد مرزوق وهو ابن معلّى بن معراق بن قلينة بن قاص بن سالم، وكانت في أول هذه المائة الثامنة لغلبون بن مرزوق، واستقرت في بنيه وهي اليوم لحميد بن سنان بن عثمان بن غلبون.
والعلاونة منهم مجاورون للعنة من عرب برقة والمشابنة من هوّارة المقيمين.
وتجاذب ذباب هؤلاء في مواطنهم من جهة القبلة ناصرة، وهم من بطون ناصرة بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم، فإن كان زغب أبو ذباب لملك بن خفاف كما زعم التجاني فهم إخوة ناصرة، ويبعد أن يسمى قوم باسم إخوانهم. وإن كانوا لناصرة كما زعم ابن الكلبي، وهو أقرب، فيكون هؤلاء اختصوا باسم ناصرة دون ذباب وغيرهم من بنيه وهذا كثير من بطون القبائل والله أعلم. ومواطنهم بلاد فزان وودان. هذه أخبار ذباب هؤلاء.
وأما العزة جيرانهم في الشرق الذين قدّمنا ذكرهم فهم موطنون من أرض برقة خلاء

لاستيلاء الخراب على أمصارها وقراها من دولة صنهاجة. تمرنت بعمرانها بادية العرب وناجعتهم فتّحيفوها غارةً ونهباً إلى أن فسدت فيها مذاهب المعاش، وانتقض العمران، فخربت. وصار معاش الأكثر من هؤلاء العرب الموطنين بها لهذا العهد من الفلح يثيرون له الأرض بالعوامل من الجمال والحمير، وبالنساء إذا ضاق كسبهم عن العوامل وارتكبوا ضرورة المعاش.

وينجعون إلى بلاد النخل في جهة القبلة منهم من أوجلة وشنترية والواحات وما وراء ذلك من الرمال والقفر، إلى بلد السودان المجاورين لهم، وتسمّى بلادهم برنق، وشيخ هؤلاء العرب ببرقة يعرف لهذا العهد بأبي ذئب من بني جعفر. وركاب الحج من المغرب يحمدون مساطتهم في مرّهم وحسن نيتهم في التجافي عن جامع بيت الله، وإرفادهم بجلب الأقوات لسربهم وحسن الظن بهم. (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره)0

وأما نسبهم فما أدري فيمن هو من العرب ؟وحدثني الثقة من ذباب عن خريص ابن شيخهم أبي ذباب أنهم من بقايا الكعوب ببرقة. وتزعم نسابة الهلاليين أنهم لربيعة بن عامر إخوة هلال بن عامر. وقد مر الكلام في ذلك في أول ذكر بني سليم. ويزعم بعض النسابة أنهم والكعوب من العزة، وإن العزة من هيث وإن رياسة العزة لأولاد أحمد، وشيخهم أبو ذئب وأن المثانية جيرانهم من هوّارة. وذكر لي سلام بن التركية شيخ أولاد مقدم جيرتهم بالعقبة أنهم من بطون مسراتة من بقية هوّارة، وهو الذي رأيت النسابة المحققين عليه، بعد أن دخلت مصر ولقيت كثيراً من المترددين إليها من أهل برقة. وهذه آخر الطبقة الرابعة من العرب، وبانقضائه انقضى الكتاب الثاني في العرب وأجيالهم منذ بدء الخليقة، فلنرجع إلى أحوال البربر في الكتاب الثالث والله ولي العون اه.

خريطة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلي الله علي سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

الكتاب الثالث في أخبار البربر والأمة الثانية من أهل المغرب

وذكر أوليتهم وأجيالهم و دولتهم منذ بدء الخليقة لهذا العهد

ونقل الخلاف الواقع بين الناس في أنسابهم

الفصل الأول

هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم، ملأوا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره، يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر. ويظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة، لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس. ومكاسبهم الشاء والبقر والخيل في الغالب للركوب والنتاج. وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة. ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والأظعان في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة. ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف يشتملون الصماء بالأكسية المعلمة،

ويفرغون عليها البرانس الكحل ورؤوسهم في الغالب حاسرة، وربما يتعاهدونها بالحلق. ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها، وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الإسم.

يقال: إن أفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وأفريقية، وقتل الملك جرجيس وبنى المدن والأمصار، وباسمه زعموا سفيت أفريقية لما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال: ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر. والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة. ومنه يقال بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة.

وأما شعوب هذا الجيل وبطونهم فإن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس وماذغيس. ويلقب ماذغيس بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب برنس البرانس، وهما معاً إبناً برنس. وبين النسابين خلاف هل هما لأب واحد؟ فذكر ابن حزم عن أيوب بن أبي يزيد صاحب الحمار أنهما لأب واحد، على ما حدّثه عنه يوسف الوراق. وقال سالم بن سليم المطماطي وهاني بن مسرور والكومي وكهلان من أبي لوا وهم، نسابة البربر: إن البرانس بتر، وهم من نسل مازيغ بن كنعان. والتبر بنو بر بن قيس بن عيلان وربما نقل ذلك أن أيوب بن أبي يزيد، إلا أن رواية ابن حزم أصح لأنه أوثق.

(وأما) شعوب البرانس فعند النسابين أنهم يجمعهم سبعة أجذام وهي ازداجة ومصمودة وأوربة وعجيسة وكتامة وصنهاجة وأوريغة. وزاد سابق بن سليم وأصحابه: لمطة وهكسورة وكزولة. وقال أبو محمد بن حزم: يقال إن صنهاج ولمط إنما هما إبنا امرأة يقال لها بصكي ولا يعرف لهما أب تزوجها أوريغ فولدت له هوار فلا يعرف لهما أكثر من أنهما أخوان لهوار من أمه. قال وزعم قوم من أوريغ أنه ابن خبوز بن المثنى بن السكاسك من كندة وذلك باطل.

وقال الكلبي أن كتامة وصنهاجة ليستا من قبائل البربر،وانما هما من شعوب اليمانية، تركهما أفريقش بن صيفي بأفريقية مع من نزل بها من الحامية. هذه جماع مذاهب أهل التحقيق في شأنهم، فمن ازداجة مسطاطة، ومن مصمودة غمارة بنو غمار بن

مصطاف بن مليل بن مصمود، ومن أوريغة هوّارة وملد ومغر وقلدن. فمن هوار بن اوريغ مليلة وبنو كهلان، ومن ملس أوريغ سطط وورفل وأسيل ومسراتة. ويقال لجميعهم لهانة بنو لهان بن ملد. ويقال إن مليلة منهم. ومن مغر بن أوريغ ماواسر وزمور وكبا ومصراي ومن قلدن بن أوريغ قمصاتة وورسطيف وبيانة وفل مليلة.

خريطة

(وأما شعوب البتر) وهم بنو مادغيس الأبتر فيجمعهم أربعة أجذام، أداسة ونفوسة وضرية وبنو لوا الأكبر، وكلهم بنو زحيك بن مادغيس. فأما أداسة

بنو أداس بن زحيك فبطونهم كلها في **هوّارة** لأن أم أداس تزوجها بعد زحيك أوريغ ابن عمه برنس والد هوّارة، فكان **أداس** أخاً لهوّارة، **ودخل** نسب بنيه كلهم في هوّارة. وهم سفارة وأندارة وهترولة وضرية وهداغة وأوطيطة وترهتة. هؤلاء كلهم بنو **أداس** بن زحيك بن باذغيس وهم اليوم في هوّارة.

وأما لوا الأكبر فمنه بطنان عظيمان وهما: نفزاوة بنو نفزا وابن الأكبر، ولواتة بنو لوا الأصغر بن لوا الأكبر، فخلفه أبوه حملاً فسمي به. فمن لواتة أكوزة وعتروزة وبنو فاصلة بن لوا الأصغر ومنهم مزاتة بنو زاير بن لوا الأصغر. ومغانة وجدانة بنوكطوف بن لوا الأصغر. ومن لواتة سرداتة بنو نيطط بن لوا الأصغر. ودخل نسب سدراتة في مغراوة. قال أبو محمد بن حزم: كان مغراوة تزوج أم سرداتة فسار سرداتة أخا بني مغراوة لأمهم واختلط نسبه بهم. ومن نفزاوة أيضاً بطون كثيرة وهم ولهاصة وغساسة وزهلة وسوماتة وورسيف ومرنيزة وزاتيمة ووركول ومرسينة ووردغروس ووردين كلهم بنو يطوفت من نفزاوة. وزاد ابن سابق وأصحابه مجر ومكلاتة. وقال: ويقال إن مكلاتة ليس من البربر، وأنه من حمير وقع إلى تطوفت صغيراً فتبناه وهومكلا بن ريمان بن كلاع حاتم بن سعد بن **ح**مير. ولولهاصة من نفزاوة بطون كثيرة من بيزغاش ودحية إبني ولهاص. فمن بيزغاش بطون ورفجومة وهم: رجال وطووبورغيش ووانجز وكرطيط وما انجدل وسينتت بنو رفجوم بن بيزغاش بن ولهاص بن تطوفت بن نغزاو.

قال ابن سابق وأصحابه: وبنو بيزغاش لواتة كلهم بجبال أوراس. ومن دحية ورترين وتريرو ورتبونت ومكراولقوس بنو دحية بن ولهاص بن تطوفت بن

نفزاو. وأما ضرية وهم بنو ضرى بن زحيك بن مادغيس الأبتر فيجمعهم جذمان عظيمان: بنو تمصيت بن ضرى وبنويحيى بن ضرى.

وقال سابق وأصحابه: إن بطون تمصيت كلها من فاتن بن تمصيت وأنهم اختصوا بنسب ضرسية دون بطون يحيى. فمن بطون تمصيت: مطماطة وصطفورة، وهم كومية ولماية ومطغرة ومرينة ومغيلة ومكزوزة وكشاتة ودونة ومديونة، كلهم بنو فاتن بن تمصيت بن ضرى. ومن بطون يحيى: زناتة كلهم وسمكان وورصطف. فمن ورصطف: مكناسة وأوكتة وورتناج بنو ورصطف بن يحيى. فمن مكناسة ورتيفة وورتدوسن وتفليت ومنصارة وموالات وحرات ورفلابس ومن ملزلولاين وولرتر ويصلتن وجرين وفرغان. ومن ورتناج: مكنسة ومطاسة وكرسطة وسردجة وهناطة وفولال بنو ورتناج بن ورصطف. ومن سمكان زواغة وزواوة بنو سمكان بن يحيى وعن ابن حزم: بعد زواوة التي بالواو في بطون كتامة وهو أظهر، ويشهد له الوطن. فالغالب أن زواوة بنو سمكان بن يحيى، وعن ابن حزم: بعد زواوة التي بالواو في بطون كتامة والتي تعد في سمكان هى التي بالزاي وهي قبيلة معروفة. ومن زواغة بنو ماجر وبنو واطيل وسمكين. وسيأتي الكلام فيهم مستوفى عند ذكرهم إن شاء الله تعالى. هذا آخر الكلام في شعوب هذا الجيل مجملاً، ولا ب**د** من تفصيل فيه عند تفصيل أخبارهم **اه**.

(وأما) إلى من يرجع نسبهم من الأمم الماضية فقد اختلف النسابون في ذلك اختلافاً كثيراً وبحثوا فيه طويلا. فقال بعضهم: إنهم من ولد إبراهيم عليه السلام من نقشان إبنه، وقد تقدّم ذكره عند ذكر إبراهيم عليه

السلام. وقال آخرون: البربر يمنيون وقالوا أوزاع من اليمن. وقال المسعودي: من غسان وغيرهم، تفرقوا عندما كان من سيل العرم. وقيل: تخلفهم أبرهة ذو المنار بالمغرب، وقيل من لخم
خريطة

وجذام كانت منازلهم بفلسطين، وأخرجهم منها بعض ملوك فارس. فلما وصلوا إلى مصر منعتهم ملوك مصر النزول، فعبروالنيل، وانتشروا في البلاد. وقال أبو عمر بن عبد البر: ادعت طوائف من البربر أنهم من ولد النعمان بن حمير بن سبأ. قال: ورأيت في كتاب الأسفنداد الحكيم: إن النعمان بن حمير بن سبأ كان ملك زمانه في الفترة، وأنه استدعى أبناءه وقال لهم: اريد أن أبعث منكم للمغرب من يعمره، فراجعوه في ذلك، وعزم عليهم، وأنه بعث منهم لمت أبا لمتونة ومسفو أبا مسوفة ومرطا أبا هسكورة وأصناك أبا صنهاجة ولمط أبا لمطة وايلان أبا هيلانة، فنزل بعضهم بجبل درن، وبعضهم بالسوس وبعضهم بدرعة.
ونزل لمط عند كزول وتزوج إبنته ونزل جانا وهو أبو زناتة بوادي شلف، ونزل بنو ورتجين ومغراو بأطراف أفريقية من جهة المغرب ونزل مصمود بمقربة من طنجة. والحكاية طويلة أنكرها أبو عمر بن عبد البر وأبو محمد بن حزم. وقال آخرون: إنهم كلهم من قوم جالوت. وقال علي بن عبد العزيز الجرجاني النسابة في كتاب الأنساب له: لا أعلم قولاً يؤدي إلى الصحة إلا قول من قال إنهم من ولد جالوت. و لم ينسب جالوت ممن هو، وعند ابن قتيبة أنه ونور بن هربيل بن حديلان بن جالود بن رديلان بن حظي بن زياد بن زحيك بن مادغيس الأبتر. ونقل عنه أيضاً أنه جالوت بن هربال بن جالود بن دنيال بن قحطان بن فارس. قال: وفارس مشهور وسفك أبو البربر كلهم. قالوا: والبربر قبائل كثيرة وشعوب جمة، وهي هوّارة وزناتة وضرية ومغيلة وزيحوحة ونفزة وكتامة ولواتة وغفارة ومصمودة وصدينة ويزدران ودنجين وصنهاجة، ومجكسة ووار كلان. وغيرهم. وذكر آخرون منهم الطبري وغيره: أن البربر أخلاط من كنعان والعماليق، فلما قتل جالوت تفرقوا في البلاد وغزا أفريقش المغرب ونقلهم من سواحل الشام وأسكنهم أفريقية وسماهم بربر، وقيل إن
البربرمن ولد حام بن نوح بن بربر بن تملا بن مازيغ بن كنعان بن حام. وقال الصولي: هم من ولد بربر بن كسلاجيم بن مسراييم بن حام. وقيل إن العمالقة من بربر بن تملا بن مارب بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاود بن إرم بن سام، وعلى هذا القول فهم عمالقة. وقال مالك بن المرحل. البربر قبائل شتئ من حمير ومضر والقبط والعمالقة وكنعان وقريش تلاقوا بالشام ولغطوا فسماهم أفريقش البربر لكثرة كلامهم. وسبب خروجهم عند المسعودي والطبري والسهيلي: أن أفريقش استجاشهم لفتح أفريقية وسماهم البربر وينشدون من شعره:

بربرت كنعان لما سقتها　　　　من أراضي الضنك للعيش الخصيب

وقال ابن الكلبي: اختلف الناس فيمن أخرج البربر فق الشام، فقيل داود بالوحي. نيل يا داود أخرج البربر من الشام فإنهم جذام الأرض. وقيل يوشع بن نون وقيل أفريقش وقيل بعض الملوك التبابعة. وعند البكري أن بني إسرائيل أخرجوهم عند قتل جالوت. وللمسعودي والبكري أنهم فروا بعد موت جالوت إلى المغرب، وأرادوا

مصر فأجلتهم القبط فسكنوا برقة وأفريقية والمغرب على حرب مع الإفرنج والأفارقة وأجازوهم على صقلية وسردانية وميورقة والأندلس. ثم اصطلحوا على أن المدن للافرنجة وسكنوا القفار عصوراً في الخيام وانتجاع الأمصار من الإسكندرية إلى البحر وإلى طنجة والسوس، حتى جاء الإسلام وكان منهم من تهود ومن تنصر وآخرون مجوساً يعبدون الشمس والقمر والأصنام، ولهم ملوك ورؤساء. وكان بينهم وبين المسلمين حروب مذكورة. وقال الصولي البكري إن الشيطان نزغ بين بني حام وبني سام، فانجلى بنوحام إلى المغرب ونسلوا به. وقال أيضاً إن حام لما اسود بدعوة أبيه فر إلى المغرب حياة واتبعه بنوه وهلك عن أربعمائة سنة. وكان من ولده بربر بن كسلاجيم فنسل بنوه بالمغرب. قال وانضاف إلى البربر حيان من المغرب يمنيان عند خروجهم من مارب كتامة وصنهاجة قال وهوّارة ولمطة ولواتة بنوحمير بن سبأ.

وقال هانئ بن بكور الضريسي وسابق بن سليمان المطماطي وكهلان بن أبي لؤي وأيوب بن أبي يزيد وغيرهم من نسابة البربرأن البربر فرقتان كما قدمناه وهما: البرانس والبتر فالبتر من ولد بر بن قيس بن عيلان والبرانس بنو برنس بن سحو بن أبزج بن جمواح بن ويل بن شراط بن تام بن دويم بن دام بن مازيغ بن كنعان بن حام وهذا هو الذي يعتمده نسابة البربر. قال الطبري: خرج بربر بن قيس ينشد ضالة بأحياء البربر فهوي جارية وتزوجها فولدت. وعند غيره من نسابة البربرأنه خرج فارا من أخيه عمرو بن قيس وفي ذلك تقول تماضر وهي أخته:

لتبكي كل باكيةٍ أخاها — كما أبكي على بربن قيس
تحمل عن عشيرته فاضحى — ودون لقائه أنضاء عيس

ومما ينسب إلى تماضر أيضاً:

وشطت ببرداره عن بلادنا — وطوح برنفسه حيث يمما
وازرت ببرلكنة أعجمية — وما كان برفي الحجازبأعجما
كأنا وبرا لم نقف بجيادنا — بنجدولم نقسم نهاباومغنما

وأنشد علماء البربرلعبيدة بن قيس العقيلي:

ألا أيها الساعي لفرقة بيتنا — توقف هداك الله سبل الأطايب
فاقسم إنا والبرابر إخوة — نماناوهم جدكريم المناصب
أبونا أبوهم قيس عيلان في الورى — وفي حرمة يسقي غليل المحارب
فنحن وهم ركن منيع وإخوة — على رغم أعداء لئام المغاقب
فإن البر ما بقي الناس ناصراً — وبرلنا ركن منيع المناكب
نعد لمن عادى شواذه حمرا — وبيضا تقط الهام يوم التضارب
وبر بن قيس عصبة مضرية — وفي الفرع من أحسابها والذوائب
وقيس قوام الدين في كل بلدة — وخيرمعد عند حفظ المناسب

وقيس لها المجد الذي يقتدى به وقيس لها سيف حديد المضارب

وينشد أيضا أبيات ليزيد بن خالد يمدح البربر:

أيها السائل عنا اصلنا قيس عيلان بنوالعز الأول

نحن مانحن بنو برالقوى عرف المجدوفي المجد دخل

وابتنى المجد فأورى زنده وكفانا كل خطب ذي جلل

إن قيساً يعتزي برّ لها ولبر يعتزي قيس الأجل

ولنا الفخربقيس إنه جدنا الأكبرفكاك الكبل

إن قيساقيس عيلان هم معدن الحق على الخيردلل

حسبك البربرقومي إنهم ملكوا لأرض بأطراف الاسل

وببيض تضرب الهام بها هام من كان عن الحق نكل

أبلغوا البربرعني مدحاً حيك من جوهرشعرمنتحل

وعند نسابة البربر، وحكاه البكري وغيره أنه كان لمضر ولدان إلياس وعيلان أمهما الرباب بنت حيدة بن عمرو بن معد بن عدنان فولد عيلان بن مضر قيساً ودهمان، أما دهمان فولده قليل وهم أهل بيت من قيس يقال لهم بنوأمامة. وكانت لهم بنت تسمى البهاء بنت دهمان، وأما قيس بن عيلان فولد له أربعة بنين وهم سعد وعمروأمهما مزنة بنت أسد بن ربيعة بن نزار وبر وتماضر وأمهما تمريغ بنت مجدل ومجدل بن غمار بن مصمود، وكانت قبائل البربر يومئذ يسكنون الشام ويجاورون العرب في المساكن ويشاركونهم في المياه والمراعي والمسارح ويصهرون إليهم، فتزوج بر بن قيس بنت عمه وبر البهاء بنت دهمان وحسده إخوته في ذلك. وكانت أمه تمريغ من دهاة النساء فخشيت منهم عليه، وبعثت بذلك إلى أخوالها سراً، ورحلت معهم بولدها وزوجته إلى

أرض البربر. وهم إذ ذاك ساكنون بفلسطين وأكناف الشام فولدت البهاء لبر بن قيس ولدين: علوان ومادغيس. فمات علوان صغيراً وبقي مادغيس فكان يلقب الأبتر، وهو أبو البتر من البربر ومن ولده جميع زناتة.

قالوا: وتزوج مادغيس بن بر وهو الأبتر بأملل- بنت واطاس بن محمد بن مجدل بن عمار فولدت له زحيك بن مادغيس. وقال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد في الأنساب اختلف الناس في أنساب البربر اختلافاً كثيراً. وأنسب ما قيل فيهم أنهم من ولد قبط بن حام لما نزل مصر خرج إبنه يريد المغرب فسكنوا عند آخر عمالة مصر، وذلك ما ورإء برقة إلى البحر الأخضر، مع بحر الأندلس إلى منقطع الرمل متصلين بالسود ان. فمنهم لواتة آهلين بأرض طرابلس، ونزل قوم بقربها وهم نفزة.

ثم امتدت بهم الطرق إلى القيروان وما وراءها إلى تاهرت إلى طنجة وسجلماسة إلى السوس الأقصى وهم طوائف صنهاجة وكتامة وزكالة من وركلاوة وفطواكة من هسكورة ومزطاوة وذكر بعض أهل الآثار أن

الشيطان نزغ بين بني حام وبني سام فوقعت بينهم مناوشات كانت الدبرة فيها لسام وبنيه، وخرج سام إلى المغرب وقدم مصر وتفرق بنوه ومضى على وجهه يؤم المغرب حتى بلغ السوس الأقصى، وخرج بنوه في أثره يطلبونه، فكل طائفة من ولده بلغت موضعاً وانقطع عنهم خبره فأقاموا بذلك الموضع وتناسلوا فيه، ووصلت إليهم طائفة فأقاموا معهم وتناسلوا هنالك.

وكان عمر حام أربعمائة وثلاثاً وأربعين سنة فيما ذكره البكري، وقال آخرون: كان عمره خمسمائة وإحدى وثلاثين سنة0 وقال السهيلي فيمن هو يعرب بن قحطان. قال: وهو الذي أجلى سام إلى المغرب بعد أن كان الجرمى من ولد قوط بن يافث هذا آخر الخلاف في أنساب البربر.

واعلم أن هذه المذاهب كلها مرجوحة وبعيدة من الصواب، فأما القول بأنهم من ولد إبراهيم فبعيد، لأن داود الذي قتل جالوت وكان البربر معاصرين له ليسر بينه وبين اسحق بن إبراهيم أخي نعشان الذي زعموا أنه أبو البربر إلا نحو عشرة آباء ذكرناهم أول الكتاب. ويبعد أن يتشعب النسل فيهم مثل هذا التشعب.

وأما القول بأنهم من ولد جالوت أو العماليق، وأنهم نقلوا من ديار الشام وانتقلوا فقول ساقط، يكاد يكون من أحاديث خرافة، إذ مثل هذه الأمة المشتملة على امم وعوالم ملأت جانب الأرض لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور، والبربر معروفون في

بلادهم وأقاليمهم متحيزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام. فما الذي يحوجنا إلى التعلق بهذه الترهات في شأن أوليتهم. ويحتاج إلى مثله في كل جيل وأمة من العجم والعرب. وأفريقش الذي يزعمون أنه نقلهم قد ذكروا أنه وجدهم بها وأنه نعجب من كثرتهم وعجمتهم وقال: ما أكثر بربرتكم.

فكيف يكون هو اللذي نقلهم؟ وليس بينه وبين أبرهة ذي المنار من يتشعبون فيه إلى مثل ذلك أن قالوا أنه الذي نقلهم؟ وأما القول أيضاً بأنهم من حمير من ولد النعمان أو من مضر من ولد قيس بن عيلان فمنكر من القول، وقد أبطله إمام النسابين والعلماء أبو محمد بن حزم. وقال في كتاب الجمهرة: ادعت طوائف من البربر أنهم من اليمن ومن حمير، وبعضهم ينسب إلى بربر بن قيس، وهذا كله باطل لا شك فيه. وما علم النسابون لقيس بن عيلان إبنا إسمه بر أصلا، وما كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن. وأما ما ذهب إليه ابن قتيبة أنهم من ولد جالوت، وأن جالوت من ولد قيس بن عيلان فأبعد عن الصواب. فإن قيس عيلان من ولد معد. وقد قدمنا أن معدا كان معاصراً لبختنصر وأن أرمياء النبي خلص به إلى الشام حذرا عليه من بختنصر حين سلط على العرب. وبختنصر هو الذي خرب بيت المقدس بعد بناء داود وسليمان إياه بأربعمائة وخمسين سنة ونحوها، فيكون معد بعد داود بمثل هذا الأمد، فكيف يكون إبنه قيس أبا لجالوت المعاصر لداود؟ هذا في غاية البعد وأظنها غفلة من ابن قتيبة ووهماً.

والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح كما تقدم في أنساب الخليقة، وأنّ اسم أبيهم مازيغ واخوتهم أركيش وفلسطين إخوانهم بنو كسلوحيم بن مصرايم بن حام، وملكهم جالوت سمة معروفة له. وكانت بين فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل بالشام حروب مذكورة. وكان بنو

كنعان وواكريكيش شيعاً لفلسطين فلا يقعن في وهمك غيرهذا، فهو الصحيح الذي لا يعدل عنه. ولا خلاف بين نسابة العرب أن شعوب البربر الذي قدمنا ذكرهم كلهم من البربر إلا صنهاجة وكتامة. فإن بين نسابة العرب خلافا والمشهور أنهم من اليمنية، وأن أفريقش لما غزا أفريقية أنزلهم بها. أما نسابة البربر فيزعمون في بعض شعوبهم

أنهم من العرب، مثل لواتة يزعمون أنهم من حمير، ومثل هوّارة يزعمون أنهم من كندة من السكاسك، ومثل زناتة تزعم نسا بتهم أنهم من العمالقة فروا أمام بني إسرائيل. وربما يزعمون فيهم أنهم من بقايا التبابعة ومثل عمارة أيضاً وزواوة ومكلاتة يزعم في هؤلاء كلهم نسابتهم أنهم من حمير حسبما نذكره عند تفصيل شعوبهم في كل فرقة منهم، وهذه كلها مزاعم. والحق الذي شهد به المواطن والعجمة أنهم بمعزل عن العرب إلا ما تزعمه نسابة العرب في صنهاجة وكتامة. وعندي أنهم من إخوانهم والله أعلم. وقد انتهى بنا الكلام إلى أنسابهم وأوليتهم فلنرجع إلى تفصيل شعوبهم وذكرهم أمة بعد أمة. ونقتصر على ذكر من كانت له منهم دولة ملك أو سالف شهرة أو تشعب نسل في العالم وعدد لهذا العهد وما قبله من صنفي البرانس. والبتر منهم وترتيبهم شعباً شعباً حسبما تأدى إلينا من ذلك واشتمل عليه محفوظنا، والله المستعان.

الفصل الثاني

في ذكر مواطن هؤلاء البربر بأفريقية والمغرب

اعلم أن لفظ المغرب في أصل وضعه إسم إضافي يدل على مكان من الأمكنة بإضافته إلى جهة المشرق ولفظ المشرق كذلك بإضافته إلى جهة المغرب، فكل مكان من الأرض مغرب بالإضافة إلى جهة المشرق ومشرق بالإضافة إلى جهة المغرب، إلا أن العرب قد يخصص هذه الأسماء بجهات معينة وأقطار مخصوصة. وعرف أهل الجغرافيا المعتنين بمعرفة هيئة الأرض وقسمتها، بأقاليمها ومعمورها وخرابها وجبالها وبحارها ومساكن أهلها، مثل بطليموس ورجار صاحب صقلية المنسوب إليه الكتاب المشهور بين الناس لهذا العهد في هيئة الأرض والبلدان وأمثالهم: أن المغرب قطر واحد مميز بين الأقطار. فحده من جهة المغرب بحر المحيط وهو عنصر الماء، وسمي محيطاً لإحاطته بما انكشف من الأرض كما قدمنا أول الكتاب.

ويسمى أيضاً البحر الأخضر لتلونه غالباً بالخضرة، ويسمى بحر الظلمات لما أنه تقل فيه الأضواء من الأشعة المنعكسة على سطح الأرض من الشمس لبعده عن الأرض

فيكون مظلماً. ولفقدان الأضواء تقل الحرارة المحللة للأبخرة فلا تزال السحب والغيوم متكاثفة على سطحه منعقدة هنالك متراكمة، وتسميه الأعاجم: بحراً أوقيانوس يعنون به والله أعلم ما نعني نحن بالعنصر. ويسمونه أيضاً بحر البلاية بتفخيم اللام الثانية. وهو بحركبير غير منحصر لا تبعد فيه السفن عن مرأى العين من السواحل للجهل بسموت الرياح هنالك ولنهايتها، إذ لا غاية من العمران وراءه.

والبحار المنحصرة إنما جرت فيها السفن بالرياح المعروفة الهوائية بكثرة تجاربهم فتبعث الريح من الأماكن، وغاية مهبها في سمتها فكل ريح عندهم معروفة الغاية. فإذا علم أن جريته بالريح المنبعثة من مكان كذا، وبما

خرج من ريح إلى ريح بحسب مقصوده وجهته. وهذا مفقود في البحر الكبير لأنه منحصر ومنبعث الريح، وإن كان معروفا فيه فغايته غير معروفة لفقدان العمران وراءه فتضل السفن إذا جرت به وتذهب فتهلك. وأيضاً فإذا أوغل فيه فربما وقع في المتكاثف من الغيوم والأبخرة كما قلناه فيهلك، فلهذا كان راكبه على غرر وخطر.

فحد الغرب من جهة المغرب البحر المحيط كما قلناه، وعليه كثير من مدنه مثل طنجة وسلا أزمور وأنفى وأسفى، وهي من مدن الغرب وحواضره. وعليه أيضاً مسجد ماسة وبلدتا كاوصت ونول من بلاد السوس، وهي كلها من مساكن البربر وحواضرهم. وتنتهي المراكب إلى وراء ساحل نول ولا تجاوزه إلا على خطر كما قلناه. وأما حده من جهة الشمال فالبحر الرومي والمتفرع من هذا البحر المحيط يخرج في خليج متضايق بين طنجة من بلاد المغرب وطريف من بلاد الأندلس، ويسمى هذا الخليج الزقاق، وعرضه ثمانية أميال فما فوقها. وكانت عليه قنطرة ركبها ماء البحر.

ثم يذهب هذا البحر الرومي في سمت الشرق إلى أن ينتهي إلى سواحل الشام وثغوره وما إليها مثل أنْطاكِية والعلايا وطرسوس والمصيصة وطرابلس وصور والإسكندرية. ولذلك سمي البحر الشامي. وهو إذا خرج من الخليج ينفسح في ذهابه عرضاً. وأكثر انفساحه إلى جهة الشمال، ولا يزال انفساحه ذلك متصاعداً إلى الشمال الي أن ينتهي إلى غايته. وطوله فيما يقال خمسة آلاف ميل أو ستة. وفيه جزائر ميورقة ومزقة وياسة وصقلية وأقريطش وسردانية وقبرص. وأما عرضه من جهة الجنوب فإنه يخرج عن سمت واحد. ثم يختلف في ذهابه فتارة يبعد عن الجنوب، وتارة يرجع إلى الشمال. واعترض ذلك بعروض البلدان التي بساحله وذلك أن عرض البلد هو ارتفاع قطبه

الشمال على أفقه. وهو أيضاً بعد ما بين سمت رؤس أهله ودائرة معدل النهار.

والسبب في ذلك أن الأرض كروية الشكل، والسماء من فوقها مثلها. وأفق البلد هو فرق بين ما يرى وبين ما لا يرى من السماء ومن الأرض. والفلك ذو قطبين إذا ارتفع أحدهما على رؤوس معمور انخفض الآخر بقدره عنهم، والعمارة في الأرض كلها هي إلى الجانب الشمال أكثر، وليس في الجنوب عمران لما تقرر في موضعه. فلهذا ارتفع القطب الشمالي على أهل العمران دون الجنوبي. والمار على سطح الكرة كلما أبعد في جهة ظهر له من سطح الكرة ومن السماء المقابل لها ما لم يكن يظهر، فيزيد بعد القطب على الأفق كما أبعد في الشمال، وينقص كلما رجع إلى الجنوب. فعرض سبتة وطنجة التي هي على زقاق هذا البحر وخليجه (له) ودقائق. ثم يتصاعد البحر إلى الجنوب فيكون عرض تلمسان (لد) ونصف فتزيد في الجنوب، فيكون عرض وهران (لب) أبعد من فاس بيسير لأن عرض فاس (لج) ودقائق.

ولهذا كان العمران في المغرب الأقصى أعرض في الشمال من عمران المغرب الأوسط بقدر ما بين فاس وسبتة. وصار ذلك القطر كالجزيرة بين البحار لانعطاف البحر الرومي إلى الجنوب. ثم يرجع البحر بعد وهران عن سمته ذلك فيكون عرض تونس والجزائر(له) على مثل سمته الأول عند منبعثه من الزقاق. ثم يزيد في الشمال

فيكون عرض بجاية وتونس يوم على مثل سمت غرناطة وفرية ومالقة. ثم يرجع إلى الجنوب فيكون عرض طرابلس وقابس (له) على مثل السمت الأول بطنجة وسبتة. ثم يزيد في الجنوب فيكون عرض برقة (لج) على مثل سمت فاس وتوزر فيكون عرض الإسكندرية (لا) على مثل مراكش وأغمات. ثم يذهب في الشمال إلى القطافة إلى منتهى سمته بسواحل الشام.

وهكذا اختلافه في هذه العدوة الجنوبية ولسنا على علم من حاله في العدوة الشمالية. وينتهي بسواحل عرض هذا البحر في انفساحه إلى سبعمائة ميل أو نحوها ما بين سواحل أفريقية وجنوة من العدوة الشمالية والبلاد الساحلية من المغرب الأقصى والأوسط وأفريقية من لدن الخليج حيث منبعثة كلها عليه، مثل طنجة وسبتة وبادس

وعساسة وهنين ووهران والجزائر وبجاية وبونة وتونس وسوسة والمهدية وصفاقس وقابس وطرابلس وسواحل برقة والإسكندرية.

هذا وصف هذا البحر الرومي الذي هو حد المغرب من جهة الشمال. وأما حده من جهة القبلة والجنوب فالرمال المتهيلة الماثلة حجزاً بين بلاد السودان وبلاد البربر. ونعرف عند العرب الرحالة البادية بالعرق، وهذا العرق سياج على المغرب من جهة الجنوب مبتدىء من البحر المحيط وذاهب في جهة الشرق على سمت واحد إلى أن يعترضه النيل الهابط من الجنوب إلى مصر. فهنالك ينقطع وعرضه ثلاث مراحل وأزيد. ويعترضه في جهة المغرب الأوسط أرض مجحرة تسمى عند العرب الحمادة من دوين مصاب إلى بلاد دريغ، ووراءه من جهة الجنوب بعض بلاد الجزيرة ذات نخيل، وأنها معدودة في جملة بلاد المغرب، مثل بلاد بودة وتمنطيت في قبلة المغرب الأقصى وتسابيت وتيكورارين في قبلة المغرب الأوسط وغدامس وفزان وودان في قبلة طرابلس. كل واحد من هذه إقليم يشتمل على بلدان عامرة ذات قرى ونخيل وأنهار، ينتهي عدد كل واحد منها إلى المائة فأكثر.

وإلى هذه العدوة الجنوبية من هذا العرق ينتهي في بعض السنين مجالات أهل الشام من صنهاجة ومتقلبهم الجائلون هناك إلى بلاد السودان. وفي العدوة الشمالية منه مجالات البادية من الأعراب الظواعن بالمغرب.

وكانت قبلهم مجالات للبربر كما نذكره بعد هذا حد المغرب من جهة الجنوب. ومن دون هذا العرق سياج آخرعلى المغرب مما يلي التلول منه. وهي الجبال التي هي تخوم تلك التلول ممتدة من لدن البحر المحيط في الغرب إلى برنيق من بلاد برقة. وهنالك تنقطع هذه الجبال. وشمى مبدؤها من المغرب جبال درن. وما بين هذه الجبال المحيطة بالتلول وبين العرق الذي وصفناه آنفا بسائط وقفاراً أكثر نباتها الشجر، وفيما يلي التلول منها ويقاربها بلاد الجريد ذات نخل وأنهار.

ففي أرض السوس قبلة مراكش ترودانت والغيرى فويان وغيرهما، بلاد ذات نخل وأنهار ومزارع متعددة عامرة. وفي قبلة فاس سجلماسة وقراها بلد معروف، ودرعة أيضاً وهي معروفة وفي قبلة تلمسان قصور متعددة ذات نخل وأنهار. وفي قبلة تاهرت

القصور أيضاً بلاد متتالية على سطر من المشرق إلى المغرب أقرب ما إليها جبل راشد، وهي ذات نخل ومزارع وأنهار. ثم قصور معينات تناهز المائة وأكثر قبلة الجزائر ذات نخل وأنهار. ثم بلد واركلي قبلة بجاية بلد واحد مستبحر العمران كثير النخل، وفي سمته إلىجهة التلول بلاد ريغ تناهز الثلثمائة منتظمة على حفافي وادٍ ينحدر من المغرب إلى المشرق يناهز مائة من البلاد فأكثر، قاعدتها بسكرة من كبار الأمصار بالمغرب. وتشتمل كلها على النخل والأنهار والفدن والقرى والمزارع.

ثم بلاد الجريد قبلة تونس وهي: نفطة وتوزر وقفصة وبلاد نفزاوة وتسمى كلها بلاد قسطيلة مستبحرة العمران مستحكمة الحضارة مشتملة على النخل والأنهار. ثم قابس قبلة سوسة وهي حاضرة البحر من أعظم أمصار أفريقية، وكانت دار ملك لابن غانية كما نذكره بعد. وتشتمل على النخل والأنهار والمزارع. ثم فزان وودان قبلة طرابلس قصور متعددة ذات نخل وأنهار، وهي أول ما افتتح المسلمون من أرض أفريقية لما غزاها عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص. ثم الوحات قبلة برقة. ذكرها المسعودي في كتابه. وما وراء هذه كلها في جهة الجنوب فقفار ورمال لا تنبت زرعاً ولا مرعى إلى أن تنتهي إلى العرق الذي ذكرناه.

ومن ورائه مجالات المتلثمين كما قلناه مفاوز معطشة إلى بلاد السودان. وما بين بلاد هذه والجبال التي هي سياج التلول بسائط متلون مزاجها تارة بمزاج التلول، وتارة بمزاج الصحراء بهوائها ومياهها ومنابتها. وفيها القيروان، وجبل أوراس معترض وسطها. وبلاد الحضنة حيث كانت طبنة ما بين الزاب والتل. وفيها مقرة والمسيلة، وفيها السرسو قبلة تلمسان حيث تاهرت فيها جبل ديرو وقبلة فاس معترض في تلك البسائط. هذا حد المغرب من جهة القبلة والجنوب.

وأما من جهة الشرق فيختلف باختلاف الاصطلاحات. فعرف أهل الجغرافيا أنه بحر أهل القلزم المنفجر من بحر اليمن، هابط على سمت الشمال وبانحراف يسير إلى المغرب حتى ينتهي إلى القلزم والسويس، ويبقى بينهم من هنالك، وبين سمته من البحر الرومي مسيرة يومين. وينقطع عند السويس والقلزم. وبعده عن مصر في جهة الشرق

ثلاثة أيام. هذا آخر المغرب عندهم، ويدخل فيه إقليم مصر وبرقة.

وكان المغرب عندهم جزيرة أحاطت بها البحر من ثلاث جهاتها كما تراه. وأما العرف الجاري لهذا العهد بين سكان هذه الأقاليم فلا يدخل فيه إقليم مصر ولا برقة، وإنما يختص بطرابلس وما وراءها إلى جهة المغرب في هذا العرف لهذا العهد. وهذا الذي كان في القديم ديار البربر ومواطنهم. فأما المغرب الأقصى منه، وهو ما بين وادي ملوية من جهة الشرق إلى أسفي حاضرة البحر المحيط. وجبال درن من جهة الغرب فهي في الأغلب ديار المصامدة من أهل درن وبرغواطة وغمارة. وآخر غمارة بطوية مما يلي كساسة، ومعهم عوالم من صنهاجة ومطغرة وأوربة وغيرهم، يحيط به البحر الكبير من كربيه، والرومي من شماليه، والجبال الصاعدة المتكاثفة مثل درن من جانب القبلة وجبال تازى من جهة الشرق. لأن الجبال أكثر ما هي وأكثف قرب البحار بما اقتضاه التكوين من ممانعة البحار بها. فكانت جبال المغرب لذلك أكثر، وساكنها من المصامدة في

الأغلب وقيل من صنهاجة. وبقيت البسائط من الغرب مثل أزغاو وتامستا وتادلا ودكالة. واعتمرها الظواعن من البربر الطارئين عليه من جشم ورياح فغص المغرب بساكنه من أمم لا يحصيهم إلأ خالقهم، وصار كله جزيرة وبلد واحد أحاطت به الجبال والبحار وقاعدته لهذا العهد فاس، وهي دار ملكه. ويمر فيه النهر العظيم المعروف بوادي أم ربيع، وهو نهر عظيم يمتنع عبوره أيام الأمطار لاتساعه، ويعظم مده إلى البحر فينتهي إلى سبعين ميلاً أو ما يقاربها ومصبه في البحر الكبير عند أزبور. ومنبعه من جبال درن من فوهة كبيرة ينبع منها هذا النهر ويتساهل إلى بسيط المغرب. وينبع منها أيضا نهر آخر، وينحدر إلى القبلة. ويمر ببلاد درعة ذات النخل المخصوصة بنبات النيلج. وصناعة استخراجه من شجره، وهي قصور ذات نخل موضوعة في سفح جبل درن من آخره، وبها يسمى هذا النهر، ويجاورها إلى أن يغوص فى الرمل قبلة بلاد السوس.

وأما نهرملوية آخر المغرب الأقصى فهو نهرعظيم منبعه من فوهة في جبال قبلة نازى، ويصب في البحر الرومي عند مكناسة. وعليه كانت ديار مكناسة المعروفة بهم في

القديم. ويسكنها لهذا العهد أمم أخرى من زناتة في قصور منتظمة إلى أعلى النهر يعرفون بوطاط ويجاورهم هنالك وفي سائر نواحيه أمم من البربر أشهر من فيهم بطالسة إخوة مكناسة. وينبع مع هذا النهر من فوهته نهر كبير ينحدر ذاهباً إلى القبلة مشرقاً بعض الشيء، ويقطع العرق على سمته إلى أن ينتهي إلى البردة ثم بعدها إلى تمطيت، ويسمى لهذا العهد كير، وعليه قصورها. ثم يمر إلى أن يصب في القفار ويروغ في قفارها ويغور في رمالها وهو موضع مقامه قصور ذات نخل تسمى وركلان. وفي شرق بوده مما وراء العرق قصور تسابيت من قصور الصحراء. وفي شرقي تسابيت إلى ما يلي الجنوب قصور تيكورارين تنتهي إلى ثلثمائة أو أكثر في واد واحد فينحدر من المغرب إلى المشرق، وفيها أمم من قبائل زناتة.

وأما المغرب الأوسط فهو في الأغلب ديار زناتة. كان لمغراوة وبني يفرن. وكان معهم مديونة ومغيلة وكومية ومطغرة ومطماطة. ثم صار من بعدهم لبني وماتوا وبني يلومي. ثم صار لبني عبد الواد وتوجين من بني مادين وقاعدته لهذا العهد تلمسان، وهي دار ملكه ويجاوره من جهة المشرق بلاد صنهاجة من الجزائر ومتيجة والمرية وما يليها إلى بجاية، وقبائله كلهم لهذا العهد مغلوبون للعرب من زغبة. ويمر في وادي شلف بني واطيل النهر الأعظم منبعه من بلد راشد في بلاد الصحراء. ويدخل إلى التل من بلاد حصين لهذا العهد. ثم يمر مغرباً ويجتمع فيه سائر أودية المغرب الأوسط مثل مينا وغيره إلى أن يصب في البحر الرومي ما بين كلميتوا ومستغانم. وينبع من فوهته نهر آخريذهب مشرقاً من جبل راشد، ويمر بالزاب إلى أن يصب في سبخة ما بين توزر ونفزاوة معروفة هنالك، وشمى هذا النهر وادي شدي.

وأما بلاد بجاية وقسطنطينة فهي دار زواوة وكتامة وعجيسة وهوّارة، وهي اليوم ديار للعرب إلا ممتنع الجبال، وفيها بقاياهم. وأما أفريقية كلها إلى طرابلس فبسائط فتح

كانت دياراً لنفزاوة وبني يفرن ونفوسة ومن لا يحصى من قبائل البربر. وكانت قاعدتها القيروان، وهي لهذا العهد مجالات للعرب من سليم وبني يفرن وهوّارة مغلوبون تحت أيديهم. وقد تبدو معهم ونسوا رطانة

الأعاجم، وتكلموا بلغات العرب، وتحلوا بشعارهم في جميع أحوالهم. وقاعدتها لهذا العهد تونس، وهي دار ملكها، ويمر فيها النهر الأعظم المعروف بوادي مجردة يجتمع فيه سائر الأودية بها، ويصب في البحر الرومي على مرحلة من غربي تونس بموضع يعرف ببترت. وأما برقة فدرست معالمها وخربت أمصارها وانقرض أمرها. وعادت مجالات للعرب بعد أن كانت داراً للواتة وهوّارة وغيرهم من البربر. وكانت بها الأمصار المستجرة مثل لبدة وزويلة وبرقة وقصر حسان وأمثالها فعادات يباباً ومفاوز كأن لم تكن والله أعلم.

الفصل الثالث

في ذكر ما كان لهذا الجيل قديما وحديثا من الفضائل الإنسانية

والخصائص الشريفة الراقية بهم إلى مراقي العز ومعارج السلطان والملك

قد ذكرنا ما كان من أمر هذا الجيل من البربر ووفور عدده، وكثرة قبائلهم وأجيالهم وما سواه من مغالبة الملوك ومزاحمة الدول عدة آلاف من السنين، من لدن حروبهم مع بني إسرائيل بالشام وخروجهم عنه إلى أفريقية والمغرب، وما كان منهم لأول الفتح في محاربة الطوالع من المسلمين أولاً، ثم في مشايعتهم ومظاهرتهم على عدوهم ثانياً من المقامات الحميدة والآثار الجميلة. وما كان لوهيا الكاهنة وقومها بجبل أوراس من الملك والعز والكثرة قبل الإسلام وبعده حتى تغلب عليهم العرب، وما كان لمكناسة من مشايعة المسلمين أولاً، ثم ردتهم ثانياً، وتحيزهم إلى المغرب الأقصى وفرارهم أمام عقبة ابن نافع، ثم غلبهم بعد ذلك طوالع هشام بأرض المغرب.

(قال ابن أبي زيد): إن البربر ارتدوا بأفريقية المغرب إثنتي عشرة مرة، وزحفوا في كلها للمسلمين، ولم يثبت إسلامهم إلا في أيام موسى بن نصير، وقيل بعدها. وتقدم ذكر ما كان لهم في الصحراء والقفر من البلاد، وما شيدوا

من الحصون والاطام والأمصار من سجلماسة وقصور توات، وتجورارين وفيجيج ومصاب وواركل وبلاد ريغة والزاب ونفزاوة والحمة وغذامس. ثم ما كان لهم من الأيام والوقائع والدول والممالك. ثم ما كان بينهم وبين طوالع العرب من بني هلال في المائة الخامسة بأفريقية. وما كان لهم مع دولة آل حماد بالقلعة، ومع لمتونة بتلمسان وتاهرت من الموالاة والانحراف. وما استولى عليه بنو بادين آخراً بإسهام الموحدين وإقطاعهم من بلاد المغرب، وما كان لبني مرين في الأجلاب على عير عبد المؤمن من الاثار، وما تشهد أخباره كلها بأنه جيل عزيز على الأيام، وأنهم قوم مرهوب جانبهم شديد بأسهم كثير جمعهم، مظاهرون لأمم العالم وأجياله من العرب والفرس ويونان والروم.

ولكنهم لما أصابهم الفناء وتلاشت عصابتهم بما حصل لهم من ترف الملك والدول التي تكررت فيهم، قفت جموعهم وفنيت عصابتهم وعشائرهم وأصبحوا خولاً للدول وعبيداً للجباية. واستنكف كثير من الناس عن النسب فيهم لأجل ذلك، وإلا فقد كانت أوربة أميرهم كسيلة عند الفتح كما سمعت، وزناتة أيضاً حتى اسر أميرهم وزمار بن مولات، وحمل إلى المدينة إلى عثمان بن عفان. ومن بعد ذلك هوّارة وصنهاجة، وبعدهم

كتامة وما أقاموا من الدولة التي ملكوا بها المغرب والمشرق، وزاحموا بني العبّاس في ديارهم وغير ذلك منهم كثير.

وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم مرقاة الشرف والرفعة بين الأمم، ومدعاة المدح والثناء من الخلق من عز الجوار وحماية التزيل ورعي الأذمة والوسائل والوفاء بالقول والعهد، والصبر على المكاره والثبات في الشدائد. وحسن الملكة والإغضاء عن العيوب والتجافي عن الانتقام، ورحمة المسكين وبر الكبير وتوقير أهل العلم وحمل الكل وكسب المعدوم. وقرى الضيف والإعانة على النوائب، وعلو الهفة وإباية الضيم ومشاقة الدول ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيع النفوس من الله في نصر دينه. فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف لوكانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم وحسبك ما اكتسبوه من حميدها واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقي العز، وأوفت بهم على ثنايا

الملك حتى علت على الأيدي أيديهم ومضت في الخلق بالقبض والبسط أحكامهم.

وكان مشاهيرهم بذلك من أهل الطبقة الأولى: بلكين بن زيري الصنهاجي عامل أفريقية للعبيدين، ومحمد بن خزر والخير إبنه، وعروبة بن يوسف الكتامي القائم بدعوة عبد الله الشيعي، ويوسف بن تاشفين ملك لمتونة بالمغرب، وعبد المؤمن بن علي شيخ الموحدين وصاحب الإمام المهدي. وكان عظماؤهم من أهل الطبقة الثانية السابقون إلى الراية بين يدي دولهم والمعاهدون لملكهم بالمغرب الأقصى والأوسط، كبيرهم يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين ويغمراسن بن زيان سلطان بني عبد الواد، ومحمد بن عبد القوي ووزمار كبير بني توجين وثابت بن منديل أمير مغراوة وأهل شلف ووزمار بن إبراهيم زعيم بني راشد المتعارضين في أزمانهم المتناغين في تأثيل عزهم والتمهيد لقومهم كل على شاكلته بقوة جمعه. فكانوا من أرسخهم في تلك الخلال قدماً وأطولهم فيها يداً وأكثرهم لها جمعاً، طارت عنهم في ذلك قبل الملك وبعده أخبار عني بنقلها الأثبات من البربر وغيرهم، وبلغت في الصحة والشهرة منتهى التواتر.

وأما إقامتهم لمراسم الشريعة وأخذهم بأحكام الملة ونصرهم لدين الله، فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين لأحكام دين الله لصبيانهم، والاستفتاء في فروض أعيانهم، واقتفاء الأئمة للصلوات في بواديهم، وتدارس القرآن بين أحيائهم، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم، وصياغتهم إلى أهل الخير والدين من أهل مصرهم التماسا للبركة في آثارهم وسوءا للدعاء عن صالحيهم، وإغشائهم البحر لفضل المرابطة والجهاد، وبيعهم النفوس من الله في سبيله وجهاد عدوه ما يدل على رسوخ إيمانهم وصحة معتقداتهم، ومتين ديانتهم التي كانت ملاكاً لعزهم ومقاداً إلى سلطانهم وملكهم. وكان المبرز منهم في هذا المنتحل يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي وبنوهم.

ثم يعقوب بن عبد الحق من بعدهم وبنوه، فقد كان لهم في الاهتمام بالعلم والجهاد وتشييد المدارس واختطاط الزوايا والربط، وسد الثغور وبذل النفس في ذات الله، وإنفاق الأموال في سبيل الخيرات، ثم مخالطة أهل العلم

وترفيع مكانهم في مجالستهم ومفاوضتهم في الاقتداء بالشريعة، والانقياد لإشاراتهم في الوقائع والأحكام ومطالعة سير الأنبياء وأخبار الأولياء وقراءتها بين أيديهم من دواوين ملكهم ومجالس أحكامهم

وقصور عزهم. والتعرض بالمعاقل لسماع شكوى المتظلمين وإنصاف الرعايا من العمال، والضرب على يد أهل الجور، واتخاذ المساجد بصحن دورهم وشدة خلافتهم وملكهم، يعمرونها بالصلوات والتسبيحات والقراء المرتلين لتلاوة كتاب الله أحزابا بالعشي والإشراق على الأيام، وتحصين ثغور المسلمين بالبنيان المشيد والكتائب المجهزة، وإنفاق الأموال العريضة. شهدت لهم بذلك آثار تخلفوها بعدهم.

وأما وقوع الخوارق فيهم وظهور الكاملين في النوع الإنساني من أشخاصهم، فقد كان فيهم من الأولياء المحدثين أهل النفوس القدسية والعلوم الموهوبة. ومن حملة العلم عن التابعين ومن بعدهم من الأئمة والكهان المفطورين على المطلع للأسرار المغيبة. ومن الغرائب التي خرقت العادة وأوضحت أدلة القدرة ما يدل على عظيم عناية الله بذلك الجيل وكرامته لهم، بما آتاهم من جماع الخير وآثرهم به من مذاهب الكمال، وجمع لهم من متفرق خواص الإنسان، ينقل ذلك فيئ أخبار توهم عجائب.

فكان من مشاهير حملة العلم فيهم سعيد بن واسول جد بني مدرار ملوك سجلماسة، أدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى العبّاس ذكره عريب بن حميد في تاريخه. ومنهم أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني صاحب الحمار، الخارج على الشيعة سنة إثنتين وثلثمائة الدائن بدين الخارجية. أخذ العلم بتوزر عن مشيختها، ورأس في الفتيا وقرأ مذاهب الإضافية من الخوارج وصدق فيه. ثم لقي عماراً الأعمى الصفري النكار. فتلقن عنه من مذاهبهم ما انسلخ من اية السعادة بانتحاله. وهو مع ذلك من الشهرة في هذا الجيل بحيث لا يغفل.

ومنهم منذر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة من ظواعن ولهاصة ثم من سوماتة منهم، مولده عام عشرة ووفاته عام ثلاثة وثمانين وثلثمائة. كان من البتر من ولد مادغيس، هلك على يد عبد الرحمن الناصر. ومنهم أيضاً أبو محمد بن أبي زيد علم الملة وهو من نفزة أيضاً. ومنهم علماء بالنسبة والتاريخ وغير ذلك من فنون العلوم.

ومن مشاهير زناتة أيضا موسى بن صالح الغمري، معروف عند كافتهم معرفة وضوح وشهرة، وقد ذكرناه عند ذكر غمرة من شعوب زناتة. وهو وإن لم توقفنا الأخبار الصحيحة على الجلي من أمره في دينه، فهو من محاسن هذا الجيل الشاهدة بوجود الخواص الإنسانية فيهم: من ولاية وكهانة وعلم وسحر وكل نوع من آثار الخليقة.

ولقد تحدث أهل هذا الجيل فيما يتحدثون به أن أخت يعلى بن محمد اليفرني جاءت بولد من غير أب سموه كلمام. ويذكر له أخبار في الشجاعة خرقت العوائد ودلت على أنه موهبة من الله استأثره بها لم يشاركه فيها غيره من أهل جلدته. وربما ضاقت حواصل الخواص منهم عن ملتقط هذه الكائنة، ويجهلون ما يتسع لها ولأمثالها من نطاق القدرة وينقلون أن حملها كان إثر استحمامها في عين حامية هنالك غب ما صدر عنها بعض السباع، كانت ترد فيها على الناس، ويردون عليها، ويرون أنها علقت من فضل ولوغه، ويسمون ذلك المولود ابن الأسد لظهور خاصة الشجاعة فيه. وكثير من أمثال هذه الأخبار التي لو انصرفت إليها عناية

الناقلين لملأت الدواوين. و لم يزل هذا دأبهم وحالهم إلى أن مهدوا من الدول وأثلوا من الملك ما نحن في سبيل ذكره.

الفصل الرابع

في ذكر أخبارهم علي الجملة

من قبل الفتح الإسلامي ومن بعده إلى ولاية بني الأغلب

هؤلاء البربر جيل ذو شعوب وقبائل أكثر من أن تحصى حسبما هو معروف في تاريخ الفتح بأفريقية والمغرب، وفي أخبار ردتهم وحروبهم فيها. نقل ابن أبي الرقيق: أن موسى بن نصير لما فتح سقوما كتب إلى الوليد بن عبد الملك أنه صار لك من سبي سقوما مائة ألف رأس. فكتب إليه الوليد بن عبد الملك: ويحك إني أظنها من بعض كذباتك، فإن كنت صادقاً فهذا محشر الأمة، و لم تزل بلاد المغرب إلى طرابلس بل وإلى الإسكندرية عامرة بهذا الجيل ما بين البحر الرومي وبلاد السودان منذ أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها. وكان دينهم دين المجوسية شأن الأعاجم كلهم بالمشرق والمغرب إلا في بعض الأحايين يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم. فإن الأمم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون عليهم فقد غزتهم ملوك اليمن من قرارهم مراراً على ما ذكر مؤرخوهم، فاستكانوا لغلبهم ودانوا بدينهم.

ذكر ابن الكلبي:أ ن حمير ابأً بالقبائل اليمانية ملك المغرب مائة سنة وأنه الذي ابتنى

مدائنه مثل أفريقية وصقلية. واتفق المؤرخون على غزو أفريقش بن صيفي من التبابعة إلى المغرب كما ذكرنا فى أخبار الروم، واختطوا بسيف البحر وما يليه من الأرياف مدناً عظيمة الخطة وثيقة المباني شهيرة الذكر، باقية المعالم والاثار لهذا العهد، مثل: سبيطلة وجلولاء ومرناق ووطاقة وزانة وغيرها من المدن التي خربها المسلمون من العرب لأول الفتح عند استيلائهم عليها. وقد كانوا دانوا لعهدهم بما تعبدوهم به من دين النصرانية، وأعطوهم المهادنة وأذوا إليهم الجباية طواعية.

وكان للبربر في الضواحي وراء ملك الأمصار المرهوبة الحامية ما شاء من قوة وعدة وعدد وملوك ورؤساء وأقيال. وأمرؤها لا يرامون بذل، ولا ينالهم الروم والإفرنج في ضواحيهم تلك بمسخطة الإساءة، وقد صبحهم الإسلام وهم في مملكة قد استولوا على رومة. وكانوا يؤدون الجباية لهرقل ملك القسطنطينية كما كان المقوقس صاحب الإسكندرية وبرقة ومصر يؤدون الجباية له، وكما كان صاحب طرابلس ولبدة وصبرة وصاحب صقلية، وصاحب الأندلس من الغوط لما كان الروم غلبوا على هؤلاء الأمم أجمع. وعنهم كلهم أخذوا دين النصرانية، فكان الفرنجة هم الذين ولوا أمر أفريقية و لم يكن للروم فيها شيء من ولاية. وإنما كان كل من كان منهم بها جندا للإفرنج ومن حشودهم. وما يسمع في كتب الفتح من ذكر الروم في فتح أفريقية فمن باب التغليب لأن العرب يومئذ لم يكونوا يعرفون الفرنج، وما قاتلوا في الشام إلا الروم فظنوا أنهم هم الغالبون على أمم النصرانية. فإن هرقل هو ملك النصرانية كلها فغلبوا إسم الروم على جميع أمم النصرانية.

ونقلت الأخبار عن العرب كما هي: فجرجير المقتول عند الفتح من الفرنج وليس من الروم، وكذا الأمة الذين كانوا بأفريقية غالبين على البربر ونازلين بمدنها وحصونها إنما كانوا من الفرنجة. وكذلك ربما كان بعض هؤلاء البربر دانوا بدين اليهودية أخذوه عن بني إسرائيل عند استفحال ملكهم، لقرب الشام وسلطانه منهم كما كان جرأة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة مقتولة العرب لأول الفتح، وكما كانت نفوسة من برابر أفريقية وقندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثة وبنو فازان من برابرة المغرب الأقصى حتى محا إدريس الأكبر الناجم بالمغرب من بني حسن بن الحسن جميع ما كان في

نواحيه من بقايا الأديان والملل، فكان البربر بأفريقية والمغرب قبل الإسلام تحت ملك الفرنج وعلى دين النصرانية الذي اجتمعوا عليه مع الروم كما ذكرناه. حتى إذا كان الفتح وزحف المسلمون إلى أفريقية زمان عمر رضي الله عنه سنة تسع وعشرين، وغلبهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح من بني عامر بن لؤي فجمع لهم جرير ملك الفرنجة يومئذ بأفريقية من كان بأمصارها من الفرنج والروم، ومن بضواحيها من جموع البربر وملوكهم.

وكان ملك ما بين طرابلس وطنجة، وكانت دار ملكه سبيطلة فلقوا المسلمين في زهاء مائة وعشرين ألفاً. والمسلمون يومئذ في عشرين ألفاً فكان من هزيمة العرب لهم، وفتحهم لسبيطلة وتخريبهم إياها وقتلهم جرجير ملكهم. وما نفلهم الله من أموالهم وبناتهم التي اختصت منهن إبنته بقاتلة عبد الله بن الزبير لعهد المسلمين له بذلك بعد الهزيمة، وخلوصه بخبر الفتح إلى الخليفة والملأ من المسلمين بالمدينة ما هو كله مذكور مشهور. ثم أرزىء الفرنجة ومن معهم من الروم بعد الهزيمة، وخلوصه بخبر الفتح إلى حصون أفريقية. وانساح المسلمون في البسائط بالغارات، ووقع بينهم وبين البربر أهل الضواحي زحوف وقتل وسبي. حتى لقد حصل في أسرهم يومئذ من ملوكهم وزمار بن صقلاب جذ بني خزر، وهو يومئذ أمير مغوارة وسائر زناتة ورفعوه إلى عثمان بن عفان فأسلم على يده، ومن عليه وأطلقه وعقد له على قومه.

ويقال إنما وصله وافداً، وحصن المسلمين عليهم ولاذ الفرنج بالسلم، وشرطوا لابن أبي سرح ثلثمائة قنطار من الذهب على أن يرحل عنهم بالعرب، ويخرج بهم من بلادهم ففعل. ورجع المسلمون إلى المشرق وشغلوا بما كان من الفتن الإسلامية. ثم كان الاجتماع والإتفاق على معاوية بن أبي سفيان، وبعث معاوية بن خديج السكوني من مصر لافتتاح أفريقية سنة خمس وأربعين. وبعث ملك الروم من القسطنطينية عساكره لمدافعتهم في البحر فلم تغن شيئاً وهزمهم العرب بساحل أجم. وحاصروا جلولاء وفتحوها. وقفل معاوية بن خديج إلى مصر فولى معاوية بن أبي سفيان على أفريقية بعده عقبة بن نافع، فاختط القيروان وافترق أمر الفرنجة، وصاروا إلى الحصون وبقي البربر بضواحيهم إلى أن ولي يزيد بن معاوية وولى على أفريقية أبا المهاجر مولى. وكانت رياسة البربر يومئذ في أوربة لكسيلة بن لمزم، وهو رأس البرانس، ومرادفة سكرديد بن رومي بن مازرت من أوربة، وكان على دين النصرانية فأسلما لأول الفتح. ثم ارتدا عند ولاية أبي المهاجر واجتمع إليها البرانس، وزحف إليهم أبو المهاجر حتى نزل عيون تلمسان فهزمهم، وظفر بكسيلة فأسلم واستبقاه. ثم جاء عقبة بعد

أبي المهاجر أ فنكبه غيظاً على صحابته لأبي المهاجر. ثم استفتح حصون الفرنجة مثل باغاية ولميس ، ولقبه ملوك البربر بالزاب وتاهرت ففضهم جمعاً بعد جمع. ودخل المغرب الأقصى وأطاعته غمارة، وأميرهم يومئذ يليان.
ثم أجاز إلى وليلى ثم إلى جبال درن وقاتل المصامدة، وكانت بينهم وبينه حروب، وحاصروه بجبال درن.
ونهضت إليهم جموع زناتة، وكانوا خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة فأفرجت المصامدة عن عقبة وأثخن فيهم حتى حملهم على طاعة الإسلام ودوخ بلادهم.
ثم أجاز إلى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة أهل اللثام، وهم يومئذ على دين المجوسية، ولم يدينوا بالنصرانية فأثخن فيهم، وانتهى إلى تارودانت وهزم جموع البربر، وقاتل مسوفة من وراء السوس وسبى منهم وقفل راجعاً. وكسيلة أثناء هذا كله في اعتقاله يحمله معه في عسكره سائر غزواته. فلما قفل من السوس سرح العساكر إلى القيروان حتى بقي في خف من الجنود. وتراسل كسيلة وقومه فأرسلوا له شهوداً وانتهزوا الفرصة فيه وقتلوه ومن معه، وملك كسيلة أفريقية خمس سنين ونزل القيروان، وأعطى الأمان لمن بقي بها ممن تخلف من العرب أهل الذراري والأثقال، وعظم سلطانه على البربر.
وزحف قيس بن زهير البلوي في ولاية عبد الملك للثأر بدم عقبة سنة سبع وستين، وجمع له كسيلة سائر البربر، ولقيه بجيش من نواحي القيروان فاشتد القتال بين الفريقين ثم انهزم البربر وقتل كسيلة ومن لا يحصى منهم، وأتبعهم العرب إلى مرمحنة ثم إلى ملوية: وفي هذه الواقعة ذل البربر وفنيت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم واضمحل أمر الفرنجة فلم يعد، وخاف البربر من زهير ومن العرب خوفاً شديداً فلجؤا
إلى القلاع والحصون. ثم ترهب زهير بعدها وقفل إلى المشرق فاستشهد ببرقة كما ذكرناه. واضطرمت أفريقية ناراً وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم. وكان من أعظمهم شأناً يومئذ الكاهنة دهيا بنت ماتية بن تيفان ملكة جبل أوراس وقومها من جراوة ملوك البتر وزعماؤهم فبعث عبد الملك إلى حيان بن النعمان الغساني عامله على مصر أن يخرج إلى جهاد أفريقية، وبعث إليه بالمدد فزحف إليها سنة تسع وسبعين.
ودخل القيروان وغزا قرطاجنة وافتتحها عنوة، وذهب من كان بقي بها من الإفرنجة إلى صقلية وإلى الأندلس.
ثم سأل عن أعظم ملوك البربر فدلوه على الكاهنة وقومها جراوة فمضى إليها حتى نزل وادي مسكيانة.
وزحفت إليه فاقتتلوا قتالاً شديداً. ثم انهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير، واسر خالد بن يزيد القيسي. ولم تزل الكاهنة والبربر في إتباع حيان والعرب حتى أخرجوهم من عمل قابس، ولحق حسان بعمل طرابلس.
ولقيه كتاب عبد الملك بالمقام فأقام وبنى قصوره وتعرف لهذا العهد به. ثم رجعت الكاهنة إلى مكانها، واتخذت عهدا عند أسيرها خالد بالرضاع مع ابنيها. وأقامت في سلطان أفريقية والبربر خمس سنين. ثم بعط عبد الملك إلى حسان بالمدد فرجع إلى أفريقية سنة أربع وسبعين، وخربت الكاهنة جميع المدن والضياع. وكانت من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحدا في قرى متصلة.
وشق ذلك على البربر فاستأمنوا لحسان فأمنهم، ووجد السبيل إلى تفريق أمرها وزحف إليها وهي في جموعها من البربر فانهزموا وقتلت الكاهنة بمكان البير المعروف بها

لهذا العهد بجبل أوراس. واستأمن إليه البربر على الإسلام والطا عة، وعلى أن يكون منهم إثنا عشر ألفاً مجاهدين معه فأجابوا وأسلموا وحسن إسلامهم، وعقد للأكبر من ولد الكاهنة على قومهم من جراوة وعلى جبل أوراس فقالوا: لزمنا الطاعة له سبقناها إليها وبايعناه عليها. وأشارت عليهم بذلك لإثارة من علم كانت لديها بذلك من شياطينها. وانصرف حسان إلى القيروان فدون الدواوين وصالح من
ألقى بيده من البربر على الخراج. وكتب الخراج على عجم أفريقية ومن أقام معهم على النصرانية من البربر والبرانس. واختلفت أيدي البربر فيما بينهم على أفريقية والمغرب فخلت أكثر البلاد، وقدم موسى بن نصير إلى القيروان والياً على أفريقية. ورأى ما فيها من الخلاف وكان ينقل العجم من الأقاصي إلى الأداني وأثخن في البربر ودوخ المغرب وأدى إليه البربر الطاعة. وولي على طنجة طارق بن زياد، وأنزل معه سبعة وعشرين ألفاً من العرب، واثني عشر ألفأ من البربر، وأمرهم أن يعلموا البربر القرآن والفقه. ثم أسلم بقية البربر على يد إسمعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر سنة إحدى ومائة.
وذكر أبو محمد بن أبي زيد: أن البربر ارتدوا إثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة، و لم يستقر إسلامهم حتى أجاز طارق وموسى بن نصير إلى الأندلس، بعد أن دوخ المغرب وأجاز معه كثير من رجالات البربر وأمرائهم برسم الجهاد. فاستقروا هنالك من لدن الفتح، فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه. ورسخت فيهم كلمةالإسلام وتناسوا الردة. ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدانوا بها ولقنوها من العرب الناقليها من منبعها بالعراق. وتعذدت طوائفهم وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية كما ذكرنا في أخبار الخوارج.
وفشت هذه البدعة وأعقدها رؤوس النفاق من العرب وجراثيم الفتنة من البربر ذريعة إلى الانتزاء على الأمر فاختلوا في كل جهة، ودعوا إلى قائدهم طغام البربر تتلون عليهم مذاهب كفرها، ويلبسون الحق بالباطل فيها إلى أن رسخت فيهم كلمات منها، ووشجت بينهم عروق من غرائسها. ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمراء العرب، فقتلوا يزبد بن أبي مسلم سنة إثنتين ومائة لما نقموا عليه في بعض الفعلات. ثم انتقض البربر بعد ذلك سنة إثنتين وعشرين ومائة في ولاية عبد الله بن الحجاب أيام هشام بن عبد الملك لما أوطأ عساكره بلاد السوس، وأثخن في البربر وسبى وغنم. وانتهى إلى مسوفة فقتل وسبى داخل البربر منه رعب. وبلغه أن البربرأحسوا بأهم فيء للمسلمين فانتقضوا عليه. وثار ميسرة المطغي بطنجة على عمرو بن عبد الله فقتله وبايع لعبد الأعلى بن جريج
الأفريقي رومي الأصل ومولى العرب، كان مقدم الصفرية من الخوارج
في انتحال مذهبهم، فقام بأمرهم مدة وبايع ميسرة لنفسه بالخلافة داعياً إلى نحلته من الخارجية على مذهب الصفرية. ثم ساءت سيرته فنقم عليه البربرما جاء به فقتلوه وقدموا على أنفسهم خالد بن حميد الزناتي.
(قال ابن عبد الحكم): هو من هتورة إحدى بطون زناتة فقام بأمرهم، وزحف إلى العرب وسرح إليه عبد الله بن الحجاب العساكر في مقدمته ومعهم خالد بن أبي حبيب فالتقوا بوادي شلف، وانهزم العرب وقتل خالد بن أبي حبيب ومن معه، وسميت وقعة الأسراب وانتقضت البلاد ومرج أمر الناس، وبلغ الخبر هشام بن عبد الملك

فعزل ابن حجاب وولى كلثوم بن عياض القشيري سنة ثلاث وعشرين وسرحه في إثني عشرألفاً من أهل الشام. وكتب إلى ثغور مصر وبرقة وطرابلس أن يمدوه فخرج إلى أفريقية والمغرب، حتى بلغ وادي طنجة وهو وادي سبس فزحف إليه خالد بن حميد الزناتي فيمن معه من البربر، وكانوا خلقاً لا يحصى. ولقوا كلثوم بن عياض من بعد أن هزموا مقدمته فاشتد القتال بينهم، وقتل كلثوم وانهزمت العساكر فمضى أهل الشام إلى الأندلس مع بلج بن بشر القشيري. ومضى أهل مصر وأفريقية إلى القيروان.

وبلغ الخبر إلى هشام بن عبد الملك فبعث حنظلة بن سفيان الكلبي فقدم القيروان سنة أربع وعشرين وأربعمائة وهوّارة يومئذ خوارج على الدولة، منهم: عكاشة بن أيوب وعبد الواحد بن يزيد في قومهما. فثارت هوّارة ومن تبعهم من البربر فهزمهم حنظلة بن المعز بظاهر القيروان بعد قتال شديد. وقتل عبد الواحد الهواري وأخذ عكاشة أسيراً، وأحصيت القتلى في هذه الوقيعة فكانوا مائة وثمانين ألفاً. وكتب بذلك حنظلة إلى هشام وسمعها الليث بن سعد فقال: ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدرأحب إلي من غزوة القرن والأصنام.

ثم خفت صوت الخلافة بالمشرق والتاث أمرها لما كان بين بني أُميّة من الفتنة، وما كان من أمر الشيعة والخوارج مع مروان. وأقضى الأمر إلى الإدالة ببني العبّاس من بني أُميّة. وأجاز البحر عبد الرحمن بن حبيب من الأندلس إلى أفريقيا فملكها، وغلب

حنظلةعليها سنة ست وعشرين ومائة فعادت هيف إلى أديانها. واستشرى داء البربر وأعضل أمر الخارجية ورؤوسها فانتفضوا من أطراف البقاع، وتواثبوا على الأمر بكل ما كان داعين إلى بدعتهم. وتولى كبر ذلك يومئذ صنهاجة. وتغلب أميرهم ثابت بن زيدون وقومه على باجة، وثارمعه عبد الله بن سكرديد من أمرائهم فيمن تبعه.

وثاربطرابلس عبد الجباروالحرث من هوّارة وكانا يدينان برأي الإباضية فقتلوا عامل طرابلس بكر بن عبس القيسي لما خرج إليهم يدعوهم إلى الصلح، وبقي الأمر على ذلك مدة. وثار إسمعيل بن زياد فيمن معه من نفوسة. وتغلب على قابس. ثم زحف إليهم عبد الرحمن بن حبيب سنة إحدى وثلاثين فقتل عبد الجبار والحارث وأوعب في قتل البربر. وأثخن فيهم وزحف إلى تلمسان سنة خمس وثلاثين ومائة فظفر بها ودوخ المغرب، وأذل من كان فيه من البربر. ثم كانت بعد ذلك فتنة وربجومة وسائر قبائل نفزاوة سنة أربعين ومائة، وذلك لما انحرف عبد الرحمن بن حبيب عن طاعة أبي جعفر، وقتله أخواه إلياس وعبد الوارث فولي مكانه إبنه حبيب وطالبهما بثأر أبيه، فقتل إلياس ولحق عبد الوارث بوربجومة فأجاره أميرهم عاصم بن جميل، وتبعه على شأنه يزيد بن سكوم أمير ولهاصة واجتمعت لهم كلمة نفزاوة، ودعوا لأبي جعفر المنصور، وزحفوا إلى القيروان ودخلوها عنوة. وفر حبيب بن قابس فأتبعه عاصم في نفزاوة وقبائلهم.

وولي على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد النغزي، ثم انهزم حبيب إلى أوراس، واتبعه عاصم، فاعترضه عبد الملك بن أبي الجعد وجموع نفزاوة الذين كانوا بالقيروان وقتلوه. واستولت وربجومة على القيروان وسائر

أفريقية، وقتلوا من كان بها من قريش، وربطوا دوابهم بالمسجد الجامع. واشتد البلاء على أهل القيروان، وأنكرت ذلك من فعل وربجومة ومن إليهم من نفزاوة برابرة طرابلس الإباضية من هوّارة وزناتة، فخرجوا واجتمعوا إلى أبي الخطاب عبد الأعلى ابن الشيخ المعافري وقصدوا طرابلس وأخرجوا عمر بن عثمان القرشي، واستولى أبو الخطاب عليها. واجتمع إليه سائر البربر الذين كانوا هنالك من زناتة وهوّارة، وزحف بهم إلى القيروان فقتل عبد الملك بن أبي الجعد وسائر وربجومة ونفزاوة، واستولى على القيروان سنة إحدى وأربعين. ثم ولي على القيروان عبد الرحمن بن رستم، وهو من أبناء رستم أمير فارس

بالقادسية. كان من موالي العرب ومن رؤوس هذه البدعة. ورجع أبو الخطاب إلى طرابلس، واضطرم المغرب ناراً

. وانتزى خوارج البربر على الجهات فملكوها. واجتمعت الصفرية من مكناسة بناحية المغرب سنة أربعين ومائة، وقدموا عليهم عيسى بن يزيد الأسود، وأسسوا مدينة سجلماسة ونزلوها. وقدم محمد بن الأشعث والياً على أفريقية من قبل أبي جعفر المنصور فزحف إليه أبو الخطاب ولقيه بسرت، فهزمه ابن الأشعث، وقتل البربر ببلاد ريفا. وفر عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى تاهرت بالمغرب الأوسط، واجتمعت إليه طوائف البربر الإباضية من لماية ولواتة ورجالة من نفزاوة فنزل بها واختط مدينتها سنة أربع وأربعين وأربعمائة. وضبط ابن الأشعث أفريقية وخافه البربر.

ثم انتقض بنو يفزن من زناتة ومغيلة من البربر بنواحي تلمسان، وقدموا على أنفسهم أبا قرة من بني يفرن، ويقال إنه من مغيلة وهو الأصح في شأنه، وبويع له بالخلافة سنة ثمان وأربعين ومائة. وزحف إليه الأغلب بن سود التميمي عامل طبنة، فلما قرب منه هرب أبو قرة فنزل الأغلب الزاب ثم اعتزم على تلمسان ثم "طنجة ورجع إليه الجند فرجع ثم انتقض البربرمن بعد ذلك أيام عمربن حفص من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخي المهلب. وكان تغلب هرارة منذ سنة إحدى وخمسين ومائة.

واجتمعوا بطرابلس وقدموا عليهم أبا حاتم يعقوب بن حبيب بن مدين بن يطوفت من أمراء مغيلة ويسمى أبا قادم. وزحفت إليهم جنود عمر بن حفص فهزموها وملكوا طرابلس، وزحفوا إلى القيروان فحاصروها. ثم زحف البرابرة من الجانب الآخر جنود عمرطبنة في إثني عشرمعسكراً. وكان منهم أبوقرة في أربعين ألفاً من الصفرية وعبد الرحمن بن رستم في ستة آلاف من الإباضية، والمسوربن هانىء في عشرة آلاف كذلك، وجرير بن مسعود فيمن تبعه من مديونة، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي في ألفين منهم من الصفرية. واشتد الحصار على عمر بن حفص فأعمل الحيلة في الخلاف بين جماعتهم. وكان بنو يفرن من زناتة أكثر البرابرة يومئذ جمعاً، وأشدهم قوة فصالح أبو قرة زعيمهم على أربعين ألفاً، وأعطى ابنه في إتمام ذلك أربعة آلاف، وافترقوا وارتحلوا عن طبنة. ثم بعث بعثاً إلى ابن رستم فهزمه، ودخل تاهرت مفلولاً. وزحف عمربن حفص إلى أبي حاتم، والبربر

الإباضية الذين معه. ونهضوا إليه فخالفهم إلى القيروان ،وشحنها بالأقوات والرجال.

ثم لقي أبا حاتم والبربر وهزموه، ورجع إلى القيروان وحاصروه. وكانوا في ثلاثمائة وخمسين ألفاً الخيل منها خمسة وثلاثون ألفاً، وكانوا كلهم إباضية. وطال الحصار وقتل عمر بن حفص في بعض أيامه سنة أربع وخمسين ومائة. وصالح أهل الفيروان أبا حاتم على ما أحب، وارتحل. وقدم يزيد بن قبيصة بن المهلب سنة أربع وخمسين ومائة والياً على أفريقية، فزحف إليه أبو حاتم بعد أن خالف عليه عمر بن عثمان الفهري، وافترق أمرهم فلقيه يزيد بن حاتم بطرابلس فقتل أبوحاتم، وانهزم البربر. ولحق عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن من أصحاب أبي حاتم بكتامة. وبعث المخارق بن غفار الطائي فحاصره ثمانية أشهر. ثم غلب عليه فقتله ومن كان معه من البربر، وهربوا إلى كل ناحية. وكانت حروبهم مع الجند من لدن قتل عمر بن حفص بطبنة إلى انقضاء ثلثمائة وخمسة وسبعين حرباً.

وقدم يزيد أفريقية فزال فسادها ورتب القيروان، ولم تزل البلاد هادئة. وانتقض ورفجومة سنة سبع وخمسين ومائة وولوا عليهم رجلاً منهم إسمه أبو زرجونة، فسرح إليهم يزيد من عشيرة ابن محراة المهلبي فهزموه. واستأذنه إبنه المهلب وكان على الزاب وطبنة وكتامة في الزحف إلى ورفجومة فأذن له، وأمده بالعلاء بن سعيد بن مروان المهلبي من عشيرتهم أيضاً فأوقع بهم وقتلهم أبرح قتل. وانتقض نفزاوة من بعد ذلك في سلطنة إبنه داود من بعد مهلكه سنة إحدى وستين ومائة، وولوا عليهم صالح بن نصير النفزي، ودعوا إلى رأيهم رأي الإباضية، فسرح إليهم ابن عمه سليمان بن الصمّة في عشرة آلاف فهزمهم وقتل البربرأبرح قتل. ثم تحيز إلى صالح بن نصيرولم يشهد الأولى من البربر الإباضية واجتمعوا بشقبنارية فهزمهم إليها سليمان ثانية وانصرف إلى القيروان.

وركدت ريح الخوارج من البربر من أفريقية وتداعت بدعتهم إلى الاضمحلال، ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة إحدى وسبعين ومائة في موادعة صاحب القيروان روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، فوادعه وانحصدت شوكة البربر واستكانوا للغلب وأطاعوا للدين، فضرب الإسلام بجرانه، وألقت الدولة الضربية على البربر بكلكلها. وتقلد إبراهيم بن الأغلب التميمي أمر أفريقية والمغرب من قبل الرشيد هرون سنة خمس وثمانين ومائة فاضطلع بأمر هذه الولاية، وأحسن السيرة وقوم القتاد ورأب الصدع وجمع الكلمة. ورضيت الكافة. واستقل بولايتها غير منازع ولا متشوه. وتوارثها بنوه خالفا عن سالف.

وكانت لهم بأفريقية والمغرب الدولة التي ذكرناها من قبل، إلى أن انقرض أمر العرب بأفريقية على زيادة الله عاقبتهم الفار إلى المشرق أمام كتامة سنة ست وتسعين ومائتين كما نذكره. وخرج كتامة على بني الأغلب بدعوة الرافضية. قام بها فيهم أبو عبد الله المحتسب الشيعي داعية عبيد الله المهدي فكان ذلك آخر عهد العرب بالملك والدولة بأفريقية. واستقل كتامة بالأمر من يومئذ، ثم من بعدهم من برابرة المغرب. وذهبت ريح العرب ودولتهم عن المغرب وأفريقية فلم يكن لهم بعد دولة إلى هذا العهد، وصار الملك للبربر وقبائلهم يتداولونه طائفة بعد أخرى وجيلاً بعد آخر، تارة يدعون إلى الأمويين الخلفاء بالأندلس، وتارة إلى الهاشميين من بني

العبّاس وبني الحسن. ثم استقلوا بالدعوة لأنفسهم آخراً حسبما نذكر ذلك كله مفصلاً عندما يعرض لنا من ذكر دول زناتة والبربر الذين نحن في سياقة أخبارهم.

البرابرة البتر

الخبر عن البرابرة البتر وشعوبهم ونبدأ منهم

أولا بذكر نفوسة وبطوهم وتصاريف أحوالهم

كان مادغيس الأبتر جد البرابرة البتر، وكان إبنه زحيك ومنه تشعبت بطوهم. فكان له من الولد فيما يذكر نسابة البربر أربعة: نفوس واداس وضرا ولوا. فأما أداس فصار في هوّارة لما يقال إن هوّارة خلف أباه زحيك على أمه قبل فصاله فانتسب إليه واختلط بولده. واندرجت بطون أداس في هوّارة كما ذكرناه. وأما ضراولوا فسنأتي بذكر بطوهم واحداً واحداً. وأما نفوس فهم بطن واحد تنسب إليه نفوسة كلها. وكانوا من أوسع قبائل البربر فيهم شعوب كثيرة مثل بني زمور وبني مكسور وماطوسة.

وكانت مواطن جمهورهم بجهات طرابلس وما إليها، وهناك الجبل المعروف بهم.

وهم على ثلاثة مراحل من قبلة طرابلس يسكنه اليوم بقاياهم. وكانت مدينة صبرة قبك الفتح في، مواطنهم وتعزى إليهم، وهي كانت باكورة الفتح لأول الإسلام وخربها العرب عد استيلائهم عليها فلم يبق منهم إلا الأطلال ورسوم خافية. وكان من رجالاتهاإسمعيل بن زياد المتغلب على قابس سنة إثنتين وثلاثين ومائة لأول الدولة العباسية. ومنهم لهذا العهد أوزاع متفرقون في الأقطار بعمالات مصر والمغرب، والله وارث الأرض ومن عليها، وأما لوا فمن ولده نفزاوة ولواتة كما نذكر.

الخبر عن نفزاوة وبطوهم وتصاريف أحوالهم:

وهم بنو تطوفت بن نفزاو بن لوا الأكبر بن زحيك، وبطوهم كثيرة مثل غساسة ومرنيسة وزهيلة وسوماتة وزاتيمة وولهاصة ومجرة. وورسيف، ومن بطوهم مكلاتة، ويقال إن مكلاتة من عرب اليمن وقع إلى تطوفت صغيراً فتبناه، وليس من البربر. ولمكلاتة بطون متعدد مثل بني ورياغل وكزناية وبني يصلتن وبني ديمان ورمحوق وبني يزناسن. ويقال أن غساسة منهم هكذا عند نسابة البربر مثل: سابق المطماطي وغيره. ومن بطون ولهاصة ورتدين بن داحية بن ولهاصة وورفجومة بن تيرغاس بن ولهاص. ومن بطون ورفجومة زكولة رجالة لذاك بن ورفجوم إلى بطون أخرى كثيرة.

وكان ورفجومة هؤلاء أوسم بطون نفزاوة وأشدهم بأساً وقوة. ولما انحرف عبد الرحمن بن حبيب عن طاعة أبي جعفر المنصور، وقتله أخواه عبد الوارث وإلياس وطالبهما إبنه حبيب بالثأر فلحق عبد الوارث بورفجومة، ونزل على أميرهم عاصم بن جميل بأوراس، وكان كاهناً فأجاره وقام بدعوة أبي جعفر المنصور، واجتمعت إليه نفزاوة، وكان من رجالاهم عبد الملك بن أبي الجعد ويزيد بن سكوم وكانوا يدينون بدين الأباضية من الخوارج، وزحفوا إلى القيروان سنة أربعين ومائة. وفر عنها حبيب بن عبد الرحمن، ودخلها عبد الملك بن أبي

الجعد وقتل حبيباً. واستولت نفزاوة على القبروان وقتلوا من كان بها من قريش وسائر العرب، وربطوا دوابهم بالمسجد وعظمت حوادثهم.

ونكر ذلك عليهم الاباضية من برابرة طرابلس وتولى كبرها زناتة وهوّارة فاجتمعوا ألى الخطاب بن السمح ورجالات العرب، واستولوا على طرابلس ثم على القيروان سنة إحدى وأربعين ومائة، وقتلوا عبد الملك بن أبي الجعد وأثخنوا في قومه من نفزاوة وورفجومة. ثم رجعوا إلى طرابلس بعد أن استعمل أبو الخطاب على القيروان عبد الرحمن بن رستم. واضطرم المغرب ناراً وعظمت فتنة ورفجومة هؤلاء إلى أن قدم محمد بن الأشعث سنة ست وأربعين ومائة من قبل المنصور فأثخن في البربر وأطفأ نار هذه الفتنة كما قدمناه. ولما اختط عمر بن حفص مدينة طبنة سنة إحدى وخمسين ومائة أنزل ورفجومة هؤلاء بها بما كانوا شيعاً له، وعظم غناؤهم فيها عندما حاصره بها ابن رستم وبنويفرن.

ثم انتقضوا بعد مهلك عمرعلى يزيد بن حاتم عند قدومه على أفريقية سنة سبع وخمسين ومائة، وولوا عليهم أبا زرجونة منهم وسرح إليهم يزيد العساكر مع إبنه وقومه فأثخنوا فيهم. ثم انتقضت نفزاوة على أبيه داود ودعوا إلى دين الاباضية، وولوا عليهم صالح بن نصر منهم فرجعت العساكر إليهم متراسلة وقتلوهم أبرح قتل. وعليها كان ركود ريح الخوارج بأفريقية أذعار البربر. وافترق بنو ورفجوم بعد ذلك وانقرض أمرهم وصاروا أوزاعا في القبائل. وكان رجالة منهم بطناً متسعاَ. وكان منهم رجالات مذكورون في أول العبيديين وبني أُميّة بالأندلس منهم الرجالي أحد الكتاب بقرطبة. وبقي منهم لهذا العهد فرق بمرماجنه. وهناك قرية ببسيطها تنسب إليهم.

وأما سائر ولهاصة من ورفجومة وغيرهم فهم لهذا العهد أوزاع لذلك أشهرهم قبيلة بساحل تلمسان اندرجوا في كومية وعدوا منهم بالنسب والخلط. وكان منهم في أواسط هذه المائة الثامنة ابن عبد المكلف استقل برياستهم وتملك بدعوى السلطان بعد عساكر بني عبد الواد على تلمسان ونواحيها،وتغلب على سلطانهم لذلك العهد كما نذكره عثمان بن عبد الرحمن وسجنه بالمطبق بتلمسان ثم قتله. ومن أشهر قبائل ولهاصة أيضاً قبيلة أخرى ببسيط بونة يركبون الخيل ويأخذون مذاهب العرب في زيهم ولغتهم وسائر شعارهم كما هو شأن هوّارة. وهم في عداد القبائل الغارمة،ورئاستهم في بني عريف منهم، وهي لهذا العهد في ولد حازم بن شداد بن حزام بن

نصر بن مالك بن عريف. وكانت قبلهم لعسكر بن بطنان منهم،هذه أخبار ولهاصة فيما علمناه.

(وأما بقايا بطون نفزاوة) فمنهم زاتيمة، وبقية منهم لهذا العهد بساحل برشك، ومنهم غساسة. وبقية منهم لهذا العهد بساحل بوطة حيث القرية التي هناك حاضرة البحر ومرسى لأساطيل المغرب وهي مشهورة باسمهم. وأما زهيلة فبقيتهم لهذا العهد بنواحي بادس مندرجون في غمارة وكان منهم لعهد مشيختنا أبو يعقوب البادسي أكبر الأولياء، وآخرهم بالمغرب. وأما مرنيسة فلا يسلم لهم موطن، ومن أعقابهم أوزاع بين أحياء

العرب بأفريقية. وأما سوماتة فمنهم بقية في نواحي القيروان: كان منهم منذر بن سعيد القاضي بقرطبة لعهد الناصر والله أعلم.

وأما بقايا بطون نفزاوة فلا يعرف لهم لهذا العهد حي ولا موطن إلا القرى الظاهرة المقدرة السير المنسوبة إليهم ببلاد قسطيلة. وبها معاهدون من الفرنجة أوطنوهم على الجزية واعتقاد الذمة عند عهد الفتح، وأعقابهم بها لهذا العهد. وقد نزل معهم كثير من بني سليم من الشريد وزغبة وأوطنوها وتملكوا بها العقار والضياع. وكان أمر هذه القرى راجعاً إلى عامل توزر أيام استبداد الخلافة. فلما تقلص ظل الدولة عنهم، وحدثت العصبة في الأمضار استبدت كل قرية بأمرها، وصار مقدم توزر يحاول دخولهم في إيالته. فمنهم من يعطيه ذلك، ومنهم من يأباه حتى أظلتهم دولة مولانا السلطان أبي العبّاس، وأدرجوا كلهم في طاعته واندرجوا في حبله، والله ولي الأمور ولا رب غيره اه.

الخبر عن لواتة من البرابرة البتر وتصاريف أحوالهم :

وهو بطن عظيم متسع من بطون البربر البترينتسبون إلى لوا الأصغر بن لوا الأكبر بن زحيك، ولوا الأصغر هو نفزاو كما قلناه. ولوا إسم أبيهم، والبربر إذا أرادوا العموم في الجمع زادوا الألف والتاء فصار لوات فلما عربته العرب حملوه على الأفراد وألحقوا به هاء الجمع. وذكر ابن حزم أن نسابة البربر يزعمون أن سدراتة ولواتة ومزاتة من

القبط، وليس ذلك بصحيح، وابن حزم لم يطلع على كتب علماء البربر في ذلك. وفي لواتة بطون كثيرة، وفيهم قبائل كثيرة مثل سدراتة بن نيطط بن لوا، ومثل عزوزة بن ماصلت بن لوا. وعد سابق وأصحابه في بني ماصلت بطوناً أخرى غير عزوزة وهم: أكورة وجرمانة ونقاعة مثل بني زائد بن لوا، وأكثر بطونهم مزاتة. ونسابة البربر يعدون في مزاتة بطوناً كثيرة مثل: ملايان ومرنه ومحيحه ودكمه وحمره ومدونه. وكان لواتة هؤلاء ظواعن في مواطنهم بنواحي برقة كما ذكره المسعودي، وكان لهم في فتنة أبي يزيد آثار.

وكان منهم بجبل أوراس أمة عظيمة ظاهروا أبا يزيد مع بني كملان على أمره. ولم يزالوا بأوراس لهذا العهد مع من به من قبائل هوّارة وكتامة، ويدهم العالية عليهم تناهز خيالتهم ألفاً وتجاوز رجالاتهم العدة. وتستكفي بهم الدولة في جباية من تحت أيديهم بجبل أوراس من القبائل الغارمة فيحسنون الغناء والكفاية. وكانت البعوث مضروبة علبهم بنفرون بها في معسكر السلطان. فلما تقلص ظل الدولة عنهم صار بنو سعادة منهم في أقطاع أولاد محمد من الزواودة فاستعملوهم في مثل ما كانت الدولة تستعملهم فيه، فأصاروهم خولاً للجباية وعسكراً للاستنفار وأصبحوا من جملة رعاياهم. وقد كان بقي جانب منهم لم تستوفه الإقطاعات، وهم بنو زنجان وبنو باديس فاستضافهم منصور بن مزني إلى عمله. فلما استبد مزني عن الدولة واستقلوا بالزاب صاروا يبعدونهم بالجبلية بعض السنين ويعسكرون عليهم لذلك بأفاريق الأعراب. وهم لهذا العهد معتصمون بجبلهم لا يجاوزونه إلى البسيط خوفاً من عادية الأعراب.

ولبني باديس منهم أتاوات على بلد نقاوس المحيطة في سفح الجبل بما تغلبوا على ضواحيها. فإذا انحدر الأعراب إلى مشاتيهم اقتضوا منها أتاواتهم وخفارتهم. وإذا أقبلوا إلى مصايفهم رجع لواتة إلى معاقلهم الممتنعة على الأعراب. وكان من لواتة هؤلاء أمّة عظيمة بضواحي تاهرت إلى ناحية القبلة وكانوا ظواعن هنالك على وادي ميناس ما بين جبل يعود من جهة الشرق وإلى وارصلف من جهة الغرب. يقال إن بعض أمراء القيروان نقلهم معه في غزوة وأنزلهم هنالك. وكان كبيرهم أورغ بن علي بن هشام قائداً لعبيد الله الشيعي.
ولما انتقض حميد بن مصل صاحب تاهرت على المنصورثالث خلفاء الشيعة ظاهروه على خلافه، وجاوروه في مذاهب ضلاله إلى أن غلبه المنصور. وأجاز حميد إلى الأندلس سنة ست وثلاثين ومائة، وزحف المنصور يريد لواتة فهربوا أمامه إلى الرمال ورجع عنهم، ونزل إلى وادي ميناس ثم انصرف إلى القيروان.
(وذكر) ابن الرقيق: أن المنصور وقف هنالك على أثر من آثار الأقدمين بالقصور التي على الجبال الثلاثة مبنية بالحجر المنحوت، يبدو للناظر على البعد كأنها أسنمة قبور، ورأى كتاباً في حجر فسره له أبو سليمان السردغوس: خالف أهل هذا البلد على الملك فأخرجني إليهم، ففتح لي عليهم، وبنيت هذا البناء لأذكر به، هكذا ذكر ابن الرقيق. وكان بنو وجديجى من قبائل زناتة بمواطنهم من منداس جيراناً للواتة هؤلاء والتخم بينهما وادي ميناس وتاهرت. وحدثت بينهما فتنة بسبب امرأة أنكحها بنو وجديجى في لواتة فعيروا بالفقر، فكتبت بذلك إلى قومها ورئيسهم يومئذ عنان فتذامروا واستمدوا من وراءهم من زناتة فأمدوهم بعلي بن محمد اليفرني.وزحفت مطماطة من الجانب الاخر في مظاهرتهم وعليهم غزانة أميرهم، وزحفوا جميعاً إلى لواتة، فكانت بينهم وقائع وحروب هلك في بعضها علاق، وأزاحوا عن الجانب الغربي السرسو، وألجؤهم إلى الجبل الذي في قبلة تاهرت المسمى لهذا العهد كركيرة، وكان به قوم من مغراوة فغدروا بهم، وتظاهروا جميعاً عليهم إلى أن أخرجوهم عن آخر مواطنهم في جهة الشرق بجبل يعود فنزلوا من ورائه الجبل المسمى لهذا العهد دارك. وانتشرت عمائرها بتلوله وما وراءه إلى الجبال المطلة على متيجة، وهم لهذا لعهد في عداد القبائل الغارمة.
وجبل دارك في أقطاع ولد يعقوب بن موسى مشيخة العطاف من زغبة ومن لواتة أيضاً بطون بالجبال المعروفة بهم قبلة قابس وصفاقس ومنهم بنو مكي رؤساء قابس لهذا العهد. ومنهم أيضاً بواحات مصر فيما ذكره المسعودي أمة عظيمة بالجيزة التي بينها وبين مصر. وكان لما قرب من هذه القصور شيخهم هنالك بدر بن سالم، وانتقض على الترك وسرحوا إليه العساكر فاستلحموا كثيراً من قومه وفر إلى ناحية برقة، وهو الآن في جوار العرب بها. ومن زناتة هؤلاء أحياء بنواحي تادلا قرب مراكش من الغرب الأقصى، ولهم هنالك كثرة. ويزعم كثير من الناس أنهم بنواحي جابر من عرب جشم، واختلطوا بهم وصاروا في عدادهم. ومنهم أوزاع مفترقون بمصر وقرى الصعيد شاوية وفلاحين، ومنهم أيضاً بضواحي بجاية قبيلة يعرفون بلواتة يترلون بسيط تاكرارت من أعمالها ويعتمرونها فدناً لمزارعهم ومسارح لأنعامهم. ومشيختهم لهذا العهد في ولد راجح بن صواب منهم، وعليهم للسلطان جباية مفروضة وبعث مضروب. هؤلاء المعروفون من بطون لواتة ولهم شعوب أخرى كثيرة اندرجوا في البطون وتوزعوا بين القبائل، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن بني فاتن من ضريسة إحدي بطون البرابرة البتر وتصاريف أحوالهم:

وهم بطون مضغرة ولماية وصدينة وكومية ومديونة ومغيلة ومطمامة وملزوزة ومكناسة ودونة، وكلهم من ولد فاتن بن ممصيت بن حريس بن زحيك بن مادغيس الأبتر، ولهم ظهور من البرابر وأخبار نسردها بطناً بطناً إلى آخرها. مطغرة: وهم من أوفر هذه الشعوب. وكانوا خصاصين آهلين. وكان جمهورهم بالمغرب منذ عهد الإسلام ونشبوا في نشر الردة وضروبها، وكان لهم فيها مقامات. ولما استوسق الإسلام في البربر أجازوا إلى فتح الأندلس، وأجازت منهم أمم واستقروا هنالك. ولما سرى دين الخارجية في البربر أخذ مضغرة هؤلاء برأي الصفرية، وكان شيخهم ميسرة، ويعرف بالجفير، مقدماً فيه.

ولما ولي عبيد الله بن الحبحاب على أفريقية من قبل هشام بن عبد الملك، وأمره أن يمضي إليها من مصر، فقدمها سنة أربع عشرة ومائة، واستعمل عمر بن عبد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى، وابنه إسمعيل على السوس وما وراءه. واتصل أمر ولايتهم وساءت سيرتهم في البربر ونقموا عليهم أحوالهم، وما كانوا يطالبونهم به من الوصائف البربريات والأردية العسلية الألوان، وأنواع طرف المغرب، فكانوا يتغالبون في جمعهم ذلك وانتحاله. حتى كانت الصرمة من الغنم تستهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها، ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه. فكثر عيثهم بذلك في أموال البربر وجورهم عليهم، وامتعض لذلك ميسرة الحفيد زعيم مضغرة الحسن وحمل البرابرة على الفتك بعمر بن عبد الله عامل طنجة فقتلوه سنة خمس وعشرين ومائة. وولى ميسرة مكانه عبد الأعلى بن خديم الإفريقي الرومي الأصل، كان من موالي العرب وأهل خارجيتهم، وكان يرى رأي الصفرية فولاه ميسرة على طنجة، وتقدم إلى السوس فقتله عامله إسمعيل بن عبد الله، واضطرم المغرب ناراً. وانتقض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد.

وزحف ابن الحبحاب إليه من القيروان في العساكر وعلى مقدمته خالد بن أبي حبيب الفهري، فلقيهم ميسرة في جموع البرابرة، فهزم المقدمة واستلحمهم وقتل خالد. وتسامع البربر بالأندلس بهذا الخبر فثاروا بعاملهم عقبة بن الحجاج السلولي وعزلوه، وولوا عبد الملك بن قطن الفهري، وبلغ الخبر بذلك إلى هشام بن عبد الملك فسرح كلثوم بن عياض المري في إثني عشر ألفاً من جنود الشام، وولاه على أفريقية وأدال به من عبيد الله بن الحبحاب.

القسم الثاني

وزحف كلثوم إلى البرابرة سنة ثلاث وعشرين ومائة حتى انتهت مقدمته إلى وادي اسبو من أعمال طنجة، فلقيه البرابرة هنالك مع ميسرة، وقد فحصوا عن أوساط رؤوسهم ونادوا بشعار الخارجية فهزموا مقدمته، ثم هزموه وقتلوه.

وكان كيدهم في لقائهم إياه، ملؤا الشنان بالحجارة وربطوها بأذناب الخيل تنادي بها فتقعقع الحجارة في شنانها، وسرّبت بمصاف العساكر من العرب فنفرت خيولهم، واختل مصافهم وانجرب عليهم الهزيمة فافترقوا، وذهب بلج مع الطلائع من أهل الشام إلى سبتة كما ذكرناه في أخبارهم. ورجع إلى القيروان أهل مصر

وأفريقية وظهرت الخوارج في كل جهة، واقتطع المغرب عن طاعة الخلفاء إلى أن هلك ميسرة، وقام برياسة مضغرة من بعده يحيى بن حارث منهم، وكان حليفاً لمحمد بن خزر ومغراوة. ثم كان من بعد ذلك ظهور إدريس بالمغرب فقدم بها البرابرة وتولى كبرها أوربة منهم كما ذكرناه. وكان على مضغرة يومئذ شيخهم بهلول بن عبد الواحد، فانحرف مالك عن إدريس إلى طاعة هرون الرشيد بمداخلة إبراهيم بن الأغلب عامل القيروان فصالحه إدريس وأنبأه بالسلم.

ثم ركد ريح مضغرة من بعد ذلك وافترق جمعهم، وجرت الدول عليهم أذيالها واندرجوا في عمال البربر الغارمين لهذا العهد بتلول المغرب وصحرائه. فمنهم ما بين فاس وتلمسان أمم يتصلون بكومية ويدخلون حلفهم، واندرجوا من لدن الدعوة الموحدية منهم ورئاستهم لولد خليفة. كان شيخهم على عهد الموحدين، وبنى لهم حصناً بمواطنهم على ساحل البحر يسمى تاونت. ولما انقرضت دولة بني عبد المؤمن، واستولى بنو مرين على المغرب قام هرون بن موسى بن خليفة بدعوة يعقوب بن عبد الحق سلطانهم، وتغّلب على ندرومة. وزحف إليه يغمراسن بن زيان فاسترجع ندرومة من يده وغلبه على تاونت. ثم زحف يعقوب بن عبد الحق إليهم وأخذها من أيديهم وشحنها بالأقوات، واستعمل هرون ورجع إلى المغرب فحدثت هرون نفسه بالاستبداد، فدعا لنفسه معتصماً بذلك الحصن خمس سنين.

ثم صاهره يغمراسن واستنزله على صلح سنة إثنتين وسبعين وستمائة. ولحق هرون بيعقوب بن عبد الحق. ثم أجاز إلى الجهاد بإذنه واستشهد هنالك. وقام بأمر مضغرة من بعده أخوه تاشفين إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعمائة. واتصلت رياستهم على عقبه لهذا العهد. ومن قبائل مضغرة أمة بجبل قبلة فاس معروف بهم. ومنهم أيضاً قبائل كثيرون بنواحي سجلماسة وأكثر أهلها منهم. وربما حدثت بها عصبية من جراهم.

ومن قبائل مضغرة أيضاً بصحراء المغرب كثيرون نزلوا بقصورها واغترسوا شجرة النخل على طريقة العرب. فمنهم بتوات قبلة سجلماسة إلى تمنطيت آخر عملها قوم كثيرون موطنون مع غيرهم من أصناف البربر. ومنهم في قبلة تلمسان وعلى ستة مراحل منها، وهي قصورمتقاربة بعضها من بعض، ائتلف منها مصر كبير مستبحر بالعمران البدوي، معدود في آحاد الأمصار بالصحراء، ضاح من ظل الملك والدول لبعده في القفر. ورياسته في بني سيد الملوك منهم. وفي شرقيها وعلى مراحل منها قرى أخرى متتابعة على سمتها متصاعدة قليلاً إلى الجوف، آخرها على مرحلة من قبلة جبل راشد. وهي في مجالات بني عامر من زغبة وأوطانهم من القفر، وقد تملكوها لحظ أبنائهم وقضاء حاجاتهم حتى نسبت إليهم في الشهرة. وفي جهة الشرق عن هذه القصور، وعلى خمس مراحل منها دامعة متوغلة في القفرتعرف بقليعة. والآن يعتمرها رهط من مضغرة هؤلاء. وينتهي إليها ظواعن عن الملثمين من أهل الصحراء بعض السنين إذا لفحهم الهجير، يستبردون في تلولها لتوغلها في ناحيتهم. ومن مطغرة هؤلاء أوزاع في أعمال المغرب الأوسط وأفريقية، ولله الخلق جميعاً.

لماية وهم بطون فاتن بن تمصيت كما ذكرناه إخوة مضغرة، ولهم بطون كثيرة عدّ منها سابق وأصحابه بنوزكرمار ومزيزة ومليزة بنو مدينين كلهم من لماية. وكانوا ظواعن بأفريقية والمغرب، وكان جمهورهم

بالمغرب الأوسط موطنين بسحومة مما يلي الصحراء. ولما سرى دين الخارجية في البربر أخذوا برأي الاباضية ودانوا به، وانتحلوه وانتحله جيرانهم من مواطنهم تلك من لواتة وهوّارة. وكانوا بأرض السرسو قبلة منداس وزواغة وكانوا في ناحية الغرب عنهم. وكانت مطماطة ومكناسة وزناتة جميعاً في ناحية الجوف والشرق، فكانوا جميعاً على دين الخارجية، وعلى رأي الاباضية منهم. وكان عبد الرحمن بن رستم من مسلمة الفتح، وهو من ولد رستم أمير الفرس بالقادسية. وقدم إلى أفريقية مع طوالع الفتح فكان بها. وأخذ بدين الخارجية

والاباضية منهم. وكان صنيعة للمنة وحليفاً لهم.

ولما تحزب الاباضية بناحية طرابلس منكرين على ورفجومة فعلهم في القيروان كما مر، واجتمعوا إلى أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المغافري إمام الاباضية فملكوا طرابلس، ثم ملكوا القيروان، وقتل واليها من ورفجومة عبد الملك بن أبي الجعد، وأثخنوا في ورفجومة وسائر مغراوة سنة إحدى وأربعين ومائة. ورجع أبو الخطاب الاباضية الذين معه من زناتة وهوّارة وغيرهم بعد أن استخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم. وبلغ الخبر بفتنة ورفجومة هذه واضطراب الخوارج من البربر بأفريقية والمغرب، وتسلقهم على الكرسي للإمارة بالقيروان إلى المنصور أبي جعفر فسرح محمد بن الأشعث الخزاعي في العساكر إلى أفريقية، وقلده حرب الخوارج بها، فقدمها سنة أربع وأربعين ومائة.

ولقيهم أبو الخطاب في جموعه قريباً من طرابلس فأوقع به ابن الأشعث وبقومه. وقتل أبو الخطاب وطار الخبر بذلك إلى عبد الرحمن بن رستم بمكان إمارته في القيروان، فاحتمل أهله وولده، ولحق بباضية المغرب الأوسط من البرابرة الذين ذكرناهم، ونزل على لماية لقديم حلف بينه وبينهم فاجتمعوا إليه وبايعوا له بالخلافة وائتمروا في بناء مدينة ينصبون بها كرسي إمارتهم، فشرعوا في بناء مدينة تاهرت في سفح جبل كزول السباح على تلول منداس، واختطوها على وادي ميناس النابعة منه عيون بالقبلة، وتمرها وبالبطحاء إلى أن يصب في وادي شلف. فأسسها عبد الرحمن بن رستم واختطها سنة أربع وأربعين ومائة فتمدنت واتسعت خطتها إلى أن هلك عبد الرحمن، وولي إبنه عبد الوهاب من بعده، وكان رأس الاباضية.

وزحف سنة ست وتسعين ومائة مع هوّارة إلى طرابلس، وبها عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب من قبل أبيه، فحاصره في جموع الاباضية من البربر إلى أن هلك إبراهيم بن الأغلب، واستقدم عبد الله بن الأغلب لأمارته بالقيروان فصالح عبد الوهاب على أن تكون الضاحية لهم. وانصرف إلى مقوسة ولحق عبد الله بالقيروان، وولى عبد الوهاب إبنه ميموناً وكان رأس الاباضية والصفرية والواصلية. وكان يسلم عليه بالخلافة. وكان أتباعه من الواصلية وحدهم

ثلاثين ألفاً من ظواعن ساكنين بالخيام. ولم يزل الملك في بني رستم هؤلاء بتاهرت، وحاربهم جيرانهم من مغراوة وبني يفرن على الدخول في طاعة الأدارسة لما ملكوا تلمسان، وأخذت بها زناتة من لدن ثلاث وسبعين

ومائة فامتنعوا عليهم سائرأيامهم، إلى أن كان عساكر أبي عبد الله الشيعي على أفريقية والمغرب سنة ست وتسعين ومائة فغلبهم على مدينة تاهرت وابتزهم ملكهم بها.

وبثّ دعوة عبيد الله في أقطار المغربين، فانقرض أمرهم بظهور هذه الدولة وعقد عروبة بن يوسف الكتامي فاتح المغرب للشيعة على تاهرت لأبي حميد دوّاس بن صولان الهيصيّ فغدا إلى المغرب سنة ثمان وتسعين ومائة فأمحى في مؤامرتها الاباضية من لماية وازداجة ولواتة ومكناسة ومطماطة، وحملهم على دين الرافضة وشيخ بها دين الخارجية حتى استحكم في عقائدهم. ثم وليها أيام إسمعيل المنصور ابن صلاص بن حبوس. ثم نزع إلى دعوة الأموية وراء البحر، ولحق بالخير بن محمد بن خزر صاحب دعوتهم في زناتة. واستعمل المنصور بعده على تاهرت ميسوراً الحصني مولاه، وأحمد بن الزجالي من صنائعه، فزحف إليها حميد والخير وانهزم ميسور، واقتحموا تاهرت عنوة وتقبضوا على أحمد الزجالي وميسور إلى أن أطلقوهما بعد حين.

و لم تزل تاهرت هذه ثغرا لأعمال الشيعة وصنهاجة سائر أيامهم، وتغلبت عليها زناتة مراراً ونازلتها عساكر بني أُميّة زاحفة في أثر زيري بن عطية أمير المغرب من مغراوة أيام أجاز المظفر بن أبي عامر من العدوة إلى حربه. و لم يزل الشأن هذا إلى أن انقرض أمر تلك الدول، وصار أمر المغرب إلى لمتونة. ثم صار إلى دولة الموحدين من بعدهم، وملكوا المغربين. وخرج عليهم بنوغانية بناحية قابس، و لم يزل يجيء منهم يجلب على ثغور الموحدين، وشنّ الغارات على بسائط أفريقية والمغرب الأوسط. وتكرر دخوله اليها عنوة مرة بعد أخرى إلى أن احتمل سكانها وخلا جوّها وعفا رسمها لما يناهز عشرون من المائة السابعة والأرض لله.

(وأما قبائل لماية) فانقرضوا وهلكوا بهلاك مصرهم الذي اختطوه وحازوه وملكوه سنّة الله في عباده. وبقيت فرق منهم أوزاعا في القبائل، ومنهم جربة الذين سميت بهم الجزيرة البحرية تجاه ساحل قابس، وهم بها لهذا العهد. وقد كان النصرانية من أهل صقلية ملكوها على من بها من المسلمين، وهي قبائل لماية وكتامة مثل: جربة وسدويكس ووضعوا عليهم الجزية، وشيدوا على ساحل البحر بها معقلاً كافياً لإمارتهم سموه القشتيل. وطال تمرّس العساكر به من حضرة الدولة الحفصية بتونس حتى كان افتتاحها أعوام ثمان وثلاثين من المائة الثامنة في دولة مولانا السلطان أبي بكر، وعلى يد مخلوف بن الكماد من صنائعه. واستقرت بها الدعوة الإسلامية إلى هذا العهد. إلا أن القبائل الذين بها من البربر لم يزالوا يدينون بدين الخارجية، ويتدارسون مذاهبهم وبينهم مجلدات تشتمل على تآليف لأئمتهم في قواعد ديانتهم وأصول عقائدهم وفروع مذاهبهم يتناقلونها ويعكفون على دراستها وقراءتها والله خلقكم وما تعملون.

مطماطة

وهم إخوة مضغرة ولماية من ولد فاتن بن تمصيت الذين مرّ ذكرهم، وهم شعوب كثيرة. وعن سابق المطماطي وأصحابه من النسابة أن اسم مطماط مصكاب ومطماط لقب له وأن شعوبهم من لوا بن مطماط. وأنه كان له ولد آخر اسمه ورنشيط، و لم يذكروا له عقباً قالوا: وكان للوا أربعة من الولد: ورماكسن ومبلاغر ووريكول ويليص. و لم يعقب يليص وأعقب الثلاثة الباقون، ومنهم افترقت شعوب مطماطة كلها. فأما

ورماس فمنه مصمود ويونس ويفرين، وأما وريكول فكان له من الولد كلدام وسيده وقيدر ولم يعقب سيده ولا قيدر. وكان لكلدام عصفراص وسليايان فمن سليايان ووريغني ووصدى وقسطايان وعمرو ويقال لهؤلاء الخمسة بنو مصطلودة سموا بأمهم. وكان لعصفراص زهاص ونهراص. فمن عصفراص ورتجين ووريكول وجليدا وسكوم، ويقال لهم بنوتليكشان سموا بأمهم. وكان زهاص بلست ويصلاتين. فمن بلست ورسقلاسن وسكر ومحمد ومكريل ودكوال. ومن يصلاسن بان يولى وسمساسن ومسامر وملوسن ويحمد ونافع وعبد الله وعرادبين. وأما يلاغف بن لوا بن مطماط فكان له من الولد دحيا وثابتة فمن ثابتة ماجرسن وريغ وعجلان ومقام وقرة. وكان لدهيا ورتجى ومجلين. فمن ورتجى مقرين وتور وسكم وعمجميس. ومن مجلين ماكور وأشكول وكيلان ومذكون وقطارة وأبورة. هذه شعوب مطماطة كما ذكر نسابة البربر سابق وأصحابه، وهم مفرقون في المواطن. فمنهم من نواحي فاس من قبلتها في جبل هنالك معروف بهم ما بين فاس وصفروى. ومنهم بجهات قابس والبلد المختط على العين الحامية من جهة غربها منسوب إليهم. ولهذا العهد يقال حمة مطماطة، ويأتي ذكرها في الدولة الحَفْصِية. وممالك أفريقية وبقاياهم أوزاع من القبائل، وكانت مواطن جمهورهم بتلول منداس عند جبل وانشريس وجبل كزول من نواحي تاهرت. وكان لهم بتلك المواطن احريات دولة صنهاجة استفحال وصولة. وفي فتنة حمّاد بن بلكّين مع باديس بن المنصور مقامات وآثار. وكان كبيرهم يومئذ عُزانة، وكانت له مع البرابرة المجاورين له من لواتة وغيرهم حروب وأيام.

(ولما هلك) عزانة قام بأمره في مطماطة ابنه زيري فمكث فيهم أياماً ثم غلبت صنهاجة على أمره فأجاز البحر إلى العدوة، ونزل على المنصور بن أبي عامر فاصطنعه ونظمه في طبقة الأمراء من البربر الذين كانوا في جملته، واستظهره على أمره فكان من أوجه رجالهم عنده، وأعظمهم قدراً لديه إلى أن هلك، وأجراه إبنه المظفر من بعده وأخوه عبد الرحمن الناصر على سنن أبيهما في ترفيع مكانه وإخلاص ولايته، وكان عند ثورة محمد بن هشام بن عبد الجبار غائباً مع أبي عامر في أعراب النعمان مع من كان معه من أمراء البربر وعرفائهم. فلما رأوا انتقاض أمره وسوء تدبيره لحقوا بمحمد بن هشام المهدي فكانوا معه إلى أن كانت الفتنة البربرية بالأندلس إلى أن هلك هنالك ولا أدري أي السنين كان مهلكه لا أدري أي السنين كان مهلكه. وأجاز إلى الأندلس أيضاً من رجالتهم كهلان بن أبي لواي يصلاصن ونزل على الناصر، وهو من أهل العلم بأنساب البربر. (وكان من مشاهيرهم) أيضاً النسّابة سابق بن سليمان بن حراث بن مولات بن دوياسر وهو كبير نسابة البربر ممن علمناه. (وكان منهم) أيضاً عبد الله بن إدريس كاتب الخراج لعبيد الله المهدي في آخرين يطول ذكرهم اه

خريطة

.

وهذا ما تلقيناه من أخبار مطماطة. (وأما موطن منداس) فزعم بعض الإخباريين من البربر، ووقفت على كتابه في ذلك أنه سمّيَ بمنداس بن مغر بن اوريغ بن كبوري بن المثني وهو هوار وكأنه والله أعلم يشير إلى أداس بن

زحيك الذي يقال أنه ربيب هوار كما يأتي في ذكرهم، إلا أنه اختلط عليه الأمر. وكان لمنداس من الولد: شراوة وكلتوم وتبكم. قال: ولما استفحل أمر مطماطة وكان شيخهم لهذا العهد إهاص بن عصفراص فأخرج منداس من الوطن وغلبه على أمره، واعتمر بنوه موطن منداس ولم يزالوا به اه0 كلامه وبقية هؤلاء القوم لهذا العهد بجبل واوتبتيش، لحقوا به لما غلبهم بنو توجين من زناتة على منداس وصاروا في عداد قبائل الغارمة. والله وارث الأرض ومن عليها.

مغيلة

وهم إخوة مطامطة ولماية كما قلناه، وإخوهم ملزوزة معدودون منهم. وكذلك دونة وكشاتة ولهم افتراق في الوطن. وكان منهم جمهوران: أحدهما بالمغرب الأوسط عند مصب شلف في البحر من ضواحي مازونة، المصر لهذا العهد. ومن ساحلهم أجاز عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، ونزل بالمنكب فكان منهم أبو قرة المغيلي الدائن بدين الصُّفريّة من الخوارج ملك أربعين سنة. وكانت بينه وبين أمراء العرب بالقيروان لأول دولة بني العبّاس حروب ونازل طبنة. وقد قيل إن أبا قرة هذا من بني مطماطة، وهذا عندي صحيح، فلذلك أخرت ذكر أخباره إلى أخبار بني يفرن من زناتة.

(وكان) منهم أيضاً أبو حسان، ثاربأفريقية لأول الإسلام وأبو حاتم يعقوب بن لبيب بن مَرين بن يطوفت من مازور الثائر مع أبي قرة سنة خمسين ومائة. وتغلب على القيروان فيما ذكر خالد بن خراش وخليفة بن خياط من علمائهم. وذكروا من رؤسائهم أيضاً موسى بن خُلَيد ومَليح بن علوان وحسان بن زروال الداخل مع عبد الرحمن. وكان منهم أيضأ دلول بن حماد أميراً عليهم في سلطان يعلى بن محمد اليفرني، وهو الذي اختط بلد إيكري على إثني عشر ميلأ من البحر، وهي لهذا العهد خراب لم

يبق منها إلا الأطلال ماثلة. ولم يبق من مغيلة بذلك الوطن جمع ولا حيّ. وكان جمهورهم الاخر بالمغرب الأقصى، وهم الذين تولوا مع أوربة وصدينة القيام بدعوة إدريس بن عبد الله لما لحق بالمغرب وأجازه، وحملوا قبائل البربر على طاعته والدخول في أمره. ولم يزالوا على ذلك إلى أن اضمحلت دولة الأدارسة وبقاياهم لهذا العهد بمواطنهم ما بين فاس وصفرون ومكناسة والله وارث الأرض ومن عليها.

مديونة

وهم من إخوة مَغِيلة ومطماطة من ولد فاس كما قلناه، وكانت مواطن جمهورهم بنواحي تلمسان ما بين جبل بني راشد لهذا العهد إلى الجبل المعروف بهم قبلة وجدة، يتقلبون بظواعنهم في ضواحيه وجهاته. وكان بنو يلومي وبنو يفرن من قبلهم يجاورونهم من ناحية المشرق، ومكناسة من ناحية المغرب، وكومية وولهاصة من جهة الساحل.

(وكان) من رجالاتهم المذكورين جرير بن مسعود كان أميراً عليهم، وكان مع أبي حاتم وأبي قرة في فتنتهم، وأجاز إلى الأندلس في طوالع الفتح كثير منهم، فكان لهم هنالك استفحال. وخرج هلال بن أبزيا منهم بشنتمرية على عبد الرحمن الداخل متبعاً شقياً المكناسي فى خروجه. ثم راجع الطاعة فتقبله وكتب له على

قومه فكان بشرق الأندلس وشنتمرية. ثم خلفه بها من قومه نابتة بن عامر. ولما تغلب بنو توجين وبنو راشد من زناتة على ضواحي المغرب الأوسط، وكان مديونة هؤلاء قد قل عددهم وفلّ حدهم فداخلتهم زناتة على الضواحي من مواطنهم وتملكوها، وصارت مديونة إلى الحصون من بلاده بجبل تاسالة وجبل وجدة المعروف بهم. وضربت عليهم المغارم وتمرست بهم بهم الأيام، فلم يبق منهم هنالك إلأ صبابة محترفون بالفلح. ومنهم أيضاً أوزاع في القبائل مندرجون فيهم. وبنواحي فاس ما بينها وبين صفرون قبيلة منهم مجاورة لمغيلة، والله يرث الأرض ومن عليها.

كومية

وهم المعروفون قديماً بصطفورة إخوة مطاية ومضغرة، وهم من ولد فاتن كما قدمنا، ولهم ثلاث بطون منها تفرعت شعوبهم وقبائلهم وهي ندرومة وصفاره

وبنو يلول: فمن ندرومة نغوطة وحرسة وفردة وهفانة وفراتة. ومن بني يلول: مسيفة ووتيوة وهبيئة وهيوارة ووالغة. ومن صغارة ماتيلة وبنو حياسة. وكان منهم النسابة المشهور هاني بن مصدور بن مريس بن نقوط هذا هو المعروف في كتبهم.وكانت مواطن كومية بالمغرب الأوسط لسيف البحر من ناحية أرشكول وتلمسان.

جمان لهم كثرة موفورة وشوكة مرهوبة. وصاروا من أعظم قبائل الموحدّين لما ظاهروا لمصامدة على أمر المهدي وكلمة توحيده. وربما كانوا رهط عبد المؤمن صاحبه وخليفته إنه كان من بني عابد أحد بيوتاهم، وهوعبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن روان بن نصر بن عليّ بن عامر بن الأمير بن موسى بن عبد الله بن يحيى بن ورنيغ بن صطفور، وهكذا نسبه مؤرّخو دولة الموحدين إلى صطفور. ثم يقولون صطفور بن نفور بن مطماط بن هودج بن قيس عيلان بن مُضَر. وبذكر بعضهم أنه منقول من خط أبي محمد عبد الواحد المخلوع ابن يوسف بن عبد المؤمن فأما انتسابهم في قيس عيلان فقد ذكرنا أنه غير صحيح. وفي أسماء هذا العمود من نسب عبد المؤمن ما يدل على أنه مصنوع، إذ هذه الأسماء ليست من أسماء البربر، وإنما هي كما تراه كلها عربية والقوم كانوا من البرابرة معروفون بينهم. وانتساب مطغور إلى مطماط تخليط أيضاً فإنهما أخوان عند نسابة البربر أجمع، وعبد المؤمن بلا شك منهم، والله أعلم بما سوى ذلك.

وكان عبد المؤمن هذا من بيوتاهم وأشرافهم وموطنهم بتاكرارت، وهو حصن في الجبل المطل على هَنين من ناحية الشرق. ولما نجم عبد المؤمن فيهم وثب و ارتحل في طلب العلم فتزل بتلمسان. وأخذ عن مشيختها مثل ابن صاحب الصلاة وعبد السلام التونسي، وكان فقيهاً صالحاً، وهو ضجيع الشيخ أبي مدين في تربته. ولما هلك عبد السلام هذا، و لم يحذق تلميذه بعد في فنونه وكان شيخ عصره في الفقه والكلام. تعطش التلميذ بعده إلى القراءة، وبلغهم خبر الفقيه محمد بن تَوْمَرت المهدي ووصولهم إلى بجاية. وكان يعرف إذ ذاك بالفقيه السوسي نسبة إلى السوس.

و لم يكن لقب المهدي وضع عليه بعده.

وكان في ارتحاله من المشرق إلى المغرب قد أخذ نفسه من تغيير المنكر، الذي شأنه وطريقته نشر العلم وتبيين الفتاوى وتدريس الفقه والكلام. وكان له في طريقته الأشعرية إمامة وقدم راسخة، وهو الذي أدخلها إلى المغرب كما ذكرناه، وتشوق طلبة العلم بتلمسان إلى الأخذ عنه وتفاوضوا في ذلك وندب بعضهم بعضاً إلى الرحلة إليه لاستجلابه، وأن يكون له السبق بإتحاف القطر بعلومه. فانتدب لها بن عبد المؤمن عليّ مكانه من صغر السن بنشاطه للسفر لبداوته، فارتحل إلى بجاية للقائه وترغيبه في نزوله تلمسان فلقيه بملالة، وقد استحكمت بينه وبين العزيز النفرة وبنو ورياكل متعصّبون على إجارته منهم، ومنعه من إذايته والوصول إليه. فألقى إليه عبد المؤمن ما عنده من الترغيب، وأدى إليه رسالة طلبة العلم بتلمسان فوعاها، وشأنه غير شأنهم. وعكف عبد المؤمن على التعليم والأخذ عنه في ظعنه ومقامه. وارتحل إلى المغرب في صحابته، وحذق في العلم وآثره الإمام بمزيد الخصوصية والقرب، بما خصّه الله به من الفهم والوعي للتعليم، حتى كأنه خالصة الإمام وكبير صحابته. وكان يؤمله لخلافته لما ظهر عليه من الشواهد المدونة بذلك. ولما اجتازوا في طريقهم إلى المغرب بالثعالبة من بطون العرب الذين ذكرناهم قبل في نواحي المدينة. قربوا إليه حماراً فارها يتخذه له عطية لركوبه فكان يؤثر به عبد المؤمن، ويقول لأصحابه اركبوه الحمار يركبكم الخيول المسومة. ولما بويع فه بُهرْغة سنة خمس عشرة وخمسمائة، واتفقت على دعوته كلمة المصامدة وحاربوا لمتونة نازلوا مراكش.

وكانت بينهم في بعض أيام منازلتها حرب شديدة هلك فيها من الموحّدين الألف، فقيل للإمام إن الموحدين قد هلكوا. فقال لهم: ما فعل عبد المؤمن؟ قالوا: هو على جواده الأدهم قد أحسن البلاء. فقال ما بقي عبد المؤمن فلم يهلك أحد. ولما احتضر الإمام سنة إثنتين وعشرين[وخمسمائة] عهد بخلافته في أمره لعبد المؤمن، واستراب من العصبية بين المصامدة، فكتم موت المهدي وأرجأ أمره حتى صرّح الشيخ أبو حفص أمير هِنْتَانة وكبير المصامدة لمصاهرته. وأمضى عهد الإمام فيه فقام بالأمر واستبد بشياخة الموحدين وخلافة المسلمين. ونهض سنة سبع وثلاثين وخمسمائة إلى فتح المغرب فدانت له غمارة. ثم ارتحل منها إلى الريف ثم إلى بطوية ثم إلى

بطالسة ثم إلى بني يزناسن. ثم إلى مديونة ثم إلى كومية وجيرانهم ولهاصة، وكانوا يلونهم في الكثرة فاشتدّ عضده بقومه، ودخلوا في أمره وشايعوه على تمكين سلطانه بين الموحدين وخلافته. ولما رجع إلى المغرب وافتتح أمصاره واستولى على مراكش استدعى قومه للرحلة إليها والعسكرة عليه فخف جمهورهم إلى المغرب واستوطن مراكش لحمل سرير الخلافة والقيام بأمر الدعوة والذبّ عن ثغورهم والمدافعة، فاعتضد بهم عبد المؤمن وبنوه سائر الدولة، وكانوا بمكانتهم فاتحة الكتاب وفذلكة الجماعة. وأنفقهم الملك في الفتوح والعساكر، وأكلتهم الأقطار في تجهيز الكتائب وتدويخ الممالك فانقرضوا وبقي بمواطنهم الأولى بقايا منهم: بنو عابد وهم في عداد القبائل الغارمة قد أثقلت زناتة كاهلهم فحملوا المغرم، والعسف ونهوضهم بالتكاليف. ونظموهم مع جيرانهم ولهاصة في سوم الخسف والذل واقتضاء الخراج بالنكال والعذاب، والله مبّدل الأمر ومالك الملك سبحانه.

الخبر عن زواوة وزواغة من بطون ضريسة من البرابر البتر والإلمام ببعض أحوالهم:

هؤلاء البطون من بطون البرابرة البُتر من ولد سمكان بن يحيى بن ضري بن زحيك بن مادغيس الأبتر. وأقرب ما يليهم من البرابر زناتة لأن أباهم أجانا هو أخو سمكان ابن أبيه فلذلك كانوا ذوي قربى لهم.

زواوة

فأمّا زواوة فهم من بطونهم، وقد يقال إن زواوة من قبائل كتامة، ذكر ذلك ابن حزم. ونسّابة البربر إنما يعدونهم من ولد سمكان كما قلناه، والصحيح عندي ما ذكره ابن حزم. ويشهد له الموطن ونحلة الشيع مع كتامة لعبيد الله. وعد نسابة البربر لهم بطونا كثيرة: بنو مَجْسطة وبنو مليكش وبنو كوفي ومشدالة وبنو زريقف وبنو كوزيت وكرسفينة ووزلجة وخوجة وزكلاوه وبنو مرانة، ويقال إن بني مليكش من صنهاجة والله أعلم.

ومن قبائلهم المشهورة لهذا العهد: بنو يجرو وبنو مانكلات وبنو يترون وبنو ماني وبنو بوغردان وبنو يتورغ وبنو بو يوسف وبنو عبسي وبنو بو شعيب وبنو صدقة وبنو غبرين وبنو كشطولة. ومواطن زواوة بنواحي بجاية ما بين مواطن كتامة وصنهاجة، أوطنوا منها جبالاً شاهقة متوعّرة تنذعر منها الأبصار ويضلّ في خمرها السالك مثل: بني غبرين بجبل زيري، وفيه شعراء من شجر الزان يشهد بها لهذا العهد. ومثل بني فراسن وبني براثن. وجبلهم ما بين بجاية وتدلس وهو أعظم معاقلهم وأمنع حصونهم، فلهم به الاعتزاز على الدول والخيار عليها في إعطاء المغرم، مع أن كلهم لهذا العهد قد امتنع لساهمه، واعتز على السلطان في أبناء طاعته وقانون مزاجه.

وكانت لهم في دولة صنهاجة مقامات مذكورة في السلم والحرب، بما كانوا أولياء لكتامة. وظهر أولهم على أمرهم من أول الدولة وقتل بادس بن المنصور في إحدى وقائعه بهم، وشيخهم زيري بن أجانا لاتهامه إياه في أمر حماد. ثم اختط بنو حماد بعد ذلك بجاية بساحتهم وتمرسوا بهم فانقادوا وأذعنوا لهم إلى آخر الدولة.

واتصل إذعانهم إلى هذا العهد إلا تمريضاً في المغرم يحملهم عليه الموثقون بمنعة جبالهم. وكانت رياسة بني يراتن منهم في بني عبد الصمد من بوتاتهم. وكانت عند تغلب السلطان أبي الحسن على المغرب الأوسط شيخة عليهم من بني عبد الصمد هؤلاء إسمها شمسي، وكان لها عشرة من الولد فاستفحل شأنها بهم وملكت عليهم أمرهم.

ولما تقبّض السلطان أبو الحسن على إبنه يعقوب المكنّى بأبي عبد الرحمن عندما فر من معسكره بمتيجة سنة ثمان أو سبع وثلاثين وسرّح في أثره الخيالة فرجعوه واعتقله. ثم قتله من بعد ذلك حسبما يذكر في أخبارهم. لحق حينئذ بني بزاتن هؤلاء خازن من مطبخة فموه عليهم بإسمه وشبّه بتمثاله، ودعا إلى الخروج على ابنه بزعمه فشمرت شمسي هذه عزائمها في إجازته، وحملت قومها على طاعته. وسرب السلطان أبو الحسن أمواله في قومها وهما على السلامة فأبته. ثم نمي إليها الخبر بمكره وتمويهه فنبذت إليه عهده وخرج عنها إلى بلاد العرب كما نذكر بعض ذلك في أخبارهم.

وقدمت على السلطان أبي الحسن في وفد من قومها وبعض بنيها فأبلغ السلطان في تكريمها وأحسن صلتها وأجاز الوفد ورجعت بهم إلى موطنها و لم تزل الرياسة في هذا البيت.

زواغة

وأما زواغة فلم يتأدّ إلينا من أخبارهم وتصاريف أحوالهم ما نعمل في الأقلام، ولهم ثلاثة بطون وهي: دمر بن زواغ وينو واطيل بن زحيك بن زواغ وبنو ماخر بن تيفون بن زواغة. ومن دئر بنو سمكان، وهم أوزاع في القبائل. ومنهم بنواحي طرابلس مفترقون في براريها ولهم هنالك الجبل المعروف بدمر. وفي جهات قسطنطينة أيضاً رهط من زواغة. وكذلك بجبال شلف بنو واطيل منهم وبنواحي فاس آخرون، ولله الخلق والأمر.

مكناسة

الخبر عن مكناسة وسائر بطون بني ورصطف

وما كان لمكناسة من الدول بالمغرب و أولية ذلك وتصاريفه

كان لورصطف بن يحيى، وهوأخو اجانا بن يحيى وسمكان بن يحيى، ثلاثة من البطون وهم: مكناسة وورتناجة وأوكته. ويقال مكنة وبنو ورتناجة أربعة بطون: سدرجة ومكسة0 وبطالسة وكرنيطة. وزاد سابق وأصحابه في بطونهم هناطة وفولالة، وكذلك عدوا في بطون مكنة: بني يصلتن وبني تولالين وبني ترين وبني جرتن وبني فوغال. ولمكناسة عندهم أيضاً بطون كثيرة منها: صولات وبنو حوات وبنو ورفلاس وبنو وريدوس وقنصارة وورنيفة ووريفلتة. وبطون ورصطف كلهم مندرجون في بطون مكناسة. وكانت مواطنهم على وادي ملويّة من لدن أعلاه بسجلماسة إلى مصبه في البحر، وما بين ذلك من نواحي تازا وتسول. وكانت رياستهم جميعاً في بني أبي يزول وإسمه مجدول بن تافريس بن فراديس بن ونيف بن مكناس. وأجاز منهم إلى العدوة عند الة ضح أمم. وكانت لهم بالأندلس رياسة وكثرة. وخرج منهم على عبد الرحمن الداخل شعيا بن عبد الواحد سنة إحدى وخمسين واعتصم بشنتمرية ودعا لنفسه منتسباً إلى الحسن بن علي، وتسمى عبد الله بن محمد وتلقب بالفاطمي، وكانت بينه وبين عبد الرحمن حروب إلى أن غلبه ومحا أثر ضلالته. وكان من رجالتهم لعهد دولة الشيعة مصالة بن حبوس بن منازل، اتصل بعبيد الله الشيعي، وكان من أعظم قواده وأوليائه وولاه تاهرت وافتتح له المغرب وفاس وسجلماسة.

ولما هلك أقام أخاه يصلتن بن حبوس مقامه في ولاية تاهرت والمغرب. ثم هلك وأقام إبنه حميداً مقامه فانحرف عن الشيعة، ودعا لعبد الرحمن الناصر. واجتمع مع بني خزرأمراء جراوة على ولاية المروانية. ثم أجاز إلى الأندلس وولي الولايات أيام الناصر وابنه الحكم، وولي في بعضها تلمسان بدعوتهم. ثم هلك وأقام ابنه نصل بن حميد وأخوه ياطن بن يصلتن وعلي ابن عمه من ماله في ظل الدولة الأموية إلى أن أجاز المظفّربن أبي عامر إلى المغرب فولى يصل بن حميد سجلماسة كما نذكره. ثم أن رياسة مكناسة بالعدوة انقسمت في بني أبي يزول، وانقسمت قبائل مكناسة بانقسامها. وصارت رياسة مكناسة في مواطن سجلماسة وما إليها من بني واسول بن مصلان بن أبي يزول، ورياسة مكناسة بجهات تازا وتوسول وملوية ومليلة لبني أبي العافية بن أبي

نائل بن أبي الضحّاك بن أبي يزول. ولكل واحد من هذين الفريقين في الإسلام دولة وسلطان وصاروا به في عداد الملوك كما نذكره.

الخبر عن دولة بني واسول ملوك سجلماسة و أعمالها من مكناسة:

كان أهل مواطن سجلماسة من مكناسة يدينون لأول الإسلام بدين الصفريّة من

الخوارج لقنوه عن أئمتهم ورؤوسهم من العرب لما لحقوا بالمغرب وأنتزوا على الأمتناع، وماجت أقطار المغرب لفتنة ميسرة. فلما اجتمع على هذا المذهب زهاء أربعين من رجالاتهم نقضوا طاعة الخلفاء وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخوارج. واختطوا مدينة سجلماسة لأربعين ومائة من الهجرة. ودخل سائر مكناسة من أهل تلك الناحية في دينهم. ثم سخطوا أميرهم عيسى ونقموا عليه كثيراً من أحواله فشدوه كتافاً ووضعوه على قنة جبل إلى أن هلك سنة خمس وخمسين ومائة. واجتمعوا بعده على كبيرهم أبي القاسم سمكو بن مصلان بن أبي يزول، كان أبوه سمقو من حملة العلم، ارتحل إلى المدينة فأدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس، ذكره غريب بن حميد في تاريخه، وكان صاحب ماشية، وهو الذي بايع لعيسى بن يزيد، وحمل قومه على طاعته فبايعوه من بعده.

وقاموا بأمره إلى أن هلك سنة سبع وستين ومائة لمنتهى عشرسنين من ولايته، وكان أباضياً صفرياً. وخطب في عمله المنصور والمهدي من بني العبّاس. ولّما هلك ولّوا عليهم ابنه إلياس، وكان يدعى بالوزير. ثم انتقضوا عليه سنة أربع وتسعين ومائة فخلعوه، وولّوا مكانه أخاه إليسع بن أبي القاسم وكنيته أبو منصور، فلم يزل أميراً عليهم. وبنى سور سجلماسة لأربع وثلاثين سنة من ولايته. وكان أباضياً صفرياً. وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة. وهو الذي أتم بناءها وتشييدها، واختطّ بها المصانع والقصور، وانتقل إليها آخر المائة الثانية ودوخ بلاد الصحراء وأخذ الخمس من معادن درعة، وأصهر لعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت بابنه مدرار في إبنته أروى فأنكحه إياها.

ولما هلك سنة ثمان ومائتين ولي بعده إبنه مِدْرار، ولقبه المنتصر، وطال أمر ولايته. وكان له ولدان إسم كل واحد منهما ميمون، أحدهما لأروى بنت عبد الرحمن بن رستم، وقيل إن إسمه أيضاً عبد الرحمن. والآخر لتقي وتنازعا في الاستبداد على

أبيه، ودامت الحرب بينهما ثلاث سنين. وكانت لأبيهما مدرار صاغية إلى ابن أروى فمال معه حتى غلب أخاه فأخذه وأخرجه عن سجلماسة. ولم يلبث أن خلع أباه واستبد بأمره. ثم ساءت سيرته في قومه ومدينته فخلعوه وصار إلى درعة وأعاد مدراراً إلى أمره. ثم حدث نفسه بإعادة إبنه ميمون بن الرستمية إلى أمارته بصاغيته إليه فخلعوه، ورجعوا إبنه ميموناً بن التقي، وكان يعرف بالأمير.

ومات مدار إثر ذلك سنة ثلاث وخمسين ومائتين لخمس وأربعين من ملكه. وأقام إبنه ميمون في استبداده إلى أن هلك سنة ثلاث وستين ومائتين وولي إبنه محمد، وكان أباضياً. وتوفي سنة سبعين فولي إليسع بن المنتصر وقام بأمره، ولحق عبيد الله الشيعي وإبنه وأبو القاسم بسجلماسة لعهده. وأوعد المعتضد إليه في شأنهما، وكان

على طاعته فاستراب بهما وحبسهما إلى أن غلب الشيعي بني الأغلب، وملك رقادة فزحف إليه لاستخراج عبيد الله وإبنه من محبسه، وخرج إليه إليسع في قومه مكناسة فهزمه أبوعبد الله الشيعي، واقتحم عليه سجلماسة وقتله سنة ست وتسعين ومائتين. واستخرج عبيد الله وإبنه من محبسهما وبايع لهما. وولى عبيد الله المهدي على سجلماسة إبراهيم بن غالب المزاتي من رجالات كتامة، وانصرف إلى أفريقية. ثم انتقض أمراء سجلماسة على واليهم إبراهيم فقتلوه ومن كان معه من كتامة سنة ثمان وتسعين ومائيتن، وبايعوا الفتح بن ميمون الأمير بن مدرار، ولقبه واسول، وميمون ليس هو ابن التقي الذي تقدم ذكره، وكان أباضياً. وهلك قريباً من ولايته لرأس المائة الثالثة، فولي أخوه أحمد واستقام أمره إلى أن زحف مصالة بن حبّوس في جموع كتامة ومكناسة، إلى المغرب سنة تسع وثلثمائة، فدوخ المغرب وأخذهم بدعوة صاحبه عبيد الله المهدي.

وافتتح سجماسة وتقبّض على صاحبها أحمد بن ميمون بن مدرار. وولى عليها ابن عمه المعتز بن محمد بن بسادر بن مدرار، فلم يلبث أن استبد المعتز. وهلك سنة إحدى وعشرين وثلثمائة قبيل ملك المهدي، وولي من بعده ابنه أبو المنتصر محمد بن المعتز فمكث عشراً.

ثم هلك وولي من بعده إبنه المنتصر سمكو شهرين، وكانت جدته تدّبر أمره لصغره.

ثم ثار عليه ابن عمّه محمد بن الفتح بن ميمون الأميروتغلب عليه وشغب عليه بنوعبيد الله لفتنة ابن أبي العافية وتاهرت، ثم بفتنة أبي يزيد بعدهما فدعا محمد بن الفتح لنفسه مموهاً بالدعوة لبني العبّاس. وأخذ بمذاهب أهل السنة، ورفض الخارجية، ولقب الشاكر بالله. واتخذ السكة بإسمه ولقبه. وكانت تسمّى الدراهم الشاكرية.

كذا ذكره ابن حزم وقال فيه: وكان في غاية العدل حتى إذا أفزع له بنوعبيد وحمت الفتنة زحف جوهر الكاتب أيام المعز لدين الله معد في جموع كتامة وصنهاجة وأوليائهم إلى المغرب سنة سبع وأربعين وثلثمائة، فغلب على سجلماسة وملكها. وفرّمحمد بن الفتح إلى حصن تاسكرات على أميال من سجلماسة، وأقام به.

ثم دخل سجلماسة متنكراً فعرفه رجل من مطغرة وأنذر به فتقبّض عليه جوهر، وقاده أسيراً إلى القيروان مع أحمد بن بكر صاحب فاس كما نذكره، وقفل إلى القيروان فلما انتقض المغرب على الشيعة، وفشت بدعة الأمية وأخذ زناتة بطاعة الحكم المستنصر ثأر بسجلماسة قائم من ولد الشاكر وباهى المنتصر بالته. ثم وثب عليه أخوه أبو محمد سنة إثنتين وخمسين وثلثمائة فقتله وقام بالأمر مكانه وتلقب المعتز بالله.

وأقام على ذلك مدّة وأمر مكناسة يومئذ قد تداعى إلى الانحلال، وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب عليهم إلى أن زحف خزرون بن فلفول من ملوك مغراوة إلى سجلماسة سنة ست وستين وثلثمائة وبرز إليه أبو محمد المعتز فهزمه خزرون وقتله واستولى على بلده وذخيرته، وبعث برأسه إلى قرطبة مع كتاب الفتح. وكان ذلك لأول حجابة المنصور بن أبي عامر فنسب إليه واحتسب له جدّاً ويمن نقيبة، وعقد لخزرون على سجلماسة، فأقام دعوة هشام بأنحائها فكانت أول دعوة أقيمت لهم بالأمصار في المغرب الأقصى، وانقرض أمر بني مدرار ومكناسة من المغرب أجمع.

وأدال منهم بمغراوة وبني يفرن حسبما يأتي ذكرهم في دولتهم، والأمر لله وحده وله البقاء سبحانه وتعالى.

الخبر عن دولة بني أبي العافية ملوك تسول من مكناسة
و أولية أمرهم وتصاريف أحوالهم:
كان مكناسة الظواعن من أهل مواطن ملويّة وكرسيف ومليلة وما إليها من التلول بنواحي تازا وتسول، والكل يرجعون في رئاستهم إلى أبي باسل بن أبي الضحاك بن أبي يزول، وهم الذين اختطوا بلد كرسيف ورباط تازا و لم يزالوا على ذلك من أول الفتح. وكانت رئاستهم في المائة الثالثة لمصالة بن حبّوس وموسى بن أبي العافية بن أبي باسل، واستفحل أمرهم في أيامه وعظم سلطانهم وتغلبوا على قبائل البربر بأنحاء تازا إلى الكائي، وكانت بينهم وبين الأدارسة ملوك المغرب لذلك العهد فتن وحروب. وكانوا يغلبونهم على كثير من ضواحيها لما كان نزل بدولتهم من الهرم. ولما استولى عبيد الله على المغرب واستفحل أمره كانوا من أعظم أوليائه وشيعه، وكان مصالة بن حبّوس من أكبر قواده لانحياشه إليه، وولاه على مدينة تاهرت والمغرب الأوسط.
ولما زحف مصالة إلى المغرب الأقصى سنة خمس وثلثمائة، واستولى على فاس على سجلماسة وفرغ من شأن المغرب واستترل يحيى بن إدريس من إمارته بفاس إلى طاعة عبيد الله وأبقاه أميراً على فاس عقد حينئذ لابن عمه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة على سائر ضواحي المغرب وأمصاره مضافة إلى عمله من قبل تسول وتازا وكرسيف وقفل مصالة إلى القيروان. وقام موسى بن أبي العافية بأمر المغرب، وناقضه يحيى بن إدريس صاحب فاس لما يظعن له من المظاهرة عليه.
فلما عاود مصالة غزو المغرب سنة تسع وثلثمائة أغراه ابن أبي العافية يحيى بن إدريس، فتقبض عليه واستصفاه وطرده عن عمله فلحق ببني عمه بالبصرة والريف. وولى مصالة على فاس ريحان الكتامي، وقفل إلى القيروان فهلك، وعظم ملك ابن أبي العافية بالمغرب. ثم ثار بفاس سنة ثلاث عشرة الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس، وكان مقداماً شجاعاً ويلقّب بالحجام لطعنه في المحاجم. دخل فاس على حين غفلة من أهلها، وقتل ريحان واليها، واجتمع الناس على بيعته. ثم
خرج لقتاله ابن أبي العافية فتزاحفوا بفحص أدّاز ما بين تازا وفاس، ويعرف لهذا العهد بوادي المطاحن، واشتدتّ الحرب بينهم، وهلك منهال بن موسى بن أبي العافية في الفتن بمكناسة.
ثم كانت العاقبة لهم وانفضّ عسكر الحسن ورجع مفلولاً إلى فاس فغدر به عامله على عدوة القرويّين حامد بن حمدان الهمداني واستمكن من عاقلة، واستحثّ ابن أبي العافية للقدوم وأمكنه من البلد، وزحف إلى عدوة الأندلس فملكها وقتل عاملها عبد الله بن ثعلة بن محارب بن محمود، وولى مكانه أخاه محمداً، وطالب حامداً بصاحبه الحسن فدس إليه حامد بالفرار تجافياً عن دعاء أهل البيت، وتدلى الحسن من السور فسقط وانكسر ساقه ومات مستخفياً بعدوة الأندلس لثلاث ليال منها. وحذّر حامد من سطوة أبي العافية فلحق بالمهديّة، واستولى ابن أبي العافية على فاس والمغرب. وأجمع وأجلى الأدارسة عنه وألجأهم إلى حصنهم بقلعة حجر

النسر مما يلي البصرة، وحاصرهم بها مراراً. ثم جمّر عليهم العساكر، وخلّف فيهم قائده أبا الفتح فحاصرهم ونهض إلى تلمسان سنة تسع عشرة وثلثمائة بعد أن استخلف على المغرب الأقصى إبنه مدين. وأنزله بعدوة القرويين.

واستعمل على عدوة الأندلس طوال بن أبي يزيد وعزل به محمد بن ثعلبة. وزحف إلى تلمسان فملكها وغلب عليها صاحبها الحسن بن أبي العيش بن عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان، من عقب سليمان بن عبد الله أخي إدريس الأكبر الداخل إلى المغرب بعده، فغلب موسى بن أبي العافية الحسن على تلمسان وأزعجه عنها إلى مليلة من جزائر ملويّة ورجع إلى فاس. وقد كان الخليفة الناصر لما فشت دعوته بالمغرب خاطبه بالمقاربة والوعد فسارع إلى إجابته ونقض طاعة الشيعة، وخطب للناصر على منابر عمله فسرح إليه عبيد الله المهدي قائده ابن أخي صالة، وهو حميد بن يصلتن المكناسي قائد تاهرت فزحف في العساكر إلى حرمة سنة إحدى وعشرين وثلثمائة، ولقيه موسى بن أبي العافية بفحص مسون فتزاحفوا أياماً. ثم لقيه حميد فهزمه ولحق ابن أبي العافية بتسول فامتنع بها، وأفرج قائده أبو الفتح عن حصن الأدارسة فاتبعوه وهزموه ونهبوا معسكره.

ثم نهض حميد إلى فاس ففرّ عنها أعزل بن موسى إلى إبنه، واستعمل عليها حامد بن حمدان كان في جملته وقفل حميد إلى أفريقية وقد دوّخ المغرب. ثم انتقض: أهل المغرب على الشيعة بعد مهلك عبيد الله، وثارأحمد بن بكربن عبد الرحمن بن؟ سهل الجذامي على حامد بن حمدان فقتله، وبعث برأسه إلى ابن أبي العافية فأرسله إلى الناصر بقرطبة واستولى على المغرب.وزحف ميسور الخصي قائد أبي القاسم الشيعي إلى المغرب سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة، وخام ابن أبي العافية عن لقائه واعتصم بحصن الكائي. ونهض ميسور إلى فاس فحاصرها واستنزل أحمد لن لكر عاملها. ثم تقبّض عليه وأشخصه إلى المهديّة، وبدر أهل فاس بغدره فامتنعوا وقدّموا على أنفسهم حسن بن قاسم اللواتي، وحاصرهم ميسور مدّة حتى رغبوا إلى السلم، واشترطوا على أنفسهم الطاعة والأتاوة فتقبل ميسور ورضي، وأقرّ حسن بن قاسم على ولايته بفاس. وارتحل إلى حرب بن أبي العافية فكانت بينهما أ حروب إلى أن غلبه ميسور فتقبض على ابنه الغوري وغربه إلى المهدية. وأجلى موسى بن أبي العافية عن أعمال المغرب إلى نواحي ملوية ووطاط وما وراءها من بلاد الصحراء وقفل إلى القيروان. ولما مر بأرشكول خرج إليه صاحبها ملاطفا له بالتحف، وهو إدريس بن إبراهيم بن ولد سليمان بن عبد الله أخي إدريس الأكبر فتقبض عليه واصطلم نعمته، وولى مكانه أبا العيش بن عيسى منهم. وأغذّ السير إلى القيروان سنة أربع وعشرين. ورجع موسى بن أبي العافية من الصحراء إلى أعماله بالمغرب فملكها وولى على الأندلس أبا يوسف بن محارب الأزدي، وهو الذي مدن عدوة الأندلس، وكانت حصوناً. واحتل موسى بن أبي العافية قلعة كوماط، وخاطب الناصر فبعث إليه مددا من أسطوله، وزحف إلى تلمسان ففرعنها أبو العيش واعتصم بأرشكول فنازله وغلبه عليها سنة خمس وعشرين. ولحق أبو العيش بنكور، واعتصم بالقلعة التي بناها هنالك لنفسه.

ثم زحف ابن أبي العافية إلى مدينة لنكور فحاصرها مدة ثم تغلب عليها وقتل صاحبها عبد البديع بن صالح وخرب مدينتهم. ثم سرح ابنه مدين في العساكر فحاصرأبا العبّاس بالقلعة حتى عقد له السلم عليها. واستفحل أمر ابن أبي العافية في المغرب الأقصى واتصل عمله بعمل محمد بن خزر ملك مغراوة وصاحب المغرب الأوسط، وبثوا دعوة الأموية في أعمالها، وبعث ابنه مدين بأمره في قومه. وعقد له

الناصر على أعمال ابنه بالمغرب واتصل يده بيد الخير بن محمد كما كان بين آبائهما.ثم فسد ما بينهما وتزاحفا للحرب. وبعث الناصر قاضيه منذر بن سعد لمشارفة أحوالهما وإصلاح ما بينهما فتم ذلك كما أراده، ولحق به سنة خمس وثلاثين أخوه البوري فازا من عسكر المنصور مع أحمد بن بكر الجذامي عامل فاس بعد أن لحقا بأبي يزيد فسار أحمد بن أبي بكر إلى فاس وأقام بها متنكرا إلى أن وثب بعاملها حسن بن قاسم اللواتي وتخلى له عن العمل. وصار البوري إلى أخيه مدين واقتسم أعمال ابنه معه ومع ابنه الآخر منقذ فكانوا ثلاث الأثافي. وأثار الثوري الناصر سنة خمس وأربعين فعقد الناصر لابنه منصور على عمله وكانت وفاته وهو محاصر لأخيه مدين بفاس، وأجاز أبناء أبو العيش ومنصور إلى الناصر فأجزل لهما الكرامة على سنن أبيهما.

ثم هلك مدين فعقد الناصرلأخيه أبي منقذ على عمله سنة ثم غلب مغراوة على فاس وأعمالها واستفحل أمرهم بالمغرب وأزاحوا مكناسة عن ضواحيه وأعماله، وساروا إلى مواطنهم، وأجاز إسمعيل بن البوري ومحمد بن عبد الله-بئ مرين إلى الأندلس فنزلوا بها إلى أن جازوا مع واضح أيام المنصور كما مر عندما نقض زيري بن عطية طاغيتهم سنة ست وثمانين، فملك واضح المغرب ورجعهم إلى أعمالهم. وتغلب بلكين بن زيرى على المغرب الأوسط. وغلب عليه ملوكه بني خزرمن مغراوة فاتصلت يد مكناسة. و لم يزالوا في طاعة بني زيري ومظاهرتهم. وهلك إسمعيل بن البوري في حروب حماد مع باديس بشلف سنة خمس وأربعمائة، وتوارث ملكهم في أعقاب موسى إلى أن ظهرت دولة المرابطين، وغلب يوسف بن تاشفين على أعمال المغرب فزحف إليهم القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية، فاستدعى أهل فاس وصريخ زناتة بعد مهلك معنصرة المغراوي فلقي عساكر المرابطين بوادي صفر فهزمهم، وزحف إليه يوسف

بن تاشفين من مكانه فحاصر قلعة فازاز فهزم القاسم بن محمد وجموع مكناسة وزناتة، ودخل فاس عنوة كما ذكرناه في أخباره.

ثم زحف إلى أعمال مكناسة فاقتحم الحصن وقتل القاسم. وفي بعض تواريخ المغرب أن مهلك إبراهيم بن موسى كان سنة خمس وأربعمائة. وولي ابنه عبد الله أبو عبد الرحمن، وهلك سنة ثلاثين، وولي ابنه محمد وهلك سنة ست وأربعين، وولي ابنه القاسم وهلك بتسول عند اقتحام لمتونة عليه سنة ثلاث وستين. وانقرض ملك مكناسة من المغرب بانقراض ملك مغراوة، والأمر لته وحده، وبقي من قبائل مكناسة لهذا العهد بهذه المواطن أفاريق في جبال تازا بعد ما تمرست بهم الدول، وأناخت بساحتهم الأمم. وهم موصوفون بوفور الجباية وقوة الشكيمة. ولهم عناء في مظاهرة الدولة، وحقوق عند الحشد والعسكرة. وفيهم مؤن من الخيالة. ومن مكناسة "غير هؤلاء" أوزاع في القبائل لهذا العهد مفرقون في نواحي أفريقية والمغرب الأوسط. (إن يشأ

يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) وهذا آخر الكلام في بني ورصطيف، فلنرجع إلى من بقي علينا من البربر وهم زناتة، والله ولي العون وبه المستعان.

خريطة

أخبار البرانس من البربر

ولنبد أ أولا بالخبر عن هوّارة من شعوبهم وذكر بطونهم وتصاريف أحوالهم وافتراق شعوبهم في عمالات أفريقية والمغرب

وهوّارة هؤلاء من بطون البرانس باتفاق من نسابة العرب والبربر ولد هوار بن أوريغ بن برنس، إلا ما يزعم بعضهم أنهم من عرب اليمن. تارة يقولون من عاملة إحدى بطون قضاعة، وتارة يقولون من ولد المسّور بن السكاسك بن واثل بن حمير. وإذا تحروا الصواب المسّور بن السكاسك بن أشرس بن كندة وينسبونه هكذا: هوار بن أوريغ بن خنون بن المثنى بن المسور. وعند هؤلاء أن هوّارة وصنهاجة ولمطة وكزولة وهكسورة يعرف جميعهم بني ينهل وأن المسور جدهم جميعاً. وأنه وقع إلى البتر، ونزل على بني زحيك بن مادغيس الأبتر. وكانوا أربعة إخوة: لوا وضرا وأداس ونفوس. وأنهم زوجوه أختهم تيسكي العرجاء بنت زحيك فولدت منه المثنى أبا هواه ة وتزوجها بعد المسور عاصيل بن زعزاع أبو صنهاجة ولمطة وكزولة وهكسورة كما يأتي فيما بعد أنهم إخوة المثنى لأمه، وبها عرف جميعهم.

قالوا: وولد المثنى بن المسور حبوز وولد حبوز بن المثنى ريغ الذي يقال فيه أوريغ بن برنس، ومنه تفرقت قبائل هوّارة. قالوا: إنما سميت هوّارة لأن المسور لما جال البلاد ووقع في المغرب قال: لقد تهورنا. هكذا عند بعض نسابة البربر. وعندي، والله أعلم أن هذا الخبر مصنوع، وإن أثر الصنعة باد عليه. ويعضد ذلك أن المحققين، ونسابتهم مثل سابق وأصحابه قالوا: إن بطون أداس بن زحيك دخلت كلها في هوّارة من

أجل أن هوار خلف زحيك على أم أدّاس، فربي أداس في حجره وزحيك على ما في الخبر الأول هو جد هوار لأن المثنى جده الأعلى هو ابن بصكي، وهي بنت زحيك فهو الخامس من زحيك فكيف يخلفه على امرأته. هذا بعيد، والخبر الثاني أصح عند نسابتهم من الأول.

وأما بطون هوّارة فكثير وأكثرهم بنو نبه وأوريغ اشتهروا نسبة لشهرته وكبر سنه من بينهم فانتسبوا جميعا إليه. وكان لأوريغ أربعة من الولد: هوار وهو أكبرهم، ومغر وقلدن وملد، ولكل واحد منهم بطون كثيرة، وكلهم ينسبون إلى هوار. فمن بطون مغرماوس وزمور وكياد وسراي ذكر هذه البطون الأربعة ابن حزم، وزاد سابق المطامطي وأصحابه ورجين رمنداسة وكركورة. ومن بطون قلدن: قمصانة وورصطيف وبيانة. وبل ذكر هذه الأربعة ابن حزم وسابق. ومن بطون ملد مليلة ووسطط وورفل: وأسيل ومسراتة ذكرهما ابن حزم وقال: جميعهم بنو لهان بن ملد وكذا عند سابق. ويقال إن ونيفن أيضا من لهانة.

ومن بطون هوّارة بنو كهلان. ويقال إن مليلة من بطونهم. وعند نسابة البربر من بطونهم غريان ووزغة وزكاوة ومسلاتة ومجريس. ويقال إن ونيفن منهم. ومجريس لهذا العهد ينتسبون إلى ونيفن. وعند سابق

وأصحابه أن بني كهلان وريجن إحدى بطون مغر، وأن من بطون بني كهلان بني كسى وورتاكط ولشوه وهيوارة. وأما بطون أداس بن زحيك بن مادغيس الأمراء الذين دخلوا في هؤارة فكثير. فمنهم هراغة وترهوتة وشتاتة وأنداوة وهترونة وأوطيطة وصنبرة. هؤلاء باتفاق من ابن حزم وسابق وأصحابه.

خريطة

وكانت مواطن الجمهور من هوّارة هؤلاء، ومن دخل في نسبهم من إخوانهم البرانس والصمغر لأول الفتح بنواحي طرابلس وما يليها من برقة كما ذكره المسعودي والبكري. وكانوا ظواعن واهلين. ومنهم من قطع الرمل إلى بلاد القفر وجاوزوا لمطة من قبائل الملثمين فيما يلي بلاد كوكو من السودان تجاه أفريقية، ويعرفون بنسبهم هكارة، قلبت العجمة واوه كافاً أعجمية تخرج بين الكاف العربية والقاف. وكان لهم في الردّة وحروبها آثار ومقامات. ثم كان لهم في الخارجيّة والقيام بها ذكر، وخصوصا بالأباضية منها. وخرج على حنظلة منهم عبد الواحد بن يزيد مع عكاشة الفزاري، فكانت بينهما وبين حنظلة حروب شديدة. ثم هزمها وقتلهما وذلك سنة أربع وعشرين ومائة أيام هشام بن عبد الملك. وخرج على يزيد بن حاتم سنة ست وخمسين ومائة يحيى بن فوناس منهم، واجتمع إليه كثير من قومه وغيرهم.

وزحف إليه قائد طرابلس عبد الله بن السمط الكندي على شاطىء البحر بسواريه من سواحلهم فانهزم وقتل عامة هوّارة. وكان منهم مع عبد الرحمن بن حبيب مجاهد بن مسلم من قواده. ثم أجاز منهم إلى الأندلس مع طارق رجالات مذكورون واستقروا هنالك، وكان من خلفهم بنو عامر بن وهب أمير رندة أيام لمتونة، وبنو ذي النون الذين ملكوها من أيديهم، واستضافوا معها طليطلة. وبنو رزين أصحاب السهلة. ثم ثارت هوّارة من بعد ذلك على إبراهيم بن الأغلب سنة ست وتسعين ومائة، وحاصروا طرابلس وافتتحوها فخرّبوها.

وتولى كبر ذلك منهم عياض بن وهب وسرح إبراهيم إليهم ابنه أبا العبّاس فهزمهم وقتلهم وبنى طرابلس.

وجأجأ هوّارة بعبد الوهاب بن رستم من مكان أمارتهم بتاهرت فجاءهم واجتمعوا إليه ومعهم قبائل نفوسة. وحاصروا أبا العبّاس بن الأغلب بطرابلس إلى أن هلك أبوه إبراهيم بالقيروان، وقد عهد إليه فصالحهم على أن يكون الصحراء لهم. وانصرف عبد الوهاب إلى نفوسة. ثم أصحبوا بعد ذلك وغزوا مع الجيوش صقلية، وشهد فتحها منهم زواوة بن نعم الحلفاء. ثم كان لهم مع أبي يزيد النكاري وفي حروبه مقامات مذكورة، اجتمعوا إليه من مواطنهم بجبل أوراس ومرماجنة لما غلب عليه وأخذ أهلها بدعونه فانحاشوا إلى ولايته وفعلوا الأفاعيل. وكان من أظهرهم في تلك

الفتنة بنوكهلان.

ولما هلك أبو يزيد كما نذكره سطا إسمعيل المنصور بهم وأثخن فيهم، وانقطع زكر بني كهلان. ثم جرت الدول عليهم أذيالها، وأناخت بكلاكلها، وأصبحوا في عداد القبائل الغارمة من كل ناحية: فمنهم لهذا العهد بمصر أوزاع متفرقون أوطنوها أكرة وعباره وشاوية، وآخرون موطنون ما بين برقة والإسكندرية يعرفون بالمثالينة، ويظعنون مع الحرة من بطون هيب من سليم بأرض التلول من أفريقية ما بين تبسة إلى مرماجنة إلى

باجة. ظواعن صاروا في عداد الناجعة عرب بني سليم في اللغة والزي وسكنى الخيام وركوب الخيل، وكتب الإبل وممارسة الحروب، وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف كل تلولهم. قد نسوا رطانة البربر، واستبدلوا منها بفصاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم. فأولهم مما يلي تبسة قبيلة ونيقش، ورئاستهم لهذا العهد في ولد يفرن بن حناش لأولاد سليم بن عبد الواحد بن عسكر بن محمد بن يفرن، ثم لأولاد زيتون بن محمد بن يفرن، ولأولاد دحمان بن فلان بعده. وكانت الرياسة قبلهم لسارية من بطون ونيفن ومواطنهم ببسائط مزماجنة وتبسة وما إليهما.

ويليهم قبيلة أخرى في الجانب الشرقي منهم يعرفون بقيصررن ورئاستهم في بيت بني مؤمن ما بين ولد زعارخ وولد حركات ومواطنهم بفحص به وما إليها من نواحي الأربس. وتليهم إلى جانب الشرق قبيلة أخرى منهم يعرفون بنصورة، ورئاستهم في بيت الرماينة لولد سليمان بن جامع منهم. ويرادفهم في رياسة نصرة قبيلة ورئهامة، ومواطنهم مون تبسة الى حامة إلى جبل الزنجار إلى إطار على ساحل تونس وبسائطها. ويجاورهم متساحلين إلى ضواحي باجة قبيلة أخرى من هوّارة يعرفون بني سليم، ومعهم بطن من عرب مضر من هذيل بن مدركة بن

إلياس. جاؤا من مراطنهم بالحجاز مع العرب الهلاليين عند دخولهم إلى المغرب، واستوطنوا بهذه الناحية من أفريقية، واختلطوا بهوّارة في عدادهم.

ومعهم أيضاً بطن آخر من بطون رياح من هلال ينتمون إلى عتبة بن مالك بن رياح صاروا في عدادهم، وجروا على مجراهم من الظعن والمغرم. ومعهم أيضاً بطن من مرداس بني سليم يعرفون ببني حبيب. ويقولون: هو حبيب بن مالك. وهم غارمة مثل سائر هوّارة. وضواحي أفريقية لهذا العهد معمورة بهؤلاء الظواعن. ومعظمهم من هوّارة. وهم أهل بقر وشاء وركوب للخيل وللسلطان بأفريقية، عليهم وظائف من الجباية، وضعها عليهم دهاقين العمال بديوان الخراج، قوانين مقررة وتضرب عليهم مع ذلك البعث في غزوات السلطان بعسكر مفروض يحضر بمعسكر السلطان متى استنفروا لذلك.

ولرؤسائهم آراء قاطعات ومكان في الدول بين رجالات البدو، ويربطون هوّارة بمواطنهم الأولى من نواحي طرابلس، ظواعن وآهلين، توزّعتهم العرب من دباب فيما توزعوه من الرعايا وغلبوهم على أمرهم منذ ضحا عملهم من ظل الدولة فتملكوهم تملك العبيد للجباية منهم والاستكثار منهم في الانتجاع والحرب مثل: ترهونة وورقلة، الظواعن. ومجريس الموطّنين بزرنزور من ونيفن وهي قرية من قرى طرابلس. ومن هوّارة هؤلاء بآخر عمل طرابلس مما يلي بلد سرت وبرقة قبيلة يعرفون بمسراتة لهم كثرة واعتزاز، ووضائع العرب عليهم قليلة ويعطونها من عزة. وكثيراً ما ينقلون في سبيل التجارة ببلاد مصر والإسكندرية. وفي بلاد الجريد من أفريقية وبأرض السودان إلى هذا العهد.

(وأعلم) أنّ في قبلة قابس وطرابلس جبالاً متصلاً بعضها ببعض من المغرب إلى المشرق، فأوّلها من جانب الغرب جبل، دمر يسكنه أمم من لواتة ويتصلون في بسيطه إلى فاس وصفاقس من جانب الغرب، وأمم أخرى من نفوسة من جانب الشرق. وفي طوله سبع مراحل، ويتصل به شرقاً جبل نفوسة تسكنه أمة كبيرة
من نفوسة ومغراوة وسدراتة، وهو قبلة طرابلس على ثلاث مراحل عنها. وفي طوله سبع مراحل. ويتصل به من جانب الشرق جبل مسلاتة، ويعتمره قبائل هوّارة إلى بلد مسراتة ويفضي إلى بلد سرت وبرقة وهو آخر جبال طرابلس. وكانت هذه الجبال من مواطن هوّارة ونفوسة ولواتة. وكانت هنالك مدينة صغيرة بلد نفوسة قبل الفتح. وكانت برقه من مواطن هوّارة هؤلاء. ومنهم مكان بني خطّاب ملوك زويلة إحدى أمصار برقة، كانت قاعدة ملكهم حتى عرفت بهم، فكان يقال زويلة بن خطّاب.ولما خربت انتقلوا منها إلى فزّان من بلاد الصحراء وأوطنوها، وكان لهم بها ملك ودولة، حتى إذا جاء قراقوش الغزّي الناصريّ مملوك تقي الدين ابن أخي صلاح الدين، كما نذكر في مكانه عند ذكر الميورقي بن مسوفة وأخباره وافتتح زلّة وأوجلة وافتتح فزّن بعدها، وتقبض على عاملها محمد بن خطّاب بن يصلتن بن عبد الله بن صنفل بن خطّاب آخر ملوكهم، وامتحنه وطالبه بالأموال، وبسط عليه العذاب إلى أن هلك، وانقرض أمر بني خطاب وهؤلاء الهّواريّين.
خريطة
(ومن قبائل) هوّارة بالمغرب أمم كثيرة في مواطن من أعمال تعرف بهم، وظواعن عن شاوية تنتجع لمسرحها في نواحيها، وقد صاوروا عبيداً للمغارم في كل ناحية. وذهب ما كان لهم من الاعتزاز والمنعة أيام الفتوحات بسبب الكثرة، وصاروا إلى الافتراق في الأودية بسبب القلة والله مالك الأمور. ومن أشهرهم بالمغرب الأوسط أهل الجبل المطل على البطحاء، وهو مشهور باسم هوّارة وفيه من مسراتة وغيرهم من بطونهم، ويعرف رؤساؤهم من بني إسحق. وكان الجبل من قبلهم فيما زعموا لبني يلومين. فلما انقرضوا صار إليه هوّارة وأوطنوه، وكانت رئاستهم في بني عبد العزيز منهم. ثم ظهر من بني عمهم رجل إسمه إسحق، واستعمله ملوك القلعة، وصارت رئاستهم في عقبه بني إسحق واختطّ كبيرهم محمد بن إسحق القلعة المنسوبة إليهم.
وورث رئاسته فيهم أخوه حيّون وصارت في عقبه. واتصلوا بالسلطان أيام ملك بني عبد الواد على المغرب الأوسط، وانتظموا في شرائعهم. واستعمل أبوتاشفين من ملوكهم يعقوب بن يوسف بن حيون قائداً على بني توجين عندما غلبهم على أمرهم، المغارم عليهم فقام بها حسن قيام دوّخ بلادهم، وأذل من عزهم. وبعد أن غلب بنو مرين بني عبد الواد على المغرب الأوسط استعمل السلطان أبو الحسن عبد الرحمن بن يعقوب على قبيلة هؤلاء. ثم استعمل بعده عمه عبد الرحمن، ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن بن يوسف. ثم تلاشى حال هذا القبيل وخفّ ساكن الجبل بما اضطهدتهم دولة بني عبد الواد، وأجحفت بهم في الظلامات. وانقرض بيت بني إسحق، والأمر على ذلك لهذا العهد، والله وارث الأرض ومن عليها.
الخبر عن أزداجة ومسطاسة وعجيسة من بطون البرانس ووصف أحوالهم:

أما أزداجة ويعرفون أيضاً وزداجة فمن بطون البرانس، وكثير من نسّابة البربر يعدونهم في بطون زناتة. وقد يقال إن أزداجة من زناتة ووزداجة من هوّارة، وأنهما بطنان

مفترقان وكان لهم وفور وكثرة. وكانت مواطنهم بالمغرب الأوسط بناحية وهران، وكان لهم اعتزاز وآثار في الفتن والحروب. ومسطاسة مندرجون معهم فيقال أنهم من عداد بطونهم، ويقال أنهم إخوة مسطاس أخي وزداج والله أعلم.

وكان من رجالتهم المذكورين شجرة بن عبد الكريم المسطاسي وأبو دليم بن خطّاب. وأجاز أبو دليم إلى الأندلس من ساحل تلمسان، وكان لبنيه بها ذكر وفي فقهاء قرطبة مكان. وكان من بطون أزداجة بنو مسقن وكانوا يجاورون وهران ونزل مرسى وهران من رجال الدولة الأموية محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون، فداخلوا بني مسكن وملكوا وهران سبع سنين مقيمين فيها للدعوة الأموية. فلما ظهرت دعوة الشيعة وملك عبيد الله المهدي تاهرت وولّى عليها دواس بن صولات اللهيصي من كتامة، وأخذت البرابرة بدعوتهم أوعز دوّاس بحصار وهران فرجعوا إليها سنة سبع وتسعين وداخلوا بني

مسكن في ذلك فأجابوهم، وفر محمد بن أبي عون فلحق بدواس بن صولات واستبيحت وهران وأضرمت ناراً.

ثم جدد بناءها دوّاس وأعاد محمد بن أبي عون إلى ولايتها، فعادت أحسن ما كانت، وأمراء تلمسان لذلك العهد من الأدارسة بنو أحمد بن محمد بن سليمان، وسليمان أخو إدريس الأكبر كما ذكرناه. وكانوا يقيمون دعوة الأموية لذلك العهد. ثم ولي على تاهرت أيام أبي القاسم بن عبد الله أبا مالك يغمراسن بن أبي سمحة، وانتقض عليه البربر فحاصروه عند زحف ابن أبي العافية إلى المغرب الأوسط بدعوة المروانية وكان ممن أخذ بها محمد بن أبي عون صاحب وهران وسرّح أبو القاسم ميسوراً مولاه إلى المغرب وأتاه محمد بن عون بطاعته فقبلها وأقره على عمله، ثم نكث محمد بن عون عند منصرف ميسور من المغرب، وراجع طاعة المروانية.

ثم كان شأن أبي يزيد وانتقاض سائر البرابرة على العبيديّين، واستفحل أمر زناتة واخذوا بدعوة المروانيّين. وكان الناصر عقد ليعلى بن أبي محمد اليفرني على المغرب، فخاطبه بمراوغة محمد بن أبي عون وقبائل أزداجة في الطاعة للعداوة بين القبيلتين بالمجاورة، وزحف إلى أزداجة فحصرهم بجبل كيدرة. ثم تغلب عليهم واستأصلهم وفرق جماعتهم وذلك لسنة ثلاث وأربعين وثلثمائة، ثم زحف إلى وهران ونازلها، ثم

إفتتحها عنوة وأضرمها ناراً. واستلحم أزداجة ولحق رئاستهم بالأندلس فكانوا بها، وكان منهم خزرون بن محمد من كبار أصحاب المنصور بن أبي عامر وابنه المظفّر وأجاز إلى المغرب وبقي أزداجة بعد ذلك على حال من الهضيمة والمذلّة وانتظموا في عداد المغارم من القبائل.

(وأما العجيسة): وهم بطون البرانس من ولد عجيسة من برنس ومدلول هذا الاسم البطن، فإن البربريسمّون البطن بلغتهم عدّس بالدال المشددة فلما عربتها العرب قلبت دالها جيماً مخففة، وكان لهم بين البربر كثرة وظهور، وكانوا مجاورين في بطونهم لصنهاجة. وبقاياهم لهذا العهد في ضواحي تونس والجبال المطلة على

المسيلة، وكانت منهم من بطون يسكنون جبل القلعة. وكان لهم في فتنة أبي يزيد أثر. ولما هزمه المنصور لجأ اليهم واعتصم بقلعة كتامة من حصونهم حتى اقتُحِم عليه. ثم بادر حمّاد بن بلكينّ من بعد ذلك مكاناً لبناء مدينة0 فاختطها بينهم ونزلها ووسع خطتها واستبحر عمرانها. وكانت حاضرة لملك آل حماد فأخلفت هذه المدينة من جدة عجيسة لما تمرسّت بهم، وخضدت من شوكتهم وراموا كيد القلعة مراراً، وأجلبوا على ملوكها بالأعياص منهم فاستلحمهم السيف. ثم هلكوا وهلكت القلعة من بعدهم وورثت مواطنهم بذلك الجبل عياض من أفاريق العرب الهلاليّين وسميّ الجبل بهم. وفي القبائل بالمغرب كثير من عجيسة هؤلاء مفترقون فيهم والله أعلم.

الخبر عن أوربة من بطون البرانس وما كان لهم من الردة

والثورة وما صار لهم من الدعاء لإدريس الأكبر:

وكانت البطون التي فيها الكثرة والغلب من هؤلاء البربر البتركلهم لعهد الفتح أوربة وهوّارة وصنهاجة من البرانس ونفوسة وزناتة ومطغرة ونفزاوة من البتر، وكان التقدم لعهد الفتح لأوربة هؤلاء بما كانوا أكثر عدداً وأشد بأساً وقوة. وهم من ولد أورب بن برنس، وهم بطون كثيرة، فمنهم بجاية ونفاسة ونعجة وزهكوجة ومزياتة ورغيوة وديقوسة. وكان أميرهم بين يدي الفتح سكرديد بن زوغي بن بارزت بن برزيات.

ولي عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة، وأدرك الفتح الإسلامي، ومات سنة إحدى وسبعين وولي عليهم من بعده كسيلة بن لزم الأوربي فكان أميراً على البرانس كلهم. ولما نزل أبو المهاجرتلمسان سنة خمس وخمسين، كان كسيلة بن لزم مرتاداً بالمغرب الأقصى في جموعه من أوربة وغيرهم فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام فأسلم، واستنقذه وأحسن إليه وصحبه.

وقدم عقبة في الولاية الثانية أيام يزيد سنة إثنتين وستين فاضطغن عليه صحابته لأبي المهاجر، وتقدم أبو المهاجر في اصطناعه فلم يقبل وزحف إلى المغرب؛ وعلى مقدمته زهير بن قيس البلويّ فدوخه. ولقيه ملوك البربر ومن انضم إليه من الفرنجة بالزاب وتاهرت فهزمهم واستباحهم، وأذعن له بليان أمير غمارة ولاطفه وهاداه، ودله على عورات البرابرة وراءه بوليلة والسوس وما والاهما من مجالات الملثمين فغنم وسبى، وانتهى إلى ساحل البحر، وقفل ظافراً.

وكان في غزاته تلك يستهين كسيلة ويستخف به وهوفي اعتقاله. وأمره يوماً بسلخ شاة بين يديه فدفعها إلى غلمانه، وأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه، وانتهره فقام إليها كسيلة مغضباً. وجعل كلما دسّ يده في الشاة يمسح بلحيته، والعرب يقولون ما هذا يا بربري؟ فيقول: هذا جيد للشعر فيقول لهم شيخ منهم إن البربري يتوعدكم. وبلغ ذلك أبا المهاجر فنهى عقبة عنه وقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى يستألف جبابرة العرب، وأنت تعمد إلى رجل جبار في قومه بدار عزة قريب عهد بالشرك فتفسد قلبه وأشار عليه بأن يوثق منه. وخوفه فتكه فتهاون عقبة بقوله.

فلما قفل عن غزاته وانتهى إلى طبنة صرف العساكر إلى القيروان أفواجاً ثقة بما دوخ من البلاد، وأذل من البربر حتى بقي القليل من الناس. وسار إلى تهودة أوبادس ليترل بها الحامية. فلما نظر إليه الفرنجة طمعوا فيه وراسلوا كسيلة بن لزم ودلوه على الفرصة فيه فانتهزها، وراسل بني عمه ومن تبعهم من البربر، واتبعوا عقبة وأصحابه رضي الله عنه حتى إذا غشوه بتهودة ترجّل القوم وكسروا أجفان سيوفهم، ونزل الصبر واستلحم عقبة وأصحابه رضي الله عنهم ولم يفلت منهم أحد، وكانوا زهاء ثلثمائةمن

كبار الصحابة والتابعين استشهدوا في مصرع واحد، وفيهم أبو المهاجر كان أصحبه في اعتقاله فأبلى رضي الله عنه في ذلك اليوم البلاء الحسن وأجداث الصحابة رضي الله عنهم أولئك الشهداء عقبة وأصحابه بمكانهم ذلك من أرض الزاب لهذا العهد.

وقد جعل على قبرأسنمة ثم جصّص واتخذ عليه مسجد عرف بإسمه وهو في عدد المزارات ومظان البركة، بل هو أشرف مزور من الأجداث في بقاع الأرض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ أحد مدّ أحدّهم ولا نصيفه، وأسر من الصحابة يومئذ محمد بن أوس الأنصاري وبزيد بن خلف العبسي ونفر معهم ففداهم ابن مصاد صاحب قفصة. وكان زهير بن قيس البلويّ بالقيروان، وبلغه الخبر فخرج هارباً وارتحل بالمسلمين ونزل برقة وأقام بها ينتظر المدد من الخلفاء. واجتمع إلى كسيلة جميع أهل المغرب من البربر والفرنجة، وزحف إلى القيروان فخرج العرب منها ولحقوا بزهير بن قيس، وبقي بها أصحاب الذراري والأثقال فأمنهم ودخل القيروان وأقام أميراً على أفريقية ومن بقي بها من العرب خمس سنين.

وقارن ذلك مهلك يزيد بن معاوية وفتنة الضحاك بن قيس مع المروانية بمرج راهط، وحروب آل الزبير فاضطرب أمر الخلافة بعض الشيء واضطرم المغرب ناراً،وفشت الردّة في زناتة والبرانس. ثم استقل عبد الملك بن مروان من بعد ذلك بالخلافة وأذهب بالمشرق آثار الفتنة. وكان زهير بن قيس مقيماً ببرقة مند مهلك عقبة، فبعث إليه بالمدد وولاّه حرب البرابرة والثأر بدم عقبة فزحف إليها في آلاف من العرب سنة سبع وستين. وجمع كسيلة البرانس وسائر البربر، ولقيه بجيش من نواحي القيروان، واشتد القتال بين الفريقين،ثم الهزم البربر وقتل كسيلة ومن لا يحصى منهم، واتبعهم العرب إلى مرماجنة ثم إلى ملوية، وذل البربر ولجأوا إلى القلاع والحصون وخضدت شوكة أوربة من بينهم، واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى فلم يكن بعدها لهم ذكر. واستولوا على مدينة وليلى بالمغرب وكانت ما بين موضع فاس ومكناسة بجانب جبل زرهون وأقاموا على ذلك، والجيوش من القيروان تدوّخ المغرب مرة بعد أخرى إلى أن خرج محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي أيام المنصور، وقتل بالمدينة سنة

خمس وأربعين ومائة. ثم خرج بعده ابن عمه حسين بن علي بن حسن المثلّذث بن حسن المثنى بن الحسن السبط أيام الهادي وقتل بفخ على ثلاثة أميال من مكة سنة تسع وستين ومائة، واسلتحم كثير من أهل بيته. وفر إدريس بن عبد الله إلى المغرب ونزل على أوربة سنة إثنتين وسبعين ومائة، وأميرهم يومئذ بو ليلى إسحق بن محمد بن عبد الحميد منهم فأجاره، وجمع البرابر على دعوته. واجتمعت عليه زواغة ولواتة وسدراتة،

وغماتة ونفرة ومكناسة وغمارة وكافة برابرة المغرب فبايعوه وائتمروا بأمره. وتم له الملك والسلطان بالمغرب، وكانت له الدولة التي ورثها أعقابه إلى حين انقراضها، كما ذكرنا في دولة الفاطميّين والله تعالى أعلم.

الخبر عن كتامة من بطون البرانس وما كان لهم من العز والظهور علي القبائل وكيف تناولوا الملك من أيدي الأغالبة بدعوة الشيعة:

هذا القبيل من قبائل البربر بالمغرب، وأشدهم بأساً وقوةً، وأطولهم باعاً في الملك عند نسابة البربرمن ولد كتام بن برنس، ويقال كتم ونسّابة العرب يقولون إنهم من حمير ذكر ذلك ابن الكلبيّ والطبريّ. وأوّل ملوكهم أفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة، وهو الذي افتتح أفريقية وبه سميت، وقتل ملكها جرجير وسفي البربر بهذا الإسم كما ذكرناه. ويقال أقام في البربر من حمير صنهاجة

وكتامة فهم إلى اليوم فيهم، وتشعّبوا في المغرب وانبثوا في نواحيه إلاّ أن جمهورهم كانوا لأول الملّة بعد تهييج الردّة وطفئت تلك الفتن، موطنين بأرياف قسطنطينية إلى تخوم بجاية غرباً إلى جبل أوراس من ناحية القبلة. وكانت بتلك المواطن بلاد مذكورة أكثرها لهم وبين ديارهم ومجالات تقلّبهم مثل أبكجان وسطيف وباغاية ونقاوس ويلزمة ويتكست وميلة وقسطنطينة والسيكرة والقلّ وجيجل، من حدود جبل أوراس إلى سيف البحر ما بين بجاية وبونة.

وكانت بطونهم كثيرة يجمعها كلها غرسن ويسّودة إبنا كتم بن برنس فمن يسودة

فلاسة ودنهاجة ومتوسة ووريسن كلهم بنو يسود ة بن كتمٍ. وإلى دنهاجة ينسب قصور كتامة بالمغرب لهذا العهد. ومن غرسن مصالة وقلان وما وطن ومعاذ بنو غرسن بن كتم، ولهيفة وجيملة ومسالته بنو بناوة بن غرسن، وملوسة من إيان ولطاية وإيجانة وغسمان وأوباست بنوتيطاسن بن غرسن وملوسة من إيان بن غرسن. ومن ملوسة هؤلاء بنو زلدوي أهل الجبل المطل على قسطنيطينة لهذا العهد. وبعد البرابرة من كتامة بنو يستيتن وهشتيوة ومصالة وبني قنسيلة. وعذ ابن حزم منهم زواوة بجميع بطونهم وهو الحق على ما تقدم. وكان من هذه البطون بالمغرب الأقصى كثير منتدبون عن مواطنهم وهم بها إلى اليوم، و لم يزالوا بهذه المواطن وعلى هذه الحالة من لدن ظهور الملّة وملك المغرب إلى دولة الأغالبة. و لم تكن الدولة تسومهم بهضيمة ولا ينالهم تعسف لاعتزازهم بكثرة جموعهم، كما ذكره ابن الرقيق في تاريخه إلى أن كان من قيامهم في دعوة الشيعة ما ذكرناه في دولتهم عند ذكر دولة الفاطميّين إثر دولة بني العبّاس، فأنظره هنالك وتصفحه تجد تفصيله. ولما صار لهم الملك بالمغرب زحفوا إلى المشرق فملكوا الإسكندرية ومصر والشام، واختطوا القاهرة أعظم الأمصار بمصر، وارتحل المعز رابع خلفائهم فترلها وارتحل معه كتامة على قبائلهم واستفحلت الدولة هنالك وهلكوا في ترفها وبذخها.

وبقي في مواطنهم الأولى بجبل أوراس وجوانبه من البسائط بقايا من قبائلهم على أسمائها وألقابها، والاخرون بغير لقبهم وكلهم رعايا معبدون للمغارم إلا من اعتصم بفتنة الجبل مثل بني زلدوي بجبالهم وأهل جبال جيجل

وزواوة، أيضاً في جبالهم. وأما البسائط فأشهر من فيها منهم قبائل سدويكش ورئاستهم في أولاد سواق. ولا أدري الى من يرجعون من قبائل كتامة المسمين في هذا الكتاب. إلا أنهم منهم باتفاق من أهل
الأخبار، ونحن الآن ذاكرون ما عرفناه من أخبارهم المتأخرة بعد دولة كتامة والله تعالى ولي العون.

الخبر عن سدويكش ومن إليهم من بقايا كتامة في مواطنهم:

هذا الحي لهذا العهد وما قبله من العصور يعرفون بسدويكش وديارهم في مواطن كتامة ما بين قسطنطينة وبجاية في البسائط منها، ولهم بطون كثيرة مثل سيلين وطرسون وطرغيان ومواليت وبني فتنة وبني لمائي وكايارة وبني زغلان والبؤرة وبني مروان وواركسن وسكوال وبني عياد، وفيهم من لماية ومكلاتة وريغة، والرياسة على جميعهم في بطن منهم يعرفون أولاد سواق لهم جمع وقوة وعدد وعدة. وكان جميع هذه البطون وعيالهم غارمة فيمتطون الخيل ويسكنون الخيام ويظعنون على الإبل والبقرولهم مع الدول في ذلك الوطن استقامة. وهذا شأن القبائل الأعراب من العرب لهذا العهد. وهم ينتفون من نسب كتامة ويفرون منه، لما وقع منذ أربعمائة سنة من النكير على كتامة بانتحال الرافضة وعداوة الدولة بعدهم، فيتفادون بالانتساب إليهم. وربما انتسبوا في سليم من قبائل مضر وليس ذلك بصحيح. وإنما هم من بطون كتامة، وقد ذكرهم مؤرخو صنهاجة بهذا النسب، ويشهد لذلك الموطن الذي استوطنوه من أفريقية.

ويذكر نسّابتهم ومؤرخوهم أن موطن أولاد سواق منهم كان في قلاع بني بو خصرة من نواحي قسطنطينة ومنه انتقلوا وانتشروا في سائر تلك الجهات. وأولاد سواق بطنان وهم: أولاد علاوة بن سواق وأولاد يوسف بن حمّو بن سواق. فأما أولاد علاوة فكانت الرياسة على قبائل سدويكش لهم فيما سمعناه من مشيختنا، وأن ذلك كان لعهد دولة الموحدين وكان منهم علي بن علاوة وبعده إبنه طلحة بن علي، وبعده أخوه يحيى بن علي، وبعده أخوهما منديل بن علي وعزل تازير ابن أخيه طلحة.

ولما بويع السلطان أبو يحيى بقسطنطينة سنة عشر من هذه المائة وقع من تازير انحراف عن طاعته واعتلوا بطاعة ابن الخلوف بجاية، فقدم عوضاً منه عمّه منديل. ثم استبدل منهم أجمعين بأولاد يوسف فشمروا في طاعته وأبلوا، وغلب السلطان على بجاية وقتل ابن الخلوف فظهر أولاد يوسف وزحموا أولاد علاوة، وأخرجوهم من الوطن فصاروا إلى عياض من أفاريق هلال، وسكنوا في جوارهم بجبلهم الذي أوطنوه المطل علىالمسيلة.

واتصلت الرياسة على سدويكش في أولاد يوسف. وهم لهذا العهد أربع قبائل: بنو محمد بن يوسف وبنو المهدي وبنو إبراهيم بن يوسف، والعزيزيون وهم بنو منديل، وظافر وجري وسيّد الملوك والعبّاس وعيسى، والستة أولاد يوسف وهم أشقاء، وأمّهم تاعزيزت فنسبوا إليها. وأولاد محمد والعزيزيون يوطنون بنواحي بجاية وأولاد المهدي وإبراهيم بنواحي قسطنطينة.

وما زالت الرياسة في هذه القبائل الأربع تجتمع تارة في بعضهم وتفترق أخرى إلى هذا العهد، وكانت الأخرى دولة مولانا السلطان أبي يحيى، اجتمعت رئاستهم لعبد الكريم بن منديل بن عيسى من العزيزيين.

ثم افترقت واستقل كل بطن من هؤلاء الأربعة برياسة وأولاد علاوة في خلال هذا كله بجبل عياض. ولما تغلب بنو مرين على أفريقية أنكر السلطان أبو عنان أولاد يوسف ورماهم بالميل إلى الموحدين وصرف الرياسة على سدويكش إلى مهنا بن تاريز بن طلحة من أولاد علاوة فلم يتم له ذلك، وقتله أولاد يوسف. ورجع أولاد علاوة إلى مكانهم من جبل عياض.

وكان رئيسهم لهذه العصور عدوان بن عبد العزيز بن زروّق بن علي بن علاوة، وهلك و لم تجتمع رئاستهم بعده لأحد. وفي بطون سدويكش هؤلاء بطن مرادف أولاد سواق في الرياسة على أحيائهم وهم بنو سكين. ومواطنهم في جوار لواتة بجبل تابور وما إليه من نواحي بجاية، ورياستهم في بني موسى بن ثابر منهم. أدركنا ابنه صخر بن موسى واختصه السلطان أبو يحيى بالرياسة على قومه، وكان له مقامات في خدمته. ثم عرف بعده في الوفاء إبنه الأميرأبوحفص فلم يزل معه إلى أن وقع به بنومرين بناحية تابس وجيء به مع أسرى الوقيعة فقطعه السلطان أبو الحسن من خلاف، وهلك بعد ذلك وقام برئاسته إبنه عبد الله وكان له فيها وفي خدمة السلطان ببجاية شأن إلى أن هلك لأعوام ثمانين، وولي إبنه محمد من بعده، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبرعن بني ثابت أهل الجبل المطل علم قسطنطينة من بقايا كتامة:

ومن بطون كتامة وقبائلهم أهل الجبل المطل على القل ما بينه وبين قسطنطينة، المعروف برياسة أولاد ثابت بن حسن بن أبي بكر من بني تليلان. ويقال إن أبا بكر هذاالجد هو الذي فرض المغرم على أهل هذا الجبل لأيام الموحّدين، و لم يكن قبل ذلك عليه مغرم. فلما انقرض ملك صنهاجة وغلب الموحّدون على أفريقية وفد أبو بكر هذا على الخليفة بمراكش ونجع بالطاعة والانقياد، وتقرب إليه بفرض المغرم على قبيلة بالجبل، وكان لثابت هذا من الولد علي وحسن وسلطان وإبراهيم، كلهم رأسوا بالجبل. وأما حسن منهم فحجب السلطان أبا يحيى لأول دولته وفي عنيته. ولابن عمر لدولة طرابلس أعوام إحدى عشر وسبعمائة كما نذكره. فلما تملّك السلطان بجاية وقتل ابن خلوف ورجع ابن عمر من تونس إلى حجابته وجد حسن بن ثابت معسكراً بفرجيوة لانقضاء مسغارم الوطن، فبعث إليه من قتله. وكان آخرهم رياسة بالجبل عليّ، أدرك دولة بني مرين بأفريقية. وولي بعده ابن عبد الرحمن. ووفد على السلطان أبي عنان بفاس. ولما استجد مولانا السلطان أبو العبّاس دولته بأفريقية استولى عليهم ومحا أثر مشيختهم ورئاستهم وصيّرهم من عداد جنده وحاشيته. واستعمل في الجبل عماله وهو جبل مطاوع، وجبايته مؤداة لصولته وجواره للعسكر بقسطنطينة. ومن بقايا كتامة أيضاً تبائل أخرى بناحية تدلس في هضابه مكتنفة بها، وهم في عداد القبائل الغارمة. وبالمغرب الأقصى منهم قبيلة من بني يستيتن بجبل قبلة جبل يزناسن، وقبيلة أخرى بناحية الهبط مجاورون لقصر ابن عبد الكريم وقبائل أخرى بناحية مرّاكش نزلوا مع صنهاجة هنالك. ونسب كتامة لهذا العهد بين القبائل المثل السائر في الدولة لما نكرهم الدول من بعدهم أربعمائة سنة بانتحالهم الرافضة

ومذاهبها الكفرية، حتى صار كثير من أهل نسبهم يفرون منه، وينتسبون فيمن سواهم من القبائل فراراً من هجنته والعزة لته وحده.

خريطة

الإلمام بذكر زواوة من بطون كتامة:

هذا البطن من أكبر بطون البربر ومواطنهم كما تراه محتفة ببجاية إلى تدلس في جبال شاهقة وأوعار متسنمة، ولهم بطون وشعوب كثيرة، ومواطنهم متصلة بمواطن كتامة وهؤلاء، وأكثر الناس جاهلون بنسبهم. وعامة نسّابة البربر على أنهم من بني سمكان بن يحيى بن ضريس، وأنهم إخوة زواغة. والمحّققون من النسّابة مثل ابن حزم وأنظاره إنما يعدونهم في بطون كتامة وهو الأصوب. والمواطن أوضح دليل عليه. وإلا فأين مواطن زواغة؟ وهي طرابلس. وبالمغرب الأقصى من موطن كتامة. وإنما حمل على الغلط في نسبهم إلى كتامة تصحيف، اسم زوازة بالزاي بعد الواو، وهم إخوة زواغة بلا شك فصحف هذا القارىء الزاي بالواو فعد زواوة إخوان زواغة. ثم استمر التصحيف وجمعاً في نسب سمكان والله أعلم، وقد مر ذكرهم هنالك مع ذكر زواغة وتعديد بطونهم.

الخبر عن صنهاجة من بطون البرانس وما كان لهم من الظهور والدول في بلاد المغرب والأندلس:

هذا القبيل من أوفر قبائل البربر، وهوأكثرأهل الغرب لهذا العهد وما قبله لا يكاد قطرمن أقطاره يخلومن بطن من بطونهم في جبل أوبسيط، حتى لقد زعم كثيرمن الناس أنهم الثلث من أمم البربر. وكان لهم في الردة ذكر وفي الخروج على الأمراء بأفريقية شأن تقدم منه في صدر ذكر البرابر، ونذكر منه هنا ما تيسرّ. وأما ذكر نسبهم فإنهم من ولد صنهاج وهو صنهاج بالصاد المشمة بالزاي والكاف القريبة من الجيم. إلا أن العرب عربته وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصار صنهاج. وهو عند نسّابة البربر من بطون البرانس من ولد برنس بن بر وذكر ابن الكلبيّ والطبري أنهم وكتامة جميعاً من حمير كما تقدم في كتامة، وفيما نقل الطبري في تاريخه أنه صنهاج بن يصوكان بن ميسور بن الفند بن أفريقش بن قيس.

وبعض النسّابة يزعم أنه صنهاج بن المثّنى بن المنصوربن المصباح بن يحصب بن مالك بن عامربن حمير الأصغرمن سبأ كذا نقل ابن النحوي من مؤرخي دولتهم وجعله ليحصب. وقد مرذكره في أنساب حمير وليس كما ذكر والله أعلم. وأما المحقّقون من نسّابة البربر فيقولون هو صنهاج بن عاميل بن زعزاع بن قيمتا بن سدور بن مولان بن يصلين بن يبرين بن مكسيلة بن دقيوس بن حلحال بن شرو بن مصرايم بن حام. ويزعمون أن جزول واللمط وهكسور إخوة صنهاج، وأن امهم الأربعة نصكي، وبها يعرفون. وهي بنت زحيك بن مادغيس، ويقال لها العرجاء. فهذه القبائل الأربعة من القبائل إخوة لأم والله أعلم.

وأما بطون صنهاجة فكثيرة فمنهم بلكانة وأنجفة وشرطة ولمتونة ومسوفة وكدالة ومندلسة وبنو وارث وبنو يتيسن. ومن بطون أنجفة بنو مزوارت وبنو تسليب وفشتالة وملوانة. هكذا يكاد نقل بعض نسّابة البربر في كتبهم وذكر آخرون من مؤرّخي البربرأن بطونهم تنتهي إلى سبعين بطناً. وذكر ابن الكلبيّ والطبري أن

بلادهم بالصحراء مسيرة ستة أشهر. وكان أعظم قبائل صنهاجة بلكانة وفيهم كان الملك الأول. وكانت مواطنهم ما بين المغرب الأوسط وأفريقية، وهم أهل مدر. ومواطن مسوقة ولمتونة وكدالة وشرطة بالصحراء، وهم أهل وبر.

وأما أنجفة فبطونهم مفترقة، وهم أكثر بطون صنهاجة. ولصنهاجة ولاية لعلي بن أبي طالب كما أن لمغراوة ولاية لعثمان بن عفّان رضي الله تعالى عنهما إلا أنا لا نعرف سبب هذه الولاية ولا أصلها. وكان من مشاهيرهم في الدولة الإسلامية ثابت بن وزريون ثار بأفريقية أيام السفّاح عند انقراض الأموية: وعبد الله بن سكرديرلك، وعبّاد صادق من قوّاد حمّاد بلكّين، وسليمان بن مطعمان بن عليان أيام باديس بن بلكّين. وبنو جدون وزاريني حضاد، وهو حمدون بن سليمان بن محمد بن علي بن علم. منهم ميمون بن جميل ابن اخت طارق، مولى عثمان بن عفّان صاحب فتح الأندلس في آخرين يطول ذكرهم. وكان الملك في صنهاجة في طبقتين: الطبقة الأولى لمكانة ملوك أفريقية والأندلس، والثانية مسوقة ولمتونة من الملثّمين ملوك المغرب المسمون بالمرابطين، ويأتي ذكرهم كلهم إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الطبقة الأولى من صنهاجة وما كان لهم من الملك:

كان أهل هذه الطبقة بنو ملكان بن كرت، وكانت مواطنهم بالمسيلة إلى حمرة إلى الجزائر ولمدية ومليناتة من مواطن بني يزيد وحصين والعطاف من زغبة، ومواطن الثعالبة لهذا العهد. وكان معهم بطون كثيرة من صنهاجة أعقابهم هنالك من متنان وأنوغة وبنوعثمان وبنو مزغنة وبنو جعد وملكانة وبطوية وبنو يفرن وبنو خليل، وبعض أعقاب ملكانة بجهات بجاية ونواحيها، وكان التقدم منهم جميعاً لبلكانة وكان كبيرهم لعهد الأغالبة مناد بن منقوش بن صنهاج الأصغر وهو صناك بن واسفاق بن جبريل بن يزيد بن واسلي بن سمليل بن جعفر بن إلياس بن عثمان بر سكاد بن ملكان بن كرت بن صنهاج الأكبر، هكذا نسبه ابن النحويّ، من مؤرخي الأندلس، وذكر بعض مؤرخي المغرب: أن مناد بن منقوش ملك جانباً من أفريقية والمغرب الأوسط مقيماً لدعوة بني العبّاس، وراجعاً إلى أمر الأغالبة.

وأقام أمره من بعده إبنه زيري بن مناد، وكان من أعظم ملوك البربر. وكانت بينه وبين مغراوة من زناتة المجاورين له من جهة المغرب الأوسط كما نذكر حروب وفتن طويلة. ولما استوسق الملك للشيعة بأفريقية تحيز إليهم، للولاية التي لعليّ رضي الله عنه فيهم. وكان من أعظم أوليائهم، واستطال بهم على عدوه من مغراوة فكانوا ظهراً له عليهم. وانحرفت لذلك مغراوة وسائر زناتة عن الشيعة سائر أيامهم، وتحيزوا إلى المروانيّين ملوك العدوة بالأندلس فأقاموا دعوتهم بالمغرب الأوسط والأقصى كما نذكره بعد إن شاء الله تعالى. ولما كانت فتنة أبي يزيد، والتاث أمر العبيديّين بالقيروان والمهديّة كان لزيري بن مناد منافرة إلى الخوارج أصحاب أبي يزيد وأعقابهم وتسريب الحشود إلى ماصرة العبيديّين بالقيروان كما ستراه.

واحفظ مدينة أشير للتحصّن بها سفح الجبل تيطرا لهذا العهد حيث مواطن حصين وحصّنها بأمر المنصور، وكانت من أعظم مدن المغرب. واتسعت بعد ذلك خطتها واستبحر عمرانها، ورحل إليها العلماء والتجّار من القاصية. وحين نازل أبا إسمعيل المنصور أبا يزيد لقلعة كتامة جاءه زيري في قومه ومن انضم إليه من حشود البربر، وعظمت نكايته في العدو وكان الفتح. وصحبه المنصور إلى أن انصرف من المغرب ووصله بصلات سنيّة. وعقد له على قومه وأذن له في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بمدينة أشير. وعقد له على تاهرت وأعمالها.

ثم اختطّ ابنه بلكيّن بأمره وعلى عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة بساحل البحر ومدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف ومدينة لمدونة. وهم بطن من بطون صنهاجة وهذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن المغرب الأوسط، ولم يزل زيري على ذلك قائماً بدعوة العبيديّين منابذاً لمغراوة، واتصلت الفتنة فيهم. ولما نهض جوهر الكاتب إلى المغرب الأقصى أيام معدّ المعز لدين الله أمره أن يستصحب زيري بن مناد فصحبه إلى المغرب وظاهره على أمره. ولما ظهر يعلىّ بن محمد اليفرني اتهمه زناتة بالممالأة عليه. ولما نزل جوهر فاس وبها أحمد بن بكر الجذامي وطال حصاره إياها كان لزيري في حصارها أعظم العياء، وكان فتحها على يده. سهر ذات ليلة وصعد سورها فكان الفتح.

ولما استمرت الفتنة بين زيري بن مناد ومغراوة، ووصلوا أيديهم بالحكم المستنصري وأقاموا الدعوة المروانية بالمغرب الأوسط، وشمّر محمد بن الخير بن محمد بن خزر لذلك، رماه معدّ لقريعة زيري وقومه من صنهاجة وعقد له على المغرب وأقطع له ما افتتح من أقطاره فنهض زيري في قومه، واحتشد أهل وطنه وقد جمع له محمد بن الخير وزناتة فسرّح إليهم ولده بلكيّن في مقدمة، وعارضهم قبل استكمالهم التعبئة، فدارت بينهم حرب شديدة بعد العهد بمثلها يومئذ. واختل مصاف مغراوة وزناتة. ولما أيقن محمد بن الخير بالمهلكة، وعلم أنه أحيط به مال إلى ناحية من العسكر، وتحامل على سيفه فذبح نفسه وانفض جموع زناتة واستمرت الهزيمة عليهم سائر يومهم فاستلحموا، ومكثت عظامهم ماثلة بمصارعهم عصوراً.

وهلك فيما زعموا بضعة عشر أميراً منهم، وبعث زيري برؤوسهم إلى المعز بالقيروان فعظم سروره وغم لها الحكم المستنصري صاحب الدعوة بما أوهنوا من أمره. واستطال زيري وصنهاجة على بوادي المغرب، وعلب يده على جعفر بن علي صاحب المسيلة والزاب وسما به في الرتب عند الخلافة وتاخمه في العمالة. واستدعى معدّ جعفر بن علي من المسيلة لتولية أفريقية حين اعتزم على الرحيل إلى القاهرة فاستراب بما كانت السعاية كبرت فيه. وبعث معد المعز بعض مواليه فخافه جعفر على نفسه، وهرب من المسيلة ولحق بمغراوة فاشتملوا عليه، وألقوا بيده زمام أمرهم، وقام فيهم بدعوة الحكم المستنصري، وكانوا أقدم لها إجابة. وفاوضهم زيري الحرب قبل استفحالهم فزحف إليهم واقتتلوا قتالاً شديداً.

وكانت على زيري الدبرة، وكبا به فرسه، وأجلت الهزيمة عن مصرعه ومصارع حاميته من قومه، فحروا رأسه وبعثوا به إلى الحكم المستنصري بقرطبة في وفد أوفدوه عليه من أمرائهم يؤدّون الطاعة ويؤكدون البيعة،

ويجمعون لقومهم النصرة. وكان مقدّم وفدهم يحيى بن علي أخو جعفر هذا كما ذكرناه. وهلك زيري هذا سنة ستين وثلثمائة لست وعشرين سنة من ولايته. ولما وصل خبره إلى ابنه بلكّين وهو بأشير نهض إلى زناتة ودارت بينهم حرب شديدة فانهزمت زناتة وثأر بلكّين بأبيه وقومه واتصل ذلك بالسلطان محمد أثره، وعقد له على عمل أبيه بأشير وتيهرت وسائر أعمال المغرب، وضم إليه المسيلة والزاب وسائر عمل جعفر فاستعتب واستفحل أمره واتسعت ولايته، وأثخن في البربر أهل الخصوص من أحرابة وهوارة ونفرة وتوغل في المغرب في طلب زناتة فأثخن فيهم. ثم رجع واستقدمه السلطان لولاية أفريقية فقدم سنة إحدى وستين ووثلثمائة واستبلغ السلطان في تكريمه ونفس ذلك عليه كتامة. ثم نهض السلطان إلى القاهرة واستخلفه كما نذكره. وكان ذلك أوّل دولة آل زيري بأفريقية والله تعالى أعلم.

دولة آل زيري بن مناد

الخبر عن دولة آل زيري بن مناد ولاة العبيديين

من هذه الطبقة بأفريقية و أولية أمرهم وتصاريف أحوالهم

لما أخذ المعزّ في الرحلة إلى المشرق، وصرف اهتمامه إلى ما يتخفف وراء ظهره من الممالك والعمالات، ونظر فيمن يوليه أمر أفريقية والمغرب ممن له الغناء والاضطلاع، وبه الوثوق من صدق التشييع ورسوخ القدم في دراية الدولة، فعثر اختياره على بلكّين بن

زيري بن مناد، ولّي الدولة منذ عهد سلفه بموجب عهد أخذه من أيدي زناتة أعدائها في سبيل الذب عن الدعوة والمظاهرة للدولة.

دولة بلكين بن زيري:

فبعث خلف بلكين بن زيري وكان متوغلاً في المغرب في حروب زناتة، وولاه أمر أفريقية والمغرب، ما عدا صقلية كانت لبني أبي الحسين الكلبي، وطرابلس لعبد الله بن يخلف الكتامي؛ وسمّاه يوسف بدلا من بلكّين. وكنّاه أبا الفتوح، ولقبه سيف الدولة، ووصله بالخلع والأكسية الفاخرة. وحمله على مقرّباته بالمراكب الثقيلة وأنفذ أمره في الجيش والمال وأطلق يده في الأعمال. وأوصاه بثلاث: أن لا يرفع السيف عن البربر، ولا يرفع الجباية عن أهل البادية، ولا يولي أحداً من أهل بيته. وعهد إليه أن يفتح أمره بغزو المغرب لحسم دائه، وقطع علائق الأموية منه. وارتحل يريد القاهرة سنة إثنتين وستين وثلثمائة، ورجع عنه بلكّين من نواحي صفاقس فنزل قصر معد بالقيروان، واضطلع بالولاية. وأجمع غزو المغرب فغزاه في جموع صنهاجة ومخفف كتامة، وارتحل إلى المغرب، وفر أمامه ابن خزر صاحب المغرب الأوسط إلى سجلماسة.

وبلغه خلاف أهل تاهرت وإخراج عامله فرحل إليها وخربها. ثم بلغه أن زناتة اجتمعوا إلى تلمسان فرحل إليهم فهربوا أمامه، ونزل على تلمسان فحاصرها حتى نزل أهلها على حكمه ونقلهم إلى أشير. وبلغه كتاب معدّ ينهاه عن التوغل في المغرب فرجع. ولما كان سنة سبع وستين وثلثمائة رغب بلكين من الخليفة نزار بن المعز أن يضيف إليه عمل طرابلس وسرت وأجدابية فأجابه إلى ذلك وعقد له عليها. ورحل عنها عبد الله بن

يخلف الكتامي وولّى بلكيّن عليه من قبله. ثم ارتحل بلكيّن إلى المغرب وفرت أمامه زناتة فملك فاس وسجلماسة وأرض الهبط وطرد منها عضال بني أُميّة. ثم غزا جموع زناتة بسجلماسة وأوقع بهم، وتقبضّ على ابن خزر أمير مغراوة فقتله. وأجعل ملوكهم أمامه مثل بني يعلى بن محمد النفري وبني عطيّة بن عبد الله بن خزر وبني فلفول بن خزر، ويحيى بن علي بن حمدون صاحب البصرة وبرزوا جميعاً بقياطينهم إلى سبتة، وبعثوا الضريح إلى المنصور بن أبي عامر فخرج بعساكره إلى الجزيرة الخضراء. وأمرهم بمن كان شي حضرته من ملوك زناتة ورؤسائهم النازعين إلى خلفاء الأموية بالأندلس بقرطبة بالمقام في سبيل الطاعة، واغتنام فضل الرباط بثغور المسلمين في إيالة الخلفاء. واجتمعت منهم وراء البحر أمم مع ما انضم إليهم من العساكر والحشود. وأجازهم البحر لقصر جعفر بن علي حمدون صاحب المسيلة، وعقد له على حرب بلكيّن وأمدّه بمائة حمل من المال فتعاقد ملوك زناتة واجتمعوا إليه، وضربوا مصاف القتال بظاهر سبتة. وهرع إليهم المدد من الجزيرة من عساكر المنصور، وكادوا يخوضون البحر من فراض الزقاق إلى مظاهرة أوليائهم من زناتة. ووصل بلكيّن إلى تيطاور وتسنّم هضابها، وقطع شعراءها لنهج المسالك والطرق لعسكره، حتى أطل على معسكرهم بظاهر ستبة فأرى ما هاله واستيقن امتناعهم.

ويقال أنه لما عاين سبتة من مستشرفه، ورأى اتصال المدد من العدوة إلى معسكرهم بها قال: هذه أفعى فغرت إلينا فاها وكر راجعاً على عقبه. وكان موقفه ذلك أقصى أثره. ورجع إلى البصرة فهدمها وكانت دار ملك ابن الأندلسي، وبها عمارة عظيمة. ثم فتح باب في جهاد برغواطة فارتحل إليهم وشغل بجهادهم، وقتل ملكهم عيسى بن أبي الأنصار كما نذكره. وأرسل بالسبي إلى القيروان وأذهب دعوة بني أُميّة من نواحي المغرب وزناتة مشردون بالصحراء إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة بوراكش ما بين سجلماسة وتلمسان منصرفاً من هذه الغارة الطويلة.

دولة منصور بن بلكين:

ولما توفي بلكّين بعث مولاه أبو زغبل بالخبر إلى إبنه المنصور وكان والياً باشير وصاحب عهد أبيه فقام بأمر صنهاجة من بعده، ونزل صيره، وقلده العزيز نزار بن معد أمر أفريقية والمغرب على سنن أبيه وعقد لأخيه أبي البهار على تاهرت ولأخيه يطوفت على أشير، وسرحه بالعساكر إلى المغرب الأقصى سنة أربع وسبعين وثلثمائة يسترجعه من أيدي زناتة. وقد بلغه أنهم ملكوا سجلماسة وفاس زيري بن عطية المغراوي الملّقب بالقرطاس أمير فاس فهزمه ورجع إلى أشير. وأقصى المنصور بعدها عن غزو المغرب وزناتة واستقلّ به ابن عطية وابن خزرون وبدر بن يعلى كما نذكر بعد.

ثم رحل بلكّين إلى رقادة وفتك بعبد الله بن الكاتب عامله وعامل أبيه على القيروان لهنات كانت منه، وسعايات انجحت فيه فهلك سنة تسع وسبعين وثلثمائة وولي مكانه يوسف بن أبي محمد، وكثر التواتر بكتابه فقتلهم وأثخن فيهم حتى أذعنوا، وأخرج إليهم العمال وعقد لأخيه حمّاد على أشير. وطالت الفتنة مع زناتة ونزل إليه منهم سعيد بن خزرون. ولم يزل سعيد بطبغة إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وثلثمائة وولي إبنه

فلفول بن سعيد. وخالف أبو البهار بن زيري سنة تسع وسبعين وثلثمائة فزحف إليه المنصور، وفر بين يديه إلى المغرب. وأمد المنصور أهل تاهرت ومضى في اتباع أبي البهار حتى نفد عسكره، واشير عليه بالرجوع فرجع. وبعث أبو البهار إلى أبي عامر صاحب الأندلس في المظاهرة والمدد، واسترهن ابنه في ذلك فكتب زيري بن عطية صاحب دعوة الأموية من زناتة بفاس أن يكون معه يداً واحدة فظاهره زيري، واتفق رأيهما مدّة، وحاربهما بدر بن يعلى فهزماه وملكا فاس وما حولها. ثم اختلفت ذات بينهما سنة إثنتين وثمانين وثلثمائة، ورجع أبو البهار إلى قومه. ووفد على المنصور سنة إثنتين وثمانين وثلثمائة بالقيروان فأكرمه ووصله وأنزله أحسن نزل، وعقد له على تاهرت. ثم هلك المنصور سنة خمس وثمانين وثلثمائة.

دولة باديس في المنصور:

ولما هلك المنصور قام بأمره إبنه باديس وعقد لعمه يطوفت على تاهرت، وسرح عساكره لحرب زناتة مع عميّه يطوفت وحمّاد فولوا منهزمين أمام زناتة إلى أشير. ونهض بنفسه سنة تسع وثمانين وثلثمائة لحرب زيري بن عطية راجعاً إلى المغرب، فولّى

باديس أخاه يطوفت على تاهرت وأشير، وخالد عليه عمومته ماكسن وزاوي وحلال ومعتز وعزم واستباحوا عسكر يطوفت وأفلت منهم. ووصل أبو البهار متبرئاً من شأنهم. وشغل السلطان باديس بحرب فلفول بن سعيد كما نذكره في أخبار بني خزرون، وسرح عمه حمّاداً لحرب بني زيري إخوته. ووصل بنو زيري أيديهم بفلفول ثم رجعوا إلى حمّاد فهزمهم وتقبّض على ماكسن منهم بأطمة الكلاب وقتل أولاد الحسن وباديس كذا ذكر ابن حزم.

ونجا فلّهم إلى جبل سنوه فنازلهم حماد أياماً وعقد لهم السلم على الإجازة إلى الأندلس فلحقوا بابن أبي عامر سنة إحدى وتسعين وثلثمائة.

وهلك زيري بن عطية المغراوي لتسع أيام من مهلك ماكسن، وأقفل باديس عمّه حمّادا إلى حضرته ليستعين به في حروب فلفول، فاضطرب المغرب لقفوله، وأظهرت زناتة الفساد وأضرّوا بالسابلة، وحاصروا المسيلة وأشير، فسرّح إليهم باديس عمه حماداً وخرج على أثره سنة خمس وتسعين وثلثمائة فترل تيجست ودّوخ حمّاد المغرب، وأثخن في زناتة، واختطّ مدينة القلعة. ثم طلب منه باديس أن يترل على عمل يتجست وقُسنطينة اختياراً للطاغية فأبى وأظهر الخلاف. وبعث إليه أخاه إبراهيم فأقام معه، وزحف إليهم باديس، ثم رحل في طلبه إلى شلف، ونزل إليه بعض العساكر. ودخل في طاعته بنو توجين وجازوا في مدده. ووصل أميرهم عطّية بن دافلين وبدر بن أغمان بن المعتز فوصلها. وكان حمّاد قتل دافلين. ثم نزل باديس نهر واصل والسرسو وكزول وانثنى حماد راجعاً إلى القلعة واتبعه باديس. ونازله بها وهلك بمعسكره عليها سنة ست وأربعمائة فجأة، وهو نائم بين أصحابه بمضربه، فارتحلوا راجعين واحتملوا باديس على أعواده.

دولة المعز بن باديس:

ولما بلغ الخبر بمهلك باديس بويع إبنه المعزّ ابن ثمان سنين، ووصل العسكر فبايعوه البيعة العامة. ودخل حمّاد المسيلة واشير، واستعد للحرب وحاصر باعانة. وبلغ الخبر بذلك فزحف المعز إليه وأفرج عن باعانة ولقيه فانهزم حماد وأسلم معسكره، وتقبض على أخيه إبراهيم ونجا إلى القلعة، ورغب في الصلح فاستجيب على أن يبعث ولده. وانتهى المعز إلى سَطِيف وقصر الطين وقفل إلى حضرته، ووصل إليه القائد ابن حماد سنة ثمان وأربعمائة راغباً في الصلح فعقده، واستقل حماد بعمل المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت وما يفتح من بلاد المغرب وعقد للقائد ابن حمّاد على طبنة والمسيلة ومقره ومرسى الدجاج وسوق حمزة وزواوة وانقلب بهدية ضخمة. ووضعت الحرب أوزارها من يومئذ واقتسموا المظلّة والتحموا بالأصهار، وافترق ملك صنهاجة إلى دولتين: دولة إلى المنصور بن بلكّين أصحاب القيروان، ودولة إلى حمّاد بن بلكين أصحاب القلعة.

ونهض المهر إلى حماد سنة إثنتين وثلاثين فحاصره بالقلعة مدة سنين، ثم أقلع عنها وانكفأ راجعأ ولم يعاود فتنة بعد. ووصل زاوي بن زيري من الأندلس سنة عشر وأربعمائة كما ذكرناه في خبره فتلفاه المعز أعظم لقاء وسلم عليه راجلاً، وفرشت القصور لنزله، ووصله بأعظم الصلات وأرفعها. واستمر ملك المعز بأفريقية والقيروان، وكان أضخم ملك عرف للبربر بأفريقية وأترفه وأبذخه. نقل ابن الرقيق من أحوالهم في الولائم والهدايا والجنائز والاعطيات ما يشهد بذلك، مثل ما ذكر أن هديّة صندل عامل باعانة مائة حمل من المال، وأن بعض توابيت الكبراء منهم كان العود الهندي بمسامير الذهب، وأن باديس أعطى فلفول بن مسعود الزناتي ثلاثين حملاً من المال وثمانين تختاً. وأن أعشار بعض أعمال الساحل بناحية صفاقس كان خمسين ألف قفيز وغير ذلك من أخبارهم.

وكانت بينه وبين زناتة حروب ووقائع كان له الغلب في جميعها كما هو مذكور، وكان

المعز منحرفاً عن مذاهب الرافضة ومنتحلاً للسنة، فأعلن بمذهبه لأول ولايته ولعن الرافضة. ثم صار إلى قتل من وجد منهم، وكبا به فرسه ذات يوم فنادى مستغيثاً باسم أبي بكر وعمر فسمعته العامّة فثاروا لحينهم بالشيعة وقتلوهم أبرح قتل، وقتل دعاة الرافضة يومئذ، وامتعض لذلك خلفاء الشيعة بالقاهرة. وخاطبه وزيرهم أبو القاسم الجرجاني محذراً، وهو يراجعه بالتعريض بخلفائه والمزج فيهم حتى أظلم الجو بينه وبينهم إلى أن انقطع الدعاء لهم سنة أربعين وأربعمائة على عهد المستنصر من خلفائهم. وأحرق بنوده ومحا إسمه من الطرز والسكّة، ودعا للقائم بن القادر من خلفاء بغداد. وجاءه خطاب القائم وكتاب عهده صحبة داعيته أبي الفضل بن عبد الواحد التميمي، فرماه المستنصر خليفة العبيديّين بالعرب من هلال الذين كانوا مع القرامطة، وهم رياح وزغبة والأُثْبج. وذلك بمشاركة من وزيره أبي محمد الحسن بن علي البازوري كما ذكرنا في أخبار العرب ودخولهم إلى أفريقية.

وتقدّموا إلى البلاد وأفسدوا السابلة والقرى. وسرّح إليهم المعز جيوشه فهزموهم فنهض إليهم ولقيهم بجبل حيدران فهزموه، واعتصم بالقيروان فحاصروه وتمرّسوا به وطال عيثهم في البلاد وإضرارهم بالرعايا إلى أن خربت أفريقية. وخرج ابن المعز من القيروان سنة تسع وأربعين وأربعمائة مع خفيره منهم، وهو مؤنس بن

يحيى الصبري أمير رياح فلحق في خفارته بالمهدية، بعد أن أصهر إليه في ابنته فأنكحه إياها ونزل بالمهدية وقد كان قدم إليها إبنه تميماً فترل عليه، ودخل العرب القيروان وانتهبوها.

وأقام المعز بالمهدية وانتزى الثوار في البلاد فغلب حمو بن مليل البرغواطي على مدينة صفاقس، وملكها سنة إحدى وخمسين وأربعمائة. وخالفت سوسة وصار أهلها إلى الشورى في أمرهم. وصارت تونس آخراً إلى ولاية الناصر بن علناس بن حماد صاحب القلعة. وولى عليهم عبد الحق بن خراسان فاستبدّ بها واستقرّت في ملكه وملك بنيه، وتغلب موسى بن يحيى على قابس. وصار عاملها المعز بن محمد الصنهاجى إلى ولايته، وأخوه إبراهيم من بعده كما يأتي ذكره. والثالث ملك آل باديس وانقسم في الثوار كما نذكر في أخبارهم بعد. وهلك المعز سنة أربع وخمسين وأربعمائة والله أعلم.

دولة تميم بن المعز:

ولما هلك المعز قام بأمره إبنه تميم وغلبه العرب على أفريقية فلم يكن له إلا ما ضمه السور، خلا أنه كان يخالف بينهم ويسلط بعضهم على بعض. وزحف إليه حمّو بن ملين البرغواطي صاحب صفاقس فخرج تميم للقائه، وانقسمت العرب عليهما فاهزم حمو وأصحابه، وذلك سنة خمس وخمسين وأربعمائة. وسار منها إلى سوسة فافتتحها، ثم بعث عساكره إلى تونس فحاصروا ابن خراسان حتى استقام على الطاعة لتميم. ثم بعث عساكره أيضاً إلى القيروان، وكان بها قائد بن ميمون الصنهاجي من قبل المعز فأقام ثلاثاً. ثم غلبته عليها هوّارة، وخرج إلى المهدية ثم رده تميم إلى ولايته بها فخالف بعد ست من ولايته، وكاتب الناصر بن علناس صاحب القلعة فبعث تميم إليه العساكر فلحق بالناصر وأسلم القيروان.

ثم رجع بعد ست إلى حمو بن مليل البرغواطي بصفاقس وابتاع له القيروان من مهنا بن علي أمير زغبة فولاه عليها وحصنها سنة سبعين وأربعمائة وكانت بين تميم والناصر صاحب القلعة أثناء ذلك فتن كان سماسرتها العرب يجأجؤن بالناصر من قلعته، ويوطئون عساكره ببلاد أفريقية. وربما ملك بعض أمصارها، ثم يردونه على عقبه إلى داره إلى أن اصطلحا سنة سبعين وأربعمائة، وأصهر إليه تميم بابنته. وهض تميم سنة أربع وسبعين وأربعمائة إلى قابس وبها ماضي بن محمد الصنهاجي، وليها بعد أخيه إبراهيم فحاصرها ثم أفرج عنها. ونازلته العرب سنة ست وسبعين وأربعمائة بالمهدية ثم أفرجوا عنه، وهزمهم فقصدوا القيروان ودخلوها فأخرجهم عنها.

وفي أيامه كان تغلب نصارى جنده على المهدية سنة ثمانين واربعمائة نزلوها في ثلثمائة مركب وثلاثين ألف مقاتل واستولوا عليها وعلى زويلة، فبذل لهم تميم في الترول عنها مائة ألف دينار بعد أن انتهبوا جميع ما كان بها، فاستخلصها من أيديهم ورجع إليها ثم استولى على قابس سنة تسع وثمانين وأربعمائة من يد أخيه عمر بن المعز، بايع له أهلها بعد موت قاضي بن إبراهيم. ثم استولى بعدها على صفاقس سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة، وخرج منها حمو بن مليل إلى قابس فأجاره مكن بن كامل

الدهماني إلى أن مات بها. وكانت رياح قد تغلبت على زغبة وعلى أفريقية من لدن سبع وستين وأربعمائة وأخرجوه منها. وفي هذه المائة الخامسة غلب الأخضر من بطون رياح على مدينة باجة وملكوها، وهلك تميم إثر ذلك سنة إحدى وخمسمائة.

دولة يحيي بن تميم:

ولما هلك تميم بن المعز ولّي ابنه يحيى، وافتتح أمره بافتتاح إقليبية وغلب عليها ابن محفوظ الثائر بها. وثار أهل صفاقس على ابنه أبي الفتوح فلطف الحيلة في تفريق كلمتهم، وراجع طاعة العبيديّين ووصلته المخاطبات والهدايا. وكان قد صرف همه إلى غزو النصارى والأساطيل البحرية فاستكثر منها واستبلغ في اقتنائها. وردد البعوث إلى دار الحرب فيها حتى اتقته أمم النصرانية بالجزي من وراء البحر من بلاد أفريقية وجنوة وسردينية. وكان له في ذلك آثار ظاهرة عزيزة. وهلك فجأة في قصره سنة تسع وخمسمائة والله أعلم.

دولة علي بن يحيي:

ولما هلك يحيى بن تميم ولي عليّ ابنه، استقدم لها من صفاقس، فقدم في خفارة أبي بكر بن أبي جابر، مع عسكر، ونظرائه من أمراء العرب. وكان أعظم أمراء عساكر صنهاجة محاصرين لقصر الأجم فاجتمعوا إليه وتمت بيعته. ونهض إلى حصار تونس حتى استقام أحمد بن خراسان على الطاعة، وفتح جبل وسلات. وكان ممتنعاً على من سلف من قومه فجرد إليه عسكراً مع ميمون بن زياد الصخري المعادي من أمراء العرب فافتتحوه وقتلوا من كان به. ووصل رسول الخليفة من مصر بالمخاطبات والهدايا على العادة. ثم نهض إلى حصار رافع بن مكن بفاس سنة

إحدى عشرة وخمسمائة. ودون لها قبائل بادغ من بني علي إحدى بطون رياح كما نذكره في أخبار رافع. ثم حدثت الفتنة بينه وبين رجار صاحب صقلية بممالأة رجار لرافع بن كامل عليه، وإمداده إيّاه بأسطوله يغير على ساحل علي بن يحي ويرصد أساطيله، فاستخدم علي بن يحي الأساطيل وأخذ في أهبة للحرب، وهلك سنة خمس عشرة وخمسمائة والله أعلم.

دولة الحسن بن علي:

ولما هلك علي بن يحي بن تميم ولي بعده إبنه الحسن بن علي غلاماً يفعة ابن إثنتي عشرة سنة، وقام بأمره مولاه صندل. ثم مات صندل وقام بأمره مولاه موفق. وكان أبوه أصدر المكاتبة إلى رجار عند الوحشة يهدّده بالمرابطين ملوك المغرب، لما كان بينهما وبينهم من المكاتبة. واتفق أن غزا أحمد بن ميمون قائد أسطول المرابطين صقلية وافتتح قرية منها فسباها وقتل أهلها سنة ست عشرة وخمسمائة، فلم يشك رجار أن ذلك بإملاء من الحسن فنزلت أساطيله إلى المهدئة وعليهم عبد الرحمن بن عبد العزيز وجرجي بن مخائيل الأنطاكي. وكان جرجي هذا نصرانياً هاجر من المشرق، وقد تعلّم اللسان وبرع في الحساب. وتهذب في الشام بأنْطاكِية وغيرها فاصطنعه تميم واستولى عليه، وكان يحي يشاوره.

فلما هلك تميم أعمل جرجي الحيلة في اللحاق برجار فلحق به وحظي عنده واستعمله على أسطوله فلما اعتزم على حصار المهدية بعثه لذلك فزحف في ثلثمائة مركب، وبها عدد كثير من النصرانية، فيهم ألف فارس.
وكان الحسن قد استمدّ لحربهم فافتتح جزيرة قوصرة، وقصدوا إلى المهديّة ونزلوا إلى الساحل، وضربوا الأبنية وملكوا قصر الدهانين وجزيرة الأملس. وتكرر القتال فيهم إلى أن غلبهم المسلمون، وأقلعوا راجعين إلى صقلية بعد أن استمر القتل فيهم. ووصل بأكثر ذلك محمد بن ميمون قائد المرابطين بأسطوله، فعاث في نواحي صقلية، واعتزم رجار على
إعادة الغزو إلى المهدية. ثم وصل أسطول يحيى بن العزيز صاحب بجاية لحصار المهدية ووصلت عساكره في البر مع قائده مطرف بن علي بن حمدون الفقيه فصالح الحسن صاحب صقلية ووصل يده به واستمد منه أسطوله. واستمد الحسن أسطول رجار فأمده، وارتحل مطرف إلى بلده.
وأقام الحسن مملكاً بالمهدية، وانتقض عليه رجار وعاد إلى الفتنة معه، ولم يزل يردد إليه الغزو إلى أن استولى على المهدية قائد أسطوله جرجي بن مناسل سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ووصلها بأسطوله في ثلثمائة مركب. وخادعهم بأنهم إنما جاءوا مدداً له. وكان عسكر الحسن قد توجّه صريخاً لمحرز بن زياد الفادغي صاحب علي بن خراسان صاحب تونس، فلم يجد صريخاً فجلا عن المهدية ورحل واتبعه الناس. ودخل العدّو إلى المدينة وتملّكوها دون دفاع. ووجد جرجي القصر كما هو لم يرفع منه الحسن إلاّ ما خص، وترك الذخائر الملوكية. فأثن الناس وأبقاهم تحت إيالته، ورد الفارين منهم إلى أماكنهم. وبعث أسطولاً إلى صفاقس فملكها وأجاز إلى سوسة فملكها أيضاً ثم إلى طرابلس كذلك. واستولى رجار صاحب صقلية على بلاد الساحل كلّها ووضع على أهلها الجري، وولى عليهم كما نذكره، إلى أن استنقذهم من ملكة الكفر عبد المؤمن شيخ الموحّدين وخليفة إمامهم المهدي.
ولحق الحسن بن يحيى بعد استيلاء النصارى على المهديّة بالعرب من رياح، وكبيرهم محرز بن زياد الفادعي صاحب القلعة، فلم يجد لديهم مصرخاً. وأراد الرحيل إلى مصر للحافظ عبد المجيد فأرصد له جرجي فارتحل إلى المغرب، وأجاز إلى بونة، وبها الحارث بن منصور وأخوه العزيز. ثم توخه إلى قسطنطينة، وبها سبع بن العزيز أخو يحيى صاحب بجاية، فبعث إليه من أجازه إلى الجزائر. ونزل على ابن العزيز فأحسن نزله وجاوره إلى أن فتح الموحّدون الجزائر سنة سبع وأربعين وخمسمائة بعد تملكهم المغرب والأندلس، فخرج إلى عبد المؤمن فلقاه تكرمة وقبولاً. ولحق به وصحبه إلى أفريقية في غزواته الأولى، ثم الثانية سنة سبع وخمسين وخمسمائة فنازل المهدية وحاصرها أشهراً. ثم افتتحها سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وأسكن بها الحسن وأقطعه رحيش فأقام هنالك ثماني سنين. ثم استدعاه يوسف بن عبد المؤمن فارتحل بأهله يريد مراكش. وهلك بتامستا في طريقه إلى بابارولو سنة ست وثلاثين،
والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ورب الخلائق أجمعين.
(خريطة)

بنو خراسان من صنهاجة

الخبر عن بني خراسان من صنهاجة الثوار بتونس علم آل باديس

عند اضطراب أفريقية بالعرب ومبد أ أمرهم ومصاير أحوالهم

لما تغلب العرب على القيروان، وأسلم المعز وتحول إلى المهدية اضطرمت أفريقية ناراً. واقتسمت العرب البلاد عمالات، وامتنع كثير من البلاد على ملوك آل باديس مثل أهل سوسة وصفاقس وقابس وصارت صاغية أهل أفريقية إلى بني حماد ملوك القلعة وملكوا القيروان كما تقدم. وانقطعت تونس عن ملك المعز، ووفد مشيختها على الناصر بن علناس، فولى عليهم عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان، يقال إنه من أهل تونس والأظهر أنه من قبائل صنهاجة فقام بأمرهم وشاركهم في أمره وتودد إليهم وأحسن السيرة فيهم، وصالح العرب أهل الضاحية على أتاوة معلومة لكفّ عاديتهم. وزحف تميم بن المعز من المهدية إليه سنة ثمان وخمسين وأربعمائة في جموعه، ومعه يبقى ابن علي أمير زغبة فحاصر تونس أربعة أشهر، إلى أن صالحه ابن خراسان واستقام على طاعته فأفرج عنه.

و لم يزل قائماً بأمره إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين وأربعمائة فولي إبنه عبد العزيز وكان مضعفاً وهلك على رأس هذه الماية الخامسة وقام بأمره إبنه أحمد بن عبد العزيز بن عبد الحق فقتل عمه إسمعيل بن عبد الحق لمكان ترشه، وغربه أبو بكر إلى أن برزت فأقام بها خوفاً على نفسه. ونزع أحمد إلى التخلق بسير الملك والخروج عن سير المشيخة واشتدّت وطأته، وكان من مشاهير رؤساء بني خراسان هؤلاء، فاستبدّ بتونس لأول المائة السادسة وضبطها وبنى أسوارها. وعامل العرب على إصلاح سابلتها فصلحت حاله، وبنى قصور بني خراسان. وكان مجالساً للعلماء محباً فيهم ونازله علي بن يحيى بن العزيز بن تميم سنة عشر وخمسمائة وضيّق عليه، ودافعه بإسعاف غرضه فأفرج عه. ثم نازله عساكر العزيز بن منصور صاحب بجاية فعاد إلى طاعته سنة أربع عشرة وخمسمائة، و لم يزل والياً على تونس إلى أن نهض سنة إثنتين وعشرين وخمسمائة مطرف بن علي بن حمدون قائد يحيى بن العزيز من

بجاية في العساكر إلى أفريقية، وملك عامة أمصارها فتغلّب على تونس وأخرج أحمد بن عبد العزيز صاحبها ونقله إلى بجاية بأهله وولده.

وولى على تونس كرامة بن المنصور عم يحيى بن العزيز فبقي والياً عليها إلى أن مات، وولي عليها بعده أخوه أبو الفتوح بن المنصور إلى أن مات وولي مكانه ابن ابنه محمد. وساءت سيرته فعزل وولي مكانه عمه معد بن المنصور إلى أن استولى النصارى على المهدية وسواحلها ما بين سوسة وصفاقس وطرابلس سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وصارت لصاحب صقلية، وأخرج الحسن بن علي كما هو مذكور فأخذ أهل تونس في الاستعداد والحذر. واستأسدوا لذلك على واليهم، وانتشر بغاهم وربما ثاروا بعض الأيام عليه فقتلوا عبيدة بمرأى منه، واعتدوا عليه في خاصّته فبعث عنه أخوه يحيى من بجاية فركب البحر في الأسطول، وترك نائبه العزيز بن دامال

من وجوه صنهاجة فأقام بينهم وهم مستبدون عليه. وكان بالمعلقة جوارهم محرز بن زياد أمير بني علي من بطون رياح قد تغلب عليها.

وكانت الحرب بينه وبين أهل تونس سجالاً، والتحم بينهما المصاف. وكان محرز يستمدّ عساكر صاحب المهديّة على أهل تونس فتأتيه إلى أن غلب النصارى على المهديّة، وحدثت الفتنة بينهم بالبلد فكان المصاف بين أهل باب السويقة وأهل باب الجزيرة، وكانوا يرجعون في أمورهم إلى القاضي عبد المنعم ابن الإمام أبي الحسن. ولما غلب عبد المؤمن على بجاية وقسطنطينة وهزم العرب بسطيف ورجع إلى مراكش. انتهت إليه شكوى الرعايا بأفريقية مما نزل بهم من العرب، فبعث ابنه عبد الله من بجاية إلى أفريقية في عساكر الموحدين فنازل تونس سنة إثنتين وخمسين خمسمائة وامتنعت عليه. ودخل معهم محرز بن زياد وقومه من العرب واجتمع جندهم وبرزوا للموحّدين فأوقعوا بهم وأفرجوا عن تونس.وهلك أميرها عبد الله بن خراسان خلال ذلك، وولي مكانه علي بن أحمد بن عبد العزيز خمسة أشهر، وزحف عبد المؤمن إلى تونس وهو أميرها، فانقادوا لطاعته كما نذكره في أخبار الموحّدين. ورحل علي بن أحمد بن خراسان إلى مراكش بأهله وولده، وهلك في طريقه سنة أربع وخمسين وخمسمائة وأفرج محرز بن زياد عن المعلقة. واجتمعت إليه
قومه وتدامرت العرب عن مدافعة الموحدين واجتمعوا بالقيروان، وبلغ الخبر إلى عبد المؤمن وهو منصرف من غزاته إلى المغرب فبعث إليهم العساكر وأدركوهم بالقيروان فأوقعوا بهم واستلحموهم قتلاً وسبياً. وتقبض على محرز بن زياد أميرهم فقتل وصلب شلوه بالقيروان، والله يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه وهو على كل شيء قدير.

(خريطة)

الخبر عن بني الرند ملوك قفصة الثائرين بها عند التياث ملك آل باديس بالقيروان واضطرابه بفتنة العرب ومبدأ دولتهم ومصاير أمورهم:

لما تغلب العرب على أفريقية وانحلّ نظام الدولة الصنهاجيّة، وارتحل المعز من القيروان إلى المهدية، وكان بقفصة عاملاً لصنهاجة عبد الله بن محمد بن الرند وأصله من جرية من بني صدغيان. وقال ابن نحيل هو من بنى مرين بن مغراوة ، وكان مسكنهم بالجوسين من نفزاوة فضبط قفصة وقطع عنها عادية الفساد، وصالح العرب على الاتاوة فصلحت السابلة واستقام الحال . ثم استبدّ بأمره وخلع الامتثال من عنقه سمة خمس وأربعين وخمسماية ، واستمر على ذلك. وبايعته توزر وقفصة وسوس والحامة ونفزاوة وسائر أعمال قسطنطينة فاستفحل أمره وعظم سلطانه، ووفد عليه الشعراء والقصّاد، وكان معظماً لأهل الدين إلى أن هلك سنة خمس وستين وخمسمائة.

وولي من بعده إبنه المعتز وكنيته أبو عمر، وانقاد إليه الناس فضبط الأمور وجبى الأموال واصطنع الرجال وتغلب على قمودة وجبل هوّارة وسائر بلاد قسطيلية وما إليها. وحسنت سيرته إلى أن عمي. وهلك في حياته إبنه تميم فعهد لابنه يحيى بن تميم. وقام بالأمر، واستبدّ على حدّه ولم يزالوا بخير حال إلى أن نازلهم عبد المؤمن

سنة أربع وخمسين وخمسمائة فمنعهم من الأمر، ونقلهم إلى بجاية فمات المعتز بها سنة سبع وخمسين وخمسمائة لمائة وأربع عشرة من عمره وقيل لسبعين، ومات بعده بيسير حافده يحيى بن تميم. وولى عبد المؤمن على قفصة نعمان بن عبد الحق الهنتاني. ثم عزله بعد ثلاث بميمون ابن أجانا الكنسيفي. ثم عزله بعمران بن موسى الصنهاجي وأساء إلى الرعية فبعثوا عن علي بن العزيز بن المعتز من بجاية. وكان بها في مضيعة يحترف بالخياطة فقدم عليهم، وثاروا بعمران بن موسى عامل الموحّدين فقتلوه وقدّموا علي بن العزيز فساس ملكه وحاط رعيته. وأغزاه يوسف بن عبد المؤمن سنة ثلاث وستين وخمسمائة أخاه السيد أبا زكريا فحاصره وضيّق عليه وأخذه وأشخصه بر مراكش بأهله وماله، واستعمله على الأشغال بمدينة سلا إلى أن هلك وفنيت دولة بني الرند والبقاء لله وحده اه.

الخبر عن بني جامع الهلاليين أمراء قابس لعهد الصنهاجيين وما كان لتميم بها من الملك والدولة وذلك عند فتنة العرب بأفريقية:

ولما دخلت العرب إلى أفريقية وغلبوا المعز على الضواحي ونازلوه بالقيروان، وكان الوالي بفاس المعز بن حمد بن لموية الصنهاجي، وكان أخواه إبراهيم وماضي بالقيروان قائدين للمعز على جيوشه فعزلهما، ولحقا مغاضبين بمؤنس بن يحيى، وكان أوّل تملّك العرب. ثم أقام إبراهيم منهم والياً بقابس، ولحق المعز بن محمد بمؤنس، فكان معه إلى أن هلك إبراهيم، وولي مكانه أخوه ماضي وكان سيىء السيرة فقتله أهل قابس، وذلك لعهد تميم بن المعز بن باديس، وبعثوا إلى عمر أخي السلطان في طاعة العرب، فوليها بكر بن كامل بن جامع أمير المناقشة من دهمان من بني علي إحدى بطون رياح فقام بأمرها، واستبد على صنهاجة. ولحق به مثنى بن تميم بن المعز نازعاً عن أبيه فأجابه ونازل معه المهديّة حتى امتنعت عليه، واطلع على قبائح شتى فأفرج عنها. و لم يزل كذا على حاله في إجابة قابس وإمارة قومه دهمان إلى أن هلك. وقام بأمره بعده رافع واستفحل بها ملكه، وهو الذي اختط قصر العروسيين من مصانع الملك بها، وإسمه مكتوب لهذا العهد في جدرانها.

ولما ولي علي بن يحيى بن تميم فسد ما بينه وين رافع وأعان عليه رافع صاحب صقلية فغلب أسطول علي بن يحيى على أسطول النصارى. ثم ذوى قبائل العرب والأساطيل، وزحف إلى قابس سنة إحدى عشر وأربعمائة. قال ابن أبي الصلت: دول الثلاثة الأخماس من قبائل العرب الذين هم: سعيد ومحمد ونجبة، وأضاف إليهم من الخمس الرابع أكابر بني مقدم فوافى من كان منهم بفحص القيروان. وفر رافع إلى القيروان وامتنع عليه أهلها. ثم اجتمع شيوخ دهمان، واقتسموا البلاد وعينوا القيروان لرافع وأمكنوه. وبعث علي بن يحيى عساكره والعرب المدونة على منازلة رافع بالقيروان وخرج إلى محاربتهم فهلك بالطريق في بعض حروبه مع أشياع رافع.

ثم أن ميمون بن زياد الصخري حمل رافع بن مكن على مسالمة السلطان وسعى في إصلاح ذات بينهما، فانصلح وارتفعت بينهما الفتنة. وقام بقابس من ذلك رشيد بن كامل. قال ابن نخيل وهو الذي اختط قصر العروسيين وضرب السكّة الرشيدية. وولي بعده إبنه محمد بن رشيد وغلب عليه مولاه يوسف. ثم خرج محمد

في بعض وجوهه وترك ابنه مع يوسف فطرده يوسف واستبد، وانتهى إلى طاعة رجار فثار به أهل قابس ودفعوه عنهم فخرج إلى أخيه. ولحق أخوه عيسى بن رشيد وأخبره الخبر فحاصرهم رَجَار بسبب ذلك مدة من الأيام. وكان آخر من ملكها من بني جامع أخوه مدافع بن رشيد بن كامل. ولّما استولى عبد المؤمن على المهديّة وصفاقس وطرابلس بعث إبنه عبد الله بعسكر إلى قابس، ففر مدافع بن رشيد عن قابس وأسلمها للموحدين ولحق بعرب طرابلس من عرب عوف فأجاروه سنتين. ثم لحق بعبد المؤمن بقابس فأكرمه ورضي عنه. وانقرض أمر بني جامع من يؤانس، والبقاء لته وحده اه.

الخبر عن ثورة رافع بن مكن بن مطروح بطرابلس والعرامي بصفاقس علي النصاري وإخراجهم واستبدادهم بأمر بلدهم في آخر دولة بني باديس:

أما طرابلس فكان رجار صاحب صقلية لعنة الله عليه قد استولى عليها سنة أربعين وخمسمائة على يد قائده جرجي بن ميخاييل الأنطاكي، وأبقى المسلمين بها واستعمل عليهم، وبقيت في مملكة النصارى أياماً. ثم إن أبا يحيى بن مطروح من أعيان البلد مشى في وجوه الناس وأعيانهم، وداخلهم في الفتك بالنصارى فاجتمعوا لذلك وثاروا بهم وأحرقوهم بالنار. ولما وصل عبد المؤمن إلى المهديّة وافتتحها سنة خمس وخمسين خمسمائة وفد عليه أبو يحيى بن مطروح ووجوه أهل طرابلس فأوسعهم براً وتكرمةً. وقدم ابن مطروح المذكور عليهم وردهم إلى بلدهم فلم يزل

عليهم إلى أن هرَم وعجز بعهد يوسف بن عبد المؤمن، و طلب الحج فسرّحه السيد أبو زيد بن أبي حفص محمد بن عبد المؤمن عامل تونس فارتحل في البحر سنة ست وثمانين وخمسمائة واستقر بالإسكندرية.

وأما صفاقس فكانت ولاتها أيام بني باديس من صنهاجة قبيلهم إلى أن ولى المعز بن باديس عليها منصور البرغواطي من صنائعه، وكان فارساً مقداماً فحدّث نفسه بالثورة أيام تغلب العرب على أفريقية، وخروج المعز إلى المهدية، ففتك به ابن عمه حمو بن مليل البرغواطي وقتله في الحمام غدراً. وامتعض له حلفاؤه من العرب وحاصروا حمو حتى بذل لهم من المال ما رضوا به. واستبد حمو بن مليل بأمر صفاقس حتى إذا هلك المعز حدثته نفسه بالتغلب على المهدية، فزحف إليها في جموعه من العرب ولقيه تميم فانهزم حمو وأصحابه سنة خمس وخمسين وخمسمائة. ثم بعث ابنه يحيى مع العرب لحصار صفاقس فحاصرها مدّة وأقلع عنها. وزحف إليه تميم بن المعز سنة ثلاث وتسعين فغلبه عليها. ولحق حمو بمكن بن كامل أمير قابس فأجاره، وصارت صفاقس إلى ملكة تميم ووليها إبنه.

ولما تغلب النصارى على المهدية وملكها جرجي بن ميخائيل قائد رجار سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وتغلبوا بعدها على صفاقس وأبقوا أهلها، واستعملوا عمر بن أبي الحسن القرباني لمكانه فيهم. وحملوا أباه أبا الحسن معهم إلى صقلّية رهناً. وكان ذلك مذهب رجار ودينه فيما ملك من سواحل أفريقية، يقيهم ويستعمل عليهم منهم، ويذهب إلى العدل فيهم فبقي عمر بن أبي الحسن عاملاً لهم في أهل بلده وأبوه عندهم. ثم أن النصارى الساكنين بصفاقس امتدت أيديهم إلى المسلمين ولحقوهم بالضرر. وبلغ الخبر أبا الحسن وهو بمكانه من

صقلية. فكتب إلى إبنه عمر، وأمره بانتهاز الفرصة فيهم والاستسلام إلى الله في حق المسلمين، فثار بهم عمر لوقته سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وقتلهم. وقتل النصارى أباه أبا الحسن وانتقضت عليهم بسبب ذلك سائر السواحل. ولما افتتح عبد المؤمن المهدية من يد رجار وصل إليه عمر، وأدى طاعته فولاه صفاقس. ولم يزل والياً عليها وابنه عبد الرحمن من بعده، إلى أن تغلب يحيى بن غانية فرغبه في الحج فسرحه ولم بعد.

الخبر عما كان بأفريقية من الثوار علي صنهاجة عند اضطرابها بفتنة العرب إلي أن محا أثرهم الموحدون:

لما كان أبو رجاء الورد اللخمي عند اضطرام نار الفتنة بالعرب، وتقويض المعز عن القيروان إلى المهدية، وتغلبهم عليها قد ضم إليه جماعة من الدعّار. وكان ساكناً بقلعة قُرْسينَة من جبل شعيب فكان يضرب على النواحي بجهة بترت ويفرض على أهل القرى الأتاوات بسبب ذلك، فطال عليهم أمره ويئسوا من حسم دائه وكان ببلد بترت فريقان أحدهما من لخم وهم قوم الورد، وبقوا فوضى واختلف أمرهم فبعثوا إلى الورد في أن يقوم بأمرهم، فوصل إلى بلدهم فاجتمعوا عليه وأدخلوه حصن بترت. وقدموه على أنفسهم فحاطهم من العرب ودافع عن نواحيهم. وكان بنو مقدم من الأثبج ودهمان من بني علي إحدى بطون رياح هم المتغلبون على ضاحيتهم فهادنهم على الأتاوة وكف بها عاديتهم، واستفحل أمرهم وتسفى بالأمير، وشيد المصانع والمباني وكثر عمران بترت إلى أن هلك ، فقام بأمره ابنه طراد، وكان شهماً، وكانت العرب تهابه.

وهلك فولي من بعده إبنه محمد بن طراد وقتله أخوه مقرن لشهر من ولايته في مسامرة وقام بأمر بترت وسفي بالأمير، وحمى حوزته من العرب، واصطنع الرجال، وعظم سلطانه وقصده الشعراء وامتدحوه فوصلهم. وهلك فولي من بعده إبنه عبد العزيز عشر سنين وجرى فيها على سنن أبيه وجده ثم ولي من بعده أخوه موسى على سننهم أربع سنين. ثم من بعده أخوهما عيسى واقتفى أثرهم. ولما نازل عبد الله بن عبد المؤمن تونس وأفرج عنه ومرّ به في طريقه فاستفرغ جهده في قراه وتجمع بطاعته. وطلب منه الحفاظ على بلده فأسعفه. وولى عليهم أبا الحسن الهَرغَي، فلما قدم عبد المؤمن على أفريقية سنة أربع وخمسين وخمسمائة راعى له ذلك وأقطعه، واندرج في جملة الناس. وكان بقلعة ورغة يدوكس بن أبي علي الصنهاجي من أولياء العزيز المنصور صاحب بجاية، والقلعة قد شادها وحصّنها.

وكان مبدأ أمره أن العزيز تغيّر عليه في حروب وقعت بينه وبين العرب نسب فيها إلى نفسه الإقدام، وإلى السلطان العجز فخافه على نفسه، ولحق ببجاية فأكرمه شيخها محمود بن نزال الريغي وآواه. وترافع إلى محمود أهل ورغة من عمله. وكانوا فئتين مختلفتين من زاتيمة إحدى قبائل البربر، وهما: أولاد مدين وأولاد لاحق. فبعث عليهم بروكس بن أبي علي لينظر في أحوالهم، وأقام معهم بالقلعة. ثم استجلب بعض الدعّار كانوا بناحيتها وأنزلهم بالقلعة معهم واصطنعهم، وصاهر أولاد مدين وظاهرهم على أولاد لاحق، وأخرجهم من القلعة واستبدّ بها.

وقصدته الرجالى من كل جانب إلى أن اجتمعت له خمسمائة فارس، وأثخن في نواحيه، وحارب بني الورد ببترت وابن علال بطبربة، وقتل محمد بن سباع أمير بني سعيد من رياح، وغضت القلعة بالساكن فاتخذ لها

ربضاً، وجهز إليه العزيز عسكره من بجاية فبارز قائد العسكر وفتك به وإسمه غيلاس. وهلك بعد مدة وقام بأمره ابنه مَنِيع، ونازله بنو سبّاع وسعيد طالبين بثأر أخيهما محمد. وتمادى به الحصار وضاقت أحواله فاقتحموا عليه القلعة، واستلحم هو وأهل بيته قتلاً وسبياً والله مالك الأمور.

وكان أيضاً بطبربة مُدَافِع بن علال القَيسِيّ شيخ من شيوخها. فلما اضطربت أفريقية عند دخول العرب إليها امتنع بطبرية وحصن قلعتها، واستبدّ بها في جملة من ولده وبني عمه وجماعته إلى أن ثار عليه ابن بيزون اللخمي في البحرين على وادي مجردة بإزاء الرياحين. وطالت بينهما الفتنة والحرب. وكان قهرون بن غنوش بمنزل دحمون قد بنى حصنه وشيّده، وجمع إليه جيشاً من أوباش القبائل، وذلك لما أخرجه أهل تونس بعد أن ولاّه العامة عليهم. ثم صرفوه عن ولايتهم لسوء سيرته فخرج من البلد، ونزل دحمون وبنى حصناً بنفسه مع الحنايا وردد الغارة على تونس، وعاث في جهاتها فرغبوا من محرز بن زياد أن يظاهرهم عليه ففعل.

وبلغ خبره ابن علاّلْ صاحب طبربة فوصل ابن علال يده بصهر منه ونقله إلى بعض الحصون ببلده، وهي قلعة غنوش، وتظافروا على الإفساد. وخلفهما بنوهما من بعدهم إلى أن وصل عبد المؤمن إلى أفريقية سنة أربع وخمسين وخمسمائة فمحا آثار

الفساد من جانب أفريقية، وكان أيضاً حماد بن خليفة اللخمي بمنزل رقطون من إقليم زغوان على مثل حال ابن علال وابن غنوش وابن بيزون وخلفه ولده في مثل ذلك إلى أن انقطع ذلك على يد عبد المؤمن. وكان عماد بن نصر الله الكلاعي بقلعة شقبناريّة قد صار إليه جند من أهل الدعارة وأوباش القبائل فحماها من العرب، واستغاث به ابن قليه شيخ الأريس من العرب وشكا إليه سوء ملكتهم، فزحف إليهم وأخرجهم من الأريس، وفرض عليهم مالاً يؤدونه إليه إلى أن مات وولي ابنه من بعده فجرى على سننه إلى أن دخل في طاعة عبد المؤمن سنة أربع وخمسين وخمسمائة، والله مالك الملك لا رب غيره سبحانه اه.

الخبر عن دولة آل حماد بالقلعة من ملوك صنهاجة الداعية
لخلافة العبيديين وما كان لهم من الملك والسلطان
بإفريقية والمغرب الأوسط إلى حين انقراضه بالموحدين

هذه الدولة شعبة من دولة آل زيري، وكان المنصور بلكّين قد عقد لأخيه حماد على أشير والمسيلة، وكان يتداولها مع أخيه يطوفت وعمه أبي البهار. ثم استقل بها سنة سبع وثمانين وثلثمائة أيام باديس من أخيه المنصور ودفعه لحرب زناتة سنة خمس وتسعين وثلثمائة بالمغرب الأوسط من مغراوة وبني يفرن، وشرط له ولاية أشير والمغرب الأوسط وكل بلد يفتحه وأن لا يستقدمه. فعظم عناؤه فيها وأثخن في زناتة، وكان مظفراً عليهم. واختطّ مدينة القلعة بجبل كتامة سنة ثمان وتسعين وثلثمائة، وهو جبل عجيسَة وبه لهذا العهد قبائل عياض من عرب هلال. ونقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة وخربهما. ونقل جراوة من المغرب وأنزلهم بها، وتم بناؤها وتمصّرها على رأس المائة الرابعة. وشيد من بنيانها وأسوارها واستكثر فيها من المساجد والفنادق، فاستبحرت

في العمارة واتسعت بالتمدّن. ورحل إليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع لنفاق أسواق المعارف والحرف والصنائع بها.

و لم يزل حمّاد أيام باديس هذا أميراً على الزاب والمغرب الأوسط ومتولياً حروب زناتة. وكان نزوله ببلد أشير والقلعة متاخماً لملوك زناتة وأحيائهم البادية بضواحي

تلمسا وتاهرت. وحاربه بنو زيري عند خروجهم على باديس سني تسعين وثلثمائة وهم زاوي وماكسن وإخوانهما، فقتل ماكسن وابناه وألجأ زاوي وإخوته إلى جبل شنون وأجازهم البحر إلى الأندلس. ثم إن بطانة باديس ومن إليه من الأعجام والقرابة نفسوا على حفا رتبته وسعوا في مكانه من باديس، إلى أن فسد ذات بينهما. وطلب باديس أن يسلم عمل تيجسب وقسطنطينة لولده المعز لما قلده الحاكم ولاية عهد ابنه، فأبى حماد وخالف دعوة باديس وقتل الرافضة وأظهر السنة ورضي عن الشيخين ونبذ طاعة العُبَيديّين جملة ،وراجع دعوة آل العباس وذلك سنة خمس وأربعمائة وزحف إلى باجة فدخلها بالسيف ودسّ إلى أهل تونس الثورة على المشارقة والرافضة فثاروا بهم فناصبه باديس الحرب، وعبى عساكره من القيروان، وخرج إليه فنزع عن حماد أكثر أصحابه مثل: بني أبي واليل أصحاب معرّة من زناتة، وبني حسن كبار صنهاجة، وبني يطوفت من زناتة، وبني غمرة أيضاً منهم، وفر حماد، وملك باديس أشير. ولحق حماد بشلف بني واليل وباديس في اتباعه، حتى نزل مواطين السرسّو من بلاد زناتة. ونزع إليه عطية بن داقلتن في قومه من بني توجين، لما كان حماد قتل أباه. وجاء على أثره ابن عمه بدر بن لقمان بن المعتز فوصلهما باديس واستظهر بهما على حماد.

ثم أجاز إليه باديس من وادي شلف وناجزه الحرب، ونزع إليه عامة أهل معسكره فانهزم وأغذ السير إلى القلعة، وباديس في أثره حتى نزل فحص المسيلة، وانحجر حماد في القلعة وحاصره. ثم هلك بمعسكره من ذلك الحصار فجأة بمضربه وهو نائم بين أصحابه آخر ست وأربعمائة، فبايعت صنهاجة لابنه المعز صبياً ابن ثمان سنين. وتلاقوا أمر أشير، وبعثوا كرامة بن منصور لسدها فلم يقدر، واقتحمها عليه حماد. واحتملوا باديس على أعواده إلى مدفنهم بالقيروان. وبايعوا المعز بالبيعة العامة. وزحف إلى حماد بناحية قفصة، وأشفق حماد فبعث ابنه القائد لأحكام الصلح بينه وبين المعز، فوصل إلى القيروان سنة ثمان وأربعمائة بهدية جليلة. وأمضى له المعز ما سأله من الصلح ورجع إلى أبيه.

وهلك حماد سنة تسعة عشر وأربعمائة فقام بأمره ابنه القائد، وكان جباراً فاختاره أخاه يوسف على المغرب وويغلان على حمزة، في بلد اخطته حمزة بن إدريس. وزحف إليه حمامة بن زيري بن عطية ملك فاس من مغراوة سنة ثلاثين وأربعمائة، فخرج إليه القائد وسرب الأموال في زناتة. وأحس بذلك حمامة فصالحه ودخل في طاعته، ورجع إلى فاس. وزحف إليه المعز من القيروان سنة أربع وثلاثين ووأربعمائة

وحاصره مدة طويلة. ثم صالح القائد وانصرف إلى أشير فحاصرها، ثم أقلع عنها وانكفأ راجعاً. وراجع القائد طاعة العبيديين لما نقم عليه المعز ولقبوه شرف الدولة.

وهلك سنة ست وأربعين وستمائةوأربعمائة وولي ابنه محسن وكان جباراً، وخرج عليه عمه يوسف ولحق بالمغرب فقتل سائر أولاد حماد، وبعث محسن في طلبه بلكّين ابن عمه محمد بن حمّاد، وأصحبه من العرب خليفة بن بكير وعطية الشريف وأموهما بقتل بلكّين في طريقهما، فأخبرا بلكين بذلك وتعاهدوا جميعاً على قتل محسن وأنذر بهم ففر إلى القلعة وأدركوه، فقتله بلكّين لتسعة أشهر من ولايته. وولي الأمر سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، وكان شهماً قرماً حازماً سفاكاً للدماء. وقتل وزير محسن الذي تولى قبله. وفي أيامه قتل جعفر بن أبي رمان مقدم بسكرة لما أحس بنكثه، فخالف أهل بسكرة بأثر ذلك حسبما نذكره. ثم مات أخوه مقاتل بن محمد فاتهم به زوجته ناميرت بنت عمه علِنّاس بن حماد فقتلها، وأحفظ ذلك أخاها الناصر وطوى على التبييت. وكان بلكّين كثيراً ما يردد الغزو إلى المغرب. وبلغه استيلاء يوسف بن تاشفين والمرابطين على المصامدة فنهض نحوهم سنة أربع وخمسين وستمائة وأربعمائة، وفر المرابطون إلى الصحراء، وتوغل بلكين في ديار المغرب، ونزل بفاس، واحتمل من أكابر أهلها وأشرافهم رهناً على الطاعة. وانكفأ راجعاً إلى القلعة، فانتهز منه الناصر ابن عمه الفرصة في الثأر بأخته، ومالأه قومه من صنهاجة لما لحقهم من تكلف المشقة بإبعاد الغزو والتوغل في أرض العدو فقتله بتسالة سنة أربع وخمسين وستمائة وأربعمائة.

وقام بالأمر من بعده، واستوزر أبا بكر أبي الفتوح، وعقد على المغرب لأخيه كباب وأنزله مليانة وعلى حمزة لأخيه رومان، وعلى نقاوس لأخيه خزر. وكان المعز

قد هدم سورها فأصلحه الناصر، وعقد على قسطنطينة لأخيه بلباز، وعلى الجزائر وسوس الدحاج لابنه عبد الله، وعلى أشير لابنه يوسف، وكتب إليه حمو بن مليك البرغواطي من صفاقس بالطاعة وبعث إليه بالهدية. ووفد عليه أهل قسطنطينة ومقدمهم يحيى بن واطاس فأعلنوا بطاعته، وأجزل صلتهم وردهم إلى أماكنهم، وعقد عليها ليوسف بن خلوف من صنهاجة ودخل أهل القيروان أيضاً في طاعته وكذلك أهل تونس.

وكان أهل بسكرة لما قتل بلكين مقدمهم جعفر بن أبي رمّان خلعوا طاعة آل حماد واستبدوا بأمر بلدهم، وعليهم بنو جعفر فسرح الناصر إليهم خلف بن أبي حيدرة وزيره ووزير بلكّين قبله فنازلها وافتتحها عنوة، واحتمل بني جعفر في جماعة من رؤسائها إلى القلعة فقتلهم الناصر وصلبهم، ثم قتل خلف بن أبي حيدرة بسعاية رجالات صنهاجة فيه، أنه لما بلغه خبر بلكّين أراد تولية أخيه معمّر، وشاورهم في ذلك فقتله الناصر وولى مكانه أحمد بن جعفر بن أفلح.

ثم خرج الناصر ليتفقد المغرب فوثب علي بن راكان على تافربوست دار ملكهم.وكان لما قتل بلكين هرب إلى إخوانه من عجيسة، واهتبلوا الغرة في تافربوست لغيبة الناصر فطرقوها ليلا. وملكها علي فرجع الناصر من المسيلة وعاجلهم فسقط فني أيديهم وافتتحها عليهم عنوة، وذبح علي بن ركان نفسه بيده ثم وقعت بين العرب الهلاليين فتن وحروب ووفد عليه رجالات الأثبج صريخاً به على رياح فأجابهم ونهض إلى مظاهرتهم في جموعه من صنهاجة وزناتة حتى نزل للأربس، وتواقعوا بسببه فغدرت بهم زناتة وجروا عليه وعلى قومه الهزيمة بدسيسة ابن المعز بن زيري بن عطية وإغراء تميم بن المعز فانهزم الناصر، واستباحوا خزائنه ومضاربه، وقتل أخوه القاسم وكاتبه ونجا إلى قسطنطينة في أتباعه.

ثم لحق بالقلعة في فل من عسكره، لم يبلغوا مايتين. وبعث وزيره ابن أبي الفتوح للإصلاح فعقد بينهم وبينه صلحاً وتّمه الناصر. ثم وفد عليه رسول تميم وسعى عنده بالوزير ابن أبي الفتوح، وأنه مائل إلى تميم فنكسه وقتله. وكان المستنصر

بن خزرون الزناتي خرج في أيام. الفتنة بين الترك والمغاربة بمصر، ووصل إلى طرابلس فوجد بني عدي بها قد أخرجهم الأثبج وزغبة من أفريقية كما ذكرناه، فرغبهم في بلاد المغرب، وسار بهم حتى نزل المسيلة، ودخلوا أشير. وخرج إليه الناصر ففر إلى الصحراء ورجع، فرجع إلى مكانه من الإفساد فراسله الناصر في الصلح فأسعفه، وأقطعه ضواحي الزاب وريغة ،وأوعز، إلى عروس بن هندي رئيس بسكرة لعهده، وولي دولته أن يمكر، به فوصل المنتصر إلى بسكرة، وخرج إليه عروس بن هندي وأحمد نزله، وأشار إلى حشمه عند انكباب المنتصر وذويه على الطعام فبادروا مكبين لطعنه، وفر أتباعه وأخذوا رأسه وبعث به إلى الناصر فنصبه ببجايه وصلب شلوه بالقلعة وجعلوه عِظه لغيره. وقتل كثير من رؤساء زناتة فمن مغْرَاوَة أبي الفتوح بن حبوس أمير بني سنجلس، وكانت له بلد لمدية ولمرية قبيل من بطون صنهاجة سميت البلد بهم، وقتل معنصر بن حماد منهم أيضاً ، وكان بناحية شفف فأجلب على عامل مليانة، وقتل شيوخ بني وريسفان من مغراوة فكاتبهم السلطان لما كان مشتغلاً عنهم بشأن العرب، فزحفوا إلى معنصر وقتلوه، وبعثوا برأسه إلى الناصر فنصبه على رأس المنتصر. وبعث إليه أهل الزاب أن عمر ومغراوة ظاهروا الأثبج من العرب على بلادهم، فبعث إبنه المنصور في العساكر ونزل وعلان بلد المنتصر بن خزرون وهدمها. وبعث سراياه وجيوشه إلى بلد واركلا وولى عليها، وقفل بالغنائم والسبي وبلغه عن بني توجين من زناتة أنهم ظاهروا بني عدي من العرب على الفساد وقطع السبيل، وأميرهم إذ ذاك مناد بن عبد الله فبعث إبنه المنصور إليهم بالعسكر، وتقبض على أمير بني ساكن بن عبد الله وحميد بن خزعل ولاحق بن جهان، وتقبض أيضاً على أمير بني توجين وأخيه زيري وعمهما الأغلب وحمامة، وأحضرهم فوبخهم وقدر عليهم فغلبه في إجارتهم من أولاد القاسم رؤساء بني عبد الواد، وقتلهم جميعاً على الخلاف.

وفي سنة ستين وأربعمائة افتتح جبل بجاية، وكان له قبيل من البربر يسمون بهذا الاسم، إلا أن الكاف فيهم بلغتهم ليست كافاً بل هي بين الجيم والكاف، وهذا

القبيل من صنهاجة باقون لهذا العهد أوزاعاً في البربر، فلما افتتح هذا الجبل اختط به المدينة وسمّاها الناصرية، وتسمى عند الناس باسم القبيلة وهي بجاية وبنى بها قصر اللؤلؤة، وكان من أعجب قصور الدنيا ونقل إليها الناس، وأسقط الخراج عن ساكنيها وانتقل إليها سنة إحدى وستين وأربعمائة. وفي أيام الناصر هذا كان استفحال ملكهم وشغوفه على ملك بني باديس إخوانهم بالمهدية، ولما أضرع منه الدهر بفتنة العرب الهلاليين حتى اضطرب عليهم أمرهم، وكثر الثوار عليهم والمنازعون من أهل دولتهم فاعتز آل حماد هؤلاء أيام الناصر هذا، وعظم شأن أيامهم، فبنى المباني العجيبة المؤنقة، وشيد المدائن العظيمة، وردد الغزو إلى المغرب وتوغل فيهم.

ثم هلك سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، وقام بالأمر من بعده إبنه المنصور بن الناصر. ونزل بجاية سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وأوطنها بعساكر وخاصة بعراعر منازل العرب، وما كانوا يسومونهم بالقلعة، من خطة الخسف وسوء العذاب بوطء ساحاتها والعيث في نواحيها، وتخطف الناس من حولها لسهولة طرقها على رواحلهم، وصعوبة المسالك عليها في الطريق إلى بجاية لمكان الأوعار، فاتخذ بجاية هذه معقلاً وصيرها داراً لملكه، وجدد قصورها وشيد جامعها. وكان المنصور هذا جماعة مولعاً بالبناء، وهو الذي حضر ملك بني حماد، وتأنق في اختطاط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين. فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام وفي بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميميون.

وكان أخوه يلباز على قسطينة منذ عهد الناصر أبيهما. وهم بالاستبداد لأول ولاية المنصور فسرح إليه أبا يكنى بن محصن بن العابد في العساكر، وعقد له على قسطينة وبونة فتقبض على يلباز وأشخصه إلى القلعة، وأقام والياً على قسنطينة مكانه، وولى أخاه ويغلان على بونة. ثم بدا له في الخلاف على المنصور وثار بقسنطينة سنة سبع وثمانين وأأربعمائة. وبعث أخاه بن موتة إلى تميم بن المعز بالمهديّة، واستدعاه لولاية موتة فبعث معه ابنه أبا الفتوح بن تميم، ونزل بونة مع ويغلان. وكاتبوا المرابطين بالمغرب الأقصى وجمعوا العرب على أمرهم. وسرح المنصور عساكره فحاصروا بونه سبعة أشهر. ثم اقتحموها غلاباً، وتقبضوا على أبي الفتوح

بن تميم وبعثوا به إلى المنصور فاعتقله بالقلعة.

ثم نازلت عساكره قسنطينة واضطرب أحوال ابن أبي يُكنى فخرج إلى قلعة بجبل أوراس، وتحصن بها. ونزل بقسنطينة صُلَيْصِل بن الأحمر من رجالات الأثبج. وداخل صليصل المنصور في أن يمكنه من قسنطينة على مال يبذله ففعل، واستولى عليها المنصور. وأقام أبو يُكنى بحصنه من أوراس، وردد الغارة على قسنطينة فتوجهت إليه العساكر وحاصروه بقلعته. ثم اقتحموها عليه وقتلوه. وكان بنو ومانو من زناتة

حياً جميعاً وقوماً أعزة. وكانت إليهم رئاسة زناتة. وكان رئيسهم لعهده ماخوخ، وكان بينهم وبين آل حماد صهر فكانت إحدى بناهم زوجة للناصر، وكانت أخرى عند المنصور.

ولما تجددت الفتنة بينه وبين قومهما أغزاهم المنصور بنفسه في جموع صنهاجة وحشوده، وجمع له ماخوخ ولقيه في زناتة فانهزم المنصور إلى بجاية فقتل أخت ماخوخ التي كانت تحته. واستحكمت النفرة بين ماخوخ وبينه. وسار إلى ولاية أمراء تلمسان من لمتونة وحرضهم على بلاد صنهاجة، فكان ذلك مما دعا المنصور إلى النهوض إلى تلمسان. وذلك أن يوسف بن تاشفين لما ملك المغرب واستفحل به أمره سما إلى ملك تلمسان، فغلب عليها أولاد يُعْلَى سنة أربع وسبعين وأربعمائة على ما يأتي ذكره، وأنزلها محمد بن يغمر المسولي وصيرها ثغراً لملكه فاضطلع بأمرها ونازل بلاد صنهاجة وثغورهم، فزحف إليه المنصور وأخرب ثغوره وحصون ماخوخ، وضيق عليه فبعث إليه يوسف بن تاشفين وصالحه.

وقبض أيدي المرابطين عن بلاد صنهاجة ثم عاود المرابطون إلى شأنهم في بلاده فبعث إبنه الأمير عبد الله، وسمع به المرابطون فانقبضوا عن بلاده وزحفوا إلى مراكش. واحتل هو بالمغرب الأوسط فشن الغارة في بلاد بني ومانوا، وحاصر الجعبات، وفتحها ثم عاود ذلك مرات كذلك، وعفا عن أهلها، ورجع إلى أبيه. ثم وقعت الفتنة بينه وبين ماخوخ. وقتل أخوه ولحق ابن ماخوخ بتلمسان، وظاهره ابن يغمر صاحب تلمسان على أمره، وأجلبوا على الجزائر فنازلوها يومين، فأعقبهما محمد بن يغمر صاحب تلمسان.

وولي يوسف بن تاشفين مكان أخيه تاشفين بن يغمر، فنهض إلى أشير وافتتحها فقام المنصور في ركائبه ومعه كافة صنهاجة. ومن العرب أحياء الأثبج وزغبة وربيعة، وهم المعقل، من زناتة أمماً كثيرة، ونهض إلى غزو تلمسان سنة ست وسبعين وأربعمائة في نحو عشرين ألفاً. ولقي أسطقسة وبعث العسكر في مقدمته، وجاء على أثرهم. وكان تاشفين قد أفرج عن تلمسان وخرج إلى تساله ولقيته عساكر المنصور فهزموه، ولجأ إلى جبل الصخرة. وعاثت عساكر المنصور في تلمسان فخرجت إليه حوا زوجة تاشفين أميرهم متذممة راغبة في الإبقاء، متوسلة بوشائج الصنهاجية، فأكبر قصدها إليه وأكرم موصلها، وأفرج عنهم صبيحة يومه. وانكفأ راجعاً إلى حضرته بالقلعة. وأثخن بعدها في زناتة وشردهم بنواحي الزاب والمغرب الأوسط. ورجع إلى بجاية وأثخن في نواحيها ودوخت عساكره قبائلها فساروا في جبالها المنيعة مثل بني عمران وبني تازروت والمنصورية والصهريج والناظور وحجر المعز، وقد كان أسلافه يرومون كثيراً عنها فتمتنع عليهم فاستقام أمره واستفحل ملكه.

وقدم عليه معز الدولة بن صمادح من ألمرية فاراً أمام المرابطين لما ملكوا الأندلس، فنزل على المنصور وأقطعه تدلس وأنزله بها. وهلك سنة ثمان وتسعين وأربعمائة فولي من بعده إبنه باديس، فكان شديد البأس عظيم النظر فنكب عبد الكريم بن سليمان وزير أبيه لأول ولايته، وخرج من القلعة إلى بجاية فنكب سهاماً

عامل بجاية. وهلك قبل أن يستكمل سنة، وولي من بعده أخوه العزيز. وقد كان عزله عن الجزائر وغربه إلى جيجل فبعث عنه القائد علي بن حمدون فوصل، وبايعوه وصالح زناتة وأصهر إلى ماخوخ فأنكحه إبنته. وطال أمر، ملكه، وكانت أيامه هدنة وأمناً. وكان العلماء يتناظرون في ونازلت أساطيله جربة فنزلوا على حكمه وأخذوا بطاعته. ونازل تونس وصالحه صاحبها أحمد بن عبد العزيز وأخذ بطاعته، وكبس العرب في أيامه القلعة وهم

غارون فاكتسحوا جميع ما وجدوه بظواهرها، وعظم عيثهم، وقاتلتهم الحامية فغلبوهم وأخرجوهم من البلد. ثم ارتحل العرب وبلغ الخبر إلى العزيز فبعث إبنه يحيى وقائده على بن حمدون من بجاية في عسكر وتعبية، فوصل إلى القلعة وسكن الأحوال. وقد أمن العرب واستعتبوا فأعتبوا وانكفأ يحيى راجعاً إلى بجاية في عسكره. وعلى عهد العزيز هذا كان وصول مهدي الموحدين إلى بجاية قافلاً من المشرق سنة إثنتي عشرة وخمسمائة، وغيّر بها المنكر فسعى به عند العزيز وإئتمر به، فخرج إلى بني ورياكل من صنهاجة كانوا ساكنين بوادي بجاية فأجاروه. ونزل عليهم بملالة وأقام بها يدرس العلم. وطلبه العزيز فمنعوه وقاتلوه دونه إلى أن رحل عنهم إلى المغرب.

وهلك العزيز سنة خمس عشرة وأربعمائة فولي من بعده إبنه يحيى، وطالت أيامه مستضعفاً مغلباً للنساء مولعاً بالصيد، على حين انقراض الدولة وذهاب الأيام بقبائل صنهاجة، واستحدث السكة ولم يحدثها أحد من قومه أدباً مع خلفائهم العبيديين ونقل ابن حماد أن سكته في الدينار كانت ثلاثة سطور ودائرة في كل وجه، فدائرة الوجه الواحد: "واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا بظلمون " والسطور" لا إله إلا الله محمد رسول الله، يعتصم بحبل الله يحيى بن العزيز بالله الأمير المنصور. ودائرة الوجه الآخر" بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصريّة سنة ثلاث وأربعين وستمائةوخمسمائة." وفي سطوره: الإمام أبو عبد الله المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين العباسي.

ووصل سنة ثلاث وأربعين وستمائةوخمسمائة إلى القلعة لافتقادها ونقل ما بقي بها وانتقض عليه بنو زرا ابن مروان فجهز إليه الفقيه مطرف بن على بن حمدون في العساكر فافتتحها عنوة وتقبض على ابن مروان وأوصله إليه فسجنه بالجزائر إلى أن هلك فى معتقله ، وقيل قتله. وبعث مطرف بابنه إلى تونس فافتتحها ونازل فى وجهته هذه المهدية فامتنعت عليه، ورجع إلى بجاية. وتغلب النصارى على المهديّة، وقصده الحسن صاحبها فأجازه إلى الجزائر وأنزله بها مع أخيه القائد، حتى إذا زحف الموحدون إلى بجاية وفر القائد من الجزائر وأسلمها. قدموا الحسن على أنفسهم. ولقي

عبد المؤمن فأمّنهم، وأخرج يحيى بن عبد العزيز أخاه سبع للقاء الموحدين فانهزم وملك الموحّدون بجاية. وركب يحيى البحر إلى صقلية يروم الإجازة منها إلى بغداد. ثم عدل إلى بونة فنزل على أخيه الحارث. ونكر عليه سوء صنيعه وإخراجه عن البلاد فارتحل عنه إلى قسنطينة فنزل على أخيه الحسن، فتخلى له عن

الأمر. وفي خلال ذلك دخل الموحدون القلعة عنوة. وقتل حوشن بن العزيز وابن الدحامس من الأثبج معه وخربت القلعة. ثم بايع يحيى لعبد المؤمن سنة سبع وأربعين وستمائةوخمسمائة. ونزل عن قسنطينة واشترط لنفسه فوفّى له، ونقله إلى مراكش فسكنها. ثم انتقل إلى سلا سنة ثمان وخمسين وستمائة وخمسمائة فسكن قصر بني عشيرة إلى أن هلك في سنته. وأما الحارث بن عبد العزيز صاحب بونة ففر إلى صقلية واستصرخ صاحبها فصارخه على أمره ورجع إلى بونة وملكها. ثم غلب عليها الموحدون وقتلوه صبراً. وانقرض ملك بني حماد والبقاء لله وحده ولم يبق من قبائل ماكسن إلا أوزاع بوادي بجاية ينسبون إليهم، وهم لهذا العهد في عداد الجند، ولهم اقطاع بنواحي البلد على العسكرة في جملة السلطنة مع قواده، والله وارث الأرض ومن عليها اه.

خريطة

ملوك بني حبوس

الخبر عن ملوك بني حبوس بن ماكسن من بني زيري من صنهاجة بغرناطة من عدوة الأند لس و أولية ذلك ومصايره

لما استبد باديس بن المنصور بن بلكّين بن زيري بن مناد بن هاد بولاية أفريقية سنة خمس وثمانين وثلثمائة ولى عمومته وقرابته ثغور عمله، فأنزل حماداً بأشير وأخاه يطوفت بتاهرت، وزحف زيري بن عطية صاحب فاس من مغراوة بدعوة المؤيد هشام خليفة قرطبة إلى عمل صنهاجة في جموع زناتة ونزل تاهرت وسرح باديس عساكره لنظر محمد بن أبي العون فالتقوا على تاهرت وانهزم صنهاجة فزحف باديس بنفسه للقائهم وخالف عليه فلفول بن سعيد بن خزرون صاحب طُبَنة. ثم أجفل زيري بن عطية امامه ورجع به إلى المغرب فرجع باديس إلى القيروان، وترك عمومته أولاد زيري بأشير معحماد وأخيه يطوفت وهم: زاوى وحلا ل وعرم ومعنين وأجمعوا على الخلاف والخروج على باديس سنة سبع وثمانين وثلثمائة، فأسلموا حماداً برمته واستولوا على جميع ما معه، واتصل الخبر بأبي البهار بن زيري وهم مع باديس فخشيه على نفسه ولحق بهم واجتمعوا في الخلاف، واشتغل باديس عنهم بحرب فلفول بن يانس مولى الحاكم القادم على طرابلس من قبله، وانفسح مجالهم في الفساد والعيث ووصلوا أيديهم بفلفول وعاقدوه.

ثم رجع أبو البهار عنهم إلى باديس فتقبله وصالح له ثم رجعوا إلى حماد سنه إحدى وتسعين وثلثمائة، ولقيهم فهزمهم وقتل مساكن وابنه، ولحق زاوي بجبل شنوق، من ساحل مليانة، وأجاز البحر إلى الأندلس في بنيه وبني أخيه وحاشيته، ونزل على المنصور بن أبي عامر صاحب الدولة وكافل الخلافة الأموية فأحسن نزلهم وأكر وفادتهم، واصطنعهم لنفسه واتخذهم بطانة لدولته وأوليائه على ما يرومه من قهر الدوله والتغلب على الخلافة، ونظمهم في طبقات زناتة وسائر رجالات البربر الذين أدال بجموعهم من جنود

السلطان وعساكر الأموية وقبائل العرب، واستغلظ أمر صنهاجة بالأندلس واستفحلت أمارتهم وحملوا دولة المنصور بن أبي عامر وولديه المظفر والناصر من بعده على كاهلهم.

ولما انقرض أمرهم واضمحلّت دولتهم ونشأت الفتنة بالأندلس بين البرابرة وأهلها فكان زاوي كبش تلك الوقائع ومحش حروبها. وتمرّس بقرطبة هو وقومه صنهاجة وكافة زناتة والبربر حتى أثبتوا قدم خليفتهم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر الذي أتوه ببيعتهم، وأعطوه على الطاعة صفقتهم كما ذكرناه في أخبارهم ثم اقتحموا به قرطبة عنوة واصطلموا عامة أهلها وأنزلوا المعرات بذوي الصون منها وبيوتات الستر من خواصها، فحدث الناس في ذلك بأخبارها. وتوصل زاوي عند استباحة قرطبة إلى رأس أبيه زيري بن مناد المتصور بجدران قصر قرطبة فأزاله وأصاره إلى قومه ليدفن في جدثه. ثم كان شأن بني حمود من العلويّة وافترق أمر البرابرة واضطرمت الأندلس ناراً، وامتلأت جوانبها فتنة، وأسرى الرؤساء من البرابرة ورجالات الدولة على النواحي والأمصار فملكوها، وتحيزت صنهاجة إلى ناحية ألبيرة فكانت ضواحيها لهم وحصل عليها استلاؤهم، وزاوي يومئذ عضد البرابرة فترل غرناطة واتخذها داراً لملكته ومعتصماً لقومه.

ثم وقع في نفسه سوء أثر البربر بالأندلس أيام الفتنة، وحذر مغبة الفعلة واستعاضت الدولة فاعتزم على الرحلة واوى إلى سلطان قومه بالقيروان سنة عشر وأربعمائة بعد مغيبه عشرين سنة، وأنزل على المعز بن باديس حافد أخيه بلكين أجل ما كانت دولتهم بأمر أفريقية، وأترف وأوسع ملكاً وأوفر عدداً. فلقيه المعز بأحسن أحوال البر والتجلة، وأنزله أرفع المنازل من الدولة وقدمه على الأعمام والقرابة وأسكنه بقصره، وأبرز الحرم للقائة،

فيقال إنه لقيه من ذوات محارمه ألف امرأة لا تحل له واحدة منهن، وورى إبراهيم مع شلوه بجدثه، وكان استخلف على عمله إبنه ونا، فظعن لأهل غرناطة فانتقضوا عليه، وبعثوا عن حبوس ابن عمه ماكسن بن زيري مكانه ببعض حصون عمله، فبادر إليهم ونزل بغرناطة فانتقضوا عليه وبايعوه، واستحدث بها ملكاً، وكان من أعظم ملوك الطوائف بالأندلس إلى أن هلك سنة تسع وعشرين وأربعمائة.

وولي من بعده ابنه باديس بن حبوس ويلقب بالمظفر، ولم يزل مقيماً لدعوة آل حمّود أمراء مالقة بعد تخلفهم عن قرطبة سائر أيامه وزحف إليها العامري صاحب المرية سنة تسع وعشرين وأربعمائة، فلقيه باديس بظاهر غرناطة فهزمه وقتله، وطالت

أيامه ومد ملوك الطوائف أيديهم جميعاً إلى مدده، فكان ممن استمده محمد بن عبد الله البرزالي لما حاصره إسمعيل بن القاضي بن عباد بعساكر أبيه، فأمده باديس بنفسه وقومه وصار إلى صريخه مع ابن بقية قائد إدريس بن حمود صاحب المالقة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ورجعوا من طريقهم، وطمع إسمعيل بن

القاضي بن عباد مع صريخه فيهم فاتبعهم ولحق بباديس في قومه فاقتتلوا وفر عسكر إسمعيل وأسلموه فقتله صنهاجة، وحمل رأسه إلى ابن حمود.

وكان القادر بن ذي النون صاحب طليلة أيضاً يستدفع به وبقومه استطالة ابن عباد وأعوانه. وباديس هذا هو الذي مصّر غرناطة واختط قصبتها وشاد قصورها وشيد حصرنها، وآثاره في مبانيها ومصانعها باقية لهذا العهد. واستولى على مالقة عند انقراض بز حمود سنة تسع وأربعين وستمائةوأربعمائة وأضافها إلى عمله، وهلك سنة سبع وستين وأربعمائة. وظهر أمر المرابطين بالمغرب، واستفحل ملك يوسف بن تاشفين فولي من بعده حافده عبد الله بن بلكّين بن باديس. وتغلب المظفر وعقد لأخيه تميم على مالقة فاستقام أمرها إلى أن أجاز يوسف بن تاشفين إلى العدوة إجازته المعروفة كما نذكره في أخباره ونزل بغرناطة سنة ثلاث وثمانين فتقبض على عبد الله بن بلكين، واستصفى أمواله وذخيرته، وألحق به أخاه تميماً من مالقة واستصحبها إلى العدوة. فأنزل عبد الله وتميماً بالسوس الأقصى وأقطع لهما إلى أن هلكوا في إيالته. ويزعم بنو الماكسن من بيوتات طنجة لهذا العهد أنهم من أعقابهم، فاضمحل ملك بلكانة من صنهاجة ومن أفريقية والأندلس أجمع، والبقاء لله وحده. اه.

الطبقة الثانية من صنهاجة وهم الملثمون وما كان لهم بالمغرب من الملك والدولة:

هذه الطبقة من صنهاجة هم الملّثمون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، أبعدوا فى المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أوّلها، فأصحروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها، واعتاضوا منها بألبان الأنعام ولحومها انتباذاً عن العمران واستئناسا بالانفراد وتوحشاً بالعز عن الغلبة والقهر. فنزلوا من ريف الحبشة جواراً، وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا، واتخذوا اللثام خطاماً تميزوا بشعاره بين الأمم، وعفوا في تلك البلاد وكثروا. وتعددت قبائلهم من كذالة فلمتونة فمسوفة فوتريكة فناوكا فزغاوة ثم لمطة إخوة صنهاجة كلهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة.

وللمتونة فيهم بطون كثيرة منهم: بنو ورتنطق وبنو زمال وبنو صولان وبنو ناسجة، وكان موطنهم من بلاد الصحراء يعرف كأكدم، وكان دينهم جميعاً المجوسيّة شأن برابرة المغرب. ولم يزالوا مستقرين بتلك المجالات حتى كان إسلامهم بعد فتح الأندلس، وكانت الرياسة فيهم للمتونة. واستوسق لهم ملك ضخم منذ دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخل توارثة ملوك منهم. تلاكاكين وورتكا وأوراكن بن ورتنطق جد أبي بكر بن عمر أمير لمتونة في مبتدأ دولتهم، وطالت أعمارهم فيها إلى الثمانين ونحوها، ودوخوا تلك البلاد الصحراوية، وجاهدوا من بها من أمم السودان وحملوهم على الإسلام، فدان به كثيرهم. واتقاهم آخرون بالجزية فقبلوها منهم وملك عليهم بعد تلاكاكين المذكور ثيولوتان.

(قال) ابن أبي زرع: أول من ملك الصحراء من لمتونة ثيولوتان، فدّوخ بلاد

الصحراء واقتضى مغارم السودان. وكان يركب في مائة ألف نجيب. وتوفي سنة إثنتين وعشرين ومائتين، وملك بعده يلتان وقام بأمرهم وتوفي سنة سبع وثمانين ومائتين، وقام بأمرهم بعده ابنه تميم إلى سنة ست وثلثمائة وقتله صنهاجة وافترق

أمرهم. انتهى كلام ابن أبي زرع. وقال غيره: كان من أشهرهم تيتروا بن وانشق بن بيزا وقيل برويان بن واشنق بن يزار ملك الصحراء بأسرها على عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر في المائة الرابعة. وفي عهد عبيد الله وابنه أبي القاسم من خلفاء الشيعة، كان يركب في مائة ألف نجيب وعمله مسيرة شهرين في مثلها. ودان له عشرون ملكاً من ملوك السودان يعطونه الجزى، وملك من بعده بنوه ثم افترق أمرهم من بعد ذلك، وصار ملكهم طوائف ورياستهم شيعاً. قال ابن أبي زرع: افترق أمرهم بعد تميم بن بلتان مائة وعشرون سنة إلى أن قام فيهم أبو عبيد الله بن تيفاوت المعروف بناشرت اللمتوني فاجتمعوا عليه وأحبوه وكان من أهل الدين والصلاح، وحج وهلك لثلاثة أعوام من رياسته في بعض غزواته. وقام بأمرهم صهره يحيى بن إبراهيم الكندالي. وبعده يحيى بن عمر بن تلاكاكين. اه كلامه. وكان لهذه الطبقة ملك ضخم بالمغرب والأندلس أولاً، وبأفريقية بعده فنذكره الآن على نسقه.

دولة المرابطين من لمتونة

الخبر عن دولة المرابطين من لمتونة وما كان لهم

بالعدوتين من الملك و أولية ذلك ومصايره

كان هؤلاء الملثمون في صحاريهم كما قلناه وكانوا على دين المجوسيّة إلى أن فى فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة كما ذكرناه، وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه فدانوا لهم واستوسق لهم الملك. ثم افترقوا وكانت رياسة كل بطن منهم في بيت مخصوص. فكانت رياسة لمتونة في بني ورتانطق بن منصور بن مصالة بن المنصور بن مزالت بن أميت بن رتمال بن ثلميت وهو لمتونة. ولما أفضت الرياسة إلى يحيى بن إبراهيم الكندالي، وكان له صهر في بني ورتانطق هؤلاء، وتظاهروا على أمرهم. وخرج يحيى بن إبراهيم لقضائه فرصة في رؤساء من قومه في سني أربعين وأربعمائة، فلقوا في

منصرفهم بالقيروان شيخ المذهب المالكي أبو عمران الفاسي، واغتنموا ما متعوا به من هديه، وما شافههم به من فروض أعيانهم من فتاويه.

وسأله الأمير يحيى أن يصحبهم من تلميذه من يرجعون إليه في نوازلهم وقضايا دينهم. فندب تلميذه إلى ذلك حرصاً على إيصال الخير إليهم لما رأى من رغبتهم فيه، فاستوعروا مسغبة بلادهم. وكتب لهم الفقيه أبو عمران إلى الفقيه محمد وكاك بن زلوا اللمطي بسجلماسة من الاخذين عنه، وعهد إليه أن يلتمس لهم من يثق بدينه وفقهه، ويروض نفسه على مسغبة أرضهم في معاشه، فبعث معهم عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي، ووصل معهم يعلمهم القرآن ويقيم لهم الدين. ثم هلك يحيى بن إبراهيم وافترق أمرهم، واطرحوا

عبد الله بن ياسين، واستصعبوا علمه وتركوا الأخذ عنه لما تجشموا فيه من مشاق التكليف، فأعرض عنهم وترهب. وتنسّك معه يحيى بن عمر بن تلاكاكين من رؤساء لمتونة وأخوه أبو بكر، فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بحر النيل من جهاتها ضحضاحاً في المصيف وغمراً في الشتاء، فتعود جزراً منقطعة. فدخلوا في غياضها منفردين للعبادة، وتسامع بهم من في قلبه مثقال حبة من خير، فتسايلوا إليهم ودخلوا في دينهم وغيضتهم.

ولما كمل معهم ألف من الرجالات، قال لهم شيخهم عبد الله بن ياسين إن ألفاً لن تغلب من قلة، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه وحمل الكافة عليه، فأخرجوا بنا لذلك، فخرجوا وقتلوا من استعصى عليهم من قبائل لمتونة وكدالة ومهمومة، حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة، وأذن لهم في أخذ الصدقات من أموال المسلمين، وسماهم بالمرابطين وجعل أمرهم في العرب إلى الأمير يحيى بن عمر، فتخطوا الرمال الصحراوية إلى بلاد درعة وسجلماسة، فأعطوهم صدقاتهم وانقلبوا. ثم كتب إليهم وكاك اللمطي بما نال المسلمين فيما إليه من العسف والجور من بني وانودين أمراء، سجلماسة من مغراوة وحرضهم على تغيير أمرهم، فخرجوا من الصحراء سنة خمس وأربعين وستمائةوأربعمائة في عدد ضخم ركباناً على المهارى أكثرهم وعمدوا إلى درعة. لا بل كانت هنالك بالحمى وكانت تناهز خمسين ألفاً ونحوها.

ونهض إليهم مسعود بن وانودين أمير مغراوة، وصاحب سجلماسة ودرعة لمدافعتهم عنها

وعن بلاده، فتواقعوا وانهزم ابن وانودين وقتل واستلحم عسكره مع

أموالهم، واستلحمهم ودوابهم وإبل الحمى التي كانت ببلد درعة. وقصدوا سجلماسة فدخلوها غلاباً، وقتلوا من كان بها من فل مغراوة، وأصلحوا من أحوالها وغيروا المنكرات، وأسقطوا المغارم والمكوس، واقتضوا الصدقات واستعملوا عليها منهم وعادوا إلى صحرائهم. فهلك يحيى بن عمر سنة سبع وأربعين وستمائة وستمائة، وقدم مكانه أخاه أبا بكر، وندب المرابطين إلى فتح المغرب فغزا بلاد السوس سنة ثمان وأربعين وستمائةوأربعمائة.

وافتتح ماسة وتارودانت وجميع معاقله. ثم افتتح مدينة أغمات سنة تسع وأربعين وستمائةوأربعمائة وفر أميرها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي إلى تادلاً، واستضاف إلى بني يفرن بها، ثم افتتح المرابطون بلاد المصامدة بجبال درن، وجاسوا خلالها سنة خمسين، ثم أغزوا تادلاً فاستباحوها واستلحموا بني يفرن ملوكها، وقتل معهم لقوط بن يوسف المغراوي صاحب أغمات. وتزوج امرأته زينب بنت اسحق النفراوية، وكانت مشهورة بالجمال والرئاسة، وكانت قبل لقوط عند يوسف بن علي بن عبد الرحمن بن واطاس، وكان شيخاً على وريكة وهي زوجة هيلانة في دولة أمغارن في بلاد المصامدة وهم الشيوخ. وتغلب بنو يفرن على وريكة وملكوا أغمات فتزوج لقوط زينب هذه، ثم تزوجها بعده أبو بكر بن عمر

كما ذكرنا. ثم دعا المرابطين إلى جهاد برغواطة الذين كانوا بتامستا وإنفاً وجهات الريف الغربي فكانت لهم فيهم وقائع وأيام استشهد عبد الله بن ياسين في بعضها سنة خمسين وأربعمائة.

وقدأم المرابطين بعده سليمان بن حرب ليرجعوا إليه في قضايا دينهم. واستمر أبو بكر بن عمر في إمارة قومه على جهادهم، ثم استأصل شأفتهم، ومحا أثر دعوتهم من المغرب وهلك في جهادهم سليمان بن عدو سنة إحدى وخمسين وستمائة وأربعمائة لسنة من وفاة عبد الله بن ياسين.

ثم نازل أبو بكر مدينة لواتة وافتتحها عنوة وقتل من كان بها من زناتة سنة إثنتين وخمسين وستمائة وأربعمائة. وبلغه وهو لم يستتم فتح المغرب بعدما وقع من الخلاف بين لمتونة ومسوفة ببلاد الصحراء، حيث أصل أعياصهم ووشايج أعراقهم ومنيع عددهم فخشي افتراق الكلمة وانقطاع الوصلة، وتلافى أمره بالرحلة. وأكد ذلك زحف

بفكين بن محمد بن حماد صاحب القلعة إلى المغرب سنة ثلاث وخمسين وستمائة وأربعمائة لقتالهم، فارتحل أبو بكر إلى الصحراء، واستعمل على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين، ونزل له عن زوجه زينب بنت إسحق، ولحق بقومه. ورفع ما كان بينهم من خرق الفتنة، وفتح باباً من جهاد السودان فاستولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم.

وأقام يوسف بن تاشفين بأطراف المغرب، ونزل بلكّين صاحب القلعة فاس وأخذ رهنها على الطاعة، وانكفأ راجعاً. فحينئذ سار يوسف بن تاشفين في عسكره من المرابطين ودوخ أقطار المغرب. ثم رجع أبو بكر إلى المغرب فوجد يوسف بن تاشفين قد استبد عليه. وأشارت عليه زينب أن يريه الاستبداد في أحواله وأن يعد له متاع الصحراء وماعونها، ففطن لذلك الأمير أبو بكر، وتجافى عن المنازعة وسلم له الأمر، ورجع إلى أرضه فهلك لمرجعه سنة ثمانين وأربعمائة.

واختط يوسف مدينة مرّاكش سنة أربع وخمسين وستمائة وأربعمائة، ونزلها بالخيام وأدار سورها على مسجد وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه، وكمل تشييدها وأسوارها ابنه من بعده سنة ست وعشرين وخمسمائة. وجعل يوسف مدينة مرّاكش لنزله لعسكره وللتمرس بقبائل المصامدة المصيفة بمواطنهم بها في جبل درن، فلم يكن في قبائل المغرب أشذ منهم ولا أكثر جمعاً. ثم صرف عزمه إلى مطالبة مغراوة وبني يفرن وقبائل زناتة بالمغرب، وجذب الحبل من أيديهم، وكشف ما نزل بالرعايا من جورهم وعسفهم، فقد كانوا من ذلك على ألم(حدث المؤرخون في أخبار مدينة فاس ودولتهم فيها بكثير منه) فنازل أولاً قلعة فازاز، وبها مهدي بن توالي من بني يحفش.

قال صاحب نظم الجواهر: وهم بطن من زناتة، وكان أبو توالي صاحب تلك القلعة ووليها هو من بعده، فنازله يوسف بن تاشفين. ثم استجاش به على فاس مهدي بن يوسف الكرنامي صاحب مكناسة بما كان عدواً لمعنصر المغراوي صاحب فاس،

فزحف في عساكر المرابطين إلى فاس، وجمع إليه معنصر ففض جموعه، وارتحل يوسف إلى فاس وتقرى منازلها وافتتح جميع الحصون المحيطة بها، وأقام عليها أياماً قلائل، وظفر بعاملها بكار بن إبراهيم فقتله. ثم نهض إلى صفروي فافتتحها وقتل من كان بها من أولاد وانودين المغراوي ورجع إلى فاس فافتتحها صلحاً سنة خمس وخمسين وستمائة وأربعمائة، ثم خرج إلى غمارة ونازلهم وفتح كثيراً من بلادهم. وأشرف على طنجة، وبها سكوت البرغواطي الحاجب صاحب سبتة وبقية الأمراء من موالي الحمّودية وأهل دعوتها. ثم رجع إلى

منازلة قلعة فازاز، وخالفه معنصر إلى فاس فاستولى عليها وقتل عاملها.

واستدعى يوسف بن تاشفين مهدي بن يوسف صاحب مكناسة ليستجيش به على فاس فاستعرضه معنصر في طريقه قبل أن تتصل بأيديهما، وناجزه الحرب ففض جموعه وقتله، وبعث برأسه إلى وليه ومساهمه في شدته الحاجب سكوت البرغواطي. واستصرخ أهل مكناسة بالأمير يوسف بن تاشفين فسرح عساكر لمتونة إلى حصار فاس فأخذوا بمخنقها وقطعوا المرافق عنها وألحوا بالقتال عليها فمسهم الجهد. وبرز معنصر إلى مناجزة عدوه لإحدى الراحتين فكانت الدائرة عليه وهلك. واجتمع زناتة من بعده على القاسم بن محمد بن عبد الرحمن من ولد موسى بن أبي العافية، كانوا ملوكاً بتازا وتسول، فزحفوا إلى عساكر المرابطين والتقوا بوادي صفير فكان الظهور لزناتة. واستلحم كثير من المرابطين، واتصل خبرهم بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة مهدي من بلاد فازاز فارتحل سنة ست وخمسين وستمائة وأربعمائة، ونزل عليها معسكر من المرابطين وصار يتنقل في بلاد المغرب، فافتتح بني مراسن ثم قبولادة، ثم بلاد ورغة سنة ثمان وخمسين وستمائة وأربعمائة

ثم افتتح بلاد غمارة سنة ستين وأربعمائة. وفي سنة إثنتين وستين وأربعمائة نازل فاس فحاصرها مدة ثم افتتحها عنوة وقتل بمفازتها ثلاثة آلاف من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وقبائل زناتة حتى أعوزت مدافنهم فرادى، فاتخذت لهم الأخاديد وقبروا جماعات، وخلص من نجا منهم من القتل إلى بلاد تلمسان وأمر بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين القرويين والأندلسيين من عدوتيها، وصيرها

مصراً واحداً. وأدار عليها الأسوار، وحمل أهلها على الاستكثار من المساجد، ورتب بناءها. وارتحل سنة ثلاث وستين وأربعمائة إلى وادي ملوية فافتتح بلادها وحصون وطاط من نواحيها. ثم نهض سنة خمس وستين وأربعمائة إلى مدينة الدمنة فافتتحها عنوة، ثم افتتح حصن علودان من حصون غمارة. ثم نهض سنة سبع وستين وأربعمائة إلى جبال غياثة وبني مكود من أحواز تازا فافتتحهما ودوخها. ثم اقتسم المغرب عمالات على بنيه وأمراء تومه وذويه، ثم استدعاه المعتمد بن عباد إلى الجهاد فاعتذر له بمكان الحاجب سكوت البرغواطي وقومه من أولياء الدولة الحمودية بسبتة، فأعاد إليه ابن عباد الرسل بالمشايعة إليهم فجهز إليهم قائده صالح بن عمران في عساكر لمتونة، فلقيه سكوت الحاجب بظاهر طنجة في قومه، ومعه

إبنه ضياء الدولة فانكشف وقتل الحاجب سكوت، ولحق إبنه العزيز ضياء الدولة. وكتب صالح بن عمران بالفتح إلى يوسف بن تاشفين. ثم أغزى

الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب الأوسط سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة قائده مزدلي بن تبلكان بن محمد بن وركوت من عشيره في عساكر لمتونة لمحاربة مغراوة ملوك تلمسان، وبها يومئذ الأمير العباس بن بختي من ولد يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر، فدوخوا المغرب الأوسط وصاروا في بلاد زناتة وظفروا بيعلى بن الأمير العباسي فقتلوه، وانكفأوا راجعين من غزاهم.

ثم نهض يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة بعدها إلى الريف، وافتتح كرسيف ومليلة وسائر بلاد الريف وخرب مدينة نكور فلم تعمر بعد، ثم نهض في عساكره المرابطين إلى بلاد المغرب الأوسط فافتتح مدينة وجدة وبلاد بني يزتاسن. ثم افتتح مدينة تلمسان واستلحم من كان بها من مغراوة، وقتل العباس بن بختي أمير تلمسان وأنزل محمد بن تيعمر المستوفى بها في عساكر المرابطين، فصارت ثغراً لملكه. ونزل بعساكره واختط بها مدينة تاكرارت بمكان محلته، وهو إسم المحلة بلسان البربر. ثم افتتح مدينة تنس ووهران وجبل وانشريس إلى الجزائر، وانكفأ راجعاً إلى المغرب فاحتل مراكش سنة خمس وسبعين وأربعمائة. ولم يزل محمد بن تينعمر والياً بتلمسان إلى أن هلك، وولي بعده أخوه تاشفين.

ثم إن الطاغية تكالب على بلاد المسلمين وراء البحر، وانتهز الفرصة فيها بما كان من الفرقة بين ملوك الطوائف فحاصر طليلة، وبها القادر بن يحيى بن ذي النون حتى نالهم الجهد، وتسلمها منه صلحا سنة ثمان وسبعين وأربعمائة على أن يملكه بلنسية، فبعث معه عسكراً من النصرانية فدخل بلنسية وتملكها على حين مهلك صاحبها أبي بكر بن العزيز بين يدي حصار طليطلة. وسار الطاغية في بلاد الأندلس حتى وقف بفرضة المجاز من صريف، وأعيا أمره أهل الأندلس واقتضى منهم الجزية فأعطوها. ثم نازل سرقسطة وضيق على ابن هود بها، وطال مقامه وامتد أمله إلى تملكها فخاطب المعتمد بن عباد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين منتجزاً وعده في صريخ الإسلام بالعدوة وجهاد الطاغية.

وكاتبه أهل الأندلس في كافة من العلماء والخاصة فاهتز للجهاد وبعث إبنه المعز في عساكر المرابطين إلى سبتة فرضة المجاز، فنازلها براً. وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحراً فاقتحموها عنوة في ربيع الآخر سنة ست وسبعين وأربعمائة، وتقبض على ضياء الدولة وقيد إلى المغرب فقتله صبراً، وكتب إلى أبيه بالفتح. ثم أجاز ابن عباد البحر في جماعته والمرابطين، ولقيه بفاس مستنفراً للجهاد. وأنزل له ابنه الراضي عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطاً لجهاده فأجاز البحر في عساكر المرابطين وقبائل المغرب ونزل الجزيرة سنة تسع وثمانين وأربعمائة، ولقيه المعتمد ابن عباد وابن الأفطس صاحب بطليوس. وجمع ابن أدفونس ملك الجلالقة أمم النصرانية لقتاله، ولقي المرابطين بالزلاقة من نواحي بطليوس فكان للمسلمين عليه اليوم المشهور سنة إحدى وثمانين وأربعمائة.

ثم رجع إلى مراكش وخلف عسكراً بالإشبيلية لنظر محمد ومجون بن سيمونن بن محمد بن وركوت من عشيره، ويعرف أبوه بالحاج وكان محمد من بطانته وأعاظم قواد تكاليب الطاغية على شرق الأندلس، ولم يغن فيه أمراء الطوائف شيئاً فزحف إليه من سبتة ابن الحاج قائد يوسف بن تاشفين في عساكر المرابطين فهزموا جميع النصارى هزيمة شنيعة. وخلع ابن رشيق صاحب مرسية، وتمادى إلى دانية ففر علي بن مجاهد أمامه إلى بجاية ونزل على الناصر بن علناس فأكرمه، ووصل ابن جحاف قاضي بلنسية إلى محمد بن الحاج مغرياً بالقادر بن ذي النون فأنفذ معه

معسكراً وملك بلنسية، وقتل ابن في النون، وذلك سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وانتهى الخبر إلى الطاغية فنازل بلنسية، واتصل حصاره إياها إلى أن ملكها سنة خمس وثمانين وأربعمائة، ثم استخلصتها عساكر المرابطين وولى عليها يوسف بن تاشفين الأمير مزدلي، وأجاز يوسف بن تاشفين ثانية سنة ست وثمانين وأربعمائة، وتثاقل أمراء الطوائف عن لقائه لما أحسوا من نكيره عليهم لما يسمون به عليهم. من الظلامات والمكوس وتلاحق المغارم فوجد عليهم، وعهد برفع المكوس وتحرى المعدلة، فلما أجاز انقبضوا عنه إلا ابن عباد فإنه بادر إلى لقائه وأغراه بالكثير منهم، فتقبض على ابن رشيق فأمكن ابن عباد منه العداوة التي بينهما.

وبعث جيشاً إلى المرية ففر عنها ابن صمادح ونزل على المنصور بن الناصر ببجاية، وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكره ومحلاته فساء نظره، وأفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم وصارت إليه بذلك فتاوى أهل الشرق الأعلام مثل الغزالي والطرطوشي فعهد إلى غرناطة واستنزل "صاحبها عبيد الله بن بلكين بن باديس وأخاه تميما من مالقة بعد أن كان منهما مداخلة

الطاغية في عداوة يوسف بن تاشفين. وبعث بهما إلى المغرب فخاف ابن عباد عند ذلك منه وانقبض عن لقائه وفشت السعايات بينهما. ونهض يوسف بن تاشفين إلى سبتة فاستقر بها وعقد للأمير سير بن أبي بكر بن محمد وركوت على الأندلس وأجازه فقدم عليها، وقعد ابن عباد عن تلقيه ومبرته فأحفظه ذلك، وطالبه بالطاعة للأمير يوسف والنزول عن الأمر ففسد ذات بينهما وغلبه على جميع عمله.

واستنزل أولاد المأمون من قرطبة ويزيد الرايض من رندة وقرمونة واستولى على جميعها وقتلهم. وصمد إلى إشبيلية فحاصر المعتمد بها وضيق عليه، واستنجد الطاغية فعمد إلى استنقاذه من هذا الحصار فلم يغن عنه شيئاً وكان دفاع لمتونة مما فت في عضده واقتحم المرابطون إشبيلية عليه عنوة سنة أربع وثمانين وأربعمائة. وتقبض على المعتمد وقاده أسيراً إلى مراكش فلم يزل في اعتقال يوسف بن تاشفين إلى أن هلك في محبسه بأغمات سنة سبعين وأربعمائة، ثم عمد إلى بطليوس وتقبض على صاحبها

عمر بن الأفطس فقتله وإبنيه يوم الأضحى سنة تسع وثمانين بما صحّ عنده من مداخلتهم الطاغية وأن يملكوه مدينة بطليوس، ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الثالث سنة تسعين وأربعمائة وزحف إليه الطاغية فبعث عساكر المرابطين لنظر محمد بن الحاج فانهزم النصارى أمامه وكان الظهور للمسلمين.

ثم أجاز الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة وانضمّ إليه محمد بن الحاج وسير بن أبي بكر واقتحموا عامة الأندلس من أيدي ملوك الطوائف، ولم يبق منها إلا سرقسطة في يد المستعين بن هود معتصماً بالنصارى. وغزا الأمير مزدلي صاحب بلنسية إلى بلد برشلونة فأثخن بها وبلغ إلى حيث لم يبلغ أحد قبله ورجع. وانتظمت بلاد الأندلس في ملكة يوسف بن تاشفين، وانقرض ملك الطوائف منها أجمع كأن لم يكن واستولى على العدوتين، واتصلت هزائم النصارى على يد المرابطين مراراً وتسمى بأمير المسلمين، وخاطب المستنصر العباسي الخليفة لعهده ببغداد وبعث إليه عبد الله بن محمد بن العرب المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبا بكر فتلطفا في القول وأحسنا في الإبلاغ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس فعقد له وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك منقولاً في أيدي الناس، وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم. وخاطبه الإمام الغزالي والقاضي أبو بكر

الطرطوشي يحضانه على العدل والتمسك بالخير، ويفتيانه في شأن ملوك الطوائف بحكم الله.

ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الرابع إلى الأندلس سنة سبع وتسعين وأربعمائة، وقد كان ما قدمناه في أخبار بني حماد من زحف المنصور بن الناصر إلى تلمسان سنة سبع وتسعين وأربعمائة للفتنة التي وقعت بينه وبين تاشفين بن يتنعمر وافتتاحه أكثر بلادهم، فصالحه يوسف بن تاشفين واسترضاه بعدول تاشفين عن تلمسان سنة سبع وتسعين وأربعمائة وبعث إليهما مزدلي من بلنسية، وولي بلنسية عوضاً عنه أبا محمد ابن فاطمة، وكثرت غزواته في بلاد النصرانية. وهلك يوسف على رأس المائة الخامسة وقام بالأمر من بعده إبنه علي بن يوسف فكان خير ملك، وكانت أيامه صدراً منها وادعة ولدولته على الكفر وأهله ظهور وعزة وأجاز إلى العدوة فأثخن في بلاد العدو

قتلاً وسبياً، وولى على الأندلس الأمير تميم بن... وجمع الطاغية للأمير تميم فهزمه تميم، ثم أجاز علي بن يوسف سنة ثلاث ونازل طليطلة. وأثخن في بلاد النصارى ورجع، وعلى أثر ذلك قصد ابن ردمير سرقسطة وخرج ابن هود للقائه فانهزم المسلمون ومات ابن هود شهيداً وحاصر ابن ردمير البلد حتى نزلوا على حكمه.

ثم كان سنة تسع وخمسمائة شأن برقة وتغلّب أهل جنوة عليها وأخلوها. ثم رجع العمران إليها على يد ابن تامرظست من قواد المرابطين كما مر في ذكرها عند ذكر الطوائف، ثم استمرت حال علي بن يوسف في ملكه وعظم شأنه، وعقد لولده تاشفين على غرب الأندلس سنة ست وعشرين وخمسمائة وأنزله قرطبة

وإشبيلية، وأجاز معه الزبير بن عمر، وحشد قومه وعقد لأبي بكر بن إبراهيم المسوفي على شرق الأندلس وأنزله بلنسية، وهو ممدوح بن خفاجة ومخدوم أبي بكر بن باجة الحكيم المعروف بابن الصائغ. وعقد لابن غانية المسوقي على الجزائر الشرقية دانية وميورقة، واستقامت أيامه، ولأربع عشرة سنة من دولته كان ظهور الإمام المهدي صاحب دعوة الموحدين، فقيهاً منتحلاً للعلم والفتيا والتدريس، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر متعرضاً بذلك للمكروه في نفسه.

ونالته بجاية وتلمسان ومكناسة اذايات من الفسقة ومن الظالمين، وأحضره الأمير علي بن يوسف للمناظرة ففلج علي خصومه من الفقهاء بمجلسه، ولحق بقومه هرغة من المصامدة. واستدرك علي بن يوسف رأيه فتفقده وطالب هرغة بإحضاره فأبوا عليه فسرح

إليهم البعث فأوقعوا به وتقاسم معهم هنتاتة وتينملل على إجارته والوفاء بما عاهدهم عليه من القيام بالحق والدعاء إليه حسبما يذكر ذلك كله بعد دولتهم. وهلك المهدي في سنة أربع وعشرين وخمسمائة وقام بأمرهم عبد المؤمن بن عليّ الكومي كبير أصحابه بعهده إليه، وانتظمت كلمة المصامدة وأغزوا مراكش مراراً. وفشل ريح لمتونة بالعدوة الأندلسية، وظهر أمر الموحدين وفشت كلمتهم في برابرة المغرب. وهلك عليّ بن يوسف سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وقام بالأمر من بعده ولده تاشفين وولي عهده، وأخذ بطاعته وبيعته أهل العدوتين كما كانوا على حين استغلظ

أمر الموحدين واستفحل شأنهم وألحوا في طلبه.

وغزا عبد المؤمن غزوته الكبرى إلى جبال المغرب، ونهض تاشفين بعساكره بالبسائط إلى أن نزل تلمسان. ونازله عبد المؤمن والموحدون بكهف الضحاك بين الصخرتين من جبل تيطري المطل عليها، ووصله هنالك مدد صنهاجة من قبل يحيى بن عبد العزيز صاحب بجاية مع قائده طاهر بن كباب، وشرهوا إلى مدافعة الموحدين فغلبوهم. وهلك طاهر واستلحم الصنهاجيون وفر تاشفين إلى وهران في موادعة لب بن ميمون قائد البحر بأساطيله. واتبعه ا الموحدون واقتحموا عليه البلد فهلك، يقال سنة إحدى وأربعين وستمائةوخمسمائة. واستولى الموحدون على المغرب الأوسط واستلحموا لمتونة. ثم بويع بمراكش ابنه إبراهيم وألفوه مضعفاً عاجزاً فخلع وبويع عمّه إسحق بن عليّ بن يوسف بن تاشفين. وعلى هيئة ذلك وصل الموحدون إليها وقد ملكوا جميع بلاد المغرب عليه، فخرج إليهم في خاصته فقتلهم الموحدون، وأجاز عبد المؤمن والموحدون إلى الأندلس سنة إحدى وخمسين وستمائة خمسمائة وملكوا، واستحلموا أمراء لمتونة وكافتهم وفروا في كل وجه، ولحق فلهم بالجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة ويابسة إلى أن جددوا من بعده للملك بناحية أفريقية، والله غالب على أمره.

دولة ابن غانية

الخبر عن دولة ابن غانية من بقية المرابطين وما كان له من الملك

والسلطان بناحية قابس وطرابلس واجلابه علي الموحدين

ومظاهرة قراقش الغزي له علي أمره وأولية ذلك ومصايره

كان أمر المرابطين من أوله في كدالة من قبائل الملثمين حتى هلك يحيى بن إبراهيم فاختلفوا على عبد الله بن ياسين أمامهم، وتحول عنهم إلى لمتونة وأقصر عن دعوته وتنسك وترهب كما قلناه، حتى إذا أجاب داعية يحيى بن عمر وأبي بكر بن عمر من بني ورتانطق بيت رئاسة لمتونة. واتبعهم الكثير من قومهم وجاهدوا معه سائر قبائل الملثمين، وكأن مسوفة قد دخل في دعوة المرابطين كثير منهم فكان لهم بذلك في تلك الدولة حظ من الرئاسة والظهور. وكان يحيى المسوفي من رجالاتهم

وشجعانهم، وكان مقدماً عند يوسف بن تاشفين لمكانه في قومه. واتفق أنه قتل بعض رجالات لمتونة في ملاحاة وقعت بينهم فتثاور الحيان وفر هو إلى الصحراء ففدى يوسف بن تاشفين القتيل ووداه، واسترجع علياً من مفره لسنين من مغيبه، وأنكحه امرأة من أهل بيته تسمى غانية بعهد أبيها إليه في ذلك فولدت منه محمداً ويحيى ونشأ في ظل يوسف بن تاشفين وحجر كفالته.

ورعى لهما عليّ بن يوسف ذمام هذه الأواصر، وعقد ليحيى على غرب الأندلس وأنزله قرطبة. وعقد لمحمد على الجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة ويابسة سنة عشرين وخمسائة، وانقرض بعد ذلك أمر المرابطين. وتقدم وفد الأندلس إلى عبد المؤمن، وبعث معهم أبا إسحق براق بن محمد المصمودي من رجالات الموحدين وعقد له على حرب لمتونة كما يذكر في أخبارهم، فملك إشبيلية واقتضى طاعة يحيى بن عليّ بن غانية، واستنزله عن قرطبة إلى جيان والقلعة فسار منها إلى غرناطة يستنزل من بها من لمنونة، ويحملهم على طاعة الموحدين فهلك هنالك سنة ثلاث وأربعين وستمائةخمسمائة ودفن بقصر باديس. وأما محمد بن علي فلم يزل والياً إلى أن هلك وقام بأمره بعده ابنه عبد الله.

ثم هلك وقام بالأمر أخوه إسحق بن محمد بن عليّ. وقيل إن إسحق ولي بعد ابنه محمد وأنه قتله غيرة من أخيه عبد الله لمكان أبيه منه فقتلهما معاً، واستبد بأمره إلى أن هلك سنة ثمانين وخمسائة. وخلف ثمانية من الولد وهم محمد وعليّ ويحيى وعبد الله والغازي وسير والمنصور وجبارة، فقام بالأمر إبنه محمد. ولما أجاز يوسف بن عبد المؤمن بن علي إلى ابن الزبرتير لاختبار طاعتهم، ولحين وصوله نكر ذلك إخوته وتقبضوا عليه واعتقلوه. وقام بالأمر أخوه عليّ بن محمد بن عليّ وتلوموا في رد ابن الزبرتبر إلى مرسله، وحالوا بينه وبين الأسطول حين بلغهم أن الخليفة يوسف القسري استشهد في الجهاد بأركش من العدوة، وقام بالأمر ابنه يعقوب واعتقلوا

ابن الزبرتيروركبوا البحر في إثنتين وثلاثين قطعة من أساطيلهم وأسطوله، وركب معه إخوته يحيى وعبد الله والغازي وولي على ميورقة عمه أبا الزبير، وأقلعوا إلى بجاية فطرقوها على حين غفلة من أهلها، وعليها السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان بايميلول مر خارجها في بعض مذاهبه، فلم تمانعه أهل

البلد واستولوا عليها من صفر سنة إحد وثمانين وخمسمائة، واعتقلوا بها السيد أبا موسى بن عبد المؤمن كان قافلا من أفريقية يؤم المغرب واكتسحوا ما كان بدار السادة والموحدين.

وكان والي القلعة قاصداً مراكش وهو يستخبر خبر بجاية فرجع وظاهر السيد الربيع، وزحف إليهما علي بن غانية فهزمهما، واستولى على أموالهم أسريا ولحقا بتلمسان فنزلا بها على السيد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وأخذ فى تحصين تلمسان ورم أسوارها وأقاما عند السيد يرومان الكرة من صاحب تلمسان. وعاس عليّ بن محمد بن غانية في الأموال وفرقها في ذؤبان العرب ومن انضاف إليهم، ورحل إلى الجزائر فافتتحها وولى عليها يحيى بن أبي طلحة. ثم افتتح مازونة وانتهى إلى مليا فافتتحها وولى عليها بدر بن عائشة. ثم نهض إلى القلعة فحاصرها ثلاثاً ودخلها عنوة وكانت له في المغرب خطة مشهورة. ثم قصد قسنطينة فامتنعت عليه واجتمعت عليه وفود العرب فاستنجدهم وجاؤا بأحلافهم. ولما اتصل الخبر بالمنصور وهو بسبتة مرجعه من الغزو سرح العساكر في البر لنظر السيد أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وعقد له على المغرب الأوسط.

وبعث الأساطيل إلى البحر وقائدها أحمد الصقلّي وعقد عليها لأبي محمد بر إبراهيم بن جامع وزحفت العساكر من كل جهة، فثار أهل الجزائر على يحيى بن أبي طلحة ومن معه وأمكنوا منهم السيد أبا يزيد فقتلهم على شلف وعفا عن يحيى لنجده عمه طلحة وكان بدر بن عائشة أسرى من مليانة واتبعه الجيش فلحقوه أمام العدو فتقبضو عليه بعد قتال مع البرابرة حين أرادوا إجارته، وتادوه إلى السيد أبي يزيد فقتله. وسبق الأسطول إلى بجاية فثار بيحيى بن غانية وفر إلى أخيه عليّ لمكانه من حصار قسنطينة بعد أن كان أخذ بمخنقها. ونزل السيد أبو زيد بعساكره بتكلات من ظاهر بجاية، وأطلى السيد أبا موسى من معتقله. ثم رحل في طلب العدو فأفرج عن قسنطينة بعد أن كان أخذها ومضى شديداً في الصحراء، والموحدون في اتباعه حتى انتهوا إلى مغرة ونغارس. ثم نقلوا إلى بجاية واستنفر السيد أبا زيد بها وقصد علي بن غانية في قفصة فملكها ونازل بورق وقصطيلة فامتنعت وارتحل إلى طرابلس وفيها قراقش الغزي المطغري، وكان من خبره على ما نقل أبو محمد التيجاني في كتاب رحلته أن صلاح الدين صاحب مصر بعث تقي الدين ابن أخيه شاه إلى المغرب لافتتاح ما أمكنه من المدن نكون له معقلاً يتحصّن فيه من مطالبة نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام الذي كان صلاح الدين عمه من وزرائه. واستعجلوا النصر فخشوا عاديته. ثم رجع تقي الدين من طريقه لأمر عرض له ففر قراقش الأرمني بطائفة من جنوده. وفر إبراهيم بن قراتكين سلاح دار المعظم نسبة للملك المعظم شمس الدولة ابن أيوب أخي صلاح الدين. فأما قراقش فلحق بسنترية، وافتتحها وذلك سنة ست وثمانين وخمسمائة وخطب فيها لصلاح الدين ولأستاذه تقي الدين. وكتب لهما بالفتح وافتتح زويلة وغلب بني خطاب الهواري على ملك فزان، وكانت ملكاً لعمه محمد بن الخطاب بن يصلتن بن عبد الله بن صنفل بن خطاب وهو آخر ملوكهم، وكانت قاعدة

ملكه زويلة. وتعرف زويلة ابن خطاب فتقبض عليه وغلبه على المال حتى هلك، ولم يزل يفتح البلاد إلى أن وصل إلى طرابلس واجتمع عليه عرب ذياب بن سليم. ونهض بهم إلى جبل نفوسة فملكه واستخلص أموال العرب واتصل به مسعود بن زمام شيخ الذواودة من رياح عند مفره من المغرب كما ذكرناه.
واجتمعت أيديهم على طرابلس وافتتحها واجتمع إليه ذؤبان العرب من هلال وسليم. وفرض لهم العطاء، واستبد بملك طرابلس وما وراءها، وكان قراقش من الأرمن، وكان يقال له المظفري لأنه مملوك المظفر والناصري لأنه يخطب للناصر صلاح الدين. وكان يكتب في ظهائره ولي أمير المؤمنين بسكون الميم، ويكتب علامة الظهيره بخطه: وثقت بالله وحده أسفل الكتاب. وأما إبراهيم بن قراقش صاحبه فإنه سار مع العرب إلى قفصة فملك جميع منازلها وراسل بني الزند رؤساء قفصة فأمكنوه من البلد لانحرافهم عن بني عبد المؤمن فدخلها وخطب للعباسي ولصلاح الدين إلى أن قتله المنصور عند فتح قفصة كما نذكره في أخبار الموحدين.

رجع الخبر إلى ابن غانية:

ولما وصل علي بن غانية إلى طرابلس ولقي قراقش اتفقا على المظاهرة على الموحدين واستمال ابن غانية كافة بني سليم من العرب وما جاورهم من مجالاتهم ببرقة وخالطوه في ولايتهم، واجتمع إليه من كان منحرفاً عن طاعة الموحّدين من قبائل هلال مثل: جشم ورياح والأثبج. وخالفتهم زغبة إلى الموحدين فاعتقلوا بطاعتهم سائر أيامهم. ولحق بابن غانية فل قومه من لمتونة ومنونة من أطراف البقاع، فانعقد أمره وتجدد بذلك القطر سلطان قومه. وجدد رسوم الملك واتخذ الآلة وافتتح كثيراً من بلاد الجريد وأقام فيها الدعوة العباسية. ثم بعث ولده وكاتبه عبد المؤمن من فرسان الأندلس إلى الخليفة الناصر بن المستضيء ببغداد، مجدداً ما سلف لقومه من المرابطين بالمغرب من البيعة والطاعة وطلب المدد والإعانة، فعقد له كما كان لقومه وكتب الكتاب من ديوان الخليفة إلى ملك مصر والشام النائب عن الخليفة بها صلاح الدين يوسف بن أيوب، فجاء إلى مصر فكتب له صلاح الدين إلى قراقش واتصل أمرهما في إقامة الدعوة العباسية.

وظاهره ابن غانية على حصار قابس فافتتحها قراقش من يد سعيد بن أبي الحسن، وولى عليها مولاه وجعل فيها ذخائره. ثم اتصل بها إلى أن وصل إلى قفصة خلعوا طاعة ابن غانية فظاهره قراقش عليها فافتتحها عنوة. ثم رحل إلى توزر وقراقش في مظاهرته فافتتحها أيضاً. ولما اتصل بالمنصور ما نزل بأفريقية من أجلاب ابن غانية وقراقش على بلاد الجريد نهض من مراكش سنة ثمان وثمانين وخمسمائة لحسم هذا الداء واستنقاذ ما غلبوا عليه. ووصل إلى تونس فأراح بها وسرح في مقدمته السيد أبا يوسف يعقوب بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، ومعه عمر بن أبي زيد من أعيان الموحدين فلقيهم ابن غانية في جموعه بعهده

فانهزم الموحدون وقتل ابن أبي زيد وجماعة منهم، وأسر علي بن الزبرتير في آخرين وامتلأت أملاك العدو من أسلابهم ومتاعهم. ووصل سرعان الناس إلى تونس، وصمد المنصور إليهم فأوقع

بهم بظاهر الحامة في شعبان من سنته. وأفلت ابن غانية وقراقش بحومة الوفر وبادر أهل قابس وكانت خالصة لقراقش دون ابن غانية فأتوا طاعتهم وأسلموا من كان عندهم من أصحابه وذويه فاحتملوا إلى مراكش، وقصد المنصور إلى توزر فحاصرها فأسلموا إليه من كان فيها من أصحاب ابن غانية. وبادر أهلها بالطاعة.

ثم رجع إلى قفصة فحاصرها حتى نزلوا على حكمه، وقتل من كان بها من الحشود. وقتل إبراهيم بن قراتكين. وأمتن على سائر الأعوان وخلى سبيلهم، وأمّن أهل البلد في أنفسهم وجعل أملاكهم بأيديهم على حكم المساقاة. ثم غزا العرب واستباح حللهم وأحياءهم حتى استقاموا على طاعته. وفر ذو المراس كثير الخلاف والفتنة منهم إلى المغرب مثل: جشم ورياح والعاصم كما قدمناه. وقفا إلى المغرب سنة أربع وثمانين وخمسمائة، ورجع ابن غانية وقراقش إلى حالهما من الأجلاب على بلاد الجريد إلى أن هلك علي في بعض حروبها مع أهل نفزاوة سنة أربع وثمانين وخمسمائة، أصابه سهم غرب كان فيه هلاكه فدفن هنالك وعفى على قبره، وحمل شلوه إلى ميورقة فدفن بها. وقام بالأمر أخوه يحي بن إسحق بن محمد بن غانية وجرى في مظاهرة قراقش وموالاته على سنن أخيه علي.

ثم نزع قراقش إلى طاعة الموحدين سنة ست وثمانين وخمسمائة فهاجر إليهم بتونس وتقبله السيد أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وأقام معه أياماً. ثم فر ووصل إلى قابس فدخلها مخادعة وقتل جماعة منهم، واستبد على أشياخ دباب والكعوب من بني سليم فقتل سبعين منهم بقصر العروسيين. كان منهم محمود بن طوق أبو المحاميد، وحميد بن جارية أبو الجواري. ونهض إلى طرابلس فافتتحها ورجع إلى بلاد الجريد فاستولى على أكثرها، ثم فسد ما بينه وبين يحيى بن غانية. وسار إليه يحيى فانتهز قراقش ولحق بالجبال وتوغل فيها، ثم فر إلى الصحراء ونزل ودان ولم يزل بها إلى أن حاصره ابن غانية من بعد ذلك بمدة وجمع عليه أهل الثأر من ذباب، واقتحمه! عليه عنوة وقتله ولحق ابنه بالموحدين. ولم يزل بالحضرة إلى أيام المستنصر. ثم فر إلى ودان وأجلب في الفتنة فبعث إليه ملك كام من قتله لسنة ست وخمسين وستمائة وخمسمائة.

(رجع الخبر): واستولى ابن غانية على الجريد، واستنزل ياقوت فولى قراقش من

طرده، كذا ذكره التجاني في رحلته. ولحق ياقوت بطرابلس، ونازله ابن غانية بها، وطال أمر حصاره. وبالغ ياقوت في المدافعة، وبعث يحيى عن أسطول ميورقة فأمده أخوه عبد الله بقطعتين منه فاستولى على طرابلس، وأشخص ياقوت إلى ميورقة واعتقل بها إلى أن أخذها الموحدون. وكان من خبر ميورقة أن عليّ بن غانية لما نهض إلى فتح بجاية نرك أخاه محمداً وعلي بن الزبرتير في معتقلهما. فلما خلا الجو من أولاد

غانية وكثير من الحامية داخل ابن الزبرتير في معتقله نفر من أهل الجزيرة، وثاروا بدعوة محمد وحاصروا القصيبة إلى أن صالحهم أهلها على إطلاق محمد بن إسحق فأطلق من معتقله، وصار
الأمر له فدخل في دعوة الموحّدين، ووفد مع علي بن الزبرتير على يعقوب المنصور. وخالفهم إلى ميورقة عبد الله بن إسحق، ركب البحر من أفريقية إلى صقلية وأمدوه بأسطول، ووصل إلى ميورقة عند وفادة أخيه على المنصور فملكها، ولم يزل بها والياً. وبعث إلى أخيه علي بالمدد إلى طرابلس كما ذكرناه، وبعثوا إليه ياقوت فاعتقله عنوة إلى أن غلب عليه الموحدون سنة تسع وتسعين وخمسمائة فقتل. ومضى ياقوت إلى مراكش وبها مات.
(رجع الخبر): ولما فرغ ابن غانية من أمر طرابلس ولى عليها تاشفين ابن عمه الغازي، وقصد قابس فوجد بها عامل الموحدين ابن عمر تافراكين بعثه إليهم صاحب تونس الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص، فاستدعاه أهلها لما فر عنهم نائب قراقش أخذ ابن غانية لطرابلس فنازل قابس، وضيق عليها حتى سألوه الأمان على أن يخلي سبيل ابن تافراكين فعقد لهم ذلك وأمكنوه من البلد فملكها سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وأغرمهم ستين ألف دينار، وقصد المهدية سنة سبع وتسعين وخمسمائة فاستولى عليها وقتل الثائر بها محمد بن عبد الكريم الركراكي.
(وكان من خبره) أنه نشأ بالمهدية وصار من جندها المرتدين وهو كوفي الأصل، وكانت له شجاعة معروفة فجمع لنفسه خيلاً ورجالاً، وصار يغير على المفسدين من الأعراب بالأطراف فداخلهم هيبة وبعد في ذلك صيته وأمده الناس بالدعاء. وقدم أبو سعيد بن أبي حفص على أفريقية من قبل المنصور لأول ولايته، وولى على المهدية أخاه يونس. وطالب محمد بن عبد الكريم بالسهمان في المغانم. وامتنع
فأنزل به النكال وعاقبه بالسجن فدبر ابن عبد الكريم الثورة وداخل فيها بطانته وتقبض على أبي علي يونس سنة خمس وتسعين وخمسمائة واعتقله إلى أن فداه أخوه أبو سعيد بخمسمائة دينار من الذهب العين واستبد ابن عبد الكريم بالمهدية ودعا لنفسه وتلقب المتوكل على الله. ثم وصل السيد أبو زيد بمن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن والياً على أفريقية فنازل ابن عبد الكريم بتونس سنة ست وتسعين وخمسمائة واضطرب معسكره بحلق الوادي وبرز إليه جيوش الموحدين فهزمهم وطال حصاره لهم. ثم سألوه الإفراج عنهم فأجاب لذلك، وارتحل عنهم إلى حصار يحيى بن غانية بفاس فنازله مدّة.
ثم ارتحل إلى قفصة وخرج ابن غانية في أتباعه، فانهزم ابن عبد الكريم أمامه
ولحق بالمهدية، وحاصره ابن غانية بها سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وأمده السيد أبو زيد بقطعتين من الغزاة حتى سأل ابن عبد الكريم النزول على حكمه وخرج إليه فقبض عليه ابن غانية وهلك في اعتقاله، واستولى على المهدية واستضافها إلى ما كان بيده من طرابلس وقائى وصفاقس والجريد. ثم نهض إلى الجانب الغربي من أفريقية فنازل باجة، ونصب عليها المجانيق، وافتتحها عنوة وخربها، وقتل عاملها عمر بن

غالب، ولحق شريدها بالأربس وشقبنارية، وتركها خاوية على عروشها وبعد مدة تراجع إليها ساكنها بأمن السيد أبي زيد فزحف إليها ابن غانية ثانية ونازلها، وزحف إليه السيد أبو الحسن أخو السيد أبي زيد فلقيه بقسنطينة، وانهزم الموحدون واستولى على معسكرهم.

ثم نهض إلى بسكرة واستولى عليها وقطع أيدي أهلها وتقبض على حافظها أبي الحسن ابن أبي يعلى، وتملك بعدها بلنسية والقيروان وبايعه أهل بونة، ورجع إلى المهدية وقد استفحل ملكه، فأزمع على حصار تونس، وارتحل إليها سنة تسع وتسعين وخمسمائة، واستعمل على المهدية ابن عمه علي بن الغازي، ويعرف بالكافي بن عبد الله بن محمد بن علي بن غانية، ونزل بالجبل الأحمر من ظاهر تونس ونزل أخوه بحلق الوادي. ثم ضايقوها بمعسكرهم وردموا خندقها ونصبوا المجانيق والآلات، واقتحموها لأربعة أشهر من حصارها في ختام المائة السادسة، وقبض على السيد أبي زيد وابنيه ومن كان معه من الموحّدين، وأخذ أهل تونس بغرم مائة ألف دينار، وولى

بقبضها منهم كاتبه ابن عصفور وأبا بكر بن عبد العزيز بن السكاك، فأرهقوا الناس بالطلب حتى لاذ معظمهم بالموت واستعجل القتل فيما نقل أن إسمعيل بن عبد الرفيع من بيوتاتها ألقى بنفسه في بئر فهلك، فرفع الطلب ببقيتها عنهم.

وارتحل إلى نفوسة والسيد أبو زيد معتقل في معسكره، ففعل بهم مثل ذلك، وأغرمهم ألف ألف مرتين من الدنانير، وكثر عيثه وإضراره بالرعنة، وعظم طغيانه وعتوه. واتصل بالناصر بمراكش ما دهم أهل أفريقية منه ومن ابن عبد الكريم قبله، فامتعض لذلك ورحل إليها سنة إحدى وستمائة. وبلغ يحيى بن غانية خبر زحفه إليه فخرج من تونس إلى القيروان ثم إلى قفصة واجتمع إليه العرب وأعطوه الرهن على المظاهرة والدفاع. ونازل طرة من حصون مغراوة فاستباحها، وانتقل إلى حامة مطماطة. ونزل الناصر تونس ثم قفصة ثم قابس، وتحصّن منه ابن غانية، في جبل دمر، فرجع عنه إلى المهدية، وعسكر عليها واتخذ الآلة لحصارها.

وسرح الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص لقتال ابن غانية في أربعة آلاف من الموحدين سنة إثنتين وستمائة فلقيه بجبل تاجورّا من نواحي قابس وأوقع به، وقتل أخاه جبارة بن إسحق واستنقذ السيد أبا زيد من معتقله، ثم افتتح الناصر المهديّة ودخل إليها علي بن الغازي في دعوته فتقبله، ورفع مكانه ووصله بهدية وافق وصولها من سبتة إليه على يد واصل مولاه وكان بها ثوبان منسوجان بالجواهر فوصله بذلك كله، ولم يزل معه إلى أن استشهد مجاهداً.

وولى الناصر على المهدئة محمد بن يغمور من الموحدين ورجع إلى تونس. ثم نظر فيمن يوليه أمر أفريقية لسد فرجها والذب عنها، ومدافعة ابن غانية وجموعه دونها. فوقع اختياره على الشيخ أبي محمد بن أبي حفص فعقد له على ذلك سنة ثلاث كما ذكرناه في أخباره. ورجع الناصر إلى المغرب، وأجمع ابن غانية

النهوض لقتال الموحدين بتونس، وجمع ذؤبان العرب من الزواودة وغيرهم. وأوفد الزواودة يومئذ محمد بن مسعود بن سلطان وتحيز بنو عوف بن سليم إلى الموحدين، والتقوا بشبرو من نواحي تبسة فانهزمت جموع ابن غانية، ولجأ إلى جهة طرابلس0

ثم نهض إلى المغرب في جموعه من العرب والملثّمين فانتهى إلى سجلماسة، وامتلأت أيدي أتباعه من النهاب، وخرقوا الأرض بالعيث والفساد، وانكفأ إلى المغرب الأوسط وداخله المفسدون من زناتة، وأغزوا به صاحب تلمسان السيد أبا عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن، فلقيه بتاهرت فهزمه ابن غانية، وقتله وأسر وافده وكر راجعاً إلى أفريقية فاعترضه الشيخ أبو محمد صاحب أفريقية في جموع الموحدين، واستنقذ الغنائم من أيديهم. ولجأ ابن غانية إلى جبال طرابلس، وهاجر أخوه سير بن إسحق إلى مراكش فقبله الناصر وأكرمه. ثم اجتمع إلى ابن غانية طوائف العرب من رياح وعوف وهيث ومن معهم من قبائل البربر، وعزم على دخول أفريقية. ونهض إليهم الشيخ أبو محمد سنة ست وستمائة ولقيهم بجبل نفوسة ففلّ عسكرهم واستلحم أمرهم، وغنم ما كان معهم من الظهر والكراع والأسلحة. وقتل يومئذ محمد بن الغازي وجوار بن يفرن، وقتل معه ابن عمه من كتاب ابن أبي الشيخ ابن عساكر بن سلطان، وهلك يومئذ من العرب الهلاليين أمير قرّة سمّاد بن نخيل.حكى ابن نخيل: أن مغانم الموحدين يومئذ من عساكر الملثّمين كانت ثمانية عشر ألفاً من الظهر فكان ذلك مما أوهن من شدته ووطى من بأسه. وثارت قبائل نفوسة بكاتبه ابن عصفور فقتلوا ولديه، وكان ابن غانية يبعثه عليهم للمغرم. وسار أبو محمد في نواحي أفريقية ودفع سلبهم واستئأر أشياخهم بأهلهم، وأسكنهم بتونس حسماً لفسادهم. وصلحت أحوال أفريقية إلى أن هلك الشيخ أبو محمد سنة ثمان عشرة وستمائة، وولى أبو محمد السيد أبو العلا إدريس بن يونس بن عبد المؤمن. ويقال بل وليها قبيل مهلك الشيخ أبي محمد فاستطار بعد مهلكه ثور بن غانية، ونجم نفاقه وعيثه، فعابه رعيته ونهض إليه السيد أبو العلا ونزل قابس وأقام بقصر العروسيين وسرح ولده السيد أبا زيد بعسكر من الموحدين إلى درج وغدامس، وسرح عسكراً آخر إلى ودان لحصار ابن غانية، فأرجف بهم العرب ونهضوا وهم بهم السيد أبو

العلا. وفر ابن غانية إلى الزاب، واتبعه السيد أبو زيد فنازل ببسكرة واقتحمها عليه. ونجا ابن غانية، وجمع أوباشاً من العرب والبربر، واتبعه السيد أبو زيد في الموحدين وقبائل هوارة، وتزاحفوا بظاهر تونس سنة إحدى وعشرين وستمائة فانهزم ابن غانية وجموعه، وقتل كثير من الملثّمين، وامتلأت أيدي الموحدين من الغنائم.

وكان لهوارة يومئذ، وأميرهم حناش بن بعرة بن ونيفن. في هذا الزحف أثر مذكور وبلاء حسن. وبلغ السيد أبا زيد إثر هذه الوقيعة خبر مهلك أبيه بتونس فانكف راجعاً، وأعيد بنوأبي حفص إلى مكان أبيهم الشيخ أبي محمد بن أثال بأفريقية. واستقل الأمير أبو زكريا منهم بأمرها، واقتلعها عن ملكه إلى عبد المؤمن

وتناولها من يد أخيه أبي محمد . عبد الله. وهذا الأمير أبو زكريا هو جد الخلفاء الحفصيّين وماهد أمرهم بأفريقية، فأحسن دفاع ابن غانية عنها وشرده في أقطارها. ورفع يده شيئاً فشيئاً عن النيل من أهلها ورعاياها. ولم يزل شريداً مع العرب بالقفار، فبلغ سجلماسة من أقصى المغرب، والعقبة الكبرى من تخوم الديار المصرية. واستولى على ابن مذكور صاحب السويقة من تخوم برقة، وأوقع بمغراوة بواجر ما بين متيجة ومليانة، وقتل أميرهم منديل بن عبد الرحمن وصلب شلوه بسور الجزائر.

وكان يستخدم الجند فإذا سئموا الخدمة تركهم لسبيلهم إلى أن هلك لخمسين سنة من أمارته سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وقيل ثلاث وثلاثين، ودفن وعفى أثر مدفنه. يقال بوادي الرجوان قبلة الأربس ويقال بجهة مليانة من وادي شلف، ويقال بصحراء باديس ومديد من بلاد الزاب. وانقرض أمر الملثّمين من مسوفة ولمتونة ومن جميع بلاد أفريقية والمغرب والأندلس بمهلكه. وذهب ملك صنهاجة من الأرض بذهاب ملكه وانقطاع أمره. وقد خلف بنات بعثهن زعموا إلى الأمير أبي زكريا لعهده بذلك إلى علجه جابر فوضعن في يده. وبلغه وفاة أبيهن وحسن ظنه في كفالته إياهنّ، فأحسن الأمير أبو زكريا كفالتهن، وبنى لهن بحضرته داراً لصونهن معروفة لهذا العهد

بقصر البنات.وأقمن تحت حراسته وفي سعة من رزقه موصولات لوصاة أبيهن بي بذلك منهن وحفظهنّ لوصاته. ولقد يقال إن ابن عم لهن خطب إحداهن فبعث إليها الأمير أبو زكريا فقال لها: هذا ابن عمك وأحق بك، فقالت لو كان ابن عمنا ما كفلنا الأجانب: إلى أن هلكن عوانس بعد أن متعن من العمر بحظ. أخبرني والدي رحمه الله: أنه أدرك واحدة منهن أيام حياته في سني العشر والسبعمائة تناهز التسعين من السنين. (قال): ولقيتها وكانت من أشرف النساء نفساً وأسراهن خلقا وأزكاهن خلالاً والله وارث الأرض ومن عليها.

ومضى هؤلاء الملثّمون وقبائلهم لهذا العهد بمجالاتهم من جوار السودان حجزاً بينهم وبين الرمال التي هي تخوم بلاد البربر من المغربين وأفريقية، وهم لهذا العهد متصلون من ساحل البحر المحيط في المغرب إلى ساحل النيل بالمشرق. وهلك من قام بالملك منهم بالعدوتين، وهم قليل من مسوفة ولمتونة كما ذكرناه، أكلتهم الدولة وابتلعتهم الآفاق والأقطار، وأفناهم الرق واستلحمهم أمراء الموحدين. وبقي من أقام بالصحراء منهم على حالهم الأول من افتراق الكلمة واختلاف البين، وهم الآن يعطون طاعة لملوك السودان، يجبون إليهم خراجهم وينفرون في معسكرهم.

واتصل بنيانهم على بلاد السودان إلى المشرق مناظر السلع العرب على بلاد المغربين وأفريقية. فكدالة منهم في مقابلة ذوي حسان من المعقل عرب السوس الأقصى، ولمتونة وتريكة في مقابلة ذوي منصور وذوي عبد الله من المعقل أيضاً عرب المغرب الأقصى، ومسوفة في مقابلة زغبة عرب المغرب الأوسط، ولمطة في مقابلة رياح عرب الزاب وبجاية وقسنطينة، وتاركاً في مقابلة سليم عرب أفريقية، وأكثر ما

عندهم من المواشي الإبل لمعاشهم وحمل أثقالهم وركوبهم، والخيل قليلة لديهم أو معدومة. ويركبون من الإبل الفارهة ويسمونها النجيب، ويقاتلون عليها إذا كانت بينهم حرب، وسيرها هملجة، وتكاد تلحق بالركض وربما يغزوهم أهل القفر من العرب، وخصوصاً بنو سعيد من بادية رياح، فهم أكثر العرب غزوا إلى بلادهم

فيستبيحون من صحبوه منهم يرمونه في بطون مغاير. فإذا اتصل الصائح بأحيائهم، وركبوا في أتباعهم اعترضوهم على المياه قبل وصولهم من تلك البلاد فلا يكادون يخلصون ويشتد الحرب بينهم فلا يخلص، العرب من غوائلهم إلا بعد جهد، وقد يهلك بعضهم، ولله الخلق والأمر. وإذ عرض لنا ملوك السودان فلنذكر ملوكهم لهذا العهد المجاورين لملوك المغرب.

ملوك السودان

الخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب من وراء هؤلاء

الملثمين ووصف أحوالهم والإلمام بما اتصل بنا من دولتهم

هذه الأمم السودان من الآدميين هم أهل الإقليم الثاني، وما وراءه إلى آخر الأول بل وإلى آخر المعمورة متصلون ما بين المغرب والمشرق، يجاورون بلاد البربر بالمغرب وأفريقية وبلاد اليمن والحجاز في الوسط، والبصرة وما وراءها من بلاد الهند بالمشرق، وهم أصناف وشعوب وقبائل أشهرهم بالمشرق الزنج والحبشة والنوبة، وأما أهل المغرب منهم فنحن ذاكروهم بعدما، ننسبهم فبنو حام بن نوح، بالحبش من ولد حبش بن كوش بن حام، والنوبة من ولد نوبة بن كوش بن كنعان بن حام فيما قاله المسعودي، وقال ابن عبد البر إنهم من ولد نوب بن قوط بن مصر بن حام، والزنج من ولد زنجي بن كوش وأما سائر السودان فمن ولد قوط بن حام فيما قاله ابن عبد البر، ويقال هو قبط بن حام.

وعد ابن سعيد من قبائلهم وأممهم تسع عشرة أمة، فمنهم في المشرق الزنج على بحر الهند، لهم مدينة فنقية وهم مجوس، وهم الذين غلب رقيقهم بالبصرة على ساداتهم مع دعي الزنج في خلافة المعتمد. قال: ويليهم مدينة بربرا، وهم الذين ذكرهم

امرؤ القيس في شعره. والإسلام لها العهد فاش فيهم، ولهم مدينة مقدشوا على البحر الهندي يعمرها تجار المسلمين ومن غربيهم وجنوبهم الدمادم وهم حفاة عراة. قال: وخرجوا إلى بلاد الحبشة والنوبة عند خروج التتر إلى العراق فعاثوا فيها ثم رجعوا. قال: ويليهم الحبشة وهم أعظم أمم السودان، وهم مجاورون لليمن على شاطئ البحر الغربي ومنه غزوا ملك اليمن ذي نواس وكانت دار مملكتهم كعبر، وكانوا على دين النصرانية، وأخذ بالإسلام واحد منهم زمن الهجرة على ما ثبت في الصحيح، والذي أسلم منهم لعهد النبي صلى الله عليه و سلم وهاجر إليه الصحابة قبل الهجرة إلى المدينة فآواهم ومنعهم، وصلى عليه النبي صلى الله عليه و سلم عندما نعي إليه كان إسمه النجاشي وهو بلسانهم: انكاش بالكاف المشمة بالجيم

عربتها العرب جيما محضة وألحقتها ياء النسب، شأنها في الأسماء الأعجمية إذا تصرفت فيها، وليس هذا الاسم سمة لكل من تملك منهم كما يزعم كثير من الناس ممن لا علم له بهذا، ولو كان كذلك لشهروا إسمه إلى اليوم لأن ملكهم لم يتحول منهم.

وملكهم لهذا العهد إسمه الخطى ما أدري اسم السلطان نفسه، أو إسم العشيرة الذين فيهم الملك وفي غربية مدينة داموت وكان بها ملك من أعاظمهم وله ملك ضخم وفي شماليه ملك آخر منهم إسمه حق الدين محمد بن علي بن ولصمع في مدينة أسلم أولوه في تواريخ مجهولة. وكان جده ولصمع مطيعاً لملك دامون، وأدركت الخطى الغيرة من ذلك فغزاه واستولى على بلاده. ثم اتصلت الفتنة وضعف أمر الخطى فاسترجع بنو ولصمع بلادهم من الخطى وبنيه، واستولوا على وفات وخربوها. وبلغنا أن حق الدين هلك، وملك بعده أخوه سعد الدين وهم مسلمون ويعطون الطاعة للخطى أحياناً وينابذونه أخرى والله مالك الملك.

(قال ابن سعيد): ويليهم البجاوة وهم نصارى ومسلمون، ولهم جزيرة بسواكن في بحر السوس، ويليهم النوبة إخوة الزنج والحبشة ولهم مدينة دنقلة غرب النيل، وأكثرهم مجاورون للديار المصرية، ومنهم رقيق. ويليهم زغاوة وهم مسلمون، ومن شعوبهم تاجرة ويليهم الكانم وهم خلق عظيم، والإسلام غالب عليهم ومدينتهم حميمي ولهم التغلب

على بلاد الصحراء إلى فزان. وكانت لهم مهادنة مع الدولة الحفصيّة منذ أولها، ويليهم من غربهم كوكو، وبعدهم نغالة والتكرور ولمى وتميم وجالي وكوري وأفكزار، ويتصلون بالبحر المحيط إلى غانية في الغرب اه كلام ابن سعيد.

ولما فتحت أفريقية المغرب دخل التجار بلاد المغرب فلم يجدوا فيهم أعظم من ملوك غانية، كانوا مجاورين للبحر المحيط من جانب الغرب، وكانوا أعظم أمة ولهم أضخم ملك، وحاضرة ملكهم غانية مدينتان على حافتي النيل من أعظم مدائن العالم وأكثرها معتمراً، ذكرها مؤلف كتاب رجار وصاحب المسالك والممالك. وكانت تجاورهم من جانب الشرق أمة أخرى فيما زعم الناقلون تعرف صوصو بصادين مضمومتين أو سينين مهملتين، ثم بعدها أمة أخرى تعرف مائي ثم بعدها أمة أخرى تعرف كوكو ويقال كاغو، ثم بعدها أمة أخرى تعرف بالتكرور.

(وأخبرني) الشيخ عثمان فقيه أهل غانية وكبيرهم علماً وديناً وشهرة، قدم مصر سنة تسع وتسعين وستمائة حاجاً بأهله وولده ولقيته بها فقال إنهم يسمون التكرور زغاي ومالي أنكاريه اه.

ثم إن أهل غانية ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلي البربر كما ذكرناه، وعبروا على السودان واستباحوا حماهم وبلادهم واقتضوا منهم الأتاوات والجزى، وحملوا كثيراً منهم على الإسلام فدانوا به. ثم اضمحل ملك أصحاب غانة وتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم من أمم السودان واستعبدوهم وأصاروهم في جملتهم. ثم إن أهل مالي كثروا أمم

السودان في نواحيهم تلك، واستطالوا على الأمم المجاورين لهم فغلبوا على صوصو وملكوا جميع ما بأيديهم من ملكهم القديم، وملك أهل غانة إلى البحر المحيط من ناحية الغرب وكانوا مسلمين، يذكرون أن أول من أسلم منهم ملك اسمه برمندانة هكذا ضبطه الشيخ عثمان. وحج هذا الملك واقتفى سننه في الحج ملوكهم من بعده.

وكان ملكهم الأعظم الذي تغلب على صوصو وافتتح بلادهم وانتزع الملك من أيديهم اسمه ماري جاطة، ومعنى ماري عندهم الأمير الذي يكون من نسل السلطان وجاطة الأسد، واسم الحافد عندهم تكن، ولم يتصل بنا نسب هذا الملك. وملك

عليهم خمساً وعشرين سنة فيما ذكروه. ولما هلك ولي عليهم من بعده منساولي، ومعنى منسا السلطان، ومعنى ولي بلسانهم علي، وكان منسا ولي هذا من أعاظم ملوكهم. وحج أيام الظاهر بيبرس، وولي عليهم من بعده أخوه واتى. ثم بعده أخوهم خليفة وكان محمقاً راوياً، فكان يرسل السهام على الناس فيقتلهم مجاناً، فوثبوا عليه فقتلوه. وولي عليهم من بعده سبط من أسباط ماري جاطة يسمى بأبي بكر، وكان ابن بنته فملكوه على سنن الأعاجم في تمليك الأخت وابن الأخت. ولم يقع إلينا نسبه ونسب أبيه.

ثم ولي عليهم من بعده مولى من مواليهم تغلب على ملكهم إسمه ساكورة. وقال الشيخ عثمان ضبطه بلسانهم أهل غانة سبكرة وحج أيام الملك الناصر وقتل عند مرجعه بتاجورا، وكانت دولته ضخمة اتسع فيها نطاق ملكهم وتغلبوا على الأمم المجاورة لهم. وافتتح بلاد كوكو وأصارها في ملكة أهل مالي. واتصل ملكهم من البحر المحيط وغانة بالمغرب إلى بلاد التكرور في المشرق، واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان، وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وأفريقية.

وقال الحاج يونس ترجمان التكروري إن الذي فتح كوكو هو سغمنجة من قواد منسا موسى، وولي من بعده ساكورة هذا هو ابن السلطان ماري جاطة، ثم من بعده إبنه محمد بن قو، ثم انتقل ملكهم من ولد السلطان ماري جاطة إلى ولد أخيه أبي بكر فولي عليهم منسا موسى بن أبي بكر، وكان رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً، له في العدل أخبار تؤثر عنه. وحج سنة أربع وعشرين وسبعمائة، لقيه في الموسم شاعر الأندلس أبو إسحق إبراهيم الساحلي المعروف بالطويجن وصحبه إلى بلاده. وكان له اختصاص وعناية ورثها من بعده ولده إلى الآن وأوطنوا والاتر من تخوم بلادهم من ناحية المغرب، ولقيه في منصرفه صاحبنا المعمّر أبو عبد الله بن خديجة الكومي من ولد عبد المؤمن، كان داعية بالزاب للفاطمي المنتظر، وأجلب عليهم بعصائب من العرب فكر به واركلا، واعتقله ثم خلى سبيله بعد حين فخاض القفر إلى السلطان منسا موسى مستجيشاً به عليهم، وقد كان بلغه توجهه للحج فأقام في انتظاره ببلد غدامس يرجو نصراً على عدوه ومعونة على أمره لما كان عليه منسا موسى من استفحال

ملكه بالصحراء الموالية لبلد واركلا وقوة سلطانه فلقي منه مبرة وترحباً ووعده بالمظاهرة والقيام بثأره واستصحبه إلى بلدة أخرى وهو الثقة.

(قال كنا نواكبه أنا وأبو إسحق الطويجن دون وزرائه ووجوه قومه، نأخذ بأطراف الأحاديث حيث يتسع المقام، وكان يتحفنا) في كل مترل بالرف المآكل والحلاوات قال: والذي تحمل آلته وحربته من الوصائف خاصة إثنا عشر ألفاً لابسات أقبية الديباج والحرير اليماني.

(قال الحاج يونس ترجمان هذه الأمة بمصر): جاء هذا الملك منسا موسى من بلده بثمانين حملاً من التبر، كل حمل ثلاثة قناطير. قال: وإنما يحملون على الوصائف

والرجال في أوطانهم فقط، وأما السفر البعيد كالحج فعلى المطايا.

(قال أبو خديجة): ورجعنا معه إلى حضرة ملكه فأراد أن يتخذ بيتاً في قاعدة سلطانه محكم البناء مجللاً بالكلس لغرابته بأرضهم فأطرفه أبو إسحق الطويجن ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها إجادته. وكان صناع اليدين وأضفى عليها من الكلس ووالى عليها بالأصباغ المشبعة فجاء من أتقن المباني ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم، ووصله باثني عشر ألفاً من مثاقيل التبر مبثوثة عليها. إلى ما كان له من الأثرة والميل إليه والصلات السنية. وكان بين هذا السلطان منسا موسى وبين ملك المغرب لعهده من بني مرين السلطان أبي الحسن مواصلة ومهاداة سفرت بينهما فيها الأعلام من رجال الدولتين واستجاد صاحب المغرب من متاع وطنه وتحف ممالكه مما تحدث عنه الناس على ما نذكره عند موضعه، بعث بها مع علي بن غانم المغفل وأعيان من رجال دولته. وتوارثت تلك الوصلة أعقابهما كما سيأتي واتصلت أيام منساً موسى هذا خمساً وعشرين سنة.

ولما هلك ولي أمر مالي من بعده إبنه منسا مغا ومعنى مغا عندهم محمد، وهلك لأربع سنين من ولايته، وولي أمرهم من بعده منسا سليمان بن أبي بكر وهو أخو موسى، واتصلت أيامه أربعاً وعشرين سنة. ثم هلك فولي بعده إبنه منسا بن سليمان، وهلك لتسعة من ولايته

فولي عليهم من بعده ماري جاطة بن منسا مغا بن منسا موسى، واتصلت أيامه أربعة عشر عاماً وكان أشر وال عليهم بما سامهم من النكال والعسف وإفساد الحرم. وأتحف ملك المغرب لعهده السلطان أبا سالم ابن السلطان أبي الحسن بالهدية المذكورة سنة إثنتين وستين وسبعمائة، وكان فيها الحيوان العظيم الهيكل المستغرب بأرض المغرب المعروف بالزرافة. تحدث الناس بما اجتمع فيه من متفرق الحلى والشبه في جثمانه ونعوته دهراً.

(وأخبرني القاضي الثقة أبو عبد الله محمد بن وانسول من أهل سجلماسة. وكان أوطن بأرض كوكو من بلادهم، واستعملوه في خطة القضاء بما لقيه منذ سنة ست وسبعين وسبعمائة، فأخبرني عن ملوكهم بالكثير مما كتبته، وذكر لي عن هذا السلطان جاطة أنه افسد ملكهم وأتلف ذخيرهم وكان أن ينتقض شأن

سلطانهم. (قال): ولقد انتهى الحال به في سرفه وتبذيره أن باع حجر الذهب الذي كان في جملة الذخيرة عن أبيهم، وهو حجر يزن عشرين قنطاراً منقولاً من المعدن من غير علاج بالصناعة ولا تصفية بالنار، كانوا يرونه من أنفس الذخائر والغرائب لندور مثله في المعدن، فعرضه جاطة هذا الملك المسرف على تجار مصر المترددين إلى بلده، و أبتاعوه منه بأبخس ثمن إذ استهلك من ذخائر ملوكهم سرفأ وتبذيراً في سبيل الفسوق والتخلف.

(قال): وأصابته علة النوم، وهو مرض كثيراً ما يطرق أهل ذلك الإقليم وخصوصاً الرؤساء منهم، يعتاده غشي النوم عامة أزمانه حتى يكاد أن لا يفيق ولا يستيقظ إلا في القليل من أوقاته ويضر صاحبه ويتصل سقمه إلى أن يهلك. قال: ودامت هذه العلة بخلطه مدة عامين إثنين، وهلك سنة خمس

وسبعين[وسبعمائة]. وولوا من بعده إبنه موسى فأقبل على مذاهب العدل والنظر لهم، ونكب عن طرق أبيه جملة وهو الآن مرجو الهداية، ويغلب على دولته وزيره ماري جاطة، ومعنى ماري عندهم الوزير وجاطة تقدم وهو الآن قد حجر السلطان واستبد بالأمر عليه، ونظر في تجهيز العساكر وتجهيز الكتائب، ودوخ أقطار الشرق من بلادهم وتجاوز تخوم كوكو، وجهز إلى منازلة تكرت بما وراءها من بلاد الملثمين كتائب نازلتها لأول الدولة، وأخذت بمخنقهما. ثم أفرجت عنها وحاطهم الآن هدنة.

وتكرت هذه على سبعين مرحلة من بلد واركلا في الجانب القبلي الغربي، وفيها

من الملثمين يعرف بالسلطان، وعليهم طريق الحاج من السودان، وبينه وبين أمير الزاب

وواركلا مهاداة ومراسلة. (قال): وحاضرة الملك لأهل مالي هو بلد بني... بلد متسع الخطة معين على الزرع مستبحر العمارة نافق الأسواق، وهو الآن محط لركاب البحر من المغرب وأفريقية ومصر والبضائع مجلوبة إليها من كل قطر. ثم بلغنا لهذا العهد أن منسا موسى توفي سنة تسع وثمانين وسبعمائة وولي بعده أخوه منسا مغا. ثم قتل لسنة أو نحوها وولي بعده صندكي زوج أم موسى صندكي الوزير. ووثب عليه بعد أشهر رجل من بيت ماري جاطة. ثم خرج من بلاد الكفرة وراءهم وجاءهم رجل إسمه محمود ينسب إلى منساقو بن منسا ولي ابن ماري جاطة الأكبر فتغلب على الدولة وملك أمرهم سنة إثنتين وتسعين وسبعمائة ولقبه منسا مغا والخلق والأمر لله وحده.

الخبر عن لمطة وكزولة وهسكورة بني تصكي وهم إخوة هوارة وصنهاجة:

هؤلاء القبائل الثلاث قد تقدم لنا أنهم أخوة لصنهاجه وأن أم الثلاثة تصكي العرجاء

بنت زحيك بن مادغيس، فأما صنهاجة فمن ولد عاميل بن زعزاع، وأما هوارة فمن ولد أوريغ وهو ابنها ابن برنس، وأما الآخرون فلا تحقيق في نسبهم.

(قال ابن حزم): إن صنهاجة ولمطة لا يعرف لهما أب، وهذه الأمم الثلاث موطنون بالسوس وما يليه من بلاد الصحراء وجبال درن ملأوا بسائطه وجباله. (فأما لمطة) فأكثرهم مجاورون الملثمين من صنهاجة، ولهم

شعوب كثيرة وأكثرهم ظواعن أهل وبر. ومنهم بالسوس قبيلتا زكن ولخس، صاروا في عداد ذوي حسان من معقل، وبقايا لمطة بالصحراء مع الملثمين ومعظمهم قبيلة بين تلمسان وأفريقية وكان منهم الفقيه واكاك بن زبري صاحب أبي عمران الفاسي وكان نزل سجلماسة. ومن تلميذه كان عبد الله بن باسين صاحب الدولة اللمتونية على ما مر.

(وأما كزولة) فبطونهم كثيرة ومعظمهم بالسوس ويجاورون لمطة ويحاربونهم. ومنهم
الآن ظواعن بأرض السوس، وكان لهم مع المعقل حروب قبل أن يدخلوا السوس، فلما دخلوه تغلب عليهم، وهم الآن من خولهم وأخلافهم ورعاياهم.

(وأما هسكورة) وهم لهذا العهد في عداد المصامدة وينسبون إلى دعوة الموحدين وهم أمم كثيرة وبطون واسعة ومواطنهم بجبالهم متصلة من درن إلى تادلاً من جانب الشرق إلى درعة من جانب القبلة، وكان دخول بعضهم في دعوة المهدي قبل فتح مراكش ولم يستكملوا الدخول في الدعوة إلا من بعده، لذلك لا يعدهم كثير من الناس في الموحدين، وإن عدوا فليسوا من أهل السابقة منهم لمخالفتهم الإمام أول الأمر. وما كان من حروبهم معه ومع أوليائه وشيعته، وكانوا ينادون بخلافهم وعداوتهم ويجهرون بلغنهم. فتقول خطباؤهم في مجامع صلواتهم: لعن الله هنتاتة وتينملل وهرنة وهرزجة، فلما استقاموا من بعد ذلك لم يكن لهم مزية السابقة كما كانت لهنتاتة وتينملل وهرغة وهزرجة، فاستقامتهم على الدعوة كان بعد فتح مراكش.

وبطون هسكورة هؤلاء متعددون، فمنهم مصطاوة وعجرامة وفطواكة وزمراوة وانيفت وبنو نفال وبنو رسكونت إلى آخرين لم يحضرني أسماؤهم. وكانت الرياسة عليهم آخر دولة الموحدين لعمر بن وقاريط المنتسب. وذكره في أخبار المأمون والرشيد من بني عبد المؤمن خلفاء الموحدين بمراكش. ثم كان من بعده مسعود بن كلداسن وهو القائم بأمر دبوس والمظاهر له على شأنه وأظنه جد بني مسعود بن كلداسن الرؤساء عليهم لهذا العهد من فطواكة المعروفين ببني خطاب لاتصال الرياسة في هذا البيت ولما انقرض أمر الموحدين استعصوا على بني مرين مدة، واختلفت حالهم معهم في الاستقامة والنفرة، وكانوا ملجأ للنازعين عن الطاعة من عرب جشم، ومأوى للثائرين منهم.

ثم استقاموا وأذعنوا لأداء الضرائب والمغارم وجبايتها من قومهم والخفوف إلى العسكرة مع السلطان متى دعوا إليها شأن غيرهم من سائر المصامدة.

وأما انتيفت فكانت رئاستهم في أولاد هنو، وكان يوسف بن كنون منهم، اتخذ لنفسه حصن تاقيوت، وامتنع به، ولم يزل ولده علي ومخلوف يشيدانه من بعده، وهلك يوسف وقام بأمره إبنه مخلوف، وجاهر بالنفاق سنة إثنتين وسبعمائة. ثم راجع الطاعة، وهو الذي تقبض على يوسف بن أبي عياد المتعدي على

مراكش أيام أبي ثابت سنة سبع وسبعمائة كما نذكر في أخباره، لما احيط به فتقبض عليه مخلوف وأمكن منه. وكانت وسيلته من الطاعة، وكان من بعده إبنه هلال بن مخلوف، والرياسة فيهم متصلة لهذا العهد.
وأما بنو نفال فكانت رياستهم لأولاد تروميت، وكان منهم لعهد السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن كبيرهم علي بن محمد، وكان له في الخلاف والامتناع ذكر. واستنزله السلطان أبو الحسن من محله لأول ولايته بعد حصاره بمكانه، وأصاره في جملته تحت عنايته وأمرائه إلى أن هلك بتونس بعد واقعة القيروان في الطاعون الجارف. وولي بنوه من بعده أمر قومهم إلى أن انقرضوا، والرئاسة لهذا العهد في أهل بيتهم ولأهل عمومتهم.
(وأما فطواكة): وهم أوسع بطونهم وأعظمهم رئاسة فيهم، وأقربهم اختصاصاً بصاحب الملك واستعمالاً في خدمته. وكان بنو خطاب منذ انقراض أمر الموحدين قد جنحوا إلى بني عبد الحق، وأعطوهم المقادة واختصوا شيوخهم في بني خطاب بالولاية عليهم. وكان شيخهم لعهد السلطان يوسف بن يعقوب محمد بن مسعود وابنه عمر من بعده. وهلك عمر سنة أربع وسبعمائة بمكانه من محله، وولي بعده عمه موسى بن مسعود، وسخطه السلطان لتوقع خلافه فاعتقله. وكان خلاصه من الاعتقال سنة ست وسبعمائة، وقام بأمر هسكورة من بعده محمد بن عمر بن محمد بن مسعود.
ولما استفحل ملك بني مرين وذهب أثر الملك من المصامدة وبعد عهدهم، صار بنو مرين إلى استعمال رؤسائهم في جباية مغارمهم لكونهم من جلدتهم. ولم يكن فيهم أكبر رئاسة من أولاد تونس في هنتاتة. وبني خطاب هؤلاء في هسكورة فداولوا بينهم ولاية الأعمال المراكشيّة، وليها محمد بن عمر هذا من بعد موسى بن علي وأخيه محمد

شيوخ هنتاتة، فلم يزل والياً منها إلى أن هلك قبيل نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان. ولحق ابنه إبراهيم بتلمسان ذاهبا إلى السلطان أبي الحسن. فلما دعا أبو عنان إلى نفسه رجع عنه إلى محله، وتمسك بما كان عليه من طاعة أبيه، ورعاه أبو عنان لعمه عبد الحق، وقفده الأعمال المراكشيّة فلم يغن في منازعه إلى أن لحق السلطان أبو الحسن بمراكش، فكان من أعظم دعاته، وأبلى في مظاهرته. فلما هلك السلطان أبو الحسن اعتقله أبو عنان وأودعه السجن، ثم قتله بين يدي نهوضه إلى تلمسان سنة ثلاث وخمسين وستمائة وسبعمائة، وقام بأمره من بعده أخوه منصور بن محمد إلى أن ملك الأمير عبد الرحمن بن أبي يغلوسن مراكش سنة ست وسبعين وسبعمائة، فاستقدمه وتقبض عليه، واعتقله بدار ابن عمه نحواً بن العلام بن مسرى بن مسعود بن خطاب كان في جملته، وكان هو وأبوه نازعاً إلى بني مرين خوفاً على أنفسهم من أولاد محمد بن عمر لترشحهم للأمر، فلما استمكن منه بداره معتقلاً وثب عليه فقتله واستلحم بنيه معه وسخطه السلطان لها فاعتقله قليلاً. ثم أطلقه واستقل برياسة هسكورة لهذا العهد والله قادر على ما يشاء.
الطبقة الثالثة من صنهاجة

وهذه الطبقة ليس فيها ملك وهم لهذا العهد أوفر قبائل المغرب، فمنهم الموطنون بالجانب الشرقي من جبال درن ما بين تازي وتادلا ومعدن بني فازان حيث الثنية المفضية إلى آكرسلوين من بلاد النخل.
وتفصل تلك الثنية بين بلادهم وبلاد المصامدة في المغرب من جبال درن. ثم اعتمروا قنن تلك الجبال وشواهقها وتنعطف مواطنهم من تلك الثنية إلى ناحية القبلة إلى أن تنتهي إلى آكرسلوين. ثم ترجع مغرباً من آكرسلوين إلى درعة إلى ضواحي السوس الأقصى، وأمصاره من تارودانت وأيفري إلى فونان وغيرها ويعرف هؤلاء كلهم بإسم صناكة حذفت الهاء من إسم صنهاجة، وأسموا صاده زاياً وأبدلوا الجيم بالكاف المتوسطة المخرج عند العرب لهذا العهد بين الكاف والقاف بين الكاف والجيم. وهي معرّبة النطق.
ولصنهاجة هؤلاء بين قبائل الغرب أوفر عدد وشدة بأس ومنعة، وأعزهم جانباً أهل الجبال المطلة على تادلاً، ورياستهم لهذا العهد في ولد عمران الصناكي ولهم اعتز على الدولة ومنعة عن الهضيمة والانقياد للمغرم. وتتصل بهم قبائل خباتة منهم ظواعن يسكنون بيوت الخص وينتجعون مواقع القطر في نواحي بلادهم يتغانيمين من قبيلة مكناسة إلى وادي أم ربيع من تامسنا في الجانب الشمالي من جانبي جبل درن ورياستهم في ولد هيبري من مشاهيرهم، ولهم اعتياد بالمغرم وروم على الذل. وتتصل بهم قبائل دكالة في وسط المغرب من عدوة أم ربيع إلى مراكش، ويتصل بهم من جهة المغرب على ساحل البحر المحيط قبيلة بناحية آزمور، وأخرى وافرة العد مندرجة في عداد المصامدة وطناً ونحلةً وجبايةً وعمالةً. ورياستهم لهذا العهد في دولة عزيز بن يبورك، ورئيسهم لأول دولة زناتة ويأتي ذكره ويعرف عقبه الآن ببني بطال، ومى قبائل صنهاجة بطون أخرى بجبال تازى وما والاها مثل بطوية وبخاصة وبني وارتين إلى جبل لكائي من جبال المغرب معروف ببني الكائي إحدى قبائلهم، يعطون المغرم عر عزة. وبطوية منهم ثلاثة بطون: بطوية على تازى، وبني ورياغل على ولد المزمة، وأولا علي بتافرسيت. وكان لأولاد علي ذمة مع بني عبد الحق ملوك بني مرين، وكانت أم يعقوب بن عبد الحق منهم فاستوزرهم. وكان منهم طلحة بن علي وأخوه عمر على ما يأتي ذكره في دولتهم.
ويتصل ببسيط بالمغرب ما بين جبال درن وجبال الريف من ساحل البحر الرومي حيث مساكن حماد الآتي ذكرهم قبائل أخرى من صنهاجة موطنون في هضاب وأوديه وبسائط يسكنون بيوت الحجارة والطين مثل قشتالة وسطه وبنو ورياكل وبنو
حميد وبنو مزكلدة وبنو عمران وبنو دركون وبنو رتزر وملوانة وبنو وامرد. وموطن هؤلاء كلهم بورغة وأمر كو يحترفون بالحياكة والحراثة، ويعرفون لذلك صنهاجة البز، وهم في عداد القبائل المغارمة، ولغتهم في الأكثر عربية لهذا العهد وهم مجاورون بجبال غمارة.
ويتصل بجبال غمارة من ناحيتهم جبل سريف موطن بني زروال من صنهاجة وبني

مغالة لا يحترفون بمعاش ويسمون صنهاجة العز لما اقتضته منعة جبالهم. ويقولون لصنهاجة آزمور الذين قدمنا ذكرهم صنهاجة الذل، لما هم عليه من الذل والمغرم والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وقد يقال في بعض مزاعم البربر أن بني وديد من صنهاجة وبنو يزناسن وباطويه هم أخوال وأصل يزناسن أجناسن ومعناه بلغة العرب الجالس على الأرض.

الخبر عن المصامدة من قبائل البربر وما كان لهم من الدولة والسلطان بالمغرب ومبدأ ذلك وتصاريفه:

وأما المصامدة وهم من ولد مصمود بن يونس بن بربر فهم أكثر قبائل البربر وأوفرهم، من بطونهم برغواطة وغمارة وأهل جبل درن. ولم تزل مواطنهم بالمغرب الأقصى منذ الأحقاب المتطاولة. وكان المتقدم فيهم قبيل الإسلام وصدره برغواطة. ثم صار التقدم بعد ذلك لمصامدة جبال درن إلى هذا العهد. وكان لبرغواطة في عصرهم دولة ولأهل درن منهم دولة أخرى أو دول حسبما نذكر، فلنذكر هذه الشعوب وما كان فيها من الدول بحسب ما تأدى إلينا من ذلك.

الخبر عن برغواطة من بطون المصامدة ودولتهم ومبدأ أمرهم وتصاريف أحوالهم:

وهم الجيل الأول منهم، كان لهم في صدر الإسلام التقدم والكثرة وكانوا شعوباً كثيرةً مفترقين، وكانت مواطنهم خصوصاً من بين المصامدة في بسائط تامستا وريف البحر المحيط من سلا وأزمور وأنفى وأسفى. وكان كبيرهم لأول المائة الثانية من الهجرة طريف أبو صالح، وكان من قواد ميسرة الخفير طريف المصفري القائم بدعوة الصفرية ومعهما معزوز بن طالوت. ثم انقرض أمر ميسرة والصفرية وبقي طريف قائماً بأمرهم بتامستا ويقال أيضاً أنه تنبأ وشرع لهم الشرائع. ثم هلك وولي مكانه إبنه صالح وقد كان حضر مع أبيه حروب ميسرة وكان من أهل العلم والخير فيهم.

ثم انسلخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة، وشرع لهم الديانة التي كانوا عليها من بعده، وهي معروفة في كتب المؤرّخين. وادعى أنه نزل عليه قرآن كان يتلو عليهم سوراً منه، يسمي منها سورة الديك وسورة الجمل وسورة الفيل وسورة آدم وسورة نوح وكثير من الأنبياء، وسورة هاروت وماروت وإبليس، وسورة غرائب، الدنيا وفيها العلم العظيم بزعمهم، حرم فيها وحلّل وشرّع وقصّ وكانوا يقرأونه في صلواتهم، وكانوا يسمونه صالح المؤمنين كما حكاه البكري عن زمور بن صالح بن هاشم بن وراد الوافد منهم على الحكم المستنصر الخليفة بقرطبة من قبل ملكهم أبي عيسى بن أبي الأنصاري سنة إثنتين وخمسين وستمائة وثلثمائة.

وكان يترجم عنه بجميع خبره داود بن عمر المسطاسي. قال: وكان ظهور صالح هذا في خلافة هشام بن عبد الملك سنة سبع وعشرين من المائة الثانية من الهجرة. وقد قيل إن ظهوره كان لأول الهجرة، وأنه إنما

انتحل ذلك عناداً أو محاكاة لما بلغه شأن النبي صلى الله عليه و سلم والأول أصح. ثم زعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان، وأن عيسى يكون صاحبه ويصلي خلفه، وأن إسمه في
العرب صالح وفي السريان مالك وفي الأعجمي عالم وفي العبراني روبيا وفي البربري وربا ومعناه الذي ليس بعده نبي، وخرج إلى المشرق بعد أن ملك أمرهم سبعاً وأربعين وستمائةسنة، ووعدهم أنه يرجع إليهم في دولة السابع منهم، وأوصى بدينه إلى إبنه إلياس، وعهد إليه بموالاة صاحب الأندلس من بني أميّة، وبإظهار دينه إذا قوي أمرهم.

وقام بأمره بعده إبنه إلياس، ولم يزل مظهرا للإسلام مسراً لما أوصاه به أبوه من كلمة كفرهم. وكان طاهراً عفيفاً زاهداً. وهلك لخمسين سنة من ملكه، وولي أمرهم من بعده إبنه يونس فأظهر دينهم ودعا إلى كفرهم، وقتل من لم يدخل في أمره حتى حرق مدائن تامستا وما والاها يقال إنه حرق ثلثمائة وثمانين مدينة، واستلحم أهلها بالسيف لمخالفتهم إياه، وقتل منهم بموضع يقال له تاملوكاف، وهو حجر عال نابت وسط الطريق فقتل سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين.

(قال زمور): ورحل يونس إلى المشرق وحجّ، ولم يحج أحد من أهل بيته قبله ولا بعده، وهلك لأربع وأربعين وستمائةسنة من ملكه، وانتقل الأمر عن بنيه، وولي أمرهم أبو غفير محمد بن معاد بن إليسع بن صالح بن طريف، فاستولى على ملك برغواطة وأخذ بدين آبائه واشتدت شوكته وعظم أمره، وكانت له في البربر وقائع مشهورة وأيام مذكورة أشارإليها سعيد بن هشام المصمودي في قوله:

قفي قبل التفرق وأخبرينا   وقولي وأخبري خبراً يقينا
وهذي أمة هلكوا وضلوا   وغاروا لا سقوا ماء معينا
يقولون: النبي أبو غفير   فأخزى الله أم الكاذبينا
ألم تسمع ولم تر لؤم بيت   على آثار خيلهم ربينا
وهن الباكيات فبين ثكلى   وعادمة ومسقطة جنينا
ستعلم أهل تامستا إذا ما   أتوا يوم القيامة مقطعينا
هنالك يونس وبنو أبيه   يقودون البرا بر حائرينا
إذا زر ياور طافت عليهم   جبهتهم بأيدي المنكرينا
فليس اليوم يومكم ولكن   ليالي كنتم متيسرينا

واتخذ أبو غفير من الزوجات أربعاً وأربعين وستمائة وستمائة، وكان له من الولد مثلها وأكثر. وهلك أخريات الماية الثالثة لتسع وعشرين سنة من ملكه، وولي بعده إبنه أبو الأنصار عبد الله فاقتفى سننه وكان كثير الدعة مهاباً عند ملوك عصره يهاودونه ويدافعونه بالمواصلة، وكان يلبس الملحفة والسراويل ولا يلبس المخيط ولا يعتم، ولا يعتم أحد في بلده إلا الغرباء. وكان حافظاً للجار وفياً بالعهد وهلك سنة

إحدى وأربعين وستمائةمن المائة الرابعة لأربع وأربعين وستمائةسنة من ملكه، ودفن بأمسلاخت وبها قبره. وولي بعده إبنه أبو منصور عيسى ابن إثنين وعشرين سنة فسار بسيرة آبائه وادعى النبوة والكهانة، واشتد أمره وعلا سلطانه ودانت له قبائل المغرب.

(قال زمور): وكان فيحا أوصاه به أبوه: يا بني ! أنت سابع الأمراء من أهل بيتك، وأرجو أن يأتيك صالح بن طريف. قال زمور: وكان عسكره يناهز الثلاثة آلاف من برغراطة وعشرة آلاف من سواهم مثل جراوة وزواغة والبرانس ومجكصة ومضغرة ودمّر ومطماطة وبنو وارزكيت. وكان أيضاً بنو يفرن وإصادة وركانة وايزمن ورصافة ورغصرارة على دينهم، ولم يتخذ ملوكهم الآلة منذ كانوا، انتهى كلام زمور.

وكان لملوك العدوتين في غزو برغواطة هؤلاء وجهادهم أثناء هذا وبعده آثار عظيمة من الأدارسة والأموية والشيعة. ولما أجاز جعفر بن علي من الأندلس إلى المغرب وقلده المنصور بن أبي عامرعمله سنة ست وستين وثلثمائة فنزل البصرة، ثم اختلف ذات بينه وبين أخيه يحيى واستمال عليه أخوه الجند وأمراء زناتة، فتجافى له جعفر عن العمل وصرف وجهه إلى جهاد برغواطة معتده من صالح عمله، وزحف إليهم في أهل المغرب وكافة الجند الأندلسيّين فلقوه وسط بلادهم، وكانت عليه الدبرة،

ونجا بنفسه في فل من جنده، ولحق بأخيه بالبصرة. ثم أجاز بعدها إلى المنصور باستدعائه، وترك أخاه يحيى على عمل المغرب. ثم حاربتهم أيضاً صنهاجة لما غزا بلكّين بن زيري المغرب سنة ثمان وستين وثلثمائة بعدها وأجفلت زناتة أمامه وارزوا إلى حائط سبتة، وامتنعوا منه بأوعارها، وانصرف عنهم إلى جهاد برغواطة، وزحف إليهم فلقيه أبو منصور عيسى بن أبي الأنصار في قومه، وكانت عليهم الهزيمة.

وقتل أبو منصور وأثخن فيهم بلكّين بالقتل، وبعث سبيهم إلى القيروان، وأقام بالمغرب يردد الغزو فيهم إلى سنة إثنتين وسبعين وثلثمائة وانصرف من المغرب فهلك في طريقه إلى القيروان. ولم أقف على من هلك أمرهم بعد أبي منصور. ثم حاربتهم أيضاً جنود المنصور بن أبي عامر لما عقد عبد الملك بن المنصور لمولاه واضح على المغرب عند قفوله من غزاة زيري بن عطية سنة تسع وثمانين وثلثمائة، فافتتح واضح أمره بغزو برغواطة هؤلاء فيمن قبله من الأجناد وأمراء النواحي وأهل الولاية، فعظم الأثر فيهم بالقتل والسبي، ثم حاربهم أيضاً بنو يفرن لما استقل بنو يعلى ابن محمد اليفرني من بعد ذلك بناحية سلا من بلاد المغرب، واقتطعوه من عمل أبناء زيري بن عطية المغراوي بعد ما كان بينهما من الحروب.

وانتساب أمر أولاد يعلى هؤلاء إلى تميم بن زيري بن يعلى في أول المائة الخامسة، وكان موطناً بمدينة سلا مجاوراً لبرغواطة، فكان له أثر كثير في جهادهم، وذلك في سني عشرين وأربعمائة فغلبهم على تامستا وولى عليها من قبله بعد أن أثخن فيهم سبياً وقتلاً. ثم تراجعوا من بعده إلى أن جاءت دولة لمتونة وخرجوا من مواطنهم بالصحراء إلى بلاد المغرب، واقتحموا الكثير من معاقل السوس الأقصى وجبال المصامدة. ثم بدا لهم جهاد برغواطة بتامستا وما إليها من الريف الغربي فزحف إليهم أبو بكر بن عمر أمير لمتونة في

المرابطين من قومه، وكانت له فيهم وقائع استشهد في بعضها صاحب الدعوة عبد الله بن ياسين الكزولي سنة خمسين وأربعمائة، واستمر أبو بكر وقومه من بعده على جهادهم

حتى استأصلوا شأفتهم، ومحوا من الأرض آثارهم. وكان صاحب أمرهم لعهد انقراض دولتهم أبو حفص عبد الله من أعقاب أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غفير محمد بن معاد بن إليسع بن صالح بن طريف، فهلك في حروبهم. وعليه كان انقراض أمرهم وقطع دابرهم على،

يد هؤلاء المرابطين، والحمد لله رب العالمين.

وقد يغلط بعض الناس في نسب برغواطة هؤلاء فيعدهم في قبائل زناتة، وآخرون بقولون في صالح أنه يهوديّ من ولد شمعون بن يعقوب نشأ ببرباط ورحل إلى المشرق، وقرأ على عبد الله المعتزلي واشتغل بالسحر، وجمع فنوناً، وقدم المغرب ونزل تامستا فوجد فيها قبائل جهّالاً من البربر، فأظهر لهم الزهد وسحرهم بلسانه، وموه عليهم فقصدوه واتبعوه، فادعى النبوّة وقيل له برباطي نسبة إلى الموطن الذي نشأ به، وهو برباط، واد بحصن شريش من بلاد الأندلس، فعربت العرب هذا الإسم وقالوا برغواط. ذكر ذلك كله صاحب كتاب نظم الجوهر وغيره من النسابيّن للبربر، وهو من الأغاليط البيّنة. وليس القوم من زناتة، ويشهد لذلك كله موطنهم وجوارهم لإخوانهم المصامدة. وأما صالح بن طريف فمعروف منهم وليس من غيرهم، ولا يتم الملك والتغلب على النواحي والقبائل لمنقطع جذمة دخيل في نسبه. سنة الله في عباده، وإنما نسب الرجل في برغواطة وهم شعب من شعوب المصامدة معروف كما ذكرناه والله ولي التوفيق.

الخبر عن غمارة من بطون المصامدة وما كان فيهم من الدول وتصاريف أحوالهم:

هذا القبيل من بطون المصامدة من ولد غماربن مصمود، وقيل غماربن مسطاف بن مليل بن مصمود، وقيل غمار بن أصاد بن مصمود. ويقول بعض العامة أنهم

عرب غمروا في تلك الجبال فسموا غمارة، وهو مذهب عاميّ، وهم شعوب وقبائل أكثر من أن تحصر. والبطون المشهورة منهم بنو حميد ومثيوة وبنو فال واغصاوة، وبنور وزروال ومجكسة، وهم آخر مواطنهم يعتمرون جبال الريف بساحل البحر الرومي من عن يمين بسائط المغرب، من لدن غساسة، فنكور فبادس فتيكيساس فتيطّاوين فسبتة فالقصر إلى طنجة خمس مراحل أو أزيد، أوطنوا منها جبالاً شاهقة اتصل بعضها ببعض سياجاً بعد سياج خمس مراحل أخرى في العرض إلى أن يتخط إلى بسائط قصر كتامة ووادي ورغة عن بسائط المغرب، ترتد عنها الأبصار، وتزل في حافاتها الطيور لا بل الهوام، وينفسح في رؤوسها وبين قننها الفجاج، سبل السفر ومراتع السائمة وفدن الزراعة وأدواح الرياض.

ويتبين لك أنهم من المصامدة بقاء هذا النسب المحيط سمة فيهم لبعض شعوبهم يعرفون بمصمودة ساكنين ما بين سبتة وطنجة، وإليهم ينسب قصر المجاز الذي يعبر منه الخليج البحري إلى بلد طريف ويعضده أيضاً

اتصال مواطنهم بموطن برغواطة من شعوب المصامدة بريف البحر الغربي وهو المحيط، إذ كان بنو حسان منهم موطنين بذلك الساحل من لدن آزغر وأصيلاً إلى أنفى، ومن هنالك تتصل بهم مواطن برغواطة ودكالة إلى قبائل درن من المصامدة فما وراءها من بلاد القبلة. فالمصامدة هم أهل الجبال بالمغرب الأقصى إلا قليلاً منها وغيرهم في البسائط. ولم تزل غمارة هؤلاء بمواطنهم هذه من لدن الفتح، ولم يعلم ما قبل ذلك.

وللمسلمين فيهم أزمان الفتح وقائع الملاحم وأعظمها لموسى بن نصير، وهو الذي حملهم على الإسلام واسترهن أبناءهم وأنزل منهم عسكراً مع طارق بطنجة. وكان أميرهم لذلك العهد يليان وهو الذي وفد عليه موسى بن نصير ورغبه في غزو الأندلس، وكان مترله سبتة كما نذكره، وذلك قبل استحواء نكور. وكانت في غمارة هؤلاء بعد الإسلام دول قاموا بها لغيرهم وكان فيهم متنبئون، ولم تزل الخوارج تقصد جباهم للمنعة فيها والاعتصام كما نذكرهم إن شاء اللة تعالي

الخبر عن سبتة ودولة بني عصام بها:

كانت سبتة هذه من الأمصار القديمة قبل الإسلام، كانت يومئذ مترل يليان ملك غمارة، ولما زحف إليه موسى بن نصير صانعه بالهدايا وأذعن للجزية، فأمره عليها واسترهن ابنه وأبناء قومه، وأنزل طارق بن زياد بطنجة وضرب عليهم العسكر للترول معه. ثم كانت إجازة طارق إلى الأندلس فضرب عليهم البعوث، وكان الفتح الذي لا كفاء له كما مر في موضعه. ولما هلك يليان استولى العرب على مدينة سبتة صلحاً من ، أيدي قومه فعمروها. ثم كانت فتنة ميسرة الحقير وما دعى إليه من ضلالة الخارجية، واخذ بها الكثير من البرابرة من غمارة وغيرهم فزحف برابرة طنجة إلى سبتة وأخرجوا العرب منها وسبوها وخربوها فبقيت خلاء.

ثم نزل بها ماجكس من رجالاتهم ووجوه قبائلهم، وبه سميت مجكسة فبناها ورجع بها الناس وأسلم. وسمع من أهل العلم إلى أن مات فقام بأمره ابنه عصام ووليها دهراً. ولما هلك قام بأمره إبنه مجير فلم يزل والياً عليها إلى أن هلك، ووليها أخوه الرضي ويقال أنه ابنه، وكانوا يعطون لبني إدريس طاعة مضعفة كما نذكره. ولما سما للناصر أمل في ملك المغرب، وتناول حبله من أيدي بني إدريس المالكين ببلاد لهبط وغمارة حين أجهضتهم مكناسة وزناتة عن ملكهم بفاس، وقاموا بدعوة الناصر وبثوها في أعمالهم نزلوا حينئذ للناصر عن سبتة، وأشاروا له إلى تناولها من بني عصام فسرح إليها عساكره وأساطيله مع قائده نجاح بن غفير، فكان فتحها سنة

تسع عشرة وثلثمائة، ونزل له الرضي بن عصام عنها، وأتاه طاعته وانقرض أمر بني عصام. وصارت سبتة إلى الناصر حتى استولى عليها بعد حين بنو حماد، واستحدثوا بها دولة أخرى كما نذكره.

الخبر عن بني صالح بن منصور ملوك نكور ودولتهم في غمارة وتصاريف أحوالهم:

لما استولى المسلمون أيام الفتح على بلاد المغرب وعمالاته واقتسموه، وأمدهم الخلفاء بالبعوث إلى جهاد البربر، وكان فيهم من كل القبائل من العرب. وكان صالح بن منصور الحميري من عرب اليمن في البعث الأول. وكان يعرف بالعبد الصالح فاستخلص نكور لنفسه، وأقطعه إياها الوليد بن عبد الملك في أعوام إحدى وتسعين للهجرة، قاله صاحب المقياس، حد بلد نكور ينتهي من المشرق إلى زواغة وجراوة بن أبي العيص مسافة خمسة أيام، وتجاوره من هنالك مطماطة، وأهل كدالة ومرنيسة وغساسة أهل جبل هرك، وقلوع جارة التي لبني ورتندي، وينتهي من الغرب إلى بني مروان من غمارة، وبني حميد، وإلى مسطاسة وصنهاجة ومن ورائهم أوربة، حزب فرحون وبني وليد وزناتة وبني يرنيان وبني واسن حزب قاسم صاحب صا والبحر جوفي نكور على خمسة أميال، فأقام صالح هنالك لما اقتطع أرضها وكثر نسله، واجتمع إليه قبائل غمارة وصنهاجة مفتاح، وأسلموا على يده وقاموا بأمره، وملك تمسامان، وانتشر الإسلام فيهم، ثم ثقلت عليهم الشرائع والتكاليف، وارتدوا وأخرجوا صالحاً، وولوا عليهم رجلاً من نفزة يعرف بالرندي.

ثم ثابوا وراجعوا الإسلام ورجعوا صالحاً فأقام فيهم إلى أن هلك بتمسامان سنة إثنتين وثلاثين ومائة. وولي أمرهم من بعده إبنه المعتصم بن صالح، وكان شهماً شريف النفس كثير العبادة. وكان يلي الصلاة والخطبة لهم بنفسه. ثم هلك لأيام،

يسيرة وولي من بعده أخوه إدريس فاختطّ مدينة نكور في عدوة الوادي ولم يكملها. وهلك سني ثلاث وأربعين وستمائةومائة وولي من بعده ابنه سعيد، واستفحل أمره. وكان ينزل مدينة تمسامان. ثم اختط مدينة نكور لأول ولايته ونزلها، وهي التي تسمى لهذا العهد المزمة بين نهرين أحدهما نكور ومخرجه من بلاد كزناية ومخرجه ومخرج وادي ورغة واحد، والثاني عيس ومخرجه من بلاد بني ورياغل، يجتمع النهران في أكدال. ثم يفترقان إلى البحر ويقال نكور من عدوة الأندلس بزليانة.

وغزا المجوس نكور هذه في أساطيلهم سنة أربع وأربعين وستمائةومائة فتغلبوا عليها واستباحوها ثمانياً. ثم اجتمع إلى سعيد البرانس، وأخرجوهم عنها، وانتقضت غمارة بعدها على سعيد فخلعوه وولوا عليهم رجلاً منهم إسمه سكن. وتزاحفوا فأظهره الله عليهم وفرق جماعتهم وقتل مقدمهم واستوسق أمره، إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين لسبع وثلاثين من ملكه. وقام بأمره ابنه صالح بن سعيد فتقبل مذاهب سلفه في الاستقامة والاقتداء، وكانت له مع البربر حروب ووقائع إلى أن هلك سنة خمسين ومايتين لإثنين وسبعين سنة من ملكه.

وقام من بعده ابنه سعيد بن صالح، وكان أصغر ولده، فخرج عليه أخوه عبيد الله وعمّه الرضي، وظفر بهما بعد حروب كثيرة فغرب أخاه إلى المشرق ومات بمكة، وأبقى على عمّه الرضي لذمة صهر بينهما. وقتل سائر من ظفر به من عمومته وقرابته وامتعض لهم سعادة الله بن هارون منهم، ولحق ببني يصلتن أهل

جبل أبي الحسين، ودلهم على عورته، وبيتوا معسكره واستولوا عليه، وأخذوا آلالة وقتلوا آلافاً من مواليه، وحاصروا بنكور. ثم كانت له الكرة عليهم وقتل منهم خلقاً ونجا سعادة الله إلى تمسامان، وتقبض على أخيه ميمون فضرب عنقه. ثم صار سعادة الله إلى طلب الصلح فأسعفه وأنزله معه مدينة نكور. ثم غزا سعيد بقومه وأهل إيالته من غمارة بلاد بطوية ومرنيسة وقلوع جارة وبني ورتندي وأصهر بأخته إلى أحمد بن إدريس

بن محمد بن سليمان صاحب وأنزله مدينة نكور معه. وتوطد الأمر لسعيد في تلك النواحي إلى أن خاطبه عبيد الله المهدي يدعوه إلى أمره وفي أسفل كتابه:

فإن تستقيموا استقم لصلاحكم وإن تعدلوا عني أرى قتلكم عدلاً

وأعلو بسيفي قاهراً لسيوفكم وادخلها عفواً وأملؤها قتلاً

فكتب إليه شاعره الأحمس الطليطلي بأمر يوسف بن صالح أخي الأمير سعيد:

كذبت وبيت الله ما تحسن العدلا ولا علم الرحمن من قولك الفصلا

وما أنص إلا جاهل ومنافق تمثل للجهال في السنة المثلى

وهمّتنا العليا لدين محمد وقد جعل الرحمن همتك السفلى

فكتب عبيد الله إلى مصالة بن حبوس صاحب تاهرت، وأوغزى إليه بغزوه فغزاه سنة أربع وثلثمائة لأربع وخمسين وستمائة من دولته، فحاربه سعيد وقومه أياماً. ثم غلبهم مصالة وقتلهم، وبعث برؤوسهم إلى رقادة، فطيف بها وركب بقيتهم البحر إلى مالقة، فتوسع الناصر في إنزالهم وإجارتهم وبالغ في تكريمهم. وأقام مصالة بمدينة نكور ستة أشهر. ثم قفل إلى تاهرت وولى عليها دلول من كتامة، فانقبض العسكر من حوله، وبلغ الخبر إلى بني سعيد بن صالح، وقومهم بمالقة، وهم: إدريس المعتصم وصالح فركبوا السفن، إليها وسبق صالح منهم، فاجتمع إليه البربر بمرسى تكساسان، وبايعوه سنة خمس وثلثمائة، ولقبوه القيّم لصغره، وزحفوا إلى دلول فظفروا به وبمن معه وقتلوهم، وكتب صالح بالفتح إلى الناصر، وأقام دعوته بأعماله. وبعث إليه الناصر بالهدايا والتحف والآلة، ووصل إليه إخوته وسائر قومه وأتوا طاعته. ولم يزل على هدى أوليه من اقتداء، إلى أن هلك سنة خمس عشرة وثلاثمائة.

وولي بعده إبنه عبد البديع، ولقب المؤيد، وزحف إليه موسى بن أبي العافية القائم بدعوة العبيديّين بالمغرب، فحاصره وتغلب عليه فقتله، واستباح المدينة وخربها منة سبع عشرة وثلثمائة. ثم تراجع إليها فلهم، وقام بأمرهم أبو أيوب إسماعيل بن عبد الملك بن عبد الرحمن بن سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور، وأعاد المدينة التي بناها صالح بن منصور وعمرها وسكنها ثلاثاً. ثم أغزاه ميسور مولى أبي القاسم بن عبيد الله صندلاً مولاه عندما أناخ على فاس، فبعث عسكراً مع صندل هذا فحاصر جراوة، ثم

عطف على نكور وتحصن منه إسماعيل بن عبد الملك بقلعة أكد ى. وبعث إليه صندل رسله من طريقه فقتلهم فأغذ إليه السير وقاتله ثمانية أيام.

ثم ظفر به فقتله واستباح القلعة وسباها، واستخلف عليها من كتامة رجلاً إسمه مرمازو، ووصل صندل إلى فاس فتراجع أهل نكور وبايعوا لموسى بن المعتصم بن محمد بن قرة بن المعتصم بن صالح بن منصور. وكان بجبل أبي الحسين عند بني يصلتن وكان يعرف بابن رومي.

وقال صاحب المقياس: هو موسى بن رومي بن عبد السميع بن إدريس بن صالح بن إدريس بن صالح بن منصور، فأخذ مرمازو ومن معه وضرب أعناقهم، وبعث برؤسهم إلى الناصر. ثم ثار عليه من أعياص بيته عبد السميع بن جرثم بن إدريس بن صالح بن منصور، فخلعه وأخرجه عن نكور سنة تسع وعشرين وثلثمائة، ولحق موسى بالأندلس ومعه أهله وولده وأخوه هارون بن رومي وكثير من عمومته وأهل بيته. فمنهم من نزل معه المريّة، ومنهم من نزل مالقة. ثم انتقض أهل نكور على عبد السميع وقتلوه. واستدعوا من مالقة جرثم بن أحمد بن زيادة الله بن سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور، فبادر إليهم وبايعوه سنة ست وثلاثين وثلثمائة، فاستقامت له الأمور وكان على مذهب سلفه في الاقتداء والعمل بمذهب مالك إلى أن مات آخر سنة ستين وثلثمائة لخمس وعشرين سنة من ملكه. واتصلت الولاية في بيته إلى أن غلب عليهم أزداجة المتغلبون على وهران، وزحف أميرهم يعلى بن فتوح الأزداجي سنة ست وأربعمائة، وقيل سنة عشر فغلبهم على نكور وخربها، وانقرض ملكهم بعد ثلثمائة سنة وأربع عشرة سنة من لدن ولاية صالح وبقيت في بني يعلى بن فتوح وأزداجة إلى أعوام ستين وأربعمائة والله مالك الأمور لا إله إلا هو.

خريطة

الخبر عن حاميم المتنبي من غمارة:

كان غمارة هؤلاء غريقين في الجهالة والبعد عن الشرائع بالبداوة والانتباذ عن مواطن الخير، وتنبأ فيهم من مجكسة حاميم بن من الله بن حرير بن عمر بن رحفو بن أزروال بن مجكسة يكنى أبا محمد، وأبوه أبو خلف. تنبأ سنة ثلاث عشرة وثلثمائة بجبل حاميم المشتهر به قريباً من تطوان. واجتمع إليه كثير منهم وأقروا بنبوته، وشرع لهم الشرائع والديانات من العبادات والأحكام، وصنع لهم قرآناً كان يتلوه عليهم بلسانهم من كلامه: "يا من يخلي البصر، ينطر في الدنيا، خلني من الذنوب. يا من أخرج موسى من البحر، آمنت بحاميم وبأبيه أبي خلف من الله. وآمن رأسي وعقلي وما يكنه صدري، وأحاط به دمي ولحمي وآمنت بتابعيت عمة حاميم أخت أبي خلف من الله، وكانت كاهنة ساحرة، إلى غير هذا، وكان يلقب المفتري، وكانت أخته دبّو ساحرة كاهنة، وكانوا يستغثون بها في الحروب والقحوط، وقتل في حروب مصمودة بأحواز طنجة سنة خمس عشرة وثلثمائة، وكان لابنه عيسى من بعده قدر جليل في غمارة، ووفد على الناصر. ورهطهم بنو رحفو موطنون بوادي لاو ووادي راس قرب تطوان، وكذلك تنبأ منهم بعد

ذلك عاصم بن جميل اليزدجومي، وله أخبار مأثورة، وما زالوا ينتحلون السحر لهذا . وأخبرني المشيخة من أهل المغرب أن أكثر منتحلي السحر منهم النساء العواتق.

قال: ولهن قوة على استجلاب روحانية ما يشاؤنه من الكواكب، فإذا استولوا عليه وتكيفوا بتلك الروحانية تصرفوا منها في الأكوان بما شاءوا والله أعلم.

دولة الأدارسة

الخبر عن دولة الأدارسة في غمارة وتصاريف أحوالهم

كان عمر بن إدريس عندما قسم محمد بن إدريس أعمال المغرب بين إخوته برأي

جدته كنزة أم إدريس، اختص منها بتيكيساس وترغة وبلاد صنهاجة وغمارة، واختصّ القاسم بطنجة وسبتة والبصرة وما إلى ذلك من بلاد غمارة. ثم غلب عمر عليها عندما تنكر له أخوه محمد واستضافها إلى عمله كما ذكرنا في أخبارهم. ثم تراجع بنو محمد بن القاسم من بعد ذلك إلى عملهم الأول فملكوه، واختط منهم محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم قلعة حجر النسر الدانية من سبتة معقلاً لهم وثغراً لعملهم. وبقيت الإمارة بفاس وأعمال المغرب في ولد محمد بن إدريس. ثم أدالوا منهم بولد عمر بن إدريس، وكان آخرهم يحيى بن إدريس بن عمر وهو الذي بايع لعبيد الله الشيعي على يد مصالة بن حبوس قائده، وعقد له على فاس. ثم نكبه سنة تسع وثلثمائة.

وخرج عليه سنة ثلاث عشرة وثلثمائة من بني القاسم الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس، ويلقب بالحجام لطعنه في المحاجم، وكان مقداماً شجاعاً. وثار أهل فاس بريحان وملكوا الحسن، وزحف إليه موسى ففله ومات. واستولى ابن أبي العافية على فاس وأعمال المغرب وأجلى الأدارسة وأحجرهم بحصنهم حجر النسر، وتحيزوا إلى جبال غمارة وبلاد الريف. وكان لغمارة في التمسك بدعوتهم آثار ومقامات، واستجدوا بتلك الناحية ملكاً توزعوه قطعاً كان أعظمها لبني محمد هؤلاء ولبني عمر بتيكيسان ونكور وبلاد الريف. ثم سما الناصر عبد الرحمن إلى ملك العدوة ومدافعة الشيعة، فنزل له بنو محمد عن سبتة سنة تسع عشرة وثلثمائة وتناولها من يد الرضي بن عصام رئيس محكسة، كان يقيم فيها دعوة الأدارسة فأفرجوا له عنها ودانوا بطاعته وأخذها من يده.

ولما أغزا أبو القاسم ميسوراً إلى المغرب لمحاربة ابن أبي العافية حين نقض طاعتهم، ودعا للمروانية وجد بنو محمد السبيل إلى النيل منه بمظاهرة ميسور عليه، ومالأهم على ذلك بنو عمر صاحب نكور.

ولما استقل ابن أبي العافية من نكبته، ورجع من الصحراء سنة خمس وعشرين

وثلثمائة منصرف ميسور من المغرب نازل بني محمد وبني عمر، وهلك بعد ذلك. وأجاز الناصر وزيره القاسم بن محمد بن طملس سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة لحربهم، وكتب إلى ملوك مغراوة محمد بن خزر وابنه الخير بمظاهرة عساكره مع ابن أبي العافية عليهم، فتسارع أبو العيش بن إدريس بن عمر المعروف

بابن مصالة إلى الطاعة، وأوفد رسله إلى الناصر فعقد له الأمان، وأوفد ابنه محمد بن أبي العيش مؤكداً للطاعة، فاحتفل لقدومه وأكد له العقد، وتقبل سائر الأدارسة من بني محمد مذهبهم.

وسألوا مثل سؤالهم، فعقد لجميع بني محمد أيضاً. وكان وفد منهم محمد بن عيسى بن أحمد بن محمد والحسن بن القاسم بن إبراهيم بن محمد، وكان بنو إدريس يرجعون في رئاستهم إلى بني محمد هؤلاء منذ استبد بها أخوهم الحسن بن محمد الملقب بالحجام في ثورته على ابن أبي العافية، فقدموا على أنفسهم القاسم بن محمد الملقب بكنون بعد فرار موسى بن أبي العافية، وملك بلاد المغرب ما عدا فاس مقيماً لدعوة الشيعة إلى أن هلك بقلعة حجر النسر سنة سبع وثلاثين وثلثمائة وقام بأمرهم من بعده أبو العيش أحمد بن القاسم كنون، وكان فقيهاً عالماً بالأيام والأخبار شجاعاً كريماً ويعرف بأحمد الفاضل، وكان منه ميل للمروانية فدعا للناصر، وخطب له على منابر عمله، ونقفر طاعة الشيعة؛ وبايعه أهل المغرب كافة إلى سجلماسة.

ولما بايعه أهل فاس استعمل عليهم محمد بن الحسن. ووفد محمد بن أبي العيش بن إدريس بن عمر بن مصالة على الناصر عن أبيه سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة، فاتصلت به وفاة أبيه وهو بالحضرة فعقد له الناصر على عمله وسرحه، وهجم عيسى ابن عمه أبي العيش أحمد بن القاسم كنون على عمله بتيكيساس في غيبة محمد، فملكها واحتوى على مال ابن مصالة. ولما أقبل محمد من الحضرة زحف برابرة غمارة إلى عيسى المذكور ابن كنون ففظعوا به وأثخنوه جراحة، وقتلوا أصحابه ببلد غمارة. وأجاز الناصر قواده إلى المغرب. وكان أول من أجاز إلى بني محمد هؤلاء سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة أحمد بن بعلى من طبقة القواد، أجازه إليهم في العساكر ودعاهم إلى هدم تيطاوين فامتنعوا، ثم انقادوا وتنصلوا وأجابوا إلى هدمها.

ورجع عنهم فانتقضوا فسرح إليهم حميد بن يصل المكناسي في العساكر سنة تسع

وثلاثين وثلثمائة، وزحفوا إليه بوادي لاو فأوقع بهم فأذعنوا من بعدها. وتغلب الناصر على طنجة من يد أبي العيش أمير بني محمد وبقي يصل على بيعة الناصر. ثم تخطت عساكر الناصر إلى بسائط المغرب فأذعن له أهله، وأخذ بدعوته فيه أمراء زناتة من مغراوة وبني يفرن ومكناسة كما ذكرناه، فضعف أمير بني محمد واستأذنه أميرهم أبو العيش في الجهاد فأذن له وأمر ببناء القصور له في كل مرحلة من الجزيرة إلى الثغر، فكانت ثلاثين مرحلة، فأجاز أبو العيش واستخلف على عمله أخاه الحسن بن كنون. وتلقاه الناصر بالمبرة وأجرى له ألف دينار في كل يوم وهلك شهيداً في مواقف الجهاد سنة ثلاث وأربعين وستمائةوثلثمائة.

ولما أغزا معد قائده جوهراً الكاتب إلى المغرب واستنزل عماله، وتحصن الحسن بن كنون منه بقلعة النسر معقلهم. وبعث إليه بطاعته فلم يعرض له جوهر. ولما قفل من المغرب راجع الحسن طاعة الناصر إلى أن هلك سنة خمسين وثلثمائة، فاستجد الحكم عزمه في سد ثغور المغرب وإحكام دعوتهم فيه. وشحذ لها عزائم أوليائهم من ملوك زناتة فكان بينهم وبين زيري وبلكين ما ذكرناه. ثم أغزا معد بلكين بن زيري

المغرب سنة إثنتين وستين وثلثمائة أولى غزواته، فأثخن في زناتة وأوغل في ديار المغرب. وقام الحسن بن كنون بدعوة الشيعة، ونقض طاعة المروانية، فلما انصرف بلكين أجاز الحكم عساكره إلى العدوة مع وزيره محمد بن قاسم بن طملس منه اثنتين وستين وثلثمائة لقتال الحسن بن كنون وبني محمد، فكان الظهور والفلاح للحسن على عسكر الحكم.

وقتل قائده محمد بن طملس وخلقاً كثيراً من عسكره وأوليائه. ودخل ففهم إلى

سبتة، واستصرخوا الحكم فبعث غالباً مولاه البعيد الصيت المعروف الشهامة، وأمده بكفاء ذلك من الأموال والجنود، وأمره باستنزال الأدارسة وإجازهم إليه وقال له: سريا غالب مسير من لا إذن له في الرجوع إلا حياً منصوراً، أو ميتاً معذوراً. واتصل خبره بالحسن بن كنون فأفرج عن مدينة البصرة واحتمل منها أمواله وحرمه وذخيرته إلى حجر النسر معقلهم القرب من سبتة، ونازله غالب بقصر مصمودة فاتصلت الحرب بينهم أياماً.

ثم بث غالب المال في رؤساء البربر من غمارة ومن معه من الجنود ففروا وأسلموه، وانحجز بقلعة حجر النسر، ونازله غالب وأمده الحكم بعرب الدولة ورجال الثغور.

وأجازهم مع وزيره صاحب الثغر الأعلى يحيى بن محمد بن هاشم التجيبي فيمن من أهل بيته وحشمه سنة ثلاث وستين وثلثمائة، فاجتمع مع غالب على القلعة واشتد الحصارعلى الحسن، وطلب من غالب الأمان فعقد له وتسلم الحصن من يده. ثم عطف على من بقي من الأدارسة ببلاد الريف فأزعجهم وسيرهم شرداً أسوة ابن عمهم، واستنزل جميع الأدارسة من معاقلهم. وسار إلى فاس فملكها واستعمل عليها محمد سبن علي بن قشوش في عدوة القرويين، وعبد الكريم بن ثعلبة الجذامي في عدوة الأندلس. وانصرف غالب إلى قرطبة ومعه الحسن بن كنون وسائر ملوك الأدارسة، وقد مهد المغرب وفرق عماله في جهاته، وقطع دعوة الشيعة، وذلك سنة أربع وستين وثلثمائة. وتلقاهم الحكم وأركب الناس للقائهم. وكان يوم دخولهم إلى قرطبة أحفل أيام الدولة.

وعفا عن الحسن بن كنون ووفى له بالعهد، وأجزل له ولرجاله العطاء والخلع والجعالات، وأوسع عليهم الجراية، وأسنى لهم الأرزاق ورتب من حاشيتهم في الديوان سبعمائة من أنجاد المغاربة. وتجنى عليه بعد ثلاث سنين بسؤاله من الحسن قطعة عنبر عظيمة تأدت إليه من بعض سواحل عمله بالمغرب أيام ملكه، فاتخذ منها أريكة يرتفقها ويتوسدها، فسأله حملها إليه على أن يحكمه فى رضاه، فأبى عليه مع سعاية بني عمه فيه عند الخليفة، وسوء خلق الحسن ولجاجه، فنكبه واستصفى ما لديه من قطعة العنبر وسواها.

واستقام أمر المغرب للحكم وتظافر أمراؤه على مدافعة بلكّين، وعقد الوزير المصحفي لجعفر بن علي عليم المغرب، واسترجع يحيى بن محمد بن هاشم. وغرب الحسن بن كثون والأدارسة جميعاً إلى المشرق اشتقالاً

لنفقاهم. وشرط عليهم الأ يعودوا فعبروا البحر من المرية سنة خمس وستين وثلثمائة، ونزلوا من جوار العزيز بن معذ بالقاهرة خير نزل، وبالغ في الكرامة، ووعد بالنصرة والترة.

ثم بعث الحسن بن كنون إلى المغرب، وكتب له إلى آل زيري بن مناد بالقيروان بالمظاهرة، فلحق بالمغرب ودعا لنفسه. وبعث المنصور بن أبي عامر العساكر لمدافعته فغلبوه وتقبضوا عليه، وأشخصوه إلى الأندلس فقتل في طريقه سنة... كما ذكرناه في أخبارهم. وانقرض ملك

الأدارسة من المغرب أجمع إلى أن كان رجوع الأمر لبني حمود منهم ببلاد غمارة وسبتة وطنجة كما نذكره إن شاء الله تعالى.

خريطة

الخبر عن دولة بني حمود ومواليهم بسبتة وطنجة

وتصاريف أحوالهم و أحوال غمارة من بعدهم:

كان الأدارسة لما أجلاهم الحكم المستنصر عن العدوة إلى الشرق، ومحا أثرهم من سائر بلاد المغرب، واستقامت غمارة على طاعة المروانية، وأدعنوا لجند الأندلسيين، ورجع الحسن بن كنون لطلب أمرهم فهلك على يد المنصور بن أبي عامر فانقرض أمرهم، وافترق الأدارسة في القبائل وانتشروا في الأرض، ولاذوا بالاختفاء إلى أن خلعوا شارة ذلك النسب واستحالت صبغتهم منه إلى البداوة. ولحق بالأندلس في جملة البرابرة من ولد عمر بن إدريس رجلان منهم، وهما: علي والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس، فطار لهم ذكر في الشجاعة والإقدام ولما كانت الفتنة البربرية بالأندلس بعد انقراض الدولة العامرية، ونصب البرابرة سليمان بن الحكم ولقبوه المستعين، واختص به أبناء حمود هذان، وأحسنوا الغناء في ولايته، حتى إذا استولى على ملكه بقرطبة وعقد للمغاربة الولايات، عقد لعلي بن حمود هذا على طنجة وأعمال غمارة فنزلها وراجع عهده معهم فيها.

ثم انتقض ودعا لنفسه وأجاز إلى الأندلس، وولي الخلافة بقرطبة كما ذكرناه فعقد على عمله بطنجة لابنه يحيى. ثم أجاز يحيى إلى الأندلس بعد مهلك أبيه عليّ منازعاً لعمه القاسم، واستقل أخوه إدريس من بعده بولاية طنجة وسائر أعمال أبيه بالعدوة من مواطن كمارة. ثم أجاز بعد مهلك أخيه يحيى بمالقة فاستدعى رجال دولتهم، وعقد لحسن ابن أخيه يحيى على عملهم بسبتة وطنجة، وأنفذ نجا الخادم معه ليكون تحت نظره واستبداده. ولما هلك إدريس واعتزم ابن بقنة على الاستبداد بمالقة أجاز نجا الخادم بحسن بن يحيى من طنجة فملك مالقة وربت أمره في خلافته ورجع إلى سبتة. وعقد له حسن على عملهم في مواطن غمارة، حتى إذا هلك حسن أجاز نجا إلى الأندلس يروم الاستبداد. واستخلف على العمل من وثق به من موالي الصقالبة، فلم يزل إلى نطرهم واحداً بعد آخر إلى أن استقل بسبتة وطنجة من موالي بني حمود

هؤلاء الحاجب سكوت البرغواطي، وكان عبدا للشيخ حداد من مواليهم اشتراه من سبي برغواطة في بعض أيام جهادهم. ثم صار إلى علي بن حمود فأخذ

النجابة بطبعه إلى أن استقل بأمرهم واقتعد كرسي عملهم بسبتة وطنجة، وأطاعته قبائل غمارة.

واتصلت أيامه إلى أن كانت دولة المرابطين، وتغلب يوسف بن تاشفين على مغراوة بفاس. ونجا ففهم إلى بلد الدمنة من آخر بسيط المغرب مما يلي بلاد غمارة. ونازلهم يوسف بن تاشفين سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، ودعا الحاجب سكوت إلى مظاهرته عليهم، فهم بالانحياش ومظاهرته على عدوه. ثم ثناه عن ذلك إبنه الفائل الرأي. فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة وأوقع بهم وافتتح حصن علودان من حصون غمارة من ورائه، وانقاد المغرب لحكمه، صرف وجهه إلى سكوت فجهز إليه العساكر وعقد عليها للقائد صالح بن عمران من رجال لمتونة فتباشرت الرعايا بمقدمهم وانثالوا عليهم. وبلغ الخبر إلى الحاجب سكوت فأقسم أن لا يسمع أحداً من رعيته هدير طبولهم، ولحق هو بمدينة طنجة ثغر عمله. وقد كان عليها من قبله ابنه ضياء الدولة المعز، وبرز للقائهم فالتقى الجمعان بظاهر طنجة، وانكشفت عساكر سكوت، وطحنت رحى المرابطين، وسالت نفسه على ظباهم، ودخلوا طنجة واستولوا عليها. ولحق ضياء الدولة بسبتة.

ولما تكالب الطاغية على بلاد الأندلس، وبعث ابن عباد صريخه إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مستنجزاً وعده في جهاد الطاغية والذب عن المسلمين، وكاتبه أهل الأندلس كافة اهتز إلى الجهاد، وبعث ابنه المعز سنة ست وسبعين وأربعمائة في عساكر المرابطين إلى سبتة فرضة المجاز، فنازلها براً، وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحرا، واقتحموها عنوةً. وتقبض على ضياء الدولة، واقتيد إلى المعز فطالبه بالمال فأساء إيجابه فقتله لوقته، وعثر على ذخائره وفيها خاتم يحيى بن علي بن حمود. وكتب إلى أبيه بالفتح، وانقرضت دولة آل حمود وامحى أثر سلطانهم من بلاد غمارة، وأقاموا في طاعة لمتونة سائر أيامهم.

ولما نجم المهدي بالمغرب واستفحل أمر الموحدين بعد مهلكه تنقل خليفته عبد المؤمن في بلادهم في غزاته الكبرى لفتح المغرب سني سبع وثلاثين وما بعدها قبل استيلائه على مراكش كما نذكره في أخبارهم، فوحدوا صفوفهم، واتبعوا أمره، ونازلوا سبتة في عساكره

. وامتنعت عليهم، وتولى كبر امتناعها قائدهم عيّاض الطائر الذكر رئيسهم لذلك العهد بدينه وابوته وعلمه ومنصبه. ثم افتتحت بعد فتح مراكش سنة إحدى وأربعين وستمائةفكانت لغمارة هؤلاء السابقة التي رعيت لهم سائر أيام الدولة.

ولما فشل أمر بني عبد المؤمن، وذهبت ريحهم، وكثر الثوار بالقاصية، ثار فيهم محمد بن محمد الكتامي سنة خمس وعشرين. كان أبوه من قصر كتامة منقبضاً عن الناس، وكان ينتحل الكيميا، وتلقنه عنه ابنه محمد هذا. وكان يلقب أبا الطواحن فارتحل إلى سبتة ونزل إلى بني سعيد، وادعى صناعة الكيمياء فاتبعه

الغوغاء. ثم ادعى النبوة وشرع شرائع وأظهر أنواعاً من الشعوذة، فكثر تابعه. ثم اطلعوا على خبثه ونبذوا إليه عهده. وزحفت عساكر سبتة إليه ففر عنها، وقتله بعض البرابرة غيلة.

ثم غلب بنو مرين على بسائط المغرب وأمصاره سني أربعين وستمائة، واستولوا على كرسي الأمر بمراكش سنة ثمان وستين وستمائة، فامتنع قبائل غمارة من طاعتهم واستعصوا عليهم، وأقاموا بمنجاة من الطاعة، وعلى ثبج من الخلاف. وامتنعت سبتة من ورائهم على ملوك بني مرين بسبب امتناعهم. وصار أمرها إلى الشورى، واستبد بها الفقيه أبو القاسم العزفي من مشيختهم. كما نذكر ذلك كله، إلى أن وقع بين قبائل غمارة ورؤسائهم فتن وحروب، ونزعت إحدى الطائفتين إلى طاعة السلطان بالمغرب من بني مربن فأتوها طواعية.

ودخل الآخرون في الطاعة تلوهم طوعاً أو كرهاً. فملك بنو مرين أمرهم، واستعملوا عليهم، وتخطوا إلى سبتة من ورائهم فملكوها من أيدي العزفيّين سنة تسع وعشرين وسبعمائة على ما نذكره بعد عند ذكر دولتهم. وهم الآن على أحسن أحوالهم من الاعتزاز والكثرة يؤتون طاعتهم وجبايتهم عند استقلال الدولة، ويمرضون فيها عند التياثها بفشل أو شغل بخارج، فيجهز البعوث إليهم من الحضرة حتى يستقيموا على الطاعة. ولهم بوعورة جبالهم عز ومنعة وجوار لمن لحق بهم من أعياص الملك، ومستأمني الخوارج إلى هذا العهد. ولبني يكم من بينهم الحظ الوافر من ذلك، لأشراف جبلهم على سائرها وسمو بقاعة إلى مجاري السحب دونها وتوغر مسالكه بهبوب الرياح فبها. وهذا الجبل مطل على سبتة من غربيها ورئيسه منهم وصاحب

أمره يوسف بن عمر وبنوه، ولهم فيه عزة وثروة، وقد اتخذوا به المصانع والغروس وفرض لهم السلطان بدبوان سبتة العطاء. وأقطعهم ببسيط طنجة الضياع والفدن استئلافاً بهم وحسماً لزبون سائر غمارة بإيناس طاعتهم، ولله الخلق والأمر بيده ملك السموات والأرض.

الخبر عن أهل جبال درن بالمغرب الأقصي من بطون المصامدة

وما كان لهم من الظهور والأحوال ومباديء أمورهم وتصار يفها:

هذه الجبال بقاسية المغرب من أعظم جبال المعمور بنا أعرق في الثرى أصلها وذهبت في السماء فروعها، وملأت الجو هياكلها، ومثلت سياجاً على ريف المغرب سطورها تبتدىء من ساحل البحر المحيط عند أسفى وما إليها، وتذهب في الشرق إلى غير نهاية. ويقال إنها تنتهي إلى قبلة برنيق من أرض برقة، وهي في الجانب مما يلي مراكش ؤر ركب بعضها بعضاً متتالية على نسق من الصحراء إلى التل.

يسير الراكب فيها معترضاً من تامسنا وسواحل مراكش إلى بلاد السوس ودرعة من القبلة ثماني مراحل وأزيد تفجرت فيها الأنهار، وجلل الأرض خمر الشعراء، وتطابقت بينها ظلال الأدواح. وزكت فيها مواد الزرع والضرع، وانفسحت مسارح الحيوان ومراقع الصيد، وطابت منابت الشجر، ودرت أفاويق

الجباية يعمرها من قبائل المصامدة أمم لا يحصيهم إلا خالقهم، قد اتخذوا المعاقل والحصون وشيدو المباني والقصور واستغنوا بقطرهم منها عن أقطار العالم، فرحل إليهم التجر من الآفاق، واختلفت إليهم أهل النواحي والأمصار، ولم يزالوا منذ أول الإسلام وما قبله معتمرين بتلك الجبال قد اوطنوا منها أقطارا بل أقاليم تعددت فيها الممالك والعمالات بتعدد شعوبهم وقبائلهم، وافترقت أسماؤها بافتراق أحيائهم.
تنتهي ديارهم من هذه الجبال إلى ثنية المعدن المعروفة ببني فازان حيث تبتدىء مواطن صناهاجة، ويحفون بهم كذلك من ناحية القبلة إلى بلاد السوس. وقبائل هؤلاء
المصامدة بهذه المواطن كثير فمنهم: هرغة وهنتاتة وتينملل وكدميوية وكنفيسة ووريكة وركراكة وهزميرة ودكالة وحاحة وأصادن وبنو وازكيت وبنو ماكر وإيلانة ويقال هيلانة بالهاء. ويقال أيضاً إن إيلان هو ابن بر، أصهر المصامدة فكانوا خلفاءهم. ومن بطون أصادن مصفاوة وماغوس، ومن مصفاوة دغاغة وبوطنان. ويقال إن غمارة ورهون وأمل من أمادين والله أعلم.
ويقال إن من بطون حاحة زكن وولخصن الظواعن الآن بأرض السوس أحلافاً لذوي حسان المتغلبّين. عليها من عرب المعقل. ومن بطون كنفيسة أيضاً قبيلة سكسيوة الموطنون بأمنع المعاقل من هذه الجبال يطل جبلهم على بسيط السوس من القبلة وعلى ساحل البحر المحيط من الغرب، ولهم بمنعة معقلهم ذلك اعتزاز على أهل جلدتهم حسبما نذكره بعد. وكان لهؤلاء المصامدة صدر الإسلام بهذه الجبال عدد وقوة وطاعة للدين ومخالفة لإخوانهم برغواطة في نحلة كفرهم. وكان من مشاهيرهم كسير بن وسلاس بن شملال من أمادة، وهو جد يحيى بن يحيى راوي الموطأ عن مالك. ودخل الأندلس وشهد الفتح مع طارق، في آخرين من مشاهيرهم استقروا بالأندلس، وكان لأعقابهم بها ذكر في دولة الأموية. وكذلك كان منهم قبل الإسلام ملوك وأمراء. ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن سائر أيامهم، حتى كان اجتماعهم على المهدي وقيامهم بدعوته فكانت لهم دولة عظيمة أدالت من لمتونة بالعدوتين، ومن صنهاجة بأفريقية حسبما هو مشهور ونأتي الآن بذكره إن شاء الله تعالى. وبالله التوفيق ،لا رب سواه، ولا معبود إلا إياه0
خريطة

الخبر عن مبدأ أمر المهدي ودعوته وما كان للموحدين القائمين بها علي يد بني عبد المؤمن من السلطان والدولة بالعدوتين وأفريقية وبداية ذلك وتصاريفه:

لم يزل أمر هؤلاء المصامدة بجبال درن عظيماً، وجماعتهم موفورة وبأسهم قوياً، وفي أخبار الفتح من حروبهم مع عقبة بن نافع، وموسى بن نصير حتى استقاموا على الإسلام ما هو معروف مذكور، إلى أن أظلتهم دولة لمتونة فكان أمرهم فيها مستفحلاً، وشأنهم على أهل السلطان والدولة مهماً، حتى لقد اختطّوا مدينة مراكش لنزلهم جوار

مواطنهم من درن ليتمرسوا بهم، ويذللوا من صعابهم. وفي عنفوان تلك الدولة على عهد علي بى يوسف منها نجم إمامهم العالم الشهير محمد بن تومرت صاحب دولة الموحّدين المشتهر بالمهدي، أصله من هرغة من بطون المصامدة الذين عددناهم يسمى أبوه عبد الله وتومرت وكان يلقب في صغره أيضاً أمغار، وهو محمد بن عبد الله بن وجليد ابن بامصال بن حمزة بن عيسى فيما ذكره ابن رشيق وحققه ابن القطّان. وذكر بعض مؤرخى المغرب أنه محمد بن تومرت بن نيطاوس بن ساولا بن مسيغون بن إيكلديس بن خالد.

وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه في أهل البيت. وأنه محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوار ابن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد من ولد سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي إدريس الأكبر الواقع نسب الكثير من بنيه في المصامدة وأهل السوس. كذا ذكر ابن نخيل في سليمان هذا، وأنه لحق بالمغرب إثر أخيه إدريس، ونزل تلمسان وافترق ولده في المغرب. قال: فمن ولده كل طالبى بالسوس، وقيل بل هو من قرابة إدريس اللاحقين به إلى المغرب، وإن رباحاً الذي فى عمود هذا النسب إنما هو ابن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن وعلى الأمرين، فإن نسبه الطالبي وقع في هرغة من قبائل المصامدة. ورسبت عروقه فيهم والتحم بعصبيتهم فلبس جلدهم، وانتسب بنسبتهم وصار في عدادهم. وكان أهل بيته أهل نسك ورباط وشب محمد هذا قارئاً محباً للعلم، وكان يسمى أسافو، ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج من القناديل بالمساجد لملازمتها. وارتحل في طلب العلم إلى المشرق على رأس المائه الخامسة. ومرة بالأندلس، ودخل قرطبة، وهي إذ ذاك دار علم. ثم أجاز إلى الإسكندر وحج ودخل العراق ولقي جملة العلماء

يومئذ، وفحول النظار. وأفاد علماً واسعاً وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده لما كان الكهّان والحزّاء يتحينون ظهور دولة يومئذ بالمغرب، ولقي فيما زعموا أبا حامد الغزالي، وفاوضه بذات صدره في ذلك فأراده عليه لما كان فيه الإسلام يومئذ بأقطار المغرب من اختلال الدولة، وتقويض أركان السلطان الجامع الأمة المقيم للملة بعد أن سأله عمن له من العصابة والقبائل التي تكون بها الاعتزاز والمنعة، وبشأنها يتم أمر الله في درك البغية وظهور الدعوة. وانطلق هذا الإمام راجعاً إلى المغرب بحراً منفجراً من العلم، وشهاباً وارياً من الدين. وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفّية، والذب عنها بالحجج العقليّة الدافعة في صدور أهل البدعة. وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن أتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل، وإمرار التشابهات كما جاءت، ففطن على أهل المغرب في ذلك وحملهم على القوم بالتأويل، والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد، وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم، وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة والتوحيد. وكان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأي

الإمامية من الشيعة. وألف في ذلك كتابه في الإمامية الذي افتتحه بقوله: أعز ما يطلب. وصار هذا المفتتح لقباً على ذلك الكتاب، واحتل بطرابلس أول بلاد المغرب معنياً بمذهبه ذلك، مظهراً النكير على علماء المغرب في عدولهم عنه. وأخذ نفسه بتدريس العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مط استطاع، حتى لقد لقي بسبب ذلك أذايات في نفسه احتسبها من صالح أعماله. ولما دخل بجاية وبها يومئذ العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد من أمراء صنهاجة. وكان من المترفين فأغلظ له ولأتباعه بالنكير. وتعرض يوماً لتغيير بعض المنكرات في الطرق فوقعت بسببها هيعة نكرها السلطان والخاصة وائتمروا به، فخرج منها خائفاً ولحق بملالة على فرسخ منها وبها يومئذ بنو ورياكل من قبائل صنهاجة. وكان لهم اعتزاز ومنعة، فآووه وأجاروه. وطالبهم السلطان صاحب بجاية بإسلامه إليه، فأبوا وأسخطوه، وأقام بينهم يدرس العلم أياماً. وكان يجلس إذا فرغ على صخرة بقارعة الطريق قريباً من ديار ملالة، وهي لهذا العهد، معروفة. وهنالك لقيه كبير صحابته عبد المؤمن بن علي حاجاً مع عمه فأعجب بعلمه، وألى عزمه عن وجهه ذلك، واختصّ به، وشمّر للأخذ عنه. وارتحل المهدي إلى المغرب وهو في جملته. ولحق بوانشرس. وصحبه منها البشير من جلة أصحابه. ثم لحق بتلمسان وقد تسامع الناس بخبره فأحضره القاضي بها ابن صاحب الصلاة، ووبخه على منتحله ذلك وخلافه لأهل قطره. وظن أن العذل يزعه عن ذلك، فصم عن قبوله. واستمر على طريقه إلى فاس، ثم إلى مكناسة ونهى بها عن بعض المناكير فأوقع به الشرار من الغوغاء، وأوجعوه ضرباً، ولحق بمراكش، وأقام بها آخذاً في شأنه. ولقي علي بن يوسف بالمسجد الجامع في صلاة الجمعة فوعظه وأغلظ له القول. ولقي ذات يوم الصورة أخت علي بن يوسف حاسرة قناعها على عادة قومها الملثمين في زي نسائهم فوبخها، ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تقريعه، ففاوض الفقهاء في شأنه بما وصل إليه من شهرته. وكان ملئوا منه حسداً وحفيظةً لما كان ينتحل مذهب الأشعريّة في تأويل المتشابه، وينكر عليهم جمودهم على مذهب السلف في إمراره كما جاء، ويرى أن الجمهور لقنوه تجسيماً، ويذهب إلى تكفيرهم بذلك أحد قولي الأشعرية في التكفير بمآل الرأي، فأغروا الأمير به وأحضره للمناظرة معهم فكان له الفتح والظهور عليهم، وخرج من مجلسه ونذر بالشر منهم فلحق من يومه بأغمات، وغير المناكير على عادته، وأغرى به أهلها علي بن يوسف، وطيروا إليه بخبره فخرج عنها هو وتلميذه الذين كانوا في صحابته. ودعا إسماعيل بن إيكيك من أصحابه مايتين من أنجاد قومه، وخرج به إلى منجاة من جبال المصامدة. ولحق أولاً بمسفيوة، ثم بهنتاتة. ولقيه من أشياخهم عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن علي، وهو الشيخ أبو حفص ويعرف بيته بين هنتاتة ببني فاصكات.

وتقول نسّابتهم: إن فاصكات هو جد وانودين، ويقال لهنتاتة بلسانهم ينتى فلذلك كان يعرف عمر بهنتي وسيأتي الكلام في تحقيق نسبه عند ذكر دولتهم. ثم ارتحل المهدي عنهم إلى إيكيلين من بلاد هرغة، فنزل على قومه وذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة. وبنى رابطة للعبادة، واجتمعت إليه الطلبة والقبائل،

فأعلمهم المرشدة والتوحيد باللسان البربري. وشاع أمره في صحبته. واستدرك رئيس الفئة العلمية بمجلس

الأمير علي بن يوسف، وهو مالك بن وهيب، أغراه به. وكان جزاء ينظر في النجوم، وكان الكفان يتحدثون بأن ملكاً كائن بالمغرب لأمة من البربر، ويتغير فيه شكل السكة لقران بين الكوكبين العلويين من السيارة، يقتضي ذلك في أحكامهم، وكان الأمير يتوقعها فقال له: احتفظ بالدولة من الرجل فإنه صاحب القران.

والدرهم المربع في كلام سفساف بسجع سوقي يتناقلها الناس نصه وهو: أجعل على رجله كبلاً، ليلاً يسمعك طبلاً. وأظنه صاحب الدرهم المربّع، فطلبه علي بن يوسف ففقده، وسرح الخيالة في طلبه ففاتهم ، وداخل عامل السوس، وهو أبو بكر بن محمد اللمتوني بعض هرغة في قتله، ونذر بهم إخوانهم فنقلوا الإمام إلى معقل امتناعهم، وقتلوا من داخل في أمره. ثم دعا المصامدة إلى بيعته على التوحيد، وقتال المجسمين دونه سنة خمس عشرة وخمسمائة، فتقدم إليها رجالاتهم من العشرة وغيرهم. وكان فيهم من هنتاتة أبو حفص عمر بن يحيى وأبو يحيى بن بكيت ويوسف بن وانودين وابن يغمور، ومن تينملل أبو حفص عمر بن علي الصناكي ومحمد بي سليمان وعمر بن تافركين وعبد الله بن ملويات.

وأهب قبيلة هرغة فدخلوا في أمره كلهم،. ثم دخل معهم كدميوه وكنفيسة. ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي، وكان لقبه قبلها الإمام وكان يسمي أصحابه الطلبة، وأهل دعوته الموحدين. ولما تم له خمسون من أصحابه سماهم آيت الخمسين. وزحف إليهم عامل السوس أبو بكر بن محمد اللمتوني بمكانهم من هرغة، فاستجاشوا بإخوانهم من هنتاتة وتينملل فاجتمعوا إليهم وأوقعوا بعسكر لمتونة فكانت مقدمة الفتح. وكان الإمام يعدهم بذلك فاستبصروا في أمره، وتسابق كافتهم إلى الدخول في دعوته، وترددت عساكر لمتونة إليهم مدة بعد أخرى ففضوهم. وانتقل لثلاث سنين من بيعته إلى جبل تينملل فأوطنه، وبنى داره ومسجده بينهم، حوالي منبع وادي نفيس.

وقاتل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا فقاتل أولا: هزرجة وأوقع بهم مراراً، ودانوا بالطاعة. ثم قاتل هسكورة ومعهم أبو درقة اللمتوني فغلبهم وقفل، فاتبعه

بنو واسكيت فأوقع بهم الموحدون وأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً. ثم غزا بلد عجدامة وكن قد افتتحه وترك به الشيخ أبا محمد عطية من أصحابه فغدروا به وقتلوه فغزاهم واستباحهم. ورجع إلى تينملل وأقام بها إلى أن كان شأن البشير، وميز الموحد من المنافق. وكانوا يسمون لمتونة الحشم فاعتزم على غزوهم، وجمع كافة أهل دعوته من المصامدة. وزحف إليهم فلقوه بكيك، وهزمهم الموحدون واتبعوهم إلى أغمات فلقيهم هنالك زحوف لمتونة مع بكر بن على بن يوسف، وإبراهيم بن تاعباشت، فهزمهم الموحدون. وقتل إبراهيم واتبعوهم إلى مراكش، فنزلوا البحيرة في زهاء أربعين ألفاً كلهم راجلين، إلا أربعمائة فارس.

واحتفل علي بن يوسف في الاحتشاد وبرز إليهم لأربعين من نزولهم عليه من باب إيلان فهزمهم وثخن ليهم قتلاً وسبياً، وفقد البشير من أصحابه. واستحر القتل ني هيلانة، وأبلى عبد المؤمن في ذلك اليوم أحسن البلاء. وكانت وفاة المهدي لأربعة أشهر بعدها. وكان يسمي أتباعه بالموحدين تعريضاً بلمتونة في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم. وكان حصوراً لا يأتي النساء. وكان يلبس العباءة المرقعة. وله قدم في التقشّف والعبادة، ولم يحفظ عنه فلتة في البدعة إلا ما كان من وفاقه الإمامية من الشيعة في القول بالإمام المعصوم والله تعالي أعلم.

الخبر عن دولة عبد المؤمن خليفة المهدي والخلفاء الأربعة من بيته ووصف لحالهم ومصاير أمورهم

لما هلك المهدي سنة إثنتين وعشرين وخمسمائة كما ذكرناه وقد عهد بأمره من بعده لكبير صحابته عبد المؤمن بن علي الكومي المتقدم ذكره ونسبه عند ذكر قومه، فقبر بمسجده لصق داره من تينملل. وخشي أصحابه من افتراق الكلمة وما يتوقع من سخط المصامدة ولاية عبد المؤمن لكونه من غير جلدتهم، فأرجأوا الأمر إلى أن تخالط بشاشة الدعوة قلوبهم، وكتموا موته، زعموا ثلاث سنين

يموّهون بمرضه، ويقيمون سنته في الصلاة والحزب الراتب. ويدخل صحابته إلى البيت كأنه اختصهم بعبادته، فيجلسون حفافي قبره ويتفاوضون في شؤونهم بمحضر أخته زينب، ثم يخرجون لإنفاذ ما أبرموه، ويتولاه عبد المؤمن بتلقينهم. حتى إذا استحكم أمرهم، وتمكنت الدعوة من نفوس كافتهم كشفوا حينئذ القناع عن حالهم، وتمالأ من بقي من العشرة على تقديم عبد المؤمن. وتولى كبر ذلك الشيخ أبو حفص، وأراد هنتاتة وسائر المصامدة عليه فأظهروا للناس موت المهدي، وعهده لصاحبه وانقياد بقية أصحابه لذلك.

وروى يحيى بن يغمور عن الإمام أنه يقول في دعائه إثر صلواته: "اللهم بارك لي في الصاحب الأفضل" فرضي الكافة وانقادوا وأجمعوا على بيعته بمدينة تينملل سنة أربع وعشرين وخمسمائة، فقام بأمر الموحدين وأبعد في الغزوات فصبح تادلاً، وأصاب منهم. ثم غزا درعة واستولى عليها سنة ست وعشرين وخمسمائة. ثم غزا تاشعبوت وافتتحها وقتل واليها أبا بكر بن مزروال ومن كان معه من قومه غمارة بني ونام وبني مزردع.

ثم تسابق الناس إلى دعوتهم أفواجاً، وانتقض البرابر في سائر أقطار المغرب على لمتونة، وسرح علي بن يوسف إبنه تاشفين لقتالهم سنة ثلاث وستين وخمسمائة، فجاءهم من ناحية أرض السوس، واحتشد معه قبائل كزولة وجعلهم في مقدمته فلقيهم الموحدون بأوائل جبلهم وهزموهم. ورجع تاشفين ولم يلق حرباً، ودخل كزولة من بعدها في دولة الموحدين. وأجمع عبد المؤمن على غزو بلاد المغرب، فغزا غزاته الطويلة منذ سنة أربع وثلاثين وخمسمائة إلى سنة إحدى وأربعين وستمائةوخمسمائة، ولما يراجع فيها تينملل حتى انقضت بالفتح والاستيلاء على المغربين، خرج إليها من تينملل، وخرج تاشفين بعساكره يحاذيه في

البسائط، والناس يفرون منه إلى عبد المؤمن وهو ينتقل في الجبال في سعة من الفواكه للأكل، والحطب للدفء، إلى أن وصل إلى جبال غمارة، واشتعلت نار الفتنة والغلاء بالمغرب، وامتنعت الرعايا من المغرم، والخ الطاغية على المسلمين بالعدوة.

وهلك خلال ذلك علي بن يويسف أمير لمتونة وملك العدوتين سنة سبع وثلاثين

وخمسمائة، وولي أمرهم تاشفين إبنه وهو في غزاته هذه، وقد أحيط به. وحدث بعد موت أبيه فتنة بين لمتونة ومسوفة، ففزع أمراء مسوفة مثل براز بن محمد ويحيى بن تاكفت ويحيى بن إسحاق المعروف بأنكار، وكان والي تلمسان. ولحقوا بعبد المؤمن فيمن إليهم من الجملة، ودخلوا في دعوته ونبذ إليهم لمتونة العهد، وإلى سائر مسوفة. واستمر عبد المؤمن على حاله، فنازل سبتة وامتنعت عليه، وتولى كبر دفاعه عنها القاضي عياض الشهير الذكر. كان رئيسها يومئذ بدينه وابوته ومنصبه. ولذلك سخطته الدولة آخر الأيام، حتى مات مغرباً عن سبتة بتادلاً مستعملاً في خطة القضاء بالبادية وتمادى عبد المؤمن في غزاته إلى جبال غياثة وبطوية فافتتحها، ثم نزل ملويّة فافتتح حصونها. ثم تخطى إلى بلاد زناتة فأطاعته قبائل مديونة. وكان بعث إليهم عسكر من الموحدين إلى نظر يوسف بن وانودين وابن يرمور فخرج إليهم محمد بن يحيى بن فانوا عامل تلمسان فيمن معه من عساكر لمتونة وزناتة فهزمهم الموحدون وقتل ابن فانوا. وانفض عسكر زناتة، ورجعوا إلى بلادهم.

وولى ابن تاشفين على تلمسان أبا بكر بن مزدلي، ووصل إلى عبد المؤمن بمكانه . الريف أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن يدر أمراء بني ومانوا، فبعث معهم ابن يغمور وابن وانودين في عسكرهم من الموحدين، فأثخنوا في بلاد بني عبد الواد وبني يلومي سبياً وأسراً، وأمدهم عساكر لمتونة ومعهم الزبرتير قائد الروم فنزلوا منداس، واجتمعت عليهم زناتة في بني يلومي وبني عبد الواد، وشيخهم حمامة بن مطهر، وبني ينكاسن وبني ورسفان وبني توجين، فأوقعوا ببني ومانوا واستنقذوا غنائمهم من أيديهم. وقتلوا أبا بكر بن ماخوخ في ستمائة من قومه. وتحصن الموحّدون وابن وانودين بجبال سيرات، ولحق تاشفين بن ماخوخ بعبد المؤمن صريخاً على لمتونة وزناتة،. فارتحل معه إلى تلمسان. ثم أجاز إلى سيرات وقصد محلة لمتونة وزناتة،

فأوقع بهم ورجع إلى تلمسان فنزل ما بين الصخرتين من جبل بني ورنيد.

ونزل تاشفين باصطفصف ووصل مدده صنهاجة من قبل يحيى بن العزيز صاحب بجاية لنظر طاهر بن كباب من قواده، أمدوا به تاشفين وقومه لصبية الصنهاجية. وفي يوم وصوله أشرف على معسكر الموحدين، وكان يدل بإقدام وبأس فزارى بلمتونة وأميرهم لقعودهم عن مناحزة الموحدين، وقال:

إنما جئتكم لأمكنكم من صاحبكم عبد المؤمن هذا، وأرجع إلى قومي.، فامتعض تاشفين لكلمته وأذن له في المناجزة، فحمل على القوم فركبوا وصمموا للقائه، فكان آخر العهد به وبعسكره. وكان تاشفين بعث من

قبل ذلك قائده على الروم الزبرتير في عسكر ضخم كما قلناه، فأغار على بني سنوس وزناتة الذين كانوا في بسيطهم، ورجع بالغنائم فاعترضه الموحدون من معسكر عبد المؤمن فقتلوهم، وقتل الزبرتير وصلب. ثم بعث بعثاً آخر إلى بلاد بني ومانوا فلقيهم تاشفين بن ماخوخ ومن كان معه من الموحدين وأوقعوا بهم. واعترضوا عسكر بجاية عند رجوعهم فنالوا منهم أعظم النيل. وتوالت هذه الوقائع على تاشفين فأجمع الرحلة إلى وهران، وبعث إبنه إبراهيم ولي عهده إلى مراكش في جماعة من لمتونة، وبعث كاتباً معه أحمد بن عطية. ورحل هو إلى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وأقام عليها شهراً ينتظر قائد أسطوله محمد بن ميمون إلى أن وصله من المرية بعشرة أساطيل، فأرساها قريباً من معسكره. وزحف عبد المؤمن من تلمسان وبعث في مقدمته الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى. ولجني ومانوا من زناتة فتقدموا إلى بلاد بني يلومي وبني عبد الواد وبني ورسيفن وبني توجين وأثخنوا فيهم حتى دخلوا في دعوتهم.

ووفد على عبد المؤمن برؤسائهم، وكان منهم سيد الناس ابن أمير الناس شيخ. بني يلومي فتلقاهم بالقبول، وسار في جموع الموحدين إلى وهران ففجعوا لمتونة بمعسكرهم ففضوهم، ولجأ تاشفين إلى رابطة هنالك فأحدقوا بها وأضرموا النيران حولها حتى غشيهم الليل، فخرج تاشفين من الحصن راكباً على فرسه فتردى من بعد حافات الجبل، وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة.

وبعث برأسه إلى تينملل. ولجأ فل العسكر إلى وهران فانحصروا مع أهلها. حتى جهدهم العطش ونزلوا جميعاً على حكم عبد المؤمن يوم الفطر من تلك السنة. وبلغ خبر مقتل تاشفين إلى تلمسان مع فل لمتونة، وفيهم أبو بكر بن ويحى وسير بن الحاج وعليّ بن فيلو، في آخرين من أعيانهم، ففر معهم من كان بها من لمتونة. وقدم عبد المؤمن فقتل من وجد بتاكرارت بعد أن كانوا بعثوا ستين من وجوههم، فلقيهم يصلين من مشيخة بني عبد الواد فقتلهم جميعاً.

ولما وصل عبد المؤمن إلى تلمسان استباح أهل تاكرارت لما كان أكثرهم من الحشم، وعفا عن أهل تلمسان، ورحل عنها لسبعة أشهر من فتحها بعد أن ولى عليها سليمان بن محمد بن وانودين، وقيل يوسف بن وانودين. وفيما نقل بعض المؤرخين أنه لم يزل محاصراً لتلمسان، والفتوح ترد عليه، وهناك وصلته بيعة سجلماسة. ثم اعتزم على الرحيل إلى المغرب، وترك إبراهيم بن جامع محاصراً لتلمسان، فقصد فاس سنة إحدى أربعين وخمسمائة، وقد تحصن بها يحيى الصحراوي. ولحق بها من فل تاشفين من تلمسان فنازلها عبد المؤمن، وبعث عسكراً لحصار مكناسة، ثم رحل في أتباعه، وترك عسكراً من الموحدين على فاس، وعليهم الشيخ أبو حفص وأبو إبراهيم من صحابة المهدي العشرة فحاصروها سبعة أشهر.

ثم داخلهم ابن الجياني مشرف البلد، وأدخل الموحدين ليلاً، وفر الصحراوي إلى طنجة وأجاز منها ابن غانية بالأندلس، وبلغ خبر فاس إلى عبد المؤمن وهو بمكانه من حصار مكناسة، فرجع إليها وولى عليها إبراهيم بن جامع، وولى على حصار مكناسة يحيى بن يغمور، ورحل إلى مراكش وكان إبراهيم بن جامع لما

افتتح تلمسان ارتحل إلى عبد المؤمن وهو محاصر لفاس فاعترضه في طريقه المخضب بن عسكر أمير بني مرين باد سيف ونالوا منه ومن رفقته، فكتب عبد المؤمن إلى يوسف بن وانودين بن عامل
تلمسان أن يجهز إليهم العساكر، فبعثها صحبة عبد الحق بن منغفاد شيخ نجني عبد الواد، فأوقعوا ببني مرين، وقتل المخضب أميرهم.

ولما ارتحل عبد المؤمن من فاس إلى مراكش وصلته في طريقه بيعة أهل سبتة، فولى عليهم يوسف بن مخلوف من مشيخة هنتاتة، ومر على بسلا فافتتحها بعد مواقعة
قليلة، ونزل منها بدار ابن عشرة، ثم تمادى إلى مراكش. وسرح الشيخ أبا حفص لغزو برغواطة فأثخن فيهم ورجع. ولقيه في طريقه ووصلوا جميعاً إلى مراكش وقد ضموا إليها جموع لمطة فأوقع بهم الموحدون وأثخنوا فيهم قتلاً، واكتسحوا أموالهم وظعائنهم. وأقاموا على مراكش سبعة أشهر وأميرهم إسحاق بن علي بن يوسف بايعوه صبياً صغيراً عند بلوغ خبر أبيه. ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا إلى مدافعة الموحدين فانهزموا وتتبعهم الموحدون بالقتل، واقتحموا عليهم المدينة في أخريات شوال سنة إحدى وأربعين وستمائةوخمسمائة وقتل عامة الملثمين. ونجا إسحاق في جملته وأعيان قومه إلى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحدين، وأحضر إسحاق بين يدي عبد المؤمن فقتله الموحدون بأيديهم وتولى كبر ذلك أبو حفص بن واكاك منهم وامحى أثر الملثمين واستولى الموحدون على جميع بلاد المغرب.

ثم خرج عليهم بناحية السوس ثائر من سوقة سلا يعرف محمد بن عبد الله بن هود وتلقب بالهادي، وظهر في رباط ماسة فأقبل إليه الشرار من كل جانب، وانصرفت إليه وجوه الأغمار من أهل الافاق، وأخذ بدعوته أهل سجلماسة ودرعة وقبائل دكالة وركراكه وقبائل تامسنا وهوارة. وفشت ضلالته في جميع المغرب، فسرح إليه عبد المؤمن عسكراً من الموحدين لنظر يحيى انكمار المسوفي النازع إليه من إيالة تاشفين بن علي. ولقي هذا الثائر المآسي، ورجع مهزوماً إلى عبد المؤمن، فسرح الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى وأشياخ الموحدين، واحتفل في الاستعداد فنهضوا إلى رابطة ماسة. وبرز إليهم الثائر في نحو ستين ألفاً من الرجال وسبعمائة من الفرسان، فهزمهم الموحدون وقتل داعيتهم في المعركة مع أكثر أتباعه، وذلك في ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وستمائةوخمسمائة. وكتب الشيخ أبو حفص بالفتح إلى عبد المؤمن من إنشاء أبي جعفر بن عطية الشهير الذكر، كان أبوه أبو أحمد كاتباً لعلي بن يوسف وإبنه تاشفين ، وتحصل في قبضة الموحدين فعفا عنه عبد المؤمن.

ولما نزل على فاس اعتزم أبو أحمد هذا على الفرار فقبض عليه في طريقه، واعتذر فلم يقبل عذره وقتل. وكان إبنه أحمد كاتباً لإسحاق بن علي بمراكش
فشمله عفو السلطان فيمن شمله من ذلك الفل، وخرج في جملة الشيخ أبي حفص في وجهته هذه وطلبه للكتاب في ذلك، فأجاد واستحسن كتابه عبد المؤمن لما وقف عليه فاستكتبه أولاً. ثم ارتفع عنده بخلاله

فاستوزره، وبعد في الدولة صيته، وقاد العساكر وجمع الأموال وبذلها ونال من الرتبة عند السلطان ما لم ينله أحد في دولتهم إلى أن دبت عقارب السعاية إلى مهاده الوثير، فكان فيها حتفه ونكبه الخليفة سنة ثلاث وخمسين وستمائة وخمسمائة وقتله بمحبسه حسبما هو مشهور.

ولما انصرف الشيخ أبو حفص من غزاة ماسة أراح بمراكش أياماً. ثم خرج غازياً إلى القائمين بدعوة الماسي بجبال درن، فأوقع بأهل نفيس وهيلانة وأثخن فيهم بالقتل والسبي حتى أذعنوا بالطاعة ورجع. ثم خرج إلى هسكورة وأوقع بهم وافتتح معاقلهم وحصونهم. ثم نهض إلى سجلماسة فاستولى عليها ورجع إلى مراكش، ثم خرج ثالثة إلى برغواطة فحاربوه مدة ثم هزموه. واضطرمت نار الفتنة في المغرب، وانتقض أهل سبتة، وأخرجوا يوسف بن مخلوف التينمللي وقتلوه ومن كان معه من الموحدين وأجاز القاضي عياض البحر إلى يحيى بن علي بن غانية المسوفي الوالي بالأندلس فلقيه بالخضراء، وطلب منه والياً على سبتة فبعث معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي الذي كان بفاس منذ منازلة عبد المؤمن لها. وذكرنا أنه لحق بطنجة فأجاز البحر إلى الأندل ولحق بابن غانية بقرطبة وصار في جملته.

وبعثه ابن غانية إلى سبتة مع القاضي عياض كما ذكرناه. وقام بأمرها ووصل يد بالقبائل الناكثة لطاعة الموحدين من برغواطة ودكالة على حين هزيمتهم للموحدين ين كما ذكرناه. ولحق بهم من مكانه بسبتة وخرج إليهم عبد المؤمن بن علي سنة إثنين وأربعين وستمائةوخمسمائة فدوخ بلادهم واستأصل شأفتهم حتى انقادوا للطاعة وتبرأوا من يحيى الصحراوي ولمتونة، ورجع إلى مراكش لستة أشهر من خروجه، ووصلته الرغبة من مشيخة القبائل في يحيى الصحراوي فعفا عنه وصلحت أحوال المغرب. وراجع أهل سبتة طاعتهم فتقبل منهم، وكذلك أهل سلا فصفح عنهم وأمر بهدم سورهم. والله أعلم

فتح الأندلس

فتح الأندلس وشؤنها

ثم صرف عبد المؤمن نظره إلى الأندلس، وكان من خبرها أنه اتصل بالملثمين مقتل تاشفين بن عليّ، ومنازلة الموحدين مدينة فاس. وكان علي بن عيسى بن ميمون قائد أسطولهم قد نزع طاعة لمتونة وانتزى بجزيرة قادس، فلحق بعبد المؤمن بمكانه من حصار فاس، ودخل في دعوته وخطب له بجامع قادس أول خطبة خطبت لهم بالأندلس عام أربعين وخمسمائة. وبعث أحمد بن قسي صاحب مرتلة ومقيم الدعوة بالأندلس أبا بكر بن حبيس رسولاً إلى عبد المؤمن فلقيه على تلمسان وادى كتاب صاحبه، فأنكر ما تضمنه من النعت بالمهدي، ولم يجاوب. وكان سداري بن وزير صاحب بطليوس وباجة وغرب الأندلس قد تغلب على أحمد بن قسي هذا، وغلبه على مرتلة فأجاز أحمد بن قسي البحر إلى عبد المؤمن بعد فتح مراكش لمداخلة علي بن عيسى بن ميمون ونزل بسبتة فجهزه يوسف بن مخلوف، ولحق بعبد المؤمن، ورغبه في ملك الأندلس، وأغراه بالملثمين فبعث معه عساكر الموحدين لنظر براز بن محمد المسوفي النازع

إلى عبد المؤمن من جملة تاشفين، وعقد له على حرب من بها من لمتونة والثوار وأمده بعسكر آخر لنظر موسى بن سعيد، وبعده بعسكر آخر لنظر عمر بن صالح الصنهاجي ولما أجازوا إلى الأندلس نازلوا أبا الغمر بن عزون من الثوار بشريش، وكانت له مع رلدة.

ثم قصدوا لبلة وبها من الثوار يوسف بن أحمد البطورجي فأعطاهم الطاعة ثم

قصدوا مرتلة، وهي تحت الطاعة لتوحيد صاحبها أحمد بن قسي. ثم قصدوا شلب فافتتحوها وأمكنوا منها ابن قسي. ثم نهضوا إلى باجة وبطليوس فأطاعهم صاحبها سداري بن وزير. ثم رجع براز في عسكر الموحدين إلى مرتلة حتى انصرم فصل الشتاء فخرج إلى منازلة

إشبيلية فأطاعه أهل طليطلة وحصن القصر، واجتمع إليه سائر الثوار وحاصروا إشبيلية براً وبحراً إلى أن اقتحموها في شعبان سنة إحدى وأربعين وستمائةوخمسمائة. وفر الملثمون بها إلى قرمونة وقتل من أدرك منهم. وأتى القتل على عبد الله بن القاضي أبي بكر بن العربي في هيعة تلك الدخلة من غير قصد. وكتبوا بالفتح إلى عبد المؤمن بن علي. وقدم عليه وفدهم بمراكش يقدمهم القاضي أبو بكر فتقبل طاعتهم وانصرفوا بالجوائز والإقطاعات لجميع الوفد سنة إثنتين وأربعين وستمائة وخمسمائة.

وهلك القاضي أبو بكر في طريقه ودفن بمقبرة فاس. وكان عبد العزيز وعيسى أخوا المهدي من مشيخة العسكر بإشبيلية فساء أثرهما في البلد واستطالت أيديهما على أهله، واستباحوا الدماء والأموال. ثم اعتزما على الفتك بيوسف البطروجي صاحب لبلة فلحق ببلده وأخرج الموحدين الذين بها وحول الدعوة عنهم. وبعث إلى طليطلة وحصن القصر ووصل يده بالملثمين الذين كانوا بالعدوة؟ وارتد ابن قسي في مدينة شلب، وعلي بن عيسى بن ميمون بجزيرة قادس، ومحمد بن علي بن الحجام بمدينة بطليوس. وثبت أبو الغمر بن عزون على طاعة الموحدين بشريش ورندة وجهاتها. وتغلب ابن غانية على الجزيرة الخضراء، وانتقض أهل سبتة كما ذكرناه وضاقت أحوال الموحدين بإشبيلية فخرج منها عيسى وعبد العزيز أخوا المهدي وابن عمهما يصليتن بمن كان معهم. ولحقوا بجبل بستر جاءهم أبو الغمر بن عزون واتصلت أيديهم على حصار الجزيرة حتى افتتحوها وقتلوا من كان بها من لمتونة ولحق أخوا المهدي بمراكش وبعث عبد المؤمن على إشبيلة يوسف بن سليمان في

عسكر من الموحدين وأبقى براز بن محمد على الجباية فخرج يوسف ودوخ أعمال البطروجي بلبلة وطليطلة وعمل ابن قسي بشلب ثم أغار على طلبيرة وأطاعه عيسى بن ميمون صاحب شنتمرية وغزا معهم وأرسل محمد بن عليّ بن الحجام صاحب بطليوس بهداياه فتقبلت ورعيت له، ورجع يوسف إلى إشبيلية، وفي أثناء ذلك استغلظ الطاغية على يحيى بن علي بن غانية بقرطبة ولج على جهاته حتى نزل له عن بياسة وأبدة وتغلب على الأشبونة وطرطوشة ولاردة وأفراغة وشنتمرية وغيرها من حصون الأندلس وطالب ابن غانية بالزيادة في ضريبته أو الإفراج له عن قرطبة فراسل ابن غانية براز بن محمد واجتمعا

باستجة وضمن له براز إمداد الخليفة على أن يتخلى عن قرطبة وقرمونة ويدال منها بجيان فرضي بذلك وتم العقد ووصل خطاب عبد المؤمن بإمضائه فارتحل ابن غانية إلى جيان ونازله الطاغية بها فغدر بأقماطه واقتلعهم بقلعة ابن سعيد وأفرج الطاغية عن جيان ولحق هذا بغرناطة وبها ميمون بن بدر اللمتوني في جماعة من المرابطين قصده ابن غانية ليحمله على مثل حاله مع الموحدين فكان مهلكه بها بشعبان سنة ثلاث وأربعين وستمائةوخمسمائة وقبره بها معروف لهذا العهد. وانتهز الطاغية فرصته في قرطبة فزحف إليها، ودفع الموحدون بإشبيلية أبا الغمر بن عزون لحمايتها، ووصل إليه مدد يوسف

البطروجي من لبلة. وبلغ الخبر عبد المؤمن فبعث إليها عسكراً من الموحدين لنظر يحيى بن يغمور. ولما دخلها أفرج عنها الطاغية لأيام من مدخله، وبادر الثوار إلى يحيى بن يغمور في طلب الأمان من عبد المؤمن. ثم تلاحقوا به بمراكش فتقبلهم وصفح لهم، ونهض إلى مدينة سلا سنة خمس وأربعين

وستمائةوخمسمائة. واستدعى منها أهل الأندلس فوفدوا عليه وبايعوه جميعاً، وبايعه الرؤساء من الثوار على الانخلاع من الأمر مثل: سداراي بن وزير صاحب باجة، وبابورة والبطروجي صاحب لبلة، وابن عزون صاحب شريش ورندة، وابن الحجّام صاحب بطليوس وعامل ابن منيب صاحب طابيرة. وتخفف ابن قسي وأهل شلب عن هذا الجمع، فكان سبباً لقتله من بعد. ورجع عبد المؤمن إلى مراكش وانصرف أهل الأندلس إلى بلادهم واستصحب الثوار فلم يزالوا بحضرته والله تعالى أعلم.

فتح أفريقية

فتح أفريقية وشؤنها

ثم بلغ عبد المؤمن ما هي عليه أفريقية من اختلاف الأمراء واستطالة العرب عليها بالعيث والفساد، وأنهم حاصروا مدينة القيروان وأن موسى بن يحيى الرياحي المرداسي دخل مدينة باجة وملكها، فأجمع الرحلة إلى غزو أفريقية بعد أن شاور الشيخ أبا حفص وأبا إبراهيم وغيرهما من المشيخة فوافقوه. وخرج من مراكش سنة ست وأربعين وستمائةوخمسمائة مورياً بالجهاد حتى انتهى إلى سبتة، واستوضح أحوال أهل الأندلس ثم رحل عن سبتة مورياً بمراكش، وأغذّ السير إلى بجاية فدخل الجزائر على حين غفلة وخرج إليه الحسن بن عليّ صاحب المهدئة فصحبه واعترضته جيوش صنهاجة بأم العلو فهزمهم وصبح بجاية من الغد فدخلها. وركب يحيى بن العزيز البحر في أسطولين كان أعدهما لذلك، واحتمل فيها ذخائره وأمواله، ولحق بقسنطينة إلى أن نزل بعد ذلك عنها على أمان عبد المؤمن واستقر

بمراكش تحت الجراية والعناية إلى أن هلك رحمه الله.

ثم سرح عبد المؤمن عساكر الموحدين وعليهم إبنه عبد الله إلى القلعة، وبها جوشن بن العزيز في جموع صنهاجة فاقتحمها واستلحم من كان بها منهم، وأضرم النار في مساكنها وقتل جوشن. ويقال إن القتلى بها كانوا ثمانية عشر ألفاً، وامتلأت أيدي الموحدين من الغنائم والسبي، وبلغ الخبر إلى العرب بأفريقية من

الأثبج وزغبة ورياح وقسرة فعسكروا بظاهر باجة، وتدامروا على الدفاع عن ملكهم يحيى بن العزيز وارتحلوا إلى سطيف. وزحف إليهم عبد الله بن عبد المؤمن في الموحدين الذين معه. وكان عبد المؤمن قد قفل إلى المغرب ونزل متيجة فلما بلغه الخبر بعث المدد لابنه عبد الله والتقى الفريقان بسطيف واقتلوا ثلاثاً، ثم انفضت جموع العرب واستلحموا وسبيت نساؤهم واكتسحت أموالهم وأسر أبناؤهم.

ورجع عبد المؤمن إلى مراكش سنة سبع وأربعين وستمائةوخمسمائة، ووفد عليه كبراء العرب من أهل أفريقية طائعين فوصلهم ورجعهم إلى قومهم. وعقد على فاس لابنه السيد أبي الحسن، واستوزر له يوسف بن سليمان. وعقد على تلمسان لابنه السيد أبي حفص، واستوزر له أبا محمد بن وانودين. وعلى سبتة للسيد أبي سعيد، واستوزر له محمد بن سليمان. وعلى بجاية للسيد أبي محمد عبد الله. واستوزر له يخلف بن الحسين. واختص ابنه عبد الله بولاية عهده. وتقلب بذلك كله ضمائر عبد العزيز ويحيى أخوي المهدي فلحقا بمراكش مضمرين الغدر، وأدخلوا بعض الأوغاد في شأنهم فوثبوا بعمر بن تافراكين وقتلوه بمكانه من القصبة. ووصل على أثرهما الوزير أبو جعفر بن عطية وعبد المؤمن على أثره فأطفآ نار تلك الثورة وقتل أخوا المهدي ومن داخلهم فيها والله أعلم.

فتح بقية الأندلس:

وبلغه بمراكش سنة تسع وأربعين وستمائةوخمسمائة أن يحيى بن يغمور صاحب إشبيلية قتل أهل لبلة بما كان من غدر الوهبي لها، ولم يقبل معذرتهم في ذلك فسخط يحيى بن يغمور وعزله عن إشبيلية بأبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن عليّ التينمللي، وعن

قرطبة بأبي زيد بن بكيت وبعث عبد الله بن سليمان، فجاء بابن يغمور معتقلاً إلى الحضرة وألزمه مترله إلى أن بعثه مع ابنه السيد أبي حفص إلى تلمسان واستقام أمر الأندلس. وخرج ميمون بن يدر اللمتوني عن غرناطة للموحدين فملكوها، وأجاز إليها السيد أبو سعيد صاحب سبتة بعهد أبيه عبد المؤمن إليه بذلك. ولحق الملثمون بمراكش ونازل السيد أبو سعيد مدينة المرية حتى نزل من كان بها من النصارى على الأمان. وحضر لذلك الوزير أبو جعفر بن عطية بعد أن أمدهم ابن مردنيش الثائر بشرق الأندلس والطاغية معه، وعجزوا جميعاً عن المدافعة. ثم وفد أشياخ إشبيلية سنة إحدى وخمسين وستمائة وخمسمائة ورغبوا من عبد المؤمن ولاية بعض أبنائه عليهم فعقد لابنه السيد أبي يعقوب عليها، وافتتح أمره بمنازلة عليّ الوهبي الثائر بطبيرية ومعه الوزير أبو جعفر بن عطية، حتى استقام على الطاعة. ثم استولى على عمل ابن وزير وابن قسي، واستترل تاشفين اللمتوني من مرتلة سنة إثنتين وخمسين وستمائة وخمسمائة، وكان الذي أمكن الملثمين منها ابن قسي واستتم الفتح. ورجع السيد إلى إشبيلية، وانصرف أبو جعفر بن عطية إلى مراكش فكانت نكبته ومقتله. واستوزر عبد المؤمن بعده عبد السلام الكومي كان يمت إليه بذمة صهر فلم يزل على و زارته.والله أعلم0

بقية فتح أفريقية:

لما بلغ عبد المؤمن سنة ثلاث وخمسين وستمائة وخمسمائة ما كان من إيقاع الطاغية بإبنه السيد أبي يعقوب بظاهر إشبيلية، ومن استشهد من أشياخ الموحدين وحفاظهم، ومن الثوار مثل ابن عزون وابن الحجام، نهض يريد الجهاد واحتل سلا فبلغه

انتقاض أفريقية، وأهمه شأن النصارى بالمهدية. فلما توافت العساكر بسلا استخلف الشيخ أبا حفص على المغرب، وعقد ليوسف بن سليمان على مدينة فاس، ونهض يغذ السير حتى نازل المهدية ومن بها من نصارى أهل صقلية فافتتحها صلحاً سنة خمس وخمسين وستمائة وخمسمائة. واستنقذ جميع البلاد الساحلية مثل صفاقس وطرابلس من أيدي العدو.

وبعث إبنه عبد الله من مكان حصاره للمهدية إلى قابس فاستخلصها من يد بني

كامل المتغلبين عليها من دهمان بعض بطون رياح. واستخلص قفصة من يد بني الورد، وزرعة من يد بني بروكسن، وطبرقة من يد علال وجبل زغوان من يد بني حماد بن خليفة وشقبناريّة من يد بني عبّاد بن نصر الله. ومدينة الأربص من يد ملكها من العرب حسبما ذلك مذكور في أخبار هؤلاء الثوار في دولة صنهاجة.

ولما استكمل الفتح وثنى عنانه إلى المغرب سنة ست وخمسين وستمائة وخمسمائة بلغه أن الأعراب بأفريقية انتقضوا عليه، فرجع إليهم عسكراً من الموحدين، فنهضوا إلى القيروان، وأوقعوا بالعرب، وقتل كبيرهم محرز بن زياد الفارغي من بني عليّ إحدى بطون رياح.والله أعلم .

أخبار ابن مردنيش الثائر بشرق الأندلس:

كان بلغ عبد المؤمن وهو بأفريقية أن محمد بن مردنيش الثائر بشرق الأندلس خرج من مرسية ونازل جيان. وأطاعه واليها محمد بن عليّ الكومي. ثم نازل بعدها قرطبة ورحل عنها وغدر بقرمونة وملكها، ثم رجع إلى قرطبة. وخرج ابن بكيت لحربه فهزمه وقتله، فكتب إلى عماله بالأندلس بفتح أفريقية، وأنه واصل إليهم وعبر البحر إلى جبل الفتح. واجتمع إليه أهل الأندلس ومن بها من الموحدين ثم رجع إلى مراكش وبعث عساكره إلى الجهاد، ولقيهم الطاغية فهزموه. وتغلب السيد أبو يعقوب على

قرمونة من يد ابن هشمك صهر ابن مردنيش. وكان السيدان أبو يعقوب صاحب إشبيلية وأبو سعيد صاحب غرناطة ارتحلا لزيارة الخليفة بمراكش، فخالف ابن همشك إلى مدينة غرناطة وغدر بها ليلاً بمداخلة من بعض أهلها. واستولى عليها وانحصر الموحدون بقبضها، وخرج عبد المؤمن من مراكش لاستنقاذها فوصل إلى سلا.

وقدم السيد أبا سعيد فأجاز البحر ولقيه عامل إشبيلية عبد الله بن أبي حفص بن

علي، ونهضوا جميعاً إلى غرناطة، فنهض إليهم ابن همشك وهزمهم. ورجع السيد أبو سعيد إلى مالقة، وردفه عبد المؤمن بأخيه السيد أبي يعقوب في عساكر الموحدين، ونهضوا إلى غرناطة، وكان قد وصلها ابن مردنيش في جموع من النصارى مدداً لابن همشك، فلقيهم الموحدون بفحص غرناطة وهزموهم. وفر ابن مردنيش إلى مكانه من المشرق، ولحق ابن همشك بجيان فنازله الموحدون. وارتحل السيدان إلى قرطبة فأقاما بها إلى أن استدعى السيد أبو يعقوب إلى مراكش سنة ثمان وخمسين وستمائة وخمسمائة لولاية العهد، والإدالة به من أخيه محمد، فلحق بمراكش وخرج في ركاب أبيه الخليفة عبد المؤمن لما نهض للجهاد. وأدركته المنية بسلا في جمادى الآخرة من هذه السنة وقبر بتينملل إلى جانب المهدي والله أعلم.

دولة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن:

لما هلك عبد المؤمن أخذ البيعة على الناس السيد أبوحفص لأخيه أبي يعقوب

باتفاق من الموحدين كافة، ورضي من الشيخ أبي حفص خاصة، واستقل في رتبة وزارته ورجعوا إلى مراكش. وكان السيد أبو حفص هذا وزيراً لأبيه عبد المؤمن، استوزره عند نكبة عبد السلام الكومي فرجعه من أفريقية سنة خمس وخمسين وستمائة وخمسمائة. وكان أبو العلى بن جامع متصرفاً بين يديه في رسم الوزارة إلى أن هلك عبد المؤمن فأخذ أبو حفص البيعة لأخيه أبي يعقوب. ثم هلك إثر وفاة عبد المؤمن ابنه السيد أبو الحسن صاحب فاس، والسيد أبو محمد صاحب بجاية في طريقه إلى الحضرة. ثم استقدم أبو يعقوب السيد أبا سعيد من كرناطة سنة ستين وخمسمائة فقدم ولقيه السيد أبوحفص بسبتة.

ثم صرح الخليفة أبو يعقوب معه أخاه السيد أبا حفص إلى الأندلس في عساكر الموحدين لما بلغه من إلحاح ابن مردنيش على قرطبة، بعد أن احتشد معه قبائل العرب من زغبة ورياح والاثبج، فاجتاز البحر وقصد ابن مردنيش، وقد جمع جموعه وأولياءه من النصارى. ولقيهم عساكر الموحدين بفحص مرسية، فانهزم ابن مردنيش وأصحابه وفر إلى مرسية، ونازله الموحدون بها ودوخوا نواحيه. وانصرف السيد أبو حفص وأخوه أبو سعيد سنة إحدى وستين وخمسمائة إلى مراكش وخمدت نار الفتنة من ابن مردنيش. وعقد الخليفة على بجاية لأخيه السيد أبي زكريا، وعلى إشبيلية للشيخ أبي عبد الله بن إبراهيم. ثم أدال منه بأخيه السيد أبي إبراهيم، وأقر الشيخ أبا عبد الله على وزارته. وعقد على قرطبة للسيد أبي إسحق، وأقر السيد أبا سعيد على غرناطة ثم نظر الموحدون في وضع العلامة في المكتوبات بخط الخليفة فاختاروا: "الحمد لله وحده" لما وقفوا عليها بخط الإمام المهدي في بعض مخاطباته، فكانت علامتهم إلى آخر دولتهم والله تعالىأعلم0

فتنة غمارة

وفي سنة إثنتين وستين وخمسمائة تحرك الأمير أبو يعقوب إلى جبال غمارة، لما كان ظهر بها

من الفتنة التي تولى كبرها سبع بن منغفاد منهم. وناغاهم في الفتنة صنهاجة جيرانهم، فبعث الأمير أبو يعقوب عساكر الموحدين لنظر الشيخ أبي حفص، ثم تعاظمت فتن غمارة وصنهاجة فخرج إليهم بنفسه وأوقع بهم واستأصلهم وقتل سبع بن منغفاد وانحسم داؤهم، وعقد لأخيه السيد أبي علي الحسن على سبتة وسائر بلادهم. وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة اجتمع الموحدون على تجديد البيعة واللقب بأمير المؤمنين، وخاطب العرب بأفريقية يستدعيهم إلى الغزو ويحرضهم. وكتب إليهم في ذلك قصيدة ورسالة مشهورة بين الناس، وكان من إجابتهم ووفودهم عليه ما هو معروف.

أخبار الأندلس:

لما استوسق الأمر للخليفة أبي يعقوب بالعدوة وصرف نظره إلى الأندلس والجهاد، واتصل به ما كان من غدر العدو، دمّره الله، بمدينة ترجالة. ثم مدينة يابرة، ثم حصن شبرمة، ثم حصن جلمانية إزاء بطليوس، ثم مدينة بطليوس، فسرّح الشيخ أبا حفص في عساكر من الموحدين احتفل في انتقائهم. وخرج سنة أربع وستين وخمسمائة لاستنقاذ بطليوس من هوة الحصار، فلما وصل إلى إشبيلية بلغه أن الموحدين ببطليوس هزموا ابن الرنك الذي كان يحاصرهم بإعانة ابن أذفونش. وأن ابن الرنك تحصل في قبضتهم أسيراً، وفر جراندة الجلّيقي إلى حصنه، فقصد الشيخ أبو حفص مدينة قرطبة وبعث إليه إبراهيم بن همشك من جيان بطاعته وتوحيده ومفارقته صاحبه ابن مردنيش، لما حدث بينهما من الشحناء والفتنة، فألح عليه ابن مردنيش بالحرب، وردد إليه الغزو، فبعث إلى الشيخ أبي حفص بطاعته.

وكتب الشيخ أبو حفص بذلك إلى الخليفة، وبما كان من عيث النصارى بجوانب الأندلس، فسرح أخاه ووزيره أبا حفص في عساكر الموحدين، فنهض من مراكش سنة خمس وستين وخمسمائة، وفي جملته السيد أبو سعيد أخوه، فوصل إشبيلية وبعث أخاه أبا سعيد إلى بطليوس، فعقد الصلح مع الطاغية وانصرف، ونهضوا جميعاً إلى مرسية ومعهم ابن همشك فحاصروا ابن مردنيش. وثار أهل لورقة بدعوة الموحدين، فملكها السيد أبو حفص. ثم افتتح مدينة بسطة، وطاع ابن عمه محمد بن مردنيش

صاحب المرية، فحمق بذلك جناحه.

واتصل الخبر بالخليفة بمراكش، وقد توافت عنده جموع العرب من أفريقية صحبة السيد أبي زكريا صاحب بجاية والسيد أبي عمران صاحب تلمسان، وكان يوم قدومهم عليه يوماً مشهوداً، فاعترضهم وسائر عساكره، ونهض إلى الأندلس. واستخلف على

مراكش السيد أبا عمران أخاه فاحتل بقرطبة سنة سبع وستين وخمسمائة. ثم ارتحل بعدها إلى إشبيلية، ولقيه السيد أبو حفص هنالك منصرفاً من غزاته. وكان ابن مردنيش لما طال عليه الحصار ارتاب ففتك بهم، وبادر أخوه أبو الحجاج إلى الطاعة، وهلك هو في رجب من هذه السنة. ودخل إبنه هلال في الطاعة، وبادر السيد أبو حفص إلى مرسية فدخلها وخرج هلال في جملته، وبعثه إلى الخليفة بأشبيلية. ثم ارتحل

الخليفة غازياً إلى بلاد العدو فنازل رندة أياماً، وارتحل عنها إلى مرسية. ثم رجع إلى إشبيلية سنة ثمان وستين وخمسمائة، واستصحب هلال بن مردنيش وأصهر إليه في ابنته، وولى عمه يوسف على بلنسية وعقد لأخيه السيد أبي سعيد على غرناطة.

ثم بلغه خروج العدو إلى أرض المسلمين مع القومس الأحدب، فخرج للقائهم وأوقع بهم بناحية قلعة رياح، وأثخن فيهم ورجع إلى أشبيلية، وأمر ببناء حصن بالقلعة ليحصن جهاتها، وقد كانت خراباً منذ فتنة ابن حجاج فيه مع كريب بن خلدون بمورة، أزمان المنذر بن محمد وأخيه عبد الله من أمراء بني أمية.

ثم انتقض ابن أذفونيش وأغار على بلاد المسلمين، فاحتشد الخليفة وسرح السيد أبا حفص إليه فغزاه بعقر داره، وافتتح قنطرة السيف، وهزم جموعه في كل جهة. ثم ارتحل الخليفة من أشبيلية راجعاً إلى مراكش سنة إحدى وسبعين وخمسمائة لخمس سنين من إجازته إلى الأندلس، وعقد على قرطبة لأخيه الحسن، وعلى أشبيلية لأخيه علي، وأصاب مراكش الطاعون فهلك من السادة أبو عمران وأبو سعي ، وأبو زكريا، وقدم الشيخ أبو حفص، من قرطبة فهلك في طريقه، ودفن بسلا.

واستدعى الخليفة أخويه السيدين أبا علي وأبا الحسن؟ فعقد لأبي علي على سجلماسة، ورجع أبو الحسن إلى قرطبة، وعقد لابني أخيه السيد أبي حفص:

لأبي زيد منهما على غرناطة، ولأبي محمد عبد الله على مالقة. وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة سطا بوزرائه بني جامع وغربهم إلى ماردة. وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة عقد لغانم بن محمد بن مردنيش على أسطوله وأغزاه مدينة الأشبونة، فغنم ورجع. وفيها كانت وفاة أخيه السيد الوزير أبي حفص بعدما أبلى في الجهاد وأبلغ في نكاية العدو. وقدم ابناه من الأندلس وأخبرا الخليفة بانتقاض الطاغية، واعتزم على الجهاد وأخذ في استدعاء العرب من أفريقية والله تعالى أعلم.

الخبر عن انتفاض قفصة واسترجاعها:

كان عليّ بن المعز ويعرف بالطويل، من أعقاب بني الرند ملوك قفصة قد ثار سنة خمس وسبعين وخمسمائة كما ذكرناه في أخبارهم. وبلغ الخليفة خبره فنهض إليه من مراكش وصار إلى بجاية وسعى عنده بعلي بن المنتصر الذي كان عبد المؤمن استنزله من قفصة أنه يواصل قريبه الثائر بها ويخاطب العرب، فتقبض عليه، ووجدت مخاطبات عنده شاهدة بتلك السعاية واستصفى ما كان بيده، وارتحل إلى فقصة ونازلها. ووفدت عليه مشيخة العرب من رياح بالطاعة فتقبلهم ولم يزل محاصراً لقفصة إلى أن نزل على ابن المعز. وانكفأ راجعاً إلى تونس. وأنفذ عساكر العرب إلى المغرب، وعقد على أفريقية والزاب للسيد أبي علي أخيه وعلى بجاية للسيد أبي موسى وقفل إلى الحضرة والله تعالى اعلم.

معاودة الجهاد

لما قفل من فتح قفصة سنة سبع وسبعين وخمسمائة وفد عليه أخوه السيد أبو إسحق من أشبيلية، والسيد أبو عبد الرحمن يعقوب من مرسية وكافة الموحدين ورؤساء الأندلس يهنونه بالإياب فأكرم موصلهم وانصرفوا إلى بلادهم. واتصل به أن محمد بن يوسف بن وانودين غزا بالموحدين من أشبيلية إلى أرض العدو فنازل مدينة يابرة وغنم ما حولها وافتتح بعض حصونها ورجع إلى أشبيلية، وإن عبد الله بن إسحق بن جامع قائد الأسطول بأشبيلية التقى بأسطول أهل أشبونة في البحر فهزمهم وأخذوا عشرين من قطائعهم مع السبي والغنائم.

ثم بلغ الخبر بأن أذفونس بن شانجة نازل قرطبة وشن الغارات على جهة مالقة ورندة وغرناطة. ثم نازل أستجة وتغلب على حصن شنغيلة. وأسكن بها النصارى وانصرف، فاستنفر السيد أبو إسحق سائر الناس للغزو، ونازل الحصن نحو أربعين يوماً. ثم بلغه خروج أذفونش من طليطلة لمدده فانكفأ راجعاً. وخرج محمد بن يوسف بن وانودين من أشبيلية في جموع الموحدين ونازل طلبيرة، وبرز إليه أهلها فأوقع بهم وانصرف بالغنائم، فاعتزم الخليفة أبو يوسف على معاودة الجهاد، وولى على الأندلس أبناءه وقدمهم للاحتشاد، فعقد لابنه أبي إسحق على أشبيلية كما كان، ولابنه السيد أبي يحيى على قرطبة ولابنه السيد أبي زيد الحرضاني على غرناطة ولابنه السيد أبي عبد الله على مرسية.

ونهض سنة تسع وسبعين وخمسمائة إلى سلا، ووافاه بها أبو محمد بن أبي إسحق بن جامع من أفريقية بحشود العرب. وسار إلى فاس، وبعث في مقدمته هنتاتة وتيمنلل

وحشود العرب، وأجاز البحر من سبتة في صفر من سنة ثمانين وخمسمائة

، فاحتل جبل الفتح، وسار إلى أشبيلية فوافته بها حشود الأندلس. وسخط محمد بن وانودين وغربه إلى حصن غافق، ورحل غازياً إلى شنترين فحاصرها أياماً. ثم أقلع عنها وأسحر الناس يوم إقلاعه، وخرج النصارى من الحصن فوجدوا الخليفة في غير أهبة ولا استعداد، فأبلى في الجهاد هو ومن حضره، وانصرفوا بعد جولة شديدة. وهلك في ذلك اليوم الخليفة يقال من سهم أصابه في حومة القتال، وقيل من مرض طرقه عفا الله عنه.

دولة ابنه يعقوب المنصور:

لما هلك الخليفة أبو يعقوب على حصن شنترين سنة ثمانين وخمسمائة بويع إبنه يعقوب،

ورجع بالناس إلى أشبيلية واستكمل البيعة. واستوزر الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص، واستنفر الناس للغزو مع أخيه السيد أبي يحيى فأخذ بعض الحصون وأثخن في بلاد الكفار. ثم أجاز البحر إلى الحضرة ولقيه بقصر مصمودة السيد أبو زكريا ابن السيد أبي حفص قادماً من تلمسان مع مشيخة زغبة، ومضى إلى مراكش فقطع المناكر وبسط العدل وباشر الأحكام، وكان أول الأحداث في دوله شأن ابن غانية.

الخبر عن شأن ابن غانية:

كان علي بن يوسف بن تاشفين لما تغلب العدو على جزيرة ميورقة وهلك واليها من موالي مجاهد وهو مبشر، وبقي أهلها فوضى، وقد كان مبشّر بعث إليه بالصريخ، والعدو محاصر له. فلما أخذها العدو وغنم وأحرق وأقلع، وبعث عليّ بن يوسف والياً عليها وأنور بن أبي بكر من رجالات لمتونة، وبعث معه خمسمائة فارس من

معسكره، فأرهف لهم حدّة، وأرادهم في بناء مدينة أخرى بعيدة من البحر فامتنعوا، وقتل مقدمهم فثاروا به وحبسوه. ومضوا إلى علي بن يوسف فأعفاهم منه، وولى عليهم محمد بن علي بن يحيى المسوقي المعروف بابن غانية. وكان أخوه يحيى على غرب الأندلس، وكان نزله بأشبيلية.

واستعمل محمد أخاه على قرطبة، فكتب إليه علي بن يوسف يأمره بصرف أخيه

محمد إلى ولاية ميورقة، فارتحل إليها من قرطبة ومعه أولاده عبد الله وعلي وإسحاق والزبير وإبراهيم وطلحة، وكان عبد الله وإسحاق في تربية عمهما يحيى وكفالته فتبناهما. ولما وصل محمد بن علي بن غانية إلى ميورقة قبض على أنور وبعثه مصفداً الى مراكش، وأقام على ذلك عشراً. وهلك يحيى بن غانية وقد ولى عبد الله ابن أخيه محمد على غرناطة، وأخاه إسحاق بن محمد على قرمونة. ثم هلك علي بن يوسف، وضعف أمر لمتونة، وظهر عليهم الموحدون فبعث محمد عن ابنيه عبد الله وإسحق فوصلا إليه في الأسطول وانقضى ملك لمتونة.

ثم عهد محمد إلى إبنه عبد الله فنافسه أخوه إسحاق، وداخل جماعة من لمتونة في قتله فقتلوه، وقتلوا أباه محمداً. ثم أجمعوا على الفتك به فارتاب بهم وداخل لبّ بن ميمون قائد البحر في أمرهم فكبسهم في منازلهم وقتلهم. وتفت بيعته سنة ست وأربعين وستمائةوخمسمائة، وبقي أميراً لميورقة. واشتغل أول أمره بالبناء والغراسة، وضجر منه الناس لسوء ملكته، وفر عنه لبّ بن ميمون إلى الموحدين. ثم رجع آخرا إلى الغزو، وكان يبعث بالأسرى والعلوج للخليفة أبي يعقوب إلى أن هلك قبيل مهلكه سنة ثمانين وخمسمائة.

وخلف من الولد محمداً وعلياً ويحيى وعبد الله والغازي وسير والمنصور وجبارة وتاشفين وطلحة وعمر ويوسف والحسن، فولى ابنه محمد وبعث إلى الخليفة أبي يعقوب بطاعته، فبعث هو علي بن الزبرتير لاختبار ذلك منه وأحس بذلك إخوته فنكروه وتقبضوا عليه، وقدموا علياً منهم. وبلغهم مهلك الخليفة وولاية ابنه المنصور فاعتقلوا ابن الزبرتير وركبوا البحر في أسطولهم إلى بجاية. وولى على ميورقة أخاه طلحة، وطرق بجاية في أسطوله على حين غفلة وعليها السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان خارجها في بعض مذاهبه فاستولوا عليها سنة إحدى وثمانين وخمسمائة. وتقبضوا على السيد أبي الربيع والسيد أبي موسى عمران بن عبد المؤمن صاحب أفريقية، وكان بها مجتازاً واستعمل أخاه يحيى على بجاية ومضى إلى

الجزائر فافتتحها، وولى عليها يحيى ابن أخيه طلحة، ثم إلى مليانة فولى عليها بدر بن عائشة. ونهض إلى القلعة

ثم إلى قسنطينة فنازلها. واتصل الخبر بالمنصور وهو بسبتة مرجعه من الغزو، فسرح السيد أبا زيد ابن عمه السيد أبي حفص، وعقد له على حرب ابن غانية. وعقد لمحمد بن أبي إسحاق بن

جامع على الأساطيل، وإلى نظره أبو محمد بن عطوش وأحمد الصقلي.

وانتهى السيد أبو زيد إلى تلمسان، وأخوه يومئذ السيد أبو الحسن واليها، وقد أنعم النظر في تحصينها، ثم ارتحل بعساكره من تلمسان ونادى بالعفو في الرعية فثار هل مليانة على ابن غانية فأخرجوه، وسبقت الأساطيل إلى الجزائر فملكوها وقبضوا على يحيى بن طلحة، وسيق يدر ابن عائشة من أم العلو فقتلوا جميعاً بشلف. وتقدم القائد أحمد الصقلي بأسطوله إلى بجاية فملكها ولحق يحيى بن غانية بأخيه علي بمكانه من حصار قسنطينة فاقلع عنها. ونزل السيد أبو زيد بتكلات. وهرج السيد أبو موسى من اعتقاله فلقيه هنالك. ثم ارتحل في طلب العدو فأفرج عن قسنطينة، وخرج إلى الصحراء، واتبعه الموحدون إلى مقرة وبفاس. ثم قفلوا إلى بجاية، واستقر السيد أبو زيد بها وقصد علي بن غانية قفصة فملكها، ونازل توزر فامتنعت عليه، ولحق بطرابلس. وخرج غزي الصنهاجي من جموع ابن غانية في بعض أحياء العرب فتغلب على أشير، وسرّح إليهم السيد أبو زيد إبنه أبا حفص عمر، ومعه غانم بن مردنيش فأوقعوا بهم واستولوا على حللهم. وقتل غزي وسيق رأسه إلى بجاية ونصب بها، وألحق به عبد الله أخوه. وفرب بنو حمدون من ببجاية إلى سلا لاتهامهم بالدخول في أمر ابن غانية. واستقدم الخليفة السيد أبا زيد من مكانه ببجاية، وقدم مكانه أخاه السيد أبا عبد الله وانصرف إلى الحضرة. وبلغ الخبر أثناء ذلك باستيلاء علي بن الزبرتير على ميورقة. وكان من خبره أن الأمير يوسف بن عبد المؤمن بعثه إلى ميورقة لدعاء بني غانية إلى أمره لما كان أخوهم محمد خاطبه بذلك، فلما وصل ابن الزبرتير، إليهم نكروا شأنه على أخيهم محمد واجتمعوا دونه وتقبضوا عليه وعلى ابن الزبرتير، وقدموا عليهم أخاه علياً، وركبوا الأساطيل إلى بجاية. فلما خلا الجو منهم دبر ابن الزبرتير في أمره، وداخل مواليهم من العلوج في تخلية سبيله من معتقله على أن يخلي سبيلهم بأهليهم وولدهم إلى أرضهم فتم له مراده منهم، وثار بقفصة واستنفذ

محمد بن إسحاق من مكان اعتقاله، ولحقوا جميعاً بالحضرة. وبلغ الخبر علي بن غانية بمكانه من طرابلس فبعث أخاه عبد الله إلى صقليّة، وركب منها إلى ميورقة ونزل في بعض قراها. وعمل الحيلة في تملك البلد فاستولى عليه واضطرمت نار الفتنة بأفريقية.

ونازل علي بن غانية بلاد الجريد وتغلب على الكثير منها، وبلغ الخبر باستيلائه على قفصة فخرج إليه المنصور من مراكش سنة إثنين وثمانين وخمسمائة، ووصل فاس فأراح بها، وسار إلى رباط تازى. ثم سار على التبعية إلى تونس، وجمع ابن غانية من إليه من الملثّمين والأعراب، وجاء معه قراقش الغزي صاحب

طرابلس، فسرح إليهم المنصور عساكره لنظر السيد أبي يوسف بن السيد أبي حفص ولقيهم بغمرة فانفضت جموع الموحدين وانجلت المعركة عن قتل علي بن الزبرتير وأبي علي بن يغمور، وفقد الوزير عمر بن أبي زيد ولحق ففهم بقفصة فأثخنوا فيهم قتلاً، ونجا الباقون إلى تونس. وخرج المنصور متلافياً جبر الحال في هذه الوقائع، ونزل القيروان، وأغذ السير إلى الحامّة فتشاور الفريقان وتزاحفوا فكانت الدبرة على ابن غانية وأحزابه، وأفلت من المعركة بدماء نفسه ومعه خليله قراقش، وأتى القتل على كثيرهم وصبح المنصور قابس فافتتحها ونقل من كان بها من حرم ابن غانية وذويه في البحر إلى تونس. وثنى العنان إلى توزر فافتتحها وقتل من وجد بها، ثم إلى قفصة فنازلها أياماً حتى نزلوا على حكمه. وأمن أهل البلد والأغراب أصحاب قراقش، وقتل سائر الملثمين ومن كان معهم من الحشود، وهدم أسوارها وانكفأ راجعاً إلى تونس؟ فعقد على أفريقية للسيد أبي زيد، وفصل إلى المغرب سنة أربع وثمانين وخمسمائة ومر بالمهدية، وأصحر على طريق تاهرت، والعباس بن عطية أمير بني توجين دليله على تلمسان، فنكب بها عمّه السيد أبا إسحق لشيء بلغه عنه وأحفظه. ثم ارتحل إلى مراكش، ورفع إليه أن أخاه السيد أبي حفص والي مرسية الملقب بالرشيد، وعنه السيد أبا الربيع والي تادلاً عندما بلغهم خبر الوقيعة بغمرة حدثوا أنفسهم بالتوثّب على الخلافة، فلما قدموا عليه للتهنئة أمر باعتقالهما برباط الفتح خلال ما استجلى أمرهما. ثم قتلهما وعقد للسيد أبي الحسن بن السيد أبي حفص

على بجاية، وقصد يحيى بن غانية قسنطينة فزحف إليه السيد أبو الحسن من بجاية فهزمه ودخل قسنطينة، وارتحل ابن غانية إلى بسكرة فقطع نخلها وافتتحها عنوة. ثم حاصر قسنطينة وامتنعت عليه فارتحل إلى بجاية وحاصرها، وكثر عيثه إلى أن كان من خبره ما نذكره إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

أخباره في الجهاد:

مفا بلغه تغلب العدو على قاعدة شلّب، وأنه أوقع بعسكر أشبيلية وترددت سراياهم على نواحيها، وافتتح كثيرا من حصونها، وخاطبه السيد أبو يوسف بن أبي حفص صاحب

أشبيلية بذلك. استنفر الناس للجهاد وخرج سنة ست وثمانين وخمسمائة إلى قصر مصمودة فأراح به. ثم أجاز إلى طريف، وأغذ السير منها إلى شلّب، ووافته بها حشود الأندلس فتركهم لحصارها. وفذحف إلى حصن طرش فافتتحه ورجع إلى أشبيلية. ثم رجع إلى منازلة شلب سنة سبع وثمانين فافتتحه. وقدم عليه ابن وزير بعد أن كان افتتح في طريقه إليه حصوناً

أخرى. ثم قفل إلى حضرته بعد استكمال غزاته. وكتب بعهده لابنه الناصر.

وقدم عليه سنة ثمان وثمانين وخمسمائة السيد أبو زيد صاحب أفريقية، ومعه مشيخة العرب من هلال وسليم فلقاهم مبرة وتكريماً، وانقلب وفدهم إلى بلادهم. ثم بلغه سنة تسعين وخمسمائة استفحال ابن غانية بأفريقية وكثرة العيث والفساد بها، فاعتزم على النهوض إليها ووصل إلى مكناسة فبلغه من أمر الأندلس

ما أهمه فصرف وجهه إليها، ووصل قرطبة سنة إحدى وتسعين وخمسمائة فأراح بها ثلاثاً وأمداد الحشود تتلاحق به من كل ناحية. ثم ارتحل للقاء العدو ونزل بالأرك من نواحي بطليوس، وزحف إليه العدو من النصارى وأمراؤهم يومئذ ثلاثة: ابن أذفونش وابن الرنك ولببوج. وكان اللقاء يوم كذا سنة إحدى وتسعين وخمسمائة. وأبو محمد ابن أبي حفص يومئذ على المطّوعة، وأخوه أبو يحيى على العساكر والموحدين، فكانت

الهزيمة المشهورة على النصارى واستلحم منهم ثلاثون ألفاً بالسيف.

واعتصم فلهم بحصن الأرك وكانوا خمسة آلاف من زعمائهم، فاستنزلهم المنصور على حكمه وفودي بهم عددهم من المسلمين. واستشهد في هذا اليوم أبو يحيى بن الشيخ أبي حفص بعد أن أبلى بلاء حسناً وعرف بنوه بعدها ببني الشهيد. وانكفأ المنصور راجعاً إلى أشبيلية. ثم خرج منها سنة إثنتين وتسعين وخمسمائة غازياً إلى بلاد الجوف فافتتح حصوناً ومدنا وخربها، كان مها ترجالة وطلبيرة. وأطل على نواحي طليطلة فخرب بسائطها واكتسح مسارحها، وقفل إلى أشبيلية سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة فرفع إليه في القاضي أبي الوليد بن رشد مقالات نسب فيها إلى المرض في دينه وعقله. وربما ألفّ بعضها في خطه فحبس. ثم أطلق، وإشخص إلى الحضره وبها كانت وفاته.

ثم خرج المنصور من أشبيلية غازياً إلى بلاد ابن أذفونش حتى احتل بساحة

طليطلة، وبلغه أن صاحب برشلونة أمد ابن أذفونش بعساكره وأنهم جميعاً بحصن مجريط، فنهض إليهم. ولما أطل عليهم انفضت جموع ابن أذفونش من قبل القتال وانكفأ المنصور راجعاً إلى أشبيلية. ثم رغب إليه الملوك النصرانيّة في السلم فبذله لهم. وعقد على إشبيلية للسيد أبي زيد ابن الخليفة. وعلى مدينة بطليوس للسيد أبي الربيع بن السيد أبي حفص، وعلى المغرب للسيد أبي عبد الله بن السيد أبي حفص. وأجاز إلى حضرته سنة أربع وتسعين وخمسمائة فطرقه المرض الذي كان منه حمامه، وأوصى وصيته التي تناقلها الناس. وحضر لوصيته عيسى ابن الشيخ أبي حفص. وهلك رحمه الله سنة خمس وتسعين وخمسمائة آخر ربيعها، والله تعالى أعلم.

الخبر عن وصول ابن منقذ بالهدية من قبل صاحب الديار المصرية:

كان الفرنج قد ملكوا سواحل الشام في آخر الدولة العبيدية منذ تسعين سنة وملكوا

بيت المقدس، فلما استولى صلاح الدين بن أيوب على ديار مصر والشام اعتزم على جهادهم. وكان يفتتح حصونها واحداً بعد واحد حتى أتى على جميعها. وافتتح

بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وهدم الكنيسة التي بنوها عليها. وامتعضت أمم النصرانية من كل جهة، واعترضوا أسطول صلاح الدين في البحر فبعث صريخه إلى المنصور سنة خمس وثمانين وخمسمائة يطلب إعانته بالأساطيل لمنازلة عكّا وصور وطرابلس. ووفد عليه أبو الحارث عبد الرحمن بن منقذ بقية

امراء شيزر من حصون الشام. كانوا اشروا به عند اختلال الدولة العبيدية. فلما استقام الأمر على يد صلاح الدين، وانتظم ملك مصر والشام، واستنزل بني منقذ هؤلاء ورعى لهم سابقتهم، وبعثه في هذه إلى المنصور بالمغرب بهدية تشتمل على مصحفين كريمين منسوبين، ووزن مابة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر، وخمسين وستمائة قوساً أعرابية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وسروج عدة ثقيلة. ووصل إلى المغرب، ووجد المنصور بالأندلس فانتظره بفاس إلى حين وصوله، فلقيه وأدى إليه الرسالة فاعتذر له عن الأسطول وانصرف. ويقال أنه جهز له بعد ذلك مائة وثمانين أسطولاً، ومنع النصارى من سواحل الشام.

دولة الناصر بن المنصور:

لما هلك المنصور قام بأمره ابنه محمد ولي عهده، وتلقب الناصر لدين الله. واستوزر أبا زيد بن يوجان، وهو ابن أخي الشيخ أبي حفص. ثم استوزر أبا محمد بن الشيخ أبي حفص، وعقد للسيد أبي الحسن بن السيد أبي حفص على بجاية وفوض إليه في شؤونها. وبلغه سنة ست وتسعين وخمسمائة إجحاف العدو بأفريقية، وفساد الأعراب في نواحيها، ورجوع السيد أبي الحسن من قسنطينة منهزماً أمام ابن غانية، فأنفذ اليد أبا زيد بن أبي حفص إلى تونس في عسكر من الموحدين لسد ثغورها. وأنفذ أبا سعيد بن الشيخ أبي حفص رديفاً له، وتغلب ابن غانية خلال ذلك على حصن المهدية. وثار بالسوس سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ثائر من كزولة يعرف بأبي

قفصة، فسرح الناصر إليه عساكر الموحدين فقصدوا جموعه وقتل. وفي أيامه كان فتح ميورقة على ما يتلو من خبرها. فتح افريقيا:

وكان من خبرها أن محمد بن إسحق لما فصل إخوته علي ويحيى إلى أفريقية،

وولوا على ميورقة أخاهم طلحة، داخل محمد بعض الحاشية، وخرج من الاعتقال هو وابن الزبرتير، وقام بدعوة المنصور، وبعث بها مع ابن الزبرتير فبعث المنصور أسطوله مع أبي العلى بن جامع لتملك ميورقة، فأبى محمد عن ذلك. وراسل طاغية برشلونة في المدد بجند من النصارى يستخدمهم فأجابه، وانتقض عليه أهل ميورقة لذلك، وخشوا عادية المنصور فطردوا محمد بن إسحق وولوا عليهم أخاه تاشفين. وبلغ ذلك علياً، وهو على قسنطينة فبعث أخويه عبد الله والغازي فداخلوا بعض أهل البلد وعزلوا تاشفين وولي عبد الله وبعث المنصور أسطوله مراراً مع أبي العلى بن جامع. ثم مع يحيى ابن الشيخ أبي إبراهيم الهزرجي فامتنعوا منهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً. وقوي أمره، وذلك سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

ثم لما هلك المنصور بعث الناصر أسطوله مع عمه السيد أبي العلى، والشيخ أبي سعيد بن أبي حفص فنازلوه وانخذل عنه أخوه تاشفين بالناس، ودخل البلد عنوة، واستفتحت وقتل. وانصرف السيد إلى مراكش، وولى عبد الله بن طاع الله الكومي. ثم ولى الناصر عليها أبا زيد، وجعل ابن طاع الله على قيادة البحر.

وبعد السيد أبي زيد وليها السيد أبو عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن، ثم أبو يحيى بن علي بن أبي عمران التينمللي، ومن يده أخذها النصارى لسنة سبع وعشرين وستمائة والله تعالى أعلم.

خبر أفريقية وتغلب ابن غانية عليها وولاية أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص:

لما هلك المنصور قوي أمر ابن غانية بأفريقية، وولى الناصر السيد أبا زيد والشيخ أبا

سعيد بن أبي حفص، ويقال إن المنصور ولأهما، وكثر الهرج بأفريقية. وثار بالمهديّة محمد بن عبد الكريم الركراكي، ودعا لنفسه ونازع ابن غانية والموحدين الأمر، وتسمى صاحب قبة الأديم محمد بن عبد الكريم. ونازل تونس وعاث في قراها سنة ست وتسعين وخمسمائة. ونازل ابن غانية بفاس فامتنع عليه، وكان محمد بن مسعود البلط شيخ رياح من أشياعه فانتقض عليه، وراجع ابن غانية فأتيح له الظهور على محمد بن عبد الكريم وقصده وهو على قفصة فهزمه. واتبعه إلى المهدية فنازله بها. وبعث إلى صاحب تونس في المدد بأسطوله فأمده فضاقت حال ابن عبد الكريم فسأل الأمان من ابن غانية فأمنه. وخرج إليه فتقبض عليه واستولى على المهدية سنة تسع وتسعين وخمسمائة وقتله.

وبعث الناصر أسطوله في البحر مع عمه أبي العلى وعساكر الموحّدين مع السيد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن. ونازلوا ابن عبد الكريم قبل استيلاء ابن غانية عليها، فاعتذر ابن عبد الكريم بأنه حافظ للحصن من العدو، ولا يمكنه إلا لثقة الخليفة. وانصرف السيد أبو الحسن إلى بجاية موضع عمله، وقسم العسكر بينه وبين أخيه السيد أبي زيد صاحب تونس وصلحت الأحوال. ثم إن ابن غانية لما تغلب على المهدية وعلى قراقش الغزيّ صاحب عمل طرابلس، وقد مرت أخباره في أخبار ابن غانية. ثم تغلب على بلاد الجريد، ثم نازل تونس سنة تسع وتسعين وخمسمائة وافتتحها عنوة، وتقبض على السيد أبي زيد، وطالب أهل تونس بالنفقة التي أنفق وبسط عليهم العذاب. وتولى ذلك فيهم كاتبه ابن عصفور حتى هلك في الامتحان كثير من بيوتاتهم. ثم دخل في دعوته أهل بونة وبنزرت وشقبنارية والأربص والقيروان وتبسة وصفاقس وقابس وطرابلس. وانتظمت له أعمال أفريقية وفرق العمال وخطب للعباسي كما ذكرناه في أخباره. ثم ولى على تونس أخاه الغازي، ونهض إلى جبال طرابلس فأغرمهم ألف ألف دينار مكررة مرتين ورجع إلى تونس.

واتصل بالناصر كثرة الهرج بأفريقية واستيلاء ابن غانية عليها وحصول السيد أبي

زيد في قبضته، فشاور الموحدين في أمره فأشاروا بمسألة ابن غانية. وأشار أبو محمد ابن الشيخ أبي حفص بالنهوض إليها والمدافعة عنها فعمل على رأيه، ونهض من مراكش سنة إحدى وستمائة. وبعث الأسطول فى البحر لنظر أبي يحيى بن أبي زكريا الهزرجي، فبعث ابن غانية ذخيرته وحرمه إلى المهدية مع علي بن الغازي بن محمد بن علي. وانتقض

أهل طرابلس على ابن غانية وأخرجوا عاملهم تاشفين بن الغازي بن محمد بن علي بن غانية. وقصدهم ابن غانية فاقتحمها وخرّبها.

ووصل أسطول الناصر إلى تونس فدخلوها وقتلوا من كان بها من أشياع ابن غانية، ونهض الناصر في أتباع ابن غانية فأعجزه ونازل المهدية، وبعث أبا محمد ابن الشيخ أبي حفص للقاء ابن غانية فلقيه بتاجرا فأوقع به وقتل أخاه جبارة. وكاتبه ابن اللمطي وعامله الفتح بن محمد. قال ابن نخيل: وكانت الغنائم من عسكره يومئذ ثمانية عشر ألفاً من أحمال المال والمتاع والخرثى والآلة. ونجا بأهله وولده وأطلق السيد أبو زيد الاعتقال بعد أن هم حرسه بقتله عند الهزيمة. ثم تسلم الناصر المهدية من يد علي بن الغازي المعروف بالحاج الكافي على أن يلحق بابن عمّه فقبل شرطه ومضى لوجهه. ثم رجع من طريقه واختار التوحيد فقبل وناله من الكرامة والتقريب ما لا فوقه. وهلك في يوم العقاب الآتي ذكره. ثم قوض الناصر عن المهدية، واستعمل عليها محمد بن يغمور الهرغي، وعلى طرابلس عبد الله بن إبراهيم بن جامع، ورجع إلى تونس فأقام إلى سنة ثلاث وستمائة. وسرّح أخاه السيد أبي إسحق في عسكر من الموحدين لأتباع العدو فدوخوا ما وراء طرابلس. واستأصلوا بني دفر ومطماطة وجبال نفوسة وتجاوزها إلى سويقة بني مذكور. وقفل السيد أبو إسحق بهم إلى أخيه الناصر بتونس وقد كمل الفتح. ثم اعتزم على الرحيل إلى المغرب وأجمع رأيه على تولية أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص وكان شيخ دولته وصاحب رأيه فامتنع، إلى أن بعث إليه الناصر في ذلك بابنه يوسف فأكبر مجيئه وأناب لذلك على أن يقيم بأفريقية ثلاث سنين خاصة خلاف ما يستحكم صلاحها، وأن يحكم فيمن يقيم معه من العسكر فتقبّل شرطه.

ورجع الناصر إلى مراكش فدخلها في ربيع سنة أربع وستمائة، وقدم عبد العزيز بن أبي زيد الهنتاتي على الأشغال بالعدوتين وكان على الوزارة أبو سعيد بن جامع وكان صديقاً لابن عبد العزيز. وعند مرجعه من أفريقية توفي السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن صاحب تلمسان وسجلماسة، والسيد أبو الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن صاحب بجاية، وقد كان أبو الربيع هذا ولي بجاية من قبل وهو الذي جدد الرفيع والبديع من رياضها. وكان بنو حماد شيدوها من قبل فأصابها الخراب وجددها

السيد أبو الربيع. وفي سنة خمس وستمائة بعدها عقد للسيد أبي عمران بن يوسف بن عبد المؤمن على تلمسان، أدال به من السيد الحسن فوصل إلى تلمسان في عساكر الموحدين وتطوف بأقطارها. وزحف إليه ابن غانية هنالك فانفضّ الموحدون وقتل السيد أبو عمران. وارتاع أهل تلمسان وأسرع السيد أبو زكرياء من فاس إليها فسكن نفوسهم خلال ما عقد الناصر لأبي زيد بن يوجان على تلمسان وسرحه في العساكر فنزل بها. وفر ابن غانية إلى مكانه من قاصية أفريقية، ومعه محمد بن مسعود البلط شيخ الزواودة من رياح، وغيره من أعراب رياح وسليم. واعترضهم أبو محمد بن أبي حفص فانكشفوا واستولى الموحدون على محلاتهم وما بأيديهم، ولحقوا بجهات طرابلس. ورجع عنهم سير بن إسحاق آخذاً بدعوة

الموحدين. وفي هذه السنة عقد الناصر على جزيرة ميورقة لأبي يحيى بن أبي الحسن بن أبي عمران، أدال به من السيد أبي عبد الله بن أبي حفص، وعقد له على بلنسية، وعقد على مرسية لأبي عمران بن ياسين الهنتاتي، أدال به من أبي الحسن بن واكاك. وعقد للسيد أبي زيد على كورة جيان، أدال به من أبي موسى بن أبي حفص، وعقد للسيد أبي إبراهيم بن يوسف على أشبيلية ولأبي عبد الله بن أبي يحيى ابن الشيخ أبي حفص على غرناطة إلى أن كان ما نذكر إن شاء الله تعالى.

أخباره في الجهاد:

لما بلغ الناصر تغلب العدو على كثير من حصون بلنسية أهمه ذلك وأقلقه، وكتب إلى الشيخ أبي محمد بن أبي حفص يستشيره في الغزو فأبى عليه فخالفه، وخرج من مراكش سنة تسع وستمائة ووصل أشبيلية واستقّر بها واستعد للغزو. ثم خرج من أشبيلية وقصد بلاد ابن أذفونش فافتتح قلعة شلبطرة وأثلج في طريقه. ونازل الطاغية قلعة رباح، وبها يوسف بن قادس وأخذ بمخنقه فصالحه على النزول، ووصل إلى الناصر فقتله وصار على التعبئة إلى الموضع المعروف بالعقاب. وتد استعد له

الطاغية، وجاءه طاغية برشلونة مددا بنفسه فكانت الدبرة على المسلمين. وانكشفوا في يوم بلاء وتمحيص أواخر صفر سنة تسع وستماية. وانكفأ راجعا إلى مراكش فهلك في شعبان من السنة بعدها. وكان ابن أذفونش قد باطن ابن عفه الببوج صاحب ليون في أن يوالي للناصر ويجري الهزيمة على المسلمين ففعل ذلك. ثم رجعوا إلى الأندلس بعد الكائنة للإغارة على بلاد المسلمين، فلقيهم السيد أبو زكرياء بن أبي حفص بن عبد المؤمن قريبا من إشبيلية فهزمهم وانتعش المسلمون بها واتصلت الحال على ذلك.

ثورة ابن الفرس:

كان عبد الرحيم بن عبد الرمن بن الفرس من طبقة العلماء بالأندلس ويعرف بالمهر وحضر مجلس المنصور في بعض الأيام وتكلم بها حتى خشي عاقبته في عقده وخرج من المجلس فاختفى مدة ثم بعد مهلك المنصور ظهر في بلاد كزولة وانتحل الإمامة وادعى أنه القحطاني المراد في قوله صلى الله عليه و سلم "لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يقود الناس بعصاه يملأها عدلا كما ملئت جورا " إلى آخر الحديث، وكان مما ينسب له من الشعر:

قولوا لأبناء عبد المؤمن بن علي تأهبوا الوقوع الحادث الجلل

قد جاء سيد قحطان وعاملها ومنتهى القول والغلاب للدول

والناس طوعاً عصاه وهو سائقهم بالأمر والنهي بحر العلم والعمل

وبادروا أمره فالله ناصره والله خاذل أهل الزيغ والميل

فبعث الناصر إليه الجيوش فهزموه، وقتل وسيق رأسه إلى مراكش فنصب بها والله أعلم0

دولة المستنصر بن الناصر:

لما هلك محمد الناصر بويع إبنه يوسف سنة إحدى عشرة وستمائة، وهو ابن ست عشرة سنة ولقب المستنصر بالله، وغلب عليه ابن جامع ومشيخة الموحدين فقاموا بأمره. وتأخرت بيعة أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص من أفريقية لصغر سن المستنصر. ثم وقعت المحاولة من الوزير ابن جامع وصاحب الأشغال عبد العزيز بن أبي زيد فوصلت بيعته، واشتغل المستنصر عن التدبير بما يقتضيه الشباب، وعقد للسادة على عمالات ملكه: فعقد للسيد أبي إبراهيم أخي المنصور، وتلقب بالظاهر، على فاس، وهو أبو المرتضى. وعقد على أشبيلية لعمه السيد أبي إسحاق الأحول. واستولى ألفنش على المعاقل التي أخذها الموحدون، وهزم حامية الأندلس، ووفد رسوله ابن الفخار فحاوله ابن جامع في السلم فعقده. ثم صرف ابن جامع عن الوزارة بعد مهلك ابن أبي زيد بسعاية أبي زيد بن يوجان، واستوزر أبا يحيى الهزرجي، وولى على الأشغال أبا علي بن أشرفي.

ثم رضي عن ابن جامع وأعاده، وعزل أبا زيد بن يوجان من ولاية تلمسان بأبي

سعيد بن المنصور، وبعثه إلى مرسية فاعتقل بها. واستمرت أيام المستنصر في هدنة وموادعة إلى أن ظهر بنو مرين بجهات فاس سنة ثلاث عشرة وستمائة، فخرج إليهم واليها السيد أبو إبراهيم في جموع الموحدين فهزموه وأسروه. ثم عرفوه وأطلقوه، ثم وصل الخبر بمهلك أبي محمد بن أبي حفص صاحب أفريقية فولى عليها السيد أبا العلى أخا المنصور، وكان والياً بأشبيلية فعزل. وولى على أفريقية بسعاية ابن مثنى خاصة السلطان، فتوجه إليها كما نذكر في أخبار بني أبي حفص. وخرج بناحية فاس رجل من العبيديين انتسب للعاضد، وتسمى بالمهدي، فبعث السيد أبو إبراهيم أخو المنصور والي فاس إلى شيعته وبذل لهم المال فتقبضوا عليه، وساقوه إليه فقتل. وفي سنة تسع عشرة وستمائة عقد المستنصر لعمه أبي محمد المعروف بالعادل على مرسية، وعزله عن غرناطة. وهلك سنة عشرين وستمائة وقد التاثت الأمور فكان ما نذكر، والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة المخلوع أفي المنصور:

لما هلك المستنصر في الأضحى من سنة عشرين وستمائة اجتمع ابن جامع والموحدون وبايعوا للسيد أبي محمد عبد الواحد أخي المنصور، فقام بالأمر وأمر بمطالبة ابن أشرفي بالمال. وكتب لأخيه أبي العلى بتجديد الولاية على أفريقية بعد أن كان المستنصر أوعز بعزله، فأدركته الولاية ميتاً فاستبد بها ابنه أبو زيد المشفر كما نذكره في أخبار أفريقية. وأنفذ المخلوع أمره بإطلاق ابن يوجان فأطلق. ثم صده ابن جامع عن ذلك وأنفذ أخاه أبا إسحق في الأسطول ليغربه إلى ميورقة كما كان المستنصر أنفذ قبل وفاته. وكان الوالي بمرسية أبو محمد عبد الله بن المنصور فأغراه ابن يوجان بالتوثب على الأمر، وشهد له أنه سمع من المنصور العهد له بالخلافة من بعد الناصر. وكان الناس على كره ابن جامع. وولاة الأندلس كلهم بنو المنصور

فأصغى إليه، وكان متردداً في بيعة عمه فدعا لنفسه وتسمى بالعادل. وكان إخوته أبو العلى صاحب قرطبة وأبو الحسن صاحب غرناطة وأبو موسى صاحب مالقة، فبايعوه سراً.

وكان أبو محمد بن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن المعروف بالبياسي صاحب جيان، وعزله المخلوع بعمه أبي الربيع بن أبي حفص، فانتقض وبايع للعادل. وزحف مع أبي العلى صاحب قرطبة وهو أخو العادل إلى أشبيلية، وبها عبد العزيز أخو المنصور والمخلوع فدخل في دعوتهم. وامتنع السيد أبو زيد بن أبي عبد الله أخي البياسي عن بيعة العادل، وتمسك بطاعة المخلوع. وخرج العادل من مرسية إلى أشبيلية فدخلها مع أبي زيد بن يوجان، وبلغ الخبر إلى مراكش فاختلف الموحدون على المخلوع، وبادروا بعزل ابن جامع وتغريبه إلى هسكورة. وقام بأمر هنتاتة أبو زكرياء يحيى بن أبي يحيى الشهيد ابن أبي حفص، وبأمر تينملل يوسف بن علي، وبعث على أسطول البحر أبا إسحق بن جامع وأنفذه لمنع الجواز من الزقاق. وكان أسر إلى ابن جامع حين خرج إلى هسكورة أن يحاول عليه من هنالك فلم يتم أمره، وقتل بمكان خفي ربيع سنة إحدى وعشرين وستمائة، وبعث الموحدون بيعتهم إلى العادل والله أعلم.

الخبر عن دولة العادل بن المنصور:

لّما بلغت بيعة الموحدين للعادل وكتاب ابن زكريا بن الشيهد بقصة المخلوع،

قارن ذلك تغييره للبيّاسي فانتقض عليه، ودعا لنفسه ببيّاسة، وتلقب الظافر وشغل بشأنه. وبعث أخاه أبا العلى لحصاره فامتنع عليه، وبعث بعده إبنه أبا سعيد ابن الشيخ أبي حفص فامتنع عليه أيضاً. واختلفت الأحوال بالأندلس على العادل. وكثرت إغارة النصارى على أشبيلية ومرسية، وهو مقيم بها. وانهزمت جيوش الموحدين على طليطلة، وأغراه خاصته بابن يوجان فأخذ إلى سبتة. وعظم أمر البياسي بالأندلس وظاهره النصارى على شأنه، فأجاز العادل إلى العدوة وولى أخاه أبا العلى على الأندلس. ولما كان بقصر المجاز دخل عليه عبّو بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص فقال له كيف حالك؟ فأنشد:

حال متى علم ابن منصور بها جاء الزمان إليه منها تائبا

فاستحسن ذلك وولاه أفريقية. وكتب للسيد أبي زيد ابن عمه بالقدوم، ووصل إلى سلا وأقام بها. وبعث عن شيوخ جشم، وكان لابن يوجان عناية واختصاص يهلال بن حميدان بن مقدم أمير الخلط، فتثاقل ابن جرمون أمير سفيان عن الوصول، وأقبل الخلط وسفيان، وبادر العادل إلى مراكش فدخلها واستوزر أبا زيد بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص، وتغير لابن يوجان ففسد باطنه. وتغلب على الدولة ابن الشهيد، ويوسف بن علي شيخا هنتاتة وتينملل. ثم خالفت هسكورة والخلط وعاثوا في نواحي مراكش، وخرج إليهم ابن يوجان فلم يغن شيئاً، فخربوا بلاد دكالة، فأنفذ إليهم العادل عسكراً من الموحدين لنظر إبراهيم بن إسماعيل ابن الشيخ أبي حفص، وهو الذي كان نازع أولاد الشيخ أبي محمد بأفريقية كما نذكره فانهزم وقتل. وخرج ابن الشهيد ويوسف بن علي إلى قبائلهما للحشد ومدافعة هسكورة، فاتفقا على خلع

العادل والبيعة ليحيى بن الناصر، وقصدوا مراكش فاقتحموا عليه القصر ونهبوه، وقتل العادل خنقاً أيام الفطر سنة أربع وعشرين وستمائة والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة المأمون بن المنصور ومزاحمة يحيي بن الناصر له:

كان المأمون لما بلغه انتقاض الموحدين والعرب على أخيه وتلاشي أمره دعا لنفسه بأشبيلية، فبويع وأجابه أكثر أهل الأندلس. وبايع له السيد أبو زيد صاحب بلنسية وشرق الأندلس. ثم كان ما قدمناه من انتقاض الموحدين على العادل وقتله بالقصر وبيعتهم ليحيى ابن أخيه الناصر، فكاتب ابن يوجان سراً وعمل على إفساد الدولة، فداخل هسكورة والعرب في الغارة على مراكش وهزموا عساكر الموحدين. وفطن ابن الشهيد لتدبير ابن يوجان فقتله بداره. وخرج يحيى بن الناصر إلى معتصمه كما ذكرناه فخلع الموحدون العادل وبعثوا ببيعتهم إلى المأمون.

وتولى كبر ذلك الحسن أبو عبد الله الغريغر والسيد أبوحفص بن أبي حفص فبلغ خبرهم إلى يحيى بن الناصر وابن الشهيد، فنزلوا إلى ماركش سنة ست وعشرين وستمائة وقتلوهم. وبايع للمأمون صاحب فاس وصاحب تلمسان محمد بن أبي زيد بن يوجان وصاحب سبتة أبو موسى بن المنصور وصاحب بجاية ابن أخيه ابن الأطاس. وامتنع صاحب أفريقية وكان ذلك سبباً لاستبداد الأمير أبي زكريا على ما نذكر. ولم يبق على دعوة يحيى بن الناصر إلا أفريقية وسجلماسة.

وزحف البياسي إلى قرطبة فملكها، ثم زحف إلى أشبيلية فنازل بها المأمون والطاغية معه، بعد أن نزل له عن قجاطة وغيرها من حصون المسلمين فهزمهم المأمون بنواحي أشبيلية ولحق البيّاسي بقرطبة فثاروا به، ونجا إلى حصن المدور، فغدر به وزيره أبو يبورك. وجاء برأسه إلى المأمون بأشبيلية.

ثم ثار محمد بن يوسف بن هود وملك مرسية، واستولى على الكثير من شرق الأندلس كما ذكرناه في أخباره. وزحف إليه المأمون وحاصره فامتنع عليه فرجع إلى أشبيلية، ثم خرج سنة ست وعشرين وستمائة إلى مراكش لما استدعاه أهل المغرب، وبعثوا إليه ببيعاتهم. وبعث إليه هلال بن حميدان أمير الخلط يستدعيه. واستمد الطاغية عسكراً من النصارى فأمده على شروط تقبلها منه المأمون، وأجاز إلى العدوة. وبادر أهل أشبيلية بالبيعة لابن هود، واعترضه يحيى بن الناصر فهزمه المأمون واستلحم من كان معه من الموحدين والعرب، ولحق يحيى بجبل هنتاتة. ثم دخل المأمون الحضرة، وأحضر مشيخة الموحدين وعدد عليهم فعلاتهم، وتقبض على مائة من أعيانهم فقتلهم، وأصدر كتابه إلى البلدان بمحو إسم المهدي من السكّة والخطبة، والنعي عليه في النداء للصلاة باللغة البربرية، وزيادة النداء لطلوع الفجر وهو: "أصبح ولله الحمد" وغير ذلك من السنن التي اختص بها المهدي وعبد المؤمن، وجرى على سننها أبناؤه. فأوعز بالنهي عن ذلك كله. وشنع عليهم في وصفهم الإمام المهدي بالمعصوم، وأعاد في ذلك وأبدى.

وأذن للنصارى القادمين معه في بناء الكنيسة بمراكش على شرطهم، فضربوا بها نواقيسهم. واستولى ابن هود بعده على الأندلس، وأخرج منها سائر الموحدين، وقتلهم العامة في كل مطر. وقتل السيد أبو الربيع ابن أخي المنصور كان المأمون تركه والياً بقرطبة. واستبد الأمير أبو زكريا ابن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص بأفريقية، وخلع طاعته سنة سبع وعشرين وستمائة فعقد للسيد أبي عمران ابن عمه محمد الحرضاني على بجاية مع أبي عبد الله اللحياني أخي الأمير أبي زكريا. وزحف إليه يحيى بن الناصر فانهزم، ثم ثانية كذلك، واستلحم من كان معه، ونصبت رؤوسهم بأسوار الحضرة. ولحق يحيى بن الناصر ببلاد درعة وسجلماسة.

ثم انتقض على المأمون أخوه أبو موسى ودعا لنفسه بسبتة وتسمى بالمؤيد، فخرج

المأمون من مراكش وبلغه في طريقه أن قبائل بني فازاز ومكلاتة حاصروا مكناسة وعاثوا في نواحيها فسار إليها وحسم عاملها واستمر إلى سبتة فحاصرها ثلاثة أشهر، واستمد أخوه أبو موسى صاحب الأندلس ابن هود فأمده بأساطيله. وخالد يحيى بن الناصر

المأمون إلى الحضرة فاقتحمها مع عرب سفيان وشيخهم

جرمون بن عيسى، ومعهم أبو سعيد بن وانودين شيخ هنتاتة وعاثوا فيها فأقلع المأمون عن سبتة يريد الحضرة، وهلك في طريقه بوادي أم ربيع مفتتح سنة ثلاثين وستمائة، ولحين إقلاعه دخل أخوه السيد أبو موسى في طاعة ابن هود، وأمكنه من سبتة فأداله منها والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة الرشيد بن المأمون:

لما هلك المأمون بويع ابنه عبد الواحد ولقب بالرشيد، وكتموا موت أبيه وأغذوا

السير إلى مراكش، ولقيهم يحيى بن الناصر في طريقهم بعد أن استخلف بمراكش أبا سعيد بن وانودين فهزموه، وقتل أكثر من معه. وصبح الرشيد مراكش فامتنعوا عليه ساعة، ثم خرجوا إليه واستقاموا على بيعته. وكان وصل في صحبته عمه السيد أبو محمد سعد فحل من الدولة بمكان، وكان إليه التدبير والحل والعقد. وبعد استقرار الرشيد بالحضرة وصل إليه عمر بن وقاريط كبير الهساكرة بمن كان عنده من أولاد المأمون السيد وإخوته جاؤا من أشبيلية عند ثورة أهلها بهم، واستقروا بسبتة عند عمهم أبي موسى، ومنها إلى الحضرة عند استيلاء ابن هود على سبتة ومروا بهسكورة، وكان ابن وقاريط حذراً من المأمون ومعتقداً أن لا يعود إليه فتذمم بصحابة هؤلاء الولد، وقدم عليالرشيد فتقبله، واعتلق بوصلة من السيد أبي محمد سعد وصحابة لمسعود بن حميدان كبير الخلط.

ولما هلك السيد أبو محمد لحق ابن وقاريط بقومه ومعتصمه وكشف وجه الخلاف، وأخذ بدعوة يحيى بن الناصر، واستنفر له قبائل الموحدين ونهض إليهم الرشيد سنة إحدى وثلاثين وستمائة، واستخلف على الحضرة صهره أبا العلى إدريس وصعد إليهم الجبل، فأوقع بيحيى وجموعه بمكانهم من هزرجة واستولى

على معسكرهم. ولحق يحيى بسجلماسة، وانكفأ الرشيد راجعاً إلى حضرته، واستأمن له كثير من الموحدين الذين كانوا مع يحيى بن الناصر فأمنهم ولحقوا بحضرته. وكان كبيرهم أبو عثمان سعيد بن زكريا الكدميوي، وجاء الباقون على أثره وبسعيه بعد أن شرطوا عليه

إعادة ما كان أزاله المأمون من رسوم المهدي فاعيدت. وقدم فيهم أبو بكر بن يعزى التينمللي رسولاً عن يوسف بن علي بن يوسف شيخ تينملل، ومحمد بن يوزيكن الهنتاني رسولاً عن أبي علي بن عزوز، ورجعا إلى مرسليهما بالقبول، فقدما على الحضرة وقدم معهم موسى بن الناصر أخو يحيى وكبيره. وجاء على أثرهم أبو محمد بن أبي زكريا وأنسوا لإعادة رسوم الدعوة المهدية.

وكان مسعود بن حميدان الخلطي قد أغراه عمر بن وقاريط بالخلاف لصحبة بينهما، وكان مدلًا بأسه وكثرة جموعه. يقال إن الخلط كانوا يومئذ يناهزون إثني عشر ألفاً سوى الرجّل والأتباع والحشود، فمرض في الطاعة وتثاقل عن الوفادة. ولما علم بمقام الموحدين أجمع اعتراضهم وقتلهم تمكيناً للفرقة والشتات في الدولة، فأعمل الرشيد الحيلة في استدعائه، وصرف عساكره إلى حاجة لنظر وزيره السيد أبي محمد، حتى خلا لابن حميدان الحو، وذهب عنه الريب، واستقدمه فأسرع اللحاق بالحضرة، وقدم معه معاوية عم عمر بن وقاريط، فتقبض عليه وقتل لحينه. واستدعى مسعود بن حميدان إلى المجلس الخلافي للحديث فتقبض عليه وعلى أصحابه وقتلوا ساعتئذ بعد جولة وهيعة، وقضى الرشيد حاجة نفسه فيهم. واستقدم وزيره وعساكره من باجة فقدموا ولما بلغ خبر مقتلهم إلى قومهم قدموا عليهم يحيى بن هلال بن جميدان، وأجلبوا على سائر النواحي، وأخذوا بدعوة يحيى واستقدموه من مكانه بقاصية الصحراء.

وداخلهم في ذلك عمر بن وقاريط، وزحفوا لحصار الحضرة، وخرجت العساكر لقتالهم ومعهم عبد الصمد بن يلولان فرجع ابن وقاريط في جموعه من العساكر فانهزموا، وأحيط بجند النصارى فقتلوا وتفاقم الأمر بالحضرة، وعدمت الأقوات. واعتزم الرشيد على الخروج إلى جبال الموحّدين فخرج إليها. وسار منها إلى سجلماسة فملكها، واشتد الحصار على مراكش وافتتحها يحيى بن الناصر وقومه من هسكورة والخلط، وساء أثرهم فيها وتغيرت أحوال الخلافة. وتغلب على السلطان السيد

أبو إبراهيم بن أبي حفص الملقب بأبي حاقة. وفي سنة ثلاث وثلاثين وستمائة خرج الرشيد من سجلماسة بقصد مراكش وخاطب جرمون بن عيسى وقومه من سفيان، فأجاز وادي أم ربيع وبرز إليه يحيى في جموعه، والتقى الفريقان فانهزمت جموع يحيى واستحر القتل فيهم، ودخل الرشيد إلى الحضرة ظافراً.

وأشار يحيى بن وقاريط على الخلط بالاستصراخ بابن هود صاحب الأندلس، والأخذ بدعوته فنكثوا بيعة يحيى، وبعثوا وفدهم إلى ابن هود صحبة عمر بن وقاريط على الخلط بالاستصراخ فاستقّر هنالك. وخرج الرشيد من مراكش وفر الخلط أمامه، وسار إلى فاس وسرح وزيره السيد أبا محمد إلى غمارة وفازاز لجباية أموالها. وكان يحيى بن الناصر لما نكث الخلط بيعته لحق بعرب المعقل فأجاوره ووعدوه النصرة،

واشتطّوا عليه في المطالب، وأسف بعضهم بالمنع فاغتاله في جهات تازى، وسيق رأسه إلى الرشيد بفاس فبعثه إلى مراكش وأوعز إلى نائبه بها أبي علي بن عبد العزيز بقتل العرب الذين كانوا في اعتقاله وهم: حسن بن زيد شيخ العاصم، وفائد وفائد إبنا عامر شيخا بني جابر، فقتلهم وانكفأ راجعاً إلى حضرته سنة أربع وثلاثين وستمائة. وبلغه استيلاء صاحب درعة أبي محمد بن وانودين على سجلماسة، وذلك أن الرشيد لما فصل من سجلماسة استخلف عليها يوسف بن علي بن يوسف التينمللي فاستعمل ابن خالته من بني مردنيش، وهو يحيى بن أرقم بن محمد بن مردنيش، فثار عليه ثائر من صنهاجة وقتله في خبائه. وقام إبنه أرقم يطلب الثأر، وبلغ منه ما أراد. ثم حدثته نفسه بالانتقاض خوفاً من عزلة الرشيد إياه فانتقض. ونهض إليه الرشيد سنة إثنتين وثلاثين وستمائة فلم يزل أبو محمد بن وانودين يعمل الحيلة في استخلاصها حتى تمكن منها وعفاً عن أرقم. وكان ابن وقاريط لما فصل إلى ابن هود سنة أربع وثلاثين وستمائة ركب البحر في أسطول ابن هود، وقصد سلا وبها السيد أبو العلى صهر الرشيد، فكاد أن يغلب عليها. وفي سنة خمس وثلاثين وستمائة بايع أهل أشبيلية للرشيد، ونقضوا طاعة ابن هود، وتولى كبر ذلك أبو عمر بن الجد وأشخص بني حجاج إلى سبتة، ووصل وفدهم إلى الحضرة ومروا في طريقهم بسبتة، فاقتدى أهلها بهم في بيعة الرشيد. وخلعوا أميرهم اليانشي الثائر بها

على ابن هود وقدموا على الحضرة. وولى عليهم الرشيد أبا علي بن خلاص منهم. ولأيام من مقدمهم وصل عمر بن وقاريط معتقلاً من

أشبيلية، أغراهم بالقبض عليه القاضي أبو عبد الله المؤمناني، كان توجه رسولأ إلى ابن هود عن الرشيد، فأمكنهم من ابن وقاريط. وبعثه إلى الرشيد في وفد من رسله فاعتقله بأزمور وقتل وصلب برباط هسكورة، بعد أن طيف به على جمل. وانصرف وفد أشبيلية وسبتة، واستقدم الرشيد رؤساء الخلط فتقبض عليهم وبعث عساكره فاستباحوا حللهم وأحياءهم. ثم أمر بقتل مشيختهم وقتل معهم ابن وقاريط، وقطع دابرهم. وفي سنة ست وثلاثين ووستمائة وصلت بيعة محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر الثائر بالأندلس على ابن هود. وفي سنة سبع وثلاثين وستمائة اشتدت الفتنة بالمغرب، وانتشر بنو مرين في بسائطه، وقاتلهم رياح بازغار وشيخهم عثمان بن نصر، فهزمهم بنو مرين وقتلوهم قتلاً ذريعاً. وكان الرشيد استقدم أبا محمد بن وانودين من سجلماسة سنة خمس وثلاثين وستمائة، وعقد له على فاس وسجلماسة وغمارة ونواحيها من أرض المغرب، فكان هنالك. ولما انتشر بنو مرين بالمغرب زحف إليهم فهزموه، ثم زحف ثانية وثالثة فهزموه وأقام في محاربتهم سنتين، ورجع إلى الحضرة. واشتد عدوان بني مرين بالمغرب وألحوا على مكناسة حتى أعطوا الأتاوة لبني حمامة منهم فأسفوا بني عسكر بذلك، واتصل عيثهم في نواحيها. وفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة قتل الرشيد كاتبه ابن المؤمناني لمداخلة له مع بعض السادة وهو عمر ابن عبد العزيز أخي المنصور، وقف على كتابه إليه بخطه. وغلط الرسول بها فدفعها بدار

الخليفة. وفي سنة أربعين وستمائة بعدها كانت وفاة الرشيد غريقاً، زعموا في بعض حوائز القصر. ويقال إنه أخرج من الماء وحم لوقته وكان فيها مهلكه، والله تعالى أعلم

الخبر عن دولة السعيد المأمون:

لما هلك الرشيد بويع أخوه أبو الحسن السعيد بتعيين أبي محمد بن وانودين وتلقب المعتضد بالله. واستوزر السيد أبا إسحاق بن السيد أبي إبراهيم ويحيى بن عطوش.

وتقبض على جملة من مشيخة الموحدين، واستصفى أموالهم واستخلص لنفسه رؤساء العرب من جشم. واستظهر بجموعهم على أمره وكان شيخ سفيان كانون بن جرمون كبير مجلسه، ولأول بيعته انتقض عليه أبو علي بن خلاط البلنسي صاحب سبتة، وكذلك أهل أشبيلية وبايعوا جميعاً للأمير أبي زكريا صاحب أفريقية.

ثم انتقض عليه بسجلماسة عبد الله بن زكريا الهزرجي لمقالة كانت منه يوم بيعة الرشيد أسرها له فبايع للأمير أبي زكريا. ثم وصلته في هذه السنة هدية يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان فنهض الأمير أبو زكريا صاحب أفريقية بسبب ذلك إلى تلمسان، واستولى عليها. ثم عقد عليها ليغمراسن حسبما نذكر في أخباره. وخرج السعيد من مراكش لتمهيد بلاد المغرب سنة إثنتين وأربعين وستمائةوتغير لسعيد بن زكريا الكدميوي فتقبض عليه في معسكره بتانسفت وفر أخوه أبو زيد ومعه أبو سعيد العود الرطب، ولحقوا بسجلماسة فاستصفى أموالهم بمراكش، وارتحل بقصد سجلماسة وأخذ واليها عبد الله الهزرجي في أسباب الامتناع، فغدر به أبو زيد بن زكريا الكدميوي وداخل أهل سجلماسة في الثورة عليه، وملك البلد. واستدعى السعيد لها فوصل وقتل الهزرجي.

وفر أبو سعيد العود الرطب إلى تونس. ثم رجع السعيد إلى المغرب وقتل سعيد بن زكريا، ونزل المقرمدة من أحواز فاس. وعقد المهادنة مع بني مرين، وقفل إلى مراكش فتقبض على أبي محمد بن وانودين، واعتقله بأزمور. واعتقل معه يحيى بن مزاحم ويحيى بن عطوش لنظر ابن ماكسن، فأعمل الحيلة في الفرار من معتقله. وخلص ليلاً إلى كانون بن جرمون فأركبه وبعث معه من عرب سفيان من أوصله إلى قومه هنتاتة. وراسله السعيد على أثرها وسكنه واعتذر له، وأسعفه بسكنى تافيوت من حصون جبلة بأهله وولده.

ثم انتقض على السعيد كانون بن جرمون وسفيان، وخالفهم إليه بنو جابر والخلط، وخرج من مراكش واستوزر السيد أبا إسحق بن السيد أبي إبراهيم إسحق أخي المنصور. واستخلف أخاه أبا زيد على مراكش، وأخاهما أبا حفص عمر على سلا وفصل من مراكش سنة. وجمع له أبو يحيى بن عبد الحق جموع بني

راشد وبني وراو سفيان، حتى إذا تراءى الفريقان للقاء، خالف كانون بن جرمون الموحّدين إلى أزمور. واستولى عليها ورجع السعيد أدراجه في أتباعه، ففرّ كانون، واعترضه السعيد فأوقع به، واستلحم كثيراً من سفيان قومه، واستولى على ما له من مال وماشية. ولحق كانون في فلّ بني مَرين ورجع السعيد إلى الحضرة.
وفي سنة ثلاث وأربعين وستمائةثارت العامة بمكناسة على واليها من قبل السعيد فقتلوه. وحذر مشيختها من سطوته فحوَّلوا الدعوة إلى الأمير أبي زكريا بن أبي حَفْص صاحب أفريقية، وبعثوا إليه بيعتهم، وكانت من إنشاء أبي مطرف بن عميرة، وذلك بمداخلة أبي يحيى بن عبد الحق أمير بني مَرين ووفاقه لهم على ذلك. وشارطوا أبا يحيى بن عبد الحق بمال دفعوه إليه على الحماية.

ثم راجعوا أمرهم وأوفدوا صلحاءهم ببيعتهم فرضي عنهم السعيد ورضوا عنه. وفي هذه السنة بعث أهل إشبيلية وأهل سبتة بطاعتهم للأمير أبي زكريا صاحب أفريقية. وبعث ابن خلاص بهديته مع ابنه في أسطول أنشأه لذلك فغرق عند إقلاعه من المرسى. وفي سنة ست وأربعين وستمائةكان استيلاء الطاغية على إشبيلية لسبع وعشرين من رمضان. ولّما بلغ السيّد بيعة أهل إشبيلية وسبتة للأمير أبي زكريا إلى ما كان من تغلّبه على تلمسان، وأخذ يغمراسن بدعوته، ثم ما كان من بيعة أهل مكناسة وأهل سجلماسة له أعمل نظره في الحركة إلى تلمسان ثم إلى أفريقية. وخرج من مراكش في ذي الحجّة في سنة خمس وأربعين وستمائةووافاه كانون بن جرمون فعاود الطاعة واستحشد سفيان وجاء في جملة السعيد مع سائر القبائل من جَشْم. ولّما احتلّ السعيد بتازى وافاه وفد بني مَرين عن أميرهم أبي يحيى بن عبد الحق، فأعطوه الطاعة وبعثوا معه عسكراً من قومهم مدداً له.

ثم سار السعيد إلى تلمسان فكان مهلكه بتامْزَرْدكْت على يد بني عبد الواد في صفر سنة ست وأربعين وستمائةحسبما يشرح في أخبارهم. ويقال إنّ ذلك كان بمداخلة من الخلط فاستولوا على المحلة وقتلوا عدوّهم كانون، وانفضّ العسكر إلى المغرب وقد اجتمعوا إلى عبد الله بن السعيد واعترضهم بنو مَرين بجهات تازى، فقتلوا عبد الله بن السعيد ولحق الفلّ بمراكش فبايعوا للمرتضى كماَ نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن دولة المرتض ابن أخي المنصور:

لما لحق فلّ العسكر بعد مهلك السعيد بمراكش، اجتمع الموحّدون على بيعة السيد أبي حفص عمر بن السيد أبي إبراهيم إسحق أخي المنصور، واستقدموه لها من سلا، فلقيه وافدهم بتَامِسنا من طريقه ومعه أشياخ العرب فبايعوه وتلقّب المرتضى. وعقد ليعقوب بن كانون على بني جابر ولعمّه يعقوب بن جرمون على عرب سفيان بعدأ ن كان قومه قدّموه عليهم، ودخل الحضرة فاستوزر أبا محمد بن يونس وتقبّض علي حاشية السعيد، ثم وصل أخوه السيد أبو إسحق من الفلّ آخذاً على طريق سجلماسة فاستوزره واستبدّ عليه واستولى أبو يحيى بن عبد الحق وبنو مَرين إثر مهلك السعيد على رباط تازى من يد السيد أبي علي أخي أبي دبّوس وأخرجوه فلحق بمراكش. ثم استولوا بعدها على مدينة فاس سنة سبع وأربعين

وستمائة كما يذكر في أخبارهم بعد. وفي هذه السنة ثار بسبتة أبو القاسم العزفي وأخرج ابن الشهيد الوالي على سبته من قرابة الأمير أبي زكريّا صاحب أفريقية، وحوّل الدعوة للمرتضى حسبما يذكر في أخبار الدولة الحفصية وأخبار بني العزفي. وفي سنة تسع وأربعين وستمائة وفد على المرتضى موسى بن زيّان الونكاسي وأخوه على من قبائل بني مَرين وأغروه بقتال بني عبد الحق فخرج إليهم ولما انتهى إلى أمان يملولن أشاع يعقوب بن جرمون قضية الصلح بينهما فأصبحوا راحلين، وقد استولى الجزع على قلوبهم فانفضّوا ووقعت الهزيمة من غير قتال. ووصل المرتضى إلى الحضرة فعزل أبا محمد بن يونس عن الوزارة لشئ بلغه عنه، وأسكنه بحملتة مع حاشيته، وفر من حملته عليّ بن بدر إلى السوس سنة إحدى وخمسين وستمائة، وجاهر بالعناد. وسرّح إليه السلطان عسكراً من الجند فرجعوا عنه ولم يظفروا به.
وتقاقم أمره عنة إثنين وخمسين وستمائة. وجمع أعراب الشبانات وبني حسان وحمل أموال ونازل تارودنت . فحاصر من كان بها. وسرح المرتضى إليه عسكراً من الموحدين فأفرج عنها. ثم رجع قفولهم إلى حاله، وعثر على خطابه لقريبة ابن يونس وكتاب ابن يونس إليه بخطه، فاعتقل هو
وأولاده ثم قتل.
وفي هذه السنة استدعى مشيخة الخلط إلى الحضرة وقتلوا لما كان منهم في مهلك السعيد.. وفيها خرج أبو الحسن بن يعلو في معسكر من الموحدين إلى تامستا ليكشف أحوال العرب، ومعه يعقوب بن جرمون، وعهد إليه المرتضى بالقبض على يعقوب بن محمد بن قيطون شيخ بني جابر، فتقبّض عليه وعلى وزيره ابن مسلم وطير بهما إلى الحضرة معتقلين.
وفي سنة ثلاث وخمسين وستمائة خرج المرتضى من مراكش لاسترجاع فاس ونواحيها من أيدى بني مرين المتغلّبين عليها فوصل إلى بني بهلول، وزحف إليه بنو مرين وأميرهم أبو يحيي فكانت الهزيمة على الموحدين بذلك الموضع. ورجع المرتضى مفلولاً إلى مراكش، ووادع بني مرين من بعد ذلك سائرأ أيامه. واستبد العزفي بسبتة، وابن الأمير ...بطنجة كما نذكره في أخبارهم.
وفي سنة خمس وخمسين وستمائة بعث المرتضى إلى السوس عسكراً من الموحدين لنظر أبي محمد بن أصناك فلقيهم عليّ بن بدر وهزمهم واستبد بأمره في السوس. وفي هذه السنة استولى أبو يحيى بن عبد الحق على سجلماسة، وتقبّض على واليها عبد الحق بن أصكو بمداخلة من خديم له يعرف بمحمد القطراني، كان أبوه تاجراً في القطران بنواحي سلا، فصرف عبد الحق ابنه محمداً هذا في مهمة وقربه من بين أهل خدمته، وحدثته نفسه بالثورة فاستمال عرب المعقل أولاً بالمشاركة في حاجتهم عند مخدومه، والإحسان إليهم حتى اشتملوا عليه.
ثم داخل أبا يحيى بن عبد الحق في تمكينه من البلد فجاء بجملته، وقدم وفده إلى البلد رسلاً في بعض الحديث فتقبّض محمد القطراني على عبد الحق بن أصكو وأخرجه إلى أبي يحيى بن عبد الحق، فقاده وسرحه

إلى مراكش. وكان القطراني شرط على أبي يحيى أن يكون والي سجلماسة فأمضى له شرطه، وأنزل معه بها من رجالات بني مرين، حتى إذا هلك أبو يحيى بن عبد الحق أخرجهم محمد القطراني واستبد بأمر سجلماسة، وراجع دعوة المرتضى واعتذر إليه، واشترط عليه الاستبداد فأمضى له شرطه إلاّ في الأحكام الشرعية.

وبعث أبا عمر بن حجاج قاضياً من الحضرة، وبعفى السادات للسكنى في القصبة، وقائداً من النصارى بعسكر للحماية، فعمل ابن حجاج الحيلة في قتل القطراني وتولاّه قائد النصارى. واستبد السيد بأمر سجلماسة بدعوة المرتضى، واستفحل أمر بني مرين أثناء ذلك. ونزل يعقوب بن عبد الحق بسائط تامستا فسرّح إليهم المرتضى عسكر الموحدين لنظر يحيى بن وانودين فأجفلوا إلى وادي أمّ ربيع، واتبعهم الموحدون فرجعوا إليهم، وغدر بهم بنو جابر فانهزم الموحدون بأمر الرجلين. ولحق شيخ الخلط علي بن أبي علي ببني مرين وارتحلوا إلى أوطانهم.

وكان المرتضى قدم يعقوب بن جرمون على قبائل سفيان وكان يعقوب ابن أخيه كانون يناهضه في رياسة قومه، وغصّ به فقتله. وثار به أخواه مسعود، وعليّ بفدفد حين فقتلاه. وولّى المرتضى مكانه ابنه عبد الرحمن، فاستوزر يوسف بن وارزك ويعقوب بن علوان. وشغل بلذّاته وتصدّى لقطع السابلة ثم نكث الطاعة ولحق ببني مرين فولّى مكانه عمّه عبيد الله بن جرمون ويكنّى بأبي زمام. وعقد له المرتضى، ثم أدال منه بأخيه مسعود لعجزه. ووفد على المرتضى عواج بن هلال من أمراء الخلط نازعاً إلى طاعته ومفارقاً لبني مرين، فأنزل مع أصحابه بمراكش وجاء على أثره عبد الرحمن بن يعقوب بن جرمون فتقبض على عواج ودفعه إلى علي بن أبي علي فقتله، وكان تقبض معه على عبد الرحمن بن يعقوب ووزيريه فقتلوا جميعاً واستبد برياسة سفيان مسعود بن كانون وبرياسة بني جابر إسماعيل بن يعقوب بن قيطون.

وفي سنة ستين وستمائة عند رجوع يحّيى بن وانودين من واقعة أمّ الرجلين خرج عسكرمن الموحدين إلى السوس لنظر محمد بن علي الزلماط. ولقبه علي بن يدر فهزم جموعه وقتله، وعقد المرتضى من بعده على حرب علي بن يدر للوزير أبي زيد بن بكيت، وسرّح معه عسكراً من الجند، وكان فيهم دنلب من زعماء النصرانية، فدارت الحرب بين الفريقين، ولم يكن للموحدين فيها ظهور على كثرتهم وقوة جلدهم وحسن بلائهم، قعد بهم عن ذلك تكاسل دنلب وخروجه عن طاعة

الوزير. وكتب بذلك للمرتضى فاستقدمه، وأمر أبا زيد بن يحيى الكدميوي باعتراضه في طريقه وقتله. وفي سنة إثنتين وستين وستمائة أقبل يعقوب بن عبد الحق في جموع بني مرين فنازلوا مراكش واتصلت الحرب بينهم وبين الموحدين بظاهرها أياماً هلك فيها عبد الله أنعجوب بن يعقوب، فبعث المرتضى إلى أبيه بالتعزية ولاطفه وضرب له أتاوة يبعث بها إليه في كل عام فرضي وارتحل عنهم والله أعلم.

الخبر عن انتقاض أبي دبوس وتغلبه عفي مراكش ومهلك المرتضي

وما كان في دولته من الأحداث:

لما ارتحل بنو مرين عن مراكش بعد مهلك أنعجوب فرّ من الحضرة قائد حروبه السيد أبو العلى الملّقب بأبي دبوس بن السيد أبي عبد الله محمد بن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن لسعاية تمكّنت فيه عند المرتضى، وصحبه ابن عمه السيّد أبو موسى عمران بن عبد الله بن الخليفة، فلحقا بمسعود بن كلداسن كبير هسكورة فأجاره. ثم لحق بيعقوب بن عبد الحق بفاس صريخاً به على شأنه واشترط له المقاسمة في العمالة والذخيرة فأمده بالمال، يقال خمسة آلاف دينار عشرية. وأوعز إلى علي بن أبي عليّ الخلطي بمظاهرته وإعطاه الآلات. ورجع إلى علي بن أبي علي الخلطي فأمدّ بقومه. ثم سار إلى هسكورة ونزل على صاحبه مسعود بن كلداسن فأطاعه قبائل هسكورة وهزرجة.

وبعث إليه عزوز بن يبورك كبير صنهاجة في ناحية أزمور، وكان منحرفاً عن طاعة المرتضى إلى جملة يعقوب بن عبد الحق، ووفد عليه جماعة من السادة والموحدين والجند والنصارى. وارتاب المرتضى بمسعود بن كانون شيخ سفيان وبإسمعيل بن نبطون شيخ بني جابر فتقبض عليهما واعتقلهما، وصار الكثير من قومهما إلى أبي دبوس. وتتل إسمعيل بن قيطون في معتقله فانتقض أخوه ثائراً ولحق بهم، وحذر علوش بن كانون مثلها على أخيه فاتبعهم، وزحف أبو العلى إلى مراكش. ولما بلغ أغمات وجد بها الوزير أبا زيد بن بكيت في عسكر لحمايتها فناجزه الحرب فانهزم ابن بكيت وقتل عامة أصحابه. وسار أبو دبوس إلى مراكش، وأغار علوش بن كانون على باب الشريعة والناس في صلاة الجمعة، وركز رمحه بمصراعه.

ودخلت سنة خمس وستين وستمائة والمرتضى بمراكش غافل عن شأن أبي دبوس، والأسوار خالية من الحراس والحامية، فقصد أبو دبوس باب أغمات فتسور البلد من هنالك، ودخلها على حين غفلة. وقصد القصبة فدخلها من باب الطبول وفرّ المرتضى ومعه الوزيران أبو زيد بن يعلو الكومي، وأبو موسى بن عزوز الهنتاتي، فلحقوا بهنتاتة وألفوهم قد بعثوا بطاعتهم فرحل إلى كدميوة ومر في طريقه بعلي بن زكداز الونكاسي، كان نزع إليه عن قومه ولم يفد عليه بعد، فنزل به المرتضى ورحل معه علي بمن معه إلى كدميوة، وكان فيها وزيره أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الكريم، فأراد النزول عليه فمنعه ابن سعد الله، فسار إلى شفشاوة، ووجد بها عددا من الظهر فمنحها علي بن زكداز. وكتب إلى ابن وانودين بمسكره من حاحة. وإلى عصوش بمعسكره من ركراكة باللحاق به فأقلعا إلى الحضرة.

وخاطب أبو دبوس علي بن زكداز يرغبه في القدوم عليه، فارتاب المرتضى لذلك ولحق بأزمور فتقبّض عليها واليها ابن عطوش. وكان أصهره واعتقله وطيّر الخبر إلى أبي دبوس، فأمر وزيره السيد أبا موسى أن يكاتبه في كشف أماكن الذخيرة، فأجابه بإنكار أن يكون ذخر شيئاً عندهم، والحلف على ذلك. وسألهم بالرحم، فعطف أبو دبوس عليه، وجنح إلى الإبقاء. وبعث وزيره السيد أبا مسعود بن كانون في إزعاجه إليه.

ثم بدا له في استحيائه بإشارة بعض السادات، فكتب خطه إلى السيد أبي موسى بقتله، فقتله واستقل أبو دبوس بالأمر وتلقب الواثق بالله والمعتمد على الله. واستوزر السيد موسى وأخاه السيد أبا زيد وبذل العطاء ونظر في الولايات ورفع المكوس عن الرعيّة وحدث بينه وبين مسعود بن كلداسن وحشة فارتحل إليه لإزالتها. وقدم عبد العزيز بن عطوش سفيراً إليه في ذلك. وبلغه أن يعقوب بن عبد الحق نزل تامستا فأوفد عليه حميدي بن مخلوف الهسكوري بهدية فقبلها، وأكد بينهما العهد وانكفأ راجعاً إلى وطنه. ورجع حميدي إلى الواثق، ووافق وصول عبد العزيز بن عطوش بطاعة مسعود بن كلداسن، فرجع أبو دبوس إلى مراكش بعد أن عقد لأبي موسى بن عزوز على بلاد حاحة. وبلغه في طريقه عن عبد العزيز بن السعيد أنه حدّث نفسه بالملك، وأن ابن بكيت وابن كلداسن داخلوه في ذلك. وساءل عن ذلك السيد أبا زيد بن السيد أبي عمران خليفته، وأخبره بما سمع، وأمره بالقبض عليه وقتله، فأنفذ ذلك.

ثم ارتحل إلى السوس لتمهيده، وحسم علل ابن يدر فيه. وقدم يحيى بن وانودين لاستنفار قبائل السوس من كزولة ولمطة وكنفيسة وصناكة وغيرهم وسار يتقرى المنازل ويستنفر القبائل، ومر بتارودنت فوجدها قُفرا خلاءً إلا قلائل من الدور بخارجها. ونزل على حميدي صهر علي بن يدر وقريبه بحصن تيسخت على وادي السوس، كان لصنهاجة فغلبهم عليه ابن يدر وملكه فنازله أبو دبوس وحاصره أياماً، وهزم فيها جموعه وداخل حميدي علي بن زكداز في إفراج أبي دبوس على سبعين ألف دينار يؤديها إليه، فأعجله الفتح عن ذلك ونجا بدمائه إلى بيته. وطولب بالمال، وبقي معتقلا عند ابن زكداز، وامتنع ابن يدر بحصنه. ثم أطاع ووصلت رسله بطاعته، فانصرف الواثق إلى حضرته ودخلها سنة خمس وستين وستمائة . وبلغه الخبر بانتقاض يعقوب بن عبد الحق وأنه زاحف إلى   فبعث بهديته إلى تلمسان صحبة أبي الحسن بن قطرال وابن أبي عثمان رسول يغمراسن، وخرج بهم من مراكش ابن أبي مديون السكاسني دليلا. وسلك بهم على القفر إلى سجلماسة، وبها يحيى بن يغمراسن، فبعثهم مع بعض المعقل إلى أبيه فألفوه بجهة مليانة، فأقام أبم قطرال بتلمسان ينتظره. وكان يعقوب بن عبد الحق لما بلغه ذلك نهض إلى مراكش بجيوش بني مرين وعسكر المغرب، ونزل بضواحي مراكش وأطاعه أهل النواحي ونهض إليه أبو دبوس في عساكر الموحدين فاستجره يعقوب إلى وادي أغفو، ثم ناجزه الحرب فاختل مصافه وفر عسكره. وانهزم يريد مراكش، والقوم في أتباعه فأُدرك وقُتل. وبادر يعقوب بن عبد الحق فدخل مراكش في المحرم فاتح سنة ثمان وستين وستمائة وفر بقية المشيخة من الموحدين إلى معاقلهم بعد أن كانوا بايعوا عبد الواحد بن أبي دبوس، وسفوه المعتصم مدة خمسة أيام وخرج في جملتهم، وانقرض أمر بني عبد المؤمن والبقاء لله وحده.

الخبر عن هسكورة:

وأما هسكورة وهم أكثر قبائل المصامدة، وفيهم بطون كثيرة أوسعها بطن هسكورة. وأما سواهم من بطون كنفيسة فأنفقتهم الدولة بما تولوا من مشايعتها وإبرام عقدها، فهلك رجالاتهم في إنفاقها سبل الأمم قبلهم في دولهم. وأما هسكورة فكان لهم بين الموحدين مكان واعتزاز بكثرتهم وغلبهم إلا أنهم كانوا أهل بدو ولم

يخالطوهم في ترفهم ولا أنغمسوا في نعيمهم. وكان جبلهم الذي أوطنوه من حالة دون القنة منها والذروة. واعتصموا منه بالآفاق الفدد واليفاع الأشمّ والطود الشاهق، قد لمس الأفلاك بيده ونظم النجوم في مفرقه وتلفع بالسحاب في مروطه، وآوى الرياح العواصف الدجوة وألقى إلى خبر السماء بإذنه، وأظل على البحر الأخضر بشماريخه، واستدبر القفر من بلاد السوس بظهره، وأقام سائر جبال درن في حجره. ولما انقرض أمر الموحدين وتغلب بنو مرين على المصامدة أجمع، وساموهم خطة الخسف في وضع الضرائب، والمغارم عليهم فاستكانوا لعزهم وأعطوهم يد الطواعية، واعتصم هسكورة هؤلاء بمعقلهم واعتزوا فيه بمنعتهم ؛ فلم يغمسوا في خدمتهم يداً ولا أعطوهم مقاداً ولا رفعوا بدعوتهم راية إنما هي منابذة لأمرهم وامتناع عليهم سائر الأيام. فإذا زحفت الحشود وتمرّست بهم العساكر دافعوهم بطاعة معروفة وأتاوة غير ملتزمة ورئيسهم مع ذلك يستخلص جبايتهم لنفسه ويدفعهم في المضايق لحمايته، وربما تخطاهم إلى بعض قبائل الجبل ومن قاربه من أهل بسائط السوس يعسكر بذلك للرجل من قومه هكسورة وكنفيسة، وبالحشد من العرب الموطنين بأرض السوس.

وسفيان وهم بطن الحارث ومن المعقل وهم بطن الثبانات، وكان رئيسهم في ما ذكرنا- بعد انقراض عبد المؤمن بن يوسف، وحرروا لسان الأعجمين هو عبد الواحد، وكان له في الاستبداد والصرامة ذكر. وهلك سنة ثمانين وستمائة، وكان منتحلاً للعلم واعية له جماعة لكتبه ودواوينه حافظاً لفروع الفقه. يقال إن الأحاديث المدونة كانت من محفوظاته، محباً في الفلسفة مطالعاً لكتبها حريصاً على نتائجها من علم الكيمياء والسيمياء والسحر والشعوذة، مطلعاً على الشرائع القديمة والكتب المنزلة بكتب

التوراة. ويجالس أحبار اليهود حتى لقد اتهم في عقيدته ورمي بالرغبة عن دينه. ثم ولي من بعده ابنه عبد الله، وكان مقتفياً سنن أبيه في ذلك، وخصوصاً في انتحال السحر والاستشراف إلى صنعة الكيمياء. ولما فرغ السلطان أبو حسن من شأن أخيه عمر، وسكن فتنة المغرب، ودوخ أقطاره وحل معتصمه بالعساكر وأوطأ ساحاته لكتائب رجاله دون من يمده من أعراب السوس من ورائه، بما كان من تغلبه على بلادهم واقتضائه بطاعتهم وإنزال عماله بالعساكر بينهم، فلاذ منه عبد الله السكسيوي بطاعة معروفة، رهن فيها ابنه، واشترط للسلطان الهدية والضيافة فتقبل منه، ومنحه جانب الرضى.

ولما كانت نكبة السلطان بالقيروان، واضطراب المغرب فتنة وخلا جّو البلاد المراكشية من المشايخ اجتمع رأي الملأ من المصامدة على النزول إلى مراكش

وأحكموا عقد الاتفاق بينهم وأجمعوا تخريبها بما كانت داراً للإمرة ولمقام الكتائب المجمرة، وزعم عبد الله السكسيوي هذا بإنفاذ ذلك فيها، وضمن هو تخريب المساجد لتجافيهم عنها فكانت مذكورة على الأيام. ثم انحل عزمهم وافترقت جماعتهم وكلمتهم بما كانت من استقامة الدولة بفاس واجتماع بني مرين علن السلطان أبي عنّان كما يذكر بعد فانحجر كل منهم بوجاره.

ولما فرغ أبو عنّان من شأن أبيه، واستولى على المغرب الأوسط وغلب عليه بنو عبد الواد. ولحق أخوه أبو الفضل بن مطرح اغترابه في الأندلس بالطاعة يروم الإجازة إلى المغرب لطلب حقه، فأركبه السفير إلى مراحل السوس فترل به، ولحق بعبد الله السكسيوي فأواه وظاهره على أمره. فجرد أبو عنان العزائم إليهم وعقد لوزيره فارس بن ميمون بن وادرار على حربهم. واستخرج جيوش المغرب وأناخ بساحته سنة أربع وخمسين وستمائة واختط بسفح الجبل مدينة لحصاره سماها القاهرة. وأخذت بمخنقه وزاحت بمناكبها أركان معقله حتى لاذت للسلم، واشترط أن ينبذ العهد إلى أبي الفضل المصري عنده يذهب حيث يشاء فتقبل منه، وعقد له سلماً على عادته وأفرج عنه. وخرج على عبد الله السكسيوي لأيام السلطان أبي سالم إبنه محمد المعروف في لغتهم أيزم ومعناه الأسد، فغلبه على أمره ولحق عبد الله بعامر بن الهنتاتي كبير المصامدة لعهده وعامل السلطان عليهم، فاستجاش به ووعده عامر النصرة وأمهله عاماً ونضه حتى وفد على السلطان، واستوهب في ذلك. ثم أجمع

على نصره من عدوه فجمع له الناس وخاطب أهل ولايته أن يكون معه يدا. وزحف عبد الله حتى نزل بالقاهرة، وأخذ بمخنق أبيه وأشياعه. ثم داخله بعض بطانته ودله على بعض العورات اقتحم منها الجبل وثاروا بإبنه أيزم فصاح به عبد الله وقومه. وفر محمد أمامهم فأدرك بتلاسف من نواحي الجبل وقتل واسترجع عبد الله ملكه، واستقلت قدمه إلى أن مكر به ابن عمه يحيى بن سليمان حين بلغ استبداد الوزير عمر ين عبد الله على سلطان المغرب واستبداد عامر بن محمد بولاية مراكش وثأر منه يحيى هذا بأبيه سليمان وهو عم عبد الله، وكان قتله أيام إمارته الأولى. وأقام مملكاً على سكسيوة إلى سنة خمس وسبعين وستمائة فثار عليه أبو بكر بن عمر بن خرو فقتله بأخيه عبد الله، واستقل بأمر سكسيوة ومن إليهم. ثم خرج عليهم لأعوام من استقلاله ابن عم له من أهل بيته لم

ينقل لي من تعريفه إلا أن إسمه عبد الرحمن، لأن ثورته كانت بعد رحلتي الثانية من المغرب سنة ست وسبعين وستمائة، فأخبرني الثقة بأمره وأنه ظفر بأبي بكر بن عمر وقتله. واستبد بأمر الجبل إلى هذا العهد فيما زعم وهو سنة تسع وسبعين وستمائة. ثم بلغني سنة ثمان وثمانين وستمائة أن عبد الرحمن هذا ويعرف بأبي زيد بن مخلوف بن عمر آجليد قتله يحيى بن عبد الله بن عمر، واستبد بأمر هذا الجبل وهو الآن مالكه، وهو أخو أيزم بن عبد اله. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

بقية قبائل المصامدة:

(وأبا بقة قبائل المصامدة) من سوى هؤلاء السبع مثل هيلانة وحاحة ودكالة وغيرهم مفن أوطن هضاب الجبل أو ساحته فهم امم لا تنحصر. ودكالة منهم في ساحة الجبل من جانب الجوف مما يلي مراكش إلى البحر من جانب الغرب. وهناك رباط آسفى المعروف ببني ماكر من بطونهم وبين الناس اختلاف في انتسابهم في المصامدة أو صنهاجة وتجاورهم من جانب الغرب في بسيط ينعطف ما بين ساحل البحر وجبل درن في بسيط هناك يفضي إلى السوس، يعثره من حاحة هؤلاء خلق أكثرهم في خفر الشعراء من الشجر المعروف بأرجان،

يتحصنون بملتفها وأدواحها ، ويعتصرون الزيت لأدامهم من ثمارها. وهو زيت شريف طيب اللون والرائحة والطعم يبعث منه العمال إلى دار الملك في هداياهم فيطرفون به.

وبأخر مواطنهم مما يلي أرض السوس، وفي القبلة عن جبل درن بلدة دنست وبها معظم هذه الشعراء يترلها رؤساؤهم، ورياستهم في بطن منهم يعرفون بمغراوة، وكان شيخهم

لعهد السلطان أبي عنان إبراهيم بن حسين بن حماد بن حسين، وبعده ابنه محمد بن إبراهيم بن حسين، وبعده ابن عمهم خالد بن عيسى بن حماد. واستمرت رياسته عليهم إلى أعوام ست وسبعين وسبعمائة أيام استيلاء السلطان عبد الرحمن بن بطوسن على مراكش، فقتله شيخ بني مرين ير بن عمر الورتاجي من بني ويغلان منهم وما أدري لمن صارت رياستهم من بعده وهم دكالة جميعاً أهل مغرم واسع وجباية موفورة فيما علمناه، ولله الخلق والأمر وهو خير الوارثين.

كان الواثق جهز لحرب أحد أمراء المصامدة ، فكان وزيره داخله في ذلك السيد أبا

زيد بن السيد أبي عمران خليفته وأخبره بما سمع، وأمره بالقبض عليه وقتله فأنفذ ذلك. ثم ارتحل إلى السوس لتمهيده، وحسم هلال بن يدر فيه علله، وقدم يحيى بن وانودين لاستنفار قبائل السوس من كزولة ولمطة وكنفيسة وصناكة وغيرهم، وسار يتعدى المنازل ويستنفر القبائل وهو بتارودنت فوجدها قفراً خلاء إلا قليلاً من الدور بخارجها. ونزل على حميدين صهر علي بن يدر وقريبه بحصن تيسخت على وادي السوس، كان لصنهاجة فغلبهم عليه ابن يدر وملكه فنازله أبو دبوس وحاصره أياماً وهزم فيها جموعه.

وداخل محمد بن علي بن زكدان في إفراج أبي دبوس على سبعين ألف دينار يؤديها

إليه، فأعجله الفتح من ذلك ونجا بدمائه إلى بيته، وطولب بالمال وبقي معتقلاً عند ابن زكدان، وامتنع علي بن يدر بحصنه، ثم أطاع ووصلت رسله بطاعته فانصرف الواثق إلى حضرته ودخلها سنة خمس وستين وستمائة، وبلغه الخبر بانتقاض يعقوب بن عبد الحق وأنهى إليه فبعث بمرتبه إلى تلمسان صحبة أبي الحسن بن قطران وابن أبي عثمان رسول يغمراسن. خرج إليهم من مراكش ابن أبي مديون الونكاسي دليلاً وسلك بهم على الثغر إلى سجلماسة، وبها يحيى بن يغمراسن فبعثهم مع بعض المعقل إلى أبيه، وألفوه بجهة مليانة فأقام ابن قطرال بتلمسان ينتظره. وكان يعقوب بن عبد الحق لما بلغه ذلك نهض إلى مراكش بجيوش بني مرين ونزل بضواحي مراكش وأطاعه على النواحي ونهض إليه أبو دبوس بعساكر الموحدين فاستجره يعقوب إلى وادي أعفر. ثم ناجزه الحرب فاختل مصافه وفر عساكره وانهزم يريد مراكش والقوم في أتباعه فأدرك وقتل. وبادر يعقوب بن عبد الحق فدخل مراكش في المحرّم فاتح سنة ثمان وستين وستمائة وفر بقية المشيخة من الموحدين إلى معاقلهم بعد أن كانوا

بايعوا عبد الحق أحد بني أبي دبوّس وسموه المعتصم مدّة من خمسة أيام وخرج في جملتهم وانقرض مر بني عبد المؤمن والبقاء لله وحده .

الخبر عن بقايا قبائل الموحدين من المصامدة بجبال درن بعد انقراض دولتهم بمراكش وتصاريف أحوالهم لهذا العهد:

لما دعا المهدي إلى أمره في قومه من المصامدة بجبال درن، وكان أصل دعوته نفي التجسيم الذي إليه مذهب أهل المغرب باعتمادهم ترك التآويل في المتشابه من الشريعة، وصرح بتكفير من أبى ذلك أخذا بمذهب التكفير بالمثال. فسمى لذلك دعوته دعوة التوحيد، وأتباعه بالموحدين، نعياً على الملثمين مثال مذاهبهم إلى اعتقاد الجسمية، وخص بالمزية من دخل في دعوته قبل تمكنها، وجعل علامة تمكنها فتح مراكش، فكان إنما اختص بهذا اللقب أهل السابقة قبل ذلك الفتح. وكان أهل تلك السابقة قبل فتح مراكش ثماني قبائل، سبعة من المصامدة: هرغة وهم قبيلة الإمام المهدي، وهنتاتة، وتينملل وهم الذين بايعوه مع هرغة على الإجارة والحماية، وكنفيسة، وهزرجة وكدميوة ووريكة.

وثمانية قبائل الموحدين: كومية قبيلة عبد المؤمن كبير صحابته، دخلوا في دعوته قبل الفتح فكانت لهم المزية بسابقة عبد المؤمن وسابقتهم فاختص هؤلاء القبائل بمزية هذه السابقة وإسمها. وقاموا بالأمر وحملوا سريره وأنفقوا في مذاهبه وممالكه في سائر الأقطار على نسبة قربهم من صاحب الأمر وبعدهم. وبقي من بقي منهم بجبالهم ومعاقلهم بقية حتوف. وجرت عليهم ذيل زناتة من بعد الملك أذيال الغلب والقهر حتى ألقوهم بالأتاوات وانتظموا في عداد الغارمين من الرعايا، وصاروا يولون عليهم من زناتة ومن رجالاتهم أخرى، وفي ذلك عبرة وذكرى لأولي الألباب والملك لله يورثه من يشاء.

هرغة

فأما هرغة وهم قبيل الإمام المهدي قد دثروا وتلاشوا وانتفقوا في القاصية من كل وجه، لما كانوا أشد القوم بلاء في القيام بالدعوة، وأصلاهم لنارها بقرابتهم من صاحبها،

وتعصبهم على أمره. ولم يبق منهم إلا أخلاط وأوشاب أمرهم إلى غيرهم من رجالات المصامدة لا يملكون عليهم منه شيئاً.

تينملل

وكذا تينملل إخوانهم في التعصب على دعوة المهدي والاشتمال عليه والقيام بأمره حتى تميز إليهم وبنى داره ومسجده بينهم، فكان يعطيهم من الفيء بمقدار حظهم من الاستيلاء، وأبعدوا في ممالك الدولة وعمالاتها فانقرض رجالاتهم، وملك غيرهم من المصامدة أمرهم عليهم، وقبر الإمام بينهم لهذا العهد على حاله من التجلة والتعظيم وقراءة القرآن عليه أحزاباً بالغدو والعشي، وتعاهده بالزيارة وقيام الحجاب دون الزائرين من الغرباء لتسهيل الإذن، واستشعار الأبّهة وتقديم الصدقات بين أيدي زيارته على الرسم المعروف في احتفال الدولة، وهم مصممون مع ذلك وكافة المصامدة أن الأمر سيعود، وإن الدولة ستظهر على أهل المشرق والمغرب وتملأ الأرض كما وعدهم المهدي لا يشكون في ذلك ولا يستريبون فيه.

هنتاتة

وأما هنتاتة وهم تلو القبيلتين في الأمر، وكل من بعدهم فإنما جاء على أثرهم وتبعاً لهم، بما كانوا عليه من الكثرة والبأس، ومكان شيخهم أبي حفص عمر بن يحيى من صحابة الإمام والاعتزاز على المصامدة. وكانت لهم بأفريقية دولة كما نذكره، فأنفقت الدولتان منهم عوالم في سبيل الاستظهار بهم، وبقي بموطنهم المعروف بهم من جبال درن، وهو الجبل المتاخم لمراكش على توسط من الاستبداد والخضوع. ولهم في قومهم مكان بامتناع معقلهم وإطلاله على مراكش. ولما تغلب بنو مرين على المصامدة، وقطعوا عنهم أسباب الدعوة كان لرؤسائهم أولاد يونس انحياش إليهم بما

كانوا مسخوطين في آخر دولة بني عبد المؤمن، فاختصوهم بالأثرة والمخالصة. وكان علي بن محمد كبيرهم لعهد السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق خالصة له من بين قومه. وهلك سنة سبع وسبعين وستمائة على يد ابن الملياني الكاتب بكتاب لبس فيه، وأنفذه عن السلطان لابنه أمير مراكش بقتل رهط من مشيخة المصامدة في اعتقاله، كان منهم: علي بن محمد فقام السلطان لها في ركائبه، وندم على ما فرط من أمره في إفلات ابن الملياني على ما نذكره من أمر هذه الواقعة في أخبار السلطان يوسف بن يعقوب. ولما ولي السلطان أبو سعيد وانقطع عن المصامدة ما كان لهم من أثر الملك والسلطان، وانقادوا للدولة رجع بنو مرين إلى التولية عليهم من رجالاتهم، وتداولوا بينهم في ذلك واختار السلطان بعد صدر من دولته موسى بن علي بن محمد للولاية على المصامدة هجبايتهم، فعقد له وأنزله مراكشن فاضطلع بهذه الولاية سنين رسخت فيها قدمه، وأورثها أهل بيته، وصار لهم بها في الدولة مكان انتظموا به في الولاية، وترشحوا للوزارة.

ولما هلك موسى عقد السلطان من بعده لأخيه محمد، وأجراه على سننه إلى أن هلك فاستعمل السلطان بنيه في وجوه خدمته، وعقد لعامر منهم على قومه. ولما ارتحل السلطان أبو الحسن إلى أفريقية صحبة عامر فيمن صحبه من أمراء المصامدة وكافة الوجوه، حتى إذا كانت نكبة القيروان سنة تسع وأربعين وسبعمائة عقد له على الشرطة بتونس على رسم الموحدين من تنويه الخطة وسعة الرزق. واستنام إليه فيها فكفاه همّها. ولما فصل من تونس ركب الكثير من حرمه وخطاياه السفن لنظر عامر هذا، حتى إذا غرق الأسطول بالسلطان أبي الحسن بما أصابهم من عاصف الريح رمى الموج بالسفينة التي كانوا بها إلى المريّة من ثغور الأندلس، فأنزل بها كرائم السلطان لنظره وبعث عنهن ابنه أبو عنان المستبد على أبيه بملك المغرب، فامتنع من إسلامهن إليه وفاء بأمانته في خدمتهم.

وخلص السلطان أبو الحسن بعد النكبة البحرية إلى الجزائر سنة خمسين وسبعمائة، وزحف إلى بني عبد الواد ففلّوه ونهض إلى المغرب، وسلك إليه القفر حتى نزل بسجلماسة فقصده أبو عنان فخرج عنها إلى مراكش وقام بدعوته المصامدة وعرب جشم، فاحتشد، ولقي ابنه أبا عنان بجهات ام ربيع فكانت الدبرة عليه، ونجا إلى جبل هنتاتة. وكان عبد العزيز بن محمد شيخاً عليهم منذ مغيب عامر، وكان في جملته، وخلص معه فأنزله عبد العزيز بداره، وتدامر هو وقومه على إجارته والموت دونه فاعتصم بمعقلهم. وجاء السلطان أبو عنان في كافة بني مرين إلى مراكش فخيم بظاهرها واحتشد لحصارهم أشهراً حتى هلك السلطان أبو الحسن كما

نذكره بعد، فحملوه على الأعواد ونزلوا على حكم أبي عنان فكرمهم ورعى لهم وسيلة هذا الوفاء، وعقد لعبد العزيز على إمارته، واستقدم عامراً كبيره من مكانه بالمرية، فقدم بمن لأمانته من حظايا السلطان وحرمه فلقاه السلطان مبرة وتكريماً ، وأناله من اعتنائه حظاً.

وتخفى له أخوه عبد العزيز عن الأمر فأقره نائبا. ثم عقد السلطان لعامر سنة أربع وخمسين وسبعمائة على سائر المصامدة، واستعمله لجبايتهم فقام بها مضطلعاً، وكفاه مهم الأعمال المراكشية حتى عرف عناءه فيها وشكر له كفايته. وهلك السلطان أبو عنان، واستبد على ابنه السعيد وزيره الحسن بن عمر المودودي وكان ينفس عليه ما كان له من الترشيح للرتبة، وبينهما في ذلك شحناء، فخشي بادرته وخرج من مراكش إلى معقله في جبل هنتاتة، وحمل معه ابن السلطان أبي عنان الملقب بالمعتمد. وكان أبوه عقد له يافعاً قبيل وفاته على مراكش لنظر عامر فخلص به إلى الجبل، حش إذا استوت قدم السلطان أبي سالم في الأمر، واستقل بملك المغرب سنة ستين وسبعمائة. وفد عليه عامر بن محمد مع رسله إليه، وأوفد ابن أخيه محمد المعتمد فتقبل السلطان وفادته، وشكر وفاءه، وأقام ببابه مدة. ثم عقد له على قومه، ثم استنفره معه إلى تلمسان، ولم يزل مقيماً ببابه إلى قبيل وفاته فأنفذه لمكان إمارته.

ولما هلك السلطان أبو سالم واستبد بالمغرب بعده عمر بن عبد الله بن علي على ما نذكره، وكانت بينه وبين عامر بباب السلطان صداقة وملاطفة وصل يده بيده، وأكد العهد معه على سد تلك الفرجة، وحوّل عليه في حوط البلاد المراكشية وأن لا يؤتى من

قبله، وكان زعيماً بذلك، وعقد له على الأعمال المراكشية وما إليها إلى وادي أم ربيع. وفوض إليه أمر تلك الناحية، واقتسما المغرب شق الأبلمة وخلص إليه الأعياص من ولد السلطان أبي سعيد أبو الفضل بن السلطان أبي سالم، وعبد

المؤمن بن السلطان أبي علي، فاعتقل عبد المؤمن وأمكن أبا الفضل من إمارته على ما نذكر بعد. وساءت الحال بينه وبين عمر ونهض إليه من فاس بجموع بني مرين وكافة العسكر، واعتصم بجبلة وقومه واستبد على الأميرين عنده. وحل عبد المؤمن من معتقله يجاجىء به بني مرين لما كانوا يؤملون من ولايته واستبداده لما أسفهم من حجر الوزراء لملوكهم. فلما رأوا استبداد عامل عليه أعرضوا عنه، وانعقد السلم بينه وبين عمر بن عبد الله على ما كان عليه من مقاسمته إياه في أعمال المغرب، ورجع. واستقل عامر بناحية مراكش وأعمالها، حتى إذا هلك عمر بن عبد الله بيد عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن كما نذكره، حدثت أبا الفضل ابن السلطان أبي سالم نفسه بالهتك بعامر بن محمد، كما فتك عمه بعمر بن عبد الله. ونذر بذلك فاحتمل كرائمه وصعد إلى داره بالجبل، ففتك أبو الفضل بعبد المؤمن ابن عمه، كان معتقلاً بمراكش. واستحكمت لذلك السفرة بينه وبين عامر بن محمد. وبعث إلى السلطان عبد العزيز فنهض من فاس في جموعه سنة تسع وستين وسبعمائة.

وفر أبو الفضل فلحق بتادلاّ، وتقبض عليه عمه السلطان عبد العزيز وقتله كما نذكر في أخباره. وطلب عامراً في الوفادة فخشيه على نفسه واعتصم بمعقله فرجع إلى حضرته، واستجمع عزائمه. وعقد على مراكش وأعمالها لعلي بن أخانا من صنائع دولتهم، وأوعز إليه بمنازلة عامر فدافعه عامر وقومه عن معتصمه ، وأوقع به وتقبض على طائفة من بني مرين وصنائع السلطان في المعركة أودعهم سجنه، فحرك بها عزائم السلطان، ونهض إليه في قومه من بني مرين وعساكر المغرب، وأحاط به ونازله حولاً كريتاً.

ثم تغلب عليه سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، وانفضت جموعه. وتقبض عليه عند اقتحام فسيق أسيراً إلى السلطان فقئده، وقفل به إلى الحضرة. ولفا قضى نسك الفطر من سنته أحضره ووبخه. ثم أمر به فتل إلى مصرعه، وامتحن جلداً بالسياط وضرباً بالمقارع حتى فاض عفا الله عنه. وعقد السلطان على قومه لفارس ابن أخيه العزيز كان نزع إليه

بين يدي مهلك عمه وعفا عن ابنه أبي يحيى بسابقته إلى الطاعة قبيل اقتحام الجبل عليهم، أشار

عليه بذلك أبوه نظراً له فظفر من السلامة بحظ، وأصاره السلطان في جملته.

ثم هلك بعد ذلك فارس بن عبد العزيز، واضطرم المغرب فتنة بعد مهلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين سبعمائة. وصارت أعمال مراكش في إيالة السلطان عبد الرحمن بن علي الملقب بأبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي. ونزع إليه أبو يحيى بن عامر فعقد له على قومه. ثم اتّهمه باحتجاز الأموال منذ عهد أبيه، وشره إلى استصفائه، ونذر به ابن عامر فلحق ببعض قبائل المصامدة جيرانهم بأطراف السوس، ونزل عليهم. وكان مهلكه فيهم أعوام ثمانين وسبعمائة والله وارث الأرض ومن عليها.

كدميوة

وأما كدميوة وكانوا تبعاً لهنتاتة وتينملل في الأمر، وجبلهم لصق جبل هنتاتة. وكان رؤساؤهم لعهد الموحدين بنو سعد الله. ولما تغلب بنو مرين على المصامدة، ووضعوا عليهم الضرائب، وامتنع يحيى بن سعد الله بعض الشيء بحصن تافرجا وتيسخت من جبلهم، وخالفه عبد الكريم بن عيسى وقومه إلى طاعة بني مرين، واختلفت إليهم العساكر إلى أن هلك يحيى بن سعد الله سنة أربع وتسعين وستمائة، وعساكر يوسف بن يعقوب مجهزة على حصاره، فهدموا حصونه، وأذلوا من قومه. واستخلص السلطان يوسف بن يعقوب عبد الكريم بن عيسى منذ عهد أبيه فعقد له عليهم. ثم تقبض على أمراء المصامدة، واعتقله فيمن اعتقل منهم، حتى إذا فعل ابن الملياني فعلته في استهلاكهم لعداوة عمه بتلبيس الكتاب على لسان السلطان لابنه على أمير مراكش، فقتل عبد الكريم فيمن قتل منهم، وقتل معه بنوه عيسى وعلي ومنصور، وابن أخيه عبد العزيز بن محمد. وامتعض السلطان لذلك وأفلت ابن الملياني من عسكره لحصار تلمسان فدخلها.

ثم قام بأمر كدميوة عبد الحق بن.. من بيت بني سعد الله أيام السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان. وكانت بينه وبين عامر بن محمد فتنة جرها لصق العمالة، شأن المجاورين من القبائل، وقديم العداوة بين السلف. فلما استفحل أمر عامر بالولاية على مراكش وسائر المصامدة، نبذ إلى عبد الحق العهد ونحلة الخلاف والمداخلة

للسكسيوي شيخ الفتنة المستعصي منذ أول الدولة، فصمد إليه سنة سبع وخمسين وسبعمائة في قومه ومشايخ السلطان التي كانت بمراكش لنظره، فافتتح عليه معقله عنوة وقتله. واستولى على كدميوة ولحق بنو سعد الله بفاس، وأقاموا بها، حتى إذا خاض السلطان أبو سالم البحر إلى ملكه بعد أخيه أبي عنان ونزل بغمارة، نزع إليه يوسف بن سعد الله واعتقد منه ذمة بسابقيته تلك. فلما استولى على البلد الجديد واستقل بسلطانه، عقد له على قومه رعياً لوسيلته فأقام في ولايته مدة السلطان أبي سالم. وكان عامل مراكش محمد بن أبي العلى من حاشية السلطان. وبيوت الولاة بالمغرب معولاً فيها على مظاهرته.

ولما هلك السلطان أبو سالم واستبد عمر بن عبد الله على الملوك بعده، بادر لحين ثورته بالعقد لعامر على أعمال مراكش ليستظهر به، وطير إليه الكتاب بذلك فتزل إلى مراكش وقتل بها يوسف بن سعد الله، ونكب بأبي العلى ثم قتله وألحقه بأبي عبد الحق. وذهبت الرئاسة من كدميوة برهة من الدهر، ثم رجعت إليهم في بني سعد الله، والله قادر على ما يشاء وبيده تصاريف الأمور لا رب سواه ،ولا معبود إلا إيّاه.

وريكة

وأما وريكة فهم مجاورون لهنتاتة، وبينهم فتنة قديمة وحرب متصلة ودماء مطلولة، كانت بينهم سجالاً. وهلك فيها من الفريقين أمم إلى أن غلبهم هنتاتة باعتزازهم هم بالولاية،

فخضدوا منهم الشوكة وأصاروهم في الجملة والله وارث الأرض ومن عليها والله تعالى أعلم بغيبه وهو على كل شيء قدير.

بنو يدر أمراء السوس

الخبر عن بني يذر أمراء السوس من الموحدين بعد انقراض

بني عبد المؤمن وتصاريف أحوالهم

كان أبو محمد بن يونس من علية وزراء الموحدين من هنتاتة، وكان المرتضى قد استوزره، ثم سخطه وعزله سنة خمسين وستمائة وألزمه داره بتامصلحت، وفر عنه قومه وحاشيته وقرابته. وكان من أهل قرابته علي بن يدر من بني باداس ففر إلى السوس وجاهر بالخلاف سنة إحدى وخمسين وستمائة ، ونزل بحصن تانصاحت سفح الجبل حيث يدفع وادي السوس من درن، وشيّده وحصّنه، وتغلّب على حصن تيسخت من أيدي صنهاجة وشيده، وأنزل فيه ابن عمه بو حمدين. ثم تغلب على بسيط السوس وجأجأ بني حسان من أعراب المعقل من مواطنهم من نواحي ملوية إلى بلاد الريف، فارتحلوا إليه وعاث بهم في نواحي السوس، وأطاع له كثير من قبائله فاستوفى جبايتهم. وأجلب على عامل الموحدين بتارودنت، وضيق عليه المسالك، وتفاقم أمره. واتهم الوزير أبو محمد بن يونس بمداخلته، وعثر على كتابه إلى علي بن يدر فأمر المرتضى باعتقاله وقتله سنة إثنتين وخمسين وستمائة. وأغزى أبا محمد بن أصناك إلى بلاد السوس في عسكر الموحدين والجند، وعقد له عليها فتزل تاودنت وتحصّن علي بن يدر تيونودين، وزحف إليه ابن أصناك في عسكره فهزمه ابن يدر وقتل كثيراً منهم، ورجع إلى مراكش مقلولاً. وأقام علي بن يدر على حاله من الخلاق، وأغزاه المرتضى محمد بن

علي أزلماط في عسكر من الموحدين سنة ستين وستمائة فهزمهم وقتل ابن زلماط، فعقد المرتضى من بعده على السوس لوزيره أبي زيد بن بكيت فزحف إليه، ودارت الحرب بينهما ملياً، وانقلب من غير ظفر. واستفحل أمر ابن يدر ببلاد السوس واستخدم الأعراب من بني الشبانات وذوي حسان. وأطاعته القبائل من كزولة ولمطة وزكن ولخس من شعوب لمطة وصناكة. وجبى الأموال واستخدام الرجال يقال- كان جنده ألف فارس وكان بينه وبين كزولة فتن

وحروب يستظهر في أكثرها بذوي حسّان.

ولما استولى أبو دبوس على مراكش سنة خمس وستين وستمائة، وفرغ من تمهيد ملكه بها اعتزم على الحركة إلى السوس ورحل من مراكش، ، وقدم بين يديه يحيى بن وانودين لاحتشاد القبائل، ومر بالجبل ثم أسهل من تامسكروط إلى بسيط السوس، ونزق على بنى باداسن قبيلة ابن يدر على فرسخين من تيونودين. وقصد تيزخت ومر بتارودنت وعاين أثر الخراب الذي بها من عيث ابن يدر ولما بلغ حصن تيزخت خيم بساحته وحشر أمماً من القبائل لحصاره، وكان به حمدين ابن عم علي بن يدر فحاصره أياماً. ولما اشتد عليه الحصار داخل علي بن زكداز من مشيخة بني مرين كان في جملة أبي دبوّس فداخله في الطاعة، وتقبل السلطان طاعته على النزول عن حصنه.

ثم أعجلته الحرب واقتحم عليهم الجبل ولجوا إلى الحصن، وفر حمدين إلى بيت علي بن زكداز فأمره السلطان باعتقاله. واستولى السلطان على الحصن وأنزل به بعض السادات لولايته. وارتحل أبو دبوس إلى محاصرة علي بن يدر فحاصره أياماً، ونصب عليه المجانيق. ولما اشتد عليه الحصار رغب في الإقالة ومعاودة الطاعة فتقبل وأقلع السلطان عن حصاره وقفل إلى حضرته. ولما استولى بنو مرين على مراكش سنة ثمان وستين وستمائة استبد علي بن يدر بملك السوس، واستولى على تارودنت وإيفري وسائر أمصاره

وقواعده ومعاقله وأرهف حده للأعراب. فزحفوا إليه، وكانت عليه الدبرة وقتل سنة ثمان وستين وستمائة، وقام بأمره علي ابن أخيه عبد الرحمن بن الحسن مدة. ثم هلك وقام بأمرهم أخوه علي بن الحسن بن يدر. ولما صار أبو علي ابن السلطان أبي سعيد إلى ملك سجلماسة بصلح عقده مع أبيه كما نذكر في أخبارهم، فنزلها وشيد ملكه بها، واستخدم كافة عرب المعقل فغزاه في ملك السوس وأطمعوه في أموال ابن يدر فغزاه من سجلماسة. وفر ابن يدر أمامه إلى جبال نكيسة. واستولى السلطان أبو علي على حصنه نانصاصت وسائر أمصار السوس، واستصفى ذخيرته وأمواله، ورجع إلى سجلماسة.

ثم استولى السلطان أبو الحسن من بعد ذلك عليه وانقرض ملك بني يدر. ولحق به

عبد الرحمن بن علي بن الحسن، وصار فى جملته. وأنزل السلطان بأرض السوس مسعود بن إبراهيم بن عيسى اليرنياني من طبقة وزرائه، وعقد له على تلك العمالة إلى أن هلك. وعقد لأخيه حسّون من بعده إلى أن كانت نكبة القيروان. وهلك حسّون وانفض العسكر من هنالك، وتغلب عليه العرب من بني حسان والشبانات، ووضعوا على قبائله الأتاوات والضرائب. ولما استبد أبو عنان بملك المغرب من بعد أبيه أغزى عساكره السوس

لنظر وزيره فارس بن ودرار سنة ست وخمسين وستمائة فملكه، واستخدم القبائل والعرب من أهله، ورتّب المسالح بأمصاره وقفل إلى مكان وزارته فانفضّت المسالح ولحقت به.

وبقي عمل السوس ضاحياً من ظلّ الملك لهذا العهد، وهو وطن كبير في مثل عرض البلاد الجريدية وهوائها المتصل من لدن البحر المحيط إلى نيل مصر الهابط من وراء خط الاستواء في القبلة إلى الإسكندرية. وهذا الوطن، قبلة جبال درن ذو عمائر وقرى ومزارع وفدن وأمصار وجبال وحصون، يحدّق وادي السوس ينصب من باطن الجبل إلى ما بين كلاوة وسيكسيوة، ويدفع إلى بسيطه، ثم يمرّ مغرباً إلى أن ينصب في البحر المحيط والعمائر متصلة حفافي هذا الوادي ذات الفدن والمزارع وأهلها يتخذون فيها قصب السكر. وعند مصب هذا الوادي من الجبل في البسيط مدينة تارودنت. وبين مصب هذا الوادي في البحر ومصب وادي ماسة مرحلتان إلى ناحية الجنوب على ساحل البحر، وهنالك رباط ماسة الشهير المعروف بتردد الأولياء وعبادهم. وتزعم العامة أنّ خروج الفاطمي منه.

ومنه أيضاً إلى زوايا أولاد بنو نعمان مرحلتان في الجنوب كذلك على ساحل البحر، وبعدها على مراحل مصب الساقية الحمراء وهي منتهى مجالات المعقل في مشايتهم. وفي رأس وادي السوس جبل زكندر قبلة جبل الكلاوي. وفي قبلة جبال درن جبال نكيسة تنتهي إلى جبال درعة ويعرف الآخر منها في الشرق بابن حميدي ويصب من جبال نكيسة وادي نول ويمرّ مغرباً إلى أن يصب في البحر. وعلى هذا

الوادي بلد تاكاوصت محطّ الرقاق والبضائع بالقبلة، وبها سوق في يوم واحد من السنة يقصده التجر من الآفاق، وهو من الشهرة لهذا العهد بمكان. وبلد إيفري بسفح جبل نكيسة بينها وبين تاكاوصت مرحلتان، وأرض السوس مجالات لكزولة ولمطة. فلمطة منهم مما يلي درن وكزولة مما يلي الرمل والقفر. ولما تغلب المعقل على بسائطه اقتسموها مواطن، فكان الشبانات أقرب إلى جبال درن. وصارت قبائل لمطة من أحلافهم، وصارت كزولة من أحلاف ذوي حسان. والأمر على ذلك لهذا العهد وبيد الله تصاريف الأمور،لا رب سواه، ولا معبود إلاّ إيّاه

دولة بني أبي حفص

الخبر عن دولة بني أبي حفص ملوك أفريقية من الموحدين

ومبد أ أمرهم وتصاريف أحوالهم

قد قدمنا أنّ قبائل المصامدة بجبل درن وما حوله كثير مثل: هنتاتة وتينملل وهرغة وكنفيسة وسكسيوة وكدميوة وهزرجة ووريكة وهزميرة وركراكة وحاحة وبني ماغوس وكلاوة، وغيرهم ممن لا يحصى. وكان منهم قبل الإسلام وبعده رؤساء وملوك. وهنتاتة هؤلاء من أعظم قبائلهم وأكثرها جمعاً وأشدّها قوةً، وهم السابقون للقيام بدعوة الإمام المهديّ والممّهدون لأمره وأمر عبد المؤمن من بعده، كما ذكرناه في أخباره. وإسم هنتات جدهم بلسان المصامدة بنتي، وكان كبيرهم لعهد الإمام المهديّ الشيخ أبو حفص عمر، ونقل البيذق أنّ إسمه بلسانهم فاصكات.

وهنتاتة لهذا العهد يقولون أنه إسم جدّهم وكان عظيماً فيهم متبوع غير مدافع، وهو أوّل من بايع للإمام المهدي من قومه، فجاء يوسف بن وانودين وأبو يحيى بن بكيت

وابن يغمور وغيرهم منهم على أثره. واختصّ بصحابة المهديّ فانتظم في العشرة السابقين إلى دعوته. وكان تلو عبد المؤمن فيهم، و لم يكن مزية عبد المؤمن عليه إلا من حيث صحابة المهدي.

وأمّا في المصامدة فكان كبيرهم غير مدافع، وكان يسمى ين الموحدين بالشيخ كما كان المهديّ يسمى بالإمام، وعبد المؤمن بالخليفة. سمات لهؤلاء الثلاثة من بين أهل الدعوة تدل على اشتراكهم في الجلالة. وأما نسبه فهو عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن علي بن أحمد بن والال بن إدريس بن خالد بن إليسع بن إلياس بن عمر بن وافتن بن محمد بن نحية بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطّاب، هكذا نسبه ابن نخيل وغيره من الموحدين. ويظهر منه أنّ هذا النسب القُرشيّ وقع في المصامدة والتحم به، واشتملت عليه عصبيّته شأن الأنساب التي تقع من قوم إلى قوم وتلتحم بهم كما قلناه أول الكتاب.

ولما هلك الإمام وعهد بأمره إلى عبد المؤمن، وكان بعيداً عن عصبية المصامدة، إلا ما كان له من أثرة المهد في واختصاصه فكتم موت المهديّ وعهد عبد المؤمن ابتلاء لطاعة المصامدة. وتوقف عبد المؤمن عن ذلك ثلاث سنين، ثم قال له أبو حفص نقدّمك كما كان الإمام يقدّمك فاعلم أنّ أمره منعقد. ثم أعلن بيعته وأمضى عهد الإمام بتقديمه وحمل المصامدة على طاعته فلم يختلف عليه إثنان. وكان الحل والعقد في المهفات اليه سائر أيام عبد المؤمن وابنه يوسف، واستكفوا به نائب الدعوة فكفاهم همّها. وكان عبد المؤمن يقدّمه في المواقف فيجلي فيهم. وبعثه على مقدمته حين زحف إلى المغرب الأوسط قبل فتح مراكش سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وزناتة كلّهم مجتمعون بمنداس لحرب الموحدين مثل: بني ومانوا وبني عبد الواد وبني ورسيغان وبني توجين وغيرهم، فحمل زناتة على الدعوة بعد أن أثخن فيهم. ولأول دخول عبد المؤمن لمراكش خرج عليه الثائر بماسة، وانصرفت إليه وجوه الغوغاء وانتشرت ضلالته في النواحي وتفاقم أمره، فدفع لحربه الشيخ أبا حفص فحسم داءه ومحا أثر غوايته.

ولما اعتزم عبد المؤمن على الرحلة إلى أفريقية حركته الأولى لم يقدم شيئاً على استشارة أبي حفص. ولما رجع منها وعهد إلى ابنه محمد خالفه الموحدون، ونكروا ولايته ابنه فاستدعى أبا حفص من مكانه بالأندلس، وحمل الموحدين على البيعة له.

وأشار بقتل يصلاتي الهرغي رأس المخالفين في شأنه فقتله، وتم أمر العهد لابنه محمد.

ولما اعتزم عبد المؤمن على الرحلة إلى أفريقية سنة أربع وخمسين وخمسمائة حركته الثانية لفتح المهدية استخلف الشيخ أبا حفص على المغرب، وينقل من وصاة عبد المؤمن لبنيه أنه لم يبق من أصحاب الإمام إلا عمر بن يحيى ويوسف بن سليمان. فأما عمر فإنه من أوليائكم، وأما يوسف فجهزه بعسكرة إلى الأندلس تستريح منه. وكذلك فافعل بكل من تكرهه من المصامدة. وأما ابن مردنيش فاتركه ما تركك وتربص به

ريب المنون، واخل أفريقية من العرب وأجلهم إلى بلاد المغرب، وأذخرهم لحرب ابن مردنيش إن احتجت إلى ذلك.

ولما ولي يوسف بن عبد المؤمن تخلف الشيخ أبو حفص عن بيعته، ووجم الموحدون لتخففه حتى استنبل غرضه في حكم أمضاه بمقعد سلطانه، وأعجب بفضله فأعطاه صفقة يمينه، وأعلن بالرضى بخلافته، فكانت عند يوسف وقومه من أعظم البشائر، وتسمى لها بأمير المؤمنين سنة ثلاث وستين وخمسمائة.

ولما ولي يوسف بن عبد المؤمن، وتحركت الفتنة بجبال غمارة وصنهاجة التي تولى كبرها سبع بن منغفاد سنة إثنتين وستين وخمسمائة، عقد للشيخ أبي حفص على حربهم فجلى في ذلك. ثم خرج بنفسه فأثخن فيهم، وكمل الفتح كما ذكرناه. ولما بلغه سنة أربع وستين وخمسمائة تكالب الطاغية على الأندلس وغدره بمدينة بطليوس، واعتزم على الإجازة لحمايتها قدم عساكر الموحدين إليها لنظر الشيخ أبي حفص، ونزل قرطبة، وأمر من كان بالأندلس من السادة أن يرجعوا إلى رأيه، فاستنقذ بطليوس من هوة الحصار، وكانت له في الجهاد هنالك مقامات مذكورة.

ولما انصرف من قرطبة إلى الحضرة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة هلك عفا الله عنه في طريقه بسلا ودفن بها، وكان أبناؤه من بعده يتناولون الإمارة بالأندلس والمغرب وأفريقية مع السادة من بني عبد المؤمن، فولى المنصور ابنه أبا سعيد على أفريقية لأول ولايته، وكان من خبرة مع عبد الكريم المنتزي بالمهدية ما ذكرناه. واستوزر أبا يحيى بن أبي محمد بن عبد الواحد، وكان في مقدمته يوم الأركة سنة إحدى وتسعين وخمسمائة فجلى عن المسلمين، وكان له في ذلك الموقف من الصبر والثبات ما طار له به ذكر. واستشهد في ذلك الموقف وعرف أعقابه ببني الشهيد آخر الدهر، وهم لهذا العهد بتونس.

ولما نهض الناصر إلى أفريقية سنة إحدى وستمائة، لما بلغه من تغلب ابن غانيةعلى

تونس فاسترجعها، ثم نازل المهديّة فتعاوت عليه ذئات الأغراب. وجمعهم ابن غانية ونزل قابس، فسرح الناصر إليهم أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص في عسكر من الموحدين، فأوقع بابن غانية بتاجرا من نواحي قابس سنة إثنتين وستمائة، وقتل جبارة أخو ابن عانية، وأثخن فيهم قتلاً وسبياً، واستنقذ منهم السيد أبا زيد بن يوسف بن عبد المؤمن الوالي كان بتونس، وأسره ابن غانية، ورجع إلى الناصر بمكانه من حصار المهدية، فكانت سبباً في فتحها. وكان ذلك مما حمل الناصر على ولاية الشيخ أبي محمد بأفريقية حسبما نذكره إن شاء الله.

الخبر عن إمارة أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص بأفريقية وهي أولية أمرهم بها:

لما تكالب ابن غانية وأتباعه على أفريقية واستولى على أمصارها، وحاصر تونس وملكها، وأسر السيد أبا زيد أميرها، ونهض الناصر من المغرب سنة إحدى وستمائة كما ذكرناه فاسترجعها من أيديهم وشردهم عن نواحيها. وخيم على المهدية يحاصرها، وقد أنزل ابن غانية ذخيرته وولده بها وأجلب في جموعه خلال ذلك على قابس، فسرح الناصر إليه الشيخ أبا محمد هذا في عساكر الموحدين. وزحف إليهم بتاجراً من جهات

قابس فهزمهم واستولى على معسكرهم وما كان بأيديهم، وأثخن فيهم بالقتل والسبي، واستنقذ السيد أبا زيد من أسرهم، ورجع إلى الناصر بعسكره من حصار المهدية ظافراً ظاهراً. وعاين أهل المهدية يوم مقدمه بالغنائم والأسرى فبهتوا وسقط في أيديهم، وسألوا التزول على الأمان. وكمل فتح المهدية، ورجع الناصر إلى تونس فأقام بها حولاً إلى منتصف سنة ثلاث وستمائة. وسرح أثناء ذلك أخاه السيد أبا إسحق ليتتبع المفسدين، ويمحو مواقع عيثهم فدوخ ما وراء طرابلس، وأثخن في بني دمر ومطماطة ونفوسة، وشارف أرض سرت وبرقة، وانتهى إلى سويقة ابن مذكور. وفر ابن غانية إلى صحراء برقة وانقطع خبره. وانكفأ السيد راجعاً إلى تونس. واعتزم الناصر على الرحلة إلى المغرب وقد أفاء على أفريقية ظل الأمر، وضرب عليهم

سرادق الحماية. وبدا له أن ابن غانية سيخالفه إليها، وأن مراكش بعيد عن الصريخ، وأنه لا بد من رجل يسد فيها مسدّ الخلافة ويقيم بها سوق الملك، فوقف اختياره على أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص، ولم يكن ليبعدوه لما كان عليه هو وأبوه في دولتهم من الجلالة، وأن أمر بني عبد المؤمن إنما تم بوفاق الشيخ أبي حفص ومظاهرته، وأنا أباه المنصور كان قد أوصى الشيخ أبا محمد به وبإخوته. وكان يوليه صلاة الصبح إذا حضر شغل وأمثال ذلك.

وسرى الخبر بذلك إلى أبي محمد فامتنع، وشافهه الناصر به فاعتذر، فبعث إليه ابنه يوسف فأكرم موصله. وأجاب على شريطة اللحاق بالمغرب بعد قضاء مهمات أفريقية في ثلاث سنين، وأن يختار عليهم من رجالات الموحدين، وأن لا يتعقب عليه في تولية ولا عزل، فقبل شرطه فنودي في الناس بولايته، ورفعت بين الموحدين رايته. وارتحل الناصر إلى المغرب، ورجع عنه الشيخ أبو محمد من باجة فقعد مقعد الإمارة بقصبة تونس في السبت العاشر من شوال سنة ثلاث وستمائة، وأنفذ أوامره، واستكتب أبا عبد الله محمد بن أحمد بن نخيل ورجع ابن غانية إلى نواحي طرابلس، فجمع أحزابه وأتباعه من العرب من سليم وهلال.

وكان فيهم محمد بن مسعود البلط في قومه من الذواودة، وعاودوا عيثهم، وخرج إليهم أبو محمد سنة أربع وستمائة في عساكر الموحدين. وتحيز إليه بنو عوف من سليم وهم: مرادس وعلاق فلقيهم بشبرو، وتواقعوا واحتربوا عامة يومهم، ونزل الصبر. ثم انفض عسكر ابن غانية آخر النهار، واتبعهم الموحدون والعرب واكتسحوا أموالهم، وأفلت ابن غانية جريحاً إلى أقصى مفره. ورجع أبو محمد إلى تونس بالظفر والغنيمة. وخاطب الناصر بالفتح واستنجاز وعده في التحول عن الولاية فخاطبه بالشكر والعذر بمهمات المغرب عن إدالته، وأنه يستأنف النظر في ذلك. وبعث إليه بالمال والخيل والكساء للإنفاق والعطاء. كان مبلغها مايتا ألف دينار إثنتان وألف وثمان مائة كسوة، وثلثمائة سيف، ومماية فرس، غير ما كان أنفذ إليه من سبتة وبجاية، ووعده

بالزيادة. وكان تاريخ الكتب سنة خمس وستمائة فاستمر أبو محمد على شأنه وترادفت الوقائع بينه وبين يحيى الميورقي كما نذكره إن شاء الله.

وقيعة تاهرت وما كان من أبي محمد في تلافيها واستنقاذ غنائمها:

كان يحيى بن غانية لما أفلت من وقيعة شبرو بدا له ليقصدن بلاد زناتة بنواحي تلمسان، وقارن ذلك وصول السيد أبي عمران بن موسى بن يوسف بن عبد المؤمن والياً عليها من مراكش، وخروجه إلى بلاد زناتة لتمهيد أنحائهم وجباية مغارمهم. وكتب إليه الشيخ أبو محمد نذيراً بشأنه، وأن لا يتعرض له وأنه في أتباعه فأبى من ذلك، وارتحل إلى تاهرت وصحبه بها ابن غانية فانفض معسكره. وفرت زناتة في حصونها، وقتل السيد أبو عمران. واستبيحت تاهرت فكان آخر العهد بعمرانها، وامتلأت أيديهم من الغنائم والسبي، وانقلبوا إلى أفريقية فاعترضهم الشيخ أبو محمد بموضع فأوقع بهم واستنقذ الأسرى من أيديهم، واكتسح سائر مغانمهم، وقتل فيها كثير من الملثمين. ولحق فلهم بناحية طرابلس إلى أن كان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى.

واقعة نفوسة ومهلك العرب والملثمين بها:

كان ابن غانية بعد واقعة شبرو واستفتاح أبي محمد تاهرت من يده خلص إلى جهات طرابلس، وتلاحق به فلّ الملثمين وأوليائه من العرب. وكان المجلي معه في مواقف الدواودة من رياح، وكبيرهم محمد بن مسعود فتدامروا واعتزموا على معاودة الحرب، وتعاقدوا الثبات والصبر وانطلقوا يستألفون الأعراب من كل ناحية، حتى اجتمع إليهم من ذلك أمم كان فيهم من رياح وزغب والشريد وعوف ودباب ونغاث. واختلفوا في الاحتشاد وأجمعوا دخول أفريقية فبادرهم أبو محمد قبل وصولهم إليها. وخرج من تونس سنة ست وستمائة وأغذّ السير إليهم، وتزاحفوا عند جبل نفوسة، واشتدت الحرب. ولما حمي الوطيس ضرب أبو محمد أبنتيه وفسطاطه. وتحيز إليه بعض الفرق من بني عوف بن سليم واحتل مصاف ابن غانية. واتبعه الموحدون إلى أن دخل في غيابات الليل وامتلأت أيديهم بالأسرى والغنائم، وسيقت ظعائن العرب. وقد كانوا قدموها بين أيديهم للحفيظة وأفذاذاً في الكّر والفرّ فأصبحت مغنما للموحدين وربات خدورهم سبياً.

وهلك في المعركة خلق من الملثمين وزناتة والعرب، كان فيهم عبد الله بن محمد بن مسعود البليط بن سلطان وشيخ الدواودة، وابن عمه حركات بن أبي شيخ بن عساكر بن سلطان وشيخ بني قرة وجرار بن ويغزن كبير مغراوة ومحمد بن الغازي بن غانية في آخرين من أمثالهم. وانصرف ابن غانية مهيض الجناح مفلول الحدّ عفوفاً بالبأس من جميع جهاته، وانقلب أبو محمد والموحدون أعزةً ظاهرين، واستفحل أمر أبي محمد بأفريقية وحسم علل الفساد منها واستوفى جبايتها. وطالت مواقف حروبه ولم تهزم له فيها راية. وهلك الناصر وولي ابنه يوسف المستنصر، واستبد عليه المشيخة لمكان صغره، وشغلوا بفتنة بني مَرين وظهورهم بالمغرب، فاستكفى بالشيخ أبي محمد في أفريقية وعول على غنائه فيها، وضبطه لأحوالها وقيامه بملكها فأبقاه على عملها، وسرب إليه الأموال لنفقاتها وأعطياتها، ولم يزل بها إلى أن هلك سنة ثمان عشرة وستمائة والله أعلم.

الخبر عن مهلك الشيخ أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص وولاية إبنه عبد الرحمن:

كانت وفاة الشيخ أبي محمد فاتح سنة ثمان عشرة وستمائة. ولما هلك ارتاع الناس لمهلكه، وافترق الموحدون في الشورى فريقين بين عبد الرحمن ابن الشيخ أبي

محمد وإبراهيم ابن عمه إسمعيل ابن الشيخ أبي حفص، فترددوا ملياً ثم اتفقوا على الأمير أبي زيد عبد الرحمن إبنه، وأعطوه صفقة أيمانهم، وأقعدوه بمجلس أبيه في الإمارة، فسكن الثائر وشمّر للقيام بالأمر عزائمه. وأفاض العطاء وأجاز الشعراء. واستكتب أبا عبد الله بن أبي الحسين، وخاطب المستنصر بالشأن. وخرج في عساكره لتمهيد النواحي وحماية الجوانب إلى أن وصل كتاب المستنصر بعزله لثلاثة أشهر من ولايته حسبما نذكره، فارتحل إلى المغرب ومعه إخوانه. وكاتبه ابن أبي الحسين ولحق بالحضرة.

الخبر عن ولاية السيد أبي العلا علي أفريقية وابنه أبي زيد من بعده وأخبارهم فيها واعتراضاهم في الدولة الحفصية:

لما بلغ الخبر إلى مراكش بمهلك أبي محمد بن أبي حفص، وقارن ذلك عزلة السيد أبي العلا من أشبيلية، ووصوله إلى الحضرة مسخوطاً: وهو أبو العلا إدريس بن يوسف عبد المؤمن أخو يعقوب المنصور، وعبد الواحد المخلوع المبايع له بعد ذلك. وعول على الوزير ابن المثنى في جبر حاله فسعى له عند الخليفة، وعقد له على أفريقية، ووصل الخطاب بولايته ونيابة إبراهيم بن إسمعيل ابن الشيخ أبي حفص عنه خلال ما يصل، واستقدام أبناء الشيخ أبي محمد إلى الحضرة. وقرىء الكتاب شهر ربيع الأول من سنة ثماني عشرة وستمائة، فقام الشيخ بالنيابة في أمره، واستعمل أحمد المشطب في وزارته، وغلب عليه بطانته، وأساء في الموالاة لقرابته. واختصّ أبناء الشيخ أبا محمد بقبيحة، وظن امتداد الدولة له. ووصل السيل أبو العلا شهر ذي القعدة من السنة، فنزل بالقصبة ونزل إبنه السيد أبا زيد بقصر ابن فاخر من البلد، ورتب الأمور ونهج السنن.

ولشهر من وصوله تقبض على محمد بن نخيل كاتب الشيخ أبي محمد، وعلى أخويه أبي بكر ويحيى، واستصفى أموالهم واحتاز عقارهم وضياعهم. وكان المستنصر عهد إليه بذلك، لما كان اشفه بفلتات من القول والكتاب تنمى إليه أيام رياسته في خدمة أبي محمد، فاعتقلهم السيد أبو العلا، ثم قتله وأخاه يحيى لشهر من اعتقالهما بعد أن فر من سجنه وتقبض فقتل. ونقل أبو بكر إلى مطبق المهدية فأردع به.

وخرج السيد أبو العلا من تونس سمة تسع عشرة وستمائة في عساكر الموحدين إلى نواحي قابس لقطع أسباب ابن غانية منها، فنزل قصر العروسيين، وسرح ولده السيد أبا زيد في عسكر من الموحدين إلى درج وغدامس من بلاد الصحراء لتمهيدها وجبايتها. وقدم بين يده عسكراً آخراً لمنازلة ابن غانية بودّان، وواعدهم هناك منصرفه من غدامس فأرجف بهم العرب في طريقهم بمداخلة ابن غانية. ومال بذله في ذلك فانفض العسكر، وزحفوا إلى قابس. وأهمل السيد أبو زيد في غدامس إليهم فلقيه خبر مفرهم. فلحق بأبيه وأخبره بالجلّي في أمرهم، فسخط قائد العسكر وهم بقتله. وطرق السيد أبا العلا المرض فرجع إلى تونس. وبلغه أن ابن غانية نهض من ودّان إلى الزاب، وأن أهل بسكرة أطاعوه فسرح السيد أبا زيد في عساكر الموحدين إليه، ودخل ابن غانية الرمل فأعجزهم.

ورجع السيد أبو زيد إلى بسكرة فأنزل بهم عقابه من النهب والتخريب، ورجع إلى تونس. ثم بلغه أن ابن غانية قد رجع إلى جوانب أفريقية، واجتمع إليه أخلاط من العرب والبربر، فسرح السيد أبا زيد إليه في

العساكر ونزل بالقيروان، وخالفه ابن غانية إلى تونس فقصده السيد أبو زيد ومعه العرب وهوّارة بظعائنهم ومواشيهم. وتزاحفوا بمجدول فاتح إحدى وعشرين وستمائة، واشتد القتال وعضت الموحدون الحرب، وأبلى هوّارة وشيخهم بعرة ابن حناش بلاء جميلاً. وضرب بنتيه وتناغوا في الثبات والصبر فانهزم الملثّمون وانجلت المعركة عن حصيد من القتلى من أصحاب ابن غانية، واستولى الموحدون على معسكرهم.

وكان بلغ السيد أبا زيد خبر مهلك أبيه السيد أبي العلا بتونس في شعبان سنة عشرين وستمائة. فلما فرغ من مواقعة ابن غانية رجع إلى تونس وأقصر عن متابعته. وخاطب المستنصر بمهلك أبيه وواقعه الملثّمين، وكان المستنصر قد عزله واستبدل منه بأبي

يحيى بن أبي عمران التينمللي صاحب ميورقة، ولم يصل إليه الخبر بعزله بعد. وهلك الملك المستنصر إثر ذلك سنة عشرين وستمائة، وولي عبد الواحد المخلوع ابن يوسف بن عبد المؤمن فنقض تلك العقدة، وكتب إلى السيد أبي زيد بالإبقاء على عمله، ونقض ما أصدر المستنصر من عزله، فأرسل عنانه في الولاية، وبسط يده في الناس بمكروهه، وتنكرت له الوجوه، وانحرف عنه الناس، بما كانوا عليه من الصاغية لأبي محمّد بن أبي حفص وولده، إلى أن عزل واستبدل بهم كما نذكره، وركب البحر بذخائره وأهله فلحق بالحضرة.

الخبر عن ولاية أبي محمد عبد الله بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص وما كان فيها من الأحداث:

لما هلك المخلوع وولي العادل، ولى على أفريقية أبا محمد عبد الله بن أبي محمد عبد الواحد. وولى على بجاية يحيى بن الأطاس التينمللي، وعزل عنها ابن يغمور. وكتب إلى السيد أبي زيد بالقدوم. وكتب أبو محمد عبد الله إلى ابن عمه موسى بن إبراهيم ابن الشيخ أبي حفص بالنيابة عنه خلال ما يصل، فخرج السيد أبو زيد في ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وستمائة، واستقل أبو عمران موسى بأمر أفريقية، واستمرت نيابته عليها زهاء ثمانية أشهر. وخرج أبو محمد عبد الله من مراكش إلى أفريقية.

ولما انتهى إلى بجاية قدم بين يديه أخاه الأمير أبا زكريا ليعترضه طبقات الناس للقائه، فوصل إلى تونس في شعبان من هذه السنة بعد أن أوقع في طريقه بولهاصة. وكان أولاد شدّاد رؤساؤهم قد جمعوا لاعتراضه بناحية بونة، فسرح أخاه الأمير أبا زكريّا لحسم دائهم ولخروج الطبقات من أهل الحضرة للقائه فكان كذلك.

وخرج في رمضان من سنته، وخرج معه الناس على طبقاتهم فلقوه بسطيف، ووصل إلى الحضرة في ذي القعدة من آخر السنة، وتزحزح أبو عمران عن النيابة. ثم لحقه من المغرب أخوه أبو إبراهيم في صفر سنة أربع وعشرين وستمائة، فعقد له على بلاد قسطيلية وعقد لأخيه الأمير أبي زكريا على قابس وما إليها، وذلك في جمادى من

هذه السنة.

وبعد استقراره بتونس بلغه أن ابن غانية دخل بجاية عنوة، ثم تخطى كذلك إلى تدلس، وأنه عاث في تلك الجهات فرحل من تونس وعقد لأخويه كما ذكرناه. وأغذّ السير إلى فحص أبة فصبح به هوّارة، وقد كان بلغه عنهم السعي في الفساد، فأطلق فيهم أيدي عسكره، واعتقل مشايخهم وأنفذهم إلى المهدية. ثم مر في

أتباع ابن غانية، فانتهى إلى بجاية، وسكن أحوالها، ثم إلى متيحة ومليانة فأدركه الخبر أن ابن غانية قصد سجلماسة فانكفأ راجعاً إلى تونس ودخلها في رمضان سنة أربع وعشرين وستمائة، و لم يزل مستبداً بإمارته إلى أن ثار عليه الأمير أبو زكريا، وغلبه على الأمر كما نذكر.

الخبر عن ولاية الأمير أبي زكريا ممهد الدولة لآل أبي حفص بأفريقية ورافع الراية لهم بالملك وأولية ذلك وبدايته:

لما قتل العادل بمراكش سنة أربع وعشرين وستمائة، وبويع المأمون بالأندلس بعث إلى أبي محمد عبد الله بتونس ليأخذ له البيعة على من بها من الموحدين. وكان المأمون قد فتح أمره بالخلاف، ودعا لنفسه قبل موت أخيه العادل بأيام، فامتنع أبو محمد ورد رسله إليه، فكتب بذلك لأخيّه الأمير أبي زكريا وهو بمكانه من ولاية قابس. وعقد له على أفريقية فأخذ له البيعة على من إليه، وداخله في شأنها ابن مكي كبير المشيخة بقابس. واتصل ذلك بأبي محمد فخرج من تونس إليهم. ولما انتهى إلى القيروان نكر عليه الموحدون نهوضه إلى حرب أخيه، وانتقضوا عليه وعزلوه. وطير بالخبر إلى أخيه في وفد منهم فألفوه معملاً في اللحاق برخاب بن محمد وأعراب طرابلس، فبايعوه ووصلوا به إلى معسكرهم. وخلع أبو محمد نفسه، ثم ارتحل الأمير أبو زكريا إلى تونس فدخلها في رجب من سنة خمس وعشرين وستمائة، وأنزل أخاه

أبا محمد بقصر ابن فاخر، وتقبض على كاتبه أبي عمرو طرا من الأندلس. واستكتبه أبو محمد فغلب على هوّاه، وكان يغريه بأخيه، فبسط الأمير أبو زكريا عليه العذاب إلى أن هلك. ثم بعث أخاه أبا محمد في البحر إلى المغرب فاستبد بملكه، واستوزر ميمون بن موسى الهنتاتي، واستقامت أموره.

الخبر عن استبداد الأمير أبي زكريا بالأمر لبني عبد المؤمن:

لما اتصل به ما أتاه المأمون من قتل الموحدين بمراكش، وخصوصاً هنتاتة وتينملل. وكان منهم أخواه أبو محمد عبد الله المخلوع وإبراهيم، وأنه أشاع النكير على المهديّ في العصمة، وفي وضع العقائد والنداء للصلوات باللسان البربري، وإحداث النداء للصبح وتربيع شكل الدرهم وغير ذلك من سننه. وأنه غير رسوم الدعوة، وبدل أصول الدولة. وأسقط إسم الإمام من الخطبة والسكّة وأعلن بلعنه. ووافق بلوغ الخبر بذلك وصول بعض العمال إلى تونس بتولية المأمون فصرفهم، وأعلن بخلعه سنة ست وعشرين وستمائة. وحول الدعوة إلى يحيى ابن أخيه الناصر المنتزي عليه بجبال الهساكرة. ثم اتصل به بعد ذلك عجز يحيى واستقلاله، فأغفله واقتصر على ذكر الإمام المهدي، وتلقب بالأمير ورسم علامته به في صدور مكتوباته. ثم جدد البيعة لنفسه سنة أربع وثلاثين وستمائة، وثبت ذكره في الخطبة بعد ذكر الإمام مقتصراً على لفظ الأمير لم يجاوزه إلى أمير المؤمنين. وخاض أولياء دولته في ذلك حتى رفع إليه بعض شعرائه في مفتتح كلمة مدحه بها:

الأصل بالأمير المؤمنينا فأنت بها أحق العالمينا

فزحزحهم عن ذلك وأبى عنه، و لم يزل على ذلك إلى آخر دولته.

الخبر عن فتح بجاية وقسطنطينة:

لما استقل الأمير أبو زكريا بالأمر بتونس، وخلع بني عبد المؤمن، نهض إلى قسنطينة

سنة ست وعشرين وستمائة، فنزل بساحتها وحاصرها أياماً. ثم داخله ابن علناس في شأنها وأمكنه من غرتها فدخلها، وتقبض على واليها السيد ابن السيد أبي عبد الله الخرصاني بن يوسف العشري. وولى عليها ابن النعمان. ورحل إلى بجاية فافتتحها، وتقبّض على واليها السيد أبي عمران ابن السيد أبي عبد الله الخرصاني وصيرهما معتقلين في البحر إلى المهديّة. واجريت عليهما هنالك الأرزاق، وبعث بأهلهما وولدهما مع ابن أوماز إلى الأندلس، فنزلوا بأشبيلية. وبعث معهما إلى المهدية في الاعتقال محمد بن جامع وابنه وابن أخيه جابر بن عون بن جامع من شيوخ مرداس عوف، وابن أبي الشيخ بن عساكر من شيوخ الذواودة، فاعتقلوا بمطبق المهدية وكان أخوه أبو عبد الله اللحياني صاحب أشغال بجاية فصار في جملته، وولاه بعدها الولايات الجليلة، وكان يستخلفه بتونس في مغيبه. وفي هذه السنة تقبض على وزيره ميمون بن موسى واستصفى أمواله، وأشخصه إلى قابس فاعتقل بها مدة. ثم غربه إلى الإسكندرية، واستوزر مكانه أبا يحيى بن أبي العلا بن جامع، إلى أن هلك؛ فاستوزر بعده أبا زيد ابن أخيه الاخر محمد إلى أن هلك.

الخبر عن مهلك ابن غانية وحركة السلطان إلى بجاية وولاية ابنه الأمير أبي يحيي زكريا عليها:

لما استقل الأمير أبو زكريا بأفريقية وخلع طاعة بني عبد المؤمن صرف عزمه أولا إلى مدافعة يحيى بن غانية عن نواحي أعماله، فكانت له في ذلك مقامات مذكورة، وشرده عن جهات طرابلس والزاب ووارکلا. واختطّ بواركلا المسجد لما نزلها في أتباعه، وأنزل بالأطراف عساكره وعماله لمنعها دونه. ولم يزل ابن غانية وأتباعه من العرب من أفاريق سليم وهلال وغيرهم على حالهم من التشريد والجلاء، إلى أن هلك سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وانقطع عقبه فانقطع ذكره، ومحا الله آثار فتنته من الأرض. واستقام أمر الدولة ونبضت منها عروق الاستيلاء واتساع نطاق الملك.

ونهضت عزائمه إلى تدويخ أرض المغرب فخرج من تونس سنة إثنتين وثلاثين وستمائة يؤم بلاد زناتة بالمغرب الأوسط. وأغذ السير إلى بجاية فتلّوم بها. ثم ارتحل إلى الجزائر فافتتحها وولّى عليها. ثم نهض منها إلى بلاد مغراوة فأطاعه بنو منديل بن عبد الرحمن. وجاهر بنو توجين بخلافه فنزل البطحاء وأوقع بهم. وتقبض على رئيسهم عبد القوي بن العباس فاعتقله، وبعث به إلى تونس ودوخ المغرب الأوسط وقفل راجعاً إلى حضرته. وعقد مرجعه من المغرب لابنه الأمير أبي يحيى زكريا علي بجاية وأنزله بها. واستوزر له يحيى بن صالح بن إبراهيم الهنتاتي وجعل شواره لعبد الله بن أبي مهدى، وجبايته لعبد الحق بن ياسين، وكلهم من هنتاتة. وكتب إليه بوصيته مشتملة على جوامع الخلال في الدين والملك والسياسة، يجب إثباتها لشرف مغزاها وغرابة معناها ويأتي نصّها فيما بعد.

الخبر عن سطوة السلطان بهوارة:

كان لهوّارة هؤلاء بأفريقية ظهور وعدد منذ عهد الفتح، وكانت دولة العبيديّين قد جرت عليهم بكلكلها لما كان منهم في فتنة أبي يزيد كما نذكره في أخبارهم. وبقي منهم فلّ بجبل أوراس وما بعده من بلاد أفريقية

وبسائطها إلى أبّة ومرماجنة وسبيبة وتبرسق. ولما انقرض ملك صنهاجة بالموحدين وتغلب الأعراب من هلال وسليم على سائر النواحي بأفريقية، وكثروا ساكنها، وتغلبوا عليهم أخذ هذا الفل بمذهب العرب وشعارهم وشارتهم في اللبوس والزي والظعون وسائر العوائد. وهجروا لغتهم العجمية إلى لغتهم، ثم نسوها كأن لم تكن لهم، شأن المغلوب في الاقتداء بغالبه. ثم كان لهم انحياش أول الدولة إلى الطاعة بغلب عبد المؤمن وقومه. فلما استبد الأمير أبو زكريا، وانقلبت الدولة إلى بني أبي حفص ظهر منهم التياث في الطاعة، وامتناع عن المغرم، وأضرار بالسابلة، فاعتمل السلطان في أمرهم. وخرج من تونس سنة ست وثلاثين وستمائة مورياً بالغزو إلى أهل أوراس، وبعث في احتشادهم فتوافدوا في معسكره. ثم صبحهم في عسكره من الموحدين والعرب ففتك بهم قتلاً وسبياً، واكتسح أموالهم وقتل كبيرهم أبو الطيب بعرة ابن حناش وأفلت من أفلت منهم ناجياً بنفسه، عارياً من كسبه، فألانت هذه البطشة من حدّهم وخضّدت من شوكتهم، واستقاموا على الطاعة بعد.

الخبر عن ثورة الهرغي بطرابلس ومآل أمره:

كان هذا الرجل من مشيخة الموحدين وهو يعقوب بن يوسف بن محمد الهرغي ويكنّى بأبي عبد الرحمن، وكان الأمير أبو زكريا وقد عقد له على طرابلس وجهاتها، وسرّح معه معسكراً من الموحدين لحمايتها من أعراب دباب من بني سليم، فقام بأمرها واضطلع بجباية رعاياها. واستخدم العرب والبربر الذين بساحتها وكان بينه وبين الجوهري مصدوقة ود. فلما قتل الجوهري سنة تسع وثلاثين وستمائة كما قدّمناه استوحش لها يعقوب الهرغي واستقدمه السلطان فتلكّأ، وبعث عنه أخاه ابن أبي يعقوب فازداد نفاره، وحدثته نفسه بالاستبداد لما كان أثرى من الجباية وشعر لها أهل البلد. فانطلقوا وهم يتخافون أن يعاجلوه قبل مداخلته العرب في أمره، فتقبّضوا عليه وعلى أخيه وعلى أتباعهما ليلة أجمعوا الثورة في صباحها. وطيّروا بالخبر إلى الحضرة فنفذ الأمر بقتلهم فقتلوا، وبعث برؤوسهم إلى باب السلطان، ونصبت أشلاؤهم بأسوار طرابلس، وأصبحوا عبرةّ للمعتبرين وأنشد الشعراء في التهنية بهم وقامت للبشائر سوق لكائنتهم.

وكان ممن قتل معه محمد ابن قاضي القضاة بمراكش أبي عمران بن عمران. وصل علقا إلى تونس وقصد طرابلس فاتصل بهذا الهرغي، ونمى عنه أنه أنشأ خطبة ليوم البيعة فكانت سائقة حتفه. وكان بالمهديّة رجل من الدعاة يعرف بأبي حمراء اشتهر بالنجدة في غزو البحر وقدّم على الأسطول فردّد الغزو حتى هابه الغزّى من امم الكفر، وأمنت سواحل المسلمين من طروقهم. وطار له فيها ذكر ونمي أنه كان مداخلاً للجواهري والهرغي، وأن القاضي بالمهدية أبا زكريا البرقي اطلع على دسيستهم في ذلك، فنفذ الأمر السلطاني للوالي بها أبي علي بن أبي موسى بن أبي
حفص بقتل ابن أبي الأحمر، وإشخاص القاضي إلى الحضرة معتقلاً، فأمضى عهده. ولما وصل البرقي إلى تونس فحص السلطان عن شأنه فبرىء من مداخلتهم، فسرّحه وأعاده إلى بلده. وقتل بالحضرة رجل آخر من الجند

اتهم بمداخلتهم وسعايته في قيامهم، وكان له تعلق برحاب بن محمود أمير دباب، فأوعز السلطان إلى بعض الدعار من زناتة، فقتله غيلة ثم أهدر دمه. وتتبع أهل هذه الخائنة بالقتل حتى حسم الداء، ومحا شوائب الفتنة.

الخبر عن بيعة بلنسية ومرسية وأهل شرق الأندلس ووفدهم:

لما استقلّ أبو جميل زيّان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجّاج بن سعد ابن مردنيش بملك بلنسية، وغلب عليها السيّد أبا زيد ابن السيد أبي حفص، وذلك عند خمود ريح بني عبد المؤمن بالأندلس، وخروج ابن هود على المأمون، ثم فتنته هو مع ابن هود، وثورة ابن الأحمر بأرجونة، واضطراب الأندلس بالفتنة. وأسف الطاغية إلى ثغور الأندلس من كل جانب. وزحف ملك أرغون إلى بلنسية فحاصرها وكانت للعدو سنة ثلاث وثلاثين وستمائة سبع محلاّت لحصار المسلمين: إثنتان منها على بلنسية، وجزيرة شقر وشاطبة. ومحلة بجيان ومحلة بطبيرة ومحلة بمرسية ومحلة بلبلة، وأهل جنوة من وراء ذلك على سبتة.

ثم تملّك طاغية قشتالة مدينة قرطبة، وظفر طاغية أرغون بالكثير من حصون بلنسية والجزيرة، وبنى حصن أنيشة لحصار بلنسية. وأنزل بها عسكره وانصرف، فاعتزم زيان بن مردنيش على غزو من بقي بها من عسكره، واستنفر أهل شاطبة وشقر وزحف إليهم فانكشف المسلمون، واصيب كثير منهم. واستشهد أبو الربيع بن سالم شيخ المحدثين بالأندلس، وكان يوماً عظيماً، وعنواناً على أخذ بلنسية ظاهراً. ثم ترددت عليها سرايا العدو. ثم زحف إليها طاغية أرغون في رمضان سنة خمس وثلاثين وستمائة فحاصرها واستبلغ في نكايتها. وكان بنو عبد المؤمن بمراكش قد فشل ريحهم، وظهر أمر بني أبي حفص بأفريقية، فأمّل ابن مردنيش وأهل شرق

الأندلس الأمير أبا زكريا للكّرة، وبعثوا إليه بيعتهم، وأوفد عليه ابن مردنيش كاتبه الفقيه أبا عبد الله بن الأبار صريخاً، فوفد وأدّى

بيعتهم في يوم مشهود بالحضرة، وأنشد في ذلك المحفل قصيدته على روي السين، يستصرخه فيها للمسلمين وهي هذه:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا		إن السبيل إلى منجاتها درس

وهب لها من عزيز النصر ما التمست		فلم يزل منك عزالنصرملتمسا

عاش مما تعانيه حشاشتها		فطالما ذاقت البلوى صياح مسا

يا للجزيرة اضحى اهلها جزراً		للنائبات وامسى جدّها تعسا

في كلّ شارقة إلمام بائقةٍ		يعود مأتمها عند العدى عرسا

وكلّ غاربةٍ أجحاف نائبةٍ		تثني الامان حذاراً والسرور أسا

قاسم الروم لا نالت مقاسمهم		إلا عقائلها المحجوبة ما الأنسا

وفي بلنسيةٍ منها وقرطبة		ما يذهب النفس او ما يترف النفسا

مدائن حلّها الأشراك مبتسماً		جذلان وارتحل الإيمان منبئسا

وصيّرتها العوادي عائثات بها يستوحش الطرف منها ضعف ما إنسا
ما للمساجد عادت للعدى بيعاً وللنداء يرى أثناءها جرسا
لهفاً عليها إلي استرجاع فائتها مدارساً للمثاني اصبحت درسا
وأربعاً غنمت ايدي الربيع بها ما شئت خلعً من موشيّةٍ وكسا
كانت حدائق للاحداق مونقةً فصوخ النضر من أدواحها وعسا
وحال ماحولها من منظرٍ عجبٍ يستوقف الركب او يستركب الجلسا
سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا عيث الدبا في مغانيها التي كبسا
وابتزّ بزتها مما تحيّفها تحيف الأسد الضاري لما افترسا
فأين عيش جنيناه بها خضراً واين غصن جنيناه بها سلسا
محا محاسنها طاغٌ اتيح لها ما نام عن هضمها حيناً وما نعسا
ورج أرجاءها لمّا أحاط بها فغادر الشمّ من أعلامها خنسا
خلا له الجوّ وامتدّت يداه إلى إدراك ما لم تنل رجلاه مختلسا
وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
صل حبلها أيها المولى الرحيم فما أبقى المراس لها حبلاً ولا مرسا
وأحي ما طمست منها العداة كما احييت من دعوة المهديً ما طمسا
أيام صرت لنصر الحق مستبقاً وبت من نور ذاك الهدي مقتبسا
وقمت فيها لامر الفه منتصراً كالصارم اهتزّأو كالعارض انبجسا
تمحو الذي كتب التجسيم من ظلمً والصبح ماحية أنواره الغلسا
هذي رسائلها تدعوك من كتب وأنت أفضل مرجوّ لمن يئسا
وافتك جارية بالنجح راجية منك الأمير الرضي والسيّد الندسا
خاضت خضارة يعلوها ويخفضها عبابه فتعاني اللين والشرسا
وربما سبحت والريح عاتية كما طلبت بأقصى شدة الفرسا
تؤمّ يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص مقبلة من تربه القدسا
ملك تقلّدت الاملاك طاعته دنياً ودنيا فغشّاها الرضي لبسا
من كلّ غادٍ على يمناه مستلما وكل صادٍ إلى نعماه ملتمسا
مؤيّد لورمى نجما لأثبته ولودعا أفقاً لبّى وما احتبسا
أمارة تحمل المقدار رايتها ودولة عزها يستصحب القعسا
يبدي النهار بها من ضوئه شنبا ويطلع الليل من ظلمائه لعسا
كأنّه البدر والعلياء حالته تحفّ من حوله شهب القنا حرسا

له الثرى والثريّا خطّتان فلا | اعزّمن خطّتيه ما سما ورسا
يأيّها الملك المنصور انت لها | علياء توسع أعداء الفدى تعسا
وقد تواترت الانباء أنّك من | يحيى بقتل ملوك الصفر أندلسا
طهّر بلادك منهم إنّهم نجس | ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
وأوطئ الفيلق الجرّار أرضهم | حتّى يطأطىء رأس كل من رأسا
وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت | عيونهم أدمعا همي زكا وخسا
هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت | داءً متى لم تباشر حسمه انتكسا
اما هنيئاً لك التمكين ساحتها | جردا سلاهب او خطّية دعسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه | لعلّ يوم الأعادي قد أتى وعسا

فأجاب الأمير أبو زكريا داعيتهم، وبعث إليهم أسطوله مشحوناً بمدد الطعام والأسلحة والمال، مع أبي يحيى بن يحيى ابن الشهيد أبي إسحاق بن أبي حفص. وكانت قيمة ذلك مائة ألف دينار. وجاءهم الأسطول بالمدد وهم في هذا الحصار، فتزG بمرسى دانية واستفرغ المدد بها ورجع بالناضّ إذا لم يخلص إليه من قبل ابن مردنيش من يتسلمه. واشتد الحصار على أهل بلنسية، وعدمت الأقوات وكثر الهلاك من الجوع، فوقعت المراوضة على إسلام البلد فتسلّمها جاقمة ملك أرغون في صفر سنة ست وثلاثين وستمائة، وخرج عنها ابن مردنيش إلى جزيرة شقر، فأخذ البيعة على أهلها للأمير أبي زكريا. ورجع ابن الأبّار إلى تونس، فتزل على السلطان وصار في جملته، وألحّ العدو على حصار ابن مردنيش بجزيرة شقر، وأزعجه عنها إلى دانية فدخلها في رجب من سنته، وأخذ عليهم البيعة للأمير أبي زكريا.

ثم داخل أهل مرسية، وقد كان بويع بها أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن خطاب في مفتتح السنة، فافتتحها عليه في رمضان من سنته وقتله، وبعث ببيعتهم إلى الأمير أبي زكريا. وانتظمت البلاد الشرقية في طاعته، وانقلب وفد ابن مردنيش إليه من تونس بولايته على عمله سنة سبع وثلاثين وستمائة، ولم يزل بها إلى أن غلبه ابن هود على مرسية، وخرج عنها إلى لقنص الحصون سنة ثمان وثلاثين وستمائة، إلى أن أخذها طاغية برشلونة من يده سنة أربع وأربعين وستمائة، وأجاز إلى تونس، والبقاء لله.

الخبر عن المجوسي وأوليته ومال أمره:

اسم هذا الرجل: محمد بن محمد الجوهري، وكان مشتهراً بخدمة ابن أكمازير الهنتاتي والي سبتة وغمارة من أعمال المغرب. وكان حسن الضبط مترامياً إلى الرياسة. ولما ورد على تونس وتعلق بأعمال السلطان نظر فيما يزلفه ويرفع من شأنه فوجد جباية أهل الخيام بأفريقية من البرابرة الموّطنين مع الأعراب غير منضبطة ولا محصلة في ديوان، فنبه على أنها مأكلة للعمّال ونهبة للولاة، فدفع إليها فأنمى جبايتها وقرر ديوانها، وصارت عملاً منفرداً يسمى عمل العمود وطار له بذلك بين العمال ذكر، جذب له السلطان أبو زكريا بضبعه، وعوّل على نصيحته وأثره باختصاصه. ووافق ذلك موت أبي الربيع الكنفيتي المعروف بابن الغريغر صاحب الأشغال

بالحضرة، فاستعمل مكانه وكان لا يلي ذلك الخطّة إلا كبير من مشيخة الموحدين فرشحه السلطان لها لكفايته وعنائه، فظفر منها بحاجة نفسه، واعتدها ذريعة إلى امنيته، فاتخذ شارة أرباب السيوف، وارتبط الخيل واتخذ الآلة في حروبه مع أهل البادية إذا احتاج إليها.

وأسف أثناء ذلك أبا علي بن النعمان وأبا عبيد الله بن أبي الحسن بعدم الخضوع لهما، فنصبا له، وأغريا به السلطان، وحذّراه غائلة عصيانه. وكان فيه إقدام أوجد به السبيل على نفسه، ويحكى أن السلطان استشاره ذات يوم في تقويم بعض أهل الخلاف والعصيان فقال له: عندي ببابك ألف من الجنود أرم بها من تشاء من أمثالهم، فأعرض عنه السلطان واعتدّها عليه. وجعلها مصداقاً لما نمي عنه. ولما

قدم عنه عبد الحق بن يوسف بن ياسين على الأشغال ببجاية مع زكريا ابن السلطان، أظهر له الجوهري أن ذلك بسعايته، وعهد إليه بالوقوف عند أمره والعمل بكتابه فألقى عبد الحق ذلك إلى الأمير أبي زكريا فقام لها وقعد، وأنف من استبداد الجوهري عليه. و لم تزل هذه وأمثالها تعد عليه حتى حق عليه القول فسطا به الأمير أبو زكريا وتقبض عليه سنة تسع وثمانين وستمائة وستمائة وستمائة وستمائة، ووكل امتحانه إلى أعدائه ابن برعان والندرومي، فتجلد على العذاب وأصبح في بعض أيامه ميتاً بمحبسه. ويقال خنق نفسه والقي شلوه بقارعة الطريق فتفنن أهل الشمات في العيث به، وإلى الله المصير.

الخبر عن فتح تلمسان ودخول بني عبد الواد في الدعوة الحفصية:

كان الأمير أبو زكريا منذ استقل بأمر أفريقية واقتطعها عن بني عبد المؤمن كما ذكرناه متطاولاً إلى ملك الحضرة بمراكش والاستيلاء على كرسي الدعوة. وكان يرى أن بمظاهرة زناتة له على شأنه يتم له ما يسمو إليه من ذلك، فكان يداخل أمراء زناتة فيه ويرغبهم ويراسلهم بذلك على الأحياء من بني مَرين وبني عبد الواد وتوجين ومغراوة. وكان يغمراسن منذ تقلد طاعة آل عبد المؤمن أقام دعوتهم بعمله متحيزاً إليهم سلماً لوليهم وحرباً على عدوهم. وكان الرشيد منهم قد ضاعف له البر والخلوص، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة، وعاوده الإتحاف بأنواع الألطاف والهدايا تيمماً لمسراته، وميلاً إليه عن جانب أقتاله بني مَرين المجلبين على المغرب والدولة، فاستكبر السلطان أبو زكريا اتصال الرشيد هذا بيغمراسن وآله، وهم جواره بالمحل القريب. وبينما هو على ذلك إذ وفد عليه عبد القوي أمير بني توجين وبعض ولد منديل بن عبد الرحمن أمراء مغراوة صريخاً على يغمراسن فسهلوا له أمره، وسوّلوا له الاستبداد على تلمسان. وجمع كلمة زناتة، وإعداد ذلك ركاباً لما يرومه من امتطاء ملك

الموحدين بمراكش وانتظامه في أمره وسلماً لارتقاء ما يسمو إليه من ملكه، وباباً لولوج المغرب على أهله، فحركه أملاؤهم وهزّه إلى النعرة صريخهم، وأهاب بالموحدين وسائر الأولياء والعساكر إلى الحركة على تلمسان. واستنفر لذلك سائر البدو من الأعراب الذين في طاعته من بني سليم ورياح بظعنهم، فأهطعوا لداعيه. ونهض سنة تسع وثلاثين وستمائة في عساكر ضخمة وجيوش وافرة. وسرح إمام حركته عبد القوي بن العباس وأولاد منديل بن محمد لحشد من بأوطانهم من أحياء زناتة وذؤبان قبائلهم وأحياء زغبة أحلافهم

من العرب. وضرب معهم موعدا لموافاتهم في تخوم بلادهم. ولما نزل صحراء زاغر قبلة تيطري منتهى مجالات رياح وبني سليم من المغرب، تثاقل العرب عن الرحلة بظعنهم في ركاب السلطان، وتلووا بالمعاذير فألطف الأمير أبو زكريا الحيلة. زعموا في استنهاضهم وتنبيه عزائمهم، فارتحلوا معه حتى نازل تلمسان بجميع عساكر الموحدين وحشود زناتة وظعن العرب بعد أن كان قدم إلى يغمراسن الرسل من مليانة بالأعذار والدعاء إلى الطاعة، فرجعهم بالخيبة. ولما حلت عساكر الموحدين بساحة البلد، وبرز يغمراسن وجموعه للقاء بصحبتهم ناشية السلطان بالنبل، فانكشفوا ولاذوا بالجدران وعجزوا عن حماية الأسوار، فاستمكنت المقاتلة من الصعود. ورأى يغمراسن أن قد احيط بالبلد فقصد باب العقبة من أبواب تلمسان ملتفاً في ذوبه وخاصته. واعترضه عساكر الموحدين فصمم نحوهم وجندل بعض أبطالهم فأفرجوا له، ولحقوا بالصحراء ونسلت الجيوش إلى البلد من كل حدب، فاقتحموه وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان واكتساح الأموال.

ولما تجلى غشي تلك الهيعة، وحسر تيار الصدمة، وخمدت نار الحرب، راجع الموحدون بصائرهم وأنعم الأمير أبو زكريا نظره فيمن يقلده أمر تلمسان والمغرب الأوسط، ويترله بثغرها لإقامة دعوته الدائلة من دعوة بني عبد المؤمن والمدافعة عنها. واستكبر ذلك أشرافهم وتدافعوه وتبّرأ أمراء زناتة ضعفاً عن مقاومة يغمراسن علماً بأنه الفحل الذي لا يقرع أنفه، ولا يطرق غيله ولا يصد عن فريسته.

وسرّح يغمراسن الغارات في نواحي المعسكر فاختطف الناس من حوله، واطلعوا من

المراقب عليه. ثم بعث وفده متطارحين على السلطان في الملامة والاتفاق، واتصال اليد على صاحب مراكش طالب الوتر في تلمسان وأفريقية. وأن يفرده بالدعوة الموحدية فأجابه إلى ذلك. ووفدت أمّه سوط النساء للاشتراط والقبول فأكرم موصلها وأسنى جائزتها، وأحسن وفادتها ومنقلبها، وسوّغ ليغمراسن في شرطه بعض الأعمال بأفريقية، وأطلق أيدي عماله على جبايته، وارتحل إلى حضرته لسبع عشرة ليلة من نزوله.

وفي أثناء طريقه وسوس إليه الموحدون باستبداد يغمراسن، وأشاروا بإقامة منافسيه من زناتة وأمراء المغرب الأوسط شجى في صدره، ومعترضاً عن مرامه، وإلباسهم ما لبس من شارة السلطان وزيه، فأجابهم وقلد كلاً من عبد القوي بن عطية التوجيني، والعباس بن منديل المغراوي ومنصور المليكشي أمر قومه ووطنه، وعهد إليهم بذلك وأذن لهم في اتخاذ الآلة والمراسم السلطانية على سنن يغمراسن قريعهم، فاتخذوه بحضرته وبمشهد من ملأ الموحدين. وأقاموا مراسمها ببابه. وأغذّ السير إلى تونس قرير العين بامتداد ملكه، وبلوغ وطره والإشراف على إذعان المغرب لطاعته وانقياده لحكمه، وإدالة دعوة بني عبد المؤمن فيه بدعوته، فدخل الحضرة واقتعد أريكته وأنشده الشعراء في الفتح، وأسنى جوائزهم وتطاولت إليه أعناق الآفاق كما نذكره.

الخبر عن دخول أهل الأندلس في الدعوة الحفصية ووصول بيعة إشبيلية وكثير من أمصارها:

كان بأشبيلية أبو مروان أحمد الباجي من أعقاب أبي الوليد وأبو عمرو بن الجدّ من أعقاب الحافظ أبي بكر الطائر الذكر، ورثا التجلّة عن جدهما وأجراهما الخلفاء على سننهم. وكانا مسمتين وقورين متبوعين من أهل بلدهما مطاعين في أفقهما. وكان السادة من بني عبد المؤمن يعولون على شوراهما في مصرهما. وكان بعدوة

الأندلس التياث في الملك منذ وفاة المستنصر، وانتزى بها السادة وافترقوا. وثار بشرق الأندلس ابن هود وزيان بن مردنيش، وبغربها ابن الأحمر. وغلب ابن هود الموحدين

وأخرجهم عنها. وملك ابن هود أشبيلية سنة ست وعشرين وستمائة واعتقل من كان بها من الموحدين. ثم انتقضوا عليه سنة تسع وستمائة بعدها وأخرجوا أخاه أبا النجاة سالماً، وبايعوا الباجي وتسمى بالمعتضد، واستوزر أبا بكر بن صاحب الرد، ودخلت في بيعته قرمونة وحاصره ابن هود فوصل الباجي يده بمحمد بن الأحمر الثائر بأرجونة وجيان بعد أن ملك قرطبة.

وزحف ابن هود إليهم فلقوه وهزموه، ورجعوا ظافرين، فدخل الباجي إلى أشبيلة وعسكر بخارجها، ثم انتهز فرصته في أشبيلية وبعث قريبه ابن أشقيلولة مع أهل أرجونة والنصارى إلى فسطاط الباجي فتقبضوا عليه وعلى وزيره وقتلوهما سنة إحدى وثلاثين وستمائة. ودخل ابن الأحمر أشبيلية، ولشهر من دخوله إليها ثار عليه أهلها ورجعوا إلى طاعة ابن هود، وولى عليهم أخاه أبا النجاة سالما. ولما هلك محمد بن هود سنة خمس وثلاثين وستمائة صرف أهل أشبيلية طاعتهم إلى الرشيد بمراكش، وولوا على أنفسهم محمد بن السيد أبي عمران الذي قدمنا أنه كان والياً بقسنطينة، وأن الأمير أبا زكريا غلبه عليها واعتقله، وبعث ولده إلى الأندلس فربي محمد هذا في كفالة امه بأشبيلية. ولما سار أهل أشبيلية للرشيد قدموه على أنفسهم، وتولى كبر ذلك أبو عمرو بن الجد، وبعثوا وفدهم إلى الحضرة فأقر السيد أبا عبد الله على ولايتهم. واستمرت في دعوة الرشيد إلى أن هلك سنة أربعين وستمائة. وقد ملك الأمير أبو زكريا تلمسان وأشرف على أعمال المغرب، فاقتدوا بمن تقدم إلى بيعته من أهل شرق الأندلس ببلنسيه ومرسية، وبايعوا للأمير أبي زكريا بن أبي محمد بن أبي حفص واقتدى بهم أهل شريش وطريف، وبعثوا إليه وفدهم ببيعته سنة إحدى وأربعين وستمائة. وسألوا منه ولاية بعض أهل قرابته فولى عليهم أبا فارس ابن عمه يونس ابن الشيخ أبي حفمص، فقدم أشبيلية وقام بأمرها، وسلم له ابن الجد في نقضها وإبرامها.

ثم انتقض عليه سنة ثلاث وأربعين وستمائة وطرده من البلد إلى سبتة واستبد بأمر أشبيلية، ووصل يده بالطاغية. وعقد له السلم وضرب على أيدي أهل المغاورة من الجند وأسقطهم من ديوانه فقتلوه بإملاء قائدهم شفاف واستقل بأمر أشبيلية.

ورجّع أبا فارس بن أبي حفص وولاه بدعوة الأمير أبي زكريا فسخطهم الطاغية لذلك وانتقض عليهم وملك قرمونة ومرشانة. ثم زحف إلى حصرهم وسألوه الصلح فامتنع. وصار أمر البلد شورى بين القائد شفاف وابن شعيب ويحيى بن خلدون ومسعود بن خيار وأبي بكر بن شريح، ويرجعون في أمرهم آخراً إلى الشيخ أبي فارس بن أبي حفص.

وأقاموا في هذا الحصار سنتين ونازلهم ابن الأحمر في جملة الطاغية، وبعث إليهم الأمير أبو زكريا المدد، وجهّز له الأسطول لنظر أبي الربيع بن الغريغر التينمللي. وأوعز له إلى سبتة بتجهيز أسطولهم معه فوصل إلى وادي أشبيلية، وغلبهم أسطول الطاغية على مرسية فرجع. واستولى العدو عليها صلحاً سنة ست وأربعين وستمائة

بعد أن أعانهم ابن الأحمر بمدده وميرته. وقدم الطاغية على أهل الدخن بها عبد الحق بن أبي محمد البياسي من آل عبد المؤمن، والأمر لله.

الخبر عن بيعة أهل سبتة وطنجة وقصر ابن عبد الكريم وتصاريف أحوالهم ومال أمرهم:

كان أهل سبتة بعد إقلاع المأمون عنهم، ونزول أخيه موسى عنها لابن هود قد انتقضوا وأخرجوا عنهم القشتيني والي ابن هود، وقدموا عليهم أحمد الينشتي وتسمى بالموفق. ثم رجعوا إلى طاعة الرشيد عندما بايعه أهل أشبيلية سنة خمس وثلاثين وستمائة. وتقبضوا على الينشتي وابنه وأدخلوا السيّد أبا العباس ابن السيد أبي سعيد، كان والياً بغمراة فولوه عليهم. ثم عقد الرشيد على ديوان سبتة لأبي عليّ بن خلاص، كان من أهل بلنسية واتصل بخدمة الرشيد فجلى فيها، ودفعه إلى الأعمال فضبطها فوّلاه سبتة فاستقل بها. وولّى على طنجة يوسف ابن الأمير قائداً على الرحل الأندلسي وضابطاً لقصبتها. حتى إذا هلك الرشيد سنة أربعين وستمائة، وقد استفحل أمر الأمير أبي زكريا بأفريقية، واستولى على تلمسان وبايعه الكثير من أمصار الأندلس، فصرف ابن خلاص وجهه إليه.

وكان قد اقتنى الأموال واصطنع الرجال فدخل في دعوته، وبعث الوفد ببيعته. واقتدى به في ذلك أهل قصر ابن عبد الكريم فبعثوا بيعتهم للأمير أبي زكريا. وعقد

لابن خلاص على سبتة وما إليها، فبعث بالهدية إليه في أسطول أنشأه لذلك سمّاه الميمون، وأركب إبنه أبا القاسم فيه وافداً على السلطان، ومعه الأديب إبراهيم بن سهل، فعطب عند إقلاعه. ولما رجع الأسطول من أشبيلية كما قدمناه على بقية هذا العطب وحزن أبي علي بن خلاص على إبنه، رغب من قائده أبي الربيع بن الغريغر أن يحمله بجملته إلى الحضرة، فانتقل بأهله واحتمل زخيرته. ولما مر الأسطول بمرسى وهران نزل بساحلها فأراح، واحضر له تين فأكله فأصابه مغص في معاه هلك منه فجاءة سنة ست وأربعين وستمائة.

وعقد السلطان على سبتة لأبي يحيى بن زكريا ابن عمه أبي يحيى الشهيد ابن الشيخ أبي حفص. وبعث معه على الجباية أبا عمر بن أبي خالد الأشبيلي، كان صديقاً لشفاف وعدوّاً لابن الجد. ولما قتل شفاف لحق بالحضرة فولاّه الأمير أبو زكريا أشغال سبتة، واستمرت الحال إلى أن كان من استبداد العزفي بسبتة ما نذكره.

الخبر في بيعة المرية:

لما هلك محمد بن هود بالمريّة سنة خمس وثلاثين وستمائة كما ذكرناه واستبدّ وزيره أبو عبد الله محمد بن الرميمي بها، وضبها لنفسه وضايقه ابن الأحمر فبعث ببيعته سنة أربعين وستمائة إلى الأمير أبي زكريا حين أخذ أهل شرق الأندلس بطاعته. ولم يزل ابن الأحمر يحاصره إلى أن تغلب عليه سنة ثلاث وأربعين وستمائة كما ذكرناه في أخباره. وخرج منها إلى سبتة بأهله وذخيرته، وأحله أبو علي بن خلاص محلّ البّر والتكرمة، وأنزله خارج المدينة في بساتين بنيونش، وأجمع الثورة بأبي خلاص، فنذر به وتغير له. فلما رجع الأسطول من أشبيلية ركبه الرميمي ولحق بتونس، فترل على الأمير أبي زكريا وحل من حضرته محل التكرمة. واستوطن تونس، وتملك بها الضياع والقرى، وشيدّ القصور إلى أن هلك والبقاء لله وحده.

الخبر عن بيعة ابن الأحمر:

كان محمد بن الأحمر قد انتزى على ابن هود ببلده أرجونة، وتملك جيان وقرطبة وأشبيلية وغرب الأندلس وطالت فتنته مع ابن هود وراجع طاعته. ثم انتقض عليه وبايع للرشيد سنة ست وثلاثين وستمائة عندما بايعه أهل أشبيلية وسبته، فلم يزل على يذلك إلى أن هلك الرشيد على حين استفحال ملك الأمير أبي زكريا بأفريقية وتأميله للنصرة والكرة، فحول ابن الأحمر إليه الدعوة، وأوفد بها أبا بكر بن عيّاش من مشيخة مالقّة فرجعهم الأمير أبو زكريا بالأموال للنفقات الجهادية. ولم يزل يواصلها لهم من بعد ذلك إلى أن هلك سنة سبع وأربعين وستمائة، فأطلق ابن الأحمر نفسه من عقال الطاعة واستبد بسلطانه.

الخبر عن بيعة سجلماسة وانتقاضها:

كان عبد الله بن زكريا الهزرجي من مشيخة الموحدين والياً بسلجماسة لبني عبد المؤمن. ولما هلك الرشيد وبويع أخوه السعيد سنة أربعين وستمائة، ونميت إليه عن الهزرجي عظيمة من القول خشن بها صدره وبعث إليه مستعتباً فلم يعتبه. ومزق كتابه فخشيه الهزرجي على نفسه، واتصل به ما كان من استيلاء الأمير أبي زكريا على تلمسان ونواحيها، فخاطبه بطاعته وأوفد عليه بيعته، فعقد له الأمير أبو زكريا على سجلماسة وأنحائها، وفوّض إليه في أمرها ووعده بالمدد من المال والعسكر لحمايتها. وخطب له عبد الله بسجلماسة، وفر إليه من مراكش أبو زيد الكدميوي بن واكاك، وأبو سعيد العود الرطب، فلحق بتونس. وأقام أبو زيد معه بسجلماسة. وزحف إليه السعيد سنة إحدى وأربعين وستمائة، وقيل سنة أربعين، ومن معسكره كان مفر أولئك المشيخة. وخاطب السعيد أهل سجلماسة وداخلهم أبو زيد الكدميوي فغدروا بالهزرجي وثاروا به، فخرج من سجلماسة وأسلمها وقام بأمرها أبو زيد الكدميوي. وطيّر بالخبر إلى السعيد فشكر له فعلته، وغفر له سالفته. وتقبض على عبد الله الهزرجي بعض الأعراب، وأمكن منه السعيد فقتله وبعث برأسه إلى سجلماسة فنصب بها، ورجع من طريقه إلى مراكش وأقامت سجلماسة على دعوة عبد المؤمن إلى أن كان من خبرها ما نذكره في موضعه.

الخبر عن بيعة مكناسة وما تقدمها من طاعة بنى مَرين:

كان بين بني عبد الواد وبين بني مَرين منذ أوليتهم وتقلبهم في القفار فتن وحروب، ولكل منهما أحلاف في المناصرة وأشياع. فلما التاثت دولة بني عبد المؤمن غلب كل منهما على موطنه، وكانت السابقة في ذلك لبني عبد الواد لبعدهم عن حضرة مراكش حيث محشر العساكر ويعسوب القبائل. ولما استبد الأمير أبو زكريا بأمر أفريقية، ودوخ المغرب الأوسط وافتتح تلمسان، وأطاعه بنو عبد الواد، حذر بنو مَرين حينئذٍ غائلتهم. وخافوا أن يظاهرهم الأمير أبو زكريا عليهم، فألانوا له في القول ولاطفوه على البعد بالطاعة، وخاطبوه بالتمويل، وأوجبوا له حق الخلافة، ووعدوه أن يكونوا أنصاراً لدعوته وأعواناً في أمره، ومقدّمة في عسكره إلى مراكش وزحفه. وحملوا من تحت أيديهم من قبائل المغرب وأمصاره على طاعتهم، والاعتصام ببيعتهم ولم تزل المخاطبات بينهم وبين الأمير أبي زكريا في ذلك من أميرهم عثمان بن عبد الحق وأخيه محمد من بعده.

ورسلهم تفد. عليه بذلك مرة بعد أخرى إلى أن هلك الرشيد. وقد استولى الأمير أبو زكريا على تلمسان، ودخل في دعوته قبائل زناتة بالمغرب الأوسط واستشرف أهل الأمصار من العدوتين إلى إيالته. وكان أهل مكناسة قد اعتصموا بوصلة الأمير أبي بحبى بن عبد الحق، وجاءهم وال من مراكش وأساء فيهم السيرة فتوثّبوا به وقتلوه. وبعثوا إلى الأمير أبي يحيى بن عبد الحق، فحملهم على بيعة الأمير أبي زكريا فأنفذوها من إنشاء قاضيهم أبي المطرف بن عميرة سنة ثلاث وأربعين وستمائة. وضمن أبو يحيى بن عبد الحق حمايتهم خلال ما يأتيهم أمر السلطان من تونس ومدده. وبلغ الخبر إلى السعيد فأرهف حده واعتزم على النهوض إليهم فخامهم الرعب، وراجعوا طاعته وأوفدوا صلحاءهم وعلماءهم في الإقالة واغتفار الجريرة، فتقبل ذلك إلى أن كان من حركته بعد ذلك ومهلكه ما هو معروف.

الخبر عن مهلك الأمير أبي يحيي زكريا ولي العهد بمكان إمارته من بجاية وتصيير العهد إلى أخيه محمد:

كان الأمير أبو زكريا قد عقد لإبنه أبي يحيى زكريا على ثغر بجاية قاعدة ملك بني حماد، وجعل إليه النظر في سائر أعمالها من الجزائر وقسنطينة وبونة والزاب سنة ثلاث وثلاثين وستمائة كما ذكرناه، فاستقل بذلك، وكان بمكان من الترشيح للخلاف بنفسه وجلاله، وانتظامه في سلك أهل العلم والدين وإيناس العدل. فولاه الأمير أبو زكريا عهده سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وأحضر الملأ لذلك وأشهدهم في كتابه، وأوعز بذكره في الخطبة على المنابر مع ذكره. وكتب إليه بالوصيّة التي تداولها الناس من كلامة ونصه:

أعلم سدّدك الله وأرشدك، وهداك لما يرضيه وأسعدك، وجعلك محمود السيرة، مأمون السريرة. إن أول ما يجب على من استرعاه الله في خلقه، وجعله مسؤولاً عن رعيته في جل أمرهم ودقه، أن يقدم رضى الله عز وجل في كل أمر يحاوله، وأن يكل أمره وحوله وقوّته لله، ويكون عمله وسعيه وذبّه عن المسلمين، وحربه وجهاده للمؤمنين، بعد التوكل عليه، والبراءة من الحول والقوة إليه. ومتى فاجأ ك أمر مقلق، أو ورد عليك نبأ مرهق، فريّض لبّك، وسكن جأشك، وارع عواقب أمر تأتيه، وحاوله قبل أن ترد عليه وتغشيه. ولا تقدم إقدام الجاهل، ولا تحجم إحجام الأخرق المتكاسل. وأعلم أن الأمر إذا ضاق مجاله، وقصر عن مقاومته رجاله، فمفتاحه الصبر والحزامة والأخذ مع عقلاء لجيش ورؤسائهم، وذي التجارب من نبهائهم. ثم الإقدام عليه، والتوكل على الله فيما لديه، والإحسان لكبير جيشك وصغيره الكثير على قدره، والصغير على قدره. ولا تلحق الحقير بالكبير فتجري الحقير على نفسك، وتغلّطه في نفسه وتفسد نيّة الكبير وتؤثره عليك، فيكون إحسانك إليه مفسدة في كلا الوجهين، ويضيع إحسانك وتشتت نفوس من معك.

واتخذ كبيرهم أبا وصغيرهم إبناً، وأخفض لهم جناح الذل من الرحمة، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين. واتخذ نفسك صغيرة، وذاتك حقيرة، وحقر أمورك، ولا تستمع أقوال الغالطين المغلطين، بأنك

أعظم الناس قدراً، وأكثرهم بذلاً، وأحسنهم سيرة وأجملهم صبراً، فذاك غرور وبهتان وزور.

واعلم أنّ من تواضع لله رفعه الله. وعليك بتفقد أحوال رعيتك والبحث عن عمالهم والسؤال عن سير قضاتهم فيهم، ولا تنمّ عن مصالحهم، ولا تسامح أحداً فيهم. ومهما دعيت لكشف ملمّة فاكشفها عنهم، ولا تراع فيهم كبيراً ولا صغيراً إذا عدل عن الحق. ولا تراع في فاجر ولا متصرف إلا ولا ذمّةً، ولا تقتصر على شخص واحد في رفع مسائل الرعيّة والمتظلمين. ولا تقف عند مراده في أحوالهم.

واتخذ لنفسك ثقاة صادقين مصدقين، لهم في جانب الله أوفر نصيب، وفي رفع مسائل خلقه إليك أسرع مجيب. وليكن سؤالك لهم أفذاذ، فإنك متى اقتصرت على شخص واحد في نقله ونصحه، حمله الهوى على الميل، ودعته الحميّة إلى تجنب الحق، وترك قول الصدق. وإذا رفع إليك أحد مظلمة، وأنت على طريق، فادعه إليك وسله حتى يوضح قصته لك. وجاوبه جواب مشفقٍ مصمغ إلى قوله، مصيخ إلى نازلته ونقله، ففي إصاختك له وحنوّك عليه أكبرتأنيس، وللسياسة والرياسة في نفوس الخاصّة والعامّة، والجمهور أعظم تأسيس.

وأعلم أن دماء المسلمين وأموالهم حرام على كل مؤمن بالته واليوم الآخر إلا في حق أوجبه الكتاب والسنّة، وعضدته أقاويل الشرعية والحجّة، أو في مفسد عاثت في طرقات المسلمين وأموالهم جار على غيه في فساد صلاحهم وأحوالهم، فليس إلا السيف فإن أثره عفاء ووقعه لداء الأدمغة الفاسدة دواء، ولا تقل عثرة حسود على النعم، عاجز عن السعي، فإن إقالته تحمله على القول، والقول يحمله على الفعل، ووبال عمله عائد عليك. فاحسم داءه قبل انتشاره، وتدارك أفره قبل إظهاره، واجعل الموت نصب عينيك، ولا تغتر بالدنيا وإن كانت في يدنك. لا تنقلب إلى ربك إلا بما قدمته من عمل صالح ومتجر في مرضاته رابح.

وأعلم أن الإيثار أربح المكاسب وأنجح المطالب، والقناعة مال لا ينفد. وقد قال

بعض المفسرين في قوله عز من قائل: (وتركنا عليه في الآخرين) إنه النبأ الحسن في الدنيا على ما خلد فيها من الأعمال المشكورة، والفعلات الصالحة المذكورة.

فليكفك من دنياك ثوب تلبسه وفرس تذب به عن عباده. وأرجو بك متى جعلت وصيتي هذه نصب عينيك، لم تعدم من ربّك فتحاً ييسره على يديك، وتأييداً ملازماً لا يبرح عنك إلا إليك، بمن الله وحوله وطوله. والله يجعلك ممن سمع فوعى، ولبى داعي الرشد إذا دعا، إنه على كل شيءٍ قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تمت الوصيّة المباركة، فعظم ترشيح الأمير أبي يحيى لذلك، وعلا في الدولة كعبه، وقوي عند الكافة تأميله، وهو بحالة من النظر في العلم والجنوح للدين، إلى أن هلك سنة ست وأربعين وستمائة، فأسى له السلطان، واحتفل الشعراء في رثائه وتأبينه، فكانوا يثيرون بذلك شجو السلطان، ويبعثون حزنه، وعقد العهد من بعده لأخيه الأمير أبي عبد الله محمد، بحضور الملأ، وإيداع الخاصة كتابهم بذلك في السجل، إلى أن كان من خلافته ما نذكره بعد.

الخبر عن مهلك السلطان أبي زكريا وما كان عقبه من الأحداث:

كان السلطان أبو زكريا قد خرج من تونس إلى جهة قسنطينة للإشراف على أحوالها، ووصل إلى باغاية فعرض العساكر بها، ووافته هنالك الذواودة، وشيخهم موسى بن محمد. وكان منه اضطراب في الطاعة فاستقام. وأصاب السلطان هنالك المرض فرجع إلى قسنطينة. ثم أبلّ من مرضه، ووصل منها إلى بونة، فراجعه المرض. ولما نزل بظاهر بونة اشتدّ به مرضه. وهلك لسبع بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وستمائة لإثنتين وعشرين سنة من ولايته، ودفن بجامع بونة. ثم نقل شلوه بعد ذلك إلى قسنطينة سنة ست وستين وستمائة وستمائة بين يدي حصار النصارى تونس. وبويع إثر مهلكة إبنه ولي عهده أبو عبد الله محمد كما نذكره. وطار خبر مهلكه في الافاق، فانتقض كثير من أهل القاصية، ونبذوا الدعوة الحفصية، وعطل ابن الأحمر منابره من الدعوة الحفصّية. وتمسك بها يغمراسن بن زيان صاحب المغرب الأوسط، فلم

يزالوا عليها حيناً من الدهر، إلى أن انقطعت في حصار تلمسان كما نذكره. ولما بلغ الخبر بمهلكه إلى سبتة، وكان بها أبو يحيى ابن الشهيد من قبل الأمير أبي زكريا كما نذكره، وأبو عمرو بن أبي خالد، والقائد شفاف، فثارت العامة وقتل ابن أبي خالد وشفاف، وطردوا ابن الشهيد فلحق بتونس. وتولّى كبر هذه الثورة حجبون الرنداحي بمداخلة أبي القاسم العزفي.

واتفق الملأ على ولاية العزفي، وحوّلوا الدعوة للمرتضى، وذلك سنة سبع وأربعين وستمائة. وتبعهم أهل طنجة في الدعوة، واستبد بها ابن الأمير، وهو يوسف بن محمد بن عبد الله بن أحمد الهمداني، كان والياً عليها من قبل أبي علي بن خلاص. فلما صار الأمر للعزفي والقائد حجبون الرنداحي، خالفهم هو إلى الدعوة الحفصية، واستبد عليهم. ثم خطب للعباسي وأشرك نفسه معه في الدعاء، إلى أن قتله بنو مَرين غدراً كما نذكره، وانتقل بنوه إلى تونس ومعهم صهرهم القاضي أبو الغنم عبد الرحمن بن يعقوب من جالية شاطبة، انتقل هو وقومه إلى طنجة أيام الجلاء، فنزلوا بها وأصهر إليهم بنو الأمير، وارتحلوا معهم إلى تونس. وعرف دين القاضي أبي القاسم وفضله ومعرفته بالأحكام والوثائق، واستعمل في خطة القضاء بالحضرة أيام السلطان، وكان له في ذكر.

ولّما بلغ الخبر بمهلك الأمير أبي زكريا إلى صقلية أيضاً، وكان المسلمون بها في مدينة بلغ قد عقد لهم السلطان مع صاحب الجزيرة على الإشراك في البلد والضاحية، فتساكنوا حتى إذا بلغهم مهلك السلطان بادر النصارى إلى العيث فيهم فلجوا إلى الحصون والأوعار، ونصبوا عليهم ثائراً من بني عبس، وحاصرهم طاغية صقلية بمعقلهم من الجبل. وأحاط بهم حتى استنزلهم. وأجازهم البحر إلى عدوته، وأنزلهم بوجاره من عمائرها. ثم تعدى إلى جزيرة مالطة فأخرج المسلمين الذين كانوا بها، وألحقهم بإخوانهم. واستولى الطاغية على صقلية وجزائرها. ومحا منها كلمة الإسلام بكلمة كفره، والله غالب على أمره.

الخبر عن بيعة السلطان أبي عبد الله المستنصر وما كان في أيامه من الحوادث :

لما هلك الأمير أبو زكريا بظاهر بونة سنة سبع وأربعين وستمائة كما قدمناه اجتمع الناس على إبنه الأمير أبي عبد الله، وأخذ له البيعة عمّه محمد اللحياني على الخاصة وسائر أهل المعسكر، وارتحل إلى تونس فدخل

الحضرة ثالث رجب من السنة، فجدد بيعته يوم وصوله وتلقّب المستنصر بالله. ثم جدد البيعة بعد حين، واختار لوضع علامته: الحمد لله، والشكر لله وقام باعباء ملكه، وتقبّض على خاصة أبيه الخصي كافور، كان قهرمان داره، فأشخصه إلى المهديّة، وأوعز إلى الجهات بأخذ البيعة على أهل العمالات فترادفت من كل جانب. واستوزر أبو عبد الله بن أبي مهدي، واستعمل على القضاء أبا زيد التوزري وكان يعلم ولد عمّه محمد اللحياني الثائر عليه كما نذكره والله تعالى أعلم.

الخبر عن ثورة ابن عمه محمد اللحياني ومقتله ومقتل أبيه:

كان للأمير أبي زكريا من الإخوة إثنان: محمد وكان أسنّ منه ويعرف باللحياني لطول لحيته، والآخر أبو إبراهيم، وكان بينهم من المخالصة والمصافاة ما لا يعبر عنه. ولما هلك الأمير أبو زكريا، وقام بالأمر إبنه أبو عبد الله المستنصر، واستوزر محمد بن أبي مهدي الهنتاتي، وكان عظيماً في قومه، فأمل أن يستبد عليه لمكان صغره، إذ كان في سن العشرين ونحوها. واستصعب عليه حجر السلطان بما كان له من الموالي العلوجيين، والصنائع من بيوت الأندلس. فقد كان أبوه اصطنع منهم رجالاً، ورنب جنداص كثروا الموحدين وزاحموهم في مراكزهم من الدولة. فداخل ابن أبي مهدي أخوي السلطان، وبعث عندهما الأسف على ما فاتهما من الأمر، فلم يجد عندهما ما

أمل من ذلك. فرجع إلى ابن محمد اللحياني، فأجابه إلى ذلك. وبايعه ابن أبي مهدي سراً، ووعده المظاهرة. ونمي الخبر بذلك إلى السلطان من عمّه محمد اللحياني وحذره من غائلة إبنه، وأبلغه ذلك أيضاً القاضي أبو زيد التوزري منتصحاً.

وباكر ابن أبي مهدي مقعده للوزارة بباب السلطان لعشرين من جمادى سنة ثمان وأربعين وستمائة، وتقبض على الوزير أبي زيد بن جامع. وخرج ومشيخة الموحدين معه، فبايعوا لابن محمد اللحياني بداره، واستركب السلطان أولياءه. وعقد للعاقد ظافر على حربهم فخرج في الجند والأولياء، ولقي الموحدين بالمصلّى خارج البلد، ففض جمعهم، وقتل ابن أبي مهدي وابن وازكلدن وسار ظافر مولى السلطان إلى دار اللحياني عمّ السلطان فقتله وابنه صاحب البيعة، وحمل رؤوسهما إلى السلطان. وقتل في طريقه أخاه أبا إبراهيم وابنه، وانتهب منازل الموحدين وخربت. ثم سكنت الهيعة وهدأت الثائرة، وعطف السلطان على الجند والأولياء وجهل الاصطناع، فأدر أرزاقهم ووصل تفقدهم. وأعاد عبد الله بن أبي الحسين إلى مكانه بعد أن كان هجر أول الدولة، وتزحزح لابن أبي مهدي عن رتبته، وتضاءل لاستطالته، فرجع إلى حاله واستقامت الأمور على ذلك. ثم سعى عند السلطان بمولاه الظافر، وقبحوا عنده ما أتاه من الأفتيات في قتل عميه من غير جرم. ونذر بذلك فخشي البادرة ولحق بالدواودة، وكان المتولي لكبر هذه السعاية هلال مولاه، فقعد له مكانه واستنفر ظافر في جوار العرب طريداً، إلى أن كان من أمره ما كان.

الخبر عن الآثار التي أظهرها السلطان في أيامه:

فمنها شروعه في اختطاط المصانع الملوكية، وأولها المصيد بناحية بترزت. اتخذه للصيد سنة خمسين وستمائة، فأدار سياجاً على بسيط من الأرض قد خرج نطاقه عن التحديد، بحيث لا يراع فيه سرب الوحش، فإذا ركب للصيد تخطّى ذلك السياج إلى قوره في لمة من مواليه المتخصين وأصحاب بيزرته، بما معهم من الجوارح بزاة وصقوراً وكلاباً سلوقية وفهوداً، فيرسلونها على الوحش في تلك القوراء، وقد وثقوا باعتراض البناء لها من أمام فيقضي وطراً من ذلك القنيص سائر يومه، فكان دلك من أفخم ما عمل في مثلها. ثم وصل ما بين قصوره ورياض رأس الطائبة بحائطين ممتدّين يجوزان عرض العشرة أذرع أو نحوها طريقاً سالكاً ما بينهما، وعلى ارتفاع عشرة أذرع يحتجب به الحرم في خروجهنّ إلى تلك البساتين عن ارتفاع العيون عليهن، فكان ذلك مصنعاً فخماً وأثراً على أيام الدولة خالداً.

ثم بنى بعد ذلك الصرح العالي بفناء داره ويعرف بقبة أساراك. وأساراك باللسان المصمودي هو القوراء الفسيحة. وهذا الصرح هو إيوان مرتفع السمك متباعد الأقطار متسع الأرجاء يشرع منه إلى الغرب، وجانبيه ثلاثة أبواب لكل باب منها مصرعان من خشب مؤلف الصنعة ينوء كل مصراع منها في فتحة وغلقه بالعصبة اولي القوة. ويفضي بابها الأعظم المقابل لسمت الغرب إلى معارج قد نصت للظهور عليها عريضة ما بين الجوف إلى القبلة بعرض الإيوان، يناهز عددها الخمسين أو نحوها، ويفضي البابان عن جانبيه إلى طريقين ينتهيان إلى حائط القوراء. ثم ينعطفان إلى ساحة القوراء يجلس السلطان فيها على أريكته مقابل الداخل أيام العرض والفود ومشاهد الأعياد، فجاءت من أضخم الأواوين وأحفل المصانع التي لشهد بأبهة الملك وجلالة الدولة.

واتخذ أيضاً بخارج حضرته البستان الطائر الذكر المعروف بأبي فهر، يشتمل على جناتٍ وغير معروشات، اغترس فيها من شجره كل فاكهةٍ من أصناف التين والزيتون والرمّان والنخيل والأعنابٍ، وسائر الفواكه وأصناف الشجر. ونضد كل صنف منها في دوحة حتى لقد اغترس من السدر والطلح والشجر البريّ، وسمّى دوح هذه بالشعراء واتخذ وسطها البساتين والرياض بالمصانع والجوائز وشجر النور والتره من الليم والنارنج والسرو والريحان، وشجر الياسمين والخيري والنيلوفر وأمثاله. وجعل وسط هذه الرياض روضا فسيح الساحة، وصنع فيه للماء حائزاً من عداد البحور، جلب إليه الماء في القناة القديمة، كانت ما بين عيون زغوان وقرطاجنة تسلك بطن الأرض في أماكن، وتركب البناء العاديّ ذا الهياكل الماثلة والقسي القائمة على الأرجل الضخمة في أخرى، فعطف هذه القناة من أقرب السماوات إلى هذا البستان. وأمطاها حائطاً وصل ما بينهما حتى ينبعث من فوهة عظيمة إلى جب عميق المهوى، زصيف البناء متباعد الأقطار مربّع القنا مجلل بالكلس، إلى أن يقمعه الماء فيرسله في قناة أخرى قريبة الغاية، فتنبعث في الصهريج إلى أن يفهق حوضه، وتضطرب أمواجه تترفه الحظايا عن السعي بشاطئه لبعد مداه فيركبن في الجواري المنشئات ثبجه فيتبارى بهنّ تباري الفتح، ومثلت بطرفي هذا الصهريج قبّتان متقابلتان كبراً وصغراً على أعمدة المرمر، مشيدة جوانبها بالرخام المنجّد، ورفعت سقفها من الخشب المفدر بالصنائع المحكمة والأشكال المنمّقة، إلى ما اشتملت عليه هذه

الرياض من المقاصير والأواوين والحوائز والقصور غرفا من فوقها غرف مبنيّة تجري من تحتها الأنهار، وتأنّق في مبانيه هذه واستبلغ وعدل عن مصانع سلفه ورياضهم إلى متنزهاته مى هذه، فبلغ فيها الغاية في الاحتفال وطار لها ذكر في الآفاق.

الخبر عن فرار أبي إسحاق وبيعة رياح له وما قارن ذلك من الأحداث:

كان الأمير أبو إسحاق في إيالة أخيه المستنصر، وكان يعاني من خلقه وملكته عليه شدة، وكان السلطان يخافه على أمره وخرج سنة إحدى وخمسين وستمائة وستمائة لبعض الوجوه السلطانيّة، ففرّ الأمير أبو إسحاق من معسكره، ولحق بالدواودة من رياح، فبايعوه بروايا من نواحي نقاوس، واجتمعوا على أمره. وبايع له ظافر مولى أبيه النازع إليهم واعتقد منه الذمّة والرتبة، وقصدوا بسكرة وحاصروها، ونادى بشعار طاعتهم فضل بن علي بن الحسن بن مزني من مشيختها. وائتمر به الملأ ليقتلوه، ففر إليه وصار في جملته. ثم بايع له أهل بسكرة ودخلوا في طاعته. ثم ارتحلوا إلى قابس فنازلوها، واجتمعت عليه الأعراب من كل أوب. وأهم السلطان شأنه، وتقبض

على ولده فحبسهم بالقصبة جميعاً. ووكّل بهم من يحوطهم وألطف ابن أبي الحسين الحيلة في فساد ما بين الأمير أبي إسحاق ومولاه ظافر، بتحذير ألقاه إلى أخته بالحضرة تنصحاً، فبعثت به إلى أخيها، فتنكّر لظافر وفارقه، وسار إلى المغرب. ثم لحق بالأندلس، وافترق جموع الأمير أبي إسحاق فلحق بتلمسان، وأجاز منها إلى الأندلس. ونزل على السلطان محمد بن الأحمر فرعى له عهد أبيه، وأسنى له الجراية. وشهد هنالك الوقائع، وأبلى في الجهاد. ولم يزل السلطان المستنصر يتاحف ابن الأحمر ويهاديه، ويوفد عليه مشيخة الموحدين مصانعة في شأن أخيه واستجلاءً لحاله، إلى أن هلك. وكان من ولاية أخيه أبي إسحاق ما نذكر. ولحين مهلكه أجاز ظافر من الأندلس إلى بجاية. وأوفد ولده علي الواثق مستعتباً وراغباص في السبيل إلى الحج. وقلق المستولي على الدولة بمكانه، وراسل شيخ الموحدين أبا هلال عياد بن محمد الهنتاتي صاحب بجاية في اغتياله عن قصده، فذهب دمه هدراً وبقي ولده عند بني توجين حتى جاءوا في جملة السلطان أبي إسحاق، وبيد الله تصاريف الأمور.

الخبر عن بني النعمان ونكبتهم والخروج أثرها إلي الزاب:

كان بنو النعمان هؤلاء من مشيخة هنتاتة ورؤسائهم، وكان لهم في دولة الأمير أبي زكريا ظهور ومكان، وخلصت ولاية قسنطينة لهم يستعملون عليها من قرابتهم. واتصل لهم ذلك أول دولة المستنصر، وكان كبيرهم أبو علي وتلوه ميمون وعبد الواحد، وكان لهم في مداخلة اللحياني أثر. فلما استوسق للسلطان أمره، وتمهّدت دولته نكبهم وتقبض عليهم سنة إحدى وخمسين وستمائة وستمائة، فأشخص أبا علي إلى الإسكندريّة، وقتل ميمون وانقرض أمرهم. وظهر أثر ذلك بالزاب خارج تسمّى بأبي حمّارة، فخرج السلطان من تونس وقصده بالزاب، فأوقع به وبمجموعه وتقبض عليه، وسيق إلى السلطان فقتله، وبعث برأسه إلى تونس فنصب

بها. وقفل السلطان إلى مقره فتزل بها، وسخط وجوهاً من سليم: من مرداس ودباب، كان فيهم رحاب بن محمود وابنه، فاعتقلهم وأشخصهم إلى المهدية فأودعهم بمطبقها ورجع إلى تونس ظافراً غانماً.

الخبر عن دعوة مكة ودخول أهلها في الدعوة الحفصية:

كان صاحب مكّة ومتوّلي أمرها من سادة الخلق وشرفائهم ولد فاطمة، ثم من ولد إبنها الحسن صلوات الله عليهم أجمعين، أبو نمي وأخوه إدريس، وكانوا قائمين بالدعوة العباس ية منذ حولّها إليهم بمصر والشام والحجاز صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي، وأمر الموسم وولايته راجعة إليه، وإلى بنيه ومواليه من بعده إلى هذا العهد. وجرت بينهم وبين الشريف صاحب مكة مغاضبة وافقها استيلاء الططر على بغداد، ومحوهم رسم الخلافة بها، وظهور الدعوة الحفصيّة بأفريقية، وتأميل أهل الافاق فيها وامتداد الأيدي إليها بالطاعة.

وكان أبو محمد بن سبعين الصوفي نزيلاً بمكة، بعد أن رحل من بلده مرسية إلى تونس، وكان حافظاً للعلوم الشرعية والعقلية، وسالكاً مرتاضاً بزعمه على طريقة الصوفية. ويتكلم بمذاهب غريبة منها، ويقول برأي الوحدة كما ذكرناه في ذكر المتصوّفة الغلاة، ويزعم بالتصوّف في الأكوان على الجملة، فأرهق في عقيدته، ورمي بالكفر أو الفسق في كلماته، وأعلن بالنكير عليه والمطالبة له شيخ المتكلمين بأشبيلية ثم بتونس أبو بكر بن خليل السكوني، فتنمّر له المشيخة من أهل الفتيا وحملة السنّة وسخطوا حالته.

وخشي أن تأسره البيّنات فلحق بالمشرق ونزل مكة، وتذمّم بجوار الحرم الأمين، ووصل يده بالشريف صاحبها. فلما أجمع الشريف أمره على البيعة للمستنصر صاحب أفريقية، داخله في ذلك عبد الحق بن سبعين وحرّضه عليه، وأملى رسالة بيعتهم، وكتبها بخطه تنويهاً بذكره عند السلطان والكافة، وتأميلاً للكرة ونصفا: بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على الأسوة المختار سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. {إنا فتحناً لك فتحاً مبيناً، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً، وينصرك الله نصراً

عزيزاً، هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانهم لله جنود السماوات والأرض، وكان الله عليماً حكيماً.}

هذا النوع من الفتح أعني المبين هو من كل الجهات داخل الذهن وخارجه، وهو الذي خصت به مكة، وهو أعظم فتح نذر في أيام الدهر والزمان الفرد منه خير من أيام الشهر، وبه تتم النعمة، ويستقيم صراط الهداية، وتحفظ النهاية، وتغفر ذنوب البداية، ويحصل النصر العزيز، ونور السكينة، وتتمكن قواعد مكة والمدينة.

وكلمة الله عاملة في الموجودات بحسب قسمة الزمان. ثم لا يقال إنها متوقفة على شيء، ولا في مكان دون مكان.

وهذا الفتح قد كان بالقصد الأول والقدر الأكمل، للمتبوع الذي أفاد الكمال الثاني كالسبع المثاني، فإنه هو الأسوة صلى الله عليه و سلم ، وكل نعمة تظهر على سعيد ترجع إليه مثل التي ظهرت على خليقته وعلى يديه. وإن كانت نصبة مولده صلى الله عليه و سلم ورسالته تقتضي ختم الأنبياء بهذا القرن الذي نحن فيه،

وإمامنا فيه هو ختم الأولياء. فمن فتح عليه بفتح مكة تمت له النعمة، ورفعت له الدرجة، وضفت عليه الرحمة. ومن وصل سلطانه إليها فقد هدي الرشد وسار على صراطه، ورجح ميزان ترجيحه على أقرانه وإرهاطه. ومن حرم هذا فقد حرم من ذلك، والأمر هكذا.

وسنة الله كذلك، وصفى الله على رسوله الذي طلع المجد من مدينته بعد ما أطلعه من بلده، ورضي الله عن خليفته المنتخب من عنصر خليفة عمر صاحب نبيه، ثم من عمر صاحبه ووليه والحمد لله على نعمه.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيد ولد آدم محمد. {حم، والكتاب المبين، إنا أنزلناه في ليلة مباركة، إنا كنا منذرين. فيها يفرق كل أمرٍ حكيم. أمراً من عندنا، إنّا كنّا مرسلين. رحمةٌ من ربّك، إنّه هو السّميع العليم}. قد صح أن هذه الليلة فيهاً تنزل الآيات وترتقب البيذنات، وفيها تخصيص القضايا الممكنة وأحكام الأكوان ويفرق الأمر، ويفسر الملك الموكل بقبض الأرواح بحمل الآجال في الأزمان، وفيها تقرر خطة الإمامة والملك، وتقيض الإمامه بالهلك، وهي في القول الأظهر في أفضل الشهور، وفي السابع والعشرين منه كما ورد في الحديث المشهور. ثم هي في امّ القرى وفي حرمها تقدّر بقدر زائد، ويعم فضلها إلا للحائد عن الفائد،

وإنما قلت هذا ورسمته ليعلم من وقف على الخطبة التي اقتضبتها، والليلة التي فيها قرأتها، أنها من أفضل المطالب التي قصدت، وإن القرائن التي اجتمعت فيها ولها، زادت على الفضائل التي لأجلها رصدت، وأيضاً تأخر فيها مجد إمام عن إمام، وبعد مجد إمامه وراء إمام هو وراء الامام، ورحمت فيها نفس خليفة عبرت وتلقب وعظمت فيها ذات خليفة تحي التي سفت، فهذه نعمة بركة ينبغي أن يقرر حدها ويتحقق مجدها، ولا يقذر قدرها فإنها ليلة قدر، ليلة قدرها. والحمد لله حمداً واصلاً: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله على واحد الله في عنايته سيدنا محمد (طسم، تلك آيات الكتاب المبين) إلى قوله: (منهم ما كانوا يحذرون) الحق الشاهد لنفسه المتفق من جميع جهاته، وفي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل والمتعارف من عادته التي ربطها بحكمته التي تعدّل ولا تعدّل، إن لكل هداية نبوية ضلالة فرعونيّة، وكذا الحال في الأوليّاء، ومع كل مصيبة فرج، ولا ينعكس الأمر في الأتقياء. ولكل ظلم ظالم متجبر قهر قاهر متكبر، وعند ظهور ظفر المبطل يظهر قصد المحق المفضل. وفي عقب كل فترة أو فيها كلمة قائم بحق يغلب لا يغلب، وفي كل دور أو قرن أمامة تطلب بشخصها ولا تطلب، وكواكب الكفر إذا طلعت على أفق الإيمان فيه نكب آفلة، وكلمة الله إذا عورضت تكر معارضتها قافلة. وإنما ذكرت ذلك بعد الذكر المحفوظ ليتذكر بالآيات الظاهرة إلى الآيات القاهرة. وليعلم كل مؤمن أن كلمة الله متصلة الاستصحاب والسبب، وعاملة في الأشياء مع الأزمان والحقب، وأن رجال الملة الحنفية أعلى المنازل والرتب. ولذلك يقول في نوع فرعون الأذل، ونوع موسى الأجل: أشخاصها متعددة، وأكوانها متحدة، والله غالب على أمره. وقد قيل إن الملّة الحنفيّة المضريّة تنصرها السيرة العمريّة المحمديّة المستنصريّة.

ولعل الذي أقام الدين وأطلعه من المشرق وأتلفه منه، يجيره من المغرب ولا ينقله عنه، فينبغي لمن آمن بالته وملائكته وكتبه ورسله، وبما يجب كما يجب أن لا يتغير قصده ولا يتوقف عند سماع المهلكات حمده، قد

قيدت إقدام قوم بشرك الشرك، وحملهم الضجر إلى الهلك بطاعة الترك وكع كيد الكنود هلك كنعان وكل بصر

بصيرته، ولبس لهم ثوب الذل بالعرض، وجعل مصيبة الدين تفثته مع جحوده لسلطان السنة والفرض. وأما هامان المرتّدين فليس هم بالمؤمنين، وعلا فرعون الشر في الأرض، والله يمن على المستضعفين في الأرض بنصر من عنده، ويهلك المفسدين بجند من رفده. وينبغي أو يجب أن نضرب عن ذكر كائنة مدينة السلام، فإنها تزلزل الطبع وتحمل الروح إلى ساحة الشام أو تفزع في صلاة كسوف شمس سرورها إلى التسليم بالاستسلام ونكبر أربع تكبيرات على الإنس ويوح بعد ذلك وعد وسلام، وينتظر قيامه بقيام أمر محيي الدين والإسلام، والحمد لله على كل حال.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على الذي أعجزت خصاله العدّ والحدّ،

مسلم والطبقة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثياً لا يعدّه عداً " . وقال صلى الله عليه وسلم : " يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعد " زاد أبو العباس الهمداني، وأشار بيده إلى المغرب. وذكر بهاء الدين التبريزي في ملحمته التي زعم أنه لا يثبت فيها من الأخبار إلا ما صححته روايته، ولا يذكر من الأحكام المنسوبة إلى الصنائع العمليّة إلا ما أبرزته درايته. ولا يعتبر من الأعلام الدينيّة إلى ما أدركته هدايته. قال في الترجمة الأولى: إذا خرجت نار الحجاز يقتل خليفة بغداد، ويستقيم ملك المغرب وتبسط كلمته في الأقطار، ويخطب له على منابر خلفاء بني العباس ، ويكثر الدر بالمعبر من بلاد الهند.

ذكرت هذا ليعلم المقام أيده الله أنه هو المشار إليه، وأنه الذي يعول في إصلاح ما فسد بحول الله عليه. ومن تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : "يكون في اخر الزمان " الحديث، تبين له ما أردناه وذلك يظهر من وجوه، منها: أن الخليفة المذكور لم يسمع به فيما تقدم، ولا ذكر في الدول الماضية، ولو ذكر لرددنا القول به وأهملناه لأجل تقييده بآخر الزمان. والثاني: أن آخر الزمان الذي يراد به ظهور الشروط المتوسطة، وأكثر العلامات المنذرة بالساعة هو هذا بعينه. الثالث: لا خليفة لأهل الملة في وقتنا هذا غير الذي قصدناه.

وهذه أقطار الملّة منحصرة ومعلومة لنا من كل الجهات، والذي يشاركه في الإسم ويقاسمه في إطلاقه فقط لا يصدق عليه، إذ هو أضعف من ذرة في كرّة، ومن نملة في رملة. وأفقر من قصد طالب السراب، ويده مع هذا أيبس من التراب فصح

بالى جر والتقسيم، وبتصفح الموجودات والأزمان والدول والمراتب والنعوت أنه هو لا شريك له فيها، والمصحّح لذلك كله، والذي يصدق وينطبق عليه مدلول الحديث كرمه الذي يعجز عنه الحد، ولا يتوقف فيه العد. وهذا خليفة الملّة كذلك، وهذه دلائله هي أوضح من نار على علم. وهذه خصاله شاهدة له بفضائل السيف والقلم، وهذه خزائنه تغلب الطالب وتعجز عن الدافع، وهذه سعوده في صعوده، وهذه متاجر تعويله

على الله رابحة وهذه أحواله بالكلية صالحة، وهذه سعايته ناجحة. ثم هذه موازين ترجيحه راجحة، والحمد لله كما يجب.

وما النصر إلا من عند الله وصلى الله على عبده محمد بن عبد الله أنه من بكة وأنه للحق وأنه بسم الله الرحمن الرحيم، وأنه إلى خضر لا تحصر الخصر ويحدر فيها الندر ويحافظ على سنة الرؤوف الرحيم. صفى الله عليه وسلم أما بعد فبهداهم اقتده، الحمد لله الذي أحسن بمقام الإحسان وتمم النعمة، وبيّن لمن تبيّن علم البيان، وحكم لمن أحكم الحكمة وسبقت في صفات أفعاله صفة الرحمة وذكر الهداية في كتابه بعد ذكر النعمة، هو الرؤوف بالبرية وهو الرحيم والحفي بالحنفية، وهو القاهر الماضي المشيئة الذي يقبض ويبسط ويمضي المشيئة. شهد له بالكمال الممكن الذي أبرزه وخصّصه وعرّفه بالجلال من يسره لذلك وخلصه. هو الذي استعمل عليها من اختاره لإقامة النافلة والفرض، وأعمى من أهلها من توسل له بنية العرض وأعتق العقاب وسر العقاب وأهمل العقاب بطاعة من يستعمر به الربع المعمور، وأنعم على المستضعفين في الأرض بإمام بخر المجد في بحر خصاله يعذ بعض البعض.

سُنته محمديّة، وسيرته بكريّة وسريرته علويّة، وسلالته عمريّة. فهذه ذرية وأنواع مجد بعضها من بعض، بل هذه خطوط فصل الطول فيها مثل العرض. عرف بالرياسة العالية، ووصف بالنفاسة السالية، وشهد له بذلك الخاص والعام ونزه من النقائص. التريه النفس ومن نزهه في سلطانه علمه العام. صلى الله على الأسوة الرؤوف بالمؤمنين، سيّدنا محمد الذي أنزل عليه التتريل، وكتب اسمه في صحيح القصص والنصوص، ونبي الله به وبأئمة أمته الذين شبههم بالبنيان المرصوص،

وعلى آله وصحبه الكرام البررة الذين اصطفاهم وطهرهم، ثم أيّدهم فطهروا الأرض من الكفرة الفجرة.

وأخرج من ظهورهم ذرياهم بالدين) ظهرهم، ويسر هم السبيل ثم السبيل يسرّهم.

ومنهم الخليفة المستنجد بالله المفضّل على الناس، ولكن أكثرهم ورضي الله عنهم وعنه، وضاعف للمحب الثواب الدائم منهم ومنه. وبعد خدمة يتقدم فيها بعد الحمد والتصلية والدعاء للدولة الدالة على قبول الدعوة أصلية، تحيّة بعضها مكية وكلها ملكوتّية، وروضة ريحها حضرة القدس ونشرها يدرك فيه صحبة النفث، روح القدس. وتكبر عن أن تشتبه بالعنبر والند والورد وأزهار الربى والرياض. لأن المفارق للمادة مفارق لغير المفارق لها مفارقة السواد للبياض. ثم هي مع هذا واجبة القصد عذبة الورد، تذكر الذاكر الذكي بعرفها الذكي لمدركات جنة الخلد والنعيم. وفي مثل هذه فليتنافس المتنافسون.

وتدرك النفس النفيسة لذة النعيم لأنها ظاهرةً طيبة، وكريمة صبيّة، واقفة على

حضرة الملك والسلطان، ومدار فلك النسك ومستقر الإمامة والجلالة، ومعقل الهداية والدلالة، وأصل الأصالة ودار المتقين، وبيت العدالة وحزب اليقين. وإنسانها الأعظم معلي الموحدين على الملحدين وقائم الدين وقيمه، ومقر الإسلام ومقدمه، القائم بالدعوة العامة بعد أبيه إمام المجد والفخر، ثم الأمة الذي إذا عزم أوهم بتخصيص مهمل، اتخذ في خلده ما هو بالفعل مع ما هو بالقوة، وأن يعرض له في طريق إعراضه الممكن

العسيريسره سعده وساعده ساعد القوة وإن سمع بالحمد في جهة حدبه بخاصة خصاله بعد مجد الأبّوة وفخر النبّوة، لا يذكر معه ولا عنده صعب الأمور إلا بالضد، فإنه مظهر العناية الإلهية، ومرءاة المجد والجد. هو علم العلم ثم هو محل الحلم، إسمه متوحد في مدلوله كالإسم العلم، وعهده لا يتوقف على اللسان ولا على رسوم القلم.

كتب في السماء وسمع به في الكرسي، وكذلك العرش، وما هنا إنما هو مما هنالك فهو الأعلى. وإن كان في الفرش هو شامخ القدر ظاهر الفضل شديد البطش. ثم هو مما ظهر عليه علم أن الشجاعة لم تتنقل من الإنسان إلى الأسد. ولا يقال هذا بحر العلم

فينقل من الطبيعة إلى بحر الخلد، لأن ذلك كله فيه بوجه أكمل وبه وعليه، وفي يديه بنوع أفضل بلغ ذروة النهاية المخصوصة، بالمطالب العالية وحصل في الزمان الفرد ما حصله الفرد في الأيام الخالية. وبلغ في تبليغ حمده بصفاته ما بلغ الأشد عمره ونال غاية الإنسان، ويتعجّب منه في القيامة عمره، ويسره أمره طلعت سعوده على مولده، ومطالعه كلمة مجده لأحكام الفلك وطالعه. إن حرر القول فيه وفهم شأنه، قيل هو من فوق الأطلس والمكوكب، وإن قيس سعده بالكمالات الثلاثة كان كالبسيط مع المركب. أي غاية تطلب بعد طاعته، وأي تجارة تنظر مع بضاعته، له الحمد بيده الملك والأمانة، بل له الكل بفضل الله وفيه المقصد والسلامة، لا بل له الفتح المبين وتتميم النعمة والهداية ونور السكينة، وفيه الإمارة والعلامة. منير منكة بإزاء بيت بكة خطب بخطبته، والذي ذهب بالمدينة يطلب فلعله يسعفه في خطبته أفئدة السر تطير إذا سمعت بذكره، والمهندات البتر تلين لباس ساعده. ويقول طباع أربابها بشكره دولة التوحيد، توحدت له إذ هو واحدها الأوحد، وسياسة التسديد تحكمت له فهو مدبرها الأرشد. ومع هذا كتابته أهملت صيت الصادين، وكورت شمس الفتح، ثم الفتح والصادين.

وكذلك الثلاثة الذين من قبلهم لا نذكر معه الأديب حبيب في رد الإعجاز على

الصدور، فإنه الذي يعتبر في ذلك والذي يصدر عنه هو واقع في الصدور، وافعل في طباع المهرة وفي نفوس الصدور يتأخر عن شعره شعر الرجلين. وبعده نذكر الطبقة، ثم شعراء نجد، والخبب والجبلي والولد بعده والهذلي، والمؤكد هو تقديمه في المغرب من ذلك. والهذلي علوم الأدب، الخمسة تممها وسادسها وسابعها زاده من عند نفسه. وخليل النحو لو حضر عنده كان خليله في تحصيل نوعه وجنسه، والفارسي تلميذه ثم الاخر بعده والأخفش الكبير ثم الصغير ما ضرب لهم من قبل في مثله بنصيب. وأقام أئمّة النحو تنحو نحوه بنحو ينحوه نحو نحوه، ثم لا يكون كالمصيب. وكل كوفي بل كل بصري يجب الظهور إذا سمع به اختفى، والمنصف منهم هو الذي بنحوه اكتفى. أقيسة الفقه الثلاثة هذبها وحصلها، وأصوله كما يجب علمها وفضلها. والمسائل الطبولية تكلم على مفصلها ومجملها، وسهل الصعب من مخصّصها ومهملها.

وإن فسر كتاب الله المعجز عجز أرباب البلاغة بإعجاز بعد إعجازه، وإن تعرّض لعوارض ألفاظه أظهر العجب في اختصاره وإيجازه. وإن شرع في شرح قصصه وجدله، وفي تفسير ترغيبه وترهيبه. ومثله يبصر

الناظر فيه والمستمع لما لم يسمع وما لم يبصر، فإنه سلك بقدم كماله وتكميله على قنطرة بعد لم تعبر ويضطر الزعيم به بتحصيله إلى تجديد قنطرة أخرى، وبعد هذا يفتقر في بيانه إليه في الأولى وإلى الله في الأخرى. وإن تكلّم عن متشابهه ومحكمه علم الاصطلاح. ثم بيان النوع للخبير به وبمحكمه، وكذلك القول على الناسخ والمنسوخ والوعد والوعيد. وإن يشاء طول في مطولاتهم واختصر من مختصراتهم، فبيده الزيادة وضد المزيد، وأما تحرير أمره ونهيه وأسراره ورقائقه، وفواتح سوره وحقائقه. والذي يقال إنه لا من جنس الذي يكتسب والذي هو أعظم من الذي يرد، وإليه الأحوال تنتسب فهو الشارح لها والخبير بها، وإن تأخَّر. وينوّع في ذلك ويزيد غير الأول وإن تكرر. وأما علوم الحديث وأنواعها السبعة فهو بعلمها، وصناعته بجملتها للعلماء يعلمها. والوارقة والضبط والخط وقفت عليه مهنة غايتها، وحمله الأمر علوم الشريعة كلها عرفها ووعاها ورعاها حق رعايتها. وكل العلوم العقليّة والنقليّة ورجالها على ذهنه الطاهر من دنس النسيان، والمقامات السنية المستنزلات العلويّة أدركها بعد التبيان. فمن أراد أن يمدحه ويعدل عن إطلاق القول فقد اقترف أعظم الذنب. ومن ذكره و لم يتلذذ بذلك فقد جاء بما ينضح حمله الخبب، ونعوت جمالها يمنع عن إدراكها نور المتصل، وحضرة جلاله محفوظة بجدِّها وجَدِّها وقاطعها المنفصل. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، قل اللهم مالك الملك، الله أعلم حيث يجعل رسالاته.

هذه كلّها. آياته والرابعة: { وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها } فإنها هباته إن حدث المحدث بكرمه يقول، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده، ونصر الله إذا جاء لا يرده، وفتحه من ذا الذي عن السعيد يصدّه، والمؤرّخ يتذكّر بتذكره الكلمات الهذلي من حيث المطالب، إذ قال وقد سئل عن الإمام علي بن أبي طالب هو الإمام وفيه أربعة وهو واحدها حتى في رفع التشبيه وقطع السبب، العلم والحلم والشجاعة وفضل الحسب، يسرّ

بحكمته ويغبط بها متى يتبع جملته، الباحث الحكيم ولا يشعر بشعره إذا تصفّح نعوته الشاعر العليم، وينشد طبعه في الحين والوقت والحزة ويخرج الحروف من مخارج الهمزة.

شهدتُ لقد أوتيتَ جامعَ فَضْلهِ   وأُنت على عِلْمي بذاكَ شَهيدُ
ولو طُلبَتْ في الَغْيبِ منك سجيَّةٌ   لَقدْ فَرَّ مَوْجودٌ وعَزَّ وُجودُ

أدام الله له المجد الذي يسلك به على النجدين، وحفظ عليه مقامه الذي لا يحتقر فيه إلاّ جوهر النقدين، وبسط له في العلم والقدرة، وبارك له في نصيب النصرة، وجهَّز به العسرة، ورد به على الشرك والفتن الكرَّة، وعرفه في كل ما يعتزمه صنعاً جميلاً، ولطفاً خفياً جليلاً. وكفاه الشرّ المحض وخير الشرين، كما كشف له عن الخير المحض وعلم السرِّين، وأيَّده بروح منه في السّر والسريرة، وحفظه في حركاته وسكناته من الصغيرة والكبيرة. وجعل كلمته غالبة للضد والجند، وبلغ صيته الجزائر والبربر، ثم إلى السند والهند. وخلّد ملكه وسلّم فلكه، ورفعه على أوج المجد بحدّه الطويل العريض. وأهبط عدوه من شرف الأعلى إلى الحضيض.

وفتح الله به باب الفتح في المشرق والمغرب بعد فتح الثغور، وشرح بنصره وفتحه أوساط الصدور، وما استنبطته الضمائر من نفثات الصدور وجبر به كسر الظفر، ووصل به ما انقطع من الأسباب. وعصم جنده من ضد الدنف الأنف، وردّهم إلى ردم الأبواب وقدّس كلمته بعد الحرمين في البيت المقدّس، وسلك به مسلك السبل في المقيل والمعرس. وبعد هذا فهذه أدعيتنا، بل هذه أوديتنا، وهذه مسائلنا بل هذه وسائلنا، وهذه تحيّة حيّاها ذو الفطرة السليمة، وهذه خدمة يفتخر بها طبيعة النفس العليمة. واستنبت فيها الكتاب واستثبت فيها الجواب، والموجب لإصدارها محبّة أصلها ثابت وفرعها في العلى وحفز عليها حافزان: شوق قديم، ورعاية الآخرة والأولى، بل الأمر الذي هو في خير الأمور من أوسطها، وإذا نظم في عقد الأسباب الموجبة لهذه الخطابة يكون في وسطها، فإنه يحكي أحكام الشأن والقصّة، ويعلم المقام أيَّده الله الذي حصل له في حرم الله وحرم نبيه من النصيب والحصة، وفيه ينبغي أن تذهب الألفاظ وتلحظ عيون الأغراض وينفح المقاصد ويحمل على جواهر

الكمالات كالأعراض، فمن ذلك ذكر الملّة التي كملت وكبرت، والأخرى التي كانت ثم غمرت وصغرت. والمنبر الذي صعد خطب خطبته على الخطيب، وعرج إلى سماء السمو وهو على درجه، والآخر الذي درج عنه خطيبه وضاق صدره الأمر حرجه، وقرئت سورة الإمام بحرف المستنجد المستبصر، لا بحرف المستعصم بن المستنصر.

بسط القول وأطلق ترجمة عبد الله بعد ما قبضه الذي أمات وأحيا، وقبض على مقامه ودفع للإمام محمد بن يحيى، وكان ذلك في يوم وصول الخبر بمصيبة الاختبار، ثم في ليلة الآيات والاعتبار. ومن ذلك أيضاً بنعمة الحمد والدعاء الظاهر القول والمقبول في الحرم الشريف، وانقياد الذي ظهر على طائفة الحق والسيد الشريف. ومن ذلك صعود علم الأعلام على جبل معظم الحجّ ومقرّ وفوق الحاج، ووقف به المتكلم في مقام من كانت له سقاية الحاج، وذكر كما يجب بما يجب في موقف الإمام مالك، وعرف هنالك أنه الإمام والمالك لكل مالك. وتعرّفت نكرة دعوة التوحيد بتخصيص خصوصية المخصوص بعرفة، وتعارف بها من تعارف معه هناك ونعم التعارف والمعرفة.

ثم ذكر عند المشعر الحرام وفي جهات حدود حرم المسجد الحرام، وعظم اسمه بعد ذكر الله وذكر الوالدين، وطلع الذاكر بالتركيب إلى الجدّين الساكنين في الخلد والخالدين. فلما وصل الحجيج إلى عقبة الجمرات، ذكر مع السبع الأولى سبع مرات. وكذلك عند الركوع في مسجد الخيف، وكل كلمات تمجيده بالكم والكيف، وعند التوجّه من هناك ويوم النفر قرّرت آياته المذكورة في كتاب الجَفر. ثم جدد الذكر حول البيت العتيق بالحمد والشكر. فلمّا وصل العلم بانتقال بيت الملك والسلطان من بغداد في شهر رمضان، أظهر الخفي المكنون فكان ذلك مع التسبيح والقرآن، وكان الخادم في الزمان الأول وفي الذاهب ينتظر الخطفة من نحو عراق والمغرب. والان وجد نفسها من نحو اليمن إقليم الأعراب والعرب.

والذي حمل على هذا كله طاعة كاملة وغبطة عاملة، والله تعالى بفضله يعصمه من كيد المعاند، فإنه في إظهار دعوة التوحيد كالمجاهد والمكابد، ومعاد التحيّة على المقام الأرفع والمقرّ الأَنفع، وعلى خدام حضرته العلية، وأرباب دعوته الجلية وأنواع رحمته تعالى وبركاته. والحمد لله كما يجب وصلى الله على نبيه محمد وعلى آله وسلم.

كتب تجاه الكعبة المعظمة في الجانب الغربي من الحرم الشريف، والحمد لله ربّ العالمين. ولما وصلت هذه البيعة استحضر لها السلطان الملأ والكافة، وقرئت بمجمعهم وقام خطيبهم القاضي أبو البراء في ذلك المحفل فاسحنفر في تعظيمها والإشادة بحسن موقعها، وإظهار رفعة السلطان ودولته بطاعة أهل البيت والحرم ودخولهم في دعوته. ثم جار بالدّعاء للسلطان وانفضّ الجمع فكان من الأيام المشهودة في الدولة.

الخبر عن الوفود من بني مَرين والسودان وغيرهم

كان بنو مَرين كما قدَّمناه قد تمسّكوا بطاعة الأمير أبي زكريا ودخلوا في الدعوة الحفصيّة، وحملوا عليها من تحت أيديهم من الرعايا مثل: أهل مكناسة وتازى والقصر، وخاطبوا السلطان بالتمويل والخضوع. ولّما هلك السلطان وولي ابنه المستنصر، وقارن ذلك ولاية المرتضى بمراكش. ثم كان بينهم وبين المرتضى من الفتنة والحرب ما ذكرناه ونذكره، فاتصل ذلك بينهم وبعث الأمير أبو يحيى بن عبد الحق بيعة أهل فاس، وأوفد بها مشيخة بني مَرين على السلطان وذلك سنة اثنتين وخمسين وستمائة فكان لها موقع من السلطان والدولة.

وقابلهم من الكرامة كل على قدره، وانصرفوا محبورين إلى مرسلهم. ولما هلك أبو يحيى بن عبد الحق، واستقل أخوه يعقوب بالأمر أوفد إليه ثانية رسله وهديّته، وطلب الإعانة من السلطان على المرتضى وأمر أهل مراكش على أن يقيموا بها الدعوة له عند فتحها. ولم يزل دأبهم هذا إلى أن كان الفتح.

وفي سنة خمس وخمسين وستمائة وصلت هدية ملك كانم من ملوك السودان، وهو صاحب برنو مواطنه قبلة طرابلس، وكان فيها الزرافة وهو الحيوان الغريب الخلق المنافر الحلى والشيات، فكان لها بتونس مشهد عظيم برز إليها الجفلى من أهل البلد حتى غصّ بها الفضاء، وطال إعجابهم بشكل هذا الحيوان وتباين نعوته، وأخذها من كل حيوان بشبه. وفي سنة ثمان وخمسين وستمائة وصل دون الرنك أخو ملك قشتالة مغاضباً لأخيه، ووفد- على السلطان بتونس فتلقّاه من المبرّة والحباء بما يلقى به

كرام القوم وعظماء الملوك، ونزل من دولته بأعزّ مكان. وكان تتابع هذه الوافدات مما شاد بذكر الدولة ورفع من قدرها.

الخبر عن مقتل ابن الأبار وسياقة أوليته

كان هذا الحافظ أبو عبد الله بن الأبار من مشيخة أهل بلنسية، وكان علاَّمة في الحديث ولسان العرب، وبليغاً في الترسيل والشعر. وكتب عن السيد أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن ببلنسية. ثم عن ابنه السيد أبي زيد. ثم دخل معه دار الحرب حين . نزع إلى دين النصرانية، ورجع عنه قبل أن يأخذ به. ثم كتب عن ابن مردنيش. ولما دلف الطاغية إلى بلنسية ونازلها بعث زيّان بوفده بلنسية وبيعتهم إلى الأمير أبي زكريا، وكان

فيهم ابن الأبار هذا الحافظ، فحضر مجلس السلطان وأنشد قصيدته على رويّ السين يستصرخه، فبادر السلطان بإغاثتهم وشحن الأساطيل بالمدد إليهم من المال والأقوات والكسي فوجدهم في هوّة الحصار، إلى أن تغلّب الطاغية على بلنسية. ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس غبطة بإقبال السلطان عليه فنزل منه بخير مكان، ورشّحه لكتب علامته في صدور رسائله ومكتوباته، فكتبها مدّة. ثم إن السلطان أراد صرفها لأبي العباس الغسّاني لما كان يحسن كتابتها بالخط المشرقي، وكان آثر عنده من الخطّ المغربي فسخط ابن الأبار إنفة من إيثار غيره عليه، وافتأت على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه، وأن يبقى مكان العلامة منه لواضعها فجاهر بالردّ ووضعها استبداداً وأنفة، وعوتب على ذلك فاستشاط غضباً ورمى بالقلم وأنشد متمثّلاً:

واطْلُبِ العزَّ في لَظى وَذَرِ الذُل   ولَو كانَ في جِنان الخُلودِ

فنمى ذلك إلى السلطان فأمر بلزومه بيته، ثم استعتب السلطان بتأليف رفعه اليه عدَّ فيه من عوتب من الكتاب، واعتب. وسمّاه أعتاب الكتاب. واستشفع فيه بإبنه المستنصر فغفر السلطان له وأقال عثرته، وأعاده إلى الكتابة. ولما هلك الأمير أبو زكريا رفعه المستنصر إلى حضور مجلسه مع الطبقة الذين كانوا يحضرونه من أهل الأندلس

وأهل تونس، وكان في ابن الأبار أَنَفَةٌ وبَأْوٌ وضيق خلق، فكان يزري على المستنصر في مباحثه ويستقصره في مداركه، فخشن له صدره مع ما كان يسخط به السلطان من تفضيل الأندلس وولايتها عليه.

وكانت لابن أبي الحسين فيه سعاية لحقد قديم، سببه أن ابن الأبار لما قدم في الأسطول من بلنسية نزل ببترزت، وخاطب ابن أبي الحسن بغرض رسالته، ووصف أباه في عنوان مكتوبه بالمرحوم. ونبّه على ذلك فاستضحك وقال: إن أباً لا تعرف حياته من موته لأب خامل. ونميت إلى ابن أبي الحسين فأسرّها في نفسه، ونصب له إلى أن حمل السلطان على إشخاصه من بجاية. ثم رضي عنه واستقدمه ورجّعه إلى مكانه من المجلس. وعاد هو إلى مساءة السلطان بترعاته إلى أن جرى في بعض الأيام ذكر مولد الواثق وساءل عنه السلطان فاستبهم، فعدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة وطالعها، فاتهم بتوقع المكروه للدولة والتربص بها كما كان أعداؤه يشنّعون عليه، لما كان ينظر في النجوم فتقبّض عليه. وبعث السلطان إلى داره فرفعت إليه كتبه أجمع، وألقى أثناءها فيما زعموا رقعة بأبياتٍ أوّلها:

طغى بتونِس حلف سموه ظلماً خَليفة

فاستشاط لها السلطان وأمر بامتحانه ثم بقتله قعصاً بالرماح وسط محرم من سنة ثمان وخمسين وستمائة، ثم أحرق شلوه وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فاحرقت معه.

* (الخبر عن مقتل اللياني وأوليته وتصاريف أحواله) *

أصل هذا الرجل من لُليانة قرية من قرى المهديّة، مضمومة اللام مكسورة الثانية، وكان أبوه عاملاً بالمهديّة، وبها نشأ ابنه أبو العباس . وكان ينتحل القراءة والكتاب حتى حذق في علوم اللسان. وتفقّه على أبي زكريَّا

البرقي. ثم طالع مذاهب الفلاسفة، ثم صار إلى طلب المعاش من الإمارة فولي أعمال الجباية. ثم صودر في ولايته على مال أعطاه وتخلَّص من نكبته، فنهض في الولايات حتى شارك كل عامل

في عمله بما أظهر من كفايته وتنميته للأموالى حتى قصر بهم وأديل منهم.

وكان الكثير منهم متعلّقاً من ابن أبي الحسين رئيس الدولة بذمّة خدمة، فأسفه بذلك وأغرى به بطانة السلطان ومواليه، حتى سعوا به عند السلطان، وأنه يروم الثورة بالمهديَّة، حتى خشن له باطن السلطان. فدخل عليه ذات يوم أبو العباس الغسّاني فاستجازه السلطان في قوله: "اليوم يوم المطر" فقال الغسّاني: "ويوم رفع الضرر" فتنبّه السلطان واستزاده فأنشد: "والعام تسعة كمثل عام الجوهري " فكانت إغراء باللياني، فأمر أن يتقبض عليه وعلى عدوه ابن العطار، وكان عاملاً. وأمر أبا زيد بن يغمور بامتحانهما فعذبهما حتى استصفى أموالهما، والميل في ذلك على اللياني. وكان في أيام امتحانه يباكر موضع عمله. ثم نمي عنه أنه يروم الفرار إلى صقلية، وبوحث بعض من داخله في ذلك فأقر عليه، فدفع إلى هلال كبير الموالي من العلوج فضربه إلى أن قتله، ورمى بشلوه إلى الغوغاء فعبثوا به وقطعوا رأسه، ثم تتبع أقاربه وذووه بالنكال إلى أن استنفدوا.

(الخبر عن انتقاض أبي علي الملياني بمليانة علي يد الأمير أبي حفص)

كان المغرب الأوسط من تلمسان وأعمالها إلى بجاية في طاعة السلطان منذ تغلّب أبوه الأمير أبو زكريا عليه، وفتح تلمسان وأطاعه يُغمُراسن وكان بين زناتة بتلك الجهات فتن وحروب شأن القبائل اليعاسيب، وكان مليانة من قسمة مِغرَاوَة بني ورسيفان، وكانوا أهل بادية. وتقلص ظل الدولة عن تلك الجهات بعض الشئ. وكان أبو العباس الملياني من مشيخة مليانة صاحب فقه ورواية وسمت ودين، رحل إليه الأعلام وأخذ عنه العلماء، وانتهت إليه رئاسة الشورى ببلده. ونشأ ابنه أبو علية علي من الخلال متهالكاً في الرياسة متبعاً غواية الشبيبة، فلما رأى تقلَّص ظل الدولة وفتن مغراوة مع يغمراسن ومزاحمته لهم، حدَّثَته نفسه بالاستبداد فخلع طاعة آل أبي حفص ونبذ دعوتهم، وانبرى بها داعياً لنفسه. وبلغ الخبر إلى السلطان فسرّح إليه أخاه الأمير أبا حفص، ومعه الأمير أبو زيد بن جامع، ودن الرنك أخو الفنش،

وطبقات الجند. فخرج من تونس سنة تسع وخمسين وستمائة وأغذّ السير إلى مليانة فنازلها مدة، وشد حصارها حتى اقتحموها غلاباً. وفر أبو علي الملياني ولحق ببني يعقوب من آل العطاف أحد شعوب زغبة فأجاروه وأجازوه إلى المغرب الأقصى، إلى أن كان من خبره ما نذكره بعد.

ودخل الأمير أبو حفص مليانة ومهَّد نواحيها وعقد عليها إلى ابن مَنديل أمير مِغرَاوة فملكها مقيماً فيها لدعوة السلطان شأن غيرها من عمالات مغراوة. وقفل الأمير أبو حفص إلى تونس، ولقيه بطريقه كتاب السلطان بالعقد له على بجاية وأمارتها، فكره ذلك غبطة بجوار السلطان. وتردَّدت في ذلك رغبته فأديل منها بالشيخ أبي هلال عياد بن سعيد الهِنتَاتِيّ، وعقد له على بجاية. ولحق الأمير أبو حفص بالحضرة إلى أن كان من خلافته ما نذكر بعد. وهلك شقيقه أبو بكر ابن الأمير أبي زكريا ثانية مقدمه إلى تونس سنة إحدى أ وستين وستمائة، فتفجَّع له الخليفة والقرابة والناس وشهد السلطان جنازته، والبقاء لله وحده.

* (الخبر عن فرار أبي القاسم بن أبي زيد ابن الشيخ أبي محمد وخروجه في رياح) *

كان أبو القاسم بن أبي زيد هذا في جملة ابن عمه الخليفة، وتحت جرايته، وأبوه أبو زيد هو القائم بالأمر بعد أبيه الشيخ أبي محمد. ولحق بالمغرب. وجاء أبو القاسم في جملة الأمير أبي زكريا، وأوصى به إبنه إلى أن حدّثته نفسه بالتوثّب والخروج. وخامره الرعب من إشاعة تناقلها الدهماء، سببها أن السلطان استحدث سكّة من النحاس مقدرة على قيمته من الفضة، حاكى بها سكّة الفلوس بالمشرق تسهيلاً على الناس في المعاملات بإسرافها وتيسيراً لاقتضاء حاجاتهم. ولما كان لحق سكّة الفضة من غش اليهود المتناولين لصرفها وصوغها، وسمى سكّته التي استحدثها بالحندوس. ثم أفسدها الناس بالتدليس وضربها أهل الريب ناقصة عن الوزن، وفشا فيها الفساد. واشتد السلطان في العقوبة عليها فقطّع وقتل، وصارت ريبة لمن تناولها. وأعلن الناس بالنكير في شأنها وتنادوا بالسلطان في قطعها وكثر الخوض في ذلك وتوقّعت الفتنة. وأشيع من طريق الحدثان الذي تكلف به العامة أن الخارج الذي

يثير الفتنة هو أبو القاسم بن أبي زيد، فأزال السلطان تلك السكّة وعفا عليه، وأهمَّه شأن أبي القاسم ابن عمه، وبلغه الخبر فخامره الرعب إلى ما كان يحدّث نفسه من الخروج، ففرّ من الحضرة سنة إحدى وستين وستمائة، ولحق برياح ونزل على أميرهم شبل بن موسى بن محمد رئيس الدواودة، فبايع له وقام بأمره. ثم بلغه اعتزام السلطان على النهوض إليه فخشي بادرته واضطرب أمر العرب من قبيله. ولما أحسَّ أبو القاسم باضطرابهم وخشي أن يسلّموه إذا أزادهم السلطان عليها، تحوَّل عنهم ولحق بتلمسان وأجاز البحر منها إلى الأندلس، وصحب الأمير أبا إسحاق ابن عمه في مثوى اغترابهما بالأندلس. ثم ساءت أفعاله وعظم استهتاره. وفشا النكير عليه من الدولة فلحق بالمغرب وأقام بتينملل مدة. ثم رجع إلى تلمسان، وبها مات. وقام الأمير أبو إسحاق بمكانه من جوار ابن الأحمر إلى أن كان من أمره ما نذكره.

(الخبر عن خروج السلطان إلى المسيلة)

لما اتصل بالسلطان شأن أبي قاسم ابن عفه أبي زيد وفصاله عن رياح إلى المغرب بعد عقدهم بيعته، وأجلابهم على البلاد معه، خرج من تونس سنة أربع وستين وستمائة في عساكر الموحدين وطبقات الجند لتمهيد الوطن، ومحو آثار الفساد منه، وتقويم العرب على الطاعة. وتنقل في الجهات إلى أن وصل بلاد رياح فدوخها ومهد أرجاءها، وفر شبل بن موسى وقومه الدواودة إلى القفر، واحتل السلطان بالمسيلة آخر وطن رياح. ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي أمير بني توجين من زناتة مجدداً لطاعته، ومتبركاً بزيارته، فتلقاه من البرور تلقي أمثاله، وأثقل كاهله بالحباء والجوائز، وجنب له الجياد المقربات بالمراكب المثقلة بالذهب، واللجم المحلات. وضرب له الفساطيط الفسيحة الأرجاء من ثياب الكتان وجدل القطن، إلى ما يتبع ذلك من المال والظهر والكراع والأسلحة. وأقطع له مدينة مقرة وبلد أوماش من عمل الزاب، وانقلب عنه إلى وطنه. ورجع السلطان إلى تونس وفي نفسه من رياح ضغن إلى أن صرف إليهم وجه تدبيره كما نذكره، ولثانية احتلاله بالحضرة سنة خمس وستين وستمائة كان مهلك مولاه هلال، ويعرف بالقائد،

وكان له في الدولة مكان بما كان تلادا للسلطان، وكان شجاعا جواداً خيّراً محباً سهلاً مقبلاً على أهل العلم وذوي الحاجات، وله في سبيل الخير آثار منقولة صار له بها ذكر، فارتمض السلطان لمهلكه والله أعلم .

(الخبر عن مقتل مشيخة الدواودة)

كان شبل بن موسى وقومه من الدواودة قد فعلوا الأفاعيل في اضطراب الطاغية، ونصب من لحق بهم من أهل هذا البيت للملك، فبايعوا أولاً للأمير أبي إسحق كما ذكرناه. ثم بعده لأبي القاسم ابن عمّه أبي زيد. وخرج إليهم السلطان سنة أربع وستين وستمائة ودوّخ أوطانهم، ولحقوا بالصحراء ودافعوه على البعد بطاعة ممرضة فتقبّلها، وطوى لهم على اابتّ ورجع إلى تونس فأوعز إلى أبي هلال عبّاد عامل بجاية من مشيخة الموحّدين باصطناعهم واستئلافهم لتكون وفادتهم عليه من غير عهد. وجمع السلطان أحلافه من كعوب بني سُلَيم ودباب وأفاريق بني هلال. وخرج من تونس سنة ست وستين وستمائة في عساكر الموحّدين وطبقات الجند. ووافاه بنو عساكر ابن سلطان إخوة بني مسعود بن السلطان من الدواودة فعقد لمهدي بن عساكر على أمارة قومه وغيرهم من رياح. وفرّ بنو مسعود بن السلطان مصحرين في أثرهم حتى نزل نقاوس وعسكروا بثنايا الزاب، ورسلهم تختلف إلى أبي هلال إيناساً للمراجعة على يده للدخلة في الساحة، فأشار عليهم بالوفادة على السلطان وفاء بقصده من ذلك، فتقبلوا إشارته. ووفد أميرهم شبل بن موسى بن محمد بن مسعود وأخوه يحيى، وبنو عمهما أولاد زيد بن مسعود: سباع بن يحيى بن دريد، وابنه، وطلحة بن ميمون بن دريد، وحداد بن مولاهم ابن خنفر بن مسعود وأخوه، فتقبّض عليهم لحينهم، وعلى دريد ابن تازير من شيوخ كرفة. وانتهبت أسلابهم وضربت أعناقهم ونصبت أشلاؤهم بزواية من خهات نقااوس حيث كانت بيعتهم لأبي القاسم بن أبي زيد، وبعث برؤوسهم إلى بسكرة فنصبها بها، وأغذّ السير غازياً إلى أحيائهم وأحّلهم بمكانها من ثناية الزاب.

وصبحهم هنالك فأجفلوا وتركوا الظهر والكراع والأبنية، فامتلأت أيدي العساكر وسدويكش منها، ونجوا بالعيال والولد على الأقتاب، والعساكر في أتباعهم، إلى أن أجازوا وادي شدى قبلة الزاب، وهو الوادي الذي يخرج أصله منه جبل راشد قبلة المغرب الأوسط، ويمرّ إلى ناحية الشرق مجتازاً بالزاب إلى أن يصبّ في سبخة نفزاوة من بلاد الجريد. فلما جاز فلّهم الوادي أصحروا إلى المفازة المعطشة والأرض الحّرة السوداء المستحجرة المسمّاة بالحمادة، فرجعت العساكر عنهم وانقلب السلطان من غماته ظافراً ظاهراً، وأنشده الشعراء في التهنئة، ولحق فلّ الدواودة بملوك زناتة، فنزل بنو يحيى بن دريد على يغمراسن بن زيّان، وبنو محمد بن مسعود على يعقوب بن عبد الحق، فأجاروهم وأوسعوهم حباء وملؤا أيديهم بالصلات، ومرابطهم بالخيل، وأحياءهم بالإبل، ورجعوا إلى مواطنهم فتغلبوا على واركلة وقصور ريغة واقتطعوها من إيالة السلطان. ثم زحفوا إلى الزاب فجمع لهم عامله ابن عتّو وكان موطناً بمقرة، ولقيهم على حدود أرض الزاب فهزموه واتبعوه إلى بطاوة فقتلوه عندها، واستطالوا على الزاب وجبل أوراس، وبلاد الحضنة إلى أن اقتطعتهم الدول إياها من بعد ذلك، فصارت ملكا لهم، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن طاغية الإفرنجة ومنازلته تونس في أهل نصرانيته) *

هذه الأمة المعروفة بالإفرنجة، وتسميها العامة بالافرانسيس نسبة إلى بلد من أمهات أعمالهم تسمى افرانسة. ونسبهم إلى يافث بن نوح، وهم بالعدوة الشمالية من عدوتي هذا البحر الرومي الغربي ما بين جزيرة الأندلس وخليج قسطنطينة، مجاورون الروم من جانب الشرق والجلالقة من جانب الغرب. وكانوا قد أخذوا بدين النصرانية مع

الروم، ومنهم لُقّنوا دينها. واستفحل ملكهم عند تراجع ملك الروم، وأجازوا البحر إلى أفريقية مع الروم فملكوها ونزلوا أمصارها العظيمة مثل: سُبَيطِلَة وجَلولا وقرطاجنّةومرناق وباغاية ولمس وغيرها من الأمصار. وغلبوا على كل من كان بها من البربر حتى اتبعوهم في دينهم وأعطوهم طاعة الانقياد.

ثم جاء الإسلام وكان الفتح بانتزاع الأعراب من أيديهم سائر أمصار أفريقية، والعدوة الشرقية والجزر البحرية مثل أقريطش ومالطة وصقلية وميورقة ورجوعهم إلى عدوهم. ثم أجازوا خليج طنجة، وغلبوا القوط والجلالقة والبشكنس، وملكوا جزيرة الأندلس وخرجوا من ثناياها ودورها إلى بسائط هؤلاء الإفرنجة فدوّخوها وعاثوا فيها. ولم تزل الصوائف تتردّد إليها صدراً من دولة بني أميّة بالأندلس، وكان ولاة أفريقية من الأغالبة ومن قبلهم أيضاً يردّدون عساكر المسلمين وأساطيلهم من العدوة حتى غلبوهم على الجزر البحرية، ونازلوهم في بسائط عدوتهم فلم تزل في نفوسهم من ذلك ضغائن، فكان يخالجها الطمع في ارتجاع ما غلبوا عليه منها.

وكان الربع أقرب إلى سواحل الشام وطمع فيها. فلما وصل أمر الروم بالقسطنطينية ورومة، واستفحل ملك الفرنجة هؤلاء، وكان ذلك على هيئة سموّ الخلافة بالمشرق، فسموا حينئذ إلى التغلّب على معاقل الشام وثغوره، وزحفوا إليها وملكوا الكثير منها واستولوا على المسجد الأقصى وبنوا فيه الكنيسة العظمى بدل المسجد، ونازلوا مصر والقاهرة مراراً حتى جاد الله للإسلام من صلاح الدين أبي أيوب الكردي صاحب مصر والشام في أواسط المائة السادسة جنّة واقية، وعذابا على أهل الكفر مصبوباً، فأبلى في جهادهم وارتجع ما ملكوه، وطهّر المسجد الأقصى من إفكهم وكفرهم، وهلك على حين غرّة من الغزو والجهاد. ثم عاودوا الكرّة ونازعوا مصر في المائة السابعة على عهد المالك الصالح صاحب مصر والشام، وأيام الأمير أبي زكريا بتونس، فضربوا أبنيتهم بدمياط وافتتحوها وتغلّبوا في قرى مصر. وهلك الملك الصالح خلال ذلك، وولي ابنه المعظّم وأمكنت المسلمين في الغزو فرصة أيام فيض النيل، ففتحوا الغياض وأزالوا مدد الماء فأحاط بمعسكرهم وهلك منهم عالم، وقيد سلطانهم أسيراً

من المعركة إلى السلطان فاعتقله بالإسكندرية، حتى مرّ عليه بعد حين من الدهر وأطلقه على أن يمكّنوا المسلمين من دمياط فوفّوا له. ثم على شرط المسالمة فيما بعد فنقضه لمدة قريبة، واعتزم على الحركة إلى تونس متجنّياً عليهم فيما زعموا بمال أدعياء تجّار أرضهم، وأنهم أقرضوا اللياني فلما نكبه السلطان طالبوه بذلك المال وهو نحو ثلاثمائة دينار بغير موجب يستندون إليه، فغضبوا لذلك واشتكوا إلى طاغيتهم فامتعض لهم ورغّبوه في غزو تونس لما كان فيها من المجاعة والموتان.

فأرسل الفرنسيس طاغية الافرنج واسمه سنلويس بن لويس وتلقّب بلغة الافرنج روا فرنس ومعناه ملك افرنس، فأرسل إلى ملوك النصارى يستنفرهم إلى غزوها، وأرسل إلى القائد خليفة المسيح بزعمهم فأوعز إلى ملوك النصرانية بمظاهرته، وأطلق يده في أموال الكنائس مدداً له. وشاع خبر استعداد النصارى للغزو في سائر بلادهم، وكان الذين أجابوه للغزو ببلاد المسلمين من ملوك النصرانية ملك الانكثار وملك اسكوسيا وملك تورك وملك برشلونة واسمه ريدراكون وجماعة آخرون من ملوك الإفرنج، هكذا ذكر ابن الأثير وأهم المسلمين بكل ثغر شأنهم وأمر السلطان في سائر عمالاته بالاستكثار من العدّة، وأرسل في الثغور لذلك بإصلاح الأسوار واختزان الحبوب، وانقبض تجّار النصارى عن تعاهد بلاد المسلمين. وأوفد السلطان رسله إلى الفرنسيس لاختبار رحاله ومشارطته على ما يكف عزمه. وحملوا ثمانين ألفاً من الذهب لاستتمام شروطهم فيما زعموا، فأخذ المال من أيديهم وأخبرهم أنّ غزوه إلى أرضهم. فلما طلبوا المال اعتلّ عليهم بأنه لم يباشر قبضه ووافق شأنهم معه وصول رسول عن صاحب مصر، فأحضر عند الفرنسيس واستجلس فأبى وأنشده قائلا من قول أبي مطروح شاعر السلطان بمصر:

قل للفَرَنْسيس إذا جئته ... مقالَ صِدقٍ من وزيرٍ نَصيح

آجرك الله على ما جرى ... من قَتلِ عباد نصارى المسيح

أتيت مصراً تبتغي ملكها ... تحسب أن الزمر بالطبل ريح

فساقك الحين إلى أدهم ... ضاق به عن ناظِرَيْك الفسيح

وكل أصحابك أودَعتَهُم ... بسوء تَدبيرك بَطن الضَرِيح

سبعون ألفاً لا يُرى منهم ... إلاّ قتيل أو أسير جريح

أَلهمَكَ اللهُ إلى مِثلِها ... لعلّ عيسى منكم يستريح

إن كان باباكم بذا راضياً ... فربّ غّشٍّ قد أتى من نصيح

فاتخذوه كاهناً إنه ... أنصح من شقٍّ لكم أو سطيح

وقل لهم إن أزمعوا عودةً ... لأخذ ثأرٍ أو لشغلٍ قبيح

دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باقٍ والطواشي صبيح

يعني بدار ابن لقمان موضع اعتقاله بالإسكندرية، والطواشي في عرف أهل مصر هو الخصي. فلما استكمل إنشاده لم يزد ذلك الطاغية إلا عتوّاً واستكباراً، واعتذر عن نقض العهد في غزو تونس بما يسمع عنهم من المخالفات، عذراً دافعهم به، وصرف الرسل من سائر الآفاق ليومه. فوصل رسل السلطان منذرين بشأنهم، وجمع الطاغية حشده وركب أساطيله إلى تونس آخر ذي القعدة سنة ثمان وستين وستمائة، فاجتمعوا بسردانية وقيل بصقلية. ثم واعدهم بمرسى تونس وأقلعوا ونادى السلطان في الناس بالنذير بالعدو والاستعداد له، والنفير إلى أقرب المدائن، وبعث الشواني لاستطلاع الخبر ، واستفهم أياما.

ثم توالت الأساطيل بمرسى قرطاجنّة، وتفاوض السلطان مع أهل الشورى من الأندلس والموحّدين في تخليتهم وشأنهم من النزول بالساحل أو صدّهم عنه، فأشار بعضهم بصدّهم حتى تنفذ ذخيرتهم من الزاد والماء، فيضطرون إلى الإقلاع. وقال آخرون إذا أقلعوا من مرسى الحضرة ذات الحامية والعدد صبحوا بعض الثغور سواها فملكوه واستباحوه، واستصعبت مغالبتهم عليه فوافق السلطان على هذا وخلوا وشأنهم من النزول فنزلوا بساحل قرطاجنّةبعد أن ملئت سواحل رودس بالمرابطة بجند الأندلس والمطوعة زهاء أربعة آلاف فارس، لنظر محمد بن الحسين رئيس الدولة.

ولما نزل النصارى بالساحل وكانوا زهاء ستة آلاف فارس، وثلاثين ألفا من الرجّالة فيما حدثني أبي عن أبيه رحمهما الله. قال: وكانت أساطيلهم ثلثمائة بين كبار وصغار،

وكانوا سبعة يعاسيب كان فيهم الفرنسيس وإخوة جرون صاحب صقلية وصاحب الجزر، والعلجة زوج الطاغية تسمى الرينة، وصاحب البر الكبير، وتسميهم العامة من أهل الأخبار ملوكاً ويعنون أنهم متباينون إذ ظاهروا على غزو تونس، وليس كذلك. وإنما كان ملكاً واحداً وهو طاغية الفرنجة وإخوته وبطارقته، عدّ كل واحد منهم ملكاّ لفضل قوته وشدة بأسه، فأنزلوا عساكرهم في المدينة القديمة من قرطاجنّة، وكانت ماثلة الجدران اضطرم المعسكر بداخلها، ووصلوا ما فصله الخراب من أسوارها بألواح الخشب ونضّدوا شرفاتها، وأداروا على السور خندقاً بعيد المهوى وتحصّنوا. وندم السلطان على إضاعة الحزم في تخريبها أو دفاعهم عن نزلها. وأقام ملك الفرنجة وقومه متمرسين بتونس ستة أشهر، والمدد يأتيه في أساطيله من البحر من صقلية والعدوة بالرجل والأسلحة والأقوات.

وسلك بعض المسلمين طريقاً في البحرية، واتبعهم العرب فأصابوا غرّة في العدوّ فظفروا وغنموا وشعروا بمكانهم، فكلّفوا بحراسة البحيرة وبعثوا فيها الشواني بالرماة ومنعوا الطريق إليهم وبعث السلطان في ممالكه حاشداً فوافته الأمداد من كل ناحية، ووصل أبو هلال صاحب بجاية وجاءت جموع العرب وسدويكش وولهاصة وهوارة حتى أمدّه ملوك المغرب من زناتة وسرّح إليه محمد بن عبد القوي عسكر بني توجين لنظر ابنه زيّان. وأخرج السلطان ابنتيه وعقد لسبعة من الموحّدين على سائر الجند من المرتزقة والمطّوعة وهم: إسمعيل بن أبي كلداسن وعيسى بن داود ويحيى بن أبي بكر ويحيى بن صالح وأبو هلال عياد صاحب بجاية ومحمد بن عبو، وأمرهم كلّهم راجع ليحيى بن صالح ويحيى بن أبي بكر منهم.

واجتمع من المسلمين عددٌ لا يحصى، وخرج الصلحاء والفقهاء والمرابطون لمباشرة الجهاد بأنفسهم والتزم السلطان القعود بإيوانه مع بطانته وأهل اختصاصه وهم : الشيخ أبو سعيد المعروف بالعود، وابن أبي الحسين وقاضيه أبو القاسم بن البراء وأخو العيش. واتصلت الحرب، والتقوا في منتصف محرم سنة تسع بالمنصف، فزحف يومئذ يحيى صالح وجرون. فمات من الفريقين خلق، وهجموا على المعسكر بعد العشاء وتدامر المسلمون عنده ثم غلبوا عليه بعد أن قتل من النصارى زهاء

خمسمائة، فأصبحت أبنيته مضروبة كما كانت. وأمر بالخندق على المعسكر فتعاورته الأيدي، واحتفر فيه الشيخ أبو سعيد بنفسه، وابتلي المسلمون بتونس، وظنّوا الظنون. واتّهم السلطان بالتحوّل عن تونس إلى القيروان.

ثم إنّ الله أهلك عدوّهم وأصبح ملك الفرنجة ميتاً يقال حتف أنفه، ويقال أصابه سهم غرب في بعض المواقف بأبته ويقال أصابه مرض الوباء، ويقال وهو بعيد أنّ السلطان بعث إليه مع ابن جرام الدلاصي بسيف مسموم وكان فيه مهلكه. ولما هلك اجتمع النصارى على ابنه دمياط، سفي بذلك لميلاده بها فبايعوه، واعتزموا على الإقلاع. وكان أمرهم راجعاً إلى العلجة فراسلت المستنصر أن يبذل لها ما خسروه في مؤنة حركتهم، وترجع بقومها فأسعفها السلطان لما كان العرب اعتزموا على الانصراف إلى مشاتيهم.

وبعث مشيخة الفقهاء لعقد الصلح في ربيع الأوّل سنة تسع وستين وستمائة فتولّى عقده وكتابه القاضي ابن زيتون لخمسة عشر عاماً. وحضر أبو الحسن علي بن عمرو وأحمد بن الغماز وزيان بن محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، واختصّ جرون صاحب صقلية بسلم عقده على جزيرته. وأقلع النصارى بأساطيلهم، وأصابهم عاصف من الريح أشرفوا على العطب، وهلك الكثير منهم. وأغرم السلطان الرعايا ما أعطى العدو من المال فأعطوه طواعية. يقال إنه عشرة أحمال من المال، وترك النصارى بقرطاجنّة تسعين منجنيقاً. وخاطب السلطان صاحب المغرب وملوك النواحي بالخبر ودفاعه عن المسلمين وما عقده من الصلح، وأمر بتخريب قرطاجنّةوأن يؤتى بنيانها من القواعد، فصير أبنتيها طامسة ورجع الفرنجة إلى دعوتهم فكان آخر عهدهم بالظهور والاستفحال، ولم يزالوا في تناقص وضعف إلى أن افترق ملكهم عمالات. واستبد صاحب صقلية لنفسه، وكذا صاحب نايل وجنوة وسردانية، وبقي بيت ملكهم الأقدم لهذا العهد على غاية من الفشل والوهن. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن مهلك رئيس الدولة أبي عبد الله بن أبي الحسين وأبي سعيد العود الرطب:

أصل هذا الرجل من بني سعيد رؤساء القلعة المجاورة لغرناطة، وكان كثير منهم قد استعملوا أيام الموحدين بالعدوتين، وكان جده أبو الحسن سعيد صاحب الأشغال بالقيروان. ونشأ حافده هذا في كفالته. ولما عزل وقفل إلى المغرب هلك ببونة سنة أربع وستمائة، ورجع حافده محمد إلى تونس والشيخ أبو محمد بن أبي حفص صاحب أفريقية لذلك العهد فاعتلق بخدمة ابنه أبي زيد. ولما ولي الأمر بعد وفاة أبيه غلب محمد هذا على هواه. ثم جاء السيد أبو علي من مراكش على أفريقية، وارتحل أبو زيد إلى مراكش ومحمد بن أبي الحسين إلى تونس، واتصل الأمير أبي زكريا لأول استبداده فغلب على هواه، وكان مبختاً في صحابة الملوك. ولما ولي المستنصر أجراه على سننه برهة، ثم تنكر له إثر كائنه اللحياني، وعظمت سعاية أعدائه من البطانة وأشاعوا بمداخلته لأبي القاسم ابن مخدومه أبي زيد ابن الشيخ أبي محمد، فنكبه السلطان واعتقله بداره تسعة أشهر. ثم سرحه وأعاده إلى مكانه وثار من أعدائه، واستولى على أمور السلطان إلى أن هلك سنة إحدى وسبعين وستمائة.

وكان ابن عمه سعيد بن يوسف بن أبي الحسن صاحب أشغال الحضرة، وكان قد أفنى مالاً جسيماً، ونال من الحضرة منالاً.وعظيماً وكان الرئيس أبو عبد الله متفنناً في العلوم مجيداً في اللغة. يقرض الشعرفيحسن، ويرسل فيجيد وينثر فيحسن. وله من التواليف: كتاب ترتيب المحكم لابن سيدة على نسق الصحاح للجوهري واختصاره، وسمّاه الخلاصة. وكان في رياسته صليب الرأي قوي الشكيمة عالي الهمة، شديد المراقبة والحزم في الخدمة، وله شعر نقل منه التجاني وغيره. ومن أشهر ما نقل عنه من شعره يخاطب عنان بن جابر عن الأمير أبي زكريا لما خالف واتبع ابن غانية، وهي على روي الراء، كان قبلها أخرى على روي

الدال. وكان له ولد إسمه سعيد، وترقّى فى حياة أبيه المراتب السلطانية. ثم اغتبظ دون غايته. وفي ثالثة مهلكه كان مهلك الشيخ أبي سعيد عثمان بن محمد الهنتاتي المعروف بالعود الرطب، ويعرف أهل بيته بالمغرب ببني أبي زيد. وكان منهم عبد العزيز المعروف بصاحب الأشغال كان فرّ من المغرب أيام السعيد لجفوة نالته، ولحق بسجلماسة سنة إحدى وأربعين. وقد كان انتزى بها عبدالله الهزرجي، وبايع للأمير أبي زكريا فأجازه عبد الله إلى تونس، ونزل على الأمير أبي زكريا ونظمّه في طبقات مشيخة الموحدين وأهل مجلسه. ثم حظي عند إبنه المستنصر بعد نكبة بني النعمان حظوة لا كفاء لها. واستولى على الرأي والتدبير إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين وستمائة فشيع طيّب الذكر ملحفا بالرضوان من الخاصة والكافة، والله مالك الأمور.

الخبر عن انتقاض أهل الجزائر وفتحها:

كان أهل الجزائر لما رأوا تقلّص ظلّ الدولة عن زناتة وأهل المغرب الأوسط حدّثوا أنفسهم بالاستبداد والقيام على أمرهم، وخلع ربقة الطاعة من أعناقهم فجاهروا بالخلعان. وسرح السلطان إليهم العساكر سنة تسع وستين وستمائة، وأوعز إلى صاحب ثغر بجاية، وهو أبو هلال عياد بن سعيد الهنتاتي فزحف إليها في عساكر الموحدين سنة إحدى وسبعين وستمائة، ونازلها مدة حول. وامتنعت عليه فأقلع عنها ورجع إلى بجاية، وهلك بمعسكره ببني ورا سنة ثلاث وسبعين وستمائة.

ثم إن السلطان صرف عزمه إلى منازلتهم سنة أربع وسبعين وستمائة وسرّح إليهم العساكر في البر، وأنفذ الأساطيل في البحر وعقد على عسكر تونس لأبي الحسن بن ياسين، وأوعز إلى عامل بجاية بإنفاذ عسكر آخر فأنفذه لنظر أبي العباس بن أبي الأعلام، ونهضت هذه العساكر براً وبحراً إلى أن نازلتها وأحاطت بها من كل جانب، واشتد حصارها. ثم اقتحمت عنوة واستحر فيهم القتل، وانتهبت المنازل، وافتضح الكرائم في أبكارهنّ. وتقبض على مشيخة البلد فنقلوا إلى تونس صفدين، واعتقلوا بالقصبة إلى أن سرحهم الواثق بعد مهلك السلطان والله تعالى أعلم.

الخبر عن مهلك السلطان المستنصر ووصف شيء من أحواله:

كان السلطان بعد فتح الجزائر قد خرج من تونس للصيد وتفقد العمالات، فأصابه في سفره مرض ورجع إلى داره، واشتدت عمته وكثر الإرجاف بموته. وخرج يوم الأضحى سنة خمس وسبعين وستمائة يتهادى بين رجلين، ورجلاه لا يخطان الأرض. وجلس للناس في منبر متجلداً. ثم دخل بيته وهلك لليلته رضوان الله عليه،

وكان شأن هذا المستنصر في ملوك آل أبي حفص عظيماً. وشهرته طائرة الذكر بما انفسح أمد سلطانه، ومدت إليه ثغور القاصية من العدوتين يد الاعتصام به. وما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه وخصوصا الأندلس، من شاعر مفلق وكاتب بليغ وعالم نحرير وملك أروع وشجاع أهيش، متفيئين ظلّ ملكه متناغين في اللياذ به، لطموس معالم الخلافة شرقاً وغربا على عهده، وخفوت صوت الملك إلا في إيوانه. فقد كان الطاغية التهم قواعد الملك بشرق الأندلس وغربها، فأخذت قرطبة سنة
ثلاث وثلاثين وستمائة، وبلنسية سنة ست وثلاثين وستمائة بعدها، وأشبيلية سنة ست وأربعين وستمائة. واستولى الططر على بغداد دار خلافة العرب بالمشرق وحاضرة الإسلام سنة ست وخمسين وستمائة، وانتزع بنو مَرين ملك بني عبد المؤمن. واستولوا على حضرة مراكش دار خلافة الموحدين سنة ثمان وستين وستمائة، كل ذلك على عهده وعهد أبيه ودولتهم أشد ما كانت قوة وأعظم رفاهية وجباية، وأوفر قبيلاً وعصابة وأكثر عساكر وجنداً، فأمله أهل العالم للكرة، وأجفلوا إلى الإمساك بحقويه. وكانت له في الأبهة والجلال أخبار، وفي الحروب والفتوح آثار مشهورة، وفي أيامه عظمت حضارة تونس، وكثر ترف ساكنها. وتأنق الناس في الملابس والمراكب والمباني
والماعون والأبنية، فاستجادوها وتناغوا في اتخاذها وانتقائها إلى أن بلغت غايتها. ثم رجعت من بعده أدراجها، والله مالك الأمور ومصرفها.

الخبر عن بيعة الواثق يحيي بن المستنصر وهو المشهور بالمخلوع وذكر أحواله:

لما هلك السلطان المستنصر سنة خمس وسبعين وستمائة كما قدمناه، اجتمع الموحدون
وسائر الناس على طبقاتهم إلى ابنه يحيى، فبايعوه ليلة مهلك أبيه، وفي غدها وتلقب الواثق. وافتتح أمره برفع المظالم وتسريح أهل السجون وإفاضة العطاء في الجند وأهل الديوان، وإصلاح المساجد، وإزالة كثير من الوظائف عن الناس. وامتدحه الشعراء فأسنى جوائزهم، وأطلق عيسى بن داود من اعتقاله، وردّه إلى حاله. وكان المتولّي لأخذ البيعة على الناس والقيام بأمره سعيد بن يوسف بن أبي الحسين لمكانه من الدولة ورسوخه في الشهرة، فقام بالأمر و لم يزل على ذلك إلى أن نكبه وأدال منه بالحبّر والله أعلم.

الخبر عن نكبة ابن أبي الحسين واستبداد ابن ا الحبر على الدولة:

كان هذا وإسمه يحيى بن عبد الملك الغافقي وكنيته أبو الحسن أندلسياً من أعمال مرسية، وفد مع الجالية من شرق الأندلس أيام استيلاء العدو، وكان يحسن الكتاب و لم يكن له من الخلال سواها، فصرف في الأعمال ثم ارتقى إلى خدمة ابن أبي الحسين فاستكتبه، ثم رقّاه إلى ولاية الديوان فعظمت حاله وكانت له أثناء ذلك مداخلة للواثق ابن السلطان اعتدّها له سابقة. فلما استوسق الأمر للواثق رفع منزلته واختصّه بالشورى، وقلّده كتاب علامته. وكان سعيد بن أبي الحسين مزاحماً له منافساً لما كان أسف منه بقديمه. فأغرى به السلطان ورغبه في ماله فتقبض على سعيد بن أبي الحسين لستة أشهر من الدولة سنة ست وسبعين وستمائة واعتقل

بالقصبة. وتقبض على نقله ابن ياسين وابن صياد الرجّالة وغيرهم، وقدم على الأشغال مدافعاً من الموالي العلوجي. ووكّل أبو زيد بن أبي الأعلام من الموحدين بمصادرة ابن أبي الحسين على المال وامتحانه.

و لم يزل يستخرج منه حتى ادّعى الإملاق واستحلف فحلف، ثم ضرب فادعى مؤتمناً من ماله عند قوم استكشفوا عنه فأدوه. ثم دلّ بعض مواليه على ذخيرة بداره دفينة فاستخرج منها زهاء ستماية ألف من الدنانير، فلم يقبل بعدها مقاله، وبسط عليه العذاب إلى أن هلك في ذي الحجة من سنته، ودفن شلوه بحيث لم يعرف مدفنه واستبد أبو الحسن الحبير على الدولة والسلطان، وبعث أخاه أبا العلى واليا على بجاية، وأسف المشيخة والبطانة بعتوه واستبداده وما يتحشمونه من مباكرة بابه، إلى أن عاد وبال ذلك على الدولة كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن إجازة السلطان أبي إسحق من الأندلس ودخول أهل بجاية في طاعته:

كان السلطان المستنصر قد عقد على بجاية سنة ستين وستمائة لأبي هلال عياد بن سعيد الهنتاتي، وأدال به من أخيه الأمير أبي حفص، فأقام والياً عليها إلى أن هلك ببني ورا سنة ثلاث وسبعين وستمائة كما ذكرناه. وعقد عليها من بعده لإبنه محمد، فكان له غناء في ولايته، واضطلع بأمره إلى أن هلك المستنصر، وولى إبنه الواثق فبادر إلى إيتاء طاعته، وبعث وفد بجاية بيعتهم. ثم قلد أبو الحسن الحبير القائم بالدولة أخاه إدريس ولاية الأشغال ببجاية، فقام بها واقتنى الأموال، وتحكم في المشيخة. وأنف محمد بن أبي هلال من استبداده عليه، فهمّ إدريس بنكبته فخشي محمد بن أبي هلال بادرته، وداخل بعض بطانته في قتله. وفاوض الملك فيه فعدوا عليه لأوّل ذي القعدة سنة سبع وسبعين وستمائة بمقعده من باب السلطان، فقتلوه ورموا برأسه إلى الغوغاء والزعانف فعبثوا به.

ووافق ذلك حلول السلطان أبي إسحق بتلمسان وكان عند بلوغ الخبر إليه بمهلك أخيه المستنصر، أجمع أمره على الإجازة لطلب حقه بعدما تردد برهة. ثم اعتزم وأجاز إلى تلمسان، ونزل على يغمراسن ابن زيّان فقام لمورده، واحتفل في مبّرته. وفعل أهل بجاية وابن أبي هلال فعلتهم، وخشوا بوادر السلطان بالحضرة فخاطبوا السلطان أبا إسحق، وأتوه بيعتهم وبعثوا وفدهم يستحثّونه للملك، فأجابهم ودخل إليهم آخر ذي القعدة من سنته، فبايعه الموحدون والملأ من أهل بجاية. وقام بأمره محمد بن أبي هلال. ثم زحف في عساكره إلى قسنطينة فنازلها، وبها عبد العزيز بن عيسى بن داود، فامتنعت عليه فأقلع عنها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن خروج الأمير أبي حفص بالعساكر للقاء السلطان أبي إسحاق ثم دخوله في طاعته وخلع الواثق:

لما بلغ الخبر إلى الواثق ووزيره المستبدّ عليه ابن الحبّير بدخول السلطان أبي إسحق بجاية، سرح العساكر إلى حربه، وعقد عليها لعمّه أبي حفص. واستوزر له أبا زيد بن جامع، فخرج من تونس واضطرب معسكره ببجاية. وعقد الواثق على قسنطينة لعبد العزيز بن عيسى بن داود لذمة صهر كانت له من ابن الحبير، فتقدم إلى قسنطينة، ومانع عنها الأمير أبا إسحق كما ذكرناه. ثم اضطرب رأي ابن الحبير في خروج الأمير أبي حفص، وأراد انفضاض عسكره فكتب الواثق إلى أبي حفص ووزيره ابن جامع يغري كل واحد منهما

بصاحبه، فتفاوضا واتفقا على الدعاء للأمير أبي إسحق، وبعثوا إليه بذلك. واتصل الخبر بالواثق وهو بتونس منتبذا عن الحامية والبطانة، فاستيقن ذهاب ملكه، وأشهد الملأ، وانخلع عن الأمر لعمه السلطان أبي إسحق غرّة ربيع الأول من سنة ثمان وسبعين وستمائة، وتحوّل عن قصور الملك بالقصبة إلى دار الأقوري وانقرضت دولته وأمره، والبقاء لله وحده.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي إسحق علي الحضرة:

لما بلغ السلطان أبا إسحق كتاب أخيه الأمير أبي حفص وابن جامع من باجة،

بادر مغذاً إليهم. ثم وافاه خبر انخلاع الواثق ابن أخيه بتونس، فارتحلوا جميعاً وتسايل أهل الحضرة على طبقاتهم إلى لقائه، وأتوه طاعتهم. ودخل الحضرة منتصف ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وستمائة، ومحمد بن أبي هلال شيخ دولته. وعقد على حجابته لأبي القاسم ابن شيخ كاتب ابن أبي الحسين، وعلى خطة الأشغال لابن أبي الحسن بن خلدون. كان مع وند أبيه الحسن على الأمير أبي زكريا من أشبيلية لذمة رعاها لهم، بما كانت أمّ ولده امّ الخلائف من هدايا ابن المحتسب أبي زكريا محلهم ورحل الحسن إلى المشرق ومات هنالك، وبقي ابنه أبو بكر بالحضرة، فاستعمله الأمير أبو إسحق لأوّل دخوله في خطة الأشغال، ولم يكن يليها إلا الموحدون كما قلناه. وعقد لفضل بن علي بن مزني على الزاب، ولم يكن أيضاً يليها إلا الموحدون. لكن رعى لفضل بن مزني ذفة اغترابه معه إلى الأندلس، فعقد له على الزاب، ولأخيه عبد الواحد على بلاد قسطيلية. ثم تقبض على ابن الحبير، وأمر باعتقاله ودفعه إلى موسى بن محمد بن ياسين للمصادرة والامتحان. ووجد مكان التمائم عليه طوابع وطلسمات مختلفة الأشكال والصور، تسحر بها فيما زعموا مخدومه فحاق به وبالها. وكان شأنه في الامتحان والاستحلاف والهلاك بالعذاب، شأن سعيد بن أبي الحسين منكوبه أيام دولته، إلى أن هلك شهر جمادى الأولى من سنته، والله لا يظلم مثقال ذرة.

ولما اقتعد السلطان أبو إسحق كرسيّ ملكه، واستوثقت عرى خلافته، تقبض على محمد بن أبي هلال، وقتله لحين نكبته سنة ست وسبعين وستمائة، لما كان يتوقع منه من المكروه في الدولة، وما عرف به من المساعي في الفتنة والله أعلم.

الخبر عن مقتل الواثق وولده:

لما انخلع الواثق عن الأمر وتحول إلى دار الأقوري فأقام بها أياماً، وكان له ثلاثة من الولد أصاغر: الفضل والطاهر، والطيب، فكانوا معه. ثم نمي عنه للسلطان أبي إسحق أنه يروم الثورة، وأنه داخل في ذلك بعض رؤساء النصارى الجند، فأقلق السلطان مكان ترشيحه، واعتقله بمكان اعتقال بنيه هو من القصبة أي ام أخيه المستنصر. ثم بعث إليهم لليلته فذبحوا جميعاً شهر صفر سنة تسع وتسعين وستمائة. واستوسق له الأمر، وأطلق من عنان الإمارة لولده، إلى أن كان من شأنهم ما يذكر إن شاء الله تعالى .

الخبر عن ولاية الأمير أبي فارس ابن السلطان أبي إسحق علي بجاية بعهد أبيه والسبب في ذلك:

كان للسلطان أبي إسحق من الأبناء خمسة: أبو فارس عبد العزيز، وكان أكبرهم، وأبو محمد عبد الواحد، وأبو زكريا يحيى، وخالد وعمر. وكان السلطان المستنصر قد حبسهم، عند فرار أبيهم إلى رياح في أيامه، ببعض حجر القصر وأجرى عليهم رزقاً فنشئوا في ظل كفالته وجميم رزقه، إلى أن استولى أبوهم السلطان أبو إسحق على الملك فطلعوا بآفاقه. وطالت فروعهم في دوحه، واشتملوا على العز، واصطنعوا أهل السوابق من الرجال، وأرخى السلطان لهم. ظلهم في ذلك. وكان المجلّي فيها كبيرهم أبو فارس بما كان مرشحاً لولاية العهد، وكان ممن اصطنعه وألقى عليه رداء محبته في الناس وعنايته، أحمد بن أبي بكر بن سيد الناس اليعمري، وأخوه أبو الحسين، لسابقة رعاها لهما.. وذلك أنّ أباهما أبا بكر بن سيد الناس، كان من بيوت أشبيلية حافظاً بالحديث رواية له. ظاهرياً في فقهه على مذهب داود وأصحابه. وكانت لأهل أشبيلية خصوصاً من بين الأندلس وصلة بالأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص وبنيه، منذ ولايته غرب الأندلس.

فلمّا تكالب الطاغية على الدولة، والتهم ثغورها واكتسح بسائطها. وأشفّ إلى قواعدها وأمصارها، أجاز الأعلام وأهل البيوت إلى أرض المغربين وأفريقية. وكان تصدهم إلى تونسى أكثر لاستفحال الدولة الحفصية بها . فلما رأى الحافظ أبو بكر اختلال أحوال الأندلس وقبح مصائرها، فى خفّة ساكنها، أجمع الرحلة عنها إلى ما كان بتونس من سابقته عند هؤلاء الخلفاء. فأجاز البحر ونزل بتونس، فلقاه السلطان تكرمة، وجعل إليه تدريس العلم بالمدرسة عند حمام الهوا التى أسستها أمّه أمّ الخلائف.

ونشأ بنوه أحمد وأبو الحسين في جو الدولة وحجر كفالتها للاختصاص الذي كان لأبيهم بها. وعدلوا عن طلب العلم إلى طلب الدنيا، وتشوّقوا إلى مراتب السلطان، واتصلوا بأبناء السلطان أبي إسحق بمكانهم من حجر القصر، حيث أنزلهم عمهم بعد مذهب أبيهم فخالطوهم واستخدموا لهم. ولما استولى السلطان على الأمر ورشّح إبنه أبا فارس العهد، وأجراه على سنن الوزارة، فاصطنع أحمد بن سيّد الناس، ونوه باسمه وخلع عليه لبوس كرامته. واختصه بلقب حجابته، وأخوه أبو الحسين يناهضه في ذلك عنده. ونفس ذلك عليهما البطانة فأغروا السلطان أبا إسحق بإبنه، وخوّفوه شأنه. وإن أحمد بن سيد الناس داخله في التوثب بالدولة. وتولى كبر هذه السعاية عبد الوهاب بن قائد الكلاعي من علية الكتاب ووجوههم. كان يكتب للعامة يومّئذ، فسطا السلطان بابن سمد الناس سنة تسع وستين وستمائة آخر ربيع، استدعي إلى باب القصر فتعاورته السيوف هبراً، ووري شلوه ببعض الحفر. وبلغ الخبر إلى الأمير أبي فارس فركب إلى أبيه في لبوس الحزن، فعزّاه أبوه عن ذلك بأنه ظهر لابن سيّد الناس على المكر والخديعة بالدولة. وأماط سواده بيده، ونجا أبو الحسين من هذه المهلكة. واعتقل في لفة من رجال الأمير أبي فارس وبطانته، بعد أن توارى أياماً إلى أن أطلق من حبسه، وكان من أمره ما نذكره بعد. واستبلغ السلطان في تأنيس إبنه، ومسح الضغينة عن صدره، وعقد له على بجاية وأعمالها، وأنفذه إليها أميراً مستقلاً. وأنفذ معه في رسم الحجابة جدي محمد ابن صاحب أشغاله أبي بكر بن

الحسن بن خلدون، فخرج إليها سنة تسع وستين وستمائة، وقام بأمرها ولم يزل أميراً بها إلى آخر دولته كما نذكره والله أعلم.

الخبر عن ثورة ابن الوزير بقسنطينة ومقتله:

اسم هذا الرجل أبو بكر بن موسى بن عيسى، ونسبته في كومية من بيوت الموحدين. كان مستخدماً لابن كلداسن الوالي بقسنطينة بعد ابن النعمان من مشيخة الموحدين أيام المتنصر. ووفد ابن كلداسن على الحضرة، وأقام ابن وزير نائباً عنه بقسنطينة ، فكان له غناً وصرامة. وولاّه السلطان حافظاً على قسنطينة. واتصلت ولأيته، وهلك المستنصر، واضطربت الأحوال. ثم ولأه الواثق، ثم السلطان أبو إسحق وكان ابن وزير هذا طموحاً جموح الأمل، وعلم أن قسنطينة معقل ذلك القطر وحصنه فحدّثته نفسه بالامتناع بها، والاستبداد على الدولة. وساء أثره في أهلها فرفعوا أمرهم إلى السلطان أبي إسحق، واستعدوه فلم يعدهم لما رأى من مخايل انحرافه عن الطاعة. وكتب هو بالاعتذار والنكير لما جاءوا به فتقبل وأغضى له عن هناته. ولما مر به الأمير أبو فارس إلى محل إمارته من بجاية سنة تسع وسبعين وستمائة، قعد عن لقائه وأوفد عليه جمعاً من الصلحاء بالمعاذير والاستعطاف، فمنحه من ذلك كفاء مرضاته، حتى إذا أبعد الأمير أبو فارس إلى بجاية، اعتزم هو على الانتزاء. وكاتب ملك أرغون في جيش النصارى يكون معه في ثغره، يردد بهم الغزو على أن يكون فيما زعموا داعيةً له فأجابه ووعده ببعث الأسطول إليه، فجاهر بالخلعان، وانتزى بثغر قسنطينة داعياً لنفسه آخر سنة ثمانين وستمائة.

وزحف إليه الأمير أبو فارس من بجاية في ساكره، واحتشد الأعراب وفرسان

القبائل إلى أن احتل بميلة. ووفد عليه مشيخة من أهل قسنطينة بمكر من الرغبة والتوسل، بعثهم بها ابن وزير، فأعرض عنهم وصبح قسنطينة في أول ربيع سنة إحدى وثمانين وستمائة، فنازلها وجمع الأيدي على حصارها. ونصب المجانيق وقرب مقاعد الرماة، وقاتلها يوماً أو بعض يوم، وتسوّر عليهم المعقل من بعض جهاته. وكان المتولي لتسوّره حاجبه محمد بن أبي بكر بن خلدون، وأبلى ابن وزير عند الصدمة حتى احيط به، وقتل هو وأخوه وأشياعهما، ونصبت رؤوسهم بسور البلد. وتمشى الأمير في سكك البلد مسكناً ومؤنساً، وأمر برئم ما تثلّم من الأسوار وبإصلاح القناطر. ودخل إلى القصر، وبعث بالفتح إلى أبيه بالحضرة. وجاء أسطول النصارى إلى مرسى القل في مواعدة ابن وزير، فأخفق مسعاهم، وارتحل لأمير أبو فارس ثالثة الفتح إلى بجاية، فدخلها آخر ربيع من سنته، والله أعلم.

الخبر عن قيادة أبناء السلطان العساكر إلى الجهات:

كان السلطان يؤثر أبناءه بمراتب ملكه، ويوليهم خطط سلطانه شغفاً بهم وترشيحاً لهم، فعقد في رجب سنة إحدى وثمانين وستمائة وستمائة لإبنه أبي زكريا على عسكر من الموحدين والجند، وبعثه إلى قفصة للإشراف على جهاتها. وضم مجابيها فخرج إليها وقضى شأنه من حركته، وانصرف إلى تونس في رمضان من سنته. ثم عقد لإبنه الاخر أبي محمد عبد الواحد على عسكره، وأنفذه إلى وطن هوارة لاقتضاء مغارمهم

وجباية ضرائبهم وفرائضهم، وبعث معه عبد الوهاب ابن قائد الكلاعي مباشراً لذلك وواسطة بينه وبين الناس، فانتهى إلى القيروان، وبلغه شأن الدعي وظهوره في دباب بنواحي طرابلس ، فطيّر بالخبر إلى السلطان وأقبل على شأنه. ثم انتشر أمر الدعي فانكفأ راجعاً إلى تونس، والله تعالى أعلم.

الخبر عن صهر السلطان مع عثمان بن يغمراسن:

كان السلطان لما أجاز البحر من الأندلس لطلب ملكه، ونزل على يغمراسن بن زيان بتلمسان، فاحتفل لقدومه، وأركب الناس للقائه، وأتاه ببيعته على عادته من سلفه لما علم أنه أحق بالأمر، ووعد النصرة من عدّوه والمؤازرة على أمره، وأصهر إليه في إحدى بناته المقصورات في خيام الخلافة بابنه عثمان تشريفاً خطبه منه، فولاه الإسعاف به. ولما استولى السلطان على حضرته واستبد بأحوال ملكه بعث يغمراسن إبنه إبراهيم المكنى بأبي عامر في وفد من قومه لإتمام ذلك العقد، فاعتمد السلطان مبّرتهم وأسعف فئ وأقاموا بالحضرة أياماً. وظهر من إقدامهم في فتن الدعي مقامات، وانصرفوا

بظعينهم سنة أحدى وثمانين وستمائة مجبورين محبورين. وابتنى بها عثمان لحين وصولها فكانت من عقائل قصورهم ومفاخر دولتهم، وذكراً لهم ولقومهم آخر الأيام.

الخبر عن ظهور الدعي ابن أبي عمارة وما وقع من الغريب في أمره:

كان أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسبلة، ونشأ ببجاية وسيما محترفاً بصناعة الخياطة غراً غمراً. وكان يحدّث نفسه بالملك لما كان العارفين زعم يخبرونه بذلك. وكان هو بخط فيريه خطه ذلك. ثم اغترب عن بلده ولحق بصحراء سجلماسة، واختلط بعرب المعقل وانتمى إلى أهل البيت، وادعى أنه الفاطمي المنتظر عند الأغمار، وأنه يحيل المعادن إلى الذهب بالصناعة فاشتملوا عليه وتحدثوا بشأنه أياماً. أخبرني طلحة بن مظفر من شيوخ العماريّة إحدى بطون المعقل أنه رآه أيام ظهوره في المعقل ملتبساً بتلك الدعوى حتى فضحه العجز. ثم لما زهدوا فيه لعجز مدعاه ذهب يتقلب في الأرض حتى وصل إلى جهات طرابلس، ونزل

على دباب وصحب بينهم الفتى نصيراً مولى الواثق بن المستنصر، ويلقّب نوبى. ولما رآه تبين فيه شبهاً من الفضل ابن مولاه فطفق يبكي ويقبل قدميه فقال له ابن أبي عمارة: ما شأنك؟ فقص عليه الخبر فقال له: صدقني في هذه الدعوى وأنا أثئرك من قاتلهم.

وأقبل نصير على أمراء العرب مناديا بالسرور بابن مولاه، حتى خيل عليهم. ثم لبس بما دس إلى ابن عمارة من محاورات وقعت بين العرب وبين الواثق، قضها عليهم ابن أبي عمارة نفياً للريب بأمره فصدقوا واطمأنوا وأتوه بيعتهم. وقام بأمره مرعم بن صابر بن عسكر أمير دباب. وجمع له العرب ونازلوا طرابلس، وبها يومئذ محمد بن عيسى الهنتاتي ويشهر بعنق الفضة فامتنعت عليهم، ورحلوا إلى مجريس الموطنين بزنزور وجهاتها من هوارة فأوقعوا بهم. ثم سار في تلك النواحي واستوفى جبايته ولماية وزوارة وزواغة، وأغرم نفوسه وغريان ومقر من بطون هوارة وضائع ألزمهم إياها واستوفاها. ثم زحف إلى قابس فبايع له عبد الملك بن مكي في رجب سنة

إحدى وثمانين وستمائة، وأعطاه صفقته طواعية، وفاه بحق آبائه فيما طوقوه ذريعة إلى الاستقلال الذي كان يؤمله، وأعلن بخلافته ونادى في قومه واستخدم له بني كعب من سليم ورياستهم اذ ذاك في بني شيحة لعبد الرحمن بن شيحة، فأجابوا داعية وأنابوا إلى خدمته. وتوافت اليه بيعة أهل جربة والحامة وقرى نفزاوة. ثم زحف إلى توزر وبلاد قسطيلية فأطاعوه. ثم رجع إلى قفصة فبايع له أهلها، وعظم أمره وعلا صيته. فجهز إليه السلطان أبو إسحق العساكر من تونس كما نذكره والله تعالى أعلم.

الخبر عن انفضاض عساكر السلطان وتقويضه عن تونس:

لما تفاقم أمر الدعي بنواحي طرابلس، ودخل الكثير من أهل الأمصار في طاعته

جهز السلطان عساكره وعقد لابنه الأمير أبي زكريا على حربه، فخرج من تونس ونزل القيروان، واقتضى منها غرامات ووضائع واستأثر منها بأموال. ثم ارتحل إلى لقاء الدعي وانتهى إلى تمودة، وبلغه هنالك ما كان من استيلاء الدعي على قفصة، فأرجف به المعسكر وانفضوا من حوله. ورجع إلى تونس فدخلها آخر يوم من رمضان من سنته، وارتحل الدعي على أثره من قفصة واحتل بالقيروان، فبايع له أهلها واقتدى بهم أهل المهدية وصفاقس وسوسة فبايعوا له وكثر الإرجاف بتونس، فاضطرب السلطان معسكره بظاهر البلد وسط شوال. وضرب الغزو على الناس واستكثر من العدد، وخرج إلى معسكره بالمهديّة وتلوم بها لإزاحة العلل. وارتحل الدعي من القيروان زاحفاً إليه فتسربت إليه طبقات الجنود ومشيخة الموحدين، رضي بمكانه وصاغية إلى بني المستنصر خليفتهم الطويل أمد الولاية عليهم، ورحمة لما نال الواثق وأبناءه من عمهم. ثم انفض عن السلطان كبير الدولة موسى بن ياسين في معظم الموحدين ولقي الدعي بطريقه فاختل أمر السلطان وانتقضت على ملكه وفر إلى بجاية كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن لحاق السلطان أبي إسحق ببجاية ودخول الدعي ابن أبي عمارة إلى تونس وما كان أمره بها:

ولما انفض معسكر السلطان أبي إسحق آخر شوّال من سنة إحدى وثمانين وستمائة ركب في خاصته وبعض جنوده ذاهباً إلى بجاية، ومر بتونس فوقف عندها حتى احتمل أهله وولده، وسار في كلب البرد فكان يعاني من قلة الأقوات وتعاور المطر والثلج شدة. وكان يصانع القبائل في طريقه ببذل ماله. ثم مر بقسنطينة فمنعه عاملها عبد الله بن يوقيان الهرغي من دخولها، وقرّب إليه بعض القرى من الأقوات، وارتحل إلى بجاية

فكان من أمره ما يذكر. ودخل الدعي ابن أبي عمارة إلى الحضرة، وقلد موسى بن ياسين وزارته وأبا القاسم أحمد ابن الشيخ حجابته. وتقبض على صاحب الأشغال أبي بكر بن الحسن بن خلدون فاستصفاه وصادره على مال امتحنه عليه. ثم قتله خنقاً، وصرف خطة الجباية إلى عبد الملك بن مكي رئيس قابس. واستكمل ألقاب الملك، وقسم الخطط بين رجال الدولة وصرف همّه إلى غزو بجاية.

الخبر عن استبداد الأمير أبي فارس بالأمر عند وصول أبيه إليه:

لما وصل السلطان أبو إسحق إلى بجاية شهر ذي القعدة من سنته طريداً عن ملكه عاطلا عن حلى سلطانه، انتقض عليه إبنه الأمير أبو فارس ومنعه من الدخول إلى قصره، فنزل بروض الرفيع، وأراده على الخلع فانخلع

له. وأشهد الملأ من الموحدين ومشيخة بجاية بذلك، وأنزله قصر الكوكب ودعا الناس إلى بيعته آخر ذي القعدة، فبايعوه وتلقب المعتمد على الله. ونادى في أوليائه من رياح وسدويكش. وخرج من بجاية زاحفاً إلى الدعي، واستخلف عليها أخاه الأمير أبا زكريا. وخرج معه عمه الأمير أبو حفص وإخوته، فكان من أمرهم ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن زحف الأمير أبي فارس للقاء الدعي ثم انهزامه أمامه واستلحامه وإخوته في المعركة وما كان أثر ذلك من مهلك أبيهم السلطان أبي اسحق وفرار أخيهم الأمير أبي زكريا إلى تلمسان:

لما بلغ الخبر إلى الدعي باستبداد الأمير أبي فارس على أبيه واستعداده للقائه

تقبض على أهل البيت الحفصي، فاعتقلهم بعد أن هم بقتلهم. وخرج من تونس في عساكره من الموحدين وطبقات الجند في صفر سنة إثنتين وثمانين وستمائة، فانتهى إلى مرماجنة، وتراءى الجمعان ثالث ربيع الأول فاقتتلوا علية يومهم. ثم اختل مصاف الأمير أبي فارس. وتخاذل أنصاره فقتل في المعركة، وانتهب معسكره وقتل أخواته جميعاً صبراً: عبد الواحد قتله الدعي بيده، وعمر وخالد ومحمد بن عبد الواحد. وبعث برؤوسهم إلى تونس، فطيف بها على الرماح ونصبت بأسوار البلد. وتخلص عمه الأمير أبو حفص من الواقعة إلى أن كان من أمره ما نذكر.وبلغ خبر الواقعة إلى بجاية فاضطرب أهلها وماجوا بعضهم في بعض. وجمعهم قاضيهم أبو محمد عبد المنعم بن عتيق الجزائري للحديث في الشأن فتكالبوا، وزجرهم ابنه فقتلوا. ثم أشخصوا القاضي إلى بلده في البحر. وخرج السلطان أبو إسحق وإبنه الأمير أبو زكريا إلى تلمسان، فقدم أهل بجاية عليهم محمد بن أسرعين قائماً فيهم بطاعة الدعيّ، وخرج في أتباع السلطان فأدركه بجبل بني غبرين من زواوة، فتقبض عليه، ونجا الأمير أبو زكريا إلى تلمسان، وبقي السلطان أبو إسحق ببجاية معتقلاً ريثما بلغ الخبر إلى تونس، وأرسل الدعي محمد بن عيسى بن داود فقتله آخر ربيع الأول سنة إثنتين وثمانين وستمائة، وانقضى أمره ولله عاقبة الأمور لا رب غيره ولا رب سواه.

الخبر عن ظهور الأمير أبي حفص وبيعته وما كان علي أثر ذلك من الأحداث:

قد ذكرنا أن الأمير أبا حفص حضر واقعة بني أخيه مع الدعي بمرماجّنة، فخلص من المعركة راجلاً، ونجا إلى قلعة سنان معقل هوّارة القريب من مكان الملحمة، ولاذ به في ذهابه إلى منجاته ثلاثة من صنائعهم: أبو الحسين بن أبي بكر بن سيد الناس، ومحمد بن القاسم بن إدريس الفازازي، ومحمد بن أبي بكر بن خلدون، وهو جذ المؤلف الأقرب. وربما كانوا يتناقلونه على ظهورهم إذا أصابه الكلال. ولما نجا إلى قلعة سنان تحدث به الناس، وشاع خبر منجاته إليها.

وكان الدعيّ قد أسف العرب وثقلت وطأته عليهم بما كان يسيء الملكة فيهم. فليوم دخوله شكى إليه الناس عيثهم فتقبض على ثلاثة منهم وقتلهم وصلبهم. ثم سرح شيخ الموحدين عبد الحق بن تافراكين لحسم عللهم وأوعز إليه بالإثخان فيهم، فاستلحم لمن لقي منهم. ثم تقبض على مشايخ بني علاق، وأودع سجونه منهم نيفاً على ثمانين، فساء أثره فيهم وتطلبوا أعياص البيت، وتسامعوا بخبر الأمير أبي حفص بمكانه من قلعة سنان،

فدخلوا إليه وأتوه بيعتهم في ربيع سنة ثلاث وثمانين وستمائة. وجمعوا له شيئاً من الآلة والأخبية وقام بأمره أبو الليل بن أحمد أميرهم. وبلغ الخبر إلى الدعي فداخلته الظنة في أهل دولته. وتقبض على أبى عمران بن ياسين شيخ دولته، وعلى أبي الحسن بن ياسين وابن وانودين، وعلى الحسين بن عبد الرحمن يعسوب زناتة فامتحنهم واستصفى مواهلم. ثم قتلهم آخراً، وتوجع لهم الناس واضطرب أمر الدعي إلى أن كان ما نذكره انتهى.

الخبر عن خروج الدعي ورجوعه واستيلاء السلطان أبي حفص علي ملكه وغلبه ومهلكه:

لما ظهر السلطان أبو حفص وبايعه العرب تسامع أهل الحضرة واجتمع إليه الناس، وأوقع الدعيّ بأهل الدولة فمقتوه. وخرج من تونس يريد قتاله فأرجف به أهل معسكره ورجع منهزماً. ودخلت البلاد في طاعة السلطان أبي حفص ونهض إلى تونس فنزل بسحوم قريباً منها. وعسكر الدعي بظاهر البلد تجاهه، وطالت بينهما الحرب أياماً والناس في كل يوم يستوضحون خبء الدعي ومكره إلى أن تبراوا منه وأسلموه، ودخل من مكان معسكره ولاذ بالاختفاء. ودخل السلطان البلد في ربيع الاخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة واستولى على سرير ملكه وطهّر من الدنس فاضحه ودعيه، واختفى الدعي بتونس وغاص في لجّة ساكنها وأحاط به البحث فعثر عليه لليال من مدخل السلطان بدول بعض السوقة يعرف بأبي القاسم القرمادي فهدمت لحينها. وتل إلى السلطان فأحضر له الملأ ووبخه وساءله فاعترف بادعائه في بيتهم فأمر بامتحانه وقتله. وذهب في غير سبيل مرحمة، وطيف بشلوه، ونصب

رأسه. وكان عبد الله بن يغمور المباشر لقتله، وكان خبره من المثلات. واستبد السلطان بملكه وتلقب المستنصر بالله. وبادر الناس إلى الدخول في طاعته. وبعث أهل القاصية بيعتهم من طرابلس وتلمسان وما بينهما. وعقد للشيخ أبي عبد الله الفازازي على عسكره وعلى الحروب والضاحية، وأقطع البلاد والمغارم للعرب رعياً لذمة قيامهم بأمره، ولم يكن لهم قبلها إقطاع. وكان الخلفاء قبله يتحامون عن ذلك ولا يفتحون فيه على أنفسهم باباً، وأقام متحلياً ملكه وادعاً في حضرته إلى أن كان ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء العدو علي جزيرة جربة وميورقة ومنازلته المهدية وأجلابه علي السواحل:

كان من أعظم الحوادث في أيام هذا السلطان تكالب العدو على الجزر البحرية فاستولت أساطيلهم على جزيرة جربة في رجب من سنة ثلاث وثمانين وستمائة ورياستها يومئذ من محمد بن سمون شيخ الوهبيّة، ويخلف بن أمغار شيخ النكارة، وهما فرقتا الخوارج. وزحف إليها المراكيا صاحب صقلية نائباً عن الغدريك بن الريداكون ملك برشلونة في أساطيله البحرية، وكانوا فيما قيل سبعين أسطولاً من غربان وشواني، وضايقهم مراراً. ثم تغلبوا عليها فانتهبوا أموالها واحتملوا أهلها أسرى وسبياً، يقال أنهم بلغوا ثمانية آلاف بعد أن رموا بالرضّع في الجبوب، فكانت هذه الواقعة من أشجى الوقائع للمسلمين. ثم بنوا بساحلها حصناً واعتمروه وشحنوه حاميةً وسلاحاً. وفرض عليهم المغرم مابة ألف دينار في سنة، وأقاموا على ذلك. وهلك المراكيا على رأس المائة، وبقيت الجزيرة في ملكة النصارى إلى أن أعادها الله في أواخر الأربعين والسبعماية كما نذكر.

وفي سنة خمس وثمانين وستمائة ظفر العدوّ بجزيرة ميورقة ركب إليها طاغية برشلونة في أساطيله في عشرين ألفا من الرجال المقاتلة، ومروا بميورقة كأنهم سفر من التجار وطلبوا من أبي عمر بن حكم رئيسها النزول للاستقاء فأذن لهم. فلما تساحلوا آذنوا أهلها بالحرب فتزاحفوا ثلاثاً يثخن فيهم المسلمون في كلها قتلا وجراحة بما يناهز الآفاً، والطاغية في بطارقته قاعد عن الزحف فلما كان في اليوم الثالث واستولت الهزيمة علي قومه زحف الطاغية في العسكر فانهزم المسلمون، ولحق إلى قلعتهم فانحصروا بها وعقدوا لابن حكم ذمة في أهله وحاشيته، فخرجوا إلى سبتة ونزل الباقون على حكم العدو فأجازهم إلى جارتهم ميورقة واستولى على ما فيها من الذخيرة والعدّه والأمر بيد الله وحده.

وفي سنة ست وثمانين وستمائة بعدها غدر النصارى بمرسى الخرز فاقتحموها بعد أن ثلموا أسوارها واكتسحوا ما فيها، واحتملوا أهلها أسرى وأضرموا بيوتها ناراً. ثم مروا بمرسى تونس وانصرفوا إلى بلادهم، وفيها أو في سنة تسع وثمانين وستمائة بعدها نازل أسطول العدو مدينة المهدية، وكان فيهم الفرسان لقتالها فزحفوا إليها ثلاثاً ظفر بهم المسلمون في كلها. ثم جاء مدد أهل الأجم فانهزم العدو حتى اقتحموا عليهم الأسطول، وانقلبوا خائبين وتمت النعمة.

الخبر عن استيلاء الأمير أبي زكريا علي الثغر العربي بجاية والجزائر وقسنطينة و أولية ذلك ومصائره:

كان للأمير أبي زكريا ابن السلطان أبي إسحق من الترشيح للأمر بهديه وشرف همته وحسن ملكته، ومخالطته أهل العلم ما شهد له بمغبة حاله، وهو الذي اختط المدرسة للعلم بإزاء دار الأقوري حيث كان سكناه بتونس. ولما لحق بتلمسان بعد منجاته من مهلك أبيه ببجاية، نزل على صهره عثمان بن يغمراسن بتلمسان، وجاء في أثره أبو الحسين بن أبي بكر بن سيّد الناس صنيعة أبيه وأخيه، بعد أن خلص مع السلطان أبي حفص من الواقعة إلى مرماجّنة. فلما بايع له العرب وبدت مخايل الملك رأى أبو

الحسين إيثار السلطان للفازازي عليهم فنكب عنه، ولحق بالأمير أبي زكريا بتلمسان واستحثه لطلب ملكه. واستقرض من تجار بجاية هنالك مالاً أنفقه في إقامة أبهة الملك له، وجمع الرجال واصطنع الأولياء.

وفشا الخبر بما يرومه من ذلك فصده عثمان بن يغمراسن عنه، لما كان تقلد من طاعة السلطان أبي حفص على سننهم مع الخلفاء بالحضرة قبله، فاعتزم الأمير أبو زكريا على شأنه، وخرج من تلمسان مورّياً بالصيد الذي كان ينتحله أيام مقامه بينهم، ولحق بداود بن هلال بن عطاف أمير بني يعقوب، وكافة بني عامر من زغبة وأوعز عثمان بن يغمراسن إلى داود برده إليه فأبى من إخفار ذمّته، وارتحل معه بقومه إلى آخر بلاد زغبة، ونزلوا على عطية بن سليمان بن سباع من رؤساء الزواودة، فتلقاه بالطاعة وارتحلوا جميعاً إلى ضواحي قسنطينة فدخل العرب وسدويكش في طاعته.

ونزل البلد سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وعاملها يومئذ ابن يوقيان من مشيخة الموحدين، وكان صاحب الجباية بها أبو الحسن بن طفيل. كان له من العامل فداخل الأمير أبا زكريا في شأن البلد، وشرط لنفسه وصهره فأمضى السلطان شرطهم وأمكنوه من البلد. وأقاموا بها دعوته، وارتحل إلى بجاية وكانت قد حدث فيها

اضطراب بين أهلها أدّى إلى الخلاف والتباين. واستحثوا الأمير أبا زكريا فأغذ السير إليهم ودخلها سنة أربع وثمانين وستمائة. ويقال إن ملكه لبجاية كان سابقاً على ملكه لقسنطينة وهو الأصح فيما سمعناه من شيوخنا. وبعث إليه أهل الجزائر وتدلس بطاعتهم فاستولى على هذه الثغور العربية، وتلقب المنتخب لإحياء دين الله. وأغفل ذكر أمير المؤمنين أدباً مع عمه الخليفة بالحضرة حيث مالأ الموحدين أهل الحل والعقد من الجماعة. ونصب للحجابة أبا الحسين بن سيد الناس فقام بها، ورشح ملكه وملك بنيه بهذه الناحية الغربية، وانقسمت به الدولة إلى أن خلص الأمر للملوك من عقبه واستولوا على الحضرة كما نذكره إن شاء الله تعالى

الخبر عن حركة الأمير أبي زكريا إلي ناحية طرابلس ومنازلة عثمان بن يغمراسن بجاية في مغيبه:

لما استولى الأمير أبو زكريا على الناحية الغربيّة، واقتطعها من أعمال الحضرة اعتمل في الحركة على تونس فنهض إليها في سنة خمسة وثمانين وستمائة. ووفد عليه عبد الله بن رحاب بن محمود من مشيخة دباب، ومانعه الفازازي عن أحواز تونس فنازل قابس وحاصرها، وكان له في قتالها أثر واستوت الهزيمة على مقاتلها ذات يوم فأثخن فيهم قتلاً وأسراً، وهدم ربضها وأحرق المنازل في غابتها والنخل. وارتحل إلى مسراته، وانتهى إلى الأبيض وأطاعه الجواري والمحاميد وآل سالم وعرب برقة، وبلغه بمكانه من مسراته أن عثمان بن يغمراسن أسف إلى منازلة بجاية، وكان من خبره أن الأمير أبا زكريا لما فصل من تلمسان لطلب ملكه على كره منه، وامتنع جاره داود بن عطاف من رده امتلأ له عداوة وانحرافاً، وجدد البيعة لصاحب تونس، وأوفد بها على ابن محمد الخراساني من صنائعه. وكان له أثناء ذلك ظهور على بني توجين ومغراوة بالمغرب الأوسط وضاق ذرع أهل الحضرة بمكان الأمير أبي زكريا من مطالبتهم وتدويخه لقاصيتهم، فدخلوا عثمان بن يغمراسن في منازلة معقله ثغر بجاية ليردوه إلى عقبه عنهم، فزحف إلى بجاية سنة ست وثمانين، ونازلها أياماً، وامتنع عليه سائر ضواحيها، ولم يظفر بأكثر من الاطلال عليها. وانكفأ الأمير أبو زكريا راجعاً إلى بجاية سنة ست وثمانين وستمائة إلى أن كان من أمره ما نذكر.

الخبر عن فاتحة استبداد أهل الجريد:

كان في بعض الأيام بين سدادة وكنومة من عمل تقيوس فتنة قتل فيها ابن لشيخ سدادة، وأقسم ليثأرنّ فيه بشيخ كثومة نفسه، وكان عامل توزر محمد بن يحيى بن

أبي بكر التينمللي من مشيخة الموحدين، فتذمّم شيخ كنومة به، وبذل له مالاً على نصره من عدّوه فكاتب الحضرة وأعلن بخلاف أهل سداده. واحتشد لهم أهل نفطة وتقيوس، وخرج هو في حشد أهل توزر غزاهم في بلدهم ولاذ بإعطاء الرهن، وبذل المال فلم يقبل فأمدهم أهل نفزاوة وزحفوا إليه، فالهزمت جموعه وأثخنوا فيهم قتلاً وأسرا إلى توزر، وذلك سنة ست وثمانين وستمائة. ثم عاود غزوهم عقب ذلك فبلخوا عليه ثم عقد لهم سلماً على الوفاء بمغارمهم واشترطوا أن لا حكم عليهم في سواهم، وأن رؤساء نفزاوة منهم فأمضى شرطهم وكانت أول استبداد الجريد كما نذكر إن شاء الله.

الخبر عن خروج عثمان ابن السلطان أبي دبوس داعياً لنفسه بجهات طرابلس:

كان أبو دّبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش لما قتل سنة ثمان وستين وستمائة ، وافترق بنوه وتقلبوا في الأرض، لحق منهم عثمان بشرق الأندلس. ونزل على طاغية برشلونة فأحسن تكريمه، ووجد هنالك أعقاب عمه السيد أبي زيد المتنصر أخي أبي دبوس في مثواهم من إيالة العدّو. وكان لهم هنالك مكان وجاه لتزوع أبيهم السيّد أبي زيد عن دينه إلى دينهم فاستبلغوا في مساهمة قريبهم هذا الوافد، وخطبوا له من الطاغية حظاً. ووافق ذلك حصول مرغم بن صابر بن عسكر شيخ الجوالي من بني دباب في قبضة أسره، وكان قد أسره العدى من أهل صقلية بنواحي طرابلس سنة اثنتين وثمانين وستمائة، وباعوه من أهل برشلونة فاشتراه الطاغية، وأقام عنده أسيراً إلى أن نزع إليه عثمان بن أبي دبوس هذا كما ذكرناه. وشمر لطلب حقه في الدعوة الموحدّية حيث كانت. وأمّل الظفر في القاصية لبعدها عن الحامية، فعبر البحر إلى طرابلس وكان من حظوظ كرامته عند الطاغية أن أطلق له مرغم بن صابر، وعقد له خلقاً معه على مظاهرته، وجهز لهما الأساطيل، وشحنها بالمدد

من المقاتلة والأقوات على مال شرطوه، له فتزلوا على طرابلس سنة ثمان وثمانين وستمائة، واحتشد مرغم قومه وحملهم على طاعة ابن أبي دّبوس، ونازلوا البلد معه ومع جنده من النصرانية فحاصروها ثلاثاً، وساء أثرهم فيها. ثم دخل النصارى بأسطولهم وأرسوا بأقرب السواحل إلى البلد وتنقل ابن أبي دّبوس ومرغم في نواحي طرابلس بعد أن أنزلوا عليها عسكراً للحصار، فاستوفوا من جباية المغارم والوضائع مالاً دفعوه للنصارى في شرطهم، وانقلبوا بأسطولهم. وأقام ابن أبي دبوس يتقلب مع العرب. واستدعاه ابن مكّي من بعد ذلك لأنه يشبه به في استبداده، فلم يتم أمره إلى أن هلك بجربة والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مهلك أبي الحسين بن سيّد الناس صاحب بجاية وولاية ابن أبي جيي مكانه:

قد قدمنا سلف هذا الرجل وأوليته، وأنه لحق بالأمير أبي زكريا بتلمسان وأبلى في خدمته، فلما استولى الأمير أبو زكريا على الثغر الغربي، واقتطعه عن أعمال الحضرة. ونزل بجاية وضاهى بها تونس، عقد لأبي الحسين بن سيد الناس على حجابته، وفوض إليه فيما وراء بابه، وأجراه في رياسته على سنن ابن أبي الحسين الرئيس قبله في دولة المستنصر الذين كانوا يتلقنون طرقه، ويترعون إلى مراميه، بل كانت رياسة هذا في حجابته أبلغ من رياسة ابن أبي الحسين لخلاء جو الدولة ببجاية من مشيخة الموحدين الذين يزاحمونه، كما كان ابن أبي الحسين مزاحماً بهم، فاستولى أبو الحسين بن سيد الناس على الدولة ببجاية، وقام بأمر مخدومه أحسن قيام، وصار إلى الحل والعقد وانصرفت إليه الوجوه وتمكن في يده الزمام، إلى أن هلك سنة تسعين وستمائة أعظم ما كان رياسة وأقرب من صاحبه مكاناً وشرفاً فأقام الأمير أبو زكريا مكانه، كاتبه أبا القاسم ابن أبي حيّ، لا أدري من أوليته أكثر من أنه من جالية الأندلر، وردّ على الدولة، وتصرف في أعمالها، واتصل بأبي الحسين بن سيّد الناس فاستكتبه ثم رقّاه واستخلصه بنفسه، وأجرّه رسنه، وتناول زمام الدولة من يد ابن سيّد الناس، فقادها في يد مظهر خدمته حتى عنت إليه الوجوه وأمله الخاصة، واضطلع السلطان على اضطلاعه وكفايته في أمور

مخدومه. وهلك أبو الحسين بن سيد الناسى فرشحه السلطان بخطته فقام بها سائر أيامه وصدراً من أيام إبنه الأمير أبي البقاء حتى كان من أمره ما نذكره بعد.

الخبر عن خروج الزاب عن طاعة الأمير أبي حفص إلى طاعة الأمير أبي زكريا صاحب بجاية وانتظام بسكرة في جماعه:

كان السلطان أبو إسحق قد عقد على الزاب لفضل بن علي بن مزني من مشيخة بسكرة كما قدمناه، فقام بأمره. ولما هلك السلطان عدا عليه بعض أفاريق العرب الموطّنين قرى الزاب بمداخلة قوم من أعدائه، وقتلوه سنة ثلاث وثمانين وستمائة كما نذكره. وأملّوا الاستبداد بالبلد فدفعهم عنها المشيخة من بني رمان، واستقلوا بأمر بلدهم، وبايعوا للأمير أبي حفص صاحب الحضرة ودانوا بطاعته على السنن. وتوقعوا عادية منصور بن فضل بن مزني. وكان لحق بالحضرة عند مهلك أبيه فخاطبوا فيه السلطان أبا حفص ورموه بالدواهي فأمر باعتقاله، وأودع السجن سبع سنين إلى أن فر منه ولحق بكرفة من أحياء هلال بن عامر، وهم العرب المتولون أمر جبل أوراس. ونزل على الشبه من أفاريقهم فأركبوه وكسبوه ولحق ببجاية سنة إثنتين وتسعين وستمائة فترل بباب السلطان. ورغبه

في ملك الزاب، وصانع الحاجب ابن أبي جبى بأنواع التحف، وضمن له تحويل الدعوة بالزاب لسلطانه الأمير أبي زكريا وتسريب جبايته إليه، فاستماله بذلك وعقد له على الزاب وأمدّه بالعسكر، ونازل بسكرة فامتنعت عليه. ورأى مشيختها بنو رفان بعدهم عن صريخ تونس، وإلحاح عدوهم منصور بن فضل عليهم فأعلنوا بطاعة الأمير أبي زكريا وبعثوا إليه بيعتهم ووفدهم ورفع عادية ابن مزني عنهم، فرجعهم بما أملوه من القبول، وأن تكون

أحكامهم إلى قائد عسكره. ونظر ابن مزني مصروفاً إلى الجباية فقط. ولما وصل الوفد إلى بسكرة خرجوا إلى القائد ومنصور بن مزني، فأدخلوهما البلد ودانوا بالطاعة، وتصرفت الأمور على ذلك إلى أن كان من أمر منصور بن مزني ما نذكره في أخباره، ولم يزل الزاب في دعوة الأمير أبي زكريا وبنيه إلى أن استولى على الحضرة وبعده لهذا العهد، كما تراه في الأخبار بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك أبي عبد الله الفازازي شيخ الموحدين والحاجب أبي القاسم ابن الشيخ رؤساء الدولة بالحضرة:

كان أبو عبد الله الفازازي من مشيخة الموحّدين، وكان خالصة للسلطان أبي حفص، وعقد له على العساكر كما قدمناه ودفعه إلى الحروب وتمهيد النواحي، فقام في ذلك المقام المحمود، ودوّخ الجهات واستترل الثوّار ودفعهم، وجبى الخراج، وكانت له في ذلك آثار مذكورة، وفي بلاد الجريد ومشيختها تصاريف وأحوال. وهو الذي امتحن أحمد بن يملول بسعاية المشيخة من أهل توزر، وكبح عنانه عن مراميه إلى الرياسة عليهم، وهلك آخر حركاته إلى بلاد الجريد على مرحلتين من تونس سنة ثلاث وتسعين وستمائة. ولسنة منها كان مهلك الحاجب أبي القاسم ابن الشيخ وكان من خبر أوليته أنه قدم من بلده دانية إلى بجاية سنة ست وعشرين وستمائة، واتصل بعاملها محمد بن ياسين، فاستكتبه وغلب عليه.

واستدعى ابن ياسين إلى الحضرة وابن الشيخ في جملته، والتمس السلطان من يرشحه لكتابته ويخف عليه، فأطنب ابن ياسين في وصف كاتبه أبي القاسم بن الشيخ وحلاه، وابتلاه السلطان فلم يرضه وصرفه، ثم راجع رأيه فيه واستحسنه ورسمه في خدمته. وأمر ابن أبي الحسين بتلقينه الآداب وتصريفه في وجوه الخدمة ومذاهبها، فكان له في ذلك غناء وخفة على مخدومه إلى أن هلك ابن أبي الحسين. وكان الخرج بدار السلطان موقوفاً على نظره من جملة ما إليه. وكان قلمه عاملاً فيه فأفرد ابن الشيخ بذلك بعد مهلكه إلى آخر أيام السلطان المستنصر. ولما ولي السلطان

الواثق استبد ابن الحببر عليه كما قلناه، فأبقاه على خطته واختصه لنفسه ودرجه في جملته. ثم جاءت دولة السلطان أبي إسحق فأقامه في رسمه وزاحمه بأبي بكر بن خلدون صاحب أشغاله. وكان الرياسة الكبرى على عهده لبنيه أبي فارس، ثم أبي زكريا وأبي محمد عبد الواحد من بعده. ثم كانت مضلة الدعي، واستولى على ملكهم فاستخلص أبا القاسم ابن الشيخ، واستضاف له إلى خطة التنفيذ كتاب العلامة في فواتح السجلات. فلما ارتجع السلطان أبو حفص ملكه وقتل الدعيّ، خافه ابن الشيخ لما كان من رتبته عند الدعيّ فلاذ بالصلحاء لإثارة من الخير والعبادة وصلت بينهم وبينه فشفعوا له وتقبلها السلطان، وأظهر لهم ذات نفسه في الحاجة إلى استعماله وقلده حجابته مجموعة إلى تنفيذ الخرج وصرف العلامة إلى غير ذلك من طبقة الدولة فلم يزل على ذلك إلى أن هلك سنة أربع وتسعين. وستمائة وبقي إسم الحجابة من بعده في هذه الخطط الثلاث، وأمر التدبير والحرب ورياستهما راجع إلى مشيخة الموحّدين إلى أن تصرفت الأحوال، وأديل بعضها من بعض كما يأتيك أثناء الأخبار، وقلد السلطان من بعد ابن الشيخ حجابته لأبي عبد الله التحتي من طبقة الجند فقام بها إلى آخر الدولة، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مهلك السلطان أبي حفص وعهده بالأمر من بعده:

لم يزل السلطان أبو حفص على أكمل حالات الظهور والدعة إلى أن استوفى مدته، وأصابه وجعه أول ذي الحجة من سنة أربع وتسعين وستمائة. ثم اشتد به الوجع وأهمه أمر المسلمين وما قلدوه من عدتهم، فعهد لابنه عبد الله بالخلافة ثاني أيام التشريق. ونكره الموحدون لتخلفه عن المراتب بصغره، وأنه لم يحتلم، وتحدثوا في ذلك. وأفضى الخبر إلى السلطان فأسخطه، وعدل عنهم إلى الشورى مع الولي أبي محمد المرجاني. وكان رأيه فيه جميلاً وظنه به صالحاً. وكان الواثق بن المستنصر لما قتل هو وبنوه بمحبسهم فرث إحدى جواريه، وقد اشتملت على حمل منه إلى رباط هذا الولي فوضعته في بيته فسمّاه الشيخ محمداً وعق عليه، وأطعم الفقراء يومئذ عصيدة الحنطة، فلقب بأبي عصيدة آخر الدهر. ثم صار بعد الاختفاء ودواعيه إلى قصورهم ونشأ في ظل الخلفاء من

قومه، حيث شب وبقيت له مع الولي أبي محمد ذم يثابر كل منهما على الوفاء بها، فلما فاوضه السلطان أبو حفص في شأن العهد، وقص عليه نكير الموحدين لولده، أشار عليه الشيخ بصرف العهد إلى محمد بن الواثق

فتقبل إشارته وعلم ترشيحه، وأنفذ بذلك عهده بمحضر الملأ ومشيخة الموحدين، وهلك آخر ذي الحجة سنة أربع وتسعين وستمائة وإلى الله المصير.

الخبر عن دولة السلطان أبي عصيدة وما كان أثرها من الأحوال:

لما هلك السلطان أبو حفص اجتمع الملأ من الموحّدين والأولياء والجند والكافة

إلى القصبة، فبايعوا بيعة عامة لولي عهده السلطان أبي عبد الله محمد، ويلقب كما ذكرناه بأبي عصيدة بن السلطان الواثق في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وتسعين وستمائة، فانشرحت لبيعته الصدور ورضيته الكافة، وتلقب المستنصر بالله. وافتتح أمره بقتل عبد الله ابن السلطان أبي حفص لمكان ترشيحه، وقلد وزارته محمد بن بريزيكن من مشيخة الموحدين، وأبقى محمد الشخشي على خطة الحجابة، وصرف التدبير والعساكر ورياسة الموحدين إلى أبي يحيى زكريا بن أحمد بن محمد اللحياني قتيل السلطان المستنصر، عند تعرض إبنه للبيعة، واستنامة الخلافة فقام بما دفع إليه من ذلك. وضايقه فيه عبد الحق بن سليمان رئيس الموحدين قبله، حتى إذا نكب وهلك استبد هو على الدولة، واستقل الشخشي بحجابته. وكان محمد بن إبراهيم بن الدباغ رديفاً له فيها.

وكان من خبر ابن الدباغ هذا أن إبراهيم أباه وفد على تونس في جالية أشبيلية سنة

ست وأربعين وستمائة، فولد هو بتونس ونشأ بها، وأفاد صناعة الديوان وحسبانه- وكان من المبرزين فيه أبي الحسن وأبي

الحكم ابني مجاهد، وأصهر إليهما في ابنه أبي الحسن فأنكحاه ورشحاه للأمانة على ديوان الأعمال. ولما استقل أبو عبد الله الفازازي بالرياسة استكتبه وكان طياشاً مستعصياً على الخليفة، فكان كاتبه محمد بن الدبّاغ يروضه لأغراض الخليفة إذا دسّها إليه الحاجب ابن الشيخ، فيقع ذلك من الخليفة أحسن المواقع. ولما ولي السلطان أبو عصيدة وكانت له عنده سابقة رعاها، وكان حاجبه الشخشي بهمة غفلاً من أدوات الكتاب، فاستكتب السلطان ابن الدباغ ثم رقاه إلى كتاب علامته سنة خمس وتسعين وستمائة. وكان يتصرف فيها فأصبح رديفاً للشخشي في حجابته،

وجرت أمور الدولة على ذلك إلى أن هلك الشخشي سنة سبع وتسعين وستمائة، وقلده السلطان حجابته فاستقل لها على ما قدمنا من أن التدبير والحرب مصروف إلى مشيخة الموحّدين.

الخبر عن نكبة عبد الحق بن سليمان وخبر بنيه من بعده:

كان أبو محمد عبد الحق بن سليمان رئيس الموحدين لعهد السلطان أبي حفص، وأصله من تينملل الموطّنين بتبرسق مذ أول الدولة، كانت له ولسلفه الرياسة عليهم، وصارت إليه رياسة الموحدين كافة بالحضرة أيام هذا السلطان وكان له خالصة وشيعة، وكان حريصاً على ولاية إبنه عبد الله للعهد. وكان يدافع نكير الموحدين في ذلك، فأسرها له السلطان أبو عصيدة. ولما استوثق له الأمر، وقتل عبد الله بمحبسه تقبض على أبي محمد بن سليمان، واعتقله في صفر سنة خمس وتسعين وستمائة. ولم يزل معتقلاً إلى أن قتل بمحبسه على رأس المائة

السابعة. وفر عند نكبته ابناه محمد وعبد الله، فأما عبد الله فلحق بالأمير أبي زكريا، وصار في جملته إلى أن دخل تونس مع إبنه السلطان أبي البقاء خالد. وأما محمد فأبعد المفّر ولحق بالمغرب الأقصى، ونزل على يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين بمعسكره من حصار تلمسان، فاستبلغ في تكريمه وأقام عنده مدة. ثم عاود وطنه ونزع عن طريقه إلى النسك ولبس الصوف، وصحب الصالحين وقضى فريضة الحج، وامتدّ عمره وحسنت فيه ظنون الكافة، واعتقدوا فيه وفي دعائه، وكثرت غاشيته لالتماس البركة

منه. وأوجب له الخلفاء إزاء ذلك تجلّة أخرى، وأوفدوه على ملوك زناتة مرة بعد مرة في مذاهب الود وقصود الخير. وحضر في بعضها الجهاد بجبل الفتح عندما نازلته عساكر السلطان أبي الحسن، ولم يزل هذا دأبه إلى أن هلك في الطاعون الجارف في منتصف المائة الثامنة والله تعالى أعلم.

الخبر عن مراسلة يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين ومهاد اته:

كان السلطان أبو عصيدة لما استفحل أمره واستوسق ملكه حدث نفسه بغزو الناحية الغربية وارتجاع ثغورها من يد الأمير أبي زكريا، وكان الأمير أبو زكريا قد انتقض عليه أهل الجزائر بعد مهلك عامله عليها من الموحدين من بني الكمازير، وانبر بها بعده محمد بن علاّن من مشيختها. واستفحل أمر عثمان بن يغمراسن وبني عبد الواد من ورائه، وتغلّبوا على توجين ومغراوة، ومليكش، وكان شيعة لصاحب الحضرة بما كان متمسكاً بدعوتهم ومتقبلا مذهب أبيه في بيعتهم، فقويت غرائم السلطان أبي عصيدة لذلك، ونهض من الحضرة سنة خمس وتسعين وستمائة. وتجاوز تخوم عمله إلى أعمال قسنطينة وأجفلت أمامه الرعايا والقبائل، وانتهى إلى ميلة، ومنها كان منقلبه إلى حضرته في رمضان من سنته.

ولما ضايق عمل بجاية بغزوه أعمل الأمير أبو زكريا نظره في تسكين الناحية الغربية ليتفرّغ عنها إلى مدافعة السلطان صاحب الحضرة، فوصل يده بعثمان بن يغمراسن وأكد معه قديم الصهر بحادث الود والمواصلة. وفي خلال ذلك زحف يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين إلى تلمسان وألقى عليها بكلكله. واستجاش عثمان بن يغمراسن بالأمير أبي زكريا، فأمده بعسكر من الموحدين لقيهم عسكر من بني مرين بناحية تدلس فهزموهم وأثخنوا فيهم قتلاً. ورجع فلهم إلى بجاية، وسرح يوسف بن يعقوب عساكر بني مرين إلى بجاية، وعقد عليها لأخيه أبي يحيى بعد أن كان عثمان بن سباع وفد عليها نازعاً عن صاحب بجاية إليه، ومرغباً له في ملكها فأوسع له في الحباء

والكرامة ما شاء، وبعث معه هذا العسكر فانتهى إلى بجاية، وضايقوها ثم جاوزوها إلى تاكرارت وبلا سدويكش، وعاثوا في تلك الجهات ودوخوها وانقلبوا راجعين إلى سلطان يوسف بن يعقوب بمعسكره من تلمسان.

وكان السلطان أبو عصيدة صاحب الحضرة لما علم بأمداد الأمير أبي زكريا لعثمان بن يغمراسن بعث إلى يوسف بن يعقوب عدوهم وحرضه على بجاية ونواحيها، وسفر بينهما في ذلك رئيس الموحدين أبو عبد الله بن أكمارير أولى سفارته. ثم سفر ثانية سنة ثلاث وسبعمائة بهدية ضخمة أغرب فيها بسرج وسيف ومهامز

من الذهب مرصعة الحلى الفاخر من حصى الياقوت والجوهر. ورافقه في هذه السفارة الثانية وزير الدولة أبو عبد الله بن برزيكن، ورجعاً بهدية ضخمة من يوسف بن يعقوب كان من جملتها ثلثمائة من البغال. واتصلت المخاطبات والسفارات والهدايا والملاطفات. وكان يوسف ابن يعقوب يكاتب السلطان في تلك الشؤون تعريضاً، ويكاتب رئيس الموحدين أبا يحيى بن اللحياني تصريحاً، وترددت عساكر بني مرين إلى نواحي بجاية إلى أن هلك يوسف بن يعقوب كما يأتي في أخباره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مقتل هداج وفتنة الكعوب وبيعتهم لأبي دبوس وما كان بعد ذلك من نكبتهم:

كان هؤلاء الكعوب قد أترفهم الدولة واصطنعتهم منذ قيامهم بأمر الأمير أبي حفص، فعمروا ونموا وبطروا النعمة، وكثر عيثهم وفسادهم وطال إضرارهم بالسابلة وحطمهم للجنات وانتهابهم للزرع، فاضطغن لهم العامة وحقدوا عليهم سوء آثارهم. ودخل رئيسهم هداج بن عبيد سنة خمس وسبعمائة إلى البلد فخزرته العيون، وهمّت به العامّة. وحضر المسجد لصلاة الجمعة فتجنّوا عليه بأنه وطيء المسجد بخفّيه. وقال لمن نكر عليه ذلك: "إني أدخل به مجلس السلطان بهما "

فثاروا به عقب الصلاة وقتلوه، وجروا شلوه في سكك المدينة، فزاد عيثهم وأجلابهم على السلطان. واستقدم أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب لذلك العهد عثمان بن أبي دبوس من مكانه بنواحي طرابلس، ونصّبه للأمر، وأجلب به على الحضرة ونازلها.

وخرج إليهم الوزير أبو عبد الله بن برزيكن في العساكر فهزمهم، وسار بالعساكر

لتمهيد الجهات وتسكين ثائر العرب، فوفد عليه أحمد بن أبي الليل، ومعه سليمان بن جانع من رجالات هوّارة بعد أن راجع الطاعة. وصرف ابن أبي دّبوس إلى مكانه فتقبض عليهما، وبعث بهما إلى الحضرة فلم يزالا معتقلين إلى أن هلك أحمد بمحبسه سنة ثمان وسبعمائة. وقام بأمر الكعوب محمد بن أبي الليل ومعه حمزة ومولاهم ابنا أخيه عمر رديفين له. ثم خرج الوزير بالعساكر ثانية سنة سبع وسبعمائة، واستوفد مولاهم ابن عمر، وتقبض عليه وبعث به إلى الحضرة فاعتقل مع عمه أحمد. وجاهر أخوة حمزة بالنفاق وأتبعه عليه قومه فكثر عيثهم، وأضروا بالرعايا وكثرت الشكاية من العامّة، ولغطوا بها في الأسواق وتصايحوا. ثم نفروا إلى باب القصبة يريدون الثورة فسد الباب دونهم فرموا بالحجارة، وهم في ذلك يعتدون ما نزل بهم من الحاجب ابن الدبّاغ ويطلبون شفاء صدورهم بقتله. ورفع أمرهم إلى.. واستلحامهم جميعاً فأبى من ذلك السلطان، وأمر بملاطفتهم إلى أن سكنت هيعتهم. ثم تتبع العقاب من تولى كبر ذلك منهم، وانحسم الداء، وكان ذلك في رمضان من سنة ثمان وسبعمائة. واستمّر العرب في غلوائهم إلى أن هلك السلطان فكان ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن انتقاض أهل الجزائر واستبداد أبي علان بها:

قد قدمنا ما كان من انتقاض أهل الجزائر أيام المستنصر ودخول عساكر الموحدين

عليهم عنوة واعتقال مشيختهم بتونس، حتى أطلقوا بعد مهلكه، ولما استقل الأمير

أبو زكريا الأوسط بملك الثغور الغربية من بجاية وقسنطينة. وكأن الوالي على الجزائر ابن أكمازير من مشيخة الموحدين فبادر إلى طاعته باتفاق من مشيخة الجزائر، ووفدوا عليه. وكتب لابن أكمازير بولايتها فلم يزل والياً عليهم إلى أن كان شأن بني مرين وزحفهم إلى بجاية. وكان ابن أكمازير قد أسن وهرم فأدركته الوفاة خلال ذلك. وكان ابن علان من مشيخة الجزائر مختصاً به ومتصرفاً فى أوامره ونواهيه ومصدراً لأمارته. حصلت له بذلك الرياسة على أهل الجزائر سائر أيامه. ويقال كان له معه صهر. فلما وصل ابن أكمار حدثته نفسه بالاستبداد والانتزاء بالجزائر، فبعث عن أهل الشوكة من نظرائه ليلة هلاك أميره، وضرب أعناقهم وأصبح منادياً بالاستبداد. وشغل الأمير أبو زكريا عنه بما كان من منازلة بني مرين بيجاية إلى أن هلك، وبقيت في انتقاضها على الموحدين آخر الدهر إلى أن تملكها بنو عبد الواد كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك الأمير أبي زكريا صاحب بجاية وبيعة ابنه أبي البقاء خالد:

كان الأمير أبو زكريا قد استولى على الثغور الغربية كما قلناه، واقتطعها من أعمال الحضرة، وقسم الدعوة الحفصية بدولتين. وكان على غاية من الحزم والتيقظ والصرامة لم يبلغها سواه. وكان كثير الإشراف على وطنه والمباشرة لأعماله بنفسه وسد خلله. ولم يزل على ذلك إلى أن هلك على رأس المائة السابعة. وكان قد عهد بالأمر لإبنه الأمير أبي البقاء خالد سنة ثمان وتسعين وستمائة قبلها، وعقد له على قسنطينة وأنزله بها. فلما هلك الأمير أبو زكريا جمع الحاجب أبو القاسم بن أبي أبي جبى مشيخة الموحدين وطبقات الجند وأخذ بيعتهم للأمير أبي البقاء، وطير له بالخبر واستقدمه فقدم، وبويع البيعة العامة. وأبقى ابن أبي جبى على حجابته واستوزر يحيى بن أبي الأعلام، وقدم على صنهاجة أبا عبد الرحمن بن يعقوب بن حلوب منهم، ويسمى المزوار. وقلد رياسة الموحدين أبا زكريا يحيى بن زكريا من أهل البيت الحفصيّ، واستمر الأمر على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن سفارة القاضي الغبريني ومقتله:

قد قدمنا ما كان من زحف بني مرين إلى بجاية بمداخلة صاحب تونس. ولما ولي السلطان أبو البقاء اعتزم على المواصلة مع صاحب تونس قطعاً للزبون عنه، وعين للسفارة في ذلك شيخ القرابة يبابه أبا زكريا الحفصي ليحكم شأن المواصلة بينه وبينه. وبعث مع القاضي أبا العباس الغبريني كبير بجاية وصاحب شوراها، فأدوا رسالتهم وانقلبوا إلى بجاية، ووجد بطانة السلطان السبيل في الغبريني فأغروه به وأشاعوا أنه داخل صاحب الحضرة في التوثّب بالسلطان. وتولى كبر ذلك ظافر الكبير وذكره بجرائره، وما كان منه في شأن السلطان أبي إسحق وأنه الذي أغرى بني غبرين به، فاستوحش منه السلطان وتقبض عليه سنة أربع وسبعمائة. ثم أغروه بقتله فقتل بمحبسه تلك، وتولى قتله منصور التركي، والله غالب على أمره.

الخبر عن سفارة الحاجب ابن ابي حي إلي تونس وتنكر السلطان له بعدها وعزله:

ولما ولي السلطان أبو البقاء كانت عساكره بني مرين مترددة إلى أعمال بجاية بمداخلة صاحب تونس كما ذكرناه، فدوخوا نواحيها. وكان ابن أبي جبى مستبداً على الدولة في حجابته، فضاق ذرعه بشأنهم وأهمته حال

الدولة معهم. ورأى أن اتصال اليد بصاحب الحضرة مما يكف عن عزمهم فعزم على مباشرة ذلك بنفسه لوثوقه من

سلطانه. فخرج من بجاية سنة خمس وسبعمائة وقدم على الحضرة رسولاً عن سلطانه، فاهتزت له الدولة وتلقي بما يجب له ولمرسله من البر، وأنزله شيخ الموحدين ومدبر الدولة أبو يحيى زكريا بن اللحياني بداره استبلاغاً في تكريمه. وقضى من أمر تلك الرسالة حاجة صدره، وكان بطانة الأمير أبي البقاء خالد لما خلا لهم وجه سلطانهم منه تهافتوا على التنصح إليه والسعاية بابن أبي جبى عنده.

القسم الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلي الله علي سيدنا ومولانا محمد و اله وصحبه وسلم تسليما:

وشمر لذلك يعقوب بن غمر وجلّى فيه وتابعه عليه عبد الله الرخامي كاتب ابن أبي

حي وصديقه، بما كان ابن طفيل قريبه يسخط عليه الناس، ويوغر له صدورهم ببأوه وتحقيره بهم، فألح له العداوة في كل جانحة وأسخطه على عبد الله الرخامي. وكان صديقه ومداخله فتولى من السعاية فيه مع يعقوب بن غمر كبرها، وألقوا إلى السلطان أن ابن أبي حي داخل صاحب الحضرة في تمكينه من ثغر قسنطينة وبجاية، بما كان علي بن الأمين العامل بقسنطينة صهراً لابن أبي جبى، وهو الذي ولاه عليها فاستراب السلطان به، وتنكر له بعد عوده من تونس. وخشي كل واحد منهما بادرة صاحبه. ثم رغب ابن أبي جبى في قضاء فرضه وتخلية سبيله إليه، فأسف وخرج من بجاية ذاهباً إلى الحج، ولحق بالقبائل من ضواحي قسنطينة وبجاية فترل عليهم وأقام بينهم مدة. ثم لحق بتونس وأقام بها إلى حين مهلك السلطان أبي عصيدة وبيعة أبي بكر الشهيد وحضر دخول الأمر أبي البقاء عليه بتونس، وخلص من تيار تلك الصدمة فلحق بالمشرق وقضى فرضه. ثم عاد إلى المغرب ومر بأفريقية ولحق بتلمسان وأغرى أبا حمو بالحركة على بجاية فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حجابة أبي عبد الرحمن بن غمر ومصائر أموره:

هو يعقوب بن أبي بكر بن محمد بن غمر السلمي، وكنيته أبو عبد الرحمن. كان

جده محمد فيما حدثني أهل بيتهم قاضيا بشاطبة، وخرج مع الجالية أيام العدو إلى

تونس، ونزل بالربض الجوفي أيام السلطان أبي عصيدة، وانتقل أبناؤه أبو بكر ومحمد إلى قسنطينة، ونزلا على ابن أوقيان العامل عليها من مشيخة الموحدين لعهد الأمير أبي زكريا الأوسط، فأوسعهما عنايةً وتكريماً. وولّى أبا بكر على الديوان بالقل واستخلصه لنفسه. وكاد يتردّد إلى الحضرة ببجاية في شؤونه فاتصل بمرجان الخصيّ من موالي الأمير أبي زكريا وخواص داره، واستخدم على يده للأمير خالد وامه من كرائم السلطان، فحظي عندهم وتزوج إبنه يعقوب من ربيبات القصر، وخوله، ونشأ في جو تلك العناية. وأعلنوا بصحبة الحاج فضل

قهرمان دار السلطان وخاصته، فاستخدم له سائر أيامه إلى أن هلك. وكان الحاج فضل كثيراً ما يتردّد إلى الأندلس لاستجلاب الثياب الحريرية من هنالك وانتقاء أصنافها. وكذلك إلى تونس لاستجادة الثياب منها. وبعثه السلطان آخر أمره إلى الأندلس فاستصحب ابن غمر وهلك الحاج فضل هنالك، فعدل السلطان عن خطاب إبنه محمد إلى خطاب ابن غمر، فأمره بإتمام ذلك العمل والقدوم به فقدم هو وإبن الحاج فضل وساءلهما عن عملهما فكان ابن غمر أوعى من صاحبه فحلي بعينه وخفّ عليه، واعتلق بذمة من خدمته أحظته عند السلطان ورقته فاستعمل في الجباية. ثم قلّد أعمال الأشغال وزاحم ابن أبي جبى وعبد الله الرخامي، وغصّوا به فأغروا السلطان بنكبته. وأشخصه إلى الأندلس فأقام هنالك، واستعطف السلطان أبا البقاء بعد مهلك أبيه، وتشفّع بوسائل خدمته فاستقدمه. وقدم مع علي وحسين ابني الرنداحي، ركب معهما البحر إلى بجاية في مغيب ابن أبي جبى عن الحضرة فصادف من السلطان قبولاً، وشمر في السعاية بابن أبي جبى مع مرجان إلى أن تم له ما أراد من ذلك. وصرف ابن أبي جبى كما ذكرناه فقلد السلطان حجابته ليعقوب بن غمر.

وقدم على الأشغال عبد الله الرخامي، وكان ناهضاً في أمور الحجابة لمباشرتها مع مخدومه، فأصبح رديفاً لابن عمر وغصّ بمكانه فأغرى به السلطان، ودلّه على مكامن ثورته وعداوته، فنكب وصودر وامتحن وغرّب إلى ميورقة، حتى افتداه يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين حين أسره، واستقدمه ليقلّده أشغاله عند تنكّره لعبد الله

بن أبي مدين كما نذكره في أخباره. فهلك يوسف بن يعقوب دون ما أمل من ذلك، وأقام الرخامي بتلمسان وبها كان مهلكه. واستقل يعقوب بن غمر بأعباء خطته

واضطلع بها، وفوّض إليه السلطان في الإبرام والنقض فحوّل المراتب بنظره وأجرى الأمور على غرضه. وكان أول ما أتاه صرعته لمرجان مصطنعه ملأ صدر السلطان عليه، وحذّره مغبته فتقبّض عليه والقي في البحر يلتقمه الحوت، فخلا وجه السلطان لابن غمر، وتفرد بالعقد والحل إلى أن استولى السلطان أبو البقاء على الحضرة، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ثورة ابن الأمين بقسنطينة وبيعة السلطان أبي عصيدة ثم فتح السلطان أبي البقاء خالد لها وقتله:

كان يوسف بن الأمين الهمداني بعد أن قتله بطنجة أبناء أبي يحيى بن عبد الحق

من بني مرين كما يأتي في أخبارهم، انتقل بنوه إلى تونس أيام المستنصر ورعى لهم السلطان وسيلة قيامهم بالدعوة الحفصية أيام أبي علي بن خلاص بسبتة وبعدها إلى أن غلبهم عليها العزفي كما نذكر في أخباره، فلقّاهم مبّرة وتكريماً، ونزلوا في الحضرة خير نزل، تحت جراية ونعمة وعناية. وكان كبيرهم متحمّقاً متعاظماً، فربما لقي من الدولة لذلك عسفاً. إلا أن الإبقاء عليهم كان مانعاً من اضطهادهم. ونشأ بنوهم في ظل ذلك النعيم.

ثم هلك السلطان واضطربت الأمور، وضرب الدهر ضرباته، ولحق عليّ منهم

بالثغر الغربي وتأكّدت له مع ابن أبي جبى لحمة ونسب وذمه صهر وشجت بينهما عروقها. فلما استقل ابن أبي جبى بحجابة الأمير أبي زكرياء لم يأل جهداً في مشاركة علي بن الأمير وترقيته المنازل إلى أن ولاّه ثغر قسنطينة مستقلاً بها وحاجباً للسلطان أبي بكر ابن الأمير أبي زكريا وأنزله معه فقام بحجابته. وأظهر فيها غناءه وحزمه، حتى إذا سخط السلطان ابن أبي جبى وصرفه عن حجابته تنكر أبو الحسن بن الأمين وخشي بوادر السلطان فحول الدعوة إلى صاحب الحضرة، وطيّر إليه بالبيعة، واستدعى المدد والنائب فوصله رئيس الموحدين والدولة أبو يحيى زكريا بن أحمد بن محمد

اللحياني، وعقد البيعة لسلطانه سنة أربع وسبعمائة.

وبلغ الخبر إلى السلطان أبي البقاء ببجاية فنهض إليه بالعساكر آخر سنة أربع وسبعمائة، ونازله أياماً فامتنع عليه، وهمّ بالإفراج عنه. ثم داخل رجل من بطانة ابن الأمير يعرف بابن موزة أبا الحسن بن عثمان من مشيخة الموحدين، وكان معسكره بباب الوادي فناجزهم الحرب من هنالك حتى انتهى إلى السور، فتسنّمه المقاتلة بإغضاء ابن موزة لهم عنه. وركب السلطان في العساكر عند الصدمة ووقف على باب البلد، وقد استمكن أولياؤه منه فخرج إليه بنو الغنفل، وبنو باديس ومشيخة البلد، فاقتحم البلد عنوة. ومضى أبو محمد الرخامي في رجال السلطان إلى دار ابن الأمين فغشيه بها وقد انفض عنه الناس، واستحصن بغرفة من غرف داره واستمات، فلاطفه الرخامي واستنزله. ثم حمله على برذون مستدبراً، وأحضره بين يدي السلطان فقتل، ونصب شلوه، وأصبح آية للمعتبرين والله أعلم.

الخبر عن حركة السلطان أبي البقاء إلى الجزائر:

قد قدمنا ما كان من خبر انتقاض الجزائر على الأمير أبي زكريا واستبداد ابن علان

بها. فلما استولى السلطان أبو البقاء على الأمر وتمهّدت له الأحوال، وأقلع بنو مرين بعد مهلك يوسف بن يعقوب عن تلمسان أعمل السلطان نظره في الحركة إليها، فخرج إليها سنة سبع وسبعمائة أو ست وسبعمائة، وانتهى إلى متيجة ودخل في طاعته منصور بن محمد شيخ مليكش وجميع قومه، ولجأ إليه راشد بن محمد بن ثابت بن منديل أمير مغراوة هارباً أمام بني عبد الواد فأواه إلى ظلّه وألقى عليه جناح حمايته. واحتشد جميع من في تلك النواحي من القبائل. وزحف إلى الجزائر وأقام عليها أياماً فامتنعت عليه، وانكفأ راجعاً إلى حضرته ببجاية، وأقام مليكش على طاعته ومطاولته الجزائر بالقتال، إلى أن كان من أمرها وتغلّب بني عبد الواد عليها ما نذكره في أخبارهم.

وجاء معه راشد بن محمد إلى بجاية متذمّماً بخدمته إلى أن قتله عبدالرحمن بن خلوف كما يذكر في موضعه إن شاء الله تعالى.

الخبر عن السلف وشروطه بين صاحب تونس وصاحب بجاية:

لما افتتح السلطان أبو البقاء خالد قسنطينة وقتل ابن الأمير وفرغ من ذلك الشأن

أدرك أهل الحضرة الندم على ما استدبروا من مهادنة صاحب الثغر، وقارن ذلك مهلك يوسف بن يعقوب الذي كانوا يرجونه شاغلاً له فجنحوا إلى السلم، وبعثوا وفدهم في ذلك إليه فأسدوا وألحموا. وشرط عليهم السلطان أبو البقاء أن من هلك منهما قبل صاحبه فالأمر من بعده للاخر والبيعة له، فتقبلوا الشرط وحضر الملأ والمشيخة من الموحدين ببجاية، ثم بتونس فأشهدوا بها على أنفسهم، وربط ذلك العقد وأحكمت أواخيه إلى أن نقضه أهل الحضرة عند مهلك السلطان أبي عصيدة كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن سفر شيخ الدولة بتونس أبي يحيي اللحياني لحصار جربة ومضيه منها إلي الحج:

لما أمر هذا الصلح واستتم راجع رئيس الدولة أبو يحيى زكريا بن اللحياني نظره لنفسه، وأعمل فكره في الخلاص من أنشوطته وكان يؤمل رجوع الوفد المغربين بالمهديّة من أمراء الديار المصرية إلى يوسف بن يعقوب فيصحبهم لقضاء فرضه، وابطأ عليه شأنهم فاعتزم على قصده وورّى بحركته إلى جزيرة جربة لاسترجاعها من أيدي النصارى والرجوع عنها من بعد ذاك إلى الجريد لتمهيد أحواله. وتناول الرأي في الظاهر من أمره مع السلطان فأذن له. وسرح معه العساكر فخرج من

تونس في جمادى سنة ست وسبعمائة غازياً إلى جربة. ولم يزل يغذّ السير حتى انتهى إلى مجازها. ثم عبر منه إلى الجزيرة، وكان النصارى لما تغلبوا عليها سنة ثمان وثمانين وستمائة شيّدوا بها حصناً لاعتصام الحامية سمّوه بالقشتيل، فنزل في العساكر عليه. وأنفذ الشيخ أبو يحيى عمّاله للجباية وأقام في منازلته شهرين. ثم انقطعت الأقوات واستعصى الحصن إلاّ بالمطاولة فرجع إلى قابس. ثم ارتحل إلى بلاد الجريد وانتهى إلى توزر ونزلها، وأعنى في خدمته أحمد بن محمد بن بهلول من مشيختها، فاستوفى جباية الجريد وعاد إلى قابس.

وأنزله عبد الملك بن عثمان بن مكي بداره، وصرّح بما روى عنه من حجّه. وصرف العساكر إلى الحضرة وولي بعده رياسة الموحدين وتدبير الدولة أبو يعقوب بن يزدوتن، وتحول عن قابس إلى بعض جبالها تجافياً عن هوائها الوخم. وأقام في انتظار الركب الحجازي وكان مريضاً إلى أن أبل فتحول عنه إلى طرابلس، وأقام بها عاماً ونصفه إلى أن وصل وفد الترك من المغرب الأقصى آخر سنة ثمان وسبعمائة، فخرج معهم حاجاً حتى قضى فرضه وعاد فكان من شأنه واستيلائه على منصب الخلافة ما يأتي ذكره. ووصل مدد النصرانية إلى قشتيل جربة سنة ثمان وسبعمائة بعد منصرف العساكر عنهم وفيهم فردريك بن الطاغية صاحب صقلية، فقاتلهم أهل الجزيرة من النكارين لنظر أبي عبدالله بن الحسن من مشيخة الموحدين ومعه ابن أومغار في قومه من أهل جربة فأظفرهم الله بهم. ولم يزل شأن هذه الجزيرة مع العدوّ كذلك منذ التاثت دولة صنهاجة، وربما وقعت الفتنة بين أهلها من النكارة فتصل إحدى الطائفتين يدها بالنصارى إلى أن كان ارتجاعها في هذه النوبة سنة.. وأربعين لعهد مولانا السلاطان أبي يحيى كما نذكر في أخباره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك السلطان أبي عصيدة وبيعة أبي بكر الشهيد:

كان السلطان أبو عصيدة بعد تملّي سلطانه وتمهيد ملكه طرقه مرض الاستسقاء

فأزمن منه. ثم مات على فراشه في ربيع الآخر سنة تسع وسبعمائة، ولم يخلف ابناً، وكان بقصرهم سبط من أعقاب الأمير أبي زكريا جدّهم. ثم من ولد أبي بكر ابنه الذي ذكرنا وفاته في خبر شقيقه أبي حفص في فتح مليانة أيام السلطان المستنصر، فلم يزل بنوه بقصورهم وفي ظل ملكهم. ونشأ منهم أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر في إيالة السلطان أبي عصيدة، وربي في جميم نعمته. فلما هلك السلطان أبو عصيدة ولم يعقب، وكان السلطان أبو البقاء خالد قد نزع إليه حمزة بن عمر عند إياسه من خروج أخيه من محبسه فرغّبه في ملك الحضرة واستحثه عليها. ثم وصل أبو عبد الله بن يرزيكن السلطان أبا عصيدة واستنهض السلطان أبا البقاء لملك تونس، فنهض كما نذكره. واستراب الموحدون بتونس بشأن حركته وخافوه على أنفسهم فبايعوا لهذا الأمير أبي زكريا الذي عرف بالشهيد بما كان من قتله لسبع عشرة ليلة من بيعته، وأبقى أبا عبد الله بن يرزيكن على وزارته وزحزح محمد بن الدباغ عن رتبة الحجابة. وتوّعده لما كان يحقد عليه من التقصير به أيام سلطانه، فكان عونا عليه إلى أن هلك عند استيلاء السلطان أبي البقاء كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي البقاء علي الحضرة وانفراده بالدعوة الحفصية:

لما بلغ السلطان أبا البقاء بمكانه من بجاية وأعمالها الخبر بمرض السلطان أبي
عصيدة مع ما كان من العقد بينهما بأنّ من مات قبل صاحبه جمع الأمر من بعده للآخر، داخلته الظنّة أن ينقض أهل الحضرة هذا الشرط فاعتزم على النهوض لمشارفة الحضرة، ووصل إليه حمزة بن عمر نازعاً عنهم، فرغبه واستحثه، وخرج من بجاية في عساكره، وورى بالحركة إلى الجزائر لما كان من انتقاضهم على أبيه، واستبداد ابن علاّن بها. ثم ارتحل إلى قصر جابر وعند بلوغه إليه ورد الخبر بمهلك السلطان أبي عصيدة وبيعة الموحدين بعده لأبي بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر ابن الأمير أبي زكريا، فاضطغنها على الموحدين. وأغذّ السير، وانحاش إليه كافة أولاد أبي الليل. واجتمع أمثالهم أولاد مهلهل إلى
صاحب تونس، وخرج معهم شيخ الدولة أبو يعقوب بن يزدوتن والوزير أبو عبد الله بن يرزيكن، في العساكر للّقاء، ووقوا سلطانهم بأنفسهم. فلما زحف إليهم السلطان أبو البقاء اختلّ مصافهم وانهزموا وانتهب المعسكر، وقتل الوزير ابن يرزيكن، وأجفلت أحياء العرب إلى القفر ودخل العسكر إلى البلد واضطرب الأمر، وخرج الأمير أبو بكر بن عبد الرحمن فوقف بساحة البلد قليلاً. ثم تفرّق عنه العسكر وتسايلوا إلى السلطان أبي البقاء. وفر أبو بكر ثم أدرك ببعض الجنات فثلّ إلى السلطان واعتقله في بعض الفازات، وغدا على السلطان أهل الحضرة من مشيخة الموحدين والفقهاء والكافة فعقدوا بيعته. وقتل الأمير أبو بكر فسمّي الشهيد آخر الدهر، وباشر قتله ابن عمه أبو زكرياء يحيى بن زكريا شيخ الموحدين. ودخل السلطان من الغد إلى الحضرة واستقل بالخلافة، وتلّقب الناصر لدين الله المنصور. ثم استضاف إلى لقبه المتوكل. وأبقى أبا يعقوب بن يزدوتن في رياسته على الموحدين مشاركاً لأبي زكريا يحيى بن أبي الأعلام الذي كان رئيساً عنده قبلها واستمرّ على خطة الحجابة أبو عبد الرحمن يعقوب بن غمر، وولّى على الأشغال بالحضرة منصور بن فضل بن مزني، وجرت الحال على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن بيعة ابن مزني يحيي بن خالد ومصاير أموره:

كان يحيى بن خالد ابن السلطان أبي إسحق في جملة السلطان أبي البقاء خالد، وتنكّرت له الدولة لبعض النزعات فخشي البادرة وفر فلحق بمنصور بن مزني. وكان منصور قد استوحش من ابن غمر فدعاه إلى القيام بأمره فأجاب وعقد له على حجابته، وجمع له العرب وأجلب على قسنطينة أياماً، وبها يومئذ ابن طفيل، وكان قد اجتمعت ليحيى بن خالد زعنفة من الأوغاد، واشتملوا عليه واشتمل عليهم وأغروه بابن مزني فوعدهم إلى حين ظفره، واطلع ابن مزني على سوء دخلته ودخلتهم فقبض يده من طاعته، وانصرف عنه إلى بلده، وانفضت جموعه. وراجع ابن مزني طاعة السلطان أبي
البقاء ومخالصة بطانته وحاجبه فتقبلوه، ولحق
يحيى بن خالد بتلمسان مستجيشاً، ونزل على أميرها أبي زيّان محمد بن عثمان بن يغمراسن فهلك لأيام من مقدمه. وولي بعده أخوه أبو حمو موسى بن عثمان فأمدّه وزحف إلى محاربة قسنطينة فامتنعت عليه. ثم استدعاه ابن مزني إلى بسكرة فأقام عنده وأسنى له الجراية، ورتب عليه الحرس. وكان السلطان ابن اللحياني يبعث إليه من تونس بالجائزة مصانعة له في شأنه، حتى لقد أقطع له بتونس من قرى الضاحية، فلم يزل في إسهام بنيه من بعده إلى أن هلك يحيى بن خالد بمكانه عنده سنة إحدى وعشرين وسبعمائة والله تعالى أعلم.

الخبر عن بيعة السلطان أبي بكر بقسنطينة علي يد الحاجب ابن عمر وأوّلية ذلك:

لما نهض السلطان أبو البقاء إلى الحضرة عقد على بجاية لعبد الرحمن بن يعقوب بن الخلوف مضافاً إلى رياسته على قومه كما كانوا يستخلفون أباه عليها عند سفرهم عنها، وكان يلقب المزوار، وجعله حاجباً لأخيه الأمير أبي بكر على قسنطينة فانتقل إليها. وعكف السلطان أبو البقاء بتونس على لذّاته وأرهف حدّه وعظم بطشه فقتل عدوان بن المهدي من رجالات سدويكش ودعار بن حريز من رجالات الأثابج فتفاوض رجال الدولة في شأنه وخشوا بادرته، وأعمل الحاجب ابن غمر وصاحبه منصور بن فضل عامر الزاب الحيلة في التخلص من إيالته واستعصب راشد بن محمد أمير مغراوة، كان نزع إليهم عند استيلاء بني عبد الواد على وطنه، فتلقوه من الكرامة بما يناسبه واستقر في جملتهم، وعليه وعلى قومه كانت تدور رحى حروبهم.
واستصحبه السلطان أبو البقاء خالد إلى الحضرة أميراً على زناتة فرفع بعض حشمه
الى الحاجب في مقعد حكمه، وقد استعدى عليه بعض الخدم فأمر بقتله لحينه. وأحفظ ذلك الأمير راشد بن محمد فرتب لها عزائمه، وقوض خيامه لحينه مغاضباً،
فوجد الحاجب بذلك سبيلاً إلى قصده وتمت حيلته وحيلة صاحبه. وأهم السلطان شأن بجاية ونواحيها، وخشي عليها من راشد بما كان صديقاً ملاطفاً لعبد الرحمن بن الخلوف وفاوضهما فيمن يدفعه إليها فأشار عليه الحاجب بمنصور بن مزني، وأشار منصور بالحاجب وتدافعها أياماً حتى دفعهما جميعاً إليها. وطلب ابن غمر من السلطان العقد لأخيه أبي بكر على قسنطينة فعقد له، وولى علياً ابن عمه على الحجابة بتونس نائباً عنه. وفصل من الحضرة ولحق بقسنطينة، وصرف منصور بن فضل إلى عمله بالزاب فكان من خلافه ما

يذكر. وقام ابن غمر بخدمة السلطان أبي بكر فتصرف في حجابته. ثم داخله في الانتقاض على أخيه، وبدت مخايل ذلك عليهم فارتاب لهم السلطان أبو البقاء وأحس علي بن غمر بارتيابه فلحق بقسنطينة. وجهز السلطان أبو البقاء عسكراً وعقد عليها لظافر مولاه المعروف بالكبير، وسرحه إلى قسنطينة فانتهى إلى باجة وأراح بها إلى أن كان من أمره ما نذكره. وبادر ابن غمر إلى المجاهرة بالخلعان، ودعا مولانا السلطان أبا بكر إليه فأجابه، وأخذ له البيعة على الناس فتمت سنة إحدى عشرة وسبعمائة، وتلقب بالمتوكل وعسكر بظاهر قسنطينة إلى أن بلغه مجاهرة ابن الخلوف بخلافهم فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء السلطان علي بجاية وقتل ابن مخلوف وما كان من الإدارة في ذلك:

كان يعقوب بن مخلوف ويكنى أبا عبد الرحمن كبير صنهاجة جند السلطان الموطنين بنواحي بجاية، وكان له مكان في الدولة وغناء في حروبهم ودفاع عدوّهم. ولما نزلت عساكر بني مرين على بجاية مع أبي يحيى بن يعقوب بن عبد الحق سنة ثلاث وسبعمائة كان له في حروبهم مقامات مذكورة وآثار معروفة. وكان الأمير أبو زكريا وإبنه يستخلفونه ببجاية أزمان سفرهم عنها، وكان يلقب بالمزوار. ولما هلك خلفه في سبيله تلك إبنه عبد الرحمن واستخلفه السلطان أبو البقاء على بجاية عندما نهض إلى تونس سنة تسع وسبعمائة وأنزله بها، وكان طموحاً لجوجاً مدلاً بباسه وقومه ومكانه من الدولة. فلما دعا السلطان أبو بكر لنفسه وخلع طاعة أخيه، وأخذ له أبو عبد الرحمن بن غمر البيعة على الناس وخاطبوه بأخذ البيعة له على من يليه ببجاية وأعمالها فأبى منها، وتمسك بدعوة صاحبه، ونفس على ابن غمر ما تحصل له بذلك من الحظ فجاهر بخلافهم.

وجمع واحتشد وتقبض على صاحب الأشغال عبد الواحد ابن القاضي أبي العباس الغماري وعلى صاحب الديوان محمد بن يحيى القالون مصطنع الحاجب ابن غمر من أهل المريّة كان أسدى إليه عند اجتيازه به معروفاً، ورحل إليه عندما استولى على الرتبة ببجاية فكافأه عن معروفه واصطنعه وألقى إليه محبته ورقاه إلى الرتب، وصرفه في أعمال الجباية وقلده ديوان بجاية فتقبض عبد الرحمن بن الخلوف عليه وعلى صاحبه. وجمع الناس وأعلن بالدعوة للسلطان أبي البقاء خالد. وارتحل السلطان أبو بكر من معسكره بظاهر قسنطينة وأغذ السير إلى بجاية، ونزل مطلاً عليها، واقتتل الناس عامة يومهم. وشرط ابن الخلوف على السلطان عزل ابن غمر، وترددت الرسل بينهم في ذلك. وكان الوزير أبو زكريا بن أبي الأعلام من الساعين في هذا الإصلاح بما كان له من الصهر مع ابن الخلوف. وحين رجع إليه بامتناع السلطان عن شرطه منعه من الرجوع إليهم وحبسه عنده، وأرجف أهل المعسكر بالسلطان، وخاموا عن لقاء صنهاجة ومن معهم من مغراوة أهل الشوكة والعصبية والعديد والقوة.

وأجفل السلطان من معسكره فانتهب وأخذت آلته، وسلب من كان في المعسكر من أخلاط الناس، ودخل السلطان إلى قسنطينة في فل من عسكره. وبعث ابن خلوف عسكراً في أتباعه فوصلوا إلى ميلة فدخلوها عنوة. ثم وصلوا إلى قسنطينة فقاتلوها أياماً، ورجعوا إلى بجاية. وأقام السلطان

واضطرب أمره، وتوقع زحف ظافر إليه من باجة، واتصل به أن أبا يحيى زكريا بن أحمد اللحياني قفل من المشرق، وأنه لما انتهى الى طرابلس دعا لنفسه لما وجد بأفريقية من الاضطراب، فبويع وتوافت إليه
العرب من كل جهة، فرأى السلطان من مذاهب الحزم أن يبعث إليه بالحاجب ابن أبي عبد الرحمن بن غمر ليشيد من سلطانه، ويشغل أهل الحضرة عنه، فورى بالفرار عن السلطان وتواطأ معه على المكر بابن مخلوف في ذلك.

ولحق ابن غمر باللحياني واستحثه لملك تونس وهون عليه الأمر، وغدا السلطان
عند فصول إبن غمر على منازله فكبسها وسطا بحاشيته، وولى حجابته حسن بن ابراهيم بن أبي بكر بن ثابت رئيس أهل الجبل المطل على قسنطينة والفل من كتامة، ويعرف قومه ببني نليلان وكان قد اصطنعه من تبل، وارتحل بالعسكر إلى بجاية سنة إثنتي عشرة وستمائة. واستخلف على قسنطينة عبد الله بن ثابت أخا الحاجب. واشيع بالجهات أن السلطان تنكر لابن عمر وسخطه، وأنه ذهب إلى ابن اللحياني واستجاشه على الحضرة، وبلغ ذلك ابن خلوف واستيقن اضطراب حال السلطان خالد بتونس فطمع في حجابة السلطان أبي بكر. وتوثق لنفسه منه بالعهد بمداخلة عثمان بن شبل وعثمان بن سباع بن يحيى من رجالات الزواودة والولي يعقوب الملاري من نواحي قسنطينة. وأغذ السير إلى بجاية، ولقي السلطان بفرجيوه من بلاد سدويكش فلقاه مبرة
ورحباً. ثم استدعاه من جوف الليل إلى رواقه في سرب من مواليه المعلوجي فعاقرهم الخمر إلى أن ثمل، واستغضبوه ببعض الترعات فغضب وأقذع فتناولوه طعناً بالخناجر إلى أن قتلوه، وجروا شلوه فطرحوه بين الفساطيط، وتقبض على سائر قومه وحاشيته، وفر كاتبه عبد الله بن هلال فلحق بالمغرب. وارتحل السلطان مغذا إلى بجاية فدخلها على حين غفلة. واستولى على ملك ابنه بالناحية الغربية واستوثق له أمرها، وأقام في انتظار حاجبه ابن غمر إلى أن كان من الأمر ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك السلطان أبي البقاء خالد واستيلاء السلطان أبي يحيي بن اللحياني علي الحضرة:

كان السلطان أبو البقاء خالد بعد بيعة السلطان أبي بكر بقسنطينة قد اضطرب أحواله وجهز إليه العساكر لمنازلة قسنطينة، وعقد عليها لمولاه ظافر المعروف بالكبير، فعسكر بباجة وأراح ينتظر أمر السلطان. وكان أبو يحيى زكريا بن أحمد بن محمد اللحياني بن أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص قد بويع بطرابلس لما قفل من المشرق، ورأى اضطراب الأحوال ووفد عليه الحاجب أبو عبد الرحمن بن غمر بهدية من السلطان أبي بكر، وأنه ممده ومظاهره على شأنه، فأحكم ذلك من عقدته وشد من أمره، وتوافت إليه رجالات الكعوب أولاد أبي الليل وغيرهم فبايعوه واستحثوه للحضرة، فارتحل إليها وبعث في مقدمته أولاد أبي الليل، ومعهم شيخ دولته أبو عبد الله محمد بن محمد المزدوري فأغذوا السير إلى الحضرة.

وبعث السلطان إلى مولاه ظافر بمكانه من باجة مستجيشاً فاعترضوه قبل وصوله، وأوقعوا به واعتقلوا ظافراً وصبحوا تونس ثامن جمادى سمنة إحدى عشرة وسبعمائة، ووقفوا بساحتها فكانت هيعة بالبلد قتل فيها شيخ

الدولة أبو زكريا الحفصي، وعدا القاضي أبو إسحق بن عبد الرفيع على السلطان. وكان متبوعاً صارماً قوي الشكيمة، فأغراه بمدافعة العدو فخام عن لقائه، واعتذر بالمرض وأشهد بالانخلاع عن الأمر وحل البيعة. ودخل أبو عبد الله المزدوري القصر فاستمكن من اعتقاله.

ثم جاء السلطان أبو يحيى زكريا بن اللحياني على أثره ثاني رجب فبويع العامة بظاهرها ودخل إلى البلد، واستولى عليها وولى على حجابته كاتبه أبا زكريا يحيى بن علي بن يعقوب، على الأشغال بالحضرة ابن عمه محمد بن يعقوب. وبنو يعقوب هؤلاء أهل بيت بشاطبة من بيوت العلم والقضاء، وقدموا إلى الحضرة مع الجالية، وكان منهم أبو القاسم عبد الرحمن بن يعقوب، وفد مع ابن الأمين صاحب طنجة كما قدمناه، وتصرف في القضاء بأفريقية وولاه السلطان المستنصر قضاء الحضرة. وسفر عنه إلى ملوك مصر، وكان بنو علي هؤلاء عبد الواحد ويحيى ومحمد من أقاربه، وكان لهم ظهور في دولة السلطان أبي حفص وبعدها. وكان عبد الواحد منهم صاحب جباية الجريد، وهلك بتوزر سنة إثنتين وسبعمائة. وكان السلطان أبو يحيى بن اللحياني قد استكتب أخاه أبا زكريا يحيى أيام رياسته على الموحدين فحظي عنده واختصه ولازمه، وحج معه. فلما ولي الخلافة أحظاه وولاه حجابته. ولما استقر بتونس، واستوثق له الأمر أعاد الحاجب أبا عبد الرحمن بن غمر إلى مرسله السلطان أبي يحيى بعد أن وثق العهد معه على المهادنة، وضمن له ابن غمر من ذلك ما رضيه وتملك بابن عمه على ابن غمر فأقام عنده مكرما متسع الجراية والإسهام إلى أن كان من الأمر ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قدوم ابن غمر علي السلطان ببجاية ونكبة ابن ثابت وظافر الكبير:

لفا قدم ابن غمر على بجاية استبد بحجابته وكفالته كما كان، وليوم وصوله فر

عبد الله بن هلال كاتب ابن مخلوف، ولحق بتلمسان وشمّر ابن غمر عزائمه للإطلاع بأمره، ودفع حسن بن إبراهيم بن ثاب عن الرتبة فلم يتزحزح له يوماً، وخرج لجباية الوطن. ثم أكرى به السلطان وحذره من استبداده بقسنطينة لمكان معقله المجاور لها وسعايات ننصح بها حتى صادفت القبول لمكانه والوثوق بنصائحه. وخرج السلطان في العساكر من بجاية إلى قسنطينة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة للنظر أحوالها. فلما انتهى إلى فرجيوه لقيه عبد الله بن ثابت فتقبض عليه وعلى أخيه حسن بن الحاجب سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وقتلهما بعد أن استصفى أموالهما، ويقال إنه بعد خروج حسن بن ثابت إلى أعمال قسنطينة بعث في أثره بعض مواليه، وأوعز معهم إلى عبد الكريم بن منديل ورجالات سدويكش فقتلوه بوادي القطن. وإن السلطان لم يباشر نكبته. وكان ظافر الكبير بعد إنهزامه وحصوله في أسر العرب كما قدمناه امتنعوا عليه وأطلقوه، ولحق بالسلطان أبي بكر فأثره واستخلصه كما كان لأخيه، وولاه على

قسنطينة عند نكبة ابن ثابت. واستكتب له أبا القاسم بن عبد العزيز لخلوه من الأدوات فأقام ظافراً والياً بقسنطينة. ثم استقدمه السلطان إلى

بجاية وقد غص ابن غمر بمكانه، فأغرى به السلطان فتقبض عليه، وأشخصه في السفين إلى الأندلس والله أعلم.

الخبر عن منازلة عساكر بني عبد الواد بجاية وما كان في أثر ذلك من الأحداث:

كان السلطان أبو يحيى بعد إنهزامه عن بجاية سنة عشر وسبعمائة، وبعث سعيد بن يخلف من مواليه إلى أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن. وكان قد اتيح له في زناتة المغرب الأوسط ظفر واعتزاز. وتملك أمصاره من أيدي بني مرين بعد مهلك يوسف بن يعقوب على تلمسان ودوخ جهاته. واستولى على أعمال مغراوة وتوجين، وملك الجزائر، واستترل منها ابن علان الثائر بها. وملك تدلس من يد ابن مخلوف فبعث إليه السلطان في المواصلة والمظافرة، وأن تكون يدهما على ابن مخلوف واحدة، فطمع لذلك موسى بن عثمان في ملك بجاية. ثم بلغه مهلك ابن مخلوف، واستيلاء السلطان على ثغره فاستمر على المطالبة، وادعى أن بجاية له في شرطه، وقارن ذلك لحاق صنهاجة إليه عند مهلك صاحبهم فرغبوه في ملك بجاية وضمنوا له أمرها. ثم قدم عثمان بن سباع بن يحيى مغاضباً للسلطان لما كان من افتياته عليه في ابن خلوف وإخفار ذمته وعهده فيه، واستقر عنده ابن أبي جبى منذ منصرفه عن الحجابة ورجوعه من الحج فرغبوه في ذلك واستحثوه لطلب بجاية، فسرح العساكر إليها لنظر محمد ابن عمه يوسف بن يغمراسن ومسعود ابن عمّه أبي عامر إبراهيم، ومولاه مسامح. وبعث معهما أبا القاسم بن أبي جبى الحاجب ففصلوا عنه من دار مقامته بشلف، فأغذوا السير. وهلك ابن أبي جبى بجبل الزاب ونازلوا البلد. ثم جاوزوها إلى الجهات الشرقية فأثخنوا فيها ودخلوا جبل ابن ثابت، واستولوا عليه واستباحوه سنة ثلاث عشرة وسبعمائة.

ونالت منهم الحامية في المدافعة بالقتل والجراحة أعظم السيل، وقفلوا راجعين فشيدوا حصناً بأصفون وشحنوه بالأقوات. ولما وصل محمد بن يوسف ومسامح وبخهما وطوفهما ذنب القصور والعجز، وعزلهما. وبعث السلطان عسكراً في البر وأسطولاً في البحر بعد رجوعه من قسنطينة سنة أربع عشرة وسبعمائة لهدم حصن بني عبد الواد بأصفون فخرب وانتهبت أقواته وعدده. وسرح أبو حمو عسكراً لحصار بجاية عقد عليه لمسعود ابن عمه أبي عاص إبراهيم بن يغمراسن فنازلوها سنة خمس عشرة وسبعمائة، واتصل لهم خروج محمد بن يوسف بن يغمراسن وبني توجين معه على أبي حمو، وأنهم أوقعوا به وهزموه، واستولوا على معسكره فأجفل مسعود بن أبي عامر وعسكره وأفرجوا عن بجاية. ووصل على أثرها خطاب محمد بن يوسف بالطاعة والانحياش فبعث السلطان إليه صنيعته محمد بن الحاج فضل بالهدية والآلة، ووعده بالمظاهرة وتسويغ الأسهام التي كان ليغمراسن بأفريقية. وشغل بنو عبد الواد عن بجاية، وخرج السلطان في عساكر الإشراف على وطنه إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استبداد ابن غمر ببجاية:

لم يزل ابن غمر مستبداً على السلطان في حجابته يرى أن زمامه بيده، وأمره متوقف على إنفاذه. وصار يغريه ببطانته فيقتلهم ويغربهم، وربما كان السلطان يأنف من استبداده عليه. وداخله بعض أهل قسنطينة سنة ثلاث

عشرة وتسعمائة في اغتياله ابن غمر فهموا بذلك، ولم يتم ففطن لها ابن غمر فأوقع بهم وقسمهم بين النكال والعذاب فرقاً. ثم رجع السلطان إلى بجاية سنة ثلاث عشرة وسبعمائة لما أهمهم حصاره، واتصلت حاله معه على ذلك النحو من الاستبداد إلى أن بلغ السلطان أشده وأرهف حده، وسطا بمحمد بن فضل فقتله في خلوة معاقرته من غير مؤامرة

الحاجب. وباكر ابن غمر مقعده بباب السلطان فوجد شلوه ملقى في الطريق مضرجا في ثيابه، وأخبر أن السلطان سطا به فداخله الريب من استبداد السلطان وإرهاف حده، وخشي بوادره، وتوقع سعاية البطانة ونجي وأهل الخلوة. فتحيّل في بعده عنه واستبداده بالثغر دونه فأغراه بطلب أفريقية من يد ابن اللحياني، وجهزه بما يصلحه من الآلة والفساطيط والعساكر والخدام، ورتب له المراتب. وارتحل السلطان إلى قسنطينة سنة خمس عشرة وسبعمائة. ثم تقدم غازياً إلى بلاد هوارة، وأجفل عنها ظافراً بمن تعاطى قائدها من مواليهم فاستوفى جباية هوّارة. وقفل إلى قسنطينة سنة ست عشرة وسبعمائة واستبد ابن غمر ببجاية ومدافعة العدو من زناتة عنها. واستخلف على حجابته السلطان محمد بن القالون، وقرت عينه بما كان يؤمل من استبداده إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن سفر السلطان أبي يحيي اللحياني إلى قابس وتجافيه عن الخلافة:

كان هذا السلطان أبو يحيى بن اللحياني قد طعن في السن وكان بصيراً بالسياسة

مجّرباً للأمور، وكان يرى من نفسه العجز عن حمل الخلافة واستحقاقها مع أبناء الأمير أبي زكريا الأكبر. وعلم مع ذلك استفحال صاحب الثغور الغربية الأمير أبي بكر واستغلاظ أمره بمن انتظم في ملكه وارتسم في ديوان جنده من أعياص زناتة وفحول شلوهم، من توجين ومغراوة وبني عبد الواد وبني مرين. كانوا ينزعون إليه مع الأيام عن ملوكهم خشية على أنفسهم، لما قاسموهم في النسب وساهموهم في يعسوبّية القبيل وفحولّية الشول. ومنهم من غلبوا على مواطنهم وملكوها عليهم مثل مغراوة وبني توجين ومليكش، فاستكثف بذلك جند السلطان وكثرت جموعه وهابه الملوك.

ونهض سنة ست عشرة وسبعمائة إلى أفريقية وجال في بلاد هوّارة وأخذ جبايتها كما ذكرناه،

فتوقع السلطان ابن اللحياني زحفه إليه بتونس. وكانت أفريقية مضطربة عليه، وكان تعويله في الحماية والمدافعة على أوليائه من العرب، تولى منهم حمزة بن علي

عمر بن أباب الليل فحكمه في أمره وأشركه في سلطانه، وأفرده برياسة العرب وأجره الرسن، وسرب إليه الأموال، وكثر بذلك زبون العرب واختلافهم عليه، فاعتزم على التقويض عن أفريقية ونفض اليد من الخلافة، فجمع الأموال والذخيرة وباع ما كان بمودعاتهم من الآنية والفرش والخرثي والماعون والمتاع، حتى الكتب التي كان الأمير أبو زكرياالأكبر جمعها واستجاد أصولها ودواوينها. اخرجت للوراقين فبيعت بدكاكين سوقهم. فجمع من ذلك زعموا قناطير من الذهب تجاوز العشرين قنطاراً، وجوالقين من حصى الدرّ والياقوت. وخرج من تونس إلى قابس مورياّ بمشارفة عملها فاتح سبع عشرة وسبعمائة بعد أن رتب الحامية بالحضرة وباجة

والحمامات، واستخلف بالحضرة أبا الحسن بن وانودين وانتهى إلى قابس فأقام بها، وصرف العمال في جهاتها إلى أن كان من بيعة ولده بتونس ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نهوض السلطان أبي بكر إلى الحضرة ورجوعه إلى قسنطينة:

لما خرج السلطان من هوارة إلى قسنطينة سنة ست عشرة وسبعمائة كما قدمناه، استبلغ في جهاز حركة أخرى إلى تونس، فاحتشد وقسم العطاء وأزاح العلل، واعترض الجنود عن طبقاتهم من زناتة والعرب وسدويكش. واستخلف على قسنطينة الحاجب محمد بن القالون. وبعث إلى حاجبه الأعظم أبي عبد الرحمن بن غمر بمكانه من إمارة بجايةفي مدد المال في النفقات والأعطيات. فبعث إليه منصور برت فضل بن مزني عامل الزاب: وكان ابن عمر لما رأى من كمايته وأنه جماعة للمال، استضاف له عمل جبل أورأس والحصنة وسدويكش وعياض وسائر أعمال الضاحية، فكانت أعمال الجباية كلها لنظره وأمواله في حسبان دخله وخرجه. فبعث ابن غمر ليقيم إنفاق السلطان. واستخلفه على خطة حجابته، وارتحل السلطان من قسنطينة في جمادئ سنة سبع عشرة وسبعمائة يطوي المراحل. ولقيه في طريقه وفود العرب، وانتهى إلى باجة فانفضت حاميتها إلى تونس.

وكان السلطان أبو يحيى اللحياني قد خرج عنها إلى قابس كما قدمناه، واستخلف عليها أبا الحسن بن وانودين، وبعث إليه بنهوض السلطان أبي بكر إلى تونس، وأنه محتاج إلى المدافعة، فاعتذر لهم اللحياني به، قبله من الأموال، وأطلق يدهم في الجيش والمال فأركبوا واستلحقوا ورتبوا الديوان وأخرجوا إبنه محمد، ويكنى أبا ضربة فأطلقوه من اعتقاله.

وبغتهم الخبر بإشراف السلطان أبي بكر على باجة، فخرجوا جميعاً من تونس. وخالفهم إلى السلطان مولاهم ابن غمر بن أبي الليل. كان مضطغناً مع الدولة متربصاً بها لما كان اللحياني يؤثر عليه أخاه حمزة، فلقي السلطان في دوين باجة، فأعطاه صفقته واستحثّه، ووصل إلى تونس، فنزل روض السنافرة من رياض السلطان في شعبان من سنة سبع عشرة وسبعمائة. وخرج إليه الملأ وتردّدوا في البيعة بعض الشيء انتظاراً لشأن أبي ضربة وأصحابه. وكان من خبرهم أن السلطان لما أغذ السير من باجة، بادر حمزة بن غمر إلى بطانة اللحياني وأوليائه بتونس فلقيهم وقد خرجوا عنها، فأشار عليهم ببيعة أبي ضربة بن السلطان اللحياني، ومزاحمة القوم به فبايعوه وزحفوا إلى لقاء السلطان.

ودس حمزة إلى أخيه مولاهم أن يزحف بالمعسكر فأجفل السلطان من مقامته من روض السناجرة لسبعة أيام من احتلاله قبل أن يستكمل البيعة وارتحل إلى قسنطينة ورجع عنه مولاهم من تخوم وطنه. وسرّح منصور بن مزني إلى ابن عمر ببجاية ودخل أبو ضربة بن اللحياني والموحدون إلى تونس منتصف شعبان من سنته. وبويع بالحضرة البيعة العامة وتلقب بالمستنصر. وأراد أهل تونس على إدارة سور بالأرباض يكون سياجاً عليها فأجابوه إلى ذلك وشرع فيه. وأرهقه العرب في مطالبهم واشتطّوا عليه في شروطهم إلى أن عاود مولانا السلطان حركته كما نذكر إن شاء الله تعالى

.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي بكر علي الحضرة وإيقاعه بأبي ضربة وفرار أبيه من طرابلس إلى المشرق:

لما قفل السلطان من تونس إلى قسنطينة بعث قائده محمد بن سيد الناس بين
يديه إلى بجاية، فارتاب ابن غمر بوصوله وتنكر له وشعر بذلك السلطان، وأغضى له عنها وطلبه في المدد، فاحتفل في الحشد والآلة والأبنية. وبعث إليه سبعة من رجال الدولة بسبعة عساكر وهم: محمد بن سيد الناس، ومحمد بن الحكم، وظافر السنّان وأخوه من موالي الأمير أبي زكريا الأوسط، ومحمد المديوني ومحمد المجرسي ومحمد البطوني. وبعث له من فحول زناتة وعظمائهم عبد الحق بن عثمان من أعياص بني مرين، كان ارتحل إليه من الأندلس كما نذكر في خبره، وأبا رشيد بن محمد بن يوسف من أعياص بني عبد الواد في من كان معهم من قومهم وحاشيتهم.

وتوافوا بعساكرهم عند السلطان بقسنطينة فاعتزم على معاودة الزحف إلى تونس،
وكان قد اختبر أحوال أفريقية وأحسن في ارتيادها فخرج في صفر من سنة ثمان عشرة وسبعمائة، واستعمل على حجابته أبا عبد الله بن القالون، ويرادفه أبو الحسن بن عمر، ووافاه
با أربس وفد هوارة، وكبيرهم سليمان بن جامع، وأخبروه بأنّ أبا ضربة بن اللحياني أجفل من باجة بعد أن نزلها معتزماً على اللقاء، فارتحل مولانا السلطان مغذاً، ولقيه مولاهم ابن غمر فراجع الطاعة، وارتحلوا في أتباع أبي ضربة وجموعه حتى شارفوا على القيروان، فخرج إليه عاملها ومشيختها فألقوا إليه باليد وأعطوا الطاعة.
وارتحل السلطان راجعاً عن أتباع عدّوه إلى الحضرة وقد ترك بها أبو ضربة بن
اللحياني من بطانته محمد بن الغلاق ليمانع دونها، فأخرج الرماة إلى ساحتها، وقاتل العساكر ساعة من النهار. ثم اقتحموها عليه، واستبيح عامّة أرباضها وقتل ابن الغلاق ودخل السلطان إلى الحضرة في ربيع من سنته، فأقام خلالاً ما انعقدت العامّة. وقدم على
الشرطة ميمون بن أبي زيد واستخلفه على البلد. ورحل في أتباع أبي ضربة بن اللحياني وجموعه فأوقع بهم .بمصبوح من جهات بلاد هوارة.

وقتل من مشيخة الموحدين أبو عبد الله بن الشهيد من أهل البيت الحفصي، وأبو
عبد الله بن ياسين. ومن طبقات الكتاب أبو الفضل البجائي وتقبّض على شيخ الدولة أبي محمد عبد الله بن يغمور. وقيد إلى السلطان فعفا عنه، ونوهه ليومه. ثم أعاده إلى خطته بعد ذلك. ورجع السلطان إلى تونس في رجب من سنته. وكان السلطان أبو عيسى بن اللحياني لما بلغه الخبر بنهوض السلطان إلى تونس حركته الثانية سنة سبع عشرة وسبعمائة، وما كان من بيعة الموحدين والعرب لابنه أبي ضربة ارتحل من مقامته بقابس إلى نواحي طرابلس. ثم بلغه رجوع السلطان إلى قسنطينة فأوطن طرابلس فبنى مقعداً لملكه بسور البلد مما يلي البحر سمّاه الطارمة، وبعث العمّال في الجهات لجباية الأموال. وبعث على جبال طرابلس أبا عبد الله بن يعقوب قريب حاجبه ومعه هجرس بن مرغم كبير الجواري من دباب فدوّخ البلاد وفتح المعاقل وجبى

الأموال وانتهى إلى برقة. واستخدم آل سالم وآل سليمان من عرب ذئاب، ورجع إلى سلطانه بطرابلس.
ووافاه الخبر بانهزام أبي ضربة إبنه فبعث حاجبه أبا زكريا بن يعقوب ووزيره أبا عبد الله بن ياسين بالأموال لاحتشاد العرب ففرّقوها في علاق وذئاب، وزحف أبو ضربة إلى القيروان. وبلغ الخبر إلى السلطان أبي بكر فخرج من تونس آخر شعبان سنة ثمان عشرة وسبعمائة، فأجفلوا عن القيروان. ثم تذامروا وعقلوا رواحلهم مستميتين بزعمهم، حتى أطلت عليهم العساكر بمكان فجّ النعام، فانفضت جموعهم وشردت رواحلهم وارتحلوا منهزمين، والقتل والنهب يأخذ منهم مأخذه. ولجأ أبو ضربة في ففه إلى المهديّة، وكانوا مقيمين على دعوة أبيه فامتنع بها إلى أن كان من شأنه ما نذكره.
وبلغ الخبر إلى أبيه بمكانه من طرابلس، فاضطرب معسكره وبعث إلى النصارى
في أسطول يحمله إلى الإسكندرية فوافوه بستة أساطيل فاحتمل أهله وولده، وركب
البحر ومعه حاجبه أبو زكريا بن يعقوب إلى الإسكندرية واستخلف على طرابلس أبا عبدالله بن أبي عمران من ذوي قرابته وصهره، فلم يزل بها إلى أن استدعاه الكعوب ونصبوه للأمر، وأجلبوا به على السلطان مراراً كما نذكره بعد. وركب السلطان أبو يحيى بن اللحياني البحر إلى الإسكندرية فترل بها على السلطان محمد بن قلاون من ملوك الترك بمصر والشام. واستقدمه إلى مصر فعظم من مقدمه واهتز للقائه ونوه من مجلسه وأسنى من جرايته وأقطاعه، إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. ورجع السلطان أبو بكر إلى تونس بعد الواقعة على أبي ضربة وقومه بفج النعام، فدخلها في شوال من سنته. واستقامت أفريقية على طاعته، وانتظمت أمصارها وثغورها في دعوتها إلا المهدية وطرابلس كما ذكرناه، إلى أن كان ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.
الخبر عن مهلك الحاجب ابن غمر ببجاية وولاية الحاجب محمل بن القالون عليها ثم الإدالة منه بابن سيد الناس:
كان الحاجب ابن غمر لما استبدّ ببجاية سنة خمس عشرة وسبعمائة، وانتقل السلطان إلى قسنطينة ولم يراجعها بعد. ثم رجع من تونس ثانية حركاته سنة سبع عشرة وسبعمائة، صرف إليه منصور بن فضل وبعث في أثره قائده أبا عبد الله محمد بن حاجب أبيه أبي الحسن بن سيد الناس يهيىء قصوره ببجاية للتحول إليها، فرده ابن غمر وتنكر وطالبه السلطان في المدد فبادر به فأقطعه جانب الرضى. وعقد له على بجاية وقسنطينة كما ذكرنا ذلك كله قبل. فاستبد ابن غمر بالثغر وما إليه من الأعمال مقتصراً على ذكر السلطان في الخطبة، واسمه في السكّة. وأقام على ذلك إلى أن ملك السلطان تونس واستولى على جهاتها، وبعث إليه بابن عمه محمد بن غمر فعقد أبو عبد الرحمن الحاجب على قسنطينة فمضى إليها، وهو في خلال ذلك كلّه يدافع عساكر زناتة عن بجاية.
وقد كان أبو حمّو صاحب تلمسان بعد ظهوره على محمد بن يوسف، واسترجاعه
بلاد مغراوة وتوجين من يده كما قدمناه يسرّب العساكر لحصارها. وابتنى بالوادي على مرحلتين منها قلعة تكر يجهّز بها الكتائب لحصارها. ثم هلك أبو حمّو وولي إبنه أبو

تاشفين من بعده سنة ثمان عشرة وسبعمائة فتنفّس فخنق الحصار عن بجاية ريثما كانت حركة السلطان إلى تونس وفتحها. ثم خرج أبو تاشفين من تلمسان لتمهيد أعماله، وقتل محمد بن يوسف بمعقله من جبل وانشريش كما ذكرناه في أخبارهم، فارتحل من هنالك غازياً إلى بجاية، فأطل عليها في سنة تسع عشرة وسبعمائة، وبدا له من حصنها وكثرة مقاتلتها وامتناعها ما لم يحتسب، فانكفأ راجعاً إلى تلمسان، وأصاب ابن غمر المرض فبعث عن عليّ ابن عمّه من مكان عمله بقسنطينة، وعهد إليه بأمره والقيام بولاية بجاية إلى أن يصل أمر السلطان.

وهلك لأيام على فراشه في شوال من سنة تسع عشرة وسبعمائة، وقام علي بن عمر بأمر بجاية، واتصل الخبر بالسلطان فأهمه شأن الثغر. وطير ابن سيّد الناس إليه مع قهرمانة داره لتحصيل تراثه، والبحث عن ذخيرته فاستوفى من ذلك فوق الكثرة من الصامت والذخيرة، وقدم به على السلطان واستقدم معه علي بن غمر، فأولاه السلطان من رضاه ما أحسب أمله. وأقام بالحضرة إلى أن كان منه خلاف مع ابن عمران. ثم راجع الطاعة وقد أحفظ السلطان بولاية عدوه. فلما عاد إلى تونس أوعز إلى مولاه نجاح وهلال بقتله فاغتالوه خارجا من بستانه فأشووه، وهلك من جراحته والله أعلم.

الخبر عن إمارة الأمير أبي عبد الله علي قسنطينة وأخيه الأمير أبي زكريا علي بجاية وتولية القالون علي حجابها:

لما هلك ابن غمر أهمّ السلطان شأن بجاية بما كانت عليه من شأن الحصار، ومطالبة بني عبد الواد لها فرأى أن يكثف الحامية بالثغور الغربية، وينزل بها أبناءه للمدافعة والحماية، فعقد على قسنطينة لإبنه الأمير أبي عبد الله وعقد على بجاية لابنه الآخر الأمير أبي زكريا. وجعل حجابتها لأبي عبد الله بن القالون مستبداً عليهما لمكان صغرهما. وأكثف له الجند وأمره بالمقام ببجاية لممانعتها من العدو الملح على حصارها. وارتحلوا من تونس فاتح سنة عشرين وسبعمائة في احتفال من العسكر والصحاب و الأبهة. وأبقى خطة الحجابة خلواً ممن يقوم بها. وأبقى علي بن القالون. وبقي للتصرف في الأمور من رجالات السلطان أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز الكردي الملقب بالمزوار. وكان مقدماً على بطانة السلطان المعروفين بالدخلة، وعلى الأشغال

الكاتب أبو القاسم بن عبد العزيز، وسنذكر أوليتهما بعد. وانصرف إلى بجاية رافلاً في حلل العز والتنويه إلى أن كان من أمره ما نذكرإن شاء الله تعالى والله أعلم .

الخبر عن استقدام ابن القالون والإدالة منه بابن سيد الناس في بجاية وبظافر الكبير في قسنطينة.

لما انصرف أبو عبد الله بن يحيى بن القالون إلى بجاية، وخلا وجه السلطان فيه لبطانته عند ولايته بجاية، بثوا فيه السعايات ونصبوا له الغوائل. وتولى كبر ذلك المزوار ابن عبد العزيز بمداخلة أبي القاسم بن عبد العزيز صاحب الأشغال. وعظمت السعاية فيه عند السلطان حتى داخلت فيه الظنّة. وعقد لمحمد بن سيّد الناس على بجاية، نقله إليها من عمله باجة، وكتب له عهده بخطه. واستقدم صاحبه محمد بن القالون فقدم، وقد تغير السلطان له ودخل ابن سيد الناس بجاية، وقام بأمر حصارها وحجابة أميرها إلى

أن استقدم للحجابة وكان من أمره ما نذكره. ومرّ ابن القالون بقسنطينة في طريقه إلى الحضرة فحدّثته نفسه بالامتناع بها، وداخل مشيختها في ذلك فأبوا عليه، فأشخصهم إلى الحضرة نكالاً بهم.

ونمي الخبر بذلك إلى السلطان فأسرّها لابن القالون وعزم على استضافة الحجابة بقسنطينة لابن سيد الناس فاستعفى مشيختها من ذلك، واروه أن ابنّ الأمين قريبه وابن أخيه، وذكروه ثورة أبيه فأقصر عن ذلك، وصرف اعتزامه إلى مولاه ظافر الكبير وذلك عند قدومه من المغرب، وكان من خبره أنه كان من موالي الأمير أبي زكرياء، وكان له في دولة إبنه السلطان أبي البقاء ظهور، وهو الذي زحف بالعسكر عندما استراب السلطان أبو البقاء بأخيه السلطان أبي بكر فأقام بباجة. وجاء المزدوري والعرب إلى تونس في مقدّمة ابن اللحياني، فزحف إليهم ففضّوه وتقبّضوا عليه كما ذكرنا ذلك كله. ثم لحق بعدها بمولانا السلطان أبي يحيى وأعاده إلى مكانه من الدولة، وولاه قسنطينة عند مهلك ابن ثابت سنة ثلاث عشر وسبعمائة.

ثم غص به ابن غمر وأغرى به السلطان فأشخصه في سفين إلى الأندلس وأجاز

إلى المغرب. ونزل على السلطان أبي سعيد إلى أن بلغه الخبر بمهلك ابن غمر فكّر راجعاً إلى تونس، ولقاه السلطان مبرة وتكريماً. ووافق ذلك وصول الحاجب ابن القالون من بجاية، فعقد السلطان لظافر هذا على حجابة إبنه بقسنطينة الأمير أبي عبد الله فقدمها وقام بأمرها، واستعمل ذويه وحاشيته في وجوه خدمتها وصرف من كان هنالك من

الخدّام أهل الحضرة إلى بلدهم. وكان بها أبو العباس بن ياسين متصرفاً بين يدي الأمير أبي عبد الله، والكاتب أبو زكريا بن الدبّاغ على أشغال الجباية، وكانا قدما من الحضرة في ركاب الأمير أبي عبد الله فصرفهما القائد ظافر لحين وصوله، واستقلّ بأمره إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ظهور ابن أبي عمران وفرار ابن القالون إليه على عينه:

كان محمد بن أبي عمران هذا من عقب أبي عمران موسى بن إبراهيم ابن الشيخ

أبي حفص، وهو الذي ولي أفريقية نائباً عن أبي محمد عبد الله ابن عمه الشيخ أبي محمد عبد الواحد كتب له بها من مراكش لأوّل ولايته، فأقام والياً عليها ثمانية أشهر إلى أن قدم آخر سنة ثلاث وعشرين وستمائة، وأقام أبو عمران هذا في جملتهم إلى أن هلك ونشأ بنوه في ظلّ دولتهم إلى أن كان من عقبه أبو بكر والد محمد هذا، فكان له صيت وذكر. وكان السلطان أبو يحيى زكريا بن اللحياني قد رعى له ذمة قرابته، ووصله بصهر عقده لإبنه محمد على إبنته. واستخلفه على تونس عند خروجه عنها. ثم استخلفه على طرابلس عند ركوبه السفينة إلى الإسكندرية. وكان أبو ضربة بعد انهزامه وافتراق جموعه اعتصم بالمهدية، ونازله بها السلطان أبو بكر فامتنعت عليه، فأقلع عنها على سلم عقده لأبي ضربة. وأقام حمزة بن عمر في سبيل خلافه على السلطان، ويتقلب في نواحي أفريقية حتى عظم زبونه على السلطان ونزع إليه الكثير من الأعراب وكثرت جموعه، فاستقدم محمد بن أبي عمران من مكان ولايته بثغر طرابلس.

وزحف إلى تونس معارضاً للسلطان قبل اجتماع عساكره وكمال تعبيته، فخرج السلطان أبو بكر من تونس في رمضان سنة إحدى وعشرين وسبعمائة ولحق بقسنطينة، وصحبه إليها مولاهم ابن عمر. وكان الحاجب محمد بن يحيى بن القولون قد غصته البطانة والحاشية بالسعاية فيه عند السلطان، وتبين له انحرافه عنه. وكان معز بن مطاعن الفزاري وزيره حمزة بن عمر وصاحب شوراه صديقاً لابن للقالون

ومخالصاً، فداخله في الأجلاب بابن عمران. فلما خرج السلطان أمام زحفه تخلف القالون بتونس، وركب من الغد في البلد منادياً بدعوة ابن أبي عمران. ودخل محمد بن أبي عمران ثانية خروج السلطان، واستولى على الحضرة وأقام بها بقية سنته، وصدراً من الأخرى ولحق السلطان بقسنطينة فجمع عساكره واحتشد جموعه. وأزاح العلل واستكمل التعبية وزحف منها في صفر سنة إثنتين وعشرين وسبعمائة. وخرج ابن أبي عمران للقائه مع حمزة بن عمر في جموع العرب، فلقيهم السلطان أولى وثانية بالرجلة وأوقع بهم، وقتل شيخ الموحدين أبا عبد الله بن أبي بكر. وكان على مقدمتهم محمد بن منصور بن مزني وغيرهم، وأثخنت العساكر فيهم قتلاً وأسراً، وكان للسلطان فيها ظهور لا كفاء له. ثم تقبض على مولاهم ابن عمر فكان من خبره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مقتل مولاهم افي عمر وأصحابه من الكعوب:

لما اتيح للسلطان من الظهور على ابن عمران وأتباعه والظفر بهم ما أتيح وصنع له

فيهم رغم أنف مولاهم ابن عمر، وظهرت من أصحابه كلمات أنبأت بفساد دخلتهم. ثم نمي للسلطان أن مولاهم داخل في الفتك به إبنه منصور وربيبه زعدان ومعدان ابني عبد الله بن أحمد بن كعب، وسليمان بن جامع من شيوخ هوارة. وشى بذلك عنهم ابن عمهم عون بن عبد الله بن أحمد بعد أن داخلوه فيها فتنصح بها للسلطان. فلما عدوا على السلطان تقبض عليهم وبعثهم إلى تونس فاعتقلوا بها، ورجع هو إلى الحضرة فدخلها في جمادى من سنته. وجدد البيعة على الناس، وزحفت العرب في أتباعه حتى نزلوا بظاهر البلد وشرطوا عليه إطلاق مولاهم وأصحابه، فأنفذ السلطان قتلهم فقتلوا بمحبسهم، وبعث بأشلائهم إلى حمزة فعظم عنده موقع هذا الحزن، وصرخ في قومه وتدامروا أن يثيروا بصاحبهم، وأغذوا السير إلى الحضرة وابن أبي عمران معهم على حين افتراق العساكر وإزاحة السلطان.

وظنوا أنهم ينتهزون الفرصة فخرج السلطان عن تونس لأربعين يوماً من دخوله، ولحق بقسنطينة ودخل ابن أبي عمران إلى تونس فأقام بها ستة أشهر خلال ما احتشد السلطان جموعه واستكمل تعبيته. ونهض من قسطنطينة وزحف إليه ابن أبي عمران وهزمهم ابن عمر في جموعهم، فأوقع السلطان بهم وأثخن فيهم وشرد هم في النواحي، وعاد إلى تونس فدخلها في صفر سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، ومضى حمزة لوجهه إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن واقعة رغيس مع ابن اللحياني وزناتة وواقعة الشقة مع ابن أبي عمران:

لما انهزم حمزة بن عمر وابن أبي عمران عن تونس مرة بعد أخرى، ورأى حمزة

ابن أبي عمران غير مغن عنه فصرفه إلى مكان عمله بطرابلس، وبعث إلى أبي ضربة ابن السلطان اللحياني بمكانه من المهدية فداخله في الصريخ بزناتة والوفود على سلطان بني عبد الواد، فرحل معه أبو ضربة ووفدوا على أبي تاشفين صاحب تلمسان وركبوه في الظفر ببجاية، وأن يشغل صاحب تونس عن مددها بترديد البعوث وتجهيز العساكر إليه، فسرح معهم السلطان آلافاً من العساكر عقد عليها لموسى بن علي الكردي صاحب الثغر بتيمرزدكت، وكثير الحاشية والرجالات. وارتحلوا من تلمسان يغذون السير، وبلغ السلطان خبر فصولهم من تلمسان فبرز للقائهم من تونس في عساكره حتى انتهى إلى رغيس بين بونة وقسنطينة.
ولما أطلت عساكر زناتة والعرب اختل مصاف السلطان، وانهزمت المجنّبات وثبت
في القلب وصدق العزيمة واللقاء، فاختل مصافهم وانهزموا في شعبان سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة وامتلأت أيدي العساكر من أسلابهم من نساء زناتة، ومن عليهن السلطان وأطلقهن. ورجع أبو ضربة وموسى بن علي الكردي في فلهم إلى تلمسان، وعاد السلطان إلى حضرته لأيام من هزيمتهم. ولقيه الخبر في طريقه باجتماع العرب وابن أبي عمران بنواحي القيروان، فتخطى الحضرة إليهم ولقيهم بالشقّة، وأوقع بهم ورجع إلى تونس في شوّال من سنة أربع وعشرين . فاتبعه حمزة ومن معه إلى تونس عندما افترقت العساكر، ومعه إبراهيم بن الشهيد من البيت الحفصي.
وسبق إليهم بخبرهم عامر بن بوعلي بن كثير وسحيم بن.. فخرج للقائهم من يومه
في خص من الجنود بعد أن بعث عن عساكر باجة، وقائدها عبد الله العاقل مولاه فصحبه العرب بنواحي شادلة فقاتلوه صدرها، وحمي الوطيس، ووصل عبد الله العاقل والناس متواقفون، واشتدت الحرب. ثم كانت الهزيمة على العرب، واستبيحت حرماتهم وافترقت جموعهم، ورجع السلطان إلى البلد واستقر بالحضرة والله تعالى أعلم.

الخبر عن إجلاب حمزة بإبراهيم بن الشهيد وتغلبه علي الحضرة:

لما انهزم أبو ضربة بن اللحياني وحمزة بن عمر وعساكر بني عبد الواد لحق أبو ضربة بتلمسان فهلك بها، ولقي حمزة بعده من الحروب مع السلطان ما لقي، ويئس الكعوب من غلابه وتذامر والفتنته والأجلاب عليه، فوفد حمزة بن عمر على أبي تاشفين صريخاً، ومعه طالب بن مهلهل، قرنه في قومه، ومحمد بن مسكين شيخ بني حكيم من أولاد القوس وكلهم من سليم ومعهم الحاجب ابن القالون، فاستحثوا عساكره لصريخهم فكتب لهم السلطان كتيبة عقد عليها لموسى بن علي الكردي وأعاده معهم. ونصب لهم لملك تونس من أعياص أبي حفص إبراهيم بن الشهيد منهم، وأبوه الشهيد هو أبو بكر بن أبي الخطّاب عبد الرحمن الذي نصّب للأمر عند مهلك السلطان أبي عصيدة، وقتله السلطان أبو البقاء خالد كما ذكرناه. وكان إبراهيم هذا قد لحق بالعرب ونصبوه للأمر، وأجلبوا به على تونس إثر واقعة رغيس. وبرزت إليهم العساكر فانهزموا كما ذكرناه، ولحق بتلمسان، وجاء هذا الوفد على أثره فنصبه السلطان أبو تاشفين لهم، واستعمل

على حجابته محمد بن يحيى بن القالون. وبعث معهم العساكر لنظر موسى بن ير الكردي، وزحفوا إلى أفريقية. وخرج السلطان أبو بكر من تونس لمدافعتهم في ذي القعدة من سنة أربع وعشرين وسبعمائة، وانتهى إلى قسنطينة وعاجلوه قبل استكمال التعبية فنزلوا بساحتها. وأقام موسى بن عليّ على منازلتها بعساكر بني عبد الواد. وتقدم إبراهيم ابن الشهيد وحمزة بن عمر إلى تونس

فدخلها في رجب سنة خمس وعشرين وسبعمائة واستمكن منها، وعقد على باجة لمحمد بن داود من مشيخة الموحدين. وثار عليه بعض ليالي رمضان بعض بطانة السلطان كانوا بالبلد في غيابات الاختفاء، وكان منهم يوسف بن عامر بن عثمان، وهو ابن أخي عبد الحق بن عثمان من أعياص بني مرين، وفيهم القائد بلاط من وجوه الترك المرتزقة بالحضرة، وابن جسار نقيب الشرفاء فاعتدوا واجتمعوا من جوف الليل، وهتفوا بدعوة السلطان. وطافوا بالقصبة فامتنعت عليهم فعمدوا إلى دار كشلي من الترك المرتزقة، وكان بطانة لابن القالون فقاتلوها وامتنعت عليهم. ثم أعجلهم الصباح عن مرامهم وتتبعوا بالقتل، وفرغ من شأنهم وكان موسى بن علي ومن معه من العساكر لما تخلفوا عن ابن الشهيد لحصار قسنطينة أقام عليها أياماً. ثم أقلع عنها لخمس عشرة ليلة من منازلته، ورجع إلى صاحبه بتلمسان. وخرج السلطان من قسنطينة، فاستكمل الحشد والتعبية، ونهض إلى تونس فأجفل منها ابن الشهيد وابن القالون، ودخلها السلطان في شوال سنة خمس وعشرين وسبعمائة واستولى على دار ملكه، وأقام بها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن حصار بجاية وبناء تيمرزدكت وانهزام عساكر السلطان عنها:

كان أبو تاشفين منذ خلا له الجو، وتمكن في الأمر منه القدم يلح على بجاية بترديد البعوث ومطاولة الحصار، والسلطان أبو بكر يدفع لحمايتها من رجالات دولته وعظماء وزرائه الأول فالأّول من أهل الكفاية

والاضطلاع بما يدفع إليه من ذلك. وسرب إليهم المدد من الأموال والأسلحة والجنود وتعهد إليهم بالصبر والثبات في المواطن ونظره من وراء ذلك. وكان أبو تاشفين كلما أحس من السلطان أبي بكر بنهوض إلى المدافعة عنها، أو عزم على غزو كتائبه المجمّرة عليها رماه بشاغل يوهن عن عزمه ويمسك عنان بطشه. وكانت فتنة حمزة بن عمر من أدهى الشواغل في ذلك بما

كان يجبب العرب عن الطاعة، ويجمع الأحزاب للأجلاب على الحضرة، وينصّب الأعياص يطمعهم فيما ليس لهم من نيل الخلافة. وكان ذلك ديدناً متصلاً أزمان تلك المدة.

ولما سرح أبو تاشفين العساكر سنة خمس وعشرين وسبعمائة مع إبراهيم ابن الشهيد، وحمزة بن عمر وأوليائهم من أهل أفريقية، وعقد عليها لموسى بن علي من رجالاته، فنازل قسنطينة ثم أقلع عنها وعاود حصارها سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. وشن الغارة في نواحيها، واكتسح الأموال ورجع إلى وادي بجاية فاختط مدينة بثيكلات على مرحلة منها، وعلى قارعة الطريق الشارع من الغرب إلى الشرق، وبما كانت بجاية زائغة عنه إلى البحر، فاختطوا تلك المدينة وشيدوها وجمعوا الأيدي عليها، وقسموها مسافات على جيوشهم، فاستتمت لأربعين يوماً وسموها تيمرزدكت باسم حصنهم الأقدم بالجبل قبالة وجدة، حيث امتنع يغمراسن

على السعيد ونازله وهلك عليه كما ذكرناه في أخباره. وشحنوا هذه المدينة بالأقوات والمدد، وعمروها بالمقاتلة من الرجل والفرسان والقبائل، وأخذت بمخنق البلد.

وقلق السلطان بمكانها فأوعز إلى قواد عساكره وأصحاب عمالاته من مواليه وصنائعه أن ينفروا بعساكرهم إلى صاحب الثغر محمد بن سيد الناس، ويزحفوا معه إلى هذا البلد المخروب، ويستميتوا دون تخريبه فنهض ظافر الكبير من قسنطينة، وعبد الله العاقل من هوارة، وظافر السنان من بونة: وتوافوا ببجاية سنة سبع وعشرين وسبعمائة. وبلغ موسى بن علي خبرهم فاستنفر من وراءه من عساكر بني عبد الواد. وخرجت العساكر جميعاً من بجاية تحت لواء ابن سيد الناس. وزحف إلى العدو بمخيمهم من تيكلات فكانت الدبرة عليه وعلى أصحابه، فقتل ظافر الكبير ورجع ففهم إلى بجاية. وداخلت ابن سيد الناس فيهم الظنة بما كان يداخل موسى بن علي ابن زبون كل واحد منهما لصاحبه على سلطانه، فمنعهم من دخول البلد ليلتئذ وأسحروا قافلين إلى أعمالهم، وعقد السلطان على قسنطينة لأبي القاسم بن عبد العزيز أياماً. ثم استقدمه إلى الحضرة ليستعين به محمد بن عبد العزيز المزوار في خطة حجابته بما كان غفلاً من الأدوات التي نحتاج إليها الحجابة. وعقد على حجابة إبنه الأمير أبي عبد الله بقسنطينة لمولاه ظافر السنان إلى أن كان من تحويل بنائه ما نذكره.

الخبر عن مهلك الحاجب المزوار وولاية ابن سيد الناس مكانه ومقتل ابن القالون:

هذا الرجل محمد بن القالون المعروف بالمزوار، لا أدري من أوليته أكثر من أنه كردي من الأكراد الذين وفد رؤساؤهم على ملوك المغرب، أيام أجلاهم الططرعن أوطانهم بشهرزور عند تغلبهم على بغداد سنة ست وخمسين وستمائة: فمنهم من أقام بتونس ومنهم من تقدم إلى المغرب، فنزلوا على المرتضى بمراكش فأحسن جوارهم. وصار قوم منهم إلى بني مرين وآخرون إلى بني عبد الواد حسبما نذكر في أخبارهم.

ومن المقيمين بالحضرة كان سلف ابن عبد العزيز هذا إلى أن نشأ هو في دولة

الأمير أبي زكريا الأوسط صاحب الثغور الغربية، وتحت كنف من اصطناعه. واختلط بأبنائه وقدم في جملة إبنه السلطان أبي بكر إلى تونس مقدماً في بطانته ورئيساً على الحاشية المسمين بالدخلة، وكان يعرف لذلك بالمزوار. وكان شهماً وقوراً متديناً، وله في الدولة حظ من الظهور، وهو الذي تولى كبر السعاية في الحاجب ابن القالون، حتى ارتاب بمكانه. وفر إلى ابن أبي عمران سنة إحدى وعشرين وسبعمائة كما قدمناه. وولاه السلطان الحجابة مكانه فقام بها مستعيناً بالكاتب أي القاسم بن عبد العزيز لخلوه هو من الأدوات. وإنما كان شجاعاً همة.

و لم يزل على ذلك إلى أن هلك في شعبان سنة سبع وعشرين وسبعمائة، وأراد السلطان على الحجابة محمد بن خلدون جدنا الأقرب فأبى، ورغب في الإقالة فأجيب، جنوحاً لما كان بسبيله منذ سنين من الصاغية إلى الدين، والرغبة في السكون، والفرار من الرتب. وأشار على السلطان بصاحب الثغر محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس لتقديمه سلفه مع سلف السلطان، وكثرة تابعه وحاشيته وقوة شكيمته في الاضطلاع بما يدفع إليه. أخبرني بهذا الخبر أبي رحمه الله، وصاحبنا محمد بن منصور بن مزني، قال لي: حضرت لاستدعاء جدكم إلى

معسكر السلطان بباجة يوم مهلك المزوار، وأدخله السلطان إلى رواقه، وغاب ملياً ثم خرج وقد استفاض بين البطانة والحاشية أنه دعي إلى الخطة فاستنكرها. وأقام السلطان يومئذ في خطة الحجابة الكاتب أبا القاسم بن عبد العزيز يقيم الرسم. واستقدم خالصته محمد بن حاجب أبيه أبي الحسين بن سيد الناس، فقدم في محرم فاتح ثمان

وعشرين وسبعمائة، وولاه حجابته فاضطلع لها، وجدد له العقد على بجاية وحجابة إبنه بها، فدفع إليه للنيابة عنه في الحجابة صنيعته محمد بن فرحون، ومعه كاتبه أبو القاسم بن المريد. وجرى الحال على ذلك ببجاية، وعساكر زناتة تجوس خلالها ومعاقلهم تأخذ بمخنقها. وقدم القالون دوين مقدم ابن سيد الناس بشفاعة من نزيله علي بن أحمد سيد الزواودة، وطمع في عوده إلى الخطة.

وكان من خبره أنه لما تخلف عن السلطان بتونس في خدمة ابن أبي عمران رأى ركوب السفين إلى الأندلس، فأعجلهم السلطان عن ذلك، وخرج مع ابن أبي عمران فأجلب معه على الحضرة مراراً، ولحق بتلمسان. ثم جاء مع ابن الشهيد وفعل الأفاعيل، ثم انحل أمر ابن الشهيد، ولحق هو بالزواودة من رياح. ونزل على علي بن أحمد رئيسهم لذلك العهد فأجاره وأنزله بطولقة من بلاد الزاب. وخاطب السلطان في شأنه واقتضى له الأمان حتى أسعف ووفد على الحضرة مع أخيه موسى بن أحمد، وفي نفس القالون طمع في الخطة. وسبقه ابن سيد الناس إلى السلطان فاستقل بها. وجاء القالون من بعد فأوصله السلطان إلى نفسه واعتذر إليه ووعده، وعقد له على قفصة فسار إليها وصحب موالي السلطان من المعلوجي بشير وفارح، وأوعز ابن سيد الناس إلى مشيخة قفصة أن يتقبضوا على حاميته ليتمكن الموالي منه. فلما نزل بساحة البلد دخل كشلي من جند الترك المرتزقة كان في جملته منذ أيام حجابته وكان يستظهر بمكانه. فلما دخل إلى البلد قتل في سككها فكانت لمقتله هيعة تسامع الناس لغطها من خارج البلد. وبرز القالون من فسطاطه وقد جث للرعب فتقدم إليه الموالي الذين جاءوا معه، وتناولوه طعناً بالخناجر إلى أن هلك، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن ولاية الفضل علي بونة:

كان السلطان قد عقد على بونة منذ أول دولته لمولاه مسرور المعلوجي فقام واضطلع

بولايتها، وكان من الغلظة ومراس الحروب بمكان. وكان لذلك غشوماً جباراً. وخرج إلى ولهاصة سنة... فاضطهدهم، وذهبوا إلى مدافعته عن أموالهم فحاربهم. وبلغ خبر مهلكه إلى السلطان فعقد على بونة لإبنه أبي العباس الفضل، وبعثه إليها. وولى على حجابته وقيادة عسكره ظافراً السنان من مواليه المعلوجين فقام بما دفع إليه من ذلك أحسن قيام إلى أن كان من أمرهم ما نذكره.

الخبر عن واقعة الرياس وما كان قبلها من مهلك الأمير أبي فارس أخي السلطان:

كان السلطان أبو بكر لما قدم إلى تونس قدم معه إخوته الثلاثة محمد وعبد العزيز

وعبد الرحمن، وهلك عبد الرحمن منهم، وبقي الآخران، وكانا في ظل ظليل من النعمة، وحط كبير من المساهمة في الجاه. وكان في نفس الأمير أبي فارس تشوق إلى نيل المرتبة وتربص بالدولة. وكان عبد الحق بن

عثمان بن محمد بن عبد الحق من فحول بني مرين وأعياص ملكهم قدم على الحضرة نازعاً إليها من الأندلس، فنزل على ابن عمر ببجاية قبيل مهلكه سنة ثمان عشرة وسبعمائة. ثم لحق بالسلطان فلقاه مبرة ورحباً، ووفر حظه وحط حاشيته من الجرايات والأقطاع. وجعل له أن يستركب ويستلحق، وكان يستظهر به في مواقف حروبه، ويتجمل في المشاهد بمكانه من سريره بما كان سيداً في قومه. وكان قد انعقدت له بيعة على أهل وطنه، وكانت فيه غلظة وأنفة وإباء. وغداً في بعض أيامه على الحاجب ابن سيد الناس فتلقاه الإذن بالغدر فذهب مغاضباً، ومر بدار الأمير أبي فارس فحمله على ذات صدره من الخروج والثورة، وخرجاً من يومهما في ربيع سنة سبع وعشرين وسبعمائة، ومروا ببعض أحياء العرب فاعترضهما أمير الحي فعرض عليهما النزول: فأما عبد الحق فأبى وذهب لوجهه إلى أن لحق بتلمسان، وأما الأمير أبو فارس فأجاب ونزل، وطير بالخبر إلى السلطان

فسرح لوقته محمد بن الحكيم من صنائعه وقواد دولته في طائفة من العسكر والنصارى، وصبحوه في الحي وأحاطوا ببيت نزله فامتنع من الإلقاء باليد، ودافع عن نفسه مستميتاً فقتلوه قعصاً بالرماح، وجاءوا بشلوه إلى الحضرة فدفن بها.

ونزل عبد الحق بن عثمان على أبي تاشفين خير نزل، ورغبه فيما كان بسبيله من

مطالبة الدولة الحفصية وتدويخ ممالكها، ووفد على أثره حمزة بن عمر ورجالات سليم صريخا على عادتهم. فأجاب أبو تاشفين صريخهم ونصب لهم محمد بن أبي عمران وكان من خبره أنه تركه السلطان اللحياني عاملاً على طرابلس. فلما انهزم أبو ضربة وانحل أمره استقدمه العرب وأجلبوا به على الحضرة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة فملكها ستة أشهر. ثم أجفل عنها عند رجوع السلطان إليها، ولحق بطرابلس إلى أن انتقض عليه أهلها سنة أربع وعشرين وسبعمائة، وثاروا به وأخرجوه فلحق بالعرب وأجلبوا به على السلطان مراراً ينهزمون عنه في كلها.

ثم لحق بتلمسان واستقر بها عند أبي تاشفين في خير جواره كرامة وجراية، إلى أن

وصل هذا الوفد إليه سنة تسع وعشرين وسبعمائة، فنصبه للأمر بأفريقية. وأمدهم بالعساكر من زناتة، عقد عليهم ليحيى بن موسى من بطانته وصنائع أبيه. ورجع معهم عبد الحق بن عثمان بمن في جملته من بنيه وعشيرته ومواليه وحاشيته. وكانوا أحلاس حرب وفتيان كريهة، فنهضوا جميعاً إلى تونس فزحف السلطان للقائهم، وتراءى الجمعان بالرياس من نواحي بلاد هوارة سنة تسع وعشرين وسبعمائة فدارت الحرب واختل مصاف السلطان، وفلت جموعه. واحيط به فأفلت بعد عصب الريق، وأصابته في حومة الحرب جراحة وهن لها، وقتل كثير من بطانته وحاشيته، وكان من أشهرهم محمد المديوني. وانتهب المعسكر وتقبض على أحمد وعمر إبني السلطان فاحتملا إلى تلمسان، حتى أطلقهما أبو تاشفين بعد ذلك في مراسلة وقعت بينه وبين السلطان فاتحه فيها أبو تاشفين، وجنح إلى السلم وأطلق الإبنين. ولم يتم شأن الصلح من بعد ذلك. وتقدم ابن

أبي عمران بعد الواقعة إلى تونس فدخلها في صفر سنة ثلاثين وسبعمائة. واستبد عليه يحيى بن موسى قائد بني عبد الواد، وحجب عليه التصرف

في شيء من أمره، ثم عاد يحيى بن موسى إلى سلطانه. ونهض السلطان أبو بكر من قسنطينة إلى تونس بعد أن استكمل الحشد والتعبية، فأجفل ابن أبي عمران عنها، ودخل إليها السلطان في رجب من سنته إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن مراسلة ملك المغرب في الاستجاشة علي بني عبد الواد وما تبع ذلك من المصاهرة:

كان السلطان أبو بكر لما خلمى من واقعة الرياس نجا إلى بونة، وركب منها البحر

إلى بجاية، وقد ضاق ذرعه بإلحاح عبد الواد على ممالكه وتجهيز الكتائب على ثغره وترديد البعوث إلى وطنه، فأعمل نظره في الوفادة على ملك المغرب السلطان أبي سعيد ليذكره ما بين سلفه وسلفهم من السابقة، مع ما لهم عند بني عبد الواد من الأوتار والإحن، ليبعث بذلك دواعيهم على مطالبة بني عبد الواد فيأخذ بحجزتهم عنه. ثم عين للوفادة عليه إبنه الأمير أبا زكريا، وبعث معه أبا محمد عبد الله بن تافراكين من مشيخة الموحدين لساناً لخطابه ونجياً لشوراه. وركب البحر من بجاية فترلوا بمرسى غساسة، واهتز صاحب المغرب لقدومه وأكرم وفادته واستبلغ في القرى والإجارة، وأجاب دعاءهم إلى محاربة عدوهم وعدوه على شريطة اجتماع اليد عليها وموافاة السلطان أبي سعيد والسلطان أبي يحيى بعساكرهما تلمسان لموعد ضربوه لذلك. وكان السلطان أبو سعيد قد بعث سنة إحدى وعشرين وسبعمائة يحيى الرنداجي قائد الأسطول بسبتة إلى مولانا السلطان أبي بكر في الإصهار على إحدى كرائمه، وشغل عن ذلك بما وقع من شأن ابن أبي عمران. فلما وفد عليه ابن السلطان وأولياؤه أعاد الحديث في ذلك، وعين للنيابة عنه في الخطبة من السلطان إبراهيم بن أبي حاتم العزفي، وصرفه مع العدو فوافوا السلطان بتونس آخر سنة ثلاثين وسبعمائة، وقد طرد عدوه وشفى نفسه فجاءوه بامنيته من حركة صاحب المغرب على تلمسان. وخطب منه إبراهيم للأمير أبي الحسن بن السلطان أبي سعيد، فعقد على إبنته فاطمة شقيقة الأمير أبي زكريا السفير إليهم، وزفها إليه في أساطيله سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة. وأنفذ

لزفافها من مشيخة الموحل ين أبو القاسم بن عتو، ومحمد بن سليمان الناسك، وقد مرّ ذكره فترلت على محل وثير من الغبطة والعز وكان الشأن في مهرها وزفافها ومشاهد أعراسها وولائمها وجهازها كله من المفاخر للدولتين، و لم يزل مذكوراً على الأيام.

الخبر عن حركة السلطان إلى المغرب وفرار بني عبد الواد وتخريب تيمرزدكت:

كان مهلك السلطان أبي سعيد على تفيئة ما قدّمناه من الأخبار آخر سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، وولي السلطان أبو الحسن من بعده فبعث إلى ابن تاشفين يخاطبه في الغض عن عنان عيثه في بلاد الموحدين وطغيانه عليها، فلح واستكبر وأساء الردّ، فنهد إليه في سبيل الصريخ لهم سنة إثنتين وثلاثين وسبعمائة وطوى البلاد طيا إلى تلمسان، وأفرجت عساكرهم عن بجاية إلى سلطانهم. وتقدم السلطان عن تلمسان لمشارفة أحوال بجاية

والأخذ بحجرة العدّو المحاصر لها. وبعث عسكراً من قومه مدداً لها، عقد عليهم لمحمد البطوي، وأركبهم أساطيله من سواحل وهران فدخلوها وقوبلوا بما يناسبهم من الكرامة والجراية. واستنهض السلطان أبو الحسن السلطان أبا بكر لحصار تلمسان معه كما كان الشرط بين أبيه وبين إبنه الأمير أبي زكريا، فشرع السلطان في جهاز حركته وإزاحة علله. وأقام السلطان أبو الحسن بتاسالة في انتظاره شهراً حتى انصرم فصل الشتاء.

وبلغه بمعسكره من تاسالة أن أخاه السلطان أبا علي صاحب سجلماسة انتقض وخرج إلى درعة، فقتل عامله بها بعد أنّ كان داخله وعقد له بعد أبيه على المهادنة والتجافي عنه بمكانه من سجلماسة. فلما بلغه هذا الخبر كّر راجعاً إلى المغرب لإصلاح شأنه. وكان السلطان أبو بكر قد خرج من تونس واحتفل في الحشد والتعبية فانتهى إلى بجاية وبعث مقدماته إلى ثغور بني عبد الواد المحيطة ببجاية فهزموا كتائبها. ثم زحف بجملته إلى تيمرزدكت، وفرت عنها الكتائب المجمرة بها فأناخ عليها حتى خربها وانتهب أموالها وأسلحتها. ونسف آثارها وقفل عنها إلى بلد المسيلة أختها في الغي، وموطن أولاد سباع بن يحيى من الزواودة، كانت

مشيختهم سليمان ويحيى إبنا علي بن سباع وعثمان بن سبّاع عمهم وابنه سعيد، قد تمسكوا بطاعة أبي تاشفين وحملوا عليها قومهم، ونهجوا للعساكر السبيل إلى وطىء بلاد الموحدين والعيث فيها ومجاذبة حبلها. وأقطعهم أبو تاشفين بلد المسيلة وجبل متنان ووانوغة وجبل عياض فأصاروها من أعمالها، فلما شرّد السلطان عساكرهم عن بجاية وهدم ثغرهم عليها واسترجع أعمال بجاية إليها سار في جموعه إلى هذا الوطن ليسترجع أعماله ويجدد بها دعوته. وزاد في إغرائه بذلك علي بن أحمد كبير أولاد محمد أقتال أولاد سبّاع هؤلاء ونظرائهم وأهل أوتارهم ودخولهم، فارتحل غازياً إلى المسيلة حتى نزلها، واصطلم نعمها وخرّب أسوارها، وبلغه بمكانه منها شأن عبد الواحد ابن السلطان اللحياني وأجلابه على تونس، وكان من خبره أنه قدم من المشرق بعد مهلك أبيه السلطان أبي يحيى زكريا سنة تسع وعشرين وسبعمائة، فنزل على دباب وبايع له عبد الملك بن مكي رئيس المشيخة بقابس، وتسامع به الناس وأفريقية شاغرة من الحامية والعساكر لنهوضهم مع السلطان، فاغتنم حمزة بن عمر الفرصة، واستقدمه فبايع له ورحل به إلى الحضرة فنزل بساحتها، ودخل عبد الواحد بن اللحياني وحاجبه ابن مكي إلى البلد فأقاموا بها ريثما بلغ الخبر إلى السلطان، فقفل إلى الحضرة وبعث في مقدمته محمد البطوي من بطانته في عسكر اختارهم لذلك، فأجفل ابن اللحياني وجموعه من تونس لخمس عشرة ليلة من نزولهم، ودخل البطوي إليها وجاء السلطان على أثره أيام عيد الفطر سنة إثنتين وثلاثين وسبعمائة.

الخبر عن نكبة الحاجب محمد بن سيد الناس وولاية ابن عبد العزيز وابن الحكيم من بعده:

قد قدمنا أولية هذا الرجل، وأن أباه أبا الحسين كان حاجباً للأمير أبي زكريا ببجاية. ولما هلك سنة تسعين وستمائة خلف إبنه محمداً هذا في كفالة السلطان ومرعى

نعمته، فاشتمل قصرهم عليه وأواه إلى حجره وأرضعه مع الكثير من بنيه، ونشأ في

كنفه. وكان الحجاب للدولة من بعد أبيه مثل ابن أبي حيّ والرخامي صنائع لأبيه فكانوا يعرفون حقه ويؤثرونه في التجلّة على أنفسهم. ولم يدرك في سنّ الرجولة والسعي في المجد إلا أيام ابن غمر آخرهم، فكان له منه مكان. حتى إذا ارتحل السلطان أبو يحيى إلى قسنطينة لطلب تونس، وجهز له ابن غمر الآلات
والعساكر، وأقام له الحجاب والوزراء والقواد كان فيمن سرح معه محمد بن سيد الناس قائداً على عسكر من عساكره. وكان سفيراً للسلطان فكانت له عنده أثرة واختصاص، وعقد له من بعد مهلك ابن غمر على بجاية لما عزل عنها القالون كما قدّمناه، فاستبد بها على السلطان وحماها دون عساكر زناتة، ودفع في صدورهم عنها وكان له في ذلك كلّه مقامات مذكورة.

وكانت بينه وبين قائد زناتة موسى بن علي مداخلة في زبون كل واحد منهما بمكان صاحبه على سلطانه وفطن لأمرهما. فأما أبو تاشفين فنكب موسى بن علي كما نذكره في أخباره، وأما السلطان أبو بكر فأغفى لإبن سيّد الناس عنها. ثم استدعاه وقلّده حجابته سنة سبع وعشرين وسبعمائة كما قدّمناه، واستخلف على مكانه ببجاية محمد بن فرحون وأحمد بن المزيد للقيام بما كان يتولاه من مدافعة العدو وكفالة الأمير أبي زكريا ابن السلطان. وقدم هو على السلطان وأسكنه بقصور ملكه، وفوّض إليه أمور سلطانه تفويض الاستقلال فجرى في طلق الاستبداد عليه وأرخى له السلطان حبل الإمهال، واعتد عليه فلتات الدالة مع ما كانت الظنون ترجم فيه بالمداهنة في شأن العدو والزبون على مولاه باستغلاظهم. وأمهله السلطان لمكانه من حماية الثغر ببجاية والاستقلال به دونه، حتى إذا تجلت غيابتهم وأطل أبو الحسن عليهم من مرقبه، ونهض السلطان أبو بكر إلى بجاية وخرب تيمرزدكت، فأغراه البطانة حينئذ بالحاجب محمد بن سيد الناس.

وتنبه له السلطان فأحفظه له استبداده، وتقبض عليه مرجعه من هذه الحركة في ربيع سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واعتقله. ثم امتحنه بأنواع العذاب لاستخراج المال معه فلم ينبس بقطرة، فما زال يستغيث ويتوسّل بسوابقه من الرضاع والمربى، وسوابق أبيه عند سلفه حتى لذعه العذاب فأفحش ونال من السلطان وأقذع، فقتل

شدخاً بالعصي، وجرّشلوه فأحرق خارج الحضرة وعفا رسمه كأن لم يكن، وإلى الله عاقبة الأمور.

ولما تقبّض السلطان على ابن سيّد الناس ومحا أثر استبداده قلد حجابته الكاتب أبا القاسم بن عبد العزيز، وقد كان قدم من الحمة عند مبايعة ابن مكي لعبد الواحد بن اللحياني فلحق بالسلطان في طريقه إلى تيمرزدكت فلم يزل معه إلى أن دخل حضرته، وتقبض على ابن سيد الناس فولاّه الحجابة وكان مضغفاً لا يقوم بالحرب، فعقد السلطان على الحرب والتدبير لضيعته وكبير بطانته يومئذ محمد بن الحكيم وفوض له فيما وراء الحضرة، وهو محمد بن علي محمد بن حمزة بن إبراهيم أحمد اللخمي، ونسبه في بني العزفي الرؤساء بسبتة. وجده أحمد هو أبو العباس المذكور بالعلم والدين والد أبي القاسم المستقل برياسة سبتة بعد الموحدين، وكان من خبر أوليته فيما حدثني به محمد بن يحيى بن أبي طالب العزفي آخر رؤساء العزفيين بسبتة والمنقضي أمرهم بها بانقضاء رياسته. وحدثني بها أيضا حسين ابن عمه عبد الرحمن بن أبي طالب، وحدّثني بها أيضاً الثقة عن

إبراهيم ابن عمهما أبي حاتم قالوا جميعاً: إن أبا القاسم العزفي كان له أخ يسمى إبراهيم، وكان مسرفاً على نفسه وأصاب دما في سبتة، وحلف أخوه أبو القاسم ليقتدن منه، ففر ولحق بديار المشرق، هذا آخر خبرهم. وإن محمداً هذا من بنيه.

وبقية الخبر عن أهل هذا البيت من سواهم أن إبراهيم أنجب محمداً وأنجب محمد حمزة، ثم أنجب حمزة علياً فكلف بالقراءة واستظهر علم الطب واسقر في إيالة السلطان أبي زكريا بالثغور الغربية. وأصاب السلطان وجع في بعض أزمانه وأعيى دواؤه فجمع له الأطباء وكان فيهم علي هذا فحدس على المرض وأحسن المداواة، فوقع من السلطان أحسن المواقع واستخلصه لنفسه وخلطه بخاصته وأهل خلوته، وصار له من الدولة مكان لا يجاريه أحد فيه. وكان يدعى في الدولة بالحكيم، وبه عرف إبنه من بعده وأصهر إلى إحدى بيوت قسنطينة فزوجوه وخلط أهله بحرم السلطان، وولد له محمد إبنه بقصره، ورضع مع الأمير أبي بكر إبنه ونشأ في حجر الدولة وكفالتها وعلى أحسن الوجوه من

ترتيبها. ولما بلغ أشده صرف إليه رئيس الدولة يعقوب بن غمر وجه إقباله واختصاصه، فكان له منه مكان أكسبه ترشيحاً للرياسة فيما بعد من بين خواص السلطان وخلصائه.

لما نهض السلطان أبو يحيى إلى أفريقية قلده قيادة بعض العساكر، ثم عقد له بعد مهلك ابن غمر على عمل باجة حين رقى ابن سيد الناس عنها إلى بجاية. وكان عمل باجة من أعظم الولايات في الدولة فاضطلع به. ثم لما أمر السلطان بطانته في نكبة ابن سيد الناس دفعه لذلك، فولي القبض عليه وكمن له في عصبة من البطانة في بعض الحجر من رياض رأس الطابية. واستدعى ابن سيد الناس إلى السلطان ويمر بمكانهم، فلما انتهى إليهم توثبوا به وشدوه كتافاً وتلوه إلى محبسه بالبرج المعد لثقاف مثله بالقصبة. وتولى ابن الحكيم من امتحانه وعذابه ما ذكرناه إلى أن هلك، وعقد له السلطان مكانه على الحرب والتدبير من خططه، وفوض إليه فيما وراء الحضرة كما قلناه. وجعل تنفيذ الأموال والكتاب على الأوامر لابن عبد العزيز، فكان عدله في حمل الدولة، إلا أن ابن الحكيم كان أشفّ فيه لما كان إليه من التدبير في الحرب والرياسة على الكتابة، لرياسة السيف على القلم فاضطلع برياسته وأحسن الغناء والولاية، إلى أن كان من خبره ما نذكر.

الخبر عن فتح فقصة وولاية الأمير أبي العباس عليها:

كان أهل الجريد منذ تقلّص عنهم ظل الدولة عند إنقسام الملك بين الثغور الغربية والحضرة وما إليها، وصار أمرهم إلى الشورى بين المشيخة إلا في الأحايين يؤملون الاستبداد كما كانوا عليه من قبل الموحدين، فقد جاء عبد المؤمن إلى أفريقية وبنو الرند على قفصة وقسنطينة، وابن واطاس على توزر وابن مطروح على طرابلس فأملوا مثلها، وشغل مولانا السلطان أبا بكر عنهم بعد استقلاله بالأمر وانفراده بالدعوة الحفصية شأن الفتنة مع آل يغمراسن بن زيان وأجلاب عساكرهم مع حمزة

ابن عمر على أوطانه. حتى إذا أخذ السلطان أبو الحسن بحجرتهم وأطل عليهم من مراقبه فعادوا إلى أوكارهم بعد أن أسفوا، وتنفس مخنق الثغور الغربية من حصارهم، وزال عن كاهل الدولة إصر معاناتهم. وسكن

اضطراب الخوارج على الدولة وخفتت أصوات المرجفين في ممالكها، وصرف السلطان نظره في أعطاف ملكه ومحو الشقاق من سائر أعماله، وسمت همّته في تدويخ القاصية من بلاد الجريد واستنقاذ أهلها من أيدي الذئاب الغاوية والكلاب العادية زعماء أمصارها وأعراب فلاتها، فنهض إلى قفصة سنة خمس وثلاثين وسبعمائة. وقد كان استبد بشوراها يحيى بن محمد بن علي بن عبد الجليل بن العابد الشريدي من بيوتاتها، فنازلها أياماً والعساكر تلجّ عليها بأنواع القتال، ونصب عليها المجانيق فامتنعوا. ثم جمع الأيدي حتى قطع نخيلهم وإقلاع شجرائهم فنادوا بالأمان فأمنهم. وخرج إليه ابن عبد الجليل في ربيع الاخر من سنته فأشخصه إلى الحضرة وأنزله بها ورجالات من قومه بني العابد. وفر

سائرهم إلى قابس فنزل في جوار ابن مكي ودخل أهل البلد في حكمه، وتفيأوا بعد أن كانوا ضاحين من الملك كله فأحسن التجاوز عنهم، وبط المعدلة فيهم. وأحسن أمل ذوي الحاجات منهم بالإسهام والإقطاع وتجديد ما بأيديهم من المكتوبات السلطانية. ثم آثرهم بسكنى بلده المخصوص بعدئذ بعهده الأمير أبي العباس، وأنزله بين ظهرانيهم وأوصاه بهم، وعقد له على قسطيلية وما إليها. وجعل معه على حجابته أبا القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين، وقفل إلى حضرته فدخلها في رمضان من سنته والله أعلم.

الخبر عن ولاية الأمير أبي فارس بن عزوز وأبي البقاء خالد علي سوسة

ثم إضافة المهدية إليها:

لما نكب السلطان حاجبه ابن سيد الناس، وولى محمد بن فرحون على حجابة

إبنه الأمير أبي زكريا، وقارن ذلك ما نزل بيغمراسن من عدوّهم وتفرغ السلطان

للنظر في ملكه وتمهيد أحواله، وأن يرسي قواعد أعماله بنجباء أبنائه: فعقد على سوسة والبلاد الساحلية لولديه الأميرين عزوز وخالد شريكين في الأمر، وأنزلهما بسوسة، وأنزل معهما محمد بن طاهر من صنائع الدولة ومن بيوت أهل الأندلس القادمين في الجالية، ورياسة سلفهم بمرسية معروفة في أخبار الطوائف. وكان أخوه أبو القاسم صاحب الأشغال بالحضرة فأقاما كذلك. ثم هلك محمد بن طاهر فاستقدم السلطان محمد بن فرحون من بجاية ثقة باستبداد ابنه، وأن يولّي من شاء على حجابته. وأنزل ابن فرحون مع هذين الأميرين لصغرهما سنة خمس وثلاثين وسبعمائة. ثم استدعاه الأمير أبو زكريا فرجع إليه وأقام هذان الأميران بسوسة، حتى إذا نكب السلطان قائده محمد بن الحكيم واستنزل قريبه محمد بن الركراك من المهدية كان إنزاله بها ابن الحكيم لما افتتحها من يد المتغلب عليها من أهل رجيس، ويعرف بابن عبد الغفّار واتخذها حسناً لنفسه، وأنزل بها قريبه هذا وأشحنها بالعدد والأقوات فلم يغن عنه. ولما هلك استنزل ابن الركراك وبعث السلطان عليهما إبنه الأمير أبا البقاء، وأفرد الأمير أبا فارس بولاية سوسة فأقاما كذلك إلى أن كان من خبر مهلكهما ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وفاة الأمير أبي عبد الله صاحب قسنطينة من الأبناء وولاية بنيه من بعده:

كان الأمير أبو عبد الله مخصوصاً من أبيه من بين ولده بالأثرة والعناية قد صرف إليه إقباله وألقى عليه محبته لما كان يتوسم في شواهده من الترشيح، وما تحلّى به من خلال الملك. وكان الناس يعرفون له حق ذلك. وذلك أن ابن عمر كان مستبداً بالثغور الغربية بجاية وقسنطينة ومدافعاً عنها العدو من زناتة المطالبين لها. فلما هلك ابن عمر سمه تسع عشرة وسبعمائة كما قدمناه صرف السلطان نظره إلى ثغوره، فعقد

على بجاية لإبنه الأمير أبى زكريا، وعقد على حجابته لابن القالون وسرّحه معه لمدافعة العدؤ، وعقد على قسنطينة لابنه الأمير أبي عبد الله ومعه أحمد بن ياسين. وخرجوا جميعاً من تونس سنه عشرين وسبعمائة ونزل كل بعمله. وقدم ظافر الكبير من الغرب فولاّه السلطان حجابة إبنه بقسنطينة وأنزله بها إلى أن هلك سنة سبع وعشرين وسبعمائة على تيمرزدكت كما ذكرناه، فجا بحجابته من تونس أبو القاسم بن عبد العزيز الكاتب فأقام أربعين يوماً.

ثم رجع إلى الحضرة وأضاف السلطان حجابة قسنطينة لابن سيد الناس حجابة بجاية، وبعث إليها نائباً عنه مولاه هلالاً النازع إليه عن موسى بن علي قائد بى عبد الواد، فقام بحضرة الأمير أبي عبد الله إلى أن كانت نكبة ابن سيد الناس عندما بلع الأمير أبو عبد الله أشده وجرى في طلق استبداده ففوّض له في عمله السلطان وأطلق ص عنانه، وكان يؤامره في شأنه ويناجيه في خلوته. وأنزل معه بقسنطينة مولاه نبيلاً من المعلوجين يقيم له رسم الحجابة. ثم استدعى ظافر السنان من تونس سنة أربع وثلاثين وسبعمائة لقيادة الأعنة والحرب، فقدم لذلك وأقام سنة ونصفها. ثم رجع وقام نبيل بحجابته كما كان. ودفع ليعيش بن... من صنائع الدولة لقيادة العساكر وحماية الأوطان، فقاسمه لذلك مراسم الخدمة ورتب الدولة. واستمرت حال الأمير أبي عبدالله على ذلك، والأيام تزيد ظهوراً ومساعيه الملوكية تكسبه جلالاً وترشيحاً إلى أن اغتبط دون غايته، وإعتاقه الأجل عن مداه فهلك رضوان الله عليه آخر سبع وثلاثين وسبعمائة، وقام بأمره من بعده كبير بنيه الأمير زيد عبد الرحمن، فعقد له السلطان أبو بكر على عمل أبيه لنظر نبيل مولاهم لمكان صغره، واستمرّت حالهم على ذلك إلى آخر الدولة، وكان من أمرهم ما نذكره بعد، والله تعالى أعلم.

الخبر عن شأن العرب ومهلك حمزة ثم أجلاب بنيه علي الحضرة وانهزامهم ومقتل معز وز بن همر وما قارن ذلك من الأحد اث:

لما ملك السلطان أبو الحسن تلمسان وأعمالها وقطع دابر آل زيّان، واجتثّ أصلهم

وجمع كملة زناتة على طاعته، واستتبعهم عصبابة تحت لوائه. ودانت القبائل بالانقياد له وتخبت القلوب لرعبه، ووفد عليه حمزة بن عمر يرغبه في ممالك أفريقية، ويستحثّه لها ديدنه مع أبي تاشفين من قبله فكف بالباس من غلوائه، وزجره عن خلافه على السلطان وشقاقه. ونهج له بالشفاعة سبيلاً إلى معاودة طاعته والعمل بمرضاته، فرجع حمزة إلى السلطان عائذاً بحلمه متوسلاً بشفاعة صاحبه راغباً بإذعانه، وقطع مواد الخلاف من العرب باستقامته فتلقّاه السلطان بالقبول واسعاف الرغبة والجزاء على المناصحة والمخالصة. و لم

يزل حمزة بن عمر من لدن رضى مولانا السلطان عنه وإقباله عليه صحيح الطاعة خالص الطوية منادياً بمظاهرة محمد بن الحكيم قائد حربه، وشياب دولته على تدويخ أفريقية وتمهيد أعمالها وحسم أدواء الفساد منها.

وأخذ الصدقات من جميع ظواعن البدو الناجعة في أقطارها، وجميع الطوائف المتعاصين بالثغور على إلقاء اليد للطاعة والكفّ عن أموال الجباية فكانت لهذا القائد آثار في ذلك مهّدت من الدولة وأرغمت أنوف المتعاطين للاستبداد في القاصية، حتى استقام الأمر وانمحى أثر الشقاق فاستولى على المهدية سنة تسع وثلاثين وسبعمائة وغلب عليها ابن عبد الغفار المنتزي بها من أهل رجيس واستولى على تبسة وتقبض على صاحبها محمد بن عبدون من مشيختها، وأودعه سجن المهدية إلى أن أطلق

بعد نكبته، ونازل توزر من بعد ذلك حتى استقام ابن يملول على طاعته المضعفة. واسترهن ولده، ونازل بسكرة غير مرّة يدافعه يوسف بن منصور بن مزني بذمّة عليه يدعيها من السلطان أبي بكر وسلفه. ويعطيه الجباية عن يد مع ما كان له من الاعتلاق بخدمة السلطان أبي الحسن فيتجافى عنه ابن الحكيم لذلك بعد استيفاء مغارمه.

وزحف إلى بلاد ريغة فافتتح قاعدتها تقرت، واستولى على أموالها وذخيرتها، وسار

إلى جبل أوراس فافتتح الكثير من معاقله. وعصفت ريح الدولة بأهل الخلاف من كل جانب وجاست عساكر السلطان خلال كل أرض. وفي أثناء ذلك هلك حمزة بن عمر سنة إثنتين وأربعين وسبعمائة على يد أبي عون علي بن كبير أحد بطون بني كعب بطعنة طعنه بها غيلة فأشواه وقام بأمره من بعده بنوه، وكبيرهم يومئذ عمر، وداخلتهم الظنة ان قتله بإملاء الدولة فاعصوصبوا وتآمروا واستجاشوا بأقتالهم أولاد مهلهل فجيّشوا معهم وزحف إليهم ابن الحكيم في عساكر السلطان من زناتة والجند ففلوه واستلحموا كثيراً من وجوههم. ورجع إلى الحفرة فتحصن بها واتبعوه فنزلوا بساحتها سنة ثلاثين وسبعمائة وقاتلوا العساكر سبع ليال.

ثم اختلفوا ونزع طالب بن مهلهل في قومه إلى طاعة السلطان فأجفلوا، وخرج السلطان على تفيئة ذلك في جمادى من سنته في عساكره وأحزابه من العرب وهوارة فأوقع بهم برقادة من ضواحي القيروان. ورجع إلى حضرته آخر رمضان من سنته. وذهبوا مفلولين إلى القفر ومروا في طريقهم بالأمير أبي العباس بقفصة فرغبوه في الخلاف على أبيه، وأن يجلبوا به على الحضرة فأملى لهم في ذلك حتى ظفر بمعز بن مطاعن وزير حمزة وكان رأس النفاق والغواية فتقبض عليه وقتله، وبعث برأسه إلى الحضرة فنصب بها. ووقع ذلك من مولانا السلطان أحسن المواقع. ثم وفد بعدها على الحضرة فبايع له بالعهد في آخر سنته في محفل أشهده الملأ من الخاصة والكافة بإيوان ملكه. وكان يوماً مشهوداً قرىء فيه سجل العهد على الكافة، وانفضوا منه داعين للسلطان. وراجع بنو حمزة الطاعة من بعدها واستقاموا عليها إلى أن كان من أمرهم ما نذكرهإن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك الحاجب ابن عبد العزيز وولاية أبي محمد بن تافراكين من بعده

وما كان علي تفيئة ذلك من نكبة ابن الحكيم:

هذا الرجل اسمه أحمد بن إسمعيل بن عبد العزيز الغساني وكنيته أبو القاسم، وأصل سلفه من الأندلس انتقلوا إلى مراكش واستخدموا بها للموحدين، واستقر أبوه إسمعيل بتونس. ونشا أبو القاسم بها واستكتبه الحاجب ابن الدباغ ولما دخل السلطان أبو البقاء خالد إلى تونس، ونكب ابن الدباغ لجأ ابن عبد العزيز إلى الحاجب ابن غمر، وخرج معه من تونس إلى قسنطينة واستقر ظافر الكبير هنالك فاستخدمه إلى أن غرب إلى الأندلس كما قدمناه. ثم استعمله ابن غمر على الأشغال بقسنطينة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة فقام بها وتعلق بخدمة القالون بعد استبداد ابن غمر ببجاية. فلما وصل السلطان أبو بكر إلى تونس سنة ثمان عشرة وسبعمائة استقدمه القالون واستعمله على أشغال تونس. ثم كانت سعايته في القالون مع المزوار بن عبد العزيز إلى أن فر القالون سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وولي الحجابة المزوار بن عبد العزيز، وكان أبو القاسم بن عبد العزيز هذا رديفه لضعف أدواته.

ولما هلك ابن عبد العزيز المزوار بقي أبو القاسم بن عبد العزيز يقيم الرسم إلى أن قدم ابن سيد الناس من بجاية، وتقلّد الحجابة كما قدمناه فغصّ بمكان ابن عبد العزيز هذا وأشخصه عن الحضرة وولاّه أعمال الحامة. ثم استقدم منها عندما ظهر عبد الواحد بن اللحياني بجهات قابس فلحق بالسلطان في حركته إلى تيمرزدكت، وأقام في جملة السلطان إلى أن نكب ابن سيد الناس، وولي الحجابة بالحضرة كما ذكرنا ذلك كله من قبل، إلى أن هلك فاتح سنة أربع وأربعين وسبعمائة فعقد السلطان على حجابته لشيخ الموحدين أبي محمد عبد الله بن تافراكين.

وكان بنو تافراكين هؤلاء من بيوت الموحدين في تينملل ومن آيت الخمسين. وولي عبد المؤمن كبيرهم عمر بن تافراكين على فاس أول ما ملكها الموحدون سنة أربعين وخمسائة إلى أن فتحوا مراكش، فكان عبد المؤمن يستخلفه عليها أيام مغيبه على الإمارة والصلاة. ولما ثار بمراكش عبد العزيز وعيسى ابنا أومغار أخي الإمام المهدي سنة إحدى وخمسين كان أول ثورتهم أن اعترضوا عمر بن تافراكين عند ندائه للصلاة فقتلوه، وفضحهم الصبح واستلحمهم العامّة، ثم كان إبنه عبد الله بن عمر من بعده من رجالات الموحدين ومشيختهم. ولما عقد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على قرطبة لأخيه السيد أبي إسحق أنزل معه عبد الله بن عمر بن تافراكين للمشورة مع جماعة من الموحدين كان منهم يوسف بن وانودين، وكان عبد الله المقدم فيهم. وجاء إبنه عمر من بعده متقبلاً مذهبه مرموقاً تجلته. ولما ولي السيد أبو سعيد بن عمر بن عبد المؤمن على أفريقية ولاّه قابس وأعمالها إلى أن استنزله عنها يحيى بن غانية سنة إثنتين وتسعين وخمسمائة.

ثم كان منهم بعد ذلك عظماء في الدولة وكبراء من المشيخة آخرهم عبد العزيز بن تافراكين، خالف الموحدين بمراكش لما نقضوا بيعة المأمون فاغتالوه في طريقه إلى المسجد عند الأذان بالصبح، بما كان محافظاً على شهود الجماعات. ورعاه له المأمون في أخيه عبد الحق وبنيه أحمد ومحمد وعمر، فلما استلحم الموحّدون وعمهم الجزع ارتحل عبد الحق مورياً بالحج، ونزل على السلطان المستنصر فأنزله بمكانه من الحضرة وسرحه بعض

الأحايين إلى الحافة لحسم الداء فيها. وقد كان توقّع الخلاف من مشيختها فحسن غناؤه فيها وقتل أهل الخلاف وحسم العلل. وولاّه السلطان أبو إسحق على بجاية بعد مقتل محمد بن أبي هلال فاضطلع بها. ولما ولي الدعي ابن أبي عمارة سرحه في

عسكر من الموحدين لقهر العرب وكفّ عدوانهم فأثخن فيهم ما شاء. ولم يزله معروفاً بالرياسة مرموقاً بالتجلة إلى أن هلك. وكان بنو أخيه عبد العزيز وهم: أحمد ومحمد وعمر جاءوا على أثره من المغرب فنزلوا بالحضرة خير منزل، وغذوا بلبان النعمة والجاه فيها. وكان أحمد كبيرهم. وولاّه السلطان أبو حفص على قفصة ثم على المهديّة ثم استعفى من الولاية فعوفي.

وكان السلطان أبو عصيدة يستخلفه على الحضرة إذا خرج منها على ما كان لأوّله،

إلى أن هلك لأول المائة الثامنة سنة ثلاث. ونشأ ابناه أبو محمد عبد الله وأبو العبّاس

أحمد في حجر الدولة وجو عنايتها. وأصهر عبد الله منهما إلى أبي يعقوب بن يزدوتن شيخ الدولة في إبنته فعقد له عليها. وأصهر من بعده أخوه أحمد إلى أبي محمد بن يغمور في إبنته فعقد له أيضاً عليها. واستخلص أبو ضربة اللحياني كبيرهما أبا محمد عبد الله وآثره بصحابته فلم يزل معه إلى أن كانت الوقيعة عليه بمصوح، وتقبض على كثير من الموحدين فكان في جملتهم. ومن عليه السلطان أبو بكر ورقّاه في رتب عنايته إلى أن ولأه الوزارة بعد الشيخ أبي محمد بن القاسم. ثم قدمه شيخاً على الموحدين بعد مهلك شيخهم أبي عمر بن عثمان سنة إثنتين وأربعين وأربعمائة وبعثه إلى ملك المغرب مع إبنه الأمير أبي زكريا صاحب بجاية صريخاً على بني عبد الواد فجلى في خدمة ابن السلطان وعرض سفارته. وتوخه لإيثار بعدها إليه، واختص بالسفارة إلى ملك المغرب سائر أيامه. وغصّ الحاجب ابن سيد الناس بمكانه وهم بمكروهه فكبح السلطان عنانه عنه، ويقال أنه أفضى إليه بذات صدره من نكبته. ولما انقسمت خطط الدولة من الحرب والتدبير، ومخالصة السلطان وتنفيذ أوامره بين ابن عبد العزيز الحاجب وابن الحكيم القائد، كان له هو القدح المعلى في المشورة والتدبير، وكانوا يرجعون إليه ويعّولون على رأيه، وكان ثالث أثافيهم ومصقلة آرائهم.

ولما هلك الحاجب ابن عبد العزيز، وكان السلطان قد أضمر نكبة ابن الحكيم،

لما كان يتعاطاه من الاستبداد ويحتجنه من أموال السلطان، وأسر الحاجب ابن عبد العزيز إلى السلطان زعموا بين يدي مهلكه بالتحذير من ابن الحكيم وسوء دخلته، وأنه فاوضه أيام نزول العرب عليه بساح تونس سنة إثنتين وأربعين كما قدّمناه في الإدالة من السلطان ببعض الأعياص من بني أبي دبوس، كانوا معتقلين بالحضرة، ألقاها الغدر

على لسانه ضجراً من قعود السلطان عن الخروج بنفسه إلى العرب وسأمه مما هو فيه من الحصار فاعتدها عليه ابن عبد العزيز حتى ألقاها إلى السلطان عند موته، وبرىء منها إليه فأودعها اذناً واعية وكان حتف ابن الحكيم فيها. فلما هلك وولي شيخ الموحدين أبو محمد بن تافراكين فاوضه في نكبة ابن الحكيم، وكان بتربص به لما كان بينهما من المنافسة.

وكان ابن الحكيم غائباً عن الحضرة في تدويخ القاصية، وقد نزل جبل أوراس واقتضى مغارمه وتوغل في أرض الزاب واستوفى جبايته من عامله يوسف بن منصور، وتقدم إلى ريغ ونازل تغرت وافتتحها، وامتلأت أيدي عساكرهم من

مكاسبهم وحليهم. واتصل به خبر مهلك ابن عبد العزيز وولاية أبي محمد بن تافراكين الحجابة فنكر ذلك لما كان يظنّ أنّ السلطان لا يعدل بها عنه. وكان يرشح لها كاتبه أبا القاسم بن واران، ويرى أنّ ابن عبد العزيز قبله لم يتميز بها إيثاراً عليه، فبدا له ما لم يحتسبه فظن الظنون ونعر ثم أصحب، وأغذّ السير إلى الحضرة وقد واكب السلطان أبا محمد بن تافراكين في نكبته وأعد البطانة للقبض عليه وقدم على الحضرة منتصف ربيع من سنة أربع وأربعين وجلس له السلطان جلوساً فخماً فعرض عليه هديته من المقربات والرقيق والأنعام، حتى إذا انفض المجلس وشيع السلطان وزراءه وانتهى إلى بابه أشار إلى البطانة فأحدقوا به ونلوه إلى محبسه. وبسط عليه العذاب لاستخراج الأموال فأخرجها من مكامن احتجانها، وحصل منها في مودع السلطان أربعمائة ألف من الذهب العين، ومثلها أو ما يقاربها من الجوهر والعقار إلى أن استصفى. ولما أمتك عظمه ونفد ماله خنق بمحبسه في رجب من سنته وذهب مثلاً في الأيام. وغرب ولده مع أمّه إلى المشرق، وطوح بهم الاغتراب إلى أن هلك منهم من هلك، وراجع الحضرة علي وعبيد منهم لي آخرين من أصاغرهم بعد أيام وأحوال والله يحكم لا معقب لحكمه لحكمه.

الخبر عن شأن الجريد واستكمال فتحه وولاية ابنه أبي العباس عليه وولاية صاحب قابس أحمد بن مكي علي جزيرة جربة:

كان أمر الجريد قد صار إلى الشورى مند شغلت الدولة بمطالبة زناتة بني عبد الواد
وما نالها لذلك من الاضطراب، واستبد مشيخة كل بلد بأمره ثم انفرد واحد منهم
بالرياسة، وكان محمد بن يملول من مشيخة توزر هو القائم فيها والمستبد بأمرها كما سنذكره. ولما فرغت الدولة إلى الاستبداد وأرهف السلطان حده للثوار وعفا على آثار المشيخة بقفصة، وعقد لإبنه الأمير أبي العبّاس على بلاد قسطيلية. ونزل بقفصة فأقام بها

ممهداً لأمارته مردداً بعوثه إلى البلاد اختباراً لما يظهرون من طاعته. وزحف حاجبه أبو القاسم بن عتّو بالعساكر إلى نفطة ابتلاء لطاعة رؤسائها بني مدافع المعروفين ببني الخلف، وكانوا إخوة أربعة استبدوا في رياستها في شغل الدولة عنهم فسامهم سوء العذاب، ولاذوا بجدران الحصون التي ظنوا أنها مانعتهم وتبرأت منهم الرعايا فأدركهم الدهش، وسألوا التزول على حكم السلطان فجنبوا إلى مصارعهم وصلبوا على جذوعهم آية للمعتبرين، وأفلت السيف علياًّ صغيرهم لتروعه إلى العسكر قبل الحادثة، فكانت له ذمّة واقية من الهلكة. وانتظم الأمير أبو العباس بلد نفطة في ملكته وجدد له العقد عليه أبوه. وتملّك الكثير من نفزاوة. ولما استبيحت نفطة ونفراوة سمت همته إلى ملك توزر جرثومة الشقاق وعش الخلاف والنفاق، وخشي مقدّمها محمد بن يملول مغبة حاله وذهب إلى مصانعة قائد الدولة محمد بن الحكيم بذات صدره فتجافى عنه،

إلى أن كان مهلكها في سنة واحدة واضطرب أمر توزر وتواثب بنوه وإخوته وقتل بعضهم بعضاً. وكان أخوه أبو بكر معتقلاً بالحضرة فأطلقه السلطان من محبسه بعد أن أخذ عليه المواثيق بالطاعة والجباية، ومضى إلى توزر فملكها وطالبه الأمير أبو العباس صاحب قفصة وبلاد قسطيلية بالانقياد الذي عاهد عليه فنازعه ما كان في نفسه من الاستبداد. وصارت توزر لذلك شجاً معترضاً في صدر أمارته فخاطب أباء السلطان أبا بكر.

وأغراه به فنهض إليه سنة خمس وأربعين، وانتهى إلى قفصة، وطار الخبر إلى أبي بكر بن يملول رئيسها يومئذ فأدركه الدهش وانفضّ من حوله الأولياء، وجاهر بطاعة السلطان ولقائه ففرّ عنه كاتبه وكاتب أبيه المستولي على أمره علي بن محمد التمودي المعروف الشهرة، ولحق ببسكرة في جوار يوسف بن مزني، وأغذ السلطان السير إلى توزر فخرج إليه أبو بكر بن بهلول وألقى إليه بيده وخلط نفسه بجملته.

ثم ندم على ما فرّط من أمره وأحس بالنكراء من الدولة، ونذر بالمهلكة فلحق بالزاب ونزل على يوسف بن منصور ببسكرة فتلقاه من الترحيب والقرى بما يحدث به الناس. ولما استولى السلطان على توزر وانتظمها في أعماله عقد عليها لإبنه الأمير أبي العبّاس وأنزله بها وامكنه من رمتها ورجع السلطان إلى الحضرة ظاهرأ عزيزاً واتصلت

أيام ملكه إلى أن هلك على فراشه كما نذكر. واتصلت ممالك الأمير أبي العبّاس في بلاد الجريد وشاور أبو بكر بن يملول توزر مراراً يفلت في كلها من المهلكة إلى أن مات ببسكرة سنة سبع وأربعين قبيل مهلك الناس كما نذكر. وأقام الأمير أبو العباس بمحل إمارته، و لم يزل يمهّد الأحوال ويستنزل الثوّار. وكان ابن مكي قد امتنع عليه بقابس، وكان من خبره أنه لما رجع عبد الملك من تونس مع عبد الواحد بن اللحياني الذي كان حاجبا له ذهب ابن اللحياني إلى المغرب، وأقام هو بقابس. ثم استراب بمثال أمره مع السلطان حين ذهب ملك آل زيان، وأوفد أخاه أحمد بن مكي على السلطان أبي الحسن متنصّلاً من ذنوبه متذمّماً بشفاعة منه إلى السلطان أبي بكر فشفع له وأعاده السلطان إلى مكان رياته. واستقام هو على الطاعة ونكب عن سنن العصيان والفتنة.

وكان لأحمد بن مكي حظ من الخلال والأدوات، ونفس مشغوفة بالرياسة والسروّ.

وكان يقرض الشعر فيجيد ويرسل فيحسن، وكان خط كتابه أنيقاً ينحو به منحى الخط الشرقيّ شأن أهل الجريد فيمتع ما شاء، فكانت لذلك كله في نفى الأمير أبي العباس صاغية إليه. وكان هو مسترياً بالمخالطة لما شاء من إثارة السالفة. و لم يزل الأمير أبو العباس يفتل له في الذروة والغارب إلى أن جمعها مجلس السيدة أمة الواحدة اخت مولانا السلطان قافلة من حجها فمسح ما كان في صدره، وأحكم له عقد مخالصته واصطنعه لنفسه فحل من إمارته بمكان غبطة واعتزاز. وعقد له السلطان على جزيرة جربة، واستضافها إلى عمله، وأنزل عنها مخلوف بن الكماد من صنائعه كان افتتحها سنة ثمان وثمانين، وعقد له السلطان عليها ونزلها أحمد بن مكي. واستقل أخوه عبد الملك برياسة قابس وأقاما على ذلك، وجرّدا عزائمهما في ولاية أبي العباس صاحب أعمال الجريد فلم يزالوا كذلك إلى أن كان من أمر الجمع ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك الوزير أبي العباس بن تافراكين:

كان السلطان أبو بكر عند نكبه القائد ابن الحكيم استعمل على حجابته شيخ الموحدين أبا محمد بن تافراكين كما ذكرناه، وفوضّ إليه فيما وراء بابه، وعقد على

الوزارة لأخيه أبي العباس أحمد. وكان أبو محمد جلس بالباب لمكان الحجابة فدفع إلى الحرب وقود العساكر وإمارة الضاحية أخاه أبا العباس فقام بما دفع إليه من ذلك. وكان بنو سليم بعد مهلك حمزة بن عمر نقموا ما كان عليه من الإذعان، وسموا إلى الخلاف والعناد فكان من أبناء حمزة في ذلك من الأجلاب على الحضرة ما ذكرناه. وكان سحيم ابن... من أولاد القوس بن حكيم بهمة غوار ومارد خلاف وعناد وكان السلطان قد ولّى على حجابة إبنه الأمير أبي العباس في أعمال الجريد أبا القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين، وكان يناهض بني تافراكين بزعمه في الشرف، وينفس عليهم ما أتاهم الله من الرتبة والحظ، فلمّا ولي أبو محمد الحجابة مليء منه حسداً وحفيظة، وداخل فيما زعموا سحيماً هذا الغوي في النيل من أبي العباس بن تافراكين صاحب العساكر وشارطه على ذلك بما أدّاه إليه وتكاتموا أمرهم. وخرج أبو العباس بن تافراكين فاتح سنة سبع في العساكر لجباية هوارة فوفد عليه سحيم هذا وقومه وضايقوه في الطلب. ثم انتهزوا الفرصة بعض الأيام وأجلبوا عليه، فانفض معسكره وكبابه فرسه فقتل وحمل شلوه إلى الحضرة فدفن بها. وجاهر سحيم بالخلاف وخرج إلى الرمال فلم يزل كذلك إلى حين مهلك السلطان كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك الأمير أبي زكريا صاحب بجاية من الأبناء وما كان بعد ذلك من ثورة أهل بجاية بأخيه الأمير أبي حفص وولاية ابنه الأمير أبي عبد الله:

كان السلطان أبو بكر لما هلك الحاجب ابن غمر عقد على بجاية لإبنه الأمير أبي زكريا كبير ولده، وأنفذه إليها مع حاجبه محمد بن القالون كما ذكرناه وجعل أموره تحت نظره. ثم رجع القالون إلى تونس فأنزل معه ابن سيد الناس كذلك، فلما استبد بحجابة الحضرة جعل على حجابته أبا عبد الله بن فرحون. ثم لما تقبض على ابن سيّد الناس وعلى ابن فرحون وقد استبدّ الأمير أبو زكريا بأمره، وقام على نفسه فوض السلطان إليه الأمر في بجاية وبعث إليه ظافر السنان مولى أبيه الأمير أبي زكريا الأوسط قائداً على عسكره، والكاتب أبا إسحق بن غلان متصرفاً في حجابته فأقام ببابه مدة. ثم صرفهما إلى الحضرة، وقدم لحجابته أبا العباس أحمد بن أبي زكريا الرندي، كان أبوه من أهل العلم وكان ينتحل مذهب الصوفية الغلاة، ويطالع كتب عبد الحق بن سبعين. ونشأ أحمد هذا ببجاية واتصل بخدمة السلطان، وترقى في الرتب إلى أن استعمله الأمير أبو

زكريا كما قلناه. ثم هلك وقد أنف السلطان أبو بكر من انتزاء هؤلاء السوقة على حجابة ابنه، فأنفذ لهم حضرته كبير الموحدين يومئذ صاحب السفارة أبا محمد بن تافراكين سني أربعين وسبعمائة فأقام أحوال ملكه، وعظم أبّهة سلطانه، وجهّز العساكر لسفره وأخرجه إلى أعماله فطاف عليها وتفقّدها، وانتهى إلى تخومها من المسيلة ومقرة. و لم يستكمل الحول حتى سخطه مشيخة من أهل بجاية لما نكروا من الابهة والحجاب حتى

استغلظ عليهم باب السلطان، وتولى كبر ذلك القاضي ابن أبي يوسف تعنتاً وملالاً، واستعفى هو من ذلك فاعفي وعاد إلى مكانه بالحضرة.

ثم استقدم الأمير أبو زكريا حاجبه الأوّل لعهد ابن سيّد الناس، وهو أبو عبد الله محمد بن فرحون، وقد كان السلطان بعثه في غرض الرسالة إلى ملك المغرب في الأسطول الذي بعثه مدداً للمسلمين عند إجازة السلطان أبي الحسن إلى طريف. وكان أخوه زيد بن فرحون قائد ذلك الأسطول بما كان قائد البحر ببجاية، فلما رجع ابن عبد الله بن فرحون من سفارته تلك أذن له في المقام عند الأمير أبي زكريا واستعمله على حجابته إلى أن هلك فولى من بعده في تلك الخطة ابن القشاش من صنائع دولته. ثم عزله وولى عليها أبا القاسم بن علناس من طبقة الكتاب، اتصل بدار هذا الأمير وترقى في دبرانه إلى أن ولاّه خطة الحجابة. ثم عزله بعلي بن محمد بن المنت الحضرمي، كان أبوه وعمّه قدما مع جالية الأندلس، وكانا ينتحلان القراآت. وأخذ أهل بجاية عن عمه أبي الحسن علي القراآت ، وكان خطيباً للرياسة، واتصل بحظية كانت لمولى أبي زكريا تسمّى امّ الحكم قد غلبت على هواه، فرسخت على ابن المنت هذا خطة الحجابة، واستعمله فيها فقام بها وأصلح معونات السلطان وأحوال مقاماته في سفره وجهّز له العساكر وجال في نواحي أعماله.

وهلك هذا الأمير في إحدى سفراته وهو على حجابته بتاكرارت من أعمال بجاية من مرض كان أزمن به في ربيع الأول سنة سبع وأربعين وسبعمائة، وكان ابنه الأمير أبو عبد الله في حجر مولاه فارح من معلوجي بن سيد الناس. وكانوا اصطنعه فألفاه قابلا للترشيح فأقام مع ابن مولاه ينتظر أمر الخليفة، وبادر حاجبه الأول أبو القاسم بن علناس إلى الحضرة وأنمى الخبر إلى الخليفة فعقد على بجاية لابنه الأمير أبي حفص كان معه الحضرة وهو من أصاغر ولده، وأنفذه إليها مع رجاله وأولي اختصاصه.

وخرج معه أبو القاسم بن علناس فوصل إلى بجاية ودخلها على حين غفلة. وحمله الأوغاد من البطانة على ارهاف الحدّ وإظهار السطو فخشي الناس البوادر وائتمروا. ثم كانت في بعض الأيام هيعة تمالأ فيها الكافة على التوثب بالأمير القادم، فطافوا بالقصبة في سلاحهم ونادوا بإمارة ابن مولاهم. ثم تسوروا جدرانها واقتحموا داره وملكوا عليه أمره وأخرجوه برفته بعد أن انتهبوا جميع موجوده، وتسايلوا إلى دار الأمير أبي عبد الله محمد ابن أميرهم ومولاهم بعد أن كان معتزماً على التقويض عنهم واللحاق بالخليفة جده. وأذن له في ذلك عمه الأمير القادم فبايعوه بداره من البلد. ثم نقلوه من الغد إلى قصره بالقصبة، وملّكوه أمرهم. وقام بأمره مولاه فارح ولقبه باسم الحجابة واستمرّ حالهم على ذلك. ولحق الأمير أبو حفص بالحضرة آخر جمادى الأولى من سنته لشهر من يوم ولايته، إلى أن كان من شأنه بعد مهلك مولانا السلطان ما نذكره. وتدارك السلطان أمر بجاية وبعث إليهم أبا عبد الله بن سليمان من كبار الصالحين من مشيخة الموحدين يسكنهم ويؤنسهم وبعث معهم كتاب العقد عليها لحافده الأمير أبي عبد

الله محمد بن الأمير أبا زكريا ذهاباً مع مرضاهم لسكنت نفوسهم وأنسوا بولاية ابن مولاهم، وجرت الأمور إلى مصايرها كما نذكره إن شاء الله تعالى والله ولّي التوفيق.

الخبر عن مهلك مولانا السلطان أبي بكر وولاية إبنه الأمير أبي حفص:

بينما الناس في غفلة من الدهر وظلّ ظليل من العيش وأمن من الخطوب تحت سرادق من العز وذمة واقية من العدل، إذ ريع السرب وتكدّر الشرف وتقلصت ظلال العز والأمن، وتعطّل فناء الملك ونعي السلطان أبو بكر بتونس فجأة من جوف الليل ليلة الأربعاء ثاني رجب سنة سبع وأربعين وسبعمائة، فهبّ الناس من مضاجعهم متسايلين إلى القصر يستمعون نبأ النعي وأطافوا به سائر ليلتهم تراهم سكارى وما هم بسكارى. وبادر الأمير أبو حفص عمر ابن السلطان من داره إلى القصر فملكه وضبط أبوابه واستدعى الحاجب أبا محمد بن تافراكين من داره، ودعوا المشيخة من الموحدين والموالي وطبقات الجند، وأخذ الحاجب عليهم البيعة للأمير أبي حفص. ثم جلس من الغداة جلوساً فخماً على الترتيب المعروف في الدولة أحكمه الحاجب أبو محمد لمعرفته بعوائدها وقوانين ترتيبها، لقنه عن أشياخه أهل الدولة من الموحدين، وغدا عليه الكافة في طبقاتهم فبايعوا له وأعطوه صفقة إيمانهم. وانفض المجلس وقد انعقدت بيعته وأحكمت خلافته.

وكان الأمير خالد ابن مولانا السلطان مقيماً بالحضرة قدمها رائدا منذ أشهر وأقام

متملياً من الزيارة، فلما سمع النعي فر من ليلته، وتقبض عليه أولاد منديل من الكعوب وردوه إلى الحضرة فاعتقل بها. وقام أبو محمد بن تافراكين بخطة الحجابة كما كان وزيادة تفويض واستبداد إلاّ أن بطانة السلطان كانوا يكثرون السعاية فيه ويوغرون صدره عليه بذكر منافسات ومناقشة سابقة بين الحاجب والأمير أيام أبيه، واتصل ذلك منهم غصاً بمكانه، ونذر الحاجب بذلك منهم فأعمل الحيلة في الخلاص من صحابتهم كما نذكر بعد، والله تعالى أعلم.

الخبر عن زحف الأمير أبي العباس ولي العهد من مكان إمارته بالجريد إلى الحضرة وما كان من مقتله ومقتل أخويه الأميرين أبي فارس عزوز وأبي البقاء خالد:

كان السلطان أبو بكر قد عهد إلى إبنه الأمير أبي العبّاس صاحب أعمال الجريد

كما ذكرناه سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، فلما بلغه مهلك أبيه وما كان من بيعة أخيه، نعى على أهل الحضرة ما جاءوا به من نقض عهده. ودعا العرب إلى مظاهرته على أمره فأجابوه ونزعوا جميعاً إلى طاعته عن طاعة أخيه، بما كان مرهفاً لحده في الاستبداد والضرب على أيدي أهل الدولة من العرب وسواهم. وزحف إلى الحضرة ولقيه أخوه أبو فارس صاحب عمل سوسة لقيه بالقيروان فأتاه طاعته وصار في جملته وجمع السلطان أبو حفص عمر جموعه واستركب واستلحق وأزاح العلل، وأخرج غرة شعبان وارتحل عن تونس، وحاجبه أبو محمد بن تافراكين قد نذر منه بالهلكة، واعتمل في أسباب النجاة، حتى إذا تراءى الجمعان رجع الحاجب إلى تونس في بعض الشغل وركب الليل ناجياً من المغرب. وبلغ خبر مفره إلى السلطان فأجفل واختل

مصافه، وتحيّز إلى باجة فتلوم بها وتخفف عنه أهل المعكسر فلحقوا بالأمير أبي العباس، وملك الحضرة ثامن رمضان ونزل برياض رأس الطابية، وأطلق أخاه أبا البقاء من معتقله.

ثم دخل إلى قصره سبع ليال من ملكه وصبحه الأمير أبو حفص ثامنها فاقتحم

عليه البلد لصاغية كانت له في قلوب الغوغاء من غشيانه أسمارهم، وطروقه منازلهم أيام جنون شبابه وقضاء لذاته في مرباه. وفتك بأخيه الأمير أبي العباس. ولسرعان ما نصب رأسه على القناة، وداست شلوه سنابك العسكر، وأصبح آية للمعتبرين. وثارت العامة بمن كانت بالبلد من وجوه العرب ورجالاتهم فقتلوا في تلك الهيعة من كتب عليه القتل. وتلّوا كثيراً منهم إلى السلطان فاعتقلهم، وقتل أبا الهول بن حمزة بن عمر من بينهم. وتقبض على إخوته خالد وعزوز، وأمر بقطعهم من خلاف فقطعوا وكان فيه مهلكهم . واستوسق ملكه بالحضرة واستعمل على حجابته أبا العباس أحمد بن علي بن زين من طبقة الكتاب، كان كاتباً للشخشي الحاجب وبعده للقائد ظافر الكبير. واتصل بالسلطان أبي بكر لأول ملكه بالحضرة فأسف علي بن عمر بولاية ابن القالون الحاجب فخاطب السلطان فيه ونكبه. ثم أطلق من محبسه ومضى إلى المغرب، ونزل على السلطان أبي سعيد فأحمد نزله. ثم رجع إلى الحضرة ولم يزل مشرداً أيام السلطان كلها، واستكتب الأمير أبو حفص ولده محمداً وكانت له به وصلة، فلما استوسق له الملك بعد مفر أبي محمد بن تافراكين كما ذكرناه، ولى أباه أبا العباس هذا على حجابته، وعقد على حربه وعساكره لظافر مولى أبيه وجده المعروف بالسنّان، واستخلص لنجواه وسرة مكتبه أبو عبد الله محمد بن الفضل بن نزارّ من طبقة الفقهاء ومن أهل البيوت النابهة بتونس، كان له بها سلف مذكور، واتصل بدار السلطان وارتسم بها مكتباً لولده. وقرأ عليه هذا الأمير أبو حفص فيمن قرأ عليه منهم فكانت له من أجل ذلك خصوصية به ومزيد عناية عنده. ولما استبد بأمره كان هو مستبداً بشوراه، وجرت الحال على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذ كره إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي الحسن علي أفريقية ومهلك الأمير أبي حفص وانتقال الأبناء من بجاية وقسنطينة إلي المغرب وما تخلل ذلك من الأحداث:

كان السلطان أبو الحسن يحدث نفسه منذ ملك تلمسان وقبلها بملك أفريقية، ويتربص بالسلطان أبي بكر، ويسر له حسواً في ارتغاء. فلما لحق به حاجبه أبو محمد بن تافراكين بعد مهلكه رغبه في سلطانها واستحثه للقدوم عليها، وحرك له الحوار فتنبهت لذلك عزائمه. ثم وصل الخبر بمهلك وليّ العهد وأخويه وخبر الواقعة، فأحفظه ذلك بما كان من رضاه بعهده، وخطة الوفاق على ذلك بيده في سجله، وذلك أن حاجب الأمير أبي العبّاس وهو أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين كان سفر عن السلطان لآخر أيامه إلى السلطان أبي الحسن بهدية. وحمل سجل العهد فوقف عليه السلطان أبو الحسن، وسأل منه أمضاه لمولاه وكتاب ذلك بخطه في سجله فخطّه بيمينه وأحكم له عقده. فلما بلغه مهلك ولي العهد تعلل بأن النقض أتى على ما أحكمه فأجمع غزو أفريقية ومن بها فعسكر ظاهر تلمسان، وفرق الاعطيات وأزاح العلل. ثم رحل في صفر من سنة

ثمان رأربعين وسبعمائة يجر الدنيا بما حملت. وأوفد عليه أبناء حمزة بن عمر أمراء البدو بأفريقية، ورجالات الكعوب أخاهم خالداً يستصرخه لثأر أخيه أبي الهول الهالك يوم الواقعة فأجابهم.

ونزع إليهم أيضاً أهل القاصية بأفريقية بطاعتهم فجاءوا في وفد واحد: ابن مكي صاحب قابس وابن يهلول صاحب توزر وابن العابد صاحب قفصة ومولاهم ابن أبي عنان صاحب الحامة وابن الخلف صاحب نفطة، فلقوه بوهران وأتوه بيعتهم رغبة ورهبة، وأدّوا بيعة ابن ثابت صاحب طرابلس، ولم يتخلف عنهم إلا لبعد داره. ثم جاء من بعدهم وعلى أثرهم صاحب الزاب يوسف بن منصور بن مزني، ومعه مشيخة الموحدين الزواودة، وكبيرهم يعقوب بن علي فلقيه بنو حسن من أعمال بجاية

فأوسع الكل حباً وتكرمةً، وأسنى الصلاة والجوائز وعقد لكل منهم على بلده وعمله. وبعث مع أهل الجزائر الولاة للجباية لنظر مسعود بن إبراهيم اليرنياني من طبقة وزرائه، وأغذ السير إلى بجاية، فلما أطلت عساكره عليها توامر أهلها في الامتناع ثم أنابوا وخرج أميرها أبو عبد الله محمد بن الأمير أبي زكريا فأتاه طاعته، وصرفه إلى المغرب مع إخوانه، وأنزله ببلد ندرومة. وأقطع له الكفاف من جبايتها وبعث على بجاية عماله وخلفاءه. وسار إلى قسنطينة فخرج إليه أبناء الأمير أبي عبد الله يقدمهم كبيرهم الأمير أبو زيد فأتوه طاعتهم، وأقبل عليهم وصرفهم إلى المغرب وأنزلهم بوجدة وأقطعهم جبايتها، وأنزل بقسنطينة خلفاءه وعئاله، وأطلق القرابة من مكان اعتقالهم بها وفيهم أبو عبد الله محمد أخو السلطان أبي بكر وبنوه ومحمد ابن الأمير خالد وإخوانه وبنوه، وأصارهم في جملته حتى صرفهم إلى الغرب من الحضرة من بعد ذلك.

ووفد عليه هنالك بنو حمزة بن عمر ومشايخ قومهم الكعوب فأخبروه بإجفال المولى أبي حفص من تونس مع ظواعن أولاد مهلهل، واستحثوه باعتراضهم قبل لحاقهم بالقفر، وسرح معهم العساكر في طلبه لنظر حمو العشري من مواليه، وسرح عسكراً آخراً إلى تونس لنظر يحيى بن سلسمان من بني عسكر، ومعه أبو العباس بن مكي وسارت العساكر لطلب الأمير أبي حفص فأدركوه بأرض الحامة من جهات قابس، وصبحوهم فدافعوا عن أنفسهم بعض الشيء. ثم انفضوا وكبابالأمير أبي حفص جواده في بعفى نافقاء الجرابيع وانجلت الغيابة عنه وعن مولاه ظافرراجلين فتقبض عليهما، وأوثقهما قائد الكتائب في قيده، حتى إذا جنّ الليل وتوقع أن يفلتهما العرب من أساره قبل أن يصل بهما إلى مولاه فذبحهما، وبعث برؤوسهما إلى السلطان أبي الحسن فوصلا إليه بباجة.

وخلص الفل من الواقعة إلى قابس فتقبض عبد الملك بن مكي على رجالات من

أهل الدولة، كان فيهم أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وصخر بن موسى من رجالات سدويكش وغيرهما من أعيان الدولة فبعث بهم ابن مكي إلى السلطان.

فأما ابن عتو وصخر بن موسى وعلي بن منصور فقطّعهم من خلاف، واعتقل الباقين وسيقت العساكر إلى تونس. ثم جاء السلطان على أثرهم ودخل الحضرة في الزي والاحتفال في جمادى الآخرة من سنته، وخفيت الأصوات وسكنت الدهماء وانقبضت أيدي أهل الفساد. وانقرض أمر الموحدين إلا أذيالاً في بونة فإنه عقد

عليها للمولى الفضل ابن مولانا أبي بكر لمكان صهره ووفادته عليه بين يدي مهلك أبيه. ثم ارتحل السلطان إلى القيروان ثم إلى سوسة والمهدية وتطوف على المعالم التي بها، ووقف على آثار ملوك الشيعة وصنهاجة في مصانعها ومبانيها، والتمس البركة في زيارة القبور التي تذكر للصحابة والسلف من التابعين والأولياء وقفل إلى تونس ودخلها آخر شعبان من سنته والله تعالى أعلم.

الخبر عن ولاية الأمير أبي العباس الفضل علي بونة وأوّلية ذلك ومصائره:

كان السلطان أبو الحسن قد أصهر إلى السلطان أبي بكر قبيل مهلكه في إحدى كرائمه، وأوفد عليه في ذلك عريف بن يحيى كبير بني سويد من زغبة وصاحب شوراه وخالصة سره مع وفد من رجالات دولته من طبقات الفقهاء والكتاب والموالي، كان فيهم صاحب الفتيا بمجلسه أبو عبد الله السطي وكاتب دولته أبو الفضل بن عبد الله بن أبي مدين وأمير الحرم عنبر الخصي، فأسعف السلطان وعقد له على حظيته عزونة شقة إبنه الفضل وزفها إليه بين يدي مهلكه مع أخيها الفضل، ومعه أبو محمد عبد الواحد بن أكمازير من مشيخة الموحدين، وأدركهم الخبر بمهلك السلطان في طريقهم. فلما قدموا على السلطان أبي الحسن تقبلهم بقبول حسن ورفع مجلس الفضل، ولما استتب له ملكها أعرض له عن ذلك، إلا أنه رعى له ذمّة الصهر وسابقة الوعد فأقنعه بالعقد على بونة مكان عمله منذ أيام أبيه، وأنزله بها عندما رحل عنها إلى تونس. واضطغن المولى الفضل من ذلك حقداً لما كان يرجوه من تجافيه له عن ملك

آبائه، ولحق وفادته وصهره وأقام بمكان عمله منها يؤّمل الكرة إلى أن كان من أمن ما نذكره والله أعلم.

الخبر عن بيعة العرب لإبن أبي دبوس وواقعتهم مع السلطان أبي الحسن بالقيروان وما قارن ذلك كله من الأحداث:

كان السلطان أبو الحسن لما استوسق له ملك أفريقية أسف العرب بمنعهم من الأمصار التي ملكوها بالإقطاعات والضرب على أيديهم في الأتاوات، فوجموا لذلك واستكانوا لغلبته وتربصوا الدوائر. وربّما كان بعض البادية منهم يشن الغارات في الأطراف فيعتدها السلطان من كبرائهم. وأغاروا بعض

الأيام في ضواحي تونس فاستاقوا الظهر الذي كان للسلطان في مراعيها، وأظلم الجو بينهم وبينه، وخشوا عاديته وتوقعوا بأسه. ووفد عليه أيام الفطر من رجالاتهم خالد بن حمزة وأخوه أحمد من بني كعب وخليفة بن عبد الله بن مسكين وخليفة بن بوزيد من رجالات حكيم. وساءت ظنونهم في السلطان لسوء أفعالهم فداخلوا عبد الواحد بن اللحياني في الخروج على السلطان. وكان من خبر عبد الواحد هذا أنه بعد إجفاله من تونس سنة إثنتين وثلاثين وثلثمائة كما ذكرناه لحق بأبي تاشفين فأقام عنده في مبّرة وتكرمة. ولما أخذ السلطان أبو الحسن بمخنق تلمسان واشتد حصارها سأل عبد الواحد من أبي تاشفين تخليته للخروج فودعه وخرج للسلطان أبي الحسن فنزل عليه. ولم يزل في جملته إلى أن احتل بأفريقية. فلما خشن ما بينه وبين الكعوب والتمسوا الأعياص من بني أبي حفص ينصبونهم للأمر رجوا أن يظفروا من عبد الواحد بالبغية فداخلوه وارتاب

لذلك، وخشي بادرة السلطان فرفع إليه الخبر فتقبّض السلطان عليهم أربعتهم بعد أن أحضرهم معه فأنكروا وبهتوا.

ثم وبخهم واعتقلهم وعسكر بساحة الحضرة لغزوهم، وتلوم لبعث الأعطيات

وإزاحة العلل، وبلغ الخبر إلى أحيائهم فقطع اليأس أسباب رجائهم. وانطلقوا يحزّبون الأحزاب ويلتمسون للملك الأعياص. وكان أولاد مهلهل أقتالهم وعديلة حملهم قد أيأسهم السلطان من القبول والرضى بما بلغوا في نصيحة المولى أبي حفص ومظاهرته فلحقوا بالقفر، ودخلوا الرمال فركب إليهم فتيتة بن حمزة وأمه ومعهما ظواعن أبنائهما متذمّمين لأولاد مهلهل بالعصبيّة والقرابة فأجابوهم واجتمعوا بقسطيلية، وتحاثوا التراب والدماء، وتدامروا بما شملهم من رهب السلطان، وتوقع بأسه. وتفقدوا من أعياص الموحدين من ينصبونه للأمر، وكان بتوزر أحمد بن عثمان بن أبي دبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش وقد ذكرنا خبره وخروجه بجهات طرابلس وأجلابه مع العرب على تونس أيام السلطان أبي عصيدة. ثم انفضوا، وبقي عثمان بجهات قابس وطرابلس إلى أن هلك بجزيرة جربة واستقر بنو إبنه عبد السلام بالحضرة بعد حين فاعتقلوا بها أيام السلطان أبي بكر. ثم غربهم إلى الإسكندرية مع أولاد ابن الحكيم عند نكبته كما ذكرنا ذلك كله فنزلوا بالإسكندرية وأقبلوا على الحرف لمعاشهم. ورجع أحمد هذا من بينهم إلى المغرب واستقر بتوزر واحترف بالخياطة. ولما تفقد العرب الأعياص دلهم على نكرته بعض أهل عرفانه فانطلقوا إليه وجاءوا به وجمعوا له الآلة، ونصبوه للأمر وتبايعوا على الاستماتة. وزحف إليهم السلطان في عساكره من تونس أيام الحج من سنة ثمان، ولقيهم بالثنية دون القيروان فغلبهم وأجفلوا أمامه إلى القيروان. ثم تدامروا ورجعوا مستميتين ثاني محرم سنة تسع فاختلّ مصافه ودخل القيروان، وانتهبوا معسكره بما يشتمل عليه وأخذوا بمخنقه إلى أن اختلفوا وأفرجوا عنه، وخلص إلى تونس كما نذكر، والله تعالى أعلم.

الخبر عن حصار القصبة بتونس ثم الإفراج عن القيروان وعنها وما تخلل ذلك:

كان الشيخ أبو محمد بن تافراكين أيام حجابته للسلطان أبي بكر مستبداً بأمره

مفوضاً

إليه في سائر شؤونه، فلما استوزره السلطان أبو الحسن لم يجره على مألوفه لما كان قائماً على أمره، وليس التفويض للوزراء من شأنه. وكان يظنّ أنّ السلطان أبا الحسن سيكل إليه أمر أفريقية وينصب معه الفضل للملك. وربما زعموا أنه عاهده على ذلك فكان في قلبه من الدولة مرض وكان العرب يفاوضونه بذات صدورهم من الخلاف والإجلاب فلما حصلوا على البغية من الظهور على السلطان أبي الحسن وعساكره وأحاطوا به في القيروان تحيل ابن تافراكين في الخروج عن السلطان لما تبين فيه من النكراء منه ومن قومه. وبعث العرب في لقائه وأن يحملوه حديث فيئهم إلى الطاعة فأذن له وخرج إليهم. وقلّدوه حجابة سلطانهم، ثم سرحوه إلى حصار القصبة. وكان السلطان عند رحيله من تونس خلف بها الكثير من حرمه وأبنائه ووجوه قومه، واستخلف عليها يحيى بن سليمان العسكري من كبار بطانته وأهل مجلسه ووجوه قومه. فلما كانت

واقعة القيروان واتصل الخبر بتونس كانت لبناته هيعة خشي عليها عسكر السلطان على أنفسهم فلجأ من كان معهم بتونس إلى قصبتها، وأحاط بهم الغوغاء فامتنعت عليهم واتخذوا الآلة للحصار، وفرقوا الأموال في الرجال وعظم فيها غناء بشير من المعلوجين الموالي فطار له ذكر. وكان الأمير أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن قد جاء من المغرب فوافاه الخبر دوين القيروان، فانفض معسكره ورجع إلى تونس فكان معهم بالقصبة. ولما خرج ابن تافراكين من هّوة الحصار بالقيروان إليهم طمعوا في الاستيلاء على

قصبة تونس وفض ختامها فدفعوه إلى ذلك. ثم لحق به سلطانهم ابن أبي دبوس وعانى من ذلك ابن تافراكين صعباً لكثرة الرجل الذين كانوا بها، ونصبوا المجانيق عليها فلم يغن شيئاً، وهو أثناء ذلك يحاول النجاة لنفسه لاضطراب الأمور واختلال الرسوم إلى أن بلغه خلوعى السلطان من القيروان إلى سوسة. وكان من خبره أن العرب بعد إيقاعهم بعساكره أحاطوا بالقيروان واشتدوا في حصارها، وداخل السلطان أولاد مهلهل من الكعوب وحكيماً من بني سليم في الإفراج عنه، واشترط لهم على ذلك الأموال واختلف رأي العرب لذلك ودخل عليه فتيتة بن حمزة بمكانه من القيروان زعماً للطاعة فتقبله وأطلق إخوانه خالداً وأحمد، و لم يثق إليهم ثم دخل إليه محمد بن طالب من أولاد مهلهل وخليفة ابن ابي زيد وأبو الهول بن

يعقوب من أولاد القوس وأسرى معهم بعسكره إلى سوسة فصبحها وركب منها في أساطيله إلى تونس وسبق الخبر إلى ابن تافراكين بتونس فتسلل من أصحابه وركب السفين إلى الإسكندرية في ربيع سنة تسع وأربعين وسبعمائة.

وأصبحوا وقد تفقدوه فاضطربوا وأجفلوا عن تونس، وخرج أهل القصبة من أولياء السلطان فملكوها وخربوا منازل الحاشية فيها. ونزل السلطان بها من أسطوله في ربيع الآخر فاستقلت قدمه من العثار، ورجا الكرة لولا ما قطع أسبابها عنه مما كان من انتزاء أبنائه بالمغرب على ما نذكره في أخبارهم. وأجلب العرب وابن أبي دبوس معهم على الحضرة ونازلوا بها السلطان فامتنعت عليهم فرجعوا إلى مهادنته فعقد لهم السلم، ودخل حمزة بن عمر إليه وافداً فحبسه إلى أن تقبض على ابن أبي دبوس وأمكنه منه فلم يزل في محبسه إلى أن رحل إلى المغرب، ولحق هو بالأندلس كما نذكره في أخباره، وأقام السلطان بتونس، ووفد عليه أحمد بن مكي فعقد لعبد الواحد بن اللحياني على الثغور الشرقّية طرابلس وقابس وصفاقس وجربة وسرحه مع ابن مكي فهلك عند وصوله إليها في الطاعون الجارف، وعقد لأبي القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وهو الذي كان قطعه بإغراء أبي محمد بن تافراكين. فلما ظهر خلافه أعاد ابن عتو إلى مكانه وعقد له على بلاد قسطيلية، وسرحه إليها وأقام هو بتونس إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء الأمير الفضل على قسنطينة وبجاية ثم استيلاء أمرائهما بتمهيد الملك عليهما:

كان سنن السلطان أبو الحسن في دولته بالمغرب وفود العمال عليه آخر كل سنة

لإيراد جبايتهم والمحاسبة على أعمالهم، فوفدوا عليه عامهم ذلك من قاصية المغرب، ووافاهم خبر الواقعة بقسنطينة وكان معهم ابن مزني عامل الزاب، وفد أيضاً بجبايته وهديته، وكان معهم أبو عمر تاشفين ابن

السلطان أبي الحسن، كان أسيراً من يوم واقعة طريف. وقعت المهادنة الطاغية وبين أبيه فأطلقه وأوفد معه جمعاً من بطارقته،

وقدموا معه على أبيه ووفد معه أخوه عبد الله من المغرب وكان أيضاً معهم وفد السودان من أهل مالي في غرض السفارة، واجتمعوا كلهم بقسنطينة. فلما اتصل بهم خبر الواقعة على السلطان كثر الاضطراب، وتطلبت السفهاء من الغوغاء إلى ما بأيديهم وخشي الملأ من أهل البلد على أنفسهم فاستدعوا أبا العباس الفضل من عمله ببونة. ولما أطل على القسنطينة ثارت العامة بمن كان هنالك من الوفود والعمال وانتهبوا أموالهم واستلحموا منهم، وخلص أبناء السلطان مع وفود السودان والجلالقة إلى بسكرة مع ابن مزني وفي خفارة يعقوب بن علي أمير الزواودة فأوسعهم ابن مزني قرى وتكرمة إلى أن لحقوا بالسلطان أبي الحسن بتونس في رجب من سنة تسع.

ودخل المولى الفضل إلى قسنطينة وأعاد ما ذهب من سلطان قومه. وشمل الناس

بعدله وإحسانه، وسوّغ الإقطاع والجوائز ورحل إلى بجاية لما أنس من صاغية أهلها إلى الدعوة الحفصيّة. فلما أطل عليها ثأر أهلها بالعمال الذين كان السلطان أنزلهم بها استباحوهم وأفلتوا من أيدي نكبتهم بجريعة الذقن ودخل المولى الفضل إلى بجاية واستولى على كرسي ملكها، ونظمها مع قسنطينة وبونة في ملكه. وأعاد ألقاب الخلافة ورسومها وشياتها كما كانت، واعتزم على الرحيل إلى الحضرة. وبينما هو يحدث نفسه بذلك إذ وصل الخبر بقدوم أمراء بجاية وقسنطينة من المغرب، وكان من خبرهم أن الأمير أبا عنان لما بلغه خبر الواقعة بأبيه وانتزاء منصور ابن أخيه أبي مالك بالبلد الجديد دار ملكهم، وأحس بخلاص أبيه من هوّة الحصار بالقيروان فوثب على الأمر ودعا لنفسه، ورحل إلى المغرب كما نذكره في أخباره. وسرح الأمير أبا عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكريا صاحب بجاية من الأبناء إلى عمله،. وأمده بالأموال وأخذ عليه المواثيق ليكونن له رداء دون أبيه، وليحول بينه وبين الخلوص إليه متى مر به. وانطلق أبو عبد الله إلى بجاية وقد سبقه إليها عمه الفضل، واستولى عليها فنازله بها وطال حصارها، ولحق به بمكانه من منازلتها نبيل المولى من المعلوجي مع أبناء الأمير أبي عبد الله وكافل بنيه من بعده. وتقدم إلى قسنطينة وبها عامل من قبل الفضل فثار به الناس لحينه، ودخل نبيل وملك البلد، وأقام فيها دعوة أبي زيد ابن الأمير أبي عبد الله. وكان الأمير أبو عنان استصحبه وإخوانه إلى المغرب وبعد احتلاله بفاس سرحهم إلى

مكان إمارتهم بقسنطينة بعد أن أخذ عليهم الموثق في شأن أبيه بمثل موثق ابن عمهم فجاءوا على أثر نبيل مولاهم ودخلوا البلد. واحتل أبو زيد منها بمكان إمارته وسلطان قومه كما كان قبل رحلتهم إلى المغرب. ولم يزل الأمير أبو عبد الله ينازل بجاية إلى أن بيتها بعض ليالي رمضان من سنته بمداخلة بعض الأشياع من رجالها ، داخلهم مولاه وكافله فارح في ذلك فسرب فيهم الأموال وواعدوه للبيات، وفتحوا له باب البر من أبوابها فاقتحمها وفجأهم هدير الطبول فهب السلطان من نومه وخرج من قصره فتسنّم الجبل المطل عليها متسرباً في شعابه، إلى أن وضح الصباح وظهر عليه فجيء به إلى ابن أخيه فمن عليه واستبقاه، وأركبه السفين

إلى بلده بونة في شوال من سنة تسع وأربعين وسبعمائة. ووجد بعض الأعياص من قرابته قد ثاروا بها، وهو محمد بن عبد الواحد من ولد أبي بكر ابن الأمير أبي زكريا الأكبر، كان هو وأخوه عمر بالحضرة، وكان لعمر منهما النظر على القرابة. فلما كان هذا الاضطراب لحقوا بالفضل وتركهم ببونة عند سفره إلى بجاية فحدثتهم أنفسهم بالانتزاء

فلم يتم لهم الأمر. وثارت بهم الحاشية والعامة ة فقتلوا لوقتهم ووافى الفضل إلى بونة وقد انجلت غيمتهم ومحيت آثارهم ودخل إلى قصره وألقى عصا تسياره، واستقل الأمير أبو عبدالله ابن الأمير أبي زكريا ببجاية محل أمارة أبيه، والأمير أبو زيد بن الأمير أبي عبد الله بقسنطينة محل أمارة أبيه، والأمير أبو العباس الفضل ببونة محل إمارته منذ عهد الإمرة والسلطان أبو الحسن بتونس إلى أن كان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حركة الفضل إلى تونس بعد رحيل السلطان أبي الحسن إلى المغرب:

كان العرب بعد ما قدمنا من طاعتهم وإسلامهم السلطان ابن أبي دبوس قد انقبضوا

عن السلطان أبي الحسن وأجلبوا عليه ثانية، وتولى كبر ذلك فتيتة بن حمزة، وخالف إلى السلطان أخوه خالد مع أولاد مهلهل وافترق أمرهم. وخرج كبيرهم عمر بن حمزة حاجاً، واستقدم فتيتة وأصحابه الأمير الفضل من مكان أمارته ببونة لطلب حقه، واسترجاع ملك آبائه فأجابهم ووصل إلى أحيائهم آخر سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فنازلوا تونس وأجلبوا عليها. ثم أفرجوا عنها وعاودوا منازلتها أول سنة خمسين وسبعمائة،

وأفرجوا عنها آخر المصيف. واستدعاهم أبو القاسم بن عتو صاحب الجريد من مكان عمله بتوزر فدخل في طاعة الفضل، وحمل أهل الجريد كلهم عليها واتبعه في ذلك بنو مكي وانتقضت أفريقية على السلطان أبي الحسن من أطرافها فركب أساطيله إلى المغرب أيام الفطر من سنة خمسين وسبعمائة. ومضى المولى الفضل إلى تونس وبها أبو الفضل ابن السلطان أبي الحسن، كان أبوه قد عقد له عليها عند رحيله إلى المغرب تفادياً من ثورات الغوغاء ومضرة هيعتهم وأمن عليه بما كان قد عقد له من الصهر مع عمر بن حمزة في ابنته، فلما أطلت رايات المولى الفضل على تونس أيام الحج نبضت عروق التشيع للدعوة الحفصية، وأحاطت الغوغاء بالقصر ورجموه بالحجارة. وأرسل أبو الفضل إلى بني حمزة متذمّماً بصهرهم فدخل عليه أبر الليل وأخرجه ومن معه من قومه إلى الحي. واستركب له من رجالات بني كعب من أبلغه مأمنه وهداه السبيل إلى وطنه، ودخل الفضل إلى الحضرة وقعد بمجلس آبائه من الخلافة، وجدد ما طمسه بنو مرين من معالم الدولة واستمر أمره على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك الفضبل وبيعة أخيه المولي أبي إسحق في كفالة أبي محمد بن تافراكين وتحت استبداده:

لما دخل أبو العباس الفضل إلى الحضرة، واستبد بملكها عقد الى حجابته لأحمد بن محمد بن عتو نائباً عن عمه أبي القاسم ريثما يصل من الجريد، وعقد على جيشه وحربه لمحمد بن الشواش من بطانته. وكان وليه المطارد به أبو الليل فتيتة بن حمزة مستبدأ عليه في سائر أحواله مشتطاً في طلباته. وأنف له بطانته من ذلك فحملوه على التنكر له، وأن يديل منه بولاية خالد أخيه. وبعث عن أبي القاسم بن عتو وقد قلده حجابته وفوض إليه

في أمره، وجعل مقاد الدولة بيده فركب إليه البحر من سوسة، واستأنف له خالد بن حمزة ظهيراً على أخيه بعد أن نبذ إليه عهده، وفاوضهم أبو الليل بن حمزة قبل استحكام أمورهم فغلب على السلطان وحمله على عزله قائده محمد بن الشواش فدفعه إلى بونة على عساكرها. واضطرمت نار الفتنة بين أبي الليل بن حمزة وأخيه خالد، وكاد شملهم أن يتصدع. وبينما هم يحشون نار الحرب ويجمعون الجموع والأحزاب إذ قدم كبيرهم عمر، وأبو محمد عبد الله بن تافراكين من حجهم. وكان ابن تافراكين لّما احتل بالإسكندرية بعث السلطان أبو الحسن فيه إلى أهل المشرق، وخاطب ملوك مصر في التحكيم فيه فأجاره عليه الأمير المستبد على الدولة حينئذ بيقاروس، وخرج من مصر لقضاء فرضه، وخرج عامئذ عمر بن حمزة لقضاء فريضة الحج أيضاً فاجتمعا في مشاهد الحج آخر سنة خمسين وسبعمائة، وتعاقدا على الرجوع إلى أفريقية والتظاهر على أمرهما وقفلا فألقيا خالداً وفتيتة على الصفين، فأشار عمر بن داية فاجتمعا وتواقفا ومسح الاحن من صدورهما، وتواطأوا جميعاً على المكر بالسلطان، وبعث إليه وليه قتيبة بالمراجعة فقبله واتفقوا على أن يقلد حجابته أبا محمد بن تافراكين حاجب أبيه وكبير دولته، ويديل به من ابن عتو فأبى.

ثم أصبحت ونزلت أحياؤهم ظاهر البلد، واستحثوا السلطان للخروج إليهم ليكملواعقد ذلك معه فخرج ووقف بساحة البلد إلى أن أحاطوا به، ثم اقتادوه إلى بيوتهم وأذنوا لابن تافراكين في دخول البلد فدخلها لإحدى عشرة من جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة. وعمد إلى دار المولى أبي إسحق إبراهيم ابن معولانا السلطان أبي بكر فاستخرجه بعد أن بذل لأمه من العهود والمواثيق ما رضيته، وجاء به إلى القصر وأقعده على كرسي الخلافة، وبايع له الناس خاصة وعامّة وهو يومئذ غلام مناهز فانعقدت بيعته. ودخل بنو كعب فأتوه طاعتهم، وسيق إليه أخوه الفضل ليلتئذ فاعتقله، وغط من جوف الليل بمحبسه حتى فاض. ولاذ حاجبه أبو القاسم بن عتو يومئذ بالاختفاء في غيابات البلد وعثر عليه لليال فامتحن وهلك في امتحانه، وخوطب العمال في الجهات بأخذ البيعة على من قبلهم فبعثوا به. واستقام ابن يملول صاحب توزر على الطاعة وبعث بالجباية والهدية واتبعه صاحب نفطة وصاحب قفصة وخالفهم ابن مكي وذهب إلى الأجلاب على ابن تافراكين لما كان قد كفل السلطان وحجره عن التصرف في أمره واستبد عليه إلى أن كان ما نذكر إن شاء الله تعالى، والله تعالى أعلم.

الخبر عن حركة صاحب قسنطينة إلى تونس وما كان من حجابة أبي العباس بن مكيّ وتصاريف ذلك:

لما استولى أبو محمد بن تافراكين على تونس، وبايع للمولى أبي إسحق بالخلافة واستبد عليه نقم عليه الأمراء شأن استبداده وشمر ابن مكيّ للسعي عليه بمنافسة كانت بينهما قديمة من لدن أيام السلطان أبي بكر. واستعان على ذلك بأولاد مهلهل مقاسمي أولاد أبي الليل في رياسة الكعوب ومجاذبيهم حبل الأمارة. فلما رأوا صاغية بن تافراكين إلى أولاد أبي الليل أقتالهم أجمعوا له ولهم، وحالفوا بني حكيم من قبائل علاق، وأجلبوا على الضواحي وشنوا الغارات. ثم وفدوا على الأمير أبي زيد صاحب قسنطينة وأعمالها يستحثوهم للنهوض إلى أفريقية واستخلاص ملك آبائه ممن استبد عليه واحتازه، فسرح معه عسكرين لنظر ميمون ومنصور الجاهل من

مواليه وموالي أبيه وارتحلوا من قسنطينة. وارتحل معهم يعقوب بن علي كبير الزواودة بمن معه من قومه.
وسرح أبو محمد بن تافراكين من الحضرة للقائهم عسكراً مع أبي الليل بن حمزة لنظر مقاتل من موالي السلطان، والتقى الجمعان ببلاد هوارة سنة إثنتين وخمسين وسبعمائة فكانت الدبرة على أولاد أبي الليل.
وقتل يومئذ أبو الليل فتيتة بن حمزة بيد يعقوب بن سحيم من أولاد القوس شيوخ
بني حكيم، ورجع فلهم إلى تونس فامتدت أيدي أولاد مهلهل وعساكر قسنطينة في البلاد وجبوا الأموال من أوطان هوارة، وانتهوا إلى أبه. ثم قفلوا راجعين إلى قسنطينة. وولي على أولاد أبي الليل مكان فتيتة أخوه خالد بن حمزة وقام بأمرهم. وكان أبو العباس بن مكيّ أثناء ذلك يكاتب المولى أبا زيد صاحب قسنطينة من مكان ولايته بقابس، ويعده من نفسه الوفادة والمدد بالمال والأحزاب والقيام باعطيات العرب، حتى إذا انصرم فصل الشتاء وفد عليه مع أولاد مهلهل فلقاه مبرة وتكريماً. وعقد له على حجابته وجمع عساكره وجهز آلته وأزاح علل تابعه، ورحل من قسنطينة سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة من صفر، وجهز أبو محمد بن
تافراكين سلطانه أبا إسحق بما يحتاج إليه من العساكر والالة، وجعل على حربه ابنه أبا عبد الله محمد بن نزار من طبقة الفقهاء ومشيخة الكتاب، كان يعلم أبناء السلطان الكتاب ويقرئهم القرآن كما قدّمناه، وفصل من تونس في التعبية حتى تراءى الجمعان كرّمحمد وتزاحفوا فاختل مصاف السلطان أبي إسحق، وافترقت جموعه وولّوا منهزمين. واتبعهم القوم عشية يومهم، ولحق السلطان بحاجبه جبي محمد بن تافراكين بتونس وجاءوا على أثره فنازلوا تونس أياماً وطالت عليها الحرب. ثم امتنعت عليهم وارتحلوا إلى القيروان، ثم إلى قفصة، وبلغهم أن ملك المغرب الأقصى السلطان أبا عنان بعد استيلائه على المغرب الأوسط زحف إلى التخوم الشرقية وانتهى إلى المرية. وكان صاحب بجاية أبو عبد الله قد خالفهم إلى قسنطينة بمداخلة أبي محمد بن تافراكين واستجاشته. ونازل جهات قسنطينة وانتسف زروعها وشن الغارات في بسائطها فبلغه أنه رجع إلى بجاية منكمشاً من زحف بني مرين، واعتزم الأمير أبو زيد على مبادرة ثغره ودار إمارته قسنطينة. ورغب إليه أبو العباس بن مكيّ من أولاد مهلهل أن يخلف بينهم من إخوانه من يجتمعون إليه ويزاحفون به، فولى عليهم أخاه أبا العباس فبايعوه، وأقام فيهم هو وشقيقه أبو يحيى زكريا إلى أن كان من شأنه ما نذكر،
وانصرف الأمير أبو زيد عند ذلك من قفصه يغذّ السير إلى قسنطينة واحتل بها في جمادى من سنته والله تعالى أعلم.

الخبر عن وفادة صاحب بجاية علي ابي عنان واستيلائه عليه وعلي بلده

ومطالبته قسنطينة:

كان بين الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية وبين الأمير أبي عنّان أيام أمارته بتلمسان، ونزول الأعياص الحفصيّين بندرومة ووجدة أيام أبيه كما ذكرناه اتصال ومخالصة، أحكمها بينهما نسب الشباب والملك وسابقة الصهر: فكان للأمير أبي

عبد الله من أجل ذلك صاغية إلى بني مرين أوجد بها السبيل على ملكه. ولما مر به السلطان أبو الحسن في أسطوله عند ارتحاله من تونس كما قدّمناه أمر أهل سواحله بمنعه الماء والأقوات من سائر جهاتها رعياً للذمة التي اعتقدها مع الأمير أبي عنان في شأنه وجنوحاً إلى تشييد سلطانه. ولما أوقع السلطان أبو عنان ببني عبد الواد سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة واستولى على المغرب الأوسط ونجا فلهم إلى بجاية، أوعز إلى الأمير أبي عبد الله باعتراضهم في جهاته والتقبّض عليهم فأجابه إلى ذلك، وبعث العيون بالمراصد فعثروا في ضواحي بجاية على محمد ابن سلطانهم أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن، وعلى أخيه أبي ثابت الزعيم ابن عبد الرحمن، وعلى وزيرهم يحيى بن داود بن مكن فأوثقوهم اعتقالاً، وبعث بهم إلى السلطان أبي عنان.
ثم جاء على أثرهم فتلقاه بالقبول والتكرمة وأنزله بأحسن نزل. ثم دس إليه من
أغراه بالنزول له عن بجاية رغبه فيما عند السلطان إزاء ذلك من التجلة والإدالة منها بمكناسة المغرب، والراحة من زبون الجند والبطانة، وإخفافا مما سواه إن لم يتعهده فأجاب إليه على اليأس والكره، وشهد مجلس السلطان في بني مرين بالرغبة في ذلك فأسعف وأسنيت جائزته، وأقطعت له مكناسة من أعمال المغرب. ثم انتزعها لأيام قلائل ونقله في جملته إلى المغرب، وبعث الأمير أبو عبد الله مولاه فارحاً المستبد كان عليه ليأتيه بأهله وولده وعقد أبو عنان على بجاية لعمر بن علي ابن الوزير من بني واطاس، وهم ينتسبون بزعمهم إلى علي بن يوسف أمير لمتونة فاختصه أبو عنان بولايتها لمتات هذا النسب الصنهاجي بينه وبين أهل وطنها منهم. وانصرفوا جميعاً من المرية. ولما احتلوا بجاية تآمر أولياء الدعوة الحفصية بها من صنهاجة والموالي وتمشت رجالاتهم في قتل عمر بن علي الوزير وأشياع بني مرين، وتصدى لذلك زعيم صنهاجة منصور بن إبراهيم بن الحاج في رجالات من قومه بإملاء فارح كما زعموا. وغدوا عليه بداره من القصبة، فأكب عليه منصور يناجيه فطعنه وطعن آخر منهم القاضي ابن فركان بما كان شيعة لبني مرين. ثم أجهزوا على عمر بن علي، ومضى القاضي إلى داره فمات. واتصلت الهيعة بفارح فركب إليها وهتف الهاتف بدعوة صاحب قسنطينة
محمد بن أبي زيد، وطيروا إليه بالخبر واستحثوه للقدوم. وأقاموا على ذلك أياماً. ثم تآمر الملأ من أهل بجاية في التمسك بدعوة صاحب المغرب خوفاً من بوادره فثاروا
بفارح وقتلوه أيام التشريق من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، وبعثوا برأسه إلى السلطان بتلمسان. وتولى كبر ذلك هلال صاحبه من موالي ابن سيد الناس ومحمد ابى الحاجب أبي عبد الله بن
سيّد الناس ومشيخة البلد، واستقدموا العامل بتولس من بني مرين وهو لحيى بن عمر بن عد المؤمن من بني ونكاسن فبادر إليهم. وسرح السلطان أبو عنان إليها حاجبه أبا عبد الله محمد بن أبى عمرو في الكتائب فدخلها فاتح سنة أربع وخمسين وسبعمائة. وذهبت صنهاجة في كل وجه فلحق كبراؤهم وذوو الفعلة منهم بثوني، وتقبض على هلال مولى ابن سيد الناس لما داخلته فيه من الظنة، وعلى القاضى محمد بن عمر لما كان شيعة لفارح، وعلى عرفاء الغوغاء من أهل المدينة وأشخصهم معتقلين إلى المغرب. وصوف نظره إلى تمهيد الوطن، واستدعى كراء العرس وأهل النواحي وأعمال بجاية وقسنطينة.

ووفد عليه يوسف بن مزني صاحب الزاب ومشيخة الزواودة فاسترهن أبناءهم على الطاعة، وقفل بهم إلى المغرب. واستعمل أبو عنّان على بجاية موسى بن إبراهيم البرنيانى من طبقة الوزراء وبعثه إليها. ولما وفدوا على السلطان جلس لهم جلوساً فخماً ووصلوا إليه ولقاهم لكرمة ومبرمة، وأوسعهم حباءً وإقطاعاً، وأنفذ لهم الصكوك والسجلات، وأخذ على طاعتهم العهود والمواثيق والرهن وانقلبوا إلى أهلهم. وعقد لحاجه أبي عمرو على بجاية وأعمالها وعلى حرب قسنطينة من ورائها، ورجعه إليها فدخلها في رجب من سنته.

وأوعز السلطان إلى موسى بن إبراهيم بالولاية على سدويكش والنزول ببني ياورار

فى كتيبة جهرها هنالك لمضايقة قسنطينة وجباية وطنها، وكل ذلك لنظر الحاجب ببجاية وكان بقسنطينة أبو عمر تاشفين ابن السلطان أبي الحسن معتقلاً من لدن واقعة بني مرين بها. وكان موسوساً في عقله معروفاً بالجنون عند قومه. وكان الأمراء بقسنطينة قله أسنوا جرايته في اعتاقاله وأوله من المحبرة والحفاوة كفاء نفسه. فلما زحفت كتائب بني مرين إلى بنى ياورار آخر عمر بجاية وأذنوا قسنطينة ومن بها بالحرب والحصار نصب المولى أبو زيد هذا الموسوس أبا عمر ليجأجىء به رجالات بني مرين أهل العسكر ببجاية وبني ياورار وجهز له الآلة وتسامعوا بدلك فترع إليهم الكثير منهم. وخرج نبيل حاجب الأمير أبي زيد إلى أهل صنهاجة من بونة

ومن كان على دعوته من سدويكش والزواودة فجمعهم وزحفوا جميعاً إلى وطن بجايه، واتصل الخبر بالحاجب ببجاية فبعث في الزواودة من

مشاتيهم بالصحراء فأقبلوا إليه حتى نزلوا التلول. ووفد عليه أبو دينار بن علي بن أحمد واستحثه للحركة على قسنطينة فاعترض عساكره وأزاح عللهم، وخرج من بجاية في ربيع من سنة خمسين وسبعمائة فكر أبو عمر ومن معه راجعين إلى قسنطينة. وزحف الحاجب فيمن معه من بني مرين والزواودة وسدويكش، ولقيهم نبيل الحاجب بمن معه فكانت عليه الدبرة واكتسحت أموال بونة، ورجع ابن أبي عمر وعساكره إلى قسنطينة فأناخ عليها سبعاً. ثم ارتحل عنها إلى ميلة وعقد يعقوب بن علي بين الفريقش صلحاً على أن يمكنوه من أبي عمر الموسوس فبعثوا به إلى أخيه السلطان أبي عنان فأنزله ببعض الحجر، ورتب عليه الحرس. وسار الحاجب في نواحي أعماله، وانتهى إلى المسيلة واقتضى مغارمها، ثم انكفأ راجعاً إلى بجاية، وهلك فاتح ست وخمسين وسبعمائة. وعقد السلطان على بجاية وأعمالها بعده لوزيره عبد الله بن علي بن سعيد من بني بابان وسرحه إليها فدخلها، وزحف إلى قسنطينة فحاصرها وامتنعت عليه فرجع إلى بجاية. ثم زحف من العام المقبل سنة سبع وخمسين وسبعمائة كذلك، ونصب عليها المجانيق فامتنعت عليه ورجف في معسكره بموت السلطان فانفضوا وأحرق مجانيقه. ورجع إلى بجاية وجمر الكتائب ببني ياورار لنظر موسى بن إبراهيم اليرنياني عامل سدويكش إلى أن كان من الإيقاع به وبعسكره ما نذكره إن شاء الله تعالى. والله أعلم.

الخبر عن حادثة طرابلس واستيلاء النصارى عليها ثم رجوعها إلي ابن مكي:

كانت طرابلس هذه ثغراً منذ الدول القديمة وكانت لهم عناية بحمايتها لما كان وضعها في البسيط، وكانت ضواحيها قفراً من القبائل فكان النصارى أهل صقلية. كثيراً ما يحدثون أنفسهم بملكها. وكان ميخائيل الأنطاكي صاحب أسطول رجّار قد تملكها

من أيدي بني حزروق من مغراوة آخر دولتهم ودولة صنهاجة كما ذكرنا. ثم رجعها ابن مطروح ودخلت في دعوة الموحدين ومرت عليها الأيام إلى أن استبد بها ابن ثابت ووليها من بعده ابنه في أعوام خمسين وسبعمائة منقطعاً عن الحضرة مقيماً رسم الدعوة. وكان تجار الجنويين يترددون إليها فاطلعوا على عوراتها وائتمروا في غزوها واتعدوا لمرساها فوافوه سنة خمس وخمسين، وانتشروا بالبلد في حاجاتهم. ثم بيتوها ذات ليلة فصعدوا أسوارها وملكوها عليهم. وهتف هاتفهم بالحرب وقد لبسوا السلاح فارتاعوا وهبوا من مضاجعهم. فلما رأوهم بالأسوار لم يكن همهم إلا النجاة بأنفسهم. ونجا ثابت بن عمر

مقدمهم إلى حلة الجواري أعراب وطنها من دباب إحدى بطون بني سليم، فقتل لدم كان أصابه منهم. ولحق إخوته بالإسكندرية، واستباحها النصارى. واحتملوا في سفنهم ما وجدوا بها من الخرثى والمتاع والعقائل والأسرى وأقاموا بها. وداخلهم أبو العباس بن مكي صاحب قابس في فدائها فاشترطوا عليه خمسين ألفاً من الذهب العين فبعث فيها لملك المغرب السلطان أبي عنان يطرفه بمثوبتها. ثم تعجلوا عليه فجمع ما عنده واستوهب ما بقي من أهل قابس والحافة وبلاد الجريد فجمعوها له حسبة ورغبة في الخبر. وأمكنه النصارى من طرابلس فملكها واستولى عليها، وأزال ما دنّسها من وضر الكفر. وبعث السلطان أبو عنان بالمال إليه، وأن يرد على الناس ما أعطوه وينفرد بمثوبتها وذكرها فامتنعوا إلا قليلاً منهم، ووضع المال عند ابن مكي لذلك، ولم يزل ابن مكي أميراً عليها إلى أن هلك كما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن بيعة السلطان أبي العباس أمير المؤمنين ومفتتح أمره السعيدة بقسنطينة:

كان الأمير أبو زيد قد ولي الأمر من بعد أبيه الأمير أبي عبد الله بولاية جدّه الخليفة أبي بكر، وكان إخوته جميعاً في جملته، ومنهم السلطان أبو العباس أمير المؤمنين لهذا

العهد، والمفرد بالدعوة الحفصيّة. وكان الناس من لدن مهلك أبيهم يرون أن الوراثة لهم، وأن الأمر فيهم، حتى لقد يحكى عن شيخ وقته الوليّ أبي هادي المشهور الذكر، وكان من أهل المكاشفة، أنه قال ذات يوم، وقد جاءوا لزيارته بأجمعهم على طريقتهم وسنن أسلافهم في التبرك بالأولياء فدعا لهم الشيخ ما شاء ثم قال: البركة إن شاء الله في هذه العشى، وأشار إلى الإخوة مجتمعين. وكان الحزى والمنجمون أيضا يخبرون بمثلها، ويحومون بظنونهم على أبي العباس من بينهم، لما يتفرّسون فيه من الشواهد والمخايل. فلما كان من منازلة أخيه أبي زيد لتونس سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ما قدمناه، ثم ارتحل عنها إلى قفصة وأراد الرجوع إلى قسنطينة للإرجاف بشأن السلطان أبي عنان وأنه زحف إلى آخر عمله من تخوم بجاية، رغب حينئذ إليه أولاد مهلهل أولياؤه من العرب وشيعته وحاجبه أبو العباس بن مكي صاحب عمل قابس وجربة أن يستعمل عليهم من

إخوته من يقيم معه لمعاودة تونس بالحصار، فسرح أخاه مولانا أبا العباس فتخلّف معهم في ذلك، وفي جملته شقيقه أبو يحيى فأقاما بقابس.

وكان صاحب طرابلس محمد بن ثابت قد بعث أسطوله لحصار جربة فدخل الأمير

أبو العباس بمن معه إلى الجزيرة، وخاضوا إليها البحر فأجفل عسكر ابن ثابت وأفرجوا عن الحصن. ثم رجع السلطان إلى قابس، وزحف العرب أولاد مهلهل معه إلى تونس وحاصروها أياماً فامتنعت عليهم. ورجع إلى أعمال الجريد وأوفد أخاه أبا يحيى زكريا على السلطان صريخاً سنة خمس وخمسين وسبعمائة فلقاه مبّرة ورحباً، وأسنى جائزته وأحسن وعده، وانكفأ راجعاً عنه إلى وطنه. ومر بالحاجب ابن أبي عمرو عند إفراجه عن قسنطينة، ولحق بأخيه بمكانه من قاصية أفريقية واتصلت أيديهما على طلب حقهما. وفي خلال ذلك فسد ما بين أبي محمد بن تافراكين صاحب الأمر بتونس وبين خالد بن حمزة كبير أولاد أبي الليل فعدل عنه إلى أقتاله أولاد مهلهل، واستدعاهم للمظاهرة فأقبلوا عليه. وتحيز خالد إلى السلطان أبي العباس وزحفوا إلى تونس فنازلوها سنة ست وخمسين وسبعمائة، وامتنعت عليهم فأفرجوا عنها، واستقدمه أخوه أبو زيد إثر ذلك لينصره من عساكر بني مرين عندما تكاثفوا عليه، وضاق به الحصار

فأجابه وقدم عليه بخالد وقومه، وخرج الأمير أبو زيد مع خالد إلى منازلة تونس.

واستخلف على قسنطينة أخاه أبا العباس فدخلها ونزل بقصور الملك منها، وأقام

بها مدة وعساكر بني مرين قد ملأت عليه الضاحية فدعاه الأولياء إلى الاستبداد وأنه أبلغ في المدافعة والحماية لما كانوا يتوقعون من زحف العساكر إليهم من بجاية فأجاب وبويع سنة خمس وخمسين، وانعقد أمره. وزحف عبد الله بن علي صاحب بجاية إلى قسنطينة في سنته، وفي سنة سبع بعدها فحاصرها ونصب المجانيق. ثم أجفل آخرالإرجاف كما ذكرناه. وتنفس مخنق الحصار عن قسنطينة، وكان الأمير أبو زيد أخوه لما ذهب مع خالد إلى تونس ونازلها امتنعت عليه، ورجع وقد استبد أخوه بأمر قسنطينة فعدل إلى بونة وراسل أبا محمد بن تافراكين في سكنى الحضرة والنزول لهم عن بونة فأجابه ونزل عنها الأمير أبو زيد لعمه السلطان أبي إسحق، وتحول إلى تونس فأوسعوا له المنازل وأسنوا الجرايات والجوائز، وأقام في كفالة عمه إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن واقعة موسي بن إبراهيم واستيلاء أبي عنان بعدها علي قسنطينة وما تخلل ذلك من الأحداث:

لما استبد السلطان أبو العباس بالأمر وزحفت إليه عساكر بجاية، وبني مرين

فأحسن دفاعها عن بلده. وتبين لأهل الضاحية مخايل الظهور فيه فداخله رجالات من سدويكش من أولاد المهدي بن يوسف في غزو موسى بن إبراهيم وكتائبه المجمرة ببني ياورار، ودعوا إلى ذلك ميمون بن عليّ بن أحمد وكان منحرفاً عن أخيه يعقوب ظهير بني مرين ومناصحهم فأجاب. وسرح السلطان أخاه أبا يحيى زكريا معهم بمن في جملته من العساكر وصبحوهم في غارة شعواء، فلما شارفوهم ركبوا إليهم فتقدموا قليلا

ثم أحجموا واختلّ مصافّهم واحيط بهم، وأثخن ة ائد العساكر موسى بن إبراهيم بالجراحة واستلحم بنوه زيّان وأبو القاسم ومن إليهم، وكانوا اسود هياج وفرسان ملحمة

في آخرين من أمخالهم، وتتبعوا بالقتل والنهب إلى أن استبيحوا ونجا فلهم إلى بجاية ولحقوا بالسلطان أبي عنان. ولما بلغه الخبر قام في ركائبه وقعد، وفتح ديوان العطاء وبعث وزراءه للحشد في الجهات.

واعترض الجنود وأزاح العلل، وشكى له موسى بن إبراهيم بقعود عبد الله بن علي صاحب بجاية عن نصره فسخطه ونكبه وعقد مكانه ليحيى بن ميمون بن مصمود، وتلوم بعده أشهراً في تجهيز العساكر، وبعث السلطان أبو العباس أخاه أبا يحيى إلى تونس صريخاً لعمه السلطان أبي إسحق فأعجله الأمر عن الإياب إليه، وارتحل أبو عنان في عساكره. ثم بعث في مقدمته وزيره فارس بن ميمون بن ودرار، وزحف على أثره في ربيع سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، وأغذ السير إلى قسنطينة وقد نازلها وزيره ابن ودرار قبله. فلما نزل بساحتها، وقد طبق الأرض الفضاء بجيوشه وعساكره وجم أهل البلد، وأدركهم الدهش فانفضوا وتسللوا إليه وتحيز السلطان أبو العباس إلى القصبة فامتنع بها حتى توثق لنفسه بالعهد. ثم نزل إليه فكفاه تكرمة ورحباً وبنى له الفساطيط في جواره. ثم بدا له في أيام قلائل فنقض عهده وأركبه السفن إلى المغرب، وأنزله بسبتة. وربت عليه الحرس، بعث خلال ذلك إلى بونة فدخلت في طاعته، وفر عنها عمال الحضرة. ولما استولى عقد على قسنطينة لمنصور بن خلوف شيخ بني يابان من قبائل بني مرين. ثم بعث رسله إلى أبي محمد بن تافراكين في الأخذ بطاعته والتزولى عن تونس فردهم، وأخرج سلطانه المولى أبا إسحق مع أولاد أبي الليل ومن إليهم من العرب بعد أن جهز له العساكر وما يصلحه من الآلة والجند وأقام هو بتونس وأجمع أبو عنان النهوض إليه، ووفد إليه أولاد مهلهل يستحثونه لذلك فسرح معهم عسكراً في البر لنظر يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي كبير تيربيعين من قبائل. بني مرين وصاحب الشورى في مجلسه، وسرح عسكراً آخرا في أسطول لنظر محمد بن يوسف المعروف بالأبكم من بني الأحمر من الملوك بالأندلس لهذا العهد، فسبق الأسطول وصبحوا تونس وقاتلوها يوماً أو بعض يوم. واتيح لهم الظهور فخرج عنها أبو محمد بن تافراكين، ولحق بالمهدئة، واستولت عساكر بني مرين على تونس في رمضان سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، وحقّ لهم الزهور فخرج عنها أبو محمد بن تافراكين، ولحق يحيى بن رحو بعسكره فدخل البلد، وأمضى فيها أوامر السلطان. ثم دعاه أولاد مهلهل إلى الخروج لمباغتة أولاد أبي الليل وسلطانهم فخرج معهم لذلك، وأقام ابن الأحمر وأهل الأسطول بالبلد. وفي خلال ذلك جاهر يعقوب بن علي بالخلاف لما تبين من نكر السلطان أبي عنان وإرهاف حده للعرب، ومطالبتهم بالرهن، وقبض أيديهم عن الأتاوات ومسح أعطافه بالمدارات فلم يقبلها يعقوب بالرمل، وأتبعه السلطان فأعجزه فعدا على قصوره ومنازله بالتل والصحراء فخربها وانتسفها.

ثم رجع إلى قسنطينة وارتحل منها يريد أفريقية، وقد نهض المولى أبو إسحق

بمن معه من العرب للقائه، وانتهوا إلى فحص سبتة. ثم تمشت رجالات بني مرين وائتمروا في الرجوع عنه حذراً أن يصيبهم بأفريقية ما أصابهم من قبل فانفضوا متسللين إلى المغرب. ولما خف المعسكر من أهله أقصر

عن القدوم على أفريقية فرجع إلى المغرب بمن بقي معه، واتبع العرب آثاره، وبلغ الخبر إلى أبي محمد بن تافراكين بمكان منجاته من المهديّة فصار إلى تونس. ولما أطل عليها ثار أهل البلد بمن كان عندهم من عسكر بني مرين وعاملهم فنجوا إلى الأسطول، ودخل أبو محمد بن تافراكين إلى الحضرة وأعاد ما طمس من الدولة. ولحق به السلطان أبو إسحق بعد أن تقدم الأمير أبو زيد في عسكر الجنود والعرب لاتباع آثار بني مرين ومنازلة قسنطينة فأتبعه إلى تخوم عملهم ورجع أبو زيد إلى قسنطينة وقاتلها أياماً فامتنعت عليه فانكفأ راجعاً إلى الحضرة. ولم يزل مقيماً بها إلى أن هلك عفا الله عنه. وكان أخوه أبو يحيى زكريا قد لحق بتونس من قبل صريخاً كما قلناه، فلما بلغهم أن قسنطينة قد احيط بها تمسكوا به فلحق به الفل من مواليهم وصنائعهم فكانوا معه إلى أن يسر الله أسباب الخير والسعادة للمسلمين، وأعاد السلطان أبا العباس إلى الأمر من بعد مهلك أبي عنان كما نذكر، وما إيالته على الخلق فطلع على الرعايا بالعدل والأمان وشمول العافية والإحسان، وكف أيدي العدوان. ورتع الناس من دولته في ظل ظليل ومرعى جميل كما نذكره بعد إن شاء الله.

الخبر عن انتقاض الأمير أبي يحيي زكريا بالمهدية ودخوله في دعوة أبي عنان ثم نزوله عنها إلى الطاعة وتصاريف ذلك:

كان الحاجب أبو محمد عند رجوعه إلى الحضرة صرف عنايته إلى تحصين المهديّة يعدها للدولة وزراً من حادث ما يتوقعه من المغرب وأهله، فشيّد من أسوارها وشحن بالأقوات والأسلحة مخازنها ومستودعاتها، وعقد عليها للأمير زكريا أخي السلطان أبي إسحق، وكان في كفالته وأنزله بها. وبعث على حجابته أحمد بن خلف من أوليائه وذويه مستبداً عليه فقام على ذلك حولاً أو بعضها. ثم ضجر الأمير أبو يحيى زكريا من الاستبداد عليه، واستنكف من حجره في سلطانه فبيت أحمد بن خلف فقتله، وبعث عن أبي العباس أحمد بن مكي صاحب جربة وقابس ليقيم له رسم الحجابة بما كان مناوئاً لأبي محمد بن تافراكين فوصل إليه، وطيّروا بالخبر إلى السلطان أبي عنان صاحب المغرب وبعثوا إليه ببيعتهم واستحثوه لصريخهم. واضطراب أمرهم وسرح أبو محمد بن تافراكين إليها العسكر فأجفلوا أمامه، ولحق المولى أبو يحيى زكريا بقابس، واستولى عليها العسكر واستعمل عليها أبو محمد بن تافراكين محمد بن الجكجاك من ترابة ابن ثابت اصطنعه عندما وقعت الحادثة على طرابلس، ولحق به فاستعمله على المهدية. ولما وصل الخبر إلى أبي عنان بشأن المهدية جهز إليها الأسطول وشحنه بالمقاتلة والرجل وعين الوالي والخاصة فألفوها قد رجعت إلى إيالة الحضرة، ووصل إليها ابن الجكجاك وقام بها وحسن غناؤه فيها إلى أن كان من أمره ما نذكر.

وأقام الأمير زكريا بقابس، وأجلب به أبو العباس بن مكي على تونس. ثم بعثوه بالزواودة ونزل على يعقوب بن علي وأصهر إليه في إبنة أخيه سعيد، فعقد له عليها. ولما استولى أخوه أبو إسحق على بجاية استعمله على سدويكش بعض الأعوام، ولم يزل بين الزواودة إلى أن هلك سنة ست وسبعين وسبعمائة كما نذكره بعد والله تعالى

أعلم.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي إسحق علي بجاية وإعادة الدعوة الحفصية إليها:

لى لما رجع السلطان أبو عنّان من قسنطينة إلى المغرب أراح بسبتة، وسرح عساكره من العام المقبل إلى أفريقية لنظر وزيره سليمان بن داود فسار في نواحي قسنطينة ومعه ميمون بن علي بن أحمد أديل به من يعقوب على قومه من الزواودة، وعثمان بن يوسف بن سليمان شيخ أولاد سبّاع منهم. وحضر معه يوسف بن مزني عامل الزاب، أوعز إليه السلطان بذلك فدوخ الجهات وانتهى إلى آخر وطن بونة، واقتضى المغارم. ثم انكفأ راجعًا إلى المغرب. وهلك السلطان أبو عنّان إثر قفوله سنة تسع وخمسين وسبعمائة، واضطرب أمر المغرب. ثم استقام على طاعة أخيه السلطان أبي سالم كما نذكره، وكان أهل بجاية قد نقموا على عاملهم يحيى بن ميمون من بطانة السلطان أبي عنّان سوء ملكته وشدة سطوته وعسفه فداخلوا أبا محمد بن تافراكين على البعد في التوثب به، فجهز إليهم السلطان أبا إسحق بما يحتاج إليه من العساكر والآلة، ونهض من تونس ومعه إبنه أبو عبد الله على العساكر. وتلقاهم يعقوب بن علي وظاهرهم على أمرهم، وسار أخوه أبو دينار في جملتهم. ولما أطلوا على بجاية ثارت الغوغاء بيحيى بن ميمون العامل، كان عليهم منذ عهد السلطان أبي عنان فألقى بيده وتقبض عليه وعلى من كان من قومه، وأركبوا السفين إلى الحضرة، وأودعهم أبو محمد بن تافراكين سجونه تحت كرامة وجراية، إلى أن من عليهم من بعد ذلك وأطلقهم إلى المغرب. ودخل السلطان أبو إسحق إلى بجاية سنة إحدى وستين وسبعمائة، واستبد بها بعض الاستبداد وحاجبه وكافله أبو محمد يدبر أمره من الحضرة. ثم استقدم إبنه ونصب لوزارة السلطان أبا محمد عبد الواحد بن محمد من أكمازير من مشيخة الموحدين فكان يقيم لهم رسم الحجابة. وقام بأمر الرجل بالبلد من الغوغاء علي بن صالح من زعانفة بجاية وأوغادها، التص عليه الشرار والدعار وأصبحت له بهم شوكة كان له بها تغلب على الدولة، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن فتح جربة ودخولها في دعوة السلطان أبي إسحق صاحب الحضرة:

هذه الجزيرة جربة من جزر هذا البحر الذي يمر قريبا من قابس وإلى الشرق عنها
قليلاً، طولها من المغرب إلى المشرق ستون ميلاً، وعرضها من ناحية المغرب عشرون ميلًا. ومن ناحية الشرق خمسة عشر ميلاً. وبينها وبين قرقنة في ناحية المغرب ستون ميلا، وشجرها التين والنخل والزيتون والعنب، واختصّت بالتفاح وعمل الصوف للباسهم يتخذون منه الأكسية المعلمة للاشتمال، وغير المعلمة للّباس. وتجلب منها إلى الأقطار
فينتقيه الناس للباسهم. وأهلها من البربر من كتامة، وفيهم إلى الآن سدويكش وصدغيان من بطونهم، وفيهم أيضا من نفزة وهوارة وسائر شعوب البربر. وكانوا قديماً على رأي الخوارج وبقي بها إلى الآن فريقان منهم:

الوهبية وهم بالناحية الغربية، ورياستهم ببني سمومن، والنكارة وهم بالناحية الشرقية. وجربة فاصلة بينهما. والظهور والرياسة على الكل لبني سمومن. وكان فتحها أول الإسلام على يد رويفع بن ثابت بن سكن بن عدي بن حارثة من بني ملك بن النجار من الأنصار من جند مصر، ولاه معاوية على طرابلس سنة ست وأربعين فغزا أفريقية وفتح جربة سنة سبع وسبعين بعدها، وشهد الفتح حنش بن عبد الله الصنعاني ورجع إلى برقة فمات بها. و لم تزل في ملكة المسلمين إلى أن دخل دين الخوارج إلى البربر فأخذوا به. ولما كان شأن أبي يزيد سنة إحدى وثلاثين وثلثماية فأخذوا بدعوته بعد أن دخلوها عنوة، وقتل مقدمها يومئذ ابن كلدين وصلبه.

ثم استردها المنصور إسماعيل، وقتل أصحاب أبي يزيد. ولما غلبت العرب صنهاجة على الضواحي وصارت لهم أخذ أهل جربة في إنشاء الأساطيل وغزو السواحل. ثم غزاهم علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس سنة تسع وخمسمائة

بأساطيله إلى أن انقادوا وضمنوا قطع الفساد وصلح الحال. ثم تغلب النصارى عليها سنة تسع وعشرين وخمسمائة عند تغلبهم على سواحل أفريقية. ثم ثار أهلها عليهم وأخرجوهم سنة ثمان وأربعين وسبعمائة. ثم تغلبوا عليها ثانية وسبوا أهلها واستعملوا على الرعية وأهل الفلح. ثم عادت للمسلمين و لم تزل مترددة بين المسلمين والنصارى إلى أن غلب عليها الموحدون أيام عبد المؤمن، واستقام أمرها إلى أن استبد بنو أبي حفص بأفريقية. ثم افترق أمرهم بعد حين واستبد المولى أبو زكريا ابن السلطان أبي إسحق بالناحية الغربية، وشغل صاحب الحضرة بشأنه كما قدمناه، فتغلب على هذه الجزيرة أهل صقلية سنة ثمان وثمانين وستمائة وبنوا بها حصن القشتيل مربع الشكل في كل ركن منه برج، وبين كل ركنين برج. ويجاوره حفير وسوران. وأهم المسلمين شأنها، و لم تزل عساكر الحضرة تتردد إليها قط تقدم إلى أن كان فتحها أيام السلطان أبي بكر على يد مخلوف بن الكماد من بطانته سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة واستضافها ابن مكي صاحب قابس إلى عمله فأضافها إليه، وعقد له عليها فصارت من عمله سائر أيام السلطان ومن بعده.

واتصلت الفتنة بين أبي محمد بن تافراكين وبين ابن مكي، وبعث الحاجب أبو

محمد بن تافراكين عن أبيه أبي عبد الله، وكان في جملة السلطان ببجاية كما قلناه. ولما وصل إليه سرحه في العساكر لحصار جربة وكان أهلها قد نقموا على ابن مكي سيرته فيهم، ودشوا إلى أبي محمد بن تافراكين بذلك فسرح إليه إبنه في العساكر سنة ثلاث وستين وسبعمائة. وكان أحمد بن مكي غائباً بطرابلس قد نزلها منذ ملكها من أيدي النصارى وجعلها داراً لأمارته فنهض العسكر من الحضرة لنظر أبي عبد الله ابن الحاجب أبي محمد، ونهض الأسطول في البحر فنزلوا بالجزيرة وضايقوا القشتيل بالحصار إلى أن غلبوا عليه وملكوه، وأقاموا به دعوة صاحب الحضرة. واستعمل أبو عبد الله بن تافراكين كاتبة محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون، كان من صنائع الدولة منذ العهد، وكانت لأبيه قرابة من ابن عبد العزيز الحاجب يرقى بها إلى ولاية الأشغال

بتونس مناهضاً لأبي القاسم بن طاهر الذي كان يتولاها يومئذ، فكان رديفه عليها إلى أن هلك ابن طاهر فاستبد هو بها منذ أيام الحاجب أبي محمد،

واتصل إبنه محمد هذا بخدمة ابن الحاجب، واختص بكتابته إلى أن استعمله على جربة عند استيلائه عليها هذه السنة، وانكفأ راجعاً إلى الحضرة فلم يزل محمد بن أبي العيون والياً عليها. ثم استبد بها على السلطان بعد مهلك الحاجب وفرار إبنه من السلطان إلى أن غلبه عليها السلطان أبو العباس سنة أربع وسبعين وسبعمائة كما نذكره إن شاء الله.

الخبر عن عودة الأمراء من المغرب واستيلاء السلطان أبي العباس علي قسنطينة:

لما هلك السلطان أبو عنان قام بأمره من بعده وزيره الحسن بن عمر، ونصب إبنه محمد السعيد للأمر كما نذكره في أخباره. وكان يضطغن للأمير أبي عبد الله صاحب بجاية فتقبض عليه لأول أمره واعتقله حذراً من وثوبه على عمله فيما زعم. وكان السلطان أبو العباس بسبتة منذ أنزله السلطان أبو عنان بها، ورتب عليه الحرس كما ذكرنا، فلما انتزى على الملك منصور بن سليمان من أعياص ملكهم، ونازل البلد الجديد دار الملك ودخل في طاعته سائر الممالك والأعمال بعث في السلطان أبي العباس واستدعاه من سبتة فنهض إليه. وانتهى في طريقه إلى طنجة. ووافق ذلك إجازة السلطان أبي سالم من الأندلس لطلب ملكه. وكان أول ما استولى عليه من أعمال المغرب طنجة وسبتة فاتصل به السلطان أبو العباس وظاهره على أمره إلى أن نزع إليه قبيلة بنو مرين عن منصور بن سليمان المنتزي على ملكهم فاستوسق أمره واستتب سلطانه به، ودخل فاس. وسرح

لأمير أبا عبد الله من اعتقال الحسن بن عمر كما قدمناه. ورعى للسلطان أبي العباس ذمة سوابقه القديمة والحادثة فرفع مجلسه وأسنى جرايته، ووعده بالمظاهرة على أمره، واستقروا جميعاً في إيالته إلى أن كان من تغلب السلطان أبي سالم على تلمسان والمغرب لأوسط ما ذكره في أخبارهم. واتصل به ثورة أهل بجاية بعاملهم يحيى بن ميمون و رجالات قبيلهم فامتعض لذلك. وحين قفل إلى المغرب نفض يده من الأعمال الشرقية. ونزل للسلطان أبي

العباس عن قسنطينة دار إمارته ومثوى عزه ومنبت ملكه فأوعز إلى عاملها منصور بن خلوف بالنزول له عنها، وسرحه إليها، وسرح معه الأمير أبا عبد الله ابن عمه لطلب حقه في بجاية والأجلاب على عمه السلطان أبي إسحق جزاء لما نال من بني مرين عند افتتاحها من المعرة. وارتحلوا من تلمسان في جمادى من سنة إحدى وستين وسبعمائة وأغذوا السير إلى مواطنهم. فأما السلطان أبو العباس فوقف منصور بن مخلوف عامل البلد علي خطاب سلطانه بالنزور عن قسنطينة فنزل وأسلمها إليه، وأمكنه منها فدخلها شهر رمضان سنة إحدى وستين وسبعمائة، واقتعد سرير ملكه منها وتباشرت بعودته مقاصر قصورها فكانت مبدأ سلطانه ومظهراً لسعادته ومطلعاً لدولته على ما نذكر بعد. وأما الأمير أبو عبد الله صاحب بجاية فلحق بأول وطنها، واجتمع إليه أولاد سباع أهل ضاحيتها وقفرها من الزواودة . ثم زحف إليها أياماً وامتنعت عليه فرحل عنها إلى بني

ياورار ، واستخدم أولاد محمد بن يوسف والعزيزين أهل ضاحيتها من سدويكش ثم نزعوا عنه إلى خدمة عمه ببجاية فخرج إلى القفر مع الزواودة إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وصول الأخ الأمير أبي يحيي زكريا من تونس وافتتاحه بونة واستيلائه عليها:

كان الأمير أبو يحيى زكريا منذ بعثه أخوه أبو العباس إلى عمهما السلطان أبي إسحق صريخاً لهم لم يزل مقيماً بتونس، وبلغه استيلاء السلطان أبي عنان على قسنطينة فخشي الحاجب أبو محمد بن تافراكين بادرته، وتوقع زحفه إليه وغلبه إياه على الأمر. ورأى أن يحصر جناحه في أخيه، ويتوثق به فاعتقله بالقصبة تحت كرامة ورعي. وبعث فيه السلطان أبو الحسن بعد مراوضة في السلم فأطلقه وانعقد بينهما السلم. ولما وصل الأمير أبو يحيى إلى أخيه بقسنطينة عقد له عن العساكر،

وزحف إلى بونة فملكها سنة إثنتين وستين وسبعمائة، وعقد له عليها وأنزله بها مع العساكر وأصارها نجماً لعمله واستمرت حالها على ذلك

إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء الأمير أبي عبد الله علي بجاية ثم على تدلس بعدها:

لما قدم السلطان أبو عبد الله من المعرب، ونازل بجاية فامتنعت عليه خرج إلى أحياء العرب كما قدمناه ولزم صحابته أولاد يحيى بن علي بن سباع بعد توالي الوفاء بها. وأقام بين ظهرانيهم وفي حللهم متعهداً في طلب بجاية برحلة الشتاء والصيف، وتكفلوا نفقة عياله ومؤنة حشمه وأنزلوه بتلك المسيلة من أوطانهم وتجافوا له عن جبايتهم وأقام على ذلك سنين خمساً ينازل بجاية في كل سنة منها مراراً. وتحول في السنة الخامسة عنهم إلى أولاد علي بن أحمد، ونزل على يعقوب بن علي فأسكنه بمقرة من بلاده إلى أن بدا لعمه المولى أبي إسحق رأيه في اللحاق بتونس لما توقع من مهلك حاجبه وكافله أبي محمد بن تافراكين، أسره إليه بعض الجند فحذره مغبته، ووقع من ذلك في نفوس أهل بجاية انحراف عنه وحرج أمرهم وراسلوا أميرهم الأقدم أبا عبد الله من مكانه بمقرة. وظاهره على ذلك يعقوب بن علي وأخذ له العهد على رجالات سدويكش أهل الضاحية، وارتحلوا معه إلى بجاية ونازلها أياماً. ثم استيقن الغوغاء اعتزام سلطانهم على التقويض عنهم، وسئموا ملكة علي بن صالح الذي كان عريفاً عليهم فثاروا به ونبذوا عهده، وانفضوا من حوله إلى الأمير أبي عبد الله بالحرسّة من ساحة البلد. ثم قادوا إليه عضه أبا إسحق فمن عليه وخلى سبيله إلى حضرته فلحق بها واستولى أبو عبد الله على بجاية محل أمارته في رمضان سنة خمس وستين وسبعمائة وتقبض على عليّ بن صالح ومن معه من عرفاء الغوغاء أهل الفتنة فاستصفى أموالهم، ثم أمضى حكم الله في قتلهم. ثم نهض إلى تدلس

لشهرين من ملكه بجاية فغلب عليها عمر بن موسى عامل بني عبد الواد، ومن أعياص قبيلهم وتملكها في آخر سنة خمس وستين وسبعمائة. وبعث عني من الأندلس كنت مقيماً بها نزيلاً عند السلطان أبي عبد الله بن أبي الحاج بن الأحمر في سبيل اغتراب ومطاوعة تقلب منذ مهلك السلطان أبي سالم الجاذب بضبعي إلى تنويهه، والراقي بي في خطط كتابته من ترسيل وتوقيع ونظر في المظالم وغيرها. فلما استدعاني هذا الأمير أبو عبد الله

بادرت إلى امتثاله { **ولو شاء ربّك ما فعلوه ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير**}[الأية.....] فأجزت البحر شهر جمادى من سنة ست وخمسين وسبعمائة، وقلدني حجابته ودفع إلي أمور مملكته، وتمت في ذلك المقام المحمود إلى أن أذن الله بانقراض أمره وانقطاع دولته، ولله الخلق والأمر وبيده تصاريف الأمور.

الخبر عن مهلك الحاجب أبي محمد بن تافراكين واستبداد سلطانه من بعده

كان السلطان أبو إسحق آخر دولته ببجاية قد تحيّن مهلك حاجبه المستبد عليه أبي محمد بن تافراكين لما كان أهل صناعة التنجيم يحدثونه بذلك، فأجمع الرحلة إليها، وانفض عنه أهل بجاية إلى ابن أخيه كما قدمناه.

واستولى عليه ثم أطلقه إلى حضرته فلحق بها في رمضان سنة خمس وستين وسبعمائة. وتلقاه أبو محمد بن تافراكين، ورآه مرهف الحد للاستبداد الذي لفه ببجاية فكايله بصاع الوفاق، وصارفه نقد المصانعة، وازدلف بأنواع القربات. وقاد إليه الجنائب ومنحه من الذخائر والأموال، وتجافى له عن النظر في الجباية. ثم أصهر إليه السلطان في كريمته فعقد له عليها وأعرس السلطان بها. ثم كان مهلكه عقب ذلك سنة ست وستين وسبعمائة فوجم السلطان لنعيه وشهد جنازته حتى وضع بملحده من المدرسة التي اختطها لقراءة العلم إزاء داره جوفي المدينة. وقام على قبره باكيا وحاشيته يتناولون التراب حثيا على جثده فغرب في الوفاء معه بما تحدث به الناس، واستبد من بعده بأمره وأقام سلطانه لنفسه.

وكان أبو عبد الله الحاجب ابن أبي محمد غائبا عن الحضرة. خرج منها بالعسكر للجباية والتمهيد، فلما بلغه خبر مهلك أبيه داخلته الظنة وأوجس الخيفة فصرف العسكر إلى الحضرة، وارتحل مع حكيم من بني سليم، وعرض نفسه على معاقل أفريقية التي كان يظن أنها خالصة لهم. فصده محمد بن أبي العيون كاتبه عن جربة، فحمد بن الحكم صنيعه وطاف بهم على المهدية. وبعث إليه السلطان بما رضيه من الأمان فأصحب بعد النفور وبادر إلى الحضرة فتلقاه السلطان بالبر والترحيب، وقلده حجابته وأنزله على مراتب العز والتنويه والشرف ونكر هو مباشرة السلطان للناس ورفعه للحجاب، ولم يرضه لما ألف من الاستبداد منذ عهد أبيه فأظلم الجو بينه وبين السلطان، ودبت عقارب السعاية لمهاده الوثير فتنكر وخرج من تونس ولحق بقسنطينة ، ونزل بها على السلطان أبي العباس مرغبا له في ملك تونس ومستحثا فأنزله خير نزيل ووعده بالنهوض معه إلى أفريقية بعد الفراغ من أمر بجاية لما كان بينه وبين ابن عمه صاحبها من الفتنة كما نذكره بعد. واستبد السلطان أبو إسحاق بعد مفر ابن تافراكين عنه، ونظر في أعطاف ملكه،

وعقد على حجابته لأحمد بن إبراهيم اليالفي مصطنع الحاجب أبي محمد من طبقة العمال، وعلى العساكر والحرب لمولاه منصور سريحه من المعلوجي، ورفع الحاجب بينه وبين رجال دولته وصنائع ملكه حتى باشر جباة الخراج وعرفاء الحشم، وأوصلهم إلى نفسه وألغى الوسائط بينهم وبينه إلى حين مهلكه كما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي العباس علي بجاية وملك صاحبها ابن عمه:

لما ملك الأمير أبو عبد الله بجاية واستقل بإمارتها تنكر للرعية وساءت سيرته فيهم بإرهاف الحد للكافة وإسخاط الخاصة، فنغلت الصدور ومرضت القلوب واستحكمت النفرة، وتوجهت الصاغية إلى ابن عمه السلطان أبي العباس بقسطنية لما كان استفسد منه وأعلن بلذته وأقوم على سلطانه. وكانت بينهم فتنة وحروب جرتها المنافسة في تخوم العمالتين منذ عهد الآباء. وكان السلطان أبو العباس أيام نزوله على السلطان أبي سالم محمود السيرة والخلال مستقيم الطريقة في مثوى اغترابه. وربما كان ينقم على ابن عمه هذا بعض النزعات المعرضة لصاحبها للملامة وستثقل نصيحته. وشغل بذلك ضميره فلما استولى على بجاية عاد إلى الفتنة فتنبه، وشفر عزائمه لها فكان مغلبا فيها. واعتلق منه يعقوب بن علي بذمة في المظاهرة على السلطان أبي العباس فلم يغن عنه، وراجع يعقوب سلطانه. ثم جهز هو العساكر من بجاية لمزاحمة تخوم قسطنطينة ففضها أبو العباس فنهض إليه ثانية بنفسه في العساكر، وتراجع العرب من أولاد سباع بن يحيى وجمع هو أولاد محمد وزحف فيهم وفي عسكر من زناتة، والتقى الفريقان بناحية سطيف فاختل مصاف أهل بجاية وانهزموا، واتبعهم السلطان أبو العباس إلى تاكرارت وجال في عمله ووطىء نواحي وطنه، وقفل إلى بلده.

ودخل الأمير أبو عبد الله إلى بجاية وقد استحكمت النفرة بينه وبين أهل بلده فدسوا إلى السلطان أبي العباس بقسطنطينة بالقدوم عليهم، فوعدهم من العام القابل وزحف سنة سبع وستين في عساكره وشيعته من الدواودة أولاد محمد، وانضوى إليه أولاد سباع شيعة بجاية بالجوار والسابقة القديمة لما نكروا من أحوال سلطانهم. وعسكر الأمير أبو عبد الله بلبزو في جمع قليل من الأولياء، وأقام بها يرجو مدافعة ابن عمه بالصلح فبيته

السلطان بمعسكره من لبزو، وصبحه في غارة شعواء فانفض جمعه، واحيط به وانتهب المعسكر ومر إلى بجاية فأدرك في بعض الطريق وتقبض عليه، وقتل قعصا بالرماح. وأغذ السلطان أبو العباس السير إلى بجاية فأدرك بها صلاة الجمعة تاسع عشر شعبان من سنة سبع وستين، وكنت بالبلد مقيما فخرجت إليه في الملأ، وتلقاني بالمبرة والتنويه. وأشار إلي بالاصطناع واستوسق له ملك جده الأمير أبي زكريا الأوسط في الغور العربية، وأقمت في خدمته بعض شهر. ثم توخمت الحنقة في نفسي وأذنته في الانطلاق فأذن لي تكرما وفضلا وسعة صدر ورحمة، ونزلت على يعقوب بن علي. ثم تحولت عنه إلى بسكرة ونزلت على ابن مزني إلى أن صفا الجو، واستقبلت من أمري ما استدبرت، واستأذنته لثلاث عشرة سنة من انطلاقي عنه في خبر طويل نقصه من شأني فاذن لي، وقدمت عليه فقابلتني وجوه عنايته، وأشرقت علي أشعة بجعته كما نذكر ذلك من بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن زحف أبي حمو وبني عبد الواد إلى بجاية ونكبتهم عليها وفتح تدلس من أيديهم بعدها:

كان الأمير أبو عبد الله صاحب بجاية لما اشتدت الفتنة بينه وبين ابن عمه السلطان أبي العباس مع ما كان بينه وبين بني عبد الواد من الفتنة عند غلبه إياهم على تدلس، يكابد عن حمل العداوة من الجانبين وصغى إلى مهادنة بني عبد الواد فنزل لهم عن تدلس، وأمكن منها قائد العسكر المحاصر لها. وأوفد رسله على سلطانهم أبي حمو بتلمسان، وأصهر إليه أبو حمو في ابنته فعقد له عليها وزفها إليه بجهاز أمثالها. فلما غلبه السلطان أبو

العباس على بجاية، وهلك في مجال حربه أشاع أبو حمو الامتعاض له لمكان الصهر، وجعلها ذريعة إلى الحركة على بجاية. وزحف من تلمسان يجر الشوك والمدد في آلاف من قومه وطبقات العسكر والجند. وتراجع العرب حتى انتهى إلى وطن حمزة فأجفل أمامه أبو الليل بن موسى بن زغلي في قومه بني يزيد، وتحصنوا في جبال زواوة المطّلة على وطن حمزة. وبعث إليه رسله لاقتضاء طاعته فأوثقهم كتافاً ، وكان فيهم يحيى حامد أبي محمد صالح نزع من السلطان أبي العباس إلى أبي حمو، وكان عيناً علي غرات أبي الليل هذا بما بينهما من المربى والجوار في الوطن فجاء في وفد الرسالة عن أبي حمو فتقبض عليهم وعليه، فقتله وبعث برأسه إلى بجاية.

وامتنع على أبي حمو وعساكره فأجلبوا على بجاية، ونزل معسكره بساحتها وقاتلها

أياماً. وجمع الفعلة على الآلات للحصار. وكان السلطان أبو العباس بالبلد وعسكره مع مولاه بشير بتكرارت، ومعهم أبو زيان بن عثمان بن عبد الرحمن، وهو ابن عم أبي حمو من أعياص بيتهم، وكان من خبره أنه كان خرج من المغرب كما نذكره في أخباره. ونزل على السلطان أبي إسحق بالحضرة ورعى له أبو محمد

الحاجب حق بيته فأوسع في كرامته. ولما غلب الأمير أبو عد الله على تدلس بعث إليه من تونس ليوليه علمها، ويكون ردأء بينه وبين بني حمو ويتفرغ هو للأجلاب على وطن قسنطينة فبادر إلى الإجابة وخرج من تونس. ومر السلطان أبو العباس بمكانه من قسنطينة فصده عن سبيله واعتقله عنده مكرماً. فلما غلب على بجاية وبلغه الخبر بزحف أبي حمو أطلقه من اعتقاله ذلك، واستبلغ في تكرمته وحبائه، ونصبه للملك وجهز له بعض الآلة. وخرج في معسكر مولاه بشير ليجأجيء به بني عبد الواد عن ابن عمه أبي حمو لما سئموا من ملكته وعنفه.

وكان زغبة عرب المغرب الأوسط في معسكر أبي حمو، وكانوا حذرين مغبة أمر

معهم فراسلوا أبا زيان وائتمروا بينهم في الأرجاف بالمعسكر. ثم تحينوا لذلك أن يشب الحرب بين أهل البلد وأهل المعسكر فأجفلوا خامس ذي الحجة، وانفض المعسكر وانتهوا إلى مضائق الطرقات بساح البلد فكظت بزحامهم وتراكموا عليها فهلك الكثير منهم، وخففوا من الأثقال والعيال والسلاح والكراع ما لا يحيط به الوصف. وأسلم أبو حمو عياله وأمواله فصارت نهباً واحتلبت حظاياه إلى السلطان فوهبها لابن عمه. ونجا أبو حمو بنفسه بعد أن طاح في كظيظ الزحام عن جواده فنزل له وزيره عمران بن موسى عن مركوبه فكان نجاؤه عليه، ولحق بالجزائر في الفل. ثم لحق منها بتلمسان واتبع أبو زيان أثره واضطرب المغرب الأوسط كما نذكره في أخباره. وخرج السلطان أبو العباس من بجاية على إثر هذه الواقعة فنازل تدلس وافتتحها وغلب عليها فن كان بها من عمال بني عبد الواد، وانتظمت الثغور الغربية كلها في ملكه كما كانت في ملك جده الأمير أبي زكريا الأوسط حين قسم الدعوة الحفصية بها إلى أن كان ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن زحف العساكر إلى تونس:

كان أبو عبدالله ابن الحاجب أبي محمد بن تافراكين لما نزع عن السلطان أبي

إسحق

صاحب الحضرة لحق بحلل أولاد مهلهل من العرب ووفدوا جميعاً على السلطان أبي العباس فاتح سنة سبع وستين وسبعمائة يستحثونه إلى الحضرة ويرغبونه في ملكها فاعتذر لهم بما كان عليه من الفتنة مع ابن عمه صاحب بجاية. وزحف إليها في حركة الفتح. وصاروا في جملته فلما استكمل فتح بجارة سرح معهم أخاه المولى أبا يحيى زكريا في العساكر فصاروا معه إلى الحضرة، وابن تافراكين في جملته فنازلوها أياماً وامتنعت عليهم فأقلعوا على سلم ومهادنة انعقدت بين صاحب الحضرة وبينهم وقفل المولى أبو يحيى بعسكره إلى مكان عمله. ولحق ابن تافراكين بالسلطان فلم يزل في جملته إلى أن كان من فتح تونس ما نذكر.

الخبر عن مهلك السلطان أبي إسحق صاب الحضرة وولاية ابنه خالد من بعده:

لم تزل حال السلطان أبي إسحق بالحضرة على ما ذكرناه، وتخلف في الفتنة والمهادنة مع السلطان أبي العباس طوراً بطور، واستخلص لدولته منصور أبي حمزة أمير بني كعب يستظهر به على أمره، ويستدفع برأيه وشوكته فخلص له سائر أيامه. وعقد سنة تسع وستين وسبعمائة لابنه خالد على عسكر لنظر محمد بن رافع من طبقات الجند من مغراوة مستبداً على إبنه. وسرحه مع منصور بن حمزة وقومه، وأوعز إليهم بتدويخ ضواحي بونة واكتساح نعمها وجباية ضواحيها فساروا إليها. وسرح الأمير أبو يحيى زكريا صاحب بونة عسكره مع أهل الضاحية فأغنوا في مدافعتهم وانقلبوا على أعقابهم فكان آخر العهد بظهورهم. ولما رجعوا إلى الحضرة تنكر السلطان لمحمد بن رافع قائد العسكر وخرج من الحضرة ولحق بقومه بمكانهم من لحقه من أعمال تونس. واستقدمه السلطان بعد أن استعتب له فلما قدم تقبض عليه وأودعه السجن. وعلى إثر ذلك كان مهلك السلطان فجاءة ليلة من سنة سبعين وسبعمائة بعد أن قضى وطراً من محادثة السمر، وغلبه النوم اخر ليله فنام، ولما أيقظه الخادم وجده ميتاً فاستحال السرور، وعظم الأسف وغلب على البطانة الدهش. ثم راجعوا بصائرهم ودفعوا الدهش عن أنفسهم وتلافوا أمرهم بالبيعة لإبنه الأمير أبي البقاء خالد فأخذها له على الناس مولاه منصور

سريحه من المعلوجي وحاجبه أحمد بن إبراهيم البالقي وحضر لها الموحدون والفقهاء والكافة. وانفض المجلس وقد انعقد أمره إلى جنازة أبيه حمى واروه التراب. واستبد منصور وابن البالقي على هذا الأمير المنصوب للأمر فلم يكن له تحكم عليهما. وكان أول ما افتتحا به أمرهما أن تقبضا على القاضي محمد بن خلف الله من طبقة الفقهاء، كان نزع إلى السلطان من بلده نفطة مغاضباً لمقدمها عد الله بن علي بن خلف، فرعى له نزوعه إليه واستعمله بخطة القضاء بتونس عند مهلك أبي علي عمر بن عبد الرفيع. ثم ولاه قيادة العساكر إلى بلاد الجريد وحربهم فكان فيه غناء، واستدفعوه مرات بجبايتهم يبعثون بها إلى السلطان، ومرات بمصانعة العرب على الأرجاف بمعسكره. وكان ابن البالقي يغص بمكانه من السلطان فلما استبد على ابنه أعظم فيه السعاية وتقبض عليه، وأودعه السجن مع محمد بن علي بن رافع. ثم بعث عليهما من داخلهما في الفرار من الاعتقال حتى دبّروه معه، وظهر على أمرهما فقتلهما في محبسهما خنقاً والله متولي الجزاء منه { **وسيعلم الذين ظلموا أى**

منقلب ينقلبون } ثم أظهر ابن البالقي من سوء سيرته في الناس وجوره عليهم وعسفه بهم وانتزاع أموالهم، لاهانة سبال الأشراف ببابه منهم ما نقموه، وضرعوا إلى الله في إنقاذهم من ملكته فكان ذلك على يد مولانا السلطان أبي العباس كما نذكر إن شاء الله تعالى.

فتح تونس وبقية عمالات أفريقية

الخبر عن فتح تونس واستيلاء السلطان عليها واستبداده

بالدعوة الحفصية في سائر عمالات أفريقية وممالكها

لما هلك السلطان أبو إسحق صاحب الحضرة سنة سبعين وسبعمائة كما قدمناه، وقام بالأمرمولاه منصور سريحه وحاجبه البالقي ونصبوا ابنه الأمير خالدا للأمر صبياً لم يناهز الحلم غراً فلم يحسنوا تدبير أمره ولا سياسة سلطانه، وأستخلصوا لوقتهم منصور بن حمزة أمير بني كعب المتغلبين على الضاحية بما أطمعوه بسوء تدبيرهم في شركته لهم في الأمر. ثم قلبوا له ظهر المجن فسخطهم ولحق بالسلطان أبي العباس وهو مطل عليهم بمرقبة من الثغور الغربية مستجمع للتوثب فاستحثه لملكهم وحرضه على تلافي أمرهم ورم ما تثلم من سياج دولتهم. وكان الأحق بالأمر لشرف نفسه وجلاله واستفحال ملكه وسلطانه، وشياع الحديث عن عدله ورفقه وحميد سيرته وأمان أهل مملكته من نظر يعقب نظره فيهم

أو استبداد سواه عليهم فأجاب صريخه وشحذ للنهوض عزمه. وكان أهل قسنطينة قد بعثوا بمثل ذلك فسرح إليهم أبا عبد الله ابن الحاجب أبي محمد بن تافراكين لاختبار طاعتهم وابتلاء دخلتهم فسار إليهم واقتضى بيعاتهم وطاعتهم، وسارع إليها يحيى بن يملول مقدم توزر والخلف بن الخلف مقدم نفطة فأتوها طواعية.

وانقلب عنهم وقد أخذوا بدعوة السلطان وأقاموها. ثم خرج السلطان من بجاية في العسكر واغذ السير إلى المسيلة، وكان بها إبراهيم ابن عمه الأمير أبي زكريا الأخير جأجأ به أولاد سليمان بن علي من الزواودة من مثوى اغرابه بتلمسان، ونصبوه لطلب حقه في بجاية من بعد أخيه الأمير أبي عبد الله وكان ذلك بمداخلة أبي حمو صاحب تلمسان ومواعيد بالمظاهرة مخلفة. فلما انتهى السلطان إلى المسيلة نبذوا إلى إبراهيم عهده وتبرأوا منه، ورجعوه من حيث جاء، وانكفأ راجعاً إلى بجاية. ثم نهض منها إلى الحضرة وتلقته وفود أفريقية جميعاً بالطاعة، وانتهى إلى البلد فخيم بساحتها أياماً يغاديها القتال ويراوحها. ثم كشف عن مصدوقته وزحف إلى أسوارها، وقد ترجل أخوه والكثير من بطانته وأوليائه فلم يقم لهم شيء حتى تسنموا الأسوار برياض رأس الطابية، فترل عنها المقاتلة وفروا إلى داخل البلد. وخامر الناس الدهش وتبراوا بعضهم من بعض، وأهل الدولة في موكبهم وقوف بباب الغدر من أبواب القصبة. فلما رأوا أنهم أحيط بهم ولوا الأعقاب

وقصدوا باب الجزيرة فكسروا أقفاله. وثار أهل البلد جميعاً بهم فخلصوا سلطانهم من البلد بعد عصب الريق، ومضى الجند في أتباعهم فأدرك أحمد بن اليالقي فقتل وسيق رأسه إلى السلطان. وتقبض على الأمير خالد واعتقل ونجا العلج منصور سريحه برأس طمرة ولجام، وذهل عن القتال دون الأحبة.

ودخل السلطان القصر واقتعد أريكته، وانطلقت أيدي العيث في ديار أهل الدولة فاكتسحت بما كان الناس يضطغنون عليهم تحاملهم على الرعية واغتصاب أموالهم، فاضطرمت نار العيث في دورهم ومخلفهم فلم تكد أن تنطفىء، ولحق بعض أهل العافية معرات من ذلك لعموم النهب وشموله حتى أطفأه الله ببركة السلطان وجميل نيته وسعادة أمره. ولاذ الناس منه بالملك الرحيم والسلطان العادل، وتهافتوا عليه تهافت الفراش على الذبال يلثمون أطرافه، ويجأرون بالدعاء له ويتنافسون في التماح محياه إلى أن غشيهم

الليل. ودخل السلطان قصوره وخلا بما ظفر من ملك آبائه، وبعث بالأمير خالد وأخيه في الأسطول إلى قسنطينة فعصفت بهما الريح وانخرقت السفينة وتقاذفت الأمواج إلى أن هلكا. واستبد السلطان بأمره، وعقد لأخيه الأمير أبي يحيى زكريا على حجابته. ورعى لابن تافراكين حق انحياشه إليه ونزوعه فجعله رديفاً لأخيه، واستمر الأمر عكى ذلك الى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض منصور بن حمزة وأجلابه بالعم أبي يحيي زكريا علي الحضرة وما كان عقب ذلك من نكبة ابن تافراكين:

كان منصور بن حمزة هذا أمير البدو من بني سليم بما كان سيد بني كعب. وكان

السلطان أبو إسحق يؤثره بمزيد العناية، وجعل له على قومه المزية. وكان بنو حمزة هؤلاء منذ غلبوا السلطان أبا الحسن على أفريقية وأزعجوه منها قد استطالت أيديهم عليها وتقاسموها أوزاعاً ، وأقطعهم أمراء الحضرة السهمان في جبايتها زيادة لما غلبوا عليه من ضواحيها وأمصالها، استئلافاً لهم على المظاهرة وإقامة الدعوة والحماية من أهل الثغور. الغربية فملكوا الأكثر منها، وضعف سهمان السلطان بينهم فيها. فلما استولى هذا السلطان أبو العباس على الحضرة واستبد بالدعوة الحفصية كبح أعنتهم عن التغلب والاستبداد وانتزع ما في أيديهم من الأمصار والعمالات التي كانت من قبل خالصة للسلطان. وبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبونه

فاحفظهم ذلك وأهمهم شأنه وتنكر منصور بن حمزة وقلب ظهر المجن ونزع يده من الطاعة وغمسها في الخلاف، وتابعه على خروجه على السلطان أبو صعنونة أحمد بن محمد بن عبد الله بن مسكين شيخ حكيم. وارتحل بأحيائه إلى الزواودة صريخاً مستحيشاً بالأمير أبي يحيى ابن السلطان أبي بكر المقيم بين ظهرانيهم من لدن فعلته بالمهدية وانتزائه بها على أخيه المولى أبي إسحق كما ذكرنا فنصبوه للأمر وبايعوه، وارتحل معهم، وأغذوا السير إلى تونس. وقيه منصور بن حمزة في أحيائه بنواحي تبسة فبايعوا له. وأوفدوا مشيختهم على يحيى بن يملول شيطان الغواية المارد على الخلاف يستحثونه للطاعة والمدد لمداخلة كانت بينهم في ذلك سول لهم فيها بالمواعيد، وأملى لهم حتى إذا غمسوا أيديهم في النفاق والأجلاب سوفهم عن مواعيده ضنانة بماله فأسرها منصور في نفسه، واعتزم من يومئذ على الرجوع إلى الطاعة. ثم رحلوا للأجلاب على الحضرة، وسرح السلطان أبو العباس أخاه الأمير أبا

يحيى زكريا للقيهم في العساكر، وتزاحفوا واتيح لمنصور وقومه ظهور على عساكر السلطان وأوليائه لم يستكمله، وأجلبوا على البلد أياماً. ونمي إلى السلطان أن حاجبه أبا عبد الله بن تافراكين داخلهم في تبيين البلد

فتقبض عليه وأشخصه في البحر إلى قسنطينة فلم يزل بها معتقلاً إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين وسبعمائة. ثم سرب السلطان أمواله فانتقض على منصور قومه وخشي مغبة حاله، وسوغه السلطان جائزته فعاود

الطاعة، ورهن إبنه ونبذ إلى سلطانه زكريا العم عقده ورجعه على عقبه إلى الزواودة. والتزم طاعة السلطان والاستقامة على المظاهرة إلى أن هلك سنة ست وتسعين وسبعمائة، قتله محمد ابن أخيه فتيتة في مشاجرة كانت بينهما، طعنه لها فأشواه، ورجع جريحاً إلى بيته وهلك دونها آخر يومه. وقام بأمر بني كعب بعد صولة ابن أخين خالد وعقد له مولانا السلطان على أمرهم، واستمرت الحال إلى أن كان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فتح سوسة والمهدية:

كان سوسة منذ واقعة بني مرين بالقيروان، وتغلب العرب على العمالات أقطعها السلطان أبو الحسن لخليفة بن عبد الله بن مسكين فيما سوغ للعرب من الأمصار والإقطاعات مما لم يكن لهم، فاستولى عليها خليفة هذا ونزلها واستقل بجبايتها وأحكامها. واستبد بها على السلطان و لم يزل كذلك إلى أن هلك، وقام بأمره في قومه عامر ابن عمه مسكين أيام استبداد أبي محمد بن تافراكين فسوغها له كذلك متقبلاً مذهب من قبله. ثم قتله بنو كعب، وقام بأمر حكيم من بعده أحمد الملقب أبو صعنونة بن محمد أخي خليفة بن عبد الله بن مسكين فاستبد بسوسة على السلطان واقتعدها دار إمارته. وربما كان ينتقض على صاحب الحضرة فيجلب عليها من سوسة، ويشن الغارات في نواحيها حتى لقد أوقع في بعض أيامه بمنصور سريحه مولى السلطان أبي إسحق وقائد عساكره، فتقبض عليه واعتقله بسوسة أياماً، ثم من عليه وأطلقه وعاود الطاعة معه، و لم يزل هذا دأبهم. وكانت لهم في الرعايا آثار قبيحة وملكات سيئة، و لم يزالوا يضرعون إلى الله في إنقاذهم من أيدي جورهم وعسفهم إلى أن تأذن الله لأهل أفريقية باقتبال الخير وفيء ظلال الأمر. واستبد مولانا السلطان أبو العباس بالحضرة وسائر عمالات أفريقية، وهبت ربح العز على العرب في جميع النواحي فتنكر أهل سوسة لعاملهم أبي صعنونة هذا، وأحس بنكرائهم وخرج عنهم وتجافى للسلطان عن البلد. وثارت عامتها بعماله فأجهضوهم ونزل

عمال السلطان بها. ثم كانت من بعد ذلك حركة المولى أبي يحيى إلى نواحي طرابلس، ودوخ جهاتها واستوفى جباية عمالها. وكان بالمهدية محمد بن الجكجاك استعمله عليها الحاجب أبو محمد بن تافراكين أيام ارتجاعه إياها من يد أبي العباس بن مكي، والأمير أبي يحيى زكريا المنتزي بها ابن مولانا السلطان أبي بكر كما مر. وأقام ابن الجكجاك أميراً عليها، واستبد بها بعد موت الحاجب. فلما وخزته شوكة الاستطالة من الدولة، وطلع نحوه قتام العساكر فرق من الاستيلاء عليه، وركب أسطوله إلى طرابلس ونزل على صاحبها أبي بكر بن ثابت لذمة صهر قديم كانت بينهما. وبادر مولانا السلطان إلى تسلم المهدية، وبعث عليها عماله، وانتظمت في ملكيته واطردت أحوال الظهور والنجح وكان بعد ذلك ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فتح جربة وانتظامها في ملك السلطان:

كان محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون منذ ولاه أبو عبد الله بن تافراكين على هذه الجزيرة، قد تقبل مذاهب جيرانها من أهل قابس وطرابلس وسائر الجريد في الامتناع على السلطان ومصارفة الاستبداد وانتحال مذاهب الإمارة وطرقها ولبوس شارتها. وقد ذكرنا سلفه من قبل، وأن والده كان صاحب الأشغال بالحضرة أيام الحاجب أبي محمد بن تافراكين، وأنه اعتلق بمكاتبة إبنه أبي عبد الله فولاه على جربة عند افتتاحه إياها وأنه قصده عند مفره عن المولى أبي إسحق ليترل جربة معولا على قديم اصطناعه إياه فمنعه. ثم داخل شيوخ الجزيرة من بني سمومن في الامتناع على السلطان والاستبداد بأمرهم فأجابوه، وأقام ممتنعاً سائر دولة المولى أبي إسحق وإبنه من بعده.

ولما استولى مولانا السلطان أبو العباس على تونس داخله الروع والوحشة، وصار إلى مكاثرة رؤساء الجريد في التظافر على المدافعة بزعمهم فأجرى في ذلك شأوا بعيداً مع تخلفه في مضماره بقديمه وحديثه. وصادف السلطان سوء الامتثال وإتيان الطاعة

ومنع الجباية فأحفظ، ولما افتتح أمصار الساحل وثغوره سرح إبنه الأمير أبا بكر في العساكر إلى جربة ومعه خالصة الدولة محمد بن علي بن إبراهيم من ولد أبي هلال شيخ الموحدين، وصاحب بجاية لعهد المتنصر، وقد تقدم ذكره. وأمده بالأسطول في البحر لحصارها. ونزل الأمير بعسكره على مجازها ووصل إلى مرساها فأطاف بحصن القشتيل، وقد لاذ ابن أبي العيون بجدرانه وافترق عنه شيوخ الجزايرة من البربر، وانحاش بطانته من الجند المستخدمين معه بها. ولما رأوا ما لا طاقة لهم به، وأن عساكر السلطان قد أحاطت بهم براً وبحراً نزلوا إلى قائد الأسطول وأمكنوه من الحصن، وبادروا إلى معسكر الأمير فأقبل معهم الخاصة أبوعبد الله بن أبي هلال فيمن معه من بطانة الأمير وحاشيته فاقتحموا الحصن، وتقبضوا على محمد بن أبي العيون ونقلوه من حينه إلى الأسطول، واستولوا على داره وولوا على الجزيرة وارتحلوا قافلين إلى السلطان. ووصل محمد بن أبي العيون إلى الحضرة، ونزل بالديوان فأركب إلى القصبة على جمل، وطيف به على أسواق البلد إظهارا لعقوبة الله النازلة به وأحضره السلطان فوبخه على مرتكبه في العناد ومداخلته أهل الغواية من أمراء الجريد في الانحراف عنه. ثم تجافى عن دمه وأودعه السجن إلى أن هلك سنة تسع وسبعين.

الخبر عن استقلال الأمراء من الأبناء بولاية الثغور الغربية:

كان السلطان عندما استجمع الرحلة إلى أفريقية باستحثاث أهلها لذلك، ووفادة منصور بن حمزة شيخ الكعوب مرغبا فيها فأهمه عند ذلك شأن الثغور الغربية، وأجال اختياره في بنيه بسبر أحوالهم ويعيش عن الأكفاء لهذه الثغور منهم فوقع نظره أولاً على كبير ولده المخصوص بعناية الله في إلقاء محبته عليه الأمير أبي عبد الله فعقد له على بجاية وأعمالها، وأنزله بقصور الملك منها، وأطلق يده في مال الجباية وديوان الجند. واستعمل على قسنطينة وضواحيها لمولاه القائد بشير سيف دولته وعنان حربه، ناشىء قصره وتلاد مرباه. وكانت لهذا الرجل نخوة من الصرامة والبأس، ودالة بالقديم والحادث، وخلال لقيها أيام التقلب في أواوين الملك. وكان ملازماً ركاب

مولاه في مطارح اغترابه وأيام تحيصه. وربما لقي عند إلحاحه على قسنطينة من المحنة والإعتفال الطويل ما أعاضه الله عنه بجميل التنويه، وعود العز والملك إلى مولاه على أحسن الأحوال. وظفر من ذلك بالبغية وحصل من الرتبة على الأمنية. وكان السلطان يثق بنظره في العساكر ويبعثه في مقدمة الحروب، وكان عند استيلائه على بجاية وصرف عنايته إليها ولاه أمر قسنطينة وأنزله بها وأنزل معه إبنه الأمير أبا إسحق، وجعل إليه كفالته لصغره ثم استنفره بالعسكر عند النهوض إلى أفريقية فنهض في جملته وشهد معه الفتح. ثم رجعه إلى عمله بقسنطينة بمزيد التفويض والاستقلال، فلم يزل بما دفع إليه من ذك إلى أن هلك.

وكان السلطان قد أوفد إبنه أبا إسحق على ملك المغرب السلطان عبد العزيز عندما استولى على تلمسان مهنياً بالظفر ملفحاً غراس الود، وأوفد معه شيخ الموحدين ببابه أبا إسحق بن أبي هلال، وقد مر من قبل ذكره وذكر أخيه فتلقاهما ملك المغرب بوجوه المبرة والاحتفاء، ورجعهما بالحديث الجميل عنه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة. ونزل الأمير أبو إسحق بقسنطينة دار أمارته، وعمد له السلطان عليها وألقاب الملك ورسومه مصروفة إليه. والقائد بشير مولى إبنه مستبد عليه لمكان صغره إلى أن اهمك بشير سنة ثمان وسبعين وسبعمائة عندما استكمل الأمير أبو إسحق الخلال، واستجمع للأمارة فجدد له السلطان عهده عليها وفوض إليه في أمارتها وقام بما دفع إليه من ذلك أحسن مقام وأكفأه مصدقاً الظنون التي كانت تومىء إليه وشهادة المخايل التي دلت عليه، فاستقل هذان الأميران بثغر بجاية وقسنطينة وأعمالها مفوضاً إليهما في الأمارة مأذونا لهما في اتخاذ الآلة وإقامة الرسوم الملوكية والشارة. وكان الأمير أبو يحيى زكريا الأخ الكريم مستقلاً أيضاً ببونة وعملها منذ استيلائه عليها قد أضافها السلطان إليه وأصارها في سهمانه، فلما ارتحلوا إلى أفريقية عام الفتح وتيقن الأخ أبو يحيى طول مغيبه واغتباط السلطان أخيه بكونه معه، عقد عليه لإبنه الأمير أبي عبد الله محمد وأنزله بقصره منها وفوض إليه في أمارتها لما استجمع من خلال الترشيح والذكر الصالح في

الدين. واستمر الحال على ذلك لهذا العهد وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة والله مدبر الأمور.

الخبر عن فتح قفصة وتوزر وانتظام أعمال قسنطينة في طاعة السلطان:

كان أمر هذا الجريد قد صار شورى بين رؤساء أمصاره فيما قبل دولة السلطان أبي بكر لاعتلال الدولة حينئذ بانقسامها كما مر، فلما استبد السلطان أبو بكر بالدعوة الحفصية وفرغ من الشواغل صرف إليهم نظره وأوطأهم عساكره. ثم نهض بنفسه فجاء أثر الشورى منها، وعقد لابنه أبي العباس عليها كما قلناه. فلما كان بعد مهلكه من اضطراب أفريقية وتغلب الأعراب على نواحيها ما كان منذ هزيمة السلطان أبي الحسن وبني مرين بالقيروان عاد أهل الشورى في الجريد إلى دينهم من التوثب على الأمر والاستبداد على السلطان، وتناغى رؤساؤهم بعد أن كانوا سوقة في انتحال مذاهب الملك وشاراته، يقتعدون الأرائك ويعقدون في المشي بين السكك المواكب، ويهينون في إيوائهم سبال الأشراف ويتخذون الآلة أيام المشاهد آية للمعتبرين لي تقلب الأيام وضحكة لأهل الشمات، حتى لقد حدثتهم أنفسهم بألقاب الخلافة، وأقاموا على ذلك أحوالاً، والدولة في التياثها. فلما استبد السلطان أبو العباس بأفريقية وعمالاتها، وأتيح منه بالحضرة البازي المطل من مرقبه

والأسد الحادر في عرينه، وأصبحوا فرائس له يتوقعون انصبابه إليهم وتوثبه بهم، داخلوا حينئذ الأعراب في مدافعته عنهم بإضرام نار الفتنة، واقتعاد مطية الخلاف والنفاق يفتون بذلك في عزائمه. وأرخى هو لهم طيل الأمهال وفسح لهم مجال الإيناس بالمقاربة والوعد، رجاء الفيئة إلى الطاعة المعروفة والاستقامة على الجادة فأصروا وازدادوا عنادا ونفاقاً. فشفر لهم عن عزائمه ونبذ إليهم عهدهم على سواء.

ونهض من الحضرة سنة سبع وسبعين وسبعمائة في عساكره من الموحدين وطبقات الجند والموالي وقبائل زناتة ومن استألف إليه من العرب أولاد مهلهل وحكيم، وإظاهر أولاد أبي الليل على المدافعة عن أهل الجريد، وواقفوا

السلطان أياماً. ثم أجفلوا أمامه وغلبهم السلطان على رعاياهم مرنجيزة، وكانوا من بقايا بني يفرن عمروا ضواحي أفريقية مع ظواعن هوارة ونفوسة ونفزاوة. وكانت للسلطان عليهم مغارم وجبايات وافرة. فلما تغلب المغرب على لسائط أفريقية وتنافسوا في الإقطاعات كانت ظواعن مرنجيزة هؤلاء في أقطاع أولاد حمزة، فكانت جبايتهم موفورة ومالهم دثرا بما صاروا مدداً لهم بالمال والكراع والزرع والأدم، وبالفرسان منهم يستظهرون في حروبهم مع السلطان ومن قومهم فاستولى السلطان عليهم في هذه السنة واكتسح أموالهم، وبعث برجالهم أسرى إلى سجون الحضرة وقطع بها عنهم أعظم مادة كانت تمدهم فخمد بذلك من عتوهم وقص من جناحهم آخر الدهر، ووهنوا لها. ثم عاد السلطان إلى حضرته وافترق أشياعه ونزع عنهم أبو صعنونة فتألف مع أولاد أبي الليل، ورجعوا إلى الحضرة فأجلبوا بساحلها أياماً، وشنوا الغارات عليها. ثم انفضوا عنها وخرج على أثرهم لأول فصل الشتاء، وتساحل إلى سوسة والمهدية فاقتضى مغارم الأوطان التي كانت لأبي صعنونة، ثم رجع إلى القيروان وارتحل منها يريد قفصة. وجمع أولاد أبي الليل للمدافعة عنها، وسرب فيهم صاحب توزر الأموال فلم تغن عنه. وزحف السلطان إلى قفصة فنازلها ثلاثاً ولجوا فى عصيانهم وقاتلوه فجمع الأيدي على قطع نخيلهم فتسايلت إليه الرعية من أماكنهم وأسلموا أحمد بن العابد مقدمهم وإبنه محمد المستبد عليه لكبره وذهوله، فخرج إلى السلطان واشترط له ما شاء من الطاعة والخراج، ورجع إلى البلد وقد ماج أهلها بعضهم في بعض، وهموا بالخروج فسابقهم إبنه أحمد المستبد على أبيه. وكان السلطان سرح أخاه أبا يحيى في الخاصة والأولياء إلى البلد، فلقيه محمد هذا في ساحتها فبعث به إلى السلطان، ودخل هو إلى القصبة وتملك البلد. وتقبض السلطان على محمد بن العابد لوقته، وسيق إليه أبوه من البلد فجعل معه واستولى على داره وذخائره.

واجتمع المدد والكافة من أهل البلد عند السلطان، وأتوه بيعتهم عليها لابنة أبي بكر، وارتحل يغذ السير إلى توزر وقد طار الخبر بفتح قفصة إلى ابن يملول فركب لحينه، واحتمل أهله وما خف من ذخيرته، ولحق بالزاب. وطير أهل توزر بالخبر إلى

السلطان فلقيه أثناء طريقه، وتقدم إلى البلد فملكها واستولى على ذخيرة ابن يملول، ونزل بقصوره فوجد بها من الماعون والمتاع والسلاح وآنية الذهب والفضة ما لا يعدّ لأعظم ملك من ملوك الأرض، وأحضر بعض الناس ودائع كانت عنده من نفيس الجوهر والحلى والثياب وبرؤا منها إلى السلطان.

وعقد السلطان على توزر لإبنه المنتصر وأنزله قصور ابن يملول، وجعل إليه إمارتها. واستقدم السلطان الخلف بن الخلف صاحب نفطة فقدم عليه وأتاه طاعته، وعقد له على بلده وولاية حجابة إبنه بتوزر وأنزله معه وقفل إلى الحضرة. وقد كان أهل الخلاف من العرب عند تغلبه على أمصار الجريد خالفوه إلى التلول، فلما قصد حضرته اعترضوه دونها فأوقع بهم وفل من غربهم، وأجفلوا إلى الجهات الغربية يؤملون منها كرة، ولما كن ابن يملول قد جأجأ بهم إلى خدمة صاحب تلمسان والاستجاشة به، فوفد عليه بتلمسان منصور بن خالد منهم ونصر ابن عمه منصور صريخين به على عادة صريخهم بأبي تاشفين سلفه فدافعهم بالمواعد، وتبينوا منها عجزه وانكفوا راجعين. ووفد صولة على السلطان بعد أن توثق له لنفسه فاشترط له على قومه ما شاء، ورجع إليهم فلم يرضوا بشرطه. ونهض السلطان من الحضرة في العساكر والأولياء من العرب، وأجفلوا أمامه فاتبعهم وأوقع بهم ثلاث مرات واقفوه فيها. ثم أجفلوا ولحقوا بالقيروان وقدم وفدهم على السلطان بالطاعة والاشتراط له كما يشاء فتقيل ووسعهم عفوه، وصاروا إلى الانقياد والاعتمال في مذاهب السلطان ومرضاته، وهم على ذلك لهذا العهد.

الخبر عن ثورة أهل قفصة ومهلك ابن الخلف:

لما استقل الخلف بن علي بن الخلف بحجابة المنتصر ابن السلطان، وعقد له مع ذلك على عمله بنفطة فاستخلف عليها عامله، ونزل بتوزر مع المنتصر. ثم سعى به أنه يداخل ابن يملول ويراسله فبث عليه العيون والأرصاد، وعثر على كتابة بخط كاتبه المعروف إلى ابن يملول وإلى يعقوب بن علي أمير الزواودة يحرضهما على الفتنة، فتقبض عليه وأودعه السجن. وبعث عماله إلى نقطة واستولى على أمواله وذخائره، وخاطب أباه في شأنه فأمهله بعد أن تبين نقضه للطاعة وسعيه في الخلاف. وكان السلطان قبل فتح قفصة قد نزع إليه من بيوتاتها أحمد بن أبي زيد، وسار في ركابه إليها. فلما

استولي على البلد رعى له ذمة نزوعه إليه، وأوصى به إبنه أبا بكر فاستولى على مشورته وحله وعقده، وطوى على النث. ثم حدثته نفسه بالاستبداد وتحين له المواقيت. واتفق أن سار الأمير أبو بكر من نفطة لزيارة أخيه المنتصر بتوزر، وخلف بالبلد عبد الله التريكي من مواليهم، وكان السلطان أنزله معه، وولاه حجابته فلما توارى الأمير عن البلد داخل ابن أبي زيد عنفة من الأوغاد، وطاف في سكك المدينة والهاتف معه ينادي بالثورة ونقض الطاعة. وتقدم إلى قفصة فأغلقها القائد عبد الله دونه، وحاربها، فامتنعت عليه. وقرع عبد الله الطبل بالقصبة واجتمع عليه أهل القرى فأدخلهم من باب كان بالقصبة يفضي إلى الغابة فكثروا شيع ابن أبي زيد، وتسلل عنه الناس فلاذ بالاختفاء. وخرج القائد من القصبة فتقبض على كثير من أهل الثورة فأودعهم السجن واستولى على البلد. وسكن الهيعة وطار الخبر إلى المولى أبي بكر فأغذ السير منقلباً إلى قفصة. ولحين

دخوله ضرب أعناق المعتقلين من أهل الثورة وأمر الهاتف فنادى في الناس بالبراءة من ابن أبي زيد وأخيه. ولأيام من دخوله عثر بهما الحرس في مقاعدهم بالباب ستترين بزي النساء فتقبضوا عليهما وتلوهما إلى الأمير فضرب أعناقهما وصلبهما في جذوع النخل. وكانا من المترفين فأصبحا مثلاً في الأيام وقد خسراً دينهما ودنياهما، وذلك هو الخسران المبين. وارتاب المنتصر صاحب توزر حينئذ بابن خلف، وحذر مغبة حاله فقتله بمحبسه وذهب في كير سبيل مرحمة وانتظم السلطان أمصار الجريد كلها في طاعته، واتصل ظهوره إلى أن كان ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فتح قابس وانتظامها في ملكة السلطان:

هذا البلد لم يزل في هذه الدولة الحفصية لبني مكي المشهور ذكرهم في هذه العصور وما إليها. وسيأتي ذكر أخبارهم ونسبهم وأوليتهم في فصل نفرده لهم فيما بعد. وكان أصل رياستهم فيها اتصالهم بخدمة الأمير أبي زكريا الأول أيام ولايته قابس سنة ثلاث

وعشرين وستمائة فاختصوا به، وداخلهم في الانتقاض على أخينا أبي محمد عبد الله عندما استجمع لذلك، فأجابوه وبايعوا له فرعى لهم هذه الوسائل عندما استبد بأفريقية، وأفردهم برياسة الشورى كما في بلدهم. ثم سموا إلى الاستبداد عندما فشل ريح الدولة عن القاصية بما حدث من فتن وانفراد الثغور الغربية بالملك. ولم يزالوا جانحين إلى هذا الاستبداد سانحين إليه بثأر الفتن والانتقاض على السلطان ومداخلة الثوار والأجلاب بهم على الحضرة، والدولة أثناء ذلك في شغل عنهم وعن سواهم من أهل الجريد منذ أحقاب متطاولة بما كان من انقسام الدولة، وإلحاح صاحب الثغور الغربية على مطالبه الحضرة.

ثم استبد مولانا السلطان بالدعوة الحفصية في سائر عمالات أفريقية، وشغله عنهم شاغل الفتنة مع صاحب تلمسان في الأجلاب على الحضرة مع جيوشه، ومنازلتهم ثغر بجاية وتسريبه جيوش بني عبد الواد مرة بعد أخرى مع الأعياص من بني أبي حفص والعرب إلى أفريقية. وكان المتولي لرياسة قابس يومئذ عبد الملك بن مكي بن أحمد بن عبد الملك ورديفه فيها أخوه أحمد، وكانا يداخلان أبا تاشفين صاحب تلمسان في الأجلاب على الحضرة مع جيوشه والثوار القادمين معهم. وربما خالفوا السلطان إلى الحضرة أزمان مغيبه عنها كما وقع له مع عبد الواحد بن اللحياني، وقد مر ذكر ذلك. فلما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان، وانمحى أثر بني زيان فرغ السلطان أبو بكر لهؤلاء الثوار الرؤساء بالجريد الدائنين بالانتقاض سائر أيامهم. وزحف إلى قفصة فملكها فذعروا ولحق أحمد بن مكي بالسلطان أبي الحسن متذمماً بشفاعته، بعد أن كان الركب الحجازي من المغرب مر بقابس وبه بعض كرائم السلطان فأوسعوا حباءها وسائر الركب قرى وحباء. وقدموا ذلك وسيلة بين يدي وفادته فتقبل السلطان وسيلته، وكتب إلى مولانا السلطان أبي بكر شافعاً فيهم لذمة السلطان والصهر فمقبل شفاعته وتجاوز. عن الانتقام منهم بما اكتسبوه.

ثم هلك مولانا السلطان أبو بكر وهاج بحر الفتنة والخلاف وعادت الدولة إلى حالها من الانقسام، واشتدت على صاحب الحضرة وجوه الانتصاف منهم فعاد بنو مكي وسواهم من رؤساء الجريد إلى حالهم من الاستبداد على الدولة. وقطع أسباب الطاعة ومنع المغارم

والجباية، ومشايعة صاحب الغربية ركوناً على صاحب الحضرة. فلما استبد مولانا السلطان أبو العباس بالدعوة الحفصية وجمع الكلمة، واستولى على كثير من الثغور المنتقضة تراسل أهل هذه القصور الجريدية وتحدثوا فيما دهمهم وطلبوا وجه الخلاص منه، والامتناع عليه.

وكان عبد الملك بن مكي أقعدهم بذلك لطول مراسه الفتن وانحياشه إلى الثوار، وكان أحمد أخوه وردیفه قد هلك سنة خمس وستين وسبعمائة، وانفرد هو برياسة قابر فراسلوه وراسلهم في الشأن، وأجمعوا جميعاً على تخبيب العرب على السلطان، وتسريب الأموال فيهم، ومشايعة صاحب تلمسان بالترغيب في ملك أفريقية فانتدبوا لذلك من كل ناحية. وبعثوا البريد إلى صاحب تلمسان فأطمعهم من نفسه، وعللهم بالمواعيد الكاذبة والسلطان أبو العباس مقبل على شأنه، يفتل لهم في الذروة والغارب حتى غلب أولاد أبي الليل الذين كانوا يعدونهم بالمدافعة عنهم، وافتتح قفصة وتوزر ونفطة. وتبين لهم عجز صاحب تلمسان عن صريخهم، فحينئذ بادر عبد الملك إلى مراسلة السلطان يعده من نفسه الطاعة والوفاء بالجباية، ويستدعي لاقتضاء ذلك منه بعض حاشيته فأجابه إلى ذلك، وبعث وافده إليه ورجع إلى الحضرة في انتظاره فطاوله ابن مكي في العرض ورده بالوعد.

ثم اضطرب أمره وانتقض عليه أهل ضاحيته بنو أحمد إحدى بطون دباب، وركبوا

إليه فحاصروه وضيقوا عليه، واستدعوا المدد لذلك من الأمير أبي بكر صاحب قفصة وأمدهم بعسكر وقائد فنازلوه واشتد الحصار. واتهم ابن مكي بعض أهل البلد بمداخلتهم فكبسهم في منازلهم وقتلهم، وتنكرت له الرعية وساء حاله، ودس إلى بعض المفسدين من العرب من بني علي في تبييت العسكر المحاصرين له، واشترط لهم على ذلك ما رضوه من المال فجمعوا لهم وبيتوهم فانفضوا ونالوا منهم. وبلغ السلطان خبرهم فأحفظه وأجمع الحركة على قابس وعسكر بظاهر الحضرة في رجب سنة إحدى وثمانين وسبعمائة، وتلوم أياماً حتى استوفى العطاء واعترض العساكر، وتوافت أحياء أوليائه من أولاد مهلهل

وأحلافهم من سائر سليم. ثم ارتحل إلى القيروان وارتحل منها يريد قابس، وقد استكمل التعبية. وبادر إلى لقائه لأخذ

بطاعته مشيخة دباب أعراب قابس من بني سليم. ووفد منهم خالد بن سباع بن يعقوب شيخ المحاميد، وابن عمه علي بن راشد فيمن إليهم يستحثونه إلى منازلة قابس، فأغذ السير إليها، وقدم رسله بين يديه بالإنذار لابن مكي. وانتهوا إليه فرجعهم بالإنابة والانقياد إلى الطاعة. ثم احتمل رواحله وعبّى ذخائره وخرج من البلد، ونزل على أحياء دباب هو وإبنه يحيى وحافده عبد الوهاب ابن إبنه مكي الهالك منذ سنين من قبل.

واتصل الخبر إلى السلطان فبادر إلى البلد ودخلها في ذي القعدة من سنته، واستولى على منازل ابن مكي وقصوره. ولاذ أهل البلد بطاعته وولّى عليها من حاشيته، وكان أبو بكر بن ثابت صاحب طرابلس قد بعث إلى السلطان بالطاعة والانحياش، ووافته رسله دوين قابس. فلما استكمل فتحها بعث إليه من حاشيته لاقتضاء ذلك فرجعهم بالطاعة، وأقام عبد الملك بن مكي بعد خروجه من قابس بين أحياء العرب ليالي قلائل. ثم بغته الموت فهلك ولحق إبنه وحافده بطرابلس فمنعهم ابن ثابت الدخول إليها فنزلوا بزنزور من قراها في كفالة الجواري من بطون دباب. ولما استكمل السلطان الفتح وشؤونه انكفأ راجعاً إلى الحضرة فدخلها فاتح إثنتين وثمانين وسبعمائة، ولحقه رسله من طرابلس بهدية ابن ثابت من الرقيق والمتاع بما فيه الوفاء بمغارمه بزعمه.

ووفد عليه بعد استقراره بالحضرة رسل أولاد أبي الليل متطارحين في العفو عنهم والقبول عليهم فأجابهم إلى ذلك، ووفد صولة بن خالد شيخهم وقبله أبو صعنونة شيخ حكيم، ورهنوا أبناءهم على الوفاء واستقاموا على الطاعة. واتصل النجح والظهور، والأمر على ذلك لهذا العهد، وهو فاتح ثلاث وثمانين وسبعمائة والله مالك الأمور لا رب غيره.

الخبر عن استقامة ابن مزني وانقياده وما اكتنف ذلك من الأحوال:

كان هؤلاء الرؤساء المستبدون بالجريد والزاب منذ فرغ السلطان لهم من الشواغل،

واسترابوا بمغبة حالهم معه ومراوغتهم له بالطاعة يرومون استحداث الشواغل، ويؤملون لها سلطان تلمسان لعهدهم أبا حمو الأخير وأنه يأخذ بحجزته عنهم أن وصلوا به أيديهم، واستحثوه لذلك لإيلافهم مثلها من سلف قومه. وأبي حمو وبن تاشفين من قبله

قياساً متورطاً في الغلط بعيداً من الإصابة لما نزل بسلطان بني عبد الواد في هذه العصور من الضعف والزمانة، وما أصاب قومهم من الهلاك والشتات بأيديهم وأيدي عدوهم وتقدمهم في هذا الشأن أحمد بن مزني صاحب بسكرة لقرب جواره، واشتهار مثلها من سلفه فاتبعوه وقلدوه وغطى هواهم جميعاً على بصيرتهم. وقارن ذلك نزول الأمير أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد عم أبي حمو علي بن يملول بتوزر عند منابذة سالم بن إبراهيم الثعالبي إياه، وكان طارد به أياماً. ثم راجع أبا حمو وصرفه سنة ثمان وسبعين وسبعمائة فخرج من أعمال تلمسان وأبعد المذهب عنهم، ونزل على ابن يملول بتوزر.

وطير الخبر إلى إمامه في تلك الفتنة أحمد بن مزني واغتبطوا بمكان أبي زيان، وأن تمسكهم به ذريعة إلى اعتمال أبي حمو في مرضاتهم، وإجابته إلى داعيهم وركض بريدهم إلى تلمسان في ذلك ذاهباً وجائياً حتى أعيت الرسل واشتبهت المذاهب، ولم يحصلوا على غير المقاربة والوعد لكن على شريطة التوثق من أبي زيان. وبينما هم في ذلك إذ هجم السلطان على الجريد وشرد عنه أولاد أبي الليل الذين تكفلوا لرؤسائه بالمدافعة. وافتتح قفصة وتوزر ونفطة، ولحق يحيى بن يملول ببسكرة، واستصحب الأمير أبا زيان فنزل على ابن مزني، وهلك لأيام قلائل كما ذكرنا. واستحكمت عندها استرابة يعقوب بن علي شيخ رياح بأمره مع السلطان لما سلف منه في مداخلة هؤلاء الرهط وتمسكهم بحقويه والمبالغة في العذر عنهم. ثم غيرته بأنظاره من مشيخة الزواودة الذين

انحاشوا إلى السلطان فأفاض عليهم عطاءه، واختصهم بولايته فحدث لذلك منه نفرة واضطراب، وارتحل إلى السلطان أبي حمو صاحب تلمسان فاتح إثنتين وثمانين وسبعمائة يستجيشه لهؤلاء الرهط ويهزه بها إلى البدار بصريخهم.

ونزل على أولاد عريف أوليائه من سويد، وأوفد عليه إبنه فتعلل لهم بمنافرة حدثت

في الوقت بينه وبين صاحب المغرب ، وأنه لهم بالمرصاد متى رابهم ريب من نهوض السلطان أبي العباس إليهم، تمسك بذلك طرف التوثق من أبي زيان وربما دس إليهم بمشارطة اعتقاله وإلقائه في غيابات السجون. وفي مغيب يعقوب هذا طرق السلطان تمحيص مر المرض أرجف له المفسدون بالجريد ودس شيع آل يملول بتحيزه إلى صبي من أبناء يحيى مخلف ببسكرة، فذهل ابن مزني عن التثبت لها ذهاباً مع صاغية الولد وأوليائه، وجهزهم لانتهاز الفرصة في توزر مع العرب المشارطين في مثلها بالمال، وأغذوا السير إلى توزر على حين غفلة من الدهر وخف من الجند فجلى المنتصر وأوليائه في الامتناع، وصدق الدفاع وتمحصت بهذا الابتلاء طاعة أهل توزر ومخالصتهم، وانصرف ابن يملول بإخفاق من السعي واليم من الندم وتوقع للمكاره. ووافق ببسكرة قدوم يعقوب بن علي مرجعه من الغرب فبالغ في تغييبهم بالملامة على ما أحدثوا بعده من هذا الخرق المتسع المعي على الراقع.

وكان السلطان لأول بلوغ الخبر بأجلابهم على توزير وممالأة ابن مزني على إبنه وأوليائه أجمع النهوض إلى بسكرة وعسكر بظاهر الحضرة، وفتح ديوان العطاء وجهز آلات الحصار. وسرى الخبر بذلك إليهم فخلصوا نجياً ونفضوا عيبه آرائهم فتمحض لهم اعتقال أبي زيان الكفيل لهم بصريخ أبي حمو على زعمه فتعللوا عليه ببعض النزعات، وتورطوا في إخفار ذمته وطيروا بالصريخ إلى أبي حمو، وانتظروا فما راعهم إلا وافده بالعذر عن صريخهم والإعاضة بالمال فتبينوا عجزه ونبذوا عهده، وبادروا علية لتخلية السبيل لأبي زيان والعذر له لما كان السلطان نكر عليهم من أمره فارتحل عنهم ولحق بقسنطينة. وحملهم ابن علي على اللياذ بالطاعة، وأوفد ابن عمه متطارحاً وشافعاً فتقبل السلطان فيئته ووسيلته، وأغضى لابن مزني عن هناته وأسعفهم بكبير دولته وخالصة سره أبي عبد الله بن أبي هلال ليتناول منه المخالصة. ويمكن له الألفة وتمسح عن هواجس الارتياب والمخافة.

وكان لقاؤه أشهى إليهم من الحياة ففصل عن الحضرة، وانتهى السلطان في ذي القعدة آخر سنة إثنتين وثمانين وسبعمائة لتفقد أعماله وابتلاء الطاعة من أهل أوطانه. ولما

وصل وافد السلطان إلى ابن مزني ألقى زمامه إليه وحكمه في ذات يده وقبله، ومحا أثر المراوغة واستجد لبؤس الانحياش والطاعة، وبادر إلى استجادة المقربات وانتقى صنوف التحف. وبعث بذلك في ركاب الوافد مع الذي عليه من الضريبة المعروفة محملاً أكتاد ثقاته وظهور مطاياه. ووصلوا معسكر السلطان بساح تبسة فاتح ثلاث وثمانين وسبعمائة، فجلس لهم السلطان جلوساً فخماً ولقاهم قبولاً وكرامة فعرضوا الهدية، وأعربوا عن الانحياش والطاعة وحسن موقع ذلك من السلطان وشملهم إحسان السلطان في مقاماتهم وجوائزه على الطبقات

في انصرافهم، وانقلبوا بما ملأ صدورهم إحساناً ونعمة، وظفروا برضى السلطان وغبطته. وحسبهم بها أمنية وبيد الله تصارف الأمور ومظاهر الغيوب.

الخبر عن انتقاض أولاد أبي الليل ثم مراجعتهم الطاعة:

قد ذكرنا ما كان من رجوع أولاد أبي الليل هؤلاء إلى طاعة السلطان إثر منصرفه من فتح قابس، وأنهم وفدوا عليه بالحضرة فتقبلهم وعفا عنهم كبائرهم واسترهن على الطاعة أبناءهم، واقتضى بالوفاء على ذلك إيمانهم. وخرج الأخ الكريم أبو يحيى زكريا في العساكر لاقتضاء المغارم من هوارة التي استأثروا بها في فترة هذه الفتن. وارتحل معه أولاد أبي الليل وأحلافهم من حكيم حتى استوفى جبايته وجال في أقطار عمله. ثم انكفأ راجعاً إلى الحضرة، ووفدوا معه على السلطان يتوسلون به في إسعافهم بالعسكر إلى بلاد الجريد لاقتضاء مغارمهم على العادة واستيفاء إقطاعاتهم فسرح السلطان معهم لذلك إبنة أبا فارس، وارتحلوا معه بأحيائهم وكان ابن مزني وابن يملول من قبله وابن يعقوب بن علي كثيراً ما يراسلونهم ويستدعونهم لمثل ما كانوا فيه من الانحراف ومشايعة صاحب تلمسان.

ولما اعتقلوا أبا زيان ببسكرة كما ذكرناه وثوقاً بصريخ أبي حمو ومظاهرته. نبضت عروق الخلاف في أولاد أبي الليل ونزعوا إلى اللحاق بيعقوب بن عليّ رجاء فيما

توهموه من استغلاظ أمرهم بصاحب تلمسان ويأساً من معاودة التغلب الذي كان لهم على ضواحي أفريقية ففارقوا الأمير أبا فارس بعد أن أبلغوه مأمنه من قفصة، وساروا بأحيائهم إلى الزاب فلم يقعوا على الغرض ولا ظفروا بالبغية، ووافوا يعقوب وابن مزني، وقد جاءهم وافد أبي حمو بالقعود عن نصرتهم، والأمير أبو زيان قد انطلق لسبيله عنهم فسقط في أيديهم وعاودهم الندم على ما استدبروا من أمرهم، وحملهم يعقوب على مراجعة السلطان وأوفد ابنه محمداً في ذلك مع وافد العزيز أبي عبد الله محمد بن أبي هلال فتقبلهم وأحسن التجاوز عنهم. وبعث أبا يحيى أخاه لاستقدامهم أماناً لهم وتأنيساً . وبذل لهم فوق ما أملوه من مذاهب الرضى والقبول واتصال النجح والظهور، والحمد لله وحده.

تغلب ابن يملول علي توزر وارتجاعها منه:

قد كان تقدم لنا أن يحيى بن يملول لما هلك ببسكرة تخلف صبياً إسمه أبو يحيى، وذكرنا كيف أجلب على توزر سنة إثنتين وثمانين وسبعمائة مع لفيف أعراب رياح

ومرداس. فلما كان سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة بعدها وقعت مغاضبة بين السلطان وبين أولاد هلال من الكعوب، وانحدروا إلى مشاتيهم بالصحراء فبعث أميرهم يحيى بن طالب عن هذا الصبي أبي يحيى من بسكرة، ونزل بأحيائه بساح توزر، ودفع الصبي إلى حصارها، واجتمع عليه شيعته من نواحي البلد وأوشاب من أعراب الصحراء، وأجلبوا على البلد وناوشوا أهلها القتال، وكان بها المنتصر ابن السلطان فقاتلهم أياماً. ثم تداعى شيعهم من جوانب المدينة وغلبوا عساكرهم وأحجروهم بالبلد، ثم دخلوا عليهم، وخرج المنتصر ناجياً بنفسه إلى بيت يحيى بن طالب. واستذم به فأجاره وأبلغه إلى مأمنه بقفصة، وبها عاملها عبد الله التريكي.

واستولى ابن يملول على توزر، واستنفد ما معه وما استخرجه من ذخائرهم بتوزر في أعطيات العرب، وزادهم جباية السنة من البلد بكمالها، ولم يحصل على رضاهم. وبلغ الخبر إلى السلطان بتونس فشمر عزائمه وعسكر بظاهر البلد، واعترض الجند

وأزاح عللهم وارتحل إلى ناحية الأربص، وهو يستألف الأعراب ويجمع لقتال أولاد مهلهل أقتالهم وأعداءهم أولاد أبي الليل وأولياءهم وأحلافهم ليستكثر بهم، حتى نزل فحص تبسة فأراح بهم أياماً حتى توافت أمداده من كل ناحية، ثم نهض يريد توزر. ولما احتل بقفصة قدم أخاه الأمير أبا يحيى وإبنه الأمير المنتصر في العساكر ومعهما صولة بن خالد بقومه أولاد أبي الليل، وسار على أثرهم في التعبية. ولما انتهى أخوه وإبنه إلى توزر حاصروها وضيقوا عليها أياماً. ثم وصل السلطان فزحف إليها العساكر من جوانبها وقاتلوها يوماً إلى المساء. ثم باكروها بالقتال فخذل ابن يملول أصحابه وأفردوه فذهب ناجياً بنفسه إلى حلل العرب، ودخل السلطان البلد واستولى عليه، وأعاد إبنه إلى محل إمارته منه وانكفأ راجعاً إلى قفصة. ثم إلى تونس منتصف أربع وثمانين وسبعمائة.

ولاية الأمير زكريا ابن السلطان علي توزر:

ثم عاد ابن يملول إلى الأجلاب على توزر من السنة القابلة وخرج السلطان في عساكره فكر راجعاً إلى الزاب، ونزل السلطان قفصة ووافاه هنالك إبنه المنتصر، وتظلم أهل توزر من أبي القاسم الشهرزوري الذي كان حاجباً للمنتصر فسمع شكواهم، وأنهى إليه الخاصة سوء دخلته وقبيح أفعاله فقبض عليه بقفصة واحتمله مقيداً إلى تونس.

وغضب لذلك المنتصر وأقسم لا يلي على توزر. وسار معه السلطان إلى تونس وولى على توزر الأمير زكريا من ولده الأصاغر لما كان يتوسم فيه من النجابة فصدقت فراسته فيه، وقام بأمرها وأحسن المدافعة عنها وقام باستئلاف الشارد من أحياء العرب وأمرائهم حتى تم أمره وحسنت ولايته، والله متولى الأمور بحكمته سبحانه لاإله إلا هو.

وفاة الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية:

كان السلطان لما سار إلى فتح تونس و ولّى على بجاية إبنه محمداً كما مر وأقام له حاجبا،

وأوصاه بالرجوع إلى محمد بن أبي مهدي زعيم البلد وقائد الأسطول المتقدم على أهل الشطارة والرجولة من رجل البلد ورماتهم، فقام هذا الأمير أبو عبد الله في منصب الملك ببجاية أحسن قيام واصطنع ابن أبي مهدي أحسن اصطناع فكان يجري في قصوره وأغراضه ويكفيه مهمة في سلطانه، ويراقب مرضاة السلطان في أحواله، والأمير يعرف له ذلك ويوفيه حقه إلى أن أدركته المنية أوائل خمس وثمانين وسبعمائة فتوفي على فراشة آنس ما كان سرباً وآمن روعاً مشيعاً من رضى أبيه ورعيته بما يفتح له أبواب الرضى من ربه، وبلغ نعيه إلى أبيه بتونس فبادر بإنفاذ العهد لإبنه أبي العباس أحمد بولاية بجاية مكان أبيه، وجعل كفالة أمره لابن أبي مهدي مستبداً عليه واستقامت الأمور على ذلك.

حركة السلطان إلي الزاب:

كنت أنتهي بتأليف الكتاب إلى ارتجاع توزر من يد ابن يملول وأنا يومئذ مقيم بتونس، ثم ركبت البحر منتصف أربع وثمانين وسبعمائة إلى بلاد الشرق لقضاء الفرض ونزلت بالإسكندرية ثم بمصر، وصرت أخبار المغرب تبلغنا على ألسنة الواردين، فمن أول ما بلغنا وفاة هذا الأمير ابن السلطان ببجاية سنة خمس وثمانين وسبعمائة. ثم بلغنا بعدها حركة السلطان إلى الزاب سنة ست وثمانين وسبعمائة، وذلك أن أحمد بن مزني صاحب بسكرة والزاب لعهده كان مضطرب الطاعة يجير على السلطان ويمنع في أكثر السنين المغارم معولاً على مدافعة العرب الذين ملكوا ضواحي الزاب والتلول دونه، وأكثر وثوقه في ذلك بيعقوب ابن علي وقومه الزواودة. وقد مر طرف من أخباره في ذلك مثبوتاً في أخبار الدولة. وكان ابن يملول قد أوى إلى بلده واتخذ وكراً في وجوه وأجلب على توزر مراراً برأيه ومعونته فأحفظ ذلك السلطان ونبه له عزائمه.

ثم نهض سنة ست وثمانين وسبعمائة يريد الزاب بعد أن جمع الجموع واحتشد الجنود واستألف العرب من بني سليم فصاروا معه وأوعبوا، ومر على فحص تبسة. ثم خرج من طرف جبل أوراس إلى بلد تهودا من أعمال الزاب، واعصوصب الزواودة ومن

تبعهم من قبائل رياح على المدافعة دون بسكرة والزاب غيرة من بني سليم أن يطرقوا أوطانهم أو يردوا مراعيهم إلا بني سباع بن شبل من الزواودة فإنهم تحيزوا إلى السلطان. واستنفر ابن مزني حماة وطنه ورجالة قومه من الأتبج فغصت بسكرة بجموعهم وتوافت الفريقان، وأناهم السلطان القتال أياماً وهو يراسل يعقوب بن علي ويستحثه لما كان يطمعه به من المظاهرة على ابن مزني، ويعقوب يخادعه بانحراف قومه عنه وائتلافهم على ابن مزني ويرغبه في قبول طاعته ووضع أوزار الحرب مع رياح حتى تتمكن له فرصة أخرى فتقبل السلطان نصيحته في ذلك وأغضى لابن مزني ولرياح عنها، وقبل طاعته وضريبته المعلومة، وانكفأ راجعاً، ومر بجبل أوراس، ثم إلى قسنطينة فأراح بها ثم ارتحل إلى تونس فوصل إليها منتصف ست وثمانين وسبعمائة.

حركة السلطان إلى قابس

كان السلطان قد فتح مدينة قابس سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وانتظمها في أعماله وشرد عنها بني مكي فذهبوا إلى نواحي طرابلس، وهلك كبيرهم عبد الملك وعبد الرحمن ابن أخيه أحمد، وذهب إبنه يحيى إلى الحج، وأقام عبد الوهاب بزنزور ثم رجع إلى جبال قابس يحاول على ملكها. واستتب له ذلك بوثوب جماعة من أهل البلد بعاملها يوسف الأبار من صنائع السلطان بقبح إيالته وسوء سيرته فداخلوا جماعة من شيعة بني مكي في ضواحي قابس وقراها وواعدوهم فجاؤا لميعادهم وعبد الوهاب معهم، واقتحموا باب البلد وقتلوا البواب. ثم قصدوا ابن الأبار فقتلوه في مسكنه سنة إثنتين وثمانين وسبعمائة. وملك عبد الوهاب البلد واستقل بها كما كان سلفه. وجاء أخوه يحيى من المشرق فأجلب عليه مراراً يروم ملك البلد منه فلم يتهيأ له ذلك، ونزل على صاحب الحامة وأقام عنده يحاول أمر البلد منها فبعث عبد الوهاب إلى صاحب الحامة، وبذل له المال على أن يمكنه منه فبعث إليه به فاعتقله بقصر العروسيين، وأقام يراوغ السلطان عن الطاعة ويبذل ماله في أعراب

الضاحية من دباب وغيرهم للمدافعة عنه، ومنع الضريبة التي كانوا يؤدونها للسلطان أيام طاعتهم، والسلطان مشغول عنهم بمهمه فلما فرغ من شواغله بأفريقية

والزاب

نهض إليه سنة تسع وثمانين وسبعمائة بعد أن اعترض عساكره واستألف من العرب أولياءه وسرب فيهم عطاءه.

ونزل على قابس وقد استعد لها وجمع الآلات لحصارها فاكتسح نواحيها، وجثم عليها بعساكره يقاتلها ويقطع نخيلها حتى أعاد الكثير من الفرفهة... براحاً وموج الهواء في ساحتها فصح بعد أن كانوا يستوخمونه لاختفائه بين الشجر، وفي متكاثف الظلال وما يلحقه بذلك من التعفن فذهب عنها ما كان يعهد فيها من ذلك الوخم رحمة من الله أصابتهم من عذاب هذا السلطان، وربما صحت الأجسام بالعلل. ولما اشتد بهم الحصار وضاق المخنق، وفى ابن مكي أنه قد احيط به استعتب للسلطان واستأمن فأعتبه وأمنه، ورهن إبنه على الطاعة وأداء الضريبة وأفرج عنه السلطان وانكفأ راجعاً إلى تونس، واستقام ابن مكي حتى كان من تغلب عمه يحيى عليه ما نذكره.

رجوع المنتصر إلي ولاية توزر وولاية أخيه زكريا علي نفطة ونفزاوة:

كان العرب أيام ولاية المنتصر بتوزر قد حمدوا سيرته وأصفقوا على محبته والتشيع ، فلما رجع السلطان عن قابس رغبوا إليه في طريقهم أن يولي المنتصر على بلاد الجريد كما كان ويردد على عمله بتوزر. وتولّى ذلك بنو مهلهل وأركبوا نساءهم الظعن في الهوادج، واعترضوا بهن السلطات سافرات مولولات دخلاء عليه في إعادة المنتصر إلى توزر لما لهم فيه من المصالح فقبل السلطان وسيلتهن وأعاده إلى توزر، ونقل ابنه زكريا إلى نفطة، وأضاف إليها عمل نفزاوة فسار إليها واستعمله وأظهر من الكفاية والاضطلاع ما تحدث به الناس عنه، وكانت ولايته أول سنة تسعين وسبعمائة.

فتنة الأمير إبراهيم صاحب قسنطينة مع الزواودة ووفاة يعقوب بن علي ثم وفاة الأمير إبراهيم إثرها:

كان للزواودة بقسنطينة عطاء معلوم مرتب على مراتبهم زيادة لما بأيديهم من البلاد في

التلول والزاب بأقطاع السلطان، وضاق نطاق الدولة لهذه العصور فضاقت الجباية، وصار العرب يزرعون الأراضي في بلادهم بالتلول ولا يحتسبون بمغارمها فيضيق الدخل، ويمنعهم السلطان العطاء من أجل ذلك فتفسد طاعتهم وتنطلق بالعيث والنهب أيديهم. ولما رجع الأمير إبراهيم من حركته في ركاب أبيه إلى قابس، وكان منذ أعوام ينقص من عطائهم لذلك ويعللهم بالمواعيد فلما قفل من قابس اجتمعوا إليه وطلبوا منه عطاءهم فتعالى عليهم، وجاءه يعقوب بن علي مرجعه من الحج وأشار عليه بإنصاف العرب من مطالبهم فأعرض عنه وارتحل لبعض مذاهبه، وتركه ونادى في العرب بالفتنة معه يروم استئلاف أعدائه فأجابه الكثير من أولاد سباع بن شبل وأولاد سباع بن يحيى وباديتهم من ذؤبان رياح، وخرج يعقوب من التل فنزل في

نقاوس فأقام بها، وانطلقت أيدي قومه على تلول قسنطينة بالنهب وانتساف الزروع حتى اكتسحوا عامتها ولحقوا به مالئي اليد مثقلي الظهر.

ثم طرقه المرض فهلك سنة تسعين وسبعمائة ونقلوا شلوه إلى بسكرة فدفنوه بها، وقام مكانه في قومه إبنه محمد. واستمر على العصيان وصعد إلى التل في منتصف إحدى وتسعين وسبعمائة، واستألف الأمير إبراهيم أعداءه من الزواودة وأحلافهم من البادية وجنح إليه أبو ستة بن عمر أخو يعقوب بن علي بمن معه من أولاد عائشة ام عمر، وخالفه أخوه صميت إلى محمد بن يعقوب. ثم تحاربوا مع الأمير إبراهيم فهزموه وقتل أبو ستة. ثم جمع السلطان لحربهم ودفعهم عن التلول ومنعهم من المصيف عامهم ذلك. وانحدروا إلى مشاتيهم وعجزوا بعدها عن الصعود إلى التلول وقضوا مصيفهم عامهم ذلك بالزاب، وانحدروا منه إلى المشاتي فلما رجعوا من مشاتيهم وقد فقدوا الميرة انطلقت أيديهم على نواحي الزاب فانتسفوا زروعه، وكاد أن يفسد ما بينهم وبين ابن مزني مظاهرهم على تلك الفتنة. ثم ارتحلوا صاعدين إلى التلول، وقد جمع الأمير إبراهيم لدفاعهم عنه.

وبينما هو في ذلك ألم به طائف من المرض فتوفي سنة إثنتين وتسعين وسبعمائة وافترقت جموعه. وأغذ محمد بن يوسف السير إلى نواحي قسنطينة فاحتل بها مظاهراً للطاعة متبرئاً من الخلاف، ونادى في أهل البلاد بالأمان والعمارة فصلحت أحوال الرعايا والسابلة. وبعثوا إلى السلطان بتونس مستأمنين مستعتبين فأمنهم وأعتبهم وأقام بقسنطينة مكان إبنه إبراهيم إبنه وبعث من حضرته محمد ابن

مولاه بخير لكفالته والقيام بدولته فقام بأمرها وصلحت الأحوال والله بيده تصاريف الأمور.

منازلة نصاري الإفرنج للمهدية:

كانت أمة الفرنج وراء البحر الرومي في الشمال قد صار لهم التغلب ودولة بعد انقراض دولة الروم فملكوا جزائره مثل: دانية وسردانية وميورقة وصقلية، وملأت

أساطيلهم فضاءه، ثم تخطوا إلى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها وعادت لهم سورة التغلب في هذا البحر بعد أن كان سورة المسلمين فيه لا يتقاوم إلى آخر دولة الموحدين بكثرة أساطيله ومران راكبيه فغلبهم الفرنج وعادت السورة لهم، وزاحمتهم أساطيل المغرب لعهد بني مرين أياماً. ثم فشل ريح الفرنجة واختل مركز دولتهم بافرنسة، وافترقت طوائف في أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية، وأصبحوا دولاً متعددة فتنبهت عزائم كثير من المسلمين بسواحل أفريقية لغزو بلادهم، وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجمع النفراء والطائفة من غزاة البحر، ويصنعون الأسطول ويتخيرون له الأبطال الرجال، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه، ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالباً ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلد بصخب السلاسل والأغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم ويغالون في فدائهم بما يتعذر معه أو يكاد، فشق ذلك على أمم الفرنجة وملأ قلوبهم ذلاً وحسرةً وعجزوا عن الثأر به، وصرخوا على

البعد بالشكوى إلى السلطان بأفرنجة فصم عن سماعها وتطارحوا بثهم وثكلهم فيما بينهم وتداعوا لتزال المسلمين، والأخذ بالثأر منهم.

وبلغ خبر استعدادهم إلى السلطان فسرح إبنه الأمير أبا فارس يستنفر أهل النواحي ويكون رصداً للأسطول هنالك واجتمعت أساطيل جنوة وبرشلونة ومن وراءهم

أو مجاورهم من أمم النصرانية، وأقلعوا من جنوة فحطوا بمرسى المهدية منتصف إثنتين وتسعين وسبعمائة وطرقوها على حين غفلة، وهي على طرف من البر داخل في البحر كأنه لسان دالع فأرسوا عندها، وضربوا عند أول الطرف سوراً من الخشب بينه وبين البر حتى أصاروا المعقل في حكمهم، وعالوا عليه بالأبراج وشحنوها بالمقاتلة ليتمكنوا من قتال البلد، ومن يأتيهم من مدد المسلمين، وصنعوا برجاً من الخشب من جهة البحر يشرف على أسوار المعقل لتعظم نكايتهم، وتحصن أهل البلد وقاتلوهم صابرين محتسبين. وتوافت إليهم الأمداد من نواحي البلد فحال دونهم الفرنجة.

وبلغ الخبر إلى السلطان فأهمه أمرها، وسرح العساكر تترى إلى مظاهرتهم. ثم خرج أخوه الأمير أبو يحيى زكريا وسائر بنيه فيمن حضره من العساكر فانطلقوا لجهاد هذا العدو، واستنفروا المقاتلة من الأعراب وغيرهم فاجتمعت بساحتها أمم ، وألحوا على الفرنجة بالقتال ونضح السهام حتى أحجروهم في سورهم. وبرز الفرنجة للقتال فكاد بينهم ولي المسلمين جولة جلى فيها أبناء السلطان، وكاد الأمير أبو فارس منهم أن يتورى لولا حماية الله التي وقته. ثم تداركت عليهم الحجارة والسهام والنفط من سور البلد فاحترق البرج المطل علمها من جهة البحر فوجموا لحريقه. ثم ركبوا من الغد أسطولهم وأقلعوا إلى بلادهم، وخرج أهل المهدية يتباشرون بالنجاة ويتنادون بشكرالأمراء على ما اعتمدوه في نصرهم {ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال} . وأمر الأمير أبو يحيى برم ما تثلم من أسوارها و لم ما تشعب منها، وقفل إلى تونس، قد أنجح الله قصدهم وأظهرهم على عدوهم والله تعالى ينصر من يشاء وهو القوى العزيز.

انتقاض قفصة وحصارها:

كان السلطان أبو العباسى قد ولّي على قفصة عندما ملكها إبنه الأمير أبا بكر وأقام

في خدمه من رجال دولتهم عبد الله التريكي من موالي جدهم السلطان أبي يحيى فانتظم به أموه، وأقام بها حولاً. ثم تجافى عن أمارتها ولحق بأبيه بتونس سنة إثنتين وثمانين وسبعين فجعل السلطان أمر قفصة لعبد الله التريكي وولاّه عليها ثقة بغنائه واضطلاعه. و لم يزل والياً بها إلى أن ملك سنة أربع وتسعين وسبعمائة، وولى السلطان

مكانه محمداً إبنه، وكان له إخوة أصاغر أبنا علات فنافسوه قي تلك الرتبة وحسدوه عليها، وأكراهم به محمد الدنيدون من قرابة أحمله بن العابد كان ينظر قي قسمة الماء بالبلد، وكان فيها عدلاً معقلاً فلم تطرقه النكبة كما طرقت قومه، وأبقاه السلطان بالبلد فأغرى هؤلاء الإخوة باخيهم ووثبوا به فاعتقلوه وأظهروا العصيان. ثم حمله أعيان البلد على البراءة من بني عبد الله التريكي استرابة بهم أن يراجعوا طاعة السلطان

فتوثب بهم وأخرجهم واستصفاهم واستقل برياسة البلد كما كان قومه، والسلطان في خلال ذلك يرعد ويبرق ويواصل الأعذار والإنذار، وهم قد لجوا في طغيانهم. ثم جمع جنوده واحتشد واستألف الأعراب، ووفر لهم ا الأعطيات. ونهض إليها حتى نزل بساحتها منتصف خمس وتسعين وسبعمائة. وقد استعدوا وتحصنوا فألح عليهم القتال وأذاقهم النكال، وقطع عنهم المعيرة فضيق مخنقهم. ثم عدا على نخلهم فقطعها حتى صرع جذوعها، وفسح المجال بين لفافها. ولما اشتدد بهم الحصار وضاق عليهم المخنق، خرج شيخهم الدنيدن إلى السلطان

يعقد معه صلحاً على بلده وقومه فغدر به، وحبسه رجاء أن يملك بذلك البلد. وكان بعض بني العابد إسمه عمر بن الحسن قد انتبذ عن قفصة أيام نكبتهم وأبعد في المغرب، ثم رجع ونزل بأطراف الزاب. ولما استقل الدنيدن بقفصة قدم عليه فأقام معه أياماً. ثم استراب به وتقبض عليه وحبسه. فلما غدر به السلطان اجتمعت عليه المشيخة وعقدوا له الإمرة، وبعثوا إلى العرب يسترحمونهم ويعطفونهم على ذخيرتهم فيهم. وسربوا إليهم الأموال فتصدى للدفاع عنهم صولة بن خالد بن حمزة أمير أولاد أبي الليل. وزحف إلى السلطان بمعسكره من ظاهر البلد، وكان أولياءه من العرب قد ابعدوا عنه في الجهات لانتجاع إبلهم فما راعه إلا إطلاق صولة برايته في قومه فأجفل واتبعوه. وما زال يكر عليهم في بنيه وخواصه حتى ردهم على أعقابهم. وأغذ السير إلى تونس وهم في اتباعه، ولم يظفروا منه بعقال إلأ ما كان من طعن القنا ووقع السيوف حتى وصل إلى حضرته. ثم ندم صولة على ما كان منه وراسل السلطان بطاعته فلم يقبله، وانحدر إلى مشاتيه سنة ست وتسعين وسبعمائة.

واستدعى ابن يملول من عش نفاقه ببسكرة فخف إليه، ودفعه إليها تربه في الغي

أحمد بن مزني صاحب الزاب. ووصل ابن يملول إلى صوله فأغراه بحصار توزر، ونزل معه عليها بقومه فجلى الأمير المنتصر في دفاعهم والامتناع عليهم حتى يئسوا واضطربت آراؤهم، وأفرجوا عنها مفترقين. وصعد صولة إلى التل للمصيف به، وعاود الرغبة من

السلطان في قبول طاعته. وكان محمد الدنيدن لما أجفل السلطان عن قفصة تركه بتلك الناحية فلما وصل إلى تونس راسل أهل قفصة في الرجوع إليهم فأجابه بعض أشياعه، ودخل البلد فنذر به عمر بن العابد وكبسه بمكانه الذي نزل به وقتله، واستبد بمشيخة قفصة. وخشي أهل قفصة من عائلة السلطان وسوء مغبة العصيان فبعثوا إلى السلطان بطاعتهم، وشرط عليهم نزول عامله عندهم، وهذا آخر ما بلغنا عنهم ولما بلغنا أنه عقد لهم ولا لصولة أمرا والله يصرف الأمور بحكمته.

ولاية عمر ابن السلطان على صفاقس واستيلاؤه منها علي قابس وجزيرة جربة:

هدا الأمير عمر ابن السلطان هو شقيق إبراهيم الذي كان أميراً بقسنطينة وكان في

كفالة أخيه إبراهيم فلما توفي كما مر لحق بالسلطان أبيه وأقام عنه. ولما كان من وفاة أبي بكر بن ثابت شيخ طرابلس ما قدمناه واضطراب قومه من بعده، ونزع قائدهم قاسم بن خلف إلى السلطان فبعث معه إبنه عمر هذا سنة إثنتين وتسعين وسبعمائة لحصار طرابلس، وأقام عليها حولاً كريتاً يحاصرها ويمنع الأقوات عنها، حتى

ضجروا وضجر من طول المقامة فدافعوه بالضريبة وانكفأ راجعاً إلى أبيه سنة خمس وتسعين وسبعمائة. ووافاه جاثماً على قفصة عندما انتقضوا عليه. وقد كان مر في طريقه على جربة، وأراد الدخول إليها فمنعه عامل أبيه بها من الموالي المعلوجي فأنف من ذلك، وشكاه إلى أبيه فولاّه على صفاقس. ووعده بولاية جربة فسار هو إلى صفاقس وأجاز البحر إلى جزيرة جربة وانضم إليه جميع من بها من القبائل. وامتنع العلج منصور العامل بحصنها المسمى بالقشتيل بلسان الفرنج، حتى كاتب السلطان وأمره بتمكين إبنه من الحصن والإفراج له عن الجزيرة أجمع فاستبد بها ثم إن الأمير عمر سما إلى ملك قابس فداخل أهل الحافة جارتها المجلبة عليها على الأيام في ذلك وأجابوه، وساروا معه بجموعه سنة ست وتسعين وسبعمائة فبيتها وملكها. وقبض على رئيسها يحيى بن عبد الملك بن مكي فضرب عنقه، وانقرض أمر بن مكي من قابس واستقل بها الأمير عمر مضافة إلى ما كان بيده والله وارث الأمور.

وفاة السلطان أبي العباس وولاية إبنه أبي فارس عزوز:

كان السلطان أبو العباس قد أزمن به وجع النقرس حتى كان في غالب أسفاره يحمل على البغال في المحفة. ثم اشتد به آخر عمره وأشرف في سنة ست وتسعين وسبعمائةعلى الهلكة. وكان أخوه زكريا رديفه في الملك والمرشح بعده للأمر، وبنه محمد والياً في بونة موضع إمارته من قبل. وكان للسلطان ولد كثيرون يتطاولون إلى مكان أبيهم ويغصون بعمهم زكريا، ويخشون غائلته بعد أبيهم. فلما قارب السلطان منيته اشتد جزعهم وإشفاقهم من عمهم. وبعث السلطان كبيرهم أبا بكر بعهده على قسنطينة فسار إليها بين أيدي موته، واعصوصب الباقون على كبيرهم بعده أبي فارس عزوز فقبضوا على عمهم زكريا، وقد دخل يعود أخاه، وأودعوه في بعض الحجر ووكلوا به. وهلك السلطان لثلاث بعدها فبايعوا أخاهم أبا فارس رابع شعبان سنة ست وتسعين وجاء أهل البلد إلى بيعته أفواجاً من الأعيان والكافة فتمت بيعته، وأمر بنقل ما في بيوت عمه من الأموال والذخيرة إلى قصره حتى استوعبها، وضيق عليه في محبسه وقام بتدبير ملكه وسياسة سلطانه. وولى بعض اخوانه على منابر عمله بأفريقية فبعث أحدهم على سوسة والثاني على المهدية، وردف أخاه إسمعيل في ملكه بتونس، وأحل الباقين محل الشورى والمفاوضة.

وبلغ الخبر إلى أخيه المنتصر بتوزر فاضطرب أمره ولحق بالحامة فأقام بها

وكذلك أخوه زكريا بنفطة فلحق بجبال نفزاوة. وكان أخوه أبو بكر لما سار إلى قسنطينة لولاية أبيه قبل وفاته مربيونة فلقيه صاحبها الأمير محمد ابن عمه زكريا بما شاء من أ الكرامة والمبرة ووافى قسنطينة فطلب منه القائمون بها كتاب السلطان بعهده علمها فأقرأهم إياه، وفتحوا له الأبواب فدخل واستولى على أمرها. وكان خالصة السلطان محمد بن أبي هلال قد بعثه السلطان قبيل موته إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز المتولي بالمغرب بعد وفاة أبيه السلطان أبي العباس بن أبي سالم في صفر من شهور السنة، وحمله من الهدايا والتحف ما يليق بأمثالهما فسار، فلما انتهى إلى ميلة بلغه الدر بوفاة السلطان مرسله، وأوعز إليه الأمير أبو بكر من قسنطينة

بالرجوع إليه فرجع بهديته واستقر عنده هنالك. (هذا آخر ما بلغنا) من الأخبار الصحيحة عنهم لهذه السنين، وحالهم على ذلك لهذا العهد، والملك بيد الله يؤتيه من يشاء لارب سواة ولا معبود إلا إياه وهو على كل شيء قدير.

خريطة

بني مزني

الخبر عن بني مزني أمراء بسكرة وما إليها من الزاب

هذا البلد بسكرة هو قاعدة وطن الزاب لهذا العهد، وحده من لدن قصر الدوسن بالغرب إلى قصور تنومة وبادس في الشرق، يفصل بينه وبين البسيط الذي يسمو الحضنة جبل جاثم من المغرب إلى المشرق، ذو ثنايا تفضي إليه من تلك الحضة، وهو جبل درن المتصل من أقصى المغرب إلى قبلة برقة. يعتمر بعض ذلك الجبل في محاذاة الزاب من غربيه بقايا عمرت من زناتة، ويتصل من شرقيه بجبل أوراس المطل على بسكر المعترض في ذلك البسيط من القبلة إلى الشمال، وهو جبل مشهور الذكر يأتي الخبر بعض ساكنيه. وهذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعددة متجاورة جمعاً جمعاً يعرف كل واحد منها بالزاب. وأولها زاب الدوسن، ثم زاب طولقة، ثم زاب مليلة و بسكرة وزاب تهودا وزاب بادس. وبسكرة أم هذه القرى كلها، وكانت مشيختها القديم بعد الأغالبة والشيعة لعهد صنهاجة ملوك القلعة في بني رفان من أهلها بما كثروا

ساكنها، وملكوا عامة ضياعها. كان لجعفر بن أبي رمان منهم صيت وشهرة.

وربما نقضوا الطاعة لعهد بلكين بن محمد بن حماد صاحب القلعة في سني خمسين وأربعمائة، وضبطوا البلد وامتنعوا. وتولى كبر ذلك جعفر بن أبي رمانة، ونازلتهم جيوش صنهاجة إلى نظر الوزير خلف بن أبي حيدرة من صنائع الدولة فاقتحمها عليهم، واحتملهم إلى القلعة فقتلهم بلكين جميعاً، وجعلهم عظة لمن بعدهم.

وأصار أمر الشورى لبني سندي من أهلها. وكان لعروس منهم بعد ذلك خلوص في الطاعة وانحياش إلى الدولة، على حين تقلص ظلها وفشل ريحها، وألوى الهرم بشبابها. وهو الذي فتك بالمنتصر بن خزرون الزناتي عند وصوله من المشرق واجتلابه على السلطان بقومه من مغراوة وأعراب الأثبج وبني عدي من بني هلال فمكر به

السلطان وأقطعه ضواحي الزاب وريغة طعمة. ودس إلى عروس في الفتك به ففعل كما قدمنا ذكره في أخبار آل حماد. وانقرضت رياسة بني سندي بانقراض أمراء صنهاجة من أفريقية. وجاءت دولة الموحدين، والكثرة والبيت لبني رمان. وكان بنو مزني لفقاً من لفائق الأعراب وصلوا إلى أفريقية أحلافاً لطوالع بني هلال بن عامر في المائة الخامسة كما قدمنا.

ونسبهم بزعمهم في مازن من فزارة والصحيح أنهم في لطيف من الأثبج. ثم من

بني جرى بن علوان بن محمد بن لقمان بن خليفة بن لطيف، واسم أبيهم مزنة بن ديفل بن محيا بن جرى، هكذا تلقيته من بعض نسابة الهلاليين، وشهد لذلك الوطن فإن أهل الزاب كلهم من أفاريق الأثبج، عجزوا

عن الظعن ونزلوا قراه على من كان بها قبلهم من زناتة وطوالع الفتح. وإنما يرعون عن هذا النسب فزارة لما صار إليه أهل الأثبج بالزاب من المغرم والوضائع، فيستنكفون لذلك وينتسبون إلى غرائب الأنساب. وكان أول نزلهم بقرية من قرى بسكرة، كانت تعرف بقرية حياس. ثم عفوا وتأثلوا وأخذوا مع أهل بسكرة بحظ وافر في تملك العقار والمياه. ثم انتقلوا إلى البلد واستمتعوا منها بالمنزل والظلال، وقاسموا أهلها في الحلو والمر، وانتظم كبارهم في أرباب الشورى من المشيخة. ثم استنكف بنو رمان من انتظامهم معهم وحسدوهم ما آتاهم الله من فضله، وحذروهم على أنفسهم فاضطرمت بينهم نار العداوة والإحن، كان أولها الكلام والترافع إلى سدة السلطان بتونس على حين استقلال أبي حفص بأفريقية، ولعهد الأمير أبي زكريا وإبنه السلطان المستنصر.

ثم تناجزوا الحرب وتواقعوا سكك المدينة، وكانت صاغية الدولة مع بني رمان لقديمهم في البلد. ولما خرج الأمير أبو إسحق على أخيه محمد المستنصر لأول بيعته، ولحق بالزواودة من العرب وبايع له موسى بن محمد بن مسعود البلط أمير البدو يومئذ، واعتمل به بسكرة وبلاد الزاب، وأناخ عليها بكلكله كما قدمناه. قام يومئذ فضل بن علي بن أحمد بن الحسن بن علي بن مزني بدعوته، وأعلن بين أهل البلد بطاعته

واتبعوه على كره. ثم عاجلتهم عساكر السلطان وأجهضتهم عن الزاب فاعتلق فضل بن علي به، واستمسك بذيله وصحبه في طريقه إلى الأندلس، وبدار غربته منها، إلى أن هلك المستنصر أخوه. وهيأ الله له من أمر الخلافة ما هيا حسبما ذكرناه. ولما تم امره، واقتعد بتونس كرسي خلافته عقد لفضل بن علي على الزاب، ولأخيه عبد الواحد على بلد الجريد رعياً لذمة خدمتهما، وذكراً لائتلافهما في المنزل الخشن وصحبتهما، فقدم والياً على الزاب، ودخل بسكرة واستكان بنو رمان لصولته وانقادوا في مرضاة الدولة إلى أمره فلم ينبسوا بكلمة في شأنه، واضطلع بتلك الولاية ما شاء الله.

ثم كان شأن الدعي ابن أبي عمارة وتلبيسه، ومهلك السلطان أبي إسحق على

يده. ثم ثار منه السلطان أبو حفص بأخيه واسترجع ما ضاع من ملكهم، وكل منهم يثق بغنائه، ويعول في أمر الزاب على كفايته. وسيم أعداؤه بنو رمان أيام ولايته فداخلوا أولاد حريز من لطيف أحد بطون الأثابج، كانوا نزلوا بقرية ماشاش لضيق المدينة حين عجزوا عن الطعن، وخالطوا أهل البلد في أحوالهم، وامتزجوا معهم بالنسب والصهر فأغروهم بفضل بن علي أن يكون التقدم لهم في الفتك به، وتناول الأمر من يده، وأن يخربوا بيوقم من قرية ماشاش بأيديهم ليسكنوا إليهم ويطمئنوا إلى ولايتهم حلفاً عقدوه على المكر بهم. ولما أوقعوا به بظاهر البلد في بعض أيام ركوبه سنة ثلاث وثمانين وستمائة، ونزلوا من أمر الزاب ما كان يتولاه تنكر لهم بنو رمان لحولين من ذلك الحلف، ونابذوهم العهد فخرجوا عن البلد، وفقدوا المأوى للتمرس بها من قريب فتفرقوا في بلد ريغة. واستبد بنو رمان بشورى بسكرة والزاب منتقضين عليهم وعلى السلطان، والزواودة قد تغلبوا عليه وعلى بلاد الحضنة، من ورائه نقاوس ومقرة والميلة. وكان منصور بن فضل بن علي

عند مهلك أبيه بالحضرة في بعض شؤونه، فلما هلك أبوه واستبد بنو رمان بعده، بثوا السعايات فيه إلى السلطان بالحضرة فأنجحت وتقبض عليه واعتقل أيام السلطان أبي حفص

ولما تغلب المولى، أبو زكريا يحيى ابن الأمير أبي إسحق على بجاية وقسنطينة وبونة، واستقل بأمرها وانقسمت دولة آل أبي حفص بملكه ذلك منها، تمسك أهل الزاب بدعوة صاحب الحضرة المولى أبي حفص وفر منصور بن فضل بن علي من محبسه بتونس ولحق ببجاية بعهد مهلك الحاجب القائم بالأمر أبي الحسين بن سيد الناس، وتولية السلطان أبي زكريا مكانه، كاتبه أبا القاسم بن أبي يحيى سنة إحدى وتسعين وستمائة، فلازم خدمته وخص عليه وصانعه بوجوه التحف، وتضمن له تحويل الدعوة بالزاب لسلطانه، وتسريب أمواله وجبايته إليه واستماله بذلك، فعقد له على الزاب وأمده بعسكر فنازل بسكرة. ووفد أهلها بنو زيان على السلطان ببجاية ببيعتهم فرجعهم على الأعقاب إلى عاملهم منصور، وكتب إليه بقبول بيعتهم ودخل البلد سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وكادهم في بناء القصر لشيعته، وتحضن العسكر بسوره. ثم نابذهم العهد وثار بهم وأجلاهم عن البلد، واستمكن فيه ورسخت قدم إمارته، واستدر جباية السلطان، واتسع له نطاق العمالة فاستضاف إلى عمل الزاب جبل أوراس، وقرى ريغة وبلاد واركلي، وقرى الحضنة: مقرة ونقاوس والمسيلة. فعقد له السلطان على جميعها، ودفعه إلى مزاحمة العرب في جبايتها وانتهاش لحومها إذ كانوا قد غلبوا على سائر الضواحي فساهمهم في جبايتها، حتى كاد يغلبهم عليها. ووفر أموال الدولة وأنمى الخراج وصانع رجال السلطان فألقوا عليه بالمحبة، وجذبوا بضبعه إلى أقصى مراتب الاصطناع فأثرى واحتجن الأموال، ووشجت عروق رياسته ببسكرة، ورسخت منابت عزه. وهلك المولى أبو زكريا الأوسط على رأس المائة السابعة، وولوا مكانه إبنه الأمير أبا البقاء خالد كما قدمناه، وقام بأمره حاجبه أبو عبد الرحمن بن غمر.

وكان لمنصور بن فضل هذا اختصاص به واعتلاق بيد جاهه فاستنام إليه وعول في سائر الضواحي من ممالك السلطان على نظره، وعقد له على بلاد التل من أرض سدويكش وعياض فاستضافها إلى عمله، وجرد عن ساعد كفايته في جبايتها فلقح عقيمها وتفجرت ينابيعها. ثم حدثت بينه وبين الدولة منافرة، وأجلب على قسنطينة بيحيى بن خالد ابن السلطان أبي إسحق، حاجبه تلمسان، وبايع له،

واستألف الزواودة لمشايعته، ونازل به قسنطينة ثم اطلع على كامن صدره فيه وما طوى عليه من التربص به فحل عقدته، ولحق بعسكره ببسكرة، وراجع الطاعة. ولحق به يحيى بن خالد فاعتقله إلى أن هلك سنة عشرين وسبعمائة، وكانت بينه وبين المرابطين أهل السنة من العرب أتباع سعادة المشهور الذكر فتن وحروب، طالبوه بترك المغارم والمكوس تخفيفاً عن الرعية وعملاً بالسنة التي كانوا ملتزمين لطريقها، ونازلوه من أجل ذلك ببسكرة مراراً. ثم هلك سعادة في بعض حروبه على مليلى كما مر في ذكره سنة خمس وسبعمائة. وجمع منصور بن مزني للمرابطين، وبعث عسكره يقوده ابنه عليّ بن منصور مع علي بن أحمد شيخ الزواودة، وعلى المرابط أبو يحيى بن أحمد أخوه ومعه رجالات المرابطين مثل: عيسى بن يحيى بن إدريس شيخ أولاد عساكر، وعطية بن سليمان بن سباع وحسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة فهزموا عسكر ابن مزني وقتلوا إبنه علياً

وتقبضوا على عليّ بن أحمد، ثم منوا عليه وأطلقوه. ورجعوا إلى بسكرة فنازلوها وقطعوا نخيلها. ثم عاودوه ثانية وثالثة. و لم يزل الحرب بينه وبين هؤلاء المرابطين سائر أيامه. وكان الحاجب ابن غمر قد استخلصه لنفسه وأحفه محل الثقة بخلته والاستقامة إلى صفائه.

ولما نهض السلطان أبو البقاء إلى تونس صحبه الحاجب في جملته حتى إذا أعمل المكيدة في الانصراف عن السلطان شاركه في تدبيرها إلى أن تمت كما قدمناه. ورجع الحاجب إلى قسنطينة، وصرفه إلى مكان عمله من الزاب. وكان يتردد إليه ببجاية للزيارة والمطالعة في أعماله إلى أن غدر به العرب في بعض طرقه إليها. وتقبض عليه من أمراء الزواودة علي بن أحمد بن عمر بن محمد بن مسعود، وسليمان بن علي بن سباع بن يحيى بن مسعود على حين اجتذبا حبل الأمارة من يد عثمان بن سباع بن شبل بن موسى بن محمد، واقتسما رياسة الزواودة قومهما فاستمكنا من هذا العامل منصور بن فضل في مرجعه من عمله ببلاد سدويكش، وأوثقوه اعتقالاً، وهموا بقتله فافتدى منهم بخمسة قناطير من الذهب، وارتاشوا بمكسوبهم وصرفوا في وجوه رياستهم إنفاقها. وقبض منصور بن فضل عنانه عن السفر بعدها إلا في الأحايين. وبعد أخذ الرهن من العرب إلى أن كانت حركة مولانا السلطان أبي يحيى إلى تونس سنة سبع عشرة وسبعمائة أول حركاته إليها، وطالب حاجبه يعقوب بن غمر وهو بثغر بجاية بالأموال للنفقات والأعطيات، فبعث إليه بمنصور بن فضل وأشار بعقده له على حجابته ليقوم بأمره،

ويكفيه مهمات شؤونه. واعتدها منصور على ابن غمر فساء ظنه، وتنكر له ابن غمر، وحالت صبغة وده، وانكفأ السلطان من حركته تلك مخفق السعي بعد أن نزل ظاهر تونس بعساكره كما قدمناه. ولما احتل بقسنطينة بدت له من يعقوب بن غمر صاحب الثغر مخايل الامتناع فأقصر عن اللحاق به، وترددت بينهما الرسل، وبعث له ابن غمر في منصور بن فضل. ونذر منه بالشر فأجاب داعيه، وصحب قائد السلطان يومئذ محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس إليه، حتى إذا كان ببعض الطريق عدل إلى بلده، وهم به القائد فأجاره أولياؤه من العرب: عثمان بن الناصر شيخ أولاد حربي، ويعقوب بن إدريس شيخ أولاد خنفر ومن معهم من ذويهم. ولحق ببسكرة وبلغ الخبر إلى ابن غمر فقرع سن الندم عليه، وشايع منصور بن مزني عدوهم صاحب تلمسان أبا تاشفين ودخل في دعوته، وأوفد إبنه يوسف عليه بالطاعة والهدية. وملك السلطان خلال ذلك تونس وسائر بلاد أفريقية. وهلك ابن غمر سنة تسع عشرة وسبعمائة، ولم يزل منصور بن مزني ممتنعاً سائر أيامه على الدولة، والعساكر من بجاية تتردد لمنازلته إلى أن هلك سنة خمس وعشرين وسبعمائة، وقام بأمره من بعده إبنه عبد الواحد فعقد له السلطان على عمل أبيه بالزاب، واستضاف إليه ما وراءه من البلاد الصحراوية: قرى ريغة ووراكلي. وكان السلطان قد عقد على الثغر بعد مهلك ابن عمر لمحمد بن أبي الحسين بن سيد الناس، وجعل له كفالة إبنه يحيى ودفعه إليه، فتجددت الوحشة بين عبد الواحد هذا وبين صاحب الثغر في سبيل المنافسة في المرتبة عند السلطان، لما كانوا جميعاً صنائع وبطانة للحاجب ابن عمر. وبعث العساكر لحربه ومنازلة حصنه. وناول عبد الواحد هذا لآل زيان مخانقي الدولة طرفاً من حبل طاعته تقبل فيها مذهب أبيه

آخر عمره. وطال تمرس الجيوش به إلى أن استجن منه عبد الواحد بصهر عقد له على إبنته، واشتراط المهادنة وتسليم الجباية، وتودع أمره إلى أن اغتاله أخوه يوسف سنة تسع وعشرين وسبعمائة بمداخلة بطانتهم من بني سماط وبني أبي كواية. ولما أحكم مداخلتهم آذنه عشاء للشورى معه في بعض المهمات، وطعنه بخنجره فأشواه وهلك لحينه. واستقل يوسف بن منصور بأمارة الزاب، ووصله مرسوم السلطان بالتقليد والخلع على العادة، وأجرى الرسم في الدعاء له على منابرعمله.

وكان السلطان قد استدعى محمد بن سيد الناس من الثغر لحجابته، وفوض له أمور مهلكه فلهجت نار العداوة والإحن القديمة ما بينه وبين يوسف بن منصور عامل الزاب، وهم به لولا ما أخذ بحجنرته من الشغل الشاغل للدولة بتحيف آل زيان وهلك الحاجب سنة إثنتين وثلاثين وسبعمائة في نكبة السلطان إياه كما ذكرناه، وعقد لمحمد بن الحكيم على القيادة وجعل بيده زمام العساكر، وفوض له في سائر القرى والضواحي فأجرى رياسته وحكمه في دولته، وتغلب على أمره حين فرغ السلطان من الشغل بمدافعة عدوه، وحط ما كان من إصرهم على كاهل دولته. ونهض السلطان أبو الحسن إلى يغمراسن فقلم أظفار أعدائهم وفل شبا عزائمهم كما شرحناه قبل، فأذكى القائد محمد بن الحكيم مع يوسف بن منصور نار العداوة. وأثار له من السلطان كامن الحفيظة وصرف وجوه العزائم إلى حمله على الجادة وتقويمه عن المراوغة في الطاعة، وناهضه بالعساكر مرات ثلاثاً يدافعه في كلها بتسليم الجباية إليه. ثم كانت بينه وبين علي بن أحمد كبير الزواودة فتن وحروب دعا إليها منافسة علي في استئثاره بمال الجباية دونه فواضعه الحرب، ودعا العرب إلى منازلته مموهاً بالدعاء إلى السنة. وحشد أهل ريغ لذلك ونازله، وانحرف عنه إبنه يعقوب ودخل إلى بسكرة فأصهر له ابن مزني في أخته بنت منصور بن فضل. وعقد له عليها فحسن دفاعه عنه، وبعث ابن مزني عن سليمان بن علي كبير أولاد سباع، وقريع علي بن أحمد في شؤونه، فكان عنده ببسكرة يغاديه القتال ويراوحه إلى أن امتنع ابن مزني.

ورحل علي ابن أحمد بن بسكرة، وصار مع ابن مزني إلى الاتفاق والمهادنة أعوام الأربعين من المائة الثامنة. ثم كانت غزاة القائد ابن الحكيم إليه نهض من أفريقية بعد أن نازل بلاد الجريد، واقتضى طاعتهم ومغارمهم، واسترهن ولد ابن يملول. ثم ارتحل إلى الزاب في جنوده ومعه العرب من سليم فأجفل بالزاب ونزل بلد أوماش من قراه، وفرت العرب من الزواودة وسائر رياح أمامه، ودافعه يوسف بن مزني بهديته، دفعها إليه وهو بمكانه من أوماش. وارتحل عنه إلى بلاد ريغ فافتتح تقرت معقلهم واستباحها ودوخ سائر أعماله. ورجع إلى تونس ونكب السلطان قائده محمد بن الحكيم هذا سنة أربع وأربعين وسبعمائة، وولى إبنه أبا حفص عمر. وخشي الحاجب أبو محمد بن تافراكين بادرتة بطانته، فلحق بملك المغرب المرهوب الشبا المطل على الممالك، يعسوب القبائل والعشائر أبي الحسن، وأغراه بملك أفريقية واستجره إليها فنهض في الأمم العريضة سنة

ثمان وأربعين وسبعمائة كما ذكرنا ذلك كله من قبل. ووفد عليه يوسف بن منصور أمير الزاب بمعسكره من بني حسن فلقاه براً وترحيباً واستتبعه في جملته إلى قسنطينة. ثم عقد له على الزاب وما وراءه من قرى ريغة ووراكلي، وصرفه إلى عمالته. واستقبل تونس، وأمره برفع الجباية إليه مع العمال القادمين من أقصى المغرب على رأس الحول فاستعد لذلك، حتى إذا سمع بوصولهم من المغرب لحقهم بقسنطينة، وفجأهم هنالك جميعاً الخبر بنكبة السلطان على القيروان كما ذكرناه، فاعتزم على اللحاق ببلده.

واعصوصب عليه يعقوب بن علي بن أحمد أمير البدو بالناحية القريبة من أفريقية

لأزمة صهر كانت بينهما ومخالصة. وتحيز إليهم من كان بقسنطينة من أولياء السلطان وحاشيته وعماله، ورسل الطاغية والسودان الوافدين مع إبنه عبد الله من أصاغر بنيه، أواهم يوسف بن منصور جميعاً إليه، وأنزلهم ببلده وكفاهم مهماتهم شهوراً من الدهر حتى خلص السلطان من القيروان إلى تونس، ولحقوا به مع يعقوب بن علي فكانت تلك يداً اتخذها يوسف بن يعقوب عند السلطان أبي الحسن وبنيه باقي الأيام. ثم أتبع ذلك بمخالفة رؤساء النواحي من أفريقية جميعاً في الانتقاض عليه، وأقام متمسكاً بطاعته يسرب الأموال إليه بتونس وبالجزائر عند خلوصه إليها من النكبة البحرية كما سنذكره، ويدعو له على منابره بعد تقويضه عن الجزائر إلى المغرب الأقصى لاسترجاع ملكه، إلى أن هلك السلطان أبو الحسن بجبل هنتاتة من أقصى المغرب سنة إثنتين وخمسين وسبعمائة واستقام أمر الدولة المرينية الحية الذكر لإبنه السلطان أبي

عنان الحية الذكر ولما استضاف إلى ملكه ملك تلمسان، ومحا ما جدده بنو عبد الواد من رسوم ملكهم وجمع كلمة زناتة، وأطل على البلاد الشرقية سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، بادر يوسف بن منصور بطاعته فأتاها طواعية، وأوفد على السلطان رسله بكتاب بيعته. ثم أوفد عليه ثانياً مع حاجبه الكاتب أبي عبد الله محمد بن أبي عمر، وبعثه بالعساكر لتدويخ أفريقية وتمهيد ملكه ببجاية كما سنذكره. وأوفد عليه أمراء القبائل والبدو ورؤساء النواحي سنة أربع وخمسين وسبعمائة، ووفد في جملتهم يوسد بن منصور أمير الزاب، ويعقوب بن علي أمير البدو وسائر الزواودة فلقاه السلطان تكرمة ورعياً لأزمة خلوصهم لأبيه وقومه من بين أهل أفريقية، وأسنى جوائزهم. وعقد ليوسف بن مزني على الزاب وما وراءه من بلاد ريغة ووراكلي على عادته وانقلب محبواً محبوراً.

وقد ثبت له من ولاية السلطان ومخالصته حظ، ورفع له ببساطه مجلس. ولما نهض السلطان إلى أفريقية لافتتاح قسنطينة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة كما سنذكره تلقاه يوسف بن منصور على قسنطينة فخلطه بأوليائه، ونظمه في طبقات وزرائه. واستوحش يعقوب بن علي يومئذ من مطالبته بالرهن له ولقومه وانتقض، وأجفلت أحياؤه إلى بلاد الزاب. وخرب بلاد يعقوب بن علي بالزاب والتل بقطع شجرائها وبغور مياهها، وهدم بنائها وبنسف آثارها. ودخل يعقوب بأحيائه الرمل وأعجزوا السلطان فانكفأ راجعاً، واحتل بظاهر بسكرة فتلوم بها ثلاثاً لإراحة العساكر وإزاحة عللهم من وعثاء السفر وشعث الصحراء، فغرب يوسف بن منصور في قرى عسكره أيام مقامه شملهم فيها من العلوفة والحنطة واللحمان والأدم بما أرغد عيشهم وكفاهم مهمهم. وتحدث

بها الناس دهراً ورفع إليه جباية الزاب لعامه قناطير من الذهب دفعه ببيت المال فقبضه القهارمة من ثقاته، وأجزل السلطان مثوبته وأسنى عطيته، واختصه بكسوة ثيابه وعياله من كسى حرمه وثياب قصره. وانكفأ راجعاً إلى حضرته. ثم أوفد يوسف بن منصور إبنه أحمد على السلطان بسدته من فاس عند منصرف وزيره سليمان بن داود من حركة أفريقية سنة تسع وخمسين وسبعمائة، وأصحبه هدية من عتاق الخيل وفاره الرقيق. وأقام أياماً في نزل

كريم ومحل من المجلس رفيع إلى أن هلك السلطان خاتمة تسع وخمسين وسبعمائة، فأرغد القائم بالدولة من بعده جائزته وأسنى صلته وصرفه إلى عمله، واستوصى به أمراء النواحي والثغور في طريقه. و لم ينشب أن شبت نار الفتنة، وانتزى الخوارج بالجهات بعد مهلك السلطان فخلص إلى أبيه بعد عنائه وعلى يأس من النجاة بعد أن حصل في قبضة أبي حمو سلطان بني عبد الواد عند استيلائه على تلمسان، وهو بها مع بني مرين، وقد مر بهم مجتازاً إلى وطنه فأجاره عليه صغير بن عامر شيخ بني عامر من زغبة رعياً لأزمة إبنه يوسف صاحب الزاب، وتأميلاً للعرب فيه وفي أعماله. وبعد أن بذل له من يده، ومن طرف ما وصله بنو مرين من ذخائرهم فبعث معه صغير ركاباً من قومه أبلغوه فكانت إحدى الغرائب في نجاته.

واسترجع الموحدون ثغورهم: بجاية وقسنطينة من يد بني مرين وأزعجوا عنها العساكر المجمرة بها من قبائلهم كما قدمناه، فراجع يوسف بن منصور طاعته المعروفة إلى أن هلك سنة سبع وستين وسبعمائة ليوم عاشوراء، وقام بأمره إبنه أحمد، وجرى على سننه وهو لهذا العهد أمير على الزاب بمحل أبيه من إمارته متقبل في مذهبه وطريقه إلا أن خلق أبيه

كان سخية وخلق هذا تلهوقاً لما فيه من التحذلق، وربك يخلق ما يشاء ويختار. وله ولد كبيرهم أبو يحيى من بنت محمد بن يملول أخت يحيى، وهو لهذا العهد مرشح لمكانه. ولما حفت بهل الجريد الفاقرة ونزل به يحيى بن يملول المشؤوم على وطنه توجس الخيفة من السلطان وتوقع المطالبة بطاعة غير طاعته المعروفة، فسرب الأموال في العرب ومد يده إلى حبل صاحب تلمسان ليتمسك به فوجده قاصراً عنه. وأقام يقدم في أمره رجلاً ويؤخر أخرى،. ثم قذف الله نور الهداية في قلبه، وأراه سنن رشده. وبادر إلى الاستقامة في الطاعة والعدول عن المراوغة، ووصله وافد السلطان أبي العباس شيخ الموحدين أبو عبدالله بن أبي هلال، وكشف له قناع المخالصة والانحيالش، وبعث معه وفده بهديته واستقامته وتقبله السلطان وأعاده إلى أحسن الأحوال من الرضى عنه، والله متولي الأمور سبحانه لارب سواه ولا معبود إلا إياه.

الخبر عن رياسة بني يملول بتوزر وبني الخلف بنفطة وبني أبي منيع بالحامة:

زعيم هؤلاء الرؤساء ابن يملول صاحب توزر، لاتساع بلده وتمدن مصره واحتلاله

منها بأم القرى من قطره، وهو يحيى بن محمد بن يملول. ونسبهم بزعمهم في طوالع العرب من تنوخ، استقرار أولوه بهذا الصقع منذ أول الفتح فعفوا وتأثلوا ووشجت به عروقهم نسباً وصهراً حتى انتظموا في بيوت الشورى المتقدمين للوفادة على الملوك وتلقي العمال القادمين من دار الخلافة والنظر في مصالح الكافة أيام آل

حماد بالقلعة، وآل عبد المؤمن بمراكش وآل أبي حفص بتونس: مثل بني واطاس وبني فرقان وبني ماردة وبني عوض. وكان التقدم فيهم أيام عبيد الله الشيعي لابن فرقان، وهو الذي أخرج أبا يزيد حين شعر أنه يروم القيام على أبي القاسم القائم، وأيام آل حماد ليحيى بن واطاس، وهو النازع بطاعة أهل قسنطينة إليهم عن آل بلكين ملوك القيروان حين انقسمت دولة آل زيري، وافترق أمرهم. ثم عادت الرياسة لبني فرقان لأول دولة الموحدين، ومنهم كان الذي لقي عبد المؤمن وأتاه الطاعة عن نفسه وعن أهل بلده توزر، فتقبله ووصله. وصار الأمر للموحدين فمحوا منها آثار المشيخة والاستبداد. ونشأ أحمد هذا الجد مترامياً إلى الرياسة بهذا القطر يدافع عنه بالراح، ويزاحم بالمناكب من وجوه البلد

وأشراف الوطن. وسعى به إلى شيخ الموحدين وقائد العسكر أيام السلطان أبي حفص محمد الفازاري فنكبه وصادره على مال امتحنه عليه. كانت أول نكباته التي أورت من زناده وأوقدت من جمره، وتخلص إلى الحضرة يؤمل اقتعاد مطيته وثبوت مركزه من دار الخلافة فأوطنها أياماً يباكر أبواب الوزراء والخاصة، ويلثم أطراف الأولياء والحاشية، ويبذل كرائم ماله فيما يزلفه لديهم، ويؤثره بعنايتهم، حتى استعمل بديوان البحر مقعد العمال بمرفأ السفن لجباية الأعشار من تجار دار الحرب. ثم استضاف بما كان من غنائه فيها واضطلاعه سائر أعمال الحضرة فتقلدها زعيماً بإمضاء الجرايات وإدرار الجباية، واستمرت على ذلك حاله وتضاعفت فائدته فأثرى واحتجن المال، واستخلص الذخيرة قاطعاً لألسنة السعاية المصانعة والإتحاف بطرف ما يجلبه الروم من بضائعهم حتى أبطره الغنى، ودلت على مكامنه الثروة، ورفع أمره إلى الحاجب فخرج التوقيع بالقبض عليه، واستصفاء ماله لعهد السلطان أبي يحيى اللحياني فنكب الثانية وصودر على مئتين من آلاف الدنانير وامتحن لها، وباع فيها مكسوبه حتى من الكتب. وخلص من النكبة مثلوب الأمانة ممزق الأديم فقيد الرياش، أحوج ما كان إلى ما يعوز من الكن والدفء وبلالة العيش. ولحق ببلده ناجياً بالرمق ضارعاً للدهر. ودفعه الملأ إلى ما يستنكفون عنه من خدمة العمال ومباكرة أبوابهم والامتهان في ضروراتهم، وأنجده في ذلك بخت جذب بضبعه. وكان في خلال ذلك شغل الحضرة شأن الثغور الغربية وأمرائها فتقلص ظل الدولة عن هؤلاء بعض الشيء، وهملت الرعايا بالبلاد الجريدية، وصار أمرها إلى الشورى التي كانت عليها قبل. فلما أدرك أحمد هذه الشورى التي كان يسمو لها سمو حباب الماء ثلج صدره، وأنجح سعيه، واستبد بمشيخة توزر. وهلك في أعوام ثمان عشرة فخلفه من بعده في سبيله تلك ولده يحيى طموحاً إلى الرتبة منافساً في الاستقلال. مزاحماً بيوتات المصر بمناكب استوصلها سائر عمره من

الدعار والأوغاد بمعاقرة الخمر والمجاراة في فنون

الشباب ليستبد أمره، والاستيلاء على نظرائه حتى تطارحوا في هوة المهلك بين قتيل ومغرب ومخيف العمران لم تعطفه عليهم عواطف الرحم، ولا زجره وازع التقوى والسلطان، حتى خلا له الجو واستوسق الأمر، واستقر من أمر البلد والحل والعقد بأوفى من استبداد أبيه. وكان مهلكه قريباً من استبداده لخمس سنين متلقياً الكرة من يده أخوه تربه في الرياسة ومجاريه في مضمارها، فأجرى إلى الغاية واقتعد كرسي الرياسة وعفى على

آثار المشيخة. واستظهر على أمره بمصانعة أمراء البدو وأولاد أبي الليل، والمتات إليهم بصهر كان عقده أبوه أحمد لأبي الليل جدهم على أخته أو عمته. فكانوا رداء له من الدولة فبعد صيته، وعظم استيلاؤه، وامتدت أيامه، وعنى الملوك بخطابه وإسناد الأمور في تلك البلاد إليه خلال ما تعود الكرة وتهب ريح الدولة. وزحف إليه القائد محمد بن الحكيم سني أربعين فلاذ منه بالطاعة والمصانعة بالمال، ورهنه ولده يحيى فرجعه إليه ابن الحكيم وتقبل طاعته من غير رهن استقامة لما ابتلاه من خلوصه. وأقام على ذلك إلى أن هلك أعوام أربعة وأربعين من المائة الثامنة.

وتصدى ولده عبد الله للقيام بالأمر فوثب عليه عمه أبو زيد بن أحمد فقتله على

جدث أبيه صبح مواراته، بعد أن كان أظهر الرضى به والتسليم له فثارت به العامة لحينه، وكان مصرعهما واحداً. وقام بالأمر أخوه يملول بن أحمد أربعة أشهر كانت شر مدة وأسوأ ولاية، لما أصاب الناس بسوء ملكته من سفك الدماء واستباحة الحرم واغتصاب الأموال، حتى كان ينسب إلى الجنون مرة وإلى الكفر مرة أخرى فمرج أمرهم واستولى الضجر على نفوسهم. وكان أخوه أبو بكر معتقلاً بالحضرة فراسله أهل توزر سراً، وأطلقه السلطان من محبسه بعد أن أخذت عليه المواثيق بالطاعة والوفاء بالجباية فصمد إليها بمن في لفه من الأعراب وحشد نفزاوة المجاورين لها في القرى الظاهرة المقدرة السير، وأجلب عليهم، ثم بيتها فافتتحها. وبادر الناس إلى القبض على يملول أخيه وأمكنه منه فاعتقله بداره وتبرأ من دمه، وأصبح لثالثة اعتقاله ميتا بمحبسه.وكانت قفصة من قبل ذلك لما صار أمر الجريد إلى الشورى قد استبد بها يحيى بن

محمد بن علي بن عبد الجليل بن العابد من بيوتها، ونسبهم في زعمهم في بلى ولهم خلف بزعمهم في الشريد من بطون سليم. والله أعلم بأولية نزولهم بقفصة

حتى التحموا بأهلها وانتظموا أمر بيوتاتها. وكانت البيوت بها بيت بني عبد الصمد وبيت بني أبي زيد، وكانت رياسته لبعض بني أبي زيد لعهد الأمير أبي زكريا الأعلى، كان يستعمله على جباية أموال الجريد، ثم سعى به أنه أصاب منها فنكبه وصودر على آلاف من المال فأعطاها، وأقامت رياستهم متفرقة في هذه البيوتات.

ولما حدثت العصبية بالبلد أيام صار أمر الجريد إلى الشورى، كان بنو العابد هؤلاء

أقوى عصبية من سائرهم، واستبد بها كبيرهم يحيى بن علي. فلما فرغ السلطان من شغله بزناتة، وجثم السلطان أبو الحسن على تلمسان يحاصرها. وأقبل السلطان على النظر في تمهيد ملكه وإصلاح ثغوره، وافتتح أمره بغزو قفصة، ونهض إليها سنة خمس وثلاثين وسبعمائة في عساكره من الموحدين وطبقات الجند والأولياء من العرب فحاصرها شهراً أو نحوها، وقطع نخيلها، وضاق عنقهم بالحصار وتلاوموا في الطاعة. واستبقوا بها إلى السلطان، وفر الكثير من بني العابد فلحقوا بقابس في جوار ابن مكي. ونزل أهل البلد على حكم السلطان فتقبل طاعتهم وأحسن التجاوز عنهم، وبسط المعدلة فيهم وأحسب أمل ذوي الحاجات منهم، وانكفأ راجعا إلى حضرته بعد أن آثرهم بسكنى ولده المخصوص بعدئذ بعهده الأمير أبي العباس وأنزله بين ظهرانيهم، وعقد

له على بلاد الجريد، واحتمل مقدم قفصة يحيى بن علي إلى الحضرة فلم يزل بها إلى أن هلك سنة أربع وأربعين وسبعمائة واستبد الأمير أبو العباس بأمر الجريد، واستولى على نفطة كما قدمناه. وقتل بني خلف وهم: مدافع وأبو بكر وعبد الله ومحمد، وإبنه أحمد بن محمد، إخوة أربعة، وابن أخيهم الخلف بن علي بن الخلف بن مدافع، ونسبهم في غسان في طوالع العرب.

وانتقل جدهم من بعض قرى يفزاوة إلى نفطة وتأثل بها، وكان لبنيه بها بيت

واستبد هؤلاء الإخوة الأربعة أزمان الشورى كما قدمناه. ولما استولى السلطان أبو بكر على الجريد، وأنزل إبنه أبا العباس بقفصة، وعقد له على سائر أمصاره اقتضى طاعتهم فامتنعوا فسرح إليهم وزيره أبا القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين. وجهزت له العساكر من الحضرة، ونازلها وقطع نخلها فلاذ أهلها بالطاعة، وأسلموا بني مدافع المتغلبين فضرب أعناقهم وصلبهم في جذوع النخل آية للمعتبرين. وأفلت السيف منهم علياً صغيرهم لذمة اعتدها له أبو القاسم بن عتو لتروعه قبل الحادثة،

فكانت واقيته من الهلكة. واستولى الأمير أبو العباس على نفطة واستضافها إلى عمله. ثم مرض أبو بكر بن يملول في طاعته فنهض إليه السلطان أبو بكر من تونس سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وكان الفتح كما قدمناه. ولحق أبو بكر بن يملول ببسكرة فلم يزل بها إلى أن أجلب على توزر فنبذ إليه يوسف بن مزني عهده، وانتقل إلى حصون وادي ابن يملول المجاورة لتوزر، وهلك سنة ست وأربعين. ثم كان مهلك السلطان وإبنه الأمير أبي العباس صاحب الأعمال الجريدية إثر ذلك سنة سبع وأربعين وسبعمائة ورجع إلى كل مصر من الجريد مقدموه فرجع أحمد بن العابد إلى قفصة من مكانه في جوار ابن مكي واستولى على بلده في مكان ابن عمه يحيى بن علي، ورجع علي بن الخلف إلى نفطة واستبد بها، ورجع يحيى بن محمد بن أحمد بن يملول إلى توزر من مثوى اغترابه ببسكرة، وارتحل إليها مع عمه أبي بكر طفلاً، فلما خلا الجديد من الأمارة درج يحيى هذا من عشه في جوار يوسف بن منصور بن مزني، وأطلقه مع أولاد مهلهل من الكعوب بعد أن وصلهم وشارطهم، واسترهن فيه أبناءهم فأوصلوه إلى محل رياسته بتوزر، ونصبه شيعته وأولياء أبيه، وقاموا بأمره. ورجع أمر الجريد كله إلى رياسة مقدمه كما كان.

ثم وفدوا على السلطان أبي الحسن عند زحفه إلى أفريقية ولقوه بوهران فلقاهم

مبرة وتكرمة ورجع كلاً إلى بلده ومحل رياسته بعد أن أسنى الجائزة، ووفر الإسهام والأقطاع، وأنفذ الصكوك والكتب: فرجع إلى توزر يحيى بن محمد بن أحمد بن يملول صبياً مغتلماً، وإلى نفطة علي بن الخلف بن مدافع، وإلى قفصة أحمد بن عمر بن العابد. وأنزل بكل واحد من هذه الأمصار عاملاً وحامية. وعقد على الجريد كله لمسعود بن ابراهيم بن عيسى اليرنياني من طبقة وزرائه، واستوصى لهؤلاء الرؤساء خيرا في جواره. حتى إذا كانت نكبة السلطان بالقيروان سنة تسع وأربعين وسبعمائة، وارتحل عامل الجريد مسعود بن إبراهيم يريد المغرب بمن معه من العمال والحامية، ونمي خبره إلى الأعراب من كرفة فصبحوه في بعض مراحل سفره دون

أرض الزاب فاستلحموه ومن كان معه من الحامية، واستولوا على أبنيتهم وذخيرتهم وكراعهم، واستبد رؤساء تلك البلاد بأمصارهم وعادوا إلى ديدنهم من التمريض، وآذنوا بالدعاء لصاحب الحضرة

.بمنابرهم، واستمروا على ذلك. فأما يحيى بن محمد بن يملول فترع إلى مناغاة الملوك في الشارة والحجاب واتخاذ الآلة والبيت المقصور للصلاة، واقتعاد الأريكة وخطاب التمويل.و فسح للمجون والعكوف على اللذات مجالاً، يرى أن جماع السياسة والملك في إدارة الكأس وافتراش الاس والحجبة عن الناس والتأله على الندمان والجلاس. وفتح مع ذلك على رعيته وأهل إيالته باب العسف والجور. وربما بيت مشاهيرهم غيلة فأتلف نفوسهم، وامتد أمره في ذلك إلى أن استولى السلطان أبو العباس على أفريقية، وكان من أمره ما نذكره. وأما جاره الجنب علي بن الخلف فلم يلبث لما استبد برياسته أن حج سنة أربع وستين وسبعمائة، والتزم مذاهب الخير وطرق الرضى والعدالة، وهلك سنة خمس وستين وسبعمائة بعدها، وولي مكانه إبنه محمد جمارياً على سننه. ثم هلك لسنة من ولايته وقام بأمره أخوه عبد الله بن علي فأذكى سياسته، وأيقظ حزمه وأرهف للناس حده فنقموا عليه سيرته، وسيموا عسفه، واستمكن مناهضهم في الشرف ومحاذيهم في رياسة البلد القاضي محمد بن خلف الله من صاحب الحضرة بذمة كانت له في خدمة قديماً استعمله لرعيها في خطة القضاء بحضرته، وآثره بالمكان منه والصحبة فسعى بعبد الله هذا عند الخليفة، ودله على مكامن هلكته، وبصره بعورات بلده. واقتاد عساكر السلطان إليه في زمامه.

ولما احتل بظاهر البلد وعبد الله رئيسها أشد ما كان قوة وأكثر جمعاً وأمضى عزماً استألف أخوه الخلف بن علي بن الخلف جماعة المشيخة دونه، وحرضهم عليه وداخل القاضي في تبييت البلد، وأنه بالمرصاد في اقتحامها، حتى إذا كانت الهيعة دس إلى بعض الأوغاد في قتل أخيه عبد الله، ومكر بالقاضي والعسكر وامتنع عليهم واعتصم دونهم، واستقل برياسة بلده وأقام على ذلك يناغي ابن يملول في سيره ويطارحه الكثير من مذاهبه، ويجري في الشأو الذي بلغ إلى غايته وأوفى على ثنيته. وأما أحمد بن عمر بن العابد فلم يزل من لدن استبداده في قفصة سالكاً مسالك الخمول، منحطاً عن رتب التكبير منتحلاً مذاهب أهل الخير والعدالة في شارته وزيه ومريهبه، جانحاً إلى التقفل. فلما أوفى على شرف من العمر استبد عليه ابنه محمد،

وترفع عن حال أبيه بعض الشيء إلى مناغاة هؤلاء المترفين، فبينما هؤلاء المتقدمون في هذه الحال من الاستبداد على السلطان والتخلق بأخلاق الملوك، والتثاقل على الرعايا بالتعسف والجور، واستحداث المكوس والضرائب إذا أطل على مفاحصهم السلطان أبو العباس بالحضرة مستبداً بدعوته، صارفاً إلى فتحها عزائمه فوجموا وتوجسوا الخيفة منه. وائتمروا في المظاهرة واتصال اليد بعد أن كانوا يستحثونه إلى الحضرة، ويبعثون إليه بالانحياش

على البعد زبوناً على صاحب الحضرة ونزوعاً عن مصدوقة الطاعة. فلما استبد السلطان أبو العباس بالدعوة استرابوا في أمرهم وسربوا أموالهم في الأعراب المخالفين على السلطان من الكعوب، يؤملون مدافعتهم عنهم فشفر لها أولاد أبي الليل بما كان وقع بينهم وبين السلطان من النفرة. ونهض إليهم السلطان فغلبهم على

ضواحي أفريقية وعلى الظواعن التي كانت جبايتها لهم من مرنجيزة كما قلناه، واكتسحهم فأوهن بذلك من قوتهم.

ثم زحف الثانية إلى أمصار الجريد فلاذوا بالامتناع فأناخ السلطان بعساكره وأوليائه

من العرب أولاد مهلهل على قفصة فقاتلوها يوماً أو بعض يوم، وغدا في ثانيه على نخيلهم يقطعها فكأنما يقطع بذلك أمعاءهم في فنبرأوا من مقدمهم، وشعر بذلك فبادر إلى السلطان ونزل على حكمه فتقبض عليه وعلى إبنه شهر ذي القعدة من سنة ثمانين وسبعمائة، وتملك البلد، واستولى على ديار ابن العابد بما فيها. وكان شيئاً لا يعبر عنه لطول أيامه في الولاية وكثرة احتجانه للأموال. وعقد السلطان على قفصة لابنه أبي بكر وارتحل يريد توزر، وطار الخبر لابن يملول في توزر فقوض عنها بأهله، ونزل على أحياء مرداس وسرب فيهم المال فرحلوا معه إلى الزاب، ولحق ببسكرة مأوى نكباته ومنتهى مفره فترل بها على أحمد بن يوسف بن مزني، وأقام هنالك على قلعة من توقع مطالبة السلطان له ولجاره ابن مزني، وخسارة أموالهم في زبون العرب وسوء المغبة إلى أن هلك لسنة أو نحوها. وائتمر أهل توزر بعد تقويضه عنهم، وبعثوا إلى السلطان ببيعتهم فلقيته أثناء طريقه، وتقدم إلى البلد فترل بقصور ابن يملول، واستولى على ذخيرته وتبرأ إليه أهل البلد من ودائع كانت له عندهم من خالص

الذخيرة فرفعوها إلى السلطان. وعقد لإبنه المنتصر على توزر، واستقدم الخلف بن الخلف من نفطة. وكان يخالف أصحابه إلى الطاعة متى نقضوها زبوناً على يملول وسالفة من العداوة كان يتقبلها. فلما احيط بهم أدركه الدهش بطاعته فأتاها، وقدم عليه فتقبل السلطان ظاهره وأغضى له عن غيرها طمعاً في استصلاحه، وعقد له على حجابة إبنه المنتصر وأنزله معه بتوزر وأمره بالاستخلاف على بلده نفطة، وعقد له على ولايتها وانكفأ راجعاً إلى الحضرة، وقدم ابن الخلف على أمره ورأى أنه قد تورط في الهلكة فراسل ابن يملول بمكانه من توزر، وعثر أولياء السلطان على كتابه إلى يعقوب بز علي شيخ رياح ومدره حروبهم على صريخ ابن يملول ومعونته فعلموا نكثه ومداجاته، وبادروا إلى التقبض عليه، وولوا على نفطة من قبلهم وخاطبوا السلطان بالشأن، وأقام في اعتقاله إلى أن كانت حادثة قفصة، فبادر الأمير المنتصر إلى قتله.

وكان من خبر قفصة أن ابن أبي زيد من مشيختها كان نزع إلى السلطان قبل فتحها

هو وأخوه لمنافسة بينهما وبين ابن العابد، وهما: محمد وأحمد إبنا عبد العزيز بن عبد الله بن أحمد بن عليّ بن عمر بن أبي زيد. وقد ذكرنا أوليتهم واستعمال سلفهم أيام الأمير أبي زكريا الأعلى في جباية الجريد. فلما استولى على البلد رعى لهما تشيعهما وبدارهما إلى طاعته مع قديمهما فأنزلهما مع إبنه بقفصة، وكبيرهما رديف لحاجبه عبد الله من الموالي الأتراك ومدبر لأمور البلد في طاعة السلطان. ثم نزغ الشيطان في صدره، وحدثته نفسه بالاستبداد، وأقام يتحين له الفرص. وذهب الأمير أبو بكر إلى زيارة أخيه بتوزر فكاده في التخلف عنه، وجمع أوباشاً من الغوغاء والزعانف وتقدم بهم إلى القصبة للفتك بعبد الله التريكي، ونذر بذلك فأغلق أبواب القصبة، وبعث الصريخ في أهل القرى، وقاتلهم ساعة من نهار حتى وافى إليه المدد. فلما استغلظ بمدده أدركهم

الدهش وانفض الأشرار من حولهم ولجأوا إلى الاختفاء في بيوت البلد، وتقبض على الكثير مفن داخلهم في الثورة، ووصل الخبر إلى الأمير

أبي بكر بتوزر فبادر إلى مكانه، وقد سكنت الهيعة فاستلحم جميع من تقبض عليه حاجبه ونادى في الناس بالبراءة من أبي زيد فتبرأوا منه. وعثر الحرس عليه وعلى أخيه خارجين من أبواب البلد في زفي النساء فقادهما إليه فقتلهما بعدأن مثل بهما.

وبادر المولى المنتصر بتوزر لقتل الخلف بن الخلف أن يخوض في مثلها فذهب

في غير مرحمة لم يعطف عليه رحم، ولا تكنه سماء ولا أرض. واستبد السلطان بالجريد ومحا منه آثار المشيخة وعفا عليها وانتظمه في عمالات السلطان. وأما بلد الحامة وهي من عمالات قسطيلية وتعرف بحافة قابس وحامة مطماطة نسبة إلى أهلها الموطنين كانوا بها من البربر، وهم فيما يقال الذين اختطوها، وأما الآن ففيها ثلاث قبائل من توجن وبني ورياجن وهم في العصبية فرقتان: أولاد يوسف ورياستهم في أولاد أبي منيع وأولاد جحاف ورياسهم في أولاد وشاح، ولا أدري كيف نسب لفرقتين. فأما بنو أبي منيع فالحديث عن رياستهم في قومهم أن جدهم رجا بن يوسف كان له ثلاثة من الولد وهم:

بوساك ويحمد وملالت وأن رئاسته بعده كانت لإبنه بوساك ثم إبنه أبي منيع من بعده، ثم لابنه حسن بن أبي منيع ثم لإبنه محمد بن حسن، ثم لأخيه موسى بن حسن ثم لأخيهما ابن علان إلى أن كان ما نذكر. وأما أولاد جحاف فكانت أول رياستهم لمحمد بن أحمد بن وشاح، وقبله خاله القاضي عمر بن كلى. وكان العمال من الحضرة يتعاقبون فيهم إلى أن أسقط السلطان عنهم الخراج والمغارم بأمرها. وكان مقدمهم لأول دولة السلطان أبي بكر من أولاد أبي منيع، وهو موسى بن حسن. وكان المديوني قائد السلطان والياً عليهم، وارتاب بهم بعض الأيام وأحبوا الثورة به فدس بها إلى السلطان في بعض حركاته، وغزاهم بنفسه ففروا، وأدرك سبعة من أولاد يوسف هؤلاء وتقبض عليهم فقتلوا. ثم رجع الأمر وولي موسى بن حسن. ولما هلك ولي بعده أخوه أبو علأن، وطال أمد ولايته عليهم وكان منسوباً إلى الخير والعفاف. وهلك سنة إثنتين

وأربعين وسبعمائة، وولي بعده إبنه عمر، ثم ابنه الآخر أبو زيان. ثم وئي بعدهما ابن عمهما مولاهم ابن محمد. ووفد على السلطان أبي الحسن مع وفد أهل الجريد كما مر. ثم هلك فولي بعده من بني عمهم حسان بن هجرس، وثار به محمد بن أحمد بن وشاح من أولاد جحاف المذكور فعزله، وأقام في ولايتها إلى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، فثار به أهل الحامة وقتلوا عمر بن كلى القاضي، وولّوا عليهم حسان بن هجرس واليهم. ثم ثار به يوسف واعتقله وهو يوسف بن عبد الملك بن حجاج بن يوسف بن وشاح

وهو الآن مقدمها يعطي طاعة معروفة، ويستدعي العامل في الجباية ويراوغ عن المصدوقة والغلب والاستيلاء، وقد أحاط به من كل جهة. وأملى عليّ بعض نسابتهم أن مشيخة أهل الحامة في بني بوساك، ثم في بني تامل بن بوشباك. وأن تامل أول تن رأس عليهم، وأن وشاحاً من ولد تامل، وأن بني وشاح على فرقتين: بنو حسن وبنو يوسف فحسان بن هجرس ومولاهم وعمر وأبو علان كلهم من بني حسن، ومحمد بن أحمد بن وشاح

من بني يوسف، وهذا مخالف للأول، والله أعلم بالصحيح في أمرهم. فأما نفزاوة وأعمال قسطيلية وفتنسب لهذا العهد إلى توزر وهي القرى العديدة المقدرة السير، يعترض بينها وبين توزر إلى القبلة عنها السبخة المشهورة المانعة من الاعتساف، إلا معالم قائمة من الخشب يهتدي بها السالك، وربما يضل خائضها فتبتلعه. ويسكن هذه القرى قوم من بقايا نفزاوة من البرابرة البتر أبقوا هنالك بعد انقراض جمهورهم، وتحيف العرب لسائر بطون البربر، ومعهم معاهدون من الفرنجة ينسبون إلى سردانية نزلوا على الذمة والجزية وبها الآن أعقابهم، ثم نزل عليهم من عرب الشريد وزغب من بني سليم كل من عجز عن الظعن، وملكوا بها العقار والمياه وكثروا نفزاوة، وهم لهذا العهد عامة أهلها، وليس في نفزاوة هذه رياسة لصغرها ورجوعها في الغالب إلى أعمال توزر ورياستها. هذا حال للمتقدمين ببلاد الجريد في الدولة الحفصية أوردنا أخبارهم فيها لأنهم من صنائعها، وفي عداد ولايتها ومواليها، والله متولي الأمور.

خريطة

الخبر عن بني مكي رؤساء قابس وأعمالها:

كانت قابس هذه من ثغور أفريقية ومنتظمة في عمالاتها، وكان ولاتها من القيروان

أيام الاغالبة والعبيديين وصنهاجة من لدن الفتح، ولما دخل الهلاليون أفريقية واضطربت أمورها، واقتسمت دولة صنهاجة طوائف انتزى بقابس من صنهاجة المعز بن محمد الصنهاجي، وأدال منه مونس بن يحيى الصنبري من مرداس رياح بأخيه إبراهيم إلى أن هلك، وولي أخوه قاضي بن إبراهيم ثم نازله أهل قابس وقتلوه أيام تميم بن باديس، وبايعوا لعمر بن المعز بن باديس كان مخالفاً على أخيه، وذلك سنة تسع وثمانين وأربعمائة. ثم غلبه عليها أخوه تميم وكان مغلباً للعرب. وكانت قابس وضواحيها في قسم زغبة من عرب هلال. ثم غلبتهم رياح عليها، ونزل مكن بن كامل بن جامع من بني دهمان إخوة فادغ، وهما معا من بني علي إحدى بطون رياح فاستحدث بها مكن ملكا لقومه بني جامع وأورثه بنيه إلى أن استولى الموحدون على أفريقية، وبعث عبد المؤمن عساكره إلى قابس ففر عنها مدافع بن رشيد آخرهم وانتظمها كما ذكرناه في أخبارهم وملكها وانقرض ملك بني جامع، وصارت قابس وعملها للموحدين، وكانت ولاة أفريقية من السادة يولون عليها من الموحدين إلى أن تغلب بنو غانية وقراقش على طرابلس وقابس وأعمالها، وكان ما ذكرناه في أخبارهم.

ثم غلب الموحدون يحيى بن غانية عليها وأنزلوا بها عمالهم. ولما عاد بنو أبي

حفص إلى أفريقية العودة الثانية بعد مهلك الشيخ أبي محمد عبد الواحد، وعقد العادل على أفريقية لابنه أبي محمد عبد الله معه على قابس للأمير أبي زكريا أخيه فترلها أميراً. ثم كان من شأن استبداده وخلعه لأخيه ولطاعة بني عبد المؤمن ما ذكرناه. وكان مشيخة

قابس لذلك العهد في بيوت من بيوتاتها وهم بنو مسلم ولم يحضرني فيمن هو نسبهم. وبنو مكي ونسبهم في لواتة وهو مكي بن فراج بن زيادة الله بن أبي الحسن بن محمد بن زيادة الله

بن أبي الحسين اللواتي. وكان بنو مكي هؤلاء خالصة للأمير أبي زكريا. ولما اعتزم على الاستبداد داخل أبا القاسم عثمان بن أبي القاسم بن مكي، وتولى له أخذ البيعة على الناس فكان له ولقومه بذلك مكان من الموالي أبي زكريا، رعى لهم ذمتها ورفع من شأنهم بسببها، ورموا ببني سليم نظرائهم في رياسة البلد بصاغيتهم إلى ابن غانية، فأخمدوا ذبالهم واستقلوا بشورى بلدهم. وأقاموا على ذلك أيام المولى أبي زكريا الأول وإبنه المستنصر. ثم كان ما قدمناه من مهلك الواثق ابن المستنصر وبنيه على يد عمهم السلطان أبي إسحق، وما كان من أمر الداعي بن أبي عمارة، وكيف شبه على الناس بالفضل ابن المخلوع بحيلة مولاهم نصير، رام أن يثار بها من قاتلهم فتفت مكيدته في ذلك لما أراده الله. ولما أظهر نصير أمره، وتسايلت العرب إلى بيعته خاطب لأول أمره رئيس قابس لذلك العهد من بني مكي عبد الملك بن عثمان بن مكي فسارع إلى طاعته وحمل الناس عليها، وكانت له بذلك قدم في الدولة معروف رسوخه.

ولما ألقى الداعي ابن أبي عمارة جسداً على كرسي الخلافة سنة إحدى وثمانين وستمائة

قلده خطة الجباية بالحضرة مستقلاً فيها بالولاية والعزل والفرض والتقدير والحسبان، وبعد أن أجزل من بيت المال عطاءه، وأسنى رزقه وجرايته، وأهدى الجواري من القصر إليه. ولما هلك الداعي واستقلت قدم الخلافة من عثارها كما قدمناه سنة ثلاث وثمانين وستمائة لحق عبد الحق بن مكي ببلده، وامتنع بها على حين ركود ريح الدولة وفشلها، ومرض في طاعته ودافع أهل الدولة بالدعاء للخليفة على منابره. ثم جاهر بالخلعان سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وبعث بطاعته إلى صاحب الثغور المولى أبي زكرياالأوسط. وهلك إبنه أحمد ولي عهده سنة سبع وتسعين وستمائة. ثم هلك هو من بعده على رأس المائة السابعة، وتخلف حافده مكياً فنصبوه للملك يفعة، وكفله ابن عمه يوسف بن حسن. وقام بالأمر مستبداً عليه إلى أن هلك، وخلفه في كفالة أحمد بن ليران من بيوت أهل قابس وأصهار بني مكي. والتاث أمرهم بمهلك يوسف فنقلهم

السلطان ابن اللحياني إلى الحضرة وأقاموا بها أياماً، ثم ردهم إلى بلدهم أيام تجافيه عن تونس وخروجه إلى ناحية قابس.

ثم هلك خلال ذلك مكي، وتخفف صبيين يافعين عبد الملك وأحمد فكفلهما

أحمد بن ليران إلى أن شبا واكتهلا، ولهما من الامتناع على الدولة والاستبداد بأمر القطر والاقتصار على الدعاء للخليفة مثل ما كان لأبيهما وأكثر لتقلص ظل الملك عن قطرهم. وشغل السلطان بمدافعة آل يغمراسن وعساكرهم عن الثغور الغربية، وأجلابهم بالأعياص من أهل البيت على الحضرة. ولما هلك السلطان أبو يحيى اللحياني قفل إبنه عبد الواحد إلى المغرب يحاول أسباب الملك، ونزل بساحتهم على ما كان من صنائع أبيه إليهم فذكروا العهد، وأوجبوا الحق وأتوه بيعتهم. وقام كبيرهم عبد الملك بأمره، ودعا الناس إلى طاعته وخالف السلطان أبا يحيى عند نهوضه إلى الثغر ببجاية سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة كما قدمناه، فدخل الحضرة ولبث بها أياماً لم تبلغ نصف شهر. وبلغ خبرهم إلى السلطان فانكفأ راجعاً وفروا إلى مكانهم من قابر،

والدولة تنظر لهم الشزر وتتربص بهم الدوائر، إلى أن غلب السلطان أبو الحسن على تلمسان ومحا دولة آل يغمراسن، وفرغت الدولة من شأنهم إلى تمهيد أعمالها وتقويم المنحرفين عن الطاعة من ولاتها.

وقفل حمزة بن عمر بشفاعة من السلطان أبي الحسن إلى السلطان أبي يحيى في شأنه فتقبل وسيلته واستخلصه لنفسه من بعدها، واستقام هو على الطاعة التي لم تجد وليجة عنها، وسلك سبيله تلك أقتاله من الدولة الطائحين في هوة الشقاق فأوفد عبد الملك هذا شقيقه أحمد على السلطان أبي الحسن متنصلاً من ذنوبه لائذاً بشفاعته متوسلاً بما قدمناه من خدمته حظاياه في طريقهن إلى الحج ذاهباً وجائيا، فخاطب السلطان أبا يحيى في شأنه وأعاده إلى مكانه من اصطناع سلفه واستقام على طاعته. ولما انتظم السلطان أبو يحيى سائر البلاد الجريدية في ملكه وعقد عليها لابنه أبي العباس ولي عهده، وأنزله دار أمارتها متردداً ما بين توزر وقفصة إلى أن قفلت عمته من الحج سنة ست وأربعين وسبعمائة، وخرج للقائها محتفياً بين الظعائن فجمعه مجلسها بأحمد بن مكي كان قد اعتمد تلقيها والقيام بصحابتها في مراحل سفرها من بلده إلى آخر عمله، فمسح الأمير أبو العباس الإحن عن صدره وأدال له الأمين والرضى من توحشه، واستخلصه لدولته ونجوى أسراره واصطفاه لنفسه وحمله رديفاً لحاجبه، فحل من دولته بمكان غبطة فيه امتيازه من أمراء تلك الطوائف.

وعقد له السلطان أبو يحيى على جزيرة جربة بوسيلة أبي العباس إبنه، وقد كان افتتحها مخلوف بن الكماد من صنائعهم من يد العدو أهل صقلية كما ذكرناه، فضضها إليه وصيرها في أعماله. و لم يزل هذا شأنه معه إلى أن هلك أبو العباس ولي العهد بتونس على يد أخيه أبي حفص عمر عندما دخلها بعد مهلك أبيهما كما ذكرناه، ولحق أحمد بن مكي ببلده. ثم سار في وفد رؤساء الجريد إلى تلقي السلطان أبي الحسن عند نهوضه إلى أفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، ولقيه معهم بوهران من أعمال تلمسان، وكان قدمه عنده فوق قدمهم. ورجع الوفد على أعقابهم محبورين. وتمسك بأحمد بن مكي في جملته إلى الحضرة، ووفد عليه أخوه عبد الملك مؤدياً طاعة السلطان فكرم موصله وأحسن متقلبهما جميعاً إلى بلدهما على ما كان بيدهما من عمل قابس وجربة. ثم كانت نكبة السلطان أبي الحسن على القيروان فوفد عليه أحمد بتونس بعد خلوصه من القيروان مجدداً لعهد طاعته، فأرادهم السلطان على الامتنان لعبد الواحد اللحياني سلطانهم الأقدم، وعقد له على تلك الثغور الشرقية، وأنزله جربة، وأمرهما بالطاعة له ما دام في طاعته. وعقد لأبي القاسم بن عتو شيخ الموحدين على توزر وقسطيلية بعد أن كان قطعه عندما تقبض عليه في واقعة السلطان أبي حفص عمر. ثم استقبل رأيه في استخلاصه عندما انتقض عليه أبو محمد بن تافراكين. ولما رجع من القيروان إلى تونس عقد له توزر كما ذكرناه، ولعبد الواحد بن اللحياني على قابس وجربة فأسف بذلك بني مكي هؤلاء. وهلك ابن اللحياني لحين نزوله بجربة بما أصابه من علة الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فانتقض بنو مكي على السلطان أبي الحسن ودعوا إلى الخروج عليه وبايعوا الأفضل ابن السلطان أبي يحيى عندما أفرج عن حصار تونس سنة خمسين وسبعمائة، وداخلوا أبا القاسم بن عتو وهو

إذ ذاك لم يتوزر فأجابهم وكانت من دواعي رحلة السلطان أبي الحسن من أفريقية وتقويضه عنها كما قدمناه.

ولما رجع الحاجب أبو محمد بن تافراكين من المشرق، واستقل بأمر تونس، ونصب الإمام أبا إسحاق ابن السلطان أبي يحيى للخلافة بها في كفالته غضوا بمكانه من التغلب وأنفوا من استبداده، وانحرفوا إلى دعوة الأمير أبي زيد صاحب ثغر قسنطينة. ووفد عليه

أحمد بن مكي مع محمد بن طالب بن مهلهل كبير البدو بأفريقية فيمن إليه، فاستنهضوه وقلده الأمير أبو زيد حجابته وجعل أمره إليه. وأبرز الحاجب أبو محمد بن تافراكين سلطانه أبا إسحق في عساكره مع خالد بن حمزة وقومه فالتقى الجمعان بمرمجنة وكانت الدبرة على السلطان أبي إسحق سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، وجاءوا على أثرهم فنازلوا تونس أياماً وما أفرجوا عنها إلا للصائح يخبرهم باحتلال عساكر بني مرين بالمرية من آخر أعمال تلمسان، وأن السلطان أبا عنان قد استحلم بني عبد الواد، وجمع كلمة زناتة، واستقام له أمر المغربين. وأطل على الثغور الشرقية فافترق جمعهم. ولحق الأمير أبو زيد بقسنطينة، وأحمد بن مكي بقابس.

وسأل من الأمير أبي زيد أن يقسم رسم الأمارة بينهم في قابس وجربة بأخيه السلطان أبي العباس فأذق له في ذلك فكانت أول ولايته السعيدة ومضى إلى قابس فتزلها، ثم أجاز البحر إلى جربة، ودفع عنها العسكر الذي كان محاصراً للقشتيل من قبل ابن ثابت صاحب طرابلس، ورجع إلى قابس حتى كان من أمره ما ذكرناه.

وأوفد السلطان أبو العباس أخاه أبا يحيى زكريا على أبي عنان ملك المغرب صريخاً على شأنه، وأوفد ابن مكي رسله متذمماً ومذكراً بوسائله فتقبل وأغضى. ثم كانت واقعة العدو دمره الله بطرابلس سنة أربع وخمسين وسبعمائة كما قدمناه فبعث إلى السلطان أبي عنان يسأله فديتها والنظر لها من بين ثغور المسلمين، فحمل إليه خمسة أحمال من الذهب العين من بيت المال، أوفد بها من أعيان مجلسه: الخطيب أبا عبد الله بن مزروق، وأبا عبد الله محمد حافد المولى أبي علي عمر بن سيد الناس. وعقد لأحمد بن مكي على طرابلس فاستقل بها، وعقد لأخيه عبد الملك على قابس وجربة وأقاموا على دعوته. ومد أحمد يده إلى صفاقس فنازلها وتغلب عليها سنة سبع وخمسين وسبعمائة. وهلك السلطان أبو عنان وقد شرق صدر ابن تافراكين الغالب على الحضرة بعداً وهمتا فردد عليهما البعوث براً وبحراً إلى أن استخلص جزيرة جربة من أيديهما أعوام أربعة وستين وسبعمائة، وعقد عليهما لولده محمد فاستخلف بها كاتبه محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون من صنائع الدولة كما ذكرناه.

وهلك أحمد بن مكي سنة ست وستين وسبعمائة على تفيئة مهلك الحاجب ابن تافراكين بالحضرة فكأنما ضربا موعداً للهلكة وتوافياه. وتخلف إبنه عبد الرحمن

بطرابلس في كفالة مولاه ظافر العلج، وهلك ظافر إثر مهلكه فاستبد عبد الرحمن بطرابلس، وساءت سيرته فيها إلى أن نازله أبو بكر بن محمد بن ثابت في أسطوله كما نذكره سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة. وأجلب عليه بالبرابرة والعرب من أهل الوطن فانتقض عليه أهل البلد وثاروا به. وبادر أبو بكر بن ثابت لاقتحامها

عليه وأسلموه ففر إلى بيت أحد أمراء دباب فأجاره إلى أن أبلغه مأمنه من محلة قومه، وإيالة عمه عبد الملك بقابس إلى أن هلك سنة تسع وسبعين وسبعمائة.

و لم يزل عبد الملك لهذا العهد، وهو سنة إحدى وثمانين وسبعمائة والياً على عمله بقابس وإبنه يحيى مستبد بوزارته وحافده عبد الوهاب لإبنه مكي رديف له، وقد تراجعت أحوالهم عفا كانت وخرجت من أيديهم الأعمال التي كانت في إيالتهم لعهد أخيه أحمد مثل: طرابلس وجزيرة جربة وصفاقس وما إلى ذلك من العمالات، حتى كان البخت إنما كان لأخيه، واليمن إنما اقترن بحياته، وسيرتهما جميعاً من العدالة وتحري مذاهب الخير والسمت، والاتسام بسمات أهل الدين وحلية الفقه معروفة، حتى كان كل واحد منهم إنما يدعى بالفقيه علما بين أهل عصره حرصاً على الانغماس في مذاهب الخير وطرقه. وكان لأحمد حظ من الأدب، وكان يقرض الأبيات من الشعر فيجيد، عفا الله عنه. وله في الترسيل حظ ووساع بلاغة وخط، وينحو في كتابته منحى أهل المشرق في أوضاع حروفهم وأشكال رسومها، ولأخيه عبد الملك حظ من ذلك شارك به جهابذة أهل عصره وأفقه.

ولما انتظم السلطان أبو العباس أمصار أفريقية في ملكه واستبد بالدعوة الحفصية

على قومه داخل أهل الجريد منه الروع، وفزعوا إليه للمقاوضة في الامتناع فداخلهم في ذلك. وأشاروا إلى صاحب تلمسان بالترغيب في أفريقية فعجز عنهم وألحوا عليه فخام عن العداوة. وزحف مولانا السلطان خلال ذلك إلى الجريد فملك قفصة وتوزر ونفطة فبادر ابن مكي إلى التلبس بالاستقامة وبعث إليه بالطاعة. ثم رجع السلطان إلى الحضرة فرجع هو عن المصدوقة واتهم أهل البلد بالميل إلى السلطان فتقبض على بعضهم وفر آخرون. وانتقض بنو أحمد أهل ضواحيه من دباب فنازلوه وبعثوا إلى الأمير أبي بكر بقفصة في العسكر لمنازلته فبعثه إليهم وأحاطوا به.

ثم انتهز الفرصة، وداخل بعض العرب من بني علي في تبييت المعسكر، وبذل لهم في ذلك المال فبيتوه وانفض وبلغ الخبر إلى السلطان فخرج من حضرته سنة إحدى وثمانين وسبعمائة، ونزل القيروان، وتوافت إليه أحاديات وبعث رسله للأعذار بين يديه فردهم ابن مكي بالطاعة. ثم احتمل رواحله ونزل بأحياء العرب وأغذ السلطان السير إلى البلد فدخلها واستولى على قصورها ولاذ أهل البلد بالبيعة فأتوها، واستعمل عليهم من بطانته وانكفأ راجعاً إلى تونس. وهلك عبد الملك لأيام قلائل بين أحياء العرب. وهلك بعده عبد الرحمن ابن أخيه أحمد الذي كان صاحب طرابلس بعد أبيه. ولحق إبنه يحيى وحافده عبد الوهاب بطرابلس فمنعهم ابن ثابت من النزول ببلده لما كان متمسكاً بطاعة السلطان، فنزلوا بزنزور من بلاد دباب التي بضاحيتها وأقاموا هنالك. واستقامت النواحي الشرقية على طاعة السلطان وانتظمت في دعوته والله مالك الملك.

ثم ذهب يحيى بن عبد الملك إلى المشرق لقضاء فرضه، وأقام عبد الوهاب بين

أحياء البربر بالجبال هنالك، وكان الوالي الذي تركه السلطان بقابس قد ساء أثره في أهلها فدس شيعتهم إلى عبد الوهاب بذلك، وجاء إلى البلد فبيتها، وثاروا بالوالي فقتلوه سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وملك عبد

الوهاب قابس وجاء أخوه يحيى من المشرق بعد قضاء فرضه فأجلب عليه مراراً يروم ملكها منه و لم يتهيأ له، ونزل على صاحب الحمة فداخله عبد الوهاب في أن يمكنه منه، ويشترط ما شاء. وتم ذلك بينهما وأوثقه كتافاً وبعث به إليه فاعتقله بقصر العروسيين، فمكث في السجن أعواما. ثم فر من محبسه ولحق بالحامة على مرحلة من قابس مستنجداً بابن وشاح صاحبها فأنجده. وما زال يجلب على نواحي قابس إلى أن ملكها وتقبض على عبد الوهاب ابن أخيه مكي فقتله أعوام تسعين وسبعمائة. ولم يزل مستبداً ببلده إلى سنة ست وتسعين وسبعمائة. وكان الأمير عمر ابن السلطان أبي العباس قد بعثه أبوه لحصار طرابلس فحاصرها حولاً كما نذكره، حتى استقام أهلها على الطاعة وأعطوا الضريبة فأفرج عنها. ورجع إلى أبيه فولاه على صفاقس وأعمالها فاستقل بها، ثم داخل أهل

الحامة في ملك قابس فأجابوه وساروا معه فبيتها ودخلها وقبض على يحيى بن عبد الملك فضرب عنقه، وانقرض أمر بني مكي من قابس، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني ثابت رؤساء مدينة طرابلس وأعمالها:

قد تقدم لنا شأن هذا البلد لأول الفتح الإسلامي، وأن عمرو بن العاص هو الذي

تولى فتحه، وبقي بعد ذلك من جملة أعمال أفريقية، تنسحب عليه ولاية صاحبها فلم يزل ثغراً لهذه الأعمال من لدن إمارة عقبة ومن بعده وفي دول الأغالبة. وكان المعز لدين الله من خلفاء الشيعة لما ارتحل إلى القاهرة، وعقد على أفريقية لبلكين بن زيري بن مناد أمير صنهاجة عقد على طرابلس لعبد الله بن يخلف من رجالات كتامة. ثم لما ولي نزار الخلافة سنة سبع وستين وثلثمائة طلب منه بلكين أن يضيف عمل طرابلس إلى عمله فأجاب

وعهد له بها، وولى عليها بلكين من رجالات صنهاجة. ثم عقد عليها الحاكم بعد مهلك المنصور بن بلكين ليانس الصقلبي سنة تسعين وثلاثمائة بمداخلة عاملها يمصول من صنهاجة، وأعانه على ذلك برجوان الصقلبي المتغلب على الدولة يومئذ لمنافسته ليأنس، فوصل إليها في ألف وخمسمائة فارس فملكها، فسرح باديس جعفر بن حبيب لحربه في عسكر من صنهاجة، وتزاحفاً يومين بساحة زنزور، ثم انفض عسكر يانس في الثالث وقتل، ولحق ففه بطرابلس فاعتصموا بها. ونازلهم جعفر بن حبيب القائد، وزحف فلفول بن سعيد بن خزرون الثائر على باديس وإبنه بأفريقية إلى قابس فحاصرها.

ثم قصد جعفر بن حبيب بمكانه من حصار طرابلس فأفرج عنها جعفر ولحق بنفوسة، وأميرهم يحيى بن محمد فامتنع عليهم، ثم لحق بالقيروان ومضى فلفول بن سعيد إلى طرابلس فخرج إليه فتوح بن علي ومن معه من أصحاب يأنس فملكوه، وقام فيها بدعوة الحاكم من خلفاء الشيعة وأوطنها. وعقد الحاكم عليها ليحيى بن علي بن حمدون أخي جعفر صاحب المسيلة النازع إليه من الأندلس فوصل إليها واستظهر بفلفول على بجاية، ونازل قابس فامتنعت عليه. ثم عجز عن الولاية ورأى استبداد

فلفول عليه بعصبته فرجع إلى مصر، واستبد فلفول بطرابلس وتداولها بنوه مع ملوك صنهاجة إلى أن استبدوا بها آخراً. ودخل العرب الهلاليون إلى أفريقية فخربوا أوطانها وطمسوا معالمها. ولم تزل بأيدي بني خزرون هؤلاء إلى أن غلبهم عليها جرجي بن ميخائيل صاحب أسطول رجار ملك صقلية من الأفرنج سنة أربعين وخمسماية، وأبقى المسلمين بها واستعمل عليهم كما فعل في سواحل أفريقية فأقاموا في ملكة النصارى أياماً. ثم ثار بهم المسلمون بمداخلة أبي يحيى بن مطروح من أعيانهم وفتكوا بهم. ولما افتتح عبد المؤمن المهدية سنة خمس وخمسين وخمسمائة وفد عليه ابن مطروح ووجوه أهل طرابلس فأوسعهم تكرمة وردهم إلى بلدهم، وولى عليهم ابن مطروح إلى أن كبر سنه وعجز. وارتحل إلى المشرق سنة ست وثمانين وخمسمائة بإذن السيد أبي زيد بن عمر بن عبد المؤمن عامل أفريقية من قبل عفه يوسف واستقر بالإسكندرية.

وتعاقبت عليها ولاة الموحدين، ثم كان من أمر ابن غانية وقراقش ما قدمناه، وصارت طرابلس لقراقش. ثم استبد بنو أبي حفص بأفريقية على بني عبد المؤمن. وهلك قراقش وابن غانية، وانتظم عمل طرابلس في أعمال الأمير أبي زكريا وبنيه إلى أن انقسمت دولتهم، واقتطعت الثغور الغربية عن الحضرة. وفشل ريح الدولة بعض الشيء وتقلص ظلها عن القاصية، فصارت رياسة طرابلس إلى الشورى ولم يزل العامل من الموحدين يجيء إليها من الحضرة إلا أن رئيسها من أهلها مستبد عليها، وحدثت العصبية في البلد لحدوث الشورى والمنافسة فيها. ثم نزلها السلطان أبو يحيى بن اللحياني سنة سبع عشرة وسبعماية حين تجافى عن ملك الحضرة، وأحس بزحف السلطان أبي يحيى صاحب بجاية إليها فأبعد عن تونس إلى ثغر طرابلس، وأقام بها وأقام أحمد بن عربي من مشيختها بخدمته.

ولما فارق ابن اللحياني تونس ويئس الموحدون من عوده أخرجوا إبنه محمد المكنى بأبي ضربة من الاعتقال، وبايعوا له. وخرج للقاء السلطان أبي بكر ومدافعته فهزمه السلطان أبو بكر وحمله الأعراب الذين معه على قصد طرابلس لانتزاع الأموال والذخائر الملوكية من يد أبيه. ولما أحس بذلك أبوه ركب البحر من طرابلس إلى الإسكندرية كما هو مذكور في خبره، واستخلف على طرابلس صهره محمد بن أبي عمر بن إبراهيم بن أبي حفص فقام بأمرها، وولى حجابته رجلاً من أهله يشهر

بالبطيسي فساء أثره في أهل طرابلس، وحجب عنهم وجه الرضى من سلطانه، وحمله على مصادرتهم واستخلاص أموالهم حتى أجمعوا الثورة بالسلطان فركب السفين ناجياً منهم بعد أن تعرض بعضهم لوداعه فأطلعه على سعايات البطيسي بهم فقتلوه لوقته، وقتلوا قاضياً بطرابلس من أهل تونس كان يمالىء على ذلك. وتولى كبر ذلك أحمد بن عربي. ثم هلك وقام بأمر طرابلس محمد بن كعبور فقتله سعيد بن طاهر المزوغي وملك أمر البلد، وكان معه أبو البركات بن أبي الدنيا فمات حتف أنفه. واستقل ابن طاهر بأمر طرابلس إثنتي عشرة سنة. ثم هلك وقام بأمرها ثابت بن عمار الزكوجي من قبائل هوارة. وثار به لستة أشهر من ولايته أحمد بن سعيد بن طاهر فقتله واستبد به. ثم ثار به جماعة زكوجة وقتلوه في مغتسله عند الأذان بالصبح، وولوا محمداً ابن شيخهم ثابت بن عمار أعوام سبعة وعشرين فاستبد بأمر طرابلس نحوا من عشرين سنة وظل الدولة

متقلص عنه. وهو يغالط عن الإمارة بالتجارة والاحتراف بها ولبوس شارتها، والسعي راجلاً في سكك المدينة يتناول حاجاته وماعونه بيده ويخالط السوقة في معاملاته، يذهب في ذلك مذهب التخلق والتواضع يسر منه حسوا في ارتغاء، ويطلب العامل من تونس؛ فيبعثه السلطان على طرابلس يقيم عنده معتملاً في تصريفه. وهو يبرأ إليه ظاهراً من الأحكام والنقض والإبرام إلى أن كان تغلب بني مرين على أفريقية. ووصل السلطان أبو الحسن إلى الحضرة على ما نذكره، فداوله طرف الحبل وهو ممسك بطرفه، ونقل إلى الإسكندرية ماله وذخيرته. ثم اغتاله أثناء ذلك جماعة من محريش عند داره فقتلوه، وثار منهم للحين بطانته وشيعه. وولي بعده إبنه ثابت، فتزيا بزي الأمارة في اللبوس والركوب بحلية الذهب، واتخاذ الحجاب والبطانة.

وأقام على ذلك إلى أن اجتمع بها أسطول من تجار النصارى أغفلوا أمرهم لكثرة طروقهم وترددهم في سبيل التجارة، وكثرة ما يغشاها من سفنهم، فغدروا بها ليلاً وثاروا فيها وكثروا أهلها فأسلم الحامية إليهم باليد. وفر مقدمهم ثابت إلى حلة أولاد مرغم أمراء الجواري في أنحائها فقتلوه صبراً لدم كان أصابه منهم في رياسته؛ فكانت مدته ست سنين، وقتلوا معه أخاه عماراً. واكتسح النصارى جميع ما كان بالبلد من

الذخيرة والمتاع والخرثي والماعون، وشحنوا السفن بها وبالأسرى من العقائل والحامية مصفدين، وأقاموا بالبلد أياماً على قلق ورهب من الكرة لو كان لها رجال. ثم تحدثوا مع من جاورها من المسلمين في فدائها فتصدى لذلك صاحب قابس أبو العباس أحمد بن مكي وبذل لهم فيها خمسين ألفاً من الذهب استوهب أكثرها من جماعة المسلمين بالبلاد الجريدية تزلفاً إلى الله باستخلاص الثغر من يد الكفر، وذلك سنة... وخمسين ولحق ولد ابن ثابت بثغر الإسكندرية فأقاموا به يحترفون بالتجارة إلى أن هلك أحمد بن مكي سنة ست وستين وسبعمائة، وقام بأمره ولده عبد الرحمن، فسما أبو بكر بن محمد بن ثابت إلى رياسة أبيه، وذكر عهود الصبا في معاهد قومه فاكترى من النصارى سفنا شحنها بصنائعه وموالي أبيه، ونازلها سنة إحدى وسبعين وسبعمائة في أسطول من أساطيلهم. واجتمع إليه ذؤبان العرب ففرق فيهم الأموال وأجلب عليها بمن في قراها وأريافها من الرجل، فاقتحمها على عبد الرحمن بن أحمد بن مكي عنوة، وأجاره العرب من أولاد مرغم بن صابر، تولى ذلك منهم إلى أن أبلغوه مأمنه في إيالة عمه عبد الملك بمكان أمارتهم بقابس. واستوسق أمر طرابلس لأبي بكر هذا، واستقل بولايتها. ودخل في طاعة السلطان

أبي العباس بتونس، وخطب له على منابره، وقام يصانعه بما للسلطان من الضريبة، ويتحفه حيناً بعد حين بالهدايا والطرف إلى أن هلك سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة، وولي مكانه علي ابن أخيه عمار، وقام بكفالته عمه. وكان قائده قاسم بن خلف الله متهما بالتشيع للصبي المخلف عن أبي يحيى فارتاب ودفعوه لاقتضاء المغارم من مسرتة، فتوحش الخليفة من علي وانتقض. ثم بعث إليه بأمانه فرجع إلى طرابلس، ثم استوحش وطلب الحج فخلوا سبيله وركب البحر إلى الإسكندرية. ولقي بها خالصة السلطان محمد بن أبي هلال عام حج فأخذ منه ذمة، وكر راجعاً في السفين إلى تونس يستحث السلطان لملك طرابلس. فلما مر بهم راسلوه

ولاطفوه واستعادوه إلى مكانه فعاد إليهم. ثم جاءته النذر بالهلكة ففر، ولحق السلطان بتونس واستحثه لملك طرابلس. وبلغ الخبر إلى السلطان فبعث معه إبنه

الأمير أبا حفص عمر لحصار طرابلس فنزل بساحتها، وافترق عرب دياب عليه وعلى ابن ثابت، وقام ابن خلف الله في خدمته المقام المحمود، ووفر له جباية الوطن ومغارمه ونقل العرب إلى طاعته ويستألفهم به، وأقام عليها حولاً كريتاً يمنع عنهم الأقوات ويبترزون إليه فيقاتلهم بعض الأحيان. ثم دفعوه بالضريبة التي عليهم لعدة أعوام نائطة وكان قد ضجر من طول المقامة فرضي بطاعتهم وانكفأ راجعاً إلى أبيه سنة خمس وتسعين وسبعمائة فولاه على صفاقس وافتتح منها قابس كما قدمناه. وأقام علي بن عمار على أمارته بطرابلس إلى هذا العهد، والله مدبر الأمور بحكمته. هذا آخر الكلام في الدولة الحفصية من الموحدين وما تبعها من أخبار المقدمين المستبدين بأمصار الجريد والزاب والثغور الشرقية، فلنرجع إلى أخبار زناتة ودولهم، وبكمالها يكمل الكتاب إن شاء الله تعالى.

المجلد السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الأول

زَناتَة

الخبر عن زناتة من قبائل البربر يوم كان بين أجيالهم من العز والظهور وما تعاقب فيهم من الدول القديمة والحديثة

هذا الجيل في المغرب جيل قديم العهد، معروف العين والأثر؛ وهم لهذا العهد آخذون من شعائر العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل، والتغلّب في الأرض وإيلاف الرحلتين، وتخطّف الناس من العمران، والإباية عن الانقياد للنصَفَة. وشعارهم بين البربر اللغة التي يتراطنون بها، وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر. ومواطنهم في سائر مواطن البربر بأفريقية والمغرب. فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى، حتى أنّ عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم كما نذكره. ومنهم قوم بالتلول بجبار طرابلس وضواحي إفريقية، وبجبل أوراس بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد، وأذعنوا لحكمهم، والأكثر منهم بالمغرب الأوسط، حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال: وطن زناتة. ومنهم بالمغرب الأقصى أمم أخرى، وهم لهذا العهد أهل دول وملك بالمغربين. وكان لهم فيه دول أخرى في القديم. ولم يزل الملك يتداول في شعوبهم حسبما نذكره بعد لكل شعب منهم إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نسبة زناتة وذكر الخلاف الواقع فيه وتعديد شعوبهم:

أمّا نسبهم بين البربر فلا خلاف بين نسّابتهم أنهم من ولد شانا وإليه نسبهم، وأمّا شانا فقال أبو محمد بن حزم في كتاب الجمهرة، قال بعضهم: هو جانا بن يحيى بن صولات بن ورماك بن ضري بن رحيك بن مادغيس بن بربر. وقال أيضاً في كتاب الجمهرة: ذكر لي يوسف الورّاق عن أيوب بن أبي يزيد، يعني حين وفد على قرطبة عن أبيه الثائر بأفريقية أيام الناصر قال: هو جانا بن يحيى بن صولات بن ورساك بن ضري بن مقبو بن قروال بن يملا بن مادغيس بن رحيك بن همرحق ابن كراد بن مازيغ بن هرك بن برا بن بربر بن كنعان بن حام. هذا ما ذكره ابن حزم. وبظهر منه أنّ مادغيس ليس نسبة إلى البربر وقد قدّمنا ما في ذلك من الخلاف، وهذا أصح ما ينقل في هذا الآن ابن حزم، موثوق ولا يعدل به غيره.

ونقل عن ابن أبي زيد وهو كبير زناتة، ويكون البربر على هذا من نسل برنس فقط، والبتر الذين هم بنو مادغيس الأبتر ليسوا من البربر. ومنهم زناتة وغيرهم كما قدّمنا لكنهم إخوة البربر لرجوعهم كلهم إلى كنعان بن حام كما يظهر من هذا النسب.

ونقل عن أبي محمد بن قتيبة في نسب زناتة هؤلاء أنهم من ولد جالوت في رواية أن

زناتة هو جانا بن يحيى بن ضريس بن جالوت، وجالوت هوونور بن جريبل بن جديلان بن جاد بن رديلان بن حصى بن باد بن زحيك بن مادغيس الأبتر بن قيس بن عيلان.

وفي رواية أخرى عنه أنّ جالوت هو ابن جالود بردنال بن قحطان بن فارس، وفارس مشهور.

وفي رواية أخرى عنه أنه ابن هربال بن بالود بن ديال بن برنس بن سفك، وسفك أبو البربر كلهم، ونسّابة الجيل نفسه من زناتة يزعمون أنهم من حِمْيَر، ثم من التبابعة منهم. وبعضهم يقول إنهم من العمالقة، ويزعمون أنّ جالوت جدّهم من العمالقة، والحقّ فيهم ما ذكره أبو محمد بن حزم أولاً، وما بعد ذلك فليس شيء منه بصحيح. فأمّا الرواية الأولى عن أبي محمد بن قتيبة فمختلطة وفيها أنساب متداخلة. وأما نسب مادغيس إلى قيس عيلان فقد تقدّم في أوّل كتاب البربر عند ذكر أنسابهم، وأن أبناء قيس معروفون عند النسّابة. وأمّا نسب جالوت إلى قيس فأمر بعيد عن القياس، ويشهد لذلك أنّ معد بن عدنان الخامس من آباء قيس إنما كان معاصراً لبختنصر كما ذكرناه أوّل الكتاب. وأنّه لما سلّط على العرب أوحى الله إلى أَرَمْيَاء نبيّ بني إسرائيل أن يخلّص مَعَدّاً ويسير به إلى أرضه، وبختنصّر كان بعد داود بما يناهز أربعمائة وخمسين من السنين، فإنه خرّب بيت المقدس بعد بناء داود وسليمان له بمثل هذه المدّة.

فمعدّ متأخّر عن داود بمثلها سواء؛ فقيس الخامس من أبنائه متأخّر عن داود بأكثر من ذلك، فجالوت على ما ذكر أنه من أبناء قيس متأخّر عن داود بأضعاف ذلك الزمن. وكيف يكون ذلك مع أنّ داود هو الذي قتل جالوت بنصّ القرآن؟.

وأمّا إدخاله نسب جالوت في نسب البربر، وأنه من ولد مادغيس أو سفك فخطأ،

وكذلك من نسبه إلى العمالقة. والحق أنّ جالوت من بني فلسطين بن كسلوحيم بن مصرايم بن حام أحد شعوب حام بن نوح، وهم إخوة القبط والبربر والحبشة والنوبة كما ذكرناه في نسب أبناء حام. وكان بين بني فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل حروب كثيرة، وكان بالشام كثير من البربر إخوانهم، ومن سائر أولاد كنعان يضاهونهم فيها، ودثرت أمة فلسطين وكنعان وشعوبها لهذا العهد، ولم يبق إلاّ البربر، واختص إسم فلسطين بالوطن الذي كان لهم فاعتقد سامع إسم البربر مع ذكر جالوت أنه منهم وليس كذلك.

وأمّا ما رأى نسّابة زناتة أنهم من حِمْيَر فقد أنكره الحافظان أبو عمر بن عبد البرّ وأبو محمد بن حزم وقالا: ما كان لحِمْيَر طريق إلى بلاد البربر إلاّ في أكاذيب مؤرخي اليمن، وإنما حمل نسّابة زناتة على الانتساب في حِمْيَر الترفّع عن النسب البربري لما يرونهم في هذا العهد خَوَلاً وعبيداً للجباية وعوامل الخراج. وهذا وَهْمُ فقد كان في شعوب البربر من هم مكافئون لزناتة في العصبية أو أشدّ منهم مثل هوّارة ومكناسة، وكان فيهم من غلب العرب على ملكهم مثل كتامة وصنهاجة ومن تلقّف الملك من يد صنهاجة مثل المصامدة، كل هؤلاء كانوا أشدّ قّوة وأكثر جمعاً من زناتة. فلمّا فنيت أجيالهم أصبحوا مغلّبين فنالهم ضرٌ المغرم، وصار إسم البربر مختصًّا لهذا العهد بأهل المغرم، فأنف زناتة منه فراراً من الهضيمة.

وأعجبوا بالدخول في النسب العربي لصراحته وما فيه من المزيّة بتعدد الأنبياء ولا سيما نسب مُضَر وأنهم من وُلْد إسماعيل بن إبراهيم بن نوح بن شيث بن آدم، خمسة من الأنبياء ليس للبربر إذا نسبوا إلى حام مثلها مع خروجهم عن نسب إبراهيم الذي هو الأب الثالث للخليقة إذ الأكثر من أجيال العالم لهذا العهد من نسله.

و لم يخرج عنه لهذا العهد إلاّ الأقل مع ما في العربية أيضاً من عزّ التوحّش، والسلامة من مذمومات الخلق بانفرداهم في البيداء. فأعجب زناتة نسبهم وزيّنه فهم نسّابتهم، والحق بمعزل عنه، وكونهم من البربر بعموم النسب لا ينافي شعارهم من الغلب والعزة، فقد كان الكثير من شعوب البربر مثل ذلك وأعظم منه. وأيضاً فقد تميزت الخليقة وتباينوا بغير واحد من الأوصاف، والكلّ بنو آدم ونوح من بعده. وكذلك تميّزت العرب وتباينت شعوبها والكلّ لسام ولإسمعيل بعده.

وأمّا تعدّد الأنبياء في النسب فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولا يضرّك الاشتراك

مع الجيل في النسب العام إذا وقعت المباينة لهم في الأحوال التي ترفع عنهم، مع أنّ المذلّة للبربر إنما هي حادثة بالقلّة ودثور أجيالهم بالملك الذي حصل لهم، ونفقوا في سبله وترفه كما تقدّم لك في الكتاب الأوّل من تأليفنا. وإلاّ فقد كان لهم من الكثرة والعزّ والملك والدولة ما هو معروف.

وأمّا أنّ جيل زناتة من العمالقة الذين كانوا بالشام فقول مرجوح وبعيد من الصواب لأن العمالقة الذين كانوا بالشام صنفان: عمالقة من ولد عيصو بن إسحق، و لم تكن لهم كثرة ولا ملك، ولا نقل أنّ أحداً منهم انتقل إلى المغرب، بل كانوا لقلّتهم ودثور أجيالهم أخفى من الخفاء. والعمالقة الأخرى كانوا من أهل الملك والدولة بالشام قبل بني إسرائيل، وكان أريحاء دار ملكهم. وغلب عليهم بنو إسرائيل وابتزّوهم ملكهم بالشام والحجاز وأصبحوا حصائد سيوفهم؛ فكيف يكون هذا الجيل من أولئك العمالقة الذين دثرت أجيالهم؟ وهذا لو نقل لوقع به الاسترابة فكيف وهو لم ينقل؟ هذا بعيد في العادة. والله أعلم بخلقه.

وأما شعوب زناتة وبطونهم فكثير ولنذكر المشاهير منها فنقول: اتفق نسّاب زناتة على أنّ بطونهم كلها ترجع إلى ثلاثة من ولد جانا وهم: ورسيك وفرني والديرت، هكذا في كتب أنساب زناتة. وذكر أبو محمد بن حزم في كتاب الجمهرة له من ولد ورسيك عند نيّابتهم مَسَّارَت ورغاي وواشروجن، ومن واشروجن واريغن بن واشروجن. وقال أبو محمد بن حزم في ولد ورسيك أنهم مسارت وناجرت وواسين.

وأمّا فرني بن جانا فمن ولده عند نسّابة زناتة يزمرتن ومرنجيصة ووركلة ونمالة

وسبرترة، و لم يذكر أبو محمد بن حزم سبرترة وذكر الأربعة الباقية. وأمّا الديرت بن جانا فمن ولده عند نسّابة زناتة جداو بن الديرت، و لم يذكره ابن حزم. وإنما قال عند ذكر الديرت: ومن شعوبه بنو ورسيك بن الديرت وهم بطنان دمّر بن ورسيك وزاكيا بن ورسيك. قال: ودمّر لقب واسمه الغانا. قال: فمن ولد زاكيا بنو مغراو وبنو يفرن وبنو واسين. قال: وأمّهم واسين مملوكة لأمّ مغراو وهم ثلاثتهم بنو يصلتن بن مسرا بن زاكيا. ويزيد نسّابة زناتة في هؤلاء يرنيات بن يصلتن أخاً لمغراو، ويفرن وواسين، و لم يذكره ابن حزم.

قال: ومن ولد دمّر ورنيد بن وانتن بن واردين بن دمّر، وذكر لبني دمّر أفخاذاً سبعة وهم: غرازول ولفورة وزناتين، وهؤلاء الثلاثة مختصّون بنسب دمّر، وبرزال ويصدرين وصغمان ويَطُوَّفت، هكذا ذكر أبو محمد بن حزم، وزعم أنه من إملاء أبي بكر بن يكنى البرزالي الأباضي، وقال فيه: كان ناسكاً عالماً بأنساهم. وذكر أنّ بني واسين وبني برزال كانوا أباضية، وأنّ بني يفرن ومغراوة كانوا سنية. وعند نسّابة البربر مثل سابق بن سليمان المطماطي وهانىء بن يصدور والكومي وكهلان بن أبي لوا، وهو مسطّر في كتبهم أنّ بني ورسيك بن الديرت بن جانا ثلاثة بطون وهم: بنو زاكيا وبنو دمّر وآنشة بنو آنش، وكلّهم بنو واردين ورسيك. فمن زاكيا بن واردين أربعة بطون: مغراوة وبنو يفرن وبنو يرنيان وبنو واسين، كلّهم بني يصلتن بن مسرا بن زاكيا. ومن آنش بن واردين أربعة بطون: بنو برنال وبنو صقمات وبنو يصدورين وبنو يطوفت كلهم بنو آنش بن واردين. ومن دمّر بن واردين ثلاثة بطون: بنو تقورت وبنو غررول وبنو ورتاتين كلّهم بنو وتيد بن دمّر، هذا الذي ذكره نسّابة البربر، وهو خلاف ما ذكره ابن حزم. ويذكر نسابة زناتة آخرين من شعوهم ولا ينسبوهم مثل يجفش، وهم أهل جبل قازاز قريب مكناسة وسنجاسن وورسيغان وتحليلة وتيسات وواغمرت وتيفرض ووجديجن وبنو بلومو وبني وماني وبني توجين. على أنّ بني توجين ينتسبون في بني واسين نسباً ظاهراً صحيحاً بلا شك

على ما يذكر في أخبارهم. وبعضهم يقول في وجديجن وواغمرت بنو ورتنيص أهم من البرانس من بطون البربر على ما قدمناه. وذكر ابن عبد الحكم في كتابه فتح مصر خالد بن حميد الزناتي، وقال فيه: هو من شورة إحدى بطون زنانة، ولم نره لغيره. هذا ملخص الكلام في شعوب زناتة وأنساهم بما لا يوجد في كتاب. والله الهادي إلى مسالك التحقيق لا رب غيره.

فصل في تسمية زناتة ومبني هذه الكلمة:

أعلم أن كثيراً من الناس يبحثون عن مبنى هذه الكلمة واشتقاقها على ما ليس معروفاً للعرب ولا لأهل الجيل أنفسهم فيقال: هو إسم وضعته العرب على هذا الجيل، ويقال: بل الجيل وضعوه لأنفسهم أو اصطلحوا عليه. ويقال: هو زانا بن جانا فيزيدون في النسب شيئاً لم تذكره النسّابة. وقد يقال إنه مشتق ولا يعلم في لسان العرب أصل مستعمل من الأسماء يشتمل على حروفه المادية. وربّمَا يحاول بعض الجهلة اشتقاقه من لفظ الزنا، ويعضده بحكاية خسيسة يدفعها الحق، وهذه الأقوال كلّها ذهاب إلى أنّ العرب وضعت لكل شيء إسماً، وأنّ استعمالها إنّما هو لأوضاعها التي من لغتها ارتجالاً واشتقاقاً. وهذا إنّما هو في الأكثر، وإلاّ فالعرب قد استعملت كثيراً من غير لغتها في مسمّاه إمّا لكونه عَلَماً فلا يغير مثل: إبراهيم ويوسف من اللغة العبرانية، وإمّا استعانة وتخفيفاً لتداوله بين الألسنة كاللجام والديباج والزنجبيل والنيروز والياسمين والأجرّ، فتصير باستعمال العرب كأنها من أوضاعهم. ويسمّوها المعرّبة، وقد يغّيروها بعض التغيير في الحركات أو في الحروف، وهو شائع لهم لأنه بمترلة وضع جديد.

وقد يكون الحرف من الكلمة ليس من حروف لغتهم فيبدّلونه بما يقرب منه في المخرج، فإن مخارج الحروف كثيرة منضبطة، وإنّما نطقت العرب منها بالثمانية والعشرين حروف أبجد. وبين كل مخرجين منها حروف أكثر من واحد فمنها ما نطقت به الأمم، ومنها ما لم تنطق به، ومنها ما نطق به بعض العرب كما هو مذكور في كتب أهل اللسان. وإذا تقرّر ذلك فاعلم أن أصل هذه اللفظة التي هي زناتة من صيغة جانا التي هي اسم أبي الجيل كله، وهو جانا بن يحيى المذكور في نسبهم. وهم إذا أرادوا الجنس في التعميم الحقوا بالاسم المفرد تاء فقالوا جانات. وإذا أرادوا التعميم زادوا مع التاء نونا فصار جاناتن. ونطقهم بهذه الجيم ليس من مخرج الجيم عند العرب، بل ينطقون بها بين الجيم والشين وأميل إلى السين. ويقرب للسمع منها بعض الصفير فأبدلوها زاياً

محضة لاتصال مخرج الزاي بالسين، فصارت زانات لفظاً مفرداً دالاً على الجنس. ثم ألحقوا به هاء النسبة وحذفوا الألف التي بعد الزاي تخفيفاً لكثرة دورانه على الألسنة. والله أعلم.

فصل في أولية هذا الجيل وطبقاته:

أمّا أولية هذا الجيل بإفريقية والمغرب فهي مساوية لأولية البربر منذ أحقاب متطاولة لا يعلم مبدأها إلاّ الله تعالى، ولهم شعوب أكثر من أن تحصى مثل مغراوة وبني يفرن وجراوة وبني يرنيان ووجد يجن وغمرة وبني ويجفش وواسين وبني تيغرست وبني مرين وتوجين وبني عبد الواد وبني راشد وبني برزال وبني ورنيد وبني زنداك وغيرهم. وفي كل واحد من هذه الشعوب بطون متعدّدة. وكانت مواطن هذا الجيل من لدن جهات طرابلس إلى جبل أوراس والزاب إلى قبلة تِلْمِسَانِ، ثم إلى وادي مَلَويّة. وكان الكثرة والرياسة فيهم قبل الإسلام لجراوة ثم لمغراوة وبني يفرن.

ولما ملك الإفرنجة بلاد البربر ودانوا لهم بدين النصرانية ونزلوا الأمصار بالسواحل، وكان زناتة هؤلاء وسائر البربر في ضواحيهم؛ صاروا يؤدون لهم طاعة معروفة وخراجا معروفا مؤقتا، ويعسكرون معهم في حروبهم ويمتنعون عليهم فيما سوى ذلك حتى جاء الله بالإسلام، وزحف المسلمون إلى أفريقية، وملك الإفرنجة بها يومئذ جرجير، فظاهره زناتة والبربر على شأنه مع المسلمين وانفضّوا جميعاً. وقتل جرير وأصبحت أموالهم مغانم ونساؤهم سبايا، وافتتحت سبيطلة. ثم عاود المسلمون غزو أفريقية: وافتتحوا جلولاء وغيرها من الأمصار، ورجع الإفرنجة الذين كانوا يملكونهم على أعقابهم إلى مواطنهم وراء البحر. وظنّ البربر بأنفسهم مقاومة العرب؛ فاجتمعوا وتمسّكوا بحصون الجبال. واجتمعت زناتة إلى الكاهنة وقومها جراوة بجبل أوراس حسبما نذكر، فأثخن العرب فيهم واتبعوهم في الضواحي والجبال والقفار حتى دخلوا في دين الإسلام طوعاً وكرهاً، وانقادوا إلى إيالة مضَرَ، وتولّوا من أمرهم ما كان الإفرنجة يتولونه. حتى إذا انحلت بالمغرب عرى الملك العربي وأخرجهم من أفريقية البربر من كتامة وغيرهم، قدح هذا الجيل الزناتي زناد الملك فأورى لهم، وتداول فيهم الملك جيلاً بعد جيل في طبقتين حسبما نقصّه عليك إن شاء الله تعالى.

الخبر عن الكاهنة وقومها جراوة من زناتة وشأنهم مع المسلمين عند الفتح:

كانت هذه الأمّة من البربر بأفريقية والمغرب في قوّة وكثرة وعديد وجموع، وكانوا يعطون الإفرنجة بأمصارهم طاعة معروفة وملك الضواحي كلّها لهم، وعليهم مظاهرة الإفرنجة مهما احتاجوا إليهم. ولما أطلّ المسلمون في عساكرهم على أفريقية للفتح ظاهروا جرجير في زحفه إليهم حتى قتله المسلمون، وانفضّت جموعهم وافترقت رياستهم و لم يكن بعدها بأفريقية موضع للقاء المسلمين بجمعهم لما كانت غزواقم لكل أمّة من البربر في ناحيتها وموطنها ومع من تحيّز إليهم من قبل الإفرنجة.

ولما اشتغل المسلمون في حرب عليّ ومعاوية أغفلوا أمر أفريقية، ثم ولاّها معاوية بعد عام عقبة بن نافع الفهري فأثخن في المغرب في ولايته الثانية، وبلغ إلى السوس، وقتل بالزاب في مرجعه. واجتمعت البربر على كسيلة كبير أوْربة. وزحف إليه بعد ذلك زهير بن قيس البلوي أيام عبد الملك بن مروان فهزمه وملك القيروان وأخرج المسلمين من افريقية. وبعث عبد الملك حسان بن النعمان في عساكر المسلمين فهزموا البربر، وقتلوا كسيرة واسترجعوا القيروان وقرطاجنة وإفريقية وفر بقية الإفرنجة والروم إلى صقلية والأندلس، وافترقت رياسة البربر في شعوهم. وكانت زنانة أعظم قبائل البربر وأكثرها جموعا وبطوناً، وكان موطن جراوة منهم بجبل أوراس، وهم ولد كراو بن الديرت بن جانا. وكانت رياستهم للكاهنة دهيا بنت تابنة بن نيقان بن باورا بن مصكسري بن أفصد بن وصيلا بن جراو. وكان لها بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عن سلفهم وربوا في حجرها، فاستبدت عليهم وعلى قومها بهم، وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهت إليها رياستهم.

قال هاني بن بكور الضريسي: ملكت عليهم خمسا وثلاثين سنة وعاشت مائة

وسبعا وعشرين سنة. وكان قتل عقبة بن نافع في البسيط قبلة جبل أوراس بإغرائها برابرة تهودا عليه، وكان المسلمون يعرفون ذلك منها. فلما انقضى جمع البربر، وقتل كسيلة زحفوا إلى هذه الكاهنة بمعتصمها من جبل أوراس، وقد ضوي إليها بنو يفرن ومن كان بإفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر فلقيتهم بالبسيط أمام جبلها. وانهزم المسلمون واتبعت آثارهم في جموعها حتى أخرجتهم من إفريقية، وانتهى حسان إلى برقة فأقام بها حتى جاءه المدد من عبد الملك، فزحف إليهم سنة أربع وسبعين وفض جموعهم، وأوقع بهم وقتل الكاهنة، واقتحم جبل أوراس عنوة واستلحم فيه زهاء مائة ألف.

وكان للكاهنة ابنان قد لحقا بحسان قبل الواقعة، أشارت عليهما أمهما بذلك لأثارة علم كان لديها في ذلك من شيطانها فتقبلهما حسان. وحسن إسلامهما واستقامت طاعتهما. وعقد لهما على قومهما جراوة ومن انضوى إليهم بجبل أوراس. ثم افترق ففهم من بعد ذلك وانقرض أمرهم. وافترق جراوة أوزاعا بين قبائل البربر، وكان منهم قوم بسواحل مليلة، وكان لهم آثار بين جيرانهم هناك. وإليهم نزع ابن أبي العيش لما غلبه موسى بن أبي العافية على سلطانه بتلمسان أول المائة الرابعة حسبما نذكره. فترل إليهم وبنى القلعة بينهم إلى أن خربت من بعد ذلك. والفل منهم بذلك الوطن إلى الآن لهذا العهد مندرجون في يطوفت ومن إليهم من قبائل غمارة، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مبتدأ دول زناتة في الإسلام ومصير الملك إليهم بالمغرب وإفريقية:

لما فرغ شأن الردة من إفريقية والمغرب، وأذعن البربر لحكم الإسلام وملكت العرب، واستقل بالخلافة ورياسة العرب بنو أمية اقتعدوا كرسي الملك بدمشق، واستولوا على سائر الأمم والأقطار، وأثخنوا في القاصية من لدن الهند والصين في المشرق، وفرغانة في الشمال والحبشة في الجنوب، والبربر في المغرب، وبلاد الجلالقة والإفرنجية في الأندلس. وضرب الإسلام بجرإنه، وألقت دولة العرب بكلكلها على الأمم. ثم جدع بنو أمية أنوف بني هاشم مقاسميهم في نسب عبد مناف، والمدعين

استحقاق الأمر بالوصية. وتكرر خروجهم عليهم، فأثخنوا فيهم بالقتل والأسر، حتى توغرت الصدور واستحكمت الأوتار، وتعددت فرق الشيعة باختلافهم في مساق الخلافة من علي كرم الله وجهه إلى من بعده من بني هاشم: فقوم ساقوها إلى آل العباس، وقوم إلى آل الحسن، وآخرون إلى آل الحسين، فدعت شيعة آل العباس بخراسان وقام بها اليمنية فكانت الدولة العظيمة الحائزة للخلافة ونزلوا بغداد واستباحوا الأمويين قتلا وسبيا. وخلص من جاليتهم إلى الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، فجدد بها دعوة الأمويين، واقتطع ما وراء البحر عن ملك الهاشميين فلم تخفق لهم به راية.

ثم نفس آل أبي طالب على آل العباس ما أكرمهم الله به من الخلافة والملك، فخرج المهدي محمد بن عبد الله المدعو بالنفس الزكية في بني أبي طالب على أبي جعفر المنصور، وكان من أمرهم ما هو مذكور واستلحمتهم جيوش بني العباس في وقائع عديدة. وفر إدريس بن عبد الله أخو المهدي ناجيا من بعض وقائعهم إلى المغرب الأقصى فأجاره البرابرة من أوروبة ومغيلة وصدينة، وقاموا بدعوته ودعوة بنيه من بعده، ونالوا به الملك وغلبوا على المغرب الأقصى والأوسط، وبثوا دعوة إدريس وبنيه من أهله بعده في أهله من زناتة مثل بني يفرن ومغراوة وقطعوه من ممالك بني العباس، واستمرت دولتهم إلى حين انقراضها على يد العبيديين.

و لم يزل الطالبيون أثناء ذلك بالمشرق يترعون إلى الخلافة ويبثون دعاتهم بالقاصية، إلى أن دعا أبو عبد الله المحتسب بإفريقية إلى المهدي ولد إسمعيل الإمام ابن جعفر الصادق، فقام برابرة كتامة ومن إليهم من صنهاجة وملكوا إفريقية من يد الأغالبة. ورجع العرب إلى مركز ملكهم بالمشرق، و لم يبق لهم في نواحي المغرب دولة، ووضع العرب ما كان على كاهلهم من أمر المغرب ووطأة مضر بعد أن رسخت الملة فيهم، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، واستيقنوا بوعد الصادق أن الأرض لته يورثها من يشاء من عباده.

فلم لنسلخ الملة بانسلاخ الدولة ولا تقوضت مباني الدين بتقويض معا لم الملك،

وعدا من الله لن يخلفه في تمام أمره وإظهار دينه على الدين كله. فتناغى حينئذ البربر في طلب الملك والقيام بدعوة الأعياص من بني عبد مناف يسترون منها حسواً في ارتغاء إلى أن ظفروا من ذلك بحظ مثل كتامة بإفريقية،

ومكناسة بالمغرب. ونافسهم في ذلك زناتة، وكانوا من أكثرهم جمعا وأشدهم قوة فشمروا له حتى ضربوا معهم بسهم، فكان لبني يفرن بالمغرب وإفريقية على يد صاحب الحمار، ثم على يد يعلى بن محمد وبنيه ملك

ضخم. ثم كان لمغراوة على يد بني خزر دولة أخرى تنازعوها مع بني يفرن وصنهاجة. ثم انقرضت تلك الأجيال وتجرد الحلك بالمغرب بعدهم في جيل آخر منهم، فكان لبني مرين بالمغرب الأقصى ملك، ولبني عبد الواد بالمغرب الأوسط ملك آخر تقاسمهم فيه بنو توجين والفل من مغراوة حسبما نذكر ونستوفي شرحه، ونجلب أيامهم وبطونهم على الطريقة التي سلكناها في أخبار البربر، والله المعين سبحانه لا رب سواه ولا معبود إلا إياه.

بنو يفرن

الطبقة الأولى من زناتة ونبد أ منها بالخبر

عن بني يفرن وأنسابهم وشعوبهم

وما كان لهم من الدول بإفريقية والمغرب

وبنويفرن هؤلاء من شعوب زناتة، وأوسع بطونهم، وهم عند نسابة زناتة بنو

يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا، وإخوته مغراوة وبنو يرنيان وبنو واسين، والكل بنو يصلتين. وبفرن في لغة البربر هو القار. وبعض نسابتهم يقولون إن يفرن هو ابن ورتنيذ بن جانا، وإخوته مغراوة وغمرت ووجديجن. وبعضهم يقول يفرن بن مرة بن ورسيك بن جانا. وبعضهم يقول هو ابن جانا لصلبه والصحيح ما نقلناه عن أبي محمد بن حزم.

وأما شعوبهم فكثير، ومن أشهرهم بنو واركوا ومرنجيصة. وكان بنو يفرن هؤلاء لعهد الفتح أكبر قبائل زناتة وأشدها شوكة، وكان منهم بإفريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط بطون وشعوب، فلما كان الفتح غشي إفريقية ومن بها من البربر جنود الله المسلمون من العرب فتطامنوا لبأسهم حتى ضرب الدين بجرانه، وحسن إسلامهم. ولما فشا دين الخارجية في العرب، وغلبهم الخلفاء بالمشرق واستلحموهم نزعوا إلى القاصية، وصاروا يبثون بها دينهم في البربر فتلقفه رؤساؤهم على اختلاف مذاهبه باختلاف رؤوس الخارجية في أحكامهم من أباضية وصفرية وغيرهما كما ذكرناه في بابه، ففشا في البربر وضرب فيه يفرن هؤلاء بسهم وانتحلوه، وقاتلوا عليه. وكان أول من جمع لذلك منهم أبو قرة من أهل المغرب الأوسط. ثم من بعده أبو يزيد صاحب الحمار وقومه بنو واركوا ومرنجيصة. ثم كان لهم بالمغرب الأقصى من بعد الانسلاخ من الخارجية دولتان على يد يعلى بن محمد صالح وبنيه حسبما نذكر ذلك مفصلا إن شاء الله تعالى.

الخبر عن أبي قرة وما كان لقومه من الملك بتلمسان ومبدأ ذلك ومصادره:

كان من بني يفرن بالمغرب الأوسط بطون كثيرة بنواحي تلمسان إلى جبل بني

راشد المعروف بهم لهذا العهد، وهم الذين اختطوا تلمسان كما نذكره في أخبارها. وكان رئيسهم لعهد انتقال الخلافة من بني أمية إلى بني العباس أبو قرة ولا نعرف من نسبه أكثر من أنه منهم. ولما انتقض البرابرة بالمغرب الأقصى وقام ميسرة وقومه بدعوة الخارجية وقتله البرابرة قدموا على أنفسهم مكانه خالد بن حميد من

زناتة، فكان من حروبه مع كلثوم بن عياض وقتله إياه ما هو معروف. ورأس على زناتة من بعده أبو قرة هذا.

ولما استأثلت دولة بني أمية كثرت الخارجية في البربر، وملك ورفجومة القيروان، وهوارة، وزناتة طرابلس ومكناسة سجلماسة، وابن رستم تاهرت. وقدم ابن الأشعث إفريقية من قبل أبي جعفر المنصور، وخافه البربر فحسم العلل وسكن الحروب. ثم انتقض بنو يفرن تلمسان ودعوا إلى الخارجية وبايعوا أبا قرة كبيرهم بالخلافة سنة ثمان وأربعين ومائة، وسرح إليهم ابن الأشعث الأغلب بن سوادة التميمي فانتهى إلى الزاب. وفر أبو قرة إلى المغرب الأقصى، ثم راجع موطنه بعد رجوع الأغلب.

ولما انتقض البرابرة على عمر بن حفص بن أبي صفرة الملقب "هزارمرد" عام خمسين ومائة وحاصروه بطبنة كان فيمن حاصره أبو قرة اليفرني في أربعين ألفا صفرية من قومه وغيرهم حتى اشتد عليه الحصار، وداخل أبا قرة في الإفراج عنه على يد ابنه على أن يعطيه أربعين ألفا، ولابنه أربعة آلاف، فارتحل بقومه وانفض البرابرة عن طبنة. ثم حاصروه بعد ذلك بالقيروان واجتمعوا عليه، وأبو قرة معهم بثلثمائة وخمسين ألفا: الخيالة منها خمسة وثمانون ألفا. وهلك عمر بن حفص في ذلك الحصار.

وقدم يزيد بن حاتم واليا على إفريقية ففض جموعهم وفرق كلمتهم، ولحق أبو قرة

وبنو يفرن أصحابه بمواطنهم من تلمسان بعد أن قتل صاحبه أبو حاتم الكندي رأس الخوارج، واستلحم بني يفرن وتوغل يزيد بن حاتم في المغرب ونواحيه وأثخن في أهله إلى أن استكانوا واستقاموا. و لم يكن لبني يفرن من بعدها انتقاض حتى كان شأن أبي يزيد بإفريقية في بني واركوا ومرنجيصة منهم حسبما نذكره إن شاء الله تعالى الكريم. وبعض المؤرخين ينسب أبا قرة هذا إلى مغيلة، و لم أظفر بصحيح في ذلك، والطرائق متساوية في الجانبين فإن نواحي تلمسان هان كانت موطنا لبني يفرن فهي أيضا موطن لمغيلة، والقبيلتان متجاورتان. لكن بني يفرن كانوا أشد قوة وأكثر جمعا ومغيلة أيضا كانوا أشهر بالخارجية من بني يفرن لأنهم كانوا صفرية.

وكثير من الناس يقولون إن بني يفرن كانوا على مذهب أهل السنة كما ذكره ابن حزم وغيره والله أعلم.

الخبر عن أبي يزيد الخارجي صاحب الحمار من بني يفرن ومبدأ أمره مع الشيعة ومصادره:

هذا الرجل من بني واركوا إخوة مرنجيصة، وكلهم من بطون بني يفرن، وكنيته أبو

زيد واسمه مخلد بن كيداد لا يعلم من نسبه فيهم غير هذا. وقال أبو محمد بن حزم: ذكر لي أبو يوسف الوراق عن أيوب بن أبي يزيد أن اسمه مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان بن وरينت بن حونيفر بن سميران بن يفرن بن جانا وهو زناتة. قال: وقد أخبرني بعض البربر بأسماء زائدة بين يفرن وجانا، اه كلام ابن حزم. ونسبه ابن الرقيق أيضا في بني واسين بن ورسيك بن جانا، وقد تقدم نسبهم أول الفصل. وكان كيداد أبوه يختلف إلى بلاد السودان في التجارة فولد له أبو يزيد، بكر كوامن بلادهم، وأمه أم ولد اسمها سبيكة، ورجع به إلى قيطون زناتة ببلاد قصطيلة. ونزل توزر مترددا بينها وبين تقيوس، وتعلم القرآن وتأدب، وخالط النكارية فمال إلى مذاهبهم وأخذها عنهم، ورأس فيها

ورحل إلى مشيختهم. وأخذ عن أبي عبيدة منهم أيام اعتقال عبيد الله المهدي بسجلماسة.
ومات أبوه كيداد وتركه على حال من الخصاصة والفقر، فكان أهل القيطون يصلونه بفضل أموالهم، وكان يعلم صبيانهم القرآن ومذاهب النكارية. واشتهر عنه تكفير أهل الملة وسب علي فخاف وانتقل إلى تقيوس.
وكان يختلف بينها وبين توزر، وأخذ نفسه بالتغيير على الولاة. ونمي عنه اعتقاد الخروج عن السلطان فنذر الولاة بقسطيلة دمه، فخرج إلى الحج سنة عشر وثلثمائة، وأرهفه الطلب فرجع من نواحي طرابلس إلى تقيوس. ولما هلك عبد الله أوعز إلى أهل قسطيلة في القبض عليه، فلحق بالمشرق وقضى الفرض وانصرف إلى موطنه. ودخل توزر سنة خمس وعشرين مستترا.
وسعى به ابن فرقان عند والي البلد فتقبض عليه واعتقله؛ وأقبل سرعان زناتة إلى
البلد ومعهم أبو عمار الأعمى رأس النكارية واسمه كما سبق عبد الحميد. وكان ممن أخذ عنه أبو يزيد
فتعرضوا للوالي في إطلاقه؟ فتعلل عليهم بطلبه في الخراج؛ فاجتمعوا إلى فضل ويزيد ابني أبي يزيد، وعمدوا إلى السجن فقتلوا الحرس وأخرجوه؛ فلحق ببلد بني واركلا، وأقام بها سنة يختلف إلى جبل أوراس وإلى بني برزال في مواطنهم بالجبال قبالة المسيلة، وإلى بني زنداك من مغراوة إلى أن أجابوه فوصل إلى أوراس، ومعه أبو عمار الأعمى في اثني عشر من الراحلة. ونزلوا على النكارية بالنوالات واجتمع إليه القرابة وسائر الخوارج، وأخذ له البيعة عليهم أبو عمار صاحبه على قتال الشيعة وعلى استباحة الغنائم والسبي، وعلى أنهم إن ظفروا بالمهدية والقيروان صار الأمر شورى، وذلك سنة إحدى وثلاثين.
وترصدوا غيبة صاحب باغاية في بعض وجوهه فضربوا على بسيطها، واستباح بعض القصور بها سنة اثنتين وثلاثين، وغمس بذلك أيدي البربر في الفتنة. ثم زحف بهم إلى باغاية واستولت عليه وعلى أصحابه الهزيمة فلحقوا بالجبل. وزحف إليهم صاحب باغاية فانهزم ورجع إلى بلده فحاصره أبو يزيد، وأوعز أبو القاسم القائم إلى كتامه في أمداد كنون صاحب باغاية فتلاحقت به العساكر فبيتهم أبو يزيد وأصحابه؛
ففلوهم، وامتنعت عليه باغاية. وكاتب أبو يزيد البربر الذين حول قسطيلة من بني واسين وغيرهم فحاصروا توزر سنة ثلاث وستين، ورحل إلى تبسة فدخلها صلحا، ثم إلى بجاية كذلك، تم إلى مرماجنة كذلك، وأهدوا له حمارا أشهب، فلزم ركوبه حتى اشتهر به. وبلغ خبره عساكر كتامة بالإربس، فانفضوا وملك الإربض وقتل إمام الصلاة بها. وبعث عسكرا إلى تبسة فملكوها وقتلوا عاملها. وبلغ الخبر القائم وهو بالمهدية فهاله، وسرح العساكر لضبط المدن والثغور، وسرح مولاه بشرى الصقلبي إلى باجة، وعمد لميسور على الجيوش فعسكر بناحية المهدية. وسرح خليل بن إسحق إلى القيروان فعسكر بها.
وزحف أبو يزيد إلى بشرى بباجة، واشتدت الحرب بينهم، وركب أبو يزيد حماره وأمسك عصاه فاستمات النكارية وخالفوا بشرى إلى معسكره فانهزم إلى تونس. واقتحم أبو يزيد باجة واستباحها، ودخل بشرى إلى تونس وارتدت البرابر من كل ناحية فأسلم تونس ولحق بسوسة. واستأمن أهل تونس إلى أبي يزيد فأمنهم وولى عليهم وانتهى إلى وادي مجردة فعسكر بها. ووافته الحشود هنالك، ورعب الناس منه فأجفلوا إلى

القيروان، وكثرت الأراجيف وسرب أبو يزيد جيوشه في نواحي إفريقية، فشنوا الغارات وأكثروا السبي والقتل والأسر. ثم زحف إلى رقادة فانفض كتامة الذين كانوا بها ولحقوا بالمهدية. ونزل أبو يزيد رقادة في مائة ألف. ثم زحف إلى القيروان فانحصر بها خليل بن إسحق. ثم أخذه بعد مراوضة في الصلح، وهم بقتله فأشار عليه أبو عمار باستبقائه فلم يطعه وقتله، ودخلوا القيران فاستباحوها ولقيه مشيخة الفقهاء فأمنهم بعد التقريع والعتب، وعلى أن يقتلوا أولياء الشيعة. وزحف وبعث رسله في وفد من أهل القيروان إلى الناصر الأموي صاحب قرطبة ملتزما لطاعته والقيام لدعوته وطالبا لمدده، فرجعوا إليه بالقبول والوعد. ولم يزل يردد ذلك سائر أيام الفتنة حتى أوفد ابنه أيوب في آخرها سنة خمس وثلاثين، فكان له اتصال بالناصر سائر أيامه. وزحف ميسور من المدية بالعساكر، وفر عنه بنو كملان من هوارة ولحقوا بأبي يزيد وحرضوه على لقاء ميسور فزحف إليه، واستوى اللقاء. واستمات أبو يزيد والنكارية فانهزم ميسور وقتله بنو كملان وبعث برأسه إلى القيروان، ثم إلى المغرب، واستبيح معسكره.

وسرح أبو يزيد عساكره إلى مدينة سوسة فاقتحموها عنوة وأكثروا من القتل والمثلة. وعظم القتل بضواحي إفريقية، وخلت القرى والمنازل ومن أفلته السيف أهلكه الجوع. واستخف أبو يزيد بالناس بعد قتل ميسور فلبس الحرير ورحب الفاره. ونكر عليه أصحابه ذلك وكاتبه به رؤساؤهم من البلاد، والقائم خلال ذلك بالمهدية يخندق كلى نفسه ويستنفر كتامة وصنهاجة للحصار معه. وزحف أبو يزيد حتى نزل المهدية وناوش عساكرها الحرب، فلم يزل الظهور عليهم، وملك زويلة. ولما وقف بالمصلى قال القائم لأصحابه: من ههنا يرجع، واتصل حصاره للمهدية، واجتمع إليه البربر من قابس وطرابلس ونفوسة.

وزحف إليهم ثلاث مرات فانهزم في الثالثة ولم يقلع وكذلك في الرابعة. واشتد الحصار على أهل المهدية ونزل الجوع بهم. واجتمعت كتابة بقسنطينة وعسكروا بها لإمداد القائم، فسرح إليهم أبو يزيد يكموس المزاتي من ورفجومة فانفض معسكر كتامة من قسنطينة. ويئس القائم من مددهم وتفرقت عساكر أبي يزيد في الغارات والنهب فخف المعسكر، ولم يبق به إلا هوارة وراس وبنو كملان. وكثرت مراسلات القائم للبربر.

واستراب بهم أبو يزيد، وهرب بعضهم إلى المهدئة ورحل آخرون إلى مواطنهم فأشار عليه أصحابه بالإفراج عن المهدية فأسلموا معسكرهم، ولحقوا بالقيروان سنة أربع وثلاثين. ودبروا أهل القيروان في القبض عليه فلم يتهيأ لهم، وعذله أبو عمار فيما أتاه من الاستكثار من الدنيا فتاب وأقلع، وعاود لبس الصوف والتقشف.

وشاع خبر إجفاله عن المهدية فقتل النكارية في كل بلد، وبعث عساكره فعاثوا في النواحي وأوقعوا بأهل الأمصار وخربوا كثيرا منها. وبعث ابنه أيوب إلى باجة فعسكر بها ينتظر وصول المدد من البربر وسائر النواحي؛ فلم يفجأه إلا وصول علي بن حمدون الأندلسي صاحب المسيلة في حشد كتامة وزواوة، وقد مر بقسنطينة والإربس وسقنبارية، واصطحب منها العساكر فبيته أيوب وانفض معسكره، وتردى به فرسه في بعض الأوعار فهلك.

ثم زحف أيوب في عسكره إلى تونس وقائدها حسن بن علي من دعاة الشيعة فانهزم، ثم اتيحت له الكرة. ولحق حسن بن علي ببلد كتامة فعسكر بهم على قسنطينة. وسرح أبو يزيد جموع البربر لحربه. ثم اجتمعت لأبي يزيد حشود البربر من كل ناحية، وثابت إليه قوته. وارتحل إلى سوسة، فحاصرها ونصب عليها المجانيق. وهلك القائم سنة أربع وثلاثين في شوال وصارت الخلافة لابنه إسمعيل المنصور، فبعث بالمدد إلى سوسة بعد أن اعتزم على الخروج إليها بنفسه فمنعه أصحابه. ووصل المدد إلى سوسة؛ فقاتلوا أبا يزيد فانهزم ولحق بالقيروان، فامتنعت عليه؛ فاستخلص صاحبه أبا عمار من أيديهم وارتحل عنهم.

وخرج المنصور من المهدية إلى سوسة، ثم إلى القيروان فملكها وعفا عن أهلها وافنهم، وأحسن في مخلف أبي يزيد وعياله. وتوافى المدد إلى أبي يزيد ثالثة فاعتزم على حصار القيروان، وزحف إلى عسكر المنصور بساحتها فبيتهم، واشتد الحرب واستمات الأولياء وافترقوا اخر نهارهم، وعاودوا الزحف مرات، ووصل المدد إلى المنصور من الجهات. حتى إذا كان منتصف المحرم كان الفتح، وانهزم أبو يزيد وعظم القتل في البربر ورحل المنصور في أتباعه فمر بسبيبة ثم تبسه حتى انتهى إلى باغاية.

ووافاه بها كتاب محمد بن خزر بالطاعة والولاية والاستعداد للمظاهرة؛ فكتب إليه بترصد أبي يزيد والقبض عليه، ووعده في ذلك بعشرين حملا من المال. ثم رحل إلى طبنة فه افاه بها جعفر بن علي عامل المسيلة بالهدايا والأموال. وبلغه أن أبا يزيد نزل بسكرة وأنه كاتب محمد بن خزر يسأله النصرة، فلم يجد عنده ما يرضيه، فارتحل المنصور إلى بسكرة فتلقاه أهلها. وفر أبو يزيد إلى بني برزال بجبل سالات، ثم إلى جبل كتامة وهو جبل عياض لهذا العهد، وارتحل المنصور في أثره إلى ومرة وبيته أبو يزيد هنالك فانهزم و لم يظفر وانحاز إى جبل سالات. ثم لحق بالرمال ورجع عنه بنو كملان، وأمنهم المنصور على يد محمد بن خزر.

وسار المنصور في التعبية حتى نزل جبل سالات، وارتحل وراءه إلى الرمال. ثم رجع ودخل بلاد صنهاجة، وبلغه رجوع أبي زيد إلى جبل كتامة فرجع إليه، ونزل عليه المنصور في كتامة وعجيسة وزواوة وحشد بني زنداك ومزاتة ومكناسة ومكلاتة.

وتقدم المنصور إليه فقاتلوا أبا يزيد وجموع النكارية فهزموهم واعتصموا بجبل كتامة. ورحل المنصور إلى المسيلة وإنحصر أبو في يد في قلعة الجبل، وعساكر المنصور إزاءها واشتد الحصار، وزحف إليها مرات. ثم اقتحمها عليهم فاعتصم أبو يزيد بقصر في ذروة القلعة فأحيط به واقتحم، وقتل أبو عمار الأعمى ويكموس المزاتي، ونجا أبو يزيد منها بالجراحة محمولا بين ثلاثة من أصحابه فسقط في مهواة من الأوعار فوهن، وسيق من الغداة إلى المنصور فأمر بمداواته.

ثم أحضره ووبخه، وأقام الحجة عليه وتجافى عن دمه. وبعثه إلى المهدية، وفرض له بها الجراية فجزاه خيرا. وحمل في القفص فمات من جراحته سنة خمس وثلاثين. وأمر به فسلخ وحشي جلده بالتبن وطيف به في القيروان. وهرب الفل من أصحابه إلى ابنه فضل وكان مع معبد بن خزر فأغاروا على ساقة المنصور، وكمن لهم زيري بن مناد أمير صنهاجة فأوقع بهم. و لم يزل المنصور في أتباعه إلى أن نزل المسيلة وانقطع أثر معبد، ووافاه

بمعسكره هنالك انتقاض حميد بن يصل عامل تيهرت من أوليائهم، وأنه ركب البحر من تنس إلى العدوة، فارتحل إلى تيهرت وولي عليها وعلى تنس. ثم قصد لواتة فهربوا إلى الرمال. ورجع إلى إفريقية سنة خمس وثلاثين. ثم بلغه أن فضل بن أبي يزيد أغار على جهات قسطيلة فرحل من سنته في طلبه، وانتهى إلى قفصة ثم ارتحل إلى ميطلة من أعمال الزاب، وفتح حصن ماداس مما يليه. وهرب فضل في الرمال فأعجزه، ورجع إلى القيروان سنة ست وثلاثين. ومضى فضل إلى جبل أوراس، ثم سار منه إلى باغاية فحاصرها. وغدر به ماطيط بن يعلى من أصحابه، وجاء برأسه إلى المنصور وأنقرض أمر أبي يزيد وبنيه، وافترقت جموعهم. واغتال عبد الله بن بكار من رؤساء مغراوة بعد ذلك أيوب بن أبي يزيد، وجاء برأسه إلى المنصور متقربا إليه. وتتبع المنصور قبائل بني يفرن بعدها إلى أن انقطع أثر الدعوة. والبقاء لله تعالى وحده.

الخبر عن الدولة الأولى لبني يفرن بالمغرب الأوسط والأقصي ومبادىء أمورهم ومصايرهم:

كان لبني يفرن من زناتة بطون كثيرة وكانوا متفرقين بالمواطن، فكان منهم بإفريقية بنو واركوا ومرنجيصة وغيرهم كما قدمناه، وكان منهم بنواحي تلمسان ما بينها وبين تاهرس أمم كثير عددهم وهم الذين اختطوا مدينة تلمسان كما نذكره بعد. ومنهم أبو قرة المنتزي بتلك الناحية لأول الدولة العباسية، وهو الذي حاصر عمر بن حفص بطبنة كما تقدم. ولما انقرض أمر أبي يزيد وأثخن المنصور فيمن كان بإفريقية من بني يفرن أقام هؤلاء الذين كانوا بنواحي تلمسان على وفودهم. وكان رئيسهم لعهد أبي يزيد محمد بن صالح. ولما تولى المنصور محمد بن خزر وقومه مغراوة، وكان بينه وبين بني يفرن هؤلاء فتنة هلك فيها محمد بن صالح على يد عبد الله بن بكار من بني يفرن، كان متحيزا إلى مغراوة. وولي أمره في بني يفرن من بعده ابنه يعلى فعظم صيته، واختط مدينة إيفكان.

ولما خطب عبد الرحمن الناصر طاعة الأموية من زناتة أهل العدوة واستالف ملوكهم، سارع يعلى لإجابته واجتمع عليها مع الخير بن محمد بن خزر وقومه مغراوة، وأجلب على وهران؛ فملكها سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة من يد محمد بن عون، وكان ولاه عليها صولات اللميطي أحد رجالات كتامة سنة ثمان وتسعين ومائتين فدخلها يعلى

عنوة على بنيه وخربها. وكان يعلى قد زحف مع الخير بن محمد إلى تاهرت، وبرز إليه ميسور الخصي في شيعته من لماية؛ فهزموهم وملكوا تاهرت، وتقبضوا على ميسور وعبدالله بن بكار؛ فبعث به الخير إلى يعلى بن محمد ليثأر به فلم يرضه كفؤا لدمه، ودفعه إلى من ثأر به من بني يفرن. واستفحل سلطان يعلى في ناحية المغرب، وخطب على منابرها لعبد الرحمن الناصر ما بين تاهرت إلى طنجة.

واستدعى من الناصر تولية رجال بيته على أمصار المغرب: فعقد على فاس لمحمد بن

الخير بن محمد بن عشيرة، ونسك محمد لسنة من ولايته، واستأذن في الجهاد والرباط بالأندلس فأجاز لذلك واستخلف على عمله ابن عمه أحمد بن عثمان بن سعيد، وهو الذي اختط مأذنة القرويين سنة أربع وأربعين كما ذكرناه. ولم يزل سلطان يعلى بن محمد بالمغرب عظيماً إلى أن أغزى المعز لدين الله كاتبه جوهر الصقلي

من القيروان إلى المغرب سنة سبع وأربعين. فلما فصل جوهر بالجنود عن تخوم إفريقية بادر أمير زناتة بالمغرب يعلى بن محمد اليفرني إلى لقائه والإذعان لطاعته والانحياش إليه، ونبذ عهد الأموية، وأعمل إلى لقيه الرحلة من بلده إيفكان وأعطاه يد الانقياد. وعهد البيعة عن قوص بني يفرن وزناتة، فتقبلها جوهر وأضمر الفتك به، وتخير لذلك يوم فصوله من بلده.

وأسر إلى بعض مستخلصيه من الأتباع؛ فأوقعوا نفرة في أعقاب العسكر طار إليها الزعماء من كتامة وصنهاجة وزناتة، وتقيض على يعلى فهلك في وطيس تلك الهيعة فغص بالرماح على أيدي رجالات كتامة وصنهاجة، وذهب دمه هدرا في القبائل. وخرب جوهر مدينة إيفكان، وفرت زناتة أمامه، وكشف القناع في مطالبتهم. وقد ذكر بعض المؤرخين أن يعلى إنما لقي جوهرا عند منصرفه من الغزاة بمدينة تاهرت، وهنالك كان فتكه به بناحية شلف، فتفرقت بعدها جماعة بني يفرن وذهب ملكهم فلم يجتمعوا إلا بعد حين على ابنه بدوي بالمغرب كما نذكره. ولحق الكثير منهم بالأندلس كما يأتي خبره في موضعه، وانقرضت دولة بني يفرن هؤلاء إلى أن عادت بعد مدة على يد يعلى بفاس. ثم استقرت آخراً بسلا وتعاقبت فيهم هنالك إلى آخرها كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن الدولة الثانية لبني يفرن بسلا من المغرب الأقصي وأولية ذلك وتصاريفه:

لما أوقع جوهر الكاتب قائد المعز بيعلى بن محمد أمير بني يفرن، وملك المغرب سنة سبع وأربعين كما ذكرناه، وتفرقت جموع بني يفرن لحق ابنه بدوي بن يعلى بالمغرب الأقصى وأحس بجوهر من ورائه فأبعد المفر وأصحر إلى أن رجع جوهر من المغرب. ويقال إن جوهرا تقبض عليه واحتمله أسيرا فاعتقل إلى أن فر من معتقله بعد حين،

واجتمع عليه قومه من بني يفرن. وكان جوهر عند منصرفه من المغرب ولى على الأدارسة المتحيزين إلى الريف وبلاد غمارة الحسن بن كنون شيخ بني محمد منهم فترلى البصرة.

وأجاز الحكم المستنصر لأول ولايته سنة خمس وثلثمائة وزيره محمد بن قاسم بن طملس في العساكر لتدويخ المغرب، فجمع له الحسن بن كنون وأوقع به، ورجع إلى الأندلس مفلولا فسرح الحكم فولاه غالبا لتدويخ المغرب واقتلاع جرثومة الأدارسة، فأجاز في العساكر وغلبهم على بلادهم وأزعجهم جميعا عن المغرب إلى الأندلس سنة خمس وستين كما ذكرناه. ومهد دعوة الأموية بالمغرب، وأقفل الحكم مولاه غالبا ورده إلى الثغر لسده، وعقد على المغرب ليحيى بن محمد بن هاشم التجيبي صاحب الثغر الأعلى، وكان أجازه مددا لغالب في رجال العرب وجند الثغور حتى إذا انغمس الحكم في علة الفالج، وركدت ريح المروانية بالمغرب واحتاجت الدولة إلى رجالها لسد الثغور ودفاع العدو، استدعى يحيى بن محمد بن هاشم من العدوة، وأداله الحاجب المصحفي بجعفر بن علي بن حمدون أمير الزاب والمسيلة النازع إليهم من دعوة الشيعة، وجمعوا بين الانتفاع به في العدوة والراحة مما يتوقع منه على الدولة ومن البرابرة في التياث الخلافة، لما كانوا أصاروا إليه من النكبة، وطوقوه من المحنة. ولما كان اجتمع بقرطبة من جموع البرابرة فعقدوا له ولأخيه يحيى على المغرب، وخلعوا

عليهما وأمكنوهما من مال دثر وكسي فاخرة للخلع على ملوك العدوة، فنهض جعفر إلى المغرب سنة خمس وستين وضبطه.

واجتمع إليه ملوك زناتة مثل بدوي بن يعلى أمير بني يفرن وابن عمه نوبخت بن عبد الله بن بكار، ومحمد بن الخير بن خزر وابن عمه بكساس بن سيد الناس، وزيري بن خزر وزيري ومقاتل ابنا عطية بن تبادلت وخزرون بن محمد وفلفول بن سعيد أمير مغراوة وإسمعيل بن البوري أمير مكناسة، ومحمد بن عمه عبدالله بن مدين وخزرون بن محمد الأزداجي، وكان بدوي بن يعلى من أشدهم قوة وأحسنهم طاعة. ولما هلك الحكم وولي مكانه هشام المؤيد. وانفرد محمد بن أبي عامر بحجابته اقتصر من العدوة لأول قيامه على مدينة سبتة؛ فضبطها بجند السلطان

ورجال الدولة، وقلدها الصنائع من أرباب السيوف والأقلام، وعول في ضبط ما وراء ذلك على ملوك زناتة وتعهدهم بالجوائز والخلع، وصار إلى إكرام وفودهم وإثبات من رغب في الإثبات في ديوان السلطان منهم فجردوا في ولاية الدولة وبث الدعوة.

وفسد ما بين أمير العدوة جعفر بن علي وأخيه يحيى واقتطع يحيى مدينة البصرة لنفسه وذهب بأكثر الرجال. ثم كانت على جعفر النكبة التي نكبه برغواطة في غزاته إئاهم، واستدعاه محمد بن أبي عامر لأول أمره لما رآه من استقامته إليه، وشد أزره به وتلوى عليه كراهية لما يلقى بالأندلس من الحكم. ثم أصلحه وتخلى لأخيه عن عمل المغرب وأجاز البحر إلى ابر أبي عامر؛ فحل منه بالمكان الأثير وتناغت زناتة في التزلف إلى الدولة بقرب الطاعات، فزحف خزرون بن فلفول سنة ست وستين إلى مديتي سجلماسة فافتتحها ومحا أثر دولة آل مدرار منها، وعقد له المنصور عليها كما ذكرنا ذلك قبل.

وزحف عقب هذا الفتح بلكين بن زيري قائد إفريقية للشيعة إلى المغرب سنة تسع وستين زحفه المشهور. وخرج محمد بن أبي عامر من قرطبة إلى الجزيرة لمدافعته بنفسه، واحتمل من بيت المال مائة حمل، ومن العساكر ما لا يحصى عده. وأجاز جعفر بن علي بن حمدون إلى سبتة، وانضمت إليه ملوك زنالة، ورحى بكلين عنهم إلى غزو برغواطة إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين كما ذكرناه.

ورجع جعفر إلى مكانه من ابن أبي عامر، لم يسمح بمقامه عنه. ووصل حسن بن كنون خلال ذلك من القاهرة بكتاب عبد العزيز بن نزار بن معد إلى بلكين صاحب إفريقية في إعانته على ملوك المغرب وإمداده بالمال والعساكر، فأمضاه بلكين لسبيله، وأعطاه مالا ووعده بإضعافه. ونهض إلى المغرب فوجد طاعة المروانية قد استحكمت فيه. وهلك بلكين إثر ذلك وشغل ابنه المنصور عن شأنه؛ فدعا الحسن بن كنون إلى نفسه، وأنفذ أبو محمد بن أبي عامر ابن عمه محمد بن عبد الله، ويلقب عسكلاجة، لحربه سنة خمس وسبعين. وجاء أثره إلى الجزيرة كيما يشارف القصة، وأحيط بالحسم بن كنون فسأل الأمان وعقد له مقارعه عمر وعسكلاجة وأشخصه إلى الحضرة فلم يمض ابن أبي عامر أمامه، ورأى أن لا ذمة له لكثرة نكثه فبعث من ثقاته من أتاه برأسه، وانقرض أمر الأدارسة وانمحى أثرهم فأغضب عمر وعسكلاجة لذلك.

واستراح إلى الجند بأقوال نميت عنه إلى المنصور فاستدعاه من العدوة وألحقه بمقتوله ابن كنون.
وعقد على العدوة للوزير حسن بن أحمد بن الورود السلمي، وأكثف عدده وأطلق في المال يده. ونفذ إلى عمله سنة ست فضبط المغرب أحسن ضبط وهابته البرابرة، ونزل فاس من العدوة، فعز سلطانه وكثر جمعه، وانضم إليه ملوك النواحي حتى حذر ابن أبي عامر مغبة استقلاله، وأستدعاه ليبلو صحة طاعته، فأسرع اللحاق به، فضاعف تكرمته وأعاده إلى عمله. وكان بدوي بن يعلى هذا من بين ملوك زناتة كثير الاضطراب على الأموية والمراوغة لهم بالطاعة. وكان المنصور بن أبي عامر يضرب بينه وبين قرينه زيري بن عطية ويقرن كلأ منهما بمناغاة صاحبه في الاستقامة، وكان إلى زيري أميل وبطاعته أوثق، لخلوصه وصدق طويته وانحياشه فكان يرجو أن يتمكن من قياد بدوي بن يعلى بمناغاته. فاستدعى بزيري بن عطية إلى الحضرة سنة سبع وسبعين فبادر إلى القدوم عليه، وتلقاه وأكبر موصله وأحسن مقامه ومنقلبه وأعظم جائزته وسام بدوي مثلها فامتنع، وقال لرسوله، قل لابن أبي عام: متى عهد حمر الوحش تنقاد للبياطرة؟ وأرسل عنانه في العيث والفساد، ونهض إليه صاحب المغرب الوزير حسن بن عبد الودود في عساكره وجموعه من جند الأندلس وملوك العدوة مظاهرا عليه لعدوه وزيري بن عطية، وجمع لهم بدوي ولقيهم سنة إحدى وثمانين فكان الظهور له.
وانهزم عسكر السلطان وجموع مغراوة؛ واستلحموا وجرح الوزير حسن بن عبد الودود جراحات كان فيها لليال مهلكه. وطار الخبر إلى ابن أبي عامر فاغتم لذلك، وكتب إلى زيري بضبط فاس ومكاتبة أصحاب حسن، وعقد له على المغرب كما نستوفي ذكره عند دولتهم. وغالبه بدوي عليها مرة بعد أخرى ونزع أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي عن قومه، ولحق بسواحل تلمسان ناقضا لطاعة الشيعة، وخارجا على ابن أخيه المنصور بن بلكين صاحب القيروان. وخاطب ابن أبي عامر من وراء البحر، وأوفد عليه ابن أخيه ووجوه قومه فسرب إليه الأموال والصلات بفاس مع
زيري حسبما نذكره، وجمع أيديهما على مدافعة بدوي، فساء أمره فيهما جميعا إلى أن راجع أبو البهار ولاية منصور ابن أخيه كما نذكره بعد. وحاربه زيري فكان له الظهور عليه، ولحق أبو البهار بسبتة. ثم عاد إلى قومه.
واستفحل زيري من بعد ذلك، وكانت بينه وبين بدوي وقعة اكتسح زيري من ماله ومعسكره مالا كفؤله، وسبى حرمه. واستلحم من قومه زهاء ثلاثة آلاف فارس. وخرج إلى الصحراء شريدا سنة ثلاث وثمانين.
وهلك هناك فولي أمره في قومه حبوس ابن أخيه زيري بن يعلى، ووثب به ابن عمه أبو يداس بن دوناس فقتله طمعا في الرياسة من بعده، واختلف عليه قومه فأخفق أمله وعبر البحر إلى الأندلس في جمع عظيم من قومه.
وولي أهر بني يفرن من بعده حمامة بن زيري بن يعلى أخو حبوس المذكور؛ فاستقام عليه أمر بني يفرن وقد مر ذكره في خبر بدوي غير مرة، وأنه كانت الحرب بينه وبين زيري بن عطية سجالاً، وكانا يتعاقبان ملك فاس بتناول الغلب. وأنه لما وفد زيري على المنصور خالفه بدوي إلى فاس فملكها وقتل بها خلقا من مغراوة، وأنه

لما رجع زيري اعتصم بدوي بفاس فنازله زيري. وهلك من مغراوة وبني يفرن في ذلك الحصار خلق. ثم اقتحمها زيري عليهم عنوة فقتله وبعث برأسه إلى سدة الخلافة بقرطبة سنة ثلاث وثمانين والله أعلم.

ولما اجتمع بنويفرن على حمامة تحيز بهم إلى ناحية شاله من المغرب فملكها وما إليها من تادلا، واقتطعها من زيري، ولم يزل عميد بني يفرن في تلك العمالة، والحرب بينه وبين زيري ومغراوة متصلة. وكانت بينه وبين المنصور صاحب القيروان مهاداة فأهدى إليه، وهو محاصر لعمه حماد بالقلعة سنة ست وأربعمائة، وأوفد بهديته أخاه زاوي بن زيري فلقيه بالطبول والبنود. ولما هلك حمامة قام بأمر بني يفرن من بعده أخوه الأمير أبو الكمال تميم بن زيري بن يعلى فاستبد بملكهم، وكان مستقيما في دينه مولعا بالجهاد؟ فانصرف إلى جهاد برغواطة وسالم مغراوة وأعرض عن فتنتهم.

ولما كانت سنة أربع وعشرين وأربعماية تجددت العداوة بين هذين الحيين بني يفرن ومغراوة، وثارت الإحن القديمة، وزحف أبو الكمال صاحب شالة وتادلا وما إلى ذلك في جموع يفرن. وبرز إليه حمامة بن المعز في قبائل مغراوة، ودارت بينهم حروب شديدة وانكشفت مغراوة وفر حمامة إلى وجدة، واستولى الأمير أبو الكمال تميم وقومه على فاس وغلبوا مغراوة على عمل المغرب. واكتسح تميم اليهود بمدينة فاس، واصطلم نعمهم واستباح حرمهم. ثم احتشد حمامة من وجدة سائر قبائل مغراوة وزناتة، وبعث الحاشدين في قياطينهم لجميع بلاد المغرب الأوسط، ووصل إلى تنس صريخا لزعمائهم. وكاتب من بعد عنه من رجالاتهم، وزحف إلى فاس سنة تسع وعشرين فأفرج عنها أبو الكمال تميم، ولحق ببلده ومقر ملكه من شالة، وأقام بمكان عمله وموطن أمارته منها إلى أن هلك سنة ست وأربعين. وولي ابنه حماد إلى أن هلك سنة تسع وأربعين، وولي بعده ابنه يوسف إلى أن توفي سنة ثمان وخمسين فولي بعده عمه محمد ابن الأمير أبي تميم إلى أن هلك في حروب لمتونة حين غلبوهم على المغرب أجمع حسبما نذكره، والملك لته يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

وأما أبو يداس بن دوناس قاتل حبوس بن زيري بن يعلى بن محمد فإنه لما اختلف عليه بنو يفرن، وأخفق أمله في اجتماعهم له أجاز البحر إلى الأندلس سنة اثنتين وثمانين فرفعه إخوانه أبو قرة وأبو زيد وعطاف، فحل كلهم من المنصور محل التكرمة والإيثار ونظمه في جملة الرؤساء والأمراء، وأسنى له الجراية والاقطاع، وأثبت رجاله في الديوان ومن أجاز من قومه، فبعد صيته وعلا في الدولة كعبه.

ولما افترقت الجماعة وانتثر سلك الخلافة كان في حروب البربر مع جند الأندلس آثار بعيدة وأخبار غريبة. ولما ملك المستعين قرطبة سنة أربعمائة واجتمع إليه من كان بالأندلس من البرابرة لحق المهدي بالثغور واستجاش طاغية الجلالقة، فزحف معه إلى غرناطة، وخرج المستعين في جموعه من البرابرة إلى الساحل، واتبعهم المهدي في جموعه فتواقعوا بوادي أيرة فكانت بين الفريقين جولة عظم بلاء البرابرة، وطار لأبي يداس فيها ذكر، وانهزم المهدي والطاغية وجموعهم بعد أن تضايقت المعركة وأصابت أبا يداس بن دوناس جراحة كان فيها مهلكه، ودفن هناك. وكان لابنه خلوف وحافده تميم بن خلوف من رجالات زناتة بالأندلس شجاعة

ورياسة، وكان يحيى بن عبد الرحمن بن أخيه عطاف من رجالاتهم، وكان له اختصاص ببني حمود، ثم بالقاسم منهم ولاه على قرطبة أيام خلافته والبقاء لله وحده.

الخبر عن أبي نور بن أبي قرة وما كان له من الملك بالأندلس أيام الطوائف:

هذا الرجل اسمه أبو نور بن أبي قرة بن أبي يفرن من رجالات البربر الذين استظهر بهم قومهم أيام الفتنة، تغلب على رندة أزمان تلك الفتن، وأخرج منها عامر بن فتوح من موالي الأموية سنة خمس وأربعمائة، فملكها واستحدث بها لنفسه سلطانا. ولما استفحل أمر ابن عياد بإشبيلية وأسف إلى تملك ما جاوره من الأعمال والثغور، نشأت الفتنة بينه وبين أبي نور هذا. واختلف حاله معه في الولاية والإنحراف، وسجل له سنة ثلاث وأربعين برندة وأعمالها فيمن سجل له من البربر. واستدعاه بعدها سنة خمسين لبعض ولائمه، وكاده بكتاب أوقفه عليه على لسان جارية بقصره تشكو إليه ما نال منها ابنه من المحرم، فانطلق إلى بلده وقتل ابنه. وشعر بالمكيدة فمات أسفا، وولي ابنه الاخر أبو نصر إلى سنة سبع وخمسين فغدر به بعض جنده وخرج هاربا فسقط من السور ومات. وتسلم المعتمد رندة من بعد ذلك، ولقالى إن ذلك كان عند كائنة الحمام سنة خص وأربعين، وإن أبا نور هلك فيها. ولما بلغ الخبر ابنه أبا نصر وقع ما وقع والله أعلم.

الخبر عن مرنجيصة من بطون بني يفرن وشرع أحوالهم:

كان هذا البطن من بني يفرن بضواحي إفريقية، وكانت له كثرة وقوة. ولما خرج أبو يزيد على الشيعة، وكان من أخوالهم بنو واركوا ظاهروه على أمره بما كان له معهم من العصبية. ثم انقرض أمره وأخذتهم دولة الشيعة وأولياؤهم صنهاجة وولاتهم على إفريقية بالسطوة والقهر، وإنزال العقوبات بالأنفس والأموال إلى أن تلاشوا وأصبحوا في عداد القبائل الغارمة. وبقيت منهم أحياء نزلوا ما بين القيروان وتونس أهل شاء وبقر وخيام يظعنون في نواحيها وينتحلون الفلح في معاشهم، وملك الموحدون إفريقية وهم بهذه الحال، وضربت عليهم المغارم والضرائب والعسكرة مع السلطان في غزواته بعدة مفروضة يحضرون بها متى استقروا.

ولما تغلبت الكعوب من بني سليم على ضواحي إفريقية وأخرجوا منها الدواودة من رياح أعداء الدولة لذلك العهد. واستظهر بهم السلطان عليهم. اتخذوا إفريقية وطنا من قابس إلى باجة. ثم اشتدت ولايتهم للدولة، وعظم الاستظهار بهم وأقطعهم ملك الدولة ما شاؤوه من الأعمال والخراج فكان؛ في إقطاعهم خراج مرنجيصة هؤلاء. ولما كانت وقعة بنو مرين على القيروان وكان بعدها في الفترة ما كان من طغيان الفتنة التي اعتز فيها العرب على السلطان والدولة، كان لهؤلاء الكعوب المتغلبين مدد قوي من أحياء مرنجيصة هؤلاء من الخيل للحملان، والجباية للإنفاق، والإنعام للحمال والخياو، للاستظهار بأعدادهم في الحروب فصاروا لهم لحمة وخولا، وتملكوهم تملك العبيد، حتى إذا ذهب الله بحمى الفتنة، وأقام مائل الخلافة والدولة وصار تراث هذا الملك الحفصي إلى الأحق به مولانا السلطان أبي العباس أحمد، فانقشع الجو وأضاء الأفق ودفع المتغلبين من العرب عن أعماله، وقبض أيديهم عن رعاياه. وأصار مرنجيصة هؤلاء من صفاياه بعد إنزال العقوبة بهم على

لياذهم بالعرب وظعنهم معهم، فراجعوا الحق وأخلصوا في الانحياش، ورجعوا إلى ما ألفوه من الغرامة وقوانين الخراج، وهم على ذلك لهذا العهد. والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مغراوة من أهل الطبقة الأولي من زناتة وما كان لهم من الدول بالمغرب ومبدأ ذلك وتصاريفه:

هؤلاء القبائل من مغراوة كانوا أوسع بطون زناتة وأهل البأس والغلب، ونسبهم إلى مغراو بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا إخوة بني يفرن وبني، برنيان، وقد تقدم الخلاف في نسبهم عند ذكر بني يفرن. وأما شعوبهم وبطونهم فكثر مثل بني يلنت وبني زنداك وبني وراق وورتزمير وبني أبي سعيد وبني ورسيفان ولغواط وبني ريغة وغيرهم ممن لم يحضرني أسماؤهم. وكانت محلاتهم بأرض المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل مديونة وما إليها

ولهم مع إخوانهم بني يفرن اجتماع وافتراق ومناغاة في أحوال البدو. وكان لمغراوة هؤلاء في بدوهم ملك كبير أدركهم عليه الإسلام فأقره لهم، وحسن إسلامهم.

وهاجر أميرهم صولات بن وزمار إلى المدينة، ووفد على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فلقاه برا وقبولا لهجرته وعقد له على قومه ووطنه. وانصرف إلى بلاده محبواً مجبوراً مغتبطا بالدين فظاهرا لقبائل مضر، فلم يزل هذا دأبه. وقيل إنه تقبض عليه أسيراً لأول الفتح في بعض حروب العرب مع البربر قبل أن يدينوا بالدين فأشخصوه إلى عثمان لمكانه من قومه فمن عليه وأسلم فحسن إسلامه. وعقد له على عمله فاختص صولات هذا وسائر الأحياء من مغرارة بولاء عثمان وأهل بيته من بني امية، وكانوا خاصة لهم دون قريش، وظاهروا دعوة المروانية بالأندلس رعيا لهذا الولاء على ما تراه بعد في أخبارهم.

ولما هلك صولات قام بأمره في مغراوة وسائر زناتة من بعده ابنه حفص، وكان من أعظم ملوكهم. ثم لما هلك قام بأمره ابنه خزر. وعندما تقلص ظل الخلافة عن المغرب الأقصى بعض الشيء وأطلت فتنة ميسرة الحقير ومطخرة فاعتز خزر وقومه على أمراء المضرية بالقيروان، واستفحل ملكهم وعظم شأن سلطانهم على البدو من زناتة بالمغرب الأوسط. ثم انتقض أمر بني امية بالمشرق فكانت الفتنة بالمغرب فازدادوا اعتزازاً وعتوا. وهلك خلال ذلك خزر، وقام بملكه ابنه محمد، وخلص إلى المغرب إدريس الأكبر بن عبد الله بن حسن بن الحسن سنة سبعين ومائة في خلافة الهادي. وقام برابرة المغرب من أوربة ومدينة ومغيلة بأمره، واستوثق له الملك واقتطع المغرب عن طاعة بني العباس سائر الأيام.

ثم نهض إلى المغرب الأوسط سنة أربع وسبعين فتلقاه محمد بن خزر هذا وألقى إليه المقادة، وبايع له عن قومه وأمكنه من تلمسان بعد أن غلب عليها بني يفرن أهلها. وانتظم لإدريس بن إدريس الأمر، وغلب على جميع أعمال أبيه، وملك تلمسان. وقام بنو خزر هؤلاء بدعوته كما كانوا لأبيه. وكان قد نزل تلمسان لعهد إدريس الأكبر أخوه سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسن القادم إليه من المشرق، وسجل له بولاية تلمسان من سجل ابنه إدريس لمحمد ابن عمه سليمان من بعده،

فكانت ولاية تلمسان وأمصارها في عقبه، واقتسموا ولاية ثغورها الساحلية فكانت تلمسان لولد إدريس بن محمد بن سليمان، وأرشكول لولد عيسى بن محمد، وتنس لولد إبراهيم بن محمد بن محمد، وسائر الضواحي من أعمال تلمسان لنبي يفرن ومغراوة.

و لم يزل الملك بضواحي المغرب الأوسط لمحمد بن خزر كما قلناه إلى أن كانت

دولة الشيعة، واستوثق لهم ملك إفريقية. وسرح عبيد الله المهدي إلى المغرب عروبة بن يوسف الكتامي في عساكر كتامة سنة ثمان وتسعين ومائتين، فدوخ المغرب الأدنى ورجع. ثم سرح بعده مصالة بن حبوس إلى المغرب في عساكر كتامة؛ فاستولى على أعمال الأدارسة ، واقتضى طاعتهم لعبيد الله. وعقد على فاس ليحيى بن إدريس بن عمر آخر ملوك الأدارسة. وخلع نفسه ودان بطاعتهم، وعقد له مصالة على فاس، وعقد لموسى بن أبي العالية أمير مكناسة وصاحب تازة، واستولى على ضواحي المغرب، وقفل إلى القيروان. وانتقض عمر بن خزر من أعقاب محمد بن خزر الداعية لإدريس الأكبر، وأمل زناتة وأهل المغرب الأوسط على البرابرة من الشيعة وسرح عبيد الله المهدي مصالة قائد المغرب في عساكر كتامة سنة تسع، ولقيه محمد بن خزر في جموع مغراوة وسائر زناتة ففل عساكر مصالة وخلص إليه فقتله. وسرح عبيد الله ابنه أبا القاسم في العساكر إلى المغرب سنة عشر، وعقد له عى حرب محمد بن خزر وقومه فأجفلوا إلى الصحراء، واتبع آثارهم إلى ملوية فلحقوا بسلجماسة وعطف أبو القاسم على المغرب فدوخ أقطاره وجال في نواحيه وجدد لابن أبي العافية على عمله ورجع و لم يلق كيداً.

ثم إن الناصر صاحب قرطبة سما له أمل في ملك العدوة فخاطب ملوك الأدارسة وزناتة، وبعث إليهم خالصته محمد بن عبيد الله بن أبي عيسى سنة ست عشرة فبادر محمد بن خزر إلى إجابته، وطرد أولياء الشيعة من الزاب. وملك شلب وتنس من أيديهم وملك وهران وولى عليها ابنه الخير، وبث دعوة الأموية في أعمال المغرب الأوسط ما عدا تاهرت. وبدأ في القيام بدعوة الأموية إدريس بن إبراهيم

بن عيسى بن محمد بن سليمان صاحب أرشكول. ثم فتح الناصر سبتة سنة سبع عشرة من يد الأدارسة وأجار موسى بن أبي العالية على طاعته، واتصلت يده بمحمد بن خزر وتظاهروا على الشيعة. وخالف فلفول بن خزر أخاه محمد إلى طاعة الشيعة، وعقد له عبد الله على مغراوة.

وزحف إلى المغرب حميد بن يصل سنة إحدى وعشرين في عساكر كتامة إلى عبد الله على تاهرت فانتهى إلى فاس وأجفلت أمامه ظواعن زناتة ومكناسة ودوخ المغرب. وزحف من بعده ميسور الخصي سنة اثنتين وعشرين فحاصر فاس وامتنعت عليه ورجع. ثم انتقض حميد بن يصل سنة ثمان وعشرين وتحيز إلى محمد بن خزر. ثم أجاز إلى الناصر وولاه على المغرب الأوسط. ثم شغل الشيعة بفتنة أبي يزيد، وعظمت آثار محمد بن خزر وقومه من مغراوة. وزحفوا إلى تاهرت مع حميد بن يصل قائد ا أموية سنة ثلاث وثلاثين. وزحف معه الخير بن محمد وأخوه حمزة وعمه عبد الله بن خزر، ومعهم يعلى بن محمد في قومه بني يفرن وأخذوا تاهرت عنوة، وقحلوا عبد الله بن بكار، وأسروا قائدها ميسور الخصي بعد أن قتل حمزة بن محمد بن خزر في حروبها.

وكان محمد بن خزر وقومه زحفوا قبل ذلك إلى بسكرة ففتحوا وقتلوا زيدان الخصي. ولما خرج إسمعيل من حصار أبي يزيد، وزحف إلى المغرب في أتباعه خشية محمد بن خزر على نفسه لما سلف منه في نقض دعوتهم، وقتل أتباعهم؛ فبعث إليه بطاعة معروفة. وأوعز إليه إسمعيل بطلب أبي يزيد ووعده في ذلك بعشرين حملا من المال. وكان أخوه معبد بن خزر في موالاة أبي يزيد إلى أن هلك. وتقبض إسمعيل بعد ذلك على معبد سنة أربعين وقتله، ونصب رأسه بالقيروان. ولم يزل محمد بن خزر وابنه الخير متغلباً على المغرب الأوسط ومقاسما فيها ليعلى بن محمد. ووفد فتوح بن الخير سنة أربعين على الناصر مع مشيخة تاهرت ووهران فأجازهم وصرفهم إلى أعمالهم.

ثم حدثت الفتنة ين مغراوة وصنهاجة، وشغل حمد بن خزر وابنه الخير بحروبهم، وتغلب يعلى بن محمد على وهران وخربها، وعقد الناصر لحميد بن يصل على تلمسان

وأعمالها، وليعلى بن محمد على المغرب وأعماله فراجع محمد بن خزر طاعة الشيعة من أجل قريعة يعلى بن محمد. ووفد على المعز بعد مهلك أبيه إسمعيل سنة اثنتين وأربعين؟ فأولاه تكرمة على طاعتهم؛ إلى أن حضر مع جوهر في غزاته إلى المغرب بأعوام سبع أو ثمان وأربعين. ثم وفد على المعز بعد ذلك سنة خمسين، وهلك بالقيروان، وقد نيف على المائة من السنين.

وهلك الناصر المرواني عامئذ على حين انتشرت دعوة الشيعة بالمغرب، وانقبض

أولياء ا أموية إلى أعمال سبتة وطنجة فقام بعده ابنه الحكم المستنصر، واستأنف مخاطبة ملوك العدوة فأجابه محمد بن الخير بن محمد بن خزر بما كان من أبيه الخير وجده محمد في ولاية الناصر، والولاية التي لبني امية على آل خزر بوصية عثمان بن عفان لصولات بن وزمار جدهم كما ذكرناه، فأثخن في الشيعة ودوخ بلادهم. ورماه معد بقريعه زيري بن مناد أمير صنهاجة فعقد له على حرب زناتة وسوغه ما غلب عليه من أعمالهم، وجمعوا للحرب سنة ستين ومائتين فلقي بلكين بن زيري جموعهم بدسيسة من بعض أولياء محمد بن الخير قبل أن يستكمل تعبيتهم فأبلى منهم ثباتا وصبرا، واشتدت الحرب بينهم وانهزمت زناتة، حتى إذا رأى محمد بن الخيران قد أحيط به انتبذ إلى ناحية من العسكر وذبح نفسه. واستمرت الهزيمة على قومه، وجندل منهم في المعركة سبعة عشر أميرا سوى الأتباع. وتحيز كل إلى فريقه.

وولي بعد محمد في مغراوة ابنه الخير وأغرى بلكين بن زيري الخليفة معد وجندل بن جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة، والزاب بموالاة حمد بن الخير فاستراب جعفر، وبعث عنه معد لولاية إفريقية حتى اعتزم على الرحيل إلى القاهرة، فاشتدت استرابته ولحق بالخير بن محمد وقومه. وزحفوا إلى صنهاجة فاتيحت لهم الكرة، وأصيب زيري بن مناد كبير العصابة، وبعثوا برأسه إلى قرطبة في وفد من وجوه بني خزر مع يحيى بن علي أخي جعفر. ثم استراب بعدها جعفر من زناتة ولحق بأخيه يحيى، ونزلوا على الحكم. وعقد معد لبلكين بن زيري على حرب زناتة، وأمده بالأموال والعساكر، وسوغه ما تغلب عليه من أعمالهم فنهض إلى المغرب سنة إحدى وستين، وأوغر بالبرابرة منهم وتقرى أعمال طبنة وباغاية والمسيلة وبسكرة

وأجفلت زناتة أمامه. وتقدم إلى تاهرت فمحا من المغرب الأوسط آثار زناتة ولحق بالمغرب الأقصى.
واتبع بفكين آثار الخير بن محمد وقومه إلى سجلماسة، فأوقع بهم وتقبض عليهم، فقتله صبراً وفض جموعهم، ودوخ المغرب وانكص راجعاً. ومر بالمغرب الأوسط فاستلحم بوادي زناتة ومن إليهم من الخصاصين، ورفع الأمان عن كل من ركب فرساً أو أنتج خيلا من سائر البربر. ونذر دماءهم فأقفر المغرب الأوسط من زناتة، وساروا إلى ما وراء ملوية من بلاد المغرب الأقصى إلى أن كان من رجوع بني يعلى بن محمد إلى تلمسان، وملكهم إياها، ثم هلك بنو خزر بسجلماسة وطرابلس، وملك بني زيري بن عطية بفاس ما نحن ذاكروه إن شاء الله تعالى.

آل زيري بن عطية ملوك فاس

الخبر عن آل زيري بن طية ملوك فاس وأعمالها

من الطبقة الأولي من مغراوة وما كان لهم بالمغرب الأقصى

من الملك والدولة ومباديء ذلك وتصاريفه

كان زيري هذا أمير آل خزر في وقته، ووارث ملكهم البدوي، وهو الذي مهد الدولة بفاس والمغرب الأقصى وأورثها بنيه إلى عهد لمتونة حسبما نستوفي شرحه. واسمه زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر وجده عبد الله أخو محمد داعية الناصر الذي هلك بالقيروان كما ذكرناه، وكانوا أربعة إخوة: محمد ومعبد الذي قتله إسمعيل، وفلفول الذي خالف محمدا إلى ولاية الشيعة وعبد الله هذا وكان يعرف بأمه واسمها تبادلت. وقد قيل إن عبد الله هذا هو ابن محمد بن خزر، وأخوه حمزة بن محمد الهالك في حربه مع ميسور عند فتح تاهرت. ولما هلك بن محمد كما قلناه بيد بلكين سنة إحدى وستين، وارتحلت زناتة إلى ما وراء ملوية من المغرب الأقصى، وصار المغرب الأوسط كله لصنهاجة واجتمع مغراوة إلى بقية آل خزر وأمراؤهم يومئذ محمد بن خير المذكور ومقاتل وزيري ابنا مقاتل بن عطية بن عبد الله، وخزرون بن فلفول.

ثم كان ما ذكرناه من ولاية بلكين بن زيري على إفريقية، وزحف إلى المغرب الأقصى زحفه المشهور سنة تسع وستين، وأجفلت أمامه ملوك زناتة من بني خزر وبني محمد بن صالح، وانحازوا جميعا إلى سبتة. وأجاز محمد بن الخير البحر إلى المنصور بن أبي عامر صريخا؟ فخرج المنصور في عساكره إلى الجزيرة ممدا لهم بنفسه. وعقد لجعفر بن علي على حرب بلكين، وأجازه البحر وأمده بمائة حمل من المال فاجتمعت إليه ملوك زناتة، وضربوا مصافهم بساحة سبتة، وأظل عليهم بلكين من جبل تطاون فرأى ما لا قبل له به فارتحل عنهم، وأشغل نفسه بجهاد برغواطة إلى أن هلك منصرفا من المغرب سنة اثنتين وسبعين كما ذكرناه.

وعاد جعفر بن علي إلى مكانه من الحضرة، وساهمه المنصور في حمل الرياسة، وبقي المغرب غفلا من الولاية، واقتصر المنصور على ضبط سبتة، ووكل إلى ملوك زناتة دفاع صنهاجة وسائر اولياء الشيعة. وقام يبلو طاعتهم إلى أن قام بالمغرب الحسن بن كنون من الأدارسة، بعثه العزيز نزار من مصر لاسترجاع ملكه بالمغرب، وأمده بلكين بعسكر من صنهاجة وهلك على تفيئة ذلك بلكين، ودعا الحسن إلى

أمره بالمغرب. وانضم إليه بدوي بن يعلى بن محمد اليفرني وأخوه زيري وابن عمه أبو يداس فيمن إليهم من بني يفرن فسرح المنصور لحربه ابن عمه أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن أبي عامر الملقب عسكلاجة، وبعثه بالعساكر والأموال فأجاز البحر، وانحاش إليه ملوك آل خزر محمد بن الخير، ومقاتل وزيري ابنا عطية، وخزرون بن فلفول في جمع مغراوة، وظاهروه على شأنه.

وزحف بهم أبو الحكم بن أبي عامر إلى الحسن بن كنون حتى ألجأوه إلى الطاعة، وسأل الأمان على نفسه؟ فعقد له عمرو بن أبي عامر ما رضيه من ذلك، وأمكن به من قياده، وأشخصه إلى الحضرة فكان من قتله وإخفار ذمة أبي الحكم بن أبي عامر، وقتله بعده ما تقدم حسبما ذكرنا ذلك من قبل.

وكان مقاتل وزيري ابنا عطية من بين ملوك زناتة أشد الناس انحياشا للمنصور وقياما بطاعة المروانية. وكان بدوي بن يعلى وقومه بنو يفرن منحرفين عن طاعتهم. ولما انصرف أبو الحكم بن أبي عامر عن المغرب عقد المنصور عليه للوزير حسن بن أحمد عبد الودود السلمي، وأطلق يده في انتقاء الرجال والأموال فأنفذه إلى عمله سنة ست وسبعين، وأوصاه بملوك مغراوة من زناتة، واستبلغ بمقاتل وزيري من بنيهم لحسن انحياشهم وطاعتهم، وأغراه ببدوي بن يعلى المضطرب الطاعة الشديد المراوغة، فنفذ لعمله ونزل بفاس، وضبط أعمال المغرب، واجتمعت إليه ملوك زناتة.

وهلك مقاتل بن عطية سنة ثمان وسبعين، واستقل برياسة الظواعن البدو عن مغراوة أخوه زيري بن عطية وحسنت مخاللته لابن عبد الودود صاحب المغرب وانحياشه بقومه إليه. واستدعاه المنصور من محله بفاس سنة إحدى وثمانين إشادة بتكريمه، وأغراه ببدوي بن يعلى بمنافسته في الحظ وإيثار الطاعة فبادر

إلى إجابته بعد أن استخلف على المغرب ابنه المعز، وأنزله بتلمسان ثغر المغرب، وولى عن عدوة القرويين من فاس علي بن حمي بن أبي علي قشوش، وعلى عدوة الأندلسيين عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة. وقدم بين يديه هدية إلى المنصور، ووفد عليه فاستقبله بالجيش والعدة واحتفل للقائه، وأوسع نزله وجرايته ونوه باسمه في الوزارة وأقطعه رزقها. واثبت رجاله في الديوان ووصله بقيمة هديته وأسنى فيها، وأعظم جائزة وفده وعجل تسريحه إلى عمله فقفل إلى إمارته من المغرب. ونمي عنه خلاف ما احتسب فيه من غمط المعروف وإنكار الصنيع، والاستنكاف من لقب الوزارة التي نوه به حتى أنه قال لبعض حشمه، وقد دعاه بالوزير: وزير من يا لكع، لا والله إلا أمير ابن أمير، واعجبا من ابن أبي عامر وخرفته والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله وإن له منا ليوما، والله لقد تأجرني فيما أهديت

إليه حطا للقيم، ثم غالطني بما بدله تبتيتاً للكرم إلا أن يحتسب بثمن الوزارة التي حطني بها عن رتبتي.

ونمي ذلك إلى ابن أبي عامر فصر عليها أذنه وزاد في اصطناعه وبعث إلى يدو بن يعلى اليفرني قريعه في ملك زناتة يدعوه إلى الوفادة فأساء إجابته وقال: متى عهد المنصور حفر الوحش تنقاد إلى البياطرة. وأخذ في إفساد السابلة والأجلاب على الأحياء والعيث في العمالة، فأوعز المنصور إلى عامله على المغرب الوزير حسن بن عبد الودود بنبذ العهد إليه، ومظاهرة عدوه زيري بن عطية عليه، فجمحوا له سنة إحدى وثمانين ولقوه فكانت

الدائرة عليهم، وتخرم العسكر، وأثبتت الوزير ابن عبد الودود جراحة كان فيها حتفه. وبلغ الخبر إلى المنصور فشق عليه وأهمه شأن المغرب، وعقد عليه لوقته لزيري بن عطية، وكتب إليه بعهده وأمره بضبط المغرب ومكاتبة جند السلطان وأصحاب حسن بن عبد الودود، فاضطلع بأعبائه وأحسن الغناء في عمله.

واستفحل شأن يدو بن يعلى وبني يفرن، واستغلظوا على زيري بن عطية وأصلوه نار الفتنة، وكانت حربهم سجالا. وسيمت الرعايا بفاس كثرة تعاقبهم عليها وانتزائهم على عملها. وبعث الله لزيري بن عطية ومغراوة مددا من أبي البهار بن زيري بن مناد بما كان انتقص لذلك العهد على أخيه منصور بن بلكين صاحب القيروان وإفريقية، ونزع عن دعوة الشيعة إلى المروانية. واقتفى أثره في ذلك خلوف بن أبي بكر صاحب تيهرت وأخوه عطية لصهر كان بينهما وبين زيري، فاقتطعوا أعمال المغرب الأوسط ما بين الزاب ووانشريش ووهران، وخطبوا في سائر منابرها باسم هشام المؤيد.

وخاطب أبو البهار من وراء البحر المنصور بن أبي عامر، وأوفد عليه أبا بكر ابن أخيه حبوس بن زيري في طائفة من أهل بيته ووجوه قومه، فاستقبلوا بالجيش ولقاه رحبا وتسهيلا، وأعظم موصله وأسنى جوائز وفده وصلاتهم، وأنفذ معه إلى عمه أبي البهار بخمسماية قطعة من صنوف الثياب الخز والعبيد، وقيمة عشرة آلاف درهم من الانية والحلي، وبخمسة وعشرين ألفا من الدنانير ودعاه إلى مظاهرة زيري بن عطية على يدو بن يعلى، وقسم بينهما عمل المغرب شق الابلمة حتى لقد اقتسما مدينة فاس عدوة بعدوة فلم يرع ذلك يدو ولا وزعه عن شأنه من الفتنة والأجلاب على البدو والحاضرة، وشق عصا الجماعة. وانتقض خلوف بن أبي بكر على المنصور لوقف 4، وراجع ولاية المنصور بن بلكين.

ومرض أبو البهار في المظاهرة عليه للوصلة بينهما، وقعد عما قام له زيري بن عطية من حرب خلوف بن أبي بكر، وأوقع به زيري في رمضان سنة إحدى وثمانين، واستلحمه وكثيرا من أوليائه، وأستولى على عسكره، وانحاش إليه عامة أصحابه.

وفر عطية شريدا إلى الصحراء، ثم نهض على أثرها ليدو بن يعلى وقومه فكانت بينهما لقاءة صعبة انكشف فيها أصحاب يدو واستلحم منهم زهاء ثلاثة آلاف، واكتسح معسكره وسبيت حرمه التي كانت منهن أمه وأخته، وتحيز سائر أصحابه إلى فئة زيري، وخرج شريدا إلى الصحراء إلى أن اغتاله ابن عمه أبو يداس بن دوناس حسبما ذكرناه. وورد خبر الفتحين متعاقبين على المنصور فعظم موقعهما لديه. قيل إن مقتل يذو إنما كان عند إياب زيري من الوفادة، وذلك أنه لما استقدمه المنصور

ووفد عليه كما ذكرناه خالفه يذو إلى فاس ودخلها، وقتل بها من مغراوة خلقا واستمكن بها أمره. فلما رجع زيري من وفادته امتنع به يدو فنازله زيري وطال الحصار وهلك من الفريقين خلق. ثم اقتحمها عليه عنوة فقتل وبعث برأسه إلى سدة الخلافة بقرطبة. إلا أن راوي هذا الخبر يجعل وفادة زيري على المنصور وقتله ليدو سنة ثلاث وثمانين فالله أعلم أي ذلك كان.

ثم إن زيري فسد ما بينه وبين أبي البهار الصنهاجي وتزاحفا فأوقع به زيري وانهزم أبو البهار إلى سبتة موريا بالعبور إلى المنصور فبادر بكاتبه عيسى بن سعيد بن القطاع في قطعة من الجند إلى تلقيه فحاد عن لقائه.

وصعد إلى قلعة جراوة، وقد قدم الرسل على ابن أخيه المنصور صاحب القيروان مستميلا إلى أن التحم ذات بينهما. ثم تحيز إليه وعاد إلى مكانه من عمله، وخلع ما تمسك به من طاعة الأموية، وراجع طاعة الشيعة، فجمع المنصور لزيري بن عطية أعمال المغرب. واستكفى به في سد الثغر، وعول عليه من بين ملوك المغرب في الذب عن الدعوة، وعهد إليه بمناجزة أبي البهار. وزحف إليه زيري في أمم عديدة من قبائل زناتة وحشود البربر وفر أمامه، ولحق بالقيروان. واستولى زيري على تلمسان وسائر أعمال أبي البهار. وملك ما بين السوس الأقصى والزاب، فاتسع ملكه وانبسط سلطانه واشتدت شوكته، وكتب بالفتح إلى المنصور. وبعث إليه بمايتين من عتاق الخيل وخمسين جملا من المهارى السبق، وألف دوقة من جلود اللمط وأحمال من قسي الزان وقطوط الغالية، والزرافة وأصناف الوحوش الصحراوية كاللمط وغيره، وألف حمل من التمر وأحمال من ثياب الصوف الرفيعة كثيرة، فجدد له عهده على المغرب سنة إحدى وثمانين، وأنزل أحياءه بأنحاء فاس في قياطنهم.

واستفحل أمر زيري بالمغرب، ودفع بني يفرن عن فاس إلى نواحي سلا، واختط مدينة وجدة سنة أربع وثمانين وأنزلها عساكره وحشمه، واستعمل عليها ذويه ونقل إليها ذخيرته وأعدها معتصما، فكانت ثغرا لعمله بين المغرب الأقصى والأوسط.

ثم فسد ما بينه وبين المنصور سنة ست وثمانين بما نمي عنه من التأنف لهشام باستبداد المنصور عليه، فسامه المنصور الهضيمة. وأبى منها، فبعث كاتبه ابن القطاع في العسكر، فاستعصى عليه. وأمكنه قائد قلعة حجر النسر منها، فأشخصه إلى الحضرة. وأحسن إليه المنصور وسقاه الناصح، وكشف زيري وجهه في عداوة ابن أبي عامر والإغراء به والتشيع لهشام المؤيد، والامتعاض له من هضيمته وحجره، فسخط ابن أبي عامر وقطع عنه رزق الوزارة، ومحا اسمه من ديوانها ونادى بالبراءة منه.

وعقد لواضح مولاه على المغرب وعلى حرب زيري بن عطية، وانتقى له الحماة من سائر الطبقات، وأزاح عللهم. وأمكنه من الأموال للنفقات وأحمال السلاح والكسى، وأصحبه طائفة من ملوك العدوة كانوا بالحضرة، منهم: محمد بن الخير بن محمد بن الخير، وزيري بن خزر وابن عفهما بكساس بن سيد الناس. ومن بني يفرن أبو نوبخت بن عبد الله بن بكار. ومن مكناسة إسماعيل بن البوري ومحمد بن عبد الله بن مدين، ومن ازداجة خزرون بن محمد وأمده بوجوه الجند. وفصل من الحضرة سنة سبع وثمانين، وسار في التعبية. وأجاز البحر إلى طنجة فعسكر بوادي ركاب وزحف زيري بن عطية في قومه، فعسكر إزاءه وتواقفا ثلاثة أشهر. واتهم واضح رجالات بني برزال بالأدهان فأشخصهم إلى الحضرة. وأغرى بهم المنصور فوبخهم. وتنصلوا فصفح عنهم، وبعثهم في غير ذلك الوجه. ثم تناول واضح حصن أصيلا ونكور فضبطهما. واتصلت الوقائع بينه وبين زيري، وبيت واضح معسكر زيري بنواحي أصيلا وهم غارون فأوقع بهم. وخرج ابن أبي عامر من الحضرة لاستشراف أحوال واضح وإمداده، فسار في التعبئة واحتل بالجزيرة عند فرضة المجاز. ثم بعث عن ابنه

المظفر من مكان استخلافه بالزاهرة، وأجازه إلى العدوة واستكمل معه أكابر أهل الخدمة وجلة القواد. وقفل المنصور إلى قرطبة، واستذاع خبر عبد الملك بالمغرب فرجع إليه عامة أصحاب زيري من ملوك البربر، وتناولهم من إحسانه وبره ما لم يعهدوا مثله.

وزحف عبد الملك إلى طنجة واجتمع مع واضح، وتلوم هنالك مزيحا لعلل العسكر، فلما
استتم تدبيره زحف في جمع لا كفاء له. ولقيه زيري بوادي مني من أحواز طنجة في شوال من سنة ثمان وثمانين، فدارت بينهما حرب شديدة هم فيها أصحاب عبد الملك وثبت هو. وبينما هم في حومة الحرب إذا طعن زيري بعض الموتورين من أتباعه اهتبل الغرة في ذلك الموقف فطعنه ثلاثا في نحره وأشواه بها، ومر يشتد نحو المظفر، وبشره فاستكذبه به لثبوت رايته. ثم سقط إليه الصحيح فشد عليهم فاستوت الهزيمة وأثخن فيهم بالقتل، واستولى على ما كان في معسكرهم مما يذهب فيه الوصف. ولحق زيري بفاس جريحا في قلة، فامتنع عليه أهلها ودافعه بحرمه، فاحتملهن وفر أمام العسكر إلى الصحراء، وأسلم جميع أعماله. وطير عبد الملك بالفتح إلى أبيه فعظم موقعه عنده، وأعلن بالشكر لله والدعاء وبث الصدقات وأعتق الموالي، وكتب إلى ابنه عبد الملك بعهده على المغرب فأصلح نواحيه وسد ثغوره، وبعث العمال في جهاته: فأنفذ محمد بن حسن بن عبد الودود في جند كثيف إلى تادلا، واستعمل حميد بن يصل الكتامي على سجلماسة فخرج كل لوجهه، واقتضوا الطاعة وحملوا إليه الخراج، فأقفل المنصور ابنه عبد الملك في جمادى من سنة تسع وثمانين، وعقد على المغرب لواضح فضبطه واستقام على تدبيره. ثم عزله في رمضان من سنته بعبيد الله ابن أخيه يحيى، ثم ولى عليه من بعده إسماعيل بن البوري، ثم من بعده أبا الأحوص مقن بن عبد العزيز التجيبي إلى أن هلك المنصور.

وأعاد المظفر المعز بن زيري من منتبذه الأوسط إلى ولاية أبيه بالمغرب فترل بفاس، وكان من خبر زيري أنه لما استقل من نكبته وهزيمة عبد الملك إياه، واجتمع إليه بالصحراء من مغراوة، وبلغه اضطراب صنهاجة
واختلافهم على باديس بن المنصور عند مهلك أبيه، وأنه خرج عليه عمومته مع ماكسن بن زيري، فصرف وجهه حينئذ إلى أعمال صنهاجة ينتهز فيها الفرصة. واقتحم المغرب الأوسط ونازل تاهرت وحاصر بها يطوفت بن بلكين. وخرج باديس من القيروان صريخاً له. فلما مر بطبنة امتنع عليه فلفول بن خزرون، وخالفه إلى إفريقية فشغل بحربه. وقد كان
أبو سعيد بن خزرون لحق بإفريقية، وولاه المنصور بن بلكين على طبنة كما نذكره، فلما انتقض سار إليه باديس ودفع حماد بن بلكين في عساكر صنهاجة إلى مدافعة زيري بن عطية فالتقيا بوادي مناس قرب تاهرت، فكانت الدبرة على صنهاجة، واحتوى زيري على معسكرهم واستلحم ألوفاً منهم-. وفتح مدينة تاهرت وتلمسان وشلف وتنس والمسيلة. وأقام الدعوة فيها كلها للمؤيد هشام ولحاجبه المنصور من بعده.

ثم اتبع آثار صنهاجة إلى أشير قاعدة ملكهم، فأناخ عليها. واستأمن إليه زاوي بن زيري ومن معه من أكابر أهل بيته المنازعين لباديس فأعطاه منه ما سأل. وكتب إلى المنصور بذلك يسترضيه ويشترطه على نفسه الرهن والاستقامة أن أعيد إلى الولاية، ويستأذن في قدوم زاوي وأخيه خلال، وأذن لهما فقدما سنة تسعين، وسأل

أخوهما أبو البهار مثل ذلك، وأنفذ رسله تذكر بقديمه فسوفه المنصور لما سبق من نكثه. واعتل زيري بن عطية وهو بمكانه من حصار أشير فأفرج عنها. وهلك في منصرفه سنة إحدى وتسعين، واجتمع إلى خزر وكافة مغراوة من بعده على ابنه المعز بن زيري فبايعوه، وضبط أمرهم وأقصر على محاربة صنهاجة. ثم استجدى للمنصور واعلق بالدعوة العامرية وصلحت حاله عندهم. وهلك المنصور خلال ذلك ورغب المعز من ابنه عبد الملك المظفر أن يعيده إلى عمله على مال يحمله إليه، وعلى أن يكون ولده معنصر رهينة بقرطبة فأجابه إلى ذلك وكتب له عهده، وأنفذ به وزيره أبا محمد علي بن جدلم ونسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد. من الحاجب المظفر سيف دولة الإمام الخليفة هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر إلى كافة قد نسي فاس وكافة أهل المغرب سلمهم الله. أما بعد أصلح الله شأنكم وسلم أنفسكم وأديانكم، فالحمد لله علام الغيوب وغفار الذنوب ومقلب القلوب ذي البطش الشديد المبدي المعيد الفعال لما يريد، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، بل له الملك والأمر، وبيده الخير والشر. إياه نعبد وإياه نستعين، وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون،. وصلى الله على محمد سيد المرسلين وعلى آله الطيبين، وعلى جميع النبيين والمرسلين والسلام عليكم أجمعين.

وإن المعز بن زيري بن عطية أكرمه الله تابع لدينا رسله وكتبه متنصلا من هنات دفعته إليها ضرورات، ومستغفرا من سيئات حطمها من توبته حسنات، والتوبة محاء للذنب، والاستغفار منقذ من العتب. وإذا أذن الله بشيء يسره، وعسى أن تكرهوا شيئا ولكم فيه خير. وقد وعد من نفسه استشعار الطاعة، ولزوم الجادة، واعتقاد الاستقامة، وحسن المعونة وخفة المؤونة، فونيناه ما لبلكم، وعهدنا إليه أن يعمل بالعدل فيكم، وأن يرفع أحكام الجور عنكم. وأن يعمر سبلكم، وأن يقبل من محسنكم ويتجاوز عن مسيئكم إلا في حدود الله تبارك وتعالى. وأشهدنا الله عليه بذلك وكفى بالله شهيدا. وقد وجهنا الوزير أبا محمد علي بن جدلم أكرمه الله، وهو من ثقاتنا ووجوه رجالنا ليأخذ ميثاقه، ويؤكد العهد فيه عليه بذلك، وأمرناه بإشراككم فيه؛ ونحن بأمركم معتنون ولأحوالكم مطالعون، وأن يقضي على الأعلى للأدنى، ولا يرتضي فيكم بشيء من الأذى فثقوا بذلك واسكنوا إليه. وليمض القاضي أبو عبد الله أحكامه مشدودا ظهره بنا، معقودا سلطانه بسلطاننا، ولا تأخذه في الله لومة لائم، فلذلك طبنا به إذ وليناه، وأملنا فيه إذ قلدناه، والله المستعين، وعليه التكلان لا إنه إلا هو. تبلغوا منا سلاما طيبا جزيلا ورحمة الله وبركته. كتب في ذي القعدة من سنة ست وتسعين وثلاثمائة.

ولما وصل إلى المعز بن زيري عهد المظفر إليه بولايته على المغرب ما عدا كورة سجلماسة فإن واضحاً مولى المنصور عهد بها في ولايته على المغرب لوانودين بن خزرون بن فلفول حسبما نذكر بعد، فلم تدخل في ولاية المعز هذه. فلما وصله عهد المظفر ضم نشره، وثاب إليه نشاطه، وبث عماله في جميع كور المغرب وجبا خراجها. ولم تزل ولايته متسعة، وطاعة رعاياه منتظمة. ولما افترق أمر الجماعة بالأندلس، واختل رسم الخلافة وصار الملك فيها طوائف استحدث المعز رأيا في التغلب على سجلماسة وانتزاعها من أيدي بني وانودين بن خزرون فأجمع لذلك. ونهض إليه سنة سبع وأربعمائة، وبرزوا إليه في جموعهم فهزموه. ورجع إلى

فاس في فل من قومه. وأقام على الاضطراب من أمره إلى أن هلك سنة سبع عشرة، وولي من بعده ابن عمه حماه ة بن المعز بن عطية، وليس كما يزعم

بعض المؤرخين أنه ابنه وإنما هو اتفاق في الأسماء أوجب هذا الغلط، فاستولى حمامة هذا على عملهم واستفحل ملكه، وقصده الأمراء والعلماء وانتابته الوفود، ومدحه الشعراء. ثم نازعه الأمر أبو كمال تميم بن زيري بن يعلى اليفرني في سنة أربع وعشرين من بني يذو بن يعلى المتغلبين على نواحي سلا، وزحف إلى فاس في قبائل بني يفرن ومن انضاف إليهم من زناتة.

وبرز إليه حمامة في جموع مغراوة ومن إليهم فكانت بينهم حرب شديدة أجلت عن هزيمة حمامة. وهلك من مغراوة أمم، واستولى تميم وبنو يفرن على فاس وأعمال المغرب. ولما دخل فاس استبح يهود وسبا حرمهم واصطلم نعمتهم. ولحق حمامة بوجدة فاحتشد من هنالك من قبائل مغراوة من أنجاد مديونه وملوية. وزحف إلى فاس فدخلها سنة تسع وعشرين، وتحيز تميم إلى موضع إمارته من سلا، وأقام حمامة في سلطان المغرب، وزحف إليه سنة ثلاثين وأربعمائة صاحب القلعة القائد ابن حماد في جموع صنهاجة. وخرج إليه حمامة مجمعا حربه، وبث القائد عطاءه في زناتة واستفسدهم على صاحبهم حمامة، فأقصر عن لقائه، ولاذ منه بالسلم والطاعة، فرجع القائد عنه، ورجع هو إلى فاس. وهلك سنة إحدى وثلاثين فولي من بعده ابنه دوناس ويكنى أبا العطاف، فاستولى على فاس وسائر عمل أبيه، وخرج إليه لأول أمره حماد ابن عمه معنصر بن المعز فكانت له معه حروب ووقائع، وكثرت جموع حماد فغلب دوناس على الضواحي وأحجره بمدينة فاس، وخندق دوناس على نفسه الخندق المعروف بسياج حماد.

وقطع حماد جرية الوادي عن عدوة القرويين إلى أن هلك محاصرا لها سنة خمس وثلاثين، فاستقامت دولة دوناس وانفسحت أيامه، وكثر العمران ببلده. واحتفل في تشييد المصانع وأدار السور على أرباضها، وبنى بها الحمامات والفنادق، فاستبحر عمرانها ورحل التجار بالبضائع إليها. وهلك دوناس سنة إحدى وخمسين فولي من بعده ابنه الفتوح، ونزل بعدوة الأندلس. ونازعه الأمر أخوه الاصغر عجيسة، وامتنع بعدوة القرويين، وافترق أمرهم بافتراقهما. وكانت الحرب بينهما سجالا، ومجالها بين المدينتين حيث يفضي باب النقبة لعدوة القرويين لهذا العهد. وشيد الفتوح باب عدوة الأندلسيين وهو مسمى به إلى الآن. واختط عجيسة

باب الجيسة وهو أيضا مسمى به إلى الآن، وإنما حذفت عينه لكثرة الدوران في استعمالهم، وأقاموا على ذلك إلى أن غدر الفتوح بعجيسة أخيه سنة ثلاث وخمسين فظفر به وقتله، ودهم المغرب إثر ذلك على ما دهمه من أمر المرابطين من لمتونة، وخشي الفتوح مغبة أحوالهم فأفرج عن فاس.

وزحف صاحب القلعة بلكين بن محمد بن حماد إلى المغرب سنة أربع وخمسين على عادتهم في غزوه، ودخل فاس واحتمل من أكابرهم وأشرافهم رهنا على الطاعة، وقفل إلى قلعته. وولي على المغرب بعد الفتوح معنصر بن حماد بن منصور، وشغل بحروب لمتونة. وكانت لهم عليه الواقعة المشهورة سنة خمس وخمسين، ولحق بصدينة. وملك يوسف بن تاشفين والمرابطون فاس، وخلف عليها عامله وارتحل إلى غمارة فخالفه معنصر إلى

فاس وملكها وقتل العامل ومن معه من لمتونة، ومثل بهم بالحرق والصلب. ثم زحف إلى مهدي بن يوسف الكزنائي صاحب مدينة مكناسة، وقد كان دخل في دعوة المرابطين فهزمه وبعث برأسه إلى سكون البرغواطي الحاجب صاحب سبتة. وبلغ الخبر إلى يوسف بن تاشفين فسرح عساكر المرابطين لحصار فاس فأخذوا بمخنقها، وقطعوا المرافق عنها حتى اشتد بأهلها الحصار ومسهم الجهد. وبرز معنصر لإحدى الراحتين فكانت الدبرة عليه، وفقد في الملحمة ذلك اليوم سنة ستين، وبايع أهل فاس من بعده ابن تميم بن معنصر فكانت أيامه أيام حصار وفتنة وجهد وغلاء. وشغل يوسف بن تاشفين عنهم بفتح بلاد غمارة، حتى إذا كانت سنة اثنتين وستين وفرغ من فتح غمارة صمد إلى فاس فحاصرها أياما، ثم اقتحمها عنوة وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وقبائل زناتة. وهلك تميم في جملتهم حتى أعوزت مزاراتهم فرادى، فاتخذت لهم الأخاديد وقبروا جماعات. وخلص من نجا من القتل منهم إلى تلمسان، وأمر يوسف بن تاشفين بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين العدوتين وصيرها مصرا، وأدار عليهما سورا واحدا، وانقرض أمر مغراوة من فاس والبقاء لله سبحانه وتعالى.

بنو خزرون ملوك سجلماسة

الخبر عن بني خزرون ملوك سجلماسة من الطبقة الأولى

من مغراوة و أولية ملكهم ومصائره

كان خزرون بن فلفول بن خزر من أمراء مغراوة وأعيان بني خزر، ولما غلبهم بفكين بن زيري وصنهاجة على المغرب الأوسط تحيزوا إلى المغرب الأقصى وراء ملوية. وكان بنو خزر يدينون بالدعوة المروانية كما ذكرناه. وكان المنصور ابن أبي عامر القائم بدولة المؤيد قد اقتصر لأول حجابته من أحوال العدوة على ضبط سبتة برجال الدولة ووجوه القواد وطبقات العسكر، ودفع ما وراءها إلى أمراء زناتة من مغراوة وبني يفرن ومكناسة. وعول في ضبط كوره وسداد ثغوره عليهم، وتعهدهم بالعطاء وأفاض فيهم الإحسان فازدلفوا إليه بوجوه التقربات وأسباب الوصائل. وإن خزرون بن فلفول هذا زحف يومئذ إلى سجلماسة وبها المعتز من أعقاب آل مدرار، انتزى بها أخوه المنتصر بعد قفول جوهر

إلى المغرب وظفره بأميرهم الشاكر لله محمد بن الفتح، فوثب المنتصر من أعقابهم بعده على سجلماسة وتملكها. ثم وثب به أخوه أبو محمد سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة فقتله وقام بأمر سجلماسة، وأعاد بها ملك بني مدرار وتلقب المعتز بالته، فزحف إليه خزرون بن فلفول سنة ست وستين في جموع مغراوة، وبرز إليه المعتز فهزمه خزرون واستولى على مدينة سجلماسة. ومحا دولة آل مدرار والخوارج منها آخر الدهر، وأقام الدعوة بها للمؤيد هشام، فكانت أولى دعوة اقيمت للمروانية بذلك الصقع، ووجد للمعتز مالا وسلاحا فاحتقبها وكتب بالفتح إلى هشام وأنفذ رأس المعتز فنصب بباب سدته. ونسب الأثر في ذلك الفتح إلى صحابة محمد بن أبي عامر ويمن طائره، وعقد لخزرون على سجلماسة وأعمالها، وجاءه عهد الخليفة بذلك فضبطها وقام بأمرها إلى أن هلك فولي أمر سجلماسة من بعده ابنه وانودين.

ثم كان زحف زيري بن مناد إلى المغرب الأقصى سنة تسع وستين، وفرت زناتة أمامه إلى سبتة. وملك أعمال المغرب وولى عليها من قبله وحاصر سبتة. ثم أفرج عنها وشغل بجهاد برغواطة، وبلغه أن وانودين بن خزرون أغار على نواحي سجلماسة، وأنه دخلها عنوة وأخذ عامله وما كان معه من المال والذخيرة، فرحل إليها سنة ثلاث وتسعين وفصل عنها فهلك في طريقه، ورجع وانودين بن خزرون إلى سجلماسة. وفي أثناء ذلك كان تغلب زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر على المغرب وملكه فاس بعد هشام. ثم انتقض على المنصور آخراً وأجاز ابنه عبد الملك في العساكر إلى العدوة سنة ثمان وثمانين، فغلب عليها بني خزر ونزل فاس، وبث العمال في سائر نواحي المغرب لسد الثغور وجباية الخراج، وكان فيها عقد على سجلماسة لحميد بن يصل المكناسي النازع، إليهم من أولياء الشيعة، فعقد له على سجلماسة حين فر عنها بنو خزرون فملكها وأقام فيها الدعوة. ولما قفل عبد الملك إلى العدوة وأعاد واضحا إلى عمله بفاس استأمن إليه كثير من وجوه بني خزر: كان منهم وانودين بن خزرون صاحب سجلماسة وابن عمه فلفول بن سعيد فأمنهم، ثم رجع وانودين إلى عمله

بسجلماسة بعد أن تضامن أمرها وانودين وفلفول بن سعيد على مال مفروض وعدة من الخيل والدرق يحملان ذلك إليه كل سنة، وأعطيا فى ذلك

أبناءهما رهنا فعقد لهما واضح بذلك، واستقل وانودين بعد ذلك بملك سجلماسة منذ أول سنة تسعين مقيما فيها للدعوة المروانية. ورجع المعز بن زيري إلى ولاية المغرب بعهد المظفر بن أبي عامر سنة ست وتسعين، واستثنى عليه فيها أمر سجلماسة لمكان وانودين بها. ولما انتثر سلك الخلافة بقرطبة، وكان أمر الجماعة للطوائف، واستبد أمراء الأمصار والثغور وولاة الأعمال بما في أيديهم، استبد وانودين هذا بأعمال سجلماسة وتغلب على عمل درعة واستضافه إليه.

ونهض المعز بن زيري صاحب فاس سنة سبع وأربعمائة في جموعهم من مغراوة يحاول انتزاع هذه الأعمال من يد وانودين فبرز إليه في جموعه وهزمه، وكان ذلك سببا في اضطراب أمر المعز إلى أن هلك، واستفحل ملك وانودين واستولى على صفروي من أعمال فاس، وعلى جميع قصور ملوية، وولى عليها من أهل بيته. ثم هلك وولي أمره من بعده ابنه مسعود بن وانودين، ولم أقف على تاريخ ولايته ومهلك أبيه.

ولما ظهر عبد الله بن ياسين، واجتمع إليه المرابطون من لمتونة ومسوفة وسائر الملثمين، وافتتحوا أمرهم بغزو درعة سنة خمس وأربعين فأغاروا على إبل كانت هنالك في حمى لمسعود بن وانودين حماه لها وهو

بسجلماسة، فنهض لمدافعتهم وتواقفوا، فانهزم مسعود بن وانودين وقتل كما ذكرناه في أخبار لمتونة. ثم أعادوا الغزو إلى سجلماسة من العام المقبل، فدخلوها وقتلوا من كان بها من فل مغراوة. ثم تتبعوا من بعد ذلك أعمال المغرب وبلاد سوس وجبال المصامدة، واقتحموا صفروي سنة خمس وخمسين، وقتلوا من كان بها من أولاد وانودين وبقية مغراوة. ثم اقتحموا حصون ملوية سنة ثلاث وستين، وانقرض أمر بني وانودين كأن لم يكن، والبقاء لله وحده. وكل شيء هالك إلا وجهه، سبحانه وتعالى لا رب سواه، ولا معبود إلا إياه، وهو على كل شيء قدير.

الخبر عن ملوك طرابلس من بني خزرون بن فلفول من
أهل الطبقة الأولي و أولية أمرهم وتصاريف أحوالهم

كان مغراوة وبنو خزر ملوكهم قد تحيزوا إلى المغرب الأقصى أمام بلكين؛ ثم اتبعهم سنة تسع وستين في زحفه المشهور، وأحجرهم بساحة سبتة حتى بعثوا صريخهم إلى المنصور. وجاءهم إلى الجزيرة مشارفا لأحوالهم وأمدهم بجعفر بن يحيى ومن كان معه من ملوك البربر وزناتة، فامتنعوا على بلكين، ورجع عنهم فتقرى أعمال المغرب، وعلك في منصرفه سنة اثنتين وسبعين، ورجع أحياء مغراوة وبين يفرن إلى مكانهم منه. وبعث المنصور الوزير حسن بن عبد الودود عاملا

على المغرب، وقدم سنة ست وسبعين، واختمى مقاتلا وزيري ابني عطية بن عبد الله بن خزر بمزيد التكرمة، ولحق نظراؤهما من أهل بيتهما الغيرة من ذلك، فترع سعيد بن خزرون بن فلفول بن خزر إلى صنهاجة سنة سبع وسبعين منحرفا عن طاعة الأموية. ووافى المنصور بن بلكين بأشير منصرفه من إحدى غزواته، فتلقاه بالقبول والمساهمة، واستبلغ في ترك الإحن. وعقد له على عمل طبنة، وعقد لابنه وزو بن سعيد على إحدى بناته إحكاما للمخالصة، فترل سعيد وأهل بيته بمكان أمارته من طبنة. ووفد على المنصور ثانية بالقيروان سنة إحدى وثمانين، وخرج للقائه، واحتفل في تكرمته ونزله. وأدركه الموت بالقيروان فهلك لسنته. ووفد ابنه فلول من مكان عمله، فعقد له على عمل أبيه وخلع عليه، وزف إليه ابنته، وسوغه ثلاثين حملا. من المال، وثلاثين تختا من الثياب، وقرب إليه مراكب بسروج مثقلة، وأعطاه عشرة من البنود مذهبة، وانصرف إلى عمله.

وهلك المنصور بن بلكين سنة خمس وثمانين، وولي ابنه باديس فعقد لفلفول على عمله بطبنة. ولما انتقض زيري بن عطية على المنصور بن أبي عامر، وسرح إليه ابنه المظفر في العساكر كما قلناه؟ فغلبه على أعمال المغرب. ولحق زيري بالقفر؛ ثم عرج على المغرب الأوسط، ونازل ثغور صنهاجة، وحاصر تيهرت، وبها يطوفت بن بلكين. وزحف إليه حماد بن بلكين من أشير في العساكر من تلكانة، ومعه محمد بن أبي العرب قائد باديس، بعثه في عساكر صنهاجة من القيروان ممدا ليطوفت. وأوعز إلى حماد بن بلكين، وهو باشير أن يكون معه. ولقيهم زيري بن عطية ففض جموعهم، واستولى على معسكرهم؛ واضطرمت إفريقية فتنة، وتنكرت صنهاجة لمن كان بجهاتها من قبائل زناتة. وخرج باديس بن المنصور من رقادة في العساكر إلى المغرب. ولما مر بطبنة استقدم فلفول بن سعيد بن خزرون ليستظهر به على حربه، فاستراب واعتذر عن الوصول. وسأل تجديد العهد إلى مقدم السلطان فأسعف. ثم اشتدت استرابته ومن كان معه من مغراوة، فارتحلوا عن طبنة وتركوها. ولما أبعد باديس رجع فلفول إلى طبنة فعاث في نواحيها، ثم فعل في تيجس كذلك، ثم حاصر باغاية. وانتهى باديس

إلى أشير، وفر زيري بن عطية إلى صحراء المغرب، ورجع على باديس بعد أن ولى على تاهرت واشير عمه يطوفت بن بلكين. وانتهى إلى المسيلة، فبلغه خروج عمومته ماكسن وزاوي وعزم ومغنين، فخاف أبو البهار

إحن زيري، ولحق بهم من معسكره. وبعث باديس في أثرهم عمه حماد بن بلكين، ورحل هو إلى فلفول بمن سعيد بعد أن كان سرح عساكره إليه، وهو محاصر باغاية، وهزمهم وقتل قائدهم أبا زعيل. ثم بلغه وصول باديس فأفرج عنها، واتبعه باديس إلى مرماجنة، فتزاحفوا وقد اجتمع لفلفول من قبائل زناتة والبربر أمم، فلم يثبتوا للقاء، وانكشفوا عنه. وانهزم إلى جبل الحناش، وترك القيطون بما فيه. وكتب باديس بالفتح إلى القيروان، وقد كان الأرجاف أخذ منهم المأخذ، وفر كثير منهم إلى المهدية، وشرعوا في عمل الدروب لما كانوا يتوقعون من فلفول بن سعيد حين قتل أبا زعيل، وهزم جيوش صنهاجة، وكانت الواقعة آخر سنة تسع وثمانين.

وانصرف باديس إلى القيروان، ثم بلغه أن أولاد زيري اجتمعوا مع فلفول بن سعيد وعاقدوه، ونزلوا جميعا بحصن تبسة، فخرج باديس من القيروان إليهم، فافترقوا ولحق العمومة بزيري بن عطية ما خلا ماكسن وابنه محسن، فإنهما أقاما مع فلفول. ورحل باديس في أثره سنة إحدى وتسعين، وانتهى إلى بسكرة ففر فلفول إلى الرمال. وكان زيري بن عطية محاصرا لأشير أثناء هذه الفتنة، فأفرج عنها، ورجع عنه أبو البهار بن زيري إلى باديس، وقفل معه إلى القيروان. وتقدم فلفول بن سعيد إلى نواحي قابس وطرابلس، فاجتمع إليه من هنالك من زناتة، وملك طرابلس على ما نذكر.

وذلك أن طرابلس كانت من أعمال مصر، وكان العامل عليها بعد رحيل معد إلى القاهرة عبد الله بن يخلف الكتامي. ولما هلك معد رغب بلكين من نزار العزيز إضافتها إلى عمله، فأسعفه بها، وولى عليها تمصولت بن بكار من خواص مواليه. نقله إليها من ولاية بونة، فأقام واليا عليها عشرين سنة إلى أيام باديس، فتنكرت له الأحوال عما عهد، وبعث إلى الحاكم بمصر يرغب الكون في حضرته، وأن يتسلم منه عمل طرابلس. وكان برجوان الصقليي يستبد على

الدولة، وكان يغص بمكان يأنس الصقلبي منها؛ فأبعده عن الحضرة لولاية برقة. ثم لما تتابعت رغبة تمصولت صاحب طرابلس، أشار برجوان ببعث يأنس إليها، فعقد له الحاكم عليها، وأمره بالنهوض إلى عملها فوصلها سنة تسعين. ولحق تمصولت بمصر، وبلغ الخبر إلى باديس، فسرح القائد جعفر بن حبيب في العساكر ليصده عنها. وزحف إليه يأنس فكانت عليه الهزيمة ولمحتل. ولحق فتوح بن علي من قواده بطرابلس، فامتنع بها ونازله جعفر بن حبيب، وأقام عليها مدة. وبينما هو محاصر لها إذ وصله كتاب يوسف بن عامر عامل قابس يذكر أن فلفول بن سعيد نزل على قابس، وأنه قاصد إلى طرابلس، فرحل جعفر عن البلد إى ناحية الجبل. وجاء فلفول فنزل بمكانه، وضاقت الحال بجعفر وأصحابه فارتحلوا مصممين على المناجزة وقاصدين قابس، فتخلى فلفول عن طريقهم، وانصرفوا إلى قابس.

وقصد فلفول مدينة طرابلس فتلقاه أهلها، ونزل له فتوح بن علي عن إمارتها، فملكها وأوطنها من يومئذ، وذلك سنة إحدى وتسعين، وبعث بطاعته إلى الحاكم، فسرح الحاكم يحيى بن علي بن حمدون، وعقد له على أعمال طرابلس وقابس، فوصل إلى طرابلس، وارتحل معه فلفول بن سعيد وفتوح بن علي بن غفيانان في عساكر زناتة إلى حصار قابس، فحصروها مدة، ورجعوا إلى طرابلس. ثم رجع يحيى بن علي إلى مصر، واستبد

فلفول بعمل طرابلس، وطالت الفتنة بينه وبين باديس. ويئس من صريخ مصر، فبعث بطاعته إلى المهدي محمد بن عبد الجبار بقرطبة، وأوفد عليه رسله في الصريخ والمدد، وهلك فلفول قبل رجوعهم إليه سنة أربعماية، واجتمعت زناتة على أخيه ورو بن سعيد.

وزحف باديس إلى طرابلس، وأجفل ورو ومن معه من زناتة عنها، ولحق بباديس من كان بها من الحند، فلقوه في طريقه، وتمادى إلى طرابلس فدخلها ونزل قصر فلفول. وبعث إليه ورو بن سعيد يسأل الأمان له ولقومه، فبعث إليه محمد بن حسن من صنائعه، فاستقدم وفدهم بأمانه فوصلهم، وولى ورو على نفزاوة والنعيم بن كنون على قسطيلية، وشرط عليهم أن يرحلوا بقومهم عن أعمال طرابلس، ورجعوا إلى أصحابهم. وارتحل باديس إلى القيروان، وولى على طرابلس محمد بن حسن. ونزل ورو بنفزاوة والنعيم بقسطيلية.

ثم انتقض ورو سنة إحدى وأربعماية، ولحق بجبال إيدمر، فتعاقدوا على

الخلاف. واستضاف النعيم بن كنون نفزاوة إلى عمله. ورجع خزرون بن سعيد عن أخيه ورو إلى السلطان باديس، وقدم عليه بالقيروان سنة اثنتين وأربعماية، فتقبله ووصله، وولاه عمل أخيه نفزاوة وولى بنيب مجلية من لومه على قفصة، وصارت مدن الماء كلها لزناتة. وزحف ورو بن سعيد فيمن معه من زناتة إلى طرابلس. وبرز إليه عاملها محمد بن حسن فتواقفوا ودارت بينهم حرب شديدة انهزم فيها ورو، وهلك كثير من قومه. ثم راجع حصارها وضيق على أهلها، فبعث باديس إلى خزرون أخيه وإلى النعيم بن كنون أمراء الجريد من زناتة بأن يخرجوا لحرب صاحبهم، فخرجوا إليه وتواقفوا بصبرة ما ين قابس وطرابلس. ثم اتفقوا ولحق أصحاب خزرون بأخيه ورو. ورجع خزرون إلى عمله، واتهمه السلطان بالمداهنة في شأن أخيه ورو، واستقدمه من نفزاوة فاستراب وأظهر الخلاف. وسرح السلطان إليه فتوح بن أحمد في العساكر فأجفل عن عمله. واتبعه النعيم وسائر زناته، ولحقواً جميعا بورو بن سعيد سنة أربع وتظاهروا على الخلاف، ونصبوا الحرب على مدينة طرابلس.

واشتد فساد زناتة، فقتل السلطان من كان عنده رهن زناتة. واتفق وصول مقاتل بن سعيد نازعا عن أخيه ورو في طائفة من أبنائه وإخوانه، فقتلوا معهم جميعا. وشغل السلطان بحرب عمه حماد. ولما غلبه بشلف وانصرف إلى القيروان، بعث إليه ورو بطاعته. ثم كان مهلك ورو سنة خمس وأربعماية، وانقسم قومه على ابنه خليفة وأخيه حزرون بن سعيد، واختلفت كلمتهم. ودس محمد بن حسن عامل طرابلس في التضريب بينهم. ثم صار أكثر زناتة إلى خليفة، وناجز عنه حزرون الحرب فغلبه على القيطون، وضبط زناتة، وقام فيهم بأمر أبيه، وبعث بطاعته إلى السلطان باديس بمكانه من حصار القلعة فتقبلها. تم هلك باديس، وولي أبنه المعز سنة ست، وانتقض خليفة بن ورو عليه، وكان أخوه حماد بن ورو يضرب على أعمال طرابلس وقابس، ويواصل عليها الغارة والنهب إلى سنة ثلاث عشرة، فانتقض عبد الله بن حسن صاحب طرابلس على السلطان وأمكنه من طرابلس. وكان

سبب ذلك أن المعز بن باديست لأول ولايته استقدم محمد بن حسن من طرابلس فاستخلف عليها آخاه عبد إلله بن حسن، وقدم على المعز، وفوق إليه تدبير مملكته، وأقام على ذلك سبعا، وتمكنت حاله عند السلطان، وكثرت السعاية فيه، فنكبه وقتله. وبلغ الخبر إلى أخيه، فانتقض كما قلناه، وأمكن خليفة بن ورو وقومه من مدينة طرابلس، وقتلوا الصنهاجيين واستولوا عليهم. ونزل خليفه بقصر عبد الله وأخرجه عنه، واستصفى أمواله وحرمه. واتصل ملك خليفة بن ورو وقومه بني خزرون بطرابلس. وخاطب الخليفة بالقاهرة الظاهر بن الحاكم سنة سبع عشرة بالطاعة وضمان السابلة وتشييع الرفاق، ويخطب عهده على طرابلس فأجابه إلى ذلك، وانتظم في عمله. وأوفد في هذه السنة أخاه حمادا على المعز بهدية، فتقبلها وكافأه عليها.

هذا آخر ما حدث ابن الرقيق من أخبارهم. ونقل ابن حماد وغيره أن المعز زحف أعوام ثلاثين وأربعماية إلى زناتة بجهات طرابلس، فبرزوا إليه وهزموه وقتلوا عبد الله بن حماد، وسبوا أخته أم العلو بنت باديس، ومنوا عليها بعد حين وأطلقوها إلى أخيها. ثم زحف إليهم ثانية؛ فهزموه. ثم اتيحت به الكرة عليهم فغلبهم وأذعنوا لسلطانه، واتقوه بالمهادنة؟ فاستقام أمرهم على ذلك. كان خزرون بن سعيد لما غلبه خليفة بن ورو على زناتة لحق بمصر، فأقام فيها بدار الخلافة، ونشأ بنوه بها، وكان منهم المنتصر بن خزرون وأخوه سعيد. ولما وقعت الفتنة بين الترك والمغاربة بمصر، وغلبهم الترك وأجلوهم عنها، لحق المنتصر وسعيد بطرابلس وأقاما في نواحيها. ثم ولي سعيد أمر طرابلس، ولم يزل بها واليا إلى أن هلك سنة تسع وعشرين وأربعمائة.

وقال أبو محمد التيجاني في رحلته عند ذكر طرابلس: ولما قتلت زغبة سعيد بن خزرون سنة تسع وعشرين، وقدم خزرون بن خليفة من القيطون بقومه إلى ولايتها، فأمكنه رئيس الشورى بها يومئذ من الفقهاء أبو الحسن بن المنمر المشهور بعلم الفرائض وبايع له، وأقام بها خزرون إلى سنة ثلاثين بعدها، فقدم المنتصر بن خزرون في ربيع الأول منها، ومعه عساكر زناتة، ففر خزرون بن خليفة من طرابلس مختفيا، وملكها المنتصر بن خزرون، وأوقع بابن المنتصر ونفاه،

واتصلت بها إمارته. انتهى ما نقله التجاني.

وهذا الخبر مشكل من جهة أن زغبة من العرب الهلاليين، وإنما جاءوا إلى أفريقية من مصر بعد الأربعين من تلك المائة، فلا يكون وجودهم بطرابلس سنة تسع وعشرين إلا أن كان تقدم بعض أحياهم إلى إفريقية من قبل ذلك. وقد كان بنو قرة ببرقة وبعثهم الحاكم مع يحيى بن علي بن حمدون، إلا أن ذلك لم ينقله أحد.

ولم تزل طرابلس بأيدي بني خزرون الزناتيين. ولما وصل العرب الهلاليون وغلبوا المعز بن باديس على أعمال إفريقية واقتسموها كانت قابس وطرابلس في قسمة زغبة والبلد لبني خزرون. ثم استولى بنو سليم على الضاحية، وغلبوا عليها زغبة ورحلوهم عن تلك المواطن. ولم تزل البلد لبني خزرون. وزحف المنتصر بن خزرون مع بنى عدي من قبائل هلال مجلبا على أعمال بني حماد، حتى نزل المسيلة ونزل أشير. ثم خرج إليهم الناصر، ففروا أمامه إلى الصحراء، ورجع إلى القلعة، فرجعوا إلى الأجلاب على أعماله فراسله الناصر في الصلح وأقطعه ضواحي الزاب وريغة. وأوعز إلى عروس بن سندي رئيس بسكرة لعهده أن يمكر به. فلما

وصل المنتصر إلى بسكرة أنز عروس، ثم قتله غيلة أعوام ستين وأربعمائة وولي طرابلس واحد من قومه بني خزرون يحضرني اسمه واحتل ملك صنهاجة، واتصل فيهم ملك تلك الأعمال إلى سنة أربعين وخمسماية.
ثم نزل بطرابلس ونواحيها في هذه السنة مجاعة، وأصابتهم منها شدة هلك فيها الناس، وفروا عنها، وظهر اختلال أحوالها وفناء حاميتها، فجهز إليها رجاه طاغية صقلية أسطولا لحصارها بعد استيلائه على المهدية وصفاقس واستقرار ولاته فيهما. ووقع بين أهل طرابلس الخلاف، فغلب عليهم جرجي بن ميخائيل قائد الأسطول وملكها، وأخرج منها بني خزرون، وولى على البلد شيخه أبا يحيى بن مطروح التميمي، فانقرض أمر بني خزرون منها. وبقي منهم من بقي بالضاحية إلى أن افتتح الموحدون إفريقية. وكانت ثورة المسلمين بهم، وإخراج النصارى من بين أظهرهم كما ذكرناه في أخبار إفريقية آخر الدولة الصنهاجية. والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده، سبحانه لا اله غيره.

بنو يعلى ملوك تلمسان

الخبر عن بني يعلى ملوك تلمسان

الطبقة الأولي وللإلمام ببعض أحوالهم ومصادرها

قد ذكرنا في أخبار محمد بن خزر وبنيه أن محمد بن الخير، الذي قتل نفسه في معركة بلكين كان من ولده الخير ويعلى. وأنهم الذين ثاروا منهم بأبيه زيري فقتلوه، واتبعهم بلكين من بعد ذلك، وأجلاهم إلى المغرب الأقصى، حتى قتل محمد منهم صبرا أعوام ستين وثلاثماية بنواحي سجلماسة، قبل وصول معد إلى القاهرة، وولاية بلكين على إفريقية. وقام بأمر زناتة بعد إلى خير ابنه محمد، وعمه يعلى بن محمد. وتكررت إجازة محمد بن الخير هذا وعمه يعلى إلى المنصور بن أبي عامر كما ذكرنا ذلك من قبل. وغلبهم ابنا عطية بن عبد الله بن خزر: وهما مقاتل وزيري على رياسة مغراوة. وهلك مقاتل، واختص المنصور زيري بن عطية باثرته، وولاه على المغرب كما ذكرناه. وقارن ذلك مهلك بلكين، وانتقاض أبي البهار بن زيري صاحب المغرب الأوسط على باديس؛

فكان من شأنه مع زيري ويدو بن يعلى ما قدمناه. ثم استقل زيري وغلبهم جميعا على المغرب، ثم انتقض على المنصور، فأجاز إليه ابنه المظفر، وأخرج زناتة من المغرب الأوسط، فتوغل زيري في المغرب الأوسط، ونازل أمصاره، وانتهى إلى المسيلة واشير. وكان سعيد بن خزرون قد برع إلى صنهاجة، وملك طبنة، واجتمع زناتة بإفريقية عليه وعلى ابنه فلفول من بعده. وانتقض فلفول على باديس عند زحف زيري إلى المسيلة واشير، وشغل باديس ثم ابنه المنصور عن المغرب الأوسط بحرب فلفول وقومه، ودفعوا إليه حماد بن بلكين؛ فكانت بينه وبين زناتة حروب سجال. وهلك زيري بن عطية، واستمل المعز ابنه ملك المغرب سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وغلب صنهاجة على تلمسان وما إليها، واختط مدينة وجدة كما ذكرنا ذلك كله من قبل.

ونزل يعلى بن محمد مدينة تلمسان، فكانت خالصة له، وبقي ملكها وسائر ضواحيها في عقبه. ثم هلك حماد بعد استبداده ببلاد صنهاجة على آل بلكين، وشغل بنوه بحرب بني باديس، فاستوسق ملك بني يعلى خلال

ذلك بتلمسان، واختلفت أيامهم مع آل حماد سلما وحربا. ولما دخل العرب الهلاليون إفريقية وغلبوا المعز وقومه عليها، واقتسموا سائر أعمالها، ثم تخطوا إلى أعمال بني حماد، فأحجروهم بالقلعة، وغلبوهم على الضواحي، فرجعوا إلى استيلائهم، واستخلصوا الأثبج منهم وزغبة، فاستظهروا بهم على زناتة المغرب الأسط وأنزلوهم بالزاب، وأقطعوهم الكثير من أعماله، فكانت بينهم وبين بني يعلى أمراء تلمسان حروب ووقائع. وكانت زغبة أقرب إليهم بالمواطن. وكان أمير تلمسان لعهدهم بختي من ولد يعلى. وكان وزيره وقائد حروبه أبو سعدى بن خليفة اليفرني، فكان كثيرا ما يخرج بالعساكر من تلمسان لقتال عرب الأثبج وزغبة، ويحتشد من إليهم من زناتة أهل المغرب الأوسط، مثل مغراوة وبني يلوموا وبني عبد الواد وتوجين وبني مرين. وهلك في بعض تلك الملاحم هذا الوزير أبو سعدى أعوام خمسين وأربعمائة.

ثم ملك المرابطون أعمال المغرب الأقصى بعد مهلك بختي وولاية ابنه العباس بن بختي تلمسان. وسرح يوسف بن تاشفين قائده مزدلي بن في عساكر

لمتونة لحرب من بقي بتلمسان من مغراوة، ومن لحق بهم من فل بني زيري وقومهم، فدوخ المغرب الأوسط، وظفر بيعلى بن العباس بن بختي، برز لمدافعتهم، فهزمه وقتله، وانكفأ راجعا إلى المغرب. ثم نهض يوسف بن تاشفين بنفسه في جموع المرابطين سنة ثلاث وسبعين، فافتتح تلمسان، واستلحم بني يعلى، ومن كان بها من مغراوة، وقتل العباس ابن بختي أميرها من بني يعلى. ثم افتتح وهران وتنس، وملك جبل وانشريش وشلف إلى الجزائر، وانكفأ راجعا وقد محا أثر مغراوة من المغرب الأوسط، وأنزل محمد بن تينعمر المسوفي في عسكر من المرابطين بتلمسان، واختط مدينة تاكرارت بمكان معسكره وهو اسم محله للسان البربر، وهي التي صارت اليوم مع تلمسان القديمة التي تسمى أكادير بلدا واحدا، وانقرض أمر مغراوة من جميع المغرب كأن لم يكن. والبقاء لله وحده سبحانه.

الخبر عن أمراء أغمات من مغراوة:

لم أقف على أسماء هؤلاء إلا أنهم كانوا أمراء باغمات آخر دولة بني زيري بفاس، وبني يعلى اليفرني بسلا وتادلا في جوار المصامدة وبرغواطة. وكان لقوط بن يوسف بن علي آخرهم في سني الخمسين وأربعماية، وكانت امرأته زينب بنت إسحاق النفزاوية من إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة. ولما غلب المرابطون على أغمات سنة تسع وأربعين فر لقوط هذا إلى تادلا، ونزل على محمد بن تميم اليفرني صاحب سلا وأعمالها، إلى أن افتتح المرابطون تادلا سنة إحدى وخمسين، وقتل الأمير محمد واستلحم بنو يفرن، فكان الأمير لقوط فيمن استحلم. وخلفه أبو بكر بن عمر أمير المرابطين على زينب بنت إسحاق، حتى إذا ارتحل إلى الصحراء سنة ثلاث وخمسين، واستعمل ابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب، نزل له عن زوجه زينب هذه، فكان لها في سياسة أمره وسلطانه، وما أشارت عليه عند مرجع أبي بكر من الصحراء في إظهار الاستبداد، حتى تجافى عنه منازعته، وخلص ليوسف بن تاشفين

ملكه أمر، كما ذكرنا في أخبارهم. ولم نقف من أخبار لقوط بن يوسف وقومه على غير هذا الذي كتبناه والله ولي العون سبحانه.

الخبر عن بني سنجاس وريغة والأغواط وبني ورا من قبائل مغراوة من أهل الطبقة الأولى وتصاريف أحوالهم:

هذه البطون الأربعة من بطون مغراوة، وقد زعم بعض الناس أنهم من بطون زناتة غير مغراوة. أخبرني بذلك الثقة عن إبراهيم بن عبد الله التيمزوغتي قال وهو نسابة زناتة لعهده: ولم تزل هذه البطون الأربعة من أوسع بطون مغراوة. فأما بنو سنجاس فلهم مواطن في كل عمل من إفريقية والمغربين، فمنهم قبلة المغرب الأوسط بجبل راشد وجبل كريكرة وبعمل الزاب وبعمل شلف. ومن بطونهم بنو غيار ببلاد شلف أيضا، وبنو غيار بعمل قسنطينة. وكان بنو سنجاس هؤلاء من أوسع القبائل وأكثرهم عددا، وكان لهم في فتنة زناتة وصنهاجة آثار بإفريقية والمغرب، وأكثرها في إفساد السبيل والعيث في المدن ونازلوا قفصة سنة أربع عسرة وخمسماية، بعد أن عاثوا بجهات القصر، وقتلوا من وجدوا هنالك من عسكر ملكاتة وخرجت إليهم حامية قفصة فأثخنوا فيهم، ثم كثر فسادهم، وسرح السلطان قائده محمد بن أبي العرب في العساكر إلى بلاد الجريد، فشردهم عنها وأصلح السابلة. ثم عادوا إلى مثلها سنة خمس عشرة، فأوقع بهم قائد بلاد الجريد وأثخن فيهم بالقتل، وحمل رؤوسهم إلى القيروان، فعظم الفتح فيهم. ولم تزل الدولة تتبعهم بالقتل والإثخان إلى أن خضدوا من شوكتهم.

وجاء العرب الهلاليون وغلبوا على الضواحي كل من كان بها من صنهاجة وزناتة، وتحيز فلهم إلى الحصون والمعاقل، وضربت عليهم المغارم إلا ما كان ببلاد المغرب،

القفر مثل جبل راشد، فإنهم لبعدهم عن منازل الملك لا يعطون مغرما، إلا أنهم غلب عليهم

هنالك العمور من بطون الهلاليين، ونزلوا معهم، وملكوا عليهم أمرهم، وصاروا لهم فيئة. ومن بني سنجاس من نزل بالزاب، وهم لهذا العهد أهل مغارم لمن غلب على ثغورهم من مشايخهم. وأما من نزل منهم ببلاد شلف ونواحي قسنطينة، فهم لهذا العهد أهل مغارم الدول، وكان دينهم جميعا الخارجية على شنن زناتة في الطبقة الأولى؛ ومن بقي اليوم منهم بالزاب فعلى ذلك. ومن بني سنجاس هؤلاء بأرض المشنتل ما بين الزاب وجبل راشد، أوطنوا جباله في جوار غمرة، وصاروا عند تغلب الهلاليين في ملكهم يقبضون الأتاوة منهم.

ونزل معهم لهذا العهد السحارى من بطون عروة من زغبة، وغلبوهم على أمرهم، وأصاروهم خولا.

وأما بنو ريغة فكانوا أحياء متعددة. ولما افترق أمر زناتة تحيز منهم إلى جبل عياض، وما إليه من البسيط إلى نقاوس، وأقاموا في قياطنهم: فمز كان بجبل عياض منهم أهل المغارم لأمراء عياض يقبضونها منهم للدولة الغالبة ببجاية، وأما من كان ببسيط نقاوس فهم في أقطاع العرب لهذا العهد. ونزل أيضا الكثير منهم ما بين قصور الزاب ووارِكلا، فاختطوا قرى كثيرة في عدوة واد ينحدر من الغرب إلى الشرق، ويشتمل على المصر الكبير والقرية المتوسطة، والأطم قد رف عليها الشجر، ونضدت حفافيفها النخيل، وانساحت خلالها المياه وزهت بنابعها الصحراء، وكثر في قصورها العمران من ريغة هؤلاء، وبهم تعرف لهذا العهد، وهم أكثرها،

ومن بني سنجاس وبني يفرن وغيرهم من قبائل زناتة. وتفرقت جماعتهم للتنازع في الرياسة، فاستقلت كل طائفة منهم بقصور منها أو بواحد. ولقد كانت فيما يقال أكثر من هذا العدد اضعافا، وأن ابن غانية المسوفي حين كان يجلب على بلاد إفريقية والمغرب في فتنه مع الموحدين خرب عمرانها، واجتث شجرها، وغور مياهها، ويشهد لذلك أثر العمران بها في أطلال الديار ورسوم البناء وأعجاز النخل المنقعر. وكان هذا العمل يرجع في أول الدولة الحفصية لعامل الزاب، وكان من الموحدين، ويترل بسكرة، يتردد ما بينها وبين مقرة. وكاد من أعماله قصور وراكلة أيضا. ولما فتك 1ثمستنصر بمشيخة الدواودة كما قلناه في أخباره، وقتلوا بعد ذلك عامل الزاب ابن عتو من مشيخة

الموحدين، وغلبوا ضواحى الزاب وريغة وواركلة، وأقطعتهم إياها الدول بعد ذلك، فصارت في أقطاعهم. ثم عقد صاحب بجاية بعد ذلك على العمل كله لمنصور بن مزني، واستقر في عقبه. فربما يسومون بعض الأحيان أهل تلك القصور الغرم للسلطان، بما كان من الأمر القديم، ويعسكر عليهم في ذلك كتائب من رجالة الزاب وخيالة العرب، ويبذرق عليها الأمر الدواودة، ثم يقاسمهم فيما يمتريه منهم. وأكبر هذه الأمصار تسمى تقرت، مصر مستبحر العمران، بدوي الأحوال، كثير المياه والنخل، ورياسته في بني يوسف بن عبد الله، كانت لعبيد الله بن يوسف، ثم لابنه داود، ثم لأخيه يوسف بن عبيد الله. وتغلب على واركلة من يد أبي بكر بن موسى أزمان حداثته، وأضافها إلى عمله. ثم هلك وصار أمر تقرت لأخيه مسعود بن عبيد الله، ثم لابنه حسن بن مسعود، ثم لابنه أحمد بن حسن شيخها لهذا العهد. وبنو يوسف بن عبيد الله هؤلاء من ريغة، ويقال إنهم من سنجاس. وفي أهل تلك الأمصار من مذاهب الخوارج وفرقهم كثير، وأكثرهم على دين العزابة، ومنهم النكارية، أقاموا على انتحال هذه الخارجية لبعدهم عن منال الأحكام. ثم بعد مدينة تقرت بلد تماسين وهي دونها في العمران والخطة، ورياسته لبني إبراهيم من ريغة، وسائر أمصارهم كذلك: كل مصر منها مستبد بأمره وحرب لجاره.

وأما لقواط وهم فخذ من مغراوة أيضا، فهم في نواحي الصحراء ما بين الزاب وجبل راشد، ولهم هنالك قصر مشهور بهم، فيه فريق من أعقابهم على سغب من العيش لتوغله في القفر، وهم مشهورون بالنجدة والامتناع من العرب، وبينهم وبين الدوسن أقصى عمل الزاب مرحلتان، وتختلف قصودهم إليه لتحصيل المرافق منه. والله يخلق ما يشاء ويختار.

وأما بنو ورا فهم فخذ مغراوة أيضا، ويقال من زناتة وهم متشعبون ومفترقون بنواحي المغرب: فمنهم بناحية مراكش والسوس، ومنهم ببلاد شلف، ومنهم بناحية قسنطينة. ولم يزالوا على حالهم منذ انقراض زناتة الأؤلين، وهم لهذا العهد أهل مغارم وعسكرة مع الدول. وأكثر الذين كانوا بمراكش قد انتقلى رؤساؤهم إلى ناحية شلف، نقلهم يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين في أول هذه المائة الثامنة، لما

ارتاب بأمرهم في تلك الناحية وخشي من فسادهم وعيثهم، فنقلهم في عسكر إلى موطن شلف لحمايته، فنزلوا به. ولما ارتحل بنو مرين بعد مهلك يوسف بن يعقوب، أقاموا ببلاد شلف، فأعقابهم به لهذا العهد، وأحوالهم جميعا في كل قطر متقاربة في المغرم والعسكرة مع
السلطان. ولله الخلق والأمر جميعا. سبحانه لا إله إلا هو الملك العظيم.
الخبر عن بني يرنيان إخوة مغراوة وتصاريف أحوالهم:
قد ذكرنا بني يرنيان هؤلاء، وأنهم إخوة مغراوة وبني يفرن؛ والكل ولد يصليتن. ونسبهم جميعا إلى جانا مذكور هنالك، وهم مبثوثون كثيرا بين زناتة في المواطن. وأما الجمهور منهم فموطنهم بملوية من المغرب الأقصى ما بين سجلماسة وكرسيف؛ كانوا هنالك مجاورين لمكناسة في مواطنهم، واختطوا حفافي وادي ملوية قصورا كثيرة متقاربة الخطة، ونزلوها، وتعدت بطونهم وأفخاذهم في تلك الجهات. ومنهم بنو وطاط موطنون لهذا العهد بالجبال المطلة على وادي ملوية من جهة القبلة، ما بينه وبين تازى وفاس؛ وبهم تعرف تلك القصور لهذا العهد. وكان لبني يرنيان هؤلاء صولة واعتزاز، وأجاز الحكم بن المستنصر منهم، والمنصور بن أبي عامر من بعده فيمن أجازوه من زناتة ثم الماية الرابعة، وكانوا من أفحل جند الأندلس وأشدهم شوكة وبقي أهل المواطن منهم في مواطنهم مع مكناسة أيام ملكهم، ويجمعهم معهم عصبية يحيى. ثم كانوا مع مغراوة أيضا أيام ملكهم المغرب الأقصى. ولما ملك لمتونة والموحدون من بعدهم، لحق الظواعن منهم بالقفر، فاختلطوا بأحياء بني مرين الموالين لتلول المغرب من زناتة، وأقاموا معهم في أحيائهم، وبقي من عجز عن الظعن منهم بمواطنهم: مثل بني وطاط وغيرهم، ففرضت عليهم المغارم والجبايات. ولما دخل بنو مرين إلى المغرب ساهموهم في أقسام أعماله؛ وأقطعوهم البلد الطيب من ضواحي سلا والمعمورة، زيادة إلى وطنهم الأول بملوية، وأنزلوهم بنواحي سلا بعد أن كان منهم انحراف عنهم في سبيل المدافعة عن مواطنهم الأولى. ثم
اصطلحوا، ورعى لهم بنو عبد الحق سابقتهم معهم، فاصطفوهم للوزارة والتقدم في الحروب، ودفعوهم إلى المهمات وخلطوهم بأنفسهم. وكان من أكابر رجالاتهم لعهد السلطان أبي يعقوب وأخيه أبي سعيد الوزير إبراهيم بن عيسى، اسخلصوه للوزارة مرة بعد أخرى، واستعمله السلطان أبو سعيد على وزارة ابنه أبي علي، ثم لوزارته. واستعمل ابنه السلطان أبو الحسن أبناء إبراهيم هذا في أكابر الخدام، فعقد لمسعود بن إبراهيم على أعمال السوس عندما فتحها أعوام الثلاثين وسبعماية، ثم عزله بأخيه حسون، وعقد لمسعود على بلاد الجريد من إفريقية عند فتحه إياها سنة ثمان وأربعين، وكان فيها مهلكه. ونظم أخاهما موسى في طبقة الوزراء، ثم أفرده بها أيام نكبته ولحاقه بجبل هنتاتة، واستعمله السلطان أبو عنان بعده في العظيمات، وعهد له على أعمال سدويكش بنواحى قسنطية. ورشح ابنه محمد السبيع لوزارته إلى أن هلك، وتقلبت بهم الايام بعده. وقلد عبد الحيمد المعروف بحلي ابن السلطان أبي علي وزارته محمد بن السبيع هذا أيام حصاره لدار ملكهم سنة اثنتين وستين كما نذكره في أخبارهم، فلم يقدر لهم الظفر. تم رجع السبيع بعدها إلى محله من دار السلطان وطبقة

الوزارة، وما زال يتصرف في الخدم الجليلة والأعمال الواسعة ما بين سجلماسة ومراكش وأعمال تازى وتادلا وغمارة، وهو على ذلك العهد. والله وارث الأرض ومن عليها، سبحانه لا إله غيره.

الخبر عن وجديجن وواغمرت من قبائل زناتة ومبادىء أحوالهم وتصاريفها.

قد تقدم أن هذين البطنين من بطون زناتة من ولد ورتنيص بن جانا، وكان لهم عدد وقوه، ومواطنهم مفترقة في بلاد زناتة: فأما وجديجن فكان جمهورهم بالمغرب الأوسط، ومواطنهم منه منداس ما بين بني يفرن من جانب الغرب، ولواتة من جانب القبلة في السرسو، ومطماطة من جانب الشرق في وانشريش. وكان أميرهم لعهد يعلى بن محمد اليفرني رجلا منهم اسمه عنان، وكانت بينهم وبين لواتة الموطنين بالسرسو فتنة متصلة، يذكر أنها بسبب امرأة من وجديجن نكحت في لواتة وتلا، جامعها نساء قيوطنهم فعيرنها بالفقر، فكتبت بذلك إلى عنان تدمره، فغضب واستجاش بأهل عصبته مز زناتة وجيرانه، فزحف معه يعلى في بني يفرن وكلمام بن حياتي في مغيلة وغرابة في مطماطة، ودارت الحرب بينهم وبين لواتة مليا. ثم غلبوا لواتة في بلاد السرسو، وانتهوا بهم إلى كدية العابد من آخرها. وهلك عنان شيخ وجديجن في بعض تلك الوقائع بملاكو من جهات السرسو. ثم لجأت لواتة إلى جبل كريكرة قبلة السرسو وكان يسكنه أحياء من مغراوة يعرف شخصيتهم لذلك العهد علاهم ربيب لشيخهم عمر بن تامصا الهالك قبله، ومعنى تامصا بلسان البربر الغول. ولما لجأت لواتة إليه غدر بهم وأغرى قومه، فوضعوا أيديهم فيهم سبا وقتلا، فلاذوا بالفرار، ولحقوا بجبل لعود وجبل درأك، فاستقروا هنالك اخر الدهر. وورثت وجديجن مواطنهم بمنداس إلى أن غلبهم عليها بنو يلومي، وبنو ومانو كل من جهته ثم غلب الآخرين عليها بنو عبد الواد، وبنو توجين إلى هذا العهد. والله وارث الأرض ومن عليها.

وأما واغمرت، ويسمون لهذا العهد غمرت، وهم إخوة وجديجن ومن ولد ورتنيص بن جانا كما قلناه، فعانوا من أوفر القبائل عددا، ومواطنهم متفرقة، وجمهورهم بالجبال إلى قبلة بلاد صنهاجة من المشنتل إلى الدوسن. وكان لهم صر أبي يزيد صاحب الحمار في الشيعة آثار، وأوقع بهم إسماعيل عند ظهوره على أبي يزيد، وأثخن فيهم، وكذلك بلكين وصنهاجة من بعده. ولما افترق أمر صنهاجة بحماد وبنيه كانوا شيعا لهم على بني بلكين. ونزع عن حماد أيام فتنته ابن أبي جلى من مشيختهم، وكان مختصا به، فنزع إلى باديس، فوصله وحمل أصحابه، وعقد له على طبنة وأعمالها. حتى إذا جاء العرب الهلاليون، وغلبوهم على الضواحي، اعتصموا بتلك الجبال قبلة المسيلة وبلاد صنهاجة، وصدوا بها عن الظعن، وتركوا القيطون إلى

سكنى المدن. ولما غلب الدواودة على ضواحي الزاب وما إليها، اقطعتهم الدولة مغارم هذه الجبال التي لغمرت. وهم لهذا العهد في سهمان أولاد يحيى بن علي بن سباع من بطونهم. وكان في القديم من غمرت هؤلاء كاهن زناتة موسى بن صالح مشهور عندهم حتى الآن، ويتناقلون بينهم كلماته برطانتهم على طريقة الرجز، فيها أخبار بالحدثان فيما يكون لهذا الجيل الزناتي من الملك والدولة، والتغلب على الأحياء والقبائل والبلدان. شهد كثير من الواقعات على وفقها بصحتها، حتى لقد نقلوا من بعض كلماته تلك ما معناه باللسان

العربي أن تلمسان ينالها الخراب، وتصير دورها فدنا حتى يثير أرضها حراث أسود بثور أسود أعور. وذكر الثقات أنهم عاينوا ذلك بعد انتشار كلمته هذه أيام لحقها الخراب في دولة بني مرين الثانية سني ستين وسبعماية، وأفرط الخلاف بين هذا الجيل الزناتي في التشييع له والحمل عليه: فمنهم من يزعم أنه ولي أو نبي، وآخرون يقولون كاهن. ولم تقفنا الأخبار الصحيحة على الجلي من أمره. والله سبحانه وتعالى أعلم لا رب غيره.

الخبر عن بني واركلا من بطون زناتة والمصر المنسوب إليهم بصحراء إفريقية وتصاريف أحوالهم:

بنو واركلا هؤلاء إحدى بطون زناتة- كما تقدم- من ولد فريني بن جانا، وقد مر ذكرهم. وإن إخوانهم يزمرتن ومنجصة ونمالتة المعروفون لهذا العهد: منهي ينو واركلا. وكانت فئتهم قليلة، وكانت مواطنهم قبلة الزاب، واختطوا المصر المعروف بهم لهذا العهد على ثماني مراحل من بسكرة، في القبلة عنها ميامنة إلى المغرب. بنوها قصورا متقاربة الخطة. ثم استبحر عمرانها، فائتلفت وصارت مصرا. وكان معهم هنالك جماعة من بني زنداك من مغراوة، وإليهم كان هرب ابن أبي يزيد النكاري عند فراره من الاعتقال لسنة خمس وعشرين وثلاثماية، وكان مقامه بينهم سنة يختلف إلى بني برزال قبلة المسيلة بسالات، وإلى

قبائل البربر بجل أوراس، يدعوهم جميعا إلى مذهب النكارية، إلى أن ارتحل إلى أوراس، واستبحر عمران هذا المصر، واعتصم به بنو واركلا هؤلاء، والكثير من ظواعن زناتة عند غلب الهلاليين إياهم على المواطن، واختصاص الأثبج بضواحي القلعة والزاب وما إليها.

ولما استبد الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بملك إفريقية وجال في نواحيها في أتباع ابن غانية؛ مر بهذا المصر فأجبه وكلف بالزيادة في تمصيره، فاختط مسجده العتيق ومأذنته المرتفعة، وكتب عليها اسمه وتاريخ وضعه نقشا في الحجارة. وهذا البلد لهذا العهد باب لولوج السفر من الزاب إلى المفازة الصحراوية المفضية إلى بلاد السودان، يسلكها التجار الداخلون إليها بالبضائع. وسكانها لهذا العهد من أعقاب بني واركلا وأعقاب إخوانهم من بني يفرن ومغراوة، ويعرف رئيسه باسم السلطان، شهرة غير نكيرة بينهم، ورياسته لهذه الأعصار مخصوصة ببني أبي غبول ويزعمون أنهم من بني واكير، إحدى بيوت بني واركلا، وهو بذا العهد أبو بكر بن موسى بن سليمان من بني أبي غبول، ورياستهم متصلة في عمود هذا النسب. وعلى عشرين مرحلة من هذا المصر في القبلة منحرفا إلى الغرب بيسير بلد تكدة قاعدة وطن الملثمين، وركاب الحاج من السودان، اختطه الملثمون من صنهاجة وهم ساكنوه لهذا العهد، وصاحبه أمير من بيوتاتهم يعرفونه باسم السلطان، وبينه وبين أمير الزاب مراسلة ومهاداة. ولقد قدمت على بسكرة سنة أربع وخمسين أيام السلطان أبي عنان في بعض الأغراض الملوكية، ولقيت رسول صاحب تكدة عند يوسف بن مزني أمير بسكرة، وأخبرني عن استبحار هذا المصر في العمارة، ومرور السابلة، وقال لي: اجتاز بنا في هذا العام سفر من تجار المشرق إلى بلد مالي كانت زكاتهم اثنتي عشر ألف راحلة. وذكر لي غيره أن ذلك هو الشأن في كل سنة. وهذا البلد في طاعة سلطان

مالي من السودان كما في سائر تلك البلاد الصحراوية المعروفة بأطلستين لهذا العهد. والله غالب على أمره سبحانه.

الخبر عن دمر من بطون زناتة ومن ولي منهم بالأندلس وأولية ذلك ومصادره:

بنو دمر هؤلاء من زناتة وقد تقدم أنهم من ولد. ورسيك بن أديدت بن جانا، وشعوبهم كثيرة، وكانت مواطنهم بإفريقية في نواحي طرابلس وجبالها، وكان منهم آخرون ظواعن بالضواحي من عرب إفريقية. ومن بطون إيدمر هؤلاء بنو ورغمة، وهم لهذا العهد مع قومهم بجبال طرابلس. ومن بطونهم أيضاً بطن متسع كثير الشعوب وهم بنو ورنيد بن وانتن بن وارديرن بن دمر، وأن من شعوبهم بني ورتاتين وبني غرزول وبني تفورت. وربما يقال إن هؤلاء الشعوب لا ينتسبون إلى دمر من ورنيد كما تقدم. وبقايا بني ورنيد لهذا العهد بالجبل المطل على تلمسان، بعد أن كانوا في البسيط قبلته، فزحمهم بنو راشد حين دخولهم من بلادهم بالصحراء إلى التل، وغلبوهم على تلك البسائط فانزاحوا إلى الجبل المعروف بهم لهذا العهد، وهو المطل على تلمسان. وكان قد أجاز إلى الأندلس من إيدمر هؤلاء أعيان ورجالات حرب فيمن أجاز إليها من زناتة وسائر البربر، أيام أخذهم بدعوة الحكم المستنصر، فضمهم السلطان إلى عسكره، واستظهر بهم المنصور بن أبي عامر من بعد ذلك على شأنه، وفرى بهم المستعين أديم دولته. ولما اعصوصب البربر على المستعين، وبني حمود من بعده، وغالبوا جنود الأندلس من العرب، وكانت الفتنة الطويلة بينهم التي نثرت سلك الخلافة، وفرت شمل الجماعة، واقتسموا خطط الملك وولايات الأعمال، وكان من رجالاتهم نوح الدمري، وكان من عظماء أصحاب المنصور، وولاه المستعين أعمال مودور واركش، فاستبد بها سنة أربع في غمار الفتنة، وأقام بها سلطاناً لنفسه، إلى أن هلك سنة ثلاث وثلاثين، فولي ابنه أبو مناد محمد بن نوح، وتلقب بالحاجب عز الدولة لقبين في قرن شأن ملوك الطوائف. وكانت بينه وين ابن عباد صاحب ضب الأندلس خطوب. ومر المعتضد في بعض أسفاره بحصن اركش، وتطوف مختفيا، فتقبض عليه بعض أصحاب ابن نوح، وساقه إليه، فخلى سبيله وأولاه كرامة احتسبها عنده يدا،

وذلك سنة ثلاث وأربعين، فانطلق إلى دار ملكه، ورجع بعدها إلى ولاية الملوك الذين حوله من البربر.

وأسجل لابن نوح هذا على عملي أركش ومورور فيمن أسجل له منهم، فصاروا إلى مخالصته، إلى أن استدعاهم سنة خمس وأربعين بعدها إلى صنيع دعا إليه الجفلى من أهل أعماله، واختصهم بدخول حمام اعد لهم استبلاغا في تكريمهم. وتخفف ابن نوح عنده من بينهم، فلما حصلوا داخل الحمام طبقه عليهم، وسد المنافس للهواء دونهم، إلى أن هلكوا. ونجا منهم ابن نوح لسالفة يده، وطير في الحين من تسلم معاقلهم وحصونهم، فانتظمهم في أعماله. وكان منهم وفدة وشريش وسائر أعمالها. وهلك من بعد ذلك الحاجب أبو مناد بن نوح، وولي ابنه أبو عبد الله. و لم يزل المعتضد يضايقه إلى أن انخلع له سنة ثمان وخمسين، فانتظمها في أعماله. وصار إليه محمد بن أبي مناد إلى أن هلك سنة ثمان وستين، وانقرض ملك بني نوح. والبقاء لله وحده سبحانه.

الخبر عن بني برزال إحدي بطون دمر وما كان لهم من الملك بقرمونة وأعمالها بالأندلس أيام الطوائف وأولية ذلك ومصائره:

قد تقدم لنا أن بني برزال هؤلاء من ولد ورنيد بن وانتن بن واردين بن دمر، كما ذكره ابن حزم، وإن إخوتهم بنو يصدرين وبنو صغمار وبنو يطوفت. وكان بنو برزال هؤلاء بإفريقية، وكانت مواطنهم منها جبل سالات وما إليه من أعمال المسيلة، وكان لهم ظهور ووفور عدد، وكانوا نكارية من فرق الخوارج. ولما فر أبو يزيد أمام إسماعيل المنصور، وبلغه أن محمد بن خزر يترصد له، أجمع الاعتصام بسالات وصعد إليهم. ثم أرهقته عساكر المنصور، فانتقل عنهم إلى كتامة. وكان من أمره

ما قدمناه. ثم استقام بنو برزال طى طاعة الشيعة وموالاة جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة والزاب، حتى صاروا له شيعا.

ولما انتقض جعفر على معد سنة ستين وثلاثماية، كان بنو برزال هؤلاء في جملته ومن أهل خصوصيته، فأجازوا به البحر إلى الأندلس أيام الحكم المستنصر، فاستخدمهم ونظمهم في طبقات جنده إلى من كان لحق به من قبائل زناتة وسائر البربر أيام أخذهم بالدعوة الأموية، ومحاربتهم عليها للأدارسة، فاستقروا جميعا بالأندلس. وكان لبني برزال من بينهم ظهور وغناء مشهور. ولما أراد المنصور بن أبي عامر الاستبداد على خليفته هشام، وتوقع النكير من رجالات الدولة وموالي الحكم، استكثر ببني برزال وغيرهم من البربر، وأفاض فيهم الإحسان، فاعتز أمره واشتد أزره، حتى أسقط رجال الدولة، ومحا رسومها، وأثبت أركان سلطانه. ثم قتل صاحبهم جعفر بن يحيى كما ذكرناه خشية عصبيته بهم. واستمالهم من بعده، فأصبحوا له عصبة، وكان يستعملهم في الولايات النبيهة والأعمال الرفيعة. وكان من أعيان بني برزال هؤلاء إسحاق بن...، فولاه قرمونة وأعمالها، فلم يزال واليا عليها أيام بني أبي عامر. وجدد له العقد عليها المستعين في فتنة البرابرة، ووليها من بعده ابنه عبد الله.

ولما انقرض ملك بني حمود من قرطبة ودفع أهلها القاسم المأمون عنهم سنة أربع عشرة، أراد اللحاق بإشبيلية، وبها نائبه محمد بن أبي زيري من وجوه البربر، وبقرمونة عبد الله بن إسحاق البرزالي، فداخلهما القاضي ابن عباد في خلع طاعة القاسم، وصده عن العملين، فأجابا إلى ذلك. ثم دس للقاسم بالتحذير من عبد الله بن إسحاق، فعدل القاسم عنهم جميعا إلى شريش، واستمد كل منهم بعمله. ثم هلك عبد الله من بعد ذلك، وولي ابنه محمد سنة...، وكانت بينه وبين المعتضد بن عباد حرب، وظاهر عليه يحيى بن علي بن حمود في منازلة إشبيلية سنة ثمان عشرة. ثم اتفق معه ابن عباد بعدها، وظاهره على عبد الله بن الأفطس، وكانت بينهما- عرب، وكانت الدبرة فيها على ابن الأفطس. وتحصل ابنه المظفر قائد العسكر في قبضة محمد بن عبد الله بن إسحاق إلى أن من عليه بعد ذلك وأطلقه. ثم كانت الفتنة بين محمد

بن إسحاق وبين المعتضد، وأغار إسماعيل بن المعتضد على قرمونة في بعض الأيام بعد أن كمن الكمائن من الخيالة والرجل، وركب إليه محمد في قومه، فاستطرد لهم إسماعيل إلى أن بلغوا الكمائن؛ فثاروا بهم وقتل محمد

البرزالي، وذلك سنة أربع وثلاثين. وولي ابنه العزيز بن محمد، وتلقب بالمستظهر مناغيا في ذلك لملوك الطوائف في عهده. و لم يزل المعتضد يستولي على غرب الأندلس شيئا فشيئا إلى أن ضايقه في عمل قرمونة، واقتطع منها أسيجة والمدور. ثم انخلع له العزيز عن قرمونة سنة تسع وخمسين، ونظمها المعتضد في ممالكه، وانقرض ملك بني برزال من الأندلس. ثم انقرض بعد ذلك حيهم من جبل سالات، وأصبحوا في الغابرين. والبقاء لله وحده سبحانه.

العزيز محمد بن عبد الله بن اسحق البرزالي

الخبر عن بني ومانوا وبني يلومي من الطبقة الأولى من زناتة وما كان لهم من الملك والدولة بأعمال المغرب الأوسط ومبدأ ذلك وتصاريفه:

هاتان القبيلتان من بطون زناتة، ومن توابع الطبقة الأولى، و لم نقف على نسبها إلى جانا، إلا أن نسابتهم متفقون على أن يلومي وورتاجن الذي هو أبو مرين أخوان، وإن مديون أخوهما للام، ذكر لي ذلك غير واحد من نسابتهم. وبنو مرين لهذا العهد يعرفون لهم هذا النسب، ويوجبون لهم العصبية له.

وكانت هاتان القبيلتان من أوفر بطون زناتة وأشدهم شوكة ومواطنهم جميعاً بالمغرب الأوسط. وبنو ومانوا منهم إلى جهة الشرق عن وادي ميناس في منداس ومرات وما إليها من أسافل شلف، وبنو يلومي بالعدوة الغربية منه بالجعبات والبطحاء وسيك وسيرات وجبل هو،ة وبني راشد.

وكان لمغراوة وبني يفرن التقدم عليهم في الكثرة والقوة. ولما غلب بلكين بن زيري

مغراوة وبني يفرن على المغرب الأوسط، وأزاحهم إلى المغرب الأقصى، بقيت هاتان القبيلتان بمواطنهما، واستعملتهم صنهاجة في حروبهم، حتى إذا تقلص ملك صنهاجة عن المغرب الأوسط اعتزوا عليهم. واختمى الناصر بن علناس صاحب القلعة ومختط بجاية بني ومانوا هؤلاء بالولاية، فكانوا سيفا لقومه دون بني يلومي.

وكانت رياسة بني ومانو في أبيت منهم يعرفون ببني ماخوخ. وأصهر المنصور بن الناصر إلى ماخوخ منهم في أخته، فزوجها إياه، فكان لهم بذلك مزيد ولاية في الدولة.

ولما ملك المرابطون تلمسان أعوام سبعين وأربعماية، وأنزل يوسف بن تاشفين بها عامله محمد بن تينعمر المسوفي، ودوخ أعمال المنصور وملك أمصارها إلى أن نازل الجزائر، وهلك فولي أخوه تاشفين على عمله، فغزا أشير وافتتحها وخربها. وكان لهذين الحيين من زناتة أثر في مظاهرته وإمداده، أحقد عليهم المنصور بعدها، وغزا بني ومانوا في عساكر صنهاجة، وجمع له ماخوخ، فهزمه واتبعه منهزما إلى بجاية، فقتل لمدخله إلى قصره وقتل زوجه أخت ماخوم تشفيا وضغناً. ثم نهض إلى تلمسان في العساكر واحتشد العرب من الأثبج ورياح وزغبة ومن لحق به من زناتة، وكانت الغزاة المشهورة سنة سص وثمانين أبقى فيها على ابن تينعمر المسوفي بعد استمكانه سن البلد كما ذكرناه في أخبار صنهاجة. ثم هلك المنصور وولي ابنه العزيز، وراجع ماخوخ ولايتهم، وأصهر إليه العزيز أيضا في ابنته، فزوجها إياه. واعتز البدو في نواحي المغرب الأوسط، واشتعلت نار الفتنة بين هذين الحيين من بني ومانوا وبني يلومي، فكانت بينهم حروب ومشاهد. وهلك

ماخوخ، وقام بأمره في قومه بنوه تاشفين وعلي وأبو بكر، وكان أحياء زناتة الثانية من عبد الواد وتوجين وبني راشد وبني ورسيفان من مغراوة مدداً للفريقين، وربما ماد بنو مرين إخوانهم بني يلومي لقرب مواطنهم منهم، إلا أن زناتة الثانية لذلك العهد مغلبون لهذين الحيين، وأمرهم تبع لهم إلى أن ظهر أمر الموحدين.

وزحف عبد المؤمن إلى المغرب الأوسط في أتباع تاشفين بن علي، وتقدم أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن يدز من بني ومانوا إلى طاعته، ولحقوه بمكانه من أرض الريف، فسرح معهم عساكر الموحدين لنظر يوسف بن وانودين وابن يغمور، فأثخنوا في بلاد بني يلومي وبني عبد الواد، ولحق صريخهم بتاشفين بن علي بن يوسف، فأمدهم بالعساكر، ونزلوا منداس. واجتمع لبني يلومي بنو ورسفان من

مغراوة وبنو توجين من بني بادين وبنو عبد الواد منهم أيضا، وشيخهم حمامة بن مظهر، وبنو يكاسن من بني مرين وأوقعوا ببني ومانوا، وقتلوا أبا بكر بن ماخوخ في ستماية منهم واستنقذوا غنائمهم. وتحضن الموحدون وفل بني ومانوا بجبال سيرات، ولحق تاشفين بن ماخوخ صريخا بعبد المؤمن، وجاء في جملته حتى نازل تاشفين بن علي بتلمسان. ولما ارتحل في أثره إلى وهران كما قدمناه سرح الشيخ أبا حفص في عساكر الموحدين إلى بلاد زناتة، فنزلوا منداس وسط بلادهم، وأثخنوا فيهم حتى أذعنوا للطاعة، ودخلوا في الدعوة. ووفد على عبد المؤمن بمكانه من حصار وهران بمشيختهم يقدمهم سيد الناس بن أمير الناس شيخ بني بلومي، وحمامة بن مظهر شيخ بني عبد الواد، وعطية الخير شيخ بني توجين وغيرهم، فتلقاهم بالقبول.

ثم انتقضت زناتة بعدها، وامتنع بنو يلومي بحصنهم الجعبات ومعهم شيوخهم سيد الناس وبدرح ابنا أمير الناس، فحاصرهم عساكر الموحدين وغلبوهم عليها وأشخصوهم إلى المغرب. ونزل سيد الناس بمراكش، وبها كان مهلكه أيام عبد المؤمن. وهلك بعد ذلك بنو ماخوخ.

ولما أخذ أمر هذين الحيين في الانتقاض جاذب بني يلومي في تلك الأعمال بنو توجين، وشاجروهم في أحواله، ثم واقعوهم الحرب في جوانبه. وتولى ذلك فيهم عطية الخير كبير بني توجين، وصلى بنارها منهم معه بنو منكوش من قومه حتى غلبوهم على مواطنهم وأذلوهم وأصاروهم جيرانا لهم في قياطنهم، واستعلى بنو عبد الواد وترجين على هذين الحيين وغيرهم بولايتهم للموحدين ومخالطتهم اياهم، فذهب شأنهم وافترق قيطونهم أوزاعا في زمانه الوارثين أوطانهم من بني عبد الواد وتوجين والبقاء لله وحده. ومن بطون بني ومانوا هؤلاء قبائل بني يالدس، وقد يزعم زاعمون أنهم من مغراوة، ومواطنهم متصلة قبلة المغرب الأقصى والأوسط وراء العرق المحيط بعمرانهم المذكور قبل. اختطوا في تلك المواطن القصور والأطم واتخذوا بها الجنات من النخيل والأعناب وسائر الفواكه: فمنها على ثلاث مراحل قبلة سجلماسة، وتسمى وطن توات، وفيه قصور متعددة تناهز المئين، آخذة من المشرق إلى المغرب وآخرها

من جانب المشرق يسمى تمنطيت، وهو بلد مستبحر في إلعمران، وهو هكاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد، ومن بلد مالى إليه، وبينه وبين ثغر بلد مالي المسمى غار، المفازة المجهلة لا يهتدى فيها للسبل ولا يمر الوارد إلا بالدليل الشريت من الملثمين الظواعن بذلك القفر، يستأجره التجمار محلى

البذرقة بهم بأوفى الشروط. ولقد كانت بلد بودي وهي أعلى تلك القصور بناحية المغرب من ناحية السوس هي الركاب إلى والاتن، الثغر الأخير من أعمال مالي. ثم أهملت لما صارت الأعراب من بادية السوس يغيرون على سابلتها، ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك، ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيت.

ومن هذه القصور قبلة ظمسان، وعلى عشر مراحل منها قصور تيكورارين، وهي كثيرة تقارب المائة، في بسيط واد منحدر من الغرب إلى الشرق واستبحرت في العمران وغصت بالساكن. وأكثر سكان هذه القصور الغربية في الصحراء بنو يالدس هؤلاء، ومعهم من سائر قبائل زناتة والبربر، مثل ورتطغير ومصاب وبني عبد الواد وبني مرين، وهم أهل عديد وعدة، وبعد عن هضيمة الأحكام وذل المغارم، وفيهم الرجالة والخيمالة، وأكثرهم معاشهم من فلح النخل، وفيهم التجر إلى بلد السودان، وضواحيها كلها مشتاة للعرب، ومختصة بعبيد الله من المعقل، عينتها لهم قسمة الرحلة. وربما شاركهم بنو عامر من زغبة في تيكورارين، فتصل إليها ناجعتهم بعض السنين.

وأما عبيد الله فلا بد لهم لي كل سنة من رحلة الشتاء إلى قصور توات وبلد تمنطيت، ومع ناجعتهم تخرج قفول التجار من الأمصار والتلول، حتى يخطوا بتمنطيت، ثم يبذرقون منها إلى بلد السودان. وفي هذه البلاد الصحراوية إلى وراء العرق غريبة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب، وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة الهوى. وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة، فتحت بالمعاول والفؤس إلى أن يرق جرمها ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقها على الماء،

فينبعث صاعدا فيفعم البئر، ثم يجري على وجه الأرض واديا. ويزعمون أن الماء ربما أعجل بسرعته عن كل شيء. وهذه الغريبة موجودة في قصور توات وتيكورارين ووارگلا وريغ. والعالم أبو العجائب. والله الخلاق العليم.. وهذا آخر الكلام في الطبقة الأولى من زناتة، ولنرجع إلى أخبار الطبقة الثانية منهم، وهم الذين اتصلت دولتهم إلى هذا العهد.

أخبار الطبقة الثانية من زناتة وذكر أنسابهم وشعوبهم و أوليتهم:

قد تقدم لنا في تضاعيف الكلام قبل انقراض الملك من الطبقة الأولى من زناتة، ما كان على يد صنهاجة والمرابطين من بعدهم وأن عصبة أجيالهم افترقت بانقراض ملكهم ودولهم، وبقيت منهم بطون لم يمارسوا الملك، ولا أخلقهم ترفه، فأقاموا في قياطنهم بأطراف المغربين ينتجعون جانبي القفر والتل، ويعطون الدول حق الطاعة. وغلبوا على بقايا الأجيال الأولى من زناتة بعد أن كانوا مغلبين لهم؛ فأصبحت لهم السورة والعزة، وصارت الحاجة من الدول إلى مظاهرتهم ومسالمتهم، حتى انقرضت دولة الموحدين، فتطاولوا إلى الملك وضربوا فيه مع أهله بسهم. وكانت لهم دول نذكرها إن شاء الله. وكان أكثر هذه الطبقة من بني واسين بن يصلتين إخوة مغراوة وبني يفرن. ويقال إنهم من بني وانتن بن ورسيك بن جانا إخوة مسارت وتاجرت، وقد تقدم ذكر هذه الأنساب. وكان من بني واسين هؤلاء ببلاد قسطيلية. وذكر ابن الرقيق أن أبا يزيد النكاري لما ظهر بجبل أوراس كتب إليهم بمكانهم حول توزر يأمرهم بحصارها، فحاصروها سنة ثلاث وثلاثين وثلاثماية.

وربما أن منهم ببلد الحامة لهذا العهد، ويعرفون ببني ورتاجن إحدى بطونهم. وأما جمهورهم فلم يزالوا بالمغرب الأقصى ما بين ملوية إلى جبل راشد.
وذكر موسى بن أبي العافية في كتابه إلى الناصر الأموي يعرفه بحربه مع ميسور مولى أبي القاسم الشيعي، وبمن صار إليه من قبائل البربر وزناتة، فذكر فيهم من كان على ملوية وصا، من قبائل بني واسين، وبني بفرن وبني ورتاسن، وبني وريمت ومطماطة، فذكر
منهم بني واسين، لأن تلك المواطن هى مواطنهم قبل الملك.
وفي هذه الطبقة منهم بطون: فمنهم بنو مرين، وهم أكثرهم عددا وأقواهم سلطانا وملكا، وأعظمهم دولة، ومنهم أبو عبد الواد تلوهم في الكثرة والقوة، وبنو توجين من بعدهم كذلك. هؤلاء أهل الملك من هذه الطبقة. وفيها من غير أهل الملك: بنو راشد إخوة بني بادين كما نذكره، وفيها أهل الملك أيضا من غير نسبهم بقية من مغراوة بمواطنهم الأولى من وادي شلف، نبضت فيهم عروق الملك بعد انقراض جيلهم الأول، فتجاذبوا حبله مع أهل هذا الجيل. وكانت لهم في مواطنهم دولة كما نذكره .
ومن أهل هذه الطبقة كثير من بطونها ليس لهم ملك: نذكرهم الآن حين تفصل شعوبهم. وذلك أن أحياءهم جميعاً تشعبت من زحيك بن واسين، فكان منهم بنو بادين بن محمد، وبنو مرين بن ورتاجن: فأما بنو ورتاجن فهم من ولد ورتاجن بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدر بن يخفت بن عبد الله بن ورتنيد بن المغربن إبراهيم بن زحيك. وأما بنو مرين بن ورتاجن، فتعددت أفخاذهم وبطونهم كما نذكره بعد حتى كثروا سائر شعوب بني ورتاجن، وصار بنو ورتاجن معدودين في جملة أفخاذهم وشعوبهم. وأما بنو بادين بن محمد فمن ولد زحيك، ولا أذكر الان كيف يتصل نسبهم به. وتشعبوا إلى شعوب كثيرة: فكان منهم بنو عبد الواد، وبنو توجين، وبنو مصاب وبنو أزردال، يجمعهم كلهم نسب بادين بن محمد. وفي محمد هذا يجتمع بادين وبنو راشد، ثم يجتمع محمد مع ورتاجن في زحيك بن واسين، وكانوا كلهم معروفين بين زناتة الأولى ببني واسين قبل أن تعظم هذه البطون والأفخاذ، وتشعبت مع الأيام. وبأرض إفريقية وصحراء برقة وبلاد الزاب منهم طوائف من بقايا زناتة الأولى قبل انسياحهم إلى المغرب: فمنهم بقصور غدامس على عشرة مراحل قبل سرت، وكانت مختطة منذ عهد الإسلام وهي خطة مشتملة على قصور وآطام عديدة، وبعضها لبني واطاس من أحياء بني مرين، يزعمون أن أوائلهم اختطوها، وهي لهذا العهد قد استبحرت في العمارة،
واتسعت في التمدن، بما صارت محطا لركاب الحاج من السودان، وقفل التجار إلى مصر والإسكندرية عند إراحتهم من قطع المفازة ذات الرمال المعترضة أمام طريقهم دون الأرياف والتلول، وبابا لولوج تلك المفازة والحاج والتجر في مرجعهم. ومنهم ببلاد الحمة على مرحلة من غربي قابس أمة عظيمة من بني ورتاجن.
وفرت منهم حاميتها، واشتدت شوكتها، وارتحل إليها التجر بالبضائع لنفاق أسواقها وتبحر عمارتها، وامتنعت لهذا العهد على من يرومها، ممن يجاورها فهم لا يودون خراجا ولا يسامون بمغرم، حتى كأنهم لا يعرفونه عزة جناب وفضل بأس ومنعة. يزعمون أن سلفهم من بني ورتاجن اختطوها، ورياستهم في بيت منهم يعرفون ببني

وشاح، وربما طال على رؤسائهم عهد الخلافة ووطأة الدول، فيتطاولون إلى التي تنكر على السوقة من اتخاذ الآلات ويبرزون في زفي السلطان أيام الزينة تهاونا بشعار الملك، ونسيانا لمألوف الانقياد شأن جرانهم رؤساء توزر ونفطة. وسابق الغاية في هذه المضحكة هو يملول مقدم توزر.

ومن بني واسين هؤلاء بقصور مصاب على خمس مراحل من جبل تيطري في القبلة بما دون الرمال، وعلى ثلاث مراحل من لصور بني ريغة في المغرب، وهذا الاسم اسم للقوم الذين اختطوها ونزلوها من شعوب بني بادين حسبما ذكرناهم الآن. ووضعها في أرض حرة على آكام وضراب ممتنعة في قننها. وبينها وبين الأرض الحجرة المعروفة بالحمادة في سمت العرق متوسطة فيه قبالة تلك البلاد فراسخ في ناحية القبلة، وسكانها لهذا العهد شعوب بني بادين من بني عبد الواد وبني توجين ومصاب وبني زردال فيمن يضاف إليهم من شعوب زناتة، وإن كانت شهرتها مختصة بمصاب، وحالها في المباني والأغراس وتفرق الجماعة بتفرق الرياسة شبيهة بحال بلاد بني ريغة والزاب.

ومنهم بجبل أوراس بإفريقية طائفة من بني عبد الواد موطنوه منذ العهد الأقدم لأول الفتح، معروفون ين ساكنيه.

وقد ذكر بعض الإخباريين أن بني عبد الواد حضروا مع عقبة بن نافع في فتح المغرب عند إيغاله في ديار المغرب، وانتهائه إلى البحر المحيط بالسوس في ولايته

الثانية، وهي الغزاة التي هلك فيها في منصرفه منها، وأنهم أبلوا البلاء الحسن، فدعا لهم وأذن في رجوعهم قبل استتمام الغزاة. ولما تحيزت زناتة إلى المغرب الأقصى أمام كتامة وصنهاجة اجتمع شعوب بني واسين هؤلاء كلهم ما بين ملوية وصا كما ذكرناه. وتشعبت أفخاذهم وبطونهم وانبسطوا في صحراء المغرب الأقصى والأوسط، إلى بلاد الزاب وما إليها من صحارى إفريقية، إذ لم يكن للعرب في تلك المجالات كلها مذهب ولا مسلك إلى الماية الخامسة كما سبق ذكره. ولم يزالوا بتلك البلاد مشتملين لبوس العز مستمرين للأنفة، وكان جل مكاسبهم الأنعام والماشية، وابتغاؤهم الرزق من تحيف السابلة، وفي ظل الرماح المشرعة، وكانت لهم في محاربة الأحياء والقبائل ومنافسة الأمم والدول ومغالبة الملوك أيام ووقائع، تلم بها ولم تعظم العناية باستيعابها، فتأتي به. والسبب في ذلك أن اللسان الربي كان غالبا بغلب دولة العرب، وظهور الملة العربية بالكتاب، والخط بلغة الدولة ولسان الملك، واللسان العجمي مستتر بجناحه مندرج في غماره، ولم يكن لهذا الجيل من زناتة في الأحقاب القديمة ملك يحمل أهل الكتاب على العناية بتقييد أيامهم وتدوين أخبارهم، ولم تكن مغالطة بينهم وبين أهل الأرياف والحضر، حتى يشهدوا آثارهم لإبعادهم في القفار كما رأيت في مواطنهم، وتوحشهم عن الانقياد؛ فبقيت غفلا إلى أن درس منها الكثير، ولم يصل إليها منها بعد مهلكهم إلا الشارد القليل يتبعه المؤرخ المضطلع في مسالكه، ويتقراه في شعابه، ويستثيره من مكامنه، وأقاموا بتلك القفار إلى أن تسنموا منها هضبات الملك على ما تصفه.

الخبر عن أحوال هذه الطبقة قبل الملك وكيف كانت تصاريف أحوالهم إلي أن غلبوا علي الممالك والدول:

وذلك أن أهل هذه الطبقة من بني واسين وشعوبهم التي سميناها كانوا تبعا لزناتة الأولى. ولما انزاحت زناتة إلى المغرب الأقصى أمام كتامة وصنهاجة، خرج بنو واسين هؤلاء إلى القفر، ما بين ملوية وصا، فكانوا يرجعون إلى ملوك المغرب لذلك العهد. مكناسة أولا ثم مغراوة من بعدهم. ثم حسر تيار صنهاجة عن المغرب، وتقلص ملكهم بعض الشيء، وصاروا إلى الاستجاشة على القاصية بقبائل زناتة، فأومضت بروقهم، ورفت في ممالك زناتة منابتهم كما قدمناه. واقتسم أعمالها بنو ومانو وبنو يلومي ناحيتين، وكانت ملوك صنهاجة أهل القلعة إذا عسكروا للمغرب يستنفرونهم لغزوه، ويجمعون حشدهم للتوغل فيه. وكان بنو واسين هؤلاء ومن تشعب منهم من القبائل الشهيرة الذكر: مثل بني مرين وبني توجين ومصاب، قد ملكوا القفر ما بين ملوية وأرض الزاب، وامتنعت عليهم الأرياف من المغربين بمن ملكها من زناتة الذين ذكرناهم.

وكان أهل الرياسة بتلك الأرياف والضواحي من زناذة مثل بني ومانوا وبني يلومي بالمغرب الأوسط، وبني يفرن ومغراوة بتلمسان يستجيشون ببني واسين هؤلاء ويستظهرون بجموعهم على ئن زاحمهم أو قارعهم من ملوك صنهاجة وزناتة وغيرهم، يجأجئون بهم من مواطنهم لذلك، ويقرضونهم القرض الحسن من المال والسلاح والحبوب المعوزة لديهم بالقفار، فينأثلون منهم ويرتاشون. وعظمت حاجة بني حماد إليهم في ذلك عندما عصفت بهم ريح العرب الطوالع من بني هلال بن عامر، وأصرعوا دولة المعز وصنهاجة بالقيروان والمهدية، وألانوا من حدهم، وزحفوا إلى المغرب الأوسط، فدافع بنو حماد عن حوزته وأوعزوا إلى زناتة بمدافعتهم أيضاً، فاجتمع لذلك بنو يعلى ملوك تلمسان من مغراوة، وجمعوا من كان إليهم من بني واسين هؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين وبني راشد. وعقدوا

على حرب الهلاليين لوزيرهم بو سعدى خليفة اليفرني، فكان له مقامات في حروبهم ودفاعهم عن ضواحي الزاب والمغرب الأوسط، إلى أن هلك في بعض أيامه معهم وغلب الهلاليون قبائل زناتة على جميع الضواحي وأزاحوهم عن الزاب وما إليه من بلاد إفريقية، وانشمر بنو واسين هؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين عن الزاب إلى موطنهم بصحراء المغرب الأوسط من مصاب وجبل راشد إلى ملوية وفيكيك، ثم إلى سجلماسة ولاذوا ببني ومانوا وبني يلومي ملوك الضواحي بالمغرب الأوسط وتفيأوا ظلهم، واقتسموا ذلك القفر بالمواطن، فكان لبني مرين الناحية الغربية منها قبلة المغرب الأقصى بتيكورارين ودبدوا إلى ملوية وسجلماسة، وبعدوا عن بني ومانوا وبني يلومي، إلا في الأحايين وعند الصريخ. وكان لبني بادين منها الناحية الشرقية قبلة المغرب الأوسط ما بين فيكيك ومديونة إلى جبل راشد ومصاب، وكانت بينهم وبين بني مرين فتن متصلة باتصال أيامهم في تلك المواطن سبيل القبائل الجيران في مواطنهم، وكان الغلب في حروبهم أكثر ما يكون لبني بادين لما كانت شعوبهم أكثر وعددهم أوفر، فإنهم كانوا أربعة شعوب؟ بني عبد الواد وبني توجين وبني زردال وبني مصاب، وكان معهم شعب آخر وهم إخوانهم بنو راشد، لأنا قدمنا أن راشد أخو بادين. وكان موطن بني راشد الجبل المشهور بهم بالصحراء؛ ولم يزالوا على هذه الحال إلى أن ظهر أمر الموحدين، فكان لعبد الواد وتوجين ومغراوة من المظاهرة لبني يلومي على الموحدين ما هو مذكور في أخبارهم.

ثم غلب الموحدون على المغرب الأوسط وقبائله من زناتة، فأطاعوا وانقادوا، وتحيز بنو عبد الواد وبنو توجين إلى الموحدين، وازدلفوا إليهم بأمحاض النصيحة ومشايعة الدعوة، وكان التقدم لبني عبد الواد دون الشعوب الأخرى، وأمحضوا النصيحة للوحدين فاصطنعوهم دون بني مرين كما نذكر في أخبارهم. وأقطعهم الموحدون ضواحي المغرب الأوسط كما كانت لبني يلومي وبني ومانوا فملكوها. وتفرد بنو مرين بعد دخول بني بادين إلى المغرب الأوسط بتلك الصحراء، لما اختار الله لهم

من وفور قسمهم في الملك، واستيلائهم على سلطان المغرب الذي غلبوا به الدول، واشتملوا الأقطار، ونظموا المشارق إلى المغارب، واقتعدوا كراسي الدول المسامتة لهم بأجمعها ما بين السوس الأقصى إلى إفريقية. والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده.

فأخذ بنو مرين وبنو عبد الواد من شعوب بني واسين هؤلاء بحظ من الملك أعادوا فيه لزناتة دولة وسلطانا في الأرض، واقتادوا الأمم برسن الغلب، وناغاهم في ذلك الملك البدوي إخوانهم بنو توجين. وكانت في هذه الطبقة الثانية بقية أخرى مما ترك آل خزر من قبائل مغراوة الأولى، كانوا موطنين بقرار عزهم ومنشأ جيلهم بوادي شلف، فجاذبوا هؤلاء القبائل حبل الملك وناغوهم في أطوار الرياسة، واستطالوا بمن وصل جناحهم من هذه العشائر؛ فتطاولوا إلى مقاسمتهم في الملك ومساهمتهم في الأمر. وما زال بنو عبد الواد في الغض من عنانهم وجدع أنوف عصيانهم، حتى أوهنوا من بأسهم وخصت الدولة العبد الوادية، ثم المرينية بسمة الملك المخلفة من جناح تطاولهم، وتمحض ذلك كله عن استبداد بني مرين واستتباعهم بجميع هؤلاء العصائب كما نذكر لك الان دولتهم واحدة بعد أخرى، ومصاير أمور هؤلاء الأربعة التي هي رؤوس هذه الطبقة الثانية من زناتة. والملك لته يؤتيه من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

ولنبدأ منها بذكر مغراوة بقية الطبقة الأولى، وما كان لرؤسائهم أولاد منديل من الملك في هذه الطبقة الثانية.

أولاد منديل

الخبر عن أولاد منديل من الطبقة الثانية وما أعادوا

لقومهم من مغراوة من الملك بموطنهم الأول من

شلف وما إليه من نواحي المغرب الأوسط

لما ذهب الملك عن مغراوة بانقراض ملوكهم آل خزر، واضمحلت دولهم بتلمسان وسجلماسة وفاس وطرابلس وبقية قبائل مغراوة متفرقة في مواطنهم الأولى بنواحي المغربين وإفريقية والصحراء والتلول، والكثير منهم بعنصرهم ومركزهم الأول بوطن

شلف وما إليه، فكان به بنو ورسيفان وبنو ورتزمان وبنو أيليت، ويقال إنهم من ورتزمان، وبنو سعيد وبنو زجاك وبنو سنجاس، وربما يقال إنهم من زناتة وليسوا من مغراوة وكان بنو خزرون الملوك بطرابلس لما انقرض أمرهم، وافترقوا في البلاد، لحق منهم عبد الصمد بن محمد بن خزرون بجبل أوراس فرارا من أهل بيته هنالك، الذين استولوا على الأمر وجده خزرون بن خليفة هو السادس من ملوكهم بطرابلس، فأقام بجبل

اوراس مدة، ثم انتقل إلى زواوة، فأقام بينهم أعواما. ثم ارتحل عنهم، فنزل على بقايا قومه مغراوة بشلف من بني ورسيفان وبني ورتزمين وبني بو سعيد وغيرهم، فتلقوه بالمبرة والكرامة، وأوجبوا له حق البيت الذي ينتسب إليه. وأصهر إليهم، فأنكحوه وكثر ولده وعرفوا بينهم ببني محمد، ثم بالخزرية نسبة إلى سلفه الأول. وكان من ولده الملقب أبو ناس بن عبد الصمد بن وارجيع بن عبد الصمد، وكان منتحلا للعبادة والخيرية، وأصهر إليه بعض ولد ماخوخ ملوك بني ومانوا بابنته، فأنكحه إياها، فعظم أمره عندهم بقومه ونسبه وصهره. وجاءت دولة الموحدين على إثر ذلك، فرمقوه بعين التجلة لما كان عليه من طرق الخير، فأقطعوه بوادي شلف، وأقام على ذلك. وكان له من الولد وارجيع وهو كبيرهم، وعزيز ويغريان وماكور، ومن بنت ابن ماخوخ عبد الرحمن، وكان أجلهم شأنا عنده وعند قومه عبد الرحمن هذا، لما يوجبون له بولادة ماخوخ لأمه، ويتفرسون فيه أن له ولعقبه ملكا.

ويزعمون أنه لما ولد خرجت به أمه إلى الصحراء فألقته إلى شجرة، وذهبت في بعض حاجتها، فأطاف به يعسوب من النحل متواقعين عليه. وبصرت به على البعد، فجاءت تعدو لما أدركها من الشفقة، وقال لها بعض العرافين احتفظي عليه، فوالله ليكونن له شأن. ونشأ عبد الرحمن هذا في حق هذه التجلة مدلا بنسبه وبأسه. وكثر عشيره من بني أبيه، واعصوصب عليه قبائل مغراوة، فكان له بذلك شوكة، وفي دولة الموحدين تقدمة، لما كان يوجب لهم عيى نفسه من الانحياش والمخالطة والتقدم في مذاهب الطاعة. وكان السادة منهم يمرون به في غزواتهم إلى إفريقية ذاهبين وراجعين، فيترلون منه خير نزل، وهم ينقلبون بحمده والشكر لمذهبه، فيزيد خلفاؤهم اغتباطا به. وأدرك بعض السادة وهو بأرض قومه الخبر بمهلك الخليفة بمراكش، فخلف الذخيرة والظهر، أسلمها إلى عبد الرحمن هذا، فنجا بدمائه بعد أن صحبه إلى تخم وطنه، فكانت له فيها ثروة أكسبته قوة وكثرة، فاستركب من قومه، واستكثر من عصابته وعشيره. وهلك خلال ذلك، وقد فشل ريح بني عبد المؤمن، وضعف أمر الخلافة بمراكش.

وكان له من الولد منديل وتميم، وكان أكبرهما منديل، فقام بأمر قومه على حين عصفت رياح الفتنة، وأجلب ابن غانية على أعمال المغرب الأوسط. وسما لمنديل أمل في التغلب على ما يليه فاستأسد في عرينه، وحمى عن أشباله. ثم فسح خطوته إلى ما جاوره من البلاد، فملك جبل وانشريش والمرية وما إلى ذلك، واختط قصبة مرات. وكان بسيط متيجة لهذا العهد مستبحرا بالعمران آهلا بالقرى والأمصار.

ونقل الإخباريون أن أهل متيجة لذلك العهد كانوا يجمعون في ثلاثين مصراً؛ فجاس خلالها، وأوطأ الغارات ساحتها وخرب عمرانها حتى تركها خاوية على عروشها. وهو في ذلك يوهم التمسك بطاعة الموحدين، وأنه سلم لمن سالمهم، وحرب على من عاداهم. وكان ابن غانية منذ غلبه الموحدون على إفريقية قد أزاحوه إلى قابس وما إليها، ونزل الشيخ أبو محمد بن أبي حفص بتونس، فدفعه عن إفريقية إلى أن هلك سنة ثمان عشرة؛ فطمع يحيى بن غانية في استرجاع أمره، وأسف إلى الثغور والأمصار يعيث فيها ويخربها، ثم تجاوز إفريقية إلى بلاد زناتة، وشن عليها الغارات واكتسح ا البسائط، وتكررت الوقائع بينه وبينهم. وجمع له منديل بن عبد

الرحمن، ولقيه بمتيجة، وكانت الدبرة عليه، وانفضت عنه مغراوة، فقتله ابن غانية صبرا سنة اثنتين أو ثلاث وعشرين. وتغلب على الجزائر إثر نكبته، فصلب بها شلوه، وصيره مثلا للآخرين. وقام بأمره في قومه بنوه، وكانوا نجباء فكان لهم العدة والشرف، وكانوا يرجعون في أمرهم إلى كبيرهم العباس، فتقبل مذاهب أبيه وأقصر عن بلاد متيجة.

ثم غلبهم بنو توجين على جبل وانشريش وضواحي المرية وما إلى ذلك. وانقبضوا

إلى مراكزهم الأولى بشلف، وأقاموا بها ملكاً بدويا لم يفارقوا فيه الظعن والخيام والضواحي والبسائط.

واستولوا على مدينة مليانة وتنس وبرشك وشرشال

مقيمين فيها الدعوة الحفصية، واختطوا قرية مازونة.

ولما استوسق الملك بتلمسان ليغمراسن بن زيان، واستفحل سلطانه بها، وعقد له عليها ولأخيه من قبله بنو عبد المؤمن، سما إلى التغلب على أمصار المغرب الأوسط، وزاحم بني توجين وبني منديل هؤلاء بمناكبه، فلفتوا وجوههم جميعا إلى الأمير أبي زكريا بن أبي حفص مديل الدولة بإفريقية من آل عبد المؤمن، وبعثوا إليه الصريخ على يغمراسن، فاحتشد لها جموع الموحدين والعرب، وغزا تلمسان وافتتحها كما ذكرناه.

ولما قفل إلى الحضرة عقد مرجعه لأمراء زناتة كل على قومه ووطنه: فعقد للعباس بن منديل على مغراوة، ولعبد القوي على توجين ولأولاد جبورة على ملكيش، وسوغ لهم اتخاذ الآلة فاتخذوها بمشهد منه. وعقد العباس السلم مع يغمراسن، ووفد عليه بتلمسان فلقاه مبرة وتكريما، وذهب عنه بعدها مغاضباً. يقال إنه تحدث بمجلسه يوما، فزعم أنه رأى فارسا واحدا يقاتل مايتين من الفرسان، فنكر ذلك من سمعه من بني عبد الواد، وعرضوا تكذيبه، فخرج العباس لها مغاضبا حتى أتى قومه، وأتى يغمراسن مصداق قوله، فإنه كان يعني بذلك الفارس نفسه.

وهلك العباس لخمس وعشرين سنة من بعد أبيه سنة سبع وأربعين، وقام بالأمر بعده أخوه محمد بن منديل، وصلحت الحال بينه وبين يغمراسن وصاروا إلى الاتفاق والمهادنة. ونفر معه بقومه مغراوة إلى غزو المغرب سنة كلدمان، وهي سنة سبع وأربعين وستماية، وهزمهم فيها يعقوب بن عبد الحق، فرجعوا إلى أوطانهم، وعاودوا شأنهم في العداوة. وانتقض عليهم أهل مليانة وخلعوا الطاعة الحفصية. وكان من خبر هذا الانتقاض أن أبا العباس أحمد الملياني كان كبير وقته علما ودينا ورواية، وكان عالي السند في الحديث، فرحل إليه بالأعلام، وأخذ عنه الأئمة، وأوفت به الشهرة على ثنايا السيادة، فانتهت إليه رياسة بلده على عهد يعقوب المنصور وبنيه. ونشأ ابنه أبو علي في جو هذه العناية، وكان جموحا للرياسة طامحا إلى الاستبداد، وهو مع ذلك خلو من المغارم. فلما هلك أبوه جرى في شاو رئاسته طلقا، ثم رأى ما بين مغراوة وبني عبد الواد من الفتنة، فحدثته نفسه بالاستبداد ببلده، فجمع لها

جراميزه، وقطع الدعاء للخليفة المستنصر سنة تسع وخمسين. وبلغ الخبر إلى تونس، فسرح الخليفة أخاه أبا حفص في عسكر من الموحدين في جملته "دون الريك بن هراندة" من آل أذفونشر ملوك الجلالقة، وكان نازعا

إليه عن أبيه في طائفة من قومه، فنازلوا مليانة أياما. وداخل السلطان طائفة مر مشيخة البلد المنحرفين عن أبي علي الملياني، فسرب إليهم جندا بالليل، وافتحموها من بعض المداخل، وفر أبو علي الملياني تحت الليل. وخرج من بعض قنوات البلد، فلحق بأحياء العرب، ونزل على يعقوب بن موسى أمير العطاف من بطون زغبة، فأجاره إلى أن لحق بعدها بيعقوب بن عبد الحق، فكان من أمره ما ذكرناه في أخبارهم. وانصرف عسكر الموحدين والأمير أبو حفص إلى الحضرة، وعقدوا لمحمد بن منديل على مليانة، فأقام فيها الدعوة الحفصية على سنن قومه. ثم هلك محمد بن منديل سنة اثنتين وستين لخمس عشرة من ولايته، قتله أخواه ثابت وعياد بمنزل ظواعنهم بالخميس من بسيط بلادهم، وقتل معه عطية ابن أخيه منيف. وشاركه ثابت في الأمر واجتمع إليه قومه، وتقطع بين أولاد منديل، وخشنت صدورهم. واستغلظ يغمراسن بن زيان عليهم، وداخله عمر بن منديل أخوهم في أن يمكنه من مليانة، ويشد عضده على رياسة قومه، فشارطه على ذلك وأمكنه من أزمة البلد سنة ثمان وستين، ونادى بعزل ثابت ومؤازرة عمر عمى الأمر، فتم لهما ما أحكماه من أمرهما في مغراوة. واستمكن بها يغمراسن من قياد قومه. ثم تناغى أولاد منديل في الازدلاف إلى يغمراسن بمثلها نكاية لعمر، فاتفق ثابت وعايد أولاد منديل على أن يحكماه في تنس، فأمكناه منها سنة اثنتين وسبعين على اثني عشر ألفا من الذهب.

واستمرت ولاية عمر إلى أن هلك لحنة ست وسبعين، فاستقل ثابت بن منديل برياسة مغراوة، وأجاز عايد أخوه إلى الأندلس للرباط والجهاد مع صاحبه زيان بن محمد بن عبد القوي، وعبد الملك بن يغمراسن فحول زناتة واسترجع ثابت بلاد تنس ومليانة من يد يغمراسن، ونبذ إليه العهد. ثم استغلظ يغمراسن عليهم واسترد تنس سنة إحدى وثمانين بين يدي مهلكه.

ولما هلك يغمراسن وقام بالأمر ابنه عثمان انتقضت عليه تنس؛ ثم ردد الغزو إلى بلاد توجين ومغراوة حتى غلبهم آخرا على ما بأيديهم، وملك المرية بمداخلة بني لمدية أهلها سنة سبع وثمانين.

وغلب ثابت بن منديل على مازونة، فاستولى عليها، ثم نزل له عن تنس أيضاً فملكها. ولم يزل عثمان مراغماً لهم إلى أن زحف إليهم سنة ثلاث وتسعين، فاستولى على أمصارهم وضواحيهم، وأخرجهم عنها، وألجأهم إلى الجبال. ودخل ثابت بن منديل إلى برشك ممانعا دونها، فزحف إليه عثمان وحاصره بها، حتى إذا استيقن أنه احيط به، ركب البحر إلى المغرب، ونزل على يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين صريخا سنة أربع وتسعين، فأكرمه ووعده بالنصرة من عدوه، وأقام بفاس. وكانت بينه وبين ابن الأشهب من رجالات بني عسكر صحابة ومداخلة، فجاء بعض الأيام إلى منزله، ودخل عليه من غير استئذان؟ وكان ابن الأشهب ثملا، فسطا به وقتله. وثار السلطان به منه، وانفجع لموته. وكان ثابت بن منديل قد أقام ابنه محمدا للأمر في قومه، وولاه عليهم لعهده، واستبد بملك مغراوة دونه، ولما انصرف أبوه ثابت إلى المغرب أقام هو بأمارته على مغراوة. وهلك قريبا من مهلك أبيه، فقام بأمرهم من بعده شقيقه علي. ونازعه الأمر أخواه رحمون ومنيف، فقتله منيف، ونكر ذلك هو منهم، وأبوا من أمارتهما علبهم، فلحقا بعثمان بن يغمراسن، فأجازهما إلى

الأندلس. وكان أخوهما معمر بن ثابت قائدا على الغزاة بالبغيرة فترل لمنيف عنها، فكانت أول ولاية وليها بالأندلس. ولحق بهم أخوهم عبد المؤمن، فكانوا جميعا هنالك. ومن أعقاب عبد المؤمن يعقوب بن زيان بن عبد المؤمن، ومن أعقاب منيف بن عمر بن منيف، وجماعة منهم هم لهذا العهد بوطن الأندلس. ولما هلك ثابت بن منديل سنة أربع وتسعين كما قلناه، كفل السلطان ولده "وأهله، وكان فيهم حافده راشد بن محمد، فأصهر إليه في أخته فأنكحه إياها.

ونهض إلى تلمسان سنة ثمان وتسعين، فأناخ عليها واختط مدينة لحصارها

وسرح عساكر في نواحيها. وعقد على مغراوة وشلف لعمر بن ويغرن بن منديل، وبعث معه جيشا فافتتح مليانة وتنس ومازونة سنة تسع وتسعين، ووجد راشد في نفسه إذ لم يوليه على قومه، وكان يرى أنه الأحق بنسبه وصهره، فترع عن السلطان، ولحق بجبال متيجة، ودس إلى أوليائه في مغراوة حتى وجد فيهم الدخلة، فأغذ السير ولحق بهم، فافترق أمر مغراوة. وداخل أهل مازونة، فانتقضوا على السلطان وبيت عمر بن ويغرن بأزمور من ضواحي بلادهم فقتله. واجتمع عليه قومه، وسرح السلطان إليه الكتائب من بني عسكر لنظر الحسن بن علي بن أبي الطلاق، ومن بني ورتاجن لنظر علي بن محمد الخيري، ومن بني توجين لنظر أبي بكر بن إبراهيم بن عبد القوي، ومن الجند لنظر علي بن حسان الصبحي من صنائعه. وعقد على مغراوة لمحمد بن عمر بن منديل، وزحفوا إلى مازونة، وقد ضبطها راشد، وخلف عليها عليا وحمو ابني عمه يحيى بن ثابت. ولحق هو ببني بو سعيد مطلا عليهم وأناخت العساكر بمازونة، ووالوا عليها الحصار سنتين حتى أجهدوهم. وبعث علي بن يحيى أخاه حمو إلى السلطان من غير عهد، فتقبض عليه. ثم اضطره الجهد إلى مركب الغرور، فخرج إليهم ملقيا بيده سنة ثلاث. وأشخصه إلى السلطان فعفا عنه، واستبقاه، واحتسبهما تأنيسا واستمالة لراشد.

ثم سرح العساكر إلى قاصية الشرق لنظر أخيه أبي يحيى بن يعقوب، فنازل راشد بن محمد في معقل بني بو سعيد، وطال حصاره إياه، وأمكنته الغرة بعض الأيام في العساكر، وقد تعلقوا بأوعار الجبل زاحفين إليه، فهزمهم. وهلك في تلك الواقعة خلق حن بني مرين وعساكر السلطان، وذلك سنة أربع وسبعماية. وبلغ الخبر إلى السلطان، فأحفظه ذلك عليهم، وأمر بابن عمه علي بن يحيى وأخيه حمو ومن معهم من قومهم، فقتلوا رشقا بالسهام واستلحمهم.

ثم سرح أخاه أبا يحيى بن يعقوب ثانية سنة أربع، فاستولى على بلاد مغراوة، ولحق راشد بجبال صنهاجة من متيجة، ومعه عفه منيف بن ثابت، ومن اجتمع إليهم من الثعالبة، فنازلهم أبو يحنى بن يعقوب. وراسل راشد يوسف بن يعقوب فانعقدت بينهما السلم، ورجعت العساكر عنهم. وأجاز منيف بن ثابت مع بنيه وعشيرته إلى الأندلس، فاستقروا هنالك آخر الأيام. ولما هلك يوسف بن يعقوب بمناخه على تلمسان آخر سنة ست، وانعقدت السلم بين حافده أبي ثابت، وبين أبي زيان بن عثمان سلطان بني عبد الواد على أن يخلي له بنو مرين عن جميع ما ملكوه من أمصارهم وأعمالهم وثغورهم، وبعثوا في حاميتهم وعمالهم وأسلموها لعمال أبي زيان.

وكان راشد قد طمع في استرجاع بلاده، وزحف إلى مليانة فأحاط بها. فلما نزل عنها بنو مرين لأبي زيان وصارت مليانة وتنس له، أخفق سعي راشد وأفرج عن البلد.

ثم كان مهلك أبي زيان قريبا، وولى أخوه أبو حمو موسى بن عثمان. واستولى على المغرب الأوسط، فملك تافر كينت سنة سبع، وملك بعدها مليانة والمرية، ثم ملك تنس وعقد عليها لمسامح مولاه، وقارن ذلك حركة صاحب بجاية السلطان أبي البقاء خالد ابن مولانا الأمير أبي زكرياء ابن السلطان أبي إسحاق إلى متيجة لاسترجاع الجزائر من بد ابن علان الثائر عليهم، فلقيه هنالك راشد بن محمد، وصار في جملته، وظاهره على شأنه. ولقاه السلطان تكرمة وبرأ، وعقد له ولقومه حلفا مع صنهاجة أولياء الدولة والمتغلبين على ضاحية بجاية وجبال زواوة، فاتصلت يد راشد بيد زعيمهم يعقوب بن خلوف أحد وزراء الدولة.

ولما نهض السلطان خالد للاستئثار بملك الحضرة تونس استعمل يعقوب بن خلوف على بجاية، وعسكر راشد معه بقومه، وأبلى في الحروب بين يديه وأغنى في مظاهرة أوليائه، حتى إذا ملك حضرتهم، واستولى على تراث سلفهم، أسف حاجب الدولة راشد هذا وقومه بإمضاء الحكم في بعض حشمه، تعرض للخرابة في السابلة فنقبض عليه، ورفع إلى سدة السلطان، فأمضى فيه حكم الله. وذهب راشد مغاضبا، ولحق بوليه ابن خلوف ومضطر به من زواوة. وكان يعقوب بن خلوف قد هلك، وولى السلطان مكانه

ابنه عبد الرحمن، فلم يرع حق أبيه في إكرام صديقه راشد. وتشاجر معه في بعض الأيام مشاجرة نكر عبد الرحمن فيها ملاحاة راشد له، وأنف منها، وأدل فيها راشد بمكانه من الدولة وببأس قومه، فلذعه بالقول، وتناوله عبد الرحمن وحشمه وخزاً بالرماح إلى أن أقعصوه. وانذعر جميع مغراوة، ولحقوا بالثغور القاصية، فأقفر منهم شلف وما إليه كأن لم يكونوا به. وأجاز منهم بنو منيف وبنو ويغرن إلى الأندلس للمرابطة بثغور المسلمين، فكانت منهم حامية موطنة هنالك أعقابهم لهذا العهد. وأقام في جوار الموحدين فل آخر من أوساط قومهم كانوا شوكة في عساكر الدولة إلى أن انقرضوا. ولحق علي بن راشد طفلا بعمته في قصر بني يعقوب بن عبد الحق فكفلته، وصار أولاد منديل عصبا إلى وطن بني مرين، فتولوهم وأحسنوا جوارهم، وأصهروا إليهم سائر الدولة، إلى أن تغلب السلطان أبو الحسن على المغرب الأوسط ومحا دولة آل زيان، وجمع كلمة زناتة، وانتظم مع بلادهم بلاد إفريقية وعمل الموحدين، وكانت نكبته على القيروان صدر سنة تسع وأربعين كما شرحناه قبل.

وانتقضت العمالات والأطراف، وانتزى أعياص الملك بمواطنهم الأولى، فتوثب علي بن راشد بن محمد بن ثابت بن منديل على بلاد شلف، وتملكها وتغلب على أمصارها: مليانة وتنس وبرشك وشرشال، وأعاد ما كان لسلفه فيها من الملك على طريقتهم البدوية، وأرهفوا حدهم لمن طالبهم من القبائل. وخلص السلطان أبو الحسن من ورطته بإفريقية، ثم من ورطة البحر بمرسى بجاية إلى الجزائر يحاول استرجاع ملكه المفترق، فبعث إلى علي بن راشد وذكره ذمته فتذكر وحن، واشترط لنفسه التجافي عن ملك قومه بشلف، على أن يظاهره على بني عبد الواد فأبى السلطان أبو الحسن من اشتراط ذلك له، فتحيز عنه إلى فيئة بني عبد الواد الناجمين

بتلمسان كما ذكرناه قبل، وظاهرهم عليه. وبرز إليهم السلطان أبو الحسن من الجزائر، والتقى الجمعان بشربوبة سنة إحدى وخمسين، فاختل مصاف السلطان أبي الحسن، وانهزم جمعه، وهلك ابنه الناصر، طاح دمه في مغراوة هؤلاء. وخرج إلى الصحراء ولحق منها بالمغرب الأقصى كما نذكره بعد. وتطاول الناجمون بتلمسان من آل يغمراسن إلى انتظام بلاد مغراوة في ملكهم كما كان

لسلفهم؛ فنهض إليهم بعساكر بني عبد الواد رديف سلطانهم وأخوه أبو ثابت الزعيم بن عبد الرحمن بن يغمراسن فأوطأ قومه بلاد مغراوة سنة اثنتين وخمسين، وفل جموعهم، وغلبهم على الضاحية والأمصار.

وأحجر علي بن راشد بتنس في شرذمة من قومه، وأناخ بعساكره عليه وطال الحصار ووقع الغلب. ولما رأى علي بن راشد أن قد احيط به دخل إلى زاوية من زوايا قصره، وانتبذ فيها عن الناس، وذبح نفسه بحد حسامه وصار مثلا وحديثا للأخرين. واقتحم البلد لحينه، واستلحم من عثر عليه من مغراوة، ونجا الآخرون إلى أطراف الأرض، ولحقوا بأهل الدول، فاستركبوا واستلحقوا وصاروا جندا للدول، وحشما واتباعا، وانقرض أمرهم من بلاد شلف.

ثم كانت لبني مرين الكرة الثانية إلى تلمسان، وغلبوا آل زيان، ومحوا آثارهم. ثم فاء ظلهم بملك السلطان أبي عنان، وحسر تيارهم. وجدد الناجمون من آل يغمراسن دولة ثالثة بمكان عملهم على يد أبي حمو الأخير ابن موسى بن يوسف كما نذكره في أخبارهم. ثم كانت لبني مرين الكرة الثالثة إلى بلد تلمسان ونهض السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن إليها فاتح سنة اثنتين وسبعين، وسرح عساكره في أتباع أبي حمو الناجم بها من آل يغمراسن حين فر أمامه في قومه وأشياعه من العرب كما يأتي ذلك كله. ولما انتهت العساكر إلى البطحاء تلوموا هنالك أياما لإزاحة عللهم. وكان في جملتهم صبي من ولد علي بن راشد الذبيح اسمه حمزة، ربي يتيما في حجر دولتهم لذمام الصهر الذي لقومه فيهم، فكفلته نعمتهم وكنفه جوهم، حتى شب واستوى وسخط رزقه في ديوانهم وحاله بين ولدانهم. واعترض بعض الأيام قائد الجيوش الوزير أبا بكر بن غازي شاكيا، فجبهه وأساء رده، فركب الليل، ولحق بمعقل بني بو سعيد من بلد شلف، فأجاروه ومنعوه، ونادى بدعوة قومه فأجابوه. وسرح إليهم السلطان عبد العزيز وزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة كبير تيربيغين في جيش كثيف من بني مرين والجند، فنزل بساحة ذلك الجبل، فحاصرهم حولا كريتا ينال منهم وينالون منه وامتنعوا عليه واتهم السلطان وزيره بالمداهنة، وسعى به منافسوه، فتقبض عليه، وسرح وزيره الأخر أبا بكر بن غازي، فنهض يجر العساكر الضخمة والجيوش الكثيفة إلى أن نزل

بهم وصبحهم القتال، فقذف الله في قلوبهم الرعب وأنزلهم من معقلهم. وفر حمزة بن علي في فل من قومه، فلحق ببلاد خصين المنتقضين كانوا على الدولة مع أبي زيان بن أبي سعيد الناجم من آل يغمراسن حسبما نذكر. وأتى بنو أبي سعيد طاعتهم، وأخلصوا الضمائر في مغيبهم، وحسن موقعها. وبدا لحمزة في الرجوع إليهم، فأغذ السير في لمة من قومه، حتى إذا ألم بهم نكروه لمكان ما اعتقلوا به صت حبل الطاعة، فتسهل إلى

البسائط وقصد تيمزوغت يظز بها غرة ينتهزها. وبرزت إليه حاميتها ففلوا حده وردوه على عقبه، وتسابقوا في أتباعه إلى أن تقبضوا عليه، وقادوه إلى الوزير ابن غازي بن الكاس.

فأوعز إليه السلطان بقتله في جملة أصحابه، فضرب أعناقهم، وبعث بها إلى سدة السلطان. وصلب أشلاءهم على خشب مسندة نصبها لهم ظاهر مليانة، وامحى أثر مغراوة، وانقرض أمرهم، وأصبحوا خولا للأمراء، وجندا في الدول، وأوزاعا في الأقطار كما كانوا قبل هذه الدولة الأخيرة لهم. والبقاء لله وحده، وكل شيء هالك إلا وجهه.

دولة بني عبد الواد

الخبر عن دولة بني عبد الواد من هذه الطبقة الثانية

وما كان لهم بتلمسان وبلاد المغرب الأوسط

من الملك والسلطان وكيف كان

مبدأ أمرهم ومصائر أحوالهم

قد تقدم لنا في أول هذه الطبقة الثانية من زناتة ذكر بني عبد الواد هؤلاء، وأنهم من ولد بادين بن محمد إخوة توجين ومصاب وزردال وبني راشد، وأن نسبهم يرتفع إلى زحيك بن واسين بن ورشيك بن جانا، وذكرنا كيف كانت حالهم قبل الملك في مواطنهم تلك. وكان إخوانهم بمصاب وجبل راشد وفيكيك وملوية، ووصفنا من حال فتنتهم مع بني مرين إخوانهم المجتمعين معهم بالنسب في زحيك بن واسين.

و لم يزل بنو عبد الواد هؤلاء بمواطنهم تلك، وكان إخوانهم بنو راشد وبنو زردال وبنو مصاب منجدين إليهم بالنسب والحلف، وبنو توجين منابذين لهم أكثر أزمانهم، و لم يزالوا جميعا متغلبين على ضاحية المغرب الأوسط عامة الأزمان، وكانوا تبعا فيه لبني ومانوا وبني يلومي حين كان لهم التغلب فيه. وربما يقال إن شيخهم لذلك العهد كان يعرف بيوسف بن تكفا، حتى إذا نزل عبد المؤمن والموحدون نواحي تلمسان، وسارت عساكرهم إلى بلاد زناتة تحت راية الشيخ أبي حفص، فأوقعوا بهم كما ذكرناه، حسنت بعد ذلك طاعة بني عبد الواد وانحياشهم إلى الموحدين، وكانت بطونهم وشعوبهم كثيرة أظهرها فيما يذكرون ستة: بنو ياتكين وبنو وللو وبنو ورصطف ومصموحة وبنو تومرت وبنو القاسم. ويقولون بلسانهم ايت القاسم، وايت حرف الإضافة النسبية عندهم. ويزعم بنو القاسم هؤلاء أنهم من ولد القاسم بن إدريس. وربما قالوا في هذا القاسم أنه ابن محمد بن إدريس أو ابن محمد بن عبد الله أو ابن محمد بن القاسم، وكلهم من أعقاب إدريس، مزعماً لا مستند له إلا اتفاق بني القاسم هؤلاء عليه، مع أن البادية بعداء عن معرفة مثل هذه الأنساب. والله أعلم بصحة ذلك. وقد قال يغمراسن بن زيان أبو ملوكهم لهذا العهد لما رفع نسبهم إلى إدريس كما يذكرونه، فقال برطانتهم ما معناه: إن كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله. وأما الدنيا فإنما نلناها بسيوفنا. و لم تزل رياسة بني عبد الواد في بني القاسم لشدة شوكتهم، واعتزاز

عصبتهم، وكانوا بطونا كثيرة: فمنهم بنو يكنيمن بن القاسم. وكان منهم ويغرن بن مسعود بن يكنيمن وأخواه يكنيمن وعمر، وكان أيضا أعدوي بن يكنيمن الأكبر، ويقال الأصغر. ومنهم أيضا عبد الحق بن منغفاد من ولد ويغرن. وكانت الرياسة عليهم لعهد عبد المؤمن لعبد الحق بن منغفاد واعدوى بن يكنيمن.

وعبد الحق بن منغفاد هو الذي استنفد الغنائم من يد بني مرين، وقتل المخضب بمسوف حين بعثه عبد المؤمن مع الموحدين لذلك. والمؤرخون يقولون عبد الحق بن معاد بميم وعين مهملة مفتوحتين وألف بعدها دال؟ وهو غلط، وليس هذا اللفظ بهذا الضبط من لغة زناتة، وإنما هو تصحيف منغفاد بميم ونون بعدها مفتوحتين، وغين بعدهما معجمة ساكنة وفاء مفتوحة، والله أعلم.

ومن بطون بني القاسم بنو مطهر بن يمل بن يزكن بن القاسم. وكان حمامة بن مطهر من شيوخهم لعهد عبد المؤمن، وأبلى في حروب زناتة مع الموحدين، ثم حست طاعته وانحياشه ومن بطون بني القاسم أيضا بنو علي؛ وإليهم انتهت رياستهم، وهم أشدهم عصبية وأكثرهم جمعا، وهم أربعة أفخاذ: بنو طاع الله وبنو دلول وبنو كمي وبنو معطي بن جوهر، والأربعة بنو علي. ونصاب الرياسة في بني طاع الله لبني محمد بن زكدان بن تيدوكسن بن طاع الله. هذا ملخص الكلام في نسبهم.

ولما ملك الموحدون بلاد المغرب الأوسط وبلوا من طاعتهم وأنحياشهم ما كان سببا لاستخلاصهم؛ فأقطعوهم عامة بلاد بني يلومي وبني ومانوا، وأقاموا بتلك المواطن، وحدثت الفتنة ين بني طاع الله وبني كمي إلى أن قتل كندوز سن بني كمي زيان بن ثابت كبير بني محمد بن زكدان وشيخهم. وقام بأمرهم بعده جابر ابن عمه يوسف بن محمد؟ فثار من كندوز بزيان ابن عمه، وقتله به في بعض أيامهم وحروبهم.

ويقال قتله غيلة، وبعث برأسه ورؤوس أصحابه إلى يغمراسن بن زيان بن ثابت، فنصبت عليها القدور أثافي شفاية لنفوسهم من شأن أبيه زيان.

وافترق بنو كفي، وفر بهم عبدالله ن كندوز كبيرهم، فلحقوا بتونس. ونزل على الأمير أبي زكرياء كما سنذكره بعد. واستبد جابر بن يوسف بن محمد برياسة بني عبد الواد. وأقام هذا الحي من بني عبد الواد بضواحي المغرب الأوسط، حتى إذا فشل ريح بني عبد المؤمن، وانتزى يحيى بن غانية على جهات قابس وطرابلس، وردد الغزو والغارات على بسائط إفريقية والمغرب الأوسط فاكتسحها وعاث فيها، وكبس الأمصار فاقتحمها، وانتهب بلاد زناتة، وقتل أمراءهم ، ودخل تلمسان ووهران واستباحهما وغيرهما من بلاد المغرب الأوسط، وألح على تاهرت بالغارة وإفساد السابلة وانتهاب الزرع، وحطم النعم، إلى أن خربت وعفى رسمها لسني الثلاثين من المابة السابعة. وكانت تلمسان لذلك العهد نزلا للحامية ومناخا للسيد من القرابة الذي يضم نثرها، وبذب عن أنحائها. وكان المأمون استعمل على تلمسان أخاه السيد أبا سعيد، وكان غفلا ضعيف التدبير. وغلب الحسن بن حبون من مشيخة قومه كومية، وكان عاملا على الوطن، وكانت في نفسه من بني عبد الواد ضغائن جرها ما كان حدث لهم من التغلب على الضاحية وأهلها، فأغرى السيد أبا سعيد بجماعة مشيخة منهم وفدوا عليه، فتقبض عليهم واعتقلهم.

وكان في حامية تلمسان لمة من بقايا لمتونة تجافت الدولة عنهم، وأثبتهم عبد المؤمن في الديوان، وجعلهم مع الحامية. وكان زعيمهم في ذلك العهد إبراهيم بن إسماعيل بن علان، وشفع عندهم في المشيخة المعتقلين من بني عبد الواد، فردوه فغضب وحمى أنفه، وأجمع الانتقاض والقيام بدعوة ابن غانية، فجدد ملك المرابطين من قومه بقاصية الشرق، فاغتار الحسن بن حبون لحينه، وتقبض على السيد أبي سعيد، وأطلق المشيخة من بني عبد الواد، ونقض طاعة المأمون، وذلك سنة أربع وعشرين. فطير الخبر إلى ابن غانية فأغذ إليه السير. ثم بدا له في أمر بني عبد الواد، ورأى أن ملاك أمره في خضد شوكتهم وخفض جناحهم، فحدث نفسه بالفتك بمشيختهم، ومكر بهم في دعوة واعدهم لها. وفطن لتدبير ذلك جابر بن يوسف شيخ بني عبد الواد، فواعده اللقاء والمؤازرة، وطوى له على النث، وخرج إبراهيم بن علان إلى لقائه، ففتك به جابر. وبادر إلى البلد فنادى بدعوة المأمون

وطاعته، وكشف لأهلها القناع عن مكر ابن علان بهم، وما أوقعهم فيه من ورطة ابن غانية، فحمدوا رأيه وشكروا جابراً على صنيعه، وجددوا البيعة للمأمون. واجتمع إلى جابر في أمره هذا كافة بني عبد الواد وأحلافهم من بني راشد، وبعث إلى المأمون بطاعته واعتماله في القيام بدعوته، فخاطبه بالشكر، وكتب له العهد على تطمسان وسائر بلاد زناتة على رسم السادة الذين كانوا يلون ذلك من القرابة، فاضطلع بأمر المغرب الأوسط، وكانت هذه الولاية ركابا إلى صهوة الملك الذي اقتعدوه. ثم انتقض عليه أهل ندرومة بعد ذلك، فنازلهم، وهلك في حصارها بسهم غرب أثبته سنة تسع وعشرين.

وقام بالأمر من بعده ابنه الحسن، وجدد له المأمون عهده بالولاية، ثم ضعف عن الأمر وتخفى عنه لستة أشهر من ولايته. ودفع إليه عمه عثمان بن يوسف، وكان سيء الملكة كثير العسف والجور، فثارت به الرعايا بتلمسان وأخرجوه سنة إحدى وثلاثين، وارتضوا لمكانه ابن عمه زكران بن زيان بن ثابت الملقب بأبي عزة فاستدعوه لها، وولوه على أنفسهم وبلدهم، وسلموا له أمرهم. وكان مضطلعا بأمر زناتة مستبداً برياستهم ومستوليا على سائر الضواحي، فنفس أبو مطهر عليه وعلى قومه بني علي إخوانهم ما آتاهم الله من الملك، وأكرمهم به من السلطان. وجسدوا زكران وسلفه فيما صار لهم من الملك، فشاقوه ودعوا إلى الخروج عليه. واتبعهم بنو راشد بن محمد أحلافهم منذ عهد الصحراء، وجمع لهم أبو عزة سائر قبائل بني عبد الواد، فكانت بينه وبينهم حرب سجال هلك في بعض أيامها سنة ثلاث وثلاثين. وقام بالأمر من بعده أخوه يغمراسن بن زيان، فوقع التسليم والرضى به من سائر القبائل، ودان له بالطاعة جميع الأمصار. وكتب له الخليفة الرشيد بالعهد على عمله، وكان له ذلك سلما إلى الملك الذي أورثه بنيه سائر الأيام.

الخبر عن تلمسان وما تأدى إلينا من أحوالها من لدن الفتح إلى أن تأثل بها سلطان بني عبد الواد ودولتهم:

هذه المدينة قاعدة المغرب الأوسط، وأم بلاد زناتة اختطها بنو يفرن بما كانت في مواطنهم، ولم نقف على أخبارها فيما قبل ذلك. وما يزعم بعض العوام من ساكنها أنها صفحة فراغ أزلية البناء، وإن الجدار الذي ذكر في القرآن في قصة الخضر وموسى عليهما السلام هو بناحية أكادير منها، فأمر بعيد ني التحصيل، لأن موسى

عليه السلام لم يفارق المشرق إلى المغرب، وبنو إسرائيل لم يتسع ملكهم لإفريقية فضلاً عما وراءها، وإنما هي من مقالات التشيع المجبول عليه أهل العالم في تفضيل ما ينسب إليهم أو ينسبون إليه من بلد أو أرض أو علم أو صناعة. ولم نقف لها على خبر أقدم من خبر ابن الرقيق بأن أبا المهاجر الذي ولي إفريقية بين ولايتي عقبة بن نافع الأولى والثانية توغل في ديار المغرب، ووصل إلى تلمسان، وبه سميت عيون المهاجر قريبا منها. وذكرها الطبري عند ذكر أبي قرة اليفرني وأجلابه مع أبي حاتم والخوارج مع عمر بن حفص بطبنة. ثم قال فأفرجوا عنه، وانصرف أبو قرة إلى مواطنه بنواحي تلمسان. وذكرها ابن الرقيق أيضاً في أخبار إبراهيم بن الأغلب قبل استبداده بإفريقية، وأنه توغل في غزوه إلى المغرب ونزلها، واسمها في لغة زناتة مركب من كلمتين تلم سين ومعناهما تجمع من اثنين، يعنون إلى البر والبحر.

ولما خلص إدريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن إلى المغرب الأقصى واستولى عليه، نهض إلى المغرب الأوسط سنة أربع وسبعين فتلقاه محمد بن خزر بن صولات أمير زناتة وتلمسان، فدخل في طاعته وحمل عليها مغراوة وبني يفرن، وأمكنه من تلمسان فملكها، واختط مسجدها، وصنع منبره، وأقام بها أشهرا وانكفأ راجعا إلى المغرب. وجاء على أثره من المشرق أخوه سليمان بن عبد الله، فنزلها وولاه أمرها. ثم هلك إدريس، وضعف أمرهم. ولما بويع لابنه إدريس من بعده، واجتمع إليه برابرة

المغرب، نهض إلى تلمسان سنة تسع وتسعين وماية، فجدد مسجدها وأصلح منبرها، وأقام بها ثلاث سنين، ودوخ فيها بلاد زناتة، واستوسقت له طاعتهم. وعقد عليها لبني محمد ابن عفه سليمان. ولما هلك إدريس الأصغر، واقتسم بنوه أعمال المغربين بإشارة أمه كنزة، كانت تلمسان في سهمان عيسى بن إدريس ن محمد بن سليمان وأعمالها لبني أبيه محمد بن سليمان. فلما انقرضت دولة الأدارسة من المغرب، وولي أمره موسى بن أبي العافية بدعوة الشيعة، نهض إلى تلمسان سنة تسع عشرة، وغلب عليها أميرها لذلك العهد الحسن بن أبي العيش بن عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان، ففرعنها إلى مليلة، وبنى حصناً لامتناعه بناحية نكور، فحاصره مدة، ثم عقد له سلما على حصنه.

ولما تغلب الشيعة على المغرب الأوسط أخرجوا أعقاب محمد بن سليمان من سائر أعمال تلمسان، فأخذوا بدعوة بني امية من وراء البحر وأجازوا إليهم. وتغلب يعلى بن محمد اليفرني على بلاد زناتة والمغرب الأوسط؟ فعقد له الناصر الأموي عليها وعلى تلمسان أعوام أربعين وثلاثماية. ولما هلك يعلى، وقام بأمر زناتة بعده محمد بن الخير بن محمد بن خزر داعية الحكم المستنصر، فملك تلمسان أعوام ستين. وهلك في حروب صنهاجة، وغلبوهم على بلادهم، وانجلى إلى المغرب الأقصى. ودخلت تلمسان في عمالة صنهاجة إذ انقسمت دولتهم، وافترق أمرهم. واستقل بإمارة زناتة وولاية المغرب زيري بن عطية؟ وطرده المنصور بن أبي عامر عن المغرب، فصار إلى بلاد صنهاجة، وأجلب عليها، ونازل معاقلها وأمصارها: مثل تلمسان ووهران وتنس وأشير والمسيلة. ثم عقد المظفر بعد حين لابنه المعز بن زيري على عمل المغرب سنة ست وتسعين، واستعمل على تلمسان ابنه يعلى بن زيري، واستقرت ولايتها في عقبه إلى أن انقرض أمرهم على يد لمتونة. وعقد يوسف بن

تاشفين عليها لمحمد بن تينعمر المسوفي وأخيه تاشفين من بعده، واستحكمت الفتنة بينه وبين المنصور بن الناصر صاحب القلعة من ملوك بني حماد، ونهض إلى تلمسان وأخذ بمخنقها، وكان يغلب عليها كما ذكرنا ذلك كله في مواضعه.

ولما غلب عبد المؤمن لمتونة، وقتل تاشفين بن علي بوهران خربها وخرب تلمسان بعد أن قتل الموحدون عامة أهلها، وذلك أعوام أربعين من المائة السادسة. ثم راجع رأيه فيها، وندب الناس إلى عمرانها، وجمع الأيدي على رم ما تثلم من أسوارها وعقد عليها لسليمان بن وانودين من مشايخ هنتاتة وآخى بين الموحدين وبين هذا الحي من بني عبد الواد بما بلى من طاعتهم وانحياشهم. ثم عقد عليها لابنه السيد أبي حفص، ولم يزل آل عبد المؤمن من بعد ذلك يستعملون عليها من قرابتهم وأهل بيتهم، ويرجعون إليه أمر المغرب كله وزناتة أجمع، اهتماما بأمرها واستعظاما لعملها.

وكان هؤلاء الأحياء من زناتة بنو عبد الواد وبنو توجين وبنو راشد قد غلبوا على ضواحي تلمسان والمغرب الأوسط، وملكوها وتقلبوا في بسائطها، واحتازوا بأقطاع الدولة الكثير من أرضها والطيب من بلادها والوافر للجباية من قبائلها، فإذا خرجوا إلى مشايخهم بالصحراء خلفوا أتباعهم بالتلول لاعتمار أرضهم وازدراع فدنهم وجباية الخراج من رعاياهم. وكان بنو عبد الواد من ذلك فيما بين البطحاء وملوية، ساحله وريفه وصحراءه. وصرف ولاة الموحدين بتلمسان من السادة نظرهم واهتمامهم إلى تحصينها وتشييد أسوارها، وحشد الناس إلى عمرانها، والتناغي في تمصيرها واتخاذ الصروح والقصور بها والاحتفال في مقاصر الملك واتساع خطة الدور.

وكان من أعظمهم اهتماما بذلك وأوسعهم فيه نظرا السيد أبو عمران موسى ابن أمير المؤمنين يوسف العشري ووليها سنة ست وخمسين على عهد أبيه يوسف بن عبد المؤمن. واتصلت أيام ولايته فيها، فشيد بناءها وأوسع خطتها وأدار سياج الأسوار عليها. ووليها من بعد السيد أبو الحسن بن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن، وتقبل فيها مذهبه. ولما كان من أمر بني غانية وخروجهم من ميورقة سنة إحدى وثمانين ما قدمناه وكبسوا بجاية فملكوها، وتخطوا إلى الجزائر ومليانة فغلبوا عليهما، تلافى السيد أبو الحسن أمره بإمعان النظر في تشييد أسوارها والاستبلاغ في تحصينها، وسد فروجها، وأعماق الحفائر نطاقا عليها، حتى صيرها أمنع معاقل المغرب، وأحسن أمصاره. وتقبل ولاتها بهذا المذهب من بعده في المعتصم بها. واتفق من الغرائب أن أخاه السيد أبا زيد هو الذي دفع لحرب بني غانية، فكان لهما في رقع الخرق والمدافعة عن الدولة آثار. وكان ابن غانية قد اجتمع إليه ذؤبان العرب من الهلاليين بإفريقية، وخالفهم زغبة إحدى بطونهم إلى الموحدين، وتحيزوا إلى زناتة المغرب الأوسط، وكان مفزعهم جميعا ومرجع نقضهم وإبرامهم إلى العامل بتلمسان من السادة في مثواهم وحامي حقيقتهم. وكان ابن غانية كثيرا ما يجلب على ضواحي تلمسان وبلاد زناتة ويطرقها بمن معه من ناعق الفتنة إلى أن خرب الكثير من أمصارها مثل تاهرت وغيرها فأصبحت تلمسان قاعدة المغرب الأوسط، وأم هؤلاء الأحياء من زناتة المغرب، والكافلة لهم المهيئة في حجرها مهاد نومتهم بما خربت المدينتان اللتان كانتا من قبل قواعد الدول السالفة والعصور الماضية وهما: أرشكول بسيف البحر، وتاهرت فيما بين

الريف والصحراء قبلة البطحاء. وكان خراب هاتين المدينتين فيما خرب من أمصار المغرب الأوسط في فتنة ابن غانية، وبأجلاب هؤلاء الأحياء من زناتة وطلوعهم على أهلها بسوم الخسف والعيث والنهب، وتخطف الناس من السابلة وتخريب العمران، ومغالبتهم حاميتها من عساكر الموحدين: مثل قصر عجيسة وزرقة والخضراء وشلف ومتيجة وحمزة ومرسى الدجاج والجعبات والقلعة، فلم تبصر بها نار ولا لفحت بها لنافخ ضرمة، ولا صرخت لها أخر الدهر ديكة. ولم يزل عمران تلمسان يتزايد، وخطتها تتسع، والصروح بها بالاجر والقرميد تعالى وتشاد؛ إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها دارا لملكهم وكرسيا لسلطانهم فاختطوا بها القصور المونقة والمنازل الحافلة واغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب. ورحل إليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع فنشأ بها العلماء، واشتهر فيها الأعلام. وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية. والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن استقلال يغمراسن بن زيان بالملك والدولة بتلمسان وما إليها وكيف مهد الأمر لقومه و أصاره تراثا لبنيه:

كان يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد من أشد هذا الحي بأسا، وأعظمهم في

النفوس مهابة وجلالة، وأعرفهم بمصالح قبيله، وأقواهم كاهلا على حماى الملك واضطلاعا بالتدبير والرياسة، مهدت له بذلك آثار قبل الملك وبعده. وكان مرموقا بعين التجلة مؤملاً للأمر عند المشيخة. وتعظمة من أمره عند الخاصة، ويفزع إليه في نوائبه العامة. فلما ولي هذا الأمر بعد مهلك أخيه أبي عزة زكدان بن زيان سنة ثلاث وثلاثين، فقام به أحسن قيام، واضطلع بأعبائه، وظهر على بني مطهر وبني راشد الخارجين على أخيه، وأصارهم في جملته وتحت سلطانه. وأحسن السيرة في الرعية، واستمال عشيره وقبيله وأحلافهم من زغبة بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار، واتخذ الآلة ورتب الجنود والمسالح، واستلحق العساكر من الروم والغز رامحة وناشبة. وفرض العطاء واتخذ الوزراء والكتاب، وبعث في الجهات العمال، ولبس شارة الملك والسلطان، واقتعد الكرسي ومحا من آثار الدولة المؤمنية، وعطل من الأمر والنهي دستها، ولم يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش، وتناول التقليد والعهد من يده تأنيسا للكافة ومرضاة للأكفاء من قومه. ووفد عليه لأول دولته ابن وضاح إثر دولة الموحدين، أجاز البحر مع جالية المسلمين من شرق الأندلس، فآثره وقرب مجلسه وأكرم نزله، وأحله من الخلة والشورى بمكان اصطفاه له. ووفد في جملته أبو بكر بن الخطاب المبايع لأخيه بمرسية، وكان مرسلا بليغا، وكاتبا مجيدا، وشاعرا محسناً، فاستكتبه وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس في عهود بيعاتهم ما تنوقل وحفظ. ولم يزل يغمراسن محاميا عن غيله محاربا لعدوه. وكانت له مع ملوك الموحدين من آل عبد المؤمن ومديلهم من آل أبي حفص مواطن في التمرس به ومنازلة بلده، نحن ذاكروه كذلك. وبينه وبين أقتاله بني مرين قبل ملكهم المغرب وبعد ملكه وقائع متعددة. وله على زناتة الشرق من توجين ومغراوة في فل جموعهم، وانتساف بلادهم وتخريب أوطانهم أيام مذكورة وآثار معروفة، نشير إلى جميعها إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء الأمير أبي زكرياء علي تلمسان ودخول يغمراسن في دعوته:

ولما استقل يغمراسن بن زيان بأمر تلمسان والمغرب الأوسط، وظفر بالسلطان، وعلا كعبه على سائر أحياء زناتة، قسوا عليه ما آتاه الله من العز، وكرمه به من الملك، فنابذوه العهد وشاقوه الطاعة، وركبوا له ظهر الخلاف والعداوة، فشمر لحربهم ونازلهم في ديارهم، وأحجرهم في حصونهم ومعتصماتهم من شواهق الجبال وممتنع الأمصار. وكانت له عليهم أيام مشهورة ووقائع مذكورة معروفة، وكان متولي كبر هذه المشاقة عبد القوي بن العباس شيخ بني توجين أقتالهم من بني بادين، والعباس بن منديل بن عبد الرحمن وإخوته أمراء مغراوة. وكان المولى الأمير أبو زكرياء بن أبي حفص منذ استقل بأمر إفريقية، واقتطعها عن الإيالة المؤمنية سنة خمس وعشرين كما ذكرناه، متطاولا إلى احتياز المغرب والاستيلاء على كرسي الدعوة بمراكش، وكان يرى أن بمظاهرة زناتة له على شأنه يتئم ما يسمو إليه من ذلك، فكان يداخل امراء زناتة، فيرغبهم ويراسلهم بذلك على الأحياء من بني مرين وبني عبد الواد وتوجين ومغراوة. وكان يغمراسن منذ تقلد طاعة آل عبد المؤمن، أقام دوعوتهم بعمله متحيزا إليهم سلما لوليهم وحربا على عدوهم. وكان الرشيد منهم قد ضاعف له البر والخلوص، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة، وعاوده الإتحاف بأنواع الألطاف والهدايا عام سبعة وثلاثين تقمنا لمسراته، وميلا إليه عن جانب أقتاله بني مرين المجلبين على المغرب والدولة. واحفظ الأمير أبا زكرياء يحيى بن عبد الواحد صاحب إفريقية ما كان من اتصال يغمراسن بالرشيد، وهو من جواره بالمحل القريب، واستكره ذلك. وبينما هو على ذلك إذ وفد عليه عبد القوي بن العباس، وولد منديل بن محمد صريخا على يغمراسن، فسهلوا له أمره وسولوا له الاستيلاء على تلمسان، وجمع كلمة زناتة، واعتداد ذلك ركابا لما يرومه من امتطاء ملك الموحدين وانتظامه في أمره، وسلما لارتقاء ما يسمو إليه من ملكه، وبابا للولوج على أهله، فحركه أملاؤهم وهزه إلى النعرة صريخهم، وأهاب بالموحدين وسائر الأولياء والعساكر إلى الحركة على تلمسان، واستنفر لذلك سائر البدو من الأعراب الذين في عمله من بني سليم ورياح بظعنهم فأهطعوا لداعيه، ونهض سنة تسع وثلاثين في عساكر ضخمة وجيوش وافرة، وسرح إمام حركته عبد القوي بن العباس وأولاد منديل بن محمد لحشد من بأوطانهم من أحياء زناتة وأتباعهم وذؤبان قبائلهم وأحياء زغبة أحلافهم من العرب، وضرب لهم موعدا لموافاتهم في تخوم بلادهم. ولما نزل زاغر قبلة تيطرى منتهى مجالات رياح وبني سليم في المغرب، وافته هنالك أحياء زغبة

من بني عامر وص يد، وارتحلوا معه حتى نازل تلمسان، فجمع عساكر الموحدين وحشد زناتة وظعن المغرب، بعد أن قدم إلى يغمراسن الرسل من مليانة والأعذار والبراءة والدعاء إلى الطاعة، فرجعهم بالخيبة.

ولما حلت العساكر الموحدين بساحة البلد، وبرز يغمراسن وجموعه للقاء نضحتهم ناشبة السلطان بالنبل، فانكشفوا ولاذوا بالجدران، وأعجزوا من حماية الأسوار، فاستمكنت المقاتلة من الصعود. ورأى يغمراسن أن قد احيط بالبلد، فقصد باب العقبة من أبواب تلمسان ملتفا على ذويه وخاصته، واعترضته عساكر الموحدين، فصمم نحوهم وجندل بعض أبطالهم، فأفرجوا له ولحق بالصحراء. وانسلت الجيوش إلى البلد من كل حدب،

فاقتحموه وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان واكتساح الأموال. ولما تجفى غشي تلك الهيعة، وحسر تيار الصدمة، وخمدت نار الحرب راجع الموحدون بصائرهم، وأنعم الأمير أبو زكرياء نظره فيمن يقلده أمر تلمسان والمغرب الأوسط، وينزله بثغرها لإقامة دعوته الدائلة من دعوة عبد المؤمن والمدافعة عنها. واستكبر ذلك أشرافهم وتدافعوه، وتبرأ أمراء زناتة منه ضعفا عن مقاومة يغمراسن ، وعلما بأنه الفحل الذي لا يقرع أنفه، ولا يطرق غيله، ولا يصد عن فريسته. وسرح يغمراسن الغارات في نواحي المعسكر، فاختطفوا الناس من حوله، وأطلوا من المراقب عليه. وخاطب يغمراسن خلال ذلك الأمير أبا زكرياء رغبا في القيام بدعوته بتلمسان، فراجعه بالإسعاف واتصال اليد على صاحب مراكش، وسوغه على ذلك جباية اقتطعها له، وأطلق أيدي العمال ليغمراسن لجبايتها. ووفدت أمه سوط النساء لاشتراط القبول، فأكرم موصلها وأسنى جائزتها وأحسن وفادتها ومنقلبها، وارتحل إلى حضرته لسبع عشرة ليلة من نزوله. وفي أثناء طريقه وسوس إليه بعض الحاشية باستبداد يغمراسن عليه، وأشاروا بإقامة منافسيه من زناتة وامراء المغرب الأوسط شجا في صدره ومعترضا عن مرامه، وإلباسهم ما لبس من شارة السلطان وزيه فأجابهم. وقلد عبد القوي بن عطية التوجيني والعباس بن منديل المغراوقي وعلي بن منصور المليكشي من قومهم ووطنهم، وعهد إليهم بذلك، وأذن لهم في اتخاذ الآلة والمراسم السلطانية على سنن يغمراسن قريعهم، فاتخذوها بحضرته وبمشهد من ملوك الموحدين، وأقاموا مراسمها ببابه، وأغذ السير إلى تونس قرير العين بامتداد ملكه،

وبلوغ وطره، والإشراف على إذعان المغرب لطاعته وانقياده لحكمه، وإدالة دعوة بني عبد المؤمن فيه بدعوته. ودخل يغمراسن بن زيان ووفى للأمير أبي زكرياء بعهده، وأقام له الدعوة على سائر منابره، وصرف إلى مشانيه من زناتة وجو عزائمه، فأذاق عبد القوي بن العباس وأولاد منديل نكال الحرب، وسامهم سوء العذاب والفتنة، وجاس خلال ديارهم وتوغل في بلادهم، وغلبهم على الكثير من ممالكهم، وشرد من الأمصار والقواعد ولاتهم وأشياعهم ودعاتهم، ورفع عن الرعية ما نالهم من عدوانهم وسوء ملكتهم وثقل عسفهم وجورهم. ولم يزل على تلك الحال إلى أن كان من حركة صاحب مراكش بسبب أخذ يغمراسن بالدعوة الحفصية ما نذكره إن شاء الله تعالى

الخبر عن نهوض السعيد صاحب مراكش ومنازلته يغمراسن بجبل تامز زدكت ومهلكه هنالك:

لما انقضت دولة بني عبد المؤمن، وانتزى الثوار والدعاة بقاصية أعمالهم وقطعوها عن ممالكهم، فاقتطع ابن هود ما وراء البحر من جزيرة الأندلس واستبد بها، وورى بالدعاء للمستنصر بن الظاهر خليفة بغداد من العباسيين لعهده، ودعا الأمير أبو زكريا بى أبي حفص بإفريقية لنفسه وسما إنى جمع كلمة زناتة، والتغلب على كرسي الدعوة بمراكش، فنازل تلمسان وغلب عليها سنة أربعين. وقارن ذلك ولاية السعيد علي المأمون إدريس بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، وكان شهما حازماً يقظاً بعيد الهمة، فنظر في أعطاف دولته، وفاوض الملأ في تثقيف أطرافها وتقويم مائلها. وأثار حفائظهم ما وقع من بني مرين في ضواحي المغرب، ثم في أمصاوه واستيلائهم على مكناسة، وإقامتهم الدعوة الحفصية فيها كما نذكره. فجهز العساكر وأزاح عللهم،

واستنفر عرب المغرب وقبائله، واحتشد كافة المصامدة. ونهض من مراكش اخر سنة خمس وأربعين يريد القاصية، ويشرد بني مرين عن الأمصار الدانية. واعترض العساكر والحشود بوادي بهت،
وأغد السير إلى تازي، فوصلته هنالك طاعة بني مرين كما نذكره. ونفر معه عسكر منهم، ونهض إلى تلمسان وما وراءها. ونجا يغمراسن بن زيان وبنو عبد الواد بأهليهم وأولادهم إلى قلعة لامز زدكت قبلة وجدة، فاعتصموا بها.

ووفد على السعيد الفقيه عبدون وزير يغمراسن مؤديا للطاعة ثابتا في مذاهب الخدمة، ومتوليا من حاجات الخليفة بتلمسان لما يدعوه إليه ويصرفه في سبيله، ومعذرا عن وصول يغمراسن، فلج الخليفة في شأنه ولم يعذره. وأبى إلا مباشرة طاعته بنفسه، وساعده في ذلك كانون بن جرمون السفياني صاحب الشورى بمجلسه ومن حضر من الجلة. ورجعوا عبدونا لاستقدامه، فتثاقل خشية على نفسه. واعتمد السعيد الجبل في عساكره وأناخ بها في ساحه وأخذ بمخنقهم ثلاثا، ولرابعتها ركب مهجرا على حين غفلة من الناس في قايلتهم ليتطوف على المعتصم، ويتقرى مكانه. وبصر به فارس من القوم بعرف بيوسف بن عبد المؤمن الشيطان، كان أسفل الجبل للاحتراس، وقريبا منه يغمراسن بن زيان وابن عمه يعقوب بن جابر، فانقضوا عليه من بعض الشعاب، وطعنه يوسف فأكبه عن فرسه. وقتل يعقوب بن جابر وزيره يحيى بن عطوش. ثم استلحموا لوقتهم موليه ناصحا من المعلوجي وعنبرا من الخصيان، وقائد جند النصارى أخو القمط، ووليدا يافعا من ولد السعيد.
ويقال إنما كان يوم عبا العساكر وصعد الجبل للقتال، وتقدم أمام الناس فاقتطعه بعض الشعاب المتوعرة في طريقه، فتواثب به هؤلاء الفرسان وكان ما ذكرناه، وذلك لصفر من سنة ست وأربعين. ووقعت النفرة في العساكر لطائر الخبر فأجفلوا، وبادر يغمراسن إلى السعيد، وهو صريع بالأرض، فترل إليه وحياه وفداه؛ وأقسم له على البراءة من هلكته، والخليفة واجم بمصرعه يجود بنفسه إلى أن فافر، وانتهب المعسكر بجملته، وأخذ بنو عبد الواد ما كان به من الأخبية والفازات. واختص يغمراسن بفسطاط السلطان فكان له خالصة دون قومه، واستولى على الذخيرة التي كانت فيه: منها مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، يزعمون أنه أحد المصاحف التي انتسخت لعهد خلافته، وأنه كان في خزائن قرطبة عند ولد عبد
الرحمن الداخل، حتى صار في ذخائر لمتونة فيما صار إليهم من ذخائر ملوك الطوائف بالأندلس، ثم إلى ذخائر الموحدين من خزائن لمتونة، وهو لهذا العهد في خزائن بني مرين بفاس فيما استولوا عليه من ذخيرة آل زيان حين غلبهم إياهم على تلمسان، واقتحامها عنوة على ملكها منهم عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن، فريسة السلطان أبي الحسن، مقتحمها غلابا سنة سبع وثلاثين كما نذكره. ومنها العقد المنتظم من خرزات الياقوت الفاخرة والدرر، المشتمل على مئين متعددة من حصبائه يسمى بالثعبان، وصار في خزائن بني مرين منذ ذلك الغلاب فيما اشتملوا عليه من ذخيرتهم، إلى أن تلف في البحر عند غرت الأسطول بالسلطان أبي الحسن بمراسي بجاية مرجعه من تونس حسبما نذكره بعد، إلى ذخائر من أمثاله وطرف من أشباهه بما يستخلص الملوك لخزائنهم ويعنون به من ذخائرهم. ولما سكنت النغرة وركد عاصف تلك الهيمة نظر

يغمراسن في شأن مواراة الخليفة، فجهز ورفع علي الأعواد إلى مدفنه بالعباد بمقبرة الشيخ أبي مدين عفا الله عنه. ثم نظر في شأن حرمه واخته تاعزونت الشهيرة الذكر، بعد أن جاءها واعتذر إليها مما وقع، وأصحبهن جملة من مشيخة بني عبد الواد إلى مأمنهم ألحقوهن بدرعة عند تخوم طاعتهم، فكان له بذلك حديث جميل في الإبقاء على الحرم، ورعي مراتب أ الملك. ورجع إلى تلمسان، وقد خضدت شوكة بني عبد المؤمن وأمنهم على سلطانه. والبقاء لله وحده.

الخبر عفا كان بينه وبين بني مرين من الأحداث سائر أيامه:

قد ذكرنا ما كان من هذين الحيين من المناغاة والمنافسة منذ الآماد المتطاولة، بما كانت مجالات الفريقين بالصحراء متجاورة، وكان التخم بين الفريقين من وادي صا إلى فيكيك. وكان بنو عبد المؤمن عند فشل الدولة وتغلب بني مرين على ضاحية المغرب يستجيشون ببني عبد الواد مع عساكر الموحدين على بني مرين فيجوسون خلال المغرب ما ين تازى إلى فاس إلى القصر في سبيل المظاهرة للموحدين والطاعة لهم. وسنذكر في أخبار بني مرين كثيرا من ذلك. فلما هلك السعيد وأسف بنو مرين إلى ملك المغرب،

سما ليغمراسن أمل في مزاحمتهم. وكان أهل فاس بعد تغلب أبي يحيى بن عبد الحق عليهم قد نقموا على قومه سوء السيرة، وتمشت رجالاتهم في اللياذ بطاعة الخليفة المرتضى، ففعلوا فعلتهم في الفتك بعامل أبي يحيى بن عبد الحق، والرجوع إلى طاعة الخليفة. وأغذ أبو يحيى السير إلى منازلهم، فحاصرهم شهورا. وفي أثناء هذا الحصار اتصلت المخاطبة بين الخليفة المرتضى ويغمراسن بن زيان في الأخذ بحجرة أبي يحيى بن عبد الحق عن فاعر، فأجاب يغمراسن داعيه، واستنفر لها إخوانه من زناتة فنفر معه عبد القوي بن عطية بقومه من بني توجين وكافة القبائل من زناتة والمغرب، ونهضوا جميعا إلى المغرب. وبلغ خبرهم إلى أبي يحيى بن عبد الحق بمكانه من حصار فاس، فجمر كتائبه عليها، ونهض للقائهم في بقية العساكر، والتقى الجمعان بايسلى من ناحية وجدة. وكانت هنالك الواقعة المشهورة بذلك المكان انكشفت فيها جموع يغمراسن، وهلك منهم يغمراسن بن تاشفين وغيره، ورجعوا في ففهم إلى تلمسان. واتصلت بعد ذلك بينهم الحروب والفتنات سائر أيامه، وربما تخللتها المهادنات قليلا.

وكان بينه وبين يعقوب بن عبد الحق ذمة مواصلة أوجب له رعيها، وكثيرا ما كان يثني عنه أخاه أبا يحيى من أجلها. ونهض أبو يحيى بن عبد الحق سنة خمس وخمسين إلى قتاله، وبرز إليه يغمراسن، وتزاحفت جموعهم بأبي سليط؛ فانهزم يغمراسن واعتزم أبو يحيى على أتباعه، فثناه عن ذلك أخوه يعقوب بن عبد الحق.

ولما قفل إلى المغرب، صمد يغمراسن إلى سجلماسة، لمداخلة كانت بينه وبين المنبات من عرب المعتل، أهل مجالاتها وذئاب فلاتها، حدثته نفسه اهتبال الغرة في سجلماسة من أجلها، وكانت قد صارت إلى إيالة أبي يحيى بن عبد الحق منذ ثلاث كما ذكرناه في أخبارهم. ونذر بذلك أبو يحمى، فسابق إليها يغمراسن بمن حضره من قومه فثقفها وسد فرجها. ووصل يغمراسن عقب ذلك بعساكره، وأنا بها وامتنعت عليه، فأفرج عنها قافلا إلى تلمسان. وهلك أبو يحمى بن عبد الحق إثر ذلك منقلبه إلى فاس، فاستنفر يغمراسن أولياءه من زناتة وأحياء

زغبة. ونهض إلى المغرب سنة سبع وخمسين، وانتهى إلى كلدامان. ولقيه يعقوب بن عبد الحق في قومه فأوقع به، وولى يغمراسن منهزما. ومر بطريقه بتافرسيت فانتسفها وعاث في نواحيها. ثم تداعوا للسلم ووضع أوزار الحرب، وبعث يعقوب بن عبد الحق ابنه أبا مالك لذلك فتولى عقده وإبرامه. ثم كان التقاؤهما سنة تسع وخمسين وستمائة

بواجر قبالة بني يزناسن، واستحكم عقد الوفاق بينهما بعد ذلك، واتصلت المهادنة إلى أن كان بينهما ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن كائنة النصاري وإيقاع يغمراسن بهم:

كان يغمراسن من بعد مهلك السعيد وانفضاض عساكر الموحدين قد استخدم طائفة من جند النصارى الذين كانوا في جملته، مستكثرا بهم معتدا بمكانهم ومباهيا بهم في المواقف والمشاهد. وناولهم طرفا من حبل عنايته، واعتزوا به واستفحل أمرهم بتلمسان، حتى إذا كانت سنة اثنتين وخمسين بعد مرجعه من بلاد توجين في إحدى حركاته إليها، كانت قصة غدرهم الشنعاء التي أحسن الله في دفاعها عن المسلمين. وذلك أنه ركب في بعض أيامه لاعتراض الجنود بباب المغرمادين من أبواب تلمسان. وبينما هو واقف في موكبه عند قايلة الضحى عدا عليه قائدهم، وبادر النصارى إلى محمد بن زيان اخي يغمراسن فقتلوه وأشار له بالنجوى، فبرز من الصف لإسراره وأمكنه من اذنه، فتنكبه النصراني وقد خالطه روعة أحس منها يغمراسن بمكره فانحاص منه. وركض النصراني أمامه يطلب النجاة. وتبين الغدر، وثارت بهم الدهماء من الحامية والرعايا، فأحيط بهم من كل جانب، وتناولتهم أيدي الهلاك في كل مهلك قعصاً بالرماح وهبرا بالسيوف وشدخا بالعصي والحجارة حتى استلحموا، وكان يوما مشهودا. ولم يستخدم من بعدها جند النصارى بتلمسان حذرا من غائلتهم. ويقال إن محمد بن زيان هو الذي داخل القائد في الفتك بأخيه يغمراسن، وأنه إنما قتله عندما لم يتم لهم الأمر تبريا من مداخلته، فلم يمهله غاشي الهيعة للتثبت في شأنها. والله أعلم.

الخبر عن تغلب يغمراسن علي سجلماسة ثم مصيرها بعد إلي أيالة بني مرين:

كان عرب المعقل منذ دخول عرب الهلاليين إلى الصحراء المغرب الأقصى أحلافا وشيعا لزناتة، وأكثر انحياشهم إلى بني مرين إلا ذوي عبيد الله منهم بما كانت مجالاتهم لصق مجالات بني عبد الواد أو مشاركة لها. ولما استفحل شأن بني عبد الواد بين أيدي ملكهم زاحموهم عنها بالمناكب، ونبذوا إليهم العهد واستخلصوا دونهم المنبات من ذوي منصور أقتالهم فكانوا حلفاء وشيعة ليغمراسن ولقومه. وكان سجلماسة في مجالاتهم ومنقلب رحلتهم، وكانت قد صارت إلى ملك بني مرين ثم استبد بها القطراني؛ ثم ثاروا به ورجعوا إلى طاعة المرتضى. وتولى كبر ذلك علي بن عمر كما ذكرناه في أخبار بني مرين. ثم تغلب المنبات على سجلماسة، وقتلوا عاملها علي بن عمر سنة اثنتين وستين، وآثروا يغمراسن بملكها، وداخلوا أهل البلد في القيام بدعوته وحملوهم عليها. وجأجأوا بيغمراسن، فنهض إليها في قومه، وأمكنوه من قيادها فضبطها، وعقد عليها لولده يحيى. وأنزل معه ابن اخته حنينة، واسمه عبد الملك بن محمد بن علي بن قاسم بن درع من ولد محمد، وأنزل

معهما يغمراسن بن حمامة فيمن معهم من عشائرهم وحشمهم. فأقام ابنه يحي أميراً عليها إلى أن هلك، فأدال منه بعبد الملك ابن اخته، فلم يزل والياً عليها إلى أن غلب يعقوب بن عبد الحق الموحدين على دار خلافتهم. وأطاعته طنجة وعامة بلاد المغرب، فوجه عزمه إلى انتزاع سجلماسة من طاعة يغمراسن. وحف إليها في العساكر والحشود من زناتة والعرب والبربر، ونصبوا عليها آلات الحصار، إلى أن سقط جانب من سورها، فاقتحموها منه عنوة في صفر سنة ثلاث وسبعين واستباحوها، وقتل القائدان عبد الملك بن حنينة ويغمراسن بن حمامة ومن معهم من بني عبد الواد وامراء المنبات، وصارت إلى طاعة بني مرين آخر الأيام. والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده.

الخبر عن حروب يغمراسن مع يعقوب بن عبد الحق:

قد ذكرنا ما كان من شأن بني عبد المؤمن عند فشل دولتهم، واستطالة بني مرين عليهم في الاستظهار ببني عبد الواد واتصال اليد بهم في الأخذ بحجرة عدوهم من بني مرين عنهم. ولما هلك المرتضى وولي أبو دبوس سنة خمس وستين، وحمي وطيس فتنته مع يعقوب بن عبد الحق، فراسل يغمراسن في مدافعته، وأكد العهد وأسنى الهدية، فأجابه إليها يغمراسن، وشن الغارات على ثغور المغرب وأضرمها نارا. وكان يعقوب بن عبد الحق محاصرا لمراكش فأفرج عنها ورجع إلى المغرب، واحتشد جموعه، ونهض إلى لقائه. وتزاحف الفريقان بوادي تلاغ، وقد استكمل كل تعبيته، وكانت الوقيعة على يغمراسن استبيحت فيها حرمه واستلحم قومه، وهلك ابنه عمر أبو حفص أعز ولده عليه ي أتراب له من عشيره: مثل ابن عبد الملك بن حنينة، وابن يحي بن مكن، وعمر بن إبراهيم بن هشام، فرجع عنه يعقوب بن عبد الحق إلى مراكش حتى انقضى شأنه في التغلب عليها، ومحا أثر بني عبد المؤمن منها، وفرغ لمحاربة بني عبد الواد. وحشد كافة أهل المغرب من المصامدة والجموع والقبائل. ونهض إلى بني عبد الواد سنة سبعين، فبرز إليه يغمراسن في قومه وأوليائهم من مغراوة والعرب، وتزاحفوا بايسلي من نواحي وجدة، فكانت الدبرة على يغمراسن. وانكشفت جموعه، وقتل ابنه فارس، ونجا بأهله بعد أن أضرم معسكره نارا تفاديا من معرة اكتساحه. ونجا إلى تلمسان فانحجر بها، وهدم يعقوب بن عبد الحق وجدة، ثم نازله بتلمسان، واجتمع إليه هنالك بنو توجين مع أميرهم محمد بن عبد القوي، وصل يده بيد السلطان على يغمراسن وقومه، وحاصروا تلمسان أياما فامتنعت عليهم، وأفرجوا عنها. وولى كل إلى عمله ومكان ملكه، حسبما نذكره في أخبارهم. وانعقدت بينهما المهادنة من بعد ذلك، وفرغ يعقوب بن عبد الحق للجهاد، ويغمراسن لمغالبة توجين ومغراوة على بلادهم إلى أن ى ن من شأنهم ما نذكره.

الخبر عن شأن يغمراسن مع مغراوة وبني توجين وما كان بينهم من الأحداث:

كانت أحياء من مغراوة في مواطنهم الأولى من نواحي شلف قد سالمتهم الدول

عند تلاشي ملكهم، وساموهم الجباية فرضوا بها: مثل بنيئ ورسيفين وبني يليت وبني ورتزمير. وكان فيهم سلطان لبني منديل بق عبد الرحمن من أعقاب آل خزر ملوكهم الأولى، ومنذ عهد الفتح وما بعده على ما ذكرناه في خبرهم. فلما انتثر عقد الخلافة بمراكش، وتشظت عصاها، وكثر الثوار والخوارج بالجهات،

واستقل منديل بن عبد الرحمن،بنوه من بعده بتلك الناحية، وملكوا مليانة وتنس وبرشك وشرشال وما إليها، وتطاولوا إلى متيجة فتغلبوا عليها. ثم مدوا أيديهم إلى جبل وانشريش وما إليه، فتناولوا الكثير من بلاده، ثم أزاحهم عنها بنو عطية وقومهم من بني توجين المجاورون لها في مواطنهم بأعلى شلف شرقي أرض السرسو، وكان ذلك لأول دخول أحياء زناتة الناجعة بأرض القبلة إلى التلول، فتغلب بنو عبد الواد على نواحي تلمسان إلى وادي صا. وتغلب بنو توجين على ما بين الصحراء والتل من بلد المدية، إلى جبل وانشريش، إلى مرات، إلى الجعبات. وصار التخم لملك بني عبد الواد سيك والبطحاء: فمن قبليها لمواطن بني توجين، ومن شرقها مواطن مغراوة. وكانت الفتنة بين بني عبد الواد وبين هذين الحيين منذ أول دخولهم إلى التلول، وكان المولى الأمير أبو زكرياء بن أبي حفص يستظهر بهذين الحيين على بني عبد الواد ويراغمهم بهم، حتى كان من فتح تلمسان ما قدمناه، وألبس جميعهم شارة الملك على ما ذكرناه ونذكره في أخبارهم، فزاحموا يغمراسن بعدها بالمناكب وصرف هو إليهم وجه النقمات والحروب.

و لم يزل الشأن ذلك حتى انقرض ملك الحيين لعهد ابنه عثمان بن يغمراسن وعلى يده، ثم على يد بني مرين كما يأتي ذكره. ولما رجع يغمراسن بن زيان من لقاة بني مرين بايسلي من نواحي وجدة التي كانت سنة سبع وأربعين، وكان معه فيها عبد القوي بن عطية بقومه من بني توجين، وهلك مرجعه منها، فنبذ يغمراسن العهد إلى ابنه محمد الأمير بعده، وزحف إلى بلاده فجاس خلالها، ونازل حصونها فامتنعت عليه. وأحسن محمد بن عبد القوي في دفاعه، ثم زحف ثانية سنة خمسين إليهم، فنازل حصن تافركينت من حصونهم. وكان به على بني زيان حافد محمد بن عبد القوي، فامتنع به في طائفة من لومه. ورحل عنه يغمراسن كظيما، و لم يزل يغمراسن بعدها يشن الغارة على بلادهم ويجمر الكتائب على حصونهم. وكان بتافركنيت صنيعه من صنائع بني عبد القوي، ونسبه في صنهاجة أهل ضاحية بجاية، اختص بهذا الحصن ورسخت قدمه فيه، واعتز بكثرة ماله وولده فأحسن الدفاع عنه، وكان له مع يغمراسن في الامتناع عليه أخبار مذكورة، حتى سطا به بنو محمد بن عبد القوي حين شرهوا إلى نعمته، وأنفوا من استبداده فأتلفوا نفسه وتخطفوا نعمته، فكان حتف ذلك الحصن في حتفه حما يأتي ذكره. وعندما شبت نار الفتنة بين يغمراسن وبين محمد بن عبد القوي، وصل محمد يده بيعقوب بن عبد الحق. فلما نازل يعقوب تلمسان سنة سبعة بعد أن هدم وجدة، وهزم يغمراسن بايسلي، جاءه محمد بن عبد القوي بقومه من بني توجين، وأقام معه على حصارها. ورحلوا بعد الامتناع عليهم، فرجع محمد إلى مكانه، ثم عاود يعقوب بن عبد الحق منازلة تلمسان سنة ثمانين وستماية بعد إيقاعه بيغمراسن في خرزوزة، فلقيه محمد بن عبد القوي بالقصبات. واتصلت أيديهم على تخريب بلاد يغمراسن مليا، فنازلوا تلمسان أياما، ثم افترقوا ورجع كل إلى بلده.

ولما خلص يغمراسن بن زيان من حصاره زحف إلى بلادهم، وأوطأ عساكره أرضهم، وغلب على الضاحية، وخرب عمرانها إلى أن تملكها بعده ابنه عثمان كما نذكر. وأما خبره مع مغراوة فكان عماد رأيه فيهم

التضريب بين بني منديل بن عبد الرحمن للمنافسة التي كانت بينهم في رياسة قومهم. ولما رجع من واقعة تلاغ سنة ست وستين، وهي الواقعة التي هلك فيها ولده عمر زحف بعدها إلى بلاد مغراوة فتوغل فيها وتجاوزها إلى من وراءهم من مليكش والثعالبة، وأمكنه عمر

من مليانة سنة ثمان وستين على شرط المؤازرة والمظاهرة على إخوته، فملكها يغمراسن يومئذ وصار الكثير من مغراوة إلى ولايته، وزحفوا إلى المغرب سنة سبعين. ثم زحف بعدها إلى بلادهم سنة اثنتين وسبعين، فتجافى له ثابت بن منديل عن تنس بعد أن أثخن في بلادهم ورجع عنها، فاسترجعها ثابت. ثم نزل له عنها ثانيا سنة إحدى وثمانين بين يدي مهلكه عندما تم له الغلب عليهم والإثخان في بلادهم، إلى أن كان الاستيلاء عليها لابنه عثمان على ما نذكره.

الخبر عن انتزاء الزعيم ابن مكن ببلد مستغانم:

كان بنومكن هؤلاء من عالية القرابة من بني زيان يشاركونهم في نسب محمد بن زكدان بن تيدوكسن بن طاع الله، وكان لمحمد هذا أربعة من الولد كبيرهم يوسف: ومن ولده جابر بن يوسف أول ملوكهم، وثابت بن محمد. ومن ولده زيان بن ثابت أبو الملوك من بني عبد الواد، ودرع بن محمد. ومن ولده عبد الملك بن محمد بن علي بن قاسم بن درع المشتهر بأمه حنينة أخت يغمراسن بن زيان ومكن بن محمد. وكان له من الولد يحيى وعمرش؛ وكان من ولد يحيى الزعيم وعلي؛ وكان يغمراسن بن زيان كثيرا ما يستعمل قرابته في الممالك ويوليهم على العمالات؛ وكان قد استوحش من يحيى بن مكن وابنه الزعيم وغربهما إلى الأندلس ثم فأجاز من هنالك إلى يعقوب بن عبد الحق سنة ثمانين ولقياه بطنجة في إحدى حركات جهاده. وزحف يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان عامئذ وهما في جملته، فأدركتهما النعرة على لومهما وآثرا مفارقة السلطان إليهم؛ فأذن لهما في الانطلاق ولحقا بيغمراسن بن زيان. حتى إذا كانت الواقعة عليه بخرزوزة سنة ثمانين كما قدمناه، وزحف بعدها إلى بلاد مغراوة، وتجافى له ثابت بن منديل عن مليانة، وانكفأ راجعا إلى تلمسان، استعمل على ثغر مستغانم الزعيم بن يحيى بن مكن. فلما

وصل إلى تلمسان انتقض عليه، ودعا إلى الخلات، ومالأ عدوه من مغراوة على المظاهرة عليه، فصمد إليه يغمراسن وأحجره بها حتى لاذ منه بالسلم على الإجازة، فعقد له وأجازه. ثم أثره أباه يحيى، واستقر بالأندلس إلى أن هلك يحيى سنة اثنتين وتسعين. ووفد الزعيم بعد ذلك على يوسف بن يعقوب وسخطه لبعض النزعات؟ فاعتقله وفر من محبسه. ولم يزل الاغتراب مطوحا به إلى أن هلك. والبقاء لله.

ونشأ ابنه الناصر بالأندلس، فكانت مثواه وموقف جهاده إلى أن هلك. وأما أخوه علي بن يحيى فأقام بتلمسان، وكان من ولده داود بن علي كبير مشيخة بني عبد الواد وصاحب شوراهم. وكان منهم أيضا إبراهيم بن علي، عقد له أبو حمو الأوسط على ابنته فكان منها ولد ذكر، وكان لداود ابنه يحيى بن داود استعمله أبو سعيد بن عبد الرحمن في دولتهم الثانية على وزارته، فكان من شأنه ما نذكره في أخبارهم. والأمر لله.

الخبر عن شأن يغمراسن في معاقدته مع ابن الأحمر والطاغية علي فتنة يعقوب بن عبد الحق والأخذ بحجرته:

كان يعقوب بن عبد الحق لما أجاز إلى الجهاد، وأوقع بالعدو، وخرب حصونهم، نازل إشبيلية وقرطبة، وزلزل قواعد كفرهم. ثم أجاز ثانية، وتوغل في دار الحرب وأثخن فيها. وتخلى له ابن أشقيلولة عن مالقة فملكها. وكان سلطان الأندلس يومئذ الأمير محمد المدعو بالفقيه، ثاني ملوك بني الأحمر، هو الذي استدعى يعقوب بن عبد الحق للجهاد بما عهد له أبوه الشيخ بذلك. فلما استفحل أمر يعقوب بالأندلس، وتعاقب الثوار إلى اللياذ به خشيه ابن الأحمر على نفسه، وتوقع منه مثل فعلة يوسف بن تاشفين بابن عباد، فاعتمل في أسباب الخلاص مما توهم. وداخل الطاغية في اتصال اليد والمظاهرة عليه وكانت مالقة لعمر يحيى بن محلى؛ استعمله عليها يعقوب بن عبد الحق حين ملكها من يد ابن أشقيلولة؛ فاستماله ابن الأحمر وخاطبه مقارنة ووعدا، وأداله بشلوبانية من مانقة طعمة خالصة له؛ فتخلى عن مالقة إليها. وأرسل الطاغية أساطيله في البحر لمنع الزقاق من إجازة السلطان وعساكره، وراسلوا يغمراسن من وراء البحر في الأخذ بحجرة يعقوب، وشن الغارات على ثغوره ليكون

ذلك شاغلا له عنهم. فبادر يغمراسن بإجابتهم، وترددت الرسل منه إلى الطاغية ومن الطاغية إليه كما نذكره. وبث السرايا والبعوث في نواحي المغرب، فشغل يعقوب عن شأن الجهاد حتى لقد سأله المهادنة؛ وأن يفرغ لجهاد العدو فأبى عليه وكان ذلك مما دعى يعقوب إلى الصمود إليه، ومواقعته بخرزوزة كما ذكرناه. ولم يزل شأنهم ذلك مع يعقوب بن عبد الحق وأيديهم متصلة عليه من كل جهة، وهو ينتهز الفرصة في كل واحد متى أمكنه منهم حتى هلك وهلكوا. والله وارث الأرض.

الخبر عن شأن يغمراسن مع الخلفاء من بني حفص الذين كان يقيم بتلمسان دعوتهم ويأخذ قومه بطاعتهم:

كان زناتة يدينون بطاعة خلفاء الموحدين من بني عبد المؤمن أيام كونهم بالقفار، وبعد دخولهم إلى التلول. فلما فشل أمر بني عبد المؤمن، ودعا الأمير أبو زكرياء بن أبي حفص بإفريقية لنفسه، ونصب كرسي الخلافة للموحدين بتونس، انصرفت إليه الوجوه من سائر الآفاق بالعدوتين، وأملوه للكرة، وأوفد زناتة عليه رسلهم من كل حي بالطاعة. ولاذ مغراوة وبنو توجين بظل دعوته ودخلوا في طاعته، واستنهضوه لتلمسان؛ فنهض إليها وافتتحها سنة أربعين. ورجع إليها يغمراسن واستعمله عليها وعلى سائر ممالكها؛ فلم يزل مقيما لدعوته. واتبع أثره بنو مرين في إقامة الدعوة له فيما غلبوا عليه من بلاد المغرب، وبعثوا إليه ببيعة مكناسة وتازى والقصر كما نذكره في أخبارهم، إلى ما دانوا به ولابنه المستنصر من بعده من خطاب التمويل والإشادة بالطاعة والانقياد، حتى غلبوا على مراكش وخطبوا باسم المستنصر على منابرها حينا من الدهر. ثم تبين لهم بعد متناول تلك القاصية عليه؟ فعطلوا منابرهم من أسماء أولئك، وأقطعوهم جانب الوداد والموالاة. ثم سموا إلى اللقب والتفنن في الشارة الملوكية كما تقتضيه طبيعة الدول، وأما يغمراسن وبنوه فلم يزالوا آخذين بدعوتهم واحدا بعد واحد، متجافين عن اللقب أدبا معهم، مجددي البيعة لكل من يتجدد قيامه بالخلافة منهم، يوفدون

بها كبار أبنائهم وأولي الرأي من قومهم. ولم يزل الشأن ذلك. ولما هلك الأمير أبو زكرياء، وقام ابنه محمد المستنصر بالأمر من بعده، وخرج عليه أخوه

الأمير أبو إسحاق في إحياء الدواودة من رياح، ثم غلبهم المستنصر جميعا، ولحق الأمير أبو إسحاق بتلمسان في أهله، فأكرم يغمراسن نزلهم، وأجاز إلى الأندلس للمرابطة بها والجهاد، حتى إذا هلك المستنصر سنة خمس وسبعين، واتصل به خبر مهلكه، ورأى أنه أحق بالأمر فأجاز البحر من حينه، ونزل بمرسى هنين سنة سبع وسبعين. ولقاه يغمراسن مبرة وتوقيرا، واحتفل بقدومه، وأركب الناس لتلقيه، وأتاه بيعته على عادته مع سلفه، ووعده النصرة من عدوه والمؤازرة على أمره. وأصهر إليه يغمراسن في إحدى بناته المقصورات في خيام الخلافة بابنه عثمان ولي عهده؛ فأسعفه وأجمل في ذلك وعده. وانتقض محمد بن أبي هلال عامل بجاية على الواثق، وخلع طاعته، ودعا للأمير أبي إسحق، واستحثه للقدوم فأغذ السير من تلمسان، وكان من شأنه أن ما قدمناه في أخباره. فلما كانت سنة إحدى وثمانين، وزحف يغمراسن إلى بلاد مغراوة، وغلبهم على الضواحي والأمصار، بعث من هنالك ابنه إبراهيم، وتسميه زناتة برهوم، وبكنى أبا عامر. أوفده في رجال من قومه على الخليفة أبي إسحاق لأحكام الصهر بينهما، فنزلوا منه على خير نزل من أسناء الجراية ومضاعفة الكرامة والمبرة؛ وظهر من آثاره في حروب ابن أبي عامر ما مد الأعناق إليه وقصر الشيم الزناتية على بيته. ثم انقلب آخرا بظعينته محبوا محبورا، وابتنى بها عثمان لحين وصولها، وأصبحت عقيلة قصره، فكان ذلك مفخرا لدولته وذكرا له ولقومه. ولحق الأمير أبو زكرياء ابن الأمير أبي إسحاق بتلمسان بعد خلوصه من مهلكة قومه في واقعة الداعي ابن أبي عمارة عليهم بمرماجنة سنة اثنتين وثمانين؛ فنزل من عثمان بن يغمراسن صهره خير نزل برا واحتفاء وتكريما وملاطفة. وسربت إليه أخته من القصر أنواع التحف والأنس، ولحق به أولياؤه من صنائع دولتهم، وكبيرهم أبو الحسن محمد ابن الفقيه المحدث أبي بكر بن سيد الناس اليعمري فتفيأوا من كرامة الدولة بهم ظلا وافرا، واستنهضوه إلى تراث ملكه. وفاوض أبا مثواه عثمان بن يغمراسن في ذلك؛ فنكره لما كان قد أخذه بدعوة صاحب الحضرة. وأوفد عليه رجال دولته بالبيعة على العادة في ذلك؛ فحدث الأمير أبو زكرياء نفسه بالفرار عنه. ولحق بداود بن هلال بن عطاف أمير البدو من بني عامر إحدى بطون زغبة؛ فأجاره وأبلغه مأمنه

بحي الدواودة أمراء البدو بعمل الموحدين. نزل منهم على عطية بن سليمان بن سباع كما قدمناه، واستولى على بجاية عنة أربع وثمانين بعد خطوب ذكرناها، واقتطعها وسائر عملها عن ملك عمه صاحب الدعوة بتونس أبي حفص، ووفى لداود بن عطاف وأقطعه بوطن بجاية عملا كبيرا أفرده لجبابته، كان فيه أيقدارن بالخميس من وادي بجاية. واستقل الأمير أبو زكرياء بمملكة بونة وقسنطينة وبجاية والجزائر والزاب وما وراءها. وكان هذا الصهر وصلة له مع عثمان بن يغمراسن وبنيه. ولما نزل يوسف بن يعقوب تلمسان سنة ثمان وتسعين، بعث الأمير أبو زكرياء المدد من جيوشه إلى عثمان بن يغمراسن؛ وبلغ الخبر بذلك إلى يوسف بن يعقوب؛ فبعث أخاه أبا يحيى في العساكر لاعتراضهم والتقوا بجبل الزاب؛ فكانت الدبرة على عسكر

الموحدين واستلحموا هنالك. وتسفى المعركة لهذا العهد بمرسى الرؤوس. واستحكمت من أجل ذلك صاغية الخليفة بتونس إلى بني مرين، وأوفد عليهم مشيخة من الموحدين يدعوهم إلى حصار بجاية، وبعث معهم الهدية الفاخرة. وبلغ خبرهم إلى عثمان بن يغمراسن من وراء جدرانه، فتنكر لها و أسقط ذكر الخليفة من منابره ومحاه من عمله؛ فنسي لهذا العهد. والله مالك الأمور.

الخبر عن مهلك يغمراسن بن زيان وولاية ابنه عثمان وما كان في دولته من الأحداث:

كان السلطان يغمراسن قد خرج من تلمسان سنة إحدى وثمانين، واستعمل عليها ابنه عثمان، وتوغل في بلاد مغراوة وملك ضواحيهم. ونزل له ثابت بن منديل عن مدينة تنس، فتناولها من يده. ثم بلغه الخبر بإقبال أخيه أبي عامر برهوم من تونس بابنة السلطان أبي إسحاق عرس ابنه؛ فتلوم هنالك إلى أن لحقه بظاهر مليانة؛ فارتحل إلى تلمسان وأصابه الوجع في طريقه. وعندما احتل شربويه اشتد به وجعه، فهلك هنالك آخر ذي القعدة من سنته. والبقاء لته وحده. فحمله ابنه أبو عامر على أعواده، وواراه في خدر موريا بمرضه إلى أن تجاوز بلاد مغراوة إلى سيك. ثم أغذ السير إلى تلمسان؛ فلقيه أخوه عثمان بن يغمراسن ولي عهد أبيه في قومه؟ فبايعه الناس وأعطوه صفقة أيمانهم. ثم دخل إلى تلمسان؛ فبايعه العامة والخاصة. وخاطب

لحينه الخليفة بتونس أبا إسحاق وبعث إليه ببيعته؛ فراجعه بالقبول وعقد له على عمله على الرسم. ثم خاطب يعقوب بن عبد الحق يطلب منه السلم، لما كان أبوه يغمراسن أوصاه به.

حدثنا شيخنا العلامة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي قال: سمعت من السلطان أبو حمو موسى بن عثمان وكان قهرمانا بداره، قال: أوصى دادا يغمراسن لدادا عثمان - ودادا حرف كناية عن غاية التعظيم بلغتهم - فقال له يا بني إن بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش، لا طاقة لنا بلقائهم إذا جمعوا لوفود مددهم، ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم لمعرة النكوص عن القرن التي أنت بعيد عنها. فإياك واعتماد لقاثهم، وعليك باللياذ بالجدران متى دلفوا إليك وحاول ما استطعت في الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين وممالكهم يستفحل به ملكك، وتكافىء حشد العدو بحشدك. ولعلك تصير بعض الثغور الشرقية معقلا لذخيرتك. فعلقت وصية الشيخ بقلبه، واعتقد عليها ضمائره، وجنح إلى السلم مع بني مرين ليفرغ عزمه لذلك. وأوفد أخاه محمد بن يغمراسن على يعقوب بن عبد الحق بمكانه من العدوة الأندلسية في إجازته الرابعة إليها؛ فخاض إليه البحر ووصله باركش؛ فلقاه برا وكرامة؛ وعقد له من السلم ما أحب. وانكفأ راجعا إلى أخيه؛ فطابت. نفسه وفرغ لافتتاح البلاد الشرقية، كما نذكره إن شاء الله لعالى.

الخبر عن شأن عثمان بن يغمراسن مع مغراوة وبني توجين وغلبه علي معاقلهم والكثير من أعمالهم:

لما عقد عثمان بن يغمراسن السلم مع يعقوب بن عبد الحق، صرف وجهه إلى الأعمال الشرقية من بلاد توجين ومغراوة وما وراءها من عمل الموحدين؛ فتغلب أولا على ضواحي بني توجين ودوخ قاصيتها؛ وصار إلى بلاد مغراوة كذلك؛ ثم إلى متيجة؛ فانتسق نعمها وخطم زروعها. ثم تجاوز إلى بجاية فحاصرها كما نذكره

بعد. وامتنعت عليه وانكفأ راجعا في طريقه بمازونة فحاصرها وأطاعته، وذلك سنة ست وثمانين. ونزل له ثابت بن منديل أمير مغراوة عن

تنس؛ فاستولى عليها وانتظم سائر بلاد مغراوة في أيالته. ثم عطف في سنته على بلاد توجين؛ فاكتسح حبوبها واحتكرها بمازونة استعدادا لما يتوقع من حصار مغراوة إياها. ثم دلف إلى تافر كنيت، فحاصرها وأخذ بمخنقها. وداخل قائدها غالبا الخصي، من موالي محمد بن عبد القوي، كان مولى سيد الناس منهم، فنزل له غالب عنها واستولى عليها واكفأ إلى تلمسان. ثم نهض إلى بلاد بني ترجين سنة سبع وثمانين؛ فغلبهم على وانشريش مثوى ملكهم ومنبت عزهم، وفر أمامه أميرهم مولى بني. زرارة من ولد محمد بن عبد القوي. وأخذ الحلف منهم فلحق بضواحي المدية في الأعشار وأولاد عزيز من قومه. واتبع عثمان بن يغمراسن آثارهم وشردهم عن تلك الضاحية. وهلك مولى زرارة في مفره. وكان عثمان قبل ذلك قد دوخ بلاد بني يدللتين من بني توجين، ونازل رؤساءهم أولاد سلامة بالقلعة المنسوبة إليهم مرات فامتنعوا عليه؛ ثم أعطوه أيديهم على الطاعة ومفارقة لومهم بني توجين إلى سلطان بني يغمراسن؟ فنبذوا العهد إلى بني محمد بن عبد القوي أمرائهم منذ العهد الأول. ووصلوا أيديهم بعثمان وألزموا رعاياهم وأعمالهم المغارم له، إلى أن ملك وانشريش من بعدها كما نذكر ذلك في أخبارهم.

وصارت بلاد بني توجين كلها من عمله، واستعمل الحشم بجبل وانشريش. ثم نهض بعدها إلى المدية، وبها أولاد عزيز من توجين فنازلها، وقام بدعوته فيها قبائل من صنهاجة يعرفون بلمدية وإليهم تنسب؛ فأمكنوه منها سنة ثمان وثمانين؛ وبقيت في إيالته سبعة أشهر؛ ثم انتقضت عليه. وزحف إلى إيالة أولاد عزيز وصالحوه عليها، وأعطوه من الطاعة ما كانوا يعطونه لمحمد بن عبد القوي وبنيه، فاستقام أمره في بني توجين، ودانت له سائر أعمالهم. ثم خرج سنة تسع وثمانين إلى بلاد مغراوة لما كانوا ألبا عليه لبني مرين في إحدى حركاتهم على تلمسان، فدوخها وأنزل ابنه أبا حمو بشلف مركز عملهم؛ فأقام به وقفل هو إلى الحضرة. وتحيز فل مغراوة إلى نواحي متيجة، وعليهم ثابت بن منديل أميرهم، فلم يزالوا بها. ونهض عثمان إليهم سنة ثلاث وتسعن من بعدها فانحجزوا بمدينة برشك، وحاصرهم بها أربعين يوما، ثم افتتحها. وخاض ثابت بن منديل البحر إلى المغرب؛ فنزل على يوسف بن يعقوب كما ذكرناه ونذكره. واستولى عثمان على سائر عمل مغراوة كما استولى على عمل توجين؟ فانتظم بلاد المغرب الأوسط كلها وبلاد زناتة الأولى؟ ثم شغل بفتنة بني مرين كما نذكره بعد. والملك لله وحده.

الخبر عن منازلة بجاية وما دعا إليها:

قد ذكرنا أن المولى أبا زكرياء الأوسط ابن السلطان أبي إسحاق من بني أبي حفص، لحق بتلمسان عند فراره من بجاية أمام شيعة الدعي ابن أبي عمارة، ونزل على عثمان بن يغمراسن خير نزل. ثم هلك الدعي ابن أبي عمارة، واستقل عمه الأمير أبو حفص بالخلافة، وبعث إليه عثمان بن يغمراسن بطاعته على العادة، وأوفد عليه وجوه قومه، ودس الكثير من أهل بجاية إلى المولى أبي زكرياء يستحثونه للقدوم، ويعدونه إسلام البلد إليه.

وفاوض عثمان بن يغمراسن في ذلك فأبى عليه، فألحق البيعة بعمه الخليفة بالحضرة؛ فطوى عنه الخبر وتردد في القبض أياما. ثم لحق بأحياء زغبة في مجالاتهم بالقفر، ونزل على داود بن هلال بن عطاف. وطلب عثمان بن يغمراسن من داود إسلامه فأبى عليه، وارتحل معه إلى أعمال بجاية، ونزلوا إلى أحياء الدواودة كما قدمناه. ثم استولى المولى أبو زكرياء بعد ذلك على بجاية في خبر طويل قد ذكرناه في أخباره. واستحكمت القطيعة بينه وبين عثمان، وكانت سببا لاستحكام الموالاة ين عثمان وبين الخليفة بتونس. فلما زحف إلى عمل مغراوة سنة ست وثمانين، وتوغل في قاصية المشرق، أعمل الرحلة إلى عمل بجاية، ودوخ سائر أقطارها. ثم نازلها من بعد ذلك يروم كيدها بالاعتمال في مرضاة الخليفة بتونس، ويسر بذلك حسواً في ارتغاء؛ فأناخ عليها بعساكره سبعا؛ ثم أفرج عنها منقلبا إلى المغرب الأوسط؛ فكان من فتح مازونة وتافركنيت ما قدمناه.

الخبر عن معاودة الفتنة مع بني مرين وشأن تلمسان في الحصار الطويل:

لما هلك يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين على السلم المنعقدة بينه وبين بني عبد الواد لشغله بالجهاد، وقام بالأمر من بعده في قومه ابنه يوسف كبير ولده على حين

اتبعهم أنفسهم شأن الجهاد. وأسفهم يغمراسن وابنه بممالاة الطاغية وابن الأحمر فعقد يوسف السلم مع الطاغية لحينه، ونزل لابن الأحمر عن ثغور الأندلس التي كانت لهم، وفرغ لحرب بني عبد الواد، واستتب له ذلك لأربع من مهلك أبيه، دلف إلى تلمسان سنة تسع وثمانين، ولاذ منه عثمان بالأسوار فنازلها أربعين صباحا، وقطع شجراءها ونصب عليها المجانيق والآلات. ثم أحس بامتناعها فأفرج عنها وانكفأ راجعا. وتقبل عثمان بن يغمراسن، مذهب أبيه في مداخلة ابن الأحمر والطاغية، وأوفد رسله عليهما فلم يغن ذلك عنه شيئا، وكان مغراوة قد لحقوا بيوسف بن يعقوب على تلمسان فنالوا منها أعظم النيل. فلما أفرجوا عن تلمسان نهض عثمان إلى بلادهم فدوخها وغلبهم عليها، وأنزل بها ابنه أبا حمو كما قدمناه. فلما كانت سنة خمس وتسعين نهض يوسف بن يعقوب حركته الثانية فنازل ندرومة؛ ثم ارتحل عنها إلى ناحية وهران. وأطاعه أهل جبل كيذرة وتاسكدلت رباط عبد الحميد أن الفقيه أبي زيد اليزناسني، ثم كر راجعا إلى المغرب. وخرج عثمان بن يغمراسن، فأثخن في تلك الجبال لطاعتهم عدوه واعتراضهم جنده واستباح رباط تاسكدلت. ثم غزاه يوسف بن يعقوب ثالثا سنة ست وتسعين ورجع إلى المغرب. ثم أغزاه رابع سنة سبع وتسعين فنازل تلمسان، وأحاط بها معسكره، وشرعوا في البناء. ثم أفرج عنها لثلاثة أشهر، ومر في طريقه بوجدة، فأمر بتجديد بنائها وجمع الفعلة عليها. واستعمل أخاه أبا يحيى بن يعقوب على ذلك، فأقام لشانه، ولحق يوسف بالمغرب. وكان بنو توجين قد نازلوا تلمسان مع يوسف بن يعقوب، وتولى كبر ذلك منهم أولاد سلامة أمراء بني يدللتن منهم، وأصحاب القلعة المنسوبة إليهم. فلما أفرج سنها خرج إليهم عثمان بن يغمراسن، فدوخ بلادهم، وحاصرها بالقلعة ونال منهم أضعاف ما نالوا منه. وطال مغيبه في بلادهم؛ فخالفه أبو يحيى بن يعقوب إلى ندرومة؛ فاقتحمها بعسكره بمداخلة من قائدها زكرياء بن يخلف بن المطغرى صاحب تاونت.

فاستولى بنو مرين على ندرومة وتاونت. وجاء يوسف بن يعقوب على أثرها فوافاهم ودلفوا جميعا إلى تلمسان. وبلغ الخبر إلى عثمان بمكانه من

حصار القلعة، فطوى المراحل إلى ظمسان، فسبق إليها يوسف بن يعقوب ببعض يوم. ثم أشرفت طلائع بني مرين عشي ذلك اليوم، فأناخوا بها في شعبان سنة ثمان وتسعين، وأحاط العسكر بها من جميع جهاتها. وضرب يوسف بن يعقوب عليها سياجا من الأسوار محيطا بها، وفتح فيه أبوابا مداخل لحربها، واختط لنزله إلى جانب الأسوار مدينة سفاها المنصورة. وأقام على ذلك سنين يغاديها بالقتال ويراوحها. وسرح عساكر لافتتاح أمصار المغرب الأوسط وثغوره، فملك بلاد مغراوة وبلاد بني توجين كما ذكرناه في أخباره. وجثم هو بمكانه من حصار تلمسان لا يعدوها كالأسد الضاري على فريسته، إلى أن هلك عثمان وهلك هو من بعده كما نذكره. وإلى الله المصير.

الخبر عن مالك عثمان بن يغمراسن وولاية ابنه أبي زيان وانتهاء الحصار من بعده إلى غايته:

لما أناخ يوسف بن يعقوب بعسكره على حسان، انحجر بها عثمان وقومه واستسلموا، والحصار آخذ بمخنقهم. وهلك عثمان لخامسة السنين من حصارهم سنة ثلاث وسبعماية، وقام بالأمر من بعده ابنه أبو زيان محمد. أخبرني شيخنا العلامة محمد بن إبراهيم الأبلي، وكان في صباه قهرمان دارهم قال: هلك عثمان بن يغمراسن بالديماس، وكان قد أعذ لشربه لبناً. فلما أخد منه الديماس وعطش، دعا بالقدح وشرب اللبن ونام، فلم يكن بأوشك إن فاضت نفسه. وكنا نرى معشر الصنائع أنه داف فيه السم، تفاديا من معرة غلب عدوهم إياهم قال: وجاء الخادم إلى قعيدة بيته زوجه بنت السلطان أبي إسحاق ابن الأمير أبي زكرياء بن عبد الواحد بن أبي حفص صاحب تونس وأخبرها الخبر؛ فجاءت ووقفت عليه واسترجعت وخيمت على الأبواب بسدادها. ثم بعثت عن ابنيه محمد أبي زيان وموسى أبي حموا فعزتهما عن أبيهما. وأحضر مشيخة بني عبد الواد، وعرضوا لهم بمرض السلطان، فقال أحدهم مستفهما عن الشأن ومترجما عن القوم: السلطان معنا آنفا، ولم يمتد الزمن لوقوع المرض، فإن يكن هلك فخبرونا؛ فقال له أبو حمو: وإذا هلك فما أنت صانع؛ فقال: إنما نخشى من مخالفتك، وإلا فسلطاننا

أخوك الأكبر أبو زيان. فقام أبو حمو من مكانه، وأكب على يد أخيه يقبلها، وأعطاه صفقة يمينه. واقتدى به المشيخة؛ فانعقدت بيعته لوقته. واشتمل بنو عبد الواد على سلطانهم، واجتمعوا إليه، وبرزوا لقتال عدوهم على العادة، فكأن عثمان لم يمت.

وبلغ الخبر إلى يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارهم؛ فتفجع له وعجب من صرامة قومه من بعده. واستمر حصار له إياهم إلى تمام ثماني سنين وثلاثة أشهر من يوم نزوله، نالهم فيها من الجهد والجوع ما لم ينل امة من الأمم، واضطروا إلى أكل الجيف والقطط والفيران، حتى لزعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الأناسي، وخربوا السقف للوقود، وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق، بما تجاوز حدود العوائد. وعجز وجدهم عنه، فكان ثمن مكيال القمح الذي يسمونه البرشالة ويتبايعون به، مقداره اثنتي عشر رطلا ونصف

مثقالين ونصف من الذهب العين، وثمن الرأس الواحد من البقر ستين مثقالا، ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصف. وأثمان اللحمان من الجيف: الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكتهم، والرطل من الجلد البقري ميتة أو مذكى بثلاثين درهما، والهر الواحد بمثقال ونصف، والكلب بمثله، والفأر بعشرة دراهم والحية بمثله، والدجاجة بستة عشر درهما، والبيض واحدة بستة دراهم والعصافير كذلك. والأوقية من الزيت باثنتي عشر درهماً، ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين. ومن الفول بمثلها. ومن الملح بعشرة، ومن الحطب كذلك. والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال. ومن الخس بعشرين درهما، ومن اللفت بخمسة عشر درهما. والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهما، والخيار بثلاثة أثمان الدينار، والبطيخ بثلاثين درهما، والحبة من التين ومن الإجاص بدرهمين، واستهلك الناس أموالهم وموجودهم، وضاقت أحوالهم.

واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارها، واتسعت خطة مدينة المنصورة المشيدة عليها. ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق، واستبحرت في العمران بما لم تبلغه مدينة وخطب الملوك سلمه ووده، ووفدت عليه رسل الموحدين وهداياهم من تونس وبجاية، وكذلك رسل صاحب مصر والشام وهديتهم، واعتز اعتزازا لا كفاء له كما يأتي في أخباره. وأنهك الجهد حامية بني يغمراسن وقبيلتهم وأشرفوا على الهلاك، فاعتزموا على الإلقاء باليد والخروج بهم للاستماتة، فكيف الله لهم الصنيع

الغريب. ونفس عن مختنقهم بمهلك السلطان يوسف بن يعقوب على يد خصي من العبدي أسخطته بعض النزعات الملوكية، فاعتمده في كسر بيته ومخدع نومه، وطعنه بخنجر قطع أمعاءه؛ وأدرك فسيق إلى وزرائه ومزقوا أشلاءه، فلم يبوء بشسع من نعل عبيدهم كما ذكرناه. والأمر لله وحده.

وأذهب الله العناءة عن آل زيان وقومهم وساكني مدينتهم، فكأنما نشروا من الأجداث. وكتبوا لها في سكتهم ما أقرب فرج الله استغرابا لحادثتها. حدثني شيخنا محمد بن إبراهيم الأبلي قال: جلس السلطان أبو زيان صبيحة يوم ذلك الفرج، وهو يوم الأربعاء في خلوة من زوايا قصره، واستدعى ابن حجاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الأهراء والمطامير المختومة؟ فقال له: إنما بقي عولة اليوم وغد فاستوصاه بكتمانها. وبينما هم في ذلك دخل عليه أخوه أبو حمو فأخبره فوجم لها، وجلسوا سكوتا لا ينطقون، وإذا بالخادم دعد قهرمانة القصر من وصايف بنت السلطان أبي إسحاق حظية أبيهم خرجت من القصر إليهم؛ فوقفت وحيتهم تحيتها وقالت: تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم ما لنا وللبقاء، وقد احيط بكم، وأسف لالتهامكم عدوكم، ولم يبق إلا فواق بكيئة لمصارعكم، فأريحونا من معرة السبي، وأريحوا فينا أنفسكم، وقربونا إلى مهالكنا. فالحياة في الذل عذاب، والوجود بعدكم عدم. فالتفت أبو حمو إلى أخيه، وكان من الشفقة بمكان وقال: لقد صدقتك الخبر فما تنتظر فيهم؟ فقال: يا موسى! أرجئني ثلاثا، لعل الله يجعل بعد عسر يسرا، ولا تشاورني بعدها فيهن، بل سرح اليهود والنصارى إلى قتلهن، وتعال إلي نخرج مع قومنا إلى عدونا فنستميت، ويقضي الله ما شاء. فغضب له أبو حمو ونكر الإرجاء في ذلك، وقال: إنا نحن والله نتربص المعرة بهن

وبأنفسنا، وقام عنه مغضبا، وجهش السلطان أبو زيان بالبكاء. قال ابن حجاف: وأنا بمكاني بين يديه واجم، لا أملك متأخرا ولا متقدما، إلى أن غلب عليه النوم فما راعني إلا حرسي الباب يشير إلي أن إذن السلطان بمكان رسول من معسكر بني مرين بسدة القصر؛ فلم أطق أرجع جوابه إلا بالإشارة. وانتبه السلطان من خفيف إشارتنا فزعاً؛ فأذنته واستدعاه. فلما وقف بين يديه قال له: إن يوسف بن يعقوب هلك الساعة، وأنا رسول حافده أبي ثابت إليكم. فاستبشر السلطان واستدعى أخاه وقومه، حتى أبلغ الرسول رسالته بمسمع منهم، وكانت إحدى المغربات في الأيام.

وكان من خبر هذه الرسالة أن يوسف بن يعقوب لما هلك، تطاول للأمر الأعياص من إخوته وولده وحفدته، وثحيز أبو ثابت حافده إلى بني ورتاجن لخؤلة كانت له فيهم، فاستجاش بهم، واعصوصبوا عليه. وبعث إلى أولاد عثمان بن يغمراسن أن يعطوه الالة، ويكونوا مفزعا له ومأمنا إن أخفق مسعاه. على أنه إن تم أمره قوض عنهم معسكر بني مرين؛ فعاقدوه عليها. ووفى لهم لما تم أمره، ونزل لهم عن جميع الأعمال التي كان يوسف بن يعقوب استولى عليها من بلادهم. وجأجأ بجميع الكتائب التي أنزلها في ثغورهم، وقفلوا إلى أعمالهم بالمغرب الأقصى. واستمكن السلطان أبو زيان من ثغور المغرب الأوسط كلها؛ إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن شأن السلطان أبي زيان من بعد الحصار إلى حين مهلكه:

كان من أول ما افتتح به السلطان أبو زيان أمره بعد الخروج من هوة الحصار، وتناوله الأعمال من أيدي بني مرين، أن نهض من تلمسان، ومعه أخوه أبو حمو آخر ذي الحجة من سنة ست وسبعماية. فقصد بلاد مغراوة، وشرد من كان هنالك منهم في طاعة بني مرين، واحتاز الثغور من أيدي عمالهم، ودوخ قاصيتها. ثم عقد عليها لمسامح مولاه، ورجع عنها. ونهض إلى السرسو؛ وكان العرب قد تملكوه أيام الحصار؛ وغلبوا زناتة عليه من سويد والديالم ومن إليهم من بني يعقوب بن عامر؛ فأجفلوا أمامه. واتبع آثارهم إلى أن أوقع بهم وانكفأ راجعا. ومر ببلاد بني توجين، فاقتضى طاعة من كان بقي بالجبل من بني عبد القوي والحشم فأطاعوه، ورياستهما يومئذ لمحمد بن عطية الأصم من بني عبد القوي. وقفل إلى تلمسان لتسعة أشهر من خروجه، وقد ثقف أطراف ملكه، ومسخ أعطاف دولته. فنظر في إصلاح قصوره ورياضه، ورم ما تثلم من بلده. وأصابه المرض خلال ذلك؛ فاشتد وجعه سبعا؛ ثم هلك أخريات شوال من سنة سبع. والبقاء لله وحده.

الخبر عن محو الدعوة الحفصية من منابر تلمسان:

كانت الدعوة الحفصية بإفريقية قد انقسمت بين أعياصهم في تونس وبجاية وأعمالها، وكان التخم بينها بلد عجيسة ووشتاتة. وكان الخليفة بتونس الأمير أبو حفص ابن الأمير أبي زكرياء الأول منهم، وله الشفوف على صاحب بجاية والثغور الغربية بالحضرة. فكانت بيعة بني زيان له ودعاؤهم على منابرهم باسمه، وكانت لهم مع المولى الأمير أبي زكرياء الأوسط صاحب بجاية وصلة لمكان الصهر بينهم وبينه، وكانت الوحشة قد اعترضت ذلك عندما نازل عثمان بجاية كما قدمناه. ثم تراجعوا إلى وصلتهم واستمروا عليها إلى أن نازل يوسف بن

يعقوب تلمسان، والبيعة يومئذ للخليفة بتونس السلطان أبي عصيدة بن الواثق، والدعوة على منابر تلمسان باسمه، وهو حاقد عليهم ولايتهم للأمير أبي زكرياء الأوسط صاحب الثغر. فلما نزل يوسف بن يعقوب على تلمسان، وبعث عساكره في قاصية المشرق، واستجاش عثمان بن يغمراسن بضاحية بجاية؛ فسرح عسكرا من الموحدين لمدافعتهم عن تلك القاصية. والتقوا معهم بجبل الزان، فانكشف الموحدون بعد معترك صعب واستلحمهم بنو مرين. وشحمى المعترك لهذا العهد بمرسى الرؤوس لكثرة ما تساقط في ذلك المجال من الرؤوس واستحكمت المنافرة لذلك بين يوسف بن يعقوب وصاحب بجاية، فأوفد الخليفة بتونس على يوسف بن يعقوب مشيخة الموحدين تجديدا لوصلة سلفهم مع سلفه، وإغراء بصاحب بجاية وعمله. فساء موقع ذلك من عثمان بن يغمراسن، وأحفظه موالاة الخليفة لعدوه، فعطل منابره من ذكره، وأخرج قومه وإيالته عن دعوته. وكان ذلك آخر المابة السابعة. والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة أبي حمو الأوسط موسى بن عثمان وما كان فيها من الأحداث:

لما هلك الأمير أبو زيان، قام بالأمر من بعده أخوه السلطان أبو حمو في أخريات سنة سبع كما قدمناه، وكان صارما يقظا حازما داهية قوي الشكيمة صعب العريكة، شرس الأخلاق مفرط الذكاء والحدة، وهو أول ملوك زناتة. رتب مراسم الملك وهذب قواعده، وأرهف لذلك لأهل ملكه حده، وقلب لهم مجن بأسه، حتى دلوا لعز الملك وتأدبوا بآداب السلطان. سمعت عريف بن يحيى أمير سويد من زغبة وشيخ المجالس الملوكية لزناتة يقول، ويعنيه: موسى بن عثمان هو معلم السياسة الملوكية لزناتة؛ وإنما كانوا رؤساء بادية حتى قام فيهم موسى بن عثمان، فحد حدودها وهذب مراسمها. ولقن عنه ذلك أقتاله وأنظاره منهم، فتقبلوا مذهبه واقتدوا بتعليمه. انتهى كلامه. ولما استقل بالأمر افتتح شأنه بعقد السلم مع سلطان بني مرين لأول دولته، فأوفد كبراء دولته على السلطان أبي ثابت، وعقد له السلم كما رضي. ثم صرف وجهه إلى بني توجين ومغراوة، فردد إليهم العساكر، حتى دوخ بلادهم وذلل صعابهم. وشرد محمد بن عطية الأصم عن نواحي وانشريش، وراشد بن محمد عن نواحي شلف وكان قد لحق بها بعد مهلك يوسف بن يعقوب فأزاحه عنها. واستولى على العملين، واستعمل عليها، وقفل إلى تلمسان.

ثم خرج سنة عشر في عساكره إلى بلاد بني توجين، ونزل تافركنيت، وسط بلادهم. فشرد الفل من أعقاب محمد بن عبد القوي عن وانشريش، واحتاز رياستهم في نجني توجين دونهم. وأدال منهم بالحشم وبني تيغرين. وعقد لكبيرهم يحيى بن عطية على رياسة قومه في جبل وانشريش، وعقد ليوسف بن حسن من أولاد عزيز على المدية وأعمالها، وعقد لسعد من بني سلامة بن علي على قومه بني يدللتن إحدى بطون بني نوجين، وأهل الناحية الغربية من عملهم. وأخذ من سائر بطون بني توجين الرهن على الطاعة والجباية، واستعمل عليهم جميعا من صنائعه قائده يوسف بن حبون الهواري، وأذن له في اتخاذ الآلة. وعقد لمولاه مسامح على بلاد مغراوة، وأذن له أيضا في اتخاذ الآلة. وعقد لمحمد ابن عمه يوسف على مليانة، وأنزله بها، وقفل إلى تلمسان. والله أعلم.

الخبر عن استنزال زيرم بن حماد بن ثغر برشك وما كان من قتله:

كان هذا الغمر من مشيخة هذا المصر لوفور عشيره من مكلاته داخله وخارجه، واسمه زيري بالياء، فتصرفت فيه العامة، وصار زيرم بالميم. ولما غلب يغمراسن على بلاد مغراوة دخل أهل هذا المصر في طاعته. حتى إذا هلك حدثت هذا الغمر نفسه بالانتزاء والاستبداد بملك برشك، ما بين مغراوة وبني عبد الواد، ومدافعة بعضهم ببعض. فاعتزم على ذلك وأمضاه، وضبط برشك لنفسه سنة ثلاث وثمانين. ونهض إليه عثمان بن يغمراسن سنة أربع بعدها، ونازله فامتنع. ثم زحف سنة ثلاث وتسعين إلى مغراوة، فلجأ ثابت بن منديل إلى برشك وحاصره عثمان بها أربعين يوما. ثم ركب البحر إلى المغرب كما قلناه وأخذ زيرم بعده بطاعة عثمان بن يغمراسن، دافعه بها، وانتقض عليه، مرجعه إلى تلمسان. وشغل بنو زيان بعدها بما دهمهم من شأن الحصار، فاستبد زيرم هذا ببرشك واستفحل شأنه بها. واتقى بني مرين عند غلبهم على أعمال مغراوة وتردد عساكرهم فيها بإخلاص الطاعة والانقياد. فلما انقشع إيالة بني مرين بمهلك يوسف بن يعقوب، وخرج بنو عثمان بن يغمراسن من الحصار، رجع إلى ديدنه من التمريض في الطاعة، ومقاولة طرفها على البعد. حتى إذا غلب أبو حمو على بلاد مغراوة، وتجاوزت طاعته هذا المصر إلى ما وراءه، خشيه زيري على نفسه، وخطب منه الأمان، على أن ينزل له عن المصر. فبعث إليه صاحب الفتيا بدولته أبا زيد عبد الرحمن بن محمد الإمام، كان أبوه من أهل برش، وكان زيري قد قتله لأول ثورته غيلة. وفر ابنه عبد الرحمن هذا وأخوه عيسى، ولحقا بتونس فقرا بها، ورجعا إلى الجزائر فأوطناها. ثم انتقلا إلى مليانة، واسنعملهما بنو مرين في خطة القضاء بمليانة. ثم وفدا بعد مهلك يوسف بن يعقوب على أبي زيان وأبي حمو مع عمال بني مرين وقوادهم بمليانة. وكان فيهم منديل بن محمد الكناني صاحب أشغالهم المذكور في أخبارهم. وكانا يقرآن ولده محمدا، فأشادا على أبي زيان وأبي حمو بمكانهم من العلم، ووقع ذلك من أبي حمو أبلغ المواقع، حتى إذا استقل بالأمر ابتنى المدرسة بناحية المطمر من تلمسان لطلب العلم. وابتنى لهما دارين عن جانبيها وجعل لهما التدريس فيها في إيوانين معدين لذلك. واختصهما بالفتيا والشورى، فكانت لهما في دولته قدم عالية. فلما طلب زيري هذا الأمان من أبي حمو وأن يبعث إليه من يأمن معه في الوصول إلى بابه، بعث إليه أبا زيد عبد الرحمن الأكبر منهما، فنهض لذلك بعد أن استأذنه أن يثأر منه بأبيه إن قدر عليه، فأذن له. فلما احل ببرشك أقام بها أياما، يناديه فيها زيري ويراوحه بمكان نزله، وهو يعمل الحيلة في اغتياله حتى أمكنته. فقتله في بعض تلك الأيام سنة ثمان وسبعماية، وصار أمر برشك إلى السلطان أبي حمو وانمحى منها أثر المشيخة والاستبداد. والأمور بيد الله سبحانه.

الخبر عن طاعة الجزائر واستنزال ابن علان منها وذكر أوليته:

كانت مدينة الجزائر هذه من أعمال صنهاجة، ومختطها بلكين بن زيري، ونزلها بنوه من بعده. ثم صارت إلى الموحدين، وانتظمها بنو عبد الرحمن في أمصار المغربين وإفريقية. ولما استبد بنو أبو حفص بأمر الموحدين، وبلغت دعوتهم بلاد زناتة. وكانت تلمسان ثغرا لهم، واستعملوا عليها يغمراسن وبنيه من بعده، وعلى

ضواحي مغراوة بني منديل بن عبد الرحمن، وعلى وانشريش وما إليه من عمل بني توجين محمد بن عبد القوي وبنيه. وبقي ما وراء هذه الأعمال إلى الحضرة لولاية الموحدين من أهل دولته، فكان العامل على الجزائر من الموحدين أهل الحضرة.

وفي سنة أربع وستين انتقضوا على المستنصر ومكثوا في ذلك الانتقاض سبعا. ثم أوعز إلى أبي هلال صاحب بجاية بالنهوض إليها في سنة إحدى وسبعين، فحاصرها أشهرا وأفرج عنها. ثم عاودها بالحصار سنة أربع وسبعين أبو الحسن بن ياسين بعساكر الموحدين، فاقتحمها عليهم عنوة واستباحها. وتقبض على مشيختها فلم يزالوا معتقلين بها إلى أن هلك المستنصر. ولما انقسم أمر بني أبي حفص، واستقل الأمير أبو زكرياء .الأوسط بالثغور الغربية وأبوه، وبعثوا إليه بالبيعة، وولى عليهم ابن أكمازير،

وكانت ولايتها لبطة من قبل، فلم يزل هو واليا عليها إلى أن أسن وهرم. وكان ابن علان من مشيخة الجزائر مختصا به، ومتصرفا في أوامره ونواهيه، ومصدرا لأمارته. وحصل له بذلك الرياسة على أهل الجزائر سائر أيامه. فلما هلك ابن أكمازير حدثته نفسه بالاستبداد والانتزاء بمدينته، فبعث عن أهل الشوكة من نظرائه ليلة هلاك أميره. وضرب أعناقهم وأصبح مناديا بالاستبداد، واتخذ الآلة، واستركب واستلحق من الغرباء والثعالبة عرب متيجة، واستكثر من الرجال والرماة. ونازلته عساكر بجاية مرارا، فامتنع عليهم.

وغلب مليكش على جباية الكثير من بلاد متيجة، ونازله أبو يحيى بن يعقوب بعساكر بني مرين عند استيلائهم على البلاد الشرقية، وتوغلهم في القاصية، فأخذ بمخنقها وضيق عليها. ومر بابن علان القاضي أبو العباس الغماري رسول الأمير خالد إلى يوسف بن يعقوب؛ فأودعه الطاعة للسلطان والضراعة إليه في الإبقاء؛ فأبلغ ذلك عنه وشفع له؛ فأوعز إلى أخيه أبي يحيى بمصالحته. ثم نازله الأمير خالد من بعد ذلك؛ فامتنع عليه. وأقام على ذلك أربع عشرة سنة، وعيون الخطوب تحرزه، والأيام تستجمع لحربه. فلما غلب السلطان أبو حمو على بلاد بني توجين، واستعمل يوسف بن حيون الهواري على وانشريش، ومولاه مسامحا على بلاد مغراوة، ورجع إلى تلمسان. ثم نهض سنة اثنتي عشرة إلى بلاد شلف، فترل بها، وقدم مولاه مسامحا في العساكر فدوخ متيجة من سائر نواحيها، وترس الجزائر، وضيق حصارها حتى مسهم الجهد. وسأل ابن علان الترول على أن يستشرط لنفسه، فتقبل السلطان اشتراطه. وملك السلطان أبو حمو الجزائر وانتظمها في أعماله. وارتحل ابن علان في جملة مسامح، ولحقوا بالسلطان بمكانه من شلف؟ فانكفأ إلى تلمسان وابن علان في ركابه؟ فأسكنه هنالك ووفى له بشرطه إلى أن هلك. والبقاء لله وحده.

الخبر عن حركة صاحب المغرب إلى تلمسان وأولية ذلك:

لما خرج عبد الحق بن عثمان من أعياص الملك على السلطان أبي الربيع بفاس،

وبايع له الحسن بن علي بن أبي الطلاق شيخ بني مرين بمداخلة الوزير رحو بن يعقوب كما قدمناه في أخبارهم. وملكوا تازى، وزحف إليهم السلطان أبو الربيع؛ فبعثوا وفدهم إلى السلطان أبو حمو صريخا. ثم أعجلهم أبو الربيع وأجهضهم على تازى؛ فلحقوا بالسلطان أبي حمو، ودعوه إلى المظاهرة على المغرب،

ليكونوا رداء له دون قومهم. وهلك السلطان أبو الربيع خلال ذلك. واستقل بملك المغرب أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق؛ فطالب السلطان أبا حمو بإسلام أولئك النازعين إليه؛ فأبى من إسلامهم وإخفار ذمته فيهم. وأجازهم البحر إلى العدوة؛ فأغضى له السلطان أبو سعيد عنها وعقد له السلم. ثم استراب يعيش بن يعقوب بن عبد الحق بمكانه عند أخيه السلطان أبي سعيد لما سعى به عنده، فنزع إلى تلمسان. وأجاره السلطان أبو حمو على أخيه؛ فأحفظه ذلك ونهض إلى تلمسان سنة أربع عشرة. وعقد لابنه الأمير أبي علي وبعثه في مقدمته، وصار هو في الساقة. ودخل أعمال تلمسان على هذه التعبية؛ فاكتسح بسائطها. ونازل وجدة؟ فقاتلها وضيق عليها. ثم تخطاها إلى تلمسان؛ فنزل بساحتها. وانحجز موسى بن عثمان من وراء أسوارها، وغلب على ضواحيها ورعاياها. وسار السلطان أبو سعيد في عساكره يتقرى شعارها وبلادها بالحطم والانتساف والعبث. فلما احيط به، وثقلت وطأة السلطان عليه، وحذر المغبة منهم، ألطف الحيلة في خطاب الوزراء الذين كان يسرب أمواله فيهم، ويخادعهم عن نصائح سلطانهم، حتى اقتضى مراجعتهم في شأن جاره يعيش بن يعقوب، وإدالته من اخته، ثم بعث خطوطهم بذلك إلى السلطان أبي سعيد؛ فامتلأ قلبه منها خشية، واستراب بالخاصة والأولياء، ونهض إلى المغرب على تعبيته ثم كان خروج ابنه عمر عليه بعد مرجعه، وشغلوا عن تلمسان وأهلها برهة من الدهر، حتى تم أمر الله في ذلك عند وقته. والله تعالى أعلم.

الخبر عن مبدأ حصار بجاية وسرح الداعية إليه:

لما خرج السلطان أبو سعيد إلى المغرب، وشغل عن تلمسان، فزع أبو حمو لأهل القاصية من عمله. وكان راشد بن محمد بن ثابت بن منديل قد جاء من بلاد زواوة أثناء هذه الغمرة؛ فاحتل بوطن شلف؛ واجتمع إليه أوشاب قومه. وحين تجلت الغمرة عن السلطان أبي حمو، نهض إليه بعد أن استعمل ابنه أبا تاشفين على تلمسان، وجمع له الجموع، ففر أمامه ناجيا إلى مثوى اغترابه ببجاية. وأقام بنو أبي سعيد بمعقلهم من جبال شلف على دعوته، فاحتل السلطان أبو حمو بوادي نهل، فخيم به. وجمع أهل أعماله لحصار بني أبي سعيد شيعة راشد بن محمد، واتخذ هنالك قصره المعروف باسمه. وسرح العساكر لتدويخ القاصية. ولحق به هنالك الحاجب ابن أبي حي مرجعه من الحج سنة إحدى عشرة وسبعماية، فأغراه بملك بجاية ورغبه فيه. وكان له فيها طمع منذ رسالة السلطان أبي يحيى إليه. وذلك أنه لما انتقض على أخيه خالد دعى لنفسه بقسنطينة. ونهض إلى بجاية، فانهزم عنها كما قدمناه في أخباره. وأوفد على السلطان أبي حمو بعض رجال دولته مغريا له بابن خلوف وبجاية. ثم بعث إليه ابن خلوف أيضا يسأله المظاهرة والمدد، فأطمعه ذلك في ملك بجاية. ولما هلك ابن خلوف كما قدمناه، لحق به كاتبه عبد الله بن هلال، فأغراه واستحثه، وعداه عن ذلك شأن الجزائر. فلما استولى على الجزائر، بعث مسامحا مولاه في عسكر مع ابن أبي حي، فبلغوا إلى جبل الزان. وهلك ابن أبي في، ورجع مسامح. ثم شغله عن شأنها زحف. وفرغ من أمر عدوه، ونزل بلد شلف كما ذكرنا آنفا. ولحق به عثمان بن سباع بن يحيى، وعثمان بن سباع بن شبل أمير الدواودة، يستحثونه لملك الثغور الغربية من عمل الموحدين، فاهتز لذلك وجمع له الجموع: فعقد لمسعود ابن عفه أبي عامر برهوم على

عسكر وأمره بحصار بجاية، وعقد لمحمد ابن عفه يوسف قائد مليانة على عسكر، ولمولاه مسامح على عسكر آخر. وسرحهم إلى بجاية وما وراءها لتدويخ البلاد. وعقد لموسى بن علي الكردي على عسكر ضخم، وسرحه مع العرب من الدواودة وزغبة على طريق الصحراء. وانطلقوا إلى وجههم ذلك، وفعلوا الأفاعيل كل فيما يليه. وتوغلوا في البلاد الشرقية، حتى انتهوا إلى بلاد بونة. ثم انقلبوا من هنالك، ومروا في طريقهم بقسنطينة، ونازلوها أياما.

وصعدوا جبل ابن ثابت المطل عليها، فاستباحوه. ثم مروا ببني باورار، فاستباحوها وأضرموها واكتسحوا سائر ما مروا عليه. وحدثت بينهم المنافرة حسدا ومنافسة، فافترقوا ولحقوا بالسلطان. وأقام مسعود بن برهوم محاصرا لبجاية، وبنى حصناً باصفوان لمقامته. وكان يسرح الجيوش لقتالها، فتجول في ساحتها ثم رجع إلى الحصن. ولم يزل كذلك حتى بلغه خروج محمد بن يوسف، فأجفل عنها على ما نذكره الأن، فلم يرجعوا لحمارها إلا بعد مدة. والله تعالى أعلم.

الخبر عن خروج محمد بن يوسف ببلاد بني توجين وحلاب السلطان معه:

لما رجع محمد بن يوسف من قاصية المشرق كما قدمناه، وسابقه إلى السلطان موسى بن علي الكردي، وجوانحه تلتهب غيظاً وحقدا عليه. وسعى به عند السلطان؟ فعزله عن مليانة؛ فوجم لها. وشاله زيارة ابنه الأمير أبي تاشفين بتلمسان، وهو ابن اخته فأذن له. وأوعز إلى ابنه بالقبض عليه، فأبى عن ذلك. وأراد هو الرجوع إلى معسكر السلطان؛ فخلى سبيله. ولما وصل إليه تنكر له وحجبه؛ فاستراب وملا قلبه الرعب. وفر من المعسكر ولحق بالمدية. ونزل على يوسف بن حسن بن عزيز عاملها للسلطان من بني توجين. فيقال إنه أوثقه اعتقالاً حتى غلبه قومه على بغيته من الخروج معه، لما كان السلطان أبو حمو يوسقهم به من نزعاته. فأخذ له البيعة على قومه ومن إليهم من العرب. وزحفوا إلى السلطان بمعسكره من نهل، فلقيهم في عساكره؟ فكانت الدبرة على السلطان، ولحق بتلمسان، وغلب محمد بن يوسف على بلاد بني توجين ومغراوة، ونزل مليانة. وخرج السلطان من تلمسان لأيام من دخولها، وقد جمع الجموع، وأزال العلل. وأوعز إلى مسعود ابن عمه برهوم بمكانه من حصار بجاية، بالوصول إليه بالعساكر، ليأخذ بحجرهم من ورائهم. وخرج محمد بن يوسف من مليانة لاعتراضه، واستعمل على مليانة يوسف بن حسن بن عزيز؟ فلقيه ببلاد مليكش وانهزم محمد من يوسف. ولجأ إلى جبل موصاية، وحاصره بها مسعود بن

برهوم أياما، ثم أفرج عنه. ولحق بالسلطان؛ فنازلوا جميعا مليانة. وافتتحها السلطان عنوة وجيء بيوسف بن حسن أسيرا من مكمنه ببعض المسارب؛ فعفا عنه وأطلقه. ثم زحف إلى المدية؛ فملكها وأخذ الرهن من أهل تلك النواحي؛ وقفل إلى تلمسان. واستطال محمد بن يوسف على النواحي؛ ففشت دعونه في تلك القاصية. وخاطب مولانا السلطان أبا يحيى بالطاعة؟ فبعث إليه بالهدية والآلة؛ وسوغه سهام يغمراسن بن زيان من إفريقية. ووعده بالمظاهرة وغلب سائر بلاد بني توجين. وبايع له بنو تيغرين أهل جبل وأنشريش؛ فاستولى عليه. ثم نهض السلطان إلى الشرق سنة سبع عشرة، وملك المدية، واستعمل عليها يوسف بن حسن لمدافعه

محمد بن يوسف، واستبلغ في أخذ الرهن منه ومن أهل العمالات وقبائل زناتة والعرب، حتى من قومه بني عبد الواد. ورجع إلى تلمسان، ونزلهم بالقصبة، وهي الغور الفسيحة الخطة، تماثل بعض الأمصار العظيمة، اتخذها للرهن. وكان يبالغ في ذلك، حتى كان بأخذ الرهن المتعددة من البطن الواحد والفخذ الواحد والرهط. وتجاوز ذلك إلى أهل الأمصار والثغور من المشيخة والسوقة، فملأ تلك القصبة بأبنائهم وأخوانهم. وشحنها بالأمم تلو الأمم، وأذن لهم في ابتناء المنازل واتخاذ النساء. واختط لهم المساجد، فجمعوا بها لصلاة الجمعة. ونفقت بها الأسواق والصنائع. وكان حال هذه البنية من أغرب ما حكي في العصور عن سجن. ولم يزل محمد بن يوسف بمكان خروجه من بلاد بني توجين إلى أن هلك السلطان. والبقاء لله وحده.

الخبر عن مقتل السلطان أبي حمو وولاية ابنه أبي تاشفين من بعده:

كان السلطان أبو حمو قد اصطفى مسعود ابن عمه برهوم، وتبناه من بين عشيرته

وأولي قرباه لمكان صرامته ودهائه، واختصاص أبيه برهوم المكنى أبا عامر بعثمان بن يغمراسن شقيقه من بين سائر الإخوة؛ فكان يؤثره على بنيه ويفاوضه في شؤونه، ويصله إلى خلواته. وكان قد دفع إلى أبنه عبد الرحمن أبا تاشفين أترابا له من المعلوجي يقومون بخدمته في مرباه ومنشأه، كان منهم هلال المعروف بالقطلاني، ومسامح المسمى بالصغير، وفرج بن عبد الله وظافر ومهدي وعلي بن تكرارت وفرج الملقب شقورة، وكان ألصقهم وأعلقهم بنفسه تلاد له منهم يسمى هلالا، وكان أبو حمو كثيرا ما يقرعه ويوبخه إرهافا في اكتساب الخلال، وربما يقذع في تقريعه لما كان عفا الله عنه فحاشا فتحفظه لذلك. وكان مع ذلك شديد السطوة متجاوزا بالعقاب حدوده في الزجر والأدب، فكان أولئك المعلوجي تحت رهب منه، وكانوا يغرون لذلك مولاهم أبا تاشفين بأبيه، ويبعثون غيرته بما يذكرون له من اصطفائه ابن أبي عامر دونه. وقارن ذلك أن مسعود بن أبي عامر أبلى في لقاء محمد بن يوسف الخارج على أبي حمو البلاء الحسن عندما رجع من حصار بجاية، فاستحمد له السلطان ذلك، وعير ولده عبد الرحمن بمكان ابن عفه هذا من النجابة والصرامة يستجد له بذلك خلالا ويغريه بالكمال. وكان عمه أبو عامر إبراهيم بن يغمراسن مثريا بما نال من جوائز الملوك في وفاداته، وما أقطع له أبوه وأخوه سائر أيامهما.

ولما هلك سنة ست وتسعين استوصى أخاه عثمان بولده فضمهم ووضع تراثهم بموح ماله، حتى يؤنس منهم الرشد في أحوالهم. حتى إذا كانت غزاة ابنه أبي سرحان مسعود هذه، وعلا فيها ذكره وبعد صيته؛ رأى السلطان أبو حمو أن يدفع إليه تراث أبيه لاستجماع خلاله؛ فاحتمل إليه من المودع. ونمي الخبر إلى ولده أبي تاشفين وبطانته السوء من المعلوجي؛ فحسبوه مال الدولة قد احتمل إليه لبعد عهدهم عما وقع في تراث أبي عامر أبيه، واتهموا السلطان بإيثاره بولاية العهد دون ابنه؛ فأغروا أبا تاشفين بالتوثب على الأمر، وحملوه على الفتك بمشتويه مسعود بن أبي عامر، واعتقال السلطان أبي حمو ليتم له الاستبداد. وتحينوا لذلك قايلة الهاجرة عند منصرف السلطان من مجلسه، وقد اجتمع إليه ببعض حجر القصر خاصة من البطانة، وفيهم مسعود بن

أبي عامر والوزراء من بني الملاح. وكان بنو الملاح هؤلاء قد استخلصهم السلطان لحجابته سائرأيامه، وكان مسمى الحجابة عندهم قهرمانة الدار والنظر في الدخل والخرج، وهم أهل بيت من

قرطبة كانوا يحترفون فيها بسكة الدنانير والدراهم، وربما دفعوا إلى النظر في ذلك ثقة بأمانتهم؛ ونزل أولهم بتلمسان مع جالية قرطبة فاحترفوا بحرفتهم الأولى، وزادوا إليها الفلاحة. واتصلوا بخدمة عثمان بن يغمراسن وابنه، وكان لهم في دولة أبي حمو مزيد حظوة وعناية؟ فولى على حجابته منهم لأول دولته محمد بن ميمون بن الملاح، ثم ابنه محمد الأشقر من بعده، ثم ابنه إبراهيم بن محمد من بعدهما. واشترك معه من قرابته علي بن عبد الله بن الملاح؟ فكانا يتوليان مهمة بداره ويحضران خلوته مع خاصته؛ فحضروا يومئذ مع السلطان بعد انقضاء مجلسه كما قلناه؛ ومعه من القرابة مسعود القتيل وحماموش بن عبد الملك بن حنينة، ومن الموالي معروف الكبير ابن أبي الفتوح بن عنتر من ولد نصر بن علي أمير بني يزناتن من توجين وكان السلطان قد استوزره، فلما علم أبو ناشفين باجتماعهم هجم ببطانته عليهم، وغلبوا الحاجب على بابه حتى ولجوه متسايلين بعد أن استمسكوا من إغلاقه، حتى إذا توسطوا الدار اعتوروا السلطان بأسيافهم فقتلوه. وخام أبو تاشفين عنها، فلم يعرجوا عليه. ولاذ أبو سرحان منهم ببعض زوايا الدار، واستمكن من غلقها دونهم، فكسروا الباب وقتلوه، واستلحموا من كان هنالك من البطانة، فلم يفلت إلا الأقل. وهلك الوزراء بنو الملاح، واستبيحت منازلهم. وطاف الهاتف بسكك المدينة بأن أبا سرحان غدر بالسلطان، وأن ابنه أبا تاشفين ثار منه، فلم يخف على الناس الشان. وكان موسى بن علي الكردي قائد العساكر قد سمع الصيحة وركب إلى القصر، فوجده مغلقاً دونه، فظن الظنون، وخشي استيلاء مسعود على الأمر، فبعث عن العباس بن يغمراسن، كبير القرابة، فأحضره عند باب القصر، حتى إذا مر بهم الهاتف واستيقن مهلك أبي سرحان، رد العباس على عقبه إلى مترله. ودخل إلى السلطان أبي تاشفين، وقد أدركه الدهش من الواقعة، فثبته ونشطه لحقه، وأجلسه بمجلس أبيه، وتولى له عقد البيعة على قومه خاصة وعلى الناس عامة، وذلك آخر جمادى الأولى من تلك السنة. وجهز السلطان إلى مدفنه بمقبرة سلفه من القصر القديم، وأصبح مثلا في الاخرين، والبقاء لله.

وأشخص السلطان لأول بيعته سائر القرابة الذين كانوا بتلمسان من ولد يغمراسن، وأجازهم إلى العدوة حذراً من مغبة ترشيحهم، وما يتوقع من الفتن على الدولة من تبلهم، وقلد حجابته مولاه هلالأ، فاضطلع بأعبائها، واستبد بالعقد والحل والإبرام

والنقض صدرا من دولته، إلى أن نكبه حسبما نذكره. وعقد ليحيى بن موسى السنوسي من صنائع دولتهم على شلف وسائر أعمال مغراوة، وعقد لمحمد بن سلامة بن علي على عمله من بلاد بني يدللتن من توجين، وعزل أخاه سعدا، فلحق بالمغرب. وعقد لموسى بن علي الكردي على قاصية الشرق، وجعل له حصار بجاية، وأغرى دولته بتشييد القصور واتخاذ الرياض والبساتين؛ فاستكمل ما شرع فيه أبوه من ذلك وأربى عليه؛ فاحتفلت القصور والمصانع في الحسن ما شاءت، واتسعت أخباره على ما نذكره.

الخبر عن نهوض السلطان أبي تاشفين إلى محمد بن يوسف بجبل وانشريش واستيلائه عليه:

كان محمد بن يوسف بعد مرجع السلطان أبي حمو عنه كما ذكرناه قد تغلب على جبل وانشريش ونواحيه، واجتمع إليه الفل من مغراوة، فاستفحل أمره، واشتدت في تلك النواحي شوكته. وأهم السلطان أبا تاشفين أمره، فاعتزم على النهوض إليه، وجمع لذلك، وأزاح العلل. وخرج من تلمسان سنة تسع عشرة، واحتشد سائر القبائل من زناتة والعرب، وأناخ على وانشريش، وقد اجتمع به توجين ومغراوة مع محمد بن يوسف. وكان بنو تيغرين من بني توجين، بطانة ابن عبد القوي، يرجعون في رئاستهم إلى عمر بن عثمان بن عطية حسبما نذكره، وكان قد استخلص سواه من بني توجين ث ونه فأسفه بذلك، وداخل أبا تاشفين، ووعده أن ينحرف عنه، فاقتحم السلطان عليهم الجبل وانحجروا جميعا بحصن توكال، فخالفهم عمر بن عثمان في قومه إلى السلطان بعد أن حاصرهم ثمانيا، فتخرم الجمع واختل الأمر وانفض الناس فاقتحم الحصن. وتقبض على محمد بن يوسف، وجيء به أسيرا إلى السلطان وهو في موكبه، فعدد عليه، ثم وخزه برمحه. وتناوله الموالي برماحهم فأقعصوه وحمل رأسه على القناة إلى تلمسان، فنصب بشرفات البلد. وعقد لعمر بن عثمان على جبل وأنشريش وعمال بني عبد القوي، ولسعيد العربي من مواليه على عمل المدية.
فزحف إلى الشرق، فأغار على آحياء رياح وهم بوادي الجنان حيث الثنية المفضية من بلاد حمزة إلى القبلة، وصبح أحياءهم فاكتسح أموالهم ومضى في وجهه إلى بجاية، فعرس بساحتها ثلاثا، وبها يومئذ الحاجب يعقوب بن عمر فامتنعت عليه، فظهر له وجه المعذرة لأوليائهم في استحصالها لهم. وقفل إلى تلمسان إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.
الخبر عن حصار بجاية والفتنة الطويلة مع الموحدين التي كان فيها حتفه وذهاب سلطانه وانقراض الأمر عن قومه برهة من الدهر:
لما رجع السلطان أبو تاشفين من حصار بجاية سنة تسع عشرة اعتمل في ترديد البعوت إلى قاصية الشرق، والإلحاح بالغزو على بلاد الموحدين، فأغزاها جيوشه سنة عشرين، فدوخوا ضواحي بجاية وقفلوا. ثم أغزاهم ثانية سنة إحدى وعشرين، وعليهم موسى بن علي الكردي، فانتهى إلى قسنطينة وحاصرها فامتنعت عليه فأفرج عنها، وابتنى حصن بكر لأول مضيق الوادي، وادي بجاية. وأنزل به العسكر لنظر يحيى بن موسى قائد شلف، وقفل إلى تلمسان. ثم نهض موسى بن علي ثالثة سنة اثنتين وعشرين فدوخ نواحي بجاية ونازلها أياما. وامتنعت عليه فأفرج عنها. ووفد سنة ثلاث وعشرين على السلطان حمزة بن عمر بن أبي الليل كبير البدو بإفريقية صريخا على صاحب إفريقية مولانا السلطان أبي يحيى، فبعث معه العساكر من زناتة وعامتهم من بني توجين وبني راشد، وأفر عليهم القواد وجعلهم لنظر قائده موسى بن على الكربي، ففصلوا إلى إفريقية، فخرج السلطان للقائهم، فانهزموا بنواحي مرجمنة. وتخطفتهم الأيدي فاستلحموا، وقتل مسامح مولاه، ورجع موسى بن علي بالفل فاتهمه السلطان بالادهان، وكان من نكبته ما نذكر في أخباره. وسير العساكر سنة أربع وعشرين فدوخت نواحي بجاية، ولقيه ابن سيد الناس فهزموه، ونجا إلى البلد.
ووفد على السلطان سنة خمس وعشرين مشيخة سليم: حمزة بن عمر بن أبي

الليل وطالب بن مهلهل، الفحلان المتزاحمان في رياسة الكعوب. ومحمد بن مسكين من بني القوس كبراء حكيم، فاستحثوه للحركة واستصرخوه على إفريقية، وبعث معهم العساكر لنظر قائده موسى بن علي.
ونصب لهم إبراهيم بن أبي بكر الشهيد من أعياص الحفصيين. وخرج مولانا السلطان أبو يحيى من تونس للقائهم، وخشيهم على قسنطينة، فسابقهم إليها، فأقام موسى بن علي بعساكره على قسنطينة. وتقدم إبراهيم بن أبي بكر الشهيد في أحياء سليم إلى تونس، فملكها كما ذكرناه في أخبارهم. وامتنعت قسنطينة على موسى بن علي، فأفرج عنها لخمس عشرة ليلة من حصارها وعاد إلى تلمسان. ثم أغزاه السلطان سنة ست وعشرين في الجيوش، وعهد إليه بتدويخ الضاحية ومحاصرة الثغور، فنازل قسنطينة وأفسد نواحيها. ثم رجع إلى بجاية فحاصرها، حتى إذا
اعتزم على الإقلاع ورأى أن حصن بكر غير صالح لتجمير الكتائب عليهما لبعده، ارتاد للبناء عليها فيما هو أقرب منه، فاختط بمكان سوق الخميس على وادي بجاية مدينة لتجهيز الكتائب بها على بجاية، وجمع الأيدي على بنائها من الفعلة والعساكر، فتمت لأربعين يوما، وسموها تامزيزدكت باسم الحصن القديم الذي كان لبني عبد الواد قبل الملك بالجبل قبلة وجدة، وأنزل بها عسكراً يناهز ثلاثة آلاف. وأوعز السلطان إلى جميع عماله ببلاد المغرب الأوسط بنقل الحبوب إلى حيث كانت، والادم وسائر المرافق حتى الملح، وأخذوا الرهن من سائر القبائل على الطاعة واستوفوا جبايتهم. فثقلت وطأتهم على بجاية واشتد حصارها وغلت أسعارها.
وبعث مولانا السلطان أبو يحيى جيوشه وقواده سنة سبع وعشرين، فسلكوا إلى
بجاية على جبل بني عبد الجبار، وخرج بهم قائدها أبو عبد الله بن سيد الناس إلى ذلك الحصن. وقد كان موسى بن علي عند بلوغ خبرهم إليه استنفر الجنود من ورائه، وبعث إلى القواد قبله بالبراز فالتقى الجمعان بناحية تامزيزدكت، فانكشف ابن سيد الناس ومات ظافر الكبير مقدم الموالي من المعلوجي بباب السلطان واستبيح معسكرهم. ولما سخط السلطان قائده موسى بن علي ونكبه كما نذكره في أخباره أغرى يحيى بن موسى السنوسي في العساكر إلى إفريقية ومعه القواد، فعاثوا في نواحي قسنطينة وانتهوا إلى بلد بونة ورجعوا.
وفي سنة تسع وعشرين بعدها وفد حمزة بن عمر على السلطان أبي تاشفين صريخا، ووفد معه أو بعده عبد الحق بن عثمان، فحل الشول من بني مرين. وكان قد نزل على مولانا السلطان أبي يحيى منذ سنين، فسخط بعض أحواله ولحق بتلمسان، فبعث السلطان معهم جميع قواده بجيوشه لنظر يحيى بن موسى. ونصب لهم محمد بن أبي بكر بن أبي عمران من أعياص الحفصيين، ولقيهم مولانا السلطان أبو يحيى بالرياس من نواحي بلاد هوارة، وانخذل عنه أحياء العرب من أولاد مهلهل الذين كانوا معه، وانكشفت جموعه واستولوا على ظعائنه بما فيها من الحريم. وعلى ولديه أحمد وعمر، فبعثوا بهم إلى ظمسان، ولحق مولانا السلطان أبو يحيى بقسنطينة وقد أصابه بعض الجراحة في حومة الحرب. وسار يحيى بن موسى وابن أبي عمران إلى تونس، فاستولوا عليها. ورجع يحيى بن موسى عنهم بجموع زناتة لأربعين يوما من دخولها، فقفل إلى تلمسان، وبلغ الخبر إلى مولانا السلطان أبي يحيى بقفول زناتة عنهم، فنهض

إلى تونس، وأجهض عنها ابن أبي عمر بعد أن كان أوفد من بجاية على ملك الغرب ابنه أبا زكرياء يحيى، ومعه أبو محمد بن تافراكين من مشيخة الموحدين، صريخا على أبي تاشفين فكان ذلك داعية إلى انتقاض ملكه كما نذكره بعد. وداخل السلطان أبو تاشفين بعض أهل بجاية، ودلوه على عورتها، واستقدموه فنهض إليها ودخلها، ونذر بذلك الحاجب ابن سيد الناس فسابقه إليها، ودخلها يوم نزوله عليها، وقتل من اتهمه بالمداخلة، وانحسم الداء. وأقلع السلطان أبو تاشفين عنها، وولى عيسى بن مزروع من مشيخة بني عبد الواد على الجيش الذي بتامزيزدكت، وأوعز إليه ببناء حصن أقرب إلى بجاية عن تامزيزدكت، فبناه باليالوتة من أعلى الوادي قبالة بجاية. فأخذ بمخنقها واشتد الحصار إلى أن أخذ السلطان أبو الحسن بحجرتهم؛ فانجفلوا جميعا إلى تلمسان؛ وتنفس مخنق الحصار عن بجاية. ونهض مولانا السلطان أبو يحيى بجيوشه من تونس إلى تامزيزدكت سنة اثنتين وثلاثين؛ فخربها في ساعة من نهار كأن لم تغن بالأمس؛ حسبما ذكرنا ذلك في أخباره. والله تعالى أعلم.

الخبر عن معاودة الفتنة مع بني مرين وحصارهم تلمسان ومقتل السلطان أبي تاشفين بن أبي حمو:

كان السلطان أبو تاشفين قد عقد السلم لأول دولته مع السلطان أبي سعيد ملك المغرب؛ فلما انتقص عليه ابنه عمر سنة اثنتين وعشرين من بعد المهادنة الطويلة من لدن استبداده بسجلماسة؛ بعث ابنه القعقاع إلى أبي تاشفين في الأخذ بحجرة أبيه عنه، ونهض إلى مراكش فدخلها. وزحف إليه السلطان أبو سعيد، فبعث أبو تاشفين قائده موسى بن علي في العساكر إلى نواحي تازى؛ فاستباح عمل كارت واكتسح زروعه وقفل.

واعتدها عليه السلطان أبو سعيد، وبعث أبو تاشفين وزيره داود بن علي بن مكن رسولاً إلى السلطان أبي علي بسجلماسة، فرجع عنه مغاضبا. وجنح أبو تاشفين بعدها إلى التمسك بسلم السلطان أبي سعيد، فعقد لهم ذلك وأقاموا عليها مدة. فلما وفد ابن مولانا السلطان أبي يحيى على السلطان أبي سعيد ملك المغرب، وانعقد الصهر بينهم كما ذكرناه في أخبارهم، وهلك السلطان أبو سعيد، نهض السلطان أبو الحسن إلى تلمسان بعد أن قدم رسله إلى السلطان أبي تاشفين في أن يقلع جيوشه عن حصار بجاية،

ويتجافى للموحدين عن عمل تدلس فأبى وأساء الرد، وأسمع الرسل بمجلسه هجر القول. وأقذع لهم الموالي في الشتم لمرسلهم بمسمع من أبي تاشفين؛ فأحفظ ذلك السلطان أبا الحسن، ونهض في جيوشه سنة اثنتين وثلاثين إلى تلمسان؛ فتخطاها إلى تاسالة وضرب لها معسكره وأطال المقامة. وبعث المدد إلى بجاية مع الحسن البطوي من صنائعه، وركبوا في أساطيله من سواحل وهران. ووافاهم مولانا السلطان أبو يحيى ببجاية؛ وقد جمع لحرب بني عبد الواد وهدم تامزيزدكت؛ وجاء لموعد السلطان أبي الحسن معه أن يجتمعا بعساكرهما لحصار تلمسان فنهض من بجاية إلى تامزيزدكت وأجفل منها عسكر بني عبد الواد وتركوها قواء. ولحقت بها عساكر الموحدين؛ فعاثوا فيها تخريبا ونهبا. وانطلقت الأيدي على الاكتساح بما كان فيها من الأقوات والأدم، فنسفت وألصقت جدرانها بالأرض. وتنفس مخنق بجاية من الحصار، وانكمش بنو عبد الواد إلى وراء تخومهم.

وفي خلال ذلك انتقض أبو علي ابن السلطان أبي سعيد على أخيه، وصمد من

مقره بسجلماسة إلى درعة، وفتك بالعامل وأقام فيها دعوته، كما نذكر ذلك بعد. وطار الخبر إلى السلطان أبي الحسن بمحله من تاسالة؛ فنكص راجعا إلى المغرب لحسم دائه؛ وراجع السلطان أبو تاشفين عزه وانبسطت عساكره في ضواحي عمله؛ وكتب الكتائب وبعث بها مددا للسلطان أبي علي. ثم استنفر قبائل زناتة، وزحف إلى تخوم المغرب سنة ثلاث وثلاثين ليأخذ بحجرة السلطان أبي الحسن على أخيه، وانتهى إلى ثغر تاوريرت. ولقيه هنالك تاشفين ابن السلطان أبي الحسن في كتيبة جمرها أبوه معه هنالك لسد الثغور، ومعه منديل بن حمامة شيخ تيربيغين من بني مرين في قومه. فلما برزوا إليه انكشف ورجع إلى تلمسان. ولما تغلب السلطان أبو الحسن على أخيه وقتله سنة أربع وثلاثين، جمع لغزو تلمسان وحصارها، ونهض إليها سنة خمس، وقد استنفد وسعه في الاحتفال بذلك. وأحاطت بها عساكره وضرب عليها سياج الأسوار وسرادقات الحفائر أطبقت عليهم، حتى لا يكاد الطيف يخلص منهم ولا إليهم. وسرح كتائبه إلى القاصية من كل جهة؛ فتغلب على الضواحي وافتتح الأمصار جميعا، وخرب وجدة كما يأتي ذكر ذلك كله. وألح عليها بالقتال يغاديها ويراوحها، ونصب المجانيق، وانحجر بها مع السلطان أبي تاشفين زعماء زناتة من بني توجين وبني عبد الواد وكان عليهم في بعض

أيامها اليوم المشهور الذي استلحمت فيه أبطالهم وهلك أمراؤهم. وذلك أن السلطان أبا الحسن كان يباكرهم في الأسحار؛ فيطوف من وراء أسواره التي ضرب عليهم شرطا يرتب فيه المقاتلة، ويثقف الأطراف ويسد الفروج ويصلح الخلل، وأبو تاشفين يبث العيون في ارتصاد فرصة فيه. وأطاف في بعض الأيام منتبذا عن الجملة فكمنوا له؛ حتى إذا سلك ما بين البلد والجبل انقضوا عليه يحسبونها فرصة قد وجدوها؛ وضايقوه حتى كاد سرعان الناس أن يصلوا إليه. وأحس أهل المعسكر بذلك؛ فركبوا زرافات ووحدانا. وركب ابناه الأميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك جناحا عسكره وعقابا جحافله، وتهاوت إليهم صقور بني مرين من كل جو فانكشف عسكر البلد ورجعوا القهقرى، ثم ولوا الإدبار منهزمين لا يلوي أحد منهم على أحد. واعترضهم مهوى الخندق فتطارحوا فيه وتهافتوا على ردمه؛ فكان الهالك يومئذ بالروم أكثر من الهالك بالقتل. وهلك من بني توجين يومئذ عمر بن عثمان كبير الحشم وعامل جبل وانشريش، ومحمد بن سلامة بن علي كبير بني يدللتن وصاحب القلعة تاوغزدوت وما إليها من عملهم، وهما ما هما في زناتة، إلى أشباه لهما وأمثال استحلموا في هذه الوقائع؛ فقص هذا اليوم جناح الدولة وحطم منها؛ واستمرت منازلة السلطان أبي الحسن إياها إلى آخر شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين؛ فاقتحمها يوم السابع والعشرين منه غلابا. ولجأ السلطان أبو تاشفين إلى باب قصره في لمة من أصحابه، ومعه ولدان عثمان ومسعود، ووزيره موسى بن علي وعبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من أعياص بني مرين، وهو الذي لحق بهم من تونس كما ذكرناه. وسيأتي ذكره وخبره. ومعه يومئذ ابنا أخيه أبو رزين وأبو ثابت، فمانعوا دون القصر مستميتين إلى أن استلحموا ورفعت رؤوسهم على عصي رماح؛ فطيف بها. وغصت سكك البلد من خارجها وداخلها بالعساكر وكظت أبوابها بالزحام، حتى لقد كب الناس على أذقانهم وتواقعوا فوطئوا بالحوافر وتراكمت أشلاؤهم ما بين البابين، حتى ضاق

المذهب بين السقف ومسلك الباب، فانطلقت الأيدي على المنازل نهبا واكتساحا. وخلص السلطان إلى المسجد الجامع، واستدعى رؤوس الفتيا والشورى: أبا زيد عبد الرحمن، وأبا موسى عيسى ابني الإمام، قدمهما من أعماله لمكان معتقده في أهل العلم، فحضرا ورفعا إليه أمر الناس، وما نالهم من معرة ووعظاه فأناب. ونادى مناديه برفع الأيدي عن ذلك، فسكن الاضطراب وأقصر العيث. وانتظم السلطان أبو الحسن أمصار المغرب الأوسط وعمله إلى سائر أعماله، وتاخم الموحدين بثغوره، وطمس رؤوس الملك لآل زيان ومعالمه، واستتبع زناتة عصبا تحت لوائه من بني عبد الواد وتوجين ومغراوة، وأقطعهم ببلاد المغرب أسهاما أدالهم بها من تراثهم بأعمال تلمسان، فانقرض ملك آل يغمراسن برهة من الدهر إلى أن أعاده منهم أعياص سموا إليه بعد حين عند نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان كما نذكره، فأومض بارقة وهبت ريحه. والله يؤتي فلكه من يشاء.

الخبر عن رجال دولته وهم موسي بن علي ويحي بن موسي ومولاه هلال وأوليتهم ومصائر أمولهم:

فأمـا موسـى :واختصاصـهم بالـذكر لمـا طـار مـن شـهرتهم وارتفـع مـن صـيتهم الكرد من أعـاجم بـن علـي الحاجـب الهالـك مـع السـلطان، فأصـله مـن قبيلـة وذكـر المسـعودي .المشـرق، وقـد أشـرنا إلـى الخـلاف فـي نسـبهم بيـن الأمـم منهـم أصـنافا سـماهم فـي كتابـه مـن الشـاهجان والبرسـان والكيكـان إلـى آخـرين منهـم، وإن مـواطنهم ببـلاد أذربيجـان والشـام والموصـل، وإن منهـم .ان وعلـيـنصـارى علـى رأي اليعقوبيـة وخـوارج علـى رأي الـبراءة مـن عثـم وكـان منهـم طوائـف بجبـل شـهرزور مـن عـراق العـرب، وعـافتهم .انتهـى كلامـه يتقلبـون فـي الرحلـة وينتجعـون لسـائمتهم مواقـع الغيـث، ويتخـذون ،الخيـام لسـكناهم مـن اللبـود، وجـل مكاسـبهم الشـاء والبقـر مـن الأنعـام وكانـت لهـم عـزة وامتنـاع بـالكثرة ورياسـات ببغـداد أيـام تغلـب الأعـاجم ولمـا طمـس ملـك بـني العبـاس، وغلـب .علـى الدولـة واسـتبدادهم بالرياسـة الططـر علـى بغـداد سـنة سـت وخمسـين وسـتماية، وقتـل ملكهـم هـلاون آخـر ،ثـم سـاروا فـي ممالـك العـراق وأعمالـه .خلفـاء العباسـيين، وهـو المستعصـم فاسـتولوا عليهـا، وعـبر الكثـير مـن الكـرد نهـر الفـرات فـرارا أمـام الططـر وصـاروا فـي إيالـة الـترك، فاسـتنكف .كـانوا يـدينون بـه مـن المجوسـية لمـا وأجـاز منهـم إلـى المغـرب .أشـرافهم وبيوتـاتهم مـن المقـام تحـص سـلطانهم ،عشـيرتان يعرفـان ببـني لـوين وبيـن تـابير فيمـن إليهـم مـر الأتبـاع ،ونـزلوا علـى المرتضـى بمـراكش .ودخلـوا المغـرب لآخـر دولـة الموحـدين وأكـرم مثـواهم، وأسـنى لهـم الجرايـة والأقطـاع، وأحلهـم فأحسـى تلقيهـم بالمحـل الـرفيع مـن الدولـة ولمـا انتقـض أمـر الموحـدين بحـدثان وصـولهم صـاروا إلـى ملكـة بـني مـرين، ولحـق بعضـهم بيغمراسـن بـن زيـان، ونـزع إلـى صـاحب إفريقيـة يومئـذ المستنصـر، بيـت مـن بـني تـابير لا أعـرفهم؛ كـان منهـم محمـد بـن عبـد يـز المعـروف بـالمزوار، صـاحب مولانـا السـلطان أبـي يحـيى وآخـرونالعـز

ثـم مـن بـني .منهـم وكـان مـن أشـهر مـن بقـي فـي إيالـة بـني مـرين منهـم :غـيره
تـابير علـي بـن حسـن بـن صـاف وأخـوه سـلمان ومـن بـني لـوين خضـر بـن
وكانـت رياسـة بـني تـابير لسـلمان .محمـد، ثـم بنـو محمـود، ثـم بنـو بوصـة
وكـادت تكـون الفتنـة بينهـم كمـا .ن الخضـر بـن محمـدوعلـي، ورياسـة لـوي
كانـت فـي مـواطنهم الأولـى؛ فـإذا تعـدوا للحـرب توافـت إليهـم أشـياعهم مـن
وكانـت مـن أشـهر .تلمسـان، وكـان نصـالهم بالسـهام لمـا كانـت القسـي سـلاحهم
الوقـائع بينهـم وقيعـة بفـاس سـنة أربـع وسـبعين وسـتماية؛ جمـع لهـا
ن وعلـي رئيسـا بـني تـابير، واقتتلـواخضـر رئيـس بـني لـوين وسـليما
وتـركهم يعقـوب بـن عبـد الحـق لشـأنهم مـن الفتنـة .خـارج بـأب الفتـوح
وكـان مهلـك سـلمان منهـم بعـد ذلـك مرابطـا لثغـر .حيـاء منهـم؛ فلـم يعـرض لهـم
طـريف عـام تسـعين وسـتماية، وكـان لعلـي بـن حسـن ابنـه موسـى اصـطفاه
داره، ورئـي بيـن حرمـه؛ وكشـف لـه الحجـاب عـن .السـلطان يوسـف بـن يعقـوب
فتمكنـت لـه دالـة سـخط بسـببها بعـض الأحـوال ممـا لـم يرضـه، فـذهب
مغاضـبا ودخـل إلـى تلمسـان أيـام كـان يوسـف بـن عبـد الحـق محاصـرا لهـا؛
فتلقـاه عثمـان بـن يغمراسـن مـن التكرمـة والترحيـب بمـا يناسـب محلـه
بيـهوأشـار يوسـف بـن يعقـوب علـى أ .وقومـه ومنزلتـه مـن اصـطناع السـلطان
باسـتمالته فلقيـاه فـي حومـة القتـال، وحادثـه واعتـذر لـه بكرامـة القـوم إيـاه
فحضـه علـى الوفـاء لهـم، ورجـع إلـى السـلطان فخـبره الخـبر فلـم ينكـر
.وأقـام هـو بتلمسـان، وهلـك أبـوه علـي بـالمغرب سـنة سـبع وسـبعماية .عليـه
ولما هلك عثمان بن يغمراسن زاده بنوه اصطناعا ومداخلة، وخلطوه بأنفسهم، وعقدوا له على العساكر لمحاربة أعدائهم، وولوه الأعمال الجليلة والرتب الرفيعة من الوزارة والحجابة. ولما هلك السلطان أبو حمو، وقام بأمره ابنه أبو تاشفين، وكان هو الذي تولى له أخذ البيعة على الناس، غص بمكانه مولاه هلال. فلما استبد عليه، وكان كثير أما ينافي موسى بن علي وينافسه، فخشي على نفسه وأجمع على إجازة البحر للمرابطة بالأندلس، فبادره هلال وتقبض عليه وغربه إلى العدوة ونزل بغرناطة، وانتظم في الغزاة المجاهدين، وأمسك عن جراية السلطان، فلم يمد إليها يدا أيام مقامه، وكانت من أنزه ما جاء به وتحدث بها الناس فأغربوا، وأنفذت جوانح هلال لها حسدا وعداوة؛
.فـأغرى سـلطانه بخطـاب ابـن الأحمـر فـي اسـتقدامه، فأسـلمه إليـه
واسـتعمله السـلطان فـي حروبـه وعلـى قاصـيته حـتى كـان مـن نهوضـه
بالعسـاكر إلـى إفريقيـة للقـاء مولانـا السـلطان أبـي يحـيى سـنة سـبع
ورجـع فـي الفـل؛ ،واسـتلحمت زناتـة .وكانـت الـدبرة عليـه .وعشـرين
ونمـي ذلـك إليـه؛ فلحـق .فـأغرى هـلال السـلطان وألقـى فـي نفسـه التهمـة بـه
بـالعرب الـدواودة، وعقـد مكانـه علـى محاصـرة بجايـة ليحـيى بـن موسـى
صـاحب شـلف، ونـزل هـو علـى سـليمان ويحـيى ابـني علـي بـن سـباع بـن
،ايحـيى مـن أمـراء الـدواودة المـذكورين فـي أخبـارهم، فلقـوه مـبرة وتعظيـم
،ثـم اسـتقدمه السـلطان ورجعـه إلـى محلـه مـن مجلسـه .وأقـام بيـن أحيـائهم مـدة

ثــم تقبــض عليـــه لأشـــهر، وأشخصـــه إلـــى الجـــزائر فاعتقلـــه بهـــا، وضـــيق عليــه محبســه ذهابــا مــع أغــراض منافســة هــلال، حــتى إذا أســخط هــلالا اســتدعاه مــن فلمـــا تقبــض علـــى هـــلال قلـــد موســـى .محبســـه أضـــيق مـــا كـــان، فـــانطلق إليـــه بـــن علـــي حجابتـــه، فلـــم يـــزل مقيمـــا لرســـمها إلـــى يـــوم اقتحـــم الســـلطان أبـــو الحســـن تلمســـان، فهلـــك مـــع أبـــي تاشـــفين وبنيـــه فـــي ســـاحة قصـــرهم كمـــا .والبقـــاء لتـــه .وانقضـــى أمـــره .قلنـــاه

وانتظم بنوه بعد مهلكه في جملة السلطان أبي الحسن، وكان كبيرهم سعيد قد

اب القصــر بعــد هــدء مــن الليــلخلــص مــن بيــن القتلــى فــي تلــك الملحمــة بــب مثخنــا بــالجراح، وكانــت حياتــه بعــدها تعــد مــن الغرائــب، ودخــل فــي عفــو الســلطان إلــى أن عــادت دولــة بــني عبــد الــواد، فكــان لــه فــي ســوقها نفــاق كمــا .نــذكره والله غالــب علــى أمــره

وأما يحيى بن موسى فأصله من بني سنوس إحدى بطون كومية، ولهم ولاء في

بني كمي، بالاصطناع والتربية. ولما فصل بنو كمي إلى المغرب قعدوا عنهم، واتصلوا ببني يغمراسن فاصطنعوهم، ونشأ يحيى بن موسى في خدمة عثمان وبنيه واصطناعهم. ولما كان الحصار ولاه أبو حمو مهمة من الطواف بالليل على الحرس بمقاعدهم من الأسوار، وقسم القوت على المقاتلة بالمقدار، وضبط الأبواب، والتقدم في حومة القتال، وكان له أعوان على ذلك من خدامه، قد لزموا الكون معه في البكر والاصال والليل والنهار، وكان يحيى هذا منهم، فعرفوا له خدمته وذهبوا إلى اصطناعه. وكان أول ترشيحه ترديده أبي يوسف يعقوب بمكانه من حصارهم فيما يدور بينهم من المضاربة، فكان يجلي في ذلك ويؤتي من غرض مرسله. ولما خرجوا من الحصار أوفوا به على رتب الاصطناع والتنويه.

ولما ملك أبو تاشفين استعمله بشلف مستبدا بها، وأذن له في اتخاذ الآلة. ثم لما

عــزل موســى بــن علــي عــن حــرب الموحــدين وقاصــية الشــرق عزلــه بــه، وكانــت فلمـــا نـــازل الســـلطان أبـــو الحســـن تلمســـان راســـله فـــي .المديــة وتنــس مــن عملــه الطاعــة والكــون معــه؛ فتقبلــه وجأجــأ بــه مــن مكــان عملــه؛ فقــدم عليــه بمخيمــه علـــى تلمســـان؛ فاختصـــه بإقبالـــه ورفـــع مجلســـه مـــن بســـاطه، ولـــم يـــزل عنـــده .والله مصـــرف الأقـــدار .بتلـــك الحـــال إلـــى أن هلـــك بعـــد افتتـــاح تلمســـان

وأما هلال فأصله من سبي النصارى القطلونيين، أهداه السلطان ابن الأحمر إلى عثمان بن يغمراسن، وصار إلى السلطان أبي حمو، فأعطاه ولده أبا تاشفين فيما أعطاه من موالي المعلوجي، ونشأ معه تربيا، وكان مختصا عنده بالمداخلة والدالة، وتولى كبر تلك الفعلة التي فعلوا بالسلطان أبي حمو. ولما ولي بعده ابنه أبو تاشفين ولاه على حجابته، وكان مهيبا فظا غليظا، فقعد مقعد الفصل ببابه وأرهب الناس سطوته، وزحزح المرشحين عن رتب المماثلة إلى التعلق بأهدابه، فاستولى على أمر السلطان. ثم حذر مغبة الملك وسوء العواقب، واستأذن السلطان في الحج وركب إليه من هنين بعض السفن اشتراها بماله وشحنها بالعديد والعدة والأقوات والمقاتلة وأقام كاتبه الحاج محمد بن حونته بباب السلطان على رسم النيابة عنه. وأقلع سنة أربع وعشرين فترل بالإسكندرية،

وصحب الحاج من مصر في جملة الأمير عليهم، ولقي في طريقه سلطان السودان من مالي منسى موسى، واستحكمت بينهما المودة. ثم رجع بعد قضاء فرضه إلى تلمسان، فلم يجد مكانه من السلطان. ولم يزل بعد ذلك يتنكر له وهو يسايسه بالمداراة والاستجداء إلى أن سخطه؛ فتقبض عليه سنة تسع وعشرين وأودعه سجنه؛ فلم يزل معتقلا إلى أن هلك من وجع أصابه قبيل فتح تلمسان ومهلك السلطان بأيام، فكان آية عجباء في تقارب مهلكهما واقتران سعادتهما ونحوسهما. وقد كان السلطان أبو الحسن يتبع الموالي الذين شهدوا مقتل السلطان أبي حمو، وأفلت هلال هذا من عقابه بموته. والله بالغ حكمه.

الخبر عن انتزاء عثمان بن جرار على ملك تلمسان بعد نكبة السلطان
:لحسن بالقيروان وعود الملك بذلك لبني زيانأبي ا

كان بنو جرار هؤلاء من فصائل تيدوكسن بن طاع الله وهم بنو جرار بن ،يعلى بن تيدوكسن، وكان بنو محمد بن زكدان يغصون بهم مذ أول الأمر حتى صار الملك إليهم واستندوا به، فجروا على جميع الفصائل من عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار من ونشأ .عشائرهم ذيل الاحتقار بينهم مرموقا بعين التجلة والرياسة، وسعى عند السلطان أبي تاشفين بأن في نفسه تطاولا للرئاسة فاعتقله مدة، وفر من حبسه ،فلحق بملك المغرب السلطان أبي سعيد فآثر محله وأكرم نزله ىواستأذن السلطان عند تغلبه عل .واستقر بمثواه فنسك وزهد تلمسان في الحج بالناس فأذن له، وكان قائد الركب من المغرب إلى مكة سائر أيامه، حتى إذا استولى السلطان أبو الحسن على أعمال الموحدين وحشد أهل المغرب من زناتة والعرب لدخول إفريقية اندرج عثمان هذا في ولحق .جملته، واستأذنه قبيل القيروان في الرجوع إلى المغرب فاذن له بتلمسان فنزل على أميرها من ولده الأمير أبي عنان، كان قد عقد له على عملها، ورشحه لولاية العهد بولايتها، فازدلف إليه بما بثه من الخبر عن ،أحوال أبيه، فتلطف فيما أوح سمعه من تورط أبيه في مهالك إفريقية .زى والكهانوإياسه من خلاصه، ووعده بمصير الأمر إليه على ألسنة الح وكان يتظنن فيه أن لديه من ذلك علما، وعلى تفيئة ذلك كانت نكبة ،وظهر مصداق ظنه وإصابة قياسه .السلطان أبي الحسن بالقيروان فأغراه بالتوثب على ملك أبيه بتلمسان والبدار إلى فاس لغلب منصور ابن أخيه أبي مالك عليها، وكان استعمله جده أبو الحسن هنالك وتحيل في إشاعة مهلك السلطان أبي .ه آية سلطانه وشواهد ملكهوأرا وتصدى الأمير أبو عنان .الحسن وإلقائه على الألسنة حتى أوهم صدقه للأمر، وتسايل إليه الفل من عساكر بني مرين، فاستلحق وبث العطاء وأعلن بالدعاء لنفسه في ربيع سنة تسع وأربعين، وعسكر خارج ثم استعمل عثمان بن جرار على تلمسان .المغرب تلمسان للنهوض إلى ولما فصل دعا عثمان .وعملها وارتحل إلى المغرب كما نذكره في أخبارهم لنفسه وانتزى على كرسيه، واتخذ الآلة وأعاد من ملك بني عبد الواد رسما لم يكن لآل جرار، واستبد أشهرا قلائل إلى أن خلص إليه من آل

مـن بـن يحـيى بـن يغمراسـن مـن طمـس معالمــه، وخسـفـزيـان مـن ولـد عبـد الـرح
بــه وبـداره، وأعــاد أمــر بــني عبـد الـواد فــي
نصابه، حسبما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن دولة أبي سعيد وأبي ثابت من أل يغمراسن وما كان فيها من الأحداث:

كــان الأمــير يحـيى جـدهما مـن أكـبر ولـد يغمراسـن بـن زيـان، وكــان ولــي عهـده عدب
مهلك أخيه عمر الأكبر. ولما تغلب يغمراسن على سجلماسة سنة إحدى وستين وستماية استعمله عليها، فأقام بها أحوالا، وولد له هنالك ابنه عبد الرحمن. ثم رجع إلى تلمسان فهلك بها، ونشأ عبد الرحمن بسجلماسة، ولحق بتلمسان بعد أبيه، فأقام مع بني أبيه
مكانــه وغربــه إلــى الأنــدلس، فمكــث فيهــا حينــا وهلــكإلــى أن غـص السـلطان ب
:وكــان لــه بنـون أربعــة .فــي مرابطتــه بثغــر قرمونـــة فـــي بعــض أيـــام الجهـــاد
،يوســف وعثمــان والــزعيم وإبــراهيم، فــرجعوا إلــى تلمســان وأوطنوهــا أعوامــا
حـــتى إذا اســـتولى الســلطان أبـــو الحســـن
على ملكهم وأضاف إلى دولته دولتهم نقلهم من تلمسان إلى المغرب في جملة أعياصهم. ثم سألوا إذنه في المرابطة بثغور الأندلس التي في عمله؛ فأذن لهم وفرض له العطاء وأنزلهم بالجزيرة؛ فكانت لهم في الجهاد مواقف مذكورة ومواطن معروفة. ولما استنفر السلطان أبو الحسن زناتة لغزو إفريقية سنة ثمان وأربعين كانوا في جملته مع قومهم بني عبد الواد وفي رايتهم، ومكانهم معلوم بينهم. فلما اضطرب أمر السلطان أبي الحسن، وتألب عليه الكعوب من بني سليم أعراب إفريقية، وواضعوه الحرب بالقيروان، كان بنو عبد الواد أول النازعين عنه إليهم. فلما كانت النكبة والحجز بالقيروان، وانطلقت أيدي الأعراب على الضواحي، وانتقض المغرب من سائر أعماله، أذنوا لبني عبد الواد في اللحاق بقطرهم ومكان عملهم، فمروا بتونس وأقاموا بها أياما. وخلص الملأ منهم نجيا في شأن أمرهم ومن يقدمون عليهم، فأصفقوا بعد الشورى على عثمان بن عبد الرحمن، واجتمعوا عليه لعهده بهم يومئذ، وقد خرجوا به إلى الصحراء وأجلسوه بباب مصلى العيد من تونس على درقة. ثم ازدحموا عليه بحيث توارى شخصه عن الناس، يسلمون عليه بالأمارة، ويعطونه الصفقة على الطاعة والبيعة، حتى استكملوا جميعا، ثم انطلقوا به إلى رحالهم. واجتمع مغراوة أيضا إلى أميرهم علي بن راشد بن محمد بن ثابت بن منديل الذي ذكرناه من قبل، وتعاهدوا على الصحابة إلى أعمالهم أيرص والمهادنة آخر الأيام واستئثار كل بسلطانه وتراث سلفه، وارتحلوا على تفيئة ذلك جميعا إلى المغرب. وشنت البوادي عليهم الغارات في كل وجه، فلم يظفروا منهم بقلامة
ولمــا مــروا ببجايــة وكــان .ل جبــل بــني ثابــتمثـــل ونيفـــن وبريـــة وأه :الظفـــر
فيهــا فـل مــن مغــراوة وتــوجين، نــزلوا بهــا منـد غلبــوا علــى أعمــالهم، وصـــاروا
واعترضـــهم بجبـــل الـــزاب بـــرابرة .فـــي جنـــد الســلطان، فـــارتحلوا معهـــم
وظهـر مـن نجـدتهم وبلائهـم فـي الحـروب مـا هـو معـروف .زواوة، فـــأوقعوا بهـــم

م قبائـــل مغـــراوة، وبـــايعوا ســـلطانهمثـــم لحقـــوا بشـــلف فتلقتـــه .لأوليهـــم
.عليـــم بـــن راشـــد فاستوســـق ملكـــه

بسم الله الرحمن الرحيم

القســـم الثـــاني

وانصرف بنو عبد الواد والأميران أبو سعيد وأبو ثابت بعد أن أحكموا العهد وأبرموا الوثاق مع علي بن راشد وقومه. وكان في طريقهم بالبطحاء أحياء سويد، ومن معهم من أحلافهم، قد نزلوا هنالك مع شيخهم ونزمار بن عريف، منهزمهم من تاسالة، أمام جيوش السلطان أبي عنان؛ فأجفلوا من هنالك ونزل بنو عبد الواد مكانهم؛ وكان في جملتهم جماعة من بني جرار بن تيدوكسن، كبيرهم عمران بن موسى؛ ففر إلى ابن عمه عثمان بن يحيى بن جرار تلمسان؛ فعمد له على حرب أبي سعيد وأصحابه؛ فترع الجند الذين خرجوا معه إلى السلطان أبي سعيد. وانقلب هو إلى تلمسان، والقوم في أثره؛ فأدرك بطريقة وقتل. ومر السلطان إلى البلد؛ فثارت العامة بعثمان بن جرار؛ فاستأمن لنفسه من السلطان فأمنه؛ ودخل إلى قصره آخر جمادى الآخرة من سنة تسع وأربعين؛ فاقتعد أريكته وأصدر أوامره واستوزر واستكتب وعقد لأخيه أبي ثابت الزعيم على ما وراء بابه من شؤون ملكهما، وعلى القبيل والحروب، واقتصر هو على ألقاب الملك وأسمائه ولزم الدعة.
وتقبض لأول دخوله على عثمان بن يحيى بن جرار؛ فأودعه المطبق إلى أن مات في رمضان من سنته؟ ويقال قتيلا. وكان من أول غزوات السلطان غزاته إلى كومية، وذلك أن كبيرهم إبراهيم بن عبد الملك كان شيخا عليهم منذ حين من الدهر، وكان ينتسب في بني عابد، وهم قوم عبد المؤمن بن علي من بطون كومية. فلما ونع هذا الهرج بتلمسان حسب أنه لا تتجلى غيابته، وحدثته نفسه بالانتزاء فدعا لنفسه، وأضرم بلاد كومية وما إليها من السواحل نارا وفتنة. وجمع له السلطان أبو ثابت، ونهض
إلى كومية فاستباحهم قتلا وسبيا، واقتحم هنين، ثم ندرومة بعدها. وتقبض على إبراهيم بن عبد الملك الخارج فجاء به معتقلا إلى تلمسان وأودعه السجن؛ فلم يزل به إلى أن قتل بعد أشهر. وكانت أمصار المغرب الأوسط وثغوره لم تزل على طاعة السلطان أبي الحسن والقيام بدعوته، وبها عماله وحاميته. وأقربها إلى تلمسان مدينة وهران؛ كان بها القائد عبو بن سعيد بن أخانا من صنائع بني مرين؛ وقد ضبطها وثقفها وملاها أقواتا ورجلا وسلاحا؛ وملا مرساها أساطيل، فكان أول ما قدموه من أعمال النهوض إليه؛ فنهض السلطان أبو ثابت بعد أن جمع قبائل زناتة والعرب، ونزل على وهران وحاصرها أياما. وكان في قلوب بني راشد أحلافهم مرض، فداخلوا قائد البلد في الانتقاض على السلطان أبي ثابت، ووعدوه الوفاء بذلك عند المناجزة، فبرز وناجزهم الحرب، فانهزم بنو راشد وجروا الهزيمة على من معهم. وقتل حمد بن يوسف بن عنان بن فارس أخي يغمراسن بن زيان من أكابر القرابة، وانتهب المعسكر. ونجا السلطان أبو ثابت إلى تلمسان إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن لقاء أبي ثابت مع الناصر ابن السلطان أبي الحسن وفتح وهران بعدها:

كان السلطان أبو الحسن بعد واقعة القيروان قد لحق بتونس؛ فأقام بها والعرب محاصرون له ينصبون الأعياص من الموحدين لطلب تونس واحدا بعد آخر كما ذكرناه في أخبارهم. وبينما هو يؤمل الكرة ووصل المدد من المغرب الأقصى إذ بلغه الخبر بانتثار السلك أجمع؛ وبانتقاض ابنه وحافده، ثم استيلاء أبي عنان على المغرب كله، ورجوع بني عبد الواد ومغراوة وتوجين إلى ملكهم بالمغرب الأوسط. ووفد عليه يعقوب بن علي أمير الدواودة؛ فاتفق مع عريف بن يحيى، أمير سويد وكبير مجلس السلطان، على أن يغرياه ببعث ابنه الناصر إلى المغرب الأوسط للدعوة التي كانت قائمة له بأمصاره في الجزائر ووهران وجبل وانشريش، وكان به نصر بن عمر بن عثمان بن عطية قائما بدعوته، وأن يكون عريف بن نصر في جملة الناصر لمكانه من السلطان ومكان قومه من الولاية. وكان ذلك من عريف تفاديا من المقام بتونس، فأجاب إليه السلطان وبعثهم جميعا، ولحق الناصر ببلاد حصين فأعطوه الطاعة وارتحلوا معه. ولقيه العطاف والديالم وسويد فاجتمعوا إليه وتألبوا معه، وارتحلوا يريدون منداس. وبينما الأمير أبو ثابت يروم معارضة

الغزو إلى وهران إذ فجأه الخبر بذلك، فطير به إلى السلطان أبي عنان. وجاء العسكر من بني مرين مددا صحبة أبي زيان ابن أخيه أبي سعيد، كان مستنفرا بالمغرب منذ نهوضهم إلى القيروان. وبعث عنه أبوه، فجاء مع المدد من العساكر والمال. ونهض أبو ثابت من تلمسان أول المحرم سنة خمسين، وبعث إلى مغراوة بالخبر فقعدوا عن مناصرته. ولحق ببلاد العطاف فلقيه الناصر هنالك في جموعه بوادي ورك آخر شهر ربيع الأول، فانكشفت جموع العرب وانهزموا. ولحق الناصر بالزاب؛ فنزل على ابن مزني ببسكرة، إلى أن أصحبه من رجالات سليم من أوصله إلى أبيه بتونس. ولحق عريف بن يحيى بالمغرب الأقصى، واحتل عند السلطان أبي عنان بمكانه من مجلسهم، فحصل على البغية. ورجع العرب كلهم إلى طاعة أبي ثابت وخدمته، واستراب بصغير بن عامر بن إبراهيم؛ فتقبض عليه وأشخصه معتقلا مع البريد إلى تلمسان؛ فاعتقل بها إلى أن أطلق بعد حين. وقفل أبو ثابت إلى تلمسان فتلوم بها أياما. ثم نهض إلى وهران في جمادى من سنته، فحاصرها أياما ثم افتتحها عنوة، وعفا عن علي بن أجانا القائم بها بعد مهلك أخيه عبو وعلى من معه. وأطلق سبيلهم واستولى على ضواحي وهران وما إليها، ورجع إلى تلمسان، وقد استحكمت العداوة بينه وبين مغراوة، وقد كان استجرها ما قدمناه من نعودهم عن نصره؛ فنهض إليهم في شوال من سنته والتقوا في عدوة وادي رهيو فاقتتلوا مليا. ثم انكشفت مغراوة ولحقوا بمعاقلهم، واستولى أبو ثابت على معسكرهم، وملك مازونة، وبعث ببيعتها إلى أخيه السلطان أبي سعيد. وكان على إثر ذلك وصول السلطان أبي الحسن من تونس كما نذكر، إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وصول السلطان أبي الحسن من تونس ونزوله بالجزائر وما دار بينه وبين أبي ثابت من الحروب ولحاقه بعد الهزيمة بالمغرب:

كان السلطان أبو الحسن بعد واقعة القيروان وحصار العرب إياه، قد طال مقامه بتونس. واستدعاه أهل المغرب الأقصى وانتقض عليه أهل بلاد الجريد، وبايعوا للفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى؟ فاجمع الرحلة إلى

المغرب وركب السفن من تونس أيام الفطر من سنة خمسين؟ فعصفت به الريح وأدركه الغرق؛ فغرق أسطوله على سواحل بجاية؛ ونجا بدمائه إلى بعض الجزر هنالك، حتى لحقه أسطول من أساطيله، فنجا فيه
إلى الجزائر وبها حمو بن يحيى بن العسري قائده وصنيعة أبيه، فنزل عليه. وبادر إليه أهل ضاحيتها من مليكش والثعالبة، فاستخدمهم وبث فيهم العطاء. واتصل خبره بونزمار بن عريف وهو في أحياء سويد؛ فوفد عليه في مشيخة من قومه. ووفد معه نصر بن عمر بن عثمان صاحب جبل وانشريش من بني تيغرين، وعدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي الثائر بنواحي المدية من ولد عبد القوي، فأعطاه الطاعة. واستحثوه للخروج معهم فردهم للحشد، فجمعوا من إليهم من قبائل العرب وزناتة. وبينما الأمير أبو ثابت ببلاد مغراوة محاصرا لهم في معاقلهم، إذ بلغه الخبر بذلك في ربيع سنة إحدى وخمسين؛ فعقد السلم معهم ورجع إلى قتال هؤلاء؛ فأخذ علي مناداس وخرج إلى السرسو قبلة وانشريش. وأجفل أمامه ونزمار، وجموع العرب الذين معه. ولحق به هنالك مدد السلطان أبي عنان قائدهم يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي؛ فاتبع أبو ثابت آثار العرب وشردهم. ولحق أحياء حصين بمعقلهم من جبل تيطرى. ثم عطف على المدية ففتحها، وعقد عليها لعمران بن موسى الجلولي من صنائعهم. ثم نهض إلى حصين فافتتح عليهم الجبل فلاذوا بالطاعة، وأعطوا أبناءهم رهنا عليها فتجاوزها إلى وطن حمزة فدوخها، واستخدم قبائلها من العرب والبربر، والسلطان أبو الحسن أثناء ذلك مقيم بالجزائر. ثم قفل أبو ثابت إلى تلمسان، وقد كان استراب يحيى بن رحو وعسكره من بني مرين، وأنهم داخلوا السلطان أبا الحسن، وبعث فيه إلى السلطان أبي عنان فأداله بعيسى بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب؟ فبعثه قائدا على الحصة المرينية؛ فتقبض على يحيى بن رحو ولحقوا مع أبي ثابت بتلمسان. ثم أجازوا إلى المغرب، واعتز السلطان أبو الحسن بعد منصرفهم بابنه الناصر مع أوليائه من زناتة والعرب؛ فاستولى على المدية وقتل عثمان بن عيسى الجلولي. ثم تقدم إلى مليانة فملكها وإلى تيمزوغت كذلك. وجاء على أثره السلطان أبو الحسن أبوه، وقد اجتمعت إليه الجموع من زغبة وزناتة، ومن عرب إفريقية سليم ورياح: مثل محمد بن طالب بن مهلهل ورجال من عشيره، وعمر بن علي بن أحمد الدواودي وأخيه أبي دينار ورجالات من قومهما. وزحف على هذه التعبية، وابنه الناصر أمامه. فأجفل علي بن راشد وقومه مغراوة عن بلادهم إلى البطحاء. وطير الخبر إلى أبي ثابت فوافاه في قومه وحشوده، وزحفا جميعا إلى السلطان أبي الحسن. والتقى الجمعان بتنغمرين من شلف، وصابروا
ملنا. وانكشف السلطان أبو الحسن وقومه، وطعن الناصر بعض فرسان مغراوة فأثبته وهلك آخر يومه، وطعن الناصر بعض فرسان مغراوة فأثبته وهلك آخر يومه. وقتل محمد بن علي العزفي قائد أساطيله وابن البواق والقبائلي كاتبه. واستبيح معسكره وما فيه من متاع وحرم، وخلص بناته إلى وانشريش، وبعث بهن أبو ثابت إلى السلطان أبي عنان بعد استيلائه على الجبل. وخلص السلطان أبو الحسن إلى أحياء سويد بالصحراء؛ فنجا به ونزمار بن عريف إلى سجلماسة كما نذكره في أخباره. ودوخ أبو ثابت بلاد بني توجين وقفل إلى تلمسان.

الخبر عن حروبهم مع مغراوة واستيلاء أبي ثابت علم بلادهم. ثم علي الجزائر ومقتل علي بن راشد بتنس علي إثر ذلك:

كان بين هذين الحيين من عبد الواد ومغراوة فتن قديمة سائر أيامهم؛ قد ذكرنا الكثير منها في أخبارهم. وكان بنو عبد الواد قد غلبوهم على أوطانهم حين قتل راشد بن محمد في جلائه أمامهم بين زواوة. ولما اجتمعوا بعد نكبة القيروان على أميرهم علي بن راشد، وجاءوا من إفريقية إلى أوطانهم من بني عبد الواد، لم يطيقوهم حينئذ أن يغلبوهم. فرجعوا إلى توثيق العقد وتأكيد العهد؛ فأبرموه وأقاموا على الموادعة والتظاهر على عدوهم، وعروق الفتنة تنبض في كل منهم. ولما جاء الناصر من إفريقية، وزحف إليه أبو ثابت، قعد عنه علي بن راشد وقومه؛ فأعتدهم عليها وأسرها في نفسه. ثم اجتمعوا بعد ذلك للقاء السلطان أبي الحسن حتى انهزم ومضى إلى المغرب. فلما رأى أبو ثابت أن قد كفى عدوه الأكبر، وفرغ لعدوه الأصغر نظر في الانتقاض عليهم. فبينما هو يروم أسباب ذلك إذ بلغه الخبر بأن بعض رجالات بني كمي من مغراوة جاؤوا إلى تلمسان ليغتالوه؛ فحمي لها أنفه. وأجمع لحربهم. وخرج من تلمسان فاتحة اثنتين وخمسين. وبعث في أحياء زغبة وبني عامر وسويد؛ فجاءوه بفارسهم وراجلهم وظعائنهم. وزحف إلى مغراوة فخاموا عن لقائه، وتحصنوا بالجبل المطل على تنس؛ فحاصرهم فيه أياما اتصلت فيها الحروب وتعددت الوقائع. ثم ارتحل عنهم فجال في نواحي البلد، ودوخ أقطارها وأطاعته مليانة والمدية وبرشك وشرشال. ثم تقدم بجموعه إلى الجزائر؛ فأحاط بها وفيها فل بني مرين، وعبد الله ابن السلطان أبي الحسن، تركه هنالك صغيرا في كفالة علي بن سعيد بن أجانا، فغلبهم على البلاد وأشخصهم في البحر

إلى المغرب. وأطاعته الثعالبة ومليكش وقبائل حصين. وعقد على الجزائر لسعيد بن موسى بن علي الكردي، ورجع إلى مغراوة فحاصرهم بمعقلهم الأول، بعد أن انصرفت العرب إلى مشاتيها؛ فاشتد الحصار على مغراوة وأصاب مواشيهم العطش؛ فانحطت دفعة واحدة من على أعلى الجبل تطلب المورد؛ فأصابهم الدهش. ونجا ساعتئذ علي بن راشد إلى تنس، فأحاط به أبو ثابت أياما. ثم اقتحمها عليه غلابا منتصف شعبان من سنته، فاستعجل المنية وتحامل على نفسه فذبح نفسه، وافترقت مغراوة من بعده وصارت أوزاعا في القبائل. وقفل أبو ثابت إلى أن كان من حركة السلطان ما نذكره في

الخبر عن استيلاء السلطان أبي عنان علي تلمسان وانقراض أمر بني عبد الواد ثانية:

لما لحق السلطان أبو الحسن بالمغرب، وكان من شأنه مع ابنه أبي عنان إلى أن هلك بجبل هنتاتة ما نذكره في أخبارهم. فاستوسق ملك المغرب للسلطان أبي عنان، وفرغ لعدوه. وسما لاسترجاع الممالك التي انتزعها أبوه ممن توثب عليها؛ وكان قد بعث إليه علي بن راشد؟ من مكان امتناعه بجبل تنس يسأل منه الشفاعة؛ فرد أبو ثابت شفاعته وأحفظه ذلك. وبلغه مقتل علي بن راشد؛ فأجمع غزو تلمسان، ونذر بذلك أبو سعيد وأخوه؛ فخرج أبو ثابت لحشد القبائل من زناتة والعرب منتصف ذي القعدة، ونزل بوادي شلف. واجتمع الناس عليه، ووصلته هنالك بيعة تدلس في ربيع سنة ثلاث وخمسين. غلب عليها

الموحدين جابر الخراساني من صنائعهم، وبلغه بمكانه ذلك زحف السلطان أبي عنان؛ فرجع إلى تلمسان؛ ثم خرج إلى المغرب. وجاء على أثره أخوه السلطان أبو سعيد في العساكر من زناتة ومعه بنو عامر من زغبة والفل من سويد؛ إذ كان جمهورهم قد لحقوا بالمغرب لمكان عريف بن يحيى وابنه من ولاية بني مرين؛ فزحفوا على هذه التعبئة. وزحف السلطان أبو عنان في أمم المغرب لهن زناتة والعرب المعقل والمصامدة وسائر طبقات الجنود والحشد، وانتهوا جميعاً إلى أنكاد من بسيط وجدة؛ فكان اللقاء هنالك آخر ربيع الثاني من سنة ثلاث وخمسين. وأجمع بنو عبد الواد على صدمة المعسكر وقت القائلة، وبعد ضرب الأبنية وسقاء الركاب وافتراق أهل المعسكر في حاجاتهم؛ فأعجلوهم عن ترتيب المصاف. وركب السلطان أبو عنان لتلافي الأمر، فاجتمع إليه أوشاب من الناس وانتقض سائر المعسكر، ثم زحف إليهم فيمن حضره وصدقوهم القتال؛ فاختل مصافهم ومنحوا أكتافهم وخاضوا بحر الظلماء. واتبع بنو مرين آثارهم، وتقبض على ألي سعيد

ليلتئذ فقيد أسيرا إلى السلطان، فأحضره بمشهد الملأ ووبخه. ثم تل على محبسه وقتل لتاسعه من ليالي اعتقاله. وارتحل أبو عنان إلى تلمسان، ونجا الزعيم أبو ثابت بمن معه من فل عبد الواد، ومن خلص إليه منهم ذاهبا إلى بجاية ليجد في إيالة الموحدين وليجة من عدوه، فبيتته زواوة في طريقه. وأبعد عن صحبه وأرجل عن فرسه. وذهب راجلا عاريا، ومعه رفقاء من قومه: منهم أبو زيان محمد ابن أخيه السلطان أبي سعيد، وأبو حمو موسى ابن أخيهم يوسف، ووزيرهم يحيى بن داود بن مكن. وكان السلطان أبو عنان أوعز إلى صاحب بجاية يومئذ المولى أبي عبد الله حفيد مولانا السلطان أبي بكر بأن بأخذ عليهم الطرق ويذكي في طلبهم العيون، فعثر عليهم بساحة البلد. وتقبض على الأمير أبي ثابت الزعيم وابن أخيه محمد بن أبي سعيد ووزيرهم يحيى بن داود

وأدخلوا إلى بجاية. ثم خرج صاحبها الأمير أبو عبد الله إلى لقاء السلطان أبي عنان، واقتادهم في قبضة أسره فلقيه بمعسكره بظاهر المدية، فأكرم وفادته وشكر صنيعه، وانكفأ راجعا إلى تلمسان فدخلها في يوم مشهود. وحمل يومئذ أبو ثابت وزيره يحيى على جملين يتهاديان بهما بين سماطي ذلك المحفل، فكان شأنهما عجبا. ثم سيقا ثاني يومهما إلى مصرعهما بصحراء البلد، فقتلا قعصا بالرماح وانقضى ملك آل زيان، وذهب ما أعاده لهم بنو عبد الرحمن هؤلاء من الدولة بتلمسان، إلى أن كانت لهم الكرة الثالثة على يد أبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن المتمليها إلى هذا العهد على ما نذكره، ونستوفي من أخباره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن دولة السلطان أبي حمو الأخير مديل الدولة بتلمسان في الكرة الثالثة لقومه وشرع ما كان فيها من الأحداث لهذا العهد:

كان يوسف بن عبد الرحمن هذا في إيالة أخين السلطان أبي سعيد بتلمسان، هو وولده أبو حمو موسى، وكان متكاسلا عن مراتب الظهور، متجافيا عن التهالك في طلب العز، جانحا إلى السكون ومذاهب أهل الخير.

حتى إذا عصفت بدولتهم رياح بني مرين، وتغلب السلطان أبو عنان عليهم وابتزهم ما كان بأيديهم من الملك، وخلص ابنه أبو حمو موسى مع عمه أبي ثابت إلى الشرق، وقذفت النوى بيوسف مع أشراف قومه إلى

المغرب فاستقر به. ولما تقبض على أبي ثابت بوطن بجاية أغفل أمر أبي حمو من بينهم ونبت عنه العيون؛ فنجا إلى تونس ونزل بها على الحاجب أبي محمد بن تافراكين؛

فأكرم نزله وأحله بمكان أعياص الملوك من مجلس سلطانه ووفر جرايته، ونظم معه آخرين من فل قومه. وأوعز السلطان أبو عنان إليه بانزعاجهم عن قرارهم في دولته، فحمي لها أنفه وأبى عن الهضيمة لسلطانه، فأغرى ذلك السلطان أبا عنان بمطالبته. وكانت حركته إلى إفريقية ومنابذة العرب من رياح وسليم لعهده ونقضهم لطاعته كما نستوفي في أخباره.

ولما كانت سنة تسع وخمسين قبل مهلكه اجتمع أمراء الدواودة من رياح إلى الحاجب أبا محمد بن تافراكين، ورغبوه في لحاق أبي حمو موسى بن يوسف بالمغرب من غربته، وأنهم ركابه لذلك ليجلب على نواحي تلمسان ويحصل للسلطان أبي عنان شغلا عنهم. وسألوه أن يجهز عليه ببعض آلة السلطان. ووافق ذلك رغبة صغير بن عامر أمير زغبة في هذا الشأن، وكان يومئذ في أحياء يعقوب بن علي وجواره، فأصلح الموحدون شأنه بما قدروا عليه ودفعوه إلى مصاحبة صغير وقومه من بني عامر. وارتحل معهم من الدواودة عثمان بن سباع ومن أحلافهم بني سعيد دعار بن عيسى بن رحاب وقومه، ونهضوا بجموعهم يريدون تلمسان، وأخذوا على القفر. ولقيهم أثناء طريقهم الخبر عن مهلك السلطان أبي عنال، فقويت عزائمهم على ارتجاع ملكهم ورجع عنهم صولة بن يعقوب. وأغذ السير إلى تلمسان وبها الكتائب المجمرة من بني مرين. واتصل خبر أبي حمو بالوزير الحسن من عمر القائم بالدولة من بعد مهلك السلطان أبي عنان والمتغلب على ولده السعيد الخليفة من بعده؟ فجهز المدد إلى تلمسان من الحامية والأموال. ونهض أولياء الدولة من أولاد عريف بن يحيى أمراء البدو من العرب في قومهم من سويد ومن إليهم من العرب لمدافعة السلطان أبي حمو وأشياعه؛ فانفض جمعهم وغلبوا على تلك الموطن. واحتل السلطان أبو حمو وجموعه بساحة تلمسان وأناخوا ركائبهم عليها ونازلوها ثلاثا، ثم اقتحموها في صبيحة الرابعة. وخرج ابن السلطان أبي عنان الذي كان أميرا عليها في لمة من قومه، فتزل على صغير بن عامر أمير القوم؛ فأحسن تجلته وأصحبه من عشيرته إلى حضرة أبيه. ودخل السلطان أبو حمو إلى تلمسان يوم الأربعاء لثمان خلون من ربيع الأول سنة ستين، واحتل منها بقصر ملكه، واقتعد أريكته وبويع بيعة الخلافة. ورجع إلى النظر في تمهيد جوانب ملكه وأخرج بني مرين عن أمصار مملكته.

الخبر عن إجفال أبي حمو عن تلمسان أمام عساكر المغرب، ثم عوده إليها:

كان القائم بأمر المغرب من بعد السلطان أبي عنان وزيره الحسن بن عمر، كافل

ابنه السعيد، أخذ له البيعة على الناس، فاستبد عليه وملك أمره؛ وجرى على سياسة السلطان الهالك؛ واقتفى أثره في الممالك الدانية والقاصية في الحماية والنظر لهم وعليهم. ولما اتصل به خبر تلمسان وتغلب أبي حمو عليها؛ قام في ركائبه وشاور الملأ في النهوض إليه؛ فأشاروا عليه بالقعود وتسريح الجنود والعساكر؛ فسرح لها ابن عمه مسعود بن رحو بن علي بن عيسى بن ماساي من بني فردود؛ وحكمه في اختيار الرجال واستجادة السلاح وبذل الأموال واتخاذ الآلة؛ فزحف إلى تلمسان. وأتصل الخبر بالسلطات أبي حمو وأشياعه من بني

عامر؛ فأفرج عنها ولحق بالصحراء. ودخل الوزير مسعود بن رحو تلمسان، وخالفه السلطان أبو حمو إلى المغرب فترل ببسيط أنكاد. وسرح إليهم الوزير مسعود بن رحو أبن عمه عامر بن عبو بن ماساي في عسكر من كتائبه ووجه قومه؛ فأوقع بهم العرب وأبو حمو ومن معهم واستباحوهم. وطار الخبر إلى تلمسان، واختلفت أهواء من كان بها من بني مرين. وبدا ما كان في قلوبهم من المرض، لتغلب الحسن بن عمر على سلطانهم ودولتهم، فتحيزوا زرافات لمبايعة بعض الأعياص من آل عبد الحق. وفطن الوزير مسعود بن رحو لما دبروه، وكان في قلبه مرض من ذلك فاغتنمها، وبايع لمنصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق كبير الأعياص المنفرد بالتجلة. وارتحل به وبقومه من بني مرين إلى المغرب، وتجافى عن تلمسان وشأنها، واعترضهم عرب المعقل في طريقهم إلى المغرب؛ فأوقع بهم بنو مرين وصمموا لطيتهم. ورجع السلطان أبو حمو إلى تلمسان، واستقر بحضرته ودار ملكه. ولحق به عبد الله بن مسلم فاستوزره واستنام إليه؛ فاشتد به أزره وغلب على دولته كما نذكره إلى أن هلك. والبقاء لله وحده.

الخبر عن مقدم عبد الله بن مسلم من مكان عمله بدرعة ونزوعه من إيالة بني مرين إلى أبي حمو وتقليده إياه الوزارة و ذكر أوليته ومصائر أموره:

كان عبد الله بن مسلم هذا، من وجوه بني زردال، من بني بادين إخوة بني عبد الواد وتوجين ومصاب، إلا أن بني زردال اندرجوا في بني عبد الواد لقلتهم واختلطوا بنسبهم. ونشأ عبد الله بن مسلم، في كفالة موسى بن علي- لعهد السلطان أبي تاشفين مشهورا بالبسالة والإقدام، طار له ذكر، وحسن بلاؤه في حصار تلمسان. ولما تغلب السلطان أبو الحسن على بني عبد الواد، وابتزهم ملكهم واستخدمهم؛ وكان ينتقي أولي الشجاعة والإقدام منهم، فيرمي بهم ثغور المغرب. ولما اعترض بني عبد الواد، ومر به عبد الله هذا ذكر له شأنه ونعت ببأسه؛ فبعثه إلى درعة واستوصى عاملها به؛ فكان له عنه غناء؛ وفي مواقعه مع خوارج العرب بلاء حسن؛ جذب ذلك بضبعية ورقي عند السلطان مترلته وعرفه على قومه.

ولما كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان، ومرج أمر المغرب، وتوثب أبو عنان على الأمر، وبويع له بتلمسان، واستجمع حافده منصور بن أبي مالك عبد الواحد لمدافعته، وحشد حامية الثغور للقائه، وانفضت جموعه بتازى، وخلص إلى البلد الجديد ونازله، وكان عبد الله بن مسلم في جملته. ولما نازله السلطان أبو عنان، واتصلت الحرب بينهم أياما، كان له فيها ذكر. ولما رأى أنهم احيط بهم سبق الناس إلى السلطان أبي عنان، فرعى سابقته وقلده عمل درعة، فاضطلع بها مدة خلافته، وتأكدت له أيام ولايته مع عرب المعقل وصلة وعهد ضرب بها في مؤاخاتهم بسهم. وكان السلطان أبو عنان عند خروج أخيه أبي الفضل عليه، ولحقه بجبل ابن حميدي من معاقل درعة، أوعز إليه بأن يعمل الحيلة في القبض عليه؛ فداخل ابن حميدي ووعده وبذل له؛ فأجاب وأسلمه. وقاده عبد الله بن مسلم أسيراً إلى أخيه السلطان أبي عنان فقتله. ولما استولى السلطان أبو سالم رفيق أبي الفضل في مثوى اغترابهما بالأندلس على بلاد المغرب،

من بعد مهلك السلطان أبي عنان، وما كان أثره من الخطوب، وذلك آخر سنة ستين، خشية ابن مسلم على نفسه، ففارق ولايته ومكان عمله. وداخل أولاد حسين أمراء المعقل في النجاة به إلى تلمسان فأجابوه، ولحق بالسلطان أبي حمو في ثروة من المال وعصبة من العشير وأولياء من العرب؛ فسر بمقدمه وقلده لحينه وزارته وشد به أواخي سلطانه وفوض إليه تدبير ملكه، فاستقام أمره وجمع القلوب على طاعته. وجأجأ بالمعقل من مواطنهم الغربية، فأقبلوا إليه وعكفوا على خدمته. وأقطعهم بمواطن تلمسان وآخى بينهم وبين زغبة؛ فعلا كعبه واستفحل أمره، واستقامت رياسته، إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى. والله تعالى أعلم.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي سالم علم تلمسان ولجوعه إلى المغرب بعد أن ولى عليها أبا زيان حافد السلطان أبي تاشفين ومآل أمره:

لما استوسق للسلطان أبي سالم ملك المغرب، ومحا أثره الخوارج على الدولة سما

إلى امتداد ظله إلى أقصى تخوم زناتة، كما كان لأبيه وأخيه، وحركه إلى ذلك ما كان من فرار عبد الله بن مسلم إلى تلمسان بجباية عمله؛ فأجمع أمره على النهوض إلى تلمسان، وعسكر بظاهر فاس منتصف إحدى وستين. وبعث في الحشود فتوافت ببابه واكتملت، ثم ارتحل إليها. وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو ووزيره عبد الله بن مسلم؛ فنادوا في العرب من زغبة والمعقل كافة؛ فأجابوهم إلا شرذمة قليلة من الأحلاف، وخرجوا بهم إلى الصحراء ونازل حللهم بعسكره. ولما دخل السلطان أبو سالم وبنو مرين تلمسان خالفوهم إلى المغرب، فنازلوا وطاط، وبلاد ملوية وكرسيف، وحطموا زروعها وانتسفوا أقواتها وخربوا عمرانها. وبلغ السلطان أبا سالم ما كان من صنيعهم، فأهمه أمر المغرب وأجلاب المفسدين عليه. وكان في جملته من آل يغمراسن محمد بن عثمان ابن السلطان أبي تاشفين، ويكنى بأبي زيان، ويعرف بالقبي، ومعناه العظيم اسرأس، فدفعه للأمر وأعطاه الالة، وكتب له كتيبة من توجين ومغراوة كانوا في جملته، ودفع إليه اعطياتهم، وأنزله أبيه بتلمسان؛ وانكفأ راجعا إلى حضرته، فأجفلت العرب والسلطان أبو حمو أمامه وخالفوه إلى تلمسان، فأجفل عنها أبو زيان وتحيز إلى بني مرين بأمصار الشرق من البطحاء ومليانة ووهران وأوليائهم من بني توجين وسويد من قبائل زغبة. ودخل السلطان أبو حمو ووزيره عبد الله بن مسلم إلى تلمسان، وكان صغير بن عامر هلك في مذهبهم ذلك. ثم خرجوا فيمن إليهم من كافة العرب المعقل وزغبة في أتباع أبي زيان، ونازلوا بجبل وانشريش فيمن معه إلى أن غلبوه عليه، وانفض جمعه، ولحق بمكانه من إيالة بني مرين بفاس. ورجع السلطان أبو حمو إلى معاقل وطنه يستنقذها من ملكة بني مرين، ففتتح كثيرها وغلب على مليانة والبطحاء. ثم نهض إلى وهران ونازلها أياما واقتحمها غلاباً، واستلحم بها من بني مرين عددا. ثم تغلب على المدية والجزائر، وانزعج عنها بني مرين فلحقوا بأوطانهم. وبعث رسله إلى السلطان أبي سالم؛ فعقد معه السلم ووضعوا أوزار الحرب. ثم كان مهلك السلطان أبي سالم سنة اثنتين وستين. وقام بالأمر من بعده عمر بن عبد الله بن علي من أبناء وزرائهم مبايعا لولد السلطان أبي الحسن

واحدا بعد آخر، كما نذكره عند ذكر أخبارهم.

الخبر عن قدوم أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد من المغرب لطلب ملكه وما كان من أحواله:

كان أبو زيان هذا، وهو محمد ابن السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن، لما تقبض عليه مع عمه أبي ثابت ووزيرهم يحيى بن داود بجباية من أعمال الموحدين، وسيقوا إلى السلطان أبي عنان؛ فقتل أبا ثابت وزيره واستبقى محمدا هذا وأودعه السجن سائر أيامه؛ حتى إذا هلك واستوسق أمر المغرب لأخيه أبي سالم من بعد خطوب وأحوال يأتي ذكرها؛ امتن عليه السلطان أبو سالم وأطلقه من الاعتقال ونظمه بمجلسه في مراتب الأعياص، وأعده لمزاحمة ابن عمه. وحدث بينه وبين السلطان أبي حمو سنة اثنتين وستين بين يدي مهلكة نكراء بعد مرجعه من تلمسان، ومرجع أبي زيان حافد السلطان أبي تاشفين من بعده؛ فحقق السعي فيما نصبه له. وسما له في أبي زيان هذا أمل أن يستأثر بملك أبيه، ورأى أن يحسن الصنيع فيه فيكون فيئة له؛ فأعطاه الالة ونصبه للملك، وبعثه إلى وطن تلمسان، وانتهى إلى تازى. ولحقه الخبر هنالك بمهلك السلطان أبي سالم. ثم كانت فتن وأحداث نذكرها في محلها. وأجلب عبد الحليم ابن السلطان أبي علي ابن السلطان أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق على فاس، واجتمع إليه بنو مرين، ونازلوا البلد الجديد. ثم انفض جمعهم، ولحق عبد الحليم بتازى كما نذكره في موضعه. ورجا من السلطان أبي حمو المظاهرة على أمره، فراسله في ذلك واشترط عليه كبح ابن عمه أبي زيان، فاعتقله مرضاة له، ثم ارتحل إلى سجلماسة كما نذكر بعد. ونازله في طريقه أولاد حسين من المعقل بحللهم وأحيائهم؟ فاستغفل أبو زيان ذات يوم المتوكلين به، ووثب على فرس قائم حذاه وركضه من معسكر عبد الحليم إلى حلة أولاد حسين مستجيرا بهم فأجاروه. ولحق ببني عامر على حين جفوة، كانت بين السلطان أبي حمو وبين خالد بن عامر أميرهم ذهب لها مغاضبا، فأجلب به على تلمسان. وسرح إليهم السلطان أبو حمو عسكرا فشردهم عن تلمسان. ثم بذل المال لخالد بن عامر على أن يقصيه إلى بلاد رياح ففعل، وأوصله إلى بلاد الدواودة فأقام فيهم. ثم دعاه أبو الليل بن موسى شيخ بني يزيد، وصاحب وطن حمزة وبني حسن وما إليه، ونصبه للأمر مشافهة وعنادا للسلطان أبي حمو. ونهض إليه الوزير عبد الله بن مسلم في عساكر بني عبد الواد وحشي العرب وزناتة، فأيقن أبو الليل بالغلب وبذل له الوزير المال، وشرط له التجافي عن وطنه على أن يرجع عن طاعة أبي زيان ففعل، وانصرف إلى بجاية، ونزل على المولى أبي إسحاق ابن مولانا السلطان أبي يحيى أكرم نزل. ثم وقعت المراسلة بينه وبين السلطان أبي حمو، وتمت المهادنة، وانعقد السلم على إقصاء أبي زيان عن بجاية المتاخمة لوطنه، فارتحل إلى حضرة تونس. وتلقاه الحاجب أبو محمد بن تافراكين، قيوم دولة الحفصيين لذلك لعهد، من المبرة والترحيب وإسناء الجراية به وترفيع المنزلة بما لم يعهد بمثله من الأعياص. ولم يزل حاله على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قدوم أبي زيان حافد السلطان أبي تاشفين ثانية من المغرب إلى تلمسان لطلب ملكها وما كان من أحواله:

كان العرب من سويد إحدى بطون زغبة فيئة لبني مرين وشيعة، من عهد أميرهم عريف بن يحيى، مع السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان، فكانوا عند بني عبد الواد في عداد عدوهم من بني مرين، مع طاغية الدولة لبني عامر أقتالهم، فكانوا منابذين لبني عبد الواد آخر الأيام. وكان كبيرهم ونزمار بن عريف أوطن كرسيف، في جوار بني مرين، مذ مهلك السلطان أبي عنان، وكان مرموقاً لديهم بعين التجلة، يرجعون إلى رأيه ويستمعون إلى قوله. وأهمه شأن إخوانه في موطنهم، ومع أقتالهم، بني عامر، فاعتزم على نقض الدولة من قواعدها، وحمل صاحب المغرب عمر بن عبد الله على أن يسرح محمد بن عثمان حافد أبي تاشفين لمعاودة الطلب لملكه، ووافق ذلك نفرة استحكمت بين السلطان أبي حمّو وأحمد بن رحو بن غانم، كبير أولاد حسين من المعقل، بعد أن كانوا فيئة له ولوزيره عبد الله بن مسلم، فاغتنمها عمر بن عبد الله. وخرج أبو زيان محمد بن عثمان سنة خمس وستين، فنزل في حلل المعقل بملوية. ثم نهضوا إلى وطن تلمسان، وارتاب السلطان أبو حمّو بخالد بن عمر أمير بني عامر، فتقبّضعليه وأودعه المطبق. ثم سرح وزيره عبد الله بن مسلم في عساكر بني عبد الواد

والعرب، فأحسن دفاعهم وانفضّت جموعهم ورحلهم إلى ناحية الشرق، وهو في أتباعهم إلى أن نزلوا المسيلة من وطن رياح، وصاروا في جوار الزواودة. ثم نزل بالوزير عبد الله بن مسلم داء الطاعون، الذي عاود أهل العمران عامئذ من بعدما أهلكهم سنة سبع وأربعين وسبعمائة قبلها، فانكفأ به ولده وعشيره راجعين، وهلك في طريقه وأرسلوا شلوه إلى تلمسان فدفن بها. وخرج السلطان أبو حمّو لمدافعة عدوّه، وقد فتّ مهلك عبد الله في عضده. ولما انتهى إلى البطحاء وعسكر بها، ناجزته جموع السلطان أبي زيان الحرب، وأطلت راياته على المعسكر فداخلهم العرب وانفضوا، وأعجلهم الأمر عن أبنيتهم وأزودتهم فتركوها وانفضّوا. وتسلّل أبو حمّو يبغي النجاة إلى تلمسان. وأضرب أبو زيّان فسطاطه بمكان معسكره، وسابقه أحمد بن رحّو أمير المعقل إلى منجاته فلحقه بسيك. وكرّ إليه السلطان أبو حمّو فيمن معه من خاصّته، وصدقوه الدفاع فكبا به فرسه، وقطع رأسه. ولحق السلطان أبو حمّو بحضرته، وارتحل أبو زيان، والعرب في أتباعه إلى أن نازلوا بتلمسان أياماً.

وحدثت المنافسة بين المعقل وزغبة، وأسف زغبة استبداد المعقل عليهم وانفراد أولاد حسين برأي السلطان دونهم، فاغتنمها أبو حمّو وأطلق أميرهم بن عامر بن خالد من محبسه، وأخذ عليه الموثق من الله ليخذلنّ الناس عنه ما استطاع، وليرجعنّ بقومه عن طاعة أبي زيّان، وليفرقنّ جموعه. فوفّى له بذلك، ونفس عنه المخنق، وتفرّقت أحزابهم. ورجع أبو زيّان إلى مكانه من إيالة بني مرين، واستقام أمر السلطان أبي حمّو وصلحت دولته بعد الالتياث، إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن حركة أبي حمّو علي ثغور المغرب:

كان ونزمار من عريف متولي كبر هذه الفتن على أبي حمو، وبعث الأعياص عليه واحداً بعد واحد، بما كان بينهم من العداوة المتصلة كما قدّمناه. وكان مترله كرسيف من ثغور المغرب. وكان جاره محمد بن زكدان كبير بني علي من بني ونكاسن

الموطنين بجبل دبدو، كانت أيديهما عليه واحدة. فلما سكن غّرب الثوار عنه، وأزاحهم عن وطنه إلى المغرب، وانعقد سلمه معهم، رأى أن يغزو هذين الأميرين في ثغورهما، فاعتمل الحركة إلى المغرب فاتح سنة ست وستين وسبعمائة. وانتهى إلى دبدو وكرسيف. وأجفل ونزمار، وامتنع بمعاقل الجبال، فانتهب أبو حمّو الزروع وشمل بالتخريب والعيث سائر النواحي. وقصد محمد من زكدان أيضاً في معقل دبدو، فامتنع بحصنه الذي اتخذه هنالك. وعاج عليه أبو حمّو بركابه، وجاس خلال وطنه، وشمل بالتخريب والعيث نواحي بلده، وانكفأ راجعاً إلى حضرته، وقد عظمت في تخوم بني مرين وثغورهم نكايته، وثقلت عليهم وطأته، وانعقدت بينهما بدء المهادنة والسلم. وانصرفت عزائمه إلى بلاد أفريقية، فكانت حركته إلى بجاية من العام المقبل، ونكبته عليها كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حركة السلطان أبي حمّو إلي بجاية ونكبته عليها:

كان صاحب بجاية المولى الأمير أبو عبد الله، لما استولى عليها، وعادت إليه العودة الثانية سنة خمس وستين وسبعمائة كما ذكرناه في أخباره، زحف بعدها إلى تدلس، فغلب عليها بني عبد الواد، وأنزل بها عامله وحاميته. ثم أظلم الجوّ بينه وبين صاحب قسنطينة السلطان أبي العبّاس ابن عمّه الأمير أبي عبد الله، لما جرّته بينهم المتاخمة في العمالات، فنشأت بينهما فتن وحروب شغل بها عن حماية تدلس، وألحت عليها عساكر بني عبد الواد بالحصار. وأحيط بها فأوفد رسله على السلطان أبي حمّو صاحب تلمسان في المهادنة على النزول له عن تدلس، فتسلّمها أبو حمّو وأنزل بها حاميته. وعقد معه السلم، وأصهر إليه في ابنته، فأجابه وزفّها إليه، فتلقّاها قبيلة زوارة بآخر عملهم من حدود بجاية. وفرغ صاحب بجاية لشأنه، وكان أثناء الفتنة معه، قد بعث إلى تونس عن أبي زيان ابن عمّه السلطان أبي سعيد ليترله بتدلس، ويشغل به السلطان أبا حمّو عن فتنته.

وكان من خبر أبي زيان هذا أنه أقام بتونس بعد مهلك الحاجب أبي محمد بن تافراكين كما ذكرناه، إلى أن دسّ إليه مرضى القلوب من مشيخة بني عبد الواد

بتلمسان بالأجلاب على السلطان أبي حمو. ووعدوه من أنفسهم الجنوح معه فصغى إليها وأعتدّها، وارتحل يريد تخوم تلمسان وعمل بجاية. ومرّ بقُسَنطِينَة فتجافى عن الدخول اليها، وتنكّر لصاحبها. وبلغ خبره السلطان أبا العبّاس صاحبها يومئذ، فأجمع أمره في صدّه عن وجهه وحبسه بقسنطينة، واتصلت الفتنة بينه وبين ابن عمه صاحب بجاية. وكان شديد الوطأة على أهل بلده، مرهف الحدّ لهم بالعقاب الشديد، حتى لقد ضرب أعناق خمسين منهم قبل أن يستكمل سنتين في ملكه. فاستحكمت النفرة وساءت الملكة، وعضل الداء، وفزع أهل البلد إلى مداخلة السلطان أبي العبّاس باستنقاذهم من ملكة العسف والهلاك، بما كان اتيح له من الظهور على أميرهم، فنهض إليها آخر سنة سبع وستين وسبعمائة. وبرز الأمير أبو عبد الله للقائه بليزو، الجل المطل على تاكردت. وصبحه السلطان أبو العبّاس بمعسكره هنالك، فاستولى عليه وركّض وهو فرسه ناجياً بنفسه ومرّت الجنود تعادي في أثره حتى أدركوه، فأحاطوا به وقتلوه قعصاً بالرماح، عفا الله عنه وأجاز السلطان أبو العبّاس إلى البلد، فدخلها منتصف يومه لعشرين من شعبان ولاذ الناس به من دهش الواقعة،

وتمسّكوا بدعوته وآتوه طاعتهم. فانجلت القيامة واستقام الأمر، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو، فأظهر الامتعاض لمهلكه والقيام بثأره وسير من ذلك حشوده في ارتقاء. ونهض يجرّ الأمم إلى بجاية من العرب وزناتة والحشد حتى أناخ بها وملأ بخيامه الجهات بساحتها، وجنح السلطان إلى مبارزته، فتمسك به البلد ولاذوا بمقامه، فأسعفهم وطير البريد إلى قسنطينة، فأطلق أبا زيان من عتقا وسوغه الملابس والمراكب والالة. وزحف به مولاه بشير في عسكره إلى أن نز حد معسكر أبي حمو. واضطربوا محلهم بسفح بني عبد الجبار، وشنوا الغارات على معسكر أبي حمّو صباح مساء، لما كان نمي إليهم من مرض قلوب جنده والعرب الذين معه. وبدا للسلطان أبي حمّو ما لم يحتسب من امتناعها. وكان قد تقدم إليه بعض سماسرة الفتن بوعد على لسان المشيخة من أهل البلد أطمعه فيها، ووثق بأن ذلك يغنيه عن الاعتداء، فاستبق إليها وأغفل الحزم فيما دونها. فلما امتنعت عليه

أطبق الجو على معسكره، وفسدت السابلة على العير للميرة، واستحكم الزبون في أحياء معسكر بظهور العدو المساهم في الملك. وتفادت رجالات العرب سوء المغبة وسطوة السلطان فتمشوا بينهم في الانفضاض وتحينوا لذلك وقت المناوشة، وكان السلطان لما كذبه عد المشيخة أجمع قتالهم وأمر بضرب الفساطيط مضايقة للأسوار، متسنمة وعراً من جبل يرضه أهل الرأي. وخرج رجل الجبل على حين غفلة، فتجاولوا من كان بتلك الأخبية من المقاتلة، فانهزموا أمامهم وتركوها بأيديهم فمزقوها بالسيوف. وعاين العرب على للبعد انتهاب الفساطيط فأجفلوا، وانفض المعسكر بأجمعه. وحمل السلطان أبو حمّو - أثقاله للرحلة، فأجهضوه عنها فتركها، وانتهب مخلفه أجمع. وتصايح الناس بهم من حدب، وضاقت المسالك من ورائهم وأمامهم، وكظت بزحامهم، وتواقعوا لجنوبهم فهلك الكثير منهم، وكانت من غرائب الواقعات، تحدث الناس بها زماناً وسيقت حظاياه إلى بجاية، واستأثر منهن الأمير أبو زيان بحظيته الشهيرة ابنة يحي الزابى ينسب إلى عبد المؤمن بن علي.وكان أصهر فيها إلى أبيها أيام تقلبه في الاغتراب ببلاد الموحّدين كما سبق، وكانت أعلق بقلبه من سواها، فخرجت في مغانم الأمير أبي زيان. وتحرج عن مواقعتها حتى أوجده أهل الفتيا السبيل إلى ذلك، بحيث زعموا وقع من السلطان أبي حمّو في نسائه. وخلص السلطان أبو حمّو من هوة ذلك العطب بعد غصة الريق، ونجا إلى الجزائر لا يكاد يرد النفس من شناعة ذلك الهول. ثم خرج منها ولحق بتلمسان، واقتعد سرير ملكه. واشتدت شوكة أبي زيان ابن عمه، وتغلب على القاصية، واجتمعت إليه العرب، وكثر تابعه. وزاحم السلطان أبا حمّو بتلك الناحية الشرقية سنين تباعاً نذكر الآن أخبارها.

الخبر عن خروج أبي زيان بالقاصية الشرقية من بلاد حصين وتغلبه على المرية والجزائر ومليانة وما كان من الحروب معه:

لما انهزم السلطان أبو حمّو بساحة بجاية عشي يومه من أوائل ذي الحجة، خاتم

سبع وستين وسبعمائة، قرع الأمير أبو زيان طبوله، واتبع أثره، وانتهى إلى بلاد حصين

من زغبة. وكانوا سائمين من الهضيمة والعسف، إذ كانت الدول تجريهم مجرى الرعايا المعبدة في المغرم، وتعدل بهم عن سبيل إخوانهم من زغبة أمامهم ووراءهم لبغية، فارتكبوا صعب الشقاق لمغبة العز، فبايعوه على الموت الأحمر، ووقفوا بمعتصمهم من جبل تيطرى إلى أن دهمتهم عساكر السلطان. ثم أجلبوا على المدية وكان بها عسكر ضخم للسلطان أبي حمّو لنظر وزرائه: عمران بن موسى بن يوسف، وموسى بن برغوث ووادفل بن عبو بن حماد، ونازلوهم أياماً، ثم غلبوهم على البلد. وملكها الأمير أبو زيان، ومن على الوزراء ومشيخة بني عبد الواد، وترك سبيلهم إلى سلطانهم. وسلك الثعالبه في سبيل حصين في التجافي عن ذل المغرم، فأعطوه يد الطاعة والانقياد للأمير أبي زيان. وكانت في نفوس أهل الجزائر نفرة من جور العمال عليهم، فاستمالهم بها سالم بن إبراهيم بن نصر أمير الثعالبة إلى طاعة الأمير أبي زيان. ثم دعا أبو زيان أهل مليانة إلى مثلها فأجابوه. واعتمل السلطان أبو حمّو نظره في الحكرة الحاسمة لرأيهم، فبعث في العرب وبذل المال، وأقطع البلاد على اشتطاط منهم في الطلب. وتحرك إلى بلاد توجين، ونزل قلعة ابن سلامة سنة ثمان وستين وسبعمائة، يحاول طاعة أبي بكر بن عريف أمير سويد. فلم يلبث أن انحرف عنه أيضاً خالد بن عامر، ولحق بأبي بكر بن عريف، واجتمعا على الخلاف عليه، ونفض طاعته. وشنوا الغارة على معسكره، فاضطرب وأجفلوا وانتهبت محلاته وأثقاله، ورجع إلى تلمسان. ثم نهض إلى مليانة فافتتحها، وبعث إلى رياح على حين طاعتهم إليه من يعقوب بن علي بن أحمد وعثمان بن يوسف بن سليمان بن علي أميري الزواودة، لما كان وقع بيهما وبين السلطان مولانا أبي العبّاس من النفرة، فاستنظره للحركة على الأمير أبي زيان وبعدها إلى بجاية. وضمنوا له طاعة البدو من رياح، وبعثوا إليه ذمتهم على ذلك فردها وثوقاً بهم، ونهض من تلمسان، وقد اجتمع إليه الكثير من عرب زغبة. ولم يزل أولاد عريف بن يحيى وخالد بن عامر في أحيائهم منحرفين عنه بالصحراء. وصمم إليهم فأجفلوا أمامه، وقصد المخالفين من حصين والأمير أبي زيان إلى معتصمهم بجبل تيطرى.

وأغذ إليه السير يعقوب بن علي وعثمان بن يوسف بمن معهم من جموع رياح، حتى نزلوا بالقلعة حذاءهم. وبادر أولاد عريف وخالد بن عمر إلى الزواودة ليشردوهم عن البلاد، قبل أن تتصل يد السلطان بيدهم، فصبحوهم يوم الخميس أخريات ذي القعدة من سنة تسع وستين وسبعمائة، ودارت بينهم حرب شديدة، وأجفل الزواودة أولاً، ثم كان الظهور لهم آخراً. وقتل في المعركة من زغبة عدد ويئسوا من صدهم عما جاؤا إليه، فانعطفوا إلى حصين والأمير أبي زيان، وصعدوا إليهم بناجعتهم، وصاروا لهم مدداً على السلطان أبي حمو، وشنوا الغارة على معسكره، فصمدوا نحوه وصدقوه القتال، فاختل مصافه، وانهزمت عساكره، ونجا بنفسه إلى تلمسان على طريق الصحراء. وأجفل الزواودة إلى وطنهم، وتحيز عامة العرب من زغبة إلى الأمير أبي زيان، واتبع آثار المنهزمين، ونزل بسيرات. وخرج السلطان أبو حمّو في قومه ومن بقي معه من بني عامر. وتقدم خالد إلى مصادمته ففله السلطان وأجفل القوم من ورائه. ثم تلطف في مراسلته وبذل له المال، وأوسع له في الاشتراط فنزع إليه والتبس بخدمته. ورجع الأمير أبو زيان إلى أوليائه من حصين متمسكاً بولاية أولاد عريف. ثم نزع محمد بن عريف إلى طاعة السلطان. وضمن له العدول بأخيه عن مذاهب الخلاف عليه، وطال

سعيه في ذلك فاتهمه السلطان. وحمله خالد بن عامر عدوه على نكبته، فتقبّضعليه وأودعه السجن.
واستحكمت نفرة أخيه أبي بكر، ونهض السلطان بقومه وكافة بني عامر إليه سنة سبعين وسبعمائة. واستغلظ أمر أبي بكر لجموع الحارث من بني مالك ومن
وراءهم من حصين، واعتصموا بالجبال من دراك وتيطرى. ونزل السلطان بجموعه لعود بلاد الديالمة من الحرث، فانتسفها والتهمها وحطم زروعها ونهب مداثرها. وامتنع عليه أبو بكر ومن معه من الحرث وحصين والأمير أبي زيان بينهم، فارتحل عنهم وعطف على بلاد أولاد عريف وقومهم من سويد، فملأها عيثاً. وخرب قلعة ابن سلامة، بما كان أحسن أوطانهم. ورجع إلى تلمسان وهو يرى إن كان قد شفا نفسه في أولاد
عريف، وغلبهم على أوطانهم، ورفع عليهم منزلة عدوهم، فكان من لحاق أبي بكر بالمغرب، وحركة بني مرين ما نذكره.
الخبر عن حركة السلطان عبد العزيز علي تلمسان واستيلائه عليها ونكبة أبي حمّو وبني عامر بالدوس من بلاد الزاب وخروج أبي زيان من تيطري إلى أحياء رياح:
ولما تقبض أبو حمّو على محمد بن عريف، وفرق شمل قومه سويد، وعاث في بلادهم أجمع؟ رأى أخوه الأكبر أبو بكر على الصريخ بملك المغرب، فارتحل إليه بناجعته من بني مالك أجمع من أحياء سويد والديالم
والعطاف، حتى احتل بسائط ملوية من تخوم المغرب. وسار إلى أخيه الأكبر ونزمار بمقره من قصر مراده الذي اختطه بإرجاع وادي ملوية في ظل دولة بني مرين وتحت جوارهم، لما كان ملاك أمرهم بيده، ومصادرهم عن آرائه، خطة ورثها عن أليه عريف بن يحيى مع السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن وابنه أبي عنان. فتقبل ملوك المغرب مذاهب سلفهم فيه، وتمنوا برأيه، واستناموا إلى نصيحته. فلما قدم عليه أخوه أبو بكر مستحفياً بملك المغرب، وأخبره باعتقال أخيه الأخر محمد، قدح عزائمه، وأوفد أخاه أبا بكر ومشيخة قومهم من بني مالك على السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن منصرفه من افتتاح جبل هتاتة، وظفره بعامر بن محمد بن علي النازع إلى الشقاق في معتصمه، فلقوه في طريقه ولقاهم مبرة وتكرمة. واستصرخوه لاستنقاذ أخيهم فأجاب صريخهم، ورغبوه في ملك تلمسان وما وراءها، فوافق صاغيته إلى ذلك بما كان في نفسه من الموجدة على السلطان أبي حمو، بقبوله على من يترع إليه من عربان المعقل، أشياع الدولة وبدوها، وما كان بعث إليه في ذلك، وصرف عن استماعه، فاعتزم على الحركة إلى تلمسان؟ وألقى زمامه بيد ونزمار، وعسكر بساحة فاس. وبعث الحاشرين في الثغور والنواحي من المغرب، فتوافت الحشود ببابه، وارتحل بعد قضاء النسك من الأضحى سنة إحدى وسبعين وسبعمائة. واتصل الخبر بالسلطان أبي حمّو وكان معسكراً بالبطحاء، فانكفأ راجعاً إلى تلمسان فبعث في أوليائه من عبيد الله والأحلاف من عرب المعقل، فصموا عن إجابته ونزعوا إلى ملك المغرب، فأجمع رأيه على التحيز إلى بني عامر، وأجفل غرة المحرم سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة. واحتل السلطان عبد العزيز تلمسان في يوم عاشوراء بعدها. وأشار ونزمار عريف بتسريح العساكر في اتباعه، فسرح السلطان وزيره أبا بكر بن

غازي بن الكاس حتى انتهى إلى البطحاء. ثم لحق به هناك ونزمار، وقد حشد العرب كافة، وأغذ السير في اتباع السلطان أبي حمّو وبني عامر. وكانوا قد أبعدوا المذهب، ونزلوا على الزواودة وسرح إليهم السلطان يومئذ عبد العزيز يحملهم على طاعته، والعدول بهم عن صحا بني عامر وسلطانهم. وسرح فرج بن عيسى بن عريف إلى حصين لاقتضاء طاعتهم واستدعاء أبي زيان إلى حضرته، أو نبذهم عهده، وانتهينا جميعاً إلى بني زيان، ففارقه أوليائه ولحق بأولاد يحيى بن عليّ بن سباع من الزواودة. وانتهيت أنا إليهم فحفظت عليهم الشأن في جواره لما كانت مرضاة السلطان، وحذرتهم شأن أبي حمّو وبني عامر وأوفدت مشيختهم على ونزمار والوزير أبي بكر بن غازي فدلوهما على طريقه، وأغذ السير بيتوهم بمترلهم على الدوسن، آخر عمل الزاب من جانب المغرب ففضوا جموعهم، وانتهوا جميع معسكر السلطان أبي حمّو بأمواله وأمتعته وظهره. ولحق بمصاب، ورجعت العساكر من هنالك، فسلكت على قصور بني عامر بالصحراء

جبل راشد التي منها ربا ولون سمعون وما إليهما، فانتهبوها وخربوها وعاثوا فيها، وانكفوا راجعين إلى تلمسان. وفرق السلطان عماله في بلاد المغرب الأوسط من وهران وملما والجزائر والمدية وجبل وانشريش. واستوسق به ملكه، وانزاح عنه عدوه. ولم يبقى به يومئذ إلا ضرمة من نار الفتنة ببلاد مغراوة بوعد من ولد عليّ بن راشد، سخط خالد الديوان، ولحق بجبل بني سعيد. واعتصم به فجمر السلطان الكتائب لحصاره، ووزيره عمر بن مسعود لذلك كما ذكرناه في أخبار مغراوة واحتقر شأنه. وأوفدت أنا

يومئذ مشيخة الزواودة، فأوسعهم حباءً وكرامةً، وصدروا مملوءة حقائبهم خالصة قلوبهم منطلقة بالشكر ألسنتهم. واستمر الحال إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان إلى تيطري وأجلاب أبي حمّو على تلمسان ثم انهزامهما وتشريدهما علي سائر النواحي:

كان بنو عامر بن زغبة شيعة خالصة لبني عبد الواد مذ أول أمرهم، وخلص سويد

لبني مرين كما قدمناه، فكان من شأن عريف وبنيه عند السلطان أبي الحسن وبنيه ما هو معروف. فلما استبيحت أحياؤهم بالدوسن مع أبي حمو، ذهبوا في القفر إشفاقاً ويأساً من قبول بني مرين عليهم لما كان ونزمار بن عريف وإخوانه من الدولة، فحدثوا على سلطانهم أبي حمّو يتقلبون معه في القفار. ثم نزع إليهم رحو بن منصور فيمن طاعه من قومه عبيد الله من المعقل. وأجلبوا على وجدة فاضطرم للنفاق على الدولة ناراً، وخشي حصين مغبة أمرهم من السلطان بما اتسموا به من الشقاق والعناد، فمدوا أيديهم إلى سلطانهم أبي زيان، وأوفدوا مشيختهم لاستدعائه من حلة أولاد يحيى بن علي فاحتل بينهم، وأجلبوا له على المدية فملكوا نواحيها، وامتنع عليهم مصرها، واستمر الحال على ذلك. واضطرب المغرب الأوسط على السلطان، وانتقضت به طاعته. وسرح الجيوش والعساكر إلى قتال مغراوة وحصين، واجتمع مع أبو حمّو وبنو عامر على قصده بتلمسان، حتى إذا احتلوا قريباً منها دس السلطان عبد العزيز بعض شيعته إلى خالد بن عامر ورغبه في المال والحظ منه، وكان أبو حمّو قد آسفه بمخالطة بعض عشيره وتعقب رأيه برأي من لم يسم إلى خطته. و لم

يرتض كفاءته، فجنح إلى ملك المغرب، ونزع يده من عهد أبي حمو. وسرح السلطان عبد العزيز عسكره إلى خالد، فأوقع بأبي حمّو ومن كان معه من العرب عبيد الله وبني عامر، وانتهب معسكره وأمواله، واحتقبت حرمه وحظاياه إلى قصر السلطان. وتقبض على مولاه عطية فمن عليه السلطان وأصاره في حاشيته، ونجا بنفسه إلى تيكورارين آخر بلاد الصحراء، فترل بها منفرداً عن أهله وحاشيته ووزرائه. وأصفقت زناتة على خدمة ملك المغرب. ووافق هذا الفتح عند السلطان فتح بلاد مغراوة، وتغلب وزيره أبي بكر بن غازي على جبل بني بو سعيد، وتقبض على حمزة بن علي بن راشد في لمة من أصحابه، فضرب أعناقهم وبعث بها إلى سدة السلطان، وصلب أشلاءهم بساحة مليانة، فتظاهر الفتح واكتمل الظهور. وأوعز السلطان إلى وزيره أبي بكر بن غازي بالنهوض إلى

حصين، فنهض إليهم وخاطبني وأنا مقيم ببسكرة في دعايته بأن احتشد أولياءه من الزواودة ورياح، والتقى الوزير والعساكر على حصين تيطرى فنازلناه أشهراً. ثم انفض جموعهم وفروا من حصنهم وتمزقوا كل ممزق، وذهب أبو زيان على وجهه، ولحق ببلاد واركلي قبلة الزاب لبعدها عن منال الجيوش والعساكر، فأجاروه وأكرموا نزله. وضرب الوزير على قبائل حصين والثعالبة المغارم الثفيلة فأعطوها عن يد وجهضهم باقتضائها، ودوخ قاصية الثغور، ورجع إلى تلمسان عالي الكعب عزيز السلطان ظاهر اليد. وقعد له السلطان بمجلسه يوم وصوله قعوداً فخماً، وصل فيه إليه، وأوصل من صحبه من وفود العرب والقبائل، فقسم فيهم بره وعنايته وقبوله كل على شاكلته. واقتضى من أمراء العرب زغبة أبناءهم الأعزة رهناً على الطاعة. وسرحهم لغزو أبي حمّو بمنتبذه من تيكورارين فانطلقوا لذلك. وهلك السلطان عبد العزيز لليال قلائل من مقدم وزيره وعساكره أواخر شهر ربيع الآخر من سنة أربع وسبعين وسبعمائة، لمرض مزمن كان يتفادى بالكتمان والصبر من ظهوره. وانكفأ بنو مرين راجعين إلى ممالكهم بالمغرب بعد أن بايعوا لولده دارجاً خماسياً، ولقبوه بالسعيد، وجعلوا أمره إلى أبي بكر بن غازي، فملك أمرهم عليهم. واستمر حاله كما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن عودة ا لسلطان أبي حمّو الأخير إلى تلمسان الكرة الثالثة لبني عبد الواد في الملك: لما هلك السلطان عبد العزيز، ورجع بنو مرين إلى المغرب، نصبوا من أعياص

بني يغمراسن لمدافعة أبي حمّو من بعدهم عن تلمسان، إبراهيم ابن السلطان أبي تاشفين، كان ناشئاً بدولتهم منذ مهلك أبيه. وتسلل من جملتهم عطية بن موسى مولى السلطان أبي حمو، وخالفهم إلى البلد غداة رحيلهم، فقام بدعوة مولاه. ودافع إبراهيم بن تاشفين عن مرامه، وبلغ الخبر إلى أولياء السلطان أبي حمّو من عرب المعقل أولاد يغمور بن عبيد الله، فطيروا إليه النحيب على حين غلب عليه اليأس. وأجمع الرحلة إلى بلاد السودان لما بلغه من اجتماع العرب للحركة عليه كما قلناه، فأغذ السير

من مطرح اغترابه. وسابقه إبنه، ولي عهده في قومه عبد الرحمن أبو تاشفين، مع ظهيرهم عبدالله بن صغير فدخلوا إلى البلد. وتلاهم السلطان لرابعة من دخولهم، وعاود سلطانه واقتعد أريكته، وكانت إحدى الغرائب.

وتقبض ساعتئذ على وزرائه، اتهمهم بمداخلة خالد بن عامر فيما نقض من عهده وظاهر عليه عدوه؟ فأودعهم السجن وذبحهم ليومهم حنقاً عليهم. واستحكمت لها نفرة خالد وعشيره، وخلصت ولاية أولاد عريف بن يحيى لمنافرة بني عامر إياه، إقبال السلطان عبد العزيز عليه. ووثق بمكان ونزمار كبيرهم في تسكين عادية ملوك العرب عنه، ورجع إلى تمهيد وطنه. وكان بنو مرين عند انفضاضهم إلى مغربهم قد نصبوا من أقيال مغراوة، ثم من بني منديل علي ين هارون بن ثابت بن منديل، وبعثوه إلى شلف مزاحمة للسلطان أبي حمو، ونقضاً لأطراف ملكه. وأجلب أبو زيان ابن عمه على بلاد حصين، فكان من خبره معهما ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن رجوع أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد إلى بلاد حصين ثم خروجه عنها:

كان الأمير أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد، لما هلك السلطان عبد العزيز، وبلغه

الخبر بمنجاته من واركلا، نهض منها إلى التلول، وأسف إلى الناحية. التي كان منتزياً بها ومساهماً لأبي حمّو فيها، فاقتطعها لدعوته كما كانت. ورجع أهلها إلى ما عرفوا من طاعته، فنهض السلطان أبو حمّو إلى لتمهيد نواحيه وتثقيف أطراف ملكه، ودفع الخوارج عن ممالكه، وظاهره على ذلك أمير البدو من زغبة أبو بكر ومحمد إبنا عريف بن يحيى. دس إليهما بذلك كبيرهما ونزمار، وأخذهما بمناصحة السلطان ومخالصته، فركبا من ذلك أوضح طريق وأسهر مركب. ونبذ السلطان العهد إلى خالد وعشيره، فضاقت عليهم الأرض ولحقوا بالمغرب لسابقة نزوعهم إلى السلطان عبد العزيز. وابتدأ السلطان بما بليه، فأزعج بمظاهرتهما علي بن هارون عن أرض شلف سنة خمس وسبعين وزسبعمائة بعد حروب هلك في بعضها أخوه رحمون بن

هارون. وخلص إلى بجاية، فركب منها السفن إلى المغرب، ثم تخطى السلطان أبو حمّو إلى ما وراء شلف. وسفر محمد بن عريف بينه وبين إبن عمه، بعد أن نزع إليه الكثير من أوليائه حصين والثعالبة، بما بذل لهم من المال، وبما سيموا من طول الفنة، فشارطه على الخروج من وطنه إلى جيرانهم من رياح على أتاوة تحمل إليه، فقبل ووضع أوزار الحرب وفارق مكان ثورته. وكان لمحمد بن عريف فيها أثر محمود، واستألف سالم بن إبراهيم كبير الثعالبة المتغلب على بسيط منبجة وبلد الجزائر، بعد أن كان خب في الفتنة وأوضع، فاقتضى له من السلطان عهده من الأمان والولاية على قومه وعمله. وقلد السلطان أبناءه ثغور أعماله، فأنزل ابنه بالجزائر لنظر سالم بن إبراهيم من تحت استبداده، وابنه أبا زيان بالمدية. وانقلب السلطان إلى حضرته بتلمسان بعد أن دوخ قاصيته، وثقف أطراف عمله، وأصلح قلوب أوليائه، واستألف شيعة عدوه، فكان فتحاً لا كفاء له من بعد ما خلع من ربقة الملك، ونزع من لبوس السلطان. فانتبذ عن قومه وممالكه إلى قاصية الأرض، ونزل في جوار من لا ينفذ امره، ولا يقوم بطاعته. والله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.

الخبر عن أجلاب عبد الله بن صغير وانتقاض أبي بكر بن عريف وبيعتهما للأمير أبي زيان ورجوع أبي بكر إلي الطاعة:

كان خالد بن عامر، وعبد الله ابن أخيه صغير، وسائر إخوانهم من ولد عامر بن إبراهيم، لحقوا بالمغرب صرخى ببني مرين لما وقع بينهم وبين أبي حمّو من الفعلة التي فعل خالد معه. ويئس عبد الله بن صغير من صريخهم، بما عقد ونزمار بن عريف من السلم بين صاحب المغرب وصاحب تلمسان، فخاض القفر بمن معه من قومه، ولحق بوطن زغبة، وأجلب على جبل راشد، وبه العمور أحلاف سويد من بني هلال. فاعترضتهم سويد، ودارت بينهم حرب شديدة، كان الظهور فيها لسويد عليهم. وفي خلال ذلك، فسد بين السلطان وبين أبي بكر بن عريف بسبب صاحب جبل

وانشريس يوسف بن عامر بن عثمان، أراده السلطان على النزول عن عمله، فغضب له أبو بكر لقديم الصداقة بين سلفهما، ووصل يده بعبد الله بن صغير بعد الواقعة. ودعاه إلى بيعة أبي زيان فأجابه، وأوفدوا رجالاتهم عليه بمكانه من مجالات رياح، فوصل معهم ونصبوه للأمر، وتحيز محمد بن عريف إلى السلطان في جموع سويد. ونهض السلطان من تلمسان فاتح سنة سبع وسبعين وسبعمائة فيمن معه من قبائل بني عبد الواد وعرب المعقل وزغبة، ودس إلى أولياء أبي زيان يرغبهم في المواعد. وحكم أبا بكر في الاشتراط عليه، ففاء إلى الطاعة والمخالصة. ورجع أبو زيان إلى مكانه من حلك الزواودة، وأغذ السلطان السير إلى حضرته فتملى أريكته، وحدث بعد ذلك ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وصول خالد بن عامر من المغرب والحرب التي دارت بينه وبين سويد وأبي تاشفين هلك فيها عبد الله بن صغير وإخوانه:

لما بلغ خالد بن عامر بمكانه من المغرب خبر عبد الله ابن أخيه صغير، قفل من المغرب يئساً من مظاهرة بني مرين، فخفق السعي في صريخه بهم لما كانوا عليه من ، افتراق الأمر كما ذكرناه قبل. ووصل معه ساسي بن سليم في قومه بني يعقوب، وتظاهر الحيان على العيث في بلاد السلطان أبي حمو. واجتمع إليهم أبناء الفتنة من كل أوب، وأجلبوا على الأطراف وشنوا الغارة في البلاد. وجمع أولاد عريف لحربهم قومهم من سويد وأحلافهم من العطاف، وبعثوا بالصريخ إلى السلطان، فسير لحرب عدوه وعدوهم ابنه أبا تاشفين ولي عهده في قومه، وبرز لذلك في العساكر والجنود. ولما انتهى إلى بلاد هوارة، واضطرب عسكره بها، أعجله صريخ أوليائه من مناخ الركاب، فاستعجل الرحلة ولحق بأوليائه أولاد عريف ومن معهم من أشياع ا الدولة من زغبة. وأغذوا السير إلى وادي مينا بشرقي القلعة، فتراءى الجمعان وتواقفوا للقاء سائر

يومهم. واستضاءوا بإضرام النيران مخافة البيات، وأصبحوا على التعبية. وتمشت الرجالات في مواضعة الحرب، فأعجلهم مناشبة القوم، وتزاحفت الصفوف، وأعلم الكماة، وكشفت الحرب عن ساقها، وحمي الوطيس، وهبت الريح المبشرة، فخفقت لها رايات الأمير وهدرت طبوله. ودارت رحى الحرب، وصمدت إليها كتائب العرب، فتردى فيها الأبطال منهم وانكشفوا، وأجلت المعركة عن عبد الله بن صغير صريعاً، فأمر أبو تاشفين فاحتز رأسه وطير به البريد إلى أبيه. ثم عثرت المراكب بأخيه ملوك من صغير مع العبّاس ابن عمه موسى بن عامر، ومحمد بن زيان من وجوه عشيرهم متواقعين بجنودهم، متضاجعين في مراقدهم كأنما أقعدوا للردى،

فوطأهم سنابك الخيل وغشيهم قتام المواكب. وأطلقت العساكر أعنتها في اتباع القوم، فاستاقوا نعمهم وأموالهم. وكثرت يومئذ الأنفال، وغشيهم الليل فتستروا بجناحه. ولحق فلهم بجبل راشد، واضطرب أبو تاشفين أباه بمشتهى ظهوره، وأملأه السرور بما صنع الله على يده، وما كان له ولقومه من الأثر في مظاهرة أوليائه. وطار له بها ذكر على الأيام، ورجع إلى أبيه بالحضرة مملوء الحقائب بالأنفال، والجوانح بالسرور، والأيام بالذكر عنه وعن قومه، ومضى خالد لوجهه في فل في قومه. ولحق بجبل راشد إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله. والله أعلم.

الخبر عن انتقاض سالم بن إبراهيم ومظاهرته خالد بن عامر علي الخلاف وبيعتهما للأمير أبي زيان ثم مهلك خالد ومراجعة سالم الطاعة وخروج أبي زيان إلي بلاد الجريد:

كان سالم بن إبراهيم هذا كبير الثعالبة المتغلبين على حصن متيجة منذ انقراض مليكش، وكانت الرياسة فيهم لأهل بيته حسبما ذكرناه في أخبارهم عند ذكر المعقل. ،لما كانت فتنة أبي زيان بعد نكبة أبي حمّو على بجاية، وهبت ريح العرب، واستغلظ أمرهم، كان سالم هذا أول من غمس يده في تلك الفتنة، ومكر بعلي بن غالب من بيوتات الجزائر، كان مغرباً عنها من لدن تغلب بني مرين على المغرب الأوسط

أيام أبي عنان. ولحق بها عندما أظلم الجو بالفتنة، واستحكمت نفرة أهل الجزائر عن أبي حمو، فأظهر بها الاستبداد واجتمع إليه الأوشاب والطغام. ونكره سالم أمير الضاحية أطمعه في الاستيلاء على الجزائر، فداخل في شأنه الملأ من أهل المدينة، وحذرهم منه أنه يروم الدعوة للسلطان أبي حمو، فاستشاطوا نفرة وثاروا به، حتى إذا رأى سالم أنه قد احيط به خلصه من أيديهم وأخرجه إلى حيه وأتلفه هنالك. وحول دعوة الجزائر إلى الأمير أبي زيان تحت استبداده، حتى إذا كان من أمر بني مرين وحلول السلطان عبد العزيز بتلمسان ما قدمناه، أقام دعوتهم في الجزائر إلى حين سلكه ورجوع أبي حمّو إلى تلمسان. وأقبل حينئذ جيش أبي زيان إلى تيطرى، فأقام سالم هذا دعوته في أحيائه وفي بلد الجزائر خشية على نفسه من السلطان أبي حمو، لما كان يعتمد عليه في الإدالة من أمره بالجزائر بأمر ابن عمه. ولما كان من خروج أبي زيان إلى أحياء رياح على يد محمد بن عريف ما قدمناه، واقتضى سالم عهده من السلطان وولي ابنه على الجزائر وأقام سالم على أمره من الاستبداد بتلك الأعمال واستضافة جبايتها لنفسه. وأوعز السلطان إلى عماله باستيفاء جبايتها، فاستراب وبقي في أمره على المداهنة.

وحدثت إثر ذلك فتنة خالد بن عامر، فتربص دوائرها رجاء أن يكون الغلب له، فيشغل السلطان عنه. ثم بدا له ما لم يحتسب، وكان الغلب للسلطان ولأوليائه. وكان قد حدثت بينه وبين محمد بن عريف عداوة، فخشي أن يحمل السلطان على النهوض إليه، فبادر بالانتفاض على أبي حمو. واستقدم الأمير أبا زيان فقدم عليه، وجأجأ بخالد بن عامر والمخالفين معه من العرب، فوصلوا إليه أول سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، وعقد بينهم حلفاً مؤكداً، وأقام الدعوة للأمير أبي زيان بالجزائر. ثم زحفوا إلى حصار مليانة، وبها حامية السلطان فامتنعت عليهم، ورجعوا إلى الجزائر فهلك خالد بن عامر على فراشه ودفن بها.

وولي أمر قومه من بعده المسعود ابن أخيه صغير، ونهض إليهم السلطان أبو حمّو من تلمسان في قومه وأوليائه من العرب، فامتنعوا بجبال حصين. وناوشتهم جيوش السلطان القتال بأسافل الجبل، فغلبوهم عليها وانفضت الناحية عنهم من الديالم والعطاف وبني عامر، فلحقوا بالقفس

ورأى سالم وأصحابه أن قد احيط بهم فلاذ بالطاعة، وحمل عليها أصحابه. وعقد لهم السلطان من ذلك ما أرادوه، على أن يفارقوا الأمير أبا زيان ففعلوا. وارتحل عنهم فلحق ببلاد المغرب، ريغ، ثم أجازها إلى نفطة من بلاد الجريد، ثم إلى توزر، فترل على مقدّمها يحيى بن يملول، فأكرم نزله وأوسع قراره إلى أن كان من أمره ما نذكر.

ورجع السلطان أبو حمّو إلى تلمسان، وفي نفسه من سالم حرارة لكثرة اضطرابه ومراجعته الفتن، حتى توسّط فصل الشتاء، وأبعدت العرب في مشاتيها، فنهض من تلمسان في جيوش زناتة، وأغذّ السير، فصبح فحص متيجة بالغارة الشعواء. وأجفلت الثعالبة فلحقوا برؤوس الجبال، وامتنع سالم بجبل بني خليل. وبعث ابنه وأولياءه إلى الجزائر، فامتنعوا بها وحاصروه أياماً. ثم غلبوه على مكامنه، فانتقل إلى بني ميسرة من جبال صنهاجة. وخلف أهله ومتاعه، وصار الكثير من الثعالبة إلى الطاعة، وأسهلوا بأمان السلطان وعهده إلى فحص متيجة. وبعث هو أخاه ثانياً إلى السلطان، فاقتضى له العهد، ونزل من رأس ذلك الشاهق إلى ابنه أبي تاشفين، فأوصله إلى السلطان إحدى ليالي العشر الأواخر من رمضان، فأخفر عهده وذمّة ابنه، وتقبّض عليه صبيحة ليلته. وبعث قائده إلى الجزائر فاستولى عليها وأقام دعوته بها، وأوفد عليه مشيختها فتقبّض عليهم، وعقد على الجزائر لوزيره موسى بن برغوت، ورجع إلى تلمسان فقضى بها عيد النحر. ثم أخرج سالم بن ابراهيم من محبسه إلى خارج البلاد، وقتل قعصاً بالرماح، ونصب شلوه، وأصبح مثلاً في الآخرين. ولله البقاء.

وعهد السلطان لابنه المنتصر على مليانة وأعمالها، ولابنه أبي زيان على وَهرَان. وراسله ابن يملول صاحب توزر، وصهره ابن قرى صاحب بسكرة، وأولياؤهما من الكعوب والزواودة، لما أهمهم أمر السلطان أبي العبّاس. وخافوه على أمصارهم، فراسلوا أبا حمّو يضمنون له مسالمة أبي زيّان، على أن يوفي له بما اشترط له من المال، وعلى أن يشبّ نار الفتنة من قبله على بلاد الموحّدين ليشغل السلطان أبا العبّاس عنهم، على حين عجز أبو حمّو عن ذلك وضعف الدولة عنه. فأوهمهم من نفسه القدرة وأطمعهم في ذلك.

وما زال يراجعهم ويراجعونه بالمقاربة والوعد، إلى أن أحيط بابن بملول، واستولى السلطان على بلده فلحق ببسكرة، وهلك بها لسنة من خروجه آخر سنة احدى وثمانين و سبعمائة. وبقي ابن مزني من بعده متعلّلاً بتلك الأماني الكاذبة، إلى أن ظهر أمره وتبيّن عجزه: فراجع طاعة السلطان أبي العبّاس واستقام على الموادعة. ولحق الأمير أبو زيّان بحضرة السلطان بتونس، فترل بها أكرم نزل مؤمّلاً منه المظاهرة على عدّوه. والحال بالمغرب الأوسط لهذا العهد على ما شرحناه مراراً من تغلّب العرب على الضواحي والكثير من الأمصار. وتقلّص ظلّ الدولة عن القاصية وارتدادها على عقبها إلى مراكزها بسيف البحر، وتضاؤل قدرها عن قدرهم،

وإعطاء اليد في مغالبتهم ببذل رغائب الأموال، وإقطاع البلاد والنزول عن الكثير من الأمصار، والقنوع بالتغريب بينهم، والإغراء بعضهم ببعض. والله وليّ الأمور.

قسمة السلطان للأعمال بين ولده وما حدث بينهم من التنافس:

كان لهذا السلطان أبي حمّو جماعة من الولد كبيرهم أبو تاشفين عبد الرحمن. ثم بعده أربعة أم واحدة، كان تزوّجها بمَيلَةَ من أعمال قُسَنطِينَة أيام جولته في بلاد الموحّدين كبيرهم المنتصر. ثم أبو زيان محمد. ثم عمر، ويلقب عميرا. ثم بعدهم ولد كثيرون أبناء علات. وكان أبو تاشفين ولي عهده، وقد رفعه على الباقين، وأشركه في أمره، وأوجب له الحق على وزراء دولته، فكان لذلك رديفه في ملكه ومظهر سلطانه. وكان مع ذلك يتعاهد أولئك الإخوة الأشقاء بحنوه، ويقسّم لهم من ترشيحه والنجاء في خلوته، فتنغّص أبو تاشفين منهم. فلما استفحل أمر السلطان، وانمحت من دولته آثار الخلاف، أعمل نظره في قسمة الأعمال بين ولده، وترشيحهم للأمارة، والبعد بهم عن أخيهم أبي تاشفين، أن يصيبهم مكروهه عند إيناس الغيرة منهم: فولّي المنتصر كبيرهم على مليانة وأعمالها، أنفذه إليها، ومعه أخوه عمر الأصغر في كفالته. وولّى أخاهما الأوسط أبا زيّان، على المدية وما إليها من بلاد

حصين. وولّى ابنه يوسف بن الزابية على تدلس ما إليها من آخر أعماله. واستقرّ أمرهم على ذلك. ثم كان من انتقاض سالم الثعالبي بالجزائر ما قدّمناه، فنمي إلى السلطان أنّ ابنه أبا زيّان داخله في الخلاف، فلمّا فرغ من أمر سالم كما مرّ، وطرد أبا زيان ابن عمه عن أعماله إلى الجريد، أعمل نظره في نقل ابنه أبي زيان من المدية إلى ولاية وهران وأعمالها بعداً له عن العرب المجلبين في الفتن، وأنزل معه بعض وزرائه عيناً عليه، وأقام والياً عليها. والله أعلم.

وثبة أبي تاشفين بيحيي بن خلدون كاتب أبيه:

كان أوّل شيء حدث من منافسة أبي تاشفين لإخوته، أن السلطان لّما ولّى ابنه أبا زيّان على وهران وأعمالها، طلبه أبو تاشفين في ولايتها لنفسه فأسعفه ظاهراً، وعهد إلى كاتبه يحيى بن خلدون بمماطلته في كتابها حتى يرى المخلص من ذلك، فأقام الكاتب يطاوله. وكان في الدولة لئيم من سفلة الشرط يدعى بموسى بن يخلف، صحبهم أيام الاغتراب بتيكورارين، أيام ملك تلمسان عليهم عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن كما مرّ. وخلا له هنالك وجه السلطان أبي حمّو وإبنه، فتقرّب إليه بخدمته ورعاها له. فلما رجع السلطان إلى تلمسان بعد مهلك عبد العزيز، قدّمه وآثره واستخلصه، فكان من أخلص بطانته. وكان أبو تاشفين أيضاً استخلصه، وجعله عيناً على أبيه. وكان هو أيضاً يغص بابن خلدون كاتب السلطان، ويغار من تقدّمه عنده ويغري به أبا تاشفين جهده، فدس إليه أثناء هذه المطاولة أنّ الكاتب ابن خلدون إنما مطله بالكتاب خدمة لأبي زيّان أخيه، وإيثاراً له عليه، فاستشاط لها أبو تاشفين وترصّد له منصرفه من القصر إلى بيته بعد التراويح، في إحدى ليالي رمضان سنة ثمانين وسبعمائة في رهط من الأوغاد كان يطوف بهم في سكك المدينة، ويطرق بهم بيوت أهل السرّ والحشمة في سبيل الفساد، فعرضوا له وطعنوه بالخناجر حتى سقط عن دابته ميتاً. وغدا الخبر على

السلطان صبيحة تلك الليلة فقام في ركائبه وبثّ الطلب عن أولئك الرهط في جوانب المدينة. ثم بلغه أنّ ابنه أبا تاشفين صاحب الفعلة، فأغضى وطوى عليها جوانحه، وأقطع أبا تاشفين مدينة وهران كما وعده. وبعث ابنه أبا زيّان

على بلاد حُصَين والمرية كما كان. ثم طلب أبو تاشفين من أبيه أن تكون الجزائر خالصة له، فأقطعه إيّاها. وأنزل بها من إخوته يوسف بن الزابية، بما كان شيعة له من بينهم وفيئة في صحبته ومخالصته، فأقام والياً عليها. والله أعلم.

حركة السلطان أبي حمّو علي ثغور المغرب الأقصي ودخول ابنه أبي تاشفين إلى جهات مكناسة:

كان السلطان أبو العبّاس ابن السلطان أبي سالم ملك بني مرين بالمغرب الأقصى، قد نهض في عساكره سنة إحدى وثمانين إلى مراكش، وبها الأمير عبد الرحمن بن يفلرس ابن السلطان أبي عليّ مقاسمه في نسبه وملكه. وكان قد سوّغ له مراكش لها عندما أجلب معه على البلد الجديد سنة خمس وسبعين وسبعمائة كما في أخبارهم. واستقرّ الأمير عبد الرحمن بمراكش. ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان أحمد، ونهض إليه من فاس، فحاصره أوّلاً وثانياً، يفرج فيهما عنه. ثم نهض إليه سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، فحاصره وأخذ بمخنقه وأطال حصاره. وكان يوسف بن علي بن غانم أمير المعقل من العرب منتقضاً على السلطان. وقد بعث السلطان العساكر إلى أحيائه، فهزموه وخرّبوا بيوته وبساتينه بسجلماسة ورجعوا. وأقام هو بصحرائه منتقضاً. فلما جهد الحصار الأمير عبد الرحمن بمراكش، بعث أبا العشائر ابن عمّه منصور ابن السلطان أبي علي إلى يوسف بن علي بن غانم، ليجلب به على فاس وبلاد المغرب، فيأخذ بحجزة السلطان وينفس من مخنقه، فسار يوسف بن علي مع أبي العشائر إلى السلطان أبي حمّو بتلمسان يستنجده على هذا الغرض لقدرته عليه دون العرب، بما له من العساكر والأبهة، فأنجده على ذلك. وقدم ابنه أبا تاشفين معهم، وخرج هو في أثرهم فساروا إلى المغرب. ونزل يوسف بن علي بقومه قريباً من مكناسة، ومعه الأميران أبو العشائر وأبو تاشفين. وجاء أبو حمّو من خلفهم فحاصر تازى سبعاً، وخرّب قصر تازروت المعدّ هنالك لنزل السلطان.

وكان السلطان قد استخلف على فاس في مغيبه علي بن مهدي العسكري من عمّال

دولته ووجوه قبيله، وكان هنالك عرب المنبات من المعقل قد دخلوا للميرة، فأهاب بهم ونزمار بن عريف ولي الدولة من عرب سويد، وهو نازل بقصر مرادة من أحواز تازى، فاستألفهم لمدافعة أبي حمّو وإبنه. وخرج بهم علي بن مهدي. ثم وصل الخبر باستيلاء السلطان على مراكش منتصق خمس وثمانين وسبعمائة، فأجفل أبو تاشفين وأبو العشائر ومن معهما من العرب، واتبعهم علي بن مهدي بمن معه من المنباة. وأجفل أبو حمّو علي تازى، ومرّ بمرادة قصر ونزمار فهدمه وعاث فيه، وانكفأ راجعاً إلى تلمسان. وفارق ابنه أبو تاشفين أصحابه أبا العشائر والعرب، ولحق بأبيه، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

نهوض السلطان أبي العبّاس صاحب المغرب إلي تلمسان واستيلاؤه عليها واعتصام أبي حمّو بحصن تاجحمومت:

ولما استولى السلطان أبو العبّاس على مراكش كما قلناه، رجع إلى دار ملكه بفاس وقد آسفه السلطان أبو حمّو بأجلابه على وطنه هو وابنه أبو تاشفين مع العرب أيام مغيبه بمراكش، فأجمع الرحلة إلى تلمسان، وخرج في عساكره. وراجع يوسف بن علي الطاعة، ورحل معه في جموعه. وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو، فتردد بين الحصار بتلمسان أو مفارقتها. وكان بينه وبين ابن الأحمر صاحب الأندلس مواصلة، ولابن الأحمر دالة على السلطان أبي العبّاس كما مرّ. فكان يحفظ له الشأن في قصد تلمسان ويلبثه عنها فيعطيه المقادة في ذلك، فيعلّل هو السلطان أبا حمّو بأنّ السلطان أبا العبّاس لا يصل إليه. ثم أجمع السلطان أبو العبّاس أمره، ونهض على حين غفلة مغذّاً إلى تلمسان. وتقدّم الخبر إلى أبي حمّو فأجمع مفارقة تلمسان بعد أن أظهر لأوليائه وأهل دولته أنه على الحصار. ثم خرج حين غشيه الليل إلى معسكره بالصفيف، وافتقده أهل بلده من صبيحتهم، فتبادر أكثرهم إليه متعلّقين بأذياله خوفاً من معرّة العدوّ ثم ارتحل يطوي المراحل إلى البطحاء، ودخل السلطان أبو العبّاس تلمسان، واستولى عليها، وجهّز العساكر لأتباع أبي حمّو وقومه، فأجفل من البطحاء ولحق بتاحجمومت فاعتصم بمعقلها. ولحق به ابنه المنتصر من مليانة بما كان معه من الذخيرة، فاستمد بها وأقام هنالك عازماً على الامتناع والله تعالى أعلم.

رجوع السلطان أبي العبّاس إلي المغرب واختلال دولته ورجوع السلطان أبي حمّو إلى ملكه بتلمسان:

كان السلطان أبو العبّاس لما استولى على مملكة تلمسان، طيّر كتبه ورسله بفتحها إلى ابن الأحمر صاحب الأندلس، ويعتذر له عن مخالفة رأيه في الحركة إليها. وقد كان ابن الأحمر آسفه ذلك إلى ما انتظم إليه من النزعات الملوكية التي يؤسف بها بعضهم بعضاً، وهو يطوي جوانحه عليها واطلع على فساد طاعة السلطان أبي العبّاس في أهل دولته ونغل ضمائرهم له، فأزعج لوقته موسى ابن السلطان أبي عنان من أعياص ملكهم، كان عنده بالأندلس، وجهّزه بما يحتاج إليه وبعث في خدمته مسعود بن رحّو بن ماسالي وزيرهم المشهور، وأركبه السفن إلى سبتة، فنزلوا بساحتها أول ربيع سنة ست وثمانين وسبعمائة واستولوا عليها. ثم تقدّموا إلى فاس، فنازلوا دار الملك أياماً، وبها محمد بن عنان القائم بدولة السلطان أبي العبّاس والمستبدّ عليه، واشتدّوا في حصارها، وتوافت إليهم الأمداد والحشود، فداخله الخور والقي بيده. وداخل السلطان موسى إلى دار الملك تاسع عشر ربيع الأوّل من السنة، وجلس على أريكته، وآتاه الناس طاعتهم. وطار الخبر إلى السلطان أبي العبّاس بتلمسان، وقد تجهّز لاتباع أبي حمو. ونزل على مرحلة من تلمسان بعد أن أغراه ونزمار بن عريف أمير سويد بتخريب قصور الملك بتلمسان، وكانت لا يعبّر عن حسنها، اختطّها السلطان أبو حمّو الأوّل وابنه أبو تاشفين، واستدعى لها الصنّاع والفعلة من الأندلس، لحضارتها وبداوة دولتهم يومئذ بتلمسان. فبعث إليهما السلطان أبو الوليد صاحب الأندلس بالمهرة والحذّاق من أهل صناعة البناء بالأندلس، فاستجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا على الناس بعدهم أن يأتوا بمثله،

فأشار ونزمار على السلطان أبي العبّاس بتخريب هذه القصور وأسوار تلمسان انتقاماً بزعمه من أبي حمو، وأخذاً بالثأر منه فيما اعتمده من تخريب دار الملك بتازى، وتخريب قصره هو بمرادة، فأتى عليها الخراب أسرع

من لمح البصر. وبينما هو في ذلك، وهو يروم السفر لأتباع أبي حمو، إذ جاءه الخبر بأنّ السلطان موسى ابن عمه السلطان أبي عنّان قد استولى على دار ملكهم بفاس واقتعد أريكتهم، فكرّ راجعاً إلى المغرب لا يلوي على شئ، وترك تلمسان لشأنها، وكان من أمره ما يأتي ذكره في أخبارهم. وطار الخبر إلى السلطان أبي حمّو بمكانه من تاجحمومت، فأغذّ السير إلى تلمسان ودخلها، وعاد إلى ملكه بها. وتفجّع لتلك القصور بما ذهب من رونق حسنها، ورجع دولته بني عبد الواد وسلطانهم بتلمسان. والله سبحانه وتعالى أعلم.

تجدّد المنافسة بين أولاد السلطان أبي حمّو ومجاهرة أبي تاشفين بذلك لهم ولأبيه:

كان التنافس بين هؤلاء الولد خفيّاً على الناس، بما كان السلطان أبوهم يؤامل بينهم ويداري بعضهم عن بعض. فلما خرجوا أمام بني مرين وعادوا إلى تلمسان، صار تنافسهم إلى العداوة. واتّهم أبو تاشفين أباه بممالأة إخوته عليه، فشمّر لعقوقه وعداوته. وشعر السلطان بذلك، فعمل الحركة إلى ناحية البطحاء مورياً بإصلاح العرب، ومعتزماً على لقاء ابنه المنتصر بمليانة، ليصل به جناحه ويتخطّى إلى الجزائر، فيجعلها دار ملكه بعد أن استخلف بتلمسان ابنه أبا تاشفين وحالفه على المناصحة. واطلع موسى بن يخلف على خبيئة السلطان بذلك، فدسّ بها إلى أبي تاشفين على عادته، فطار به الأسف كل مطار، وأغذّ السير من تلمسان فيمن معه من العسكر، وصبح أباه بأسافل البطحاء قبل أن يتصل بالمنتصر. وكشف القناع عن التكبّر والتسخط على ما بلغه فحلف له السلطان على ذلك وأرضاه بالرجوع معه إلى تلمسان فرجعا جميعاً.

خلع السلطان أبي حمّو واستبداد ابنه أبي تاشفين بالملك واعتقاله إياه:

لما رجع السلطان من البطحاء وبطل ما كان يؤمّله من الاتصال بالمنتصر، دسّ إليه مع خالصة من أهل دولته يعرف بعلي بن عبد الرحمن بن الكليب بأحمال من المال يودعها عنده. إلى أن يجد السبيل لحاجة نفسه. وكتب له بولاية الجزائر ليقيم بها حتى يخلص إليه. واطلع موسى بن يخلف على ذلك، فأطلع أبا تاشفين على الخبر: فبعث في أثره من حاشيته من اغتال ابن كليب في طريقه. وجاء إليه بالمال والكتب، فاطلع منها على حقيقة أمرهم وأنهم متربّصون به، فاستشاط وجاهر أباه وغدا عليه بالقصر، فوقفه على الكتاب وبالغ في عذله. وتحيّز موسى بن يخلف إلى أبي تاشفين، وهجر باب السلطان وأغرى به ابنه، فغدا على أبيه بالقصر بعد أيام وخلعه، وأسكنه بعض حجر القصر. ووكّل به واستخلص ما كان معه من الأموال والذخيرة. ثم بعث به إلى قصبة وَهرَان، فاعتقله بها. واعتقل من حضر بتلمسان من إخوله، وذلك آخر ثمان وثمانين وسبعمائة. وبلغ الخبر إلى المنتصر بمليانة وأبي زيان وعمير، فلحقوا بقبائل حصين واستذمّوا بهم، فأذمّوهم وأنزلوهم عندهم بجبل تيطرى. وجمع أبو تاشفين العساكر واستألف العرب من سويد وبني عامر، وخرج في طلب المنتصر وإخوته، ومرّ بمليانة فملكها. ثم تقدّم إلى جبل تيطرى، وأقام في حصارهم به، وهم ممتنعون عليه. والله تعالى أعلم.

خروج السلطان أبي حمّو من الاعتقال ثم القبض عليه وتغريبه في السفين إلي المشرق:

لما طال مقام أبي تاشفين على تيطرى لحصار إخوته، ارتاب بأمر أبيه وطول مغيبه عنه. وشاور أصحابه في شأنه، فأشاروا بقتله وأتفقوا على ذلك، فبعث أبو تاشفين ابنه أبا زيّان في لمة من حاشيته: فيهم ابن الوزير عمران بن موسى، وعبد الله بن الخراساني، فقتلوا من كان معتقلاً بتلمسان من أبناء السلطان، وتقدموا إلى وهران. وسمع أبو حمّو بقدومهم، فأوجس الخيفة منهم، واطلع من جدران القصبة ينادي بالصريخ في أهل البلد، فتبادروا إليه من كل جهة وتدلى لهم بحبل وصله من عمامته التي كان متعمماً بها، فشالوه حتى استقرّ بالأرض واجتمعوا إليه. وكان الرهط الذين جاؤا لقتله بباب القصر، وقد أغلقه دونهم. فلما سمعوا الهيعة واستيقنوا الأمر، طلبوا

النجاة بدمائهم. واجتمع أهل البلد على السلطان، وتولى كبر ذلك خطيبهم، وجدّدوا له البيعة. وارتحل من حينه إلى تلمسان، فدخلها أوائل سنة تسع وثمانين وسبعمائة، وهي يومئذ عورة بما كان بنو مرين هدموا أسوارها وأزالوا حصنها. وبعث فيمن كان مخلفاً بأحياء بني عامر من أكابرهم ووجوههم، فقدموا عليه. وطار الخبر إلى أبي تاشفين بمكانه من حصار تيطرى، فانكفأ راجعاً إلى تلمسان فيمن معه من العساكر والعرب، وبادره قبل أن يستكمل أمره فاحيط به. ونجا إلى مأذنة الجامع، فاعتصم بها. ودخل أبو تاشفين القصر، وبعث في طلبه. وأخبر بمكانه، فجاء إليه بنفسه واستنزله من المأذنة. وأدركته الرقّة، فجهش بالبكاء وقبّل يده وغدا به إلى القصر. واعتقله ببعض الحجر هنالك ورغب إليه أبوه في تسريحه إلى المشرق لقضاء فرضه، فشارط بعض تجّار النصارى المتردّدين إلى تلمسان من القيطلان على حمله إلى الإسكندرية، وأركبه السفين معهم بأهله من فرضة وهران ذاهباً لطيبة موكلاً به. وأقبل أبو تاشفين على القيام بدولته. والله تعالى أعلم.

نزول السلطان أبو حمّو ببجاية من السفين واستيلاؤه علي تلمسان ولحاق أبي تاشفين بالمغرب:

لما ركب السلطان أبو حمّو السفين ذاهباً إلى الإسكندرية، وفارق أعمال تلمسان وحاذى بجاية، داخل صاحب السفين في أن يترله ببجاية فأسعفه لذلك. فخرج من الطارمة التي كان بها معتقلاً، وصار الموكّلون به في طاعته. وبعث إلى محمد بن أبي مهدي قائم الأسطول ببجاية المستبدّ على أميرها من ولد السلطان أبي العبّاس بن أبي حفص. وكان محمد بن وارث خالصة المنتصر بن أبي حمّو من ناحية دولتهم، قد خلص إلى بجاية من تيطرى بعدما تنفس الحصار عنهم، فبعثه ابن أبي مهدي إلى السلطان أبي حمّو بالإجابة إلى ما سأل. وأنزله بجاية اخر سنة تسع وثمانين وسبعمائة، وأسكنه بستان الملك المسمّى بالرفيع. وطيّر بالخبر إلى السلطان بتونس، فشكر له ما أتاه من ذلك، وأمره بالاستبلاغ في تكريمه، وأن يخرج عساكر بجاية في خدمتة أبي حمّو إلى حدود عمله متى احتاج إليها. ثم خرج السلطان أبو حمّو من بجاية، ونزل متيجة، واستنفر طوائف العرب من كل ناحية فاجتمعوا إليه. ونهض يريد تلمسان. واعصوصب قومه

بنو عبد الواد على أبي تاشفين بما بذل فيهم من العطاء وقسم من الأموال، فنابذوا السلطان أبا حمّو واستصعب عليه أمرهم. وخرج إلى الصحراء، وخفف ابنه أبا زيان في جبال شلف مقيماً لدعوته. وبلغ إلى تامة من ناحية المغرب. وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين، فبعث عسكراً إلى شلف مع ابنه أبي زيان ووزيره محمد بن عبد الله بن

مسلم، فتواقفوا مع أبي زيان ابن السلطان أبي حمّو فهزمهم. وقتل أبا زيان ابن أبي تاشفين ووزيره ابن مسلم، وجماعة من بني عبد الواد. وكان أبو تاشفين لما بلغه وصول أبيه إلى تامة، سار إليه من تلمسان في جموعه. فأجفل أبو حمّو إلى وادي صا، واستجاش بالأحلاف من عرب المعقل هنالك فجاؤا لنصره. وعاود تامة فنزلها، وأقام أبو تاشفين قبالته. وبلغه هنالك هزيمة ابنه ومقتله، فولى منهزماً إلى تلمسان وأبو حمّو في أتباعه. ثم سرح أبو تاشفين مولاه سعادة في طائفة من العسكر لمحاولة العرب في التخلي عن أبي حمو، فانتهز أبو حمّو به الفرصة وهزمه وقبض عليه. وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين بتلمسان، وكان يؤمّل النجاح عند سعادة فيما توجه فيه فأخفق سعيه. وانفض عنه بنو عبد الواد والعرب الذين معه، وخرج هارباً من تلمسان مع أوليائه من سويد إلى مشاتيهم بالصحراء. ودخل السلطان أبو حمّو تلمسان في رجب سنة تسعين وسبعمائة. وقدم عليه أبناؤه، فأقاموا معه بتلمسان، فطرق المنتصر ابنه المرض فهلك بها لأيام من دخوله تلمسان، واستقرّ الأمر على ذلك. والله أعلم.

نهوض أبي تاشفين بعساكر بني مرين ومقتل السلطان أبي حمو:

لما خرج أبو تاشفين من تلمسان أمام أبيه، واتصل بأحياء سويد، أجمعوا رأيهم على الاستنجاد بصاحب المغرب، فوفد أبو تاشفين ومعه محمد بن عريف شيخ سويد على السلطان أبي العبّاس صاحب فاس، وسلطان بني مرين صريخين على شأنهما، فقبل وفادتهما ووعدهما بالنصر من عدوّهما. وأقام أبو تاشفين عنده ينتظر إنجاز وعده،

وكان بين أبي حمّو وابن الأحمر صاحب الأندلس وشيجة ودّ وعقيدة وصلة، ولابن الأحمر دالة وتحكّم في دولة أبي العبّاس صاحب المغرب بما سلف من مظاهرته على أمره منذ أول دولته، فبعث إليه أبو حمّو في الدفاع عنه بإجازة أبي تاشفين من المغرب إليه، فلم يجبه صاحب المغرب لذلك وفاء بذمّته، وعلّله بالقعود عن نصره. وألحّ عليه ابن الأحمر في ذلك، فتعلّل بالمعاذير. وكان أبو تاشفين قد عقد لأوّل قدومه مع وزير الدولة محمد بن يوسف بن علاّل حلفاً اعتقد الوفاء به، فكان هواه في إنجاده ونصره من عدوّه، فلم يزل يفّتل لسلطانه في الذروة والغارب، ويلوي عن ابن الأحمر المواعيد حتى أجابه السلطان إلى غرضه.

وسرّح ابنه الأمير أبا فارس، والوزير محمد بن علال في العساكر لمصارخة أبي تاشفين. وفصلوا من فاس أواخر إحدى وتسعين، وانتهوا إلى تازى. وبلغ خبرهم إلى السلطان أبي حمّو، فخرج من تلمسان وجمع أشياعه من بني عامر والخراج بن عبيد الله وقطع جبل بني ورنيد المطل على تلمسان، وأقام بالغيران من جهاته. وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين، فقدم إلى تلمسان فجدد المكر والخديعة شيطان الشر والفتنة موسى بن يخلف، فاستولى عليها وأقام دعوة أبي تاشفين فيها، فطيّرإلى أبي حمّو ابنه عمير ، فصبحه بها لليلة من مسيره، فأسلمه أهل البلد. وتقبّض عليه، وجاء به أسيراً إلى أبيه بمكانه من الغيران، فوبّخه أبو حمّو على فعاله. ثم أذاقه أليم عقابه ونكاله، وأمر به فقتل أشنع قتلة. وجاءت العيون إلى أبي فارس ابن صاحب المغرب ووزيره ابن علال بمكان أبي حمّو وأعرابه بالغيران، فنهض الوزير ابن علال في عساكر بني مرين لغزوه. وسار أمامهم سليمان بن ناجي من

الأحلاف إحدى بطون المعقل، يدل بهم طريق القفر حتى صبحوه ومن معه من أحياء الخراج في مكان مقامتهم بالغيران. وناوشوهم القتال فلم يطيقوهم لكثرتهم وولّوا منهزمين. وكبا بالسلطان أبي حمّو فرسه، فسقط وأدركه بعض فرسانهم وعرفه، فقتلوه قعصاً بالرماح. وجاؤا برأسه إلى الوزير ابن علاّل وأبي تاشفين، وجاءوا بابنه عمير أسيراً. وهمّ أبو تاشفين أخوه بقتله فمنعوه أياماً، ثم أمكنوه منه فقتله. ودخل أبو تاشفين إلى تلمسان آخر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. وخيّم الوزير وعساكر بني مرين

بظاهر البلد، حتى دفع إليهم ما شارطهم عليه من المال. ثم قفلوا إلى المغرب وأقام هو بتلمسان يقيم بدعوة السلطان أبي العبّاس صاحب المغرب، ويخطب له على منابره، ويبعث إليه بالضريبة كل سنة كما اشترط على نفسه، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

مسير أبي زيان بن أبي حمّو لحصار تلمسان ثم إجفاله عنها ولحاقه بصاحب المغرب:

كان السلطان أبو حمّو قد ولّى على الجزائر ابنه أبا زيان، لما عاد إلى ملكه بتلمسان، وأخرج منها أبا تاشفين. فلما قتل أبو حمّو بالغيران كما قلناه، وخرج أبو زيّان من الجزائر ناجياً إلى أحياء حصين يؤمّل الكرة بهم والأخذ بثأر أبيه وأخيه، فاشتملوا عليه وأجابوا صريخه. ثم وفد عليه أمراء بني عامر من زغبة يدعونه لملكه، فسار إليهم. وقام بدعوته وطاعته شيخهم المسعود بن صغير، ونهضوا جميعا إلى تلمسان في رجب سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة فحاصروها أياماً. ثم سرب أبو تاشفين المال في العرب، فافترقوا عن أبي زيان. وخرج إليه أبو تاشفين، فهزمه في شعبان من السنة. ولحق بالصحراء واستألف أحياء المعقل، وعاود حصار تلمسان في شوال. وبعث أبو تاشفين ابنه صريخاً إلى المغرب، فجاءه بمدد من العسكر. ولما انتهى إلى تاوريرت أفرج أبو زيان عن تلمسان، وأجفل إلى الصحراء. ثم أجمع رأيه على الوفادة إلى صاحب المغرب، فوفد عليه صريخاً، فتلقّاه وبرّ مقدمه. ووعده النصر من عدوّه، وأقام عنده إلى حين مهلك أبي تاشفين. والله تعالى أعلم.

وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب علي تلمسان:

لم يزل هذا الأمير أبو تاشفين مملكاً على تلمسان ومقيماً فيها لدعوة صاحب المغرب أبي سالم، ومؤدّياً للضريبة التي فرضها عليه منذ أوّل ملكه، وأخوه الأمير أبو زيّان مقيم عند صاحب المغرب ينتظر وعده في النصر عليه.

حتى تغيّر السلطان أبو العبّاس على أبي تاشفين في بعض النزعات الملوكية، فأجاب داعي أبي زيّان وجهّزه بالعساكر لملك تلمسان، فسار لذلك منتصف سنة خمس وتسعين وسبعمائة. وانتهى إلى تازى، وكان أبو ناشفين قد طرقه مرض أزمن به، ثم هلك منه في رمضان من السنة. وكان القائم بدولته أحمد بن العزّ من صنائعهم، وكان يمت إليه بخؤلة، فولّى بعده مكانه صبياً من أبنائه وقام بكفالته. وكان يوسف بن أبي حمّو وهو ابن الزابية والياً على الجزائر من قبل أبي ناشفين، فلما بلغه الخبر أغذّ السير مع العرب ودخل تلمسان، فقتل أحمد بن العز والصبيّ المكفول ابن أخيه أبي تاشفين. فلمّا بلغ الخبر إلى السلطان أبي العبّاس صاحب المغرب خرج إلى تازى، وبعث من هنالك إبنه أبا فارس في العساكر، ورد أبا زيان بن أبي حمّو إلى فاس ووكّل به. وسار ابنه أبو فارس إلى تلمسان، فملكها وأقام فيها دعوة أبيه. وتقدّم وزير أبيه صالح بن حمّو إلى مليانة،

فملكها وما بعدها من الجزائر وتدلس إلى حدود بجاية. واعتصم يوسف بن الزاية بحصن تاحجمومت. وأقام الوزير صالح يحاصره، وانقرضت دعوة بني عبد الواد من المغرب الأوسط. والله غالب على أمره.

وفاة أبي العبّاس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيان بن أبي حمّو علي تلمسان والمغرب الأوسط

كان السلطان أبو العبّاس بن أبي سالم، لما وصل إلى تازى، وبعث ابنه أبا فارس إلى تلمسان، فملكها أقام هو بتازى يشارف أحوال ابنه ووزيره صالح الذي تقدّم ليفتح البلاد الشرقية. وكان يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من المعقل قد حج سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة، واتصل بملك مصر من الترك الملك الظاهر برقوق. وتقدمت إلى السلطان فئه وأخبرته بمحلّه من قومه، فأكرم تلقّيه وحمله بعد قضاء حجّه هدية إلى صاحب المغرب، يطوقه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك. فلمّا قدم يوسف بن علي بها على السلطان أبي العبّاس عظم موقعها، وجلس في مجلس جعله لعرضها والمباهاة بها. وشرع في المكافأة عنها بتخيّر الجياد والبضائع والثياب، حتى استكمل من ذلك ما رضيه، واعتزم على إنفاذها مع يوسف بن علي حاملها الأول. وأنه يرسله من تازى أيام مقامته هناك، فطرقه هنالك مرض كان فيه حتفه في محرم

سنة ست وتسعين وسبعمائة. واستدعوا ابنه أبا فارس من تلمسان، فبايعوه بتازى وولّوه مكانه. ورجعوه إلى فاس، وأطلقوا أبا زيان بت أبي حمّو من الاعتقال. وبعثوا به إلى تلمسان أميراً عليها، وقائماً بعد السلطان أبي فارس فيها، فسار إليها وملكها. وكان أخوه يوسف بن الزابية قد اتصل بأحياء بني عامر ويروم ملك تلمسان والأجلاب عليها، فبعث إليهم أبو زيان عندما بلغه ذلك. وبذل لهم عطاء جزيلاً على أن يبعثوا به إليه، فأجابوا إلى ذلك وأسلموه إلى ثقات أبي زيان. وساروا به فاعترضهم بعض أحياء العرب ليستنقذوه منهم، فبادروا بقتله وحملوا رأسه إلى أخيه أبي زيّان، فسكنت أحواله وذهبت الفتنة بذهابه، واستقامت أمور دولته، وهم على ذلك لهذا العهد. والله غالب على أمره.

وقد انتهى بنا القول في دولة بني عبد الواد من زناتة الثانية، وبقي علينا خبر الرهط الذين تحيّزوا منهم إلى بني مرين منّذ أول الدولة: وهم بنو كمي من فصائل علي بن القاسم إخوة طاع الله بن علي، وخبر بني كندوز امرائهم بمراكش. فلنرجع إلى ذكر أخبارهم، وبها نستوفي الكلام في أخبار بني عبد الواد. والله وارث الأرض وصت عليها، وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني كميّ إحدى بطون بني القاسم بن
عبد الواد وكيف نزعوا إلى بني مرين وما صار
لهم بنواحي مراكش وأرض السوس من الرياسة

قد تقدم لنا أوّل الكلام في بني عبد الواد أنّ بني كمي هؤلاء من شعوب القاسم، وانهم بنو علي بن يمل بن يزكن بن القاسم، إخوة بني طاع الله وبني دلول وبني معطي بن جوهر بن علي. وذكرنا ما كان ين بني طاع الله وبين إخوانهم وبين بني كمي من الفتنة، وكيف قتل كندوز بن عبد الله، كبير بني كمي زيان بن ثابت بن محمد كبير بني طاع الله، وأنّ جابر بن يوسف بن محمد القائم بالأمر من بعده ثار منهم بزيان، وقتل به

كندوزاً غيلة أو حربا، وبعث برأسه إلى يغمراسن بن زئان، فنصب عليه أهل بيته القدور شفاية لنفوسهم. واستمر الغلب بعدها على بني كمي، فلحقوا بحضرة تونس، وكبيرهم إذ ذاك عبد الله بن كندوز. ونزلوا على الأمير أبي زكريا، حتى كان من استيلائه على تلمسان ما قدّمنا ذكره. وطمع عبد الله في الاستبداد بتلمسان، فلم يتفق ذلك. ولما هلك مولانا الأمير أبو زكريا، ولي ابنه المستنصر، أقام عبد الله صدرا من دولته. ثم ارتحل هو وقومه الى المغرب، ونزل على يعقوب بن عبد الحق قبيل فتح مراكش، فاهتز يعقوب لقدومه وأحله بالمكان الرفيع من دولته. وأنزله وقومه بجهات مراكش، وأقطعهم البلاد التي كفتهم مهماتهم. وجعل السلطان انتجاع إبله وراحلته في أحيائهم. وقدم على رعايتها حسان بن أبي سعيد الصبيحي وأخاه موسى، وصلا في لفيفة من بلاد المشرق، وكانا عارفين برعاية الإبل والقيام عليها. وأقاموا يتقلبون في تلك البلاد ويتعدون في نجعتها الى أرض السوس. وأوفد يعقوب بن عبد الحق عبد الله بن كندوز هذا على المتنصر صاحب أفريقية، سنة خمس وستين، مع عامر ابن أخيه إدريس كما قدمناه. والتحم بنو كمي ببني مرين، وأصبحوا إحدى بطونهم. وهلك عبد الله بن كندوز، وصارت رئاستهم من بعده لابنه عمر بن عبد الله. فلما نهض يوسف بن يعقوب بن عبد الحق

إلى المغرب الأوسط، وشغل بحصار تلمسان، وتحدث الناس بما نزل بعبد الواد من بني مرين، أخذت بني كمي الحمية، وامتعضوا لقومهم، وأجمعوا الخلاف والخروج على السلطان. ولحقوا بحاجة سنة ثلاث وسبعمائة، واستولوا على بلاد السوس، فخرج إليهم أخو السلطان الأمير بمراكش يعيش بن يعقوب، فناجزوه الحرب بتادرت وغلبوه، واستمروا على خلافهم. ثم عاود محاربتهم بتامطريت سنة أربع وسبعمائة بعدها، فهزمهم الهزيمة الكبرى التي قصت جناحهم. وقتل عمر بن عبد الله وجماعة من كبرائهم، وفروا أمامه إلى الصحراء، ولحقوا بتلمسان. وهدم يعيش بن يعقوب تارودنت قاعدة أرض السوس. وقام بنو كندوز بعدها بتلمسان نحواً من ستة أشهر. ثم توجسوا الغدر من ولد عثمان بن يغمراسن، فرجعوا إلى مراكش. واتبعتهم عساكر السلطان، وأبلى منهم في القتال عنهم محمد بن أبي بكر بن حمامة بن كندوز، وخلصوا إلى منجاتهم مشردين بصحراء السوس، إلى أن هلك السلطان يوسف بن يعقوب. وراجعوا طاعة الملوك بالمغرب، فعفوا لهم عما سلف من هذه الجريرة. وعاودوهم إلى مكانهم من الولاية، فأمحضوا النصيحة والمخالصة. وكان أميرهم من بعد عمر ابنه محمد، أقام في أمارتهم سنتين. ثم ابنه موسى بن محمد من بعده كذلك. واستخلصه السلطان أبو الحسن أيام الفتنة بينه وبين أخيه أبي علي، لعهد أبيهما السلطان أبي سعيد ومن بعده، فكانت له في المدافعة عن نواحي مراكش آثار وأيام. ثم هلك موسى بن محمد، فولى السلطان أبو الحسن مكانه ابنه يعقوب بن موسى. ولما غلب على تلمسان، وأصار بني عبد الواد في خوله وجنوده، تمشت رجالاتهم وتباثوا أشجانهم. حتى إذا كانت واقعة القيروان المشهورة، وتواقف السلطان مع بني سليم، داخلهم يعقوب بن موسى في أن ينخذل عن السلطان البهم ببني عبد الواد ومن إليهم من مغراوة وتوجين، وواعدهم لذلك ثم مشى في قومه وكافة بني عبد الواد، فأجابوه إلى ذلك. ولحقوا جميعا ببني سليم، فجروا بذلك الهزيمة على السلطان، وكانت نكبة القيروان

المشهورة. ولحق بعدها بنو عبد الواد بتلمسان، وولوه أمرهم في بني يغمراسن. وهلك يعقوب بن موسى بإفريقية، ولحق أخوه رحو

بالمغرب. وكان السلطان أبو عنان قد استعمل على جماعتهم وعملهم عبو بن يوسف بن محمد، وهو ابن عمهم دنيا، فأقام فيهم كذلك حتى هلك، فولي من بعده ابنه محمد بن عبو. وهم على ذلك لهذا العهد، يعسكرون للأمير بمراكش، ويتولون من خدمة السلطان هنالك ما لهم فيه الغناء والكفاية. وكأنهم بمعزل عن بني عبد الواد، لاستحكام العداوة بينهم بمقتل زيان بن ثابت. والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني راشد بن محمد بن بادين وذكر أوليتهم وتصاريف أحوالهم:

وإنما قدمنا ذكرهم قبل استتمام بطون بني بادين لأنهم لم يزالوا أحلافاً لبني

عبد الواد ومن جملتهم، فكانت أخبارهم من أخبارهم. وأما راشد أبوهم فهو أخو بادين. واختص بنوه كما قلنا ببني عبد الواد، وكانت مواطنهم بالصحراء بالجبل المعروف براشد اسم أبيهم. وكانت مواطن مديونة من قبائل البربر قبلة تاسالة، وبنو ورنيد من بطون دمر قبلة تلمسان إلى قصر سعيد. وكان جبل هوارة موطنا لبني يلوان الذين كان لهم الملك كما قدمناه. ولما اضمحل أمر بني يلومان وذهبت دولتهم، زحف بنو راشد هؤلاء من موطنهم بجبل راشد إلى بسائط مديونة وبني ورنيد، فشنوا عليهم الغارات، وطالت بينهم الحرب إلى أن غلبوهم على مواطنهم وألجؤوهم إلى الأوعار: فاستوطن بنو ورنيد الجبل

المطل على تلمسان، واستوطن مديونة جبل تاسالة. وملك بنو راشد بسائطهم القبلية، ثم استوطنوا جبلهم المعروف بهم لهذا العهد، وهو بلد بني يفرن الذين كانوا ملوك تلمسان لأول الإسلام، وكان منهم أبو قرة الصفري كما قدمناه. وكان منهم بعد ذلك يعلى بن محمد، الأمير الذي قتله جوهر الصقلي قائد الشيعة كما ذى ناه في أخبارهم. ويعلى هذا هو الذي اختط بهذا الجبل مدينة إيفكان التي هدمها جوهر يوم قتله. فلما ملك بنو راشد هذا الجبل، استوطنوه وصار حصنا لهم، ومجالاتهم في ساحته القبلية، إلى أن غلبهم العرب عليها لهذا العهد، وألجؤهم إلى الجبل. وكان غلب بني راشد على هذه الأوطان بين يدي دخول بني عبد الواد إلى المغرب الأوسط، وكانوا شيعة لهم وأحلافا في فتنتهم مع بني توجين وبني مرين. وكانت رياستهم في بيت منهم يعرفون ببني عمران، وكان القائم بها لأول دخولهم إبراهيم بن عمران. واستبد عليه أخوه ونزمار، وقام بأمرهم إلى أن هلك، فولي ابنه مقاتل بن ونزمار، وقتل عمه إبراهيم. وتفرقت رياسة بني عمران من يومئذ بين بني إبراهيم وبني ونزمار، إلا أن رياسة بني إبراهيم أظهر، فولي بعد إبراهيم ابنه ونزمار. وكان معاصرا ليغمراسن بن زيان وطال عمره، فلما. هلك لتسعين من المابة السابعة، ولي أمرهم غانم ابن أخيه محمد بن إبراهيم. ثم كان فيهم من بعده موسى بن يحيى بن ونزمار، لا أدري معاقباً لغانم أو توسطهما أحد. ولما زحف بنو مرين إلى تلمسان آخر زحفهم، صار بنو راشد هؤلاء إلى طاعة السلطان أبي الحسن، وشيخهم لذلك العهد أبو يحيى بن موسى بن عبد الرحمن بن ونزمار بن إبراهيم. وانحصر بتلمسان بنو عمه كرجون بن

ونزمار، وانقرض أمر بني عبد الواد وأشياعهم. ونقل بنو مرين رؤوس زناتة أجمع إلى المغرب الأقصى، فكان بنو ونزمار هؤلاء ممن صار إلى المغرب وأوطنوه، إلى أن صار الأمر لبني عبد الواد في الكرة الثالثة على يد أبي حمّو الأخير موسى بن يوسف. وكان شيخ بني راشد لعهده زيان بن أبي يحيى بن موسى المذكور، أقبل إليهم من المغرب من إيالة بني مرين، فاتهمه أبو حمّو بمداخلتهم، فنقبض عليه واعتقله مدة بوهران. وفر من معتقله فلحق بالمغرب، وارتحل بين أحيائهم مدة. ثم راجع الطاعة واقتضى العهد من السلطان أبي حمو، وولاه على قومه. ثم تقبض عليه، واعتقله إلى أن قتله بمحبسه سنة ثمان وستين وسبعماية، وانقرض أمر بني ونزمار بن إبراهيم. وأما بنو ونزمار بن عمران، فقام بأمرهم بعد مقاتل بن ونزمار أخوه

توززكن بن ونزمار، ثم ابنه يوسف توززكن، ثم آخرون من بعدهم لم تحضرني أسماؤهم، إلى أن غلب عليهم بنو ونزمار بن إبراهيم. وقد ذهبت لهذا العهد رياسة أولاد عمران جميعا، وصار بنو راشد خولا للسلطان وجباية، وبقيتهم على الحال التي ذكرنا. والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

بنو توجين

الخبر عن بني توجين من شعوب بني بادين من أهل

هذه الطبقة الثالثة من زناتة وما كان لهم من الدولة

والسلطان بالمغرب الأوسط وأولية ذلك ومصائره

كان هذا الحي من أعظم أحياء بني بادين وأوفرهم عددا. كانت مواطنهم حفافي

وادي شلف قبلة جبل وانشريش من أرض السرسو، وهو المسمى لهذا العهد نهر واصل. وكان بأرض السرسو بجهة الغرب منهم بطون من لواتة، وغلبهم عليها بنو وجديجن ومطماطة. ثم صارت أرض السرسو لبني توجين هؤلاء، واستضافوها إلى مواطنهم

الأولى. صارت مواطنهم ما ين موطن بني راشد وجبل دراك في جانب القبلة. وكانت رياستهم أيام صنهاجة لعطية بن دافلتن، وابن عمه لقمان بن المعتز كما ذكره ابن الرقيق. ولما كانت فتنة حماد بن بلكين مع عمه باديس، ونهض إليه باديس من القيروان، حتى احتل بوادي شلف، تحيز إليه بنو توجين هؤلاء، وكانت لهم في حروب حماد آثار مذكورة. وكان لقمان بن المعتز أظهر من عطية بن دافلتن، وكان قومهم يومئذ زهاء ثلاثة آلاف. وأوفد لقمان ابنه يذر على باديس قبل اللقاء طاعة له وانحياشا. فلما انهزم حماد رعى لهم باديس

انحياشهم إليه، وسوغ لهم ما غنموه، وعقد للقمان على قومه ومواطنه، وعلى ما يفتحه من البلاد بدعوته. ثم انفرد برياستهم بعد حين بنو دافلتن. ويقال إنه دافلتن بن أبي بكر بن الغلب. وكانت رياستهم لعهد الموحّدين لعطية بن مناد بن العبّاس بن دافلتن، وكان يلقب عطية الحيو. وكانت بينهم لعهده وين بني عبد الواد حروب، كان متولي كبرها من بني عبد الواد شيخهم لذلك العهد أعدوى بن يكنمن بن القاسم، فلم تزل تلك الفتنة بينهم إلى أن غلبهم بنو عبد الواد اخراً على مواطنهم كما نذكره.

ولما هلك عطية الحيو، قام بأمرهم ابنه العبّاس، وكانت له آخر في الأجلاب على ضواحي المغرب الأوسط. ونقض طاعة الموحدين، إلى أن هلك سنة سبع وستماية، دس عليه عامل تلمسان يومئذ أبو زيد بن بوجان من اغتاله فقتله. وقام بأمرهم من بعده ابنه عبد القوي، فانفرد برياستهم وتوارثها عقبه من بعده كما نذكر.

وكان من أشهر بطون بني نوجين هؤلاء يومئذ بنو يدللتن وبنو نمزي وبنو مادون وبنو زنداك وبنو وسيل وبنو قاضي وبنو مامت، ويجمع هؤلاء الستة بنو مدن. ثم شو تيغرين وبنو يرناتن وبنو منكوش، ويجمع هؤلاء الثلاثة بنو رسوغين. ونسب بني زنداك دخيل فيهم، وإنما هم من بطون مغراوة. وبنو منكوش هؤلاء منهم عبد القوي بن العبّاس بن عطية الحيو، هكذا رأيت نسبه لبعض مؤرخي زناتة المنكوشي. وكانت رياسة بني توجين جميعا عند انقراض أمر بني عبد المؤمن لعبد القوي بن العبّاس بن عطية الحيو، وأحيائهم جميعا بتلك المجالات القبلية.

فلما وهن أمر بني عبد المؤمنه وتغلب مغراوة على بسائط متيجة، ثم على جبل وانثريش، نازعهم عبد القوي وقومه أمر وانشريش، وغالبوهم إلى أن غلبوهم عليه،

واستقر في ملكهم. وأوطنه بنو تيغرين وبنو منكوش من أحيائهم، ثم تغلبوا على منداس وأوطنها أحياء بني مدن جميعاً. وكان الظهور منهم لني يدللتن، ورياسة نجي يدللتن لبني سلامة. وبقي بنو يرناتن من بطونهم بمواطنهم الأولى قبلة وانشريش. وكان من أحلاف بني عطية الحيو بنو تيغرين منهم حاضة، وأولاد عزيز بن يعقوس، ويعرفون جميعاً بالحسم. ولما تغلبوا على الأوطان والتلول، وأزاحوا مغراوة عن المدية ووانشريش وتافركنيت، واستأثروا بملكها وملك الأوطان من غربيها: مثل منداس والجعبات وتاوغزوت، ورئيسهم لذلك العهد عبد القوي بن العبّاس والكل لأمره فصار له ملك بدوي لم يفارق فيه سكنى الخيام، ولا إبعاد النجعة، ولا إيلاف الرحلتين. ينتهون في مشاتيهم إلى مصاب والزاب، وينزلون في المصايف بلادهم هذه من التل. ولم يزل هذا شأن عبد القوي وابنه محمد، إىل أن تنازع بنوه الأمر من بعده، وقتل بعضهم بعضا. وتغلب بنو عبد الواد على عامة أوطانهم وأحيائهم، واستبد عليهم بنو يرناتن وبنو يدللتن، فصاروا إلى بني عبد الواد. وبقى أعقابهم بجبل وانشريش، إلى أن انقرضوا كما نذكر.

وكان عبد القوى لما غلب مغرارة على جبل وانسسريش، اختط حصن مرات، بعد أن كان منديل المغراوي شرع في اختطاطه، فبنى منه القصبة ولم يكمله، فأكمله محمد بن عبد القوي من بعدهم. ولما استبد بنو أبي حفص بإفريقية، وصارت لهم خلاله الموحدين، نهض الأمير أبو زكريا إلى المغرب الأوسط، دخلت في طاعته قبائل صنهاجة، وفرت زناتة أمامه. وردد إليهم الغزو، فأصاب منهم. وتقبض في بعض غزواته على عبد القوى بن العبّاس من بنى توجين، فاعتقله بالحضرة. ثم من عليه وأطلقه على أن يستألف له قومه، فصاروا شيعة له ولقومه آخر الدهر ونهض الأمير أبو زكريا بعدها إلى تلمسان، فكان عبد القوي وقومه في جملته. حتى إذا ملك تلمسان، ورجع إلى الحضرة عقد لعبد القوي هذا على قومه ووطنه، وأذن له في اتخاذ الآلة، فكانت أول مراسم العلك لبني توجين هؤلاء. وكانت حالهم مع بني عبد الواد تختلف في السلم والحرب. ولما هلك السعيد

على يدي يغمراسن وقومه كما ذكرناه، استنفر يغمراسن سائر أحياء زناتة لغزو، المغرب، ومسابقة بني مرين إليه، فنفر معه عبد القوي في ترمه سنة سبع وأربعين. وانتهوا إلى تازى، واعترضهم أبو يحيى بن عبد الحق أمير بضي مرين في قومه، فنكصوا وأتبعهم إلى أنكاد، فكان اللقاء، وانكشفت جموع بني بادين، وكانت الهزيمة التي ذكرناها في أخبار بني عبد الواد. وهلك عبد القوي مرجعه منها في سنته بالموضع المعروف ماحنون من مواطنهم. وتصدى للقيام بأمرهم بعده ابنه يوسف، فمكث في تلك الأمارة أسبوعا. ثم قتله على جدث أبيه أخوه محمد بن عبد القوي، وولى عهد أبيه سابع مواراته. وفر ابنه صالح بن يوسف إلى بلاد صنهاجة بجبال المدية، فأقام بها هو وبنوه. واستقل محمد برياسة بني توجين، واستغلظ ملكه، وكان الفحل الذي لا يقرع أنفه. ونازعه يغمراسن أمره ونهض إلى حربه سنة تسع وأربعين. وعمد إلى حصن تافراكنيت، فنازله وبه يومئذ حافده علي بن زيان بن محمد في عصابة من قومه، فحاصره أياما وامتنعت عليه، فارتحل عنها. ثم تواضعوا أوزار الحرب، ودعاه يغمراسن إلى مثل ما دعا إليه أباه من غزو بني مرين في بلادهم فأجاب. ونهضوا سنة سبع وخمسين، ومعهم مغراوة، فانتهوا إلى كلدامان ما بين تازى وأرض الريف. ولقيهم بعقرب بن عبد الحق في جموعه، فانكشفوا ورجعوا منهزمين إلى بلادهم كما ذكرناه. وكانت بينه بعد ذلك وبين يغمراسن فتن وحروب، فنازله فيها بجبل وانشريش مرات وجاس خلالهم. ولم يقع بعدها بيخهما مراجعة لاستبداد يغمراسن بالملك، وسموه إلى التغلب على زناتة أجمع وبلادهم، وكانوا جميعاً خاشين إلى الدعوة الحفصية. وكان محمد بن عبد القوي كثير الصاغية إلى السلطان المستنصر.

ولما نزل النصارى الإفرنجة بساحل تونس سنة ثمان وستين. وطمعوا في ملك الحضرة، بث المستنصر إلى ملوك زناتة بالصريح فصرفوا وجوههم إليه، وخف من بينهم محمد بن عبد القوي في قومه ومن احتشد من أهل وطنه، ونزل على السلطان بتونس. وأبلى في جهاد العدو، وأحسن البلاء، وكانت له في أيامه معهم مقامات مذكورة، ومواقف عند الله محتسبة معدودة. ولما ارتحل العدو عن الحضرة، أخذ محمد بن عبد القوي في الانصراف إلى وطنه، أسنى السلطان جائزته وعم بالإحسان وجوه قومه وعساكره، وأقطعه بلد مقرة وأوماش من وطن الزاب، وأحسن منقلبه. ولم يزل بعد ذلك متعلقا بطاعته مستظهرا على عدوه بالانحياش إليه. ولما استغلظ بنو مرين على يغمراسن بعد استيلائهم على أمصار المغرب واستبدادهم بملكه، وصل محمد يده بهم في الاستظهار على يغمراسن، وأوفد ابنه زيان بن محمد عليهم.

ولما نهض يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان سنة سبعين، وأوقع بيغمراسن في

إيسلى من أنكاد الواقعة التي هلك فيها ابنه فارس، نهض إلى محمد بن عبد القوي للقائه. ومرّ في طريقه بالبطحاء، وهي يومئذ ثغر لأعمال يغمراسن فهدمها. ولقي يعقوب بن عبد الحق بساحة تلمسان مباهياً بآلته فأكرم يعقوب وفادته، وبر مقدمه. ونازلوها أياما، فامتنعت عليهم وأجمعوا على الإفراج. وتأذن لهم يعقوب بن عبد الحق ليتلومن عليها إلى أن يلحق محمد وقومه ببلادهم، حذرا عليهم من غائلة يغمراسن ففعل، وملأ حقائبهم بأتحافه، وجنب لهمماية من الجياد العتاق بالمراكب الثقيلة، وأراح عليهم ألف ناقة حلوب، وعقهم

بالصلات والخلع الفاخرة، واستكثر لهم من السلع والفازات والأخبيات والحملان. وارتحلوا، ولحق محمد بن عبد القوي بمكانه من جبل وانشريش، واتصلت حروبه مع يغمراسن، وكثر إجلابه على وطنه، وعيثه في بلاده. وهو مع ذلك مقيم على موالاة يعقوب بن عبد الحق، وإتحافه بالعتاق من الخيل، والمستجاد من الطرف. حتى كان يعقوب إذا اشترط على يغمراسن في مهادنته يجعل سلمهم من سممه، وحربهم من حربه. وبسببهم كان نهوض يعقوب بن عبد الحق سنة ثمانين، لما اشترط عليه ذلك، ولج في قبوله فنهض إليه، وأوقع به بخرزوزة، ثم أناخ عليه بتلمسان. ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي، فلقيه في القصبات، وعاثوا في نواحي تلمسان نهبا وتخريباً. ثم أذن يعقوب محمداً وقومه في الانطلاق إلى بلادهم، وتلوم هو بمكانه من ضواحي تلمسان بمدة منجاتهم إلى مكانهم من وانشريش، حذرا عليهم من اعتراض يغمراسن. و لم يزل شأنهم ذلك إلى أن هلك يغمراسن بشدبوية من بلاد مغراوة، خاتمة إحدى وثمانين وسبعمائة.

وفي خلال استغلاظ بني مرين على بني عبد الواد، استوسق لمحمد هذا ملكه، فتغلب على أوطان صنهاجة بجبال المدية. وأخرج الثعالبة من جبل تيطرى، بعد أن غدر بمشيختهم وقتلهم، فانزاحوا عنه إلى بسائط متيجة وأوطنوها. واستولى محمد على حصن المدية، وهو المسمى بأهله لمدية- بفتح اللام والميم وكسر الدال وتشديد الياء بعدها وهاء النسب آخرها- وهم بطن من بطون صنهاجة. وكار المختط لها بلكين بن زيري. ولما استولى صمد عليها وعلى ضواحيها، أنزل بها أولاد عزيز بن يعقوب من حشمه، وجعلها لهم موطنا وولاية. وفر بنو صالح ابن أخيه يوسف بن عبد ا أغوي من مكانهم بين صنهاجة، منذ مقتل أبيه يوسف كما ذكرناه. ولحقوا ببلاد الموحدين

بإفريقية، فلقوهم مبرة وتكريما. وأقطعوا لهم بضواحي قسنطينة، وكانوا يعولون عليهم أيام حروبهم وفي مواطن قتالهم، وكان من أظهرهم عمر بن صالح، وابناه صالح ويحيى بن عمر، وحافده يحيى بن صالح بن عمر، في آخرين مشاهير.

وأعقابهم لهذا العهد بنواحي قسنطينة. وفي إيالة الملوك من آل أبي حفص، يعسكرون معهم في غزواتهم، ويبلون في حروبهم، ويقومون بوظائف خدمتهم. وكان الوالي من أولاد عزيز على المدية حسن بى يعقوب، وبنوه من بعده يوسف وعلي، كانت مواطنهم ما بين المدية موطنهم الأول ماحنون. وكان بنو يدللتن أيضا من بني توجين، قد استولوا على حصن الجعبات وقلعة تاوغزوت. ونزل القلعة كبيرهم سلامة بن علي مقيما على طاعة محمد بن عبد القوي وقومه، فاتصل ملك محمد بن عبد القوي في ضواحي المغرب الأوسط ما بين مواطن بني راشد إلى بلاد صنهاجة بنواحي المدية، وما في قبلة ذلك من بلاد السرسو وجباله إلى أرض الزاب. وكان يبعد الرحلة في مشتاه، فيترل الدوسن ومقرة والمسيلة، و لم يزل دأبه ذلك. ولما هلك يغمراسن سنة إحدى وثمانين وسبعمائة كما ذكرناه، استجدت الفتنة بين عثمان ابنه، وبين محمد بن عبد القوي، فنهد إليه عثمان في جموعه من بني عبد الواد والعساكر سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة، فحاصره بجبل وانشمريش وامتنع عليه، فعاث في نواحي وطنه وقفل إلى تلمسان. وهلك محمد بن عبد القوي على إثر ذلك سنة أربع وثمانين

وسبعمائة، وولي من بعده ابنه سيد الناس فلم تطل مدة ملكه. وقتله أخوه موسى لسنة أو نحوها من بعد مهلك أبيه. وأقام موسى بن محمد في أمارة بني توجين نحو من عامين.

وكان أهل مرات من أشد أهل وطنه شوكة وأقواهم غائلة، فحدثته نفسه أن يستلحم مشيختهم ويريح نفسه من محاذرتهم، فأجمع لذلك ونزلها ونذروا بشأنه ورأيه فيهم، فاستماتوا جميعا وثاروا به فقاتلهم. ثم انهزم مثخناً بالجراحة وألجأوه إلى مهاوي الحصن، فتردى منها وهلك. وولي من بعد عمر ابن أخيه إسماعيل بن محمد مدة أربعة أعوام. ثم غدر به أولاد عمه زيان بن محمد فقتلوه، وولوا كبيرهم ابن زيان، وكان حسن الولاية عليهم. يقال ما ولي فيهم بعد محمد مثله. وفي خلال هذه الولاية استغلظ عليهم بنو عبد الواد، واشتدت وطأة عثمان بن يغمراسن عليهم بعد مهلك أبيهم محمد، فنهض اليهم سنة ست وثمانين وسبعمائة. وحاصرهم بجبل وانشريش، وعاث في أوطانهم، ونقل زروعها

إلى مازونة حيز غلب عليها مغراوة. ثم نازل حصن تافركنيت وملكها، بمداخلة القائد بها غالب الخصي مولى سيد الناس بن محمد، وقفل إلى تلمسان. ثم نهض إلى أولاد سلامة بقلعة تاوغزوس، وامتنعوا عليه مرارا، ثم أعطوه اليد على الطاعة ومفارقة بني محمد بن عبد القوي، فنبذوا لهم العهد، وصاروا إلى إيالة عثمان بن يغمراسن. وفرضوا لهم المغارم على بني يدللتن. وسلك عثمان بن يغمراسن مسلك التضريب بين قبائل بني توجين وتحريضهم على إبراهيم بن زيان أميرهم، فغدا عليه زكدان بن أعجمى شيخ بني مادون وقتله بالبطحاء في إحدى غزواته لسبعة أشهر من ملكه. وولي من بعده موسى بن زرارة بن محمد بن عبد القوي، بايع له بنو تيغرين، واختلف عليه سائر بني توجين، فأقام بعض سنة. وعثمان بن يغمراسن في خلال هذا يستألف بني توجين شعبا فشعبا إلى أن نهض إلى جبل وانشريش فملكه. وفر أمامه موسى بن زرارة إلى نواحي المدية، وهلك في مفره ذلك.

ثم نهض عثمان إلى المدية سنة ثمان وثمانين وسبعمائة بعدها، فملكها بمداخلة لمدية من

قبائل صنهاجة. غدروا بأولاد عزيز وأمكنوه منها، ثم انتقضوا عليه لسبعة أشهر ورجعوا إلى إيالة أولاد عزيز، فصالحوا عثمان بن يوسف إلى الإتاوة والطاعة كما كانوا مع محمد بن عبد القوي وبنيه، فملك عثمان بن يغمراسن على عامة بلاد بني توجين. ثم شغل بما دهمه من مطالبة بني مرين أيام يوسف بن يعقوب، فولى على بني توجين من بني محمد بن عبد القوي أبو بكر بن إبراهيم بن محمد مدة من عامين، أخاف فيها الناس، وأساء السيرة. ثم هلك فنصب بنو تيغريى بعده أخاه عطية المعروف بالأصم، وخالفهم أولاد عزيز وجميع قبائل توجين، فبايعوا ليوسف بن زيان بن محمد. وزحفوا إلى جبل وانشريش، فحاصروا عطية وبني تيغرين عاما أو يزيد. وكان يحيى بن عطية كبير بني تيغرين هو الذي تولى البيعة لعطية الأصم. فلما اشتد بهم الحصار، واستفحل أمر يوسف بن يعقوب وبني مرين، نزع يحيى إلى بني مرين. وقدم على يوسف بن عبد الحق بمكانه من حصار تلمسان. ورغبه في ملك جبل وانشريش، فبعث معه الجيوش لنظر أخيه أبي سرحان ثم أخيه أبي

يحيى. وكان نهوض أبي يحيى سنة إحدى وسبعماية، فتوغل في قاصية الشرق. ولما رجع صمد إلى جبل وانشريش، فهدم صونه وقفل. ونهض ثانية إلى بلاد بني توجين، فشردهم عنها. وأطاعه أهل تافركنيت. ثم انتهى إلى المدية، فافتتحها صلحا واختط قصبتها. ورجع إلى أخيه يوسف بن يعقوب، فانتقض أهل تافركنيت بعد صدوره عنهم. ثم راجع بنو عبد القوي بصائرهم في التمسك بالطاعة. ووفدوا على يوسف بن يعقوب، فتقبل طاعتهم وأعادهم إلى بلادهم وأقطعهم. وولى عليهم علي بن الناصر بن عبد القوي، وجعل وزارته ليحيى بن عطية فغلبه على دولته، واستقام ملكه. وهلك خلال ذلك، فعقد يوسف بن يعقوب مكانه لمحمد بن عطية الأصم. واستقام على طاعته وقتا، ثم انتقض بين يدي مهلكه سنة ست، وحمل قومه على الخلاف.

ولما هلك يوسف بن يعقوب، وتجافى بنو مرين من بعدها لبني يغمراسن عن جميع الأمصار التي تملكوها بالمغرب الأوسط، فاستمكن بنو يغمراسن منها، ودفعوا المتغلبين عليها. ولحق الفل من أولاد عبد القوي ببلاد الموحدين، فحلوا من دولتهم محل الإيثار والتكرمة. وكان للعباس بن محمد بن عبد القوي مع الملوك من آل أبي حفص مقام الخفة والمصافاة إلى أن هلك، وبقي عقبه في جند السلطان. ولما خلا الجو من هؤلاء المرسخين، تغلب على جبل وانشريش من بعدهم كبير بني تيغرين، وهو يحيى بن عطية بن يوسف بن المنصور. ويزعمون أنهم دخلاء في بني تيغرين، وأن المنصور هو أحمد بن محمد من أعقاب يعلى بن محمد سلطان بني يفرن. فأقام يحيى بن عطية هذا في رياستهم أياما، ثم هلك، وقام بأمره من بعده أخوه عثمان بن عطية. ثم هلك وولي من بعده ابنه عمر بن عثمان. واستقل مع قومه بجبل وانشريش. واستقل أولاد عزيز بالمدية ونواحيها ورياستهم ليوسف وعلي بن حصان بن يعقرب، والكل في طاعة أبي حمّو سلطان بني عبد الواد بما غلبهم على أمرهم، وانتزع الرياسة من بني عبد القوي أمرائهم، إلى أن خرج على السلطان أبي حمّو محمد ابن عمه يوسف بن يغمراسن. ولحق بأولاد عزيز فبايعوه. وداخلوا في شأنه عمر بن عثمان كبير بنى تيغرين وصاحب جبل وانشريش، فأجابهم وأصفق معهم سائر الأعشار ومنكوشة وبنو يرناتن. وزحفوا مع محمد بن يوسف إلى السلطان أبي حمّو في معسكره بتهل ففضوه، وكان من شأن فتنته معهم ما ذكرناه في أخبار بني عبد الواد، إلى أن هلك السلطان أبي حمو. وولي ابنه أبو تاشفين، فنهض إليهم في العساكر. وكان عمر بن عثمان قد لحقته الغبرة من مخالصة محمد بن يوسف لأولاد عزيز دون قومه، فداخل السلطان أبا تاشفين

لي الانحراف عنه. فلما نزل بالجبل، ولحق محمد بن يوسف بحصن توكال ليمتنع به، نزع عمر بن عمان، ولحق بأبي تاشفين، ودله على مكامن الحصن، فدلف إليه أبو تاشفين وأخذ بمخنقه. وافترق عن محمد بن يوسف أولياؤه وأشياعه، فتقبّضعليه وقيد أسيرا إلى السلطان أبي تاشفين، فقتل بين يديه قعصاً بالرماح سنة تسع عشرة. وبعث برأسه إلى تلمسان، وصلب شلوه بالحصن الذي امتنع به أيام انتزائه. ورجع أمر وانشريش إلى عمر بن عثمان هذا، وحصلت ولايته لأبي تاشفين إلى أن هلك بتلمسان في بعض أيامهم مع بني مرين، أعوام نازلهم السلطان أبو الحسن كما ذكرنا في أخبار الحصار.

ثم لما تغلب بو مرين على الغرب الأوسط استعمل السلطان أبو الحسن ابنه

نصر بن عمر على الجبل، وكان خير وال وفاء بأزمة الطاعة، وخلوصاً قي الولاية، وصدقاً في الانحياش، وإحاناً للملكة، وتوفيرا للجباية. ولما كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان، وتطاول الأعياص من زناتة الى استرجاع ملكهم، انتزى بضواحي المدية من آل عبد القوي عدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي، وناغى الخوارج في دعوتهم، واشتمل عليه بنو عزيز هؤلاء وبنو يرناتن جيرانهم، وزحف إلى جبل وانشريش لينال من الحشم مديلي أمرهم والمداخلين لعدوهم في قطع دابرهم، وكبيرهم يومئذ نصر بن عمر بن عثمان. وبايع نصر لمسعود بن بو زيد بن خالد بن محمد بن عبد القوي من أعقابهم، خلص إليه من جملة عدي بن يوسف حذرا على نفسه من أصحابه. وقاتلهم عدي وقومه، فامتنعوا عليهم ودارت بينهم حروب كانت العاقبة فيها والظهور لنصر بن عمر، قومه. ثم دخل عدي فى جملة السلطان أبى الحسن لما خلص من تونس إلى الجزائر، وبقى مسعود بينهم وملكه أبو سعيد بن عبد الرحمن لما ملك بتلمسان هو وقومه، فلم يزل هنالك إلى أن غلبه السلطان أبو عنان، فصار في جملته بعد أن فر إلى زواوة. واستنزله منها ونقله إلى فاس، وانقضى ملكهم ودولتهم، وانقطع أثر بني محمد بن عبد القوى وأقام نصر بن عثمان في ولاية جبل وانشريش وعقد له السلطان أبو عنان عليه سائر دولته. ولم يزل قائما بدعوة بني مرين من بعده إلى أن غلبهم السلطان أبر حمّو الأخير، وهو موسى بن يوسف على الأمر، فأعطاه نصر الطاعة. ثم اضطرمت نار الفتنة ين العرب وين بني عبد الواد أعوام سبعين وسبعماية. وقاموا بدعوة أبي زيان ابن

السلطان أبي سعيد عم أبو حمّو، فانحاش نصر بن عمر إليهم، وأخذ بدعوة الأمير أبي زيان حينا. ثم هلك أيام تلك الفتنة، وقام بأمرهم من بعده أخوه يوسف بن عمر متقبلاً مذاهبه. وهو لهذا العهد، وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة، صاحب جبل وانشريش، وحاله مع أبي حمّو مختلف في الطاعة والخلاف. والله مالك الأمور لا رب غيره.

بنو سلامة

الخبر عن بني سلامة أصحاب قلعة تاوغزوت ورؤساء بني يدللتن

من بطون توجين من هذه الطبقة الثانية وأوليتهم ومصائرهم

كان بنو يدللتن هؤلاء من شعوب بني توجين وأشدهم شوكة وأوفرهم عدداً وكان

لهم ظهور من بين سائر تلك البطون. وكان بنو عبد القوي ملوك بني توجين يعرفون لهم ذلك، ويوجبون لهم حقه. ولما دخلوا إلى التلول بعد انقراض بني يلومي وبني ومانوا، نزل بنو قاضي منهم وبنو مادون بأرض منداس، فأوطنوها. وجاء بنو يدللتن على أثرهم، فأوطنوا الجعبات وتاوغزوت، ورياستهم يومئذ لنصر بن سلطان بن عيسى. ثم هلك فقام بأمرهم ابنه مناد بن نصر، ثم أخوه علي بن نصر من بعده، ثم ابنه إبراهيم بن علي من بعده. ثم هلك وقام بأمرهم أخوه سلامة بن علي، على حين استفحل ملك عبد القوي وبنبه، فاستفحل أمره هو في قومه، واختط القلعة تاوغزوت المنسوبة إليه وإلى بنيه، وكانت من قبل رباطا لبعض المنقطعين من عرب سويد. ويزعم بنو سلامة هؤلاء أنهم دخلاء في نسب توجين، وأنهم من العرب، ثم من بني

سليم بن منصور. وجاء جدهم عيسى أو سلطان نازعا عن قومه لدم أصابه فيهم، فخلطه لشي بني يدللتن من بني توجين ينفسه، وكفل بنية من بعده، فكانت له سببا في رياشه على بني يدللتن وبنيه بعده.

ولما هلك سلامة بن علي قام بأمرهم من بعده ابنه يغمراسن بن سلامة، على حين استغلظ بنو عبد الواد على بني توجين بعد مهلك محمد بى عبد القوي سلطانهم الأكبر.فكان عثمان بن يغمراسن يتردد إلى بلادهم بالغزو، ويطيل فيها العيث. ونازل في بعض غزواته قلعتهم هذه، وبها يغمراسن، فامتنع عليه. وخالفه يوسف بن يعقوب وبنو مرين تلمسان، فأجفل عن القلعة. وسابق بني مرين إلى دار ملكه. واتبعه يغمراسن بن

خريطة

سلامة مغيرا في أعقابه، فكر إليه بالمكان المعروف بتليوان. ودارت بينهم هنالك حرب هلك فيها يغمراسن بن سلامة، وقام بالأمر بعده أخوه محمد بن سلامة. فأذعن لطاعة عثمان بن يغمراسن، وخالف بني محمد بن عبد القوي، وجعل الأتاوة على قومه ووطنه لملوك بني عبد الواد، فلم تزل عليهم لملوك تلمسان. ولحق أخوه سعد بالمغرب، وجاء في جملة السلطان يوسف بن يعقوب في غزوته التي حاصر فيها تلمسان حصاره الطويل، فرعى لسعد لن سلامة هجرته إليه، وولاه على بنى يدللتن والقلعة. وفر أخوه محمد بن سلامة، فلحق بجبل راشد.

وأقام هنالك إلى أن هلك يوسف بن يعقوب، ورجع أمر المغرب الأوسط لشي عبد الواد، فوضعوا الأتاوات على بني توجين وأصاروهم للجباية. ولم يزل سعد على ولايته إلى أن هلك أبو حمّو وولي أبو تاشفين، فسخط سعداً. وبعث عن أخيه محمد من جبل راشد، فولاه مكانه.

ولحق سعد بالمغرب، وجاء في جملة السلطان أبي الحسن. ودخل أخوه محمد

مع أبي تاشفين، فانحصر بتلمسان. وولي سعد بن سلامة مكانه، ثم هلك محمد في بعض أيام الحصار وحروبه.

ولما انقرض أمر بني عبد الواد رغب سعد من السلطان تخلية سبيله لقضاء فرضه، فحج وهلك مرجعه من الحج في طريقه. وعهد إلى السلطان أبي الحسن واستوصاه ببنيه، على لسان وليه عريف بن يحيى كبير بني سويد.

فولى السلطان أبو الحسن ابنه سليمان بن سعد على بني يدللتن والقلعة. وانقرض أمر السلطان أبي الحسن، وعاد الأمر إلى أبي سعيد وأبي ثابت ابني عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن، فكانت بينه وبينهم ولاية وانحراف.

وكان أولياؤهم من العرب بني سويد من زكبة بما كانوا جيرانهم في مواطنهم من ناحية القبلة، فطمع ونزمار بن عريف شيخهم في التغلب على وطن بني يدللتن، ومانعه دونه سليمان هذا وبالغ في دفاعه، إلى أن ملك السلطان أبو عنان بلاد المغرب الأوسط. ورعى لونزمار وابنه عريف حق انحياشهم إليه وهجرتهم إلى قومه، فأقطع ونزمار بن عريف القلعة وما إليها وجباية بني يدللتن أجمع. والحق سليمان بن سعد بن سلامه في جنده ووجوه عسكره، إلى أن هلك السلطان وعاد الأمر لبني عبد الواد على يد أبي حمّو الأخير، فولي سليمان على القلعة وعلى قومه. واستغلظ العرب عليه، فاستراب سليمان هذا ونذر بالشر منه، فلحق بأولاد عريف. ثم راجع الطاعة، فتقبّضعليه واغتاله، وذهب دمه هدرا. ثم غلبه العرب على عامة المغرب

الأوسط، وأقطع القلعة وبني يدللتن لأولاد عريف استئلافاً لهم. ثم أقطعهم بني مادون ثم منداس، فأصبحت بطون توجين كلهما خولا لسويد وعبيداً لجبايتهم، إلا جل وانشريش فإنه لم يزل لبني تيغرين، والوالي عليهم يوسف بن عمر منهم كما قلناه. ونظم أبو حمّو أولاد سلامة في جنده، وأثبتهم في ديوانه، وأقطع القصبات من نواحي تلمسان في عطائهم. وهم على ذلك لهذا العهد. ولته الخلق والأمر. ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

الخبر عن بني يرناتن إحدي بطون توجين من هذه الطبقة الثانية وما كان لهم من التغلب والأمارة وذكر أوليتهم ومصائرهم:

كان بنو يرناتن هؤلاء، من أوفر قبائل بني توجين وأعزهم جانباً، وأكبرهم صيتا.

ولما دخل بنو توجين إلى تلول المغرب الأوسط، أقاموا بمواطنهم الأولى ما بين ماحنون وورينة. ثم يعودون من القبلة يجولون جانبي نهر واصل من أعلى وادي شلف. وكانت رياستهم في بني نصر بن علي بن تميم بن يوسف بن بونوال. وكان شيخهم مهيب بن نصر منهم. وكان عبد القوي بن العبّاس وابنه محمد أمراء بني توجين، يختصونهم بالأثرة والتجلة لمكانهم من قومهم، وما يؤنسون من عظيم عنائهم. وكان

محمد بن عبد القوي في سلطانه يولي عليهم من الحشم أولاد عزيز. وكان واليهم لعهده وعهد بنيه عبو بن حسن بن عزيز. وقد كاد أصهر مهيب بن نصر إلى عبد القوي في ابنتة، فأنكحه إياها وولدت له نصر بن مهيب، فشرفت خولته بمحمد بن عبد القوى وعلا كعبه في أمارته. تم ولي بعده ابنه علي بن نصر، وكان له من الولد نعر وعنتر وآخرون يعرفون بامهم، واسمها تاسرغينت وولي بعده ابنه نصر بن علي، فطال أمد أمارته في قومه. واختلف بنو عبد القوى وغلبهم بنو عبد الواد على ما بأيديهم، فصرفت ملوك زناتة وجه العناية إليه، فبعد صيته وعرف بنوه من بعده بشهرته، وكان ولوداً. فيقال أنه خلف ثلاثة عشر من البنين ما منهم إلا صاحب حرب أو مقنب. ومن مشاهيرهم عمر الذي قتله السلطان أبو الحسن بمرات حين سعى به أنه داخل في اغتياله، ففر وأدرك، فقتل بمرات. ومنهم منديل الذي متله بنو تيغرين أيام ولوا علي بن الناصر وقتلوا معه عبو بن حسن بن عزيز، ومنهم عنان، ومات قتيلا في حصار تلمسان أيام أبي تاشفين. ومنهم مسعود ومهيب وسعد وداود وموسى ويعقوب والعباس ويوسف في آخرين معروفين عندهم. هذا شأن أولاد نصر لى علي بن نصر بن مهيب.

وأما ولد عنتر أخيه، فكان منهم أبو الفتوح بن عنتر. ثم من ولده عيسى بن أبي الفتوح فكان، رئيساً على بني أبيه. وكانت إحدى وصائفهم سقطت بدارعثمان بن يغمراسن، وادعت الحمل من سيدها أبو الفتوح، وجاءت بأخ لعيسى، سمي معرفا، فربي بدارهم، واستوزره أبو حمّو وابنه من بعده. وبلغ المبالغ في دولتهم وكاد يدعى معرف الكبير. ولحق به أيام رياسته في دولة أبي حمّو الأول أخوه عيسى بن أبي الفتوح مغاضباً لقومه، فسعى له في الولاية على بني راشد وجباية أوطانهم. وأنزله بلد سعيدة، فكانت له بها أمارة. وكان له من الولد ألو بكر وعبو وطاهر وونزمار. وعندما غلب بني مرين على بني عبد الواد ولاهم السلطان أبو الحس

على بني يرناتن متداولين. وأما ولد تاسرغينت من بني علي بن نصير بن مهيب، فلم يكن لهم ذكر في رياسة قومه. إلا أن بعض وصائفهم سقطت أيضاً إلي دار أبي تاشفين، فولدت غلاما يعرف بعطية بن موسى. نشأ في دارهم، فنسب إلى بني تاسرغينت مولاه وتناوله النجابة فى خدمتهم، فولوه الأعمال النبيهة. وهو لهذا العهد عامل أبي حمّو الأخير على شلف وما اليه.و قد غلب العرب لهذا العهد على وطن بني يرناتن، وملكوا عليهم يعود وماحنون. وبقيت صبابتهم

بجبل ورينة. وعليهم لهذا العهد أمير من ولد نصر بن علي بن نصر بن مهيب، يعطون المغرم للسلطان ويصانعون العرب بالأتاوة. وبيد الله تصاريف الأمور.

بنو مرين وأنسابهم وشعوبهم

الخبر عن بني مرين وأنسابهم وشعوبهم وما تأثلوا بالمغرب من

السلطان والدولة التي استتبعت سائر زناتة وانتظمت

كراسي الملك بالعدوتين وأولية ذلك ومصائره

قد ذكرنا أن بني مرين هؤلاء من شعوب بني واسين، وذكرنا نسب واسين في زناتة، وذكرنا أنهم بنو مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن جديج بن فاتن بن يذر بن يخفت بن عبد الله بن ورتنيص بن المعز بن إبراهيم بن سحيك بن واسين، وأنهم إخوة بني يلومى

ومديونة. وربما يشهد بذلك جوار مواطنهم قبل الملك ما بين صا وملوية. وذكرنا كيف اقتسموا الضاحية والقفر مع أخوانهم بني بادين بن محمد، وكيف اتصلت فتنتهم معهم سائر أيامهم. وكان الغلب أولا لبني بادين بن محمد لكثرة عددهم، فإنهم كما ذكرنا خمسة بطون: بنو عبد الواد وتوجين ومصاب، وبنو زردال وإخوانهم بنو راشد بن محمد. وكانوا أهل تلول الغرب الأوسط دونهم. وبقي هذا الحي من بني مرين بمجالات القفر من فيكيك إلى سجلماسة إلى ملوية. وربما يخطون في ظعنهم إلى بلاد الزاب. ويذكر نسابتهم أن الرياسة فيهم قبل تلك العصور كانت لمحمد بن ورزين بن فكوس بن كوماط بن مرين، وأنه كان لمحمد إخوة آخرون يعرفون بأمهم تنالفت. وكان بنو عمه ونكاسن بن فكوس. وكان لمحمد من الولد سبعة: شقيقان وهما حمامة وعسكر. وأبناء علات أمهات أولاد، وهم سنكمان وسكميان وسكم ووراغ وقزونت وتسمى هذه الخمسة في لسانهم تيريعين، ومعناه عندهم الجماعة.

يزعمون أن محمدا لما هلك قام بأمره في قومه ابنه حمامة، وكان الأكبر. ثم من

بعده أخوه عسكر، وكان له من الولد ثلاثة: نكوم وأبو يكنى، ويلقب المخضب، وعلي ويلقب لاعدر. ولما هلك قام برياسته فيهم ابنه المخضب، فلم يزل أميراً عليهم إلى أن كان أمر الموحدين. وزحف عبد المؤمن إلى تاشفين بن علي بن يوسف، فحاصره بتلمسان. وسرح الشيخ أبا حفص في العساكر لحرب زناتة بالمغرب الأوسط، وجمع له بنر بادين كلهم وبنو يلومي وبنو مرين ومغراوة، ففض الموحدون جموعهم واستلحموا أكثرهم. ثم راجع بنو يلومي وبنو بادين طاعتهم، وأخلص بنو عبد الواد في خدمتهم ونصبحتهم. ولحق بنو

مرين بالقفر، فلما غلب عبد المؤمن على وهران واستولى على أموال لمتونة وبعث ذخيرتهم بتلك الغنائم إلى جبل تينملل حيث داره، ومن أين كان منبعث الدعوة. وبلغ الخبر إلى بني مرين بمكانهم من الزاب، وشيخهم يومئذ المخضب بن عسكر، فأجمع اعتراضها بقومه. ولحق العير بوادي تلاغ، فاحتازها من ايدي الموحدين. واستنفر عبد المؤمن لاستنقاذها أولياءه من زناتة، وسرحهم مع الموحّدين لذلك، فأبلى بنو عبد الواد فيها بلاء حسنا. وكان اللقاء في فحص مسون، وانكشف بنو مرين، وقتل المخضب بن عسكر، واكتسح بنو عبد الواد حللهم، وذلك سنة أربعين وخمسماية. فلحق بنو مرين بعدها بصحرائهم ومجالات قفرهم، وقام بأمرهم من بعد المخضب أبو بكر ابن عمه حمامة بن محمد إلى أن هلك، فقام بأمره ابنه محيو، ولم يزل مطاعا فيهم إلى أن استنفرهم المنصور لغزاة الأركة، فشهدوها وأبلوا البلاء الحسن. وأصابت محيو يومئذ جراحة انتقضت عليه مرجعه منها، فهلك بصحراء الزاب سنة إحدى وتسعين وسبعمائة وخمسماية. وكان من رياسة عبد الحق ابنه من بعده وبقائها في عقبه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن أمارة عبد الحق بن محيو المستقرة فع بنيه
وأمارة ابنه عثمان من بعده ثم أخيه محمد بن
عبد الحق بعدهما وما كان فيها من الأحداث

لما هلك محيو بن أبي بكر بن حمامة من جراحته كما قلناه، وكان له من الولد
عبد الحق ووسناف ويحياتن. وكان عبد الحق أكبرهم، فقام بأمر بني مرين، وكان خير أمير عليهم قياما بمصالحهم وتعففا عما في أيديهم، وتقويما لهم على الجادة ونظرا في العواقب، واستمرت أيامهم. ولما هلك الناصر رابع خلفاء الموحّدين بالمغرب سنة عشر وستماية مرجعه من غزاة العقاب، وقام بأمر الموحّدين من بعده ابنه يوسف المستنصر، نصبه الموحدون للأمر غلاما لم يبلغ الحلم. وشغلته أحوال الصبا وجنونه عن القيام بالسياسة وتدبير الملك، فأضاع الحزم وأغفل الأمور. وتواكل الموحدون بما أرخى لهم من طيل الدالة عليه. ونفس عن مخنقهم من قبضة الاستبداد والقهر، فضاعت الثغور وضعفت الحامية. وتهاونوا بأمرهم، وفشلت ريحهم. وكان هذا الحي لذلك العهد بمجالات القفار، من فيكيك إلى صا وملوية كما قدمناه من شأنهم. وكانوا يطرقون في صعودهم إلى التلول والأرياف منذ أول دولة الموحّدين وما قبلها جهات كرسيف إلى وطاط، ويأنسون بمن هنالك من بقايا زناتة الأولى: مثل مكناسة بجبال تازى، وبني يرنيان من مغراوة الموطنين قصور وطاط من أعالي ملوية. فيتقلبون بتلك الجهات عام المربع والمصيف، وينحدرون إلى مشاتيهم بما امتاروه من الحبوب لأقواتهم. فلما رأوا من اختلال بلاد المغرب ما رأوا انتهزوا فيها الفرصة، وتخطوا إليها القفر، ودخلوا ثناباه، وتفرقوا في جهاته. وأرجفوا بخيلهم وركابهم على ساكنه، واكتسحوا بالغارة والنهب عامة بسائطهم. ولجأت الرعايا إلى معتصماتهم ومعاقلهم، وكثر شاكيهم. وأظلم الجو بينهم
خريطة

وبين السلطان والدولة، فآذنوهم بالحرب وأجمعوا لغزوهم وقطع دابرهم. وأغرى الخليفة المستنصر عظيم الموحّدين أبا علي بن وانودين بجميع العساكر والحشود من مراكش، وسرحه إلى السيد أبي إبراهيم ابن أمير الموحّدين يوسف بن عبد المؤمن بمكانه من أمارة فاس. وأوعز إليه أن يخرج لغزو بني مرين، وأمره أن يثخن ولا يستبقي. واتصل الخبر ببني مرين وهم في جهات الريف وبلاد بطوية، فتركوا أثقالهم بحصن تازوطا، وصمدوا إليهم. والتقى الجمعان بوادي نكور، فكان الظهور لبني مرين والدبرة على الموحدين. وامتلأت الأيدي من أسلابهم وأمتعتهم، ورجعوا إلى تازى وفاس عراة يخصفون عليهم من ورد النبات المعروف عند أهل المغرب بالمشغلة يوارون به سوءاتهم لكثرة الخصب عامئذ، واعتمار الفدن بالزرع وأصناف الباقلا. حتى لقد سميت الواقعة يومئذ بعام المشغلة.

وصمد بنو مرين بعدها إلى تازى، ففلوا حاميتها أخرى. ثم اختلفت بنو محمد ورؤساؤهم وانتبذ عنهم من عشائرهم بنو عسكر بن محمد، لمنافسة وجدوها في أنفسهم من استقلال بني عمهم حمامة بن محمد بالرياسة دونهم، بعد أن كان أومض عندهم منها في عسكر وابنه المخضب إيماض من أخلف بارقه. فحالفوا عبد الحق أميرهم وقومه إلى مظاهرة أولياء الموحدين، وحامية المغرب من قبائل رياح الموطنين بالهبط وأزغار لحديث عهدهم بالتوحش والعز منذ إنزال المنصور إياهم بذلك القطر من أفريقية، فتحيزوا إليهم وكاثروهم على قومهم.

وصمدوا جميعا للقاء بني مرين سنة أربع عشرة، ودارت بينهم حرب تولى الصبر مقامها. وهلك فيها أميرهم عبد الحق وكبير بنيه إدريس. وتذامر لمهلكها بنو مرين. وجلى في تلك الحومة حمامة بن يصليتن من بني عسكر، والأمير ابن محيو السكمي. فانكشفت رياح آخرا، وقتل منهم أبطال. وولى بنو مرين عليهم بعد مهلك عبد الحق ابنه عثمان تلو إدريس، وشهرته بينهم أدرغال، ومعناه برطانتهم الأعور. وكان لعبد الحق من الولد عشرة، تسعة ذكور وأختهم ورتطليم: فإدريس وعبد الله ورحو لامرأة من بني علي اسمها سوط النساء، وعثمان ومحمد لامرأة من بني ونكاسن اسمها النوار بنت تصاليت، وأبو بكر لامرأة من بني تنالفت وهي تاغزونت بنت أبي بكر بن حفص، وزيان لامرأة من

بني ورتاجن، وأبو عياد لامرأة من بني دللو إحدى بطون عبد الواد واسمها أم الفرج، ويعقوب أم اليمن بنت محلى من بطوية. وكان أكبرهم إدريس الهالك مع أبيه عبد الحق، فقام بأمر بني مرين من بعد عبد الحق ابنه عثمان، بايعه لوقته حمامة بن بصليتن ولمير بن محيو ومن إليهما من مشيخة قومهما. واتبعوا مهزمة رياح وأثخنوا فيهم. وثار عثمان بأبيه وأخيه حتى شفا نفسه منهم ولاذوا بالسلم، فسالمهم على أتاوة يؤدونها إليه وإلى قومه كل سنة. ثم استشرى من بعد ذلك داء بني مرين وأعضل خطبهم، وكثر الثوار بالمغرب، وامتنع عامة الرعايا عن المغرم، وفسدت السابلة. واعتصم الأمراء والعمال من السلطان فمن دونه بالأمصار والمدن، وغلبوا أولئك على الضاحية. وتقلص ظل الحكام عن البدو جملة. وافتقد بنو مرين الحامية دون الوطن والدفاع، فمدوا إلى البلاد يدأ. وسار بهم أميرهم أبو سعيد عثمان بن عبد الحق في نواحي المغرب يتقرى

مسالكه وشعوبه، ويضع المغارم على أهله حتى دخل أكثرهم في أمره، فبايعه من الطواعن الشاوية والقبائل الآهلة: هوارة وزكارة، ثم تسول ومكناسة، ثم بطوية وفشتالة، ثم سدراتة وبهلولة ومديونة. ففرض عليهم الخراج وألزمهم المغارم، وفرق فيهم العمال. ثم فرض على أمصار المغرب مثل فاس وتازى ومكناسة وقصر كتامة ضريبة معلومة يؤدونها إليه على رأس كل حول، على أن يكف الغارة عنهم ويصلح سابلتهم. ثم غزا ظواعن زناتة سنة ى ين، وأثخن فيهم حتى أذعنوا، وقبض أيديهم عما امتدت إليه من الفساد والنهب.

وعطف بعدها على رياح أهل أزغار والهبط وأثار به بأبيه، فأثخن في كلم وأبادهم. ولم يزل دأبه ذلك إلى أن هلك باغتيال علجة سنة سبع وثلاثين.

وقام بأمر بني مرين من بعده أخوه محمد بن عبد الحق، فتقبل سنن أخيه في

تدويخ بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصاره وجباية المغارم والوضائع من ظواعنه وبدوه وسائر رعاياه.

وبعث الرشيد أبا محمد بن وانودين لحربهم. وعقد له على مكناسة، فدخلها وأجحف بأهلها في المغارم. ثم نزل بنو مرين بتيجدوغير من ضواحيها، فنادى في عساكره وخرج إليهم، فدارت بينهم حرب شديدة هلك فيها خلق من الجانبين. وبارز محمد بن إدريس بن عبد الحق قائدا من الروم، واختلفا ضربتين هلك العلج بإحداهما، وانجرح محمد في وجهة بالأخرى. واندمل جرحه، فصار أثر في وجهه لقب من أجله أبا ضربة. ثم شذ بنو مرين على الموحدين، فانكشفوا ورجع ابن وانودين إلى مكناسة

مفلولاً. وبقي بنو عبد المؤمن أثناء ذلك في مرض من الأيام، وتثاقل عن الحماية. ثم أومضت دولتهم اخرا إيماض الخمود. وذلك أنه لما هلك الرشيد بن المأمون سنة أربعين وستماية، وولي أخوه علي وتلقب بالسعيد، وبايعه أهل المغرب، انصرفت عزائمه إلى غزو بني مرين وقطع أطماعهم عما سمت إليه من تملك الوطن، فأغزى عسكر الموحّدين لقتالهم، ومعهم قبائل العرب والمصامدة وجموع الروم. فنهضوا سنة اثنتين وأربعين في جيش كثيف يناهز عشرين ألفا فيما زعموا. وزحف إليهم بنو مرين بوادي ياباش، وصبر الفريقان، وهلك الأمير محمد بن عبد الحق في الجولة بيد زعيم من زعماء الروم. وانكشفت بنو مرين واتبعهم الموحدون، ودخلوا تحت الليل، فلحقوا بجبال غياثة من نواحي تازى واعتصموا بها أياما. ثم خرجوا إلى بلاد الصحراء، وولوا عليهم أبا يحيى بن عبد الحق، فقام بأمرهم على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن دولة الأمير أبي يحيي بن عبد الحق مديل الأمر لقومه بني مرين وفاتح الأمصار ومقيم الرسوم الملوكية من الآلة وغيرها لمن بعده من أمرائهم:.

لما ولي أبو يحيى بن عبد الحق أمر بني مرين سنة اثنتين وأربعين، كان من أول ما

ذهب إليه ورآه من النظر لقومه، أن قسم بلاد المغرب وقبائل جبايته بين عشائر بني مرين. وأنزل كلا منهم في ناحية تسوغها سائر الأيام طعمة. فاستركبوا الرجل أتباعهم، واستلحقوا من غاشيتهم، وتوفرت عساكرهم. ثم نبضت نار المنافسة بين أحيائهم، وخالف بنو عسكر جماعتهم، وصاروا إلى الموحدين، فحرضوهم على أبي يحيى بن عبد الحق وبني حمامة وأغروهم بهم. وبعثوا الصريخ إلى يغمراسن بن زيان، فوصل في قومه إلى فاس.

واجتمعوا جميعا إلى قائد الموحدين. وأعطوا الرهن على صدق البلاء في الأمير أبي يحيى وأتباعه. وصمدوا إليه حتى انتهوا إلى ورغة، ثم إلى كرت. وأعجزهم فانكفوا راجعين إلى فاس. ونذر يغمراسن بغدر الموحدين، فخرج في قومه مع أوليائه بني عسكر. وعارضهم الأمير أبو يحيى بوادي سبو، فلم يطق حربهم. ورجع عنهم عسكر الموحّدين بما صرخ في معسكرهم من موت الخليفة السعيد. ثم بعثوا إليهم لملاطفتهم في الفيئة إلى الطاعة ومذاهب الخدمة، القائد عنبر الخصي مولى الخليفة في حصة من الروم والناشبة، فتقبّضعليهم بنو عسكر وتمسكوا بهم في رهنهم.

وقتلوا كافة النصارى، فأطلق أبناءهم ولحق يغمراسن وقومه بتلمسان. ثم رجع بنو عسكر إلى ولاية أميرهم أبي يحيى. واجتمع بنو مرين لشأنهم وتملكوا الأعمال. ثم مدوا عينهم إلى تملك الأمصار، فنزل أبو يحيى بجملته جبل زرهون. ودعا أهل مكناسة إلى بيعة الأمير أبي زكريا بن أبي حفص صاحب أفريقية، لما كان يومئذ على دعوته وفي ولايته، فحاصرها وضيق عليها بقطع المرافق وترديد الغارات ومعاودة الحرب، إلى أن أذعنوا لطاعته، فافتتحها صلحا بمداخلة أخيه يعقوب بن عبد الحق لزعميها أبي الحسن بن أبي العافية.

وبعثوا بيعتهم إلى الأمير أبي زكريا، وكانت من إنشاء أبي المطرف بن عميرة،

وكان قاضيا فيهم يومئذ، فأقطع السلطان ليعقوب ثلث جبايتها. ثم أحبس الأمير أبو يحيى بن عبد الحق من نفسه الاستبداد، ومن قبيله الاستيلاء فاتخذ الآلة. وبلغ الخبر إلى السعيد بتغلبه على مكناسة وصرفها إلى دعوة ابن أبي حفص، فوجم لها وفاوض الملأ من أهل دولته في أمره، وأراهم كيف اقتطع الأمر عنهم شيئا فشيئا: فابن أبي حفص اقتطع أفريقية. ثم يغمراسن بن زيان وبنو عبد الواد اقتطعوا تلمسان والمغرب الأوسط، وأقاموا فيها دعوة ابن أبي حفص، وأطمعوه في الحركة إلى مراكش بمظاهرتهم. وابن هود اقتطع عدوة الأندلس، وأقام فيها دعوة بني العبّاس، وابن الأحمر في الجانب الآخر مقيم لدعوة ابن أبي حفص. وهؤلاء بنو مرين تغلبوا على ضواحي المغرب، ثم سموا إلى تملك الأمصار. ثم افتتح أميرهم أبو يحيى مكناسة وأظهر فيها دعوة ابن أبي حفص، وجاهر بالاستبداد. ويوشك إن رضينا هذه الدنية، وأغضينا عن هذه الواقعات، أن يختل الأمر أو تنقرض الدعوة. فتدامروا وامتعضوا وتداعوا للصمود اليهم، فجفز السعيد عساكره. واحتشد عرب المغرب وقبائله، واستنفر الموحّدين والمصامدة، ونهض من مراكش سنة خمس وأربعين يريد مكناسة: وبني مرين أولا، ثم تلمسان ويغمراسن ثانيا، ثم أفريقية وابن أبي حفص آخرا. واعترض العساكر والحشود بوادي بهت. ووصل الأمير أبو يحيى إلى معسكره متواريا عنهم عينا لقومه، حتى صدقهم كنه الخبر. وعلم أن لا طاقة له بهم، فأفرج عن البلاد. وتناذر بنو مرين بذلك من أماكنهم، فتلاحقوا به واجتمعوا إليه بتازوطا من بلاد الريف. ونزل سعيد مكناسة. ولاذ أهلها بالطاعة وسألوا العفو عن الجريرة. واستشفعوا بالمصاحف، برز بها الأولاد على رؤوسهم، وانتظموا مع النساء في صعيد حاسرات منكسرات الطرف من الخشوع ووجوم الذنب والتوسل. فعفا عنهم وتقبل فيئهم، وارتحل إلى تازى في اتباع بني مرين. وأجمع بنو أوطاس الفتك بأبي يحيى بن عبد الحق غيرة ومناسفة، ودس إليه بذلك مهيب من مشيختهم، فترحل عنهم إلى بلاد بني يزناسن، ونزل بعين الصفا.

ثم راجع نظره في مسالمة الموحّدين والفيئة إلى أمرهم ومظاهرتهم على عدوهم يغمراسن وقومه من بني عبد الواد، ليكون فيها شفاء نفسه منهم، فأوفد مشيخة قومه عليه بتازى، فأذوا طاعته وفيئته، فتقبلها وصفح لهم عن الجرائر التي أتوها. وسألوه أن يستكفي بالأمير أبي يحيى في أمر تلمسان ويغمراسن، على أن يمده بالعساكر رامحة وناشبة، فاتهمهم الموحدون وحذروا منهم غائلة العصبية، فأمرهم السعيد بالعسكرة معه، فأمده الأمير أبو يحيى بخمسماية من قبائل بني مرين. وعقد عليهم لابن عمه أبي عباد بن يحيى بن أبي بكر بن حمامة، وخرجوا تحت رايات السلطان. ونهض من تازى يريد تلمسان وما وراءها، وكان من خبر مهلكه على جبل تامززدكت بيد بني عبد الواد ما ذكرناه في أخبارهم.

ولما هلك وانفضت عساكره متسابقين إلى مراكش، وجمهورهم مجتمعون إلى

عبد الله بن الخليفة السعيد ولي عهده، وتحت رايات أبيه. وطار الخبر بذلك إلى الأمير أبي يحيى بن عبد الحق، وهو بجهات بني يزناسن. وقد خلص إليه هنالك ابن عفه أبو عياد. وبعث بني مرين من تيار تلك الصدمة، فانتهز الفرصة وأرصد لعسكر الموحّدين وفلهم بكرسيف، فأوقع بهم وامتلأت أيدي بني مرين من أسلابهم، وانتزعوا الآلة من أيديهم. وأصار إلى كتيبة الروم والناشبة من الغزو، واتخذ الموكب الملوكي. وهلك الأمير عبد الله بن السعيد في جوانب تلك الملحمة، ويئسوا للموحدين بعدها من الكرة. ونهض الأمير أبو يحيى وقومه إلى بلاد المغرب مسابقين إليه يغمراسن بن زيان بما كان ملوك الموحدين، أوجدوهم السبيل إلى ذلك باستجاشة على بني مرين أيام فتنتهم معهم، فكانوا يبيحونه حرم المغرب ويوطئونه عساكر قومه ما بين تازى إلى فاس إلى القصر مع عساكر الموحدين، فكان ليغمراسن وقومه بذلك طمع فيها لولا ما كبحهم فأس بني مرين وجذع من أنوفهم.

وكان أول ما بدأ به أبو يحيى بن عبد الحق أعمال وطاط، فافتتح حصونهم بملوية

ودوخ جبلهم. ثم رحل إلى فاس، وقد أجمع أمره على انتزاعها من ملكة بني عبد المؤمن، وإقامة الدعوة لابن أبي حفص بها وبسائر نواحيها. والعامل بها يومئذ السيد أبر العبّاس، فأناخ عليها بركابه. وتلطف في مداخلة أهلها، وضمن لهم جميل النظر وحميد السياسة. وكف الأيدي عنهم، والحماية لهم بحسن المغبة، وصالح العائدة، فأجابوه ووثقوا بعهده وعنائه. وأووا إلى ظله وركنوا إلى طاعته، وانتحال الدعوة الحفصية بأمره. ونبذوا طاعة بني عبد المؤمن يأسا من صريخهم وكثرتهم. وحضر أبو محمد الفشتالي، وأشهده الله على الوفاء بما اشترط على نفسه من النظر لهم والذب عنهم، وحسن الملكة والكفالة. وتقبل مذاهب العدل فيهم، فكان حضوره ملاك تلك العقيدة والبركة التي يعرف أثرها خلفهم في تلك البيعة. وكانت البيعة بالرابطة خارج باب الفتوح.

ودخل إلى قصبة فاس لشهرين اثنين من مهلك السعيد، فاتح ست وأربعين. وأخرج السيد أبا العبّاس من القصبة، وبعث معه خمسين فارسا أجازوه أم ربيع ورجعوا. ثم نهض إلى منازلة تازى، وبها السيد أبو علي. فنازلها أربعة أشهر. ثم نزلوا على حكمه، فقتلهم ومن على آخرين منهم. وسد ثغرها، وثقف أطرافها، وأقطع رباط تازى وحصون ملوية لأخيه يعقوب بن عبد الحق. ورجع إلى فاس، فوفد عليه بها مشيخة أهل مكناسة،

وجددوا بيعتهم وعاودوا طاعتهم. ولحق بهم على أثرهم أهل سلا ورباط الفتح، فتملك الأمير أبو يحيى هذه البلاد الأربعة أمهات أمصار المغرب. واستولى على نواحيها إلى وادي أم ربيع، فأقام فيها دعوة ابن أبي حفص، وبعث بها إليه. واستبد بنو مرين بملك المغرب الأقصى، وبنو عبد الواد بملك المغرب الأوسط، وبنو أبي حفص بإفريقية. وخمد ذبال آل عبد المؤمن، وركدت ريحهم، وآذنت بالانقراض دولتهم، واشرف على الفناء أمرهم. وإلى الله عاقبة الأمور.

الخبر عن انتقاض أهل فاس علي أبي يحيي بن عبد الحق وظفره بهم بعد إيقاعه بيغمراسن وقومه بايسلي:

لما ملك الأمر أبو يحمى بن عبد الحق بمدينة فاس سنة ست وأربعين، استولى

على بلاد المغرب بعد مهلك السعيد. وقام بأمر الموحّدين بمراكش أبو حفص عمر

المرتضى بن السيد أبي إبراهيم إسحاق الذي كان قائد عسكر الموحّدين في حربهم مع بني مرين عام المشغلة، أبن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. كان السعيد تركه واليا بقصبة رباط الفتح من سلا، فاستدعاه الموحدون وبايعوه بيعة الخلافة. وقام بأمرهم، فلما تغلب الأمير أبو يحمى على بلاد المغرب وملك مدينة فاس كما ذكرناه، خرج إلى بلاد فازاز والمعدن لفتح بلاد زناتة وتدويخ نواحيها. واستعمل على فاس مولاه السعود بن خرباش، من جماعة الحشم أحلاف بني مرين وصنائعهم. وكان الأمير أبو يحيى استبقى بها من كان فيها من عسكر الموحّدين من غير عيصهم في السبيل التي كانوا عليها من الخدمة. وكان فيهم طائفة من الروم، استخدمهتم إلى نظر قائدهم شأنه، وكانوا من حصة السعود هنالك. ووقعت بينهم وبين شيع الموحّدين من أهل البلد مداخلة، وفتكوا بالسعود عاملهم وقلبوا الدعوة للمرتضى الخليفة بمراكش سكيت الحلبة ومخلف المضمار. وكان المتولي لكبر تلك الثورة بن حشار المشرف وأخوه وابن أبي طاطو وابنه، اجتمعوا إلى القاضي أبي عبد الرحمن المغيلي، زعيم فئة الشورى بينهم يومئذ وتوامروا فيها. وأغروا قائد الروم بقتل السعود، وعدوا عليه بمقعد حكمه من القصبة، وهاجوه ببعض المحاورات فغضت. ووثب عليه الرومي، فقتله وطاف برأسه الهاتف بسكك المدينة في شوال سنة سبع وأربعين. وانتهبت داره، واستبيحت حرمه. ونصبوا قائد الروم لضبط البلد، وبعثوا بيعتهم إلى المرتضى. واتصل الخبر بالأمير أبي يحيى، وهو منازل بلد فازاز، فأفرج عنها. وأغذ السير إلى فاس، فأناخ بعساكره عليها. وشفر لحصارها، وقطع السابلة عنها. وبعثوا إلى المرتضى بالصريخ، فلم يرجع إليهم قولا، ولا ملك لهم ضرا ولا تفعا، ولا وجه لما نزل بهم وجها. حاشا إنه استجاش بالأمير أبي يحيى يغمراسن بن زيان على أمره، وأغراه بعدوه، وأمله لكشف هذه النازلة عمن انحاش إلى طاعته. وتعلقت أطماع يغمراسن بطروق بلاد المغرب، فاحتشد لحركته. ونهض مى

تلمسان للأخذ بحجزة الأمير أبي يحيى عن فاس، وإجابة صريخ الخليفة لذلك. وبلع الأمير أبا يحيى خبر نهوضه إليه لتسعة أشهر من منازلته البلد، فجمر الكتائب عليها صمد إليه قبل وصوله من تخوم بلاده، والتقى الجمعان بإيسلى من بسائط وجدة فتزاحف القوم وأبلوا. وكانوا ملحمة عظيمة، هلك فيها عبد الحق محمد بن عبد الس

بيد إبراهيم بن هشام من بني عبد الواد. ثم انكشف بنو عبد الواد، وهلك يغمراسن بن تاشفين من أكابر مشيختهم، ونجا يغمراسن بن زيان إلى تلمسان. وانكفأ الأمير أبو يحيى إلى معسكره للأخذ بمخنق فاس فسقط في أيدي أهلها، ولم يجدوا وليجة من دون طاعته، فسألوا الأمان، وبذله لهم على غرم ما تلف له من المال بداره يوم الثورة، وقدره ماية ألف دينار، فتحملوها. وأمكنوه من قياد البلد، فدخلها في جمادى من سنة ثمان وأربعين. وطالبهم بالمال، فعجزوا ونقضوا شرطه، فحق عليهم القول. وتقبض على القاضي أبي عبد الرحمن وابن أبي طاطو وابنه، وابن حشار وأخيه المتولين كبر الفعلة فقتلهم، ورفع على الشرفات رؤوسهم. وأخذ الباقين بغرم المال طوعا أو كرها، فكان ذلك مما عبد رعية فاس وقادهم لأحكام بني مرين. وضرب الرهب على قلوبهم لهذا العهد، فخشعت منهم الأصوات وانقادت الهمم، ولم يحدثوا بعدها أنفسهم بغمس يد في فتنة. والله مالك الأرض ومن عليها.

الخبر عن تغلب الأمير أبي يحيى علي مدينة سلا وارتجاعها من يده وهزيمة المرتضي بعدها:

لما كمل للأمير أبي يحيى فتح مدينة فاس، واستوسق أمر بني مرين بها، رجع

إلى ما كان فيه من منازلة بلاد فازاز فافتتحها. ودوخ أوطان زناتة، واقتضى مغارمهم وحسم علل الثائرين فيها. ثم تخطى إلى مدينة سلا ورباط الفتح سنة تسع وأربعين، فملكها وتاخم الموحّدين بثغرها. واستعمل عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق، وعقد له على ذلك الثغر، وضم إليه الأعمال. وبلغ الخبر بذلك إلى المرتضى، فأهمه الشأن. وأحضر الملأ من الموحّدين وفاوضهم، واعتزم على حرب بني مرين. وسرح العساكر سنة خمسين، فأحاطت بسلا، فافتتحوها وعادت إلى طاعة المرتضى. وعقد عليها لأبي عبد الله بن أبي يعلو من مشيخة الموحدين. وكان المرتضى قد صمد بنفسه سنة تسع وأربعين إلى محاربة بني مرين في جموع الموحّدين وعساكر الدولة، صمد بنو مرين للقائه. والتقى الجمعان بإيملولين، ففضوا جموعه، وكانت الدبرة عليه والظهور لهم. ثم كان بعدها فتح سلا، وغلب الموحّدين عليها. وأجمع المرتضى بعدها على احتشاد أهل سلطانه، ومعاودة الخروج بنفسه إلى غزوهم لما خشي من امتداد أمرهم. وتقلص ملك الموحدين، فعسكر خارج حضرته سنة ثلاث وخمسين

وبعث الحاشرين في الجهات، فاجتمع إليه أمم الموحّدين والعرب والمصامدة. وأغذ السير تلقاءهم، حتى إذا انتهى إلى جبال بهلول من نواحي فاس، وصمد إليه الأمير أبو يحيى في عساكر بني مرين، ومن اجتمع إليهم من دونهم. والتقى الجمعان هنالك. وصدقهم بنو مرين القتال، فاختل مصاف السلطاني، وانهزمت عساكره وأسلمه قومه. ورجع إلى مراكش مفلولاً. واستولى القوم على معسكره واستاحوا سرادقه وفساطيطه، وانتهبوا جميع ما وجدوا بها من المال والذخيرة، واستاقوا سائر الكراع والظهر، وامتلأت أيديهم من الغنائم، واعتز أمرهم، وانبسط سلطانهم، وكان يوما له ما بعده. وأغرى أثر هذه الحركة عساكر بني مرين تادلا واستباح بني جابر حاميتها من جشم ببلد أبي نفيس، واستلحم أبطالهم، وألان من حدهم، وخضد من شوكتهم. وفي أثناء هذه الحروب كان مقتل علي بن عثمان بن عبد الحق، وهو ابن أخي الأمير أبي يحيى. شعر منه بفساد الدخلة

والاجتماع للتوثب به، فدس لابنه أبي حديد مفتاح بقتله، بجهات مكناسة سنة إحدى وخمسين. والله تعالى أعلم.

الخبر عن فتح سجلماسة وبلاد القبلة وما كان في ذلك من الأحداث:

لما يئس بنو عبد المؤمن من غلبهم بني مرين على ما صارفي أيديهم من بلاد المغرب، وعادوا إلى مدافعيهم عن صبابة الدولة التي تحلبت إليها شفاههم، لو أطاقوا المدافعة عنها، وملك بنو. مرين عامة بلاد التلول، اعتزم الأمير أبو يحيى بعدها على الحركة إلى بلاد القبلة لفتح سجلماسة ودرعة وما إليها سنة ثلاث وخمسين، فافتتحها بمداخلة من ابن القطراني. غدر بعامل الموحدين، فتقبّضعليه وأمكن منها الأمير أبا يحيى، فملكها وما إليها من درعة وسائر بلاد القبلة. وعقد عليها لابنه أبي حديد. وبلغ الخبر إلى المرتضى، فسرح العساكر سنة أربع وخمسين لاستنقاذها. وعقد عليهم لابن عطوش من مشيخة الموحدين، فأغذ الأمير أبو يحيى السير إليها وابنه أبو حديد مفتاح. وأحس به ابن عطوش، ففر راجعا إلى مراكش. ثم نهض سنة خمس وخمسين إلى محاربة يغمراسن. ولقيه بأبي سليط، فأوقع به واعتزم على اتباعه، فثناه عن رأيه في ذلك أخوه يعقوب بن عبد الحق، لعهد تأكد بينه وبين يغمراسن، فرجع. ولما انتهى إلى المقرمدة هذه، بلغه أن يغمراسن قصد سجلماسة لمداخلة من بعض أهلها. أطمعه في

ملكها، فأغذ السير إليها بجموعه ودخلها. ولصبيحة دخوله، وصل يغمراسن لشأنه. فلما مكلم بمكان أبي يحيى من البلد سقا في يديه ويئس من غلابه، ودارت بينهم حرب تكافيا فيها. وهلك سليمان بن عثمان بن عبد الحق ابن أخي الأمير أبي يحيى. وانقلب يغمراسن إلى بلده. وعقد الأمير أبو يحيى على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة، ليوسف بن يزكاسن. واستعمل على الجباية عبد السلام الأوربي وداود بن يوسف. وانكفأ راجعاً إلى فاس. والله تعالى أعلم.

الخبر عن مهلك الأمير أبي يحيي وما كان أثر ذلك من الأحداث التى تمخضت عن استبدال أخيه يعقوب بن عبد الحق بالأمر:

لما رجع الأمير أبو يحيى من حرب يغمراسن بسجلماسة، أقام أياما بفاس. ثم

نهض إلى سجلماسة متفقدا لكورها، فانقلب منها عليلا. وهلك حتف أنفه على سرير ملكه في رجب سنة ست وخمسين، أمضى ما كان عزما، وأطول إلى تناول الملك يداً. اختطفته يد المنون عن شأنه، ودفن بمقبرة باب الفتوح من فاس، ضجيعا للمولى أبي محمد الفشتالي عما عهد لأهل بيته. وتصدى للقيام بأمره ابنه عمر، واشتمل عليه عامة قومه. ومالت المشيخة وأهل الحل والعقد إلى عمه يعقوب بن عبد الحق، وكان غائبا عن مهلك أخيه بتازى فلما بلغه الخبر أسرع اللحاق بفاس، وتوجهت إليه وجوه الأكابر. وأحس عمر بصاغية الناس إليه. وحرضه أتباعه على الفتك به، فاعتصم بالقصبة. وسعى الناس في الإصلاح بينهما، فتفادى يعقوب من الأمر، ودفعه إلى ابر أخيه، على أن يكون له بلاد نازى وبطوية وملوية. ولما لحق بتازى، واجتمع إليه كافة بني مرين، عذلوه فيما كان منه فاستلام. وحملوه على العودة في الأمر، ووعدوه من أنفسهم المظاهرة والمؤازرة

فأجاب، وبايعوه وصمدوا إلى فاس. وبرز عمر للقائه، فانتهى إلى المسجدين. ولما تراءى الجمعان خذله جنوده وأسلموه، فرجع إلى فاس مفلولا. وجه الرغبة إلى عمه أن يقطعه مكناسة. ونزل له عن الأمر.، فأجابه إلى ذلك. ودخل السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق مدينة فاس مملكا سنة سبع وخمسين، وتمشت طاعته في بلاد المغرب ما بين ملوية وأم ربيع وسجلماسة وقصر كتامة. واقتصر عمر على إمارة مكناسة، فتملكها أياما. ثم اغتاله من عشيره عمر وإبراهيم ابنا عمه: عثمان بن عبد الحق،

والعباس ابن عفه محمد بن الحق، فقتلوه وثاروا منه بدم كانوا يعتدونه عليه. وهلك لعام وبعض عام مرّ أمارته، فكفى يعقوب شأنه. واستقام لسلطانه، وذهب المنازع والمشاق عن أمره. وكان يغمراسن بعد مهلك قرنه الأمير أبي يحيى سما له الأمل في الأجلاب على المغرب، فجمع لذلك قومه واستجاش بني توجين ومغراوة، وأطمعهم في غيل الأسود. ونهضوا إلى المغرب حتى انتهوا إلى كلدامان.، صمد السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى لقائهم، فغلبهم ورجعوا على تعبية ومرّ يغمراسن ببلاد بطوية، فأحرق وانتسف واستباح، وأعظم فيها النكاية. ورجع السلطان إلى فاس، وتقبل مذهب أخيه الأمير أبي يحيى في فتح أمصار المغرب وتدويخ أقطاره. وكان مما أكرمه الله به أن فتح أمره باستنقاذ مدينة سلا من أيدي النصارى، فكان له فيها أثر جميل وذكر خالد، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فجاءة العدو مدينة سلا واستنقاذها من أيديهم:

كان يعقوب بن عبد الله قد استعمله الأمير أبو يحيى على مدينة سلا لما ملكها كما ذكرناه. فلما استرجعها الموحدون من يده، أقام يتقلب في جهاتها مرصدا لأهلها وحاميتها. ولما بويع عمه يعقوب بن عبد الحق أسفته بعض الأحوال، فذهب مغاضبا حتى نزل غبولة. وألطف الحيلة في تملك رباط الفتح وسلا ليعتدها ذريعة لما أسرفي نفسه، فتمت له الحيلة وركب عاملها ابن يعلو البحر فارا إلى أزمور. وخلف أمواله وحرمه، فتملك يعقوب بن عد الله البلد. وجاهر بالخلعان، وصرف إلى منازعة عمه السلطان أبي يوسف وجوه العزم، وداخل تجار الحرب في الإمداد بالسلاح. فتحاوروا في ذلك، وكثرت سفن المترددين بينهم، حتى كثروا أهلها واهتبلوا غرة يوم الفطر من سنة ثمان وخمسين عند شغل الناس بعيدهم. وثاروا بسلا، وسبوا الحرم وانتهبوا الأموال، وضبطوا البلد. وامتنع يعقوب بن عبد الله برباط الفتح، وطار الصريخ إلى السلطان أبي يوسف. وكان بتازى متشرفاً لأحوال يغمراسن، فنادى في قومه، وطاروا بأجنحة الخيول. ووصلها لوم وليلة، وتلاحقت به أمداد المسلمين من أهل الديوان والمطوعة. ونازلها أربع عشرة ليلة، ثم اقتحمها عليهم عنوة، وأثخن فيهم بالقمل. ثم رم بالبناء ما كان متثلما من سورها الغربي، حيث أمكنت منه الفرصة في البلد. وتناول البناء فيه بيده. والله لا يضيع عمل عامل.

وخشي يعقوب بن عبد الله بادرة السلطان، فخرج من رباط الفتح وأسلمه، فضبطه السلطان وثقفه. ثم نهض إلى بلاد تامسنا وأنفى، فملكها وضبطها. ولحق يعقوب بن عبد الله بحصن علودان من جبال غمارة، فامتنع به. وسرح السلطان ابنه أبا مالك عبد الواحد وعلي بن زيان لمنازلته. وسار إلى لقاء يغمراسن لقاءة المهادنة،

فلقيه بوادي محرمان. وافترقا على السلم ووضع أوزار الحرب. ورجع السلطان إلى المغرب، فخرج عليه بنو أخيه أولاد إدريس. ولحقوا بقصر كتامة. وشايعوا يعقوب ابن عمهم عبد الله على راية، واجتمعوا إلى كبيرهم محمد بن إدريس، فيمن إليهم من العشير والصنائع، فنهض إليهم واعتصموا بجبال غمارة. ثم استنزلهم واسترضاهم. وعقد لعامر بن إدريس سنة ستين على عسكر من ثلاثة آلاف فارس أو يزيدون من المطوعة من بني مرين، أغراهم إلى العدوة لجهاد العدو وحملهم، وفرض لهم. وشفع بها عمله في واقعة سلا، وهو أول جيش أجاز من بني مرين، فكان لهم في الجهاد والمرابطة مقامات محمودة وذكر خالد. تقبل سبيلهم فيها خلفهم من بعدهم حسبما نذكره.

وأقام يعقوب بن عبد الله خارجا بالنواحي منتقلا في الجهات، إلى أن قتله طلحة بن محلى بساقية غبولة من ناحية سلا سنة ثمان وستين، فكفى السلطان شأنه. وكان المرتضى منذ توالت عليهم الوقائع، واستمر الظهور لبني مرين، انحجز في جدرانه وتوارى بالأسوار عن عدوه، فلم يسم إلى لقاء زحف، ولا حدث نفسه إلى شهود حرب. واستأسد بنو مرين على الدولة، وشرهوا إلى التهام البقية، وأسفوا إلى منازلة مراكش دار الخلافة، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن منازلة السلطان أبي يوسف حضرة مراكش دار الخلافة وعنصر الدولة وما في اثر ذلك من نزوع أبي دبوس إليه وكيف نهبه للأمر وكان مهلك المرتضي علي يده ثم انتقض عليه:

لما فرغ السلطان من شأن الخوارج عليه من عشيره، استجمع لمنازلة المرتضى حدين في دارهم. ورأى أنه أوهن لدولتهم وأقوى لأمره عليهم. وبعث قومه واحتشد ممالكه، واستكمل تعبيته. وسار حتى انتهى إلى إيكليز، فاعتزم على ذلك سنة ستين. وشارف دار الخلافة. ثم نزل بعقرها، وأخذ بمخنقها. وعقد المرتضى على حربهم للسيد أبي العلاء إدريس المكنى بأبي دبوس ابن السيد أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن، فعبأ كتائبه ورتب مصافه. وبرز لمدافعتهم ظاهر الحضرة، فكانت بينهم حروب بعد العهد بمثلها، استشهد فيها الأمير عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق، وكانوا يسمون برطانتهم أيعجوب. ففت مهلكه في عضدهم، وارتحلوا عنها إلى عملهم، واعترضتهم عساكر الموحّدين بوادي أم ربيع. وعليهم يحيى بن عبد الله بن وانودين، فاقتتلوا في بطن الوادي. وانهزمت عساكر الموحدين. وكان في مسيل الوادي، كدى تحسر عنها غمر الماء وتبدو كأنها أرجل، فسميت الواقعة بها أم الرجلين. ثم سعى بعض سماسرة الفتن عند الخليفة المرتضى، في ابن عفه وقائد حربه السيد أبي دبوس بطلبه الأمر لنفسه. وشعر بالسعاية، فخشي بادرة المرتضى. ولحق بالسلطان أبي يوسف مدخله إلى فاس من منازلته آخر سنة إحدى وستين نازعا إليه، فأقام عنده ملياً. ثم سأل منه الإعانة على أمره بعسكر يمده، وآلة يتخذها لملكه، ومال يصرفه في ضروراته. على أن يشركه في الغنيمة والفتح والسلطان، فأمده بخمسة آلاف من بني مرين، وبالكفاية من المال والمستجاد من الالة. وأهاب له بالعرب والقبائل من أهل ممالكه ومن سواهم أن يكونوا يدا معه. وسار في الكتائب حتى شارف الحضرة. ودس إلي أشياعه ومن يداخله من الموحّدين في أمره، فثاروا بالمرتضى وأجهضوه عنها، فلحق بازفور مستجيشا بصهره ابن عطوش. ودخل

أبو دبوس الحضرة في المحرم فاتح خمس وستين، وتقبض ابن عطوش عامل أزمور على المرتضى، واقتاده أسيراً إلى أبي دبوس. فبعث مولاه مزاحما، احتز رأسه في طريقه، واستقل بالخلافة، وصبابة آل عبد المؤمن. ثم بعث إليه السلطان في الوفاء بالمشارطة، فعتا واستنكف. ونقض العهد وأساء الخطاب، فنهض إليه في جموع بني مرين وعساكر المغرب، فخام عن اللقاء وانحجر بمراكش. ونازله السلطان أياما تباعا. ثم سار في الجهات والنواحي يحطم الزرع، وينسف الأقوات. وعجز أبو دبوس عن دفاعه، فاستجاش عليه بيغمراسن بن زيان ليفت في عضده، ويشغله من ورائه، ويأخذ بحجزته عن التهامه على ما نذكر لو أمهلته الأيام، وانفسح له الأجل.

الخبر عن وقيعة تلاغ بين السلطان يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان بإغراء، أبي دبوس وتضريبه:

لما نازل السلطان أبو يوسف حضرة ئراكش، وقعد على براثنه للتوثب عليه، لم

يجد أبو دبوس وليجة من دون قصده، إلا استجاشته بيغمراسن وقومه عليه، ليأخذوا بحجزته عنه، ويشغلوه من ورائه. فبعث إليه الصريخ في كشف بلواه ومدافعة عدوه. وأكد العهد وأسنى الهدية، وشمر يغمراسن لاستنقاذه وجذب عدوه من ورائه. وشن الغارات على ثغور المغرب، وأضرمها نارا، فأهاج عليه وعلى قومه من السلطان يعقوب ليثاً عاديفا، وأرهف منه عزما ماضيا. وأفرج يعقوب عن مراكش بعزم النهوض إلى تلمسان، ونزل بفاس، وتلوم بها أياما حتى أخذ أهبة الحرب، وأكمل استعدادها. ورحل فاتح سنة ست وستين، وسلك على كرسيف، ثم على تافراطا وتزاحف الفريقان بوادي تلاغ، وعبا كل منهم كتائبه ورتب مصافه. وبرز النساء سافرات الوجوه في سبيل التحريض، يحيين ويعدين ويرغبن. ولما فاء الفيء ومال النهار، وكثر حشود المغرب جموع بني عبد الواد ومن إليهم، انكشفوا ومنحوا العدو أكتافهم. وهلك أبو حفص عمر كبير والد يغمراسن وولي عهده في جماعة من عشيره، ذكرناهم في أخباره. وأخذ يغمراسن بأعقاب قومه، فكان له ردءاً إلى أن خلصوا من المعترك، ووصلوا إلى بلادهم في جمادى من سنتهم. وعاد السلطان أبو يوسف إلى مكانه من-ضار مراكش. والله أعلم.

الخبر عن السفارة والمهاداة التي وقعن بين السلطان يعقوب بن عبد الحق وبين المستنصر الخليفة بتونس من أل أبي حفص.

كان الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص، منذ دعا لنفسه بتونس

سنة خمس وعشرين طموحاً إلى ملك مراكش، مقر الدعوة، ومنبعث الدولة، وأصل الخلافة. وكان يؤمل لذلك زناتة، وإلا فلما دونه من خضد شوكة آل عبد المؤمن، وتقليم أظفار بأسهم، وردهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه. وتغلب على تلمسان سنة أربعين. ودخل يغمراسن بن زيان في دعوته، وصار فئة له وشيعته على عدوه كما ذكرناه، فوصل به جناحه للمدافعة. وناغاه بنو مرين في مراسلة ابن أبي حفص ومخاطبته، وتخفيض الشأن عليه فيما يهمه من شأن عدوه، وحمل ما يفتحون من بلاد المغرب على البيعة له والطاعة: مثل فاس

ومكناسة والقصر. وكان هو يلاطفهم بالتحف والهدايا، ويريهم البر في الكتاب والخطاب والمعاملة وتكريم الوفد، غير سبيل آل عبد المؤمن فكانوا يجنحون

بذلك إلى تجديد مراسلته، وإيفاد قرابتهم عليه. وولي ابنه المستنصر من بعد، سنة سبع وأربعين، فتقبل مذاهب أبيه، وأوفى عليها بالإيعاز إليهم بمنازلة مراكش، وضمان الإنفاق عليهم فيها، فكان يبعث لذلك أحمالا من المال والسلاح وأعداد وافرة من الخيل بمراكبها للحملان، ولم يزل دأبه ذلك معهم. ولما فعل ابن أبي دبوس فعلته في نقض العهد، واستجمع السلطان لمنازلته، قدم بين يدي عمله مراسلة الخليفة المستنصر، يخبره الخبر، ويتلطف له في استنزال المدد، فأوفد عليه ابن أخيه عامر بن إدريس بن عبد الحق، وأصحبه عبد الله بن كندوز العبد الوادي كبير بني كمي، وقريع بني يغمراسن، الذي ثار يغمراسن من أبيه كندوز بأبيه زيان كما ذكرناه في أخبارهم. وكان خلص إليه من حضرة المستنصر، فلقاه مبرة وتكريما. وأوفد معهما الكاتب أبا عبد الله محمد بن محمد الكناني من صنائع دولة آل عبد المؤمن، كان نزع إلى أخيه الأمير أبي يحيى لما رأى من اختلال الدولة، وأنزله مكناسة، وآثره بالصحبة والخلة. فجمع له يعقوب بن عبد الحق في هذا الوفد من الأشراف من يحسن الرياسة، ويعرب عفا في الضمائر، ويدل على شرف مرسله. فوفدوا على المستنصر سنة خمس وستين، وأدوا رسالتهم وحركوا له جوار المظاهرة على صاحب مراكش وكبح عنانه، فحن واهتز سرورا من أعواده، ولقاهم مبرة التكريم وأحسن النزل. ورد الأمير عامر بن إدريس وعبد الله بن كندوز لوقتهما. وتمسك بالكناني من بينهم لمصاحبة وفده، فطال مقامه عنده إلى أن كان من فتح مراكش ما نذكره.

ثم أوفد المستنصر على السلطان يعقوب بن عبد الحق آخر سنة تسع وستين بعدها

شيخ الجماعة من الموحّدين لعهده، أبا زكريا يحيى بن صالح الهنتاتي، مع جماعة من مشيخة الموحّدين في مرافقة محمد الكناني. وبعث معهم إلى السلطان هدية سنية يلاطفه بها ويتاحفه، انتخب فيها من الجياد والسلاح وأصناف الثياب الغريبة العمل ما انتقاه. ووقف رضاه وهمته على الاستكثار منه، فحسن موقعها وتحدث بها. وانقلب وفده أحسن منقلب بعد أن تلطف محمد الكناني في ذكر الخليفة المستنصر على منبر مراكش، فتم له. وشهده وفد الموحدين، فعظم سرورهم وانقلبوا محبورين مسرورين. واتصلت بعد ذلك مهاداة المستنصر ليعقوب بن عبد الحق إلى أن هلك وجرى ابنه الواثق من بعده على سننه، فبعث إليهم سنة سبع وسبعين هدية حافلة، بعث بها القاضي أبا العبّاس

الغماري قاضي بجاية، فعظم موقعها. وكان لأبي العبّاس الغماري بالمغرب ذكر تحدث به الناس. والله أعلم.

الخبر عن فتح مراكش ومهلك أبي دبوس وانقراض دولة الموحّدين من المغرب:

لما رجع السلطان أبو يوسف من حرب يغمراسن، ورأى أنه قد كف من غربه ورد

من كيده وكيد أبي دبوس صريخه، صرف حينئذ عزائمه إلى منازلة مراكش، والعودة إلي مضايقتها كما كان لأول أمره. ونهض لغزاته من فاس في شعبان من سنته. ولما أجاز أم ربيع، بث السرايا، وسرح الغارات. وأطلق الأيدي والأعنة للنهب، فحطموا من زروعها وانتسفوا آثارها. وتقرى نواحيها كذلك بقية عامه. ثم غزا عرب

الخلط من حشم بتادلا، فأثخن فيهم واستباحهم. ثم نزل وادي العبيد، ثم غزا بلاد صنهاجة. ولم يزل ينتقل ركابه بأنحاء البلاد المراكشية وأحوازها، حتى حصرت صدور بني عبد المؤمن وقومه. وأغراهم أولياء الدولة من عرب جشم بنهوض الخليفة لمدافعة عدوه، فجمع لذلك وبرز في جيوش ضخمة وجموع وافرة. واستجره أبو يوسف بالفرار أمامه ليبعد عن مدد الصريخ، فيستمكن منه حتى نزول عفو. ثم كر إليه والتحم القتال، فاختل مصافه وفر عساكره. وانهزم يريد مراكش، فأدركوه دون أمله. وإعتاقه أجله، فطعن في مفره وخر صريعا لليدين والفم واحتز رأسه. وهلك بمهلكه وزيره عمران، وكاتبه علي بن عبد الله المغيلي. وارتحل السلطان أبو يوسف إلى مراكش. وفر من كان بها من الموحدين، فلحقوا بجبل تينملل. وبايعوا لإسحق أخي المرتضى، فبقي ذبالة هنالك سنين. ثم تقبض عليه سنة أربع وسبعين، وسيق إلى السلطان هو وأبو سعيد ابن عمه السيد أبي الربيع والقبائلي وأولاده فقتلوا جميعا. وانقرض أمر بني عبد المؤمن. والله وارث الأرض ومن عليها.

وخرج الملأ وأهل الشورى من الحضرة إلى السلطان، فأمنهم ووصلهم. ودخل مراكش في بروز فخم فاتح سنة ثمان وستين. وورث ملك آل عبد المؤمن وتولاه، واستوسق أمره بالمغرب، وتطامن الناس لبأسه، وسكنوا لظل سلطانه. وأقام بمراكش إلى رمضان من سنته. وأغزى ابنه الأمير أبا مالك إلى بلاد السوس فافتتحها وأوغل في ديارها ودوخ أقطارها. ثم خرج بنفسه إلى المغرب لبلاد درعة، فأوقع بهم الواقعة المشهورة التي خضدت من شوكتهم. ورجع لشهرين من غزاته. ثم أجمع الرحلة إلى داره بفاس فعقد على مراكش وأعمالها لمحمد بن علي من كبار أوليائهم، ومن أهل خؤلته، وكان من طبقة الوزراء، حسبما يأتي التعريف به وبعشيره. وأنزله بقصبة مراكش، وجعل المصالح في أعمالها إلى نظره. وعهد إليه بتدويخ الأقطار، ومحو آثار بني عبد المؤمن. وفصل إلى حضرته وأراح بسلا، فكان من خبر عهده لابنه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن عهد السلطان لابنه أبي مالك. وما كان عقب ذلك من خروج القرابة عليه أولاد أخيه إدريس و إجازتهم إلي الأندلس:

لما تلوم السلطان بسلا، منصرفه من رباط الفتح، وأراح بها ركابه، عرض له طائف من المرض، ووعك وعكاً شديداً. فلما أبل جمع قومه، وعهد بأمره فيهم لابنه أبي مالك عبد الواحد كبير ولده، بما علم من أهليته لذلك. وأخذ له البيعة عليهم، وأعطوها طواعية. وأسف القرابة من ولد أخويه عبد الله وإدريس لأمهما سوط النساء، ووجدوا في أنفسهم لما يرون أن عبد الله وإدريس أكابر ولد عبد الحق، ولهما التقدم على من بعدهما من ولده، وأنهما أحق بالأمر. فعادت هيف إلى أديانها، ونفسوا على ابن السلطان ما أخذ له من البيعة والعهد. ونزعوا عنه إلى جبل علودان من جبال غمارة، عش خلافهم، ومدرج فتنتهم، وذلك سنة تسع وستين. ورياستهم يومئذ لمحمد بن إدريس وموسى بن رحو بن عبد الله. وخرج معهم ولد أبي عياد بن عبد الحق. وأغزاهم السلطان ولده أبا يعقوب يوسف في خمسة آلاف من عسكره، فأحاط بهم وأخذ بمخنقهم. ولحق به أخوه مالك في عسكره، ومعه مسعود بن كانون شيخ سفيان. ثم خرج في أثرهم السلطان أبو يوسف،

واجتمع معسكرهم بتافركا ونازلوهم ثلاثا. وهلك في حروبهم منديل بن ورتطليم. ولما رأوا أن قد احيط بهم سألوا الأمان، فبذله وأنزلهم. واستل سخائمهم، ومسح ما في صدورهم، ووصل بهم إلى حضرته. وسألوا منه الإذن في اللحاق بتلمسان حياء من كبر ما ارتكبوا، فأذن لهم. وأجازوا البحر إلى الأندلس، وخالفهم عامر بن إدريس، لما أنس من صاغية السلطان إليه، فتخلف عنهم بتلمسان حتى توثق لنفسه بالعهد وعاد إلى قومه بعد منازلة السلطان تلمسان كما نذكره الآن. واحتل بنو إدريس وعبد الله وابن عمهم عياد بالأندلس، على حين أقفر من الحامية

جوها، واستأسد العدو على ثغرها. وتحلبت شفاههم لالتهامها، فاحتلوها اسودا ضارية، وسيوفاً ماضية، معودين لقاء الأبطال ولراع الحتوف والنزال. مستغلظين بخشونة البداوة وصرامة الغزو وبسالة التوحش، فعظمت نكايتهم في العدو واعترضوا شجى في صدره دون الوطن الذي كان طعمة له في ظنه. وارتدوه على عقبه، ونشطوا من همم المسلمين المستضعفين وراء البحر، وبسطوا من آمالهم لمدافعة طاغيتهم. وزاحموا أمير الأندلس في رياستها بمنكب، فتجافى لهم عن خطة الحرب ورياسة الغزاة من أهل العدوة من أعياصهم وقبائلهم ومن سواهم من امم البرابرة. وتناقلوها، وساهموه في الجباية، بفرض العطاء والديوان فبذله لهم واستمروا على ذلك لهذا العهد. وحسن أثرهم فيها كما سنذكره بعد في أخبار القرابة. ثم أعمل السلطان نظره في غزو تلمسان على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حركة السلطان أبي يوسف إلى تلمسان وواقعته علي يغمراسن وقومه بإيسلي:

لما غلب السلطان أبو يوسف على بني عبد المؤمن، وفتح مراكش، واستولى على ملكهم سنة ثمان وستين، وعاد إلى فاس كما فكرنا، تحرك ما كان في نفسه من ضغائن يغمراسن وبني عبد الواد، وما أسفوا به من تخذيل عزائمه ومجاذبته عن قصده. ورأى أن واقعة تلاغ لم تشف صدره، ولا أطفأت نار موجدته، فأجمع أمره على غزوهم. واقتدر بما صار إليه من الملك والسلطان على حشر أهل المغرب لحربهم وقطع دابرهم، فعسكر بظاهر فاس. وسرح ولده وولي عهده أبا مالك إلى مراكش في خواصه ووزرائه، حاشرين في مدائنها وضواحيها، وقبائل العرب والمصامدة، وبني ورا وغمرة وصنهاجة، وبقايا عساكر الموحّدين بالحضرة، وحامية الأمصار من جند الروم وناشبة الغزو. فاستكثر من أعدادهم، واستوفى حشدهم. واحتفل السلطان بحركته، وارتحل إلى فاس سنة سبعين وستماية وتلوم بملوية إلى أن لحقته الحشود، وتوافت إليه أمداد العرب من قبائل جشم أهل تامسنا، الذين هم سفيان والخلط والعاصم وبنو جابر، ومن معهم من الاثبج، قبائل ذوي حسان والشبانات من المعقل أهل السوس الأقصى، وقبائل رياح أهل أزغار والهبط. فاعترض هنالك عساكره، وعبأ مواكبه، فيقال بلغت ثلاثين ألفا. وارتحل يريد تلمسان. ولما انتهى إلى أنكاد، وافته رسل ابن الأحمر هنالك، ووفد المسلمين

بالأندلس صريخاً على العدو. ويستجيشون بإخوانهم المسلمين ويسألونه الإعانة، فتحركت همته للجهاد ونصر المسلمين من عدوهم. ونظر في صرف الشواغل عن ذلك، وجنح إلى السلم مع يغمراسن. وصوب الملأ في

ذلك رأيه لما كانوا عليه من إيثار الجهاد. وانتدب جماعة من المشيخة إلى السعي في إصلاح بينهما، والكف عن غرب عداوقما.

وساروا إلى يغمراسن، فوافوه بظاهر تلمسان قد أخذ أهبة الحرب واستعد للقاء. واحتشد زناتة أهل ممالكه بالشرق من بني عبد الواد وبني راشد ومغراوة وأحلافهم من العرب زغبة. فلج في ذلك واستكبر، وصم عن إسعافهم. وزحف في جموعه والتقى الجمعان بوادي ايسلى من بسائط وجدة، والسلطان أبو يوسف قد عبأ كتائبه، ورتب مصافه. وجعل ولديه الأميرين أبي مالك وأبي يعقوب في الجناحين. وسار في القلب، فدارت بينهم حرب شديدة، انجلت عن مهلك فارس بن يغمراسن، وجماعة من بني عبد الواد. وكاثرقم حشود المغرب الأقصى وقبائله، وعسكر الموحّدين والبلاد المراكشية، فولوا الأدبار. وهلك عامة عسكر الروم لثباقم بثبات السلطان، فطحنتهم رحى الحرب. وتقبض على قائدهم بيرنبس. ونجا يغمراسن بن زيان في ففه مدافعا دون أهله إلى تلمسان. ومرّ بفماطيطة، فأضرمها نارا. وانتهب معسكره، واستبيحت حرمه. وأقام السلطان أبو يوسف على وجدة حتى خربها، وأضرع بالتراب أسوارها، وألصق بالرغام جدرانها. ثم نهض إلى تلمسان، فحاصرها أياما وأطلق الأيدي في ساحاقا بالنهب والعيث. وشن الغارات على البسائط، فاكتسحها سبيا ونسفها نسفا.

وهلك في طريقه إلى تلمسان وزيره عيسى بن ماساي، وكان من علية وزرائه وحماة ميدانه، له في ذلك أخبار مذكورة. وكان مهلكه في شوال من هذه السنة. ووصله بمثواه من حصارها محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، ومستصرخه على بني عبد الواد، لما نال منه يغمراسن من صيم القهر وذل الغلب والتحيف. وصله في كافة قبيله مباهياً بآلته، فأكرم السلطان أبو يوسف وفادته، واستركب الناس للقائه وبرور مقدمه. واتخذوا زينة السلاح لمباهاته. وأقام محاصرا لتلمسان معه أياماً حتى وقع اليأس وامتنع البلد، واشتدت شوكة حاميته. ثم أجمع السلطان أبو يوسف على الإفراج عنها، وأشار على الأمير محمد بن عبد القوي وقومه بالفصول قبل قفوله، وأن يغذوا السير إلى

بلادهم. وملأ حقائبهم بإتحافه، وجنب لهم مابة من المقربات بمراكبها، وأراح عليهم ألف ناقة حلوب. وعمهم بالصلات من الخلع والكساء الفاخرة. واستكثر لهم السلاح والفازات والفساطيط، وحملهم على الظهر، وارتحلوا وتلوم السلطان أياما لمنجاقم إلى مقرهم من جبل وانشريش حذرا من غائلة يغمراسن في انتهاز فرصة فيهم.

ثم قفل إلى فاس ودخلها مفتتح إحدى وسبعين. وهلك ولده الأمير أبو مالك ولي

عهده لأيام من مقدمه. فأسف لمهلكه. ثم تعزى بالصبر الجميل عن فقده، ورجع إلى حاله في افتتاح بلاد المغرب. وكان في غزوته هذه ملك حصن تاونت، وهو معقل مطغرة، وشحنه بالأقوات لما رآه ثغرا مجاورا لعدوه. وأسلمه لنظر هارون شيخ مطغرة. ثم ملك حصن مليلة بساحل الريف مرجعه من غزاته هذه. وأقام هارون بحصن تاونت، ودعا لنفسه. ولم يزل يغمراسن يردد الغزو إليه حتى فر من الحصن وأسلمه سنة خمس

وسبعين. ولحق بالسلطان أبي يوسف كما ذكرناه في أخباره عند ذكر قبيلة مطغرة. وكان من شأنه ما ذكرناه هنالك.

الخبر عن افتتاح مدينة طنجة وطاعة أهل سبتة وفرض الأتاوة عليهم وما قارن ذلك من الأحداث:

كانت هاتان المدينتان سبتة وطنجة، مذ أول دولة الموحّدين من أعظم عمالاتهم وأكبر ممالكهم، بما كانت ثغر العدوة ومرقى الأساطيل، ودار إنشاءة الآلة البحرية، وفرضة الجواز إلى الجهاد. فكانت ولايتها مختصة بالقرابة من السادة بني عبد المؤمن. وقد ذكرنا أن الرشيد كان عقد على أعمالها لأبي علي بن خلاس من أهل بلنسية، وأنه بعد استفحال الأمير أبي زكريا بإفريقية، ومهلك الرشيد، صرف الدعوة إليه سنة أربعين. وبعث إليه بالمال والبيعة مع ابنه أبي القاسم. وولى على طنجة يوسف بن محمد بن عبد الله بن أحمد الهمداني المعروف بابن الأمين، قائدا على الرجل الأندلسيين، وضابطا للقصبة. وعقد الأمير أبو زكريا على سبتة لأبي يحيى بن أبي زكريا، ابن عفه يحيى الشهيد، ابن الشيخ أبي حفص فنزل بها. فاستراب أبو علي بن خلاص من العواقب عند مهلك ابنه الوافد على السلطان غريقا في البحر، فرحل بجملته إلى تونس في السفن. وأراح ببجاية، فكان فيها هلاكه سنة ست وأربعين. ويقال بل

هلك في سفينته، ودفن ببجاية. ولما هلك الأمير أبو زكريا في سنة سبع بعدها انتقض أهل سبتة على ابنه المستنصر، وطردوا ابن الشهيد، وقتلوا العضال الذين كانوا معه، وصرفوا الدعوة إلى المرتضى. وتولى كبر ذلك حجبون الزنداحي بمداخلة أبي القاسم العزفي كبير المشيخة بسبتة، وأعظم تجلة. ونشأ في حجر أبيه الفقيه الصالح أبي العبّاس أحمد مكفوفا بالجلالة، مغذواً بالعلم والدين، بما كان له فيهما. قدم إلى أن هلك. فأوجب أهل البلد لابنه ما عرفوه لحقه وحق أبيه من قبله، فكانوا يفزعون إليه في المهمات. ويسلمون له في الشورى، فأغري الزنداحي بهذه الفعلة ففعلها، فعقد المرتضى لأبي القاسم العزفي على سبتة مستقلا من غير إشراف أحد من السادة ولا من الموحدين. واكتفى بغنائه في ذلك الثغر. وعقد لحجبون الزنداحي على قيادة الأساطيل بالمغرب، فورثها عنه بنوه إلى أن زاحمهم العزفي بمناكب رياسته، فقوضوا عن سبتة: فمنهم من نزل بمالقة على بني الأحمر، ومنهم من نزل ببجاية على آل أبي حفص. ولهم في الدولتين آثار تشهد برياستهم. واستقل الفقيه أبو القاسم العزفي برياسة سبتة، وأورثها بنيه من بعده على ما نذكره بعد.

وكانت طنجة تالية سبتة في سائر الأحوال وتبعاً لها، فاتبع ابن الأمين صاحبها أمارة الفقيه أبي القاسم. ثم انتقض عليه لسنته واستبد، وخطب لابن أبي حفص، ثم للعباسي، ثم لنفسه. وسلك فيها مسلك العزفي في سبتة. ولبثوا كذلك ما شاء الله حتى إذا ملك بنو مرين المغرب، وانبثوا في شعابه، ومدوا اليد إلى ممالكه فتناولوها، ونازلوا معاقله وحصونه فاقتحموها. وهلك الأمير أبو يحيى بن عبد الحق وابنه عمر من بعده. وتحيز بنوه في ذويهم وأتباعهم وحشمهم إلى ناحية طنجة وأصيلا، فأوطنوا ضاحيتها، وأفسدوا سابلتها، وضيقوا على ساكنها، واكتسحوا ما حواليها. وشارطهم ابن الأمين على خراج معلوم، على أن يكفوا الأذية، ويحموا الحوزة، ويصلحوا السابلة. فاتصلت يده بأيديهم، وترددوا إلى البلد لاقتضاء حاجاتهم. ثم مكروا وأضمروا

الغدر. ودخلوا في بعضى أيامهم متأبطين السلاح، وفتكوا بابن الأمين غيلة، فثارت به العامة لحينهم. واستلحموا لمصرع واحد سنة وستين. واجتمعوا إلى ولده وبقيت في ملكتهم خمسة أشهر. ثم استولى عليها العزفي، فنهض إليها بعساكره من الرجل برأ وبحرا واستولى عليها. وفر ابن الأمين، ولحق بتونس، ونزل على المستنصر. واستقرت طنجة في إيالة

العزفي، فضبطها وقام بأمرها، وولى عليها من قبله. وأشرك الملأ من إشرافه في الشورى. ونازلها الأمير أبو مالك سنة ست وستين، فامتنعت عليه. وأقامت على ذلك ستاً، حتى إذا انتظم السلطان أبو يوسف بلاد المغرب في ملكته، واستولى على حضرة مراكش، ومحا دولة بني عبد المؤمن، وفرغ من أمر عدوه يغمراسن، وهم بتلك الناحية واستضافة عملها، فأجمع الحركة إليها ونازل طنجة مفتتح اثنتين وسبعين، بما كانت في البسيط من دون سبتة، وأقام عليها أياما. ثم اعتزم على الإفراج، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وافترق بينهم. وتنادى بعض الناشبة من السور بشعاب بني مرين، فبادر سرعان الناس إلى تسور حيطانها، فملكوه عليهم وقاتلوا أهل البلد ظلام ليلتهم. ثم دخلوا البلد من صبيحتها عنوة، ونادى منادي السلطان في الناس بالأمان والعفو عن أهل البلد، فسكن ومهد وفرغ من شأن طنجة. ثم بعث ولده الأمير أبا يعقوب في عساكر ضخمة، لمنازلة العزفي بسبتة، وإرغامه على الطاعة، فنازلها أياما، ثم لاذ بالطاعة على المنعة. واشترط على نفسه خراجاً يؤديه كل سنة، فتقبل السلطان منه. وأفرجت عساكره عنهم، وقفل إلى حضرته. وصرف نظره إلى فتح سجلماسة، وإزعاج بني عبد الواد المتغلبين عليها، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن فتح سجلماسة الثاني ودخولها عنوة علي بني عبد الواد والمنبات من عرب المعقل:

قد ذكرنا ما كان من تغلب الأمير أبي يحيى بن عبد الحق على مدينة سجلماسة

وبلاد درعة، وأنه عقد عليها وعلى سائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن، وأنزل معه ابنه مفتاحا المكنى بأبي حديد في مشيخة لحياطتها. وأن المرتضى سرح وزيره ابن عطوش سنة أربع وخمسين في العساكر لاسترجاعها، فنهض إليه الأمير أبو يحيى وشرده عنها ورجعه على عقبه. وأن يغمراسن بن زيان، من بعد واقعة أبي سليط سنة خمس وخمسين، قصدها لعورة دل عليها، وغرة أمل أصابتها. فسابقه إليها أبو يحيى، ومانعه من دونها، ورجع عنها خائب المسعى، مفلول الحامية. وكان الأمير أبو يحيى من بعد ما عهد عليها ليوسف بن يزكاسن، عقد عليها من بعده لسنة ونصفها من ولايته ليحيى بن أبى منديل كبير بني عسكرأقتالهم، ومقاسميهم نسب محمد بن ورصيص ثم عقد عليها

لشهرين لمحمد بن عمران بن عبلة من بني يرنيان صنائع دولتهم. واستعمل معه على الجباية أبا طالب بن الحبسي، وجعل مصلحة الجند بها إلى نظر أبي يحيى القطراني، وملكه قيادتهم. وأقاموا على ذلك سنتين اثنتين. ولما هلك الأمير أبو يحيى، وشغل السلطان أبو يوسف بحرب يغمراسن، ومنازلة مراكش، سما للقطراني أمل في الاستبداد بها ودخل في ذلك بعض أهل الفتن وظاهره يوسف بن فرج العزفي وفتكوا بعمار الورندغزاني شيخ الجماعة بالبلد. وائتمروا بمحمد بن عمران بن عبلة، فخرج ولحق بالسلطان، فاستبد القطراني بها. ثم ثار به

أهل البلد سنة ثمان وخمسين، لسنة ونصفها من لدن استبداده، وقتلوه. وصرفوا بيعتهم إلى الخليفة المرتضى بمراكش. وتولى كبر ذلك القاضي ابن حجاج وعلي بن عمر، فعقد له المرتضى عليهم. وأقام بها أميرا. ونازلته عساكر بني مرين والسلطان أبو يوسف سنة ستين. ونصب عليها آلات الحصار، فأحرقوها وامتنعوا، فأفرج عنهم. وأقام علي بن عمر في سلطانه ذلك ثلاث سنين، ثم هلك. وكان الأمير يغمراسن بن زيان، منذ غلب الموحّدين على تلمسان والمغرب الأوسط، وصار في ملكته، تحيز إليه من عرب المعقل قبيل المنبات من ذوي منصور، بما كانت مجالات المعقل مجاورة لمجالات بني بادين في القفر. وإنما ارتحلوا عنها من بعد ما جأجأ يغمراسن ببني عامر من مجالاتهم بمصاب ببلاد بني يزيد، فزاحموا المعقل بالمناكب عن مجالاتهم ببلاد فيكيك وصا. ورحلوهم إلى ملوية وما وراءها من بلاد سجلماسة، فملكوا تلك المجالات.

ونبذ يغمراسن العهد إلى ذوي عبيد الله منهم. واستخلص المنبات هؤلاء، فكانوا
له حلفا وشيعة ولقومه ودعوته خالصة. وكانت سجلماسة في مجالاتهم، ومنقلب ظعنهم وناجعتهم، ولهم فيها طاعة معروفة. فلما هلك علي بن عمر آثروا يغمراسن بملكها، فحملوا أهل البلد على القيام بدعوته. وخاطبوه وجأجأوا به، فغشيهم بعساكره وملكها وضبطها. وعقد عليها لعبد الملك بن محمد بن علي بن قاسم بن درع من ولد محمد بن زكدان بن تيدوكسن، ويعرف، بابن حنينة نسبة إلى أم أبيه أخت يغمراسن بن حمامة. وأنزل معهما ولده الأمير يحيى لا"قامة الرسم الملوكي. ثم أداله بأخيه من السنة الأخرى وكذا كان شأنه في كل سنة. ولما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب، وانتظم أمصاره ومعاقله في طاعته، وغلب بني عبد المؤمن على دار خلافتهم، ومحا رسمهم، وافتتح
طنجة، وطوع سبتة مرقى الجواز إلى العدوة وثغر المغرب، سما أمله إلى بلاد القبلة، فوجه عزمه إلى انتزاع سجلماسة من أيدي بني عبد الواد المتغلبين عليها وإدالة دعوته فيها من دعوتهم، فنهض إليها في العساكر، والحشود في رجب من سنة اثنتين وسبعين. فنازلها وتد حشد إليها أهل المغرب أجمع، من زناتة والعرب والبربر، وكافة الجنود والعب عساكر، ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات، وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانه أمام النار الموقدة في البارود، بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة باريها. فأقام عليها حولا كريتا يغاديها القتال ويراوحها، إلى أن سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفة من سورها بإلحاح الحجارة من المنجنيق عليه. فبادروا إلى اقتحام البلد، فدخلوها عنوة من تلك الفرجة في صفر من سنة ثلاث وسبعين. فقتلوا المقاتلة والحامية، وسبوا الرعية، وقتل القائدان عبد الملك بن حنينة ويغمراسن بن حمامة، ومن كان معهم من بني عبد الواد وامراء المنبات. وكمل فتح بلاد المغرب للسلطان أبي بوسف، وتمشت طاعته في أقطاره. فلم يبق فيه معقل يدين بغير دعوته، ولا جماعة تتحيز إلى غيرفيئته، ولا أمل ينصرف إلى سواه، ولما كملت له نعم الله في استيساق ملكه وتمهيد أمره، انصرف أمله إلى الغزو وإيثار طاعة الله بجهاد أعدائه، واستنقاذ المستضعفين وراء البحر من عباده على ما نذكر. ولما انكفأ راجعا من سجلماسة، قصد مراكش من حيث جاء. ثم قفل إلى سلا، فأراح بها أياما، ونظر في شؤونها، وسد ثغرها. وبلغه الخبر بوفادة أبي طالب ابن

صاحب سبتة الفقيه أبي القاسم العزفي على فاس، فأكد السبر إلى حضرته، وأكرم وفادته، وأحسن منقلبه إلى أبيه، مملوء الحقائب ببرة، رطب اللسان بشكره. ثم شرع في إجازة ولده إلى العدو، كما نذكر الآن إن شاء الله نعالى.

الخبر عن شأن الجهاد وظهور السلطان أبي يوسف علي النصاري وقتل زعيمهم دننه وما قارن ذلك:

كانت عدوة الأندلس مذ أول الفتح ثغرا للمسلمين، فيه جهادهم ورباطهم ومدارج شهادتهم وسبيل سعادتهم. وكانت مواطنهم فيه على مثل الرضف، وبين الظفر والناب من أسود الكفر، لتوفر أمتهم في جوارها، وأحاطتهم بها من جميع جهاتها وحجز البحر

بينهم وبين إخوانهم المسلمين. وقد كان عمر بن عبد العزيز رأى أن يخرج المسلمين منها لانقطاعهم عن قومهم وأهل دينهم، وبعدهم عن الصريخ. وشاور في ذلك كبار التابعين وأشراف العرب، فرأوه رأياً. واعتزم عليها لولا ما اعتاقه من المنية. وعلى ذلك، فكان للإسلام فيها اعتزاز على من جاورهم من أهل الكفر، بطول دولة العرب من قريش ومضر واليمن. وكانت نهاية عزهم وسورة غلبهم أيام بني امية بها، الطائرة الذكر، الباسطة جناحها على العدوتين منذ ثلاث مئين من السنين، أو ما يقاربها.

حتى انتثر سلكها بعد المائة الرابعة من الهجرة، وافترقت الجماعة طوائف، وفشلت ريح المسلمين وراء البحر بفناء دولة العرب. واعتز البربر بالمغرب، واستفحل شأنهم. وجاء دولة المرابطين، فجمعت ما كان مفترقا بالمغرب من كلمة الإسلام. وتمسكوا بالسنة، وتشوفوا إلى الجهاد. واستدعاهم إخوانهم من وراء البحر للمدافعة عنهم، فأجازوا إليهم وأبلوا في جهاد العدو أحسن بلاء. وأوقعوا بالطاغية ابن أذفونش يوم الزلاقة وغيرها. وفتحوا حصوناً واسترجعوا أخرى. واستنزلوا الثوار ملوك الطوائف، وجمعوا الكلمة بالعدوتين. وجاء على أثرهم الموحدون سالكين أحسن مذاهبهم، فكانت لهم في الجهاد آثار على الطاغية وأيام: منها يوم الأرك ليعقوب المنصور، وغيره من الأيام. حتى إذا فشلت ريح الموحدين، وافترقت كلمتهم. وتنازع الأمر سادة بني عبد المؤمن الأمراء بالأندلس، وتحاربوا على الخلافة. واستجاشوا بالطاغية وأمكنوه من كثير من حصون المسلمين طعمة على الاستظهاه، فخشي أهل الأندلس على أنفسهم وثاروا بالموحّدين وأخرجوهم.

وتولى كبر ذلك ابن هود بمراسية، وشرق الأندلس. وعم بدعوته سائر أقطارها،

وأقام فيها الدعوة للعباسيين، وخاطبهم ببغداد كما ذكرناه في أخباره، واستوفينا كلا مما وصفناه في مكانه. ثم عجز ابن هود عن الغربية لبعدها عنه، وفقده للعصابة المتناولة لها، وأنه لم تكن صنعته في الملك مستحكمة. وتكالب الطاغية على الأندلس من كل جهة. وكثر اختلاف المسلمين بينهم. وشغل بنو عبد المؤمن بما دهم المغرب من شأن بني مرين وزناتة، فتلافى محمد بن يوسف بن الأحمر أمر الغربية، وثار بحصنه أرجونة. وكان شجاعا قدما ثبتا في الحروب، فتلقف الكرة من يد ابن هود. خلع الدعوة العباسية، ودعا للأمير أبي زكريا بن أبي حفص سنة تسع وعشرين. فلم يزل في فتنة ابن هود

يجاذبه الحبل ويقارعه على عمالات الاندلس واحدة بعد أخرى، إلى أن هلك ابن هود سنة خمس وثلاثين.

وتكالب العدو خلال ذلك على جزيرة الأندلس من كل جانب. ووفر له ابن هود في الجزية، وبلغ بها أربعماية ألف من الدنانير في كل سنة. ونزل له عن ثلاثين من حصون المسلمين. وخشي ابن الأحمر أن يستغلظ عليه بالطاغية، فجنح هو إليه وتمسك بعروته، ونفر في جملته إلى منازلة إشبيلية نكاية لأهلها. ولما هلك الأمير أبو زكريا نبذت دعوة الحفصية، واستبد لنفسه، وتسمى بأمير المسلمين. ونازعه بالشرق أعقاب ابن هود، وبنو مردنيش. ودعاه الأمر إلى النزول للطاغية عن بلاد الفرنتيرة، تول عنها بأسرها. وكانت هذه المدة من سنة اثنتين وعشرين، إلى سنة سبعين، فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين، واستبيح حماهم، والتهم العدو بلادهم وأموالهم نهبا في الحرب، ووضيعة ومداراة في السلم. واستولى طواغيت الكفر على أمصارها وقواعدها، فملك ابن أذفونش قرطبة سنة ست وثلاثين، وجيان سنة أربع وأربعين، وإشبيلية سنة ست وأربعين.

وتملك قمص برشلونة مدينة بلنسية سنة سبع وثلاثين، إلى ما بينها من الحصون والقواعد والمعاقل، التي لا تعد ولا تحصى. وانقرض أمر الثوار بالشرق وتفرد ابن الأحمر بغرب الأندلس، وضاق نطاقه عن الممانعة دون البسائط الفيح من أرض الفرنتيرة وما قاربها. ورأى أن التمسك بها مع قلة العدد وضعف الشوكة مما يوهن أمره ويطمع فيه عدؤه، فعقد السلم للطاغية على النزول عنها أجمع. ولجأ بالمسلمين إلى سيف البحر معتصمين بأوعاره من عدوهم. واختار لنزله مدينة غرناطة. وابتنى بها لسكناه حصن الحمراء حسبما شرحنا ذلك كله في مواضعه. وفي أثناء هذا كله لم يزل صريخه ينادي بالمسلمين من وراء البحر، والملأ من أهل الأندلس يفدون على أمير المسلمين أبي يوسف للإعانة ونصر الملة، واستنقاذ الحرم والولدان من أنياب العدو. فلا يجد مفزعا إلى ذلك بما كان فيه من مجاذبة ا أحبل مع الموحدين، ثم مع يغمراسن. ثم تشغله بفتح بلاد المغرب وتدويخ أقطاره، إلى أن هلك السلطان أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الأحمر، المعروف بالشيخ وبأبي دبوس، لقبين كانا له على حين استكمل أمير المسلمين فتح المغرب وفراغه من شأن عدوه سنة إحدى وسبعين. على أن بني مرين كانوا يؤثرون الجهاد ويسمون إليه، وفي نفوسهم جنوح إليه وصاغية.

ولما استوحش بنو إدريس بن عبد الحق، وخرجوا سنة إحدى وستين على السلطان يعقوب بن عبد الحق واستصلحهم، انتدب الكثير منهم للغزو وإجازة البحر لصريخ المسلمين بالأندلس. واجتمع إليهم من مطوعة بني مرين عسكر ضخم من الغزاة، ثلاثة آلاف أو يزيدون. وعقد السلطان على ذلك العسكر لعامر بن إدريس، وفصلوا إلى الأندلس، فكان لهم فيها ذكر ونكاية في العدو. وكان الشيخ ابن الأحمر عهد إلى ولده القائم بالأمر من بعده محمد، الشهير بالفقيه، لانتحاله طلب العلم أيام أبيه. وأوصاه بأن يتمسك بعروة أمير المسلمين، ويخطب نصره، ويدرأ به وبقومه عن نفسه وعن المسلمين تكالب الطاغية فبادر لذلك حين مواراة أبيه، وأوفد مشيخة الأندلس كافة عليه، ولقيه وفدهم منصرفا من فتح سجلماسة، خاتم الفتوح بالثغور المغربية ومقاد الملك. وتنادوا للإسلام بالثأر، وألقوا إليه كنه الخبر عن كلب العدو على المسلمين، وثقل وطأته، فحيا وفادتهم وبر وساهم. وبادر لإجابة داعي الله واستنام الجنة. وكان أمير المسلمين منذ أول أمره مؤثرا عمل الجهاد، كلفا به مختارا له متى اعطي الخيار من سائر آماله. حتى لقد كان اعتزم على الغزو إلى الأندلس أيام

أخيه الأمير أبي يحيى، وطلب إذنه في ذلك عندما ملكوا مكناسة سنة ثلاث وأربعين فلم يأذن له. وفصل إلى الغزو في حشمه وذويه ومن أطاعه من عشيره. وأوعز الأمير أبو يحيى لصاحب الأمر بسبتة لذلك العهد أبي علي بن خلاص بأن يمنعه الإجازة، ويقطع عنه أسبابها. ولما انتهى إلى قصر الجواز ثنى عزمه عن ذلك الولي يعقوب بن هارون الخيري، ووعده بالجهاد أميرا مستنصرا للمسلمين ظاهرا على العدو، فكان في نفسه من ذلك شغل وإليه صاغية.

فلما قدم عليه هذا الوفد نبهوا عزائمه وذكوا همته، فأعمل في الاحتشاد وبعث في النفير. ونهض من فاس في شهر شوال من سنة ثلاث وسبعين إلى فرضة المجاز من طنجة. وجهز خمسة آلاف من قومه أزاح عللهم واستوفى عطاءهم وعقد عليهم لابنه منديل وأعطاه الراية. واستدعى من العزفي صاحب سبتة السفن لإجازتهم، فوافاه بقصر الجواز عشرون من الأساطيل، فأجاز العسكر ونزل بطريف. وأراح ثلاثا، ودخل دار الحرب، وتوغل فيها، وأجلب على ثغورها وبسائطها. وامتلأت أيديهم من الغنائم، وأثخنوا بالقتل والأسر وتخريب العمران ونسف الآثار. حتى نزل بساحة شريش، فخام حاميتها عن اللقاء وانحجزوا في البلد، فقفل عنها إلى الجزيرة، وقد امتلأت أيديهم من

الأموال وحقائبهم من السبي وركابهم من الكراع والسلاح.

ورأى أهل الأندلس أن قد ثاروا بعام العقاب، حتى جاءت بعدها الطامة الكبرى

على أهل الكفر. واتصل الخبر بأمير المسلمين، فاعتزم على الغزو بنفسه وخشي على ثغور بلاده من عادية يغمراسن في الفتنة، فبعث حافده تاشفين بن عبد الواحد في وفد من بني مرين لعقد السلم مع يغمراسن، والرجوع إلى الاتفاق والموادعة. ووضع أوزار الحرب بين المسلمين للقيام بوظيفة الجهاد، فأكبر موصله وموصل قومه. وبادر إلى الإجابة والألفة، وأوفد مشيخة بني عبد الواد على السلطان لعقد السلم. وبعث معهم الرسل، وأسنى الهدية. وجمع الله كلمة المسلمين. وعظم موقع هذا السلم من أمير المسلمين لما كان في نفسه من الصاغية إلى الجهاد، وإيثاره مبرورات الأعمال. وبث الصدقات بشكر الله على ما منحه من التفرغ لذلك. ثم استنفر الكافة، واحتشد القبائل والجموع، ودعا المسلمين إلى الجهاد. وخاطب في ذلك كافة أهل المغرب من زناتة والعرب والموحّدين والمصامدة وصنهاجة وغمارة وأوربة ومكناسة، وجميع قبائل البرابرة، وأهل المغرب من المرتزقة والمطوعة. وأهاب بهم وشرع في إجازة البحر، فأجازه من فرضة طنجة لصفر من سنة أربع وسبعين. واحتل بساحل طريف.

وكان لما استصرخه السلطان ابن الأحمر، وأوفد عليه مشائخ الأندلس، اشترط

عليه النزول عن بعض الثغور بساحل الفرضة لاحتلال عساكره، فتجافى له عن رندة وطريف. ولما احتل بطنجة، بادر إليه ابن هشام الثائر بالجزيرة الخضراء، أجاز البحر إليه. ولقيه بظاهر طنجة، فأدى له طاعته وأمكنه من قياد بلده وكان الرئيس أبو محمد بن أشقيلولة وأخوه أبو إسحاق صهر السلطان بن الأحمر تبعا له في أمره ومؤازرا على شأنه كله. وأبوهما أبو الحسن هو الذي تولى له كبر النورة على ابن هود، ومداخلة أهل

إشبيلية في الفتك بابن الباجي. فلما استوت قدمه في ملكه، وغلب الثوار بالأندلس، واستوى على أمره، فسد ما بينهما بعد أن كان ولى أبا محمد على مالقة، وأبا إسحاق على وادي آش، فامتنع أبو محمد بن أشقيلولة بمالقة واستأثر بها وبغربيتها دونه. ومع ذلك كانوا على الطاغية فيئة ولحمة. ولما أحس أبو محمد بن أشقيلولة بإجازة السلطان يعقوب بن عبد الحق، قدم إليه الوفد من أهل مالقة ببيعتهم وصريخهم، وانحاش إلى جانب السلطان وولايته، وأمحضه المخالصة والنصيحة. فلما احتل السلطان بساحة طريف

ملأت كتائبه ساحة الأرض ما بينها وبين الجزيرة، وتسابق السلطان ابن الأحمر، وهو محمد الفقيه بن محمد الشيخ أبي دبوس صاحب غرناطة والرئيس أبو محمد أشقيلولة صاحب مالقة والغربية، وأخوه أبو إسحاق صاحب وادي آش إلى لقاء السلطان. وتناغوا في برور مقدمه والإذعان له ففاوضهما في أمور الجهاد ورجعهما لحينه إلى بلادهما. وانصرف ابن الاحمر مغضبا ببعض النزعات أحفظته. وأغذ السلطان السير إلى الفرنتيرة، وعقد لولده الأمير أبي يعقوب على خمسة آلاف من عسكره. وسرح كتائبه في البسائط. وخلال المعاقل، ينسف الزرع، وتحطم الغروس، ويخرب العمران، وتنتهب الأموال، وتكتسح السرح، وتقاتل المقاتلة، وتسبى النساء والذرية. حتى انتهى إلى المدور وبايسة وأبدة واقتحم حصن بلمة عنوة. وأتى على سائر الحصون في طريقه، فطمس معالمها واكتسح أموالها. وقفل والأرض تموج سبيا إلى أن عرس بأستجة من تخوم دار الحرب. وجاءه النذير باتباع العدو آثارهم لاستنقاذ أسراهم وارتجاع أموالهم. وإن زعيم الروم وعظيمهم دننه خرج في طلبهم بأمم بلاد النصرانية من المحتلم فما فوقه. فقدم السلطان الغنائم بين يديه، وسرح ألفا من الفرسان أمامها سار يقفيها. حتى إذا أطلت رايات العدو من ورائهم كان الزحف، فرتب المصاف وحرض وذكر. وراجعت زناتة بصائرها وعزائمها، وتحركت هممها، وأبلت في طاعة ربها والذب عن دينها. وجاءت بما يعرف من بأسها وبلائها في مقاماتها ومواقعها. ولم يك إلا كلا ولا، حتى هبت ريح النصر، وظهر أمر الله، وانكشف جموع النصرانية، وقتل الزعيم دننه والكثير من جموع أهل الكفر. ومنح الله المسلمين أكتافهم، واحتل القتل فيهم. وأحصي القتلى في المعركة، فكانوا ستة آلاف. واستشهد من المسلمين ما يناهز ثلاثين أكرمهم الله بالشهادة، وآثرهم بما عنده. ونصر الله حزبه وأعز أولياءه وأظهر دينه، وبدا للعدو ما لم يحتسبه بمحاماة هذه العصابة عن الملة وقيامهم بنصر الكلمة. وبعث أمير المسلمين برأس الزعيم دننه إلى ابن الأحمر، فرده زعموا سرا إلى قومه، بعد أن طيبه وأكرمه، ولاية أخلصها لهم، مداراة وانحرافا عن أمير المسلمين، ظهرت شواهده عليه بعد حين كما نذكره. وقفل أمير المسلمين من غزاته إلى الجزيرة منتصف ربيع من سنته، فقسم في المجاهدين الغنائم، وما نفله الله من أموال عدوهم وسباياهم وأسراهم وكراعهم، بعد الاستيثار بالخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرفه في مصارفه. ويقال كان مبلغ الغنائم في هذه

الغزاة من البقرماية ألف وأربعة وعشرين ألفا، ومن الأسرى سبعة آلاف وثمانماية وثلاثين، ومن الكراع أربعة عشر ألفا وستماية. وأما الغنم فاتسعت عن الحصر كثرة، حتى لقد زعموا بيعت الشاة في الجزيرة بدرهم واحد. وكذلك السلاح. وأقام أمير المسلمين بالجزيرة أياما. ثم خرج لجمادى غازيا إلى إشبيلية، فجاس خلالها

وتقرى نواحيها وأقطارها. وأثخن بالقتل والنهب في جهاتها وعمرانها. وارتحل إلى شريش، فأذاقها وبال العيث والاكتساح. ورجع إلى الجزيرة لشهرين من غزاته. ونظر في اختطاط مدينة بفرضة المجاز من العدوة لترل عسكره، منتبذا عن الرعية لما يلحقهم من ضرر العساكر وجفائهم. وتخير لها مكانا لصق الجزيرة، فأوعز ببناء المدينة جوارها المشهورة بالبنية. وجعل ذلك إلى نظر من وثق به من دونه. ثم أجاز البحر إلى المغرب في رجب سنة أربع وسبعين، فكان مغيبه وراء البحر ستة أشهر. واحتل بقصر مصمودة، وأمر ببناء السور على بادس مرفأً الجواز ببلاد غمارة. وتولى ذلك إبراهيم بن عيسى كبير بني وسناف بن محيو. ثم رحل إلى فاس، فدخلها في شعبان. وصرف النظر إلى أحوال دولته واختطاط البلد الجديد لترله، ونزل حاشيته، واستترال الثوار عليه بالمغرب، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن اختطاط البلد الجديد بفاس وما كان علي تفيئة ذلك من الأحداث:

لما قفل أمير المسلمين من غزاته الجهادئة، وتم صنع الله لديه في ظهور الإسلام

يده، واعتزاز أهل الأندلس بفيئته، راح بالمغرب إلى نعمة أخرى من ظهور أوليائه، وحسم أدواء الفساد في دولته، شفعت مواهب السعادة، وأكملت عوائد الصنع. وذلك أن صبابة بني عبد المؤمن وفلهم، لما فروا من مراكش عند الفتح، لحقوا بجبل تينملل جرثومة أمرهم، ومنبعث دعوتهم، وملاحد خلفائهم، وحضرة سلفهم، ودار إمامهم، ومسجد مهديهم. كانوا يعكفون عليه متيمنين بطيره، ملتمسين بركة زيارته. ويقدمون ذلك أمام غزولتهم قربة بين يدي أعمالهم، يعتدونها من صالح مساعيهم. فلما خلص الفل إليه اعتصموا بمعقله، وأووا إلى وكونه، ونصبوا للقيام بأمرهم عيصاً من أعياص خلفائهم بني عبد المؤمن، ضعيف المنية خاسر الصفقة من مواهب الحظ، وهو إسحاق.أخو عمر المرتضى. وبايعوه سنة تسع وستين، يرجون منه رجع الكرة، وإدالة الدولة.

وكان المتولي لكبر ذلك وزير دولتهم ابن عطوش.

ولما عقد السلطان يعقوب بن عبد الحق لمحمد بن علي بن محلى على أعمال مراكش، لم يقدم عملا على محاربتهم، وتخذيل الناس عنهم، واستمالة أشياعهم. وجمعوا له سنة أربع وسبعين على غرة ظنوها، فأوقع بهم وفل من غربهم. ثم صمد إلى الجبلى لشهر ربيع من سنته، فافتض عذرته وفض ختامه، واقتحمه عليهم عنوة بعد مداولة الترال والحرب. وهلك الوزير ابن عطوش في جوانب الملحمة، وتقبض على خليفتهم المستضعف وابن عمه أبي سعيد بن السيد أبي الربيع ومن معهما من الأولياء. وجنبوا إلى مصارعهم بباب الشريعة من مراكش، فضربت أعناقهم وصلبت أشلاؤهم. وكان فيمن قتل منهم كاتبه القبائلي وأولاده. وعاثت العساكر في جبل تينملل واكتسحت أمواله. وبعثرت قبور الخلفاء من بني عبد المؤمن. واستخرج شلو يوسف وابنه يعقوب المنصور، فقطعت رؤوسهم. وتولى كبر ذلك أبو علي الملياني النازع إلى السلطان أبي يوسف من مليانة عش غوايته، وموطن انتزائه كما قدمناه. وكان السلطان أقطعه بلد أغمات إكراما لوفادته، فحضر هذه الغزاة في جملة العساكر. ورأى أن قد شفا نفسه بإخراج هؤلاء الخلفاء من أرماسهم، والعيث بأشلائهم، لما نقم منه

الموحدون. وأزعجوه من قراره فنكرها السلطان لجلاله. وتجاوز عنها للملياني تأنيسا لقربته وجواره، وعدها من هناته. ولما وصل أمير المسلمين إلى حضرته من غزاة الجهاد ترادفت عليه أخبار هذه الملحمة، وقطع دابر بني عبد المؤمن، فتظاهر السرور لديه، وارتفعت إلى الله كلمات الشكر طيبة منه. ولما سكن غرب الثوار، وتمهد أمر المغرب، ورأى أمير المسلمين أن أمره قد استفحل، وملكه قد استوسق، واتسع نطاق دولته، وعظمت غاشيته وكثر وافده، رأى أن يختط بلدا يتميز بسكناه في حاشيته وأهل خدمته وأوليائه الحاملين سرير ملكه. فأمر ببناء البلد الجديد لصق فاس، بساحة الوادي المخترق وسطها من أعلاه، وشرع في تأسيسها لثالث شوال من سنة أربع وسبعين هذه. وجمع الأيدي عليها، وحشد الصناع والفعلة لبنائها. وأحضر لها الحزى والمعدلين لحركات الكواكب، فاعتاموا في الطوالع النجومية ما يرضون أثره، ورصدوا أوانه. وكان فيهم الإمامان أبو الحسن بن القطان وأبو عبد الله بن الحباك المقدمان في الصناعة، فكمل تشييد هذه المدينة على ما رسم وكما رضي. ونزلها بحاشيته وذويه سنة أربع وسبعين كما ذكرناه. واختطوا بها الدور والمنازل، وأجرى فيها المياه إلى قصوره، وكانت من أعظم آثار هذه الدولة وأبقاها على الأيام. ثم أوعز بعد ذلك ببناء قصبة مدينة مكناسة، فشرع في بنائها من سنته. وكان لحين إجازته البحر قافلاً من غزاته لحق طلحة بن محلى بجبل أزور نازعا إلى قبائل زناتة من صنهاجة، فأغذ إليه السلطان بعساكره وأناخ عليه. واستنزله لشهر على ما سأل من الأمان والرتبة. وحسم الداء من خروجه. واستوزر صنيعته فتح الله السدراتي، وأجرى له رزق الوزارة على عوائدهم. ثم بعث إلى يغمراسن كفاء هديته التي أتحفه بها بين يدي غزاته. وكان شغله عنها أمر الجهاد، فبعث له فسطاطا رائقا كان صنع له بمراكش، وحكمات مموهة بالذهب والفضة، وثلاثين من البغال الفارهة ذكورا وإناثا بمراكبها الفارسية من السروج، والنسوانية من الولايا، وأحمالا من الأديم المعروف دباغه بالشركسي، إلى غير ذلك مما يباهي به ملوك المغرب وينافسون فيه. وفي سنة خمس وسبعين من بعدها أهدى له محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، وصاحب جبل وانشريش أربعة من الجياد انتقاها من خيل المغرب كافة، ورأى أنها على قلة عددها أحفل هدية. وفي نفسه أثناء هذا كله من الجهاد شغل شاغل يتخطى إليه سائر أعماله حسبما نذكر.

الخبر عن إجازة أمير المسلمين ثانية وما كان فيها من الغزوات:

لفا قفل أمير المسلمين من غزاته الأول، واستنزل الخوارج وثقف الثغور، وهادى الملوك واختط المدينة لنزله كما ذكرنا ذلك كله. ثم خرج فاتح سنة ست وسبعين إلى جهة مراكش لسد ثغوره، وتثقيف أطرافه. وتوغل في أرض السوس. وبعث وزيره نتح الله بالعساكر، فجاس خلاله، ثم انكفأ راجعاً. وخاطب قبائل المغرب كافة بالنفير الى الجهاد فتباطأوا واستمر على تحريضهم. ونهض إلى رباط الفتح وتلوم بها في انتظار الغزاة وثبطوا، فخص هو في خاصته وحاشيته. واحتل بالفرضة من قصر المجاز. وتلاحق به الناس فأجاز البحر، واحتل بطريف لآخر محرم. ثم ارتحل إلى الجزيرة، ثم إلى رندة. ووافاه هناك الرئيسان أبو إسحاق بن أشقيلولة صاحب قمارش، وأبو محمد صاحب مالقة للغزو معه. وارتحلوا إلى منازلة إشبيلية فعرسوا عليها يوم المولد النبوي.

وكان بها ملك الجلالقة ابن أذفونش، فخام عن اللقاء وبرز إلى ساحة البلد محاميا عن أهلها. ورتب أمير المسلمين مصافه، وجعل ولده الأمير أبا يعقوب في المقدمة. وزحف في

التعبية، فأحجز العدو البلد واقتحموا أثرهم الوادي، وأثخنوا فيهم. وباتت العساكر ليلتهم بجولان في متون جيادهم، وقد أضرموا النيران بساحتها. وارتحل من الغد إلى أرض الشرق، وبث السرايا والغوار في سائر النواحي. وأناخ بجمهور العساكر عليها، فلم يزل يتقرى تلك الجهات حتى أباد عمرانها وطمس معالمها.

ودخل حصن قطنيانة وحصن جليانة وحصن القليعة عنوة، وأثخن بالقتل والسبي. ثم قفل بالغنائم والأنفال إلى الجزيرة لسرار شهره، فأراح وقسم الغنائم في المجاهدين. ثم خرج غازيا إلى شريش منتصف ربيع الآخر، فنازلها وأذاقها نكال الحرب. وأفقر نواحيها وقطع أشجارها، وأباد غضراءها، وحرق ديارها. ونسف آثارها، وأثخن فيها بالقتل والأسر. وبعث ولده الأمير أبا يعقوب في سرية من معسكره للغوار على إشبيلية وحصون الوادي، فبالغ في النكاية. واكتسح حسن روطة وشلوقة ومليانة والقناطر. ثم صبح إشبيلية بغارة فاكتسحها. وانكفأ إلى أمير المسلمين، فقالوا جميعا إلى الجزيرة وأراح وقسم في المجاهدين غنائمهم. ثم ندب إلى غزو قرطبة، ورغبهم في عمرانها، وثروة ساكنها، وخصب بلادها، فأهطعوا إلى إجابته. وخاطب ابن الأحمر يستنفره.

وخرج لأول جمادى من الجزيرة. ووافاه ابن الأحمر بناحية أرشدونة، فكرم وصوله وشكر خفوفه إلى الجهاد وبداره. ونازلوا حصن بني بشير فدخل عنوة، وقتلت المقاتلة وسبيت النساء ونقلت الأموال، وخرب الحصن. ثم بث السرايا والغارات في البسائط، فاكتسحها، وامتلأت الأيدي. وأثرى المعسكر. وتقروا المنازل والعمران في طريقهم، حتى احتلوا بساحة قرطبة فنازلوها، وانحجزت حامية العدو من وراء أسوارها. وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم في نواحيها، فنسفوا آثارها، وخربوا عمرانها واكتسحوا قراها وضياعها. وتردد على جهاتها فدخل حصن بركونة عنوة، ثم أرجونة كذلك. وقدم بعثا إلى جيان قاسمها حظها من الخسف والدمار.

وخام الطاغية عن اللقاء. وأيقن بخراب عمرانه وتلاف بلاده، فجنح إلى الصلح. وخطبه من أمير المسلمين، فدفعه إلى ابن الأحمر. وجعل الأمر في ذلك إليه تكرمة لمشهده ووفاء بحقه، فأجابهم ابن الأحمر إليه بعد عرضه إلى أمير المسلمين والتماس إذنه فيه وإبداء ما فيه من المصلحة، وجنوح أهل الأندلس إليه منذ المدة الطويلة، فانعقد السلم. وقفل أمير المسلمين من غزاته، وجعل طريقه على غرناطة احتفاء بالسلطان ابن الأحمر. وخرج له عن الغنائم كلها، فاحتوى عليها. ودخل أمير المسلمين إلى الجزيرة في أول

رجب من عام يومئذ، فأراح ونظر في ترتيب المسالح على الثغور، وتملك مالقة كما نذكره.

الخبر عن تملك السلطان مدينة مالقة من يد ابن أشقيلولة:

كان بنو. أشقيلولة هؤلاء من رؤساء الأندلس المؤملين لمدافعة العدو، وكانوا نظراء

لابن الأحمر في الرياسة: وهم أبو محمد عبد الله وأبو إسحاق إبراهيم، ابنا أبي الحسن بن أشقيلولة. وكان أبو محمد منهم صهرا له على ابنته، فكانوا له بذلك خالصة، فأشركهم في أمره. واعتضد بعصابتهم وبأبيهم من قبل على مقاومة ابن هود وسائر الثوار. حتى إذا استمكن من فرصته، واستوى على كرسيه، استبد دونهم

وأنزلهم إلى مقامات الوزراء. وعقد لأبي محمد، صهره على ابنته، على مدينة مالقة والغربية. وعقد لأبي الحسن، صهره على أخته، على وادي آش وما إليه. وعقد لابنه أبي إسحاق إبراهيم بن علي على قمارش وما إلى ذلك. ووجدوا في أنفسهم، واستمر الحال على ذلك. ولما هلك الشيخ ابن الأحمر سنة إحدى وسبعين، وولي ابنه محمد الفقيه، سموا إلى منازعته. وأوفد أبو محمد صاحب مالقة ابنه أبا سعيد على السلطان يعقوب بن عبد الحق، وهو منازل طنجة. ووفد معه أبو عبد الله بن منديل، فكرم وفادتهما وأحسن موعدهما. وانكفيا راجعين، فبعث الرئيس أبو محمد إلى السلطان بطاعته وبيعة أهل مالقة سنة ثلاث وسبعين، وعقد له عليها. ونزع ابنه أبو سعيد فرج إلى دار الحرب. ثم رجع لسنته، فقتل بمالقة. ولما أجاز السلطان إلى الأندلس إجازته الأولى سنة أربع وسبعين، تلقاه أبو محمد بالجزيرة مع ابن الأحمر، وفاوضهما السلطان في شؤون الجهاد، وردهما إلى أعمالهما. ولما أجاز إجازته الثانية سنة ست وسبعين لقيه بالجزيرة الرئيسان ابنا أشقيلولة أبو محمد صاحب مالفة، وأخوه أبو إسحاق صاحب وادي آش وقمارش، فشهدا معه الغزاة. ولما قفل اعتل أبو محمد صاحب مالقة، ثم هلك غرة جمادى من سنته، فلحق ابنه محمد بالسلطان آخر شهر رمضان. وهو متلوم بالجزيرة مصرفه من الغزو كما ذكرناه، فنزل له عن البلد ودعاه إلى احتيازها، فعقد عليها لابنه أبي زيان منديل، فسار إليها في بعث. وكان ابن أشقيلولة لحين فصوله إلى لقاء السلطان، أمر ابن عمه محمد الأزرق بن أبي الحجاج يوسف بن الزرقاء بإخلاء منازل للسلطان

بالقصبة وإعدادها، فتم ذلك لثلاث ليال. وضرب الأمير أبو زيان معسكره بخارجها. وأنفذ محمد بن عمران بن عبلة في رهط من رجال بني مرين إلى القصبة، فنزلها وملك أمر البلد. وكان السلطان ابن الأحمر، لما بلغه وفاة أبي محمد بن أشقيلولة، سما أمله إلى الاستيلاء على مالقة، وأن ابن أخته شيعة له. وبعث لذلك وزيره أبا سلطان عزيز الداني، فوافى معسكر الأمير أبي زيان بساحتها. ورجا أن يتجافى عنها لسلطانه، فأعرض عن ذلك وتجهم له. ودخل إليها لثلاث بقين من رمضان. وانقلب الداني عنها بخفي حنين. ولما قضى السلطان بالجريرة صومه ونسكه، خرج إلى مالقة، فوافاها سادس شوال وبرز إليه أهلها في يوم مشهود، احتفلوا له احتفال أيام الزينة سرورا بمقدم السلطان، ودخولهم في إيالته. وأقام فيهم إلى خاتم سنته. ثم عقد عليها لعمر بن يحيى بن محلى من صنائع دولتهم. وأنزل معه المسالح، وزيان بن أبي عياد بن عبد الحق في طائفة لنظره من أبطال بني مرين. واستوصاه بمحمد بن أشقيلولة، وارتحل إلى الجزيرة. ثم أجاز إلى المغرب سنة سبع وسبعين، وقد اهتزت الدنيا لقدومه. وامتلأت القلوب بما كنفه الله من نصر المسلمين بالعدوة، وعلو راية السلطان على كل راية. وعظمت لذلك موجدة ابن الأحمر، ونشأت الفتنة، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن تظاهر ابن الأحمر والطاغية علم منع السلطان أبي يوسف من إجازة البحر وإصفاق يغمراسن بن زيان معهم من وراء البحر علي الأخذ بحجزته عنهم وواقعة السلطان علي يغمراسن بخرزوزة:

لما أجاز أمير المسلمين إلى العدوة إجازته الأولى، ولقي العدو بأستجة، وقتل الله

دننه بأيدي عسكره. وصنع له من الظهور والعز ما لا كفاء له، ارتاب ابن الأحمر بمكانه، فبدا له من ذلك ما لم يحتسب. وظن بأمير المسلمين الظنون، واعترض ذكره شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عباد سلطان الأندلس. وأكد ذلك عنده جنوح الرؤساء من بني أشقيلولة وغيرهم إليه وانقيادهم لأمره، فغص بمكانه وحذر غوائله. وتكدر الجو بينهما. وأجاز إجازته الثانية، فانقبض ابن الأحمر عن لقائه ودارت بينهما مخاطبات شعرية في معنى العتاب على ألسنة كتابهما، نسردها الآن. فمن ذلك قصيدة كتبها إليه ابن الأحمر سنة أربع وسبعين بعد واقعة دننه، واعتزامه على الرجوع إلى

المغرب. فخاطبه بها ليلة الإقامة بالجزيرة حذرا من غائلة العدو، وينحو فيها منحى الاستعطاف، وهي من نظم كاتبه أبي عمر بن المرابط:

هل من معيني في الهوى أو منجدي!	من متهم في الارض أومن منجد
هذا الهوى داع فهل من مسعف؟	بإجابة وإنابة أو مسعد
هذي سبيل الرشد قد وضحت فهل؟	بالعدوتين من امرىء مسترشد
يرجو النجاة بجنة الفردوس أو	يخشى المسير إلى الجحيم الموقد؟
يا آمل النصر العزيزعلى العدى	أجب الهدى تسعد به وتؤيد
سرالنجاء إلى النجاة مشمرا	إن الهدى لهو النجاة لمن هدي
يا من يقول غدا أتوب ولا غد	ألديك علم ان تعيش إلى غد
لا تغترر بنسيئة الأجل الذي	إن لم يحن لك نقده فكان قد
سفر عليك طويلة أيافه	لم تستعد لطوله فاستعدد
أو ما علمت بأنه لا بد من	زاد لكل مسافر فتزود
هذا الجهاد رئيس أعمال التقى	خذ منه زادك لارتحالك تسعد
هذا الرباط بأرض أندلس فرح	منه لما يرضي إلاهك واغتدي
سودت وجهك بالمعاصي فألتمس	وجها للقيا الله غيرمسوّد
وامح الخطايا بالدموع فربما	محت الدموع خطية المتعمد
من ذا يتوب لربه من ذنبه	أو يمتدي بنبيه أو يهتدي
من ذا يطهر نفسه بعزيمة	مشحوذة في نصردين محمد
أتعز من أرض العدو مدائن	والله في اقطارها لم يعبد
وتذل أرض المسلمين وتبتلى	بمثلثين سطوا بكل موحد
كم جامع فيها أعيد كنيسة	فأهلك عليه أسى فلا تتجفد
القس والناقوس فوق مناره	والخمر والختزير وسط المسجد
أسفا عليها أقفرت صلواتها	من قانتين وراكعين وسجد

وتعوضت منهم بكل معاند	مستكبرمذ كان لم يتشهد
كم من أسير عندهم واشيرة	فكلاهما يبغي الفداء فما فدي

كم من عقيلة معشبرمعقولة	فيهم تود لو أنها في ملحد
كم من وليد بينهم قد ود من	ولداه ودا أنه لم يولد
كم من تقيي في السلاسل موثقي	يبكي لآخرفي الكبول مقيد
وشهيد معترك توزعه الردى	ما بين حدي ذابل ومهند
ضجت ملائكة السماء لحالهم	ورثى لهم من قلبه كالجلمد
أفلا تذوب قلوبكم إخواننا	مما دهانا من ردى أو من ردي
أفلا تراعون الأذمة بيننا	من حرمة ومحبة وتودد
أكذا يعيث الروم في إخوانكم	وسيوفكم للثأر لم تتقلد
يا حسرة لحمية الإسلام قد	خمدت وكانت قبل ذات توقد
أين العزائم ما لها لا تنقضي	هل يقطع الهندي غيرمجرد
أبني مرين أنتم جيراننا	وأحق من في صرخة بهم ابتدي
فالجار كان به يوصي المصطفى	جبريل حقا في الصحيح المسند
أبني مرين والقبائل كلها	في المغرب الأدنى لنا والأبعد
كتب الجهاد عليكم فتبادروا	منه إلى فرض الأحق الأوكد
وارضوا بإحدى الحسنيين وأقرضوا	حسنا تفوزوا بالحسن الخرد
هذي الجنان تفتحت أبوابها	والحور قاعدة لكم بالمرصد
من بائع من ربه من مشتر	منه الحصول على النعيم السرمد
لله في نصرالحنيفة موعد	صدق فثوروا بانتجاز الموعد
هذي الثغور بكم إليكم تشتكي	شكوى العديم إلى الغنى الأوجد
ما بال شمل المسلمين مبدد	فيها وشمل الكفر غيرمبدد
أنتم جيوش الله ملء فضائه	تأسون للدين الغريب المفرد
ما ذا اعتذاركم غداً لنبيكم	وطريق هذا العذر غيرممهد
إن قال لم فرطتم في أمتي	وتركتموهم للعدو المعتدي
لله لو أن العقوبة لم تخف	لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

إخواننا صلوا عليه وسلموا	وسلوا الشفاعة منه يوم المشهد
واسعوا لنصرة دينه يسفيكم	من حوضه في الحشر أعذب فورد

وصدر جوابها من نظم عبد العزيز شاعر السلطان يعقوب بن عبد الحق بما نصه:

لبيك لا تخش اعتداء المعتدي... إلى آخرها:

وكذلك أجاب عنها أيضا مالك بن المرحل بقوله:

شهد الإله. وأنت يا أرض اشهدي... إلى آخرها.

فأجابهم أبو عمر بن المرابط كاتب ابن الأحمر بقوله:

قل للبغاة وللعداة الحسد... إلى آخرها.

ولما أجاز السلطان يعقوب بن عبد الحق إجازته الثانية سنة ست وسبعين كما نذكره، وصار ابن الأحمر إلى الاستعتاب والرضى ولقي يعقوب بن عبد الحق، فأنشده كاتبه أبو عمر بن المرابط يوم اجتماعهما بقوله: "بشرى لحرب الله والإيمان "... إلى آخرها. ولما انقضى المجلس أمر السلطان شاعره عبد العزيز بمساجلته قصيدته فأنشدها ثاني المجلس بحضرة ابن الأحمر ونصها: "اليوم كن في غبطة وأمان " إلى آخرها. ثم كان أثناء ذلك ما وقع من استيلاء السلطان يعقوب بن عبد الحق على مدينة مالقة والغربية، جل عمله بعد مهلك صاحبها أبي محمد بن أشقيلولة، فبرم لذلك وخيل عليه، ففزع إلى مداخلة الطاغية في شأنه واتصال يده. وأن يعود إلى مكان أبيه من ولايته ليدفع به السلطان وقومه عن أرضه، ويأمن معه من زوال سلطانه، لما كانت كلمة الإسلام حجزا دونه. فاهتبل الطاغية غرتها، وانتكث عهد أمير المسلمين، ونقض السلم، ونبذ إليه العهد. وأغزى أساطيله بالجزيرة الخضراء، حيث مسالح السلطان وعسكره. وأرست بالزقاق حيث فراض الجواز. وانقطع المسلمون من جنود السلطان وقومه وراء البحر، ويئسوا من صريخه. وانتبذ عمر بن يحيى بن محلى عن قومه بمكان إمارته من مالقة. وكان بنو محلى هؤلاء من كبار قومهم بطوية، وكانوا حلفاء بني حمامة بن محمد منذ دخولهم المغرب. وأصهر عبد الحق أبو ملاك إلى أبيهم محلى في ابنته أم اليمن، فكان من ولده السلطان يعقوب بن عبد الحق. وكانت امرأة صالحة. خرجت إلى الحج سنة ثلاث و أربعين، فقضت فريضة الله عليها وعادت إلى المغرب لرابعة من السنين سنة سبع وأربعين. ثم خرجت ثانية سنة اثنتين وخمسين، فتطوعت بحجة أخرى. وهلكت بمصر منصرفها من تلك السنة سنة ثلاث وخمسين، فكان لبني محلى أبيها مكان من الدولة ودالة على السلطان، لخؤولتهم ووشايج قرابتهم وغنائهم في قومهم. وما استولى السلطان على حضرة الموحّدين مراكش، عقد لمحمد بن علي بن محلى على جميع أعمالها، فكانت له في الاضطلاع بها مقامات محمودة. واتصلت أيام ولايته عليها من سنة ثمان. وستين إلى سنة سبع وثمانين وسبعمائة. ثم كان مهلكه أيام يوسف بن يعقوب كما نذكره. ولما نزع محمد بن أشقيلولة إلى السلطان بالجزيرة سنة ست وسبعين، متجافيا

له عن ولاية مالقة بعد وفاة أبيه الرئيس أبي محمد، واستولى السلطان عليها، واعتزم على الإجازة كما قدمناه، عقد على مالقة والغربية وسائر ثغورها وأعمالها لعمر بن يحيى بن محلى. وكان أخوه طلحة بن يحيى بن محلى ذا بأس وصرامة وقوة شكيمة، واعتزاز على السلطان بمكان الخؤلة. وهو الذي قتل يعقوب بن عبد الحق بغبولة سنة ثمان وستين كما قلناه، وظاهر فتح الله السدراتي مولى السلطان ووزيره على قتال أبي العلا بن أبي طلحة بن أبي قريش، عامل المغرب بكدية العرائش من ظاهر فاس، سنة اثنتين وسبعين. ونزع سنة أربع وسبعين. إلى جبل أزور عند مرجع السلطان من إجازته الأولى، فاستنزله ورجعه إلى مجلسه من جملته. ثم نزع من الجزيرة إلى غرناطة سنة ست وسبعين عند مرجع السلطان من أمر مالقة، وأجاز البحر إلى بلاد الريف. ثم رجع إلى القبلة، وأقام بين بني توجين. ثم أجاز إلى الأندلس سنة سبع وسبعين عندما اضطرم نار هذه الفتنة بين السلطان وبين ابن الأحمر والطاغية. واحتل أسطول النصارى بالزقاق، وانقطعت عساكر السلطان وراء البحر. وأحس أخوه عمر صاحب مالقة بإظلام الجو بينه وبين السلطان، بما كان من أمر أخيه طلحة من قبل. فلاطفه ابن الأحمر عند استقراره بغرناطة في مداخلة أخيه عمر في النزول عن مالقة، والاعتياض عنها بشلوبانية والمنكب طعمة. وخاطبه في ذلك أخوه طلحة فأجاب. وخرج ابن الأحمر بعساكره إلى مالقة. وتقبض عمر بن محلى على زيان بن بو عياد قائد بني مرين، ومحمد بن أشقيلولة. وأمكن ابن الأحمر من البلد، فدخلها آخر رمضان من سنته.

وأنزل ابن محلى بشلوبانية، واحتمل ذخيرته، وما كان السلطان ائتمنه عليه من

المال والعدة الجهادية. واتصلت يد ابن الأحمر بيد الطاغية على منع أمير المسلمين من الإجازة، وراسلوا يغمراسن بن زيان من وراء البحر، وراسلهم في مشاقة السلطان وإفساد ثغوره، وإنزال العوائق به المانعة من حركته، والأخذ بأذياله عن النهوض إلى الجهاد.

وأسنوا فيما بينهم الإتحاف والمهاداة. وجنب يغمراسن إلى ابن الأحمر ثلاثين من عتاق الخيل، مع ثياب من عمل الصوف. وبعث إليه ابن الأحمر صحبة ابن مروان التجاني كفاء ذلك عشرة آلاف دينار، فلم يرض بالمال في هديته ورده. واصطفقت أيديهم جميعا على السلطان، ورأوا أن قد بلغوا في إحكام أمرهم وسد مذاهبه إليهم. واتصل الخبر بأمير المسلمين وهو بمراكش. كان صمد إليها مرجعه من الغزو في شهر محرم فاتح سبع وسبعين، لما كان من عيث العرب جشم بتامسنا، وإفسادهم السابلة. فثقف أطرافها، وحسم أدواءها. ولما بلغه خبر ابن محلى ومالقة، ومنازلة الطاغية للجزيرة، نهض لثالثة من شوال يريد طنجة. ولما انتهى إلى تامسنا، وافاه الخبر بنزول الطاغية على الجزيرة، وإحاطة عساكره بها سادس شوال، بعد أن كانت أساطيله منازلتها منذ ربيع، وأنه مشرف على التهامها. وبعثوا إليه يستعدونه، فاعتزم على الرحيل.

ثم اتصل به الخبر بخروج مسعود بن كانون أمير سفيان من جشم ببلاد نفيس من المصامدة خامس ذي القعدة، وأن الناس اجتمعوا إليه من قومه وغيرهم. فكر إليه راجعاً، وقدم بين يديه حافده تاشفين بن بو مالك، ووزيره يحيى بن حازم. وجاء على ساقتهم، وفروا أمام جيوشه، وانتهب معسكرهم وحللهم. واستباح عرب الحارث

من سفيان. ولحق مسعود بمعقل السكسيوي، ونازله السلطان بعساكره أياما. ثم سرح ابنه الأمير أبا زيان بن منديل إلى بلاد السوس لتمهيدها وتدويخ أقطارها، فأوغل في ديارها وتفل إلى أبيه خاتم سنته. واتصل بالسلطان ما نال أهل الجزيرة من ضيق الحصار وشدة القتال وأعواز الأقوات، وأنهم قتلوا الأصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرة الكفر، فأهمه ذلك وأعمل النظر فيه. وعقد لولي عهده ابنه الأمير أبي يعقوب من مراكش على الغزو إليها. وأغزى الأساطيل في البحر إلى جهاد عدوهم، فوصل إلى طنجة لصفر من سنة ثمان وسبعين. وأوعز إلى البلاد البحرية لإعداد الأساطيل للغزاة بسبتة وطنجة وسلا، وقسم الاعطيات، وتوفرت همم المسلمين على الجهاد، وصدقت عزائمهم على الموت. وأبلى الفقيه أبو حاتم العزفي صاحب سبتة لما بلغه خطاب أمير المسلمين في ذلك البلاء الحسن، وقام فيه المقام المحمود. واستنفر كافة أهل بلده، فركبوا البحر أجمعين من المحتلم فما فوقه.

ورأى ابن الأحمر ما نزل بالمسلمين في الجزيرة، وإشراف ا!طاغية على أخذها،

فندم في ممالأته. ونبذ عهده، وأعد أساطيل سواحله من المنكب والمرية ومالقة مددا للمسلمين. واجتمعت الأساطيل بمرفأ سبتة تناهز السبعين، قد أخذت بطرفي الزقاق في أحفل زي وأحسن قوة وأكمل عدة وأوفر عديد. وعقد لهم الأمير أبو يعقوب رايته، وأقلعوا عن طنجة ثامن ربيع الأول. وانتشرت قلوعهم في البحر فأجاز"، وباتوا ليلة المولد الكريم بمرقى الجبل، وصبحوا العدو وأساطيلهم تناهز الأربعماية، فتظاهروا في دروعهم وأسبغوا من سكتهم، وأخلصوا لله عزائمهم، وصدقوا مع الله نياتهم، وتنادوا بالجنة شعارهم. ووعظ وذكر خطباؤهم، والتحم القتال، ونزل الصبر. و لم يك إلا كلا ولا حتى نضحوا العدو بالنبل، فانكشفوا وتساقطوا في العباب. واستلحمهم السيف، وغشيهم اليم. وملك المسلمون أساطيلهم. ودخلوا مرمى الجزيرة وفرضتها عنوة، فاختل معكسر الطاغية. ودخلهم الرعب من إجازة الأمير أبي يعقوب ومن معه من الحامية، فأفرج لحينه عن البلد. وانتشر النساء والصبيان بساحته، وغلبت المقاتلة كثيرا من المعسكر على مخلفهم، فغنموا من الحنطة والأدم والفواكه ما ملا أسواق البلد أياما، حتى وصلتها الميرة من النواحي.

وأجاز الأمير أبو يعقوب لحينه، فأرهب العدو في كل ناحية وصده عن الغزو إلى دار الحرب شأن الفتنة مع ابن الأحمر، فرأى أن يعقد مع الطاغية سلما ويصل به لمنازلة غرناطة يدا. وأجابه إلى ذلك الطاغية رهبة من بأسهم، وموجدة على ابن الأحمر في مدد أهل الجزيرة. وبعث أساقفته لعقد ذلك، فأجازهم الأمير أبو يعقوب إلى أبيه أمير المسلمين، فغضب لها ونكرها على ابنه. وزوى عنه وجه رضاه، ورجعهم إلى طاغيتهم مخفقي السعي. وأجاز أبو يعقوب ابن السلطان إلى أبيه ومعه وفد أهل الجزيرة، فلقوا السلطان بمكانه من بلاد السوس. وولى عليهم ابنه أبا زيان منديل، فتزل بالجزيرة وأحكم العقدة مع الطاغية. ونازل مربلة من طاعة ابن الأحمر برا وبحرا، فامتنعت عليه. ورجع إلى الجزيرة، وانضوى إليه أهل الحصون الغربية بطاعتهم حذرا من الطاغية فتقبلهم. ثم جاءه المدد من المغرب، ونازل رندة فامتنعت. والطاغية أثناء ذلك يجوس خلال الأندلس.

وتنازل ابن الأحمر بغرناطة مع بني أشقيلولة وابن الدليل. ثم راجع ابن الأحمر مسالمة بني مرين، وبعث لأبي زيان ابن السلطان بالصلح. واجتمع معه بأحواز مربلة كما نذكر بعد.

ولما ارتحل السلطان من معسكره على جبل السكسيوي يريد السوس. ثم أغزى

العساكر، ورجع من طريقه إلى مراكش. حتى إذا انقضت غزاة البربر قفل إلى فاس، وبعث خطابه إلى الآفاق مستنفرا للجهاد. وفصل في رجب من سنة ثمان وسبعين حتى انتهى إلى طنجة، وعاين ما اختل من أحوال المسلمين في تلك الفترة، وما جرت إليه فتنة ابن الأحمر من اعتزاز الطاغية، وما حدثته نفسه من التهام الجزيرة الأندلسية ومن فيها. وظاهره على ابن الأحمر منافسوه في رياسته بنو أشقيلولة، فاستجره الرئيس أبو الحسن بن أبي إسحاق صاحب وادي آش، ونازل معه غرناطة سنة تسع وسبعين خمسة عشر يوماً. ثم أفرجوا عنها، ولقيتهم عساكر غرناطة من زناتة فعذ ذلك من سنتهم. وعليهم طلحة بن محلى وتاشفين بن معط كبير تيربيغين بحصن المسلى، فأظهرهم الله عليهم. وهلك من النصارى ما يناهز سبعماية من فرسانهم. واستشهد فيها من أعياص بني مرين عثمان بن محمد بن عبد الحق. واستجر الطاغية سنة ثمانين بعدها الرئيس أبو محمد عبد الله صاحب وادي آش إلى منازلة غرناطة، فنازلها الطاغية وأقام عليها إماما.

ثم ارتحل وقد اعتز عليهم. وأشفق السلطان على المسلمين وعلى ما نال ابن الأحمر من خسف الطاغية، فراسله في الموادعة واتفاق الكلمة وشرط عليه النزول عن مالقة. وامتنع فرجع السلطان إلى إزالة العوائق المانعة عن شأنه من الجهاد، وكان من أعظمها فتنة يغمراسن. واستيقن ما دار بينه وبين ابن الأحمر والطاغية وابن أخي أدفونش من الاتصال والإصفاق، فبعث إليه في تجديد الصلح والاتفاق، فلج وكشف الوجه في العناد. وأعلن بما وقع بينه وبين أهل العدوة مسلمهم وكافرهم من الوصلة، أنه معتزم على وصل بلاد المغرب. فصرف أمير المسلمين عزمه إلى غزو يغمراسن. وقفل إلى فاس لثلاث أشهر من نزوله بطنجة، فدخلها آخر شوال. وأعاد الرسل إلى يغمراسن لإقامة الحجة عليه، والتجلي بمسالمة بني توجين والتجافي عنهم لموالاتهم أمير المسلمين. فقام يغمراسن في ركائنه وقعد، ولج في طغيانه. وارتحل أمير المسلمين من فاس خاتمة سنة تسع. وتدم ابنه أبا يعقوب في العساكر، وأدركه بتازى. ولما انتهى إلى ملوية تلوم في انتظار العساكر. ثم ارتحل إلى نامة ثم إلى تافنا وصمد إليه يغمراسن، بحشي زناتة والعرب، بحللهم وكافة ناجعتهم. والتقت عيون القوم، فكانت بينهم حرب.

وركب على آثارهما العسكران، فالتحم القتال. وكان الزحف بخرزوزة من ملعب تيفنى. ورتب أمير المسلمين مصافه، وجعل كتيبته وكتيبة ابنه الأمير أبي يعقوب جناحين للعسكر. واشتد

القتال سائر النهار، وانكشف بنو عبد الواد عندما أراح القوم، وانتهب جميع مخلفهم وما كان في معسكرهم من المتاع والكراع والسلاح والفساطيط، وبات معسكر أمير المسلمين ليلتهم في صهوات خيلهم، واتبعوا من الغد آثار عدوهم. واكتسحت أموال العرب الناجعة الذين كانوا مع يغمراسن، وامتلأت أيدي بني مرين من نعمهم وشائهم. ودخلوا بلاد يغمراسن وزناتة. ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، لقيه بناحية القصبات، وعاثوا جميعا في بلاده نهبا وتخريبا. ثم أذن لبني توجين في اللحاق ببلادهم، وأخذ هو بمخنق

تلمسان متلوماً لوصول محمد بن عبد القوي وقومه، إلى منجاهم من جبل وانشريش حذرا عليهم من غائلة يغمراسن. ثم أفرج عنها وقفل إلى المغرب، ودخل فاس شهر رمضان من سنة ثمانين. ثم نهض إلى مراكش، فاحتل بها فاتح إحدى وثمانين وسبعمائة بعدها. وسرح ابنه الأمير أبا يعقوب إلى السوس لتدويخ أقطاره. ووافاه بمراكش صريخ الطاغية على ابنه شانجة الخارج عليه، فاغتنم الفرصة في فساد بينهم لقضاء إربه من الجهاد. وارتحل مبادرا بالإجازة إلى الأندلس. والله تعالى أعلم.

الخبر عن إجازة السلطان أبي يوسف ثالثة باستدعاء الطاغية لخروج ابنه شانجة عليه وافتراق كلمة النصرانية وما كان في هذه الإجازة من الغزوات:

لما خرج السلطان من غزاة تلمسان إلى فاس، وارتحل إلى مراكش، وافاه بها وفد الطاغية من بطارقته وزعماء دولته، وقواميص ملته، صريخا على ابنه شانجة. خرج عليه في طائفة من النصارى وغلبوه على أمره، فاستنصر أمير المسلمين منهم ودعاه لحربهم. وأمله لاسترجاع ملكه من أيديهم، فأجاب أمير المسلمين داعية رجاء للكرة بافتراقهم. وارتحل حتى انتهى إلى قصر المجاز، وأوعز إلى الناس بالنفير إلى الجهاد. وأجاز إلى الخضراء فاحتل بها لربيع الثاني من سنة إحدى وثمانين وسبعمائة. واجتمعت إليه مسالح الثغور بالأندلس وسار حتى نزل صخرة عياد فوافاه بها الطاغية ذليلا لعز الإسلام مؤملا صريخ السلطان، فأكبر وفادته وكرم موصله وعظم قدره وأمده لنفقاته بماية ألف من مال المسلمين، استرهن فيها التاج الذخيرة عند سلفه، وبقي بدارهم فخرا للأعقاب لهذا العهد. ودخل معه دار الحرب غازيا حتى نازل قرطبة، وبها شانجة ابن الطاغية الخارج عليه مع طائفته فقاتلها أياما. ثم أفرج عنها، وتنقل في جهاتها ونواحيها. وارتحل إلى طليطلة، فعاث في جهاتها. وخرب عمرانها حتى انتهى إلى حصن مجريط من أقصى الثغر، فامتلأت أيدي المسلمين وضاق معسكرهم بالغنائم التي استاقوها. وقفل إلى الجزيرة، فاحتل بها لشعبان من سنته. وكان عمر بن محلى نزع إلى طاعة السلطان، فهم به ابن الأحمر ونبذ إليه عهده. وارتجع المنكب من يده. ونازله بعساكره فاتح هذه السنة فجهز السلطان إليه لوصوله الجزيرة أسطوله. وأفرج ابن الأحمر عنه، فبادر إلى السلطان بطاعته. ووصل ببيعة شلوبانية، فأبقاه فيها بدعوته. ثم راجع طاعة ابن الأحمر في شوال من سنته، فتقبل فيئته وأعاضه عنها بالمنكب. إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى. والله أعلم.

الخبر عن شأن السلم مع ابن الأحمر وتجافي السلطان عن مالقة ثم تجديد الغزو بعد ذلك:

لما اتصلت يد السلطان بيد الطاغية، خشي ابن الأحمر غائلته، فجنح إلى موالاة شانجة الخارج على أبيه. ووصل يده بيده، وأكد له العقد على نفسه. واضطرمت له الأندلس نارا وفتنة. ولم يغن شانجة عن ابن الأحمر شيئاً. ورجع السلطان من غزاته مع الطاغية، وقد ظهر على ابنه، فأجمع على منازلة مالقة. ونهض إليها من الجزيرة فاتح اثنتين وثمانين وسبعمائة، فتغلب على الحصون الغربية كلها. ثم أسف إلى مالقة، فأناخ عليها بعساكره. وضاق النطاق على ابن الأحمر وبدا له سوء المغبة في شأن مالقة، ومداخلة ابن محلى في الغدر بها، وأعمل نظره في الخلاص من ورطتها. ولم ير لها إلا ولي عهد السلطان ابنه أبا يوسف، فخاطبه بمكانه من المغرب مستصرخا

لرقع هذا الخرق، وجمع كلمة المسلمين على عدوهم، فأجابه واغتنم المثوبة في مسعاه. وأجاز لشهر صفر، فوافى أمير المسلمين بمعسكره على مالقة. ورغب منه السلم لابن الأحمر عن شأن مالقة والتجافي له عنها، فأسعف رغبة ابنه لما يؤمل في ذلك من رضى الله في جهاد عدوه واعلاء كلمنه. وانعقد السلم وانبسط أمل ابن الأحمر، وتجددت عزائم المسلمين، وقفل السلطان إلى الجزيرة. وبث السرايا في دار الحرب، فأوغلوا وأثخنوا. ثم استأنف الغزو بنفسه الى طليطلة، فخرج غازيا غرة ربيع الثاني من سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة، حتى انتهى إلى قرطبة. فأثخن وغنم وخرب العمران وافتتح الحصون. ثم ارتحل نحو البيرة وخلف معسكرا بظاهر بياسة، وأغذ السير في أرض قفر. ولليلتين انتهى إلى البيرة من نواحي طليطلة، فسرح الخيل في البسائط حتى تقرت جميع ما فيها. و لم ينته إلى طليطلة لتثاقل الناس بكثرة الغنائم، وأثخن في القتل. وقفل على غير طريقه، فأثخن وخرب، وانتهى إلى أبدة. ووقف بساحتها والعدو منحجزون ثم رجع إلى معسكره ببياسة، وأراح ثلاثاً ينسف آثارها ويقتلع شجراءها. وقفل إلى الجزيرة، فاحتل بها شهر رجب، وقسم الغنائم وقفل من الخمس. وولى على الجزيرة حافده عيسى بن الأمير أبي مالك ابنه، فهلك شهيدا بالمعترك لشهرين من ولايته. وأجاز السلطان غرة شعبان إلى المغرب، ومعه ابنه أبو زيان منديل. وأراح بطنجة ثلاثاً. وأغذ السير إلى فاس، فاحتل بها آخر شعبان. ولما قضى صيامه ونسكه، ارتحل إلى مراكش لتمهيدها وتفقد أحوالها. وقسم من نظره لنواحي سلا وازور، فأقام برباط الفتح شهرين اثنين. واحتل مراكش فاتح ثلاث وثمانين وسبعمائة. وبلغه مهلك الطاغية ابن أدفونش واجتماع النصرانية على ابنه شانجة الخارج عليه، فتحركت إلى الجهاد عزائمه. وسرح الأمير أبا يعقوب ولي عهده بالعسكر إلى بلاد السوس لغزو العرب وكف عاديتهم، ومحو آثار الخوارج المنتزين على الدولة. فأجفلوا أمامه واتبع آثارهم إلى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس، فهلك أكثر العرب في تلك القفار مسغبة وعطشاً. وقفل لما بلغه من اعتلال أمير المسلمين، ووصل إلى مراكش وقد أبل واعتزم على الجهاد والغزو، شكرا لله كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن إجازة السلطان أبي يوسف الرابعة ومحاصرة شريش وما تخلل ذلك من الغزوات:

لما اعتزم أمير المسلمين على الإجازة، واعترض جنوده وحاشيته وأزاح عللهم وبعث في قبائل المغرب بالنفير. ونهض من مراكش في جمادى الآخرة لثلاث وثمانين وسبعمائة. واحتل رباط الفتح منتصف شعبان، فقضى به صومه ونسكه. ثم ارتحل إلى قصور مصمودة وشرع في إجازة العساكر والحشود من المرتزقة والمطوعة خاتمة سنته. ثم أجاز البحر بنفسه، غرة صفر من سنة أربع بعدها. واحتل بطريف. ثم سار منها إلى الخضراء، وأراح أياماً. ثم خرج غازيا، حتى انتهى إلى وادي لك. وسرح الخيول في بلاد العدو وبسائطها تغير وتحرق وتنسف. فلما خرب بلاد النصرانية ودمر أرضهم، قصد مدينة شريش، فنزل بساحتها وأناخ عليها، وبث السرايا والغارات في جميع نواحيها. وبعث عن المسالح التي كانت بالثغور، فتوافت لديه. ولحق حافده عمر بن أبي مالك بجمع وافر من المجاهدين من أهل المغرب فرسانا ورجالا، ووافته حصة العزفي من سبتة غزاة ناشبة تناهز خمسماية من الرجل. وأوعز إلى ولي عهده الأمير أبي يعقوب باستنفار

قن بقي بالعدوة من المسلمين إلى الجهاد. وعقد لحافده الآخر منصور بن عبد الواحد على ألف فارس من الغزاة. وأعطاه الراية وسرحه لغزو إشبيلية لآخر صفر من سنته، فغنموا ومروا بقرمونة في منصرفهم، فاستباحوها وأثخنوا بالقتل والأسار ورجعوا وقد امتلأت أيديهم من الغنائم. وبعث وزيره محمد بن عتو ومحمد بن عمران بن عبلة عيونا، فوافوا حصن القناطر وروطة، واستكشفوا ضعف الحامية واختلال الثغور، فعقد ثانية لحافده عمر بن عبد الواحد على مثلها من الفرسان لثلاثة من ربيع وأعطاه الراية، وسرحه إلى بسائط وادي لك، فرجعوا من الغنائم بما ملا العساكر، بعد أن أثخنوا فيها بالقتل والتخريب وتحريق الزروع واقتلاع الثمار وأبادوا عمرانها. ثم شح ثامن ربيع عسكرا للإغارة على حصن اركش. ووافوه على غرة، فاكتسحوا أموالهم. ثم عقد تاسع ربيع لابنه أبي معروف على ألف من الفرسان. وسرحه لغزو إشبيلية، فسار حتى توقف. وانحجزت منه حاميتها، فخرب عمرانها وحرق زروعها وقطع شجراءها. وامتلأت أيدي عسكره سبياً وأموالا، ورجع إلى!عسكر السلطان مملوء الحقائب. ثم عقد ثالثة لحافده عمر منتصف ربيع لغزو حصن كان بالقرب من معسكره، وسرح معه الرجل من الناشبة والفعلة بالآلات. وأمده بالرجل من المصامدة وغزاة سبتة، فاقتحموه عنوة على أهله. وقتلوا المقاتلة، وسبوا النساء والذرية، وأضرعوا خده بالتراب.

ولسبع عشرة من الشهر ركب السلطان إلى حصن سقوط قريباً من معسكره، فخربه

وحرقه بالنار واستباحه. وقتل مقاتلته وسبى أهله. ولعشرين من شهره وصل ولي عهده الأمير أبو يعقوب من العدوة بنفير أهل المغرب وكافة القبائل، في جيوش ضخمة وعسكر موفورة. وركب أمير المسلمين للقائهم وبرور مقدمهم. واعترض العساكر الموافية يومئذ، فكانت ثلاثة عشر ألفا من المصامدة، وثمانية آلاف من برابرة المغرب المتطوعون كلهم بالجهاد، فعقد له السلطان على خمسة آلاف من المرتزقة، وألفين من المطوعة وثلاثة

عشر ألفا من الرجل، وألفين من الناشبة. وسرحه لغزو إشبيلية والإثخان في نواحيها، فعبا كتائبه ونهض لوجهه. وبث الغارات بين يدين، فأثخنوا وسبوا وقتلوا. واقتحموا الحصن، واكتسحوا الأموال. وعاج على الشرف والغابة من بسيط إشبيلية فنسف قراها واقتحم من حصونها عدة. وقفل إلى معسكر أمير المسلمين ظاهرا عزيزا غانما. ولسادس ربيع الثاني وصل الأمير أبو زيان منديل بن طريف بعسكر وافر من المسلمين، فعقد له غداة وصوله وأمده بعكسر آخر. وأغزاه قرمونة والوادي الكبير، فأغار على قرمونة. وطمعت حاميتها في المدافعة، فبرزوا له. وصدقهم القتال، فانكشفوا حتى أحجزوهم في البلد. ثم أحاطوا ببرج كان قريبا من البلد، قاتلوه ساعة من نهار واقتحموه عنوة و لم يزل يتقرى المنازل والعمران حتى وقف بساحة إشبيلية، فأغار واكتسح واقتحم برجا كان هنالك عينا على المسلمين وأضرمه نارا. وامتلأت أيدي عساكره، وقفل إلى معسكر أمير المسلمين.

ولثلاث عشرة من ربيعب الثاني عقد للأمير أبي يعقوب لمنازلة جزيرة كبوتر، فصمد إليها وقاتلها واقتحمها عنوة. وفي ثاني جمادى عقد لطلحة بن يحيى بن محلى. وكان بعد مداخلته أخاه عمر في شأن مالقة سنة خمس

وسبعين، خرج إلى الحج، فقضى فرضه ا ورجع. ومرّ في طريقه بتونس. واتهمه الدعي ابن أبي عمارة كان بها يومئذ، فاعتقله سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة. ثم سرحه، ولحق بقومه بالمغرب. ثم أجاز إلى الأندلس غازيا في ركاب السلطان، فعقد له في هذه الغزاة على مايتين من الفرسان. وسرحه إلى إشبيلية ليكون ربية للمعسكر. وبعث معه لذلك عيونا من اليهود، والمعاهدين من النصارى، يتعرفون له أخبار الطاغية شانجة. وأمير المسلمين أثناء ذلك يغادي شريش ويراوحها بالقتال والتخريب، ونسف الاثار وبث السرايا كل يوم وليلة في بلاد العدو. فلا يخلو يوما عن تجهيز عسكر، أو إغزاء جيش، أو عقد راية، أبو بعث سرية، حتى انتسف العمران في جميع بلاد النصرانية، وخرب بسائط إشبيلية ولبلة وقرمونة وأستجة وجبال الشرف، وجميع بسائط الفرنتيرة. وأبلى في هذه الغزوات عياد العاصمي من شيوخ جشم، وخضر الغزي أمير الأكراد بلاء عظيما، وكان لهم فيها ذكر. وكذلك غزاة سبتة وسائر المجاهدين والعرب من جشم وغيرهم. فلما دمرها تدميرا، ونسفها تخريبا، واكتسحها غارة ونهبا، وزحم فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن المعسكر، اعتزم على القفول، وأفرج عن شريش لآخر رجب. ووافاه مدد غرناطة من عساكر الغزاة، وقائدهم

يعلى بن أبي عياد بن عبد الحق بوادي بردة، فلقاهم مبرة وتكريما، وانقلبوا إلى أهلهم. واتصل به أن العدو أوعز إلى أساطيله باحتلال الزقاق والاعتراض دون الفراض، فأوعز أمير المسلمين إلى جميع سواحله من سبتة وطنجة والمنكب والجزيرة وطريف وبلاد الريف ورباط الفتح. واستدعى أساطيله، فتوافت منها سنة وثلاثون أسطولا متكاملة في عدتها وعديدها، فأحجمت أساطيل العدو عنها وارتدت على أعقابها. واحتل بالجزيرة غرة رمضان. واستيقن الطاغية شانجة وأهل ملته أن بلادهم قد فنيت، وأرضهم خربت. وتبينوا العجز عن المدافعة والحماية، فجنحوا إلى السلم. وضرعوا إلى أمير المسلمين في كف عاديته عنهم على ما يذكر. ووصل إلى السلطان بمكانه من منازلة شريش عمر بن أبي يحيى بن محلى نازعا إلى طاعته، فاتهمه لما سبق من تلاعبه. وأمر أخاه طلحة بنكبه. واحتمل إلى طريف، فاعتقل بها. وسار طلحة إلى المنكب، فاستصفى أموال أخيه عمر وذخائره وحملها إلى السلطان. وأقر ثانية أخاه موسى على عمله بالمنكب، وأمده بعسكر من الرجل. ثم أطلق عمر لليال من اعتقاله. وأجاز طلحة وعمر في ركاب السلطان. ونزع منصور بن أبي مالك حافد السلطان إلى غرناطة. ثم لحق منها بالمنكب وأقام مع موسى بن يحيى بن محلى، فأقره السلطان ورضي مقامه. والله تعالى أعلم.

الخبر عن وفادة الطاغية شانجة وانعقاد السلم ومهلك السلطان علي تفيئة ذلك:

لما نزل با4 مم النصرانية في بلاد ابن أدفونش من أمير المسلمين ما نزل من تدمير تراهم، واكتساح أموالهم، وسبي نسائهم، وإبادة مقاتلتهم، وتخريب معاقلهم، وانتساف عمرانهم، زاغت منهم الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر. واستيقنوا أن لا عاصم من أمير المسلمين، فاجتمعوا إلى طاغيتهم شانجة، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة، يتوجعون مما أذاقهم جنود الله من سوء العذاب وأليم النكال. وحملوه على الضراعة إلى أمير المسلمين في السلم، وإنفاذ الملأ من كبار النصرانية عليه في ذلك. وإلا فلا تزال تصيبهم منه قارعة، أو تحل قريبا من دارهم.

فأجاب إلى ما دعوه إليه من الخسف والهضيمة لدينه. وأوفد على أمير المسلمين وفدا من بطارقتهم وقمامصتهم وأساقفتهم. ووضع أوزار الحرب، فردهم أمير المسلمين اعتزازا عليهم. ثم أعادهم الطاغية بترديد الرغبة، على أن يشترط ما شاء من عز دينه وقومه. فأسعفهم أمير المسلمين وجنح إلى السلم لما تيقن صاغيتهم إليه، وذلهم لعز الإسلام. وأجابهم إلى ما سألوه، واشترط عليهم ما تقبلوه من كسالمة المسلمين كافة من قومه وغير قومه، والوقوف عند مرضاته في ولاية جيرانه من الملوك أو عداوتهم، ورفع الضريبة عن تجار المسلمين بدار الحرب من بلاده، وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة. وبعث ثقته عبد الحق ابن الترجمان لاشتراط ذلك وأحكام عقده، فاستبلغ وأكد في الوفاء. ووفدت رسل ابن الأحمر على الطاغية، وهو عنده لعقد السلم معه دون أمير المسلمين وعلى مدافعته عنه، فأحضرهم بمشهد ابن الترجمان وأسمعهم ما عقد لأمير المسلمين على قومه وأهل ملته. وقال لهم: إنما أنتم عبيد آبائي فلستم معي في مقام السلم أو الحرب، وهذا ملك المسلمين ولست أطيق مقاومته ولا دفاعه عنكم فانصرفوا. ولما رأى عبد الحق صاغيته إلى مرضاة السلطان، وسوس له بالوفادة لتتمكن الألفة وتستحكم العقدة. وأراه مغبة ذلك في سل السخيمة وتسكين الحفيظة وتمكين الألفة، فصغى إلى وفاقه. وسأل لقى الأمير أبي يعقوب ولي عهده من قبل ليطمئن عليه، فوصل إليه ولقيه على فراسخ من شريش. وباتا بمعسكر المسلمين هنالك. ثم ارتحلا من الغد للقاء أمير المسلمين، وقد أمر الناس بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه وإظهار شعار الإسلام وابهته، فاحتفلوا وتأهبوا وأظهروا عز الملة وشدة الشوكة ووفور الحامية.

ولقيه أمير المسلمين بأحسن مبرة، وأتم كرامة يلقى بها مثله من عظماء الملل.

وقدم الطاغية بين يديه هدية أتحف بها أمير المسلمين وابنه من ظرف بلاده: كان فيها زوج من الحيوان الوحشي المسمى بالفيل، وحمارة من حمر الوحش، إلى غير ذلك من الظرف. تقبلها السلطان وابنه وقابلوها بكفائها ومضاعفتها، وكمل عقد السلم. وتقبل الطاغية سائر الشروط، ورضي بعز الإسلام عليه. وانقلب إلى قومه بملء صدره من الرضى والمسرة. وسأل منه أمير المسلمين أن يبعث من كتب العلم التي بأيدي النصارى من لدن استيلائهم على مداين الإسلام، فاستكثر من أصنافها في ثلاثة عشر حملا بعث بها إليه، فوقفها السلطان بمدرسته التي أسسها بفاس لطلب العلم.

وقفل أمير المسلمين إلى الجزيرة لليلتين بقيتا لرمضان، فقضى صومه ونسكه.

وجعل من قيام ليله جزءا لمحاضرة أهل العلم. وأعد الشعراء كلمات أنشدوها يوم الفطر بمشهد الملأ في مجلس أمير المؤمنين. وكان من أسبقهم في ذلك الميدان شاعر الدولة عزوز المكناسي. ذكر فيها سير أمير المسلمين وغزواته على نسق.

ثم أعمل أمير المسلمين نظره في الثغور، فرتب بها المسالح وعقد عليها لابنه الأمير أبي زيان منديل. وأنزله بزكوان مقربة مالقة، واستوصاه بأن لا يحدث في بلاد ابن الأحمر حدثا. وعقد لعباد بن أبي عياد العاصمي على مسلحة أخرى، وأنزله بأصطبونة. وأجاز ابنه الأمير أبا يعقوب لتفقد أحوال المغرب ومباشرة أموره،

فأجاز في أسطول القائد محمد بن أبي القاسم الرنداحي قائد سبتة. وأوعز إليه بالبناء على قبر أبيه الملوك عبد الحق وابنه إدريس بتافرطست، فاختط هنالك رباطا، وبنى على قبورهم أسنمة من الرخام، ونقشها بالكتاب. ورتب عليها قراء لتلاوة القران، ووقف على ذلك ضياعا وفدنا. وهلك خلال ذلك وزيره يحيى بن أبي منديل العسكري لمنتصف رمضان. ثم اعتل بعد ذلك أمير المسلمين لشهر ذي الحجة، ومرض واشتد وجعه. وهلك لاخر محرم سنة خمس وثمانين وسبعمائة وستماية من الهجرة. والله أعلم.

الخبر عن دولة السلطان أبي يعقوب وما كان فيها من الأحداث وشأن الخوارج عليه لأول دولته:

لما اعتل أمير المسلمين أبو يوسف بالجزيرة مرضه نساؤه، وطير بالخبر إلى ولي

العهد الأمير أبي يعقوب وهو بمكانه من المغرب، فأغذ السير. وقضى أمير المسلمين قبل وصوله، فأخذ له البيعة على الناس وزراء أبيه وعظماء قومه. وأجاز إليهم البحر، فجددوا بيعته غرة صفر من سنة خمس وثمانين وسبعمائة وأخذوها على الكافة. وانعقد أمر السلطان يومئذ، ففرق الأموال، وأجزل الصلات، وسرح من في السجون، ورفع عن الناس الأخذ بزكاة الفطر، ووكلهم فيها إلى أمانتهم. وقبض أيدي العمال عن الظلم والاعتداء والجور على الرعايا، ورفع المكوس ومحى رسوم الرتب، وصرف اعتناءه إلى إصلاح السابلة. وكان أول شيء أحدث من أمره أن بعث عن ابن الأحمر وضرب موعدا للقائه، فبادر إليه ولقيه بظاهر مربالة لأول ربيع. ولقاه مرة وتكريما، وتجافى له عن جميع الثغور الأندلسية التي كانت لمملكته ما عدى الجزيرة وطريف. وتفرقا من مكانهما على أكمل حالات المصافاة والوصلة، ورجع السلطان إلى الجزيرة. ووافاه بها وفد الطاغية شانجة، مجددين حكم

السلم الذي عقد له أمير المسلمين عفا الله عنه فأجابهم. ولما تمهد أمر الأندلس، وفرغ من النظر إليها، عقد لأخيه أبي عطية العبّاس على الثغور الغربية والأمارة عليها. وعقد لعلي بن يوسف بن يزكاسن على مسالحها، وأمده بثلاثة آلاف من عساكره.

وأجاز إلى المغرب، فاحتل بقصر مصمودة سابع ربيع الثاني. ثم ارتحل إلى

فاس، واحتل بها لاثنتي عشرة خلت من جمادى. ولحين استقراره بدار ملكه، خرج عليه محمد بن إدريس بن عبد الحق في إخوته وبنيه وذويهم، ولحق بجبال درعة، ودعا ل!سه. وسرح إليهم السلطان أخاه أبا معرف، فبدا له في النزوع إليهم، فلحق بهم. وأغزاهم السلطان بعساكره، وردد إليهم البعوث والكتائب. وتلطف في استنزال أخيه، فنزل عن الخلاف وعاد إلى حسن طاعته. وفر أولاد إدريس إلى تلمسان، وتقبض عليهم أثناء طريقهم. وسرح السلطان أخاه أبا زيان إلى تازى، وأوعز إليه بقتلهم بمليلى خارج تازى لرجب من سنة خمس وثمانين وسبعمائة. ورهب الأعياص عند ذلك من بادرة السلطان، فتفرقوا ولحقوا بغرناطة. أولاد أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق، وأولاد أبي يحيى بن عبد الحق، وأولاد عثمان بن يزول. ورجع أولاد أبي يحيى إلى السلطان بعد انقضاء عهده وأمانه. وهلك أخوه محمد أجليلد بن يعقوب بن عبد الحق لشعبان من سنته. وهلك عمر ابن أخيه أبي مالك بطنجة. ثم خرج على السلطان عمر بن عثمان بن يوسف العسكري بقلعة

قندلاوة، ونبذ الطاعة، وأذن بالحرب. وأوعز السلطان إلى بني عسكر ومن إليهم من القبائل المجاورين لها، فاحتشدوا له ونازلوه. ثم نهض بركابه وعساكره إلى منازلته، واحتل بنبدورة. وخافه عمر على نفسه وأيقن أن قد احيط به، فسأل الأمان. وبذله السلطان على شريطة اللحاق بتلمسان، فبعث من توثق له من الخيرة فنزل. فوفى له السلطان بعده، ولحق بتلمسان بأهله وولده.

ثم ارتحل السلطان في رمضان من سنته إلى مراكش لتمهيد أنحائها، وتثقيف أطرافها، واحتل بها في شؤال، واعتمل النظر في مصالحها. ونزع خلال ذلك طلحة بن يحيى بن محلى البطوي إلى بني حسان من المعقل، وخرج على السلطان ودعا لنفسه. وعقد السلطان لمنصور ابن أخيه أبي مالك على العساكر، وعهد له بولاية السوس، وسرحه لاستنزال الخوارج، ومحو آثار الفساد. وارتاب بمكان أخيه عمر، فغربه إلى

غرناطة، فقتله أولاد أبي العلاء يوم وصوله إليها، فسار الأمير منصور في الجيوش والكتائب، وغزا عرب المعقل وأثخن فيهم. وقتل طلحة بن محلى في بعض حروبهم لثلاث عشرة من جمادى سنة ست وثمانين وسبعمائة. وبعث برأسه إلى سدة السلطان، فعلق بتازى. ثم نهض السلطان في رمضان لغزو المعقل بصحراء درعة بما أضروا العمران وأفسدوا السابلة. وسار إليهم في اثني عشر ألفا من الفرسان. ومرّ على بلاد هسكورة معترضا جبل درن. وأدركهم بالقفر نواجع، فأثخن فيهم بالقتل والسبي. واستكثر من رؤوسهم، فعلقت بشرفات مراكش وسجلماسة وفاس. وعاد من غزوه إلى مراكش آخر شوال، فنكب محمد بن علي بن محلى عاملها القديم الولاية عليها من لدن غلب الموحدين، لما وقع من الارتياب بأولاد محلى بما أتاه كبيره طلحة، فنكب غرة المحرم من سنة سبع. وهلك في محبسه لشهر صفر بعده. وهلك على أثر ذلك المزوار قاسم بن عبو. وعقد السلطان على مراكش وأعمالها لمحمد بن عطو الجاناتي من موالي دولتهم ولاء الحلف. وترك معه ابنه أبا عامر. ثم ارتحل إلى حضرة فاس، فاحتل بها منتصف ربيع. ووافته بها عروسه ابنة موسى بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق من غرناطة في وفد من وزراء ابن الأحمر وأهل دولته، فأعرس بها وكان بعث إلى أبيها من قبل في الإصهار بها. ووافت معها رسل ابن الأحمر يسألون التجافي عن وادي آش، فأسعفهم بها كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن دخول وادي آش في طاعة السلطان ثم رجوعها إلى طاعة ابن الأحمر:

كان أبو الحسن بن أشقيلولة ظهير السلطان ابن الأحمر على ملكه ومعينه على شأنه، وكان له في الدولة بذلك مكان. ولما هلك خلف من الولدان أبا محمد عبد الله وأبا إسحاق إبراهيم، فعقد ابن الأحمر لأبي محمد على مالقة ولأبي إسحاق على قمارش ووادي آش. ولما هلك السلطان ابن الأحمر حدثت مغاضبات ومنافسات بينهما وبينه، وتأدى ذلك إلى الفتنة كما قلناه. ودخل أبو محمد في طاعة السلطان أبي يوسف. ثم هلك فلحق ابنه محمد بالسلطان، ونزل له عن البلد سنة ست وسبعين. ثم هلك أبو اسحاق سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة، وغلب ابن الأحمر على حصن قمارش وصار إليه. وكان الرئيس أبو إسحاق قد عقد لابنه أبي الحسن على وادي آش وحصونها، واتصلت الفتنة

بينه وبين ابن الآحمر، وظاهر أبو الحسن عليه الطاغية. وأجلب أخوه أبو محمد على غرناطة هو وابن الدليل.
وطال أمر الفتنة بينهم وبين ابن الأحمر. وأجلب أخوه أبو محمد على غرناطة مع الطاغية. ثم انعقد السلم بين المسلمين والنصرانية، وخشي أبو الحسن بن أشقيلولة على نفسه عادية ابن الأحمر، فتذمم بطاعة صاحب المغرب. وأقام دعوته بوادي آش سنة ست وثمانين وسبعمائة، فلم يعرض لها ابن الأحمر، حتى إذا وقعت المواصلة بينه وبين السلطان أبي يعقوب وكان شأن هذا الصهر على يده، بعث رسله إلى السلطان يسأو، التجافي عن وأدي آش، فتجافى له عنها. وبعث إلى أبي الحسن بن أشقيلولة بذلك، فتركها. وارتحل إليه سنة سبع وثمانين وسبعمائة. ولقيه بسلا، فأعطاه القصر الكبير وأعماله طعمة سوغه إياها. ثم نزل لبنيه آخر دولتهم. واستمكن ابن الأحمر في وادي آش وحصونها. ولم يبق له بالأندلس منازع في قرابته. والله يؤتي ملكه من يشاء.

الخبر عن خروج الأمير أبي عامر ونزوعه إلى مراكش ثم فيئته إلي الطاعة:

لما احتل السلطان بفاس وأقام بها، خرج عليه ابنه أبو عامر، ولحق بمراكش،
ودعا لنفسه أخريات شوال من سنة سبع وثمانين وسبعمائة. وساعده على الخلاف والانتزاء عاملها محمد بن عطو. وخرج السلطان في أثره إلى مراكش، فبرز إلى لقائه، فكانت الدائرة عليهم، وحاصرهم السلطان بمراكش أياما. ثم خلص أبو عامر إلى بيت المال، فاستصفى ما فيه، وقتك المشرف ابن أبي البركات، ولحق بحلل المصامدة. ودخل السلطان من غده إلى البلد يوم عرفه، فعفا وسكن. ونهض منصور ابن أخيه أبي مالك من السوس إلى حاحة، فدوخ أنحاءها. ثم سرح إليه المدد من مراكش، فأوقعوا بزكنة من برابرة السوس. وقتل منهم ما يناهز أربعين من سرواتهم. وكان فيمن قتل شيخهم حبون بن إبراهيم. ثم إن ابنه أبا عامر ضاق ذرعه بسخط أبيه وأجلابه في الخلاف، فلحق بتلمسان ومعه وزيره ابن عطو فاتح سنة ثمان وثمانين وسبعمائة، فأواهم عثمان بن يغمراسن. ومهد لهم المكان ولبثوا عنده أياما. ثم عطف السلطان على ابنه رحم لما عطفت ابنته عليه، فرضي عنه وأعاده إلى مكانه. وطالب عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان أن يسلم إليه ابن عطو الناجم في النفاق مع ابنه، فأبى من إضاعة جواره وإخفار ذمته. وأغلظ له الرسول في القول، فسطا به واعتقله، فثارت من السلطان الحفائظ الكامنة وتحركت
الأحن القديمة والتراث المتواترة. واعتزم على غزو تلمسان. والله أعلم.

الخبر عن تجدد الفتنة مع عثمان بن يغمراسن وغزو السلطان مدينة تلمسان ومنازلته إياها:

كانت الفتنة بين هذين الحيين قديمة من لدن مجالاتهم بالقفار من صحراء ملوية،
الى صا، إلى فيكيك، إلى مصاب. ولما انتقلوا إلى التلول، وتغلبوا على الضواحي بالمغرب الأقصى والأوسط، لم تزل فتنتهم متصلة، وأيام حروبهم فيها مذكورة. كانت لمحولة الموحّدين عند اعتلالها والتياثها تستنصر منهما بالتضريب بينهم والفتنة، فتأكدت لذلك أحوالها واتصلت أيامها. وكان بين يغمراسن بن زيان وأبي يحيى بن عبد الحق ما وقائع ومشاهد، نقلنا منها بعضاً من كل. واستظهر الموحدون بيغمراسن عليه في بعضها. وكان

الغلب أكثر ما يكون لأبي يحيى بن عبد الحق لوفور قبيله. إلا أن .يغمراسن كان يتصدى لمقاومته في سائر وقائعه. ولما طمس أثر بني عبد المؤمن، استولى يعقوب بن عبد الحق على ملكهم، وصارت في جملته عساكرهم، فضاعف عليه، أسف على ملك يغمراسن ملكه. وجمع له، فأوقع به في تلاغ الواقعة المعروفة. ثم أوقع به ثانية وثالثة. ولما استولت قدم يعقوب بن عبد الحق في ملكه، واستكمل فتح المغرب وسائر أمصاره، وكبح يغمراسن عن التطاول إلى مقاومته، وأوهن قواه بفل جموعه ومنازلته في داره، ومظاهرة أقتاله من زناتة من بني توجين ومغراوة عليه. فانصرف ع ذلك إلى الجهاد، فكان له فيه شغل عما سواه كما نقلناه في أخباره. ولما ارتاب ابن الأحمر بمكان السلطان يعقوب بن عبد الحق من الأندلس، وحذره على ملكه، وتظاهر الطاغية على منعه من الإجازة إلى عدوتهم، خشوا أن يستقلوا بمدافعته، فراسلوا يغمراسن في الأخذ بحجزته. وأجابهم إليها، وجرد عزائمه لها، واتصلت أيديهم في ، التظاهر عليه. ثم فسد ما بين ابن الأحمر والطاغية و لم يكن له بد من ولاية يعقوب بن الحق، فتولاه بواسطة ابنه يوسف بن يعقوب كما ذكرناه. وأطلعوه على خباء يغمراسن في مظاهرتهم، فأغزاه سنة تسع وسبعين وهزمه بخرزوزة. ونازله بتلمسان وأوطأ "ه من بني توجين ساحته كما ذكرناه. ثم انصرف إلى شأنه من الجهاد. وهلك يغمراسن بن زيان على تفيئة ذلك سنة إحدى وثمانين وسبعمائة، وأوصى ابنه عثمان ولي عهده.

زعموا أن لا يحدث نفسه بمقاومة بني مرين ومساماتهم في الغلب، وأن لا يبرز إلى لقائهم بالصحراء، وأن يلوذ منهم بالجدران متى سموا إليه. وألقى إليه، زعموا أن بني مرين بعد تغلبهم على مراكش، وإضافة سلطان الموحّدين إلى سلطانهم ازدادت قوتهم وتضاعف غلبهم، وقال له: زعموا فيما أوصاه: "لا يغرنك أني زحفت بعدها إليهم، وبرزت إلى لقائهم. فإني أنفت أن أرجع عن مقاومتهم بعد اعتيادها، وأترك مبارزتهم وقد عرفها الناس. وأنت فلا يضرك العجز عن مبارزتهم والنكول عن لقائهم، فليس لك في ذلك مقام معلوم، ولا عادة سالفة واجهد جهدك في التغلب على أفريقية وراءك، فإن فعلت كانت المناهضة". وهذه الوصاة زعموا هي التي حملت عثمان وبنيه من بعده على طلب ملك أفريقية، ومنازلته بجاية، وحربهم مع الموحدين. ولما هلك يغمراسن ذهب عثمان ابنه إلى مسالمة بني مرين، فبعث أخاه محمدا إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق، وأجاز البحر إليه بالأندلس. ووافاه مراكش في إجازته الرابعة سنة أربع وثمانين وسبعمائة، فعقد له على ما جاء إليه من السلم والمهادنة. ورجعه إلى أخيه وقومه ممتليا كرامة وسرورا. وهلك يعقوب بن عبد الحق إثر ذلك سنة خمس وثمانين وسبعمائة، وقام بالأمر ابنه يوسف بن يعقوب. وانتزى الخوارج عليه بكل جهة، فشمر لهم واستترلهم وحسم أدواءهم. ثم خرج ابنه عليه آخرا كما ذكرناه بممالأة الشيطان محمد بن عطو. ثم فاء إلى طاعة أبيه، ورضي عنه، وأعاده إلى مكانه من حضرته. وطالب عثمان بن يغمراسن كما ذكرناه في ابن عطو المنتزي عليه مع ابنه، فأبى عثمان من إسلامه. وتحركت حفيظة السلطان واعتزم على غزوهم، فارتحل من مراكش لصفر من سنة تسع وثمانين وسبعمائة. وعهد عليها لابنه الأمير أبي عبد الرحمن. ثم نهض لغزاته من فاس آخر ربيع من سنته في عساكره وجنوده. وحشد القبائل وكافة أهل المغرب، وسار حتى نزل تلمسان.

فانحجر عثمان وقومه بها، ولاذوا منه بجدارنها. فسار في نواحيها ينسف الآثار، ويخرب العمران ويحطم الزرع. ثم نزل بذراع الصابون من ساحتها. ثم انتقل منه إلى تمامة وحاصرها أربعين يوما، وقطع شجراءها، وأباد غضراءها. ولما امتنعت عليه أفرج عنها وانكفأ راجعا إلى المغرب. وقضى نسك الفطر بعين الصفا من بلاد بني يزناتن، ونسك الأضحى وقربانه بتازى، وتلبث بها، ومنها كان فصوله للغزو عند انتقاض الطاغية كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض الطاغية وإجازة السلطان لغزوه.

لما رجع السلطان من غزو تلمسان، وافاه الخبر بأن الطاغية شانجة انتقض ونبذ العهد، وتجاوز التخوم. وغار على الثغور، فأوعز إلى قائد المسالح علي بن يوسف بن يزكاسن بالدخول إلى دار الحرب، ومنازلة شريش. وشن الغارات على بلاد الطاغية، فنهض لذلك في ربيع الآخر من سنة تسعين. وجاس خلالها، وتوغل في أقطارها، وأبلغ في النكاية. وفصل السلطان من تازى غازيا على أثره في جمادى، واحتل قصر مصمودة، واستنفر أهل المغرب وقبائله. ونفروا وشرع في إجازتهم البحر. وبعث الطاغية أساطيله إلى الزقاق حجزا دون الإجازة، فأوعز السلطان إلى قواد أساطيله بالسواحل وأغزاهم. التقت الأساطيل ببحر الزقاق في شعبان، فاقتتلوا وانكشف المسلمون ومحصهم الله. ثم أغزاهم ثانية، وخامت أساطيل العدو عن اللقاء، وصاعدوا عن الزقاق. وملكته أساطيل السلطان، فأجاز أخريات رمضان واحتل بطريف. ثم دخل دار الحرب غازياً، فنازل حصن بجير ثلاثة أشهر وضيق عليهم. وبث السرايا في أرض العدو، وردد الغارات على شريش وإشبيلية ونواحيهما إلى أن أبلغ في النكاية والإثخان، وقضى من الجهاد وطرأ. وزاحمه فصل الشتاء وانقطاع الميرة عن المعسكر، فأفرج عن الحصن ورجع إلى الجزيرة. ثم أجاز إلى المغرب فاتح إحدى وتسعين وسبعمائة، فتظاهر ابن الأحمر والطاغية على منعه الإجازة، كما نذكره إن شاء الله تعالى. والله أعلم.

الخبرعن انتقاض ابن الأحمر ومظاهرته الطاغية علي طريف أعادها الله:

ولما قفل السلطان من غزاته فاتح إحدى وتسعين وسبعمائة كما ذكرناه، وقد أبلغ في نكاية العدو، وأثخن في بلاده، فأهم الطاغية أمره، وثقلت عليه وطأته، والتمس الوليجة من لحونه. وحذر ابن الأحمر غائلته، ورأى أن مغبة حاله الاستيلاء على الأندلس وغلبه على أمره، ففاوض الطاغية، وخلصوا نجيا. وتحدثوا أن استمكانه من الإجازة إليهم إنما هو بحرب مسافة بحر الزقاق، وانتظام ثغور المسلمين حفافيه بتصرف شوانيهم وسفنهم متى أرادوا فضلا عن الأساطيل. وإن أم تلك الثغور طريف، وإنهم إذا استمكنوا منها كانت ربيئة لهم على بحر الزقاق. وكان أسطولهم من مرقاها بمرصد لأساطيل صاحب المغرب الخائضين لجة ذلك البحر، فاعتزم الطاغية على منازلة طريف. وزعم له ابن الأحمر

بمظاهرته على ذلك، وشرط له المدد، والميرة لأقوات العسكر أيام منازلتها على أن تكو له إن حصلت. وتعاونوا على ذلك، وأناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف. وألح عليها بالقتال، ونصب الآلات، وانقطع عنها المدد والميرة. واحتلت أساطيله ببحر الزقاق، فحالت دون الصريخ من السلطان وإخوانهم

المسلمين. وضرب ابن الأحمر معسكره بمالقة قريبا منه، وسرب إليه المدد من السلاح والرجال والميرة من الأقوات وبعث عسكرا لمنازلة أصطبونة، وتغلب عليه بعد مدة من الحصار. واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب أهل طريف الجهد ونال منهم الحصار، فراسلوا الطاغية لى الصلح والنزول عن البلد، فصالحهم واستنزلهم سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. ووفى لهم بعهد واستشرف ابن الأحمر إلى تجافي الطاغية عنها كما عهدا عليه، فأعرض عن ذلك واستا بها بعد أن كان نزل له عن ستة من الحصون عوضا منها، ففسد ذات بينهما. ورجع ا الأحمر إلى تمسكه بالسلطان واستغاثته به لأهل ملته على الطاغية. وأوفد ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف ووزيره أبا سلطان عزيز الداني، في وفد من أهل حضرته لتجديد العهد وتأكيد المودة، وتقرير المعذرة من شأن طريف. فوافوه مكانه منازلة تازوطا كما نذكر بعد، فأبرموا العقد وأحكموا الصلح. وانصرفوا إلى ابن الأحمر سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة بإسعاف غرضه من المؤاخاة واتصال اليد. وهلك خلال ذلك قائد المسالح بالأندلس علي بن يزكاسن في ربيع سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة. وعقد السلطان لا وولي عهده الأمير أبي عامر على ثغور الأندلس التي في طاعته، وعهد له بالنظر مصالحها. وأنفذه إلى المجاز بعسكره، فوافاه هنالك السلطان ابن الأحمر، كما نذكر شاء الله تعالى. والله أعلم.

الخبر عن وفادة ابن الأحمر علي السلطان والتقائهما بطنجة:

لما رجعت الرسل إلى ابن الأحمر، وقد كرمت وفادتهم، وقضيت حاجاتهم وأحكمت في المؤاخاة مقاصدهم، وقع ذلك من ابن الأحمر أجمل موقع، وطار سر من أعواده. وأجمع الرحلة إلى السلطان لاستحكام العقد، والاستبلاغ في العذر واقعة طريف وشأنها، واستعدادهم لإغاثة المسلمين ونصرهم من عدوهم. فاعتزم ذلك وأجاز البحر ذا القعدة سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة، واحتل بنيونش من ساحة سبتة ثم

ارتحل إلى طنجة، وقدم بين يدي نجواه هدية سنية، أتحف بها السلطان، كان من أحفلها وأحسنها موقعا لديه فيما زعموا المصحف الكبير، أحد مصاحل عثمان بن عفان الأربعة المنبثقة إلى الآفاق، المختص هذا منها بالمغرب، كما نقله السلف. كان بنو امية يتوارثونه بقرطبة، فتلقاه الأمير أبو عامر هنالك وأخوه الأمير أبو عبد الرحمن ابنا السلطان واحتفلا في مبرته. ثم جاء السلطان على أثرهما من حضرته لتلقيه وبرور مقدمه، ووافاه بطنجة وأبلغ في تكرمته، وبر وفادته بما يكرم به مثله. وبسط ابن الأحمر العذر عن شأن طريف، فتجافى السلطان عن العذل. وأعرض عنه وقبل منه، وبر واحتفى، ووصل وأجزل.. ونزله له ابن الأحمر عن الجزيرة ورندة والغربية، وعشرين حصنا من ثغور الأندلس، كانت من قبل لطاعة صاحب المغرب ونزل عساكره. وعاد ابن الأحمر إلى الأندلس خاتم اثنتين وتسعين وسبعمائة محبوا محبورا. وأجازت عساكر السلطان معه لحصار طريف. وعقد على حربها ومنازلتها لوزيره الطائر الذكر عمر بن السعود بن خرباش الجشمي، فنازلها مدة، وامتنعت فأفرج عنها. وصرف السلطان همه إلى غزو تلمسان، وحصارها كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتزاء ابن الوزير الوطاسي بحصن تازوطا من جهة الريف واستنزال السلطان إياه:

كان بنو الوزير هؤلاء رؤساء بني وطاس من قبائل بني مرين، ويرون أن نسبهم دخيل في بني مرين. وأنهم من أعقاب علي بن يوسف بن تاشفين لحقوا بالبدو، ونزلوا على بني وطاس ورسخت فيهم عروقهم، حتى لبسوا جلدتهم. و لم يزل السرو متربعا بين أعينهم لذلك، والرياسة شامخة بأنوفهم. وكانوا يرومون الفتك بالأمراء من أولاد عبد الحق، فلم يطيقوه. ولما احتل السعيد بتازى غازيا إلى تلمسان كما ذكرناه، ولحق ببلدهم الأمير أبو يحيى بن عبد الحق، ائتمروا في الفتك به. ونذر بشأنهم فارتحل، ففر الى غبولة وعين الصفا من بلاد بني يزناسن. وهنالك بلغه خبر مهلك السعيد. وكانت بلاد الريف لبني وطاس من لدن دخول بني مرين المغرب واقتسامهم لأعماله، فكانت ضواحيها لنزلهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم. وكان حصن تاوزطا بها من أمنع معاقل المغرب، وكان الملوك من أولاد عبد الحق يعتنون بشأنه ويترلون به من أوليائهم من
يثقون بغنائه واضطلاعه، ليكون آخذا بناصية م!ت هؤلاء الرهط وشجا في صدورهم عما يسمون إليه. وكان السلطان قد عقد عليه لمنصور ابن أخيه الأمير أبي مالك، بعد مهلك أبيه أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق. وكان عمر بن يحيى بن الوزير وأخوه عامر رئيسين على بني وطاس لذلك العهد، فاستوهنوا أمر السلطان بعد مهلك أبيه. وحدثوا أنفسهم بالانتزاء بتازوطا والاستبداد بتلك الناحية، فوثب عمر منهم بمنصور ابن أخي السلطان شهر شؤال من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. وفتك برجاله وذويه، وأزعجه عنه، وغلبه على مال الجباية الذي كان بقصره، فاستصفاه واستأثر به. واستبد وشحن الحصن برجاله وحاشيته ووجوه قومه.
ووصل منصور إلى السلطان، وهلك لليال من منجاته أسفا لما أصابه. وسرح السلطان وزيره الطائر الذكر عمر بن السعود بن خرباش بالعساكر لمنازلته، فأناخ عليه. ثم نهض السلطان على أثره، ووافاه وضرب معسكره بساحته. وخالف عامر أخاه عمر إلى السلطان بقومه حذرا من مغبة الأمر، وأشفق عمر لشدة الحصار ويئس من الخلاص، وظن أن قد احيط به. ودس إلى أخيه عامر، فاذن السلطان في مداخلته في الترول عن الحصن، فاذن له. واحتمل ذخيرته، وفر إلى تلمسان. وبدا لعامر في رأيه عندما خلص إلى الحصن وخلا له من عمر أخيه الجو. وحذر غائلة السلطان وخشي أن يثأر منه بأخيه، فامتنع بالحصن. ثم ندم وسقط في يده. وفي خلال ذاك كان وصول وفد الأندلس، وأرسوا أساطيلهم بمرقى غساسة. فبعث إليهم عامر أن يشفعوا له عند السلطان لوجاهتهم لديه، فتقبلت شفاعتهم على شريطة إجازته إلى الأندلس. وكره ذلك وقدم بين يديه بعض حاشيته إلى الأسطول مكرا بهم. وخاض الليل إلى تلمسان، فتقبّضالسلطان على ولده وقتل. وأسلم أهل الأسطول من كان من حاشيته لديهم، وتجافوا عن إجازتهم على السلطان لما مكر بهم عامر. فاستلحموا مع من كان بالحصن من أتباعهم وقرابتهم وذويهم. وتملك السلطان حصن تازوطا، وأنزل به عماله ومسلحته، وقفل إلى حضرته بفاس آخر جمادى من سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة. والله تعالى أعلم.
الخبر عن نزوع أبي عامر ابن السلطان إلى بلاد الريف وجبال غمارة:
كان الأمير أبو عامر بعد إجازة ابن الأحمر إلى السلطان أبيه ورضاه عنه، وتأكيد مؤاخاته وإغزاء وزيره عمر بن السعود لمنازلة طريف، واستتراله أولاد الوزير المنتزين

بحصن تازوط، رجع من قصر مصمودة إلى بلاد الريف، بإيعاز أبيه إليه بذلك لتسكين أحوالها. وكان أولاد الأمير أبي يحيى بن عبد الحق قد نزعوا إلى تلمسان لسعاية فيهم وقرت في صدر السلطان، فأقاموا بها أياما. ثم استعطفوا السلطان واسترضوه، فرضي وأذن لهم في الرجوع إلى محلهم من قومهم ودولتهم. وبلغ الخبر الأمير أبا عامر، وهو بمعسكره من الريف، فأجمع على اغتيالهم في طريقهم يظن أنه يرضي بذلك أباه. واعترضهم بوادي القطف من بلاد ملوية سنة خمس وتسعين وسبعمائة، فاستلحمهم. وانتهى الخبر إلى السلطان، فقام في ركائبه وقعد، وتبرأ إلى الله من إخفار ذمته، ومن صنيع ابنه. وسخطه وأقصاه، فذهب مغاضبا ولحق ببلاد الريف. ثم صعد إلى جبال غمارة، فلم يزل طريدا بينهم. ونازلته عساكر أبيه لنظر ميمون بن ودران الجشمي، ثم لنظر زيكن بن المولاة تاميمونت. وأوقع بهم مرارا اخرها بيرزيكن سنة تسع وتسعين وسبعمائة. وذكر الزليخي مؤرخ دولتهم أن خروجه بجبل غمارة كان سنة أربع وتسعين وسبعمائة، وقتله لأولاد الأمير أبي يحيى كان سنة خمس وتسعين وسبعمائة بعدها، أغرا بهم من مثوى انتزائه، وقتلهم كما ذكرناه والله أعلم. ولم يزل هذا دأبه إلى أن هلك ببني سعيد من جبال غمارة سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، ونقل شلوه إلى فاس فووري بباب الفتوح بملجد قومهم هنالك. وأعقب ولدين كفلهما السلطان جدهما، فكانا الخليفتين من بعده، على ما نذكر إن شاء الله تعالى. والله أعلم.

الخبر عن ترديد الغزو إلي تلمسان ومنازلتهما:

كان عثمان بن يغمراسن بعد إفراج السلطان عنه سنة تسع وثمانين وسبعمائة، وانتقاض الطاغية وابن الأحمر عليه كما قلناه، صرف إلى ولايتهما وجه تدبيره. وأوفد على الطاغية ابن بريدي من صنائع دولته سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ورجعه الطاغية مع الريك ريكسن رسول من كبار قومه. ثم أعاد إليه الحاج المسعود من حاشيته، ووصل يده بيده يظن ذلك دافعا عنه. واعتدها السلطان عليه، وطوى له على النث. حتى إذا فرغ من شأن الأندلس، وهلك الطاغية شانجة سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة لإحدى عشرة من سني ملكه. وارتحل السلطان الى طنجة لمشارفة أحوال الأندلس سنة أربع وتسعين وسبعمائة، فأجاز إليه السلطان ابن الأحمر ولقبه بطنجة، وأحكم معه المؤاخاة. ولما استيقن سكون أحوالها، نزل لابن الأحمر عن جميع الثغور التي بها لطاعته، وأجمع غزو تلمسان. ولحق به بين يدي ذلك ثابت بن

منديل المغراوي صريخاً على ابن يغمراسن ومستجيشاً بقومه، فتقبله وأجاره.

وكان أصاب الناس أعوام اثنتين وتسعين وسبعمائة وما بعدها قحط، ونالتهم سنة وهنوا لها.

ثم إن الله رحم خلاقه وأدر نعمته، وأعاد الناس إلى ما عهدوه من سبوغ نعمهم وخصب عيشهم. ووفد عليه سنة أربع وتسعين وسبعمائة ثابت بن منديل أمير مغراوة مستصرخا به من عثمان بن يغمراسن، فبعث من كبار قومه موسى بن أبي حمّو إلى تلمسان شفيعا لثابت بن منديل، فرده عثمان أقبح رد وأساء في إجابته، فعاود الرسالة إليه في شأنه، فلم تزدهم إلا ضررا، فاعتزم على غزو بلادهم واستعد لذلك. ونهض سنة أربع وتسعين وسبعمائة حتى انتهى إلى بلاد لاوريرت، وكان تشما لعمل بني مرين وبني عبد الواد: في جانبها عامل

السلطان أبي يعقوب، وفي جانبها الآخر عامل عثمان بن يغمراسن. فطرد السلطان عامل يغمراسن وتميز بها. واختط الحصن الذي هنالك لهذا العهد. تولاه بنفسه يغادي الفعلة ويراوحهم. وأكمل بناءه في شهر رمضان من سنته، واتخذه ثغرا لملكه. وأنزل بني عسكر لحياطته وسد فروجه. وعقد عليه لأخيه أبي يحيى بن يعقوب، وانكفأ راجعا إلى ا لحضرة.

ثم خرج من فاس سنة خمس وتسعين وسبعمائة غازيا إلى تطمسان. ومرّ بوجدة فهدم أسوارها، وتغلب على مسيفة والزعارة. وانتهى إلى ندرومة، ونازلها أربعين يوما ورماها بالمجانيق. وضيق عليها، فامتنعت عليه، فأفرج عنها ثاني الفطر. ثم غزا تلمسان سنة ست وتسعين وسبعمائة، وبرز لمدافعته عثمان بن يغمراسن، فهزمه وأحجزه بتلمسان ونزل بساحته، وقتل خلقا من أهلها، ونازلها أياما، ثم أقلع عنها، وقفل إلى المغرب، وقضى منسك الأضحى من سنته بتازى. فأعرس هنالك بحافدة ثابت بن منديل، كان أصهر فيها إلى جذها قبل مهلكه سنة ست وتسعين وسبعمائة قتيلا ببحيرة الزيتون من ظاهر فاس. قتله بعض بني ورتاجن في دم كان لهم في قومه، فثار السلطان به من قاتله وأعرس بحافدته. وأوعز ببناء القصر بتازى، وقفل إلى فاس فاتح سبع وتسعين وسبعمائة. ثم ارتحل إلى مكناسة وانكفأ إلى فاس. ثم نهض في جمادى غازيا تلمسان. ومرّ بوجدة فأوعز ببنائها وتحصين أسوارها، واتخذ فيها قصبة ودارا لسكناه ومسجدا وأغزى إلى تلمسان. ونزل بساحتها، وأحاطت عساكره إحاطة الهالة بها، ونصب عليها القوس البعيدة الترع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار ازدلف إليه الصناع والمهندسون بعملها، وكانت توقر على أحد عشر بغلا.

ثم لما امتنعت عليه تلمسان، أفرج عنها فاتح سنة ثمان. ومرّ بوجدة، فأنزل بها الكتائب من بني عسكر لنظر أخيه أبي يحيى بن يعقوب كما كانوا بتاوريرت. وأوعز إليهم، فتردد الغارات على أعمال ابن يغمراسن وإفساد سابلتها. وضاقت أحوالهم ويئسوا من صريخ صاحبهم، فأوفدوا على الأمير أبي يحيى وفدا منهم يسألون الأمان لمن وراءهم من قومهم، على أن يمكنوه من قياد بلدهم، ويدينوا بطاعة السلطان فبذل لهم من ذلك ما أرضاهم، ودخل البلد بعسكره. واتبعهم أهل تاوونت. وأوفد مشيختهم جميعا على السلطان اخر جمادى، فقدموا عليه بحضرته. وأدوا طاعتهم، فقبلها. ورغبوا إليه في الحركة إلى بلادهم ليريحهم من ملكة عدوهم ابن يغمراسن. ووصفوا من عسفه وجوره وضعفه عن الحماية، ما استنهض السلطان لذلك، على ما نذكر إن شاء الله تعالى. والله أعلم.

الخبر عن الحصار الكبير لتلمسان وما تخلل ذلك من الأحداث:

لما توفرت عزائم السلطان على النهوض إلى تلمسان، ومطاولة حصارها إلى أن

يظفر بها وبقومها، واستيقن أنه لا مدافع له عن ذلك، فنهض من فاس في شهر رجب سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، بعد أن استكمل حشده. ونادى في قومه، واعترض عساكره وأجزل أعطياتهم، وأزاح عللهم. وارتحل في التعبية، واحتل بساحة تلمسان ثاني شعبان وأناخ عليها وضرب معسكره بفنائها. وأحجز عثمان بن يغمراسن وحاميتها من قومه، وأدار الأسوار سياجاً على عمرانها كله، ومن ورائها نطاق الحفير البعيد المهوى.

ورتب المسالح على أبوابها وفرجها. وسرح عساكره إلى هنين، فافتتحها وأتوا طاعتهم، وأوفدوا مشيختهم وسط شعبان. ثم سرح عساكره لمحاصرة وهران وتقري البسائط ومنازلة الأمصار، فأخذت مازونة في جمادى الآخرة من سنة تسع وتسعين وسبعمائة. ونهض في شعبان بعده فافتتح تاللوت والقصبات وتامززدكت في رمضان منه. وفيه كان فتح مدينة وهران. وسارت عساكره في الجهات إلى أن بلغت بجاية كما نذكره. وأخذ الرعب بقلوب الأمم بالنواحي، وتغلب على ضواحي مغراوة وتوجين، وسارت فيها عساكره ودوختها كتائبه، واقتحمت أمصارها راياته: مثل مليانة ومستغانم وشرشال والبطحاء ووانشريش والمدية وتافركينت. وأطاعه زيري المنتزي ببرشك، وأتى بيعته. وابن علان المنبري بالجزائر،

وأتى بيعته. وأزعج الناكبين منهم عن طاعته. واستألف أهل الصاغية كما نذكره. وحذره الموحدون من ورائهم بإفريقية ملوك بجاية وملوك تونس، فمدوا إليه يد المواصلة ولاطفوه بالمتاحفة والمهاداة وخاطب صاحب الديار المصرية ملك الترك، وهاداه وراجعه كما نذكره. ووفد عليه شرفاء مكة بنو أبي نمي كما نذكر. وهو في خلال ذلك مستجمع لمطاولة الحصار والتضييق، متجاف عن القتال إلا في بعض الأيام، لم تبلغ زعموا أربعة أو خمسة، يترل شديد العقاب والسطو بمن يميرها ويأخذ بالمراصد على من يتسلل بالأقوات إليها. قد جعل سرادق الأسوار المحيطة ملاكا لأمره في ذلك، فلا يخلص إليهم الطيف ولا يكاد يصل إليهم العيث مدة مقامه عليها، إلى أن هلك بعدماية شهر كما نذكره. واختط بمكان فساطيط المعسكر قصرا لسكناه، واتخذ فيه مسجدا لمصلاه. وأدار عليها السور، وأمر الناس بالبناء، فابتنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الأنيقة، واتخذوا البساتين وأجروا المياه. ثم أمر بإدارة السور سياجا على ذلك سنة اثنتين وسبعماية وصيرها مصرا، فكانت من أعظم الأمصار والمدن، وأحفلها اتساع خطة وكثرة عمران ونفاق أسواق واحتفال بناء وتشييد منعة. وأمر باتخاذ الحمامات والخانات والمارستان، وابتنى بها مسجدا جامعا. وشيد له مأذنة رفيعة، فكان من أحفل مساجد الأمصار وأعظمها. وسماها المنصورة، واستبحرت عمارتها، وهالت أسواقها. ورحل إليها التجار بالبضائع من الافاق، فكانت أحد مدائن المغرب. وخربها آل يغمراسن عند مهلكه، وارتحال كتائبه عنها، بعد أن كان بنو عبد الواد أشرفوا على الهلاك، وأذنوا بالانقراض كما نذكره، فتداركهم من لطف الله ما شأنه أن يتدارك المتورطين في الهلاك والله غالب على أمره.

الخبر عن افتتاح بلاد مغراوة وما تخلل ذلك من الأحداث:

لما أناخ السلطان عن ظمسان، وتغلب على ضواحي بني عبد الواد، وافتتح أمصارهم سما إلى التغلب على ممالك مغراوة وبني توجين. وكان ثابت بن منديل قد وقد على السلطان بمقر ملكه من فاس سنة أربع وتسعين وسبعمائة، وأصهر إليه في حافدته، فعقد له عليها. وهلك ثابت بمكان وفادته من دولتهم، وأعرس السلطان بحافدته سنة ست وتسعين وسبعمائة كما ذكرنا ذلك كله من قبل، فلما تغلب السلطان على أعمال بني عبد الواد،

جهز عساكره إلى بلاد مغراوة وعقد عليها لعلي بن محمد الخيري من عظماء بني ورتاجن، فتغلبوا على الضواحى وشردوا مغراوة إلى رؤوس المعاقل. واعتصم راشد بن محمد بن ثابت بن مند!ل صهر السلطان بمليانة، فنازلوه بها. ثم استنزلوه على الأمان سنة نسع وسعين، وأوفدوه على السلطان، فلقاه مبرة وتكرمة، وخلطه بجملته المكان أصهره معه.

ثم افتتحوا مدينة تنس ومازونه وشرشال. وأعطى زيري بن حماد المنتزي على برشك من بلادهم يد الطاعة. وأوفد على السلطان للبيعة واستولوا على ضواحي شلف كلها. ولاذت مغراوة بطاعة السلطان. وعقد عليهم وعلى جميع بلادهم لعمر بن ويغرن بن منديل فأسف لذلك راشد بن محمد لما كان يراه لنفسه من الاختصاص. ولما كانت أخنه حظية السلطان وكريمته، ونافس عمر بن ويغرن في إمارة قومه، فلحق بجبال متيجة، وأجلب على من هنالك من عمال السلطان وعساكره. وانحاش إليه مرضى القلوب من قومه، فاعصوصبوا عليه. وداخل أهل مازونة، فانتقضوا على السلطان وملكوه أمرهم في شهر ربيع من الماية السابعة. ثم بيت عمر بن ويغرن بمعسكره من وازمور، فقتله واستباح المعسكر. وبلغ الخبر إلى السلطان، فسرح العساكر من بني مرين. وعقد لعلى بن الحسن بن أبي الطلاق على قومه من بني عسكر، ولعلي بن محمد الخيري قومه من بني ورتاجن، وجعل الأمر شورى بينهما، وأشرك معهما عليا الحساني من صنائع دولته، وأبا بكر بن إبراهيم بن عبد القوي من أعياص بني توجين. وعقد على مغراوة لمحمد بن عمر بن منديل، وأشركه معهم، وزحفوا إلى راشد. ولما أحس بالعساكر لجأ إلى معقل بني بو سعيد فيمن معه من شيعته مغراوة. وأنزل بمازونة عليا ابني عمه يحيى بن ثابت واستوصاهم بضبط البلد، وأنه مشرف عليهم من الجبل.

وجاءت عساكر السلطان إلى بلاد مغراوة، فتغلبوا على البسائط وأناخوا بمازونة، وضربوا معسكرهم بساحتها وأخذوا بمخنقها، واهتبل علي وقومه غرة في معسكر بني مرين، فبيتهم سنة إحدى وسبعماية. وانفض المعسكر وتقبض على علي بن محمد الخيري، ثم امتنعوا عليه وعاد المعسكر إلى مكانه من حصارهم. وجهدهم حالهم، فتزل إليهم حمّو بن يحيى على حكم السلطان. وأنفذوه إليه، فتقبّضعليه. ثم نزل علي ثانية من غير عهد فأشخصوه إلى السلطان ولقاه مبرة وتكريما، تأنيسا لراشد المنتزي

بمعقله. واقتحمت مازونة على أهلها عنوة سنة ثلاث، فمات منهم عالم واحتملت رؤوسهم إلى سدة السلطان، فرميت في حفائر البلد المحصور إرهابا لهم وتخذيلا. ولما عقد السلطان لأخيه أبي يحيى على بلاد الشرق، وسرحه لتدويخ التخوم، نازل راشدا بمعقله من بني بوسعيد. فبيت راشد معسكرهم إحدى لياليه، فانفضوا وقتل طائفة من بني مرين. ووجد لها السلطان، فأمر بقتل علي وحمّو ابني عمه يحيى، ومن كان معتقلا معهما من قوه هم. رفعوهم على الجذوع، وأثبتوهم بالسهام. ونزل راشد بعدها عن معقله ولحق بمتيجة، وانحاش إليه عمه منيف بن ثابت، وأوشاب من مغراوة. وتحيز الاخرون إلى أميرهم محمد بن عمر بن منديل الذي عقد له السلطان عليهم. ثم تأشبت على راشد ومنيف خوارج الثعالبة ومليكش، وصمد إليهم الأمير أبو يحيى في عساكره ثانية ونازلهم بمعاقلهم ورغبوا في السلم، فبذله السلطان لهم. وأجاز منيف بن ثابت إلى

الأندلس فيمن إليه من بنيه وعشيره، فاستقروا بها آخر الأيام. ولحق راشد ببلاد الموحدين. ووفد محمد بن عمر بن منديل سنة خمس على السلطان، فأوسعه حبا وتكريما. وتمهدت بلاد مغراوة، واستبد بملكها السلطان، وصرف إليها العمال و لم يزل كذلك إلى أن هلك سنة ست. والله تعالى أعلم.

الخبر عن افتتاح بلاد بني توجين وما تخلل ذلك:

لما نازل يوسف بن يعقوب تلمسان وأحاط بها، وتغلب على بلاد بني عبد الواد،

سما إلى تملك بلاد بني توجين. وكان عثمان بن يغمراسن قد غلبهم على مواطنهم، وملك جبل وانشريش وتصرف في بلاد عبد القوي بالولاية والعزل وأخذ الأتاوة سنة إحدى وسبعماية. وأوعز إليه السلطان ببناء البطحاء التي هدمها محمد بن عبد القوي، فبناها وتوغل في قاصية الشرق ثم انكفأ راجعا إلى حضرة أخيه وعطف على بلاد بني توجين سنة اثنتين، وفر بنو عبد القوي إلى ضواحيهم بالقفر، ودخل جبل وانشريش، وهدم حصونهم به، ورجع إلى الحضرة. ثم بادره أهل تافركنيت سنة ثلاث بإتيان الطاعة، ونقضوا بعدها. ثم بعث أهل المدية بطاعتهم للسلطان، فتقبلها وأوعز ببناء قصبتها. وراجع بنو عبد القوي بعد ذلك بصائرهم في طاعة السلطان، ووفدوا عليه بمكانه من المنصورة مدينته المحيطة على تلمسان سنة ثلاث، فتقبل طاعتهم وراعى سابقتهم

وأعادهم إلى بلادهم وأقطعهم، وولى عليهم علي بن الناصر بن عبد القوي. وأوعز ببناء قصبة المدية سنة أربع، وكملت سنة خمس. وهلك علي بن الناصر خلال ذلك، فعقد عليهم لمحمد بن عطية الأصم كما ذكرناه، فاستمر على الطاعة. ثم انتقض سنة ست، وحملى قومه على الخلاف وانتبذوا عن الوطن، إلى أن هلك يوسف بن يعقوب كما ذكرناه والله تعالى أعلم.

الخبر عن مراسلة الموحّدين ملوك أفريقية بتونس وبجاية وأحواله معهم:

كان لبني أبي حفص ملوك أفريقية مع زناتة هؤلاء أهل المغرب من بني مرين وبني

عبد الواد سوابق مذكورة، فكانت لهم على يغمراسن وبنيه طاعة معروفة يودون بيعتها ويخطبون على منابرهم بدعوتها مذ تغلب الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد على تلمسان، وعقد عليها ليغمراسن، واستمر حالهم على ذلك. وكانت لهم أيضا مع بني مرين ولاية سابقة، بما كان بنو مرين مذ أول أمرهم يخاطبون الأمير أبا زكريا، ويبعثون له ببيعة البلاد التي تغلبوا عليها: مثل مكناسة والقصر ومراكش آخرا. ثم صارت خالصة من لدن عهد المستنصر ويعقوب بن عبد الحق. وكانوا يتحفونهم بالمال والهدايا في سبيل المدد على صاحب

مراكش وقد ذكرنا السفارة التي وقعت بينهما سنة خمس وستين، وإن يعقوب أوفد عامر بن إدريس وعبد الله بن كندوز ومحمد الكناني وأوفد عليه المستنصر سنة سبع بعدها كبير الموحّدين يحيى بن صالح الهنتاتي في وفد من مشيحة الموحدين، ومعهم هدية سنية. ثم أوفد الواثق ابنه سنة سبع وسبعين قاضي بجاية المذكور أبا العبّاس أحمد الغماري، وأسنى الهدية معه. ولم يزل الشأن بينهم هذا إلى أن افترق أمر آل أبي حفص. وصار الأمير أبو زكريا ابن الأمير أبي إسحاق بن يحيى بن عبد الواحد من عشه بتلمسان في وكر عثمان بن يغمراسن. وأسف

إلى بجاية، فاستولى عليها سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة. واستضاف إليها قسنطينة وبونة، وصيرها عملا لملكه، ونصب بها كرسيا لأمره. وأسف عثمان بن يغمراسن لفراره من بلده، لما كان عليه من التمسك بدعوة عفه أبي حفص صاحب تونس، فشق ذلك عليه ونكره، واستمرت الحال على ذلك. ولما أخذ السلطان يوسف بن يعقوب بمخنق تلمسان، وأوسع قواعد ملكه بساحتها، وسرح عساكره لالتهام الأمصار والجهات، توجس الموحدون الخيفة منه على

أوطانهم. وكان الأمير أبو زكريا في جهات تدلس محاميا عن حوزته وعمله. ووصله هنالك راشد بن محمد نازعا عن السلطان أبي يعقوب. ثم طلعت العساكر على تلك الجهات في أتباعه، فزحف إليه عسكر الموحّدين سنة تسع وتسعين وسبعمائة بناحية جبل الزاب، ففضوا جمعه. وأوقعوا به واستلحموا جنوده واستبحر القتل فيهم، وبقيت عظامهم ماثلة بمصارعهم سنين.

ورجع الأمير أبو زكريا إلى بجاية، فانحصر بها. وهلك تفيئة ذلك على رأس

الماية السابعة. وقارن ذلك مغاضبة بينه وبين أمير الزواودة لعهده عثمان بن سباع بن يحيى بن دريد بن مسعود البلط، فوفد على السلطان احريات إحدى وسبعماية. ورغبه في ملك بجاية، واستغذه للسير إليها، فأوعز إلى أخيه الأمير أبي يحيى بمكانه من منازلة مغراوة ومليكش والثعالبة، بأن ينهض إلى عمل الموحدين. وسار عثمان بن سباع وقومه بين يدي العساكر يتقصون الطريق، إلى أن تجاوز الأمير أبو يحيى بعساكره بجاية. واحتل بتاكرارت من أوطان سدويكش من أعمال بجاية. وأطل على بلاد سدويكش، وانكفأ راجعا، فأوطأ عساكره بساحة بجاية، وبها الأمير خالد بن يحيى. وناشبهم القتال ببعض أيام جلا فيها أولياء السلطان أبي البقاء عن أنفسهم وسلطانهم. وأمر بروض السلطان المسمى بالبديع، فخربه وكان من أنيق الرياض وأحفلها. وقفل إلى مكانه من تدويخ البلاد. وأعرض عن أعمال الموحدين. وكان صاحب تونس لذلك العهد محمد المستنصر الملقب بأبي عصيدة بن يحيى الواثق، فأوفد على السلطان شيخ الموحّدين بدولته محمد بن أكمازير في أسباب الولاية، ومحكما مذاهب الوصلة ومقررا سوابق السلف، فوفد في مشيخة من قومه لشعبان سنة ثلاث. وناغاه الأمير أبو البقاء خالد صاحب بجاية، فأوفد مشيخة من أهل دولته كذلك. وبر السلطان وفادتهم وأحسن منقلبهم.

ثم عاد ابن أكمازير سنة أربع وسبعماية، ومعه شيخ الموحّدين وصاحب السلطان

أبو عبد الله بن يرزيكن في وفد من عظماء الموحدين. وأوفد صاحب بجاية حاجبه أبا محمد الرخامي، وشيخ الموحّدين بدولته عياد بن سعيد بن عثيمن. ووفدوا جميعاً على السلطان ثالث جمادى، فأحسن السلطان في تكرمتهم ما شاء، وأوصلهم إلى نفسه بمساكن داره وأراهم أبهة ملكه وأطافهم قصوره ورياضه، بعد أن فرشت ونمقت، فملأ

قلوبهم جلالا وعظمة. ثم بعثهم إلى المغرب ليطوفوا على قصور الملك بفاس ومراكش، وشاهدوا آثار صلفهم،. وأوعز إلى عمال المغرب بالاستبلاع في تكرمتهم وإتحافهم. فانتهوا من ذلك إلى الغاية، وانقلبوا إلى حضرته آخر جمادى، وانصرفوا إلى ملوكهم بالحديث عن شأن رسالتهم وكرامة وفدهم.

ثم أعاد ملوكهم مراسلة السلطان سنة خمس بعدها فوفد أبو عبد الله بن أكمازير من تونس، وعياد بن سعيد بن عثيمن من بجاية. وأوفد السلطان على صاحب تونس مع رسوله صاحب الفتيا بحضرته الفقيه أبا الحسن التنسي وعلي بن يحيى البرشكي رسولين يسألانه المدد بأسطوله، فقضوا رسالتهم سنة خمس، ووصل بخبرها أبو عبد الله المزدوري من مشيخة الموحدين. واقترن بذلك وصول حسون بن محمد بن حسون المكناسي من صنائع السلطان. كان أوفده مع ابن عثيمن على مراسلة الأمير أبي البقاء خالد صاحب بجاية في صلب الأسطول أيضا، فرجعوه بالمعاذير. وأوفدوا معه عبد الحق بن سليمان، فتلقاهم السلطان بالمبرة. وأوعز إلى عامره بوهران أن يستبلغ في تكريم عمرة الأسطول، فجرى في ذلك على مذهبه. وانقلبوا جميعا أحسن منقلب. وغني السلطان عن أسطولهم لفوات وقت الحاجة إليه من منازلة بلاد السواحل، إذ كان قد تملكها أيام مماطلتهم بيعته. واتصل الخبر بصاحب تلمسان الأمير أبي زيان بن عثمان المبايع أيام الحصار عند مهلك أبيه عثمان بن يغمراسن آخر سنة ثلاث، فبلغه صنع الموحّدين في موالاتهم عدوهم السلطان يوسف بن يعقوب ومظاهرته بأساطيلهم عليه، فأسفه ذلك وأخرس منابرهم عما كانت تنطق به من الدعاء من عهد يغمراسن فلم يراجع دعوتهم من بعد. وهلك السلطان على تفيئة ذلك. والبقاء لله وحده.

الخبر عن مراسلة المشرق الأقصي ومهاد اتهم ووفادة أمراء الترك على السلطان وما تخلل:

لما استولى السلطان على المغرب الأوسط بممالكه وأعماله، وهنأته ملوك الأقطار وأعراب الضواحي والقفار، وصلحت السابلة ومشت الرفاق إلى الآفاق، استجد أهل المغرب عزما في قضاء فرضهم. ورغبوا من السلطان إذنه لركب الحاج في السفن إلى مكة، فقد كان عهدهم بعد بمثلها لفساد السابلة واستهجان الدول. فسما للسلطان في ذلك أمل ودخله بحرم الله وروضة نبيه الشوق، فأمر بانتساخ مصحف رائق الصنعة كتبه ونفقه أحمد بن حسن الكاتب المحسن. واستوسع في جرمه وجعل غشاءه من بديع الصنعة، واستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخرزات الدر والياقوت. وجعلت منها حصاة وسط المغلق تفوت الحصيات مقداراً وشكلاً وحسنا. واستكثر من الأصونة عليه، ووقفه على الحرم الشريف، وبعث به مع الحاج سنة ثلاث. وعنى بشأن هذا الركب، فسرح معهم حامية من زناتة تناهز خمسماية من الأبطال. وقلد القضاء عليهم محمد بن زغبوش من أعلام أهل المغرب، وخاطب صاحب الديار المصرية واستوصاه بحاج المغرب من أهل مملكته، وأتحفه بهدية من طرف بلاد المغرب، فاستكثر فيها من الخيل العراب، والمطايا الفارهة: يقال إن المطايا كانت منها أربعماية. حدثني بذلك من لقيته إلى ما يناسب ذلك من طرف المغرب وماعونه. ونهج السبيل بها للحجاج من أهل المغرب، فأجمعوا الحج سنة أربع بعدها. وعقد السلطان على دلالتهم لأبي زيد الغفائري، وفصلوا من تلمسان لشهر ربيع الأول.

وفي شهر ربيع الآخر بعده كان مقدم الحاج الأولين حملة المصحف ووفد معهم
على السلطان الشريف لبيدة بن أبي نمي نازعاً عن سلطان الترك، لما كان تقبض على أخويه حميصة ورميتة إثر مهلك أبيهم أبي !ي صاحب مكة سنة إحدى وسبعماية، فاستبلغ السلطان في تكريمه، وسرحه إلى المغرب ليجول في أقطاره ويطوف على معالم المملكة وقصوره. وأوعز إلى العمال بتكريمه، وإتحافه كل على شاكلته. ورجع إلى حضرة السلطان سنة خمس، وفصل منها إلى المشرق، وصحبه من أعلام المغرب أبو عبد الله فوزي حاجاً. ولشعبان من سنة خمس وصل أبو زيد الغفائري دليل ركب الحاج الآخرين، ومعه بيعة الشرفاء أهل مكة للسلطان، لما أسفهم صاحب مصر بالتقبض على إخوانهم. وكان شأنهم ذلك حتى غاضبهم السلطان.
فقد سبق في أخبار المستنصر بن أبي حفص مثلها، وأهدى السلطان ثوبا من كسوة البيت شغف به واتخذ منه ثوبا للباسه في الجمع والأعياد، يستبطنه بين ثيابه تبركاً به. ولما وصلت هدية السلطان إلى صاحب مصر لعهده الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي حسن موقعها لديه، وذهب إلى المكافأة، من طرف بلاده من الثياب والحيوان ما يستغرب جنسه وشكله من نوع الفيل والزرافة. وأوفد بها من عظماء دولته الأمير التليلي، وفصل من القاهرة اخريات سنة خمس، ووصلت إلى تونس في ربيع من سنة ست بعدها. ثم كان وصولها إلى سدة السلطان بالمنصورة من البلد الجديد في جمادى الآخرة واهتز السلطان لقدومها، واستركب الناس للقائها.
واحتفل للقاء هذا الأمير التليلي ومن معه من أمراء الترك، وبر وفادتهم واستبلغ في تكريمهم نزلاً وقرى، وبعثهم إلى المغرب على العادة في مبرة أمثالهم. وهلك السلطان خلال ذلك، وتقبل أبو ثابت سنته من بعده في تكريمهم، فأحسن منقلبهم وملا حقائبهم صلة وبرأ. وفصلوا من المغرب لذي الحجة سنع سبع. ولما انتهوا إلى بلاد بني حسن في ربيع من سنة ثمان، اعترضهم الأعراب بالقفر فأنهبوهم. وخلصوا إلى مصر بجريعة الذقن، فلم يعاودوا بعدها إلى المغرب سفرا، ولا لفتوا إليه وجها. وطال ما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤبه به، يهادونهم ويكافئون ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيئا.
وكان الناس لعهدهم ذلك يتهمون أن الذين نهبوهم أعراب حصين، بدسيسة من
صاحب تلمسان أبي حمّو لعهدهم، منافسة لصاحب المغرب لما بينهم من العداوات والإحن القديمة. أخبرني شيخنا محمد بن إبراهيم الآبلي قال: حضرت بين يدي السلطان وقد وصله بعد الحاج من أهل بلده مستصحبا كتاب الملك الناصر بالعتاب على شأن هؤلاء الأمراء، وما أصابهم في طريقهم من بلاده، وأهدى له مع ذلك كوزين بدهن البلسان المختص ببلادهم، وخمسة مماليك من الترك رماة بخمسة أقواس من قسي الغز المؤنقة الصنعة من العرى والعقب، فاستقل السلطان هديته تلك بنسبة ما أهدوا إلى ملك المغرب. ثم استدعى القاضي محمد بن هدية، وكان يكتب عنه، فقال له: الآن اكتب إلى الملك الناصر ما أقول لك، ولا تحرف كلمة عن موضعها إلا ما تقتضيه صناعة الأعراب، وقل له: أما عتابك على شأن الرسل وما أصابهم في طريقهم، فقد حضروا عندي وأبنت لهم الاستعجال حذراً مما أصابهم، وأريتهم مخاوف بلادنا وما فيها من كوائل الأعراب، فكان جوابهم: إنا جئنا من عند ملك المغرب فكيف نخاف، مغترين بشأنهم يحسبون أن أمره نافذ في أعراب

قبائلنا، وأما الهدية فردت عليك: أما دهن البلسان، فنحن قوم بادية لا نعرف إلا الزيت، وحسبنا به دهنا. وأما المماليك الرماة قد افتتحنا بهم إشبيلية وصرفناهم إليك لتفتح بهم بغداد والسلام. قال لي شيخاً، وكان الناس إذ ذاك لا يشكون أن انتهابهم كان بإذن منه، وكان هذا الكتاب دليلا على ما في نفسه. وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون.

الخبر عن انتقاض ابن الأحمر واستيلاء الرئيس أبي سعيد علي سبتة وخروج عثمان بن أبي العلاء في غمارة:

لما أحكم السلطان عقد المهادنة والولاية مع السلطان ابن الأحمر المعروف بالفقيه، عند إجازته إليه بطنجة سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة كما ذكرناه، وفرغ لعدوه، تمسك ابن الأحمر بولايته تلك، إلى أن هلك سنة إحدى وسبعماية في شهر شعبان منه. وقام بأمر الأندلس من بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع. واستبد عليه كاتبه أبو عبد الله بن الحكيم من مشيخة رندة، كان اصطفاه لكتابته أيام أبيه، فاضطلع بأموره وغلب عليه. وكان هذا السلطان المخلوع ضرير البصر، ويقال إنه ابن الحكيم، فغلب عليه واستبد، إلى أن قتلهما أخوه أبو الجيوش نصر سنة ثمان كما نذكره. وكان من أول آرائه عند استيلائه على الأمر من بعد أبيه المادرة إلى إحكام ولاية السلطان، واتصال يده بيده، فأوفد عليه لحين ولايته وزير أبيه أبا السلطان عزيز الداني، ووزيره الكاتب أبا عبد الله من الحكيم فوفدوا على السلطان بمعسكره من حصار تلمسان، وتلقيا بالقبول والمبرة. وجددت له أحكام الود والولاية، وانقلبا إلى مرسلهما خير منقلب. وتقدم السلطان إليهم في المدد برجل الأندلس وناشبتهم المعودين منازلة الحصون والمناغرة بالربط، فبادروا إلى إسعافه وبعثوا حصتهم لحين مرجعهم إلى سلطانهم، فوصلت سنة اثنتين وسبعماية. وكانت لها نكاية في العدو وأثر في البلد المحروب. ثم بدا لمحمد بن الأحمر المخلوع في ولاية السلطان بمنافسات جرت إلى ذلك. وبعث إلى ابن أدفونش هراندة بن شانجة، وأحكم له عقد السلم، ولاطفه في الولاية، فانعقد ذلك بينهما سنة ثلاث. واتصل خبره بالسلطان، فسخطه. ورجع إليهم حصتهم آخر سنة ثلاث، لسنة من مقدمهم، بعد أن أبلو وأثخنوا وطوى لهم على النث، واعتمل ابن الأحمر وشيعته في الاستعداد لمدافعة السلطان، والإرصاد لسطوه بهم. وأوعز إلى صاحب مالقة عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن محمد بن نصر، وليه من دون القرابة بما كان له الصهر على اخته، والمضطلع بثغر الغربية، فأوعز إليه بمداخلة أهل سبتة في خلع طاعة السلطان، والقبض على بني العزفي، والرجوع إلى ولاية ابن الأحمر. وكان أهل سبتة منذ هلك إبراهيم الفقيه أبو القاسم العزفي سنة سبع وسبعين، قام بأمرهم ولده أبو حاتم. وكان أخوه أبو طالب رديفا له في الأمر إلا أنه استبد عليه بصاغيته إلى الرياسة، وإيثار أبي حاتم للخمول، مع إيجابه حق أخيه الأكبر، وإجابته الداعي متى روفع إليه، فاستقام أمرهما مدة. وكان من سياستهما من أولى أمرهما الأخذ بدعوة السلطان فيما لنظرهما، والعمل بطاعته والتجافي عن السكنى بقصور الملك، والتخرج عن أبهة السلطان لمكانهم، فأنزلوا بالقصبة عبد الله بن مخلص قائدا من البيوتات، اصطنعوه وجعلوا له أحكام البلد، وضبط الحامية، فاضطلع بذلك سنين. ثم أسفه يحيى بن أبي طالب ببعض النزعات الرياسية، وحجر عليه الأحكام في ذويه. ثم أغزى به أباه، وطالبه بحساب الخراج لعطاء الحامية. وغفلوا عما وراءها من

التظنن فيه، والريب به، ثقة بمكانه، واستنامة إليه. وهم مع ذلك على أولهم في موالاة السلطان، والأخذ بدعوته، والوفود عليه في أوقاته. ولما فسدت ولاية ابن الأحمر للسلطان، وعقد على محاولة سبتة، وجد السبيل إلى ذلك بما طوى صاحب الأحكام بالقصبة على النث، فداخله الرئيس أبو سعيد صاحب الثغر بمالقة جارة سبتة، ووعده الغدر ببني العزفي، وأن يصبحهم بأساطيله، فشرع الرئيس أبو سعيد في إنشاء الأساطيل البحرية، واستنفار الناس للمناغرة. وإن العدو له ولمالقة بمرصد، وشحنها بالفرسان والرجل والناشبة والأقوات، وأخفى وجه قصده عن الناس حتى أقلعت أساطيله، وبيت سبتة لسبع وعشرين من شوال سنة خمس. وأرسى بساحتها لموعد صاحب القصبة، فأدخله إلى حصنه فملكه، ونشر رايته بأسوارها. وسرب جيوشه إلى البلد، فتسايلوا. وركب إلى دور بني العزفي، فتقبّضعليهم وعلى ولدهم وحاشيتهم. وطير الخبر إلى السلطان بغرناطة، فوصل الوزير أبو عبد الله بن الحكيم، ونادى في الناس بالأمان، وبسط المعدلة. وأركب بني العزفي في السفن إلى مالقة. ثم أجازوا إلى غرناطة، وقدموا على ابن الأحمر، فأجل قدومهم، وأركب الناس إلى لقائهم. وجلس له جلوسا فخما حتى أدوا بيعتهم، وقضوا وفادتهم، وأنزلوا بالقصور، واجريت عليهم سنيات الأرزاق. واستقروا بالأندلس إلى أن صاروا إلى المغرب بعد كما نذكر.

واستبد الرئيس أبو سعيد بأمر سبتة، وثقف أطرافها، وسد ثغورها، وأقام دعوة ابن

عفه صاحب الأندلس بأنحائها. وكان عثمان بن أبي العلاء بن عبد الحق من أعياض الملك المريني، أجاز معه البحر إليها أميرا على الغزاة الذين كانوا بمالقة، وقائدا لعصبتهم تحت لوائه، فموه بنصبه للملك بالمغرب. وخاطب قبائل غمارة بذلك، فوقفوا بين الإقدام والإحجام. واتصل ذلك كله بالسلطان، وهو بمعسكره من حصار تلمسان،

فاستشاط لها غضبا وحمى أنفه بعزه. واستنفر الصريخ، فبعث ابنه الأمير أبا سالم لسد تلك الفرجة. وجمع إليه العساكر، وتقدم إليه بإحشاد قبائل الريف، وبلاد تازى، فأغذ السير إليها. وأحاطت عساكره بها، فحاصرها مدة. ثم بيته عثمان بن أبي العلاء، فاختل معسكره وأفرج عنها منهزما، فسخطه السلطان وزوى عنه وجه رضاه. وسار عثمان بن أبي العلاء في نواحي سبتة وبلاد غمارة، وتغلب على تيكيساس، وانتهى إلى قصر ابن عبد الكريم في آخر سنة ست لسنة من استيلائهم على سبتة، مقيما رسم السلطان مناديا بالدعاء لنفسه، فاعتزم السلطان على النهوض إليه عند الفراغ من أمرتلمسان، لما كانت على شفا هلكة ومحاينة انفضاض، لولا عائق الأقدار بمهلكه كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض بني كمي من بني عبد الولد وخروجهم بأرض السوس:

كان هؤلاء الرهط من بني عبد الواد، ثم من بطون بني علي، من شعب أبي القاسم. وكانوا يرجعون في رياستهم إلى كندوز بن بن كمي. ولما استقل برياسة أولاد علي زيان بن ثابت بن محمد من أولاد طاع الله، نفس عليه كندوز هذا ما أتاه الله من الرياسة، وجاذبه حبلها. واحتقر زيان شأنه، فلم يحفل به. ثم ناشب عليه أخلاط من قومهم، وواضعهم الحرب. وهلك زيان بيد كندوز، وقام بأمر أولاد علي، جابر بن يوسف بن

محمد. ثم تناقلت الرياسة فيهم إلى أن عادت في ولد ثابت بن محمد، واستقل بها أبو عزة زكدان بن زيان، و لم تطل أيامه. والتحم بين أولاد كمي وبين أولاد طاع الله، وتناسوا الإحن، وصارت رياسة أولاد طاع الله ليغمراسن بن زيان. واستتبعوا قبائل بني عبد الواد كافة. واعتمل يغمراسن في الثأر بأبيه زيان من قاتله كندوز، فاغتاله ببيته. دعاه لمأدبة جمع لها بني أبيه، حتى إذا اطمأن المجلس تعاوروه بأسيافهم، واحتزوا رأسه. وبعثوا به إلى أمهم، فنصبت عليه القدر ثالث أثافيها تشفيا منه وحفيظة. وطالب يغمراسن بقية بني كندوز، ففروا أمام مطالبته، وأبعدوا المذهب. ولحقوا بالأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص، فأقاموا بسدته أحوالا.

وكانوا يرجعون في رياستهم لعبد الله بن كندوز. ثم تذكروا عهد البداوة وحنوا إلى عشير زناتة، فراجعوا المغرب، ولحقوا ببني مرين أقتالهم. ونزل عبد الله بن كندوز على يعقوب بن عبد الحق خير نزل، تلقاه من البر والترحيب بما ملأ صدره، وأكد اغتباطه. وأقطعه بناحية مراكش

الكفاية له ولقومه، وأنزلهم هنالك. وجعل انتجاع إبله وراحلته لحسان بن أبي سعيد الصبيحي وأخيه موسى من ذويهم وحاشيتهم، وألطف منزلة عبد الله، ورفع مكانه بمجلسه، واكتفى به في كثير من أموره. وأوفده على المستنصر صاحب أفريقية سنة خصر وستين، مع عامر ابن أخيه إدريس كما قدمناه. واستقر بنو كندوز هؤلاء بالغرب الأقصى. واستمرت الأيام على ذلك، وصاروا من جملة قبائل بني مرين وفي عدادهم. وهلك عبد الله بن كندوز وصارت رياستهم لعمر ابنه من بعده.

ولما لفت السلطان يوسف بن يعقوب وجه عزائمه إلى النبي عبد الواد، ونازل تلمسان، وطاول حصارها، واستطال بنو مرين وذووهم على بني عبد الواد، وأحسوا بها، أخذهم العزة بالإثم، وأدركتهم النعرة، فأجمع بنو كندوز هؤلاء الخلاف والخروج على السلطان. ولحقوا بحاحة سنة ثلاث وسبعماية. واحتفل الأمير بمراكش، يعيش بن يعقوب، لغزوهم سنة أربع وسبعماية، فناجزوه الحرب بتادرت، واستمروا على خلافهما. ثم قاتلهم يعيش وعساكره ثانية بتامطريت سنة أربع، فهزمهم الهزيمة الكبرى التي قضت جناحهم، وأوهنت بأسهم.

وقتل جماعة من بني عبد الواد بأرعارن بامكا وأثخن يعيش بن يعقوب في بلاد السوس، وهدم تارودنت قاعدة أرضها وأم قراها. كان بها عبد الرحمن بن الحسن بن يدر من بقية الأمراء على السوس من قبل بني عبد المؤمن، وقد مرّ ذكرهم. وكانت بينه وبين عرب المعقل من الشبانات وبني حسان منذ انقرضت دولة الموحدين، حروب سجال، هلك في بعضها عمه علي بن يدر سنة ثماني وستين. وصارت أمارته بعد حين إلى عبد الرحمن هذا. و لم يزالوا في حربه إلى أن نملك السوس يعيش بن يعقوب، وهدم تارودانت. ثم راجع عبد الرحمن أمره وبنى بلده تارودانت هذه سنة ست بعدها. وتزعم بنو يدر هؤلاء أنهم مستقرون بذلك القطر من لدن عهد الطوالع من العرب، وأنهم لم يزالوا أمراء بها يعقد لهم ولاية كابر عن كابر. ولقد أدركت بفاس على عهد السلطان أبي عنان وأخيه أبي سالم من بعده شيخا كبيرا من ولد عبد الرحمن هذا، فحدثني بمثل ذلك. وأنهم ولد أبي بكر الصديق. والله أعلم. و لم بزل بنو كندوز مشردين بصحراء السوس إلى أن هلك السلطان،

وراجعوا طاعة الملوك من بني مرين من بعده، وعفوا لهم عما سلف من هذه الجريرة، وأعادوهم إلى مكانهم من الولاية، فأمحضوا النصيحة والمخالصة إلى هذا العهد كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك المشيخة المصامدة بتلبيس أبي الملياني:

قد ذكرنا شأن أبي علي الملياني وأوليته، في أخبار مغراوة الثانية، وما كان من

ثورته بمليانة، وانتزائه عليها. ثم إزعاج العساكر إياه منها، ولحاقه بيعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين، وما أحله من مراتب التكرمة والمبرة. وأقطعه بلد أغمات طعمة، فاستقر بها. وما كان منه في العيث بأشلاء الموحّدين ونبش أجداثهم، وموجدة السلطان والناس عليه لذلك. وأرصد له المصامدة الغوائل لما كان منه في ذلك. ولما هلك يعقوب بن عبد الحق استعمله يوسف بن يعقوب على جباية المصامدة، فلم يضطلع بها.

وسعى به مشيختهم عند السلطان أنه احتجن المال لنفسه، وحاسبوه فصدقوا السعاية، فاعتقله السلطان فأقصاه. وهلك سنة ست وثمانين وسبعمائة، واصطنع السلطان أحمد ابن أخيه، واستعمله في كتابته، وأقام على ذلك ببابه وفي جملته. وكان السلطان سخطه على مشيخة المصامدة علي بن محمد كبير هنتاتة، وعبد الكريم بن عيسى كبيركدميوة، وأوعز إلى ابنه علي الأمير بمراكش باعتقالهما فيمن لهما من الولد والحاشية. وأحس بذلك أحمد بن الملياني، فاستعجل الثأر. وكانت العلامة السلطانية على الكتاب في الدولة لم تختص بكاتب واحد، بل كل منهم يضع العلامة بخطه على كتابه إذا أكمله، لما كانوا كلهم ثقة امناء، وكانوا عند السلطان كأسنان المشط، فكتب أحمد بن الملياني إلى ابن السلطان الأمير بمراكش سنة سبع وتسعين وسبعمائة كتابا عن أمر أبيه، يأمره فيه بقتل مشيخة المصامدة، ولا يمهلهم طرفة عين. ووضع عليه العلامة التي تنفذ بها الأوامر، وختم الكتاب، وبعث به مع البريد. ونجا بنفسه إلى البلد الجديد، وعجب الناس من شأنه. ولما وصل الكتاب إلى ابن السلطان أخرج أولئك الرهط المعتقلين من المصامدة إلى مصارعهم، وقتل علي بن محمد، وعبد الكريم بن عيشي وولده عيسى، وعلي ومنصور وابن أخيه عبد العزيز. وطير الأمير وزيره إلى أبيه بالخبر، فقتله لحينه حنقا عليه، وأنفذ البريد باعتقال ابنه. وحرد على ابن الملياني، فافتقد ولحق بتلمسان، ونزل على آل زيان ثم لحق بعدها بالأندلس عند إفراج السلطان عنها في تلك السنة كما ذكرناه، وبها هلك. واقتصر السلطان من يومئذ في صنع علامته على من يختاره لها من صنائعه ويثق بأمانته. وجعلها لذلك العهد لعبد الله بن أبي مدين خالصته المضطلع بأمور مملكته، فاختصت من بعده لهذا العهد. والله تعالى أعلم.

القسم السابع

الخبر عن رياسة اليهود بني رقاصة ومقتلهم

كان السلطان يوسف بن يعقوب في صباه مؤثرا للذاته، مستترا بها عن أبيه يعقوب بن عبد الحق لمكانه من الدين والوقار. وكان يشرب الخمر ويعاقر بها الندمان. وكان خليفة بن رقاصة من اليهود المعاهدين بفاس قهرمانا لداره على عادة الأمراء في مثله من المعاهدين، بكان يزدلف إليه بوجوه الخدم ومذاهبها، فاستعمله هذا الأمير في اعتصارها والقيام على شؤونها، فكانت له بذلك خلوة منه أوجبت له الحظ عنده. حتى إذا هلك

يعقوب بن عبد الحق، واستقل ابنه يوسف بأعباء ملكه، واتصلت خلواته في معاقرة الندمان، انفرد ابن رقاصة بخلوته لذلك مع ما كان له من القهرمة، فعظمت رياسته، وعلا كعبه في الدولة. وتلقى الخاصة الأوامر منه، فصارت له الوجاهة بينهم، وعظم قدره بعظم الدولة. أخبرنا شيخنا الابلي أنه كان لخليفة هذا أخ يسمى إبراهيم، وابن غ يسمى خليفة، لقبوه بالصغير لمكانه هو من هذا الاسم. وكان له صهر يعرفون ببني السبتي كبيرهم موسى، وكان رديفه في قهرمته. فلم يفق السلطان من نشوة صباه ملهاه حتى وجدهم على حال استتبعوا فيها العلية من القبيل والوزراء والشرفاء والعلماء،فأهمه ذلك، وترصد بهم. وتفطن لمذهبه فيهم خالصته عبد الله بن أبي مدين، فسعى عنده فيهم. وأوجده السبيل عليهم، فسطا بهم سطوة واحدة. واعتقلوا في شعبان من سنة احدى وسبعماية بمعسكره من حصار تلمسان. وقتل خليفة الكبير وأخوه إبراهيم وموسى بن السبتي وإخوته، بعد أن امتحنوا ومثل بهم، وأتت النكبة على حاشيتهم وذويهم وأقاربهم، فلم يبق منهم باقية. واستبقى منهم خليفة الصغير احتقارا لشأنه، حتى

كان من قتله بعدما نذكر، وعبث بسائرهم، وطهرت الدولة من رجسهم وازيلت عنها معرة رياستهم. والأمور بيد الله سبحانه.

الخبر عن مهلك السلطان أبي يعقوب:

كان في جملة السلطان وحاشيته مولى من العبدي الخصيان من موالي ابن الملياني يسمى سعادة، صار إلى السلطان من لدن استعماله إياه بمراكش، وكان على ثبج من الجهل والغباوة. وكان السلطان يخلط الخصيان بأهله، ويكشف لهم الحجاب عن ذوات محارمه، ولما كانت واقعة العز مولاه، واتهم بمداخلة بعض الحرم، وقتل بالظنة، واستراب السلطان بكثير من حاشيته الملابسين لداره، اعتقل جملة من الخصيان، كان فيهم عنبر الكبير عريفهم. وحجب سائرهم، فارتاعوا لذلك وسولت لهذه الخصي الخبيث نفسه الشيطانية الفتك بالسلطان، فعمد إليه وهو ببعض الحجر من قصره واذنه فأذن له، فألفاه مستلقياً على فراشه مختضبا بالحناء، فوثب عليه فطعنه طعنات قطع بها أمعاءه وخرج هاربا. وانطلق الأولياء في أثره، فأدرك من العشي بناحية تاسالة، فتقبّضعليه وسيق إلى القصر، فقتله العبيد والحاشية. وصابر السلطان مثبته إلى آخر النهار، ثم قضى رحمه الله يوم الأربعاء سابع ذي القعدة من سنة ست، وقبل هنالك. ثم نقل بعد ما سكنت الهيعة إلى مقبرتهم بشالة، فدفن بها مع سلفه. والبقاء لله وحده.

الخبر عن ولاية السلطان أبي ثابت، واستلحامه المرشحين وما تخلل ذلك من الأحداث:

كان الأمير أبو عامر ابن السلطان أبي يعقوب وولي عهده، لما هلك طريداً ببلاد

بني سعيد من غمارة والريف، سنة ثمان وتسعين وسبعمائة كما ذكرناه، خلف ولديه عامرا وسليمان في كفالة السلطان جدهما، فكان لهما بعينه حلاوة وفي قلبه لوطة، لمكان حبه لأبيهما واغترابه عنه، فحدب عليهما وأنزلهما من نفسه بمكان. وكان الأمير أبو ثابت عامر منهما، صقر قومه، إقداما وشجاعة وجرأة وكانت له

في بني ورتاجن خؤولة. فلحين مهلك السلطان عرضوا له ودعوه للبيعة، فبايعوه. وحصر لها الأمير أبو يحيى بن يعقوب عم أبيه، عثر بمجمعهم اتفاقا، وحملوه على الطاعة. وكان أقرب للأمر منه لو حضره رجال،

فأعطى القياد في المساعدة، وطوى على النث. وبادر الحاشية والوزراء بالبلد الجديد عند مهلك السلطان، فبايعوا ابنه الأمير أبا سالم. وكان أمر بني مرين أن يفترق وكلمتهم أن تفسد، فبعث الأمير أبو ثابت لحينه إلى تلمسان للأمير أبي زيان وأبي حمّو ابني عثمان بن يغمراسن. وعقد لهما حلفا على الإفراج عنهما على أن يمداه بالالة، ويرفعا له كسر البيت إن كان غير ما أمل، وحضر للعقد أبو حمّو فأحكمه، ومال أكثر بني مرين وأهل الحل والعقد إلى الأمير أبي ثابت. وتفرد ببيعة أبي سالم البطانة والوزراء والحاشية والأجناد ومن إليهم، وكان مسكنه بالبلد الجديد، وأشاروا عليه بالمناجزة، فخرج وقد عبأ كتائبه، فوقف وبهت وخام عن اللقاء. ووعدهم الإقدام بالغداة، وكر راجعا إلى قصره. فيئسوا منه، وتسللوا لواذا إلى الأمير أبي ثابت، وهو بمرقب من الجبل يطل عليهم، حتى إذا انحجز أبو سالم بالبلد انحاش إليه الجملة دفعة واحدة. فلما استوفت العساكر والقبائل لديه، زحف إلى البلد الجديد مثوى السلطان وسياج قصوره ومختط عزمه، وانتهى إلى ساحتها معتماً. وخرج إليه الوزير يخلف بن عمران الفودودي، فأرجل عن فرسه بأمر أبي يحيى، وقتل بين يديه قعصا بالرماح. وكان قريب عم رر بالوزارة، استوزره السلطان قبل مهلكه في شعبان من سنة ست.

وفر أبو سالم إلى جهة المغرب، وصحبه من عشيره من أولاد رحو بن عبد الله بن

عبد الحق العباسي، وعيسى وعلي ابنا رخو وابن أخيهم جمال الدين بن موسى. وأتبعهم الأمير أبو ثابت شرذمة من عسكره أدركوهم بندرومة، فتقبضوا عليهم ونفذوا أمر السلطان بفتل أبي سالم وجمال الدين، واستبقى الاخرين. وأمر بإحراق باب البلد ليفتحها العسكر، فأطل عليه قهرمان دارهم عبد الله بن أبي مدين الكاتب، وأخبره بفرار أبي سالم، وباتفاق الناس على طاعته. ورغب إليه في المسالمة ليلتهم، حتى يفجر الصباح خشية على دارهم من معرة العساكر وهجومها ففعل. وأمره الأمير أبو يحيى باعتقال أبي الحجاج بن أشقيلولة، فاعتقله لقديم من العداوة كانت بينهما، ثم أمر بقتله وإنفاذ رأسه ففتل. وأمر السلطان ليلتئذ بإضرام النيران، حتى إذا أضاء الظلام بات راكبا. ودخل الفصرلصبحه، فوارى جسد السلطان بعد أن صلى عليه. وغص بمكان الأمير أبي بجى لما تعدد فيه الترشيح، وفاوض في شأنه كبير القرابة يومئذ عبد الحق بن عثمان أبن الأمير أبي معرف محمد بن عبد الحق، ومن حضره من الوزراء: مثل إبراهيم بن

عبد الجليل الونكاسي وإبراهيم بن عيسى اليرنياني وغيرهما من الخاصة، فأشاروا بقتله. ونميت عنه كلمات في معنى التربص بالسلطان ودولته، وابتغاء العصابة لأمره.

وركب الأمير أبو يحيى إلى القصر ثالث البيعة، فأخذ السلطان بيده، ودخل معه

إلى الحرم لعزائهن عن أخيه السلطان. ثم خرج على الخاصة. وتخلف عنه السلطان، وقد دس إلى عبد الحق بن عثمان أن يتقبض عليه ففعل. ثم برز السلطان إليهم وهو موثق، فأمر بالإجهاز عليه، ولم يمهله، وألحق به يومئذ وزيره عيسى بن موسى الفودودي. وفشا الخبر بمهلك هؤلاء الرهط، فرغب منه القرابة، ففر يعيش بن

يعقوب أخو السلطان وابنه عثمان المعروف بأمه قضيب، ومسعود بن أبي مالك والعباس بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق. ولحقوا جميعا بعثمان بن أبي العلاء بمكانه من غمارة. وخلا الجو من المرشحين، واستبد السلطان بملك قومه، وأمن غوائل المنازعين.

ولما تم له الأمر واستوسق الملك، وفى لبني عثمان بن يغمراسن بالإفراج عنهم،

ونزل لهم عن جميع البلاد التي صارت إلى طاعته من بلاد المغرب الأوسط من أعمالهم وأعمال بني توجين ومغراوة. ودعاه إلى بدار المغرب، ما كان من احتلال عثمان بن أبي العلاء بن عبد الله بن عبد الحق بسبتة، ودعائه لنفسه بين يدي مهلك السلطان، وخروجه إلى بلاد غمارة، واستيلائه على قصر كتامة. واعتزم على الرحلة إلى المغرب، وفوض الأمر في الرحلة بأهل المدينة الجديدة للوزير إبراهيم بن عبد الجليل، لما كانت حينئذ عامرة بالساكن، مستبحرة في الاعتمار، ممتلئة من الخزائن والآلة، فأحسن السياسة في أمرهم، وضرب لهم الآجال والمواعد أن استوفوا بالرحلة. وتركوها قواء، خربها بنو عثمان بن يغمراسن عند رحلة بني مرين إلى المغرب، وتحينوا لذلك فترات الفتن، وطمسوا معالمها طمسا ونسفوها نسفا. وقدم السلطان بين يديه من القرابة، الحسن بن عامر بن عبد الله أتعجوب في العساكر والجنود، وعقد له على حرب ابن أبي العلاء. وتلوم بالبلد الجديد لموافاة المسالح التي كانت بثغور الشرق، لما نزل عنها جميعاً لبني عثمان بن يغمراسن. وارتحل غرة ذي القعدة، ودخل فاس فاتح سنة سبع وسبعماية. والله أعلم.

الخبر عن انتزاء يوسف بن أبي عياد بمراكش وتغلب السلطان عليه:

لما فصل السلطان أبو ثابت من معسكرهم بتلمسان إلى الغرب، قدم بين يديه من قرابته الحسن بن عامر بن عبد الله أتعجوب ابن السلطان أبي يوسف في العساكر والجنود، وعقد له على حرب عثمان بن أبي العلاء كما ذكرنا. وعقد له على بلاد مراكش ونواحيها لابن عمه الآخر يوسف بن محمد بن أبي عياد بن الحق، وعهد له بالنظر في أحوالها، فسار إليها واحتل بها. ثم حدثته نفسه بالانتزاء، فقتل الوالي بمراكش، واستركب واستلحق، واتخذ الالة، وجاهر بالخلعان. وتقبض على والي البلد، فقتله بالسوط في جمادى سنة سبع وسبعماية، ودعا لنفسه، واتصل الخبر بالسلطان لأول قدومه، فسرح إليه وزيره يوسف بن عيسى بن السعود الجشمي،

ويعقوب بن أصناك، في خمسة آلاف من عساكر، ودفعهم إلى حربه، وخرج في أطرهم بكتائبه. وبرز يوسف بن أبي عياد، وأجاز وادي أم ربيع، فانهزم أمام الوزير وعساكره، وأتبعه الوزير، ففر إلى أغمات. ثم فر إلى جبال هسكورة، ولحق به موسى بن أبي سعيد الصبيحي من أغمات، تدلى من سورها، ودخل الوزير يوسف في مراكش. ثم خرج في أثره ولحقه، فكانت بينهما جولة، وقتل منهم خلقا، ولحق بهسكورة. ودخل السلطان أبو ثابت مراكش منتصف رجب من سنة سبع، وأمر بقتل أوربة، المداخلين كانوا له في انتزائه فاستلحموا.

ولما لحق يوسف بن أبي عباد بجبال هسكورة، نزل على مخلوف بن عبو، وتذمم بجواره، فلم يجره على السلطان. وتقبض عليه، واقتاده إلى مراكش مع ثمانية من أصحابه تولوا كبر ذلك الأمر، فقتلوا في مصرع واحد، بعد أن مثل بهم بالسياط. وبعث رأس يوسف إلى فاس، فنصب بسورها وأثخن بالقتل فيمن سواهم

ممن داخله في الانتزاء، فاستحم منهم أمما بمراكش وأغمات. وسخط خلال ذلك وزيره إبراهيم بن عبد الجليل، فاعتقله واعتقل عشرة من بني دولين من بني ونكاسن، وقتل الحسن بن دولين منهم، ثم عفا عنهم. وخرج منتصف شعبان إلى منازلة السكسيوي وتدويخ جهات مراكش، فتلقاه السكسيوي بطاعته المعروفة، وأسنى الهدية، فتقبل طاعته وخدمته. ثم سرح قائدة يعقوب بن أصناك في اتباع زكنة حتى توغل في بلاد السوس، ففروا أمامه إلى الرمال. وانقطع أثرهم ورجع إلى معسكر السلطان. وانكفأ السلطان بعساكره إلى مراكش، فاحتل بها غرة رمضان. ثم قفل إلى فاس بعد أن قتل جماعة من شيوخ بني

دورا. وجعل طريقه على بلاد صنهاجة. وسار في بلاد تامسنا، وتلقاه عرب جشم من قبائل الخلط وسفيان وبني جابر والعاصم، فاستصحبهم إلى أنفى، وتقبض على ستين من أشياخهم، فاستحلم منهم عشرين ممن نمي عنهم إفساد السابلة. ودخل رباط الفتح اخريات رمضان، فقتل هنالك من الأعراب أمة ممن يؤثر عنه الحرابة. ثم ارتحل منتصف شوال لغزو رياح أهل أزغار والهبط. وأثار منهم بالإحن القديمة، فأثخن فيهم بالقتل والسبي. وقفل إلى فاس، فاحتل بها منتصف ذي القعدة. وجاءه الخبر بهزيمة عبد الحق بن عثمان، واستلحام الروم من عسكره، ومهلك عبد الواحد الفودودي من رجالات دولته. وإن عثمان بن أبي العلاء قد استفحل أمره بجات غمارة، فأجمع لغزوه. والله أعلم.

الخبر عن غزاة السلطان لمدافعة عثمان بن أبي العلاء ببلاد الهبط ومهلكه طنجة من بعد ظهوره:

لما ملك الرئيس أبو سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر بسبتة سنة خمس وسبعماية، وأقام بها الدعوة لابن عمه المخلوع محمد بن محمد الفقيه بن حمد بن مح!حد الشيخ بن يوسف بن نصر كما ذكرناه، وأجاز معه رئيس الغزاة المجاهدين بمحل أمارته من مالقة عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق من أعياص هذا البيت، كان مرشحا للملك فيهم. واستقدمه معه ليفرق به الكلمة في المغرب، ويشغل بفتنة الدولة مدافعة عن سبتة، لما كانوا أهاجوا السلطان وقومه بأخذها. واستنام ملكها، وطمع عثمان في ملك المغرب بإمدادهم ومظاهرتهم. وسولت له نفسه ذلك، فخرج من سبتة، وولى على جيش الغزاة بعده عمر ابن عمه رحو بن عبد الله. ونجم هو ببلاد غمارة، فدعا لنفسه، وأجابته القبائل منهم. واحتل بحصن علودان من أمنع معاقلهم، وبايعوه على الموت. ثم نهض إلى أصيلا والعرائش، فغلب عليها. واتصل ذلك كله بالسلطان الهالك أبي يعقوب، فلم يحركه استهانة بأمرهم. وبعث ابنه أبا سالم بالعساكر، فنازل سبتة أياما، ثم أقلع عنها. وبعث بعده أخاه يعيش بن يعقوب، وأنزله طنجة، وجهز معه الكتائب، وجعلها ثغرا. وزحف إليه عثمان بن أبي العلاء، فتأخر عن طنجة إلى القصر. ثم أتبعه فخرج أهل القصر فرسانا ورجالا ورماة مع يعيش، فوصلوا إلى وادي ورا، ثم انهزموا إلى البلد. ومات عمر بن ياسين، ونازل عثمان عليهم القصر يوماً، ثم دخله من غده. ثم كان مهلك السلطان، ومفر يعيش بن يعقوب خيفة من أبي ثابت، فلحق بعثمان بن أبي العلاء. واستقام أمره بتلك الجهات برهة. وكان السلطان أبو ثابت، لما احتل بالمغرب شغله ما كان من انتزاء يوسف بن محمد بن أبي عياد بمراكش كما قدمناه، فعقد على حرب عثمان بن أبي العلاء مكان عمه يعيش بن يعقوب لعبد

الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من رجال بيته، فزحف إليه. ونهض عثمان إلى لقائه منتصف ذي الحجة سنة سبع، فهزمه واستلحم من كان معه من جند الروم. وهلك في تلك الواقعة عبد الواحد الفودودي من رجالات السلطان المرشحين ردفاء الوزارة. وصار عثمان إلى قصر كتامة، فنازله واستولى على جهاته. وعلى تفيئة ذلك كان رجوع السلطان من غزاة مراكش. وقد حسم الداء ومحا أثر النفاق، فاعتزم على الحركة إلى بلاد غمارة ليمحو منها دعوة ابن أبي العلاء التي كانت تلج عليه ممالكه بالمغرب، ويرده على عقبه، ويستخلص سبتة من يد ابن الأحمر، لما صارت ركابا لمن يروم الانتزاء والخروج من القرابة والأعياعر، المستنفرين وراء البحر غزاة في سبيل الله، فنهض من فاس منتصف ذي الحجة من سنة سبع. ولما انتهى إلى قصر كتامة تلوم بها ثلاثاً حتى توافت عساكره وحشوده، وكمل اعتراضها. وفر عثمان بن أبي العلاء أمامه. وارتحل السلطان في اتباعه، فنازل حصن علودان واقتحمها عنوة. واستلحم بها زهاء أربعماية. ثم نازل بلد الدمنة، فاقتحمها وأثخن فيها قتلا وسبياً، لتمسكها بطاعة ابن أبي العلاء، ومظاهرتها له على كبس القصر واستاحته. ثم ارتحل إلى طنجة، واحتل بها غرة سنة ثمان. وانحجز ابن أبي العلاء بسبتة مع أوليائه. وسرح السلطان عساكره، فتقرت نواحي سبتة بالاكتساح والغارة. وأمر باختطاط بلد تيطاوين لتزول عساكره، والأخذ بمخنق سبتة. وأوفد كبير الفقهاء بمجلسه أبا يحيى بن أبي الصبر إليهم في شأن التزول له عن البلد. وفي خلال ذلك اعتل السلطان بمرض، وقضى لأيام قلائل في ثامن صفر من سنته، ودفن بظاهر طنجة. ثم حمل شلوه بعد أيام إلى مدفن آبائه بشالة فووري هنالك. رحمة الله عليه وعليهم.

الخبر عن دولة السلطان أبي الربيع، وما كان فيها من الأحداث:

لما هلك السلطان أبو ثابت تصدى للقيام بالأمر عمه علي ابن السلطان أبي يعقوب

المعروف بأمه رزيكة، وخلص الملأ من بني مرين أهل الحل والحقد إلى أخيه أبي الربيع، فبايعوه. وتقبض على عمه علي بن زريكة المستام للأمر، فاعتقله بطنجة إلى أن هلك سنة عشر لجمادى. وبث العطاء في الناس، وأجزل الصلات، وارتحل نحو فاس. واتبعه عثمان بن أبي العلاء في جيش كثيف، وبيته وقد نذر به العسكر، فأيقظوا ليلهم ووافاهم على الظهر بساحة علودان، فناجزهم الحرب. وكانت الدائرة على عثمان وقومه. وتقبض على ولده وكثير من عسكره. وأثخن أولياء السلطان فيهم بالقتل والسبي، وكان الظهور الذي لا كفاء له. ووصل أبو يحيي بن أبي الصبر إلى الأندلس، وقد أحكم عقدة الصلح. وقد كان ابن الأحمر جاء للقاء السلطان أبي ثابت، ووصل إلى الجزيرة الخضراء، فأدركه خبر مهلكه، فتوقف عن الجواز. وأجاز ابن أبي الصبر بإحكام المؤاخاة. واجتاز عثمان بن أبي العلاء إلى العدوة فيمن معه من القرابة، فلحق بغرناطة. وأغذ السلطان السير إلى حضرته، فدخل فاس آخر ربيع من سنة ثمان. واستقامت الأمور وتمهد الملك، وعقد السلم مع صاحب تلمسان موسى بن عثمان بن يغمراسن، فأقام وادعا بحضرته. وكانت أيامه خير أيام هدنة وسكونة وترفا لأهل الدولة. وفي أيامه تغالى الناس في أثمان العقار، فبلغت قيمتها فوق المعتاد، حتى لقد بيع كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين. وتنافس الناس في البناء، فعالوا الصروح، واتخذوا القصور المشيدة

بالصخر والرخام وزخرفوها بالزليج والنقوش. وتناغوا في لبس الحرير، وركوب الفاره، وأكل الطيب، واقتناء الحلى من الذهب والفضة. واستبحر العمران، وظهرت الزينة والترف، والسلطان وادع بداره متمل أريكته، إلى أن هلك كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مقتل عبد الله بن أبي مدين:

كان أبو شعيب بن مخلوف من بني أبي عثمان من قبائل كتامة المجاورين للقصر الكبير، وكان منتحلا للدين مشتهرا به. ولما أجلب بنو مرين على المغرب وجالوا في بسائطه، وتغلبوا على ضواحيه، صحب البر منهم والفاجر من أهله. وكان بنو عبد الحق قد تخيروا شعيبا هذا فيمن تخيروه للصحابة من أهل الدين، فكان إمام صلاتهم. وكان يعقوب بن عبد الحق أشدهم صحابة له، وأوفاهم بها ذماما، فاتصل به حبله، واستمرت صحابته، وعظم في الدولة قدره. وانبسط بين الناس جاه ولده وأقاربه وحاشيته. وربى بنو شعيب هذا: عبد الله ومحمد المعروف بالحاج، وأبو القاسم من بعدهم من إخوتهم، بقصر كتامة في جو ذلك الجاه. وهلك السلطان يعقوب بن عبد الحق، فاستخلصهم يوسف بن يعقوب لخدمته، واستعملهم على مختصاته. ثم ترقى بهم في رتب خدمته وأخصائه درجة بعد أخرى، إلى أن هلك أبوهم مدين شعيب سنة سبع وتسعين وسبعمائة. وكان المقدم منهم عند السلطان عبد الله، فأوفى به على ثنيات العز والوزارة والخلة والولاية. وتقدم بحظوته في مجلسه كل حظوة، واختصه بوضع علامته على الرسائل والأوامر الصادرة عنه. وجعل إليه حسبان الخراج والضرب على أيدي العمال، وتقييد الأوامر بالبسط والقبض. واستخلصه لمناجاة الخلوات، والإفضاء بذات الصدر، فوقف ببابه الأشراف من الخاصة والقبيل والقرابة والولد، وتوددوا وخطبوا نائله. وكان عبد الله استعمل مع ذلك أخاه محمدا على جباية المصامدة بمراكش، وهنأ أبا القاسم الدعة بفاس، فأقام بها متمليا راحته عريضا جاهه، طاعماً كاسيا، تتسرب إليه أموال العمال في سبيل الإتحاف، وتقف ببابه صدور الركائب، إلى أن هلك السلطان أبو يعقوب يوسف. ويقال إن له خائنة في دمه مع سعاية الملياني. ولما ولي السلطان أبو ثابت ضاعف رتبته وشفع لديه خطته، ورفع على الأقدار قدره. ثم ولي من بعده أخوه أبو الربيع، فتقبل فيه مذهب سلفه. وكان بنو رقاصة اليهود حين نكبوا، باشر نكبتهم لمكانه من إصدار الأوامر. ويزعمون أن له فيهم سعاية. وكان خليفة الأصغر منهم قد استبقي كما ذكرناه، فلما أفضى الأمر إلى السلطان أبي الربيع استعمل خليفة بداره في بعض المهن، ولابس الخدم حتى اتصل بمباشرة السلطان، فجعل غايته السعاية بعبد الله بن أبي مدين. وكان يؤثر عن السلطان أبي الربيع أنه لا يؤمن بوائقه مع حزم ذويه، وتعرف خليفة ذلك من مقالات الناس، فدس إلى السلطان أن عبد الله بن أبي مدين يعرض باتهام السلطان في ابنته، وأن صدره وغر بذلك، وأنه متعرض بالدولة. وكان يخشى الغائلة لما كان عليه من مداخلة القبيل، ولما كان داعية من دعاة آل يعقوب، فتعجل السلطان دفع غائلته، واستدعاه صبيحة زفاف ابنته، زعموا على زوجها، فاستحثه قائد الروم من داره بفاس. ونذر بالشر، فلم يغنه النذر. ومرّ في طريقه إلى دار السلطان بمقبرة أبي يحيى بن العربي، فطعنه القائد هنالك من ورائه طعنة أكبه على ذقنه. واحتز رأسه، فألقاه بين

أيدي السلطان. ودخل الوزير سليمان بن يرزيكن، فوجده بين يديه، فذهبت نفسه عليه على مكانه من الدولة حسرة وأسفا، وأيقظ السلطان لمكر اليهودي، فوقفه على براءة كان ابن أبي مدين بعثها معه إلى السلطان بالتنصل والحلف، فتيقظ وعلم مكر اليهودي به، فندم وفتك لحيف بخليفة بن رقاصة وذويه من اليهود المتصدين للخدمة وسطا بهم سطوة الهلكة، فأصبحوا مثلا للآخرين. والله أعلم.

الخبر عن ثورة أهل سبتة بالأندلسيين ومراجعتهم طاعة السلطان:

لما قفل السلطان أبو الربيع من غزاة سبتة، بعد أن شرد عثمان بن أبي العلاء وأحجزه بسبتة، وأجاز منها إلى العدوة، ومن كان معه من القرابة كما قلناه، بلغه الخبر بضجر أهل سبتة، ومرض قلوبهم من ولاية الأندلسيين عليهم، وسوء ملكتهم. ودس إليه بعض أشياعه بالبلد بمثل ذلك، فأغزى صنيعته تاشفين بن يعقوب الوطاسي أخا وزيره في عساكر ضخمة من بني مرين، وسائر الطبقات من الجند. وأوعز إليه بالتقدم إلى سبتة ومنازلتها، فأغذ إليها السير ونزل بساحتها ولما أحس به أهل البلد بهشت رجالاتهم، وتنادوا بشعارهم، وثاروا على من كان منهم من قواد ابن الأحمر وعماله، وأخرجوا منها حاميته وجنوده. واقتحمها العساكر. واحتل تاشفين بن يعقوب بقصبتها عاشر صفر من سنة تسع. وطير الفوائق بالخبر إلى السلطان، فعم السرور وعظم شأن الفتح. وتقبض على قائد القصبة أبي زكريا يحيى بن مليلة، وعلى قائد البحر أبي الحسن بن كماشة، وعلى قائد الحروب بها من الأعياص عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق. كان صاحب الأندلس عقد له مكان ابن عمه عثمان بن أبي العلاء، عند إجازته البحر إلى الجهاد كما ذكرنا. وكتب إلى السلطان بالفتح، وأوفد عليه الملأ من مشيخة سبتة وأهل الشورى. وبلغ الخبر إلى ابن الأحمر، فارتاع لذلك وخشي عادية السلطان وجيوش المغرب حين انتهوا إلى الفرضة. وكان الطاغية في تلك الأيام نازل الجزيرة الخضراء، وأقلع عنها على الصلح، بعد أن أذاقها من الحصار شدة، وبعد أن نازل جبل الفتح، فتغلب عليه وملكه. وانهزم زعيم من زعمائه يعرف بالفنش، هزمه أبو يحيى بن عبد الله بن أبي العلاء صاحب الجند بمالقة، لقيه يجوس خلال البلاد بعد تملك الجبل، فهزم النصارى وقتلوا أبرح قتل. وأهم المسلمين شأن الجبل، فبادر السلطان أبو الجيوش

بإنفاذ رسله راغبين في السلم خاطبين للولاية. وتبرع بالنزول عن الجزيرة ورندة وحصونها ترغيبا للسلطان في الجهاد، فتقبل منه السلطان، وعقد له الصلح على ما رغب. وأصهر إليه في اخته، فأنكحه إياها. وبعث بالمدد للجهاد أموالا وخيولاً، وجنائب، مع عثمان بن عيسى اليرنياني. واتصلت بينهما المهادنة والولاية، إلى مهلك السلطان. والبقاء لله وحده.

الخبر عن بيعة عبد الحق بن عثمان، بممالأة الوزير والمشيخة، وظهور السلطان عليهم، ثم مهلكه بعد ذلك:

كانت رسل ابن الأحمر خلال هذه المهادنة والمكاتبات تختلف إلى باب السلطان، ووصل منهم في بعض أحيانها خلف من مترفيهم، فجاهر بالكبائر، فكشف صفحة وجهه في معاقرة الخمر والإدمان عليه، وكان السلطان منذ شهر جمادى الأول سنة تسع قد عزل القاضي بفاس أبا غالب المغيلي، وعهد بأحكام القضاء لشيخ الفتيا المذكور بها أبي الحسن الملقب بالصغير. وكان على ثبج من تغيير المنكرات والتع!ف فيها. حتى لقد كان

مطاوعا في ذلك وسواس النسك الأعجمي، متجاوزا بها الحدود المتعارفة من أهل الشريعة في سائر الأمصار. وأحضر عنده ذات يوم هذا الرسول ثملا، وحضر العدول فاستروحوه، ثم أمضى حكم الله فيه، وأقام عليه الحدود. وأضرمته هذه الموجدة، فاضطرم غيظا. وتعرض للوزير رحو بن يعقوب الوطاسي منصرفه من دار السلطان في موكبه، وكشف عن ظهره يريه أثر السياط، وينعي عليهم سوء هذا المرتكب مع الرسل، فتبرم لذلك الوزير وأدركته حفيظة وسرح وزعته وحشمه في إحضار القاضي على أسو! الحالات من التنكيل والتل لذقنه، فمضوا لذلك الوجه. واعتصم القاضي بالمسجد الجامع، ونادى المسلمين، فثارت العامة بهم، ومرج أمر الناس. واتصل الخبر بالسلطان، فتلافاه بالبعث في أولئك النفر من وزعة الوزير، وضرب أعناقهم، وجعلهم عظة لمن وراءهم فأسرها الوزير في نفسه، وداخل الحسن بن علي بن أبي الطلاق من بني عسكر بن محمد شيخ بني مرين، والمسلم له في شوراهم، وقائد الروم غنصالة المنفرد برياسة العسكر وشوكته، وكان لهم بالوزير اختصاص آثروه له على سلطانه، فدعاهم إلى بيعة عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق كبير القرابة وأسد

الأعياص، وخلع طاعة السلطان، فأجابوه وبايعوا له، وتم أمرهم نجيا. ثم خرجوا عاشر جمادى من سنة عشر إلى ظاهر البلد الجديد بمكان الرمكة، وجاهروا بالخلعان، وأقاموا الآلة، وبايعوا سلطانهم عبد الحق على عيون الملأ. ومحس!كروا بالعدوة القصوى من سبو تخم بلاد عسكر، وإزاء نبدورة من معاقل الحسن بن علي زعيم تلك الثورة. ثم ارتحلوا من الغد إلى تازى، وخرج السلطان في طلبهم، فعسكر بسبو، وتلوم لاعتراض

العساكر، وإزاحة العلل واحتل القوم برباط تازى، وأوفدوا على موسى بن عثمان بن يغمراسن سلطان بني عبد الواد يدعونه إلى المظاهرة، واتصال اليد، والمدد بالعساكر والأموال جنوحا إلى التي هي آثر لديه من تفريق كلمة عدوه، فتثاقل عن ذلك لمكان السلم الذي عقد له السلطان أول الدولة، وليستبين سبيل القوم. وقدم السلطان بين يديه يوسف بن عيسى الجشمي، وعمر بن موسى الفودودي في جموع كثيفة من بني مرين. وسار في ساقتهم، فانكشف القوم عن تازى ولحقوا بتلمسان صريخا. وحمد السلطان مغبة نظره في التثاقل عن نصرهم، ووجد بها الحجة عليهم، إذ غاية مظاهراته إياهم أن يملكهم تازى، وقد انكشفوا عنها فيئسوا من صريخه. وأجاز عبد الحق بن عثمان ورحو بن يعقوب إلى الأندلس، فأقام رخو بها إلى أن قتله أولاد ابن أبي العلاء، ورجع الحسن بن علي إلى مكانه من قبيله، ومحله من مجلس السلطان، بعد أن اقتضى عهده بالأمان على ذلك. ولما احتل الحسن بتازى حسم الداء، ومحاة أثر الشقاق، وأثخن في حاشية الخوارج وذويهم بالقتل والسبي. ثم اعتل أثناء ذلك، وهلك لليال من اعتلاله سلخ جمادى الاخرة من سنة عشر، ووورِي بصحن الجامع الأعظم من تازى. وبويع السلطان أبوسعيد، على ما نذكره إن شاء الله.

الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد، وما كان فيها من الأحداث:

لما هلك السلطان أبو الربيع بتازى، تطاول للأمر عفه عثمان ابن السلطان أبي يعقوب المعروف بأمه قضيب واستلم المنصب وأسدى في ذلك وألحم. وحضر الوزراء والمشيخة بالقصر بعد هدوء من الليل، فاستشاروا

بشيخ القرابة يومئذ، وكبير الأعياص المرشحين، العالي القعد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق. ودست اخته عريبة إليهم بالوعد، وسربت إليهم الأموال. وجاءهم عثمان ابن السلطان أبي يعقوب مستاماً، فزجروه واستدعوا السلطان، يا سعيد، فحضر وبايعوه ليلتئذ وأنفذ كتبه إلى النواحي والجهات باقتضاء البيعة. وسرح ابنه الأكبر الأمير أبا الحسن إلى فاس، فدخلها غرة رجب من سنة عشر. ودخل القصر واطلع على أمواله وذخيرته. وفي غد ليلته أخذت البيعة العامة للسلطان بظاهر تازى، على بني مرين وسائر زناتة والقبائل والعرب، والعساكر والحاشية والموالي والصنائع، والعلماء والصلحاء، ونقباء الناس وعرفائهم والخاصة والدهماء، فقام بالأمر واستوسق له الملك. وفرق الاعطيات وأسنى الجوائز وتفقد الدواوين ورفع الظلامات، وحط المغارم والمكوس. وسرح أهل السجون، ورفع عن أهل فاس وظيفة الرباع. وارتحل لعشرين من شهر رجب إلى حضرته، فاحتل بفاس. وقدم عليه وفود التهنئة من جميع بلاد المغرب ثم خرج لذي القعدة بعدها إلى رباط الفتح لتفقد الأحوال، والنظر في أحوال الرعايا والتهمم بالجهاد، وإنشاء الأساطيل للغزو في سبيل الله. ولما قضى منسك الأضحى بعده، رجع إلى حضرته بفاس. ثم عقد سنة إحدى عشرة لأخيه الأمير أبي البقاء يعيش على ثغور الأندلس: الجزيرة ووندة وما إليهما من الحصون. ثم نهض سنة ثلاث عشرة إلى مراكش لما كان بها من اختلال الأحوال، وخروج عدي بن هنو الهسكوري ونقضه للطاعة، فترل به وحاصره مدة، واقتحم حصنه عنوة عليه، وحمله مقيداً إلى دار ملكه، فأودعه الطبق. ثم رجع إلى غزو تلمسان. والله أعلم.

الخبر عن حركة السلطان أبي سعيد إلى تلمسان، أولي حركاته إليها:

لما خرج عبد الحق بن عثمان على السلطان أبي الربيع، وتغلب على تازى بمظاهرة الحسن بن علي بن أبي الطلاق كبير بني عسكر، واختلفت رسلهم إلى أبي حمّو موسى بن عثمان سلطان بني عبد الواد، أسف ذلك بني مرين، وحرك مزاجهم ولما لحق الخارجون على الدولة بالسلطان أبي حمو، وأقبل عليهم، أضرم ذلك حقد بني مرين. وولي السلطان أبو سعيد الأمر، وفي أنفسهم من بني عبد الواد غصة. فلما استوسق أمر السلطان، ودوخ الجهات المراكشية، وعقد على البلاد الأندلسية وفرغ من شأن المغرب، اعتزم على غزو تلمسان، فنهض إليها سنة أربع عشرة. ولما انتهى إلى وادي ملوية قدم ابنيه أبا الحسن وأبا علي في عسكرين عظيمين في الجناحين، وسار في

ساقتهما، ودخل بلاد بني عبد الواد على هذه التعبية، فاكتسح نواحيها، واصطلم نعمها. ونازل وجدة، فقاتلها قتالا شديدا وامتنعت عليه. ثم نهض إلى تلمسان فترل بالملعب من ساحتها. وانحجز موسى بن عثمان من وراء أسوارها، وغلب على معاقلها ورعاياها، وسائر ضواحيها، فحطمها حطماً ونسف جهاتها نسفا. ودوخ جبال بني يزناسن، وفتح معاقلها، وأثخن فيها، وانتهى إلى وجدة. وكان معه في عسكره أخوه يعيش بن يعقوب، وقد أدركته بعض الاسترابة بأمره، ففر إلى تلمسان، ونزل على أبي حمّو ورجع السلطان على تعبيته إلى تازى، فأقام بها. وبعث ولده الأمير أبا علي إلى فاس، فكان من خروجه على أبيه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض الأمير أبي علي وما كان بينه وبين أبيه من الواقعات:

كان للسلطان أبي سعيد اثنان من الولد: أكبرهما لأمته الحبشية، وهو علي، والآخر لمملوكه من سبي النصرانية، وهو عمر. وكان هذا الأصغر آثرهما لديه، وأعلقهما بقلبه منذ نشأ. فكان عليه حدبا، وبه مشغوفا. ولما استولى السلطان على ملك المغرب، رشحه لولاية عهده، وهو شاب لم يطر شاربه. ووضعوا له ألقاب الأمارة، وصير معه الجلساء والخاصة والكتاب، وأمره باتخاذ العلامة في كتبه. وعقد على وزارته لإبراهيم بن عيسى اليرنياني من صنائع دولتهم، وكبار المرشحين بها. ولما رأى أخوه الأكبر أبو الحسن صاغية أبيهما إليه، وكان شديد البرور لوالديه، انحاش إليه وصار في جملته، وخلط نفسه بحاشيته طاعة لأبيه. واستمرت حال الأمير أبي علي على هذا وخاطبه الملوك من النواحي، وخاطبهم، وهادوه، وعقد الرايات، وأثبت في الديوان، ومحا وزاد في العطاء ونقص، وكاد أن يستبد. ولما قفل السلطان أبو سعيد من غزاته إلى تلمسان سنة أربع عشرة أقام بتازى، وبعث ولديه إلى فاس، فلما استقر الأمير أبو علي بفاس حدثته نفسه بالاستبداد على أبيه وخلعه، وراوضه المداخلون له في المكر بالسلطان حتى يقبض عليه فأبى، وركب الخلاف، وجاهر بالخلعان. ودعا لنفسه، فأطاعه الناس لما كان السلطان جعل إليه من أمرهم. وعسكر بساحة البلد الجديد يريد غزو السلطان، فبرز من تازى بعسكره يقدم رجلا ويؤخر أخرى.

ثم بدا للأمير أبي علي في شأن وزيره، وحدثته نفسه بالقبض عليه استرابة به، لما

كان بلغه من المكاتبة بينه وبين السلطان، فبعث لذلك عمر بن يخلف الفودودي. وتفطن الوزير لما جاء به من المكر، فتقبّضعليه ونزع إلى السلطان أبي سعيد، فتقبله ورضي عنه، وارتحل إلى لقاء ابنه. ولما تراءى الجمعان بالقرمدة ما بين فاس وتازى، اختل مصاف السلطان، وانهزم عسكره. وأفلت بعد أن أصابته جراحة في يده وهن لها، ولحق بنازى فليلا جريحا. ولحق ابنه الأمير أبو الحسن نازعا إليه من جملة أخيه أبي علي بعد المحنة وفاء بحق أبيه، فاستبشر السلطان بالظهور والفتح وحميد المغبة. وأناخ الأمير أبو علي بعساكره على تازى، وسعى الخواص بين السلطان وبينه في الصلح، على أن يخرج له السلطان عن الأمر، ويقتصر على تازى وجهاتها، فتم ذلك بينهما وانعقد. وشهد الملأ من مشيخة العرب وزناتة وأهل الأمصار، فاستحكم عمده وانكفأ الأمير أبو علي إلى حضرة فاس مملكا. وتوافت إليه بيعة الأمصار بالمغرب ووفودهم، واستوسق أمره.

ثم اعتل إثر ذلك، واشتد وجعه، وصار إلى حال الموت، وخشي الناس على أنفسهم تلاشي الأمر بمهلكه، فتسايلوا إلى السلطان بتازى. ثم نزع عن الأمير أبي علي وزيره أبو بكر بن النوان، وكاتبه منديل بن محمد الكناني، وسائر خواصه، فلحقوا بالسلطان وحملوه على تلافي الأمر، فنهض من تازى، واجتمع إليه كافة بني مرين والجند. وعسكر على البلد الجديد، وأقام محاصرا لها، وابتنى دارا لسكناه. وجعل لابنه الأمير أبي الحسن ما كان لأخيه أبي علي من ولاية العهد وتفويض الأمر. وتفرد أبو علي بطائفة من النصارى المستخدمين بدولته كان قائدهم يمت إليه بالخؤولة، وضبط البلد مدة مرضه، حتى إذا أفاق، وتبين اختلال أمره بعث إلى أبيه في الصفح والرضى، وأن يترل له عبا انتزى عليه من الأمر على أن يقطعه سجلماسة وما إليها، ويسوغه ما

احتمل من المال والذخيرة من دراهم، فأجابه إلى ذلك. وانعقد بينهما سنة خمس عشرة. وخرج الأمير أبو بر بخاصته وحشمه، وعس!كر بالزيتون من ظاهر البلد. ووفى له السلطان بما اشترط، وارتحل إلى سجلماسة.
ودخل السلطان إلى البلد الجديد، ونزل بقصره وأصلح شؤون ملكه، وأنزل ابنه الأمير أبا الحسن بالدار البيضاء من قصورهم، وفوض إليه في سلطانه تفويض الاستقلال. وأذن له في اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة على كتابه، وسائر ما كان لأخيه. ووفدت عليه بيعات الأمصار بالمغرب، ورجعوا إلى طاعته.
ونزل الأمير أبو علي بسجلماسة، فأقام لها ملكا، ودون الدواوين، واستلحق
واستركب، وفرض العطاء. واستخدم ظواعن العرب من المعقل، وافتتح معاقل الصحراء وقصور توات وتيكورارين وتمنطيت، وغزا بلاد السوس، فافتتحها وتغلب على ضواحيها، وأثخن في إعرابها من ذوي حسان والشبانات وزكنة، حتى استقاموا على طاعته.
وبئت عبد الرحمن بن الحسن بن يذر أمير الأمصار بالسوس في تارودانت مقره، فاقتحمها عليه عنوة، وقتله واصطلم نعمته، وأباد سلطانه. وأقام لبني مرين في بلاد القبلة ملكا وسلطاناً. وانتقض على السلطان سنة عشرين، وتغلب على درعا، وسما إلى طلب مراكش، فعقد السلطان على حربه لأخيه الأمير أبي الحسن، وجعله إليه وأغزاه ونهض على أثره، فاحتفوا بمراكش، وثقفوا أطرافها، وحسموا عللها. وعقد عليها لكندوز بن عثمان من صنائع دولتهم، وقفلوا بعسكرهم إلى الحضرة. ثم نهض الأمير أبو علي سنة اثنتين وعشرين بمجموعه من سجلماسة، وأغذ السير إلى مراكش، فاحتلت عساكره بها قبل أن يجتمع لكندوز أمره،
فتقبّضعليه وضرب عنقه ورفعه على القناة، وملك مراكش وسائر ضواحيها. وبلغ الخبر إلى السلطان، فخرج من حضرته في عساكره بعد أن احتشد، وأزاح العلل واستوفى الاعطيات وقدم بين يديه ابنه الأمير أبا الحسن ولي عهده، والغالب على أمره في عساكره وجموعه وجاء في ساقته، وسار على هذه التعبية. ولما انتهى إلى توتو من وادي ملوية نذروا بالبيات من أبي علي وجنوده، فحذروهم وأيقظوا ليلتهم. وبيتهم بمعسكرهم ذلك، فكانت الدايرة عليهم، وفل عسكره. وارتحلوا من الغد في أثره. وسلك على جبال درن، وافترقت جنوده في أوعاره، ولحقهم من معراتها شناعات، حتى ترجل الأمير أبو علي عن فرسه، وسعى على قدميه. وخلصوا من ورطة ذلك الجبل بعد عصب الريق، ولحق بسجلماسة، ومهد السلطان نواحي مراكش، واستعمل عليها، ورتب الحامية بها. وعقد على جباية أموال المصامدة ونواحي مراكش لموسى بن علي بن محمد الهنتاتي، فعظم عناؤه في ذلك واضطلاعه، وامتدت أيام ولايته. وارتحل السلطان إلى سجلماسة، فدافعه الأمير أبو علي بالخضوع في الصفح والرضى والعودة إلى السلم، فأجابه السلطان لما كان شغفه من حبه، فقد كان يؤثر عنه من ذلك غرائب. ورجع إلى الحضرة، وأقام الأمير أبو علي بمكانه ذلك من القبلة، إلى أن هلك السلطان، وتغلب عليه أخوه السلطان أبو الحسن، كما نذكره إن شاء الله تعالى.
الخبر عن نكبة منديل الكناني ومقتله:

كان أبو محمد بن محمد الكناني من علية الكتاب بدولة الموحدين، ونزع من مراكش عندما انحل نظام بني عبد المؤمن، وانفض جمعهم إلى مكناسة، فأوطنها في إيالة بني مرين. واتصل بالسلطان يعقوب بن عبد الحق، فصحبه فيمن كان يتأثر على صحابته من أعلام المغرب. وسفر عنه إلى الملوك كما ذكرنا في سفارته إلى المستنصر سنة خمس وستين. وهلك السلطان يعقوب بن عبد الحق، وازداد الكناني عند ابنه يوسف حظوة ومكانة، إلى أن سخطه ونكبه سنة سبع وستين. وأقصاه من يومئذ، وهلك في حال سخطته. وبقي من بعده ابنه منديل هذا في جملة السلطان أبي يعقوب متبرما بمكان عبد الله بن أبي مدين المستولي على قهرمة دار السلطان ومخالصته في خلواته غضباً لذلك، متوقعا للنكبة في أكثر أيامه مضطرمة له بالحسد جوانحه، مع ما كان عليه من القيام على حسبان الديوان. عرف فيه بسبقه، وشهد به صديقه وعدوه. ولما تغلب السلطان على ضاحية شلف وأمصاره من بلاد مغرارة، واستعمله على حسبان الجباية، وجعل إليه ديوان العسكر هنالك، وإلى نظره اعتراضهم وتمحيضهم، فنزل بمليانة مع من كان هنالك من الأمراء: مثل علي بن محمد الخيري والحسن بن علي بن أبي الطلاق العسكري، إلى أن هلك السلطان أبو يعقوب ورجع أبو ثابت البلاد إلى أبي زيان وأخيه أبو حمّو ملوك بني عبد الواد. ونزل لهم عنها، فرجع إلى المغرب ولحق بالسلطان أبي ثابت، ومرّ في طريقه بأبي زيان وأخيه أبي حفو، فخف عليهما وحلا بعيونهما، واستبلغا في تكريمه، وانصرف إلى مغربه. وكان أيام معسكر السلطان يوسف بن يعقوب على تلمسان قد صحب أخاه أبا سعيد عثمان بن يعقوب في حال خموله، وتأكدت بينهما الخفة التي رعاها له السلطان أبو سعيد. فلما ولي المغرب مت بذلك إليه، فعرفه له واختصه وخالصه، وجعل إليه وضع علامته وحسبان جبايته، ومستخلص أحواله، والمفاوضة بذات صدره. ورفع مجلسه، وقدمه على خاصته. وكان كثير الصاغية للأمير أبي علي ابنه المتغلب على أبيه أول مرة. ولما استبد وخلع أباه انحاش منديل هذا إليه. ثم نزع عنه حين تبين اختلال أمره. وكان الأمير أبو الحسن يحقد له ولاية أخيه أبي علي، لما كان بينهما من المنافسة. وكان كثيرا ما يوغر صدره بإيجاب حق عمر عليه، وامتهانه في خدمته. وطوى له على النث، حتى إذا انفرد بمجلس أبيه، وفصل عمر إلى سجلماسة أحكم السعاية فيه، والآلاء في الهلكة التي صر السلطان عليها أذناً واعية، حتى تأذن الله بإهلاكه. وكان منديل هذا كثيرا ما يغضب السلطان في المحاورة والخطاب دالة عليه وكبرا، فاعتد عليه من ذلك كلمات وأحوالا، وسخطه سنة ثمان عشرة. وأذن لابنه أبي الحسن في نكبته، فاعتقله واستصفى ماله، وطوى ديوانه، وامتحنه أياما، ثم قتله بمجلسه خنقا، ويقال جوعاً، وذهب مثلاً في الغابرين. والله خير الوارثين.

الخبر عن انتقاض العزفي بسبتة، ومنازلته، ثم مصيرها إلي طاعة السلطان بعد مهلكه:

كان بنو العزفي لما تغلب عليهم الرئيس أبو سعيد، ونقلهم إلى غرناطة سنة خمس، واستقروا بها في إيالة المخلوع ثالث ملوك بني الأحمر، حتى إذا استولى السلطان أبو الربيع على سبتة سنة تسع آذنوا في الإجازة إلى المغرب، وأجازوا إلى فاس، واستقروا بها. وكان يحيى وعبد الرحمن ابنا أبي طالب من سرواتهم وكبارهم، وكانوا يغشون مجالس أهل العلم، بما كانوا عليه من انتحال الطب. وكان السلطان أبو سعيد أيام أمارة بني

أبيه يجالس بالمسجد الجامع للقرويين شيخ الفتيا أبا الحسى الصغير. وكان يحيى بن أبي طالب يلازمه، فاتصل به وصارت له وسيلة يحسبها عنده فلما ولي الأمر، واستقل به، رعى لهم زمام صحابتهم، ووفى لهم مقاصدهم. وعقد ليحيى على سبتة، ورجعهم إلى مقر أمارتهم منها ومحل رياستهم، فارتحلوا إليها سنه عشر. وأقاموا دعوة السلطان أبي سعيد، والتزموا طاعته. ثم تغلب الأمير أبو علي على أمر أبيه واستبد عليه، فعقد على سبتة لأبي زكريا حبون بن أبي العلاء القرشي، وعزل يحيى بن أبي طالب عنها. واستقدمه إلى فاس، فقدمها هو وأبوه أبو طالب وعمه أبو حاتم، واستقروا في جملة السلطان. وهلك أبو طالب بفاس خلال ذلك، حتى إذا كان من خروج الأمير أبي علي على أبيه ما قدمناه، لحق يحيى بن أبي طالب وأخوه بالسلطان نازعين من جملة الأمير أبي علي. فلما احتل بالبلد الجديد، ونازله السلطان بها، فحينئذ عقد السلطان ليحيى بن أبي طالب على سبتة، وبعثه إليها ليقيم دعوته بتلك الجهات وتمسك بابنه محمد رهنا على طاعته، فاستقل بأمارتها، وأقام طاعة السلطان ودعوته بها وأخذ بيعته على الناس، واتصل ذلك سنين. وهلك عمه أبو حاتم هنالك بعد مرجعه معه من المغرب. ولسنة ست عشرة انتقض على السلطان، ونبذ طاعة الأمر، ورجع إلى حال سلفه من أمر الشورى في البلد. واستقدم من الأندلس عبد الحق بن عثمان، فقدم إليه، وعقد له على الحرب ليفرق به الكلمة، ويوهن ببأسه عزائم السلطان في مطالبته. وجهز السلطان إليه العساكر من بني مرين، وعقد على حربه للوزير إبراهيم بن عيسى، فزحف إليه وحاصره. وتعلل عليهم بطلب ابنه، فبعث به السلطان إلى وزيره إبراهيم ليعطي الطاعة، فتسلمه وجاءه الخبر من عيون كانت بالعسكر أن ابنه كان في فسطاط الوزير بساحة البحر بحيث يتأتى الفرصة في أخذه، فبيت المعسكر وهجم عبد الحق بن عثمان بحشمه وذويه على فسطاط الوزير، فاحتمله إلى أبيه. وركبت العساكر للهيعة، فلم يقفوا على خبر حتى تفقد الوزير ابن العزفي. واتهموا قائدهم إبراهيم بن عيسى الوزير بممالأة العدو على ذلك، فاجتمعت مشيختهم وتقبضوا عليه، وحملوه إلى السلطان، ابتلاء للطاعة، واستنصارا في نصح السلطان، فشكر لهم وأطلق وزيره لابتلاء نصيحته. ورغب بحيى بن العزفي بعدها في رضى السلطان وولايته. ونهض السلطان سنة تسع عشرة إلى طنجة لاختبار طاعته، فعقد له على سبتة، واشترط هو على نفسه الوفاء بجباية السلطان، وأسنى هديته في كل سنة. واستمرت الحال على ذلك إلى أن هلك يحيى العزفي سنة عشرين. وقام بالأمر ابنه محمد إلى نظر ابن عمه محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم شيخ قرابتهم. وكان قائد الأساطيل بسبتة ولي النظر فيها بعد أن نزع القائد يحيى الزنداحي إلى الأندلس، واختلف الغوغاء بسبتة، وانتهز السلطان الفرصة، فأجمع على النهوض إليها سنة ثمان وعشرين، وبادروا بإيتاء طاعتهم. وعجز محمد بن يحيى عن المناهضة وظنها محمد بن علي من نفسه، فتعرض للأمر في أوغاد من اللفيف اجتمعوا إليه. ودافعهم الملأ عن ذلك، وحملوهم على الطاعة، واقتادوا بني العزفي إلى السلطان فانقادوا. واحتل السلطان بقصبة سبتة، وثقف جهاتها ورم منثلمها وأصلح خللها. واستعمل كبار رجالاته وخواص مجلسه في أعمالها، فعقد لحاجبه عامر بن فتح الله السدراتي على حاميتها. وعقد لأبي القاسم بن أبي مدين على جبايتها

والنظر في مبانيها، واخراج الأموال للنفقات فيها. وأسنى جوائز الملأ من مشيختها، ووفر إقطاعاقم وجراياقم. وأوعز ببناء البلد المسمى أفراك أعلى سبتة، فشروعوا في بنائها سنة تسع وعشرين، وانكفأ راجعا إلى حضرته.

الخبر عن استقدام عبد المهيمن للكتابة والعلامة:

كان بنو عبد المهيمن من بيوتات سبتة، ونسبهم في حضرموت. وكانوا أهل تجلة ووقار، منتحلين للعلم. وكان أبوه محمد قاضيا بسبتة أيام أبي طالب وأبي حاتم، وكان له معهم صهر. ونشأ ابنه عبد المهيمن هذا في حجر الطب والجلالة، وقرأ صنعة العربية على الأستاذ الغافقي وحذق فيها. ولما نزلت بهم نكبة الرئيس أبي سعيد سنة خمس، واحتملوا إلى غرناطة، احتمل فيهم القاضي محمد بن عبد المهيمن وابنه. وقرأ عبد المهيمن بغرناطة على مشيختها، وازداد علما وبصرا باللسان والحديث. واستكتب بدار السلطان !حمد المخلوع، واختص بوزيره المتغلب على دولته محمد بن عبد الحكم الرندي فيمن اختص به من رؤسائهم بني العزفي، ثم رجع بعد نكبة ابن الحكم إلى سبتة، وكتب عن قائدها يحيى بن مسلمة مدة. ولما استخلص بنو مرين سبتة سنة تسع اقتصر عن الكتابة، وأقام متقبلا مذاهب سلفه في انتحال العلم ولزوم المروءة. ولما استولى السلطان أبو سعيد على المغرب، واستقل بولاية العهد والتغلب على الأمر ابنه أبو علي، وكان محبا للعلم، مولعا بأهله منتحلا لفنونه. وكانت دولته خلوا من صناعة الترسيل منذ عهد الموحّدين للبداوة الموجدة في دولتهم. وحصل للأمير أبي علي بعض البصر بالبلاغة واللسان، تفطن به لشأن ذلك، وخلو دولتهم من الكتاب المرسمين، وأنهم إنما يحكمون الخط الذي حذقوا فيه. ورأى فيه الأصابع تشير إلى عبد المهيمن في رياسة تلك الصنائع، فولع به. وكان كثير الوفادة مع أهل بلده أوقات وفادقم، فيختصه الأمير أبو علي بمزيد من بره وكرامته، ويرفع مجلسه، ويخطبه للكتابة، وهو يمتنع عليه. حتى إذا مضى عزيمته في ذلك أوعز إلى عامله بسبتة سنة اثنتي عشرة أن يشخصه إلى بابه، فقلده كتابته وعلامته. حتى إذا خرج أبو علي على أبيه تحيز عبد المهيمن إلى الأمير أبي الحسن، فلما صولح أبو علي على النزول عن البلد الجديد، وكتب شروطه على السلطان، كان من جملتها كون عبد المهيمن معه، وأمضى السلطان له ذلك. وأنف الأمير أبو الحسن منها، فأقسم ليقتلنه إن عمل بذلك، فرفع عبد المهيمن أمره إلى السلطان ولاذ به وألقى نفسه بين يديه، فرق لشكواه وأمره باعتزالهما معا والرجوع إلى خدمته. وأنزله بمعسكره، وقام على ذلك. واختصه منديل الكناني كبير الدولة وزعيم الخاصة، وأنكحه ابنته. ولما نكب منديل الكناني، جعل السلطان علامته لأبي القاسم بن أبي مدين، وكان غفلا خلواً من الأدوات، فكان يرجع إلى عبد المهيمن في قراءة الكتب وإصلاحها وإنشائها، حتى عرف السلطان له ذلك، فاقتصر عليه، وجعل وضع العلامة إليه سنة ثمان عشرة، فاضطلع بها. ورسخت قدمه في مجلس السلطان، وارتفع صيته. واستمر على ذلك أيام السلطان وابنه أبي الحسن من بعده، إلى أن هلك بتونس في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين. والله خير الوارثين.

الخبر عن صريخ أهل الأندلس بالسلطان، ومهلك بطرة علي غرناطة:

كان الطاغية شانجة بن أدفونش قد تكالب على أهل الأندلس من بعد أبيه هراندة الهالك سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة. ومنذ غلب على طريف، وشغل السلطان يوسف بن يعقوب بعدوه بني يغمراسن، ثم تشاغل حفدته من بعده بأمرهم وتقاصرت مددهم، وهلك شانجة سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة، وولي ابنه هراندة ونازل الجزيرة الخضراء فرضة الجهاد لبني مرين حولا كاملا. ونازلت أساطيله جبل الفتح، واشتد الحصار على المسلمين. وراسل هراندة بن أدفونش صاحب برشلونة أن يشغل أهل الأندلس من ورائهم ويأخذ بحجزتهم، فنازل المرية، وحاصرها الحصار المشهور سنة تسع، ونصب عليها الآلات. وكان منها برج العود المشهور، طال الأسوار بمقدار ثلاث قامات، وتحيل المسلمون في إحراقه، فأحرق. وحفر العدو تحت الأرض مسرباً عريض المسافة مقدار ما يسير فيه عشرون راكبا. وتفطن لهم المسلمون وحفروا قبالتهم مثاله، إلى أن نفذ بعضهم لبعض، واقتتلوا تحت الأرض. وعقد ابن الأحمر لعثمان بن أبي العلاء زعيم الأعياص على عسكر بعثه مددا لأهل المرئة، فلقيه جمع من النصارى كان الطاغية بعثهم لحصار مرشانة، فهزمهم عثمان واستلحمهم. ونزل قريبا من معسكر الطاغية، وألح بمغاداتهم ومراوحتهم إلى أن ركبوا إليه في السلم وأفرج عن البلد.

وتغلب الطاغية خلال ذلك على جبل الفتح، وأقامت عساكره على شمانة واصطبونة. وزحف العبّاس بن رحو بن عبد الله، وعثمان بن أبي العلاء في العساكر لإغاثة البلدين، فأوقع عثمان بمعسكر اصطبونة، وقتل قائدهم ألفنس بترس في نحو ثلاثة آلاف فارس واستلحموا. ثم زحف عثمان إلى إعانة العبّاس، وكان دخل عوجين، فحاصرته جموع النصرانية به، فانفضوا لخبر زحفه. وبلغ الخبر إلى الطاغية بمكانه من ظاهر الجزيرة بفتك عثمان في قومه، فسرح جموع النصرانية إليه

ولقيهم عثمان، فأوقع بهم وقتل زعماءهم. وارتحل الطاغية يريد لقاءهم، فخالفه أهل البلد إلى معسكره وانتهبوا مخلفاته وفساطيطه. وأتيحت للمسلمين عليهم الكرة وامتلأت الأيدي من غنائمهم وأسراهم. ثم هلك الطاغية إثر هذه الهزيمة سنة اثنتي عشرة، وهو هراندة بن شانجة، وولي من بعده ابنه الهنشة طفلا صغيرا، جعلوه إلى نظر عمه دون بطرة بن شانجة، وزعيم النصرانية جوان، فكفلاه. واستقام أمرهم على ذلك. وشغل السلطان أبو، سعيد ملك المغرب بشأن ابنه وخروجه، فاهتبل النصرانية الغرة في الأندلس، وزحفوا إلى غرناطة سنة ثمان عشرة، وأناخوا عليها بمعسكرهم وأممهم. وبعث أهل الأندلس صريخهم إلى السلطان واعتذر لهم بمكان أبي العلاء من دولتهم، ومحله من رياستهم، وأنه مرشح للأمر في قومه بني مرين، يخشى معه من تفريق الكلمة. وشرط عليهم أن يدفعوه إليه برمته، حتى يتم أمم الجهاد، ويعيده إليهم حوطة على المسلمين. ولم يمكنهم ذلك لمكان عثمان بن أبي العلاء بصرامته وعصابته من قومه، فأخفق سعيهم واستلحموا. وأحاطت امم النصرانية بغرناطة، وطمعوا في التهامها. ثم إن الله نفس مخنمهم، ودافع بيد قدرته عنهم، وكيف لعثمان بن أبي العلاء وعصبته واقعة فيهم كانت من أغرب الوقائع. صمدوا إلى موقف الطاغية بجملتهم، وكانوا زهاء مايتين أو أكثر. وصابروهم حتى خالطوهم في مراكزهم، فصرعوا بطرة وجوان، وولوهم الأدبار. واعترضتهم من

ورائهم مسارب الماء للشرب من شنيل، فتطارحوا فيها. وهلك كثيرهم، واكتسحت أموالهم، وأعز الله دينه، وأهلك عدوه. ونصب رأس بطرة بسور البلد عبرة لمن يتذكر. وهو باق هنالك لهذا العهد.

الخبر عن صهر الموحل ين والحركة إلى تلمسان علي أثره وما تخلل ذلك من الأحداث:

ولما انفرج الحصار عن ولد عثمان بن يغمراسن ملوك بني عبد الواد سنة ست، وتجافى أبو ثابت عن بلادهم، ونزل لهم عما ملكه بنو مرين منها بسيوفهم. واستقل أبو حمّو بملك بني عبد الواد على رأس الحول منها، صرف نظره واهتمامه إلى بلاد الشرق، فتغلب على بلاد مغراوة، ثم على بني توجين. ومحا أثر سلطانهم. ولحق أعياصهم من ولد عبد القوي بن عطية، وولد منديل بن عبد الرحمن بالموحّدين آل أبي حفص مع من تبعهم من رؤوس قبائلهم، وصاروا في جملة عساكرهم. واستلحق مولانا السلطان أبو

يحيى وحاجبه يعقوب بن غمر منهم جندا كثيفا أثبتهم في الديوان، وغالب بهم الخوارج والمنازعين للدولة. ثم زحف أبو حمّو إلى الجزائر وغلب ابن علان عليها، ونقله إلى تلمسان ووفى له. وفر بنو منصور أمراء مليكش أهل بسيط متيجة من صنهاجة، فلحقوا بالموحّدين واصطنعوهم. وتملك قاصية المغرب الأوسط، وتاخم عمل الموحّدين بعمله. ثم تغلب على تدلس سنة اثنتي عشرة، وتجنى على مولانا السلطان أبي يحيى بما وقع بينهم من المراسلة أيام انتزاء ابن خلوف ببجاية كما ذكرناه في أخباره، يحث عزائمه لمنازلتها. وطلب بلاد الموحدين، وأوطأ عساكره أرضهم، ونازل أمصارهم بجاية وقسنطينة. واختص بجاية بشوكته من ذلك. وجهز العساكر مع مسعود ابن عمه أبي عامر إبراهيم لمضايقتها. وكان خلال ذلك ما قدمناه من خروج محمد بن يوسف بن يغمراسن عليه وقيام بني توجين بأمره، واقتطاع جبل وانشريش من عمالة ملكه.

واستمرت الحال على ذلك حتى هلك السلطان أبو حمّو سنة ثمان عشرة. وقام بأمرهم أبو تاشفين عبد الرحمن، فصنع له في ابن عمه محمد بن يوسف. ونهض إليه بعساكر بني عبد الواد، حتى نازله بمعتصمه من جبل وانشريش. وداخله عمر بن عثمان كبير بني تيغرين في المكربة، فتقبّضعليه وقتله سنة تسع عشرة. وارتحل إلى بجاية، حتى احتل بساحتها. وامتنع عليه الحاجب ابن غمر، فأقام يوما أو بعضه. ثم انكفأ راجعا الى تلمسان، وردد البعوث إلى أوطان بجاية، وابتنى الحصون لتجمر الكتائب، فابتنى بوادي بجاية من أعلاه حصن بكر ثم حصن تيمزيزدكت يليه. ثم اختط بنيكلات على مرحلة منها بلدا سماه تيمزيزدكت على اسم المعقل الذي كان لأوليهم بالجبل قبالة وجدة. وامتنع يغمراسن به على السعيد كما قدمناه، فاختط بلد تيكلات هذه، وشحنها بالأقوات والعساكر، وصيرها ثغرا لملكه، وأنزل بها جنده. وعقد عليها لموسى بن علي العزفي كبير دولته ودولة ابنه. واستحثه أمراء الكعوب من بني سليم لملك أفريقية حين مغاضبتهم لمولانا السلطان أبي يحيى، فأغرس معهم جيوش زناتة، وعقد على تونس للأعياص من آل أبي حفص: الأمير أبي عبد الله محمد بن أبي يحيى اللحياني، وأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عمران، وأبي إسحاق بن أبي يحيى الشهيد، مرة بعد أخرى كما ذكرناه في أخبارهم جميعا. وكانت حروبهم سجالا إلى، أن كان بين جيوش زنانة الموحّدين الزحف المشهور بالرياش من نواحي مرماجنة سنة تسع وعشرين، زحفت

فيه إلى السلطان أبي يحيى عساكر زناتة مع حمزة بن عمر أمير بني كعب، ومن إليه من البدو، وعليهم يحيى بن موسى من صنائع دولة آل يغمراسن. وقد نصبوا للملك محمد بن أبي عمران بن أبي حفص، ومعهم عبد الحق بن عثمان من أعياص بني عبد الحق في بنيه وذويه. وكان نزع إليهم من عند الموحّدين كما ذكرناه، فاختل مصاف مولانا السلطان أبي يحيى، وانهزم واستولوا على فساطيطه بما فيها من الذخيرة والحرم، وانتهبوا معسكره. وتقبضوا على ولديه المولبين أحمد وعمر، وأشخصوهما إلى تلمسان. واصيب السلطان في بدنه بجراحات أوهنته، وخلص إلى بونة ناجيا برمقه. وركب السفين منها إلى بجاية، فأقام بها يدامل جراحه.

واستولت زناتة على تونس. ودخلها محمد بن أبي عمران، سموه باسم السلطان ومقادته في يد يحيى بن موسى أمير زناتة. واعتزم مولانا السلطان أبو يحيى على الوفادة على ملك المغرب السلطان أبي سعيد بنفسه صريخا على آل يغمراسن. وأشار حاجبه محمد بن سيد الناس بإنفاذ ابنه الأمير أبي زكريا صاحب الثغر استنكافا له عن مثلها، فتقبل إشارته، وأركب ابنه البحر لذلك. وبعث معه أبا محمد عبد الله بن تافراكين من مشيخة الموحدين، نافضا أمامه طرق المقاصد والمجاورات، ونزلوا بغساسة من سواحل المغرب. وقدموا على السلطان أبي سعيد بحضرته، وأبلغوه صريخ مولانا السلطان أبي يحيى، فاهتز لذلك هو وابنه الأمير أبو الحسن، وقال للأمير في ذلك المحفل: يا بني لقد أكبر قومنا قصدك وموصلك، ووالله لأبذلن في مظاهرتكم مالي وقومي ونفسي، ولأسيرن بعساكري إلى تلمسان فأنزلها مع أبيك، فانصرفوا إلى منازلهم مسرورين. وكان فيما شرطه عليهم السلطان أبو سعيد مسير مولانا السلطان أبي يحيى بعسكره إلى منازلة تلمسان معه فقبلوا. ونهض السلطان أبو سعيد إلى تلمسان سنة ثلاثين. ولما انتهى إلى وادي ملوية وعسكر بصبرة، جاءهم الخبر اليقين باستيلاء السلطان أبي يحيى على حضرة تونس، وإجهاضه زناتة وسلطانهم عنها. واستدعى مولانا السلطان الأمير أبا زكريا يحيى ابنه ووزيره أبا محمد عبد الله بر تافراكين، وأمرهم بالانصراف إلى صاحبهم وأسنى جوائزهم وحباءهم، وركبوا أساطيلهم عن غساسة. وأرسل معهم للخطبة والصهر إبراهيم بن أبي حاتم العزفي، والقاضى بحضرته أبا عبد الله بن عبد الرزاق، وانكفأ على عقبه راجعا إلى حضرته. ولما انعقد الصهر بين الأمير أبي الحسن والسلطان أبي يحيى في ابنته شقيقة الأمير يحيى، زفها

إليهم في أساطيله مع مشيخة من الموحدين: كبيرهم أبو القاسم بن عتو، ووصلوا بها إلى مرسى غساسة سنة إحدى وثلاثين بين يدي مهلك السلطان أبي سعيد، فقاموا بها على إقدام البر والتكرمة. وبعثوا الظهر إلى غساسة لركوبها وحمل أثقالها، وصيغت حكمات الذهب والفضة وقدت ولايا الحرير المغشاة بالذهب، واحتفل لوفادها وأعراسها غاية الاحتفال بما لم يسمع مثله في دولتهم. وتولت قهارمة الدار من عجز من النساء ما يتولاه مثلهم من ذلك الصنيع، وتحدث الناس به. وهلك السلطان أبو سعيد بين يدي موصلها. والبقاء لته وحده.

الخبر عن مهلك السلطان أبي سعيد، عفا الله عنه، وولاية ابنه السلطان أبي الحسن، وما تخلل ذلك من الأحداث:

وكان السلطان لما بلغه وصول العروس، بنت مولانا السلطان أبي يحيى سنة إحدى وثلاثين، واهتزت الدولة لقدومها عليهم تعظيما لحق أبيها وقومها واحتفاء بها، ارتحل السلطان أبو سعيد إلى تازى ليشارف أحوالها بنفسه استبلاغا في تكريمها وسرورا بعروس ابنه. واعتل هنالك ومرض حتى أشفى على الهلاك، وارتحل به ولي العهد الأمير أبو الحسن إلى الحضرة، وحمله في فراشه على أكتاف الحاشية والخول، حتى نزل بسبو، ثم أدخله كذلك ليلا إلى داره. وأدركته المنية في طريقه، فقضى رحمة الله عليه، فوضعوه بمكانه من البيت واستدعى الصالحين لمواراته فووري لشهر ذي الحجة من سنة إحدى وثلاثين. والبقاء لله وحده، وكل شيء هالك إلا وجهه.

ولما هلك السلطان أبو سعيد اجتمع الخاصة من المشيخة ورجالات الدولة إلى

ولى عهده الأمير أبي الحسن، وعقدوا له على أنفسهم، وأتوه بيعتهم. وأمر بنقل معسكره من سبو وأضرب بالزيتون من ساحة فاس. ولما ووري السلطان خرج إلى معسكره في النعبية، واجتمع إليه الناس على طبقاتهم لأداء البيعة، وجلس بفسطاطه. وتولى أخذ البيعة له يومئذ على الناس المزوار عبو بن قاسم عريف الوزعة والمتصرفين، وحاجب الباب القديم الولاية في ذلك بدارهم منذ عهد السلطان يوسف بن يعقوب. وزفت إليه ليلتئذ عروسه بنت مولانا السلطان أبي يحيى، فأعرس بها بمكانه من المعسكر، وأجمع امره على الانتقام لأبيها من عدوه. وبدأ باستكشاف حال أخيه أبي علي، وكان السلطان

أبوهما يستوصيه به لما كان له بقلبه من العلاقة. وكان ولي العهد هذا يؤثر لرضاه جهده، فاعتزم على الحركة إلى سجلماسة لمشارفة أحواله. والله تعالى أعلم.

الخبر عن حركة السلطان أبي الحسن إلى سجلماسة، وانكفائه عنها إلي تلمسان بعد الصلح مع أخيه والاتفاق:

لما هلك السلطان أبو سعيد، وكملت بيعة السلطان أبي الحسن، وكان كثيرا ما يستوصيه بأخيه أبي علي لما كان كلفا به شفيقا عليه، فأراد مشارفة أحواله قبل النهوض إلى تلمسان، فارتحل من معسكره بالزيتون قاصدا سجلماسة. وتلقته في طريقه وفود الأمير أبي علي أخيه مؤديا حقه، موجبا مبرته، مهنيا بما أتاه الله من ملك، متجافيا عن المنازعة فيه، قانعا من تراث أبيه بما حصل في يده، طالبسا العقد له بذلك من أخيه. فأجابه

السلطان أبو الحسن إلى ما سأل، وعقد له على سجلماسة وما إليها من بلاد القبلة كما كان لعهد أبيهما. وشهد الملأ من القبيل وسائر زناتة والعرب، وانكفأ راجعا إلى تلمسان بإجابة صريخ الموحدين. وأغذ السير إليها. ولما انتهى إلى تلمسان، نكب عنها متجاوزا إلى ناحية الشرق، لوعد مولانا السلطان أبي يحيى بالنزول معه إلى تلمسان، كما كان عليه وفاقهم ومشارطهم مع الأمير أبي زكريا الرسول إليهم، فاحتل بتاسالة في شعبان من سنة اثنتين وثلاثين. وتلوم بها، وأوعز إلى أساطيله بمراسي المغرب، فأغزاها إلى سواحل تلمسان. وجهز لمولانا السلطان أبي يحيى مددا من عسكره أركبهم الأساطيل من سواحل وهران، وعقد عليهم لمحمد البطوي من صنائع دولته. ونزلوا بجاية، ووافوا بها مولانا السلطان أبا يحيى، فصاروا في جملته. ونهضوا معه إلى تيكلات ثغر بني عبد الواد، المجمرة بها الكتائب لحصار بجاية، وبها يومئذ ابن هزرع من قوادهم. وأجفل من

كان بها من العساكر قبل وصوله إليهم، فلحقوا بآخر عملهم من المغرب الأوسط. وأناخ مولانا السلطان أبو يحيى عليها بعساكره من الموحّدين والعرب والبربر وسائر الحشود، فخربوا عمرانها وانتهبوا ما كان من
الأقوات مختزنا بها، وكان بحرا لا يدرك ساحله، لما كان السلطان أبو حمّو من لدن اختطها قد أوعز إلى العمال بسائر البلاد الشرقية، منذ عمل البطحاء، أن ينقلوا أعشار الحبوب إليها وسائر الأقوات. وتقبل ابنه السلطان أبو تاشفين مذهبه في ذلك. ولم يزل دأبهم إلى حين حلت بها هذه
الفاقرة، فانتهب الناس من تلك الأقوات ما لا كفاء له. وأصرعوا مختطها بالأرض فنسفوها نسفا، وذروها قاعا صفصفا. والسلطان أبو الحسن خلال ذلك متشرف لأحوالهم، منتظر قدوم مولانا السلطان أبي يحيى بعساكره عليه لمنازلة تلمسان، حتى وافاه الخبر بانتقاض أخيه كما نذكره، فانكفأ راجعا. واتصل الخبر بمولانا السلطان أبي يحيى، فقفل إلى حضرته. وحمل البطوي معه وأسنى جائزته وجوائز عسكره، فانصرفوا إلى السلطان
مرسلهم في سفنهم. وانقبض عنان السلطان أبي تاشفين عن غزو البلاد الموحّدين إلى أن انقرض أمره. والبقاء لته وحده.

الخبر عن انتقاض أبي علي ونهوض السلطان أبي الحسن إليه وظفره به:

لما توغل السلطان أبو الحسن في غزاة تلمسان، وتجاوزها إلى تاسالة لموعد مولانا السلطان أبي يحيى، دس أبو تاشفين إلى الأمير أبي علي في اتصال اليد والاتفاق على السلطان أبي الحسن، وأن يأخذ كل واحد منهما بحجزته عن صاحبه متى هم به، وانعقد بينهما على ذلك. وانتقض الأمير أبو علي على أخيه السلطان أبي الحسن، ونهض من سجلماسة إلى درعة، فقتل بها عامل السلطان، واستعمل عليها من ذويه، وسرح العسكر إلى بلاد مراكش. واتصل الخبر بالسلطان، وهو بمعسكره بتاسالة، فأحفظه شأنه، وأجمع على الانتقام منه، فانكفأ راجعا إلى الحضرة. وأنزل بثغر تاوريرت تخم عمله عسكرا، وعقد عليه لابنه تاشفين، وجعله إلى نظر وزيره منديل بن حمامة بن تيربيغين وأغذ السير إلى سجلماسة، فنزل عليها وأحاطت عس!اكره بها، وأخذ بمخنقها. وحشد الفعلة والصناع لعمل الآلات لحصارها والبناء بساحتها. وأقام يغاديها القتال ويراوحها حولا كريتاً. ونهض أبو تاشفين في عساكره وقومه إلى ثغر المغرب ليوطئه عساكره، وشيث في نواحيه، ويجاذب السلطان عن مكانه من حصاره. ولما انتهى إلى تاوريرت، برز إليه ابن السلطان في وزرائه وعساكره، وزحفوا إليه في التعبئة، فاحتل مصافه، وانهزم ولم يلق أحدا، وعاد إلى منحجزه. وبادر إلى إمداد الأمير أبي علي بعسكره، فعقد على حصة من جنوده وبعث بهم إليه، فتسربوا إلى البلد زرافات ووحدانا، حتى استكملوا عنده. وطاولهم السلطان الحصار، وأنزل بهم أنواع الحرب والنكال، حتى نغلب عليهم، واقتحم البلد عنوة، وتقبض على الأمير أبي علي عند باب قصره. وسيقَ

إلى السلطان، فأمهله واعتقله واستولى على ملكه. وعمد على سجلماسة، واستعمل عليها، ورحل منكفياً إلى الحضرة، فاحتل بها سنة ثلاث وثلاثين. واعتقل أخاه في إحدى حجر القصر إلى أن قتله لأشهر اعتقاله خنقا

بمحبسه. وعذر له هذا الفتح بفتح الجبل، واسترجاعه من يد العدو دمره الله بأيدي عسكره تحت راية ابنه أبي مالك. كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن منازلة جبل الفتح، واستئثار الأمير أبي مالك والمسلمين به:

لما هلك السلطان أبو الوليد ابن الرئيس أبي السعيد المتغلب على ملك الأندلس من يد ابن عمه أبي الجيوش، قام بالأمر من بعده ابنه محمد طفلا صغيرا إلى نظر وزيره محمد بن المحروق، من بيوت الأندلس وصنائع الدولة، واستبد عليه. فلما شب وناهز، وأنف من الاستبداد عليه، أغراه المعلوجي من حشمه بالوزير، فاغتاله وقتله سنة تسع وعشرين. وشمر للاستبداد وشيد أواخي الملك. وكان الطاغية قد أخذ جبل الفتح سنة تسع، وجاورت النصرانية به ثغور الفرضة، وصار شجى في صدرها، وأهمَّ الملسمين شأنه. وشغل عنهم صاحب المغرب بما كان من فتنة ابنه، فرجعوا الجزيرة وحصونها إلى ابن الأحمر منذ سنة اثنتي عشرة لأول الماية الثامنة. واستغلظ الطاغية عليهم بعد ذلك، فرجعوا الجزيرة إلى صاحب المغرب سنة تسع وعشرين. وولى عليها السلطان أبو سعيد من أهل دولته سلطان بن مهلهل من عرب الخلط وأخواله. وأسف الطاغية إلى حصونها عند مهلك السلطان أبي سعيد، فملك أكثرها ومنع البحر من الإجازة. وقارن ذلك استبداد صاحب الأندلس، وقتله لوزيره المحروق. وأهمه شأن الطاغية، فبادر إلى إجازه البحر. ووفد على

السلطان أبي الحسن بدار ملكه بفاس سنة اثنتين وثلاثين، فأكبر موصله وأركب الناس للقائه، وأنزله بروض المصارة لصق داره، واستبلغ في تكريمه وفاوضه ابن الأحمر في شأن المسلمين وراء البحر، وما أهمهم من عدوهم، وشكا إليه حال الجبل واعتراضه شجى في صدر الثغور، فأشكاه السلطان. وعامل الله في أسباب الجهاد، وكان مشغوفا به متقبلا مذهب جده يعقوب فيه. وعقد لابنه الأمير أبي مالك على خمسة آلاف من بني مرين، وأنفذه مع السلطان محمد بن إسماعيل لمنازلة الجبل فاحتل بالجزيرة، وتتابع إليه الأسطول بالمدد. وأرسل ابن الأحمر حاشرين في الأندلس فتسايلوا إليه وأضربوا معسكرهم جميعا بساحة الجبل. وأبلوا في حربه ومنازلته البلاء الحسن، إلى أن تغلبوا عليه سنة ثلاث وثلاثين، واقتحمه المسلمون عنوة. ونقلهم الله من كان به من النصرانية بما معهم، ووفاه الطاغية بأمم الكفر لثالثة فتحه، وقد شحنه المسلمون بالأقوات نقلوها من الجزيرة على حيولهم. وباشر نقلها الأمير أبو مالك وابن الأحمر، فنقلها الناس عامة. وتحيز الأمير أبو مالك إلى الجزيرة، وترك بالجبل يحيى بن طلحة بن محلى من وزراء أبيه. ووصل الطاغية بعد ثلاث، فأناخ عليه. وبرز أبو مالك بعساكره، فترل قبالته. وبعث إلى الأمير أبي عبد الله صاحب الأندلس، فوصل بحشد المسلمين بعد أن دوخ أرض النصرانية. وخرج فترل بإزاء عسكر الطاغية، وتحصن العدو في محلتهم. وأقاموا كذلك عادية لقرب العهد بارتجاعه، وخفة ما به من الحامية والسلاح، فبادر السلطان ابن الأحمر إلى لقاء الطاغية. وسبق الناس إلى فسطاطه عجلا، بائعا نفسه من الله في رضى المسلمين، وسد فرجتهم، فتلقاه الطاغية راجلا حاسرا إعظاما لموصله. وأجابه إلى ما سأل من الإفراج عن هذا المعقل، وأتحفه بذخائر مما لديه، وارتحل لفوره. وأخذ الأمير أبو مالك في تثقيف أطراف الثغر، وسد فروجه، وإنزال الحامية به، ونقل الأقوات إليه. وكان فتحا

طوى دولة السلطان أبي الحسن قلادة الفخر آخر الأيام. ثم رجع بعدها إلى شأنه من منازلة تلمسان وحصاره، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حصار تلمسان، وتغلب السلطان أبي الحسن عليها، وانقراض بني عبد الواد بمهلك أبي تاشفين:

لما تغلب السلطان على أخيه، وحسم علة انتزائه ومنازعته، وسد ثغور المغرب، وعظمت لديه نعمة الله بظهور عسكره على النصرانية، وارتجاع جبل الفتح من أيديهم، بعد أن أقام في ملكتهم نحوا من عشرين سنة، فرغ لعدوه وأجمع على غزو تلمسان. ووفد عليه رسل السلطان أبي يحيى في سبيل التهنئة بالفتح والأخذ بحجزة أبي تاشفين على الثغور. وأوفد السلطان رسله إلى أبي تاشفين شفعا، وأن يتخلى عن عمل الموحدين جملة، ويترل لهم عن تدلس، وبرجع إلى تخم أعمالهم منذ أول الأمر، ولو عامئذ، ليعلم الناس جاه السلطان عند الملوك، ويقدروه حق قدره. واستنكف أبو تاشفين من ذلك، ولج وأغلظ للرسل في القول، وأفحش بمجلسه بعض السفهاء من العبدى في الرد عليهم، والنيل من مرسلهم، فانقلبوا بما أحفظه، فانبعثت عزائم السلطان للصعود إليهم. وعسكر بساحة البلد الجديد، وبعث وزراءه إلى قاصية البلاد المراكشية لحشد القبائل والعساكر. ثم تعجل فاعترض جنوده وأزاح عللهم وعبا مواكبه. وسار في التعبئة، وفصل بمعسكره من فاس أواسط خمس وثلاثين. وسار يجر الشوك والمدد من امم المغرب وجنوده. ومر بوجدة، فجمر الكتائب لحصارها. ثم مر بندرومة، فقاتلها بعض يوم واقتحمها، فقتل حاميتها واستولى عليها آخر سنة خمس. ثم سار على تعبئته حتى أناخ على تلمسان، وبلغه الخبر بتغلب عساكره على وجدة سنة ست وثلاثين، فأوعز إليهم بتخريب أسوارها، فأصرعوها بالأرض.

وتوافت إليه أمداد النواحي وحشودها، وربض على فريسته. ووفدت عليه قبائل مغراوة وبني توجين، فأتوه طاعتهم. ثم سرح عساكره إلى الجهات، فتغلب على وهران وهنين، ثم على مليانة وتنس والجزائر، كل ذلك سنة ست وثلاثين. ونزع إليه يحيى بن موسى صاحب القاصية الشرقية من عمله، والمتاخم كان لعمل الموحدين، والقائم بحصار بجاية بعد نكبة موسى بن علي، فلقاه مبرة وتكريما ورفع مجلسه في بساطه، ونظمه في طبقات وزرائه وجلسائه. وعقد على فتح البلاد الشرقية ليحيى بن سليمان العسكري كبير بني عسكر بن محمد، وشيخ بني مرين وصاحب شوراهم بمجلس السلطان، والمخصوص بالصهر من السلطان وعقد له على ابنته، فسار في الألوية والجنود وطوع ضاحية الشرق وقبائله، وافتتح أمصاره، حتى انتهى إلى المدية. ونظم البلاد في طاعة السلطان، وأحشد مقاتليها إلى معسكره فلحقوا به وكاثروا جنوده. واستعمل السلطان على وانشريش وعمل الحشم من بني توجين. وعقد لسعد بن سلامة بن علي على بني يدللتن. وجعل الوالي بالقلعة إلى نظره. وكان خلص إليه بالمغرب قبل فصوله نازعا عن أبي تاشفين لمكان أخيه قريعه محمد من الدولة.

واستعمل السلطان أيضا على شلف وسائر أعمال المغرب الأوسط. واختط السلطان بقرب تلمسان البلد الجديد لسكناه. ونزل عساكره وسماه المنصورة. وأدار على البلد المخروب سياجا من السور ونطاقا من

الخندق. ونصب المجانيق والآلات من وراء خندقه. وشيد قبالة كل برج من أبراج البلد برجا على ساقه خندقه، ينضخ رماته بالنبل رملهم، وشغلوهم بأنفسهم حتى شيدوا برجا آخر أقرب منه، وترتفع شرفاته فوق خندقهم. ولم يزل يتقرب بوضع الأبراج من حد إلى ما بعده، حتى اختطها من قرب على ساقة خندقهم. وتماصع المقاتلة بالسيوف من أعاليها، وقربت المجانيق إلى رجمها ودكها، فنالت من ذلك فوق الغاية. واشتد الحرب وضاق نطاق الحصار. وكان السلطان يصابحهم كل يوم بالبكور والطواف على البلد من جميع جهاته لتفقد المقاتلة في مراكزهم، وربما ينفرد في تطوافه بعض الأيام عن حاشيته، فاهتبلوا الأمر يحسبونه غرة. وصفوا جيوشهم من وراء السور مما يلي الجبل المطل على البلد، حتى إذا حاذاه السلطان في تطوافه، فتحوا أبوابهم، وأرسلوا عليه عقبان جنودهم، فاضطروه إلى سفح الجبل، حين لحق بأوغاره، وكان أن يترل عن فرسه هو ووليه عريف بن يحيى أمير سويد. ووصل الصائح إلى المعسكر، فركب الأميران، ابناه: أبو عبد الرحمن وأبو مالك، في جموع بني مرين، وتهاوت فرسان المعسكر من كل جانب، فشمروا جنود بني عبد الواد إلى مراكزهم. ثم دفعوهم عنها، وحملوهم على هوة الخندق، فتطارحوا فيها وترادفوا وهلك بالكظيظ أكثر مما هلك بالقتل. واستلحم في ذلك اليوم زعماء ملاحمهم: مثل عمر بن عثمان كبير الحشم من بني توجين، ومحمد بن سلامة بن علي كبير بني يدللتن منهم أيضا وغيرهم. وكان يوما له ما بعده. واعتز بنو مرين عليهم من يومئذ.

ونذر بنو عبد الواد بالتغلب عليهم، واتصلت الحرب عامين. ثم اقتح مها السلطان غلابا لسبع وعشرين من رمضان سنة سبع وثلاثين. ووقف أبو تاشفين بساحة قصره مع خاصته، وقاتل هنالك حتى قتل ابناه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن علي، ووليه عبد الحق بن عثمان بن محمد من أعياص آل عبد الحق. نزع إليه من جملة الموحدين كما أشرنا إليه، ونستوفي في أخباره. فهلك هو وابنه وابن أخيه، وأثخنت السلطان أبا تاشفين الجراحات. ووهن لها، فتقبض عليه واحتقبه بعض الفرسان إلى السلطان، فلقيه الأمير أبو عبد الرحمن صالي تلك الحروب ووارد غمرتها بنفسه، فاعترضه وقد غص الطرق بموكبه، فأمر به للحين، فقتل واحتز رأسه. وسخط ذلك السلطان من فعله لحرصه على توبيخه وتقريعه، وذهب مثلا في الغابرين. واقتحم السلطان بكافة عساكره، وتواقع الناس بباب كشوك لجنوبهم من كظيظ الزحام، فهلك منهم امم.

وانطلقت أيدي النهب على البلد، فلحقت الكثير من أهله معرة في أموالهم وحرمهم. وخلص السلطان إلى المسجد الجامع مع لمة من خواصه وحاشيته. واستدعى شيوخ الفتيا بالبلد: أبو زيد وأبو موسى ابنا الإمام، وفاء بحق العلم وأهله، فخلصوا إليه بعد الجهد ووعظوه وذكروه بما نال الناس من النهب، فركب لذلك بنفسه وسكن ووزع جنوده وأشياعه عن الرعية، وقبض أيديهم عن الفساد وعاد إلى معسكره بالبلد الجديد. وقد كمل الفتح وعز النصر، وشهد ذلك اليوم أبو محمد عبد الله بن تافراكين، وافاه رسولا عن مولانا السلطان أبي يحيى مجددا للعهد، فأعجله السلطان إلى مرسله بالخبر وسابق السابقين. ودخل تونس لسبع عشرة ليلة من نوبة الفتح، فعظم السرور عند السلطان أبي يحيى بمهلك عدوه والانتقام منه بشارة،

واعتدها بمساعيه. ورفع السلطان أبو الحسن القتل عن بني عبد الواد أعدائهم، وشفا نفسه بقتل سلطانهم، وعفا عنهم وثبتهم في الديوان، وفرض لهم العطاء، واستتبعهم على راياتهم ومراكزهم. وجمع كلمة بني واسين من بني مرين وبني عبد الواد وتوجين، بل وسائر زناتة. وأنزلهم ببلاد المغرب، وسد بكل طائفة منهم ثغرا من أعماله. وساروا عصباً تحت لوائه، فأنزل منهم بقاصية السوس وبلاد غمارة، وأجاز منهم إلى ثغور عمله بالأندلس حامية ومرابطين، واندرجوا في جملته، واتسع نطاق ملكه. وأصبح ملك زناتة، بعد أن كان ملك بني مرين. وسلطان العدوتين بعد أن كان سلطان المغرب. والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

الخبر عن نكبة الأمير أبي عبد الرحمن بمتيجة، وتقبض السلطان عليه، ثم مهلكه آخراً:

قد قدمنا ما كان من اشتراط السلطان أبي سعيد على الموحدين منازلتهم تلمسان

مع عساكره، وتلوم السلطان أبو الحسن بتاسالة لانتظار مولانا السلطان أبي يحيى. ولما نازل تلمسان بعساكره المرة الثانية، لم يطالبهم بذلك. وكان أبو محمد بن تافراكين يتردد إليه، وهو بمعسكره من حصار تلمسان مؤديا حقه مستخبراً مآل عدوهم. فلما تغلب على تلمسان أسر إليه سفيرهما أبو محمد بن تافراكين بأن سلطانه قادم عليه للقائه وتهنئته بالظفر بعدوه. وتشوف السلطان أبو الحسن إليها لما كان يحب الفخر ويعنى به، فارتحل من تلمسان سنة ثمان وثلاثين، وعسكر ببسيط متيجة منتظراً وفادة مولانا السلطان أبي

يحيى عليه. وتكاسل السلطان عنها لما أراه سيفه المتحكم في دولته محمد بن الحكيم من حذر مغبتها، وقال له: إن لقاء سلطانين لا يتفق إلا في يوم على أحدهما، فنكره لذلك السلطان وتقاعد عنه. وطال مقام السلطان أبي الحسن في الموعد الذي القي إليه أبو محمد بن تافراكين، واعتل لأشهر من مقامه ومرض بفسطاطه. وتحدث أهل المعسكر بمهلكه. وكان ابناه الأميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك متناغيين في ولاية عهده منذ أيام جدهما أبي سعيد. وكان السلطان قد جعل لهما من أول دولته ألقاب الأمارة وأحوالها، من اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة وتدوين الدواوين وإثبات العطاء واستلحاق الفرسان والانفراد بالمعسكر، فكانا من ذلك على ثبج. وجعل لهما مع ذلك الجلوس بمقعد فصله، والمناوبة لتنفيذ الأوامر السلطانية، فكانا لذلك رديفين له في سلطانه.

ولما اشتد وجع السلطان تمشت سماسرة الفتن بين هذين الأميرين وحزبوا أهل المعسكر لهما أحزابا، وبث كل واحد منهما المال وحمله على القربات. وصاروا شيعا وانقسموا فرقا. وهم الأمير أبو عبد الرحمن بالتوثب على الأمر، قبل أن يتبين حال السلطان بإغراء وزرائه وبطانته بذلك. وتفطن خاصة السلطان لها، فأخبروه الخبر، وحضوه على الخروج إلى الناس قبل أن يتفاقم الأمر ويتسع الخرق، فبرز إلى فسطاط جلوسه. وتسامع أهل المعسكر به، فازدحموا على مجلسه وتقبيل يديه. وتقبض على أهل الظنة من العسكر، فأودعهم السجن وسخط على الأميرين. ورحل الناس من معسكرهما، فردهما إلى معسكره. ثم رجع إلى فسطاطه، فارتاب الأميران لذلك ووجما، وطفئت نار فتنتهما. وسكن سعي المفسدين عندهما، وانتبذ الناس عنهما. واشتدت روعة الأمير أبي

عبد الرحمن، وركب من فساطيطه وخاض الليل، وأصبح بحلة أولاد زغلى أمراء زغبة الموطنين بأرض حمزة، فتقبض عليه أميرهم موسى بن أبي الفضل. ورده إلى أبيه، فاعتقله بوجدة ورتب العيون لحراسته من حشمه، إلى أن قتله بعد ذلك سنة اثنتين وأربعين. توثب بالسجان فقتله. وأنفذ السلطان حاجبه علال بن محمد، فقضى عليه. ولحق وزيره زيان بن عمر الوطاسي بالموحدين، فأجاروه. ورضي السلطان صبيحة نزوع أبي عبد الرحمن عن أخيه أبي مالك، وعقد له على ثغور عمله بالأندلس، وصرفه إليها، وانكفأ إلى تلمسان. والله أعلم.

الخبر عن خروج ابن هيدور، وتلبيسه بأبي عبد الرحمن:

لما تقبض السلطان على ابنه أبي عبد الرحمن وأودعه السجن، تفرق خدمه وحشمه انذعروا في الجهات. وهمل جازر من مطبخه، كان يعرف بابن هيدور، كان شبيها له في الصورة، فلحق ببني عامر من زغبة. وكانوا لذلك العهد منحرفين عن الطاعة، خوارج على الدولة لما كان السلطان وأبوه قد اختص عريف بن يحيى أمير بني سويد أقتالهم، منذ نزع إليهم عن أبي تاشفين. فركبوا سنن الخلاف ولبسوا جلدة النفاق، وانتبذوا بالقفار. ورياستهم لذلك العهد لصغير بن عامر وإخوته. وعقد السلطان على حربهم لونزمار ابن وليه عريف. وكان سيد البدو يومئذ، فجمع لهم وشفر لطلبهم. وأبعدوا إمامه في المذهب، وأوقع بهم مرارا. ولحق بهم هذا الجازر، وانتسب لهم إلى السلطان أبي الحسن، وأنه أبو عبد الرحمن ابنه النازع، عنه فشبه لهم. وبايعوه وأجلبوا به على نواحي المدية. وبرز إليهم قائدها مجاهد من صنائع الدولة، ففضوا جمعه وانهزم أمامهم. ثم جمع لهم ونزمار وفروا عن تلك النواحي، وافترق جمعهم. ونبذوا إلى ذلك الجازر عهده، فلحق ببني يراتن من زواوة، ونزل على سيدتهم شمسي، فقامت بأمره. وحمل بنوها من بني عبد الصمد قومهم على طاعته. وشاع في الناس خبره: فمن مصدق ومكذب، حتى تبينت حاله، ووقفوا على كذبه في انتسابه، فنبذوا إليه عهده. ولحق بالدواودة أمراء رياح، ونزل على سيدهم يعقوب بن علي، وانتسب له في مثل ذلك النسب، فأجاره إلى أن صدق نسبه. وأوعز السلطان إلى مولانا السلطان أبي يحيى في شأنه، فبعث إلى يعقوب بن علي فيه. وأرسل إليه زيان بن عمر وزير أبي عبد الرحمن النازع إليهم، فكشف لهم عن خبثه، فتقبض عليه يعقوب، وأشخصه إلى السلطان مع ذويه، فلحق به بمكانه من سبتة، فامتحنه السلطان وقطعه من خلاف وانحسم داؤه. وبقي بالمغرب تحت جراية من الدولة، إلى أن هلك سنة ثمان وستين. والله تعالى أعلم.

الخبر عن شأن الجهاد، وإغراء السلطان ابنه الأمير أبا مالك، واستشهاده:

لما فرغ السلطان من أمر عدوه وما تبع ذلك من الأحوال، صرف اعتزامه إلى الجهاد، لما كان كلفاً به. وكان الطاغية منذ شغل بنو مرين عن الجهاد، منذ عهد

يوسف بن يعقوب، وقد اعتزوا على المسلمين بالعدوة. ونازلوا معاقلهم، وتغلبوا على الكثير منها، وارتجعوا الجبل ونازلوا السلطان أبا الوليد في عقر داره بغرناطة ووضعوا عليهم الجزية، فتقبلوها وأسفوا إلى التهام المسلمين بالأندلس. فلما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوه، وغلب على الأيدي يده، وانفسح نطاق ملكه، دعته نفسه إلى الجهاد. وأوعز إلى ابنه الأمير أبي مالك، أمير الثغور من عمله، من الدعوة سنة أربعين،

بالدخول إلى دار الحرب. وجهز إليه العساكر من حضرته، وأنفذ إليه الوزراء، فشخص غازياً في الجحفل، وتوغل في بلاد الطاغية واكتسحها، وخرج بالسبي والغنائم إلى أدنى صدرة من أرضهم وأناخ بها. واتصل الخبر بأن النصارى جمعوا له، وأغذوا السير في اتباعه. وأشار عليه الملأ بالخروج عن أرضهم، وإجازة الوادي الذي كان تخما بين أرض الإسلام ودار الحرب. وأن يسير إلى مدن المسلمين، فيمتنع بها، فلج في إبايته وصمم على التعريس. وكان قدما ثبتا، إلا أنه كان غير بصير بالحروب لمكان سنه، فصبحتهم عساكر النصرانية في مضاجعهم قبل أن يستركبوا وخالطوهم في أبياهم. وأدرك الأمير أبو مالك قبل أن يستوي على فرسه، فجدلوه واستلحموا الكثير من قومه، واحتووا على المسكر بما فيه من أموال المسلمين، ورجعوا على أعقابهم. واتصل الخبر بالسلطان، فتفجع لمهلك ابنه واسترحم له. واحتسب عند الله أجره وفي سبيله قتله. وشرع في إجازة العساكر للجهاد وتجهيز الأساطيل.

الخبر عن واقعة الملند، والظفر به، وظهور أساطيل المسلمين علي أسطول النصاري:

لما بلغ الخبر إلى السلطان باستشهاد ابنه، أخرج وزراءه إلى السواحل لتجهيز الأساطيل. وفتح ديوان العطاء، واعترض الجنود وأزاح عللهم. واستنفر أهل المغرب، وارتحل إلى سبتة ليباشر أحوال الجهاد. وتسامعت النصرانية بذلك، فاستعدوا للدفاع. وأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق ليمنع السلطان من الإجازة. واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مرسى العدوة. وبعث إلى الموحدين بتجيهز أسطولهم إليه، فعقدوا عليه لزيد بن فرحون قائد أسطول بجاية من صنائع دولتهم وأوفى سبتة في ستة عسر من أساطيل إفريقية، كان فيها من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية. وتوافت أساطيل المغربين بمرسى سبتة تناهز الماية. وعقد السلطان عليها لمحمد بن

علي العزفي، الذي كان صاحب سبتة يوم فتحها، وأمره بمناجزة أسطول النصارى بالزقاق. وقد أكمل عديدهم وعدهم، فاستلأموا وتظاهروا في السلاح. وتزاحفوا إلى أسطول النصارى، وتواقفوا مليا. ثم قربوا الأساطيل بعضها إلى بعض وقرنوها للمصاع، ولم يكن إلا كلا ولا، حتى هبت ريح النصر، وأظفر الله المسلمين بعدوهم، وخالطوهم في أساطيلهم. واستلحموهم قهرا بالسيوف وطعنا بالرماح، وألقوا أشلاءهم في اليم. وقتلوا قائدهم الملند، واستاقوا أساطيلهم مجنوبة إلى مرسى سبتة، فبرز الناس لمشاهدتها. وطيفت بكثير من رؤوسهم في جوانب البلد. ونظمت أصفاد الأسارى بدار الإنشاء. وعظم الفتح، وجلس السلطان للتهنئة، وأنشدت الشعراء بين يديه. وكان يوماً من أغر الأيام. والمنة لله سبحانه.

الخبر عن واقعة طريف وتمحيص المسلمين:

لما ظفر المسلمون بأسطول النصارى، وخضدوا شوكتهم عن ممانعة الجواز،

شرع السلطان في إجازة العسكر الغزاة من المرتزقين. وانتظمت الأساطيل بسلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة. ولما استكمل إجازة العساكر، أجاز هو في أسطوله وخاصته وحشمه آخر سنة أربعين. ونزل بساحة طريف، وأناخ بعساكره عليها، واضطرب معسكره بفنائها، وبدأ بمنازلتها. ووافاه سلطان الأندلس أبو

الحجاج ابن السلطان أبي الوليد بعسكر الأندلس، من غزاة زناتة وحامية الثغور ورجل البدو، فعسكروا حذو معسكره، وأحاطوا بطريف نطاقا واحدا، وأنزلوا بهم أنواع القتال، ونصبوا عليها الآلات. وجهز الطاغية أسطولاً آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن المعسكر، وطال ثواهم بمكانهم من حصار البلد، ففنيت أزوادهم وافتقدوا العلوفات، فوهن الظهر واختلت أحوال المعسكر. واحتشد الطاغية أمم النصرانية، وظاهره البرتغال: صاحب أشبونة وغرب الأندلس، فجاء معه في قومه. وزحف إليهم لستة أشهر من نزولهم. ولما قرب من معسكرهم سرب إلى طريف جيشا من النصارى أكمنهم بها، فدخلوها ليلا على حين غفلة من العسس الذي أرصد لهم. وأحسوا بهم آخر ليلتهم، فثاروا بهم من مراصدهم. وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد، فقتلوا منهم عددا ولبسوا على السلطان بأن لم يدخل البلد سواهم حذرا من سطوته. وزحف الطاغية من الغد في جموعه، وعبأ السلطان

عساكر المسلمين صفوفاً وتزاحفوا. ولما نشب الحرب برز الجيش الكمين من البلد، وخالفوهم إلى المعسكر، وعمدوا إلى فساطيط السلطان. ودافعهم عنها الناشبة الذين أعدوا لحراستها، فاستلحموهم. ثم دافعهم النساء عن أنفسهن، فقتلوهن وخلصوا إلى حظايا السلطان: عائشة بنت عمه أبي يحيى بن يعقوب، وفاطمة بنت مولانا السلطان أبي يحيى ملك إفريقية وغيرهما من حظاياه، فقتلوهن واستلبوهن. وانتهبوا سائر الفساطيط، وأضرموا المعسكر نارا. وأحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم، فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم، بعد أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم، فأحاطوا به وتقبضوا عليه. وولى السلطان متحيزا إلى فئة المسلمين. واستشهد كثير من الغزاة. ووصل الطاغية إلى فسطاط السلطان من المحفة. ونكر قتل النساء والولدان، ووقف منها بمنتهى أثره، وانكفأ راجعا إلى بلاده. ولحق ابن الأحمر بغرناطة، وخلص السلطان إلى الجزيرة، ثم إلى الجبل. ثم ركب السفين إلى سبتة في ليلته. ومحص الله المسلمين، وأجزل مثوبتهم، وأرجأ لهم الكرة على عدوهم.

الخبر عن منازلة الطاغية الجزيرة، ثم تغلبه عليها، بعد أن غاب علي القلعة من ثغور ابن الأحمر:

لما رجع الطاغية من واقعة طريف استأسد على المسلمين بالأندلس، وطمع في التهامهم، وجمع عساكر النصرانية، ونزل قلعة بني سعيد ثغر غرناطة، وعلى مرحلة منها. وجمع الآلات والأيدي على حصارها، واشتد مخنقها. وأصابهم الجهد من العطش، فنزلوا على حكمه سنة اثنتين وأربعين. وأدال الله الطيب منها بالخبيث، وانصرف إلى بلده. وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعودة إلى الجهاد لرجع الكرة وبعث في الأمصار للاستنفار، وأخرج قواده إلى سواحل البحر لتجهيز الأساطيل حتى أكمل له منها عدد. ثم ارتحل إلى سبتة لمشارفتها، وقدم عسكره إلى العدوة مع وزيره عسكر بن تاحضريت. وبعث على الجزيرة محمد بن العباس بن تاحضريت من قرابة الوزير، وبعث إليها مددا من العسكر مع موسى بن إبراهيم اليرنياني من المرشحين للوزارة ببابه. وبلغ الطاغية خبره، فجهز أسطوله وأجراه إلى بحر الزقاق

لمدافعته. وتلاقت الأساطيل، فمحص الله المسلمين. واستشهد منهم أعداد. وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق، وملكوه دون المسلمين. وأقبل الطاغية من إشبيلية يجر عساكر النصرانية، حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء، مرقى أساطيل المسلمين وفرضة المجاز. وأمل أن ينظمها في ملكته مع جارتها طريف. وحشد الفعلة والصناع للآلات، وجمع الأيدي عليها وطاولها الحصار. واتخذ أهل المعسكر بيوتا من الخشب للمطاولة. وجاء السلطان أبو الحجاج بعساكر الأندلس، فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح في سبيل الممانعة. وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة يسرب إليها المدد، من الفرسان والمال والزرع، في أحايين الغفلة من أساطيلهم، وتحت جناح الليل، فلم يغنهم ذلك، واشتد عليهم الحصار وأصابهم الجهد. وأجاز إليه السلطان أبو الحجاج يفاوضه في شأن السلم مع الطاغية، بعد أن أذن له الطاغية في الإجازة مكرا به. وترصدته بعض الأساطيل في طريقه، فصدقهم المسلمون القتال، وخلصوا إلى الساحل بعد عصب الريق، فضاقت أحوال هذه الجزيرة ومن كان بها من عساكر السلطان. وسألوا من الطاغية الأمان على أن ينزلوا عن البلد، فبذله وخرجوا فوفى لهم. وأجازوا إلى المغرب سنة ثلاث وأربعين، فأنزلهم السلطان ببلاده خير نزل، ولقاهم من المبرة والكرامة ما أعاضهم مما فاتهم، أو خلع عليهم وحملهم وأجازهم بما تحدث به الناس. وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقوبة على تقصيره في المدافعة، مع تمكنه منها لما كان لديه من العساكر. وانكفأ السلطان إلى حضرته موقنا بظهور أمر الله، وإنجاز وعده برجع الكرة وعلو الدين. والله متم نوره ولو كره الكافرون.

الخبر عن شفاعة صاب تونس في أولاد أبي العلاء ووصولهم إلى السلطان:

كان عثمان بن أبي العلاء من أعياص آل عبد الحق، شيخ الغزاة المجاهدين من

زناتة والبربر بالأندلس. وكان له فيها مقام جمعلوم، في حماية الثغور، ومدافعة العدو، وغزو دار الحرب، ومساهمة صاحب الأندلس الجهاد كما نستوفي في أخباره. وكان السلطان أبو سعيد لما استصرخ به أهل الأندلس، اعتذر بمكانه بينهم. واستشرط عليهم أن يمكنوه من قياده حتى يقضي نوبة الجهاد، فلم يسعفوه بذلك. ولما هلك عثمان بن أبي العلاء قام بأمره من بعده في مراسم الجهاد بنوه، وكانوا يرجعون في رياستهم إلى

كبيرهم أبي ثابت عامر. وقويت عصابتهم بالأبناء الموالي، وعلت على يد السلطان يدهم، واستبدوا عليه في أكثر الأحوال، واستنكف لها، وكان ذلك مما دعاه إلى القدوم على السلطان أبي الحسن. وارتاب بنو أبي العلاء بإجازته إليه، واتهموه على أنفسهم، واستعدهم إلى منازلة جبل الفتح على كره. فلما تغلب المسلمون عليه، وقضى ابن الأحمر من مدافعة الطاغية عنه بالرغبة ما قضى كما ذكرناه، واعتزم على القفول إلى حضرته، أجمعوا الفتك به في طريقه. وداخلوا في ذلك مواليه من المعلوجي، لما أسفهم به إرهاف حده، والتضيق عليهم في جاهه، فبرموا وطووا على النث. حتى إذا وجدوا من بني أبي العلاء داعية إلى ذلك، خفوا إلى إجابتها. ونذر بهم محمد بن الأحمر، فبعث عن السفين يعترضه في طريقه. وساحل إليه، وتسابقوا لشأنهم قبل فوته، فأدركوه دون حصن أصطبونة. وعتبوه فاستعتب، ثم أغلظوا في القول، وقتلوا مولاه عاصماً صاحب ديوان العطاء تجنيا

عليه. ونكر السلطان ذلك، فتناولوه بالرماح طعنا، حتى قعصوه. ورجعوا إلى المعسكر، فاستدعوا من كان داخلهم من الموالي. وجاءوا بأخيه أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد، فبايعوا له وأصفقوا على تقديمه. وسرح لحينه قائده ابن عزون، فاستولى له على دار ملكه، وتم أمره. وحجبه رضوان مولى أبيهم، واستبد عليه، وسكن بين جنبيه من بني أبي العلاء وقتلهم لأخيه داء دخيل. حتى إذا سما السلطان أبو الحسن إلى الجهاد، وأجاز المدد إلى ثغور عمله بالأندلس، وعقد لابنه الأمير أبي مالك، أسر إليهم في شأن بني أبي العلاء ما كان أبوه السلطان أبو سعيد اشترط علبهم في مثلها. ووافق منهم داعية لذلك، فتقبض عليهم أبو الحجاج وأودعهم المطبق اجمع. ثم أشخصهم في السفين إلى مراسي إفريقية، فترلوا بتونس على مولانا السلطان أبي بحيى. وبعث فيهم السلطان أبو الحسن إليه، فاعتقلهم. ثم أوعز إليه مع عريف الوزعة ببابه ميمون بن بكرون في إشخاصهم إلى حضرته، فتوقف عنها. وأبى من إخفار ذئنه، وتوسوس إليه وزيره أبو محمد بن تافراكين بأن مقصد السلطان فيهم غير ما ظنوا به من الشر. ورغب في منة السلطان ببعثهم إليه، والمبالغة في الشفاعة فيهم علما بأن شفاعته لا ترد، فأجابه إلى ذلك، وجنبوهم إليه مع ابن بكرون. واتبعهم أبو محمد بن تافراكين بكتابة الشفاعة فيهم من السلطان. وقدموا على السلطان أبي الحسن مرجعه من الجهاد سنة اثنتين وأربعين، فتلقاهم بالبر والترحيب إكراماً لشفيعهم. وأنزلهم بمعسكره،

وجنب لهم القربات بالمراكب الثقيلة، وسرب لهم الفساطيط، وأسنى لهم الخلع والجوائز، وفرض لهم أعلى رتب العطاء، وصاروا في جملته. ولما احتل بسبتة لمشارفة أحوال الجزيرة، سعى عنده فيهم بأن كثيراً من المفسدين يداخلوهم في الخروج والتوثب على الملك، فتقبض عليهم وأودعهم السجن بمكناسة، إلى أن كان من خبرهم مع ابنه أبي عنان ما نذكره إن شاء الله تعالى. والله أعلم.

الخبر عن هدية السلطان إلى المشرق، وبعثه بنسخة المصحف من خطه إلي الحرمين والقدس:

كان للسلطان أبي الحسن مذاهب في ولاية ملوك المشرق، والكلف بالمعاهد الشريفة تقبله من سلفه، وضاعفه لديه متين ديانته. ولما قضى من أمر تلمسان ما قضى، وتغلب على المغرب الأوسط، وصار أهل النواحي تحت ربقة منه، واستطال بجناح سلطانه، وخاطب لحينه صاحب مصر والشام محمد برت قلاوون الملك الناصر، وعرفه بالفتح وارتفاع العوائق عن الحاج في سابلتهم. وكان فرانقه في ذلك فارس بن ميمون بن ودرار. وعاد بجواب الكتاب وتقرير المودة بين السلف. وأجمع السلطان على كتابة نسخة أنيقة من المصحف الكريم بخط يديه، ليوقفها بالحرم الشريف قربة إلى الله وابتغاء للمثوبة. فانتسخها وجمع الوراقين لمعاناة تذهيبها وتنميقها، والقراء لضبطها وتهذيبها حتى اكتمل شأها. ووضع لها وعاء مؤلف من خشب الأبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة، وغشي بصفائح الذهب، ونظم بالجوهر والياقوت، واتخذت له أصونة الجلد المحكمة الصناعة المرقوم أديمها بخيوط الذهب ومن فوقها غلاف الحرير والديباج وأغشية الكتان. وأخرج من خزائنه أموالا عينا لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفا على القراء فيها. وأوفد على الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر والشام، من خواص مجلسه وكبار أهل دولته، عريف بن يحيى أمير زغبة، والسابق القدم في بساطه على كل

خالصة، وعطية بن مهلهل بن يحيى كبير الخولة. وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين، وعريف الوزعة بدولته، وصاحب الباب عبو بن قاسم المزوار. واحتفل في الهدية للسلطان صاحب مصر احتفالا تحدث به الناس دهرا. ووقفت على برنامج الهدية بخط أبي الفضل بن أبي مدين هذا الرسول ووعيته وأنسيته. وذكر لي بعض

قهارمة الدار أنه كان فيها خمسماية من عتاق الخيل المقربات، بسروج الذهب والفضة ولجمها، خالصا ومغشى ومموهاً. وخمسماية حمل من متاع الغرب وماعونه وأسلحته، ومن نسج الصوف المحكم ثيابا وأكسية وبرانس وعمائم، وازرا معلمة وغير معلمة. ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملونا وغير ملون، وسادجا منمقا. ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة بالدباغ المتعارف، وتنسب إلى اللمط. ومن حرثى المغرب وماعونه ما يستظرف صناعته بالمشرق، حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت.

واعتزمت حظية من حظايا أبيه على الحج في ركابه ذلك، فأذن لها واستبلغ في تكريمها. واستوصى بها وافده وسلطان مصر في كتابه. وفصلوا من تلمسان، وأدوا رسالتهم إلى الملك الناصر وهديتهم، فتقبلها وحسن لديه موقعها. وكان يوم وفادتهم عليه بمصر يوما مشهودا تحدث به الناس دهرا، ولقاهم في طريقهم أنواع البر والتكرمة حتى قضوا فرضهم، ووضعوا المصحف الكريم بحيث أمرهم صاحبهم. وأسنى هدية السلطان من فساطيطهم الغريبة الهيكل والصنعة بالمغرب، ومن ثياب إسكندرية البديعة النسج المرقومة بالذهب، ورجعهم بها إلى مرسلهم وقد استبلغ في تكريمهم وصلتهم. وبقي حديث هذه الهدية مذكورا بين الناس لهذا العهد.

ثم انتسخ السلطان نسخة أخرى من المصحف الكريم على القانون الأول، ووقفها

على القراء بالمدينة، وبعثها مع من تخيره لذلك العهد من أهل دولته. واتصلت الولاية بينه وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين. وولي الأمر من بعده ابنه أبو الفداء إسماعيل، فخاطبه السلطان وأتحفه وعزاه عن أبيه. وأوفد عليه كاتبه وصاحب ديوان الخراج ببابه أبا الفضل بن عبد الله بن أبي مدين، فقضى من وفادته ما حمل. وكان شأنه عجبا في إظهار أبهة سلطانه، والإنفاق على المستضعفين من الحاج في سبيلهم، و.إتحاف رجال الدولة التركية بذات يده، والتعفف عما في أيديهم. ثم شرع السلطان بعده عند استيلائه على إفريقية كما نذكره في كتابة نسخة أخرى من المصحف الكريم ليوقفها ببيت المقدس، فلم يقدر على إتمامها. وهلك قبل فراغه من نسخها كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن هدية السلطان إلى ملك مالي من السود إن المجاورين للمغرب:

كان للسلطان أبي الحسن مذهب في الفخر معروف، يتطاول به إلى مناغاة الملوك

الأعاظم واقتفاء سننهم في مهاداة الأقتال والأنظار، وإنفاذ الرسل على ملوك القاصية والتخوم البعيدة. وكان ملك مالي أعظم ملوك السودان لعهده مجاورا لملكه بالمغرب علىماية مرحلة في القفر من ثغور ممالكه القبلية. ولما غلب بني عبد الواد على تلمسان، وابتزهم ملكهم، واستولى على ممالك المغرب الأوسط، وتحدث الناس بشأن أبي تاشفين وحصاره ومقتله، وما كان للسلطان في ذلك من سورة التغلب وإهانة العدو، شاعت أخبار

ذلك في الآفاق. وسما سلطان مالي منسا موسى المتقدم ذكره في أخبارهم إلى مخاطبته، فأوفد عليه فرانقين من أهل مملكته مع ترجمان من الملثمين المجاورين لممالكهم من صنهاجة، فوفدوا على السلطان في التهنئة بالتغلب والظفر بالعدو، فكرم وفادتهم وأحسن مثواهم ومنقلبهم. ونزع إلى طريقته في الفخر، فانتخب طرفا من متاع المغرب وماعونه من ذخيرة داره وأسناها. وعين رجالا من أهل دولته، كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مدين، ومولاه عنبر الخصي. وأنفذهم بها على ملك مالي منسا سليمان بن منسا موسى، لمهلك أبيه قبل مرجع وفده. وأوعز إلى أعراب الفلاة من المعقل بالسير معهم ذاهبين وجائين، فشمر لذلك علي بن غانم أمير أولاد جار الله من المعقل، وصحبهم في طريقهم امتثالا لأمر السلطان. وتوغل ذلك الركاب في القفر إلى بلد مالي، بعد الجهد وطول المشقة، فأحسن مبرتهم وأعظم موصلهم وكرم وفادتهم ومنقلبهم. وعادوا إلى مرسلهم في وفد من كبار مالي يعظمون سلطانه، ويوجبون حقه، ويؤدون من خضوع مرسلهم وقيامه بحق السلطان واعتماله في مرضاته ما استوصاهم به، فأذوا رسالتهم. وبلغ السلطان إربا من اعتزازه على الملوك، وخضوعهم لسلطانه. وقضى حق الشكر لله في صنعه.

الخبر عن إصهار السلطان إلي صاحب تونس:

لما هلكت ابنة مولانا السلطان أبي يحيى بطريف فيمن هلك من حظايا السلطان

أبي الحسن بفساطيطه، بقي في نفسه منها شيء حنينا إلى ما شغفته من خلالها وعز سلطانها، وقيامها على بيتها، وظرفها في تصرفاتها، والاستماع بأحوال الترف ولذاذ العيش في عشرتها، فسما أمله إلى الاعتياض منها ببعض أخواتها. وأوفد في خطبتها وليه عريف بن يحيى أمير زغبة، وكاتب الجباية والعساكر بدولته أبا الفضل بن عبد الله بن

أبي مدين، وفقيه الفتيا بمجلسه أبا عبد الله محمد بن سليمان السطي، ومولاه عنبر الخصي، فوفدوا يوم مثنى من سنة ست وأربعين. وأنزلوا مترل البر، واستبلغ في تكريمهم. ودس الحاجب أبو محمد عبد الله بن تافراكين إلى سلطانه غرض وفادتهم، فأبى عن ذلك صونا لحرمه عن جولة الأقطار وتحكم الرجال، واستعظاما لمثل هذا العرس. ولم يزل حاجبه ابن تافراكين يخفض عليه الشأن، ويعظم عليه حق السلطان أبي الحسن في رد خطبته، مع الأزمة السالفة بينهما من الصهر والمخالطة، إلى أن أجاب وأسعف. وجعل ذلك إليه، فانعقد الصهر بينهما. وأخذ الحاجب في شوار العروس، وتأنق فيه، واحتفل واستكثر، وطال ثواء الرسل إلى أن استكمل. وارتحلوا من تونس لشهر ربيع من سنة سبع. وأوعز مولانا السلطان أبو يحيى إلى ابنه الفضل صاحب بونة، وشقيق هذه العروس أن يزفها على السلطان أبي الحسن قياما لحقه. وبعث من بابه مشيخة من الموحدين، مقدمهم عبد الواحد بن أكمازير، صحبوا ركابها إليه. ووفدوا جميعا على السلطان. واتصل بهم الخبر أثناء طريقهم بمهلك مولانا أبي يحيى عفا الله عنه، فعزاهم السلطان أبو الحسن عنه عندما وصلوا إليه. واستبلغ في تكريمهم، وأجمل موعد أخيه الفضل بسلطانه، ومظاهرته على تراث أبيه، فاطمأنت به الدار إلى أن سار في جملة السلطان، وتحت ألويته إلى إفريقية، كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حركة السلطان إلي إفريقية واستيلائه عليها:

كان السلطان أبو الحسن قد امتدت عينه إلى ملك إفريقية، لولا مكان مولانا السلطان أبي يحيى من ولاية صهره، وأقام يتحين لها الوفاة. ولما بعث إليه في الصهر، واشيع بتلمسان أن الموحدين ردوا خطبته، نهض من المنصورة بتلمسان، وأغذ السير إلى فاس. ففتح ديوان العطاء، وأزاح علل عساكره. وعقد على المغرب الأقصى لحافده منصور ابن الأمير أبي مالك. وفوض إلى الحسن بن سليمان بن يرزيكن في أحكام الشرطة، وعقد له على الضاحية. وارتحل إلى تلمسان مضمر الحركة إلى إفريقية، حتى إذا جاءه الخبر اليقين بالإسعاف والزفاف، سكن غربه وهدأ طائره. فلما هلك السلطان أبو بجيى في رجب من سنة سبع وأربعين، وكان من قيام ابنه عمر بالأمر، ونزوع الحاجب أبي محمد بن تافراكين منها في رمضان ما ذكرناه، تحركت عزائمه لذلك.

ورغبه ابن تافراكين في ملك الموحدين، فرغب وجاء على أثره الخبر بما كان من قتل عمر لأخيه أحمد ولي العهد، وكان يستظهر على عهده بكتاب أبيه، وما أودعه السلطان بطرته من الوفاق على ذلك بخطه، اقتضاه منه حاجبه أبو القاسم بن عتو في سفارته إليه، فامتعض السلطان لما أضاع عمر من عهد أبيه، وهدر من دم أخيه. وارتكب مذاهب العقوق فيهم، وخرق السياج الذي فرضه بخطه عليهم، فأجمع الحركة إلى إفريقية. ولحق به خالد بن حمزة بن عمر نازعا إليه مستغذا مسيره، ففتح ديوان العطاء، ونادى في الناس بالمسير إلى إفريقية، وأزاح عللهم. وكان صاحب بجاية المولى أبو عبد الله حافد مولانا السلطان أبي يحيى، وفد على السلطان أبي الحسن إثر مهلك جده يقرر المتات بسفارة أبيه إليه، ويطلب الإقرار على عمله. فلما استيأس منه، واستيقن حركته بنفسه إلى إفريقية، طلب الرجوع إلى مكانه فأسعف، وفصل إلى بجاية.

ولما قضى السلطان منسك الأضحى من سنة سبع وأربعين، عقد لابنه الأمير أبي

عنان على المغرب الأوسط، وعهد إليه بالنظر في أموره كافة، وجعل إليه جبايته، وارتحل يريد إفريقية. وسار في جملته هو وخالد بن حمزة أمير البدو. ولما احتل بوهران، وافاه هنالك وفد قسطيلية وبلاد الجريد، يقدمهم أحمد بن مكي أمير جربة ورديف أخيه عبد الملك في أمارة قابس، ويحيى بن محمد بن يملول أمير توزر. سقط إليها بعد خروج الأمير أبي العباس ولي العهد عنها، ومهلكه بتونس، وأحمد بن عمر بن العابد رئيس نفطة، رجعا إليها كذلك بعد مهلك ولي العهد، فلقيه هؤلاء الرؤساء بوهران في ملأ من وجوه بلادهم، فأتوه بيعتهم، وقضوا حق طاعته. وتثاقل محمد بن ثابت أمير طرابلس عن اللحاق، فبعث بيعته معهم، فأكرم وفدهم. وعقد لهم على أمصارهم، وصرفهم إلى أعمالهم. وتمسك بأحمد بن مكي لصحابة ركابه، وفي جملته، وأغذ السير. ولما احتل ببني حسن من أعمال بجاية، وافاه بها منصور بن مزني أمير بسكرة وبلاد الزاب في وفد من أهل وطنه، ويعقوب بن علي بن أحمد سيد الدواودة وأمير البدو بضاحية بجاية وقسنطينة، فتلقاهم بالمبرة والاحتفاء، وألزمهم ساقته. وسرح بين يديه قائده حمو بن يحيى العشري من صنائع أبيه. فلما عسكر بساحة

بجاية أبي عبدالله، أبى عليه أهل البلد رهبة من السلطان ورغبة فيه. وانفضوا من حوله، ولحقت مشيختهم بالقضاة وأهل الفتيا والشورى بمجلس السلطان. وسابقهم إليه حاجبه فارح مولى ابن

سيد الناس، فأدى طاعته ورجعه إليه بالخروج للقاء ركابه. وارتحل حتى إذا أطلت راياته على البلد، بادر المولى أبو عبدالله ولقيه بساحة البلد، واعتذر عن تخففه، فتقبل عذره وأحله من البرور والتكرمة محل الولد العزيز. وأقطعه عمل كومية من ضواحي هنين، وأسنى جرايته بتلمسان، وأصحبه إلى ابنه فأبى عنان صاحب المغرب الأوسط، واستوصاه به. ودخل بجاية، فرفع عنهم الظلامات، وحط عنهم الربع من المغارم. ونظر في أحوال ثغورها، فثقف أطرافها وسد فروجها. وعقد عليها لمحمد بن الثوار من طبقة الوزراء والمرشحين لها، وأنزل معه حامية بني مرين، وكاتب الخراج ببابه بركات بن حسون بن البواق. وارتحل مغذا سيره حتى احتل بقسنطينة. وتلقاه أميرها أبو زيد حافد مولانا السلطان أبي يحيى واخوته أبو العباس أحمد، وأبو يحيى زكرياء، وسائر إخوتهم، فأتوه بيعتهم ونزلوا عن عملهم. وأداهم السلطان منه بندرومة من عمل تلمسان، عقد للمولى أبي زيد على أمارتها، وجعله أسوة إخوته في إقطاع جبايتها، ودخل البلد، وعقد عليها لمحمد بن العباس، وأنزل معه العباس بن عمر في قومه من بني عسكر. وأمضى إقطاعات الدواودة، ووافاه هنالك عمر بن حمزة سيد الكعوب لعهده وأمير البدو مستحثا لركابه. وأخبره برحيل السلطان عمر بن مولانا أبي يحيى من تونس، فبمن اجتمع إليه من أولاد مهلهل أقتالهم من الكعوب متوجها إلى ناحية قابس. وأشار علي السلطان بتسريح العساكر لاعتراضه قبل أن يخلص إلى طرابلس، فسرح معه حمو بن يحيى العشري قائده في عسكر من بني مرين والجند. وارتحلوا في اتباع السلطان أبي حفص. وتلوم السلطان أبو الحسن بقسنطينة، واعترض عساكره بسطح الجعاب منها. وصرف يوسف بن مزني إلى عمله بالزاب، بعد أن خلع عليه وحمله.

ثم عقد للمولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى على مكان عمله ببونة، وملأ

حقائبه جائزة وخلعا نفيسة وسرحه، ثم ارتحل على أثرهم وأغذ حمو بن يحيى السير مع الناجعة من أحياء أولاد أبي الليل، ولحقوا بالأمير أبي حفص بمباركه من ناحية قابس، فأوقعوا به وتردى عن فرسه في حومة القتال هو ومولاه ظافر السنان لقائم بدولته من المعلوجي، فتقبض عليهما وسيقا إلى حفو، فاعتقلهما إلى الليل. ثم ذبحهما وأنفذ برؤوسهما إلى السلطان. ولحق الفل بقابس، فتقبض عبد الملك بن مكي على أبي القاسم بن عتو صاحب الأمير أبي حفص وشيخ الموحدين، وعلى صخر بن موسى شيخ

بني سكين فيمن تقبض عليه من ذلك الفل، وأشخصهم مقرنين في الأصفاد إلى السلطان. وسرح السلطان عسكره إلى تونس وعقد عليهم ليحيي بن سليمان صهره من بني عسكر على ابنته، وأنفذ معه أحمد بن مكي، فاحتلوا بتونس واستولوا عليها. وانطلق ابن مكي إلى مكان عمله من هنالك لما عقد له السلطان عليه وسرحه إليه بعد أن خلع عليه وعلى حاشيته وحملهم. ونزل السلطان بباجة، فوافاه هنالك البريد برأس الأمير أبي حفص، وعظم الفتح.

ثم ارتحل إلى تونس، واحتل بها يوم الأربعاء الثامن من جمادى الآخرة من سنة

ثمان. وتلقاه وفد تونس وملأوها من شيوخ الشورى وأرباب الفتيا، فأتوا طاعتهم وانقلبوا مسرورين بملكتهم. ثم عبأ يوم السبت لدخولها مواكبه، وصف جنده سماطين من معسكره بسيجوم إلى باب البلد، يناهز ثلاثة أميال أو أربعة. وركب بنو مرين في جموعهم على مراكزهم وتحت راياتهم. وركب السلطان من فسطاطه، وواكبه من عن يمينه وليه عريف بن يحيى أمير زغبة، ويليه أبو محمد عبد الله بن تافراكين. ومن عن يساره الأمير أبو عبد الله محمد أخو مولانا السلطان أبي يحيى، ويليه الأمير أبو عبد الله ابن أخيه خالد. كانا معتقلين بقسنطينة مع ولدهما منذ خرج الأمير أبو فارس، فأطلق السلطان أبو العباس وصحبوه إلى تونس، فكانوا طرازا في ذلك الموكب فيمن لا يحصى من أعياص بني مرين وكبرائهم. وهدرت طبوله، وخفقت راياته، وكانت يومئذماية. وجاؤوا لمواكب تجتمع عليه صفا صفا، إلى أن وصل إلى البلد، وقد ماجت الأرض بالجيوش، وكان يوما لم ير مثله فيما عقلناه. ودخل السلطان إلى القصر، وخلع على أبي محمد بن تافراكين كسوته، وقرب اليد فرسه بسرجه ولجامه. وطعم الناس بين يديه وانتشروا. ودخل السلطان مع أبي محمد بن تافراكين إلى حجر القصر ومساكن الخلفاء فطاف عليها ودخل منه إلى الرياض المتصلة به المدعوة برأس الطابية، فطاف على بساتينه وجوائزه، وأفضى منه إلى معسكره وأنزل يحيى بن سليمان بقصبة تونس في عسكر لحمايتها. ووصل إليه فل الأمير أبي حفص والأسرى بقابس مقرنين في أصفادهم، فأودعهم السجن بعد أن قطع أبا القاسم بن عتو وصخر بن موسى من خلاف لفتيا الفقهاء بجرايتهم. وارتحل من الغد إلى القيروان، فجال في نواحيها. ووقف على

آثار الأولين ومصانع الأقدمين، والطلول الماثلة لصنهاجة والعبيديين، وزار أجداث العلماء والصالحين.

ثم سار إلى المهدية ووقف على ساحل البحر، ونظر في عاقبة الذين كانوا من قبله

اشد قوة وأثارا في الأرض، واعتبر في أحوالهم. ومر في طريقه بقصر الأجم ورباط المنستير، وانكفأ راجعا إلى تونس، واحتل بها غرة رمضان. وأنزل المسالح على ثغور إفريقية وأقطع لبني مرين البلاد والضواحي، وأمضى إقطاعات الموحدين للغرب. واستعمل على الجهات، وسكن القصر، وقد كمل الفتح، وعظمت في الاستيلاء على الممالك والدول المنة. واتسعت ممالكه ما بين مسراتة والسوس الأقصى من هذه العدوة، وإلى رندة من عدوة الأندلس. (والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين). ورفع إليه الشعراء بتونس يهنونه بالفتح، وكان سابقهم في تلك النوبة أبو القاسم الرحوي من ناشئة أهل الأدب، فرفع إليه قوله:

أجابك شرق إذ دعوت ومغرب فمكة هشت للقاء ويثرب
وناداك مصر والعراق وشامه بداراً، فصدع الدين عندك يشعب
وحيتك أو كادت تحيي منابر عليها دعاة الحق باسمك تخطب
فسارع كل دان وشاسع إلى طاعة من طاعة الله تحسب
وتاقت لك الأرواح حباً ورغبة وأنت علم الآمال تنأى وتقرب
فبالبلدة البيضاء لباك معشر وأنت بأفق الناصرية ترقب

ووافتك من ذات النخيل وفودها   فلاقاهم أهل لديك ومرحب
و لم تتلكأ عن إباء بجاية   ولكن تراضي الصعب حينا وتركب
تأبت فلما أن أطلت عساكر   ترى الشهب مما يستباح وينهب
تبادر منهم مذعن ومسلم   وأذعن منهم شاغب ومؤلب
وما تونس إلا بمصر مروع   وفي حرم أمست لديك تسرب |
وما أهلها إلا بغاث لصائد   وبالعز منك استنسروا وتعقبوا
وقد كنت قبل اليوم كهف زعيمهم   فها أنت كهف للجميع ومهرب
فكل يرى أن الزمان أداله   بكم فأجاب العيش والعيش مخصب

وكذلك ابن طائع وإن اعتلت   به السن إجلالا وأنت له أب
وما ذاك الا أن عدلك ينتمي   إلى الخلفاء الراشدين وينسب
تساميت في ملك ونسك بخطة   حذياك محراب لديها وموكب
إذا لذ للأملاك خمر مدارة   فلذلك القرآن تتلو وتكتب
وإن أدمن القوم الصبوح فإنما   على ركعات بالضحى أنت تدأب
وإن حمدوا شرب الغبوق فإنما   شرابك بالإمساء ذكر مرتب
وإن خشنت أخلاقهم وتحجبوا   فما أنت فظ، لا، ولا متحجب |
لقد كرمت منك السجايا فأصبحت   إذا ما أمد الدهر تحلو وتعذب
كما شدت بيتا في ذؤابة معشر   يزيد بهم قحطان فخرا ويعرب
هم التاركو قلب القساور خضعاً   وعن شأوهم كفت عبيد وأغلب
هم الناس والأملاك تحت جوارهم   هم العظم والأرض العظيمة تغرب
هم المالكو الملك العظيم ودستهم   على كاهل السبع الشداد مطنب
لقد أصبحت بغداد تحسد فاسهم   ودجلة ودت أن يكون بهاسب؟
تجلت سماء المجد منهم كواكبا   لقد حل منها شارق ومغرب
فلله منهم ثلة يعربية   يروم ثباها الأعجمي فيعرب
لقد قام عبد الحق للحق طالباً   فما فاته منه الذي قام يطلب
وأعقب يعقوبا يؤم سبيله   فلم يخطه وهو السبيل الملحب
وخلف عثماناً فلله صارم   به بان للإسلام شرع ومذهب
فكم في سبيل الله شن إغارة   لما شاد أهل الكفر أمست تخرب
ولما أراد الله إتمام منة   تقلدها منا مطيع ومذنب

أتى بك للذين الحنيفي آية تعرى بها عن لامع الحق غيهب
فجئت كما يرضى بك الله سالكاً سبيلا إلى رضوانه بك يذهب
وقمت بأمر الله حق قيامه يناضل عنه منك نصل مدرب
وأصبح أهل الله أهلا وشيعة لكم ولهم منكم مكان ومنصب
وحل بأهل الفتك ما حل عزمهم وقام لديهم واعظ ومثوب
وجاهدت في الرحمن حق جهاده فراهب أهل الكفر بأسك يرهب

وأنقذت من أيدي الإغارة أمة وأولى جهاد كان بل هو أوجب
فأصبحت الدنيا عروسا يزفها لأمرك من جاري التقادير مغرب
فلا مصر إلا قد تمناك أهله ولا أرض إلا بأذكارك تخصب
وما الأرض إلا مترل أنت ربه وما حفها إلا الودود المرجب
تملكت شطر الأرض كسبا وشطرها تراثا فطاب الملك إرثا ومكسب
بجيش على الألواح والماء يمتطي وجيش على الضمر الصوافن يركب
وجيش من الإحسان والعدل والتقى وذلك لعمر الله أغلى وأغلب
فلا مركب إلا يزين راكبا ولا راكب إلا به ازدان مركب
ولا رمح إلا وهو أهيص خاطر ولا سيف إلا وهو أبيض مقضب
فكم كاتب خطيه ودواته ولم يقر خطا لا، ولا هو يكتب
يمر على الأبطال وهو كأنه هزبر وأبطال الفوارس ربرب
وكم كاتب لا ينكر الطعن رمحه خبير بأيام الأعاريب معرب
له من عجيب السحر بالقول أضرب وفي هامة القوم المضارب مضرب
فها هو في الأقوال واش محبر وها هو في الأمثال ثاو مجرب
ومن ساحب بردا من العلم والتقى عليه ذيول الداودية تسحب
له صبغة في العلم جاءت بأصبغ وشهبان فهم لم يشمهن أشهب
فيا عسكرا قد ضم أعلام عالم به طاب في الدنيا لنا متقلب
هم الفئة العلياء والمشعر الذي إذا حل صعبا فهو للحن مشعب
لك الفضل في الدنيا على كل قاطن ومرتحل أنى يجيء ويذهب
ويا ملكا عدلا رضى متورعا مناقبه العلياء تعلى وتكتب
شرعت من الإحسان فينا شريعة تساوى بها ناء ومن يتقرب
وأسميت أهل النسك إذ كنت منهم فمنك أخو التقوى قريب مقرب

وأعليت قدر العلم إذ كنت عالما فقيها وفي طلابه لك مأرب
فمدحك محتوم على كل قائل ومن ذا الذي يحصي الرمال ويحسب
فلله كم تعطي وتمطي وتحتبي فللبحر من كفيك قد صح منسب
فلا برحت كفاك في الارض مزنة يطيب بها للخلق مرعى ومشرب

ولا زلت في علياء مجدك راقياً وشانئك المدحوض ينكا وينكب
وتوفي على أقصى أمانيك آمناً فلا بر يستعصي ولا يتصعب

الخبر عن واقعة العرب مع السلطان بالقيروان. وما تخللها من الأحداث:
كان هؤلاء الكعوب من بني سليم رؤساء البدو بإفريقية وكان لهم اعتزاز على الدولة لا يعرفون غيره مذ أولها بل وما قبله، إذ كان سليم هؤلاء مذ تغلب العرب من مضر على الدول والممالك أول الإسلام انتبذوا إلى الضواحي والقفار، وأعطوا من صدقاتهم عن عزة وارتاب الخلفاء بهم لذلك، حتى لقد أوصى المنصور ابنه المهدي أن لا يستعين بأحد منهم كما ذكر الطبري. فلما التاثت الدولة العباسية، واستبد الموالي من العجم عليهم، واعتز بنو سليم هؤلاء بالقفر من أرض نجد وأجلبوا على الحاج بالحرمين، ونالتهم منهم معرات، ولما انقسم ملك الإسلام بين العباسية، والشيعة، واختطوا القاهرة، نفقت لهم إذ ذاك أسواق الفتنة والتعزز، وساموا الدولتين بالهضيمة وقطع السابلة. ثم أغزاهم العبيديون بالمغرب، وأجازوا إلى برقة على إثر الهلاليين، فخربوا عمرانها وأجروا في خلالها. حتى إذا خرج ابن غانية على الموحدين، وانتزى بالثغور الشرقية: طرابلس وقابس واجتمع معه على ذلك قراقش الغزي مولى بني أيوب ملوك مصر والشام. وانضاف إليهم أفاريق العرب من بني سليم هؤلاء وغيرهم، فأجلبوا معهم على الضواحي والأمصار، وصاروا في جملتهم ومن ناعق فتنتهم. ولما هلك قراقش وابن غانية، واستبد آل أبي حفص بإفريقية، واعتز الدواودة على الأمير أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص، استظهر عليهم ببني سليم هؤلاء، وزاحمهم بظواعنهم وأقطعهم بإفريقية، ونقلهم من مجالاتهم بطرابلس وأنزلهم بالقيروان فكان لهم من الدولة مكان وعليها اعتزاز. ولما افترق سلطان بني أبي حفص، واستبد الكعوب برياسة البدو، وضربوا بين أعياصها وسعوا في شقاقها، أصابت منهم وأصابوا منها. وكان بين مولانا الأمير أبي يحيى وبين حمزة بن عمر أخي الأمير منازعة وفتن، وحرب سجال أعانه عليها ما كان من زحف بني عبد الواد إلى إفريقية، وطمعهم في تملك ثغورها، فكان يستجر جيوشهم لذلك، وينصب الأعياص من آل أبي حفص يزاحمهم بهم، ثم غلبه مولانا السلطان أبو بكر آخرا وقاده إلى الطاعة، ما كان من قطع كلمة الزبون عن مولانا السلطان
أبي يحيى، وهلاك عدوه من آل يغمراسن، بسيف وليه وظهيره السلطان أبي الحسن، فأذعن وسكن غرب اعتزازه. وحمل بني سليم على إعطاء صدقاتهم، فأعطوها بالكراهة. ثم هلك باغتيال الدولة له فيما يزعمون،

وقام بالأمر بنوه فلم يعرفوا عواقب الأمور وبلوا باعتساف الدول. و لم يعهدوا ولا سمعوا لسلفهم غير الاعتزاز فحدثتهم أنفسهم بالفتنة والاعتزاز على قائد الدولة. وحاربوه فغلبوه وأجلبوا على السلطان في ملكه، ونازلوه بعقر داره سنة اثنتين وأربعين. ولما سامهم الأمير عمر ابن مولانا الأمير أبي يحيى الهضيمة بعد مهلك أبيه، نزعوا إلى أخيه ولي العهد، فجاء إلى تونس وملكها سبعا. ثم اقتحمها عليه أخوه الأمير أبو حفص فقتله. وتقبض يوم اقتحامه البلد على أبي الهول بن حمزة أخيهم، فقتله صبرا بباب داره بالقصبة فأسفهم بها. وتداعوا إلى السلطان أبي الحسن ورغبوه في ملك إفريقية، واستغذوه إليها.

ولما تغلب السلطان على الوطن، وكانت حاله في اعتزاز على من في طاعته غير

حال الموحدين، وملكته للبدو غير ملكتهم، وحين رأى اعتزازهم على الدولة، وكثرة ما أقطعتهم من الضواحي، ثم من الأمصار، نكره وأدالهم من الأمصار التي أقطعهم الموحدون باعطيات فرضها لهم في الديوان. واستكثر جبايتهم، فنقصهم الكثير منها وشكى إليه الرعية من البدو ما ينالونهم من الظلامات والجور بفرض الأتاوة التي يسمونها الخفارة، فقبض أيديهم عنها وأوعز إلى الرعايا بمنعهم منها، فارتابوا لذلك. وفسدت نياتهم وثقلت وطأة الدولة عليهم، فترصدوا لها. وتسامع ذؤبانهم وبواديهم بذلك، فأغاروا على قياطين بني مرين ومسالحهم بثغور إفريقية وفروجها واستاقوا أموالهم وكثر شكاتهم وأظلم الجو بينهم وبين السلطان والدولة ووفد عليه بتونس بعد مرجعه من المهدية وفد من مشيختهم كان فيهم خالد بن حمزة مستحثه إلى إفريقية، وأخوه أحمد، وخليفة بن عبد الله بن مسكين، وابن عمه خليفة بن بو زيد من أولاد القوس، فأنزلهم السلطان وكرمهم.

ثم رفع إليه الأمير عبد الواحد ابن السلطان أبي يحيى زكرياء بن اللحياني كان في جملته. وكان من خبره أنه رجع من المشرق بعد مهلك أبيه بمصر كما قدمناه سنة اثنتين وثلاثين، فدعا لنفسه بجهات طرابلس وتابعه أعراب دباب، وبايع له عبد الملك بن مكي صاحب قابس. ونهض معه إلى تونس في غيبة السلطان لتخريب تيمزيزدكت كما ذكرناه،

فملكها أياما. وأحس بمرجع السلطان، فأجفل عنها. ولحق عبد الواحد بن اللحياني بتلمسان إلى أن دلف إليها السلطان أبو الحسن بعساكره، ففارقهم وخرج إليه، فأحله محل التكرمة والمبرة واستقر في جملته، إلى أن ملك تونس. ورفع إليه عند مقدم هذا الوفد أنهم دسوا إليه مع بعض حشمهم، وطلبوه في الخروج معهم لينصبوه للأمر بإفريقية وتبرأ إلى السلطان من ذلك، فأحضروا بالقصر ووبخهم الحاجب علال بن محمد بن المصمود. وأمر بهم، فسحبوا إلى السجن.

وفتح السلطان ديوان العطاء وعسكر بسيجوم بساحة البلد بعد قضائه منسك الفطر

من سنته. وبعث في المسالح والعساكر، فتوافوا ببابه. واتصل الخبر بأولاد أبي الليل القوس باعتقال وفدهم وعسكرة السلطان لهم، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وتعاقدوا على موت وبعثوا إلى أقتالهم أولاد مهلهل بن قاسم بن أحمد. وكانوا بعد مهلك سلطانهم أبي حفص قد لحقوا بالقفر، وانتبذوا عن إفريقية فرارا من

مطالبة السلطان، بما كانوا شيعة لعدوه، فأغذ السير إليهم أبو الليل بن حمزة متطارحا عليهم بنفسه في الاجتماع للخروج على السلطان، فأجابوه وارتحلوا معه. وتوافت أحياء بني كعب وحكيم جميعا بتوزر من بلاد الجريد، فهدروا الدماء بينهم وتدامروا وتبايعوا على الموت والتمسوا من أعياص الملك من ينصبونه للأمر، فدلهم بعض سماسرة الفتن على رجل من أعقاب أبي دبوس فريسة بني مرين من حلفاء بني عبد المؤمن بمراكش، عندما استولوا عليها. وكان من خبره أن أباه عثمان بن إدريس بن أبي دبوس لحق بعد مهلك أبيه بالأندلس، وصحب هنالك مرغم بن صابر شيخ بني دباب. وهو أسير ببرشلونة. فلما انطلق من أسره صحبه إلى وطن دباب، بعد أن عقد قمص ببرشلونة بينهما حلفا وأمدهما بالأسطول على مال التزماه له. ونزل بضواحي طرابلس وجبال البربر بها، ودعا لنفسه هنالك. وقام بدعوته كافة العرب من دباب وقاتل طرابلس، فامتنعت عليه. ثم تابعه أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب بإفريقية، وأجلب به على تونس، فلم يتم أمره لرسوخ دعوة الحفصيين بإفريقية، وانقطاع أمر بني عبد المؤمن منها وآثارهم منذ الأحوال العديدة والآماد المتقادمة، فنسي أمرهم.

وهلك عثمان بن إدريس هذا بجربة، ثم ابنه عبد السلام بعده وترك من الولد ثلاثة أصغرهم أحمد، وكان صناع اليدين. ولحقوا بتونس بعدما طوحت بهم طوائح

الاغتراب، وظنوا أن قد تنوسي شأن أبيهم، فتقبض عليهم مولانا السلطان أبو يحيى، وأودعهم السجن إلى أن كربهم إلى الإسكندرية سنة أربع وأربعين. ورجع أحمد منهم إلى إفريقية، واحتل بتوزر محترفا بحرفة الخياطة يتعيش منها فاستدعاه بنو كعب هؤلاء حين اتفقت أهواؤهم ومن اتبعهم من أحلافهم أولاد القوس، وسائر شعوب علاق. وخرج إليهم من توزر فنصبوه للأمر وجمعوا له شيئاً من الفساطيط والآلة والكسى الفاخرة والمقربات. وأقاموا له رسم السلطان، وعسكروا عليه بحللهم وقياطينهم، وارتحلوا لمناجزة السلطان. ولما قضى منسك الأضحى من سنة ثمان وأربعين، ارتحل من ساحة تونس يريدهم، فوافاهم في العرج ما بين بسيط تونس وتبسط القيروان المسمى بالثنية، فأجفلوا أمامه وصدقوه القتال منهزمين، وهو في اتباعهم، إلى أن احتل بالقيروان، ورأوا أن لا ملجأ منه، فتدامروا واتفقوا على الاستمالة ودس إليهم من عسكر السلطان بنو عبد الواد ومغراوة وبنو توجين فغلبوا بني مرين، وعدوهم بالمناجزة صبيحة يومهم ليتحيزوا إليهم براياتهم، فصبحوا معسكر السلطان. وركب إليهم في الالة والتعبئة واحتل المصاف، وتحيز إليهم الكثر. ونجا السلطان إلى القيروان فدخلها في الفل من عساكره ثامن المحرم فاتح تسع وعشرين، وتدافعت ساقات العرب في أثره. وتسابقوا إلى المعسكر، فانتهبوه ودخلوا فسطاط السلطان، فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمه. وأحاطوا بالقيروان، وأحدقت حللهم بها سياجا، وتعاوت ذيابهم بأطراف البقاع وأجلب ناعق الفتنة من كل مكان. وبلغ الخبر إلى تونس، فاستحصن بالقصبة أولياء السلطان وحرمه، ونزع ابن تافراكين من جملة السلطان بالقيروان إليهم، فعقدوا له على حجابة سلطانهم أحمد بن أبي دبوس ودفعوه إلى محاربة من كان بقصبة تونس، فأغذ إليها السير. واجتمع إليه أشياع الموحدين وزعانف الغوغاء والجند، وأحاطوا بالقصبة، وغاداها بالقتال،

ونصب المنجنيق لحصارها. ووصل سلطانه أحمد على أثره، وامتنعت علبهم، و لم يغنوا فيها غنا، وافترق أمر الكعوب وخالف بعضهم بعضا إلى السلطان وتساقطوا إليه، فتنفس مخنق الحصار عن القيروان. واختلفت إليه رسل أولاد مهلهل، وأحس بهم أولاد أبي الليل. فدخل أبو الليل بن حمزة بنفسه، وعاهد السلطان على الإفراج، و لم يف بعهده. وداخل السلطان وأولاد مهلهل في الخروج معهم إلى سوسة، فعاهدوه على ذلك. وواعد أسطوله بمرساها وخرج معهم ليلا على تعبية، فلحق بسوسة

وبلغ الخبر إلى ابن تافراكين بمكانه من حصار القصبة، فركب السمين ليلا إلى الإسكندرية. وارتاب سلطانهم ابن أبي دبوس لما وقف على خبره، فانفض جمعهم وأفرجوا عن القصبة. وركب السلطان أسطوله من سوسة، ونزل بتونس آخر جمادى واعتمل في إصلاح أسوارها وإدارة الخندق عليها. وأقام لها من الامتناع والتحصين رسما ثبت لها من بعده، ودفع به نحو عدوه. واستقل من نكبة القيروان وعثرتها، وخلص من هوتها. والله يفعل ما يشاء.

ولحق أولاد أبي الليل، وسلطانهم أحمد بن أبي دبوس بتونس، فأحاطوا بالسلطان واستبلغوا في حصاره. وخلصت ولاية أولاد مهلهل للسلطان، فعول عليهم ثم راجع بنو حمزة رأيهم في طاعة السلطان ودخل كبيرهم عمر إليه في شعبان، وتقبضوا على سلطانهم أحمد بن أبي دبوس وقادوه إلى السلطان استبلاغا في الطاعة، وإمحاضا للولاية فتقبل فيئتهم وأودع ابن أبي دبوس السجن، وأصهر إلى عمر بابنه أبي الفضل، فعقد له على بنته. واختلفت أحوالهم في الطاعة والانحراف، إلى أن كان ما نذكر. والله غالب على أمره.

الخبر عن انتقاض الثغور الغربية ورجوعها إلي دعوة الموحدين:

كان المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى، لما قدم على السلطان أبي الحسن بتلمسان في زفاف شقيقته سنة سبع وأربعين، بعدما اتصل به في طريقه مهلك أبيه، أوسع له السلطان كنفه، ومهد له جانب كرامته وبره، وغمز له بوعد في المظاهر على ملك أبيه يعزي به عن فقده. وارتحل السلطان إلى إفريقية، والمولى أبو الفضل يرجي أن يجعل سلطانها إليه، حتى إذا استولى السلطان على الثغرين بجاية وقسنطيط وارتحاى إلى تونس، عقد له على مكان أمارته أيام أبيه ببونة، وصرفه إليها، فانقطع أ وفسد ضميره وطوى إلى النث حتى إذا كانت نكبة السلطان بالقيروان، سما إلى التوثب على ملك سلفه. وكان أهل قسنطينة وبجاية قد برموا من الدولة، واستثقلوا وطأة الإياله لما اعتادوا من الملكة الرقيقة، فاشرأبوا إلى الثورة عندما بلغهم خبر النكبة. وقد كان توافى بقسنطينة ركاب من المغرب فيه طوائف من الوفود والعساكر، وكان فيهم ابن صدر من أبناء السلطان، عقد له على عسكر من أهل المغرب، وأوعز إليه باللحاق بتونس

وفيهم عمال المغرب قدموا عند رأس الحول بجبايتهم وحسبانهم. وفيهم أيضا وفد من زعماء النصارى، بعثهم الطاغية ابن أذفونش مع تاشفين ابن السلطان لما أطلقه من الأسر، بعد عقد السلم والمهادنة، وكان أسيرا عندهم من لدن واقعة طريف كما ذكرناه، وكان أصابه مس من الجنون. فلما خلصت الولاية بين السلطان والطاغية، وعظم عنده الإتحاف والمهاداة، وبلغه خبر السلطان وتملكه إفريقية، أطلق ابنه تاشفين. وبعث معه

هؤلاء الزعماء للتهنية، وفيهم أيضا وفد من أهل مالي ملوك السودان بالمغرب. أوفدهم ملكهم منسا سليمان للتهنية بسلطان إفريقية. وكان معهم أيضا يوسف بن مزني عامل الزاب وأميره، قدم بجباية عمله. واتصل به خبر الركاب بقسنطينة فلحق بهم، مؤثرا صحابتهم إلى سدة السلطان. وتوافى هؤلاء الوفود جميعا بقسنطينة، واعصوصبوا على ولد السلطان. فلما وصل خبر النكبة اشرأب الغوغاء من أهل البلد إلى الثورة، وتحلت شفاههم إلى ما بأيديهم من أموال الجباية وأحوال الثروة، فنقموا عليهم سوء الملكة ودلس مشيختهم إلى المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى بمكانه من بونة، وقد كشف القناع في الانتزاء على عمله والدعاء لنفسه، فخطبوه للأمر واستحثوه للقدوم، فأغذ السير. وتسامع بخبره أولياء السلطان، فخشي ابن مزني على نفسه، وخرج إلى معسكره بحلة يعقوب بن علي أمير الدواودة، ولجأ ابن السلطان وأولياؤه إلى القصبة. ومكر بهم أهل البلد في الدفاع دونهم، حتى إذا أطلت رايات مولانا الفضل وثبوا بهم وأحجروهم بالقصبة. وأحاطوا بهم حتى استنزلوهم على أمان عقدوه لهم. ولحقوا بحلة يعقوب، فعسكروا بها بعد أن نقض أهل البلد عهدهم في ذات يدهم، فاستصفوه، فأشار عليهم ابن مزني باللحاق ببسكرة ليكون ركابهم إلى السلطان، فارتحلوا جميعا في جوار يعقوب لما له من ملك الضواحي حتى لقوا ببسكرة، ونزلوا منها على ابن مزني خير نزل، وكفاهم " شيء يهمهم على طبقاتهم ومقاماتهم، وعناية السلطان بمن كان وافدا منهم، حتى ماربهم يعقوب بن علي إلى السلطان، وأوفدهم عليه في رجب من سنته. واتصل الخبر بأهل بجاية بالفعلة التي فعل أهل قسنطينة، فساجلوهم في الثورة. وكبسوا منازل أولياء السلطان وعسكره وعماله، فاستباحوها واستلبوهم وأخرجوهم من بين ظهرانيهم عراة، فلحقوا بالمغرب. وطيروا بالخبر إلى المولى أبي الفضل، واستحثوه للقدوم، فقدم عليهم. وعقد على قسنطينة وبونة لمن استكفى به من خاصته ورجالات دولته، واحتل ببجاية لشهر ربيع من سنته. وأعاد ملك سلفه. واستوثق أمره بهذه الثغور، إلى أن كان من خبره مع السلطان بعد خروجه من بجاية، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتزاء أولاد السلطان بالمغرب الأوسط والأقصي، ثم استقلال أبي عنان بملك المغرب كله:

لما اتصل خبر النكبة على القيروان بالأمير أبي عنان ابن السلطان، وكان صاحب تلمسان والمغرب الأوسط. وتساقط إليه الفل من عسكر أبيه عراة زرافات ووحدانا، وأرجف الناس بمهلك السلطان بالقيروان، فتطاول الأمير أبو عنان للاستئثار بملك أبيه دون الأبناء، لما كان له من الإيثار عند أبيه، لصيانته وعفافه، واستظهار القرآن، فكان محلا بعين أبيه لأمثالها. وكان عثمان بن يحيى بن جرار من مشيخة بني عبد الواد وأولاد تيدوكسن بن طاع الله منهم، وكان له محل من الدولة كما ذكرناه في خبره. وكان السلطان أذن له في الرجوع إلى المغرب من معسكره بالمهدية، ونزل بزاوية العباد من تلمسان، وكان مسمتا وقورا، جهينة خبر ممتعا في حديثه. وكان يرجم فيه الوقوف على الحدثان. وكان الأمير أبو عنان متشوقا إلى أخبار أبيه، ففزع إلى عثمان بن جرار في تعرفها. واستدعاه وأنس به وكان في قلبه مرض من السلطان، فأودع أذن الأمير أبي عنان ما أراد من الأقاويل: من تورط السلطان في المهلكة، وبشره بمصير الأمر إليه، فصادف منه اذنا واعية. واشتمل

عليه ابن جرار من بعد. فلما ورد الخبر بنكبة السلطان أغراه ابن جرار بالتوثب على الملك وسول له الاستئثار به على إخوانه تيقنا بمهلك السلطان. ثم أوهمه الصدق بإرجاف الناس بموت السلطان، فاعتزم وشحذ عزمه في ذلك ما اتصل به من حافد السلطان منصور ابن الأمير أبي مالك صاحب فاس وأعمال المغرب من الانتزاء على عمله، وأنه فتح ديوان العطاء، واستلحق واستركب لغيبة بني مرين عن بلادهم، وخلو جوه من عساكرهم. وأظهر العسكر والحشد لاستنقاذ السلطان من هوة القيروان، يسر منها حسوا في ارتغاء. وتفطن لشأنه الحسن بن سليمان بن يرزيكن، عامل القصبة بفاس، وصاحب الشرطة بالضواحي، فاستأذنه في اللحق بالسلطان، فأذن له راحة من مكانه. وأصحبه عمال المصامدة ونواحي مراكش ليستقدمهم على السلطان بجباياتهم، فلحق بالأمير أبي عنان على حين أمضى عزيمته على التوثب والدعاء لنفسه، فقبض

أموالهم وأخرج ما كان بمودع السلطان بالمنصورة من المال والذخيرة. وجاهر بالدعاء لنفسه، وجلس للبيعة بمجلس السلطان من قصره في ربيع من سنة تسع، فبايعه الملأ. وقرأ كتاب بيعتهم على الأشهاد ثم بايعه العامة، وانفض المجلس، وقد انعقد سلطانه ورست قواعد ملكته. وركب في التعبية والآلة، حتى نزل بقبة الملعب. وأهم الناس وانتشروا. وعقد على وزارته لحسن بن سليمان بن يرزيكن ثم لفارس بن ميمون بن ودرار وجعله رديفا له وتبعا. ورفع مكان ابن جرار عليهم. واختص لولايته ومناجاة خلوته كاتبه أبا عبد الله بن محمد ابن القاضي عبد الله بن أبي عمر، وسنذكر خبره. ثم فتح الديوان واستركب من تساقط إليه من فل أبيه، وخلع عليهم ودفع إليهم اعطياتهم وأزاح عللهم. وبينما هو يريد الرحلة إلى المغرب، إذ بلغه أن ونزمار ابن ولي السلطان وخالصته عريف بن يحيى، وكان أمير زغبة لعهده، ومقدما على سائر البدو، وبلغه أنه قد جمع له بريد حربه، وغلبه على ما صار إليه من الانتزاء والثورة على أبيه. وأنه قصد تلمسان بجموعه من العرب، وزناتة المغرب الأوسط، فعقد للحسن بن سليمان وزيره على حربه. وأعطاه الالة وسرحه للقائه، وسرح معه من حضره من بني عامر أقتال سويد، وارتحل الوزير بعسكره حتى احتل بتاسالة. وناجزه ونزمار الحرب، ففلت جموعه ومنحوا أكتافهم، واتبع الوزير وعسكره اثارهم، واكتسح أموالهم وحللهم وعاد إلى سلطانه بالفتح والغنائم.

وارتحل الأمير أبو عنان إلى المغرب، وعقد على تلمسان لعثمان بن جرار، وأنزله بالقصر القديم منها، حتى كان من أمره مع عثمان بن عبد الرحمن ما ذكرنا في أخبارهم. ولما انتهى إلى وادي الزيتون وشي إليه بالوزير الحسن بن سليمان أنه مضمر الفتك به بنازى تزلفا إلى السلطان ووفاء بطاعته، وأنه داخل في ذلك الحافد منصور صاحب أعمال المغرب، بما كان يظهر من طاعة جده. وارتاب الأمير أبو عنان به، واستظهر واشيه على ذلك بكتابه. فلما قرأه تقبض عليه، وقتله بالمساء خنقا، وأغذ السير إلى المغرب. وبلغ الخبر منصور بن أبي مالك صاحب فاس، فزحف للقائه. والتقى الجمعان بساحة تازى وبوادي أبي الأجراف، فاختل مصاف منصور، وانهزمت جموعه ولحق بفاس. وانحجز بالبلد الجديد، وارتحل الأمير أبو عنان في أثره وتسايل الناس

على طبقاهم إليه، وأتوه الطاعة. وأناخ بعساكره على البلد الجديد في ربيع الاخر من سنة تسع وأربعين، وأخذ
بمخنقها وجمع الأيدي والفعلة على الآلات لحصارها. ولحين نزوله على البلد الجديد أوعز إلى الوالي بمكناسة أن يطلق أولاد أبي العلاء المعتقلين بالقصبة، فأطلقهم ولحقوا به. وأقاموا معه على حصار البلد الجديد وطال تمرسه بها إلى أن ضاقت أحوالهم واختلفت أهواؤهم ونزع إليه أهل الشوكة منهم. ونزع إليهم إدريس بن عثمان بن أبي العلاء فيمن إليه من الحاشية بإذنه له في ذلك سرا ليمكنه بهم، فدس إليه وواعده الثورة بالبلد، فثار بها. واقتحمها الأمير أبو عنان عليهم. ونزل منصور بن أبي مالك على حكمه، فاعتقله إلى أن قتله بمحبسه واستولى على دار الملك وسائر أعمال المغرب. وتسابقت إليه وفود الأمصار للتهنية والبيعة. وتمسك أهل سبتة بطاعة السلطان، والانقياد لعاملهم عبد الله بن علي بن سعيد من طبقة الوزراء حيناً. ثم توثبوا به، وعقدوا على أنفسهم للأمير أبي عنان، وقادوا عاملهم إليه. وتولى كبر الثورة فيهم زعيمهم الشريف أبو العباس أحمد بن محمد بن رافع من بيت أبي الشريف من آل الحسن كانوا انتقلوا إليها من صقلية واستوسق للأمير أبي عنان ملك المغرب، واجتمع إليه قومه من بني مرين إلا من أقام مع السلطان بتونس وفاء بحقه. وحمق جناح أبيه عن الكرة على الكعوب الناكثين لعهده، الناكبين عن طاعته، فأقام بتونس يرجي الأيام، ويأمل الكرة. والأطراف تنتقض والخوارج تتجدد، إلى أن ارتحل إلى المغرب بعد اليأس، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض النواحي، وانتزاء بني عبد الواد بتلمسان، ومغراوة بشلف، وتوجين بالمدية:

لما كانت نكبة السلطان بالقيروان. وانتشر سلك زناتة، وانتقضت قواعد سلطانهم، اجتمع كل قوم منهم لإبرام أمرهم، والنظر في شأن جماعتهم، وكانوا جميعا نزعوا إلى الكعوب الخارجين على السلطان، وبنزوعهم كانت الدايرة عليه. ولحقوا بتونس مع الحاجب أبي محمد بن تافراكين، ليلحقوا منها بأعمالهم. وكان في جملة السلطان جماعة من أعاصيهم: منهم عثمان وإخوته الزعيم ويوسف وإبراهيم، أبناء عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان سلطان بني عبد الواد. صاروا في أيالة السلطان منذ فتح تلمسان، وأنزلهم بالجزيرة للرباط. ثم رجعوا بعد استئثار الطاغية بها إلى مكانهم من دولتهم، وساروا إلى القيروان تحت لوائه. ومنهم علي بن راشد بن
محمد بن ثابت بن منديل، وقد ذكرنا أخبار أبيه. ربي في إيالة السلطان وجو الدولة يتيماً، وكفلته نعمتها منذ نشأته، حتى كأنه لا يعرف سواها. فاجتمع بنو عبد الواد بتونس، وعقدوا على أنفسهم لعثمان بن عبد الرحمن، بما كان كبير إخوته. وأتوه ببيعتهم بشرقي المصفى العتيق المطل على سيجوم من ساحة البلد لعهده بهم يومئذ. وقد وضعوا له بالأرض درقة من اللمط أجلسوه عليها، ثم ازدحموا مكبين على يده يقبلونها للبيعة، ثم اجتمع من بعدهم مغراوة إلى علي بن راشد وبايعوه وحفوا به. وتعاهد بنو عبد الواد ومغراوة على الألفة وانتظام الكلمة وهدر الدماء. وارتحلوا إلى أعمالهم بالمغرب الأوسط، فنزل علي بن راشد وقومه بموضع عملهم من ضواحي شلف، وتغلبوا على أمصاره. وافتتحوا تنس، وأخرجوا منها أولياء السلطان وعسكره، وقتلوا

القاضي بمازونة سرحان، كان مقيماً لدعوة السلطان بها، ثم سولت له نفسه الانتزاء والتوثب، فدعا لنفسه. وقتله علي بن راشد وقومه.

وأجاز عثمان بن عبد الرحمن وقومه من بني عبد الواد إلى محل ملكهم بتلمسان،

وألفوا عثمان بن جرار قد انتزى بها بعد منصرف الأمير أبي عنان ودعا لنفسه فتجهم له الناس لتوثبه على المنصب الذي ليس لأبيه، واستمسك بالبلد أياما يؤمل نزوع قومه إليه. ثم زحف إليه بنو عبد الواد وسلطانهم، فصدقوه الزحف، وثارت به الغوغاء، وكسروا أبواب البلد. وخرجوا إلى السلطان، فأدخلوه القصر، واحتل به في جمادى من سنة نسع. وتسابق الناس إلى مجلسه مثنى وفرادى، وبايعوه البيعة العامة، وتفقد ابن جرار. ثم أكرى به البحث فبثر عليه ببعض زوايا القصر. واحتمل إلى المطبق فأودع به إلى أن سرب إليه الماء، فمات غريقا في هوته. وساهم السلطان أبو سعيد عثمان أخاه أبا ثابت الزعيم في سلطانه، وشركه في أمره، وأردفه في ملكه، وجعل إليه أمر الحرب والضواحي والبدو كلها. واستوزر قريبه يحيى بن داود بن مكن، من ولد محمد بن تيدوكسن بن طاع الله واستوسق ملكهم. وأوفدوا مشيختهم على الأمير أبي عنان صاحب المغرب، وسلطان بني مرين، فعقدوا معه السلم والمهادنة، واشترطوا له على أنفسهم دفاع السلطان أبيه عن الخلوص إليه. وزحفوا إلى وهران من ثغور أعمالهم. ونازلوا بها أولياء السلطان وعساكره، وعاملها يومئذ عبو بن جانا من صنائع السلطان، إلى أن غلبوه عليها واستنزلوه صلحا لأشهر من حصارها.

واستمسك أهل الجزائر بطاعة السلطان واعتصموا بها. وعقد عليها لقائده محمد بن يحيى العشري من صنائع أبيه، بعثه إليهم من تونس بعد نكبة القيروان. ونجم بالمدية عدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي داعيا لنفسه، وطالبا سلطان سلفه. وامتنع عليه معقل ملكهم بجبل وانشريش، لمكان ولد عمر بن عثمان وقومهم بني تيغرين في رياسته وانحاش إليه أولاد عزيز، من بني توجين، أهل ضاحية المدية فقاموا بأمره، واعصوصبوا عليه. وكانت بينه وبين أبناء عمر بن عثمان حرب سجال إلى أن هلك، وخلص أمر بني توجين لأبناء عمر بن عثمان، وهم على مذهبهم من طاعة السلطان والتمسك بدعوته، وهو مميم خلال ذلك بتونس، إلى أن أزمع الرحلة، واحتل بالجزاير، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن رجوع أمراء الثغور الغربية من الموحدين إلى ثغورهم ببجاية وقسنطينة:

لما توثب الأمير أبو عنان على ملك أبيه، وبويع بتلمسان، وكانت للأمير أبي

عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكرياء صاحب بجاية لديه خلة ومصافاة، من لدن بعثه إليه السلطان أبوه من بجاية. وأنزله بتلمسان، فرعى له السابقة وآثره في الأمارة، وعقد له على محل أمارته من بجاية، وأمده بما رضيه من المال والسلاح. ودفعه إليها ليكون حجزا دون السلطان بتونس. وضمن له هذا الأمير صده عن الخلوص إليه وسد المذاهب دونه. وأوعز أبو عنان إلى أساطيله بوهران فركبها الأمير إلى تدلس ودخلها. ونزع إليه صنهاجة أهل ضاحية بجاية، عن عمه المولى أبي العباس الفضل، واعصوصبوا عليه، وقاموا بأمره، لقديم نعمته وسالف أمارة أبيه. ولما ارتحل الأمير أبو عنان إلى المغرب رحل في جملته المولى أبو زيد عبد الرحمن ابن مولانا

الأمير أبي عبد الله صاحب قسنطينة، ومعه إخوته، فاختصهم يومئذ بتقريبه وخلطهم بنفسه. فلما غلب الأمير أبو عنان منصور ابن أخيه أبي مالك على البلد الجديد، واستولى على المغرب، رأى أد يبعث ملوك الموحدين إلى بلادهم، ويدفع في صدر أبيه بمكانهم، فسرح المولى أبا زيد وجميع إخوته، وكان منهم مولانا السلطان أبو العباس الذي جبر الله به الصدع، ونظم الشمل، ففصلوا إلى مواطن ملكهم ومحل أمارتهم. وكان مولاهم نبيل حاجب أبيهم قد تقدم إلى بجاية، ولحق بالمولى أبي عبد الله بمكانه من حصارها. ثم تقدم إلى قسنطيط وبها مولى من موالي السلطان المتغلب عليها، وهو المولى أبو العباس الفضل. فلحيى

إطلاله على جهاتها وشهور أهلها بمكانه، لفحت منهم عزائز المودة، وذكروا جميل الإيالة، وأجمعوا التوثب بواليهم. واحتل نبيل بظاهر قسنطينة، فشرهت العامة إلى أمارته والقيام بدعوة مواليه. وتوثب أشياعهم على أولياء عمهم فأخرجوهم، واستولى القائد نبيل على قسنطينة وأعمالها، وأقام دعوة المولى أبي زيد وإخوته كما كانت أول مرة بها: وجاء من المغرب إلى مركز أمارتهم، ودعوتهم بها قائمة، ورايتهم على أنحائها خافقة، فاحتلوا بها حلول الاساد بعرينها والكواكب بآفاقها. ونهض المولى أبو عبد الله محمد فيمن اجتمع إليه من البطانة والأولياء إلى محاصرة بلده بجاية، فأحجز عمه بالبلد وأخذ بمخنقها أياما، ثم أفرج عنها، ثم رجع إلى مكانه من حصارها. ودس إلى بعض أشياعه بالبلد، وسرب المال بالغوغاء، فواعدوه فتح أبواب الربض في إحدى ليالي رمضان سنة تسع وأربعين. واقتحم البلد وملأ الفضاء بهدير طبوله، فهب الناس من مراقدهم فزعين، وقد ولج الأمير وقومه البلد. ولجأ الأمير أبو العباس الفضل إلى شعاب الجبل وكواريه المطل على القصبة راجلا حافيا، فاختفى إلى أن عثر عليه ضحى النهار وسيق إلى ابن أخيه، فمن عليه وأركبه السفين إلى محل أمارته من بونة. وخلص ملك بجاية للمولى الأمير أبي عبد الله هذا، واقتعد سرير آبائه بها. وكتبوا للأمير أبي عنان بالفتح وتجديد المخالصة والموالاة، والعمل على مدافعة أبيه عن جهاته. والله تعالى أعلم.

الخبر عن نهوض الناصر ابن السلطان ووليه عريف بن يحيي من تونس إلى المغرب الأوسط:

لما بلغ السلطان خبر ما وقع بالمغرب من انتقاض أطرافه، وتغلب الأعياص من

نومه وسواهم على أعماله، ووصل إليه يعقوب بن علي أمير الدواودة بولده وعماله ووفده،. نظر في تلافي أمره، فسرح ولده الناصر إلى المغرب الأوسط لارتجاع ملكهم، ومحو آثار الخوارح من أعمالهم. فنهض مع يعقوب بن علي وأصحبه وليه عريف بن يحيى أمير زغبة ليستظهر به على ملك المغرب، وقدمهما طليعة بين يديه. وسار الناصر إلى بسكرة، واضطرب معسكره بها. ثم فصل من بلاد رياح إلى بلاد زغبة، واجتمع إليه أولياؤهم من العرب ومن زناتة من بني توجين أهل وانشريش وغيرهم. وزحف إليهم الزعيم أبو ثابت من تلمسان في قومه من بني عبد الواد وغيرهم للمدافعة. والتقى

الجمعان بوادي ورك، وانفضت جموع الناصر وانذعروا، ورجع على عقبه إلى بسكرة. وخلص عريف بن يحيى إلى قومه سويد، ثم قطع القفر إلى المغرب الأقصى. ولحق بالأمير أبي عنان، فترل منه بألطف محل ورجع الناصر إلى بسكرة، وارتحل مع أوليائهم . أولاد مهلهل لمدافعة أولاد أبي الليل وسلطانهم المولى الفضل عن تونس،

كما ذكرناه. وأحسوا بهم، فنهضوا إليهم وفروا أمامهم، إلى أن خلص الناصر إلى بسكرة ثانية واتخذها مثوى، إلى أن لحق بالجزائر عند رحلته من تونس إليها، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن رحلة السلطان أبي الحسن إلى المغرب، وتغلب المولى الفضل علي تونس، وما دعا إلى ذلك من الأحوال:

لما خلص المولى أبو العباس الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى من نكبته ببجاية، وامتن عليه ابن أخيه فلحق بمحل أمارته من بونة، ووافته بها مشيخة أولاد أبي الليل، أوفدهم عليه بنو حمزة بن عمر يستحثونه لملك إفريقية ويرغبونه فيه، فأجاب داعيتهم ونهض إليهم بعد قضاء نسك الفطر من سنة تسع وأربعين. ونزل بحللهم، وأرجفوا بخيلهم وركابهم على ضواحي إفريقية، وجبوها. وصمدوا إلى تونس فنازلوها وأخذوا بمخنقها أياما، ثم أخذ بحجزتهم عنها شيعة السلطان وأولياؤه من أولاد مهلهل وابنه الناصر عند قفوله من المغرب الأوسط مفلولا، فرحلوا وشردهم. ثم رجعوا إلى مكانهم من حصارها، ثم انفضوا عنها. وتحيز خالد بن حمزة إلى شيعة السلطان أبي الحسن من أولاد مهلهل وقومه، فاعتزوا به. وذهب عمر بن حمزة إلى المشرق لقضاء فرضه، وأجفل أبو الليل أخوه والمولى الفضل إلى القفر، حتى كان من دخول أهل الجريد في طاعته ما سنذكر. وكان السلطان لما خلص من القيروان إلى تونس، وفد عليه أحمد بن مكي مهنيا ومفاوضا في شأن الثغر، وما مني به من انتقاض الأطراف وفساد الرعية. وتدارك السلطان أمره عند فواته بالتولية على أهل القطر من جنسهم استئلافا للكافة، واستبقاء لطاعتهم. فعقد على عمل قابس وجربة والحمة وما إليها لعبد الواحد ابن السلطان أبي زكرياء بن أحمد اللحياني، وأنفذه مع أحمد بن مكي إلى عمله، فهلك بجربة لليال من مقدمه بالطاعون الجارف عامئذ.

وعقد لأبي القاسم بن عتو شيخ الموحدين على توزر ونفطة وسائر بلاد الجريد،

بعد أن كان استخلصه عند مفر أبي محمد بن تافراكين قريعه، وما ظهر من سوء دخلته، فترل بتوزر، وجمع أهل الجريد على الولاية والمخالصة. ولما نازل المولى أبو العباس الفضل تونس مرتين، وشرد أولاد مهلهل، وامتنعت عليه، عمد إلى الجريد سنة خمس يحاول فيه ملكا. وخاطب أبا القاسم بن عتو يذكره عهده وعهد سلفه وحقوقهم، فتذكر وحن، ونظر إلى ما ناله به السلطان من المثلة في أطرافه. واستثار كامن حقده، فانحرف وحمل الناس على طاعة المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى فسارعوا إلى الإجابة. وبايعه أهل توزر وقفصة ونفطة والحمة. ثم دعا ابن مكي إلى طاعته، فأجاب إليها وبايعه أهل قابس وجربة أيضا. وانتهى الخبر إلى السلطان باستيلاء المولى الفضل على أمصار إفريقية، وأنه ناهض إلى تونس، فأهمه الشأن وخشي على أمره. وكانت بطانته يوسوسون إليه بالرحلة إلى المغرب لاسترجاع نعمتهم باسترجاع ملكه، فأجابهم إليها. وشحن أساطيله بالأقوات، وأزاح علل المسافرين ولما قضى منسك الفطر من سنة خمسين، ركب البحر أيام استفحال فصل الشتاء.

وعقد لابنه أبي الفضل على تونس ثقة بما بينه وبين أولاد حمزة من الصهر، وتفاديا بمكانه عن معرة الغوغاء وثورهم، وأقلع من مرسى تونس ولخمس دخل مرسى بجاية، وقد احتاجوا إلى الماء، فمنعهم صاحب بجاية من الورود. وأوعز إلى سائر سواحله بمنعهم، فزحفوا إلى الساحل، وقاتلوا من صدهم عن الماء، إلى أن غلبوهم عليه، واستقوا وأقلعوا. وعصفت بهم الريح ليلتئذ، وجاءهم الموج من كل مكان، وألقاهم اليم بالساحل، بعد أن تكسرت الأجفان، وغرق الكثير من بطانة السلطان وعامة الناس وقذف الموج بالسلطان فألقاه إلى الجزيرة قرب الساحل من بلاد زواوة مع بعض حشمه عراة، فمكثوا ليلتهم وصبحهم جفن من الأساطيل كان قد سلم من ذلك العاصف، فقذفوا إليه حين رأوه، وقد تصايح به البربر من الجبال. وتوثبوا إليه فاختطفه أولياؤه من أهل الجفن، تبل أن يصل إليه البربر، وقذفوا به إلى الجزائر، فنزل بها، ولام صدعه. وخلع على من وصل من فل الأساطيل، ومن خلص إليه من أوليائه. ولحق به ابنه الناصر من بسكرة. واتصل بالمولى الفضل خبر رحيله من تونس وهو ببلاد الجريد، فأغذ السير إلى تونس. ونزل على ابنه، ومن كان بها من مخلف أوليائه، فغلبوهم عليها. واتصل أهل البلد بهم

وأحاطوا يوم منى بالقصبة. واستنزلوا ابن السلطان أبا الفضلى الأمير بالقصبة على الأمان، فخرج إلى بيت أبي الليل ابن حمزة، وأنفذ معه من بلغه إلى مأمنه، فلحق بالجزائر بأبيه. وبادر إلى السلطان عدي بن يوسف المنتزي بالمدينة من بني عبد القوي، فصار في جملته، وخرج له عن الأمر، وزعم أنه إنما كان قائما بدعوته، فتقبل منه وأقره على عمله.

ووفد عليه أولياؤه من المغرب: سويد والحارث وحصين، ومن إليهم ممن اجتمع

إلى وليه ونزمار بن عريف المتمسك بطاعته. ووفد عليه أيضا علي بن راشد أمير مغراوة، وأغراه ببني عبد الواد، واشترط عليه إقراره بوطنه وعمله إذا تم أمره، فأبى من قبول الاشتراط ظنا بعهده عن النكث، فنزع عنه وصار إلى مظاهرة بني عبد الواد عليه. وبعث أبو سعيد عثمان صاحب تلمسان إلى الأمير أبي عنان في المدد، فبعث إليه بعسكر من بني مرين، عقد عليهم ليحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي من تيربيغين. وزحف الزعيم أبو ثابت إلى حرب السلطان أبي الحسن فيمن اجتمع إليه من عسكر بني مرين ومغراوة. وخرج السلطان من الجزائر وعسكر بمتيجة واحتشد ونزمار سائر العرب بحللهم ووافاه بهم، وارتحلوا إلى شلف. ولما التقى الجمعان بشدبونة، صدقه مغراوة الحملة. وصابرهم ابنه الناصر، وطعن في الجولة فهلك، فاحتل مصاف السلطان واستبيح معسكره، وانتهبت فساطيطه، وخلص مع وليه ونزمار بن عريف وقومه، بعد أن استبيحت حللهم، فخرجوا إلى جبل وانشريش، ثم لحقوا بجبل راشد ورجع القوم عن أتباعهم، وانكفؤوا إلى الجزائر، فتلغبوا عليها، وأخرجوا من كان بها من أولياء السلطان، ومحو آثار دعوته من المغرب الأوسط جملة. والأمر بيد الله يؤتيه من يشاء.

الخبر عن استيلاء السلطان علي سجلماسة، ثم فراره عنها أمام ابنه إلى مراكش، ثم استيلاؤه عليها، وما تخلل ذلك:

لما انفضت جموع السلطان بشدبونة، وفلت عساكره، وهلك الناصر ابنه، خلص

إلى الصحراء مع وليه ونزمار، ولحق بحلل قومه سويد وأوطانهم قبلة جبل وانشريش، وأجمع أمره على قصد المغرب موطن قومه ومنبت عزه ودار ملكه. وارتحل معه وليه ونزمار بالناجعة من قومه، وخرجوا إلى جبل راشد. ثم أبعدوا المذهب وقطعوا المفاوز،

وسلكوا إلى سجلماسة في القفر. فلما أطلوا عليها، وعاين أهلها السلطان، تهافتوا عليه تهافت الفراش. وخلص إليه العذارى من وراء ستورهن صاغية إليه، وإيثارا لإيالته. وفر العامل بسجلماسة إلى منجاته. وكان الأمير أبو عنان لما بلغه الخبر بقصده سجلماسة ارتحل إليها في قومه وكافة عساكره، بعد أن أزاح عللهم، وأفاض عطاءه فيهم. وكان لبني مرين نفرة عن السلطان وحذر من غائلته، لجناياتهم بالتخاذل في المواقف، والفرار عنه في الشدائد، ولما كان يبعد بهم في الأسفار، ويتجشم بهم المهالك، فكانوا لذلك مجتمعين على منابذته، ومخلصين في مناصحة ابنه منازعه. فما لبث السلطان أن جاءه الخبر بوصولهم إليه في العساكر الضخمة، مغذين السير إلى دفاعه، وعلم من حاله أنه لا يطيق لقاءهم. وأجفل عنه ونزمار وليه في قومه سويد. وكان من خبره أن عريف بن يحيى كان نزع إلى الأمير أبي عنان، وأحله بمحله المعهود من تشريفهم وولايتهم حتى إذا بلغه الخبر بمناصحة ونزمار للسلطان ومظاهرته وقصده المغرب معه بناجعته، زوى عنه وجه رضاه بعض الشيء، وأقسم له لئن لم يفارق السلطان لأوقعن بك وبابنك عنتر، وكان معه من جملة الأمير أبي عنان. وأمره بأن يكتب له بذلك، فآثر ونزمار رضى أبيه. وعلم أن غناءه عن السلطان في وطن المغرب قليل، فأجفل عنه ولحق بالزاب وانتبذ عن قومه، وألقى عصاه ببسكرة، فكان ثواؤه بها إلى أن لحق بالأمير أبي عنان على ما نذكره.

ولما أجفل السلطان عن سجلماسة، ودخل الأمير أبو عنان إليها، وثقف أطرافها

وسد فروجها، وعقد عليها ليحيى بن عمر بن عبد المؤمن كبير بني ونكاسن. وبلغه قصد السلطان إلى مراكش، فاعتزم على الرحلة إليها وأبى عليه قومه، فرجع إلى فاس إلى أن كان من خبرهم مع السلطان ما نذكره.

الخبر عن استيلاء السلطان علي مراكش، ثم انهزامه أمام الأمير أبي عنان، ومهلكه بجبل منتاتة عفا الله عنه:

لما أجفل السلطان من سجلماسة سنة إحدى وخمسين بين يدي الأمير أبي عنان وعساكر بني مرين، وقصد مراكش وركب إليها الأوعار من جبل المصامدة. ولما شارفها نسارع إليه أهل جهاتها بالطاعة من كل أوب، ونسلوا من كل حدب. ولحق عامل مراكش بالأمير أبي عنان، ونزع إلى السلطان صاحب ديوان الجباية أبو المجد محمد بن أبي

مدين بما كان في المودع من مال الجباية، فاختصه واستكتبه وجعل إليه علامته. واستركب واستلحق وجبى الأموال وبث العطاء، ودخل في طاعته قبائل العرب من جشم وسائر المصامدة وثاب له ملك بمراكش أفل معه أن يستولي على سلطانه، ويرتجع فارط أمره من يد مبتزه. وكان الأمير أبو عنان لما رجع إلى فاس عسكر بساحتها، وشرع في العطاء وأزاح العلل، وتقبض على كاتب الجباية حمزة بن شعيب بن محمد بن أبي مدين،

اتهمه بممالأة بني مرين في الإبابة عليه عن اللحاق بمراكش من سجلماسة. وأثار حقده في ذلك ما كان من نزوع عفه أبي المجد إلى السلطان بأموال الجباية. ووسوس إليه في السعاية به كاتبه وخالصته أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمرو، لما بينهما من المنافسة، فتقبض عليه وامتحنه، ثم قطع لسانه، وهلك في ذلك الامتحان. وارتحل الأمير أبو عنان وجموع بني مرين إلى مراكش، وبرز السلطان للقائهم ومدافعتهم، وانتهى كل واحد من الفريقين إلى وادي أم ربيع، وتربص كل واحد بصاحبه إجازة الوادي ثم أجازه السلطان أبو الحسن، وأصبحوا جميعا في التعبية. والتقى الجمعان بتامدغرست في آخر صفر من سنة إحدى وخمسين، فاختل مصاف السلطان وانهزم عسكره، ولحق به أبطال بني مرين، فرجعوا عنه حياء وهيبة. وكبا به فرسه يومئذ في مفره، فسقط إلى الأرض والفرسان تحوم حوله. واعترضهم دونه أبو دينار سليمان بن علي بن أحمد أمير الدواودة، ورديف أخيه يعقوب، كان هاجر مع السلطان من الجزائر، ولم يزل في جملته إلى يومئذ. فدافع عنه حتى ركب، وسار من ورائه ردءا له. وتقبض على حاجبه علال بن محمد، فصار في يد الأمير أبي عنان، وأودعه السجن إلى أن امتن عليه بعد مهلك أبيه.

وخلص السلطان إلى جبال هنتاتة، ومعه كبيرهم عبد العزيز بن محمد بن علي،

فنزل عليه وأجاره. واجتمع إليه الملأ من هنتاتة ومن انضاف إليهم من المصامدة، وتدامروا وتعاهدوا على الدفاع عنه، وبايعوه على الموت. وجاء أبو عنان على أثره حتى احتل بمراكش، وأنزل عساكره على جبال هنتاتة، ورتب المسالح لحصاره وحربه، وطال عليه ثواؤه. وطلب السلطان من ابنه الإبقاء، وبعث في حاجبه محمد بن أبي عمرو فحضر عنده، وأحسن العذر عن الأمير أبي عنان. والتمس له الرضى منه، فرضي عنه وكتب له بولاية عهده. وأوعز إليه بأن يبعث له مالا وكسى، فسرح الحاجب ابن أبي عمرو إلى إخراجها من المودع بدار ملكهم. واعتل السلطان خلال ذلك، فمرضه أولياؤه

وخاصته. وافتصد لإخراج الدم، ثم باشر الماء بعضوه للطهارة، فورم وهلك لليال قريبة عفا الله عنه، لثلاث وعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين. وبعث أولياؤه بالخبر إلى ابنه بمعسكره من ساحة مرأكش، ورشعوه على أعواده إليه، فتلقاه حافياً حاشراً، وقبل أعواده وبكى واسترجع، ورضي عن أوليائه وخاصته وأنزلهم بالمحل الذي رضوه من دولته. ووارى أباه بمراكش، إلى أن نقله إلى مقبرة سلفه بشالة في طريقه إلى فاس. وتلقى أبا دينار بن علي بن أحمد بالقبول والكرامة، وأحله من كنفه محل الرحب والسعة، وأسنى جوائزه، وخلع عليه وحمله. وانصرف من فاس إلى قومه يستحثهم للقاء السلطان أبي عنان بتلمسان، لما كان أجمع على الحركة إليها بعد مهلك أبيه ورعى لعبد العزيز بن محمد أمير هنتاتة إجارته للسلطان واستماتته دونه، فعقد له على قومه وأحله بالمحل الرفيع من دولته ومجلسه، واستبلغ في تكريمه. والله تعالى أعلم.

الخبر عن حركة السلطان أبي عنان إلى تلمسان، وإيقاعه ببني عبد الواد بأنكاد، ومهلك أبي سعيد سلطانهم:

لما هلك السلطان أبو الحسن، وانقضى شأن الحصار، وارتحل السلطان أبو عنان

إلى فاس، ونقل شلو أبيه إلى مقبرتهم بشالة فدفنه مع من هنالك من سلفه، وأغذ السير إلى فاس، وقد استبد بالأمر، وخلت الدولة عن المنازع، فاحتل بفاس وأجمع أمره على غزو بني عبد الواد لارتجاع ما بأيديهم من الملك الذي سموا لاستخلاصه. ولما كان فاتح سنة ثلاث وخمسين، نادى بالعطاء وأزاح العلل وعسكر بساحة البلد الجديد، واعترض العسكر وارتحل يريد تلمسان. واتصل الخبر بأبي سعيد وأخيه، فجمعوا قومهم ومن إليهم من الأشياع والأحزاب من زناتة والعرب وارتحلوا إلى لقائه. ونزل السلطان بمعسكر وادي ملوثة، وتلوم به أياما لاعتراض الحشد والعرب. ثم رحل على التعبية، حتى إذا احتل ببسيط أنكاد وتراءى الجمعان، انفض سرعان المعسكر ولحقوا بالمغرب. وركب السلطان في التعبية، وخاض بحر القتال، وقد أظلم الجو به. حتى إذا خلص إليهم من غمرة وخالطهم بصفوفهم، ولوا الأدبار، ومنحوهم الأكتاف. واتبع بنو مرين آثارهم، فاستولوا على معسكرهم واستباحوه. واستلحموهم قتلاً وسبيا وصفدوهم أسارى، وغشيهم الليل وهم متسايلون في آثارهم وتقبض على أبي سعيد سلطانهم، فسيق إلى السلطان، وأمر باعتقاله، وأطلق أيدي بني مرين من الغذ على حلل العرب من

المعقل، فاستباحوهم واكتسحوا أموالهم جزاء بما شرهوا إليه من النهب بالمحلة في هيعة ذلك المجال، ثم ارتحل به على تعبية إلى تلمسان، فاحتل بها لربيع من سنته، واستوت في ملكها قدمه. وأحضر أبا سعيد، فقرعه ووبخه، وأراه أعماله حسرة عليه، وأحضر الفقهاء وأرباب الفتيا، فأفتو بحرابته وقتله. وأمضى حكم الله فيه، فذبح بمحبسه لتاسعة من اعتقاله مثلا للآخرين. وخلص أخوه الزعيم أبو ثابت إلى قاصية الشرق، فكان من خبره ما نذكره إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

الخبر عن شأن أبي ثابت، وإيقاع بني مرين به بوادي شلف، وتقبض الموحل ين عليه ببجاية:

لما أوقع السلطان ببني عبد الواد بأنكاد، وتقبض على أبي سعيد سلطانهم، خلص

أبو ثابت أخوه في فل منهم. ومر بتلمسان، فاحتمل حرمهم ومخلفهم. وأجفل إلى الشرق، فاحتل بشلف من بلاد مغراوة. وعسكر هناك، واجتمع إليه أوشاب من زنانة. وحدث نفسه باللقاء، ووعدها بالصبر والثبات. وسرح السلطان وزيره فارس بن ميمون بن ودرار في عساكر بني مرين والجند، فأغذ السير إليهم، وارتحل من تلمسان على أثره. ولما تراءى الجمعان صدق الفريقان المحاولة، وخاضوا النهر بالقراع. ثم صدق بنو مرين الحملة وأجازوا النهر إليهم، فانكشفوا واتبعوا آثارهم، فاستلحموهم واستباحوا معسكرهم، واستاقوا أموالهم ودوابهم ونساءهم، وارتحلوا في أتباعهم. وكتب الوزير بالفتح إلى السلطان. ومر أبو ثابت بالجزائر طارقا، وأجاز إلى قاصية الشرق، فاعترضتهم قبائل زواوة، وأرجلوهم عن خيلهم، وانتهبوا أسلابهم، ومروا حفاة عراة. واحتل الوزير بالجزائر، فاستولى عليها. واقتضى بيعة السلطان منهم، فأتوها. واحتل السلطان بالمدية، وأوعز إلى أمير بجاية المولى أبي عبد الله محمد حافد مولانا الأمير أبي يحيى مع وليه ونزمار، وخالصته يعقوب بن علي، بالقبض على أبي ثابت وأشياعه، فأذكوا العيون عليهم وقعدوا لهم بالمرصاد. وعثر بعض الجشم على أبي ثابت وأبي زيان ابن أخيه أبي سعيد، ووزيرهم يحيى بن داود، فرفعوهم إلى الأمير ببجاية فاعتقلهم. وارتحل إلى

لقاء السلطان بالمدية، وبعث بهم مع مقدمته، وجاء على أثرهم ونزل على السلطان بمعسكره من المدية خير نزل، بعد أن تلقاه بالمبرة والاحتفاء، وركب إلى لقائه. ونزل عن فرسه للسلطان، فترل السلطان برا به وأودع أبا ثابت السجن. وتوافت

إليه وفود الدواودة بمكانه من المدية، فأكرم وفدهم وأسنى أعطياتهم من الخلع والحملان والذهب، وانقلبوا خير منقلب. ووافته بمكانه ذلك بيعة ابن مزني عامل الزاب ووفدهم، فأكرمهم ووصلهم. وفرغ السلطان من شأن المغرب الأوسط، وبث العمال في نواحيه، وثقف أطرافه، وسما إلى ملك إفريقية، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن تملك السلطان أبي عنان بجاية، وانتقال صاحبها إلي المغرب:

لما وصل المولى أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكرياء يحيى صاحب بجاية

إلى السلطان بمكانه من المدية، في شعبان من سنته، وأقبل السلطان عليه، وبوأه كنف ترحيبه وكرامته، خلص الأمير به نجيا وشكى إليه ما تلقاه من أهل عمله من الامتناع من الجباية والسعي في الفساد، وما يتبع ذلك من زبون الحامية واستبداد البطانة. وكان السلطان متشوقا لمثلها، فأشار عليه بالترول عنها يعوضه عنها ما شاء من بلاده، فسارع إلى قبول إشارته ودس إليه مع حاجبه محمد بن أبي عمرو أن يستبد بذلك على رؤوس الملأ ففعل ونقم عليه بطانته ذلك، وفر بعضهم من معسكره، فلحق بإفريقية، ومنهم علي بن القائد محمد بن الحكم. وأمره السلطان أن يكتب بخطه إلى عامله على البلد بالترول عنها، وتمكين عمال السلطان منها ففعل. وعقد السلطان عليها لعمر بن علي الوطاسي، من أولاد الوزير الذين ذكرنا خبر انتزائهم بتازوطا من قبل. ولما قضى السلطان حاجاته من المغرب الأوسط، واستولى على بجاية، انكفأ راجعا إلى تلمسان لشهود الفطر بها، ودخلها في يوم مشهود. وحمل أبا ثابت ووزيره يحيى بن داود على جملين يخطران بهما في ذلك المحفل بين السماطين، فكانا عبرة لمن حضر. وسيقا من الغد إلى مصارعهما، فقتلا قعصا بالرماح. وأنزل السلطان المولى الأمير أبا عبد الله صاحب بجاية خير نزل، وفرض له في مجلسه تكرمة به، إلى أن كان من توثب صنهاجة وأهل بجايه بعمر بن علي، ما نحن ذاكروه إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ثورة أهل بجاية، ونهوض الحاجب إليها في العساكر:

كان صنهاجة هؤلاء من أعقاب تكلاتة ملوك القلعة وبجاية، نزل أولوهم بوادي

بجاية بين القبائل من برابرتها الكتاميين في مواطن بني ورياكل مذ أول دولة الموحدين، وأقطعوهم على العسكر معهم. ولما ضعفت جنود الموحدين وقل عددهم انفردوا

بالعسكرة مع السلطان، وصار لهم بذلك اعتزاز وزبون على الدولة. وكان المولى الأمير أبو عبد الله هذا قد أصاب منهم لأول أمره، وقتل محمد بن تميم من أكابر مشيختهم. وكان حاجبه فارح مولى ابن سيد الناس عريفا عليهم من عهد أبيه الأمير أبي زكرياء، وكان مستبدا على المولى أبي عبد الله. فلما نزل عن أمارته للسلطان أبي عنان سخط ذلك ونقمه عليه، وأسرها في نفسه ولم يبدها له. وسرحه أميره مع عمر بن علي الوطاسي لنقل حرمه ومتاعه وماعون داره، فوصل إليها. وشكى إليه الصنهاجيون مغبة أمرهم في ثقل الوطأة

وسوء الملكة، فأشكاهم ودعاهم إلى الثورة ببني مرين، والقيام بدعوة الموحدين للمولى أبي زيد صاحب قسنطينة، فأجابوه وتواعدوا للفتك بعمر بن علي بمجلسه من القصبة. وتولى كبرها منصور بن الحاج من مشيختهم وباكره بداره على عادة الأمراء ولما أكب عليه للثم أطرافه، طعنه بخنجره، وفر إلى بيته جريحا، فولجوا عليه واستلحموه. وثارت الغوغاء من أهل البلد أول ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين.

وركب الحاجب فارح، وهتف الهاتف بدعوة المولى أبي زيد، وطيروا بالخبر إليه واستدعوه، فتثاقل عن إجابتهم. وبعث مولى من المعلوجي للقيام بأمره. وبلغ الخبر إلى السلطان، فاتهم المولى أبا عبد الله بمداخلة حاجبه، فاعتقله بداره. واعتقل وفدا من ملأ بجاية كان ببابه وثابت آراء المشيخة من أهل بجاية، وتمشت رجالاتهم وأولوا الرأي والشورى منهم في الفتك بصنهاجة والعلج، وداخلهم القائد هلال ابن سيد الناس من المعلوجي، وعلي بن محمد بن الميت حاجب الأمير أبي زكرياء يحيى، ومحمد بن الحاجب أبي عبد الله بن سيد الناس، وتواعدوا الفتك بفارح يوم وصول النائب من قبل صاحب قسنطينة، فجهروا بالنكر على الحاحب، ودعوه إلى المسجد ليؤامروه. ونذر أمرهم، فاعتمدوا دار شيخ الفتيا أحمد بن إدريس واقتحموا عليه الدار، وباشره مولاه محمد بن سيد الناس، فطعنه وأشواه، ورمى بشلوه في سقف الدار، وقطع رأسه وبعث به إلى السلطان. وفر منصور بن الحاج وقومه صنهاجة من البلد، وكان بالمرسى أحمد بن سعيد القرموني من حاشية السلطان، جاء في السفين لبعض حاجاته من تونس، ووافى مرسى بجاية يومئذ، فأنزلوه واعصوصبوا عليه، وتنادوا بدعوة السلطان وطاعته. وأشار عليهم أحمد القرموني أن يبعثوا إلى قائد تدلس من مشيخة بني مرين يحياتن بن عمر بن عبد المؤمن الونكاسي، فاستدعوه ووصل إليهم في لمة من العسكر، وبعثوا بأخبارهم إلى السلطان وانتظروا. فلما بلغ الخبر إلى السلطان، أمر حاجبه محمد بن أبي عمرو بالنهوض إلى بجاية، فعسكر بساحة تلمسان. وانتقى له السلطان من قومه وجنوده خمسة آلاف فارس، أزاح عللهم واستوفى اعطياتهم. وسرحه، فنهض من تلمسان بعد قضاء منسك الأضحى، وأغذ السير إلى بجاية. ولما نزل ببني حسن، جمع له صنهاجة، ثم خاموا عن اللقاء، ولحقوا بقسنطينة، وأجازوا منها إلى تونس. واختل الحاجب بمعسكرهم من خميس بتكلات. وخرج إليه المشيخة والوزراء. فتقبض على القائد هلال وأشخصه إلى السلطان ودخل البلد في التعبية، واحتل بقصبتها لمحرم فاتح أربع وخمسين. وسكن الناس، وخلع على المشيخة، واختص علي بن الميت ومحمد بن سيد الناس، واستظهر بهم على أمره. وتقبض على جماعة من الغوغاء نقباء علي من تحت أيديهم ممن يتهم بالمداخلة في التوثب يناهزون مايتين، واعتقلهم وأركبهم السفين إلى المغرب، فودع الناس وسكنوا. وتوافت وفود الدواودة من كل جهة، وأجزل صلاتهم، واقتضى على الطاعة رهنهم. ووصل عامل الزاب يوسف وسد فروجه، وارتحل إلى تلمسان أول جمادى لشهرين من مدخله. وأغذ السير بمن معه من العرب والوفود، وكنت يومئذ في جملتهم، وقد خلع علي وحملني وأجزل صلتي. وضرب لي الفساطيط، فوفدت في ركابه. وقدم تلمسان لأول جمادى الاخرة فجلس السلطان للوفد، واعترض ما جنب له من الجياد والهدية، وكان يوما مشهودا. ثم أسنى السلطان جوائز الوفد، واختص يوسف بن مزني ويعقوب بن علي بمزيد

من البر والصلة، وخصوصيات من الكرامة، وائتمرهم في شأن إفريقية ومنازلة قسنطينة. ورجع معهم الحاجب ابن أبي عمرو على كره منه لما نذكره من أخباره، وانصرفوا إلى مواطنهم لأول شعبان من سنة أربع وخمسين. وانقلبت معه بعد إسناء الجائزة والخلع والحملان من السلطان، والوعد الجميل بتجديد ما لي ولقومي ببلدنا من الأقطاع والله أعلم.

الخبر عن الحاجب ابن أبي عمرو، وما عقد له السلطان علي ثغر بجاية، وعلي منازلة قسنطينة، ونهوضه لذلك:

سلف هذا الرجل من أهل المهدئة من أجناد العرب من بني تميم بإفريقية، وانتقل

جده علي إلى تونس باستدعاء السلطان المستنصر، وكان فقيها عارفا بالفتيا والأحكام، فقلده القضاء بالحضرة. واستعمله على كتابة علامته في الرسائل والأوامر الكبرى

والصغرى، فاضطلع بذلك، وهلك على حاله من التجلة والمنصب وقلد ابنه عبد الله من بعده العلامتين أيام أبي حفص عمر ابن الأمير أبي زكرياء، لما كان لأبيه، فاضطلع بذلك وكان أخوه أحمد بن علي مسمتاً وقورا منتحلا للعلم. ونشأ ابنه محمد، وقرأ بتونس، وتفقه على مشيختها. ولما التاثت أمورهم وتلاشت أحوالهم، خرج محمد بن أحمد بن علي متبغياً للرزق والمعاش، فطوحت به الطوائح إلى بلد القل. وكان منتحلا للطلب والكتابة، فاستعمل شاهدا بمرسى القل أيام رياسة الحاجب ابن غمر، وكانت له صحبة مع حسن بن محمد السبتي المنتحل نسب الشرف. وكانا رفيقين في مطارح اغترابهما، فسعى له في مرافقته في الشهادة فأسعف، واتصلا بابن غمر فحمد مذاهبهما. ولما نزع الشريف عبد الوهاب زعيم تدلس إلى طاعة الموحدين، أيام التياث أبي حفو، بخروج محمد بن يوسف عليه، واعتلال الدولة، ودخل في أمر ابن غمر وجملته، فبعث محمد بن أبي عمرو إلى تدلس، واستعمل حسن الشريف في القضاء ومحمد بن عمرو في شهادة الديوان. فلما برئت الدولة من مرضها، واستفحل أمر أبي حمو، وتغلب على تدلس، وجاء رئيس الفتيا ابن الإمام لاقتضاء طاعتها وإنفاد أهلها على السلطان، كانوا في الوفد. واستقروا بتلمسان من يومئذ، واستعملا معا في خطة القضاء متعاقبين أيام بني عبد الواد وأيام السلطان أبي الحسن. وتعصب على ابن أبي عمرو أيام قضائه جماعة من مشيخة البلد، وسعوا به إلى السلطان أبي الحسن. وتظلموا فأشكاهم على علم من براءته، واختصه بتأديب ولده فارس هذا وتعليمه، فأفرغ وسعه في ذلك. وربي ولده محمد هذا الحاجب مع السلطان أبي عنان مرقاً جليلاً، وألقى عليه محبته، حتى إذا أخلص له الملك، رفع رتبة محمد بن أبي عمرو هذا، ورقاه من مترلة إلى أخرى، حتى إذا أوفى به على سائر المراتب، وجعل إليه العلامة والقيادة والحجابة والسفارة وديوان الجند والحساب والقهرمة وسائر ألقاب دولته وخصوصيات داره، فانصرفت إليه الوجوه، ووقعت ببابه أشراف من الأعياص والقبائل والشرفاء والعلماء. وسرب إليه العمال أموال الجباية تزلفا، وطال أمره واستيلاؤه على السلطان ونفس عليه رجال الدولة ووزراؤها ما أتاه الله من الحظ، حتى إذا خلا لهم وجه السلطان منه عند نهوضه إلى بجاية، حامت أعراض السعاية على مكانه فقرطست وألقى السلطان أذنه لاستماعها. فلما رجع ص

بجاية، وكانت له الدالة على السلطان، وجد عليه في قبول الألاقي. ولقيه مغاضبا فتنكر له السلطان، ثم تجنى فطلب الغيبة عن الدولة، وأن يعقد له على بجاية متوهما أن
السلطان ضنين به فبادر السلطان إلى إسعافه وبدا له ما يحتسب من الإعراض عنه. ورجع إلى الرغبة في الإقالة فلم يسعف. وعقد له على حرب قسنطينة، وحكمه في المال والجيش، وارتحل في شعبان من سنة أربع وخمسين واحتل بجاية آخرها وأشتى بها. ونصب الموحدون تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المعتقل عندهم من لدن عهد المولى الفضل واعتقاله إياه، فنصبوه للأمر لتفريق كلمة بني مرين، وأجمعوا له الالة والفساطيط، وقام بأمره ميمون بن علي لمنافسة مع أخيه يعقوب. وسمع بخبره يعقوب، فأغذ السير إليه بحلله من بلاد الزاب، وفرق جمعهم، وردهم على أعقابهم، وأحجزهم بالبلد ولما انصرم الشتاء، وقضى منسك الأضحى، عسكر بساحة البلد، واعترض العساكر وأزاح عللهم، وفرق أعطياتهم، وارتحل إلى منازلة قسنطينة. واجتمع إليه الدواودة بحللهم، وجمع المولى أبو زيد صاحب قسنطينة من كان على دعوته من أحياء بونة، وميمون بن علي بن أحمد وشيعته من الدواودة، وعقد عليهم لحاجبه نبيل، وسرحه للقاء ابن أبي عمرو وعساكره، فأوقع بهم الحاجب لجمادى من سنة خمس، واكتسح أموالهم. ونازل قسنطينة حتى تفادوا منه بتمكينه من تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المنصوب للأمر، فاقتادوه إليه، وأشخصه إلى أخيه السلطان. وأوفد المولى أبو زيد ابنه على السلطان أبي عنان، فتقبل وفادته وشكر مراجعته، وانكفأ الحاجب ابن أبي عمرو إلى بجاية، وأقام بها إلى أن هلك في المحرم فاتح سنة ست وستين، فذهب حميد السيرة عند أهل البلد، وتفجعوا لمهلكه. وبعث السلطان دوابه لارتحال عياله وولده، ونقل شلوه إلى مقبرة أبيه بتلمسان. وسرح ابنه أبا زيان في عسكر بني مرين لمواراته بها. وعقد على بجاية لعبد الله بن علي بن سعيد وزيره، فنهض إليها في شهر ربيع من سنة ست وخمسين واستقر بها. وتقبل ما حمده الناس من مذاهب الحاجب وسيره فيها على ما نذكره. وجهز العساكر إلى حصار قسنطينة، إلى أن كان من فتحها ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن خروج أبي الفضل ابن السلطان بجبل السكسيوي، ومكر عامل درعة به ومالكه:

كان السلطان أبو عنان بعد مهلك أبيه، لحق به في جملته أخواه أبو الفضل محمد
وأبو سالم إبراهيم، وتدبر في ترشيحهما وحذر عليهما مغبته فأشخصهما إلى الأندلس واستقرا بها في إيالة أبي الحجاج ابن السلطان أبي الوليد ابن الرئيس أبي سعيد ثم ندم على ما أتاه من ذلك، فلما استولى على تلمسان والمغرب الأوسط، ورأى أن قد استفحل أمره واعتز سلطانه، أوعز إلى أبي الحجاج أن يشخصهما إليه ليكون مقامهما لديه أحوط على الكلمة من أن يعتمد على تفريقهما سماسرة الفتن. وخشي أبو الحجاج عليهما غائلته، فأبى من إسلامهما إليه، وأجاب الرسل بأنه لا يخفر ذمته وجوار المسلمين المجاهدين، فأحفظ السلطان كلمته. وأوعز إلى حاجبه محمد بن أبي عمرو بأن يخاطبه في ذلك بالتوبيخ واللائمة، فكتب له كتابا أبدع فيه، وقفني عليه الحاجب ببجاية أيام كوني معه، فقضيت العب من فصوله وأغراضه. ولما قرأه أبو الحجاج دس إلى كبيرهما أبي الفضل باللحاق بالطاغية، وكانت بينهما ولاية ومخالصة منذ مهلك أبيه ألهنشة على جبل الفتح

سنة إحدى وخمسين، فنزع إليه أبو الفضل وأجاره، وجهز له أسطولا إلى مراسي المغرب. وأنزله بساحل السوس، فلحق بالسكسيوي عبدالله ودعا لنفسه. وبلغ الخبر إلى السلطان بين يدي مقدم حاجبه ابن أبي عمرو من فتح بجاية سنة أربع وخمسين، فجهز عساكره إلى المغرب. وعقد على حرب السكسيوي لوزيره فارس بن ميمون بن ودرار وسرحه إليه، فنهض من تلمسان لربيع من سنة أربع وخمسين. وأغذ السير إلى السكسيوي ونزل بمخنقه وأحاط به، واختط مدينة لمعسكره وتجهيز كتائبه بسفح جبلة، وسماها القاهرة. واشتد الحصار على السكسيوي، وراسل الوزير في الرجوع إلى الطاعة المعروفة، وأن ينتبذ العهد إلى أبي الفضل، ففارقه وتنقل في جبال المصامدة.

ودخل الوزير فارس إلى أرض السوس، فدوخ أقطاره ومهد أنحاءه، وسارت الألوية والجيوش في جهاته. ورتب المسالح في ثغوره وأمصاره مثل إيفري وفوريان وتارودانت، وثقف أطرافه وسد فروجه. وسار أبو الفضل في جبال المصامدة إلى أن انتهى إلى صناكة، وألقى بنفسه على ابن حميدي منهم مما يلي بلاد درعة، فأجاره وقام بأمره. ونازله عامل درعة يومئذ عبدالله بن مسلم الزردالي من مشيخة دولة بني عبد الواد، كان اصطنعه السلطان أبو الحسن منذ تغلبه عليهم وفتحه لتلمسان سنة سبع وثلاثين، فاستقر في دولتهم ومن جملة صنائعهم، فأخذ بمخنق ابن حميدي وأرهبه بوصول العساكر

والوزراء إليه، وداخله في التقبض على أبي الفضل وأن يبذل له في ذلك ما أحب من المال، فأجاب ولاطف عبد الله بن مسلم الأمير أبا الفضل ووعده من نفسه الدخول في امره. وطلب لقاه، فركب إليه أبو الفضل. ولما استمكن منه عبدالله بن مسلم تقبض عليه، ودفع لابن حميدي ما اشترط له من المال، وأشخصه معتقلا إلى أخيه السلطان أبي عنان سنة خمس وخمسين، فأودعه السجن، وكتب بالفتح إلى القاصية. ثم قتله لليال من اعتقاله خنقا بمحبسه. وانقضى أمر الخوارج، وتمهدت الدولة، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض عيسي بن الحسن بجبل الفتح ومهلكه:

كان عيسى بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق هذا من مشيخة بني مرين، وكان صاحب شوراهم لعهده. وقد كنا قصصنا من قبل أخبار أبيه الحسن عند ذكر دولة أبي الربيع. وكان السلطان أبو الحسن قد عقد له على ثغور عمله بالأندلس، وأنزله بجبل الفتح عندما أكمل بناه، وجعل إليه النظر في مسالح الثغور وتفريق العطاء على مسالحها، فطال عهد ولايته ورسخ فيها قدمه. وكان السلطان أبو الحسن يبعث عنه في الشورى متى عنت. وحضره عند سفره إلى إفريقية، وأشار عليه بالإقصار عنها، وأراه أن قبائل بني مرين لا تفي أعدادهم بمسالح الثغور إذا رتبت شرقا وغربا وعدوة البحر وأن إفريقية نحتاج من ذلك إلى أوفر الأعداد وأشد الشوكة، لتغلب العرب عليها وبعد عهدهم بالانقياد، فأعرض السلطان عن نصيحته لما كان شره إلى تملكها، وصرفه إلى مكان عمله بالثغور الأندلسية. ولما كانت نكبة القيروان وانتزى الأبناء بفاس وتلمسان، أجاز البحر لحسم الداء ونزل بغساسة. ثم انتقل إلى وطنه بتازى، وجمع قومه بني عسكر. وألفى السلطان أبا عنان قد هزم عساكر ابن أخيه وأخذ بمخنقه، فأجلب عليه وبيته بمعسكر من ساحة البلد الجديد. وعقد السلطان أبو عنان

على حربه لصنيعه سعيد بن موسى العجيسي، وأنزله بثغر بلاد بني عسكر على واد بوحلو. وتواقفا كذلك أياما حتى نغلب السلطان أبو عنان على البلد الجديد. ثم راسل عيسى بن الحسن في الرجوع إلى طاعته. وأبطأ عنه صريخ السلطان أبي الحسن بإفريقية، فراجعه واشترط عليه، فتقبل وسار إليه، فتلقاه السلطان وامتلأ سرورا بمقدمه. وأنزله قصوره، وجعل الشورى إليه في مجلسه، واستمرت على ذلك حاله.

ولما تمكنت حال ابن أبي عمرو بعد مهلك السلطان أبي الحسن، وانفرد بخلة السلطان ومناجاته، وحجب عن الخاصة والبطانة، أحفظه ذلك ولم يبدها. واستأذن السلطان في الحج، فأذن له وقضى فرضه، ورجع إلى محله من بساط السلطان سنة ست وخمسين. ولقي ابن أبي عمرو ببجاية، وتطارح عليه في أن يصلح حاله عند سلطانه، فوعده في ذلك. ولما وفد على السلطان وجده قد استبد في الشورى، وتنكر للخاصة والجلساء، فاستأذنه في الرجوع إلى مجلسه من الثغر لإقامة رسم الجهاد فأذن له. وأجاز البحر إلى جبل الفتح من سنته، وكان صاحب ديوان العطاء بالجبل يحيى الفرقاجي، وكان مستظهرا على العمال، وكان ابنه أبو يحيى قد برم بمكانه. فلما وصل عيسى إلى الجبل اتبعه السلطان باعطيات المسالح مع مسعود بن كندوز من صنائع دولته، فسرب الفرقاجي إلى الضرب على يده شأنه مع ابنه أيام مغيبه وأنف عيسى من ذلك، فتقبض عليه وأودعه المطبق، ورد ابن كندوز على عقبيه وأركبه السفين من ليلته إلى سبتة، وجاهر بالخلعان. وبلغ الخبر إلى السلطان أبي عنان، فقلق لذلك وقام في ركائبه وقعد، وأوعز بتجهيز الأساطيل، وظن أنه تدبير من الطاغية وابن الأحمر. وبعث أحمد بن الخطيب قائد البحر بطنجة عينا على شأنهم فوصل إلى مرسى الجبل. وكان عيسى بن الحسن لما جاهر بالخلعان، تمشت رجالات الثغر وعرفاء الرجل من غمارة الغزاة الموطنين بالجبل، وتحدثوا في شأنه، وامتنعوا من الخروج على السلطان وتوامروا في إسلامه برمته. وخلا به سليمان بن داود بن أعراب العسكري، كان من خواصه وأهل شوراه. وكان عيسى قد مكن قدمه عند السلطان واستعمله على رندة. فلما جاهر عيسى بالخلعان، وركب له ظهر الغدر، خالفه سليمان هذا إلى طاعة السلطان، وأنفذ كتبه وطاعته. واشتبه عليه الأمر، فندم إذ لم يكن بنى أمره على أساس من الرأي. فلما احتل أسطول أحمد بن الخطيب بمرسى الجبل، خرج إليه وناشده الله والعهد أن يبلغ السلطان طاعته، والبراءة مما صنع أهل الجبل، ونسبها إليهم. فعند ذلك خشي غمارة على أنفسهم، فثاروا به. ولجأ إلى الحصن، فاقتحموه عليه، وشدوه وابنه وثاقا، وألقوه في أسطول ابن الخطيب. وأنزله بسبتة وطير إلى السلطان بالخبر، فخلع عليه وأمر خاصته فخلعوا عليه. وبعث عمر ابن وزيره عبد الله بن علي وعمر بن العجوز وقائد جند النصارى، فأحضروهما بدار السلطان يوم منى من سنة ست. وجلس لهما السلطان،

ووقفا بين يديه وتنصلا واعتذرا فلم يقبل منهما وأودعهما السجن وشد وثاقهما، حتى قضى منسك الأضحى. ولما كان خاتم سنته أمر بهما، فجنبا إلى مصارعهما: وقتل عيسى قعصا بالرماح، وقطع ابنه أبو يحيى من خلاف، وأبى من مداواة قطعه، فلم يزل يتشحط في دمه إلى أن هلك لثانية قطعه، وأصبحا مثلاً في

الآخرين. وعقد على جبل الفتح وسائر ثغور الأندلس لسليمان بن داود إلى أن كان من الأمر ما نذكره إن شاء الله نعالى.

الخبر عن نهوض السلطان إلى قسنطينة وفتحها ثم فتح تونس عقبها:

لما هلك الحاجب محمد بن أبي عمرو، عقد السلطان على الثغور ببجاية وما

وراءها من بلاد إفريقية لوزيره عبدالله بن علي بن سعيد، وسرحه إليها وأطلق يده في الجباية والعطاء. وكانت جبال ضواحي قسنطينة قد تملكها السلطان بما كانت الدواودة متغلبة عليها. وكان عامة أهل ذلك الوطن قبائل سدويكش، وعقد السلطان عليهم لموسى بن إبراهيم بن عيسى، وأنزله بتاوريرت آخر عمل بجاية في أقاربه وولده وصنائعه. ولما نزل ابن أبي عمرو بجاية، وأخذ بمخنق قسنطينة، ثم ارتحل عنها على ما عقد من السلم مع المولى الأمير أبي زيد، أنزل موسى بن إبراهيم بميلة، فاستقر بها. ولما ولي الوزير عبد الله بن علي أمر إفريقية، أوعز إليه السلطان بمنازلة قسنطينة، فنازلها سنة سبع وأخذ بمخنقها. ونصب المنجنيق عليها، واشتد الحصار بأهلها، وكادوا أن يلقوا باليد، لولا ما بلغ المعسكر من الإرجاف بمهلك السلطان، فأفرجوا عنها. ولحق المولى أبو زيد ببونة. وأسلم البلد إلى أخيه مولانا أمير المؤمنين أبي العباس أيده الله نعالى، عندما وصل إليه من إفريقية، كان بها مع العرب طالبا ملكهم بتونس، ومجلباً بهم على ابن تافراكين منذ نازلوا تونس سنة ثلاث وخمسين كما مر. فلما رجع الآن إلى قسنطينة مع خالد بن حمزة، داخل خالد المولى أبا زيد في خروجه إلى حصار تونس، وإقامة مولانا أبي العباس بقسنطينة، فأجاب لذلك وخرج معه.

ودخل مولانا أبو العباس إلى قسنطينة، فدعا لنفسه. وضبط قسنطينة، وكان مدلاً

بب‍أسه وإقدامه. وداخله بعض المنحرفين عن بني مرين من أولاد يوسف رؤساء سدويكش

في تبييت موسى بن إبراهيم بمعسكره من ميلة، فبيتوه وانتهبوا معسكره وقتلوا أولاده

وخلصوا إلى تاوريرت، ثم إلى بجاية، ولحق بمولانا السلطان مفلولا. ونكر السلطان على وزيره عبد الله بن علي ما وقع بموسى بن إبراهيم، وأنه قصر في إمداده، فسرح شعيب بن ميمون وتقبض عليه، وأشخصه إلى السلطان معتقلا، وعقد على بجاية مكانه ليحيى بن ميمون بن أمصمود من صنائع دولته. وفي خلال ذلك راسل المولى أبو زيد الحاجب، أبا عبد الله بن تافراكين المتغلب على عمه إبراهيم، في النزول لهم عن بونة، والقدوم عليهم بتونس، فتقبلوه وأحلوه محل ولي العهد، واستعملوا على بونة من صنائعهم. ولما بلغ خبر موسى بن إبراهيم إلى السلطان أيام التشريق من سنة سبع وخمسين، اعتزم على الحركة إلى إفريقية. واضطرب معسكره بساحة البلد الجديد. وبعث في الحشد إلى مراكش. وأوعز إلى بني مرين، فأخذ الاهبة للسفر، وجلس للعطاء والاعتراض من لدن وصول الخبر إليه إلى شهر ربيع من سنة ثمان. ثم ارتحل من فاس، وسرح في مقدمته وزيره فارس بن ميمون في العساكر وسار في الساقة على التعبية، إلى أن احتل بجاية وتلوم لإزاحة العلل.

ونازل الوزير قسنطينة، ثم جاء السلطان على أثره. ولما أطلت راياته، وماجت الأرض بعساكره، ذعر أهل البلد وألقوا بأيديهم إلى ا"لإذعان، وانفضوا من حول سلطانهم مهطعين إلى السلطان، وتحيز صاحب البلد في

خاصته إلى القصبة. ووصل أخوه المولى الفضل يطلب الأمان، فبذله السلطان لهم وخرجوا وأنزلهم لمعسكره أياما. ثم بعث بالسلطان في الأسطول إلى سبتة، فاعتقله بها إلى أن كان من أمره ما نذكره بعد.

وعقد على قسنطينة لمنصور بن الحاج مخلوف اليابابي من مشيخة بني مرين وأهل الشورى منهم، وأنزله بالقصبة منها في شعبان من سنته. ووصل إليه بمعسكره من ساحة قسطنينة بيعة يحيى بن يملول صاحب توزر، وبيعة علي بن الخلف صاحب نفطة. ووفد ابن مكي فجدد طاعته. ووصل إليه أولاد مهلهل أمراء الكعوب وأقتال بني أبي الليل يستحثون لملك تونس، فسرح معهم العساكر، وعقد عليها ليحيى بن رحو بن تاشفين، وبعث أسطوله في البحر مددا لهم، وعقد عليه للرئيس محمد بن يوسف الأبكم، وساروا إلى تونس وأخرج الحاجب أبو محمد بن تافراكين سلطانه أبا إسحاق إبراهيم ابن مولانا السلطان أبي يحيى مع أولاد أبي الليل، وجهز له العساكر لما أحس بقدوم عساكر السلطان. ووصل الأسطول إلى مرسى تونس، فقاتلهم يوما أبو بعض يوم وركب الليل

إلى المهدية، فتحصن بها. ودخل أولياء السلطان إلى تونس في رمضان من سنة ثمان، وأقاموا بها دعوته. واحتل يحيى بن رحو بالقصبة، وأنفذ الأوامر، وكتبوا إلى السلطان بالفتح. ونظر السلطان بعد ذلك في أحوال الوطن، وقبض أيدي العرب من رياح عن الأتاوة التي يسمونها الخفارة فارتابوا، وطالبهم بالرهن فأجمعوا على الخلاف. وأرهف لهم حده، وتبين يعقوب بن علي أميرهم مكره، فخرج معهم ولحقوا جميعا بالزاب، وارتحل في أثرهم. وسار يوسف بن مزني عامل الزاب ينفض الطريق أمامه حتى نزل بسكرة. ثم ارتحل إلى طولقة، فتقبض على مقدمها عبد الرحمن بن أحمد بإشارة ابن مزني. وخرب حصون يعقوب بن علي، وأجفلوا إلى القفر أمامه، ورجع عنهم. وحمل له ابن مزني جباية الزاب، بعد أن وعد عامة معسكره بالقرى من الحنطة والأدم واللحمان والعلوفة لثلاث ليال نفذت في ذلك وكافأه السلطان عن صنيعه، فخلع عليه وعلى ولده وأسنى جوائزهم ورجع إلى قسنطينة، وأعزم على الرحلة إلى تونس. وضاق ذرع العساكر بشأن النفقات والأبعاد في المذاهب، وارتكاب الخطر في دخول إفريقية، فتمشت رجالاتهم في الانفضاض عن السلطان وداخلوا الوزير فارس بن ميمون، فوافقهم عليه وأذن المشيخة والنقباء لمن تحت أيديهم من القبائل في اللحاق بالمغرب حتى تفردوا. ونمي الخبر إلى السلطان أنهم توامروا في قتله. ونصب إدريس بن عثمان بن أبي العلاء للأمر، فأسرها بنفسه ولم يبدها لهم. ورأى قلة العساكر، وعلم بانفضاضهم، فكر راجعا إلى المغرب بعد أن ارتحل عن قسنطينة مرحلتين إلى المشرق وأغذ السير إلى فاس، واحتل بها غرة ذي الحجة من سنته. وتقبض يوم دخوله على وزيره فارس بن ميمون، اتهمه في مداخلة بني مرين في شأنه، وقتله رابع أيام التشريق قعصا بالرماح. وتقبض على مشيخة بني مرين فاستلحمهم وأودع منهم السجن. وبلغ إلى الجهات خبر رجوعه من قسنطينة إلى المغرب، فارتحل أبو محمد بن تافراكين من المهدية إلى تونس. ولما أطل عليها ثار شيعته بالبلد على من كان بها من عساكر السلطان وخلصوا إلى السفين، فنجوا إلى المغرب. وجاء على أثرهم يحيى بن رحو بمن معه من العساكر كان

مع أولاد مهلهل بناحية الجريد لاقتضاء جبايتهم. واجتمعوا بباب السلطان، وأرجأ حركته إلى اليوم القابل، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وزارة سليمان بن داود، ونهوضه بالعساكر إلى إفريقية:

لما رجع السلطان من إفريقية ولم يستتم فتحها، بقي في نفسه منها شيء. وخشي على ضواحي قسنطينة من يعقوب بن علي ومن معه من الدواودة المخالفين، فأهمه شأنهم، واستدعى سليمان بن داود من مكان ولايته بثغور الأندلس، وعقد له على وزارته. وسرحه في العساكر إلى إفريقية، فارتحل إليها لربيع من سنة تسع وخمسين. وكان يعقوب بن علي لما كشف عن وجهه في الخلاف، أقام السلطان مكانه أخاه ميمون بن علي منازعه، وقدمه على أولاد محمد من الدواودة، وأحله بمكانه من رياسة البدو والضواحي. ونزع إليه عن أخيه يعقوب الكثر من قومه، وتمسك بطاعة السلطان طوائف من أولاد سباع بن يحيى، وكبيرهم يومئذ عثمان بن يوسف بن سليمان، فانحاشوا جميعا إلى الوزير ونزلوا على معسكره بحللهم. وارتحل السلطان في أثره حتى احتل بتلمسان، فأقام بها لمشارفة أحواله منها واحتل الوزير سليمان بوطن قسنطينة. وأوعز السلطان إلى عامل الزاب يوسف بن مزني بأن يكون يده معه، وأن يؤامره في أحوال الدواودة لرسوخه في معرفتها فارتحل إليه من بسكرة، ونازلوا جبل أوراس واقتضوا جبايته ومغارمه. وشردوا المخالفين من الدواودة عن العيث في الوطن، فتم غرضهم من ذلك. وانتهى الوزير وعساكر السلطان إلى أول أوطان إفريقية من آخر مجالات رياح، وانكفأ راجعا إلى المغرب. ووافى السلطان بتلمسان ووصلت معه وفود العرب الذين أبلوا في الخدمة، فوصلهم السلطان وخلع عليهم، وحملهم وفرض لهم العطاء بالزاب وكتب لهم به، وانقلبوا إلى أهلهم. ووفد على أثرهم أحمد بن يوسف بن مزني، أوفده أبوه بهديته إلى السلطان من الخيل والرقيق والدرق فتقبلها السلطان وأكرم وفادته وأنزله. واستصحبه إلى فاس ليريه أحوال كرامته، ويستبلغ في الاحتفاء به. واحتل بدار ملكه منتصف ذي القعدة من سنة تسع وخمسين. والله أعلم.

الخبر عن مهلك السلطان أبي عنان، ونصب السعيد للأمر، باستبداد الوزير الحسن بن عمر في ذلك:

لما وصل السلطان إلى دار ملكه بفاس، احتل بها بين يدي العيد الأكبر حتى إذا قضى الصلاة من يوم الأضحى أدركه المرض، وأعجله طائف الوجع عن الجلوس يوم العيد على العادة، فدخل إلى قصره ولزم فراشه، واشتد به، وأطاف به النساء يمرضنه. وكان ابنه أبو زيان ولي عهده، وكان وزيره موسى بن عيسى العقولي من صنائع دولتهم وأبناء وزرائهم، قد عقد السلطان له على وزارته واستوصاه به، فتعجل الأمر ودخل رؤوس بني مرين في الانحياش إلى أميرهم والفتك بالوزير الحسن بن عمر. وداخله في ذلك عمر بن ميمون لعداوة بينهما وبين الوزير فخشيهم الحسن بن عمر على نفسه. وفاوض عليه أهل المجلس بذات صدره، وكانت نفرتهم عن ولي العهد مستحكمة لما بلوا من سوء دخلته، وشر ملكته، فاتفقوا على تحويل الأمر عنه. ثم نمي لهم أن السلطان مشرف على الهلكة لا محالة، وأنه موقع بهم من قبل مهلكه، فأجمعوا أمرهم على الفتك به والبيعة لأخيه السعيد طفلا خماسيا. وباكروا دار السلطان، وتقبضوا على

وزيره موسى بن عيسى، وعمر بن ميمون فقتلوهما، وأجلسوا السعيد للبيعة. وأوعز وزيره مسعود بن رحو بن ماساي بالتقبض على أبي زيان من نواحي القصر، فدخل إليه وتلطف في إخراجه من بين الحرم. وقاده إلى أخيه فبايعه وتله إلى بعض حجر القصر، فأتلف فيها مهجته. واستقل الحسن بن عمر بالأمر يوم الأربعاء الرابع والعشرين لذي الحجة من سنة تسع وخمسين، والسلطان أثناء ذلك على فراشه يجود بنفسه. وارتق الناس دفنه يوم الخميس والجمعة بعده، فلم يدفن فارتابوا. وفشا الكلام، وارتاب الجماعة، فأدخل الوزير، زعموا، إليه بمكانه من بيته من غطه حتى أتلفه. ودفن يوم السبت، وحجب الحسن بن عمر الولد السعيد المنصوب للأمر، وأغلق عليه بابه، وتفرد بالأمر والنهي دونه. ولحق عبد الرحمن ابن السلطان أبي عنان بجبل لكاي يوم بيعة أخيه، وكان أسن منه وإنما آثروه لمكان ابن عفه مسعود بن ماساي من وزارته، فبعثوا إليه من لاطفه واستتزله على الأمان، وجاء به إلى أخيه، فاعتقله الحسن بالقصبة من فاس. وبعث عن أبناء السلطان الأصاغر الأمراء بالثغور: فجاء المعتصم من سجلماسة، وامتنع المعتمد بمراكش، كان بها كفالة عامر بن محمد الهنتاتي، استوصاه به السلطان وجعله هنالك لنظره، فمنعه من الوصول، وخرج به من مراكش إلى معقله من جبل هنتاتة، وجهز الوزير العساكر لمحاربته. ولم يزل هنالك إلى أن استتزله عمه السلطان أبو سالم، عند استيلائه على ملك المغرب كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن تجهيز العساكر إلى مراكش، ونهوض الوزير سليمان بن داود لمحاربة عامر بن محمد بن علي:

كان عامر بن محمد بن علي، شيخ هنتاتة، من قبائل المصامدة. وكان السلطان

يعقوب قد استعمل أباه محمد بن علي على جباياتهم، والسلطان أبو سعيد استعمل عمه موسى بن علي. وربي عامر هذا في كفالة الدولة، وسار في جملة السلطان إلى إفريقية، وولاه السلطان أحكام الشرطة بتونس. ولما ركب البحر إلى المغرب أركب حرمه وحظاياه في السفين، وجعلهم إلى نظر عامر بن محمد. وأجازوا البحر إلى الأندلس، فنزلوا المرية. وبلغهم غرق الأسطول بالسلطان أبي الحسن وعساكره، فأقام بهم بمكانه من المرية. وبعث السلطان أبو عنان عنه، فلم يجب داعيه وفاء ببيعة أبيه. حتى إذا هلك السلطان أبو الحسن بدارهم بالجبل، ورعى لهم السلطان أبو عنان إجارتهم لأبيه، حين لفظته البلاد وتحاماه الناس، أجمع أمره على الوفادة عليه، فوفد بمن معه من الحرم. وأكرم السلطان أبو عنان وفادته، وأحسن نزله. ثم عقد له على جباية المصامدة سنة أربع وخمسين، وبعثه لها من تلمسان، فاضطلع بهذه الولاية. وأحسن الغناء فيها، والكفاية عليها، حتى كان السلطان أبو عنان يقول: وددت لو أصبت رجلا يكفيني ناحية الشرق من سلطاني، كما كفاني عامر بن محمد ناحية الغرب واتورع. ونافسه الوزراء في مقامه ذلك عند السلطان ورتبته. وانفرد الحسن بن عامر آخر الأمر بوزارة السلطان، فاشتدت منافستهم وانتهت إلى العداوة والسعاية.

وكان السلطان بين يدي مهلكه ولى أبناءه الأصاغر على أعمال ملكه: فعقد لابنه

محمد المعتمد على مراكش، واستوزر له، وجعله إلى نظر عامر واستوصاه به. فلما هلك السلطان وانتقل الحسن بن عمر بالأمر، ونصب السعيد للملك، استقدم الأبناء من الجهات، فبعث عن المعتمد بمراكش، فأبى

عليه عامر من الوفادة عليهم، وصعد به إلى معقله من جبل هنتاتة. وبلغ الحسن بن عمر خبره، فجهز إليه العساكر، وأزاح عللهم. وعقد على حربه للوزير سليمان بن داود مساهمة في القيام بالأمر، وسرحه في المحرم من سنة ستين، فأغذ السير إلى مراكش، واستولى عليها. وصمد إلى الجبل فأحاط به، وضيق على عامر، وطاول منازلته. وأشرف على اقتحام معقله، إلى أن بلغ خبر افتراق بني مرين، وخروج منصور بن سليمان من أعياص الملك على الدولة، وأنه منازل للبلد

الجديد، فانفض المعسكر من حوله، وتسابقوا إلى منصور بن سليمان، فلحق به الوزير سليمان بن داود وتنفس المخنق عن عامر، إلى أن استولى السلطان أبو سالم على ملك المغرب في شعبان من سنة ستين. واستقدم عامر والمعتمد ابن أخيه من مكانهم بالجبل، فقدم عليه وأسلمه إليه، كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ظهور أبي حمو بنواحي تلمسان، وتجهيز العساكر لمدافعته، ثم تغلبه عليها، وما تخلل ذلك من الأحداث:

كان أبناء عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن هؤلاء أربعة كما ذكرناه في أخبارهم، وكان يوسف كبيرهم، وكان سكوناً منتحلا لطرق الخير لا يريد علوا في الأرض. ولما ملك أخوه عثمان بتلمسان، عقد له على تنس. وكان ابنه موسى متقبلا مذهبه في السكون والدعة ومجانبة أهل الشر. ولما تغلب السلطان أبو عنان عليهم سنه ثلاث وخمسين، وفر أبو ثابت إلى قاصية الشرق، واهتبلتهم قبائل زواوة وأرجلوهم عن خيلهم سعوا على أقدامهم. وانتبذ أبو ثابت وأبو زيان ابن أخيه أبي سعيد وموسى ابن أخيه يوسف ووزيرهم يحيى بن داود ناحية عن قومهم، وسلكوا غير طريقهم. وتقبض على أبي ثابت ويحيى بن داود ومحمد بن عثمان، وخلص موسى إلى تونس، فنزل على الحاجب أبي محمد بن تافراكين وسلطانه خير نزل، وأجاره مع فل من قومه، خلصوا إليهم وأسنوا جرايتهم. وبعث السلطان أبو عنان فيهم إلى ابن تافراكين، فأبى من إسلامهم وجاهر بإجارتهم على السلطان.

ولما استولت عساكر السلطان على تونس، وأجفل عنها سلطانها أبو إسحاق إبراهيم ابن مولانا السلطان أبي يحيى، خرج موسى بن يوسف هذا في جملته. ولما رجع السلطان إلى المغرب، صمد المولى أبو إسحاق إبراهيم ابن مولانا السلطان أبي بجيى، وابن أخيه المولى أب و زيد صاحب قسنطينة مع يعقوب بن علي وقومه من الدواودة، إلى منازلة قسنطينة وارتجاعها. وسار في جملتهم موسى بن يوسف هذا فيمن كان عندهم من زناتة قومه. وكان بنو عامر بن زغبة خارجين على السلطان أبي عنان منذ كلبه بني عبد الواد على تلمسان. وكانت رياستهم إلى صغير بن عامر بن إبراهيم، فلحق بإفريقية في قومه. ونزلوا على يعقوب بن علي، وجاوروه بحللهم وظعنهم. فلما أفرجوا

عن قسنطينة بعد امتناعها، واعتزم صغير على الرحلة بقومه إلى وطنهم من صحراء المغرب الأوسط دعوا موسى بن يوسف هذا إلى الرحلة معهم لينصبوه للأمر، ويجلبوا به على تلمسان فخلى الموحدون سبيله، وأعانوه بما اقتدروا عليه لوقتهم، وعلى حال سفرهم من آلة وفسطاط. وارتحل مع بني عامر، وارتحل معهم

صولة بن يعقوب بن علي، وزيان بن عثمان بن سباع من أمراء الدواودة، ودغار بن عيسى في حلله من بني سعيد إحدى بطون رياح. وأغذ السير إلى المغرب للعيث في نواحيه. وجمع لهم أقتالهم من سويد أولياء السلطان والدولة. والتقوا بقبلة تلمسان، فانهزمت سويد، وهلك عثمان ابن كبيرهم ونزمار وكان مهلك السلطان في خلال ذلك.

وكان السلطان حين استعمل الأبناء على الجهات، عقد لمحمد المهدي من أولاده

على تلمسان. ولما اتصل خبر وفاة السلطان بالعرب، أغذوا السير إلى تلمسان وملكوا ضواحيها. وجهز الحسن بن عمر إليها عسكرا عقد عليه وعلى الحامية الذين بها لسعيد بن موسى العجيسي من صنائع السلطان، وسرحه إليها، وسار في جملته أحمد بن مزني فاصلا إلى عمله بعد أن وصله وخلع عليه وحمله. وسار سعيد بن موسى في العساكر إلى تلمسان، فاحتل بها في صفر من سنة ستين. وزحف إليهم جموع بني عامر وسلطانهم أبو موسى بن يوسف، فغلبوهم على الضاحية وأحجزوهم بالبلد. ثم نازلوهم الحرب أياما، واقتحموها عليهم لثمان خلون من ربيع، واستباحوا من كان بها من العسكر، وامتلأت أيديهم من أسلابهم ونهابهم. وخلص سعيد بن موسى بابن السلطان إلى حلة صغير بن عامر، فأجاره ومن جاء على أثره من قومه وأوفد معهم رجالات من بني عامر ينفضون الطريق أمامه إلى أن أبلغوه مأمنه من دار ملكهم. واستولى أبو حمو على ملك تلمسان، واستأثر بالهدية التي ألفى بمودعها، كان السلطان انتقاها وبعث بها إلى صاحب برشلونة بطره بن ألقنط، وبعث إليه بها بفرس أدهم من مقرباته بمركب ولجام ذهبيين ثقيلين. فاتخذ أبو حمو ذلك الفرس لركوبه، وصرف الهدية في مصارفه ووجوه مذاهبه. والله غالب على أمره.

الخبر عن نهوض الوزير مسعود بن ماساي إلى تلمسان، وتغلبه عليها، ثم انتقاضه، ونصبه منصور بن سليمان للأمر:

لما بلغ الوزير الحسن بن عمر خبر تلمسان، واستيلاء أبي حمو عليها، جمع

مشيخة بني مرين، ووامرهم في النهوض إليها، فأبوا عليه من النهوض بنفسه، وأشاروا بتجهيز العسكر ووعدوه بمسيرهم كافة ففتح ديوان العطاء وفرق الأموال وأسنى الصلات وأزاح العلل، وعسكر بساحة البلد الجديد. ثم عقد عليهم لمسعود بن رحو بن ماساي، وحمل من المال وأعطاه الآلة، وسار في الألوية والعساكر. وكان في جملته منصور بن سليمان بن أبي مالك بن يعقوب بن عبد الحق وكان الناس يرخون بأن سلطان المغرب صائر إليه بعد مهلك أبي عنان. وشاع ذلك في ألسنة الناس وذاع، وتحدث به السمر والندمان، وخشي منصور على نفسه لذلك، فجاء إلى الوزير وشكا إليه ذلك، فانتهره بأن لا يختلج بفكره مثل هذا الوسواس، انتهارا خلا من وجه السياسة، فازدجر واقتصر. ولقد شهدت هذا الموطن، ورجمت ذلة انكساره وخضوعه في موقفه. ورحل الوزير مسعود في التعبية. وأفرج أبو حمو عن تلمسان، ودخلها مسعود في ربيع الثاني واستولى عليها. وخرج أبو حمو إلى الصحراء وقد اجتمعت إليه جموع العرب من زغبة والمعقل. ثم خالفوا بني مرين إلى المغرب واحتلوا بأنكاد بحللهم وظواعنهم وجهز مسعود بن رخو إليهم عسكراً من جنوده انتقى فيه مشيخة

من بني مرين وأمرائهم، وعقد عليهم لعامر ابن عمه عبو بن ماساي. وسرحهم فزحفوا إليهم بساحة وجدة. وصدقهم العرب الحملة، فانكشفوا واستبيح معسكرهم، واستلبت مشيختهم، وأرجلوا عن خيلهم، ودخلوا إلى وجدة عراة. وبلغ الخبر إلى بني مرين بتلمسان، وكان في قلوبهم مرض من استبداد الوزير عليهم وحجزه لسلطانهم، فكانوا يتربصون بالدولة. فلما بلغ الخبر وجاض الناس له جيضة الحمر، خلص بعضهم نجيا بساحة البلد واتفقوا على البيعة ليعيش بن علي بن أبي زيان ابن السلطان أبي يعقوب فبايعوه.

وانتهى الخبر إلى الوزير مسعود بن رحو، وكان متحينا سلطان منصور بن سليمان، فاستدعاه وأكرهه على البيعة، وبايعه معه الرئيس الأكبر من بني الأحمر، وقائد جند النصارى القمندوز وتسايل إليه الناس، وتسامع الملأ من بني مرين بالخبر، فبادروا إليه من كل جانب. وذهب يعيش ابن أبي زيان لوجه، فركب البحر وخلص إلى الأندلس، وانعقد الأمر لمنصور بن سليمان. واجتمع بنو مرين على كلمته، وارتحل بهم من تلمسان بريد المغرب. واعترضتهم جموع العرب بطرياتهم، فأوقعوا بهم، وامتلأت أيديهم من أسلابهم وظعنهم. وأغذوا السير إلى المغرب، واحتلوا بسبو في منتصف جمادى الآخرة

وبلغ الخبر إلى الحسن بن عمر، فاضطرب معسكره بساحة البلد. وأخرج السلطان في الآلة والتعبية إلى أن أنزله بفسطاطه. ولما غشيهم الليل، انفضوا عنه ونزع الملأ إلى السلطان منصور بن سليمان، فأوقد الشموع وأذكى النيران حول الفسطاط، وجمع الموالي والجند، وأركب السلطان، ودخل إلى قصره، وانحجز بالبلد الجديد.

وأصبح منصور بن سليمان، فارتحل في التعبية حتى نزل بكدية العرائس في الثاني والعشرين لجمادى، واضطرب معسكره بها، وغدا عليها بالقتال وشد عليها الحملات، وامتنعت ليومها. ثم جمع الأيدي على اتخاذ الآلات للحصار. واجتمعت إليه وفود الأمصار بالمغرب للبيعة. ولحقت به كتائب بني مرين التي كانت مجمرة بمراكش لحصار عامر مع الوزير سليمان بن داود فاستوزره، وأطلق عبد الله بن علي وزير السلطان أبي عنان من معتقله، فاستوزره أيضا. وأوعز بإطلاق مولانا أبي العباس صاحب قسنطيط من معتقله بسبتة، فخلص منه خلوص الإبريز بعد السبك. وأمر منصور بن سليمان بتسريح السجون، فخرج من كان بها من دعار بجاية وقسنطينة، وكانوا معتقلين من لدن استحواذ السلطان أبي عنان على بلادهم. وانطلقوا إلى مواطنهم وأشام على البلد الجديد يغاديها بالقتال ويراوحها. ونزع عنه إلى الوزير الحسن بن عمر طائفة من بني مرين. ولحق آخرون ببلادهم، وانتقضوا عليه ينتظرون مال أمره. ولبث على هذه الحال إلى غرة شعبان، فكان من قدوم السلطان أبي سالم لملك سلفه بالمغرب، واستيلائه عليه، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نزول المولع أبي سالم بجبال غمارة، واستيلائه علي ملك المغرب، ومقتل منصور بن سليمان:

كان السلطان أبو سالم بعد مهلك أبيه واستقراره بالأندلس، وخروج أبي الفضل بالسوس لطلب الأمر، ثم ظفر السلطان أبي عنان به ومهلكه كما ذكرنا، قد تورع وسكن وسالمه السلطان. ثم هلك سلطان الأندلس أبو الحجاج سنة خمس وخمسين يوم الفطر بمصلى العيد، طعنه أسود موسوس كان ينسب إلى أخيه محمد من بعض إماء قصرهم. ونصبوا للأمر ابنه محمدا، وأحجبه مولاه رمضان واستبد عليه. وكان للسلطان أبي عنان اعتزاز

كما ذكرناه، وكان يؤمل ملك الأندلس. وأوعز إليهم عندما طرقه من طائف المرض سنة سبع وخمسين، أن يبعثوا إليه طبيب دارهم إبراهيم بن زرزر الذمي، وامتنع من ذلك

اليهودي، واعتذروا عذره، فنكر لهم السلطان قبله. ولما وصل إلى فاس من فتح قسنطينة وإفريقية، وتقبض على وزيره والمشيخة من قبله، تجنيا عليهم، إن لم يبادر السلطان بنفسه وحاجبه للتهنية. وأظلم الجو بينهم، واعتزم على النهوض إليهم، وكانوا منحاشين بالجملة إلى الطاغية بطره بن أدفونش صاحب قشتالة، منذ مهلك أبيه ألهنشة على جبل الفتح سنة إحدى وخمسين. ثم استبد رضوان على الدولة بعد مهلك أبي الحجاج، كانت له صاغية إليهم، ظاهرها النظر للمسلمين بمسالمة عدوهم. وكان السلطان أبو عنان يعتد ذلك عليهم، وعلم أنه لا بد أن يمدهم بأساطيله، ويدافعوه عن الإجازة إليهم. وكان بين الطاغية بطرة وبين قمص برشلونة فتنة هلك فيها أهل ملتهم، فصرف السلطان إلى قمص برشلونة، وخاطبه في اتصال اليد على أدفونش واجتماع أسطول. وأسطول القمص بالزقاق، وضربوا بذلك الموعد. وأتحفه السلطان بهدية سنية. متاع المغرب وماعونه، ومركب ذهبي صنيع، ومقرب من جياده. وأنفذها إليه، فبلغت تلمسان، وهلكت قبل وصولها إلى محلها.

ولما هلك السلطان أبو عنان أمل أخوه المولى أبو سالم ملك أبيه، وطمع في

مظاهرة أهل الأندلس له على ذلك، لما كان بينهم وبين أخيه. واستدعاه أشياع من أهل

المغرب، ووصل البعض منهم إليه بمكانه من غرناطة، وطلب الإذن من رضوان في الإجازة، فأبى عليه، فاحفظه ذلك. ونزع إلى ملك قشتالة متصارحا بنفسه عليه أن يجهز الأسطول للإجازة إلى المغرب، فاشترط عليه، وتقبل شرطه. وأجازه في أسطوله إلى مراكش، فامتنع عامر من قبوله لما كان فيه من التضييق والحصار بحصة سليمان بن داود ذكرناه، فانكفأ راجعا على عقبه. فلما حاذى طنجة وبلاد غمارة ألقى بنفسه إليهم،

ونزل بالصفيحة من بلادهم. واشتملت عليه قبائلهم، وتسايلو إليه من كل حدب، وبايعوه على الموت. وملك سبتة وطنجة، وبها يومئذ السلطان أبو العباس ابن أبي حفص صاحب . " لحق بها بعد الخروج من اعتقاله بسبتة كما ذكرناه، فاختصه المولى أبو سالم بالصحابة والخلة، وألفه في اغترابه ذلك إلى أن استولى على ملكه. وألقى بطنجة الحسن بن يوسف الورتاجني، وكاتب ديوان الجند أبا الحسن علي بن السعود، والشريف أبا القاسم التلمساني. كان منصور بن سليمان ارتاب بهم، واتهمهم بمداخلة الحسن بن

عمر بمكانه من البلد الجديد، فصرفهم من معسكره إلى الأندلس، فوافوا المولى أبا سالم عند استيلائه على طنجة، فساروا في إيالته. واستوزر الحسن بن يوسف، واستكتب لعلامته أبا الحسن علي بن السعود، واختص الشريف بالمجالسة والمراكبة. ثم قام أهل الثغور الأندلسية بدعوته. وأجاز يحياتن بن عمر صاحب جبل الفتح إليه بمن كان معه من المعسكر. وطنت حصاة المولى أبي سالم واتسع معسكره وبلغ خبره إلى الثائر على البلد الجديد منصور بن سليمان، فجهز عسكرا لدفاعه. وعقد عليه لأخويه عيسى وطلحة، وأنزلهم قصر كتامة. وقاتلوه فهزموه، واعتصم بالجبل. وبادر الحسن بن عمر من وراء الجدران، فبعث إليه بطاعته، ووعده بالتمكن من دار ملكه. وداخل بعض أشياع المولى أبي سالم مسعودك بن رحو بن ماساي وزير منصور في التروع إلى

السلطان، وكان قد ارتاب بمنصور وابنه علي، فترع وانفض الناس من حول منصور، وتخاذل أشياعه من بني مرين، ولحق ببادس من سواحل المغرب. ومشى أهل المعسكر بأجمعهم في ساقاتهم ومواكبهم على التعبية، فلحقوا بالسلطان أبي سالم واستغذوه إلى دار ملكه فأغذ السير، وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد عن الأمر، وأسلمه إلى عمه وخرج إليه فبايعه.

ودخل السلطان إلى البلد الجديد يوم الجمعة منتصف شعبان من سنة ستين. واستولى على ملك المغرب، وتوافت وفود النواحي بالبيعات. وعقد للحسن بن عمر على مراكش، وجهزه إليها بالعساكر ريبة بمكانه. واستوزر مسعود بن رحو بن ماساي والحسن بن يوسف الورتاجني، واصطفى من خواصه خطيب أبيه الفقيه أبا عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق، وجعل إلى مؤلف هذا الكتاب توقيعه وكتابة سره. وكنت نزعت إليه من معسكر منصور بن سليمان بكدية العرائس لما رأيت من اختلال أحواله، ومصير الأمر إلى السلطان، فأقبل علي وأنزلني بمحل البنوة، واستخلصني لكتابته. واستوسق أمره بالمغرب. وتقبض شيعة السلطان ببادس على منصور بن سليمان وابنه علي، وقادوهم مصفدين إلى سدته، فأحضرهم ووبخهم. وجنبوا إلى مصارعهم، فقتلوا قعصا بالرماح آخر شعبان من سنته. وجمع الأبناء والقرابة المرشحين من ولد أبيه وعمه، فأشخصهم إلى رندة من ثغورهم بالأندلس، ووكل بهم من يحرسهم. ونزع محمد بن أبي أخيه أبي عبد الرحمن منهم إلى غرناطة. ثم لحق منها بالطاغية واستقر لديه، حتى

كان من تملكه المغرب ما نقصه. وهلك الباقون غرقا في البحر بإيعاز السلطان بذلك، بعد مدة من سلطانه، أركبهم السفين إلى المشرق، ثم غرقهم. وخلص الملك من الخوارج والمنازعين واستوسق له الأمر والله غالب على أمره. احتفل السلطان في كرامة مولانا السلطان أبي العباس، وشاد ببره، وأوعز باتخاذ دار عامر بن فتح الله وزير أبيه لترله، ومهد له المجلس لصق أريكته، ووعده بالمظاهرة على ملكه، إلى أن بعثه من تلمسان عند استيلائه عليها، كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة ومقتل رضوان ومقدمه علي السلطان:

لما هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين، ونصب ابنه محمد للأمر، واستبد عليه رضوان مولى أبيه وكان قد رشح ابنه الأصغر إسماعيل بما ألقى عليه وعلى أمه من محبته. فلما عدلوا بالأمر عنه حجبوه ببعض قصورهم، وكان له صهر من ابن عمه محمد بن إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد في شقيقه، فكان يدعوه سرا إلى القيام بأمره، حتى أمكنته فرصة في الدولة، فخرج السلطان إلى بعض متترهاته برياضه، فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين لرمضان من سنة ستين في أوشاب جمعهم من الطغام لثورته. وعمد إلى دار الحاجب رضوان، فاقتحم عليه الدار، وقتله بين حرمه وبناته. وقربوا إلى إسماعيل فرسه وركبه، فأدخلوه القصر وأعلنوا ببيعته. وقرعوا طبولهم بسور الحمراء، وفر السلطان من مكانه بمتترهه، فلحق بوادي آش. وغدا الخاصة والعامة على إسماعيل، فبايعوه. واستبد عليه هذا الرئيس ابن عمه. ثم قتله لأشهر من بيعته، واستقل بسلطان الأندلس ولما

لحق السلطان أبو عبد الله بوادي آش بعد مقتل حاجبه رضوان، واتصل الخبر بالسلطان المولى أبي سالم، امتعض لمهلك رضوان وخلع السلطان رعيا لما سلف له في جوارهم. وأزعج
لحينه أبا القاسم الشريف من أهل مجلسه لاستقدامه، فوصل إلى الأندلس، وعقد مع أهل الدولة على إجازة المخلوع من وادي آش إلى المغرب، وأطلق من اعتقالهم الوزير الكاتب أبا عبد الله بن الخطيب، كانوا اعتقلوه لأول أمره لما كان رديفا للحاجب رضوان، وركنا لدولة المخلوع، فأوصر المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه فأطلقوه. ولحق الرسول أبو القاسم بسلطانه المخلوع بوادي آش للإجازة إلى المغرب، وأجاز لذي القعدة من سنته. وقدم على السلطان بفاس، فأجل قدومه، وركب للقائه، ودخل به إلى مجلس ملكه، وقد احتفل بزينته، وغص بالمشيخة والعلية. ووقف وزيره ابن الخطيب، فأنشد السلطان قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه، ويستحثه لمظاهرته على أمره. واستعطف واسترحم، بما أبكى الناس شفقة ورحمة. ونص القصيدة:
******نقص******

ثم انفض المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى نزله، وقد فرشت له القصور، وقربت الجياد بالمراكب الذهبية، وبعث إليه بالكسى الفاخرة، ورتبت الجرايات له ولمواليه من المعلوجي وبطانته من الصنائع. وانحفظ عليه رسم سلطانه في الموكب والرجل، ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الآلة أدباً مع السلطان. واستقر في جملته إلى أن كان من لحاقه بالأندلس، وارتجاع ملكه سنة ثلاث وستين وسبعمائة، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض الحسن بن عمر، وخروجه بتادلا، وتغلب السلطان عليه، ومهلكه :

لما فصل الوزير الحسن بن عمر إلى مراكش، واستقر بها، تأثل له بها سلطان ورياسة، نفسها عليه الوزراء بمجلس السلطان، وسعوا في تنكر السلطان له، حتى أظلم الجو بينهما. وشعر الوزير بذلك، فارتاب بمكانه، وخشي بادرة السلطان على نفسه. وخرج من مراكش في شهر صفر من سنة إحدى وستين وسبعمائة، فلحق بتادلاً، منحرفاً عن الطاعة، مرتكباً في أمره. وتلقاه بنو جابر من جشم، واعصوصبوا عليه وأجاروه. وجهز السلطان عساكره إلى حربه، وعمد عليها لوزيره الحسن بن يوسف وسرحه إليه، فاحتل بتادلاً. ولحق الحسن بن عمر بالجبل، واعتصم به مع حسين بن علي الورديغي كبيرهم. وأحاطت بهم العساكر وأخذوا بمخنقهم. وداخل الوزير بعض أهل الجبل من صناكة في الثورة بهم. وسرب إليهم المال، فثاروا بهم وانفض جمعهم. وتقبض على الحسن بن عمر، وقادوه برفته إلى عسكر السلطان فاعتقله الوزير وانكفأ راجعاً إلى الحضرة، وقدم به على السلطان في يوم مشهود، استركب السلطان فيه العسكر. وجلس ببرج الذهب مقعده من ساحة البلد لاعتراض عساكره. وحمل الحسن بن عمر على جمل، طائف به بين أهل ذلك المحشر. وقرب إلى المجلس، فأومأ إلى تقبيل الأرض فوق جمله، وركب السلطان إلى قصره. وانفض الجميع وقد شهدوا عبرة من عبر الدنيا. ودخل السلطان نصره واقتعد أريكته واستدعى خاصته وجلساءه. وأحضره، فوبخه وقرر عليه مرتكبه،

فتلوى بالمعاذير وفزع إلى الإنكار. حضرت يومئذ هذا المجلس فيمن حضره من العلية والخاصة، فكان مقاماً تسيل فيه العيون رحمة وعبرة. ثم أمر به السلطان، فسحب على وجهه ونتفت لحيته وضرب بالعصى. وتل إلى محبسه وقتل لليال من اعتقاله قعصاً بالرماح بساحة البلد. وصلب شلوه بسور البلد، عند باب المحروق وأصبح مثلاً في الاخرين.

الخبر عن وفد السودان، وهديتهم، و أغرابهم فيها بالزرافة:

كان السلطان أبو الحسن لما أهدى إلى ملك السودان منسا سليمان بن منسا موسى

هديته المذكورة في خبره، اعتمل في مكافأته وجمع لمهاداته من طرف أرضه وغرائب بلاده. وهلك السلطان أبو الحسن خلال ذلك. ووصلت الهدية إلى أقصى تخومهم من والاتن. هلك منسا سليمان قبل وصولها. واختلف أهل مالي وافترق ملكهم. وتواثب ملوكهم على الأمر وقتل بعضهم بعضاً. وشغلوا بالفتنة، حتى قام فيهم منسا جاطه واستوسق له أمرهم ونظر في أعطاف ملكه. وأخبر بشأن الهدية وأخبر أنها بوالاتن، فأمر بإنفاذها إلى ملك المغرب. وضم إليها الزرافة الحيوان الغريب الشكل، العظيم الهيكل، المختلف الشبه بالحيوانات. وفصلوا بها من بلادهم، فوصلوا إلى فاس في صفر من سنة إثنتين وستين وسبعمائة. وكان يوم وفادتهم يوما مشهودا، جلس لهم السلطان ببرج الذهب مجلس العرض. ونودي في الناس بالبروز إلى الصحراء، فبرزوا ينسلون من كل حدب، حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضاً في الازدحام على الزرافة، إعجاباً بخلقها. وأنشد الشعراء في عرض المدح والتهنية ووصف الحال. وحضر الوفد بين يدي السلطان وأدوا رسالاتهم بتأكيد الود

والمخالصة، والعذر عن إبطاء الهدية بما كان من اختلاف أهل مالي وتواثبهم على الأمر، وتعظيماً سلطانهم وما صاروا إليه. والترجمان يترجم عنهم وهم يصدقونه بالنزع في أوتار قسيهم عادةً معروفة لهم. وحيوا السلطان يحثون التراب على رؤوسهم على سنة ملوك العجم. ثم ركب السلطان، وانفض ذلك المجلس وقد طار به الذكر. واستقر ذلك الوفد في إيالة السلطان وتحت جرايته وهلك السلطان قبل انصرافهم، فوصلهم القائم بالأمر من بعده. وانصرفوا إلى مراكش، وأجازوا منها إلى ذوي حسان عرب السوس من المعقل المتصلين ببلادهم. ولحقوا من هنالك بسلطانهم. والأمر لله وحده سبحانه.

الخبر عن حركة السلطان إلى تلمسان واستيلائه عليها. وإيثار أبي زيان حافد أبي تاشفين بملكها. وما كان مع ذلك من صرف أمراء الموحل ين إلي بلادهم:

لما استقل السلطان بملك المغرب سنة ستين وسبعمائة كما ذكرناه، وكان العامل على درعة

عبد أالله بن مسلم الزردالي من أحلاف بني عبد الواد وشيعة آل زيان، اصطنعه السلطان أبوالحسن عند تغلبه على تلمسان. واستعمله ابنه أبو عنان بعد ذلك على بلاد درعة كما

ذكرناه. وتولى المكر بأبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن، حين خروجه على أخيه السلطان أبي عنان بجبل ابن حميدي، فارتاب عند استقلال المولى أبي سالم بالأمر. وخشي بادرته، لما ناهم من حقده عليه، بسبب أخيه أبي الفضل، لما بينهما من لحمة الاغتراب، فداخل بطانة له من عرب المعقل واحتمل ذخائره وأمواله وأهله وقطع

القفر إلى تلمسان. ولحق بالسلطان أبي حمو آخر سنة ستين وسبعمائة، فترل منه خير نزل. وعقد له لحين وصوله على وزارته وبإهابه وبمكانه. وفوض إليه في التدبير والحال والعقد. وشمر هو عن ساعده في الخدمة. وجأجأ بعرب المعقل من مواطنيهم رغبة في ولايته وإيثاراً لمكانه من الدولة. ورهبة من السلطان بالمغرب، لما كانوا ارتكبوه من موافقة بني مرين مرة بعد أخرى، فاستقروا بتلمسان وانحاشوا جميعاً إلى بني عبد الواد.
وبعث السلطان إلى أبي حمو في شأن عاملهم عبد الله بن مسلم، فلم يرجع له جواباً عنه. وحظر عليه ولاية المعقل أهل وطنه، فلج في شأنهم، فأجمع السلطان أمره على النهوض إليه. واضطرب معسكره بساحة البلد وفتح ديوان العطاء. ونادى في الناس بالنفير إلى تلمسان وأزاح العلل.
وبعث الحاشرين من وزرائه إلى مراكش، فتوافت حشود الجهات ببابه، وفصل من
فاس في جمادى من سنة إحدى وستين وسبعمائة. وجمع أبو حمو في إيالته وعلى التشيع لدولته من زناتة والعرب من بني عامر والمعقل كافة، ما عدا العمارنة، كان
أميرهم الزبير بن طلحة متحيزاً إلى السلطان. وأجفلوا عن تلمسان وخرجوا إلى الصحراء. ودخل السلطان إلى تلمسان ثالث رجب. وخالفه أبو حمو وأشياعه إلى المغرب، فترلوا كرسيف بلد ونزمار بن عريف وخربوه. واكتسحوا ما وجدوا فيه حقداً على ونزمار وقومه، بولاية بني مرين. وتخطوا إلى وطاط، فعاثوا في نواحيه. وانقلبوا إلى أنكاد. وبلغ السلطان خبرهم، فتلافى أمر المغرب. وعقد على تلمسان لحافد من حفدة السلطان أبي تاشفين، كان ربي في حجرهم وتحت كفالة نعمتهم، وهو أبو زيان محمد بن عثمان وشهرته بالفتى. وأنزله بالقصر القديم من تلمسان وعسكر عليه زناتة الشرق كلهم. واستوزر له ابن عمته عمر بن محمد بن إبراهيم بن مكن ومن أبناء وزرائهم سعيد بن موسى بن علي، وأعطاه عشرة أحمال من المال دنانير ودراهم. ودفع إليه الآلة. وذكر حينئذ لمولانا السلطان أبي العباس سوابقه وإيلافه في المترل الخشن، فترل له عن محل إمارته قسنطينة. وصرف أيضاً المولى أبا عبد الله صاحب بجاية لاسترجاع بلده بجاية، فعقد لهما بذلك وحملهما. وخلع عليهما وأعطاهما حملين من المال.
وكانت بجاية لذلك العهد قد تغلب عليها عمهم المولى أبو إسحق إبراهيم صاحب تونس، فكتب إلى عاملهم على قسنطينة منصور بن الحاج خلوف، أن يترل عن بلده لمولانا السلطان أبي العباس ويمكنه منها. وودع هؤلاء الأمراء وانكفأ راجعاً إلى حضرته، لسد ثغور المغرب وحسم داء العدو، فدخل فاس في شعبان من سنته. و لم يلبث أن رجع أبو زيان على أثره بعد أن أجفل عن تلمسان ولحق بوانشريش. وتغلب عليه أبو حمو وفض جموعه، فلحق بالسلطان. واستقل أبو حمو بملك تلمسان. وبعث في السلم إلى السلطان، فعقد له من ذلك ما رضيه كما نذكره.
الخبر عن مهلك السلطان أبي سالم. واستيلاء عمر بن عبد الله علي ملك المغرب. ونصبه للملوك واحدا بعد واحد آخر إلى أن هلك:
كان السلطان قد غلب على هواه الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق وكان من خبره

ان سلفه من أهل رباط الشيخ أبي مدين، وكان جده قيماً على خدمة قبره ومسجده، واتصل القيام على هذا الرباط في عقبه. وكان جده الثالث محمد معروفاً بالولاية. ولما مات دفنه يغمراسن بالقصر القديم، ليجاوره بجدثه تبركاً به. وكان ابنه أحمد أبو محمد هذا قد ارتحل إلى المشرق. وجاور الحرمين، إلى أن هلك وربي محمد ابنه بالمشرق ما بين الحجاز ومصر. وقفل إلى المغرب بعد أن شداً شيئاً في الطلب وتفقه على أولاد الإمام. ولما ابتنى السلطان أبو الحسن مسجد العباد ولاه الخطابة به وسمعه يخطب على المنبر، وقد أحسن في ذكره والدعاء له، فحلي بعينه واستخلصه لنفسه وأحله محل القرب من مجلسه. وجعله خطيباً حيث يصلي في مساجد المغرب، وسفر عنه إلى الملوك. ولما كانت نكبة القيروان خلص إلى المغرب واستقر برباط العباد بجبل سلفه، بعد أحوال أضربنا عن ذكرها اختصاراً.

ولما خلص السلطان إلى الجزائر، داخله أبو سعيد صاحب تلمسان في السفارة عنه إلى السلطان أبي الحسن وإصلاح بينهما فسار لذلك. ونقمه أبو ثابت وبنو عبد الواد ونكروه على سلطانهم. وسرحوا صغير بن عامر في اتباعه، فتقبض عليه وأودعه المطبق. ثم أشخصوه بعد حين إلى الأندلس، فاتصل بأبي الحجاج صاحب غرناطة. وولاه خطابته، ولما اشتهر به من إجادة الخطبة للملوك بزعمهم. وألف السلطان أبا سالم في مثوى غربته من غرناطة، وشاركه عند أبي الحجاج في مهماته. ولما نزل بجبال غمارة داخل بني مرين والوزراء في القيام بدعوته. وكان له في ذلك مقام محمود، فرعى السلطان وسائله وموالاته القديمة والحادثة إلى مقامه عند أبيه. فلما استوسق له ملك المغرب، اختصه بولايته وألقى عليه محبته وعنايته. وكان مؤامره ونجي خلوته والغالب على هواه، فانصرفت إليه الوجوه وخضعت له الرقاب ووطىء عتبته الأشراف والوزراء، وعكف على بابه القواد والأمراء وصار زمام الدولة بيده. وكان يتجافى عن ذلك أكثر أوقاته، حذراً من المغبة. ويزجر من يتعرض

له في الشكاية ويردهم إلى أصحاب المراتب والخطط بباب السلطان، وهم يعلمون أنه قد ضرب على أيديهم، فنقموا ذلك عليه وسخطوا الدولة من أجله. ومرضت قلوب أهل الحل والعمد من تقدمه. ونفس عليه الوزراء ما تعين له عند السلطان من الحظ، فتربصوا بالدولة. وشمل هذا الداء الخاصة والعامة. وكان عمر بن عبد الله بن علي، لما هلك أبوه الوزير عبد الله بن علي في جمادى سنة ستين وسبعمائة، عند استيلاء السلطان على ملكه، تجلت شفاه الدولة إلى تراثه. وكان مثرياً فاستجار منهم بابن مرزوق وساهمه من تراث أبيه، بعد أن حملوا السلطان على النيل منه والإهانة به، فأجاره منهم. ورفع عند السلطان رتبته وحمله على الإصهار إليه بأخته. وقلده السلطان أمانة البلد الجديد دار ملكه متى عنت له الرحلة عنها. وأصهر عمر إلى وزير الدولة مسعود بن ماساي تسكيناً لغربه واستخلاصاً لمودته. وسفر عن السلطان

إلى صاحب تلمسان في شعبان من سنة إثنتين وستين وسبعمائة. ونمي عنه أنه داخل صاحب تلمسان في بعض المكر، فهم بنكبته وقتله. ودافع عنه ابن مرزوق، فخلص من عقابه. وطوى من ذلك على البث وتربص

الدولة. وأعيد إلى مكانه من الأمانة على دار الملك أول ذي القعدة، مرجعه من تلمسان لما كان السلطان قد تحول عنها إلى القصبة بفاس، واختط إيواناً فخماً لجلوسه بها لصق قصوره (متعنياً الأبردين). فلما استولى عمر على دار

، الملك، حدثته نفسه بالتوثب. وسول له ذلك ما اطلع عليه من مرض القلوب والنكير.

على الدولة، لمكان ابن مرزوق من السلطان فداخل قائد جند النصارى غرسية بن أنطون وتعدوا لذلك ليلة الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة سنة إثنتين وستين وسبعمائة. وخلصوا

إلى تاشفين الموسوس أبي السلطان أبي الحسن بمكانه من البلد الجديد، فخلعوا عليه وألبسوه شارة الملك. وقربوا له مركبة وأخرجوه إلى أريكة السلطان، فأقعدوه عليها. وأكرهوا شيخ الحامية والناشبة محمد بن الزرقاء على البيعة له. وجهروا بالخلعان وقرعوا الطبول ودخلوا إلى مودع المال، فأفاضوا العطاء من غير تقدير ولا حسبان. وماج أهل البلد الجديد من الجند بعضهم في بعض

واختطفوا ما وصل إليهم من العطاء. وانتهبوا ما كان لمخازن الخارجة من السلع والعدة. وأضرموا النار في بيوتها ستراً على ما ضاع منها. وأصبح السلطان بمكانه من القصبة، فركب واجتمع إليه من حضر من الأولياء والقبائل. وغدا على البلد الجديد وطاف بها يروم فيها منفذاً، فاستصعبت واضطرب معسكره بكدية العرايس لحصارها. ونادى في الناس بالاجتماع إليه. ونزل عند قائلة الهاجرة بفسطاطه، فتسايل الناس عنه إلى البلد الجديد فوجاً بعد فوج بمرأى منه، إلى أن سار إليها أهل خاصته ومجلسه، فطلب النجاة بنفسه وركب في لمة من الفرسان مع وزرائه: مسعود بن رحو وسليمان بن داود ومقدم الموالي والجند ببابه سليمان بن ونصار. وأذن لابن مرزوق في الدخول إلى داره ومضى على وجهه. وله غشيهم الليل، انفضوا عنه. ورجع الوزير إلى دار الملك، فتقبض عليهما عمر بن عبد الله ومساهمه غرسية بن أنطون واعتقلاهما متفرقين. وأشخص علي بن مهدي بن يرزيجن في طلب السلطان، فعثر عليه نائما في بعض المجاشر بوادي ورغة وقد نزع عنه لباسه اختفاء بشخصه. وتوارى عن العيون بمكانه، فتقبض عليه وحمله على بغل. وطير بالخبر إلى عمر بن عبدالله، فأزعج لتلقيه شعيب بن ميمون بن داود، وفتح الله بن عامر بن فتح الله. وأمرهما بقتله وإنفاذ رأسه، فلقياه بخندق القصب وراء كدية العرائس. وأمرا بعض جند النصارى أن يتولى ذبحه. وحمل رأسه في مخلاة، فوضعه بين يدي الوزير والمشيخة. واستقل عمر بالأمر ونصب الموسوس تاشفين يموه به على الناس. وجرت الأمور إلى غايتها. ولكل أجل كتاب.

الخبر عن الفتكة بابن أنطول قائد العسكر من النصاري ثم خروج يحيي بن رحو وبني مرين عن الطاعة:

لما تقبض عمر بن عبد الله على الوزير، جعل معتقل سليمان بن داود بدار غرسية

قائد

النصارى، ومعتقل ابن ماساي بداره، ضناً عن الامتهان لمكان صهره، ولما كان

يؤمل منه من الاستظهار على أمره بعصابته من الأبناء والأخوة والقرابة. وكان غرسية بن أنطون صديقاً لسليمان بن ونصار. فلما رجع عن السلطان ليلة انفضاضهم، نزل عليه وكان يعاقره الخمر، فأتاه سحراً وتفاوضاً في اغتيال عمر وإقامة معتقله سليمان بن داود في الوزارة، بما هو عليه من السن ورسوخ القدم في الأمر. ونمي إلى عمر الخبر، فارتاب وكان خلواً من العصابة، ففزع إلى القائد الموكب السلطاني من الرجل الأندلسيين يومئذ إبراهيم البطروحي، فباثه أمره وبايعه على الاستماتة دونه. ثم استقل عصابتهم، ففزع إلى يحيى بن رحو شيخ بني مرين وصاحب شوراهم فشكا إليه، فأشكاه ووعده الفتك بابن أنطون وأصحابه.

وانبرم عقد ابن أنطون وسليمان بن ونصار على شأنهم وغدوا إلى القصر. وأدخل ابن أنطون طائفة من النصارى للاستظهار بهم. ولما توافت بنو مرين بمجلس السلطان على عادتهم وطعموا، دعا عمر بن عبد الله القائد ابن أنطون، بين يدي يحيى بن رحو، وقد أحضر البطروحي رجل الأندلسيين، فسأله تحويل سليمان بن داود من داره إلى السجن فأبى وضن به عن الإهانه، ينال مثلها من ابن ماساي صاحبه، فأمر عمر بن عبد الله بالتقبض عليه، فكشر في وجوه الرجال واخترط سكينه للمدافعة، فتواثب به بنو مرين وقتلوه لحينه.

واستلحموا من وجدوا بالدار من جند النصارى بعد جولة. وفروا إلى معسكرهم ويعرف بالملاح جوار البلد الجديد.

وأرجف الغوغاء بالمدينة أن ابن أنطون غدر بالوزير، فقتل جند النصارى حيث

وجدوا من سكك المدينة. وتزاحفوا إلى الملاح لاستلحام من به من الجند. وركب بنو مرين لحماية جندهم من معرة الغوغاء. وانتهب يومئذ الكثير من أموالهم وآنيتهم وأمتعتهم . وقتل النمط رى كثيراً من المجان كانوا يعاقرون الخمر بالملاح. واستبد عمر بالدار واعتقل سليمان بن ونصار إلى الليل، وبعث من قتله بمحبسه.

وحول سليمان بن داود إلى بعض الدور بدارالملك واعتقله بها واستولى على أمره. ورجع في الشورى إلى يحيى بن رحو واعصوصب بنو مرين عليه، واعتز على الوزراء والدولة. وكان عدوا لخاصة السلطان أبي سالم حريصاً على قتلهم. وكان عمر يريد استبقاءهم لما أمله في ابن ماساي فاختلفت أهواؤهما. وتبين ليحيى بن رحو والمشيخة صاغيته إلى ابن ماساي، فخشنت صدورهم عليه ودبروا في شأنه. وخاطب هو عامر بن محمد باتصال اليد واقتسام ملك المغرب. وبعث إليه بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم، اعتده عنده وليجة لخلاصه من ربقة

الحصار الذي هم به مشيخة بني مرين. وكان أبو الفضل هذا بالقصبة تحت الرقبة والإرصاد، فتفقد من مكانه. وأغلظ المشيخة في العتب لعمر على ذلك، فلم يستعتب. ونبذ إليهم العهد وامتنع بالبلد الجديد، ومنعهم من الدخول إليه، فاعصوصبوا على كبيرهم يحيى بن رحو وعسكروا بباب الفتوح. وجاؤوا بعبد الحليم ابن السلطان أبي علي. وكان من خبرهم معه ما نذكره. وأطلق عمر بن عبد الله مسعود بن ماساي من محبسه وسرحه إلى مراكش، وواعدوه في الأجلاب عليهم أن حاصروه كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وصول عبد الحليم ابن السلطان أبي علي من تلمسان وحصار البلد الجديد:

كان السلطان أبو الحسن لما قتل أخاه الأمير أبا علي وقضى الحق الذي له في

دمه، عمل بالحق الذي عليه في ولده وحرمه، فكفلهم وأغذاهم نعمته. وساواهم بولده في كافة شؤونهم وأنكح ابنته تاحضريت العزيزة عليه، علياً منهم المكنى بأبي يفلوسن. ونزع عنه وهو بالقيروان أيام النكبة ولحق بالعرب. وأجلب معهم على السلطان بالقيروان وتونس. ثم انصرف من أفريقية ولحق بتلمسان. ونزل على سلطانها أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن، فبوأه كرامته. ثم شرع في الإجازة إلى الأندلس. وبعث فيه السلطان أبو عنان قبل فصوله، فأشخصوه إليه فاعتقله. ثم أحضره ووبخه على مرتكبه مع السلطان أبي الحسن وجحده حقه، ثم قتله لليلتين من شهور إحدى وخمسين وسبعمائة. ولما هلك السلطان أبو الحسن ولحقت جملته من

الخاصة والأبناء بالسلطان أبي عنان، وأشخص إخوته إلى الأندلس، لشخص معهم ولد الأمير أبي علي هؤلاء: عبد الحليم وعبد المؤمن والمنصور والناصر وسعيد ابن أخيهم أبي زيان، فاستقروا بالأندلس في جوار ابن الأحمر. ثم طلب أبو عنان إشخاصهم بعد، كما طلب إشخاص أخيه، فأجارهم ابن الأحمر جميعاً وامتنع من إسلامهم إليه. وكان من المغاضبة لذلك ما قدمناه.

ولما اعتقل السلطان أبو سالم الأبناء المرشحين برندة كما قدمناه، نزع منهم عبد الرحمن بن علي أبي يفلوسن إلى غرناطة، فلحق بأعمامه.

وكان السلطان أبو سالم ضجراً بمكانهم مستريباً بشأنهم، حتى لقد قتل محمد بن أبي يفلوسن ابن اخته تاحضريت وهو في حجرها وحجره، استرابة بما نمي عنه. ولما أجاز أبو عبد الله المخلوع ابن أبي الحجاج إلى المغرب ونزل عليه وصار إلى إيالته، رأى

أن قد ملك أمره في هؤلاء المرشحين بغرناطة. وراسل الرئيس محمد بن إسمعيل عند توثبه على الأمر واستلحامه أبناء السلطان أبي الحجاج، فراسله في اعتقالهم، على أن يمسك المخلوع عن التهامه ويقبض عنانه عن الهوى عليه، فاعتقلهم. ثم فسد ما بين الرئيس والطاغية. وزحف إليهم والتهم كثيراً من حصون المسلمين. وبعث إلى السلطان أبي سالم في أن يخلي سبيل المخلوع إليه، فامتنع وفاء للرئيس. ثم دافع الطاغية عن ثغوره بإسعاف طلبه، فجهز المخلوع وملأ حقائبه صلات وأعطاه الآلة. وأوعز إلى أسطوله بسبتة، فجهز وبعث علال بن محمد ثقة إليه، فأركبه الأسطول وركب معه إلى الطاغية. وخلص الخبر إلى الرئيس بمكانه من سلطان غرناطة. وكان أبو حمو صاحب تلمسان يراسله في أولاد أبي علي. وأن يجهزهم إليه ليجدهم زبوناً على السلطان أبي سالم، فبادر لحينه وأطلقهم من مكان اعتقالهم وأركب عبد الحليم وعبد المؤمن وعبد الرحمن ابن أخيهما على أبي يفلوسن في الأسطول. وأجازهم إلى فنين بين يدي مهلك السلطان أبي سالم، فنزلوا من صاحب تلمسان بأعز جوار. ونصب عبد الحليم منهم لملك المغرب.

وكان محمد السبيع بن موسى بن إبراهيم نزع عن عمر ولحق بتلمسان فتوافق معهم وأخبرهم بمهلك السلطان وبايع له وأغراه بالدخلة إلى المغرب ثم تتابعت رسل بني مرين بمثلها، فسرحه أبو حمو وأعطاه الآلة، واستوزر له محمد السبيع، وارتحل معه

يغذان السير. ولقيه بطريقه محمد بن زكراز، من أولاد علي، من شيوخ بني ونكاسن، أهل دبدو، ثغر المغرب، منذ دخول بني مرين إليه، فبايعه وحمل قومه على طاعته وأغذ السير وكان يحيى بن رحو والمشيخة لما نبذ عمر بن عبد الله إليهم العهد وعسكروا بباب الفتوح، أوفدوا مشيخة منهم على تلمسان، لاستقدام السلطان عبد الحريم، فوافوه بنازى ورجعوا معه. وتلقته جماعة بني مرين بسبو. ونزلوا على البلد الجديد يوم السبت سابع محرم من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وأضربوا معسكرهم بكدية العرائس. وغادوا البلد بالقتال وراوحوها سبعة أيام، وبيعات الأمصار توافيهم والحشود تسايل إليهم. ثم إن عمر بن عبد الله برز من السبت القابل في مقدمة السلطان أبي عمر، بمن معه من الجند المسلمين والنصارى، رامحة وناشبة. ووكل السلطان من جاذبه في الساقة على التعبية المحكمة. وناشبهم الحرب، فدلفوا إليه، فاستطردهم ليتمكن الناشبة من عقرهم من الأسوار، حتى فشت فيهم الجراحات. ثم صمم نحوهم، فانفرج القلب وانفضت الجموع. وزحف السلطان في الساقة، فانذعروا في الجهات. وافترق بنو مرين إلى مواطنهم. ولحق يحيى بن رحو بمراكش مع مبارك بن إبراهيم شيخ الخلط. ولحق عبد الحليم وإخوته بتازى بعد أن شهد لهم أهل المقام بصدق الجلاد وحسن البلاء في ذلك المجال وصابر عمر بن عبد الله أمره ينتظر قدوم محمد بن أبي عبد الرحمن، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قدوم محمد ابن الأمير أبي عبد الرحمن وبيعته بالبلد الجد يد في كفالة عمر بن عبد الله:

لما نبذ عمر إلى بني مرين عهدهم واعصوصبوا عليه، ونكروا ما جاء به من البيعة

لأبي عمر، مع فقده العقل الذي هو شرط الخلافة شرعاً وعادة ونقموه عليه، اتهم نفسه في نظره وفزع إلى التماس المرشحين، فوقع نظره على حافد السلطان أبي الحسن محمد ابن الأمير أبي عبد الرحمن النازع لأول دولة السلطان أبي سالم من رندة إلى الطاغية. وكان قد نزل منه بخير مثوى، فبعث إليه مولاه عتيقاً الخصي، ثم تلاه بعثمان ابن الياسمين، ثم تلاهما بالرئيس الأبكم من بني الأحمر، وفي كل ذلك يستحث قدومه. وخاطب المخلوع ابن الأحمر وهو في جوار الطاغية كما قدمناه وقريب عهد بجوارهم،

فخاطبه في استحثاثه واستخلاصه من يد الطاغية. وكان المخلوع يرتاد لنفسه مترلاً من ثغور المسلمين، لما كان فسد بينه وبين الطاغية ورام الترو ع عن إيالته، فاشترط على الوزير عمر الترول له عن رندة، فتقبل شرطه وبعث إليه الكتاب بالترول عنها، بعد أن وضع الملأ عليه خطوطهم من بني مرين والخاصة والشرفاء، فسار ابن الأحمر إلى الطاغية. وسأل منه تسريح محمد هذا إلى ملكه وأن قبيله دعوه إلى ذلك، فسرحه بعد أن شرط عليه وكتب الكتاب بقبوله. وفصل من إشبيلية في شهر المحرم فاتح ثلاث وستين وسبعمائة. ونزل بسبتة وبها سعيد بن عثمان من قرابة عمر بن عبد الله. وأرصده لقدومه، فطير بالخبر إليه، فخلع أبا عمر من الملك وأنزله بداره مع حرمه. وبعث إلى السلطان أبي زيان محمد بالبيعة والآلة والفساطيط. ثم جهز عسكراً للقائه، فتلقوه بطنجة. وأغذ السير إلى الحضرة، فترل منتصف شهر صفر بكدية العرائس. واضطرب معسكره بها، وتلقاه الوزير يومئذ وبايعه وأخرج فسطاطه، فاضطر به بمعسكره وتلوم السلطان هنالك ثلاثاً. ثم دخل في الرابعة إلى قصره

واقتعد أريكته وتوح ملكه. وعمر مستبد عليه لا يكل إليه أمراً ولا نهياً. واستطال عند ذلك المنازعون أولاد علي كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن تجهيز السلطان عبد الحليم وإخوته إلى سجلماسة بعد الواقعة عليهم بمكناسة:

لما سمع عبد الحليم بقدوم محمد بن أبي عبد الرحمن من سبتة إلى فاس وهو بمكانه من تازى، سرح أخاه عبد المؤمن وعبد الرحمن ابن أخيه إلى اعتراضه، فانتهوا إلى مكناسة وخاموا عن لقائه. فلما دخل إلى البلد الجديد، أجلبوا بالغارة على النواحي وكثر العيث. وأجمع الوزير عمر على الخروج إليهم بالعسكر، فبرز في التعبية والآلة وبات بوادي النجا. ثم أصبح على تعبية وأغذ السير إلى مكناسة، فزحف إليه عبد المؤمن وابن أخيه عبد الرحمن في جموعهم، فجاولهم القتال ساعة، ثم صمد إليهم فدفعهم عن مكناسة. وانكشفوا فلحقوا بأخيهم السلطان عبد الحليم بتازى. ونزل الوزير عمر بساحة مكناسة وأوفد بالفتح على السلطان وكنت وافده إليه يومئذ، فعمت البشرى واتصل السرور. وتهنأ السلطان ملكه وتودع من يومئذ سلطانه. ولما

وصل عبد المؤمن إلى أخيه عبد الحليم بتازى مفلولاً، انفض معسكره ونزعوا عنه إلى فاس وذهب لوجهه هو وإخوانه مع وزيرهم السبيع بن محمد ومن كان معهم من العرب المعقل، فلحقوا بسجلماسة. وكان أهلها قد دخلوا في بيعتهم ودانوا بطاعتهم واستقروا بها. وجددوا رسم الملك والسلطان، إلى أن كان من خروجهم عنها، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قدوم عامر بن محمد ومسعود بن ماساي من مراكش وما كان من وزارة ابن ماساي واستبداد عامر بن محمد بمراكش:

كان السلطان أبو سالم، لما استقل بملك المغرب، استعمل على جباية المصامدة

وولاية مراكش محمد بن أبي العلاء بن أبي طلحة من أبناء العمال. وكان مطلعاً بها. ونافس الكثير من ذوي عامر فأحفظه ذلك. وربما تكررت سعايته في عامر عند السلطان ولم يقبل. ولما بلغ عامر خبر مهلك السلطان أبي سالم وقيام عمر بالأمر، وكانت بينهما خلة بيت محمد بن أبي العلاء، فتقبض عليه وامتحنه وقتله واستقل بأمر مراكش. وبعث إليه الوزير عمر بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم يعتده، لما توقع من حصار بني مرين إياه، أن يجلب به عامر عليهم ويستنقذه كما ذكرناه. ثم سرح مسعود بن ماساي كما ذكرناه. ولما أحاط بنو مرين بالبلد الجديد، جمع عامر من إليه من الجند والحشود وزحف بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم إلى أنفى، ونزل بوادي أم ربيع. ولما انفض جمعهم من على البلد الجديد، لحق به يحيى بن رحو وكان له صديقا ملاطفاً، فتنكر له توفية لعمر بن عبد الله وصاحبه مسعود. وبعثه إلى الجبل ولم يشهده الجمع، فذهب مغاضباً. ولحق بسجلماسة بالسلطان عبد الحليم. وهلك في بعض حروبه مع العرب. ولما انفض عبد المؤمن وأجفل عبد الحليم من تازى، ولحقوا بسجلماسة، واستوسق الأمر لعمر بن عبد الله، وفرغ من شأن المنازعين ومضايقتهم له، رجع إلى ما كان يؤمله من الاستظهار على أمره بمسعود بن رخو وإخوته وأقاربه، لمكان الصهر الذي

بينهما، فاستقدمه للوزارة مرضاة لبني مرين لما كان عليه من استمالتهم لجميع المذاهب والإغضاء عفا نالوه به من النكاية. وكان عامر بن محمد مجمعاً القدوم على السلطان، فقدم في صحابته ونزل من الدولة بخير متزل. وعقد السلطان لمسعود بن رحو على وزارته بإشارة الوزير عمر وفاضطلع بها. ودفعه عمر إليها استنامة إليه وثقة بمكانه واستظهاراً بعصابته. وعقد مع عامر بن محمد الحلف على مقاسمة المغرب من تخم وادي أم ربيع، وجعل إمارة مراكش لأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم إسعافاً بغرض عامر بن محمد في ذلك. وأصهر عامر إليهم في بنت مولانا السلطان أبي يحيى المتوفى عنها السلطان أبو الحسن، فحملوا أولياءها على العقد له عليها. وانكفأ راجعاً إلى مكان عمله بمراكش، يجر الدنيا وراءه عزا وثروة وتابعاً، لجمادى من سنة ثلاث وستين وسبعمائة. وصرف عمر عزيمته إلى تشريد عبد الحليم وأخيه من سجلماسة، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن زحف الوزير عمر بن عبد الله إلي سجلماسة:

لما احتل عبد الحليم وإخوته بسجلماسة، اجتمع إليهم عرب المعقل بكافة حللهم. واقتضوا خراج البلاد، فوزعوه فيهم، وانتضوا على الطاعة رهنهم. وأقطعهم جهات المختص بأسرها واعصوصبوا عليه. واستحثه يحيى بن رحو ومن هناك من مشيخة بني مرين إلى النهوض للمغرب، فأجمع أمره على ذلك. وتدبر الوزير عمر أمره وخشي أن يضطرم جمره، فأجمع الحركة إليه. ونادى في الناس بالعطاء والصلة، فاجتمعوا إليه وبث العطاء فيهم. واعترض العساكر وأزاح العلل. وارتحل من ظاهر فاس في شعبان من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وارتحل معه ظهيره مسعود بن ماساي، وبرز السلطان عبد الحليم إلى لقائهم. ولما تراءت الفئتان بتاغزوطت، عند فرج الجبل المفضي من تلول المغرب إلى الصحراء، هموا باللقاء. ثم تواقفوا أياماً وتمشت بينهم رجالات العرب في الصلح والتجافي لعبد الحليم عن سجلماسة تراث أبيه، فانعقد مسعود ما بينهما وافترقا. ورجع كل واحد منهما إلى عمله ومكانه من سلطانه. ودخل عمر والوزير مسعود إلى البلد الجديد في رمضان من سنته، وتلقاهما سلطانهما بأنواع المبرة والكرامة. ونزع الوزير محمد السبيع عن السلطان عبد الحليم إلى الوزير عمر وسلطانه، فتقبل وحل محل الكرامة والردافة للوزارة واستقر كل بمكانه. وتودعوا أمرهم، إلى أن كان من خلع عبد المؤمن لأخيه عبد الحليم، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن بيعة العرب لعبد المؤمن وخروج عبد الحليم إلي المشرق:

لما رجع عبد الحليم، بعد عقد السلم مع الوزير عمر، إلى سجلماسة واستقر بها.

وكان عرب المعقل من ذوي منصور فريقين: الأحلاف وأولاد حسين. وكانت سجلماسة وطناً للأحلاف وفي مجالاتهم فذ أول أمرهم ودخولهم المغرب. وكان من أولاد حسين في ممالأة الوزير عمر ما قدمناه، فكانت صاغية السلطان عبد الحليم إلى الأحلاف بسبب ذلك أكثر، فأسف ذلك أولاد حسين على الأحلاف وتجددت بينهما لذلك فتنة وتزاحفاً. وأخرج السلطان عبد الحليم أخاه عبد المؤمن لرقع ما بينهما من الخرق ولأمته، فلما قدم على أولاد حسين دعوه إلى البيعة والقيام بأمره، فأبى وأكرهوه عليها وبايعوه. وزحفوا إلى

سجلماسة في صفر من سنة أربع وستين وستمائة. وبرز عبد الحليم إليهم في أوليائه من الأحلاف. وتواقفوا ملياً وعقلوا رواحلهم. ثم انكشف الأحلاف وانهزموا. وهلك يحيى بن رحو كبير المشيخة من بني مرين يومئذ في حربهم. وتغلبوا على سجلماسة، ودخل إليها عبد المؤمن وتخلى له أخوه عبد الحليم عن الأمر وخرج إلى المشرق لقضاء فرضه، فودعه وزوده بما أراد. وارتحل إلى الحج وقطع المفازة إلى بلد مالي من السودان. وصحب منها ركاب الحاج إلى مصر. ونزل على أميرها المتغلب على سلطانها يومئذ، وهو يلبغا الخاصكي وأنهى خبره إليه. وعرف بمقامه، فاستبلغ في تكريمه بما يناسب بيته وسلطانه. وقضى حجه وانصرف إلى المغرب، فهلك بقرب الإسكندرية سنة ست وستين وسبعمائة. واستمل عبد المؤمن بأمرسجلماسة، حتى كان من نهوض العساكر إليه، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نهوض ابن ماساي بالعساكر إلى سجلماسة واستيلائه عليها ولحاق عبد المؤمن بمراكش:

لما افترقت كلمة أولاد السلطان أبي عنان وخلع عبد المؤمن أخاه تطاولى الوزير

عمر إلى التغلب عليهم. ونزع إليه الأحلاف عدو أولاد حسين وشيعة عبد الحليم المخلوع، فجهز العساكر وبث العطاء وأزاح العلل. وسرح ظهيره مسعود بن ماساي إلى سجلماسة، فنهض إليها في ربيع من سنة أربع وستين وسبعمائة. وتلقاه الأحلاف بحللهم وناجعتهم، وأغذ السير ونزع الكثير من أولاد حسين إلى الوزير مسعود. وبعث عامر بن محمد عن عبد المؤمن، فرحل عن سجلماسة وتركها. ولحق بعامر، فتقبض عليه واعتقله بداره من جبل هنتاتة. ودخل الوزير مسعود إلى سجلماسة واستولى عليها. واقتلع منها جرثومة الشقاق باقتلاع دعوة أولاد أبي علي منها. وكر راجعاً إلى المغرب لشهرين من حركته، فاحتل بفاس إلى أن كان من خبره وانتقاضه على عمر وفساد ما بينهما ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض عامر ثم انتقاض الوزير ابن ماساي علي أثره:

لما استقل عامر بالناحية الغربية من جبال المصامدة ومراكش وما إلى ذلك من الأعمال واستبد بها، ونصب لأمره أبا الفضل ابن السلطان أبي سالم واستوزر له واستكتب، وصارت كأنها دولة مستقلة، فصرف إليه النازعون من بني مرين على الدولة وجوه مفرهم ولجأوا إليه، فأجارهم على الدولة، واجتمع إليه منهم ملأ. وأشاروا عليه باستقدام عبد المؤمن وأنه أبلغ ترشيحاً من أبي الفضل بنسبه وقيامه على أمره وصاغية بني مرين إليه، فاستدعاه وأظهر لعمر أنه يروم بذلك مصلحته والمكر لعبد المؤمن. ونمي ذلك كله إلى عمر، فارتاب به. ونزع إليه آخراً من نزع السبيع بن موسى بن

إبراهيم الوزير. كان لعبد الحليم، فكشف عمر القناع في مطالبته وتجهيز العسكر إليه. واستراب بأهل ولايته. وعثر على كتاب من الوزير مسعود بن ماساي إليه يخالصه ويبذل له

النصيحة، فتقبض على حامله وأودعه السجن، فتنكر مسعود. وأغراه صحابته الملابسون له من بني مرين بالخروج ومنازعة عمر في الأمر. ووعدوه النصر منه، فاضطرب معسكره بالزيتون من خارج فاس، مورياً بالنزعة إبان الربيع وزخرف الأرض في شهر رجب من سنة خمس وستين وسبعمائة. وبنى أصحابه الفساطيط

في، معسكره، حتى إذا استوفوا جمعهم واعتزم على الخروج، ارتحل مجاهراً بالخلاف وعسكر بوادي النجا من كان يعده الخروج معه من بني مرين. ثم ارتحل إلى مكناسة. وكتب إلى عبد الرحمن بن علي أبي يفلوسن يستقدمه للبيعة، وكان بجهات تادلاً قد خرج بها بعد انصرافهم من سجلماسة، وتخلفه عن أخيه عبد المؤمن. وبعث عامر إليه بعثاً فهزموه ثم لحق ببني ونكاسن، فبعث إليه ابن ماساي وأصحابه، فقدم عليهم وبايعوه. وأخرج عمر سلطانه محمد بن أبي عبد الرحمن وعسكر بكدية العرائس. وبث العطاء وأزان العلل. ثم ارتحل إلى وادي النجا فبيته مسعود وقومه، فثبت هو ومعسكره في مراكزهم حتى إنجاب الظلام وفروا أمامهم، فاتبعوا آثارهم وانفض جمعهم. وبدا لهم ما لم يحتسبوه من أصفاق الناس على السلطان ووزيره عمر واعتصامهم بطاعته، فانذعروا.

ولحق مسعود بن ماساي بن رحو بتادلاً. ولحق الأمير عبد الرحمن ببلاد بني ونكاسن.

ورجع عمر والسلطان إلى مكانهم من الحضرة. واستمال مشيخة بني مرين، فرجعوا إليه وعفا لهم عنها واستصلحهم. وتمسك أبو بكر بن حمامة بدعوة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأقامها في نواحيه. وبايعه عليه موسى بن سيد الناس، من بني علي أهل جبل دبدو من بني ونكاسن، بما كان صهراً له. وخالفه قومه إلى الوزير عمر. وأغراه بالنهوض إلى أبي بكر بن حمامة، فنهض وغلبه على بلاده. واقتحم حصنه إيكلوان. وفر هو وصهره موسى وفارقوا سلطانهم عبد الرحمن ونبذوا إليه عهده. ورجعوا إلى طاعة صاحب فاس، فلحق هو بتلمسان ونزل على السلطان أبي حمو.

فاستبلغ في تكريمه. ولحق وزيره مسعود بن ماساي بدبدة ونزل على أميره محمد بن زكدان صاحب ذلك الثغر. ثم بدا له في أمره، وداخل صاحب الثغر وبعث عن الأمير عبد الرحمن من تلمسان ليطارد به لفرصة ظنها في المغرب ينتهزها. وأبى عليه أبو حمو من ذلك، فركب مطية الفرار ولحق بابن ماساي وأصحابه، فنصبوه للأمر وأجلبوا على تازى. ونهض الوزير إليهم في العساكر واحتل بتازى. وتعرضوا للقائه، ففض جموعهم وردهم على أعقابهم إلى جبل دبدو. وسعى بينهم ونزمار بن عريف، ولي الدولة، في قبض عنانهم عن المنازعة والتجافي عن طلب الأمر، وأن يتحيزوا إلى الأندلس للجهاد، فأجاز عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره ابن ماساي من غساسة، فاتح سبع وستين وسبعمائة. وخلا الجو من أجلابهم وعنادهم. ورجع الوزير إلى فاس واحتشد إلى مراكش، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نهوض الوزير عمر وسلطانه إلى مراكش:

لما فرغ عمر من شأن مسعود وعبد الرحمن بن أبي يفلوسن، صرف نظره إلى ناحية مراكش وانتزاء عامر بن محمد بها. وأجمع أمره على الحركة إليه، فأفاض العطاء ونادى بالسفر إلى حرب عامر وأزاح العلل، وارتحل إليه لرجب من سنة سبع وستين وسبعمائة. وصعد عامر وسلطانه أبو الفضل إلى الجبل، فاعتصم به وأطلق عبد المؤمن من معقله. ونصب له الآلة وأجلسه على سرير حذاء سرير أبي الفضل، يوهم أنه بايع له، وأنه قد حكم أمره يجأجيء بذلك لبني مرين، لما علم من صاغيتهم إليه. وخشي عمر مغبة ذلك، فألان له في القول ولاطفه

في الخطاب وسعى بينهما في الصلح حسون بن علي الصبيحي، فعقد له عمر من ذلك ما ابتغاه، وانقلب إلى فاس. ورجع عامر عبد المؤمن إلى معتقله وأجرى الأحوال على ما كانت من قبل، إلى أن بلغهم قتل الوزير عمر لسلطانه، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك السلطان محمد بن أبي عبد الرحمن وبيعة عبد العزيز ابن السلطان ابي الحسن:

كان شأن هذا الوزير عمر في الاستبداد على سلطانه محمد هذا عجباً، حتى بلغ

مبلغ الحجر للسفهاء من الصبيان. وقد جعل عليه العيون والرقباء حتى من حرمه وأهل قصره. وكان السلطان كثيراً ما يتنفس الصعداء من ذلك مع ندمائه ومن يختصه بذلك من حرمه، إلى أن حدث نفسه باغتيال الوزير. وأمر بذلك طائفة من العبدى كانوا يختصون به، فنمي القول. وأرسل به الوزير بعض الحرم كانوا عيناً له عليه، فخشيه على نفسه. وكان من الاستبداد والدالة، أن الحجاب مرفوع له عن خلوات السلطان وحرمه ومكاشفة رتبه، فخلص إليه في حشمه وهو معاقر لندمائه، فطردوهم عنه وتناولوه غطا حتى فاض، وألقوه في بئر بروض الغزلان. واستدعى الخاصة، فأراهم مكانه وأنه سقط عن دابته وهو

ثمل في تلك البئر، وذلك في المحرم فاتح ثمان وستين وسبعمائة. واستدعى من حينه عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن وكان في بعض الدور بالقصبة من فاس، تحت رقابة وحراسة من الوزير، لما كان السلطان محمد يروم الفتك به غيرة منه على الملك، لمكان ترشيحه، فحضر بالقصر وجلس على سرير الملك. وفتحت الأبواب لبني مرين والخاصة والعامة، فازدحموا على تقبيل يده معطين الصفقة على طاعته. وكمل أمره وبادر الوزير من حينه إلى تجهيز العساكر إلى مراكش. ونادى بالعطاء وفتح الديوان وكمل الاعتراض. وارتحل بسلطانه من فاس في شهر شعبان وأغذ السير إلى مراكش. ونازل عامر بن محمد بمعقله من جبل هنتاتة، ومعه الأمير أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم وعبد المؤمن ابن السلطان أبي علي، أطلقه من الاعتقال أيضاً وأجلسه موازي ابن عمه، واتخذ له الآلة يموه به شأنه الأول ثم سعى بينه وبين عامر في الصلح، فانعقد بينهما وانكفأ راجعاً بسلطانه إلى فاس في شهر شوال، فكان حتفه إثر ذلك، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله وأعلم.

الخبر عن مقتل الوزير عمر بن عبد الله واستبداد السلطان عبد العزيز بأمره:

كان عمر قد عظم استبداده على السلطان عبد العزيز، فحجره ومنعه من التصرف

في شيء من أمره. ومنع الناس من التعرض له في شيء من أمورهم. وكان أمه حذرة عليه إشفاقاً وحباً. وكان عمر لما ملك أمره واستبد عليهم سما إلى الإصهار إليهم في بنت السلطان أبي عنان. واشترط لها، زعموا تولية أخيها الأمير. ونمي ذلك إلى السلطان، وأن عم مغتاله لا محالة. وقارن ذلك أن عمر أوعز إلى السلطان بالتحول عن قصره إلى القصبة، فركب أسنة الغرر لاضطراره واعتزم على الفتك به. وأكمن بزوايا داره جماعة في الرجل وأعدهم للتوثب به. ثم استدعاه إلى بيته للمؤامرة معه على سنته، فدخل معه. وأغلق الموالي من الخصيان باب القصر من ورائه. ثم أغلظ له السلطان في القول وعتبه. ودلف الرجل إليه من زوايا الدار، فتناولوه بالسيوف هبراً. وصرخ ببطانته بحيث أسمعهم، فحملوا على الباب وكسروا أغلاقه، فألفوه مضرجاً

بدمائه، فولوا الأدبار وانفضوا من القصر وانذعروا. وخرج السلطان إلى مجلسه، فاقتعد أريكته واستدعى خاصته. وعقد لعمر بن مسعود بن منديل بن حمامة من بني مرين وشعيب بن ميمون بن ودرار من الجشم ويحيى بن ميمون أمصمود من الموالي. وكملت بيعته منتصف ذي القعدة سنة ثمان وستين وسبعمائة. وتقبض على علي ابن الوزير عمر وأخيه وعمه وحاشيتهم وذويهم واعتقلهم حتى أتى القتل عليهم لليال. واستأصل النكال شأفتهم. وسكن وأمن ورد المنافرين بأمانه وبسط لهم في وجه بشره. ثم تقبض لأيام على سليمان بن داود ومحمد السبيع وكانا من مخالصة عمر بمكان، فاعتقلهما استرابة بهما ولشيء نمي له عنهما. وأودعهما السجن إلى أن هلك واعتقل معهما علال بن محمد والشريف أبا القاسم ريبة بصحابتهما. ثم امتن عليهما بشفاعة ابن الخطيب وزير ابن الأحمر وأقصاه. ثم أطلق عنانه في الاستبداد. وقبض أيدي الخاصة والبطانة عن التصرف في شيء من سلطانه إلا بإذنه وعن أمره. وهلك لأشهر من استبداده الوزير شعيب بن ميمون. ثم هلك يحيى بر ميمون. على ما نذكره إن شاء الله تعالى. والله أعلم.

الخبر عن انتزاء أبي الفضل ابن المولى أبي سالم ثم نهوض السلطان إليه ومهلكه:

لما فتك السلطان عبد العزيز بعمر بن عبد الله المتغلب عليه، سولت لأبي الفضل

ابن السلطان أبي سالم نفسه مثلها في عامر بن محمد، لمكان استبداده عليه، وأغراه بذلك بطانته. وتوجس لها عامر، فتمارض بداره. واستأذنه في، الصعود إلى معتصمه بالجبل ليمرضه هنالك حرمه وأقاربه، وارتحل بجملته. ويئس أبو الفضل من الاستمكان منه. وأغراه حشمه بالراحة من عبد المؤمن. ولليال من منصرف عامر، ثمل أبو الفصل ذات ليلة وبعث عن قائد الجند من النصارى، فأمره بقتل عبد المؤمن بمكان معتقله مر قصبة مراكش فجاء برأسه إليه. وطار الخبر إلى عامر، فارتاع وحمد الله أن خلص ص غائلته. وبعث ببيعته إلى السلطان عبد العزيز وأغراه بأبي الفضل ورغبه في ملك مراكش. ووعده بالمظاهرة، فأجمع السلطان أمره على النهوض إلى مراكش. ونادى في الناس بالعطاء وقضى أسباب حركته. وارتحل من فاس سنة تسع وستين وسبعمائة. واستبد أبو الفضل بعد مهلك عبد المؤمن. واستوزر طلحة السنوري وجعل علامته لمحمد بن محمد بن منديل الكناني وجعل شوراه لمبارك بن إبراهيم عطية الخلطي. ثم سخط طلحة التينوري بسعاية الكناني، فقتله واعتمد بعساكره منازلة عامر. ولما فصل لذلك عن مراكش جاءه الخبر بحركة السلطان عبد العزيز إليه، فانفض معسكره. ولحق بتادلا ليعتصم بها في معتقل بني جابر. وعاج السلطان عن مراكش بعساكره إليها، فنازله وأخذ بمخنقه وقاتله، ففل عسكره. وداخله بعض بني جابر في الإخلال بمصافه يوم الحرب مع مال بذله لهم، ففعلوا وانهزمت عساكر أبي الفضل وجموعه وتقبض على أشياعه. وسيق مبارك بن إبراهيم إلى السلطان، فاعتقله إلى أن قتله مع عامر عند مهلكه كما نذكره. وفر الكناني إلى حيث لم يعلم مسقطه. ثم لحق بعامر بن محمد، ولحق أبو الفضل بقبائل صناكة من ورائهم. وداخلهم أشياع السلطان من بني جابر وبذلوا لهم المال الدثر في إسلامه فأسلموه. وبعث السلطان إليهم وزيره يحيى بن ميمون، فجاء به أسيراً.

وأحضره السلطان، فوبخه وقرعه واعتقله بفسطاط في جواره، ثم غط من الليل. وكان مهلكه في رمضان من سنة تسع وستين وسبعمائة. وبعث السلطان إلى عامر يختبر طاعته بذلك، فأبى عليه. وجاهر بالخلاف، إلى أن كان من شأنه، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نكبة الوزير يحيى بن ميمون بن مصمود ومقتله:

كان يحيى بن ميمون هذا من رجالات دولتهم ورئي في دولة السلطان أبي الحسن

وكان عمه علال عدواً له لعداوة أبيه. ولما انتزى السلطان أبو عنان على ملك أبيه، استخلص يحيى هذا سائر أيامه، وهلك كما ذكرناه. واستعمل يحيى ببجاية، فلم يزل بها إلى أن نقبض عليه الموحدون، لما استخلصوا بجاية من يده. وصار إلى تونس واعتقل بها مدة. ثم صرفوه إلى المغرب أيام عمر، فاختص به. ولما عقد له السلطان عبد العزيز على وزارته وكان قوي الشكيمة شديد الحزم وصعب العداوة مرهف الحد، وكان عمه علال بعد أن أطلقه السلطان من الاعتقال مكنه من إذنه وأقامه متصرفاً بين يديه، فألقى إلى السلطان استبداد يحيى عليه وحذره من شأنه. ورفع إليه أنه يروم تحويل الدعوة لبعض القرابة من آل عبد الحق، وأنه داخل في ذلك قواد الجند من النصارى. وأصاب الوزير وجع قعد به عن مجلس السلطان، فاختلف الناس إلى زيارتة. وعكف ببابه قواد النصارى، فاستراب بأمرهم. وتيقن الأمر بعكوفهم، فأرسل السلطان من حشمه من تقبض عليه وأودعه السجن. ثم جنب إلى مصرعه من الغد وقتل قعصا بالرماح. وقتل المتهمون من القرابة وقواد الجند واستلحموا جميعاً وصاروا مثلاً في الآخرين. والأمر لله.

الخبر عن حركة السلطان إلى عامر بن محمد ومنازلته بجبله، ثم الظفر به:

لما فرغ السلطان من شأن أبي الفضل، عقد على مراكش لعلي بن محمد بن أجانا من

صنائع دولتهم. وأوعز إليه بالتضييق على عامر والأخذ بمخنقه وإلجائه إلى الطاعة. وانقلب إلى فاس واعتزم على الحركة إلى تلمسان. وبينما هو في الاستغفار كذلك إذ جاء الخبر بأن علي بن أجاناً نهض إلى عامر وحاصره أياماً. وأن عامراً زحف إليه، ففض معسكره. وتقبض على ابن أجاناً والكثير من العسكر، فاعتقلهم، فقام السلطان في ركائبه وقعد وأجمع أمره على النهوض إليه، بكافة بني مرين وأهل المغرب، فبعث في الحشود وبث العطاء. وعسكر بظاهر البلد، حتى استوفى الغرض وعقد على وزارته لأبي بكر بن غازي بن يحيى بن الكاس، لما كان فيه من مخايل الرياسة والكفاية، ورفع محله. وارتحل سنة سبعين وسبعمائة، فاحتل بمراكش، ثم خرج إلى منازلته وكان عامر بن محمد، قد نصب بعض الأعياص من آل عبد الحق، من ولد أبي ثابت بن يعقوب بن عبد الله، إسمه تاشفين. ولحق به علي بن عمر بن ويغلان من شيوخ بني ورتاجن، كبير بني مرين وصاحب الشورى فيهم لعهده، فاشتد أزره به. وتوافى به كثير من الجند النازعين عن السلطان، رهبة من بأسه أو سخطة بحاله أو رغبة فيما عند عامر قريبهم. وأمسك الله يده عن العطاء، فلم يسل بقطرة. وطال مثوى السلطان بساحته وعلى حصاره. وبؤأ المقاعد للمقاتلة، وغاداه بالقتال وراوحه. وتغلب على حصونه شيئاً فشيئاً، إلى أن تعلق بأعلى الجبل تامسكروط، وكان لأبي بكر بن غازي غناء مذكور، ويئس أصحاب عامر

وأشياعه من عطائه. وفسد ما بينه وبين علي بن عمر هذا، فدس إلى السلطان بطلب الأمان ويتوثق لنفسه، ثم نزع إليه. وداخله فارس بن عبد العزيز ابن أخي عامر في القيام بدعوة السلطان والخلاف على عمه، لما كان يوسق به من إرهاف الحد وتفضيل ابنه أبي بكر عليه، فبلغ خبره إلى السلطان. واقتضى له وثيقة من الأمان والعهد به بها إليه، فثار بعمه. واستدعى القبائل من الجبل إلى طاعة السلطان فأجابوه. واستحث السلطان للزحف إليهم، فزحفت العساكر والجنود واستوت على معتصم الجبل. ولما استيقن عامر أن قد احيط به، أوعز إلى ابنه أن يلحق بالسلطان مموهاً بالتروع، فألقى بنفسه إليه وبذل له

الأمان ولحقه بجملته. وانتبذ عامر عن الناس وذهب لوجهه، ليخلص إلى السوس، فرده الثلج وقد كانت السماء أرسلت به منذ أيام برداً وثلجاً، حتى تراكم بالجبل بعضه على بعض. وسد المسالك، فاقتحمه عامر وهلك فيه بعض حرمه ونفق مركوبه. وعاين الهلكة العاجلة، فرجع مخفياً أثره إلى غار أوى إليه مع أدلاء بذل لهم المال، ليسلكوا به ظهر الخبل إلى الصحراء بالسوس. وأقاموا ينتظرون إمساك الثلج. وأغرى السلطان بالبحث عنه، فدلهم عليه بعض البربر وعثروا عليه، فسيق إلى السلطان وأحضره بين يديه. ووبخه فاعتذر وبخع بالطاعة. ورغب في الإقالة واعترف بالذنب، فحمل إلى مضرب بني له وراء فسطاط السلطان، واعتقل هنالك. وتقبض يومئذ على محمد بن الكناني، فاعتقل. وانطلقت الأيدي على معاقل عامر ودياره، فانتهب من الأموال والسلاح والذخيرة والزرع والأقوات والخرثي ما لا عين رأت ولا خطر على قلب أحد منهم.

واستولى السلطان على الجبل ومعاقله، في رمضان من سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، لحول من يوم حصاره. وعقد على هنتاتة لفارس بن عبد العزيز بن محمد بن علي. وارتحل إلى فاس واحتل بها آخر رمضان. ودخلها في يوم مشهود برز فيه الناس. وحمل عامر وسلطانه تاشفين على جملين، وقد أفرغ عليهما الرث وعبثت بهما أيدي الإهانة، فكان ذلك عبرة لمن رآه. ولما قضى منسك الفطر أحضر عامراً، فقرعه بذنوبه. واوتي كتابه بخطه يخاطب به أبا حمو يستنجده على السلطان، فشهد عليه. وأمر السلطان، فامتحن ولم يزل يجلد حتى انتثر لحمه وضرب بالعصا حتى ورمت أعضاؤه، وهلك بين يدي الوزعة. واحضر الكناني، ففعل به مثله. وجنب تاشفين سلطانهم إلى مصرعه، فقتل قعصاً بالرماح. وجنب مبارك بن إبراهيم من محبسه بعد طول الاعتقال، فألحق بهم. ولكل أجل كتاب. وصفاً الجو للسلطان من المنازعين. وفرغ لغزو تلمسان كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ارتجاع الجزيرة الخضراء:

قد تقدم لنا ذكر تغلب الطاغية الهنشة على الجزيرة، سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة. وأنه نازل إ بعدها جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعمائة. وهلك بالطاعون وهو محاصر له عندما استفحل أمره واشتدت شوكته، فكفى الله به شأنه. وولي أمر الجلالقة بعده ابنه

بطرة وعدا على سائر إخوته. وفر أخوه القمط، ابن حظية أبيه المسماة بلغتهم ألريق (بهمزة) إلى قمص برشلونة، فأجاره وأنزله خير نزل. ولحق به من الزعماء المركش ابن خالته وغيره من أقماصهم. وبعث إليه

بطرة ملك قشتالة في إسلام أخيه، فأبى من إخفار جواره. وحدثت بينهما بسبب ذلك الفتنة الطويلة، افتتح بطرة فيها كثيراً من معاقل صاحب برشلونة وأوطأ عساكره نواحي أرضه، وحاصر بلنسية قاعدة شرق الأندلس مراراً، وأرجف عليها بعساكره، وملأ البحر إليها بأساطيله، إلى أن ثقلت على النصرانية وطأته وساءت فيهم ملكته، فانتقضوا عليه ودعوا القمط أخاه، فزحف إلى قرطبة. وثار على بطرة أهل إشبيلية، وتيقن صاغية النصارى إليه، ففر عن. ممالكه ولحق بملك الإفرنج وراء جليقية وفي الجوف عنها وهو صاحب أنكلطرة وإسمه ألفنس غالس. ووفد عليه صريخاً سنة سبع وستين وسبعمائة، فجمع قومه وخرج في صريخه إلى أن استولى على ممالكه. ورجع ملك الإفرنج، فعاد النصارى إلى شأنهم مع بطرة. وغلب القمط على سائر الممالك، فتحيز بطرة إلى ثغوره مما يلي بلاد المسلمين. ونادى صريخه بابن الأحمر، فانتهز فيها الفرصة. ودخل بعساكره المسلمين، فأثخن في أرض النصرانية وخرب معاقلهم ومدنهم: مثل أبدة وجيان وغيرهما من أمهات أمصارهم. ثم رجع إلى غرناطة، ولم تزل الفتنة قائمة بين بطرة وأخيه القمط، إلى أن غلبه القمط وقتله. وفي خلال هذه الفتن بقيت ثغورهم مما يلي أرض المسلمين عورة. وتشوف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة التي قرب عهدهم بانتظامها في ملكة المسلمين. وكان صاحب المغرب في شغل عن ذلك، بما كان فيه من انتقاض أبي الفضل ابن أخيه وعامر بن محمد، فراسل صاحب الأندلس في أن يزحف إليها بعساكره، على أن عليه عطاءهم وإمداده بالمال والأساطيل، وعلى أن يكون مثوبة جهادها خالصة له، فأجابه إلى ذلك، وبعث إليه أحمال المال. وأوعز إلى أساطيله بسبتة، فعمرت وأقلعت إلى مرسى الجزيرة لحصارها. وزحف ابن الأحمر بعساكر المسلمين على أثرها، بعد أن قسم فيهم العطاء وأزاح العلل واستعد الآلة للحصار، فنازلها أياماً قلائل. ثم أيقن النصارى بالهلكة لبعدهم عن الصريخ ويأسهم من مدد ملوكهم، فألقوا باليد وسألوا النزول على حكم السلم، فأجابهم السلطان عليه. ونزلوا عن البلد وأقيمت فيها شعائر الإسلام

ومراسمه، ومحيت منها كلمة الكفر وطواغيته. وكتب الله أجرها لمن أخلص في معاملته وذلك سنة سبعين وسبعمائة. وولى ابن الأحمر عليها من قبله. ولم تزل لنظره إلى أن تمحض النظر عن هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها، فهدمت أعوام ثمانين وسبعمائة وأصبحت خاوية كأن لم تغن بالأمس. والبقاء لله وحده.

الخبر عن حركة السلطان إلى تلمسان واستيلائه عليها وعلي سائر بلادها وفرار أبي حمو عنها.

كان عرب المعقل موطنين بصحراء المغرب من لدن السوس ودرعة تافليلالت وملوية وصا. وكان بنو منصور منهم أولاد حسين والأحلاف، مختصين بطاعة بني مرين وفي وطنهم. كانوا مغلبين للدولة وتحت قهر من سلطانها. ولما ارتجع بنو عبد الواد ملكهم بتلمسان على يد أبي حمو، وكان الاختلاف بالمغرب، عاث هؤلاء المعقل وأكثروا في الوطن الفساد. ولما استقلت الدولة من عثارها، تحيزوا إلى بني عبد الواد وأقطعوهم في أوطانهم. واستقروا هنالك من لدن نزوع عبد الله بن مسلم، العامل كان بدرعة، إلى أبي حمو ووزارته له. وفسد ما بين سلطان المغرب وبين أبي حمو من جراء ذلك. ونهض أبو حمو سنة ست وستين وسبعمائة إلى المغرب وعاث في نواحي دبدو ثغر المغرب فشبت لذلك نار العداوة بينه وبين صاحب الثغر محمد بن زكدان،

فكان داعية لعداء صاحب المغرب علي الأيام. ولما استبد السلطان عبد العزيز وهلك عبد الله بن مسلم صاحبهم، وترددت الرسل بين أبي حمو وبين السلطان عبد العزيز، كان فيما اشترط عليه التجافي عن قبول المعقل عرب وطنه، لما فيه من الاستكثار بهم عليه. وأبى عليهم أبو حمو منها لاستظهاره بهم على زغبة من أهل وطنه وغيرهم. وكثر التلاحي في ذلك وأحفظ السلطان وهم بالنهوض إليه سنة سبعين وسبعمائة. وأقصر لما أخذ بحجرته من خلاف عامر. وصاحب الثغر محمد بن زكدان، أثناء ذلك يحرضه على الحركة إلى أبي حمو ويرغبه في ملك تلمسان. ولما قضى السلطان من حركة مراكش

وفرغ من شأن عامر ورجع إلى فاس، وافاه بها أبو بكر بن عريف أمير سويد في قومه من بني مالك بحللهم وناجعتهم، صريخاً على أبي حمو لما نال منهم.

وتقبض على أخيهم محمد ورؤساء بني مالك جزاء بما يعرف لهم ولسلفهم من ولاية صاحب المغرب. ووفد عليه معهم رسل أهل الجزائر ببيعتهم يستحثون السلطان لاستنقاذهم من لهواته. ووامر السلطان في ذلك وليه ونزمار بن عريد ومحمد بن زكدان صاحب دبدو، فزعموا له بالغناء في ذلك. واعتزم على النهوض إلى تلمسان وبعث الحاشرين إلى مراكش للاحتشاد. وتوافى الناس ببابه على طبقاتهم أيام منى من سنة إحدى وسبعين وسبعمائة. وأفاض العطاء وأزاح العلل ولما قضى منسك في الأضحى اعترض العساكر وارتحل إلى تلمسان، واحتل بتازى. وبلغ خبر نهوضه إلى أبي حمو، فجمع صت إليه من زناتة الشرق وبني عامر من عرب زغبة. وتوافت جموعه بساحة تلمسان وأضرب هنالك معسكره واستعرض جنوده واعتزم على الزحف إلى لقاء بني مرين، ثقة بمكان المعقل. وتحيز من كان معه من عرب المعقل الأحلاف وعبيد الله إلى السلطان عبد العزيز، بمداخلة وليهم ونزمار. واجتمعوا إليه وسرح معهم صنائعه، فارتحلوا بين يديه وسلكوا طريق الصحراء. وبلغ خبر تحيزهم وإقبالهم إلى أبي حمو، فأجفل هو وجنوده وأشياعه من بني عامر وسلكوا على البطحاء. ثم ارتحلوا عنها وعاجوا على منداس، وخرجوا إلى بلاد الديالم. ثم لحقوا بوطن رياح ونزلوا على أولاد سباع بن علي بن يحيى.

وارتحل السلطان عبد العزيز من تازى وقدم ين يديه وزيره أبا بكر بن غازي، فدخل تلمسان وملكها. ورحل السلطان على أثره واحتل بتلمسان يوم عاشوراء من سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة، فدخلها في يوم مشهود واستولى عليها وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي على العسكر من بني مرين والجنود والعرب من المعقل وسويد، وسرحه في أتباعهم، وجعل شوراه إلى وليه ونزمار وفوض إليه في ذلك. وارتحلوا من تلمسان آخر المحرم، وكنت وافداً على أبي حمو، فلما أجفل عن تلمسان ودعته وانصرفت إلى هنين للإجازة إلى الأندلس. ووشى بعض المفسدين عند السلطان بأني احتملت مالا للأندلس، فبعث جريدة من عسكره للقبض علي. ووافوه بوادي الزيتون قبل

مدخلي إلى تلمسان فأحضرني وسألني. وتبين كذب الواشين، فأطلقني وخلع عليّ وحملني، ولما ارتحل الوزير في أتباع أبي حمو استدعاني وأمرني بالنهوض إلى رياح والقيام فيهم بطاعته وصرفهم عن طاعة أبي حمو

وصريخه، فنهضت لذلك ولحقت بالوزير بالبطحاء وارتحلت معه إلى وادي وراك من بلاد العطاف، فودعته وذهبت لوجهي وجمعت رياح على طاعة السلطان، ونكبت بهم عن صريخ أبي حمو، فنكبوا عنه. وخرج أبو زيان من محل بؤرته بحصين، فلحق بأولاد محمد بن علي بن سباع من الزواودة. وارتحل أبو حمو من المسيلة، فنزل بالدوسن وتلوم بها. وأوفدت من الزواودة على الوزير ونزمار، فكانوا أدلاءهم في النهوض إليه. ووافوه بمكانه من الدوسن في معسكره من زناتة وحلل بني عامر، والوزير في التعبية. وأمم زناتة والعرب من المعقل وزغبة ورياح محدقة به، فأجهضوه عن ماله ومعسكره، فانتهب بأسره. واكتسحت أموال العرب الذين معه ونجا بدمه إلى مصاب. وتلاحق به ولده وقومه متفرقين على كل مفازة وتلوم الوزير بالدوسن أياماً. ووافاه هنالك إتحاف بن مزني وانقلب إلى المغرب. ومر على قصور بني عامر بالصحراء، فاستباحها وشردهم عنها إلى قاصية القفر ومفازة العطش. ولحق بتلمسان في ربيع الثاني.

ووفدت أنا بالزواودة على السلطان ورئيسهم أبو الدينار بن علي بن أحمد، فبر السلطان مقدمه ورعى له سوابقه عند أبيه، وخلع عليه وحمله. وخلع على الوفد كافة وانصرفوا إلى مواطنهم. وبعث السلطان عماله في الأمصار، وعقد لصنائعه على النواحي ،جهز الكتائب مع وزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة، لحصار حمزة بن علي بن راشد من آل ثابت بن منديل، كان ربي في حجر الدولة ونشأ في جو نعمتها وسخط حاله لديهم، فنزع إلى وطن سلفه من بلاد معراوة. ونزل بجبل بني بو سعيد، فأجاروه وبايعوه الموت دونه. وسرح السلطان وزيره إلى الأخذ بمخنقهم، فنزل عليهم وقاتلهم. امتنعوا في رأس شاهق لهم، فأوطن الوزير بالخميس من وادي شلف وأحجرهم بمعتصمهم. وتوافت لديه الأمداد من العساكر من تلمسان، فجهزها كتائب وبوأهم المقاعد للحصار، وأقام هنالك. واستولى السلطان على سائر الوطن من الأمصار والأعمال، وعقد عليها. واستوسق له ملك المغرب الأوسط كما كان لسلفه. والملك بيد يؤنبه من يشاء من عباده.

الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان إلي تيطري وأجلاب العرب بأبى حمو علي تلمسان، إلي أن غلبهم السلطان جميعا علي الأمر واستوسق له الملك:

لما خلص أبو حمو من واقعة الدوسن هو وأحياء بني عامر وأشياعه لحقوا بالصحراء وابعدوا فيها عن قصورهم قبلة جبل راشد. ورجع الوزير ونزمار بن عريف بأحياء العرب من زغبة والمعقل. وكان السلطان لما احتل بتلمسان طلب العرب منه إطلاق أيديهم ما أقطعهم أبو حمو إياه من الوطن على الزبون والاعتزاز عليه، فاستنكف من ذلك سلطانه واستبداد ملكه، فسخطوا أحواله ورجوا أن يكون لأبي حمو ظهور ينالون به .. فلما انهزم وفلت عساكره، وظهر السلطان ظهوراً لا كفاء له، فيئسوا. وأزمع بن منصور بن يعقوب أمير الخوارج من عبيد الله إحدى بطون المعقل الخروج على السلطان. ولما خرج العرب إلى مشاتيهم لحق بأبي حمو وأحياء بني عامر وكاثرهم إلى العيث في الأوطان. وأجلبوا على ممالك السلطان، ونازلوا وجدة في رجب من سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة. وصمد نحوهم العساكر من تلمسان، فأجفلوا وعادوا إلى البطحاء واكتسحوا أوطانهم. ونهض إليهم الوزير في العساكر، ففروا أمامه واتبع آثارهم إلى أن أصحروا. واستنسر

خلال ذلك بغاث حمزة بن علي بن راشد، فبيت معسكر الوزير بمكانه من حصاره بشلف، ففض جموعه ولحق مفلولاً بالبطحاء. وبلغ الخبر إلى حصين وكانوا راهبين من السلطان، لما اشتهر عنهم من الخلاف على الدول والقيام بأمر الخوارج فجأجئوا بأبي زئان، الثائر كان عندهم من مكانه بأحياء أولاد يحيى بن علي بن سباع من الزواودة، فلحق بهم وأجلبوا على ضواحي المدية، ونازلوا عسكر السلطان بها. واضطرم المغرب الأوسط نازلاً، واتصل ذلك مدة. ولما كانت سنة ثلاث وسبعين

وسبعمائة، واستمال السلطان رحو بن منصور عن أبي حمو وبذل له مالاً وأقطعه ما أحب من الضواحي، وفعل ذلك بسائرهم وملأ صدورهم ترغيباً. واعتزم على تجهيز العساكر معهم لحسم أدواء الفساد وإخراج الثوار من النواحي. واتهم وزيره عمر بن مسعود بالمداهنة في أمر المغراوي، فسرح من ذويه من تقبض عليه وأشخصه إلى حضرته مقيداً، واعتقله بفاس. وجهز عساكره واعترض جنوده، وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي على حراب الثوار والخوارج، فنهض من تلمسان في رجب من سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة. واعتمد حمزة بن علي بن راشد في معتصمه بجبل بني بوسعيد، وألح عليهم بالقتال، فعضتهم الحرب بنابها وداخلهم الرعب وأوفدوا مشيختهم على الوزير بالطاعة. ونبذ العهد إلى حمزة، فعقد لهم ما ابتغوه. ولحق حمزة بأبي زيان بمكانه من حصين. ثم أثنى عزمه عن ذلك ورجع إلى ضواحي شلف. وبيته بعض الحامية بتيمروغت، فثبتوا في مراكزهم وانفض جمعه وتقبض عليه وسيق إلى الوزير، فاعتقله. وبعث إلى السلطان في شأنه، فأمر بقتله، فاحتز رأسه ورؤوس أشياعه وبعث بهم إلى السلطان وعلق أشلاءهم بأسوار مليانه. ثم زحف إلى حصين، فأحجرهم بمعقلهم بتيطرا. واجتمعت إليه أحياء زغبة كافة. فأحاط بهم من كل جانب وطاولهم الحصار وغاداهم الحرب وخاطبني السلطان بمكاني من الزاب، وأوعز إلي بنفير رياح كافة إلى معسكر الوزير، فاستنفرتهم بأحيائهم وناجعتهم. ونازلنا الجليل من جانب الصحراء مما يلي ضواحي رياح، فأصابهم الجهد وداخلهم الرعب وانفضوا من المعقل واندعروا في الجهات في المحرم فاتح أربع وسبعين وسبعمائة ولحق أبو زيان بواركلي، واستولى الوزير على المعقل وانتهب ما فيه. واقتضى

رهن حصين على الطاعة وقرر عليهم الوضائع والمغارم، فأعطوها عن يد. وكان أبو حمو في خلال ذلك قد أجلب على تلمسان ينتهز فرصة في انتباذ العساكر عن السلطان. وكان وليه خالد بن عامر أمير بني عامر من زغبة مريد الطاعة لما اتهم أبو حمو به بولاية رديفه عبد الله بن عسكر بن معرف دونه، فأسخطه ذلك وداخل السلطان عبد العزيز في الانحراف إليه عن أبي حمو على مال إليه، فترع عنه. وجهز له السلطان عسكرا لحرب أبي حمو وأشياعه في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة من

بني عامر وأولاد يغمور من المعقل، وعقد عليهم لمحمد بن عثمان من قرابة أبي بكر بن غازي. وتعرضوا للقائهم، فانفض جمعهم ومنحوا أكتافهم. وأحيط بمعسكر أبي حمو وحلل العرب، فاكتسح ما فيها واستولى بنو مرين على أمواله وحرمه وولده، فاستاقوهم إلى السلطان، وأشخصهم إلى فاس فأنزلهم بقصوره. وتقبض على مولاه عطية بن موسى صاحب شلف، فامتن عليه وألحقه بجملته. ونجا أبو حمو وألقى بنفسه إلى عبد الله

بن صغير مستميتاً، فامتن عليه، وبعث معه الأدلاء إلى تيكورارين من بلاد القبلة، فترلها، وكان ذلك بين يدي فتح تيطرى بليال. واستوت قدم السلطان في ملكه واستولى على المغرب الأوسط، ودفع الثوار والخوارج عنه. واستمال كافة العرب إلى طاعته، فأتوها راغبين وراهبين. ووفد عليه الوزير أبو بكر بن غازي من قاصية الشرق ومعه مشيخة العرب من كل حيّ من أحيائهم فوصلهم واحتفى بقدومهم، وركب للقاء الوزير وطلب المشيخة في الرهن على الطاعة والإستحثاث لترشيد أبي حموّ من تيكورارين، وأوسع حفايتهم وبرّهم وانصرفوا إلى مشاتيهم معتملين في أسباب الحركة إلى تيكورارين إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن قدوم ابن الخطيب على السلطان بتلمسان نازعاً إليه من سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس:

أصل هذا الرجل من لوشة على مرحلة من غرناطة في الشمال من البسيط الذي في ساحتها المسمّى بالمرج على وادي سنجيل، ويقال شنبيل، المنحرف في ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال، كان له بها سلف معروفون في وزراتها. وانتقل أبو عبد الله إلى غرناطة واستخدم لملوك بني، الأحمر، واستعمل على مخازن الطعام. ونشأ ابنه محمد هذا بغرناطة وقرأ وتأدب على مشيختها، واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل، وأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرز في الطب وانتحل الأدب، وأخذ عن أشياخه وامتلأ من حوض السلطان من نظمه ونثره، مع انتقاء الجيّد منه. وبلغ في الشعر والترسل بحيث لا يجارى فيهما. وامتدح السلطان أبا الحجّاج من ملوك بني الأحمر لعصره، وملأ الدولة بمدايحه وانتشرت في الآفاق قدماه، فرقّاه السلطان إلى خدمته وأثبته في

ديوان الكتّاب ببابه مرؤوساً بأبي الحسن بن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية. وكاتب السلطان بغرناطة من لدن أيام محمد المخلوع من سلفه، عندما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبدّ عليه كما مرّ في أخبارهم. فاستبدّ ابن الجياب برياسة الكتّاب من يومئذ، إلى أن هلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعماية، فولّى السلطان أبو الحجّاج يومئذ محمد بن الخطيب هذا رياسة الكتاب ببابه، مثّناة بالوزارة. ولقبه بها، فاستقلّ بذلك. وصدرت عنه غرائب من الترسل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة. ثم داخله السلطان في تولية العمّال على يده بالمشارطات، فجمع له بها أموالاً. وبلغ به المخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد ممن قبله. وسفر عنه إلى السلطان أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة مقرباً بأبيه السلطان أبي الحسن فجلّى في أغراض سفارته.

ثم هلك السلطان أبو الحجّاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة عدا عليه بعض الزعانف يوم

الفطر بالمسجد في سجوده للصلاة، وطعنه فأشواه وفاض لوقته، وتعاورت سيوف الموالي المعلوجي هذا القاتل فمزقوه أشلاء. وبويع ابنه محمد بالأمر لوقته. وأقام بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة الأصاغر من ملوكهم واستبدّ بالدولة. وأفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه، واتخذ لكتابته غيره. وجعل ابن الخطيب رديفاً له في أمره وتشاركا في الاستبداد معاً، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة. ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي عنان مستمدّين له على عدوّهم الطاغية على عادتهم

مع سلفه. فلمّا قدم على السلطان ومثل بين يديه، تقدّم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها واستأذنه في إنشاد شيء من الشعر يقدّمه بين يدي نجواه، فأذن له وأنشد وهو قائم:

خليفةَ الله ساعد القدَر ... عُلاك ما لاح في الدُجى قمرُ
ودافعت عنك كفّ قدرته ... ما ليس يستطيعُ دَفْعَهُ البشرُ
وَجهُك في النائبات بدرُدُجى ... لنا وفي المُحْل كفّك المَطَرُ
والناسُ طرّاً بأرضِ أنْدَلُسٍ ... لولاك ما أوطِنوا ولا عَمُروا

وجُملةُ الأمر أنه وطن ... في غير علياك ماله وَطَرُ
ومن به مذ وصلت حبلهم ... ما جحدوا نعمةً ولا كفروا
وقد أهَمتهُم نفوسُهُم ... فوجهوني إليك وانتظروا

فاهتزّ السلطان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس. وقال له قبل أن يجلس: ما ترجع إليهم إلاّ بجميع طلباتهم. ثم أثقل كاهلهم بالإحسانه وردّهم بجميع ما طلبوه. وقال لي شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف، وكان معه في ذلك الوفد: لم يسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلّم على السلطان إلاّ هذا. ومكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين. ثم ثار بهم محمد الرئيس ابن عم السلطان، يشاركه في جدّه الرئيس أبي سعيد. وتحيّن خروج السلطان إلى متنزهه خارج الحمراء. وتسوّر دار الملك المعروفة بالحمراء وكبس رضواناً في بيته، فقتله. وذهب للملك اسماعيل ابن السلطان أبي الحجّاج، لما كان صهره على شقيقته. وكان معتقلاً بالحمراء، فأخرجه وبايع له وقام بأمره مستبداً عليه. وأحسّ السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبستان، فركب بادياً إلى وادي آش وضبطها. وبعث بالخبر إلى السلطان أبي سالم إثر ما استولى على ملك آبائه بالمغرب. وقد كان مثواه أيام أخيه أبي عنان عندهم بالأندلس. واعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب وضيّق عليه في محبسه.

وكانت بينه وبين الخطيب ابن مرزوق مودّة استحكمت أيام مقامه بالأندلس كما مرّ. وكان غالباً على هوى السلطان أبي سالم، فزيّن له استدعاء هذا السلطان المخلوع من وادي آش يعده زبونا على أهل الأندلس، وبكفّ به عادية القرابة المرشّحين هنالك متى طمحوا إلى ملك المغرب، فقبل ذلك منه. وخاطب أهل الأندلس في تسهيل طريقه من وادي آش إليه. وبعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التلمساني، وحمله مع ذلك الشفاعة في ابن الخطيب. وحل معتقله، فانطلق وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادي آش وسار في ركاب السلطان. وقدموا على السلطان أبي سالم فاهتز لقدوم ابن الأحمر وركب في موكب لتلقّيه وأجلسه إزاء كرسيّه. وأنشد ابن الخطيب قصيدته كما مرّ يستصرخ السلطان لنصره فوعده وقد

كان يوماً مشهوداً، وقد مرّ ذكره. ثم أكرم مثواه وأرغد نُزُله، ووفّر أرزاق القادمين في ركابه وانتظر به، وأرغد عيش ابن الخطيب في الجراية والأقطاع. ثم استأنس واستأذن السلطان في التحوّل إلى جهات مراكش والوقوف على آثار الملك بها، فأذن له وكتب إلى العمّال بإتحافه، فتبادروا في ذلك، وحصر منه على حظّ.

وعندما مرّ بسلا في قفوله من سفره. دخل مقبرة الملوك بشالة، ووقف على قبر السلطان أبي الحسن وأنشد قصيدته على رويّ الراء الموصلة يرثيه ويستثير به في استرجاع ضياعه بغرناطة ومطلعها:

إن بان منزلهُ وشطّت داره قامت مقام عيانه أخبارُهُ

قسِّم زمانك غيرةً أو عبرةً هذا ثراه وهذه آثارُهُ

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة، فشفعوه. واستقرّ هو بسلا منتبذاً عن سلطانه طول مقامته بالعدوة. ثم عاد السلطان محمد المخلوع إلى ملكه بالأندلس سنة ثلاث وستين كما مرّ في أخباره. وبعث عن مخلّفه بفاس من الأهل والولد القائم بالدولة يومئذ عمر بن عبد الله بن علي، فاستقدم ابن الخطيب من سلا وبعثهم لنظره. فسرّ السلطان بقدومه ورده إلى منزلته، كما كان مع رضوان كافله. وكان عثمان بن يحيى عمر شيخ الغزاة وابن أشياخهم، قد لحق بالطاغية في ركاب أبيه عندما أحسّ بالشرّ من الرئيس صاحب غرناطة. وأجاز يحيى من هنالك إلى العدوة، وأقام عثمان بدار الحرب، فصحب السلطان في مثوى اغترابه هنالك، وتغلب في مذاهب خدمته. وانحرفوا عن الطاغية بعدما يئسوا من الفتح على يديه، فتحوّلوا عنه إلى ثغور بلاده. وخاطبوا عمر بن عبد الله في أن يمكّنهم من بعض الثغور الغربية التي أطاعتهم بالأندلس، يرتقبون منها الفتح. وخاطبني السلطان المخلوع في ذلك، وكانت بيني وبين عمر بن عبد الله ذمّة مرعيّة ومخالصة متأكدة، فوفيت للسلطان بذلك من عمر بن عبد الله. وحملته على أن يردّ عليه مدينة رندة إذ هي من تراث سلفه، فقبل إشارتي في ذلك. وتسوّرها السلطان المخلوع ونزل بها، وعثمان بن يحيى في جملته، وهو المقدم في بطانته.

ثم غزوا منها مالقة، فكانت ركاباً للفتح. وملكها السلطان واستولى بعدها على دار

ملكها بغرناطة، وعثمان بن يحيى متقدّم القوم في الدولة عريق في المخالصة، وله على السلطان دالة واستبداد على هواه. فلما فصل ابن الخطيب بأهل السلطان وولده، وأعاده السلطان إلى مكانه في الدولة من علّو يده وقبول إشارته، فأدركته الغيرة من عثمان ونكر على السلطان الاستكفاء به، والتخوّف من هؤلاء الأعياص على ملكه، فحذره السلطان وأخذ في التدبير عليه حتى نكبه وأباه وإخوته في رمضان سنة أربع وستين، وأودعهم المطبق. ثم غرّبهم بعد ذلك، وخلا لابن الخطيب الجوّ وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير المملكة، وخلط بينه بندمائه وأهل خلوته. وانفرد ابن الخطيب بالحلّ والعقد وانصرفت إليه الوجوه وعلقت عليه الآمال، وغشي بابه الخاصّة والكافّة، وغصّت به بطانة السلطان وحاشيته، فتوافقوا على السعايه فيه، وقد صمٌّ السلطان عن قبولها. ونمي الخبر بذلك إلى ابن الخطيب، فشمّر عن ساعده في التقويض عنهم. واستخدم للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ملك العدوة يومئذ قي القبّض على ابن عمّه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي، كانوا قد نصّبوه شيخاً على الغزاة في الأندلس، لما أجاز من العدوة، بعد ما جاس خلالها لطلب الملك، وأضرم بها نار الفتنة في كل ناحية وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد الله، القائم حينئذ بدولة بني مرين، فاضطّرب إلى الإجازة إلى الأندلس، فأجاز هو ووزيره مسعود بن ماسي ونزلوا على

السلطان المخلوع أعوام سبع وستين وبعمائة، فأكرم نزلهم. وتوفي علي بن بدر الدين شيخ الغزاة، فقدم عبد الرحمن مكانه. وكان السلطان عبد العزيز قد استبدّ بملكه بعد قتله الوزير عمر بن عبد الله، فغصّ بما فعله السلطان المخلوع من ذلك. وتوقّع انتقاض أمره منهم. ووقف على مخاطبات ابن عبد الرحمن يسرّ بها في بني مرين، فجزع لذلك. وداخله ابن الخطيب في اعتقال ابن أبي يفلوسن وابن ماساي واراحة نفسه من شغبهم، على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه، فأجابه إلى ذلك وكتب له العهد بخطه، على يد سفيره إلى الأندلس وكاتبه أبي يحيى بن أبي مدين. بني مرين وأغرى ابن الخطيب سلطانه بالقبض على ابن أبي يفلوسن وابن ماساي، فتقبّض عليهما واعتقلهما. وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية. وربّما خيّل له أن السلطان مال إلى قبولها وأنهم قد

أحفظوه عليه، فأجمع التحول عن الأندلس إلى المغرب. واستأذن السلطان في تفقد الثغور الغربية. وسار إليها في لّمة من فرسانه، ومعه ابنه عليّ الذي كان خالصة السلطان وذهب لطبنة. فلما حاذى جبل الفتح، فرضة المجاز إلى العدوة، مال إليه وسرّح إذنه بين يديه، فخرج قائد الجبل لتلقّيه. وقد كان السلطان عبد العزيز أوعز إليه بذلك وجهّز إليه الأسطول من حينه، فأجاز إلى سبتة. وتلقّاه بها بأنواع التكرمة وامتثال المراسيم. ثم سار لقصد السلطان، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمقامته من تلمسان، فاهتزّت له الدولة. وأركب السلطان خاصّته لتلقّيه وأحلّه من بمجلسه محل الأمن والغبطة، ومن دولته بمكان البنوة والعزّة. وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن مدين سفيراً إلى صاحب الأندلس في طلب أهله وولده، فجاء بهم على أكمل حالات من الأمن والتكرمة. ثم لغط المنافسون له في شأنه وأغروا السلطان بتتبع عثراته وأبدى ما كان كامناً في نفسه من سقطات دالته وإحصاء معائبه. وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها إليه. ورفعت إلى قاضي الحضرة أبي الحسن ابن أبي الحسن، فاستردها وسجّل عليه بالزندقة. وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه. وبعث القاضي ابن الحسن إلى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات وامضاء حكم الله فيه، فصمّ لذلك وأنف لذمته أن تخفر ولجواره أن يرد وقال لهم: هلا انتقمتم وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه؟ وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جواري. ثم وفّر الجراية والإقطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الأندلس في جملته. فلمّا هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين ورجع بنو مرين إلى المغرب وتركوا تلمسان، سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة، فنزل بفاس واستكثر من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنات. وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفي. واتصلت حاله على ذلك، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك السلطان عبد العزيز وبيعة ابنه السعيد واستبداد أبي بكر بن غازي عليه ورجوع بني مرين إلي المغرب:

كان السلطان منذ أوّل نشأته قد أزمنت به الحمى بما أصابه من مرض النحول، ولأجل ذلك تجافى السلطان أبو سالم عن احتماله مع الأبناء إلى رندة. ولما شبّ أفاق من مرضه وصلح بدنه. ثم عاوده وجعه في مثواه

بتلمسان وتزايد نحوله. ولما كمل الفتح واستفحل سلطانه اشتدّ به الوجع وصابر المرض، وكتمه عن الناس خشية الإرجاف، واضطرب معسكره خارج تلمسان للحاق بالمغرب. ولما كانت ليلة الثاني والعشرين من ربيع الاخر سنة أربع وسبعين وسبعمائة قضى متودعاً بين أهله وولده ودسّ الخدم بالخبر إلى الوزير، فخرج على الناس وقد احتمل محمد السعيد ابن السلطات على كنفه فعزّى الناس عن خليفتهم لسبع سنين من خلافته، وألقى ابنه بين أيديهم، فازدحموا عليه باكين متفجّعين، يعطونه الصفقة ويقبّلون يده للبيعة، وأخرجوه إلى المعسكر. ثم أخرج الوزير شلو السلطان على أعواده وأنزله بفساطيطه، وأيقظ بالليل بحراسة المعسكر. وأذن في للناس بالرحيل، فخرجوا أفواجاً إلى المحلة. ثم ارتحلوا لثلاث وأغذّوا السير إلى المغرب واحتلوا بتازى. ثم أغذّوا السير إلى فاس. واحتلّ ابن السلطان بدار ملكه وجلس للبيعة العامّة بقصره. وتوافت وفود الأمصار ببيعاتهم على العادة. واستبدّ عليه الوزير أبو بكر بن غازي، وحجبه بقصره وحجره عن التصرف في شيء من سلطانه، ولم يكن في سنّ التصرف. واستعمل على الجهات وجلس بمجلس الفضل. واشتغل بأمر المغرب إبراماً ونقضاً، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن استيلاء أبي حموّ علي تلمسان والمغرب الأوسط:

لما فصل بنو مرين من تلمسان إثر مهلك السلطان عبد العزيز واحتلوا بتازى اجتمع المشيخة وعقدوا على تلمسان لإبراهيم بن السلطان أبي تاشفين، كان ربي في كفالة

دولتهم منذ مهلك أبيه، فآثروه بذلك لخلوصته. وبعثوه مع رحّو بن منصور أمير عبيد الله من المعقل وسرّحوا معهما من كان بالمغرب من مغراوة إلى وطن ملكهم بشلف. وعقدوا عليهم لعليّ بن هارون بن منديل بن عبد الرحمن وأخيه رحمون وانصرفوا إلى بلادهم. وكان عطية بن موسى مولى أبي حمّو قد صار إلى السلطان عبد العزيز، فألحقه بجملته وبطانته. فلمّا هلك السلطان، خرج من القصر واختفى بالبلد، حتى إذا فصل بنو مرين من معسكرهم ظاهر البلد، خرج من مكان اختفائه وقام بدعوة مولاه أبي حموّ. واجتمع إليه شيعه من أهل البلد مع من تأشّب إليه من الغوغاء. وحملوا الخاصة على البيعة لأبي حمّو، وصلهم إبراهيم بن أبي تاشفين مع رحّو بن منصور وقومه من عبيد الله، فنبذوه وامتنعوا عليه، فرجع عنهم إلى المغرب. وطيّر أولاد يعمور أولياء أبي حمّو من عبيد الله بالخبر إليه وهو بمثواه من تيكورارين. واتصل بابنه أبي تاشفين وهو عند يحيي ابن عامر، فدخل إلى تلمسان ودخلها ومن معه من بني عبد الواد. وتساقط إليه فلّهم من كل جانب. ووصل السلطان على أثرهم بعد اليأس منه، فدخلها في جمادى من سنة أربع وسبعين وسبعمائة واستقل بملكه. وتقبّض على بطانته الذين آسفوه في اغترابه، ونمي له عنهم السعي عليه، فقتلهم ورجع ملك بني عبد الواد وسلطانهم ونهض إلى مغراوة أولياء بني مرين بمكانهم من شلف، فغلبهم عليه بعد مطاولة وحروب سجال، هلك فيها رحمون بن هارون. ومحا دعوة بني مرين من ضواحي المغرب الأوسط وأمصاره، واستقلّ بالأمر حسبما ذكرناه في أخباره. واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فهمّ بالنهوض إليه، ثم ثنى عزمه ما كان من خروج الأمير عبد الرحمن بناحية بطوية فشغله شأنه عن ذلك.

الخبر عن إجازة الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن إلى المغرب واجتماع بطوية إليه وقيامهم بشأنه:

كان محمد المخلوع بن الأحمر قد رجع من رندة إلى ملكه بغرناطة في جمادى من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وقتل له الطاغية عدوّه الرئيس المنتزي على ملكه حين هرب من غرناطة إليه، وفاء بعهد المخلوع، واستوى على كرسّيه واستقلّ بملكه. ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب واستخلصه وعقد له على وزارته، وفوّض إليه في القيام بملكه، فاستولى عليه وملك هواه. وكانت عينه ممتدّة إلى المغرب وسكناه إلى أن نزلت به آفة في رياسته، فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه. وكان لابناء السلطان أبي الحسن كلّهم غيرة على ولد عمّهم السلطان أبي عليّ ويخشونهم على أمرهم. ولّما لحق الأمير عبد الرحمن بالأندلس اصطفاه ابن الخطيب واستخلصه لنجواه، ورفع في الدولة رتبته وأعلى مترلته، وحمل السلطان على أن عقد له على الغزاة المجاهدين من زناتة مكان بني عمّه من الأعياص، فكانت له آثار في الاضطلاع بها. ولما استبدّ السلطان عبد العزيز بأمره واستقل بملكه، وكان ابن الخطيب ساعياً في مرضاته عند سلطانه، فدسّ إليه باعتقال عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره المطارد به مسعود بن ماساي. وأدار ابن الخطيب في ذلك مكره وحمل السلطان عليهما، إلى أن سطا بهما ابن الأحمرواعتقلهما سائر أيام السلطان عبد العزيز وتغير الجو بين ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب وأظلم، فتنكر له، فترع عنه إلى عبد العزيز سلطان المغرب سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة، لما قدم من الوسائل ومهّد من السوابق، فقدمه السلطان وأحلّه من مجلسه محل الاصطفاء والقرب. وخاطب ابن الأحمر في أهله وولده، فبعثهم إليه واستقر في جملة السلطان. ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر، فرغب السلطان في ملك الأندلس وحمله عليه وتواعدوا لذلك عند مرجعه من تلمسان إلى المغرب. ونمي ذلك إلى ابن الأحمر، فبعث إلى السلطان بهديّة لم يسمع بمثلها، انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها وبغالها الفارهة ومعلوجي السبي وجواريه، وأوفد بها رسله يطلب إسلام وزيره ابن الخطيب إليه، فأبى السلطان من ذلك ونكره. ولّما هلك واستبدّ الوزير ابن غازي بالأمر تحيّز إليه ابن الخطيب وداخله، وخاطبه ابن الأحمر فيه بمثل ما خاطب السلطان، فلم يؤب واستنكف عن ذلك وأقبح الردّ. وانصرف رسله إليه، وقد رهب سطوته، فأطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأركبه الأسطول وقذف به إلى ساحل بطوية. ونهض إلى جبل الفتح ونازله بعساكره.

ونزل عبد الرحمن ببطوية في ذي القعدة من سنة أربع وسبعين وسبعمائة ومعه وزيره مسعود بن ماسي، فاجتمع قبائل بطوية إليه وبايعوه على القيام بدعوته والموت دونه. واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي، فعقد لابن عمه محمد بن عثمان على سبتة وبعثه لسدّ ثغورها لما خشي عليها من ابن الأحمر. ونهض من فاس بالعساكر والآلة. ونازل عبد الرحمن ببطوية، فامتنع عليه وقاتله أياماً. ثم رجع إلى تازى ثم إلى فاس. ودخل الأمير عبد الرحمن تازى واستولى عليها، ودخل الوزير إلى فاس وقعد بمجلس الفصل، وهو مجمع العودة إلى تازى لتشريد عدوّه، إلى أن جاءه الخبر ببيعة السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم، حسبما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن بيعة السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم واستقلاله بالملك، وما كان خلال ذلك من الأحداث:

لما نزل محمد بن عثمان بالثغر من سبتة لسدّ فروجها، ومدافعة ما يخشى من عادية ابن الأحمر عليها، وكان قد طاول حصار جبل الفتح وأخذ بمخنقه. وتكّررت المواصلة بينه وبين محمد بن عثمان بالعتاب، فاستعتب له وقبحّ ما جاء به ابن عمّه من الاستغلاظ له، فوجد ابن الأحمر بذلك السبيل إلى غرضه. وداخله في البيعة للسلطان أبي سالم، من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الرقبة والحوطة، وأن يقيمه للمسلمين سلطاناً يجول بسياجهم ويدافع عنهم ولا يتركهم فوضى وهملاً. ويجب بيعة الصبيّ الذي لم تنعقد بيعته شرعاً. واختصّ هذا بالسلطان من بين أولئك الأبناء وفاء بحقوق أبيه ووعده بالمظاهرة على ذلك، واشترط عليه أن يترلوا له عن الجبل اذا انعقد أمرهم، ويشخصوا إليه بيعة الأبناء والقرابة من طنجة ليكونوا في إيالته وتحت حوطته. وأن يبعثوا إليه بابن الخطيب متى قدروا عليه، ويبعثوا إليه بقية الأبناء والقرابة فقبل محمد بن عثمان شرطه. وكان سفيره في ذلك أحمد الرعيني من طبقات كتّاب الأشغال بسبتة، كان السلطان أبو الحسن تزّوج أمّه
ليلة إجازته من واقعة طريف وافتقاد حظاياه، حتى لحق به الحرم من فاس، فردّها إلى أهلها. ونشأ الرعيني في توهّم هذه الكفالة، فانتفخ نحره لذلك ويحسبها وصلة إلى أبناء السلطان أبي الحسن. وكان سفيراً بين محمد بن عثمان وابن الأحمر، فأمّل الرياسة في هذه الدولة. وركب محمد بن عثمان من سبتة إلى طنجة وقصد مكان اعتقالهم. واستدعى أبا العبّاس أحمد ابن السلطان أبي سالم من مكانه مع الأبناء، فبايع له وحمل الناس على طاعته. واستقدم أهل سبتة بكتاب للبيعة، فقدموا وخاطب أهل الجبل فبايعوا، وأفرج ابن الأحمر عنهم. وبعث إليه محمد بن عثمان بالترول له عن جبل الفتح، وخاطبوا أهله بالرجوع إلى طاعته، فارتحل من مالقة إليه ودخله واستولى عليه، ومحا دعوة بني مرين مما وراء البحر. وأهدى للسلطان أبي العبّاس، وأمدّه بعسكر من غزاة الأندلس وحمل إليه مالاً للإعانة على أمره.

وكان محمد بن عثمان عند فصوله من فاس، وودّعه الوزير ابن عمّه، وفاوضه في شأن السلطان، وأن يقدّم للناس إماماً يرجعون إليه ويترك له أمرهم، وآمره في ذلك، ولم يفترقا على مبرم من أمرهم. فلمّا ارتكب هذا المرتكب وجاء بهذا الأمر، خاطب الوزير يمّوه عليه بأنه فعل بمقتضى المؤامرة وأنه عن إذنه، والله أعلم بما دار بينهما. ولجّ الوزير في تكذيبه والبراءة للناس مما رمي به ولاطفه في نقض ذلك الأمر وردّ أبا العباس إلى مكانه مع الأبناء تحت الحوطة. وأبي محمد بن عثمان من ذلك ودافعه باجتماع الناس وانعقاد الأمر. وبينما الوزير يروم ذلك، جاءه الخبر بأنّ محمد بن عثمان، أشخص الأبناء المعتقلين كلّهم إلى الأندلس، وأنهم حصلوا في كفالة ابن الأحمر، فوجم وأعرض عن، ابن عمّه وسلطانه. ونهض إلى تازى ليفرغ من عدوّه إليهم فنازل الأمير عبد الرحمن واخذاً بمخنقه. واهتبل محمد بن عثمان الغرّة في ملك المغرب. فوصله مدد السلطان ابن الأحمر وعسكره تحت رايته، عقدها عليهم ليوسف بن سليمان بن عثمان بن أبي العلاء من مشيخة الغزاة المجاهدين، وعسكر آخر من رجل الأندلس الناشبة يناهزون سبعماية. وبعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد بابن عمّه السلطان أبي العبّاس أحمد، ومظاهرته على ملك سلفه بفاس واجتماعهما لمنازلتهما.

وعقد بينهما الاتفاق والمواصلة، وأن يختصّ عبد الرحمن بملك سلفه فتراضيا. وزحف محمد بن عثمان وسلطانه إلى فاس، خالفوا إليه

الوزير وانتهوا إلى قصر عبد الكريم. وبلغ الخبر إلى الوزير بمكانه من حصار تازى، فانفضّ معسكره ورجع إلى فاس ونزل بكدية ا لعرائس.

وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون، فصمد إليه الوزير بعساكره وصمم نحوه بمكانه من قنّة الجبل، فاختل مصافه وانهزمت ساقة العسكر من ورائه. ورجع على عقبه مفلولاً، وانتهب المعسكر ودخل إلى البلد الجديد. وجأجأ بالعرب أولاد حسين أن يعسكروا له بالزيتون ظاهر فاس، ويخرج بمجموعه إلى حللهم، فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازى بمن كان معه من العرب الأحلاف وشرّدهم إلى الصحراء. وشارف السلطان أبا العبّاس أحمد بمجموعة من العرب وزناتة وبعثوا إلى وليّ سلفهم ونزمار بن عريف بمكانه من قصر مرادة الذي اختطّه بملوية، فجاءهم وأطلعوه على كامن أسرارهم، فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق، فاجتمعوا بوادي النجا. وحضر لعقدهم واتفاقهم وحلفهم على اتصال اليد على عدّوهم ومنازلته بالبلد الجديد، حتى يمكن الله منه. وارتحلوا بجمعهم إلى كدية العرائس في ذي القعدة من سنة خمس وسبعين وسبعمائة وبرز إليهم الوزير بعساكره، فدارت الحرب وحمي الوطيس واشتدّ القتال ملياً. ثم زحف إليه العسكران بساقتهما وآلتهما فاختلّ مصافه وانهزمت جيوشه وأحيط به، وخلص إلى البلد الجديد بعد غصّ الريق.

وأضرب السلطان أبو العبّاس معسكره بكدية العرائس، ونزل الأمير عبد الرحمن بإزائه، وضربوا على البلد الجديد سياجاً بالبناء للحصار، وأنزلوا بها أنواع القتال والإرهاف.

ووصله مدد السلطان ابن الأحمر من الرجالة الأندلسية فضيقوا حصارها. واحتكموا

في ضياع ابن الخطيب بفاس، فهدموها وعاثوا فيها. ولّما كان فاتح سنة ست وسبعين وسبعمائة داخل محمد بن عثمان ابن عمه أبا بكر في النزول عن البلد الجديد والبيعة للسلطان، لما كان الحصار قد اشتدّ به ويئس من الصريخ وأعجزه المال، فأجاب. واشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجافي له في أعمال مراكش، وأن يديلوه بها من سجلماسة فعقدوا له على كره وطووا على المكر. وخرج الوزير أبو بكر إلى السلطان أبي العبّاس أحمد وبايعه واقتضى عهده بالأمان وتخلية سبيله من الوزارة فبذله. ودخل السلطان أبو

العباس أحمد إلى البلد الجديد سابع المحرم. وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراكش واستولى عليها، وارتحل معه علي بن عمر بن ويغلان شيخ بني مرين والوزير ابن ماساي، ثم نزع عنه ابن ماساي إلى فاس لعهد كان اقتضاه من السلطان أبي العبّاس. وأجاز البحر إلى الأندلس فاستقرّ بها في إيالة ابن الأحمر، واستقلّ السلطان أبو العباس ابن السلطان أبي سالم بملك المغرب ووزيره محمد بن عثمان بن ألكاس، وفوض إليه شؤونه وغلب على هواه. وصار أمر الشورى إلى سليمان بن داود، كان نزع إليهم من البلد الجديد من جملة أبي بكر بن غازي بعد أن كان أطلقه من محبسه واستخلصه. وجعل إليه مرجع أمره فتركه أحوج ما كان إليه. ولحق بالسلطان أبي العباس بمكانه من حصار البلد الجديد. فلمّا استوسق ملكه ألقى الوزير محمد بن عثمان مقاد

الدولة له، وصار إليه أمر الشورى ورياسة المشيخة. واستحكمت المودّة بينه وبين ابن الأحمر وتأكّدت المداخلة وجعلوا إليه المرجع في نقضهم وابرامهم لمكان الأبناء المرشحين في إيالته. ولّما ارتحل الأمير عبد الرحمن إلى مراكش نبذوا إليه العهد، وتعللوا عليه بأنّ العقد الأوّل له، إنّما كان على ملك سلفه، ومراكش إنما ألجأهم إلى العقد عليها إلجاء. واعتزموا على النهوض إليه، ثم أقصروا وانعقدت بينهما السلم سنة ست وسبعين وسبعمائة، وجعلوا التخم بينهما أزمور وعقدوا على ثغرها لحسان بن علي الصبيحي، فلم يزل عليها إلى أن هلك كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مقتل ابن الخطيب:

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه، فاتح سنة ست وسبعين وسبعمائة، واستقلّ بسلطانه، والوزير محمد بن عثمان مستبدّ عليه، وسليمان بن داود من أعراب بني عسكر رديف له، وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر عندما بويع بطنجة على نكبة ابن الخطيب وإسلامه إليه، لما نمي إليه عنه أنه كان يغري السلطان عبد العزيز لملك الأندلس. فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ولقي الوزير أبا بكر بن غازي بساحة البلد الجديد، فهزمه السلطان ولاذ منه بالحصار، آوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفاً على نفسه. فلما استولى السلطان على البلد الجديد، أقام أياماً، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض عليه، فقبضوا عليه وأودعوه السجن، وطيّروا بالخبر إلى

السلطان ابن الأحمر. وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب لما كان سليمان بن داود قد بايعه السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغزاة بالأندلس حتى أعاده الله إلى ملكه. فلما استقرّ له سلطانه أجاز إليه سليمان سفيراً عن عمر بن عبد الله ومقتضياً عهده من السلطان، فصدّه ابن الخطيب عن ذلك بأنّ تلك الرياسة إنما هي لأعياص الملك من آل عبد الحق، لأنهم يعسوب زناتة، فرجع سليمان يائسا وحقد ذلك لابن الخطيب. ثم جاور الأندلس بمحل إمارته من جبل الفتح، فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات ينفّس كل واحد منهما لصاحبه بما يحفظه لما كمن في صدورهما. وحين بلغ الخبر بالقبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر، بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب، وهو أبو عبد الله بن زمرك، فقدم على السلطان أبي العبّاس وأحضر ابن الخطيب بالشورى في مجلسه الخاصّة و أهل الشورى، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه، فعظم عليه النكرير فيها، فوبّخ ونكل، وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ من الناس، ثم تل إلى محبسه. اشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجّلة عليه وأفتى بعض الفقهاء فيه. ودسّ سليمان بن داود إليه لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله، فطرقوا السجن ليلاً ومعهم زعانفة جاؤوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر، وقتلوه خنقاً في محبسه، وأخرجوا شلوه من الغد، فدفن بمقبرة باب المحروق. ثم أصبح من الغد علي شأفة قبّره طريحاً، وقد جمعت له أعواد واضرمت عليه ناراً فاحترق شعره واسودّ بشره، وأعيد إلى حفرته وكان في ذلك انتهاء محنته. وعجب الناس من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان واعتدّوها من هناته.

وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته. والله الفعال لما يريد. وكان عفى الله عنه أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت، فيتجيش هوأتفه بالشعر يبكي نفسه. ومما قال في ذلك:

بعُدنا وإن جاورتنا البيوتُ وجئنا لوعد ونحن صموت

وأنفاسنا سكنت دفعة كجهر الصلاتِ تلاه القنوت

وكنا عظاماً فصرنا عظاماً وكنا نقوت فها نحن قوتْ

وكنا شموس سماء العلا زغر بن فباحت علينا السموت

فكم جزلت ذا الحسام الظبا وذو البحث كم خذّلته البخوت

وكم سيق للقبر في خرقةٍ فتىً ملئت من كساه التخوت

فقل للعدا ذهب ابن الخطيب وفات ومن ذا الذي لا يفوت

فمن كان يفرح منكم له فقل يفرح اليوم من لا يموت

الخبر عن إجازة سليمان بن داود إلى الأندلس ومقامه بها إلى أن هلك: بها

كان سليمان بن داود هذا منذ عضّته الخطوب واختلفت عليه النكبات، يروم الفرار بنفسه إلى الأندلس، للمقامة مع الغزاة المجاهدين من قومه. ولما استقرّ السلطان ابن الأحمر بفاس، عند خلعه ووفادته على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة، وداخله سليمان بن داود في تأميل الكون عنده، فعاهده على ذلك، وأن يقدّمه على الغزاة المجاهدين من قومه. ولما عاد إلى ملكه، وفد عليه سليمان بن داود بغرناطة في سبيل السفارة عن عمر بن عبد الله سنة ست وستين وسبعمائة، وأن يؤكد عقده من السلطان، فحال دون ذلك ابن الخطيب وثنى رأى السلطان عن ذلك بأنّ شياخة الغزاة مخصوصة بأعياص الملك من بني عبد الحق، لمكان عصابتهم من الأندلس، فأخفق أمل سليمان حينئذ وحقدها على ابن خطيب ورجع إلى مرسله. ثم كانت نكبته أيام السلطان عبد العزيز، فلم يخلص منها إلا بعد مهلكه، أطلقه أبو بكر بن غازي المستبد بالأمر من بعده، ليعتضد بمكانه على شأنه. فلما استبدّ الحصار على ابن غازي، خرج عنه سليمان ولحق بالسلطان أبي العباس ابن المولى أبي سالم بمكانه من ظاهر البلد

الجديد، فكان ذلك من أسباب الفتح. ولما دخل السلطان إلى دار ملكه من البلد الجديد فاتح سنة ست وستين وسبعمائة واستوسق أمره، رفع مجلس سليمان وأحلّه محل الشورى، واعتضد به وزيره محمد بن عثمان واستخلصه كما ذكرناه. وكان يرجع إلى رأيه، وهو في خلال ذلك يحاول اللحاق بالأندلس، فكان من أوّل أمره التقرّب إلى السلطان ابن الأحمر، بإغراء الوزير محمد بن عثمان بقتل ابن الخطيب مشنوئه، فتمّ ذلك لأوّل الدولة. وجرت الأمور بعدها على الاعتمال في مرضاته إلى أن حاول السفارة إليه في أغراض سلطانه سنة ثمان وستين وسبعمائة في صحابة ونزمار بن عريف، فتلقّاهما السلطان ابن الأحمر بما يتلقى به أمثالهما وأغرب في تكرمتهما. وأما ونزمار فانقلب راجعاً لأوّل تأدية الرسالة، يقتضى من السلطان حظه لقواد أسطوله بتسهيل

الإجازة إليه متى رامها. وخرج يتصيّد، فلحق بمرسى مالقة ودفع أمر السلطان بخطه إلى قائد الأسطول، فأجازه إلى سبتة ولحق بمكانه. وأمّا سليمان، فاعتزم على المقام عند ابن الأحمر وأقام هنالك خالصةً ونجياً ومشاوراً، إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وسبعمائة.

الخبر عن شأن الوزير أبي بكر بن غازي وما كان من تغريبه إلى مايرقة، ثم رجوعه وانتقاضه بعد ذلك ومهلكه:

لما اشتدّ الحصار بالوزير أبي بكر بن غازي وفنيت أمواله وأموال السلطان، وظن أنه احيط به، داخله الوزير محمد بن عثمان من مكانهم بحصاره في النزول عن البلد على الأمان والإبقاء فأجاب. وخرج إلى السلطان أبي العبّاس بن أبي سالم، فعقد له أماناً بخطّه وتحّول إلى داره بفاس. وأسلم سلطانه المنصوب للأمر، فتسلّمه منه الوزير محمد بن عثمان واشتدّ في الاحتياط عليه، إلى أن بعثه إلى السلطان ابن الأحمر، فكان في جملة الأبناء عنده. ودخل السلطان أبو العباس إلى دار ملكه واقتعد سريره ونفذت في الممالك أوامره. وأقام أبو بكر بن غازي على حاله بداره والخاصّة يباكرونه والنفوس منطوية على تأميله، فغصّ به أهل الدولة وتردّدت فيه السعاية. وتقبّض عليه السلطان وأشخصه إلى غسّاسة، وركب منها السفين إلى ميورقة آخر سنة ست وسبعين وسبعمائة، فأقام بها شهراً، ومخاطباته مترددة إلى الوزير محمد بن عثمان. ثم عطفته عليه رحم، فأذن له في القدوم، إلى المغرب والمقامة بغسّاسة، فقدمها أوائل سنة سبع وسبعين وسبعمائة واستبدّ بأمارتها. وبدا له رأي في تأميل الرتبة وظهر ما كان يخفيه لابن عمّه من المنافسة، فخاطب السلطان ابن الأحمر من وراء البحر ولاطفه بالتحف والهدايا، فكتب إلى ابن عمّه محمد بن عثمان يحضّه على إعادته إلى مكانه دفعاً لغوائله، فأبى من ذلك. وداخله ونزمار بن عريف في بعضها كذلك، فلح في الامتناع. وحمل سلطانه على نبذ العهد إلى أبي بكر بن غازي، فتنكّر له وأجمع المسير إليه بعساكر العرب، فخرج من فاس سنة تسع وسبعين وسبعمائة. وبلغ الخبر إلى أبي بكر بن غازي، فاستجاش بالعرب واحثّهم للوصول، فوصل إليه الأحلاف من المعقل وسرّب فيهم أمواله. وخرج من غسّاسة، فألقى بينهم وعمد إلى بعض العرب الطارئين، فنصّبه للأمر مشبّهاً ببعض أولاد السلطان أبي الحسن، وزحف إليه السلطان حتى نزل بتازى، فأجفلت أحياء العرب أمام العساكر من بني مرين والجند. ونجا ابن غازي معهم بدمائه. ثم داخله ونزمار بن عريف في الإذعان للسلطان والتنكيب عن شق الخلاف، فأجاب ووصل به إلى سدّة الملك، فبعث به السلطان محتاطاً عليه إلى فاس، فاعتقل بها. ونزلت مقدّمات العساكر بوادي ملويّة، وداخل صاحب تلمسان منها رعب، فأوفد على السلطان من قومه وكبار مجلسه ملاطفاً ومدارياً، فتقبّل منه وعقد السلم، وأصدر به كتابه وعهده بخطّه، وانكفأ راجعاً إلى حضرته، بعد أن بثّ العمّال في تلك النواحي على جبايتها، فجمعوا له منها ما رضي. ولما احتلّ بدار ملكه، أنفذ أمره بقتل أبي بكر بن غازي، فقتل بمحبسه طعناً بالخناجر، وذهب مثلاً في الأيام، واستوسق للسلطان أمره. وأحكم العقد مع الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن صاحب مراكش، واتصل بينهما وترددت المهاداة بينهما بعض إلى

بعض، وإلى صاحب الأندلس واليه منهما، فامتلأت المغرب هدنةً وأمناً، وانبعثت الآمال بساطاً وغبطةً. والحال متصلة على ذلك لهذا العهد آخر سنة إحدى وثمانين أيام إشرافنا على هذا التأليف. والله مقدر الليل والنهار.

الخبر عن انتقاض الصلح بين الأمير عبد الرحمن صاحب مراكش والسلطان أبي العباس صاحب فاس واستيلاء عبد الرحمن على أزمور ومقتل عاملها حسون بن علي:

كان علي بن عمر كبير بني ورتاجن وشيخ بني ويغلان منهم، قد تحيّز إلى الأمير عبد الرحمن، منذ إجازته إلى الأندلس واستيلائه على تازى، ثم زحفه إلى حصار البلد الجديد مع السلطان أبي العباس كما مرّ. فوصل في جملته إلى مراكش، وكان صاحب شوراه وكبير دولته. وكان يظعن على خالد بن إبراهيم المبرازي شيخ جاجة من قبائل المصامدة، ما بين مراكش وبلاد السوس. وقد كان علي بن عمر انتقض على ابن غازي، الوزير المستبدّ بعد السلطان عبد العزيز، ولحق بالسوس. ومر بخالد بن إبراهيم هذا، فاعترضه في طريقه وأخذ الكثير من أثقاله ورواحله. وخلص هو إلى منجاته بالسوس، وقد حقد ذلك لخالد. ثم بعث عن شيوخ المعقل، عندما أجاز الأمير عبد الرحمن من الأندلس إلى نواحي تازى يروم اللحاق بهم، فوفدوا عليه. وسار معهم إلى أحيائهم وأقام معهم وهو في طاعة الأمير عبد الرحمن ودعوته، إلى أن اتصل به بين يدي حصاره البلد الجديد مع السلطان أبي العباس. فلمّا فتح السلطان البلد الجديد أوّل سنة ست وسبعين وسبعمائة واستولى على ملكهم بها، وفصل عبد الرحمن إلى مراكش، كما كان الوفاق بينهم، وسار علي بن عمر في جملة الأمير عبد الرحمن إلى مراكش. واستأذنه في قتل خالد صاحبه، فلم يأذن له، فأحفظه ذلك وطوى عليه. وبعد أيام صعد إلى جبل وريكة، في غرض من أغراض الدولة. وتقدّم إلى حافده عامر ابن ابنه محمد بقتل خالد، فقتله في بعض الأيام بظاهر مراكش. ولحق بجده علي بن عمر بوريكة، فتلطّف له الأمير عبد الرحمن وراسله بالملاينة والاستعطاف. ثم ركب إليه بنفسه واستخلصه ونزل به إلى مراكش، فأقام معه أياماً. ثم ارتاب ولحق بأزمور وعاملها يومئذ حسّون بن علي الصبيحي فأغراه بالإجلاب على عمل مراكش وزحفوا جميعاً إلى عمل صنهاجة.

وسرّح الأمير عبد الرحمن لمدافعتهم كبير دولته يومئذ، وابن عمّه عبد الكريم بن عيسى بن سليمان بن منصور بن بي مالك، وهو عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، فخرج في العساكر ومعه منصور مولى الأمير عبد الرحمن، فلقوا عليّ بن عمر وهزموه وأخذوا سواده ولجأ إلى أزمور. ثم وفد هو وحسّون بن علي على السلطان بفاس. ووقعت أثناء ذلك المراسلة بين السلطانين وانعقد بينهما الصلح. وأقام علي بن عمر بفاس ورجع حسّون بن علي إلى مكان عمله بأزمور ثم انتقض ما بين السلطانين ثانياً. وكان عند الأمير عبد الرحمن أخوان من ولد محمد بن يعقوب بن حسّان الصبيحي وهما علي وأحمد، جرثومتا بغي وفساد. وعدا على كبيرهما علي ابن عمه علي بن يعقوب بن علي بن حسّان فقتله. واستعدى أخوه موسى عليه السلطان، فأعداه. وأذن له أن يثأر منه بأخيه فيقتله، فجزع لذلك أحمد أخو عليّ وهم بقتل موسى، فاستجار موسى بيعقوب بن موسى بن سيّد الناس كبير بني ونكاسن وصهر الأمير عبد الرحمن، وأقام أياماً في جواره، ثم هرب إلى أزمور، فلفحت نار الفتنة. ونهض الأمير عبد الرحمن إلى أزمور، فلم يطق حسان بن علي دفاعه، فملكها

عليه وقتله واستباحها. وبلغ الخبر إلى السلطان بفاس، فنهض في عساكره وانتهى إلى سلا. ورجع الأمير عبد الرحمن إلى مراكش، وسار السلطان في أتباعه، حتى نزل بحصن أكمليم قريبا من مراكش. وأقام هنالك نحواً من ثلاثة أشهر، والقتال يتردّد بينهم. ثم سعى بين السلطانين في الصلح، فاصطلحوا على حدود العمالات أولاً، وانكفأ صاحب فاس إلى عمله وبلده. وبعث الحسن بن يحيى بن حسّون الصنهاجي عاملاً على الثغر بأزمور، فأقام بها وكان أصله من صنهاجة أهل وطن أزمور، وله سلف في خدمة بني مرين مذ أوّل دولتهم. وكان أبوه يحيى في دولة السلطان أبي الحسن عاملاً في الجباية بأزمور وغيرها. وهلك في خدمته بتونس أيام مقام السلطان بها وترك ولده يستعمل في مثل ذلك. ونزع الحسن هذا منهم إلى الجندية، فلبس شارتها وتصرّف في الولاية المناسبة لها. واتصل بخدمة السلطان أبي العباس لأول بيعته بطنجة، وكان يومئذ عاملاً بالقصر الكبير، فدخل في دعوته وصار في جملته. وشهد معه الفتح واستعمله في خطط السيف، حتى ولاّه أزمور هذه الولاية، فقام بها كما نذكره.

وأما الصبيحيون فالخبر عن أوليتهم أن جدهم حسّان من قبيلة صبيح، من أفاريق سويد، جاء مع عبد الله بن كندوز الكمي من بني عبد الواد، حين جاء من تونس

وأوفد على السلطان يعقوب بن عبد الحق ولقيه كما مرّ. وكان حسّان من رعاة إبله. فلما استقرّ عبد الله بن كندوز بناحية مراكش، وأقطعه السلطان يعقوب في أعمالها، وكان الظهر الذي يحمل عليه السلطان متفرقاً في سارية المغرب، فجمعه وجعله لنظر عبد الله بن كندوز، فجمع له الرعاة، وكبيرهم يومئذ حسّان الصبيحيّ، فكان يباشر السلطان في شأن ذلك الظهر ويطالعه في مهمّاته، فحصلت له بذلك مداخلة واجتلبت إليه الحظ، حتى ارتفع وأثرى وكبر. ونشئوا في ظل الدولة وعزّها وتصرفوا في الولايات فيها. وانفردوا بالشاوية، فلم تزل ولايتها متوارثة فيهم منقسمة بينهم لهذا العهد، إلى ما كانوا يتصرفون فيه من غير ذلك من الولايات. وكان لحسّان من الولد عليّ ويعقوب وطلحة غيرهم. ومن حسّان هذا تفرّعت شعوبهم في ولده، وهم لهذا العهد متصرفون في الدولة على ما كان سلفهم من ولاية الشاوية والنظر في رواحل السلطان والظهر الذي يحمل من الإبل، ولهم عدد وكثرة ونباهة في الدولة. والله أعلم.

الانتقاض الثاني بين صاحب فاس وصاحب مراكش ونهوض صاحب فاس إليه وحصاره، ثم عودهما إلي الصلح:

ولما رجع السلطان إلى فاس على ما استقرّ من الصلح، طلب الأمير عبد الرحمن أن يدخل عمالة صنهاجة ودكالة في أعماله. وكتب السلطان إلى الحسن بن يحيى عامل أزمور وتلك العمالة، بأن يتوجّه إليه ويسدّ المذاهب دونه في ذلك. وكان الحسن بن يحيى مضطغناً على الدولة. فلما وصل إليه داخله في الخلاف وأن يملّكه تلك العمالة، فازداد الأمير عبد الرحمن بذلك قوّة على أمره. وتعلّل على صاحب فاس بأن يكون الحدود بين الدولتين وادي أم ربيع. واستمرّ صاحب فاس على الإبابة من ذلك، فنهض الأمير عبد الرحمن من

مراكش. ودخل الحسن بن يحيى في طاعته، فملكها وبعث مولاه منصورا في العساكر إلى أنف، فاستولى عليها وصادر أعيانها وقاضيها وواليها وبلغ الخبر إلى السلطان، فنهض من فاس في عساكره. وانتهى إلى سلا، فهرب منصور من أنف وتركها. ولحق بمولاه عبد الرحمن، فأجفل من أزمور إلى مراكش، والسلطان في أثره، حتى انتهى إلى قنطرة الوادي، على غلوة من البلد، وأقام خمسة أشهر يحاصرها. واتصل الخبر بالسلطان ابن الأحمر صاحب الأندلس، فبعث خالصته الوزير أبا القاسم ابن الحكيم الرندي ليعقد الصلح بينهما، فعقده على أن يسترهن السلطان أولاد الأمير عبد الرحمن وحافد أبي الحسن. وانكفأ السلطان راجعا إلى سلا. ولحق به جماعة من جملة الأمير عبد الرحمن، من بني مرين وغيرهم، نزعوا عنه، وكان منهم أحمد بن محمد بن يعقوب الصبحي. ولقي في طريقه مولى الأمير عبد الرحمن، جاء به مكرها إلى السلطان. وكان من النازعين أيضاً يعقوب بن سيد الناس، كبير بني ونكاسن، وأبو بكر بن رحّو بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق، ومحمد بن مسعود الإدريسي، وزيان بن علي بن عمر الوطاسي، وغيرهم من المشاهير. وقدموا على السلطان بسلا فتقبلهم وأحسن كرامتهم، ورحل راجعا إلى فاس. والله أعلم.

انتقاض علي بن زكريا، شيخ الهساكرة، على الأمير عبد الرحمن وفتك بمولاه منصور ومقتل الأمير عبد الرحمان

لما رجع السلطان إلى فاس وبدا من الخلل في دولة الأمير عبد الرحمن وانتقاض الناس عليه ما قدّمناه، نزع يده من التعويل على العساكر وشرع في تحصين البلد. وضرب الأسوار على القصبة وحفر الخنادق، وتبّين بذلك اختلال أمره. وكان علي بن زكريا شيخ هسكورة كبير المصامدة في دعوته، مذ دخل مراكش فتلافى أمره مع صاحب فاس، ومد إليه يداً من طاعته. ثم انتقض على الأمير عبد الرحمن ودخل في دعوة السلطان، وبعث إليه الأمير عبد الرحمن مولاه منصوراً يستألفه، فأرصد إليه في طريقه من حاشيته من قتله. ثم بعث برأسه إلى فاس، فنهض السلطان في عساكره إلى مراكش. واعتصم الأمير عبد الرحمن بالقصبة وقد كان افردها عن المدينة بالأسوار. وخندق عليها، فملك السلطان المدينة ورتّب على القصبة المقاتلة من كل جهة، ونصب الآلة. وأدار عليها من جهة المدينة حائطاً وأقام يحاصرها سبعة

أشهر يغاديها القتال ويراوحها. وكان أحمد بن محمد الصبيحي من الذين بوؤا المقاعد لقتالها، فهمّ بالإنتقاض وحدثته نفسه بغدرة السلطان والتوثب به. وسعى بذلك إل السلطان، فتقبض عليه وحبسه. وبعث السلطان بالنفير إلى أعماله، فتوافت الأمداد من كل ناحية. وبعث صاحب الأندلس إليه مداداً من العسكر. فلما اشتد القتال والحصار بالأمير عبد الرحمن ونفذت الأقوات، وأيقن أصحابه بالهلكة، وأهمتهم أنفسهم، وهرب عنه وزيره نجّو العلم من بقية بيت محمد بن عمر، شيخ الهساكرة والمصامدة لعهد السلطان أبي الحسن وابنه وقد مر ذكره. فلما لحق نحو هذا بالسلطان، وعلم أنه إنما جاء مضطرا، قبض عليه وحبسه. ثم انفض الناس عن الأمير عبد الرحمن، ونزلوا من الأسوار ناجين إلى السلطان. وأصبح في قصبته منفرداً، وقد بات ليلته يراوض ولديه على الإستماتة وهما: أبو عامر وسليم. وركب السلطان من الغد في التعبية. وجاء إلى القصبة، فاقتحمها

بمقدّمته. ولقيهم الأمير عبد الرحمن وولداه مباشراً إلى الميدان الذي بين أبواب دورهم، فجالوا معهم جولة قتل فيها وولداه. تولى قتلهم على بن إدريس الثنالقتي وزيّان بن عمر الوطاسي. وطالما كان زيّان يمتري ثدي نعمتهم ويجر ذيله خيلاء في جاههم، فذهب مثلاً في كفران النعمة وسوء الجزاء. والله لا يظلم مثقال ذرة. وكان ذلك خاتم جمادى الاخرة سنة أربع وثمانين وسبعمائة لعشر سنين من إمارته على مراكش ثم رحل السلطان منقلباً إلى فاس، وقد استولى على أعمال المغرب، وظفر بعدوّه ودفع المنازعين عن مكه. والله أعلم.

اجلاب العرب إلي المغرب في مغيب السلطان بغريه، من ولد أبي علي، وأبي تاشفين بن أبي حمّو صاحب تلمسان ومجيء أبي حمو علي أثرهم:

كان أولاد حسين من عرب المعقل مخالفين علي السلطان من قبل مسيره إلى مراكش.

وكان شيخهم يوسف بن علي بن غانم، قد حدثت بينه وبين الوزير القائم على الدولة

محمد بن عثمان منافرة وفتنة. وبعث العساكر إلى سجلماسة، فخرّب ما كان له بها من العقار والأملاك. وأقام منتقضا بالقفر. فلما حاصر السلطان الأمير عبد الرحمن بمراكش وأخذ بمخنقه أرسل أبا العشائر ابن عمّه منصور إلى يوسف بن علي وقومه، ليجلبوا به على المغرب ويأخذوا بحجزة السلطان عن حصاره فسار لذلك. ولما قدم على يوسف، سار به إلى تلمسان، مستجيشاً بالسلطان أبي حمو لذلك القصد، بما كان بينه وبين الأمير عبد الرحمن من العهد على ذلك. فبعث أبو حمو معهم ابنه أبا تاشفين في بعض عساكره، وسار في الباقين على أثرهم. وسار أبو تاشفين وأبو العشائر إلى أحياء العرب، فدخلوا إلى أحواز مكناسة وعاثوا فيها. وكان السلطان عند سفره إلى مراكش، استخلف على دار ملكه بفاس علي بن مهدي العسكري في جماعة من الجند. واستنجد بونزمار ابن عريف شيخ سويد وولي الدولة المقيم بأحياء ملوية، فخالف بين العرب المعقل واستألف منهم العمارنة والمنبات وهم الأحلاف. واجتمعوا مع علي بن مهدي وساروا لمدافعة العدّو بنواحي مكناسة، فصدّوهم عن مرامهم ومنعوهم من دخول البلاد، فأقاموا متوافقين أيّاماً. وقصد أبو حمّو في عسكره مدينة تازى وحاصرها سبعاً. وخرّب قصر الملك هنالك ومسجده المعروف بقصر تازورت. وبينما هم على ذلك بلغ الخبر اليقين بفتح مراكش وقتل الأمير عبد الرحمن، فأجفلوا من كل ناحية. وخرج أولاد حسين وأبو العشائر وأبو تاشفين والعرب الأحلاف في اتباعهم وأجفل أبو حمّو من تازى راجعاً إلى تلمسان ومرّ بقصر ونزمار في نواحي بطوية المعروف بمرادة، هدمه ووصل السلطان إلى فاس وقد تم له الظهور والفتح إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

نهوض السلطان إلى تلمسان وفتحها وتخريبها:

كان السلطان لما بلغه ما فعله العرب وأبو حمو بالمغرب، لم يشغله ذلك عن شأنه، ونقم على أبي حمّو ما أتاه من ذلك، وأنه نقض عهده من غير داع إلى النقض. فلمّا احتلّ بدار ملكه بفاس، أراح أياماً، ثم أجمع عزمه على النهوض إلى تلمسان. وخرج في عساكره على عاداتهم وانتهى إلى تاوريرت. وبلغ الخبر إلى أبي حمّو، فاضطرب في أمره واعتزم على الحصار وجمع أهل البلد عليه واستعدّوا له. ثم خرج في بعض

تلك الليالي بولده وأهله وفي خاصته، وأصبح مخيّماً بالصفصيف وانفض أهل البلد إليه، وبعضهم بعياله وولده، مستمسكين به، متفادين من معرّة هجوم عساكر المغرب. ولم يرعه ذلك عن قصده، وارتحل ذاهباً إلى البطحاء. ثم قصد بلاد مغراوة، فنزل في بني بو سعيد قريباً من شلف، وأنزل أولاده الأصاغر وأهله بحصن تاجحمومت. وجاء السلطان إلى تلمسان، فملكها واستقرّ فيها أياماً. ثم هدم أسوارها وقصور الملك بها، بإغراء وليه ونزمار، جزاءً بما فعله أبو حمّو من تخريب قصر تازروت وحصن مرادة. ثم خرج من تلمسان في اتباع أبي حمّو ونزل على مرحلة منها. وبلغه الخبر هنالك بإجازة السلطان موسى ابن عمّه أبي عنّان من الأندلس إلى المغرب وإنه خالفه إلى دار الملك، فانكفأ راجعاً وأغذّ السير إلى المغرب، كما نذكر. ورجع أبو حمّو إلى تلمسان واستقر في ملكه، كما تقدم في أخباره.

اجازة السلطان موسي ابن السلطان ابن عنان، من الاندلس إلى المغرب. واستيلاؤه علي الملك وظفره بابن عمه السلطان ابن العباس وازعاجه إلى الاندلس

قد تقدم لنا أن السلطان محمد بن الأحمر المخلوع، كان له تحكم في دولة السلطان أبي العباس بن أبي سالم صاحب المغرب، بما كان من إشارته على محمد عثمان ببيعته وهو معتقل بطنجة، ثم بما أمدّه من مدد العساكر والأموال، حتى تم أمره واستولى على البلد الجديد كما تقدم في أول خبره، ثم بما كان له من الزبون عليهم، بالقرابة المرشحين الذين كانوا معتقلين بطنجة مع السلطان أبي العبّاس، من أسباط السلطان أبي الحسن، من ولد أبي عنان وأبي سالم والفضل وأبي عامر وأبي عبد الرحمن وغيرهم. وكانوا متعاهدين في معتقلهم أنّ من أتاح الله له الملك منهم، يخرجهم من الاعتقال ويجيزهم إلى الأندلس. فلما بويع السلطان أبو العباس وفّى لهم بهذا العهد وأجازهم الاندلس، فنزلوا على السلطان ابن الأحمر أكرم نزل، أنزلهم بقصور ملكه بالحمراء وقرب لهم المراكب، وأفاض عليهم العطاء ووسّع لهم الجرايات والأرزاق. وأقاموا

هنالك في ظل ظليل من كنفه، فكان له به وثوب على ملك المغرب. وكان الوزير القائم بها محمد بن عثمان يقدر له قدر ذلك كله، فيجري في أغراضه وقصوده ويحكمه في الدولة ما شاء الله أن يحكم، حتى توجهت الوجوه إلى ابن الأحمر وراء البحر من أشياخ بني مرين والعرب وأصبح المغرب كأنه من بعض أعمال الأندلس. ولما نهض السلطان إلى تلمسان خاطبوه وأوصوه بالمغرب. وترك محمد بن عثمان بدار الملك، كاتبه محمد بن حسن، كان مصطنعاً عنده من بقيّة شيع الموحّدين ببجاية، فاختصّه ورقّاه واستخلفه في سفره هذا على دار الملك. فلمّا انتهوا إلى تلمسان وحصل لهم من الفتح ما حصل كتبوا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر، مع شيطان من ذرّية عبّو بن قاسم المزوار، كان بدارهم. وهو عبد الواحد بن محمد بن عبّو، وكان يسمو بنفسه إلى العظائم التي ليس لها بأهل ويتربّص لذلك بالدولة. وكان ابن الأحمر مع كثرة تحكّمه فبهم يتنحي لهم بعض الأوقات، بما يأتونه من تقصير في شفاعة أو مخالفة في أمر لا يجدون عنها وليجة، فيضطغن لهم ذلك. فلمّا قدم عليه عبد الواحد هذا بخبر الفتح وقصّ عليه القصص، دسّ له أنّ أهل الدولة مضطربون على سلطانهم ومستبدلون به لو وجدوا، وبلغ من ذلك ما حمل وما لم يحمل. وأشار له بجلاء المغرب من الحامية جملة، وأن

دار الملك ليس بها إلا كاتب حضري لا يحسن المدافعة، وهو أعرف به، فانتهز ابن الأحمر الفرصة وجهز موسى ابن السلطان أبي عنان من الأسباط المقيمين عنده. واستوزر له مسعود بن رحو بن ماساي من طبقة الوزراء من بني مرين ومن بني قودر من أحلافهم. وله في ذلك سلف وكان قد بعثه من قبل وزيراً للأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن، حين أجاز إلى المغرب أيام استبداد أبي بكر بن غازي. فلم يزل معه حتى كان حصار البلد الجديد واستيلاء السلطان أبي العبّاس عليها. وذهب الأمير عبد الرحمن إلى مراكش، فاستأذنه مسعود في الانصراف إلى الأندلس، فأذن له ورجع عنه إلى فاس. ثم فارقها وأجاز إلى الأندلس متودعاً ومتودداً للكل ومعولاً على ابن الأحمر، فتلقّاه بالقبول وأوسع له بالنزل والجراية وخلطه بنفسه وأحضره مع ندمائه. ولم يزل كذلك إلى أن جهزه وزيراً إلى المغرب مع السلطان أبي عنان وبعث معهم عسكراً. ثم ركب معهم السفين إلى سبتة، وكانت بينه وبين

شرفائها ورؤساء الشورى بها مداخلة، فقاموا بدعوة السلطان موسى وأدخلوه وقبضوا على عاملها رحّو بن الزعيم المكدوني وجاؤا به إلى السلطان، فملكها غرّة صفر من سنة ست وثمانين. وسلمها لابن الأحمر، فدخلت في طاعته. وسار هو إلى فاس، فوصلها لأيام قريبة، وأحاط بدار الملك، واجتمع إليه الغوغاء. ونزل الدهش بمحمد بن الحسن، فبادر بطاعته. ودخل السلطان موسى إلى دار الملك وقبض عليه لوقته، وذلك في عشر ربيع الأول من السنة، وجاء الناس بطاعتهم من كل جانب. وبلغ الخبر إلى السلطان أبي العبّاس بمكانه من نواحي تلمسان بأنّ السلطان موسى قد نزل بسبتة، فجهز علي بن منصور وترجمان الجند النصارى ببابه مع طائفة منهم. وبعثهم حامية لدار الملك، فانتهوا إلى تازى وبلغهم خبر فتحها، فأقاموا هنالك. وأغذّ السلطان أبو العباس السير إلى فاس، فلقيه خبر فتحها بتاوريرت، فتقدّم إلى ملوية وتردّد في رأيه بين المسير إلى سجلماسة مع العرب أو قصد المغرب. ثم استمرّ عزمه ونازل بتازى وأقام فيها أربعاً. وتقدم إلى الركن، وأهل دولته خلال ذلك يخوضون في الانتقاض عليه تسللاً إلى ابن عمّه السلطان موسى المتولي على فاس. ويوم أصبح مرتحلا من الركن أرجفوا به. ثم انتقضوا عليه طوائف قاصدين فاس ورجع هو إلى تازى بعد أن انتهب معسكره واضرمت النار في خيامه وخزائنه. ثم صبح بتازى من ليلته، فدخلها وعاملها يومئذ الخيّر من موالي السلطان أبي الحسن. وذهب محمد بن عثمان إلى وليّ الدولة ونزمار ابن عريف وأمراء المغرب من المعقل. ولما دخل السلطان أبو العباس إلى تازى، كتب إلى ابن عمّه السلطان موسى يذكره العهد بينهما. وقد كان السلطان ابن الأحمر عهد إليه أن يبعث به إليه إن ظفر به، فبادر السلطان موسى باستدعائه مع جماعة من وجوه بني عسكر، أهل تلك الناحية: وهم زكرياء بن يحيى بن سليمان ومحمد بن داود بن عراب، ومعهم العباس بن عمر الوسناني فجاؤا به وأنزلوه بالزاوية بغدير الحمص بظاهر فاس، فقيّد هنالك. ثم بعثه إلى الأندلس موكلاً به مع عمر بن رحّو أخي الوزير مسعود بن ماساي. واستصحب معه ابنه أبا فارس. وترك سائرهم بفاس وأجاز البحر من سبتة، فأنزله السلطان ابن الأحمر بقلعة ملكه الحمراء. وفكّ قيوده ووكّل به ووسّع له في الجراية. فأقام هنالك

محتاطا به، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

نكبة الوزير محمد بن عثمان ومقتله:

أصل هذا الوزير من بني الكاس إحدى بطون بني ورتاجن. وكان بنو عبد الحق عندما تأثلوا ملكهم بالمغرب يستعملون منهم في الوزارة. وربّما وقعت بينهم هنالك وبين الحشم وبني فودود المختصين بالوزارة عندهم مزاحمة، أجازوا بسببها إلى الأندلس. وربما وقع بينهم هنالك وبين بني ادريس وبني عبد الله منافسة، قتلوا فيها بعض بني الكاس ونشأ غازي بن ألكاس منهم في دولة السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن وتهذب بالخلال. ثم استوزره السلطان أبو الحسن بعد مهلك وزيره يحيى بن طلحة بن محلى بمكانه من حصار تلمسان، وقام بوزارته أعواما، وحضر معه واقعة طريف سنة إحدى وأربعين وسبعمائة من هذه المائة واستشهد فيها. ونشأ ابنه أبو بكر في ظلّ الدولة ممتعاً بحسن الكفالة وسعة الرزق. وكانت أمّه أمّ ولد، وخلفه عليها ابن عمه محمد بن عثمان هذا الوزير، فنشأ أبو بكر في حجره. وكان أعلى رتبة منه بأولية أبيه وسلفه، حتى إذا بلغ أشدّه واستوى، سمت به الخلال، وجالت أبصار الملوك في اختياره وترشيحه، حتى استوزره السلطان عبد العزيز كما قلناه وقام بوزارته أحسن قيام، وأصبح محمد بن عثمان هذا رديفه. وهلك السلطان عبد العزيز، فنصّب الوزير أبو بكر ابنه السعيد للملك صبياً لم يثغر. وكان من انتقاض أمره وحصاره بالبلد الجديد واستيلاء السلطان أبي العباس عليه ما قدمناه. قام محمد بن عثمان بوزارة السلطان أبي العباس مستبدا عليه ودفع إليه أمور ملكه وشغل بلذّاته، فقام محمد بن عثمان من أمور الدولة ما عاناه، حتى كان من استيلاء السلطان موسى على ملكهم ما مرّ. وانفض بنو مرين عن السلطان أبو العباس وفارقه محمد بن عثمان إلى ولي الدولة ونزمار بن عريف وهو مقيم بظاهر تازى. وتذمم له فتجهم له ونزمار وأعرض عنه، فسار معداً إلى أحياء المنيات من عرب المعقل. كانوا هنالك قبلة تازى لذمّة صحابة كانت بينه وبين شيخهم أحمد بن عبّو، فنزل عليه متذمّماً به، فخادعه وبعث بخبره إلى السلطان، فجهز إليه عسكرا مع المزوار عبد الواحد بن محمد بن عبّو بن قاسم وزروق بن بومريطت والحسن العوفي من الموالي، فتبرأ منه العرب وأسلموه إليهم، فجاؤا به وأشهروه يوم دخوله إلى فاس. واعتقل أياماً وامتحن في سبيل المصادرة ثم استصفى، ثم قتل ذبحاً بمحبسه. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

خروج الحسن بن الناصر بغمارة ونهوض الوزير إلي ماساي إليه بالعساكر:

لما استقل السلطان موسى بملك المغرب وقام مسعود بن ماساي بوزارته مستبداً عليه، وكان من تغريبهم السلطان أبا العباس إلى الأندلس ونكبتهم وزيره محمد بن عثمان وقتلهم إياه، وافتراق أشياع الوزير محمد بن عثمان قرابته وبطانته، فطلبوا بطن الأرض، ولحق منهم ابن أخيه العبّاس بن المقداد بتونس، فوجد هنالك الحسن بن الناصر ابن السلطان أبي علي قد لحق بها من مقره بالأندلس في سبيل طلب الملك، فثاب له رأي في الرجوع إلى المغرب لطلب الأمر هنالك. فخرج به من تونس وقطع المفاوز، والمشاق إلى أن انتهى إلى جبل غمارة ونزل على أهل الصفيحة منهم، فأكرموا مثواه وتلقيه وأعلنوا بالقيام بدعوته. واستوزر العباس بن

المقداد. وبلغ الخبر إلى مسعود بن ماساي بفاس، فجهز العساكر لطلبه مع أخيه مهدي بن ماساي، فحاصرها بجبل الصفيحة أياماً. وامتنع عليهم، فتجهز الوزير مسعود بن ماساي بالعساكر من دار الملك وساروا لحصاره. ثم رجع من طريقه لما بلغه من وفاة السلطان بعده. والله أعلم.

وفاة السلطان موسي والبيعة للمنتصر ابن السلطان أبي العباس:

كان السلطان موسى لما استقل بملك المغرب، استنكف من استبداد ابن ماساي عليه

وداخل بطانته في الفتك به. وأكثر ما كان يفاوض في ذلك كاتبه وخالصته محمد ابن كاتب أبيه وخالصته محمد بن أبي عمر. وكان للسلطان موسى ندمان يطلعهم على الكثير من أموره منهم العباس بن عمرو بن عثمان الوسناقي، وكان الوزير مسعود بن ماساي قد خلف أبا عمر على أمّه وربي في حجره، فكان يدلي إليه بذلك وينهي إليه ما يدور في مجلس السلطان في شأنه، فحصلت للوزير بسبب ذلك نفرة طلب لأجلها البعد عن السلطان. وبادر الخروج لمدافعة الحسن القائم بغمارة، واستخلف على دار الملك أخاه بعيش بن رحو بن ماساي. فلما انتهى إلى القصر الكبير لحقه الخبر بوفاة السلطان موسى، وكانت وفاته في شهر جمادى الاخرة. طرقه المرض فهلك ليوم وليلة لثلاث سنين من خلافته، حتى كان الناس يرمون يعيش أخا الوزير بأنه سمّه. وبادر يعيش فنصب ابن عمه للملك، وهو المنتصر ابن السلطان أبي العبّاس. وانكفأ لوزير مسعود راجعا من القصر، وقتل السبيع محمد بن موسى بن إبراهيم من طبقة الوزراء، وقد مر ذكر قومه، وكان اعتقله أيام السلطان موسى فقتله بعد وفاته. واستمرت أمور الدولة

في استقلاله، والله أعلم.

اجازة الواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن

في الاندلس والبيعة له بفاس:

كان الوزير مسعود بن ماساي لما استوحش من السلطان موسى، بعث ابنه يحيى

وعبد الواحد المزوار إلى السلطان ابن الأحمر يسأل منه إعادة السلطان أبي العباس إلى ملكه، فأخرجه ابن الأحمر من الاعتقال وجاء به إلى جبل الفتح يروم إجازته إلى العدوة. فلما توفي السلطان موسى بدا للوزير مسعود في أمره ودس للسلطان ابن الأحمر ردّه، وأن يبعث إليه بالواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن من القرابة المقيمين عنده. ورآه أليق بالاستبداد والحجر، فأسعفه ابن الأحمر في ذلك ورد السلطان أحمد إلى مكانه بالحمراء. وجاء بالواثق، فحضر بجبل الفتح عنده وفي خلال ذلك وصل جماعة من أهل الدولة انتقضوا على الوزير مسعود ولحقوا بسبتة وأجازوا إلى السلطان ابن الأحمر: وهم يعيش بن علي بن فارس اليابابي

وسيور بن يحيي بن عمر الونكاسني وأحمد بن محمد الصبيحي، فدفع إليهم الواثق ورجعوا به إلى المغرب على أنهم في خدمة الوزير، حتى إذا انتهو إلى جبل زرهون المطل على مكناسة اظهروا الخلاف على الوزير وصعدوا إلى قبائل زرهون واعتصموا بجبلهم. ولحق بهم من كان على مثل دينهم من الخلاف على ابن ماساي وصاروا

معهم يداً. مثل طلحة بن الزبير الورتاجني، وسيور بن يحياتن بن عمر الونكاسني، ومحمد التونسي من بنى أبي الطلاق وفارح بن مهدى من معلوجي السلطان، وأصله من موالي بني زيان ملوك تلمسان.

وكان أحمد بن محمد الصبيحي حين جاء مع الواثق، قد استطال على أصحابه وأظهر الاستبداد، بما كان من طائفة الجند المستخدمين، فغص به أهل الدولة وتبرأوا منه للسلطان الواثق، فأظهر لهم البراءة منه، فوثبوا به وقتلوه عند باب خيمة السلطان. وتولى كبر ذلك يعيش بن علي بن فارس الياباني كبير بني مرين، فذهب مثلا في الغابرين و لم تبك عليه سماء ولا أرض. وكان زورق ابن توقريطت من موالي بني علي بن زيان من شيوخ بني وانكاسن، وكان من أعيان الدولة ومقدمي الجند، قد انتقض على الدولة أيام السلطان موسى ولحق بأحياء أولاد حسين من عرب المعقل، المخالفين منذ أيام السلطان موسى. ونزل على شيخهم موسى بن علي بن غانم، لذمة صحابة بينهما من جوارهم في المواطن. وكان معه في ذلك الخلاف محمد بن يوسف بن علال، كان أبوه يوسف من صنائع السلطان أبي الحسن ونشأة دولته استوحشا من الوزير، فلحقا بالمغرب. فلما جاء هذا السلطان الواثق قدما عليه، فلقيهما بالتكرمة وأحلهما في مقامهما من الدولة. وخرج الوزير ابن ماساي في العساكر ونزل قبالتهم بجبل مغيلة وقاتلهم هناك أياما. وداخل الذين مع الواثق واستمالهم. وبعث عساكر إلى مكناسة فحاصروها، وكان بها يومئذ عبد الحق بن الحسن بن يوسف الورتاجني، فاستنفرله منها وملكها. وترددت المراسلات بينه وبين الواثق وأصحابه على أن ينصبه للأمر. ويبعث بالمنتصر المنصوب عنده إلى أبيه السلطان أبي العباس بالأندلس وانعقد الأمر بينهم على ذلك. وسار الواثق في أصحابه إلى الوزير ابن ماساي، فنزل عليه. ومضى يعيش بن علي بن فارس عنهم ذاهبا لوجهه. وسار الوزير بالواثق إلى دار الملك، فبايعه في شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة، بعد أن اشترط عليه لنفسه وأصحابه ما شاء. وأجاز سلطانه المنتصر إلى أبيه السلطان أبي العباس بالأندلس، وقبض على جماعة ممن كان مع الواثق: مثل المزوار عبد الواحد وقتله، وعلى فارح بن مهدي وحبسه. وعلى الخير مولى الأمير عبد الرحمن وامتحنه. وعلى آخرين سواهم. ثم قبض على جماعة من بطانة السلطان موسى، كانوا يداخلونه في القبض والفتك به، فحبسهم وقتل بعضهم. وعلى جند الأندلس الذين جاءوا مداداً للواثق. وعلى قوادهم من معلوجي ابن الأحمر، فأودعهم السجون. ثم قبض على كاتب السلطان موسى بن أبي الفضل محمد بن أبي عمر، مرجعه من السفارة عن سلطانه إلى الأندلس، فاعتقله وصادره، ثم أخلى سبيله. ثم بعث إلى الحسن بن الناصر الثائر بجبل الصفيحة من غماره مع ادريس بن موسى بن يوسف اليابابي، فخادعه باستدعائه للملك والبيعة له، فخدعه واستنزله. وجاء به، فاعتقله الوزير أياماً. ثم أجازه إلى الأندلس واستقر الأمر على ذلك. والله أعلم.

الفتنة بين الوزير ابن ماساي وبين السلطان ابن الاحمر واجازة السلطان أبي العباس إلى سبتة، لطلب ملكها واستيلاؤه عليها:

لما بايع الوزير ابن ماساي للواثق ورأى أنه قد استقل بالدولة ودفع عنها الشواغب،

صرف نظره إلى استرجاع ما فرط من أعمال الدولة، وافتتح أمره بسبتة. وكان السلطان موسى لأول إجازته، أعطاها لابن الأحمر كما مر، فبعث إليه الآن الوزير ابن ماساي في ارتجاعها منه على سبيل الملاطفة، فاستشاط لها ابن الأحمر ولج في الرد، فنشأت الفتنة لذلك. وجهز ابن ماساي العساكر لحصار سبتة مع العباس ابن عمر بن عثمان الوسنافي ويحيى بن علال بن أمصمود والرئيس محمد بن محمد الأبكم من بني الأحمر، ثم من بيت السلطان الشيخ، فاتح أمرهم وممهد دولتهم. وراسل سلطان إشبيلية والجلالقة من بني أدفونش وراء البحر، بأن يبعث إليه ابن عم السلطان ابن الأحمر محمد بن إسمعيل مع الرئيس الأبكم، ليجلبا من ناحيته على الأندلس.

وجاءت عساكر الوزير إلى سبتة، فحاصروها ودخلوها عنوة. واعتصم حامية الأندلس الذين كانوا بها بالقصبة. واتصلت الجولة بين الفريقين وسط البلد. وأوفد

أهل القصبة النيران بالجبل، علامة على أمرهم، لبراها ابن الأحمر. وكان مقيماً بمالقة، فبادر بتجهيز الأسطول مشحوناً بالمقاتلة مدداً لهم. ثم استدعى السلطان أبا العباس من مكانه بالحمراء وأركبه السفين إلى سبتة، فأصبح بالقصبة في غرة صفر سنة تسع وثمانين وسبعمائة. وأشرف عليهم من الغد وناداهم من السور يدعوهم إلى طاعته. فلما رأوه اضطربوا وافترقوا. وخرج إليهم، فنهب سوادهم ودخلوا في طاعته متسايلين. ورجع جمهور العرب ومقدموهم إلى طنجة. واستولى السلطان على مدينة سبتة. وبعث إليه ابن الأحمر بالنزول عنها وردها إليه، فاستقرت في ملكه وكملت بها بيعته. وكان يوليه أمور الضيفان الواردين. والله تعالى أعلم.

مسير السلطان أبي العباس من سبتة، لطلب ملكه بفاس ونهوض ابن ماساي لدفاعه ورجوعه منهزما:

لما استولى السلطان أبو العباس على سبتة وتم له ملكها، اعتزم على المسير لطلب

ملكه بفاس. وأغراه ابن أحمر بذلك ووعده بالمداد، بما كان من مداخلة ابن ماساي لجماعة من بطانته في أن يقتلوه ويملكوا الرئيس الأبكم. يقال إن الذي داخله في ذلك، من بطانة ابن الأحمر، يوسف بن مسعود البلنسي ومحمد ابن الوزير أبي القاسم بن الحكيم الرندي. وشعر بهم السلطان ابن الأحمر وهو يومئذ على جبل الفتح، يطالع أمور السلطان أبي العباس، فقتلهم جميعاً وإخوالهم. ويقال إن ذلك كان بسعاية القائم على دولته مولاه خالد، كان يغص بهم ويعاودهم، فاحتال عليهم بهذه وتمت سعايته بهم، فاستشاط ابن الأحمر غضباً على ابن ماساي. وبعث إلى السلطان أبي العباس يستنفره للرحلة إلى طلب ملكه، فاستخلف على سبتة رخو ابن الزعيم المكدودي عاملها من قبل كما مر. وصار إلى طنجة، وعاملها من قبل الواثق صالح بن حمو الياباني، ومعه بها الرئيس الأبكم من قبل العساكر، فحاصرها أياماً وامتنعت عليه، فجمر عنهم الكتائب وسار عنها إلى أصيلاً، فدخلت في دعوته وملكها. ونهض الوزير ابن فارس في العساكر، بعد أن استخلف أخاه يعيش على دار

الملك وسار. ولحقت مقدمته باصيلا، ففارقها السلطان أبو العباس وصعد إلى جبل الصفيحة فاعتصم به.

وجاء الوزير ابن ماسي، فتقدم إلى حصاره بالجبل وجمع عليه رماة الرجل من الأندلس الذين كانوا بطنجة. وأقام يحاصره بالصفيحة شهرين. وكان يوسف بن علي بن غانم، شيخ أولاد حسين من عرب المعقل، مخالفاً

على الوزير مسعود وداعية للسلطان أبي العباس وشيعة له، وكان يراسل ابن الأحمر في شأنه. فلما سمع باستيلائه على سبتة وإقباله على فاس، جمع أشياعه من العرب ودخل إلى بلاد المغرب ونزل ما بين فاس ومكناسة. وشن الغارات على البسائط واكتسحها. وأرجف الرعايا وأجفلوا إلى الحصون. وكان ونزمار بن عريف ولي الدولة شيعة للسلطان، وكان يكاتبه وهو بالأندلس ويكاتب ابن الأحمر في شأنه. فلما اشتد الحصار على السلطان بالصفيحة، بعث ابنه أبا فارس إلى ونزمار، بمكانه من نواحي تازى. وبعث معه سيور بن يحياتن بن عمر، فقام ونزمار بدعوته وسار به إلى مدينة نازى، وعاملها سليمان بن بوحياة الغودودي من قرابة الوزير ابن ماساي. فلما نزل به أبو فارس ابن السلطان بادر إلى طاعته وأمكنه من البلد، فاستولى عليها واستوزر سليمان هذا. وسار إلى صفروي ومعه ونزمار للإجتماع بعرب المعقل واصفاقهم على حصار فاس. وكان محمد بن الدمعة عاملاً على ورغة، فبعث إليه السلطان عسكراً مع العباس بن المقداد ابن أخت الوزير محمد بن عثمان، فقتلوه وجاؤا برأسه. ونجم الخلاف على يعيش نائب البلد الجديد من كل جهة وطير يعيش بن ماساي النائب بدار الملك، بالخبر بذلك كله إلى أخيه، بمكانه من حصار السلطان بالصفيحة، فانفضت عنه العساكر وأجفل راجعاً إلى فاس. وسار السلطان في اتباعه. ودخل في طاعته عامل مكناسة الخير مولى الأمير عبد الرحمن. ولقيه يوسف بن علي بن غانم ومن معه من أحياء العرب، وساروا جميعاً إلى فاس. وكان أبو فارس ابن السلطان، قد رحل من تازى إلى صفيروا للقاء أبيه، فاعترضه الوزير ابن ماساي في العساكر، ورجا أن يفله. ولقيه ببني بهلول، فترع أهل المعسكر إلى أبي فارس. ورجع الوزير منهزماً ودخل البلد الجديد، فاعتصم بها. وبلغ خبره إلى السلطان وهو بمكناسة، فارتحل يغذ السير إلى فاس. وسار ابنه أبو فارس للقائه، فلقيه على وادي النجا. وصبحوا البلد الجديد، فترلوا عليها بجموعهم. وقد اعتصم بها الوزير في أوليائه وبطانته، ومعه يغمراسن بن محمد

السالفي ورهائن بني مرين، الذين استرهنهم عند مسيره معهم للقاء السلطان بأصيلا. والله أعلم.

ظهور دعوة السلطان أبي العباس في مراكش واستيلاء أوليائه عليها:

كان الوزير مسعود بن ماساي، قد ولى على مراكش وأعمال المصامدة، أخاه عمر

ابن رحو، وكانت البلاد منتظمة في طاعته. فلما بلغ الخبر بوصول السلطان إلى سبتة واستيلائه عليها، تطاولت رؤوس أوليائه إلى إظهار دعوته بجبل الهساكرة، وشيخهم علي بن زكريا. وبعث الوزير مسعود من مكانه بحصار السلطان بالصفيحة في امداده بالعساكر من مراكش، فخف إليه مخلوف بن سليمان الوارتيبي صاحب الأعمال ما بين مراكش والسوس، وقعد الباقون عن قصده وتفرقوا. وصعد أبو ثابت حافد علي بن عمر إلي جبل الهساكرة، ومعه يوسف بن يعقوب بن علي الصبيحي، فاستمد من علي بن زكريا ورجع إلى مراكش مجلباً على عمر بن رحو، فناوشه القتال ساعة. ثم غلبه على البلد وملكها من يده ونزل بقصبة الملك. وحبس عمر بن رحوها وكتب إلى السلطان بذلك، وهو بمكناسة متوجها إلى فاس، فكتب إليه بأن يصله بعساكر

مراكش لحصار دار الملك، فجمع العساكر واستخلف على قصبة مراكش بعض بني عمه ولحق بالسلطان وأقام معه في حصار البلد الجديد. والله أعلم.

ولاية المنتصر ابن السلطان أبي علي على مراكش واستقلاله بها:

كان السلطان أبو العباس حين ملك المغرب بعث ابنه محمد المنتصر في البحر إلى سلا،

واستوزر له عبد الحق بن الحسن بن يوسف، فوصل إلى سلا وأقام بها. ومر به زروق بن توفريطت، راجعاً من دكالة. وقد بلغه نزول السلطان على البلد الجديد، فتلطف في استدعائه، ثم قبض عليه وبعث به إلى أبيه مقيداً، فأودعه السجن وقتل بعد ذلك في بمحبسه. ثم بعث السلطان إلى ابنه المنتصر بولاية مراكش وأن يسير إليها، فلما وصل امتنع النائب بالقصبة من أن يمكنه من البلد، إلا أن يدخل إليه منفرداً عن أصحابه وبطانته. وكان علي بن عبد العزيز شيخ هنتاتة مداخلاً لنائب القصبة، فدس لعبد الحق وزير المنتصر أن النائب قد هم بقتله. وحينئذ تمكن المنتصر من القصبة، فأجفل بالمنتصر وصعد إلى جبل هنتاتة. وطير بالخبر إلى السلطان، فتغير لأبي ثابت وأمره بأن يكاتب نائبه بتمكين ابنه من القصبة. واستوزر له سعيد بن عبدون وبعثه بالكتاب، وعزل عبد الحق عن وزارة ابنه. واستدعاه إلى فاس، فوصل سعيد بن عبدون إلى مراكش ودفع إلى النائب بالقصبة كتاب مستخلفه، فأجاب إلى الامتثال وأمكنه من القصبة واعتزل منها فدخلها. وبعث عن المنتصر ابن السلطان واستولوا عليها، وقبضوا على نائب عامر الذي كان بها وسائر شيعته وبطانته. وامتحنوهم واستصفوهم، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

حصار البلد الجديد وفتحها ونكبة الوزير ابن ماساي ومقتله.

لما نزل السلطان على البلد الجديد واجتمع إليه سائر قبيله وأوليائه وبطانته، داخل الوزير مسعوداً الحنق على وجوه بني مرين لانتباذهم عنه. وهم بقتل أبنائهم الذين

استرهنوهم على الوفاء له، فلاطفه يغمراسن السالفي في المنع من ذلك، فأقصر عنه. وضيق السلطان مخنقه بالحصار ثلاث أشهر، حتى دعا إلى الترول والطاعة، فبعث السلطان إليه ولي الدولة ونزمار بن عريف وخالصته محمد بن يوسف، بن علال، فعقد معهم الأمان لنفسه ولمن معه، على أن يستمر على الوزارة ويبعث بسلطانه الواثق إلى الأندلس. واستحلفهم على ذلك وخرج معهم إلى السلطان، فدخل السلطان البلد الجديد خامس رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة لثلاثة أعوام وأربعة أشهر من خلعه. ولحين دخوله قبض على الواثق

وبعث به معتقلاً إلى طنجة حتى قتل بها بعد ذلك. ولما استوى على أمره قبض على الوزير ابن ماسي ليومين من دخوله وعلى إخوانه وحاشيته. وامتحنهم جميعاً، فهلكوا في العذاب. ثم سلط على مسعود من العذاب والانتقام ما لا يعبر عنه. ونقم عليه ما فعله بدور بني مرين النازعين إلى السلطان بأنه كان متى هرب منه أحد منهم يعمد إلى بيوته فينهبها ويخربها، فأمر السلطان بعقابه في أطلالها، فكان يوتى به إلى كل بيت منها،

فيضرب عشرين سوطاً إلى أن أفحش فيه العذاب وتجاوز الحد. ثم أمر به فقطع، فهلك عند قطع الثانية من الأربعة، فذهب مثلاً في الآخرين.

وزارة محمد بن علال:

كان أبوه يوسف بن علال من نشأة الدولة وصنيعة السلطان أبي الحسن. وربي في

داره. ولما ضخم أمره سما به إلى ولاية الأعمال، فولاه على درعة، فأثرى وأنجب وباهى أولياء الدولة. ثم ولاه السلطان أبو عنان أمر مطبخه ومائدته وضيوفه واستكفى في ذلك، وولاه أخوه أبو سالم بعده كذلك. ثم بعثه على سجلماسة فعاش بها من أمور العرب مشقة. وعزله عنها، فهلك بفاس. وكان له جماعة من ولد نشأوا في ظل هذه النعمة، وحدثت النجابة بمحمد منهم. فلما ولي السلطان أبو العباس، استعمله في أمور الضياف والمائدة كما كانت لأبيه. ثم رقاه إلى المخالصة وخلطه بنفسه. فلما خلع السلطان واستولى الوزير ابن ماسي على المغرب، وكانت بينه وبين أخيه يعيش بن ماسي إحن قديمة، فسكن لصولتهم. حتى إذا اضطرمت نار الفتنة بالمغرب وأجلب عرب المعقل في الخلاف، استوحش محمد هذا، فلحق بأحيائهم مع زروق بن توقريطت كما مر ذكره. ونزلا على يوسف بن علي بن غانم شيخ أولاد حسين وأقاما معه في خلافه. حتى إذا أجاز السلطان الواثق من الأندلس ووصل مع أصحابه إلى جبل زرهون، وأظهروا الخلاف على الوزير ابن ماسي، بادر محمد هذا وزروق إلى السلطان ودخلا في طاعته، متبرئين من النفاق الذي حملهم عليه

عداوة الوزير ابن ماسي. فما كان إلا أن انعقد الصلح بين الواثق وابن ماسي، وسار به وبأصحابه إلى فاس. وحصلوا في قبضة ابن ماسي، فعفا لهم عما كان منهم واستعملهم في معهود ولايتهم ثم جاء الخبر بإجازة السلطان أبي العباس إلى سبتة، فاضطرب محمد بن يوسف وذكر لخالصة السلطان ومنافرة بني ماساي، فأجمع أمره ولحق بسبتة، فتلقاه السلطان بالكرامة. وير بمقدمه ودفعه إلى القيام بأمر دولته، فلم يزل متصرفاً بين يديه، إلى أن نزل على البلد الجديد. ولأيام من حصارها، خلع عليه للوزارة ودفعه إليها، فقام بها أحسن قيام. ثم كان الفتح وانتظمت أمور الدولة، ومحمد هذا يصرف الوزارة على أحسن أحوالها، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ظهور محمد بن السلطان عبد الحليم بسجلماسة:

قد تقدم لنا عند ذكر السلطان عبد الحليم ابن السلطان أبي علي، وكان يدعى

بحلى كيف، بايع له بنو مرين وأجلبوا به على عمر بن عبد الله، سنة ثلاث وستين وسبعمائة، أيام بيعته للسلطان أبي عمر ابن السلطان أبي الحسن. وحاصروا معه البلد الجديد، حتى خرج لدفاعهم وقاتلهم، فانهزموا وافترقوا. ولحق السلطان عبد الحليم بتازى وأخوه عبد المؤمن بمكناسة، ومعه ابن أخيهما عبد الرحمن بن أبي يفلوسن. ثم بايع الوزير عمر بن عبد الله لمحمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن. واستبدل به من أبي عمر، لما كان بنو مرين يرمونه به من بالجنون والوسوسة. فاستدعى محمد بن أبي عبد الرحمن من مطرح اغترابه بإشبيلية وبايع له. وخرج في العساكر لمدافعه عبد المؤمن وعبد الرحمن عن مكناسة، فلقيهما وهزمهما،

ولحقا بالسلطان عبد الحليم بتازى وساروا جميعاً إلى سجلماسة فاستقروا فيها، والسلطان لعبد الحليم. وقد تقدم خبر ذلك كله في أماكنه. ثم كان الخلاف بين عرب المعقل أولاد حسين والأحلاف. وخرج عبد المؤمن للإصلاح بينهم، فبايع له أولاد حسين ونصبوه كرهاً للملك. وخرج السلطان عبد الحليم إليهم في جموع الأحلاف فقاتلوه وهزموه. وقتلوا كبار قومه: كان منهم يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي شيخ بني تيربيغن وكبير دولة بني مرين، أجلت المعركة عن قتله. ودخل عبد المؤمن البلد منفرداً بالملك.

وصرف السلطان أخاه عبد الحليم إلى المشرق لقضاء فرضه لرغبته في ذلك، فسار على

طريق القفر مسلك الحاج من التكرور، إلى أن وصل القاهرة، والمستبد بها يومئذ يلبغا الخاصكي، على الأشرف شعبان بن حسين، من أسباط الملك الناصر محمد بن قلاوون، فأكرم وفادته ووسع نزله وجرايته، وأدر لحاشيته الأرزاق. ثم أعانه على طريقه إلى الحج بالأزواد والآنية والظهر من الكراع والخف. ولما انصرف من حجه زوده لسفر المغرب. وهلك بتروجه سنة سبع وستين ووسبعمائة. ورجع حاشيته إلى المغرب بحرمه وولده. وكان ترك محمداً هذا رضيعاً، فشب متقلباً بين الدول من ملك إلى آخر منتبذاً عن قومه لغيرة بني السلطان أبي الحسن من بني عمهم السلطان أبي علي.

وكان أكثر ما يكون مقامه عند أبي حمو سلطان بني عبد الواد بتلمسان، لما يروم به من الأجلاب على المغرب ودفع عادية بني مرين عنهم. فلما وقع بالمغرب من انتقاض عرب المعقل على الوزير مسعود بن ماساي سنة تسع وثمانين وسبعمائة ما وقع واستمروا على الخلاف عليه، انتهز أبو حمو الفرصة وبعث بمحمد بن علي هذا إلى المعقل ليجلبوا به على المغرب، ويمزقوا من ملكه ما قدروا عليه، فلحق بأحيائهم ونزل على الأحلاف الذين هم أمس رحماً بسجلماسة وأقرب موطناً إليها. وكان الوزير مسعود بن ماساي قد ولى عليها من قرابته عليّ بن إبراهيم بن عبو بن ماسي. فلما ظهر عليه السلطان أبو العباس وضيق مخنقه بالبلد الجديد، دس إلى الأحلاف وإلى قريبه علي بن إبراهيم أن ينصبوا محمد ابن السلطان عبد الحليم يملكوه سجلماسة ويجلبوا به على تخوم المغرب، ليأخذوا بحجزة السلطان أبي العباس عنه وينفسوا من خناقه، ففعلوا ذلك. ودخل محمد إلى سجلماسة، فملكها وقام علي بن إبراهيم بوزارته، حتى إذا استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد وفتك بالوزير مسعود بن ماسي وبإخوته وسائر قرابته، اضطرب علي بن إبراهيم وفسد ما بينه وبين سلطانه محمد، فخرج عنه من سجلماسة وعاد إلى أبي حمو سلطان تلمسان كما كان.

ثم زادت هواجس علي بن إبراهيم وارتيابه فخرج عن سجلماسة وتركها ولحق بأحياء العرب. وسارت طائفة منهم معه إلى أن أبلغوه مأمنه. ونزل على السلطان أبي حمو إلى أن هلك، فسار إلى تونس وحضر وفاة السلطان أبي العباس بها سنة ست وتسعين وسبعمائة. ولحق محمد ابن السلطان عبد الحليم بعد مهلك أبي حمو بتونس. ثم ارتحل بعدد وفاة السلطان أبي العباس إلى المشرق في سبيل جولة ومطاوعة واغتراب والله تعالى أعلم.

نكبة ابن أبي عمر ومهلكه وحركات ابن حسون:

لما استقل السلطان بملكه واقتعد سريره، صرف نظره إلى أولياء تلك الدولة ومن يرتاب منه. وكان محمد بن أبي عمرو، وقد تقدم ذكره وأوليته، من جملة خواصه وأوليائه وندمائه. وكان السلطان يقسم له من عنايته وجميل نظره ويرفعه على نظرائه. فلما ولي السلطان موسى نزعت به إليه نوازع المخالصة لأبيه من السلطان أبي عنان. فقد كان أبوه من أعز بطانته كما مر، فاستخلصه السلطان موسى للشورى ورفعه على منابر أهل الدولة. وجعل إليه كتابه علامته على المراسم السلطانية، كما كان لأبيه. وكان يفاوضه في مهماته ويرجع إليه في أموره، حتى غص له أهل الدولة ونمي عنه للوزير مسعود بن ماسي أنه يداخل السلطان في نكبته. وربما سعى عند سلطانه في جماعة من بطانة السلطان أحمد، فأتى عليهم النكال والقتل لفلتات كانت بينهم وبينه في مجالس المنادمة عند السلطان حقدها لهم. فلما ظفر بالحظ من سلطانه، سعى بهم فقتلهم. وكان القاضي أبو إسحق إبراهيم اليزناسي من بطانة سلطانه وكان يحضر مع ندمائه، فحقد له ابن أبي عمرو بعض الكلمات. وأغرى به سلطانه فضربه وأطافه، وجاء بها شنعاء غريبة في القبح. وسفر عن سلطانه إلى الأندلس، وكان يمر بمنزل السلطان هذا ومكان اعتقاله. وربما تلقاه فلم يلم بتحية ولا يوجب له حقاً، فاحفظ ذلك السلطان. ولما فرغ من أمر ابن ماساي، قبض على ابن أبي عمرو هذا وأودعه السجن. ثم امتحنه بعد أيام، إلى أن هلك ضرباً بالسياط، عفا الله عنه. وحمل إلى داره. وبينما أهله يجهزونه إلى قبره، إذا بالسلطان قد أمر بأن يسحب في نواحي البلد إبلاغاً في التنكيل، فحمل من نعشه، وقد ربط حبل من رجله وسحب في سائر انحاء المدينة. ثم ألقي على بعض الكثبان من أطرافها وأصبح مثلا في الآخرين. ثم قبض السلطان على حركات بن حسون النياطي وكان مخباً في الفتنة موضعاً. وكان العرب المخالفون من المعقل، ولما أجاز السلطان إلى سبتة، وحركات هذا بتادلا، أرادوه على طاعة السلطان فامتنع أولا. ثم أكرهوه وجاؤا به
إلى السلطان، فطوى له على ذلك حتى استقام أمره. وملك البلد الجديد، فقبض عليه وامتحنه إلى أن هلك. والله وارث الأرض ومن عليها.

خلاف علي بن زكريا بجبل الهساكرة ونكبته:

لما ملك السلطان البلد الجديد واستوى على ملكه، وفد عليه علي بن زكريا شيخ هسكورة مستصباً بما قدم من سوابقه. وقد كان حضر معه حصار البلد الجديد واستدعاه، فجاء بقومه وعساكر المصامدة. وأبلى في حصارها، فرعى السلطان سوابقه وولاه الولاية الكبرى على المصامدة على عادة الدولة في ذلك. ثم وفد بعده محمد بن إبراهيم المبرازي من شيوخ المصامدة، وكانت له ذمة صهر مع الوزير محمد بن يوسف بن علال على أخته، فولاه السلطان مكان علي بن زكريا فغضب لها علي واستشاط وبادر إلى الانتقاض والخلاف. ونصب بعض القرابة من بني عبد الحق، فجهز إليه السلطان العساكر مع محمد بن يوسف بن علال وصالح بن حمو اليابابي. وأمر صاحب درعة، وهو يومئذ عمر بن عبد المؤمن بن عمر أن ينهد إليه بعساكر درعة من جهة القبلة، فساروا إليه وحاصروه في جبلة. وجاولوه مرات ينهزم في جميعها، حتى غلبوه على جبلة. وسار إلى إبراهيم بن عمران الصناكي المجاور له في جبلة، فاستذم به. وخشي إبراهيم معرة الخلاف والغلب، ورغبه

الوزير محمد بن يوسف بمال بذله له، فأمكنه منه. وقبض عليه الوزير وجاء به إلى فاس، فأدخله في يوم مشهود وشفره واعتقل. فلم يزل في الاعتقال إلى أن هلك السلطان أبو العباس. وارتاب به أهل الدولة بعده، فقتلوه كما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفادة أبي تاشفين علي السلطان أبي العباس صريخا علي أبيه ومسيره بالعساكر ومقتل أبيه السلطان أبي حمو:

كان أبو تاشفين ابن السلطان أبي حمو قد وثب على أبيه آخر ثمان وثمانين وسبعمائة

بممالئته لغيره من إخوته، واعتقله بوهران. وخرج في العساكر لطلب إخوته المنتصر وأبي زيان وعمير، وامتنعوا عند حصين بجبل تيطرى فحاصرهم أياماً. ثم تذكر غائلة أبيه، فبعث ابنه أبا زيان. في جماعة من بطانته: منهم موسى ابن الوزير عمران بن موسى وعبد الله ابن جابر الخراساني، فقتلوا بعض ولده بتلمسان ومضوا إليه وهو بمحبسه في وهران. فلما شعر بهم أسرف من الحصن ونادى في أهل المدينة متذمماً بهم، فهرعوا إليه. وتدلى إليهم في عمامته وقد احتزم بها، فأنزلوه وأحدقوا به وأجلسوه على سريره.

وتولى كبر ذلك خطيب البلد ابن خزورت ولحق أبو زيان بن أبي تاشفين ناجياً إلى تلمسان. واتبعه السلطان أبو حمو، ففر منها إلى أبيه. ودخل أبو حمو تلمسان وهي طلل وأسوارها خراب، فأقام فيها رسم دولته. وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين، فأجفل من تيطرى. وأغذ السير، فدخلها. واعتصم أبوه بمئذنة المسجد، فاستنزله منها وتجافى عن قتله. ورغب إليه أبو حمو في رحلة المشرق لقضاء فرضه، فأسعفه وأركبه السفين مع بعض تجار النصارى إلى الإسكندرية موكلاً به. فلما حاذى مرسى بجاية لاطف النصارى في تخلية سبيله، فاسعف وملك أمره. وبعث إلى صاحب الأمر ببجاية يستأذنه في النزول، فأذن له. وسار منها إلى الجزائر واستخدم العرب، واستصعب عليه أمر تلمسان، فخرج إلى الصحراء. وجاء إلى تلمسان من جهة المغرب وهزم عساكر ابنه أبي تاشفين وملكها. وخرج أبو تاشفين هارباً منها، فلحق بأحياء سويد في مشاتيهم. ودخل أبو حمو تلمسان قي رجب سنة تسعين وسبعمائة. وقد تقدم شرح هذه الأخبار كلها مستوعبة.

ثم وفد أبو تاشفين مع محمد بن عريف شيخ سويد على السلطان أبي العباس صريخاً على أبيه ومؤملاً الكرة بإمداده، فتقبله السلطان وأجمل له المواعيد. وأقام أبو تاشفين في انتظارها، والوزير محمد بن يوسف بن علال يعده ويمنيه ويحلف له على الوفاء. وبعث السلطان أبو حمو إلى السلطان ابن الأحمر، لما علم من استطالته على دولة بني مرين كما مر، يتوسل إليه في أن يصدهم عن صريخ أبي تاشفين وإمداده عليه، فجلا ابن الأحمر في ذلك وجعلها من أهم حاجاته. وخاطب السلطان أبا العباس في أن يجهز إليه أبا تاشفين، فتعلل عليه في ذلك بأنه استجار بابنه أبي فارس، واستذم به. و لم يزل الوزير ابن علال يفتل لسلطانه ولابن الأحمر في

الذروة والغارب، حتى تم أمره وأنجز له السلطان بالنصر موعده. وبعث ابنه الأمير أبا فارس والوزير ابن علال في العساكر صريخين له، وانتهوا إلى تازى. وبلغ الخبر إلى أبي حمو، فخرج من تلمسان في عساكره واستألف أولياءه من عبد الله. ونزل بالغيران من وراء جبل بني ورنيد المطل على. تلمسان، وأقام هنالك متحصناً بالجبل وجاءت العيون إلى عساكر بني مرين بتازى من مكانه هو وأعرابه من الغيران، فأجمعوا غزوه. وسار الوزير

ابن علال وأبو تاشفين وسلكوا القفر، ودليليهم سليمان بن ناجي من الاحلاف. ثم صبحوا أبا حمو ومن معه من أحياء الخراج بمكانهم من الغيران، فجاولوهم ساعة، ثم ولوا منهزمين وكبا بالسلطان أبي حمو فرسه، فسقط وأدركه بعض أصحاب أبي تاشفين فقتلوه قعصاً بالرماح وجاؤا برأسه إلى ابنه أبي تاشفين والوزير ابن علال، فبعثوا به إلى السلطان وجيء بابنه عمير أسيراً، فهم أخوه أبو تاشفين بمتله، فمنعه بنو مرين أياماً. ثم أمكنوه منه فقتله، ودخل إلى تلمسان اخر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. وخيم الوزير وعساكر بني مرين بظاهر البلد، حتى دفع إليهم ما شارطهم عليه من المال. ثم قفلوا إلى المغرب، وأقام أبو تاشفين بتلمسان يقيم دعوة السلطان أبي العباس صاحب المغرب ويخطب له على منابر تلمسان وأعمالها، ويبعث إليه بالضريبة كل سنة، كما اشترط على نفسه. وكان أبو حمو ملك تلمسان، ولى ابنه أبا زيان على الجزائر. فلما بلغه مقتل أبيه امتعض ولحق بأحياء حصين ناجياً وصريخاً. وجاءه وفد بني عامر من زغبة يدعونه للملك، فسار إليهم. وقام بدعوته شيخهم المسعود بن صغير، ونهضوا جميعاً إلى تلمسان في رجب سنة إثنتين وتسعين وسبعمائة، فحاصروها أياماً. ثم سرب أبو تاشفين المال في العرب، فافترقوا عن أبي زيان. وخرج إليه أبو تاشفين، ابنه صريخاً إلى المغرب، فجاءه بمدد من العسكر. ولما انتهى إلى تاوريرت، أفرج أبو زيان عن تلمسان وأجفل إلى الصحراء. ثم أجمع رأيه على الوفادة إلى صاحب المغرب، فوقد عليه صريخاً، فتلقاه بالتكرمة وبر مقدمه ووعده النصر من عدوه. وأقام عنده إلى حين مهلك أبي تاشفين. والله أعلم.

وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب علي تلمسان:

لم يزل هذا الأمير أبو تاشفين مملكاً على تلمسان ومقيماً فيها لدعوة صاحب المغرب أبي العباس ابن السلطان أبي سالم ومؤدياً الضريبة التي فرضها عليه، منذ ملك. وأخوه الأمير أبو زيان مقيم عند صاحب المغرب ينتظر وعده في النصر عليه، حتى تغير السلطان أبو العباس على أبي تاشفين في بعض النزعات الملوكية، فأجاب داعي أبي زيان وجهزه بالعساكر لملك تلمسان. فسار لذلك منتصف سنة خمس وتسعين وسبعمائة وانتهى إلى تازى، وكان أبو تاشفين قد طرقه مرض أزمنه، ثم هلك منه في رمضان من السنة. وكان القائم في دولته أحمد بن العز من صنائعهم وكان يمت إليه بخؤولة، فولى بعده مكانه صبياً من ابنائه، وقام بكفالته. وكان يوسف بن أبي حمو وهو ابن الزابية والياً على الجزائر من قبل أبي تاشفين، فلما بلغه الخبر أغذ السير مع العرب ودخل تلمسان، وقتل أحمد بن العز والصبي المكفول ابن أخيه أبي تاشفين. فلما بلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس صاحب المغرب صاحب المغرب خرج إلى تازى وبعث من هنالك ابنه أبا فارس في العساكر، ورد أبا زيان ابن أبي حمو إلى فاس ووكل به. وسار أبو فارس إلى تلمسان، فملكها وأقام فيها دعوة إبيه. وتقدم وزير أبيه صالح بن أبي حمو إلى مليانة، فملكها وما بعدها من الجزائر وتدلس إلى حدود بجاية. واعتصم يوسف بن الزابية بحصون تاجحمومت. وأقام الوزير صالح يحاصره. وانقرضت دولة بني عبد الواد من المغرب الأوسط. والله غالب على أمره.

وفاة السلطان أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيان ابن أبي حمو علي تلمسان والمغرب الأوسط:

كان السلطان أبو العباس بن أبي سالم، لما وصل إلى تازى وبعث ابنه أبا فارس إلى تلمسان فملكها، أقام هو بتازى يشارف أحوال ابنه ووزيره صالح الذي تقدم لفتح البلاد الشرقية. وكان يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من المعقل، قد حج

سنة ثلاث وتسعين وسبعملئة واتصل بملك مصر من الترك الملك الظاهر برقوق. وتقدمت إلى السلطان فيه وأخبرته بمحله من قومه، فأكرم تلقيه وحمله بعد قضاء حجه هدية إلى صاحب المغرب، يطرفه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك. فلما قدم يوسف بها على السلطان أبي العباس، أعظم موقعه. وجلس في مجلس حفل لعرضها والمباهاة بها. وشرع في المكافأة عليها بتجهيز الجياد والبضائع والثياب، حتى استكمل من ذلك ما رضيه. واعتزم على إنفاذها مع يوسف بن علي حاملها الأول. وإنه يرسله من تازى لأيام مقامته تلك، فطرقه هنالك مرض كان فيه حتفه في شهر محرم سنة ست وتسعين وسبعمائة. واستدعوا ابنه أبا فارس من تلمسان، فبايعوه بتازى وولوه مكانه، ورجعوا به إلى فاس. وأطلقوا أبا زيان بن أبي حمو من الاعتقال. وبعثوا به إلى تلمسان أميراً عليها وقائما بدعوة السلطان أبي فارس فيها، فسار إليها وملكها. وكان أخوه يوسف بن الزابية قد اتصل بأحياء بني عامر يروم ملك تلمسان والاجلاب عليها، فبعث إليهم أبو زيان عندما بلغه ذلك. وبذل لهم عطاء جزيلاً على أن يبعثوا به إليه، فأجابوه إلى ذلك وأسلموه إلى ثقاة أبي زيان. وساروا به، فاعترضهم بعض أحياء العرب ليستنقذوه منهم، فبادروا بقتله وحملوا رأسه إلى أخيه أبي زيان، فسكنت أحواله وذهبت الفتنة بذهابه، واستقامت أمور دولته. وهم ذلك لهذا العهد. والله غالب على أمره.

وقد انتهى بنا القول في دولة بني عبد الواد من زناتة الثانية، وبقي علينا خبر الرهط اللذين تحيزوا منهم إلى بني مرين من أول الدولة. وهم بنو كمي من فصائل علي بن القاسم إخوة طاع الله بن علي وخبر بني كندوز أمرائهم بمراكش. فلنرجع إلى ذكر أخبارهم، وبها نسوق الكلام في أخبار بني عبد الواد. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

خريطة

الغزاة المجاهدون بالأندلس

الخبر عن القرابة المرشحين من آل عبد الحق الامراء علي الغزاة المجاهدين بالاندلس، الذين قاسموا ابن الاحمر في ملكه وانفردوا برياسة جهاده:

كانت الجزيرة الأندلسية من وراء البحر منذ انقضاء أمر بني عبد المؤمن وقيام ابن الأحمر بأمرها، قليلة الحامية، ضعيفة الأحوال، إلا من يلهمه الله إلى عمل الجهاد من قبائل زناتة المؤملين كرة الملك والمقتسمين ممالك الغرب، خصوصاً بني مرين أهل المغرب الأقصى، لاتصال عدوة الأندلس ببسائطه وتعدد الفراض ببحر الزقاق القريب العدوتين. وما زال هذا الزقاق على قديم الزمان لأجل ذلك فرضة دون سواحل المغرب. (ولما استولى) بنو مرين على ممالكه وضاقت أحوال المسلمين بالأندلس. وبمخنقهم الطاغية حتى ألجأهم إلى سيف البحر واستأثر بالفرنتيرة وما وراءها. واستأثر بنو القمط أهل برشلونة وقطلونية بشرق الأندلس. وانتشر في الأقطار

ما كان من أمر قرطبة واختيها إشبيلية وبلنسية. وامتعض لذلك المسلمون وتنافسوا في الجهاد وإمداد الأندلس بأموالهم وأنفسهم وسابق الناس إلى ذلك الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بما كان صاحب الوقت والمؤمل للكرة، فاستنقذ الكثير من أمواله ومقرباته في أمدادهم، بعد أن كانوا آثروا القيام بدعوته، وأوفدوا عليه المشيخة ببيعته. وكان ليعقوب بن عبد الحق أمل في الجهاد وحرص عليه. واعتزم في سلطان أخيه أبي يحيى على الإجارة، فمنعه ضنانة به على الاغتراب منه. وأوعز إلى صاحب سبتة يومئذ أبي علي بن خلاص بمنعه منها، فوعر له السبيل وشبه عليه المذاهب.

و لم ينشب يعقوب بن عبد الحق، أن قام بسلطان المغرب، بعد أخيه أبي يحيى وشغل بشأنه. وأهمه شأن بني أخيه إدريس بن عبد الحق، بما كان فيهم من الترشيح والمنافسة لبنيه. واستأذنه عامر بن ادريس منهم في الجهاد بالعداوة، فاغتنمها منه وعقد له من مطوعة زناتة على ثلاثة آلاف أو يزيدون. وأجاز معه رخو ابن عمه عبد الله بن عبد الحق. وفصلوا إلى الأندلس سنة إحدى وستين وسبعمائة، فحسنت

آثارهم في الجهاد وكرمت مقاماتهم. ثم رجع عامر بن إدريس إلى المغرب وكثر انتقاض القرابة. ونافسهم أقيال زناتة في مثلها، فاجتمع أبناء الملوك بالمغرب الأوسط مثل عبد الملك بن يغمراسن ابن زيان وعايد بن منديل بن عبد الرحمن وزيان بن محمد بن عبد القوي فتعاقدوا على الإجازة إلى الجهاد، فأجازوا فيمن خف معهم من قومهم سنة ست وسبعين وستمائة، فامتلأت الأندلس بأقيال زناته وأعياص الملك منهم. وكان فيمن أجاز من أعياصهم بنو عيسى بن يحيى بن وسناف بن عبو بن أبي بكر بن حمامة. ومنهم سليمان بن إبراهيم، وكانت لهم آثار في الجهاد ومقامات محمودة، وكان موسى بن رحو، لما نازله السلطان وبني أبيه عبد الله بن عبد الحق بحصن علودان ونزلوا على عهده، لحق بتلمسان. وكان بنو عبد الله بن عبد الحق وإدريس بن عبد الحق عصبة من بين سائرهم، لأن عبد الله وإدريس كانا شقيقين لسوط النساء بنت عبد الحق، فاقتفى أثر يعقوب بن عبد الله بن محمد ابن عمه إدريس وخرج على السلطان بقصر كتامة سنة ثلاث وستين وستمائة. ثم استرضاه عمه واستنزله. وبقي يعقوب بن عبد الله في انتقاضه ينتقل في الجهات، إلى أن قتله طلحة بن محلى من أولياء السلطان سنة ثمان وستين وستمائة بجهة سلا، فكفى السلطان شأنه. ولما كان من عهد السلطان لابنه أبي مالك ما قدمناه، نفس عليه هؤلاء القرابة هذا الشان، فانتقضوا ولحق محمد بن إدريس بحصن علودان. ولحق موسى بن رحو بن عبد الله بجبال غمارة ومعه أولاد عمه أبي عياد بن عبد الحق. ونازلهم السلطان، حتى نزلوا على عهده. وأجازهم إلى الأندلس سنة سبعين وستمائة، فأقاموا بها للجهاد سوقاً. ونافستهم أقيال زنانة في مثلها بتلمسان. وأجاز منها إلى الأندلس سنة سبعين وستمائة، فولاه السلطان ابن الأحمر على جميع الغزاة المجاهدين هنالك بما كان كبش كتيبتهم وفحل شولهم. و لم يلبث أن عاد إلى المغرب، فولى السلطان مكانه أخاه عبد الحق. ثم رجع عنهم مغاضبا إلى تلمسان، فولى مكانه على الغزاة المجاهدين إبراهيم بن عيسى بن يحيى بن وسناف، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن موسي بن رحو فاتح هذه الرياسة بالأندلس وخبر أخيه عبد الحق من بعده وابنه حمو بن عبد الحق بعدهما:

لما هلك السلطان الشيخ ابن الأحمر وولي ابنه السلطان الفقيه، ووفد على السلطان يعقوب بن عبد الحق صريخاً للمسلمين، فأجاز إليه أول إجازته سنة ثلاث وسبعين وستمائة وأوقع بجيوش النصرانية. وقتل الزعيم دننه واستوى له الغلب على الأندلس، وبدا لابن الأحمر في أمره وخشي مغبته. وتوقع أن يكون شأنه معه شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عباد. وكان بالأندلس من قرابته بنو أشقيلولة قد قاسموه في ممالكها وانفردوا بوادي آش ومالقة وقمارش، حسبما ذكرناه في أخباره مع السلطان. وانتقض عليه أيضاً من رؤساء الأندلس أبو عبدويل وابن الدليل، فكانوا يجلبون على بلاد المسلمين. وكانوا قد أستنجدوا جيوش النصرانية ونازلوا غرناطة وعاثوا في الجهات. فلما استوت قدم السلطان يعقوب بن عبد الحق بالأندلس وصل هؤلاء الثوار به أيديهم، فخشيهم ابن الأحمر جميعاً على نفسه. وقلب للسلطان أبي يوسف ظهر المجن واستظهر عليه بالأعياص من قرابته. وكان هؤلاء القرابة من أولاد رحو بن عبد الله وإدريس بن عبد الله وإدريس بن عبد الحق- وينسبون جميعاً إلى سوط النساء كما ذكرناه، من أولاد أبي عياد بن عبد الحق- لما أوجسوا الخيفة من السلطان واستشعروا النكير منه، لحقوا بالأندلس ثورية بالجهاد وانتباذا عن الشول فراراً عن محله. ولد كان السلطان أبو يوسف متى أحس بريبة منهم في ذلك، إذا انتقضوا عليه، يشخصهم إلى الأندلس، فاجتمعت منهم عند ابن الأحمر عصابة من أولاد عبد الحق كما قلناه وأولاد وسناف وأولاد نزول وتاشفين بن معطي كبير تيربيغن من بني محمد. وتبعهم أولاد محلي أخوال السلطان أبي يوسف وكان ابن الأحمر كثيراً ما يعقد لهم على الغزاة المجاهدين من زناتة لدار الحرب، فعقد أولا لموسى بن رحو سنة ثلاث وسبعين وستمائة ولأخيه عبد الحق بعد انصرافه إلى المغرب، ثم لابراهيم بن عيسى بعد انصرافهما معا كما قلناه. ثم رجعاً فعقد لموسى بن رحو ثانية على أشياخه،

وثبت له قدماً في الرياسة، ليحسن به دفاع السلطان أبي يوسف عنهم. ثم تداولت الإمارة فيهم ما بينهم وبين عمومتهم. وربما عقد قبل ذلك أزمان الفترة لعلي بن أبي عياد بن عبد الحق في بعض الغزوات، ولتاشفين بن معطي في أخرى سنة تسع وسبعين وستمائة ومعه طلحة بن محلي، فاعترضوا الطاغية دون حصن المسلمين وكان لهم الظهور. ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان أبي تاشفين. وعقد ابن الأحمر في إحدى حروبه معه لعلي بن أبي عياد على زناتة جميعاً وحاشهم إلى رايته، فانفضت جموع السلطان أبي يوسف وظهروا عليه. وتقبضوا في المعركة على ابنه منديل واستاقوه أسيراً، إلى أن أطلقه السلطان ابن الأحمر، في سلم عقده بعد مهلكه، مع ابنه يوسف بن يعقوب. واستبد موسى بن رحو من بعدهما بإمارة الغزاة بالأندلس، إلى أن هلك، فوليها كلت بعده أخوه عبد الحق إلى أن هلك سنة تسع وتسعين وستمائة، وكان مظفر الراية على عدو المسلمين. ولما هلك ولي من بعده ابنه حمو بن عبد الحق، فكانت هذه الإمارة متصلة في بني رحو، إلى أن انتقلت منهم إلى إخوتهم من بني أبي العلاء وغيرهم. واندرج حمو في جملة عثمان بن أبي العلاء من بعده

حسبما نذكر. وأما إبراهيم بن عيسى الوسنافي، فرجع إلى المغرب ونزل على يوسف بن يعقوب وقتله، بمكانه من حصار تلمسان بعد حين من الدهر، وبعد أن كبر وعمي. والله مالك الأمور لا رب غيره. وكان مهلك يعلى بن أبي عياد، سنة سبع وثمانين ومعطي بن بوتاشفين، سنة تسع وثمانين وستمائة. وطلحة بن محلي سنة ست وثمانين وستمائة. والله أعلم.

الخبر عن عبد الحق بن عثمان شيخ الغزاة بالأندلس:

كان عبد الحق هذا من أعياص الملك المريني ويعاسيبهم، وهو من ولد محمد بن عبد الحق ثاني الأمراء على بني مرين بعد أبيهم عبد الحق. وهلك أبوه عثمان بن محمد بالأندلس، إحدى أيام الجهاد سنة تسع وسبعين وستمائة. وربي ابنه عبد الحق هذا في حجر السلطان يوسف بن يعقوب، إلى أن كان من أمر خروجه مع الوزير رحو بن يعقوب على السلطان أبي الربيع ما ذكرناه في أخباره. ولحق بتلمسان وأجاز منها إلى الأندلس،

وسلطانه يومئذ أبو الجيوش ابن السلطان الفقيه. وشيخ زناتة بها حمو بن عبد الحق بن رحو. وخاطبهم السلطان أبو العباس ملك المغرب في اعتقاله، فأجابوه وفر من محبسه ولحق بدار الحرب. ولما انتقض أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد وبايع لنفسه بمالقة وزحف إلى غرناطة، فنازلها ووقعت الحرب بظاهرها بين الفريقين. وأخذ في بعض أيامها حمو محن عبد الحق أسيراً وسيق إلى السلطان أبي الوليد. وكان معه عمه العباس بن رحو، فأبى من أسار ابن أخيه وخلى عنه، فرجع إلى سلطانه، فارتاب به لذلك. وعقد على الغزاة مكانه لعبد الحق بن عثمان، استدعاه من مكانه بدار الحرب. ثم غلبهم أبو الوليد على غرناطة. وتحول أبو الجيوش إلى وادي آش، على سلم انعقد بينهم، وسار معه عبد الحق بن عثمان على شأنه. ثم وقعت بينه وبين أبي الجيوش مغاضبة لحق لأجلها بالطاغية وأجاز إلى سبتة، فاستظهر به يحى بن أبي طالب العزفي أيام حصار السلطان أبي سعيد اياه، فكان له في حماية ثغره والدفاع ونه آثار مذكورة. ثم عقد السلطان أبو سعيد السلم ليحيى العزفي وأفرج عنه، فارتحل عبد الحق بن عثمان إلى أفريقية. ونزل ببجاية سنة تسع عشرة وسبعمائة على أبيب عبد الرحمن بن عمر صاحب السلطان أبي يحيى المستبد بالثغور الغربية، فأكرم نزله، وأوسع قراه. وضرب له الفساطيط بالرشة من ساحة البلد استبلاغاً في تكريمه وحمله وأصحابه على مائة وخمسين من الخيل ثم أقدمهم على السلطان بتونس فبر مقدمهم، وخلط عبد الحق بنفسه وآثره بالخلة والصحابة، وأحله بمكان الاستظهار به بعصابته. ولما عقد السلطان لمحمد بن سيد الناس على حجابته سنة سبع وعشرين وستمائة واستقدمه لذلك من ثغر بجاية كما ذكرناه، فعظمت رياسته واستغلظ حجابه. وحجب عبد الحق ذات يوم عن بابه، فسخطها وانصرف مغاضباً. وداخل أبا فارس في الخروج على أخيه، فأي به وخرج معه صت تونس، فكان من خبرهم ومقتل أبي فارس وخلوص عبد الحق إلى تلمسان ونزوله على أبي تاشفين وغزوه إلى أفريقية مع عساكر بني عبد الواد، سنه تسع وعشرين وسبعمائة، ما ذكرناه في أخبار الدولة الحفصية. ثم لما رجع بنو عبد الخالق إلى تلمسان صمد مولانا السلطان أبو يحيى إلى تونس

في

أخريات سنته. وفر ابن أبي عمران، السلطان المنصوب بتونس من بني أبي حفص إلى أحياء العرب. وتقبض على أبي زيان ابن أخي عبد الحق بن عثمان في لمة من أصحابه، فقتلوا قعصاً بالرماح. ورجع عبد الحق بن عثمان إلى مكانه من تلمسان، فأقام بمثواه عند أبي تاشفين متبوئاً من الكرامة والاعتزاز ما شاء، إلى أن هلك بمهلك أبي تاشفين يوم اقتحم السلطان أبو الحسن تلمسان عليهم سنة سبع وثلاثين وسبعمائة. وقتلوا جميعاً عند قصر الملك أبو تاشفين وابناه عثمان ومسعود وحاجبه موسى بن علي ونزيله عبد الحق هذا وأبو ثابت ابن أخيه، فقطعت رؤوسهم وتركت أشلاؤهم بساحة القصر عبرة للمعتبرين، حسبما ذكرناه في أخبار أبي تاشفين. والبقاء لله وحده.

الخبر عن عثمان بن أبي العلاء، من أمراء الغزاة المجاهدين بالأندلس:

كان أولاد سوط النساء من ولد عبد الحق، أهل عصابة واعتزاز على قومهم، وهم أولاد إدريس وعبد الله ابنيها لشقيقين كما ذكرناه. وكان مهلك إدريس الأكبر يوم مهلك أبيه بتافرطنيت ومهلك عبد الله قبله. وخلف عبد الله ثلاثة من الولد، تشعب فيهم نسله: وهم يعقوب ورحو وإدريس. واستعمل أبو يحيى بن عبد الحق يعقوباً منهم على سلا عند افتتاحه إياها سنة تسع وأربعين وسبعمائة. ثم انتزى بها بعد ذلك على عمه يعقوب سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، وكان من شأن ثورة النصارى بها ما ذكرناه، واستخلصها يعقوب بن عبد الحق. ولحق يعقوب بن عبد الله بعلودان من بلاد غمارة وامتنع بها. خرج على أثره بنو عمه إدريس: وهما عامر ومحمد وانتزوا بالقصر الكبير، ولحق بهم كافة أولاد سوط النساء. وطلبهم السلطان، فلحقوا بجبال غمارة ونازلهم، ثم استنزلهم بعد ذلك على الأمان. وعقد لعامر على الغزو إلى الأندلس سنة ستين وستمائة كما ذكرناه، وأجاز معه رحو ابن عمه عبد الله. ورجع محمد بن عامر وفر إلى تلمسان سنة ثمانين وستمائة وأجاز منها إلى الأندلس.

ثم خرجوا على السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة تسع وستين وستمائة، ومعهم أولاد أبي

عياد بن عبد الحق واعتصموا بعلودان. واستنزلهم السلطان على اللحاق بتلمسان، فلحقوا بها. وأجاز أولاد سوط النساء وأولاد أبي عياد كافة إلى الأندلس واستقروا بها يومئذ. ورجع عامر منهم ومحمد، وكان من خبرهم ما نذكر. وهلك يعقوب بن عبد الله سنة ثمان وستين وستمائة في اغترابه وانتزائه بقفوله من رباط الفتح، قتله طلحة بن محلى. واستقر بنوه من أولاد سوط النساء بالمغرب. وكان ابنه أبو ثابت أميراً على بلاد السوس، أيام السلطان يوسف بن يعقوب وأوقع بزكنة سنة تسع وتسعين وستمائة، ولم يزل وبنوه بالمغرب من يومئذ. وكان من إخوانه أبو العلاء ورحو إبنا عبد الله بن عبد الحق، تشعب نسله فيهما: وأجاز رحو ألى الأندلس مع عامر ومحمد ابني عمه إدريس. ثم أجاز ابنه موسى سنة تسع وستين وستمائة، مع أولاد أبي عياد وأولاد سوط النساء. ثم رجع إلى محله من الدولة، وفر بابنه سنة خمس وسبعين وستمائة إلى تلمسان، فأجاز منها إلى الأندلس واستقر بها. وأجاز أولاد أبي العلاء سنة خمس وثمانين وستمائة مع أولاد أبي يحيى بن عبد

الحق وأولاد عثمان بن نزول واسقروا بالأندلس، وكانوا يرجعون في رياستهم إلى كبيرهم عبد الله بن أبي العلاء. وعقد له ابن الأحمر على الغزاة من زناتة، فيمن كان يعقد لهم من زناتة قبل استقرار المنصب، إلى أن هلك شهيداً في إحدى غزواته سنة ثلاث وتسعين وستمائة. وعقد المخلوع ابن الأحمر لأخيه عثمان بن أبي العلاء، على حامية مالقة وغربيها من الغزاة، لنظر ابن عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن إسمعيل بن يوسف بن نصر. ولما غدر الرئيس أبو سعيد بسبتة سنة خمس وسبعمائة، وتمت له الحيلة في تملكها واضطرمت نار العداوة بينهم وبين صاحب المغرب، فنصبوا عثمان هذا للأمر وأجازوه إلى غمامرة، فثار بها ودعا لنفسه وتغلب على أصيلا والعرائش، ثم على القصر. وكان من ذلك ما ذكرناه، إلى أن غلبه أبو الربيع سنة ثمان وستمائة ورجع إلى مكانه من الأندلس. ولما اعتزم أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد على الخروج على أبي الجيوش صاحب غرناطه، وداخل في ذلك شيخ الغزاة بمالقة عثمان بن أبي العلاء، فساعده عليه واعتقل أباه الرئيس أبا سعيد وزحف

إلى غرناطة سنة أربع عشرة وسبعمائة. فلما استولى عليها، عقد لعثمان هذا على إمارة الغزاة المجاهدين من زناتة وصرف عنها عثمان بن عبد الحق بن عثمأد، للحق بوادي آش مع أبي الجيوش. وصار حمد بن عبد الحق بن رحو في جملته، بعد أن كان شيخاً على الغزاة كما قلناه. واستمرت أيام ولاية عثمان هذا وبعد فيها صيته، وغص صاحب المغرب أبو سعيد بمكانه. ولما استصرخه المسلمون للجهاد سنة ثمان عشرة وسبعمائة، اعتذر بمكان عثمان هذا واشترط عليهم القبض عليه، حتى يرجع عنهم فلم يمكن ذلك. ونازل الطاغية غرناطة وحاصرها، وكان لعثمان وبنيه في ذلك آثار مذكورة.

وأتاح الله للمسلمين في النصرانية، على يد عثمان هذا وبنيه، ما لم تخطر على قلب أحد منهم، فتأكد اغتباط الدولة والمسلمين بمكانهم إلى أن هلك أبو الوليد سنة خمس وعشرين وسبعمائة، باغتيال بعض الرؤساء من قرابته، بمداخلة عثمان هذا زعموا في غدره، ونصب للأمر ابنه محمد صبياً لم يبلغ الحلم. وقام بأمره وزيره محمد بن المحروق من صنائع دولتهم، فاستبد عليه وألقى زمام الدولة بيد عثمان في النقض والإبرام، فاعتز عليهم وقاسمهم في الأمر، واستأثر في أعطيات الغزاة بكثير من أموال الجباية، حتى خشي الوزير على الدولة. وأدار الرأي في كبحه عن التغلب، فجمح وفسد ما بينه وبين الوزير ابن المحروق، فانتقض عليه وخرج مغاضباً، فاضربت فساطيطه بمرج غرناطة. واعصوصب جماعة الغزاة من قبائل زناتة عليه. واعتصم الوزير وأهل الدولة بالحمراء وسعى النائب بينهما أياماً. وأدار الوزير الرأي في أن ينصب له كفؤاً من قرابته، يجاذبه الحبل ويشغله بشأنه عن الدولة، فجأجأ بيحيى بن رحو بن عبد الحق وكان في جملة عثمان وصهراً له، فدخل إليه وعقد له على الغزاة، وتسايلوا إليه. وتفرد عثمان بمعسكره في عشيره وولده وعقد معه السلم، على أن يجيز إلى المغرب. ووافدد بطانته لذلك على السلطان أبي سعيد سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. وارتحل من ساحة غرناطة في ألف فارس، زعموا من ذويه وأقاربه وحشمه. وقصد المرية ليجعلها فرضة لمجازه، حته إذا حاذى اندوش.

وكان بينه وبين رؤسائها مداخلة، فخرجوا إليه مؤدين حق مبرته، فغدر بهم وأركب إليها، فملكها وأنزل بها حرمه وأثقاله. ودعا محمد ابن الرئيس أبي سعيد من شلوبانية وكان متزلاً بها، فجاء إليه ونصبه للأمر. وشن الغارات على غرناطة صباحاً ومساءً واضطرمت نار الفتنة. واستركب يحيى بن رحو من قدر عليه من زناته. وطالت الحرب سنين، حتى إذا فتك السلطان محمد بن الأحمر بوزيره ابن المحروق، واستدعى عثمان بن أبي العلاء، وعقد له السلم، على أن يجيز عمه محمد إلى المغرب ويلحق بغرناطة لشأنه من رياسة الغزاة، فتم ذلك سنة تسع وعشرين وسبعمائة ورجع إلى مكانه من الدولة وهلك إثر ذلك. والبقاء لله وحده.

الخبر عن رياسة إبنه أبي ثابت من بعده ومصير أمرهم:

لما هلك شيخ الغزاة ويعسوب زناتة عثمان بن أبي العلاء، قام بأمره في قومه ابنه أبو ثابت عامر. وعقد له السلطان أبو عبد الله بن أبي الوليد على الغزاة المجاهدين كما كان أبوه، فعظم شأنه قوة شكيمة وكثرة عصابة ونفوذ رأي وبسالة. وكان لقومه اعتزاز على الدولة، بما عجموا من عودها وكانوا أولي بأس وقوة فيها واستبداد عليها. وكان السلطان محمد بن أبي الوليد مستنكفاً من الاستبداد عليه في القلة والكثرة فكان كثيراً ما يحقدهم بتسفيه آرائهم والتضييق عليهم في جاههم. ولما وفد على السلطان أبي الحسن سنة إثنتين وثلاثين وسبعمائة، صريخاً على الطاغية، واستغذ ابنه الأمير أبا مالك لمنازلته جبل الفتح، اتهموه بمداخلة السلطان أبي الحسن في شأنهم، فتنكروا وأجمعوا الفتك به، وداخلوا في ذلك بعض صنائعه ممن كان متربصاً بالدولة فساعدهم. ولما افتتح الجبل وكان من شأنه ما قدمنا ذكره، وزحف الطاغية فأناخ عليه، وقصد ابن الأحمر الطاغية في بينه راغباً أن يرجع عن الحصن، فرجع

وافترقت عساكر المسلمين، ارتحل السلطان ابن الأحمر إلى غرناطة سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ولد قعدوا له بمرصد من طريقه. ونمي إليه الخبر ردعا بأسطوله لركوب البحر إلى مالقة. واستبق إليهم الخبر بذلك، فتبادروا إليه ولقوه بطريقه من ساحل اصطبونة، فلاحوه وعاتبوه في شأن صنيعته عاصم من معلوجاته. وحاجهم عنه، فاعتوروا عاصماً بالرماح، فنكر ذلك عليهم، فألحقوه به وخر صريعاً عن مركوبه وبعثوا إلى أخيه يوسف، فأعطوه بيعتهم وصفقة أيمانهم ورجعوا به إلى غرناطة وهو حذر منهم لفعلتهم التي فعلوا، واستمرت الحال على ذلك. ولما استكمل السلطان أبو الحسن فتح تلمسان وصرف عزائمه إلى الجهاد، داخل ابن الأحمر في إزاحتهم عن الأندلس مكان جهاده، فصادف منه إسعافاً وقبولاً وحرصاً على ذلك. وتقبض على أبي ثابت وإخوته إدريس ومنصور وسلطان. وفر أخوه سليمان، فلحق بالطاغية وكان له في يوم طريف أثر في الإيقاع بالمسلمين. ولما تقبض ابن الأحمر على أبي ثابت وإخوته،. أودعهم جميعا المطبق أياماً. ثم غربهم إلى أفريقية، فترلوا بتونس على مولانا السلطان أبي يحيى. وأوعز إليه السلطان أبو الحسن بالتوثق منهم أن يتصلوا بنواحي المغرب ويخالفوه إليها أيام شغله بالجهاد في الأندلس، فاعتقلهم وأوفد بهم أبا محمد عبد الله بن تافر كين إلى سدة السلطان أبي الحسن. وكتب إليه شفيعا فيهم، فتقبل شفاعته. وأحسن نزلهم وكرامتهم، حش إذا احتل بسبتة، أيام حصار الجزيرة سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، سعى بهم عنده فتقبض عليهم واعتقلهم بمكناسة. ولما

انتزى ابنه الأمير أبو عنان على الأمر وهزم منصور ابن أخيه أبي مالك صاحب فاس ونازله بالبلد الجديد، بعث فيهم إلى مكناسة، فأطلقهم من الاعتقال وأفاض فيهم الإحسان والعطاء، واستظهر بهم على شأنه. وأحل أبا ثابت محل الشورى من مجلسه، وداخل إدريس أخاه في المكر بالبلد الجديد، فترع إليها ومكر بهم وثار عليهم، إلى أن نزلوا على حكم السلطان أبي عنان، فعقد لأبي ثابت على سبتة وبلاد الريف ليشارف منها الأندلس محمل إمارته. وأطلق يده في المالى والجند وفصل لذلك، فهلك بالطاعون يومئذ سنة تسع وأربعين وسبعمائة بمعسكره إزاء معسكر السلطان من حصار البلد الجديد. واستقر إخوانه في إيالة السلطان أبي عنان بالمغرب الأقصى، إلى أن كان من مفر أخيه إدريس وولايته على الغزاة بالأندلس، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن يحيي بن رحو وامارته علي الغزاة بالأندلس أولي وثانية ومبدأ ذلك

و تصاريفه: كان رحو بن عبد الله كبير ولد عبد الله بن عبد الحق، وكان له بنون كثيرون تشعب نسله فيهم: منهم موسى وعبد الحق والعباس وعمر ومحمد وعلي ويوسف. وأجازوا

كلهم إلى الأندلس مع أولاد سوط النساء من تلمسان كما قدمناه. وأقام عمر بعدهم بتلمسان مدة واتخذ بها الأهل والولد. ثم لحقهم وولى موسى إمارة الغزاة بعد إبراهيم ابن عيسى الوسنافي وبعده أخوه عبد الحق على الغزاة، أقام بها مدة وأجاز منها إلى سبتة مع الرئيس أبي سعيد وعثمان بن أبي العلاء سنة خمس وسبعمائة وولي بها على الغزاة المجاهدين. ثم رجع إلى الأندلس ولم يلبث بعدها أن أجاز إلى المغرب. ونزل على السلطان أبي سعيد، فأكرم نزله، ثم رجع إلى الأندلس. ولما ولي إمارة الغزإة عثمان بن أبي العلاء، وكان بينهم من المنافسة ما يكون بين فحول الشول، فأشخص بني رحو جميعاً إلى أفريقية، فترلوا على مولانا السلطان أبي يحيى خير نزل، اصطفاهم واستخلصهم واستظهر بهم في حروبه: وهلك عمر بن رحو ببلاد الجريد، وقبره ببشرى من نفزاوة معروف ونزع ابنه يحيى من بين إخوته عن مولانا السلطان أبي يحمى وصار في جملة ابن أبي عمران، ثم لحق بزواوة وأقام في بني يراتن سنين، ثم أجاز إلى الأندلس واستقر بمكانه من قومه. واصطفاه عثمان بن أبي العلاء وأصهر إليه في ابنته. ولما فسد ما بينه وبين ابن المحروق وزير السلطان بغرناطة سنة سبع وعشرين وسبعمائة واعصوصب عليه الغزاة بمعسكر من مرج غرناطة، فدس يومئذ ابن المحروق إلى يحيى بن عمر هذا ودعاه إلى مكان عثمان ليغيظه بذلك فأجاب، ونزع عن عثمان وقومه إلى ابن المحروق وسلطانه. وعقد له على الغزاة، فتسايلوا إليه من عثمان شيخهم، وانصرف إلى المدية وكان من شأنه ما قصصناه في أخباره. وأقام يحيى بن عمر في رياسته إلى أن هلك ابن المحروق بفتكة سلطانه. واستدعى عثمان بن أبي العلاء للرياسة، فرجع إليها.

وصرف يحيى بن عمر إلى وادي آش، وعقد له على الغزاة بها فأقام حيناً، ثم رجع

إلى مكانه بين قومه. واصطفاه عثمان بن أبي العلاء وابنه أبو ثابت، بما كانت أمه بنت موسى بن رحو، فكان بتعصب لخؤلته فيهم. ثم هلك عثمان وكان ما قدمناه من شأن ولده وفتكهم بالسلطان المخلوع. وتقبض أخوه أبو الحجاج عليهم وأشخصهم إلى أفريقية وقوض مباني رياستهم. وعقد على الغزاة مكانهم ليحمى بن

عمر هذا، فاضطلع بها أحسن اضطلاع. واستمرت حاله وحضر مشاهد أبي الحجاج مع السلطان أبي الحسن، فظهرت كفايته وغناؤه. ولما هلك أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة، طعيناً بمصلى العيد، في آخر سجدة من صلاته، بيد عبد من عبيد أصطبله مصاب في عقله، أغري زعموا به، وقتل لحينه صبرا بالسيوف. وبوسع لابنه محمد، أخذ له البيعة على الناس يومئذ مولاه رضوان من معلوجيهم، حاجب أبيه وعمه. وقام بأمره واستبد عليه وحجره، فقاسم يحيى بن عمر ست عمر هذا في شأنه وشاركه في أمره وشد أزر سلطانه به، حتى إذا ثار بالحمراء الرئيس ابن عمهم محمد بن إسمعيل بن محمد بن الرئيس أبي سعيد قائماً بدعوة إسمعيل بن أبي الحجاج أخي السلطان محمد كان ساكناً بالحمراء. وتحينوا لذلك مغيب السلطان في متزهه بروضة خارج الحمراء، فخالفوه إليها وكبسوها ليلاً، فقتلوا الحاجب المستبد رضوان. وجلس السلطان على سرير ملكه ونادوا بالناس إلى بيعته. ولما أصبح غدا عليهم يحيى بن عمر بعد أن يئسوا منه وخشوا عاديته، فأتاهم بيعته وأعطاهم عليها صفقته وانصرف إلى منزله. وبعد أيام من استيلائهم استخلصوا إدريس بن عثمان بن أبي العلاء، كان وصل إليهم من دار الحرب بأرض برشلونة كم نذكر. وولوه إمارة الغزاة وائتمروا في التقبض على يحيى بن عمر. ونذر بذلك، فركب في حاشيته يؤم دار الحرب من أرض الجلالقة. واتبعه إدريس فيمن إليه من قومه، فقاتلهم صدر نهاره وفض جموعهم. ثم خلص إلى تخوم النصرانية ولحق منها بسدة ملك المغرب على أثر سلطانه محمد المخلوع بن أبي الحجاج، وخلف إبنه أبا سعيد عثمان بدار الحرب. ونزل يومئذ على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة، فأكرم مثواه وأحله من مجلسه محل الشورى والمؤامرة. واستقر في جملته، إلى أن بعث ملك قشتالة في السلطان المخلوع، بإشارة إبنه أبي سعيد وسعايته في ذلك، ليجلب به على أهل الأندلس بما نقضوا من عهده. وجهزه السلطان أبو سالم سنة ثلاث وستين وسبعمائة، فصحبه يحيى بن عمر هذا. ولقيهم ابنه أبو سعيد عثمان وقاموا بأمر سلطانهم واستولى على الأندلس بمظاهرتهم، وكان لهم في ذلك آثار. ولما استولى على غرناطة سنة ثلاث وستين وسبعمائة، عقد ليحيى بن عمر على إمارة الغزاة كما كان وأعلى يده. واستخلص عثمان لشوراه وخلطه ببطانته. ونافسه الوزير يومئذ محمد بن الخطيب، فسعى فيهم. وأغرى السلطان بهم، فتقبض عليهم سنة أربع وستين وسبعمائة وأودعهم المطبق. ثم أشخص يحيى سنة ست وستين وسبعمائة إلى المشرق وركب السفين من المرية، فنزل بالإسكندرية. ورجع منها إلى المغرب، ونزل على عمر بن عبد الله أيام استبت راده واستقر به في كرامة وخير مقامة. ولم يزل بالمغرب على أعز أحوال، إلى أن هلك سنة إثنتين وثمانين وسبعمائة. ثم أشخص ابنه أبا سعيد عثمان من الاعتقال سنة سبع وستين وسبعمائة إلى أفريقية فنزل ببجاية على مولانا السلطان أبي العباس حافد مولانا السلطان أبي يحيى واستقر في جملته. وحضر معهم فتح تونس وأبلى فيه. وأقطع له السلطان وأسنى له الجراية وخلطه بنفسه واصطفاه لشوراه وأخلته، وهو لهذا العهد من عظماء مجلسه وظهرائه في مقامات حروبه، وإخوته بالأندلس على مراكز عزهم وفي ظلال عصبيتهم مع قومهم، وقد ذهب مواجد السلطان بالأندلس عليهم وصار إلى جميل رأيه فيهم. والله مالك الملك ومقلب القلوب لا رب غيره.

الخبر عن ادريس بن عثمان بن أبي العلاء وإمارته بالأندلس ومصائر أمره:

لما هلك أبو ثابت بن عثمان بن أبي العلاء سنة خمسين وسبعمائة، استقر إخوته في جملة السلطان أبي عنان ملك المغرب وأقطعهم وأسنى جراياتهم، وكان في إدريس منهم بقية من الترشيح يراه الناس بها. فلما نهض السلطان لفتح قسنطينة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وتوغل في ديار أفريقية وحام قومه على مواقعها، تحيلوا عليه في الرجوع به عن قصده منها. وأذنت المشيخة لمن معهم من قومهم في الإنطلاق إلى المغرب، حتى خفي المعسكر من أهله وتآمروا، زعموا في اغتيال السلطان والإدالة منه

بإدريس هذا. ونذر بذلك، فكر راجعاً كما ذكرناه في أخباره. ولما أشيع ذلك بلغ إدريس شأنه، فركب ظهر الغدر وفر من المعسكر ليلاً. ولحق بتونس، فنزل على القائم بالدولة يومئذ الحاجب أبي محمد بن تافراكين خير نزل وأبره. وركب السفين من تونس إلى العدوة، فنزل على ابن القمط صاحب برشلونه في حشمه وذويه. وأقام هنالك، إلى إن كان من مهلك رضوان الحاجب المستبد بالأندلس سنة ستين وسبعمائة ما قدمناه، فنزع إلى منبت من غرناطة. ونزل على إسمعيل ابن السلطان أبي الحجاج والقائم بدولته يومئذ الرئيس محمد ابن عمه إسمعيل بن محمد والرئيس أبي سعيد، فلقوه مبرة وتكريماً. ورجوه بالإدالة به من يحيى بن عمر أمير الغزاة يومئذ، لما كانوا يتهمونه من ممالأة المخلوع صاحب الأمر عليهم. ولما نزع يحيى بن عمر إلى الطاغية ولحق بدار الحرب سنة إحدى وستين وسبعمائة، عقدوا لإدريس بن عثمان هذا على الغزاة مكانه. وولوه خطة أبيه وأخيه بدولتهم، فاضطلع بها. ومالأ الرئيس محمداً على قتل سلطانه إسمعيل ابن عمه أبي الحجاج واستبد بالأمر. ولسنتين من ولايته غلبهم المخلوع أبو عبد الله محمد على أمرهم. وزحف إليهم من رندة، كان نزل بها بعد خروجه من دار الحرب مغاضباً للطاغية. وأذن له وزير المغرب عمر بن عبد الله في نزلها فنزلها. ثم زحف إلى الثائر بغرناطة. على ملكهم الرئيس وحاشيته، فأجفلوا. ولحق الرئيس محمد بن إدريس هذا بقشتالة ونزلوا في جملتهم وحاشيتهم على الطاغية، فتقبض عليهم وقتل الرئيس محمداً وحاشيته، جزاءً بما أتوه من غدر رضوان. ثم غدر السلطان إسمعيل من بعده وأودع إدريس ومن معه من الغزاة السجن بإشبيلية، فلم يزل في أسره إلى أن تحيل في الفرار بمداخلة مسلم من الدجن، أعد له فرساً إزاء معتقله، ففك قيده. ونقب البيت وامتطى فرسه ولحق بأرض المسلمين سنة ست وستين وسبعمائة. واتبعوه فأعجزهم، وجاء إلى السلطان أبي عبد الله محمد بن أبي الحجاج، فأكرم نزله وأحسن مبرته. ثم طلب إذنه في اللحاق بالمغرب، فأذن له وأجاز إلى سبتة وبلغ شأنه إلى صاحب الأمر بالمغرب يومئذ عمر برت عبد الله، فأوى إلى عامل سبتة بالتقبض عليه لمكان ما يؤنس من ترشيحه. وأودعه الجن به كنهاسة، قم نقله السلطان عبد العزيز إلى سجن الغور بفاس، ثم قتلوه خنقاً سنة سبعين وسبعمائة

. والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن إمارة علي بن بدر الدين علي الغزاة بالاندلس ومصاير أمره:

قد ذكرنا أن موسى بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق، كان أجاز إلى الأندلس مع

محمد وعامر إبني إدريس بن عبد الحق وقومهم، أولاد سوط النساء، سنة تسع وستين وسبعمائة. ثم رجع إلى المغرب وفر إلى تلمسان وأجاز منها إلى الأندلس. وولي إمارة الغزاة بها إلى أن هلك، بعد أن أصهر إليه السلطان يوسف بن يعقوب في إبنته، فعقد له عليها وزفها إليه سنة تسع وسبعين وسبعمائة مع وفد من قومهم. وكان لموسى بن رحو من الولد جماعة: أكبرهم المحمدان جمال الدين وبدر الدين، وضع عليهما هذين اللقبين على طريقة أهل المشرق الشريف المكي، الوافد على المغرب لذلك العهد من شرفاء مكة. وكان هؤلاء الاعياص ملوكهم وأقيالهم يعظمون أهل البيت النبوقي ويلتمسون الدعاء والبركة منهم فيما تيسر من أحوالهم، فحمل موسى بن رحو ولدية هذين إلى الشريف عند وضعهما يحنكهما ويدعو لهما، فقال له الشريف: خذ إليك جمال الدين. وقال في الآخر خذ إليك بدر الدين، فاستحب موسى دعاءهما بهذين اللقبين تبركاً بتسمية الشريف بهما، فاشتهرا بهذين الإسمين. ولما بلغا الأشد وشاركا أباهما في حمل الرياسة وكان من مهلكه ما ذكرناه، وانحرفت الغزاة عنهما إلى عمهما عبد الحق وابنه: فلحق جمال الدين منهما بالطاغية سنة ثلاث ، ثم أجاز البحر من قرطاجنة إلى السلطان يوسف بن يعقوب من معسكره من حصار تلمسان واستقر في جملته، حتى إذا هلك السلطان وتصدى ابنه أبو سالم للقيام بالأمر وكان مغلباً مضعفاً فلم يتم أمره، وتناول الملك أبو ثابت حافد السلطان واستولى عليه. وفر أبو سالم عشي مهلكه ومعه من القرابة جمال الدين هذا وأعمامه العباس وعيسى وعلي بنو رحو بن عبد الله، فتقبض عليهم في طريقهم بمديونة وسيقوا إلى السلطان أبي ثابت، فقتل عمه أبا سالم وجمال الدين بن موسى بن رحو وامتن على الباقين واستحياهم. وانصرف العباس بعدها إلى الأندلس، فكانت له في الجهاد آثار كما ذكرناه قبل. وأما بدر الدين، فلم يزل بالأندلس مع قومه. ومحله من الرياسة والتجلة

محله من النسب، إلى أن هلك، فقام بالأمر من بعده ابنه علي بن بدر الدين مزاحماً في الرياسة مباهياً لهم بالترشيح. وكان كثيراً ما يعقد له ملوك بني الأحمر على الغزاة من زناتة المرابطين بالثغور فيما بعد عن الحضرة من قواعد الأندلس: مثل مالقة والمرية ووادي آش، سبيل المرشحين من أهل بيته، وكانت إمارة الغزاة بالأندلس مستأثرة بأمر السيف والحرب، مقاسمة للسلطان أكثر الجباية في الأعطية والأرزاق بما كانت الحاجة إليهم في مدافعة العدو ومقارعة ملك الأندلس، فكانوا يغضون لهم عن استطالتهم عليهم لمكان حاجتهم إلى دفاع العدوين، حتى إذا سكن ريح الطاغية، بما كان من شغله بفتنة أهل دينه منذ منتصف هذه المائة، وشغل بني مرين أيضاً بعد مهلك السلطان أبي الحسن وتناسوا عهد الغلب على أقتالهم وجيرانهم. وتنوسي عهد ذلك أجمع، فاعتزم صاحب الأندلس على محو هذه الخطة من دولته. وأغراه بذلك وزيره ابن الخطيب كما ذكرناه حرصاً على خلاء الجولة، فتقبض على يحيى بن عمر وعلى بنيه سنة أربع وستين وسبعمائة كما ذكرناه. وعقد على الغزاة المجاهدين لابنه ولي عهده الأمير يوسف. ومحا رسم الخطة ببني مرين بالجملة، إلى أن توهم فناء الحامية منهم بفناء بيوت العصبية الكبرى، فراجع رأيه في ذلك. وكان علي بن بدر الدين خالصة له وكان مقدماًصصص على الغزاة بوادي آش. ولما لحق السلطان به ناجياً ليلة مهلك رضوان، مانع دونه وظاهره على

أمره، حتى إذا ارتحل إلى المغرب إرتحل معه. ونزلوا جميعاً على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة كما ذكرناه. ولما رجع إلى الأندلس رجع في جملته، فكان له بذلك عهد وذمة رعاهما السلطان له وكان يستخلصه ويناجيه. فلما تفقد مكان الأمير على الغزاة ونظر فيمن يوليه، عثر اختياره على هذا لسابقته ووسائله وما بلاه من نصحه ووقوفه عند حذه، فعقد له سنة سبع وستين وسبعمائة على الغزاة كما كان أولوه، فقام بها واضطلع بأمورها. واستمرت حاله إلى لأن هلك سنة ثمان وستين وسبعمائة. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

الخبر عن إمارة عبد الرحمن بن علي أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي، علي الغزاة بالاندلس ومصاير أمره:

كان ولد السلطان أبي علي قد استوقروا بالأندلس وأجازوا إلى طلب الأمر بالمغرب.

وكان من أمرهم ما شرحناه، إلى أن أجاز عبد الرحمن هذا مع وزيره المطارد به مسعود بن رحو سنة ست وستين وسبعمائة، غساسة على سلم عقده لهم وزير المغرب المستبد بأمره يومئذ عمر بن عبد الله. ونزل عبد الرحمن هذا بالمنكب، وكان السلطان يومئذ معسكراً بها، فتلقاه من الإحتفاء والبر ما يناسبه. وأكرم مثواه وأسنى الجائزة له ولوزيره ولحاشيته. واستقروا في جملة الغزاة المجاهدين، حتى إذا هلك علي بن بدر الدين سنة ثمان وستين وسبعمائة، نظر السلطان فيمن يوليه أمرهم، فعثر اختياره على عبد الرحمن هذا، لما عرف به من البسالة والإقدام ولقرب الشرائح بينه وبين ملك المغرب يومئذ، التي هي ملاك الترشيح لهذه الخطة بالأندلس كما قدمناه، لما كانت رشائح أولاد عبد الله بن عبد الحق قد بعدت باتصال الملك في عمود نسب صاحب المغرب دون نسبهم، فآثره صاحب الأندلس بها وعقد له على الغزاة المجاهدين سنة ثمان وستين وسبعمائة وأضفى عليه لبوس الكرامة والتجلة وأقعده مجلس الوزارة كما كان للأمراء قبله. واتصل الخبر بسلطان المغرب يومئذ عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن، فغص بمكانه وتوهم أن هذه الإمارة زيادة في ترشيحه ووسيلة لملكه. وكانت لوزير الأندلس محمد بن الخطيب مداخلة مع صاحب المغرب، بما أمل أن يجعله فيئة لاعتصامه، فأوعز إليه بالتحيل على إفساد ما بينه وبين صاحب الأندلس، فجهد في ذلك جهده. ولبست عليه وعلى وزيره مسعود بن ماسي، كتب إلى عظماء القبيل وبعض البطانة من أهل الدولة، بالتحبيب والدعوة إلى الخروج على صاحب المغرب، فأحضرهم السلطان ابن الأحمر وأعطاهم كتابهم، فشهد عليهم وأمر بهم، فاعتقلوا بالمطبق سنة سبعين وسبعمائة. واسترضى صاحب المغرب بفعلته فيهم. رنزع الوزير ابن الخطيب بعد ذلك إلى السلطان عبد العزيز، وتبين لسلطانه مكره واحتياله عليهم في شأنهم. ولما هلك عبد العزيز وأظلم الجو بين صاحب الأندلس وبين

القائم بالدولة أبي بكر بن غازي كما قدمناه، وامتعض ابن الأحمر للمسلمين من الفوضى، أطلق عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره مسعود بن ماسي من الاعتقال وجهز لهما الأسطول، فأجازوا فيها إلى المغرب ونزل بمرسى غساسة على بطوية داعياً لنفسه، فقاموا بأمره وكان من شأنهم مع الوزير أبي بكر بن غازي ما قصصناه. واستقر آخر بمراكش وتقاسم ممالك المغرب وأعماله مع السلطان أبي العباس، أحمد بن أبي سالم،

صاحب المغرب لهذا العهد. وصار التخم بينهما وادي ملوية. ووقف كل واحد منهم عند حده. والله مالك الملك يولي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء. وأغفل صاحب الأندلس هذه الخطة من دولته ومحا رسمها من ملكه. وصار أمر الغزاة المجاهدين إليه ويباشر أحوالهم بنفسه وعمهم بنظره. وخص القرابة المرشحين منهم بمزيد تكرمته وعنايته. والأمر على ذلك لهذا العهد، وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة والحمد لله على كل حال.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيراً.

تم كتاب أخبار الدول الإسلامية بالمغرب لولي الدين أبي زيد،

عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي الإشبيلي المالكي.

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب

ورحلته غرباً وشرقاً

وأصل هذا البيت من إشبيلية ؛ انتقل سلفُنا -عند الجَلاء وُغَلَبِ ملك الجَلالقة ابن أُدْفُونْش عليها — إلى تُونس في أواسط المائة السابعة

نسبه :

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خَلدون ، لا أذكر من نسَبي إلِى خلدون غير هؤلاء العشرة، ويغلب على الظن أنهم أكثر، وأنه سقط مثلهم عدداً ؛ لأنَ خَلدون هذا هو الداخل إلى الأندلس ، فإن كان أول الفتح فالمدّة لهذا العَهد سبعُمائة سنة ، فيكونون زهُاءَ العشرين ، ثلاثة لكل مائة ، كما تقدم في أول الكتاب الأول . وَنَسَبُنا حَضْرَ مَوت ، من عَرب اليمن ، إلى وائل بن حُجْر، من أقيال العَرب ، معْروف وله صُحبة . قال أبُو محمد بن حزْم في كتاب الجمهرة: وهو وائل بن حُجْر بن سعيد بن مَسْروق بن وائل بن النُّعمان بن ربيعة بن الحَرث بن عَوف بن سعد بن عوف بن عَديَ بن مالك بن شُرحْبيل بن الحارث بن مالك بن مُرة بن حِمْيَرِ بن زيد بن الحضْرَميّ بن عمرو بن عبد اللّه بن

هانىء بن جُرسم بن عبد شمسى بن زيد بن لؤيّ بن ثبْت بن قُدامة بن أعجَب بن مالك بن لؤي بن قحطان .

وابنه علقَمة بن وائل وعبد الجبار بن وائل .

وذكره أبو عمر بن عبد البرّ في حرف الواو من "الاستيعاب"، وأنه وفد علىالنبي صلى الله عليه وسلم، فبسط له رداءه، وأجلسه عليه، وقال: "اللهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد ولده إلى يوم القيامة".

---

[1] هكذا ختم ابن خلدون كتابه بالتعريف بنفسه

وبعث معه جارية بن أبي سفيان إلى قومه يعلمهم القرآن والإسلام؛ فكانت له بذلك صحابة مع معاوية. ووفد عليه لأوّل خلافته فأجازه؛ فرّد عليه جائزته و لم يقبلها.

ولما كانت واقعة حجر بن عديّ الكندي بالكوفة، اجتمع رؤوس أهل اليمن، وفيهم هذا، فكانوا مع زياد بن أبي سفيان عليه، حتى أوثقوه وجاؤوا به إلى معاوية، فقتله كما هو معروف.

وقال ابن حزم: ويذكر بنو خلدون الإشبيليّون من ولده، جدهم الداخل من المشرق خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن هانئ بن الخطاب بن كريت بن معد يكرب بن الحرث بن وائل بن حجر. قال: وكان من عقبه كريب بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد، وكانا من أعظم ثوار الأندلس.

وقال ابن حزم: وأخوه محمد، كان من عقبه أبو العاصي عمرو بن محمد بن خالد بن محمد بن خلدون. وبنو أبي العاصي: محمد، وأحمد، وعبد الله. قال: - وأخوهم عثمان، وله عقب. ومنهم الحكيم المشهور بالأندلس من تلاميذ مسلمة المجريطي، وهو أبومسلم عمر بن محمد بن تقي بن عبد الله بن أبي بكر بن خالد بن عثمان بن خالد بن عثمان بن خلدون الداخل. وابن عمّه أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله. قال: و لم يبق من ولد كريب

الرئيس المذكور إلا أبو الفضل بن محمد بن خلف بن أحمد بن عبد الله بن كريت - انتهى كلام ابن حزم.

سلفه بالاندلس:

ولما دخل خلدون بن عثمان جدّنا إلى الأندلس، نزل بقرمونة في رهط من قومه حضرموت، ونشأ بيت بنيه بها، ثم انتقلوا إلى إشبيلية. وكانوا في جند اليمن، وكان الكريت من عقبه وأخيه خالد، الثورة المعروفة بإشبيلية أيام الأمير عبد الله المرواني؛ ثار على ابن أبي عبدة، وملكها من يده أعواماً، ثم ثار عليه إبراهيم بن حجاج، بإملاء الأمير عبد الله وقتله، وذلك في أواخر المائة الثالثة.

وتلخيص الخبر عن ثورته، على ما نقله ابن سعيد عن الحجازي وابن حيان وغيرهما، وينقلونه عن ابن الأشعث مؤرّخ إشبيلية: أنّ الأندلس لما اضطرمت بالفتن أيام الأمير عبد الله ، تطاول رؤساء إشبيلية إلى الثورة والإستبداد، وكان رؤساؤها المتطاولون إلى ذلك في ثلاثة بيوت: بيت بني أبي عبدة، ورئيسهم يومئذ أمية بن عبد الغافر بن أبي عبدة، وكان عبد الرحمن الداخل ولى أبا عبده إشبيلية وأعمالها، وكان حافده أمية من أعلام الدولة بقرطبة، ويولونه الممالك الضخمة. وبيت بني خلدون هؤلاء، ورئيسهم كريب المذكور، ويردفه أخوه خالد.

قال ابن حيّان: وبيت بني خلدون إلى الآن في إشبيلية نهاية في النباهة، و لم تزل أعلامه بين رياسة سلطانّية ورياسة علمية. ثم بيت بني حجّاج، ورئيسهم يومئذ عبد الله. قال ابن حيّان: هم - يعني بني حجاج - من لَخْم، وبيتهم إلى الآن في إشبيلية ثابت الأصل، نابت الفرع موسوم بالرياسة السلطانية والعلمية. فلمّا عظمت الفتنة بالأندلس أعوام الثمانين ومائتين، وكان الأمير عبد الله قد ولّى على إشبيلية أمية بن عبد الغافر، وبعث معه ابنه محمداً، وجعله في كفالته، فاجتمع هؤلاء النفر، وثاروا بمحمد ابن الأمير

عبد الله وبأمّية صاحبهم، وهو يمالئهم على ذلك، ويكيد بابن الأمير عبد الله. وحاصروه في القصر، حتى طلب منهم اللحاق بأبيه فأخرجوه، واستبدّ أمية بإشبيلية، ودسّ على عبد الله بن حجّاج من قتله، وأقام أخاه إبراهيم مكانه. وضبط إشبيلية، واسترهن أولاد بني خلدون وبني حجاج، ثم ثاروا به، وهمّ بقتل أبنائهم؛ فراجعوا طاعته، وحلفوا له، فأطلق أبناءهم فانتقضوا ثانية. وحاربوه فاستمات وقَتَل حُرَمَهَ، وعقر خيوله، وأحرق موجوده. وقاتلهم حتى قتلوه مقبلاً غير مدبر، وعاثت العامة في رأسه. وكتبوا إلى الأمير عبد الله بأنه خَلَع فقتلوه، فقبل منهم مداراة، وبعث عليهم هشام بن عبد الرحمن من قرابته، فاستبدّوا عليه، وفتكوا بابنه، وتولّى كبر ذلك كريب بن خلدون، واستقل بإمارتها.

وكان إبراهيم بن حجّاج بعدما قتل أخوه عبد الله- على ما ذكره ابن سعيد عن الحجاري- سمت نفسه إلى التفرّد، فظاهر ابن حفصون أعظم ثوّار الأندلس يومئذ، وكان بمالقة وأعمالها إلى رُنْدَة، فكان له منه ردءَ. ثم انصرف إلى مداراة كُرَيب بن خَلدون وملابسته، فردفه في أمره، وأشركه في سلطانه، وكان في كريت تحامل على الرعيّة وتعصّب، فكان يتجهّم لهم، ويغلظ عليهم، وابن حجّاج يسلك بهم الرفق والتلطف في الشفاعة لهم عنده، فانحرفوا عن كريب إلى ابراهيم. ثم دسّ إلى الأمير عبد الله يطلب منه الكتاب بولاية إشبيلية، لتسكن إليه العامّة، فكتب إليه العهد بذلك. وأطلع عليه عرفاء البلد مع ما أشربوا من حبّه، والنفرة عن كُرَيب، ثم أجمع الثورة، وهاجت العامّة بكُرَيْب فقتلوه، وبعث برأسه إلى الأمير عبد الله، واستقرّ بإمارة إشبيلية.

قال ابن حيّان: وحصّن مدينة قَرْمُوَنة من أعظم معاقل الأندلس، وجعلها مرتبطاً لخيله، وكان ينتقل بينها وبين إشبيلية. واتخذ الجند ورتّبهم طبقات، وكان يصانع الأمير عبد الله بالأموال والهدايا، ويبعث إليه المدد في الصوائف. وكان مقصوداً

ممدحاً، قصده أهل البيوتات فوصلهم، ومدحه الشعراء فأجازهم، وانتجعه أبو عمر بن عبد ربّه صاحب العقد، وقصده من بين سائر الثوّار، فعرف حقه، وأعظم جائزته. ولم يزل بيت بني خلدون بإشبيلية- كما ذكره ابن حيّان وابن حزم وغيرهما- سائر أيام بني أمية إلى زمان الطوائف، وانمحت عنهم الإمارة بما ذهب لهم من الشوكة.

ولما غلب كعب ابن عبّاد بإشبيلية، واستبدّ على أهلها، استوزر من بني خلدون هؤلاء، واستعملهم في رتب دولته، وحضروا معه وقعة الجلالقة كانت لابن عبّاد وليوسف بن تاشفين على ملك الجلالقة، فاستشهد فيها طائفة كبيرة من بني خلدون هؤلاء ثبتوا في الجولة مع ابن عبّاد فاستلحمّوا في ذلك الموقف. بما كان الظهور للمسلمين، ونصرهم الله على عدّوهم. ثم تغلّب يوسف بن تاشفين والمرابطون على الأندلس، واضمحلّت دولة العرب وفنيت قبائلهم.

سلفه بأفريقية:

ولما استولى الموحدون على الأندلس، وملكوها من يد المرابطين، وكان ملوكهم: عبد المؤمن وبنيه. وكان الشيخ أبو حفص كبير هنتاتة زعيم دولتهم، وولّوه على إشبيلية وغرب الأندلس مراراً، ثم ولّوا ابنه عبد

الواحد عليها في بعض أيامهم، ثم ابنه أبا زكرياء كذلك، فكان لسلفنا بإشبيلية اتصال بهم، وأهدى بعض أجدادنا من قبل الأمّهات، ويعرف بابن المحتسب، للأمير أبي زكريا

يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص أيام ولايته عليهم، جاريّة من سبي الجلالقة، اتخذها أم ولد، وكان له منها ابنه أبو يحيى زكريا وليّ عهده الهالك في أيامه، وأخواه: عمر وأبو بكر، وكانت تلقّب أمّ الخلفاء. ثم انتقل الأمير أبو زكريا إلى ولاية أفريقية سنة عشرين وستمائة. ودعا لنفسه بها، وخلع دعوة بني عبد المؤمن سنة خمس وعشرين وستمائة. واستبدّ بأفريقية، وانتقضت دولة الموحدين بالأندلس، وثار عليهم ابن هود. ثم هلك واضطربت الأندلس،وتكالب الطاغية عليها، وتردّد الغزو إلى الفرنتيرة، بسيط قرطبة وإشبيلية إلى جيّان، وثار ابن الأحمر من غرب الأندلس من حصن أرجُونَة، يرجو التماسك لما بقي من رمق الأندلس. وفاوض أهل الشورى يومئذ بإشبيلية. وهم بنو الباجي، وبنو الجدّ، وبنو الوزير، وبنو سيّد الناس، وبنو خلدون. وداخلهم في الثورة على ابن هود، وأن يتجافوا للطاغية عن الفرنتيرة، ويتمسّكوا بالجبال الساحلية وأمصارها المتوعّرة، من مالقة إلى غرناطة إلى المريّة؛ فلم يوافقوه على بلادهم. وكان مقدّمهم أبو مروان الباجي، فنابذهم ابن الأحمر وخلع طاعة الباجي، وبايع

مرّة لابن هُود، ومّرة لصاحب مراكش من بني عبد المؤمن، ومرة للأمير أبي زكرياء صاحب أفريقية. ونزل غرناطة، واتخذها دار ملكه، وبقيت الفرنتيرة وأمصارها ضاحية من ظل المُلْك؛ فخشي بنو خَلدون سوء العاقبه مع الطاغية، وارتحلوا من إشبيلية إلى العدوة، ونزلوا سبتة وأجلب الطاغية على تلك الثغور؛ فملك قرطبة، وإشبيلية، وقرمونة وجيّان وما إليها، في مدّة عشرين سنة. ولما نزل بنو خَلدون بسبتة أصهر إليهم العزِفيّ بأبنائه وبناته، فاختلط بهم، وكان له معهم صِهْرٌ مذكور. وكان جدّنا الحسن بن محمد، وهو سبط ابن المحتسب، قد أجاز فيمن أجاز إليهم؛ فذكر سوابق سلفه عند الأمير أبي زكريا؛ فقصده، وقدم عليه فأكرم قدومه. وارتحل إلى المشرق؛ فقضى فرضه. ثم رجع ولحق بالأمير أبي زكريا على بونة، فأكرمه، واستقرّ في ظل دولته، ومرعى نعمته، وفرض له الأرزاق، وأُقْطع الإقطاع. وهلك هنالك؛ فدفن ببونة. وخلف ابنه محمدا أبا بكر فنشأ في جو تلك النعمة ومرعاها. وهلك الأمير أبو زكرياء ببونة سنة سبع وأربعين وستمائة، وولي ابنه المستنصر

محمد؛ فأجرى جدّنا أبا بكر على ما كان لأبيه. ثم ضرب الدهر ضربانه، وهلك المستنصر سنة خمس وسبعين وسبعمائة، وولي ابنه يحيى، وجاء أخوه الأمير أبو إسحق من الأندلس، بعد أن كان فرّ إليها أمام أخيه

المستنصر. فخلع يحيى، واستقلّ هو بملك أفريقية، ودفع جدّنا أبا بكر محمداً إلى عمل الأشغال في الدولة، على سنن عظماء الموحدين فيها قبله، من الإنفراد بولاية العمّال، وعزلهم وحسبانهم، على الجباية، فاضطلع بتلك الرتبة. ثم عقد السلطان أبو اسحق لابنه محمد، وهو جدّنا الأقرب، على حجابة وليّ عهد، ابنه أبي فارس أيام اقضاه إلى بجاية. ثم استعفى جدّنا من ذلك فأعفاه، ورجع إلى الحضرة. ولما غلب الدعي ابن أبي عمارة عل ملكهم بتونس، اعتقل جدّنا أبا بكر محمداً، وصادره على الأموال، ثم قتله خنقاً في محبسه. وذهب ابنه محمد جدّنا الأقرب مع السلطان أبي اسحق وأبنائه إلى بجاية؛ فتقبّض عليه ابنه أبو فارس، وخرج مع العساكر هو

وإخوته لمدافعة الدعي ابن أبي عمارة، وهو يشبه بالفضل ابن المخلوع، حتى إذا استلحمّوا بمرما جنّة خلص جدّنا محمد مع أبي حفص- ابن الأمير أبي زكريا من الملحمة، ومعهما الفازازي وأبو الحسين بن سيّد النأس؛ فلحقوا بمنجاتهم كن قلعة سنان. وكان الفازازي من صنائع المولى أبي حفص، وكان يؤثره عليهم. فأما أبل الحسين بن سيّد الناس فاستنكف من إيثار الفازازي عليه، بما كان أعلى رتبة منه ببلده إشبيلية، ولحق بالمولى أبي زكرياء الأوسط بتلمسان، وكان من شأنه ما ذكرناه. وأما محمد بن خلدون فأقام مع الأمير أبي حفص، وسكن لإيثار الفازازي. ولما استولى أبو حفص على الأمور رعى له سابقته، وأقطعه، ونظمه في جملة القواد ومراتب أهل الحروب، واستكفى به في الكثير من أمر ملكه، ورشحه لحجابته من بعد الفازازي. وهلك، فكان من بعده حافد أخيه المستنصر أبو عصيدة، واصطفى لحجابته محمد بن ابراهيم الدبّاغ كاتب الفازازي، وجعل محمد بن خلدون رديفاً في حجابته. فكان كذلك إلى أن هلك السلطان، وجاءت دولة الأمير خالد، فأبقاه على حاله من التجلّة والكرامة، ولم

يستعمله ولا عقد له، إلى أن كانت دولة أبي يحيى بن اللحياني، فاصطنعه، واستكفى به عندما تنبّضت عروق التغلّب للعرب؛ ودفعه إلى حماية الجزيرة من دلاج، إحدى بطون سُلَيْم الموطنين بنواحيها؛ فكانت له في ذلك آثار مذكورة. ولما انقرضت دولة ابن اللحياني خرج إلى المشرق، وقضى فرضه سنة ثمان عشرة، وأظهر التوبة والإقلاع، وعاود الحج متنقلا سنة ثلاث وعشرين، ولزم كسر بيته. وأبقى السلطان أبو يحيى عليه نعمته في كثير مما كان بيده من الاقطاع والجراية، ودعاه إلى حجابته مراراً، فامتنع.

أخبرني محمد بن منصور بن مزنى، قال: لما هلك الحاجب محمد بن عبد العزيز الكردي المعروف بالمزوار سنة سبع وعشرين وسبعمائة، استدعى السلطان جدّك محمد بن خلدون، وأراده على الحجابة، وأن يفوض إليه في أمره، فأبى واستعفى، فأعفاه، وآمره فيمن يوليه حجابته، فأثار عليه بصاحب الثغر بجاية، محمد بن أبي الحسين بن سيدّ الناس، لاستحقاقة ذلك بكفايته واضطلاعه، ولقديم صحابة بين سلفهما بتونس، وإشبيلية من قبل. وقال له: هو أقدر على ذلك بما هو عليه من الحاشية والدين، فعمل السلطان على إشارته، واستدعى ابن سيّد الناس، وولاّه حجابته. وكان السلطان أبو يحى إذا خرج من تونس يستعمل جدّنا محمداً عليها، وثوقاً بنظره واستنامة إليه، إلى أن هلك سنة سبع وثلاثين، ونزع ابنه، وهو والدي محمد أبو بكر، عن طريقة السيف والخدمة، إلى طريقة العلم والرباط، لما نشأ عليها في حجر أبي عبد الله الزبيدي الشهير بالفقيه، كان كبير تونس لعهده، في العلم والفتيا، وانتحال طرق الولاية التي ورثها عن أبيه حسين وعمّه حسن، الوليّين الشهيرين. وكان جدّنا رحمه الله قد لازمه من يوم نزوعه عن طريقه، وألزمه ابنه، وهو والدي رحمه الله فقرأ وتفقّه، وكان مقدّما في صناعة العربية، وله بصر بالشعر وفنونه. عهدي بأهل البلد بتحاكمون إليه فيه، ويعرضون حَوْكَهُم عليه، وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وإربعين وسبعمائة.

نشأته ومشيخته وحاله:

أمّا نشأتي فإني ولدت بتونس في غرّة رمضان سنة إثنتين وثلاثين وسبعمائة، وربّيت

في حجر والدي رحمه الله إلى أن أيفعتُ وقرأتُ القرآن العظيم على الاستاذ المكتب أبي عبد الله محمد بن سعد بن برال الأنصاري، أصله من جالية الأندلس من أعمال بلنسية، أخذ عن مشيخة بلنسية وأعمالها، وكان إماما في القراءآت، لا يلحق شأوه، وكان من أشهر شيوخه ففي القراءآت السبع أبو العباس أحمد بن محمد البطرني، ومشيخته فيها، وأسانيده معروفة. وبعد أن استظهرت القرآن الكريم من حفظي، قرأته عليه بالقراءات السبع المشهورة إفراداً وجمعاً في إحدى وعشرين ختمة، ثم جمعتها في ختمة واحدة أخرى، ثم قرأت برواية يعقوب ختمة واحدة جمعاً بين الروايتين عنه؛ وعرضت عليه رحمه الله قصيدتي الشاطبي؛ اللامية في القراءآت، والرائية في الرسم، وأخبرني بهما عن الأستاذ أبي العباس البطوي وغيره من شيوخه، وعرضت عليه كتاب التفسير لأحاديث الموطأ لابن عبد البرّ، حذا به حذو كتابه التمهيد على الموطأ، مقتصراً على الأحاديث فقط.

ودرست عليه كتباً جمّة، مثل كتاب التسهيل لابن مالك ومختصر ابن الجاجب في الفقه، ولم أكملهما بالحفظ، وفي خلال ذلك تعلمت صناعة العربية على والدي

وعلى أستاذي تونس: منهم الشيخ أبو عبد الله بن العربي الحصايري، وكان إماماً في النحو وله شرح مستوفى على كتاب التسهيل. ومنهم أبو عبد الله محمد بن الشواش الزرزالي. ومنهم أبو العباس أحمد بن القصّار؛ كان ممتعاً في صناعة النحو، وله شرح على قصيدة البردة المشهورة في مدح الجناب النبوي وهو حيّ لهذا العهد بتونس.

ومنهم إمام العربية والأدب بتونس أبو عبد الله محمد بن بحر؛ لازمت مجلسه وأفدت عليه، وكان بحراً زاخراً في علوم اللسان. وأشار عليّ بحفظ الشعر؛ فحفظت كتاب الأشعار الستة، والحماسة للأعلم، وشعر حبيب، وطائفة من شعر المتنبي، ومن أشعار كتاب الأغاني. ولازمت أيضاً مجلس إمام المحدّثين بتونس؛ شمس الدين أبي عبد الله بن جابر بن سلطان القيسيّ الوادياشي، صاحب الرحلتين؛ وسمعت عليه كتاب مسلم بن الحجّاج، إلاّ فوتا يسيراً من كتاب الصَّيد؛ وسمعت عليه كتاب الموطأ من أوّله إلى آخره، وبعضاً من الأمّهات الخمس؛ وناولني كتباً كثيرة في العربية والفقة، وأجازني إجازة عامّة، وأخبرني عن مشايخه المذكورين أشهرهم بتونس قاضي الجماعة أبو العبّاس أحمد بن الغمّاز الخزرجي.

وأخذت الفقه بتونس عن جماعة؛ منهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحيّاني، وأبو القاسم محمد القصير، قرأت عليه كتاب التهذيب لأبي سعيدد البرادعي، مختصر المدوّنة، وكتاب المالكيّة، وتفقهت عليه. وكنت في خلال ذلك أنتاب مجلس شيخنا الإمام، قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام، مع أخي عمر رحمة الله عليهما. وأفدت منه، وسمعت عليه أثناء ذلك كتاب الموطأ للإمام مالك، وكانت له فيه طرق عالية، عن أبي محمد بن هارون الطائي قبل اختلاطه إلى غير هؤلاء من مشيخة تونس، وكلّهم سمعت عليه ، وكتب لي وأجازني، ثم درجوا كلهم في الطاعون الجارف.

وكان قدم علينا في جملة السلطان أبي الحسن، عندما ملك أفريقية سنة ثمان وأربعين، جماعة من أهل العلم، وكان يلزمهم شهود مجلسه ويتجمّل بمكانهم فيه: فمنهم شيخ الفُتيا بالمغرب، وإمام مذهب ممالك، أبو عبد الله

محمد بن سليمان السطّي؛ فكنت انتاب مجلسه، وأفدت عليه. ومنهم كاتب السلطان أبي الحسن، وصاحب علامته التي توضع أسافل مكتوباته، إمام المحدثين والنحاة بالمغرب، أبو محمد بن عبد المهيمن الحضرمي؛ لازمته، وأخذت عنه، سماعاً، وإجازة، الأمهات الست، وكتاب الموطأ، والسير لابن اسحق، وكتاب ابن الصلاح في الحديث، وكتباً كثيرة شذت عن حفظي. وكانت بضاعته في الحديث وافرة، ونحلته في التقييد والحفظ كاملة؛ كانت له خزانة من الكتب تزيد على ثلاثة آلاف سفر في الحديث والفقه، والعربية، والأدب، والمعقول، وسائر الفنون؛ مضبوطة كلها، مقابلة. ولا يخلو ديوان منها عن ثبت بخط بعض شيوخه المعروفين في سنده إلى مؤلفه، حتى الفقه، والعربية، الغريبة الإسناد إلى مؤلفيها في هذه العصور. ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد الزواوي، إمام المقرئين بالمغرب. قرأت عليه القرآن العظيم، بالجمع الكبير بين القراءات السبع، من طريق أبي عمرو الداني، وابن شريح، في ختمة لم أكملها، وسمعت عليه عدة كتب، وأجازني بالإجازة العامة.

ومنهم شيخ العلوم العقلية، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي. أصله من تلمسان، وبها نشأ، وقرأ كتب التعاليم، وحذق فيها. وأظله الحصار الكبير بتلمسان أعوام المائة السابعة؛ فخرج منها، وحج. ولقي أعلام المشرق يومئذ؛ فلم يأخذ عنهم، لأنه كان مختلطا بعارض عرض في عقله. ثم رجع من المشرق، وأفاق، وقرأ المنطق والأصلين، على الشيخ أبي موسى عيسى ابن الإمام، وكان قرأ بتونس، مع أخيه أبي زيد عبد الرحمن، على تلاميذ ابن زيتون الشهير الذكر؛ وجاء إلى تلمسان بعلم كثير من المعقول والمنقول، فقرأ الآبلي على أبي موسى منهما كما قلناه. ثم خرج من تلمسان هاربا إلى المغرب، لأن سلطانها يومئذ، أبو حمّو من ولد يغمراسن بن زيان، كان يكرهه على التصرف في أعماله، وضبط الجباية بحسبانه، ففر إلى المغرب، ولحق بمراكش، ولزم العالم الشهير أبا العباس بن البناء الشهير الذكر، فحصل عنه سائر العلوم العقلية، وورث مقامه فيها وأرفع، ثم صعد إلى جبال الهساكرة، بعد وفاة الشيخ، باستدعاء علي بن محمد بن تروميت، ليقرأ عليه، فأفاده. وبعد أعوام استنزله ملك المغرب، السلطان أبو سعيد، وأسكنه بالبلد الجديد، والآبلي معه.

ثم اختصه السلطان أبو الحسن، ونظمه في جملة العلماء بمجلسه، وهو في خلال ذلك يعلم العلوم العقلية، ويبثها بين أهل المغرب، حتى حذق فيها الكثير منهم من سائر أمصارها، وألحق الأصاغر بالأكابر في تعليمه. ولما قدم على تونس في جملة السلطان أبي الحسن، لزمته، وأخذت عنه الأصلين، والمنطق، وسائر الفنون الحكمية، والتعليمية؛ وكان رحمه الله، يشهد لي بالتبريز في ذلك.

وممن قدم في جملة السلطان أبي الحسن: صاحبنا أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي. كان يكتب عن السلطان، وبلازم خدمة أبي محمد عبد المهيمن رئيس الكتاب يومئذ، وصاحب العلامة التي توضع عن السلطان أسفل المراسيم والمخاطبات، وبعضها يضعه السلطان بخطه. وكان ابن رضوان هذا من مفاخر المغرب، في براعة خطه، وكثرة علمه، وحسن سمته، وإجادته في فقه الوثائق، والبلاغة في الترسيل عن السلطان، وحوك الشعْر، والخطابة على المنابر، لأنه كان كثيرا ما يصلي بالسلطان. فلما قدم علينا بتونس، صحبته، واغتبطت به، وإن لم أتخذه شيخا، لمقاربة السن، فقد أفدت منه كما أفدت منهم. وقد مدحه صاحبنا

أبو القاسم الرحوي شاعر تونس في قصيدة علي روي النون، يرغب منه تذكرة شيخه أبي محمد عبد المهيمن في إيصال مدحه إلى السلطان أبي الحسن، في قصيدته على روي الباء، وقد تقدم ذكرها في أخبار السلطان.

وذكر في مدح ابن رضوان أعلام العلماء القادمين مع السلطان وهي هذه:

عرفت زماني حين أنكرت عرفاني وأيقنت أن لا حظ في كف كيوان

وأن لا اختيار في اختيار مقوم وأن لا قراع بالقران لأقران

وأن نظام الشكل أكمل نظمه لأضعاف قاض في الدليل برجحان

وأنّ افتقار المرء في فقراته ومن ثقله يغني اللبيب بأوزان

فمن بعدما شمت الخلاب و لم أرع لهشة راض أو لشرة غضبان

و لم يعشني للنار لمع شعاعها فما كل نار نار موسى بن عمران

و لم يبق لي في الغيب من أمل سوى لقاء ابن رضوان وجنة رضوان

هنالك ألفيت العلا تنتمي إلى أناس ضئيل عندهم فخر غسان

وأرعيت من روض التأدب يانعا وحييت من كتر العلوم بقعيان

وردت فلم تجدب لديه ريادتي وصدق طرفي ما تلقته آذاني

فحسبك من آدابه كل زاخر يحييك معسولا بدر ومرجان

يحييك بالسلك الذي لم تحط به طروس ابن سهل أو سوالف بوران

فقل بابلي إن ينافثك لفظة وفي وشيه الأطراس قل هو صنعاني

خلائق لم تخلق سدى بل تكملت بإسداء إنعام وإبلاء إحسان

ثم يقول في ذكر العلماء القادمين:

هم القوم كل القوم، أما حُلومُهم فأرسخ من طودي ثبير وثهلان

فلا طيش يعروهم وأما علومهم فأعلامها تمديك من غير نيران

بفقه يشيم الأصبحي صباحه وأشهب منه يستدل بشهبان

وحسن جدال للخصوم ومنطق يجيئان في الأخفى بأوضح برهان

سقت روضة الآداب منهم سحائب سحبن على سحبان أذيال نسيان

فلم يبق نأي ابن الإمام شماخة على مدن الدنيا لأنف تلمسان

وبعد نوى السطي لم تسط فأسه بفخر على بغدان في عصر بغدان

وبالآبلي استسقت الأرض وبلها ومستوبل ما مال عنه لأظعان

وهامت على عبد المهيمن تونس وقد ظفرت منه بوصل وقربان

وما علقت مني الضمائر غيره وإن هويت كلا بحب ابن رضوان

وكتب هذا الشاعر: صاحبنا الرحوي يذكر عبد المهيمن بذلك:

لهي النفس في اكتساب وسعي وهو العمر في انتهاب وفي
وأرى الناس بين ساع لرشد يتوخى الهدى وساع لغي
وأرى العلم للبرية زينا فتزي منه بأحسن زي
وأرى الفضل قد تجمع كلا في ابن عبد المهيمن الحضرمي
حل بالرتبة العلية في حضرة ملك سامي العماد علي
قلم أوسع الأقاليم أمرا فله قد أطاع كل عصي
قدر ما يفيد منه احتذار فبأي تراه يقضي بأي
يمنح العز والعلا ويوالي بالعطايا الجسام كل ولي
يلجأ الدارعون خوفا إليه هو يزري بالصارم المشرفي
هو أعلى الأقلام في كل عصر ث ينمى إلى الإمام علي
حليت تلكم الرياسة منه بفريد في كل معنى سني
سالك ففي النظام درا وطورا ناثر دره بنشر وطي
بدع للبديع ترمي بحصر ولصابي بني بويه بعي
ويرى أخرس العراق لديه إنه بالشام كالأعجمي
وعلوم هي البحور ولكن ينثني الواردون منها بري
تصدر الأمة العظيمة عنه بحديث مجود مروي
وبفقه فيه وحسن مقال يضع النور في لحاظ العمي
وبنحو ينحي على سيبويه ببيان في المبهمات جلي
عمي الأخفشان عنه وسدت عن خفاياه فطنة الفارسي
يا أخا الحكم في الأنام وإني لأنادي رب الندى والندي
بنت فكري تعرضت لحماكم فألقها راضيا بوجه رضي
تبتغي القرب من مراقي الأماني والترقي للجانب العلوي
فأنلها مرامها نلت سهلا كل دان تبغي وكل قصي

ثم كانت واقعة العرب على السلطان بالقيروان، فاتح تسع وأربعين وسبعمائة، فشغلوا عن ذلك، ولم يظفر هذا الرحوي بطلبته. ثم جاء الطاعون الجارف، فطوى البساط بما فيه، وهلك عبد المهيمن فيمن هلك، ودفن بمقبرة سلفنا بتونس، لخلّة كانت بينه وبين والدي، رحمه الله، أيام قدومهم علينا.

فلما كانت واقعة القيروان، ثار أهل تونس بمن كان عندهم من أشياع السلطان أبي الحسن، فاعتصموا بالقصبة دار الملك، حيث كان ولد السلطان وأهله، وانتقض عليه ابن تافراكين، وخرج من القيروان إلى العرب، وهم يحاصرون السلطان، وقد

اجتمعوا على ابن أبي دبّوس، وبايعوا له كما مرّ في أخبار السلطان، فبعثوا ابن تافراكين إلى تونس، فحاصر القصبة، وامتنعت عليه. وكان عبد المهيمن يوم ثورة أهل تونس، ووقوع الهيعة، خرج من بيته إلى دارنا، فاختفى عند أبي رحمه الله، وأقام مختفياً عندنا نحواً من ثلاثة أشهر. ثم نجا السلطان من القيروان إلى سوسة، وركب البحر إلى تونس، وفرّ ابن تافراكين إلى المشرق. وخرج عبد المهيمن من الاختفاء، وأعاده السلطان إلى ما كان عليه، من وظيفة الولاية والكتابة، وكان كثيراً ما يخاطب والدي رحمه الله ويشكره على موالاته، ومما كتب إليه وحفظته من خطّه:

محمد ذوي المكارم قد ثناني فعال شكرُهُ أبداً عناني

جزى الله ابن خلدونٍ حياةً مُنَعَّمةً وخُلداً في الجنان

فكم أولى ووالى من جميل وبر بالفعال وباللسان

وراعى الحضرمية في الذي قد حبا من ورده ومن الجنان

أبا بكر ثناؤُك طول دهرى أردّد باللسان وبالجنان

وعن علياك ما امتدت حياتي أكافح بالحسام وباللسان

فمنك أفدت خلا لست دهري أرى عن حبه أثني عنان

وهؤلاء الأعلام الذين ذكرهم الرحوي في شعره، هم سُباق الحلبة في مجلس السلطان أبي الحسن، اصطفاهم لصحابته من بين أهل المغرب. فأمّا ابنا الإمام منهم فكانا أخوين من أهل برشك، من أعمال تلمسان، واسم أكبرهما: أبو زيد عبد الرحمن، واسم الأصغر: أبو موسى عيسى، وكان أبوهما إماماً ببعض مساجد برشك، واتهمه المتغلّب يومئذ على البلد زيرم بن حمّاد، بأنّ عنده وديعة من المال لبعض أعدائه، فطالبه بها، ولاذ بالامتناع، وبيتّه زيرم، لينتزع المال من يده، فدافعه وقتل وارتحل ابناه هذان الأخوان إلى تونس في آخر المائة السابعة، وأخذا العلم بها عن تلاميذ ابن زيتون، وتفقّها على أصحاب أبي عبد الله بن شعيب الدُّكّالي، وانقلبا إلى المغرب بحظّ وافر من العلم. وأقاما بالجزائر يبثّان بها العلم، لامتناع برشك عليهما من أجل أضرر، زيرم المتغلب عليها، والسلطان أبو يعقوب يومئذ، صاحب المغرب الأقصى من بني مرين، جاثم على تلمسان يحاصرها الحصار الطويل المشهور، وقد بث جيوشه في نواحيها، وغلب على الكثير من أعمالها وأمصارها، وملك عمر مغراوة بشلف، وحصر مليانة، فبعث إليها الحسن بن علي بن أبي الطلاق من بني عسكر، وعليّ بن محمد ابن الخيّرمن بني ورتاجن، ومعهما لضبط الجباية واستخلاص الأموال الكاتب منديل بن محمد الكناني، فارتحل هذان الاخوان يومئذ من الجزائر، واحتلا بمليانة، فحليا بعين منديل الكناني، فقرّبهما واصطفاهما، واتخذهما لتعليم ولده محمد. ثم هلك يوسف بن يعقوب سلطان المغرب، بمكانه من حصار

تلمسان، سنة خمس وسبعمائة على يد خصيّ من خصيانه؛ طعنه فأشواه، وهلك. وأقام بالملك بعده حافده أبو ثابت بعد أمور ذكرناها في أخبارهم، ووقع بينه وبين صاحب تلمسان من بعده يومئذ أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن، وأخيه ابي حمّو، العهد المتأكد على الإفراج عن تلمسان، وردّ أعمالها عليه، فوفّى لهم بذلك، وعاد إلى المغرب. وارتحل ابن أبي الطلاق من شلف والخبري، والكناني من مليانة راجعين إلى المغرب. ومرّوا بتلمسان، ومع الكناني هذان الاخوان، فأوصى لهما أبو حمّو، وأثنى عليهما. حلّه بمقامهما في العلم؛ واغتبط بهما أبو حمّو، واختط لهما المدرسة المعروفة بهما بتلمسان. وأقاما عنده

على هدي أهل العلم وسننهم. وهلك أبو حمّو؛ فكانا كذلك مع ابنه أبي تاشفين إلى أن زحف السلطان أبو الحسن المريني إلى تلمسان، وملكها عنوة، سنة سبع وثلاثين وسبعمائة. وكانت لهما شهرة في أقطار المغرب، أسست لهما في نفس السلطان عقيدة صالحة؛ فاستدعاهما لحين دخوله، وأدنى مجلسهما، وشاد بمكرمتهما، ورفع جاههما على أهل طبقتهما. وصار يجمّل بهما مجلسه متى مرّ بتلمسان، ووفدا عليه في الأولى التي نفر فيها أعيان بلادهما. ثم استنفرهما

إلى الغزو، وحضرا معه واقعة طريف، وعادا إلى بلدهما. وتوفي أبو زيد منهما إثر ذلك، وبقي أخوه أبو موسى متبوّئاً ما شاء من ظلال تلك الكرامة. ولما سار السلطان أبو الحسن إلى أفريقية سنة ثمان وأربعين، كما مرّ في أخباره استصحب أبا موسى ابن الإمام معه مكرّماً موقّراً، عالي المحل، قريب المجلس منه. فلما استولى على أفريقية، سرّحه إلى بلده، فأقام بها يسيرآ، وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة. وبقي أعقابهما بتلمسان دارجين في مسالك تلك الكرامة، وموقرين فيها طبقاً عن طبق إلى هذا العهد.

وأمّا السطّي، واسمه محمد بن علي بن سليمان، من قبيلة سطّة، من بطون أوربة بنواحي فاس. فنزل أبوه سليمان مدينة فاس، ونشأ محمد بها وأخذ العلم عن الشيخ أبي الحسن الصغير إمام المالكيّة بالمغرب، والطائر الذكر، وقاضي الجماعة بفاس، وتفقّه وقرأ عليه. وكان أحفظ الناس لمذهب مالك، وأفقههم فيه. وكان السلطان أبو الحسن لدينه وسراوته، وبعد شأوه في الفضل، يتشوف إلى تزيين مجلسه بالعلماء، واختار منهم جماعة لصحابته ومجالسته. كان منهم هذا الإمام محمد بن سليمان. وقدم علينا بتونس في جملته، وشهدنا وفور فضائله. وكان في الفقه من بينها لا يجارى، حفظاً وفهماً، عهدي به وأخي محمد رحمه الله يقرأ عليه من كتاب التبصرة لأبي الحسن اللخمي، وهو يصححه عليه من إملائه وحفظه، في مجالس عديدة. وكذا كان حاله في أكثر ما يعاني حمله من الكتب. وحضر مع السلطان أبي الحسن، واقعة القيروان، وخلص معه إلى تونس، وأقام بها نحواً من سنتين. وانتقض المغرب على السلطان، واستقل به ابنه أبو عنان. ثم ركب السلطان أبو الحسن في أساطيله من تونس آخر سنة خمسين، ومر ببجاية، فأدركه الغرق في سواحلها، فغرقت أساطيله، وغرق أهله، وأكثر من كان معه من هؤلاء الفضلاء وغيرهم. وألقاه البحر ببعض الجزر هناك، حتى استنفذه منه بعض أساطيله، ونجا إلى الجزائر بعد أن تلف موجوده، وهلك الكثير من عياله وأصحابه، وكان من أمره ما مرّ في أخباره.

وأمّا الآيّلي واسمه محمد بن إبراهيم، فمنشؤه بتلمسان، وأصله من جالية الأندلس، من أهل آيّلة، من بلد الجوف منها، أجاز بأبيه وعمه أحمد، فاستخدمهم يغمراسن بن زيّان، وولده في جندهم، وأصهر إبراهيم منهما إلى القاضي بتلمسان محمد بن غلبون في ابنته، فولدت له محمداً هذا. ونشأ بتلمسان في كفالة جدّه القاضي؛ فنشأ له بذلك ميل إلى انتحال العلم عن الجنديّة التي كانت منتحل أبيه وعمّه. فلما أيفع وأدرك سبق إلى ذهنه محبّة التعاليم؛ فبرز بها، واشتهر. وعكف الناس عليه في تعلّمها وهذا في سنّ البلوغ. ثم أظل السلطان يوسف بن يعقوب على تلمسان، وخيّم عليها يحاصرها. وسيّر العساكر إلى الأعمال فافتتح أكثرها. وكان إبراهيم الآيْلّي قائداً بهنين؛ مرسى تلمسان في لجّة من الجند. فلمّا ملكها يوسف بن يعقوب، اعتقل من وجد بها من أشياع ابن زيان، واعتقل ابراهيم الآيْلّي فيهم. وشاع الخبر في تلمسان بانّ يوسف بن يعقوب يسترهن أبناءهم ويطلقهم فتشوّف ابنه محمد إلى اللحاق بهم، من أجل ذلك. وأغراه أهله بالعزم عليه فتسوّر الأسوار، وخرج إلى أبيه فلم يجد خبر الاسترهان صحيحاً. واستخدمه يوسف بن يعقوب قائداً على الجند الأندلسيين بتاوريرت، فكره المقام على ذلك، ونزع عن طوره، ولبس المسوح، وسار قاصداً الحجّ. وانتهى إلى رباط العبّاد مختفياً في صحبة الفقراء؛ فوجد هنالك رئيساً من كربلاء ثم من بني الحسين، جاء إلى المغرب يروم إقامة دعوتهم فيه، وكان معقلاً؛ فلما رأى عساكر يوسف بن يعقوب، وشدّة هيبته غلب عليه اليأس من مرامه، ونزع عن ذلك، واعتزم الرجوع إلى بلده، فسار شيخنا محمد بن إبراهيم في جملته. قال لي رحمه الله: وبعد حين انكشف لي حاله، وما جاء له، واندرجت في جملتة

وأصحابه وتابعيه. قال: وكان يتلقّاه في كل بلد من أصحابه وأشياعه وخدمه من يأتيه بالأزواد، والنفقات من بلده، إلى أن ركبنا البحر من تونس إلى الإسكندرية. قال: واشتدّت علي الغُلُمَة في البحر، واستحييت من كثرة الاغتسال لكان هذا الرئيس فأشار عليّ بعض بطانته بشرب الكافور؛ فاغترفت منه غرفة، فشربتها فاختلطت. وقدم الديار المصرية على تلك الحال، وبها يومئذ تقيّ الدين بن دقيق العيد، وابن الرفُعَة وصفيّ الدين الهندي، والتبريزي، وابن البديع وغيرهم من فرسان المعقول والمنقول. فلم يكن قُصَارَاه إلاّ تمييز أشخاصهم، إذا ذكرهم لنا، لما كان به من الاختلاط. ثم حجّ مع ذلك الرئيس، وسار في جملته إلى كربلاء؛ فبعث به من أصحابه من أوصله إلى مأمنه من بلاد زواوة من أطراف المغرب. وقال لي شيخنا رحمه الله: كان معي دنانير كثيرة تزودها من المغرب، واستبطنتها في جبّة كنت ألبسها؛ فلمّا نزل بي ما نزل انتزعها مني حتى إذا بعث أصحابه يشيّعونني إلى المغرب، دفعها إليهم، حتى إذا أوصلوني إلى المأمن، أعطوني إياها وأشهدوا عليّ بها في كتاب حملوه معهم إليه كما أمرهم. ثم قارن وصول شيخنا إلى المغرب مهلك يوسف بن يعقوب وخلاص أهل تلمسان من الحصار، فعاد إلى تلمسان، وقد أفاق من اختلاطه، وانبعثت همّته إلى تعلّم العلم. وكان مائلاً إلى العقليات؛ فقرأ المنطق على أبي موسى ابن الإمام، وجملة من الأصلين، وكان أبو حمّو صاحب تلمسان يومئذ قد استفحل ملكه، وكان ضابطاً للأمور، وبلغه عن شيخنا تقدّمه في علم الحساب؛ فدفعه إلى ضبط أمواله ومشارفة عماله. وتفادى شيخنا من ذلك؛ فأكرهه عليه، فأعمل الحيلة في الفرار منه، ولحق بفاس

أيام السلطان أبي الربيع. وبعث فيه أبو حمّو، فاختفى بفاس عند شيخ التعاليم من اليهود، خلوف المغيلي؛ فاستوفى عليه فنونها، وحذق. وخرج متوارياً من فاس؛ فلحق بمراكش، أعوام عشروسبعمائة. ونزل على الإمام أبي العبّاس بن البنّاء شيخ المعقول والمنقول، والمّبرز في التصوّف علماً وحالاً، فلزمه، وأخذ عنه. وتضلّع من علم المعقول

والتعاليم والحكمة. ثم استدعاه شيخ الهساكرة علي بن محمد بن تروميت ليقرأ عليه، وكان ممرضا في طاعه السلطان؛ فصعد إليه شيخنا وأقام عنده مدة، قرأ عليه فيها وحصّل. واجتمع طلبة العلم هنالك على الشيخ، فكثرت إفادته، واستفادته، وعلي بن محمد في ذلك على محبته وتعظيمه، ومحبته، وامتثال إشارته، فغلب على هواه، وعظمت رياسته في تلك القبائل. ولما استنزل السلطان أبو سعيد علي بن تروميت من جبله، نزل الشيخ معه، وسكن بفاس. وانثال عليه طلبة العلم من كلّ ناحية؛ فانتشر علمه، واشتهر ذكره، فلمّا فتح السلطان أبو الحسن تلمسان ولقي أبا موسى ابن الإمام، ذكره له بأطيب الذكر، ووصفه بالتقدّم في العلوم. وكان السلطان معتنياً بجمع العلماء بمجلسه، كما ذكرنا. فاستدعاه من مكانه بفاس، ونظمه في طبقة العلماء بمجلسه، وعكف على التدريس والتعليم، ولزم صحابة السلطان، وحضر معه واقعة طريف، وواقعة القيروان بأفريقية. وكانت قد حصلت بينه وبين والدي رحمه الله صحابة، كانت وسيلتي إليه في القراءة عليه؛ فلزمت مجلسه، وأخذت عنه. وافتتحت العلوم العقليّة بالتعاليم. ثم قرأت المنطق، وما بعده من الأصليْن، وعلوم الحكمة وعرض أثناء ذلك ركوب السلطان أساطيله من تونس إلى المغرب، وكان الشيخ في نزلنا وكفالتنا، فأشرنا عليه بالمقام، وثبّطناه عن السفر؛ فقبل، وأقام. وطالبنا به السلطان أبو الحسن؛ فأحسنّا له العذر. فتجافى عنه، وكان من حديث غرقه في البحر ما قدّمناه. وأقام الشيخ بتونس، ونحن وأهل بلدنا جميعاً نتساجل هنتاتة، وفرغ ابنه أبو عنان من شواغله، وملك تلمسان من بني عبد الواد، كتب فيه يطلبه من صاحب تونس، وسلطانها يومئذ أبو إسحق ابراهيم ابن السلطان أبي يحيى، في كفالة شيخ الموحّدين أبي محمد بن تافراكين؛ فأسلمه إلى سفيره، وركب معه البحر في أسطول السلطان الذي جاء فيه السفير. ومرّ ببجاية، ودخلها، وأقام بها شهراً، حتى قرأ عليه طلبة العلم بها مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، برغبتهم في ذلك منه ومن صاحب الأسطول. ثم ارتحل، ونزل بمرسى هنين وقدم على السلطان بتلمسان، وأحلّه محل التكرمة، ونظمه في طبقة أشياخه من العلماء. وكان يقرأ عليه، ويأخذ عنه إلى أن هلك بفاس سنة سبع

وخمسين وسبعمائة. وأخبرني رحمه الله أن مولده بتلمسان سنة إحدى وثمانين وستمائة.

وأمّا عبد المهيمن كاتب السلطان أبي الحسن، فأصله من سبتة، وبيتهم بها قديم، ويعرفون ببني عبد المهيمن وكان أبوه محمد قاضيها أيام بني العزفي. ونشأ ابنه عبد المهيمن في كفالته، وأخذ عن مشيختها. واختصّ بالأستاذ أبي إسحق الغافقي. ولما ملك عليهم الرئيس أبو سعيد، صاحب الأندلس، سبتة ونقل بني العزفي، مع جملة أعيانها إلى غرناطة، ونقل معهم القاضي محمد بن عبد المهيمن، وابنه عبد المهيمن؛ فاستكمل قراءة العلم هنالك وأخذ عن أبي جعفر بن الزبير ونظرائه، وتقدّم في معرفة كتاب سيبويه، وبرز في علو الإسناد، وكثرة

المشيخة. وكتب له أهل المغرب والأندلس والمشرق، واستكتبه رئيس الأندلس يومئذ، الوزير أبو عبد الله بن الحكيم الرُندي، المستبد على السلطان المخلوع من بني الأحمر، فكتب عنه، ونظمه في طبقة الفضلاء الذين كانوا بمجلسه، مثل المحدّث الرحالة أبي عبد الله بن رشيد الفهري، وأبي العباس أحمد العزفي، والعالم الصوفيّ المتجرّد، أبي عبد الله محمد بن خميس التلمساني، وكانا لا يجاريان في البلاغة والشعر - إلى غير هؤلاء ممن كان مختصًّاً به؛ وقد ذكرهم ابن الخطيب في تاريخ غرناطة. فلما انكب الوزير ابن الحكيم، وعادت سبتة إلى طاعة بني مرين عاد عبد المهيمن إليها واستقر بها، ثم ولى الأمرأبو سعيد، وغلب عليه ابنه أبو علي، واستبدّ بحمل الدولة. تشّوف إلى استدعاء الفضلاء، وتجمّل الدولة بمكانهم فاستقدم عبد المهيمن من سبتة، واستكتبه سنة إثنتي عشرة وسبعمائة. ثم خالف على أبيه سنة أربع عشرة وسبعمائة، وامتنع بالبلد الجديد، وخرج منها إلى سجلماسة لصلح عقده مع أبيه، فتمسّك السلطان أبو سعيد بعبد المهيمن، واتخذه كاتباً، إلى أن دفعه لرياسة الكتّاب، ورسم علامته في الرسائل

والأوامر؛ فتقدّم لذلك سنة ثمان عشرة وسبعمائة، و لم يزل عليها سائر أيام السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن. وسار مع أبي الحسن إلى أفريقية، وتخلّف عن واقعة القيروان بتونس؛ لما كان به علّة التقرس. فلمّا كانت الهيعة بتونس، ووصل خبر الواقعة، وتحيّز أولياء السلطان إلى القصبة، مع حرمه، تسرب عبد المهيمن في المدينة، منتبذاً عنهم، وتوارى في بيتنا، خشية أن يصاب معهم بمكروه. فلمّا انجلت تلك الغيابة. ورجع السلطان من القيراوان إلى سوسة، وركب منها البحر إلى تونس، أعرض عن عبد المهيمن، لما سخط غيبته عن قومه بالقصبة، وجعل العلامة لأبي الفضل ابن الرئيس عبد الله بن أبي مدين، وقد كانت من قبل مقصورة من قبل على هذا البيت، وأقام عبد المهيمن عطلاً من العمل مدة أشهر. ثم اعتبه السلطان، ورضي عنه، وأعاد إليه العلامة كما كان، وهلك لأيام قلائل بتونس في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة. ومولده سنة خمس وسبعين وستمائة من المائة قبلها، وقد استوعب ابن الخطيب التعريف به في تاريخ غرناطة فليطالعه هناك من أحبّ الوقوف عليه.

وإما ابن رضوان الذي ذكره الرحويّ في قصيدته، فهو أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان البحاري؛ أصله من الأندلس نشأ بمالقة، وأخذ عن مشيختها، وحذق في العربية والأدب، وتفنّن في العلوم، ونظم ونثر، وكان مجيداً في الترسيل، ومحسناً في كتابة الوثائق. وارتحل بعد واقعة طريف، ونزل بسبتة، ولقي بها السلطان أبا الحسن، ومدحه، وأجازه، واختصّ بالقاضي إبراهيم بن أبي يحيى، وهو يومئذ قاضي العساكر، وخطيب السلطان، وكان يستنيبه في القضاء والخطابة، ثم نظمه في حلبة الكتّاب بباب السلطان. واختص بخدمة عبد المهيمن رئيس الكتاب

والأخذ عنه، إلى أن رحل السلطان إلى أفريقية، وكانت واقعة القيروان، وانحصر بقصبة تونس مع من انحصر بها من أشياعه مع أهله وحرمه. وكان السلطان قد خلّف ابن رضوان هذا بتونس في بعض خدمه، فجلا عند الحصار فيما عرض لهم من المكاتبات. وتولّى كبر ذلك، فقام فيه أحسن قيام، إلى أن وصل السلطان من

القيروان، فرعى له حق خدمته، تأنيساً، وقرباً، وكثرة استعمال، إلى أن ارتحل من تونس في الأسطول، إلى المغرب سنة خمسين وسبعمائة كما مرّ. واستخلف بتونس ابنه أبا الفضل وخلّف أبا القاسم بن رضوان كاتباً له؛ فأقاما كذلك أياماً. ثم غلبهم على تونس سلطان الموحدّين الفضل ابن السلطان أبي يحى. ونجا أبو الفضل إلى أبيه، ولم يطق ابن رضوان الرحلة معه؛ فأقام بتونس حولاً، ثم ركب البحر إلى الأندلس، وأقام بالمريّة مع جملة من هنالك من أشياع السلطان أبي الحسن؛ كان فيهم عامر بن محمد بن علي شيخ هنتاتة، كافلاً لحرم السلطان أبي الحسن؛ وابنه. أركبهم السفين معه من تونس عندما ارتحل؛ فخلص إلى الأندلس، ونزلوا بالمرية، وأقاموا بها تحت جراية سلطان الأندلس؛ فلحق بهم ابن رضوان، وأقام معهم. ودعاه أبو الحجاج سلطان الأندلس إلى أن يستكتبه فامتنع، ثم هلك السلطان أبو الحسن، وارتحل مخلّفه الذين كانوا بالمرّية. ووفدوا على السلطان أبي عنان. ووفد. معهم ابن رضوان؛ فرعى له وسائله في خدمة أبيه، واستكتبه، واختصه بشهود مجلسه، مع طلبة العلم بحضرته. وكان محمد بن أبي عمرو يومئذ رئيس الدولة، ونجي الخلوة، وصاحب العلامة، وحسبان الجباية والعساكر، قد غلب على هوى السلطان، واختص به؛ فاستخدم له ابن رضوان حتى علق منه بدمه. ولاية وصحبة، وانتظاماً في السمر، وغشيان المجالس الخاصة، وهو من ذلك يدنيه من السلطان. وينفق سوقه عنده، ويستكفي به في مواقف خدمته إذا غاب عنها لما هو أهم فحلي بعين السلطان، ونفقت عنده فضائله. فلما سار ابن أبي عمرو في العساكر إلى بجاية، سنة أربع وخمسين، انفرد ابن رضوان بعلامة الكتاب عن السلطان. ثم رجع ابن أبي عمرو، وقد سخطه السلطان؛ فأقصاه إلى بجاية وولاّه

عليها، وعلى سائر أعمالها، وعلى حرب الموحّدين بقسنطينة. وأفرد ابن رضوان بالكتابة، وجعل إليه العلامة، كما كانت لابن أبي عمرو، فاستقلّ بها، موفّر الاقطاع، والإسهام، والجاه. ثم سخطه آخر سبع وخمسين وسبعمائة، وجعل العلامة لمحمد بن أبي القاسم بن أبي مدين، والإنشاء والتوقيع لأبي إسحق إبراهيم بن الحاج الغرناطي. فلما كانت دولة السلطان أبي سالم، جعل العلامة لعلي بن محمد بن سعود صاحب ديوان العساكر، والإنشاء والتوقيع والسرّ لمؤلف الكتاب عبد الرحمن بن خلدون. ثم هلك أبو سالم سنة إثنتين وستين، واستبدّ الوزير عمر بن عبد الله على من كفله من أبنائه، فجعل العلامة لابن رضوان، سائر أيامه، وقتله عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن، واستبدّ بملكه، فلم يزل ابن رضوان على العلامة، وهلك عبد العزيز، وولى ابنه السعيد في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي بن الكاس، وابن رضوان على حاله، ثم غلب السلطان أحمد على الملك، وانتزعه من السعيد، وأبي بكر بن غازي، وقام بتدبير دولته محمد بن عثمان بن الكاس، مستبدّاً عليه، والعلامة لابن رضوان، كما كانت، إلى أن هلك بأزمور في حركات السلطان أحمد إلى مراكش، لحصار عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي وكان في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كثيرة من فضلاء المغرب وأعيانه،هلك كثيرون منهم في الطاعون الجارف بتونس، وغرق جماعة منهم في أسطوله لما غرق، وتخطت النكبة منهم آخرين إلى أن استوفوا ما قدّر من آجالهم. فمن حضر معه بأفريقية من العلماء، شيخنا أبو العباس

أحمد بن محمد الزواوي، شيخ القراءات بالمغرب: أخذ العلم والعربية عن مشيخة فاس، وروى عن الرحالة أبي عبد الله محمد بن رشيد، وكان إماماً في فن القراءات وصاحب ملكة فيها لا تجارى. وله مع ذلك

صوت من مزامير آل داود، وكان يصلّي بالسلطان التراويح، ويقرأ عليه بعض الأحيان

حزبه. وممن حضر معه بأفريقية، الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن الصبّاغ من أهل مكناسة. كان مبرّزاً في المعقول والمنقول، وعارفاً بالحديث وبرجاله، وإماماً في معرفة كتّاب الموطأ وإقرائه أخذ العلوم عن مشيخة فاس ومكناسة، ولقي شيخنا أبا عبد الله الأيلّئ، ولازمه، وأخذ عنه العلوم العقلية فاستنفد بقية طلبه عليه، فبرز آخراً، واختاره السلطان لمجلسه، واستدعاه، ولم يزل معه إلى أن هلك غريقاً في ذلك الأسطول.

ومنهم القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد النور، من أعمال ندرومة، ونسبه في صنهاجة كان مبرّزاً في الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس، تفقّه فيه على الأخوين أبي زيد، وأبي موسى ابني الإمام، وكان من جملة أصحابهما.

ولما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان، رفع من منزلة ابني الإمام، واختصهما بالشورى في بلدهما. وكان يستكثر من أهل العلم في دولته، ويجري لهم الأرزاق، ويعمر بهم مجلسه؛ فطلب يومئذ من ابن الإمام أن يختار له من أصحابه من ينظمه في فقهاء المجالس؛ فأشاروا عليه بابن عبد النور هذا؛ فأدناه، وقرّب مجلسه، وولاه قضاء عسكره، ولم يزل في جملته إلى أن هلك في الطاعون بتونس سنة تسع وأربعين. وكان قد خلف بتلمسان أخاه علياً رفيقه في دروس ابن الإمام، إلا أنه أقصر باعاً منه في الفقه. فلمّا خلع السلطان أبو عنان طاعة أبيه السلطان أبي الحسن، ونهض إلى فاس، استنفره في جملته. وولاّه قضاء مكناسة؛ فلم يزل بها، حتى إذا تغلّب عمر بن عبد الله على الدولة كما مرّ، نزع إلى قضاء فرضه؛ فسرّحه. وخرج حاجا سنة أربع وستين؛ فلما قدم على مكة، وكان به بقيه مرض، هلك في طواف القدوم. وأوصى أمير الحاج على ابنه محمد، وأن يبلغ وصيته به للأمير المتغلب على الديار المصرية يومئذ، يلبغا الخاصكي، فأحسن خلافته فيه، وولاّه من وظائف الفقهاء ما

سدّ به خلّته، وصان عن سؤال الناس وجهه؛ وكان له عفا الله عنه كلف بعمل الكيمياء، تابعاً لمن غلظ في ذلك من أمثاله. فلم يزل يعاني من ذلك ما يورّطه مع الناس في دينه وعرضه، إلى أن دعته الضرورة للترحل عن مصر، ولحق ببغداد. وناله مثل ذلك؛ فلحق بماردين، واستقر عند صاحبها، وأحسن جواره، إلى أن بلغنا بعد التسعين أنه هلك هنالك حتف أنفه، والبقاء لله وحده.

ومنهم شيخ التعاليم أبو عبد الله محمد بن النجّار من أهل تلمسان؛ أخذ العلم ببلده عن مشيختها، وعن شيخنا الأُيلي، وبرّز عليه. ثم ارتحل إلى المغرب، فلقي بسبتة إمام التعاليم، أبا عبد الله محمد بن هلال شارح المجسطي في الهيئة، وأخذ بمراكش عن الإمام أبي العباس بن البناء، وكان إماماً في علوم النجامة وأحكامها، وما يتعلق بها، ورجع إلى تلمسان بعلم كثير، واستخلصته الدولة. فلما هلك أبو تاشفين، وملك السلطان أبو الحسن، نظمه في جملته وأجرى له رزقه، فحضر معه بإفريقية، وهلك في الطاعون.

ومنهم أبو العباس أحمد بن شعيب من أهل فاس، برع في الادب واللسان، والأدب، والعلوم العقلية، من الفلسفة، والتعاليم، والطب، وغيرها، ونظمه السلطان أبو سعيد في جملة الكتاب، وأجرى عليه رزق الأطباء لتقدمه فيه؛ فكان كاتبه، وطبيبه؛ وكذا مع السلطان أبي الحسن بعده؛ فحضر بأفريقية، وهلك بها في ذلك الطاعون. وكان له شعر سابق به الفحول من المتقدّمين والمتأخّرين، وكانت له إمامة في نقد الشعر، وبصر به؛ وما حضرني الآن من شعره:

دار الهوى نجد وساكنها أقصى أماني النفس من نجد
هل باكر الوسمي ساحتها واستن في قيعانها الجرد
أو بات معتل النسيم بها مستشفياً بالبان والرند
يتلو أحاديث الذين هم قصدي وإن جاروا عن القصد
أيام سمر ظلالها وطني منها وزرق مياهها وردي
ومطارح النظرات في رشاءٍ أحوى المدامع أهيف القد
يرنو إليك بعين جارية قُتل المحب بها على عمد
حتى أجدّ على عجل ريب الخطوب وعاثر الجد
فقدوا فما وأبيك بعدهم ما عشت لا آسى على الفقد
وغدوا: دفيناً قد تضمّنه بطن الثرى وقرارة اللحد
ومشرداً من دون رؤيته قذف النوى وتنوفة البعد
أجرى علي العيش بعدهم أني فقدت جميعهم وحدي
لا تلحني يا صاح في شجن أخفيت منه فوق ما أبدي
بالقرب لي سكن تأوبني من ذكره سهد على سهد
فرخان قد تركا بمضيعةٍ زويت عن الرفداء والرفد

ومنهم صاحبنا الخطيب أبو عبد الله بن أحمد بن مرزوق من أهل تلمسان، كان
سلفه نزلاء الشيخ أبي مدين بالعُباد، ومتوارثين خدمة تربته، من لدن جدهم خادمه في حياته. وكان جده الخامس أو السادس، واسمه أبو بكر بن مرزوق، معروفاً بالولاية فيهم. ولما هلك دفنه يغمراسن بن زيان، سلطان بتلمسان من بني عبد الواد، ففي التربة بقصره، ليدفن بإزائه، متى قدّر بوفاته. ونشأ محمد هذا بتلمسان. ومولده فيما أخبرني سنة عشر وسبعمائة وارتحل مع أبيه إلى المشرق
. وجاور أبوه بالحرمين الشريفين، ورجع هو إلى القاهرة؛ فأقام بها. وقرأ على برهان الدين الصفاقسي المالكي وأخيه. وبرع في الطلب والرواية، وكان يجيد الخطّين؛ ثم رجع سنة خمس وثلاثين وسبعمائة إلى المغرب، ولقي السلطان أبا الحسن بمكانه من حصار تلمسان، وقد شيد بالعباد مسجداً عظيماً؛ وكان عمه محمد بن مرزوق خطيباً به على عادتهم بالعبّاد. وتوفي، فولاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمّه. وسمعه يخطب على

المنبر، ويشيد بذكره، والثناء عليه، فحلا بعينه، واختصه، وقرّبه، وهو مع ذلك يلازم مجلس الشيخين ابني الإمام، ويأخذ نفسه بلقاء الفضلاء، والأكابر، والأخذ عنهم؛ والسلطان في كل يوم يزيده رتبة؛ وحضر معه واقعة طريف التي كان فيها تمحيص المسلمين؛ فكان يستعمله في السفارة عنه إلى صاحب الأندلس. ثم سفر عنه، بعد أن ملك أفريقية، إلى ابن أدفونش ملك قشتاله في تقرير الصلح، واستنقاذ ابنه أبي عمر تاشفين. كان أسر يوم طريف، فغاب في تلك السفارة عن واقعة القيروان. ورجع بأبي تاشفين مع طائفة من زعماء النصرانيّة، جاءوا في السفارة عن ملكهم، ولقيهم خبر واقعة القيروان، بقسنطينة، من بلاد أفريقية، وبها عامل السلطان وحاميته، فثار أهل قسنطينة بهم جميعاً، ونهبوهم، وخطبوا للفضل ابن السلطان أبي يحيى، وراجعوا دعوة الموحّدين، واستدعوه فجاء إليهم، وملك البلد. وانطلق ابن مرزوق عائداً إلى المغرب مع جماعة من الأعيان، والعمّال والسفراء عن الملوك. ووفد على السلطان أبي عنان بفاس مع أمه حظية أبي الحسن وأثيرته. كانت راحلة إليه، فأدركها الخبر بقسنطينة. وحضرت الهيعة. واتصل بها الخبر بتوثب ابنها أبي عنان على ملك أبيه، واستيلائه على فاس؛ فرجعت إليه، وابن مرزوق في خدمتها، ثم طلب اللحاق بتلمسان؛ فسرّحوه إليها، وأقام بالعبّاد مكان سلفه. وعلى تلمسان يومئذ أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان، قد بايع له قبيله بنو عبد الواد بعد واقعة القيروان بتونس، وابن تافراكين يومئذ محاصر للقصبة، كما مرّ في أخبارهم. وانصرفوا إلى تلمسان، فوجدوا بها أبا سعيد عثمان بن جرّار، من بيت ملوكهم، قد استعمله عليها السلطان أبو عنان، عند انتقاضه على أبيه، ومسيره إلى فاس؛ وانتقض ابن جرّار من بعده، ودعا لنفسه، وصمد إليه عثمان بن

عبد الرحمن ومعه أخوه أبو ثابت وقومهما، فملكوا تلمسان من يد ابن جرّار، وحبسوه ثم قتلوه؛ واستبدّ أبو سعيد بملك تلمسان، وأخوه أبو ثابت يردفه. وركب السلطان أبو الحسن البحر من تونس، وغرق أسطوله، ونجا هو إلى الجزائر، فاحتل بها، وأخذ في الحشد إلى تلمسان؛ فرأى أبو سعيد أن يكف غربه عنهم، بمواصلة تقع بينهما، واختار لذلك الخطيب بن مرزوى؛ فاستدعاه وأسر إليه بما يلقيه عنه للسلطان أبي الحسن، وذهب لذلك على طريق الصحراء. واطلّ أبو ثابت وقومهم على الخبر، فنكروه على أبي سعيد، وعاتبوه فأنكر، فبعثوا صغير ابن عامر في اعتراض ابن مرزوق، فجاء به، وحبسوه أياماً. ثم أجازوه البحر إلى الأندلس؛ فنزل على السلطان أبي الحجّاج بغرناطة، وله إليه وسيلة منذ اجتماعه به بمجلس السلطان أبي الحسن بسبتة إثر واقعة طريف؛ فرعى له أبو الحجّاج ذمة تلك المعرفة، وأدناه، واستعمله في الخطابة بجامعه بالحمراء؛ فلم يزل خطيبه إلى إن استدعاه السلطان أبو عنان سنة أربع وخمسين بعد مهلك أبيه، واستيلائه على تلمسان وأعمالها؛ فقدم عليه ورعى له وسائله، ونظمه في أكابر أهل مجلسه. وكان يقرأ الكتاب بين يديه في مجلسه العليّ، ويدرّس في نوبته مع من يدرس في مجلسه منهم. ثم بعثه إلى تونس عام ملكها سنة ثمان وخمسين؛ ليخطب له ابنة السلطان أبي يحيى، فردت تلك الخطبة واختفت بتونس. ووشي إلى السلطان أبي عنان أنه كان مطلعاً على مكانها، فسخطه لذلك، ورجع السلطان من قسنطينة؛ فثار أهل تونس بمن كان بها من عماله وحاميته. واستقدموا أبا

محمد بن تافراكين من المهدية، فجاء، وملك البلد. وركب القوم الاسطول، ونزلوا بمراسي تلمسان. وأوعز السلطان أبو عنان، باعتقال ابن مرزوق، وخرج لذلك يحيى بن شعيب من مقدمي الجنادرة ببابه، فلقيه بتاسالة، فقيده هنالك. وجاء به، فأحضره السلطان وقرعه، ثم حبسه مدة، وأطلقه بين يدي مهلكه؛
واضطربت الدولة بعد موت السلطان أبي عنان، وبايع بنو مرين لبعض الأعياص من بني يعقوب بن عبد الحق. وحاصروا البلد الجديد، وبها ابنه السعيد، ووزيره المستبد عليه، الحسن بن عمر؛ وكان السلطان أبو سالم بالأندلس، غرّبه إليها

أخوه السلطان أبو عنان، مع بني عمّهم، ولد السلطان أبي علي بعد وفاة السلطان أبي الحسن، وحصولهم جميعاً في قبضته. فلما توفي، أراد أبو سالم النهوض لملكه بالمغرب، فمنعه رضوان القائم يومئذ بملك الأندلس، مستبداً على ابن السلطان أبي الحجّاج، فلحق هو بإشبيلية، من دار الحرب، ونزل على بطره، ملكهم يومئذ، فهيأ له السفين، وأجازه إلى العدوة، فترل بجبل الصفيحة، من بلاد غمارة، وقام بدعوته بنو مثنى، وبنو منير أهل ذلك الجبل منهم، حتى تم أمره، واستولى على ملكه؛ في خبر طويل، ذكرناه في أخبار دولتهم. وكان ابن مرزوق يداخله، وهو بالأندلس، ويستخدم له، ويفاوضه في أموره، وربما كان يكاتبه، وهو بجبل الصفيحة، ويداخل زعماء قومه، في الأخذ بدعوته. فلما ملك السلطان أبو سالم، رعى له تلك الوسائل أجمع، ورفعه على الناس، وألقى عليه محبته، وجعل زمام الأمور بيده، فوطىء الناس عقبه، وغشي أشراف الدولة بابه، وصرفت الوجوه إليه، فمرضت لذلك قلوب أهل الدولة، ونقموه على السلطان، وتربصوا به، حتى توثب عمر ابن عبد الله بالبلد الجديد، وافترق الناس عن السلطان. وقتله عمر بن عبد الله آخر إثنتين وستين وسبعمائة، وحبس ابن مرزوق وأغرى به سلطانه الذي نصبه؛ محمد بن عبد الرحمن بن أبي الحسن، فامتحنه، واستصفاه، ثم أطلقه، بعد أن رام كثير من أهل الدولة قتله، فمنعه منهم. ولحق بتونس، سنة أربع وستين، ونزل على السلطان أبي إسحق، وصاحب دولته المستبد عليه، أبي محمد بن تافراكين، فأكرموا نزله، وولوه الخطابة، بجامع الموحدين بتونس. وأقام بها، إلى أن هلك السلطان أبو إسحق سنة سبعين وسبعمائة، وولي ابنه خالد. وزحف السلطان أبو العباس، حافد السلطان أبي يحيى، مقره بقسنطينة إلى تونس، فملكها، وقتل خالداً، سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة.

وكان ابن مرزوق يستريب منه، لما كان يميل، وهو بفاس، مع ابن عمّه أبي عبد الله محمد، صاحب بجاية، ويؤثره عند السلطان أبي سالم عليه؛ فعزله السلطان أبو العبّاس عن الخطبة بتونس؛ فوجم لها، وأجمع الرحلة إلى المشرق. وسرّحه السلطان، فركب السفن، ونزل بالإسكندرية، ثم ارتحل إلى القاهرة، ولقي أهل العلم، وأمراء الدولة، ونفقت بضائعه

عندهم، وأوصلوه إلى السلطان، وهو يومئذ الأشرف. فكان يحضر يومئذ مجلسه، وولاه الوظائف العلمية، وكان ينتجع منها معاشه. وكان الذي وصل حبله بالسلطان أستاذ داره محمد بن أقبغا آص، لقيه أول قدومه، فحلا بعينه، واستظرف جملته، فسعى له، وأنجح سعايته، ولم يزل مقيماً بالقاهرة، موقّر الرتبة، معروف

الفضيلة، مرشحا لقضاء المالكية، ملازما للتدريس في وظائفه، إلى إن هلك سنة إحدى وثمانين.هذا ذكر من حضرنا من جملة السلطان أبي الحسن، من أشياخنا، وأصحابنا؛ وليس موضوع الكتاب الإطالة فلنقتصر على هذا القدر، ونرجع إلى ما كنا فيه من أخبار المؤلف.

ولاية العلامة بتونس، ثم الرحلة بعدها إلي المغرب، والكتابة على السلطان أبي عنان:

و لم أزل منذ نشأت، وناهزت مكبّاً على تحصيل العلم، حريصاً على اقتناء الفضائل، متنقّلاً بين دروس العلم وحلقاته، إلى أن كان الطاعون الجارف، وذهب بالأعيان، والصدور، وجميع المشيخة، وهلك أبواي، رحمهما الله. ولزمت مجلس شيخنا أبي عبد الله الأُبُلّي؛ وعكفت على القراءة عليه ثلاث سنين، إلى أن شدوت بعض الشيء؛ واستدعاه السلطان أبو عنان، فارتحل إليه، واستدعاني أبو محمد بن تافراكين، المستبد على الدولة يومئذ بتونس، إلى كتابة العلامة عن سلطانه أبي إسحق. مذ نهض إليهم من قسنطينة صاحبها الأمير أبو زيد، حافد السلطان أبي يحيى في عساكره، ومعه العرب أولاد مهلهل الذين استنجدوه لذلك، فأخرج ابن تافراكين سلطانه أبا إسحق مع العرب، أولاد أبي الليل، وبث العطاء في عسكره، وعمر له المراتب والوظائف. وتعلل عليه صاحب العلامة أبو عبد الله بن عمر بالإستزادة من العطاء؛ فعزله، وأدالني منه؛ فكتبت العلامة عن السلطان، وهي وضع "الحمد لله والشكر لله "، بالقلم الغليظ، مما بين البسملة وما بعدها، من مخاطبة أو مرسوم وخرجت

معهم أول سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة. وقد كنت منطوياً على الرحلة من أفريقية، لما أصابني من الاستيحاش لذهاب أشياخي، وعطاني عن طلب العلم. فلما رجع بنو مرين إلى مراكزهم بالمغرب، وانحسر تيّارهم عن أفريقية، وأكثر من كان معهم من الفضلاء صحابة وأشياخ، فاعتزمت على اللحاق بهم. وصدّني عن ذلك أخي وكبيري محمد، رحمه الله، فلما دُعيت إلى هذه الوظيفة، سارعت إلى الإجابة، لتحصيل غرضي من اللحاق بالمغرب، وكان كذلك، فإنّا لّما خرجنا من تونس، نزلنا بلاد هوّارة، وزحفت العساكر بعضها إلى بعض؛ بفحص مرما جنَّة، وانهزم صفُّنا، ونجوت أنا إلى أبَّة؛ فأقمت بها عند الشيخ عبد الرحمن الوسناني، من كبراء المرابطين. ثم تحوّلت إلى سبتة، ونزلت بها على محمد بن عبدون، صاحبها؛ فأقمت عنده ليالي حتى هيّأ لي الطريق، مع رفيق من المغرب، وسافرت إلى قفصة، وأقمت بها أياماً أترصد الطريق، حتى قدم علينا بها الفقيه محمد بن الرئيس منصور بن مزني، وأخوه يوسف يومئذ صاحب الزاب. وكان هو بتونس، فلمّا حاصرها الأمير أبو زيد، خرج إليه، فكان معه. ثم بلغهم الخبر بأنّ السلطان أبا عنان ملك المغرب، نهض إلى تلمسان؛ فملكها، وقتل سلطانها، عثمان بن عبد الرحمن، وأخاه أبا ثابت، وأنه انتهى إلى المدية، وملك بجاية من يد صاحبها، الأمير أبي عبد الله من حفدة السلطان أبي يحيى، راسله عندما أطلّ على بلده؛ فسار إليه، ونزل له عنها، وصار في جملته، وولى أبو عنان على بجاية عمر بن علي شيخ بني وطّاس، من بني الوزير شيوخهم. فلمّا بلغ هذا الخبر، أجفل الأمير عبد الرحمن من مكانه على حصار تونس، ومرّ بقفصة، فدخل إلينا محمد بن

مزني ذاهباً إلى الزاب؛ فرافقته إلى بسكرة، ودخلت إلى أخيه هنالك. ونزل هو ببعض قرى الزاب تحت جراية أخيه، إلى أن انصرم الشتاء.

وكان أبو عنان لما ملك بجاية، ولى عليها عمر بن علي بن الوزير، من شيوخ بني وطّاس، وجاء فارح، مولى الأمير أبي عبد الله لنقل حرمه وولده، فداخل بعض السفهاء من صنهاجة في قتل عمر بن علي فقتله في مجلسه. ووثب هو على البلد، وبعث إلى الأمير أبي زيد، يستدعيه من قسنطينة؛ فتمشّت رجالات البلد بينهم بينهم خشية من سطوة السلطان.

ثم ثاروا بفارح فقتلوه، وأعادوا دعوة السلطان كما كانت. وبعثوا عن عامل السلطان بتدلس، يحياتن بن عمر بن عبد المؤمن، ي خ بني ونكاسن من بني مرين، فملكوه قيادهم. وبعثوا إلى السلطان بطاعتهم؛ فأخرج لوقته حاجبه محمد بن أبي عمرو، وأكثف له الجند، وصرف معه وجوه دولته وأعيان بطانته. وارتَحَلْتُ من بسكرة، وافداً على السلطان أبي عنان بتلمسان، فلقيت ابن أبي عمرو بالبطحاء، وتلقّاني من الكرامة بما لم أحتسبه، وردّني معه إلى بجاية، فشهدت الفتح. وتسايلت وفود أفريقية إليه فلمّا رجع السلطان، وفدت معهم، فنالني من كرامته وإحسانه ما لم أحتسبه، إذ كنت شاباً لم يطّر شاربي. ثم انصرفت مع الوفود، ورجع ابن أبي عمرو إلى بجاية؛ فأقمت عنده، حتى انصرم الشتاء من أواخر أربع وخمسين وسبعمائة؛ وعاد السلطان أبو عنان إلى فاس، وجمع أهل العلم للتحليق بمجلسه، وجرى ذكري عنده، وهو ينتقي طلبة العلم للمذاكرة في ذلك المجلس، فأخبره الذين لقيتهم بتونس عني، ووصفوني له؛ فكتب إلى الحاجب يستقدمني، فقدمت عليه، سنة خمس وخمسين وسبعمائة، ونظمني في أهل مجلسه العلمي، وألزمني شهود الصلوات معه؛ ثم استعملني في كتابته، والتوقيع بين يديه، على كره مني، إذ كنت لم أعهد مثله لسلفي. وعكفت على النظر، والقراءة، ولقاء المشيخة، من أهل المغرب، ومن أهل الأندلس الوافدين في غرض السفارة؛ وحصلت من الإفادة منهم على البغية. وكان في جملته يومئذ الأستاذ أبو عبد الله محمد بن الصفّار، من أهل مراكش إمام القراءآت لوقته؛ أخذ عن جماعة من مشيخة المغرب، وكبيرهم شيخ المحدثين الرحّالة أبو عبد الله محمد بن رشيد الفهري، سيّد أهل المغرب، وكان يعارض السلطان القرآن برواياته السبع إلى أن توفي. ومنهم: قاضي الجماعة بفاس، أبو عبد الله محمد المغربي، صاحبنا، من أهل تلمسان. أخذ العلم بها عن أبي عبد الله السلاوي، ورد عليها من المغرب خلوا من المعارف. ثم دعته همته إلى التحلي بالعلم، فعكف في بيته على مدارسة القرآن

فحفظه، وقرأه بالسبع. ثم عكف على كتاب التسهيل في العربية، فحفظه ثم على مختصر ابن الحاجب في الفقه، والأصول، فحفظهما، ثم لزم الفقيه عمران المشدّ الي من تلاميذ أبي علي ناصر الدين وتفقه عليه، وبرز في العلوم، إلى حيث لم تلحق غايته. وبنى السلطان أبو تاشفين مدرسة بتلمسان، فقدّمه للتدريس بها، يضاهي به أولاد الإمام. وتفقّه عليه بتلمسان جماعة، كان من أوفرهم سهماً في العلوم أبو عبد الله المغربي هذا.

ولما جاء شيخنا أبو عبد الله الابلي إلى تلمسان، عند استيلاء السلطان أبي الحسن عليها، وكان أبو عبد الله السلوي قد قتل يوم فتح تلمسان، قتله بعض أشياع السلطان، لذنب أسلفه في خدمة أخيه أبي على

بسجلماسة، قبل انتحاله العلم، وكان السلطان توعده عليه، فقتل بباب المدرسة، فلزم أبو عبد الله المغربي بعده مجلس شيخنا الايلييء، ومجالس إبني الإمام، واستبحر في العلوم وتفنّن. ولما انتقض السلطان أبو عنان، سنة تسع وأربعين وخلع أباه، ندبه إلى كتب البيعة، فكتبها وقرأها على الناس في يوم مشهود. وارتحل مع السلطان إلى فاس، فلمّا ملكها، عزل قاضيها الشيخ المعمّر أبا عبد الله بن عبد الرزاق وولّاه مكانه، فلم يزل قاضياً بها، إلى أن أسخطه لبعض النزعات الملوكيّة، فعزله وأدال منه بالفقيه أبي عبد الله الفشتالي آخر سنة ست وخمسين وسبعمائة، ثم بعثه في سفارة إلى الأندلس، فامتنع من الرجوع. وقام السلطان لها في ركابه، ونكر على صاحب الأندلس ابن الأحمر تمسّكه به، وبعث إليه فيه يستقدمه، فلاذ منه ابن الأحمر بالشفاعة فيه، واقتضى له كتاب أمان بخط السلطان أبي عنان، وأوفده مع الجماعة من شيوخ العلم بغرناطة، ومنهم: القاضيان بغرناطة، شيخنا أبو القاسم الشريف السبتي، شيخ الدنيا جلالة وعلماً ووقاراً، ورياسةً، وإمام اللسان حوكا ونقداً، في نظمه ونثره. وشيخنا الآخر أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحاج البلقيني من أهل المرية، شيخ المحدّثين والفقهاء والأدباء والصوفية والخطباء

بالأندلس، وسيّد أهل العلم بإطلاق، والمتفنن في أساليب المعارف، وآداب الصحابة للملوك فمن دونهم؛ فوفدوا به على السلطان شفيعين على عظيم تشوّقه للقائهما؛ فقبلت الشفاعة، وأنجحت الوسيلة.

حضرت بمجلس السلطان يوم وفادتهما، سنة سبع وخمسين وسبعمائة، وكان يوماً مشهوداً. واستقرّ القاضي المغربي في مكانه، بباب السلطان، عُطلاً من الولاية والجراية. وجرت عليه بعد ذلك محنة من السلطان، بسبب خصومة وقعت بينه وبين أقاربه امتنع من الحضور معهم عند القاضي الفشتالي، فتقدّم السلطان إلى بعض أكابر الوزعة ببابه، أن يسحبه إلى مجلس القاضي حتى ينفذ فيه حكمه، فكان الناس يعدّونها محنة. ثم ولّاه السلطان، بعد ذلك، قضاء العساكر في دولته، عندما ارتحل إلى قسنطينة. فلما افتتحها، وعاد إلى دار ملكه بفاس آخر ثمان وخمسين وسبعمائة، اعتلّ القاضي المغربي في طريقه، وهلك عند قدومه بفاس.

ومنهم صاحبنا الإمام العالم الفذ، فارس المعقول والمنقول، صاحب الفروع والأصول، أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني، ويعرف بالعلوي، نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان، تسمّى العلوين، فكان أهل بلده لا يدافعون في نسبهم، وربّما بغمز فيه بعض الفجرة، ممن يروعه دينه، ولا معرفته بالأنساب، ببعض من اللغو، لا يلتفت إليه. نشأ هذا الرجل بتلمسان، وأخذ العلم عن مشيختها، واختص بأولاد الإمام، وتفقّه عليهما في الفقه، والأصول والكلام؛ ثم لزم شيخنا أبا عبد الله الآبلي. وتضلّع من معارفه؛ فاستبحر، وتفجّرت ينابيع العلوم من مداركه؛ ثم ارتحل إلى تونس في بعض مذاهبه، سنة أربعين، ولقي شيخنا القاضي أبا عبد الله بن عبد السلام، وحضر مجلسه، وأفاد منه، واستعظم رتبته في العلم. وكان ابن عبد السلام يصغي إليه ويؤثر محله، ويعرف حقه، حتى لقد زعموا أنه كان يخلو به في بيته، فيقرأ عليه فصل التصوّف من كتاب الإشارات لابن سينا، بما كان هو أحكم ذلك الكتاب على شيخنا الآبلي؛ وقرأ عليه كثيراً من كتاب الشفاء لابن سينا، ومن

تلاخيص كتب أرسطو لابن رشد، ومن الحساب والهندسة، والفرائض، علاوة على ما كان يحمله من الفقه والعربية وسائر علوم الشريعة. وكانت له في كتب الخلافيات يد

طولى، وقدم عالية، فعرف له ابن عبد السلام ذلك كله، وأوجب حقه وانقلب إلى تلمسان؛ وانتصب لتدريس العلم وبثه، فملأ المغرب معارف وتلاميذ، إلى اضطراب المغرب، بعد واقعة القيروان؛ ثم هلك السلطان أبو الحسن، وزحف ابنه أبو عنان، إلى تلمسان؛ فملكها، سنة ثلاث وخمسين؛ فاستخلص الشريف أبا عبد الله، واختاره لمجلسه العلمي، مع من اختار من المشيخة. ورحل به إلى فاس، فتبرم الى شريف من الاغتراب، وردّد الشكوى فأحفظ السلطان بذلك، وارتاب به. ثم بلغه أثناء ذلك أنّ عثمان بن عبد الرحمن، سلطان تلمسان، أوصاه على ولده، وأودع له مالاً عند بعض الأعيان من أهل تلمسان، وأن الشريف مطلع على ذلك فانتزع الوديعة، وسخط الشريف بذلك ونكبه، وأقام في اعتقاله أشهراً، ثم أطلقه أول ست وخمسين وسبعمائة وأقصاه، ثم أعتبه بعد فتح قسنطينة وأعاده إلى مجلسه، إلى أن هلك السلطان، آخر تسع وخمسين وسبعمائة.

وملك أبو حمّو بن يوسف بن عبد الرحمن تلمسان من يد بني مرين، واستدعى الشريف من فاس، فسرحه القائم بالأمر يومئذ، الوزير عمر بن عبد الله فانطلق إلى تلمساني. وتلقاه أبو حمّو براحتيه، وأصهر له في ابنته، فزؤجها إياه، وبنى له مدرسة جعل في بعض جوانبها مدفن أبيه وعمه. وأقام الشريف يدرس العلم إلى أن هلك سنة إحدى وسبعين. وأخبرني رحمه الله، إن مولده سنة عشر وسبعمائة .

ومنهم صاحبنا الكاتب القاضي أبو القاسم محمد بن يحى البرجي من برجة الأندلس. كان كاتب السلطان أبي عنان، وصاحب الإنشاء والسر في دولته، وكان مختصًّاً به، وأثيراً لديه. وأصله من برجة الأندلس، نشأ بها، واجتهد في العلم والتحصيل، وقرأ، وسمع، وتفقه على مشيخة الأندلس، واستبحر في الأدب، وبرز في النظم والنثر. وكان لا يجارى في كرم الطباع، وحسن المعاشرة، ولين الجانب، وبذل البشر والمعروف.

وارتحل إلى بجاية في عشر الأربعين والسبعمائة، وبها الأمير أبو زكرياء ابن السلطان أبي يحيى، منفرداً بملكها، على حين أقفر من رسم الكتابة والبلاغة،

فبادرت أهل الدولة إلى اصطفائه، وإيثاره بخطة الإنشاء، والكتاب عن السلطان، إلى أن هلك الأمير أبو زكريا، ونصب ابنه محمّد مكانه، فكتب عنه على رسمه ثم هلك السلطان أبو يحيى، وزحف السلطان أبو الحسن إلى أفريقية، واستولى على بجاية، ونقل الأمير محمداً بأهله وحاشيته إلى تلمسان، كما تقدّم في أخباره. فنزل أبو القاسم البرجي تلمسان وأقام بها، واتصل خبره بأبي عنان، ابن السلطان أبي الحسن، وهو يومئذ أميرها. ولقيه، فوقع من قلبه بمكان، إلى أن كانت واقعة القيروان.

وخلع أبو عنان، واستبدّ بالأمر، فاستكتبه وحمله إلى المغرب، ولم يسم به إلى العلامة، لأنه آثر بها محمد بن أبي عمر بما كان أبوه يعلّمه القرآن والعلم. وربّي محمد بداره، فولاه العلامة، والبرجي مرادف له في رياسته، إلى أن انقرضوا جميعاً. وهلك السلطان أبو عنان، واستولى أخوه أبو سالم على ملك المغرب وغلب ابن مرزوق

على هواه كما قدّمناه؛ فنقل البرجي من الكتابة، واستعمله في قضاء العساكر، فلم يزل على القضاء، إلى أن هلك سنة ست وثمانين وسبعمائة. وأخبرني رحمه الله أن مولده سنة عشر وسبعمائة.

ومنهم: شيخنا المعمّر الرحالة أبو عبد الله محمد بن عبد الرزاق شيخ وقته جلالة

وتربية وعلماً وخبرةً بأهل بلده، وعظمة فيهم. نشأ بفاس، وأخذ عن مشيختها. وارتحل إلى تونس فلقي القاضي أبا إسحق بن عبد الرفيع، والقاضي أبا عبد الله النفزاوي، وأهل طبقتهما. وأخذ عنهم، وتفقّه عليهم، ورجع إلى المغرب. ولازم سنن الأكابر والمشايخ، إلى أن ولاّه السلطان أبو الحسن القضاء بمدينة فاس فأقام على ذلك، إلى أن جاء السلطان أبو عنان من تلمسان، بعد واقعة القيروان، وخلعه أباه، فعزله بالفقيه أبي عبد الله المغربي، وأقام عطلا في بيته.

ولما جمع السلطان مشيخة العلم للتحليق بمجلسه، والإفادة منهم، واستدعى شيخنا أبا عبد الله بن عبد الرزاق فكان يأخذ عنه الحديث، ويقرأ عليه القرآن برواياته، في مجلس خاص إلى أن هلك، رحمه الله، بين يدي مهلك السلطان أبي عنان. إلى آخرين، وآخرين، من أهل المغرب والأندلس، كلهم لقيت وذاكرت وأفدت منه، وأجازني بالإجازة العامّة.

حدوث النكبة من السلطان أبي عنان:

كان اتصالي بالسلطان أبي عنان، آخر سنة ست وخمسين وسبعمائة، وقربني وأدناني، واستعملني في كتابته، حتى تكدر جوي عنده، بعد أن كان لا يعبر عن صفائه؛ ثم اعتلّ السلطان، آخر سبع وخمسين وسبعمائة، وكان قد حصلت بيني و بين الأمير محمد صاحب بجاية من الموحّدين مداخلة، أحكمها ما كان لسلفي في دولتهم. وغفلت عن التحفّظ في مثل ذلك، من غَيْرة السلطان، فما هو إلا أن شغل بوجعه، حتى نمى إليه بعض الغواة، أنّ صاحب بجاية، معتمل في الفرار ليسترجع بلده، وبها يومئذ وزيره الكبير، عبد الله بن عليّ؛ فانبعث السلطان لذلك، وبادر بالقبض عليه. وكان فيما نمي إليه، أني داخلته في ذلك؛ فقبض عليّ، وامتحنني وحبسني، وذلك في ثامن عشر صفر، سنة ثمان وخمسين وخمسمائة. ثم أطلق الأمير محمداً، وما زلت أنا في اعتقاله، إلى أن هلك. وخاطبتُه بين يدي مَهْلكه، مستعطفاً بقصيدة أولها:

#على أي حال لليالي أعاتب وأي صروف للزمان أغالب

#كفى حزناً إني على القرب نازحٌ وأني على دعوى شهُودي غائبُ

#وأني على حكم الحوادث نازل تسالمني طوراً وطوراً تحارب

ومنها في التشوق:

#سلوتهم إلا ادكار معاهد لها في الليالي الغابرات غرائبُ

#وإنّ نسيم الريح منهم يشوقني إليهم وتصبيني البُروق اللواعبُ

وهي طويلة، نحو مائتين بيتاً، ذهبت عن حفظي، فكان لها منه موّقع، وهَشَّ لها. وكان بتلمسان فوعَد بالإفراج عني عند حلوله بفاس، ولخمس ليال من حلوله طرقَه الوجع. وهلك لخمسَ عشرة ليلة، في رابع وعشرين ذي

الحجّة، خاتم تسع وخمسين وسبعمائة. وبادر القائم بالدولة، الوزير الحسن بن عُمَر إلى إطلاق جماعة من المعتقلين، كنت فيهم، فخلع عليَّ، وحملني، وأعادني إلى ما كنتُ
عليه. وطلبتُ منه الإنصراف إلى بلدي، فأبىَ عليَّ، وعاملني بوجوه كرامته، ومذاهب إحسانه، إلى أن اضطرب أمُره، وانتقض عليه بنو مرين، وكان ما قدَّمناه في أخبارهم.

الكتابة عن السلطان أبي سالم في السر والانشاء:

ولما أجاز السلطان أبو سالم من الأندلُس لطلب مُلكه، ونزَل بجبل الصَّفيحة من بلاد غُماره. وكان الخطيب ابن مرزوق بفاس، فبثَّ دعوته سراً، واستعان بي على أمره، بما كان بيني وبين أشياخ بني مرين من المحبَّة والائتلاف؛ فحملتُ الكثير منهم على ذلك، وأجابوني إليه، وأنا يومئذ أكتب عن القائم بأمر بني مرين منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، وقد نصبوه للملك، وحاصروا الوزير الحسن بن عُمر، وسلطانه السَّعيد ابن أبي عنَان، بالبلد الجديد. فقصدني ابنُ مرزوق في ذلك، وأوصل إليَّ كتاب السلطان أبي سالم. بالحضّ على ذلك، وإجمال الوعد فيه. وألقى عليَّ حمله؛ فنهَضت به، وتقدّمتُ إلى شيوخ بني مرين، وأمراء الدولة بالتحريض على ذلك، حتى أجابوا، وبعث ابنُ مرزوق إلى الحسن بن عُمَر، يدعو إلى طاعة السلطان أبي سالم، وقد ضجر من الحصار؛ فبادر إلى الإجابة. واتفق رأي بَني مرين على الانفضاض عن منصور بن سُليمان، والدخول إلى البلد الجديد؛ فلما تمّ عقدُهم على ذلك نزعتُ إلى السلطان أبي سالم في طائفة من وجوه أهل الدولة، كان منهم محمد بن عثمان بن الكاس، المستبدّ بعد ذلك بمُلك المغرب على سلطانه، وكان ذلك النُّزوع مبدأ حظّه، وفاتحة رياسته، بسِعايتي له عند السلطان. فلما قدمتُ على السلطان بالصَّفيحة، بما عندي من أخبار الدولة، وما أجمعوا عليه من خَلْع منصور بن سليمان، وبالموعد الذي ضربوه لذلك، واستحثثته. فارتحل، ولقيَنا البشيرُ بإجفال منصور بن سليمان، وفراره إلى نواح بادِس، ودخول بني مرين إلى البلد الجديد، وإظهار الحسن بن عُمر دَعوةَ السلطان أبي سالم. ثم لقِيَتنا، بالقصر الكبير، قبائلُ السلطان، وعساكرُه، على راياتهم، ووزيرُ منصور بن سليمان، وهو مسعود بن رَحُّو بن مَاسَايْ؛ فتلقّاه السلطان
بالكرامة كما يجب له، واستوزره نائباً للحسن بن يوسف بن عليّ بن محمد الورتاجني السابق إلى وزارته، لقِيَه بسبتة، وقد غرّ به منصور بن سليمان إلى الأندلس، فاستوزره واستكفاه.

ولما اجتمعت العساكر عنده بالقصر، صَعِد إلى فاس. ولقيه الحسن بن عمر بظاهرها؛ فأعطاه طاعته، ودخل إلى دار ملكه وأنا في ركابه، لخمس عشرة ليلة من نزوعى إليه، منتصف شعبان سنة ستين وسبعمائة؛ فرعى لي السابقة، واستعملني في كتابة سرّه، والترسيل عنه، والإنشاء لمخاطباته، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل، أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الاسجاع، لضعف انتحالها، وخفاء المعاني منها على أكثر الناس، بخلاف غير المرسل، فانفردت به يومئذ، وكان مستغرباً عند من هم أهل الصناعة.

ثم أخذت نفسي بالشعر، وانثال عليّ منه بحور، توسطت بين الإجادة والقصور، وكان مما أنشدته إيّاه، ليلة المولد النبوي من سنة اثنتين وستين وسبعمائة:

#أسرفن في هجري وفي تعذيبي وأطلن موقف عبرتي ونحيبي
#وأبين يوم البين وقفة ساعة لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
#لله عهد الظاعنين وغادروا قلبي رهين صبابة ووجيب
#غربت ركائبهم ودمعي سافح فشرقت بعدهم بماء غروب
#يا ناقعا بالعتب غلة شوقهم رحماك في عذلي وفي تأنيبي
#يستعذب الصب الملام وإنني ماء الملام لدي غير شروب
#ما هاجني طرب ولا اعتاد الجوى لو لا تذكر منزل وحبيب
#أصبوا إلى أطلالٍ كانت مطلعاً للبدر منهم أو كناس ربيب

#عبثت بها أيدي البلى وترددت في عطفها للدهر أي خطوب
#تبلى معاهدها وإن عهودها ليجدها وصفي وحسن نسيبي
#واذا الديار تعرضت لمتيم هزته ذكراها إلى التشبيب
#إيه عن الصبر الجميل فإنه ألوى بدين فؤادي المنهوب
لم أنسها والدهر يثني صرفه ويغض طرفي حاسد ورقيب
#والدار مونقة محاسنها بما لبست من الأيام كلى قشيب
#يا سائق الأظعان يعتسف الفلا ويواصل الأسآد بالتأويب
#متهافتاً عن رحل كل مذلل نشوان من أين ومس لغوب
#تتجاذب النفحات فضل ردائه في ملتقاها من صبا وجنوب
#إن هام من ظمإ الصبابة ضحبه نهلوا بمورد دمعه المسكوب
أو تعترض مسراهم سدف الدجى صدعوا الدجى بغرامه المشبوب
#في كل شعب منية من دونها هجر الأماني أو لقاء شعوب
#هلا عطفت صدورهن إلى التي فيها لبانة أعين وقلوب
#فتؤم من أكناف يثرب مأمناً يكفيك ما تخشاه من تثريب
#حيث النبوة آيها مجلوة تتلو من الآثار كل غريب
#سر عجيب لم يحجبه الثرى ما كان سر الله بالمحجوب

ومنها بعد تعديد معجزاته صلى الله عليه وسلم، والإطناب في مدحه:

#إني دعوتك واثقاً بإجابتي	يا خير مدعو وخير مجيب
#قصرت في مدحي فإن يك طيباً	فبما لذكرك من أريج الطيب
#ماذا عسى يبغي المطيل وقد حوى	في مدحك القرآن كل مطيب

#يا هل تبلغني الليالي زورةً	تدني إليّ الفوز بالمرغوب
#أمحو خطيئاتي بإخلاصي بها	وأحط أوزاري وإصر ذنوبي
#في فتية هجروا المنى وتعودوا	إنضاء كل نجيبة ونجيب
#يطوي صحائف ليلهم نوق الفلا	ما شئت من خببٍ ومن تقريب
#إن رنم الحادي بذكرك رددوا	أنفاس مشتاق إليك طروب
#أو غرد الركب الخلي بطيبة	حنوا لمغناها حنين النيب
#ورثوا اعتساف البيد عن آبائهم	إرث الخلافة في بني يعقوب
#الظاعنون الخيل وهي عوابس	يغشى مثار النقع كل سبيب
#والواهبين المقربات صوافناً	من كل خوار العنان لعوب
#والمانعين الجار حتى عرضه	في منتددى الاعداء غير معيب
#تخشى بوادرهم ويرجى حلمهم	والعز شيمة مرتجىً ومهيب
ومنها في ذكر إجازته البحر، واستيلائه على ملكه:
#سائل به طامي العباب وقد سرى	تزجيه ريح العزم ذات هبوب
#تهديه سهب أسنة وعزائم	يصدعن ليلى الحادث المرهوب
#حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه	وسطا الهدى بفريقها المغلوب
#يابن الألى شادوا الخلافة بالتقى	واستأثروك بتاجها المغصوب
#جمعوا الحفظ الدين أفي مناقبٍ	كرموا بها في مشهد ومغيب
#لله مجدك طارفاً أو تالداً	فلقد شهدنا منهن كل عجيب
#كم رهبة أو رغبة بك والعلى	تقتاد بالترغيب والترهيب
#لا زلت مسروراً بأشرف دولة	يبدو الهدى من أفقها المرقوب
#تحمي المعالي غاديا أو رائحاً	وحديد سعدك ضامن المطلوب
ومن قصيدة خاطبته بها عند وصول هدية ملك السودان إليه، وفيها الحيوان الغريب المسمى بالزرافة:
#قدحت يد الأشواق من زندي	وهفت بقلبي زفرة الوجد

#ونبذت سلواني على ثقة بالقرب فاستبدلت بالبعد
#ولرب وصل كنت آمله فاعتضت منه بمؤلم الصد
#لا عهد عند الصبر اطلبه إن الغرام أضاع من عهدي
#يلحى العدول فما أعنفه وأقول ضل فأبتغي رشدي|
#وأعارض النفحات أسألها برد الجوى فتزيد في الوقد
#يهدى الغرام إلى مسالكها لتعللي بضعيف ما تهدي
#يا سائق الأظعان معتسفاً طي الفلاة لطية الوجد\
#أرح الركاب ففي الصبا نبأً يغني عن المستنة الجرد
#وسل الربوع برامة خبراً عن ساكني نجد وعن نجد
#مالي تلام على الهوى خلقي وهي التي تأبى سوى الحمد
#لأبيت إلا الرشد مذ وضحت بالمستعين معالم الرشد
#نعم الخليفة في هدى وتقى وبناء عز شامخ الطود
#نجل السراة الغر شأنهم كسب العلى بمواهب الوجد
ومنها في ذكر خلوصي إليه، وما ارتكبته فيه:
#لله مني إذ تأوبني ذكراه وهو بشاهق فرد
#شهم يفل بواتراً قضباً وجموع أقيالٍ أولي أيد
#أوريت زند العزم في طلبي وقضيت حق المجد من قصدي
#ووردت عن ظمأ مناهله فرويت من عز ومن رفد
#هي جنة المأوى لمن كلفت آماله بمطالب المجد
#لو لم أغل بورد كوثرها ما قلت هذي جنة الخلد
#من مبلغ قومي ودونهم قذف النوى وتنوفة البعد
#أني أنفت على رجائهم وملكت عز جميعهم وحدي
#ورقيمة الأعطاف حالية موشية بوشائح البرد
#وحشية الأنساب ما أنست في موحش البيداء بالقود

#تسمو بجيد بالغ صعداً شرف الصروح بغير ما جهد
#طالت رءوس الشامخات به ولربما قصرت عن الوهد
#قطعت إليك تنائفاً وصلت إسآدها بالنص والوخد
#تخدي على استصعابها ذللاً وتبيت طوع القن والقد

#بسعودك اللأتي ضمن لنا طول الحياة بعيشه رغد

#جاءتك في وفد الأحابش لا يرجون غيرك مكرم الوفد

#وافوك أنضاء تقلبهم أندي السرى بالغور والنجد

#كالطيف يستقري مضاجعه أو كالحسام يسل من غمد

#يثنون بالحسنى التي سبقت من غير إنكار ولا جحد

#ويرون لحظك من ونادهم نخراً على الاتراك والهند

#يامستعيناً جل في شرف عن رتبة المنصور والمهدي

#جازاك ربك عن خليقته خير الجزاء فنعم ما يسدي

#وبقيت للدنيا وساكنها في عزةٍ أبداً وفي سعد

وأنشدته في سائر أيامه غير هاتين القصيدتين كثيراً، لم يحضرني الآن شيء منه.

ثم غلب ابن مرزوق على هواه، وانفرد بمخالطته، وكبح الشكائم عن قربه؛ فانقبضت، وقصرت الخطو، مع البقاء على ما كنت فيه من كتابة سره، وإنشاء مخاطباته ومراسمه.

ثم ولأني آخر الدولة "خطة المظالم "، فوفيتها حقها، ودفعت للكثير مما أرجو وثوابه. ولم يزل ابن مرزوق آخذاً في سعايته بي وبأمثالي من أهل الدولة، غيرة ومنافسة، لى أن انتقض الأمر على السلطان بسببه. وثار الوزير عمر بن عبد الله بدار المفك؛ فصار ليه الناس، ونبذوا السلطان وبيعته، وكان في ذلك هلاكه، على من ذكرناه في أخبارهم.

ولما مقام الوزير ضر بالأمر، أقرني على ما كنت عليه، ووفر إقطاعي، وزاد في جرايتي؛ وكنت أسمو، بطغيان الشباب، إلى أرفع مما كنت فيه، وأدل في ذلك بسابقة مودة معه،

منذ أيام السلطان أبي عنان، وصحابة استحكم عقدها بيني وبينه، وبين الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية، فكان ثالث آثافينا، ومصقلة فكاهتنا. واشتدت غيرة سلطان لذلك كما مرّ، وسطا بنا، وتغافل عن غفر بن عبد الله لمكان أبيه من ثغر بجاية؛

ثم حملني الإدلال عليه أيام سلطانه، وما ارتكبه في حي من القصور بي عما أسمو إليه، إلى أن هجرته، وقعدت عن دار السلطان، مغاضباً له؛ فتنكل لي، وأقطعني جانباً من الأعراض؛ فطلبت الرحلة إلى بلدي بإفريقية.

وكان بنو عبد الواد قد راجعوا ملكهم بتلمسان، والمغرب الأوسط، فمنعني من ذلك، أن يغتبط أبو حمّو صاحب تلمسان بمكاني، فأقيم عنده. ولج في المنع من ذلك، وأبيت أنا إلا الرحلة؛ واستجرت في ذلك برديفه وصديقا، الوزير مسعود بن رحو بن ماساي، ودخلت عليه يوم الفطر، سنة ثلاث وستين وسبعمائة. فأنشدته:

#هنيئاً لصوم لاعداه قبول وبشرى بعيد أنت فيه منيل

#وهنئتها من عزة وسعادة تتابع أعوام بها وفصول

#سقى الله دهراً أنص إنسان عينه ولا مس ربعاً في حمال محول

#فعصرك ما بين الليالي مواسم   لها غرر وضاحة وحجول
#وجانبك المأمول للجود مشرع   يحوم عليه عالم وجهول
#عساك، وإن ضن الزمان منولي   فرسم الأماني من سواك محيل
#أجرني فليس الدهر لي بمسالم   إذا لم يكن لي في ذراك مقيل
#وأوليتني الحسنى بما أنا آمل   فمثلك يؤلى راجياً وينيل
#ووالله ما رمت الترحل عن قلى   ولا سخطةً للعيش فهو جزيل
#ولا رغبةً عن هذه الدار إنها   لظل على هذا الأنام ظليل
#ولكن نأى بالشعب عني حبائب   شجاهن خطب للفراق طويل
#يهيج بهن الوجد أني نازح   وأن فؤادي حيث هن حلول
#عزيزعليهن الذي قد لقيته   وأن اغترابي في البلاد يطول
#توارت بأنبائي البقاع كأنني   تخطفت أو غالت ركابي غول
#ذكرتك يا مغنى الأحبة والهوى   فطارت لقلبي أنة وعويل

#وحببت عن سوق رباك كأنما   يمثل لي نؤي بها وطلول
#أحبابنا والعهد بيني وبينكم   كريم وما عهد الكريم يحول
#إذا أنا لم ترض الحمّول مدامعي   فلا قربتني للقاء حمّول
#إلام مقامي حيث لم ترد العلا   مرادي و لم تعط القياد ذلول

أجاذب فضل العمر يوماً وليلةً   وساء صباح بينها وأصيل
ويذهب بي ما بين يأس ومطمع   زمان بنيل المعلوات بخيل
تعللني عنه أمان خوادع   ويؤنسني ليان منه مطول
أما لليالي لا ترد خطوبها   ففي كبدي من وقعهن فلول
يروعني من صرفها كل حادث   تكاد له صم البلاد تزول
أداري على الرغم العدى لا لريبة   يصانع واشٍ خوفها وعذول
وأغدو بأشجاني عليلاً كأنما   تجود بنفسي زفرة وغليل
وإني وإن أصبحت في دار غربة   تحيل الليالي سلوتي وتديل
وصدتني الأيام عن خير مترل   عهدت به أن لا يضام نزيل
لأعلم أن الخير والشر ينتهي   مداه وأن الله سوف يديل
وأني عزيز بابن ماساي مكثر   وإن هان أنصار وبان خليل

فأعانني الوزير مسعود عليه، حتى أذن لي في الانطلاق على شريطة العدول عن تلمسان، في أي مذهب أردت، فاخترت الأندلس، وصرفت ولدي وأمهم إلى أخوالهم، أولاد القائد محمد بن الحكيم بقسنطينة، فاتح أربع وستين وسبعمائة. وجعلت أنا طريقي على الأندلس، وكان سلطانها أبو عبد الله المخلوع، حين وفد على السلطان أبي سالم بفاس، وأقام عنده، حصلت لي معه سابقة وصلة ووسيلة خدمة، من جهة وزيره أبي عبد الله لن الخطيب، وما كان بيني وبينه من الصحابة، فكنت أقوم بخدمته، وأعتمل في قضاء حاجاته في الدولة. ولما أجاز، باستدعاء الطاغية لاسترجاع ملكه، حين فسد ما بين الطاغية وبين الرئيس المتوثب عليه بالأندلس من قرابته، خلفته فيما

ترك من عياله وولده بفاس، خير خلف؛ في قضاء حاجاتهم، وإدرار أرزاقهم، من المتولين لها، والاستخدام لهم. ثم فسد ما بين الطاغية وبينه، قبل ظفره بملكه، برجوعه عما اشترطه له؛ من التجافي عن حصون المسلمين التي تملكها بأجلابه؛ ففارقه إلى بلد المسلمين، ونزلى بأسجة. وكتب إلى عمر بن عبد الله يطلب مصراً يترله، من أمصار الأندلس الغربية، التي كانت ركابا لملوك المغرب في جهادهم. وخاطبني أنا في ذلك، فكنت له نعم الوسيلة عند عمر، حتى تم قصده من ذلك. وتجافى عن رندة وأعمالها؛ فترلها وتملكها، وكانت دار هجرته، وركاب فتحه؛ وملك منها الأندلس أواسط ثلاث وستين وسبعمائة، واستوحشت

أنا من عمر، إثر ذلك كما مرّ. وارتحلت إليه، معولاً على سوابقي عنده، فغرب في المكافأة كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الرحلة الى الاندلس:

ولفا أجمعت الرحلة إلى الأندلس، بعثت بأهلي وولدي إلى أخوالهم بقسنطينة،

وكتبت لهم إلى صاحبها السلطان أبي العباس، من حفدة السلطان أبي يحيى، وأني أمر على الأندلس، وأجيز إليه من هنالك. وسرت إلى سبتة فرضة المجاز، وكبيرها يومئذ الشريف أبو العباس أحمد بن الشريف الحسني، ذو النسب الواضح، السالم من الريبة عند كافة أهل المغرب؛ انتقل سلفه إلى سبتة من صقلية، وأكرمهم بنو العزفي أولاً وصاهروهم. ثم عظم صيتهم في البلد، فتنكروا لهم. وغربهم يحيى العزفي آخرهم إلى الجزيرة؛ فاعترضتهم مراكب النصارى في الزقاق؛ فأسروهم. وانتدب السلطان أبو سعيد إلى فديتهم، رعاية لشرفهم؛ فبعث إلى النصارى في ذلك فأجابوه. وفادى هذا الرجل وأباه على ثلاثة آلاف دينار، ورجعوا إلى سبتة. وانقرض بنو العزفي

ودولتهم، وهل والد الشريف، وصار هو إلى رياسة الشورى. ولما كانت واقعة القيروان، وخلع أبو عنان أباه، واستولى على المغرب، وكان بسبتة عبد الله بن علي الوزير، والياً من قبل السلطان أبي الحسن، فتمسك بدعوته، ومال أهل البلد إلى السلطان أبي عنان. وبث فيهم الشريف دعوته؛ فثاروا بالوزير وأخرجوه، ووفدوا على أبي عنان. وأمكنوه من بلدهم؛ فولى عليها من عظماء دولته سعيد بن موسى العجيسي؛ كافل تربيته في صغره. و أفرد هذا الشريف برياسة الشورى في سبتة؛ فلم يكن يقطع أمر دونه. ووفد على السلطان بعض

الأيام، فتلقاه من الكرامة بما لا يشاركه فيه أحد من وفود الملوك والعظماء. ولم يزل على ذلك سائر أيام السلطان وبعد وفاته. وكان معظماً وقور المجلس، هش اللقاء، كريم الوفادة، متحلياً بالعلم والأدب، منتحلاً للشعر، غاية في الكرم وحسن العهد، وسذاجة النفس، ولما مررت به سنة أربع وستين وسبعمائة، أنزلني ببيته إزاء المسجد الجامع، وبلوت منه ما لا يقدر مثله من الملوك، وأركبني الحراقة ليلة سفري؛ يباشر دحرجتها إلى الماء بيده، إغراباً في الفضل والمساهمة. وحططت بجبل الفتح وهو يومئذ لصاحب المغرب. ثم خرجت منه إلى غرناطة، وكتبت إلى السلطان ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب بشأني. وليلة بت بقرب غرناطة على بريد منها، لقيني كتاب ابن الخطيب يهنئني بالقدوم ويؤنسني، ونصه:

#حللت حلول الغيث بالبلد المحل على الطائر الميمون والرحب والسهل

#يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه من الشيخ والطفل المهدا والكهل

#لقد نشأت عندي للقياك غبطة تنسي اغتباطي بالشبيبة والأهل

#وودي لا يحتاج فيه لشاهد وتقريري المعلوم ضرب من الجهل

أقسمت بمن حجت قريش لبيته، وقبر صرفت؛ أزمة الأحياء لميته، ونور ضربت الأمثال بمشكاته رزيته. لو خيرت أيها الحبيب الذي زيارته الأمنية السنية، والعارفة الوارفة، والمطيفة المطيفة، بين رجع الشباب يقطر ماء، ويرف نماء، ويغازل عيون الكواكب، فضلاً عن الكواعب، إشارة وإيماء، بحيث لا آلو في

خط يلم بسياج لمته، أو بقدح ذباله في ظلمته، أو يقدم حواريه في ملته، من الأحابش وأفته، وزمانة روح وراح، ومغدىً في النعيم ومراح، وقصف صراح، ورقى وجراح، وانتخاب واقتراح، وصدور ما بها إلا انشراح، ومسرات تردفها أفراح؛ وبين قدومك خليع الرسن، ممتعاً والحمد لله باليقظة والوسن، محكما في نسك الجنيد أو فتك الحسن، ممتعاً بظرف المعارف، مالئاً أكف الصيارف، ماحياً بأنوار البراهين شبه الزخارف لما اخترت الشباب وإن شاقني زمنه، وأعياني ثمنه، وأجرت سحاب دمعي دمنه. فالحمد لله الذي رقى جنون اغترابي، وملكني أزمة آرابي، وغبطني بمائي وترابي، ومألف أترابي، وقد أغصني بلذيذ شرابي، ووقع على سطوره المعتبرة إضرابي. وعجلت هذه مغبطة بمناخ الماطية، منتهى الطية، وملتقى للسعود غير البطية، وتهني الآمال الوثيرة الوطية. فما شئت من نفوس عاطشة إلى ربك، متجملة بزيك، عاقلة خطاً مهريك؛ ومولى مكارمه نشيدة أمثالك، ومظان مثالك، وسيصدق الخبر ما هنالك، وشمع فضل مجدك في التخلف عن الإصحار، لا، بل للقاء من وراء البحار، والسلام.

ثم أصبحت من الغد قادما على البلد، وذلك ثامن ربيع الأول عام أربعة وستين وسبعمائة،

وقد اهتز السلطان لقدومي، وهيأ لي المنزل من قصوره، بفرشه وماعونه، وأركب خاصته للقائي، تحفياً وبراً، ومجازاة بالحسنى؛ ثم دخلت عليه فقابلني بما يناسب ذلك، وخلع علي وانصرفت. وخرج الوزير ابن الخطيب فشيعني إلى مكان نزلي؛ ثم نظمني في علية أهل مجلسه، واختصني بالنجي في خلوته، والمواكبة في ركوبه، والمواكلة والمطايبة

والفكاهة في خلوات أنسه؛ وأقمت على ذلك عنده؛ وسفرت عنه سنة خمس وستين وسبعمائة إلى الطاغية ملك قشتالة يومئذ؛ بتره بن الهنشه بن أذفونش، لإتمام عقد الصلح ما بينه وين ملوك العدوة، بهدية فاخرة، من ثياب الحرير، والجياد المقربات بمراكب الذهب الثقيلة؛ فلقيت الطاغية بإشبيلية، وعاينت آثار سلفي بها، وعاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه، وأظهر الاغتباط بمكاني، وعلم أولية

سلفنا بإشبيلية. وأثنى علي عنده طبيبه إبراهيم بن زرور اليهودي، المقدم في الطب والنجامة، وكان لقيني بمجلس السلطان أبي عنان، وقد استدعاه يستطبه، وهو يومئذ بدار ابن الأحمر بالأندلس. ثم نزع بعد مهلك رضوان القائم بدولتهم إلى الطاغية؛ فأقام عنده، ونظمه في أطبائه. فلما قدمت أنا عليه، أثنى علي عنده، فطلب الطاغية مني حينئذ المقام عنده، وأن يرد علي تراث سلفي بإشبيلية، وكان بيد زعماء دولته، فتفاديت من ذلك بما قبله. ولم يزل على اغتباطه إلى أن انصرفت عنه؛ فزودني وحملني، واختصني ببغلة فارهة، بمركب ثقيل ولجام ذهبيين، أهديتهما إلى السلطان، فأقطعني قرية إلبيرة من إراضي السقي بمرج غرناطة، وكتب بها منشورا كان نصه:

ثم حضرت المولد النبوي لخامسة قدومي، وكان يحتفل في الصنيع فيها والدعوة، وإنشاد الشعراء، اقتداء بملوك المغرب، فأنشدته ليلتئذ:

#حي المعاهد كانت قبل تحييني بواكف الدمع يرويها ويظميني
#إن الألى نزحت داري ودارهم تحملوا القلب في آثارهم دوني
#وقفت أنشد صبراً ضاع بعدهم فيهم وأسأل رسماً لا يناجيني
أمثل الربع من شوق فألثمه وكيف والفكر يدنيه ويقصيني
#وينهب الوجد مني كل لؤلؤة ما زال قلبي عليها غير مأمون
#سقت جفوني مغاني الربع بعدهم فالدمع وقف على أطلاله الجون
#قد كان للقلب داعي الهوى شغل لو لأن قلبي إلى السلوان يدعوني
#أحبابنا هل لعهد الوصل مدكر منكم وهل نسمة عنكم تحييني
#ما لي وللطيف لا يعتاد زائره وللنسيم عليلاً لا يداويني
#يا أهل نجد وما نجد وساكنها حسناً سوى جبة الفردوس والعين

#أعندكم أنني ما مرّ ذكركم إلا انثنيت كأن الراح تثنيني
#أصبو إلى البرق من أنحاء أرضكم شوقاً ولولاكم ما كان يصبيني
#يا نازحاً والمنى تدنيه من خلدي حتى لأحسمه قرباً يناجيني
#أسلى هواك فؤادي عن سواك وما سواك يوماً بحال عنك يسليني

#ترى الليالي أنستك إدكاري يا   من لم تكن ذكره الأيام تنسيني

ومنها في وصف الايوان الذي بناه لجلوسه بين قصوره:

#يا مصنعاً شيدت منه السعود حمىً   لا يطرق الدهر مبناه بتوهين

#صرح يحار لديه الطرف مفتتناً   فيما يروقك من شكل وتلوين

#بعداً لإيوان كسرى إن مشورك   السامي لأعظم من تلك الاواوين

#ودع دمشق ومغناها عصرك ذا   أشهى إلى القلب من أبواب جيرون "

ومنها في التعريف بمنصرفي من العدوة:

من مبلغ عني الصحب الألى تركوا   ودي وضاع حماهم إذ أضاعوني

أني أويت من العليا إلى حرم   كادت مغانيه بالبشرى تحييني

وأنني ظاعناً لم ألق بعدهم   دهرا أشاكي ولا خصماً يشاكيني

لا كالتي أخفرت عهدي ليالي إذ   أقلب الطرف بين الخوف والهون

سقياً ورعياً لأيامي التي ظفرت   يداي منها بحظ غير مغبون

ارتاد منها ملياً لا يماطلني   وعداً وارجو كريماً لا يعنيني

وهاك منها قواف طيها حكم   مثل الأزاهر في طي الرياحين

تلوح إن جليت درا وإن تليت   تثني عليك بأنفاس البساتين

عانيت منها بجهدي كل شاردةٍ   لولا سعودك ما كادت تواتين

يمانع الفكرعنها ما تقسمه   من كل حزن بطي الصدر مكنون

لكن بسعدك ذلت لي شواردها   فرضت منها تجبير وتزيين

بقيت دهرك في أمن وفي دعة   ودام ملكك في نصر وتمكين

وأنشدته سنة خمس وستين وسبعمائة في إعذار ولده، والصنيع الذي احتفل لهم فيه، ودعا إليه الجفلى من نواحي الأندلس، ولم يحضرني منها إلا ما أذكره:

صحا الشوق لولا عبرة ونحيب   وذكرى تجد الوجد حين تثوب

وقلب أبى إلا الوفاء بعهده   وإن نزحت دار وبان حبيب

ولته مني بعد حادثة النوى   فؤاد لتذكار العهود طروب

يؤرقه طيف الخيال إذا سرى   وتذكي حشاه نفحة وهبوب

خليلي إلا تسعدا فدعا الأسى   فإني لما يدعو الأسى لمجيب

ألما على الأطلال يقض حقوقها   من الدمع فياض الشئون سكوب

ولا تعذلاني في البكاء فإنها   حشاشة نفسي في الدموع تذوب

ومنها في تقدم ولده للأعذار من غير نكول:

#فيمم منه الحفل لا متقاعس لخطب ولانكسر اللقاء هيوب
وراح كما راح الحسام من الوغى تروق حلاه والفرند خضيب
شواهد اهدتهن منك شمائل وخلق بصفو المجد منك مشوب
ومنها في الثناء على ولديه:
هما النيران الطالعان على الهدى بآيات فتح شأنهن عجيب

شهابان في الهيجا غمامان في الندى تسح المعالي منهما وتصوب
يدان لبسط المكرمات نماهما إلى المجد فياض اليدين وهوب
وأنشدته ليلة المولد الكريم من هذه السنة:
أبى الطيف أن يعتاد إلا توهماً فمن لي بأن ألقى الخيالى المسلما
وقد كنت استهديه لو كان نافعي وأستمطر الأجفان لو تنقع الظما
ولكن خيال كاذب وطماعة تعلل قلباً بالأماني متيما
أيا صاحبي نجواي والحب لوعة تبيح بشكواها الضمير المكتما
خذا لفؤادي العهد من نفس الصبا وطي النقا والبان من اجرع الحمى
ألا صنع الشوق الذي هو صانع فحبي مقيم أقصر الشوق أو سما
وإني ليدعوني السلو تعللاً وتنهاني الأشجان أن أتقدما
لمن دمن اقفرن إلا هواتف ترد في اطلالهن الترنما
عرفت بها سيما الهوى وتنكرت فعجبت على آياتها متوسما
وذو الشوق يعتاد الربوع دوارساً ويعرف آثار الديار توهما
تأوبني والليل بيني وبينه وميض بأطراف الثنايا تضرما
أجد لي العهد القديم كأنه أشار بتذكار العهود فأفهما
عجبت لمرتاع الجوانح خافق بكيت له خلف الدجى وتبسما
وبت أرويه كؤوس مدامعي وبات يعاطيني الحديث عن الحمى
وصافحته عن رسم دار بذي الغضى لبست بها ثوب الشبيبة معلما
لعهدي بها تدني الظباء أو انسا وتطلع في آفاقها الغيد أنجما
أحن إليها حيث سار بي الهوى وأنجد رحلي في البلاد وأتهما
ولما استقر، واطمأنت الدار، وكان من السلطان الاغتباط والاستئثار وكثر الحنين إلى الأهل والتذكار، أمر باستقدام أهلي من مطرح اغترابهم

بقسنطينة، فبعث عنهم من جاء بهم إلى تلمسان. وأمر قائد الاسطول بالمرية؛ فسار لاجازتهم في اسطوله، واحتلوا بالمرية. واستأذنت السلطان في تلقيهم، وقدمت بهم على الحضرة، بعد أن هيأت لهم المترل والبستان، ودمنة الفلح، وسائر ضرورات المعاش.

وكتب الوزير ابن الخطيب عندما قاربت الحضرة، وقد كتبت إليه استأذنه في القدوم، وما أعتمده في أحواله:

سيدي، قدمت بالطير الميامين، على البلد الأمين، واستضفت الرفاء إلى البنين، ومتعت بطول السنين. وصلتني البراءة المعربة عن كثب اللقاء، ودنو المزار، وذهاب البعد، وقرب الدار؛ واستفهم سيدي عفا عندي في القدوم على المخدوم، والحق أن بتقدم سيدي إلى الباب الكريم، في الوقت الذي يجد المجلس الجمهوري لم يفض حجيجه، ولا صوح بهيجه، ويصل الأهل بعده إلى المحل الذي هيأته السعادة لاستقرارهم، واختاره اليمن قبل اختيارهم، والسلام.

ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن حملوا الوزير ابن الخطيب من ملابستي للسلطان، واشتماله علي، وحركوا له جواد الغيرة فتنكر. وشممت منه رائحة الانقباض، مع استبداده بالدولة، وتحكمه في سائر أحوالها؛ وجاءتني كتب السلطان أبي عبد الله

صاحب بجاية، بأنه استولى عليها في رمضان خمس وستين وسبعمائة. واستدعاني إليه؛ فاستأذنت السلطان ابن الأحمر في الارتحال إليه. وعميت عليه شأن ابن الخطيب إبقاء لمودته؛ فارتمض لذلك، ولم يسعه إلا الإسعاف، فودع وزود، وكتب لي مرسوماً بالتشييع من إملاء الوزير ابن الخطيب نصه:

هذا ظهير كريم، تضمن تشييعاً وترفيعاً، وإكراماً وإعظاماً، وكان لعمل الصنيعة ختاماً، وعلى الذي أحسن تماماً، وأشاد للمعتمد به بالاغتباط الذي راق قساما وتوفر أقساماً، وأعلن له بالقبول إن نوى بعد النوى رجوعاً أو آثر على الظعن المزمع مقاماً.

أمر به، وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه، الأمير عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر، أيد الله أمره، وأعز نصره، وأعلى ذكره، للولي الجليس، الحظي المكين، المقرب الأود الأحب، الفقيه الجليل، الصدر الأوحد، الرئيس العلم، الفاضل الكامل، المرفع الأسمى، الأظهر الأرضى، الأخلص الأصفى، أبي زيد عبد الرحمن بن الشيخ الجليل، الحسيب الأصيل، الفقيه المرفع المعظم، الصدر الأوحد الأسنى، الأفضل الأكمل، الموقر المبرور، أبي يحيى أبي بكر، ابن الشيخ الجليل الكبير، الرفيع الماجد، القائد الحظي، المعظم الموقر، المبرور المرحوم، أبي عبد الله بن خلدون. وصل الله له أسباب السعادة، وبلغه من فضله أقصى الإرادة؛ أعلن بما عنده، أيده الله، من الاعتقاد الجميل في جانبه المرفع، وإن كان غنياً عن الإعلان. وأعرب عن معرفته بمقداره، في الحسبان العلماء الرؤساء الأعيان، وأشاد باتصال رضاه عن مقاصده البرة وشيمه الحسان، من لذن وفد بابه، وفادة العز الراسخ البنيان، وأقام المقام الذي عين له رفعة المكان، وإجلال الشان، إلى أن عزم على قصد وطنه، أبلغه الله ذلك في ظل اليمن والأمان، وكفالة الرحمن بعد الاغتباط المربي على الخبر بالعيان، والتمسك بجواره بجهد الإمكان، ثم قبول عذره بما جبلت الأنفس عليه من

الحنين إلى المعاهد والأوطان. وبعد أن لم يذخر عنه كرامة رفيعة، ولم يحجب عنه وجه صنيعة، فولاه القيادة والسفارة، وأحله جليساً معتمداً بالإستشارة، وألبسه من الحظوة والتقريب أبهى الشارة، وجعل محله من حضرته مقصوداً بالمثل معنياً بالإشارة، ثم أصحبه تشييعاً يشهد بالضنانة بفراقه، ويجمع له بر الوجهة من جميع آفاقه، ويجعله بيده رتيمة خنصر، ووثيقة سامع أو مبصر؛ فمهما لوى أخدعه إلى هذه البلاد بعد قضاء وطره، وتمليه من لهمة سفره، أو نزع به حسن العهد وحنين

الود، فصدر العناية به مشروح، وباب الرضا والقبول مفتوح، وما عهده من الحظوة والبر ممنوح. فما كان القصد في مثله من أمجاد الأولياء ليتحول، ولا الاعتقاد الكريم ليتبذل، ولا الأخير من الأحوال لينسخ الأول. على هذا فليطو ضميره، وليرد متى شاء نميره، ومن وقف عليه من القواد والأشياخ والخدام، برا وبحرا، على اختلاف الخطط والرتب، وتباين الأحوال والنسب، أن يعرفوا حق

هذا الاعتقاد، في كل ما يحتاج إليه من تشييع ونزول؛ وإعانة وقبول، واعتناء موصول، إلى أن يكمل الغرض، ويؤدى من امتثال هذا الأمر الواجب المفترض، بحول الله وقوته.

وكتب في التاسع عشر من جمادى الأولى عام ستة وستين وسبعمائة .

وبعد التاريخ العلامة بخط السلطان، ونصها: "صح هذا".

الرحلة من الاندلس إلي بجاية، وولاية الحجابة بها علي الاستبداد:

كانت بجاية ثغرا لإفريقية في دولة بني أبي حفص من الموحدين. ولما صار أمرهم للسلطان أبي بكر بن يحيى منهم، واستقل بملك أفريقية، ولى في ثغر بجاية إبنه الأمير أبا زكريا، وفي ثغر قسنطينة ابنه الأمير عبد الله. وكان بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الأوسط، ينازعونه في أعماله، ويجمرون العساكر على بجاية، ويجلبون على قسنطينة، إلى أن تمسك السلطان أبو بكر بذمة من السلطان أبي الحسن، ملك المغرب الأقصى من بني مرين، وله الشفوف على سائر ملوكهم. وزحف السلطان أبو الحسن إلى تلمسان؛ فأخذ بمخنقها سنتين أو أزيد، وملكها عنوة، وقتل سلطانها أبا تاشفين، وذلك سنة سبع وثلاثين وسبعمائة. وخف ما كان على الموحدين من إصر بني عبد الواد، واستقامت دولتهم. ثم هلك أبو عبد الله محمد ابن السلطان أبي يحيى بقسنطينة سنة أربعين وسبعمائة، وخلف سبعةً من الولد، كبيرهم أبو زيد عبد الرحمن، ثم أبو العباس أحمد، فولى الأمير أبا زيد مكان أبيه، في كفالة نبيل مولاهم. ثم توفي الأمير أبو زكريا ببجاية سنة ست وأربعين وسبعمائة، وخفف ثلاثة من الولد، كبيرهم أبو عبد الله محمد، وبعث السلطان أبو بكر ابنه الأمير أبا حفص عليها؛ فمال أهل بجاية إلى الأمير أبي عبد الله بن أبي زكريا، وانحرفوا عن الأمير عمر وأخرجوه. وبادر السلطان فرقع هذا الخرق، بولاية أبي عبد الله عليهم كما طلبوه. ثم توفي السلطان أبو بكر منتصف سبع وأربعين وسبعمائة وزحف أبو الحسن إلى أفريقية

فملكها، ونقل الأمراء من بجاية وقسنطينة إلى المغرب. وأقطع لهم هنالك، إلى أن كانت حادثة القيروان، وخلع السلطان أبو عنان أباه. وارتحل من تلمسان، إلى فاس؛ فنقل معه هؤلاء الأمراء، أهل بجاية وقسنطينة، وخلطهم

بنفسه، وبالغ في تكرمتهم. ثم صرفهم إلى ثغورهم: الأمير أبا عبد الله أولاً، وإخوته من تلمسان، وأبا زيد وإخوته من فاس، ليستبدوا بثغورهم، ويخذلوا الناس عن السلطان أبي الحسن؛ فوصلوا إلى بلادهم، وملكوها بعد أن كان الفضل ابن السلطان أبي بكر قد استولى عليها من يد بني مرين؛ فانتزعوها منه. واستقر أبو عبد الله ببجاية، حتى إذا هلك السلطان أبو الحسن بجبال المصامدة، وزحف أبو عنان إلى تلمسان سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة؛ فهزم ملوكها من بني عبد الواد، وأبادهم، ونزل المدية، وأطل على بجاية. وبادر الأمير أبو عبد الله للقائه، وشكا إليه ما يلقاه من زبون الجند والعرب، وقفة الجباية. وخرج له عن ثغر بجاية فملكها، وأنزل عماله بها. ونقل الأمير أبا عبد الله معه إلى المغرب؛ فلم يزل عنده في حفاية وكرامة. ولما قدمت على السلطان أبي عنان آخر خمس وخمسين وسبعمائة واستخلصني، نبضت عروق السوابق بين سلفي وسلف الأمير أبي عبد الله، واستدعاني للصحابة فأسرعت، وكان السلطان أبو عنان شديد الغيرة من مثل ذلك. ثم كثر المنافسون، ورفعوا إلى السلطان، وقد طرقه مرض أرجف له الناس؛ فرفعوا له أن الأمير أبا عبد الله اعتزم على الفرار إلى بجاية، وأني عاقدته على ذلك، على أن يوليني حجابته؛ فانبعث لها السلطان، وسطا بنا، واعتقلني نحواً من سنتين إلى أن هلك. وجاء السلطان أبو سالم، واستولى على المغرب، ووليت كتابة سره. ثم نهض إلى تلمسان، وملكها من يد بني عبد الواد، وأخرج منها أبا حمّو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن، ثم اعتزم على الرجوع إلى فاس، وولى على تلمسان أبا زيان محمد بن أبي سعيد عثمان ابن السلطان أبي تاشفين، وأمده بالأموال والعساكر من أهل وطنه، ليدافع أبا حمّو عن تلمسان، ويكون خالصة له. وكان الأمير أبو عبد الله صاحب بجاية معه كما ذكرناه.، والأمير أبو العباس صاحب قسنطينة، بعد أن كان بنو مرين حاصروا أخاه أبا زيد بقسنطينة أعواماً تباعاً.

ثم خرج لبعض مذاهبه إلى بونة، وترك أخاه أبا العباس بها؛ فخلعه، واستبد بالأمر دونه. وخرج إلى العساكر المحمرة عليها من بني مرين؛ فهزمهم، وأثخن فيهم. ونهض السلطان إليه من فاس، سنة ثمان وخمسين وسبعمائة؛ فتبرأ منه أهل البلد

وأسلموه؛ فبعثه إلى سبتة في البحر، واعتقله بها، حتى إذا ملك السلطان أبو سالم سبتة عند إجازته من الأندلس سنة ستين، أطلقه من الاعتقال، وصحبه إلى دار ملكه، ووعده برد بلده عليه.

فلما ولى أبا زيان على تلمسان، أشار عليه خاصته ونصحاؤه، بأن يبعث هؤلاء الموحدين إلى ثغورهم: فبعث أبا عبد الله إلى بجاية، وقد كان ملكها عمه أبو إسحق صاحب تونس، ومكفول بن تافراكين من يد بني مرين؛ وبعث أبا العباس إلى قسنطينة، وبها زعيم من زعماء بني مرين. وكتب إليه السلطان أبو سالم أن يفرج له عنها، فملكها لوقته. وسار الأمير أبو عبد الله إلى بجاية، فطال إجلابه عليها، ومعاودته حصارها. ولج أهلها في الامتناع منه مع السلطان أبي إسحق. وقد كان لي المقام المحمّود في بعث هؤلاء الأمراء إلى بلادهم. وتوليت كبر ذلك مع خاصة السلطان أبي سالم وكبار أهل مجلسه، حتى تم القصد من ذلك. وكتب لي الأمير أبو عبد الله بخطه عهدا بولاية الحجابة متى حصل على سلطانه؛ ومعنى الحجابة - في دولنا بالمغرب - الإستقلال بالدولة،

والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته، لا يشاركه في ذلك أحد. وكان لي أخ إسمه يحيى أصغر مني، فبعثته مع الأمير أبي عبد الله حافظاً للرسم، ورجعت مع السلطان إلى فاس. ثم كان ما قدمته من انصرافي إلى الأندلس والمقام بها، إلى أن تنكر الوزير ابن الخطيب، وأظلم الجو بيني وبينه.

وبينا نحن في ذلك، وصل الخبر باستيلاء الأمير أبي عبد الله على بجاية من يد عمه، في رمضان سنة خمس وستين وسبعمائة؛ وكتب لي الأمير أبو عبد الله يستقدمني، فاعتزمت على ذلك، ونكر السلطان أبو عبد الله بن الأحمر ذلك مني، لا يظنه لسوى ذلك، إذ لم يطلع على ما كان بيني وبين الوزير ابن الخطيب، فأمضيت

العزم، ووقع منه الإسعاف، والبر والألطاف. وركبت البحر من ساحل المرية، منتصف ست وستين وسبعمائة. ونزلت بجاية لخامسة من الإقلاع، فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدومي، وأركب أهل دولته للقائي. وتهافت أهل البلد علي من كل أوب يمسحون أعطافي، ويقبلون يدي، وكان يوماً مشهوداً.

ثم وصلت إلى السلطان فحيا وفدى، وخلع وحمل؛ وأصبحت من الغد، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابي، واستقلت بحمل ملكه، واستفرغت جهدي في سياسة

أموره وتدبير سلطانه، وقدمني للخطابة بجامع القصبة، وأنا مع ذلك، عاكف بعد انصرافي من تدبير الملك غدوةً- إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبة لا أنفك عن ذلك.

ووجدت بينه وبين ابن عمه السلطان أبي العباس صاحب قسنطينة فتنة، أحدثتها المشاحة في حدود الأعمال من الرعايا والعمال، وشب نار هذه الفتنة عرب أوطانهم من الزواودة من رياح، تنفيقاً لسوق الزبون يمترون به أموالهم. وكانوا في كل سنة يجمع بعضهم لبعض؛ فالتقوا سنة ست وستين وسبعمائة بفرجيوة، وانقسم العرب عليهما. وكان يعقوب بن علي مع السلطان أبي العباس؛ فانهزم السلطان أبو عبد الله، ورجع إلى بجاية مفلولاً، بعد أن كنت جمعت له أموالاً كثيرة أنفق جميعها في العرب. ولما رجع أعوزته النفقة؛ فخرجت بنفسي إلى قبائل البربر بجبال بجاية المتمنعين من المغارم منذ سنين؛ فدخلت بلادهم واستبحت حماهم، وأخذت رهنهم على الطاعة، حتى استوفيت منهم الجباية، وكان لنا في ذلك مدد وإعانة؛ ثم بعث صاحب تلمسان إلى السلطان أبي عبد الله يطلب منه الصهر؛ فأسعفه بذلك ليصل يده به على ابن عمه، وزوجه ابنته؛ ثم نهض السلطان أبو العباس سنة سبع وستين وسبعمائة، وجاس أوطان بجاية، وكاتب أهل البلد، وكانوا وجلين من السلطان أبي عبد الله، بما كان يرهف الحد لهم، ويشد وطأته عليهم؛ فأجابوه إلى الانحراف عنه. وخرج السلطان أبو عبد الله يروم مدافعته، ونزل جبل ليزو معتصماً به؛ فبيته السلطان أبو العباس في عساكره وجموع الأعراب من أولاد محمد بن رياح بمكانه ذلك،

بإغراء ابن صخر وقبائل سدويكش. وكبسه في مخيمه وركض هارباً، فلحقه وقتله، وسار إلى البلد بمواعده أهلها. وجاءني الخبر بذلك، وأنا مقيم بقصبة السلطان وقصوره، وطلب مني جماعة من أهل البلد القيام بالأمر، والبيعة لبعض الصبيان من أبناء السلطان؛ فتفاديت من ذلك؛ وخرجت إلى السلطان أبي العباس، فأكرمني وحباني، وأمكنته من بلده، وأجرى أحوالي كلها على معهودها. وكثرت السعاية عنده في، والتحذير من

مكاني. وشعرت بذلك؛ فطلبت الإذن في الانصراف بعهد كان منه في ذلك؛ فأذن لي بعدلأي؛ وخرجت إلى العرب، ونزلت على يعقوب بن عليّ. ثم بدا للسلطان في أمري، وقبض على أخي، واعتقله ببونة. وكبس بيوتنا يظن بها ذخيرة وأموالاً، فأخفق ظنه. ثم ارتحلت من أحياء يعقوب بن عليّ، وقصدت بسكرة، لصحابة بيني وبين شيخها أحمد بن يوسف بن مزني، وبين أبيه؛ وساهم في الحادث بماله وتجاهه والله أعلم.

مشايعة أبي حمّو صاب تلمسان:

كان السلطان أبو حمّو قد التحم ما بينه وبين السلطان أبي عبد الله صاحب بجاية بالصهر في إبنته، وكانت عنده بتلمسان. فلما بلغه مقتل أبيها، واستيلاء السلطان أبي العباس ابن عمه صاحب قسنطينة على بجاية، أظهر الامتعاض لذلك. وكان أهل بجاية قد توجسوا الخيفة من سلطانهم، بإرهاف حده، وشده سطوته؛ فانحرفوا عنه باطناً، وكاتبوا ابن عمه بقسنطينة كما ذكرناه.

ودشوا للسلطان أبي حمّو بمثلها يرجون الخلاص من صاحبهم بأحدهما. فلما استولى السلطان أبو العباس، وقتل ابن عمه، رأوا أن جرحهم قد اندمل، وحاجتهم قد قضيت، فاعصوصبوا عليه؛ وأظهر السلطان أبو حمّو الامتعاض للواقعة يسر منها

حسواً في ارتغاء، ويجعله ذريعة للاستيلاء على بجاية، بما كان يرى نفسه كفؤها بعده وعديده، وما سلف من قومه في حصارها؛ فسار من تلمسان يجر الشوك والمدر، حتى خيم بالرشة من ساحتها، ومعه أحياء زغبة بجموعهم وظعائنهم، من لدن تلمسان، إلى بلاد حصين، من بني عامر، وبني يعقوب، وسويد، والديالم والعطاف، وحصين.

وانحجر أبو العباس بالبلد في شرذمة من الجند، أعجله السلطان أبو حمّو عن استيعاب الحشد، ودافع أهل البلد أحسن الدفاع. وبعث السلطان أبو العباس عن أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد عم أبي حمّو من قسنطينة، كان معتقلاً بها، وأمر مولاه وقائد عسكره بشيراً أن يخرج معه في العساكر، وساروا حتى نزلوا بني عبد الجبار قبالة معسكر أبي حمّو، وكانت رجالات زغبة قد وجموا من السلطان، وأبلغهم النذير أنه إن ملك بجاية اعتقلهم بها؛ فراسلوا أبا زيان، وركبوا إليه، واعتقدوا معه. وخرج رجل البلد بعض الأيام من أعلى الحصن، ودفعوا شرذمة كانت مجمرة إزاءهم؛ فاقتلعوا خباءهم. وأسهلوا من تلك العقبة إلى بسيط الرشة. وعاينهم العرب بأقصى مكانهم من المعسكر فأجفلوا، وتتابع الناس في الانجفال حتى أفردوا السلطان في مخيمه، فحمل رواحله وسار، وكضت الطرق بزحامهم. وتراكموا بعض على بعض، فهلك منهم عوالم.

وأخذهم سكان الجبال من البربر بالنهب من كل ناحية، وقد غشيهم الليل؛ فتركوا أزودتهم ورحالهم. وخلص السلطان ومن خلص منهم بعد عصب الريق، وأصبحوا على منجاة. وقذفت بهم الطرق من كل ناحية إلى تلمسان؛ وكان السلطان أبو حمّو قد بلغه خروجي من بجاية، وما أحدثه السلطان بعدي في أخي وأهلي ومخففي؛ فكتب إلي يستقدمني قبل هذه الواقعة. وكانت الأمور قد اشتبهت؛ فتفاديت بالأعذار، وأقمت بأحياء يعقوب بن علي، ثم ارتحلت إلى بسكرة؛ فأقمت بها عند أميرها أحمد بن يوسف بن مزني. فلما وصل

السلطان أبو حمّو إلى تلمسان، وقد جزع للواقعة، أخذ في استئلاف قبائل رياح، ليجلب بهم مع عساكره على أوطان بجاية؛ وخاطبني في ذلك لقرب عهدي باستتباعهم، وملك

زمامهم، ورأى أن يعول عليّ في ذلك، واستدعاني لحجابته وعلامته، وكتب بخطه مدرجة في الكتاب نصها: " الحمد لله على ما أنعم، والشكر لله على ما وهب، ليعلم الفقيه المكرم أبو زيد

عبد الرحمن بن خلدون، حفظه الله، على أنك تصل إلى مقامنا الكريم، لما اختصصناكم به من الرتبة المنيعة، والمنزلة الرفيعة، وهو قلم خلافتنا، والانتظام في سلك أوليائنا، أعلمناكم بذلك. وكتب بخط يده عبد الله، المتوكل على الله، موسى بن يوسف لطف الله به وخار له ".

وبعده بخط الكاتب ما نصه: بتاريخ السابع عشر من رجب الفرد الذي من عام تسع وستين وسبعمائة عرفنا الله خيره. ونص الكتاب الذي هذه فدرجته، وهو بخط الكاتب: "أكرمكم الله يا فقيه أبا زيد، ووالى

رعايتكم. إنا قد ثبت عندنا، وجمح لدينا ما انطويتم عليه من المحبة في مقامنا، والانقطاع إلى جنابنا، والتشيع قديماً وحديثاً لنا، مع ما نعلمه من محاسن اشتملت عليها أوصافكم، ومعارف فقتم فيها نظراءكم، ورسوخ قدم في الفنون العلمية والاداب العربية.

وكانت خطة الحجابة ببابنا العلي- أسماه الله- أكبر درجات أمثالكم؛ وأرفع الخطط لنظرائكم؛ قربا منا، واختصاصاً بمقامنا، واطلاعا على خفايا أسرارنا. آثرناكم بها إيثاراً، وقدمناكم لها اصطفاءً واختياراً؛ فاعملوا على الوصول إلى بابنا العليّ أسماه

الله، لما لكم فيه من التنويه، والقدر النبيه، حاجباً لعليّ بابنا، ومستودعاً لأسرارنا، وصاحب الكريمة علامتنا، إلى ما يشاكل ذلك من الأنعام العميم، والخير الجسيم، والاعتناء والتكريم. لا يشارككم مشارك في ذلك ولا يزاحمكم أحد، وإن وجد من أمثالك فاعلموه، وعولوا عليه، والله تعالى يتولاكم، ويصل سراءكم، ويوالي احتفاءكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ".

وتأدت إلي هذه الكتب السلطانية على يد سفير من وزرائه، جاء إلى أشياخ الزواودة في هذا الغرض؛ فقمت له في ذلك أحسن مقام، وشايعته أحسن مشايعة، وحملتهم على إجابة داعي السلطان، والبدار إلى خدمته.

وانحرف كبراؤهم عن خدمة السلطان أبي العباس إلى خدمته، والاعتمال في مذاهبه، واستقام غرضه من ذلك؛ وكان أخي يحيى قد خلص من اعتقاله ببونة، وقدم علي ببسكرة، فبعثته إلى السلطان أبي حمّو كالنائب عني في الوظيفة، متفادياً عن تجشم أهوالها، بما كنت

نزعت عن غواية الرتب. وطال علي إغفال العلم؛ فأعرضت عن الخوض في أحوال الملوك، وبعثت الهمة على المطالعة والتدريس؛ فوصل إليه الأخ، فاستكفى به في ذلك، ودفعه إليه. ووصلني مع هذه الكتب السلطانية كتاب رسالة من الوزير أبي عبد الله بن الخطيب

من غرناطة يتشوق إلي، وتأدى إلى تلمسان على يد سفراء السلطان ابن الأحمر؛ فبعث إلي به من هنالك ونصه:

#بنفسي وما نفسي علي بهينة فيترلني عنها المكاس بأثمان
#حبيب نأى عيني وصم لأنتي وراش سهام البين عمداً فأصماني
وقد كان هم الشيب لا كان كائياً فقد ادني لما ترحل همان
#شرعت له من دمع عيني موارداً فكذر شربي بالفراق وأظماني
#وأرعيته من حسن عهدي جميمه فأجدب آمالي وأوحش أزماني
#حلفت على ما عنده لي من رضى قياساً بما عندي فأحنث أيماني
#وإني على ما نالني منه من قلى لأشتاق من لقياه نغبة ظمآن
سألت جنوني فيه تقريب عرسه فقست بجن الشوق جن سليمان
إذا ما دعا داع من القوم بإسمه وثبت وما استثبت شيمة هيمان
وتالله ما أصغيت فيه لعاذل تحاميته حتى ارعوى وتحاماني
ولا استشعرت نفسي برحمة عابد تظلل يوماً مثله عبد رحمان
#ولا شعرت من قبله بتشوقٍ تخلل منها بين روح وجثمان

أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج، وأما الصبر فاسأل به أية درج، بعد لأن تجاوز اللوى والمنعرج، لكن الشدة تعشق الفرج، والمؤمن ينشق من روح الله الأرج؛ وأنى بالصبر على إبر الدبر، لا. بل الضرب الهبر، ومطاولة اليوم والشهر، تحت حكم

القهر؛ ومن للعين إن تسلو سلو المقصر، عن إنسانها المبصر، أو نذهل ذهول الزاهد، عن سرها الرائي والمشاهد، وفي الجسد بضعة يصلح إذا صلحت، فكيف حاله إن رحلت عنه وإن نزحت؛ وإذا كان الفراق، هو الحمام الأول، فعلام المعول، أعيت مراوضة الفراق، عمل الراق، وكادت لوعة الإشتياق، إن تفضي إلى السياق:

#تركتموني بعد تشييعكم أوسع أمر الصبر عصيانا
#اقرع سني ندما تارةً واستميح الدمع أحيانا

وربما تعللت بغشيان المعاهد الخالية، وجددت رسوم الأسى بمباكرة الرسوم البالية، اسأل نون النؤى عن أهليه، وميم الموقد المهجور عن مصطليه، وثاء الأثافي المثلثة عن منازل الموحدين، وأحار وبين تلك الأطلال حيرة الملحدين، لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين؛ كلفت لعمر الله بسال عن جفوني المؤرقة، ونائم عن همومي المتجمعة والمتفرقة. ظعن عن ملال، لا متبرماً منا بشر خلال، وكدر الوصل بعد صفائه، وضرج النصل بعد عهد وفائه:

#أقل اشتياقا أيها القلب إنما رأيتك تصفي الود من ليس جازيا

فها أنا أبكي عليه بدم أساله، وأندب في ربع الفراق آسى له، وأشكو إليه حال

قلب صدعه، وأودعه من الوجد ما أودعه، لما خدعه، ثم قلاه وودعه، وأنشق رياه أنف ارتياح قد جدعه، وأستعديه على ظلم ابتدعه.

#خليلي، فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي

فلولا عسى الرجاء ولعله، لا بل شفاعة المحل الذي حله، لنشرت ألوية العتب، وبثثت كتائبها، كمناء في شعاب الكتب، تهز من الألفات رماحا خزر الأسنة وتوتر من النونات أمثال القسي المرنة وتقود من مجموع الطرس، النقس بلقاً تردي في

الأعنة،

ولكنه آوى إلى الحرم الأمين، وتفيأ ظلال الجوار المؤمن من معرة الغوار عن الشمال واليمين، حرم الحلال المزنية، والظلال اليزنية؛ والهمم السنية، والشيم التي لا ترضى بالدون ولا بالدنية، حيث الرفد الممنوح، والطير الميامين يزجر لها السنوح والمثوى الذي إليه، مهما تقارع الكرام على الضيفان، حول جوابي الجفان فهو الجنوح:

#نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عموداً

ومن حل بتلك المثابة فقد اطمأن جنبه، وتغمد بالعفو ذنبه(ولله در القائل):

#فوحقه لقد انتدبت لوصفه بالبخل لولا أن حمصاً داره

#بلد متى أذكره تهتج لوعتي وإذا قدحت الزند طار شراره

اللهم غفرا، وأين قراره النخيل، من مثوى الأقلف البخيل، ومكذبة المخيل؛ واين

ثانية هجر، من متبوا من ألحد وفجر:

#من أنكر غيثا منشؤه في الأرض ينوء بمخلفها

#فبنان بني مزني مزن تنهل بلطف مصرفها

#مزن مذحل ببسكرة يوما نطقت بمصحفها

#شكرت حتى بعبارتها وبمعناها وبأحرفها

#ضحكت بأبي العباس من ال أيام ثنايا زخرفها

#وتنكرت الدنيا حتى عرفت منه بمعرفها

بل نقول: يا محل الولد، "لا أقسم بهذا البلد، وأنت حل بهذا البلد"، لقد حل

بينك عرى الجلد، وخلد الشوق بعدك يا بن خلدون في الصميم من الخلد؛ فحيا الله زمانا شفيت في قربك زمانته، واجتلت في صدف مجدك جمانته، وقضيت في مرعى خلتك لبانته؛ وأهلاً بروض أظلت شباب معارفك بانته؛ فحمائمه بعدك تنذب، فيساعدها الجندب، ونواسمه ترق فتتغاشى، وعشياته تتخافت وتتلاشى،

وأدواحه في ارتباك، وحمائمه في مأتم ذي اشتباك؛ كان لم تكن قمر هالات قبابه، ولم يكن أنسك شارع بابه، إلى صفوة الظرف ولبابه، ولم يسبح إنسان عينك في ماء شبابه؛ فلهفي عليك من درة اختلستها يد النوى،

ومطل بردها الدهر ولوى، ونعق الغراب ببينها في ربوع الهوى، ونطق بالزجر فما نطق عن الهوى؛ وبأي شيء يعتاض منك ايتها الرياض، بعد أن طما نهرك الفياض، وفهقت الحياض؛ ولا كان الشاني المشنوء والجرب المهنوء؛ من قطع ليل أغار على الصبح فاحتمل، وشارك في الأمر الناقة والجمل، واستأثر جنحه ببدر النادي لما كمل؛ نشر الشراع فراع، وواصل الإسراع، فكأنما هو تمساح النيل ضايق الأحباب في البرهة، واختطف لهم من الشط نزهة العين وعين النزهة؛ ولجج بها والعيون تنظر، والغمر عن الاتباع يحظر؛ فلم يقدر إلا على الأسف، والتماح الاثر المنتسف والرجوع بملء العيبة من الخيبة، ووقر الجسرة من الحسرة إنما نشكو إلى الله البث والحزن، ونستمطر من عبراتنا المزن، وبسيف الرجاء نصول، وإذا أشرعت لليأس أسنة ونصول:

#ما أقدر الله أن يدني على شحطٍ من داره الحزن ممن داره صول

فإن كان كلم الفراق رغيبا، لما نويت مغيباً، وجللت الوقت الهني تشغيباً، فلعل الملتقى يكون قريبا، وحديثه يروى صحيحاً غريباً. إيه سيدي ! كيف حاذ تلك الشمائل، المزهرة الخمائل، والشيم، الهامية الديم؟ هل يمر ببالها من راعت بالبعد باله، وأخمدت بعاصف البين ذباله؟ أو ترثي لشئون شأنها سكب لا يفتر، وشوق يبت حبال الصبر ويبتر، وضنى تقصر عن حفله الفاقعة صنعاء وتستر، والأمر أعظم والله يستر؛ وما الذي يضيرك، صين من لفح السموم نضيرك، بعد أن أضرمت وأشعلت، وأوقدت وجعلت، وفعلت فعلتك التي فعلت، أن تترفق بذماء، أو ترد بنغبة ماء، أرماق ظماء، وتتعاهد المعاهد بتحية يشم عليها شذا أنفاسك، أو تنظر إلينا على البعد بمقلة حوراء من بياض قرطاسك، وسواد أنقاسك، فربما قنعت الأنفس المحبة بخيال زور، وتعللت بنوال مترور، ورضيت، لما لم تصد العنقاء، بزرزور:

#يا من ترحل والرياح لأجله يشتاق إن هبت شذا رياها

#تحيا النفوس إذا بعثت تحيةً وإذا عزمت اقرأ "ومن أحياها"

ولئن أحييت بها فيما شلف نفوسا تفديك، والله إلى الخير أيهديك، فنحن نقول معشر مواديك: " ثني ولا تجعليها بيضة لديك "؛ وعذراً فإني لم اجترىء على خطابك بالفقر الفقيرة، وأدللت لدى حجراتك برفع العقيرة، عن نشاط بعثت مرموسه، ولا اغتباط بالأدب تغري بسياسته سوسة، وانبساط أوحى إلي على الفترة ناموسه؛ وإنما هو اتفاق

جرته نفثة المصدور وهناء الجرب المجدور؛ وإن تعلل به مخارق، فثم قياس فارق، أو لحن غنى به بعد البعد مخارق؛ والذي هيأ هذا القدر وسببه، وسفل المكروه إلي منه ؛حببه. ما اقتضاه الصنو يحيى مد الله حياته، وحرس من الحوادث ذاته، من خطاب ارتشف به لهذه القريحة بلالتها، بعد أن رضي علالتها، ورشح إلى الصهر ألحضرمي سلالتها؛ فلم يسع إلا إسعافه، بما أعافه؛ فأمليت مجيباً، ما لا يعذ في يوم الرهان نجيباً، وأسمعته وجيباً لما ساجلت بهذه الترهات سحراً عجيباً؛ حتى إذا ألف القلم العريان سبحه، وجمح برذون الغزارة فلم أطق كبحه، لم أفق من غمرة غلوه وموقف متلوه، إلا وقد تحيز إلى فئتك، معتزاً بل معتراً، واستقبلها ضاحكاً مفتراً، وهشق لها براً، وإن كان من الخجل مصفراً؛ وليس بأول من هجر، في التماس

والوصل مضن هجر أو بعث التمر إلى هجر؛ وافي نسب بيني اليوم وبين زخرف الكلام، وإجالة جياد الأقلام، في محاورة الأعلام؛ بعد أن حال الجريض، دون القريض، وشغل المريض عن التعريض؛ وغلب حتى الكسل، ونصلت الشعرات البيض كأنها الأسل؛ تروع برقط الحيات، سرب الحياة، وتطرق بذوات الغرر والشيات، عند البيات؛ والشيب الموت العاجل، وإذا ابيض زرع صبحته المناجل، والمعتبر الاجل؛ وإذا اشتغل الشيخ بغير معاده، حكم في الظاهر بابعاده وأسره في ملكة عادة؛ فاغص ابقاك الله وأسمح، لمن قصر عن المطمح، وبالعين الكليلة فالمح؛ واغتنم لباس ثوب الثواب، واشف بعض الجوى بالجواب.

تولاك الله فيما استضفت وملكت، ولا بعدت ولا هلكت، وكان لك آية سلكت؛ ووسمك في السعادة بأوضح السمات، وأتاح لقاءك من قبل الممات؛ والسلام الكريم يعتمد حلال ولدي، وساكن خلدي، بل أخي وإن اتقيت عتبه وسيدي، ورحمة الله وبركاته، من محبه المشتاق إليه محمد بن عبد الله بن الخطيب، في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني، من عام سبعين وسبعمائة.

وكان تقدم منه قبل هذه الرسالة كتاب آخر الي، بعث به إلى تلمسان، فتأخر وصوله، حتى بعث به الأخ يحيى عند وفادته على السلطان، ونمق الكتاب:

يا سيدي إجلالا واعتدادا، وأخي ودا واعتقاداً، ومحل ولدي شفقةً سكنت مني

فؤاداً. طال علي انقطاع أنبائك، واختفاء أخبارك؛ فرجوت أن أبلغ النية هذا المكتوب إليك، وتخترق به الموانع دونك، وإن كنت في موالاتك كالعاطش الذي لا يروى، والاكل الذي لا يشبع، شأن من تجاوز الحدود الطبيعية، والعوائد المألوفة؛ فأنا الآن بعد إنهاء التحية المطلولة الروض بماء الدموع، وتقرير الشوق اللزيم، وشكوى البعاد الأليم، وسؤال إتاحة القرب قبل الفوت من الله ميسر العسير، ومقرب البعيد، أسأل عن أحوالك سؤال أبعد الناس مجالاً في مجال الخلوص لك، وأشدهم حرصاً على اتصال سعادتك؛ وقد اتصل بي في هذه الأيام ما جرى به القدر من تنويع الحال لديك، واستقرارك ببسكرة محل الغبطة بك، باللجأ إلى تلك الرياسة الزكية، الكريمة الأب، الشهيرة الفضل، المعروفة القدر على البعد؛ حرسها الله ملجأً للفضلاء، ومخيماً لرجال العلياء، ومهبا لطيب الثناء، بحوله وقوته؛ وما كل وقت تتاح فيه السلامة؛ فاحمدوا الله على الخلاص، وقاربوا في معاملة الامال، وضنوا بتلك الذات الفاضلة عن المشاق، وأبخلوا بها عن المتالف، فمطلوب الحريص على الدنيا خسيس، والموانع الحافة جمة، والحاصل حسرة، وبأقل السعي تحصل حالة العافية، والعاقل لا يستنكحه الاستغراق فيما آخره الموت، إنما ينال منه الضروري؛ ومثلك لا يعجزه مع التماس العافية أضعاف ما يزجي به العمر من المأكل والمشرب، وحسبنا الله.

وإن تشوفت لحال المحب تلك السيادة الفذة، والبنوة البرة؛ فالحال الحال، من جعل الزمام بيد القدر، والسير في مهيع الغفلة، والسبح في تيار الشواغل؛ ومن وراء الأمور غيب محجوب، وأمل مكتوب، نؤمل فيه عادة الستر من الله؛ إلا أن الضجر الذي تعلمونه، حفظه اليأس لما عجزت الحيلة، وأعوز المناص وسدت المذاهب؛ والشأن اليوم شأن الناس فيما يقرب من الاعتدال.

وفيما يرجع إلى السلطان تولاه الله، على أضعاف ما باشر سيدي من الاغياء في

البر ووصل سبب الإلتحام، والاشتمال، مع الاستقلال، وما ينتجه متعود الظهور، والحمد لله.

وفيما يرجع إلى الأحباب والأولاد، فعلى ما علمت؛ إلا إن الشوق يخامر القلوب، وتصور اللقاء مما يزهد في الوطن وحاضر النعم. سنى الله ذلك على أفضل حال، وييسره قبل الارتحال، من دار المحال. وفيما يرجع إلى الوطن؛ فأحلام النائم خصباً، وهدنة وظهوراً على العدو؛ وحسبك بافتتاح حصن آشر، وبرغه القاطعة بين بلاد الاسلام، ووبذة، والعارين وبيغه وحصن السهلة، في عام؛ ثم دخل بلد إطريرة بنت إشبيلية عنوة، والاستيلاء على ما يناهز خمسة آلاف من السبي؛ ثم فتح دار الملك، ولدة قرطبة: مدينة جيان عنوة في اليوم الأغر المحجل، وقتل المقاتلة، وسبي الذرية، وتعفية الآثار حتى لا يلم بها العمران؛ ثم افتتاح مدينة أبدة التي تلص جيان في ملاءتها: دار التجر، والرفاهية، والبنآت الحافلة، والنعم الثرة؛ نسأل الله جل وعلا أن يصل عوائد نصره، ولا يقطع عنا سبب رحمته، وإن ينفع بما أعان عليه من السعي في ذلك والإعانة عليه.

و لم يتزيد من الحوادث إلا ما علمتم؛ من أخذ الله لنسمة السوء، وخبث الأرض، المسلوب من أثر الخير: عمر بن عبد الله، وتحكم شر الميتة في نفسه، وإتيان النكال على حاشيته، والاستئصال على ذاته؛ والاضطراب مستولٍ على الوطن بعده؛ إلا أن الغرب على علاته لا يرجحه غيره.

والأندلس اليوم شيخ غزاتها الأمير عبد الرحمن بن علي ابن السلطان أبي عليّ، بعد وفاة الشيخ أبي الحسن: علي بن بدر الدين رحمه الله. وقد استقر بها بعد انصراف سيدي الأمير المذكور، والوزير مسعود بن رخو وعمر بن عثمان بن سليمان. والسلطان ملك النصارى بطره، قد عاد إلى ملكة بإشبيلية، وأخوه مجلب عليه بقشتالة، وقرطبة مخالفة عليه، قائمة بطائفة من كبار النصارى الخائفين على أنفسهم، داعين لأخيه؛ والمسلمون قد اغتنموا هبوب هذه الريح. وخرق الله لهم عوائد في باب الظهور والخير، لم تكن تخطر في الامال. وقد تلقب السلطان أيده الله بعقب هذه المكيفات، ب " الغنى بالله " وصدرت عنه مخاطبات، بمجمل الفتوح ومفصلها، يعظم الحرص على إيصالها إلى تلك الفضائل لو أمكن.

وأما ما برجع إلى ما يتشوف إليه ذلك الكمال من شغل الوقت؛ فصدرت تقاييد، وتصانيف، يقال فيها بعدما أعتملت تلك السيادة من الانصراف يا إبراهيم، ولا ابراهيم اليوم.

منها: أن كتاباً رفع إلى السلطان في المحبة، من تصنيف ابن أبي حجلة من المشارقة، أشار الأصحاب بمعارضته، فعارضته، وجعلت الموضوع أشرف، وهو محبة الله؛ فجاء كتاباً أدعى الأصحاب غرابته. وقد وجه إلى المشرق صحبة كتاب: "تاريخ غرناطة"، وغيره من تآليفي. وتعرف تحبيسه بخانقاه سعيد السعداء من مصر؛ وانثال الناس عليه، وهو في لطافة الأغراض، متكلف الإغراض المشارقة. من ملحه:

#سلمت لمصرفي الهوى من بلد يهديه هواؤه لدى استنشاقه

#من ينكر دعواي فقل عني له تكفي امرأة العزيز من عشاقه؟

والله يرزق الإعانة في انتساخه وتوجيهه. وصدر عني جزء سميته: "الغيرة على

أهل الحيرة" وجزء سميته: "حمل الجمهور على السنن المشهور". والأكباب على اختصار كتاب "التاج " للجوهري، ورد حجمه إلى مقدار الخمس، مع حفظ ترتيبه

السهل؛ والله المعين على مشغلة تقطع بها هذه البرهة القريبة البداءة من التتمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله. والمطلوب المثابرة على تعريف يصل من تلك السيادة والبنوة؛ إذ لا يتعذر وجود

قافل من حج، أو لاحقٍ بتلمسان. يبعثها السيد الشريف منها؛ فالنفس شديدة التعطش، والقلوب قد بلغت- من الشوق والاستطلاِ ع- الحناجر. والله أسأل أن يصون في البعد وديعتي منك لديه، ويلبسك العافية، ويخلصك وإياي من الورطة، ويحملنا أجمعين على الجادة، ويختم لنا بالسعادة. والسلام الكريم عوداً على بدء ورحمة الله وبركاته، من المحب المتشوق، الذاكر الداعي، ابن الخطيب. في الثاني من جمادى الأولى من عام تسعة وستين وسبعمائة. انتهى.

(فأجبته) عن هذه المخاطبات، وتفاديت من السجع خشية القصور عن مساجلته، فلم يكن شأوه يلحق. ونمق الجواب: سيدي مجداً وعلواً، وواحدي ذخراً مرجواً، ومحل والدي براً وحنواً. ما زال الشوق مذ نأت بي وبك الدار، واستحكم بيننا البعاد يرعي سمعي أنباءك، ويخيل إلي من أيدي الرياح تناول رسائلك، حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع، وعهدٍ غير مضاع، وود ذي أجناس وأنواع؛ فنشر بقلبي ميت السلو، وحشر أنواع المسرات، وقد للقائك زناد الأمل؛ ومن الله أسأل الإمتاع بك قبل الفوت على ما يرضيك، ويسني أماني وأمانيك. وحييته تحية الهائم، لمواقع الغمائم، والمدلج، للصباح المتبلج وأمل على مقترح الأولياء، خصوصاً فيك؛ من اطمئنان الحال، وحسن القرار، وذهاب الهواجس، وسكون النفرة؛ وعموماً في الدولة، من رسوخ القدم، وهبوب ريح النصر، والظهور على عدو الله، باسترجاع الحصون التى استنقذوها في اعتلال الدولة، وتخريب المعاقل التي هي قواعد النصرانية؛ غريبة لا تثبت إلا في الحلم، وآية من آيات الله. وإن خبيئة هذا الفتح في طي العصور السابقة، إلى هذه المدة الكريمة، لدليل على عناية الله بتلك الذات الشريفة، حين ظهرت على يدها خوارق العادة، وما تجدد آخر الأيام من معجزات

الملة؛ وكمل فيها والحمد لله بحسن التدبير، ويمن النقيبة، من حميد الأثر، وخالد الذكر، طراز في حلة الخلافة النصرية، وتاج في مفرق الوزارة. كتبها الله لكم فيما يرضاه من عباده.

ووقفت عليه الأشراف من أهل هذا القطر المحروس؛ وأذعته في الملأ سروراً بعز الإسلام، واظهاراً لنغمة الله، واستطراداً لذكر الدولة المولوية بما تستحقه من طيب الثناء، والتماس الدعاء، والحديث بنعمتها، والإشادة بفضلها على الدولة السالفة والخالفة وتقدمها، فانشرحت الصدور حباء وامتلأت القلوب إجلالاً وتعظيماً، وحسنت الآثار اعتقاداً ودعاءً.

وكان كتاب سيدي لشرف تلك الدولة عنوانا، ولما عساه يستعجم من لغتي في مناقبها ترجماناً، زاده الله من فضله، وأمتع المسلمين ببقائه. وبثثته شكوى الغريب، من السوق المزعج، والحيرة التي تكاد تذهب بالنفس أسفاً، للتجافي عن مهاد الأمن، والتقويض عن دار العز، بين المولى المنعم، والسيد الكريم، والبلد الطيب،

والإخوان البرة؛(ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير). وان تشوفت السيادة الكريمة إلى الحال، فعلى ما علمتم، سيراً مع الأمل، ومغالبة للأيام على الحظ، وإقطاعا للغفلة جانب العمر:

#هل نافعي والجد في صبب   مديً مع الآمال في صعد

رجع الله بنا إليه. ولعل في عظتكم النافعة، شفاء هذا الداء العياء إن شاء الله؛

على أن لطف الله مصاحب، وجوار هذه الرياسة المزنية وحسبك بها علمية عصمة وافية صرفت وجه القصد إلى ذخيرتي التي كنت أعتدها منهم كما علمتم، على حين

تفاقم الخطب، وتلون الدهر، والإفلات من مظان النكبة، وقد رتعت حولها؛ بعد ما جرته الحادثة بمهلك السلطان المرحوم على يد ابن عمه، قريعه في الملك، وقسيمه في النسب؛ والتياث الجاه، وتغير السلطان، واعتقال الأخ المخلف،

واليأس منه، لولا تكييف الله في نجائه، والعيث بعده في المترل والولد، واغتصاب الضياع المقتناة ص بقايا ما متعت به الدولة النصرية- أبقاها الله- من النعمة؛ فآوى إلى الوكر، وساهم في الحادث، وأشرك في الجاه والمال، وأعان على نوائب الدهر، وطلب الوتر، حتى رأى الدهر مكاني، وأمل الملوك استخلاصي، وتجاوزوا في إتحافي. والله المخلص من عقال الامال، والمرشد إلى نبذ هذه الحظوظ المورطة.

وأنبأني سيدي بما صدر عنه من التصانيف الغريبة، والرسائل البليغة، في هذه الفتوحات الجليلة، وبودي لو وقع الاتحاف بها أو بعضها، فلقد عاودني الندم على ما فرطت. وأما أخبار هذا القطر فلا زيادة على ما علمتم؛ من استقرار السلطان أبي إسحق ابن السلطان أبي يحيى بتونس مستبدا بأمره بالحضرة بعد مهلك شيخ الموحدين أبي محمد بن تافراكين القائم بأمره، رحمة الله عليه؛ مضايقاً في جبابة الوطن، وأحكامه بالعرب المستظهرين

بدعوته، مصانعاً لهم بوفره على أمان الرعايا والسابلة، لو أمكن حسن السياسة جهد الوقت؛ ومن انتظام بجاية محل دولتنا في أمر صاحب قسنطينة وبونة غلاباً كما علمتم، محملا الدولة بصرامته وقوة شكيمته فوق طوقها، من الاستبداد والضرب على أيدي المستغلين من الأعراب، منتقض الطاعة أكثر أوقاته لذلك، إلا ما شمل البلاد من تغلب العرب، ونقص الأرض من الأطراف والوسط، وخمود ذبال الدول في كل جهة؛ وكل بداية فإلى تمام.

وأما أخبار المغرب الأقصى والأدنى فلديكم طلعه، وأما المشرق فأخباز الحاج هذه السنة من اختلاله، وانتقاض سلطانه، وانتزاء الجفاة على كرسية، وفساد المصانع والسقايات المعدة لوفد الله وحاج بيته، ما يسخن العين ويطيل البث، حتى لزعموا أد الهيعة اتصلت بالقاهرة أياماً، وكثر الهرج في طرقاها وأسواقها، لما وقع بين أسندمر المتغلب بعد يلبغا الخاسكي، وبين سلطانه ظاهر القلعة، من الجولة التي كانت دائرتها عليه، أجلت عن زهاء الخمسمائة قتلى، من حاشية وموالي يلبغا؛

وتقبض على الباقين، فأودع منهم السجون، وصلب الكثير، وقتل سندمر في محبسه، وألقي زمام الدولة بيد كبير من موالي السلطان، فقام بها مستبداً، وقادها مستقلاً؛ وبيد الله تصاريف الأمور، ومظاهر الغيوب، جل وعلاً.

ورغبتي من سيدي أبقاه الله أن لا يغب خطابه عني، متى أمكن، يصل بذلك مننه الجمة، وأن يقبل عني أقدام تلك الذات المولوية، ويعرفه بما عندي من التشيع لسلطانه، والشكر لنعمته، وأن ينهوا عني لحاشيته وأهل اختصاصه، التحية، المختلسة من أنفاس الرياض، كبيرهم وصغيرهم.

وقد تأدى مني إلى حضرته الكريمة خطاب على يد الحاج نافع سلمه الله تناوله من الأخ يحيى عند لقائه إياه بتلمسان، بحضرة السلطان أبي حمّو أيده الله فربما يصل، وسيدي يوضح من ثنائي ودعائي ما عجز عنه الكتاب. والله يبقيكم ذخراً للمسلمين، وملاذاً للاملين بفضله. والسلام عليكم وعلى من لاذ بكم من السادة الأولاد المناجيب، والأهل والحاشية والأصحاب، من المحب فيكم، المعتد بكم شيعة فضلكم، ابن خلدون؛ ورحمة الله وبركاته.

عنوانه: سيدي وعمادي، ورب الصنائع والأيادي، والفضائل الكريمة الخواتم والمبادي، إمام ا أمة، علم الأئمة، تاج الملة، فخر العلماء الجلة، عماد الإسلام، مصطفى الملوك الكرام، نكتة الدول، كافل الإمامة، تاج الدول، أثير الله، ولي أمير المسلمين الغني بالله أيده الله الوزير أبو عبد الله بن الخطيب، أبقاه الله، وتولى عن المسلمين جزاءه. وكتب إلي من غرناطة:

يا سيدي وولي، وأخي ومحل ولدي ! كان الله لكم حيث كنتم، ولا أعدمكم لطفه وعنايته. لو كان مستقركم بحيث يتأتى لي إليه ترديد رسول، أو إيفاد متطلع، أو توجيه نائب، لرجعت على نفسي باللائمة في إغفال حقكم؛ ولكن العذر ما علمتم؛ واحمدوا الله على الاستقرار في كهف ذلك الفاضل الذي وسعكم كنفه.وشملكم فضله شكر الله حسبه الذي لم يخلف، وشهرته التي لم تكذب.وإني اغتنمت سفر هذا الشيخ، وافد الحرمين بمجموع الفتوح، في إيصال كتابي

هذا، وبودي لو وقفتم على ما لديه من البضاعة التي أنتم رئيسها وصدرها، فيكون لكم في ذلك بعض أنس، وربما تأدى ذلك في بعضه مما لم يختم عليه، وظاهر الأمور نحيل علية في تعريفكم بها، وأما البواطن فمما لا يتأتى كثرة وضنانة، وأخص، بالصاد، ما أظن تشوفكم إليه حالي. فاعملوا أني قد بلغ بي الماء الزبى، واستولى علي سؤ المزاح المنحرف، وتوالت الأمراض، وأعوز العلاج، لبقاء السبب، والعجز عن دفعه. وهي هذه المداخلة جعل الله العاقبة فيها إلى خير؛ ولم أترك وجهاً من وجوه الحيلة إلا بذلته. فما أغنى ذلك عني شيئاً، ولولا أنني بعدكم شغلت الفكر بهذر التأليف، مع الزهد. وبغد العهد. وعدم الإلماع بمطالعة الكتب. لم يتمش حالي من طريق فساد الفكر إلى هذا الحد؛ وآخر ما صدر عني كناش سميته باستنزال اللطف الموجود، في أشر الوجود أمليته في هذه الأيام التي أقيم بها رسم النيابة عن السلطان في سفره إلى الجهاد. بوذى لو وقفتم عليه. وعلى كتابي في المحبة؛ وعسى الله أن ييسر ذلك.

ومع هذا كله. والله ما قصرت في الحرص على إيصال مكتوب إليكم. إما من جهة أخيكم؛ أو من جهة السيد الشريف أبي عبد الله. حتى من المغرب إذا سمعت الركب يتوخه منه فلا أدري هل بلغكم شيء من ذلك أم لا.
والأحوال كلها على تركتموها عليه. وأحبابكم بخير. على ما علمتم من الشوق والتشوف والارتماض لمفارقتكم. ولا حول ولا قوة إلا بالله.
والله يحفظكم. ويكون لكم. ويتولى أموركم؛ والسلام عليكم ورحمة الله. من المحب الواحش الشيخ ابن الخطيب. في غرة ربيع الثاني من عام إحدى وسبعين وسبعمائة.
وبباطنه مدرجة نصها: سيدي رضي الله عنكم. استقر بتلمسان. في سبيل تقلب ومطاوعة مزاج تعرفونه صاحبنا المقدم في صنعة الطب أبو عبد الله الشقوري. فإن اتصل بكم فأعينوه على يقف عليه اختياره وهذا لا يحتاج معه إلى مثلكم. عنوانه: - سيدي ومحل أخي. الفقيه الجليل. الصدر الكبير المعظم. الرئيس الحاجب. العالم

الفاضل الوزير ابن خلدون. وصل الله سعده. وحرس مجده. بمنه

وإنما طولت بذكر هذه المخاطبات. وإن كانت فيما يظهر. خارجة عن غرض الكتاب. لأن فيها كثيراً من أخباري. وشرح حالي. فيستوفي ذلك منها من يتشوف إليه من المطالعين للكتاب.

ثم إن السلطان أبا حمّو لم يزل معتملاً في الاجلاب على بجاية. واستئلاف قبائل

رياح لذلك. ومعولا على مشايعتي فيه. ووصل يده مع ذلك بالسلطان أبي إسحق ابن السلطان أبي بكر صاحب تونس من بني أبي حفص، لما كان بينه وبين أبي العباس صاحب بجاية وقسنطينة، وهو ابن أخيه، من العداوة التي تقتضيها مقاسمة النسب والملك، وكان يوفد رسله عليه في كل وقت، ويمرون بي، وأنا ببسكرة، فأؤكد الوصلة بمخاطبة كل منهما؛ وكان أبو زيان ابن عم السلطان أبي حمّو بعد إجفاله عن بجاية، واختلال معسكره، قد سار في أثره إلى تلمسان، وأجلب على نواحيها، فلم يظفر بشيء، وعاد إلى بلاد حصين، فأقام بينهم، واشتملوا عليه، ونجم النفاق في سائر أعمال المغرب الأوسط، واختلف أحياء زغبة على السلطان، وانتبذ الكثير عنه إلى القفر. ولم يزل يستألفهم حتى اجتمع له الكثير منهم؛ فخرج في عساكره في منتصف تسع وستين وسبعمائة إلى حصين وأبي زيان، واعتصموا بجبل تيطري، وبعث إلي في استنفار الزواودة للأخذ بحجزتهم من جهة الصحراء، وكتب يستدعي اشياخهم: يعقوب بن علي كبير أولاد محمد، وعثمان بن يوسف كبير أولاد سباع بن يحيى. وكتب إلى ابن مزني قعيدة وطنهم بإمدادهم في ذلك، فأمدهم؛ وسرنا مغربين إليه، حتى نزلنا القطفا بتل تيطري، وقد أحاط السلطان به من جانب التل، على أنه إذا فرغ من شأنهم سار معنا إلى بجاية وبلغ الخبر إلى صاحب بجاية أبي العباس؛ فاستألف من بقي من قبائل رياح، وعسكر بطرف ثنية القصاب المفضية إلى المسيلة. وبينما نحن على ذلك اجتمع المخالفون من زغبة: وهم خالد بن عامر كبير بني عامر وأولاد عريف كبراء سويد، ونهضوا إلينا بمكاننا من القطفا؛ فأجفلت أحياء الزواودة، وتأخرنا إلى المسيلة، ثم إلى الزاب. وسارت زغبة إلى تيطري، واجتمعوا مع أبي زيان وحصين، وهجموا على معسكر السلطان أبي

حمّو ففلوه ورجع منهزماً إلى تلمسان. ولم يزل من بعد ذلك على استئلاف زعبة ورياح يؤمل الظفر بوطنه وابن عمه، والكرة على بجاية عاماً فعاماً، وأنا على حال في مشايعته، وإيلاف ما بينه وبين الزواودة، والسلطان أبي إسحق صاحب تونس، وابنه خالد من بعده. ثم دخلت

زغبة نجي طاعته، واجتمعوا على خدمته، ونهض من تلمسان لشفاء نفسه من حصين وبجاية، وذلك. في أخريات إحدى وسبعين وسبعمائة؛ فوفدت عليه بطائفة من الزواودة أولاد عثمان بن يوسف بن سليمان لنشارف أحواله، ونطالعه بما يرسم لهم في خدمته، فلقيناه بالبطحاء. وضرب لنا موعداً بالجزائر، انصرف به العرب إلى أهليهم، وتخففت بعدهم لقضاء بعض الأغراض واللحاق بهم، وصليت به عيد الفطر على البطحاء، وخطبت به، وأنشدته عند انصرافه من المصفى أهنيه بالعيد، وأحرضه:

#هذي الديار فحيهن صباحا وقف المطايا بينهن طلاحا

#لا تسأل الأطلال إن لم تروها عبرات عينك واكفاً ممتاحا

#فلقد أخذن على جفونك موثقا أن لا يرين مع البعاد شحاحا

#إيه عن الحي الجميع وربما طرب الفؤاد لذكرهم فارتاحا

#ومنازل للظاعنين استعجمت حزنا وكانت بالسرور فصاحا

وهي طويلة، ولم يبق في حفظي منها إلا هذا.

وبينما نحن في ذلك، بلغ الخبر بأن السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الأقصى

من بني مرين، قد استولى على جبل عامر بن محمد الهنتاتي بمراكش، وكان آخذا بمخنقه منذ حول. وساقه إلى فاس فقتله بالعذاب، وإنه عازم على النهوض إلى تلمسان، لما سلف من السلطان أبي حمّو أثناء حصار السلطان عبد العزيز لعامر في جبلة، من الأجلاب على ثغور المغرب؛ ولحين وصول هذا الخبر؛ أضرب السلطان أبو حمّو عن ذلك الشأن الذي كان فيه، وكر راجعاً إلى تلمسان. وأخذ في أسباب الخروج إلى الصحراء، مع شيعة بني عامر من أحياء زغبة، فاستألف، وجمع، وشد الرحال، وقضى عيد الأضحى؛ وطلبت منه الإذن في الانصراف إلى الأندلس، لتعذر الوجهة إلى بلاد رياح، وقد أظلم الجو بالفتنة، وانقطعت السبل؛ فأذن لي، وحملني رسالة فيما بينه وبين. السلطان ابن الأحمر. وانصرفت إلى المرسى بهنين؛ وجاءه الخبر بترول صاحب المغرب تازا في عساكره؛ فأجفل بعدي من تلمسان، ذاهباً إلى الصحراء عن طريق البطحاء. وتعذر علي ركوب البحر من هنين فأقصرت، وتأدى الخبر إلى السلطان عبد العزيز بأني مقيم بهنين، وإن معي وديعة احتملتها إلى صاحب

بالأندلس، تخيل ذلك بعض الغواة، فكتب إلى السلطان عبد العزيز فأنفذ من وقته سرية من تازا تعترضني لاسترجاع تلك الوديعة، واستمر هو إلى تلمسان؛ ووافتني السرية بهنين وكشفوا الخبر فلم يقفوا على صحته، وحملوني إلى السلطان، فلقيته قريباً من تلمسان، واستكشفني عن ذلك الخبر، فأعلمته بيقينه. وعنفني على مفارقة دارهم، فاعتذرت له بما كان من عمر بن عبد الله المستبد عليهم، وشهد لي كبير مجلسه، وولي أبيه وابن وليه: ونزمار بن عريف، ووزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة؛ واحتفت الألطاف. وسألني في ذلك

المجلس عن أمر بجاية، وأفهمني أنه يروم تملكها؛ فهونت عليه السبيل إلى ذلك، فسر به؛ وأقمت تلك الليلة في الاعتقال. ثم أطلقني من الغد، فعمدت إلى رباط الشيخ الولي أبي مدين، ونزلت بجواره مؤثراً لذ؛ خلي والانقطاع للعلم لو تركت له.

مشايعة السلطان عبد العزيز صاب المغرب علي بني عبد الواد:

ولما دخل السلطان عبد العزيز تلمسان، واستولى عليها، وبلغ خبره إلى أبي حمّو

وهو بالبطحاء، فأجفل من هنالك، وخرج في قومه وشيعته من بني عامر، ذاهباً إلى بلاد رياح؛ فسرح السلطان وزيره أبا بكر بن غازي في العساكر لاتباعه. وجمه عليه أحياء زغبة والمعقل باستئلاف وليه ونزمار وتدبيره؛ ثم أعمل السلطان نظره ورأى أن يقدمني أمامه إلى بلاد رياح لأوطد أمره، وأحملهم على مناصرته، وشفاء نفسه من عدوه بما كان السلطان آنس مني من استتباع رياح، وتصريفهم فيما أريده من مذاهب الطاعة. فاستدعاني من خلوتي بالعباد عند رباط الولي أبي مدين. وأنا قد أخذت في تدريس العلم، واعتزمت على الانقطاع؛ فانسني، وقربني، ودعاني إلى ما ذهب إليه من ذلك؛ فلم يسعني إلا إجابته. وخلع علي، وحملني؛ وكتب إلى شيوخ الزواودة بامتثال ما ألقيه إليهم من أوامره. وكتب إلى يعقوب بن علي، وابن مزنى بمساعدتي على ذلك، وأن يحاولوا على استخلاص أبي حمّو من بين أحياء بني عامر، ويحولوه إلى حي يعقوب بن علي؛ فودعته وانصرفت في عاشوراء إثنين وسبعين وسبعمائة، فلحقت الوزير في عساكره وأحياء العرب من المعقل وزغبة على البطحاء. ولقيته، ودفعت إليه كتاب السلطان، وتقدمت أمامه. وشيعني ونزمار يومئذ، وأوصاني بأخيه محمد. وقد كان أبو حمّو قبض عليه عندما أحس منهم بالخلاف، وأنهم يرومون الرحلة إلى المغرب. وأخرجه معه من تلمسان مقيداً، واحتمله في معسكره؛ فأكد علي ونزمار يومئذ في المحاولة على استخلاصه بما أمكن. وبعث معي ابن أخيه عيسى في جماعة من سويد يبذرق بي ويتقدم إلى أحياء حصين بإخراج أبي زيان من بينهم؛ فسرنا جميعاً، وانتهينا إلى أحياء حصين. وأخبرهم فرح بن عيسى بوصية عمه ونزمار إليهم، فنبذوا إلى أبي زيان عهده، وبعثوا معه منهم من أوصله إلى بلاد رياح. ونزل على أولاد يحيى بن علي بن سباع، وتوغلوا به في القفر، واستمريت أنا ذاهباً إلى بلاد رياح؛ فلما انتهيت إلى المسيلة ألفيت السلطان أبا حمّو وأحياء رياح معسكرين قريباً منها في وطن أولاد سباع بن يحيى من الزواودة، وقد تساتلوا إليه، وبذل فيهم العطاء ليجتمعوا إليه. فلما سمعوا بمكاني بالمسيلة، جاؤوا إلي فحملتهم على طاعة السلطان عبد العزيز، وأوفدت أعيانهم وشيوخهم على الوزير أبي بكر بن غازي، فلقوه ببلاد الديالم عند نهر واصل؛ فآتوه طاعتهم، ودعوه إلى دخول بلادهم في اتباع عدوه. ونهض معهم، وتقدمت أنا من المسيلة إلى بسكرة، فلقيت بها يعقوب بن علي. واتفق هو وابن مزنى على طاعة السلطان، وبعث ابنه محمداً للقاء أبي حمّو وأمير بني عامر خالد بن عامر؛ يدعوهم إلى نزول وطنه، والبعد به عن بلاد السلطان عبد العزيز؛ فوجده متدلياً من المسيلة إلى الصحراء. ولقيه على الذوسن وبات ليلته يعرض عليهم التحول من وطن أولاد سباع إلى وطنهم بشرقي الزاب. وأصبح يومه كذلك، فما راعهم آخر النهار إلا انتشار العجاج خارجاً إليهم من أفواه الثنية؛

فركبوا يستشرقون، وإذا بهوادي الخيل طالعة من الثنية، وعساكر بني مرين والمعقل وزغبة متتالية أمام الوزير أبي بكر بن غازي، قد دل بهم الطريق

وفد أولاد سباع الذين بعثتهم من المسيلة؛ فلما أشرفوا على المخيم، أغارو عليه مع غروب الشمس؛ فأجفل بنو عامر، وانتهب فخيم السلطان أبي حمّو ورحائله وأمواله. ونجا بنفسه تحت الليل، وتمزق شمل ولده وحرمه، حتى خلصوا إليه بعد أيام، واجتمعوا بقصور مصاب من بلاد الصحراء وامتلأت أيدي العساكر والعرب من نهابهم. وانطلق محمد بن عريف في تلك الهيعة. أطلقه الموكلون به، وجاء إلى الوزير وأخيه وتزمار، وتلقوه بما يجب له. وأقام الوزير أبو بكر بن غازي على الدوسن أياماً أراح فيها وبعث إليه ابن مزنى بطاعته، وارغد له من الزاد والعلوفة، وارتحل راجعاً إلى المغرب وتخففت بعده أياماً عند أهلي ببسكرة. ثم ارتحلت إلى السلطان في وفد عظيم مرّ الزواودة، يقدمهم أبو دينار أخو يعقوب بن علي، وجماعة من أعيانهم؛ فسابقنا الوزير إلى تلمسان، وقدمنا على السلطان؛ فوسعنا من حبائه وتكرمته، ونزله ما بعد العهد بمثله. ثم جاء من بعدنا الوزير أبو بكر بن غازي على الصحراء، بعد أن مرّ بقصور بني عامر هنالك فخربها، وكان يوم قدومه على السلطان يوماً مشهوداً؛ وأذن بعدها لوفود الزواودة بالانصراف إلى بلادهم. وقد كان ينتظر بهم قدوم الوزير، ووليه ونزمار بن عريف؛ فودعوه، وبالغ في الاحسان إليهم، وانصرفوا إلى بلادهم. ثم أعمل نظره في إخراج أبي زيان من بين أحياء الزواودة لما خشي من رجوعه إلى حصين؛ فوامرني في ذلك، وأطلقني إليهم في محاولة انصرافه عنهم، فانطلقت لذلك. وكان أحياء حصين قد توجسوا الخيفة من السلطان وتنكروا له، وانصرفوا إلى أهلهم بعد مرجعهم من غزاتهم مع الوزير، وبادروا باستدعاء أبي زيان من مكانه عند أولاد يحيى بن علي، وأنزلوه بينهم؛ واشتملوا عليه، وعادوا إلى الخلاف الذي كانوا عليه أيام أبي حمّو؛ واشتعل المغرب الأوسط ناراً. ونجم صبي من بيت الملك في مغراوة، وهو حمزة بن علي بن راشد؛ فر من معسكر الوزير ابن غازي أيام مقامه عليها فاستولى على شلف، وبلاد قومه. وبعث السلطان وزيره عمر بن مسعود في العساكر لمنازلته، وأعيا داؤه؛ وانقطعت أنا ببسكرة، وحال ذلك ما بيني وبين السلطان الا بالكتاب والرسالة. وبلغني في تلك الأيام وأنا ببسكرة مفر الوزير ابن الخطيب من الأندلس، وقدومه على السلطان بتلمسان؛ توجس الخيفة من سلطانه، بما كان له من الاستبداد عليه، وكثرة السعاية من البطانة فيه؛ فأعمل الرحلة إلى الثغور المغربية لمطالعتها بإذن سلطانه. فلما حاذى جبل الفتح قفل الفرضة، دخل إلى الجبل، وبيده عهد السلطان عبد العزيز إلى القائد هنالك بقبوله. وأجاز البحر من حينه إلى سبتة، وسار إلى السلطان بتلمسان، وقدم عليهما في يوم مشهود. وتلقاه السلطان من الحظوة والتقريب وإدرار النعم بما لا يعهد مثله. وكتب إلي من تلمسان يعرفني يخبره، ويلم ببعض العتاب على ما بلغه من حديثي الأول بالأندلس. ولم يحضرني الأن كتابه؛ فكان جوابي عنه ما نصه:

الحمد لله ولا قوة إلا بالله، ولا راد لما قضاه الله.

يا سيدي وبعم الذخر الأبدي، والعروة الوثقى التي اعتلقتها يدي، أسلم عليكم سلام القدوم، على المخذوم، والخضوع، للملك المتبوع، لا ! بل أحييكم تحية المشوق، للمعشوق، والمدلج، للصباح المتبلج، وأقرر ما أنتم أعلم بصحيح عقدي فيه من حبي لكم، ومعرفتي بمقداركم، وذهابي إلى أبعد الغايات في تعظيمكم، والثناء عليكم، والإشادة في الإنفاق بمناقبكم، ديدنا معروفاً، وسجيةً راسخةً، يعلم الله وكفى به شهيداً؛ وبهذا كما في علمكم قسما ما اختلف لي فيه أولاً ولا آخراً، ولا شاهداً ولا غائباً. وأنتم أعلم بما في نفسي، وأكبر شهادة في خفايا ضميري. ولو كنت ذاك، فقد سلف من حقوقكم، وجميل اخذكم، واجتلاب الحظ - لو هيأه القدر - بمساعيكم، وإيثاري بالمكان من سلطانكم، ودولتكم، ما يستلين معاطف القلوب، ويستل سخائم الهواجس، فأنا أحاشيكم من استشعار نبوة، أو إحقاق ظن؛ ولو تعلق بقلب ساق حر ذرء وذرء، فحاش لله أن يقدح في الخلوص لكم، أو يرجح سوابقكم، إنما هو خبيئة الفؤاد إلى الحشر أو اللقاء. ووالله وجميع ما يقسم به، ما اطلع على مستكنه مني غير صديقي وصديقكم الملابس - كان - لي ولكم الحكيم الفاضل العلم أبي عبد الله الشقوري أعزه الله. نفثة مصدور، ومباثة خلوص، إذ

أنا أعلم الناس بمكانه منكم، وقد علم ما كان مني حين مفارقة صاحب تلمسان، واضمحلال أمره، من إجماع الأمر على الرحلة إليكم، والخفوف إلى حاضرة البحر للإجازة إلى عدو بكم، تعرضت فيها للتهم، ووقفت بمجال الظنون، حتى تورطت في الهلكة بما ارتفع عني مما لم آته، ولا طويت العقد عليه، لولا حلم مولانا الخليفة، وحسن رأيه في وثبات بصيرته، لكنت في الهالكين الأولين؛ كل ذلك شوقاً إلى لقائكم، وتمثلاً لأنسكم؛ فلا تظنوا بي الظنون، ولا تصدقوا في التوهمات، فانا من علمتم صداقة، وسذاجة، وخلوصا، واتفاق ظاهر وباطن، أثبت الناس عهداً، وأحفظهم غيباً، وأعرفهم بوزن الإخوان ومزايا الفضلاء؛ ولأمر ما تأخر كتابي من تلمسان فأني كنت أستشعر ممن استضافني ريباً بخطاب سواه، خصوصاً جهتكم، لقديم ما بين الدولتين من الاتحاد والمظاهرة واتصال اليد، مع أن الرسول تردد إلي، وأعلمني اهتمامكم واهتمام السلطان، تولاه الله، باستكشاف ما انبهم من حالي؛ فلم أترك شيئاً مما أعلم تشوفكم إليه إلا وكشفت له قناعه، وأمنته على بلاغه؛ ولم أزل بعد انتياش مولانا الخليفة لذمائي، وجذبه بضبعي سابحاً في تيار الشواغل كما علمتم القاطعة حتى عن الفكر.

وسقطت إلي بمحل خدمتي من هذه القاصية أخبار خلوصكم إلى المغرب، قبل وصول راجلي إلى الحضرة، غير جلية ولا ملتئمة ولم يتعين فلقي العصى ولا مستقر النّوى؛ فأرجأت الخطاب إلى استجلائها؛ وأفدت في كتابكم العزيز علي، الجاري على سنن الفضل، ومذهب المجد، غريب ما كيفه القدر من تنويع الحال لديكم. وعجبت من تأتي أملكم الشارد فيه كما كنا نستبعده عند المفاوضة؛ فحمدت الله لكم على الخلاص من ورطة الدول على أحسن الوجوه، وأجمل المخارج الحميدة العواقب في الدنيا والدين، العائدة بحسن المآل في المخلف: من أهل وولد ومتاع وأثر، بعد أن رضتم جموح الأيام، وتوقلتم قلل العز، وقدتم الدنيا بحذافيرها، وأخذتم بآفاق السماء على أهلها. وهنيئاً فقد نالت نفسكم التواقة أبعد أمانيها، ثم

تاقت إلى ما عند الله؛ واشهد لما ألهمتم للإعراض عن الدنيا ونزع اليد من حطامها عند الإصحاب والإقبال، وهى الآمال، إلا جذبا وعناية من الله، وحباً؛ وإذا أراد الله أمراً يسر أسبابه.واتصل بي ما كان من تحفي المثابة المولوية بكم، واهتزاز الدولة لقدومكم؛ ومثل

تلك الخلافة، أيدها الله، من يثابر على المفاخر، ويستأثر بالأخاير. وليت ذلك عند إقبالكم على الحظ، وأنسكم باجتلاب الامال، حتى يحسن المتاع بكم، ويتجمل السرير الملوكي بمكانكم؛ فالظن إن هذا الباعث الذي هزم الآمال، ونبذ الحظوظ، وهون المفارق العزيز، يسومكم الفرار إلى الله، حتى يأخذ بيدكم إلى فضاء المجاهدة، ويستوي بكم على خودي الرياضة. والله يهدي للتي هي أقوم. وكأني بالأقدام تلت، والبصائر بإلهام الحق صقلت، والمقامات خلفت بعد أن استقبلت، والعرفان شيمت أنواره وبوارقه، والوصول انكشفت حقائقه لما ارتفعت عوائقه. وأما حالي، والظن بكلم الاهتمام بها، والبحث عنها، فغير خفية بالباب المولوي - أعلاه الله - ومظهرها في طاعته، ومصدرها عن أمره، وتصاريفها في خدمته، والزعم إني قمت المقام المحمّود في التشيع، والانحياش، واستمالة الكافة، إلى المناصحة، ومخالطة القلوب للولاية؛ وما يتشوفه مجدكم ويتطلع إليه فضلكم واهتمامكم، من خاصيها في النفس والولد، فجهينة خبره مؤذي كتابي إليكم، ناشيء تأديبي، وثمرة تربيتي؛ فسهلوا له الإذن، وألينوا له جانب النجوى، حتى يؤدي ما عندي وما عندكم، وخذوه بأعقاب الأحاديث أن يقف عند مبادئها، وائتمنوه على ما تحدثون، فليس بظنين على السر.

وتشوفي لما يرجع به إليكم سيدي وصديقي وصديقكم المغرب في المجد والفضل، المساهم في الشدائد، كبير المغرب، وظهير الدولة، أبو يحيى بن أبي مدين - كان

الله له - في شأن الولد والمخفف، تشوف الصديق لكم، الضنين على الأيام بقلامة الظفر من ذات يدكم، فأطلعوني طلع ذلك ولا يهمكم؛ فالفراق الواقع حسن، والسلطان كبير، والأثر جميل، والعدو الساعي قليل وحقير، والنية صالحة، والعمل خالص؛ ومن كان لله كان الله له.

واستطلاع الرياسة المزنية الكافلة - كافأ الله يدها البيضاء - عني وعنكم إلى مثله من أحوالكم استطلاع من يسترجح وزانكم، ويشكر الزمان على ولاده لمثلكم. وقد قررت لعلومه من مناقبكم، وبعد شأوكم، وغريب منحاكم، ما شهدت به آثاركم الشائعة، الخالدة في الرسائل المتأدية، وعلى ألسنة الصادر والوارد من الكافة؛ من حمل الدولة، واستقامة السياسة؛ ووقفته على سلامكم، وهو يراجعكم بالتحية، ويساهمكم بالدعاء.

وسلامي على سيدي، وفلذة كبدي ومحل ولدي، الفقيه الزكي الصدر أبي الحسن نجلكم، أعزه الله؛ وقد وقع مني موقع البشرى حلوله من الدولة بالمكان العزيز، والرتبة النابهة، والله يلحفكم جميعاً رداء العافية والستر ويمهد لكم محل الغبطة والأمن، ويحفظ عليكم ما أسبغ من نعمته، ويجريكم على عوائد لطفه وعنايته؛ والسلام الكريم يخصكم من المحب الشاكر الداعي الشائق شيعة فضلكم: عبد الرحمن بن خلدون، ورحمة الله وبركاته في يوم الفطر عام إثنين وسبعين وسبعمائة.وكان بعث إلي مع كتابه نسخة كتابه إلى سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس،

عندما دخل جبل الفتح، وصار إلى إيالة بني مرين، فخاطبه من هنالك بهذا الكتاب، فرأيت أن أثبته هنا وإن لم يكن من غرض التأليف لغربته، ونهايته في الجودة، وإن مثله لا يهمل من مثل هذا الكتاب، مع ما فيه من زيادة الاطلاع على أخبار الدول في تفاصيل أحوالها. ونص الكتاب:

#بانوا فمن كان باكياً يبكي هذي ركاب السرى بلا شك

#فمن ظهور الركاب معملة إلى بطون الربى إلى الفلك

#تصدع الشمل مثلما انحدرت إلى صبوب جواهر السلك

#من النوى قبل لم أزل حذراً هذى النوى جل مالك الملك

مولاي. كان الله لكم وتولى أمركم. أسلم عليكم سلام الوداع، وأدعو الله في

تيسير اللقاء والاجتماع، بعد التفرق والانصداع؛ وأقرر لديكم أن الإنسان أسير الأقدار، مسلوب الاختيار، متقلب في حكم الخواطر والأفكار، وأن لا بد لكل أول من آخر، وأن التفرق لما لزم كل إثنين بموتٍ أو في حياة، ولم يكن منه بد، كان خير أنواعه الواقعة بين الأحباب، ما وقع على الوجوه الجميلة البريئة من الشرور. وبعلم مولاي حال عبده منذ وصل إليكم من المغرب بولدكم ومقامه لديكم بحال قلق وقلعة، لولا تعليلكم، ووعدكم، وارتقاب اللطائف في تقليب قلبكم، وقطع مراحل الأيام حريصاً على استكمال سنكم، ونهوض ولدكم واضطلاعكم بأمركم، وتمكن هدنة وطنكم، وما تحمل في ذلك من ترك غرضه لغرضكم، وما استقر بيده من عهودكم، وأن العبد الآن لما تسبب لكم في الهدنة من بعد الظهور وإلعز، ونجح السعي، وتأتى لسنين كثيرة الصلح، ومن بعد أن لم يبق لكم بالأندلس فشغب من القرابة، وتحرك لمطالعة الثغور الغربية، وقرب من فرضة المجاز، واتصال الأرض ببلاد المشرق، طرقته الأفكار، وزعزعت صبره رياح الخواطر، وتذكر إشراف العمر على التمام، وعواقب الاستغراق، وسيرة الفضلاء عند شمول البياض، فغلبته حال شديدة هزمت التعشق بالشمل الجميع، والوطن المليح، والجاه الكبير، والسلطان القليل النظير، وعمل بمقتضى قوله: "موتوا قبل أن تموتوا". فإن صحت هذه الحال المرجو من إمداد الله، تنقلت الأقدام إلى أمام، وقوي التعلق بعروة الله الوثقى، وإن وقع العجز، وافتضح العزم، فالله يعاملنا بلطفه. وهذا المرتكب مرام صعب، لكن سهله علي أمور: منها أن الانصراف لما لم يكن منه بد، لم يتعين على غير هذه الصورة، إذ كان عندكم من باب المحال. ومنها أن مولاي لو سمح لي في غرض الانصراف، لم تكن لي قدرة على موقف وداعه، لا والله! ولكان الموت أسبق إليئ؛ وكفى بهذه الوسيلة الحبية- التي يعرفها- وسيلة. ومنها حرصي على أن يظهر صدق دعواي فيما كنت أهتف به، وأظن أني لا اصدق. ومنها اغتنام المفارقة في زمن

الأمان، والهدنة الطويلة، والاستغناء؛ إذ كان الانصراف المفروض ضرورياً قبيحاً في غير هذه الحال. ومنها- وهو أقوى الأعذار- إنني مهما لم أطق تمام هذا الأمر، أو ضاق ذرعي به، لعجز، أو مرض، أو خوف طريق، أو نفاد زاد، أو شوق غالب، رجعت رجوع الأب الشفيق، إلى الولد البر الرضي، إذ لم أخلف ورائي مانعاً من

الرجوع، من قول قبيح أو فعل؛ بل خففت الوسائل المرعية، والآثار الخالدة، والسير الجميلة؛ وانصرفت بقصد شريف فقت به أشياخي، وكبار وطني، وأهل طوري، وتركتكم على أتم ما أرضاه، مثنياً عليكم، داعياً لكم. وإن فسح الله في الأمد، وقضى الحاجة، فأملي العودة إلى ولدي وتربتي، وإن قطع الأجل، فأرجو أن أكون مفن وقع أجره على الله.

فإن كان تصرفي صواباً، وجارياً على السداد، فلا يلام من أصاب، وإن كان عن حمق، وفساد عقل، فلا يلام من اختل عقله؛ وفسد مزاجه، بل يعذر، ويشفق عليه، ويرحم؛ وإن لم يعط مولاي أمري حقه من العدل، وجلبت الذنوب، وحشرت بعدي العيوب، فحياؤه وتناصفه ينكر ذلك، ويستحضر الحسنات؛ من التربية والتعليم وخدمة السلف وتخليد الاثار وتسمية الولد وتلقيب السلطان، والإرشاد للأعمال الصالحة والمداخلة والملابسة؛ لم يتخلل ذلك قط خيانة في مال ولا سر، ولا غش في تدبير. ولا تعلق به عار، ولا كذره نقص، ولا حمل عليه خوف منكم، ولا طمع فيما بيدكم؛ فإن لم تكن هذه دواعي الرعي والوصلة والإبقاء، ففيم تكون بين بني آدم؛

وأنا قد رحلت. فلا أوصيكم بمال، فهو عندي أهون متروك؛ ولا بولد فهم رجالكم، وخدامكم، ومضن يحرص مثلكم على الاستكثار منهم؛ ولا بعيال، فهي من مرثيات بيتكم، وخواص داركم، إنما أوصيكم بحظي العزيز- كان علي بوطنكم، وهو أنتم؛ فأنا أوصيكم بكم، فارعوني فيكم خاصة. أوصيكم بتقوى الله، والعمل لغد، وقبض عنان اللهو في موطن الجد، والحياء من الله الذي محص وأقال، وأعاد النعمة بعد زوالها "لينظر كيف تعملون ". وأطلب منكم عوض ما وفرته

عليكم، من زاد طريق، ومكافأة، وإعانة، زاداً سهلاً عليكم، وهو أن تقولوا لي: غفر الله لك ما ضيعت من حقي خطأ أو عمداً؛ وإذا فعلتم ذلك فقد رضيت.

واعلموا أيضاً على جهة النصيحة أن ابن الخطيب مشهور في كل قطر، وعند كل ملك؛ واعتقاده، وبره، والسؤال عنه، وذكره بالجميل، والإذن في زيارته، نجابة منكم، وسعة ذرع ودهاء، فإنما كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة نزلت، ثم أقشعت، وتركت الأزاهر تفوح، والمحاسن تلوح؛ ومثاله معكم مثال المرضعة أرضعت السياسة،

والتدبير الميمون، ثم رقدتكم في مهد الصلح والأمان، وغطتكم بقناع العافية، وانصرفت إلى الحمام تغسل اللبن والوضر، وتعود؛ فإن وجدت الرضيع نائما فحسن، أو قد انتبه فلم تتركه إلا في حد الفطام. وتختم لكم هذه الغزارة بالحلف الأكيد: إني ما تركت لكم وجه نصيحة في دين، ولا في دنيا، إلا وقد وفيتها لكم، ولا فارقتكم إلا عن عجز؛ ومن ظن خلاف هذا فقد ظلمني وظلمكم؛ والله يرشدكم ويتولى أمركم. ونقول: خاطركم في ركوب البحر.

انتهت نسخة الكتاب، وفي طيها هذه الأبيات:

#صاب مزن الدموع من جفن صبك عندما استروح الصبا من مهبك

#كيف يسلو ياجتي عنك قلب كان قبل الوجود جن بحبك
#ثم قل كيف كان بعد انتشاء الروح من أنسك الشهييء وقربك
#لم يدع بيتك المنيع حماه لسواه إلا إلى بيت ربك
#أول عذري الرضا فما جئت بدعاً دمت والفضل والرضا من دأبك
#وإذا ما ادعيت كرباً لفقدي أين كربي ووحشتي من كربك
#ولدي في ذراك وكري في دو حك لحدي وتربتي في تربك
#يا زمانا أغرى الفراق بشملي ليتني أهبتي أخذت لحربك
#اركبتني صروفك الصعب حتى جئت بالبين وهو أصعب صعبك

وكتب آخر النسخة يخاطبني:

هذا ما تيسر، والله ولي الخيرة لي ولكم من هذا الخباط الذي لا نسبة بينه وبين أولي الكمال. ردنا الله إليه، وأخلص توكلنا عليه، وصرف الرغبة إلى ما لديه. وفي طي النسخة مدرجة نصها:

رضي الله عن سيادتكم. أونسكم بما صدر مني أثناء هذا الواقع مما استحضره الولد في الوقت؛ وهو يسلم عليكم بما يجب لكم؛ وقد حصل من حظوة هذا المقام الكريم على حظ وافر، وأجزل إحسانه، ونوه بجرايته، وأثبت الفرسان خلفه. والحمد لله انتهى.

ثم اتصل مقامي ببسكرة، والمغرب الأوسط مضطرب بالفتنة المانعة من الأتصال بالسلطان عبد العزيز، وحمزة بن علي بن راشد ببلاد مغراوة، والوزير عمر بن مسعود في العساكر يحاصره بحصن تاجحمّومت، وأبو زيان العبد الوادي ببلاد خصين، وهم مشتملون عليه وقائمون بدعوته.

ثم سخط السلطان وزيره عمر بن مسعود، ونكر منه تقصيره في أمر حمزة وأصحابه، فاستدعاه إلى تلمسان، وقبض عليه، وبعث به إلى فاس معتقلاً، فحبس هناك، وجهز العساكر مع الوزير أبي بكر بن غازي، فنهض إليه، وحاصره؛ ففر من الحصن، ولحق بمليانة مجتازا عليها، فأنذر به عاملها فتقبض عليه، وسيق إلى الوزير في جماعة من أصحابه، فضرب أعناقهم، وصلبهم عظةً ومزدجر الأهل الفتنة.

ثم أوعز السلطان بالمسير إلى حصين، وأبي زيان، فسار في العسكر، واستنفر أحياء العرب من فأوعبهم، ونهض إلى حصين، فامتنعوا بجبل تطري، ونزل الوزير بعساكره ومن معه من أحياء زغبة على الجبل تطري، من جهة التل، فأخذ بمخنقهم، وكاتب السلطان أشياخ الزواودة من رياح بالمسير إلى حصار تيطري من جهة القبلة. وكاتب أحمد بن مزنى صاحب بسكرة بإمدادهم بأعطياتهم وكتب إلي يأمرني بالمسير بهم لذلك، فاجتمعوا علي، وسرت بهم أول سنة أربع وسبعين وسبعمائة؛ حتى نزلنا بالقطفة، ووفدت، في جماعة منهم، على الوزير بمكانه من حصار تيطري، فحد لهم حدود الخدمة، وشارطهم على الجزاء. ورجعنا إلى أحيائهم بالقطفة؛ فاشتدوا في

حصار الجبل، وألجأوهم بسوامهم وظهرهم إلى قنته، فهلك لهم الخف والحافر، وضاق ذرعهم بالحصار من كل جانب؛ وراسل بعضهم في الطاعة خفيةً، فارتاب بعضهم من بعض، فانفضوا ليلاً من الجبل، وأبو زيان معهم، ذاهبين إلى الصحراء؛ واستولى الوزير على الجبل بما فيه من مخلفهم. ولما بلغوا مأمنهم من القفر، نبذوا إلى أبي زيان عهده. فلحق بجبال غمرة، ووفد أعيانهم على السلطان عبد العزيز بتلمسان، وفاءوا إلى طاعته، فتقبل فيئتهم، وأعادهم إلى أوطانهم. وتقدم إلي الوزير - عن أمر السلطان - بالمسير مع أولاد يحيى بن علي بن سباع، للقبض على أبي زيان في جبل غمرة، وفاء بحق الطاعة، لأن غمرة من رعاياهم؛ فمضينا لذلك، نجده عندهم. وأخبرونا أنه ارتحل عنهم إلى بلد وأن كلا من مدن الصحراء؛ فترل على صاحبها أبي بكر بن سليمان؛ فانصرفنا من هنالك. ومضى أولاد يحيى بن علي إلى أحيائهم، ورجعت أنا إلى أهلي ببسكرة،وخاطبت السلطان بما وقع في ذلك، وأقمت منتظراً أوامره حتى جاءني استدعاؤه الى حضرته، فارتحلت إليه.

فضل الوزير ابن الخطيب:

وكان الوزير ابن الخطيب آيةً من آيات الله في النظم والنثر، والمعارف والأدب؛ لا يساجل مداه، ولا يهتدى فيها بمثل هداه.

فمما كتب عن سلطانه إلى سلطان تونس جواباً عن كتاب وصل إليه مصحوباً بهدية من الخيل والرقيق، فراجعهم عنه بما نصه إلى آخره:

الخلافة التي ارتفع في عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف، واستقلت مباني فخرها الشائع، وعزها الذائع، على ما أسسه الأسلاف ووجب لحقها الجازم، وفرضها اللازم الاعتراف، ووسعت الآملين لها الجوانب الرحيبة والاكناف؛ فامتزاجنا بعلائها المنيف، وولائها الشريف، كما امتزج الماء والسلاف، وثناؤنا على مجدها الكريم، وفضلها العميم، كما تأرجت الرياض. الأفواف، لما زارها الغمام الوكاف؛ ودعاؤنا بطول بقائها، واتصال علائها، يسمو به إلى قرع أبواب السموات العلا الاستشراف، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة، وفواضلها العميمة، لا تحصره الحدود، ولا تدركه الأوصاف، وإن عذر في التقصير عن نيل ذلك المرام الكبير الحق والإنصاف. خلافة وجهة تعظيمنا إذ توجهت الوجوه ومن نؤثره إذا أهمنا ما نرجوه، ونفديه ونبديه إذا استمنح المحقوب واستدفع المكروه السلطان الكذا بن أبي اسحق ابن السلطان الكذا، أبي يحى بن أبي بكر ابن السلطان الكذا، أبي زكرياء ابن السلطان الكذا، أبي اسحق ابن الأمير الكذا، أبي زكرياء ابن الشيخ الكذا، أبي محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص، أبقاه الله ومقامه مقام إبراهيم رزقاً وأمانا. لا يخض جلب الثمرات إليه وقتاً ولا يعين زماناً؛ وكان على من يتخطف الناس من حوله مؤيداً بالله معانا. معظم.قدره العالي على الأقدار، ومقابل داعي حقه بالابتدار، المثني على معاليه المخلدة الاثار، في أصونة النظام والنثار، ثناء الروضة المعطار، على الأمطار، الداعي إلى الله بطول بقائه في عصمة منسدلة الأستار، وعزة ثابتة المركز مستقيمة المدار، وأن يختم له بعد بلوغ غايات الحال، ونهاية الأعمال، بالزلفى وعقبى الدار.

عبد الله الغني بالته أمير المسلمين، محمد بن مولانا أمير المسلمين، أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر.

سلام كريم كما حملت أحاديث الأزهار نسمات الأسحار، وروت ثغور الأقاحي والبهار، عن مسلسلات الأنهار، وتجلى على منصة الاشتهار، وجه عروس البهار؛ يخص خلافتكم الكريمة النجار، العزيزة الجار ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي أخفى حكمته البالغة عن أذهان البشر، فعجزت عن قياسها، وجعل الأرواح "أجناداً مجندة"- كما ورد في الخبر- تحن إلى أجناسها، منجد هذه الملة من أوليائه الجلة بمن يروض الآمال بعد شماسها، وييسر الأغراض قبل التماسها، ويعنى بتجديد المودات في ذاته وابتغاء مرضاته على حين أخلاق لباسها؛ الملك الحق، واصل الأسباب بحوله بعد انتكاث أمراسها ومغني النفوس بطوله، بعد إفلاسها- حمداً يدر أخلاف النعم بعد إبساسها، وينشر رمم الأموال من أرماسها، ويقدس النفوس بصفات ملائكة السموات بعد إبلاسها.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله سراج الهداية ونبراسها عند اقتناء الأنوار واقتباسها، فطهر الأرض من أوضارها وأدناسها، ومصطفى الله من بين ناسها، وسيد الرسل الكرام ما بين شيثها وإلياسها، الآتي مهيمناً على آثارها، في حين فترتها ومن بعد نصرتها واستيئاسها، مرغم الضراغم في أخياسها، بعد افترارها وافتراسها، ومعفر أجرام الأصنام وفصمت أجراسها.

والرضا عن آله وأصحابه وعترته وأحزابه، حماة شرعته البيضاء وحراسها، وملقحي غراسها، ليوث الوغى عند احتدام مراسها، ورهبان الدجى تتكفل مناجاة السميع العليم، في وحشة الليل البهيم بإيناسها، وتفاوح نسيم الأسحار، عند الإستغار، بطيب أنفاسها.

والدعاء لخلافتكم العلية المستنصرية بالصنائع التي تشعشع أيدي العزة القعساء

من أكواسها، ولا زالت العصمة الإلهية كفيلة باحترامها واحتراسها، وأنباء الفتوح، المؤيدة بالملائكة والروح، ريحان جلاسها وآيات المفاخر التي ترك الأول للآخر، مكتتبة الأسطار بأطراسها، وميادين الوجود مجالا لجياد جودها وبأسها، والعز والعدل منسويين لفسطاطها وقسطاسها، وصفيحة النصر العزيز تقبض كفها، المؤيدة بالته، على رياسها، عند اهتياج أضدادها، وشره أنكاسها، لانتهاب البلاد وانتهاسها وهبوب رياح رياحها وتمرد مرداسها.

فإنا كتبناه إليكم- كتب الله لكم من كتائب نصره أمداداً تذعن أعناق الأنام، لطاعة ملككم المنصور الأعلام، عند إحساسها، وآتاكم من آيات العنايات، آية تضرب الصخرة الصماء، ممن عصاها بعصاها، فتبادر بانبجاسها،- من

حمراء غرناطة، حرسها الله، وأيام الإسلام، بعناية الملك العلام تحتفل وفود الملائكة الكرام، لولائمها وأعراسها، وطواعين الطعان، في عدو الدين المعان، تجدد عهدها بعام عمواسها.

والحمد لله حمداً معاداً يقيد شوارد النعم، ويستدر مواهب الجود والكرم ويؤمن من انتكاث الجدود وانتكاسها، ولي الامال ومكاسها؛ وخلافتكم هي المثابة التي يزهى الوجود بمحاسن مجدها، زهو الرياض

بوردها وآسها، وتستمد أضواء الفضائل من مقباسها، وتروي رواة الإفادة، والإجادة غريب الوجادة، عن ضحاكها وعباسها. وإلى هذا اعلى الله معارج قدركم، وقد فعل، وأنطق بحجج فخركم من احتفى وانتعل، فإنه وصلنا كتابكم الذي حسبناه، على صنائع الله لنا، تميمة لا تلقع بعدها عين، وجعلناه — على حلل مواهبه - قلادةً لا يحتاج معها زين، ودعوناه من جيب الكنانة آيةً بيضاء الكتابة، لم يبق معها شك ولا مين، وقرأنا منه وثيقة ودً هضم فيها عن غريم الزمان دين، ورأينا منه إنشاءً، خدم اليراع بين يديه وشاءً، واحتزم بهميان عقدته مشاءً، وسئل عن معانيه الإختراع فقال: (إنا انشأناهن

إنشاءً)؛ فأهلاً به من عربي أبيً يصف السانح والبانة، ويبين فيحسن الإبانة، أدى الأمانة، وسئل عن حيه فانتمى إلى كنانة، وافصح وهو لا ينبس، وتهللت قسماته وليل حبره يعبس؛ وكأن خاتمه المقفل على صوانه، المتحف بباكر الورد في غير اوانه، رعف من مسك عنوانه؛ ولله من قلم دبج تلك الحلل، ونقع بمجاج الدواة المستمدة من عين الحياة الغلل؛ فلقد تخارق في الجود، مقتدياً بالخلافة التي خلد فخرها في الوجود، فجاد بسر البيان ولبابه، وسمح في سبيل الكرم حتى بماء شبابه، وجمع لفرط بشاشته وفهامته، بند شهادة السيف بشهامته، فمشى من الترحيب، في الطرس الرحيب، على أم هامته.

وأكرم به من حكيم، أفصح بملغوز الإكسير، في اللفظ اليسير، وشرح بلسان الخبير، سر صناعة التدبير، كأنما خدم الملكة الساحرة بتلك البلاد، قبل اشتجار الجلاد، فآثرته بالطارف من سحرها والتلاد، أو عثر بالمعلقة، وتيك القديمة المطلقة، بدفينة دار، أو كنز تحت جدار، أو ظفر لباني

الحنايا، قبل أن تقطع به عن أمانيه المنايا، ببديعة، أو خلف جرجير الروم، قبل منازلة القروم، على وديعة، أو أسلمه ابن أبي سرح، في نشب للفتح وسرح، أو حتم له روح بن حاتم ببلوغ المطلب، أو غلب الحظوظ بخدمة آل الأغلب، أو خصه زيادة الله بمزيد، أو شارك الشيعة في أمر أبي يزيد، أو سار على منهاج، في مناصحة بني صنهاج، وفضح بتخليد أمداحهم كل هاج. وأعجب به، وقد عزز منه مثنى البيان بثالث، فجلب سحر الأسماع، واسترقاق الطباع، بين مثانٍ للإبداع ومثالث، كيف اقتدر على هذا المحيد، وناصح مع التثليث فقام التوحيد؛ نستغفر الله ولي العون، على الصمت والصون، فالقلم هو الموحد قبل الكون، والمتصف من صفات السادة، أولي العبادة، بضمور الجسم

وصفرة اللون؛ إنما هي كرامة فاروقية، واثارة من حديث سارية وبقية؛ سفر وجهها في الأعقاب، بعد طول الانتقاب، وتداول الأحقاب، ولسان مناب، عن كريم جناب؛ وإصابة السهم لسواه محسوبة، وإلى الرامي الذي سدده منسوبة؛ ولا تنكر على الغمام بارقة، ولا على المتحققين بمقام التوحيد كرامةً خارقة، فما شاءه الفضل من غرائب بر وجد، ومحاريب خلق كريم ركع الشكر فيها وسجد؛ حديقة بيان استثارت نواسم الإبداع من مهبها، واستزارت غمائم الطباع من مصبها، فآتت أكلها مرتين بإذن ربها؛ لا. بل كتيبة عزً طاعنت بقنا الألفات سطورها، فلا يرومها النقد ولا يطورها، ونزعت عن قسي النونات خطوطها، واصطفت من بياض الطرس، وسواد النقس، بلق تحوطها.

فما كأس المدير، على الغدير، بين الخورنق والسدير، تقامر بنرد الحباب، عقول

ذوي الألباب، وتغم ق كسرى في العباب، وتهدي،- وهي الشمطاء- نشاط الشباب؛ وقد اسرج ابن سريج وألجم، وافصح

الغريض بعد ما جمجم، وأعرب التاي الأعجم، ووقع معبد بالقضيب، وشرعت في حساب العقد بنان الكف الخضيب؛ وكأن الأنامل فوق مثالث العود ومثانيه، وعند إغراء الثقيل بثانية، وإجابة صدى الغناء بين مغانيه، المراود تشرع في الوشي، أو العناكب تسرع في المشي؛ وما المخبر بنيل الرغائب، أو قدوم الحبيب الغائب؛ لا. بل إشارة البشير، بكم المشير، على العشير، بأجلب للسرور، من زائره المتلقى بالبرور، وادعى للحبور، من سفيره المبهج السفور؛ فلم نر مثله من كتيبة كتاب تجنب الجرد، تمرح في الأرسان، وتتشوف مجالي ظهورها إلى عرائس الفرسان، وتهز معاطف الارتياح، من صهيلها الصراح، بالنغمات الحسان؛ إذا أوجست الصريخ نازعت أفناء الأعنة، وكاثرت بأسنة آذانها مشرعة الأسنة؛ فإن ادعى الظليم أشكالها فهو ظالم، أو نازعها الظبي هواديها واكفالها فهو هاذٍ أو حالم، وإن سئل الأصمعي عن عيوب الغرر والأوضاح، قال مشيراً إلى وجوهها الصباح:

"جلدة بين العين والأنف سالم "

من كل عبل الشوى، مسابق للنجم إذا هوى، سامي التليل، عريض ما تحت الشليل، ممسوحة أعطافه بمنديل النسيم البليل.

من أحمر كالمدام، تجلى على الندام، عقب الفدام، أتحف لونه بالورد، في زمن

البرد، وحبي أفق محياه بكوكب السعد، وتشوف الواصفون إلى عذ محاسنه فأعيت على العد؛ بحر يساجل البحر عند المد، وريح تباري الريح عند الشد، بالذراع الأشد؛ حكم له مدير فلك الكفل باعتدال فصل القد، وميزه قدره المميز عند الاستباق، بقصب السباق، عند اعتبار الحد، وولد مختط غرته أشكال الجمال، على الكمال، بين البياض والحمرة ونقاء الخد؛ وحفظ الخلق الوجيه، عن جده الوجيه، ولا تنكر الرواية على الحافظ ابن الجد.

وأشقر، أبي الخلق، والوجه الطلق أن يحقر، كأنما صيغ من العسجد، وطرف بالدر وأنعل بالزبرجد، ووسم في الحديث بسمة اليمن والبركة، واختص بفلج الخصام، عند اشتجار المعركة، وانفرد بمضاعف السهام، المنكسرة على الهام، فم الفرائض المشتركة؛ واتصف فلك كفله بحركتي الإرادة والطبع من أصناف الحركة، أصغى إلى السماء بأذن ملهم؛ وأغرى لسان الصهيل- عند التباس معاني الهمز والتسهيل- ببيان المبهم؛ وفتنت العيون من ذهب جسمه، ولجين نجمه، بالدينار والدرهم؛ فإن انقض فرجم، أو ريح لها حجم، وإن اعترض فشفق لاح به للنجم نجم.

وأصفر قيد الأوابد الحرة، وأمسك المحاسن وأطلق الغرة؛ وسئل من أنت في قواد الكتائب، وأولي الأخبار العجائب؟ فقال: أنا المهلب بن أبي صفرة؛ نرجس هذه الألوان، في رياض الأكوان، تحثى به وجوه الحرب

العوان؛ أغار بنخوة الصائل، على معصفرات الأصائل، فارتداها، وعمد إلى خيوط شعاع الشمس، عند جانحة الأمس، فألحم منها حفته وأسداها، واستعدت عليه تلك المحاسن فما أعداها؛ فهو أصيل تمسك بذيل الليل عرفه وذيله، وكوكب يطلعه من القتام ليله، فيحسده فرقد الأفق وسهيله.

وأشهب تغشى من لونه مفاضة، وتسربل منه لأمةً فضفاضة، قد احتفل زينه، لما

رقم بالنبال لجينه، فهو الأشمط، الذي حقه لا يغمط، والذارع المسارع، والأعزل الذارع، وراقي الهضاب الفارع، ومكتوب الكتيبة البارع. وأكرم به من مرتاض سالك، ومجتهد على غايات السابقين الأولين متهالك، وأشهب يروي من الخليفة، ذي الشيم المنيفة، عن مالك.

وحباري كلما سابق وبارى، استعار جناح الحبارى؛ فإذا أعملت الحسبة، قيل من هنا جاءت النسبة، طرد النمر، لما عظم أمره وامر، فنسخ وجوده بعدمه، وابتزه الفروة ملطخةً بدمه؛ وكأن مضاعف الورد نثر عليه من طبقه، أو الفلك، لما ذهب الحلك، مزج فيه بياض صبحه بحمرة شفقه.

وقرطاسيٍ حقه لا يجهل، "متى ما ترقى العين فيه تسفل "؛ إن نزع عنه جله، فهو نجم كله؛ انفرد بمادة الألوان، قبل أن تشوبها يد الأكوان، أو تمزجها اقلام الملوان؛ يتقدم الكتيبة منه لواء ناصع، أو أبيض مناصع؛ لبس وقار المشيب، في ريعان العمر القشيب، وانصتت الآذان من صهيله المطيل المطيب، لما ارتدى بالبياض إلى نغمة الخطيب؛ وإن تعتب منه للتأخير متعتب، قلنا: الواو لا ترتب، ما بين فحل وحرة، وبهرمانةٍ ودرة؛ ويا لله من ابتسام غزة، ووضوح يمنن في طرة، وبهجة للعين وقرة؛ وإن ولع الناس بامتداح القديم، وخصوا الحديث بفري الأديم، واوجب المتعصب، وإن أبى المنصب، مرتبة التقديم، وطمح إلى رتبة المخدوم طرف الخديم، وقورن المثري بالعديم، وبخس في شوق الكسد الكيل، ودجا الليل، وظهر في فلك الإنصاف الميل، لما تذوكرت الخيل؛ فجيء بالوجيه والخطار، والذائد وذي الخمار، وداحس والسكب، والأبجر وزاد الركب، والجموح واليحمّوم، والكميت ومكتوم، والأعوج وحلوان، ولاحق والغضبان، وعفزر والزعفران والمحبر واللعاب، والأغر والغراب، وشعلة والعقاب، والفياض واليعبوب، والمذهب واليعسوب، والصموت والقطيب، وهيدب والصبيب، وأهلوب وهداج،

والحرون وخراج، وعلوى والجناح، والأحوى ومجاح، والعصا والنعامة، والبلقاء والحمامة، وسكاب والجرادة، وخوصاء والعرادة؛ فكم بين الشاهد والغائب، والفروض والرغائب، وفرق ما بين الأثر والعيان، غني عن البيان؛ وشتان بين الضريح والمشتبه؛ ولله درالقائل:

"خذ ما شراه ودع شيئاً سمعت به "

والناسخ يختلف به الحكم، وشر الدواب عند التفضيل بين هذه الدواب الضم البكم، إلا ما ركبه نبي، أو كان له يوم الافتخار برهان خفي ومفضل ما سمع على ما رأى غبي؛ فلو أنصفت محاسنها التي وصفت، لأقضمت حب القلوب علفا، وأوردت ماء الشبيبة نطفاً؛ واتخذت لها من عذر الخدود الملاح عذر موشية، وعللت بصفير ألحان القيان كل عشية؛ وأنعلت بالأهلة، وغطيت بالرياض بدل الأجلة.

إلى الرقيق، الخليق بالحسن الحقيق، يسوقه إلى مثوى الرعاية روقة الفتيان رعاته، ويهدي عقيقها من سبحه أشكالاً تشهد للمخترع سبحانه بإحكام مخترعاته، وقفت ناظر الاستحسان لا يريم، لما بهره منظرها الوسيم، وتخامل

الظليم، وتضاؤل الريم وأخرس مفوه اللسان، وهو بملكات البيان، الحفيظ العليم؛ وناب لسان الحال، عن لسان المقال، عند الاعتقال، فقال يخاطب المقام الذي اطلعت أزهارها غمائم جوده، واقتضت اختيارها بركات وجوده: لو علمنا أيها الملك الأصيل، اللأي كرم منه الإجمال والتفضيل، أن الثناء يوازيها، لكلنا لك بكيلك، أو الشكر يعادلها ويجازيها، لتعرضنا بالوشل إلى نيل نيلك، أو قلنا هي التي أشار إليها مستصرخ سلفك المستنصر بقوله: "أدرك بخيلك "، حين شرق بدمعه الشرق، وانهزم الجمع واستولى الفرق، واتسع فيه — والحكم لله- الخرق ورأى إن مقام التوحيد بالمظاهرة على التثليث، وحزبه الخبيث، الأولى والأحق.

والآن قد أغنى الله بتلك النية، عن اتخاذ الطوال الردينية، وبالدعاء من تلك المثابة الدينية إلى رب البنية، عن الأمداد السنية والأجواد تخوض بحر الماء إلى بحر المنية، وعن الجرد العربية، في مقاود الليوث الأبية؛ وجدد برسم هذه الهدية، مراسيم العهود الودية، والذمم الموحدية، لتكون علامة على الأصل، ومكذبة لدعوى الوقف والفصل، وإشعاراً بالألفة التي لا تزال ألفها ألف الوصل، ولأمها حراماً على النصل.

وحضر بين يدينا رسولكم، فقرر من فضلكم ما لا ينكره من عرف علو مقداركم، وأصالة داركم، وفلك إبداركم، وقطب مداركم؛ واجبناه عنه بجهد ما كنا

لنقنع من جناه المهتصر، بالمقتضب المختصر، ولا لنقابل طول طوله بالقصر، لولا طرو الحصر. وقد كان بين الأسلاف - رحمة الله عليهم ورضوانه - ود أبرمت من اجل الله معاقده، ووثرت للخلوص، الجلي النصوص، مضاجعه القارة ومراقده، وتعاهد بالجميل يوجع لفقده فاقد، أبى الله إلا أن يكون لكم الفضل في تجديده، والعطف بتوكيده؛ فنحن الآن لا ندري أفي مكارمكم نذكر، أو أفي فواضلكم نشرح أو نشكر، أمفاتحتكم التي هي في الحقيقة عندنا فتح، أم هديتكم، وفي وصفها للأقلام سبح، ولعدو الإسلام بحكمة حكمتها كبح، إنما نكل الشكر لمن يوفي جزاء الأعمال البرة، ولا يبخس مثقال الذرة ولا ادنى من مثقال الذرة، ذي الرحمة الثرة، والألطاف المتصلة المستمرة، لا إله إلا هو.

وإن تشوفتم إلى الأحوال الراهنة، وأسباب الكفر الواهية - بقدرة الله - الواهنة، فنحن نطرفكم بطرفها، ونطلعكم على سبيل الإجمال بطرفها؛ وهو أننا لما أعادنا من التمحيص، إلى مثابة التخصيص، من بعد المرام العويص، كحلنا بتوفيق الله بصر البصيرة، ووقفنا على سبيله مساعي الحياة القصيرة، ورأينا كما نقل إلينا، وكرر على من قبلنا وعلينا - أن الدنيا - وإن غر الغرور وأنام على سرر الغفلة السرور، فلم ينفع الخطور على أجداث الأحباب والمرور -

جسر يعبر، ومتاع لا يغبط من حبي به ولا يحبر، إنما هو خبر يخبر؛ وأن الحسرة بمقدار ما على تركه يجبر، وأن الأعمار أحلام، وأن الناس نيام؛ وربما رحل الراحل عن الخان، وقد جلله بالأذى والدخان، أو ترك به طيباً،

وثناء يقوم بعد للآتي خطيباً، فجعلنا العدل في الأمور ملاكا، والتفقد للثغور مسواكا، وضجيع المهاد، حديث الجهاد، وأحكامه مناط الاجتهاد، وقوله: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة} من حجج الاستشهاد؛ وبادرنا رمق الحصون المضاعة وجنح التقية دامس، وعواريها لا ترد يد لامس، وساكنها بائس، والأعصم في شعفاتها من العصمة يائس؛ فزينا ببيض الشرفات ثناياها، وافعمنا بالعذب الفرات ركاياها وغشينا بالصفيح المضاعف أبوابها، واحتسبنا عند موفي الأجور ثوابها، وبيضنا بناصع الكلس أثوابها؛ فهي اليوم توهم حس العيان، أنها قطع من بيض العنان، وتكاد تناول قرص البدر بالبنان، متكفلة للمؤمنين من فزع الدنيا والآخرة بالأمان؛ وأقرضنا الله قرضا، واوسعنا مدونة الجيش عرضا، وفرضنا إنصافه مع الأهلة فرضا؛ واستندنا من التوكل على الله الغني الحميد إلى ظل لواء، ونبذنا إلى الطاغية

عهده على سواء وقلنا: ربنا أنت العزيز، وكل جبار لعزك ذليل، وحزبك هو الكثير، وما سواه قليل؛ أنت الكافي، ووعدك الوعد الوافي، فأفض علينا مدارع الصابرين، واكتبنا من الفائزين بحظوظ رضاك الظافرين، وثبت أقدمنا وانصرنا على القوم الكافرين.

فتحركنا أول الحركات، وفاتحة مصحف البركات، في خف من الحشود، واقتصار على ما بحضرتنا من العساكر المظفرة والجنود، إلى حصن آشر البازي المطل، وركاب العدو الضال المضل، ومهدي نفثات الصل، على امتناعه وارتفاعه، وسمو يفاعه، وما بذل العدو فيه من استعداده، وتوفير أسلحته وأزواده، وانتخاب أنجاده؛ فصلينا بنفسنا ناره، وزاحمنا عليه الشهداء نصابر أواره ونلقى بالجوارح العزيزة سهامه المسمومة، وجلامده الململمة وأحجاره، حتى فرعنا - بحول من لا حول ولا قوة الا به - أبراجه المنيعة وأسواره، وكففنا عن البلاد والعباد أضراره، بعد أن استضفنا إليه حصن السهلة جاره؛ ورحلنا عنه بعد أن شحناه رابطة وحامية، وأزوادا نامية، وعملنا بيدنا في رم ما ثلم القتال، وبقر من بطون مسابقة الرجال، واقتدينا بنبينا - صلوات الله عليه وسلامه - في الخندق لما حمى ذلك المجال، ووقع الارتجاز المنقول حديثة والارتجال؛ وما كان ليقر للإسلام مع تركه القرار، وقد كثب الجوار،

وتداعى الدعرة وتعاوى الشرار.

وقد كنا أغرينا من بالجهة الغربية من المسلمين بمدينة برغه التي سدت بين القاعدتين رندة ومالقة الطريق، وألبست ذل الفراق ذلك الفريق، ومنعتهما ان يسيغا الريق؛ فلا سبيل إلى الإلمام، لطيف المنام، إلا في الأحلام، ولا رسالة إلا في أجنحة هدل الحمام؛ فيسر الله فتحها، وعجل منحها، بعد حرب انبتت فيها النحور، وتزينت الحور. وتبع هذه الأم بنات شهيرة، وبقع للزرع والضرع خيرة، فشفي الثغر من بؤسه، وتهلل وجه الإسلام بتلك الناحية الناجية بعد عبوسة.

ثم أعملنا الحركة إلى مدينة إطريرة، على بعد المدى، وتغلغلها في بلاد العدا، واقتحام هول الفلا وغول الردى؛ مدينة تبنتها حمص فأوسعت الدار، واغلت الشوار، وراعت الاشتكثار، وبسطت الاعتمار؛ رجح لدينا قصدها

على البعد، والطريق الجعد، ما اشفت به المسلمين من استئصال طائفة من اسراهم، مروا بها آمنين، وبطائرها المشئوم متيفنين، قد أنهكهم

الاعتقال، والقيود الثقال، وأضرعهم الإنكسار وجللهم الانكسار، فجدلوهم في مصرع واحد، وتركوهم عبرة للرائي والمشاهد، وأهدوا

بوقيعتهم إلى الإسلام ثكل الواجد، وترة الماجد؛ فكبسناها كبسا، وفجأناها بإلهام من لا يضل ولا ينسى، وصبحتها الخيل، ثم تلاحق الرجل لما جن الليل، وحاق بها الويل؛ فأبيح منها الذمار، وأخذها الذمار، ومحقت من مصانعها البيض الأهلة وخسفت الأقمار، وشفيت من دماء أهلها الضلوع الحرار، وسلطت على هياكلها النار، واستولى على الآلاف العديدة من تسبيها الأسار، وانتهى إلى إشبيليه الثكلى المغار فجلل وجوه من بها من كبار النصرانية الصغار، واستولت الأيدي على ما لا يسعه الوصف ولا تقله الأوقار.

وعدنا والأرض تموج سبياً، لم نترك بعفرين شبلا ولا بوجرة ظبيا، والعقائل حسرى، والعيون يبهرها الصنع الأسرى وصبح السرى قد حمد من بعد المسرى، فسبحان الذي اشرى؛ ولسان الحمية ينادي، في تلك الكنائس المخربة والنوادي: يا لثارات الأسرى!

و لم يكن إلا أن نفلت الأنفال، ووسمت بالأوضاح الأغفال، وتميزت الهوادي والأكفال، وكان إلى غزو مدينة جيان الاحتفال، قدنا إليها الجرد تلاعب الظلال نشاطا، والأبطال تقتحم الأخطار رضى بما عند الله واغتباطاً، والمهندة الدلق تسبق إلى الرقاب استلالا واختراطاً، واستكثرنا من عدد القتال احتياطاً، وأزحنا العلل عمن أراد جهاداً منجياً غباره من دخان جهنم ورباطا، ونادينا الجهاد! الجهاد! يا أمة الجهاد! راية النبي الهاد! الجنة تحت ظلال السيوف الحداد!؛ فهز النداء إلى الله تعالى كل عامر وغامر، وائتمر الجم من دعوى الحق إلى أمر آمر، وأتى الناس من الفجوج العميقة رجالاً وعلى كل ضامر، وكاثرت الرايات ازهار البطاح لوناً وعداً، وسدت الحشود مسالك الطريق العريضة سداً، ومد بحرها الزاخر مداً، فلا يجد لها الناظر ولا المناظر حداً.

وهذه المدينة هي الأم الولود، والجنة التي في النار لسكانها من الكفار الخلود؛ وكرسي الملك، ومجنبة الوسطى من السلك؛ باءت بالمزايا العديدة ونجحت، وعند الوزان. بغيرها من أمات البلدان، رجحت، غاب الأسود، وجحر الحيات السود، ومنصب التماثيل الهائلة، ومعلق النواقيس المصلصلة.

فأدنينا إليها المراحل، وعنينا ببحار المحلات المستقلات منها الساحل، ولما أكثبنا جوارها، وكدنا نلتمح نارها، تحركنا إليها ووشاح الأفق المرقوم، بزهر النجوم، فد دار دائره، والليل من خوف الصباح، على سطحه المستباح، قد شابت غدائره، والنسر يرفرف باليمن طائره، والسماك الرامح يثأر بعز الإسلام ثائره، والنعائم راعدة فرائص الجسد، من خوف الأسد، والقوس يرسل سهم السعادة، بوتر العادة، إلى أهداف النعم المعادة، والجوزاء عابرة نهر المجرة، والزهرة تغار من الشعرى العبور

بالضرة؛ وعطارد يسدي في حبل الحروب، على البلد المحروب ويلحمه، ويناظر على أشكالها الهندسية فيفحمه، والأحمر يهر، وبعلمه الأبيض يغري وينهر، والمشتري يبدى غ في فضل الجهاد ويعيد، ويزاحم في

الحلقات، على ما للسعادة من الصفقات، ويزيد؛ وزحل عن الطالع مترحل، وعن العاشر مرتحل، وفي زلق السعود وحل؛ والبدر يطالع حجر المنجنيق، كيف يهوي إلى النيق، ومطلع الشمس يرقب، وجدار الأفق يكاد بالعيون عنها ينقب. ولما فشا سر الصباح، واهتزت أعطاف الرايات بتحيات مبشرات الرياح، أطللنا عليها إطلال الأسود على الفرائس، والفحول على العرائس؛ فنظرنا منظراً يروع بأساً ومنعة، ويروق وضعاً وصنعة، تلفعت معاقله الشم للسحاب ببرود،

ووردت من غدر المزن في برود، واشرعت لاقتطاف أزهار النجوم والذراع بين النطاق معاصم رود، وبلداً يعمي الماسح والذارع، وينتظم المحاني والأجارع؛ فقلنا: اللهم نفله أيدي عبادك، وأرنا فيه آية من آيات جهادك؛ ونزلنا بساحتها العريضة المتون، نزول الغيث الهتون، وتيمنا من فحصها بسورة " التين والزيتون "، متبرئة من من أمان الرحمان للبلد المفتون؛ وأعجلنا الناس بحمية نفوسهم النفيسة، وسجية شجاعتهم البئيسة، عن أن تبوأ للقتال المقاعد، وتدني بأسماع شهير النفير منهم الأباعد، وقبل أن يلتقي الخديم بالمخدوم، ويركع المنجنيق ركعتي القدوم؛ فدفعوا من أصحر إليهم من الفرسان. وسبق إلى حومة الميدان، حتى أحجروهم في البلد، وسلبوهم لباس الجلد، في موقف يذهل الوالد عن الولد، صابت السهام فيه غماماً، وطارت كأسراب الحمام تهدى حماما، وأضحت القنا قصداً، بعد أن كانت شهاباً رصداً، وماج بحر القتام بأمواج النصول، وأخذ الأرض الرجفان لزلزال الصياح الموصول؛ فلا ترى إلا شهيدا تظلل مصرعه الحور، وصريعاً تقذف به إلى الساحل تلك البحور؛ ونواشب تبأى بها الوجوه الوجيهة عند الله والنحور؛

فالمقضب، فوده يخضب، والأسمر، غصنه يستثمر، والمغفر، حماه يخفر، وظهور القسي تقصم، وعصم الجند الكوافر تفصم، وورق اليلب في المنقلب يسقط، والبيض تكتب والسمر تنقط، فاقتحم الربض الأعظم لحينه، وأظهر الله لعيون المبصرين والمستبصرين عزة دينه، وتبرأ الشيطان من خدينه، ونهب الكفار وخذلوا، وبكل مرصد جدلوا؛ ثم دخل البلد بعده غلاباً، وجلل قتلاً واستلاباً؛ فلا تسل إلا الظبا والأسل عن قيام ساعته، وهول يومها وشناعته، وتخريب المبائت والمباني، وغنى الأيدي من خزائن تلك المغاني، ونقل الوجود الأول إلى الوجود الثاني؛ وتخارق السيف فجاء بغير المعتاد، ونهلت القنا الردينية من الدماء، حتى كادت تورق كالأغصان المغترسة والأوتاد، وهمت أفلاك القسي وسحت، وأرنت حتى بحت، ونفدت موادها فشحت، مما ألحت،وسدت المسالك جثث القتلى فمنعت العابر، واستأصل الله من عدوه الشأفة وقطع الدابر، وأزلف الشهيد وأحسب الصابر، وسبقت رسل الفتح الذي يسلم يسمع بمثله في

الزمن الغابر. تنقل البشرى من أفواه المحابر، إلى آذان المنابر.

أقمنا بها أياماً نعقر الأشجار، ونستأصل بالتخريب الوجار، ولسان الانتقام من عبدة الأصنام، ينادي: يا لثارات الإسكندرية تشفياً من الفجار، ورعياً لحق الجار؛ وقفلنا وأجنحة الرايات، برياح العنايات، خافقة وأوفاق، التوفيق، الناشئة من خطوط الطريق، موافقة، وأشواق العز بالله نافقة، وحملاء الرفق مصاحبة- والحمد لله- مرافقة؛ وقد ضاقت ذروع الجبال، عن أعناق الصهب السبال، ورفعت على الأكفال، ردفاء

كرائم الأنفال، وقلقلت من النواقيس أجرام الجبال، بالهندام والاحتيال؛ وهلك بمهلك هذه الأم بنات كن يرتضعن ثديها الحوافل، ويستوثرن حجرها الكافل؛ شمل التخريب أسوارها، وعجلت النار بوارها.

ثم تحركنا بعدها حركة الفتح، وأرسلنا دلاء الأدلاء قبل المتح، فبشرت بالمنح؛ وقصدنا مدينة أبدة، وهي ثانية الجناحين، وكبرى الأختين، ومساهمة جيان في حين الحين؛ مدينة أخذت عرض الفضاء الأخرق، وتمشت فيه أرباضها تمشي الكتابة الجامحة في المهرق؛ المشتملة على المتاجر والمكاسب، والوضع المتناسب، والفلح المعي ريعه عمل الحاسب وكوارة الدبر اللاسب المتعددة اليعاسب؛ فأناخ العفاء بربوعها العامرة، ودارت كؤوس عقار الحتوف، ببنان السيوف، على متديريها المعاقرة، وصبحتها طلائع الفاقرة، وأغريت ببطون أسوارها عوج المعاول الباقرة؛ ودخلت مدينتها عنوة السيف، في أسرع من خطرة الطيف، ولا تسال عن الكيف، فلم يبلغ العفاء من مدينة حافلة، وعقيلة في حلل المحاسن رافلة، ما بلغ من هذه البائسة التي سجدت لآلهة النيران أبراجها،

وتضاءل بالرغام معراجها؛ وضفت على أعطافها ملابس الخذلان، وأقفر من كنائسها كناس الغزلان.

ثم تأهبنا لغزو أم القرى الكافرة، وخزائن المزاين الوافرة، و رئة الشهرة السافرة، والأنباء المسافرة؛ قرطبة، وما أدراك ما هيه! ذات الأرجاء الحالية الكاسية، والأطواد الراسخة الراسية، والمباني المباهية، والزهراء الزاهية، والمحاسن غير المتناهية؛ حيث هالة بدر السماء قد استدارت من السور المشيد البناء داراً، ونهر المجرة من نهرها الفياض، المسلول حسامه من غمود الغياض، قد لصق بها جاراً، وفلك الدولاب، المعتدل الانقلاب، قد استقام مداراً، ورجع الحنين اشتياقا إلى الحبيب الأول وأذكاراً حيث الطود كالتاج، يزدان بلجين العذب المجاج، فيزري بتاج كسرى وداراً؛ حيث قسي الجسور المديدة، كأنها عوج المطي العديدة، تعبر النهر قطاراً؛ حيث آثار العامري المجاهد، تعبق بين تلك المعاهد، شذى معطاراً؛ حيث كرائم السحائب، تزور عرائس الرياض الحبائب، فتحمل لها من الذر نثاراً؛ حيث شمول الشمال تدار على الأدواح، بالغدو والرواح، فترى الغصون سكارى، وما هي بسكارى؛ حيث أيدي الافتتاح، تفتض من شقائق البطاح، أبكاراً؛ حيث ثغور الأقاح الباسم، تقبلها بالسحر زوار النواسم، فتخفق قلوب النجوم الغيارى؛ حيث المصلى العتيق، قد رحب مجالاً وطال مناراً، وأزرى ببلاط الوليد احتقاراً؛ حيث الظهور المثارة

بسلاح الفلاح، تجب عن مثل أسنمة المهارى، والبطون كأنها لتدميث الغمائم، بطون العذارى، والأدواح العالية، تخترق أعلامها الهادية، بالجداول الحيارى. فما شئت من جو بقيل، ومعرس للحسن ومقيل، ومالك للعقل وعقيل؛ وخمائل، كم فيها للبلابل، من قال وقيل، وخفيف يجاوز بثقيل؛ وسنابل تحكي من فوق سوقها، وقصب بسوقها، الهمزات على الألفات، والعصافير البديعة الصفات، فوق القضب المؤتلفات، تميل لهبوب الصبا والجنوب،. مالئة الجيوب، بدر الحبوب، وبطاح لا تعرف عين المحل، فتطلبه بالذحل، ولا تصرف في خدمة بيض قباب الأزهار، عند افتتاح السوسن والبهار، غير الغبدان من سودان النحل؛ وبحر الفلاحة

الذي لا يدرك ساحله، ولا يبلغ الطية البعيدة راحله؛ إلى الوادي، وسمر النوادي، وقرار دموع الغوادي؛ للتجاسر على تخطيه، عند تمطيه، الجسر العادي، والوطن الذي ليس من عمرو ولا زيد، والفرا الذي في جوفه كل صيد؛ أقل كرسيه خلافة الإسلام، وأغار بالرصافة والجسر دار السلام، وما عسى أن تطنب في وصفه السنة الأقلام أو تعبر به عن ذلك الكمال فنون الكلام.

فأعملنا إليها السرى والسير، وقدنا إليها الخيل قد عقد الله في نواصيها الخير. ولما وقفنا بظاهرها المبهت المعجب، واصطففنا بخارجها المنبت المنجب؛ والقلوب تلتمس الإعانة من فنعم مجزل، وتستترل مدد الملائكة من منجد مترل، والركائب واقفة من خلفنا بمعزل، تتناشد في معاهد الإسلام:

"قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل "

برز من حاميتها المحاميه، ووقود النار الحاميه، وبقية السيف الوافرة على الحصاد النامية، قطع الغمائم الهامية، وأمواج البحور الطامية؛ واستجنت بظلال أبطال المجال، أعداد الرجال، الناشبة والرامية، وتصدى للترال، من صناديدها الصهب السبال، أمثال الهضاب الراسية، تجنها جنن السوابغ الكاسية، وقواميسها المفادية للصلبان يوم بوسها بنفوسها المواسية، وخنازيرها التي عدمّا عن قبول حجج الله ورسوله، ستور الظلم الغاشية، وصخور القلوب القاسية؛ فكان بين الفريقين أمام جسرها الذي فرق البحر، وحلى بلجينه، ولآليء زينه، منها النحر، حرث لم تنسج الأزمان على منوالها، ولا أتت الأيام الحبالى بمثل أجنة اهوالها؛ من قاسها بالفجار أفك وفجر؛ أو مثلها بجفر الهباءة خرف وهجر؛ ومن شبهها بحرب داحس والغبراء، فما عرف الخبر، فليسأل من جرب وخبر؛ ومن نظرها بيوم شعب جبله فهو ذو بله؛ أو عادلها ببطن عاقل، فغير عاقل؛ أو احتبئ بيوم ذي قار، فهو إلى

المعرفة ذو افتقار؛ أو ناضل بيوم الكديد، فسهمه غير السديد؛ إنما كان مقاماً غير معتاد، ومرعى نفوس سلم يف بوصفه لسان مرتاد وزلزال جبال أوتاد، ومتلف مذخور لسلطان الشيطان وعتاد؛ اعلم فيه البطل الباسل، وتورد الأبيض الباتر، وتأود الأسمر العاسل، ودوم الجليد المتكاسل، وانبعث من حدب الحنية، إلى هدف الرمية، الناشر الناسل، ورويت لمرسلات السهام المراسل؛ ثم أفضى أمر الرماح إلى التشاجر والإرتباك، ونشبت الأسنة في الدروع نشب السمك في الشباك؛ ثم اختلط المرعي بالهمل، وعزل الرديني عن العمل؛ وعادت السيوف من فوق المفارق تيجاناً، بعد أن شقت غدر السوابغ خلجاناً؛ واتحدت جداول الدروع، فصارت بحراً وكان التعانق، فلا ترى إلا نحراً يلازم نحراً، عناق وداع، وموقف شمل ذي انصداع، وإجابة منادٍ إلى فراق الأبد وداع؛ واستكشفت مآل الصبر الأنفس الشفافة، وهبت بريح النصر الطلائع المبشرة الهفافة؛ ثم أمد السيل ذلك

العباب، وصقل الاستبصار الألباب، واستخلص العزم صفوة اللباب، وقال لسان النصر: (ادخلوا عليهم الباب)؛ فأصبحت طوائف الكفار، حصائد مناجل الشفار، فمغافرهم قد رضيت حرماهما بالأخفار، ورءوسهم

محطوطة في غير مقام الاستغفار، وعلت الرايات من فوق تلك الأبراج المستطرقة والأسوار، ورفرف على المدينة جناح البوار، لولا الانتهاء إلى الحد والمقدار، والوقوف عند اختفاء سر الأقدار.

ثم عبرنا نهرها، وشددنا بأيدي الله قهرها، وضيقنا حصرها، وأدرنا بلالىء القباب البيض خضرها؛ وأقمنا بها أياما تحوم عقبان البنود على فريستها حياما، وترمي الأدواح ببوارها، وتسلط النيران على أقطارها؛ فلولا عائق المطر، لحصلنا من فتح ذلك الوطن على الوطر، فرأينا أن نروضها بالأجتثاث والانتساف، ونوالي على زروعها وربوعها كرات رياح الاعتساف؛ حى يتهيأ للإسلام لوك طعمتها، ويتهنا بفضل الله إرث نعمتها؛ ثم كانت من موقفها الإفاضة من بعد نحر النحور، وقذف جمار الدمار على العدو المدحور، وتدافعت خلفنا السيقات المتسقات تدافع أمواج البحور.

وبعد أن ألحجنا على جناتها المصحرة، وكرومها المستبحرة إلحاح الغريم، وعوضناها المنظر الكريه من المنظر الكريم، وطاف عليها طائف من ربنا فاصبحت كالصريم، وأغرينا حلاق النار بجمم الجميم، وراكمنا في أحواف

أجرافها غمائم الدخان؛ يذكر طيبه البان بيوم العميم، وأرسلنا رياح الغارات (لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم)؛ واستقبلنا الوادي يهول مداً، ويروع سيفه الصقيل حداً؛ فيسره الله من بعد الأعواز، وانطلقت على الفرصة بتلك الفرضة أيدي الانتهاز، وسألنا من سائله أسد بن الفرات فأفتى برجحان الجواز، فعم الاكتساح والاستباح جميع الأحواز فأديل المصون، وانتهبت القرى، وهذت الحصون، واجتثت الأصول، وحطمت الغصون؛ ولم نرفع عنها إلى اليوم غارة تصابحها بالبوس، وتطلع عليها غررها الضاحكة باليوم العبوس؛ فهي الآن مجرى السوابق ومجر العوالي، على التوالي، والحسرات تتجدد في أطلالها البوالي؛ وكان بها قد ضرعت، وإلى الدعوة المحمدية أسرعت، بقدرة من لو أنزل القرآن على الجبال لخشعت من خشية الله وتصدعت، وعزة من أذعنت الجبابرة لعره وخضعت، وعدنا والبنود لا يعرف اللص نشرها، والوجوه المجاهدة لا يخالط التقطيب بشرها؛ والأيدي بالعروة الوثقى متعلقة، والألسن بشكر نعم الله منطلقة، والسيوف في مضاجع الغمود قلقه، وسراييل الدروع خلقه، والجياد من ردها إلى المرابط والأواري، رد العواري، حنقة، وبعبرات الغيظ المكظوم مختنقة؛ ننظر إلينا نظر العاتب، وتعود من ميادين الاختيال والمراح،

تحت حلل السلاح، عود الصبيان إلى المكاتب؛ والطبل بلسان العز هادر، والعزم إلى منادي العود الحميد مبادر، ووجود نوع الرماح، من بعد ذلك الكفاح نادر، والقاسم يرتب بين يديه من السبي النوادر، ووارد مناهل الأجور، غير المحلاء ولا المهجور، غير صادر، ومناظر الفصل الآتي، عقب أخيه الشاتي، على المطلوب المواتي مصادر والله على تيسير الصعاب، وتخويل المنن الرغاب، قادر؛ لا اله إلا هو. فما أجمل لنا صنعه الحفي، وإكرم بنا لطفه الخفي، الفهم لا نحصي ثناء عليك، ولا نلجأ منك إلا إليك، ولا نلتمس خيم الدنيا والآخرة إلا لديك؛ فأعد علينا عوائد نصرك، يا مبدىء يا معيد، وأعنا من وسائل شكرك، على ما ينثال به المزيد، يا حي يا قيوم يا فعال لما يريد.

وقارنت رسالتكم الميمونة لدينا حذق فتح بعيد صيته مشرئبً ليته، وفخر من فوق النجوم العواتم مبيته، عجباً من تأتي أمله الشارد، وقلنا: البركة في قدم الوارد؛ وهو أن ملك النصارى لاطفنا بجملة من الحصون كانت من مملكة الإسلام قد غصبت، والتماثيل فيها ببيوت الله قد نصبت ادالها الله- بمحاولتنا- الطيب من الخبيث، والتوحيد من التثليث، وعاد إليها الإسلام عود الأب الغائب، إلى البنات الحبائب، يسأل عن شؤونها، ويمسح دموع الرقة من

جفونها؛ وهي للروم خطة خسف قلما ارتكبوها فيما نعلم من العهود، ونادرة من نوادر الوجود. وإلى الله علينا وعليكم عوارف الجود، وجعلنا في محاريب الشكر من الركع السجود.

عرفناكم بمجملات أمور تحتها تفسير، ويمن من الله وتيسير، إذ استيفاء الجزئيات عسير لنسركم بما منح الله دينكم، ونتوج بعز الملة الحنيفية جبينكم، ونخطب بعده دعاءكم وتأمينكم؛ فإن دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب سلاح ماض، وكفيل بالمواهب

المسئولة من المنعم الوهاب متقاض؛ وأنتم أولى من ساهم في بر، وعامل الله بخلوص سر؛ وأين يذهب الفضل عن بيتكم، وهو صفة حيكم، وتراث ميتكم، ولكم مزية القدم، ورسوخ القدم؛ والخلافة مقرها إيوانكم، وأصحاب الإمام مالك- رضي الله عنه- مستقرها قيروانكم، وهجير المنابر ذكر إمامكم، والتوحيد إعلام أعلامكم، والوقائع الشهيرة في الكفر منسوبة إلى أيامكم، والصحابة الكرام فتحة أوطانكم، وسلالة الفاروق عليه السلام وشائج سلطانكم؛ ونحن نستكثر من بركة خطابكم، ووصلة جنابكم؛ ولولا الأعذار لوالينا بالمتزيدات تعريف أبوابكم.

والله- عز وجل- يتولى عنا من شكركم المحتوم، ما قصر المكتوب منه عن المكتوم؛ ويبقيكم لإقامة الرسوم، ويحل محبتكم من القلوب محل الأرواح من الجسوم؛ وهو سبحانه يصل سعدكم، ويحرس مجدكم، ويوالي نعمه عندكم.

والسلام الكريم، الطيب الزكي المبارك البر العميم، يخصكم كثيراً أثيراً، ما أطلع الصبح وجهاً منيرا، بعد أن أرسل النسيم سفيراً، وكان الوميض الباسم لأكواس الغمائم، على أزهار الكمائم، مديرا؛ ورحمة الله وبركاته.

وكتب إلي يهنئني بمولود، ويعاتب على تأخير الخبر بولاده عنه:

#هنيئاً أبا الفضل الرضا وأبا زيد وأفنت من بغي يخاف ومن كيد

#بطالع يمنٍ طال في السعد شأوه فما هو من عمرو الرجال و، زيد

#وقيد بشكر الله أنعمه التي أوابدها تأبى سوى الشكر من قيد

أهلا بدري المكاتب، وصدري المراتب، وعتبى الزمن العاتب وبكر المشتري والكاتب؛ ومرحباً بالطالع، في أسعد المطالع، والثاقب، في أجلى المراقب؛ وسهلاً بغيي البشير، وعزة الأهل والعشير، وتاج الفخر الذي يقصر عنه كسرى واردشير؛ الآن اعتضدت الحلة الحضرمية بالفارس، وأمن السارح في حمى الحارس، وسعدت بالمنير

الكبير، أفلاك التدوير، من حلقات المدارس، وقرت بالجنى الكريم عين الغارس، واحتقرت أنظار الآبلي وأبحاث ابن الدارس؛

وقيل للمشكلات: طالما الفت الخمرة، وأمضيت على الأذهان الإمرة، فتأهبي للغارة المبيحة لحماك، وتحيزي إلى فئة البطل المستأثر برشف لماك. ولله من نصبة احتفى سفيها المشتري واحتفل، وكفى سني تربيتها

وكفل، واختال عطارد في حلل الجذل لها ورفل، واتضحت الحدود، وتهللت الوجوه، وتنافست المثلثات تؤمل الحظ وترجوه، ونبه البيت على واجبه، وأشار لحظ الشرف بحاجبه، وأسرع نير النوبة في الأوبة، قائما في الإعتذار مقام التوبة؛ واستأثر بالبروج المولدة بيت البنين، وتخطت خطا القمر رأس الجوزهر وذنب التنين؛ وساوق منها حكم الأصل، حذوك النعل بالنعل،

تحويل السنين، وحقق هذا المولود بين المواليد نسبة عمر الوالد، فتجاوز درجة المئين؛ واقترن بعاشره السعدان اقتران الجسد، وثبت بدقيقة مركزه قلب الأسد، وسرق من بيت أعدائه خرثي الغل والحسد؛ ونظفت طرق التسيير، كما نفعل بين يدي السادة عند المسير، وسقط الشيخ الهرم من الدرج في البير، ودفع المقاتل إلى الوبال الكبير:

#لم لا ينال العلا أو يعقد التاج والمشتري طالع والشمس هيلاج

#والسعد يركض في ميدانها مرحاً جذلان والفلك الدوار هملاج

كان به- والله يهديه- قد انتقل من مهد التنويم، إلى النهج القويم؛ ومن أريكة الذراع، إلى تصريف اليراع، ومن كتد الداية، إلى مقام الهداية، والغاية المختطفة البداية؛ جعل الله وقايته عليه عودة، وقسم حسدته قسمة محرم الفحم، بين منخنقةٍ ونطيحةٍ ومترديةٍ

وموقوذة؛ وحفظ هلاله في البدار إلى تمه وبعد تمه، وأقر به عين أبيه وأمه، غير أني- والله يغفر لسيدي- بيد أني راكع في سبيل الشكر وساجد، فأنا عاتب وواجد؛ إذ كان ظني أن البريد بهذا الخبر إلي يعمل، وأن إتحافي به لا يهمل، فانعكست القضية، ورابت الحال المرضية، وفضلت الأمور الذاتية الأمور العرضية، والحكم جازم، واحذ الفرضين لازم؛ إما عدم السوية، ويعارضه اعتناء حبله مغار، وعهدة سلمٍ لم يدخلها جزية ولا صغار؛ أو جهل بمقدار الهبة، ويعارضه علم بمقدار الحقوق، ورضى مناف للعقوق، فوقع الاشكال؛ وربما لطف عذر كان عليه الاتكال. وإذا لم يبشر مثلي بمنحة الله قبل تلك الذات السرية، الخليقة بالنعم الحرية؛ فمن الذي يبشر، وعلى من يعرض بزها أو ينشر، وهي التي واصلت التفقد، وبهرجت المعاملة وأبت أن تنقد، وأنست الغربة وجرحها غير فندمل، ونفست الكربة وجنحها على الجوانح مشتمل؛ فمتى فرض نسيان الحقوق لم ينلني فرض، ولا شهد به علي سماء ولا

أرض؛ وإن قصر فيما يجب لسيدي عمل، لم يقصر رجاء ولا أمل، ولي في شرح حمده ناقة وجمل. ومنه جل وعلا نسأل أن يريه قرة العين في نفسه وماله وبنيه، ويجعل أكبر عطايا الهيالج أصغر سنيه، ويقلد عواتق

الكواكب البابانية حمائل أمانيه. وإن تشوف سيدي لحال وليه، فخلوة طيبة، ورحمة من جانب الله صيبة، وبرق يشام، فيقال: حدث ما وراءك يا هشام. ولله در شيخنا إذ يقول:

#لا بارك الله في إن لم　　　أصرف النفس في الأهم

#وكثر الله في همومي　　　إن كان غير الخلاص همي

وإن انعم سيدي بالإلماع بحالة، وحال الولد المبارك، فذلك من غرر إحسانه، ومنزلته في لحظ لحظي بمنزلة إنسانه؛ والسلام.

العودة إلى المغرب الأقصي

ولما كنت في الاعتمال في مشايعة السلطان عبد العزيز ملك المغرب، كما ذكرت تفاصيله، وأنا مقيم ببسكرة في جوار صاحبها أحمد بن يوسف بن مزنى، وهو صاحب زمام رياح، وأكثر عطائهم من السلطان مفترض عليه في جباية الزاب، وهم يرجعون إليه في الكثير من أمورهم؛ فلم أشعر إلا وقد حدثت المنافسة منه في استتباع العرب، ووغر صدره، وصدق في ظنونه وتوهماته، وطاوع الوشاة فيما يوردون على سمعه من التقول والاختلاق، وجاش صدره بذلك؛ فكتب إلى ونزمار بن عريف، ولي السلطان، وصاحب شواره، يتنفس الصعداء من ذلك، فأنهاه إلى السلطان؛ فاستدعاني لوقته، وارتحلت من بسكرة

بالأهل والولد، في يوم المولد الكريم، سنة أربع وسبعين وسبعمائة، متوجها إلى السلطان، وقد كان طرقه المرض؛ فما هو إلا أن وصلت مليانة من أعمال المغرب الأوسط؛ فلقيني هنالك خبر وفاته، وأن ابنه أبا بكر السعيد نصب بعده للأمر، في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي وانه ارتحل إلى المغرب الأقصى مغذاً السير إلى فاس؛ وكان على مليانة يومئذ علي بن حسون بن أبي علي اليناطي من قواد السلطان وموالي بيته، فارتحلت معه إلى أحياء العطاف، ونزلنا على أولاد يعقوب بن موسى من أمرائهم، وبذرق لي بعضهم إلى حلة أولاد عريف: أمراء سويد؛ ثم لحق بنا بعد أيام، علي بن حسون في عسكره، وارتحلنا جميعاً إلى المغرب على طريق الصحراء؛ وكان أبو حمّو قد رجع بعد مهلك السلطان من مكان انتباذه بالقفر في تيكورارين إلى تلمسان، فاستولى عليها وعلى سائر أعماله؛ فأوعز إلى بني يغمور من شيوخ عبيد الله من المعقل أن يعترضونا بحدود بلادهم من رأس العين مخرج وادي زا فاعترضونا هنالك، فنجا من نجا منا على خيولهم إلى جبل دبدو، وانتهبوا جميع ما كان معنا، وأرجلوا الكثير من الفرسان وكنت فيهم؛ وبقيت يومين في قفره، ضاحياً عارياً إلى أن خلصت إلى العمران، ولحقت بأصحابي بجبل دبدو، ووقع في خلال من الألطاف ما لا يعبر عنه، ولا يسع الوفاء بشكره. ثم سرنا إلى فاس، ووفدت على الوزير أبي بكر، وابن عمه محمد بن عثمان بفاس، في جمادى من السنة؛ وكان لي معه قديم صحبة واختصاص، منذ نزع معي إلى السلطان أبي سالم بجبل الصفيحة عند إجازته من الأندلس، لطلب ملكه، كما مرّ في غير موضع من الكتاب؛ فلقيني من بر الوزير وكرامته، وتوفير جرايته واقطاعه، فوق ما احتسب، وأقمت بمكاني من دولتهم أثير المحل، نابه الرتبة، عريض الجاه، منوه المجلس. ثم انصرم فصل الشتاء، وحدث بين الوزير أبي بكر بن غازي، وبين السلطان ابن الأحمر، منافرة بسبب

ابن الخطيب، وما دعا إليه ابن الأحمر من إبعاده عنهم؛ وانف الوزير من ذلك، فأظلم الجو بينهما؛ واخذ الوزير في تجهيز بعض القرابة من بني الأحمر ليشغل به ونزع ابن،

الأحمر إلى إطلاق الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن من ولد السلطان أبي علي، والوزير مسعود بن رحو بن ماساي، كان حبسهما أيام السلطان عبد العزيز، وبإشارته بذلك لابن الخطيب حين كان ي وزارته

بالأندلس؛ فأطلقهما الآن، وبعثهما لطلب الملك بالمغرب، واجازهما في الأسطول إلى سواحل غساسة، فترلوا بها، ولحقوا بقبائل بالوية هنالك، فاشتملوا عليهم، وقاموا بدعوة الأمير عبد الرحمن. ونهض ابن الأحمر من غرناطة في عساكر الأندلس؛ فترل على جبل الفتح يحاصره. وبلغت الأخبار بذلك إلى الوزير أبي بكر بن غازي القائم بدولة بني مرين، فجهز لحينه ابن عمه محمد بن الكاس إلى سنته لامداد الحامية الذين لهم بالجبل، ونهض هو في العساكر إلى بطوية لقتال الأمير عبد الرحمن، فوجده قد ملك تازى، فأقام عليها يحاصره؛ وكان السلطان عبد العزيز قد جمع شباباً من بني أبيه المرشحين، فحبسهم بطنجة، فلما وافى محمد بن الكاس سبتة، وقعت المراسلة بينه وبين ابن الأحمر، وعتب كل منهما صاحبه على ما كان منه، واشتد عذل ابن الأحمر على إخلائهم الكرسي من كفئه، ونصبهم السعيد بن عبد العزيز صبياً لم يثغر؛ فاستعتب له محمد، واستقال من ذلك، فحمله ابن الأحمر على أن يبايع لأحد الأبناء المحبوسين بطنجة؛ وقد كان الوزير أبو بكر أوصاه أيضاً بأنه إن تضايق عليه الأمر من الأمير عبد الرحمن، فيفرج عنه بالبيعة لأحد أولئك الأبناء.

وكان محمد بن الكاس قد استوزره السلطان أبو سالم لابنه أحمد أيام ملكه، فبادر من وقته إلى طنجة، وأخرج أحمد ابن السلطان أبي سالم من محبسه، وبايع له، وسار به إلى سبتة، وكتب لابن الأحمر يعرفه بذلك، ويطلب منه المدد على أن يترل له عن جبل الفتح؛ فأمده بما شاء من بالمال والعسكر، واستولى على جبل الفتح،

وشحنه بحاميته، وكان أحمد ابن السلطان أبي سالم، قد تعاهد مع بني أبيه في محبسهم، على أن من صار الملك إليه منهم، يجيز الباقين إلى الأندلس؛ فلما بويع له ذهب إلى الوفاء لهم بعهدهم، وأجازهم جميعاً؛ فترلوا على السلطان ابن الأحمر، فأكرم نزلهم ووفر جراياتهم. وبلغ الخبر بذلك كله إلى الوزير أبي بكر بمكانه من حصار الأمير عبد الرحمن بتازة، فأخذه المقيم المقعد من فعلة ابن عمه،

وقوض راجعاً إلى الملك، وعسكر بكدية العرائس من ظاهرها، وتوعد ابن عمه محمد بن عثمان، فاعتذر بأنه إنما امتثل وصيته، فاستشاط وتهدده؛ واتسع الخرق بينهما، وارتحل محمد بن عثمان بسلطانه ومدده من عسكر الأندلس إلى أن احتل بجبل زرهون المطل على مكناسة، وعسكر به، واشتملوا عليه؛ وزحف إليهم الوزير أبو بكر، وصعد الجبل، فقاتلوه وهزموه، ورجع إلى مكانه بظاهر دار الملك. وكان السلطان ابن الأحمر قد أوصى محمد بن عثمان بالاستعانة بالأمير عبد الرحمن، والاعتضاد به، ومساهمته في جانب من أعمال المغرب يستبد به لنفسه؛ فراسله محمد بن عثمان في ذلك، واستدعاه، واستمده. وكان ونزمار بن عريف ولي سلفهم قد أظلم الجو بينه وبين الوزير أبي بكر، لأنه سأله- وهو يحاصر تازى- في الصلح مع الأمير عبد الرحمن فامتنع- واتهمه بمداخلته، والميل له، فاعتزم على القبض عليه، ودس إليه بذلك بعض عيونه، فركب الفيل، ولحق باحياء

الأحلاف من المعقل، وكانوا شيعة للأمير عبد الرحمن، ومعهم علي بن عمر الويعلاني كبير بني ورتاخن، كان انتقض على الوزير ابن غازي، ولحق بالسوس، ثم خاض القفر إلى هؤلاء. الأحلاف، فترل بينهم مقيماً لدعوة الأمير عبد الرحمن. فجاءهم ونزمار مفلتا من حبالة الوزير أبي

بكر، وحرضهم على ما هم فيه، ثم بلغهم خبر السلطان أحمد بن أبي سالم، ووزيره محمد بن عثمان؛ وجاءهم وافد الأمير عبد الرحمن يستدعيهم، وخرج من تازى فلقيهم، ونزل بين أحيائهم، ورحلوا جميعاً بلى إمداد السلطان أبي العباس، حتى انتهوا إلى صفووى. ثم اجتمعوا جميعا على وادي النجا، وتعاقدوا على شأنهم، وأصبحوا من الغد على التعبئة، كل من ناحيته.

وركب الوزير أبو بكر لقتالهم فلم يطق، وولى منهزما، فانحجر بالبلد الجديد، وخيم القوم بكدية العرائس محاصرين له، وذلك أيام عيد الفطر من خمس وسبعين وسبعمائة، فحاصروها ثلاثة أشهر، واخذوا بمخنقها إلى أن جهد الحصار الوزير ومن معه، فأذعن للصلح على خلع الصبي المنصوب السعيد ابن السلطان عبد العزيز، وخروجه إلى السلطان أبي العباس ابن عمه، والبيعة له، وكان السلطان أبو العباس، والأمير عبد الرحمن، قد تعاهدوا - عند الاجتماع بوادي النجا - على التعاون والتناصر، على أن الملك للسلطان أبي العباس بسائر أعمال المغرب، وأن للأمير عبد الرحمن بلداً سجلماسة ودركة، والأعمال التي كانت لجده السلطان أبي علي أخي السلطان أبي الحسن؛ ثم بدا للأمير عبد الرحمن في ذلك أيام الحصار، واشتط بطلب مراكش وأعمالها، فأغضوا له في ذلك، وشارطوه عليه حتى يتم لهم الفتح؛ فلما انعقد بما بين السلطان أبي العباس، والوزير أبي بكر، وخرج إليه من البلد الجديد، وخلع سلطانه الضبي المنصوب، ودخل السلطان أبو العباس إلى دار الملك، فاتح ست وسبعين وسبعمائة، وارتحل الأمير عبد الرحمن يغذ السير إلى مراكش، وبدا للسلطان أبي العباس، ووزيره محمد بن عثمان في شأنه، فسرحوا العساكر في اتباعه، وانتهوا خلفه إلى وادي بهت، فواقفوه ساعة من نهار، ثم أحجموا عنه، وولوا على راياتهم وسار هو إلى مراكش، ورجع عنه وزيره مسعود بن ماساي، بعد أن طلب منه الإجازة إلى الأندلس يتودع بها، فسرحه لذلك، وسار إلى مراكش فملكها.

وأما أنا فكنت مقيماً بفاس، في ظل الدولة وعنايتها، منذ ندمت على الوزير سنة أربع وسبعين كما مرّ، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه؛ فلما جاء السلطان أبو العباس، والأمير عبد الرحمن، وعسكروا بكدية العرائس، وخرج أهل الدولة إليهم، من الفقهاء والكتاب، والجند، وأذن للناس جميعاً في مباكرة أبواب السلطانين من غير نكير في ذلك، فكنت أباكرهما معا. وكان بيني وبين الوزير محمد بن عثمان ما مرّ

ذكره قبل هذا، فكان يظهر لي رعاية ذلك، ويكثر من المواعيد؛ وكان الأمير عبد الرحمن يميل إلي ويستدعيني أكثر أوقاته يشاورني في أحواله؛ فغص بذلك الوزير محمد بن عثمان، وأغرى سلطانه فقبض علي. وسمع الأمير عبد الرحمن بذلك، وعلم أني إنما أوتيت من جراه، فحلف ليقوضن خيامه، وبعث وزيره مسعود بن ماساي لذلك، فأطلقوني من الغد، ثم كان افتراقهما لثالثه. ودخل السلطان أبو العباس دار الملك، وسار الأمير عبد الرحمن إلى مراكش، وكنت أنا يومئذٍ مستوحشاً، فصحبت الأمير عبد الرحمن معتزماً على الإجازة إلى

الأندلس من ساحل اشفي، معولا في ذلك على صحابة الوزير مسعود بن ماساي لهواي فيه، فلما رجع مسعود اثنى عزمي في ذلك، ولحقنا بونزمار بن عريف بمكانه من نواحي كرسيف لنقدمه وسيلة إلى السلطان أبي العباس، صاحب فاس في الجواز إلى الأندلس، ووافينا عنده داعي السلطان فصحبناه إلى فاس، واستأذنه في شأني، فاذن لي بعد مطاولة، وعلى كره من الوزير محمد بن عثمان، وسليمان بن داود بن أعراب، ورجال الدولة.

وكان الأخ يحيى لما رحل السلطان أبو حمّو من تلمسان، رجع عنه من بلاد زغبة إلى السلطان عبد العزيز فاستقر في خدمته، وبعده في خدمة ابنه محمد السعيد المنصوب مكانه. ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد، استأذن الأخ في اللحاق بتلمسان، فأذن له، وقدم على السلطان أبي حمّو، فأعاده إلى كتابة سره كما كان أول مرة، وأذن لي أنا بعده، فانطلقت إلى الأندلس بقصد القرار والدعة، إلى أن كان ما نذكر.

الاجازة الثانية إلي الاندلس، ثم إلى تلمسان، واللحاق باحياء العرب، والمقامة عند أولاد عريف:

ولما كان ما قصصته من تنكر السلطان أبي العباس صاحب فاس، والذهاب مع الأمير عبد الرحمن، ثم الرجوع عنه إلى ونزمار بن عريف، طلباً لوسيلته في انصرافي إلى الأندلس بقصد القرار والانقباض، والعكوف على قراءة العلم؛ فتم ذلك، ووقع الإسعاف به بعد الامتناع، وأجزت إلى الأندلس في ربيع سنة ست وسبعين وسبعمائة؛ ولقيني

السلطان بالبر والكرامة وحسن النزل على عادته، وكنت لقيت بجبل الفتح كاتب

السلطان ابن الأحمر، من بعد ابن الخطيب، الفقيه أبا عبد الله بن زمرك، ذاهباً إلى فاس في غرض التهنئة، وأجاز إلى سبتة في أسطوله، وأوصيته بإجازة أهلي وولدي إلى غرناطة؛ فلما وصل إلى فاس، وتحدث مع أهل الدولة في إجازتهم، تنكروا لذلك، وساءهم استقراري بالأندلس، واتهموا أني ربما احمل السلطان ابن الأحمر على الميل إلى الأمير عبد الرحمن، الذي اتهموني بملابسته، ومنعوا اهلي من اللحاق بي. وخاطبوا السلطان ابن الأحمر في أن يرجعني إليهم؛ فأبى من ذلك، فطلبوا منه أن يجيزني إلى عدوة تلمسان؛ وكان مسعود بن ماسي قد أذنوا له في اللحاق بالأندلس، فحملوه على مشافهة السلطان بذلك، وأبدوا له أني كنت ساعياً في خلاص ابن الخطيب، وكانوا قد اعتقلوه لأول استيلائهم على البلد الجديد وظفرهم به. وبعث إلي ابن الخطيب من محبسه مستصرخاً بي، ومتوسلاً. فخاطبت في شأنه أهل الدولة، وعولت فيه منهم على ونزمار، وابن ماساي، فلم تنجح تلك السعاية، وقتل ابن الخطيب بمحبسه؛ فلما قدم ابن ماساي على السلطان ابن الأحمر - وقد اغروه بي - فألقى إلى السلطان ما كان مني في شأن ابن الخطيب، فاستوحش لذلك، وأسعفهم بإجازتي إلى الغدوة، ونزلت بهنين، والجو بيني وبين السلطان أبي حمّو مظلم، بما كان مني في إجلاب العرب عليه بالزاب كما مرّ. فأوعز بمقامي بهنين، ثم وفد عليه محمد بن عريف فعذله في شأني فبعث عني إلى تلمسان، واستقررت بها بالعباد. ولحق بي اهلي وولدي من فاس، وأقاموا معي، وذلك في عيد الفطر سنة ست وسبعين وسبعمائة، وأخذت في بث العلم، وعرض للسلطان أبي حمّو أثناء ذلك رأي في الدواودة، وحاجة إلى استئلافهم؛

فاستدعاني، وكلفني السفارة إليهم في هذا الغرض، فاستوحشت منه، ونكرته على نفسي، لما آثرته من التخلي والانقطاع، واجبته إلى ذلك ظاهراً، وخرجت مسافراً من تلمسان حتى انتهيت إلى البطحاء، فعدلت ذات اليمين إلى منداس، ولحقت بأحياء أولاد عريف قبلة جبل كزول، فتلقوني بالتحفي والكرامة، وأقمت بينهم أياماً حتى بعثوا عن أهلي وولدي من تلمسان، وأحسنوا العذر إلى السلطان عني في العجز عن قضاء خدمته، وأنزلوني باهلي في قلعة ابن سلامة، من بلاد بني توجين التي صارت لهم بإقطاع السلطان، فأقمت بها أربعة أعوام، متخلياً عن الشواغل كلها؛ وشرعت في تأليف هذا الكتاب، وأنا فقيم بها، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب، الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر، حتى امتخضت زبدها، وتألفت نتائجها؛ وكانت من بعد ذلك الفيئة إلى تونس كما نذكره.

الفيئة إلي السلطان أبي العباس بتونس والمقام بها:

ولما نزلت بقلعة ابن سلامة بين أحياء أولاد عريف، وسكنت منها بقصر أبي

بكر بن عريف الذي اختطه بها، وكان من أحفل المساكن وأوثقها. ثم طال مقامي هنالك، وأنا مستوحش من دولة المغرب وتلمسان، وعاكف على تأليف هذا الكتاب، وقد فرغت من مقدمته إلى أخبار العرب والبربر وزناتة، وتشوفت إلى مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلا بالأمصار، بعد أن أمليت الكثير من حفظي، واردت التنقيح والتصحيح؛ ثم طرقني مرض أوفى بي على، الثنية، لولا ما تدارك من لطف الله؛ فحدث عندي ميل إلى مراجعة السلطان أبي العباس، والرحلة إلى تونس، حيث قرار آبائي، ومساكنهم، وآثارهم، وقبورهم؛ فبادرت إلى خطاب السلطان بالفيئة إلى طاعته، والمراجعة، وانتظرت، فما كان غير بعيد، وإذا بخطابه وعهوده بالأمان، والاستحثاث للقدوم؛ فكان الخفوف للرحلة؛ فطعنت عن أولاد عريف مع عرب الأخضر من بادية رياح، كانوا هنالك ينتجعون الميرة بمنداس. وارتحلنا في رجب سنة ثمانين وسبعمائة، وسلكنا القفر إلى الدوسن من أطراف الزاب. ثم صعدت إلى التل مع حاشية يعقوب بن علي وجدتهم بفرفار، الضيعة التي اختطها

بالزاب، فرحلتهم معي إلى أن نزلنا عليه بضاحية قسنطينة، ومعه صاحبها الأمير إبراهيم أن السلطان أبي العباس بمخيمه، وفي عسكره؛ فحضرت عنده، وقسم لي من بره، وكرامته فوق الرضى. وأذن لي في الدخول إلى قسنطينة، واقامة أهلي في كفالة إحسانه، بينما أصل إلى حضرة أبيه. وبعث يعقوب بن علي معي ابن أخيه أبي دينار في جماعة من قومه،

وسرت إلى السلطان أبي العباس، وهو يومئذ قد خرج من تونس في العساكر إلى بلاد الجريد، لاستنزال شيوخها عن كراسي الفتنة التي كانوا عليها، فوافيته بظاهر سوسة، فحيا وفادتي، وبز مقدمي، وبالغ في تأنيسي، وشاورني في مهمات أموره؛ ثم ردني إلى تونس، وأوعز إلى نائبه بها مولاه فارح بتهيئة المترل، والكفاية في الجراية، والعلوفة، وجزيل الإحسان؛ فرجعت إلى تونس في شعبان من السنة، وآويت إلى ظلٍ ظليل من عناية السلطان وحرمته، وبعثت عن الأهل والولد، وجمعت شملهم في مرعى تلك النعمة، وألقيت عصا التسيار؛ وطالت غيبة السلطان إلى أن افتتح أمصار الجريد، وذهب فلهم في النواحي، ولحق زعيمهم يحيى

بن يملول ببسكرة، ونزل على صهره ابن مزني، وقسم السلطان بلاد الجريد بين ولده، فأنزل ابنه محمداً المنتصر بتوزر، وجعل نفطة، ونفزاوة من أعماله، وأنزل ابنه أبا بكر بقفصة، وعاد إلى تونس مظفراً، مزهراً، فأقبل علي، واستدناني لمجالسته، والنجي في خلوته، فغمق بطانته بذلك، وأفاضوا في السعايات عند السلطان فلم تنجح؛ وكانوا يعكفون على إمام الجامع، وشيخ الفتيا، محمد بن عرفة، وكانت في قلبه نكتة من الغيرة من لدن اجتماعنا في المربى بمجالس الشيوخ، فكثيراً ما كان يظهر شفوفي عليه، وإن كان أسن مني، فاسودت تلك النكتة في قلبه، ولم تفارقه. ولما قدمت تونس انثال علي طلبه العلم من أصحابه وسواهم؛ يطلبون الإفادة والاستغال، واسعفتهم بذلك، فعظم عليه. وكان يسم التنفير إلى الكثير منهم فلم يقبلوا، واشتدت غيرته، ووافق ذلك اجتماع البطانة إليه، فاتفقوا على شأنهم في التأنيب علي، والسعاية بي، والسلطان خلال ذلك معرض عنهم في ذلك، وقد كلفني بالإكباب على تأليف هذا الكتاب لتشوفه إلى المعارف والأخبار، وأقتناء الفضائل، فأكملت منه أخبار البربر، وزناته. وكتبت من أخبار الدولتين وما قبل الإسلام ما وصل إلي منها، وأكملت منه نسخة رفعتها إلى خزانته، وكان مما يغرون به السلطان علي، قعودي عن امتداحه، فإني كنت قد أهملت الشعر وانتحاله جملة، وتفرغت للعلم فقط، فكانوا يقولون له إنما ترك ذلك استهانة بسلطانك، لكثرة امتداحه للملوك قبلك، وتنسمت ذلك عنهم من جهة بعض الصديق من بطانتهم؛ فلما رفعت له الكتاب، وتوجته باسمه، أنشدت في

ذلك اليوم، هذه القصيدة أمتدحه، وأذكر سيره وفتوحاته، وأعتذر عن انتحال الشعر، وأستعطفه بهدية الكتاب إليه؛ وهي هذه:

#هل غير بابك للغريب مؤمل أوعن جنابك للأماني معدل

#هي همة بعثت إليك على النوى عزما كما شحذا الحسام الصيقل

#متبؤأ الدنيا ومنتجع المنى والغيث حيث العارض المتهلل

#حيث القصور الزاهرات منيفة تعنى بها زهر النجوم وتحفل

#حيث الخيام البيض يرفع للعلا والمكرمات طرافها المتهدل

#حيث الحمى للعزفي ساحاته ظل أفاءته الوشيج الذبل

#حيث الكرام ينوب عن نار القرى عرف الكباء بحيهم والمندل

#حيث المحرماح يكاديورق عودها مما تعل من الدماء وتنهل

#حيث الجياد املن شجعان الوغى مما أطالوا في المنار واوغلوا

#حيث الوجوه الغرقنعها الحيا والبشرفي صفحاتها يتهلل

#حيث الملوك الصيد والنفر الألى عز الجوار لديهم والمترل

#من شيعة المهدي بل من شيعة التوحيد به الكتاب مفصل

#بل شيعة الرحمن ألقى حبهم في خلقه فسموا بذاك وفضلوا

#شادوا على التقوى مباني عزهم لله ما شادوا بذاك وأثلوا
#قوم ابوحفصٍ أب لهم وما ادراك! والفاروق جد اول
#نسب كما اطردت انابيب القنا واتى على تقويمهن معدل
#سام على هام الزمان كأنه للفخرتاج بالبدورمكلل فضل
#فضل الأنام حديثهم وقد يمهم ولأنت إن فضلوا اعزوافضل
#وبنوا على قلل النجوم ووطدوا وبناؤك العالي أشذ واطول
* * *

ولقد اقول لخائض بحر الفلا	والليل مزبد الجوانب أليل
ماضٍ على غول الذجى لايتقي	تيها وذابله ذبال مشعل
متقلب فوق الرحال كأنه	طيف بأطراف المهاد موكل
يبغي منال الفوز من طرق الغنى	ويرود مخصبها الذي لا يمحل
ارح الركاب فقد ظفرت بواهبٍ	يعطي عطاء المنعمين فيجزل
لله من خلق كريمٍ في الندى	كالروض حياه ندقي مخضوضل
هذا امير المؤمنين إمامنا	في الدين والذنيا إليه الموئل
هذا ابوالعئاس خيرخليفة	شهدت له الشيم التي لا تجهل
مستنصر بالله في قهر العداً	وعلى إعانة ربه متوكل
سبق الملوك إلى العلا متمهلاً	لله منك السابق المتمهل

فلا أنت اعلى المالكين وإن غدوا	يتسابقون إلى العلاء وأكمل
قايس قديماً منكم بقديمهم	فالامر فيه واضح لا يجهل
دانوا لقومكم بأقوم طاعةٍ	هي عروة الدين التي لا تفصل
سائل تلمساناً بها وزناتةً	ومرين قبلهم كما قد ينقل
واسال باندلس مدائن ملكها	تخبرك حين استياشوا واستوهلوا
واسال بذا مراً كشاً وقصورها	ولقد تجيب رشومها من يسأل

يا أيها الملك الذي في نعته ملاء القلوب وفوق ما يتمثل

لله منك مؤيد، عزماته تمضي كمايمضي القضاءالمرسل

جئت الزمان بحيث أعضل خطبة فافترعنه وهوأكلح أعصل

والشمل من ابنائه فتضدع وحمى خلافته مضاع مهمل

والخلق قد صرفوا إليك قلوبهم ورجوا صلاح الحال منك واملوا

فعجلته لما انتدبت لأمره بالبأس والعزم الذي لا يمهل

ذئلت منه جامحا ًلاينثني سهلت وعراً كاد لايتسهل

وألنت من سوس العتاة وذدتهم عن ذلك الخرك الذي قد حللوا

كانت بصولة صولة ولقومة يعدو ذويب بهاوتسطوالمعقل

ومهلهل تسدي وتلحم في التي ما أحكموهافهي بعد مهلهل

المراد بصولة هنا صولة بن خالد بن حمزه أمير أولاد أبي الليل. وذؤيب: هو ابن عمه أحمد بن حمزة. والمعقل فريق من العرب من احلافهم. ومهلهل: هم بنو مهلهل ابن قاسم أنظارهم وأقتالهم. ثم رجعت إلى وصف العرب وأحيائهم:

#عجب الأنام لشأنهم بادون قد قذفت بحيهم المطيئ الذلل

#رفعوا القباب على العماد وعندها الجرد السلاهب والرماح العسل

#في كل ظامي الترب متقد الحصى تهدي للجته الظماءفتنهل

#جن شرابهم السراب ورزقهم رمح يروح به الكمي ومنصل

#حيئ حلول بالعراء ودونهم قذف النوى إن يظعنوا اويقلبوا

#كانوا يروعون الملوك بما بدوا وغدت ترفه بالنعيم وتخضل

#فبدوت لا تلوي على دعةٍ ولا تأوي إلى ظلل القصور تهدل

#اطورا يصافحك الهجير وتارة فيه بخفاق البنود تظلل

#وإذا تعاطي ضمراً يوم الوغى كأس النجيع فبالصهيل تعلل

#مخشوشناً في العزمعتملاً له في مثل هذا يحسن المستعمل

#تفري حشى البيداء لايسري بها ركب ولا يهوي إليه جحفل

#وتجر أذيال الكتائب فوقها تختال في السمر الطوال وترفل

#ترميهم منها بكل مدجج شاكي السلاح إذا استعار الأعزل

#وبكل اسمر غصنه متاؤد وبكل أبيض شطه متهدل

#حتى تفرق ذلك الجمع الألى عصفت بهم ريح الجلاد فزلولوا

#ثم استملتهم بانعمك التي خضعوا لعزك بعدها وتذللوا

#ونزعت من أهل الجريد غواية	كانت بهم أبدا تجد وتهزل
#خربت من بنيانها ما شيدوا	وقطعت من أسبابها ما اصلوا
#ونظمت من أمصاره وثغوره	للملك عقدا بالفتوح يفضل
#فسددت مطلع النفاق وأنت لا	تنبو ظباك ولا العزيمة تنكل
#بشكيمة مرهوبةٍ وسياسةٍ	تجري كما يجري فرات سلسل
#عذب الزمان لها ولذ مذاقه	من بعدماقدمرمنه الحنظل
#فضوى الأنام لعز أروع مالكٍ	سهل الخليقة، ماجد متفضل
#وتطابقت فيك القلوب على الرضى	سيان منها الطفل والمتكهل
#يامالكاً و!سع الزمان وأهله	دعة وامنا فوق ما قد أملوا
#فالأرض لا ئخشى بها غول ولا	يعدو بساحتها الهزبر المشبل
#والسفر يجتابون كل تنوفة	سرب القطا ما راعهن الأجدل
#سبحان منن بعلاك قد أحيا المنى	وأعاد حلي الجيد وهو معطل
#سبحان من بهداك أوضح للورى	قصد السبيل فابصر المتافل
#فكأنما الدنيا عروس تجتلى	فتميس في حلل الجمال وترفل
#وكأن مطبقة البلاد بعدله	عادت فسيحاً ليس فيه مجهل
#وكأن أنوار الكواكب ضوعفت	من نور غرته التي هي اجمل

#وكأنما رفع الحجاب لناظرٍ فرأى الحقيقة في الذي يتخيل

ومنها في العذر عن مدحه:

#مولاي غاضت فكرتي وتبلدت	مني الطباع فكل شي مشكل
#تسمو إلى درك الحقائق همتي	فأصد عن إدراكهن وأعزل
#وأجد ليلي في امتراء قريحتي	وتعود غوراً بينما تسترسل
#فابيت يعتلج الكلام بخاطري	والنظم يشرد والقوافي تجفل
#من بعدحول انتقيه ولم يكن	في الشعرلي قول يعاب ويمهل
#فاصونه عن أهله متوارياً	أن لا يضمهم وشعري محفل
#وهي البضاعة في القمول نفاقها	سيان فيها الفحل والمتطفل
#وبنات فكري إن أتتك كليلة	مرهاء تخطرفي القصوروتخطل
#فلها الفخار إذا منحت قبولها	وأنا على ذاك البليغ المقول

ومنها في ذكر الكتاب المؤلف لخزانته:

#وإليك من سير الزمان وأهله	عبراً يدين بفضلها من يعدل
#صحفا تترجم عن أحاديث الألى	درجوا فتحمل عنهم وتفصل
#تبدي التبابع والعمالق سرها	وثمود قبلهم وعاد الأول
#والقائمون بملة الإسلام من	مضر و بربرهم إذا ما حصلوا
#لخصت كتب الأولين لجمعها	وأتيت أولها بما قد أغفلوا
#وألنت حوشي الكلام كأنما	شي اللغات بها لنطقي ذلل
#أهديت منه إلى علاك جواهراً	مكنونة وكواكباً لا تأفل
#وجعلمه لصوان ملكك مفخراً	يبأى الندي به ويزهو المحفل
#والله ما أسرفت فيما قلته	شيئاً ولا الاسراف مني يجمل
#ولأنت أرسخ في المعالي رتبة	من أن يموة عنده متطفل
#فملاك كل فضيلة وحقيقة	بيديك تعرف وضعها إن بدلوا
#والحق عندك في الأمور مقدم	أبداً فماذا يدعيه المبطل
#والله اعطاك التي لا فوقها	فاحكم بما ترضى فانت الأعدل

#أبقاك ربك للعباد تربهم   فالله يخلقهم ورعيك يكفل

وكنت لما انصرفت عنه من معسكره على سوسة إلى تونس، بلغني- وأنا مقيم بها- أنه أصابه في طريقه مرض، وعقبه إبلال، فخاطبته بهذه القصيدة:

#ضحكت وجوه الدهربعدعبوس   وتخللتنا رحمة من بوس
#وتوضحت غررالبشائر بعد ما   انبهمت فأطلعهاحداة العيس
#صدعوا بها ليل الهموم كأنما   صدعوا الظلام بجذوة المقبوس
#فكانهم بثوا حياة في الورى   نشرت لها الامال من مرموس
#قرت عيون الخلق منها بالتي   اضفت من النعماء خيرلبوس
#فكأن قومي نادمتهم قرقف   شربوا النعيم لها بغيركؤوس
#يتمايلون من المسرة والرضى   ويقابلون أهلة بشموس
#من راكب وافى يحيي راكباً   وجليس أنس قاده لجليس
#ومشفع لبه يؤنس عنده   أثراالهدى في المعهد المأنوس
#يعتد منهارحمة قدسية   فيبوء للرحمن بالتقديس

#طب بإخلاص الدعاء وإنه يشفي من الداء العياء ويوسي
والمعنى به إمام الجامع الأعظم، جامع الزيتونة بتونس.
#يا ابن الخلائف والذين بنورهم نهجت سبيل الحق بعد دروس
#والناصر الدين القويم بعزمة طرد استقامتها بغيرعكوس
#هجرالمنى فيها ولذات المنى في لذة التهجييروالتغليس
#حاط الرعية بالسياسة فانضوت منه لإكرم مالك وسؤوس
#أسد يحامي عن حمى اشباله حتى ضووا منه لأمنع خيس
#قسماً بموشي البطاح وقد غدت تختال زهواً في ثياب عروس
#والماثلات من الحنايا جثماً يخبرن عن طسم وفل جديس
#خوص مضفرة البطون كانها أنضاء ركب في الفلاة حبيس
#وخز البلى منها الغوارب والذرى فلفتن خزراً بالعيون الشوس
#لبقاك حرزالأنام وعصمة وحياة أرواح لنا ونفوس
#ولأنت كافل ديننا بحماية لولاك ضيع عهدها وتنوسي
#الله أعطاك التي لا فوقها وحباك حظا ليس بالموكوس
#تعنو القلوب إليك قبل وجوهنا سيان من رأس ومن مرءوس
#فإذا أقصت فإن رعبك راجل يحمي على الأعداء كل وطيس
#وإذا رحلت فللسعادة آية تقتادها في موكب وخميس
#وإذا الأدلة في الكمال تطابقت جاءت بمسموع لها ومقيس
#فانعم بملكك دولة عادية تشقي الأعادي بالعذاب البيس
* * *

#وإليكها مني على خجل بها عذراء قد حليت بكل نفيس
#عذراك فقد طمس الشباب ونوره وأضاء صبح الشيب عند طموس
#لولا عنايتك التي أوليتني ما كنت أعنى بعدها بطروس
#والله ما أبقت ممارسة النوى مني سوى مرس أحم دريس
#أنحى الزمان علي في الأدب الذي دارسته بمجامع ودروس
#فسطا على وفري وروع مأمني واجتث من دوح النشاط غروسي
#ورضاك رحمتي التي أعتدها تحيي منى نفسي وتذهب بوسي

ثم كثرت سعاية البطانة بكل نوع من أنواع السعايات، وابن عربة يزيد في إغرائهم
مى اجتمعوا إليه، إلى ان أغروا السلطان بسفري معه، ولقنوا النائب بتونس القائد
فارح من موالي السلطان أن يتفادى من مقامي معه، خشية على أمره مني بزعمه، وتواطأوا على أن يشهد ابن عرفة بذلك للسلطان، فشهد به في غيبة مني، ونكر السلطان عليهم ذلك، ثم بعث إليّ وأمرني بالسفر معه، فسارعت إلى الامتثال، وقد شق ذلك علي، إلا أني لم أجد محيصاً [عنه] ، فخرجت معه، وانتهيت إلى تبسة، وسط وطن تلول أفريقية، وكان منحدراً في عساكره وتواليفه من العرب إلى توزر؛ لأن ابن يملول كان أجلب عليها سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة، واستنقذها من يد إبنه، فسار السلطان إليه، وشرده عنها، وأعاد إليها ابنه وأولياءه. ولما نهض من تبسة، رخعني إلى تونس؛ فأقصت بضيعتي الرياحين من نواحيها لضم زروعي بها، إلى أن قفل السلطان ظافرا منصورا، فصحبته إلى تونس.ولما كان شهر شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة، أجمع السلطان الحركة إلى الزاب؛
بما كان صاحبه ابن مزنى قد آوى ابن يملول إليه، ومهد له في جواره؛ فخشيت أن يعود في شأني ما كان في السفرة قبلها. وكانت بالمرسى سفينة لتجار الإسكندرية قد شحنها التجار بأمتعهم وعروضهم، وهي مقلعة إلى الإسكندرية، فتطارحت على السلطان، وتوسلت إليه في تخلية سبيلي لقضاء فرضي، فأذن لي في ذلك، وخرجت إلى المرسى، والناس متسايلون على أثري من أعيان الدولة والبلد وطلبة العلم. فودعتهم، وركبت البحر منتصف شعبان من السنة، وقوضت عنهم بحيث كانت الخيرة من الله سبحانه، وتفرغت لتجديد ما كان عندي من آثار العلم، والله ولي الأمور سبحانه.

الرحلة الى المشرق، وولاية القضاء بمصر:

ولما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة، أقمنا في البحر نحواً
من أربعين ليلة، ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر. ولعشر ليالٍ من جلوس الملك الظاهر على التخت، واقتعاد كرسى الملك دون أهله بني قلاوون؛ وكنا على ترقب ذلك، لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك، وتمهيده له. وأقمت بالإسكندرية شهراً لتهيئة أسباب الحج و لم يقدر عامئذ، فانتقلت إلى القاهرة أول ذي
القعدة، فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه؛ قد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء، يسقيهم النهل والعلل سيحه ويجني إليهم الثمرات والخيرات ثجه؛ ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم. وما زلنا نحدث عن هذا البلد، وبعد مداه في العمران، واتساع الأحوال؛ ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا
وأصحابنا، حاجهم وتاجرهم، بالحديث عنه. سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس، وكبير العلماء بالمغرب؛ أبا

عبد الله المغربي، مقدمه من الحج سنة أربعين وسبعمائة، فقلت له: كيف هذه القاهرة؟ فقال من لم يرها لم يعرف عز الإسلام.

وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال: كأنما انطلق أهله من الحساب؛ يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب.

وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس، الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجي بمجلس السلطان أبي عنان، منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر، وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم، سنة ست وخمسين وسبعمائة وسأله عن القاهرة فقال:

أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار: إن الذي يتخيله الإنسان، فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها، لاتساع الخيال عن كل محسوس، إلا القاهرة، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها. فأعجب السلطان والحاضرون لذلك.

ولما دخلتها، أقمت أياماً، وانثال علي طلبة العلم بها، يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة، ولم يوسعوني عذراً؛ فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها.

ثم كان الاتصال بالسلطان، فأبر مقامي اللقاء، وأنس الغربة، ووفر الجراية من صدقاته، شأنه مع أهل العلم، وانتظرت لحاق أهلي وولدي من تونس، وقد صدهم السلطان هنالك عن السفر، اغتباطا بعودي إليه، فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه في تخلية سبيلهم، فخاطبه في ذلك بما نصه.

بسم الله الرحمن الرحيم.

عبد الله ووليه أخوه برقوق <.............>

السلطان الأعظم، المالك الملك الظاهر، السيد الأجل، العالم العادل، المؤيد المجاهد، المرابط المثاغر، المظفر، الشاهنشاه، سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، اسكندر الزمان، مولي الاحسان، مملك أصحاب التخوت والأسرة والتيجان، واهب الأقاليم والأقطار، مبيد الطغاة والبغاة والكفار، ملك البحرين، مسلك سبيل القبلتين، خادم الحرمين الشريفين، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، سلطان البسيطة مؤمن الأرض المحيطة، سيد الملوك والسلاطين، قسيم أمير المؤمنين، أبو سعيد برقوق ابن الشهيد شرف الدنيا والدين أبي المعالي أنس. خلد الله سلطانه، ونصر جيوشه وأعوانه- يخص الحضرة السنية السرية، المظفرة الميمونة، المنصورة المصونة، حضرة السلطان العالم، العادل المؤيد، المجاهد الأوحد، أبي العباس، ذخر الإسلام والمسلمين، عدة الدنيا والدين، قدوة الموحدين، ناصر الغزاة والمجاهدين، سيف جماعة الشاكرين، صلاح الدول. لا زالت مملكته بقوته عامرة، ومهابته لنفوس الجبابرة قاهرة، ومعدلته تبوئه غرفات العز في الدنيا والآخرة. سلام صفا ورده وضفا برده، وثناء فاح نده، ولاح سعده، ووداد زاد وجده، وجاد جده.

أما بعد حمد الله الذي جعل القلوب أجناداً مجندة، وأسباب الوداد على البعاد مؤكدة، ووسائل المحبة بين الملوك في كل يوم مجددة؛ والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله، الذي نصره لله بالرعب مسيرة شهر وأيده وأعلى به منار الدين وشئده؛ وعلى آله وأصحابه الذين اقتفوا طريقه وسؤدده، صلاة دائمة مؤبده. فإننا نوضح لعلمه الكريم، ان الله- وله الحمد- جعل جبلتنا الشريفة مجبولة على تعظيم العلم الشريف وأهله، ورفعة شأنه، ونشر أعلامه، ومحبة أهله وخدامه، وتيسير مقاصدهم، وتحقيق أملهم، والإحسان إليهم، والتقرب إلى الله بذلك في السر والعلانية؛ فإن العلماء رضي الله عنهم ورثة الأنبياء وقرة عين الأولياء، وهداة خلق الله في أرضه؛ لاسيما من رزقه الله الدراية فيما علمه من ذلك، وهداه للدخول إليه من أحسن المسالك، مثل من سطرنا هذه المكاتبة بسببه: المجلس السامي، الشيخي، الأجلي، الكبيرى، العالمي، الفاضلي، الأثيلي، الأثيري، الإمامي، 1لعلامي ا لقدوة، المقتدي، الفريدى؛ المحققي، الأصيلي، الأوحدي، الماجدي، الولوي، جمال الإسلام والمسلمين، جمال العلماء في العالمين، أوحد الفضلاء، قدوة البلغاء، علامة الأمة، إمام الأئمة، مفيد

الطالبين، خالصه الملوك والسلاطين عبد الرحمن بن خلدون المالكي. أدام الله نعمته؛ فإنه أولى بالإكرام، وأحرى، وأحق بالرعاية وأجل قدراً؛ وقد هاجر إلى ممالكنا الشريفة، وآثر الإقامة عندنا بالديار المصرية، لا رغبة عن بلاده، بل تحبباً إلينا، وتقرباً إلى خواطرنا، بالجواهر النفيسة، من ذاته الحسنة، وصفاته الجميلة؛ ووجدنا منه فوق ما في النفوس، مما يجل عن الوصف ويُربي على التعداد. ياله من غريب وصف ودار، قد أتى عنكم بكل غريب؛ وما برح- من حين ورد علينا- يبالغ في شكر الحضرة العلية، ومدح صفاتها الجميلة، إلى أن استمال خواطرنا الشريفة إلى حُبِّها، وآثرنا المُكاتبة إليها

"والعين تعشق قبل الأذن أحياناً"

وذكر لنا في أثناء ذلك، أن أهله وأولاده، في مملكة تونس تحت نظر الحضرة العليّة، وقصد إحضارهم إليه ليقيموا عنده، ويجتمع شمله بهم مدة إقامته عندنا، فاقتضت آراؤنا الشريفة، الكتابة إلى الحضرة العليّة لهذين السببين الجميلين؛ وقد آثرنا إعلام الحضرة العليّة بذلك، ليكون على خاطره الكريم، والقصد من محبته، يُقدِّمُ أمرَه العالي بطلب أهل الشيخ وليّ الدين المشار إليه، وإزاحة أعذارهم، وإزالة عوائقهم، والوصيَّة بهم، وتجهيزهم إليه مُكرَّمين، محترمين، على أجمل الوجوه صُحبة قاصِده الشيخ الصالح، العارف السالك الأوحد، سعد الدين مسعود المكْناسي، الواصل بهذه المكاتبة أعزه الله؛ ويكون تجهيزهم على مركب من مراكب الحضرة العلية، مع تَوصيةَ من بها من البحرية بمضاعفة إكرام المشار إليهم وَرِعايتهم، والتَّأكيد عليهم في هذا المعنى، وإذا وصَل من بها مَن البحرية، كان لهم الأمن والإحسان فوق ما في أنفُسهم، ويُرْبي على أملهِم؛ بحيثُ يَهتَمُّ بذلك على ما عُهد من محبَّته، وجميل اعتماده، مع ما يُتحفُ به من مراسلاته، ومقاصده ومكاتباته. والله تعالى يَحرسُهُ بملائكته وآياته، بِمنّه ويُمْنِه إن شاء الله.

كتب خامس عشر صفر المبارك من سنة ست وثمانين وسبعمائة حسب المرسوم الشريف.الحمد لله وصلواته على سيّدنا محمَّد وآله وصَحبه وسلّم.

ثم هلك بعضُ المدرِّسين بمدرسة القمحية بمصر، من وَقْف صلاح الدين بن أَيُّوب، فولاَّني تدريسها مكانه، وبَينا أنا في ذلك، إذ سَخِط السلطان قاضي المالكية في دولته، لبعض النَّزَعات فعزله، وهو رابعُ أربعة بعدد المذاهب، يُدعى كلٌّ منهم قاضي القُضاة، تمييزاً عن الحُكّام بالنيابة عنهم، لاّتساع خُطَّة هذا المعْمور، وكثرة عوالمه، وما يرتفعُ من الخصومات في جوانبه؛ وكبيرُ جماعتهم قاضي الشَّافعية، لِعُموم ولايته في الأعمال شرقاً وغرباً، وبالصَّعيد والفيوم، واستقلاله بالنظر في أموال الأيتام، والوصايا؛ ولقد يقال بأنّ مباشرة السلطان قديماً بالولاية إنّما كانت تكون له.

فلما غزل هذا القاضي المالكيّ سنة ست وثمانين وسبعمائة، اختصنى السلطان بهذه الولاية، تأهيلاً لمكاني، وتنويهاً بذكري، وشافهته بالتفادي من ذلك، فأبى إلاّ إمضاءه؛ وخلع علي بإيوانه، وبعث من كبار الخاصّة من أقعدني بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية بين القصرين، فقصت بما دفع إليّ من ذلك المقام المحمّود، ووفّيت جهدي بما أمنني عليه من أحكام الله، لا تأخذني في الحق لومة، ولا يزغبني عنه جاه ولا سطوة، مسّوياً في ذلك بين الخصمين، آخذاً بحقِّ الضعيف من الحكمين، مُعْرِضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين؛ جانحاً إلى التثّبت في سماع البينات، والنظر في عدالة المنتصبين لتحمّل

الشهادات؛ فقد كان البرّ منهم مختلطاً بالفاجر، والطيّب ملتبساً بالخبيث، والحكام ممسكون عن انتقادهم متجاوزون عما يظهر عليهم من هناتهم، لما يموّهون به من الاعتصام بأهل الشوكة؛ فإن غالبهم مختلطون بالأمراء، معلمون للقرآن، وأئمة في الصلوات، يلبسون عليهم بالعدالة، فيظنّون بهم الخير، ويقسمون لهم الحظ من الجاه في تزكيتهم عند القضاء؛ والتوسّل لهم؛ فاعضل داؤهم، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم؛ ووقفتُ على بعضِها فعاقبت فيه بموجع العِقَاب، ومؤلم النِكال؛ وتأدّى لعلمى الجرح في طائفة منهم، فمنعتهم من تحمّل الشهادة؛ وكان منهم كتاب الدواوين القضاة، والتوقيع في مجالسهم، قد درّبوا على إملاء الدعاوي، وتسجيل الحكومات، واستخدموا للأمراء فيما يعرض لهم من العقود، بإحكام كتابتها، وتوثيق شروطها؛ فصار لهم بذلك شفوف على أهل طبقتهم، وتمويهٌ على القضاة بجاههم، يدّرعون به مما يتوقعونه من مغبتهم، لتعرّضهم لذلك بفعلاتهم؛ وقد يسلّط بعضٌ منهم قَلَمَهُ على العقود المُحْكَمَة، فيُوجدُ السبيلَ إلى حلّها بوجة فِقهيّ، أو كتابيّ؛ ويبادر إلى ذلك متى دعا إليه داعي جاَه أو منحة؛ وخصوصاً في الأوقاف التي جاوزت حدود النهاية في هذا المصر بكثرة عوالمه؛ فأصبحت خافية الشهرة، مجهولة الأعيان، عرضةً للبُطلان، باختلاف المذاهب المنصوبة للأحكام بالبلد، فمن اختار فيها بيعاً أو تمليكاً شارطوه وأجابوه، مفتاتين فيه على الحكّام الذين ضربوا فيه سدّ الحظر والمنع حمايةً عن التّلاعب؛ وفشا في ذلك الضرر في الأوقاف، وطرق الغرر في العقود والأملاك.

فعاملتُ الله في حسم ذلك بما آسفهم عليّ وأحقدهم؛ ثم التفت إلى الفتيا بالمذهب، وكان الحكام منهم على جانب من الحيرة، لكثرة معارضتهم، وتلقينهم الخصوم، وفتياهم بعد نفوذ الحكم؛ وإذا فيهم أصاغر، بيناهم يتشبثون بأذيال الطلب والعدالة ولا يكادون؛ إذا بهم ظهروا إلى مراتب الفتيا والتدريس، فاقتعدوها، وتناولوها بالجزاف، وأجازوها من غير مرتّب ولا مستند للأهلية ولا مرشح؛ إذ

الكثرة فيهم بالغة، ومن كثرة الساكن مشتقّة، وقلم الفتيا في هذا المصر طلق، وعنانها مُرْسَلَ، يتجاذب كل الخصوم منها رَسَناً، ويتناول من حافته شقّاً، يروم به الفتح على خصمه، ويستظهر به لإرغامه، فيعطيه المُفتي من ذلك ملءَ رضاه، وكَفاءَ أمنيته، متتبعاً إياه في شغب الخلاف؛ فتتعارض الفتاوى وتتناقض، ويعظم الشغب إن وقعت بعد نفوذ الحكم؛ والخلاف في المذاهب كثير، والإنصاف متعذّر، وأهلية المفتي و شهرة الفتيا ليس تمييزها للعامي؛ فلا يكاد هذا المدى ينحسم، ولا الشغب ينقطع.

فصدعت في ذلك بالحق، وكبحتُ أعنّة أهل الهوى والجَهْل، ورددتهم على أعقابهم. وكان فيهم ملتقطون سقطوا من المغرب؛ يشعوذون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك،ولا ينتمون إلى شيخ مشهور، ولا يعرف لهم كتاب فى فنّ، قد اتخذوا الناس هزواً، وعقدوا المجالس مثلبةً للأعراض، ومأبنه للحرم؛ فارغمهم ذلك مني، وملأهم حسدا وحقداً عليّ، وخلوا إلى أهل جلدتهم من سكان الزوايا المنتحلين للعبادة، ليشترون بها الجاه ليجيروا به على الله؛ وربما اضطر أهل الحقوق إلى تحكيمهم، فيحكمون بما يلقي الشيطان على ألسنتهم يترخّصون به الإصلاح، لا يزعهم الدين عن التعرّض لأحكام الله بالجهل؛ فقطعت الحبل في أيديهم، وأمضيتُ حكم الله فيمن أجازوه، فلم يغنوا عنه من الله شيئاً، وأصبحت زواياهم مهجورة، وبئرهم التي يمتاحون منها معطّلة. وانطلقوا يراطؤن السفهاء من النيل من عرضي، وسوء الأحدوثة عني بمختلق الإفك، وقول الزور، ويبثّونه في الناس، ويدسّون إلى السلطان التظلّم مني فلا يصغي إليهم؛ وأَنا في ذلك مُحْتسِبٌ عند الله ما منيت به من هذا الأمر، ومُعْرِضٌ فيه عن الجاهلين، وماضٍ على سبيل سويّ من الصرامة، وقوّة الشكيمة، وتحرّي العدَالة، وخلاص الحقوق، والتنكب عن خطة الباطل متى دعيت إليها، وصلابة العود عن الجاه والأعراض متى غمزني لامِسُها؛ ولم يكن ذلك شأن من رافقته من القضاة، فنكروه مني، ودعوني إلى تبعهم فيما يصطلحون عليه من مرضاة الأكابر، ومراعاة الآعيان، والقضاء للجاه بالصور الظاهرة، أو دفع الخصوم إذا تعذرّت، بناءً على أن الحاكم لا يتعيّن علبه الحكم مع وجود غيره، وهم يعملون أن قد تمالؤا عليه.

وليت شعري ما عذرهم في الصور الظاهرة، إذا علموا خلافها؛ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول في ذلك: " من قضيت له من حق أخيه شيئاً فإنما أقضي له من النار ".

فأبيت في ذلك كله إلا إعطاء العهدة حقّها؛ والوفاء لها ولمن قلّدنيها، فأصبح الجميع عليّ ألبا، ولمن ينأدي بالتأفّف مني عوناً، وفي النكير عليّ أمّة؛ وأسمعوا الشهود الممنوعين أن قد قضيت فيهم بغير الحق، لاعتمادي على عِلْمي في الجَرْح، وهي قضية إجماع؛ وانطلقَتِ الألسنُ، وارتفع الصخبُ، وأرادني بعض على الحكم بغرضهم فتوقفت، وأغروا بي الخصوم فتنادوا بالتظلم عند السلطان؛ وجمع القضاة وأهل الفتياء في مجلس حفل

للنظر في ذلك، فخلصت تلك الحكومة من الباطل خلوص الإبريز، وتبين امرهم للسلطان، وأمضيت فيها حكم الله إرغاماً لهم، فغدوا على حَرَد قادرين، ودسوا لأولياء السلطان وعظماء الدولة، يقبحون لهم إهمال جاههم، ورد شفاعتهم مموهين بأن الحامل على ذلك جهل المصطلح، وينفقون هذا الباطل بعظائم ينسبونها إلي، تبعث الحليم، وتغري الرشيد، يستثيرون حفائظهم علي، ويشربونهم البغضاء لي؛ والله مجازيهم وسائلهم. فكثر الشغب علي من كل جانب، وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة. ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفين، فأصابها قاصف من الريح فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود؛ فعظم المصاب والجزع، ورجح الزهد، واعتزمت على الخروج عن المنصب، فلم يوافقني عليه النصيح ممن استشرته، خشية من نكير السلطان وسخطه؛ فوقفت بين الورْد والصَدْر، وعلى صراط الرجاء واليأس؛ وعن قريب تداركني اللطف الربّاني، وشملتني نعمة السلطان- أيده الله- في النظر بعين الرحمة، وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها، ولا عرفت- كما زعموا- مصطلحها؛ فردها إلى صاحبها الأول، وأنشطني من عقالها؛ فانطلقت حميد

الأثر، مشيعاً من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء؛ تلحظني العيون بالرحمة، وتتناجى الآمال في بالعودة؛ ورَتَعْتُ فيما كنت راتعاً فيه قبل من مراعي نعمته وظل رضاه وعنايته، قانعا بالعافية التي سألها رسول الله من ربه، عاكفاً على تدريس علم، أو قراءة كتاب، أو أعمال قلم في تدوين أو تأليف، مؤمّلاً من الله؛ قطع صبابة العمر في العبادة، ومحو عوائق السعادة بفضل الله ونعمته.

السفر لقضاء الحج

ثم مكثت بعد العزل ثلاث سنين، واعتزمت على قضاء الفريضة؛ فودعت السلطان والأمراء، وزودوا وأعانوا فوق الكفاية. وخرجت من القاهرة منتصف رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة، إلى مرسى الطور بالجانب الشرقي من بحر السويس؛ وركبت البحر من هنالك، عاشر الفطر، ووصلنا إلى اليَنْبُع لشهر، فوافينا المحمل، ورافقتهم من هنالك إلى مكة، ودخلتها ثاني ذي الحجة، فقضيت الفريضة في هذه السنة، ثم عدت إلى الينبع، فأقمت به خمسين ليلة حتى تهيأ لنا ركوب البحر، ثم سافرنا إلى أن قاربنا مرسى الطور، فاعترضتنا الرياح، فما وسعنا إلا قطع البحر إلى جانبه الغربي. ونزلنا بساحل القصير، ثم بَذْرَقْنا مع أعراب تلك الناحية إلى مدينة قوص قاعدة الصعيد، فأرحنا بها أياماً، ثم ركبنا في بحر النيل إلى مصر، فوصلنا إليها لشهر من سفرنا، ودخلتها في جمادى سنة تسعين؛ وقضيت حق السلطان في لقائه، وإعلامه بما اجتهدت فيه من الدعاء له، فتقبل ذلك (مني) بقبول حسن، وأقمت فيما عهدت من رعايته وظل إحسانه.

وكنت لما نزلت بالينبع، لقيت بها الفقيه الأديب المتفنن، أبا القاسم بن محمد ابن شيخ الجماعة، وفارس الأدباء، ومنفق سوق البلاغة، أبي إسحق إبراهيم الساحلي المعروف جدّه بالطُّوَيْجن، وقد قدم حاجاً، وفي صحبته كتاب رسالة من صاحبنا الوزير الكبير العالم، كاتب سر السلطان ابن الأحمر صاحب غرناطة، الحظي لديه، أبي عبد الله بن زمرك؛ خاطبني فيه بنظم ونثر يتشوق، ويذكر بعهود الصحبة نصه

:

سلوا البارق النجدي من علمي نجد تبسم فاستبكى جفوني من الوجد
أجاد ربوعي باللوى بورك اللوى وسح به صوب الغمائم من بعدي
ويا زاجري الأظعان وهي ضوامر دعوها ترد هيما عطاشفا على نجد
ولا تنشقوا الأنفاس منها مع الصبا فإن زفير الشوق من مثلها يعدي
يراها الهوى بري القداح وخطها حروفا على صفح من القفر ممتد
#عجبت لها أني تجاذبني الهوى وما شوقها شوقي ولا وجدها وجدي
#لئن شاقها بين العذيب وبارق مياه بفيء الظل للبان والرند
#فما شاقني إلا بدور خدورها وقد لحن يوم النفر في قصب ملد
#فكم في قباب الحي من شمس كلة وفي فلك الأزرار من قمر سعد
#وكم صارمٍ قد سُل من لَحظِ أحْوَرٍ وكم ذابلٍ قد هُزَّ من ناعم القَدِّ
خُذوا الحذر من سُكَّان رامَة إنّها ضعيفات كرِّ اللَّحْظ تَفتكُ بالأسْد
سهام جُفونٍ عن قِسِّيَ حواجبٍ يُصَابُ بها قَلبُ البَريء على عَمْد
وروض جَمال ضاعَ عَرْفُ نَسيمه وما ضاع غيرُ الوَرْد في صَفحة الخدِّ
ونرجس لَحظٍ أرسل الدَّمعَ لؤْلؤاً فَرَشَّ بماءِ الوَرْد رَوضاً من الوَردِ
وكم غُصُنٍ قد عانَق الغُصْنَ مثلَهُ وكلٌّ على كلٍّ من الشَّوْق يَسْتَعْدي
قبيحُ وداعُ قد جَلَا لعُيُوننا محاسِنَ من روضِ الجمال بلا عَدِّ
رعَى الله لَيْلَى لو عَلمتُ طريقَها فَرَشْتُ لأخفاف المَطِيِّ به خَدي
وما شاقني والطَّيْفُ يُرهِبُ أدْمُعى وَيسْبَح في بحرٍ من النَّيْل مزْبَد
وقد سُلَّ خفَّاقُ الذُّؤابة بارقٌ كما سُلَّ لَمَّاع الصِّقالِ من الغمْد
وهُزتْ مُحَلاَّةً يدُ الشوقِ في الدُّجى فَحُلَّ الذي أبْرَمْتُ للصَّبْرِ من عَقْدي
وأفلق خفَّاقُ الجوانح نسْمَةً تَنِمُّ مع الإصباح خافقَة البُردِ
وهبَّ عليلٌ لَفَّ طيّ بُرُودهِ أحاديثَ أهْداها إلى الغَور من نَجْدِ
سَوَى صادحٍ في الأيكِ لم يَدْرِ ما الهَوَى ولكن دعا مِنّي الشُجُونَ على وعدِ
فهَلْ عندَ لَيْلَى نَعَّم الله لَيْلَها بانَّ جُفوني ما تَمَل من السهْدِ
وليلةَ إذْ ولَّى الحَجيجُ على منًى وفَت لي المُنَى منها بما شئتُ من قَصْدِ
فَقضيتُ منها-فوقَ ما احسَبُ —المُنَى وبُرْدُ عَفافي صانَه الله من بُردِ
ولَيْسَ سوى لَحظٍ خفيّ نُجيلُهُ وشَكْوى كما آرفضق الجُمانُ من العقْدِ
غَفَرْتُ لِدَهْري بعدها كلّ ما جَنى سِوَى ما جَنَى وفْدُ المَشيبِ على فَوْدي

عرفْت بهذا الشَّيب فضْلَ شَبيبتي   وما زال فَضْل الضِّدِّ يُعرَفُ بالضدِّ ومن نامَ في لَيْلِ الشاب ضَلَالَةً
سَيُوقظُهُ صُبْح المَشِيب إلى الرُشْدِ أما والهَوى ما حُلتُ عن سَنَن الهَوَى   ولا جُرْتُ في
طُرْقِ الصَّبابة عنٍ قَصْدي
تَجاوزتُ حدَّ العاشقين الألى قَضَوْا   وأصبَحْتُ في دِينِ الهَوَى أُمَّة وحدي نَسِيتُ وما أنسَى
وفائي لخلَّتي   وأقفَر رَبْع القلْب إلا منَ الوَجْد
* * * *

إليكَ أبا زيْد شَكاةً رفعْتُها   وما أنتَ من عَمْرو لدَيّ ولا زَيْد
بعَيشكَ خبِّرني وما زلتَ مفْضلا   أعندَك من شَوقٍ كمثل الذي عندي
فكمِ ثارَ بي شَوْق إليك مُبرِّحٌ   فظَلّت يَدُ الأشواق تَقْدَح من زَنْدي
وصَفقَ حتى الرِّيحُ في لُمَمِ الرُّبَى   وأشفَق حتى الطَفْلُ في كَبدِ المَهْدِ
يُقابلُني منكَ الصَّباحُ بوَجْنَة   حَكَى شفقاً فيه الحَياءُ الذي تُبْدي
وتُوهمُني الشمْسَ المنيرةَ غُرَّةٌ   بوَجْهك صان الله وجهَكَ عن رَدِّ
مُحيَّاك أجْلَى في العُيون من الضُحى   وذكرُكَ أحْلَى في الشِّفاه من الشهْدِ
وما أنتَ إلّاَ الشَّمسُ في عُلْو أُفْقِها   تُفيدُك من قُرْب وتُلحَظُ من بُعْد
وفي عَمَةٍ من لا تَرَى الشَّمسَ عينُه   وما نَفْعُ نُورِ الشَّمْسِ في الأعين الرُّمْدِ
مَن القَوْم صانوا المَجْدَ صَوْنَ عُيُونِهم   كما قد أباحُوا المَال يُنْهَب لِلرِّفْدِ
إذا ازدَحَمت يوْماً على المال أُسْرَةٌ   فما ازدَحمّوا إلّا مَوْرِد المَجْد
ومَهْما أغارُوا مُنجدينَ صَريخَهم   يَشبُّونَ نارَ الحَرْب في الغَوْر والنَّجْد
و لم يَقْتَنُوا بَعْدَ البناء ذَخيرَة   سوَى الصَّارم المَصْقُول والصَافِنِ النَّهْدِ
وما اقتَسمَ الأنفالَ إلاَّ مُمَدَّحٌ   بَلاَها بأعْراف المُطَهَّمَة الجُرْد
أتَنسَى ولا تَنْسَى ليالينَا التي   خَلَسْنا بهنَ العَيْشَ في جَنة الخُلْد
ركبنا إلى اللَّذات في طَلَق الصِّبا   مَطايا اللَّيالي وادعينَ إلى حَدّ
فإن لم نَرِدْ فيها الكُؤُسَ فإنَنا   ورَدْنا بها للأنْسِ مُسْتعْذَبَ الورْدِ
أتيتُك في غَرْب وأنتَ رئيسُهُ   وبابُكَ للأعْلاَم مُجْتَمَع الوَفْد
فآنسْتَ حتى ما شَكَوْتُ بغُرْبَة   ووالَيْت حتى لم أجد مَضَضَ الفَقْد
وعُدت لقطْرِي شاكراً ما بَلَوتُه   منَ الخُلُق المَحمّود والحَسَب العدّ
إلى أن أجَزْتَ البَحْر يا بَحْرُ نَحْوَنا   وزُرتَ مَزار الغَيْث في عَقب الجَهْد
ألذّ منَ النُّعْمَى على حالِ فاقَة   وأشْهَى من الوَصْلِ الهَنيً على صَدِّ
وإن ساءني أن قَوَضَتْ رِحْلَك النوَى   وعُوِّضتَ عَنا بالذَميلِ وبالوَخْد

لقَد سَرَّني أن لُحْت في أفُقِ العُلا | على الطَّائر المَيْمُونِ والطَّالِعِ السَّعد
طَلَعتَ بأفْقِ الشَّرقِ نجْمَ هِدايةٍ | فجئْت معَ الأنْوار فيه على وعد

* * * *

يَميناً بمَن تَسْرِي المَطِيُّ سَواهِماً | عَليها سِهامٌ قَد رَمَت هَدفَ القَصدِ
إلى بيْته كيْما تَزُورَ معاهداً | أبان بها جبْريلُ عَن كرَم العَهْدِ
لأنتَ الذي مَهْما دَجا لَيْلُ مشْكلٍ | قَدَحْتَ به للنّور وارِيةَ الزَّنْدِ
وحيثُ استقلَّت بي ركابٌ لِطِية | فأنتَ نَجيُّ النَفْس في القُرْبِ والبُعْدِ

* * * *

وإني ببَابِ المُلْك حيث عَهِدتَني | مديدَ ظلال الجاه مُسْتَحْصَفَ العَقْد
أُجَهِّز بالإنشاءِكُ كل كَتِيبةٍ | منَ الكُتْبِ ؛ والكُتّابِ في عَرْضِها جُنْدي
نَلوذُ منَ المولَى الإمام محمَّدٍ | بظل على نَهْر المَجرَّة مُمتَدِّ
إذا فاض من يُمناه بحرُ سَماحةٍ | وعمَّ به الطّوفانُ في النجْد والوَهْد
رَكبنا إلى الإحْسان في سفُن الرَّجَا | بحورَ عطاءٍ ليس تجزُرُ عن مَدِّ
فَمَن مُبلغُ الأمصار عني ألوكةً | مغَلْغَلَةً في الصِّدق مُنْجَزَةَ الوَعْد
بآيةِ ما أعطى الخليفةَ ربُّهُ | مفاتيحَ فَتْحٍ ساقها سائقُ السعدِ
ودُونك من رَوض المحامد نَفحْةً | تفوت إذا اصطفَّ النَّديُّ عن النِّدِّ
ثناءً يَقولُ المِسْك إن ضاعَ عرفُه | أيا لك من نَدٍّ أما لك من نِدِّ
وما الماءُ في جَوف السَّحابُ مُرَوَّقاً | بأطهر ذَاتاً منكَ في كَنف بالمَهْدِ
فكيْفَ وقد حَلَتْك أسْرابَها الحُلى | وباهَت بكَ الأعلاَم بالعَلَم الفَرد
وما الظَلُ في ثَغْرٍ منَ الدَّهر باسِمٍ | بأصْفَى وأذكَى من ثَنائِي ومن وُدِّي
ولا البَدْرُ مَعْصُوباً بتاجِ تَمامِه | بأبهر من وُدِّي وأسْيَرَ مَنْ حَمْدي
بَقيتُ ابنَ خَلْدُون إمامَ هدايةَ | ولا زِلْت من دُنْياك في جَنَة الخُلْدِ

ووصَلها بقولة : سَيِّدي علَم الأعلام ، كبير رؤساء الإسلام ، مُشرِّف حَمَلة السُّيوف والأقْلام ، جمال الخَواصّ والظُّهَراء ، أثير الدُّوَل ، خالِصَة المُلُوك ، مُجتَبَى الْخُلفاء ، نيِّر أفُق العَلاء، أوْحَد الفُضَلاء، قُدْوة العُلَماء، حجَّة البلَغاء .

أبقاكم اللّه

بقاءً جميلاً يَعْقد لوَاء الفَخْر، وُيعْلِي منارَ الفَضْل ، ويَرفَع عِمادَ المَجْد، ويوَضِح مَعالم السُّؤدُد ، وُيرسِل أشعَّة السّعادة ، وُيفيض أنوارَ الهِداية ، وُيطلق ألسنَة المحامد ، ويَنشُرُ أُفُقَ المَعارِف ، وُيعْذِب مَوارِد العِناية وُيمْتِعُ بعُمُر النِّهاية ولا نهايةَ .

بآيّ التَّحيات أفاتحُك وقدرُك أعلى ، ومَطْلِع فَضْلِكَ أوْضَحُ وأجْلى ؛ إن قُلْتُ تحيَّةُ كِسرى في السناء وتبّع فأثرك لا يقتفى ولا يتبع، تلك تحية عجماء لا تبينُ ولا تُبين، وزمزمةٌ نافَرَها اللسان العربي المبين، وهذه جهالة جهلاء، لا ينطبق على حروفها الاستعلاء، قد محا رسومها الجفاء، وعلى آثار دمنتها العفاء؛ وإن كانت التحيتان طالما أوجف بهما الركاب وقعقع البريد، ولكن أين يقعان مما أريد.

تحية الإسلام آصل في الفخر نسباً، وأوْصَلُ بالشرع سبباً، فالأولى أن أحييك بما

حيا الله في كتابه رسله وأنبياءه، وحيت به ملائكته في جواره أولياءه فأقول:

سلام عليكم يُرْسِلُ من رحمات الله غماماً، ويفتق من الطُّرُوس عن أزهار المحامد كماماً، ويستصحب من البركات ما يكون على الذي أحسن من ذلك تماما؛ وأجدد السؤال عن الحال الحالية بالعلم والذين، المستمدة من أنوارها سرج المهتدين. زادهاً الله صلاحاً، وعرفها نجاحاً يتبع فلاحاً؛ وأقرر ما عندي من تعظيم أرتقي كل آونة شرفه، واعتقاد جميل يرفع عن وجه البدر كلفه، وثناء انشر بيد الترك صحفه؛ وعلى ذلك أيها السيد المالك، فقد تشعبت علي في مخاطبتك المسالك؛ إن أخذتُ في تقرير فخرك العميم، ونسبك الصميم، فو الله ما ادري بأي ثنية للفخر يرفع العلم، وفي أى بحر من ثنائك يسبح القلم، الأمر جَلَل، "والشمس تكبر عن حلي وعن حلل "، وإن أخذت في شكاة الفراق، والاستعداء على الأشواق، اتسع المجال، وحصرت الروية والارتجال، فالأولى أن اترك عذبة اللسان تلعب بها رياح الأشواق، وأسلة اليراع تخضب مفارق الطُّروس بصبيغ الحبر المُرَاق؛ وغيرك من تركض في مخاطبته جياد اليراع، في مجال الرقاع، مستولية على أمد الإبداع والاختراع؛ فإنما هو بثٌّ يُبْكى، وفراق يُشْكى، فيعلم الله مرضي على أن أشافه

عن أنبائك ثغور البروق البواسم، وأن أحملك الرسائل حتى مع سفراء النواسم، وأن اجتلي غرر ذلك الجبين في مُحَيّا الشارق، ولمح البارق.

ولقد وجهت لك جملة من الكتب والقصائد، ولا كالقصيدة الفريدة في تأبين الجواهر التي استأثر بهن البحر؛ قدس الله أرواحهم، وأعظم أجرك فيهم؛ فإنها أنافت على مائة وخمسين بيتاً، ولا أدري هل بلغكم ذلك أم غاله الضياع، وغدر وصوله بعد المسافة؛ والذي يطرق لي سوء الظن بذلك، ما صدر في مقابله منكم. فإني على علم من كرم قصدكم، وحسن عهدكم. ومن حين استغرنباكم بذلك بالأفق الشرقي، لم يصلني منكم كتاب، مع علمي بضياع إثنين منها بهذا الأفق الغربي. انتهى.

وفي الكتاب إشارة إلى أنه بعث قصيدة في مدح الملك الظاهر صاحب مصر، ويطلب مني رفعها إلى السلطان، وعرضها عليه بحسب الإمكان؛ وهي على روي الهمزة، ومطلعها:

أمدامع منهلة أم لؤلؤ لما استهل العارض المتلألىء

وبعثها في طيّ الكتاب، واعتذر بأنه استناب في نسخها، فكتبت همزة رويها ألفاً، قال وحقها أن تكتب بالواو، لأنها تبدل بالواو، وتسهل بين الهمزة والواو، وحرف الإطلاق أيضاً يسوقها واواً. هذا مقتضى الصناعة، وإن قال بعض الشيوخ تكتب ألفاً على كل حال، على لغة من لا يسهل، لكنه ليس بشيء.

وأذن لي في نسخ القصيدة المذكورة بالخط المشرقى لتسهل قراءتها عليهم ففعلت ذلك، ورفعت النسخة والأصل للسلطان، وقرأها كاتب سّره عليه، ولم يرجع إلي منهما شيء، ولم أستجز أن أنسخها قبل رفعها إلى السلطان، فضاعت من يدي.

وكان في الكتاب فصل عرّفني فيه بشأن الوزير مسعود بن رحّو المستبد بأمر المغرب لذلك العهد، وما جاء به من الانتقاض عليهم، والكفران لصنيعهم، يقول فيه: كان مسعود بن رحو الذي أقام بالأندلس عشرين عاماً يتَبَنَّك النعيم؛ ويقود الدنيا، ويتحيّز العيش والجاه، قد أجيز صحبة وُلدَ أبي عثمان، كما تعرفتم من نسخة كتاب أنشأئه

بجبل الفتح لأهل الحضرة، فاستولى على المملكة، وحصل على الدنيا، وانفرد برياسة دار المغرب، لضعف السلطان رحمه الله؛ ولم يكن إلا أن كفرت الحقوق، وحُنْظِلَت نخلته السحوق؛ وشف على سواد جلدته العقوق؛ وداخل من بسبتة، فانتقضت طاعة أهلها، وظنوا أن القصبة لا تثبت لهم؛ وكان قائدها الشيخ البهمة، فل الحصار وحلي القتال، ومحش الحرب، أبو زكريا بن شعيب، فثبت للصدمة، ونوّر للأندلس فبادره المدد من الجبل، ومن مالقة. وتوالت الأمداد، وخاف أهل البلد، وراجع شرفاؤه، ودخلوا القصبة. واستغاث أهل البلد بمن جاورهم وجاءهم المدد أيضاً. ثم دخل الصالحون في رغبة هذا المقام، ورفع القتال. وفي أثناء ذلك غدروا ثانية، فاستدعى الحال إجازة السلطان المخلوع أبي العباس لتبادر القصبة به، ويتوجه منها إلى المغرب، لرغبة (بني) مرين وغيرهم فيه، وهو ولد السلطان المرحوم أبي سالم الذي قلدكم رياسة داره، وأوجب لكم المزية على أوليائه وأنصاره انتهى.

وبعده فصل آخر يطلب فيه كتبا من مصر يقول فيه:

والمرغوب من سيدي أن يبعث لي ما أمكن من كلام فضلاء الوقت وأشياخهم على الفاتحة، إذ لا يمكن بعث تفسير كامل؛ لأني أثبت في تفسيرها ما أرجو النفع به عند الله. وقد أعلمتكم أن عندي التفسير أوصله إلى المغرب عثمان النجاني من تأليف الطيبي، والسفر الأول من تفسير أبي حيان، وملخص إعرابه، وكتاب المغني لابن هشام وسمعت عن بدأة تفسير للإمام بهاء الدين بن عقيل، ووصلت إلي بدأة من كلام أكمل الذين الأثيري رضي الله عن جميعهم. ولكن لم يصل إلا للبسملة، وذكر أبو حيان في صدر تفسيره أن شيخه سليمان النقيب، أو أبو سليمان. لا أدري الآن، صنف كتاباً في البيان في سفرين، جعله مقدمة في كتاب تفسيرة الكبير، فإن أمكن سيدي توجيهه لا بأس. انتهى.

وفي الكتاب فصول أخرى في أغراض متعددة لا حاجة إلى ذكرها هنا. ثم ختم الكتاب بالسلام، وكتب اسمه: محمد بن يوسف بن زَمْرَك الصّريحي، وتاريخه

العشرون من محرم تسع وثمانين وسبعمائة. وكتب إلي قاضي الجماعة بغرناطة؛ أبو الحسن علي بن الحسن البنّي:

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله. يا سيدي وواحدي وُدًّا وحبًّا، ونجي الروح بعداً وقرباً. أبقاكم الله، وثوب سيادتكم سابغ، وقمرُ سعادتكم- كلما افلت الأقمار- بازغ، أسلم بأتم السلام عليكم، وأقرر بعض ما لدي من الأشواق إليكم، من حضرة غرناطة- مهّدها الله-، عن ذكر لكم يتضوع طيبُه، وشكر لا يذوي- وإن طال الزمان- طيبه وقد كان بلغ ما جرى من تأخيركم عن الولاية التي تقلدتم أمرها، وتحملتم أمرها، فتمثّلت بما قاله شيخنا أبو الحسن ابن الجياب، عند انفصال صاحبه الشريف أبي القاسم عن خطة القضاء:

لا مرحبا بالناشز الفارك   إذ جهلت رفعة مقدارك

لو أنها قد أوتيت رشدها   ما برحت تعشو إلى نارك

ثم تعرّفت كيفية انفصالكم، وأنه كان عن رغبة من السلطان المؤيد هنا لكم، فرددت- وقد توهمت مشاهدتكم- هذه الأبيات:

لك الله يا بدر السماحة والبشر   لقد حزت في الأحكام منزلة الفخر

ولكنك استعفيت عنها تورعا   وتلك سبيل الصالحين كما تدري

جريت على نهج السلامة في الذي   تخيرته أبشر بأمنك في الحشر

وحقق بأن العلم ولاك خطة   من العز لا تنفك عنها مدى العمر

تزيد على مرّ الجديدين جدة   وتسري النجوم الزاهرات ولا تسري

ومن لاحظ الأحوال وازن بينها   ولم ير للدنيا الدنية من خطر

وأمسى لأنواع الولايات نابذا   فغير نكير أن تواجه بالنكر

فيهنيك يهنيك الذي أنت أهله   من الزهد فيها والتوقي من الوزر

ولا تكترث من حاسديك فإنهم   حصى والحصى لا يرتقي مرتقى البدر

ومن عامل الأقوام بالته مخلصا   له منهم نال الجزيل من الأجر

بقيت لربع الفضل تحمي ذماره   وخار لك الرحمن في كل ما تجري

إيه سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم، وأطنبتم في كتابكم في الثناء على السلطان الذي أنعم بالإعفاء، والمساعدة على الانفصال عن خطة القضاء، واستوهبتم الدعاء له من هنا من الأولياء، ولله دركم في التنبيه على الإرشاد إلى ذلكم، فالدعاء له من الواجب، إذ فيه استقامة الأمور، وصلاح الخاصة والجمهور، وعند ذلك ارتفعت أصوات العلماء والصلحاء بهذا القطر له ولكم بجميل الدعاء. أجاب الله فيكم أحسنه وأجمله، وبلغ كل واحد منكم ما قصده وأمله. وأنتم أيضاً من أنتم من أهل العلم والجلالة، والفضل والأصالة، وقد بلغتم بهذه البلاد الغاية من التنويه، والحظ الشريف النبيه؛ لكن أراد الله سبحانه أن يكون لمحاسنكم في تلك البلاد المعظمة ظهور، وتحدث بعد الأمور أمور؛ وبكل اعتبارٍ ، فالزَّمان بكـم — حَيثُ كنتُم — مباه ، والمحامدُ

مجموعةٌ لكم جمعَ تثناه . ولما وقَف على مَكتوبكم إليّ مَولانا السلطان أبو عَبدِ الله ، أطال الثناءَ على مقاصدكم ، وتحقَّقَ صحيحَ ودادكم ، وجَميل اعتقادِكم ، وعَمَّر مَجْلسَه يومئذ بالثَّناءِ عليكم ، والشكر لما لديكم .

ثم ختم الكتابَ بالسَّلام من كاتبه عليّ بن عبد الله بن الحَسن مؤرخاً بصَفرِ تسعين وسبعمائة. وفي طيِّه مُدْرَجَة بخطه ، وقَد قصَّر فيها عَن الإجادة نَصُّها :

سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم ، وأظفَر يمناكم بذَوائب مُناكم . أعتذر لكم عن الكِتاب المدْرَج به هذا بغَيْر خطّي ، فإني في الوَقْت بحالِ مَرَض من عَينيَّ ، ولكم العافية الوَاقية، فيَسَعُني سَمْحُكم وربما أن لديكم تشوفٌ لما نَزَل في هذه المدة بالمغْرب من الهرْج أماطه الله ، وأمَّن جَميعَ بلاد المسلمين .

والموجب أن الحصَّة الموجهة لتلك البِلادِ في خِدمةِ أميرهم الوَاثق ، ظهر له ولوزيره ومن ساعده على رأيه إمساكُها رهينة، وجعْلُهم في القيود إلى أن يقعَ الخروجُ لهم عن مدينة سَبتة . وكان القائد على هذه الحصَّة العِلج المسمى مهنَّد، وصاحبُه الفتى المدعو نَصر الله . وكثر التَّردّد في القضية ، إلى أن أبرز القَدَرُ توجيهَ السلطان أبي العباسِ -تولاَّه الله - صحبةَ فَرَج بن رِضْوان بحصَّة ثانية، وكان ما كان ، حسبما تلقيتم من الركبان ، هذا ما وسع الوَقْت من الكلام . ثم دعا، وخَتَم الكتاب.

وإنما كتبتُ هذه الأخبار وإن كانت خارجة عن غَرض هذا التَّعريف بالمؤلِّف ، لأن فيها تَحقيقاً لهذه الواقِعات ، وهي مذكورة في أماكنها من الكِتاب ، فربَّما يحتاج الناظر إلى تحقِيقها من هذا الموضع .

وبعدَ قَضاءِ الفريضة، رجعتُ إلى القاهرة محفُوفاً بستر الله ولُطفه ولقيتُ السلطان ، فتلقَّاني - أيَّده الله - بمَعهودِ مَبَرَّته وعِنايته . وكانت فتنَةُ النَاصري بعدها سَنَة إحدى وتسعين وسبعمائة. ولحقَت السلطانَ النكبة التي مَحصَهُ الله فيها وأقالَه ، وجَعَلَ إلى الخَير فيها عاقبتَه ومآلَه ؛ ثم أعاده إلى كرسيّه للنظر في مصالح عباده ؛ فطوَّقه القِلادة التي ألبَسه كما كانت ؛ فأعاد لي ما كان أجراهُ من نِعمته ، ولزمتُ كِسْر البيتِ ممتَّعاً بالعافية، لابساً بُرْد العُزْلة، عاكفاً على قراءَة العلم وتدريسِه ، لهذا العهد فاتح سبع وتسعين .

ولاية الدروس والخوانق :

أهل هذه الدَّولة التركية بمصر والشام مَعنيُّون - على القِدَم مُنذُ عَهد مَواليهم مُلوك بني أيوب - بإنشاءِ المدارس لتدريس العلم ، والخَوانق لإقامةُ رُسُومِ الفُقراء في التَخلق بآداب الصُّوفية السُّنِّية في مُطارحة الأذكار، ونَوافِل الصَلوات . أخذُوا ذلك عَمن قَبْلَهم من الدُّول الخِلافِية ؛ فيَخْتَطُّون مَبانِيها ويَقِفُون الأراضِي المُغلة للإنفاق منها على طلَبَة العِلْم ، ومُتَدَربي الفقراء. وإن استفضَل الرِيْعُ شَيئاً عن ذلك ، جعلوه في أعقابهم خَوفاً على الذُرية الضِّعاف من العَيْلة . واقْتَدَى بِسُنَّتهم في ذلك من تَحتَ أيديهم من أهل الرِّياسَة والثَّروة، فكثُرت لذلك المدارسُ والخَوانقُ بمدينة القاهرة ، وأصبَحت مَعاشاً للفُقراء من الفُقهاء والصوفية ، وكان ذلك من محاسِن هذه الدولة التُركية، وآثارها الجَميلة الخالِدة .

وكنتُ لأول قُدُومي على القاهرة، وحُصولي في كفالَة السلطان ، شَغَرَتْ مَدرسة بِمصْر من إنشاء صلاح الدين بن أيوب ، وقَفها على المالكية يتدارسَون بها الفقه ، ووقف عليها أراضي من الفَيُوم تُغل القمح ، فسُمِّيت لذلك القَمْحيَّة ؛ كما وقَف أُخرَى على الشافعية هنالك ؛ وتُوفي مُدَرّسُها حينئذ، فَولاني السلطانُ تَدْريسَها ، وأعقَبه بولاية قضاء المالكية سنةَ ستِ وثمانين وسبعمائة، كما ذكرت ذلك من قَبْل ؛ وحضَرني يومَ جُلوسي للتدريس فيها جماعة من أكابر الأمراء تنويهاً بذكري ، وعِنايةً من السلطان ومنهم بجانبي ؛ وخطبتُ يومَ جلوسي في ذلك الحفل بخُطبة ألممتُ فيها بذكر القوم بما يُناسِبهم ، ويُوفي حَقَّهم ، ووَصَفْت المَقَام ، وكان نَصُها :

الحمد لله الذي بدأ بالنِّعَم قبل سُؤالها، ووفَّق مَن هَداه للشُكر على مَنَالها، وجعَل جزاءَ المُحْسنين في مَحبَّته ، ففازوا بعَظيم نَوالِها. وَعَلمَ الإنسانَ الأسماءَ والبَيان ، وما تم يَعْلَمْ من أمثالِها ، وميَّزه بالعَقْل الذي فَضَّله على أصناف الموجُودات وأجْيالها، وهَدَاه لقَبول أمانة التَكليف ، وحَمْل أثقالِها . وخَلَق الجنَّ والإنسَ للعبادة، فَفازَ منهُم بالسعادة مَنْ جَدَّ في امتثَالها وَيسَّر كلاً لما خُلِق لَه ، من هداية نَفْسه أو إضلالها ؛ وفَرغ ربُّك من خلْقها وخُلقها وأرْزاقها وآجالها . والصَّلاةُ على سَيدنا ومولانا محمد نُكتَةِ الأكوان وجمالها، والحجة البالغة لله على كمالها، الذي رَقَّاه في أطوار الاصْطفاء، وآدم بين الطين والماء؛ فجاء خاتم أنبيائها وأرسالها؛ ونسخ الملل بشريعته البيضاء فتميز حرامها من حلالها؛ ورضي لنا الإسلام ديناً، فأتم علينا النعمة بإكمالها.

والرضى عن آله وأصحابه غيوث رحمته المنسجمة وطلالها، وليوث ملاحمه

المشتهرة وأبطالها. وخير أمة أخرجت للناس، في توسطها واعتدالها، و ظهور الهداية والاستقامة في أحوالها، صلى الله عليه وعليهم صلاة تتصل الخيرات باتصالها، وتنال البركات من خلالها.

أما بعد فإن الله سبحانه لما أقر هذه الملة الإسلامية في نصابها، وشفاها من أدوائها واوصابها، وأورث الأرض عباده الصالحين من أيدي غصابها، بعد أن باهلت فارس بتاجها، وعصابها، وخلت الروم إلى تماثيلها وأنصابها؛ وجعل لها من العلماء حفظة وقواما، ونجوما يهتدي بها التابع وأعلاما، يقربونها للدراية تبيانا وإفهاما، ويوسعونها بالتدوين ترتيبا وإحكاما، وتهذيبا لأصولها وفروعها ونظاما. ثم اختار لها الملوك يرفعون عمدها، ويقيمون صغاها بإقامة السياسة وأودها، ويدفعون بعزائمهم الماضية في صدر من أرادها بكياد أو قصدها؛ فكان لها بالعلماء الظهور والانتشار، والذكر السيار، والبركات المخلدة والآثار؛ ولها بالملوك العز والفخار، والصولة التي يلين لها الجبار، ويذل لعزة المؤمنين بها الكفار، وتجلل وجوه الشرك معها الصغار؛ ولم تزل الأجيال تتداول على ذلك والأعصار، والدول تحتفل والأمصار، والليل يختلف والنهار، حتى أظلت الإسلام دول هذه العصابة المنصورة من الترك، الماحين بأنوار أسنتهم ظلم الضلالة والشك، القاطعين بنصالهم المرهفة علائق المين والإفك، المصيبين بسهامهم النافذة ثغر الجهالة والشرك، المظهرين سر قوله: "لا تزال طائفة من أمتي " فيما يتناولونه من الأخذ والترك؛ ففسحوا خطة الإسلام، وقاموا بالدعوة الخلافية أحسن القيام، وبثوها في أقصى التخوم من الحجاز والشام، واعتمدوا في خدمة الحرمين الشريفين ما فضلوا به ملوك الأنام. واقتعدوا

كرسي مصر الذي ألقت له الأقاليم يد الاستسلام، على قدم الأيام؛ فزخر بها منذ دولتهم بحر العمران، وتجاوبت فيها المدارس بترجيع

المثاني والقرآن، وعمرت المساجد بالصلوات والأذان، تكاثر عدد الحصى والشهبان. وقامت المآذن على قدم الاستغفار والسبحان معلنة بشعار الإيمان، وازدان جوها بالقصر والإيوان فالإيوان. ونظم دستها بالعزيز، والظاهر، والأمير، والسلطان. فما شئت من ملك يخفق العز في أعلامه، وتتوقد في ليل المواكب نيران الكواكب من أسنته وسهامه؛ ومن أسرة للعلماء نتناول العلم بوعد الصادق ولو تعلق بأعنان السماء، وتنير سراجه في جوانب الشبه المدلهمة الظلماء؛ ومن قضاة يباهون بالعلم والسؤدد عند الانتماء، ويشتملون الفضائل والمناقب اشتمال الصماء، ويفصلون الخصومات برأي يفرق بين اللبن والماء.

ولا كدولة السلطان الظاهر، والعزيز القاهر، يعسوب العصائب والجماهر، ومطلع أنواع العز الباهر، ومصرف الكتائب تزري بالبحر الزاخر، وتقوم بالحجة للقسي على الأهلة في المفاخر؛ سيف الله المنتضى على العدو الكافر، ورحمته المتكفلة للعباد باللطف الساتر؛ رب التيجان والأسرة والمنابر، والأواوين العالية والقصور الأزاهر، والملك المؤيد بالبيض البواتر، والرماح الشواجر، والأقلام المرتضعة أحلاف العز في مهود المحابر، والفيض الرباني الذي فاق قدرة القادر، وسبقت به العناية للأواخر. سيد الملوك والسلاطين، كافل امير المؤمنين، أبو سعيد أمده الله بالنصر المصاحب، والسعد المؤازر، وعرفه آثار عنايته في الموارد والمصادر، واراه حسن العاقبة في الأولى وسرور المنقلب في الاخر؛ فإنه لما تناول الأمر بعزائمه وعزمه، وآوى الملك إلى كنفه العزيز وحزمه، أصاب شاكلة الرأي عندما سدد من سهمه، واوقع الرعايا في ظل من أمنه، وعدل من حكمه، وقسم البأس والجود بين حربه وسلمه؛ ثم أقام دولته بالأمراء الذين اختارهم باختيار الله لأركانها، وشدّ

بهم أزره في رفع القواعد من بنيانها؛ من بين مصرف لعنانها، متقدم القدم على أعيانها، في بساط إيوانها؛ ورب مشورة تضيء جوانب الملك بلمعانها، ولا يذهب الصواب عن مكانها؛ ومنفذ أحكام يشرق الحق في بيانها، ويضوع العدل من أردانها ونجي خلوة في المهم الأعظم من شأنها؛ وصاحب قلم يفضي بالأسرار إلى الأسل الجرار، فيشفي الغليل بإعلانها. حفظ الله جميعهم وشمل بالسعادة والخيرات المبدأة المعادة تابعهم ومتبوعهم.

ولما سبحت في اللج الأزرق، وخطوت من أفق المغرب إلى أفق المشرق، حيث نهر النهار ينصب من صفحه المشرق، وشجرة الملك التي اعتز بها الإسلام تهتز في دوحه المعرق، وأزهار الفنون تسقط علينا من غصنه المورق، وينابيع العلوم والفضائل تمدو شلنا من فراته المغدق؛ أو لوني عناية وتشريفاً، وغمروني إحساناً ومعروفاً، وأوسعوا همتي إيضاحاً، ونكرتي تعريفاً؛ ثم أهلوني للقيام بوظيفة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف، من حسنات السلطان صلاح الدين أيوب ملك الجلاد والجهاد، وماحي آثار التثليث والرفض الخبيث من البلاد، ومطهر القدس الشريف من رجس الكفر بعد أن كانت النواقيس والصلبان فيه بمكان العقود من الأجياد. وصاحب الأعمال المتقبلة يسعى نورها بين يديه في يوم التناد؛ فأقامني السلطان- أيده الله- لتدريس العلم بهذا المكان، لا تقدماً على الأعيان، ولا رغبة عن الفضلاء من أهل الشان؛ وإني موقن

بالقصور، بين أهل العصور، معترف بالعجز عن المضاء في هذا القضاء؛ وأنا أرغب من أهل اليد البيضاء والمعارف المتسعة الفضاء، أن يلمحوا بعين الارتضاء، ويتغمدوا بالصفح والاغضاء، والبضاعة بينهم مزجاة، والاعتراف من اللوم- إن شاء الله- منجاة؛ والحسنى من الإخوان مرتجاة. والله تعالى يرفع لمولانا السلطان في مدارج القبول أعماله، ويبلغه في الدارين آماله، ويجعل للحسنى والمقر الأسنى، منقلبه ومآله؛ ويُديُم على السادة الأمراء نعمته، ويحفظ على المسلمين بانتظام الشمل دولتهم ودولته، ويمد قضاة المسلمين وحكامهم بالعون والتسديد، ويمتعنا بانفساح آجالهم إلى الأمد البعيد، ويشمل الحاضرين برضوانه في هذا اليوم السعيد، بمنّه وكرمه.

وانفض ذلك المجلس، وقد شيعتني العيون بالتجلة والوقار، وتناجت النفوس بالأهلية للمناصب؛ وأقمت على الاشتعال بالعلم وتدريسه إلى أن سخط السلطان قاضي المالكية يومئذ في نزعة من النزعات الملوكية، فعزله، واستدعاني للولاية في مجلسه، وبين أمرائه؛ فتفاديت من ذلك، وأبى إلا إمضاءه. وخلع علي، وبعث معي من أجلسني بمقعد الحكم في المدرسة الصالحية في رجب ست وثمانين وسبعمائة؛ فقمت في ذلك المقام المحمّود، ووفيت عهد الله في إقامة رسوم الحق، وتحري المعدلة، حتى سخطني من لم تُرْضِه أحكام الله، ووقع من شغب أهل الباطل والمِراء ما تقدم ذكره.

وكنت عند وصولي إلى مصر بعثت عن ولدي من تونس؛ فمنعهم سلطان تونس من اللحاق بي اغتباطاً بمكاني، فرغبت من السلطان أن يشفع عنده في شأنهم، فأجاب، وكتب إليه بالشفاعة؛ فركبوا البحر من تونس في السِّفين؛ فما هو إلا أن وصلوا إلى مرسى الإسكندرية؛ فعصفت بهم الرياح وغرق المركب بمن فيه، وما فيه، وذهب الموجود والمولود؛ فعظم الأسف، واختلط الفكر، وأعفاني السلطان من هذه الوظيفة وأراحني، وفرغت لشأني من الاشتغال بالعلم تدريساً وتأليفاً.

ثم فرغ السلطان من اختطاط مدرسته بين القصرين، وجعل فيها مدافن أهله، وعين لي فيها تدريس المالكية، فأنشأت خطبة أقوم بها في يوم مفتتح التدريس على عادتهم في ذلك ونصها:

"الحمد لله الذي من على عباده، بنعمة خلقه وإيجاده، وصرفهم في أطوار استعباده بين قدره ومراده، وعرفهم أسرار توحيده، في مظاهر وجوده، وآثار لطفه في وقائع عباده، وعرضهم على أمانة التكاليف ليبلوهم بصادق وعده وإبعاده، ويسر كلا لما خلق له، من هدايته أو إضلاله، وغَيِّه أو رشاده، واستخلف الإنسان في الأرض بعد أن هداه النجدين لصلاحه أو فساده، وعلمه ما لم يكن يعلم، من مدارك سمعه وبصره والبيان عما في فؤاده؛ وجعل منهم أنبياء وملوكاً يجاهدون في الله حق جهاده، ويثابرون على مرضاته في اعتمال العدل واعتماده؛ ورفع البيوت المقدسة بسبحات الذكر وأوراده. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد سيد البشر من نسل آدم وأولاده، لا. بل سيد الثقلين في العالم من إنسه وجنه وأرواحه و أجساده، لا. بل سيد الملائكة والنبيين، الذي ختم الله، كمالهم بكماله وآمادهم بآماده، الذي شرف به الأكوان فأضاءت أرجاء العالم لنور ولاده؛ وفصل له الذكر الحكيم تفصيلاً، كذلك

ليثبت من فؤاده وألقى على قلبه الروح الأمين بتنزيل رب العالمين، ليكون من المنذرين لعباده؛ فدعا إلى الله على بصيرة بصادق جداله وجلاده وانزل عليه النصر العزيز، وكانت ملائكة السماء من إمداده، حتى ظهر نور الله على رغم من رغم. بإطفائه وإخماده، وكمل الدين الحنيف فلا تخشى والحمد لله غائلة انقطاعه ولا نفاده؛ ثم أعد له من الكرامات ما أعد في معاده، وفضله بالمقام المحمّود في عرصات القيامة بين أشهاده، وجعل له الشفاعة فيمن انتظم في أمته، واعتصم بمقاده.

والرضى عن آله وأصحابه، غيوث رحمته، ولُيوث إنجاده، من ذوي رحمه

الطاهرة وأهل وداده المتزودين بالتقوى من خير أزواده، والمراغمين بسيوفهم من جاهر بمكابرة الحق وعناده، وأراد في الدين بظلمه وإلحاده، حتى استقام الميسم في دين الله وبلاده، وانتظمت دعوة الإسلام أقطار العالم، وشعوب الأنام، من عربه وعجمه وفارسه ورومه وتركه وأكراده. صلى الله عليه وعليهم صلاة تؤذن باتصال الخير واعتياده، وتؤهل لاقتناء الثواب وزياده، وسلم كثيراً؛ وعن الأئمة الأربعة، علماء السنة المتبعة، والفئة المجتباة المصطنعة؛ وعن إمامنا من بينهم الذي حمل الشريعة وبينها، وحرر مقاصدها الشريفة وعينها، وتعرض في الآفاق منها والمطالع، بين شهبها اللوامع؛ فزينها. نكتة الهداية إذا حقق مناطها، وشرط التحصيل والدراية إذا روعيت أشراطها، وقصد الركاب إذا ضربت في طلب العلم آباطها؛ عالم المدينة وإمام هذه الأمة الأمينة، ومقبس أنوار النبوة من مشكاتها المبينة، الإمام مالك بن انس. ألحقه الله برضوانه، وعرفنا بركة الاقتداء بهدية وعرفانه؛ وعن سلف المؤمنين والمهتدين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فإن الخلق عيال الله يكنفهم بلطفه ورحمته، ويكفلهم بفضله ونعمته، وييسرهم لأسباب السعادة بآداب دينه وشرعته، و يحملهم في العناية بأمورهم، و الرعاية لجمهورهم، على مناهج سنته ولطائف حكمته. ولذلك اختار لهم الملوك الذين جبلهم على العدل وفطرته، وهداهم إلى التمسك بكلمته. ثم فضلهم بما خولهم من سعة الرزق وبسطته واشتقاق التمكين في الأرض من قدرته، فتسابقوا بالخيرات إلى جزائه ومثوبته، وذهبوا بالدرجات العلى في وفور الأجر ومزيته.

وإن مولانا السلطان الملك الظاهر، العزيز القاهر، العادل الطاهر، القائم بأمور الإسلام عندما أعيا حملها الأكتاد، وقطب دائرة الملك الذي أطلع الله من

حاشيته الأبدال وانبت الأوتاد، ومنفق أسواق العز بما بذل فيها من جميل نظره المدخور والعتاد؛ رحمة الله الكافلة للخلق، ويداه المبسوطتان بالأجل والرزق، وظله الواقي للعباد بما اكتنفهم في العدل والحق، قاصم الجبابرة، والمعفي على آثار الأعاظم من القياصرة، وذوي التيجان من التبابعة والأكاسرة، أولي الأقيال والأساورة؛ وحائز قصب السبق في الملوك عند المناضلة والمفاخرة، ومفوض الأمور بإخلاصه إلى ولي الدنيا والآخرة؛ مؤيد كلمة الموحدين، ورافع دعائم الدين، وظهير خلافة المؤمنين، سلطان المسلمين أبو سعيد.

صدق الله فيما يقتفي من الله ظنونه، وجعل النصر ظهيره، كما جعل السعد قرينه، والعز خدينه، وكان وليه على القيام بأمور المسلمين ومعينه، وبلغ الأمة في اتصال أيامه، ودوام سلطانه، ما يرجونه من الله ويؤملونه. لما

قلده الله هذا الأمر الذي استوى له على كرسي الفلك، وانتظمت عقود الدول في لبات الأيام، وكانت دولته واسطة السلك وجمع له الدين بولاية الحرمين، والدنيا بسلطان الترك. وأجرى له أنهار مصر من الماء والمال؛ فكان مجازه فيها بالعدل في الأخذ والترك. وجمع عليه قلوب العباد. فشهد سرها بمحبه الله له، شهادة خالصة من الريب، بريئة من الشك. حتى استولى من العز والملك على المقام الذي رضيه وحمده. ثم تاقت نفسه إلى ما عند الله، فصرف قصده إليه واعتمده، وسارع إلى فعل الخيرات بنفس مطمئنة، لا يسال عليها أجراً ولا يكدرها بالمِنّة، واحسن رعاية الدين والملك تشهد بها الإنس والجنة، لا؛ بل النَّسَم والأجنة. ثم آوى الخلق إلى عدله

تصديقاً بأن الله يؤوه يوم القيامة إلى ظلاله المستجنة، ونافس في اتخاذ المدارس والربط لتعليم الكتاب والسنة، وبناء المساجد المقدسة يبني له بها الله البيوت في الجنة، والله لا يضيع عمل عامل فيما أظهره أو أكنه.

وإن ما أنتجته قرائح همته وعنايته، وأطلعته آفاق عدله وهدايته، ووضحت شواهده على بعد مداه في الفخر وغايته، ونجح مقاصده في الدين وسعايته؛ هذا المصنع الشريف، والهيكل السامي المنيف، الذي راق الكواكب حسنه وظرفه، وأعجز الهمم البشرية ترتيبه ورصفه، لا بل! الكلم السحرية تمثيله ووصفه وشمخ بمطاولة السحب ومناولة الشهب مارِنه العزيز وأنفه، وازدهى بلبوس السعادة والقبول من الله عطفه؛ إن فاخر بلاط الوليد، كان له الفخار أو باهى القصر والإيوان، شهد له المحراب والمنار؛ أو ناظر صنعاء وغمدان، قامت بحجته الآثار. إنما هو بهو ملؤه دين وإسلام، وقصر عليه تحية وسلام، وفضاء رباني ينشأ في جوه للرحمة والسكينة ظلة وغمام، وكوكب شرق يضاحك وجه الشمس منه ثغر بسام؛ دفع إلى تشييد أركانه، ورفع القواعد من بنيانه، سيف دولته الذي استله من قراب ملكه وانتصاه، وسهمه الذي عجم عيدان كنانته فارتضاه، وحسام أمره الذي صقل فرنده بالعز والعزم وأمضاه، فارتضاه، وحسام أمره الذي طالب غريم الأيام، بالأمل العزيز المرام؛ فاستوفى دينه واقتضاه، الأمير الأعزَّ الأعلى جهركس الخليلي أمير الماخورية باسطبله المنيع. حرسه الله من خطوب الأيام، وقسم له من عناية السلطان أوفر الحظوظ والسهام؛ فقام بالخطو الوساع، لأمره المطاع، وأغرى بها أيدي الاتقان والابداع. واختصها من اصناف الفعلة بالماهر الصناع، يتناظرون في إجاده الأشكال منها والأوضاع، ويتناولون الأعمال بالهندام إذا توارت عن قدرتهم بالامتناع؛ فكأن العبقري، يفري- الفري، أو

العفاريت، قدمت من أماريت. وكأنما حشرت الجن والشياطين، أو نشرت القهارمة من الحكماء الأول والأساطين، جابوا لها الصخر بالأذواد لا بالواد، واستنزلوا صم الأطواد على مطايا الأعواد، ورفعوا سمكها إلى أقصى الآماد، على بعيد المهوى من العماد. وغشوها من الوشي الأزهر، المصاعف الصدف والمرمر، ومائع الفجين الأبيض والذهب الأحمر، بكل مسهم الحواشي حالي الأبراد؛ وقدروه مساجد للصلوات والأذكار، ومقاعد للسبحات بالعشي والإبكار، ومجالس للتلاوة والاستغفار، في الآصال والأسحار، وزوايا للتخلي عن ملاحظة الأسماع والأبصار، والتعرض للفتوح الربانية والأنوار؛ ومدارس لقدح زناد الأفكار، ويتاج المعارف

الأبكار، وصوغ اللجين والتضار، في محك القرائح والأبصار. تتفجر ينابيع الحكمة في رياضه وبستانه، وتتفتح أبواب الجنة من غرفه وإيوانه، وتقتاد غر السوابق من العلوم والحقائق، في طلق ميدانه، ويصعد الكلم الطيب والعمل الصالح إلى الله من نواحي اركانه؛ وتوفر الأجور لغاشيته محتسبة عند الله في ديوانه، راجحة في ميزانه.
ثم اختار لها من أئمة المذاهب الأربعة أعياناً، ومن شيوخ الحقائق الصوفية فرساناً؛ تصفح لهم أهل مملكته إنساناً، وأشاد بقدرهم عناية وإحساناً، ودفعهم إلى وظائفه توسعاً في مذاهب الخير وافتناناً. وعهد إليهم برياضة المريدين، وإفادة المستفيدين، احتساباً لله وقرباناً، وتقُّيلا لمذاهب الملوك من قومه واستناناً؛ ثم نظمني معهم تطولا وامتناناً، ونعمة عظمت موقعاً وجفت شاناً؛ وأنا وإن كنت لقصور البضاعة، متأخراً عن الجماعة، ولقعود الهمة، عيالاً على هؤلاء الأئمة، فسمحهم يغطي ويلحف، وبمواهب العفو والتجاوز يمنح ويُتْحف. وإنما هي رحمة من مولانا السلطان- أيده الله- خَصّت كما عفت، ووسمت اغفال النكرة والإهمال وسمَّت؛ وكملت بها مواهب عطفه وجبره وتمت؛ وقد ينتظم الدّر
مع المرجان، وتلتبس العصائب بالتيجان؛ وتراض المسومة العراب على مسابقة الهجان؛ والكل في نظر مولانا السلطان وتصريفه، والأهلية بتأهيله والمعرفة بتعريفه، وقوام الحياة والآمال بلطائف إحسانه وصنوفه؛ والله يوزعنا شكر معروفه، ويوفقنا للوفاء بشرطه في هذا الوقف وتكليفه، ويحمي حماه من غير الدهر و صروفه، ويفيء على ممالك الإسلام ظلال أعلامه ورماحه وسيوفه، ويريه قرة العين في نفسه وبنيه، وحاشيته وذويه، وخاصته ولفيفه، بمن الله وفضله.
ثم تعاون العداة عند أمير الماخورية، القائم للسلطان بأمور مدرسته، وأغروه بصدي عنها، وقطع أسبابي من ولايتها، ولم يمكن السلطان إلا إسعافه فأعرضت عن ذلك، وشغلت بما أنا عليه من التدريس والتأليف.
ثم خرجت عام تسعة وثمانين وسبعمائة للحج، واقتضيت إذن السلطان في ذلك فأسعف، وزود هو وأمراؤه بما أوسع الحال وارغده؛ وركبت بحر السويس من الطور إلى الينبع؛ ثم صعدت مع المحمل إلى مكة؛ فقضيت الفرض عامئذ. وعدت في البحر؛ فترلت بساحل القصير؛ ثم سافرت منه إلى مدينة قوص في آخر الصعيد، وركبت منها بحر النيل إلى مصر، ولقيت السلطان، وأخبرته بدعائي له في أماكن الإجابة، وأعادني إلى ما عهدت من كرامته، وتفيّئِء ظله.
ثم شغرت وظيفة الحديث بمدرسة صلغتمش فولاني إياها بدلاً من مدرسته وجلست للتدريس فيها في محرم أحد وتسعين وسبعمائة، وقمت ذلك اليوم- على العادة- بخطبة نصها:
" الحمد لله إجلالاً وإعظاماً، واعترافاً بحقوق النعم والتزاماً، واقتباساً للمزيد منها
واغتناماً، وشكراً على الذي أحسن وتماماً، وسع كل شيء رحمة وإنعاماً، وأقام على توحيده من أكوانه ووجوده آيات واضحة وأعلاماً، وصرف الكائنات في قبضة قدرته ظهوراً وخفاء وإيجاداً وإعداماً، وأعطى كل شيء خلقه ثم هداه إلى مصالحه إلهاماً، وأودع مقدور قضائه في مسطور كتابه، فلا يجد محيصاً عنه ولا مراماً.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبي الرحمة الهامية غماماً والملحمة التي أراقت من الكفر نجيعاً وحطمت أصناماً، والعروة الوثقى، فاز من اتخذها عصاماً، أول النبيين رتبة وآخرهم ختاماً، وسيدهم ليلة قاب قوسين إذ بات للملائكة والرسل إماماً؛ وعلى أله وأصحابه الذين كانوا ركناً لدعوته وسناماً وحرباً على عدوه وسماماً، وصلوا في مظاهرته جداً واعتزاماً، وقطعوا في ذات الله وابتغاء مرضاته أنساباً وأرحاماً، حتى ملأوا الأرض إيماناً وإسلاماً، وأوسعوا الجاحد والمعاند تبكيتاً وإرغاماً فأصبح ثغر الدين بساماً ووجه الكفر والباطل عبوساً جهاماً. صلى الله عليه وعليهم ما عاقب ضياء ظلاماً، صلاة ترجح القبول ميزاناً، وتبوىء عند الله مقاماً.

والرضى عن الأئمة الأربعة، الهداة المتبعة، مصابيج الأمان ومفاتيح السنة الذين أحسنوا بالعلم قياما وكانوا للمتقين إماماً.

أما بعد فإن الله سبحانه تكفل لهذا الدين بالعلاء والطهور، والعز الخالد على الظهور، وانفساح خطته في آفاق المعمور، فلم يزل دولة عظيمة الآثار، غزيرة الأنصار، بعيدة الصيت عالية المقدار جامعة - بمحاسن آدابه وعزة جنابه - معاني الفخار، منفقة بضائع علومه في الأقطار، مفجرة ينابيعها كالبحار، مطلعة كواكبها المنيرة في الآفاق أضوأً من النهار؛ ولا كالدولة التي استأثرت بقبلة الإسلام ومنابره، وفاخرت بحرمات الله وشعائره واعتمدت بركة الإيمان وأواصره ، في خدمة الحرمين الشريفين - بالمتين من أسباب الدين وأواصره، واعتملت في إقامة رسوم العلم ليكون من مفاخره، وشاهدا بالكمال لأوَّله وآخره.

وإن مولانا السلطان الملك الظاهر، العزيز القاهر، شرف الأوائل والأواخر، ورافع لواء المعالي والمفاخر، رب التيجان والأسرة والمنابر، والمجلي في ميدان السابقين من الملوك الأكابر، في الزمن الغابر، حامل الأمة بنظره الرشيد ورأيه الظافر، وكافل الرعايا في ظله المديد وعدله الوافر، ومطلع أنوار العز والسعادة من أفقه السافر؛ واسطة السلك من هذا النظام، والتاج المحلى في مفارق الدول والأيام، سيد الملوك والسلاطين، بركة الإسلام والمسلمين، كافل أمير المؤمنين، أبو سعيد. أعلى الله مقامه، وكافأ عن الأمة إحسانه الجزيل وإنعامه، وأطال في السعادة والخيرات المبداة المعادة لياليه وأيامه؛ لما أوسع الدين والملك نظراً جميلاً من عنايته، وأنام الخلق في حجر كفالته، ومهاد كفايته، وأيقظ لتفقد الأمور، وصلاح الخاصة والجمهور، عين كلاءته، كما قلده الله رعايته وأقام حكام الشريعة والسياسة يوسعون نطاق الحق إلى غايته، ويطلعون وجه العدل سافراً عن آيته. ونصب في دست النيابة من وثق بعدله وسياسته، ورضي الدين بحسن إيالته، وأمنه على سلطانه ودولته، وهو الوفي - والحمد لله - بأمانته؛ ثم صرف نظره إلى بيوت الله يعنى بإنشائها وتأسيسها، ويعمل النظر الجميل في إشادتها وتقديسها، ويقرض الله القرض الحسن في وقفها وتحبيسها وينصب فيها لبث العلم من يؤهله لوظائفها ودروسها؛ فيضفي عليه بذلك من العناية أفخر لبوسها، حتى زهت الدولة بملكها ومصرها، وفاخرت الأنام بزمانها الزاهر وعصرها. وخضعت الأواوين لإيوانها العالي وقصرها؛ فابتهج العالم

سروراً بمكانها، واهتزت الأكوان للمفاخرة بشأنها، وتكفل الرحمن، لمن اعتز به الإيمان، وصلح على يده الزمان، بوفور المثوبة ورجحانها.

وكان مما قد من به الآن تدريس الحديث بهذه المدرسة وقف الأمير صرغتمش من سلف أمراء الترك، خفف الله حسابه وثقل في الميزان- يوم يعرض على الرحمن- كتابه، وأعظم جزاءه في هذه الصدقة الجارية وثوابه، عناية جدد لي لباسها، وإيثاراً بالنعمة التي صححت قياسها، وعرفت منه أنواعها وأجناسها، فامتثلت المرسوم، وانطلقت أقيم الرسوم، وأشكر من الله وسلطانه الحظ المقسوم. وأنا مع هذا معترف بالقصور، بين أهل العصور، مستعيذ بالله وبركة هؤلاء الحضور،

السادة الصدور، أن يجمح بي مركب الغرور، أو يلج شيطان الدعوى والزور، في شيء من الأمور. والله تعالى ينفع مولانا السلطان بصالح أعماله، ويعرفه الحسنى وزيادة الحظ الأسنى في عاقبته ومآله، ويريه في سلطانه وبنيه وحاشيته وذويه قرة عينه ورضى آماله، ويديم على السادة الأمراء ما خولهم من رضاه وإقباله، ويحفظ المسلمين في هذا الأمر السعيد بدوامه واتصاله، ويسدد قضاتهم وحكامهم لاعتماد الحق واعتماله بمن الله وإفضاله.

وقد رأيت أن أقرر للقراءه في هذا الدرس، كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس، رضي الله عنه، فإنه من أصول السنن، وأمهات الحديث، وهو مع ذلك أصل مذهبنا الذي عليه مدار مسائله، ومناط أحكامه، وإلى آثاره يرجع الكثير من فقهه.

فلنفتتح الكلام بالتعريف بمؤلفه- رضي الله عنه- ومكانه من الأمانة والديانة، ومترلة كتابه "الموطأ" من كتب الحديث. ثم نذكر الروايات والطرق التي وقعت في هذا الكتاب، وكيف اقتصر الناس منها على رواية يحيى بن يحيى، ونذكر أساندي فيها، ثم نرجع إلى الكلام على متن الكتاب.

أما الإمام مالك- رضي الله عنه- فهو إمام دار الهجرة، وشيخ أهل الحجاز في الحديث والفقه غير منازع، والمقلد المتبوع لأهل الأمصار وخصوصا أهل المغرب.

قال البخاري: مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي. كنيته أبو عبد الله، حليف عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله القرشي التيمي ابن أخي طلحة بن عبيد الله. كان إماماً، روى عنه يحيى بن سعيد. انتهى كلام البخاري.

وجده أبو عامر بن الحرث بن عثمان ويقال: غيمان بغين معجمة مفتوحة، وياء تحتانية ساكنة؛ ابن جثيل بجيم مضمومة وثاء مثلثة مفتوحة، وياء تحتانية ساكنة؛ ويقال حثيل أوخثيل بحاء مضمومة مهملة أو معجمة، عوض الجيم؛ ويقال حسل بحاء مهملة مكسورة، وسين مهملة ساكنة، ابن عمرو بن الحرث؛ وهو ذو أصبح. وذو اصبح بطن من حمير، وهم إخوة يحصب، ونسبهم معروف؛ فهو حميري صليبة، وقرشي حلفا. ولد سنة إحدى وتسعين-

فيما قال ابن بكير، واربع وتسعين- فيما قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، ونشأ بالمدينة، وتفقه بها. إخذ عن ربيعة الرأي، وابن شهاب وعن عمه أبي سهيل، وعن جماعة ممن عاصرهم من التابعين وتابعي التابعين؛ وجلس للفتيا والحديث في مسجد رسول الله شاباً يناهز العشرين، وأقام مفتياً بالمدينة ستين سنة. واخذ عنه الجم الغفير من العلماء الأعلام، وارتحل إليه من الأمصار من لا يحصى كثرة؛ وأعظم من أخذ عنه الإمام محمد بن إدريس الشافعي، وابن وهب، والأوزاعي، وسفيان الثوري، وابن المبارك- في أمثال لهم وانظار. وتوفي سنة تسع وسبعين ومائة باتفاق من الناقلين لوفاته، وقال الواقدي: عاش مالك تسعين سنة، وقال سحنون عن ابن نافع: توفي مالك ابن سبع وثمانين سنة، ولم يختلف أهل زمانه في أمانته، وإتقانه، وحفظه وتثبته وورعه، حتى لقد قال سفيان بن عيينة: كنا نرى في الحديث الوارد عن رسول الله : "تضرب أكباد الإبل في طلب العلم فلا يوجد عالم اعلم من عالم المدينة" أنه مالك بن أنس.

وقال الشافعي: إذا جاء الأثر فمالك النجم، وقال: إذا جاءك الحديث فمالك أمير المؤمنين.

وقد ألف الناس فضائله كتباً، وشأنه مشهور.

وأما الذي بعثه على تصنيف "الموطأ"- فيما نقل أبو عمر بن عبد البر- فهو أن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون، عمل كتاباً على مثال "الموطأ"، ذكر فيه ما اجتمع عليه أهل المدينة، ولم يذكر فيه شيئاً من الحديث، فأتي به مالك، ووقف عليه وأعجبه، وقال: ما أحسن ما عمل هذا! ولو كنت أنا الذي عملت لبدأت بالآثار، ثم شددت ذلك بالكلام. وقال غيره: حج أبو جعفر المنصور، ولقيه مالك بالمدينة، فأكرمه وفاوضه. وكان فيما فاوضه: يا أبا عبد الله لم يبق على وجه الأرض أعلم مني ومنك، وقد شغلتني الخلافة، فصغ أنت للناس كتاباً ينتفعون به، تجنب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر ووطئه للناس

توطئة. قال مالك: فلقد علمني التأليف؛ فكانت هذه وأمثالها من البواعث لمالك على تصنيف هذا الكتاب، فصنفه وسماه "الموطأ" أي المسهل. قال الجوهري وطؤ يوطؤ وطاءة، أي صار وطيئاً؛ ووطأته توطئة؛ ولا يقال وطيته. ولما شغل بتصنيفه أخذ الناس بالمدينة يومئذ في تصنيف فوطات، فقال لمالك أصحائه: نراك شغلت نفسك بأمر قد شركك فيه الناس؛ وأتي ببعضها فنظر فيه، ثم طرحه من يده وقال: ليعلمن أن هذا لا يرتفع منه إلا ما أريد به وجه الله؛ فكأنما ألقيت تلك الكتب في الابار، وما سمع لشيء منها بعد ذلك ذكر، وأقبل مالك على تهذيب كتابه وتوطئته؛ فيقال إنه أكمله في أربعين سنة. وتلقت الأمة هذا الكتاب بالقبول في مشارق الأرض ومغاربها، ومن لدن ضنف إلى هلم. وطال ثناء العلماء في كل عصر عليه، ولم يختلف في ذلك إثنان. قال الشافعي، وعبد الرحمن بن مهدي: ما في الأرض كتاب بعد كتاب الله أنفع، وفي رواية أصح، وفي رواية أكثر صواباً، من "موطأ" مالك. وقال يونس بن عبد الأعلى: ما رأيت كتاباً ألف في العلم أكثر صواباً من "موطأ" مالك.

وأما الطرق والروايات التي وقعت في هذا الكتاب، فإنه كتبه عن مالك جماعة نسب الموطأ إليهم بتلك الرواية، وقيل موطأ فلان لرواية عنه فمنها موطأ الإمام محمد بن

إدريس الشافعي، ومنها موطأ عبد الله بن وهب، ومنها موطأ عبد الله بن مسلمة القعنبي، ومنها موطأ مطرف بن عبد الله اليساري نسبة إلى سليمان بن يسار، ومنها موطأ عبد الرحمن بن القاسم رواه عنه سحنون بن سعيد؛ ومنها موطأ يحيى بن يحيى الأندلسي. رحل إلى مالك بن أنس من الأندلس وأخذ عنه الفقه والحديث، ورجع بعلم كثير وحديث جم؛ وكان فيما أخذ عنه "الموطأ"، وأدخله الأندلس والمغرب؛ فأكب الناس عليه، واقتصروا على روايته دون ما سواها، وعولوا على نسقها وترتيبها في شرحهم لكتاب "الموطأ" وتفاسيرهم، ويشيرون إلى الرويات الأخرى إذا عرضت في أمكنتها، فهجرت الروايات الأخرى، وسائر تلك الطرق، ودرست تلك الموطآت إلا موطأ يحيى ابن يحيى، فبروايته أخذ الناس في هذا الكتاب لهذا العهد شرقاً وغرباً.

وأما سندي في هذا الكتاب المتصل بيحيى بن فعلى ما أصفه:

حدثني به جماعة من شيوخنا رحمة الله عليهم. منهم إمام المالكية، قاضي

الجماعة بتونس وشيخ الفتيا بها، أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن يوسف الهواري، سمعته عليه بمنزله بتونس، من أوله إلى آخره. ومنهم شيخ المسندين بتونس، الرحالة أبو عبد الله محمد بن جابر ابن سلطان القيسي الوادي آشي، سمعت عليه بعضه، وأجازني بسائره. ومنهم شيخ المحدثين بالأندلس، وكبير القضاة بها، أبو البركات محمد بن محمد بن محمد- ثلاثة من المحدثين- بن إبراهيم بن الحاج البلفيقي، لقيته بفاس سنة ست وخمسين وسبعمائة من هذه المائة الثامنة، مقدمه من السفارة بين ملك الأندلس وملك المغرب. وحضرت مجلسه بجامع القرويين من فاس؛ فسمعت عليه بعضاً من هذا الكتاب، وأجازني بسائره. ثم لقيته لقاءة أخرى سنة إثنتين وستين وسبعمائة، استقدمه ملك المغرب، السلطان أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن للأخذ عنه؛ وكنت أنا القارىء فيما يأخذه عنه، فقرأت عليه صدرا من كتاب " الموطأ"، وأجازني بسائره إجازة أخرى. ومنهم شيخ أهل المغرب لعصره في العلوم العقلية، ومفيد جماعتهم، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي، قرأت عليه بعضه، وأجازني بسائره، قالوا كفهم: حدثنا الشيخ المعفر، أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطائي، عن القاضي أبي القاسم أحمد بن يزيد بن بقي، عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الحق الخزرجي.

وحدثني به أيضا شيخنا أبو البركات، عن إمام المالكية ببجاية، ناصر الدين أبي علي، منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي، عن الإمام شرف الدين

محمد بن أبي الفضل المرسي، عن أبي الحسن علي بن موسى بن النقرات عن أبي الحسن على بن أحمد الكناني.

قال الخزرجي والكناني: حدثنا أبو عبد الله محمد بن فرج مولى ابن الطلاع، عن القاضي أبي الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث بن الصفار قاضي الجماعة بقرطبة.

وحدثني به أيضاً شيخنا أبو عبد الله بن جابر عن القاضي أبي العباس أحمد بن محمد بن الغماز، عن شيخه أبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي، عن القاضي أبي القاسم عبد الرحمن بن حبيش، وأبي عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون، شارح كتاب "الموطأ"، قال ابن زرقون: حدثنا به أبو عبد الله الخولاني، عن أبي عمرو

عثمان بن أحمد القيجاطي، وقال ابن حبيش: حدثنا به القاضي أبو عبد الله بن اصبغ ويونس بن محمد بوق مغيث، قالا: قرأناه على أبي عبد الله محمد بن الطلاع. وقال ابن حبيش أيضاً: حدثنا به أبو القاسم أحمد بن محمد ورد، عن القاضي أبي عبد الله محمد ابن خلف بن المرابط، عن المقرىء أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري الطلمنكي؛ قال القاضي أبو الوليد بن مغيث، والقيجاطي، والطلمنكي: حدثنا أبو عيسى يحيى بن عبد الله بن يحيى عن عم أبيه أبي مروان عبيد الله بن يحيى عن أبيه يحيى بن يحيى. وقال الطلمنكي: حدثنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن حدير البزار، قال حدثنا أبو محمد قاسم بن أصبغ، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن وضاح، قال حدثنا يحيى بن يحيى عن مالك، إلا ثلاثة أبواب من آخر كتاب الاعتكاف، أولها خروج المعتكف إلى العيد فإن يحيى شك في سماعها عن مالك، فسمعها من زياد بن عبد الرحمن الملقب شبطون عن مالك.

ولي في هذا الكتاب طرق أخرى لم يحضرني الآن اتصال سندي فيها.

فمنها عن شيخنا أبي محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمي كاتب السلطان أبي الحسن، لقيته بتونس عند استيلاء السلطان عليها، وهو في جملته سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وحضرت مجلسه، وأخذت عنه كثيرا، وسمعت عليه بعض "الموطأ"، وأجازني بالاجازة العامة، وهو يرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، وعن شيخه الأستاذ أبي إسحق الغافقي، وعن أبي القاسم القبتوري، وجماعة من مشيخة أهل سبتة؛ ويتصل سنده فيه بالقاضي عياض، وأبي العباسى العزفي صاحب كتاب (الدر المنظم في المولد المعظم) .

ومنها عن شيخنا أبي عبد الله الكوسي خطيب الجامع الأعظم بغرناظة، سمعت عليه بعضه وأجازني بسائره وهو يرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير عن القاضي أبي عبد الله بن بكار، وجماعة من مشيخة أهل الأندلس،. ويتصل سنده فيه بالقاضي أبي الوليد الباجي، والحافظ أبي عمر بن عبد البر بسندهما.

ومنها عن شيخنا المكتب أبي عبد الله محمد بن سعد بن برال الأنصاري شيخ القراءة بتونس، ومعلمي كتاب الله؛ قرأت عليه القرآن العظيم بالقراءات السبع وعرضت عليه قصيدتي الشاطبي في القراءة، وفي الرسم، وعرضت عليه كتاب التقصي لابن عبد البر، وغير ذلك، وأجازني بالإجازة العامة، وفي هذه بالإجازة الخاصة، وهو يروي هذا الكتاب عن القاضي أبي العباس أحمد بن محمد بن الغماز، وعن شيخه أبي العباس أحمد بن موسى البطرني بسندهما.

ومنها عن شيخنا الأستاذ أبي عبد الله محمد بن الصفار المراكشي، شيخ القرآات بالمغرب، سمعت عليه بعض هذا الكتاب بمجلس السلطان أبي عثمان ملك المغرب، وهو يسمعه إياه، وأجازني بسائره؛ وهو يرويه عن شيخه محدث المغرب أبي عبد الله محمد بن رشيد الفهري السبتي عن مشيخة أهل سبتة، وأهل الأندلس، حسبما ذلك مذكور في كتب رواياتهم وطرق أسانيدهم، إلا أنها لم تحضرني الآن، وفيما ذكرناه كفاية والله يوفقنا أجمعين لطاعته وهذا حين أبتدي، وبالله أهتدي.

وانفض ذلك المجلس، وقد لاحظتني بالتجلة والوقار العيون، واستشعرت أهليتي للمناصب القلوب، واخلص النجي في ذلك الخاصة والجمهور، وأنا انتاب مجلس السلطان في أكثر الأحيان، لتأدية الواجب من التحية والمشافهة بالدعاء، إلى أن سخط السلطان قاضي المالكية يومئذ في نزعة من النزعات الملوكية، فابعده، وأخره عن خطة القضاء في رجب ست وثمانين وسبعمائة، ودعاني للولاية في مجلسه، وبين أمرائه فتفاديت من ذلك، وأبى إلا إمضاءه، وخلع علي، وبعث الأمراء

معي إلى مقعد الحكم بمدرسة القضاء؛ فقمت في ذلك المقام المحمّود، ووفيت عهد الله وعهده في إقامة رسوم الحق، وتحري المعدلة، حتى سخطني من لم ترضه أحكام الله، ووقع في ذلك ما تقدم ذكره، وكثر شغب أهل الباطل والمراء، فأعفاني السلطان منها لحول من يوم الولاية، وكان تقدمها وصول الخبر بغرق السفين الواصل من تونس إلى الإسكندرية، وتلف الموجود والمولود، وعظم الأسف، وحسن العزاء، والله قادر على ما يشاء. ثم خرجت عام تسعة وثمانين وسبعمائة لقضاء الفرض، وركبت بحر السويس من الطور إلى الينبع، ورافقت المحمل إلى مكة، فقضيت الحج عامئذ، وعدت إلى مصر في البحر كما سافرت أولا. وشغرت وظيفة الحديث بمدرسة صلغتمش، فولاني السلطان إياها بدلاً من مدرسته في محرم أحد وتسعين وسبعمائة، ومضيت على حالي من الانقباض، والتدريس، والتأليف، حتى ولاّني خانقاه بيبرس، ثم عزلني عنها بعد سنة أو أزيد، بسبب أنا اذكره الآن.

ولاية خانقاه بيبرس، والعزل منها:

لما رجعت من قضاء الفرض سنة تسعين وسبعمائة، ومضيت على حالي من التدريس والتأليف، وتعاهد السلطان باللقاء والتحية والدعاء، وهو ينظر إلي بعين الشفقة، ويحسن المواعيد. وكانت بالقاهرة خانقاه شيدها السلطان بيبرس، ثامن ملوك الترك الذي استبد على الناصر محمد بن قلاوون هو ورفيقه سلار وأنف الناصر من استبدادهما، وخرج للصيد، فلمّا حاذى الكرك امتنع به، وتركهم وشأنهم، فجلس بيبرس على التخت مكانه، وكاتب الناصر أمراء الشام من مماليك ابيه، واستدعوه للقيام معه، وزحف بهم إلى مصر، وعاد إلى سلطانه، وقتل بيبرس

وسلار سنة ثمان وسبعمائة. وشيد بيبرس هذا أيام سلطانه داخل باب النصر من أعظم المصانع وأحفلها، وأوفرها ريعا، وأكثرها أوقافا، وعين مشيختها، ونظرها لمن يستعد له بشرطه في وقفه، فكان رزق النظر فيها والمشيخة واسعا لمن يتولاه، وكان ناظرها يومئذ شرف الدين الأشقر إمام السلطان الظاهر. فتوفي عند منصرفي من قضاء الفرض، فولاني السلطان مكانه توسعة علي، وإحساناً إلي، وأقمت على ذلك إلى أن وقعت فتنة الناصري.

فتنة الناصري

وسياقه الخبر عنها بلد تقديم كلام في احوال الدول يليق بهذا الموضع، ويطلعك علي أسرار في تنقل أحوال الدول بالتدريج إلي الضخامة والاستيلاء، ثم إلى الضعف والاضمحلال، والله بالغ امره

وذلك أن الدول الكلية، وهي التي تتعاقب فيها الملوك واحداً بعد واحد في مده طويلة، قائمين على ذلك بعصبية النسب أو الولاء، وهذا كان الأصل في استيلائهم وتغلبهم، فلا يزالون كذلك إلى انقراضهم، وغلب مستحقين آخرين ينرعونه من أيديهم بالعصبية التي يقتدرون بها على ذلك، ويحوزون الأعمال التي كانت بأيدي الدولة الأولى؛ يفضون جبايتها بينهم على تفاضل البأس والرجولة والكثرة في العصابة أو القلة؛ وهم على حالهم من الخشونة لمعاناة البأس، والاقلال من العيش لاستصحاب حال البداوة، وعدم الثروة من قبل. ثم تنمو الثروة فيهم بنمو الجباية التي ملكوها، ويزين حب الشهوات للاقتدار عليها، فيعظم الترف في الملابس والمطاعم والمساكن والمراكب والممالك، وسائر الأحوال، ويتزايد شيئاً فشيئاً

بتزايد النعم وتتسع الأحوال أوسع ما تكون، ويقصر الدخل عن الخرج، وتضيق الجباية عن أرزاق الجند وأحوالهم، ويحصل ذلك لكل أحد ممن تحت أيديهم، لأن الناس تبع لملوكهم ودولتهم، ويراجع كل أحد نظره فيما فيه من ذلك، فيرجع وراءه، ويطلب كفاء خرجه بدخله.

ثم إن البأس يقل من أهل الدولة بما ذهب لهم من الخشونة، وما صاروا إليه من رقة الحاشية والتنعم؛ فيتطاول من بقي من رؤساء الدولة إلى الاستبداد بها غيرة عليها من الخلل الواقع بها. ويستعد لذلك بما بقي عنده من الخشونة، ويحملهم على الإقلاع عن الترف، ويستأنف لذلك العصابة بعشيره أو بمن يدعوه لذلك؛ فيستولي على الدولة، ويأخذ في دوائها من الخلل الواقع، وهو أحق الناس به، وأقربهم إليه؛ فيصير الملك له، وفي عشيره؛ وتصير كأنها دولة أخرى، تمر عليها الأوقات. ويقع فيها ما وقع في الأولى؛ فيستولي آخر منهم كذلك إلى أن تنقرض الدولة بأسرها، وتخرج عن القوم الأولين أجمع. وتأتي دولة أخرى مباينة لعصابة هؤلاء في النسب، أو الولاء. سنة الله في عباده. وكان مبدأ هذه الدولة التركية، أن بني أيوب لما ملكوا مصر والشام، كما قصصناه عليك في أخبارهم واستقل بها كبيرهم صلاح الدين، وشغل بالجهاد وانتزاع القلاع والحصون من أيدي الفرنج الذين ملكوها بالسواحل، وكان قليل العصابة، إنما كان عشيره من الكرد يعرفون ببني هذان، وهم قليلون، وإنما كثر منهم جماعة المسلمين، بهمة الجهاد الذي كان صلاح الدين يدعو إليه؛ فعظمت عصابته بالمسلمين، وأسمع داعيه، ونصر الله الذين على يده. وانتزع السواحل كلها من أيدي نصارى الفرنج، حتى مسجد بيت المقدس؛ فانهم كانوا ملكوه وافحشوا فيه بالقتل والسبي؛ فاذهب الله هذه الوصمة على يد صلاح الدين، وانقسم ملك بني أيوب بعده بين ولده وولد أخيه. واستفحل أمرهم؛ واقتسموا مدن الشام، ومصر بينهم، إلى أن جاء آخرهم الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر أخي صلاح الدين، وأراد الاستكثار من العصابة لحماية الدولة، وإقامة رسوم الملك، وان ذلك يحصل باتخاذ المماليك، والاكثار منهم، كما كان

آخراً في الدولة العباسية ببغداد؛ وأخذ التجار في جلبهم إليه، فاشترى منهم أعداداً، وأقام لتربيتهم أساتيذ معلمين لحرفة الجندية، من الثقافة والرمي، بعد تعليم الآداب الدينية والخلقية إلى أن اجتمع له منهم عدد جم يناهز الألف؛ وكان مقيما بأحواز دمياط في حماية البلاد من طوارق الفرنج المتغلبين على حصنها دمياط.

وكان أبوه قد اتخذ لنزله هنالك قلعة سمَّاها المنصورة، وبها توفي رحمه الله، فكان نجم الدين نازلاً بها في مدافعة ساكني دمياط من الفرنج، فأصابه هنالك حدث الموت، وكان ابنه المعظم تورنشاه نائباً في حصن كيفا من ديار بكر وراء الفرات، فاجتمع الجند على بيعته، وبعثوا عنه، وانتظروا. وتفطن الفرنج لشأنهم، فهجموا عليهم، واقتتلوا فنصر الله المسلمين، وأسر ملك الفرنج ريد إفرنس؛ فبعثوا به إلى مصر. وحبس بدار لقمان، إلى أن فادَوْه بدمياط، كما هو مذكور في أخبار بني أيوب. ونصبوا- للملك، ولهذا اللقاء- زوجة الصالح أيوب واسمها شجرة الدر، فكانت تحكم بين الجند، وتكتب على المراسيم، وركبت بوم لقاء الفرنج، تحت الصناجق، والجند محدقون بها، حتى أعز الله دينه، وأتم نصره. ثم وصل تورنشاه المعظم؛ فأقاموه في خطة الملك مكان أبيه الصالح

أيوب، ووصل معه مماليك يدلون بمكانهم منه، ولهم به اختصاص، ومنه مكان؛ وكان رؤساء الترك يومئذ القائمون بالدولة من عهد أبيه وجده. اقطاي الجمدار وايبك التركماني، وقلاوون الصالحي، فانفوا من تصرفات مماليك تورنشاه، واستعلائهم بالحظ من السلطان، وسخطوهم وسخطوه، وأجمعوا قتله. فلما رحل إلى القاهرة اغتالوه في طريقه بفارسكو، وقتلوه، ونصبوا للأمر أيبك التركماني منهم، واستحدثوا هذه الدولة التركية كما شرحناه في أخبارها؛ وهلك بعد أيبك ابنه علي المنصور، ثم مولاه قطز، ثم الظاهر بيبرس البندقداري. ثم ظهر أمر الطَّطَر، واستفحل ملكهم. وزحف هولاكو بن طولي بن جنكيزخان من خراسان إلى بغداد؛ فملكها، وقتل الخليفة المستعصم آخر بني العباس. ثم زحف إلى الشام؛ فملك مدنه وحواضره من أيدي بني أيوب، إلى أن استوعبها. وجاء الخبر بأن بركة صاحب صراي شريكه في نسب جنكزخان، زحف إلى خراسان؛ فامتعض لذلك، وكر راجعاً، وشغل بالفتنة معه إلى أن هلك. وخرج قطز من مصر عندما شغل هولاكو بفتنة بركة؛ فملك الشام كله، أمصاره ومدنه، واضاره للترك موالي بني أيوب.، استفحلت دولة هؤلاء المماليك، واتصلت أيامها واحداً بعد واحد، كما ذكرنا في أخبارهم. ثم جاء قلاوون عندما ملك بيبرس الظاهر منهم، فتظاهر به، وأصهر إليه، والترف يومئذ لم يأخذ منهم، والشدة والشكيمة موجودة فيهم، والبأس والرجولة شعار لهم؛ وهلك الظاهر بيبرس، وابناه من بعده، كما في أخبارهم. وقام قلاوون بالأمر، فاتسع نطاق ملكه، وطال ذرع سلطانه، وقصرت أيدي الطَّطَر عن الشام بمهلك هولاكو، وولاية الأصاغر من ولده، فعظم مُلك قَلاَوُون، وحَسُنت آثارُ سياسته، وأصبح حجة على من بعده؛ ثم ملك بعده ابناه: خليل الأشرف، ثم محمد الناصر. وطالت أيامه، وكثرت عصابته من مماليكه،

حتى كَمُل منهم عَدد لم يقع لغيره. ورتَّب للدَّولة المراتب، وقَدَّم منهم في كل رُتبة الأمراء، وأوسع لهم الإقطاع والولايات، حتى توفرت أرزاقهم واتسعت بالتَّرَف أحوالهم. ورحل أربابُ البضائع من العلماءِ والتُّجَّار إلى مصر؛ فأوسَعهم حباءً وبرّا. وتنافست أمراءُ دَولته في اتخاذ المدارس والرُّبط والخوانق، وأصبحت دولتهم غُرَّة في الزمان، وواسطةً في الدوَل. ثم هلك الناصر بعد أربعين وسبعمائة، فطفِق أمراء دولته ينصبُون بنيه للملك، واحداً بعد آخر، مستبدّين عليهم، متنافسين في الملك، حتى يغلبَ واحد منهم الآخر، فيقتُلَه،

ويقتُلَ سلطانه من أولاد الناصر، وينصب آخر منهم مكانه، إلى أن انساق الأمرُ لولده حسن النَّصر؛ فقتَلَ مُستَبدَّه شيخون، وملك أمره. وألقى زمام الدولة بيد مملوكه يلبُغا؛ فقام بها، ونافسه أقرانُه، وأغروا به سلطانه؛ فاجمع قتله. ونُمي إليه الخبرُ وهو في علوفة البرسيم عند خيله المُرتبطة لذلك؛ فاعتزم على الامتناع، واستعدّ للّقاء. واستدعاه سلطانُه؛ فتثاقل عن القدوم. واستشاط السلطان، وركب في خاصته إليه، فركب هو لمصادمته. وهاجم السلطان ففلَّه، ورجع إلى القلعة، وهو في اتِّباعه، فلم يُلفه بقصره، وأغرى به البحث فتقبَّض عليه، واستصفاه، وقتله؛ ونصب للملك محمد المنصور بن المظفّر حاجي بن الناصر. وقام بالدولة أحسن قيام، وأغرى نفسه بالاستكثار من المماليك، وتهذيبهم بالتَّربية، وتوفير النِّعم عندهم بالاقطاع، والولايات، حتى كمل منهم عدد لم تعهده الدولة. ثم خلع المنصور بن المظفَّر لسنتين، ونصب مكانه للملك شعبان الأشرف بن حسين بن النَّاصر؛ فأقام على التخت وهو في كفالته، وهو على أوَّله في إعزاز الدولة، وإظفار التَّرَف والثروة، حتى ظهرت مخايل العزّ والنّعم، في المساكن والجياد والمماليك والزينة؛ ثم بطرُوا النِّعمة؛ وكفروا الحقوق، فحنقوا عليه لما كان يتجاوز الحدود بهم في الآداب، فهمّوا بقتله وخلصوا نجيا لذلك في مُتَصيَّدهم الشَّتوي، وقد برزوا له بخيامهم وسلطانهم على عادتهم. ولما أحسّ بذلك ركب ناجياً بنفسه إلى القاهرة؛ فدخلوا على السلطان الأشرف، وجاءوا به على إثره، وأجازوا البحر؛ فقبضوا عليه عشيّ يومهم، ثم قتلوه في محبسه عشاء. وانطلقت أيديهم على أهل البلد بمعرات لم يعهدوها من أول دولتهم، من النّهب والتّخطُّف وطُروق المنازل والحمّامات للعبث بالحُرم، وإطلاق أعنّة الشّهوات والبغي في كل ناحية؛ فمرج أمر النّاس، ورفع الأمر إلى السُّلطان،

وكثر الدعاء واللَّجَأُ إلى الله. واجتمع أكابر الأمر إلى السلطان، وفاوضوه في كفِّ عاديتهم، فأمرهم بالركوب، ونادى في جُنده ورعيته بانطلاق الأيدي عليهم، والاحتياط بهم في قَبضَة القهر؛ فلم يكن إلا كلمح البصر، وإذا بهم في قبضة الأسر. ثم عُمِّرت بهم السّجُون، وصفِّدوا وطيف بهم على الجمال ينادى بهم، إبلاغاً في الشهرة؛ ثم وُسِّط أكثرهم، وتُتُبِّع البقيَّةُ بالنَّفي والحبس بالثغور القَصِيَّة، ثم أُطلقوا بعد ذلك. وكان فيمن أطلق جماعةٌ منهم بحبس الكرك: فيهم برقوق الذي ملك امرهم بعد ذلك، وبركة الجوباني، وألطُنُبغا الجوباني وجهركس الخليلي.

وكان طشتمر، دوادار يلبغا، قد لطف محلَّه عند السلطان الأشرف، وولي الدوادارية له، وكان يؤمّل الاستبداد كما كان أستاذه يلبغا، فكان يحتال في ذلك بجمع هؤلاء المماليك اليلبغاوية من حيث سقطوا، يريد بذلك اجتماعهم عصبة له على هواه، ويغري السلطان بها شفاها ورسالة، إلى أن اجتمع أكثرهم بباب السلطان الأشرف، وجعلهم في خدمة ابنه علي ولي عهده. فما كثروا، واخذتهم أريحية العز بعصبيتهم، صاروا يشتطون على السلطان في المطالب، ويعتزون بعصبية اليلبغاوية. واعتزم السلطان الأشرف عام سبعة وسبعين وسبعمائة على قضاء الفرض، فخرج لذلك خروجاً فخماً، واستناب ابنه عليّا على قلعته وملكه في كفالة قرطاي من أكابر اليلبغاوية، وأخرج معه الخليفة والقضاة. فلما بلغ العقبة اشتط المماليك في

طلب جرايتهم من العلُّوفة والزّاد، واشتطَّ الذين بمصر كذلك في طلب أرزاقهم من المتولّين للجباية. وصار الذين مع السلطان إلى المكاشفة في ذلك بالأقوال والأفعال، وطشتمر الدوادار يغضي عنهم، يحسب وقت استبداده قد أزف، إلى أن راغمهم السلطان بالزجر؛ فركبوا عليه هنالك، وركب من خيالته مع لفيف من خاصته، فنضحوه بالنبل، ورجع إلى خيامه، ثم ركب الهجن مساء، وسار فصبّح. القاهرة، وعرّس هو ولفيفه بقبّة النّصر.

وكان قرطاي كافل ابنه عليّ المنصور حدث بينه وبين ناظر الخاص المقسي مكالمة عند مغيب السلطان أحقدته. وجاشت بما كان في نفسه؛ فأغرى عليّا المنصور بن السلطان بالتوثّب على المُلك، فارتاح لذلك وأجابه، وأصبح يوم ثورة المماليك بالعقبة؛ وقد أجلس عليًّا مكفوله بباب الاسطبل، وعقد له الراية بالنداء على جلوسه بالتخت؛ وبينما هم في ذلك، صبَّحهم الخبر بوصول السلطان الأشرف إلى قبة النصر ليلتئذ، فطاروا إليه زرافات ووحدانا، فوجدوا أصحابه نياما هنالك، وقد تسلل من بينهم هو ويلبغا الناصري من أكابر اليلبغاوية؛ فقطعوا رءوسهم جميعاً، ورجعوا بها تسيل دماً. ووجموا لفقدان الأشرف، وتابعوا النداء عليه، وإذا بامرأة قد دلَّتهم عليه في مكان عرفته؛ فتسابقوا إليه، وجاءوا به فقتلوه لوقته بخلع أكتافه، وانعقدت بيعة ابنه المنصور. وجاء طشتمر الدوادار من الغد بمن بقي بالعقبة من الحرم، ومخلّف السلطان، واعتزم على قتالهم طمعاً في الاستبداد الذي في نفسه؛ فدافعوه وغلبوه وحصل في قبضتهم، فخلعوا عليه بنيابة الشام، وصرفوه لذلك، وأقاموا في سلطانهم. وكان أينبك أميراً آخر من اليلبغاوية قد ساهم قرطاي في هذا الحادث، وأصهر إليه في بعض حرمه؛ فاستنام له قرطاي، وطمع هو في الاستيلاء. وكان قرطاي مواصلا صبوحه بغبوقه، ويستغرق في ذلك؛ فركب في بعض أيامه؛ وأركب معه السلطان عليا، واحتاز الأمر من يد قرطاي، وصيره إلى صفد، واستّقلّ بالدولة، ثم انتقض طشتمر بالشّام مع سائر أمرائه؛ فخرج أينبك في العساكر، وسرّح المقدّمة مع جماعة من الأمراء؛ وكان منهم برقوق وبركة المستوليان عقب ذلك؛ وخرج هو والسلطان في السّاقة؛ فلما انتهوا إلى بلبيس، ثار الأمراء الذين في المقدمة عليه، ورجع إليه أخوه منهزماً؛ فرجع إلى القلعة. ثم اختلف عليه الأمراء، وطالبوه بالحرب في قبة النصر؛ فسرّح العساكر لذلك؛ فلمّا فصلوا فرّ هو هارباً، وقبض عليه وثقف بالإسكندرية. واجتمع أمراء اليلبغاوية يقدمهم قطلقتمر العلائي، ويلبغا الناصري ودمرداش اليوسفي وبركة وبرقوق؛ فتصدى دمرداش ويلبغا وبركة وبرقوق، إلى الاستقلال بالأمر وتغلبوا على سائر الأمراء؛ واعتقلوهم بالاسكندرية. وفوضوا الأمر إلى يلبغا الناصري، وهم يرونه غير خبير، فأشاروا باستدعاء طشتمر، وبعثوا إليه، وانتظروا. فلما جاءه الخبر بذلك ظنها منية نفسه، وسار إلى مصر؛ فدفعوا الأمر إليه، وجعلوا له التولية والعزل وأخذ برقوق، وبركة يستكثران من المماليك، بالاستخدام والجاه، وتوفير الاقطاع، إكثافاً لعصبيتهما؛ فانصرفت الوجوه عن سواهما، وارتاب طشتمر بنفسه، وأغراه أصحابه بالتوثّب؛ ولما كان الأضحى في سنة تسع وسبعين وسبعمائة استعجل أصحابه على غير روية، وركبوا وبعثوا إليه فأحجم، وقاتلوا فانهزموا. وتقبض على طشتمر، وحبس بالإسكندرية، وبعث معه يلبغا الناصري، وخلت الدولة للأميرين

برقوق وبركة من المنازعين، وعمروا المراتب بأصحابهما. ثم كثر شغب التركمان والعرب بنواحي الشام، فدفعوا يلبغا الناصري إلى النيابة بحلب ليستكفوا به في تلك الناحية. ثم تنافس برقوق وبركة في الاستقلال، وأضمر كل واحد منهما لصاحبه، وخشي معه، فقبض برقوق على بطانة بركة من عصابته ليحض بذلك جناحه؛ فارتاع لذلك بركة، وخرج بعصابته إلى قبة النصر ليواضع برقوقا وأصحابه الحرب هنالك، ورجا أن تكون الدائرة له. وأقام برقوق بمكانه من الاسطبل، وسرب أصحابه في جموعهم إلى محاولة أولئك. وأقاموا كذلك أياماً يغادونهم ويراوحونهم ثلاثا، إلى أن عضت بركة وأصحابه الحرب؛ فانفضوا عنه، وجيء ببركة، وبعث به إلى

الإسكندرية؛ فحبس هنالك إلى أن قتله ابن عرام نائب الإسكندرية. وارتفع اصحابه إلى برقوق شاكين؛ فثأرهم منه بإطلاق أيديهم في النصفة؛ فانتصفوا منه بقتله في ساحة القلعة، بعد ان سمر، وحمل على جمل عقابا له؛ ولم يقنعهم ذلك، فاطلق أيديهم فيما شاءوا منه، ففعلوا ما فعلوا. وانفرد برقوق- بعد ذلك- بحمل الدولة ينظر في اعطافها بالتهديد، والتسديد، والمقاربة، والحرص على مكافأة الدخل بالخرج. ونقص ما أفاض فيه بنو قلاوون من الإمعان في الترف، والسرف في العوائد والنفقات، حتى صار الكيل في الخرج بالمكيال الراجح، وعجزت الدولة عن تمشية أحوالها؛ وراقب ذلك كفه برقوق، ونظر في سد خلل الدولة منه، وإصلاحها من مفاسده، يعتد ذلك ذريعة للجلوس على التخت، وحيازة اسم السلطان من أولاد قلاوون، بما أفسد الترف منهم، وأحال الدولة بسببهم، إلى ان حصل من ذلك على البغية، ورضي به أصحابه وعصابته؛ فجلس على التخت في تاسع عشر رمضان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة، وتلقب بالظاهر. ورتب أهل عصابته في مراتب الدولة؛ فقام وقاموا بها احسن قيام، وانقلبت الدولة من آل قلاوون إلى برقوق الظاهر وبنيه. واستمر الحال على ذلك، ونافسه اليلبغاوية- رفقاؤه في ولاء يلبغا- فيما صار إليه من الأمر، وخصوصا يلبغا نائب حلب، فاعتزم على الانتقاض. وشعر به الظاهر فبعث باستدعائه؛ فجاء وحبسه مده، ثم رجعه إلى نيابة حلب، وقد وغر صدره من هذه المعاملة. وارتاب به الظاهر؛ فبعث سنة تسعين وسبعمائة دواداره للقبض عليه، ويستعين في ذلك بالحاجب. وانتقض، واستدعى نائب ملطية، وهو منطاش من أمراء اليلبغاوية، وكان قد انتقض قبله، ودعا نواب الشام إلى المسير إلى مصر إلبا على الظاهر؛ فأجابوه، وساروا في جملته، وتحت لوائه؛ وبلغ الخبر إلى الظاهر برقوق؛ فأخرج عساكره مع أمراء اليلبغاوية من اصحابه: وهم الدوادار الأكبر يونس،

وجهركس الخليلي أمير الاسطبل، والأتابكي ايتمش، وايدكار حاجب الحجاب واحمد بن يلبغا أستاذهم. وخرج الناصري من حلب في عسكره، واستنفر العرب والتركمان وأمراء الشام؛ ولما تراءى الجمعان بناحية دمشق، نزع كثير من عسكر السلطان إليهم، وصدقوا الحملة على من بقي فانفضوا. ونجا أيتمش إلى قلعة دمشق؛ فدخلها، وقتل جهركس، ويونس، ودخل الناصري دمشق؛ ثم أجمع المسير إلى مصر، وعميت أنباؤهم حتى أطلوا على مصر.

وفي خلال ذلك أطلق السلطان الخليفة من محبسه كان بعض الغواة انمى عنه، أنه داخله شيطان من شياطين الجند، يعرف بقرط في قتل السلطان يوم ركوبه إلى الميدان قبل ملكه بسنين، فلما صح الخبر أمر بقتله، وحبس الخليفة سبعا إلى تلك السنة، فأطلقه عند هذا الواقع؛ ولما وصل إلى قيطا اجتمعت العساكر، ووقف السلطان أمام القلعة يومه حتى غشيه الليل، ثم دخل إلى بيته وخرج متنكرا، وتسرب في غيابات المدينة، وباكر الناصري وأصحابه القلعة، وأمير حاج بن الأشرف؛ فأعادوه إلى التخت ولقبوه المنصور. وبعثوا عن الأمراء المحبوسين بالإسكندرية، وكان فيهم الطنبغا الجوباني الذي كان أمير مجلس، وقبض السلطان الظاهر عليه، وحبسه أياما، ثم أطلقه وبعثه نائبا على دمشق، ثم ارتفعت عنه الأقوال بأنه يروم الانتقاض، وداخل الناصر في نائب حلب في ذلك، وأكد ذلك عند السلطان ما كان بينه وبين الناصري من المصافاة والمخالصة، فبعث عنه. ولما جاء حبسه بالإسكندرية؛ فلما ملك الناصري مصر، وأجلس أمير حاج بن

الأشرف على التخت، بعث عنه ليستعين به على أمره؛ وارتابوا لغيبة الظاهر، وبالغوا في البحث عنه، فاستدعى الجوباني واستنام له، واستحلفه على الأمان؛ فحلف له، وجاء به إلى القلعة بعد أن ساور صاحبه الناصر في المضي إليه وتأمينه. وحبسوه في بعض قصور الملك، وتشاوروا في أمره؛ فأشار أمراء اليلبغاوية كلهم بقتله، وبالغ في ذلك منطاش، ووصل نعير أمير بني مهنا بالشام للصحابة بينه وبين الناصري، فحضهم على قتله، ومنع الجوباني من ذلك وفاء بيمينه، فغلت صدورهم منه. واعتزموا على بعثه إلى الكرك، ودافعوا منطاشا بأنهم يبعثونه إلى الإسكندرية، فيعترضه عند البحر بما شاء من رأيه. ووثق بذلك، فقعد له عند المرساة، وخالفوا به الطريق إلى الكرك، وولوا عليها نائبا واوصوه به؛ فأحفق مسعى منطاش، ودبر في اغتيال الدولة، وتمارض في بيته. وجاءه الجوباني عائذا فقبض عليه، وحبسه بالإسكندرية، وركب منتقضا، ووقف عند مدرسة الناصر حسن يحاصر الناصري بالقلعة. واستحاش هو بأمراء اليلبغاوية؛ فداهنوا في إجابته، ووقفوا بالرميلة أمام القلعة. ولم يزل ذلك بينهم أياما حتى انفض جمع الناصري، وخرج هاربا؛ فاعترضه اصحاب الطريق بفارسكو، وردوه؛ فحبسه منطاش بالإسكندرية مع صاحبه، واستقل بأمر الملك. وبعث إلى الكرك بقتل الظاهر؛ فامتنع النائب، واعتذر بوقوفه على خط السلطان والخليفة والقضاة. وبث الظاهر عطاءه في عامة أهل الكرك؛ فانتدبت طائفة منهم لقتل البريدي الذي جاء في ذلك؛ فقتلوه؛ وأخرجوا الظاهر من محبسه فأصحروا. واستألف أفاريق من العرب، واتصل به بعض مماليكه، وسار إلى الشام. واعترضه ابن باكيش نائب غزة، فأوقع به الظاهر، وسار إلى دمشق، واخرج منطاش العساكر مع سلطانه أمير حاج، وسار على التعبئة ليمانع الظاهر عن دمشق. وسبقه الظاهر فمنعه جنتمر نائب دمشق؛ فواقعه، وأقام محاصرا له. ووصل إليه كمشبغا الحمّوي نائب حلب، وكان اظهر دعوته في عمله، وتجهز للقائه بعسكره؛ فلقيه وأزال علله، فأقام له أبهة الملك. وبينا هم في الحصار إذ جاء الخبر بوصول منطاش بسلطانه وعساكره لقتالهم، فلقيهم الظاهر بشقحب، فلما تراءى الجمعان، حمل الظاهر على السلطان أمير حاج وعساكره ففضهم، وانهزم كمشبغا إلى حلب. وسار منطاش في اتباعه؛ فهجم الظاهر على تعبئة أمير حاج؛ ففضها، واحتاز السلطان، والخليفة

والقضاة، ووكل بهم. واختلط الفريقان، وصاروا في عمياء من أمرهم، وفر منطاش إلى دمشق. واضطرب الظاهر أخبيته، ونزل على دمشق محاصرا لها. وخرج إليه منطاش من الغد فهزمه، وجمع القضاة والخليفة؛ فشهدوا على أمير حاج بالخلع، وعلى الخليفة بإعادة الظاهر إلى ملكه. ورحل إلى مصر فلقيه بالطريق خبر القلعة بمصر، وتغلب مماليكه عليها؛ وذلك أن القلعة لما خلت من السلطان ومنطاش والحامية، وكان مماليك السلطان محبوسين هنالك في مطبق أعد لهم، فتناجوا في التسور منه إلى ظاهره، والتوثب على القلعة والملك، فخرجوا، وهرب دوادار منطاش الذي كان هنالك بمن كان معه من الحاشية. وملك مماليك الظاهر القلعة، ورأسهم

مملوكه بطا، وساس امرهم، وانتظر خبر سلطانه، فلما وصل الخبر بذلك إلى الظاهر، أغذ السير إلى مصر. وتلقاه الناس فرحين مسرورين بعوده وجبره. ودخل منتصف صفر من سنة إحدى وتسعين، وولى بطا دوادارا، وبعث عن الأمراء المحبوسين بالإسكندرية، وأعتبهم، وأعادهم إلى مراتبهم. وبعث الجوباني إلى دمشق، والناصري إلى حلب كما كانا، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه. وولى سودون على نيابته، وكان ناظرا بالخانقاه التي كنت فيها، وكان ينقم علي أحوالا من معاصاته فيما يريد من الأحكام في القضاء ازمان كنت عليه، ومن تصرفات دواداره بالخانقاه، وكان يستنيبه عليها؛ فوغر صدره من ذلك؛ وكان الظاهر ينقم علينا معشر الفقهاء فتاوى استدعاها منا منطاش، واكرهنا على كتابها؛ فكتبناها، وورينا فيها بما قدرنا عليه. ولم يقبل السلطان ذلك، وعتب عليه، وخصوصا علي؛ فصادف سودون منه إجابة في إخراج الخانقاه عني، فولى فيها غيري وعزلني عنها. وكتبت إلى الجوباني بأبيات أعتذر عن ذلك ليطالعه بها؛ فتغافل عنها، وأعرض عني مدة، ثم عاد إلى ما أعرف من رضاه وإحسانه، ونص الأبيات:

سيدي والظنون فيك جميلة　　　وأياديك بالأماني كفيله
لا تحل عن جميل رأيك إني　　　ما لي اليوم غير رأيك حيله
واصطنعني كما اصطنعت بإسداء　　　يد من شفاعة أو وسيله
لا تضعني فلست منك مضيعا　　　ذمة الحب، والأيادي الجميله
وأجرني فالخطب عض بنابيه　　　وأجرى إلى حماي خيوله
ولو أني دعا بنصري داع　　　كنت لي خير معشر وفصيله
أنه أمري إلى الذي جعل الله　　　أمور الدنيا له مكفوله
وأراه في ملكه الآية الكبرى　　　فولاه ثم كان مديله
أشهدته عناية الله في التمحيص　　　أن كان عونه ومنيله
العزيز السلطان والملك الظا　　　هر فخر الدنيا وعز القبيله
ومجير الإسلام من كل خطب　　　كاد زلزال بأسه أن يزيله
ومديل العدو بالطعنة النجلا　　　ء تفري ماذيه ونصوله

وشكور لأنعم الله يفني في رضاه غدوه وأصيله
وتلطف في وصف حالي وشكوى خلتي يا صفيه وخليله
قل له والقِقالُ يَكرمُ من مثْلك في مَحفِل العُلا أن يَقُولَه
يا خوندَ الملوك يا معدل الدَهر إذا عَدل الزمان فُصُولَه
لا تقصِّر في جَبر كسْرى فما زِلْتُ أرجيك للأيادي الطَويلَة
أنا جارٌ لكم منعتم حماه ونَهجتم إلى المعالي سَبليه
وغريب أنستَموه على الوَحْشة والحُزْن بالرضى والسُّهولَه
وجَمعتم من شمله فقضى الله فراقاً وما قَضَى مأمولَه
غالَه الدّهرُ في البنين وفي الأهل وما كان ظنُّه أن يَغُوله
ورمته النَّوَى فقيداً قد اجْتَاحت عليه فُروعَه وأُصولَه
فجذبتم بضَبْعِه وأنَلتُم كل ما شاءت العُلَا أن تُنيلَه
ورفعتم من قدره قبل أن يشكو إليكم عَياءَه وخُمُولَه
وفرضتم له حقيقةَ وُدٍّ حاش لله أن تُرَى مُسْتَحِيلَه
همةٌ ما عرفتُها لسواكم وأنا من خَبرتُ دَهرِي وجيلَه
والعِدا نمَّقوا أحاديث إِفْكٍ كلها في طرائق معلولَه
روَّجوا في شأني غرائب زور نصبوها لأمرهم أُحبُولَه
ورَموا بالذي أرادوا من البهتان ظناً بأنها مقبولَة
زعموا أنني أتيت من الأقوال ما لا يظنُ بي أن أقولَه
كيف لي أغمطُ الحقوق وأنّي شكرُ نَعماكم عليّ الجزيله ؟
كيفَ لي أنكرُ الأيادي التي تعرِفها الشمْسُ والظِّلالُ الظليله ؟
إن يكن ذا فقد برئتُ من الله تعالى رخُنتُ جهراً رسولَه
طوقونا أمر الكتاب فكانت لقداح الظنون فينا مُجيلَه
لا ورَبِّ الكتاب أنزله الله على قلب من وعَى تنزيلَه
ما رضينا بذاك فعلاً ولا جئنا طوعاً ولا اقتفينا دليلَه
إنما سامنا الكتابَ ظَلُوم لا يُرَجَّى دِفاعُه بالحِيلَه
سَخطٌ ناجزٌ وحِلمٌ بَطيءٌ وسلاح للوْخز فينا صَقيلَه
ودعوني ولست من مَنْصِب الحكم ولا سَاحباً لَدَيهم ذُيولَه
غيرَ أنَي وشَى بذكريَ واش يَتَقَصَّ أوتارَه وذُحُوله
فكتبنا معوِّلين على حلمك تمحو الاصار عَنَا الثَّقيلَه

ما أشرنا بهِ لِزيد ولا عمرو ولا عينوا لنا تفصيله
إنما يذكرون عمَّن وفيمَن مُبْهمات أحكامُها منقولَه
ويظنُّون أنَ ذاك على ما أضمروا من شناعة أو رذيله
وهْو ظن عن الصَّواب بعيدٌ وظَلَامٌ لم يُحْسِنُوا تأويلَه
وجناب السُّلطان نزَهه الله عن العاب بالهُدَى والفضيلةَ
وأجَلُّ الملوك قدراً صفوحٌ يَرْتَجي ذنبَ دَهره ليُقيلَه
فاقبلوا الغذرَ إنَّنا اليوم نرجُو بحياةِ السُلطان منكُم قبُولَه
وأعينوا على الزمان غريباً يشتكي جَدْب عَيشه ومُحُولَه
جارُكم ضيفُكم نزيلُ حِماكم لا يُضيعُ الكريمُ يوماً نَزيلَه
جَدِّدوا عندَه رُسومَ رضاكم فَرُسُومُ الكرام غَيرُ مُحيلَه
داركوه برحمة فلقد أمسَتْ عقودُ اصطباره محلولَه
وانحَلوه جَبْرا فليس يُرجِّي غيرَ إحسانكم لهَذي النحيلَه
يا حميدَ الآثار في الدهر يا أَلطْنبُغا يا رَوْض العُلاَ ومَقيلَه
كيفَ بالخانقاه ينقلُ عنَي لا لذَنب أو جُنْحَةٍ مَنقولَه
بل تقلَّدتُها شَغُوراً بمرسُوم شَريفٍ وخِلعة مَسْدُولَه
ولقد كنت آملًا لسواها وشواها بوْعده أن ينيلَه
وتوثَّقتُ للزمان علَيْها بعقود ما خِلتُها محلولَه
أبلغن قِصَّتي فمثلُك من يقصد فعل الحسنى بمن ينتمي لَه
واغنموا من مثوبتي ودعائي قُربَةً عند ربكم مقبوله
وفي التَّعريض بسَفَره إلى الشام :
واصحَب العزَ ظافرأ بالأماني واترُك العُصبةَ العدا مَفْلولَه
واعتَمِل في سعادة الملك الظاهر أن تَمحو الأذَى وتُزيلَه
وتُعيدَ الدُّنيا لأحْسَن شَمْلٍ حين تُضْحِي بسَعْده مشمُولَه
واطلُب النَّصر من سَعادته يصحَبْك داباً في الظعن والحَيلُولَه
وارتَقِب ما يُحلُّه بالأعادي في جُمادَى أو زد علَيه قَليلَه
وخذوه فألا بحسن قبول   صدق الله في الزمان مقوله
فلقد كان يحسن الفال عند   المصطفى دائما ويرضى جميله
السعاية في المهاداة والاتحاف بين ملوك المغرب والملك الظاهر:
كثيرا ما يتعاهد الملوك المتجاورون بعضهم بعضا بالإتحاف بطرف أوطانهم،

للمواصلة والإعانة متى دعا إليها داع. وكان صلاح الدين بن أيوب هادى يعقوب المنصور ملك المغرب من بني عبد المؤمن، واستجاش به بأسطوله في قطع مدد الفرنج عن سواحل الشام حين كان معنيا بإرجاعهم عنها، وبعث في ذلك رسوله عبد الكريم بن منقذ من أمراء شيزر، فأكرم المنصور رسوله، وقعد عن إجابته في الأسطول لما كان في الكتاب إليه من العدول عن تخطيطه بأمير المؤمنين؛ فوجدها غصة في صدره منعته مي إجابته إلى سؤاله؛ وكان المانع لصلاح الذين من ذلك كاتبه الفاضل عبد الرحيم البيساني بما كان يشاوره في أفوره، وكان مقيما لدعوة الخليفة العباسي بمصر؛ فرأى الفاضل أن الخلافة لا تنعقد لإثنين في الملة كما هو المشهور، وإن اعتمد أهل المغرب سوى ذلك، لما يرون أن الخلافة ليست لقبا فقط، وإنما هي لصاحب العصبية القائم عليها بالشدة والحماية؛ والخلاف في ذلك معروف ين أهل الحق. فلما انقرضت دولة الموحدين، وجاءت دولة بني مرين من بعدهم، وصار كبراؤهم ورؤساؤهم يتعاهدون قضاء فرضهم لهذه البلاد الشرقية، فيتعاهدهم ملوكها بالإحسان إليهم، وتسهيل طريقهم؛ فحسن في مكارم الأخلاق انتحال البر والمواصلة، بالإتحاف والاستطراف والمكافأة في ذلك بالهمم الملوكية؛ فسنت لذلك طرائق وأخبار مشهورة، من حقها أن تذكر؛ وكان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ثالث ملوك بني مرين، أهدى لصاحب مصر عام سبعمائة، وهو يومئذ الناصر بن محمد بن قلاوون، هدية ضخمة، اصحبها كريمة

من كرائم داره، احتفل فيها ما شاء من أنواع الطرف، وأصناف الذخائر، وخصوصا الخيل والبغال.

أخبرني الفقيه أبو إسحق الحسناوي، كاتب الموحدين بتونس، أنه عاين تلك الهدية عند مرورها بتونس، قال: وعددت من صنف البغال الفارهة فيها أربعمائة، وسكت عما سوى ذلك. وكان مع هذه الهدية من فقهاء المغرب، أبو الحسن التنسي كبير أهل الفتيا بتلمسان ثم كافأ الناصر عن هذه الهدية بأعلى منها وأحفل مع أميرين من أمراء دولته، أدركا يوسف بن يعقوب وهو يحاصر تلمسان، فبعثهما إلى مراكش للتراهة في محاسنها، وأدركه الموت في مغيبهما، ورجعا من مراكش؛ فجهزهما حافده أبو ثابت المالك بعده، وشيعهما إلى مصر؛ فاعترضتهما قبائل حصين ونهبوهما، ودخلا بجاية، ثم مضيا إلى تونس، ووصلا من هنالك إلى مصر.

ولما ملك السلطان أبو الحسن تلمسان، اقترحت عليه جارية أبيه أبي سعيد، وكانت لها عليه تربية؛ فأرادت الحج في أيامه وبعنايته؛ فأذن لها في ذلك، وبعث في خدمتها وليه عريف بن يحيى من أمراء سويد، وجماعة من أمرائه وبطانته، واستصحبوا هدية منه للملك الناصر احتفل فيها ما شاء. وانتقى من الخيل العتاق، والمطايا الفره وقماش الحرير والكتان، والصوف ومدبوغ الجلود الناعمة، والأواني المتخذة من النحاس والفخار المخصوص كل مصر من المغرب بأصناف من صنائعها، متشابهة الأشكال والأنواع، حتى لقد زعموا أنه كان فيها مكيلة من اللآلىء والفصوص، وكان ذلك وقر خمس مائة بعير، وكانت عتاق الخيل فيها خمس مائة فرس، بالسروج الذهبية المرصعة بالجواهر، واللجم المذهبة، والسيوف المحلاة بالذهب واللآلىء؛ كانت قيمة المركب الأول منها عشرة آلاف دينار،

وتدرجت على الولاء إلى آخر الخمس مائة؛ فكانت قيمته مائة دينار. تحدث الناس بهذه الهدية دهراً، وعرضت بين يدي الملك الناصر، فأشار إلى خاسكيته بانتهابها فنهبت بين يديه، وبولغ في كرامة أولئك الضيوف، في إنزالهم وقراهم وأزوادهم إلى الحجاز والى بلادهم؛ وبقي شأن الهدية حديثا يتحاراه الناس في مجالسهم وأسمارهم؛ وكان ذلك عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة. ولما فصل أرسال ملك المغرب، وقد قضوا فرضهم، بعث الملك الناصر معهم هدية كفاء هديتهم، وكانت أصنافها حمل القماش من ثياب الحرير والقماش المصنوعة بالإسكندرية، تحمل كل عام إلى دار السلطان، قيمة ذلك الحمل خمسون ألف دينار، وخيمة من خيام السلطان المصنوعة بالشام على مثال القصور، تشتمل على بيوت للمراقد، واواوين للجلوس والطبخ، وأبراج للإشراف على الطرقات، وأبراج أحدها لجلوس السلطان للعرض؛ وفيها تمثال مسجد بمحرابه، وعمده، ومأذنته؛ حوائطها كلها من خرق الكتان الموصولة بحبك الخياطة مفضلة على الأشكال التي يقترحها المتخذون لها. وكان فيها خيمة أخرى مستديرة الشكل،، عالية السمك، مخروطة الرأس، رحبة الفناء، تظل خمس مائة فارس أو أكثر، وعشرة من عتاق الخيل بالمراكب الذهبية الضقيلة، ولجمها كذلك؛ ومرت هذه الهدية بتونس، ومعها الخدام القائمون بنصب الأبنية، فعرضوها على السلطان بتونس. وعاينت يومئذ أصناف تلك الهدية، وتوجهوا بها إلى سلطانهم، وبقي التعجب منها دهرا على الألسنة. وكان ملوك تونس من الموحدين، يتعاهدون ملوك مصر بالهدية في الأوقات.

ولما وصلت إلى مصر، واتصلت بالملك الظاهر، وغمرني بنعمه وكرامته، كاتبت السلطان بتونس يومئذ، وأخبرته بما عند الملك الظاهر من التشوف إلى جياد الخيل، وخصوصا من المغرب، لما فيها من تحمل الشدة والصبر على المتاعب، وكان يقول مثل ذلك، وأن خيل مصر قصرت بها الراحة والتنعم، عن الصبر على التعب؛ فحضضت السلطان بتونس على إتحاف الملك والظاهر بما ينتقيه من الجياد الرائعة، فبعث له خمسة انتقاها من مراكبه، وحملها في البحر في السفين الواصل بأهلي وولدي؛ فغرقت بمرسى الإسكندرية، ونفقت تلك الجياد، مع ما ضاع في

ذلك السفين، وكل شيء بقدر.

ثم وصل إلينا عام ثلاثة وتسعين وسبعمائة شيخ الأعراب: المعقل بالمغرب، يوسف بن علي بن غانم، كبير أولاد حسين ناجياً من سخط السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم، من ملوك بني مرين بفاس، لروم قضاء فرضه، ويتوسل بذلك لرضى سلطانه؛ فوجد السلطان غائبا بالشام في فتنة منطاش؛ فعرضته لصاحب المحمل. فلمّا عاد من قضاء فرضه، وكان السلطان قد عاد من الشام، فوصلته به، وحضر بين يديه، وشكا بثه؛ فكتب الظاهر فيه شفاعة لسلطان وطنه بالمغرب، وحفله مع ذلك هدية إليه من قماش وطيب وتسي، وأوصاه بانتقاء الخيل له من قطر المغرب، وانصرف؛ فاقبل سلطانه فيه شفاعة الظاهر، وأعاده إلى مترلته. وانتقى الخيول الرائعة لمهاداة الملك الظاهر، وأحسن في انتقاء أصناف الهدية؛ فعاجلته المنية دون ذلك، وولي ابنه أبو فارس، وبقي أياما ثم هلك، وولى أخوه أبو عامر، فاستكمل الهدبة، وبعثها صحبة يوسف بن علي الوارد الأول.

وكان السلطان الملك الظاهر، لما أبطأ عليه وصول الخيل من المغرب، أراد أن يبعث من أمرائه من ينتقي له ما يشاء بالشراء، فعين لذلك مملوكا من مماليكه منسوبا إلى تربية الخليلي، اسمه قطلوبغا، وبعث عني، فحضرت بين يديه، وشاورني في ذلك فوافقته، وسألني كيف يكون طريقه، فأشرت بالكتاب في ذلك إلى سلطان تونس من الموحدين، وسلطان تلمسان من بني عبد الواد، وسلطان فاس والمغرب من بني مرين، وحمله لكل واحد منهم هدية خفيفة من القماش والطيب والقسي، وانصرف عام تسعة وتسعين وسبعمائة إلى المغرب، وشيعه كل واحد من ملوكه إلى مأمنه. وبالغ في إكرامه بما يتعين. ووصل إلى فاس، فوجد الهدية قد استكملت، ويوسف بن علي على المسير بها عن سلطانه أبي عامر من ولد السلطان أبي العباس المخاطب أولا. وأظلهم عيد الأضحى بفاس، وخرجوا متوجهين إلى مصر، وقد أفاض السلطان من إحسانه وعطائه، على الرسول قطلوبغا ومن في جملته بما أقر عيونهم، وأطلق بالشكر ألسنتهم، وملأ بالثناء ضمائرهم، ومروا بتلمسان، وبها يومئذ أبو زئان، ابن السلطان أبي حمّو من آل يغمراسن بن زيان، فبعث معهم هدية أخرى من الجياد بمراكبها، وكان يحوك الشعر، فأمتدح الملك الظاهر بقصيدة بعثها مع هديته، ونصها من أولها إلى اخرها:

لمن الركاب سيرهن ذميل	والصبر - إلا بعدهن - جميل
يا أيها الحادي رويدك إنها	ظعن يميل القلب حيث تميل
رفقا بمن حملته فوق ظهورها	فالحسن فوق ظهورها محمّول
لله آية أنجم: شفافة	تنجاب عنها للظلام سدول
شهب بآفاق الصدور طلوعها	ولها بأستار الجدول أفول
في الهودج المزرور منها غادة	تزع الدجى بجبينها فيحول
فكأنها قمر على غصن على	متني كثيب والكثيب مهيل
ثارت مطايا فثار بي الهوى	واعتاد قلبي زفرة وغليل
أومت لتوديعي فغالب عبرتي	نظر تخالسه العيون كليل
دمع أغيض منه خوف رقيبها	طورا ويغلبني الأسى فيسيل
ويح المحب وشت به عبراته	فكأنها قال عليه وقيل
صان الهوى وجفونه يوم النوى	لمصون جوهر دمعهن تذيل
وتهابه أسد الشرى في خيسها	ويروعه ظبي الحمى المكحول

تأبى النفوس الضيم إلا في الهوى — فالحر عبد والعزيز ذليل
يا بانة الوادي ويا أهل الحمى — هل ساعة تصغين لي فأقول

ما لي إذا هب النسيم من الحمى أرتاح شوقا للحمى وأميل
خفوا الضبا يخلص إلي نسيمها إن الصبا لصبابتي تعليل
ما لي أحلأ عن ورود محله وأذاد عنه وورده منهول
والباب ليس بمرتج عن مرتج والظن في المولى الجميل جميل

من لي بزورة روضة الهادي الذي ما مثله في المرسلين رسول
هو أحمد ومحمد والمصطفى والمجتبى وله انتهى التفضيل
يا خير من أهدى الهدى وأجل من أثنى عليه الوحي والتنزيل
وحي من الرحمن يلقيه على قلب النبي محمد جبريل
مدحتك آيات الكتاب وبشرت بقدومك التوراة والإنجيل
جملة الصلاة عليك تحلو في فمي مهما تكرر ذكرك المعسول
فوربعك المأهول إن بأضلعي قلبا بحبك ربعه مأهول
هل من سبيل للسرى حتى أرى خير الورى فهو المنى والسول
حتام تمطلني الليالي وعدها إن الزمان بوعده لبخيل
ما عاقني إلا عظيم جرائمي إن الجرائم حملهن ثقيل
أنا مغرم فتعطفوا أنا مذنب فتجاوزوا أنا عاثر فأقيلوا
وأنا البعيد فقربوا والمستجير فأمنوا والمرتجى فأنيلوا
يا سائقاً نحو الحجاز حمّولة والقلب بين حمّوله محمّول
لمحمد بلغ سلام سميه فذمامه بمحمد موصول
وسل الإله له اغتفار ذنوبه يسمع هناك دعاؤك المقبول

وعن المليك أبي سعيد فلتنب فلكم له نحو الرسول رسول
متحمل لله كسوة بيته يا حبذاك المحمل المحمّول
سعد المليك أبي سعيد إنه سيف على أعدائه مسلول

ملك بجح المغرب الأقصىبه فلهم به نحو الرسول وصول
ملك به نام الأنام وأمنت سبل المخاف فلا يخاف سبيل

فالملك ضخم والجناب مؤمل والفضل جم والعطاء جزيل
والصنع أجمل والفخار مؤثل والمجد أكمل والوفاء أصيل
يا مالك البحرين بلغت المنى قد عاد مصر على العراق يصول
يا خادم الحرمين حق لك الهنا فعليك من روح الإله قبول
يا متحفي ومفاتحي برسالة سلسالة يزهى بها الترسيل
أهديتها حسناء بكرا ما لها غيري، وإن كثر الرجال، كفيل
ضاء المداد من الوداد بصحفها حتى اضمحل عبوسه المجبول
جمعت وحاملها بحضرتنا كما جمعت بثينة في الهوى وجميل
وتأكدت بهدية ودية هي للإخاء المرتضى تكميل
اطلعت فيها للقسي أهلة يرتد عنها الطرف وهو كليل
وحسام نصر زاهيا بنضاره راق العيون فرنده المعسول
ماضي الشبا لمصابه تعنو الظبا فبه تصول على العدا وتطول
وبدائع الحلل اليمانية التي روى معاطفها بمصر النيل
فأجلت فيها ناظري فرأيتها تحفا يجول الحسن حيث تجول
جلت محاسنها فأهوى نحوها بفم القبول اللثم والتقبيل
يا مسعدي وأخي العزيز ومنجدي ومن القلوب إلى هواه تميل
إن كان رسم الود منك مذيلا بالبر وهو بذيله موصول
فنظيره عندي وليس يضيره .بمعارض وهم ولا تخييل
ود "يزيد" و"ثابت " شهدابه و "لخالد" بخلوده تذييل
وإليكها تنبيك صدق مودتي صح الدليل ووافق المدلول
فإذا بذاك المجلس السامي سمت فلديك إقبال لها وقبول
دام الوداد على البعاد موصلا بين القلوب وحبله موصول
وبقيت في ندم لديك مزيدها وعليك يضفو ظلها المسدول

ثم مروا بعدها بتونس، فبعث سلطان تونس أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي العباس من ملوك الموحدين، هدية ثالثة انتقى لها جياد الخيل، وعزز بها هدية السلطانين وراءه، مع رسوله من كبار الموحدين أبي عبد الله بن تافراكين؛ ووصلت الهدايا الثلاث إلى باب الملك الظاهر في آخر الله، وعرضت بين يدي السلطان، وانتهب الخاسكية ما كان فيها من الأقمشة والسيوف والبسط ومراكب الخيك، وحمل كثيرا منهم على كثير من تلك الجياد وارتبط الباقيات.

وكانت هدية صاحب المغرب تشتمل على خمسة وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللجم الذهبية، والسيوف المحلاة، وخمسة وثلاثين حملا من أقمشة الحرير والكتان والصوف والجلد، منتقاة من أحسن هذه الأصناف.

وهدية صاحب تلمسان تشتمل على ثلاثين من الجياد بمراكبها المموهة، وأحمالا
من الأقمشة.

وهدية صاحب تونس تشتمل على ثلاثين من الجياد مغشاة ببراقع الثياب من غير مراكب، وكلها أنيق في صنعه مستطرف في نوعه؛ وجلس السلطان يوم عرضها جلوسا فخما في إيوانه، وحضر الرسل، وأدوا ما يجب عن ملوكهم. وعاملهم السلطان بالبر والقبول، وانصرفوا إلى منازلهم للجرايات الواسعة، والأحوال الضخمة. ثم حضر وقت خروج الحاج؛ فاستأذنوا في الحج مع محمل السلطان، فاذن لهم، وارغد أزودتهم. وقضوا حجهم، ورجعوا الى حضرة السلطان ومعهود مبرته. ثم انصرفوا إلى مواطنهم، وشيعهم من بر السلطان وإحسانه، ما ملأ حقائبهم، وأسنى ذخيرتهم، وحصل لي أنا من بين ذلك في الفخر ذكر جميل بما تناولت بين هؤلاء الملوك من السعي في الوصلة الباقية على الأبد، حمدت الله على ذلك.

ولاية القضاء الثانية بمصر.

ما زلت، منذ العزل عن القضاء الأول سنة سبع وثمانينوسبعمائة، مكبا على
الاشتغال بالعلم، تأليفا وتدريساً؛ والسلطان يولي في الوظيفة من يراه أهلا متى دعاه إلى ذلك داع، من موت القائم بالوظيفة، أو عزله؛ وكان يراني الأولى بذلك، لولا وجود الذين شغبوا من قبل في شأني، من أمراء دولته، وكبار حاشيته، حتى انقرضوا. واتفقت وفاة قاضى المالكية إذ ذاك ناصر الدين بن التنسي، وكنت مقيما بالفيوم لضم زرعي هنالك؛ فبعث عني، وقلدني وظيفة القضاء في منتصف رمضان من سنة إحدى وثمانمائة؛ فجريت على السنن المعروف مني، من القيام بما يجب للوظيفة شرعا وعادة؛ وكان رحمه الله يرضى بما يسمع عني في ذلك. ثم أدركته الوفاة في منتصف شوال بعدها، وأحضر الخليفة والقضاة والأمراء، وعهد إلى كبير أبنائه فرج، ولإخوته من بعده واحدا واحدا، وأشهدهم على وصيته بما أراد. وجعل القائم بأمر ابنه في سلطانه إلى أتابكه أيتمش، وقضى رحمة الله عليه، وترتبت الأمور من بعده كما عهد لهم، وكان النائب بالشام يومئذ أمير من خاسكية السلطان يعرف بتنم، وسمع بالواقعات بعد السلطان فغص أن لم يكن هو كافل ابن الظاهر بعده، ويكون زمام الدولة بيده. وطفق سماسرة الفتن يغرونه بذلك، وبينما هم في ذلك إذ وقعت فتنة الأتابك أيتمش، وذلك أنه كان للأتابك دوادار غر يتطاول إلى الرئاسة، ويترفع على أكابر الدولة بحظه من أستاذه، وما له من الكفالة على السلطان؛ فنقموا حالهم مع هذا الدَّوادار، وما يسومهم به من الترفع عليهم، والتعرض لإهمال نصائحهم؛ فأغروا السلطان
بالخروج عن ربقه الحجر، وأطاعهم في ذلك، وأحضر القضاة بمجلسه للدعوى على الأتابك باستغنائه عن الكافل، بما علم من قيامه بأمره وحسن تصرفاته. وشهد بذلك في المجلس أمراء أبيه كافة، وأهل المراتب والوظائف منهم، شهادة قبلها القضاة. وأعذروا إلى الأتابك فيهم فلم يدفع في شيء من شهادتهم، ونفذ الحكم

يومئذ برفع الحجر عن السلطان في تصرفاته وسياسة ملكه، وانفضّ الجمع، ونزل الأتابك من الاسطبل إلى بيت سكناه. ثم عاود الكثير من الأمراء نظرهم فيما أتوه من ذلك؛ فلم يروه صوابا، وحملوا الأتابك على نقضه، والقيام بما جعل له السلطان من كفالة ابنه في سلطانه. وركب، وركبوا معه في آخر شهر المولد النبوي، وقاتلهم أولياء السلطان فرج عشي يومهم وليلتها؛ فهزموهم، وساروا إلى الشام مستصرخين بالنائب تنم، وقد وقر في نفسه ما وقر من قبل؛ فبر وفادتهم، وأجاب صريخهم. واعتزموا على المضي إلى مصر. وكان السلطان لما انفضت جموع الأتابك، وسار إلى الشام، اعتمله في الحركة والسفر لخضد شوكتهم، وتفريق جماعتهم؛ وخرج في جمادى حش انتهى إلى غزة، فجاءه الخبر بأن نائب الشام تنم، والأتابك، والأمراء الذين معه، خرجوا من الشام زاحفين للقاء السلطان، وقد احتشدوا واوعبوا، وانتهوا قريبا من الرملة؛ فراسلهم السلطان مع قاضي القضاة الشافعي صدر الدين المناوي، وناصر الدين الرماخ، أحد المعلمين لثقافة الرماح، يعذر إليهم، ويحملهم على اجتماع الكلمة، وترك الفتنة، وإجابتهم إلى ما يطلبون من مصالحهم؛ فاشتطوا في المطالب، وصمموا على ما هم فيه. ووصل الرسولان بخبرهم، فركب السلطان من الغد، وعبى عساكره، وصمم لمعاجلتهم؛ فلقيهم أثناء طريقه، وهاجمهم فهاجموه، ثم ولوا الأدبار منهزبين. وصرع الكثير من أعيانهم وأمرائهم في صدر موكبه، فما غشيهم الليل إلا وهم مصفدون في الحديد، يقدمهم الأمير تنم نائب الشام واكابرهم كلهم. ونجا الأتابك أيتمش إلى القلعة بدمشق، فآوى إليها، واعتقله نائب القلعة. وسار السلطان إلى دمشق؛ فدخلها على التعبئة في يوم أغر، وأقام بها أياما، وقتل هؤلاء

الأمراء المعتقلين، وكبيرهم الأتابك ذبحا، وقتل تنم من بينهم خنقا، ثم ارتحل راجعا إلى مصر.

وكنت استأذنت في التقدم إلى مصر بين يدي السلطان لزيارة بيت المقدس، فأذن لي في ذلك. ووصلت إلى القدس ودخلت المسجد، وتبركت بزيارته والصلاة فيه، وتعففت عن الدخول إلى القمامة لما فيها من الإشادة بتكذيب القرآن، إذ هو بناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم، فنكرته نفسي، ونكرت الدخول إليه. وقضيت من سنن الزيارة ونافلتها ما يجب، وانصرفت إلى مدفن الخليل عليه السلام. ومررت في طريقي إليه ببيت لحم، وهو بناء عظيم على موضع ميلاد المسيح، شيدت القياصرة عليه بناء بسماطين من العمد الصخور، منجدة مصطفة، مرقوما على رؤوسها صور ملوك القياصرة، وتواريخ دولهم، ميسرة لمن يبتغي تحقيق نقلها بالتراجمة العارفين لأوضاعها؛ ولقد يشهد هذا المصنع بعظم ملك القياصرة وضخامة دولتهم. ثم ارتحلت من مدفن الخليل إلى غزة، وارتحلت منها، فوافيت السلطان بظاهر مصر، ودخلت في ركابه اواخر شهر رمضان سنة إثنين وثمانمائة. وكان بمصر فقيه من المالكية يعرف بنور الدين بن الخلال، ينوب أكثر أوقاته عن قضاة القضاة المالكية؛ فحرضه بعض أصحابه على السعي في المنصب، وبذل ما تيسر من موجوده لبعض بطانة السلطان الساعين له في ذلك، فتفت سعايته في ذلك، ولبس منتصف المحرم سنة ثلاث وثنانمائة؛ ورجعت أنا للاشتغال بما كنت مشتغلا به من تدريس العلم وتأليفه، إلى أن كان السفر لمدافعة تمر عن الشام.

سفر السلطان إلي الشام لمدافعة **الطَّطَر** عن بلاده:

هؤلاء الطَّطَر من شعوب الترك، وقد اتفق النسابه والمؤرخون على أن أكثر أمم
العالم فرقتان، وهما: العرب والترك، وليس في العالم أمة أوفر منهما عدداً، هؤلاء في
جنوب الأرض، وهؤلاء في شمالها، وما زالوا يتناوبون الملك في العالم؛ فتارة يملك العرب ويزحلون الأعاجم إلى آخر الشمال، وأخرى يزحلهم الأعاجم والترك إلى طرف الجنوب، سنة الله في عباده.
فلنذكر كيف انساق الملك لهؤلاء الطَّطَر، واستقرت الدول الإسلامية فيهم لهذا العهد فنقول: إن الله سبحانه خلق هذا العالم واعتمره بأصناف البشر على وجه الأرض، في وسط البقعة التي انكشفت من الماء فيه، وهي عند أهل الجغرافيا مقدار الربع منه، وقسموا هذا المعمور بسبعة أجزاء يسمونها الأقاليم، مبتدئة من خط الاستواء بين المشرق والمغرب، وهو الخط الذي تسامت الشمس فيه رؤوس السكان، إلى تمام السبعة أقاليم. وهذا الخط في جنوب المعمور، وتنتهي - السبعة الأقاليم في شماله. وليس في جنوب خط الاستواء عمارة إلى آخر الربع المنكشف، لإفراط الحر فيه، وهو يمنع من التكوين؛ وكذلك ليس بعد الأقاليم السبعة في جهة الشمال عمارة، لإفراط البرد فيها، وهو مانع من التكوين أيضاً. ودخل الماء المحيط بالأرض من جهة الشرق فوق خط الاستواء بثلاث عشرة درجة، في مدخل فسيح، وانساح مع خط الإستواء مغربا؛ فمر بالضين، والهند والسند واليمن، في جنوبها كفها. وانتهى إلى وسط الأرض، عند باب المندب، وهو البحر الهندي والصيني، ثم انحرف من طرفه الغربي في خليج عند باب المندب، ومر في جهة الشمال مغربا باليمن وتهامة والحجاز ومدين وأيلة وفاران، وانتهى إلى
مدينة القلزم، وشمى بحر السويس، وفي شرقيه بلاد الصعيد إلى عيذاب، وبلا البجاة؛ وخرج من هذا البحر الهندي من وسطه خليج آخر يسمى الخليج الأخضر، ومر شمالا إلى الأبلة، ويسمى بحر فارس، وعليه في شرقيه بلاد فارس، وكرمان، والسند؛ ودخل الماء أيضا، من جهة الغرب في خليج متضايق في الإقليم الرابع، ويسمى بحر الزقاق، تكون سعته هنالك ثمانية عشر ميلا. ويمر مشرقا ببلاد البربر، من المغرب الأقصى والأوسط وأرض أفريقية والإسكندرية وأرض التيه وفلسطين والشام؛ وعليه في الغرب بلاد الإفرنج كلها؛ وخرج منه في الشمال خليجان: الشرقي منهما خليج القسطنطينية والغربي خليج البنادقة، ويسمى هذا البحر البحر الرومي، والشامي.
ثم إن هذه السبعة الأقاليم المعمورة، تنقسم من شرقيها وغربيها بنصفين: فنصفها
الغربي في وسطه البحر الرومي، وفي النصف الشرقي من جانبه الجنوبي البحر الهندي، وكان هذا النصف الغربي أقل عمارة من النصف الشرقي، لأن البحر الرومي المتوسط فيه، انفسح في انسياحه، فغمر الكثير من أرضه. والجانب الجنوبي منه قليل العمارة لشدة الحر؛ فالعمران فيه من جانب الشمال فقط، والنصف الشرقي عمرانه أكثر بكثير، لأنه لا بحر في وسطه يزاحم. وجانبه الجنوبي فيه البحر الهندي، وهو متسع جدا؛ فلطف الهواء فيه بمجاورة الماء، وعذل مزاجه للتكوين؛ فصارت أقاليمه كلها قابلة للعمارة؛ فكثر عمرانه. وكان مبدأ هذا العمران في العالم، من لدن آدم صلوات الله عليه، وتناسل ولده أولا في ذلك النصف الشرقي، وبادت تلك

الأمم ما بينه وبين نوح، ولم نعلم شيئا من أخبارها، لأن الكتب الإلهية لم يرد علينا فيها إلا أخبار نوح وبنيه؛ وأما ما قبل نوح فلم نعرف شيئا من أخباره؛ وأقدم الكتب المترلة المتداولة بين أيدينا التوراة، وليس فيها من أخبار تلك الأجيال شيء، ولا سبيل إلى اتصال الأخبار القديمة إلا بالوحي؛ وأما الأخبار فهي تدرس بدروس أهلها.

واتفق النسابون على أن النسل كله منحصر في بني نوح، وفي ثلاثة من ولده، وهم
سام، وحام، ويافث؛ فمن سام: العرب، والعبرانيون، والسبائيون؛ ومن حام: القبط، والكنعانيون، والبربر، والسودان؛ ومن يافث: الترك، والروم.، والخزر، والفرس، والديلم؛ والجيل.
ولا أدري كيف صح انحصار النسب في هؤلاء الثلاثة عند النسابين؛ أمن النقل؛وهو بعيد كما قدمناه، او هو رأي تفرع لهم من انقسام جماعة المعمور؛ فجعلوا شعوب كل جهة لأهل نسب واحد يشتركون فيه؛ فجعلوا الجنوب لبني لمسام، والمغرب لبني حام، والشمال لبني يافث. إلا أنه المتناقل بين النسابة في العالم، كما قلناه، فلنعتمده ونقول: أول من ملك الأرض من نسل نوح عليه السلام، النمرود بن كنعان بن كوش، بن حام ووقع ذكره في التوراة. وملك بعده عابر بن شالخ الذي ينسب إليه
العبرانيون، والسريانيون، وهم النبط؛ وكانت لهم الدولة العظيمة، وهم ملوك بابل، من نبيط بن اشور بن سام، وقيل نبيط بن ماش بن إرم؛ وهم ملوك الأرض بعد الطوفان على ما قاله المسعودي. وغلبهم الفرس على بابل، وما كان في أيديهم من الأرض، وكانت يومئذ في العالم دولتان عظيمتان، لملوك بابل هؤلاء، وللقبط بمصر: هذه في المغرب، والأخرى في المشرق؛ وكانوا ينتحلون الأعمال السحرئة، ويعولون عليها في كثير من أعمالهم، وبرابي مصر، وفلاحة ابن وحشية، يشهدان بذلك. فلما غلب الفرس على بابل، استقل لهم ملك المشرق، وجاء موسى- صلوات الله عليه- بالشريعة الأولية، وحرم السحر وطرقه، وغلب الله له القبط بإغراق فرعون وقومه؛ ثم ملك بنو إسرائيل الشام، واختطوا بيت المقدس، وظهر الروم في ناحية الشمال والمغرب، فغلبوا الفرس الأولى على ملكهم. وملك ذو القرنين الإسكندر ما كان بأيديهم، ثم صار ملك الفرس بالمشرق إلى ملوكهم الساسانية، وملك بني يونان بالشام والمغرب إلى القياصرة، كما ذكرنا ذلك كله من قبل.
وأصبحت الدولتان عظيمتين، وانتظمتا العالم بما فيه. ونازع الترك ملوك فارس في خراسان، وما وراء النهر، وكانت بينهم حروب مشهورة، واستقر ملكهم في بني افراسياب؛ ثم ظهر خاتم الأنبياء محمد صلوات الله عليه، وجمع العرب على كلمة الإسلام، فاجتمعوا له، (لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم)، وقبضه الله إليه، وقد أمر بالجهاد، ووعد عن الله بأن الأرض لأمته، فزحفوا إلى كسرى، وقيصر بعد سنتين من وفاته، فانتزعوا الملك من أيديهما، وتجاوزوا الفرس إلى الترك، والروم إلى البربر والمغرب، وأصبح العالم كله منتظما في دعوة الإسلام. ثم اختلف أهل الدين من بعده في رجوعهم إلى من ينظم أمرهم، وتشيع قوم من العرب فزعموا أنه

أوصى بذلك لإبن عمه علي، وامتنع الجماعة من قبول ذلك، وابوا إلا الاجتهاد في تعيينه، فمضى على ذلك السلف في دولة بني أمية التي استفحل الملك والإسلام فيها، وتنافل التشيع بتشعب المذاهب، في استحقاق بني علي، وأيهم يتعين له ذلك، حتى انساق مذهب من مذاهبهم إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس؛ فظهرت شيعته بخراسان، وملكوا تلك الأرض كلها، والعراق بأسره. ثم غلبوا على بنى أمية، وانتزعوا الملك من أيديهم، واستفحل ملكهم، والإسلام باستفحاله، وتعدد خلفاؤهم. ثم خامر الدولة ما يخامر الذول من الترف والراحة؛ ففشلوا. وكثر المنازعون لهم من بني علي وغيرهم؛ فظهرت دولة لبني جعفر الصادق بالمغرب، وهم العبيديون بنو عبيد الله المهدي بن محمد، قام بها كتامة وقبائل البربر، واستولوا على المغرب ومصر؛ ودولة بني العلوي بطبرستان، قام بها الديلم وإخوانهم الجيل؛ ودولة بني أمية النائية بالأندلس، لأن بني العباس لما غلبوهم بالمشرق، وأكثروا القتل فيهم، هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، ونجا إلى المغرب. ثم ركب البحر إلى الأندلس؛ فاجتمع عليه من كان هنالك من العرب وموالي بني أمية، فاستحدث هنالك ملكا آخر لهم، وانقسمت الملة الإسلامية بين هذه الدول الأربع إلى المائة الرابعة. ثم انقرض ملك العلوية من طبرستان، وانتقل إلى الديلم، فاقتسموا خراسان وفارس والعراق، وغلبوا على بغداد، وحجر الخليفة بها بنو بويه منهم. وكان بنو سامان — من اتباع بني طاهر- قد تقلدوا عمالات ما وراء النهر، فلما فشل أمر الخلافة استبدوا بتلك النواحي، وأصاروا لهم فيها ملكاً ضخما، وكان آخرهم محمّود بن سبكتكين من مواليهم، فاستبد عليهم، وملك خراسان، وما وراء النهر إلى الشاش، ثم

غزنة، وما وراءها جنوبا إلى الهند. وأجاز إلى بلاد الهند؛ فافتتح منها كثيرا، واستخرج من كنوزها ذخائر ليم يعثر عليها أحد قبله. وأقامت الملة على هذا النمط إلى انقضاء المائة الرابعة، وكان الترك منذ تعبدوا للعرب، وأسلموا على ما بأيديهم وراء النهر، من كاشغر والصاغون إلى فرغانة، وولاهم الخلفاء عليها؛ فاستحدثوا بها ملكا، وكانت بوادي الترك في تلك النواحي منتجعة أمطار السماء، وعشب الأرض، وكان الظهور فيهم لقبيلة الغزّ من شعوبهم، وهم الخوز، إلا أن استعمال العرب لها عرب خاءها المعجمة غينا، وأدغمت واوها في الزاي الثانيه؛ فصارت زاياً واحدة مشددة. وكانت رياسة الغزّ هؤلاء شي بني سلجوق بن ميكائيل، وكانوا يستخدمون لملوك الترك بتركستان تارة، ولملوك بني سامان في بخارى أخرى. وتحدث بينهما الفتنة؛ فيتألفون من شاءوا منهما؛ ولما تغلب محمّود بن سبكتكين على بني سامان، وأجاز من خراسان فتزل بخارى، واقتعد كرسيهم، وتقبض على كبار بني سلجوق هؤلاء، وحبسهم بخراسان. ثم مات وقام بالأمر أخوه مسعود، فملك مكانه، وانتقض على بنو سلجوق هؤلاء، وأجاز الغز إلى خراسان فملكوها، وملكوا طبرستان من يد الديلم، ثم إصبهان

وفارس، من أيدي بني بويه، وملكهم يومئذ طغرلبك بن ميكائيل من بني سلجوق، وغلب على بغداد من يد بني معز الدولة بن بويه المستبدين على الخليفة يومئذ المطيع، وحجره عن التصرف في أمور الخلافة والملك، ثم تجاوز إلى عراق العرب، فغلب على ملوكه، وأبادهم، ثم بلاد البحرين وعمان، ثم على الشام، وبلاد الروم،

واستوعب ممالك الإسلام كفها، فأصارها في ملكه؛ وانقبضت العرب راجعة إلى الحجاز، مسلوبة من الملك، كأن لم يكن لهم فيه نصيب، وذلك أعوام الأربعين والأربعمائة، وخرج الإفرنج على بقايا بني أمية بالأندلس، فانتزعوا الملك من ايديهم، واستولوا على حواضر الأندلس وأمصارها، وضاق النطاق على العبيديين بالقاهرة بملوك الغز يزاحمّونهم فيها من الشام، بمحمّود بن زنكي وغيره من أبنائهم ومماليكهم، وبملوك المغرب قد اقتطعوا ما وراء الإسكندرية، بملوك صنهاجة في أفريقية، والملثمين المرابطين بعدهم بالمغرب الأقصى والأوسط، والمصامدة الموحدين بعدهم كذلك، وأمام الغز والسلجوقية في ملك المشرق، وبنوهم ومواليهم من بعدهم إلى انقضاء القرن السادس؛ وقد فشل ريح الغز، واختلت دولتهم، فظهر فيهم جنكيزخان أمير المغل من شعوب الطَّطَر، وكانت كاهناً، وجده النجر كاهناً مثله. ويزعمونه أنه ولد من غير أب؛ فغلب الغز في المفازة، واستولى على ملك الطَّطَر، وزحف إلى كرسي

الملك بخوارزم. وهو علاء الدين خوارزم شاه، سلفه من موالي طغرلبك، فغالبه على ملكه، وفر أمامه، واتبعه إلى بحيرة طبرستان؛ فنجا إلى جزيرة فيها، ومرض هنالك ومات، ورجع جنكيزخان إلى زندران، من أمصار طبرستان فترلها، وأقام بها، وبعث عساكره من المغل حتى استولوا على جميع ما كان للغز، وأنزل ابنه طولى بكرسي خراسان، وابنه دوشيخان بصراي وبلاد الترك، وابنه جقطاي بكرسي الترك فيما وراء النهر، وهي كاشغر وتركستان، وأقام بما زندران إلى أن مات جنكيزخان ودفن بها؛ ومات ابنه طولي وله ولدان، قبلاي وهولاكو، ثم هلك قبلاي، واستقل هولاكو بملك خراسان، وحدث بينه وبين بركة بن دوشيخان فتنة بالمنازعة في القانية، تحاربوا فيها طويلا، ثم اقصروا،

وصرف هولاكو وجهه إلى بلاد أصبهان، وفارس، ثم إلى الخلفاء المستبدين ببغداد، وعراق العرب، فاستولى على تلك النواحي، واقتحم بغداد على الخليفة المستعصم، آخر بني العباس وقتله، وأعظم فيها العيث والفساد، وهو يومئذ على دينه من المجوسية؛ ثم تخطاه إلى الشام؛ فملك أمصاره وحواضره إلى القدس، وملوك مصر يومئذ من موالي بني أيوب قد استحاشوا ببركة صاحب صراي؛ فزحف إلى خراسان ليأخذ بحجزة هولاكو عن الشام ومصر. وبلغ خبره إلى هولاكو فحرد لذلك، لما بينهما من المنافسة والعداوة، وكر راجعا إلى العراق، ثم إلى خراسان، لمدافعة بركة. وطالت الفتنة بينهما إلى أن هلك هولاكو. سنة ثلاث وستين من المائة السابعة، وزحف أمراء مصر من موالي بني أيوب، وكبيرهم يومئذ قطز، وهو سلطانهم فاستولى على أمصار الشام التي كان هولاكو انتزعها من أيدي بني أيوب، واحدة واحدة، واستضاف الشام إلى مصر في ملكه. ثم هدى الله أبغا بن هولاكو إلى الإسلام، فأسلم بعد أن كان أسلم بركة ابن عمه صاحب التخت بصراي من بني دوشي خان على يد مريد من اصحاب شمس.. الدين كبرى، فتواطا هو وابغا بن هولاكو علي الإسلام. ثم اسلم بعد ذلك بنو جقطاي وراء النهر؛ فانتظمت ممالك الإسلام في أيدي ولد جنكيزخان من المغل، ثم من الطَّطَر، ولم يخرج عن ملكهم منها إلا المغرب والأندلس ومصر والحجاز، واصبحوا، وكأنهم في تلك الممالك خلص من السلجوقية والغز. واستمر الأمر على ذلك لهذا العهد، وانقرض ملك بني هولاكو بموت أبي سعيد

آخرهم سنة أربعين من المائة الثامنة. وافترقت دولتهم بين عمال الدولة وقرابتها من المغل؛ فملك عراق العرب، واذربيجان

وتوريز، الشيخ حسن سبط هولاكو، واتصل ملكها في بنيه لهذا العهد؛ وملك خراسان وطبرستان شاه ولي من تابعة بني هولاكو؛ وملك إصبهان، وفارس، بنو مظفر البردي من عمالهم أيضا؛ وأقاموا بنو دوشي خان في مملكة صراي وآخرهم بها طقطمش بن بردي بك؛ ثم سما لبني جقطاي وراء النهر، وملوكهم أمل في التغلب على أعمال بني هولاكو، وبني دوشي خان، بما استفحل ملكهم هنالك، لعدم الترف والتنعم، فبقوا على البداوة؛ وكان لهم ملك اسمه ساطلمش هلك لهذا العهد، واجلسوا ابنه على التخت مكانه، وأمراء بني جقطاي جميعا في خدمته، وكبيرهم تيمور المعروف بتمر بن طرغاي فقام بأمر هذا الصبي وكفله، وتزوج أمه، ومد يده إلى ممالك بني دوشي خان التي كاممت على دعوتهم وراء النهر، مثل سمرقند، وبخارى، وخوارزم، وأجاز إلى طبرستان وخراسان فملكها. ثم ملك اصبهان، وزحف إلى بغداد؛ فملكها من يد احمد بن أوشى. وفر احمد مستجيرا بملك مصر، وهو الملك الظاهر برقوق، وقد تقدم ذكره؛ فأجاره، ووعده النصر من عدوه. وبعث الأمير تمر رسلا إلى صاحب مصر، يقررون معه الولاية والاتحاد، وحسن الجوار؛ فوصلوا إلى الرحبة؛ فلقيهم عاملها، ودار بينهم الكلام فأوحشوه. في الخطاب، وانزلهم، فبيت جميعهم، وقتلهم. وخرج الظاهر برقوق من مصر، وجمع العرب والتركمان، واناخ على الفرات، وصرخ بطقطمش من كرسيه بصراي؛ فحشد ووصل إلى الأبواب. ثم زحف تمر إلى الشام سنة ست وتسعين وسبعمائة، وبلغ الرها، والظاهر يومئذ على

الفرات، فخام تمر عن لقائه. وسار إلى محاربة طقطمش؛ فاستولى على أعماله كفها، ورجعت قبائل المغل إلى تمر؛ وساروا تحت رايته. وذهب طقطمش في ناحية الشمال، وراء بلغار، متذمما بقبائل أروس من شعوب الترك في الجبال. وسارت عصائب الترك كلها تحت رايات تمر؛ ثم اضطرات ملوك الهند، واستصرخ خارج منهم بالأمير تمر؛ فسار إليهم في عساكر المغل، وملك دلي، وفر صاحبها إلى كنباية مرسى بحر الهند، وعاثوا في نواحي بلاد الهند. ثم بلغه هنالك مهلك الظاهر برقوق بمصر؛ فرجع إلى البلاد، ومر على العراق، ثم على أرمينية وأرزنكان، حتى وصل سيواس فخربها، وعاث في نواحيها، ورجع عنها أول سنة ثلاث من المائة التاسعة. ونازل قلعة الروم، فامتنعت، وتجاوزها إلى حلب؛ فقابله نائب الشام وعساكره في ساحتها؛ ففضهم، واقتحم المغل المدينة من كل ناحية. ووقع فيها من العيث والنهب والمصادرة واستباحة الحرم، ما لم يعهد الناس مثله؛ ووصل الخبر إلى مصر، فتجهز السلطان فرج ابن الملك الظاهر إلى المدافعة عن الشام، وخرج في عساكره من الترك مسابقا المغل وملكهم تمر أن يصدهم عنها.

لقاء الأمير تمر سلطان المغل والططر

لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تمر ملك بلاد الروم، وخرب سيواس، ورجع

إلى الشام، جمع السلطان عساكره، وفتح ديوان العطاء، ونادى في الجند بالرحيل إلى الشام، وكنت أنا يومئذ معزولا عن الوظيفة؛ فاستدعاني دواداره يشبك، وأرادني على السفر معه في ركاب السلطان؛ فتجافيت عن

ذلك. ثم أظهر العزم علي بلين القول، وجزيل الإنعام فأصخيت، وسافرت معهم منتصف شهر المولد الكريم من سنة ثلاث وثمانمائة؛ فوصلنا إلى غزة، فأرحنا بها أياما نترقب الأخبار؛ ثم وصلنا إلى الشام مسابقين الطَّطَر إلى أن نزلنا شقحب، وأسرينا فصبحنا دمشق، والأمير تمر في عساكره قد رحل من بعلبك قاصدا دمشق، فضرب السلطان خيامه وأبنيته بساحة قبة يلبغا. ويئس الأمير تفر من مهاجمة البلد، فأقام بمرقب على قبة يلبغا يراقبنا ونراقبه أكثر من شهر، تجاول العسكران في هذه الأيام مرات ثلاثاً أو أربعا، فكانت حربهم سجالا؛ ثم نمي الخبر إلى السلطان وأكابر أمرائه، أن بعض الأمراء المنغمسين في الفتنة يحاولون الهرب إلى مصر للثورة بها؛ فاجمع رأيهم للرجوع إلى مصر خشية من انتقاض الناس وراءهم، واختلال الدّولة

بذلك، فأسروا ليله الجمعة من شهر ، وركبوا جبل الصالحية، ثم انحطوا في

شعابه، وساروا على شافة البحر إلى غزة، وركب الناس ليلا يعتقدون أن السلطان سار على الطريق الأعظم إلى مصر؛ فساروا عصبا وجماعات على شقحب إلى أن وصلوا إلى مصر، وأصبح أهل دمشق متحيرين قد عميت عليهم الأنباء.

وجاءني القضاة والفقهاء، واجتمعت بمدرسة العادلية، واتفق رأيهم على طلب الأمان من الأمير تمر على بيوتهم وحرمهم، وشاوروا في ذلك نائب القلعة، فأبى عليهم ذلك ونكره؛ فلم يوافقوه. وخرج القاضي برهان الدين بن مفلح الحنبلي ومعه شيخ الفقراء بزاوية فأجابهم إلى التأمين، وردهم باستدعاء الوجوه والقضاة، فخرجوا إليه متدلين من السور بما صبحهم من التقدمة، فأحسن لقاءهم وكتب لهم الرقاع بالأمان، وردهم على أحسن الآمال، واتفقوا معه على فتح المدينة من الغد، وتصرف الناس في المعاملات، ودخول أمير يترل بمحل الإمارة منها، ويملك أمرهم بعزّ ولايته.

وأخبرني القاضي برهان الدين أنه سأله عني، وهل سافرت مع عساكر مصر أو أقمت بالمدينة، فأخبره بمقامي بالمدرسة حيث كنت، وبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج إليه؛ فحدث بين بعض الناس تشاجر في المسجد الجامع، وأنكر البعض ما وقع من الاستنامة إلى القول. وبلغني الخبر من جوف الليل؛ فخشيت البادرة على نفسي، وبكرت سحرا إلى جماعة القضاة عند الباب، وطلبت الخروج أو التدلي من السور، لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر؛ فأبوا علي أولا، ثم أصخوا لي، ودلوني من السور؛ فوجدت بطانته عند الباب، ونائبه الذي عينه للولاية على دمشق، واسمه شاه ملك، من بني جقطاي أهل عصابته، فحييتهم وحيوني، وفديت وفدوني، وقدم لي شاه ملك، مركوبا، وبعث معي من بطانة السلطان من أوصلني إليه. فلما وقفت بالباب خرج الإذن بإجلاسي في خيمة هنالك تجاور خيمة جلوسه، ثم زيد في التعريف باسمي أني القاضي المالكي المغربي، فاستدعاني،

ودخلت عليه بخيمة جلوسه، متكئا على مرفقه، وصحاف الطعام تمر بين يديه، يشير بها إلى عصب المغل جلوسا أمام خيمته، حلقاً حلقاً. فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام، وأوميت إيماءة الخضوع، فرفع رأسه، ومد يده إلي فقبلتها، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت. ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان

من فقهاء الحنفية بخوارزم، فأقعده يترجم ما بيننا، وسألني من اين جئت من المغرب؛ ولما جئت؛ فقلت: جئت من بلادي لقضاء الفرض ركبت إليها البحر، ووافيت مرسى الإسكندرية يوم الفطر سنة اربع وثمانين من هذه المائة الثامنة، والمفرحات بأسوارهم لجلوس الظاهر على تخت الملك لتلك العشرة الأيام بعددها. فقال لي: وما فعل معك؟ قلت كل خير، بر مقدمي، وأرغد قراي، وزودني للحج، ولما رجعت وفر جرايتي، وأقمت في ظله ونعمته؛ رحمه الله وجزاه. فقال: وكيف كانت توليته إياك القضاء؟ فقلت: مات قاضي المالكية قبل موته بشهر، وكان يظن بي المقام المحمّود في القيام بالوظيفة، وتحري المعدلة والحق، والإعراض عن الجاه، فولاني مكانه، ومات لشهر بعدها، فلم يرض أهل الدولة بمكاني، فأدالوني منها بغيري جزاهم الله. فقال لي: وأين ولدك؟ فقلت: بالمغرب الجواني كاتب للملك الأعظم هنالك. فقال وما معنى الجواني في وصف المغرب؟ فقلت هو في عرف خطابهم معناه الداخلي، أي الأبعد، لأن المغرب كفه على ساحل البحر الشامي من جنوبه؛ فالأقرب إلى هنا برقه، وإفريقية؛ والمغرب الأوسط: تلمسان وبلاد زناتة؛ والأقصى: فاس ومراكش، وهو معنى الجواني. فقال لي: وأين مكان طنجة من ذلك المغرب؟ فقلت: في الزاوية التي ين البحر المحيط، والخليج المسمى بالزقاق، وهو خليج البحر الشامي؛ فقال: وسبته؛ فقلت: على مسافة من طنجة على ساحل الزقاق، ومنها التعدية إلى الأندلس، لقرب مسافته، لأنها هناك نحو العشرين ميلا. فقال: وفاس؛ فقلت: ليست على البحر، وهي في وسط التلول، وكرسي ملوك المغرب من بني مرين. فقال: وسجلماسة؟ قلت: في الحد ما بين الأرياف والرمال من جهة الجنوب. فقال: لا يقنعني هذا، وأحب أن تكتب لي بلاد المغرب كلها، أقاصيها وأدانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره، حتى كأني أشاهده. فقلت: يحصل ذلك بسعادتك؛ وكتبت له بعد انصرافي من المجلس لما طلب من ذلك، وأوعبت الغرض فيه في مختصر وجيز يكون قدر اثنتي عشرة من الكراريس المنظفة القطع. ثم أشار إلى خدمه بإحضار طعام من بيته يسمونه الرشتة، ويحكمونه على أبلغ ما يمكن؛ فأحضرت الأواني منه، وأشار تعرضها علي، فمثلت قائما، وتناولتها وشربت واستطبت؛ ووفي ذلك منه أحسن المواقع؛ ثم جلست وسكتنا، وقد غلبني الوجل بما وقع من نكبة قاضي القضاة الشافعية، صدر الدين المناوي، اشره التابعون لعسكر مصر. بشقحب، وردوه؛ فحبس عندهم في طلب الفدية منه؛ فأصابنا من ذلك وجل؛ فزورت في نفسي كلاما أخاطبه به، وأتلطفه بتعظيم أحواله، وملكه. وكنت قبل ذلك بالمغرب قد سمعت كثيرا من الحدثان في ظهوره، وكان المنجمون المتكلمون في قرانات العلويين يترقبون القران- العاشر في المثلثة الهوائية، وكان يترقب عام ستة وستين من المائة السابعة. فلقيت ذات يوم من عام أحد وستين بجامع القرويين من فاس، الخطيب أبا علي بن باديس خطيب قسنطينة، وكان ماهرا في ذلك الفن، فسألته عن هذا القران المتوقع، وما هي آثاره؟ فقال لي: يدل على ثائر عظيم في الجانب الشمالي الشرقي، من أمة بادية أهل خيام، تتغلب على الممالك، وتقلب الدول، وتستولي على أكثر المعمور. فقلت: ومتى زمنه؟ فقال: عام أربعة وثمانين تنتشر أخباره. وكتب لي بمثل ذلك الطبيب ابن زرزر اليهودي، طبيب ملك الإفرنج ابن أذفونش

ومنجمه. وكان شيخي رحمه الله إمام المعقولات محمد بن إبراهيم الآبلي متى فاوضته في ذلك، أو سابلته عنه يقول: أمره قريب، ولا بذلك إن عشت أن تراه.

وأما المتصوفة فكنا نسمع عنهم بالمغرب ترقبهم لهذا الكائن، ويرون إن القائم به هو الفاطمي المشار إليه في الأحاديث النبوية من الشيعة وغيرهم، فأخبرني يحيى بن عبد الله حافد الشيخ أبي يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب، إن الشيخ قال لهم ذات يوم، وقد انفتل من صلاة الغداة: إن هذا اليوم ولد فيه القائم الفاطمي، وكان ذلك في عشر الأربعين من المائة الثامنة؛ فكان في نفسي من ذلك كله ترقب له.

فوقع في نفسي لأجل الوجل الذي كنت فيه أن أفاوضه في شيء من ذلك يستريح اليه، ويأنس به مني، ففاتحته وقلت: أيدك الله! لي اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنى لقاءك. فقال لي الترجمان عبد الجبار: وما سبب ذلك؛ فقلت: أمران، الأول أنك سلطان العالم، وملك الدنيا، وما أعتقد أنه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك، ولست ممن يقول في الأمور بالجزاف، فإني من أهل العلم، وأبين ذلك فأقول:

إن الملك إنما يكون بالعصبية، وعلى كثرتها يكون قدر الملك؛ واتفق أهل العلم من قبل ومن بعد، أن أكثر أمم البشر فرقتان: العرب والترك، وأنتم تعلمون ملك العرب كيف كان لما اجتمعوا في دينهم على نبئهم، وأما الترك ففي مزاحمتهم لملوك الفرس، وانتزاع ملكهم أفراسياب خراسان من أيديهم شاهد بنصابهم من الملك. ولا يساويهم في عصبيتهم أحد من ملوك الأرض من كسرى، أو قيصر، أو الإسكندر، أو بختنصر، أما كسرى فكبير الفرس ومليكهم؛ وأين الفرس من الترك؟ وأما قيصر والإسكندر فملوك الروم، وأين الروم من الترك؛ وأما بختنصر فكبير أهل بابل، والنبط. وأين هؤلاء من الترك؟ وهذا برهان ظاهر على ما ادعيته في هذا الملك.

وأما الأمر الثاني مما يحملني على تمنى لقائه، فهو ما كنت أسمعه من أهل الحدثان بالمغرب، والأولياء، وذكرت ما قصصته من ذلك قبل. فقال لي: وأراك قد ذكرت بختنصر مع كسرى، وقيصر، والاسكندر، ولم يكن في عدادهم، لأنهم ملوك اكابر. وبختنصر قائد من قواد الفرس، كما أنا نائب من نواب صاحب التخت، وهو هذا، وأشار إلى الصف القائمين وراءه، وكان واقفا معهم، وهو ربيبه الذي تقدم لنا أنه تزوج أمه بعد أبيه ساطلمش فلم يلفه هناك، وذكر له القائمون في ذلك الصف أنه خرج عنهم.

فرجع إليّ فقال: ومن أي الطوائف هو بختنصر؛ فقلت: بين الناس فيه خلاف،فقيل من النبط بقية ملوك بابل، وقيل من الفرس الأولى، فقال: يعني من ولد منوشهر قلت نعم هكذا ذكروا، فقال: ومنوشمهر له علينا ولادة من قبل الأمهات. ثم أفضت مع الترجمان في تعظيم هذا القول منه، وقلت له: وهذا مما يجعلني على بني لقائه. فقال الملك: وأي القولين أرجح عندك فيه؛ فقلت إنه من عقبة ملوك بابل، فذهب هو إلى ترجيح القول الآخر. فقلت: يعكر علينا رأي الطبري؟ فإنه مؤرخ الأمة ومحدثهم، ولا يرجحه غيره، فقال : وما علينا من الطبري؛ نحضر كتب التاريخ للعرب والعجم، ونناظرك. فقلت: وأنا أيضا أناظر على رأي الطبري، وانتهى بنا القول، فسكت؛ وجاءه الخبر بفتح باب المدينة، وخروج القضاة وفاء بما زعموا من الطاعة التي بذل لهم فيها

الأمان، فرفع هن بين أيدينا، لما في ركبته من الداء، وحمل على فرسه فقبض شكائمه، واستوى في مركبه. وضربت الآلات حفافيه حتى ارتج لها الجو. وسار نحو دمشق، ونزل في تربة منجك عند باب الجابية؛ فجلس هناك، ودخل إليه القضاة وأعيان البلد، ودخلت في جملتهم؛ فأشار إليهم بالانصراف، وإلى شاه ملك نائبه أن يخلع عليهم في وظائفهم؛ وأشار إلي بالجلوس، فجلست بين يديه. ثم استدعى أمراء دولته القائمين على أمر البناء؛

فأحضروا عرفاء البنيان المهندسين، وتناظروا في إذهاب الماء الدائر بحفير القلعة، لعلهم يعثرون بالصناعة على منفذه؛ فتناظروا في مجلسه طويلا، ثم انصرفوا، وانصرفت إلى بيتي داخل المدينة بعد أن استأذنته في ذلك، فأذن فيه. وأقمت في كسر البيت، واشتغلت بما طلب مني في وصف بلد المغرب؛ فكتبته في أيام قليلة، ورفعته إليه فأخذه من يدي، وأمر موقعه بترجمته إلى اللسان المغلى. ثم اشتد في حصار القلعة ونصب عليها الآلات من المجانيق، والنفوط، والعرادات، والنقب؛ فنصبوا لأيام قليلة ستين منجنيقا إلى ما يشاكلها من الآلات الأخرى، وضاق الحصار بأهل القلعة، وتهدم بناؤها من كل جهة، فطلبوا الأمان.

وكان بها جماعة من خدام السلطان ومخلفه، فأفنهم السلطان تمر، وحضروا عنده. وخرب القلعة وطمس معالمها، وصادر أهل البلد على قناطير من الأموال استولى عليها بعد أن أخذ جميع ما خلفه صاحب مصر هنالك، من الأموال والظهر والخيام. ثم أطلق أيدي النهابة على بيوت أهل المدينة؛ فاستوعبوا أناسيها، وأمتعتها، واضرموا النار شيما بقي من سقط الأقمشة والخرثي؛ فاتصلت النار بحيطان الدور المدعمة بالخشب؛ فلم تزل تتوقد إلى أن اتصلت بالجامع الأعظم، وارتفعت إلى سقفه؛ فسال رصاصه، وتهدمت سقفه وحوائطه، وكان أمرا بلغ مبالغه في الشناعة والقبح. وتصاريف الأمور بيد الله يفعل في خلقه ما يريد، ويحكم في ملكه ما يشاء.

وكان أيام مقامي عند السلطان تمر، خرج إليه من القلعة يوم أمن أهلها رجل من أعقاب الخلفاء بمصر، من ذرية الحاكم العباسي الذي نصبه الظاهر بيبرس؛ فوقف إلى السلطان تمر يسأله النصفة في أمره؛ ويطلب منه منصب الخلافة كما كان لسلفه، فقال له السلطان تمر: أنا أحضر لك الفقهاء والقضاة، فان حكموا لك بشيء أنصفتك فيه، واستدعى الفقهاء والقضاة، واستدعاني فيهم، فحصرنا عنده وحضر هذا الرجل الذي يسأل منصب الخلافة، فقال له عبد الجبار: هذا مجلس النصفة فتكلم. فقال. إن هذه الخلافة لنا ولسلفنا، وإن الحديث صح بأن

الأمر لبني العباس ما بقيت الدنيا، يعني أمر الخلافة. وأني أحق من صاحب المنصب الآن بمصر، لأن آبائي الذين ورثتهم كانوا قد استحقوه، وصار إلى هذا بغير مستند؛ فاستدعى عبد الجبار كلا منا في أمره، فسكتنا برهة، ثم قال: ما تقولون في هذا الحديث؟ فقال برهان الدين بن مفلح: الحديث ليس بصحيح. واستدعى ما عندي في ذلك فقلت: الأمر كما قلتم من أنه غير صحيح، فقال السلطان تمر: فما الذي أصار الخلافة لبني العباس إلى هذا العهد في الإسلام؟ وشافهني بالقول، فقلت: أيدك الله! اختلف المسلمون من لدن وفاة النبي صلى الله عليه

وسلم ، هل يجب على المسلمين ولاية رجل منهم يقوم بأمورهم في دينهم ودنياهم، أم لا يجب ذلك؛ فذهبت طائفة إلى أنه لا يجب، ومنهم الخوارج، وذهب الجماعة إلى وجوبه، واختلفوا في مستند ذلك الوجوب؛
فذهب الشيعة كلهم إلى حديث الوصية، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ، أوصى بذلك لعليّ، واختلفوا في تنقلها عنه إلى عقبه إلى مذاهب كثيرة تشذ عن الحصر. وأجمع أهل السنة على إنكار هذه الوصية، وأن مستند الوجوب في ذلك إنما هو الاجتهاد، يعنون أن المسلمين يجتهدون في اختيار رجل من أهل الحق والفقه والعدل، يفوضون إليه النظر في أمورهم.
ولما تعدّدت فرق العلوية وانتقلت الوصية بزعمهم من بني الحنفية إلى بني العباس، أوصى بها أبو هاشم بن محمد بن الحنفية إلي محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وبث دعاته بخراسان. وقام أبو مسلم بهذه الدعوة؛ فملك خراسان والعراق، ونزل شيعتهم الكوفة، واختاروا للأمر أبا العباس السفاح بن صاحب هذه الدعوة؛ ثم أرادوا أن تكون بيعته على إجماع من أهل السنة والشيعة، فكاتبوا كبار الأمة يومئذ، وأهل الحل والعقد، بالحجاز والعراق، يشاورونهم في أمره؛ فوقع اختيارهم كلهم على الرضى به، فبايع له شيعته بالكوفة بيعة إجماع وإصفاق. ثم عهد بها إلى أخيه المنصور، وعهد بها المنصور إلى بنيه، فلم تزل متناقلة فيهما، إما
بعَهدٍ أو باختيار أهل العصر، إلى أن كان المستعصم آخرهم ببغداد. فلمّا استولى عليها هولاكو وقتله، افترق قرابته، ولحق بعضهم بمصر، وهو أحمد الحاكم من عقب الراشد، فنصبه الطاهر بيبرس بمصر، بممالأة أهل الحل والعقد من الجند والفقهاء. وانتقل الأمر في بيته إلى هذا الذي بمصر، لا يعلم خلاف ذلك. فقال لهذا الرافع: قد سمعت مقال القضاة، وأهل الفتيا، وظهر أنه ليس لك حق تطلبه عندي. فانصرف راشداً.
الرجوع عن هذا الأمير تمر إلى مصر:
كنت لما لقيته، وتليت إليه من السور كما مرّ أشار علي بعض الصحاب ممن يخبر أحوالهم بما تقدمت له من المعرفة بهم؛ فأشار بأن أطرفه ببعض هدية، وإن كانت نزرة فهي عندهم متأكدة في لقاء ملوكهم، فانتقيت من سوق الكتب مصحفا رائعا حسنا في جزء محذو، وسجادة أنيقة، ونسخة من قصيدة البردة المشهورة
لأبوصيري في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة. وجئت بذلك فدخلت عليه، وهو بالقصر الأبلق جالس في إيوانه؛ فلمّا رآني مقبلا مثل قائما وأشار إلي عز يمينه؛ فجلست وأكابر مرّ الجقطية حفافية؛ فجلست قليلا، ثم استدرت بين يديه، وأشرت إلى الهدية التي ذكرتها، وهي بيد خدامي؛ فوضعتها، واستقبلني؛ ففتحت المصحف فلما رآه وعرفه، قام مبادرا فوضعه على رأسه. ثم ناولته البردة، فسألني عنها وعن ناظمها فأخبرته بما وقفت عليه من أمرها. ثم ناولته السجادة، فتناولها وقبلها. ثم وضعت علب الحلوى بين يديه، وتناولت منها حرفا على العادة في التأنيس بذلك. ثم قسم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين في مجلسه، وتقبل ذلك كله، واشعر بالرضى به. ثم حومت على الكلام بما عندي في شأن نفسي، وشأن اصحاب لي هنالك. فقلت ايدك الله! لي كلام اذكره بين يديك، فقال: قل. فقلت أنا غريب بهذه البلاد غربتين، واحدة من

المغرب الذي هو وطني ومنشئي وأخرى من مصر وأهل جيلي بها، وقد حصلت في ظلك، وأنا أرجو رأيك لي فيما يؤنسني في غربتي، فقال: قل الذي تريد افعله لك، فقلت: حال الغربة انستني ما أريد، وعساك - أيدك الله - أن تعرف لي ما أريد. فقال: انتقل من المدينة إلى الأردو عندي، وأنا إن شاء الله أوفى كنه قصدك. فقلت يأمر لي بذلك نائبك شاه ملك، فأشار إليه بإمضاء ذلك، فشكرت ودعوت وقلت: وبقيت لي أخرى، فقال: وما هي؛ فقلت: هؤلاء المخلفون عن سلطان مصر. من القراء والموقعين، والدواوين، والعمال، صاروا إلى إيالتك والملك لا يغفل مثل هؤلاء فسلطانكم كبير، وعمالاتكم متسعة، وحاجة ملككم إلى المتصرفين في صنوف الخدم أشد من حاجة غيركم، فقال وما تريد لهم؛ قلت: مكتوب أمان يستنيمون إليه، ويعولون في أحوالهم عليه. فقال لكاتبه: أكتب لهم بذلك، فشكرت ودعوت. وخرجت مع الكاتب حتى كتب لي مكتوب الأمان، وختمه شاه ملك بخاتم السلطان، وانصرفت إلى مترلي. ولما قرب سفره واعتزم على الرحيل عن الشام، دخلت عليه ذات يوم، فلما قضينا المعتاد، التفت إلي وقال: عندك بغلة هنا؛ قلت نعم، قال حسنة؛ قلت نعم، قال وتبيعها؛ فأنا اشتريها منك، فقلت أيدك الله! مثلي لا يبيع من مثلك، إنما أنا أخدمك بها، وبأمثالها لو كانت لي، فقال: أنا أردت أن أكافئك عنها بالإحسان، فقلت: وهل بقي إحسان وراء ما أحسنت به، اصطنعتني، واحللتني من مجلسك محل خواصك، وقابلتني من الكرامة والخير بما أرجو الله ان يقابلك بمثله، وسَكَت وسكتُّ وحملت البغلة - وأنا معه في المجلس - إليه، و لم أرها بعد.

ثم دخلت عليه يوماً آخر فقال لي: أتسافر إلى مصر؟ فقلت أيَّدك الله، رغبتي إنما هي أنت، وأنت قد آويت وكفلت، فإن كان السفر إلى مصر في خدمتك فنعم، وإلا فلا بغية لي فيه، فقال لا، بل تسافر إلى عيالك واهلك، فالتفت إلى أبنه، وكان مسافراً إلى شقحب لمرباع دوابه، واشتغل يحادثه، فقال لي الفقيه عبد الجبار الذي كان يترجم بيننا: إن السلطان يوصي ابنه بك، فدعوت له؛ ثم رأيت أن السفر مع ابنه غير مستبين الوجهة، والسفر إلى صفد اقرب السواحل إلينا أملك لأمري، فقلت له ذلك؛ فاجاب إليه، وأوصى بي قاصدا كان عنده من حاجب صفد ابن الداويداري، فودعته وانصرفت، واختلفت الطريق مع ذلك القاصد، فذهب عني، وذهبت عنه. وسافرت في جمع من أصحابي؛ فاعترضتنا جماعة من العشير قطعوا علينا الطريق، ونهبوا ما معنا، ونجونا إلى قرية هنالك عرايا. واتصلنا بعد يومين أو ثلاث بالصبيبة فخلفنا بعض الملبوس، واجزنا إلى صفد، فاقمنا بها أياما. ثم مرّ بنا مركب من مراكب ابن عثمان سلطان بلاد الروم، وصل فيه رسول كان سفر إليه عن سلطان مصر، ورجع بجوار رسالته؛ فركبت معهم البحر إلى غزة، ونزلت بها، وسافرت منها إلى مصر، فوصلتها في شعبان من هذه السنة، وهي سنة ثلاث وثمانمائة؛ وكان السلطان صاحب مصر، قد بعث من بابه سفيرا إلى الأمير تمر إجابة إلى الصلح الذي طلب منه؛ فأعقبني إليه. فلما قضى رسالته رجع، وكان وصوله بعد وصولي؛ فبعث إلي مع بعض أصحابه يقول لي: إن الأمير تمر قد بعث معي إليك ثمن البغلة التي ابتاع منك، وهي هذه فخذها، فإنه عزم علينا من خلاص ذمته من مالك هذا. فقلت لا اقبله إلا بعد إذن من السلطان الذي بعثك إليه، وأما دون ذلك فلا. ومضيت إلى صاحب الدولة فأخبرته الخبر فقال وما عليك؛

فقلت إن ذلك لا يجمل بي ان افعله دون اطلاعكم عليه، فاغضى عن ذلك، وبعثوا إلي بذلك المبلغ بعد مدة، واعتذر الحامل عن نقصه بأنه أعطيه كذلك، وحمدت الله على الخلاص.

وكتبت حينئذ كتاباً إلى صاحب المغرب، عرفته بما دار بيني وبين سلطان الططرتمر، وكيف كانت واقعته معنا بالشام، وضمنت ذلك في فصل من الكتاب نصه:

"وإن تفضلتم بالسؤال عن حال المملوك، فهي خير والحمد لله، وكنت في العام الفارط توجهت صحبة الركاب السلطاني إلى الشام عندما زحف الطَّطَر إليه من بلاد الروم والعراق، مع فلكهم تمر، واستولى على حلب وحماة وحمص وبعلبك،

وخرّبها جميعاً، وعاثت عساكره فيها بما لم يسمع أشنع منه. ونهض السلطان في عساكره لاستنقاذها، وسبق إلى دمشق، وأقام في مقابلته نحواً من شهر؛ ثم قفل راجعاًإلى مصر، وتخلف الكثير من أمرائه وقضاته، وكنت في المخلفين. وسمعت أن سلطانهم تمر سأل عني؛ فلم يسع إلا لقاؤه فخرجت إليه من دمشق، وحضرت مجلسه، وقابلني بخير، واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق، وأقمت عنده خمسة وثلاثين يوما، أباكره وأراوجه ثم صرفني، وودعني على أحسن حال، ورجعت إلى مصر. وكان طلب مني بغله كنت أركبها فأعطيته إياها، وسألني البيع فتأففت منه، لما كان يعامل به من الجميل، فبعد انصرافي إلى مصر بعث إلي بثمنها مع رسول كان من جهة السلطان هنالك، وحمدت الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا.

وهؤلاء الطَّطَر هم الذين خرجوا من المفازة وراء النهر، بينه وبين الصين، أعوام عشرين وستمائة مع ملكهم الشهير جنكزخان وملك المشرق كله من أيدي السلجوقية ومواليهم إلى عراق العرب، وقسم الملك بين ثلاثة من بنيه وهم جقطاي، وطولي، ودوشي خان:

فجفَّطاي كبيرهم، وكان في قسمته تركستان وكاشغر، والصاغون، والشاش وفرغانة، وسائر ما وراء النهر من البلاد.

وطولي كان في قسمته أعمال خراسان، وعراق العجم، والري إلى عراق العرب وبلاد فارس وسجستان والسند. وكان أبناؤه: قبلاي، وهولاكو.

ودوشي خان كان في قسمته بلاد قبجق، ومنها صراي، وبلاد الترك إلى خوارزم. وكان لهم أخ رابع يسمى أوكداي كبيرهم، ويسمونه الخان، ومعناه صاحب التخت، وهو بمثابة الخليفة في ملك الإسلام. وانقرض عقبه، وانتقلت الخانية إلى قبلاي، ثم إلى بني دوشي خان، أصحاب صراي. واستمر ملك الطَّطَر في هذه الدول الثلاث، وملك هولاكو بغداد، وعراق العرب، إلى ديار بكر ونهر الفرات. ثم زحف إلى الشام وملكها، ورجع عنها، وزحف إليها بنوه مرارا، وملوك مصر من الترك يدافعونهم عنها، إلى أن انقرض ملك بني هولاكو أعوام أربعين وسبعمائة،

وملك بعدهم الشيخ حسن النوين وبنوه. وافترق ملكهم في طوائف من أهل دولتهم، وارتفعت نقمتهم عن ملوك الشام ومصر. ثم في أعوام السبعين أو الثمانين وسبعمائة، ظهر في بني جُفطاي وراء النهر أمير اسمه

تيمور، وشهرته عند الناس تمر، وهو كافل لصبي متصل النسب معه إلى جُغْطاي في آباء كلهم ملوكُ، وهذا تمر بن طرغاي هو ابن عمهم، كفل صاحب التخت منهم اسمه محمود، وتزوج أمّ صرغتمش، ومدَّ يده إلى ممالك التتر كلها؛ فاستولى عليها إلى ديار بكر، ثم جال في بلاد الروم والهند، وعاثت عساكره في نواحيها، وخرب حصونها ومدنها، في أخبار يطول شرحها. ثم زحف بعد ذلك إلى الشام، ففعل به ما فعل، والله غالب على أمره. ثم رجع آخراً إلى بلاده، والأخبار تتصل بأنه قصد سمرقند، وهي كرسيه.

والقوم في عدد لا يسعه الإحصاء، إن قدرت ألف ألف فغير كثير، ولا تقول أنقص، وإن خيموا في الأرض ملأوا الساح، وإن سارت كتائبهم في الأرض العريضة ضاق بهم الفضاء؛ وهم في الغارة والنهب والفتك بأهل العمران، وابتلائهم بأنواع العذاب، على ما يحصلونه من فئاتهم آية عجب، وعلى عادة بوادي الأعراب.

وهذا الملك تمر من زعماء الملوك وفراعنتهم، والناس ينسبونه إلى العلم، وآخرون إلى اعتقاد الرفض، لما يرون من تفضيله لأهل البيت، وآخرون إلى انتحال السحر؛ وليس من ذلك كله في شيء؛ إنما هو شديد الفطنة والذكاء، كثير البحث واللجاج بما يعلم وبما لا يعلم، عمره بين الستين والسبعين، وركبته اليمنى عاطلة من سهم أصابه في الغارة أيام صباه على ما أخبرني، فيجرها في قريب المشي، ويتناوله الرجال على الأيدي عند طول المسافة، وهو مصنوع له؛ والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده.

ولاية القضاء الثالثة والرابعة والخامسة بمصر:

كنت - لما أقمت عند السلطان تمر تلك الأيام التي أقمت - طال مغيبي عن

مصر، وشُيعت الأخبار عني بالهلاك، فقدم للوظيفة من يقوم بها من فُضلاء المالكية، وهو جمال الدين الأقفهسي، غزير الحفظ والذكاء، عفيف النفس عن التصدي لحاجات الناس، ورع في دينه؛ فقلدوه منتصف جمادى الآخرة من السنة.

فلما رجعتُ إلى مصر، عدلُوا عن ذلك الرأي، وبدا لهم في أمري؛ فولوني في أواخر شعبان من السنة.

واستمررت على الحال إلي كنت عليها من القيام بالحق، والإعراض عن الأغراض، والإنصاف من المطالب؛ ووقع الإنكارُ عليّ ممن لا يدين للحق، ولا يعطي النصفة من نفسه؛ فسعوا عند السلطان في ولاية شخص من المالكية يعرف بجمال الدين البساطي، بذل في ذلك لسعاة داخلوه، قطعة من ماله، ووجوها من الأغراض في قضائه. قاتل الله جميعهم؛ فخلعوا عليه أواخر رجب، سنة أربع وثمانمائة. ثم راجع السلطان بصيرته، وانتقد رأيه، ورجع إلي الوظيفة خاتم سنة أربع، فأجريت الحال على ما كان. وبقي الأمر كذلك سنة وبعض الأخرى. وأعادوا البساطي إلى ما كان، وبما كان، وعلى ما كان، وخلعوا عليه سادس ربيع الأول سنة ست وثمانمائة ، ثم أعادوني عاشر شعبان سنة سبع وثمانمائة، ثم أدالوا به مني أواخر ذي القعدة من السنة وبيد الله تصاريف الأمور.

تم بحمد الله الكتاب

الفهرس